

المواهب اللدنية

بالمِنَحِ المَحْمَدِيَّةِ

١

تأليف
العلامة أحمد بن محمد القسطلاني
٨٥٦ - ٩٢٣ هـ

تحقيق
صالح أحمد الشامي

الكتب الاسامي

أرقام صفحات الفهارس

الجزء ① 652

الجزء ② 1402

الجزء ③ 1985

الجزء ④ 2690

الكتاب كامل في ملف واحد

الكتب المدمجة

دمج وفهرسة الكتب ذات الأجزاء المتعددة

المواهب اللدنية

بالمِنَحِ المَحْمَدِيَّةِ

تَأَلَّفَ

العَلَّامَةُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ القِطَّانِي

(٨٥١ - ٩٢٣ هـ)

الجزء الأول

تَحْقِيقُ

صَالِحُ أَحْمَدُ الشَّامِي

المكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية مزيّدة ومنقّحة

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب. : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)

دمشق : ص.ب. : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

عمّان : ص.ب. : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

المؤلف: اللّهُزِيّة

بالمِنحِ المَحْمَدِيّة

الجزء الأوّل



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.. وَبَعْدُ:
في تاريخ كل أمة عظماء، تدرس حياتهم أو جوانب العظمة فيها على أنها تراث للأمة، وفخر لها، وحافز يدفع أجيالها للتقدم والرقى. ومن هؤلاء تتكون المراكز المشعة في حياة الأمم.

وفي تاريخ الإنسانية عظماء، كانت عظمتهم مستمدة من وحي الله تعالى إليهم، فكان تاريخهم ملكا للإنسانية كلها، لأنهم مصادر الإشعاع فيها على امتداد أيامها... فكان من تعاليمهم تحرير «الإنسان» من كل العبوديات سوى عبوديته لله تعالى. وكان منها تنمية خصال الخير فيه، ومكافحة ميول الشر والهوى.

وعلى رأس هؤلاء وأولئك، صاحب هذه السيرة، سيدنا محمد ﷺ، الذي اختاره الله تعالى ليكون إمام الأنبياء وخاتمهم، وليكون نموذجا للإنسان، عبداً لله، اجتمعت فيه معاني الإنسانية وصفات الكمال، فكان بحق سيد ولد آدم، إليه ترجع المكارم فهو ميزانها القسط، وإليه تنتهي الأخلاق فهو تمامها.

وقد بقيت سيرُ الفريق الأول محدودة، كل عظيم ضمن أمته، كما لم ينقل منها إلا جانبها المشرق الذي ظهر فيه نبوغه، وبقيت الجوانب الأخرى في ظلام فلم تر النور، إما لأنها لا تستحق أن ترى هذا النور لشذوذها أو انحرافها. وإما لضحالتها فلا تستحق الذكر.

وأما الفريق الثاني - فريق الأنبياء والرسل - فقد ضاع القسم الأكبر من معظم سيرهم. وإذا استثنينا ما سجله القرآن عنهم، فخلدهم به، فإنه لم يبق بين الأيدي مما تصح نسبه إليهم إلا اليسير اليسير الذي لا يعطي الصورة التفصيلية الواضحة - إن لم نقل الكاملة - لحياتهم، هذا مع غض النظر عما نسب إلى بعضهم مما لا ينبغي ذكره، إذ نزهم الله عنه.

وإذا كان هذا وضع سير الأفضاذ كلهم، فإن سيرة واحدة نقلت إلينا كاملة، في كلياتها وجزئياتها، في جانبها العام، مما له صلة بالناس، وفي جانبها الخاص، مما ليس له صلة بعالم الناس، مما يخص المرء في سلوكه في بيته وخاصة نفسه ومع أفراد أسرته تلك هي سيرة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم.

ولا تملك الإنسانية اليوم سيرة كاملة شاملة - بهذا المعنى - سلطت عليها الأضواء من كل مكان لغيره ﷺ. ولذا فهي تراث للإنسانية كلها، يرجع إليها المسلم تدينا وحبا وتأسيا، ويقرؤها غير المسلم، ممن حكموا عقولهم . . . ليرى نفسه أمام العظمة وقد جمعت من أطرافها. والذين أنصفوا من هؤلاء - فبرهنوا بذلك على رجاحة عقولهم - عرفوا لهذا الرسول الكريم حقه، فكانت أقوالهم فيه بيانا لبعض الحقيقة التي أتيح لهم إدراكها.

والمسلم الذي آمن بمحمد ﷺ رسولا، ليس بحاجة إلى شهادة

أحد بعد شهادة الله تعالى له بالرسالة وعظمة الأخلاق. وهو - مع إيمانه
ذاك - مطالب بأن يكون على صلة مستمرة بالسيرة العطرة لأسباب عدة
منها:

(١) إن التعرف على الجهد الذي بذله النبي ﷺ في سبيل إيصال
الرسالة إلى الناس، يجعلنا أكثر تقديراً لحقه علينا، فيكون حبنا له
عن علم ووعي لا مجرد عاطفة نشأت في جو من التقليد، كما
يجعلنا أكثر استمساكاً بهذه الرسالة، وأكثر حرصاً على تنفيذ
تعاليمها.

(٢) إن الله تعالى جعل رسوله ﷺ أسوة حسنة، وألزم كل مسلم أن
يسير على هديه، وأن يجذو حذوه، والسيرة تؤمن لنا معرفة ذلك،
فهي السجل الحي الذي ينقل لنا: الكلمة، والحركة، والموقف...
والسلوك المتخذ إزاء الحوادث... فنكون على صلة بتصرفاته في
تطبيقاتها العملية، - لا أمام أوامر مجردة، وتعليقات لم تلامس واقع
الناس، ولم تتعرض لحرارة الاحتكاك به - الأمر الذي يساعدنا على
انتهاج مسلك الرشده وسلوك السبيل السوي الذي به النجاة، يوم
يقوم الناس لرب العالمين. ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
لمن كان يرجو الله واليوم الآخر...﴾

(٣) سجل القرآن الكريم الكثير من حوادث السيرة، كما أشار إلى
بعضها الآخر، فكانت السيرة تفسيراً لجزء غير قليل من هذا
الكتاب الكريم، وكانت بيانا لمناسبة الآيات أو إيضاحاً لها من
خلال معرفة أسباب النزول. وبهذا تبدو أهمية السيرة وارتباطها
الوثيق بكتاب الله تعالى.

(٤) والسيرة هي تاريخ عهد النبوة والرسالة، الذي كان إزاحة

للجاهلية وإزالة لمعالمها، وفيه بيان طرق مقاومتها في العصور كلها، إذ هي هي في الماضي والحاضر... قد يتغير المظهر والشكل ولكن المضمون يظل واحداً، ولهذا كانت السيرة علاجاً لأدواء المجتمعات، إذ هي الاستقامة في مقابل كل التواء، والصحة مقابل كل الأمراض...

٥) ومن خلال السيرة نتعرف على جيل الصحابة، ذلك الجيل الفريد الذي تربى على يدي الرسول الكريم ﷺ. وُصنع على عين الله تعالى، فكان صدى للقرآن، كما كان الوسيلة التي بها وضحت آياته، وكان التطبيق العملي لحكم الله أمراً ونهياً.

وإذا كان هذا يعني رفعة تلك النفوس التي وصفها ﷺ بالخيرية فقال (خير الناس قرني...) فإنه كذلك البرهان القاطع على عظمة هذا الرسول في إيجاد تلك القمم السامقة من النفوس البشرية، والانتقال بها تلك النقلة البعيدة، التي لا يستطيع تقديرها حق قدرها إلا من درس الجاهلية بإمعان ثم درس الإسلام كذلك...

تلك بعض ثمرات دراسة السيرة، مما يدل على مكانتها في بناء الفرد المسلم والأمة المسلمة، وقد تنبه علماء المسلمين لذلك في وقت مبكر من تاريخ هذه الأمة. فكتب بها الكثير الكثير، ممن لا يكاد يحصى، إيماناً منهم بضرورة صلة الأجيال المسلمة بها، وقد قال زين العابدين رحمه الله: كنا نعلم مغازي النبي ﷺ كما نعلم السورة من القرآن. وقال الزهري رحمه الله: في علم المغازي علم الدنيا والآخرة^(١).

(١) من مقدمة كتاب «من معين السيرة» للمحقق.

وانطلاقاً من القناعة الكاملة بدور السيرة الكبير في بناء الأمة
الفكري والاعتقادي والعملي رأيت من واجبي أن أسهم في تقريب
كتاب «المواهب اللدنية للإمام القسطلاني» فأجعله في متناول الأيدي .
وذلك لما يتصف به هذا الكتاب من السعة والشمول . . .

[التعريف بالكتاب]

ترجمة المصنف:

الحافظ شهاب الدين أبو العباس، أحمد بن أبي بكر بن عبد الملك بن أحمد القسطلاني^(١). المصري، الشافعي، الإمام الحجة الرحالة الفقيه المقرئ المسند.

ولد ثاني عشر ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وثمانمائة بمصر، ونشأ بها، وحفظ القرآن وعدة من الكتب منها الشاطبية والجزرية... وغير ذلك.

وأخذ عن عدة مشايخ منهم: الشيخ خالد الأزهرى النحوي، والفخر المقدسي، والسخاوي، والبرهان العجلوني، وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري... وأخذ بمكة عن جماعة منهم النجم بن فهد.

وقد حج غير مرة وجاور سنة أربع وثمانين وسنة أربع وتسعين. وكان يجتمع في مجالس وعظه الجم الغفير، ولم يكن له نظير في

(١) نسبة إلى قسطلينة في افريقية

ذلك. وكتب بخطه شيئا كثيرا لنفسه ولغيره وأقرأ الطلبة، ثم انجمع وأقبل على التأليف.

وكان كثير الأسقام، قانعا متعففا، جيد القراءة للقرآن، والحديث، والخطابة، شجي الصوت بها، مشاركا في الفضائل متواضعا متوددا لطيف العشرة سريع الحركة.

قال في «النور»: وبالجملة فإنه كان إماما حافظا متقنا، جليل القدر، حسن التقرير والتحريير، لطيف الإشارة، بليغ العبارة، حسن الجمع والتأليف لطيف الترتيب والترصيف زينة أهل عصره... .

وله تصانيف كثيرة منها:

- العقود السنية في شرح المقدمة الجزرية.
- الكنز في وقف حمزة وهشام على الهمز.
- شرح على الشاطبية، زاد فيه زيادات ابن الجزري مع فوائد غريبة.
- شرح على البردة، سماه: الأنوار المضيئة.
- كتاب نفائس الأنفاس في الصحة واللباس.
- تحفة السامع والقاري بختم صحيح البخاري.
- مسالك الخنفاء في الصلاة على المصطفى.
- شرح على صحيح مسلم إلى أثناء الحج.
- كتاب لطائف الإشارات في القراءات الأربع عشرة.
- شرح على البخاري سماه: إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري.
- قال في النور: أعطي السعادة في قلمه وكلمه، وصنف التصانيف المقبولة التي سارت بها الركبان في حياته. من أجلها: شرحه على

صحيح البخاري مزجا، في عشرة أسفار كبار، لعله أجمع شروحه وأحسنها وأخصها .

- اختصار شرح البخاري سماه: الإيساد في مختصر الإرشاد، لم يكمل .
- المواهب اللدنية بالمنح المحمدية .

توفي بالقاهرة ليلة الجمعة سابع المحرم افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ودفن في المدرسة العينية رحمه الله تعالى^(١) .

التعريف بكتاب «المواهب اللدنية»

هناك اتجاهان بارزان في كتابة السيرة:

يذهب الأول منها إلى تسجيل أحداث السيرة الحركية متتبعا تسلسلها الزمني، ابتداء من المولد النبوي ومرورا بالبعثة والهجرة والغزوات... وانتهاء بالوفاة، وقد عرف هذا النوع بـ«السيرة» مثل سيرة ابن هشام .

ويدخل ضمن هذا الاتجاه كتب المغازي . التي صرفت اهتمامها إلى الحديث عن الغزوات والسرايا .

ويذهب الاتجاه الثاني إلى الحديث عن صفات الرسول ﷺ وأخلاقه وخصائصه... وما يتبع ذلك . وقد عرف هذا النوع باسم

(١) مراجع الترجمة:

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن عماد الجنبلي ١٢٠/٨ .

- الضوء اللامع للسخاوي ١٠٣/٢ .

- الترجمة المذكورة في مقدمة إرشاد الساري .

- الترجمة المذكورة في مقدمة شرح المواهب للزرقاني .

«كتب الشمائل» وقد نال كتاب الشفاء للقاضي عياض شهرة واسعة في هذا الميدان.

وكتابتنا الذي نحن بصده «المواهب اللدنية» قد جمع بين الاتجاهين فقد بدأ بالحديث عن أحداث السيرة في المقصدين الأول والثاني، وترك بقيه المقاصد للحديث عن القسم الثاني: الشمائل وما يتبعها. فكان بذلك كتابا جامعا. وقد أثنى عليه كثيرون.

جاء في كتاب شذرات الذهب: «ومنها - أي من كتبه - المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، وهو كتاب جليل المقدار عظيم الوقع، كثير النفع، ليس له نظير في بابته».

وقال الزرقاني، شارحه: «وله عدة مؤلفات أعظمها هذه «المواهب اللدنية» التي أشرقت من سطورها أنوار الأبهة والجلالة، وقطرت من أديمها ألفاظ النبوة والرسالة، أحسن فيها ترتيبا وصنعا، وأحكمها ترصيعا ووضعاً، وكساه الله فيها رداء القبول، ففاقت على كثير مما سواها عند ذوي العقول».

وقال الدكتور محمد ماهر حمادة: «تمتع كتاب القسطلاني الذي ألفه سنة ٨٩٩ هـ/١٤٩٤ م - ولا يزال يتمتع - بسمعة كبرى في العالم الإسلامي عبر العصور. ذلك أن هذا المؤلف ألف سيرة للرسول [ﷺ] حوت سيرته وتاريخه باسم «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» وقد بلغ من شهرة هذا الكتاب وأهميته أن شرحه وعلق عليه عدد من المؤلفين..

فقد شرح هذا الكتاب الزرقاني المتوفى سنة ١١٢٢ هـ/١٧١٠ م شرحا مطولا.

كما قام بنقله إلى التركية في أواخر القرن التاسع عشر رجل

يدعى عبد الباقي .

وقد لخصه يوسف النبهاني في كتاب دعاه باسم «الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية» وذلك في بيروت عام ١٣١٠ هـ. (١)

ولعل الدافع كان لدى المصنف لتأليف هذا الكتاب هو إعجابه بكتاب «الشفاء» للقاضي عياض. نلمح ذلك من قوله في المقدمة: «... ولم أكن والله أهلا لذلك، ولم أر نفسي فيما هنالك، لصعوبة هذا المسلك، ومشقة السير في طريق لم يكن لمثلي يسلك، وإنما هو نكتة سر قراءتي كتاب الشفا بحضرة التخصيص والاصطفا في مكتب التأديب والتعليم...»

قال الزرقاني: ولقد صدق المصنف رحمه الله، فإنه في هذا الكتاب اقتبس من أنوار الشفا، وتعلق بأذياله في غالب التقسيم والأبواب، حتى إنه اقتفى أثره في صدر الخطبة.

وقد كان المصنف يقرؤه للناس بين روضة النبي ﷺ وبين منبره.

كما كان لكتاب «فتح الباري» للإمام ابن حجر العسقلاني أثره أيضا، فقد اعتمد عليه المصنف اعتمادا كبيرا. وقد ذكر ذلك في المقدمة فقال: «مستمدا من فتح الباري فيض فضله الساري» ثم أكد ذلك في خاتمة الكتاب فقال: «واستفتحت مغاليق المعاني بمفاتيح فتح الباري...»

قال الزرقاني - شرحا لكلمة المقدمة -: وفيه تورية بذكر اسم

(١) كتاب: مراجع مختارة عن حياة رسول الله ﷺ. د. محمد ماهر حمادة ص ٨٤ دار العلوم للطباعة والنشر ١٤٠٢ هـ .

الكتاب الذي هو شرح الحافظ ابن حجر على البخاري، فالأخذ منه من جملة عطاء الله، ولا يشك من أحاط بهذا الكتاب وشرح البخاري للحافظ أن نحو نصف ذا الكتاب منه بعزوه ودونه.

ولئن أشار المصنف إلى كتابي «الشفاء» و«الفتح» واستفادته منهما، فإنه لم يشر إلى الكتاب الثالث وهو «زاد المعاد في هدي خير العباد» من تأليف ابن القيم رحمه الله والذي يبدو أثره واضحاً في كتاب المواهب. بل إن المصنف تناول بالبحث جميع الموضوعات التي اشتمل عليها كتاب «زاد المعاد» وتوسع فيها باستثناء كتاب الأقضية والأحكام لأنه أقرب إلى الفقه منه إلى السيرة.

وقد قضى المصنف في تأليفه مدة سنة وثمانية أشهر تقريباً كما ذكر ذلك بقوله في خاتمة الكتاب: «وقد انتهت كتابة النسخة المنقول منها، النسخة المباركة النافعة إن شاء الله تعالى في خامس عشر شعبان المكرم سنة تسع وتسعين وثمانمائة، وكان الابتداء في المسودة المذكورة ثاني يوم قدومي من مكة المشرفة صحبة الحاج في شهر محرم سنة ثمان وتسعين وثمانمائة..»

«الشفاء» و«المواهب»:

لا شك بأن كتاب المواهب - كما قال الزرقاني - قد اقتضى أثر كتاب الشفاء، ولكنه - والحق يقال - قد أضاف مادة جديدة للكتاب، مما لم يذكره القاضي عياض تعدل كتاب الشفاء أو تزيد، كما توسع في الأبواب التي شاركه فيها.

ولإعطاء صورة واضحة تبين الخطوط العامة لكل من الكتابين وتوضح من خلالها نقاط الاشتراك بينهما نقول:

إن كتاب المواهب مقسم إلى عشرة مقاصد:

وقد انفرد بثلاثة مقاصد، لم يتعرض لها كتاب الشفاء هي:
الأول والتاسع والعاشر

واشترك الكتابان في أربعة مقاصد هي: الثالث والرابع
والخامس والثامن.

وأما المقاصد الثلاثة الباقية فإن كتاب الشفاء عالج بعض
موضوعاتها: ففي المقصد الثاني شارك الشفاء المواهب في فصل واحد
من أصل عشرة فصول، وفي المقصد السادس شارك في نوعين من
أصل عشرة أنواع، وفي المقصد السابع شاركه في فصل واحد من
أصل ثلاثة فصول.

يتبين لنا من خلال هذا العرض الموجز مدى ما قدمه كتاب
المواهب من مادة جديدة لم يتطرق إليها كتاب الشفاء الذي له فضل
السبق.

ترجمة الزرقاني شارح المواهب

الزرقاني: هو الإمام العلامة المحدث الفقيه أبو عبد الله، محمد
ابن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري المالكي، ونسبته إلى
زرقان، وهي قرية من قرى منوف بمصر.

ولد سنة ١٠٥٥ هـ في القاهرة، ونشأ في وسط علمي، فقد كان
أبوه عبد الباقي عالماً فقيهاً، ومرجعاً للمالكية في عصره، وقد تلقى
العلم على علماء مصر الأعلام يومئذ، وما زال يترقى حتى أضحى
خاتمة المحدثين في الديار المصرية.

وقد ألف عدة مؤلفات منها شرح موطأ مالك . وتوفي في القاهرة
سنة ١١٢٢ هـ رحمه الله تعالى .

ويعد شرحه على المواهب من كتب السيرة الجامعة، ويعدده
بعضهم أجمعها، فقد جمع فيه أكثر الأحاديث المروية في الشئائل والسيرة
والصفات الشريفة .

[تحقيق الكتاب]

اعتمدت في تحقيق هذا الكتاب:

(أ) على ثلاث نسخ مخطوطة هي:

١- مخطوطة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية واعتبرتها الأصل في هذا التحقيق، فإذا أطلقت كلمة (الأصل) فإنما أعني بها هذه المخطوطة. ويرمز لها بالحرف (أ)

٢- مخطوطة الأستاذ الفاضل زهير الشاويش ويرمز لها بالحرف (ب)

٣- مخطوطة مكتبة دبلن ويرمز لها بالحرف (د)

(ب) وعلى نسختين مطبوعتين:

١- مطبوعة عام ١٣٢٦ هـ. ويرمز لها بالحرف (ط)

٢- شرح الزرقاني ويرمز لها بالحرف (ش)

فعملية التحقيق هي حصيلة مقابلة هذه النسخ الخمس بعضها على بعض، وقد أرجع إلى الأصول التي نقل عنها المؤلف إذا وجدت حاجة إلى ذلك.

١- مخطوطة جامعة الإمام (أ)

هذه المخطوطة موجودة في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض. وهي مؤلفة من مجلدين رقم الأول في المكتبة ٦٦٣٦ ورقم الثاني ٦٦٣٧، ويحتوي المجلد الأول على ٢١٧ ورقة

حسب ترقيم الناسخ، وابتدىء المجلد الثاني بالورقة رقم ٢١٨ وينتهي بالورقة رقم ٤٣١. ويبدو أن تقسيم المخطوطة إلى مجلدين كان بعد كتابتها كاملة إذ لم يراع الناسخ أن يكون بدء المجلد الثاني مع بدء مقصد أو فصل. فالمقصد الخامس وقع في الورقة ٢٢٢ أي بعد بدء المجلد الثاني بأربع ورقات.

ومقياس هذه المخطوطة ٣٠ × ٢٠ سم ومقياس الكتابة ١٣,٥ × ٢٢,٥ سم، وعدد الأسطر في الصفحة هو ٣٣ سطراً، وعدد كلمات السطر ١٤ كلمة تقريباً.

وهي نسخة جيدة الخط، استعمل فيها الناسخ القلم الأحمر عند رؤوس الموضوعات وهي كذلك نسخة كاملة زودت في مقدمتها بفهرس يبين مكان المقاصد والفصول.

وهي قريية من عصر المؤلف، فقد كتبت بعد وفاته بأربع وثلاثين سنة، حين كانت نسخ الكتاب عزيزة الوجود كما يشير الناسخ إلى ذلك، وقد كتبت هذه النسخة لحساب الشيخ عبد الوهاب بن المرحوم عبد السلام

وهذا ما نقرؤه في الصفحة الأخيرة من هذه المخطوطة:

«تم الكتاب بعون الملك الوهاب.. بتاريخ يوم الأربعاء المبارك رابع عشر شعبان المطهر... أحد شهور عام سبع وخمسين وتسعمائة أحسن الله ابتداءها وانتهائها..»

«قصد بكتابة هذه المواهب اللدنية في المنح المحمدية، سيدنا ومولانا الشيخ الإمام شامخ القدر، عالي المقام.. خلف الأكابر العظام، ومحبي مآثر الكرم والكرام، عبد الوهاب ابن الشيخ المرحوم

عبد السلام أيدته الله بتوفيقه . . . ونفعهم ببركات صاحب هذه المواهب اللدنية، التي كتبت جميعها في باب السلام من أبواب الحضرة الشريفة النبوية، وقوبلت في حضرات مباركة زكية . . .

«وهو كتاب عزيز الوجود لم توجد منه إلا نسخة واحدة في خزائن الشافعية، تحت نظر سيدنا ومولانا وبركتنا قاضي القضاة الشافعي، وسمح بإعارتها لسيدنا . . . العارف السيد الزين بن علوي باعلوي نفع الله ببركاته . . .»

ويؤكد الناسخ مراجعته لما كتب وهذا ما سجله في الهامش الجانبي للصفحة الأخيرة بقوله: «بلغ مقابلة بحسب الطاقة على أصله المنقول منه، وذلك في يوم إتمامه، بفضل الله وإنعامه، على يد محبين داعين مبتهلين بالدعوات في جميع الساعات، لمن كتبت باسمه جعل له يومه خيراً من أمسه، ومتع بحياته المسلمين وجعله من عباده المخلصين بمحمد وآله وصحبه الطيبين . . .»

وفي الهامش الأسفل يذكر الناسخ أنه أتيح له مقابلة ما كتب على نسخة ثانية قال: «بلغ مقابلة ثانية وذلك بعد أن فتح الله تعالى بنسخة ثانية، فبلغت هذه النسخة النفيسة من الصحة الغاية، ففاقت على جميع النسخ وبلغت النهاية، وذلك في يوم الأحد، ثامن شهر شوال عام سبع وخمسين وتسعمائة . . . وذلك بالمدينة الشريفة على مشرفها أفصل الصلاة والسلام . . .»

ونلاحظ أثر المقابلتين المذكورتين بوجود بعض التصحيحات على هامش بعض الصفحات، بخط الناسخ نفسه وهي تصحيحات قليلة .

وتحمل الصفحة الأولى عنوان الكتاب واسم المؤلف، وثلاثة

تمليكات. وعبارة التملك الأول «من كتب العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ تاج الدين عبد الوهاب بن عبد السلام بن محمد الحجري الخولاني، عامله الله تعالى بخفي لطفه في الدارين وغفر له ولوالديه، بتاريخ جمادى من سنة ثمان وخمسين وتسعمائة.

وعبارة التملك الثاني «في نوبة الفقير إلى مولاه الغني محمد سعيد الحموي»

وعبارة التملك الثالث «من كتب الفقير محمد [(١)] من والده.

وقد رقم الجزء الأول فقط من قبل الجامعة، إضافة إلى ترقيم الناسخ، فجاء هذا الترقيم غير متطابق، ذلك لأن المرقم الجامعي بدأ من ورقة الفهرس التي أهمل الناسخ ترقيمها، فالورقة رقم ٥ مثلاً بترقيم الناسخ تحمل رقم ٧ بالترقيم الجامعي.

نستنتج من الوصف السابق أن هذه المخطوطة قريبة العهد من المؤلف، كما أنها مقابلة على نسختين، وهي نسخة كاملة ونظيفة لم تتداولها الأيدي الكثيرة كما أنها جيدة الخط... ولهذه المواصفات الممتازة جعلتها الأصل الذي اعتمده في هذا التحقيق. وقد أشير إليهما بكلمة (الأصل) أو بالرمز (A) وسوف يكون - إن شاء الله تعالى - على هامش المطبوعة المحققة إشارة إلى بداية كل صفحة من هذه المخطوطة، بحيث يكون للورقة الواحدة رقمان (A) للوجه الأول، و(B) للوجه الثاني، فالورقة رقم ١٢ مثلاً، سيوضع على الهامش

(١) هنا كلمتان لم أتمكن من قراءتهما.

الرقم P/١٢ عند بداية الوجه الأول والرقم ١٢/ب عند بداية الوجه الثاني.

وبما أني اتبعت الترقيم الجامعي الذي للجزء الأول فسوف تكون الورقة ٢١٨ مكررة إذ هي نهاية الجزء الأول حسب هذا الترقيم وبالرقم نفسه يبدأ الجزء الثاني حسب ترقيم الناسخ . .

٢- مخطوطة الأستاذ الفاضل زهير الشاويش (ب)

هذه المخطوطة في مكتبة الأستاذ الفاضل زهير الشاويش، وقد تكرم بإرسال صورة لها. وهي نسخة كاملة مؤلفة من مجلدين لم ترقم صفحاتها، وعدد أوراق المجلد الأول ٢٨١، وعدد أوراق المجلد الثاني ٢٩٤، وينتهي المجلد الأول بنهاية المقصد الرابع، كما يبدأ الثاني بالمقصد الخامس

ومقياس هذه المخطوطة ٢٩,٥ × ٢٠,٥ سم، ومقياس الكتابة في الصفحة ٢٠,٥ × ١٣ سم وعدد الأسطر فيها ٢٧ وعدد الكلمات في السطر ١٣ تقريبا.

وهي نسخة جيدة الخط، قام بكتابتها يوسف بن عمر الخطيب سنة ثلاث وعشرين وألف من الهجرة، وهذا ما سجله الكاتب في نهاية كل من الجزئين.

فقد جاء في نهاية الجزء الأول: وكان الفراغ من كتابة هذا الجزء المبارك يوم السبت المبارك سلخ ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وألف، من كتابة العبد الفقير الحقير الذليل المسكين يوسف بن عمر الخطيب... غفر الله له...

وجاء في نهاية الجزء الثاني: وكان الفراغ من هذه النسخة

المباركة يوم الجمعة المبارك خامس عشر شهر شعبان سنة ثلاث وعشرين بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام على يد أفقر خلقه وأحوجهم إلى عفوره يوسف بن عمر الخطيب النهواني ختم الله له بنيل الأمانى ..

وتحمل الصفحة الأولى من المجلد الأول عنوان الكتاب واسم المؤلف وترجمة له، وفيها تمليك عبارته: في نوبة الفقير محمد بن علي الجمالي أسعده الله في الدنيا ودار التهاني.

وفي أعلى الصفحة عبارة: وقف على بني الكردي.

وفي الصفحة الأولى أيضا نجد ثلاثة أسانيد للكتاب إلى مؤلفه، وهذا مما تمتاز به هذه النسخة ونص هذه الأسانيد هو:

«روى شيخنا العلامة النور علي التترابلسي المواهب اللدنية عن العلامة أحمد بن خليل السبكي والعلامة نور الدين علي الأجهوري، والعلامة الشيخ المحدث الكبير الشيخ إبراهيم اللقاني، أما الشهاب السبكي فعن السيد الأرميوني عن مؤلفها، وأما العلامة علي الأجهوري فعن الشيخ محمد البنوفري والقاضي بدر الدين القرافي، كلاهما عن الشيخ عبد الرحمن الأجهوري عن مؤلفها.»

«سندنا إلى المواهب: قال شيخنا: أخذنا عن العلامة سيدي إبراهيم اللقاني عن العلامة سيدي علي الزيادي عن الشيخ محمد البنوفري عن الشيخ محمد بن الترجمان عن العارف بالله الشيخ عبد الوهاب الشعрани بقراءته على مؤلفها.»

«الحمد لله تعالى: أروي هذا الكتاب عن سيدي والدي الشيخ عبد الرحمن عن الشيخ مصطفى عن الشيخ صالح الجيني عن العلامة محمد بن سليمان المغربي، عن الشيخ محمد بن عمر القرافي، عن زين الدين عبد

الرحمن الأجهوري، عن مؤلفه العالم الشهير والمحدث الكبير سيدي أحمد ابن محمد بن أبي بكر القسطلاني قدس الله تعالى أسراره، أمين». وفي الصفحة الأولى من الجزء الثاني نجد إضافة إلى عنوان الكتاب، نص الوقف التالي:

أوقف هذا الجزء والذي قبله السيد مصطفى عبد الرزاق قدح على من ينتفع به من طلبة العلم، وأقام عليه ناظراً محمد بن الشيخ عبد الرحمن كزبر، جرى ذلك منتصف جمادي الأولى سنة ألف ومائة وثمانين. شهد بذلك: السيد مصطفى بن الحاج أحمد النقباوي، شهد بذلك: السيد محمد بن السيد عبد الرحمن قدح، شهد بذلك: الحاج ناصر المايني.

٣ - مخطوطة جامعة دبلن (د):

هذه المخطوطة موجودة في مكتبة (تشستريتي) في مدينة دبلن في إيرلندا. ورقمها في المكتبة المذكورة ٤٤٦٧/ف، ومقياس الصفحات ٨, ٣٠ × ٢١ سم وفي كل صفحة ٣٥ سطراً، وفي السطر ١٤ كلمة تقريباً،

وتوجد صورة مصغرة عن هذه المخطوطة في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، وقد أعطيت فيها الرقم نفسه ٤٤٦٧/ف، وعنها أخذت الصورة التي تسهم في هذا التحقيق.

وخط هذه النسخة مقروء لا بأس به، وعليها هوامش كثيرة جداً، متنوعة الخطوط، مما يدل على كثرة تداولها بين الأيدي. كما يلاحظ في كثير من الصفحات عبث الأولاد بتلك الخطوط العشوائية فوق الكتابة.

وهي نسخة تامة كاملة، عدد أوراقها/٤٦٢/ وفي أولها فهرس لموضوعات المخطوطة. وفي الورقة الخارجية يظهر اسم المؤلف وقد طمس اسم الكتاب، وفيها تمليك طمس الاسم فيه وبقي التاريخ وهو: في شهر ربيع الأول سنة (١٢٦٠) وتحت توقيع: محمود. وفي مكان آخر في أسفل هذه الصفحة تمليك آخر هذه عبارته: دخل في ملك الفقير محمود بن الشيخ عبد الكريم. ونجد هذا التمليك مرة أخرى في هامش الصفحة الأولى.

وفي أعلى الصفحة الأولى، أيضاً، نجد تملياً هذه عبارته: .. ملك الفقير الحقير الفاني إبراهيم المالكي اللقاني بالاتباع الشرعي من مالكة.. وقد طمست بقية العبارة.

وفي الورقة ١٧ في هامشها أبيات من الشعر وتحتها: كاتبه الفقير حسن بن المرحوم محمود عزوقه ١٨ ربيع الثاني ١٢٠٧ هجرية.

وفي أعلى الصفحة الأخيرة كتب النص الآتي: الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وحبينا محمد الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين. قد من الله عليّ بقراءة هذا الكتاب من أوله إلى آخره، فله درها من نعمة ما أكبرها... بتوقيع: محمود بن عبد الكريم عزوقه.

ويبدو أن هذه النسخة كتبت بعد الألف بسنوات قليلة، وقد جاء ذلك في كتابة على هامش الصفحة الأخيرة طمس بعضها وبقي البعض الآخر ومنه:

بلغ مقابله معي ولدي الشيخ عبد السلام نفع الله به الإسلام والمسلمين.. يوم الخميس أواخر رمضان من شهر سنة إحدى

[(١) من بعد الألف مع انتقالني وزيارة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وبعد العبارة السابقة كتبت العبارة الآتية .
للمرة الثانية بعد عودي من . . يوم الجمعة تاسع عشرين شهر
رمضان . . من شهور السنة السابعة والثلاثين . . ولدي الشيخ محمد
تماما لم يقع له فوت منه . . القراءة من ولدي الشيخ عبد السلام .

٤ - النسخة المطبوعة (ط) :

إن الطبعة المتداولة بين الأيدي، والتي رجعت إليها كنسخة من
نسخ التحقيق، تعود طبعتها إلى سنة ١٣٢٦هـ كما جاء ذلك في
الصفحة الأخيرة من الجزء الثاني على لسان مصححها ابن الشيخ
حسن الفيومي حيث قال :

« . . وقد بدر بدر التمام أوائل عاشر شهور هذا العام، عام
ألف وثلاثمائة وستة وعشرين من هجرة سيد المرسلين ﷺ . . وهذا
الطبع الزاهي الزاهر بالمطبعة الشرقية الثابت محل إدارتها بشارع
خرنفس مصر العزيزية . . »

ولم يشر المصحح إلى النسخة أو النسخ التي اعتمدها .
وقد أعيدت الطباعة عن هذه النسخة تصويراً في بيروت .
وقد صدرت هذه الطبعة في مجلدين من القطع الكبير، انتهى
الأول بالصفحة ٤٣٤ والثاني بالصفحة ٤٣١، ولم يزود الأول بفهرس،
بينما ختم الثاني بفهرس للمقاصد والفصول . والنسخة خلو من أي

(١) هنا كلمة واحدة مطموس بعضها ظهر منها الحرف ن (نون) فقد تكون
إحدى وعشرين أو ثلاثين . . .

تعليق، وهي غير خالية من الأخطاء المطبعية، كما لم تزود بغير
الفهرس الذي وضعه المصنف للمقاصد والفصول وذلك في الجزء
الثاني فقط كما ذكرت.

٥ - شرح الزرقاني (ش):

قام العلامة الزرقاني بشرح المواهب شرحاً موسعاً، ترجم فيه
للأعلام، وخرج فيه الأحاديث التي لم يذكر المصنف تخريجها، وصحح
تخريج المصنف في بعض الأحيان، وشرح الألفاظ، وأشار إلى الروايات
الأخرى التي لم يذكرها المصنف وجاء بالنصوص التي أشار إليها
المصنف، وأكمل ما اختصره..

ويقع هذا الشرح في ثمانية مجلدات من القطع الكبير، والملاحظ
أن الشارح أطل في الربع الأول وتوسط في الثاني وأوجز في الباقي.
ويرجع هذا إلى أن تراجم الأعلام - وهي كثيرة - قد جاءت في القسم
الأول من الكتاب، فهو يترجم للعلم عند ذكره للمرة الأولى، وكثيراً
ما حدث أن ترجم للعلم أكثر من مرة..

وهذا الشرح جاء على طريقة المزج، حيث مزج المتن بالشرح،
وميز المتن بالأقواس وهي طريقة متعبة للمراجع والباحث..

ولاشك بأن الفائدة كانت كبيرة من هذا الشرح في تحقيق
الكتاب، كما يتضح ذلك من التعليقات التي سيرها القارئ في هامش
التحقيق.

وقد طبع هذا الشرح في بولاق سنة ١٢٧٨ - ١٢٩١هـ وطبع في
المطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٢٥ - ١٣٢٩هـ.

بإذن من صاحب المكتبة
 والآن بعد أن ظهر في كتابنا
 غير أن على صاحبها
 في كتابنا
 في كتابنا

مواهب اللدنيّة في المنهج المحمديّ

٢
 السلام على من اتبع الهدى
 فلا تحزنوا يا من آمنوا به

كتبه
 ما جازع
 وعلم
 سنة

تتمت المطبوعات
 ١٣٢٦

التأليف
 الشيخ الأملح العالم العلامة
 ابن الفهامة الحافظ المحقق
 ويبدد هره ووجيد عصير
 انتهائ الدين أحمد السطواني
 رحمه الله تعالى

نكت
 هذا

وصلى الله على محمد وآله

صفحة الغلاف من المخطوطة (أ)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

وينا اننا من لدنك رحمة ونحن لنا من امرنا رسول الله و صلى الله على سيدنا محمد وآلِهِ
 الخبر له الذي اطلع في سماء الارض من انوار معارف النبوة المحمدية و اشرف
 من انوار النبوة المطهرة على القفات الاحمدية احمد على ان وضع اساس
 بني على شروائى ازلت و رفع دعائم رسالته على لواحق ابدتته واشركنا ان
 لا اله الا الله وحده لا شريك له العز المبرور في فرد اقتد بالفضيلة والجلالة الواحدة
 المتوحد و وحدانيته باستحقاق الكمال واشهد ان سيدنا و جيبنا محمد عبد
 ورسول الله و نوح الانوار و اسنان الاعيان المستخلص من خلص خلاصة ولد
 عدنان المبعوث بهد ابي الابات و المخصوص بحور الرسالة و عرش المعجزات و التلخيص
 العرفاني و المخصوص بواهب القرب من النوع الانساني مورد الخفايا و الاليت و مودتها
 و جامع جوامع مفرادتها و سرها و خطيبها اذ احضر في حظائر قدسها و محرمها
 بيت الله العظيم الذي اتخذ لنفسه و جعله ناظرا لحقائق نفسه ممددة مدار نقطة
 الاكوار و منبع يابح الخيام و العرفان المفيض من بحر مدد الوفا على القائلين اهل
 المعارف و الاصطفا حيث خاطب ذات الاقدس بالبعث الاقتسبه فقال

- ١. فان رسول الله اعظم انوار هوانت لكل الخلق بالحق برسوله .
- ٢. عليك مدار الخلق اذ انزل عليهم و انت منار الحق و نورا .
- ٣. فوادك بيت الله ذر علويه و باب عليه منه الحق يدخل .
- ٤. ينابيع علم الله من تنبعثه في كل حين منه الله منسك .
- ٥. تحت بفضيل التضرع و تقبله و لكل له فضل به منك ينصك .
- ٦. نظمت نثار الانبياء فتأخروم لذيك باقول الكمال كمال .
- ٧. فيامدة الامد اذ فقط بظلمه و ياد ورة الاطلاق اذ يسلك .
- ٨. محال يحول القلب عنك و اني و حقا لا اسلو و لا اختول .
- ٩. عليك صلاة الله منه نواصت صلاة انصالي عنك لا تنقل .

صعدت انوار بصائر سكان سدرة التنين لجلالته و همت اراج و رؤساء الانبياء
 الخلق شاهة كماله و تلتفت لغفات انفس الملا الاعلى الى نقابش نجافته و تقالبت
 اهل حق العقول الى عين حماه و لحظاته و فرج به الى المستوي الاقدس و اطلعه على
 التمر الانس في اجاطه الجامعة و حضرات حظيرة قدسه الواسعه فوقفت اشخاص
 الانبياء حمر الحومة على اقدار الحد منه و قامت اشباح الملايكه في سراج الملاك على
 ارجل الاجالسه و هامس و راج العشاق في مقامات الاسواق و كل اليك بركة شفا
 و علم من رقبنا في احدان .

شوق اليك لا ازال يد بروه و تجبهه بجميع عشاق
 اشتاق اليك لشاهته فاشق مشوق مران الاشقياء المشاققين و من لم ارقه للرع فشق

عنوان
 هذه الايات هي من
 كتاب الامامة
 في بيان فضائل
 سيدنا محمد
 و آله الطيبين
 الطاهرين

فا

الفريث شاء نفعهم آخر القاملين وقوله تعالى ذوقوا ثم يا سبحانك انهم ويحتمل في هذا السلام
 والخروج عوام ان يحمد الله رب العالمين وعلى علي سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً
 وقد كان كقول قيل في شرحه الشايع وليس هو ما ذكره الله من فعله التواضع ولو تبعنا ما نصح
 الله به من مؤامره ونزله من مناقبه لما وسعت بعضنا بعضه الدفاتر وكنت دون من علمنا
 وضافت عن جمع الكتب وعمرت عن حملها الجبده وعلى تقى واصفيه بحسنه يعني الزمان وفيه الجود
 والى الله تعالى اضرخ ان يجعله خالص الوجه الكرم مخلصاً من سوايب الزمان وما في المقدمه
 وان يتفنى به والمسلمين والمسلمات في الحيا واولادها من سواها من وقتك من فاضل ان الله عز
 وجل على الاضمار يترنم ان يبلغ حمله عتاري وزليجه ويبدد سيداً فضل خطاي وخلي
 فالكرم بغير العتاره ويقول الخنزير حضر ضلعه من شحم وعصا به في هذه الصناعة وكسا وسريره
 لما به من مزاجه البضاعة وما ابلى به من سواها له بها الرتبة والعواض الذي يسمع وتعلمه من افعال
 التي لو لم تكن لرضي لتضععها وانزلت على غير الخشوع وقبحه وكنتي لحدثت غلظه الظلام العباسي
 والبر والاسق فترقه من ايرفي العرايق والديليويين السارقه واستنحت معانق المعاني في فاتيح
 فتح الباري واستخرجت من مطالب خزنها العلوم نفاس السارقي خامراً له تقالي على ما انعم والعم وعلم
 ما ان علمه مصلياً وسلياً على رسول محمد انزل انبياءه وافضل مبلغ الانبياء على اهل الكتاب والجماع
 وخلفاويه صلاة لا تنقطع من اهل بيتي امير المؤمنين علي بن ابي طالب وعلى آله وسلم

في هذا السلام
 والخروج عوام ان يحمد الله رب العالمين
 وعلى علي سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

في هذا السلام
 والخروج عوام ان يحمد الله رب العالمين
 وعلى علي سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

في هذا السلام
 والخروج عوام ان يحمد الله رب العالمين
 وعلى علي سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

في هذا السلام
 والخروج عوام ان يحمد الله رب العالمين
 وعلى علي سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

في هذا السلام
 والخروج عوام ان يحمد الله رب العالمين
 وعلى علي سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

الصفحة الأخيرة من المخطوطة (أ)

عن ابن المبروك

وهو

الجزء الاول من المواهب اللدنية والمنه المحمدية

الذوق الشيخ الامام العالم الهدى محمد باقر

القمي عتبات اعيان المحققين وعمدة المدرسين

الشيخ شهاب الدين القسطلاني

رأساد عليها وعلى المطير

في نسخة النقيب
انقاو محمد بن
علي بن ابي اسحق
القمي الذي روي
الشيخ عليه السلام
في نسخة النقيب
انقاو محمد بن
علي بن ابي اسحق
القمي الذي روي
الشيخ عليه السلام

المستطاب في نسخة النقيب
وتمت في شهر ربيع الثاني
على ١٦٩٠ سنة
قسطه من ايام الفقيه
عليه السلام

وصحة المصنف
والصحة
عن الامام
ابو القاسم القاسمي
القمي الذي روي
الشيخ عليه السلام
في نسخة النقيب
انقاو محمد بن
علي بن ابي اسحق
القمي الذي روي
الشيخ عليه السلام

وصحة المصنف
والصحة
عن الامام
ابو القاسم القاسمي
القمي الذي روي
الشيخ عليه السلام
في نسخة النقيب
انقاو محمد بن
علي بن ابي اسحق
القمي الذي روي
الشيخ عليه السلام

تأليفه في نسخة النقيب
انقاو محمد بن
علي بن ابي اسحق
القمي الذي روي
الشيخ عليه السلام

في نسخة النقيب
انقاو محمد بن
علي بن ابي اسحق
القمي الذي روي
الشيخ عليه السلام

صفحة الغلاف من المخطوطة (ب)

[عملي في الكتاب]

طبع كتاب المواهب مرتين، الأولى منها كانت عام ١٨٦٤م في بولاق، كما ذكر ذلك الدكتور ماهر حمادة^(١)، وهذه الطبعة في حكم النادرة، والثانية كانت عام ١٣٢٦هـ في مصر.

والنسخة المتداولة بين الأيدي الآن هي طبعة مصورة في لبنان عن الطبعة الثانية، كما أشرت إلى ذلك قبل قليل.

والكتاب في طبعته المذكورة خلو من النقاط والفواصل وعلامات الترقيم بشكل عام، وليس هناك أكثر من التقسيم الذي وضعه المصنف من مقاصد وفصول، ولذا قد نجد الصفحات الكثيرة من ذلك القطع الكبير لا يفصل بينها فاصل.. مما يجعل الرجوع إلى الكتاب فيه الكثير من المشقة، وبخاصة إذا كان المقصد أو الفصل طويلاً، أضف إلى ذلك ما في الكتاب من استطرادات فقهية ولغوية.. مما لا بد للقارئ من مطالعته وهو يبحث عن بغيته.. الأمر الذي جعل الاستفادة من الكتاب قاصرة على المختصين.

وفي سبيل تقريب الكتاب، وجعله في متناول القارئ، قمت

(١) انظر كتاب «مراجع مختارة عن حياة رسول الله ﷺ» للدكتور محمد ماهر حمادة. صادر عن دار العلوم للطباعة والنشر عام ١٤٠٢هـ.

بتحقيقه وإخراجه بهذا الشكل الذي يسهل الرجوع إليه، واستطيع تلخيص عملي بما يلي:

أولاً: تحقيق نص الكتاب، وذلك بالرجوع إلى ثلاث نسخ مخطوطة - سبق وصفها - وإلى النسخة المطبوعة، وإلى شرح الزرقاني كذلك.

ثانياً: من حيث الشكل سيتناول عملي:

- وضع الفواصل والنقاط وعلامات الترقيم بين الجمل.
- وضع الآيات الكريمة ضمن أقواس تميزها عن غيرها، وكذلك الأحاديث الشريفة.

- تقسيم البحث إلى مقاطع تبعاً للأفكار الرئيسة فيه.
- وضع عناوين عامة أو فرعية تسهياً للمراجعة والبحث. وما كان من هذه العناوين من وضع المحقق فسوف يكون ضمن قوسين [].

- فصل النصوص المستشهد بها عن كلام المصنف، بحيث تكون واضحة، إما بجعلها في مقطع مستقل، أو بإيضاح ذلك في الحاشية، وذلك في الأماكن التي لم يوضح فيها المصنف ذلك.

ثالثاً: ما يتعلق بالحاشية:

إن مهمة الحاشية - إضافة إلى بيان ما يتعلق بتحقيق النص - هي مساعدة القارئ وتيسير فهم النص له، ووضع يده على كل ما هو بحاجة إليه، فلا يحتاج للرجوع إلى مصدر آخر ما أمكن ذلك، ومن أجل ذلك فإن الحاشية سوف تحتوي على ما يأتي:

- عزو الآيات إلى سورها وبيان أرقامها،
- تخريج الأحاديث التي لم يخرجها المصنف، وقد اعتمدت في غالب

الأحيان تخريج الشارح.

- ذكر أرقام بعض الأحاديث في مراجعها مثل البخاري ومسلم وأبي داود، أو الإشارة إلى أبوابها. . وذلك حيث أرى ضرورة لذلك.
- ترجمة الأعلام ترجمة مختصرة نقلاً عن الشارح أو بالرجوع إلى كتب التراجم.

- اثبت في الحاشية نقلاً عن الشارح الزرقاني - رحمه الله - كل ما هو ضروري لإيضاح النص من شرح بعض الكلمات أو ضبطها. . أو إتمام نص. . أو ذكر رواية أخرى. .

- بعض التعليقات التي رأى المحقق ضرورتها وتميز هذه التعليقات بذكر كلمة [محقق] في آخرها أو الحرف [م].

- وبما أن المصنف قد اعتمد على فتح الباري في كثير من نقوله، فقد حاولت أن أثبت في الحاشية مكان النص ذاكراً للصفحة والجزء.

وقد بذلت جهدي - وهو جهد المقل - أن أضع بين يدي القارئ كل ما من شأنه أن يساعده على الاستفادة الكاملة من هذا الكتاب.

هذا وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، إنه حسبنا ونعم الوكيل وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

غرة ربيع الآخر عام ١٤٠٩هـ

تشرين الثاني عام ١٩٨٨م

كتبه

صالح محمد الشاذلي

[مِنْ مَرَاجِعِ التَّحْقِيقِ]

ليست غايتي هنا أن أسرد تلك المراجع الكثيرة التي لا بد لكل محقق من الرجوع إليها وإنما الغاية هي الإشارة إلى الطبعات التي اعتمدها في أكثر الكتب مساسا بالموضوع:

- فتح الباري للإمام ابن حجر العسقلاني .
طبعة دار الفكر- رقم الأحاديث محمد فؤاد عبد الباقي، وأشرف على مقابلة المخطوطات الشيخ عبد العزيز بن باز.
وقد اعتبرته المرجع لأحاديث البخاري ولذا فإني في إحالتي أذكر رقم الحديث في هذه الطبعة .
- صحيح مسلم . طبعة دار إحياء التراث، تصحيح وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي،
- سنن أبي داود، طبعة دار الفكر، ضبط محيي الدين عبد الحميد،
- أما بقية كتب السنة فإني أحيل عليها بواسطة الكتب والأبواب،
- مسند الإمام أحمد، في طبعته المتداولة .
- سيرة ابن هشام بتحقيق السقا والأبياري وشلبي .
- زاد المعاد للإمام ابن القيم بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط .

المواهب اللدنية

بالمِنحِ الحَمْدِيَّةِ

الجزء الأول

[المقدمة]

بسم الله الرحمن الرحيم [وبه ثقتي، وبه نستعين، ربنا آتانا من
للدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً، وصلى الله على سيدنا
محمد وآله وسلم]^(١)

الحمد لله الذي أطلع في سماء الأزل شمس أنوار معارف النبوة
المحمدية، وأشرق من أفق أسرار الرسالة مظاهر^(٢) تجلي الصفات
الأحمدية، أحمده على أن وضع أساس نبوته على سوابق أزليته، ورفع
دعائم رسالته على لواحق أبديته.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الفرد المنفرد في
فردانيته بالعظمة والجلال، الواحد المتوحد في وحدانيته باستحقاق
الكمال، وأشهد أن سيدنا وحبينا محمداً عبده ورسوله أشرف نوع
الإنسان، وإنسان عيون الأعيان، المستخلص من خالص خلاصة ولد
عدنان، الممنوح ببدايع الآيات، المخصوص بعموم الرسالة وغرائب
المعجزات، السر الجامع الفرقاني، والمخصص بمواهب القرب من
النوع الإنساني، مورد الحقائق الأزلية ومصدرها، وجامع جوامع

(١) في الأصل، وفي ب: وهو حسبي ونعم الوكيل.

(٢) في ش: مظاهر الرسالة.

مفرداتها ومنبرها، وخطيبها إذا حضر في حظائر قدسها ومحضرها، بيت الله المعمور الذي اتخذه لنفسه، وجعله ناظماً لحقائق أنسه^(١)، مدة مداد نقطة الأكوان، ومنبع ينابيع الحكم والعرفان، المفيض^(٢) من بحر مدد الوفا، على القائل من أهل المعارف والاصطفا، حيث خاطب ذاته الأقدسية^(٣)، بالمنح الأنفسية، فقال:

| | |
|-----------------------------|--|
| فأنت رسول الله أعظم كائن | وأنت لكل الخلق بالحق مرسل |
| عليك مدار الخلق إذ أنت قطبه | وأنت منار الحق تعلو وتعدل |
| فؤادك بيت الله دار علومه | وباب عليه منه للحق يدخل |
| ينابيع علم الله منه تفجرت | ففي كل حي منه لله منهل |
| منحت بفيض الفضل كل مفضل | فكل له فضل به منك يفضل |
| نظمت نثار الأنبياء فتاجهم | لديك بأنواع الكمال مكلل ^(٤) |
| فيامدة الإمداد نقطة خطه | ويا ذروة الإطلاق إذ يتسلسل |
| محال يحول القلب عنك وإنني | وحقك لأسلو ولا أتحول |
| عليك صلاة الله منه تواصلت | صلاة اتصال عنك لاتتصل |

شخصت أبصار بصائر سكان سدرة المنتهى لجلال جماله، وحتت أرواح رؤساء الأنبياء إلى مشاهدة كماله، وتلفتت لفتات أنفس الملائ الأعلی إلى نفائس نفحاته، وتناولت أعناق العقول إلى أعين لمحاته ولحظاته، فخرج به إلى المستوى الأقدس، وأطلعه على السر الأنفس،

(١) كذا في (أ، ش) وفي الباقي: قدسه.

(٢) في ش: الممد.

(٣) «الأقدسية» ليست في ش.

(٤) في (ط، د، ب): مكمل.

في إحاطته الجامعة، وحضرات حظيرة قدسه الواسعة، فوقفت
أشخاص الأنبياء في حرم الحرم، على أقدام الخدمة، وقامت أشباح
الملائكة في معراج الجلال، على أرجل الإجلال، وهامت أرواح
العشاق في مقامات^(١) الأشواق:

كل إليك بكله مشتاق وعليه^(٢) من رقبائه أحداق
يهواك ماناح الحمام بأيكة أولاح برق في الدجى خفاق
شوق إليه لايزال يديره فجميعه لجميعه عشاق

اشتاق القمر لمشاهدته فانشق، فشق مرائر الأشقياء
المشاققين^(٣)، وحن لمفارقتة الجذع فتصدع/فانصدعت قلوب الأغبياء
المنافقين [ولله در القائل]:

وكان انشقاق البدر أكبر آية تشق قلوب الحاسدين وتفترث^(٤) [٥]

وبرقت من مشكاة بعثته بوارق طلائع الحقائق، وانقادت لدعوته
العامة خاصة خلاصة الخلائق، ولم يزل يجاهد في [سبيل]^(٦) الله
بصادق عزماته، وينظم أشنات^(٧) الإسلام بعد افتراق جهاته، حتى
كملت كمالات دينه وحججه البالغة، وتمت على سائر أمته الأمية نعمته
السابعة، وخير فاختر الرفيق الأعلى، وآثر الآخرة على الأولى، فنقله

(١) في ش: معاناة.

(٢) في ط: وعليك.

(٣) في ش: الشاقين.

(٤) فرث الكبد: شقها [هامش الأصل].

(٥) في الأصل.

(٦) في (ب، ط، ش).

(٧) في (ط، د، ب) شتات.

الله قائماً على قدم السلامة، إلى دار السلام وفردوس الكرامة، وبوأه أسنى مراقي التكريم في دار المقامة، ومنحه أعلى مواهب الشرف في اليوم المشهود، فهو الشاهد والمشهود، والمحمود بالمحامد التي يلهمها للحامد المحمود، ذو المنزلة العلية، والدرجة السنية، في حظائر القدس الأقدسية، والمشاهد الأنفسية، واصل الله عليه فضائل (١) الصلوات، وشرائف التسليم، ونوامي البركات، وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأبرار، صلاة وسلاما لا ينقطع عنها أمد الأمد، ولا يحصرهما (٢) العدد أبد الأبد.

وَبَعْدُ:

فهذه لطيفة من لطائف نفحات العواطف الرحمانية، ومنحة من منح مواهب العطايا الربانية، تنبىء عن نبذة من كمال شرف نبينا محمد - عليه أفضل الصلوات وأسمى التسليم وأسنى الصلوات - وسبق نبوته في الأزمان الأزلية، وثبوت رسالته في الغايات الأحدية، والتبشير بأحمديته في الأعصر (٣) الخالية، والتذكير بمحمديته في الأمم الماضية، وإشراق بوارق لوامع أنوار آيات ولادته التي سار ضوء فجرها في سائر بريته، ودار بدر فجرها (٤) في أقطار ملته، وعواطف لطائف رضاعه وحضانتها، وينابيع أسرار سر مسراه وبعثته (٥) وهجرته، وعوارف معارف عبوديته الساري عرف شذاها في آفاق قلوب أهل ولايته،

(١) في (ب. ط) فواضل.

(٢) في ش: ولا يحصيها.

(٣) في ش: الأزمان.

(٤) في ط: ودار بدرها.

(٥) في ط: وبعثته.

ونفائس أنفاس أحواله الزكية، ودقائق حقائق سيرته العلية، إلى حين نقلته لروضة قدسه الأحذية، وتشريفه بشرائف الآيات، وتكريمه بكرائم المعجزات، وترفيعه في آي التنزيل برفعة ذكره، وعلو خطره، وتعظيم محاسن شائله وخلائقه، وتخصيصه بعموم رسالته، ووجوب محبته واتباع طرائقه^(١) وسيادته الجامعة لجوامع السؤدد في مشهد مشاهد المرسلين، وتفضيله بالشفاعة العظمى، العامة لعموم الأولين والآخرين، إلى غير ذلك من عجائب آياته ومنحه، وغرائب أعلام نبوته وحججه.

أوردتها حججاً قاهرة على الملحددين، وذكرى نافعة للموحددين، وتنبهها لعزائم المهتدين، ولم أكن - والله - أهلاً لذلك، ولم أر نفسي فيما هنالك، لصعوبة هذا المسلك، ومشقة السير في طريق لم يكن لمثلي يُسلك، وإنما هو نكتة سر قرائتي كتاب «الشفاء»^(٢) بحضرة التخصيص والاصطفا، في مكتب التأديب والتعليم^(٣) في مشهد مشاهد المؤانسة والتكريم، مستجلباً في مجالي تجليات الأنوار الأحمدية، محاسن صفات خلقته، وعظيم أخلاقه الزكية، سارياً^(٤) بسر سيرته في منهاج ملته إلى سماء هديه الأسنى، راتعاً في رياض روضة سنته النزيهة^(٥) الحسناء، مستمداً من فتح الباري^(٦)، فيض فضله الساري، فمنحني صاحب

(١) في ش: طريقته.

(٢) كتاب «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» للإمام عياض بن موسى وشهرته تغني عن ترجمته رحمه الله.

(٣) أي بين روضة النبي ﷺ ومنبره، وكان المصنف يقرؤه للناس هناك.

(٤) في ش: سائراً.

(٥) في ش: النزهة.

(٦) أي من عطاء الله تعالى، وفيه تورية بذكر اسم الكتاب الذي هو شرح =

هذه المنح من مصون حقائقه، وأبرز لي مما أكنه من مكنون رقائقه، فانفتحت بالفتح المحمدي عين بصيرة الاستبصار، وتنزه الناظر في رياض ارتياض رقائق الأسرار، فاستجلت من أبكار مخدرات السنة النبوية من كل صورة معناها، واقتبست من تلالؤ مصباح مشكاة المعارف من كل بارقة أضواها، وانتشقت من كل عبقة صوفيه شذاها، واجتيت من أفنان لطائف تأويل آي الكتاب العزيز من كل ثمرة مشتهاها، ولازلت في جنات لطائف هذه المنح أغدو وأروح، في غبوق وصبوح^(١)، حتى انهلت غمام المعاني على أرض رياض المباني، فأينعت أزهارها، وتكللت بنفائس جواهر العلوم أوراقها، وطابت لمجتي رقائق الحقائق ثمارها، وتدفت حياض بدائع ألفاظها، بزلال جوامع^(٢) كلماتها، وخطب خطيب قلوب أبناء الهوى، على منبر الغرام الأقدس، يدعو لكمال محاسن الحبيب الرأس، فترنحت بسلاف راح الارتياح نفائس الأرواح، وتمايلت بمطربات^(٣) ألحان الحنين إلى جمال المحبوب كرائم الأشباح، وزمزم مززم الصفا، بحضرة خلاصة أولى الوفا، منشداً مردداً:

حضر الحبيب وغاب عنه رقيه حسبي نعيم زال عنه حسيبه
داوى فؤادي الوصل من أدوائه طوبى لقلبي والحبيب طبيبه
صدق المحب حبيبه في حبه فحباه صدق الحب منه حبيبه
لباه لب فؤاده فأجاباه لما دعاه إلى الغرام وجيبه

= الحافظ ابن حجر على البخاري، ولايشك من أحاط بهذا الكتاب وبشرح

البخاري أن نحو نصف هذا الكتاب منه بعز وودونه.

(١) الغبوق: ما يشرب بالعشي. والصبوح: شرب الغداة.

(٢) [جوامع] ليست في ش.

(٣) في ط: عطريات.

ولجامع الأهواء حيعل حبه ولحسنه خطب القلوب خطيبه
فلما سمعت هذه المواهب آذان قلوب أولي الألباب، تلفتت
عيون أعيانهم لتلخيص خلاصة جوهر هذا الخطاب، في سفر يسفر
عن وجه المنح النبوية منيع النقاب، فثبتت^(١) عنان القلم إلى تحصيل
مآربهم، وتسطير مطالبهم، جانحا صوب الصواب، مودعا ما كان
مستودعاً لي في غيابات الغيب في هذا الكتاب، مستعيناً في ذلك
بالقوي الوهاب، حتى أتاح الله لي ذلك، وتمم ما هنالك، فأوضحت
ما خفي من الدليل، ومهدت ما توعر من السبيل.

وسميته: «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» ورتبته على عشرة
مقاصد تسهيلاً للسالك والقاصد:

المقصد الأول:

في تشريف الله تعالى له عليه السلام بسبق نبوته في سابق
أزليته، ونشره منشور رسالته في مجلس مؤانسته، وكتبه توقيع عنايته في
حظائر قدس كرامته، وطهارة نسبه وبراهين أعلام آيات حمله وولادته
ورضاعه وخضانته، ودقائق حقائق بعثته وهجرته، ولطائف معارف
مغازيه وسراياه وبعوثة وسيرته، مرتباً على السنين من حين نشأته إلى
وقت وفاته ونقلته لرياض روضته.

المقصد الثاني:

في ذكر أسماؤه الشريفة المنبئة عن كمال أخلاقه المنيفة، وأولاده
الكرام الطاهرين وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين، وأعمامه وعماته،

(١) في ش د: فأطلقت.

وإخوته من الرضاة، وجداته وخدمه ومواليه وحرسه، وكتابه وكتبه إلى أهل الإسلام في الشرائع والأحكام، ومكاتباته إلى الملوك وغيرهم من الأنام، ومؤذنيه وخطبائه وحداته وشعرائه، وآلات حروبه، ودوابه، والوافدين إليه ﷺ وفيه عشرة فصول.

المقصد الثالث:

فيما فضله الله سبحانه وتعالى به من كمال خلخته، وجمال صورته، و [ما] ^(١) كرمه به من الأخلاق الزكية وشرفه به من الأوصاف المرضية، وما تدعو/ ضرورة حياته إليه ﷺ ، وفيه ثلاثة فصول. ١/٥

المقصد الرابع:

في معجزاته الدالة على ثبوت نبوته وصدق رسالته وما اختص ^(٢) به من خصائص آياته وبدائع كراماته ^(٣). وفيه فصلان.

المقصد الخامس:

في تخصيصه عليه السلام بخصائص ^(٤) المعراج والإسراء، وتعميمه بعموم لطائف التكريم في حضرة التقريب بالمكاملة والمشاهدة والآيات الكبرى.

المقصد السادس:

فيما ورد في آي التنزيل من تعظيم قدره، ورفعته ذكره، وشهادته

(١) في ط، ش.

(٢) في (ط، د، ش): خص.

(٣) في ط: كرامته.

(٤) في ش: بلطائف.

له تعالى بصدق نبوته، وثبوت بعثته، وقَسَمه تعالى على تحقيق رسالته، وعلو منصبه الجليل ومكانته، ووجوب طاعته واتباع سنته، وأخذه تعالى له الميثاق على سائر النبيين فضلاً ومنة إن أدركوه ليؤمنن به ولينصرنه، والتنويه به في الكتب السالفة كالتوراة والإنجيل، بأنه صاحب الرسالة والتبجيل. وفيه عشرة أنواع.

المقصد السابع:

في وجوب محبته واتباع سنته، والاهتداء بهديه وطريقته، وفرض محبة آله وأصحابه، وقرابته وعترته، وحكم الصلاة والتسليم عليه، زاده الله فضلاً وشرفاً لديه. وفيه ثلاثة فصول.

المقصد الثامن:

في طبه ﷺ لذوي الأمراض والعاهات، وتعبيره الرؤيا، وإنبائه بالأنباء المغيبات. وفيه ثلاثة فصول.

المقصد التاسع:

في لطيفة من حقائق عباداته، ويشتمل على سبعة أنواع،

المقصد العاشر:

في إتمامه تعالى نعمته عليه بوفاته ونقلته إليه، وزيارة قبره الشريف، ومسجده المنيف، وتفضيله في الآخرة بفضائل الأوليات الجامعة لمزايا التكريم، والدرجات العليات، وتشريفه بخصائص الزلفى في مشهد^(١) مشاهد الأنبياء والمرسلين، وتحميده بالشفاعة والمقام

(١) ليست في ش.

المحمود، وانفراده بالسؤدد في مجمع مجامع الأولين والآخرين، وترقيه في جنة عدن أرقى مدارج^(١) السعادة، وتعالیه في يوم المزید أعلى معالی الحسنی وزیادة. وفيه ثلاثة فصول.

والله تعالى جل جده وعز مجده أسأل بوجاهة وجهه الوجیه ونبيه النبیه أن یمدني في هذا الكتاب العزیز^(٢) بمدد الإقبال والقبول، وینیلني ومن كتبه أو قرأه أو سمعه والمسلمين من العواطف النبویة لطائف السؤل، ونهاية المأمول، وعلى الله قصد السبیل وهو حسبنا ونعم الوکیل.

(١) في ش معارج.

(٢) في النسخ: العظيم، ولم تذكر في ش .

المقصد الأول

[محتوي المقصد الأول]

- في تشریف الله تعالى له عليه السلام بسبق نبوته في سابق أزليته، ونشره منشور رسالته في مجلس مؤانسته، وكتبه توقيع عنايته في حظائر قدس كرامته.
- وطهارة نسبه
- وبراہین أعلام آیات حملہ وولادته
- ورضاعه وحضانه
- ودقائق حقائق بعثته
- وهجرته
- ولطائف معارف مغازيه وسراياه وبعوثه
- وسيرته
- مرتباً على السنين من حين نشأته إلى وقت وفاته ونقلته لرياض روضته.

[توطئة]

اعلم ياذا العقل السليم، والمتصف بأوصاف الكمال والتميم -
وفقني الله وإياك بالهداية إلى الصراط المستقيم - أنه لما تعلق إرادة
الحق تعالى بإيجاد خلقه، وتقدير رزقه، أبرز الحقيقة المحمدية من
الأنوار الصمدية^(١)، في الحضرة الأحدية، ثم سلخ منها العوالم كلها،
علوها وسفلها، على صورة حكمه، كما سبق في سابق إرادته وعلمه،
ثم أعلمه تعالى بنبوته، وبشره برسالته، هذا وآدم لم يكن إلا - كما
قال - بين الروح والجسد، ثم انبجست منه ﷺ عيون الأرواح،
فظهر/ بالملاء الأعلى، وهو بالمنظر الأجلى، فكان لهم المورد الأحلى، ٥/ب
فهو ﷺ الجنس^(٢) العالی على جميع الأجناس، والأب الأكبر لجميع
الموجودات والناس^(٣).

(١) المنسوبة للصمد، والإضافة للتشريف.

(٢) أي كالجنس.

(٣) على ما يأتي في حديث عبد الرزاق.

وأما ما ذكر أن الله قبض من نور وجهه قبضة، ونظر إليها، فعرقت وذلقت
فخلق الله من كل نقطة نبيا، وأن القبضة كانت هي النبي ﷺ، وأنه كان
كوكباً دريا، وأن العالم كله خلق منه وأنه كان موجوداً قبل أن يخلق أبواه، =

ولما انتهى الزمان باسم الباطن في حقه ﷺ إلى وجود جسمه، وارتباط الروح به، انتقل حكم الزمان إلى الاسم الظاهر^(١)، فظهر محمد ﷺ بكليته جسماً وروحاً، فهو ﷺ وإن تأخرت طينته، فقد عرفت قيمته، فهو خزانة السر، وموضع نفوذ الأمر، فلا ينفذ أمر إلا منه، ولا ينقل خير^(٢) إلا عنه، [ولله در القائل]^(٣):

ألا بأي من كان ملكا وسيدا وآدم بين الماء والطين واقف
فذاك الرسول الأبطحي محمد له في العلا مجد تليد وطارف^(٤)
أق بزمان السعد في آخر المدى^(٥) وكان له في كل عصر مواقف
أق لانكسار الدهر^(٦) يجبر صدعه فأثنت عليه ألسن وعوارف
إذا رام أمراً لا يكون خلافه وليس لذلك الأمر في الكون صارف^(٧)

= وأنه كان يحفظ القرآن قبل أن يأتيه جبريل، وأمثال هذه الأمور.. فقال الحافظ أبو العباس أحمد بن تيمية في فتاويه، ونقله الحافظ ابن كثير في تاريخه وأقره: كل ذلك كذب مفترى باتفاق أهل العلم مجديته، والأنبياء كلهم لم يخلقوا من النبي ﷺ، بل خلق كل واحد من أبويه.

(١) المناسب هنا أنهما وصفان لله، أي الظاهر وجوده لكثرة دلائله، أو الغالب على كل شيء، من ظهر إذا غلب، والباطن حقيقة ذاته.

(٢) قال في هامش الأصل: وفي نسخة: خير.

(٣) في ط.

(٤) الأبطحي: المنسوب إلى بطحاء مكة، تليد: قديم، طارف: حادث.

(٥) يعني: الزمان الأخير من أزمنة الأنبياء.

(٦) وفي نسخة: لانكسار الدين، من إضافة الصفة للموصوف، أي: الدين أو الدهر المنكسر بعبادة غير الله.

(٧) هذا أمر لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى [المحقق].

[سبق نبوته ﷺ]

أخرج مسلم^(١) في صحيحه^(٢)، من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاصي^(٣)، عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الله عز وجل كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء)^(٤).

ومن جملة ما كتب في الذكر - وهو أم الكتاب - أن محمدا خاتم النبيين.

وعن العرياض بن سارية^(٥) عن النبي ﷺ قال: (إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طيئته)^(٦) رواه أحمد^(٧)،

(١) مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، أحد الأعلام، مناقبه شهيرة، أخذ عن البخاري - وشاركه في كثير من شيوخه - وأحمد وخلف، وروى عنه كثيرون، مات سنة إحدى وستين ومئتين في رجب.

(٢) الذي صنفه من ثلاثمئة ألف حديث، كما نقلوا عنه، وهو يلي صحيح البخاري، وتفضيله عليه مردود، وفي ألفية السيوطي:

ومن يفضل مسلما فإنما ترتبه وصنعه قد أحكما
(٣) عبد الله بن عمرو بن العاصي بن وائل السهمي، الصحابي ابن الصحابي الزاهد العابد؛ أحد المكثرين الفقهاء، أسلم قبل أبيه، قال ابن حجر في تقريبه: مات في ذي الحجة ليالي الحرة على الأصح، بالطائف على الراجح. و«العاصي» بالياء وحذفها. والصحيح الأول عند أهل العربية.

(٤) أخرجه مسلم في القدر، باب حجاج آدم وموسى برقم ٢٦٥٣ [م].

(٥) العرياض بن سارية السلمى، قديم الإسلام جدًّا، من البكائين، ومن أهل الصفة، ونزل حمص، روى عنه خالد بن معدان، وأبو أمامة الباهلي، وخلق، مات سنة خمس وسبعين، وقيل قبلها زمن فتنة ابن الزبير رضي الله عنهم.

(٦) مسند الإمام أحمد ١٢٧/٤ [م].

(٧) الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، أبو عبد الله، المروزي ثم =

والبيهقي^(١)، والحاكم^(٢)، وقال: صحيح الإسناد.

وقوله: لمنجدل، يعني: طريحاً ملقى على الأرض قبل نفخ الروح فيه.

وعن ميسرة الضبي^(٣) قال: قلت يارسول الله، متى كنت نبياً؟ قال: (وآدم بين الروح والجسد) هذا لفظ رواية الإمام أحمد^(٤). ورواه

= البغدادي، أحد كبار الأئمة الحفاظ الطوافين، الصابر على البلوى، الذي من الله به على الأمة، ذو المناقب الشهيرة. وحسبك قول الشافعي، شيخه: خرجت من بغداد فما خلفت بها أفة ولا أزهة ولا أورع ولا أعلم منه. ولد سنة أربع وستين ومائة، ومات سنة إحدى وأربعين ومائتين.

(١) البيهقي: نسبة إلى بيهق: قرية بناحية نيسابور،

أحمد بن الحسين، الإمام الحافظ المشهور بالفصاحة والبراعة، سمع الحاكم وغيره، وتصانيفه نحو ألف. قال الذهبي: ودائرته في الحديث ليست كبيرة، بل بورك له في مروياته، وحسن تصرفه فيها، لحذقه وخبرته بالأبواب والرجال، وأفتى بجميع نصوص الشافعي وخرج أحاديثها، حتى قال إمام الحرمين: ما من شافعي إلا وللشافعي عليه منة، إلا البيهقي فله على الشافعي منة، ولد سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وتوفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة.

(٢) الإمام الحافظ الكبير، محمد بن عبدالله الضبي، أبو عبدالله، النيسابوري، الثقة الثبت، المجمع على صدقه ومعرفته بالحديث حق معرفته. أكثر الرحلة والسماح، حتى سمع بنيسابور من نحو ألف شيخ، وفي غيرها أكثر. ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، ومات بنيسابور سنة خمس وأربعمائة، وتصانيفه نحو خمسمائة.

(٣) ميسرة الضبي. كذا في النسخ، والذي في المسند: ميسرة الفجر.

قال الذهبي: صحابي من أعراب البصرة. يحتمل أنه ضبي ويلقب بالفجر، فعدل المصنف عما في المسند لبيان نسبته،

(٤) الذي في المسند (عن ميسرة الفجر قال: قلت يارسول الله متى كتبت نبياً؟ =

البخاري (١) في تاريخه (٢) وأبو نعيم (٣) في الحلية (٤)، وضححه الحاكم .
 وأما ما اشتهر على الألسنة بلفظ: كنت نبيا وآدم بين الماء
 والطين (٥). فقال شيخنا العلامة الحافظ أبو الخير السخاوي - نفع الله
 بعلمه - في كتابه «المقاصد الحسنة»: لم نقف عليه بهذا اللفظ. انتهى .
 وقال الحافظ ابن رجب (٦)، في اللطائف: وبعضهم يرويه (٧):

= قال: وآدم عليه السلام بين الروح والجسد) المسند ٥٩/٥ [م].

- (١) إمام الفن، محمد بن اسماعيل الجعفي، مناقبه كالشمس.
- (٢) تاريخه الكبير، صنفه وعمره ثمان عشرة سنة، عند قبره ﷺ. قال ابن عقدة: لو كتب الرجل ثلاثين ألفا ما استغنى عن تاريخ البخاري، وقال السبكي: تاريخه لم يسبق إليه، ومن ألف بعده في التاريخ، أو الأسماء، أو الكنى فعيال عليه.
- (٣) أبو نعيم - بالتصغير، أحمد بن عبدالله الأصفهاني، الحافظ المكثّر، أخذ عن الطبراني وغيره، وعنه: الخطيب وغيره. مات بأصفهان سنة ثلاثين وأربعمئة عن أربع وتسعين سنة. ذكره الذهبي.
- (٤) كتاب حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء.
- (٥) وبقيته: وكنت نبيا ولا آدم ولا ماء ولا طين. وقد صرح السيوطي في الدر بأنه لا أصل لهما، وسبقه لذلك الحافظ ابن تيمية فأفتى ببطان اللفظين وأنها كذب وأقره في النور، واعتمد السخاوي نفسه كلام ابن تيمية في وضع اللفظين
- (٦) العلامة الحافظ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، الواعظ المحدث الفقيه، البغدادي ثم الدمشقي، أكثر الاشتغال حتى مهر، وشرح الترمذي والعلل له، وقطعة من البخاري، وله طبقات الحنابلة مات في رجب سنة خمس وتسعين وسبعمئة.
- (٧) أي حديث ميسرة.

(متى كتبت) من الكتابة^(١)، انتهى.

قلت: وكذا روينا في جزء من حديث أبي عمرو، إسماعيل بن نجيد^(٢)، ولفظه: (متى كتبت نبيا؟ قال: كتبت وآدم بين الروح والجسد).

فتحمل هذه الرواية مع رواية العرباض بن سارية على وجوب نبوته وثبوتها، وظهورها في الخارج، فإن الكتابة تستعمل فيما هو واجب. قال تعالى: ﴿كتب عليكم الصيام﴾^(٣) و﴿كتب الله لأغلبن﴾^(٤).

وعن أبي هريرة^(٥) أنهم قالوا: يارسول الله، متى وجبت لك

(١) هذه الرواية هي المثبتة في مسند أحمد عن مسيرة كما أشرت في التعليق عليها. انظر المسند ٥٩/٥ [م].

(٢) إسماعيل بن نُجَيْد بن أحمد بن يوسف النيسابوري السلمي، أحد الأئمة، حدث عن الإمام أحمد وغيره، وصحب الجنيد والخيري.

حدث عنه خلق منهم: سبطه أبو عبد الرحمن السلمي، والحاكم، والقشيري، ومات سنة ست وستين وثلاثمائة عن ثلاث وتسعين سنة.

(٣) سورة البقرة. الآية ١٨٣.

(٤) سورة المجادلة. الآية ٢١.

(٥) هريرة تصغير هرة، قيل: كناه بها المصطفى لأنه رآه وفي كفه هرة، وقيل: المكني له غيره. قال ابن عبد البر: لم يختلف في اسم - في الجاهلية والإسلام - مثل ما اختلف في اسمه...، وصحح النووي أنه: عبد الرحمن بن صخر الدوسي.

أسلم عام خيبر، وشهد بعضها مع المصطفى، ثم لزمه حتى كان أحفظ أصحابه، وأكثر المكثرين. ذكر بقي بن مخلد: أنه روى عنه ﷺ خمسة آلاف حديث وثلاثمئة وأربعة وسبعين حديثاً، وتوفي بالمدينة سنة تسع وخمسين.

النبوة قال: (وآدم بين الروح والجسد) رواه الترمذي (١) وقال: حديث حسن (٢).

وروينا في جزء من أمالي أبي سهل القطان عن سهل بن صالح الهمداني، قال: سألت أبا جعفر، محمد بن علي (٣)، كيف صار محمد ﷺ يتقدم الأنبياء وهو آخر من بعث؟ قال: إن الله تعالى لما أخذ من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم: ألسن بربكم؟ كان محمد ﷺ أول من قال بلى، ولذلك صار يتقدم الأنبياء، وهو آخر من بعث.

[الوصف بالنبوة قبل الوجود].

فإن قلت: إن النبوة وصف لا بد أن يكون الموصوف به موجوداً، وإنما يكون بعد بلوغ أربعين سنة أيضاً، / فكيف يوصف به قبل وجوده ١/٦ وإرساله؟

(١) أبو عيسى، محمد بن عيسى، أحد أوعية العلم، والحفاظ الكبار، كان يضرب به المثل في الحفظ، أخذ عن البخاري، وشاركه في شيوخه، بل قال ابن عساكر: كتب عنه البخاري، وحسبه بذلك فخراً. مات سنة تسع وثمانين ومائتين.

(٢) في المناقب برقم ٣٦٨٨ وقال: حديث حسن صحيح غريب من حديث أبي هريرة لانعرفه إلا من هذا الوجه.

(٣) أبو جعفر، محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الملقب بالباقر، قال النووي: لأنه بقر العلم، أي: شقه، فعرف أصله وخفيه، ولد سنة ست وخمسين، وروى عنه خلق، كالزهري، وعمرو بن دينار، وكان سيد بني هاشم في زمانه، علماً وفضلاً وسؤدداً ونبلاً، قال ابن سعد: ثقة كثير الحديث، مات سنة ثمان عشرة ومائة.

أجاب العلامة الغزالي^(١) في كتاب «النفخ والتسوية» عن هذا، وعن قوله: (كنت^(٢) أول الأنبياء خلقاً وآخرهم بعثاً)^(٣): «بأن المراد بـ«الخلق» هنا: التقدير دون الإيجاد، فإنه قبل أن ولدته أمه لم يكن موجوداً مخلوقاً، ولكن الغايات والكمالات سابقة في التقدير لاحقة في الوجود».

«قال: وهو معنى قولهم: «أول الفكرة آخر العمل، وآخر العمل أول الفكرة» وبيانه: أن المهندس المقدر للدار، أول ما يمثل في نفسه صورة الدار، فتحصل في تقديره دار كاملة، وآخر ما يوجد من أعماله هي الدار الكاملة، فالدار الكاملة هي أول الأشياء في حقه تقديراً، وآخرها وجوداً، لأن ما قبلها من ضرب اللبنة وبناء الحيطان، وتركيب الجذوع، وسيلة إلى غاية وكمال وهي الدار، فالغاية هي الدار ولأجلها تقوم الآلات والأعمال».

«ثم قال: وأما قوله عليه السلام: (كنت نبياً) فإشارة إلى ما ذكرناه، وأنه كان نبياً في التقدير قبل تمام خلقة آدم عليه السلام، لأنه لم ينشأ خلقاً

(١) أبو حامد، حجة الإسلام، محمد بن محمد الغزالي - بشد الزاي على المشهور، كما قال ابن الأثير -، كان والده يغزل الصوف ويبيعه بـدكان بطوس - كما في طبقات السبكي -، ذكر له الأسنوي في «المهمات» ترجمة حسنة.

وله كتب نافعة مفيدة، خصوصاً الإحياء، فلا يستغني عنه طالب الآخرة، مات سنة خمس وخمسمائة.

(٢) كذا في ش، وفي النسخ: أنا.

(٣) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة برقم (٦٦١): ضعيف [المحقق].

آدم إلا لِيُنْتزَعَ من ذريته محمد ﷺ ويستصفى^(١) تدريجاً إلى أن يبلغ كمال الصفا».

«قال: ولا تفهم هذه الحقيقة إلا بأن يعلم أن للدار وجودين: وجوداً في ذهن المهندس ودماغه، و[الوجود الثاني]^(٢) أنه ينظر إلى صورة الدار خارج الذهن في الأعيان، والوجود الذهني سبب الوجود الخارج للعين^(٣)، فهو سابق لا محالة. وكذلك فاعلم أن الله تعالى يقدر ثم يوجد على وفق التقدير ثانياً» انتهى.

وهو متعقب بقول الشيخ تقي الدين السبكي^(٤): «إنه قد جاء أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، فقد تكون الإشارة بقوله: (كنت نبياً) إلى روحه الشريفة، أو إلى حقيقة من الحقائق، والحقائق تقصر عقولنا عن معرفتها، وإنما يعلمها خالقها ومن أمده الله بنور إلهي، ثم إن تلك الحقائق يؤتي الله كل حقيقة منها ما يشاء في الوقت الذي يشاء، فحقيقة النبي ﷺ قد تكون من حين خلق آدم آتاها الله ذلك الوصف، بأن يكون خَلَقها متهيئة لذلك، وأفاضه عليها من ذلك الوقت، فصار نبياً، وكتب اسمه على العرش^(٥)، وأخبر عنه بالرسالة ليعلم ملائكته وغيرهم كرامته عنده».

(١) في ط: ويتصفى. (٢) في (أ) و(ش).

(٣) في (ط، د) الخارجي العيني.

(٤) الإمام العلامة أبو الحسن علي بن عبد الكافي الملقب تقي الدين السبكي، الفقيه الحافظ، المفسر الأصولي، المتكلم النحوي، شيخ الإسلام، بقية المجتهدين، ولد بسبك من أعمال المنوفية سنة ثلاث وثمانين وستمائة، وبرع في العلوم، وانتهت إليه الرياسة بمصر، وصنف تصانيف عديدة، وتوفي سنة ست وخمسين وسبعمائة.

(٥) انظر التعليق (٢) ص ٨٢ من هذا الجزء.

«فحقيقته موجودة من ذلك الوقت وإن تأخر جسده الشريف المتصف بها، واتصاف حقيقته بالأوصاف الشريفة المفاضة عليه من الحضرة الإلهية [حاصل من ذلك الوقت]»^(١)، وإنما يتأخر البعث والتبليغ، وكل ما له من جهة الله ومن جهة تأهل ذاته الشريفة وحقيقته معجل لا تأخر فيه. وكذلك استنباؤه وإيتاؤه الكتاب والحكم والنبوة، وإنما المتأخر تكونه وتنقله إلى أن ظهر صلى الله عليه وسلم.»

«وقد علم من هذا: أن من فسره بعلم الله بأنه سيصير نبياً لم يصل إلى هذا المعنى، لأن علم الله تعالى محيط بجميع الأشياء. ووصف النبي ﷺ بالنبوة في ذلك الوقت ينبغي أن يفهم منه أنه أمر ثابت له في ذلك الوقت. ولو كان المراد بذلك مجرد العلم بما سيصير في المستقبل لم يكن له خصوصية بأنه نبي وآدم بين الروح والجسد، لأن جميع الأنبياء يعلم الله تعالى نبوتهم في ذلك الوقت وقبله، فلا بد من خصوصية للنبي ﷺ لأجلها أخبر بهذا الخبر إعلاماً لأمته ليعرفوا قدره عند الله تعالى»^(٢).

وعن الشعبي^(٣): قال رجل يارسول الله، متى استنبئت؟ قال:

(١) هذه الجملة وردت في تصحيح علي هامش الأصل حيث قال: «قوله (واتصاف) مبتدأ وخبره سقط من قلم المصنف سهواً وتقديره: حاصل من ذلك الوقت» اهـ. وقال الزرقاني: إن هذه الجملة سقطت من المصنف سهواً، وهي ثابتة في كلام السبكي [م].

(٢) انتهى كلام السبكي، بتقديم وتأخير حسبما ذكره في رسالة لطيفة سماها «التعظيم والمنة في لتؤمنن به ولتنصرنه».

(٣) عامر بن شراحيل الكوفي، أبو عمرو، التابعي الوسط، ولد لست مضمين من خلافة عمر، على المشهور، وروى عن علي والسبطين، وسعد وسعيد، وابني عباس وعمر وغيرهم، وقال: أدركت خمسمائة صحابي، وما كتبت سوداء في بيضاء قط، ولا حدثني أحد بحديث إلا حفظته. مرَّ به ابن =

وآدم بين الروح والجسد/، حين أخذ مني الميثاق. رواه ابن سعد^(١)، من ٦/ب
رواية جابر الجعفي^(٢)، فيما ذكره ابن رجب.

فهذا^(٣) يدل على أنه من حين صور آدم طيناً استخرج منه محمد ﷺ
ونبيء وأخذ منه الميثاق، ثم أعيد إلى ظهر آدم حتى يخرج وقت خروجه
الذي قدر الله خروجه فيه فهو أولهم خلقاً.

لا يقال: يلزم خلق آدم قبله، لأن آدم كان حينئذ مواتاً لاروح
فيه^(٤)، ومحمد ﷺ كان حياً حين استخرج ونبيء وأخذ منه
الميثاق^(٥)، فهو أول النبيين خلقاً وآخهم. -أ^(٦)

فإن قلت إن استخراج ذرية آدم منه كان بعد نفخ الروح فيه، كما
دل عليه أكثر الأحاديث، والذي تقرر هنا: أنه استخرج ونبيء قبل نفخ
الروح في آدم عليه السلام.

= عمر، وهو يحدث بالمغازي، فقال: شهدتُ القومَ، فلهو أحفظ وأعلم بها
مني. قال مكحول: ما رأيت أفقه منه، مات بالكوفة سنة ثلاث ومائة.

(١) أبو عبدالله، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي - مولاهم - البصري، كاتب
الواقدي، روى عنه كثيراً، وكتب الفقه والحديث والغريب والعربية،
وصنف: الطبقات الكبير والصغير والتاريخ، قال أبو حاتم وغيره: صدوق.
مات سنة ثلاثين ومائتين، عن اثنتين وستين سنة.

(٢) جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي، أبو عبدالله، الكوفي، ضعيف، شيعي،
تركه الحفاظ. ووثقه شعبة فشذ. قال أبو داود: ليس له في كتابي حديث،
سوى السهو، مات سنة ثمان وعشرين ومائة.

(٣) أي مرسل الشيعي، على ضعفه.

(٤) في (ط) و(ش): له. (٥) في (ط، د، ش): ميثاقه.

(٦) هذا كلام لا دليل عليه، ونقاش لا طائل وراءه [المحقق].

أجاب بعضهم: بأنه ﷺ خص باستخراجه من ظهر آدم قبل نفع الروح. فإن محمداً ﷺ هو المقصود من خلق النوع الإنساني^(١)، وهو عينه وخلاصته وواسطة عقده. والأحاديث السابقة صريحة في ذلك، والله أعلم.

[أخذ العهد على الأنبياء]

وروي عن علي بن أبي طالب^(٢) رضي الله عنه أنه قال: لم يبعث الله تعالى نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ﷺ لئن بعث، وهو حي، ليؤمنن به ولينصرنه، ويأخذ العهد بذلك على قومه.

وهو مروى عن ابن عباس أيضاً^(٣). ذكرهما العماد بن كثير^(٤) في تفسيره^(٥).

وقيل^(٦): إن الله تعالى لما خلق نور نبينا محمد ﷺ أمره أن ينظر إلى

(١) هذا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [المحقق].

(٢) أمير المؤمنين، زوج البتول الزهراء، تربية من خص بالنظر ليلة الإسراء، القائل في حقه: «من كنت مولاه فعلي مولاه» رواه الترمذي والنسائي وغيرهما بأسانيد صحيحة، وعند مسلم وأحمد: «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق». مناقبه شهيرة كثيرة جداً.

(٣) فهو موقوف عليهما لفظاً، مرفوع حكماً، ورواه ابن عساكر والبغوي بنحوه.

(٤) العماد الحافظ ذو الفضائل، إسماعيل بن عمر بن كثير القيسي، المفتي المحدث البارع المتقن، كثير الاستحضر، سارت تصانيفه في البلاد في حياته، مات سنة أربع وسبعين وسبعمائة، عن أربع وسبعين سنة، وتفسيره لم يؤلف على نمطه مثله.

(٥) في تفسير الآية ٨١ من سورة آل عمران [م].

(٦) هذا القول باطل إذ لا دليل عليه [المحقق].

أنوار الأنبياء عليهم السلام، فغشيهم من نوره ما أنطقهم الله به فقالوا: ياربنا، من غشنا نوره؟ فقال الله تعالى: هذا نور محمد بن عبد الله، إن أمتهم به جعلتكم أنبياء، قالوا: آمنا به وبنوته فقال الله تعالى: أشهد عليكم؟ قالوا: نعم. فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^(١).

قال الشيخ تقي الدين السبكي: «في هذه الآية الشريفة من التنويه بالنبي ﷺ وتعظيم قدره العليّ مالا يخفى، وفيه مع ذلك: أنه على تقدير مجيئه في زمانهم يكون مرسلًا إليهم، فتكون رسالته وبنوته عامة لجميع الخلق، من زمن آدم إلى يوم القيامة، وتكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمته، ويكون قوله: (وبعثت إلى الناس كافة)^(٢) لا يختص به الناس من زمانه إلى يوم القيامة، بل يتناول من قبلهم أيضاً. ويتبين بذلك معنى قوله ﷺ: (كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد)».

«ثم قال: فإذا عرف هذا فالنبي ﷺ نبي الأنبياء، ولهذا ظهر في الآخرة جميع الأنبياء تحت لوائه، وفي الدنيا كذلك ليلة الإسراء صلى بهم. ولو اتفق مجيئه في زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم وجب عليهم وعلى أممهم الإيمان به ونصرته. وبذلك أخذ الله الميثاق عليهم». انتهى^(٣) وسيأتي إن شاء الله تعالى مزيد لذلك في المقصد السادس.

(١) سورة آل عمران. الآية ٨١.

(٢) من حديث رواه الشيخان وغيرهما، وليس دليلاً على ما ذهب إليه السبكي.

(٣) من رسالته «التعظيم والمنة في لتؤمنن به ولتنصرنه».

[طينته ﷺ]

وذكر العارف الرباني عبدالله بن أبي جمرة^(١) في كتابه «بهجة النفوس»^(٢)، ومن قبله ابن سبع في «شفاء الصدور»^(٣) عن كعب الأحبار^(٤)، قال: لما أراد الله تعالى أن يخلق محمداً، أمر جبريل أن يأتيه بالطينة التي هي قلب الأرض وبهاؤها ونورها، قال: فهبط جبريل في ملائكة الفردوس وملائكة الرقيع (٥) الأعلى، فقبض قبضة /رسول الله ﷺ من موضع قبره الشريف، وهي بيضاء منيرة، فعجنت بماء التسنيم في معين أنهار الجنة، حتى صارت كالدرة البيضاء، لها شعاع عظيم، ثم طافت بها الملائكة حول العرش والكرسي، وفي السماوات والأرض والجبال والبحار، فعرفت الملائكة وجميع الخلق سيدنا محمداً وفضله قبل أن تعرف آدم عليهما السلام^(٦).

(١) عبدالله بن أبي جمرة، المقرئ المالكي، العالم البارع الناسك، قال ابن كثير: كان قوالاً بالحق أماراً بالمعروف، مات بمصر سنة خمس وتسعين وستائة.

(٢) كتاب «بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها» وهو اسم شرحه على ما انتخبه من البخاري.

(٣) ورواه أبو سعد في «شرف المصطفى» وابن الجوزي في «الوفاء».

(٤) كعب بن ماتع، أبو اسحاق الحميري، التابعي المخضرم، أدرك المصطفى وما رآه، المتفق على علمه وتوثيقه، سمع عمر وجماعة، وعنه: العبادة الأربعة، وأبو هريرة وأنس ومعاوية. وهذا من رواية الأكاير عن الأصاغر، وكان يهودياً يسكن اليمن، وأسلم زمن الصديق، وقيل: عمر، وسكن الشام، وتوفي سنة اثنين وثلاثين في خلافة عثمان وقد جاوز المائة، روى له الستة إلا البخاري، فإنما له فيه حكاية لمعاوية عنه.

(٥) بالراء والقاف، السهاء السابعة.

(٦) ضعيف جداً.

وقيل: لما خاطب الله تعالى السماء والأرض بقوله: ﴿ائتيا طوعاً أو كرهاً فإنا أتينا طائعين﴾^(١). أجاب موضع الكعبة الشريفة، ومن السماء ما يحاذيها. وقد قال ابن عباس: أصل طينة رسول الله ﷺ من سرة الأرض بمكة. فقال بعض العلماء^(٢): هذا يشعر بأن ما أجاب من الأرض إلا درة المصطفى محمد ﷺ، ومن موضع الكعبة دحيت الأرض فصار رسول الله ﷺ هو الأصل في التكوين، والكائنات تبع له. وقيل: لذلك سمي أمياً لأن مكة أم القرى، ودرته أم الخليفة. فإن قلت: تربة الشخص مدفنه، فكان مقتضى هذا أن يكون مدفنه عليه الصلاة والسلام بمكة، حيث كانت تربته منها.

فقد أجاب عنه صاحب عوارف المعارف^(٣) - أفاض الله علينا من عوارفه، وتعطف علينا بعواطفه - بأنه قيل: إن الماء لما تموج رمى الزبد إلى النواحي، فوقعت جوهرة النبي ﷺ إلى ما يحاذي تربته بالمدينة، فكان ﷺ مكياً مدنياً، حينه إلى مكة وتربته بالمدينة انتهى^(٤).

وفي «المولد الشريف»^(٥) لابن طغربك^(٦): ويروى أنه لما خلق الله تعالى آدم، ألهمه أن قال: يا رب، لم كنتني أبا محمد، قال الله

(١) سورة فصلت: الآية ١١.

(٢) هو السهروردي، وكلامه هذا باطل معارض للآية الكريمة قبله [المحقق].

(٣) هو العلامة عمر شهاب الدين بن محمد بن عمر السهروردي، نسبة إلى سهرورد، بلد عند زنجان - كما في التبصير وغيره -، الفقيه الشافعي، الزاهد الإمام الورع سمع الحديث من جماعة، وقرأ الفقه والخلاف، ثم انقطع ولازم الخلوة والصوم والذكر، ثم تكلم على الناس عند علو سنه، ثم كف وأقعد، ومع ذلك ما أدخل بذكر ولا حضور جمع، ولد سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وتوفي ببغداد سنة اثنتين وثلاثين وستمائة.

(٤) هذا الكلام قائم على الخيال ولا صلة له بالواقع. [المحقق].

(٥) المسمى «الدر النظيم في مولد النبي الكريم».

(٦) ابن طغربك لقب للإمام العلامة المحدث سيف الدين أبي جعفر، عمر بن =

تعالى: يا آدم ارفع رأسك، فرفع رأسه فرأى نور محمد ﷺ في سرادق العرش، فقال: يا رب، ما هذا النور؟ قال: هذا نور نبي من ذريتك اسمه في السماء أحمد، وفي الأرض محمد، لولاه ما خلقتك ولا خلقت السماء ولا أرضاً.

ويشهد لهذا، ما رواه الحاكم في صحيحه^(١) أن آدم عليه السلام رأى اسم محمد ﷺ مكتوباً على العرش، وأن الله تعالى قال لأدم لولا محمد ما خلقتك.

ولله در القائل^(٢):

وكان لدى الفردوس في زمن الرضى^(٣) وأثواب شمل الأنس محكمة السدى
يشاهد في عدن ضياء مشعشعا يزيد على الأنوار في الضوء والهدى
فقال إلهي ما الضياء الذي أرى جنود السما تعشو إليه ترردا
فقال نبي خير من وطىء الثرى وأفضل من في الخير راح أو اغتدى
تخيرته من قبل خلقك سيدا وألبسته قبل النبيين سؤدا

فإن قلت: إن مذهب الأشاعرة^(٤): أن أفعال الله تعالى ليست معللة بالأغراض، فكيف تكون خلقة محمد علة في خلق آدم صلى الله عليها وسلم؟

= أيوب بن عمر الحميري التركماني، الدمشقي الحنفي. لم أر له في ابن خلكان ترجمة، وإنما فيه ترجمة آخر من الأمراء.

(١) رواه عن عمر، رفعه.

(٢) هو: صالح بن حسين الشاعر، والقصيدة ذكرها بتمامها صاحب «مصباح الظلام» وغيره.

(٣) في (ط، د. ش): الصبا.

(٤) يعني أهل السنة القائلين بما عليه إمامهم أبو الحسن الأشعري.

أجيب: بأن الظاهر من الأدلة تعليل بعض الأفعال بالحكم والمصالح التي هي غايات ومنافع لأفعاله تعالى، لا بواعث على إقدامه، ولا علل مقتضية لفاعليته، لأن ذلك محال في حقه تعالى، لما فيه من استكمالها بغيره. والنصوص شاهدة بذلك، كقوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾^(١) أي: قرنت الخلق بالعبادة، أي: خلقتهم وفرضت عليهم العبادة، فالتعليل لفظي لاحققي، لأن الله تعالى مستغن عن المنافع، فلا يكون فعله لمنفعة راجعة إليه ولا إلى غيره، لأن /الله قادر على إيصال المنفعة إلى الغير من غير واسطة ٧/ب العمل.

[أول المخلوقات]

وروى عبد الرزاق^(٢) بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري^(٣) قال: قلت يارسول الله، بأبي أنت وأمي، أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء. قال: يا جابر، إن الله تعالى قد^(٤) خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره^(٥)، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث

(١) سورة الذاريات. الآية ٥٦.

(٢) عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري، مولاهم، الحافظ أبو بكر الصنعاني، أحد الأعلام، روى عن معمر وابن جريج ومالك والسفيانين والأوزاعي وخلق. وعنه: أحمد وإسحاق وغيرهما. مات سنة إحدى عشرة ومائتين ببغداد عن خمس وثمانين سنة.

(٣) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري الخزرجي السلمى، الصحابي ابن الصحابي، غزا تسع عشرة غزوة، ومات بالمدينة بعد السبعين، وهو ابن إحدى وتسعين سنة.

(٤) [قد] في أ، ش.

(٥) قوله: «من نوره» الإضافة إضافة تشرية، وإشعار بأنه خلق عجيب، وأن =

شاء الله تعالى، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم، ولا جنة ولا نار، ولا ملك ولا سماء، ولا أرض ولا شمس ولا قمر، ولا جني ولا انسي^(١)، فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق قسم ذلك النور أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول القلم، ومن الثاني اللوح، ومن الثالث العرش. ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول حملة العرش، ومن الثاني الكرسي، ومن الثالث باقي الملائكة، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول السماوات، ومن الثاني الأرضين، ومن الثالث الجنة والنار، ثم قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني نور قلوبهم - وهي المعرفة بالله - ومن الثالث نور أنسهم، وهو التوحيد، لا إله إلا الله محمد رسول الله.. الحديث^(٢).

وقد اختلف: هل القلم أول المخلوقات بعد النور المحمدي؟
فقال الحافظ أبو يعلى الهمداني^(٣): الأصح أن العرش قبل

= له شأنًا، على حد قوله تعالى: ﴿ونفخ فيه من روحه﴾ وهي بيانية.

(١) في ط: ولا جن ولا إنس.

(٢) قال الشيخ عبد العزيز الخالدي في تعليقه على هذا الحديث في طبعته لشرح الزرقاني: حديث جابر هذا المنسوب إلى عبد الرزاق خطأ، فهو غير موجود في مصنفه ولا جامعه، ولا تفسيره، وقد حكم الشيخ عبد الله بن الصديق في رسالة «مرشد الحائر لبيان وضع حديث جابر» على هذا الحديث بالوضع. [المحقق].

(٣) العلامة أبو يعلى الهمداني شيخ الإسلام، الحسن بن أحمد، المتقن المتفنن في عدة علوم، البارع على حفاظ عصره، الذي لا يغشى السلاطين، ولا يقبل منهم شيئاً ولا مدرسة ولا رباطاً، ولا تأخذه في الله لومة لائم، توفي سنة تسع وستين وخمسمائة.

القلم، لما ثبت في الصحيح^(١) عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (قدر^(٢) الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء)^(٣)، فهذا صريح أن التقدير وقع بعد خلق العرش. والتقدير^(٤) وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة بن الصامت^(٥)، مرفوعاً: (أول ما خلق الله القلم قال له اكتب، قال: رب، وما أكتب، قال: اكتب مقادير كل شيء) رواه أحمد، والترمذي وصححه^(٦).

وروي أيضاً من حديث أبي رزين العقيلي^(٧) مرفوعاً: (إن الماء خلق قبل العرش)^(٨).

(١) صحيح مسلم، وهو عنده بلفظ «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. قال: وعرشه على الماء» رقم الحديث ٢٦٥٣ [م].

(٢) في ش: إن الله قدر.

(٣) تبين من التعليق السابق أن هذا ليس لفظ الصحيح، وإنما ورد بلفظ قريب منه عند أحمد، هو: «قدر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة». المسند ١٦٩/٢. [م]

(٤) لفظ (التقدير) ليس في ط .

(٥) عبادة بن الصامت الأنصاري الخزرجي، أبو الوليد، المدني النقيب، البصري وجهه عمر إلى الشام قاضياً ومعلماً، فأقام بحمص ثم انتقل إلى فلسطين، وبها مات - وقيل بالرملة - سنة أربع وثلاثين. ودفن ببيت المقدس، وقبره به معروف.

(٦) هو في المسند بلفظ قريب ٣١٧/٥ وعند الترمذي برقم ٢٢٤٤ ورقم ٣٣٧٥ وهو كذلك عند داود برقم ٤٧٠٠ .

(٧) لقيط بن عامر العقيلي، صحابي مشهور، غير لقيط بن صبرة - عند الأكثر - كما في التقريب.

(٨) في المسند (.. ثم خلق عرشه على الماء) ١١/٤ و ١٢ وعند الترمذي برقم ٥١٠٩ في تفسير سورة هود. [م]

وروى السدي^(١) بأسانيد متعددة: أن الله تعالى لم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء. فيجمع بينه وبين ما قبله، بأن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا النور النبوي المحمدي والماء والعرش، انتهى. وقيل: الأولية في كل بالإضافة إلى جنسه، أي أول ما خلق الله من الأنوار نوري، وكذا في باقيها.

وفي أحكام ابن القطان^(٢)، مما ذكره ابن مرزوق^(٣)، عن علي ابن الحسين^(٤) عن أبيه^(٥) عن جده أن النبي ﷺ قال: كنت نوراً بين

(١) اسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، المفسر المشهور، عن أنس وابن عباس، وعنه: شعبة والثوري وزائدة. ضعفه ابن معين، ووثقه أحمد، واحتج به مسلم. وفي التقريب: أنه صدوق، يهيم ويتشيع، مات سنة سبع وعشرين ومئة، روى له الجماعة إلا البخاري.

(٢) ابن القطان الحافظ الناقد، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك كان من أبصر الناس بصناعة الحديث، وأحفظهم لأسماء رجاله وأشدهم عناية في الرواية، معروفاً بالحفظ والانتقان، صنف: الوهم والإيهام على الأحكام الكبرى لعبد الحق ومات سنة ثمان عشرة وستمئة.

(٣) العلامة محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق التلمساني، عرف بالخطيب، ولد عام عشرة وسبعمئة، ومهر وبرع، وشرح العمدة، والشفاء، والبردة، والأحكام الصغرى لعبد الحق، ومختصر ابن الحاجب الفرعي، ومات سنة إحدى وثمانين وسبعمئة بمصر.

(٤) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الملقب «زين العابدين» التابعي الوسط، قال الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل منه ولا أفقه. وقال ابن المسيب: ما رأيت أروع منه، وقال ابن سعد: كان ثقة مأموناً كثير الحديث، عالماً عابداً، ولم يكن في أهل البيت مثله، وكان إذا توضأ يصفر لونه، فإذا قام يصلي أرعد من الخوف، فقيل له في ذلك، فقال: أندرون بين يدي من أقوم؟ ولن أناجي؟. ولد سنة ثلاث وثلاثين وتوفي أول سنة أربع وتسعين. ودفن بالبقيع.

(٥) الحسين بن علي السبط، أشبه الناس بجده - كما قال أنس عند البخاري - =

يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام.

وفي الخبر: لما خلق الله آدم جعل ذلك النور في ظهره فكان يلمع في جبينه، فيغلب على سائر نوره، ثم رفعه الله على سرير مملكته وحمله على أكتاف ملائكته وأمرهم فطافوا به في السماوات ليرى عجائب ملكوته.

[خلق آدم والسجود له]

قال جعفر بن محمد: مكثت الروح في رأس آدم مئة عام، وفي صدره مئة عام وفي ساقيه وقدميه مئة عام^(١)، ثم علمه الله تعالى أسماء جميع المخلوقات، ثم أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس، فطرده الله تعالى وخزاه.

وكان السجود لآدم سجد تعظيم وتحية، لاسجود عبادة، كسجود أخوة يوسف له، فالسجود له في الحقيقة / هو الله تعالى، ١/٨ وآدم كالقبلة.

وروي عن جعفر الصادق^(٢) أنه قال: كان أول من سجد لآدم

= المقتول ظلماً، يوم عاشوراء سنة إحدى وستين بكربلاء، ودفن جسده حيث قتل، وأما الرأس فقد حمل إلى المدينة ودفن بها، على ما ذكره الزبير بن بكار. قال ابن دحية: لم يصح سواه. وأما الزعم بأنه في المشهد الحسيني بالقاهرة فقد نفاه ابن تيمية وقال: اتفق العلماء كلهم على أن المشهد الذي بقاهرة مصر، المسمى: مشهد الحسين، باطل، وإنما حدث بمصر في دولة بني عبيد القداح ملوك مصر في أثناء المائة الخامسة.

(١) هذا القول يحتاج إلى دليل. [المحقق].

(٢) جعفر بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم، لقب بالصادق لصدقه في مقاله، كان من سادات أهل البيت، ولد سنة ثمانين وتوفي سنة ثمان وأربعين ومائة.

جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم عزرائيل^(١) ثم الملائكة المقربون.

وعن أبي الحسن النقاش: أول من سجد إسرافيل^(٢)، قال: ولذا جوزي بتولية اللوح المحفوظ.

وعن ابن عباس: كان السجود يوم الجمعة من وقت الزوال إلى العصر.

[خلق حواء]

ثم خلق الله تعالى له حواء زوجته من ضلع من أضلاعه اليسرى، وهو نائم، وسميت حواء لأنها خلقت من حي، فلما استيقظ ورآها سكن إليها^(٣)، ومدَّ يده إليها، فقالت الملائكة: مه يا آدم، قال: ولم وقد خلقها الله لي؟ فقالوا: حتى تؤدي مهرها، قال: وما مهرها؟ قالوا: تصلي على محمد ﷺ ثلاث مرات.

وذكر ابن الجوزي^(٤) في كتابه «سلوة الأحران»: أنه لما رام القرب منها طلبت منه المهر، فقال: يارب، وماذا أعطيها، فقال: يا آدم صل على حبيبي محمد بن عبدالله عشرين مرة، ففعل.

(١) هذا الاسم لم يثبت به نص صحيح، بل يقال: ملك الموت. [المحقق].

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن ضمرة، والسلفي عن عمر بن عبد العزيز.

(٣) في ط: لها.

(٤) العلامة أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، الحافظ البغدادي، الحنبلي، الواعظ، صاحب التصانيف السائدة في الفنون، قال في تاريخ الحفاظ: ما علمت أحداً صنّف ما صنّف، وحصل له من الحظوة في الوعظ ما لم يحصل لأحد قط، وحضره ملوك ووزراء وخلفاء، وقال على المنبر: كتبت بأصبعي ألف مجلد.. مات سنة سبع وتسعين وخمسةائة.

[الأكل من الشجرة]

ثم إن الله تعالى أباح لهما نعيم الجنة، ونهاهما عن شجرة الخنطة، وقيل: شجرة العنب، وقيل: شجرة التين، فحسدهما إبليس، فهو أول من حسد وتكبر، فأتى إلى باب الجنة فاحتال حتى دخل الجنة، وأتى إلى آدم وحواء، فوقف وناح نياحة أحزنتهما، فهو أول من ناح، فقالا: ما يبكيك؟ قال: عليكما، تموتان وتفقدان النعيم، ألا أدلكما على شجرة الخلد، فكلتا منها، وحلف لهما أنه ناصح، فهو أول من حلف كاذباً، وأول من غش.

فأكلت حواء منها، ثم زينت لآدم حتى أكل، وظنا أن أحداً لا يتجاسر أن يحلف بالله كاذباً، فقال الله تعالى: يا آدم، ألم يكن فيما أبحتك من الجنة مندوحة^(١) عن الشجرة؟! قال: بلى يارب وعزتك، ولكن ظننت أن أحداً لا يحلف بك كاذباً، قال الله: وعزتي وجلالي، لأهبطنك إلى الأرض، لاتنال العيش إلا كذا، فأهبط من الجنة.

وعن ابن عباس: قال الله تعالى: يا آدم، ما حملك على ما صنعت؟ قال: زينته لي حواء، قال: فإني أعقبها^(٢) أن لاتحمل إلا كرها، ولا تضع إلا كرها، ولأدمنها في الشهر مرتين.

وقال وهب بن منبه^(٣): لما أهبط آدم إلى الأرض مكث يبكي ثلاثمائة سنة لا يرقأ له دمع.

وقال المسعودي^(٤): لو أن دموع أهل الأرض جمعت لكانت دموع

(١) مندوحة: سعة وفسحة.

(٢) أعقبها - بضم الهمزة وسكون العين وكسر القاف - أجازها.

(٣) الحافظ وهب بن منبه بن كامل، أبو عبدالله الصنعاني، العلامة الإخباري الصدوق، ذو التصانيف، روى عن ابن عباس وابن عمر، وعنه: آله، وسماك بن الفضل. مات سنة أربع عشرة ومائة.

(٤) عبد الرحمن بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الكوفي، الحافظ، قال ابن نمير: =

آدم أكثر حين أخرجه الله من الجنة .

وقال مجاهد^(١) : بكى آدم مائة عام لا يرفع رأسه إلى السماء، وأنبت الله من دموعه العود الرطب والزنجبيل والصندل وأنواع الطيب، وبكت حواء حتى أنبت الله من دموعها القرنفل والأفاوى^(٢) .

[موعظة]

يا بني آدم، انظروا كيف بكى أبوكم على فعلة واحدة ثلاثمائة سنة، فكيف بكم يا أرباب^(٣) الكبائر العظيمة؟ فاعتبروا يا أولي الأبصار، كان كلما رأى الملائكة تصعد وتهبط ازداد شوقاً إلى الأوطان، وتذكر العهد والجيران، يا أصحاب الذنوب احذروا زلة يقول فيها الحبيب: هذا فراق بيني وبينك، فياذا العقل السليم، انظر كيف جلس أبوك آدم على سرير المملكة، فمد يده إلى لقمة نهي عنها فأخرج من الجنة، فاحذروا يابنيه عواقب المعاصي فإنها من نزلت به نزلت به^(٤) وحطته عن مرتبته .

[خطيئة آدم كبيرة أم صغيرة؟]

فإن قلت: هذه الفعلة التي أهبط بها آدم من الجنة، إن كانت كبيرة

= ثقة اختلط آخرأ، وقال ابن مسعر: ما أعلم أحداً أعلم بعلم ابن مسعود منه، مات سنة ستين أو خمس وستين ومائة .

(١) مجاهد بن جبير المخزومي، مولاهم، المكي، الثقة الحافظ، الإمام في التفسير وفي العلم، أحد الأعلام المجمع على إمامته - وذكر ابن حبان له في الضعفاء، مردود - مات بمكة، وهو ساجد، سنة ثلاث ومائة، خرج له في الستة .

(٢) أي الطيب .

(٣) في ش: يا أصحاب .

(٤) أي: خفضته .

فالكبيرة لا تجوز على الأنبياء، وإن كانت صغيرة فلم جرى عليه ما جرى بسببها، من نزع اللباس والإخراج من الجنة / وغير ذلك؟
ب/٨

أجاب الزمخشري^(١): بأنها ما كانت إلا صغيرة، مغمورة بأعمال قلبه من الإخلاص والأفكار^(٢) الصالحة التي هي أجل الطاعات، وأعظم الأعمال، وإنما جرى عليه ما جرى تعظيماً للخطيئة، وتفظيماً لشأنها وتهويلاً، ليكون ذلك لطفاً له ولذريته في اجتناب الخطايا، وافتقار المآثم.

[من حكمة نزول آدم]

يا هذا، انظر كم الله من لطف وحكمة في إهباط آدم من الجنة إلى الأرض، لولا نزوله لما ظهر جهاد المجاهدين، واجتهاد العابدين المجتهدين^(٣)، ولا صعدت زفرات أنفاس التائبين، ولا نزلت قطرات دموع المذنبين، يا آدم إن كنت أهبطت من دار القرب فإني قريب، أوجب دعوة الداع، إن كان حصل لك بالإخراج من الجنة كسر فأنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، وإن كان فاتك في السماء زجل المسبحين فقد تعوضت في الأرض أنين المذنبين، أنين المذنبين أحب إلينا من تسبيحهم، زجل المسبحين ربما يشوبه الافتخار، وأنين المذنبين يزينه الانكسار، «لولا لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم»^(٤).

(١) العلامة جار الله، أبو القاسم محمود الزمخشري، المعتزلي، قال ابن خلكان وغيره: كان يتظاهر به، وإذا استأذن على صاحب له بالدخول يقول: أبو القاسم المعتزلي بالباب، وأول ما صنف: الكشاف، توفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة.

(٢) في ش: الأذكار.

(٣) في (ش، ب) جهاد المجتهدين واجتهاد العابدين.

(٤) رواه مسلم برقم ٢٧٤٩، وفي مسند الإمام أحمد ٣٠٩/٢.

سبحان من إذا لطف بعبده في المحن قلبها منحاً، وإذا خذل عبداً لم ينفعه كثرة اجتهاده وكان عليه وبالاً، لقن الله آدم حجته، وألقى عليه ما تقبل به توبته، وطرده إبليس اللعين بعد طول خدمته، فصار عمله هباءً منثوراً، قال: اخرج منها ﴿فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾^(١)، إذا وضع عدله على عبد لم يبق له حسنة، وإذا بسط فضله على عبد لم يبق له سيئة.

انظر لما ظهرت فضائل آدم عليه الصلاة والسلام على الخلائق بالعلم، وكان العلم لا يكمل إلا بالعمل بمقتضاه، والجنة ليست دار عمل ومجاهدة، إنما هي دار نعيم ومشاهدة، قيل له: يا آدم اهبط إلى أرض الجهاد، وصابر جنود الهوى بالجد والاجتهاد، وكأنك بالعيش الماضي وقد عاد على أكمل من ذلك المعتاد.

ولما أظهر إبليس - عليه اللعنة - الحسد، سعى في الأذى، حتى كان سبباً في إخراج السيد آدم من الجنة، وما فهم الأبله أن آدم إذا خرج من الجنة كملت فضائله، ثم عاد إلى الجنة على أكمل من الحال الأول.

قالوا^(٢): وفيه إشارة، كأنه تعالى يقول: لو غفرت في الجنة لما تبين كرمي، بأن^(٣) أغفر لنفس واحدة، بل أخرجه^(٤) إلى الدنيا، وآتي بألوف من العصاة حتى أغفر له ولهم ليتبين جودي وكرمي. وأيضاً: علم الله تعالى أن في صلبه الأولاد، والجنة ليست دار توالد، وأيضاً: ليخرج من ظهره في الدنيا من لا نصيب له في الجنة.

(١) سورة الحجر. الآية ٣٤.

(٢) أي الصوفية.

(٣) في (ب، ط) بأن، والباء هنا سببية.

(٤) في ش: أوخره.

يا هذا، الجنة إن شاء الله إقطاعنا^(١). وقد وصل منشور الإقطاع مع جبريل عليه الصلاة والسلام إلى نبينا ﷺ ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾^(٢)، إنما يخرج الإقطاع عن خرج عن الطاعة، نسأل الله التوفيق.

[الجنة التي سكنها آدم]

وقد اختلف في الجنة التي سكنها آدم.

فقيل: هي جنة الخلد.

وقيل: غيرها، جعلها الله دار ابتلاء، لأن جنة الخلد إنما يدخل إليها يوم القيامة، ولأنها دار جزاء وثواب لادار تكليف وأمر ونهي، ودار سلامة لادار ابتلاء وامتحان، ودار قرار لا دار انتقال.

واحتج القائلون بأنها جنة الخلد، بأن/ الدخول العارض قد يقع ١/٩ قبل يوم القيامة، وقد دخلها نبينا عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء، وبأن ما ذكروه من أن الجنة لا يوجد فيها ما وجده آدم من الحزن والنصب وإنما هو إذا دخلها المؤمنون يوم القيامة، كما يدل عليه سياق الآيات كلها، فإن نفي ذلك مقرون بدخول المؤمنين إياها، والله أعلم^(٣)، انتهى.

[استشفاع آدم به ﷺ]

وروي أنه لما خرج آدم من الجنة رأى مكتوباً على ساق العرش وعلى

(١) أي معطاة لنا.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥.

(٣) ظاهر قول المصنف تساوي القولين، وليس كذلك. فقد قال القرطبي: هي جنة الخلد، ولا التفات إلى ما ذهب إليه المعتزلة والقدرية من أنه لم يكن فيها.. ورجح أبو القاسم الرماني في تفسيره: أنها جنة الخلد أيضاً وقال: هو قول الحسن وعمر، وواصل، وعليه أهل التفسير.

كل موضع في الجنة اسم محمد ﷺ مقروناً باسم الله تعالى، فقال يارب هذا محمد من هو؟ فقال الله: هذا ولدك الذي لولاه ما خلقتك. فقال: يارب بحرمة هذا الولد ارحم هذا الوالد، فنودي: يا آدم، لو تشفعت إلينا بمحمد في أهل السماوات والأرض لشفعناك.

وعن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لما اقترف آدم الخطيئة قال: يارب، أسألك بحق محمد لما (١) غفرت لي، فقال الله: يا آدم، وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال: لأنك يارب لما خلقتني بيدك، ونفخت في من روحك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله تعالى: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إليّ، وإذا سألتني بحقه قد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك» (٢) رواه البيهقي في دلائله (٣) من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (٤) وقال تفرد به عبد الرحمن (٥) ورواه الحاكم وصححه، وذكره الطبراني (٦) وزاد فيه: وهو آخر الأنبياء من ذريتك.

(١) «لما» بمعنى إلا الإستثنائية كقوله تعالى: ﴿لما عليها حافظ﴾ وفي نسخة: إلا ما.

(٢) قال في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط والصغير وفيه من لم أعرفهم. وفي سلسلة الأحاديث الضعيفة برقم ٢٥ موضوع. [م].

(٣) كتاب «دلائل النبوة» الذي قال فيه الحافظ الذهبي: عليك به فإنه كله هدى ونور.

(٤) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم المدني، عن أبيه وابن المنكدر، وعنه: اصبغ وقتيبة وهشام، ضعفوه، له تفسير، توفي سنة اثنتين وثمانين ومائة.

(٥) أي لم يتابعه عليه غيره، فهو غريب مع ضعف راويه.

(٦) الإمام الطبراني أبو القاسم، سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي، مسند الدنيا، الحافظ الكثير، صاحب التصانيف الكثيرة، أخذ عن أكثر من =

[حبيب الله]

وفي حديث سلمان^(١) عند ابن عساكر^(٢) قال: هبط جبريل على النبي ﷺ فقال: إن ربك يقول: إن كنت اتخذت إبراهيم خليلاً، فقد اتخذتك حبيباً، وما خلقت خلقاً أكرم علي منك، ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك ومنزلتك عندي، ولولاك ما خلقت الدنيا.

ولله در سيدي علي وفا^(٣) حيث قال في قصيدته التي أولها:

سكن الفؤاد فعش هنيئاً يا جسد هذا النعيم هو المقيم إلى الأبد
روح الوجود حياة من هو واجد لولاه ماتم الوجود لمن وجد

= ألف شيخ، كأبي زرعة الرازي وطبقته، وعنه: أبو نعيم وغيره، قال الذهبي: ثقة صدوق، واسع الحفظ، بصير بالعلل والرجال والأبواب، إليه المنتهى في الحديث وعلومه، مات بمصر سنة ستين وثلاثمائة، عن مائة سنة وعشرة أشهر.

(١) سلمان الفارسي، الذي تشناق له الجنة، شهد الخندق وما بعدها، عاش دهاً طويلاً. ويأتي تحقيق ذلك في خدمه صلى الله عليه وسلم.

(٢) الحافظ أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الدمشقي الشافعي، صاحب «تاريخ دمشق» وغيره من المصنفات. الثقة الثبت، والحجة المتقن، غزير العلم، كثير الفضل، دين خير، ولد سنة تسعين وأربعمائة، ورحل إلى بغداد وغيرها، وسمع من نحو ألف وثلاثمائة شيخ، ونيف وثمانين امرأة، وروى عنه ما لا يحصى، ثناء الناس عليه كثير، مات سنة إحدى وسبعين وخمسمائة.

(٣) في ط: علي الرفوي. وفي (ب، د): الوفوي، العارف الكبير، الشاذلي، أبو الحسن، ابن العارف الكبير، ولد بالقاهرة سنة تسع وخمسين وسبعمائة، وكان يقظاً حاد الذهن، مالكي المذهب، وله نظم كثير، مات سنة سبع وثمانمائة، كذا ترجمه الحافظ ابن حجر، وتبعه السخاوي والسيوطي.

عيسى وآدم والصدور جميعهم هم أعين هو نورها لما ورد
لو أبصر الشيطان طلعة نوره في وجه آدم كان أول من سجد
أو لورأى النمرود نور جماله عبد الجليل مع الخليل ولا عند
لكن جمال الله جل فلا يرى إلا بتخصيص من الله الصمد^(١)

(١) في البيت الثاني من هذه الأبيات - الوارد في الصفحة السابقة - معنى
خطير، تفوح منه رائحة فكرة وحدة الوجود الباطلة. لذا لا ينبغي
السكوت عليه وعدم التنبيه لما فيه، فليُنظر.
وفي البيت الأخير إشكال بشأن الاستثناء، فمن المتفق عليه أن رؤية الله
سبحانه وتعالى إنما تكون في الآخرة، لمن كتبت لهم السعادة. [المحقق].

[النسب الشريف]

[طهارة نسبه ﷺ من السفاح]

ولما خلق الله تعالى حواء لتسكن إلى آدم ويسكن إليها، فحين صار لديها^(١) فاضت بركاته عليها، فولدت له في تلك الأعوام الحسناء أربعين ولدا في عشرين بطنا، ووضعت شيئا وحده، كرامة لمن أطلع الله تعالى بالنبوة بعده.

ولما توفي آدم، كان شيث - عليه الصلاة والسلام - وصيا على ولده، ثم أوصى شيث ولده بوصية آدم: أن لا يضع هذا النور إلا في المطهرات من النساء، ولم تنزل هذه الوصية جارية، تنقل من قرن إلى قرن، إلى أن أدى الله النور إلى عبد المطلب وولده عبد الله، وطهر الله سبحانه هذا النسب الشريف من سفاح الجاهلية، كما ورد عنه ﷺ / في ٩/ب الأحاديث المرضية.

قال ابن عباس - فيما رواه البيهقي في سننه - قال رسول الله ﷺ (ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء، ما ولدني إلا نكاح الإسلام).

والسفاح - بكسر السين المهملة -: الزنا، والمراد به هاهنا: أن

(١) في (ش): وصل إليها.

المرأة تسافح رجلا مدة، ثم يتزوجها بعد ذلك.

وروى ابن سعد وابن عساكر، عن هشام^(١) بن محمد بن السائب الكلبي، عن أبيه قال: كتبت للنبي ﷺ خمسمائة أم^(٢)، فما وجدت فيهن سفاحا ولا شيئا مما كان في أمر الجاهلية.

وعن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال: (خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، لم يصبني من نكاح^(٣) أهل الجاهلية شيء) رواه الطبراني في الأوسط^(٤)، وأبو نعيم^(٥) وابن عساكر.

وروى أبو نعيم، عن ابن عباس، مرفوعا: لم يلتق أبواي قط على سفاح، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، مصفى مهذبا، لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما.

وعنه، في قوله تعالى: ﴿وتقلبك في الساجدين﴾^(٦). قال: من نبي

(١) هشام بن محمد بن السائب أبو المنذر، المتوفى سنة أربع وثمانين ومائة، كما قال المسعودي، قال الدارقطني: هشام رافضي، ليس بثقة، وذكره ابن حبان في الثقات.

(٢) قال الشامي: يريد الجدات وجدات الجدات من قبل أبيه وأمه.

(٣) في (ب، ط، د) سفاح.

(٤) معجم الطبراني الأوسط، ألفه في غرائب شيوخه، يقال ضمنه ثلاثين ألف حديث، وفي تاريخ ابن عساكر وغيره أن الطبراني كان يقول: هذا الكتاب روحي، لأنه تعب عليه.

(٥) أبو نعيم لم يذكر في (ش، د).

(٦) سورة الشعراء، الآية ٢١٩.

إلى نبي حتى أخرجتك نبيا. رواه البزار (١).

وعنه أيضا في الآية قال: ما زال النبي ﷺ يتقلب في أصلاب الأنبياء حتى ولدته أمه. رواه أبو نعيم (٢).

وعن جعفر بن محمد عن أبيه، في قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ (٣) قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية، قال: وقال النبي ﷺ: خرجت من نكاح غير سفاح (٤).

وعن أنس (٥) قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ - بفتح الفاء - وقال: أنا أنفسكم نسبا وصهرا وحسبا، ليس في آبائي من لدن آدم سفاح، كلنا نكاح. رواه ابن مردويه (٦).

وفي الدلائل لأبي نعيم، عن عائشة عنه ﷺ عن جبريل قال: قلبت مشارق الأرض ومغاربها، فلم أر رجلاً أفضل من محمد، ولم أر

(١) الحافظ العلامة الشهير، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري، صاحب المسند الكبير المعلن، مات بالرملة سنة اثنتين وتسعين ومائتين.
(٢) قال الدكتور المهراس في تحقيق خصائص السيوطي: لا تظن أن هذا الأثر صحيح عن ابن عباس، وعكرمة ضعيف الحديث فإن من آبائه من ليس بنبي بل منهم من هو مشرك. [م].

(٣) سورة التوبة الآية ١٢٨.

(٤) وهذا مرسل، لأن محمدا تابعي.

(٥) أنس بن مالك بن النضر، الأنصاري الخزرجي، الصحابي الشهير، خادم المصطفى، مات سنة اثنتين - وقيل: ثلاث - وتسعين.

(٦) الحافظ أبو بكر، أحمد بن موسى بن مردويه الأصبهاني، اللبيب العلامة، ولد سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، وصنف التاريخ والتفسير المسند والمستخرج على البخاري، وكان فهماً بهذا الشأن، بصيراً بالرجال، مات سنة عشر وأربعمائة.

بني أب أفضل من بني هاشم. كذا أخرجه الطبراني في الأوسط^(١). قال الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر^(٢): لوائح الصحة ظاهرة^(٣) على صفحات هذا المتن.

[خير القرون وخير البيوت]

وفي البخاري عن أبي هريرة، عنه رضي الله عنه (بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا، حتى كنت من القرن الذي كنت منه)^(٤).

وفي مسلم عن وائلة بن الأسقع^(٥) قال رضي الله عنه: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)^(٦) رواه الترمذي^(٧).

(١) والإمام أحمد والبيهقي والديلمي وابن لال وغيرهم.

(٢) الحافظ أبو الفضل، أحمد بن علي بن محمد بن علي بن حجر الكناني العسقلاني ثم المصري، الشافعي، ولد سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، عانى أولاً الأدب، وتعلم الشعر فبلغ الغاية، ثم طلب الحديث، فسمع الكثير، ورحل وبرع فيه، وتقدم في جميع فنونه، وانتهت إليه الرحلة والرياسة في الحديث في الدنيا بأسرها، فلم يكن في عصره حافظ سواه، وألف كتباً كثيرة وأمل أكثر من ألف مجلس، توفي سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة. قال السيوطي: وختم به الفن..

(٣) في (ش، ب) لائحة.

(٤) البخاري. كتاب المناقب برقم ٣٥٥٧ فتح ٥٦٦/٦.

(٥) ابن عبد العزى، الكنانى الليثى، من أهل الصفة، غزا تبوكا، وعنه: مكحول ويونس بن ميسرة، عاش ثمانيا وتسعين سنة، ومات سنة خمس وثمانين. وأبوه صحابي أيضا، كما في الإصابة.

(٦) هو عند مسلم برقم ٢٢٧٦، كتاب الفضائل.

(٧) في المناقب برقم ٣٦٨٤ بلفظ قريب وقال: هذا حديث حسن صحيح ورقم ٣٦٨٧ أيضا.

وعن العباس قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله خلق الخلق، فجعلني في خير فرقهم، وخير الفريقين، ثم تخير القبائل فجعلني في خير القبيلة، ثم تخير البيوت فجعلني في خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً، وخيرهم بيتاً) [رواه الترمذي هكذا منفرداً به وقال: حديث حسن^(١). أي خيرهم روحاً وذاتاً، وخيرهم بيتاً]^(٢) أي أصلاً.

وفي حديث رواه الطبراني عن ابن عمر^(٣) قال: (إن الله اختار خلقه فاختر منهم بني آدم، ثم اختار بني آدم^(٤) فاختر منهم العرب، ثم اختارني من العرب، فلم أزل خياراً من خيار، ألا من أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم)^(٥).

[وحيده والديه ﷺ]

ثم اعلم أنه عليه الصلاة والسلام لم يشركه في ولادته من أبويه أخ ولا أخت، لانتها صفوتها إليه، وقصور نسبها عليه، ليكون مختصاً بنسب جعله الله تعالى للنبوة غاية، ولتتام الشرف نهاية، وأنت ١/١٠ إذا اخترت حال نسبه الشريف، وعلمت طهارة مولده تيقنت أنه سلالة آباء كرام.

(١) باب المناقب برقم ٣٦٨٥ بلفظ «ثم خير» عوضاً عن «ثم تخير» في الجملتين [م].

(٢) ما بين القوسين لم يرد في: ش.

(٣) عبد الله بن عمر بن الخطاب، أبو عبد الرحمن، العالم المجتهد العابد، لزوم السنة، الفرور من البدعة، الناصح للأمة، شهد الخندق وما بعدها، قال الحافظ: ولد في السنة الثانية أو الثالثة من المبعث، وتوفي سنة ثلاث وسبعين.

(٤) المراد: نظر إليهم فاختر.

(٥) قال في مجمع الزوائد: فيه حماد بن واقد وهو ضعيف [م].

فهو ﷺ النبي العربي [الأمي] (١) الأبطحي (٢) الحرمي الهاشمي القرشي، نخبة بني هاشم، المختار المنتخب من خير بطون العرب وأعرقها في النسب، وأشرفها في الحسب، وأنضرها عودا، وأطولها عمودا، وأطيبها أرومة، وأعزها جرثومة، وأفصحها لسانا، وأوضحها بيانا، وأرجحها ميزانا، وأصحها إيمانا، وأعزها نفرا، وأكرمها معشرا، من قبل أبيه وأمه، ومن أكرم بلاد الله على الله و[على] (٣) عباده.

[سلسلة النسب الشريف]

- فهو محمد بن عبد الله، الذبيح،
- ابن عبد المطلب، واسمه شيبة الحمد، في قول ابن إسحاق (٤)، وهو الصحيح، وقيل سمي به لأنه ولد وفي رأسه شيبة.
- وقيل: اسمه عامر، وهو قول ابن قتيبة (٥)، وتابعه عليه المجد الشيرازي (٦)، وكنيته أبو الحارث، بابن له أكبر ولده،

(١) في (ط، ب، د) .

(٢) الأبطحي: نسبة إلى أبطح مكة، وهو مسيل وادياها. وفي المختار: البطحاء كالأبطح، ومنه بطحاء مكة.

(٣) سقطت في (ط) و(ش).

(٤) محمد بن إسحاق بن يسار المطلبى، مولاهم، المدني نزيل العراق، الحافظ، إمام المغازي، صدوق لكنه يدلّس، ورمي بالشييع والقدر، توفي سنة خمسين ومائة.

(٥) أبو محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، النحوي اللغوي، مؤلف «أدب الكاتب» وغيره، ولد سنة ثلاث عشرة ومائتين، ومات سنة سبع وستين ومائتين.

(٦) مجد الدين، محمد بن يعقوب الشرازي، نسبة إلى شيراز، قرية بنواحي =

قيل: وإنما قيل له عبد المطلب، لأن أباه هاشما قال لأخيه المطلب، وهو بمكة، حين حضرته الوفاة: أدرك عبدك بيثرب، فمن ثم سمي عبد المطلب، وقيل: إن عمه المطلب جاء به إلى مكة رديفه - وهو بهيئة بذة - فكان يُسأل عنه فيقول: هو عبدي، حياء أن يقول: هو ابن أخي، فلما أدخله وأحسن من حاله، أظهر أنه ابن أخيه، فلذلك قيل له: عبد المطلب.

وهو أول من خضب بالسواد من العرب، وعاش مائة وأربعين سنة.

● ابن هاشم، واسمه عمرو، وإنما قيل له هاشم لأنه كان يهشم الثريد لقومه في الجذب.

● ابن عبد مناف، واسمه المغيرة،

● ابن قصي - بفتح الصاد - تصغير قصي، أي بعيد، لأنه بعد عن عشيرته في بلاد قضاة، حين احتملته أمه فاطمة، واسمه مجمع، قال الشاعر:

أبوكم قصي كان يدعى مجمعا به جمع الله القبائل من فهر
وقيل زيد، وقال الشافعي^(١)، كما حكاه عنه الحاكم أبو

= سرخس مؤلف «القاموس» وغيره، مجدد اللغة على رأس المائة الثامنة، ومهر فيها وهو شاب، وتفقه وطلب الحديث، وجال في البلدان، وفي شيوخه كثرة، وأخذ عنه الحافظ وغيره، مات سنة سبع عشرة وثمانمائة، وقد جاوز التسعين، متمتعا بحواسه.

(١) محمد بن إدريس الشافعي، المطلبى المكي، نزيل مصر، عالم قریش، مجدد الدين على رأس المائتين، حفظ القرآن ابن سبع، والموطأ ابن عشر، وأفتى وهو ابن خمس عشرة، وكان يجي الليل إلى أن مات سنة أربع ومائتين، عن أربع وخمسين سنة، مناقبة جملة أفردتها العلماء بالتصانيف.

أحمد^(١): يزيد

● ابن كلاب، وهو إما منقول من المصدر الذي في معنى المكالبة، نحو: كالت العدو مكالبة، وإما من الكلاب: جمع كلب، لأنهم يريدون الكثرة، كما تسموا بسباع.

وسئل أعرابي: لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء، نحو كلب وذئب، وعبيدكم بأحسن الأسماء، نحو: مرزوق ورباح؟ فقال: إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا. يريدون أن الأبناء عدة للأعداء، وسهام في نحورهم، فاخترارو لهم هذه الأسماء. واسم كلاب: حكيم، وقيل: عروة.

● ابن مرة.

● ابن كعب، وهو أول من جمع يوم العروبة^(٢)، وكانت تجتمع إليه قريش في هذا اليوم، فيخطبهم ويذكرهم بمبعث النبي ﷺ ويعلمهم بأنه من ولده، ويأمرهم باتباعه والإيمان به، وينشد في ذلك أبياتاً منها:

يا ليتني شاهد فحواء دعوته حين العشيرة^(٣) تبغي الحق خذلانا^(٤)

(١) محمد بن محمد بن إسحاق النيسابوري، أو أحمد، الإمام الحافظ الجهيد، محدث خراسان، وسمع منه: السلمي والحاكم أبو عبد الله، المشهور الموافق له في الاسم واللقب والنسبة، وإنما افرقا في الكنية، ووصفه بأنه إمام عصره في الحديث، كثير التصانيف، مقدم في معرفة شروط الصحيح والأسامي والكنى، وكان صالحاً، ماشياً على سنن السلف، مات سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة عن ثلاث وتسعين سنة.

(٢) هو يوم الجمعة، واختلف فيمن سماه الجمعة.

(٣) في (د): إذا قريش تبغي الحق خذلانا.

(٤) لو كان الأمر كذلك لكانت عداوة قريش له ﷺ أقل مما كانت عليه [م].

- ابن لؤي، تصغير اللآي بوزن العصا، وهو الثور،
- ابن غالب
- ابن فهر، واسمه قريش، وإليه تنسب قريش، فما كان فوقه فكناني لا قرشي على الصحيح.
- ابن مالك
- ابن النضر، واسمه قيس،
- ابن كنانة^(١)،
- ابن خزيمية، تصغير خزيمة،
- ابن مدركة،
- ابن إلياس، بكسر الهمزة في قول ابن الأنباري^(٢)، وبفتحةا في قول قاسم بن ثابت^(٣)، ضد الرجاء، واللام فيه للتعريف والهمزة

(١) في ط: وقيل هو جماع قريش، وكذا في هامش ب.
(٢) الحافظ أبو بكر، محمد بن القاسم بن الأنباري، نسبة إلى الأنبار، بلدة قديمة على الفرات، صاحب التصانيف، العلامة في النحو واللغة والأدب، المعدود في حفاظ الحديث، كان من أفراد الدهر في سعة الحفظ مع الصدق والدين، ومن أهل السنة، مات ببغداد سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.
(٣) قاسم بن ثابت العوفي الأندلسي المالكي، الفقيه المحدث، المشارك لأبيه في رحلته وشيوخه، الورع الناسك، مجاب الدعوة، المتوفى سنة اثنتين وثلاثمائة. [كذا ذكر الشارح وفاته في ٧٨/١، وقال في ٣٣١/١ توفي سنة ستين وثلاثمائة].

١٠/ب للوصل/، قال السهيلي^(١): وهذا أصح^(٢). وهو أول من أهدى
البدن إلى البيت الحرام، ويذكر أنه كان يسمع في صلبه تلبية النبي
ﷺ بالحج.؟!.

● ابن مضر، وهو أول من سن الحداء للإبل، وكان من أحسن
الناس صوتاً.

● ابن نزار - بكسر النون - من النزر، وهو القليل، قيل لأنه لما
ولد، ونظر أبوه إلى نور محمد ﷺ بين عينيه فرح فرحاً شديداً، وأطعم
وقال: إن هذا كله نزر، أي قليل لحق هذا المولود، فسمي نزاراً
لذلك.

● ابن معد،

● ابن عدنان.

[الوقوف بالنسب عند عدنان]

قال ابن دحية^(٣): أجمع العلماء - والإجماع حجة - على أن رسول
الله ﷺ إنما انتسب إلى عدنان ولم يتجاوزه. انتهى.

(١) الإمام الحافظ العلامة، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن إصبع
السهيلي، أبو القاسم، واسع المعرفة، غزير العلم، النحوي اللغوي،
الإمام في لسان العرب، العالم بالتفسير، وصناعة الحديث ورجاله وأسابه،
وبالتاريخ وعلم الكلام وأصوله، وأصول الفقه، الذكي النبيه، عمي وهو
ابن سبع عشرة سنة، ولد سنة ثمان وخمسة، وصنف كتباً منها: الروض
الأنف، ذكر فيه أنه استخرجه من مئة وعشرين مصنفاً، مات سنة إحدى
وثمانين وخمسة.

(٢) أي الذي قاله قاسم.

(٣) الإمام الحافظ المتقن، أبو الخطاب، عمر بن حسن بن علي بن محمد، =

ولله در القائل :

ونسبة عزهاشم من أصولها ومحتدها المرضي أكرم محتد
سمت رتبة علياء أعظم بقدرها ولم تسم إلا بالنبي محمد

ويرحم الله القائل (١):

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف كما علت برسول الله عدنان

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان إذا انتسب لم يجاوز معد بن
عدنان، ثم يمسك ويقول: كذب النسابون مرتين أو ثلاثاً، رواه في
مسند الفردوس (٢). لكن قال السهيلي: الأصح في هذا الحديث أنه من
قول ابن مسعود (٣).

= المشهور بابن دحية لأنه كان يذكر أنه من ولد الصحابي دحية الكلبي،
الأندلسي السبتي، البصير بالحديث، المعتمى به، صاحب التصانيف، وطن
مصر، وأدب الملك الكامل مات سنة ثلاث وثلاثين وستمائة عن نيف
وثمانين سنة.

(١) هو أبو العباس علي بن الرومي.

(٢) للإمام عماد الإسلام أبي شجاع الديلمي، ألفه محذوف الأسانيد مرتباً على
الحروف ليسهل حفظه، وعلم بإزائها بالحروف للمخرجين، ومسند: لولده
الحافظ أبي منصور شهردار بن نهرويه المتوفى سنة تسع وخمسمائة، خرج سند
كل حديث تحته.

(٣) عبد الله بن مسعود بن غافل، قديم الإسلام، أحد القراء، هاجر
الهجرتين، وشهد بدرأ والحديبية، وجمع القرآن على العهد النبوي، وشهد
له المصطفى بالجنة، مات سنة اثنتين وثلاثين وقد جاوز الستين، وصلى
عليه عثمان، ودفن بالبقيع.

وقال غيره: كان ابن مسعود إذا قرأ قوله تعالى: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح و عاد و ثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾^(١) قال: كذب النسابون، يعني أنهم يدعون علم الأنساب ونفى الله علمها عن العباد.

وروي عن عمر أنه قال: إنما ينتسب إلى عدنان وما فوق ذلك لا ندرى^(٢) ما هو.

وعن ابن عباس: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون.
وعن عروة بن الزبير^(٣): ما وجدنا أحداً يعرف بعد معد بن عدنان.

وسئل مالك^(٤) - رحمه الله - عن الرجل يرفع نسبة إلى آدم، فكره ذلك، وقال من أخبره بذلك؟ وكذا روي عنه في رفع نسب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فالذي ينبغي لنا، الإعراض عما فوق عدنان، لما فيه من

(١) سورة ابراهيم، الآية ٩.

(٢) كذا في الأصل، وفي ط: لا يدري وفي ش قال بيا و نون، وفي ب: إنما انتسب إلى عدنان وما فوق ذلك لا ندرى...

(٣) عروة بن الزبير بن العوام، القرشي الأسدي المدني، التابعي الكبير، أحد فقهاء المدينة السبعة، الحافظ، المتوفى سنة أربع وسبعين.

(٤) مالك بن أنس بن مالك، أبو عامر بن عمرو الأصبحي، أبو عبد الله، المدني، عالم المدينة، نجم الأثر، العابد الزاهد الورع، إمام المتقين وكبير المثبتين، حتى قال البخاري: أصح الأسانيد كلها مالك عن نافع عن ابن عمر توفي سنة تسع وسبعين ومائة، أفرد مناقبه بالتأليف جمع من العلماء كالدينوري وعياض والذهبي وغيرهم.

التخليط والتغيير للألفاظ، وعواصة تلك الأسماء، مع قلة الفائدة.

[زواج عبد المطلب]

وقد ذكر الحافظ أبو سعد^(١) النيسابوري^(٢) عن أبي بكر بن أبي مريم^(٣) عن سعيد^(٤) بن عمرو الأنصاري^(٥) عن أبيه عن كعب الأحبار: أن نور رسول الله ﷺ لما صار إلى عبد المطلب وأدرك، نام يوماً في الحجر فانتبه مكحولاً مدهوناً، قد كسي حلة البهاء والجمال، فبقي متحيراً لا يدري من فعل به ذلك، فأخذه أبوه بيده ثم انطلق به إلى كهنة قريش فأخبرهم بذلك، فقالوا له: اعلم أن إله السماوات قد أذن لهذا الغلام أن يتزوج، فزوجه قيلة فولدت له الحارث ثم ماتت، فزوجه بعدها هنداً^(٦) بنت عمرو، وكان عبد المطلب يفوح منه رائحة

(١) كذا في (أ، ب) وفي النسخ: سعيد، وهو قول السهيلي، وقد تعقبه مغلطاي بأنه إنما هو: سعد.

(٢) عبد الرحمن بن الحسن، الأصبهاني الأصل، النيسابوري - نسبة إلى نيسابور - صاحب المسند، وكتاب شرف المصطفى، الثقة المتوفى سنة سبع وثلاثمائة.

(٣) بكير بن أبي مريم، نسبة لجده للشهرة، واسم أبيه: عبد الله الغساني، قال الذهبي: ضعفه، له علم وديانة، وقال العراقي: ضعفه غير واحد، توفي سنة ست وخمسين ومائة.

(٤) كذا في الأصل و(ط د) وفي ش: سعد.

(٥) ابن شرجيل الأنصاري السعدي من ذرية سعد بن عبادة، ثقة، روى عنه مالك والدراوردي، وأبوه عمرو بن شرجيل بن سعيد بن سعد بن عبادة، مقبول. روى عنه ابنه.

(٦) قال الشارح: الظاهر أنه تحريف وصوابه: فاطمة بنت عمرو. أقول: وهو ما ذكره ابن هشام ١/١٠٩.

المسك الأذفر، ونور رسول الله ﷺ يضيء في غرته، وكانت قريش إذا أصابها قحط تأخذ بيد عبد المطلب فتخرج به إلى جبل ثبير فيتقربون به إلى الله تعالى، ويسألونه أن يسقيهم الغيث، فكان يغيثهم ويسقيهم ببركة نور محمد ﷺ غيثاً عظيماً.

[قصة الفيل (١)]

ولما قدم أبرهة ملك اليمن - من قبل أصحمة النجاشي - لهدم

(١) قصة الفيل

أورد المصنف منها طرفاً، تنبيهاً على أن دفعهم من أجلّ النعم على قريش، ببركته ﷺ على يد جده، وحاصلها:

أنه لما كان المحرم، والنبي ﷺ حمل في بطن أمه - على الصحيح - حضر أبرهة بن الصباح الأشرم، يريد هدم الكعبة لأنه - لما غلب على اليمن وملكها من قبل النجاشي - رأى الناس يتجهزون أيام الموسم للحج، فقال: أين يذهبون؟ فقيل: يحجون بيت الله بمكة، قال: وما هو؟ قيل: من الحجارة، قال وما كسوته؟ قيل: ما يأتي من هنا من الوصائل. فقال: والمسيح لأبنين لكم خيراً منه؟ فبنى لهم كنيسة بصنعاء، بالرخام الأبيض والأصفر والأحمر والأسود، وحلاها بالذهب والفضة وأنواع الجواهر.

وأذل أهل اليمن على بنائها، وكلفهم فيها أنواعاً من السخر، ونقل لها الرخام المجزع والحجارة المنقشة بالذهب والفضة من قصر بلقيس، وكان على فرسخ من موضعها، ونصب فيها صلباناً من ذهب وفضة، ومنابر من عاج وأبنوس وغيره، وكان يشرف منها على عدن، لارتفاع بنائها وعلوها، ولذا سماها: القليس لأن الناظر لها تسقط قلنسوته عن رأسه..

فلما أراد صرف الحج إليها، كتب للنجاشي: إني بنيت كنيسة باسم =

= الملك، لم يكن مثلها قبلها، أريد صرف حج العرب إليها، وأمنع الناس من الذهاب لمكة.

فلما اشتهر الخبر عند العرب، خرج رجل من كنانة مغضباً، فتغوط فيها، ثم خرج فلحق بأرضه، فأغضبه ذلك. هذا قول ابن عباس. وقيل: أجمت فتية من العرب ناراً، وكان في عمارة القليس خشب عموه، فحملتها الريح فأحرقتها، فحلف ليهدمن الكعبة، وهو قول مقاتل. وقيل: كان نفيل الخثعمي يتعرض لأبرهة بالمكروه، فأمهله، حتى إذا كانت ليلة من الليالي، لم ير أحداً يتحرك، فجاء بعذرة فطبخ بها قبلتها، وجمع جيفاً فألقاها فيها، فأخبر بذلك، فغضب غضباً شديداً، وحلف لينقضن الكعبة حجراً حجراً، وكتب إلى النجاشي يخبره بذلك، وسأله أن يبعث إليه فيله «محموداً» فلما قدم الفيل إليه خرج في ستين ألفاً.

وفي سيرة ابن هشام: فلما سمعت العرب بخروجه فأعظموه، ورأوا جهاده حقاً عليهم، فخرج إليه رجل من ملوك اليمن، يقال له: ذو نفر فقاتله، فهزم هو وأصحابه، وأتى به أسيراً، فأراد قتله ثم تركه وحبسه عنده في وثاق، ثم مضى، حتى إذا كان بأرض خثعم، عرض له نفيل ابن حبيب الخثعمي في قبيلته ومن تبعه من العرب، فقاتله، فهزم وأخذ نفيل أسيراً، فهم بقتله، فقال: لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب فتركه، وخرج به يده، حتى إذا مر على الطائف، خرج مسعود بن معتب الثقفي في رجال ثقيف، فقالوا: أيها الملك، إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون، ولست تريد هذا البيت - يعنون بيت اللات - إنما تريد الذي بمكة، ونحن نبعث معك من يدلك عليه. فبعثوا معه أبا رغال، فخرج حتى إذا بلغ المغمس بطريق الطائف مات أبو رغال، فرجمت العرب قبره، فهو القبر الذي يرمم إلى اليوم.

ثم أرسل أبرهة خيلاً له إلى مكة، فأخذت إبلاً لعبد المطلب، فذهب له فردها عليه، ثم انصرف إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة إلى الجبال والشعاب، ثم قام عبد المطلب، فأخذ بحلقة باب الكعبة، ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده. فقال عبد المطلب: =

بيت الله الحرام، وبلغ عبد المطلب ذلك، قال: يا معشر قريش، لا يصل إلى هدم البيت، لأن لهذا البيت رباً يحفظه.

ثم جاء أبرهة^(١) فاستاق إبل قريش وغنمها، وكان لعبد المطلب فيها أربعمائة ناقة^(٢)،

فركب عبد المطلب في قريش حتى طلع جبل ثبير، فاستدارت دائرة غرة رسول الله ﷺ على جبينه كالهلال واشتد شعاعها على البيت الحرام مثل السراج، فلما نظر عبد المطلب/إلى ذلك قال: يا ١/١١ معشر قريش: ارجعوا فقد كفيتم هذا الأمر، فوالله ما استدار هذا النور مني إلا أن يكون الظفر لنا، فرجعوا متفرقين.

= لا هم إن المرء يد نع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم ومحالم أبدأ محالك
ثم أرسل حلقة الباب، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى الجبال
ينظرون ما أبرهة فاعل بمكة، فمنعه الله من دخولها - كما يجيء -
وقيل: لم يخرج عبد المطلب من مكة بل أقام بها وقال: لا أبرح حتى
يقضى الله قضاءه ثم صعد هو وأبو مسعود الثقفي على مكان عال ينظر ما
يقع.

(١) أي رسوله، وعند ابن إسحاق: فلما نزل أبرهة المغنس أمر رجلاً من الحبيشة يقال له: «الأسود بن مقصود، على خيل له وأمره بالغارة، فمضى حتى انتهى إلى مكة، فساق أموال تهامة وغيرها من قريش، وأصاب مائتي بعير لعبد المطلب وهو يومئذ كبير قريش وسيدها.

(٢) هو مخالف لما عند ابن إسحاق وتبعه ابن هشام، وجزم به البغوي واليعمري والدميري والشامي من قولهم: فأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب

ثم إن أبرهة أرسل رجلاً^(١) من قومه ليهزم^(٢) الجيش^(٣)، فلما دخل مكة ونظر إلى وجه عبد المطلب خضع وتلجلج لسانه وخر مغشياً عليه، فكان يخور كما يخور الثور عند ذبحه، فلما أفاق خر ساجداً لعبد المطلب، وقال: أشهد أنك سيد قريش حقاً^(٤).

(١) هو حناطة الحميري .

(٢) في ط: ليهزموا .

(٣) ساهم جيشا وإن لم ينصبوا لقتال .

(٤) وعند ابن إسحاق: بعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة وقال له: أسأل عن سيد أهل البلد وشريفهم، ثم قل له: إن الملك يقول: لم أت لحربكم، وإنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم، فإن هو لم يرد حرباً فأتني به، فدخل فسأل فقيلاً له: عبد المطلب، فقال ما أمره به أبرهة. فقال عبد المطلب: والله. ما نريد حربته، ومالنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه فهو بيته، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه. قال حناطة: فانطلق إليه، فإنه أمرني أن آتيه بك.

فانطلق معه عبد المطلب، ومعه بعض بنيه، فتكلم أنيس سائس فيل أبرهة فقال: أيها الملك، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك، وهو صاحب عزة مكة، ويطعم الناس في السهل، والوحوش والطيور في رؤوس الجبال، فأذن له أبرهة، وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم، فعظم في عين أبرهة وأجله وأكرمه عن أن يجلس تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه، فنزل عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه إلى جنبه، ثم قال لترجمانه: قل ما حاجتك. فقال له: حاجتي أن يرد الملك علي مئتي بعير أصابها، فقال لترجمانه قل له: كنت أعجبتي حين رأيتك ثم قد زهدت فيك، أتكلمني في مئتي بعير، وترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه. فقال عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه، قال ما كان ليمنع مني، قال: أنت وذاك، فرد عليه إبله.

وروي: أنه لما حضر عبد المطلب عند أبرهة أمر سايس فيله الأبيض العظيم الذي كان لا يسجد للملك أبرهة كما تسجد سائر الفيلة أن يحضره بين يديه، فلما نظر الفيل إلى وجه عبد المطلب، برك كما يبرك البعير، وخر ساجداً، وأنطق الله تعالى الفيل، فقال: السلام على النور الذي في ظهرك يا عبد المطلب، كذا في النطق المفهوم^(١).

[دخول أبرهة لهدم الكعبة]

ولما دخل جيش أبرهة ومعهم الفيل لهدم الكعبة الشريفة برك الفيل، فضربوه في رأسه ضرباً شديداً ليقوم فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام.

ثم أرسل الله عليهم طيراً أبابيل من البحر، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار، حجر في منقاره وحجران في رجله كأمثال العدس، لا تصيب أحداً منهم إلا أهلكته، فخرجوا هاربين يتساقطون بكل طريق.

وأصيب أبرهة في جسده بداء، فتساقطت أنامله أنملة أنملة، وسال منه الصديد والقيح والدم، ومامات حتى انصدع قلبه.

= زاد ابن الكلبي: فقلدها وأشعرها وجللها وجعلها هدياً للبيت وبثها في الحرم. انتهى.

وانصرف إلى قریش وأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعف الجبال والشعاب تخوفاً عليهم من معرة الحبشة. انتهى.

فظاهر هذا السياق أن حنطة لم يأت لهزم جيش - كما ساق المصنف - بل مخبراً بمراد أبرهة.

(١) ساق المصنف هذا الخبر بصيغة التمريض وتبرأ منه بقوله: كذا في كتاب النطق المفهوم لابن طغر بك. أقول: وهو إلى الخيال أقرب منه إلى الواقع فليت المصنف نزه كتابه عن مثل هذه الأخبار [م].

[ذكر الحادثة في القرآن]

وإلى هذه القصة أشار سبحانه وتعالى بقوله لنبيه ﷺ: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ السورة إلى آخرها.

فإن قلت: لم قال الله تعالى له عليه الصلاة والسلام: ﴿ألم تر كيف...﴾ مع أن هذه القصة كانت قبل البعث^(١) بزمان طويل؟

فالجواب أن المراد من الرؤية هنا: العلم والتذكر، وهو إشارة إلى أن الخبر به متواتر، فكأن العلم الحاصل به ضروري، مساوٍ في القوة للرؤية.

[الحادثة من إرهاصات النبوة]

وقد كانت هذه القصة دالة على شرف سيدنا محمد ﷺ وتأسيساً لنبوته وإرهاصاً لها، وإعزازاً لقومه بما ظهر عليهم من الاعتناء حتى دانت لهم العرب، واعتقدت شرفهم وفضلهم على سائر الناس، بحماية الله عز وجل لهم، ودفعه عنهم مكر أبرهة، الذي لم يكن لسائر العرب بقتاله قدرة، وكان ذلك كله إرهاصاً لنبوته عليه الصلاة والسلام.

قال الرازي^(٢): ومذهبنا أنه يجوز تقديم المعجزات على زمان البعثة تأسيساً، قال: ولذلك قالوا: كانت الغمامة تظله عليه الصلاة والسلام، يعني قبل بعثته.

(١) في ط: البعثة. وفي ب: المبعث.

(٢) الإمام العلامة فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين البكري الطبرستاني الأصل، الرازي المولد، المعروف بابن الخطيب، فاق أهل زمانه في علم الكلام والأوائل، وتوفي سنة ست وستائة بمدينة هراة.

وخالفه العلامة السيد^(١) في شرح المواقف - تبعاً لغيرة - فاشترط في المعجز أن لا يتقدم على الدعوى، بل يكون مقارناً لها. كما سيأتي إن شاء الله في المقصد الرابع.

[الحجاج وهدم الكعبة]

فإن قلت: إن الحجاج^(٢) خرب الكعبة ولم يحدث شيء من ذلك!!

فالجواب: أن ذلك وقع إرهاباً لأمر نبينا ﷺ، والإرهاب وإنما يحتاج إليه قبل قدومه، فلما ظهر عليه الصلاة والسلام، وتأكدت نبوته بالدلائل القطعية فلا حاجة إلى شيء من ذلك، والله أعلم.

(١) المحقق علي الجرجاني.

(٢) الحجاج بن يوسف الثقفي الظلوم، المختلف في كفره، واختار الإمام أبو عبد الله بن عرفة: أنه كافر، قال الأبي: فأوردت عليه صلاة الحسن البصري عليه، فأجاب: بأنها تتوقف على صحة الإسناد إليه. وفي الكامل للمبرد: مما كفر به الفقهاء الحجاج: أنه رأى الناس يطوفون حول حجرته ﷺ فقال: إنما يطوفون بأعواد ورمة. قال الدميري: كفروه بهذا لأنه تكذيب لقوله ﷺ: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» رواه أبو داود. [قلت: المقصود بقوله يطوفون: الالتفاف حوله والتجمع أثناء الزيارة، وإلا فلم يحدث أن طاف الناس بالحجرة الشريفة (م)].

[حفر زمزم وقصة الذبيح]

[رؤيا عبد المطلب]

ولما فرج الله عن عبد المطلب، ورجع أبرهة خائباً، فبينما هو يوماً نائم في الحجر، إذ رأى مناماً عظيماً^(١)، فانتبه فزعاً مرعوباً، وأتى

(١) هو كما رواه أبو نعيم من طريق أبي بكر بن عبد الله بن أبي الخيثم عن أبيه عن جده قال: سمعت أبا طالب يحدث عن عبد المطلب قال:

بينما أنا نائم في الحجر، إذ رأيت رؤيا هالتي، ففزعت منها فزعاً شديداً، فأتيت كاهنة قريش، فقلت لها: إني رأيت الليلة، كأن شجرة نبتت قد نال رأسها السماء، وضربت بأغصانها المشرق والمغرب، وما رأيت نوراً أزهر منها، أعظم من نور الشمس سبعين ضعفاً، ورأيت العرب والعجم لها ساجدين، وهي تزداد كل ساعة عظماً ونوراً وارتفاعاً، ساعة تخفى وساعة تظهر، ورأيت رهطاً من قريش قد تعلقوا بأغصانها، ورأيت قوماً من قريش يريدون قطعها، فإذا دنوا منها أخذهم شاب لم أر قط أحسن منه وجهاً، ولا أطيب ريحاً، فيكسر أظهرهم، ويقلع أعينهم، فرفعت يدي لأتناول منها نصيباً، فلم أنل، فقلت لمن النصيب؟ فقال: لهؤلاء الذين تعقلوا بها وسبقوك، فانتبهت مذعوراً.

فرأيت وجه الكاهنة قد تغير، ثم قالت: لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب، وتدين له الناس.

فقال عبد المطلب لأبي طالب: لعلك أن تكون هو المولود، فكان أبو =

كهنة قريش، وقص عليهم رؤياه، فقالت له الكهنة: إن صدقت رؤياك ليخرجن من ظهرك من يؤمن به أهل السماوات والأرض وليكونن في الناس علماً مبيناً. فتزوج فاطمة^(١)، وحملت في ذلك الوقت بعبد الله الذبيح^(٢)، وقصته في ذبحه مشهورة مخرجة عند الرواة مسطورة.

[سبب قصة الذبح]

وكان سببها حفر أبيه عبد المطلب زمزم، لأن الجرهمي عمرو بن الحارث لما أحدث قومه بحرم الله الحوادث، وقبض الله لهم من أخرجهم من مكة، فعمد عمرو [بن الحارث^(٣)] إلى نفائس ١١/ب فجعلها في زمزم وبالغ في طمها، وفر إلى اليمن بقومه، فلم تنزل زمزم من ذلك العهد مجهولة إلى أن رفعت عنها الحجب برؤيا منام رآها عبد المطلب، دلته على حفرها بأمارات عليها^(٤).

= طالب يحدث بهذا الحديث والنبي ﷺ قد خرج - أي بعث - ويقول: كانت الشجرة والله أعلم أبا القاسم الأمين، فيقال له: ألا تؤمن به؟ فيقول: السبة والعار. أي أخشى.

(١) فاطمة بنت عمرو بن عائد.

(٢) فيه نظر لأن عبد الله أصغر أولاد فاطمة، ولعل مراده في قوله: «ذلك الوقت» مبالغة في قرب حملها به.

(٣) في ط.

(٤) روى ابن اسحاق بسنده عن علي قال: قال عبد المطلب: إني لنائم في

الحجر، إذ أتاني آت فقال: احفر طيبة، قلت: وما طيبة؟ فذهب عني،

فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فمنت فيه فجاءني فقال: احفر برة، =

فمنعته قريش من ذلك^(١)، ثم آذاه من السفهاء من آذاه، فاشتد بذلك بلواه، ومعه ولده الحارث ولم يكن له ولد سواه، فنذر لثن جاءه عشرة بنين وصاروا له أعواناً ليذبحن أحدهم لله قرباناً. ثم احتقر عبد المطلب زمزم فكانت له فخراً وعزاً.

[الوفاء بالنذر]

فلما تكامل بنوه عشرة وهم: الحارث والزبير وحجل وضرار والمقوم وأبو لهب والعباس وحمة وأبو طالب وعبد الله، وقر الله عينه بهم، نام ليلة عند الكعبة المطهرة فرأى في المنام قائلاً يقول: يا عبد

= فقلت: وما برة؟ فذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فمنت فيه، فجاءني فقال: احفر المذنونة، فقلت: وما المذنونة؟ فذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فمنت فيه فجاءني وقال: احفر زمزم، قلت وما زمزم؟ قال: لا تنزف أبداً ولا تزم، تسقي الحجيج الأعظم، بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل.

(١) قال الشارح: ظاهره أنها منعته من أصل الحفر ونازعته ابتداء، والذي عند ابن اسحاق أن النزاع بسبب رغبتهم في مشاركته.

وملخص إنهاء النزاع أنهم احتكموا إلى كاهنة سعد بن هذيم، وكانت بأشراف الشام. فذهبوا إليها، وفي الطريق أصابهم ظمأ شديد أيقنوا بالهلاك بعده فكان الرأي أن يحفر كل واحد قبره فإذا مات وراه أصحابه حتى يكون آخر واحد فضيعة واحد أهون. ثم قال عبد المطلب: إن القاءنا بأيدينا للموت عجز، لنضربن في الأرض... فركب راحلته، فلما انبعثت، انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب فكبر عبد المطلب... فشرب القوم... ثم قالوا: قد والله قضي لك علينا يا عبد المطلب... ولم يصلوا إلى الكاهنة. [المحقق].

المطلب: أوف بنذك لرب هذا البيت، فاستيقظ فزعاً مرعوباً، وأمر بذبح كبش وأطعمه للفقراء والمساكين. ثم نام فرأى: أن قرب ما هو أكبر من ذلك، فاستيقظ من نومه وقرب ثوراً، ثم نام فرأى: أن قرب ما هو أكبر من ذلك، فانتبه وقرب جملًا، وأطعمه للمساكين، ثم نام فنودي: أن قرب ما هو أكبر من ذلك، فقال: ما أكبر من ذلك فقال: قرب أحد أولادك الذي نذرته.

فاغتم غمًا شديدًا، وجمع أولاده، وأخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء، فقالوا: إنا نطيعك، فمن تذبح منا؟ فقال: ليأخذ كل واحد منكم قدحاً - والقدح: سهم بغير نصل - ثم ليكتب فيه اسمه، ثم اثتوا به، ففعلوا، وأخذ قداحهم ودخل على هبل^(١) - [اسم صنم عظيم^(٢)] وكان في جوف الكعبة، وكانوا يعظمونه، ويضربون بالقداح عنه، فيستقسمون بها، أي يرتضون بما يقسم لهم، ثم يضرب بها القيم الذي لها - قال: فدفع عبد المطلب إلى ذلك القيم القداح وقام يدعو الله تعالى، فخرج على عبد الله، وكان أحب ولده إليه.

فقبض عبد المطلب على يد ولده عبد الله، وأخذ الشفرة ثم أقبل إلى إساف ونائلة - صنمين عند الكعبة ينحر ويذبح عندهما النسائك - فقام إليه سادة قريش فقالوا: ما تريد أن تصنع؟ فقال: أوفي بنذري، فقالوا: لا ندعك أن تذبحه حتى تعذر فيه إلى ربك، ولكن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه فيذبحه وتكون سنة. وقالوا له: انطلق إلى فلانة الكاهنة - قلت: قيل اسمها: قطبة، كما ذكره

(١) في (ط، ش): وأخذوا قداحهم ودخلوا على هبل، وفي (ب) وأخذوا أقداحهم ودخلوا على هبل، وفي (ب) وأخذوا أقداحهم ودخلوا.

(٢) في (ط، ش).

الحافظ عبد الغني^(١) في كتاب المبهات، وذكر ابن إسحاق أن اسمها: سجاح - فلعلها أن تأمرك بأمر فيه فرج لك .

فانطلقوا حتى أتوها بخيبر، فقص عليها عبد المطلب القصة، فقالت: كم الدية فيكم؟ قالوا: عشرة من الإبل، فقالت: ارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم ثم قربوا عشرة من الإبل، ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح، فإن خرجت القداح على صاحبكم فزيدوا في الإبل ثم اضربوا أيضاً، هكذا حتى يرضى ربكم. فإذا خرجت على الإبل فأنحروها فقد رضي ربكم وتخلص صاحبكم.

فرجع القوم إلى مكة، وقربوا عبد الله، وقربوا عشرة من الإبل، وقام عبد المطلب يدعو، فخرجت القداح على ولده، ولم يزل يزيد عشراً عشراً حتى بلغت مائة فخرجت القداح على الإبل. فنحرت الإبل وتركت، لا يصد عنها إنسان ولا طائر ولا سبع.

[ابن الذبيحين]

ولهذا روى - كما عند الزمخشري في الكشاف^(٢) - أنه ﷺ قال: أنا ابن الذبيحين.

وعند الحاكم في المستدرک، عن معاوية بن أبي سفيان^(٣): كنا

(١) عبد الغني بن سعيد بن علي الأزدي، الإمام المتقن النسابة، إمام زمانه في علم الحديث وحفظه، قال البرقاني: ما رأيت بعد الدار قطني أحفظ منه، له مؤلفات منها: المبهات. ولد سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ومات سنة تسع وأربعمائة.

(٢) في سورة الصافات استدلالاً على أن الذبيح إسماعيل.

(٣) أمير المؤمنين، أسلم هو وأبوه في فتح مكة، وكانا من المؤلفة قلوبهم. ثم حسن إسلامهما. ومعاوية من الموصوفين بالحلم توفي بدمشق سنة ستين.

عند رسول الله ﷺ فأناه أعرابي، فقال: يا رسول الله، خلفت البلاد يابسة، والماء يابساً، هلك المال وضاع العيال، فعد عليّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين. قال: فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه. الحديث، وتأتي تتمته قريباً إن شاء الله تعالى.

ويعني بالذبيحين: عبد الله وإسماعيل بن إبراهيم.

[الذبيح: إسماعيل أم إسحاق؟]

وإن كان قد ذهب بعض العلماء / إلى أن الذبيح إسحاق. ١/١٢

فإن صح هذا، فالعرب تجعل العم أباً، قال الله تعالى إخباراً عن بني يعقوب عليه السلام: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي، قَالُوا: نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾^(١).

وفي حديث معاوية - الموعود بتتمته قريباً - قال معاوية: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر الله إن سهل الأمر بها أن ينحر بعض ولده، فأخرجهم فأسهم بينهم فخرج السهم لعبد الله، فأراد ذبحه فمنعه أخواله من بني مخزوم، وقالوا أرض ربك، وافد ابنك، ففداه بمائة ناقة، فهو الذبيح الأول وإسماعيل الذبيح الثاني.

قال ابن القيم: «ومما يدل على أن الذبيح إسماعيل، أنه لا ريب أن الذبيح كان بمكة، ولذلك جعل القرابين يوم النحر بها، كما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمي الجمرات تذكيراً بشأن إسماعيل وأمه، وإقامة لذكر الله تعالى، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة دون إسحاق وأمه».

(١) سورة البقرة، الآية ١٣٣.

ثم قال: «ولو كان الذبيح بالشام - كما يزعم أهل الكتاب، ومن تلقى عنهم - لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة».

«وأيضاً فإن الله سمى الذبيح حليماً، لأنه لا أحلم ممن سلم نفسه للذبيح طاعة لربه، ولما ذكر إسحاق سماه: عليماً».

«وأيضاً: فإن الله أجرى العادة البشرية: أن بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن بعده، وإبراهيم لما سأل ربه الولد، ووهبه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذ إبراهيم خليلاً، والخلة منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يشارك فيها، فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد جاءت غير الخلة تنزعها من قلب الخليل، فأمر بذبح المحبوب، فلما قدم على ذبحه، وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد خلصت الخلة حينئذ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذبيح مصلحة، إذ كانت المصلحة إنما هي في العزم وتوطين النفس، وقد حصل المقصود، فنسخ الأمر وفدي الذبيح، وصدق الخليل الرؤيا». انتهى.

وقد أنشد بعضهم فقال:

إن الذبيح - هديت - إسماعيل نطق الكتاب بذاك والتنزيل
شرف به خص الإله نبينا وأبانه التفسير والتأويل

وروي مما ذكره المعافى بن زكريا^(١)، أن عمر بن عبد العزيز^(٢)

(١) المعافى بن زكريا بن يحيى بن حميد، الحافظ العلامة المفسر الثقة، النهرواني

الجريري، كان على مذهب ابن جرير، مات سنة تسع وثلاثمائة.

(٢) عمر بن عبد العزيز بن مروان، القرشي الأموي، الثقة الحافظ الورع المأمون، التابعي الصغير، أمير المؤمنين، خامس الخلفاء الراشدين. ولي =

سأل رجلاً أسلم من علماء اليهود: أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين، إن اليهود ليعلمون أنه إسماعيل، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب أن يكون أباكم، للفضل الذي ذكره الله عنه، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم. انتهى.

[موعظة في الصبر]

فانظر أيها الخليل ما في هذه القصة من السر الجليل، وهو أن الله تعالى يري عباده الجبر بعد الكسر، واللطف بعد الشدة، فإنه كان عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم لذبح الولد، آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارهما ومواطىء أقدامهما مناسك لعباده المؤمنين، ومتعبدات لهم إلى يوم الدين، وهذه سنة الله تعالى فيمن يريد رفعته من خلقه بعد استضعافه وذله وانكساره وصبره، وتلقيه القضاء بالرضا فضلاً منه، قال الله تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الأرض﴾^(١) ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾^(٢)

= إمرة المدينة للوليد، وكان مع سليمان كالوزير، ثم ولي بعده باستخلافه الخلافة سنتين وخمسة أشهر ونصفاً، فملاً الأرض عدلاً، ورد المظالم، وزاد الخراج في زمنه، مناقبه كثيرة شهيرة، مات مسموماً سنة إحدى ومائة، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.

(١) سورة القصص. الآية ٥.

(٢) سورة الجمعة. الآية ٤.

[التحقيق في عدد أبناء عبد المطلب]

وقد استشكل بعض الناس: أن عبد المطلب نذر نحر أحد بنيه إذا بلغوا عشرة، وقد كان تزويجه بهالة أم ابنه حمزة بعد وفائه بنذره، فحمزة والعباس ولدا عبد المطلب وإنما ولدا بعد الوفاء / بنذره، وإنما كان أولاده عشرة بهما. ب/١٢

قال السهيلي: ولا إشكال في هذا، فإن جماعة من العلماء قالوا: كان أعمامه عليه السلام اثني عشر، فإن صح هذا، فلا إشكال في الخبر، وإن صح قول من قال: كانوا عشرة لا يزيدون، فالولد يقع على البنين وبنينهم حقيقة لا مجازاً، فكان عبد المطلب قد اجتمع له من ولده وولد ولده عشرة رجال حين وفي بنذره.

[عبد الله ليس أصغر أخوته]

ويقع في بعض السير^(١) أن عبد الله كان أصغر بني أبيه عبد المطلب. وهو غير معروف^(٢). ولعل الرواية أصغر بني أمه، وإلا فحمزة كان أصغر من عبد الله، والعباس أصغر من حمزة.

وروي عن العباس أنه قال: أذكر مولد رسول الله ﷺ وأنا ابن ثلاثة أعوام أو نحوها، فجاء به حتى نظرت إليه، وجعل النسوة يقلن لي: قبل أخاك، فقبلته.

فكيف يصح أن يكون عبد الله هو الأصغر؟!

(١) يعني سيرة ابن إسحاق، رواية ابن هشام عن البكائي عنه، وأبهما لعدم اتفاق رواه ابن إسحاق عليها [انظر ابن هشام في سيرته ١/١٥٣].
(٢) هو قول السهيلي في الروض.

ولكن رواه البكائي^(١)، ولروايته وجه: وهو أن يكون أصغر ولد أبيه حين أراد نحره، ثم ولد له بعد ذلك حمزة والعباس.

(١) زياد بن عبد الله بن الطفيل العامري، أبو محمد، الكوفي، أحد رواة المغازي عن ابن إسحاق، صدوق ثبت في المغازي، أثبت الناس في ابن إسحاق.

قال الحافظ: وفي حديثه عن غيره لين، ولم يثبت أن وكيعاً كذبه. روى له مسلم والترمذي وابن ماجه، مات سنة ثلاث وثمانين ومائة.

[ذكر زواج عبد الله آمنة]

[قصة العارضة نفسها]^(١)

ولما انصرف عبد الله مع أبيه من نحر الإبل، مرَّ على امرأة من بني أسد بن عبد العزى، وهي عند الكعبة، واسمها قتيلة - بضم القاف وفتح المثناة الفوقية - ويقال رقيقة بنت نوفل، فقالت له حين نظرت إلى وجهه، وكان أحسن رجل رأي في قريش: لك مثل الإبل التي نحرت عنك وقع علي الآن، لما رأيت في وجهه من نور النبوة، ورجت أن تحمل بهذا النبي الكريم ﷺ، فقال لها: أنا مع أبي، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه، وقيل: أجابها بقوله:

أما الحرام فالمات دونه والحل لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه يحمي الكريم عرضه ودينه

وعند أبي نعيم والخرائطي وابن عساكر، من طريق عطاء^(٢) عن

(١) هذه القصة من نسج خيال القصاصين. [المحقق].

(٢) عطاء بن رباح بن أسلم الجمحي، مولاهم، المكّي، أبو محمد، التابعي الوسط، الحافظ الثقة، العالم الفقيه، إليه انتهت فتوى أهل مكة، وكان أسود أفتس أعرج ثم عمي، وشرفه الله بالفقه وكثرة الحديث، وأدرك مائتين من الصحابة، قدم ابن عمر مكة فسألوه، فقال: تسألوني وفيكم ابن أبي رباح؟ مات سنة إحدى ومائة.

ابن عباس: لما خرج عبد المطلب بابنه عبد الله ليزوجه، مر به على كاهنة من تبالّة^(١) متهودة قد قرأت الكتب، يقال لها: فاطمة بنت مر الخثعمية، فرأت نور النبوة في وجه عبد الله فقالت له... وذكر نحوه.

[زواج عبد الله آمنه]

ثم خرج به عبد المطلب، حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة - وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً - فزوجه ابنته آمنه، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً.

فزعموا: أنه دخل عليها حين ملكها مكانه، فوقع عليها يوم الاثنين أيام منى، في شعب أبي طالب عند الجمرة، فحملت برسول الله ﷺ. ثم خرج من عندها فأتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت^(٢)، فقال لها: مالك لا تعرضين علي اليوم ما عرضت بالأمس، فقالت: فارقك النور الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليوم حاجة، إنما أردت أن يكون النور في فأبي الله، إلا أن يجعله حيث شاء.

[توطئة للكلام عن الحمل]

ولما حملت آمنه برسول الله ﷺ ظهر لحمله عجائب، ووجد لإيجاده غرائب.

فذكروا أنه لما استقرت نطفته الزكية، ودرته المحمدية في صدفة آمنه القرشية نودي في الملكوت ومعالم الجبروت، أن عطروا جوامع

(١) اسم موضع باليمن، وآخر بالطائف.

(٢) غريب أن يفعل هذا بعد ما تزوج وقد أعرض عنها قبل زواجه؟! [م].

القدس الأسنى، وبخروا جهات الشرف الأعلى، وافرشوا سجادات العبادات في صفوف الصفا لصفوة الملائكة المقربين، أهل الصدق والوفاء، فقد انتقل النور المكنون إلى بطن آمنة ذات العقل الباهر، والفخر المصون، قد خصها الله تعالى القريب المجيب بهذا السيد المصطفى الحبيب، لأنها أفضل قومها حسباً وأنجب، وأزكاهم أصلاً وفرعاً وأطيب.

وقال سهل بن عبد الله التستري^(١) فيما رواه الخطيب البغدادي الحافظ^(٢): لما أراد الله تعالى خلق محمد ﷺ في بطن أمه آمنة، ليلة رجب، وكانت ليلة جمعة، أمر الله تعالى في تلك الليلة رضوان خازن الجنان، أن يفتح الفردوس، وينادى مناد في السماوات والأرض: ألا إن النور المخزون المكنون الذي يكون منه النبي الهادي، في هذه الليلة يستقر في بطن أمه^(٣) الذي فيه يتم خلقه ويخرج إلى / الناس بشيراً ونذيراً.

(١) سهل بن عبد الله بن يونس بن عبد الله بن ربيع التستري، الصالح المشهور، الذي لم يسمع بمثله الدهر، علماً وورعاً، صاحب الكرامات الشهيرة، المتوفى سنة ثلاثة وسبعين ومائتين بالبصرة، وولد سنة مائتين بتستر، مدينة بالأهواز.

(٢) الحافظ أبو بكر، أحمد بن علي بن ثابت، صاحب التصنيف، الإمام الكبير، محدث الشام والعراق، المتقن الضابط، العالم بصحيح الحديث وسقيمه، المتعنت في علله وأسانيده، ولد سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، وعني بالحديث ورحل فيه إلى الأقاليم. وقرأ البخاري على كريمة بمكة في خمسة أيام، وعلى اسماعيل الحيري في ثلاثة مجالس، ذكره الذهبي وقال: هو أمر عجيب، توفي ببغداد سنة ثلاث وستين وأربعمائة.

(٣) في ش: آمنة.

وفي رواية كعب الأحبار: أنه نودي تلك الليلة في السماء وصفاحها، والأرض وبقاعها، أن النور المكنون الذي منه رسول الله ﷺ يستقر الليلة في بطن آمنة، فيا طوبى لها ثم يا طوبى، وأصبحت يومئذ أصنام الدنيا منكوسة، وكانت قريش في جذب شديد، وضيق عظيم، فاحضرت الأرض وحملت الأشجار، وأتاهم الرغد من كل جانب، فسميت تلك السنة التي حمل فيها برسول الله ﷺ سنة الفتح والابتهاج.

[معنى كلمة: طوبى]

وطوبى: الطيب والحسنى والخير والخيرة. قاله في القاموس.

وقال غيره: فرح وقرّة عين .

وقال الضحاك^(١): عطية .

وقال عكرمة^(٢): نِعَم .

وفي الحديث (طوبى للشام فإن الملائكة باسطة أجنحتها عليها)^(٣)

(١) الضحاك بن مزاحم الهلالي البلخي - نسبة إلى بلخ، مدينة بخراسان - المفسر، ضعفه يحيى بن سعد، ووثقه أحمد وابن معين وأبو زرعة وغيرهم، وفي التقريب: صدوق كثير الإرسال، روى له أصحاب السنن الأربعة، توفي سنة خمس ومائة.

(٢) عكرمة بن عبد الله البربري، مولى ابن عباس، أبو عبد الله المدني، المفسر الحافظ، المتوفى سنة خمس ومائة. ونسبته للكذب على سيده لا تثبت كما بسطه الحافظ في مقدمته.

(٣) رواه الترمذي برقم ٤٠٤٨ باب مناقب اليمن والشام وهو عند أحمد ١٨٤/٥ و١٨٥.

فالمراد بها هنا: «فعلى» من الطيب وغيره مما ذكر، لا الجنة ولا الشجرة.

[خفة الحمل وثقله]

وفي حديث ابن إسحاق: أن آمنة كانت تحدث: أنها أتيت حين حملت به ﷺ فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، وقالت: ما شعرت بأني حملت به، ولا وجدت له ثقلاً، ولا وحماً، كما تجد النساء إلا أني أنكرت رفع حيضتي، وأتاني آت وأنا بين النائمة واليقظانة فقال: هل شعرت بأنك حملت بسيد الأنام، ثم أمهلني حتى إذا دنت ولادتي أتاني فقال لي: قولي

أعيذه بالواحد من شر كل حاسد
ثم سميه محمداً.

وفي رواية غير ابن إسحاق: وعلقي عليه هذه التميمة، قالت فانتهت وعند رأسي صحيفة من ذهب مكتوب فيها هذه الأبيات:

أعيذه بالواحد من شر كل حاسد
وكل خلق رائد^(١) من قائم وقاعد
عن السبيل حائد على الفساد جاهد
من نافث أو عاقد وكل خلق مارد
يأخذ بالمراصد في طرق الموارد

قال الحافظ عبد الرحيم العراقي^(٢): هكذا ذكر هذه الأبيات

(١) طالب للسوء، وأصله المرسل لطلب الكلاً.

(٢) الحافظ عبد الرحيم، أبو الحسين الأثري، الإمام الكبير العلم، الشهير، =

بعض أهل السير، وجعلها من حديث ابن عباس ولا أصل لها. انتهى^(١).

وعن شداد بن أوس^(٢) أن رجلاً من بني عامر سأل رسول الله ﷺ: ما حقيقة أمرك، قال: بدو شأني أني دعوة [أبي^(٣)] إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، وأنى كنت بكر أبي وأمي، وأنها حملت بي كأثقل ما تحمل النساء، وجعلت تشتكي إلى صواحبها ثقل ما تجد، ثم إن أمي رأت في منامها أن الذي في بطنها نور.. الحديث.

ففيه: أن أمه - عليه السلام - وجدت الثقل في حمله، وفي سائر الأحاديث أنها لم تجد ثقلاً؟!!

وجمع أبو نعيم الحافظ بينهما: بأن الثقل كان في ابتداء علوقها به، والخفة عند استمرار الحمل به، فيكون على الحالين خارجاً عن المعتاد المعروف، انتهى.

[حديث شديد الضعف في حمله ﷺ]

وخرج أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان من

= ولد سنة خمس وعشرين وسبعائة، وعني بالفن فرع فيه وتقدم، بحيث كان شيوخ عصره يبالغون في الثناء عليه بالمعرفة. قال تلميذه الحافظ ابن حجر: أحيا الله به السنة. مات سنة ست وثمانائة.

(١) قال الشامي: وسنده واه جداً، وإنما ذكرته لأنبه عليه لشهرته في كتب المواليد.

(٢) ابن ثابت الأنصاري، أبو يعلى، الصحابي، ابن أخي حسان بن ثابت، المتوفى في الشام قبل الستين رضي الله عنه.

(٣) في (ط) و(ش).

دلالة حمل آمنة برسول الله ﷺ أن كل دابة كانت^(١) لقريش نطقت تلك الليلة، وقالت: حمل برسول الله ﷺ ورب الكعبة، وهو إمام الدنيا وسراج أهلها، ولم يبق سرير لملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً، وفرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات، وكذلك أهل البحار يبشر بعضهم بعضاً، وله في كل شهر من كل شهور حمله نداء في الأرض ونداء في السماء: أن أبشروا فقد آن أن يظهر أبو القاسم ﷺ ميموناً مباركاً. . الحديث. وهو شديد الضعف.

وعن غيره: لم يبق في تلك الليلة دار إلا أشرفت ولا مكان إلا دخله النور، ولا دابة إلا نطقت.

[مدة حمله ﷺ]

وعن أبي زكريا / يحيى بن عائد^(٢): بقي ﷺ في بطن أمه تسعة أشهر كمالاً، لا تشكو وجعاً ولا مغصاً ولا ريحاً ولا ما يعرض لذوات الحمل من النساء، وكانت تقول: والله ما رأيت من حمل هو أخف منه ولا أعظم بركة منه.

[وفاة عبد الله]

ولما تم لها من حملها شهران توفي عبد الله، وقيل: توفي وهو في المهد، قاله الدولابي^(٣).

(١) كلمة (كانت) سقطت من (ط، ش).

(٢) يحيى بن مالك بن عائد، نسبة لجدته لشهرته به، الحافظ الكبير الأندلسي، سمع أبا سهل القطان وابن قانع، وأملى الحديث بجامعة قرطبة، صعد يوم الجمعة المنبر ليخطب فمات في الخطبة فجأة سنة ست وتسعين وثلاثمائة.

(٣) الحافظ أبو بشر، محمد بن أحمد بن حماد بن سعيد الأنصاري الدولابي، =

وعن ابن أبي خيثمة^(١): وهو ابن شهرين.

وقيل: وهو ابن سبعة. وقيل: وهو ابن ثمانية وعشرين شهراً.

والراجح المشهور: الأول.

وكان عبد الله قد رجع ضعيفاً مع قريش لما رجعوا من تجارتهم، ومروا بالمدينة يثرب، فتخلف عند أخواله بني عدي بن النجار، فأقام عندهم مريضاً شهراً، فلما قدم أصحابه مكة سألهم عبد المطلب عنه فقالوا: خلفناه مريضاً، فبعث إليه أخاه الحارث فوجده قد توفي، ودفن في دار التابعة^(٢)، وقيل دفن بالأبواء.

وقالت آمنة زوجته تربيته:

عفا جانب البطحاء من آل هاشم وجاور لحداً خارجاً في الغمام
دعته المنايا دعوة فأجابهها وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريره تعاوره أصحابه في التراحم

= سمع محمد بن بشار وهارون بن سعيد وطبقتها، ورحل وصنف، قال الدارقطني: تكلموا فيه وما يظهر من أمره إلا خير، وقال ابن يونس: ضعيف. ولد سنة أربع وعشرين ومائتين، ومات سنة عشر وثلاثمائة.

(١) الحافظ أحمد بن أبي خيثمة، زهير بن حرب، الحافظ ابن الحافظ، الإمام الثبت، النسائي ثم البغدادي، قال الخطيب: ثقة عالم متقن حافظ، بصير بأيام الناس، راوية للأدب، أخذ علم الحديث عن أحمد وابن معين، وأيام الناس عن المدائني.. بلغ أربعاً وتسعين سنة، ومات سنة تسع وسبعين ومائتين.

(٢) في (أ) النابغة وفي (ط) التابعة.

قال الشارح: التابعة، بفوقية فموحدة، فعين مهملة - كما في الزهر الباسم - قال الخميس وهو رجل من بني عدي بن النجار.

فإن تك غالته المنايا وربها فقد كان معطاء كثير التراحم

ويذكر عن ابن عباس، أنه لما توفي عبد الله قالت الملائكة إلهنا وسيدنا، بقي نبيك يتيماً، فقال الله تعالى: أنا له حافظ ونصير.

وقيل لجعفر الصادق: لم يتم النبي ﷺ من أبويه؟ قال: لئلا يكون عليه حق لمخلوق. نقله عنه أبو حيان^(١) في البحر.

[أحاديث مطعون فيها ومنكرة في المولد]

وروى أبو نعيم عن عمرو بن قتيبة قال: سمعت أبي - وكان من أوعية العلم - قال: لما حضرت ولادة آمنة قال الله تعالى لملائكته: افتحوا أبواب السماء كلها، وأبواب الجنان، وألبست الشمس يومئذ نوراً عظيماً، وكان قد أذن الله تعالى تلك السنة لنساء الدنيا أن يحملن ذكوراً كرامة لمحمد ﷺ.. الحديث وهو مطعون فيه.

وذكر أبو سعيد عبد الملك النيسابوري في كتابه المعجم الكبير كما نقله عنه صاحب كتاب السعادة والبشرى عن كعب في حديثه الطويل، ورواه أبو نعيم من حديث ابن عباس قال: كانت آمنة تحدث وتقول: أتاني آت حين مر بي من حملي ستة أشهر في المنام وقال لي يا آمنة إنك حملت بخير العالمين فإذا ولدته فسميه محمداً واكتمي شأنك قالت ثم لما أخذني ما يأخذ النساء ولم يعلم بي أحد لا ذكر ولا أنثى، وإني لوحيدة في المنزل وعبد المطلب في طوافه، فسمعت وجبة عظيمة وأمراً

(١) الإمام أثير الدين محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي، نحوي عصره ولغويه وعبقريه، ولد سنة أربع وخمسين وستائة وتقدم في النحو في حياة شيوخه واشتهر اسمه وألف الكتب المشهورة وأخذ عنه أكابر عصره مات سنة خمس وأربعين وسبعائة.

عظيماً هالتي، ثم رأيت كأن جناح طائر أبيض قد مسح على فؤادي فذهب عني الرعب وكل وجع أجده، ثم التفت فإذا أنا بشربة بيضاء فتناولتها فأصابني نور عال، ثم رأيت نسوة كالنخل [طولاً^(١)] كأنهن من بنات عبد مناف، يحدقن بي فيينا أنا أتعجب وأنا أقول واغوثاه من أين علمن بي. قال في غير هذه الرواية فقلن لي نحن آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وهؤلاء من الحور العين واشتد بي الأمر وأنا أسمع الوجبة في كل ساعة أعظم وأهول مما تقدم فيينا أنا كذلك إذا بديباج أبيض قد مد بين السماء والأرض، وإذا قائل يقول خذاه عن أعين الناس، قالت ورأيت رجالاً قد وقفوا في الهواء بأيديهم أباريق من فضة، ثم نظرت فإذا أنا بقطعة من الطير قد أقبلت حتى غطت حجرتي، مناقيرها من الزمرد وأجنحتها من الياقوت فكشف الله عن بصري فرأيت مشارق الأرض ومغارها، ورأيت ثلاثة أعلام مضروبات، علماً بالشرق وعلماً بالمغرب وعلماً على ظهر الكعبة فأخذني المخاض فوضعت محمداً ﷺ فنظرت إليه فإذا هو ساجد قد رفع أصبعيه إلى السماء كالمترعرع المبتهل، ثم رأيت / سحابة بيضاء قد ١/١٤ أقبلت من السماء حتى غشيتها فغيبته عني، فسمعت منادياً ينادي طوفوا به مشارق الأرض ومغارها وأدخلوه البحار ليعرفوه باسمه ونعته وصورته، ويعلمون أنه سمي فيها الماحي، لا يبقى شيء من الشرك إلا محي في زمنه، ثم انجلت عنه في أسرع وقت. . الحديث. وهو مما تكلم فيه^(٢).

وروى الخطيب البغدادي بسنده كما ذكره صاحب السعادة

(١) في (ط، ش) طوالاً.

(٢) وإنما ذكره لينبه عليه لشهرته في الموالد. وكذلك الذي يليه.

والبشرى أيضاً أن آمنة قالت لما وضعت عليه السلام رأيت سحابة عظيمة لها نور أسمع فيها سهيل الخيل وخفقان الأجنحة وكلام الرجال، حتى غشيته وغيب عني فسمعت منادياً ينادي طوفوا بمحمد ﷺ جميع الأرض واعرضوه على كل روحاني من الجن والإنس والملائكة والطيور والوحوش وأعطوه خلق آدم، ومعرفة شيث، وشجاعة نوح، وخلة إبراهيم ولسان إسماعيل، ورضا إسحاق، وفصاحة صالح، وحكمة لوط، وبشرى يعقوب، وشدة موسى، وصبر أيوب، وطاعة يونس، وجهاد يوشع، وصوت داود وحب دانيال ووقار إلياس وعصمة يحيى وزهد عيسى، واغمسوه في أخلاق النبيين قالت: ثم انجلت عني فإذا به قد قبض على حريرة خضراء مطوية طياً شديداً ينبع من تلك الحريرة ماء وإذا قائل يقول بخ بنخ قبض محمد ﷺ على الدنيا كلها لم يبق خلق من أهلها إلا دخل طائعاً في قبضته، قالت ثم نظرت إليه فإذا به كالقمر ليلة البدر وريحه يسطع كالمسك الأذفر، وإذا بثلاثة نفر في يد أحدهم إبريق من فضة، وفي يد الثاني طست من زمرد أخضر وفي يد الثالث حريرة بيضاء فنشرها فأخرج منها خاتماً تحار أبصار الناظرين دونه فغسله من ذلك الإبريق سبع مرات، ثم ختم بين كتفيه بالخاتم ولفه في الحريرة ثم احتمله فأدخله بين أجنحته ساعة ثم رده إلي ورواه أبو نعيم عن ابن عباس وفيه نكارة.

[أحاديث أخرى في المولد]

وروى الحافظ أبو بكر بن عائد في كتابه المولد - كما نقله عنه الشيخ بدر الدين الزركشي^(١) في شرح بردة المديح - عن ابن عباس:

(١) بدر الدين، محمد بن عبد الله الزركشي الشافعي، العلامة البارع، ولد سنة خمس وأربعين وسبعمائة، وأخذ عن الأسنوي وابن كثير وغيرهما، وألف تصانيف كثيرة في عدة فنون. مات سنة أربع وتسعين وسبعمائة.

لما ولد ﷺ قال في أذنه رضوان خازن الجنان: أبشر يا محمد فما بقي
لنبي علم إلا وقد أعطيته، فانت أكثرهم علماً، وأشجعهم قلباً.

وروى محمد بن سعد من حديث جماعة منهم عطاء وابن
عباس: أن آمنة بنت وهب قالت: لما فصل مني - تعني النبي ﷺ -
خرج معه نور أضواء له ما بين المشرق والمغرب، ثم وقع إلى الأرض
معتمداً على يديه، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء.
وروى الطبراني: أنه لما وقع إلى الأرض وقع مقبوضة أصابع يده
مشيراً بالسبابة كالمسيح بها.

وروي عن عثمان بن أبي العاصي^(١) عن أمه أم عثمان الثقفية
- واسمها فاطمة بنت عبد الله - قالت: لما حضرت ولادة رسول الله
ﷺ رأيت البيت حين وقع قد امتلأ نوراً، ورأيت النجوم تدنو حتى
ظننت أنها ستقع علي. رواه البيهقي.

وأخرج أحمد والبخاري والطبراني والحاكم والبيهقي عن العرباض
ابن سارية. أن رسول الله ﷺ قال: (إني عبد الله وخاتم النبيين، وإن
آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم عن ذلك، إني دعوة أبي إبراهيم،
وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات الأنبياء يرين،
وإن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضواء له قصور
الشام)^(٢). قال الحافظ ابن حجر: صححه ابن حبان والحاكم.

(١) عثمان بن أبي العاص الثقفي، ولي الطائف لرسول الله ﷺ، وأقره أبو بكر
ثم عمر، ثم استعمله عمر على عمان والبحرين، ثم سكن البصرة ومات
بها سنة خمس وخمسين.

(٢) المسند ٤/١٢٧ و١٢٨، وكذا أخرجه ابن إسحاق. انظر سيرة ابن هشام
١٦٩/١.

وأخرج أبو نعيم عن عطاء بن يسار^(١) عن أم سلمة عن آمنة:
قالت: لقد رأيت ليلة وضعتته نوراً أضاءت له قصور الشام حتى رأيتها.
وأخرج أيضاً، عن بريدة^(٢) عن مرضعته في بني سعد أن آمنة
ب/١٤ قالت: رأيت / كأنه خرج من فرجي شهاب أضاءت له الأرض
حتى رأيت قصور الشام.

وعن همام بن يحيى^(٣) عن إسحاق بن عبد الله أن أم رسول الله
ﷺ قالت: لما ولدته خرج من فرجي نور أضاء له قصور الشام،
فولدتها نظيفاً ما به قدر، رواه ابن سعد.

وإلى هذا أشار العباس بن عبد المطلب في شعره، حيث قال:
وأنت لما ولدت أشرقت الـ أرض وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذاك الضياء وفي النور ر وسبل الرشاد نخترق
قال في اللطائف^(٤): «وخروج هذا النور عند وضعه، إشارة إلى
ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض، وزال به ظلمة
الشرك. قال تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله
من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه﴾

(١) عطاء بن يسار الهلالي، الثقة، كثير الحديث، القاص، مولى ميمونة. قال
في الكاشف: كان من كبار التابعين وعلمائهم، مات سنة أربع ومائة، عن
أربع وثمانين سنة.

(٢) بريدة بن الحصيَّب، الصحابي الأسلمي، شهد خيبر، توفي سنة اثنتين
وسبعين.

(٣) الحافظ البصري، قال أبو حاتم: ثقة صدوق في حفظه شيء، مات سنة
ثلاث وستين ومائة.

(٤) كتاب «لطائف المعارف» للحافظ عبد الرحمن بن رجب.

الآية^(١)، وأما إضاءة قصور بصرى بالنور الذي خرج معه فهو إشارة إلى ما خص الشام من نور نبوته، فإنها دار ملكه - كما ذكر كعب: أن في الكتب السالفة: محمد رسول الله ﷺ مولده بمكة ومهاجره بيثرب وملكه بالشام - فمن مكة بدت نبوة نبينا عليه الصلاة والسلام، وإلى الشام انتهى ملكه، ولهذا أسري به ﷺ إلى الشام، إلى بيت المقدس، كما هاجر قبله إبراهيم عليه السلام إلى الشام، وبها ينزل عيسى بن مريم عليه السلام، وهي أرض المحشر والمنشر. وخرج أحمد وأبو داود^(٢) وابن حبان^(٣) والحاكم في صحيحهما عن النبي ﷺ أنه قال: (عليكم بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده^(٤))». انتهى ملخصاً.

وأخرج أبو نعيم عن عبد الرحمن بن عوف^(٥) عن أمه الشفاء^(٦)

(١) سورة المائدة، الآيتان ١٥ و١٦.

(٥) سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، الحافظ الكبير، روى عن أحمد ونظرائه، وعنه: الترمذي وخلق. قال ابن حبان: أبو داود أحد أئمة الدنيا فقهاً وحفظاً وعلماً واثقاً، ونسكاً وورعاً، جمع وصنف وذب عن السنن، توفي سنة خمس وسبعين ومائتين بالبصرة.

(٣) الحافظ العلامة، أبو حاتم، محمد بن حبان التميمي البستي، كتب عن النسائي وغيره، قال تلميذه الحاكم: كان من أوعية العلم في الفقه والحديث واللغة والوعظ... وكانت إليه الرحلة، قال الخطيب: كان ثقة نبيلاً فهاً، مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة.

(٤) المسند ٤/١١٠، أبو داود رقم ٢٤٨٣.

(٥) عبد الرحمن بن عوف بن عبد مناف القرشي الزهري، أحد العشرة، ذي الهجرتين، البدرى، الذي صلى خلفه المصطفى، مناقبه جمة رضي الله عنه، توفي سنة اثنتين وثلاثين.

(٦) الشفاء بنت عوف بن عبد الحارث بن زهرة، أسلمت وهاجرت، ماتت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم.

قالت: لما ولدت آمنة رسول الله ﷺ وقع على يدي فاستهل، فسمعت قائلاً يقول: رحمك الله، قالت الشفاء: وأضاء لي ما بين المشرق والمغرب، حتى نظرت إلى بعض قصور الروم، قالت: ثم ألبنته^(١) وأضجعتة، فلم أنشب أن غشيتني ظلمة ورعب وقشعريرة ثم غيب عني، فسمعت قائلاً يقول: أين ذهبت به؟ قال: إلى المشرق، قالت: فلم يزل الحديث مني على بال حتى بعته^(٢) الله فكنت في أول الناس إسلاماً.

[من عجائب ولادته ﷺ]

ومن عجائب ولادته عليه السلام ما خرجه البيهقي وأبو نعيم عن حسان بن ثابت قال: إني لغلام ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل ما رأيت وسمعت، إذا يهودي يصرخ ذات غداة: يا معشر يهود، فاجتمعوا إليه، وأنا أسمع، قالوا: ويلك مالك؟ قال: طلع نجم أحمد الذي ولد به هذه الليلة.

وعن عائشة قالت: كان يهودي قد سكن مكة، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ قال: يا معشر قريش: هل ولد فيكم الليلة مولود، قالوا: لا نعلم، قال: انظروا، فإنه ولد في هذه الليلة نبي هذه الأمة. بين كتفيه علامة. فانصرفوا فسألوا، فقيل لهم قد ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام، فذهب اليهودي معهم إلى أمه، فأخرجته لهم، فلما رأى اليهودي العلامة خر مغشياً عليه، وقال:

(١) في ش ألبسته.

وألبنته: سقيته اللبن.

(٢) في (ط، ب، د) ابتعته.

ذهبت النبوة من بني إسرائيل، يا معشر قريش: أما والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب. رواه يعقوب بن سفيان^(١) بأسناد حسن كما قاله في فتح الباري.

ومن عجائب ولادته أيضاً: ما روي من ارتجاج^(٢) إيوان كسرى وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته، وغيض بحيرة طبرية، وخمود نار فارس. وكان لها ألف عام لم تحمد، كما رواه البيهقي وأبو نعيم والخرائطي في «الهواتف» وابن عساكر^(٣).

وفي سقوط الأربع عشرة شرفة إشارة إلى أنه يملك منهم ملوك وملكات بعدد الشرفات، وقد ملك منهم في أربع سنين عشرة، ذكره ابن ظفر^(٤) وزاد ابن سيد الناس^(٥): وملك الباقون إلى خلافة عثمان

(١) الفارسي، الثقة المتقن، الخير الصالح، الحافظ أبو يوسف الفسوي - نسبة إلى فسا من بلاد فارس - قال ابن حبان: ثقة، وقال النسائي: لا بأس به، مات سنة سبع وسبعين ومائتين.

(٢) في ش: ارتجاج.

وارتجاج: من الرج، وهو التحرك والتحرك والاهتزاز
وارتجاج: هو الصوت الشديد من الرعد، والمراد هنا: صوت التحرك والاهتزاز.

(٣) قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: ما روي أن ليلة مولده ﷺ ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس، وغاضت بحيرة ساوه.. فهذا الحديث ليس بصحيح ولا يجوز قوله [عن كتاب المصنوع في معرفة الحديث الموضوع للقاري، تحقيق أبو غدة ص ١٨] [المحقق].

(٤) محمد بن محمد بن ظفر، الصقلي المولود بها، أحد الأدباء الفضلاء، صاحب التصانيف المليحة، من أهل القرن السادس.

(٥) الإمام العلامة الحافظ الناقد، أبو الفتح محمد بن محمد اليعمرى الأندلسي =

رضي الله عنه (١).

ومن ذلك أيضاً: ما وقع من زيادة حراسة السماء بالشهب،
وقطع رصد الشياطين، ومنعهم من استراق السمع.

ولقد / أحسن الشقراطيبي (٢) حيث قال:

١/١٥

ضاءت لمولده الأفاق واتصلت بشرى الهواتف في الإشراق والطفل (٣)
وصرح كسرى تداعى من قواعده وانقض منكر الأرجاء ذا ميل
ونار فارس لم توقد وما خمدت مذ ألفت عام ونهر القوم لم يسئل
خرت لمبعثه (٤) الأوثان وانبعثت ثواقب الشهب ترمي الجن بالشعل

= الأصل، المصري، ولد سنة إحدى وسبعين وستائة، ولازم ابن دقيق العيد وتخرج به، كان أحد الأعلام الحفاظ، أديباً شاعراً بليغاً، ولي درس الحديث بالظاهرية وغيرها، وألف السيرة الكبرى والصغرى، وشرح الترمذي ولم يكمله، فآتمه أبو الفضل العراقي، مات سنة أربع وثلاثين وسبعائة.

(١) قال ابن كثير في البداية تعليقا على حديث ارتجاس أيوان كسرى وقد أورده ضمن حديث طويل: أما هذا الحديث فلا أصل له في شيء من كتب

الإسلام المعهودة ولم أره بإسناد أصلا. ٢٧١/٢ [م].

(٢) أبو محمد عبد الله بن أبي زكريا يحيى بن علي الشقراطيبي.

(٣) طفلت الشمس للغروب: أي دنت منه.

(٤) كذا في النسخ وفي الأصل: لمولده.

[قنانه ﷺ]

[القول بأنه ﷺ ولد مختوناً]

وولد ﷺ معذوراً أي مختوناً مسروراً - أي مقطوع السرة - كما روي من حديث أبي هريرة عند ابن عساكر.

وروى الطبراني في الأوسط وأبو نعيم والخطيب وابن عساكر من طرق، عن أنس: أن النبي ﷺ قال: «من كرامتي على ربي أني ولدت مختوناً، ولم ير أحد سواتي» وصححه الضياء^(١) في المختارة^(٢).

وعن ابن عمر قال: ولد النبي ﷺ مسروراً مختوناً. رواه ابن عساكر.

قال الحاكم في المستدرک: تواترت الأخبار أنه عليه السلام ولد مختوناً. انتهى.

وتعقبه الحافظ الذهبي^(٣) فقال: ما أعلم صحة ذلك؟! فكيف

(١) ضياء الدين، أبو عبد الله، محمد بن عبد الواحد بن أحمد السعدي المقدسي الحنبلي، الثقة الجبل، الدين الزاهد الورع، المتوفى سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

(٢) «المختارة» في الأحاديث مما ليس في الصحيحين، وقد قال الزركشي وغيره: إن تصحيحه أعلى مزية من تصحيح الحاكم.

(٣) الإمام الحافظ، أبو عبد الله، محمد بن عثمان الذهبي - نسبة إلى الذهب - الدمشقي المتوفى بها سنة ثمان وأربعين وسبعمائة.

يكون متواتراً؟ وأجيب: باحتمال أن يكون أراد بتواتر الأخبار اشتهاها وكثرتها في السير، لا من طريق السند المصطلح عليه عند أئمة الحديث.

[القول بغير ذلك]

وقد حكى الحافظ زين الدين العراقي، أن الكمال بن العديم^(١) ضعف أحاديث كونه ولد مختوناً، وقال: إنه لا يثبت في هذا شيء من ذلك.

وأقره عليه، وبه صرح ابن القيم^(٢) ثم قال: ليس هذا من خصائصه ﷺ، فإن كثيراً من الناس ولد مختوناً.

وحكى الحافظ ابن حجر: أن العرب تزعم أن الغلام إذا ولد في القمر فسخت قلفته - أي اتسعت - فيصير كالمختون.

وفي «الوشاح» لابن دريد^(٣): قال ابن الكلبي: بلغني أن آدم خلق مختوناً واثني عشر نبياً من بعده خلقوا مختونين آخرهم محمد ﷺ: شيث وإدريس ونوح وسام ولوط ويوسف وموسى وسليمان وشعيب ويحيى وهود [وصالح]^(٤) صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

(١) عمر بن أحمد بن هبة الله صاحب، كمال الدين، الحلبي، الكاتب البليغ، الحنفي، ولد بحلب سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وبرع وساد، وصار أوجد عصره فضلاً ونبلاً ورياسة، وألف في الفقه والحديث والأدب وتاريخ حلب، وتوفي بمصر.

(٢) في «الهدى النبوي».

(٣) أبو بكر محمد بن الحسن اللغوي الثقة، صاحب التصانيف المولود سنة ثلاث وعشرين ومائتين، المتوفى بعمان سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.

(٤) في (ب، ط، د) وعلى هذا فإن عددهم يزيد على اثني عشر [م].

وفي هذه العبارة تجوز، لأن الختان هو القطع، وهو غير ظاهر، لأن الله تعالى يوجد ذلك على هذه الهيئة من غير قطع، فيحمل الكلام باعتبار أنه على صفة المقطوع.

[الخلاصة في ختانه ﷺ]

وقد حصل من الاختلاف في ختانه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه ولد مختوناً كما تقدم.

الثاني: أنه ختنه جده عبد المطلب يوم سابعه، وصنع له مأدبة وسماه محمداً. رواه الوليد بن مسلم^(١) بسنده إلى ابن عباس وحكاه ابن عبد البر^(٢) في التمهيد.

والثالث: أنه ختن عند حليلة، كما ذكره ابن القيم والدمياطي^(٣)

(١) الوليد بن مسلم القرشي، مولاهم، أبو العباس، الدمشقي، عن مالك والأوزاعي والثوري وخلق، وعنه: الليث، أحد شيوخه، وابن وهب وأحمد وغيرهم، متفق على توثيقه، وإنما عابوا عليه كثرة التدليس، أخرج له الستة مات سنة خمس وتسعين ومائة.

(٢) شيخ الإسلام، الحافظ أبو عمر، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري، القرطبي، الفقيه المكثر، العالم بالقرآن والحديث والرجال والخلاف، صاحب السنة والاتباع، والتصانيف الكثيرة، توفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة عن خمس وتسعين سنة.

(٣) الحافظ الإمام، شيخ المحدثين، شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الشافعي ولد سنة ثلاث عشرة وستمائة، وتفقه وبرع وطلب الحديث، فرحل وجمع فأوعى وألف، بلغت شيوخه ألفاً وثلاثمائة، ضمهم معجمه. قال الرازي: ما رأيت في الحديث أحفظ منه، مات فجأة سنة خمس وسبعمائة.

ومغلطاي^(١) وقالوا: إن جبريل عليه السلام ختنه حين طهر قلبه.
وكذا أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم من حديث أبي بكر.
قال الذهبي: وهذا منكر.

[بحث في فقه الختان]

واعلم أن الختان: هو قطع القلفة التي تغطي الحشفة من الرجل، وقطع بعض الجلد التي في أعلى الفرج من المرأة، ويسمى ختان الرجل: إعدارا - بالعين المهملة والذال المعجمة والراء - وختان المرأة خفاضاً - بالخاء المعجمة والفاء والضاد المعجمة أيضاً -.

واختلف العلماء: هل هو واجب؟

- فذهب أكثرهم إلى أنه سنة وليس بواجب، وهو قول مالك وأبي حنيفة وبعض أصحاب الشافعي.
- وذهب الشافعي إلى وجوبه، وهو مقتضى قول سحنون^(٢) من المالكية.
- وذهب بعض أصحاب الشافعي إلى أنه واجب في حق الرجال، سنة في حق النساء.

(١) الإمام الحافظ علاء الدين بن قليج بن عبد الله الحنفي، ولد سنة تسع وثمانين وستائة، وله أكثر من مائة مصنف، كشرح البخاري، وشرح ابن ماجه، وشرح أبي داود، ولم يتما، مات سنة اثنتين وستين وسبعائة.
(٢) من أئمة المالكية، واسمه: عبد السلام بن سعيد التنوخي القيرواني، لقب باسم طائر حديد الدهن ببلاد المغرب لكونه كذلك، ولد سنة ستين ومائة، =

واحتج من قال إنه سنة، بحديث أبي المليح بن أسامة^(١) عن أبيه^(٢): أن النبي ﷺ قال: (الختان سنة للرجال مكرمة للنساء) رواه أحمد في مسنده^(٣) والبيهقي.

وأجاب من أوجبه بأنه ليس المراد بالسنة هنا خلاف الواجب، بل المراد الطريقة، واحتجوا على وجوبه بقوله تعالى: ﴿أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾^(٤)، وثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (اختتن إبراهيم النبي ﷺ وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم)^(٥) وبما روى أبو داود من قوله ﷺ للرجل الذي أسلم: (ألق عنك شعر الكفر واختن)^(٦).

واحتج القفال لوجوبه: بأن بقاء القلفة يجبس النجاسة، ويمنع صحة الصلاة، فيجب إزالتها.

وقال الفخر الرازي: «الحكمة من الختان، أن الحشفة قوية الحس،

= وتلمذ لابن القاسم وغيره، وصنف «المدونة» التي عليها العمل. مات سنة أربعين ومائتين.

(١) عامر وقيل زيد وقيل زياد، التابعي، وثقة أبو زرعة وغيره، روى له الستة مات سنة ثمان وتسعين وقيل غير ذلك.

(٢) أسامة بن عمير الهذلي البصري، صحابي تفرد بالرواية عنه ولده، أخرج له أصحاب السنن الأربعة.

(٣) المسند ٧٥/٥.

(٤) سورة النحل. الآية ١٢٣.

(٥) رواه البخاري برقم ٣٣٥٦ و٦٢٩٨ ومسلم برقم ٢٣٧٠ وأحمد ٤١٨/٢

(٦) رواه أبو داود برقم ٣٥٦ وأحمد ٤١٥/٣.

فما دامت مستورة تقوي اللذة عند المباشرة، فإذا قطعت القلفة تصلبت الحشفة فضعفت اللذة، وهو اللائق بشريعتنا قليلاً للذة لا قطعاً لها، كما تفعل المانوية^(١)، فذلك إفراط وإبقاء القلفة تفريط، فالعدل الختان». انتهى .

وإذا قلنا بوجوب الختان، فمحل الوجوب بعد البلوغ على الصحيح من مذهبنا، لما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس أنه سئل: مثل من أنت حين قبض رسول الله ﷺ قال: «وأنا يومئذ مختون وكانوا لا يختنون الرجل حتى يدرك». ^(٢) وقال بعض أصحابنا: يجب على الولي أن يختن الصبي قبل البلوغ، والله أعلم.

(١) هم أصحاب ماني بن فانك الزنديق، الذي ظهر في زمن سابور بعد عيسى عليه السلام، وادعى النبوة، وأن للعالم أصلين: النور خالق الخير، والظلمة خالق الشر، وأنها قديمان.

(٢) رواه البخاري برقم ٦٢٩٩، وهو عند أحمد بلفظ قريب ٢٨٧/١ و٣٥٧.

[زمن الولادة ووقتها]

[العام الذي ولد فيه ﷺ]

وقد اختلف في عام ولادته صلى الله عليه وسلم:

فالأكثر على أنه عام الفيل، وبه قال ابن عباس، ومن العلماء من حكى الاتفاق عليه^(١) وقال: كل قول يخالفه وهم.

والمشهور: أنه ولد بعد الفيل بخمسين يوماً، وإليه ذهب السهيلي في جماعة.

وقيل: بعده بخمسة وخمسين يوماً، وحكاه الدمياطي في آخرين
وقيل: بشهر، وقيل بأربعين يوماً^(٢)،

وقيل: بعد الفيل بعشر سنين^(٣) وقيل: قبل الفيل بخمس عشرة سنة، وقيل: غير ذلك.

والمشهور أنه بعد الفيل، لأن قصة الفيل كانت توطئة لنبوته، وتقدمة لظهوره وبعثته، وإلا فأصحاب الفيل - كما قاله ابن القيم - كانوا نصارى أهل كتاب، وكان دينهم خيراً من دين أهل مكة إذ

(١) كابن الجوزي في «الصفوة» وكذا ابن الجزار .

(٢) حكاهما مغلطاي واليعمري .

(٣) قال مغلطاي: يروى هذا القول عن الزهري، ولا يصح.

ذاك، لأنهم كانوا عباد أوثان، فنصرهم الله تعالى على أهل الكتاب نصراً لا صنع للبشر فيه، إرهاباً وتقدمة للنبي الذي خرج من مكة، وتعظيماً للبلد الحرام.

[الشهر الذي ولد فيه ﷺ]

واختلف أيضاً في الشهر الذي ولد فيه.

والمشهور: أنه ولد في شهر ربيع الأول، وهو قول جمهور العلماء. ونقل ابن الجوزي الاتفاق عليه.

وفيه نظر: فقد قيل في صفر، وقيل في ربيع الآخر^(١).

وقيل في رجب، ولا يصح.

وقيل: في رمضان^(٢)، وروي عن ابن عمر بإسناد لا يصح،

وهو موافق لمن قال: إن أمه حملت به في أيام التشريق.

وأغرب من قال: ولد في عاشوراء

[اليوم الذي ولد فيه ﷺ]

وكذا اختلف أيضاً في أي يوم من الشهر:

فقيل إنه غير معين، إنما ولد يوم الإثنين من ربيع الأول من غير

تعيين، والجمهور على أنه يوم معين منه،

فقيل: لليلتين خلتا منه^(٣).

وقيل: لثمان خلّت منه، قال الشيخ قطب الدين القسطلاني^(٤):

(١) حكاها مغلطي وغيره.

(٢) حكاها اليعمري ومغلطي.

(٣) به صدر مغلطي.

(٤) أبو بكر، محمد بن أحمد بن علي المصري القسطلاني الشافعي، جمع بين =

وهو اختيار أكثر أهل الحديث، ونقل عن ابن عباس وجبير بن مطعم، وهو اختيار أكثر من له معرفة بهذا الشأن، واختاره الحميدي^(١)، وشيخه ابن حزم^(٢)، وحكى القضاعي^(٣) في «عيون المعارف» إجماع أهل الزيج^(٤) عليه، ورواه الزهري^(٥) عن محمد بن جبير بن مطعم^(٦)، وكان عارفاً بالنسب وأيام العرب، أخذ ذلك عن أبيه جبير^(٧).

= العلم والعمل، وألف في الحديث والتصوف وتاريخ مصر، ولد بمصر سنة أربع عشرة وستمائة ومات سنة ست وثمانين وستمائة. ونسبته إلى قسطينة من إقليم أفريقية.

(١) الحافظ أبو عبد الله، محمد بن أبي نصر فتوح الأزدي الحميدي - مصغراً - الأندلسي الظاهري، من كبار تلامذة ابن حزم، صاحب الجمع بين الصحيحين، فريد عصره علماً وفضلاً وحفظاً وورعاً، الثبت الإمام في الحديث والفقه والأدب. مات سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.

(٢) الحافظ أبو محمد، علي بن أحمد بن حزم، القرطبي الظاهري، الإمام العلامة الزاهد الورع، له المنتهى في الذكاء والحفظ، مع توسعه في علوم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار. توفي سنة سبع وخمسين وأربعمائة.

(٣) أبو عبد الله، محمد بن سلامة، الفقيه الشافعي، قاضي مصر، صاحب: الشهاب والخطط وغيرهما. قال ابن ماكولا: كان متفنناً في عدة علوم، توفي بمصر سنة أربع وخمسين وأربعمائة.

(٤) أي الميقات، وهو لغة: خيط البناء، نقل وجعل لقباً لعمل الميقات.

(٥) الإمام أبو بكر، محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، المدني، أحد الأعلام، نزيل الشام، التابعي الصغير، المتفق على إمامته وحفظه، الموصوف بأنه جمع علم جميع التابعين. القائل ما استودعت قلبي شيئاً قط فنسيه، المتوفى سنة خمس وعشرين ومائة، عن اثنتين وتسعين سنة.

(٦) محمد بن جبير بن مطعم النوفلي، الثقة أحد رجال الستة، توفي على رأس المائة.

(٧) جبير بن مطعم، الصحابي العارف بالأنساب المتوفى سنة ثمان وخمسين.

وقيل لعشر^(١)، وقيل لاثنتي عشرة، وعليه^(٢) عمل أهل مكة في زيارتهم موضع مولده في هذا الوقت، وقيل لسبع عشرة وقيل لثمان عشرة^(٣)، وقيل لثمان بقين منه. وقيل: إن هذين القولين غير صحيحين عمن حكيا عنه بالكلية.

والمشهور: أنه ولد [يوم الإثنين^(٤)] ثاني عشر شهر ربيع الأول، وهو قول ابن إسحاق وغيره.

وإنما كان في شهر ربيع على الصحيح ولم يكن في المحرم، ولا في رجب، ولا في رمضان، ولا غيرها من الأشهر ذوات الشرف، لأنه عليه السلام لا يتشرف بالزمان، وإنما الزمان يتشرف به كالأماكن، فلو ولد / في شهر من الشهور المذكورة، لتوهم أنه تشرف بها، فجعل الله تعالى مولده ﷺ في غيرها ليظهر عنايته به وكرامته عليه.

وإذا كان يوم الجمعة الذي خلق فيه آدم عليه السلام خص بساعة لا يصادفها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه، فما بالك بالساعة التي ولد فيها سيد المرسلين. ولم يجعل الله تعالى في يوم الإثنين - يوم مولده ﷺ - من التكليف بالعبادات ما جعل في يوم الجمعة - المخلوق فيه آدم - من الجمعة والخطبة وغير ذلك، إكراماً لنبية ﷺ بالتخفيف عن أمته، بسبب غاية وجوده قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾^(٥)، ومن جملة ذلك: عدم التكليف.

(١) حكاه مغلطاي والدمياطي وصححه.

(٢) في (ط، د) وعليه يحمل.

(٣) ثمان عشرة: بفتح النون ويجوز كسرهما، ويجوز إثبات الياء وتفتح.

(٤) في (ش، ب).

(٥) سورة الأنبياء. الآية ١٠٧.

[الوقت الذي ولد فيه ﷺ]

واختلف أيضاً في الوقت الذي ولد فيه^(١).

والمشهور أنه يوم الإثنين. فعن أبي قتادة الأنصاري^(٢): أنه ﷺ سئل عن صيام يوم الإثنين فقال: (ذاك يوم ولدت فيه، وأنزلت علي فيه النبوة) رواه مسلم^(٣)، وهذا يدل على أنه ﷺ ولد نهراً.

وفي المسند، عن ابن عباس قال: ولد ﷺ يوم الإثنين، واستنبت يوم الإثنين، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الإثنين، ودخل المدينة يوم الإثنين، ورفع الحجر يوم الإثنين. انتهى^(٤).

وكذا فتح مكة ونزول سورة المائدة يوم الإثنين.

وقد روى أنه ولد [يوم الإثنين]^(٥) عند طلوع الفجر، فعن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال: كان بمر الظهران راهب يسمى عيسى، من أهل الشام، وكان يقول: يوشك أن يولد فيكم يا أهل مكة مولود تدين له العرب ويملك العجم، هذا زمانه، فكان لا يولد بمكة مولود إلا يسأل عنه، فلما كان صبيحة اليوم الذي ولد فيه رسول الله ﷺ خرج عبد المطلب حتى أتى عيسى فناده، فأشرف عليه، فقال له

(١) أهو الليل أم النهار؟

(٢) أبو قتادة الأنصاري، فارس رسول الله ﷺ، حضر سائر المشاهد إلا بدرأً ففيه خلف، وليس في الصحابة من يكنى بكنيته غيره، واسمه الحارث بن ربيعي، مات بالمدينة سنة ثمان وثلاثين، وقيل غير ذلك.

(٣) رقم ١٩٧ من كتاب الصيام ٢/٨١٩.

(٤) المسند ١/٢٧٧.

(٥) في (ط، ب).

عيسى : كن أباه، فقد ولد ذلك المولود الذي كنت أحدثكم عنه يوم الإثنين، ويبعث يوم الإثنين، ويموت يوم الإثنين. قال: ولد لي الليلة مع الصبح مولود، قال: فما سميته؟ قال: محمداً، قال: والله لقد كنت أشتهي أن يكون هذا المولود فيكم أهل هذا البيت، بثلاث خصال تعرّفه: فقد أتى عليهن منها: أنه طلع نجمه البارحة، وأنه ولد اليوم، وأن اسمه محمد. رواه أبو جعفر بن أبي شيبه^(١)، وخرجه أبو نعيم في الدلائل بسند فيه ضعف.

وقيل: كان مولده ﷺ عند طلوع الغفر، وهو ثلاثة أنجم صغار ينزلها القمر، وهو مولد النبيين، ووافق ذلك من الشهور الشمسية نيسان، وهو برج الحمل، وكان لعشرين مضت منه.

وقيل ولد ليلاً فعن عائشة قالت: كان بمكة يهودي يتجرّ فيها، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ قال: يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود قالوا لا نعلم قال ولد الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس فخرجوا باليهودي حتى أدخلوه على أمه فقالوا: أخرجي لنا ابنك فأخرجته وكشفوا عن ظهره فرأى تلك الشامة فوق اليهودي مغشياً عليه فلما أفاق قالوا مالك وملك قال: ذهبت والله النبوة من بني اسرائيل، رواه الحاكم.

(١) محمد بن عثمان العسبي الكوفي، محدثها الحافظ البار، صنف وجمع. وثقه صالح جزره وابن عدي وعبدان، وقال عبد الله بن أحمد: كذاب، وقال ابن خراش: يضع، وقال مطين: هو عصا موسى تلقف ما يأفكون، وقال ابن البرقاني: لم أزل أسمع أنه مقدوح فيه. مات سنه سبع وتسعين ومائتين.

قال الشيخ بدر الدين الزركشي: «والصحيح أن ولادته ﷺ كانت نهاراً، قال: وأما ما روي من تدلي النجوم فضعه ابن دحية لاقتضائه أن الولادة ليلاً. قال: وهذا لا يصلح أن يكون تعليلاً، فإن زمان النبوة صالح للخوارق، ويجوز أن تسقط النجوم نهاراً» انتهى.

[ليلة القدر وليلة المولد]

فإن قلت: إذا قلنا بأنه عليه الصلاة والسلام ولد ليلاً، فأما أفضل: ليلة القدر أو ليلة مولده صلى الله عليه وسلم؟

أجيب: بأن ليلة مولده أفضل من ليلة القدر من وجوه ثلاثة:

أحدها: أن ليلة المولد ليلة ظهوره ﷺ، وليلة القدر معطاة له، وما

شرف بظهور ذات المشرف من أجله أشرف / مما شرف بسبب ما ١٦/ب أعطيه، ولا نزاع في ذلك، فكانت ليلة المولد - بهذا الاعتبار - أفضل.

الثاني: أن ليلة القدر شرفت بنزول الملائكة فيها، وليلة المولد شرفت بظهوره ﷺ فيها. ومن شرفت به ليلة المولد أفضل ممن شرفت بهم ليلة القدر، على الأصح المرتضى، فتكون ليلة المولد أفضل.

الثالث: أن ليلة القدر وقع التفضل فيها على أمة محمد ﷺ، وليلة المولد الشريف وقع التفضل فيها على سائر الموجودات، فهو الذي بعثه الله عز وجل رحمة للعالمين، فعمت به النعمة على جميع الخلائق، فكانت ليلة المولد أعم نفعاً، فكانت أفضل^(١).

(١) قال الشهاب الهيثمي: إن أريد أن تلك الليلة ومثلها من كل سنة إلى يوم القيامة أفضل من ليلة القدر، فهذه الأدلة لا تنتج ذلك، كما هو جلي. وإن أريد عين تلك الليلة، فليلة القدر لم تكن موجودة إذا ذاك، وإنما أتى فضلها في الأحاديث الصحيحة على سائر ليالي السنة بعد الولادة، بمدة، =

فيا شهراً ما أشرفه وأوفر حرمة لياليه، كأنها لآلىء في العقود، ويا
وجهاً ما أشرفه من مولود، فسبحان من جعل مولده للقلوب ربيعاً وحسنه
بديعاً.

يقول لنا لسان الحال منه وقول الحق يعذب للسميع
فوجهي والزمان وشهر وضعي ربيع في ربيع في ربيع

[مدة الحمل ومكان الولادة]

واختلف أيضاً في مدة الحمل به، فقيل: تسعة أشهر^(١)، وقيل
ثمانية وقيل سبعة وقيل ستة^(٢).

وولد عليه السلام في الدار التي كانت لمحمد بن يوسف أخي
الحجاج^(٣) ويقال بالشعب، ويقال بالردم ويقال بعسفان^(٤).

= فلم يمكن اجتماعها حتى يأتي بينها تفضيل. وتلك انقضت وهذه باقية إلى
اليوم، وقد نص الشارع على أفضليتها، ولم يتعرض لليلة مولده، ولا
لأمثالها بالتفضيل أصلاً، فوجب علينا أن نقتصر على ما جاء منه، ولا
نبتدع شيئاً من عند نفوسنا القاصرة عن إدراكه إلا بتوقيف منه ﷺ. على
أنا لو سلمنا أفضلية لم يكن له فائدة، إذ لا فائدة في تفضيل الأزمنة إلا
بفضل العمل فيها، وأما تفضيل ذات الزمن الذي لا يكون فيه العمل
فليس له كبير فائدة. قال الشارح وهو كلام وجيه.

(١) قاله مغلطي وصدّر به. قال في الغرر وهو الصحيح.

(٢) حكى هذه الأقوال مغلطي وغيره.

(٣) وهي بزقاق المدكك، وكانت قبل ذلك بيد عقيل بن أبي طالب، فباعها
ولده من محمد بن يوسف.

(٤) حكاه مغلطي وهو قول شاذ.

[رضاعه عند الولادة]

وأرضعته ﷺ ثوية^(١)، عتيقة أبي هلب، أعتقها حين بشرته بولادته عليه السلام.

وقد رؤي أبو هلب بعد موته في النوم فقيل له ما حالك؟ فقال: في النار، إلا أنه خفف عني كل ليلة إثنين، وأمص من بين أصبعي هاتين ماء^(٢)، وأشار برأس أصبعه وأن ذلك بإعتاقي لثوية عندما بشرتني بولادة النبي ﷺ وبإرضاعها له.

قال ابن الجزري^(٣): فإذا كان هذا أبو هلب الكافر، الذي نزل القرآن بدمه جوزي في النار بفرحه ليلة مولد النبي ﷺ به، فما حال المسلم الموحد من أمته عليه السلام الذي يسر بمولده، ويبذل ما تصل إليه قدرته في محبته ﷺ، لعمري إنما يكون جزاؤه من الله الكريم أن يدخله بفضل العميم جنات النعيم.

(١) توفيت بمكة سنة سبع من الهجرة. قال ابن الجوزي: لا نعلم أنها أسلمت.

(٢) الحديث في البخاري بلفظ: (قال عروة: وثوية مولاة لأبي هلب، وكان أبو هلب أعتقها، فأرضعت النبي ﷺ، فلما مات أبو هلب أريه بعض أهله بشر حية قال له: ماذا لقيت؟ قال أبو هلب: لم ألق بعدكم، غير أني سقيت في هذه بعناتي ثوية) رقم ٥١٠١ كتاب النكاح. باب (٢٠).

قال ابن حجر (لم ألق بعدكم) كذا في الأصول بحذف المفعول، وفي رواية الاسماعيلي (لم ألق بعدكم رخاء) ١٤٥/٩ [م].

(٣) الحافظ أبو الخير شمس الدين، محمد بن محمد الدمشقي، الإمام في القراءات، الحافظ للحديث صاحب التصانيف التي منها «النشر في القراءات العشر» لم يصنف مثله. ولد سنة إحدى وخمسين وسبعائة، ومات سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة.

[الاحتفال بالمولد]

ولا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده عليه السلام، ويعملون الولائم، ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويظهرون السرور، ويزيدون في المبرات. ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم^(١).

ومما جرب من خواصه أنه أمان في ذلك العام، وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام، فرحم الله امرءاً اتخذ ليالي شهر مولده المبارك أعياداً، ليكون أشد علة على من في قلبه مرض وأعياء.

ولقد أطنب ابن الحاج^(٢) في «المدخل^(٣)» في الإنكار على ما أحدثه الناس من البدع والأهواء والغناء بالآلات المحرمة عند عمل

(١) [أول من احتفل بالمولد]

وأول من أحدث فعل ذلك، الملك المظفر، أبو سعيد صاحب أربل، قال ابن كثير في تاريخه: «كان يعمل المولد الشريف في ربيع الأول، ويحتفل فيه احتفالاً هائلاً، وكان شهماً شجاعاً بطلاً عاقلاً عالماً عادلاً، وطالت مدته في الملك إلى أن مات وهو محاصر الفرنج بمدينة عكا في سنة ثلاثين وستائة محمود السيرة والسريرة.

(٢) أبو عبد الله، محمد بن محمد العبدري الفارسي، أحد العلماء العاملين المشهورين بالزهد والصلاح، كان فقيهاً عارفاً بمذهب مالك، صحب جماعة من أصحاب القلوب، مات بالقاهرة سنة سبع وثلاثين وسبعائة.

(٣) كتاب «المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبية على كثير من البدع المحدثه والعوائد المنحلة» قال ابن فرحون: جمع فيه علماً غزيراً، ويجب على من ليس له في العلم قدم راسخ أن يهتم بالوقوف عليه.

المولد الشريف، فالله يثيبه على قصده الجليل، ويسلك بنا سبيل السنة، فإنه حسبنا ونعم الوكيل^(١).

(١) [الخلاصة في حكم المولد]

والحاصل: أن عمله بدعة، لكنه اشتمل على محاسن وضدها، فمن تحرى المحاسن واجتنب ضدها، كانت بدعة حسنة، ومن لا، فلا. قال الحافظ ابن حجر في جواب سؤال: وظهر لي تخريجه على أصل ثابت، وهو ما في الصحيحين: أن النبي ﷺ قدم المدينة، فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسألهم فقالوا: هو يوم أغرق الله فيه فرعون ونجى موسى، ونحن نصومه شكراً، قال: فيستفاد منه فعل الشكر على ما من به في يوم معين، وأي نعمة أعظم من بروز نبي الرحمة، والشكر يحصل بأنواع العبادة كالسجود والصيام والصدقة والتلاوة. وسبقه إلى ذلك الحافظ ابن رجب.

أقول: هذا ما قاله الشارح، وقد تحدث الإمام ابن تيمية عن هذا الموضوع في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم» في الصفحات ٢٩٤ - ٢٩٨، وخلاصة رأيه: أن البدع ليست في مستوى واحد، فالمنكر مراتب، كما أن البدعة الواحدة ليست في جميع الناس سواء، ومن ذلك قوله: «وكذلك ما يحدثه بعض الناس إما مضاهاة للنصارى في ميلاد عيسى ﷺ، وإما محبة للنبي ﷺ وتعظيماً له، والله قد يثيبهم على هذه المحبة والاجتهاد، لا على البدع، من اتخاذ مولد النبي ﷺ عيداً. . فإن هذا لم يفعله السلف. .». إلى أن يقول: «فتعظيم المولد واتخاذة موسماً، قد يفعله بعض الناس، ويكون له فيه أجر عظيم، لحسن قصده وتعظيمه لرسول الله ﷺ، كما قدمته لك أنه يحسن من بعض الناس ما يستقبح من المؤمن المسدد، ولهذا قيل للإمام أحمد عن بعض الأمراء: إنه أنفق على مصحف ألف دينار ونحو ذلك، فقال: دعه، فهذا أفضل ما أنفق فيه الذهب. مع أن مذهبه: أن زخرفة المصاحف مكروهة. .». [المحقق].

[ذكر رضاه ﷺ]

وقد ذكروا^(١) أنه لما ولد ﷺ، قيل: من يكفل هذه الدرّة اليتيمة، التي لا يوجد لمثلها قيمة؟ قالت الطيور: نحن نكفله ونغنم خدمته العظيمة، قالت الوحوش: نحن أولى بذلك ننال شرفه وتعظيمه، فنادى لسان القدرة: أن يا جميع المخلوقات: إن الله تعالى قد كتب في سابق حكمته القديمة أن نبيه الكريم يكون رضيعاً لحليمة الحليمة.

[حديث حليمة]

قالت حليمة^(٢): فيما رواه ابن إسحاق وابن راهويه^(٣) وأبو

(١) أي أهل الإشارة من الصوفية، فأما الفقهاء والمحدثون فلم يذكروا شيئاً من ذلك.

(٢) حليمة بنت أبي ذؤيب، عبد الله بن الحارث السعدية، قال في الاستيعاب: روى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار قال: جاءت حليمة بنت عبد الله أم النبي ﷺ من الرضاعة إليه يوم حنين، فقام إليها وبسط لها رداءه، فجلست عليه، وروت عن النبي ﷺ، وروى عنها عبد الله بن جعفر. قال في الإصابة: وحديث عبد الله بن جعفر عنها بقصة إرضاعه، أخرجه أبو يعلى وابن حبان في صحيحه، وصرح فيه بالتحديث بين عبد الله وحليمة.

(٣) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد التميمي، أحد الأئمة الأعلام، اجتمع له =

يعلى^(١) والطبراني والبيهقي وأبو نعيم: قدمت مكة في نسوة من بني سعد بن بكر، نلتمس الرضعاء في سنة شهباء، فقدمت على أتان لي ومعني صبي لنا وشارف لنا، والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك، لا يجد في ثديي ما يغنيه، ولا في شارفنا ما يغذيه.

فقدمنا مكة، فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها / رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لها يتيم، فوالله ما بقي من ١/١٧ صواحيبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما لم أجد غيره، قلت لزوجي^(٢): والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحيبي ليس معي رضيع، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلاأخذنه، فذهبت فإذا به مدرج في ثوب صوف أبيض من اللبن، يفوح منه المسك، وتحتة حريرة خضراء، راقداً على قفاه، يغط، فأشفقت أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله، فدنوت منه رويداً فوضعت يدي على صدره فتبسم ضاحكاً، وفتح عينيه لينظر إلي، فخرج من عينيه نور حتى دخل خلال السماء وأنا أنظر، فقبلته بين عينيه، وأعطيته ثديي الأيمن، فأقبل عليه بما شاء

= الحديث والفقه، والحفظ والصدق والورع، روى عنه الستة إلا ابن ماجه. قال ابن حنبل: هو أمير المؤمنين في الحديث، ما كان يحدث إلا من حفظه مات بنيسابور سنة ثمان وثلاثين ومائتين.

(١) الحافظ الثبت، محدث الجزيرة، أحمد بن علي التميمي الموصلي، صاحب المسند الكبير، ذو صدق وأمانة وعلم وحلم، وثقه ابن حبان والحاكم، ولد سنة عشر ومائتين، ومات سنة سبع وثلاثمائة.

(٢) الحارث بن عبد العزى بن رفاعة السعدي، يكنى أبا ذؤيب، أدرك الإسلام وأسلم، رواه يونس بن بكير. قال ابن إسحاق: وبلغني أنه إنما أسلم بعد وفاة النبي ﷺ، هكذا في رواية يونس.

من لبن، فحولته إلى الأيسر فأبى، وكانت تلك حاله بعد. - قال أهل العلم: أعلمه الله تعالى أن له شريكاً فألهمه العدل - قالت: فروي وروي أخوه.

ثم أخذته، فما هو إلا أن جئت به رحلي، فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي^(١) [وشرب أخوه حتى روي^(٢)]، فقام صاحبي - تعني زوجها - إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافل، فحلب ما شرب وشربت حتى روينا، وبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي: يا حليلة، والله إنني لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه، فلم يزل الله يزيدنا خيراً.

قال في رواية ذكرها ابن طغريك في «النطق المفهوم»: فلما نظر صاحبي إلى هذا قال لي: اسكتي واكتمي أمرك، فمن ليلة ولد هذا الغلام أصبحت الأحبار قواماً على أقدامها، لا يهنؤها عيش النهار ولا نوم الليل^(٣).

قالت حليلة: فودعت النساء بعضهن بعضاً وودعت أنا أم النبي ﷺ، ثم ركبت أتاني وأخذت محمداً ﷺ بين يدي، قالت: فنظرت إلى الأتان وقد سجدت نحو الكعبة ثلاث سجعات ورفعت رأسها إلى السماء ثم مشت حتى سبقت ذواب الناس الذين كانوا معي، وصار الناس يتعجبون مني وتقول النساء لي وهن ورائي: يا بنت أبي ذؤيب أهذه أتانك التي كنت عليها وأنت جائية معنا تفضك طوراً

(١) من قوله (فأقبل عليه ثدياي ..) ليس في ب .

(٢) في (أ، ش) .

(٣) قال الشارح: وإخباره بذلك عنهم لما بلغه أو شاهده من بعضهم؟!

وترفعك آخر؟ فأقول: تالله إنها هي فيتعجبين منها ويقلن إن لها لشأناً عظيماً. قالت: فكنت أسمع أتاني تنطق وتقول والله إن لي لشأناً ثم شأناً بعثني الله بعد موتي ورد لي سمني بعد هزالي، ويحكن يا نساء بني سعد إنكن لفي غفلة وهل تدرين من على ظهري، على ظهري خيار النبيين وسيد المرسلين وخير الأولين والآخرين وحبیب رب العالمین^(١).

قالت حلیمة - فيما ذكره ابن إسحاق وغيره -: ثم قدمنا منازل بني سعد، ولا أعلم أرضاً من أرض الله أجذب - [بالدال المهملة] - منها، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به شباعاً لبناً، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضر من قومنا يقولون لرعاتهم: اسرحوا حيث يسرح راعي غنم بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياً ما تبض بقطرة لبن، وتروح أغنامي شباعاً لبناً.

فله درها من بركة كثرت بها مواشي حلیمة ونمت وارتفع قدرها به وسمت ولم تزل حلیمة تتعرف الخير والسعادة وتفوز منه بالحسنى وزيادة.

لقد بلغت بالها شمي حلیمة مقاماً عالياً في ذروة العز والمجد وزادت مواشيها وأخصب ريعها وقد عم هذا السعد كل بني سعد قال ابن الطراح رأيت في كتاب الترقيص لأبي عبد الله محمد بن المعلی الأزدي أن من شعر حلیمة ما كانت ترقص به النبي ﷺ :
يا رب إذ أعطيته فأبقه وأعله إلى العلاء وأرقه

(١) هذا الكلام بلسان الحال، وليس هناك ما يثبتته. [المحقق].

وأدحض أباطيل العدا بحقه

ب/١٧ / وعند غيره كانت الشياء^(١) أخته من الرضاعة تحضنه وترقصه
وتقول:

هذا أخي لم تلده أمي وليس من نسل أبي وعمي
فديته من مخول معمي فأغمه اللهم فيما تنمي

[حديث غريب الإسناد والمتن]

وأخرج البيهقي والصابوني في المائتين والخطيب وابن عساكر في تاريخهما وابن طغربك السيف في النطق المفهوم عن العباس بن عبد المطلب قال: قلت: يا رسول الله دعاني للدخول في دينك أمانة لنبوتك رأيتك في المهد تناغي القمر وتشير إليه بأصبعك فحيث أشرت إليه مال قال: إني كنت أحدثه ويحدثني ويلهيني عن البكاء وأسمع وجبته حين يسجد تحت العرش قال: البيهقي: تفرد به أحمد بن إبراهيم الجيلي وهو مجهول وقال الصابوني^(٢): هذا حديث غريب الإسناد والمتن وهو في المعجزات حسن^(٣).
والمناغاة: المحادثة، وقد ناغت الأم صبيها: لاطفته
وشاغلته بالمحادثة والملاعبة.

(١) الشيماء ويقال الشماء، ابنة الحارث بن عبد العزى السعدية. ذكرها أبو نعيم وغيره في الصحابة، واسمها جداعة.

(٢) أبو عثمان، إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، شيخ الإسلام، المفسر المحدث الفقيه الواعظ، الخطيب، ولد سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، وتوفي سنة سبع وأربعين وأربعمائة.

(٣) قوله: «وهو حسن في المعجزات» قول غريب، فالمعجزات مرتبطة بالعقيدة ولا يقبل فيها إلا الحديث الصحيح [وانظر - إن رغبت - كتاب من معين الخصائص النبوية، للمحقق، ص(٢٩٨ - ٣١٢) نشره المكتب الإسلامي].

[التكلم في المهدي وخصائص أخرى]

وفي فتح الباري عن سيرة الواقدي^(١): أنه ﷺ تكلم في أوائل ما ولد^(٢). وذكر ابن سبع في الخصائص أن مهده كان يتحرك بتحريك الملائكة.

وأخرج البيهقي وابن عساكر عن ابن عباس قال كانت حليلة تحدث أنها أول ما فطمت رسول الله ﷺ تكلم فقال: الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً، فلما ترعرع كان يخرج فينظر إلى الصبيان يلعبون فيجتنبهم. الحديث.

وقد روى ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر، عن ابن عباس قال: كانت حليلة لا تدعه يذهب مكاناً بعيداً، فغفلت عنه، فخرج مع اخته الشيماء في الظهيرة إلى البهم، فخرجت حليلة تطلبه، حتى تجده مع أخته فقالت: في هذا الحر؟ قالت أخته: يا أمه ما وجد أخي حرّاً، رأيت غمامة تظل عليه، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت حتى انتهى إلى هذا الموضع الحديث.

وكان ﷺ يشب شباباً لا يشبه الغلمان.

(١) محمد بن عمر بن واقد الواقدي، أبو عبد الله، المدني الحافظ. كذبه أحمد، وتركه ابن المبارك وغيره، قال في الميزان: استقر الإجماع على وهنه، وفي التقريب: متروك مع سعة علمه. مات سنة سبع ومائتين. روى له ابن ماجه.

(٢) التكلم في المهدي ليس من خصائص الأنبياء، فقد تكلم فيه: ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج. رواه أحمد والحاكم مرفوعاً. وعند مسلم في قصة أصحاب الأخدود: أن امرأة جيء بها لتلقى في النار لتكفر، ومعها صبي فتقاعست فقال لها: يا أمه اصبري فإنك على الحق.

[حادثة شق الصدر]

قالت حليلة: فلما فصلته قدمنا به على أمه، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا، لما نرى من بركته، فكلمنا أمه وقلنا: لو تركيته عندنا حتى يغلظ، فإننا نخشى عليه وباء مكة، ولم نزل بها حتى رده معنا فرجعنا به.

فوالله إنه لبعد مقدمنا بشهرين أو ثلاثة مع أخيه من الرضاعة، لفي بهم لنا خلف بيوتنا، جاء أخوه يشتد، فقال: ذاك أخي القرشي، قد جاء رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعهما وشقا بطنه، فخرجت أنا وأبوه نشد نحوه، فنجده قائماً منتقماً لونه، فاعتنقه أبوه وقال: أي بني، ما شأنك، فقال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني فشقا بطني، ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه، ثم رداه كما كان. فرجعنا به معنا، فقال أبوه: يا حليلة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب، فانطلقني بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف، قالت حليلة فاحتملناه حتى قدمنا به مكة إلى أمه، فقالت: ما ردكها به، فقد كنتما حريصين عليه؟ قلنا نخشى عليه الإلتلاف والأحداث، فقالت: ما ذاك بكما، فاصدقاني شأنكما، فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره، قالت: ١/١٨ أخشيتما عليه الشيطان، كلا والله / ما للشيطان عليه سبيل، وإنه لكائن لابني هذا شأن عظيم فدعاه عنكما.

وفي حديث شداد بن أوس عن رجل من بني عامر، عند أبي يعلى وأبي نعيم وابن عساكر: أن رسول الله ﷺ قال: كنت مسترضعاً في بني سعد بن بكر، فبينما أنا ذات يوم في بطن واد، مع أتراب لي من الصبيان، إذا أنا برهط ثلاثة معهم طست من ذهب، مليء ثلجاً،

فأخذوني من بين أصحابي، وانطلق الصبيان هرباً مسرعين إلى الحي، فعمد أحدهم فأضجني على الأرض إضجاعاً لطيفاً، ثم شق ما بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي وأنا أنظر إليه، لم أجد لذلك مساً، ثم أخرج أحشاء بطني ثم غسلها بذلك الثلج، فأنعم غسلها، ثم أعادها مكانها، ثم قام الثاني فقال لصاحبه تنح، ثم أدخل يده في جوفي فأخرج قلبي وأنا أنظر إليه فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها ثم قال بيده يمنة ويسرة كأنه يتناول شيئاً فإذا بخاتم في يده من نور يحار الناظر دونه فحتم به قلبي فامتلاً وذلك نور النبوة والحكمة ثم أعاده مكانه فوجدت برد ذلك الخاتم في قلبي دهرأً، ثم قال الثالث لصاحبه تنح، فأمر يده بين مفرق صدري إلى منتهى عانتي فالتأم ذلك الشق بإذن الله تعالى، ثم أخذ بيدي فأهضني من مكاني إنهاضاً لطيفاً ثم قال للأول^(١): زنه بعشرة من أمته فوزنوني بهم فرجحتهم ثم قال زنه بمائة من أمته فرجحتهم ثم قال زنه بألف فرجحتهم فقال: دعوه فلو وزنتموه بأمته كلها لرجحهم، ثم ضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني ثم قالوا: يا حبيب لم ترع إنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرت عينك الحديث.

وفي رواية ابن عباس، عند البيهقي، قالت حليلة: إذا أنا بابني ضمرة يعدو فزعاً، وجبينه يرشح باكياً ينادي: يا أبت، يا أمه، الحقاً محمداً فما تلحقاه إلا ميتاً. أتاه رجل فاخطفه من أوساطنا، وعلا به ذروة الجبل، حتى شق صدره إلى عانته، وفيه: أنه عليه السلام قال: أتاني رهط ثلاثة، بيد أحدهم إبريق من فضة، وفي يد الثاني طست من زمردة خضراء. الحديث.

(١) في ش: الأول للثالث.

فإن قلت: هل غسل قلبه الشريف في الطست خاص به، أو فعل بغيره من الأنبياء عليهم السلام؟

أجيب: بأنه ورد في خبر التابوت والسكينة: أنه كان فيه الطست الذي غسلت فيه قلوب الأنبياء، ذكره الطبري، وعزاه العماد ابن كثير في تفسيره لرواية السدي عن أبي مالك عن ابن عباس.

فإن قلت: ما الحكمة في ختم قلبه المقدس؟

أجيب: بأنه إشارة إلى ختم الرسالة به، وهذا مسلم، إن كان الختم خاصاً به، أما إذا ورد أنه ليس خاصاً به بل بكل نبي - وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً ما في الخاتم الشريف من المباحث - فتكون الحكمة أنه علامة يمتاز بها عن غيره ممن ليس بنبي^(١).

والمراد بالوزن: في قوله: «زنه بعشرة الخ» الوزن الاعتباري، فيكون المراد الرجحان في الفضل، وهو كذلك.

وفائدة فعل الملكين، ذلك، ليعلم الرسول ذلك، حتى يخبر به غيره ويعتقده، إذ هو من الأمور الاعتقادية.

[شق الصدر وقع أكثر من مرة]

وقد وقع شق صدره الشريف [واستخراج قلبه^(٢)] مرة أخرى عند مجيء جبريل له بالوحي في غار حراء. ومرة أخرى عند الإسراء به، وسيأتي كل في موضعه إن شاء الله تعالى.

(١) في ش: هذه الجملة مقدمة على الجملة المعترضة.

(٢) في ش.

وروى الشق أيضاً، وهو ابن عشر أو نحوها، مع قصة له مع عبد المطلب، أبو نعيم في الدلائل.

[وفي فتح الباري في كتاب التوحيد، عزو ذلك لحديث أبي هريرة عند عبد الله بن أحمد / في زوائد المسند، وقال البيهقي ١٨/ب في مجمع الزوائد: رجاله ثقات، وثقهم ابن حبان^(١)].

وروي خامسة، ولا تثبت.

والحكمة في شق صدره الشريف في حال صباه، واستخراج العلقه منه، تطهيره عن حالات الصبا حتى يتصف في سن الصبا بأوصاف الرجولية، ولذلك نشأ عليه السلام على أكمل الأحوال من العصمة

(١) هذه الفقرة في الأصل فقط.

[خاتم النبوة]

وقد روي أنه ختم بخاتم النبوة بين كتفيه، وكان ينم مسكاً^(١)،
وأنه مثل زر الحجلة، ذكره البخاري^(٢).

وفي مسلم: جمع عليه خيلان، كأنها الثآليل السود عند نغض
كتفه^(٣)، ويروى: غضروف كتفه اليسرى.
وفي كتاب أبي نعيم: الأيمن^(٤).
وفي مسلم أيضاً: كبيضة الحمام^(٥).
وفي صحيح الحاكم: شعر مجتمع^(٦).

(١) قال القرطبي في المفهم: سمي بذلك لأنه أحد العلامات التي يعرفه بها
علماء الكتب السابقة، ولذا لما حصل عند سلمان من علامات صدقه ما
حصل، كموضع مبعثه ومهاجره، جد في طلبه فجعل يتأمل ظهره، فعلم
ﷺ أنه يريد الوقوف على خاتم النبوة فأزال الرداء عنه، فلما رأى سلمان
الخاتم، أكب عليه فقبله، وقال: أشهد أنك رسول الله.

(٢) رواه البخاري برقم (١٩٠) وهو عند مسلم برقم (٢٣٤٥).

(٣) رواه مسلم برقم (٢٣٤٦) وفي مسند أحمد ٨٢/٥ و ٨٣.

(٤) قال الشارح: ولا شك في شذوذ هذا لمباينته ما في الصحيح الواجب
تقديمه.

(٥) رواه مسلم: باب الفضائل برقم ١٠٩ و ١١٠ وفي مسند أحمد ٩٠/٥.

(٦) وكذا في الترمذي وأبي يعلى والطبراني كلهم من حديث عمرو بن أخطب.

وفي البيهقي : مثل السلعة^(١).
وفي الشئبل^(٢) : بضعة ناشزة
وفي حديث عمرو بن أخطب^(٣) : كشيء يجتم به .
وفي تاريخ ابن عساكر : مثل البندقة^(٤) .
وفي الترمذي ودلائل البيهقي : كالتفاحة .
وفي الروض : كأثر المحجمة القابضة على اللحم .
وفي تاريخ ابن أبي خيثمة : شامة خضراء محتفرة في اللحم .
وفيه أيضاً : شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات
متراكمت كأنها عرف الفرس .
وفي تاريخ القضاعي : ثلاث شعرات مجتمعات .
وفي كتاب^(٥) الترمذي الحكيم^(٦) : كبيضة حمام ، مكتوب في
باطنها : الله وحده لا شريك له ، وفي ظاهرها : توجه حيث كنت فإنك
المنصور^(٧) .

-
- (١) وهو عند أحمد ٣٥/٥ وابن سعد من طرق . والسلعة خراج في البدن .
(٢) للترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : الخاتم الذي بين كتفي رسول الله
ﷺ بضعة ناشزة .
(٣) عند ابن أبي شيبة .
(٤) وكذا تاريخ الحاكم ، وصحيح ابن حبان .
(٥) كتاب نواذر الأصول .
(٦) الإمام الحافظ محمد بن علي الترمذي الحكيم ، الصوفي ، سمع الكثير من
الحديث بالعراق ونحوه ، وهو من طبقة البخاري . قال ابن النجار في
تاريخه : كان إماماً من أئمة المسلمين ، له المصنفات الكبار في أصول الدين ،
ومعاني الحديث ، لقي الأئمة الكبار وأخذ عنهم . وقد أطال القشيري وغيره
بالثناء عليه . مات سنة خمس وتسعين ومائتين .
(٧) ويأتي أنه غير ثابت . قال في المورد : هو حديث باطل .

وفي كتاب المولد لابن عائذ: كان نوراً يتلألاً.
وفي سيرة ابن أبي عاصم: عذرة كعذرة الحمام، قال أبو أيوب:
يعني قرطمة الحمامة.
وفي تاريخ نيسابور^(١): مثل البندقة من لحم مكتوب فيه
باللحم: محمد رسول الله.
وعن عائشة^(٢): كتينة صغيرة تضرب إلى الدهمة، وكان مما يلي
الفقار قالت: فلمسته حين توفي فوجدته قد رفع.
حكى هذا كله الحافظ مغلطاي^(٣).

[نقد بعض الروايات]

لكن قال في فتح الباري: ما ورد من أن الخاتم كان كأثر
المحجم، أو كالشامة السوداء أو الخضراء، مكتوب عليها: محمد
رسول الله، أو: سر فإنك المنصور. لم يثبت منها شيء. قال: ولا يغتر
بما وقع في صحيح ابن حبان، فإنه غفل حيث صحح ذلك.
وقال الهيثمي^(٤) في «موارد الظمان» بعد أن أورد الحديث
ولفظه: مثل البندقة من اللحم مكتوب عليه: محمد رسول الله.
اختلط على بعض الرواة خاتم النبوة بالخاتم الذي كان يختم به.

(١) لأبي عبد الله الحاكم.

(٢) أي في تاريخ نيسابور أيضاً.

(٣) في الزهر الباسم.

(٤) الحافظ نور الدين، أبو الحسن، علي بن بكر بن سليمان الهيثمي، رفيق
أبي الفضل العراقي، ولد سنة خمس وثلاثين وسبعمئة، ورافق العراقي في
سماع الحديث ولازمه، وألف وجمع، مات سنة سبع وثمانمئة.

ويخط الحافظ ابن حجر على الهامش: البعض المذكور هو إسحاق بن إبراهيم قاضي سمرقند وهو ضعيف.

[شرح معاني الكلمات]

وقوله: زر الحجلة - بالزاي والراء - والحجلة - بالحاء المهملة والجيم - قال النووي: هي واحدة الحجال، وهي بيت كالقبة، لها أزرار كبار وعرى، هذا هو الصواب. وقال بعضهم: المراد بالحجلة: الطائر المعروف. وزرها: بيضها، وأشار إليه الترمذي^(١) وأنكره عليه العلماء.

وقوله: جمع - بضم الجيم وإسكان الميم - أي كجمع الكف، وصورته: أن تجمع الأصابع وتضمها.

وقوله: خيلان: - بكسر الخاء المعجمة وإسكان التحتية - جمع خال، وهو الشامة على الجسد.

وقوله: نغض: - بالنون والغين والضاد، المعجمتين - قال النووي: النُّغْض والنَّغْض والناغض: أعلى الكتف، وقيل هو العظم الرقيق الذي على طرفه، وقيل: ما يظهر منه عند التحرك، سمي ناغضاً لتحركه.

وقوله: بضعة ناشزة - بالمعجمة والزاي - أي قطعة لحم مرتفعة على جسده. وبيضة الحمامة: معروفة. انتهى^(٢).

والتآليل: - بالثلثة - جمع ثؤلول: وهو حب يعلو ظاهر الجسد، واحدته كالحمصه فما دونها.

(١) قال في جامعه: المراد بالحجلة: هذا الطائر المعروف، وزرها: بيضها.

(٢) أي كلام النووي.

وفي القاموس: وقرطمتا الحمام - أي بكسر القاف - نقطتان على أصل منقاره.

[الجمع بين الروايات]

وقال بعض العلماء: اختلفت أقوال الرواة في خاتم النبوة، وليس ذلك باختلاف، بل كل شبه بما سنح له، وكلها ألفاظ مؤداها واحد، وهو: قطعة لحم، ومن قال: شعر، فلأن الشعر حوله متراكم عليه، كما في الرواية الأخرى.

وقال القرطبي^(١): الأحاديث الثابتة دالة على أن خاتم النبوة كان شيئاً بارزاً أحمر عند كتفه الأيسر، إذا قلل، قدر بيضة الحمامة، وإذا كبر: جمع اليد.

وقال القاضي عياض^(٢): وهذه/ الروايات متقاربة متفرقة، متفقة على أنه شاخص في جسده، قدر بيضة الحمامة، وزر الحجلة. وأما رواية جمع الكف فظاهرها المخالفة، فتأول على وفق الروايات

١/١٩

(١) أبو العباس، أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصاري القرطبي، المالكي الفقيه المحدث، نزيل الاسكندرية ومدرسها، ولد سنة ثمان وسبعين وخمسة مائة وتوفي سنة ست وخمسين وستائة، اختصر الصحيحين، وصنف المفهم في شرح صحيح مسلم.

(٢) القاضي أبو الفضل، عياض بن موسى، السبتي الأندلسي، حافظ مذهب مالك، الأصولي، العلامة الحافظ، إمام المحدثين، وأعرف الناس بعلمه، وبالتفسير. شاعر بليغ، صاحب التصانيف المشهورة: كشرح مسلم، والشفاء، والأعلام والمشارك، وهو كتاب لو وزن بالجواهر أو كتب بالذهب كان قليلاً فيه. ولد سنة ست وسبعين وأربعمائة وتوفي - متغرباً عن وطنه - سنة أربع وأربعين وخمسة مائة.

الكثيرة، ويكون معناه: على هيئة جمع الكف، لكنه أصغر منه في قدر بيضة الحمامة. قال: وهذا الخاتم هو أثر شق الملكين بين كتفيه.

قال النووي: هذا الذي قاله ضعيف، بل باطل، لأن شق الملكين إنما كان في صدره وبطنه. انتهى.

ويشهد له قول أنس في حديث عند مسلم - يأتي في ذكر قلبه الشريف، من المقصد الثالث، إن شاء الله تعالى -: فلقد كنت أرى أثر المخيط في صدره(١).

لكن أجيب: بأن في حديث عتبة(٢) بن عبد السلمي - عند أحمد(٣) والطبراني - أن الملكين لما شقا صدره قال أحدهما للآخر: خطه، فخاطه وختم عليه بخاتم النبوة، فلما ثبت أن خاتم النبوة بين كتفيه حمل القاضي عياض ذلك على أن الشق لما وقع في صدره، ثم خيط حتى التأم كما كان، ووقع الختم بين كتفيه كان ذلك أثر الختم. وفهم النووي وغيره منه: أن قوله بين كتفيه متعلق بالشق وليس كذلك، بل هو متعلق بأثر الختم، وحينئذ فليس ما قاله القاضي عياض باطل، انتهى.

وقال السهيلي: والصحيح أنه - يعني خاتم النبوة - كان عند نغض كتفه الأيسر.

(١) رواه مسلم. كتاب الإيمان رقم ٢٦١ وفي مسند أحمد ١٢١/٣.

(٢) في ط: عقبة وهو خطأ مطبعي.

وعتبة بن عبد السلمي، صحابي شهير، أول مشاهده قريظة، مات سنة سبع وثمانين وقد قارب المائة رضي الله عنه.

(٣) المسند ١٨٤/٤.

[هل كان الخاتم عند الولادة]

واختلف هل ولد به؟ أو وضع بعد ولادته؟ على قولين

وقد وقع التصريح بوقت وضع الخاتم، وكيف وضع، ومن وضعه، في حديث أبي ذر^(١) عند البزار وغيره^(٢) قال: قلت يا رسول الله: كيف علمت أنك نبي، وبم علمت أنك نبي حتى استيقنت؟ قال: أتاني آتيان، وفي رواية ملكان، وأنا ببطحاء مكة، فوقع أحدهما بالأرض، وكان الآخر بين السماء والأرض، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: هو هو، قال: فزنه برجل... الحديث، وفيه: ثم قال أحدهما لصاحبه: شق بطنه، فشق بطني فأخرج قلبي فأخرج منه معمر الشيطان^(٣) وعلق الدم فطرحهما، فقال أحدهما لصاحبه: اغسل بطنه غسل الإناء، واغسل قلبه غسل الملاء، ثم قال أحدهما لصاحبه: خط بطنه، فخاط بطني وجعل الخاتم بين كتفي كما هو الآن، ووليا عني، وكأني أرى الأمر معاينة.

وعند أبي نعيم في الدلائل: أنه ﷺ لما ولد، ذكرت أمه أن

(١) جندب بن جنادة الغفاري، قديم الإسلام، ذي الزهد الزائد، والفضل المنوه عليه بقوله ﷺ: (ما أظلت الخضراء وما أقلت الغبراء بعد النبيين امرأة) أصدق لهجة من أبي ذر) أخرجه أحمد وغيره. مات بالربذة سنة اثنتين وثلاثين.

(٢) كالدارمي وابن أبي الدنيا وابن عساكر والضياء في المختارة.

(٣) في الصحيحين عن أبي هريرة عنه ﷺ (ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان، فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمها) قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾.

الملك غمسه في الماء الذي أنبعه^(١) ثلاث غمسات، ثم أخرج سرقة^(٢) من حرير أبيض، فإذا فيها خاتم فضرب على كتفه كالبيضة المكنونة، تضيء كالزهرة.

وقيل: ولد به، فالله أعلم.

[علامات نبوة الأنبياء]

وأخرج الحاكم في المستدرک عن وهب بن منبه قال: لم يبعث الله نبياً إلا وقد كان عليه شامات النبوة في يده اليمنى، إلا أن يكون نبينا ﷺ فإن شامة النبوة كانت بين كتفيه.

وعلى هذا: فيكون وضع الخاتم بين كتفيه بإزاء قلبه مما اختص به عن سائر الأنبياء والله أعلم.

(١) أي أحضره الملك ذلك الوقت في الإبريق الفضة، كما مر في حديث أبي نعيم.

(٢) سرقة - بفتح المهملة والراء والقاف - أي قطعة.

[ذكر وفاة أمّنة]

ولما بلغ ﷺ أربع سنين - وقيل خمساً، وقيل ستاً، وقيل سبعمائة، وقيل تسعاً، وقيل اثنتي عشرة سنة وشهراً وعشرة أيام - ماتت أمه بالأبواء^(١) وقيل بشعب أبي ذئب بالحجون^(٢). وفي القاموس: ودار راعة بمكة فيها مدفن أمّنة أم النبي صلى الله عليه وسلم.

وأخرج ابن سعد عن ابن عباس وعن الزهري، وعن عاصم بن عمرو بن قتادة^(٣) دخل حديث بعضهم في حديث بعض قالوا: لما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين خرجت به أمه إلى أخواله^(٤) بني عدي بن النجار بالمدينة تزورهم، ومعه أم أيمن^(٥)، فنزلت به دار التابعة^(٦).

(١) واد بين مكة والمدينة. وبهذا القول قال ابن إسحاق، وجزم به العراقي وتلميذه الحافظ قال الشارح وهو المشهور.

(٢) جبل بمحلة مكة.

(٣) ابن النعمان، المدني الأنصاري الأوسي، العالم الثقة، كثير الحديث العلامة بالمغازي، مات سنة عشرين ومائة. خرج له الجماعة.

(٤) هم أخوال جده عبد المطلب، فإضافتهم إليه مجاز.

(٥) بركة الحبشية بنت ثعلبة، أعتقها أبو المصطفى، أسلمت قديماً، وهاجرت المهاجرتين مناقبها كثيرة، وفي صحيح مسلم عن الزهري: أنها ماتت بعده ﷺ بخمسة أشهر. وروى ابن سعد بسند صحيح: «لما قتل عمر بكت أم أيمن، فقيل لها، فقالت: اليوم وهي الإسلام» وهذا موصول فهو أقوى من خبر الزهري المرسل.

(٦) كذا في (ب، ش) وفي (ط) التابعة وفي (أ، د) النابغة، والتابعة رجل من =

فأقامت به عندهم شهراً، فكان ﷺ يذكر أموراً كانت في مقامه ذلك، ونظر إلى الدار فقال: ها هنا نزلت بي أُمِّي، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار، وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إلي. قالت أم أيمن فسمعت أحدهم يقول: هو نبي هذه الأمة، وهذه دار هجرته، فوعيت ذلك كله من كلامهم، ثم رجعت به أمه إلى مكة، فلما كانت بالأبواء توفيت.

وروى أبو نعيم من طريق الزهري عن أسماء بنت رهم عن أمها قالت: شهدت أمنة أم النبي ﷺ في علتها التي ماتت بها، ومحمد / عليه السلام غلام يفع^(١) له خمس سنين عند رأسها، فنظرت إلى ١٩/ب وجهه ثم قالت:

بارك الله فيك من غلام يا ابن الذي من حومة الحمام
نجا بعون الملك المنعم فودي غداة الضرب بالسهام
بمائة من إبل سوام إن صح ما أبصرت في المنام
فأنت مبعوث إلى الأنام من عند ذي الجلال والإكرام
تبعث في الحل وفي الحرام تبعث في التحقيق والإسلام
دين أبيك البر إبراهيم فالله أنك عن الأصنام

أن لا توالياها مع الأقوام^(٢)

ثم قالت: كل حي ميت، وكل جديد بال، وكل كبير يفتى،

= بني عدي بن النجار.

(١) في (أ) يفع، وفي النسخ: يفع. قال في القاموس: غلام يافع و غلام يفع، بالفاء.

(٢) لا شك أن هذا الشعر محدث مفتعل، وإلا فهل كانت أمنة تعلم الغيب؟!

• [م]

وأنا ميتة وذكرى باق، وقد تركت خيراً، وولدت طهراً، ثم ماتت.
فكنا نسمع نوح الجن عليها فحفظنا من ذلك هذه الآيات:

نبكي الفتاة البرة الأمانة ذات الجلال العفة الرزينة
زوجة عبد الله والقريظة أم نبي الله ذي السكينة
وصاحب المنبر بالمدينة صارت لدى حفرتها رهينة^(١)

(١) هل كان الجن يعلمون الغيب؟! رحم الله المصنف فقد كان يحسن به أن
ينزه كتابه عن مثل هذا [م].

[قضية نجاته والديه ﷺ]

[خبر إيمان والدته]

وقد روي أن آمنة آمنت به ﷺ بعد موتها.

فروى الطبري^(١) بسنده عن عائشة أن النبي ﷺ نزل الحجون كثيراً حزناً، فأقام به ما شاء الله عز وجل، ثم رجع مسروراً، قال: سألت ربي فأحيا لي أمي، فأمنت بي ثم ردها.

ورواه أبو حفص بن شاهين^(٢) في كتاب «الناسخ والمنسوخ» له، بلفظ: قالت عائشة: حج بنا رسول الله ﷺ حجة الوداع، فمر بي على عقبة الحجون، وهو باك حزين مغتم، فبكيت لبكائه، ثم إنه نزل فقال: يا حميراء^(٣) استمسكي، فاستندت إلى جنب البعير، فمكثت

(١) في ط: الطبراني، وكذا في ب ولكنه صحح في هامشها.

الحافظ محب الدين، أحمد بن عبد الله، أبو العباس، المكي الطبري، الإمام المحدث الصالح الزاهد الشافعي، فقيه الحرم ومحدث الحجاز المتوفى سنة أربع وتسعين وستمائة.

(٢) الحافظ الكبير، الإمام المفيد، عمر بن أحمد بن عثمان البغدادي، الثقة المأمون، صنف ثلاثمائة وثلاثين مصنفاً منها: التفسير الكبير ألف جزء، والمسند ألف وثلاثمائة جزء. مات سنة خمس وثمانين وثلاثمائة.

(٣) تصغير حمراء، أي بيضاء، للتحبب، كقولهم: يا بُني، يا أُخي.

ملياً، ثم عاد إلي وهو فرح متبسم فقال: ذهبت لقبر أمي فسألت ربي أن يحييها، فأحيأها فأمنت بي^(١).

[خبر إيمان والديه]

وكذا روي من حديث عائشة أيضاً إحياء أبويه ﷺ حتى آمنا به .
أورده السهيلي، وكذا الخطيب في السابق واللاحق .

وقال السهيلي: إن في إسناده مجاهيل .
وقال ابن كثير: إنه حديث منكر جداً، وسنده مجهول .
وقال ابن دحية: هذا الحديث موضوع يرده القرآن والإجماع .
انتهى .

[القول بنجاتهما]

وقد جزم بعض العلماء: أن أبويه ﷺ ناجيان، وليسا في النار، متمسكاً بهذا الحديث وغيره .

وتعقبه عالم آخر: بأنه لم ير أحداً صرح بأن الإيمان بعد انقطاع العمل بالموت ينفع صاحبه، فإن ادعى أحد الخصوصية فعليه الدليل .
انتهى .

وقد سبقه لذلك، أبو الخطاب بن دحية، وعبارته: من مات

(١) أخرج الدارقطني هذا الحديث من هذا الوجه وقال: باطل . وابن عساكر وقال: منكر وهشام لم يدرك عائشة .

وذكره ابن الجوزي في الموضوع ولم يتكلم على رجاله .
وقد ناقش الشارح مسألة كونه موضوعاً، وتوصل إلى أنه ضعيف لا موضوع .

كافراً لم ينفعه الإيمان بعد الرجعة، بل لو آمن عند المعاينة لم ينفعه ذلك، فكيف بعد الإعادة. انتهى.

وتعقبه القرطبي^(١) في «التذكرة»: بأن فضائله ﷺ وخصائصه لم تنزل تتوالى وتتابع إلى حين مماته، فيكون هذا مما فضله الله به وأكرمه، قال: وليس إحيائهما وإيمانها بمتنع عقلاً ولا شرعاً، فقد ورد في الكتاب العزيز إحياء قتيل بني إسرائيل، وإخباره بقاتله، وكان عيسى عليه السلام يحيي الموتى، وكذلك نبينا ﷺ أحيا الله على يده جماعة من الموتى^(٢).، وإذا ثبت هذا فلا يمتنع إيمانها بعد إحيائهما، ويكون ذلك زيادة في كرامته وفضيلته.

ثم قال: وقوله: من مات كافراً إلى آخر كلامه، مردود بما روي في الخبر أن الله تعالى رد الشمس على نبيه ﷺ بعد مغيبها. ذكره الطحاوي^(٣) وقال: إنه حديث ثابت، فلو لم يكن رجوع الشمس نافعاً، وأنه لا يتجدد به الوقت لما ردها / عليه، فكذا يكون ١/٢٠ إحياء أبي النبي ﷺ نافعاً لإيمانها وتصديقها بالنبي ﷺ انتهى.

وقد طعن بعضهم في حديث رد الشمس. كما سيأتي إن شاء الله في مقصد المعجزات.

(١) الإمام المفسر، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، أبو عبد الله، الأنصاري، الورع الزاهد، صاحب التصانيف العديدة، المشغول بما يعنيه، أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة وتصنيف، سمع أبا العباس القرطبي، صاحب المفهم، وغيره توفي سنة إحدى وسبعين وستمائة.

(٢) ذكر ذلك المصنف في المعجزات.

(٣) الإمام العلامة الحافظ، صاحب التصانيف البديعة، أبو جعفر، أحمد بن محمد بن سالم الأزدي الطحاوي المصري، الحنفي، الثقة الثبت الفقيه. ولد سنة تسع وثلاثين ومائتين. ومات سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.

[من أدلة القائلين بنجاتها]

[١] موتها زمن الفترة

وقد تمسك القائل بنجاتها أيضاً بأنها ماتا قبل البعثة، في زمن الفترة، ولا تعذيب قبلها لقوله تعالى: ﴿وما كنا معذيين حتى نبعث رسولاً﴾^(١) قال: وقد أطبقت الأئمة الأشاعرة من أهل الكلام والأصول، والشافعية من الفقهاء على أن مات ولم تبلغه الدعوة يموت ناجياً،

[٢] آباء الأنبياء مؤمنون

قال: وقال الإمام فخر الدين الرازي في كتابه «أسرار التنزيل» ما نصه: «قيل أن أزر لم يكن والد إبراهيم، بل كان عمه، واحتجوا عليه بوجوه، منها: أن آباء الأنبياء ما كانوا كفاراً، ويدل عليه وجوه منها: قوله تعالى: ﴿الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين﴾^(٢) قيل معناه: أنه كان ينتقل نوره من ساجد إلى ساجد، ففيه دلالة على أن جميع آباء محمد كانوا مسلمين».

ثم قال: ومما يدل على أن آباء محمد ﷺ ما كانوا مشركين، قوله عليه السلام: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» وقال تعالى: ﴿إنما المشركون نجس﴾^(٣) فوجب أن لا يكون أحد من أجداده مشركاً. كذا قال.

(١) سورة الإسراء الآية ١٥ .

(٢) سورة الشعراء الآية ٢١٩ .

(٣) سورة التوبة الآية ٢٨ .

[مناقشة الأدلة السابقة]

وهو متعقب:

● بأنه لا دلالة في قوله: ﴿وتقلبك في الساجدين﴾ على ما ادعاه، فقد ذكر البيضاوي - في تفسيره - وغيره، أن معنى الآية: وترددك في تصفح أحوال المتهجدين، كما روي أنه لما نسخ فرض قيام الليل طاف عليه السلام تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون، حرصاً على كثرة طاعاتهم، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع لها من دندنتهم بذكر الله تعالى.

● وقد ورد النص بأن أبا إبراهيم عليه الصلاة والسلام مات على الكفر، كما صرح به البيضاوي وغيره، قال تعالى: ﴿فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾^(١)، وأما قوله إنه كان عمه فعدول عن الظاهر من غير دليل. انتهى.

ونقل الإمام أبو حيان في «البحر» عند تفسير قوله: ﴿وتقلبك في الساجدين﴾ أن الرافضة هم القائلون أن آباء النبي ﷺ كانوا مؤمنين، مستدلين بقوله تعالى: ﴿وتقلبك في الساجدين﴾ وبقوله عليه السلام: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين» الحديث. انتهى.

[أدلة القائلين بعدم النجاة ومناقشتها]

● وروى ابن جرير^(٢) عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن

(١) سورة التوبة. الآية ١١٤.

(٢) الإمام الحافظ الفرد، أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري، أحد الأعلام، المجتهد المطلق صاحب التصانيف، المتوفى سنة عشر وثلاثمائة.

بريدة عن أبيه: أن النبي ﷺ لما قدم مكة أتى رسم قبر، فجلس إليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبراً فقلنا يا رسول الله إنا رأينا ما صنعت، قال: إني استأذنت ربي في زيارة قبر أُمِّي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي، فما رُوي باكياً أكثر من يومئذ^(١).

● وروى ابن أبي حاتم في تفسيره عن عبد الله بن مسعود، أن رسول الله ﷺ أوماً إلى المقابر فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها فواجه طويلاً، ثم بكى فبكينا لبكائه، ثم قام فقام إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فدعاه ثم دعانا، فقال: ما أبكاكم؟ قلنا: بكينا لبكائك، فقال: إن القبر الذي جلست عنده قبر آمنه، وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي، وإني استأذنته في الدعاء لها فلم يأذن لي، وأنزل الله علي: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى﴾^(٢) فأخذني ما يأخذ الولد للوالد. ورواه الطبراني من حديث ابن عباس.

● وفي مسلم: (استأذنت ربي أن أستغفر لأُمِّي فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي / فزوروا القبور، فإنها تذكرك الآخرة^(٣)).

قال القاضي عياض: بكاؤه عليه السلام على ما فاتها من إدارك أيامه والإيمان به.

● وفي مسلم أيضاً: (أن رجلاً قال: يا رسول الله: أين أبي،

(١) ورواه ابن سعد وابن شاهين عن بريدة بنحوه.

(٢) سورة التوبة. الآية ١١٣.

(٣) رواه مسلم في كتاب الجنائز برقم ١٠٨.

قال: في النار، فلما قفا دعاه، قال: إن أبي وأباك في النار^(١).

قال النووي: فيه أن من مات على الكفر فهو في النار، ولا ينفعه قرابة المقربين. وفيه: أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان فهو في النار، وليس في هذا مؤاخذه قبل بلوغ الدعوة، فإن هؤلاء كانت قد بلغتهم دعوة إبراهيم وغيره من الأنبياء. وقال الإمام فخر الدين: من مات مشركاً فهو في النار، وإن مات قبل البعثة، لأن المشركين كانوا قد غيروا الحنيفية دين إبراهيم، واستبدلوا بها الشرك وارتكبوه، وليس معهم حجة من الله به، ولم يزل معلوماً من دين الرسل كلهم، من أولهم إلى آخرهم، قبح الشرك والوعيد عليه في النار، وأخبار عقوبات الله لأهله متداولة بين الأمم قرناً بعد قرن، فله الحجة البالغة على المشركين، في كل وقت وحين، ولو لم يكن إلا ما فطر الله عباده عليه من توحيد ربوبيته، وأنه يستحيل في كل فطرة وعقل أن يكون معه إله آخر، وإن كان سبحانه لا يعذب بمقتضى هذه الفطرة وحدها، فلم تنزل دعوة الرسل إلى التوحيد في الأرض معلومة لأهلها، فالمشرك مستحق للعذاب في النار لمخالفته دعوة الرسل، وهو مخلد فيها دائماً كخلود أهل الجنة [في الجنة]^(٢). انتهى.

[تعقيب الأبى على كلام النووي]

وقد تعقب العلامة أبو عبد الله الأبي^(٣) من المالكية فيما وضعه

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم ٣٤٧.

(٢) في النسخ، وليست في الأصل.

(٣) محمد بن خلف الأبي - منسوب إلى أبة، من قرى تونس - من أجل علماء المالكية المتأخرين أخذ عن ابن عرفة، واشتهر في حياته بالمهارة والتقدم في العلوم وكثر انتقاده لشيخه.

على صحيح مسلم^(١) قول النووي الماضي وفيه «أن من مات في الفترة على ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان في النار، إلى آخره» بما معناه:

تأمل ما في كلامه من التنافي، فإن من بلغتهم الدعوة ليسوا بأهل فترة، لأن أهل الفترة هم: الأمم الكائنة بين أزمنة الرسل الذين لم يرسل إليهم الأول، ولا أدركوا الثاني، كالأعراب الذين لم يرسل إليهم عيسى ولا لحقوا النبي ﷺ. والفترة بهذا التفسير تشمل ما بين كل رسولين، كالفترة بين نوح وهود، لكن الفقهاء إذا تكلموا في الفترة فإنهم يعنون التي بين عيسى ونبينا عليهما الصلاة والسلام. وذكر البخاري عن سلمان أنها كانت ستائة سنة^(٢).

= قال الحافظ في التبصير: محمد بن خلف الأبى الأصولي، عصرنا بالمغرب، عالمها بالمعقول سكن تونس.

(١) يعني شرحه المسمى: إكمال الإكمال.

(٢) جاء في نسخة (الأصل) بعد ذلك ما يلي؛

«قال البيهقي في دلائل النبوة بعد زيارته قبر أمه، وغيره: وكيف لا يكون أبواه وجده بهذه الصفة في الآخرة، وكانوا يعبدون الوثن حتى ماتوا، ولم يدينوا بدين عيسى عليه السلام، وكفرهم لا يقدر في زوجاتهم، فلا يلزمهم تجديد العقد ولا مفارقتهم، إذ كان مثله يجوز في الإسلام».

«قال ابن كثير: إخباره ﷺ عن أبيه وجده عبد المطلب بأنهم من أهل النار، لا ينافي الحديث الوارد عنه من طرق متعددة أن أهل الفترة والأطفال والمجانين والصم يمتحنون في العرصات يوم القيامة، كما بسط سنداً ومتناً عند قوله تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ فيكون منهم من يجيب، ومنهم من لا يجيب، فيكون هؤلاء من جملة من لا يجيب».

«والحديث الذي ذكره السهيلي في إسناده مجاهيل، إلى أبي الزناد عن =

ولما دلت القواطع على أن لا تعذيب حتى / تقوم الحجّة^(١)، ١/٢١
علمنا أنهم غير معذيين، فإن قلت قد صحت أحاديث بتعذيب أهل
الفترة، كحديث (رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار)^(٢) و(رأيت
صاحب المحجن في النار، وهو الذي يسرق الحاج بمحجنه، فإذا بصر
به، قال: إنما تعلق بمحجني)^(٣).

أجيب بأجوبة:

- أحدها: أنها أخبار آحاد فلا تعارض القطع.
- الثاني: قصر التعذيب على هؤلاء، والله أعلم بالسبب.
- الثالث: قصر التعذيب المذكور في هذه الأحاديث على من
بدل وغير من أهل الفترة، بما لا يعذر به من الضلال كعبادة الأوثان
وتغيير الشرائع. فإن أهل الفترة ثلاثة أقسام:
- الأول: من أدرك التوحيد ببصيرته، ثم من هؤلاء من لم

= عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ سأل ربه أن يحيي أبويه فأحيهما وأمنا
به، فإنه منكر جداً، وإن كان ممكناً بالنظر إلى قدرة الله تعالى، لكن الذي
ثبت في الصحيح يعارضه، والله أعلم، نقلته من تاريخ ابن كثير المسمى
بالبداية والنهاية».

أقول: هذه الزيادة لا تتناسب مع كلام «الأبي» لأنها مؤيدة لكلام الإمام
مسلم الذي يرد عليه الأبي. ولذا رأيت أن أضعها في الهامش. علماً أن
بقية النسخ لم تذكرها. [م].

- (١) مثل قوله تعالى: ﴿وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا﴾.
- (٢) رواه البخاري برقم ٣٥٢١ ومسلم برقم ٩٠٤.
- (٣) رواه مسلم (الكسوف ١٠) وأحمد في المسند ١٥٩/٢.

يدخل في شريعة، كقس بن ساعدة^(١)، وزيد بن عمرو بن نفيل^(٢).
ومنهم من دخل في شريعة حق قائمة الرسم، كتبع وقومه من حمير
وأهل نجران، وورقة بن نوفل، وعمه عثمان بن الحويرث.

● القسم الثاني من أهل الفترة: وهم من بدل وغير، فأشرك ولم
يوحد، وشرع لنفسه فحلل وحرم، وهم الأكثر، كعمرو بن لحي، أول
من سن للعرب عبادة الأصنام وشرع الأحكام، فبحر البحيرة^(٣)
وسيب السائبية، ووصل الوصيلة وهمى الحام، وتبعته العرب في ذلك
وغيره مما يطول ذكره.

● القسم الثالث من أهل الفترة، وهم من لم يشرك ولم يوحد،
ولا دخل في شريعة نبي، ولا ابتكر لنفسه شريعة، ولا اخترع ديناً،

(١) قس بن ساعدة الأيادي: أول من آمن بالبعثة من أهل الجاهلية، وأول من
اتكأ على عصا في الخطبة، وأول من قال: أما بعد، وأول من كتب من
فلان إلى فلان، كان يخطب قومه في سوق عكاظ، وفي الحديث من رواية
ابن شاهين عن ابن عباس أنه ﷺ قال: (رحم الله قساً - كأني أنظر إليه
على جمل أورق - تكلم بكلام لا أحفظه) ويعد قس خطيب العرب قاطبة.
(٢) والد سعيد بن زيد، أحد العشرة، وعم عمر بن الخطاب، كان ممن طلب
التوحيد وخلع الأوثان وجانب الشرك، ومات قبل المبعث.

روى البخاري من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب قال:
البحيرة: التي يمنع درها للطواغيت، فلا يجلبها أحد من الناس.
والسائبية: التي كانوا يسيبونها لأهنتهم لا يحمل عليها شيء.
والوصيلة: الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل بأنثى ثم تشني بعد بأنثى، فكانوا
يسيبونها بعد لطواغيتهم إن وصلت إحداها بالأخرى ليس بينهما ذكر.
والحام: فحل الإبل يضرب الضراب المعداد، فإذا قضى ضرابه، ودعوه
للطواغيت وأعفوه من الحمل، فلم يحمل عليه شيء وسموه الحام.

بل بقي عمره على حين غفلة من هذا كله . وفي الجاهلية من كان على ذلك .

وإذا انقسم أهل الفترة إلى الثلاثة أقسام، فيحمل من صح تعذيبه على أهل القسم الثاني لكفرهم بما تعدوا به من الخبائث، والله سبحانه وتعالى قد سمى جميع هذا القسم كفاراً ومشركين، فإننا نجد القرآن كلما حكى حال أحد سجل عليهم بالكفر والشرك، كقوله تعالى: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة﴾ ثم قال: ﴿ولكن الذين كفروا﴾ الآية^(١).

والقسم الثالث هم أهل الفترة حقيقة، وهم غير معذبين .

وأما أهل القسم الأول: كقس وزيد بن عمرو، فقد قال عليه السلام في كل منهما: (أنه يبعث أمة وحدة)^(٢).

وأما عثمان بن الحويرث، وتبع وقومه وأهل نجران، فحكمهم حكم أهل الدين الذين دخلوا فيه، ما لم يلحق أحد منهم الإسلام الناسخ لكل دين . انتهى^(٣) ملخصاً وسيأتي ما قيل في ورقة في حديث المبعث إن شاء الله تعالى .

(١) سورة المائدة . الآية ١٠٣ .

(٢) أخرج الطيالسي عن سعيد بن زيد أنه قال للنبي ﷺ: إن أبي كان كما رأيته، وكما بلغك، فاستغفر له، قال: نعم، فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده وروى اليعمري عن ابن عباس مرفوعاً: «رحم الله قساً إني أرجو أن يبعثه الله أمة وحده» .

(٣) أي كلام الأبي .

[رأي المصنف في المسألة]

فهذا ما تيسر في مسألة والديه ﷺ، وقد كان الأولى ترك ذلك،
وإنما جرّنا إليه ما وقع من المباحثة فيه بين علماء العصر،
ولقد أحسن الحافظ شمس الدين بن ناصر الدين الدمشقي^(١)
حيث قال:

حبا لله النبي مزيد فضل على فضل وكان به رؤوفاً
فأحيا أمه وكذا أباه لإيمان به فضلاً لطيفاً^(٢)
فسلم فالقديم بذاقدير وإن كان الحديث به ضعيفاً
فالحذر الحذر، من ذكرهما بما فيه نقص، فإن ذلك قد يؤدي
النبي ﷺ، فإن العرف جار بأنه إذا ذكر أبو الشخص بما ينقصه، أو
وصف بوصف به، وذلك الوصف فيه نقص تأذى ولده بذكر ذلك له
عند المخاطبة. وقد قال عليه السلام: (لا تؤذوا الأحياء بسبِّ
الأموات)^(٣) رواه الطبراني في الصغير، ولا ريب أن أذاه عليه السلام
كفر يقتل فاعله - إن لم يتب - عندنا^(٤). وستأتي مباحث ذلك إن شاء
الله تعالى في الخصائص من مقصد المعجزات.

(١) محمد بن ناصر الدين الدمشقي، ولد سنة سبع وسبعين وسبعائة، وطلب
الحديث وصنف تصانيف حسنة وصار محدث البلاد الدمشقية، مات سنة
اثنين وأربعين وثمانمائة.

(٢) في ط: منيفاً.

(٣) رواه أحمد والترمذي عن المغيرة بن شعبة، رفعه بلفظ (لا تسبوا الأموات
فتؤذوا الأحياء) المسند ٢٥٢/٤.

(٤) سئل القاضي أبو بكر أحد أئمة المالكية عن رجل قال: إن أبا النبي ﷺ في
النار. فأجاب: بأنه ملعون لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً﴾.

وقد أطنب بعض العلماء في الاستدلال لإيمانها، فالله تعالى يشبهه على قصده الجميل^(١).

قال الحافظ ابن حجر في بعض كتبه: والظن بآله - يعني الذين ماتوا قبل البعثة - أنهم يطيعون عند الامتحان إكراماً له ﷺ لتقر عينه .

وقال في الأحكام^(٢): ونحن نرجو أن يدخل عبد المطلب الجنة في جملة من يدخلها طائعاً فينجو، إلا أبا طالب فإنه أدرك البعثة ولم يؤمن .

(١) لعل المصنف يشير بكلامه إلى الإمام السيوطي، الذي ألف ست مؤلفات في هذا الموضوع .
(٢) وكذا في الإصابة .

[حياته ﷺ قبل البعثة]

[كفالة جده ثم عمه]

وقد كانت أم أيمن، بركة، دايته وحاضنته بعد موت أمه
٢١/ب / ، وكان عليه السلام يقول لها: أنت أمي بعد أمي .

ومات جده عبد المطلب كافله^(١)، وله ثمان سنين - وقيل ثمان
سنين وشهر وعشرة أيام، وقيل تسع، وقيل عشر، وقيل ست، وقيل
ثلاث وفيه نظر- وله عشر ومائة سنة، وقيل مائة وأربعون سنة.
وكفله أبو طالب، واسمه عبد مناف، وكان عبد المطلب قد
أوصاه بذلك لكونه شقيق عبد الله .

وقد أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة
وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب، أقحط الوادي وأجدب
العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب، ومعه غلام كأنه شمس
دجن^(٢)، تجلت عنه سحابة قتها، حوله أغيلمة فأخذه أبو طالب،

(١) روي أنه لما ماتت أمه، ضمه إليه جده، ورق عليه رقة لم يرقها على ولده،
وذكر ابن إسحاق: أنه كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة،
وكان لا يجلس عليه من بنيه أحد إجلالاً له، وكان ﷺ يأتي حتى يجلس
عليه، فتذهب أعمامه يؤخرونه، فيقول عبد المطلب: دعوا ابني، ويمسح
على ظهره بيده، ويقول: إن لابني هذا شأناً.

(٢) الدجن: الغيم المطبق، والمعنى: كأنه شمس في يوم غائم، والسحابة =

فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ الغلام بأصبعه، وما في السماء قرعة، فأقبل السحاب من ها هنا وها هنا، وأغدق واغدودق، وانفجر الوادي، وأخصب النادي والبادي. وفي ذلك يقول أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل^(١)

والثمال - بكسر المثناة -: الملجأ والغياث، وقيل: المطعم في الشدة.

وعصمة للأرامل: أي يمنعهم من الضياع والحاجة. والأرامل: المساكين من رجال ونساء، ويقال لكل واحد من الفريقين على انفراده: أرامل، وهو بالنساء أخص، وأكثر استعمالاً، والواحد أرمل وأرملة.

وهذا البيت من أبيات في قصيدة لأبي طالب، ذكرها ابن إسحاق بطولها، وهي أكثر من ثمانين بيتاً. قالها لما تمألت قريش على النبي ﷺ، ونفروا عنه من يريد الإسلام، وأولها:

لما رأيت القوم لا ود عندهم وقد قطعوا كل العرى والوسائل^(٢)
وقد جاهرونا بالعداوة والأذى وقد طاعوا أمر العدو المزائل
أعبد مناف أنتم خير قومكم فلا تشركوا في أمركم كل واغل

= القتاء: التي يعلوها سواد غير شديد، وهذا من بدیع التشبيه، فإن شمس يوم الغيم حين ينجلي سحابها الرقيق تكون مضيئة مشرقة مقبولة للناس ليست محرقة.

(١) هذا البيت لم يذكر في (ب).

(٢) في ب: الوسائل.

فقد خفت إن لم يصلح الله أمركم تكونوا كما كانت أحاديث وائل
أعوذ برب الناس من كل طاعن علينا بسوء أو ملح بباطل
وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه وراقٍ لير في حراء ونازل
وبالبيت حق البيت في بطن مكة وتالله إن الله ليس بغافل
كذبتهم وبيت الله نبزي محمداً ولما نطا عن دونه وناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبائنا والحلائل

ومعنى نناضل: نجادل ونخاصم وندافع .

وُنْبِزِي: - بضم النون وسكون الموحدة آخره زاي - أي نقهر
ونغلب عليه،

قال ابن التين: إن في شعر أبي طالب هذا دليلاً على أنه كان
يعرف نبوة النبي ﷺ قبل أن يبعث، لما أخبره به بحيرى وغيره من شأنه .
وتعقبه الحافظ أبو الفضل بن حجر: بأن ابن إسحاق ذكر أن
إنشاء أبي طالب لهذا الشعر كان بعد البعثة، ومعرفة أبي طالب بنبوته
عليه السلام جاءت في كثير من الأخبار.
وتمسك بها الشيعة في أنه كان مسلماً.

قال: ورأيت لعلي بن حمزة البصري جزءاً جمع فيه شعر أبي
طالب، وزعم أنه كان مسلماً، وأنه مات على الإسلام، وأن
الحشوية^(١) تزعم أنه مات كافراً، واستدل لدعواه بما لا دلالة فيه . انتهى^(٢) .

(١) الحشوية: هم المتممون للظاهر، قيل سموا بذلك لقول الحسن البصري لما
رأى سقوط كلامهم - وكانوا يجلسون في حلقتهم - ردوا هؤلاء إلى حشا
الحلقة، أي جانبها.

(٢) أي كلام الحافظ في كتاب الاستسقاء.

[السفر إلى الشام وقصة بحيرى]

ولما بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام، حتى بلغ بصرى، فرآه بحيرى الراهب، واسمه / جرجيس، فعرفه بصفته فقال وهو آخذ بيده: هذا سيد ١/٢٢ العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين. فقيل له: وما علمك بذلك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم به من العقبة، لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً، ولا يسجد إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة، في أسفل من غضروف كتفه، مثل التفاحة، وإنا نجد في كتبنا، وسأل أبا طالب أن يرده خوفاً عليه من اليهود.

والحديث رواه ابن أبي شيبة، وفيه: أنه ﷺ أقبل وعليه غمامة تظله.

«بحيرى» - بفتح الموحدة وكسر المهملة وسكون المثناة التحتية آخره راء مقصورة - قال الذهبي - في تجريد الصحابة -: رأى رسول الله ﷺ قبل البعثة وآمن به، وذكره ابن منده، وأبو نعيم في الصحابة. وهذا ينبنى على تعريفهم الصحابي: بمن رآه ﷺ، هل المراد حال النبوة، أو أعم من ذلك حتى يدخل من رآه قبل النبوة ومات قبلها على دين الحنيفية. وهو محل نظر، وسيأتي البحث فيه إن شاء الله في المقصد السابع.

وخرج الترمذي - وحسنه -، والحاكم - وصححه - أن في هذه السفارة أقبل سبعة من الروم يقصدون قتله عليه السلام، فاستقبلهم بحيرى، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: إن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليها بأناس، فقال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا قال:

فبايعوه وأقاموا معه، وردّه أبو طالب. وبعث معه أبو بكر بلالاً.
قال البيهقي: هذه القصة مشهورة عند أهل المغازي. انتهى.
وضعف الذهبي الحديث لقوله في آخره: «وبعث معه أبو بكر بلالاً» فإن أبا بكر إذ ذاك لم يكن متأهلاً، ولا اشترى بلالاً.
قال الحافظ ابن حجر في الإصابة: الحديث رجاله ثقات، وليس فيه منكر سوى هذه اللفظة، فتحمل على أنها مدرجة فيه مقتطعة من حديث آخر وهماً من أحد رواته.

وفي حديث عند البيهقي وأبي نعيم: أن بحيرى رآه - وهو في صومعته - في الركب حين أقبلوا، وغمامة بيضاء تظله من بين القوم، ثم أقبلوا حتى نزلوا بظل شجرة قريباً منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة، وتمصرت^(١) أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها. الحديث.

وفيه: أن بحيرى قام فاحتضنه وأنه جعل يسأله عن أشياء من حاله: من نومه وهيبته وأموره. ويخبره رسول الله ﷺ فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ورأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.

وتقدم أن أخته الشيماء بنت حليمة رآته في الظهرية، وغمامة تظله، إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت، رواه أبو نعيم وابن عساكر. والله در القائل:

إن قال^(٢) يوماً ظلته غمامة هي في الحقيقة تحت ظل القائل

(١) أي مالت وتدلت.

(٢) المراد: إن دخل في وقت القيلولة.

ونقل الشيخ بدر الدين الزركشي عن بعض أهل المعرفة: أنه ﷺ كان معتدل الحرارة والبرودة، فلا يحس بالحر ولا بالبرد، وأنه كان في ظل غمامة من اعتداله. كذا نقل رحمه الله (١).

وأخرج ابن منده (٢)، بسند ضعيف عن ابن عباس: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه صحب النبي ﷺ وهو ابن ثمان عشرة، والنبي ﷺ ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشام في تجارة، حتى نزل منزلاً فيه سدر، ففعد في ظلها، ومضى (٣) أبو بكر إلى راهب يقال له بحيرى، يسأله عن شيء، فقال له: من الرجل الذي في ظل الشجرة، فقال له: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قال: هذا والله نبي، ما استظل تحتها بعد عيسى عليه السلام إلا محمد. ووقع في قلب أبي بكر التصديق، فلما بعث النبي ﷺ اتبعه.

قال الحافظ أبو الفضل بن حجر في الإصابة: إن صحت هذه القصة / فهي سفرة أخرى بعد سفرة أبي طالب. انتهى.

ب/٢٢

(١) وهذا مخالف لما تشهد به الأحاديث من أنه عليه السلام كان يحس بالبرد والحر، ففي حديث الهجرة عند البخاري: أن الشمس أصابته ﷺ وظلله أبو بكر بردائه.

وفي البخاري أيضاً: أنه كان بالجرعانة، وعليه ثوب قد أظل به، وروى ابن منده والبيهقي مرفوعاً: لا نصبر على حر ولا برد، وروى أحمد بسند جيد أنه ﷺ وضع يده على طعام حار فاحترقت أصابعه فقال: حس.

(٢) أبو عبد الله، محمد بن إسحاق بن منده الأصبهاني، الحافظ الجوال، ختام الرحالين، وفرد الكثيرين مع الحفظ والمعرفة والصدق وكثرة التصانيف. سمع ألفاً وسبعمائة وعاد من رحلته وكتبه أربعون جملاً، مات سنة خمس وخمسين وثلاثمائة.

(٣) في (ط) و(ش): ذهب.

[التجارة بمال خديجة]

ثم خرج ﷺ^(١) أيضاً ومعه ميسرة^(٢) غلام خديجة ابنة خويلد ابن أسد، في تجارة لها حتى بلغ سوق بصرى، وقيل سوق حباشة بتهامة، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة، لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة، فنزل تحت ظل شجرة، فقال نسطورا الراهب: ما نزل تحت ظل هذه الشجرة إلا نبي، وفي رواية بعد عيسى. وكان ميسرة يرى في الهاجرة ملكين يظلانه من الشمس، ولما رجعوا إلى مكة في ساعة الظهر، وخديجة في عليّة لها، فرأت رسول الله ﷺ وهو على بعيره وملكان يظلان عليه^(٣). رواه أبو نعيم.

[زواجه ﷺ من خديجة]

وتزوج ﷺ خديجة بعد ذلك بشهرين وخمسة وعشرين يوماً - وقيل: كان سنه إحدى وعشرين سنة، وقيل ثلاثين - وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة، وكانت تحت أبي هالة بن زرارة التميمي^(١)،

(١) وسبب ذلك كما رواه الواقدي وابن السكن: ... أن خديجة أرسلت إليه وقالت: دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك. فذكر ذلك لعمه فقال: إن هذا لرزق ساقه الله إليك.

(٢) قال في النور: لا ذكر له في الصحابة فيما أعلمه، وظاهر أنه توفي قبل البعث، وفي الإصابة: لم أقف على رواية صحيحة صريحة في أنه بقي إلى البعثة.

(٣) وهل كانت رؤية الملائكة ميسرة للناس بهذا الشكل؟! [م].

(٤) قال في فتح الباري: مات أبو هالة في الجاهلية.

فولدت له هنداً^(١) وهالة^(٢)، وهما ذكران، ثم تزوجها عتيق بن عابد المخزومي فولدت له هنداً^(٣).

وكان لها - حين تزويجها بالنبي ﷺ - من العمر أربعون سنة وبعض أخرى.

وكانت عرضت نفسها عليه^(٤)، فذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه

(١) الصحابي، راوي حديث صفة النبي ﷺ، شهد بدرًا، وقيل أحدًا، روى عنه الحسين بن علي فقال: حدثني خالي، لأنه أخو فاطمة لأمها، وكان فصيحاً بليغاً وصافاً. وكان يقول: أنا أكرم الناس أباً وأماً وأخاً وأختاً، أبي رسول الله ﷺ، وأخي القاسم، وأختي فاطمة، وأمي خديجة. رضي الله عنهم، قتل يوم الجمل مع علي، قاله الزبير بن بكار.

(٢) قال أبو عمر: له صحبة، أخرج المستغفري عن عائشة: قدم ابن لخديجة يقال له هالة، والنبي ﷺ قائل، فسمعه فقال: هالة هالة هالة، وأخرج الطبري عن هالة قريباً منه.

(٣) أسلمت وصحبت ولم ترو شيئاً. قال الدراقطني: فهي أنثى.

(٤) عن ابن إسحاق: فعرضت عليه نفسها فقالت: يا ابن عم: إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك.

وروى ابن سعد من طريق الواقدي، عن نفيسة بنت منية قالت: كانت خديجة امرأة حازمة جلدة شريفة، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذ أوسط قریش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً، وكل قومها كان حريصاً على نكاحها، لو قدر على ذلك، طلبوها وبذلوا لها الأموال.

فأرسلتني دسيساً إلى محمد ﷺ بعد أن رجع في غيرها من الشام، فقلت: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: ما بيدي ما أتزوج به، قلت: فإن كفيت ذلك، ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ =

منهم حمزة^(١) حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه .

فتزوجها عليه السلام، وأصدقها عشرين بكرة، وحضر أبو
[طالب^(٢)] ورؤساء مضر، فخطب أبو طالب فقال :

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل،
وضئضىء معد، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسواس حرمه،
وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم
إن ابن أخي هذا، محمد بن عبد الله، لا يوزن برجل إلا رجح به،
فإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، ومحمد ممن
قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من
الصداق ما آجله وعاجله من مالي كذا، وهو - والله - بعد هذا له نبأ
عظيم وخطر جليل، فتزوجها^(٣).

والضئضىء: الأصل.

وحضنة بيته: أي الكافلين له والقائمين بخدمته.

وسواس حرمه: أي: متولي أمره.

= قال: فمن هي؟ قلت: خديجة، قال: وكيف لي بذلك؟ فذهبت فأخبرتها،
فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا..

(١) كذا عند ابن إسحاق، وعند السهيلي: أن أبا طالب هو الذي نهض معه،
وهو الذي خطب خطبة النكاح. قال في النور: فلعلها خرجا معه جميعاً.

(٢) في (أ، د، ط): أبو بكر.

قال الشارح: (وحضر أبو طالب) هذا هو الصواب، المذكور في الروض
وغيره وما في نسخ: أبو بكر، لا أصل له، وقد صرح المصنف نفسه
بالصواب في المقصد الثاني.

(٣) بالبناء للمفعول. وفي رواية: فتزوجها صلى الله عليه وسلم.

قال ابن إسحاق: وزوجه إياها خويلد.

وقد ذكر الدولابي وغيره: أن النبي ﷺ أصدق خديجة اثنتي عشرة أوقية ذهباً ونشأ. قالوا: وكل أوقية أربعون درهماً، والنش: نصف أوقية.

[بناء الكعبة]

ولما بلغ ﷺ خمساً وثلاثين سنة^(١)، خافت قريش أن تهدم الكعبة من السيول، فأمروا باقوم - بموحدة فألف فقاف مضمومة فواو ساكنة فميم - النجار النبطي^(٢) مولى سعيد بن العاصي، وصانع المنبر الشريف، بأن يبني الكعبة المعظمة.

وحضر ﷺ وكان ينقل معهم الحجارة، وكانوا يضعون أزرهم على عواتقهم، ويحملون الحجارة، ففعل ذلك ﷺ فلبط به - بالموحدة، كعنى أي سقط من قيامه كما في القاموس - ونودي: عورتك، فكان ذلك أول ما نودي^(٣). فقال له أبو طالب أو العباس: يا ابن أخي اجعل إزارك على رأسك، فقال: ما أصابني ما أصابني إلا من التعري^(٤).

(١) هذا ما جزم به ابن إسحاق، وهو قول غير واحد من العلماء، وقال الحافظ: هو الأشهر.

(٢) في (ط، ش، د) القبطي.

(٣) روى الشيخان عن جابر قال: لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ والعباس ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك الحجارة ففعل فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق فقال: إزارني إزارني، فشد عليه إزاره فما روي بعد ذلك عرياناً.

(٤) تنمة:

[الخصومة في وضع الحجر]

وروى ابن راهويه: في حديث عن علي: فلما أرادوا أن يضعوا الحجر =

.....

= الأسود اختصموا فيه، فقالوا: نحكم بيننا أول من يخرج من هذه السكة، فكان ﷺ أول من خرج فحكم بينهم: أن يجعله في ثوب ثم يرفعه من كل قبيلة رجل.

وذكر الطيالسي: أنهم قالوا: نحكم أول من يدخل من باب بني شيبه، فكان ﷺ أول من دخل منه، فأخبروه، فأمر بثوب فوضع الحجر في وسطه، وأمر كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثوب، فرفعوه. ثم أخذه فوضعه بيده.

وذكر الفاكهي وابن إسحاق أن الذي أشار عليهم أن يحكموا أول داخل: أبو أمية المخزومي أخو الوليد. وعند موسى بن عقبة: أن المشير: أخوه الوليد.

[مبعث النبي ﷺ]

[ذكر وقت المبعث]

ولما بلغ رسول الله ﷺ أربعين سنة وقيل: وأربعين يوماً، وقيل: وعشرة أيام، وقيل: وشهرين، يوم الإثنين لسبع عشرة خلت من رمضان - وقيل: لسبع، وقيل: لأربع وعشرين ليلة -.

وقال ابن عبد البر: يوم الإثنين لثمان من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من الفيل. وقيل: في أول ربيع:

بعثه الله رحمة للعالمين، ورسولاً إلى كافة الثقلين أجمعين.

ويشهد لمبعثه يوم الإثنين ما رواه مسلم عن أبي قتادة أنه ﷺ سئل عن صوم الإثنين فقال: «فيه ولدت وفيه أنزل علي»^(١).

وقال ابن القيم في «الهدى النبوي»: واحتج القائلون بأنه كان في رمضان بقوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾^(٢). قالوا: أول ما أكرمه الله بنبوته أنزل عليه القرآن.

وقال الآخرون: إنما نزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر إلى

(١) رواه مسلم، كتاب الصيام، برقم ١٩٨.

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٥.

١/٢٣ بيت العزة، ثم نزل نجومًا بحسب / الوقائع في ثلاث وعشرين سنة.

وقيل: كان ابتداء المبعث في رجب.

[حديث بدء الوحي]

وروى البخاري في «التعبير»^(١) من حديث عائشة: «أول ما بدى به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. وكان يأتي حراء فيتحنث فيه - وهو التعبّد - الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فتزوده لمثلها، حتى فجأة الحق وهو في غار حراء.

فجاءه الملك فيه، فقال: اقرأ، فقلت ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ - حتى بلغ - ﴿ما لم يعلم﴾.

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، حتى دخل على خديجة، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: يا خديجة، ما لي؟ وأخبرها الخبر، ثم قال: قد خشيت على نفسي.

(١) رواه البخاري في كتاب التعبير، وفي التفسير، وفي بدء الوحي، والإيمان، لكنه اختار ما في التعبير لأن سياقه فيه أتم، فذكر الحزن والتردي إلى آخر الحديث إنما هو فيه دون تلك المواضع، ودون كتاب مسلم، ولذا لم يعزه لها.

فقلت له: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها - وكان امرأً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب - وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: ماذا ترى؟ فأخبره النبي ﷺ ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟ فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً.

ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا^(١) حزناً غداً منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهد

(١) جاء في فتح الباري: «ثم إن القائل: فيما بلغنا، هو الزهري. ومعنى الكلام: أن في جملة ما وصل إلينا من خبر رسول الله ﷺ في هذه القصة، وهو من بلاغات الزهري وليس موصولاً، وقال الكرمانى، هذا هو الظاهر، ويحتمل أن يكون بالاسناد المذكور» ٣٥٩/١٢ [م].

وقال الشارح: وهذا البلاغ ليس بضعيف، كما ادعى عياض متمسكاً بأنه لم يسنده، لأن عدم إسناده لا يقدر في صحته، بل الغالب على الظن أنه بلغه من الثقات لأنه ثقة. ثم إن معمرأً لم ينفرد به عن الزهري، بل تابعه عليه يونس بن يزيد - عند الدولابي - ورواه ابن سعد من حديث ابن عباس بنحوه.

الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه، تبدى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل، فقال له مثل ذلك»^(١).

[بيان بعض معاني الحديث]

● وقد تكلم العلماء في معنى قوله ﷺ لخديجة: «قد خشيت على نفسي» فذهب الإسماعيلي^(٢) إلى أن هذه الخشية كانت منه قبل أن يحصل له العلم الضروري بأن الذي جاءه ملك من عند الله. وكان أشق شيء عليه أن يقال عليه مجنون.

وقيل: إن خشيته كانت من قومه أن يقتلوه، ولا غرو^(٣)، فإنه بشر يخشى من القتل والأذية، كما يخشى البشر^(٤).

● وقوله: «ما أنا بقارىء» أي: أنا أمة فلا أقرأ الكتب.

● وقال القاضي عياض: إنما ابتدء ﷺ بالرؤيا، لثلا يفجأه الملك ويأتيه صريح النبوة بغتة فلا تحتملها قوى البشر، فبدىء بأوائل خصال النبوة وتباشير الكرامة. انتهى.

(١) رواه البخاري في كتاب التعبير، الباب الأول رقم الحديث ٦٩٨٢.

(٢) الإمام الحافظ الثبت، أبو بكر، أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس الإسماعيلي الجرجاني، قال الحاكم: كان واحد عصره، وشيخ المحدثين والفقهاء وأجلهم رئاسة ومروءة وسخاء، علا إسناده، وتفرد ببلاد العجم، مات سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة.

(٣) أي: لا عجب،

(٤) أعتقد أن المعنى القريب المفهوم من الحديث: أن الخشية على نفسه إنما كان مصدرها شدة الجهد الذي تحمله عند غط جبريل له. ولا حاجة لهذه التعليقات البعيدة عن مفهوم النص. [المحقق].

● فإن قلت: فلم كرر قوله «ما أنا بقارىء» ثلاثاً؟

أجاب أبو شامة^(١) كما في فتح الباري: بأن يحمل قوله أولاً «ما أنا بقارىء» على الامتناع، وثانياً: على الإخبار بالنفي المحض، وثالثاً: على الاستفهام.

● والحكمة من الغط ثلاثاً، شغله عن الالتفات لشيء آخر، وإظهاراً للشدة والجد في الأمر، تنبيهاً على ثقل القول الذي سيلقى عليه^(٢).

وقيل: إبعاداً لظن التخييل والوسوسة، لأنها ليسا من صفات الجسم، فلما وقع ذلك بجسمه علم أنه من أمر الله.

● فإن قلت: من أين عرف ﷺ أن جبريل ملك من عند الله، وليس من الجن؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى أظهر على يدي جبريل / عليه ٢٣/ب السلام معجزات عرفه بها. كما أظهر الله تعالى على يد محمد ﷺ معجزات عرفناه بها.

وثانيهما: إن الله تعالى خلق في محمد ﷺ علماً ضرورياً بأن جبريل من عند الله ملك لا جنى ولا شيطان، كما أن الله تعالى خلق في جبريل علماً ضرورياً بأن المتكلم معه هو الله تعالى، وأن المرسل له ربه تعالى لا غير.

(١) الإمام الحافظ العلامة، أبو القاسم، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي ثم الدمشقي الشافعي، المقرئ النحوي، المتوفى سنة خمس وستين وستائة، ومولده سنة تسع وتسعين وخمسةائة.

(٢) قاله البيضاوي.

● وقول ورقة: يا ليتني فيها جذعاً. الضمير للنبوة، أي: ليتني كنت شاباً عند ظهورها حتى أبالغ في نصرتها وحمايتها. وأصل الجذع: من أسنان الدواب، وهو ما كان منها شاباً فتياً.

[سلام الشجر والحجر]

وأخرج البيهقي من طريق العلاء بن جارية الثقفي عن بعض أهل العلم أن^(١) رسول الله ﷺ حين أراد الله كرامته وابتدأه بالنبوة كان لا يمر بحجر ولا شجر إلا سلم عليه وسمع منه، فيلتفت رسول الله خلفه وعن يمينه وعن شماله فلا يرى إلا الشجر وما حوله من الحجارة. وهي تحييه بتحية النبوة: السلام عليك يا رسول الله . الحديث.

[رواية أخرى لبدء الوحي]

وعن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: (جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جوارى هبطت، فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً فلم أثبت له، فأتيت خديجة فقلت: دثروني دثروني وصبوا علي ماء بارداً فنزلت: ﴿يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر﴾ الآية وذلك قبل أن تفرض الصلاة) رواه البخاري ومسلم والترمذي^(٢).

(١) في ش: عن بعض أهل رسول...

(٢) وكذا النسائي.

أخرجه البخاري برقم ٤٩٢٢ ومسلم في كتاب الإيمان برقم ٢٥٧
والمسند ٣/٣٠٦.

[النبوة ليست اكتساباً]

ولم يكن جواره ﷺ لطلب النبوة، لأنها أجل من أن تنال بالطلب أو الاكتساب، وإنما هي موهبة من الله، وخصوصية يخص بها من يشاء من عباده، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

[رجفته ﷺ كانت اغتباطاً]

ولم تكن الرجفة المذكورة^(١) خوفاً من جبريل عليه السلام، فإنه ﷺ أجل من ذلك، وأثبت جناناً، وإنما رجف غبطة بحاله وإقباله على الله عز وجل، فخشي أن يشغل بغير الله عن الله.
وقيل: خاف من ثقل أعباء النبوة.

[أول ما نزل من القرآن]

وفي رواية البيهقي في الدلائل: أن خديجة قالت لأبي بكر: يا عتيق اذهب به إلى ورقة بن نوفل، فأخذه أبو بكر، فقص عليه ما رأى، فقال ﷺ: إذا خلوت وحدي سمعت نداء: يا محمد، يا محمد، فأنطلق هارباً.. فقال: لا تفعل إذا قال، فاثبت حتى تسمع، ثم اثني فأخبرني، فلما خلا ناداه يا محمد فثبت فقال: قل^(٢) بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. إلى آخرها. ثم قال: قل لا إله إلا الله. الحديث.

واحتج به من قال بأولية نزول الفاتحة.

والصحيح أن أول ما نزل عليه ﷺ من القرآن «اقرأ» كما صح

(١) في قوله في حديث جابر «فلم أثبت له».

(٢) كلمة (قل) سقطت من (أ، د).

ذلك عن عائشة، وروي ذلك عن أبي موسى الأشعري وعبيد بن عمير^(١).

قال النووي: وهو الصواب الذي عليه الجماهير من السلف والخلف.

وأما ما روي عن جابر وغيره: أن أول ما نزل ﴿يا أيها المدثر﴾ فقال النووي: ضعيف، بل باطل، وإنما نزلت بعد فترة الوحي.

وأما حديث البيهقي أنه الفاتحة - كقول بعض المفسرين - فقال البيهقي: هذا منقطع، فإن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعدما نزلت عليه ﴿اقرأ باسم ربك﴾ و﴿يا أيها المدثر﴾.

وقال النووي - بعد ذكر هذا القول - بطلانه أظهر من أن يذكر.

انتهى

وقد روي أن جبريل عليه السلام أول ما نزل بالقرآن على النبي ﷺ أمره بالاستعاذة، كما رواه الإمام أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس قال: أول ما نزل جبريل على محمد ﷺ قال: يا محمد، استعذ، قال: استعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال: قل بسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق. قال عبد الله: وهي أول سورة أنزلها الله على محمد ﷺ.

قال الحافظ عماد الدين بن كثير، بعد أن ذكره: وهذا الأثر ١/٢٤ غريب، وإنما ذكرناه ليعرف، فإن في اسناده / ضعفاً وانقطاعاً، والله أعلم.

(١) عبيد بن عمير بن قتادة، أبو عاصم الليثي المكي، قاضيهما، الثقة الحافظ، أحد كبار التابعين.

[اختيار حراء دون غيره]

وقد أورد ابن أبي جمرة سؤالاً، وهو أنه: لم يختص ﷺ بغار حراء، فكان يخلو فيه ويتحنث دون غيره من المواضع؟

وأجاب: بأن هذا الغار له فضل زائد على غيره: من جهة أنه منزو ومجموع لتحنته وهو يبصر بيت ربه، والنظر إلى البيت عبادة، فكان له فيه اجتماع ثلاث عبادات: الخلوة والتحنث والنظر إلى البيت. وغيره ليس فيه هذه الثلاث.

ولله در المرجاني^(١) حيث قال في فضائل حراء وما اختص به:

تأمل حراء في جمال محياه فكم من أناس من حلا حسنه تاهوا
فمما حوى من جالعلياه زائراً يفرج عنه الهم في حال مرقاه
به خلوة الهادي الشفيع محمد وفيه له غار له كان يرقاه
وقبلته للقدس كانت بغاره وفيه أتاه الوحي في حال مبداه
وفيه تجلى الروح بالموقف الذي به الله في وقت البداء سواه
وتحت تخوم الأرض في السبع أصله ومن بعد هذا اهتز بالسفل أعلاه
ولما تجلى الله قدس ذكره لطور تشظى فهو إحدى شظاياها
ومنها ثبير ثم ثور بمكة كذا قد أتى في نقل تاريخ مبداه
وفي طيبة أيضاً ثلاث فعدها فعيراً وورقانياً وأحدارويناها

(١) عبد الله بن محمد القرشي، الإمام القدوة، الواعظ المفسر، أحد الأعلام في الفقه والتصوف قدم مصر، ووعظ بها، واشتهر في البلاد، وامتنح وأفتى العلماء، بتكفيره، ولم يؤثروا فيه فعملوا عليه الحيلة فقتل بتونس سنة تسع وتسعين وستائة. ذكره في اللواتح.

ويقبل في ساعة الظهر من دعا به ينادي من دعانا أجبناه
وفي أحد الأقوال في عقبة حرا أت ثم قابيل لهابيل غشاه
ومحا حوى سراً حوته صخوره من التبر إكسيراً يقام سمعناه
سمعت به تسبيحها غير مرة وأسمعته جمعاً فقالوا سمعناه
به مركز النور الإلهي مثبتاً فله ما أحلى مقاماً بأعلاه

[شق الصدر عند بدء الوحي]

وروى أبو نعيم أن جبريل وميكائيل شقا صدره وغسلاه ثم
قال: ﴿اقرأ باسم ربك﴾، الآيات، الحديث، وفيه: فقال ورقة: أبشر،
فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم، وأنت على مثل ناموس
موسى، وأنت نبي مرسل.

وكذا روى شق صدره الشريف هنا أيضاً الطيالسي^(١)
والحارث^(٢) في مسنديهما.

والحكمة فيه: ليتلقى النبي ﷺ ما يوحي إليه بقلب قوي، في
أكمل الأحوال من التطهير.

(١) أبو داود، سليمان بن الجارود البصري، الحافظ الثقة كثير الحديث. روى
عنه أحمد وابن المديني وغيرهما، علق له البخاري، وأخرج له مسلم
والأربعة، توفي سنة ثلاث ومائتين، عن اثنتين وسبعين سنة.

(٢) الحارث بن محمد بن أبي أسامة، واسمه داهر، الحافظ أبو محمد التميمي
البغدادي، ولد سنة ست وثمانين ومائه، روى عنه ابن جرير، وثقه ابن
حبان، وضعفه الأزدي وابن حزم وقال الدارقطني: صدوق، كان فقيراً كثير
البنات توفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين.

[مراتب الوحي]

قال ابن القيم وغيره: وكمل الله تعالى له عليه السلام من الوحي مراتب عديدة:

● أحدها: الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

● الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال ﷺ: (إن روح القدس نفث في روعي، لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب) الحديث رواه ابن أبي الدنيا^(١) في القناعة^(٢)، وصححه الحاكم.

والروع - بضم الراء - أي نفسي، وروح القدس: جبريل عليه السلام.

● الثالثة: كان يتمثل له الملك رجلاً، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، فقد كان يأتيه في صورة دحية الكلبي. رواه النسائي^(٣) بسند صحيح من حديث ابن عمر.

قلت: وكان دحية جميلاً وسيماً، إذا قدم لتجارة خرجت الظعن لتراه. فإن قلت: إذا لقي جبريل النبي ﷺ في صورة دحية، فأين

(١) عبد الله بن محمد بن عبيد الأموي، مولاهم، أبو بكر، البغدادي، الحافظ، صاحب التصانيف المشهورة المفيدة، وثقه أبو حاتم وغيره. مات سنة إحدى وثمانين ومائتين.

(٢) كتاب القناعة.

(٣) أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب بن علي الخراساني ثم المصري، الحافظ أحد الأئمة المبرزين، والأعلام الطوافين والحفاظ المتقنين، حتى قال الذهبي: هو أحفظ من مسلم. مات سنة ثلاث وثلاثمائة.

تكون روحه؟ فإن كانت في الجسد الذي له ستمائة جناح، فالذي أتى لا روح جبريل ولا جسده، وإن كانت في هذا الذي هو في صورة دحية فهل يموت الجسد العظيم أم يبقى خالياً من الروح المنتقلة عنه /ب إلى الجسد المشبه بجسد دحية/.

أجيب - كما ذكره العيني^(١) - بأنه لا يبعد أن لا يكون انتقالها موجب موته، فيبقى الجسد حياً، لا ينقص من معارفه شيء، ويكون انتقال روحه إلى الجسد الثاني كانتقال أرواح الشهداء إلى أجواف طير خضر، وموت الأجساد بمفارقة الأرواح ليس بواجب عقلاً، بل بعادة أجراها الله تعالى في بني آدم، فلا تلزم في غيرهم. انتهى .

● الرابعة: كأن يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه، حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، حتى إن راحلته لتبرك به في الأرض، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت^(٢)، فثقلت عليه حتى كادت ترضها.

قلت: وروى الطبراني عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب الوحي لرسول الله ﷺ، وكان إذا نزل عليه أخذته برحاء^(٣) شديدة، وعرق عرقاً شديداً مثل الجمان، ثم سري عنه. وكنت أكتب وهو يملي

(١) بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى الحنفي، ولد سنة اثنتين وستين وسبعائة، وتفقه واشتغل بالفنون، وبرع وولي الحسبة مراراً مات سنة خمس وخمسين وثمانمائة.

(٢) الأنصاري النجاري، أحد كتّاب الوحي، ومن كان يفتي في عصر النبوة، روى أحمد بسند صحيح «أفرضكم زيد» مات سنة اثنتين وأربعين.

(٣) هي شدة أذى الحمى وغيرها.

علي، فما أفرغ حتى تكاد رجلي تكسر من ثقل الوحي، حتى أقول: لا أمشي على رجلي أبداً.

ولما نزلت عليه سورة المائدة، كادت أن تنكسر عضد ناقتة من ثقل السورة، ورواه أحمد^(١) والبيهقي في الشعب.

● الخامسة: أن يرى الملك في صورته التي خلق عليها له ستائة جناح، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما في سورة النجم.

● السادسة: ما أوحاه الله إليه، وهو فوق السماوات من فرض الصلوات وغيرها.

● السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسى.

● قال: وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهي تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب. انتهى^(٢).

[رأي العراقي في كلام ابن القيم]

قال شيخ الإسلام الولي ابن العراقي^(٣): وكان ابن القيم أخذ ذلك من روض السهيلي لكنه لم يذكر نزول إسرافيل إليه بكلمات من الوحي قبل جبريل.

(١) المسند ٤٥٥/٦ .

(٢) أي كلام ابن القيم.

(٣) أحمد بن عبد الرحيم العراقي، قاضيها، الإمام الحافظ ابن الحافظ، الأصولي الفقيه، ذو الفنون والتصانيف النافعة المشهورة. توفي سنة ست وعشرين وثمانمائة.

فقد ثبت في الطرق الصحاح عن عامر الشعبي أن رسول الله ﷺ وكل به إسرافيل فكان يتراءى له ثلاث سنين ويأتيه بالكلمة من الوحي، والشيء، ثم وكل به جبريل فجاء بالقرآن.

وأما قوله - أعني ابن القيم -: السادسة، ما أوحاه الله إليه فوق السماوات، يعني ليلة المعراج، السابعة كلام الله بلا واسطة. فإن أراد ما أوحاه إليه جبريل فهو داخل فيما تقدم، لأنه إما أن يكون جبريل في تلك الحالة على صورته الأصلية، أو على صورة الأدمي، وكلاهما قد تقدم ذكره، وإن أراد وحي الله بلا واسطة - وهو الظاهر - فهي الصورة التي بعدها.

وأما قوله: وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة: وهي تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب، فهذا على مذهب من يقول إنه ﷺ رأى ربه تعالى، وهي مسألة خلاف يأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى.

ويحتمل أن ابن القيم رحمه الله تعالى أراد بالمرتبة السادسة وحي جبريل، وغاير بينه وبين ما قبله باعتبار محل الإيحاء، أي كونه فوق السماوات، بخلاف ما تقدم، فإنه كان في الأرض، ولا يقال، يلزم عليه أن تتعدد أقسام الوحي باعتبار البقعة التي جاء فيها جبريل إلى النبي ﷺ وهو غير ممكن، لأننا نقول: الوحي الحاصل في السماء باعتبار ما في تلك المشاهد من الغيب نوع غير نوع الأرض على اختلاف بقاعها. انتهى.

[تتمة مراتب الوحي]

قلت: ويزاد أيضاً:

● كلامه تعالى له في المنام، كما في حديث الزهري (أتاني ربي

في أحسن صورة فقال: يا محمد أتدري فيم يختصم الملائة الأعلى.. (١).
الحديث (١).

● ثم مرتبة أخرى، وهي العلم الذي يلقيه الله تعالى في قلبه، وعلى لسانه عند الاجتهاد في الأحكام، لأنه اتفق على أنه ﷺ إذا اجتهد أصاب قطعاً، وكان معصوماً من الخطأ، وهذا خرق للعادة في حقه دون [سائر] (٢) الأمة، وهو يفارق النفث في الروع من حيث حصوله بالاجتهاد، والنفث بدونه.

● ومرتبة أخرى: وهي مجيء جبريل في صورة رجل غير دحية (٣)، لأن دحية كان معروفاً عندهم، ذكره ابن المنير، وإن كانت داخلية في المرتبة الثالثة التي ذكرها ابن القيم.

وذكر الحليني (٤) أن الوحي كان يأتيه على ستة / وأربعين نوعاً، ١/٢٥ فذكرها، وغالبها - كما قال في فتح الباري - من صفات حامل الوحي، ومجموعها يدخل فيما ذكر والله أعلم.

(١) رواه بتمامه عبد الرزاق وأحمد والترمذي والطبراني عن ابن عباس مرفوعاً، والترمذي وابن مردويه والطبراني من حديث معاذ. [المسند ١/٣٦٨ و٤/٦٦].

(٢) في (ط، د).

(٣) كما في حديث الصحيحين عن أبي هريرة (كان النبي ﷺ بارزاً للناس فأتاه رجل فقال: ما الإيمان... وفي آخره: هذا جبريل يعلم الناس دينهم. ورواه مسلم أيضاً عن عمر (بيننا نحن جلوس...).

(٤) العلامة البارع المحدث: القاضي أبو عبد الله، الحسين بن الحسين بن حليم، الشافعي الفقيه، صاحب اليد الطولى في العلوم والأدب والتصانيف المفيدة، مات سنة ثلاث وأربعمائة.

وذكر ابن المنير^(١) أن الحال كان يختلف في الوحي باختلاف مقتضاه، فإن نزل بوعد وبشارة نزل الملك بصورة الأدمي، وخاطبه من غير كد، وإن نزل بوعيد ونذارة كان حينئذٍ كصلصلة الجرس. انتهى .

[عدد مرات نزول جبريل]

وقد ذكر ابن عادل، في تفسيره: أن جبريل عليه السلام نزل على النبي ﷺ أربعة وعشرين ألف مرة، ونزل على آدم اثنتي عشرة مرة، وعلى إدريس أربع مرات وعلى نوح خمسين مرة، وعلى إبراهيم اثنتين وأربعين مرة، وعلى موسى أربعمئة مرة، وعلى عيسى عشر مرات. كذا قال رحمه الله^(٢).

[أول أمر الصلاة]

وقد روي^(٣): أن جبريل تبنى له ﷺ في أحسن صورة وأطيب رائحة فقال: يا محمد إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أنت رسولي إلى

(١) القاضي ناصر الدين، أحمد بن محمد المعروف بابن المنير الاسكندري، قاضيهما وخطيبها المصقع، الإمام العلامة المتبحر في العلوم، ذو التصانيف المفيدة. توفي سنة ثلاث وثمانين وستمئة، عن ثلاث وستين سنة، قال العز ابن عبد السلام: الديار المصرية تفتخر برجلين في طرفيها: ابن دقيق العيد بقوص، وابن المنير بالاسكندرية.

(٢) تبرأ منه لأنه لم يسنده ومثله يحتاج لتوقيف .

[أقول هذا يعني أن النزول بمعدله الوسطي على النبي ﷺ كل يوم ثلاث مرات. وهو أمر فيه نظر] [م].

(٣) طرقة لا تخلو من مقال، لكنها متعددة، فيفيد ذلك أن للحديث أصلاً.

الجن والإنس، فادعهم إلى قول لا إله إلا الله ثم ضرب برجله الأرض فنبعت عين ماء فتوضأ منها جبريل ثم أمره أن يتوضأ وقام جبريل يصلي وأمره أن يصلي معه فعلمه الوضوء والصلاة ثم عرج إلى السماء ورجع رسول الله ﷺ لا يمر بحجر ولا مدر ولا شجر إلا وهو يقول السلام عليك يا رسول الله، حتى أتى خديجة فأخبرها فغشي عليها من الفرح ثم أمرها فتوضأت وصلى بها كما صلى به جبريل فكان ذلك أول فرضها ركعتين ثم إن الله أقرها في السفر كذلك وأتمها في الحضر.

وقال مقاتل^(١): كانت الصلاة أول فرضها ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي، لقوله تعالى: ﴿وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار﴾^(٢).

قال في فتح الباري: كان ﷺ قبل الإسراء يصلي قطعاً، وكذلك أصحابه، ولكن اختلف: هل افترض قبل الخمس شيء من الصلاة أم لا؟ فقيل: إن الفرض كان صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، والحجة فيه قوله تعالى: ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾^(٣). انتهى.

قال النووي^(٤): أول ما وجب الإنذار والدعاء إلى التوحيد، ثم

(١) مقاتل بن سليمان البلخي، المفسر، قال ابن المبارك: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة، وقال وكيع: كان كذاباً، وقال النسائي: يضع الحديث، مات سنة خمس ومائة.

(٢) سورة غافر، الآية ٥٥.

(٣) سورة طه، الآية ١٣٠.

(٤) محيي الدين، أبو زكريا، يحيى بن شرف بن سري، الإمام الفقيه الحافظ، القدوة المتقن البارع الورع الزاهد، الأمر بالمعروف الناهي عن المنكر،

فرض الله من قيام الليل ما ذكره في أول سورة المزمل، ثم نسخه بما في آخرها، ثم نسخه بإيجاب الصلوات الخمس ليلة الإسراء بمكة، وأما ما ذكره في هذه الرواية من أن جبريل علمه الوضوء وأمره به فيدل على أن فرضية الوضوء كانت قبل الإسراء^(١).

[فترة الوحي]

ثم فتر الوحي^(٢) فترة شق عليه وأحزنه.

وفرة الوحي: عبارة عن تأخره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب عنه ما كان يجده عليه السلام من الروع، وليحصل له التشوق إلى العود^(٣).

وكانت مدة فترة الوحي ثلاث سنين^(٤)، كما جزم به ابن إسحاق^(٥)

= التارك لجميع ملاذ الدنيا حتى الزواج، شيخ الإسلام، علم الأولياء، المبارك له في علمه وتصانيفه لحسن قصده، مات سنة ست وسبعين وستمائة، عن ست وأربعين سنة.

(١) قال السهيلي: فالوضوء على هذا مكى بالفرض، مدني بالتلاوة - لأن آية الوضوء مدنية - ولذا قالت عائشة آية التيمم، وهي هي لأن الوضوء كان مفروضاً قبل.

(٢) ذكر المصنف هذا البحث هنا ليدل على أن الوضوء والصلاة كانا قبل فترة الوحي. أقول: وقد سبق ذكر فترة الوحي في آخر حديث بدء الوحي، وكذا التعليق عليها [م].

(٣) هذا ما ذكره فتح الباري.

(٤) لم يتفق على مدة الفترة: فقد قيل: كانت سنتين ونصفاً، وفي تفسير ابن الجوزي ومعاني الزجاج خمسة عشر يوماً وفي تفسير مقاتل ثلاثة أيام. وفي تفسير ابن عباس: كانت أربعين يوماً.

(٥) قال الشارح: تبع المصنف في ذلك الحافظ، كما تبعه السيوطي، ورد على =

وفي تاريخ الإمام أحمد^(١)، ويعقوب بن سفيان عن الشعبي: أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرائيل ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل عليه القرآن على لسانه، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل، فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة، وكذا رواه ابن سعد والبيهقي^(٢).

[النبوة والرسالة]

فقد تبين أن نبوته ﷺ كانت متقدمة على إرساله^(٣)، كما قال أبو

= الثلاثة جميعاً بالصرحة الشامي فقال: هذا وهم بلا شك. وعزو ذلك لابن إسحاق أشد، انتهى. يؤيد هذا قول الشارح قبل ذلك.

وهذا مخالف لقول «العيون» تبعاً «للروض»: وفترة الوحي لم يذكرها ابن إسحاق مدة معينة. انتهى وهو الصواب.

(١) قال الشارح: ودليل كونها - فترة الوحي - ثلاث سنين ما في تاريخ الخ.

(٢) وأثر الشعبي هذا - وإن صح إسناده إليه - مرسل أو معضل، وكلاهما من أقسام الضعيف، وقد أنكره الواقدي وقال: لم يكرم به من الملائكة إلا جبريل. قال الشامي: وهو المعتمد. انتهى.

قال الحافظ السيوطي: قد ورد ما يوهي أثر الشعبي، وهو ما أخرجه مسلم والنسائي والحاكم عن ابن عباس قال: (بينما رسول الله ﷺ جالس وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً من السماء من فوق، فرفع جبريل طرفه إلى السماء فقال: يا محمد هذا ملك قد نزل لم ينزل إلى الأرض قط، فجاء إلى النبي ﷺ فسلم عليه فقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة) [مسلم برقم ٨٠٦] قال جماعة من العلماء، هذا الملك إسرائيل. وجاء اسمه صريحاً في رواية للطبراني عن ابن عمر. فهاتان القضيتان بعد ابتداء الوحي بسنين..

(٣) في ط: رسالته.

عمر وغيره، كما حكاه أبو أمامة بن النقاش. فكان في نزول سورة «اقرأ» نبوته، وفي نزول سورة المدثر إرساله بالندارة والبشارة والتشريع، وهذا قطعاً متأخر عن الأول، لأنه لما كانت سورة «اقرأ» متضمنة لذكر أطوار الآدمي: من الخلق والتعليم والإفهام، ناسب أن تكون أول سورة أنزلت، وهذا هو الترتيب الطبيعي، وهو أن يذكر سبحانه وتعالى ما أسداه إلى نبيه عليه السلام من العلم والفهم والحكمة والنبوة، ويمن عليه بذلك في معرض تعريف عباده بما أسداه إليهم من نعمة البيان الفهمي والنطقي والخطي، ثم يأمره سبحانه وتعالى بأن يقوم فينذر عباده.

[ذكر أول من آمن]

[إسلام خديجة]

وكان أول من آمن بالله وصدق صديقة النساء خديجة، فقامت بأعباء الصديقة. قال لها ﷺ: خشيت على نفسي، فقالت: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً. ثم استدلت بما فيه من الصفات والأخلاق / ٢٥/ب والشيم على أن من كان كذلك لا يخزي أبداً.

[إسلام أبي بكر]

وكان أول ذكر-آمن من بعدها صديق الأمة، وأسبقها إلى الإسلام أبو بكر، فأزره في الله. وعن ابن عباس أنه أول الناس إسلاماً، واستشهد له بقول حسان بن ثابت:

إذا تذكرت شجوى من أخي ثقة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعد لها بعد النبي وأفاهها بما حملا
والثاني التالي المحمود مشهده وأول الناس قدماً صدق الرسلا
رواه أبو عمر^(١).

ومن وافق ابن عباس وحسانا على أن الصديق أول الناس

(١) أي: ابن عبد البر، وكذا الطبراني في الكبير.

إسلاماً، أسماء بنت أبي بكر، والنخعي^(١) وابن الماجشون ومحمد بن المنكدر^(٢)، والأخنس^(٣).

[إسلام علي]

وقيل: إن علي بن أبي طالب أسلم بعد خديجة، وكان في حجر النبي ﷺ. فعلى هذا يكون أول من أسلم من الرجال أبو بكر، ويكون علي أول صبي أسلم، لأنه كان صبياً لم يدرك، ولذا قال: سبقتكم إلى الإسلام طراً صغيراً ما بلغت أوان حلمي وكان سن علي إذ ذاك عشر سنين، فيما حكاه الطبري.

وقال ابن عبد البر: وممن ذهب إلى أن علياً أول من أسلم من الرجال: سلمان وأبو ذر والمقداد وخباب وجابر وأبو سعيد الخدري، وزيد بن الأرقم، وهو قول ابن شهاب وقتادة وغيرهم.

[أقوال في أول من أسلم]

قال^(٤): واتفقوا على أن خديجة أول من أسلم مطلقاً.

(١) إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعي، الفقيه الحافظ، التابعي الوسط المتوفى وهو مخفف من الحجاج سنة ست وتسعين.

(٢) محمد بن المنكدر بن عبد الله التيمي، التابعي الصغير، كثير الحديث، روى عنه: الزهري ومالك وأبو حنيفة وشعبة والسفيانان. قال ابن عيينة: كان من معادن الصدق، ويحتمع إليه الصالحون. مات سنة ثلاثين ومائة.

(٣) الأخنس بن شريق الثقفي. واسم الأخنس: أبي، حليف بني زهرة، صحابي من مسلمة الفتح، وشهد حنيناً، وأعطى مع المؤلفه، وتوفي أول خلافة عمر.

(٤) أي ابن عبد البر.

وقيل: أول رجل أسلم، ورقة بن نوفل. ومن يمنع، يدعى أنه أدرك نبوته عليه السلام لا رسالته. لكن جاء في السير، وهو في رواية أبي نعيم المتقدمة أنه قال: أبشر، فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم وأنت على مثل ناموس موسى، وأنت نبي مرسل، وأنت ستؤمر بالجهاد، وإن أدرك ذلك لأجاهدن معك. فهذا صريح بتصديقه برسالة محمد ﷺ.

قال البلقيني^(١): بل يكون بذلك أول من أسلم من الرجال. وبه قال العراقي في نكته^(٢) على ابن الصلاح. وذكره ابن منده في الصحابة.

وحكى العراقي: كون علي أول من أسلم عن أكثر العلماء^(٣)، وحكى ابن عبد البر الاتفاق عليه.

وادعى الثعلبي^(٤) اتفاق العلماء على أن أول من أسلم خديجة، وأن اختلافهم إنما هو في أول من أسلم بعدها.

قال ابن الصلاح^(٥): والأورع أن يقال:

(١) سراج الدين، أبو حفص عمر بن رسلان البلقيني، شيخ الإسلام، علامة الدنيا، الحافظ الفقيه البارع المجتهد المصنف، المتوفى سنة خمس وثمانمائة.

(٢) المقصود، نكته على كتاب ابن الصلاح في علوم الحديث.

(٣) في (ط، د، ب): الصحابة

(٤) أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، أبو إسحاق، صاحب التفسير، والعرائس في قصص الأنبياء. قال الذهبي: وكان حافظاً رأساً في التفسير والعربية، متين الديانة والزهادة. مات سنة سبع وعشرين وأربعمائة، ويقال له: الثعلبي والثعالبي.

(٥) شيخ الإسلام، تقي الدين، أبو عمرو، عثمان بن الصلاح. الإمام الحافظ =

أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر.
ومن الصبيان أو الأحداث علي.
ومن النساء خديجة.
ومن الموالي زيد^(١).

ومن العبيد بلال. والله أعلم، انتهى.

وقال الطبري: الأولى التوفيق بين الروايات كلها وتصديقها

فيقال:

أول من أسلم مطلقاً خديجة.

وأول من أسلم علي بن أبي طالب، وهو صبي لم يبلغ، وكان
مستخفياً بإسلامه.

وأول رجل عربي بالغ أسلم وأظهر إسلامه أبو بكر بن أبي
قحافة.

وأول من أسلم من الموالي زيد.

قال: وهذا متفق عليه لا خلاف فيه، وعليه يحمل قول من
قال: أول من أسلم من الرجال أبو بكر، أي الرجال البالغين
الأحرار، ويؤيد هذا ما روي عن الحسن أن علي بن أبي طالب قال:
إن أبا بكر سبقني إلى أربع لم أوتهن: سبقني إلى إفشاء الإسلام، وقدم

= المتبحر في الأصول والفروع والتفسير والحديث، الزاهد، مات سنة ثلاث
وأربعين وستائة.

(١) حب المصطفى، ووالد حبه، أسر في الجاهلية فاشتراه حكيم بن حزام
لعمته خديجة، فاستوهبه النبي ﷺ منها. فوهبته له. وجاء أبوه وعمه مكة
وطلبوا أن يفدياه فخيره عليه السلام بين أن يدفعه إليهما، أو يثبت عنده
فاختار البقاء عنده. ثم أسلم حين بعث عليه السلام.

الهجرة، ومصاحبته في الغار، وإقام الصلاة، وأنا يومئذ بالشعب يظهر إسلامه وأخفيه. الحديث، خرجه صاحب فضائل أبي بكر وخيثة^(١) بمعناه^(٢).

وأما ما روي: من صحبة الصديق للنبي ﷺ وهو ابن ثمانى عشرة سنة، وهم يريدون الشام في تجارة، وحديث بحيرى، وأنه وقع في قلب أبي بكر اليقين، وقول ميمون بن مهران^(٣): والله لقد آمن أبو بكر بالنبي ﷺ زمن بحيرى، فالمراد بهذا الإيمان اليقين بصدقه، وهو ما وفر في قلبه، وإلا فالنبي ﷺ تزوج خديجة وسافر إلى الشام قبل المبعث.

[الرعي الأول]

ثم أسلم / بعد زيد بن حارثة، عثمان بن عفان^(٤)، والزبير بن ١/٢٦ العوام^(٥)، وعبد الرحمن بن عوف^(٦)، وسعد بن أبي

(١) خيثة بن سليمان بن حيدرة، الإمام الحافظ، أبو الحسن القرشي الطرابلسي، أحد الثقات، الرحالة، جمع فضائل الصحابة، ولد سنة خمس وأربعين وثلاثمائة.

(٢) ورواه الدراقطني في الغرائب وضعفه.

(٣) ميمون بن مهران الكوفي، أبو أيوب الجزري، نزيل الرقة، الثقة، الفقيه التابعي الوسط، كثير الحديث، والي الجزيرة لعمر بن عبد العزيز. مات سنة سبع عشرة ومائة، وله سبع وسبعون سنة.

(٤) أمير المؤمنين، ذو النورين، فضائله جمة..

(٥) الزبير بن العوام بن خويلد القرشي الأسدي، الحواري. وهو ابن اثنتي عشرة سنة كان عمه يعلقه في حصير ويدخن عليه بالنار ويقول: ارجع، فيقول: لا أكفر أبداً.

(٦) القرشي الزهري، أحد العشرة المبشرين بالجنة. والثمانية السابقين إلى الإسلام والستة أصحاب الشورى.

وقاص^(١)، وطلحة بن عبيد الله^(٢)، بدعاء أبي بكر الصديق، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له، فأسلموا وصلوا.

ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بعد تسعة أنفس. والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي^(٣)، وعثمان بن مظعون الجمحي^(٤)، وأخواه: قدامة^(٥) وعبد الله، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وامرأته فاطمة بنت الخطاب.

وقال ابن سعد: أول امرأة أسلمت بعد خديجة أم الفضل زوج العباس^(٦)، وأسما بنت أبي بكر، وعائشة أختها. كذا قاله ابن

(١) سعد بن أبي وقاص، أحد العشرة، وآخرهم موتاً، وأحد الستة والثمانية، أسلم بعد سنة وهو سابعهم، وهو ابن تسع عشرة سنة. كما قاله ابن عبد البر وغيره. وأما قوله: لقد رأيتني وأنا ثالث الإسلام، أخرجه البخاري، فحمل على ما اطلع هو عليه.

(٢) أحد العشرة، والثمانية السابقين إلى الإسلام، والستة أصحاب الشورى.

(٣) الأرقم بن أبي الأرقم، عبد مناف بن أسد المخزومي، البدري، شهد أحداً والمشاهد كلها. توفي سنة خمس وخمسين، وهو ابن خمس وثمانين.

(٤) عثمان بن مظعون بن حبيب القرشي الجمحي، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً، وهاجر إلى الحبشة، شهد بدرًا، وتوفي بعدها في السنة الثانية. روى الترمذي عن عائشة: قبل ﷺ عثمان بن مظعون وهو ميت، وهو يبكي وعينه تذر فان. فلما توفي ابنه إبراهيم قال: الحق بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون.

(٥) من السابقين الأولين، هاجر المهجرتين، وشهد بدرًا، وكانت تحتها صفية بنت الخطاب، أخت عمر. مات سنة ست وثلاثين وهو ابن ثمانين سنة.

(٦) رد في فتح الباري هذا القول: بأنها وإن كانت قديمة الإسلام، لكنها لا تذكر في السابقين، فقد سبقتها سمية والدة عمار، وأم أيمن.

إسحاق وغيره. وهو وهم، لأن عائشة لم تكن ولدت بعد فكيف أسلمت. وكان مولدها سنة أربع من النبوة، قاله مغلطاي وغيره^(١).

ودخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء.

(١) لم يذكر بناته ﷺ لأنه لا شك في تمسكهن قبل البعثة بهديه. وعن عائشة - عند ابن إسحاق - لما أكرم الله نبيه بالنبوة أسلمت خديجة وبناته. وفي الشامية: أسلمت رقية حين أسلمت أمها خديجة، وبايعت حين بايع النساء، وأم كلثوم حين أسلمت أخواتها وبايعت معهن ١ هـ. وفاطمة لا يسأل عنها لولادتها بعد النبوة أو قبلها بخمس سنين.

[الجهر بالدعوة]

ثم إن الله تعالى أمر رسوله ﷺ بأن يصدع بما جاء به، أي يواجه المشركين به.

[تفسير ﴿فاصدع بما تؤمر﴾]

وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة.

وقال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود^(١): ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت ﴿فاصدع بما تؤمر﴾^(٢) فجهر هو وأصحابه.

وقال البيضاوي: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً أو فرق به بين الحق والباطل. وأصله: الإبانة والتمييز. و«ما» مصدرية أو موصولة، و«الراجع»^(٣) محذوف، أي بما تؤمر به من الشرائع انتهى.

(١) الكوفي الثقة، مشهور بكنيته. قال الحافظ: والأشهر أنه لا اسم له غيرها، ويقال اسمه عامر، والراجع أنه لا يصح سماعه من أبيه. مات بعد سنة ثمانين.

(٢) سورة الحجر، الآية ٩٤.

(٣) في ش: العائد.

[مدة الدعوة سراً]

قالوا: وكان ذلك بعد ثلاث سنين من النبوة، وهي المدة التي أخفى فيها رسول الله ﷺ أمره إلى أن أمره الله تعالى بإظهاره.

[موقف قريش]

فبادى (١) قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله تعالى.

ولم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه، حتى ذكر آهتهم وعابها، وكان ذلك سنة أربع، كما قاله العتقي. فأجمعوا على خلافه وعداوته إلا من عصم الله منهم بالإسلام. وحذب عليه عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه.

فاشتد الأمر، وتضارب القوم، وأظهر بعضهم لبعض العداوة، وتدامرت قريش على من أسلم منهم يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم. ومنع رسول الله بعمه أبي طالب وبني هاشم - غير أبي لهب - وبني المطلب.

وقال مقاتل: كان رسول الله ﷺ عند أبي طالب يدعوه إلى الإسلام، فاجتمعت قريش إلى أبي طالب يريدون بالنبي ﷺ سوءاً، فقال أبو طالب: حين تروح الإبل فإن حنت ناقة إلى غير فصيلها دفعته إليكم (٢). وقال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفيناً

(١) في ط: فنادى .

(٢) سبب قول أبي طالب: أنهم أتوه بعمارة بن الوليد ليتخذه ولداً ويعطيهم النبي ﷺ ليقتلوه.

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وأبشروا قرب بذاك منك عيوباً
 ودعوتني وزعمت أنك ناصحي ولقد صدقت وكنت ثم أميناً
 وعرضت ديناً لا محالة إنه من خير أديان البرية ديناً
 لولا الملامة أو حذاري سبة لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

[المستهزئون]

وقد كفى الله تعالى نبيه ﷺ المستهزئين^(١). كما قال تعالى:
 ﴿وأعرض عن المشركين﴾ أي لا تلتفت إلى ما يقولون: ﴿إنا كفيناك
 المستهزئين﴾^(٢) يعني بقمعهم وإهلاكهم. وقد قيل^(٣): إنهم كانوا
 خمسة من أشرف قريش:

- . الوليد بن المغيرة .
- . والعاصي بن وائل .
- . والحارث بن قيس .
- . والأسود بن عبد يغوث^(٤) .
- . والأسود بن المطلب .

وكانوا يبالغون في إيذائه ﷺ والاستهزاء به . فقال جبريل لرسول
 الله ﷺ: أمرت أن^(٥) أكفيكهم . فأوماً إلى ساق الوليد، فمر بنبال

(١) ذكر اليعمري قصتهم بعد ذلك قبل انشقاق القمر. وذكرهم المصنف هنا
 بعد الصدع لمحيء الآية التي ذكرتهم بعد آية الصدع.

(٢) سورة الحجر. الآية ٩٥.

(٣) قد للتحقيق. فهو قول الجمهور ومنهم ابن عباس في أكثر الروايات عنه

(٤) هو ابن خاله ﷺ من استهزائه أنه كان يقول: أما كلمت اليوم من السماء
 يا محمد.

(٥) في ط: أنا أكفيكهم. دون ذكر: أمرت .

فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظيماً لأخذه، فأصاب عرقاً في عقبه فمات، وأوماً إلى أخص العاصي فدخلت فيها شوكة فانتفخت رجله حتى صارت كالرحى فمات، وأشار إلى أنف الحارث فامتخط قيحاً فمات، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات، وإلى عيني الأسود بن عبد المطلب فعمي^(١).

[ما لقيه ﷺ من أذى قومه]

وكان ﷺ يطوف على الناس في منازلهم يقول: يا أيها الناس، إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأبو لهب وراءه يقول: يا أيها الناس: إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم^(٢).
ورماه الوليد بن المغيرة بالسحر، وتبعه قومه على ذلك^(٣).

(١) هذه الفقرة (المستهزئون) لم ترد في (ب، د).

(٢) رواه عبد الله في زوائد المسند، والحاكم - وقال على شرطها - عن ربيعة بن عباد الديلي الكتاني الصحابي. [المسند ٤٩١/٣ و ٣٤١/٤].

(٣) روى ابن إسحاق والحاكم والبيهقي بإسناد جيد: أنه اجتمع إلى الوليد نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، فقال لهم: يا معشر قريش، قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم، فأجمعوا فيه رأياً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، قالوا: فأنت فأقم لنا رأياً نقوله فيه، قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول كاهن. قال: والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا بسجعه. قالوا: فنقول: مجنون، قال، والله ما هو بمجنون، لقد رأينا المجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا بخابخه ولا وسوسته، قالوا: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله، رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، قالوا: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار =

وآذته قريش ورموه بالشعر والكهانة والجنون .

ومنهم من كان يمشو التراب على رأسه، ويجعل الدم على بابه .

ووطىء عقبه بن أبي معيط على رقبته الشريفة وهو ساجد عند
٢٦/ب الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان . وخنقوه خنقاً / شديداً، فقام
أبو بكر دونه، فجدبوا رأسه ولحيته ﷺ حتى سقط أكثر شعره، فقام
أبو بكر دونه وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله .

وقال ابن عمرو - كما في البخاري^(١) - : بينا رسول الله ﷺ بفناء
الكعبة إذ أقبل عقبه بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ فلف
ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه

= وسحرمهم، فما هو بنفته ولا عقده .

قالوا: فما نقول؟

قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لعذق، وإن
فرعه لجناه، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل . وإن أقرب
القول فيه؛ أن تقولوا: ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء
وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته .
فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون لسبل الناس حين قدموا الموسم، لا
يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره .

فصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ . فانتشر ذكره في
بلاد العرب كلها . وفي سيرة الحافظ: فانتشر بذلك ذكره في الآفاق،
وانقلب مكرهم عليهم، حتى كان من أمر الهجرة ما كان . وقدم عليه
عشرون من نجران فأسلموا فبلغ أبا جهل فسبهم وأقذع في القول .
فقالوا: سلام عليكم، وفيهم نزل ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه﴾
الآيات . انتهى .

(١) رواه البخاري برقم ٣٨٥٦ .

عن رسول الله ﷺ . وفي رواية ثم قال: ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله﴾ (١).

وقد ذكر العلماء، أن أبا بكر رضي الله عنه أفضل من مؤمن آل فرعون، لأن ذلك اقتصر حيث انتصر على اللسان، وأما أبو بكر فأتبع اللسان يداً، ونصر بالقول والفعل محمداً صلى الله عليه وسلم.

[وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه بالتراب، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ على رقبته، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقيل له: مالك؟ قال: إن بيني وبينه خندقاً من نار، وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً، وأنزل الله ﴿إن الإنسان ليطغى﴾ إلى آخر السورة (٢).

ولما نزلت ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾ جاءت امرأة أبي لهب، فقال أبو بكر: يا رسول الله، لو تنحيت عنها فإنها امرأة بذية، قال: سيحال بيني وبينها، فقالت: يا أبا بكر، هجانا صاحبك، قال: والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله، فاندفعت راجعة، فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما رأتك، قال: كان بيني وبينها ملك سترني بجناحه حتى ذهبت. رواه ابن أبي شيبة وأبو نعيم. وفي رواية البيهقي فقال ﷺ: قل لها: ترين عندي أحداً؟ فإنها لن تراني (٣)

(١) سورة غافر، الآية ٢٨ .

(٢) رواه مسلم برقم ٢٧٩٧ وفي المسند ٣٧٠/٢ .

(٣) ما بين القوسين في ط فقط .

[الدعاء على رؤوس الكفر]

وفي رواية أيضاً: «كان ﷺ يصلي عند الكعبة، وجمع من قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي، أيكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها، فيجيء به ثم يمهل حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه، فانبعث أشقاهم، فلما سجد ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجداً، فضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة وهي جويرية، فأقبلت تسعى، وثبت النبي ﷺ ساجداً حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: اللهم عليك بقريش، ثم سمي فقال: اللهم عليك بعمر بن هشام وعتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعتبة ابن أبي معيط، وعمارة بن الوليد.

قال عبد الله: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القلب، قلب بدر، ثم قال رسول الله ﷺ: وأتبع أصحاب القلب لعنة»^(١).

[أحكام فقهية]

واستدل بهذا الحديث: على أن من عرض له في صلاته ما يمنع انعقادها ابتداء لا تبطل صلاته، فلو كانت نجاسة فأزالتها في الحال، ولا أثر لها صحت صلاته اتفاقاً.

واستدل به أيضاً: على طهارة فرث ما يؤكل لحمه، وعلى أن إزالة النجاسة ليست بفرض، وهو ضعيف.

وأجاب النووي: بأنه عليه السلام لم يعلم ما وضع على ظهره،

(١) رواه البخاري برقم/٥٢٠.

فاستمر في سجوده، استصحاباً لأصل الطهارة.

وتعقب: بأنه مشكل على قولنا بوجوب الإعادة، في مثل هذه الصورة.

وأجيب عنه: بأن الإعادة إنما تجب في الفريضة، فإن ثبت أنها فريضة فالوقت موسع فلعله أعاد.

وتعقب: بأنه لو أعاد لنقل، ولم ينقل، وبأن الله لا يقره على صلاة فاسدة.

[إشكال بشأن عمارة]

وقد استشكل بعضهم عد عمارة بن الوليد في المذكورين، لأنه لم يقتل في بدر، بل ذكر أصحاب المغازي: أنه مات بأرض الحبشة، وله قصة مع النجاشي، إذ تعرض لامرأته فأمر النجاشي ساحراً فنفخ في احليل عمارة من سحره فتوحش، وصار مع البهائم إلى أن مات في خلافة عمر.

وأجيب: بأن كلام ابن مسعود - أنه رآهم صرعى في القليب - محمول على الأكثر، ويدل عليه: أن عقبة بن أبي معيط لم يطرح في القليب، وإنما قتل صبراً بعد أن رحلوا عن بدر بمرحلة. وأميمة بن خلف لم يطرح في القليب، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

[إيضاح آخر الحديث]

وقوله: ثم قال رسول الله ﷺ: وأتبع أصحاب القليب لعنة، يحتمل أن يكون من تمام الدعاء الماضي، فيكون فيه علم عظيم من أعلام النبوة ويحتمل أن يكون قاله ﷺ بعد أن ألقوا في القليب.

[إسلام حمزة]

ثم أسلم حمزة بن عبد المطلب^(١)، وكان أعز فتى في قريش، وأشدّه شكيمة، وكان إسلامه - فيما قاله العتقي - سنة ست، فعزّ به رسول الله ﷺ، وكفت عنه قريش قليلاً، وقال حمزة حين أسلم:

١/٢٧ حمدت الله حين هدى فؤادي إلى الإسلام والدين الحنيف /
لدين جاء من رب عزيز خبر بالعبادهم لطيف
إذا تليت رسائله علينا تحدر دمع ذي اللب الحصيف
رسائل جاء أحمد من هداها بآيات مبينة الحروف
وأحمد مصطفى فينا مطاع فلا تغشوه بالقول العنيف
فلا والله نسلمه لقوم ولما نقض فيهم بالسيوف

[مفاوضة]

وعند مغلطاي: وسألوه - يعني: النبي ﷺ - إن كنت تطلب الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه فيك.

فقال لهم عليه السلام: ما بي ما تقولون، ولكن الله بعثني

(١) وسبب ذلك - كما عند ابن إسحاق - أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا، فأذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره.. ومولاة لعبد الله بن جدعان تسمع ذلك، فأخبرته - وكان عائداً من قنص له -.. فاحتمل حمزة الغضب وخرج يسعى حتى لقي أبا جهل في ناد من قريش عند الكعبة، فضربه على رأسه بقوسه فشججه شجرة منكرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرد علي ذلك إن استطعت.. [سيرة ابن هشام ١/٢٩١].

رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم^(١).

والرثي - بفتح الراء، وقد تكسر، ثم همزة، فياء مشددة - جني يرى فيحب، أو المكسورة للمحجوب منها. قاله في القاموس.

[استعانة قريش باليهود]

ثم إن النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط ذهبا إلى أحبار

(١) عند ابن إسحاق والبيهقي وغيرهما: أن عتبة قال يوماً - وكان جالساً في نادي قريش، والنبي ﷺ جالس في المسجد وحده - يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا؟ فقام حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم وعبت به أهلتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني، أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها.

فقال ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع.

قال: يا ابن أخي، إن كنت.. فذكر الأمور الأربع.. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله يسمع منه قال له:

أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم. قال: فاسمع مني، قال: أفعل، قال: ﷺ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. حم تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ إلى قوله ﴿مثل صاعقة عاد وثمود﴾ [سورة فصلت] فأمسك عتبة على فيه، وناشده الرحم أن يكف، ثم انتهى إلى السجدة فسجد ثم قال: قد سمعت أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.. الحديث [سيرة ابن هشام ٢٩٣/١].

اليهود، فسألاهم عنه ﷺ فقالوا لهما: سلاه عن ثلاثة، فإن أخبركما
بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فهو متقول. سلاه عن فتية ذهبوا
في الدهر الأول، وعن رجل طواف، وعن الروح ما هو؟

فقال لهم عليه السلام: أخبركم غداً، ولم يقل إن شاء الله
تعالى، فلبث الوحي أياماً، ثم نزل قوله تعالى: ﴿ولا تقولن لشيء إني
فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾^(١) وأنزل الله تعالى ذكر الفتية الذين
ذهبوا، وهم أصحاب الكهف، وذكر الرجل الطواف. وهو ذو
القرنين^(٢). وقال فيما سأله عن الروح ﴿ويسألونك عن الروح قل
الروح من أمر ربي﴾^(٣) الآية.

[آية الروح، مكة أم مدنية؟]

وفي البخاري من حديث عبد الله بن مسعود قال: (بيننا أنا مع
النبي ﷺ في حرث، وهو متكئ على عسيب، إذ مر اليهود، فقال
بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، قالوا: ما رابكم إليه، وقال
بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه، فقالوا: سلوه، فسألوه عن
الروح، فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى
إليه، فممت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿ويسألونك عن الروح
قل الروح من أمر ربي﴾^(٤).

قال الحافظ ابن كثير: وهذا يقتضي - فيما يظهر من بادىء الرأي -

(١) سورة الكهف الآية ٢٣.

(٢) ورد ذكر الفتية والرجل الطواف في سورة الكهف.

(٣) سورة الإسراء. الآية ٨٥.

(٤) رواه البخاري برقم ١٢٥ وهو في أماكن أخرى منه.

أن هذه آية مدنية، وأنها إنما نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية (١).

وقد يجاب عن هذا: بأنه قد تكون نزلت عليه مرة ثانية بالمدينة، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك. ومما يدل على نزولها بمكة ما رواه الإمام أحمد من حديث ابن عباس قال قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه فنزلت. الحديث (٢). انتهى.

وهذا الحديث رواه الترمذي أيضاً باسناد رجاله رجال مسلم. فيحمل على تعدد النزول كما أشار إليه ابن كثير، ويحمل سكوته في المرة الثانية على توقع مزيد بيان في ذلك.

[الاختلاف في الروح]

وقد اختلف في المراد بالروح المسؤول عنه في هذا الخبر:
ف قيل: روح الإنسان.
وقيل: جبريل.
وقيل: عيسى:
وقيل: ملك يقوم وحده صفا يوم القيامة.
وقيل غير ذلك (٣).

(١) أي سورة الإسراء .

(٢) المسند ١/ ٢٥٥ .

(٣) قال الحافظ: وهذا إنما اجتمع من كلام أهل التفسير في معنى لفظ «الروح» الوارد في القرآن، لا في خصوص هذه الآية، فمنه:

١ - ﴿نزل به الروح﴾ ٢ - ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً﴾ ٣ - ﴿يلقي =

وقال القرطبي: الراجح أنهم سألوه عن روح الإنسان لأن اليهود لا تعترف بأن عيسى روح الله، ولا تجهل أن جبريل ملك، وأن الملائكة أرواح.

وقال الإمام فخر الدين: المختار أنهم سألوه عن الروح الذي هو سبب الحياة، وأن الجواب وقع على أحسن الوجوه وبيانه: أن السؤال ٢٧/ب / عن الروح يحتمل عن ماهيته^(١)، وهل هي متحيزة أم لا؟ وهل هي حالة في متحيز أم لا؟ وهل هي قديمة أو حادثة، وهل تبقى بعد انفصالها من الجسد أو تفتى، وما حقيقة تعذيبها وتنعيمها، وغير ذلك من متعلقاتها.

قال: وليس في السؤال ما يخص أحد هذه المعاني، إلا أن الأظهر أنهم سألوه عن الماهية. وهل الروح قديمة أو حادثة؟ والجواب يدل على أنها شيء موجود مغاير للطبائع والأخلاق وتركيبها، فهي جوهر بسيط مجرد لا يحدث إلا بمحدث، وهو قوله تعالى: «كن»، فكأنه قال: هي موجودة محدثة بأمر الله وتكوينه ولها تأثير في إفادة الحياة للجسد، ولا يلزم من عدم العلم بكيفيتها المخصوصة نفيه.

قال: ويحتمل أن يكون المراد بالأمر في قوله تعالى: ﴿من أمر ربي﴾: الفعل، كقوله تعالى: ﴿وما أمر فرعون برشيده﴾^(٢) أي فعله.

= الروح من أمره ﴿٤﴾ - وأيدهم بروح منه ﴿٥﴾ - ﴿يوم يقوم الروح﴾ ﴿٦﴾ - تنزل الملائكة والروح﴾. فالأول: جبريل، والثاني: القرآن، والثالث: الوحي، والرابع: القوة والخامس والسادس: محتمل لجبريل ولغيره.

(١) كذا في (أ) و(ش) وكذا في فتح الباري المنقول عنه. وفي (ط، ب، د): ماهيتها.

(٢) سورة هود. الآية ٩٧.

فيكون الجواب: أنها حادثة.

ثم قال: وقد سكت السلف عن البحث في هذه الأشياء والتعمق فيها. انتهى^(١).

وقال في فتح الباري: وقد تنطع قوم فتباينت أقوالهم:

ف قيل: هي النفس الداخل الخارج .

وقيل: جسم لطيف، يحل في جميع البدن.

وقيل: هي الدم .

وقيل: إن الأقوال فيها بلغت المائة.

ونقل ابن منده عن بعض المتكلمين: أن لكل نبي خمسة أرواح، ولكل مؤمن ثلاثة، ولكل حي واحدة^(٢).

وقال ابن العربي: اختلفوا في الروح والنفس، فقيل متغايران، وهو الحق، وقيل هما شيء واحد، وقد يعبر بالروح عن النفس وبالعكس.

وقال ابن بطال^(٣): معرفة حقيقة الروح مما استأثر الله بعلمه بدليل هذا الخبر.

قال: والحكمة في إبهامه: اختبار الخلق، ليعرفهم عجزهم عن

(١) أي كلام الفخر الرازي .

(٢) الجملة الأخيرة وردت في (ش) وهي في فتح الباري .

(٣) العلامة أبو الحسن، علي بن خلف بن بطلال القرطبي، شارح البخاري، أحد شيوخ ابن عبد البر، كان من أهل العلم والمعرفة والفهم، عني بالحديث العناية التامة وأتقن ما قيد، مات سنة أربع وأربعين وأربعمائة .

علم ما لا يدركونه حتى يضطرهم إلى رد العلم إليه .

وقال القرطبي : الحكمة في ذلك إظهار عجز المرء ، لأنه إذا لم يعلم حقيقة نفسه مع القطع بوجوده ، كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق من باب أولى .

وقال بعضهم : ليس في الآية دلالة على أن الله لم يطلع نبيه ﷺ على حقيقة الروح بل يحتمل أن يكون أطلعه الله ولم يأمره أن يطلعهم . وقد قالوا في علم الساعة نحو هذا والله أعلم . انتهى (١) .

[الاضطهاد والفتنة]

ولما كثر المسلمون ، وظهر الإيمان ، أقبل كفار قريش على من آمن يعذبونهم ويؤذونهم ليردوهم عن دينهم . حتى إنه مر عدو الله ، أبو جهل ، بسمية أم عمار بن ياسر ، وهي تعذب فطعنها بحربة في فرجها فقتلها (٢) .

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا مر بأحد من العبيد يعذب اشتراه منهم وأعتقه ، منهم بلال وعامر بن فهيرة .

(١) فتح الباري ٤٠٣/٨ .

(٢) عذبت سمية وابناها عمار وعبد الله وأبوها ياسر بن عامر ، كما رواه البلاذري عن أم هانئ ، قالت : فمر بهم النبي ﷺ فقال : صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة . فمات ياسر في العذاب وأعطيت سمية لأبي جهل فقتلها ، ورمى عبد الله فسقط . وأما عمار ففرج الله عنه بعد طول تعذيبه . وقد روى ابن سعد - بسند صحيح - عن مجاهد أن سمية أول شهداء الإسلام .

[أول من أظهر الإسلام]

وعن أبي ذر: كان أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد. فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وصهروهم في الشمس، وإن بلالاً هانت عليه نفسه في الله عز وجل، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد. رواه أحمد في مسنده^(١).

وعن مجاهد مثله، وزاد في قصة بلال: وجعلوا في عنقه حبلاً ودفعوه إلى الصبيان يلعبون به حتى أثر الحبل في عنقه.

[بلال]

فانظر كيف فعل بلال ما فعل من الإكراه على الكفر، وهو يقول أحد أحد، فمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان، وهذا كما وقع له أيضاً عند موته، كانت امرأته تقول: واحزنانه وهو يقول: واطرباه. غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه، فمزج مرارة الموت بحلاوة اللقاء. والله در أبي محمد الشقراطي حيث قال:

لاقي بلال بلاء من أمية قد أحله الصبر فيه أكرم النزل
إذ أجهدوه بضنك الأسر^(٢) وهو على شدائد الأزل ثبت الأزرم لم يزل
ألقوه بطحا برمضاء البطاح وقد عالوا عليه صخور جمة الثقل /

١/٢٨

(١) المسند ١/٤٠٤ .

(٢) في ط: الأمر .

فوحده الله إخلاصاً وقد ظهرت بظهره كندوب الطل في الطلل^(١) إن قدَّ ظهر ولي الله من دبر قد قدَّ قلب عدو الله من قبل يعني إن كان ظهر ولي الله بلال قد ظهر فيه التعذيب بقده، فقد جوزي عدو الله أمية، وَقُدَّ قلبه ببدر، لأنه قتل يومئذ، وكان عبد الرحمن بن عوف قد أسره يومئذ وأراد استبقاءه لأخوة كانت بينها في الجاهلية، فرآه بلال معه فصاح بأعلى صوته يا أنصار الله رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا فهشوه بأسيا فهم حتى قتلوه.

[عتقاء أبي بكر]

وأخرج البيهقي عن عروة أن أبا بكر أعتق ممن كان يعذب في الله سبعة^(٢)، منهم: الزنيرة، فذهب بصرها، وكانت ممن تعذب في

(١) الندوب: جمع ندب: أي آثار، وقيل أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد الطل: المطر الخفيف .

الطلل: ما شخص من آثار الديار على وجه الأرض .

(٢) هم: بلال، وعامر بن فهيرة، وأم عنيس - بعين مهملة مضمومة فنون فسين مهملة - أمة لبني زهرة، وزنيرة، والنهدية وبنتها، والمؤلمية . كما في سيرة ابن هشام .

وذكر ابن إسحاق: أنه أعتق أبا فكيهة

وابن عبد البر وغيره: أنه أعتق أم بلال .

فاقتصر عروة على سبعة باعتبار ما بلغه، فلا ينافي أنهم تسعة .

وأخرج الحاكم عن عبد الله بن الزبير قال: قال أبو قحافة لأبي بكر: أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك أعتقت رجالاً جلدأ يمنعونك ويقومون دونك، فقال: يا ابتي إني إنما أريد ما عند الله، فنزلت ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ إلى آخر السورة .

الله، فتأبى إلا الإسلام، فقال المشركون: ما أصاب بصرها إلا اللات
والعزى، فقالت: كلا والله ما هو كذلك فرد الله عليها بصرها.
والزنية: بكسر الزاي وتشديد النون المكسورة. كسكينة: كذا
في القاموس.

[الهجرة الأولى الى الحبشة]

ثم أذن رسول الله ﷺ لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة^(١)، وذلك في رجب سنة خمس من النبوة.

فهاجر إليها ناس ذوو عدد، منهم من هاجر بأهله، ومنهم من هاجر بنفسه، وكانوا أحد عشر رجلاً^(٢) - وقيل اثنا عشر رجلاً - وأربع نسوة - وقيل: وخمس نسوة، وقيل وامرأتين -.

وأمرهم عثمان بن مظعون، وأنكر ذلك الزهري وقال: لم يكن لهم أمير. وخرجوا مشاة إلى البحر فاستأجروا سفينة بنصف دينار.

وكان أول من خرج عثمان بن عفان مع امرأته رقية بنت رسول

(١) وسبب ذلك - كما عند ابن إسحاق - أنه ﷺ لما رأى المشركين يؤذون أصحابه ، ولا يستطيع أن يكفهم عنهم قال: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه، فخرجوا إليها مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم. فكانت أول هجرة في الإسلام.

(٢) هم: عثمان بن عفان، وعبد الرحمن، والزبير بن العوام، وأبو حذيفة بن عتبة، ومصعب، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة، وسهيل بن بيضاء وأبو سبرة بن أبي رهم، وحاطب بن عمرو. والنساء: رقية مع زوجها عثمان، وسهلة بنت سهيل مع زوجها أبي حذيفة، وأم سلمة مع زوجها، وليل العدوية مع زوجها عامر بن ربيعة.

الله ﷺ، وأخرج يعقوب بن سفيان بسند موصل إلى أنس قال: أبطأ على رسول الله ﷺ خبرهما، فقدمت امرأة فقالت: قد رأيتهما وقد حمل عثمان امرأته على حمار، فقال: إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط.

فلما رأت قريش استقرارهم في الحبشة وأمنهم أرسلوا عمرو بن العاصي، وعبد الله بن أبي ربيعة بهدايا وتحف من بلادهم إلى النجاشي - واسمه أصحمة - وكان معها عمارة بن الوليد، ليردهم إلى قومهم، فأبى ذلك وردهما خائبين بهديتهما.

[اسلام عمر بن الخطاب]

وأسلم عمر بن الخطاب بعد حمزة بثلاثة أيام فيما قاله أبو نعيم^(١) بدعوته ﷺ: (اللهم أعز الإسلام بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب)^(٢) وكان المسلمون إذ ذاك بضعة وأربعين رجلاً، وإحدى عشرة امرأة^(٣).

[سبب إسلامه]

وكان سبب إسلامه - فيما ذكره أسامة بن زيد^(٤) عن أبيه^(٥) عن

(١) وهذا موافق لما حكاه ابن سعد.

وقال ابن إسحاق: أسلم عقب الهجرة الأولى إلى الحبشة.

(٢) رواه الترمذي عن ابن عباس، ورواه أحمد والترمذي - وقال حسن صحيح - وابن سعد والبيهقي عن ابن عمر رفعه بلفظ (اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب) وصححه ابن حبان. وفي حديث خباب عن البزار مرفوعاً (اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب).

قال في الدر: اشتهر هذا الحديث على الألسنة بلفظ: بأحب العمرين.

ولا أصل له في شيء من طرق الحديث بعد الفحص البالغ.

(٣) في ش لم يذكر عدد النساء.

(٤) أسامة بن زيد بن أسلم، العدوي - مولاهم - ضعيف من قبل حفظه.

مات في خلافة المنصور.

(٥) زيد بن أسلم: الفقيه العالم المفسر الثقة الحافظ التابعي، روى له الستة.

جده^(١) عن عمر - أنه قال: بلغني إسلام أختي^(٢)، فدخلت عليها، فقلت يا عدوة نفسها، قد بلغني عنك أنك صبوت، ثم ضربتها، فسال الدم، فلما رأته الدم بكت وقالت: يا ابن الخطاب ما كنت فاعلاً فافعل فقد أسلمت.

قال: فدخلت وأنا مغضب، فإذا كتاب في ناحية البيت، فإذا فيه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدي، قال: ثم رجعت إليها فإذا فيها ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حتى بلغت ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(٣) فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوا مني، فجئت إلى رسول الله ﷺ في بيت في أسفل الصفا، فدخلت وأخذ رجلان بعضدي حتى دنوت من النبي ﷺ فقال أرسلوه، فأرسلوني فجلست بين يديه، فأخذ بمجمع ثيابي ف جذبني إليه ثم قال: أسلم يا ابن الخطاب، اللهم اهد قلبه، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة.

وكان الرجل إذا أسلم استخفى ثم خرجت إلى رجل لم يكن

(١) أسلم، مولى عمر، اشتراه عمر سنة إحدى عشرة، التابعي الكبير. مات سنة ثمانين.

(٢) هي فاطمة عند الأكثر، وقيل أميمة، قال في الإصابة: فكان اسمها فاطمة، ولقبها أميمة، وكنيتها أم جميل. وقيل: اسمها رملة.

(٣) سورة الحديد.

وفي رواية ابن عساكر وأبي نعيم عن ابن عباس والدارقطني عن أنس: كان فيها سورة «طه».

يكنم السر^(١)، فقلت له إني صبوت، قال فرفع صوته بأعلاه: ألا إن ابن الخطاب قد صبأ، فما زال الناس يضربوني وأضربهم، فقال خالي^(٢): ما هذا؟ قالوا: ابن الخطاب، فقام على الحجر وأشار بكمه فقال: ألا إني قد أجرت ابن اختي، فانكشف الناس عني، قال: فما زلت أضرب وأضرب حتى أعز الله الإسلام^(٣).

(١) هو جميل بن معمر بن حبيب، أسلم يوم الفتح وقد شاخ، وشهد حنيناً وفتح مصر، ومات في خلافة عمر. فحزن عليه حزناً شديداً.

(٢) يحتمل أنه أبو جهل، أو أخوه الحارث بن هشام، لأنها خاله مجازاً، لأن عصة الأم أخوال الابن، وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومي، وهاشم وهشام أخوان، فهما ابنا عم أمه. ويحتمل أنه أراد غيرهما من بني مخزوم. قال البرهان: فالجزم بأنه أبو جهل يحتاج إلى برهان.

(٣) روى حديث أسلم عن عمر بطوله: البزار والطبراني، وأبو نعيم والبيهقي، ورواه الدراقطني من حديث أنس، وابن عساكر والبيهقي عن ابن عباس، وأبو نعيم عن طلحة وعائشة، كلهم عن عمر نحوه.

فهذه طرق يعضد بعضها بعضاً، فانجبر ما فيه من ضعف أسامة.

وقد أورده المصنف مختصراً. وأوله: .. كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ بيننا أنا في يوم حار شديد بالهاجرة، في بعض طرق مكة، إذ لقيني زجل من قريش فقال: أين تذهب، إنك تزعم أنك هكذا، وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك قلت: وما ذلك؟ قال: أختك قد صبأت، فرجعت مغضباً، وقد كان ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه، ويصبيان من طعامه، وقد ضم إلى زوج أختي رجلين، فجئت حتى قرعت الباب، فقيل: من هذا؟ قلت ابن الخطاب. قال: وكان القوم جلوساً يقرؤون صحيفة معهم، فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفوا، أو قال: نسوا الصحيفة من أيديهم فقامت المرأة ففتحت لي. وفيه: فقلت ما هذا الكتاب، أعطنيه، فقالت: لا أعطيكه، لست من أهله، أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تطهر، وهذا لا يمسه إلا المطهرون، قال: فلم أزل بها حتى أعطتنيه.

قال ابن عباس: لما أسلم عمر قال جبريل للنبي ﷺ / : ٢٨/ب
يا محمد، لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر^(١). رواه ابن
ماجه^(٢)(٣).

(١) ورواه أيضاً الحاكم وصححه.

ورده الذهبي: بأن فيه عبد الله بن حراش، ضعفه الدارقطني. انتهى.
ضعفه أيضاً غيره، ورواه ابن سعد عن الزهري وداود بن الحصين
مرسلاً، والله أعلم.

(٢) أبو عبد الله، محمد بن يزيد القزويني، الثقة المتفق عليه، المحتج به، له
معرفة بالحديث، وله مصنفات في السنن والتفسير والتاريخ. مات سنة
ثلاث وثمانين ومائتين.

(٣) تنمات:

[رواية أخرى في سبب إسلامه]

في رواية عند ابن إسحاق: أنه دخل المسجد يريد الطواف، فرأى النبي
ﷺ يصلي، فقال: لو سمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول، فقلت:
إن دنوت منه أستمع لأروعه، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابه
- أي البيت - فجعلت أمشي حتى قمت في قبلته وسمعت قراءته، فرق له
قلبي فبكيت ودخلني الإسلام فلم أزل قائماً في مكاني ذلك حتى انصرف
فتبعته، فلما سمع حسي عرفني فظن أني إنما تبعته لأؤذيه فهمني - أي
زجرني - ثم قال: ما جاء بك في هذه الساعة؟ قلت جئت لأومن بالله
ورسوله وبما جاء من عند الله. قال فحمد الله، ثم قال: قد هداك الله يا
عمر، ثم مسح صدري. . [سيرة ابن هشام ٣٤٣/١].

أقول وهناك - عند ابن إسحاق - رواية أخرى مطولة مفصلة، شبيهة بما
ذكره المصنف [سيرة ابن هشام ٣٤٣/١]

[رد جوار خاله]

قال: رددت جوار خالي، كراهة أن لا أكون كالمسلمين، وقال خالي: لا
تفعل يا ابن اختي، فقلت بل هو ذاك، قال: فما شئت.

- كما في حديث أسلم الذي رواه المصنف - شرح الزرقاني ٢٧٦/١ =

[خوف عمر]

روى البخاري عن عبد الله بن عمر عن أبيه قال (بينما هو في الدار خائفاً إذ جاءه العاص بن وائل السهمي . . فقال: ما بالك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونني أن أسلمت، قال: لا سبيل إليك، بعد أن قالها أمنت، فخرج العاص فلقى الناس قد سال بهم الوادي فقال أين تريدون، قالوا: نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ. قال: لا سبيل إليه، فكر الناس) وفي رواية أخرى: (فرأيت الناس تصدعوا عنه) [البخاري برقم ٣٨٦٤ و٣٨٦٥]. [المحقق].

[دخول الشعب وخبر الصحيفة]

ولما رأت قريش عزة النبي ﷺ بمن معه، وإسلام عمر، وعزة أصحابه بالحبشة، وفشو الإسلام في القبائل، أجمعوا على أن يقتلوا النبي ﷺ، فبلغ ذلك أبا طالب، فجمع بني هاشم وبني المطلب، فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم ومنعوه ممن أراد قتله، فأجابوه حتى كفارهم، فعلوا ذلك حمية على عادة الجاهلية.

فلما رأت قريش ذلك اجتمعوا واثمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب: أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوا منهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل.

وكتبوه في صحيفة بخط منصور بن عكرمة - وقيل بغيض بن عامر - فشلت يده، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة، هلال المحرم سنة سبع من النبوة.

فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه، إلا أبا لهب فكان مع قريش. فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً، وقال ابن سعد: سنتين حتى جهدوا وكان لا يصل إليهم شيء إلا سراً.

[قصة الغرانيق]

[ملخص القصة]

وقدم نفر من مهاجرة الحبشة، حين قرأ ﷺ ﴿والنجم إذا هوى﴾ حتى بلغ ﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى﴾ ألقى الشيطان في أمنيه، أي في تلاوته: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترجى، فلما ختم السورة سجد ﷺ وسجد معه المشركون، لتوهمهم أنه ذكر آلهتهم بخير، وفشا ذلك في الناس، وأظهره الشيطان حتى بلغ أرض الحبشة، ومن بها من المسلمين، عثمان بن مظعون وأصحابه. وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم، وصلوا معه ﷺ، وقد آمن المسلمون بمكة، فأقبلوا سراعاً من الحبشة^(١).

(١) لا خلاف بين العلماء على بطلان هذه القصة ومعارضتها للعقيدة الإسلامية. ولذا صرح أكثرهم ببطلانها ووضعها.

وذهب بعضهم إلى وجود أصل لها بناء على تعدد الأسانيد، ثم ذهبوا يلتزمون تأويلاتها. على الرغم من ضعف تلك الأسانيد وانقطاعها. وعلى الرغم من اتفاقهم مع الفريق الأول على بطلان متنها.

وقد قام المحقق بدراستها دراسة وافية وتوصل إلى إبطالها بدليل غير أدلة مناقشة المتن والسند، وهو أن سورة النجم - التي تزعم الروايات أن القصة حدثت أثناء تلاوتها - لم تكن نزلت في ذلك الوقت. وإنما نزلت بعد حادثة الإسراء، أي بعد خمس سنين من حادثة الهجرة الأولى إلى الحبشة. وهذا دليل قاطع على بطلانها لم أر من ذكره من قبل. وانظر تفصيل ذلك =

[معنى : الغرائيق]

والغرائيق في الأصل: الذكور من طير الماء، واحدها: غرنوق
وغرنيق، سمي به لبياضه. وقيل: هو الكركي.

والغرنوق أيضاً: الشاب الأبيض الناعم.

وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله، وتشفع لهم،
فشبهت بالطيور التي تعلقوا في السماء وترتفع.

[توهم المشركين]

ولما تبين للمشركين عدم ذلك، رجعوا إلى أشد ما كانوا عليه.

[القائلون ببطان القصة]

● وقد تكلم القاضي عياض - رحمه الله - في «الشفاء» على هذه
القصة وتوهين أصلها بما يشفي ويكفي، لكن تعقب في بعضه كما
سيأتي إن شاء الله تعالى.

● وقال الإمام فخر الدين الرازي - مما لخصته من تفسيره - هذه
القصة باطلة موضوعة، لا يجوز القول بها. قال الله تعالى: ﴿وما ينطق
عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾^(١) وقال الله تعالى: ﴿سنقرئك فلا
تنسى﴾^(٢).

= في كتابنا «أضواء على دراسة السيرة» وهو من مطبوعات المكتب الاسلامي .
أما رجوع المهاجرين فيرجع إلى خبر كاذب روجته قريش بأن هدنة
قامت بينهم وبين الرسول ﷺ [م].

(١) سورة النجم. الآية ٣ .

(٢) سورة الأعلى. الآية ٦ .

● وقال البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، ثم أخذ يتكلم في أن رواية هذه القصة مطعونون.

وأيضاً: فقد روى البخاري في صحيحه أنه ﷺ قرأ سورة النجم وسجد، وسجد المسلمون والمشركون والإنس والجن، وليس فيه حديث الغرائق^(١). بل روي هذا الحديث من طرق كثيرة، وليس فيها ألبتة حديث الغرائق.

ولا شك أن من جوز على الرسول تعظيم الأوثان فقد كفر، لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان، ولو جوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه، وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك. ويبطل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^(٢) فإنه لا فرق في الفعل بين النقصان في الوحي وبين الزيادة فيه.

فهذه الوجوه، عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة. وقد قيل: إن هذه القصة من وضع الزنادقة لا أصل لها. انتهى.

[تخريج القصة]

وليس كذلك. بل لها أصل.

فقد خرجها: ابن أبي حاتم^(٣)، والطبري، وابن المنذر^(٤)، من

(١) رواه البخاري برقم ٤٨٦٢.

(٢) سورة المائدة. الآية ٦٧.

(٣) الحافظ أبو محمد، عبد الرحمن بن محمد التميمي الرازي، صاحب التصانيف الكثيرة، الثقة، كان بحراً في العلوم ومعرفة الرجال، توفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة، وقد ناهز التسعين.

(٤) محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، نزيل مكة، صاحب التصانيف، =

طرق عن شعبة^(١) عن ابن بشر^(٢)، عن سعيد بن جبير.

وكذا ابن مردويه، والبزار، وابن إسحاق في السيرة، وموسى بن عقبة^(٣) في المغازي^(٤)، وأبو معشر^(٥) في السيرة.

كما نبه عليه الحافظ عماد الدين بن كثير وغيره، لكن قال: إن طرقها كلها مرسلة وأنه لم يرها مسندة من وجه صحيح. وهذا / ٢٩ / متعقب بما سيأتي:

وكذا نبه على ثبوت أصلها شيخ الإسلام الحافظ^(٦) أبو الفضل العسقلاني فقال: أخرج ابن أبي حاتم والطبري وابن المنذر من طرق

= الحافظ، كان غاية في معرفة الخلاف والدليل، فقيهاً مجتهداً لا يقلد أحداً، مات سنة تسع وثلاثمائة.

(١) شعبة بن الحجاج الواسطي، أمير المؤمنين في الحديث، كان من سادات زمانه حفظاً وإتقاناً، وورعاً وفضلاً. قال الشافعي: لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق. ولد سنة اثنتين وثمانين ومات بالبصرة سنة ستين ومئة.

(٢) جعفر بن أبي وحشية - اسمه إياس - الواسطي، الثقة من رجال الصحيح، توفي سنة أربع وعشرين ومائة.

(٣) ابن أبي عياش القرشي - مولاهم - المدني، التابعي الصغير، الثبت الحافظ الفقيه، توفي سنة إحدى وأربعين ومائة.

(٤) قال مالك: عليك بمغازي الرجل الصالح موسى بن عقبة فإنها أصح المغازي، وقال الشافعي: ليس في المغازي أصح من كتاب موسى، مع صغره وخلوه من أكثر ما يذكر في كتب غيره.

(٥) نجيب بن عبد الرحمن الهاشمي، مولاهم، قال أحمد: صدوق لا يقيم الإسناد، وقال ابن معين: ليس بالقوي، وابن عدي: يكتب حديثه مع ضعفه. مات سنة سبعين ومائة.

(٦) في (ط، ش): والحافظ، وفي (ب، د): والحفاظ.

عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة والنجم، فلما بلغ أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى، فقال المشركون: ما ذكر آهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا، فنزلت هذه الآية ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾^(١) الآية.

وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق أمية بن خالد عن شعبة فقال: في إسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، فيما أحسب، ثم ساق الحديث. وقال البزار: لا يروي متصلاً إلا بهذا الإسناد. وتفرد بوصله أمية بن خالد وهو ثقة مشهور.

قال: وإنما يروي هذا من طريق الكلبي عن أبي صالح^(٢) عن ابن عباس. انتهى، والكلبي متروك^(٣) لا يعتمد عليه. وكذا أخرجه النحاس^(٤) بسند آخر فيه الواقدي.

(١) سورة الحج: الآية ٥٢.

(٢) باذان، عن مولاته أم هانئ وعلي، وعنه السدي وغيره. أخرج له أصحاب السنن، قال أبو حاتم لا يحتج به، وفي التقريب: إنه مقبول.

(٣) محمد بن السائب، قال ابن الجوزي: إنه من كبار الوضاعين. وقال ابن حبان: يروي الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس التفسير، وأبو صالح لم ير ابن عباس، ولا سمع الكلبي من أبي صالح إلا الحرف بعد الحرف، فلما احتجج إليه أخرجت الأرض أفلاذ كبدها، لا يجل ذكره في الكتب، فكيف الاحتجاج به؟! مات سنة ست وأربعين ومائة.

(٤) الإمام الحافظ الصدوق: أبو العباس، أحمد بن محمد بن عيسى المصري، ذو الرحلة الواسعة والمعرفة الجيدة، روى عنه الحاكم. مات سنة ست وسبعين وثلاثمائة، عن خمس وثمانين سنة.

وذكرها ابن إسحاق في السيرة مطولاً، وأسندها عن محمد بن كعب، وكذلك عن موسى بن عقبة في المغازي عن ابن شهاب الزهري.

وكذا أبو معشر في السيرة له عن محمد بن كعب القرظي^(١) ومحمد بن قيس وأورده من طريق الطبري.

وأورده ابن أبي حاتم من طريق أسباط عن السدي.

ورواه ابن مردويه من طريق عباد بن صهيب^(٢) عن يحيى بن كثير، عن الكلبي عن أبي صالح، وعن أبي بكر الهذلي^(٣)، وأيوب^(٤) عن عكرمة، وعن سليمان التيمي^(٥) عن حدثه، ثلاثتهم عن ابن عباس.

(١) محمد بن كعب القرظي، نسبة إلى قريظة، عالم ثقة. ولد سنة أربعين، نزل الكوفة، ومات سنة عشرين ومائة.

(٢) عباد بن صهيب، قال البخاري والنسائي وأبو حاتم: متروك. وابن المديني: ذهب حديثه، وقال ابن حبان، يروي المناكير عن المشاهير، وقال أحمد: ما كان بصاحب كذب.

(٣) قيل اسمه: سلمى، وقيل: روح، ابن عبد الله، الأخباري، متروك الحديث، كما في التقريب. مات سنة سبع وستين ومائة، روى له ابن ماجه.

(٤) أيوب بن كيسان البصري. التابعي الصغير، قال فيه شعبة: أيوب سيد الفقهاء ما رأيت مثله. وقال ابن سعد: كان ثقة ثبتاً حجة عدلاً جامعاً. ولد سنة أربع وستين ومات سنة إحدى وثلاثين ومائة.

(٥) سليمان بن بلال التيمي، مولاهم، أحد علماء البصرة. قال ابن سعد: كان بربرياً جميلاً حسن الهيئة، عاقلاً ثقة، كثير الحديث، مات سنة اثنتين وسبعين ومائة.

وأوردها الطبري أيضاً من طريق العوفي^(١) عن ابن عباس .
ومعناهم كلهم في ذلك واحد .

[رأي ابن حجر في طرق القصة]

وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف وإما منقطع . لكن
كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً .

مع أن لها طريقين آخرين مرسلين رجالهما على شرط الصحيح .
أحدهما: ما أخرجه الطبري من طريق يونس بن يزيد^(٢) عن ابن
شهاب: حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام^(٣)،
فذكر نحوه .

والثاني: ما أخرجه أيضاً من طريق المعتمر بن سليمان^(٤)، وحماد

(١) عطية بن سعد بن جنادة، الجدلي الكوفي، أبو الحسن، صدوق شيعي
مدلس، يخطيء كثيراً. إلا أن الترمذي يحسن حديثه خصوصاً مع الشاهد.

(٢) الحافظ، روى عن الزهري ونافع وغيرهما، وعنه: الليث وابن وهب وغيرهما
مات بمصر سنة سبع وخمسين ومائة. روى له الجميع ووثقه الجمهور
مطلقاً.

(٣) أبو بكر عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، الثقة، أحد الفقهاء
السبعة التابعي الكبير، كثير الحديث، من سادات قريش. ولد في خلافة
عمر، ومات سنة ثلاث وتسعين.

(٤) ابن طرخان التيمي، الثقة الحافظ، البصري المتوفى بها سنة سبع وثمانين
ومائة، روى له الستة.

ابن سلمة^(١) كلاهما عن داود بن أبي هند^(٢)، عن أبي العالية^(٣).
قال الحافظ ابن حجر^(٤): وقد تجرأ ابن العربي^(٥) - كعادته -
فقال: ذكر الطبري في ذلك روايات كثيرة لا أصل لها. وهو إطلاق
مردود عليه.

وكذا قول القاضي عياض:

«هذا الحديث لم يخرج أهله الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم
متصل، مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته وانقطاع إسناده»

وكذا قوله: «ومن حملت عنه هذه القصة من التابعين والمفسرين
لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم في
ذلك ضعيفة واهية».

قال: «وقد بين البزار أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره، إلا

(١) حماد بن سلمة بن دينار المصري، أحد الأئمة الأثبات، العابد الزاهد
الحافظ، مجاب الدعوة، احتج به مسلم والأربعة، والبخاري في التاريخ.
مات سنة سبع وستين ومائة.

(٢) داود بن أبي هند القشيري، مولاهم، أبو بكر، أو أبو محمد، ثقة متقن
أخرج له مسلم والأربعة مات سنة أربعين ومائة.

(٣) ربيع بن مهران الرياحي البصري، التابعي الكبير، أسلم بعد الوفاة النبوية
بستين قيل فيه: ليس بعد الصحابة أعلم منه بالقرآن، مات سنة تسعين.

(٤) ما زال الكلام لابن حجر، وقد استمر النقل عنه حتى نهاية بحث
الغرائيق. فتح الباري ٤٣٩/٨.

(٥) الحافظ المتبحر في العلوم، محمد بن عبد الله الأشبيلي المالكي، القاضي، أبو
بكر، له التصانيف الحسنة والمناقب الجملة. توفي سنة ثلاث وأربعين
وخمسة مائة.

طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير، مع الشك الذي وقع في وصله .
وأما الكلبي فلا تجوز الرواية عنه لقوة ضعفه» .

«ثم رده من طريق النظر: بأن ذلك لو وقع لارتد كثير من
أسلم . قال: ولم ينقل ذلك» . انتهى (١) .

وجميع ذلك لا يتمشى مع القواعد:

فإن الطرق إذا كثرت وتباينت مخارجها دل ذلك على أن لها
أصلاً .

وقد ذكرنا أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهي
مراسيل يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل، وكذا من لا يحتج به لاعتضاد
بعضها ببعض .

وإذا تقرر ذلك: تعين تأويل ما وقع فيها مما يستنكر، وهو قوله:
ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى .
فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره، لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في
القرآن عمداً ما ليس فيه، وكذا سهواً إذا كان مغايراً لما جاء به من
التوحيد لمكان عصمته .

[تأويل القصة]

وقد سلك العلماء في ذلك مسالك:

● فقيل: جرى ذلك على لسانه حين أصابته سنة، / وهو
لا يشعر، فلما علم بذلك أحكم الله آياته، وهذا أخرجه الطبري عن
قتادة .

(١) انتهى كلام القاضي عياض كما نقله عنه فتح الباري .

ورده القاضي: عياض: بأنه لا يصح، لكونه لا يجوز على النبي ﷺ ذلك، ولا ولاية للشيطان عليه في النوم.

● وقيل: إن الشيطان أُلجأه إلى أن قال ذلك بغير اختياره.

ورده ابن العربي بقوله تعالى، حكاية عن الشيطان: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ الآية^(١)، قال: فلو كان للشيطان قوة على ذلك لما بقي لأحد قوة على طاعة.

● وقيل: إن المشركين كانوا إذا ذكروا آهتهم وصفوها بذلك، فعلق بحفظه ﷺ فجرى ذلك على لسانه لما ذكرهم سهواً.

وقد رد ذلك القاضي عياض فأجاد.

● وقيل: لعله قال ذلك توبيخاً للكفار.

قال القاضي عياض: وهذا جائز إذا كانت هناك قرينة تدل على المراد، ولا سيما وقد كان الكلام في ذلك الوقت جائزاً في الصلاة.

وإلى هذا نحا الباقلاني^(٢).

● وقيل: إنه لما وصل إلى قوله: ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾ خشي المشركون أن يأتي بعدها شيء يذم آهتهم به فبادروا إلى ذلك الكلام، فخلطوه في تلاوة النبي ﷺ على عادتهم في قولهم: (لا تسمعوا لهذا

(١) سورة إبراهيم. الآية ٢٢.

(٢) القاضي أبو بكر، محمد بن الطيب الباقلاني البصري ثم البغدادي، الملقب بشيخ السنة ولسان الأمة، الأصولي الأشعري المالكي. انتهت إليه رئاسة المالكية في وقته، وكان حسن الفقه عظيم الجدل. توفي سنة ثلاث وأربعمئة.

القرآن والغوا فيه) ونسب ذلك إلى الشيطان لكونه الحامل لهم على ذلك. أو المراد بالشيطان شيطان الإنس.

● وقيل المراد بالغرانيق العلى، الملائكة، وكان الكفار يقولون: الملائكة بنات الله، ويعبدونها، فنسق ذكر الكل ليرد عليهم بقوله: ﴿الكم الذكر وله الأنثى﴾ فلما سمعه المشركون حملوه على الجميع، وقالوا: إنه عظم آهتنا ورضوا بذلك، ففسخ الله تينك الكلمتين وأحكم آياته.

● وقيل: كان النبي ﷺ يرتل القرآن، فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات ونطق بتلك الكلمات محاكياً نغمة النبي ﷺ بحيث سمعه من دنا إليه فظنها من قوله، وأشاعها.

قال^(١): وهذا أحسن الوجوه، ويؤيده ما ورد عن ابن عباس في تفسير «تمنى» بـ «تلا».

وكذا استحسّن ابن العربي هذا التأويل وقال: معنى قوله: في أمنيته، أي في تلاوته، فأخبر الله تعالى في هذه الآية أن سنة الله في رسله، إذا قالوا قولاً زاد الشيطان فيه من قبل نفسه، فهذا نص في أن الشيطان زاد في قول النبي ﷺ، لا أن النبي ﷺ قاله.

وقد سبق إلى ذلك الطبري، مع جلاله قدره وسعة علمه وشدة ساعده في النظر، فصوب هذا المعنى. انتهى^(٢).

(١) أي القاضي عياض.

(٢) انتهى كلام فتح الباري ٤٣٩/٨ - ٤٤٠.

أقول: كل هذا لا حاجة له بعد أن أبطلنا أصل القصة. انظر تعليقنا في أول الموضوع [المحقق].

[الهجرة الثانية الى الحبشة]

[عدد المهاجرين]

ثم هاجر المسلمون الثانية إلى أرض الحبشة. وعدتهم ثلاثة وثمانون رجلاً إن كان عمار بن ياسر فيهم، وثمانى عشرة امرأة^(١).

(١) [رسولا قريش إلى النجاشي]

روى أحمد بإسناد حسن عن ابن مسعود قال: بعثت قريش عمرو بن العاصي وعمارة بن الوليد هدية، فقدموا على النجاشي، فدخلوا عليه وسجدوا له، وابتدراه فقعده واحد عن يمينه والآخر عن شماله، فقالوا: إن نفرأ من بني عمنا نزلوا أرضك، ورجبوا عنا وعن ملتنا، قال: وأين هم؟ قال: هم بأرضك. فأرسل في طلبهم، فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم، فاتبعوه، فدخل فسلم، فقالوا: مالك لا تسجد للملك؟ فقال: إنا لا نسجد إلا لله عز وجل، قالوا: ولم ذلك؟ قال: إن الله أرسل فينا رسولا، وأمرنا أن لا نسجد إلا لله وأمرنا بالصلاة والزكاة.

قال عمرو: فإنهم يخالفونك في ابن مريم وأمه. قال: فما تقولون فيها؟ قال: نقول كما قال الله: روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول التي لم يمسه بشر ولم يفرضها ولد.

فرفع النجاشي عوداً من الأرض فقال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيد على الذي نقول فيه ما يسوي هذا. مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، فإنه الذي نجد في الإنجيل... وأمر هدية الآخرين فردت إليهما. [المسند ١/٤٦١].

وكان معهم عبيد الله بن جحش مع امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فتنصر هناك ثم توفي على دين النصرانية. وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان سنة سبع من الهجرة إلى المدينة، وهي بالحبشة كما سيأتي إن شاء الله تعالى في المقصد الثاني عند ذكر أزواجه ﷺ.

[خروج أبي بكر مهاجراً]

وخرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه مهاجراً إلى الحبشة حتى بلغ برك الغماد^(١)، ورجع في جوار سيد القارة، مالك بن الدغنة - بفتح الدال المهملة وكسر الغين المعجمة، وتخفيف النون. وبضم الدال والغين وتشديد النون - يعبد ربه في داره، وابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيتقصف^(٢) عليه نساء المشركين وأبناؤهم، ويعجبون منه. وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن.

فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فقالوا لابن الدغنة: إنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبي إلا أن يعلن فسله أن يرد إليك ذمتك، فإننا قد كرهنا أن نخفرك.

فقال أبو بكر لابن الدغنة: فإني أرد إليك جوارك وأرضي بجوار الله. الحديث رواه البخاري^(٣).

(١) بَرَكُ الْغِمَادِ: موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن. هذا ما رجحه ابن حجر.

(٢) قال الحافظ وأطلق «يتقصف» مبالغة، يعني لأنهم لم يصلوا إلى هذه الحالة.

(٣) رواه البخاري برقم ٢٢٩٧.

[نقض الصحيفة]

ثم قام رجال في نقض الصحيفة^(١)، فأطلع / الله نبيه ﷺ على أن الأرضة أكلت جميع ما فيها من القطيعة والظلم، فلم تدع إلا اسم الله تعالى فقط، فلما أنزلت لتمزق وجدت كما قال ﷺ. وذلك في السنة العاشرة.

(١) وأشهدهم في ذلك صنيعاً، هشام بن عمرو بن الحارث العامري - أسلم بعد ذلك - وكان يصلهم في الشعب. أدخل عليهم في ليلة ثلاثة أحمال طعاماً...

مشى هشام إلى زهير بن أبي أمية - أسلم بعد -، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا زهير، أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء، وأحوالك حيث قد علمت؟ فقال: وبحك يا هشام، فماذا أصنع؟ فإنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمتم في نقضها، فقال: أنا معك، فقال: ابغنا ثالثاً..

ومشياً جميعاً إلى المطعم بن عدي فقالا له: أرضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد، فقال: إنما أنا واحد، فقالا إنا معك. فقال: ابغنا رابعاً. فذهب إلى أبي البخري بن هشام، فقال: ابغنا خامساً. فذهب إلى زمعة بن الأسود.

فقعدهوا ليلاً بأعلى مكة، وتعاهدوا على ذلك، فلما جلسوا في الحجر تكلموا في ذلك وأنكروه، فقال أبو جهل: أمر قضي بليل.

وفي آخر الأمر قاموا إلى الصحيفة.. فوجدوا الأرضة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم». هذا ملخص ما ذكره ابن إسحاق [سيرة ابن هشام ٣٧٥/١].

[عام الحزن]

[وفاة أبي طالب]

ولما أتت عليه ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً، مات عمه أبو طالب، وله سبع وثمانون سنة.
وقيل في النصف من شوال من السنة العاشرة.
وقال ابن الجزار: قبل هجرته عليه الصلاة والسلام بثلاث سنين.

[دعوته إلى الإسلام]

وروي أنه ﷺ كان يقول له عند موته: يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة.
فلما رأى أبو طالب حرص رسول الله ﷺ قال له: والله يا ابن أخي، لولا مخافة قريش أني إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها. فلما تقارب من أبي طالب الموت نظر العباس إليه يحرك شفتيه، فأصغى إليه بأذنه فقال: يا ابن أخي، والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته بها. فقال ﷺ: لم أسمع. كذا رواية ابن إسحاق أنه أسلم عند الموت.

ورواه البيهقي في الدلائل من طريق يونس بن بكير عن ابن

إسحاق حدثنا العباس عن عبد الله بن معبد بن عباس عن بعض أهله عن ابن عباس فذكره، وقال البيهقي: إنه منقطع^(١).

وأجيب عنه: بأن شهادة العباس لأبي طالب لو أداها بعد ما أسلم كانت مقبولة ولم ترد بقوله ﷺ لم أسمع، لأن الشاهد العدل إذا قال سمعت وقال من هو أعدل منه: لم أسمع أخذ بقول من أثبت السماع. ولكن العباس شهد بذلك قبل أن يسلم.

[موت أبي طالب كافراً]

مع أن الصحيح من الحديث قد أثبت لأبي طالب الوفاة على الكفر والشرك، كما روينا في صحيح البخاري من حديث سعيد بن المسيب^(٢). حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبي أن يقول: لا إله إلا الله. قال رسول الله ﷺ والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فأنزل الله تعالى: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربي﴾^(٣) وأنزل الله في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾^(٤).

وأجيب أيضاً بأن أبا طالب لو قال كلمة التوحيد، ما نهى الله

(١) هذه الفقرة - رواية البيهقي - ليست في ش.

(٢) رقم الحديث ٤٧٧٢.

(٣) سورة التوبة. الآية ١١٣. وهذه السورة مدنية فلا يشكل بأن موت أبي طالب كان قبل الهجرة بثلاث سنين. فالآية مستثناة منها كما نقله في الإتيان.

(٤) سورة القصص الآية ٥٦.

عالي نبيه ﷺ عن الاستغفار له (١) .

وفي الصحيح (٢) عن العباس أنه قال لرسول الله ﷺ: إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك، فهل ينفعه ذلك؟ قال: نعم، وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح (٣) .

وفي رواية الصحيح أيضاً أنه ﷺ قال: لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبه يغلي منه دماغه (٤) .
وفي رواية يونس عن ابن إسحاق زيادة فقال: يغلي منه دماغه حتى يسيل على قدميه .

قال السهيلي: من باب النظر في حكمة الله، ومشاكلة الجزاء للعمل؛ أن أبا طالب كان مع رسول الله ﷺ بجملته متحزباً له، إلا أنه كان مثبتاً بقدميه على ملة عبد المطلب، حتى قال عند الموت: أنا على ملة عبد المطلب، فسلط العذاب على قدميه خاصة لتثبته إياهما على ملة آبائه. ثبتنا الله على الصراط المستقيم .

وفي شرح التنقيح (٥) للقرافي (٦): الكفار أربعة أقسام (٧)، فذكر

(١) هذه الفقرة من قوله: وأجيب. ليست في ش.

(٢) رواه البخاري برقم ٣٨٨٣ ومسلم برقم ٢٠٩ .

(٣) الضحضاح: ما رق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين، واستعير في النار [من شرح مسلم].

(٤) رواه البخاري برقم ٣٨٨٥ ومسلم برقم ٢١٠ .

(٥) شرح التنقيح في الأصول. المتن والشرح للقرافي.

(٦) العلامة شهاب الدين، أبو العباس، أحمد بن إدريس الصنهاجي، البارع في

العلوم ذو التصانيف الشهيرة: كالقواعد والذخيرة وشرح المحصول. مات

سنة أربع وثمانين وستمائة. ودفن بالقرافة.

(٧) والأربعة حكاهما ابن الأثير في النهاية وكذا البغوي وهي:

منها من آمن بظاهره وباطنه وكفر بعدم الإذعان للفروع، كما حكي عن أبي طالب أنه كان يقول: إني لأعلم أن ما يقوله ابن أخي لحق، ولولا أني أخاف أن تعيرني نساء قريش لاتبعته. وفي شعره يقول: لقد علموا أن ابننا لا مكذب يقينا ولا يعزى لقول الأباطل فإن هذا تصريح باللسان واعتقاد بالجنان غير أنه لم يذعن. انتهى.

[وصية أبي طالب لقريش]

وحكي عن هشام بن السائب / الكلبي، أو أبيه أنه قال: لما ٣٠/ب حضرت أبا طالب الوفاة، جمع إليه وجوه قريش، فأوصاهم فقال:

يا معشر قريش، أنتم صفوة الله من خلقه.. إلى أن قال: وإني أوصيكم بمحمد خيراً، فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به، وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وأيم الله كأي أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل الوبر والأطراف، والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظموا أمره، فحاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذئاباً، ودورها خراباً، وضعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودادها، وأصغت له فؤادها، وأعطته قيادها، يا معشر قريش،

= - كفر إنكار: وهو أن لا يعرف الله بقلبه ولا يعترف باللسان.

- وكفر جحود: وهو من عرفه بقلبه دون لسانه، كإبليس واليهود.

- وكفر نقاق: وهو المقر باللسان دون القلب.

- وكفر عناد: وهو أن يعرفه بقلبه ويعترف بلسانه، ولا يدين به كأبي طالب.

قال البغوي: وجميع الأربعة سواء في أن الله لا يغفر لأصحابها إذا ماتوا.

كونوا له ولاة، ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد، ولو كان لنفسي مدة ولأجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز، ولدفعت عنه الدواهي. ثم هلك.

[وفاة خديجة]

ثم بعد ذلك بثلاثة أيام - وقيل: بخمسة - في رمضان، بعد البعث بعشر سنين، على الصحيح، ماتت خديجة رضي الله عنها.

وكان ﷺ يسمي ذلك العام عام الحزن، فيما ذكر صاعد^(١) وكانت مدة إقامتها معه ﷺ خمساً وعشرين سنة على الصحيح. ثم بعد أيام من موت خديجة تزوج عليه السلام سودة بنت زمعة.

(١) صاعد بن عبيد البجلي، أبو محمد، الحراي. مقبول من كبار العاشرة، كما في التقريب، يعني الطبقة التي أخذت عن تبع التابعين.

[الخروج الى الطائف]

ثم خرج عليه السلام إلى الطائف بعد موت خديجة بثلاثة أشهر، في ليال بقين من شوال، سنة عشر من النبوة. لما ناله من قريش بعد موت أبي طالب. وكان معه زيد بن حارثة^(١).

فأقام به شهراً، يدعو أشراف ثقيف إلى الله تعالى فلم يجيبوه^(٢) وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم.

قال موسى بن عقبة: ورجموا عراقبه بالحجارة حتى اختضبت نعله بالدماء، زاد غيره: وكان إذا أزلقته^(٣) الحجارة قعد إلى الأرض، فيأخذون بعضديه فيقيمونه، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون، وزيد ابن حارثة يقيه بنفسه، حتى لقد شج في رأسه شجاجاً.

(١) هذه رواية ابن سعد. وذكر ابن عقبة وابن إسحاق وغيرهما: أنه خرج وحده ماشياً.

(٢) هم عبد ياليل، ومسعود، وحبيب: فقال له أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، والثاني: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك، والثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسول الله لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك. [كذا عند ابن إسحاق والواقدي وغيرهما].

(٣) أي: ألمته.

وفي البخاري ومسلم من حديث عائشة أنها قالت للنبي ﷺ، هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد، قال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت - وأنا مهموم - على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت، فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين^(١). قال ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً^(٢).

● وعبد ياليل - بالتحانية وبعدها ألف ثم لام مكسورة ثم تحتانية ساكنة ثم لام - ابن عبد كلال - بضم الكاف وتخفيف اللام آخره لام - وكان ابن عبد ياليل من أكابر أهل الطائف من ثقيف.

● وقرن الثعالب: هو ميقات أهل نجد، ويقال له: قرن المنازل.

وأفاد ابن سعد: أن مدة إقامته ﷺ بالطائف كانت عشرة أيام.

[إسلام عداس]

ولما انصرف ﷺ عن أهل الطائف، مر في طريقه بعتبة وشيبة

(١) الأخشبان هما جبلا مكة. أبو قبيس والذي يقابله قعيقعان.

(٢) رواه البخاري برقم ٣٢٣١ ومسلم - واللفظ له - برقم ١٧٩٥.

ابني ربيعة وهما في حائط لهما، فلما رأيا ما لقي تحركت له رحمهما، فبعثا له مع عداس النصراني - غلامهما - قطف عنب، فلما وضع ﷺ يده في القطف قال: بسم الله، ثم أكل، / فنظر عداس إلى وجهه ثم قال: ١/٣١ والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة، فقال له رسول الله ﷺ: من أي البلاد أنت. وما دينك؟ قال نصراني من نينوى. فقال ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ قال: وما يدريك؟ قال: ذاك أخي، وهو نبي مثلي. فأكب عداس على يديه ورأسه ورجليه يقبلها وأسلم (١).

[ذكر الجن]

ولما نزل نخلة - وهو موضع على ليلة من مكة - صرف الله إليه سبعة من جن نصيبين - مدينة بالشام - وكان ﷺ قد قام في جوف الليل يصلي فاستمعوا له وهو يقرأ سورة الجن.

وفي الصحيح أن الذي آذنه ﷺ بالجن ليلة الجن شجرة، وأنهم سألوه الزاد فقال كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في يد أحدكم أوفر ما كان لحماً، وكل بعر علف لدوابكم (٢).

وفي هذا رد على من زعم أن الجن لا تأكل ولا تشرب.

(١) رواه ابن إسحاق وغيره، وفيه عند ابن إسحاق: يقول ابنا ربيعة أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس قالوا له: ويملك يا عداس، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، قالوا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه. [سيرة ابن هشام ١/٤٢١].

(٢) رواه مسلم برقم (٤٥٠).

وذكر صاحب الروض من أسماء السبعة الذين أتوه ﷺ، عن ابن دريد: منشي وناشي وشاصروماضر والأحقب. لم يزد تسمية على هؤلاء.

قال الحافظ ابن كثير: وقد ذكر ابن إسحاق خروجه عليه السلام إلى أهل الطائف ودعائه إياهم، وأنه لما انصرف عنهم بات بنخلة، فقرأ تلك الليلة من القرآن، فاستمعه الجن من أهل نصيبين.

قال: وهذا صحيح، لكن قوله إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر، فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء، ويدل له حديث ابن عباس عند أحمد قال: كان الجن يستمعون الوحي فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرًا، فيكون ما سمعوه حقًا وما زادوه باطلاً، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمي بشهاب يحرق ما أصاب منه، فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث، فبعث جنوده فإذا بالنبي ﷺ يصلي بين جبلي نخلة فأخبروه فقال: هذا الحدث الذي حدث في الأرض^(١).

ورواه النسائي وصححه الترمذي.

قال: وخروجه ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه.

وروى ابن أبي شيبة عن عبد الله بن مسعود قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ﴾ الآية^(٢).

(١) المسند ١/٢٧٤، ورواه الشيخان بنحوه ولم يعزه لها لزيادة فيما ذكر على روايتها.

(٢) سورة الأحقاف. الآية ٢٩.

فهذا مع رواية ابن عباس تقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة، وإنما استمعوا قراءته ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً، قوماً بعد قوم وفوجاً بعد فوج. انتهى.

[دعاء]

وفي طريقه - عليه السلام - هذه، دعا بالدعاء المشهور:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت أرحم الراحمين، وأنت رب المستضعفين، إلى من تكلمي إلى عدو بعيد يتجهمني أم إلى صديق قريب ملكته أمري، إن لم تكن غضبانَ علي^(١) فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بي غضبك، أو يحل بي سخطك، لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

أورده ابن إسحاق^(٢)، ورواه الطبراني في كتاب الدعاء عن عبدالله بن جعفر قال: لما توفي أبو طالب، خرج النبي ﷺ ماشياً إلى الطائف، فدعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، فأتى ظل شجرة فصلى ركعتين ثم قال: اللهم إليك أشكو. فذكره.

وقوله: يتجهمني - بتقديم الجيم على الهاء - أي يلقاني بالغلظة والوجه الكريه.

(١) وفي رواية: إن لم يكن بك غضب، وفي أخرى: إن لم تكن ساخطاً..

(٢) سيرة ابن هشام ٤٢٠/١.

[العودة إلى مكة]

ثم دخل ﷺ مكة في جوار المطعم بن عدي^(١).

(١) ذكر ابن إسحاق، وكذا الفاكهي بإسناد حسن مرسل: أنه ﷺ بعث عبد الله بن أريقط إلى الأحنس بن شريق ليجيره، فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير، فبعث إلى سهيل بن عمرو فقال: إن بني عامر لا تجير على بني كعب، فبعث إلى المطعم بن عدي فأجابه، فدخل ﷺ فبات عنده، فلما أصبح تسلح المطعم هو وبنوه - وهم ستة أو سبعة - فقالوا له ﷺ: طف، واحتبسوا بحمائل سيوفهم بالمطاف، فقال أبو سفيان للمطعم: أمجير أم تابع؟ قال: بل مجير، قال: إذن لا تخفر، قد أجرنا من أجزت، ففضى ﷺ طوافه وانصرفوا معه إلى منزله.

[وقت الإسراء ^(١)]

[ملخص قصة الإسراء]

ولما كان في شهر ربيع الأول أسري بروحه وجسده يقظة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى /، ثم عرج به من المسجد الأقصى ٣١/ب إلى فوق سبع سماوات، ورأى ربه بعيني رأسه، وأوحى الله إليه ما أوحى، وفرض عليه الصلوات الخمس، ثم انصرف في ليلته إلى مكة.

فأخبر بذلك، فصدقه الصديق، وكل من آمن بالله.

وكذبه الكفار واستوصفوه مسجد^(٢) بيت المقدس، فمثله الله له، فجعل ينظر إليه ويصفه.

[وقت الإسراء]

قال الزهري: وكان ذلك بعد المبعث بخمس سنين. ^(٣) حكاه عنه القاضي عياض، ورجحه القرطبي والنووي. واحتج: بأنه لا

(١) تفصيل الإسراء والمعراج سيأتي إن شاء الله في المقصد الخامس، وإنما ذكر هنا زمن وقوعه مراعاة للالتزام ترتيب الوقائع.

(٢) سقطت من ط.

(٣) الذي في فتح الباري عن الزهري: قبل الهجرة بخمس سنين [٢٠٣/٧].

خلاف أن خديجة صلت معه بعد فرض الصلاة، ولا خلاف أنها توفيت قبل الهجرة إما بثلاث أو بخمس، ولا خلاف أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء.

وتعقب: بأن موت خديجة بعد البعث بعشر سنين على الصحيح في رمضان، وذلك قبل أن تفرض الصلاة. ويؤيده إطلاق حديث عائشة أن خديجة ماتت قبل أن تفرض الصلوات الخمس. ويلزم منه أن يكون موتها قبل الإسراء وهو المعتمد، وأما التردد في سنة وفاتها فيرده جزم عائشة بأنها ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين قاله الحافظ ابن حجر.

وقيل: قبل الهجرة بسنة. قاله ابن حزم، وادعى فيه الإجماع.
وقيل: قبل الهجرة بسنة وخمسة أشهر، قاله السدي وأخرجه من طريقه الطبري والبيهقي، فعلى هذا كان في شوال.

وقيل: كان في رجب. حكاه ابن عبد البر، وقبّله ابن قتيبة، وبه جزم النووي في الروضة.

وقيل: كان قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر، فعلى هذا يكون في ذي الحجة، وبه جزم ابن فارس^(١).

وقيل: قبل الهجرة بثلاث سنين، ذكره ابن الأثير وقال الحربي^(٢): إنه كان في سابع عشرين ربيع الآخر، وكذا

(١) أحمد بن فارس، أبو الحسين الرازي، اللغوي، الإمام في علوم شتى، المالكي الفقيه، غلب عليه علم النحو ولسان العرب، فشهّر به، له مصنفات وأشعار جيدة، مات سنة تسعين وثلثمائة.

(٢) إبراهيم بن إسحاق الحربي - نسبة إلى محلة الحربية ببغداد - البغدادي، =

قال النووي في فتاويه، لكن قال في شرح مسلم: في ربيع الأول.
وقيل: كان ليلة السابع والعشرين من رجب، واختاره الحافظ
عبد الغني بن سرور المقدسي^(١).

[اليوم التالي ليلة الإسراء]

وأما اليوم الذي يسفر عن ليلتها، فليل الجمعة، وقيل السبت،
وعن ابن دحية: يكون إن شاء الله يوم الإثنين، ليوافق المولد والمبعث
والهجرة والوفاة، فإن هذه أطوار الانتقالات: وجوداً ونبوة ومعراجاً
وهجرة ووفاة.

وسياتي إن شاء الله تعالى في قصة الإسراء والمعراج وما فيها من
المباحث والله الموفق والمعين.

= الحافظ، شيخ الإسلام، الإمام البارِع في العلوم، الزاهد، مات سنة خمس
وسبعين ومائتين.

(١) عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي - نسبة لجد أبيه -
الحنبلي، الإمام، أُوحد زمانه في الحديث والحفظ، الزاهد العابد، صاحب
العمدة والكمال وغير ذلك، نزل مصر آخر عمره، ومات بها سنة ستائة،
وله تسع وخمسون سنة.

[عرضه ﷺ نفسه على القبائل]

[اللقاء الأول مع الأنصار]

ولما أراد الله تعالى إظهار دينه وإعزاز نبيه، وإنجاز مواعده له، خرج ﷺ في الموسم الذي لقي فيه الأنصار^(١) - الأوس والخزرج - .
فعرض نفسه ﷺ على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم^(٢)، فبينما هو عند العقبة، لقي رهطاً من الخزرج، أراد الله بهم

(١) جمع ناصر، كأصحاب وصاحب.

وهم الأوس والخزرج الذين ساهم رسول الله ﷺ الأنصار، لكونهم أجابوه إلى إيوائه ونصره. [كما في حديث ابن عباس عند الحاكم وأبي نعيم والبيهقي].

(٢) قال موسى بن عقبة عن الزهري: كان قبل الهجرة يعرض نفسه على القبائل، ويكلم كل شريف قوم، لا يسألهم إلا أن يؤوه ويمنعوه، ويقول: لا أكره أحداً منكم على شيء، بل أريد أن تمنعوا من يؤذيني حتى أبلغ رسالات ربي، فلا يقبله أحد، بل يقولون: قوم الرجل أعلم به.
وعن جابر - عند أحمد وأصحاب السنن - كان ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول: هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي..

وذكر الواقدي بعض هذه القبائل ومنها: بنو عامر بن صعصعة، ومخارب وفزارة وغسان ومرة وحنيفة وسليم وعبس، وبنو نصر، وكنده وكعب، وعذرة، والحضارمة.

خيراً، فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

وكان من صنع الله، أن اليهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب، وكان الأوس والخزرج أكثر منهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا: إن نبياً سيبعث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه. فلما كلمهم النبي ﷺ عرفوا النعت، فقال بعضهم لبعض: لا تسبقنا اليهود إليه.

فأجابوه إلى ما دعاهم إليه، وصدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، فأسلم منهم ستة نفر وكلهم من الخزرج وهم:

أبو أمامة، أسعد بن زرارة.

وعوف بن الحارث بن رفاعه، وهو ابن عفراء.

ورافع بن مالك بن العجلان.

وقطبة بن عامر بن حديدة.

وعقبة بن عامر بن نابي.

وجابر بن عبد الله بن رثاب، وليس بجابر بن عبد الله بن

عمرو بن حرام.

ومن أهل العلم بالسير، من يجعل / فيهم عبادة بن الصامت، ١/٣٢ ويسقط جابر بن رثاب.

فقال لهم النبي ﷺ: تمنعون ظهري حتى أبلغ رسالة ربي.

فقالوا: يا رسول الله، إنما كانت بعث^(١) عام الأول، يوم من

(١) وقعة بين الأوس والخزرج، قتل فيها كثير منهم، وكان رئيس الأوس: =

أيامنا، اقتتلنا به، فإن تقدم ونحن كذلك لا يكون لنا عليك اجتماع، فدعنا حتى نرجع إلى عشائرننا، لعل الله أن يصلح ذات بيننا، وندعوهم إلى ما دعوتنا، فعسى الله أن يجمعهم عليك، فإن اجتمعت كلمتهم عليك واتبعوك فلا أحد أعز منك، وموعدك الموسم العام القابل.

وانصرفوا إلى المدينة. ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ.

[بيعة العقبة الأولى]

فلما كان العام المقبل لقيه اثنا عشر رجلاً - وفي الإكليل^(١): أحد عشر - وهي العقبة الثانية^(٢)، فيهم خمسة من الستة المذكورين، وهم: أبو أمامة. وعوف بن عفراء، ورافع بن مالك وقطبة بن عامر ابن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، ولم يكن فيهم جابر بن عبد الله ابن رثاب لم يحضرها. والسبعة تنمة الاثني عشر هم:

معاذ بن الحارث بن رفاعة، وهو ابن عفراء أخو عوف المذكور. وذكوان بن عبد قيس الزرقي، وقيل إنه رحل إلى رسول الله ﷺ إلى مكة فسكنها معه، فهو مهاجري أنصاري قتل يوم أحد. وعبادة بن الصامت بن قيس.

= حضير والد أسيد الصحابي. ورئيس الخزرج: عمرو بن النعمان البياضي. وقتلا يومئذ. وكان النصر فيها أولاً للخزرج، ثم ثبتهم حضير فرجعوا وانتصرت الأوس.

(١) اسم كتاب للحاكم.

(٢) عدها ابن إسحاق وغيره «أولى» باعتبار المبايعة.

وأبو عبد الرحمن، يزيد بن ثعلبة البلوي .
والعباس بن عبادة بن نضلة .

وهؤلاء من الخزرج، ومن الأوس رجلاًن :
أبو الهيثم بن التيهان، من بني عبد الأشهل .
وعويم بن ساعدة .

فأسلموا وبايعوا على بيعة النساء^(١)، أي وفق بيعتهم التي نزلت
بعد ذلك عند فتح مكة وهي : أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق،
ولا نزني، ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا،
ولا نعصيه في معروف، والسمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط
والمكروه، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق حيث
كنا لا نخاف في الله لومة لائم . قال ﷺ : فإن وفيتم فلکم الجنة،
ومن غشي من ذلك شيئاً كان أمره إلى الله إن شاء عذبه، وإن شاء
عفا عنه . ولم يفرض يومئذ القتال^(٢) .

ثم انصرفوا إلى المدينة فأظهر الله الإسلام .
وكان أسعد بن زرارة يجمع بالمدينة بمن أسلم^(٣) .

-
- (١) رجح الحافظ أن المبايعة ليلة العقبة إنما كانت على الإيواء والنصر وما يتعلق
بذلك، وأما على الصفة المذكورة فإنما هي بعد فتح مكة، بدليل ما في
البخاري من حديث عبادة : أنه ﷺ لما بايعهم قرأ الآية كلها .
وقال المصنف : الراجح أن التصريح بذلك - أي بأن بيعة العقبة وقعت
على وفق بيعة النساء - وهم من بعض الرواة .
(٢) أخرجه الشيخان وغيرهما بالفاظ متقاربة .
(٣) أي يقيم لهم الجمعة، بمعاونة مصعب الذي نزل عليه، فلا تعارض بين
هذا وبين حديث الدارقطني الآتي .

[مصعب في المدينة]

وكتبت الأوس والخزرج إلى النبي ﷺ: ابعث إلينا من يقرئنا القرآن، فبعث إليهم مصعب بن عمير.

وروى الدارقطني عن ابن عباس أن النبي ﷺ كتب إلى مصعب ابن عمير أن يجمع بهم.. الحديث، وكانوا أربعين رجلاً.

فأسلم على يد مصعب بن عمير خلق كثير من الأنصار، وأسلم في جماعتهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير^(١)، وأسلم بإسلامهما جميع بني عبد الأشهل في يوم واحد، الرجال والنساء، ولم يبق منهم أحد إلا

(١) ومن قصة إسلامهما: أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب يريد دار بني عبد الأشهل، فجلسا في حائط لبني ظفر واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدي بني عبد الأشهل. فقال سعد لأسيد انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما.. فذهب أسيد إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه، فاصدق الله فيه، قال مصعب إن يجلس أكلمه.. فوقف عليها متشتماً وقال: اعتزلانا إن كان لكما بأنفسكما حاجة. فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته، كف عنك ما تكره؟ قال أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب وقرأ عليه القرآن.. فقالا: والله لعرفنا في وجهه الإسلام.. ثم أسلم، ثم قال إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ.

وجاء سعد.. وسمع.. وأسلم ثم رجع إلى قومه فقال: يا بني عبد الأشهل: كيف تعلمون أمري فيكم قالوا: سيدنا وأفضلنا.. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.. قالوا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة [ملخصاً. من سيرة ابن هشام ٤٣٥/١ - ٤٣٧. المحقق].

أسلم، حاشا الأصرم، وهو عمرو بن ثابت بن وقش، فإنه تأخر بإسلامه إلى يوم أحد، فأسلم واستشهد ولم يسجد لله سجدة واحدة، وأخبر رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة^(١). ولم يكن في بني عبد الأشهل منافق ولا منافقة، بل كانوا كلهم حنفاء مخلصين رضي الله عنهم.

[بيعة العقبة الثانية]

ثم قدم على النبي ﷺ في العقبة الثالثة في العام المقبل في ذي الحجة، أوسط أيام التشريق منهم سبعون رجلاً - وقال ابن سعد: يزيدون رجلاً أو رجلين - وامرأتان.

وقال ابن إسحاق: ثلاثة وسبعون وامرأتان^(٢).

وقال الحاكم: خمسة وسبعون نفساً.

فكان أول من ضرب على يده الشريفة عليه السلام البراء بن معرور. ويقال: أبو الهيثم^(٣)، ويقال أسعد بن زرارة، على أنهم يمنعونه مما يمنعون منه نساءهم وأبنائهم، وعلى حرب الأحمر والأسود^(٤).

(١) رواه ابن إسحاق بإسناد حسن

(٢) هما: نسيبة بنت كعب المازنية، وأسما بنت عمرو بن عدي بن نابي، كما قال ابن إسحاق.

(٣) لم يذكر في ش.

(٤) لم يرد ذكر حرب الأحمر والأسود في نص البيعة، ولم تكن الآيات قد نزلت بالإذن بالقتال. وإنما كانت البيعة كما وردت في حديث جابر (وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم ولكم الجنة) كما في المسند ٣/٣٢٢ ولذا أطلال ﷺ الشورى يوم بدر =

وكانت أول آية نزلت في الإذن بالقتال ﴿أذن للذين يقاتلون﴾
 ٣٢/ب الآية^(١) وفي الإكليل ﴿إن الله اشترى من المؤمنين﴾^(٢) الآية. (٣) /
 ونقب عليهم اثني عشر نقيباً^(٤).

وفي حديث جابر عند أحمد بإسناد حسن، وصححه الحاكم وابن
 حبان: مكث ﷺ عشر سنين يتتبع الناس في منازلهم في المواسم بمنى
 وغيرها، يقول: من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله
 الجنة؟ حتى بعثنا الله إليه من يثرب، فذكر الحديث. وفيه: وعلى أن
 تنصروني إذا قدمت عليكم بيثرب، فتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم

= وكان إنما يريد رأي الأنصار، لأن البيعة كانت على أن يمنعه لا أن يخرج
 بهم إلى القتال.

ولعل المصنف وغيره ممن ذكروا أن البيعة كانت على حرب الأحمر
 والأسود.. لعلهم فهموا ذلك من أقوال بعض الصحابة يوم البيعة من مثل
 قول أسعد بن زرارة: إن إخراجهم اليوم مفارقة للعرب كافة وقتل خياركم
 وأن تعضكم السيوف. [المحقق].

(١) سورة الحج. الآية ٣٩.

(٢) سورة التوبة. الآية ١١١.

(٣) ذكر الآيتين استطراداً لمناسبة المبايعة.

(٤) قال ابن إسحاق.

تسعة من الخزرج هم: أسعد بن زرارة، وعبد الله بن رواحة، وسعد بن
 الربيع. ورافع بن مالك، وأبو جابر عبد الله بن عمرو، والبراء بن
 معرور، وسعد بن عباد، والمنذر بن عمرو، وعبادة بن الصامت.
 وثلاثة من الأوس هم: أسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن
 عبد المنذر.

وقال ﷺ للنقباء: أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن
 مريم.

وأزواجكم وأبنائكم ولكم الجنة . الحديث (١).

وحضر العباس العقبة تلك الليلة متوثقاً لرسول الله ﷺ،
ومؤكداً على أهل يثرب، وكان يومئذ على دين قومه (٢).

(١) المسند ٣/٣٢٢.

(٢) وكان أول متكلم فقال: إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتوه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده.

فقالوا: قد سمعنا ما قلت. فتكلم يا رسول الله، فخذ لربك ولنفسك ما أحببت الحديث - ذكره ابن إسحاق.

[الهجرة إلى المدينة]

[الإذن بالهجرة للصحابة]

قال ابن إسحاق: ولما تمت بيعة هؤلاء لرسول الله ﷺ ليلة العقبة، وكانت سرّاً عن كفار قريش^(١)، أمر رسول الله ﷺ من كان معه بالهجرة إلى المدينة.

فخرجوا أرسالاً، وأقام بمكة ينتظر أن يؤذن له في الخروج، فكان أول من هاجر من مكة إلى المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد، قبل بيعة العقبة بسنة، قدم من الحبشة لمكة، فأذاه أهلها، وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار^(٢) فخرج إليهم.

ثم عامر بن ربيعة وامراته ليلي، ثم عبد الله بن جحش. ثم المسلمون أرسالاً، ثم عمر بن الخطاب وأخوه زيد وعياش بن أبي ربيعة في عشرين راكباً، فقدموا المدينة فنزلوا في العوالي.

ثم خرج عثمان بن عفان، حتى لم يبق معه ﷺ إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر. كذا قاله ابن إسحاق، قال مغلطاي وفيه نظر لما يأتي بعده^(٣).

(١) وكذلك عن الكفار من الأوس والخزرج.

(٢) أي الاثنا عشر أصحاب بيعة العقبة الأولى.

(٣) المقصود: لم يبق ممن قدر على الخروج ولم يكن ممن حبس وفتن.

وكان الصديق كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول:
لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحباً، فيطمع أبو بكر أن يكون
هو.

[شورى قريش]

ثم اجتمع قريش ومعهم إبليس، في صورة شيخ نجدى، في
دار الندوة، دار قصي بن كلاب، وكانت قريش لا تقضي أمراً إلا
فيها، يتشاورون فيما يصنعون في أمره عليه الصلاة والسلام، فاجتمع
رأيهم على قتله وتفرقوا على ذلك^(١).

فإن قيل: لم تمثل الشيطان في صورة نجدى؟
فالجواب^(٢): لأنهم قالوا - كما ذكره بعض أهل السير - لا
يدخلن معكم في المشاورة أحد من أهل تهامة، لأن هواهم مع محمد،
فلذلك تمثل في صورة نجدى. انتهى.

[علي في الفراش]

ثم أتى جبريل النبي ﷺ فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك
الذي كنت تبيت عليه، فلما كان الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه
حتى ينام فيثبوا عليه، فأمر ﷺ علياً فنام مكانه^(٣)، وغطى ببرد

(١) كان رأي أبي البخترى بن هشام: أن يحسوه ويغلقوا عليه الأبواب وكان
رأي أبي الأسود ربيعة بن عمرو العامري: أن ينفوه من مكة. ثم كان رأي
أبي جهل أن يقتلوه. وأمن على هذا الرأي إبليس. [هذا ملخص رواية ابن
إسحاق].

(٢) قاله السهيلي في الروض.

(٣) جاء في الإحياء: إن الله أوحى إلى جبريل وميكائيل: إني آخيت بينكما، =

أخضر، فكان أول من شرى نفسه [في الله ووقى بها رسول الله] (١) وفي ذلك يقول [علي] (٢):

وقيت بنفسي خير من وطئ الثرى ومن طاف بالبيت العتيق وبالبحر
رسول إله خاف أن يمكروا به فنجاه ذو الطول الإله من المكر

[المشركون حول بيته ﷺ]

ثم خرج ﷺ، وقد أخذ الله على أبصارهم، فلم يره أحد منهم، ونثر على رؤوسهم كلهم تراباً كان في يده، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿يس﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾. ثم انصرف عليه السلام حيث أراد.

= وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بحياة؟
فاختار كل منهما الحياة، فأوحى الله إليهما: أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب، آخيت بينه وبين محمد، فبات على فراشه يفديه بنفسه، ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه، فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجله ينادي: بخ بخ، من مثلك يا ابن أبي طالب، يباهي الله بك الملائكة، وفيه نزل (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله) الآية.

قال الحافظ ابن تيمية: إنه كذب باتفاق علماء الحديث والسير.
وقال الحافظ العراقي في تخريج الإحياء: رواه أحمد مختصراً عن ابن عباس (شرى علي نفسه فلبس ثوب النبي ﷺ ثم نام مكانه. . الحديث، وليس فيه ذكر جبريل وميكائيل، ولم أقف لهذه الزيادة على أصل، والحديث منكر.

ورد أيضاً: بأن الآية في البقرة وهي مدنية اتفاقاً، وقد صحح الحاكم نزولها في صهيب.

(٢،١) في ش.

فأتاهم آت يمن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون ها هنا؟
قالوا: محمداً، قال: قد خيبكم الله، قد والله خرج محمد عليكم، ثم
ما ترك منكم رجلاً إلا وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته، أفما
ترون ما بكم؟ فوضع كل رجل يده على رأسه، فإذا عليه تراب.

وفي رواية أبي حاتم، مما صححه الحاكم من حديث ابن
عباس: فما أصاب رجلاً منهم حصاة إلا قتل يوم بدر كافراً.

وفي هذه نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ
يَقْتُلُوكَ أَوْ يَخْرُجُوكَ﴾ (١) الآية.

[الحكمة من هجرته ﷺ]

ثم أذن الله تعالى لنبيه ﷺ في الهجرة. قال ابن عباس: بقوله
تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مَخْرَجَ صِدْقٍ
وَاجْعَلْ لِيْ مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيْرًا﴾ (٢) أخرجه الترمذي وصححه
الحاكم.

فإن قلت ما الحكمة في هجرته ﷺ إلى المدينة وإقامته بها إلى ١/٣٣
أن انتقل إلى ربه عز وجل؟

أجيب: بأن حكمة الله تعالى قد اقتضت أنه عليه السلام
تشرف به الأشياء، لا أنه يتشرف بها، فلو بقي عليه السلام في مكة
إلى انتقاله إلى ربه لكان يتوهم أنه قد تشرف بمكة، إذ أن شرفها قد
سبق بالخليل وإسماعيل، فأراد الله تعالى أن يظهر شرفه عليه السلام

(١) سورة الأنفال الآية ٣٠.

(٢) سورة الإسراء. الآية ٨٠.

فأمره بالهجرة إلى المدينة، فلما هاجر إليها تشرفت به، حتى وقع الإجماع على أن أفضل البقاع الموضع الذي ضم أعضاء الكريمة صلوات الله وسلامه عليه.

[تحديد يوم الهجرة]

وذكر الحاكم أن خروجه عليه السلام كان بعد بيعة العقبة بثلاثة أشهر أو قريباً منها.

وجزم ابن إسحاق: بأنه خرج أول يوم من ربيع الأول. فعلى هذا يكون بعد البيعة بشهرين وبضعة عشر يوماً، وكذا جزم الأموي^(١) - في المغازي - عن ابن إسحاق فقال: كان مخرجه من مكة بعد العقبة بشهرين وليال. قال: وخرج لهلال ربيع الأول وقدم المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول.

قال في فتح الباري: وعلى هذا خرج يوم الخميس. وقال الحاكم: تواترت الأخبار أن خروجه كان يوم الإثنين، ودخوله المدينة كان يوم الإثنين، إلا أن محمد بن موسى الخوارزمي قال: إنه خرج من مكة يوم الخميس. ويجمع بينهما: بأن خروجه من مكة كان يوم الخميس وخروجه من الغار كان ليلة الإثنين، لأنه أقام فيه ثلاث ليال: ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد، وخرج أثناء ليلة الإثنين. وكانت مدة مقامه بمكة من حين النبوة إلى ذلك الوقت بضع

(١) يحيى بن سعيد بن أبان بن سعيد بن العاصي الأموي، أبو أيوب الكوفي، نزيل بغداد صدوق يضطرب من كبار التاسعة، مات سنة أربع وتسعين ومائتين.

عشرة سنة، ويدل عليه قول صرمة^(١):
ثوى في قریش بضع عشرة حجة يذكر لو يلقى صديقاً موالياً^(٢)
وقيل غير ذلك.

[في بيت أبي بكر]

وأمره جبريل أن يستصحب أبا بكر.
وأخبر عليه السلام علياً بمخرجه وأمره أن يتخلف بعده حتى
يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس.

قال ابن شهاب قال عروة قالت عائشة: فبينما نحن جلوس يوماً
في بيت أبي بكر في نحر الظهرية قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله
ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها. قال أبو بكر: فداء له أبي
وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت: فجاء رسول
الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل، فقال ﷺ لأبي بكر: أخرج من
عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

قال السهيلي: وذلك أن عائشة قد كان أبوها أنكحها منه ﷺ
قبل ذلك.

فقال ﷺ: إنه قد أذن لي في الخروج.
فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت وأمي يا رسول الله.
قال ﷺ: نعم.

(١) صرمة بن أنس الأنصاري البخاري، صحابي له أشعار حسان، فيها حكم
ووصايا، وكان قوالاً بالحق، معظماً في قومه، أدرك الإسلام شيخاً كبيراً،
عاش عشرين ومائة سنة.
(٢) في ط موافياً.

فقال أبو بكر: فخذ بأبي أنت وأمي يا رسول الله إحدى راحلتي
[هاتين] (١).

قال رسول الله ﷺ: بل بالثمن.

[الراحلة بالثمن]

فإن قلت: لم لم يقبلها إلا بالثمن، وقد أنفق عليه أبو بكر من
ماله ما هو أكثر من هذا فقبل؟

أجيب: بأنه إنما فعل ذلك لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله
رغبة منه عليه السلام في استكمال فضل الهجرة إلى الله، وأن يكون
على أتم الأحوال. انتهى.

[ذات النطاقين]

قالت عائشة: فجهزناهما أحسن الجهاز، وصنعنا لهما سفرة من
جراب (٢) فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت بها على
فم الجراب فبذلك سميت بذات النطاقين.

[وداع مكة]

قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار ثور - جبل بأسفل
مكة -.

وكان من قوله ﷺ حين خرج من مكة، لما وقف على
الحزورة (٣)، ونظر إلى البيت فقال: والله إنك لأحب أرض الله إلي،

(١) في ش.

(٢) كذا في جميع النسخ والذي في البخاري: في جراب.

(٣) سوق كان بمكة أدخل في المسجد.

وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت^(١).

وهذا من أصح ما يحتج به في تفضيل مكة على المدينة.

[إلى الغار]

ولم يعلم بخروجه عليه السلام إلا علي وآل أبي بكر.
وروي أنها خرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته ليلاً إلى الغار^(٢).

ولما فقدت / قريش رسول الله ﷺ طلبوه بمكة، أعلاها ٣٣/ب
وأسفلها، وبعثوا القافة أثره في كل وجه، فوجد الذي ذهب قبل ثور
أثره هنالك، فلم يزل يتبعه حتى انقطع لما انتهى إلى ثور.
وشق على قريش خروجه وجزعوا لذلك، وجعلوا مائة ناقة لمن
رده.

ولله در الشيخ شرف الدين الأبوصيري^(٣) حيث قال:
ويح قوم جفوانبيا بأرض ألفته ضباها والظباء
وسلوه وحن جذع إليه وقلوه ووده الغرباء

(١) أخرجه أحمد والترمذي وصححه. بلفظ قريب [المسند ٣٠٥/٤].

(٢) من رواية الواقدي.

(٣) محمد بن سعيد بن حماد الدلاصي المولد، المغربي الأصل، البوصيري المنشأ.
ولد سنة ثمان وستائة، وبرع في النظم، قال فيه الحافظ ابن سيد الناس:
هو أحسن من الجزائر والوراق. مات سنة خمس وتسعين وستائة. ذكره
السيوطي.

أخرجوه منها وآواه غار وحمته حمامة ورقاء
وكفته بنسجها عنكبوت ما كفته الحمامة الحصداء
يقال شجرة حصداء: أي كثيرة الورق، فكأنه استعاره للحمامة
لكثرة ريشها.

وفي حديث مروى في الهجرة^(١)، أنه عليه السلام ناداه ثبير:
اهبط عني، فإني أخاف أن تقتل على ظهري فأعذب، فناده حراء:
إلى يا رسول الله^(٢).

[عند باب الغار]

وذكر قاسم بن ثابت في الدلائل^(٣) أن رسول الله ﷺ لما دخل
الغار وأبو بكر معه، أنبت الله على بابه الرءاء. قال قاسم: وهي
شجرة معروفة، وهي أم غيلان. وعن أبي حنيفة^(٤): تكون مثل قامة
الإنسان لها خيطان وزهر أبيض تحشى به المخاد فيكون كالريش لحفته
وليئه، لأنه كالقطن، فحجبت عن الغار أعين الكفار^(٥).

وفي مسند البزار: أن الله عز وجل أمر العنكبوت فنسجت على

(١) ذكره القاضي عياض في الشفاء. وهذا الخبر ليس في: د.

(٢) الذي في الحديث الصحيح: أنها وعدا الدليل غار ثور بعد ثلاث ليال.
وهذا يقتضي أنها ما خرجا إلا قاصدين إليه.

(٣) كتاب «الدلائل في شرح ما أغفل أبو عبيد وابن قتيبة من غريب الحديث»
مات قاسم ولم يكمله، فأتمه أبوه ثابت، الحافظ المشهور.

(٤) الدينوري، لا الإمام.

(٥) جاء في كتاب أسنى المطالب للحوت ص ٣٠٤ طبعة إدارة إحياء التراث
بقطر: أحاديث الشجرة على الغار لا أصل لها [م].

وجه الغار^(١) وأرسل حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار، وأن ذلك مما صد المشركين عنه، وأن حمام الحرم من نسل تينك الحمامتين.

ثم أقبل فتيان قريش من كل بطن بعصيتهم وهراويتهم وسيوفهم، فجعل بعضهم ينظر في الغار، فلم ير إلا حمامتين وحشيتين بضم الغار، فرجع إلى أصحابه فقالوا له: مالك؟ قال: رأيت حمامتين وحشيتين فعرفت أنه ليس فيه أحد. وقال آخر: ادخلوا الغار، فقال أمية بن خلف: ما أريكم إلى الغار، إن فيه لعنكبوتاً أقدم من ميلاد محمد.

وقد روي أن الحمامتين باضتا في أسفل النقب ونسج العنكبوت، فقالوا: لو دخلا لتكسر البيض وتفسخ نسج العنكبوت. وهذا أبلغ في الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود.

[عبرة]

فتأمل كيف أظلت الشجرة المطلوب وأضلت الطالب، وجاءت العنكبوت فسدت باب الطلب، وحاكت وجه المكان فحاكت ثوب نسجها، فحاكت سترأ حتى عمي على القائف الطلب [ولله در القائل]^(٢):

والعنكبوت أجادت حوك حلتها فما تحال خلال النسج من خلل

(١) ذكر العنكبوت ورد عن ابن عباس عند أحمد ٣٤٨/١، ولكن أخبار العنكبوت والحمامتين لا تقف أمام الصحيح الآتي: وهو وقوفهم أمام الغار وقول أبي بكر لو نظر أحدهم مكان قدميه لرآنا [م].

(٢) في ط.

ولقد حصل للعنكبوت الشرف بذلك، وما أحسن قول ابن النقيب^(١):

ودود القزإن نسجت حريرا يجمل لبسه في كل شي
فإن العنكبوت أجل منها بما نسجت على رأس النبي
وروي أنه ﷺ قال: اللهم أعم أبصارهم، فعميت عن دخوله،
وجعلوا يضربون يميناً وشمالاً حول الغار. وهذا يشير إليه قول صاحب
البردة:

أقسمت بالقمر المنشق إن له من قلبه نسبة مبرورة القسم
وما حوى الغار من خير ومن كرم وكل طرف من الكفار عنه عم
فالصدق في الغار والصديق لم ير ما وهم يقولون ما بالغار من أرم
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم

أي عموا عما في الغار مع خلق الله ذلك فيهم، لأنهم ظنوا أن
الحمام لا يحوم حوله ﷺ وأن العنكبوت لا تنسج عليه لما جرت العادة
أن هذين الحيوانين متوحشان لا يألفان معموراً، فمهما أحسا بالإنسان
فرا منه، وما علموا أن الله تعالى يسخر ما شاء من خلقه لمن شاء من
عباده، وأن وقاية عبده بما شاء / تغني عبده عن التحصن بمضاعفة من
الدروع، وعن التحصن بالعالي من الأطم، وهي الحصون، فله در
الأبو صيري شاعراً، وما أحسن قوله في قصيدته اللامية حيث قال:
واغيرتا حين أضحى الغار وهوبه كمثل قلبي معمور ومأهول

(١) محمد بن الحسن الكنائي، من مشاهير الشعراء، مات سنة سبع وثمانين
وستائة.

كأنما المصطفى فيه وصاحبه الـ
وجلل الغار نسج العنكبوت على
عناية ضل كيد المشركين بها
إذ ينظرون وهم لا يبصرونها
صديق ليثان قد آواهما غيل
وهن فياحبذا نسج وتجليل
وما مكائدهم إلا الأضاليل
كأن أبصارهم من زيغها حول

[في الغار]

وفي الصحيح عن أنس قال أبو بكر: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا، فقال له رسول الله ﷺ: ما ظنك باثنين الله ثالثهما^(١).

وروي أن أبا بكر قال: نظرت إلى قدمي رسول الله ﷺ في الغار وقد تفترتا دماً فاستبكيت وعلمت أنه ﷺ لم يكن تعود الحفا والجفوة.

وروي أيضاً أن أبا بكر دخل الغار قبل رسول الله ﷺ ليقبه بنفسه، وأنه رأى جحراً فيه، فألقمه عقبه لثلاً يخرج منه ما يؤذي رسول الله ﷺ فجعلت الحيات والأفاعي يضربنه ويلسعنه، فجعلت دموعه تتحدر. وفي رواية: فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه في حجر أبي بكر فنام، فلدغ أبو بكر في رجله من الجحر ولم يتحرك فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ، فقال: مالك يا أبا بكر؟ فقال

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد. [البخاري ٣٩٢٢ ومسلم

لدغت فداك أبي وأمي، فتفل رسول الله ﷺ فذهب ما يجده^(١). رواه رزين^(٢).

وروي أيضاً: أن أبا بكر لما رأى القافة اشتد حزنه على رسول الله ﷺ وقال إن قتلت أنا فإنما أنا رجل واحد، وإن قتلت أنت هلكت الأمة، فعندها قال له رسول الله ﷺ: لا تحزن إن الله معنا، يعني بالمعونة والنصر، فأنزل الله سكينته - وهي أمانة تسكن عندها القلوب - على أبي بكر لأنه كان منزعجاً^(٣)، وأيده - يعني النبي ﷺ - بجنود لم تروها من الملائكة ليحرسوه في الغار، أو ليصرفوا وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته.

[تعليق على موقف أبي بكر]

انظر، لما رأى الرسول حزن الصديق قد اشتد لكن لا على نفسه، قوي قلبه ببشارة «لا تحزن إن الله معنا» وكانت تحفة «ثاني اثنين» مدخرة له دون الجميع، فهو الثاني في الإسلام والثاني في بذل النفس والعمر وسبب الموت لما وقى الرسول ﷺ بماله ونفسه وجوزي

(١) قال في أسنى المطالب: ما يذكر أن الحية لدغت أبا بكر في الغار. باطل لا أصل له ص ٣٠٤ [م].

(٢) رزين بن معاوية، أبو الحسن العبدري الأندلسي المالكي، مؤلف تجريد الصحاح جمع فيه الموطأ والصحيحين وسنن أبي داود والترمذي والنسائي. قال ابن بشكوال: كان صالحاً فاضلاً عالماً بالحديث وغيره، جاور بمكة أعواماً، وبها مات سنة خمس وعشرين وخمسمائة.

(٣) الضمير في الآية عائد على صاحبه في قول الأكثر، قال البيضاوي: وهو الأظهر، لأن النبي ﷺ لم تزل السكينة معه. قاله ابن عباس كما رواه ابن مردويه والبيهقي وغيرهما.

بمواراته معه في رسمه، وقام مؤذن التشریف ينادي على منائر الأمصار
«ثاني اثنين إذ هما في الغار» ولقد أحسن حسان حيث قال:

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدوبه إذ صاعد الجبلا
وكان حب رسول الله قد علموا من الخلائق لم يعدل به بدلا

وتأمل قول موسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿كلا إن معي ربي
سيهدين﴾ (١) وقول نبينا ﷺ للصديق: «إن الله معنا» فموسى خص
بشهود المعية ولم يتعد منه إلى أتباعه، ونبينا تعدى منه إلى الصديق، ولم
يقبل «معي» لأنه أمد أبا بكر بنوره فشهد سر المعية، ومن ثم سرى سر
السكينة على أبي بكر، وإلا لم يثبت تحت أعباء هذا التجلي والشهود،
وأين معية الربوبية في قصة موسى عليه السلام من معية الإلهية في قصة
نبينا ﷺ. قاله العارف شمس الدين بن اللبان (٢).

[تكرر نسج العنكبوت في التاريخ]

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن عطاء بن ميسرة (٣)، قال:
نسجت العنكبوت مرتين، مرة على داود حين كان طالوت/ يطلبه، ٣٤/ب
ومرة على النبي ﷺ في الغار.

وكذا نسجت على الغار الذي دخله عبد الله بن أنيس لما بعثه

(١) سورة الشعراء. الآية ٦٢.

(٢) ابن اللبان، محمد بن أحمد الدمشقي ثم المصري. الشافعي الفقيه الأصولي
النحوي الأديب الشاعر. اختصر الروضة ورتب الأم. مات بالطاعون سنة
تسع وأربعين وسبعمائة.

(٣) عطاء بن ميسرة، الخراساني: صدوق يهم، ويرسل كثيراً، روى له مسلم
والأربعة مات سنة خمس وثلاثين ومائة.

ﷺ لقتل خالد بن نبيح الهذلي بعرنة، فقتله ثم حمل رأسه ودخل في غار فنسجت عليه العنكبوت، وجاء الطلب فلم يجدوا شيئاً فانصرفوا راجعين.

وفي تاريخ ابن عساكر: أن العنكبوت نسجت أيضاً على عورة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب لما صلب عرياناً في سنة إحدى وعشرين ومائة.

[مدة المكث في الغار وما حصل فيها]

وكان مكثه ﷺ وأبو بكر في الغار ثلاث ليال^(١)، وقيل بضعة عشر يوماً. والأول هو المشهور.

وكان بيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام شاب ثقف - أي ثابت المعرفة بما يحتاج إليه لقن^(٢) - فبدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت معهم، فلا يسمع أمراً يكادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك اليوم حين يختلط الظلام.

ويرعى عليهما عامر بن فهيرة - مولى أبي بكر - منحة من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل^(٣)، وهو لبن منحتهما، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر، عبد الله بن الأريقط دليلاً -

(١) وهو القول الوارد في الصحيح.

(٢) لقن: - بفتح اللام وكسر القاف - أي سريع الفهم.

(٣) لبن طري (أي طازج).

وهو على دين كفار قريش، ولم يعرف له إسلام - فدفعوا إليه راحلتيهما
وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال.

[إلى خيمة أم معبد]

فأتاهما براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة
والدليل، فأخذ بهم على طريق السواحل، فمروا بقديد على أم معبد -
عاتكة بنت خالد الخزاعية - وكانت برزة جلدة، تحبني بفناء القبة، ثم
تسقي وتطعم.

وكان القوم مرملين مستتين، فطلبوا لبناً ولحماً يشترونه منها، فلم
يجدوا عندها شيئاً، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة،
خلفها الجهد عن الغنم، فسألها رسول الله ﷺ هل بها من لبن؟
فقالت: هي أجهد من ذلك، فقال: أتأذنين لي أن أحلبها؟ فقالت:
نعم بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلباً فاحلبها، فدعا بالشاة فاعتقلها
ومسح ضرعها، وسمى الله، فتفاجت ودرت، ودعا بإناء يربض
الرهط - أي يشبع الجماعة حتى يربضوا - فحلب فيه ثجا وسقى القوم
حتى رووا، ثم شرب آخرهم، ثم حلب فيه مرة أخرى علا بعد نهل،
ثم غادره عندها وذهبوا.

فقل ما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد - قال السهيلي: لا يعرف
اسمه، وقال العسكري: أكثم بن أبي الجون، ويقال: ابن الجون -
يسوق أعترأ عجافاً، يتساوكن هزالاً، مخهن قليل.

فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال: ما هذا يا أم معبد؟ أنى
لك هذا والشاء عازب حيال، ولا حلوب في البيت؟ فقالت: لا والله،

إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا. فقال: صفيه يا أم معبد.

فقالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاعة. مليح الوجه حسن الخلق، لم تبعه ثجلة ولم تزر به صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، أحور أكحل، أزج أقرن، شديد سواد الشعر، في عنقه سطع، وفي لحيته كثافة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نظم^(١) يتحدرن، حلو المنطق، فصل لا نزر ولا هذر، أجهر الناس وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة لا تشنؤه من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود، لا عابس ولا مفند.

فقال: هذا والله صاحب قريش، لو رأيت لاتبعته.

[أبو جهل على باب أبي بكر]

قالت أسماء بنت أبي بكر: ولما خفي علينا أمر رسول الله ﷺ، ١/٣٥ أتانا نفر من قريش منهم أبو جهل بن هشام، فخرجت إليهم، فقال: أين أبوك؟ فقلت: والله لا أدري أين أبي، قالت: فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشاً خبيثاً - فلطم خدي لطمه خرج منها قرطي، قالت: ثم انصرفوا.

ولما لم ندر أين توجه رسول الله ﷺ، أتى رجل من الجن

(١) في ط: نظمن وفي ش: نظم طوال.

يسمعون صوته ولا يرونه، وهو ينشد هذه الأبيات :

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلا بالبر ثم ترحلا فأفلق من أمسى رفيق محمد
فيا لقصي ما زوى الله عنكم به من فعال لا تجارى وسؤدد
ليهن بني كعب مكان فتاتهم ومقعدھا للمؤمنين بمرصدا
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها فإنكم إن سألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت له بصريح ضرة الشاة مزبدا
فغادرها رهنأ لديها لحالب يرددها في مصدر ثم مورد
فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه صلى الله عليه وسلم .

[شرح كلمات حديث أم معبد]

وقوله : مرملين : أي نفدت أزوادهم .
ومستتين : أي مجديين ، ويروى : مشتتين : دخلوا الشتاء .
وكسر الخيمة : - بكسر الكاف وفتحها ، وسكون السين - جانبها .
وتفاجت : - بتشديد الجيم - فتحت ما بين رجليها .
ويربض الرهط : - بضم المثناة التحتية ، وكسر الموحدة - أي يروهم ويثقلهم حتى يناموا ويمتدوا على الأرض . من أربض في المكان يربض : إذا لصق به وأقام .
والثج : السيلان . وفي رواية : فحلب ثجا حتى علاه الثمال - بضم المثناة - الرغوة واحده : ثالة . والبهاء أي بهاء اللبن : وهو ويبيض رغوته .
وتساوكن هزالاً : أي تمايلن ، ويروى : تشاركن من المشاركة ،

أي تساوين في الهزال.

وغادره: - بالغين المعجمة - أبقاه والشاء عازب، أي بعيدة المرعى.

والأبلج: - بالجيم - المشرق الوجه المضيئه.
والخيال: - بكسر الحاء المهملة - جمع حائل، وهي التي ليس بها حمل.

والوضاءة: الحسن.
والشجلة: - بفتح الثاء المثناة، وسكون الجيم - عظم البطن، ويروى بالنون والحاء: أي نحول ودقة.

والصعلة: - بفتح الصاد - صغر الرأس، وهي أيضاً الدقة والنحول في البدن.

والوسيم: الحسن، وكذلك: القسيم.
وفي عينيه دعج: أي سواد.
والوطف: قال في القاموس: محرمة، كثرة شعر الحاجبين والعينين.

وفي صوته صحل: - بالتحريك - وهو كالبحة - بضم الموحدة - أن لا يكون حاد الصوت.

وأحور: قال في القاموس: الحور - بالتحريك - أن يشتد بياض بياض العين، وسواد سوادها.

والكحل: - بفتحيتين - سواد في أجفان العين خلقة، والرجل: أكحل وكحيل.

والأزج: الدقيق طرف الحاجبين وفي القاموس: والزجاج - محرمة - دقة الحاجبين في طول.

والأقرن: المقرون الحاجبين.

وفي عنقه سطم:- بفتحتين - أي ارتفاع وطول.

وفي لحيته كثائة: الكثائة في اللحية أن تكون غير دقيقة ولا طويلة، وفيها كثائة، يقال: رجل كث اللحية - بالفتح - وقوم كث - بالضم -.

وإذا تكلم سها وعلاه البهاء: أي ارتفع وعلا على جلسائه.

وفصل - بالصاد المهملة - ولا نزر - بسكون المعجمة - ولا

هذر - بفتحها -: أي بين ظاهر، يفصل بين الحق والباطل.

ولا تشنؤه من طول: كذا جاء في رواية، أي لا يبغض لفرط

طوله، ويروى: ولا يشنى من طول: أبدل من الهمزة ياء، يقال:

شنيته أشنؤه، شنأ وشنأناً، قاله ابن الأثير.

ولا تقتحمه عين من قصر: أي لا تتجاوزه إلى غيره احتقاراً،

وكل شيء ازدريته فقد اقتحمته.

ومحفود: أي مخدوم.

والمحشود: الذي عنده حشد وهم الجماعة.

ولا عابس: من عبوس / الوجه.

والمفند: الذي يكثر اللوم وهو التنفيذ.

والضرة: لحمة الضرع.

وغادرها: أي خلف الشاة عندها مرتبة بأن تدر، انتهى.

[شاة أم معبد]

وأخرج ابن سعد وأبو نعيم من طريق الواقدي: حدثني حزام

ابن هشام عن أبيه عن أم معبد قالت: بقيت الشاة التي لمس عليه

السلام ضرعها عندنا حتى كان زمان الرمادة، زمان عمر بن الخطاب،
وكنا نحلبها صبوحةً وغبوقاً^(١) وما في الأرض قليل ولا كثير.

[قصة سراقه]

ثم تعرض لهما بقديد سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي^(٢)،
فبكى أبو بكر وقال: يا رسول الله أتينا، قال: كلا، ودعا رسول الله
ﷺ بدعوات، فساخت قوائم فرسه، وطلب الأمان، فقال: أعلم أن
قد دعوتما علي، فادعوا لي ولكما أن أرد الناس عنكما ولا أضركما.
قال: فوقفا لي، فركبت فرسي حتى جئتكما، قال: ووقع في نفسي حين
لقيت ما لقيت أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فأخبرتها أخبار^(٣) ما

(١) الصبوح: ما يشرب بالغداة، والغبوق: الشرب بالعشي.

(٢) وسبب تعرضه لهما ما رواه البخاري عنه قال: جاءنا رسل قريش يجعلون في
رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منها لمن قتله أو أسره، فبينما أنا
جالس في مجالس قومي بني مدلج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا، ونحن
جلوس، فقال: يا سراقه إني قد رأيت أنفاً أسودة بالسواحل، أراها محمداً
وأصحابه، قال سراقه: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا هم،
ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت ساعة ثم قمت،
فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي من وراء أكمة فتحبسها علي،
وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت.. الحديث.

وفيه: أنه لما دنا منهم سقط عن فرسه، واستقسم بالأزلام فخرج ما يكره
لا يضرهم، ثم ركبها ثانياً وقرب حتى سمع قراءة النبي ﷺ وهو لا
يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، فساخت يدا فرسه في الأرض إلى
الركبتين فسقط عنها ثم خلصها واستقسم بالأزلام، فخرج الذي يكره،
فناداهم بالأمان..

[رواه البخاري برقم ٣٩٠٦ وفي المسند ٤/١٧٦].

(٣) في ش: خبر، والذي في البخاري: أخبار.

يريد بها الناس، وعرضت عليهما الزاد والمتاع فلم يرزاني.

[قصة العبد الراعي]

واجتاز ﷺ في وجهه ذلك بعبد يرعى غنماً، فكان من شأنه ما رويناه من طريق البيهقي بسنده عن قيس بن النعمان قال: لما انطلق النبي ﷺ وأبو بكر مستخفين، مرا بعبد يرعى غنماً، فاستسقيه اللبن فقال: ما عندي شاة تحلب، غير أن ها هنا عناقا حملت عام أول، فما بقي بها لبن، فقال: ادع بها، فاعتقلها ﷺ ومسح ضرعها، ودعا حتى أنزلت، وجاء أبو بكر بمجن فحلب فسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعي، ثم حلب فشرب، فقال الراعي: بالله من أنت، فوالله ما رأيت مثلك. فقال: أو تراك تكتم علي حتى أخبرك؟ قال نعم، قال: فأني رسول الله، فقال أنت الذي تزعم قريش أنك صابئ؟ قال: إنهم ليقولون ذلك، قال: فأشهد أنك نبي، وأن ما جئت به حق، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي، وأنا متبعك، قال: إنك لن تستطيع ذلك يومك، فإذا بلغك أني قد ظهرت فائتنا.

قال الحافظ مغلطاي - بعد ذكره لقصة أم معبد -: وفي الإكليل قصة أخرى شبيهة بقصة أم معبد. قال الحاكم: فلا أدري أهى هي، أم غيرها.

[الوصول إلى قباء]

ولما سمع المسلمون بالمدينة خروج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة ينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من أطمهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ

وأصحابه [مبيضين]^(١) يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي نفسه فنادى بأعلى صوته يا بني قيلة هذا جدكم - أي حظكم ومطلوبكم - قد أقبل، فخرج إليه بنو قيلة - وهم الأوس والخزرج - سراعاً بسلاحهم فتلقوه، فنزل بقاء على بني عمرو بن عوف. . الحديث رواه البخاري^(٢).

وفيه: أن أبا بكر قام للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك.

وظاهر هذا أنه عليه السلام كانت الشمس تصيبه، وما تقدم من تظليل الغمام والملك له كان قبل بعثته، كما هو صريح في موضعه.

[تحديد تاريخ الوصول إلى قباء]

قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب: وكان قدومه عليه السلام لهلال ربيع الأول، أي أول يوم منه.

وفي رواية جرير بن حازم^(٣) عن ابن إسحاق: قدمها لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، ونحوه عند أبي معشر، لكن قال: ليلة الإثنين.

وعن ابن سعد: قدمها لاثنتي عشرة ليلة خلّت من ربيع الأول.

(١) في ش، وهي في البخاري، ومعنى مبيضين: عليهم ثياب بيض.

(٢) رواه البخاري برقم ٣٩٠٦.

(٣) ابن زيد بن عبدالله الأزدي البصري، الثقة، المتوفى سنة سبعين ومائة.

وفي «شرف المصطفى»^(١) من طريق أبي بكر بن حزم: قدم
لثلاث / عشرة من ربيع الأول.

١/٣٦

وهذا يجمع بينه وبين الذي قبله بالحمل على الاختلاف في رؤية
الهلال.

وقيل: كان حين اشتد الضحاء يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة
منه. وبه جزم النووي في كتاب السير من الروضة.

وقال ابن الكلبي: خرج من الغار يوم الإثنين أول يوم من ربيع
الأول ودخل المدينة يوم الجمعة لثنتي عشرة منه، وقيل لليلتين منه.
وعند البيهقي: لثنتين وعشرين ليلة.
وقال ابن حزم: خرجا من مكة وقد بقي من صفر ثلاث ليال.

[وصول علي إلى قباء]

وأقام علي بمكة بعد مخرج النبي ﷺ ثلاثة أيام، ثم أدركه بقباء
يوم الإثنين سابع - وقيل: ثامن - عشر ربيع، وكانت مدة مقامه مع
النبي ﷺ ليلة أو ليلتين.

[التأريخ بالهجرة]

وأمر ﷺ بالتأريخ فكتب من حين الهجرة^(٢).
وقيل: إن عمر أول من أرخ وجعله من المحرم^(٣).

(١) كتاب «شرف المصطفى» لأبي سعد النيسابوري.

(٢) رواه الحاكم في الإكلیل عن الزهري، وهو معضل والمشهور خلافه وأن
ذلك زمن عمر.

(٣) أخرج أبو نعیم: أن أبا موسى كتب إلى عمر: إنه يأتينا منك كتب ليس لها =

[الإقامة في قباء]

وأقام ﷺ بقباء في بني عمرو بن عوف اثنتين وعشرين ليلة^(١).
وفي صحيح مسلم^(٢): أقام فيهم أربع عشرة ليلة.
ويقال: إنه أقام يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس^(٣).

وأسس مسجد قباء^(٤)، الذي أسس على التقوى، على الصحيح، وهو أول مسجد بني في الإسلام وأول مسجد صلى فيه ﷺ بأصحابه جماعة ظاهراً، وأول مسجد بني لجماعة المسلمين عامة، وإن كان تقدم بناء غيره من المساجد لكن لخصوص الذي بناه.

[من قباء إلى المدينة]

ثم خرج ﷺ من قباء يوم الجمعة حين ارتفع النهار، فأدرckte الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها بمن كان معه من المسلمين، وهم مائة، في بطن وادي رانوءاء - براء مهملة ونونين ممدوداً، كعاشوراء

= تاريخ، فجمع عمر الناس، فقال بعضهم: أرخ بالمبعث، وبعضهم بالهجرة، فقال عمر: الهجرة فرقت بين الحق والباطل فأرخوا بها، وبالمحرم لأنه منصرف الناس من حجهم، فاتفقوا عليه، وذلك سنة سبع عشرة. ورواه ابن أبي خيثمة عن ابن سيرين بنحوه.

(١) حكاه الزبير بن بكار عن قوم من بني عمرو.

(٢) وكذا البخاري، كلاهما عن أنس.

(٣) قاله ابن إسحاق، وهو المشهور عند أصحاب المغازي.

(٤) أخرج الشيخان عن ابن عمر: كان ﷺ يزور قباء أو يأتي قباء راكباً أو ماشياً. وأخرج عنه أيضاً رفعه: (من صلى فيه كان كعدل عمرة). وروى ابن ماجه رفعه: (من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان كأجر عمرة).

وتاسوعاء - واسم المسجد «الغيب» - بضم الغين المعجمة، تصغير غب، كما ضبطه صاحب المغانم المطابة^(١)، والوادي: ذي صلب - ولذا سمي مسجد الجمعة، وهو مسجد صغير مبني بحجارة قدر نصف القامة، وهو على يمين السالك إلى مسجد قباء.

وركب ﷺ على راحلته بعد الجمعة متوجهاً إلى المدينة.

وروى أنس بن مالك أنه ﷺ أقبل إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ^(٢) يعرف، والنبي ﷺ شاب لا يعرف، قال: فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر من هذا الرجل الذي بين يديك، قال: فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، قال: فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير، الحديث رواه البخاري^(٣).

وقد روى ابن سعد أنه ﷺ قال لأبي بكر: أله عني الناس، فكان إذا سئل من أنت قال: باغي حاجة، فإذا قيل: من هذا معك؟ قال: هذا يهديني السبيل.

وفي حديث الطبراني، من رواية أسماء: فكان أبو بكر رجلاً معروفاً في الناس، فإذا لقيه لاقٍ يقول لأبي بكر: من هذا معك؟ فيقول: هذا يهديني [السبيل]^(٤) يريد الهداية في الدين، ومحسبه الآخر دليلاً^(٥).

(١) كتاب (المغانم المطابة في فضائل طابة) للمجد الشيرازي صاحب القاموس.

(٢) قد أسرع إليه الشيب، والنبي ﷺ لا شيب فيه.

(٣) رواه البخاري برقم ٣٩١١.

(٤) كذا في د، وفي ش: الطريق، ولم تذكر في النسخ الأخرى.

(٥) سياق هذا الحديث والذين قبله تشعر - كما أوردها المصنف - أن ذلك كان =

وإنما كان أبو بكر معروفاً لأهل المدينة لأنه كان يمر عليهم في سفره للتجارة، وكان ﷺ لم يشب، وكان ﷺ أسن من أبي بكر. وفي حديث أنس^(١): لم يكن في الذين هاجروا أشمط^(٢) غير أبي بكر.

[خلوا سبيلها فإنها مأمورة]

وكان ﷺ كلما مرَّ على دار من دور الأنصار يدعونه إلى المقام عندهم: يا رسول الله، هلم إلى القوة والمنعة، فيقول: خلوا سبيلها - يعني ناقته - فإنها مأمورة. وقد أرخى زمامها، وما يحركها، وهي تنظر يميناً وشمالاً، حتى إذا أتت دار مالك ابن النجار، بركت على باب المسجد، وهو يومئذ مربد لسهل وسهيل ابني رافع بن عمرو، وهما يتيمان في حجر معاذ بن عفراء - ويقال أسعد بن زرارة وهو المرجع^(٣) - ثم ثارت، وهو ﷺ عليها حتى بركت على باب أبي أيوب الأنصاري، ثم ثارت منه وبركت في مبركها الأول، وألقت جرائنها بالأرض - يعني باطن عنقها/ أو مقدمه من المذبح - وأزمرت - يعني صوتت من غير أن تفتح فاهما - ونزل عنها ﷺ وقال: هذا المنزل إن شاء الله^(٤).

[في منزل أبي أيوب]

واحتمل أبو أيوب رحله وأدخله في بيته، ومعه زيد بن حارثة،

= بعد نزول قباء ولكن سياق البخاري برقم ٣٩١١ يبين أن هذا المسلك كان بين مكة والمدينة حيث ساق قصة سراقاة بعد ذلك [المحقق].

(١) رواه البخاري برقم ٣٩١١.

(٢) الذي خالط سواد شعره بياض.

(٣) إذ هو الثابت في البخاري وغيره.

(٤) قال ابن المنير: الحكمة البالغة في إحالة الأمر على الناقة أن يكون تخصيصه

عليه السلام لمن خصه الله بنزوله عنده آية معجزة تطيب بها النفوس، =

وكانت دار بني النجار أوسط دور الأنصار وأفضلها، وهم أخوال عبد
المطلب، جده عليه السلام.

وفي حديث أبي أيوب الأنصاري، عند أبي يوسف يعقوب^(١) في
كتاب الذكر والدعاء له قال: نزل علي رسول الله ﷺ حين قدم المدينة
فكنت في العلو، فلما خلوت إلى أم أيوب قلت لها: رسول الله ﷺ
أحق بالعلو منا، تنزل عليه الملائكة وينزل عليه الوحي، فما بت تلك
الليلة لا أنا ولا أم أيوب، فلما أصبحت، قلت: يا رسول الله، ما
بت الليلة أنا ولا أم أيوب، قال: لم يا أبا أيوب؟ قلت: كنت أحق
بالعلو منا تنزل عليك الملائكة وينزل عليك الوحي، لا والذي بعثك
بالحق لا أعلو سقيفة أنت تحتها أبداً. الحديث. ورواه الحاكم
أيضاً^(٢).

وقد ذكر^(٣) أن هذا البيت الذي لأبي أيوب، بناه له عليه السلام
تبع الأول لما مر بالمدينة وترك فيها أربعمئة عالم، وكتب كتاباً للنبي ﷺ
ودفعه إلى كبيرهم، وسأله أن يدفعه للنبي ﷺ، فتداول الدار الملاك
إلى أن صارت لأبي أيوب، وهو من ولد ذلك العالم. قال: وأهل

= وتذهب معها المنافسة ولا يحيك ذلك في صدر أحد منهم شيئاً.

(١) يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، الإمام العلامة الحافظ، فقيه العراق،
صاحب أبي حنيفة. قال ابن معين: ليس في أصحاب الرأي أكثر حديثاً ولا
أثبت من أبي يوسف، مات سنة اثنتين وثمانين ومائة، عن تسع وستين
سنة.

(٢) وعند ابن إسحاق: .. فقال يا أبا أيوب إن الأرقق بنا ومن يغشانا أن
نكون في سفلى ..

(٣) في المبتدأ لابن إسحاق.

المدينة الذين نصره ﷺ من ولد أولئك العلماء. فعلى هذا: إنما نزل في منزل نفسه، لا في منزل غيره. كذا حكاه في تحقيق النصره^(١).

[الفرح يعم المدينة]

وفرح أهل المدينة بقدومه ﷺ، وأشرقت المدينة بحلوله فيها، وسرى السرور إلى القلوب. قال أنس بن مالك: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير عند قدومه يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

[التحقيق في زمن إنشاد هذين البيتين]

قلت: إنشاد هذا الشعر عند قدومه ﷺ المدينة رواه البيهقي في الدلائل، وأبو الحسن^(٢) بن المقرئ في كتاب الشئائل له عن ابن عائشة، وذكره الطبري في الرياض عن أبي الفضل بن الجمحي قال: سمعت ابن عائشة يقول - أراه عن أبيه - فذكره. وقال خرجه الحلواني على شرط الشيخين. انتهى.

وسميت ثنية الوداع لأنه ﷺ ودعه بها بعض المقيمين بالمدينة في بعض أسفاره.

(١) تحقيق النصره في تاريخ دار الهجرة، لقاضيها الشيخ زين الدين بن الحسين المرآغي. أقول: وهو خبر فيه نظر؟! [المحقق].

(٢) في (ب، ش) أبو بكر المقرئ.

الحافظ محمد ابراهيم الأصبهاني صاحب المعجم الكبير. مات سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة.

وقيل: لأنه عليه السلام شيع إليها بعض سراياه، فودعه عندها.
وقيل: لأن المسافر من المدينة كان يشيع إليها ويودع عندها قديماً.
وصحح القاضي عياض هذا الأخير، واستدل عليه بقول نسا.
الأنصار حين مقدمه صلى الله عليه وسلم:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

فدل على أنه اسم قديم.

وقال ابن بطال: إنما سميت ثنية الوداع لأنهم كانوا يشيعون
الحاج والغزاة إليها، ويودعونهم عندها، وإليها كانوا يخرجون عند
التلقي. انتهى.

قال شيخ الإسلام الولي العراقي: وهذا كله مردود، ففي
صحيح البخاري وسنن أبي داود والترمذي عن السائب بن يزيد قال:
لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك خرج الناس يتلقونه من ثنية الوداع.
قال: وهذا صريح في أنها من جهة الشام، ولهذا لما نقل والذي رحمه
الله في شرح الترمذي كلام ابن بطال قال: إنه وهم، قال: وكلام ابن
عائشة معضل لا تقوم به حجة. انتهى.

وسبقه إلى ذلك ابن القيم في الهدي النبوي فقال: هذا وهم من
بعض الرواة، لأن ثنية الوداع إنما هي من ناحية الشام، لا يراها
القادم من مكة ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام، / وإنما وقع ذلك ١/٣٧
عند قدومه من تبوك. انتهى.

لكن قال ابن العراقي أيضاً: ويحتمل أن تكون الثنية التي من
كل جهة يصل إليها المشيعون يسمونها ثنية الوداع. انتهى.

[فرح الجواري والغلمان]

وفي «شرف المصطفى» وأخرجه البيهقي عن أنس: لما بركت الناقة على باب أبي أيوب خرج جوار من بني النجار بالدفوف يقلن نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار فقال ﷺ: أتحببني، قلن: نعم يا رسول الله. وفي رواية الطبراني في الصغير فقال ﷺ: الله يعلم أن قلبي يحبكم^(١).

وقال الطبري: وتفرق الغلمان والخدم في الطرق ينادون جاء محمد، جاء رسول الله.

[وباء المدينة]

(ووعك أبو بكر وبلال، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول: كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول: ألا ليت شعري هل أبيت ليلة بواد وحوي إذخر وجيل وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل ييدون لي شامة وطفيل اللهم العن شيبة بن ربيعة^(٢) وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء.

ثم قال رسول الله ﷺ: اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا، وصححها لنا وانقل حماها إلى الجحفة.

قالت - يعني عائشة -: وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله، فكان

(١) أي يا معشر الأنصار.

(٢) سقط من قلم المصنف: وعتبة بن ربيعة. وهو في البخاري.

بطحان يجري نجلا. تعني: ماء آجنا(١).

وقال عمر: اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك. رواه البخاري(٢).

[شرح ألفاظ الحديث المتقدم]

وقوله: يرفع عقيرته: أي صوته، لأن العقيرة الساق، كأن الذي قطعت رجله رفعها وصاح، ثم قيل لكل من صاح ذلك، حكاة الجوهري.

وشامة وطفيل: عينان بقرب مكة، والمراد بالوادي وادي مكة. وجليل: نبت ضعيف.

[مدة الإقامة في بيت أبي أيوب]

وأقام ﷺ عند أبي أيوب سبعة أشهر(٣). وقيل: إلى صفر من السنة الثانية وقال الدولابي: شهراً.

(١) رواه البخاري برقم ١٨٨٩ ورواه أيضاً مسلم وأحمد.

(٢) رواه البخاري برقم ١٨٩٠.

ولعل مناسبة ذكر المصنف له للدلالة على أن الله تعالى استجاب دعاء رسوله ﷺ بشأن حب المدينة، وها هو عمر يطلب الشهادة ويرغب أن يموت بها [م].

(٣) قاله ابن سعد، وجزم به في الفتح. وحكى الأقوال الثلاثة مغلطاً.

[بناء المسجد النبوي]

وكان يصلي حيث أدركته الصلاة، ولما أراد ﷺ بناء المسجد الشريف، قال: يا بني النجار ثامنوني بحائطكم، قالوا: لا نطلب ثمنه إلا إلى الله، فأبى ذلك ﷺ وابتاعها بعشرة دنانير أداها من مال أبي بكر رضي الله عنه، وكان قد خرج من مكة بماله كله.

قال أنس^(١): وكان في موضع المسجد نخل وخرب ومقابر مشركين، فأمر بالقبور فنبشت وبالخرب فسويت وبالنخل فقطعت، ثم أمر باتخاذ اللبن فاتخذ، وبني المسجد وسقف بالجريد، وجعلت عمدته خشب النخل، وعمل فيه المسلمون، وكان عمار بن ياسر ينقل لبنتين لبنتين، لبنة عنه ولبنة عن النبي ﷺ فقال له عليه الصلاة والسلام: للناس أجر ولك أجران، وآخر زادك من الدنيا شربة لبن، وتقتلك الفئة الباغية.

وروينا أنه ﷺ كان ينقل معهم اللبن ويقول وهو ينقل [اللبن]^(٢):

هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

(١) رواه البخاري برقم ٤٢٨ و ٤٤٧ و ٣٩٣٢ ومسلم برقم ٥٢٤.

(٢) سقطت من النسخ وهي في البخاري.

قال ابن شهاب: ولم يبلغنا أنه ﷺ تمثل بيت شعر تام غير هذا^(١). انتهى.

وقد قيل: إن الممتنع عليه ﷺ إنشاء الشعر لا إنشاده، ولا دليل على منع إنشاده متمثلاً.

وقوله: هذا الحمال: - بكسر الحاء المهملة، وتخفيف الميم - أي المحمول من اللبن أبر عند الله من / حمال خيبر، أي: التي تحمل منها ٣٧/ب من التمر والزبيب ونحو ذلك. وفي رواية المستملي بالجيم. انتهى.

وفي كتاب «تحقيق النصرة» قيل: ووضع عليه السلام رداءه فوضع الناس أرديتهم وهم يقولون:
لئن قعدنا والنبي يعمل ذاك إذأ للعمل المضلل
وآخرون يقولون:

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعدا
ومن يرى عن التراب حائدا

[وصف المسجد]

وجعلت قبلة المسجد للقدس، وجعل له ثلاثة أبواب: باب في مؤخره، وباب يقال له: باب الرحمة، والباب الذي يدخل منه.

وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، وفي الجانبين مثل ذلك أو دونه.

وجعل أساسه قريباً من ثلاثة أذرع، وبني بيوتاً^(٢) إلى جنبه

(١) رواه البخاري برقم ٣٩٠٦.

(٢) أي بيتين فقط، كما صرح به غير واحد.

باللبن وسقفها بجذوع النخل والجريد، فلما فرغ من البناء بنى لعائشة في البيت الذي يليه شارعاً إلى المسجد، وجعل سودة بنت زمعة في البيت الآخر الذي يليه إلى الباب الذي يلي آل عثمان.

ثم تحول عليه السلام من دار أبي أيوب إلى مساكنه التي بناها. وكان قد أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه إلى مكة، فقدمتا بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة وأسامة بن زيد وأم أيمن، وخرج عبد الله بن أبي بكر معهم بعيال أبيه.

[الصفة]

وكان في المسجد موضع مظلل، تأوي إليه المساكين، يسمى الصفة، وكان أهله يسمون: أهل الصفة، وكان ﷺ يدعوهم بالليل فيفرقهم على أصحابه، وتتعضى طائفة منهم معه عليه السلام.

وفي البخاري من حديث أبي هريرة: لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة، ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار، وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساق، ومنها ما يبلغ الكعنين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته^(١).

وهذا يشعر بأنهم كانوا أكثر من سبعين، وهؤلاء الذين رأهم أبو هريرة غير السبعين الذين بعثهم في غزوة بئر معونة، وكانوا من أهل الصفة أيضاً، لكنهم استشهدوا قبل إسلام أبي هريرة.

وقد اعتنى بجمع أصحاب الصفة ابن الأعرابي^(٢)

(١) رواه البخاري برقم ٤٤٢.

(٢) ابن الأعرابي، أبو سعيد، أحمد بن محمد بن زياد البصري، الصوفي =

والسلمي^(١)، والحاكم وأبو نعيم، وعند كل منهم ما ليس عند الآخر، وفيما ذكروه اعتراض ومناقشة، قاله في فتح الباري.

[المنبر]

وكان ﷺ يخطب يوم الجمعة إلى جذع في المسجد قائماً، فقال: إن القيام قد شق علي، فصنع له المنبر.

وكان عمله وحين الجذع في السنة الثامنة - بالميم - من الهجرة، وبه جزم ابن النجار^(٢) وعورض: بما في حديث الإفك في الصحيحين، قالت عائشة: فثار الحيان - الأوس والخزرج - حتى كادوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر فنزل فخفضهم حتى سكتوا.

وجزم ابن سعد بأن عمل المنبر كان في السنة السابعة. وعورض: بذكر العباس وتيمم فيه، وكان قدوم العباس بعد الفتح في آخر سنة ثمان، وقدوم تميم سنة تسع.

وعن بعض أهل السير: أنه عليه السلام كان يخطب على منبر من طين قبل أن يتخذ المنبر الذي من خشب. وعورض: بأن الأحاديث الصحيحة أنه كان يستند إلى الجذع إذا خطب.

وستأتي قصة حنين الجذع إن شاء الله تعالى في مقصد

المعجزات.

= الورع، الثقة الثبت، العابد الرباني صاحب التصانيف، ولد سنة ست وأربعين ومائتين ومات سنة أربع وثلاثمائة.

(١) أبو عبد الرحمن، محمد بن موسى النيسابوري، الإمام الزاهد الرحال، حدث أكثر من أربعين سنة، صنف نحو مائة، مات سنة اثني عشرة وأربعمائة.

(٢) أبو عبد الله، محمد بن محمود بن الحسن البغدادي. الإمام الحافظ المؤرخ، الثقة الدين الورع. ولد سنة ثمان وسبعين وخمسمائة وسمع ابن الجوزي وطبقته، وله تصانيف. ومات سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

[المؤاخاة بين المهاجرين (١) والأنصار]

ولما كان بعد قدومه بخمسة أشهر، آخى عليه السلام بين المهاجرين والأنصار^(٢)، وكانوا تسعين رجلاً، من كل طائفة خمسة

(١) قال الشارح: وكانت - كما قال ابن عبد البر وغيره - مرتين: الأولى بمكة، قبل الهجرة، بين المهاجرين بعضهم بعضاً، على الحق والمواساة، فأخى بين أبي بكر وعمر، وطلحة والزبير وبين عثمان وعبد الرحمن. رواه الحاكم وهكذا بين كل اثنين منهم إلى أن بقي علي فقال: آخيت بين أصحابك، فمن أخي. قال: أنا أخوك. وجاءت أحاديث كثيرة في مؤاخاة النبي ﷺ لعلي...

وأنكر ابن تيمية هذه المؤاخاة بين المهاجرين، خصوصاً بين المصطفى وعلي. وزعم أن ذلك من الأكاذيب، وأنه لم يؤاخ بين مهاجري ومهاجري. قال: لأنها شرعت لإرفاق بعضهم بعضاً ولتتألف قلوب بعضهم على بعض فلا معنى لمؤاخاته لأحد، ولا لمؤاخاة المهاجرين.

ورده الحافظ: بأنه رد للنص بالقياس، وإغفال عن حكمة المؤاخاة، لأن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة، فأخى بين الأعلى والأدنى، ليرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا تظهر حكمة مؤاخاته لعلي. لأنه هو الذي كان يقوم به من الصبا قبل البعثة واستمر، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد، لأن زيداً مولاهم، فقد ثبتت أخوتها وهما من المهاجرين، وفي الصحيح في عمرة القضاء أن زيداً قال: إن بنت حمزة ابنة أخي [البخاري ٤٢٥١].

والثانية: هي التي ذكرها المصنف.

(٢) قال السهيلي: ليذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل =

وأربعون، على الحق والمواساة^(١) والتوارث.

وكانوا كذلك إلى أن نزل بعد بدر ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾ الآية^(٢).

[البناء بعائشة]

وبنى بعائشة على رأس تسعة أشهر. وقيل ثمانية^(٣)، وقيل ثمانية عشر شهراً في شوال.

والعشيرة، ويشد أزر بعضهم ببعض، فلما عز الإسلام.. أبطل الموارث وجعل المؤمنين كلهم أخوة يعني في التوادة..

(١) من أمثلة ذلك: ما جاء في الصحيح عن أنس قال: قدم علينا عبد الرحمن = ابن عوف، وأخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع - وكان كثير المال - فقال سعد: قد علمت الأنصار أني من أكثرها مالاً، سأقسم مالي بيني وبينك شطرين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأطلقها حتى إذا حلت تزوجتها. فقال عبد الرحمن بارك الله لك في أهلك.. [البخاري ٣٧٨١]

[م].

(٢) سورة الأنفال. الآية ٧٥.

(٣) هذا القول سقط في ش.

[خبر الأذان وزيادة الصلاة]

[الاجتماع للصلاة قبل الأذان]

وكان الناس - كما في السير وغيرها - إنما يجتمعون إلى الصلاة لتحين مواقيتها، من غير دعوة،

وأخرج ابن سعد في الطبقات، من مراسيل سعيد بن المسيب: أن بلاً كان ينادي للصلاة بقوله: الصلاة جامعة. الحديث^(١).

١/٣٨ وشاور/ رسول الله ﷺ أصحابه فيما يجمعهم به للصلاة - وكان ذلك فيما قيل في السنة الثانية^(٢) - فقال بعضهم: ناقوس كناقوس النصارى، وقال آخرون: بوق كبوق اليهود، وقال بعضهم: بل نوقد ناراً ونرفعها فإذا رآها الناس أقبلوا إلى الصلاة.

[رؤيا عبد الله بن زيد]

فرأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه في منامه رجلاً

(١) أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر: كان المسلمون لما قدموا المدينة يجتمعون فيتحننون الصلاة، ليس ينادي لها، فتكلموا يوماً في ذلك فقال بعضهم نتخذ ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم بل بوقاً مثل قرن اليهود، فقال عمر أولاً تبعثون رجلاً منكم ينادي بالصلاة، فقال ﷺ: يا بلال قم فناد بالصلاة.

(٢) مرضه لقول الحافظ: الراجح أنه شرع في السنة الأولى من الهجرة.

فعلمه الأذان والإقامة، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فأخبره بما رأى، وفي رواية معاذ بن جبل عند الإمام أحمد^(١) قال: يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم - ولو قلت إني لم أكن نائماً لصدقت - رأيت: شخصاً عليه ثوبان أخضران فاستقبل القبلة فقال: الله أكبر، الله أكبر، مثني مثني، حتى فرغ من الأذان. الحديث، فقال ﷺ إنها لرؤيا حق إن شاء الله تعالى، قم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به، فإنه أندى صوتاً منك^(٢). قال: فقمتم مع بلال فجعلت ألقيه ويؤذن.

قال: فسمع بذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو في بيته، فخرج يجر رداءه يقول: والذي بعثك بالحق يا رسول الله، لقد رأيت مثل ما رأى.

ووقع في الأوسط للطبراني: أن أبا بكر أيضاً رأى الأذان.
وفي الوسيط للغزالي: أنه رآه بضعة عشر رجلاً.
وعبارة الجيلي في شرح التنبيه: أربعة عشر.

وأنكره ابن الصلاح ثم النووي، وفي سيرة مغلطاي: أنه رآه سبعة من الأنصار.

قال الحافظ أبو الفضل بن حجر رحمه الله: ولا يثبت شيء من ذلك إلا لعبد الله بن زيد، وقصة عمر جاءت في بعض الطرق. انتهى.

(١) هذا من رواية الصحابي عن الصحابي، فليس معاذ رائيًا ولا قائلًا.
(٢) أي أرفع وأعلى أو أحسن وأعذب. وفي هذا رد للحديث المشهور على الألسنة: سين بلال عند الله شينا. وقد قال الحافظ المزني: لم نره في شيء من الكتب.

[حكمة «رؤيا» الأذان]

قال السهيلي: فإن قلت: ما الحكمة التي خصت الأذان بأن يراه رجل من المسلمين في نومه. ولم يكن عن وحي من الله لنبيه كسائر العبادات والأحكام الشرعية، وفي قوله ﷺ له: «إنها لرؤيا حق». ثم بنى حكم الأذان عليها، وهل كان ذلك عن وحي من الله له أم لا؟

وأجاب: بأنه ﷺ قد أريه ليلة الإسراء. فروى البزار عن علي قال: لما أراد الله تعالى أن يعلم رسوله الأذان جاء جبريل عليه السلام بدابة يقال لها البراق فركبها حتى أتى بها الحجاب الذي يلي عرش^(١) الرحمن، فبينما هو كذلك خرج ملك من الحجاب، فقال: يا جبريل من هذا؟ قال: والذي بعثك بالحق، إني لأقرب الخلق مكاناً، وإن هذا الملك ما رأيته منذ خلقت قبل ساعتى هذه. فقال الملك: الله أكبر، الله أكبر، فقيل له من وراء الحجاب: صدق عبدي؛ أنا أكبر، أنا أكبر. وذكر بقية الأذان.

قال السهيلي: وهذا أقوى من الوحي، فلما تأخر فرض الأذان إلى المدينة وأراد إعلام الناس بوقت الصلاة تلبث الوحي حتى رأى عبد الله الرؤيا فوافقت ما رأى ﷺ فلذلك قال: إنها لرؤيا حق إن شاء الله تعالى، وعلم حينئذ أن مراد الله بما رآه في السماء أن يكون سنة في الأرض وقوى ذلك عنده موافقة رؤيا عمر للأنصاري. انتهى^(٢).

وتعقب: بأن حديث البزار في إسناده زياد بن المنذر أبو الجارود، وهو متروك.

(١) كلمة (عرش) ليست في (ش، ب، د).

(٢) قال في الفتح تعليقاً على ذلك: تكلف وتعسف، والأخذ بما صح أولى.

[إشكال وجواب]

وقال في فتح الباري: وقد استشكل إثبات حكم الأذان برؤيا عبد الله بن زيد، فإن رؤيا غير الأنبياء لا ينبي عليها حكم شرعي: وأجيب: باحتمال مقارنة الوحي لذلك. ويؤيده ما رواه عبد الرزاق وأبو داود في المراسيل، من طريق عبيد بن عمير الليثي - أحد كبار التابعين - أن عمر لما رأى الأذان جاء ليخبر النبي ﷺ فوجد الوحي قد ورد بذلك، فما راعه إلا أذان بلال، فقال له النبي ﷺ: سبقك بذلك الوحي.

وهذا أصح مما حكى الداودي^(١) [عن ابن إسحاق]^(٢): أن جبريل أتى النبي ﷺ بالأذان قبل أن يخبره عبد الله بن زيد وعمر بشأنه أيام.

[رواية ابن إسحاق]

وقد/ عرفت رؤيا عبد الله بن زيد برواية ابن إسحاق وغيره^(٣): ٣٨/ب وذلك أنه قال:

«طاف بي - وأنا نائم - رجل يحمل ناقوساً في يده، فقلت يا عبد الله أتبيع الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة،

(١) أحمد بن نصر البشكري، أبو جعفر، العالم الفاضل، المالكي الفقيه، له حظ من اللسان والحديث والنظر. ألف شرح الموطأ، والواعي في الفقه، وشرح البخاري وسماه: النصيحة، وغير ذلك. توفي بتلمسان سنة ثلاثين وأربعمائة.

(٢) في (ط، ش).

(٣) كأي داود والترمذي وابن ماجه كلهم من طريقه.

قال: أفلا أدلك على ما هو خير لك من ذلك؟ فقلت: بلى، قال: تقول الله أكبر، الله أكبر، وذكر بقية كلمات الأذان. قال: ثم استأخر عني غير بعيد ثم قال: إذا قمت إلى الصلاة فقل: الله أكبر، الله أكبر، إلى آخر كلمات الإقامة». ورواه أبو داود بإسناد صحيح.

ولم تعرف كيفية رؤيا عمر حين رأى النداء، وقد قال: رأيت مثل الذي رأى.

[أحاديث ضعيفة]

وفي مسند الحارث: أول من أذن بالصلاة جبريل، أذن في سماء الدنيا فسمعه عمر وبلال، فسبق عمر ببلالاً إلى رسول الله ﷺ فأخبره بها، فقال عليه السلام لبلال سبقك بها عمر، وظاهره: أن عمر وبلالاً سمعا ذلك في اليقظة^(١).

وقد وردت أحاديث تدل على أن الأذان شرع بمكة قبل الهجرة:

منها للطبراني من طريق سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه قال: لما أسري بالنبي ﷺ أوحى الله إليه الأذان فنزل به وعلمه بلالاً. وفي إسناده طلحة بن زيد وهو متروك.

ومنها: للدارقطني في «الأفراد»، من حديث أنس أن جبريل أمر النبي ﷺ بالأذان حين فرضت الصلاة. وإسناده ضعيف.

ومنها: حديث البزار عن علي، المتقدم.

قال في فتح الباري: والحق أنه لا يصح شيء من هذه الأحاديث.

(١) قال الشارح: مروى عن كثير الحضرمي بسند واهٍ.

وقد جزم ابن المنذر بأنه ﷺ كان يصلي بغير أذان منذ فرضت الصلاة بمكة إلى أن هاجر إلى المدينة، إلى أن وقع التشاور في ذلك. والله سبحانه أعلم.

[هل أذن ﷺ أو اقتدى بغيره؟]

● فإن قلت: هل أذن ﷺ بنفسه قط؟

أجاب السهيلي: بأنه قد روى الترمذي من طريق يدور على عمر ابن الرماح، قاضي بلخ يرفعه إلى أبي هريرة، أنه ﷺ أذن في سفر وصلى وهم على رواحهم.. الحديث. قال: فنزع بعض الناس بهذا الحديث إلى أنه ﷺ أذن بنفسه. انتهى.

و^(١) ليس هذا الحديث من حديث أبي هريرة، إنما هو من حديث يعلى بن مرة^(٢).

وكذا جزم النووي بأنه عليه الصلاة والسلام أذن مرة في السفر، وعزاه للترمذي وقواه.

ولكن روى الحديث الدارقطني وقال فيه: أمر بالأذان، ولم يقل: أذن. قال السهيلي: والمفصل يقضي على المجمل المحتمل.

وفي مسند أحمد من الوجه الذي أخرج منه الترمذي هذا الحديث: فأمر بلالاً فأذن^(٣)، قال في فتح الباري فعرف أن في رواية الترمذي اختصاراً، وأن قوله أذن: أمر، كما يقال: أعطى الخليفة فلاناً

(١) في (ط، د): لكن.

(٢) سنن الترمذي باب ما جاء في الصلاة على الدابة رقم الحديث ٤٠٩.

(٣) المسند ١٧٤/٤.

ألفاً، وإنما باشر العطاء غيره، ونسب للخليفة لكونه أمر، انتهى .

● [فإن قلت هل صلى النبي ﷺ خلف أحد من أصحابه؟
قلت] (١):

نعم، ثبت في صحيح مسلم وغيره أنه ﷺ صلى خلف عبد الرحمن بن عوف، ولفظه: عن المغيرة بن شعبة أنه غزا مع رسول الله ﷺ تبوك، فبرز رسول الله ﷺ قبل الغائط، فحمل معه إداوة قبل صلاة الفجر... الحديث إلى أن قال: فأقبلت معه حتى نجد الناس قد قدموا عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم، فأدرك رسول الله ﷺ إحدى الركعتين، فصلى مع الناس الركعة الأخيرة، فلما سلم عبد الرحمن بن عوف قام رسول الله ﷺ يتم صلاته، فأفزع ذلك المسلمين، فأكثروا التسييح، فلما قضى النبي ﷺ صلاته أقبل عليهم ثم قال: أحسنتم، أو قال: أصبتم يغبطهم أن صلوا لوقتها (٢).

ورواه أبو داود في السنن بنحوه ولفظه: ووجدنا عبد الرحمن وقد ركع بهم ركعة من صلاة الفجر، فقام رسول الله ﷺ فصف مع المسلمين / فصلى وراء عبد الرحمن بن عوف الركعة الثانية، ثم سلم عبد الرحمن، فقام رسول الله ﷺ في صلاته.. الحديث (٣).

قال النووي: فيه جواز اقتداء الفاضل بالفضل، وجواز اقتداء النبي ﷺ خلف بعض أمته.

(١) هذه الزيادة في ش. وقال الشارح: كذا في نسخ وهو حسن. وفي أكثرها إسقاط السؤال والاقتصار على نعم..

(٢) رواه مسلم برقم ٢٧٤، المسند ٢٤٩/٤.

(٣) رواه أبو داود. باب المسح على الخفين برقم ١٤٩، وقد اختلفت بعض الألفاظ في النسخ ونقلته من سنن أبي داود [م].

قال: وأما بقاء عبد الرحمن في صلاته وتأخر أبي بكر رضي الله عنه ليتقدم النبي ﷺ، فالفرق بينهما أن عبد الرحمن كان قد ركع ركعة، فترك النبي ﷺ التقدم لثلاثاً يختل ترتيب صلاة القوم، بخلاف صلاة أبي بكر.

نعم في السيرة الهشامية^(١): أن أبا بكر كان الإمام وأن رسول الله ﷺ كان يأتيهم به. لكنه - كما قال السهيلي - حديث مرسل في السيرة، والمعروف في الصحاح أن أبا بكر كان يصلي بصلاة رسول الله ﷺ، والناس يصلون بصلاة أبي بكر.

لكن قد روي عن أنس من طريق متصل: أن أبا بكر كان الإمام يومئذ، واختلف فيه خبر عائشة رضي الله عنها. انتهى.

وفي الترمذي مصححاً من حديث جابر: أن آخر صلاة صلاحها رسول الله ﷺ في ثوب واحد متوشحاً به خلف أبي بكر.

قال ابن الملقن^(٢): وقد نصر هذا القول غير واحد من الحفاظ: منهم الضياء، وابن ناصر^(٣)، وقال: صح وثبت أنه ﷺ صلى خلف أبي

(١) في (ط، د): الهاشمية وهو خطأ، فهي نسبة إلى ابن هشام صاحب السيرة.

(٢) ابن الملقن، عمر بن علي بن أبي أحمد الأنصاري، أبو حفص، سراج الدين. الإمام الفقيه الحافظ، ذو التصانيف الكثيرة، أحد شيوخ الشافعية وأئمة المحدثين ولد سنة ثلاث وعشرين وسبعائة، ومات سنة أربع وثمانمائة.

(٣) محمد بن ناصر السلامي الإمام الحافظ، محدث العراق، الشافعي ثم الحنبلي، كان ثقة حافظاً ضابطاً من أهل السنة توفي سنة خمسين وخمسمائة. =

بكر مقتدياً^(١) به في مرضه الذي مات فيه ثلاث مرات، ولا ينكر هذا إلا جاهل لا علم له بالرواية.

وقيل: إنه كان مرتين، جمعا بين الأحاديث، وبه جزم ابن حبان.

وروى الدارقطني من طريق المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ قال: ما مات نبي حتى يؤمه رجل من أمته.

[زيادة صلاة الحضر]

ولما كان بعد شهر من مقدمه عليه الصلاة والسلام لاثنتي عشرة خلت من ربيع الآخر - قال الدولابي: يوم الثلاثاء، وقال السهيلي: بعد الهجرة بعام أو نحوه - زيد في صلاة الحضر ركعتان ركعتان، وتركت صلاة الفجر لطول القراءة فيها، وصلاة المغرب لأنها وتر النهار، وأقرت صلاة السفر.

وفي البخاري عن عائشة (فرضت الصلاة ركعتين [ركعتين] ثم هاجر النبي ﷺ [إلى المدينة] ففرضت أربعاً، وتركت صلاة السفر على الفريضة الأولى)^(٢).

= وليس هو الشمس بن ناصر الدمشقي لأن ابن الملقن ولد قبله بستين سنة فلا يتقل عنه.

(١) في (ب، ش) مقتدياً، وفي باقي النسخ: مقتدٍ وهو خطأ.

(٢) رواه البخاري في مواضع والمذكور هنا هو لفظه في الهجرة برقم ٣٩٣٥، وما بين القوسين ليس في نص البخاري ولكنه موجود في النسخ [م].

وقيل: إنما فرضت أربعاً، ثم خفف عن المسافر. ويدل له حديث: (إن الله وضع عن المسافر شطر الصلاة)^(١).

وقيل: إنما فرضت في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وهو قول ابن عباس، قال رضي الله عنه: (فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين)^(٢) رواه مسلم وغيره.

وسياتي مزيد لذلك إن شاء الله تعالى في أول الصلاة من مقصد عباداته عليه الصلاة والسلام.

(١) رواه أبو داود: باب اختيار الفطر برقم ٢٤٠٨ وهو عند أحمد. المسند ٣٤٧/٤ وكذلك عند النسائي وابن ماجه.

(٢) رواه مسلم برقم ٦٨٧، وهو كذلك عند أبي داود والنسائي.

[ظهور عداوة اليهود والمنافقين]

قال ابن إسحاق وغيره: ونصبت أحبار يهود العداوة للنبي ﷺ بغيا وحسداً، وسحره لبيد بن الأعصم، وهو من يهود بني زريق، فكان يخيل إليه أنه يفعل الفعل وهو لا يفعله، وجعل سحره في مشط ومشاطة^(١)، ودفنه في بئر ذي أروان - وأكثر أهل الحديث يقول: ذروان - تحت راعوفة^(٢) البئر، كما ثبت في الصحيح^(٣).

وليس هذا بقادح في النبوة، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يتلون في أبدانهم بالجراحات والسموم والقتل غير ذلك مما جوزه العلماء عليهم.

وانضاف إلى اليهود جماعة من الأوس والخزرج، منافقون، على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث، إلا أنهم قهروا بظهور الإسلام، [فأظهروه]^(٤) واتخذوه جنة من القتل، وناقفوا في السر،

(١) ما يمشط من الشعر ويخرج من المشط.

(٢) هي صخرة تترك في أسفل البئر إذا حفرت ليجلس عليها المستسقي عند نزحها.

(٣) هو في الصحيحين وغيرهما، وذكره البخاري في مواضع أحدها برقم ٣١٧٥ وعند مسلم برقم ٢١٨٩.

(٤) في ش.

منهم عبد الله بن أبي بن سلول، وكان رأس المنافقين، وهو الذي قال:
﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾^(١) كما سيأتي إن شاء الله في غزوة بني المصطلق.

(١) سورة المنافقين. الآية ٨.

[المغازي]

[الإذن بالقتال]

وأذن الله تعالى لرسوله ﷺ بالقتال. قال الزهري: أول آية نزلت في الإذن بالقتال ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾^(١) أخرجه النسائي بإسناد صحيح.

ب/٣٠

قال في / البحر^(٢): والمأذون فيه - أي في الآية - محذوف، أي: في القتال، لدلالة «يقاتلون» عليه، وعلل الإذن: بأنهم ظلموا، كانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج، فيقول لهم: اصبروا، فإني لم أؤمر بالقتال، حتى هاجر فأذن له بالقتال بعدما نهي عنه في نيف وسبعين آية. انتهى.

وقال غيره: وإنما شرع الله تعالى الجهاد في الوقت اللائق به، لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمر المسلمون - وهم قليلون - بقتال الباغين لشق عليهم، فلما بغى المشركون، وأخرجوه ﷺ من بين أظهرهم وهموا بقتله، واستقر عليه الصلاة والسلام بالمدينة واجتمع عليه أصحابه، وقاموا بنصره، وصارت المدينة لهم دار إسلام،

(١) سورة الحج. الآية ٣٩.

(٢) أي التفسير الكبير لأبي حيان.

ومعقلاً يلجؤون إليه، شرع الله تعالى جهاد الأعداء، فبعث ﷺ البعوث والسرايا وغزاً^(١) وقاتل هو وأصحابه حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً.

[عدد الغزوات والسرايا]

وكان عدد مغازيه ﷺ التي خرج فيها بنفسه، سبعاً وعشرين. قاتل في تسع منها بنفسه الشريفة ﷺ: بدر، وأحد، والمريسيع، والخذق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكة، وحنين، والطائف^(٢). وهذا على قول من قال: فتحت مكة عنوة.

وكانت سراياه التي بعث فيها سبعاً وأربعين سرية. وقيل: إنه قاتل في بني النضير.

[معنى سرية، ومصطلحات أخرى]

وأفاد في فتح الباري: أن السرية - بفتح المهملة وكسر الراء وتشديد التحتانية - هي التي تخرج بالليل، والسارية: التي تخرج بالنهار.

قال: وقيل سميت بذلك - يعني السرية - لأنه يخفى ذهابها. وهذا يقتضي أنها أخذت من السر، ولا يصح، لاختلاف المادة.

(١) جرت عادة المحدثين وأهل السير غالباً أن يسموا كل عسكر حضره النبي ﷺ بنفسه غزوة، وما لم يحضره بل أرسل بعضاً من أصحابه إلى العدو: سرية وبعثاً.

(٢) قال ابن تيمية: لا يعلم أنه قاتل في غزاة إلا في أحد، ولم يقتل أحداً إلا أبي بن خلف فيها، فلا يفهم من قولهم قاتل في كذا أنه بنفسه كما فهمه بعض الطلبة ممن لا اطلاع له على أحواله عليه السلام. انتهى.

وهي قطعة من الجيش تخرج منه وتعود إليه، وهي من مائة إلى خمسمائة، فما زاد على خمسمائة يقال له منسر - بالنون ثم المهملة - فإن زاد على الثمانمائة سمي جيشاً، فإن زاد على أربعة آلاف سمي جحفاً، والخميس: الجيش العظيم، وما افترق من السرية يسمى بعثاً، والكتيبة ما اجتمع ولم ينتشر، انتهى ملخصاً^(١).

[سرية حمزة]

وكان أول بعثه ﷺ على رأس سبعة أشهر، في [شهر]^(٢) رمضان، وقيل في ربيع الأول سنة اثنتين. بعث عمه حمزة، وأمره على ثلاثين رجلاً من المهاجرين.

وقيل من الأنصار، وفيه نظر، لأنه لم يبعث أحداً من الأنصار حتى غزا بهم بدرًا، لأنهم شرطوا له أن يمنعه في دارهم.

فخرجوا يعترضون عيراً لقريش، فيها أبو جهل اللعين، فلقبه في ثلاثمائة راكب فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص، فلما تصافوا حجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني، وكان عليه السلام قد عقد له لواء أبيض.

[اللواء والراية]

«واللواء هو العلم الذي يحمل في الحرب، يعرف به موضع صاحب الجيش، وقد يحمله أمير الجيش، وقد يدفعه لمقدم المعسكر،

وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادف اللواء والراية، لكن

(١) فتح الباري ٥٦/٨ في شرح حديث ٤٣٣٨.

(٢) في (ط، ب، د).

روى أحمد والترمذي عن ابن عباس: كانت راية رسول الله ﷺ سوداء، ولواؤه أبيض، ومثله عند الطبراني عن بريدة، وعند ابن عدي^(١) عن أبي هريرة وزاد: مكتوب فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وهو ظاهر في التغاير، ولعل التفرقة بينهما عرفية.

وذكر ابن إسحاق، وكذا أبو الأسود عن عروة: أن أول ما حدثت الرايات يوم خيبر، وما كانوا يعرفون قبل ذلك إلا الألوية» انتهى^(٢).

[سرية عبيدة بن الحارث]

ثم سرية عبيدة بن الحارث إلى بطن رابع، في شوال، على رأس ثمانية أشهر، في ستين رجلاً، وعقد له لواء أبيض، حملة مسطح بن أثانة، يلقي أبا سفيان بن حرب. وكان على المشركين - وقيل مكرز بن حفص، وقيل عكرمة بن أبي جهل - في مائتين، ولم يكن بينهم ١/٤٠ قتال، إلا أن سعد بن أبي وقاص رمى بسهم، فكان أول سهم رمي في الإسلام.

وقال ابن إسحاق: وكانت راية عبيدة - فيما بلغنا - أول راية عقدت في الإسلام، وبعض الناس يقول: راية حمزة. قال: وإنما أشكل أمرهما لأنه عليه الصلاة والسلام بعثها معاً، فاشتبه ذلك على الناس. انتهى.

(١) الحافظ عبد الله بن أحمد الجرجاني، أحد الأعلام مات سنة خمس وستين وثلاثمائة.

(٢) هذا كلام فتح الباري بدءاً من أول الفقرة ٤٧٧/٧.

وهذا يشكل بقولهم : إن بعث حمزة كان على رأس سبعة أشهر، لكن يحتمل أن يكون ﷺ عقد رايتها معاً، ثم تأخر خروج عبدة إلى رأس الثانية، لأمر اقتضاه، والله أعلم.

[سرية سعد بن أبي وقاص]

ثم سرية سعد بن أبي وقاص إلى الخرار - بخاء معجمة وراءين مهملتين، وهو واد بالحجاز يصب في الجحفة - وكان ذلك في [ذي] (١) القعدة، على رأس تسعة أشهر، وعقد له لواء أبيض، حمله المقداد بن عمرو، في عشرين رجلاً، يعترض عيراً لقريش، فخرجوا على أقدامهم، فصبحوها صبح خامسة فوجدوا العير قد مرت بالأمس.

[أول الغزوات : ودان]

ثم غزوة ودان، وهي الأبواء، وهي أول مغازيه، كما ذكره ابن إسحاق وغيره. وفي البخاري: أن أولها الأبواء.

خرج ﷺ في صفر على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه المدينة، يريد قريشاً، في ستين رجلاً، وحمل اللواء حمزة بن عبد المطلب. فكانت الموادة - أي المصالحة - على أن بني ضمرة لا يغزونه ولا يكثرون عليه جمعاً، ولا يعينون عليه عدواً.

واستعمل على المدينة سعد بن عباد.

وليس بين ما وقع في سيرة ابن إسحاق وبين ما نقله عنه البخاري اختلاف، لأن الأبواء وودان مكانان متقاربان بينها ستة أميال أو ثمانية.

(١) في: أ.

[غزوة بواط]

ثم غزوة بواط - بفتح الموحدة وقد تضم وتخفيف الواو وآخره مهملة - وهي الثانية، غزاها ﷺ في شهر ربيع الأول، على رأس ثلاثة عشر شهراً من الهجرة، حتى بلغها من ناحية رضوى - بفتح الراء وسكون المعجمة، مقصور - في مائتين من أصحابه، يعترض عيراً لقريش فيهم أمية بن خلف الجمحي.

واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون^(١).

فرجع ولم يلقَ كيداً، أي حرباً، قال ابن الأثير^(٢): والكيد الاحتيال والاجتهاد، وبه سميت الحرب كيداً.

[غزوة العشيرة]

ثم غزوة العشيرة - بالشين المعجمة، والتصغير، آخره هاء. لم يختلف أهل المغازي في ذلك، وفي البخاري: العشيرة، أو: العسيرة، والأولى بالمعجمة بلا هاء، والثانية: بالمهملة وبالهاء - وأما غزوة العسرة - بالمهملة بغير تصغير - فهي غزوة تبوك، وستأتي إن شاء الله تعالى.

ونسبت هذه إلى المكان الذي وصلوا إليه، وهو موضع لبني مدلج بينبع.

(١) السائب بن عثمان بن مظعون: أسلم قديماً، وهاجر إلى الحبشة، وشهد بدرًا، واستشهد يوم اليمامة.

(٢) الحافظ عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكريم بن محمد الشيباني الجزري، أبو السعادات، العالم النبيل، أحد الفضلاء، صاحب التصانيف الشهيرة، ولد سنة أربع وأربعين وخمسمائة، ومات بالموصل سنة ست وستمائة.

وخرج إليها ﷺ في جمادى الأولى - وقيل : الآخرة - على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة، في خمسين ومائة رجل - وقيل في مائتي رجل - ومعهم ثلاثون بعيراً يعتقبونها، وحمل اللواء - وكان أبيض - حمزة، يريد غير قريش التي صدرت من مكة إلى الشام بالتجارة. فخرج إليها ليغنمها فوجدها قد مضت.

ووادع بني مدلج من كنانة.

وكانت نسخة الموادة فيما ذكره غير ابن إسحاق^(١):

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصر على من رامهم^(٢) أن لا يجاربوا في دين الله ما بل بحر صوفة، وأن النبي إذا دعاهم لنصر أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله ورسوله^(٣).

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد.

[غزوة بدر الأولى]

ثم غزوة بدر الأولى. قال ابن إسحاق: ولما رجع عليه الصلاة والسلام - أي: من غزوة العشيرة - لم يبق إلا ليالي، وقال ابن حزم: بعد العشيرة بعشرة أيام، حتى أغار/ كرز بن جابر الفهري على سرح ٤٠/ب

(١) كما قال السهيلي في الروض.

(٢) في (ط، ب، د): وراءهم.

(٣) قال الشارح: كانت هذه الموادة في غزوة ودان، وكان الأولى تقديمها، أي أن تذكر بعدها.

المدينة، فخرج ﷺ في طلبه حتى بلغ سفوان - بفتح المهملة والفاء - موضع من ناحية بدر، ففاته كرز بن جابر. وتسمى بدرأ الأولى.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة زيد بن حارثة، وحمل اللواء علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه.

[سرية عبد الله بن جحش]

ثم سرية أمير المؤمنين عبد الله بن جحش^(١) في رجب على رأس سبعة عشر شهراً، وكان معه ثمانية - وقيل اثنا عشر - من المهاجرين، إلى نخلة على ليلة من مكة، في رجب يترصد قريشاً، فمرت بهم غيرهم تحمل زيبياً وأدماً من الطائف، فيها عمرو بن الحضرمي، فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب، فإن قتلناهم هتكنا حرمة الشهر، وإن تركناهم الليلة دخلوا حرم مكة، فأجمعوا على قتلهم فقتلوا عمراً واستأسروا عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وهرب من هرب، واستاقوا العير، وكانت أول غنيمة في الإسلام، فقسمها ابن جحش، وعزل الخمس من ذلك قبل أن يفرض، ويقال: بل قدموا بالغنيمة كلها.

فقال النبي ﷺ: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، فأخر الأسيرين والغنيمة حتى رجع من بدر فقسمها مع غنائمها.

وتكلمت قريش: إن محمداً سفك الدماء، وأخذ المال في الشهر الحرام، فأنزل الله تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه..﴾

(١) قال اليعمري: سمي في هذه السرية أمير المؤمنين، وقال غيره: سماه ﷺ أمير المؤمنين فهو أول من تسمى به في الإسلام.

الآية^(١). وفي ذلك يقول عبد الله بن جحش:

تعدون قتلاً في الحرام عظيمة وأعظم منه لو يرى ذاك راشد
صدودكم عما يقول محمد وكفر به والله راء وشاهد
سقيناً من ابن الحضرمي رماحنا بنخلة لما أوقد الحرب واقد
وبعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء الأسيرين، وهما:
عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، ففاداهما رسول الله ﷺ. فأما
الحكم فأسلم وحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم
بئر معونة شهيداً، وأما عثمان فلحق بمكة فمات بها كافراً.

(١) سورة البقرة. الآية ٢١٧.

[تحويل القبلة]

ثم حولت القبلة إلى الكعبة، وكان رسول الله ﷺ يصلي إلى بيت المقدس بالمدينة ستة عشر شهراً^(١).

وقيل سبعة عشر^(٢)، وقيل ثمانية عشر شهراً^(٣).

وقال الحربي: قدم ﷺ المدينة في ربيع الأول، فصلى إلى بيت المقدس تمام السنة وصلى من سنة اثنتين ستة أشهر. ثم حولت القبلة.

وقيل: كان تحويلها في جمادى، وقيل: كان يوم الثلاثاء في نصف شعبان، وقيل يوم الإثنين نصف رجب.

وظاهر حديث البراء في البخاري: أنها كانت صلاة العصر. ووقع عند النسائي من رواية سعيد بن المعلى: أنها الظهر. وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثاني، كما في الصحيحين عن ابن عمر أنه قال: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أمر أن

(١) كما رواه مسلم برقم (٥٢٥) وكذا النسائي.

(٢) كما عند البزار والطبراني.

(٣) كما رواه ابن ماجه. قال الحافظ: وهو شاذ.

يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة^(١).

وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدم نزوله، لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء والله أعلم.

وروى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما هاجر ﷺ إلى المدينة، واليهود أكثر أهلها يستقبلون بيت المقدس أمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها سبعة عشر شهراً، وكان ﷺ يجب أن يستقبل قبله إبراهيم، فكان يدعو وينظر/ إلى السماء فنزلت الآية. ١/٤١

قال في فتح الباري وظاهر حديث ابن عباس هذا أن استقبال بيت المقدس إنما وقع بعد الهجرة إلى المدينة. لكن أخرج أحمد من وجه آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان ﷺ يصلي بمكة نحو بيت المقدس، والكعبة بين يديه، قال: والجمع بينهما ممكن: بأن يكون أمر لما هاجر أن يستمر على الصلاة لبيت المقدس.

وأخرج الطبري أيضاً من طريق ابن جريج قال: صلى النبي ﷺ أول ما صلى إلى الكعبة، ثم صرف إلى بيت المقدس وهو بمكة، فصلى ثلاث حجج، ثم هاجر، فصلى إليه بعد قدومه المدينة ستة عشر شهراً، ثم وجهه الله إلى الكعبة.

وقوله في حديث ابن عباس الأول: «أمره الله تعالى» يرد قول من قال: إنه صلى إلى بيت المقدس باجتهاد.

(١) رواه البخاري برقم ٤٠٣ ومسلم برقم ٥٢٦.

وعن أبي العالية: أنه صلى إلى بيت المقدس يتألف أهل الكتاب. وهذا لا ينفي أن يكون بتوقيف.

[مسجد القبلتين]

واختلفوا في المسجد الذي كان يصلي فيه:
ف عند ابن سعد في الطبقات: أنه صلى ركعتين من الظهر في مسجده بالمسلمين، ثم أمر أن يتوجه إلى المسجد الحرام، فاستدار إليه ودار معه المسلمون.

ويقال: إنه ﷺ زار أم بشر بن البراء بن معرور في بني سلمة، فصنعت له طعاماً، وكانت الظهر، فصلى عليه الصلاة والسلام بأصحابه ركعتين، ثم أمر فاستدار، إلى الكعبة، واستقبل الميزاب^(١)، فسمي مسجد القبلتين. قال ابن سعد قال الواقدي: هذا عندنا أثبت.

[موقف اليهود والمنافقين]

ولما حول الله تعالى القبلة حصل لبعض الناس من المنافقين والكفار واليهود ارتياب وزيف عن الهدى وشك، وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، أي: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا، فأنزل الله جوابهم في قوله: ﴿قل لله المشرق والمغرب﴾ أي الحكم والتصرف، والأمر كله لله، فحيثما توجهنا فالطاعة في امثال أمره، ولو وجهنا كل يوم مرات إلى جهات متعددة فنحن عبيده، وفي تصريفه وخدامه حيثما وجهنا توجهنا.

(١) هذه الجملة ليست في ش.

ولله تعالى نبينا عليه السلام وبأمرته عناية عظيمة، إذ هداهم إلى
قبلة خليله، قال عليه السلام فيما رواه أحمد من حديث عائشة رضي
الله عنها: إن اليهود لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم
الجمعة، التي هدانا الله إليها وضلوا عنها. وعلى القبلة التي هدانا الله
إليها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين^(١).

[أجوبة قرآنية]

وقال بعض المؤمنين: فكيف صلاتنا التي صليناها نحو بيت
المقدس؟ وكيف من مات من إخواننا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟
فأنزل الله ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾^(٢).

وقيل قال اليهود: اشتاق إلى بلد أبيه، وهو يريد أن يرضي
قومه، ولو ثبت على قبلتنا لرجونا أن يكون هو النبي الذي ننتظر أن
يأتي. فأنزل الله تعالى: ﴿وإن الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق
من ربهم﴾^(٣) يعني أن اليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة
وانصرفكم عن بيت المقدس يعلمون أن الله سيوجهك إليها بما في
كتبهم عن أنبيائهم.

[فرض رمضان وزكاة الفطر]

ثم فرض صيام شهر رمضان، بعدما حولت القبلة إلى الكعبة
بشهر، في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدمه ﷺ.

وزكاة الفطر قبل العيد بيومين: أن يخرج عن الصغير والكبير

(١) المسند ٦/١٣٥.

(٢) سورة البقرة ١٤٣.

(٣) سورة البقرة ١٤٤.

والحر والعبد والذكر والأنثى صاع من تمر، أو صاع من زبيب، أو صاع من شعير أو صاع من بر، وذلك قبل أن تفرض زكاة الأموال. وقيل إن زكاة الأموال فرضت فيها، وقيل: قبل الهجرة والله أعلم.

[غزوة بدر الكبرى]

ثم غزوة بدر الكبرى، وتسمى العظمى، والثانية، وبدر القتال.

ب/ وهي قرية مشهورة، نسبت إلى بدر بن يخلد^(١) بن النضر/ بن كنانة، كان نزلها، وقيل: بدر بن الحارث، حافر بئرها، وقيل بدر اسم البئر التي بها سميت لاستدارتها، أو لصفائها ورؤية البدر فيها.

[فضل غزوة بدر]

وقال ابن كثير: وهو يوم الفرقان، الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغ فيه الشرك وخرّب محله، وهذا مع قلة عدد المسلمين، وكثرة العدو مع ما كانوا فيه من سوابغ الحديد، والعدة الكاملة، والخيول المسومة، والخيلاء الزائدة، فأعز الله تعالى رسوله وأظهر وحيه وتنزيله، وبيض وجه النبي ﷺ وقبيله، وأخزى الشيطان وجيله، ولهذا قال تعالى ممتناً على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾^(٢) أي قليل عددكم، لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العدد والعدد. انتهى.

فقد كانت هذه الغزوة أعظم غزوات الإسلام، إذ منها كان

(١) في (ط، د): مخلص. وبين الشارح أن الصواب: يخلص.

(٢) سورة آل عمران. الآية ١٢٣.

ظهوره، وبعد وقوعها أشرق على الآفاق نوره، ومن حين وقوعها أذل الله الكفار، وأعز من حضرها من المسلمين، فهو عنده من الأبرار^(١).

[معلومات عامة]

وكان خروجهم يوم السبت لثنتي عشرة خلت من رمضان، على رأس تسعة عشر شهراً، ويقال: لثمان خلون منه. قاله ابن هشام.

واستخلف أبا لبابة الأنصاري^(٢).

وخرج معه الأنصار، ولم تكن قبل ذلك خرجت معه، وكان عدة من خرج معه ثلاثمائة وخمسة، وثمانية لم يحضروها، إنما ضرب لهم بسهمهم وأجرهم فكانوا كمن حضرها^(٣).

وكان معهم ثلاثة أفراس: «بعزجة» فرس المقداد، و«العيسوب» فرس الزبير وفرس لمرثد الغنوي، لم يكن لهم خيل يومئذ غير هذه، وكان معهم سبعون بعيراً^(٤).

(١) قال ﷺ: (لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت

لكم الجنة، أو: فقد غفرت لكم) رواه البخاري.

(٢) وقد رده من الروحاء.

(٣) وهم: عثمان بن عفان تخلف بسبب مرض زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ

وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد كانا في مهمة استطلاعية تتعلق بالعيير

وأبو لبابة استخلفه ﷺ على المدينة. وعاصم بن عدي على أهل العالية،

والحارث بن حاطب على بني عمرو بن عوف. والحارث بن الصمة وقع

أثناء الطريق فرد، وخوات بن جبير أصابه حجر في ساقه فرد من الصفراء.

(٤) روى ابن سعد عن ابن مسعود: كنا يوم بدر كل ثلاثة يعتقبون بعيراً.

وكان أبو لبابة - قبل رده إلى المدينة - وعلي مع رسول الله ﷺ فكان إذا =

وكان المشركون ألفاً^(١) ويقال: تسعمائة وخمسون رجلاً، معهم
مائة فرس، وسبعمائة بعير.

وكان قتالهم يوم الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان، وقيل
يوم الإثنين وقيل غير ذلك.

[سبب الغزوة]

وكانت من غير قصد من المسلمين إليها ولا ميعاد، كما قال الله
تعالى: ﴿ولو تواعدتم لاختلقتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان
مفعولاً﴾^(٢).

وإنما قصد ﷺ والمسلمون التعرض لعير قريش. وذلك أن أبا
سفيان كان بالشام في ثلاثين راكباً منهم عمرو بن العاصي، فأقبلوا في
قافلة عظيمة، فيها أموال قريش، حتى إذا كانوا قريباً من بدر، فبلغ
النبي ﷺ ذلك، فندب أصحابه إليهم وأخبرهم بكثرة المال وقلة
العدو، وقال: هذه عير لقريش فيها أموال فاخرجوا إليها، لعل الله أن
ينفلكموها.

فلما سمع أبو سفيان بسيره عليه السلام، استأجر ضمضم بن
عمرو الغفاري أن يأتي قريشاً بمكة، فيستنفرهم ويخبرهم أن محمداً قد
عرض لعيرهم في أصحابه.

فنهضوا في قريب من ألف ولم يتخلف أحد من أشرف قريش

= كانت عقبة النبي ﷺ قالاً: اركب حتى نمشي عنك، فيقول: ما أنتما بأقوى
مني على المشي وما أنا بأغنى عن الأجر منكما.

(١) كما رواه مسلم وأبو داود والترمذي عن ابن عباس.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٤٢.

إلا أبا لهب، وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة^(١).

[الشورى]

وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه، حتى بلغ الروحاء، فأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عن غيرهم، فاستشار النبي ﷺ الناس في طلب العير، أو حرب النفير، وقال: إن الله وعدكم إحدى الطائفتين: إما العير وإما قريش. وكانت العير أحب إليهم.

فقام أبو بكر فقال فأحسن، ثم قام عمر فقال فأحسن^(٢).
ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا برك الغماد - يعني مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

فقال له ﷺ: خيراً، ودعا له بخير. ثم قال ﷺ: أيها الناس ١/٤٢
أشيروا علي، وإنما يريد الأنصار. لأنهم حين بايعوه/ بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا، نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبنائنا ونساءنا. وكان ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم. فلما قال ذلك عليه الصلاة والسلام:

(١) هو أخو أبي جهل. كان عليه أربعة آلاف درهم لأبي لهب عجز عن أدائها فاستأجره بها.

(٢) قال الشارح: لم أر من ذكر كلام أبي بكر، وذكر ابن عقبة وابن عائذ أن عمر قال: يا رسول الله، إنها قريش وعزها، والله ما ذلت منذ عزت، ولا =

قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله. قال:
أجل.

قال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق،
وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا
رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر
فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقى
عدونا، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله أن يريك
منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله تعالى.

فسر عليه الصلاة والسلام بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال:
سيروا على بركة الله تعالى وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى
الطائفتين، والله لكأنى أنظر الآن إلى مصارع القوم. قال ثابت عن
أنس رضي الله عنه قال ﷺ: هذا مصرع فلان، ويضع يده على
الأرض، ها هنا وها هنا. قال فإماط أحدهم - أي ما تنحى - عن
موضع يده عليه الصلاة والسلام.

تنبيه: قال ابن سيد الناس في «عيون الأثر»: روينا من طريق
مسلم أن الذي قال ذلك: سعد بن عبادة سيد الخزرج، وإنما يعرف
ذلك عن سعد بن معاذ، كذا رواه ابن إسحاق وغيره.

واختلف في شهود سعد بن عبادة بدرا، ولم يذكره ابن عقبة ولا
ابن إسحاق في البدرين، وذكره الواقدي والمدائني^(١) وابن الكلبي
منهم انتهى.

= آمنت منذ كفرت، والله لتقاتلنك فتأهب لذلك أهبتة وأعد لذلك عدته.
(١) [المدائني] علي بن محمد، أبو الحسن، الأخباري، صاحب تصانيف، وثقة =

[على أرض المعركة]

ثم ارتحل ﷺ قريباً من بدر، ونزلت قريش بالعدوة القصوى من الوادي، ونزل المسلمون على كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب، وسبقهم المشركون إلى ماء بدر فأحرزوه، وحفروا القلب لأنفسهم^(١).

وأصبح المسلمون بعضهم محدث وبعضهم جنب، وأصابهم الظمأ، وهم لا يصلون إلى الماء، ووسوس الشيطان لبعضهم وقال: تزعمون أنكم على الحق، وفيكم نبي الله. وأنكم أولياء الله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم عطاش، وتصلون محدثين مجنين، وما ينتظر أعداؤكم إلا أن يقطع العطش رقابكم ويذهب قواكم فيتحكموا فيكم كيف شاؤوا.

فأرسل الله عليهم مطراً سال منه الوادي، فشرب المسلمون واغتسلوا وتوضؤوا وسقوا الركاب وملئوا الأسقية، وأطفأ الغبار ولبد الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام. وزالت عنهم وسوسة الشيطان، وطابت أنفسهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به﴾ أي من الأحداث والجنابة ﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ أي وسوسته ﴿وليربط على قلوبكم﴾ بالصبر ﴿ويثبت به

= ابن معين وقال ابن عدي ليس بالقوي. مات سنة أربع وخمسين ومائتين عن ثلاث وتسعين سنة.

(١) القلب: جمع قليب، البئر قبل أن تبني بالحجارة ونحوها، فعلوا ذلك ليجعلوا فيها الماء.

الأقدام) (١) حتى لا تسوخ في الرمل، بتلييد الأرض (٢).

وبني لرسول الله ﷺ عريش فكان فيه (٣).

[المبارزة قبل المعركة]

ثم خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة، ودعا إلى المبارزة، فخرج فتية من الأنصار وهم: عوف ومعاذ ابنا الحارث - وأمهما عفراء - وعبد الله بن رواحة. فقالوا من أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار، فقالوا ما لنا بكم من حاجة.

ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج لنا أكفاءنا من قومنا. فقال

(١) سورة الأنفال: الآية ١١.

(٢) قال ابن إسحاق: فخرج ﷺ ييادهم إلى الماء، حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به، فقال الحباب بن المنذر: يا رسول الله، هذا منزل أنزلكه الله لا تتقدمه ولا تتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة فقال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، قال: فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزل فيه ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون قال ﷺ: أشرت بالرأي. وفعل عليه السلام ما أشار به الحباب [سيرة ابن هشام ١/٦٢٠].

(٣) بني العريش بإشارة سعد بن معاذ إذ قال: يا رسول الله، ألا نبني لك عريشاً، تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك، فأنى عليه ﷺ خيراً ودعا له بخير. [سيرة ابن هشام ١/٦٢٠].

والعريش شبه الخيمة يستظل به.

ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي.

فلما قاموا ودنوا منهم قالوا من أنتم؟ فتسموا لهم، فقالوا: نعم ٤٢/ب
أكفاء كرام، فبارز عبيدة - وكان أسن القوم - عتبة بن ربيعة، وبارز
حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز علي الوليد بن عتبة.
فقتل علي الوليد. هكذا ذكره ابن إسحاق.

وعند موسى بن عقبة - كما نقله في فتح الباري - برز حمزة
لعتبة، وعبيدة لشيبة وعلي للوليد.

ثم اتفقا: فقتل علي الوليد، وقتل حمزة الذي بارزه، واختلف
عبيدة ومن بارزه بضربتين، فوقعت الضربة في ركبة عبيدة ومال علي
وحمزة على الذي بارزه عبيدة فأعاناه على قتله.

وعند الحاكم، من طريق عبد خير عن علي: مثل قول موسى بن
عقبة.

وعند أبي الأسود عن عروة مثله.

وأورد ابن سعد من طريق عبيدة السلماني: أن شيبة لحمزة،
وعبيدة لعتبة، وعلي للوليد، ثم قال: الثبت أن عتبة لحمزة، وشيبة
لعبيدة.

وأخرج أبو داود عن علي قال: تقدم عتبة وتبعه ابنه وأخوه،
فنادى: من يبارز فانتدب له شبان من الأنصار، فقال: من أنتم؟
فأخبروه، فقال: لا حاجة لنا فيكم، إنما أردنا بني عمنا، فقال رسول
الله ﷺ: قم يا حمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة، فأقبل حمزة إلى عتبة،
وأقبلت إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان، فأثخن كل
واحد منهما صاحبه، ثم ملنا على الوليد فقتلناه واحتملنا عبيدة.

قال الحافظ ابن حجر: وهذا أصح الروايات، لكن الذي في السير من أن الذي بارزه علي هو الوليد هو المشهور هو اللائق بالمقام، لأن عبدة وشيبة كانا شيخين كعتبة وحزمة، بخلاف علي والوليد فكانا شابين.

وقد روى الطبراني بإسناد حسن عن علي قال: أعنت أنا وحزمة عبدة بن الحارث على الوليد بن عتبة، فلم يعب النبي ﷺ علينا ذلك. وهذا موافق لرواية أبي داود. والله أعلم. انتهى.

[استغاثة ودعاء]

قال ابن إسحاق: ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض. ورسول الله ﷺ في العريش ومعه أبو بكر، ليس معه فيه غيره، وهو ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول: اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإيمان اليوم فلا تعبد في الأرض أبداً^(١). . . وأبو بكر يقول: يا رسول الله، خل بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك.

وعند سعيد بن منصور^(٢) من طريق عبدة بن عبد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وتكاثروا

(١) لفظ ابن إسحاق - الذي هو ناقل عنه - اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد. وفي حديث عمر عند مسلم: اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض وفي البخاري عن ابن عباس: اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد.

(٢) الحافظ الثقة، أحد الأعلام، صاحب السنن، أخذ عن مالك والليث، وعنه أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم، مات بمكة سنة سبع وعشرين ومائتين.

وإلى المسلمين فاستقلهم، فرقع ركعتين وقام أبو بكر عن يمينه، فقال عليه السلام وهو في صلاته: اللهم لا تخذلني، اللهم أنشدك ما وعدتني.

وروى النسائي والحاكم عن علي قال: قاتلت يوم بدر شيئاً من قتال، ثم جئت فإذا رسول الله ﷺ يقول في سجوده: يا حي، يا قيوم. فرجعت وقاتلت ثم جئت فوجدته كذلك.

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق، أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ثم استيقظ متبسماً، فقال: أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثنياه النقع ثم خرج من باب العريش وهو يتلو ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾.

[أبو بكر والدعاء]

فإن قلت: كيف جعل أبو بكر يأمره عليه الصلاة والسلام بالكف عن الاجتهاد في الدعاء ويقوي رجاءه ويثبتته، ومقام الرسول ﷺ هو المقام الأحمد، ويقينه فوق يقين كل أحد؟

أجاب السهيلي نقلاً عن شيخه^(١): بأن الصديق في تلك الساعة كان في مقام الرجاء، / والنبي ﷺ في مقام الخوف، لأن الله تعالى أن ١/٤٣ يفعل ما يشاء، فخاف أن لا يعبد الله في الأرض، فخوفه ذلك عبادة انتهى.

وقال الخطابي: لا يتوهم أحد أن أبا بكر كان أوثق بربه من النبي ﷺ في تلك الحالة، بل الحامل للنبي ﷺ على ذلك شفقتة على

(١) القاضي أبو بكر بن العربي.

أصحابه وتقوية قلوبهم، فبالغ في التوجه والدعاء والابتهاال لتسكن نفوسهم عند ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن وسيلته مستجابة، فلما قال له أبو بكر ما قال، كف عن ذلك وعلم أنه استجيب له لما وجد أبو بكر في نفسه من القوة والطمأنينة، فلهذا عقبه بقوله: سيهزم الجمع [ويولون الدبر]^(١).

[وقال غيره]^(٢): وكان النبي ﷺ في تلك الحالة في مقام الخوف، وهو أكمل حالات الصلاة، وجاز عنده أن لا يقع النصر يومئذ، لأن وعده بالنصر لم يكن معيناً لتلك الواقعة، وإنما كان مجملًا^(٣). هذا هو الذي يظهر [من بادئ الرأي]^(٤).

وإنما قال ﷺ: اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد بعد اليوم لأنه علم أنه خاتم النبيين، فلو هلك هو ومن معه حيثئذ، لا يبعث أحد ممن يدعو إلى الإيمان.

وأما شدة اجتهاده عليه الصلاة والسلام ونصبه في الدعاء، فإنه رأى الملائكة تنصب في القتال وجبريل على ثنياه الغبار وأنصار الله يخوضون غمرات الموت. والجهاد على ضريين جهاد بالسيف وجهاد

(١) زيادة في (د، ش).

(٢) في ش.

(٣) أقول: يمكن تفسير موقف أبي بكر: بأن شففته على الرسول ﷺ حينما رآه وقد انهمك في الدعاء حتى سقط الرداء عن منكبيه - كما في رواية مسلم الآتية - هي التي دعت به إلى قوله تلك التي تعني الرجاء والأمل.. وكذلك كان موقف الصحابة رضي الله عنهم مثل قولهم: «ليته سكت» يوم كان يحدثهم عن قول الزور، وإنما قالوا ذلك شفقة عليه ﷺ [المحقق].

(٤) في ش.

بالدعاء، ومن سنة الإمام أن يكون وراء الجند لا يقاتل معه، فكان الكل في جهاد واجتهاد، ولم يكن ليربح نفسه من أحد الجندين والجهاديين^(١) وأنصار الله وملائكته يجتهدون، ولا ليؤثر الدعة وحزب الله مع أعدائه يجتلدون. انتهى^(٢).

[شهود الملائكة غزوة بدر]

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال عمر بن الخطاب: (لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً دخل العريش، فاستقبل القبلة ثم مد يديه^(٣)، وجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لي ما وعدتني... فما زال يهتف بربه ماداً يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأخذ أبو بكر رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك^(٤) مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدِّمٌ لَكُمْ مَدَدًا لَكُمْ﴾ **﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾**^(٥) أي متتابعين بعضهم في إثر بعض.

(١) (والجهاديين) لم ترد في (طش).

(٢) قول السهيلي، وكلامه في الفقرة الأخيرة يسلم له لو بقي الرسول ﷺ طيلة الوقت في الدعاء ولم يخرج لإدارة المعركة، ولكن النصوص تبين أنه لما رأى جبريل على ثنياه النقع خرج من العريش وهو يتلو ﴿سيهزم الجمع﴾. يقوم بإدارة المعركة.. فأمر أصحابه: علياً وحمة والحارث بالخروج للمبارزة.. ثم أوامره الأخرى.. وأدلة جهاده الأخرى تدل أنه ﷺ يكون في مقدمة الصفوف [المحقق].

(٣) كذا في مسلم وفي النسخ: ومد يده.

(٤) كذا في النسخ. والذي في مسلم «كذاك» وهي بمعناها.

(٥) رواه مسلم برقم ١٧٦٣.

وعلى قراءة فتح الدال معناه: أردف الله المسلمين وجاءهم بهم مدداً.

وفي الآية الأخرى ﴿بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾^(١) فقيل معناه: إن الألف أردفهم بثلاثة آلاف. فكان الأكثر مدداً للأقل، وكان الألف مردفين بمن وراءهم. والألف هم الذين قاتلوا مع المؤمنين، وهم الذين قال لهم: ﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ وكانوا في صور الرجال، ويقولون للمؤمنين: اثبتوا فإن عدوكم قليل وإن الله معكم. وقال الربيع بن أنس^(٢): أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف.

وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة: أمد الله المؤمنين يوم بدر بخمسة آلاف.

وعن عامر الشعبي: أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يمد المشركين فشق عليهم، فأنزل الله: ﴿ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾ إلى قوله: ﴿مسومين﴾، قال: فبلغت كرزاً المهزيمه فلم يمد المشركين، ولم تمد المسلمون بالخمسة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين، معه رايته، في صورة سراقه بن مالك بن جعشم، فقال ٤٣/ب الشيطان/ للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، فلما أقبل جبريل والملائكة كانت يده في يد رجل من المشركين فانتزع يده ثم نكص على عقبيه، فقال الرجل: يا سراقه أتزعم أنك جار؟ فقال إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب.

(١) سورة آل عمران. الآية ١٢٤.

(٢) الربيع بن أنس البكري، نزيل خراسان، صدوق له أوهام، ورمي بالتشيع روى له أصحاب السنن الأربعة مات سنة أربعين ومائة.

وروي أن جبريل نزل في خمسمائة وميكائيل في خمسمائة في صورة الرجال على خيل بلق، عليهم ثياب بيض، وعلى رؤوسهم عمام بيض، قد أرخوا أطرافها بين أكتافهم،

وقال ابن عباس: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمام بيض، ويوم حنين: عمام خضر.

وعن علي: كانت سيما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض، وكانت سيماهم أيضاً في نواصي خيلهم. رواه ابن أبي حاتم.

وروي ابن مردويه عن ابن عباس رفعه، في قوله تعالى: ﴿مُسومين﴾ قال: معلمين، وكانت سيما الملائكة يوم بدر عمام سود ويوم حنين عمام خضر^(١).

وروي ابن أبي حاتم عن الزبير: أن الملائكة نزلت وعليهم عمام صفر.

[مشاركة الملائكة في القتال]

قيل: ولم تقاتل الملائكة سوى يوم بدر من الأيام، وكانوا يكونون فيما سواه عدداً ومدداً، وبذلك صرح العماد بن كثير في تفسيره فقال: المعروف من قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، ثم روي عن ابن عباس قال: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر^(٢).

وقال ابن مرزوق: ولم تكن تقاتل في غيرها بل يحضرون خاصة على المختار من الأقوال عند بعضهم.

(١) في سننه عبد القدوس بن حبيب، وهو متروك.

(٢) تفسير ابن كثير عند الآية ١٢٤ من سورة آل عمران.

وفي نهاية البيان في تفسير القرآن عند تفسير قوله تعالى: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم﴾ وهل قاتلت الملائكة يومئذ أم لا؟ فيه قولان: أحدهما - وهو قول الجمهور - أنها لم تقاتل، انتهى.

وهذا يرده حديث مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص أنه رأى عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبل ولا بعد - يعني جبريل وميكائيل عليهما الصلاة والسلام - يقاتلان كأشد القتال^(١).

قال النووي: فيه بيان إكرامه ﷺ بإنزال الملائكة تقاتل معه، وبيان أن قتالهم لم يختص بيوم بدر. قال: وهذا هو الصواب خلافاً لمن زعم اختصاصه، فهذا صريح في الرد عليه. وفيه أن رؤية الملائكة لا تختص بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام بل يراهم الصحابة والأولياء. انتهى.

[قتلى الملائكة]

قال ابن الأنباري: وكانت الملائكة لا تعلم كيف تقتل الآدميون، فعلمهم الله تعالى بقوله: ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ أي الرؤوس ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾ قال ابن عطية: كل مفصل.

قال السهيلي: جاء في التفسير أنه ما وقعت ضربة يوم بدر إلا في رأس أو مفصل، وكانوا يعرفون قتلى الملائكة من قتلاهم بأثار سود في الأعناق والبنان.

وعن ابن عباس قال: حدثني رجل من بني غفار قال: أقبلت

(١) رواه مسلم برقم ٤٧ من كتاب الفضائل.

أنا وابن عم لي حتى صعدا على جبل يشرف على بدر - ونحن
مشركان - ننظر الواقعة على من تكون الدبرة، فنهب مع من ينهب،
فبينما نحن في الجبل إذ دنت منا سحابة فيها حممة الخيل فسمعت قائلاً
يقول: أقدم حيزوم، فأما ابن عمي فانكشف فناع قلبه فمات مكانه في
الحال. وأما أنا فكدت أهلك ثم تماسكت. رواه البيهقي وأبو
نعيم^(١).

والدبرة: - بسكون الموحدة - الهزيمة في القتال.
وحيزوم: اسم فرس جبريل. قاله في القاموس.

وروى أبو أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال: لقد رأيتنا
يوم بدر، وإن أهدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده
قبل أن يصل إليه السيف. رواه الحاكم وصححه والبيهقي وأبو نعيم.

[الحكمة في قتال الملائكة]

قال الشيخ تقي الدين السبكي: سئلت عن الحكمة في قتال
الملائكة / مع النبي ﷺ مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة
من جناحه.

فقلت: ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه،
وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش، رعاية لصور الأسباب
[وستنها]^(٢) التي أجزاها الله تعالى في عباده، والله فاعل الجميع انتهى.

[ولكن الله رمى]

ولما التقى الجمعان، تناول رسول الله ﷺ كفاً من الحصاء،

(١) وكذا ابن إسحاق.

(٢) في ش.

فرمى به في وجوههم وقال: شأهت الوجوه. فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه ومنخريه منها شيء فانهمزوا وقتل الله من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرفهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾^(١) قال: هذا يوم بدر، أخذ ﷺ ثلاث حصيات، فرمى بحصاة في ميمنة القوم وبحصاة في يسرة القوم، وبحصاة بين أظهرهم، وقال: شأهت الوجوه فانهمزوا.

وقد روي عن غير واحد: أن هذه الآية نزلت في رميه ﷺ يوم بدر، وإن كان فعل ذلك يوم حنين أيضاً كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقد اعتقد جماعة: أن المراد بالآية سلب فعل الرسول عنه، وإضافته إلى الرب تعالى، وجعلوا ذلك أصلاً في الجبر، وإبطال نسبة الأفعال إلى العباد، وتحقيق نسبتها إلى الرب وحده!!

وهذا غلط منهم في فهم القرآن، ولو صح ذلك لوجب طرده، فيقال: ما صليت إذ صليت، ولا صمت إذ صمت، ولا فعلت كذا إذ فعلت ولكن الله فعل ذلك، فإن طردوا ذلك لزمهم في أفعال العباد طاعتهم ومعاصيهم إذ لا فرق، وإن خصوه بالرسول وحده وأفعاله جميعها، أو برميه وحده ناقضوا. فهؤلاء لم يوفقوا لفهم ما أريد بالآية.

ومعلوم أن تلك الرمية من البشر لا تبلغ هذا المبلغ، فكان منه ﷺ مبدأ الرمي، وهو الحذف، ومن الرب تعالى نهايته وهو الإيصال،

(١) سورة الأنفال. الآية ١٧.

فأضاف إليه رمي الحذف الذي هو مبدؤه ونفى عنه رمي الإيصال الذي هو نهايته.

ونظير هذا في الآية نفسها قوله تعالى: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾ ثم قال: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ فأخبر أنه تعالى وحده هو الذي انفرد بإيصال الحصباء إلى أعينهم، ولم يكن برسوله ﷺ، ولكن وجه الإشارة بالآية أنه سبحانه أقام أسباباً تظهر للناس، فكان ما حصل من الهزيمة والقتال والنصر مضافاً إليه وبه وهو خير الناصرين.

[معجزتان]

قال ابن إسحاق: وقاتل عكاشة بن محصن الأسدي يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب فقال له قاتل به، فهزه فعاد في يده سيفاً طويلاً القامة، شديد المتن، أبيض الحديد، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين، وكان ذلك السيف يسمى العون، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قتل وهو عنده.

وجاءه عليه الصلاة والسلام يومئذ - فيما ذكره القاضي عياض عن ابن وهب^(١) - معاذ بن عمرو^(٢) يحمل يده، ضربه عكرمة عليها فتعلقت بجلدة، فبصق ﷺ عليها فلصقت. قال ابن إسحاق: ثم عاش بعد ذلك حتى كان زمن عثمان.

(١) عبد الله بن وهب الفهري - مولاهم - الحافظ الإمام الزاهد، من أجلة الناس وثقاتهم، ورجال الجميع، مات سنة سبع وتسعين ومائة.

(٢) الذي في «الشفاء»: معوذ بن عفراء.

[أمام القلب]

وعن عروة بن الزبير، عن عائشة: لما أمر ﷺ بالقتل أن يطرحوا في القلب، فطرحوا فيه، إلا ما كان من أمية بن خلف فإنه انتفخ في درعه فملأها، فألقوا عليه ما غييه من التراب والحجارة.

وإنما ألقوا في القلب ولم يدفنوا، لأنه عليه الصلاة والسلام كره أن يشق على أصحابه لكثرة جيف الكفار أن يأمرهم بدفنهم، / فكان جرهم إلى القلب أيسر عليهم^(١).

وفي الطبراني عن أنس بن مالك قال: أنشأ [عمر بن الخطاب يحدثنا عن أهل بدر فقال: إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس من بدر،]^(٢) يقول: هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله، قال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطؤوا الحدود التي حدها ﷺ، حتى انتهى إليهم فقال: يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، ويا فلان ابن فلان، هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقاً؟! فإني وجدت ما وعدني الله حقاً.

(١) جاء في (ط) وكذلك على هامش الأصل بعد هذه الفقرة ما يأتي: وفي مختصر الروضة للحجازي: وتحرم الصلاة على الكافر ولا يجب على المسلم غسله، ويجوز، وقرية الكافر أولى، ويجب علينا تكفين الذمي ودفنه، لا حربي ومرتد، بل يجوز إغراء الكلاب عليه، فإن دفن فلكلا يتأذى بريجه. اهـ.

(٢) ما بين القوسين في ش، ومكانه في النسخ: [رسول الله ﷺ يحدثنا عن أهل بدر]. قال الشارح: في أكثر النسخ ما ظاهره أن الحديث من مسند أنس والذي في الطبراني ما ذكرناه وتلك النسخ فيها سقط يدل عليه قوله: قال عمر.

وفي رواية^(١) فنأدى: يا عتبة بن ربيعة ويا شيبه بن ربيعة، ويا أمية بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام...، وفي بعضه نظر، لأن أمية ابن خلف لم يكن في القلب لأنه كان - كما تقدم - ضخماً وانتفخ فألقوا عليه من الحجارة والتراب ما غيبه. لكن يجمع بينهما بأنه كان قريباً من القلب فنودي فيمن نودي لكونه كان من جملة رؤسائهم.

وقال ابن إسحاق: حدثني بعض أهل العلم أنه ﷺ قال: يا أهل القلب، بش العشرة كنتم، كذبتوني وصدقني الناس.

فقال عمر رضي الله عنه^(٢): يا رسول الله، كيف تكلم أجساداً لا روح فيها، فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيئاً.

[رأى عائشة في سماع أهل القلب]

وتأولت عائشة ذلك فقالت: إنما أراد النبي ﷺ: إنهم الآن ليعلمون أن الذي أقول لهم حق. ثم قرأت ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتِ﴾ الآية^(٣)، فقولها يدل على أنها كانت تنكر ذلك مطلقاً، لقولها: إنهم الآن ليعلمون.

وقال قتادة: أحياهم الله تعالى توبيخاً وتصغيراً، ونقمة وحسرة. وفيه رد على من أنكر أنهم يسمعون، كما روي عن عائشة رضي الله عنها.

(١) أخرجه ابن إسحاق وأحمد ومسلم وغيرهم عن أنس.

(٢) قول عمر هذا تنمة رواية الطبراني عن أنس، وقد جاءت رواية ابن إسحاق والتي قبلها معترضة بين قسمي الحديث.

(٣) سورة النمل. الآية ٨٠.

ومن الغريب، أن في المغازي - لابن إسحاق - من رواية يونس ابن بكير، بإسناد جيد عن عائشة حديثاً وفيه: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم. وأخرجه الإمام أحمد بإسناد حسن. فإن كان محفوظاً فكأنها رجعت عن الإنكار، لما ثبت عندها من رواية هؤلاء الصحابة، لكونها لم تشهد القصة.

وقال الإسماعيلي: كان عند عائشة من الفهم والذكاء وكثرة الرواية والغوص على غوامض العلم ما لا مزيد عليه، لكن لا سبيل إلى رد رواية الثقة إلا بنص مثله، يدل على نسخه أو تخصيصه أو استحالته، فكيف والجمع بين الذي أنكرته وأثبته غيرها ممكن، لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتِ﴾ لا ينافي قوله عليه السلام: إنهم الآن ليسمعون، لأن الإسماع هو إبلاغ الصوت من المسمع في أذن السامع، فالله تعالى هو الذي أسمعهم بأن أبلغهم صوت النبي ﷺ بذلك. وأما جوابها بأنه إنما قال: إنهم ليعلمون، فإن كانت سمعت ذلك فلا ينافي رواية يسمعون بل يؤيدها.

وقال السهيلي ما محصله: إن في نفس الخبر ما يدل على خرق العادة بذلك لنبيه ﷺ لقول الصحابة له: أتخاطب أقواماً قد جيفوا؟! فأجابهم بما أجابهم. قال: وإذا جاز أن يكونوا في تلك الحالة عالمين جاز أن يكونوا سامعين، وذلك إما بأذان رؤوسهم إذا قلنا إن الروح تعاد إلى الجسد، أو إلى بعضه عند المسألة، وهو قول أكثر أهل السنة، وإما بأذان القلب أو الروح على مذهب من يقول بتوجه السؤال إلى الروح من غير رجوع إلى الجسد أو إلى بعضه.

قال: وقد روي عن عائشة أنها احتجت بقوله تعالى: ﴿وما أنت

بسمع من في القبور إن أنت إلا نذير^(١) وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي﴾^(٢) أي إن الله هو الذي يهدي ويفوق ويوصل الموعدة إلى أذان القلوب لا أنت. وجعل الكفار أمواتاً وصماً على جهة التشبيه/ بالأموات وبالصم، فالله هو الذي يسمعهم ١/٤٥ على الحقيقة إذا شاء، لا نبيه ولا أحد، فإذا لا تعلق بالآية من وجهين:

أحدهما: أنها إنما نزلت في دعاء الكفار إلى الإيمان.
الثاني: أنه إنما نفى عن نبيه أن يكون هو المسمع لهم، وصدق الله فإنه لا يسمعهم إذا شاء إلا هو، يفعل ما يشاء وهو على كل شيء قدير. انتهى ولقد أحسن العلامة ابن جابر^(٣) حيث قال:

| | |
|-------------------------------|---|
| بدا يوم بدر وهو كالبدر حوله | كواكب في أفق الكواكب تنجلي |
| وجبريل في جند الملائك دونه | فلم تغن أعداد العدو المخذل |
| رمى بالحصى في أوجه القوم رمية | فشردهم مثل النعام المجفل ^(٤) |
| وجاد لهم بالمشرفي فسلموا | فجاد له بالنفس كل مجندل |
| عبيدة سل عنهم وهمزة واستمع | حديثهم في ذلك اليوم من علي |
| فهم عتبوا بالسيف عتبه إذ غدا | فذاق الوليد الموت ليس له ولي |
| وشيبة لما شاب خوفاً تبادرت | إليه العوالي بالخضاب المعجل |

(١) سورة فاطر. الآية (٢٢).

(٢) سورة الزخرف. الآية (٤٠).

(٣) محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي الأعمى صاحب شرح الألفية. أبو عبدالله الشهير بالأعمى والبصير.

(٤) كذا في (ط، د) وفي بقية النسخ: بمجهل.

وجال أبو جهل فحقق جهله
فأضحى قلباً في القلب وقومه
وجاء لهم خير الأنام موبخاً
وأخبر ما أنتم بأسمع منهم
سلا عنهم يوم السلا إذا تضاحكوا
ألم يعلموا علم اليقين بصدقه
فيا خير خلق الله جاهك ملجئي
عليك صلاة يشمل الأل عرفها
غداة تردى بالردى عن تذلل
يؤمنونه فيها إلى شرمهل
ففتح من أسماهم كل مقفل
ولكنهم لا يهتدون لمقول
فعاد بكاء عاجلاً لم يؤجل
ولكنهم لا يرجعون لمعقل
وحبك ذخري في الحساب وموئلي
وأصحابك الأخيار أهل التفضل

[خبر وقصة]

وحكى العلامة ابن مرزوق أن ابن عمر رضي الله عنهما مر مرة
بيدر فإذا رجل يعذب ويثن، فلما اجتاز به ناداه: يا عبد الله، قال ابن
عمر، رضي الله عنهما: فلا أدري أعرف اسمي أم كما يقول الرجل لمن
يجهل اسمه يا عبد الله، فالتفت إليه، فقال: اسقني، فأردت أن
أفعل، فقال الأسود الموكل بتعذيبه: لا تفعل يا عبد الله، فإن هذا من
المشركين الذين قتلهم رسول الله ﷺ بيدر. ورواه الطبراني في
الأوسط^(١).

قال: ومن آيات بدر الباقية، ما كنت أسمعه من غير واحد من

(١) هذه الجملة في (١) و(ط) قال الشارح: ورواه ابن أبي الدنيا وابن منده
وغيرهم عن ابن عمر. وفيه: فأتيت النبي ﷺ مسرعاً فأخبرته بذلك فقال
لي قد رأيته قلت نعم قال: ذاك عدو الله أبو جهل وذاك عذابه إلى يوم
القيامة.

الحجاج أنهم إذا اجتازوا بذلك الموضع يسمعون كهيئة طبل ملوك الوقت، ويرون أن ذلك لنصر أهل الإيمان، قال: وربما أنكرت ذلك، وربما تأولته بأن الموضع لعله صلب فتستجيب فيه حوافر الدواب، فكان يقال لي: إنه دهس رمل غير صلب، وغالب ما يسير هناك الإبل وأخفافها لا تصوت في الأرض الصلبة، فكيف بالرمال؟ قال ثم لما منَّ الله علي بالوصول إلى ذلك الموضع المشرف، نزلت عن الراحلة أمشي وييدي عود طويل من شجر السعدان المسمى بأم غيلان، وقد نسيت ذلك الخبر الذي كنت أسمع، فما راعني وأنا أسير في الهاجرة إلا وواحد من عبيد الأعراب الجمالين يقول: أسمعون الطبل، فأخذتني - لما سمعت كلامه - قشعريرة بينة وتذكرت ما كنت أخبرت به، وكان في الجو بعض ريح، فسمعت صوت الطبل، وأنا دهش مما أصابني من الفرح أو الهيبة، أو ما الله / أعلم به، فشككت، وقلت: لعل الريح سكنت في هذا العود الذي في يدي وحدث مثل هذا الصوت، وأنا حريص على طلب التحقيق لهذه الآية العظيمة، فألقيت العود من يدي، وجلست على الأرض، أو وثبت قائماً، أو فعلت جميع ذلك، فسمعت صوت الطبل سماعاً محققاً، أو صوتاً لا أشك فيه أنه صوت طبل، وذلك من ناحية اليمين ونحن سائرون إلى مكة المشرفة، ثم نزلنا إلى بدر، فظللت أسمع ذلك الصوت يومي أجمع، المرة بعد المرة. قال: لقد أخبرت أن ذلك الصوت لا يسمعه جميع الناس اهـ.

[أمر الأسرى]

وروى الطبراني من حديث أبي اليسر^(١)، أنه أسر العباس، وقيل

(١) كعب بن عمرو الأنصاري السلمى، شهد العقبة وبدراً والمشاهد، ومات سنة خمس وخمسين بالمدينة.

للعباس - وكان جسيماً - كيف أسرك أبو اليسر وهو دميم، ولو شئت لجعلته في كفك، فقال: ما هو إلا أن لقيته فظهر في عيني كالخندمة - وهي بالخاء المعجمة - جبل من جبال مكة، قاله في القاموس.

ولما ولي عمر بن الخطاب وثاق الأسرى شد وثاق العباس، فسمعه النبي ﷺ وهو يئن فلم يأخذه النوم، فبلغ الأنصار، فأطلقوا العباس، فكأن الأنصار فهموا رضى رسول الله ﷺ بفك وثاقه، وسألوه أن يتركوا له الفداء طلباً لتهام رضاه فلم يجبهم.

وفي حديث أنس عند الإمام أحمد: استشار ﷺ الناس في الأسرى يوم بدر فقال: إن الله قد أمكنكم منهم، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم، فأعرض عنه عليه السلام، ثم عاد ﷺ فقال: يا أيها الناس، إن الله قد أمكنكم منهم. فقال عمر: يا رسول الله، اضرب أعناقهم، فأعرض عنه عليه السلام، فعل ذلك ثلاثاً، فقام أبو بكر فقال يا رسول الله، أرى أن تغفوا عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، فذهب من وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفا وقبل منهم الفداء. قال: وأنزل الله ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾، فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً الآية. ويأتي الكلام عليها في النوع العاشر في إزالة الشبهات من الآيات المشكلات من المقصد السادس إن شاء الله تعالى.

وأخرج ابن إسحاق من حديث ابن عباس أنه ﷺ قال: يا عباس، اهد نفسك وابني أخيك، عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، وحليفك عتبة بن عمرو. قال إني كنت مسلماً ولكن القوم استكروهوني. قال: الله تعالى أعلم بما تقول، إن يكن ما تقول حقاً

فإن الله يجزيك، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا.

وذكر موسى بن عقبة أن فداءهم كان أربعين أوقية ذهباً.

وعند أبي نعيم في الدلائل بإسناد حسن من حديث ابن عباس أنه جعل على العباس مائة أوقية وعلى عقيل ثمانين، فقال له العباس: للقرابة صنعت هذا؟ فأنزل الله تعالى ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم﴾^(١) الآية. فقال العباس: وددت لو أخذ مني أضعافها لقوله تعالى: ﴿يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾.

[شهداء المسلمين]

وكان قد استشهد يوم بدر من المسلمين أربعة عشر رجلاً: ستة من المهاجرين^(٢)، وثمانية من الأنصار، ستة من الخزرج^(٣)، واثنان من الأوس^(٤).

تنبيه: لا يقدح في وعد الله أن استشهد هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم، وإنما هذا الوعد كقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾ إلى قوله: ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾^(٥)، فقد

(١) سورة الأنفال. الآية ٧٠.

(٢) هم: عبدة بن الحارث، ومهجع مولى عمر، وعمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص، وعافل بن البكير الليثي، وصفوان بن بيضاء الفهري وذو الشمالين عمير بن عبد عمرو بن نضلة الخزاعي.

(٣) وهم: عوف بن عفراء، وشقيقه معوذ بن عفراء، وحارثة بن سراقه، ويزيد ابن الحارث ورافع بن المعل، وعمير بن الحمام.

(٤) هما: سعد بن خيثمة أحد النقباء بالعقبة، ومبشر بن عبد المنذر.

(٥) سورة التوبة. الآية ٢٩.

نجز الموعد وغلبوا كما وعدوا، فكان وعد الله مفعولاً ونصره للمؤمنين ناجزاً والحمد لله .

[قتلى المشركين وأسراهم]

وقتل من المشركين سبعون، وأسر سبعون^(١)، وكان من أفضلهم العباس بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وكل أسلم.

[إسلام العباس]

وكان العباس رضي الله عنه - فيما قاله أهل العلم بالتاريخ - قد أسلم قديماً، وكان يكتم إسلامه، وخرج مع المشركين يوم بدر فقال النبي ﷺ: من لقي العباس فلا يقتله، فإنه خرج مستكراً، ففادى نفسه ورجع إلى مكة.

وقيل إنه أسلم يوم بدر، فاستقبل النبي ﷺ يوم الفتح بالأبواء، وكان معه حين فتح مكة، وبه ختمت الهجرة. وقيل أسلم يوم فتح خيبر.

وقيل كان يكتم إسلامه وأظهره يوم فتح مكة^(٢)، وكان إسلامه قبل بدر، وكان يكتب بأخبار المشركين إلى النبي ﷺ، وكان يجب القدوم على رسول الله ﷺ، فكتب إليه عليه الصلاة والسلام: إن مقامك بمكة خير لك.

(١) في البخاري أنه ﷺ قال في أسرى بدر: (لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء التني لتركتهم له).

(٢) قوله أظهره يوم فتح مكة فيه نظر، فقد اتجه العباس مهاجراً إلى المدينة قبل فتح مكة، وهجرته إعلان عن إسلامه.

وقيل إن سبب إسلامه، أنه خرج لبدر بعشرين أوقية من ذهب ليطعم بها المشركين، فأخذت منه في الحرب، فكلم النبي ﷺ أن يحسب العشرين أوقية من فدائه، فأبى وقال: أما شيء خرجت تستعين به علينا فلا نتركه لك، فقال العباس تركتني أتكف قريشاً، فقال له ﷺ: فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة، فقال العباس: وما يدريك؟ فقال: أخبرني ربي، فقال: أشهد أنك صادق، فإن هذا لم يطلع عليه أحد إلا الله، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله.

[بشارة النصر ودفن رقية]

ولما فرغ ﷺ من بدر في آخر رمضان وأول يوم من شوال، بعث زيد بن حارثة بشيراً فوصل المدينة ضحى، وقد نفضوا أيديهم من تراب رقية بنت رسول الله ﷺ، وهذا هو الصحيح في وفاة رقية.

وقد روي أنه ﷺ شهد دفن بنته رقية، فقعد على قبرها ودمعت عيناه، وقال: أيكم لم يقارف الليلة فقال أبو طلحة أنا، فأمره أن ينزلها قبرها.

وأنكر البخاري هذه الرواية، وخرج الحديث في الصحيح فقال فيه: عن أنس: شهدنا دفن بنت رسول الله ﷺ وذكر الحديث ولم يسم رقية ولا غيرها.

وذكر الطبراني^(١) أنها أم كلثوم فحصل في حديث الطبراني التبيين. ومن قال: كانت رقية فقد وهم.

(١) في ش: الطبري. وقال: وكذا الطحاوي والواقدي وابن سعد والدولابي.

وكان عثمان قد تخلف لأجل رقية زوجته فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره.

[في الطريق إلى المدينة]

وأمر ﷺ عند انصرافه عاصم بن ثابت - وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب - بقتل عقبة بن أبي معيط، فقتله صبياً.

ثم أقبل عليه السلام قافلاً إلى المدينة ومعه الأسرى من المشركين، واحتمل النفل الذي أصيب منهم، وجعل عليه عبد الله بن كعب من بني مازن. فلما خرج من مضيق الصفراء قسم النفل بين المسلمين على السواء.

وأمر علياً بالصفراء بقتل النضر بن الحارث.

ثم مضى ﷺ حتى قدم المدينة قبل الأسرى بيوم. فلما قدموا فرقهم بين أصحابه وقال: استوصوا بهم خيراً.

[الحكم الفقهي في الأسرى]

وقد استقر الحكم في الأسرى عند الجمهور من العلماء: أن الإمام مخير فيهم، إن شاء قتل كما فعل ﷺ ببني قريظة، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر، وإن شاء استرق من أسر. هذا مذهب الشافعي وطائفة من العلماء، وفي المسألة خلاف مقرر في كتب الفقه والله أعلم.

[خبر النصر في مكة]

ولما قدم أبو سفيان بن الحارث من بدر لمكة، سأله أبو لهب عن خبر قريش. فقال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمناهم أكتافنا

يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وأيم الله - مع ذلك - ما
لمت الناس. لقينا رجالاً بيض على خيل بلق بين السماء والأرض، والله
لا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع - مولى رسول الله ﷺ وكان غلاماً للعباس بن عبد
المطلب/ قال: وكان الإسلام قد دخلنا - فقلت: والله تلك الملائكة. ب/٤٦
فرفع أبو هب يده فضر بني في وجهي ضربة، فقامت أم الفضل إلى
عمود فضربت به في رأس أبي هب وقالت: استضعفته أن غاب عنه
سيده.

قال: فوالله ما عاش إلا سبع ليال، حتى رماه الله بالعدسة،
وهي قرحة كانت العرب تتشاءم بها. وقيل إنها تعدي أشد العدوى،
فتباعه عنه بنوه حتى قتله الله، وبقي بعد موته ثلاثاً لا تقرب جنازته
ولا يحاول دفنه. فلما خافوا السبة في تركه حفروا له ثم دفعوه بعود في
حفرة، وقذفوا بالحجارة من بعيد حتى واروه.

وقال ابن عقبة: أقام النوح على قتلى قريش شهراً.

[الأحداث بين بدر وأحد]

[قتل عمير عصماء]

ثم سرية عمير بن عدي الخطمي، وكانت لخمس ليال بقين من رمضان، على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة، إلى عصماء بنت مروان^(١) - زوج يزيد بن زيد الخطمي - وكانت تعيب الإسلام، وتؤذي رسول الله ﷺ، فجاءها ليلاً، وكان أعمى، فدخل عليها بيتها، وحوّلها نفر من ولدها نيام، منهم من ترضعه، فجسها بيده، ونحى الصبي عنها، ووضع سيفه على صدرها، حتى أنقذه من ظهرها. ثم صلى الصبح معه ﷺ بالمدينة وأخبره بذلك، فقال: لا ينتطح فيها عتران، أي لا يعارض فيها معارض ولا يسأل عنها فإنها هدر^(٢).

قالوا: وهذا من الكلام المفرد الموجز البليغ، الذي لم يسبق إليه ﷺ، وسيأتي لذلك نظائر إن شاء الله تعالى.

[صلاة عيد الفطر]

وفي أول شوال صلى صلاة الفطر^(٣).

(١) امرأة يهودية.

(٢) وسبب ذلك - كما ذكر ابن سعد - أنه لما كان ﷺ في بدر قالت في الإسلام وأهله أبياتاً فسمعها عمير بن عدي، فنذر إذ ارد الله رسوله من بدر سالماً ليقتلنها.

(٣) قال الشارح: وهذا يعطي مع ما مر، أنه صلاها ببدر.

[غزوة بني سليم بالكدر]

وفي أول شوال أيضاً - وقيل بعد بدر بسبعة أيام، وقيل في نصف المحرم سنة ثلاث - خرج ﷺ يريد بني سليم. فبلغ ماء يقال له الكدر، وتعرف بغزوة قرقرة، وهي أرض ملساء.

والكدر: طير في ألوانها كدرة عرف بها ذلك الموضع.

فأقام بها عليه السلام ثلاثاً، وقيل عشراً، فلم يلتق أحداً. وكانت غيبته ﷺ خمس عشرة ليلة، واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة، وقيل ابن أم مكتوم. وحمل اللواء علي بن أبي طالب.

وذكرها ابن سعد بعد غزوة السوق.

[قتل أبي عفك اليهودي]

ثم سرية سالم بن عمير إلى أبي عفك اليهودي - وكان شيخاً كبيراً، قد بلغ عشرين ومائة سنة - وكان يحرض على النبي ﷺ، ويقول فيه الشعر، فأقبل إليه سالم ووضع سيفه على كبده ثم اعتمد عليه حتى خش في الفراش، فصاح عدو الله أبو عفك، فثار^(١) إليه أناس ممن هم على قوله، فأدخلوه منزله فقتل^(٢).

وكانت هذه السرية في شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة.

(١) في (ط، د): ثاب.

(٢) أي مات، وسببها - كما عند ابن سعد وغيره - أنه كان يهجو النبي ﷺ، فقال عليه السلام: من لي بهذا الخبيث، فقال سالم: علي نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه.

[غزوة بني قينقاع]

ثم غزوة بني قينقاع - بثلاث النون، والضم أشهر - بطن من يهود المدينة، لهم شجاعة وصبر. وكانت يوم السبت نصف شوال، على رأس عشرين شهراً من الهجرة.

وقد كانت الكفار بعد الهجرة مع النبي ﷺ على ثلاثة أقسام:

- قسم وادعهم ﷺ على أن لا يجاربه ولا يؤلبوا عليه عدوه وهم طوائف اليهود الثلاثة: قريظة والنضير وبنو قينقاع.
- وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة كقريش.
- وقسم تاركوه، وانتظروا ما يؤول إليه أمره، كطوائف من العرب. فمنهم من كان يجب ظهوره في الباطن كخزاعة. وبالعكس كبني بكر. ومنهم من كان معه ظاهراً ومع عدوه باطناً، وهم المنافقون.

وكان أول من نقض العهد من اليهود بنو قينقاع، فحاربهم ﷺ في شوال بعد وقعة بدر. قال الواقدي بشهر.

وأغرب الحاكم، فزعم أن إجلاء بني قينقاع وإجلاء بني النضير كان في زمن واحد، ولم يوافق على ذلك، لأن إجلاء بني النضير/ كان بعد بدر بستة أشهر، على قول عروة، أو بعد ذلك بمدة طويلة على قول ابن إسحاق.

وكان من أمر بني قينقاع، أن امرأة من العرب جلست إلى صائغ يهودي، فراودها على كشف وجهها، فأبت فعمد إلى طرف ثوبها

فَعَقَدَهُ إِلَى ظَهْرهَا، فَلَمَّا قَامَتْ انْكَشَفَتْ سَوَاتِمَهَا، فَضَحِكُوا مِنْهَا فَصَاحَتْ، فَوَثَبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصَّائِغِ فَقَتَلَهُ، فَشَدَّتِ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَقَتَلُوهُ، وَوَقَعَ الشَّرِّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ بَنِي قَيْنِقَاعٍ^(١).

فَسَارَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ أَنْ اسْتَخْلَفَ أَبَا لِبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَنْذَرِ.

فَحَاصَرَهُمْ أَشَدَّ الْحِصَارِ، خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً إِلَى هَلَالِ ذِي الْقَعْدَةِ، وَكَانَ اللَّوَاءُ بِيَدِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلُبِ، وَكَانَ أَبْيَضَ، فَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ، وَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، عَلَى أَنْ لَهُمْ أَمْوَالُهُمْ، وَأَنْ لَهُمُ النِّسَاءُ وَالذَّرِيَّةُ.

فَأَمَرَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ الْمَنْذَرَ بْنَ قَدَامَةَ بِتَكْتِيفِهِمْ.

وَكَلَّمَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي بِنِ سَلُولٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيهِمْ، وَأَلْحَ عَلَيْهِ مِنْ أَجْلِهِمْ. فَأَمَرَ ﷺ أَنْ يَجْلُوا، وَتَرْكَهُمْ مِنَ الْقَتْلِ، وَأَمَرَ أَنْ يَجْلُوا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَلَحَقُوا بِأَذْرَعَاتٍ. فَمَا كَانَ أَقْلَ بَقَاءِهِمْ فِيهَا. وَأَخَذَ مِنْ حَصْنِهِمْ سِلَاحًا وَآلَةً كَثِيرَةً.

وَكَانَتْ بَنُو قَيْنِقَاعٍ حُلَفَاءَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي، وَعِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،

(١) علق الأستاذ محمد رضا على هذه الحادثة بقوله: ولم يرو هذه الحادثة ابن إسحاق وكذا لم يذكرها الطبري في تاريخه ولا ابن سعد في طبقاته، وإن ذكرها ابن هشام. وليس في هذه القصة ذكر لاسم المرأة ولا اسم الصائغ.. ولا اسم القاتل المسلم.. لذلك نشك في صحة هذه القصة.. (كتاب: محمد رسول الله ص ١٨٢).

أقول: يؤيد هذا الشك: أن الحجاب لم يكن قد فرض، ولذا فالسبب هو نقضهم للعهد الذي ظهر من قولهم للرَسُولِ ﷺ.. لو قاتلناك لعرفت أنا الرجال. وذلك بعد أن جمعهم في السوق.. كما ذكر ذلك ابن إسحاق. [المحقق].

فتبراً عبادة من حلفهم، فقال: يا رسول الله، أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم. ففيه وفي عبد الله أنزل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض﴾ إلى قوله: ﴿فإن حزب الله هم الغالبون﴾^(١).

[غزوة السويق]

ثم غزوة السويق في ذي الحجة، يوم الأحد لخمس خلون منها، على رأس اثنين وعشرين شهراً من الهجرة، وقال ابن إسحاق في صفر.

وسميت: غزوة السويق، لأنه كان أكثر زاد المشركين، وغنمه المسلمون.
واستخلف أبا لبابة.

وكان سبب هذه الغزوة أن أبا سفيان حين رجع بالعرير من بدر إلى مكة نذر أن لا يمس النساء والدهن حتى يغزو محمداً - عليه السلام - فخرج في مائتي راكب من قريش ليبر يمينه، حتى أتوا العريض - ناحية من المدينة على ثلاثة أميال - فحرقوا نخلاً وقتلوا رجلاً من الأنصار. فرأى أبو سفيان أن قد انحلت يمينه، فانصرف بقومه راجعين.

وخرج ﷺ في طلبهم، في مائتين من المهاجرين والأنصار، وجعل أبو سفيان وأصحابه يلقون جرب السويق - وهي عامة أزوادهم

(١) سورة المائدة. الآية ٥٦.

- يتخفون للهرب، فيأخذها المسلمون، ولم يلحقهم عليه الصلاة والسلام، فرجع إلى المدينة. وكانت غيبته خمسة أيام.

[من أحداث السنة الثانية]

وفي ذي الحجة صلى رسول الله ﷺ صلاة العيد وأمر بالأضحية.

وفيه مات عثمان بن مظعون.
وفي شوال ولد عبد الله بن الزبير.

[زواج علي من فاطمة]

وفي هذه السنة تزوج علي فاطمة رضي الله عنهما، كما قاله الحافظ مغلطاي.

وقال الطبري^(١) في كتابه «ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى»: تزوجها في صفر في السنة الثانية، وبني بها في ذي الحجة على رأس اثنين وعشرين شهراً من التاريخ.
وقال أبو عمر بعد وقعة أحد،

وقال غيره: بعد بنائه ﷺ بعائشة رضي الله عنها بأربعة أشهر ونصف، وبني بها بعد تزويجها بسبعة أشهر ونصف.

وتزوجها وهي ابنة خمس عشرة سنة وخمسة أشهر - أو ستة ونصف - وسنه يومئذ إحدى وعشرون سنة وخمسة / أشهر. ولم يتزوج ٤٧/ب عليها حتى ماتت.

(١) أحمد بن عبد الله، الحافظ محب الدين، المكي.

وعن أنس قال: جاء أبو بكر ثم عمر يخطبان فاطمة إلى النبي ﷺ فسكت ولم يرجع إليهما شيئاً، فانطلقا إلى علي يأمرانه بطلب ذلك. قال علي: فنبهاني لأمر، فقمتم أجر ردائي حتى أتيت النبي ﷺ فقلت: تزوجني فاطمة؟ قال: وعندك شيء؟ قلت: فرسي وبديني^(١)، فقال: أما فرسك فلا بد لك منها وأما بدنك فبعها، فبعتها بأربعمائة [درهم]^(٢) وثمانين^(٣)، فجثته بها، فوضعها في حجره، فقبض منها قبضة وقال: أي بلال: اتبع لنا بها طيباً. وأمرهم أن يجهزوها، فجعل لها سرير مشرطاً^(٤)، ووسادة من آدم حشوها ليف. وقال لعلي: إذا أتتك فلا تحدث شيئاً حتى آتيك.

فجاءت أم أيمن حتى قعدت في جانب البيت وأنا في جانب، وجاء رسول الله ﷺ فقال: ها هنا أخي، قالت أم أيمن: أخوك وقد زوجته ابنتك؟ قال: نعم. ودخل ﷺ فقال لفاطمة ائتني بماء، فقامت إلى قعب في البيت فأنت فيه بماء فأخذه ومج فيه ثم قال لها: تقدمي، فتقدمت، فنضح بين ثدييها وعلى رأسها وقال: اللهم إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم. ثم قال لها أدبري فأدبرت فصب بين كتفيها. ثم فعل مثل ذلك بعلي. ثم قال ادخل بأهلك بسم الله والبركة. أخرجته أبو حاتم، وأحمد في المناقب بنحوه.

وفي حديث أنس عند أبي الخير القزويني الحاكمي: خطبها علي بعد أن خطبها أبو بكر ثم عمر فقال ﷺ: قد أمرني ربي بذلك.

(١) أي: درعي.

(٢) في ط.

(٣) وقد اشترى عثمان الدرع ثم أهداها لعلي.

(٤) أي فيه شرائط. والشريط خوص مفتول.

قال أنس: ثم دعاني عليه السلام بعد أيام فقال لي يا أنس: ادع لي أبا بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن وعدة من الأنصار، فلما اجتمعوا وأخذوا مجالسهم وكان علي غائباً فقال صلى الله عليه وسلم: الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع بسلطانه، المرهوب من عذابه وسطوته، النافذ أمره في سمائه وأرضه، الذي خلق الخلق بقدرته، وميزهم بأحكامه، وأعزهم بدينه، وأكرمهم بنبيه محمد ﷺ. إن الله تبارك اسمه وتعالى عظمته جعل المصاهرة سبباً لاحقاً، وأمراً مفترضاً، أوشج به الأرحام، وألزم به الأنام، فقال عز من قائل ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً﴾^(١) فأمر الله تعالى يجري إلى قضائه، وقضاؤه يجري إلى قدره، ولكل قضاء قدر، ولكل قدر أجل، ولكل أجل كتاب، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. ثم إن الله عز وجل أمرني أن أزوج فاطمة من علي بن أبي طالب، فاشهدوا أي قد زوجته على أربعمئة مثقال فضة إن رضي بذلك علي.

ثم دعا ﷺ بطبق من بسر ثم قال: انتهوا، فانتبهنا^(٢).

ودخل علي فتبسم النبي ﷺ في وجهه ثم قال: إن الله عز وجل أمرني أن أزوجك فاطمة على أربعمئة مثقال فضة، أرضيت بذلك؟ فقال قد رضيت بذلك يا رسول الله، فقال عليه السلام: جمع الله شملكما وأعز جدكما، وبارك عليكما، وأخرج منكما كثيراً طيباً.

قال أنس: فوالله لقد أخرج الله منها الكثير الطيب.

(١) سورة الفرقان: الآية ٥٤.

(٢) الانتهاب: هو أخذ الجماعة الشيء على غير اعتدال.

والعقد لعلي وهو غائب محمول على أنه كان له وكيل حاضر، أو على أنه لم يرد به العقد، بل إظهار ذلك، ثم عقد معه لما حضر، أو على تخصيصه بذلك، جمعا بينه وبين ما ورد، مما يدل على شرط القبول على الفور.

وأخرج الدولابي، عن أسماء قالت: لقد أولم علي على فاطمة، فما كان وليمة في ذلك الزمان أفضل من وليمته، رهن درعه عند يهودي / بشطر شعير، وكانت وليمته أصعاً من شعير وتمر وحيس. ١/٤٨
والحيس: التمر والأقط.

وأخرج أحمد في المناقب عن علي: كان جهاز فاطمة خيالة وقربة ووسادة من آدم حشوها ليف.

[قتل كعب بن الأشرف]

ثم سرية محمد بن مسلمة وأربعة معه إلى كعب بن الأشرف اليهودي، لأربع عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، على رأس خمسة وعشرين شهراً من الهجرة.

روى أبو داود والترمذي من طريق الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب^(١) بن مالك عن أبيه: أن كعب بن الأشرف كان شاعراً، وكان يهجو رسول الله ﷺ ويحرض عليه كفار قريش. وكان النبي ﷺ قدم المدينة وأهلها أخلاط، فأراد استصلاحهم، وكان اليهود والمشركون يؤذون المسلمين أشد الأذى، فأمر رسول الله ﷺ بالصبر.

فلما أبى كعب بن الأشرف أن ينزع عن أذاه، أمر رسول الله

(١) كذا في (ب، ش) وكذلك في سنن أبي داود. وفي بقية النسخ: وهب.

سعد بن معاذ أن يبعث رهطاً ليقتلوه (١).

وفي رواية قال ﷺ: من لنا بابن الأشرف (٢)؟ - وفي أخرى: «من لكعب بن الأشرف» (٣) أي من يتدب لقتله - فقد استعلن بعداوتنا وهجانا، وقد خرج إلى قريش فجمعهم إلى قتالنا. وقد أخبرني الله بذلك. ثم قرأ على المسلمين ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، أولئك الذين لعنهم الله﴾ (٤).

وفي الإكليل: فقد آذانا بشعره، وقوى المشركين.

وفي رواية ابن إسحاق: فقال محمد بن مسلمة، أخو بني عبد الأشهل: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله، قال: فافعل إن قدرت على ذلك. قال: يا رسول الله إنه لا بد لنا أن نقول، قال: قولوا ما بدا لكم فأنتم في حل من ذلك.

فاجتمع في قتله محمد بن مسلمة وأبو نائلة - بنون وبعد الألف تحتانية - سلكان بن سلامة - وكان أخوا كعب من الرضاعة - وعباد بن بشر، والحارث بن أوس بن معاذ، وأبو عبس بن جبر. وهؤلاء الخمسة من الأوس.

وفي رواية ابن سعد: فلما قتلوه وبلغوا بقيع الغرقد كبروا، وقد

(١) رواه أبو داود في كتاب الإمارة برقم (٣٠٠٠).

(٢) عند ابن عائد.

(٣) ما بين المعترضتين رواية البخاري برقم ٤٠٣٧ وشرحها من الفتح. وما بعده تنمة الرواية قبلها. رواية ابن عائد.

(٤) سورة النساء، الآية ٥١.

قام عليه السلام تلك الليلة يصلي، فلما سمع تكبيرهم كبر وعرف أن قد قتلوه، ثم انتهوا إليه فقال: أفلحت الوجوه. قالوا: أفلح وجهك يا رسول الله، ورموا برأسه بين يديه، فحمد الله على قتله.

وفي كتاب «شرف المصطفى» أن الذين قتلوا كعباً حملوا رأسه في مخلاة إلى المدينة، ف قيل إنه أول رأس حمل في الإسلام.

وأصاب ذباب السيف الحارث بن أوس فجرح ونزف الدم فتفل عليه السلام على جرحه فلم يؤذه بعد.

[غزوة غطفان]

غزوة غطفان، وهي غزوة ذي أمر - بفتح الهمزة والميم - وسماها الحاكم غزوة أثمار. وهي بناحية نجد.

وكانت لثنتي عشرة مضت من ربيع الأول على رأس خمس وعشرين شهراً من الهجرة.

وسببها: أن جمعاً من بني ثعلبة ومحارب تجمعوا يريدون الإغارة، جمعهم دعثور بن الحارث المحاربي - وسماه الخطيب: غورث، وغيره: غورك - وكان شجاعاً.

فندب ﷺ المسلمين وخرج في أربعمئة وخمسين فارساً، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان. فلما سمعوا بمهبطه ﷺ عليهم هربوا في رؤوس الجبال، فأصابوا رجلاً منهم يقال له: حبان من بني ثعلبة، فأدخل على رسول الله ﷺ فدعاه إلى الإسلام فأسلم، وضمه إلى بلال^(١).

(١) وذلك ليعلمه الشرائع.

وأصاب النبي ﷺ مطر فترع ثوبيه ونشرهما على شجرة ليجفا، واضطجع تحتها، وهم ينظرون، فقالوا/ لدعثور: قد انفرد محمد ٤٨/ب من فعليك به، فأقبل ومعه سيف حتى قام على رأسه ﷺ فقال: من يمنعك مني اليوم؟ فقال ﷺ: الله. فدفع جبريل في صدره، فوقع السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ فقال: لا أحد، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. ثم أتى قومه فدعاهم إلى الإسلام. وأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾ الآية^(١).

ويقال كان ذلك في ذات الرقاع.

ثم رجع ﷺ ولم يلق كيداً، وكانت غيبته إحدى عشرة ليلة.

[غزوة بحران]

غزوة بحران وتسمى غزوة بني سليم، من ناحية الفرع - بفتح الفاء والراء - كما قيده السهيلي، وقال في القاموس: وبحران موضع بناحية الفرع، كذا رأيت به خطه بضم الفاء لا غير.

وسببها: أنه بلغه ﷺ أن بها جمعاً كبيراً من بني سليم، فخرج في ثلاثمائة رجل من أصحابه، فوجدهم قد تفرقوا في مياههم، فرجع ولم يلق كيداً.

وكان قد استعمل على المدينة ابن أم مكتوم، كما قاله ابن هشام، وكانت غيبته عشر ليال.

(١) سورة المائدة. الآية ١١.

[سرية زيد بن حارثة إلى القردة]

سرية زيد بن حارثة إلى القردة - بالقاف المفتوحة وسكون الراء،
وقيل بالفاء وكسر الراء، كما ضبطه ابن الفرات^(١) - اسم ماء من مياه
نجد.

وسببها: - كما قال ابن إسحاق - أن قريشاً خافوا من طرقهم
التي يسلكون إلى الشام، حين كان من وقعة بدر ما كان، فسلكوا
طريق العراق، فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب، ومعهم
فضة كثيرة.

وعند ابن سعد: بعثه ﷺ لهلال جمادى الآخرة على رأس ثمانية
وعشرين شهراً من الهجرة، في مائة راكب يعترض عيراً لقريش فيها
صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى، ومعهم مال كثير وآنية
فضة. فأصابوها وقدموا بالعرير على رسول الله ﷺ، وخمسها فبلغ
الخمس قيمة عشرين ألف درهم.

وعند مغلطاي: خمسة وعشرين ألف درهم.
وذكرها ابن إسحاق قبل قتل ابن الأشرف.

(١) محمد بن العباس بن محمد بن الفرات، الحافظ البارع، أبو الحسن، سمع
ابن مخلد وطبقته وجمع فأوعى، قال الخطيب، كان غاية في ضبطه، حجة
في نقله، مات سنة أربع وثمانين وثلاثمائة.

[غزوة أحد]

[أحد]

وهو جبل مشهور بالمدينة على أقل من فرسخ منها.
وسمي بذلك لتوحده وانقطاعه عن جبال آخر هناك، ويقال له:
ذو عينين، قال في القاموس: بكسر العين ويفتحها مثني، جبل بأحد.
انتهى.

وهو الذي قال فيه ﷺ: «أحد جبل يحبنا ونحبه»^(١).
وقيل: وفيه قبر هارون، أخي موسى، عليهما السلام.

[تاريخ الغزوة]

وكانت عنده الوقعة المشهورة، في شوال سنة ثلاث بالاتفاق،
يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت منه - وقيل لسبع ليال خلون منه،
وقيل في نصفه -.

وعن مالك: بعد بدر بسنة، وعنه أيضاً: كانت على أحد
وثلاثين شهراً من الهجرة.

[سببها:]

وكان سببها، كما ذكره ابن إسحاق عن شيوخه، وموسى بن

(١) متفق عليه.

عقبة عن ابن شهاب، وأبو الأسود عن عروة، وابن سعد، قالوا - أو من قال منهم - ما حاصله:

إن قريشاً لما رجعوا من بدر إلى مكة، وقد أصيب أصحاب القليب، ورجع أبو سفيان بعيره، قال عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة ابن أبي جهل، في جماعة ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم وأبناؤهم يوم بدر: يا معشر قريش، إن محمداً قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربته - يعنون عير أبي سفيان، ومن كانت له في تلك العير تجارة - لعلنا أن ندرك به ثأرنا. فأجابوا لذلك، فباعوها وكانت ألف بعير، والمال خمسين ألف دينار.

وفيهم - كما قال ابن إسحاق وغيره - أنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أموالهم لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَسْتَنْفِقُونَهَا/ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾^(١).

١/٤٩

[خروج قريش]

واجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ. وكتب العباس بن عبد المطلب كتاباً يخبر رسول الله ﷺ بخبرهم، وسار بهم أبو سفيان حتى نزلوا ببطن الوادي من قبل أحد مقابل المدينة.

[رؤيا النبي ﷺ]

وكان رجال من المسلمين أسفوا على ما فاتهم من مشهد بدر. وأري ﷺ ليلة الجمعة رؤيا، فلما أصبح قال: إني والله قد رأيت خيراً، رأيت بقرأً تذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً، ورأيت أني

(١) سورة الأنفال. الآية ٣٦.

أدخلت يدي في درع حصينة، فأما البقر فناس من أصحابي يقتلون،
وأما الثلم الذي أريت في سيفي فهو رجل من أهل بيتي يقتل.

وقال ابن عقبة، ويقول رجال: كان الذي بسيفه ما قد أصاب
وجهه، فإن العدو أصابوا وجهه الشريف ﷺ يومئذ، وكسروا رباعيته،
وجرحوا شفته.

وفي رواية قال عليه الصلاة والسلام: وأولت الدرع الحصينة
بالمدينة فامكثوا، فإن دخل القوم الأزقة قاتلناهم، ورموا من فوق
البيوت.

[رغبة بعض الصحابة في الخروج]

فقال أولئك القوم: يا رسول الله، كنا نتمنى هذا اليوم، اخرج
بنا إلى أعدائنا لا يرون أننا جنبنا عنهم.

فصلى ﷺ بالناس الجمعة، ثم وعظهم وأمرهم بالجد
والاجتهاد، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم،
ففرح الناس بذلك.

ثم صلى بالناس العصر وقد حشدوا، وحضر أهل العوالي، ثم
دخل ﷺ بيته ومعه صاحبه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فعمماه
والبساه.

وصف الناس ينتظرون خروجه عليه السلام، فقال سعد بن
معاذ وأسيد بن حضير: استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج، فردوا
الأمر إليه، فخرج ﷺ وقد لبس لأمته - وهي بالهمزة وقد يترك تخفيفاً:
الدرع - وتقلد سيفه، فندموا جميعاً على ما صنعوا، فقالوا: ما كان لنا
أن نخالفك فاصنع ما شئت. فقال: ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن

يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه.

وفي حديث ابن عباس عند أحمد والنسائي والطبراني، وصححه الحاكم: نحو حديث ابن إسحاق، وفيه إشارة النبي ﷺ إليهم أن لا يبرحوا من المدينة، وإيثارهم الخروج لطلب الشهادة، ولبسه للأمم، وندامتهم على ذلك وقوله ﷺ: لا ينبغي لني إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل، وفيه: إني رأيت أني في درع حصينة. الحديث.

[عقد الألوية والمسير إلى أحد]

وعقد عليه السلام ثلاثة ألوية:

- لواء بيد أسيد بن حضير^(١).

- ولواء للمهاجرين بيد علي بن أبي طالب وقيل بيد مصعب بن عمير^(٢).

- ولواء للخزرج بيد الحباب بن المنذر وقيل بيد سعد بن عباد.

وفي المسلمين مائة دارع. وخرج السعدان أمامه يعدوان: سعد ابن معاذ وسعد بن عباد، دارعين.

واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وعلى الحرس تلك الليلة محمد بن مسلمة.

وأدلج عليه السلام في السحر، وكان قد رد جماعة من المسلمين

(١) وهو لواء الأوس.

(٢) كان اللواء بيد علي ثم بيد مصعب لأنه ﷺ قال: من يحمل لواء المشركين؟ فقيل طلحة بن أبي طلحة، فقال: نحن أحق بالفداء منهم فأخذه من علي ودفعه إلى مصعب لأنه من بني عبد الدار.

لصغرهم، منهم: أسامة، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري. والنعمان بن بشير. قال مغلطاي: وفيه نظر^(١).

وكان المسلمون ألف رجل، ويقال: تسعمائة، والمشركون ثلاثة آلاف رجل فيهم سبعمائة دارع ومائتا فرس، وثلاثة آلاف بعير وخمس عشرة امرأة.

ونزل عليه السلام بأحد ورجع عنه عبد الله بن أبي في ثلاثمائة ممن تبعه من قومه من أهل النفاق. ويقال: إن النبي ﷺ أمرهم بالانصراف لكفرهم بمكان يقال له الشوط، / وقيل بأحد.

ب/٤٩

[وصف المعسكرين]

ثم صف المسلمون بأصل أحد، وصف المشركون بالسبخة.

قال ابن عقبة: وكان على ميمنة خيل المشركين خالد بن الوليد، وعلى مسيرتها عكرمة بن أبي جهل.

وجعل ﷺ على الرماة - وهم خمسون رجلاً - عبد الله بن جبير، وقال: إن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمتنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم. كذا في البخاري من حديث البراء.

وفي حديث ابن عباس عند أحمد والطبراني والحاكم: أنه ﷺ أقامه في موضع ثم قال: احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا.

(١) أي النعمان بن بشير لأنه ولد في السنة الثانية قبل أحد بسنة.

[أبو دجانة]

قال ابن إسحاق: وقال رسول الله ﷺ: من يأخذ هذا السيف بحقه، فقام إليه رجال، فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو دجانة سواك، فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به في وجه العدو حتى ينحني، قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إياه، وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب، فلما رآه ﷺ يتبختر قال: إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن.

قال الزبير بن العوام^(١) - فيما قاله ابن هشام^(٢) - فقلت والله لأنظرن ما يصنع أبو دجانة. فاتبعته فأخذ عصاية له حمراء فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج عصاية الموت فخرج وهو يقول: أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل ألا أقوم الدهر في الكيول أضرب بسيف الله والرسول فجعل لا يلقي أحداً من المشركين إلى قتله.

وقوله: في الكيول - بفتح الكاف وتشديد المثناة التحتية - مؤخر الصفوف. وهو: فيقول من كال الزند يكيل كيلاً إذا كبا ولم يخرج ناراً، فشبه مؤخر الصفوف به لأن من كان فيه لا يقاتل. قال أبو عبيدة^(٣): ولم يسمع إلا في هذا الحديث.

(١) طلب الزبير هذا السيف ثلاث مرات فأمسكه ﷺ عنه.. كما عند ابن راهويه، ولذلك أحب أن يعرف صنع أبي دجانة.

(٢) عبد الملك بن هشام الحميري، وأصله من البصرة، العلامة في النسب والنحو، المشهور بحمل العلم، مهذب سيرة ابن إسحاق التي رواها عن زياد البكائي عنه. المتوفى بمصر سنة ثلاث عشرة ومائتين.

(٣) في (أ، د): أبو عبيد وهو خطأ.

[انتصار المسلمين]

وقاتل حمزة بن عبد المطلب حتى قتل أرطأة بن شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف.

والتقى حنظلة الغسيل وأبو سفیان فضربه شداد بن أوس فقتله فقال ﷺ: إن حنظلة لتغسله الملائكة، فسألوا امرأته جميلة أخت عبدالله ابن أبي فقالت: خرج وهو جنب فقال عليه السلام: لذلك غسلته الملائكة.

وبذلك تمسك من قال من العلماء: إن الشهيد يغسل إذا كان جنباً.

وقتل علي طلحة بن أبي طلحة صاحب لواء المشركين، ثم حمل لواءهم عثمان بن أبي طلحة، فحمل عليه حمزة فقطع يده وكتفه..

ثم أنزل الله نصره على المسلمين فحسوا الكفار بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر وكانت الهزيمة، فولى الكفار لا يلوون على شيء، ونساؤهم يدعون بالويل، وتبعهم المسلمون حتى أجهضوهم. ووقعوا ينهبون العسكر ويأخذون ما فيه من الغنائم.

[نزول الرماة وتغير الموقف].

وفي البخاري: قال البراء: فقال أصحاب عبد الله بن جبير: أي قوم، الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون، فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنائين الناس فلنصيب

= وأبو عبيدة هو: معمر بن المثنى، ولد سنة اثنتي عشرة ومائة، ومات سنة تسع ومائتين.

من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين.

وفي حديث عائشة عند البخاري أيضاً: لما كان يوم أحد هزم المشركون هزيمة بينة، فصاح إبليس: أي عباد الله أخراكم، فرجعت أولاهم فاجتلدت مع أخراهم.

وعند أحمد والحاكم من حديث ابن عباس: أنهم لما رجعوا ١/٥٠ اختلطوا بالمشركين والتبس العسكران فلم يتميزوا، فوقع القتل/ في المسلمين بعضهم في بعض.

وفي رواية غيرهما^(١): ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله فكر بالخیل، وتبعه عكرمة بن أبي جهل فحملوا على من بقي من النفر الرماة فقتلوهم وأميرهم عبد الله بن جبير.

وفي البخاري: أنهم لما اصطفوا للقتال، خرج سباع فقال: هل من مبارز، فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فشد عليه فكان كأسس الدابر، وكان وحشي كامناً تحت صخرة، فلما دنا منه رماه بحرته حتى خرجت من بين وركيه فكان آخر العهد به. انتهى.

وكان مصعب بن عمير قاتل دون رسول الله ﷺ حتى قتل، وكان الذي قتله ابن قمئة، وهو يظنه رسول الله ﷺ فصاح ابن قمئة إن محمداً قتل. ويقال كان ذلك أذب العقبة، ويقال: بل هو إبليس لعنه الله تصور في صورة جعال.

وقال قائل: أي عباد الله أخراكم، أي: احترزوا من جهة أخراكم فعطف المسلمون يقتل بعضهم بعضاً وهم لا يشعرون،

(١) أي رواية ابن سعد.

وانهزمت طائفة منهم جهة المدينة، وتفرق سائرهم، ووقع فيهم القتل.

قال موسى بن عقبة: ولما فقد عليه السلام، قال رجل منهم: إن رسول الله ﷺ قد قتل، فارجعوا إلى قومكم ليؤمنوكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم، فإنهم داخلو البيوت. وقال رجال منهم: إن كان رسول الله ﷺ قتل أفلا تقاتلون على دينكم وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله عز وجل شهداء. منهم أنس بن مالك بن النضر شهد له بها عند رسول الله ﷺ سعد بن معاذ.

قال في «عيون الأثر»: كذا وقع في هذا الخبر: أنس بن مالك، وإنما هو أنس بن النضر عم أنس بن مالك بن النضر. انتهى^(١).

وثبت رسول الله ﷺ حتى انكشفوا عنه، وثبت معه من أصحابه أربعة عشر رجلاً، سبعة من المهاجرين، فيهم أبو بكر الصديق، وسبعة من الأنصار.

وفي البخاري: لم يبق معه عليه الصلاة والسلام إلا اثنا عشر رجلاً. فأصابوا منا سبعين، وكان ﷺ وأصحابه أصاب من المشركين يوم بدر أربعين ومائة، سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً.

[جراح النبي ﷺ]

فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد، ثلاث مرات، فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة ثلاث مرات، ثم

(١) كان عمر أنس بن مالك يوم أحد ثلاث عشرة سنة، وإن صح أنه حضر وإنما حضر لخدمة النبي ﷺ. فالكلمة من قول أنس بن النضر رضي الله عنهم جميعاً.

قال: أفى القوم ابن الخطاب ثلاث مرات، ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، فما ملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلهم، وبقي لك ما يسوؤك، قال: يوم بيوم، والحرب سجال^(١).

وتوجه ﷺ يلتمس أصحابه، فاستقبله المشركون فرموا وجهه فأدموه وكسروا رباعيته، والذي جرح وجهه عبد الله بن قمثة، وعتبة ابن أبي وقاص أخو سعد هو الذي كسر رباعيته، ومن ثم لم يولد من نسله ولد يبلغ الحنث إلا وهو أبخر أو أهثم - أي مكسور الثنايا من أصلها - يعرف ذلك في عقبه^(٢).

وقال ابن هشام؛ في حديث أبي سعيد الخدري: إن عتبة بن أبي وقاص رمى رسول الله ﷺ يومئذ فكسر رباعيته اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى، وأن عبد الله بن هشام الزهري شجه في جبهته، وأن ابن قمثة جرح وجنته فدخلت خلقتان من المغفر في وجنته، ووقع ﷺ ب/٥٠ في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق/ يكيدها بالمسلمين.

وفي رواية: وهشموا البيضة على رأسه - أي كسروا الخوذة - ورموه بالحجارة حتى سقط لشقه في حفرة من الحفر التي حفرها أبو عامر، فأخذ علي بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً، ونشبت حلقتان من المغفر في وجهه، فانترعهما أبو عبيدة بن

(١) قال الحافظ ابن حجر: في الحديث منزلة أبي بكر وعمر من النبي ﷺ وخصوصيتهما به، بحيث كان أعداؤهم لا يعرفون غيرهما، إذ لم يسأل أبو سفيان عن غيرهما، ولم يسأل عن هؤلاء الثلاثة إلا لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم.

(٢) ذكره السهيلي في الروض.

الجراح وعض عليها حتى سقطت ثنيتاه من شدة غوصهما في وجهه .

وامتص مالك بن سنان - والد أبي سعيد الخدري - الدم من وجنته ثم ازدرده، فقال له ﷺ: من مس دمي دمه لم تصبه النار، وسيأتي إن شاء الله تعالى حكم دمه عليه السلام .

وفي الطبراني من حديث أبي أمامة قال: رمى عبد الله بن قمئة رسول الله ﷺ يوم أحد فشج وجهه وكسر رباعيته فقال: خذها وأنا ابن قمية، فقال رسول الله ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه: أقمأك الله، فسلط الله عليه تيس جبل^(١) فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة .

وروى ابن إسحاق عن حميد الطويل^(٢) عن أنس قال: كسرت رباعيته ﷺ يوم أحد وشج وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسحه ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾^(٣) . ورواه أحمد والترمذي والنسائي من طريق حميد به .

وعند ابن عائد^(٤) من طريق الأوزاعي^(٥): بلغنا أنه لما جرح

(١) تيس جبل: هو ذكر الطباء، فإن لم يصف للجبل فذكر المعز .

(٢) حميد الطويل الخزاعي، ثقة تابعي صغير حافظ توفي وهو قائم يصلي سنة أربعين ومائة وله خمس وسبعون سنة .

(٣) سورة آل عمران . الآية ١٢٨ .

(٤) محمد بن عائد، الحافظ الدمشقي، الكاتب صاحب المغازي وغيرها، وثقه ابن معين وغيره، مات سنة ثلاث وثلاثين ومائتين .

(٥) عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، إمام أهل زمانه، قال ابن سعد: ثقة =

ﷺ يوم أحد، أخذ شيئاً فجعل ينشف دمه وقال: لو وقع منه شيء على الأرض لنزل عليهم العذاب من السماء، ثم قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

وروى عبد الرزاق عن معمر^(١) عن الزهري قال: ضرب وجه النبي ﷺ يومئذ بالسيف سبعين ضربة، ووقاه الله شرها كلها. قال في فتح الباري: وهذا مرسل قوي، ويحتمل أن يكون أراد بالسبعين حقيقتها أو المبالغة. انتهى.

[قتال دون النبي ﷺ]

وقاتلت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية يوم أحد - فيما قاله ابن هشام - فخرجت أول النهار حتى انتهت إلى رسول الله قالت: فقمتم أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراحة إلي، أصابني ابن قمئة - أقماه الله تعالى - لما ولي الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دلوني على محمد فلا نجوت إن نجا، قالت فاعترضت له، فضربني هذه الضربة، ولكن ضربته ضربات^(٢) على ذلك، ولكن عدو الله عليه درعان.

قالت أم سعد بن الربيع: فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور.

= صدوق فاضل كثير الحديث والعلم والفقه، ولد سنة ثمان وثمانين ومات سنة سبع وخمسين ومائة.

(١) معمر بن راشد الأزدي، الحافظ المتقن الورع، توفي سنة اثنتين وخمسين ومائة.

(٢) في ش: ثلاث ضربات. قال الشارح ثبت لفظ ثلاث عند ابن هشام وسقط من أكثر نسخ المصنف.

وتترس^(١) دون رسول الله ﷺ - فيما قاله ابن إسحاق - أبو دجانة بنفسه، يقع النبل في ظهره وهو منحني عليه حتى كثر عليه النبل وهو لا يتحرك.

ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله ﷺ. قال سعد: فلقد رأيته يناولني النبل ويقول: ارم فداك أبي وأمي، حتى إنه لناولني السهم ماله نصل فيقول: ارم به.

[معجزات]

وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته، فأتى بها إلى رسول الله ﷺ فأخذها رسول الله بيده وردها إلى موضعها وقال: اللهم اكسه جمالاً، فكانت أحسن عينيه وأحدهما نظراً. ورواه الدارقطني بنحوه، ويأتي لفظه إن شاء الله تعالى في مقصد المعجزات.

ورمي أبو رهم كلثوم بن الحصين بسهم فوقع / في نحره فبصق ١/٥١ عليه ﷺ فبرىء.

وانقطع سيف عبد الله بن جحش، فأعطاه ﷺ عرجوناً فعاد في يده سيفاً، فقاتل به وكان ذلك السيف يسمى العرجون، ولم يزل يتوارث حتى بيع من بغا التركي من أمراء المعتصم بالله في بغداد بمائتي دينار.

وهذا نحو حديث عكاشة السابق في غزوة بدر إلا أن سيف عكاشة كان يسمى العون، وهذا يسمى العرجون.

(١) أي جعل نفسه كالترس المانع من وصول السهام إليه.

[الصعود إلى الشعب وقتل أبي]

واشتغل المشركون بقتلى المسلمين يمثلون بهم، يقطعون الأذان والأنوف والفروج ويبقرون البطون وهم يظنون أنهم أصابوا رسول الله ﷺ وأشرف أصحابه.

وكان أول من عرف رسول الله ﷺ كعب بن مالك، قال عرفت عينيه تزهيران من تحت المغفر، فناديت بأعلى صوتي: يا معشر المسلمين، هذا رسول الله ﷺ، فلما عرفوه نهضوا ونهض معهم نحو الشعب، معه أبو بكر وعمر وعلي ورهط من المسلمين، فلما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول: أين محمد، لا نجوت إن نجا، فقالوا: يا رسول الله، يعطف عليه رجل منا؟ فقال ﷺ: دعوه، فلما دنا تناول ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، فلما أخذها منه عليه السلام انتفض بها انتفاضة تطايرنا^(١) عنه تطاير الشعراء^(٢) عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله عليه الصلاة والسلام، فطعنه طعنة وقع بها عن فرسه ولم يخرج له دم فكسر ضلعاً من أضلاعه.

فلما رجع إلى قريش قال: قتلني والله محمد، أليس قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق علي لقتلني. فمات عدو الله بسرف وهم قافلون به إلى مكة. رواه البيهقي وأبو نعيم ولم يذكر: فكسر ضلعاً من أضلاعه.

قال الواقدي: وكان ابن عمر يقول: مات أبي بن خلف ببطن

(١) في (أ. ب): تطايروا. والمقصود أنهم بعدوا.

(٢) ذباب صغير له لدغ.

رايغ، فإني لأسير ببطن رايغ بعد هوي من الليل إذا نار تأجج لي لهبها فهبتها، وإذا رجل يخرج منها في سلسلة يجتذها يصيح العطش، وإذا رجل يقول: لا تسقه، فإن هذا قتيل رسول الله ﷺ، هذا أبي بن خلف، ورواه البيهقي.

[بعد المعركة]

ولما انتهى ﷺ إلى فم الشعب ملأ علي بن أبي طالب درقته من المهراس - وهو صخرة منقورة تسع كثيراً من الماء، وقيل هو اسم ماء بأحد - فجاء به إلى رسول الله ﷺ وغسل عن وجهه الدم، وصب على رأسه وهو يقول: اشتد غضب الله على من رمى وجه نبيه.

وصلى النبي ﷺ الظهر يومئذ قاعداً من الجراح التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعوداً.

قال ابن إسحاق: ووقعت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي معها يمثن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ يجدن الأذان والأنف، وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها.

ولما أراد أبو سفيان الانصراف أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته: أنعمت فعال، إن الحرب سجال، يوم بيوم بدر، اعل هبل.

وكان أبو سفيان حين أراد الخروج إلى أحد، كتب على سهم نعم، وعلى آخر: لا، وأجالها عند هبل، فخرج سهم نعم، فخرج إلى أحد، فلما قال: اعل هبل، أي زد علواً.

فقال رسول الله ﷺ لعمر أجبه فقل: الله أعلا وأجل.

فقال أبو سفيان: أنعمت فعال، أي اترك ذكرها فقد صدقت في فتواها وأنعمت، أي أجابت بنعم.

فقال عمر: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكُم في النار.
فقال: إن لنا عزي/ ولا عزي لكم.
فقال ﷺ قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم.

ب/٥١

ولما انصرف أبو سفيان وأصحابه نادى: إن موعدكم بدر العام القابل، فقال ﷺ لرجل من أصحابه: قل نعم، هو بيننا وبينكم موعد.

وذكر الطبراني: أنه لما انصرف المشركون، خرج النساء إلى الصحابة يعنهم فكانت فاطمة فيمن خرج، فلما لقيت النبي ﷺ اعتنقته وجعلت تغسل جراحاته بالماء فيزداد الدم، فلما رأت ذلك أخذت شيئاً من حصير أحرقته بالنار وكمدته به حتى لصق بالجرح فاستمسك الدم.

ثم أرسل عليه الصلاة والسلام محمد بن مسلمة - كما ذكره الواقدي - فنأدى في القتلى: يا سعد بن الربيع، مرة بعد أخرى، فلم يجبه، حتى قال إن رسول الله ﷺ أرسلني إليك، فأجابه بصوت ضعيف، فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق فقال: أبلغ رسول الله ﷺ عني السلام، وقل له: يقول لك، جزاك الله عنا خير ما جزى به نبياً عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم: لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى نبيكم وفيكم عن تطرف، ثم مات.

[نزول ﴿وإن عاقبتم﴾]

وقتل أبو جابر، فما عرف إلا بينانه - أي أصابعه، وقيل

أطرافها، واحدها. بنانه.

وخرج ﷺ يلتمس حمزة، فوجده ببطن الوادي، قد بقر بطنه عن كبده، ومثل به فجذع أنفه وأذناه، فنظر عليه السلام إلى شيء لم ينظر إلى شيء أوجع لقلبه منه فقال: رحمة الله عليك، لقد كنت فعولاً للخير، وصولاً للرحم، أما والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك، قال: فنزلت عليه خواتيم سورة النحل ﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾^(١) الآية، فصبر وكفر عن يمينه وأمسك عما أراد.

وعن مثل به كما مثل بحمزة عبد الله بن جحش، ابن أخت حمزة، ولذا يعرف بالمجدع في الله، وكان حين قتل ابن بضع وأربعين سنة، ودفن مع حمزة في قبر واحد.

[نزول ﴿ولا تحسبن﴾]

ولما أشرف ﷺ على القتلى قال أنا شهيد على هؤلاء، وما من جريح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القامة يدمى جرحه، اللون لون دم والريح ريح المسك.

وفي رواية عبد الله بن ثعلبة^(٢) قال ﷺ لقتلى أحد: زملوهم بجراحهم.

وروى أبو بكر بن مردويه^(٣) أن رسول الله ﷺ قال: يا جابر ألا أخبرك: ما كلم الله تعالى أحداً قط إلا من وراء حجاب، وإنه كلم

(١) سورة النحل. الآية ١٢٦.

(٢) في ط: ابن شيبه وهو غلط.

(٣) وكذا الترمذي وحسنه وابن ماجه، كلهم عن جابر.

أباك كفاحاً، فقال سلني أعطك، فقال أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية، فقال الرب عز وجل: إنه سبق مني أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قال: أي رب فأبلغ من ورائي، فأنزل الله ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾^(١) الآية.

وعن ابن عباس قال رسول الله ﷺ: لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، قال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله عز وجل هذه الآيات: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا﴾ رواه أحمد^(٢).

قال بعض من تكلم على هذا الحديث^(٣): قوله: ثم تأوي إلى قناديل، يصدقه قوله تعالى: ﴿والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾^(٤) وإنما تأوي إلى تلك القناديل ليلاً وتسرح نهاراً، وبعد دخول الجنة في الآخرة لا تأوي إلى تلك القناديل، وإنما ذلك في البرزخ.

وقال مجاهد: الشهداء يأكلون من ثمر الجنة وليسوا فيها.

وقد رد هذا القول، ويشهد له ما وقع في مسند ابن أبي شيبة

(١) آل عمران. الآية ١٦٩.

(٢) المسند ٢٦٦/١ وكذا عند أبي داود برقم ٢٥٢٠، قال الشارح وأخرجه مسلم عن مسروق.

(٣) هو الإمام السهيلي في الروض.

(٤) سورة الحديد الآية ١٩.

وغيره^(١): أن رسول الله ﷺ قال: الشهداء بنهر أو على نهر يقال له بارق عند باب الجنة، في قباب خضر يأتيهم رزقهم منها بكرة وعشياً.

قال الحافظ عماد الدين بن كثير: كأن الشهداء أقسام، منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر فيجتمعون هنالك، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح.

قال: وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه بشرى لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة أيضاً وتسرح فيها وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة.

قال: وهو إسناد صحيح عزيز عظيم اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة، أصحاب المذاهب المتبعة، فإن الإمام أحمد رواه عن الشافعي عن مالك بن أنس عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه يرفعه: نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه^(٢).

وقوله يعلق، أي يأكل، وفي هذا الحديث أن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة، وأما أرواح الشهداء ففي حواصل طير خضر، فهي كالراكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين، فإنها تطير بأنفسها. فنسأل الله الكريم المنان أن يمتتنا على الإيمان.

[عدد الشهداء والقتلى]

وقد استشهد يوم أحد من المسلمين سبعون - فيما قاله مغلطاي.

(١) كالإمام أحمد والطبراني والحاكم كلهم عن ابن عباس.

(٢) المسند ٤٥٥/٣.

وغيره - وقيل خمسة وستون أربعة من المهاجرين .

وروى ابن منده من حديث أبي بن كعب قال: استشهد من الأنصار يوم أحد أربعة وستون ومن المهاجرين ستة وصححه ابن حبان من هذا الوجه .
وقتل من المشركين ثلاثة وعشرون رجلاً، وقتل ﷺ بيده أبي بن خلف .

[حضور الملائكة]

وحضرت الملائكة يومئذ، ففي حديث سعد بن أبي وقاص عند مسلم في صحيحه: أنه رأى عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض ما رأيتها قبل ولا بعد، يعني جبريل وميكائيل يقاتلان كأشد القتال^(١) .

وفيه - كما قدمناه في غزوة بدر - أن قتال الملائكة معه ﷺ لا يختص بيوم بدر، خلافاً لمن زعمه، كما نص عليه النووي في شرح مسلم كما قدمته والله أعلم .

[المنافقون واليهود]

ولما بكى المسلمون على قتلاهم سر بذلك المنافقون وظهر غش اليهود .

[تنبيه]

ذكر القاضي عياض في الشفاء عن القاضي أبي عبد الله بن

(١) صحيح مسلم رقم ٤٧ من كتاب الفضائل .

المرابط^(١) من المالكية أنه قال: من قال إن النبي ﷺ هزم يستتاب فإن تاب وإلا قتل، لأنه تنقصر، إذ لا يجوز ذلك عليه في خاصته، إذ هو على بصيرة من أمره ويقين من عصمته^(٢). انتهى.

وهذا موافق لمذهبنا^(٣). لكن قال العلامة البساطي^(٤) من المالكية: هذا القائل إن كان يخالف في أصل المسألة، أعني حكم الساب، فله وجه، وإن وافق على أن الساب لا تقبل توبته فمشكل انتهى.

[الحكمة من أحد]

وقد كان في قصة أحد، وما أصيب به المسلمون من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة:

منها: تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية وشؤم ارتكاب النهي، لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ أن لا يبرحوا منه.

ومنها: أن عادة/ الرسل أن تبلى ثم تكون لهم العافية، ٥٢/ب

(١) محمد بن خلف بن سعيد، المعروف بابن المرابط الإفريقي، فقيه بلده ومفتيه وقاضيه كان من أهل الفضل والفقہ، شرح البخاري شرحاً حسناً ورحل إليه الناس، توفي بعد الثمانين وأربعمائة.

(٢) قال الشارح: وهو ضعيف وإن مشى عليه صاحب المختصر لأنه خلاف قول مالك..

(٣) أي الشافعية.

(٤) شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان، شيخ الإسلام قاضي القضاة المالكية بمصر. ولد سنة ستين وسبعمائة، وبرز في الفنون، وصنف تصانيف، مات سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة.

والحكمة في ذلك أن لو انتصروا دائماً لدخل في المسلمين من ليس منهم ولم يتميز الصادق من غيره ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين ليميز الصادق من الكاذب. وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفياً عن المسلمين فلما جرت هذه القصة وأظهر أهل النفاق ما أظهوره من الفعل والقول حتى عاد التلويح تصریحاً، وعرف المسلمون أن لهم عدواً في دارهم، واستعدوا لهم وتحرزوا منهم.

ومنها: أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضماً للنفس وكسراً لشماختها فلما ابتلى المسلمون صبروا وجزع المنافقون.

ومنها: أن الله تعالى هياً لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها.

ومنها: أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقهم إليها.

ومنها: أنه أراد هلاك أعدائه فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في إيذاء أوليائه، فمحص ذنوب المؤمنين ومحق بذلك الكافرين.

[بعد أحد]

غزوة حمراء الأسد

وهي على ثمانية أميال من المدينة على يسار الطريق إذا أردت ذا الحليفة .

وكانت صبيحة يوم الأحد لست عشرة، أو لثمان خلون من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة لطلب عدوهم بالأمس، ونادى مؤذن رسول الله ﷺ أن لا يخرج معنا أحد إلا من حضر يوماً بالأمس، أي من شهد أحداً.

وإنما خرج عليه الصلاة والسلام مرهباً للعدو، وليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم .

وأقام ﷺ بها الإثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة يوم الجمعة وقد غاب خمساً.

وظفر ﷺ في مخرجه ذلك بمعاوية بن المغيرة بن أبي العاص فأمر بضرب عنقه صبراً.

[تحريم الخمر]

قال الحافظ مغلطاي: وحرمت الخمر في شوال، ويقال في سنة

أربع . انتهى .

قال أبو هريرة فيما رواه أحمد: حرمت الخمر ثلاث مرات: قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر، ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنها فأنزل الله ﴿يسألونك عن الخمر والميسر. قل فيها إثم كبير ومنافع للناس﴾^(١) إلى آخر الآية. فقال الناس: ما حرم علينا، إنما قال: فيهما إثم كبير.

وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوماً من الأيام صلى رجل من المهاجرين أم أصحابه في المغرب خلط في قراءته، فأنزل الله آية أغلظ منها ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾^(٢).

وكان الناس يشربون ثم نزلت آية أغلظ منها ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾ إلى قوله: ﴿لعلكم تفلحون﴾^(٣) قال^(٤): انتهينا ربنا^(٥). والميسر: القمار وقيل غيره.

* * *

وولد الحسن بن علي في هذه السنة.

[سرية أبي سلمة]

ثم سرية عبد الله بن عبد الأسد، هلال المحرم على رأس خمس

(١) سورة البقرة الآية ٢١٩.

(٢) سورة النساء. الآية ٤٣.

(٣) سورة المائدة. الآية ٩٠.

(٤) في المسند: قالوا.

(٥) المسند ٣٥١/٢.

وثلاثين شهراً من الهجرة، إلى قطن - جبل بناحية فيد - ومعه مائة وخمسون رجلاً من الأنصار والمهاجرين، لطلب طليحة وسلمة ابني خويلد، فلم يجدهما، ووجد إبلاً وشاء فأغار عليهما ولم يلق كيداً.

[سرية عبد الله بن أنيس]

ثم سرية عبد الله بن أنيس وحده، يوم الإثنين لخمس خلون من المحرم، على رأس خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة، إلى سفیان بن خالد الهذلي بعرنة - وادي عرفة - لأنه / بلغه ﷺ أنه جمع الجموع ١/٥٣ لحره.

فلما وصل إليه قال له ممن الرجل؟ قال: من بني خزاعة، سمعت بجمعك لمحمد فجتتك لأكون معك، قال: أجل. فمشى معه ساعة، ثم اغتره وقتله، وأخذ رأسه، فكان يسير الليل ويتوارى النهار، حتى قدم المدينة، فقال ﷺ: أفلح الوجه، قال: أفلح وجهك يا رسول الله، ووضع رأسه بين يديه.

وكانت غيبته ثمان عشرة ليلة، وقدم يوم السبت لسبع بقين من محرم.

[يوم الرجيع]

ثم سرية عاصم بن ثابت، في صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من الهجرة إلى الرجيع - بفتح الراء وكسر الجيم، اسم ماء هذيل بين مكة وعسفان - بناحية الحجاز، وكانت الوقعة بالقرب منه فسميت به.

وحديث^(١) عضل والقارة - بفتح الضاد المعجمة بعدها لام - بطن من بني الهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، ينسبون إلى عضل بن الديش. وأما القارة، فبالقاف وتخفيف الراء، بطن من الهون ينسبون إلى الديش المذكور، قال ابن دريد: القارة: أكمة سوداء فيها حجارة، كأنهم نزلوا عندها فسموا بها.

[التفريق بين الرجيع وبثر معونة]

وقصة عضل والقارة كانت في بعث الرجيع، لا في سرية بثر معونة، وقد فصل بينهما ابن إسحاق، فذكر بعث الرجيع في أواخر سنة ثلاث، وبثر معونة أوائل سنة أربع.

وذكر الواقدي أن خبر بثر معونة وخبر أصحاب الرجيع جاء إلى النبي ﷺ في ليلة واحدة.

(١) كلمة (حديث) معطوفة على (سرية) في بدء الموضوع.

وسياق ترجمة البخاري يوهم أن بعث الرجيع وبثر معونة شيء واحد، وليس كذلك، لأن بعث الرجيع كان سرية عاصم وخبيب وأصحابهما، وهي مع عضل والقارة. وبثر معونة كانت سرية القراء، وهي مع رعل وذكوان، وكأن البخاري أدمجها معها لقربها منها.

ويدل على قربها منها ما في حديث أنس من تشريك النبي ﷺ بين بني لحيان وبين عصابة وغيرهم في الدعاء.

ولم يرد البخاري - رحمه الله - أنها قصة واحدة، ولم يقع ذكر عضل والقارة عنده صريحاً.

[روايات حادثة الرجيع]

وإنما وقع ذلك عند ابن إسحاق. فإنه بعد أن استوفى قصة أحد قال: ذكر يوم الرجيع: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد رهط من عضل والقارة فقالوا: يا رسول الله، إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا، فبعث معهم ستة من أصحابه وأمر ﷺ على القوم مرثد بن أبي مرثد الغنوي. كذا في السيرة له - وفي الصحيح: وأمر عليهم عاصم بن ثابت، كما سيأتي، وهو أصح - فخرجوا مع القوم حتى أتوا على الرجيع - ماء هذيل - غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلًا فلم يرع القوم، وهم في رحالهم، إلا الرجال بأيديهم السيوف، وقد غشوه، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا لهم: إنا والله لا نريد قتلكم، ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم، فأبوا، فأما مرثد وخالد وعاصم، فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً وقاتلوا حتى قتلوا.

وفي البخاري: وأمر عليهم عاصم بن ثابت، حتى إذا كانوا بالهدأة - بين عسفان ومكة - ذكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فنفروا لهم في مائتي رجل. وعند بعضهم^(١) فتبعوهم بقريب من مائة رام.

والجمع بينهما واضح، بأن تكون المائة الأخرى غير رماة.

وفي رواية أبي معشر في مغازيه: فنزلوا بالرجيع / سحراً، فأكلوا تمر عجوة، فسقط نواه بالأرض، وكانوا يسيرون الليل ويكمنون بالنهار، فجاءت امرأة من هذيل ترعى غنماً، فرأت النوءات وأنكرت صغرهن، وقالت هذا تمر يثرب فصاحت في قومها قد أتيتم، فجاءوا في طلبهم، فوجدوهم قد كمنوا في الجبل، وتبعوا آثارهم حتى لحقوهم.

ب/٥٣

وفي رواية ابن سعد: [فلم يرع القوم إلا الرجال بأيدهم السيوف قد غشوهم]^(٢).

فلما أحس بهم عاصم وأصحابه^(٣) لجؤوا إلى فدغد - بفاءين مفتوحتين، ومهملتين، الأولى ساكنة - وهي الرايبة المشرفة، فأحاط بهم القوم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم بن ثابت أيها القوم: أما أنا فلا أنزل في ذمة

(١) أي الرواة وهو معمر عن الزهري في صحيح البخاري.

(٢) هذه الزيادة في ش. قال الشارح: أعاده وإن مر عن ابن إسحاق، لأن ذلك مرسل وهذا مسند، ويقع سقوطه في نسخ وهو خطأ، لإبهامه أن ما بعده رواية ابن سعد مع أنه من جملة حديث البخاري.

(٣) هذا وما بعده تنمة رواية البخاري السابقة.

كافر، ثم قال اللهم أخبر عنا رسولك، فاستجاب الله لعاصم فأخبر رسول الله خبرهم يوم أصيبوا.

فرمهم بالنبل، فقتلوا عاصماً، ونزل إليهم على العهد والميثاق: خبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة - بفتح الدال المهملة، وكسر المثناة، والنون المفتوحة المشددة - وعبد الله بن طارق^(١).

فانطلقوا بخبيب وزيد بن الدثنة حتى باعوهما بمكة، فابتاع بنو الحارث بن عامر خبيباً، فلبث خبيب عندهم أسيراً، حتى إذا أجمعوا على قتله استعار من بعض بنات الحارث موسى يستحد بها - يعني يخلق عانته - فغفلت عن ابن لها صغير فأقبل إليه الصبي فأجلسه عنده فخشيت المرأة أن يقتله، ففزعت، فقال خبيب: ما كنت لأغدر.

قال قالت: والله ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب، والله لقد وجدته يأكل قطعاً من عنب مثل رأس الرجل، وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمرة، وما كان إلا رزقاً رزقه الله^(٢).

[الكرامة]

وهذه كرامة جعلها الله تعالى لخبيب، آية على الكفار، وبرهاناً لنيه لتصحيح رسالته.

والكرامة للأولياء ثابتة مطلقاً عند أهل السنة. لكن استثنى بعض المحققين منهم كالعلامة الرباني أبي القاسم القشيري^(٣) ما وقع

(١) التسمية ليست في البخاري وهي عند ابن إسحاق.

(٢) رواه البخاري برقم ٣٩٨٩ و٤٠٨٦.

(٣) عبد الكريم بن هوازن، أبو القاسم، الحافظ المفسر الفقيه، النحوي =

به التحدي لبعض الأنبياء فقال: ولا يصلون^(١) إلى مثل إيجاد ولد من غير أب ونحو ذلك. وهذا أعدل المذاهب في ذلك.

وإن إجابة الدعوة في الحال، وتكثير الطعام والمكاشفة بما يغيب عن العين، والإخبار بما سيأتي ونحو ذلك قد كثر جداً، حتى صار وقوع ذلك ممن ينسب إلى الصلاح كالعادة.

فانحصر الخارق الآن في نحو ما قاله القشيري، وتعين تقييد من أطلق، بأن كل معجزة لنبي يجوز أن تقع كرامة لولي.

ووراء ذلك: أن الذي استقر عند العامة، أن خرق العادة يدل على أن من وقع له ذلك يكون من أولياء الله، وهو غلط. فإن الخارق قد يظهر على يد المبطل من ساحر وكاهن وراهب، فيحتاج من يستدل بذلك على ولاية أولياء الله إلى فارق، وأولى ما ذكره: أن يختبر حال من وقع له ذلك، فإن كان متمسكاً بالأوامر الشرعية والنواهي، كان علامة على ولايته، ومن لا فلا. والله أعلم انتهى ملخصاً من الفتح^(٢).

[تمة الروايات السابقة]

ولما خرجوا بخبيب من الحرم ليقتلوه^(٣) قال: دعوني أصلي

= اللغوي الأديب الكاتب، الشجاع البطل، المجمع على إمامته، ولد سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، وسمع الحديث من الحاكم وغيره. وصنف التصانيف الشهيرة، توفي سنة خمس وستين وأربعمائة.

(١) أي الأولياء.

(٢) فتح الباري ٣٨٣/٧.

(٣) هذا تمة رواية البخاري السابقة.

ركعتين - وعند موسى بن عقبة: أنه صلاهما في موضع مسجد التنعيم
- وقال: اللهم أحصهم عدداً، ولا تبق منهم أحداً، واقتلهم بدداً -
يعني متفرقين، فلم يحل الحول ومنهم أحد حي - .

وفي رواية^(١) بريدة بن سفيان^(٢)، فقال خبيب: اللهم إني لا
أجد من يبلغ رسولك مني السلام فبلغه.

وفي رواية [أبي]^(٣) الأسود عن عروة، جاء جبريل إلى النبي ﷺ
فأخبره بذلك.. الحديث.

١/٥٤

ثم أنشأ يقول/:

فلست أبالي حين أقتل مسلماً على أي شق كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزج^(٤)

والأوصال جمع: وصل، وهو العضو. والشلو - بكسر المعجمة -
الجسد ويطلق على العضو. لكن المراد به هنا الجسد. والممزج -
بالزاي، ثم المهملة - المقطع. ومعنى الكلام: أعضاء جسد مقطوع.

وعند أبي الأسود عن عروة زيادة في هذا الشعر:

لقد أجمع الأحزاب في وألبوا قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وفيه أيضاً:

إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي

(١) عند سعيد بن منصور.

(٢) ليس بالقوي وفيه رفض روى له النسائي.

(٣) سقطت من النسخ وهي في ش.

(٤) البيتان في رواية البخاري.

وساق ابن إسحاق هذه الأبيات ثلاثة عشر بيتاً، قال ابن هشام: ومن الناس من ينكرها لحبيب.

[ركعتان قبل القتل]

وكان حبيب أول من سن الركعتين عند القتل لكل مسلم قتل صبراً، كذا قال ابن إسحاق، وقوله هذا يدل على أنها سنة جارية.

وإنما صار فعل حبيب سنة - والسنة إنما هي أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وتقريره - لأنه فعله في حياته ﷺ، فاستحسن ذلك من فعله واستحسنها المسلمون. والصلاة خير ما ختم به عمل العبد.

وقد صلى هاتين الركعتين زيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ، وذلك في حياته عليه الصلاة والسلام، كما روينا من طريق السهيلي بسنده إلى الليث بن سعد قال: بلغني أن زيد بن حارثة اكرى بغلاً من رجل بالطائف، فاشتراط عليه المكري أن ينزله حيث شاء. قال: فمال به إلى خربة، فقال له انزل فنزل، فإذا في الخربة قتلى كثيرة، قال فلما أراد أن يقتله قال له دعني أصلي ركعتين، قال: صل فقد صلى قبلك هؤلاء فلم تنفعهم صلاتهم شيئاً، فلما صليت أتاني ليقتلني فقلت: يا أرحم الراحمين، قال: فسمع صوتاً: لا تقتله، فهاب ذلك، فخرج يطلبه^(١) فلم ير شيئاً، فرجع إلي، فناديت: يا أرحم الراحمين، فعل ذلك ثلاثاً، فإذا بفارس على فرس في يده حربة حديد في رأسها شعلة نار، فطعنه بها فأنفذهما من ظهره فوق ميثاً. ثم قال: لما دعوت المرة الأولى: يا أرحم الراحمين كنت في السماء السابعة، فلما دعوت

(١) كذا في ط، وفي النسخ: يطلب.

المرة الثانية يا أرحم الراحمين كنت في سماء الدنيا، فلما دعوت الثالثة أتيتك . انتهى .

[تتمة خبر الرجيع]

ووقع في رواية أبي الأسود عن عروة: فلما وضعوا فيه السلاح وهو مصلوب - يعني خبيثاً - نادوه وناشدوه: أتجب أن محمداً مكانك؟ قال: لا والله، ما أحب أن يفديني بشوكة في قدمه.

ويقال^(١): إن الذي قال ذلك زيد بن الدثنة، وأن أبا سفيان قال له: يا زيد، أنشدك الله أتجب أن محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه، وأنت في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تضييه شوكة تؤذيه، وإني لجالس في أهلي. قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يجب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً.

ثم قتله نسطاس - بكسر النون - .

وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر، ولعل العظيم المذكور: عقبة ابن أبي معيط، فإن عاصماً قتله صبراً بأمر النبي ﷺ بعد أن انصرفوا من بدر. ووقع عند ابن إسحاق وكذا في رواية بريدة بن سفيان: أن عاصماً لما قتل أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه من / سلافة بنت ٥٤/ب سعد^(٢)، وهي أم مسافع وجلاس ابني طلحة العبدري، وكان عاصم

(١) هو الذي عند ابن إسحاق .

(٢) كذا في ش: سعد وفي النسخ: سعيد وهو خطأ.

قتلها يوم أحد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أحد لئن
قدرت على رأس عاصم لتشربن الخمر في قحفه - بكسر القاف، وهو
ما انفلق من الجمجمة فبان - .

قال الطبري: وجعلت لمن جاء برأسه مائة ناقة.

فمنعهم منه الدبر - بفتح المهملة وسكون الموحدة: الزناير -
فلم يقدرُوا منه على شيء.

وكان عاصم بن ثابت قد أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك
ولا يمسه مشركاً. فكان عمر لما بلغه خبره يقول: يحفظ الله العبد
المؤمن بعد وفاته، كما حفظه في حياته.

ولإنما استجاب الله تعالى له في حماية لحمه من المشركين، ولم
يمنعهم من قتله لما أراد من إكرامه بالشهادة، ومن كرامته حمايته من
هتك حرمة بقطع لحمه.

[بئر معونة]

[الموقع والتاريخ]

سرية المنذر بن عمرو^(١) - بفتح العين المهملة - إلى بئر معونة - بفتح الميم وضم المهملة وسكون الواو بعدها نون - موضع ببلاد هذيل بين مكة وعسفان . في صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من الهجرة، على رأس أربعة أشهر من أحد.

بعث معه المطلب السلمي ليدهم على الطريق . وكانت مع رعل - بكسر الراء وسكون العين المهملة - بطن من بني سليم، ينسبون إلى رعل بن عوف بن مالك . وذكوان بطن من بني سليم أيضاً ينسبون إلى ذكوان بن ثعلبة . فنسبت الغزوة إليها^(٢) .

[تفصيل الواقعة]

وهذه الواقعة تعرف بسرية القراء، وكان من أمرها - كما قاله ابن إسحاق - أنه قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر المعروف بملاعب الأسنه على رسول الله ﷺ فعرض عليه الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد عن الإسلام . وقال: يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل

(١) المنذر بن عمرو الخزرجي العقبي البدرى النقيب من أكابر الصحابة .

(٢) أي إلى بئر معونة لتزولهم بها .

نجد فدعوتهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك. فقال ﷺ: إني أخشى أهل نجد عليهم. قال أبو براء: أنا لهم جار فابعثهم.

فبعث عليه الصلاة والسلام المنذر بن عمرو، ومعه القراء وهم سبعون^(١) - وقيل أربعون^(٢) وقيل: ثلاثون -

وقد بين قتادة في روايته أنهم كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل^(٣). وفي رواية ثابت: يشترون به الطعام لأهل الصفة، ويتدارسون القرآن بالليل^(٤).

فساروا حتى نزلوا بئر معونة، بعثوا حرام بن ملحان بكتابه ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل العامري، ومات كافراً - وليس هو عامر ابن الطفيل الأسلمي الصحابي - فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر فلم يجيبوه، وقالوا: لن نخفر أبا براء، وقد عقد لهم عقداً وجواراً، فاستصرخ عليهم قبائل من سليم: عصية ورعلاً فأجابوه إلى ذلك، ثم خرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم وقاتلوهم حتى قتلوا إلى آخرهم، إلا كعب بن زيد فإنهم تركوه وبه رمق، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً.

وأسر عمرو بن أمية الضمري، فلما أخبرهم أنه من مضر أخذه عامر بن الطفيل وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه.

(١) كما في البخاري ومسلم.

(٢) هذه رواية ابن إسحاق وموسى بن عقبة. قال الحافظ: قول الثلاثين وهم.

(٣) رواه البخاري برقم ٤٠٩٠.

(٤) رواه مسلم برقم ١٤٧ من كتاب الإمارة، قال الشارح: قوله لأهل الصفة،

لا يفهم أنهم ليسوا من أهلها، فهم من أهلها يشتري بعضهم لبعض.

فلما بلغ النبي ﷺ خبرهم، قال: هذا عمل أبي براء، قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً، فبلغ ذلك أبا براء فمات أسفاً على ما صنع عامر ابن الطفيل.

وقتل عامر بن فهيرة يومئذ فلم يوجد جسده، دفنته الملائكة^(١).

[حزن النبي ﷺ]

قال ابن سعد عن أنس بن مالك: ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة.

وفي صحيح مسلم عن أنس أيضاً: (دعا ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين / صباحاً، يدعو على رعل ولحيان وعصية عصت الله ورسوله، قال أنس: أنزل الله في الذين قتلوا يوم بئر معونة قرآناً قرأناه ثم نسخ بعد - أي نسخت تلاوته - [أن]^(٢) بلغوا قومنا أنا قد لقينا ربنا، فرضي عنا ورضينا عنه)^(٣).

كذا وقع في هذه الرواية^(٤)، وهو يوهم أن بني لحيان ممن أصاب القراء يوم بئر معونة، وليس كذلك. وإنما أصاب هؤلاء رعل وذكوان وعصية ومن صحبهم من سليم، وأما بنو لحيان فهم الذين أصابوا بعث الرجيع. وإنما أتى الخبر إلى رسول الله ﷺ عنهم كلهم في وقت واحد، فدعا على الذين أصابوا أصحابه في الموضعين دعاء واحداً والله أعلم.

(١) رواه ابن المبارك عن عروة.

(٢) ليست في النسخ وهي في صحيح مسلم.

(٣) صحيح مسلم رقم ٦٧٧.

(٤) أي يدعو على رعل ولحيان وعصية.

غزوة بني النضير

[تاريخ الغزوة]

ثم غزوة بني النضير - بفتح النون وكسر الضاد المعجمة - قبيلة كبيرة من اليهود، في ربيع الأول سنة أربع. وذكرها ابن إسحاق هنا.

قال السهيلي: وكان ينبغي أن يذكرها بعد بدر، لما روى عقيل ابن خالد وغيره عن الزهري قال: كانت غزوة بني النضير على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل أحد.

ورجح الداودي ما قاله ابن إسحاق من أن غزوة بني النضير بعد بئر معونة، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾^(١).

قال الحافظ أبو الفضل بن حجر: وهو استدلال واه، فإن الآية نزلت في شأن بني قريظة، فإنهم هم الذين ظاهروا الأحزاب، وأما بنو النضير فلم يكن لهم في الأحزاب ذكر، بل كان من أعظم الأسباب في جمع الأحزاب ما وقع من إجلائهم، فإنه كان من رؤوسهم حيي بن أخطب، وهو الذي حسن لبني قريظة الغدر، وموافقة الأحزاب حتى كان من هلاكهم ما كان فكيف يصير السابق لاحقاً. انتهى^(٢).

(١) سورة الأحزاب. الآية ٢٦.

(٢) ثم قال ابن حجر: وإذا ثبت أن سبب إجلاء بني النضير همهم بالفتك به، =

[سبب الغزوة]

وقد تقدم قريباً أن عامر بن الطفيل أعتق عمرو بن أمية لما قتل أهل بئر معونة عن رقبة عن أمه، فخرج عمرو إلى المدينة فصادف رجلين من بني عامر معها عقد وعهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به عمرو، فقال لهما عمرو من أنتما؟ فذكرا له أنهما من بني عامر، فتركهما حتى ناما فقتلها عمرو، وظن أنه ظفر ببعض ثأر أصحابه، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: لقد قتلت قتيلين لأدينيهما.

قال ابن إسحاق وغيره: ثم خرج ﷺ إلى بني النضير ليستعين بهم في دية ذينك القتيلين اللذين قتلها عمرو بن أمية، للجوار الذي كان عقده لهما، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف. فلما أتاهم ﷺ يستعينهم في ديتها قالوا: يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوه على مثل هذا الحال. وكان ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم.

وقالوا: من رجل يعلو على هذا البيت فيلقي هذه الصخرة عليه فيقتله ويريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه الصخرة ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم.

قال ابن سعد: فقال سلام بن مشكم: لا تفعلوا، والله ليخبرن بما همتم، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه.

= وهو إنما وقع عندما جاء إليهم يستعين في دية قتيلي عمرو تعين ما قاله ابن إسحاق، لأن بئر معونة كانت بعد أحد بالاتفاق.

قال ابن إسحاق: وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام ﷺ مظهراً أنه يقضي حاجته، وترك أصحابه في مجلسهم، ورجع مسرعاً إلى المدينة.

ب/ع واستبطأ النبي ﷺ / أصحابه، فقاموا في طلبه حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما أرادت يهود من الغدر به.

قال ابن عقبة: ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يسطوا إليكم أيديهم﴾ الآية^(١).

[حصار بني النضير]

قال ابن إسحاق: فأمر ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم. قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

ثم سار بالناس حتى نزل بهم فحاصروهم ست ليال. قال ابن إسحاق: فتحصنوا منه في الحصون فقطع النخل وحرقها وخرب. فنادوه: يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعييه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها.

قال السهيلي: قال أهل التأويل: وقع في نفوس بعض المسلمين من هذا الكلام شيء حتى أنزل الله: ﴿ما قطعتم من لينة﴾ إلى قوله: ﴿وليخزي الفاسقين﴾^(٢) والليننة: ألوان التمر ما عدا العجوة والبرني. ففي هذه الآية أنه ﷺ لم يحرق من نخلهم إلا ما ليس بقوت الناس،

(١) سورة المائدة. الآية ١١.

(٢) سورة الحشر. الآية ٥.

وكانوا يقتاتون العجوة، وفي الحديث (العجوة من الجنة وتمرها يغذو أحسن غذاء)^(١) والبرني أيضاً كذلك. ففي قوله تعالى: ﴿ما قطعتم من لينة﴾ ولم يقل من نخلة على العموم، تنبيه على كراهة قطع ما يقتات ويغذو من شجر العدو إذا رجي أن يصل إلى المسلمين.

قال ابن إسحاق: وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي بن سلول بعثوا إلى بني النضير: أن اثبتوا وتمنعوا، فإننا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم. فتربصوا، فقذف الله في قلوبهم الرعب، فلم ينصروهم. فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم عن أرضهم ويكف عن دمائهم.

وعند ابن سعد: أنهم حين هموا بغدره ﷺ وأعلمه الله بذلك، بعث إليهم محمد بن مسلمة: أن اخرجوا من بلدي فلا تسكنوني بها، وقد هممت بما هممت به من الغدر، وقد أجلتكم عشراً، فمن رؤي منكم بعد ذلك ضربت عنقه.

فمكثوا على ذلك أياماً يتجهزون، وتكاروا من أناس من أشجع إبلاً، فأرسل إليهم عبد الله بن أبي: لا تخرجوا من دياركم، وأقيموا في حصونكم، فإن معي ألفين من قومي من العرب يدخلون حصونكم وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان، فطمع حيي فيما قاله ابن أبي، فأرسل إلى رسول الله ﷺ، إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

فأظهر ﷺ التكبير، وكبر المسلمون بتكبيره، وسار إليهم ﷺ في

(١) رواه أحمد والترمذي وغيرهما.

أصحابه، فصلى العصر بفناء بني النضير، وعلي يحمل رايته، فلما رأوا رسول الله ﷺ قاموا على حصونهم، ومعهم النبل والحجارة، واعتزلهم ابن أبي ولم يمنعهم، وكذا حلفاؤهم من غطفان، فيشوا من نصرهم، فحاصرهم ﷺ وقطع نخلمهم، وقال لهم عليه الصلاة والسلام: اخرجوا منها، ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة. - وهي بإسكان اللام قال في القاموس: الدرع - فنزلت يهود على ذلك فحاصرهم خمسة عشر يوماً، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم.

ثم أجلاهم عن المدينة وولي إخراجهم محمد بن مسلمة. وحملوا النساء والصبيان، وتحملوا على ستائة بعير فلحقوا بخير. وحزن عليهم المنافقون حزناً شديداً^(١).

[الغنائم]

وقبض ﷺ الأموال، ووجد من الحلقة خمسين درعاً وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً.

وكانت بنو النضير صفياء لرسول الله ﷺ حسباً لنوائبه، ولم يسهم منها لأحد، لأن المسلمين لم يوجفوا عليها/ بخيل ولا ركاب، وإنما قذف في قلوبهم الرعب، وأجلوا عن منازلهم إلى خير، ولم يكن ذلك عن قتال من المسلمين لهم، فقسمها ﷺ بين المهاجرين ليرفع بذلك مؤنتهم عن الأنصار، إذ كانوا قد قاسموهم في الأموال والديار، غير أنه أعطى أبا دجاجة وسهل بن حنيف لحاجتهما. وفي الإكليل: وأعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحقيق، وكان سيفاً له ذكر عندهم.

١/٥٦

(١) قال ابن اسحاق: ونزل في أمر بني النضير سورة الحشر بأسرها.

[غزوة ذات الرقاع]

[القول في تاريخها]

واختلف فيها متى كانت:
ف عند ابن إسحاق: بعد بني النضير سنة أربع، في شهر ربيع
الآخر، وبعض جمادى.

وعند ابن سعد وابن حبان: في المحرم سنة خمس.

وجزم أبو معشر: بأنها بعد بني قريظة في ذي القعدة سنة خمس،
فتكون ذات الرقاع في آخر السنة الخامسة وأول التي تليها.

قال في فتح الباري: قد جنح البخاري إلى أنها كانت بعد
خيبر، واستدل لذلك بأمور، ومع ذلك فذكرها قبل خيبر، فلا أدري:
هل تعمد ذلك تسليماً لأصحاب المغازي أنها كانت قبلها، أو أن ذلك
من الرواة عنه، أو إشارة إلى احتمال أن تكون ذات الرقاع اسماً
لغزوتين مختلفتين كما أشار إليها البيهقي. على أن أصحاب المغازي مع
جزمهم بأنها كانت قبل خيبر مختلفون في زمانها. انتهى^(١).

والذي جزم به ابن عقبة تقدمها، لكن تردد في وقتها فقال: لا
ندري كانت قبل بدر أو بعدها؟ أو قبل أحد أو بعدها؟

(١) لا حاجة لقوله: «انتهى» لأن الكلام التالي لابن حجر.

قال الحافظ ابن حجر: وهذا التردد لا حاصل له، بل الذي ينبغي الجزم به أنها بعد غزوة بني قريظة، لأن صلاة الخوف في غزوة الخندق لم تكن شرعت، وقد ثبت وقوع صلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع. فدل على تأخرها بعد الخندق.

ثم قال عند قول البخاري: «وهي بعد خيبر» لأن أبا موسى جاء بعد خيبر، وإذا كان كذلك وثبت أن أبا موسى شهد غزوة ذات الرقاع لزم أنها كانت بعد خيبر^(١).

قال: وعجبت من ابن سيد الناس كيف قال: جعل البخاري حديث أبي موسى هذا حجة في أن غزوة ذات الرقاع متأخرة عن خيبر. قال: وليس في خبر أبي موسى ما يدل على شيء من ذلك، انتهى كلام ابن سيد الناس.

قال: وهذا النفي مردود، والدلالة على ذلك واضحة كما قررته.

قال: وأما الدمياطي: فادعى غلط الحديث الصحيح، وأن جميع أهل السير على خلافه. وقد تقدم أنهم مختلفون في زمانها. فالأولى الاعتماد على ما ثبت في الصحيح^(٢).

وأما قول الغزالي: إنها آخر الغزوات. فهو غلط واضح، وقد بالغ ابن الصلاح في إنكاره.

وقال بعض من انتصر للغزالي: لعله أراد آخر غزوة صليت فيها صلاة الخوف.

(١) فتح الباري ٤١٧/٧.

(٢) فتح الباري ٤١٨/٧.

وهو انتصار مردود، بما أخرجه أبو داود والنسائي وصححه ابن حبان من حديث أبي بكر: أنه صلى مع النبي ﷺ صلاة الخوف. وإنما أسلم أبو بكر بعد غزوة الطائف بالاتفاق. انتهى^(١).

[سبب تسميتها]

وأما تسميتها بذات الرقاع:

فلأنهم رقعوا فيها راياتهم، قاله ابن هشام.

وقيل: لشجرة^٢ في ذلك الموضع يقال لها ذات الرقاع.

وقيل: الأرض التي نزلوا بها فيها بقع سود وبقع بيض، كأنها مرقعة برقاع مختلفة، فسميت ذات الرقاع لذلك.

وقيل: إن خيلهم كان بها سواد وبياض. قاله ابن حبان.

وقال الواقدي: سميت بجبل هناك فيه بقع. قال الحافظ ابن

حجر: وهذا لعله مستند ابن حبان، ويكون قد تصحف عليه بخيل.

قال: وأغرب/ الداودي فقال: سميت ذات الرقاع لوقوع صلاة ٥٦/ب

الخوف فيها، فسميت بذلك لترقيع الصلاة فيها. انتهى^(٢).

قال السهيلي: وأصح من هذه الأقوال كلها، ما رواه البخاري

عن أبي موسى الأشعري قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة

ونحن ستة نفر، بيننا بعير نعتقه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي،

وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت غزوة ذات

الرقاع، لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا)^(٣).

(١) فتح الباري ٤٢٤/٧.

(٢) هذه الأقوال كلها في فتح الباري ٤١٩/٧.

(٣) رواه البخاري برقم ٤١٢٨.

[أحداث الغزوة]

وكان من خبر هذه الغزوة، كما قاله ابن إسحاق: أنه ﷺ غزا نجداً يريد بني محارب وبني ثعلبة - بالثلثة - من غطفان - بفتح الغين المعجمة والمهملة - لأنه ﷺ بلغه أنهم جمعوا الجموع. فخرج في أربعمئة من أصحابه - وقيل: سبعمائة - واستعمل على المدينة عثمان بن عفان، وقيل أبا ذر. حتى نزل نخلاً - بالخاء المعجمة - موضعاً من نجد من أراضي غطفان.

قال ابن سعد: فلم يجد في محالهم إلا نسوة فأخذهن.

وقال ابن إسحاق: فلقي جمعاً منهم فتقارب الناس، ولم يكن بينهم حرب، وقد أخاف الناس بعضهم بعضاً، حتى صلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الخوف، ثم انصرف الناس.

قال ابن سعد: وكان ذلك أول ما صلاها.

وقد رويت صلاة الخوف من طرق كثيرة وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام على ما تيسر منها في مقصد عباداته ﷺ. وكانت غيبته ﷺ في هذه الغزوة خمس عشرة ليلة^(١).

[من يمنعك مني؟]

وفي البخاري عن جابر قال: كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ، فجاء رجل من المشركين وسيف النبي ﷺ معلق بالشجرة فاخرطه - يعني سله من غمده - فقال تخافني قال: لا، قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله^(٢)

(١) قاله ابن سعد.

(٢) رواه البخاري برقم ٤١٣٦.

وعند أبي عوانة: فسقط السيف من يده فأخذه ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ. قال: تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قال الأعرابي: أعاهدك أني لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. قال: فخلي سبيله. فجاء إلى قومه فقال: جئكم من عند خير الناس^(١).

وفي رواية عند البخاري: ولم يعاقبه^(٢).

وإنما لم يؤاخذه ﷺ بما صنع، وعفا عنه، لشدة رغبته عليه الصلاة والسلام في استئلاف الكفار ليدخلوا في الإسلام.

وفي رواية أبي اليمان عند البخاري^(٣) - في الجهاد - قال: من يمنعك مني ثلاث مرات. وهو استفهام إنكاري، أي لا يمنعك مني أحد.

وقد كان الأعرابي قائماً على رأسه والسيف في يده والنبى ﷺ جالس لا سيف معه.

ويؤخذ من مراجعة الأعرابي له في الكلام أن الله سبحانه منع نبيه، وإلا فما الذي أحوجه إلى مراجعته مع احتياجه إلى الحظوة عند قومه بقتله. وفي قوله ﷺ في جوابه: الله، أي يمنعني منك، إشارة إلى ذلك، ولذلك لما أعادها الأعرابي فلم يزد على ذلك الجواب، وفي ذلك غاية التهكم وعدم المبالاة به.

وذكر الواقدي في نحو هذه القصة أنه أسلم، ورجع إلى قومه

(١) ذكره في فتح الباري ٤٢٨/٧.

(٢) رواه البخاري برقم ٤١٣٥ و ٢٩١٠.

(٣) رواه البخاري برقم ٢٩١٠.

فاهتدى به خلق كثير. وقال فيه: إنه رمى بالزخعة حين هم بقتله ﷺ، فندر السيف من يده وسقط إلى الأرض. والزخعة - بضم الزاي وتشديد اللام - وجع يأخذ في الصلب.

وقال البخاري: قال مسدد عن أبي عوانة عن أبي بشر: اسم ١/٥٧ الرجل غورث بن الحارث^(١)، / أي على وزن جعفر.

وحكى الخطابي فيه: غويرث، بالتصغير. وقد تقدم في غزوة غطفان وهي غزوة ذي أمر بناحية نجد مثل هذه القصة لرجل اسمه دعثور، وأنه قام على رأسه ﷺ بالسيف فقال: من يمنحك مني؟ فقال ﷺ: الله، ودفع جبريل في صدره فوق السيف من يده وأنه أسلم.

قال في عيون الأثر: والظاهر أن الخبرين واحد.

وقال غيره من المحققين^(٢): الصواب أنها قصتان في غزوتين. وفي هذه القصة: فرط شجاعته، وقوة يقينه وصبره على الأذى، وحلمه على الجهال صلى الله عليه وسلم.

[قصة جمل جابر]

وفي انصرافه ﷺ من هذه الغزوة، أبطأ جمل جابر بن عبد الله فنخسه ﷺ فانطلق متقدماً بين يدي الركاب، ثم قال: أتبعني؟ فابتاعه منه وقال: لك ظهره إلى المدينة، فلما وصلها أعطاه الثمن وأرجح، ووهب له الجمل. والحديث أصله في البخاري^(٣).

(١) رواه البخاري برقم ٤١٣٦.

(٢) كابن كثير.

(٣) قال الشارح: في عشرين موضعاً. لكن لم يقع فيه أن ذلك في ذات الرقاع =

ولا حجة فيه لجواز بيع وشرط، لما وقع فيه من الاضطراب.
وقيل غير ذلك مما يطول ذكره والله أعلم.

[غزوة بدر الآخرة]

وهي الصغرى، وتسمى: بدر الموعد.

وكانت في شعبان، بعد ذات الرقاع. قال ابن إسحاق: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة من غزوة ذات الرقاع، أقام بها جمادى الأولى إلى آخر رجب، ثم خرج في شعبان إلى بدر لميعاد أبي سفيان. ويقال: كانت في هلال ذي القعدة.

وميعاد أبي سفيان: هو ما سبق أن أبا سفيان قال يوم أحد: الموعد بيننا وبينكم بدر العام القابل، فقال ﷺ لرجل من أصحابه: قل: نعم هو بيننا وبينكم موعد.

فخرج ﷺ ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه، وعشرة أفراس، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة، فأقاموا على بدر ينتظرون أبا سفيان.

وخرج أبو سفيان حتى نزل مجنة من ناحية مر الظهران، ويقال: عسفان، ثم بدا له الرجوع، فقال: يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب، ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جذب، وإني راجع فارجعوا، فرجع الناس. فسأهم أهل مكة: جيش السويق يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق.

= ولذا لم يذكره في غزاتها، بل في بعضها أنه في تبوك.

ومن هذه المواضع الحديث رقم ٢٠٩٧.

وأقام ﷺ بيدر ثمانية أيام، وباعوا ما معهم من التجارة، فربحوا الدرهم درهين. وأنزل الله في المؤمنين: ﴿الذين استجابوا لـ الله والرسول﴾ إلى قوله: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء﴾ (١) الآية.

والصحيح أن هذه الآية نزلت في شأن حمراء الأسد، كما نص عليه العماد بن كثير.

غزوة دومة الجندل

وهي بضم الدال من «دومة» هي مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال، وبعدها من المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة. قال أبو عبيد البكري: سميت بدومي بن إسماعيل، كان نزلها.

وكانت في شهر ربيع الأول، على رأس تسعة وأربعين شهراً من الهجرة، وكان سببها أنه بلغه ﷺ أن بها جمعاً كثيراً يظلمون من مر بهم، فخرج عليه الصلاة والسلام لخمس ليال بقين من شهر ربيع، في ألف من أصحابه، فكان يسير الليل ويكمن النهار.

واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة.

فلما دنا منهم، لم يجد إلا النعم والشاء، فهجم على ماشيتهم ورعاتهم فأصاب من أصاب، وهرب من هرب في كل وجه. وجاء الخبر أهل دومة ففرقوا، ونزل ﷺ بساحتهم فلم يلق بها أحداً، فأقام بها أياماً، وبث السرايا وفرقها، فرجعوا، ولم يصب منهم أحد. ودخل ٥٧/ب المدينة في العشرين / من ربيع الآخر.

(١) سورة آل عمران ١٧٢.

غزوة بني المصطلق

[الموقع والتاريخ]

غزوة المريسيع: - بضم الميم وفتح الراء وسكون التحتيتين بينها مهملة مكسورة وآخره عين مهملة - وهو ماء لبني خزاعة، بينه وبين الفرع يومان^(١).

وتسمى غزوة بني المصطلق - بضم الميم وسكون المهملة وفتح الطاء المهملة، وكسر اللام بعدها قاف - وهو لقب واسمه: جذيمة بن سعد بن عمرو، بطن من خزاعة.

وكانت لليلتين خلتا من شعبان، سنة خمس، وفي البخاري قال ابن إسحاق سنة ست، وقال موسى بن عقبة: سنة أربع انتهى.

قالوا: وكأنه سبق قلم^(٢)، أراد أن يكتب سنة خمس فكتب سنة أربع، والذي في مغازي موسى بن عقبة من عدة طرق أخرجها الحاكم وأبو سعيد النيسابوري والبيهقي في الدلائل وغيرهم سنة خمس.

[سبب الغزوة وما حدث فيها]

وسببها أنه بلغه ﷺ أن رئيسهم الحارث بن أبي ضرار سار في

(١) هكذا في النسخ قال الشارح في الفتح: مسيرة يوم.

(٢) أي من البخاري.

قومه ومن قدر عليه من العرب، فدعاهم إلى حرب رسول الله ﷺ فأجابوه، وتهيؤوا للمسير معه إليه.

فبعث ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمي يعلم علم ذلك، فاتاهم ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلمه، ورجع إلى رسول الله ﷺ. وخرج عليه السلام مسرعاً في بشر كثير من المنافقين، لم يخرجوا في غزاة قط مثلها. واستخلف على المدينة زيد بن حارثة. وقادوا الخيل، وكانت ثلاثين فرساً. وخرجت عائشة وأم سلمة.

وبلغ الحارث ومن معه مسيره عليه السلام فسيء بذلك هو ومن معه، وخافوا خوفاً شديداً، وتفرق عنهم من كان معهم من العرب.

وبلغ عليه السلام المريسيع، وصف أصحابه، ودفع راية المهاجرين إلى أبي بكر، وراية الأنصار إلى سعد بن عباد، فتراموا بالنبل ساعة ثم أمر عليه السلام أصحابه فحملوا حملة رجل واحد، وقتلوا عشرة وأسروا سائرهم، وسبوا النساء والرجال والذرية والنعم والشاء. ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد، كذا ذكره ابن إسحاق.

والذي في صحيح البخاري من حديث ابن عمر يدل على أنه أغار عليهم على حين غفلة منهم فأوقع بهم ولفظه: أغار على بني المصطلق وهم غارون، وأنعامهم تستقي على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وهم على الماء^(١).

فيحتمل أن يكون حين الإيقاع بهم ثبتوا قليلاً، فلما كثر فيهم

(١) رواه البخاري برقم ٢٥٤١.

القتل انهزموا بأن يكونوا لما دهمهم وهم على الماء وتصافوا وقع القتال بين الطائفتين، ثم بعد ذلك وقعت الغلبة عليهم^(١).

[نزول آية التيمم]

قيل وفي هذه الغزوة نزلت آية التيمم. وفي الصحيحين من حديث عائشة: أنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فذكر حديث التيمم^(٢).

قال في فتح الباري: «قوله في بعض أسفاره» قال ابن عبد البر في التمهيد: يقال إنه كان في غزوة بني المصطلق. وجزم بذلك في الاستذكار. وسبقه إلى ذلك ابن سعد وابن حبان، وغزوة بني المصطلق هي غزوة المريسيع.

وفيها كانت قصة الإفك لعائشة، وكان ابتداء ذلك بسبب وقوع عقدها أيضاً.

فإن كان ما جزموا به ثابتاً، حمل على أنه سقط منها في تلك السفارة مرتين، لاختلاف القصتين، كما هو بين من سياقهما.

قال: واستبعد بعض شيوخنا ذلك، لأن المريسيع من ناحية مكة بين قديد والساحل، وهذه القصة كانت من ناحية خيبر لقولها في الحديث: حتى إذا كنا بالبيداء، أو بذات الجيش، وهما بين مكة وخيبر كما جزم به النووي.

قال: وما جزم به مخالف لما جزم به ابن / التين فإنه قال: ١/٥٨

(١) انظر في بيان هذه القضية وملابساتها كتابنا «أضواء على دراسة السيرة» [المحقق].

(٢) رواه البخاري برقم ٣٣٤.

البيداء هي ذو الخليفة بالقرب من المدينة من طريق مكة، وذات الجيش وراء ذي الخليفة.

وقال أبو عبيد البكري في معجمه: البيداء أدنى إلى مكة من ذي الخليفة، ثم ساق حديث عائشة هذا، ثم قال: وذات الجيش من المدينة على بريد. قال: وبينها وبين العقيق سبعة أميال. والعقيق من طريق مكة لا من طريق خيبر، فاستقام ما قاله ابن التين^(١).

وقد قال قوم بتعدد ضياع العقد، ومنهم محمد بن حبيب الأخباري فقال: سقط عقد عائشة في غزوة ذات الرقاع وفي غزوة بني المصطلق.

وقد اختلف أهل المغازي في أي هاتين الغزوتين كانت أولاً. وقال الداودي: كانت قصة التيمم في غزوة الفتح ثم تردد في ذلك.

وروى ابن أبي شيبه من حديث أبي هريرة قال: لما نزلت آية التيمم لم أدر كيف أصنع. فهذا يدل على تأخرها عن غزوة بني المصطلق، لأن إسلام أبي هريرة كان في السنة السابعة، وهي بعدها بلا خلاف.

وكان البخاري يرى أن غزوة ذات الرقاع كانت بعد قدوم أبي موسى، وقدومه كان وقت إسلام أبي هريرة.

ومما يدل على تأخر القصة أيضاً عن قصة الإفك ما رواه الطبراني من طريق يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة قالت: لما كان من أمر عقدي ما كان، وقال أهل الإفك ما قالوا،

(١) فتح الباري ١/٤٣٢.

خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة أخرى، فسقط أيضاً عقدي حتى حبس الناس على التماسه، فقال لي أبو بكر: يا بنية في كل سفرة تكونين عناء وبلاء على الناس، فأنزل الله الرخصة في التيمم، فقال أبو بكر: إنك لمباركة.

وفي إسناده محمد بن حميد الرازي. وفيه مقال.

وفي سياقه من الفوائد: بيان عتاب أبي بكر الذي أبهم في حديث الصحيح، والتصريح بأن ضياع العقد كان مرتين في غزوتين. انتهى^(١).

[الذي أوفى الله بأذنه]

وفي هذه الغزوة قال ابن أبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فسمعه زيد بن أرقم، ذو الأذن الواعية، فحدث رسول الله ﷺ بذلك فأرسل إلى ابن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ فقال له رسول الله ﷺ: إن الله قد صدقك يا زيد^(٢). رواه البخاري.

وكانت غيبته ﷺ في هذه الغزوة ثمانية وعشرين يوماً.

(١) فتح الباري ١/٤٣٤ - ٤٣٥ وخلاصته أن السفر المبهم في قول عائشة هو: المريسيع أو ذات الرقاع أو الفتح أقوال. وأن العقد سقط مرتين في غزوة واحدة أو في غزوتين.

(٢) عند ابن إسحاق وأهل المغازي أن هذه الحادثة كانت في غزوة تبوك.

غزوة الخندق

[سبب التسمية]

وهي الأحزاب: جمع حزب، أي طائفة.

فأما تسميتها بالخندق: فلأجل الخندق الذي حفر حول المدينة بأمره ﷺ، ولم يكن اتخاذ الخندق من شأن العرب، ولكنه من مكاييد الفرس. وكان الذي أشار بذلك سلمان، فقال: يا رسول الله، إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، فأمر النبي ﷺ بحفره، وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين.

وأما تسميتها بالأحزاب، فلاجتماع طوائف من المشركين على حرب المسلمين، وهم: قريش وغطفان واليهود ومن معهم. وقد أنزل الله تعالى في هذه القصة صدرأً من سورة الأحزاب.

[تاريخها]

واختلف في تاريخها:

فقال موسى بن عقبة: كانت في شوال سنة أربع.

وقال ابن إسحاق: كانت في شوال سنة خمس، وبذلك جزم

غيره من أهل المغازي.

ومال البخاري إلى قول موسى بن عقبة، وقواه بقول ابن عمر:

أن رسول الله ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة فلم يجزه،
وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة فأجازه^(١). فيكون بينها سنة
واحدة، وأحد/ كانت سنة ثلاث، فتكون الخندق سنة أربع.

ب/٥٨

ولا حجة فيه إذا ثبت لنا أنها كانت سنة خمس، لاحتمال أن
يكون ابن عمر في أحد كان أول ما طعن في الرابعة عشر، وكان في
الأحزاب استكمل الخمس عشرة، وبهذا أجاب البيهقي.
وقال الشيخ ولي الدين بن العراقي: والمشهور أنها في السنة
الرابعة.

[اليهود يجمعون الأحزاب]

وكان من حديث هذه الغزوة: أن نفرًا من يهود قدموا على
قريش بمكة وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فاجتمعوا
لذلك واتعدوا له.

ثم خرج أولئك اليهود حتى جاؤوا غطفان من قيس عيلان،
فدعوهم إلى حربه عليه الصلاة والسلام، وأخبروهم أنهم سيكونون
معهم عليه، وأن قريشاً قد بايعوهم على ذلك واجتمعوا معهم.

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان
وقائدها عيينة بن حصن في فزارة، والحارث بن عوف المري في مرة.

[عدد كل من الفريقين]

وكان عدتهم - فيما ذكره ابن إسحاق - عشرة آلاف. والمسلمون

(١) رواه البخاري برقم ٤٠٩٧.

ثلاثة آلاف وقيل غير ذلك .

وذكر ابن سعد أنه كان مع المسلمين ستة وثلاثون فرساً .

[حفر الخندق]

ولما سمع رسول الله ﷺ بالأحزاب، وبما أجمعوا عليه من الأمر، ضرب على المسلمين الخندق، فعمل فيه ﷺ ترغيباً [للمسلمين في] (١) الأجر، وعمل معه المسلمون، فدأب ودأبوا .

وأبطأ على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين في عملهم ذاك ناس من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعف عن العمل، وفي البخاري: عن سهل بن سعد قال: كنا مع النبي ﷺ في الخندق، وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتادنا، فقال رسول الله ﷺ: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للمهاجرين والأنصار (٢) .

والأكتاد: - بالثناة الفوقية - جمع كتد - بفتح أوله وكسر المثناة - وهو ما بين الكاهل إلى الظهر، وفي بعض نسخ البخاري: أكبادنا بالوحدة، وهو موجه على أن يكون المراد به مما يلي الكبد من الجنب .

وفي البخاري أيضاً: عن أنس: فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال: اللهم إن العيش عيش الآخرة (٣) فاغفرلأنصار والمهاجرة

(١) كذا في ش وعند ابن إسحاق، وفي النسخ: ترغيباً للأجر .

(٢) رواه البخاري برقم ٤٠٩٨ .

(٣) كذا في البخاري، وفي النسخ: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة .

فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً^(١)
قال ابن بطال: وقوله اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، هو من
قول ابن رواحة تمثل به ﷺ. وعند الحارث بن أبي أسامة من مرسل
طاووس^(٢) زيادة في آخر الرجز:

والعن عضلاً والقارة هم كلفونا نقل الحجارة

وفي البخاري من حديث البراء قال: (لما كان يوم الأحزاب،
وخذق رسول الله ﷺ رأيته ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني
الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعتة يرتجز بكلمات ابن
رواحه، وهو ينقل التراب ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وإن أرادوا فتنة أبينا
إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

قال: يمد بها صوته..^(٣) وفي رواية له أيضاً:
إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا^(٤)

(١) رواه البخاري برقم ٤٠٩٩.

(٢) طاووس بن كيسان اليماني الفارسي، تابعي ثقة فقيه كثير الحديث. مات
سنة ست ومائة.

(٣) رواه البخاري برقم ٤١٠٦.

(٤) من رواية البخاري برقم ٤١٠٤.

/ وفي حديث سليمان التيمي^(١) عن أبي عثمان النهدي^(٢) أنه ﷺ حين ضرب في الخندق قال:

بسم الإله وبه بدينا ولو عبدنا غيره شقينا
فحبذا رباً وحب دينا^(٣)

قال في النهاية: يقال بديت بالشيء - بكسر الدال - أي بدأت به، فلما خفف الهمزة كسر الدال، فانقلبت الهمزة ياء، وليس هو من بنات الياء. انتهى.

[معجزات]

وقد وقع في حفر الخندق آيات من أعلام بنوته ﷺ. منها ما في الصحيح عن جابر قال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة - وهي بضم الكاف وتقديم الدال المهملة على التحتانية، وهي القطعة الصلبة - فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فعاد كثيباً أهيل أو أهيم^(٤).

كذا بالشك من الراوي، وفي رواية الاسماعيلي باللام من غير شك، والمعنى: أنه صار رملأ يسيل ولا يتماسك.

(١) سليمان بن طرخان التيمي. الثقة العابد المتوفى سنة ثلاث وأربعين ومائة، روى له الجميع.

(٢) أبو عثمان النهدي، عبد الرحمن بن مل، ثقة عابد روى له الستة مات سنة خمس وتسعين.

(٣) كذا في فتح الباري ٣٩٧/٧ وهو موزون عروضياً، والذي في النسخ: حبذا رباً وحبذا ديناً، وهو غير موزون.

(٤) رواه البخاري برقم ٤١٠١.

وأهيم: بمعنى أهيل. وقد قيل في قوله تعالى: ﴿فشاربون شرب
أهيم﴾^(١). المراد: الرمال التي لا يروها الماء.

وقد وقع عند أحمد والنسائي في هذه القصة زيادة بإسناد حسن
من حديث البراء قال: لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر
الخنندق، عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول،
فاشتكيننا ذلك لرسول الله ﷺ، فجاء وأخذ المعول فقال: بسم الله،
ثم ضرب ضربة فنشر ثلثها، وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام،
والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً
آخر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، وإني والله لأبصر قصر
المدائن الأبيض الآن، ثم ضرب الثالثة فقال بسم الله فقطع بقية
الحجر، فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب
صنعاء من مكاني الساعة^(٢).

ومن أعلام نبوته ما ثبت في الصحيح من حديث جابر من تكثير
الطعام القليل يوم حفر الخندق^(٣)، كما سيأتي إن شاء الله تعالى
مستوفى في مقصد المعجزات مع غيره.

[مدة حفر الخندق]

وقد وقع عند موسى بن عقبة أنهم أقاموا في عمل الخندق قريباً
من عشرين ليلة.

(١) سورة الواقعة. الآية ٥٥.

(٢) المسند ٣٠٣/٤.

(٣) رواه البخاري برقم ٤١٠١.

وعند الواقدي: أربعاً وعشرين .
وفي الروضة للنووي: خمسة عشر يوماً .
وفي الهدي النبوي لابن القيم: أقاموا شهراً .

[وصف المعسكرين]

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت
بمجمع السيول في عشرة آلاف من أحابيشهم^(١) ومن تبعهم من بني
كنانة وتمامة .

ونزل عيينة بن حصن في غطفان ومن تبعهم من أهل نجد إلى
جانب أحد .

وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين حتى جعلوا
أظهرهم إلى سلع، وكانوا ثلاثة آلاف رجل . ف ضرب هنالك عسكره،
والخندق بينه وبين القوم . وكان لواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة،
ولواء الأنصار بيد سعد بن عباد . وكان ﷺ يبعث الحرس إلى المدينة
خوفاً على الذراري من بني قريظة .

[قريظة تنقض العهد]

قال ابن إسحاق: وخرج عدو الله حبي بن أخطب حتى أتى
كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان وادع
رسول الله ﷺ على قومه وعاقده، فأغلق كعب دونه باب حصنه، وأبى
أن يفتح له، وقال ويحك يا حبي، إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد
عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه، فإني لم أر منه إلا وفاء
وصدقاً . فقال: ويلك افتح، ولم يزل به حتى فتح له، فقال: ويلك يا

(١) هم الحلفاء، التحييش: التجميع .

كعب، جئتك بعز الدهر، جئتك بقريش حتى أنزلتهم بمجتمع
الأسياال، ومن دونه غطفان/ وقد عاهدوني على أن لا يبرحوا حتى
نستأصل محمداً ومن معه، ولم يزل به حتى نقض عهده، وبريء مما كان
بينه وبين رسول الله ﷺ.

وعن عبد الله بن الزبير قال: كنت يوم الأحزاب أنا وعمرو بن
أبي سلمة مع النساء في أطم حسان، فنظرت فإذا الزبير على فرسه
يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثاً، فلما رجعت قلت يا أبت رأيتك
تختلف، قال: رأيتني يا بني قلت: نعم. قال: كان رسول الله ﷺ
قال: من يأت بني قريظة فيأتيني بخبرهم فانطلقت، فلما رجعت جمع
لي رسول الله ﷺ أبويه فقال: فداك أبي وأمي. أخرجه الشيخان
والترمذي وقال: حديث حسن.

وفي رواية أصحاب المغازي: فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ
بعث سعد بن معاذ وسعد بن عباد ومعهما ابن رواحة وخوات بن
جبير ليعرفوا الخبر، فوجدوهم على أخبث ما بلغه عنهم، نالوا من
رسول الله ﷺ وتبرؤوا من عقده وعهده، ثم أقبل السعدان ومن معهما
على رسول الله ﷺ وقالوا: عضل والقارة، أي: كغدرهما بأصحاب
الرجيع.

[معسكر المسلمين بعد غدر قريظة]

فعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من
فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظن المؤمنون كل ظن.

ونجم النفاق من بعض المنافقين، وأنزل الله تعالى: ﴿وإذ يقول

المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴿
الآيات (١)﴾ .

وقال رجال ممن معه (٢): يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، وقال
أوس بن قيثي: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة من العدو، فإذن لنا
فنرجع إلى ديارنا، فإنها خارج المدينة .

وأقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي على فرس له ليوثبه
الخنديق فوقه في الخندق فقتله الله . وكبر ذلك على المشركين، فأرسلوا
إلى رسول الله ﷺ إنا نعطيك الدية على أن تدفعوه إلينا فندفنه، فرد
إليهم النبي ﷺ: إنه خبيث خبيث الدية، فلعنه الله ولعن ديته، ولا
نمنعكم أن تدفونه ولا أرب لنا في ديته .

قال ابن إسحاق: وأقام ﷺ والمسلمون وعدوهم يحاصرهم، ولم
يكن بينهم قتال إلا مراماة بالنبل، لكن كان عمرو بن عبد ود العامري
اقتحم هو ونفر معه خيولهم من ناحية ضيقة من الخندق، حتى صاروا
بالسبخة، فبارزه علي فقتله، وبرز نوفل بن عبد الله بن المغيرة فقتله
الزبير وقيل قتله علي، ورجعت بقية الخيول منهزمة .

ورمي سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكل - وهو بتفح
الهمزة والمهملة بينها كاف ساكنة - عرق في وسط الذراع . قال
الخليل: هو عرق الحياة يقال إن في كل عضو منه شعبة فهو في اليد
الأكل وفي الظهر الأبر وفي الفخذ النساء، إذا قطع لم يرفأ الدم .

(١) سورة الأحزاب . الآية ١٢ .

(٢) أي مع عبد الله بن أبي كبير المنافقين . وهو مفهوم من السياق، ويمكن
إعادة الضمير إلى النفاق [م] .

وكان الذي رمى سعداً، ابن عرقة، أحد بني عامر بن لؤي، قال: خذها مني وأنا ابن العرقة، فقال له سعد: عرق الله وجهك في النار. ثم قال سعد: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقيتها، فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه.

وأقام عليه الصلاة والسلام وأصحابه بضع عشرة ليلة. فمشى نعيم بن مسعود الأشجعي - وهو مخف إسلامه - فثبط قوماً عن قوم وأوقع بينهم شراً لقوله ﷺ: (الحرب خدعة) فاختلفت كلمتهم.

[ليلة الأحزاب]

وروى الحاكم عن حذيفة قال: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب وأبو سفيان ومن معه من فوقنا، وقريظة أسفل منا نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلة أشد ظلمة ولا ريحاً منها، فجعل المنافقون يستأذنون ويقولون بيوتنا عورة، فمر بي النبي ﷺ وأنا جاث على ركبتي، ولم يبق معه إلا ثلاثائة فقال: /: اذهب فائتني بخبر القوم، ودعا لي، فأذهب ١/٦٠
الله عني القر والفرع، فدخلت عسكرهم فإذا الريح فيه لا تجاوز شبراً، فلما رجعت رأيت فوارس في طريقي فقالوا: أخبر صاحبك أن الله كفاه القوم.

وفي رواية^(١): أن حذيفة لما أرسله ﷺ ليأتيه بالخبر سمع أبا سفيان يقول: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، ولقد هلك الخف والكراع، واختلفنا وبنو قريظة، ولقينا من هذا

(١) رواية ابن اسحاق.

الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل ووئب على جملة فما حل عقال يده إلا وهو قائم.

[مهمة الزبير ومهمة حذيفة]

ووقع في البخاري أنه ﷺ قال يوم الأحزاب: من يأتينا بخبر القوم. فقال الزبير: أنا، فقال: من يأتينا بخبر القوم، فقال الزبير: أنا، فقال: من يأتينا بخبر القوم؟ قالها ثلاثاً^(١). وقد استشكل ذكر الزبير في هذه.

فقال ابن الملتن: وقع هنا أن الزبير هو الذي ذهب والمشهور أنه حذيفة بن اليمان.

قال الحافظ بن حجر: وهذا الحصر مردود، فإن القصة التي ذهب لكشفها غير القصة التي ذهب حذيفة لكشفها، فقصة الزبير كانت لكشف خبر بني قريظة هل نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين، ووافقوا قريشاً على محاربة المسلمين؟ وقصة حذيفة كانت لما اشتد الحصار على المسلمين بالحنديق، وتمالأت عليهم الطوائف، ثم وقع بين الأحزاب الاختلاف، وحذرت كل طائفة من الأخرى، وأرسل الله عليهم الريح واشتد البرد تلك الليلة، فانتدب عليه السلام من يأتيه بخبر قريش فانتدب له حذيفة بعد تكراره طلب ذلك، وقصته في ذلك مشهورة لما دخل بين قريش في الليل وعرف قصتهم^(٢).

[دعاء]

وفي البخاري من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: دعا رسول

(١) رواه البخاري برقم ٤١١٣.

(٢) فتح الباري ٤٠٦/٧.

الله ﷺ على الأحزاب فقال: اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم^(١).

وروى أحمد عن أبي سعيد قال: قلنا يوم الخندق يا رسول الله هل من شيء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر قال: نعم، اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا. قال: فضرب الله وجوه أعدائنا بالريح.

وفي «ينبوع الحياة»^(٢) لابن ظفر: قيل إنه ﷺ دعا فقال: يا صريخ المكروبين يا مجيب المضطرين اكشف همي وغمي وكربي فإنك ترى ما نزل بي وبأصحابي. فأتاه جبريل فبشره بأن الله سبحانه يرسل عليهم ريحاً وجنوداً، فأعلم أصحابه ورفع يديه قائلاً: شكراً شكراً، وهبت ريح الصبا ليلاً فقلعت الأوتاد وألقت عليهم الأبنية وكفأت القدر وسفت عليهم التراب ورمتهم بالحصى، وسمعوا في أرجاء معسكرهم التكبير وقعقة السلاح فارتحلوا هراباً في ليلتهم وتركوا ما استثقلوه من متاعهم. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾^(٣).

[انشغال المسلمين عن الصلاة]

وفي البخاري عن علي أن رسول الله ﷺ قال يوم الخندق: (ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس)^(٤) ومقتضى هذا أنه استمر اشتغاله بقتال المشركين حتى غابت الشمس.

(١) رواه البخاري برقم ٤١١٥.

(٢) اسم لكتاب في تفسير القرآن الكريم.

(٣) سورة الأحزاب. الآية ٩.

(٤) رواه البخاري برقم ٢٩٣١.

ويعارضه ما في صحيح مسلم عن ابن مسعود أنه قال: حبس المشركون رسول الله ﷺ عن صلاة العصر حتى احمرت الشمس أو اصفرت، فقال رسول الله ﷺ: شغلونا عن الصلاة الوسطى. الحديث^(١). ومقتضى هذا أنه لم يخرج الوقت بالكلية.

قال الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، الحبس انتهى إلى ذلك الوقت، أي الحمرة أو الصفرة، ولم تقع الصلاة إلا بعد المغرب انتهى.

وفي البخاري عن عمر بن الخطاب: أنه جاء يوم الخندق وجعل يسب كفار قريش قال: يا رسول الله، ما كدت أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب فقال ﷺ: والله ما صليتها، فنزلنا مع النبي ﷺ بطحان، فتوضأ للصلاة وتوضأنا، / فصلى العصر بعدما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب^(٢).

وقد يكون ذلك للاشتغال بأسباب الصلاة أو غيرها، ومقتضى هذه الرواية المشهورة أنه لم يفت غير العصر. وفي الموطأ: الظهر والعصر.

وفي الترمذي عن ابن مسعود أن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ عن أربع صلوات يوم الخندق. وقال: ليس بإسناده بأس إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من عبد الله، فمال ابن العربي إلى الترجيح وقال: الصحيح أن التي اشتغل عنها ﷺ واحدة وهي العصر.

وقال النووي: طريق الجمع بين هذه الروايات، أن وقعة

(١) رواه مسلم برقم ٦٢٨.

(٢) رواه البخاري برقم ٥٩٦.

الخنديق بقيت أياماً فكان هذا في بعض الأيام وهذا في بعضها. قال:
وأما تأخيره ﷺ صلاة العصر حتى غربت الشمس فكان قبل نزول
صلاة الخوف.

قال العلماء: يحتمل أن يكون أخرها نسياناً لا عمدأً، وكان
السبب في النسيان الاشتغال بأمر العدو، ويحتمل أنه أخرها عمدأً
للاشتغال بالعدو قبل نزول صلاة الخوف، وأما اليوم فلا يجوز تأخير
الصلاة عن وقتها بسبب العدو والقتال، بل يصلي صلاة الخوف على
حسب الحال.

وقد اختلف في المراد بالصلاة الوسطى. وجمع الحافظ الدمياطي
في ذلك مؤلفاً مفرداً سماه: كشف المغطى عن الصلاة الوسطى، فبلغ
تسعة عشر قولاً، وهي: الصبح أو الظهر، أو العصر، أو المغرب، أو
جميع الصلاة وهو يتناول الفرائض والنوافل واختاره ابن عبد البر، أو
الجمعة وصححه القاضي حسين في صلاة الخوف من تعليقه، أو الظهر
في الأيام والجمعة يوم الجمعة، أو العشاء لأنها بين صلاتين لا
تقصران، أو الصبح والعشاء، أو الصبح والعصر لقوة الأدلة. فظاهر
القرآن الصبح، ونصر السنة العصر، أو صلاة الجماعة أو الوتر أو
صلاة الخوف أو صلاة عيد الأضحى أو الفطر أو صلاة الضحى، أو
واحدة من الخمس غير معينة، أو الصبح أو العصر على التردد وهو
غير القول السابق أو التوقف انتهى.

[انتهاء غزوة الخندق]

وانصرف ﷺ من غزوة الخندق يوم الأربعاء لسبع ليال بقين من
ذي القعدة، وكان قد أقام بالخنديق خمسة عشر يوماً، وقيل أربعة
وعشرين يوماً.

وقال ﷺ: لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا^(١).

وفي ذلك علم من أعلام النبوة^(٢). فإنه ﷺ اعتمر في السنة التي صدته قريش عن البيت، ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها فكان ذلك سبب فتح مكة فوق الأمر كما قال عليه الصلاة والسلام. وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى.

وقد أخرج البزار من حديث جابر بإسناد حسن شاهداً لهذا ولفظه: إن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب، وقد جمعوا له جمعاً كثيرة: لا يغزونكم بعدها أبداً، ولكن أنتم تغزونهم.

(١) روى البخاري في كتاب المغازي برقم ٤١١٠ عن سليمان بن صرد قال: سمعت النبي ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه: (الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم)،

(٢) هذا الكلام من فتح الباري وحتى نهاية الفقرة كلها ٤٠٥/٧.

[غزوة بني قريظة]

[الخروج إلى بني قريظة]

ولما دخل ﷺ المدينة يوم الأربعاء هو وأصحابه ووضعوا السلاح جاء جبريل عليه السلام معتجراً بعمامة من استبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج.

وفي رواية البخاري من حديث عائشة أنه لما رجع ﷺ ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل فقال له: قد وضعت السلاح، والله ما وضعناه. فاخرج إليهم.. وأشار إلى بني قريظة^(١).

وعند ابن إسحاق: إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمززل بهم. فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة.

وعند ابن عائد: قم فشد عليك سلاحك، فوالله لأدقنهم دق البيض على / الصفا، وبعث يومئذ منادياً ينادي يا خيل الله اركبي. ١/٦١

وعند الحاكم والبيهقي: وبعث علياً على المقدمة، وخرج ﷺ في أثره.

(١) رواه البخاري برقم ٤١١٧.

و ندد ابن سعد: ثم سار إليهم في المسلمين، وهم ثلاثة آلاف
والخيل، و ثلاثون فرساً، وذلك يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي
القعدة.

واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، فيما قاله ابن هشام.

[الصلاة في بني قريظة]

ونزل ﷺ على بئر من آبار بني قريظة وتلاحق به الناس. فأتى
رجال منهم بعد العشاء الآخرة، ولم يصلوا العصر، لقوله ﷺ: (لا
يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة) فصلوا العصر بها بعد العشاء
الآخرة، فما عابهم الله بذلك في كتابه ولا عنفهم به رسول الله ﷺ.

وفي البخاري عن ابن عمر: فأدرك بعضهم العصر في الطريق،
فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم بل نصلي، لم يرد
منا ذلك، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحداً منهم^(١).

كذا وقع في جميع النسخ من البخاري: أنها العصر. واتفق عليه
جميع أهل المغازي.

ووقع في مسلم أنها الظهر مع اتفاق البخاري ومسلم على روايته
عن شيخ واحد وبإسناد واحد. ووافق مسلماً أبو يعلى وآخرون.

وجمع بين الروایتين باحتمال أن يكون بعضهم - قبل الأمر - كان
صلى الظهر، وبعضهم لم يصلها، فقليل لمن لم يصلها لا يصلين أحد
الظهر، ولمن صلاها: لا يصلين أحد العصر.

وجمع بعضهم باحتمال أن تكون طائفة منهم راحت بعد طائفة،

(١) رواه البخاري برقم ٤١١٩.

ف قيل للطائفة الأولى: الظهر، وللطائفة التي بعدها العصر^(١)، والله أعلم.

[الحصار]

قال ابن إسحاق: وحاصرهم ﷺ خمساً وعشرين ليلة، حتى أجهدهم الحصار.

وعند ابن سعد: خمس عشرة. وعند ابن عتبة: بضع عشرة ليلة.

وقذف الله في قلوبهم الرعب. فعرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد أن يؤمنوا فقال لهم: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني أعرض عليكم خلافاً ثلاثاً، فخذوا أيها شتمتم. قالوا: وما هي:

قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين أنه لنبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. فأبوا.

فقال: إذا أبيتم علي هذه، فهلم نقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين بالسيوف، لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا ما نخشى عليه.

فقالوا: أي عيش لنا بعد أبنائنا ونسائنا.

فقال: إن أبيتم علي هذه فإن الليلة ليلة السبت، وعسى أن

(١) نقلاً عن فتح الباري ٤٠٩/٧.

يكون محمد وأصحابه قد آمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة.

قالوا: نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا، إلا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ.

[أبو لبابة]

وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة - وهو رفاعة ابن عبد المنذر - نستشيره في أمرنا.

فأرسله إليهم، فلما رآوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرق لهم، وقالوا يا أبا لبابة، أترى أن نزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه: إنه الذبح.

قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانها حتى عرفت أنني قد خنت الله ورسوله.

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه فلم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمدته، وقال: لا أبرح من مكاني هذا حتى يتوب الله علي مما صنعت وعاهد الله/ أن لا يطأ بني قريظة أبداً، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً.

فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره، وكان قد استبطأه قال: أما لو جاءني لاستغفرت له، وأما إذا فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

قال: وأقام أبو لبابة مرتبطاً بالجدع ست ليال، تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة ثم تعود فتربطه بالجدع.

وقال أبو عمر: روى وهب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر أن أبا لبابة ارتبط بسلسلة ثقيلة بضع عشرة ليلة حتى ذهب سمعه، فما كاد يسمع، وكاد يذهب بصره، وكانت ابنته تحمله إذا حضرت الصلاة، أو أراد أن يذهب لحاجة، فإذا فرغ أعادته.

وعن [يزيد بن] (١) عبد الله بن قسيط: أن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة. قالت أم سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك، فقالت: قلت مم تضحك، أضحك الله سنك. قال: تيب على أبي لبابة. قالت: قلت أفلا أبشره يا رسول الله، قال: بلى إن شئت. قال: فقامت على باب حجرتها - وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب - فقالت: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك. قالت: فثار الناس إليه ليطلقوه، فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده، فلما مر عليه خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه.

وروى البيهقي في دلائله بسنده عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ (٢) قال: هو أبو لبابة إذ قال لبني قريظة ما قال وأشار إلى حلقه إن محمداً يذبحكم إن نزلتم على حكمه. قال البيهقي وترجم محمد بن إسحاق بن يسار أن ارتباطه كان حينئذ.

وقد روينا عن ابن عباس ما دل على أن ارتباطه بسارية المسجد كان لتخلفه عن غزوة تبوك، كما قال ابن المسيب قال: وفي ذلك نزلت هذه الآية.

(١) كذا في ش، وقد سقطت من النسخ وهو خلاف ما عند ابن إسحاق وغيره، أنه عن يزيد، وهو الصواب.

(٢) سورة التوبة. الآية ١٠٢.

[حكم سعد بن معاذ]

ولما اشتد الحصار ببني قريظة أذعنوا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فحكم فيهم سعد بن معاذ، وكان قد جعله في خيمة في المسجد الشريف لامرأة من أسلم يقال لها ربيعة وكانت تداوي الجرحى، فلما حكمه أتاه قومه فحملوه على حمار وقد وطؤوا له بوسادة من آدم - وكان رجلاً جسيماً - ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ.

فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال عليه الصلاة والسلام: قوموا إلى سيدكم. فأما المهاجرون من قريش فيقولون إنما أراد رسول الله ﷺ الأنصار، وأما الأنصار فيقولون: عم بها رسول الله ﷺ المسلمين.

فقالوا: إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم. فقال سعد: فإني أحكم فيهم، أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبي الذراري والنساء.

فقال ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة. والرقيع: السماء سميت بذلك لأنها رقت بالنجوم. ووقع في البخاري: قال: قضيت فيهم بحكم الله، وربما قال: بحكم الملك^(١) - بكسر اللام -.

وفي رواية محمد بن صالح^(٢) لقد حكمت اليوم فيهم بحكم الله الذي حكم به من فوق سبع سموات^(٣).

(١) رواه البخاري برقم ٤١٢١.

(٢) محمد بن صالح بن دينار المدني، صدوق يخطيء مات سنة ثمان وستين ومائة، خرج له أصحاب السنن.

(٣) أخرجه الترمذي.

وفي حديث جابر - عند ابن عائد - فقال: احكم فيهم يا سعد، فقال: الله ورسوله أحق بالحكم/، قال: قد أمرك الله أن تحكم ١/٦٢ فيهم.

وفي هذه القصة: جواز الاجتهاد في زمنه ﷺ وهي مسألة اختلف فيها أهل أصول الفقه. والمختار: الجواز، سواء كان في حضرته ﷺ أم لا، وإنما استبعد المانع وقوع الاعتماد على الظن مع إمكان القطع، ولا يضر ذلك لأنه بالتقرير يصير قطعياً، وقد ثبت وقوع ذلك بحضرته ﷺ كما في هذه القصة وغيرها. انتهى.

[تنفيذ الحكم]

وانصرف ﷺ يوم الخميس لسبع ليال - كما قال الدمياطي، أو لخمس كما قاله مغلطاي - خلون من ذي الحجة.

وأمر ﷺ ببني قريظة فأدخلوا المدينة، وحفر لهم أخدود في السوق، وجلس ﷺ ومعه أصحابه، وأخرجوا إليه فضربت أعناقهم، وكانوا ما بين ستمائة إلى سبعمائة، وقال السهيلي: المكثر يقول إنهم ما بين الثمانمائة إلى التسعمائة، وفي حديث جابر عند الترمذي والنسائي وابن حبان بإسناد صحيح أنهم كانوا أربعمائة مقاتل.

فيحتمل في طريق الجمع أن يقال: إن الباقيين كانوا أتباعاً.

واصطفى ﷺ لنفسه الكريمة ربحانة فتزوجها، وقيل كان يطؤها بملك اليمين، وأمر بالغنائم فجمعت، وأخرج الخمس من المتاع والسبي ثم أمر بالباقي فبيع فيمن يريد وقسمه بين المسلمين، فكانت على ثلاثة آلاف واثنين وسبعين سهماً، للفرس سهمان ولصاحبه سهم، وصار الخمس إلى محمية بن جزء الزبيدي^(١)، فكان النبي ﷺ يعتق منه

(١) صحابي قديم الإسلام، كان عامل رسول الله ﷺ على الأخماس.

ويهب ويخدم منه من أراد، وكذلك صنع بما صار إليه من الرثة - وهو السقط من المتاع - .

[موت سعد بن معاذ]

وانفجر جرح سعد بن معاذ، فمات شهيداً.

وفي البخاري أنه دعا: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلى أن أجاهدكم فيك من قوم كذبوا رسولك [وأخرجوه]^(١)، اللهم إني أظن أنك قد وضعت الحرب فافجرها واجعل موتي فيها، فانفجرت من لبتة، فلم يرعهم - وفي المسجد خيمة لامرأة من بني غفار - إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا سعد يغذو جرحه دماً فمات منها^(٢).

وقد كان ظن سعد مصيباً، ودعاؤه في هذه القصة مجاباً، وذلك أنه لم يقع بين المسلمين وبين قريش من بعد وقعة الخندق حرب يكون ابتداء القصد فيه من المشركين، فإنه ﷺ تجهز إلى العمرة فصدوه عن دخول مكة، وكاد الحرب أن يقع بينهم فلم يقع كما قال تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾^(٣) ثم وقعت الهدنة واعتمر عليه السلام من قابل، واستمر ذلك إلى أن نقضوا العهد فتوجه إليهم غازياً ففتحت مكة، فعلى هذا:

(١) في ش وهي في البخاري.

(٢) رواه البخاري برقم ٤١٢٢.

(٣) سورة الفتح الآية ٢٤. قال الشارح: وهو الصحيح في نزول الآية لحديث مسلم أنه طاف من المشركين ثمانون بعسكر المسلمين فأخذوا. . وعفا عنهم النبي ﷺ.

فالمراد بقوله: أظن أنك قد وضعت الحرب، أي: أن يقصدونا محاربين. وهو كقوله ﷺ: نغزوهم ولا يغزونا - كما تقدم -.

وقد بين سبب انفجار جرح سعد في مرسل حميد بن هلال - عند ابن سعد - ولفظه: أنه مرت به عنز، وهو مضطجع، فأصاب ظلها موضع النحر^(١) فانفجرت حتى مات.

[واهتز عرش الرحمن]

وحضر جنازته سبعون ألف ملك، واهتز لموته عرش الرحمن. رواه الشيخان^(٢).

قال النووي: اختلف العلماء في تأويله:

فقال طائفة: هو على ظاهره، واهتزاز العرش تحركه فرحاً بقدم سعد، وجعل الله تعالى في العرش تمييزاً حصل به هذا، ولا مانع منه، كما قال تعالى: ﴿وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾^(٣). وهذا القول هو ظاهر الحديث. وهو المختار. قال المازري: قال بعضهم: هو على حقيقته، وأن العرش تحرك لموته، وهذا لا ينكر من جهة العقل، لأن العرش جسم / من الأجسام، يقبل الحركة ٦٢/ب والسكون. قال: لكن لا تحصل فضيلة سعد بذلك إلا أن يقال: إن الله تعالى جعل حركته علامة للملائكة على موته.

وقال آخرون: المراد بالاهتزاز الاستبشار والقبول. ومنه قول العرب: فلان يهتز للمكارم، لا يريدون اضطراب جسمه وحركته،

(١) في (ط، د): الفجر، وكلاهما صحيح في معناه.

(٢) رواه البخاري برقم ٣٨٠٣ ومسلم في فضائل الصحابة ١٢٣ - ١٢٥.

(٣) سورة البقرة. الآية ٧٤.

ولمّا يريدون ارتياحه إليها، وإقباله عليها.

وقال الحربي: هو عبارة عن تعظيم شأن وفاته، والعرب تنسب الشيء المعظم إلى أعظم الأشياء، فيقولون: أظلمت لموت فلان الأرض، وقامت له القيامة.

وقال جماعة: المراد اهتزاز سرير الجنّازة. وهو النعش. وهذا القول باطل يرده صريح الروايات التي ذكرها مسلم «اهتز لموته عرش الرحمن» وإنما قال هؤلاء هذا التأويل لكونهم لم تبلغهم هذه الروايات التي ذكرها مسلم والله أعلم. انتهى.

وقيل المراد باهتزاز العرش حملة العرش، وصحح الترمذي من حديث أنس قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون لرسول الله ﷺ ما أخف جنازته، فقال النبي ﷺ: إن الملائكة كانت تحمله.

وعن البراء قال: أهديت للنبي ﷺ حلة حرير، فجعل أصحابه يمسونها ويعجبون من لينها، فقال ﷺ: أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين. هذا لفظ رواية أبي نعيم في مستخرجه على مسلم^(١).

والمناديل: جمع مندِيل - بكسر الميم في المفرد - وهو معروف.

قال العلماء: وهذا إشارة إلى عظم منزلة سعد في الجنة، وأن أدنى ثيابه فيها خير من هذه، لأن المندِيل أدنى الثياب، لأنه معد للوسخ والامتهان، فغيره أفضل. انتهى.

(١) رواه البخاري برقم ٣٨٠٢ ومسلم برقم ٢٤٦٨، ولم يعزه المصنف لهما، لزيادة «في الجنة» وقد زادها البخاري في كتاب الهبة لكن من حديث أنس.

وأخرج ابن سعد وأبو نعيم، من طريق محمد بن المنكدر عن محمد بن شرحبيل بن حسنة قال: قبض إنسان يومئذ بيده من تراب قبره قبضة فذهب بها، ثم نظر إليها بعد ذلك فإذا هي مسك، فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله، سبحان الله، حتى عرف ذلك في وجهه، فقال: الحمد لله، لو كان أحد ناجياً من ضمة القبر لنجا منها سعد، ضم ضمة ثم فرج الله عنه.

وأخرج ابن سعد عن أبي سعيد الخدري قال: كنت ممن حفر لسعد قبره، فكان يفوح علينا المسك كلما حفرناه.

★ ★ ★

[فرض الحج]

قال الحافظ مغلطاي وغيره: وفي هذه السنة فرض الحج. وقيل: سنة ست وصححه غير واحد، وهو قول الجمهور.

وقيل: سنة سبع، وقيل: سنة ثمان ورجحه جماعة من العلماء.

وسياتي البحث في ذلك إن شاء الله تعالى في ذكر وفد عبد القيس في المقصد الثاني، وفي ذكر حجه عليه الصلاة والسلام من مقصد عباداته.

[بين قريظة والحديبية]

[سرية محمد بن مسلمة]

ثم سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء، بطن من بني بكر بن كلاب وهم ينزلون بناحية ضربة بالبكرات، وبين ضربة والمدينة سبع ليال. لعشر ليال خلون من المحرم سنة ست على رأس تسعة وخمسين شهراً من الهجرة.

بعثه في ثلاثين راكباً، فلما أغار عليهم هرب سائرهم.

وعند الدمياطي: فقتل نفرأ منهم وهرب سائرهم. واستاق نعمأ وشاء، وقدم المدينة لليلة بقيت من المحرم ومعه ثمامة بن أثال الحنفي أسيراً.

فربط بأمره ﷺ بسارية من سواري المسجد، ثم أطلق بأمره ﷺ، فاغتسل وأسلم وقال: يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك فأصبح دينك أحب الأديان كلها إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلي. وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره النبي ﷺ، وأمره أن يعتمر. / ١/٦٣

فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا، ولكن أسلمت مع رسول الله ﷺ، ولا والله يأتكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ. ذكر قصته البخاري (١).

غزوة بني لحيان

ثم غزوة بني لحيان - بكسر اللام وفتحها، لغتان - في ربيع الأول سنة ست من الهجرة. وذكرها ابن إسحاق في جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من قريظة. قال ابن حزم: الصحيح أنها في الخامسة.

قالوا: وجد رسول الله ﷺ على عاصم بن ثابت وأصحابه وجداً شديداً، فأظهر أنه يريد الشام، وعسكر في مائتي رجل ومعهم عشرون فرساً. واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم.

ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غران - واد بين أمج وعسفان، وبينها وبين عسفان خمسة أميال - حيث كان مصاب أصحابه أهل الرجيع الذين قتلوا ببئر معونة، فترحم عليهم ودعا لهم.

فسمعت به بنو لحيان فهربوا في رؤوس الجبال، فلم يقدر منهم على أحد، فأقام يوماً أو يومين يبعث سرايا في كل ناحية. ثم خرج حتى أتى عسفان فبعث أبا بكر في عشرة فوارس لتسمع به قريش فيذعروهم، فأتوا كراع الغميم، ثم رجعوا ولم يلقوا أحداً.

وانصرف ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيداً وهو يقول: آيئون تائبون عابدون لربنا حامدون. وغاب عن المدينة أربع عشرة ليلة.

(١) رواه البخاري برقم ٤٣٧٢ ومسلم برقم ١٧٦٤ .

غزوة الغابة

وتعرف بذى قرد - بفتح القاف والراء وبالبدال المهملة - وهو ماء على بريد من المدينة. في ربيع الأول سنة ست، قبل الحديبية. وعند البخاري أنها كانت قبل خيبر بثلاثة أيام، وفي مسلم نحوه. قال مغلطاي: وفي ذلك نظر لإجماع أهل السير على خلافهما. انتهى.

قال القرطبي شارح مسلم: لا يختلف أهل السير أن غزوة ذي قرد كانت قبل الحديبية.

وقال الحافظ ابن حجر: ما في الصحيح من التاريخ لغزوة ذي قرد أصح مما ذكر أهل السير. انتهى.

وسببها: أنه كان لرسول الله ﷺ عشرون لقحة - وهي ذوات اللبن القريبة العهد بالولادة - ترعى بالغابة، وكان أبو ذر فيها، فأغار عليهم عيينة بن حصن الفزاري ليلة الأربعاء، في أربعين فارساً فاستاقوها، وقتلوا ابن أبي ذر.

وقال ابن إسحاق: وكان فيها^(١) رجل من بني غفار وامرأة^(٢)، فقتلوا الرجل وسبوا المرأة، فركبت ناقة للنبي ﷺ ليلاً حين غفلتهم ونذرت لئن نجت لتنحرنها، فلما قدمت على النبي ﷺ أخبرته بذلك فقال: لا نذر في معصية، ولا لأحد فيها لا يملك.

ونودي: يا خيل الله اركبي، وكان أول ما نودي بها.

(١) كذا في ش وابن هشام. وفي النسخ: وكان فيهم. وهو خطأ.

(٢) الرجل: ابن أبي ذر، والمرأة امرأة أبي ذر.

وركب رسول الله ﷺ في خمسمائة وقيل: سبعمائة، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وخلف سعد بن عبادة في ثلاثمائة يجرسون المدينة.

وكان قد عقد للمقداد بن عمرو لواء في رحمه وقال له امض حتى تلحقك الخيول، وأنا على أثرك. فأدرك أخريات العدو. وقتل أبو قتادة مسعدة فأعطاه رسول الله ﷺ فرسه وسلاحه. وقتل عكاشة بن محسن أبان بن عمرو. وقتل من المسلمين محرز بن نضلة قتله مسعدة.

وأدرك سلمة بن الأكوع القوم، وهو على رجله، فجعل يرميهم بالنبل ويقول:

خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع
يعني هلاك اللثام، من قولهم: لثيم راضع، أي راضع اللؤم في بطن أمه، وقيل معناه: اليوم يعرف من أرضعته الحرب من صغره وتدرّب بها، ويعرف غيره. /

٦٣/ب

ولحق رسول الله ﷺ الناس والخيول عشاء، قال سلمة: فقلت يا رسول الله إن القوم عطاش، فلو بعثتني في مائة رجل استنقذت ما في أيديهم من السرح وأخذت بأعناق القوم. فقال ﷺ: ملكت فأسجج - وهي بهمزة قطع ثم سين مهملة ثم جيم مكسورة ثم حاء مهملة - أي فارق وأحسن، والسجاجة: السهولة، أي لا تأخذ بالشدة بل ارفق. فقد حصلت النكاية في العدو والله الحمد. ثم قال: إنهم ليقرون في غطفان.

وذهب الصريخ إلى بني عمرو بن عوف فجاءت الأمداد فلم تزل الخيل تأتي والرجال على أقدامهم وعلى الإبل حتى انتهوا إلى

رسول الله ﷺ بذى قرد فاستنقذوا عشر لقاح، وأفلت القوم بما بقي وهي عشر.

وصلى رسول الله ﷺ بذى قرد صلاة الخوف، وأقام يوماً وليلة ورجع. وقد غاب خمس ليال، وقسم في كل مائة من أصحابه جزوراً ينحرونها.

[سرية الغمر]

سرية عكاشة بن محصن الأسدي إلى غمر مرزوق - بالغين المعجمة المفتوحة^(١) - وهو ماء لبني أسد على ليلتين من فيد، في شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة، في أربعين رجلاً، فخرج سريعاً، فنذر به القوم - بكسر الذال المعجمة كفرح - فهربوا فنزلوا علياء بلادهم. فاستاقوا مائتي بعير وقدموا على رسول الله ﷺ ولم يلقوا كيداً.

[سرية محمد بن سلمة إلى ذي القصة]

ثم سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة - بالقاف والصاد المهملة المشددة المفتوحين - موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً، في شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة. ومعه عشرة إلى بني ثعلبة.

فورد عليهم ليلاً فأحرق به القوم، وهم مائة رجل فتراموا ساعة من الليل ثم حملت الأعراب عليهم بالرماح فقتلوهم إلا محمد بن

(١) في (أ، ب، ط) المكسورة. قال الشارح: وفي نسخة المكسورة والصواب المذكور في العيون وغيرها المفتوحة.

مسلمة فوق جريحاً، وجردوهم من ثيابهم. فمر رجل من المسلمين
بمحمد بن مسلمة فحملة حتى ورد به المدينة.

فبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في ربيع الآخر في
أربعين رجلاً إلى مصارعهم، فأغاروا عليهم، فأعجزوهم هرباً في
الجبال، وأصاب رجلاً واحداً فأسلم وتركه، وأخذ نعماً من نعمهم
فاستاقه، ورثة من متاعهم وقدم به المدينة فخمسه رسول الله ﷺ
وقسم ما بقي عليهم.

قال في القاموس: الرث: السقط من متاع البيت، كالرثة
بالكسر.

[سرية زيد إلى الجموم]

ثم سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم بالجموم - ويقال: الجموح
- ناحية ببطن نخل من المدينة على أربعة أميال. في شهر ربيع الآخر
سنة ست، فأصابوا امرأة من مزينة يقال لها حليمة، فدلتهم على محلة
من محال بني سليم، فأصابوا نعماً وشاء وأسرى، فكان فيهم زوج
حليمة المزنية، فلما قفل زيد بما أصاب، وهب رسول الله ﷺ للمزنية
نفسها وزوجها.

[سرية زيد إلى العيص]

ثم سرية زيد بن حارثة أيضاً إلى العيص، موضع على أربع
ليال من المدينة، في جمادى الأولى سنة ست، ومعه سبعون راكباً، لما
بلغه ﷺ أن عيراً لقريش قد أقبلت من الشام يتعرض لها، فأخذها
وما فيها، وأخذ يومئذ فضة كثيرة لصفوان بن أمية، وأسر منهم ناساً،

منهم أبو العاصي بن الربيع^(١)، وقدم بهم المدينة، فأجارته زوجته زينب ابنة النبي ﷺ ونادت في الناس - حين صلى رسول الله ﷺ الفجر - ١/٦٤ إني قد/ أجرت أبا العاصي.

فقال رسول الله ﷺ: ما علمت بشيء من هذا، وقد أجرنا من أجرت. ورد عليه ما أخذ منه.

وذكر ابن عقبة: أن أسره كان على يد أبي بصير بعد الحديبية.

وكانت هاجرت قبله وتركته على شركه، وردها النبي ﷺ بالنكاح الأول، قيل بعد سنتين وقيل بعد ست سنين، وقيل قبل انقضاء العدة.

وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: ردها له بنكاح جديد سنة سبع.

[سرية زيد إلى الطرف]

ثم سرية زيد بن حارثة أيضاً إلى الطرف، وهو ماء على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة، في جمادى الآخرة سنة ست.

فخرج إلى بني ثعلبة في خمسة عشر رجلاً، فأصاب نعماً وشاء، وهربت الأعراب، وصبح زيد بالنعيم المدينة، وهي عشرون بعيراً، ولم يلتق كيداً، وغاب أربع ليال.

(١) الذي ذكره ابن هشام أن أبا العاصي بن الربيع أعجزهم هارباً. ثم جاء تحت ظلام الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ فاستجار بها فأجارته، ولو كان أسيراً لما استطاع أن يستجير بها، ولما كان لها أن تحيره. (انظر سيرة ابن هشام ٦٥٧/١) [المحقق].

[سرية زيد إلى حسمى]

ثم سرية زيد أيضاً إلى حسمى - بكسر المهملة - وهي وراء وادي^(١) القرى، وكانت في جمادى الآخرة سنة ست.

وسببها أنه أقبل دحية بن خليفة الكلبي من عند قيصر، وقد أجازته وكساه، فلقبه الهنيد في ناس من جذام بحسمى فقطعوا عليه الطريق، فسمع بذلك نفر من بني الضبيب فنفروا إليهم فاستنقذوا لدحية متاعه،

وقدم دحية على رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فبعث زيد بن حارثة وخمسة رجل، ورد معه دحية. فكان زيد يسير الليل ويكمن النهار، فأقبل بهم حتى هجموا مع الصبح على القوم فأغاروا عليهم، فقتلوا فيهم فأوجعوا، وقتلوا الهنيد وابنه، وأغاروا على ماشيتهم ونعمهم ونسائهم. فأخذوا من النعم ألف شاة، ومائة من النساء والصبيان.

فرحل زيد بن رفاعة الجذامي في نفر من قومه، فدفع إلى رسول الله ﷺ كتابه الذي كان كتب له ولقومه ليالي قدم عليه فأسلم، وبعث ﷺ علياً إلى زيد بن حارثة يأمره أن يخلي بينهم وبين حرمهم وأموالهم، فرد عليهم.

[سرية زيد إلى وادي القرى]

ثم سرية زيد أيضاً إلى وادي القرى أيضاً، في رجب سنة ست، فقتل من المسلمين قتلى، وارث زيد، أي حمل من المعركة رثيلاً، أي جريحاً وبه رمق - وهو مبني للمجهول، قاله في القاموس - .

(١) كذا في د وهو الصواب وفي بقية النسخ: ذات القرى .

[سرية ابن عوف إلى دومة الجندل]

ثم سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل، في شعبان سنة ست.

قالوا: دعا رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف، فأقعده بين يديه، وعممه بيده، وقال: اغز، باسم الله، وفي سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، ولا تغدر، ولا تقتل وليداً، وبعثه إلى كلب بدومة الجندل، وقال: إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم.

فسار عبد الرحمن حتى قدم دومة الجندل، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم الأصبح بن عمرو الكلبي، وكان نصرانياً، وكان رئيسهم، وأسلم معه ناس كثير من قومه، وأقام من أقام على إعطاء الجزية.

وتزوج عبد الرحمن تماضر - بضم المثناة الفوقية، وكسر الضاد المعجمة - بنت الأصبح، وقدم بها المدينة فولدت له أبا سلمة.

[سرية علي إلى بني سعد]

ثم سرية علي بن أبي طالب في شعبان سنة ست من الهجرة، ومعه مائة رجل إلى بني سعد بن بكر، لما بلغه ﷺ أن لهم جمعاً يريدون أن يمدوا يهود خيبر.

فأغاروا عليهم [بالغمج]^(١) بين فذك وخيبر، فأخذوا خمسمائة بعير وألفي شاة، وهربت بنو سعد، وقدم علي ومن معه المدينة ولم يلقوا كيداً.

(١) زيادة في ش.

[سرية زيد إلى أم قرفة]

ثم سرية زيد بن حارثة / إلى أم قرفة فاطمة بنت ربيعة بن ٦٤/ب بدر^(١) الفزارية، بناحية وادي القرى، على سبع ليال من المدينة في رمضان سنة ست من الهجرة.

وكان سببها: أن زيد بن حارثة خرج في تجارة إلى الشام. ومعه بضائع لأصحاب النبي ﷺ، فلما كان بوادي القرى لقيه ناس من فزارة من بني بدر، فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم.

وقدم على رسول الله ﷺ فأخبره، فبعثه عليه السلام إليهم، فكمّن هو وأصحابه بالنهار وساروا بالليل، ثم صبحهم زيد وأصحابه، فكبروا وأحاطوا بالحاضر، وأخذوا أم قرفة - وكانت ملكة رئيسة - وأخذوا ابنتها جارية بنت مالك بن حذيفة بن بدر.

وعمد قيس بن المحسر إلى أم قرفة - وهي عجوز كبيرة - فقتلها قتلاً عنيفاً، وربط بين رجلها حبلاً ثم ربطها بين بعيرين ثم زجرهما فذهبا فقطعاها^(٢).

(١) في (ب، ش) وكذا عند ابن هشام. وفي النسخ: ابن زيد.
(٢) وسبب ذلك هو سبها لرسول الله ﷺ. وقال بعضهم: إن هذا الخبر منكر. وفي صحيح مسلم برقم ١٧٧٥ حديث فيه سبي امرأة وابنتها وأنها سيقا إلى أبي بكر الذي كان قائد تلك السرية. قال الزرقاني هي أم قرفة وابنتها، وليس فيه ما يشير إلى قتل أم قرفة. انظر شرح الزرقاني ١٦٤/٢
أقول: لا شك بأن هذا الخبر عن قتل أم قرفة خبر منكر، ولو وقع شيء من هذا لبلغ الرسول ﷺ ولكان له فيه رأي، ولم ينقل عنه ﷺ شيء ثم إن تربية زيد في بيت رسول الله ﷺ تمنعه من مثل هذا التصرف الذي =

وقدم زيد بن حارثة من وجهه ذلك، ففرع باب النبي ﷺ،
فقام إليه عريانا يجر ثوبه، حتى اعتنقه وقبله، وسأله فأخبره بما أظفره الله به.

[قتل أبي رافع]

ثم سرية عبد الله بن عتيك لقتل أبي رافع، عبد الله - ويقال
سلام - بن أبي الحقيق اليهودي، وهو الذي حذب الأحزاب يوم
الخنندق.

وكانت هذه السرية في شهر رمضان سنة ست، كذا ذكره ابن
سعد هاهنا وذكر في ترجمة عبد الله بن عتيك: أنه بعثه في ذي الحجة
إلى أبي رافع سنة خمس بعد وقعة بني قريظة. وقيل في جمادى الآخرة
سنة ثلاث.

وفي البخاري: قال الزهري: بعد قتل كعب بن الأشرف.
وأرسل معه أربعة^(١): عبد الله بن عتيك، وعبد الله بن أنيس،
وأبا قتادة والأسود بن خزاعي، ومسعود بن سنان، وأمرهم بقتله.

فذهبوا إلى خير، فكمنوا، فلما هدأت الرجل جاؤوا إلى منزله
فصعدوا درجة له، وقدموا عبد الله بن عتيك لأنه كان يرطن
باليهودية، فاستفتح وقال: جئت أبا رافع بهدية، ففتحت له امرأته،
فلما رأت السلاح أرادت أن تصيح فأشار إليها بالسيف فسكتت،
فدخلوا عليه فما عرفوه إلا ببياضه، فعلوه بأسيا ففهم.

= ينهى عنه الإسلام ففي الحديث الشريف: (وإذا قتلتم فأحسنوا القتلة)
[المحقق].

(١) أي فصار المجموع خمسة.

وفي البخاري: وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه، وكان في حصن له.. فلما دنوا منه وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرهم، قال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجة، وقد دخل الناس، فهتف البواب: يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب، فدخلت، فكمنت فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علق الأغاليق على وتد، قال: فقممت إلى الأغاليق فأخذتها ففتحت الباب.

وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان في علالي له، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه، فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت علي من داخل، فانتهيت إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا أدري أين هو من البيت، فقلت: أبا رافع، قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف، وأنا دهش، فما أغنيت شيئاً، وصاح، فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمك الويل، إن رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف. قال: فأضربه ضربة أثختته ولم أقتله، ثم وضعت ضبيب^(١) السيف في بطنه، حتى أخذ في ظهره، فعرفت أنني قتلته.

وفي رواية له^(٢): ثم جئت كأني أغنيته فقلت: مالك يا أبا رافع؟

- وغيرت الصوت - فقال: /لأمك الويل، دخل علي رجل فضربني، ب/٦٥

(١) قال في الفتح: قال الخطابي هكذا يروى وما أراه محفوظاً إنما هو ظبة

السيف، وهو حده ٣٤٤/٧.

(٢) رواه البخاري برقم ٤٠٤٠.

قال: فعمدت له أيضاً فأضربه أخرى، فلم تغن شيئاً، فصاح وقام أهله، قال: ثم جئت وغيرت صوتي، كهيئة المغيث، فإذا هو مستلق على ظهره، فأضع السيف في بطنه، ثم أنكفئ عليه، فسمعت صوت العظم.

فجعلت أفتح الأبواب حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، ف وقعت في ليلة مقمرة فانكسرت ساقي، فعصبتها بعمامة، فلما صاح الديك قام الناعي على السور، فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاء، فقد قتل الله أبا رافع. فانتهيت إلى رسول الله ﷺ فحدثته فقال: أبسط رجلك، فمسحها النبي ﷺ، فكأنما لم أشتكها قط. هذا لفظ رواية البخاري^(١).

وفي رواية محمد بن سعد: أن الذي قتله عبد الله بن أنيس. والصواب: أن الذي دخل عليه وقتله عبد الله بن عتيك وحده، كما في البخاري.

[سرية ابن رواحة إلى ابن رزام]

وكان سببها أنه لما قتل أبو رافع سلام بن أبي الحقيق، أمرت يهود عليها أسيراً، فسار في غطفان وغيرهم يجمعهم لحربه ﷺ. وبلغه ذلك فوجه عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفر، في شهر رمضان سرّاً، فسأل عن خبره وغرته، فأخبر بذلك، فقدم على رسول الله ﷺ فأخبره.

(١) رواه البخاري برقم ٤٠٣٩ .

فندب عليه السلام الناس، فانتدب له ثلاثون رجلاً، فبعث عليهم عبد الله بن رواحة، فقدموا عليه وقالوا: إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه، يستعملك على خيبر ويحسن إليك، فطمع في ذلك فخرج وخرج معه ثلاثون رجلاً من اليهود، مع كل رجل رديف من المسلمين، حتى إذا كانوا بقرقرة ضربه عبد الله بن أنيس - وكان في السرية - بالسيف فسقط عن بعيره ومالوا على أصحابه فقتلوهم غير رجل، ولم يصب من المسلمين أحد، ثم قدموا على رسول الله ﷺ فقال: قد نجاكم الله من القوم الظالمين^(١).

[قصة عكل وعرينة]

سرية كرز - بضم الكاف وسكون الراء بعدها زاي - ابن جابر الفهري، إلى العرينين - بضم العين وفتح الراء المهملتين - حي من قضاة، وحي من بجيلة، والمراد هنا الثاني، كذا ذكره ابن عقبة في المغازي.

وذكر ابن اسحاق: أن قدومهم كان بعد غزوة ذي قرد، وكانت في جمادى الآخرة سنة ست.

وذكرها البخاري بعد الحديبية، وكانت في ذي القعدة منها.

وعند الواقدي: في شوال منها، وتبعه ابن سعد وابن حبان.

وفي البخاري - في كتاب المغازي - عن أنس أن ناساً من عكل

(١) في رواية ابن إسحاق وغيره بيان سبب ذلك قال: حتى إذا كانوا بالقرقرة.. ندم أسير على مسيره إلى رسول الله ﷺ ففطن له عبد الله بن أنيس وهو يريد السيف فاقترح به ثم ضربه بالسيف. سيرة ابن هشام ٦١٨/٢ وعند ابن سعد: أهوى أسير بيده إلى سيفي ففطنت له، فدفعت بعيري وقلت: غدراً أي عدو الله مرتين.. [م].

- يعني بضم العين وسكون الكاف - وعرينة قدموا على رسول الله ﷺ وتكلموا بالإسلام، فقالوا يا نبي الله، إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله ﷺ بذود^(١) وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها.

فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة، كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا الذود. فبلغ النبي ﷺ فبعث الطلب في آثارهم، فأمر بهم فسمروا أعينهم، وقطعوا أيديهم، وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم^(٢).

وفي لفظ: وسمروا أعينهم، ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا.

وفي لفظ: ولم يحسمهم، أي لم يكو مواضع القطع فينحسم الدم.

وقال أنس: إنما سمل رسول الله ﷺ أعينهم لأنهم سملوا أعين الرعاة رواه مسلم. فيكون ما فعل بهم قصاصاً. وفي رواية/ أنهم كانوا ثمانية.

ب/٦٥

وعند البخاري أيضاً - في المحاربين - أنهم كانوا في الصفة قبل أن يطلبوا الخروج إلى الإبل^(٣) وفي رواية قال أنس: فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه حتى مات.

وعند الدمياطي - كابن سعد^(٤) - أن اللقاح كانت خمسة عشر^(٥)

(١) من الإبل ما بين الثلاثة إلى العشرة.

(٢) رواه البخاري برقم ٤١٩٢.

(٣) قوله: إلى الإبل سقط من ط.

(٤) سقط من (ط، ب، د).

(٥) الأولى: خمس عشرة لقحة.

لقحة - بكسر اللام وسكون القاف - ويقال لها ذلك إلى ثلاثة أشهر.
وفي صحيح مسلم: أن السرية كانت قريباً من (١) عشرين فارساً
من الأنصار.

وروى ابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال: كان للنبي ﷺ
مولى يقال له: يسار، فنظر إليه يحسن الصلاة فأعتقه، وبعثه في لقاح له
بالحرة، فكان بها. قال: فأظهر قوم الإسلام من عرينة، وجاؤوا -
وهم مرضى موعوكون قد عظمت بطونهم - وعدوا على يسار فذبحوه
وجعلوا الشوك في عينيه، ثم طردوا الإبل، فبعث النبي ﷺ في آثارهم
خيلاً من المسلمين، أميرهم كرز بن جابر الفهري، فلحقهم فجاء بهم
إليه، فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمر أعينهم. قال ابن كثير: غريب
جداً.

وروى ابن جرير عن محمد بن إبراهيم عن جرير بن عبد الله
البعجلي قال: قدم على رسول الله ﷺ قوم من عرينة الحديث. وفيه
قال جرير: فبعثني رسول الله ﷺ ونفراً من المسلمين حتى أدركناهم،
فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وسمل أعينهم، فجعلوا يقولون:
الماء، ورسول الله ﷺ يقول: النار، حتى هلكوا. قال: وكره الله عز
وجل سمل الأعين، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى آخر الآية. وهو حديث غريب ضعيف. وفيه: أن
أمير السرية جرير بن عبد الله البعجلي. قال مغلطي: وفيه نظر، لأن
إسلام جرير كان بعد هذه بنحو أربع سنين.

وفي مغازي ابن عقبة: أن أمير هذه السرية سعيد بن زيد، كذا
عنده - بزيادة ياء - وعند غيره: أنه سعد - بسكون العين - ابن زيد

(١) قوله: قريباً من. سقط من ط.

الأشهبلي، وهذا أنصاري، فيحتمل أنه كان رأس الأنصار، وكان كرز أمير الجماعة.

وأما قوله: فكره الله سمل الأعين فأنزل الله هذه الآية، فإنه منكر. فقد تقدم أن في صحيح مسلم أنهم سملوا أعين الرعاة، فكان ما فعل بهم قصاصاً والله أعلم.

تنبيه: قال في فتح الباري: وزعم ابن التين تبعاً للداودي أن عرينة هم عكل وهو غلط، بل هما قبيلتان متغايرتان، عكل من عدنان، وعرينة من قحطان.

[بعث عمرو بن أمية لقتل أبي سفيان]

ثم سرية عمرو بن أمية الضمري إلى أبي سفيان بن حرب بمكة، لأنه أرسل للنبي ﷺ من يقاتله غدراً، فأقبل الرجل ومعه خنجر ليغتاله، فلما رآه النبي ﷺ قال: إن هذا يريد غدراً. فجذبه أسيد بن حضير بداخلة إزاره فإذا بالخنجر، فسقط في يده. فقال ﷺ: أصدقني ما أنت؟ قال: وأنا آمن؟ قال: نعم، فأخبره بخبره فخلى عنه ﷺ.

وبعث عمرو بن أمية الضمري ومعه سلمة بن أسلم، ويقال: جبار بن صخر إلى أبي سفيان وقال: إن أصبتما منه غرة فاقتلاه،

ومضى عمرو بن أمية يطوف بالبيت ليلاً، فرآه معاوية بن أبي سفيان، فأخبر قريشاً بمكانه، فخافوه وطلبوه، وكان فاتكاً في الجاهلية، فحشد له أهل مكة وتجمعوا له.

فهرب عمرو وسلمة، فلقي عمرو عبيد الله بن مالك التيمي فقتله، وقتل آخر، ولقي رسولين لقريش بعثتهما يتحسسان الخبر، فقتل أحدهما وأسر الآخر، فقدم به المدينة. فجعل عمرو يخبر رسول الله ﷺ خبره، وهو عليه السلام/ يضحك.

صاح الحديبية

ثم الحديبية - بتخفيف الياء وتشديدها - وهي بئر سمي المكان بها، وقيل شجرة، وقال المحب الطبري قرية قريبة من مكة أكثرها في الحرم، وهي على تسعة أميال من مكة.

[عدد أصحاب الحديبية]

خرج ﷺ يوم الإثنين هلال ذي القعدة سنة ست من الهجرة للعمرة، وأخرج معه زوجته أم سلمة، في ألف وأربعمائة. ويقال ألف وخمسمائة وقيل ألف وثلاثمائة^(١).

والجمع بين هذا الاختلاف: أنهم كانوا أكثر من ألف وأربعمائة، فمن قال: ألف وخمسمائة جبر الكسر، ومن قال ألف وأربعمائة ألغاه، ويؤيده رواية البراء: ألف وأربعمائة أو أكثر. واعتمد على هذا الجمع النووي. وأما رواية ألف وثلاثمائة فيمكن حملها على ما اطلع هو عليه، واطلع غيره على زيادة مائتين لم يطلع هو عليهم، والزيادة من الثقة مقبولة.

وأما قول ابن إسحاق: إنهم كانوا سبعمائة، فلم يوافقه أحد عليه، لأنه قاله استنباطاً من قول جابر: نحرنا البدنة عن عشرة، وكانوا نحروا سبعين بدنة، وهذا لا يدل على أنهم ما كانوا نحروا غير

(١) جميع هذه الروايات في البخاري.

البدن، مع أن بعضهم لم يكن أحرم أصلاً.
وجزم موسى بن عقبة: بأنهم كانوا ألفاً وستمائة.
وعند ابن أبي شيبة من حديث سلمة بن الأكوع: ألف وسبعمائة.
وحكى ابن سعد: ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين.

[في الطريق إلى مكة]

واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ولم يخرج معه سلاح إلا
سلاح المسافر السيوف في القرب.

وفي البخاري - في المغازي - عن المسور بن مخرمة ومروان بن
الحكم، قالوا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية في بضع عشرة مائة
من أصحابه، فلما كان بذي الحليفة قلد الهدي، وأشعر وأحرم منها -
وفي رواية: أحرم منها بعمرة - وبعث عيناً له من خزاعة. وسار النبي
ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط أتاه عينه فقال: إن قريشاً جمعوا لك
جمعوا، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت
ومانعوك.

فقال: أشيروا عليّ أيها الناس، أترون أن أميل إلى عيالمهم
وذراي هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت..

وفيه: قال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت لا
تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه،
قال: امضوا على اسم الله^(١).

وزاد أحمد: كان أبو هريرة يقول: ما رأيت أحداً قط كان أكثر
مشاورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) رواه البخاري برقم ٤١٧٨ .

وفي رواية للبخاري: (حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش).

(وسار النبي ﷺ، حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت راحلته، فقال الناس: حل حل^(١) فألحت - يعني تمادت على عدم القيام - فقالوا: خلأت القصواء^(٢) خلأت القصواء. فقال النبي ﷺ ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل).

أي حبسها الله عن دخول مكة كما حبس الفيل عن دخولها، ومناسبة ذلك أن الصحابة لو دخلوا مكة على تلك الصورة، وصدتهم قريش لوقع بينهم القتال المفضي إلى سفك الدماء ونهب الأموال، كما لو قدر دخول الفيل، لكن سبق في علم الله أنه سيدخل في الإسلام /
منهم خلق، ويستخرج من أصلابهم ناس يسلمون ويجاهدون. انتهى
(ثم قال ﷺ: والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمان الله إلا أعطيتهم إياها).

(ثم زجرها فوثبت. قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء - يعني حفرة فيها ماء قليل - يتبرضه الناس تبرضاً - أي يأخذونه قليلاً قليلاً - فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه).

(١) كلمة تقال للناقة إذا تركت السير .

(٢) الخلاء للإبل كالحران للخيل .

[مع بديل بن ورقاء]

(فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة. - وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة - فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت).
والعوذ: بالذال المعجمة: جمع عائد - وهي الناقة ذات اللبن.
والمطافيل: الأمهات اللاتي معها أطفالها.

يريد أنهم خرجوا معهم بذوات الألبان من الإبل ليتزودوا بألبانها، ولا يرجعوا حتى يمنعوه، أو كنى بذلك عن النساء معهن الأطفال. والمراد أنهم خرجوا بنسائهم وأولادهم لإرادة طول المقام ليكون أدعى إلى عدم الفرار.

(فقال رسول الله ﷺ: إنا لم نجىء لقتال أحد، ولكننا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضررت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس [إن شاؤوا]،^(١) فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جوا - يعني استراحوا - وإن هم أبوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي - أي صفحة العنق، كنى بذلك عن القتل - ولينفذن الله أمره).

(فقال بديل: سأبلغهم ما تقول. فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم

(١) كذا في النسخ وليست في البخاري. قال الشارح: كذا عزاه المصنف لأبي ذر عن المستملي والكشميهني، وسقط للباقيين، فكان ذكرها مجرد تأكيد.

أن نعرضه عليكم فعلنا فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول. قال سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي ﷺ).

[مع عروة بن مسعود]

(فقام عروة بن مسعود، فقال: أي قوم، أستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: أستم تعلمون أنني استنفرت أهل عكاظ فلما بلحوا علي - وهو بالحاء المهملة، أي تمنعوا من الإجابة - جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا بلى قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد - أي خصلة خير وصلاح - اقبلوها، ودعوني آتة، قالوا آتته).

(فأتاه، فجعل يكلم النبي ﷺ فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل. فقال عروة عند ذلك: أي محمد، رأيت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإني والله لا أرى^(١) وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليفاً أن يفروا ويدعوك).

(فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟).

قال العلماء: وهذا مبالغة من أبي بكر في سب عروة، فإنه أقام معبود عروة، وهو صنمه مقام أمه، وحمله على ذلك ما أغضبه به من نسبه إلى الفرار.

(١) في النسخ لأرى: بالإثبات. وفي البخاري: لا أرى، والمعنى أنه لا يرى بين أصحابه رجالاً عظاماً يمكن الاعتقاد عليهم وإنما هم أشواب أي =

والبظر: - بالباء الموحدة المفتوحة والظاء المعجمة الساكنة - قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة. واللات: اسم صنم. والعرب تطلق هذا اللفظ في معرض الذم. انتهى.

(فقال - أي عروة - : من هذا؟ قالوا: أبو بكر، فقال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت/ لك عندي لم أجزك بها لأجبتك). 1/61

(قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، فكلما تكلم أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال: أحر يدك عن لحية رسول الله ﷺ).

قال العلماء: وقد كانت عادة العرب أن يتناول الرجل لحية من يكلمه، لا سيما عند الملاطفة، وفي الغالب إنما يصنع ذلك النظر بالنظر، لكن كان ﷺ يغضي لعروة استماله له وتأليفاً. والمغيرة يمنعه إجلالاً للنبي ﷺ وتعظيماً. انتهى

قال (فرع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غدر، أأست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء.) .

(ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا

= أخلاط. قال في القاموس: الوجه سيد القوم. والملاحظ أن الزرقاني أكد ما في النسخ فقال: هكذا هو في البخاري بالإثبات. وفي قوله نظر [م].

يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يجدون إليه النظر تعظيماً له).

قال في فتح الباري: فيه إشارة إلى الرد على ما خشيه من فرارهم، فكأنهم قالوا بلسان الحال: من يحبه هذه المحبة ويعظمه هذا التعظيم كيف يظن أنه يفر عنه ويسلمه لعدوه، بل هم أشد اغتباطاً به وبدينه ونصره من هذه القبائل التي تراعي بعضها بمجرد الرحم والله أعلم. انتهى^(١).

قال: (فرجع عروة إلى أصحابه فقال أي قوم. والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يجدون إليه النظر تعظيماً له. وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها).

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا آته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له، فبعثت له، واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت).

(١) فتح الباري ٣٤١/٥.

[سهيل وعقد الصلح]

(فقام رجل منهم يقال له مكرز^(١) بن حفص، فقال دعوني آته.. فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: هذا مكرز، وهو رجل فاجر. فجعل يكلم النبي ﷺ).

(فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، قال معمر فأخبر أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل قال النبي ﷺ: قد سهل لكم من أمركم).

وفي رواية ابن إسحاق: فدعت قريش سهيل بن عمرو فقالت: اذهب إلى هذا الرجل فصالحه، فقال النبي ﷺ: قد أرادت قريش الصلح حين بعثت هذا، فلما انتهى إلى النبي ﷺ جرى بينهما القول حتى وقع بينهما الصلح على أن توضع الحرب بينهم عشر سنين/ وأن يأمن بعضهم بعضاً، وأن يرجع عنهم عامهم هذا.

(وقال معمر قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً. فدعا النبي ﷺ الكاتب. فقال له النبي ﷺ اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل: أما الرحمن الرحيم^(٢) فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم، كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن

(١) في الأصل هنا بعد مكرز: بكسر الميم وسكون الكاف وفتح الراء بعدها زاي.

(٢) كذا في النسخ: الرحمن الرحيم. والذي في البخاري: الرحمن.

الرحيم، فقال النبي ﷺ: اكتب باسمك اللهم. ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله - وفي حديث عبد الله بن مغفل عند الحاكم: هذا ما صالح محمد رسول الله أهل مكة. الحديث - فقال سهيل: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك. ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ: والله إني لرسول الله وإن كذبتُموني^(١)

وفي رواية له - يعني البخاري - ولسلم: فقال النبي ﷺ لعلي: احه، فقال ما أنا بالذي أحماه، وهي لغة في أحوه^(٢).

قال العلماء: وهذا الذي فعله علي من باب الأدب المستحب، لأنه لم يفهم من النبي ﷺ تحتم محو علي نفسه، ولهذا لم ينكر عليه، ولو حتم محوه لنفسه لم يجوز لعلي تركه انتهى.

ثم قال ﷺ أرني مكانها فأراه مكانها فمحاها وكتب: ابن عبد الله.

وفي رواية البخاري - في المغازي - فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب - وليس يحسن يكتب - فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله^(٣).

وكذا أخرجه النسائي وأحمد ولفظه: فأخذ الكتاب - وليس يحسن أن يكتب - فكتب مكان رسول الله: هذا ما قاضى عليه محمد ابن عبد الله.

(١) كل ما سبق من الفقرات التي بين قوسين هي من رواية البخاري برقم ٢٧٣١.

(٢) رواه البخاري برقم ٢٦٩٨.

(٣) رواه البخاري برقم ٤٢٥١.

[أمية الرسول ﷺ]

قال في فتح الباري: وقد تمسك بظاهر هذه الرواية أبو الوليد الباجي^(١) فادعى أن النبي ﷺ كتب بيده بعد أن لم يكن يحسن أن يكتب.

فشنع عليه علماء الأندلس في زمانه ورموه بالزندقة، وأن الذي قاله يخالف القرآن حتى قال قائلهم: برئت ممن شرى دنيا بآخرة وقال إن رسول الله قد كتبنا فجمعهم الأمير فاستظهر الباجي عليهم بما لديه من المعرفة وقال [للأمير]:^(٢)

هذا لا ينافي القرآن، بل يؤخذ من مفهوم القرآن، لأنه قيد النفي بما قبل ورود القرآن، قال تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك﴾^(٣) وبعد أن تحققت أميته وتقررت بذلك معجزته، وأمن الارتياب في ذلك، لا مانع من أن يعرف الكتابة بعد ذلك من غير تعليم، فيكون معجزة أخرى.

وذكر ابن دحية أن جماعة من العلماء وافقوا الباجي على ذلك،

(١) سليمان بن خلف بن سعد، أبو الوليد الباجي نسبة إلى باجة مدينة بالأندلس. العلامة الحافظ ذو الفنون، ولد سنة ثلاث وأربعمائة، وأخذ عن جمع جم، وسمع بمصر والشام والعراق والحجاز وبرع في الحديث وعلله وصنف في الجرح والتعديل والتفسير والفقه والأصول. أجز نفسه ببغداد لحراسة دربه فكان يستعين بالأجرة على نفقته، ثم رجع إلى الأندلس ففشا علمه واشتهرت تأليفه. مات سنة أربع وسبعين وأربعمائة.

(٢) في ش وهي في فتح الباري.

(٣) سورة العنكبوت. الآية ٤٨.

منهم شيخه أبو ذر الهروي^(١) وأبو الفتح النيسابوري وآخرون من علماء إفريقيا.

واحتج بعضهم لذلك بما أخرجه ابن أبي شيبة [وعمر بن شبة^(٢)] [٣] من طريق مجالد^(٤) عن عون بن عبد الله قال: ما مات رسول الله ﷺ حتى كتب وقرأ.

قال مجالد: فذكرته للشعبي فقال صدق، قد سمعت من يذكر ذلك.

وقال القاضي عياض: وردت آثار تدل على معرفته حروف الخط وحسن تصويرها، كقوله لكاتبه: ضع القلم على أذنك فإنه أذكر لك، وقوله لمعاوية: ألق الدواة وحرف القلم وفرق السين ولا تعور الميم إلى غير ذلك. قال: وهذا وإن لم يثبت أنه كتب فلا يبعد أن يرزق علم وضع الكتابة، فإنه أوتي علم كل شيء^(٥).

(١) أبو ذر الهروي، عبد بن أحمد بن محمد الأنصاري، العلامة الإمام الحافظ، المالكي شيخ الحرم صاحب التصانيف، الزاهد الورع العابد مات سنة أربع وثلاثين وأربعمائة.

(٢) عمر بن شبة بن عبيدة النميري، نزيل بغداد، صدوق له تصانيف، مات سنة اثنتين وستين ومائتين، وقد جاوز التسعين.

(٣) ذكره في (ش.ب) وهو في فتح الباري.

(٤) كذا في جميع النسخ مجالد. وفي فتح الباري: مجاهد.

قال الشارح: مجالد بن سعد بن عمير الهمداني، أبو عمرو الكوفي. ليس بالقوي وتغير في آخر عمره، مات سنة أربع وأربعين ومائتين.

(٥) إن مثل هذا التجاوز في الألفاظ يخالف ما عليه أهل التحقيق من علماء

الامة والرسول ﷺ أوتي من العلم ما أوحى به الله إليه، فالتعميم بأنه أوتي علم كل شيء تجاوز واضح [المحقق].

وأجاب الجمهور.
بضعف هذه الأحاديث.

وعن قصة الحديبية: بأن القصة واحدة، والكاتب فيها علي بن أبي طالب، وقد صرح في حديث المسور بن مخرمة بأن علياً هو الذي كتب فيحمل علي أن النكتة في قوله «فأخذ الكتاب، وليس يحسن يكتب» لبيان أن قوله «أرني إياها» أنه إنما احتاج إلى أن يريه موضع الكلمة التي / امتنع علي من محوها إلا لكونه كان لا يحسن الكتابة. ١/٦٨

وعلى أن قوله بعد ذلك «فكتب» فيه حذف تقديره: فمحاها فأعادها لعلي فكتب:
أو أطلق «كتب» بمعنى: أمر بالكتابة، وهو كثير، كقوله: كتب إلى كسرى وقيصر.

وعلى تقدير حمله على ظاهره، فلا يلزم من كتابة اسمه الشريف في ذلك اليوم - وهو لا يحسن الكتابة - أن يصير عالماً بالكتابة، ويخرج عن كونه أمياً، فإن كثيراً ممن لا يحسن الكتابة يعرف صور بعض الكلمات، ويحسن وضعها بيده، وخصوصاً الأسماء، ولا يخرج بذلك عن كونه أمياً ككثير من الملوك.

ويحتمل أن يكون جرت يده بالكتابة حينئذ، وهو لا يحسنها، فخرج المكتوب على وفق المراد، فيكون معجزة أخرى في ذلك الوقت خاصة، ولا يخرج بذلك عن كونه أمياً. وبهذا أجاب أبو جعفر السمناني^(١) أحد أئمة الأصول من الأشاعرة وتبعه ابن الجوزي.
وتعقب ذلك السهيلي وغيره:

(١) أبو جعفر السمناني، محمد بن أحمد بن محمد، الفقيه الحنفي سكن بغداد =

بأن هذا وإن كان ممكناً، ويكون آية أخرى لكنه يناقض كونه
أمياً لا يكتب، وهي الآية التي قامت بها الحجة، وأفحم الجاحد،
وانحسمت الشبهة، فلو جاز أن يصير يكتب بعد ذلك لعادت الشبهة،
وقال المعاند: كان يحسن يكتب لكنه كان يكتب ذلك.

[قال السهيلي^(١): والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضاً،
والحق: أن معنى قوله «فكتب» أمر علياً أن يكتب انتهى.

قال: وفي دعوى أن كتابة اسمه الشريف فقط على هذه الصورة
تستلزم مناقضة المعجزة، وتثبت كونه غير أمي نظر كبير، والله أعلم،
انتهى^(٢).

[الحكمة من موافقة سهيل]

وأما قوله: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم وقوله: أما الرحمن^(٣)
فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم.. الخ

فقال العلماء: وافقهم عليه السلام في ترك كتابة بسم الله الرحمن الرحيم
وكتب: باسمك اللهم، وكذا وافقهم في محمد بن عبد الله، وترك
كتابة رسول الله للمصلحة المهمة الحاصلة بالصلح.

مع أنه لا مفسدة في هذه الأمور: أما البسملة وباسمك اللهم
فمعناها واحد، وكذا قوله: محمد بن عبد الله، هو أيضاً رسوله،

= وسمع الدارقطني وغيره، كان ثقة عالماً فاضلاً، ولد سنة إحدى وستين
وثلاثمائة، ومات بالموصل - وهو قاض بها - سنة أربع وأربعين وأربعمائة.

(١) في ش، وهو في فتح الباري.

(٢) نقلاً عن فتح الباري ٥٠٣/٧ - ٥٠٤، وذلك كامل هذه الفقرة.

(٣) كذا في النسخ وفي ط: الرحمن الرحيم.

وليس في ترك وصف الله تعالى في هذا الموضع بالرحمن الرحيم ما ينفي ذلك، ولا في ترك وصفه ﷺ هنا بالرسالة ما ينفيها، فلا مفسدة فيما طلبوه، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا أن يكتب ما لا يحل من تعظيم آلهتهم ونحو ذلك. انتهى.

[كتابة الشروط]

(قال في رواية البخاري: فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله.

فقال ﷺ: على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به.

فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة. ولكن ذلك في العام المقبل، فكتب.

فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا.

قال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟^(١)

والضغطة: بالضم، قال في القاموس: الضيق والإكراه والشدة. انتهى.

[حكمة الموافقة على الشروط]

فإن قلت: ما الحكمة في كونه ﷺ وافق سهيلاً على أنه لا يأتيه منهم رجل وإن كان على دين الإسلام إلا ويرده إلى المشركين.

(١) من رواية البخاري برقم ٢٧٣١.

فالجواب: إن المصلحة المترتبة على إتمام هذا الصلح ما ظهر من ثمراته الباهرة، وفوائده المتظاهرة التي كانت عاقبتها فتح مكة وإسلام أهلها كلهم، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

وذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين، ولا تتظاهر عندهم أمور النبي ﷺ كما هي، ولا يخلون بمن يعلمهم بها مفصلة، فلما حصل صلح الحديبية اختلطوا بالمسلمين، وجاءوا إلى المدينة، وذهب المسلمون إلى مكة، وخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونه، وسمعوا منهم أحوال النبي ﷺ ومعجزاته الظاهرة، وأعلام نبوته المتظاهرة، وحسن سيرته، وجميل طريقته، وعانوا/ ٦٨/ب بأنفسهم كثيراً من ذلك، فمالت نفوسهم إلى الإيمان، حتى بادر خلق منهم إلى الإسلام، قبل فتح مكة، فأسلموا بين صلح الحديبية وفتح مكة، وازداد الآخرون ميلاً إلى الإسلام.

فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم، لما كان قد تمهد لهم من الميل.

وكانت العرب من غير قريش في البوادي ينتظرون بإسلامهم إسلام قريش، فلما أسلمت قريش أسلمت العرب في البوادي. قال الله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ فالله ورسوله أعلم. انتهى.

[قصة أبي جندل]

قال في رواية البخاري: (فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين).

فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلي.
فقال رسول الله ﷺ: إنا لم نقض الكتاب بعد.
قال: فوالله إذاً لا أصلحك على شيء أبداً.
قال النبي ﷺ: فأجزه لي، قال: ما أنا بمجيز ذلك.
قال: بلى فافعل. قال: ما أنا بفاعل.
قال مكرز: بلى، قد أجزناه لك^(١).

قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أرد إلى المشركين وقد
جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب في الله عذاباً
شديداً^(٢)

زاد ابن إسحاق: فقال ﷺ: يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإننا
لا نغدر، وإن الله جاعل لك فرجاً ومخرجاً. ووثب عمر يمشي إلى جنبه
ويقول: اصبر إنما هم المشركون، وإن دم أحدهم كدم كلب.

[من فقه قصة أبي جندل]

قال الخطابي: تأول العلماء ما وقع في قصة أبي جندل على
وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى قد أباح التقية للمسلم إذا خاف الهلاك،
ورخص له أن يتكلم بالكفر مع إضمار الإيمان إن لم يمكنه التورية،
فلم يكن رده إليهم إسلاماً لأبي جندل إلى الهلاك، مع وجود السبيل
إلى الخلاص من الموت بالتقية.

(١) لم يلب سهيل طلب مكرز، وربما كانت إجازة مكرز المقصود بها تأمينه من
التعذيب.

(٢) من رواية البخاري برقم ٢٧٣١.

والوجه الثاني: إنما رده لأبيه، والغالب أن أباه لا يبلغ به إلى الهلاك. وإن عذبه أو سجنه فله مندوحة بالتقية أيضاً.

وأما ما يخاف عليه من الفتنة فإن ذلك امتحان من الله تعالى يبتلي به صبر عباده المؤمنين.

واختلف العلماء: هل يجوز الصلح مع المشركين على أن يرد إليهم من جاء مسلماً من عندهم، أم لا؟

ف قيل: نعم، على ما دلت عليه قصة أبي جندل وأبي بصير. وقيل: لا، وإن الذي وقع في القصة منسوخ. وإن ناسخه حديث (أنا بريء من مسلم بين مشركين)^(١) وهو قول الحنفية.

وعند الشافعية: تفصيل بين العاقل والمجنون والصبي، فلا يردان. وقال بعض الشافعية: ضابط جواز الرد أن يكون المسلم بحيث لا تجب عليه الهجرة من دار الحرب. والله أعلم. قاله في فتح الباري^(٢).

[موقف عمر يوم الحديبية]

قال في رواية البخاري: (فقال عمر بن الخطاب: فأتيت النبي ﷺ فقلت: ألسنت نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا؟ قال: إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري. قلت: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتية ومطوف به.

(١) رواه أبو داود والترمذي وصححه الضياء عن جرير مرفوعاً.

(٢) فتح الباري ٥ / ٣٤٥.

قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنيا في ديننا إذأ؟ قال: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصي ربه وهو ناصره، فاستمسك بغرزه^(١)، فوالله إنه على الحق. قلت: أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتية ١/٦٩ ومطوف/ به.^(٢).

قال العلماء: لم يكن سؤال عمر رضي الله عنه وكلامه المذكور شكاً، بل طلباً لكشف ما خفي عليه، وحثاً على إذلال الكفار، وظهور الإسلام، كما عرف في خلقه وقوته في نصره الدين، وإذلال المبطلين.

وأما جواب أبي بكر لعمر رضي الله عنهما بمثل جواب النبي ﷺ فهو من الدلائل الظاهرة على عظم فضله وبارع علمه، وزيادة عرفانه ورسوخه، وزيادته في ذلك على غيره.

[مدة الصلح وشروطه]

وكان الصلح بينهم عشر سنين، كما في السير. وأخرجه أبو داود من حديث ابن عمر.

ولأبي نعيم في مسند عبید الله بن دينار كانت أربع سنين. وكذا

(١) الغرز للإبل بمنزل الركب للفرس، والمراد به: التمسك بأمره وترك المخالفة له.

(٢) من رواية البخاري برقم ٢٧٣.

أخرجه الحاكم في البيوع من المستدرک . والأول أشهر^(١) .

وكان الصلح على وضع الحرب، بحيث يأمن الناس فيها،
ويكف بعضهم عن بعض،

وأن لا يدخل البيت إلا العام القابل ثلاثة أيام .
ولا يدخلوها إلا بجلبان^(٢) السلاح، وهو القراب بما فيه .

والجلبان - بضم الجيم وسكون اللام - شبه الجراب من الأدم،
يوضع فيه السيف مغموداً . ورواه القتيبي^(٣) : بضم الجيم واللام
وتشديد الباء، وقال : هو أوعية السلاح بما فيها .

وفي بعض الروايات : لا يدخلها إلا بجلبان السلاح : السيف
والقوس .

ولمّا اشترطوا ذلك ليكون علماً وأمانة للسلم، إذ كان دخولهم
صلحاً .

[بيعة الرضوان]

وقال مكي بن أبي طالب القيرواني^(٤) في تفسيره :

(١) بل هو المعتمد الصحيح . والقول الآخر مع ضعف إسناده فهو منكر مخالف
للصحيح .

(٢) في ط : بجلباب وهو خطأ .

(٣) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري مؤلف غريب الحديث وأدب
الكاتب .

(٤) مكي بن أبي طالب القيرواني، أبو محمد القيسي المالكي، الفقيه الأديب
المقرئ، صنف كثيراً في علوم القرآن وغيره مات سنة سبع وثلاثين
وأربعمائة .

وبعث عليه الصلاة والسلام بالكتاب^(١) إليهم مع عثمان بن عفان. وأمسك سهيل بن عمرو عنده، فأمسك المشركون عثمان فغضب المسلمون^(٢).

وقال مغلطاي: فاحتبسته قريش عندها. فبلغ النبي ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا الناس إلى بيعة الرضوان تحت الشجرة على الموت، وقيل على أن لا يفروا، انتهى.

ووضع النبي ﷺ شماله في يمينه وقال: هذه عن عثمان. وفي البخاري: (فقال ﷺ بيده اليمنى هذه بيعة عثمان، فضرب بها على يده

(١) ليس المراد كتاب الصلح كما يوهم سياق المصنف. بل هذا الكتاب أرسله لأشراف قريش، كما أخرجه البيهقي والحاكم في الإكليل عن عروة، وابن إسحاق من وجه آخر وابن سعد والواقدي قالوا ما محصله: لما نزل ﷺ الحديدية أحب أن يبعث إلى قريش يعلمهم أنه إنما قدم معتمراً فبعث خراش بن أمية.. فعقروا جملة وأرادوا قتله.. ثم دعا عمر.. فاعتذر بأنه ليس له من يحميه وأشار بإرسال عثمان، فدعاه وكتب له كتاباً إلى قريش وأمره أن يبشر المستضعفين بمكة بالفتح قريباً.. فقرأ عليهم عثمان الكتاب واحداً واحداً، فما أجابوا، وقالوا لعثمان إن شئت أن تطوف فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ.

(٢) يوهم الكلام هنا أن الرسول ﷺ هو الذي أمسك سهيل بن عمرو فقابله المشركون بإمسك عثمان وليس الأمر كذلك. ففي تفسير ابن كثير: أن قريشاً بعثوا - وعندهم عثمان - سهيل بن عمرو ومكرز بن حفص إلى رسول الله ﷺ فبينما هم عنده إذ وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين وتراموا بالنبل والحجارة.. وارتهن كل من الفريقين من عنده من الرسل. - في تفسير سورة الفتح - [م].

اليسرى^(١) (٢).

ولما سمع المشركون بهذه البيعة خافوا وبعثوا عثمان وجماعة من المسلمين.

وفي هذه البيعة نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

[التحلل والعودة]

وحلق الناس مع النبي ﷺ، ونحروا هداياهم بالحديبية^(٥)، قال مغلطاي: وأرسل الله رجلاً حملت شعورهم فألقتهما في الحرم^(٦).

وأقام ﷺ بالحديبية بضعة عشر يوماً، وقيل عشرين يوماً، ثم قفل وفي نفوس بعضهم شيء، فأنزل الله سورة الفتح يسليهم بها

(١) الذي في البخاري (فقال ﷺ بيده اليمنى: هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال: هذه لعثمان).

(٢) رواه البخاري برقم ٣٦٩٨ و٤٠٦٦.

(٣) سورة الفتح. الآية ١٠.

(٤) سورة الفتح. الآية ١٨.

(٥) جاء في البخاري (فلما فرغ من قضية الكتاب قال ﷺ لأصحابه قوموا فانحروا ثم احلقوا. قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يبق منهم أحد، دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل

بعضاً غمياً. (. الحديث رقم ٢٧٣١

(٦) رواه ابن سعد مرسلًا .

ويذكرهم نعمه، فقال تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾.

قال ابن عباس وأنس والبراء بن عازب: الفتح هنا فتح الحديبية، ووقوع الصلح بعد أن كان المنافقون يظنون أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً، أي حسبوا أنهم لا يرجعون بل يقتلون كلهم.

وأما قوله تعالى: ﴿وأنا بهم فتحاً قريباً﴾^(١) فالمراد فتح خيبر على الصحيح، لأنها وقعت فيها المغنم الكثيرة للمسلمين.

وقد روى أحمد وأبو داود والحاكم من حديث مجمع بن جارية قال: (شهدنا الحديبية، فلما انصرفنا وجدنا رسول الله ﷺ واقفاً عند كراع الغميم، وقد جمع الناس فقرأ عليهم: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ الآية فقال رجل: يا رسول الله، أو فتح هو؟ فقال: إي والذي نفسي بيده إنه لفتح.)^(٢).

وروى سعيد بن منصور بإسناد صحيح عن الشعبي (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) الحديبية، وغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وتبايعوا بيعة الرضوان وأطعموا نخيل خيبر، وظهرت الروم على فارس، وفرح المسلمون بنصر الله. /

٦٠/ب وأما قوله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ وقوله ﷺ: (لا هجرة بعد الفتح) فالمراد فتح مكة باتفاق.

قال الحافظ ابن حجر: فهذا يرتفع الإشكال وتجتمع الأقوال والله أعلم.

ثم رجع ﷺ إلى المدينة.

(١) سورة الفتح. الآية ١٨.

(٢) المسند ٤٢٠/٣.

[أحداث وقعت في السنة السادسة]

وفي هذه السنة كسفت الشمس .
وظاهر أوس بن الصامت من امرأته خولة .
وفي هذه السنة أيضاً استسقى في رمضان ومطر الناس ، فقال
النبي ﷺ : أصبح الناس مؤمناً بالله وكافراً بالكواكب^(١) .

[تحريم الخمر والمفترات]

[تاريخ تحريم الخمر]

قال مغلطاي : وجزم الدمياطي في سيرته : بأن تحريم الخمر كان
في سنة الحديدية .
وذكر ابن إسحاق : أنه كان في وقعة بني النضير ، وهي بعد
أحد ، وذلك سنة أربع على الراجح .
وفيه نظر : لأن أنساً كان الساقى يوم حرمت ، وأنه لما سمع
المنادي بتحريمها بادر فأراقها ، فلو كان ذلك سنة أربع ، لكان أنس
يصغر عن ذلك .

(١) جاء في حديث البخاري رقم ٤١٤٧ (قال الله : أصبح من عبادي مؤمن بي
وكافر بي ، فأما من قال مطرنا برحمة الله وبرزق الله وبفضل الله فهو مؤمن
بي كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنجم كذا فهو مؤمن بالكواكب
كافر بي) .

وأخرج النسائي والبيهقي بسند صحيح عن ابن عباس: إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من الأنصار شربوا، فلما ثمل القوم عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا جعل الرجل يرى في وجهه ورأسه الأثر فيقول: صنع هذا أخي فلان - وكانوا أخوة ليس في قلوبهم ضغائن - فيقول: والله لو كان بي رحيماً ما صنع بي هذا، حتى وقعت في قلوبهم الضغائن، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾ إلى ﴿ممتهون﴾. فقال ناس من المتكلفين: هي رجس، وهي في بطن فلان وفلان وقد قتل يوم أحد، فأنزل الله تعالى ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ إلى ﴿المحسنين﴾.

وآية تحريم الخمر نزلت في عام الفتح قبل الفتح. والخمر في الأصل مصدر خمره: إذا ستره، سمي به عصير العنب إذا اشتد وغلا كأنه يخمر العقل، كما يسمى مسكراً لأنه يسكره، أي يحجره.

وهي حرام مطلقاً، وكذا كل ما أسكر عند أكثر العلماء. وقال أبو حنيفة: نقيع الزبيب والتمر إذا طبخ حتى ذهب ثلثاه ثم اشتد حل شربه ما دون السكر انتهى.

[المخدرات وحكمها]

وأما الحشيشة وتسمى القنب الهندي والحيدرية والقلندرية فلم يتكلم فيها الأئمة الأربعة ولا غيرهم من علماء السلف، لأنها لم تكن في زمنهم، وإنما ظهرت في أواخر المائة السادسة وأول السابعة.

واختلف هل هي مسكرة فيجب فيها الحد، أو مفسدة للعقل

فيجب التعزير، والذي أجمع عليه الأطباء أنها مسكرة، وبه جزم الفقهاء وصرح به الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في كتاب التذكرة في الخلاف، والنووي في شرح المهذب، ولا نعرف فيه خلافاً عندنا.

ونقل عن ابن تيمية أنه قال: الصحيح أنها مسكرة كالشراب، فإن أكلتها ينشون عنها ولذلك يتناولونها بخلاف البنج وغيره فإنه لا ينشي ولا يشتهي.

قال الزركشي: ولم أر من خالف في هذا إلا القرافي في قواعده فقال: نص العلماء بالنبات في كتبهم أنها مسكرة، والذي يظهر لي أنها مفسدة.. في كلام تعقبه الزركشي يطول ذكره.

وقد تضافرت الأدلة على حرمتها: ففي صحيح مسلم (كل مسكر حرام) وقد قال تعالى: ﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ وأي خبيث أعظم مما يفسد العقول التي اتفقت الملل والشرائع على إيجاب حفظها. ولا ريب أن تناول الحشيشة يظهر به أثر التغير في انتظام الفعل والقول المستمد كماله من نور العقل. وقد روى أبو داود - بإسناد حسن - عن ديلم الحميري قال: (سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إنا بأرض باردة نعالج فيها عملاً شديداً وإنا نتخذ شراباً من هذا القمح نتقوى به على أعمالنا وعلى برد بلادنا، قال: فهل يسكر؟ قلت: نعم، قال: فاجتنبوه، قلت: فإن الناس غير تاركيه، قال: فإن لم يتركوه فقاتلوهم).^(١)

وهذا/ منه ﷺ تنبيه على العلة التي لأجلها حرم المزر^(٢). ١/٧٠

(١) رواه أبو داود برقم ٣٦٨٣.

(٢) المزّر: نبذ الذرة والشعير، كما في القاموس.

فوجب أن كل شيء عمل عمله يجب تحريمه، ولا شك أن الحشيشة تعمل ذلك وفوقه.

وروى أحمد في مسنده وأبو داود في سننه عن أم سلمة قالت: (نهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتر). (١).

قال العلماء: المفتر كل ما يورث الفتور والخدر (٢) في الأطراف. وهذا الحديث أدل دليل على تحريم الحشيشة وغيرها من المخدرات، فإنها إن لم تكن، مسكرة كانت مفتر، ولذلك يكثر النوم من متعاطيها، وتثقل رؤوسهم بواسطة تبخيرها في الدماغ. وقد نقل الإجماع على تحريمها غير واحد، منهم القرافي وابن تيمية وقال: إن من استحلها فقد كفر.

وتعقبه الزركشي: بأن تحريمها ليس معلوماً من الدين بالضرورة، سلمنا ذلك، لكن لا بد أن يكون دليل الإجماع قطعياً على أحد الوجهين، وقد ذكر أصحابنا أن المسكر من غير عصير العنب، كعصير العنب في وجوب الحد، لكن لا يكفر مستحله لاختلاف العلماء فيه. واختلف: هل يحرم تعاطي اليسير الذي لا يسكر؟

فقال النووي في شرح المهذب إنه لا يحرم أكل القليل الذي لا يسكر من الحشيش، بخلاف الخمر، حيث حرم قليلها الذي لا يسكر. والفرق أن الحشيش طاهر والخمر نجس فلا يجوز شرب قليله للنجاسة.

وتعقبه الزركشي بأنه صح في الحديث: ما أسكر كثيره فقليله

(١) المسند ٣٠٩/٦ وعند أبي داود برقم ٣٦٨٦.

(٤) الخدر: الاسترخاء.

حرام، قال: والمتجه أنه لا يجوز من الحشيش لا قليل ولا كثير^(١).
وأما قول النووي: إنها طاهرة وليست بنجسة، فقطع به ابن
دقيق العيد وحكى الإجماع عليه. قال: والأفيون وهو لبن الخشخاش،
أقوى فعلاً من الحشيش، لأن القليل منه يسكر جداً، وكذلك
السيكران^(٢) وجوز الطيب مع أنه طاهر بالإجماع. انتهى.

[مضار الحشيش]

وقد جمع بعضهم في الحشيشة مائة وعشرين مضرة دينية وبدنية،
حتى قال بعضهم كل ما في الخمر من المذمومات موجود في الحشيش
وزيادة. فإن أكثر ضرر الخمر في الدين لا في البدن^(٣). وضررها
فيهما.

فمن ذلك: فساد العقل، وعدم المروءة، وكشف العورة، وترك
الصلوات، والوقوع في المحرمات، وقطع النسل، والبرص والجذام
والأسقام والرعشة والأبنة^(٤)، وبتن الفم وسقوط شعر الأجناف، وحفر
الأسنان وتسويدها، وتضييق النفس وتصفير الألوان، وتنقيب الكبد،
وتجعل الأسد كالجعل، وتورث الكسل والفشل، وتعيد العزيز ذليلاً،
والصحيح عليلاً، والفصيح أباكماً، والصحيح^(٥) أبلماً^(٦). وتذهب

(١) في ش جاءت هذه الفقرة من قوله واختلف.. قبل قوله: وقد نقل
الإجماع، وما في النسخ الأخرى هو الصواب لترابط الموضوع بعضه
ببعض.

(٢) نبت دائم الخضرة يؤكل حبه.

(٣) قد ثبت من مضار الخمر على البدن الشيء الكثير [م].

(٤) الأبنة: العيب في الكلام - كما في لسان العرب - [م].

(٥) في (ط، ش): الذكي.

(٦) أبلم الرجل: سكت، كما في المعجم الوسيط [م].

السعادة وتنسي الشهادة، فصاحبها بعيد عن السنة طريد عن الجنة،
موعود من الله باللعة إلا أن يقرع من الندم سنه ويحسن بالله ظنه.
ولقد أحسن القائل :

قل لمن يأكل الحشيشة جهلاً يا خسيساً^(١) قد عشت شر معيشة
دية العقل بدرة فلماذا يا سفيهاً قد بعثها بحشيشة

(١) في ط: يا خبيثاً.

[غزوة خيبر]

[مكانها وتاريخها]

وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع، على ثمانية برد من المدينة إلى جهة الشام.

قال ابن إسحاق: خرج النبي ﷺ في بقية شهر المحرم سنة سبع، فأقام يحاصرها بضع عشرة ليلة إلى أن فتحها.

وقيل: كانت في آخر سنة ست، وهو منقول عن مالك، وبه جزم ابن حزم.

٧٠/ب

قال الحافظ ابن حجر: والراجح ما ذكره ابن إسحاق، ويمكن الجمع بأن من أطلق سنة ست بناء على أن ابتداء السنة من شهر الهجرة الحقيقي وهو ربيع الأول.

وأغرب ابن سعد وابن أبي شيبة فرويا من حديث أبي سعيد الخدري: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر لثمان عشرة من رمضان، وإسناده حسن، لكنه خطأ ولعلها كانت إلى حنين فتصحفت. وتوجيهه: بأن غزوة حنين كانت ناشئة عن غزوة الفتح، وغزوة الفتح خرج فيها ﷺ في رمضان جزماً.

قال: وذكر الشيخ أبو حامد في التعليقة: أنها كانت سنة خمس،

وهو وهم، ولعلها انتقال من الخندق إلى خيبر^(١).

[عدد الصحابة فيها]

وكان معه ﷺ ألف وأربعمائة رجل ومائتا فارس، ومعه أم سلمة زوجته.

[حذاء في الطريق إلى خيبر]

وفي البخاري من حديث سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع النبي إلى خيبر فسرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر، ألا تسمعنا من هنيهاتك^(٢) وكان عامر رجلاً شاعراً، فنزل يحدو بالقوم يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما اتقينا^(٣) وثبت الأقدام إن لاقينا
والبقين سكينه علينا إنا إذا صيخ بنا أتينا
وبالصياح عولوا علينا^(٤)

وفي رواية إياس بن سلمة عن أبيه عند أحمد في هذا الرجز من الزيادة:

إن الذين قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا
ونحن عن فضلك ما استغنيا^(٥)

(١) فتح الباري ٤٦٤/٧ - ٤٦٥.

(٢) أي: أراجيزك.

(٣) معناه: ما تركنا من الأوامر. وفي رواية: ما أبقينا: أي ما أبقيناه من الذنوب.

(٤) أي قصدونا بالدعاء بالصوت العالي واستعانوا علينا.

(٥) المسند ٥٢/٤.

فقال رسول الله ﷺ - كما في رواية البخاري - من هذا السائق؟ قالوا:
عامر بن الأكوع، قال: يرحمه الله. قال رجل من القوم: وجبت يا
نبي الله، لولا أمتعتنا به. الحديث^(١).

وفي رواية أحمد: فجعل عامر يرتجز ويسوق الركاب، وهذه
كانت عادتهم إذا أرادوا تنشيط الإبل في السير ينزل بعضهم فيسوقها،
ويحدو في تلك الحال.

وقوله: «اللهم لولا أنت ما اهتدينا» كذا الرواية، قالوا: وصوابه
في الوزن: لا هم، أو: تالله، كما في الحديث الآخر.

وقوله: «فداء لك» قال المازري^(٢): هذه اللفظة مشككة، فإنه لا
يقال للباري سبحانه: فديتك، لأن ذلك إنما يستعمل في مكروه يتوقع
حلوله بالشخص، فيختار شخص آخر أن يحل ذلك به ويفديه منه.
قال: ولعل هذا وقع من غير قصد إلى حقيقة معناه، كما يقال: قاتله
الله، ولا يريد بذلك حقيقة الدعاء عليه، وكقوله عليه السلام: تربت
يداك، وتربت يمينك، وفيه كله ضرب من الاستعارة لأن المفادي مبالغ
في طلب رضا المقدي حين بذل نفسه عن نفسه للمكروه، فكان مراد
الشاعر: أي أبذل نفسي في رضاك. وعلى كل حال فإن المعنى وإن
أمكن صرفه إلى جهة صحيحة فإطلاق اللفظ واستعارته والتجوز فيه
يفتقر إلى ورود الشرع بالإذن فيه.

(١) هو تمة الحديث الوارد في بدء الفقرة وهو عند البخاري برقم ٤١٩٦
و٦١٤٨.

(٢) المازري: محمد بن علي بن عمر التميمي، الإمام الفقيه الأصولي ذو الفنون
في علوم عديدة. مات سنة ست وثلاثين وخمسة وله ثلاث وثمانون سنة.
ومازري: نسبة إلى مازر: بليدة بجزيرة صقلية.

قال: وقد يكون المراد بقوله: «فداء لك» رجلاً يخاطبه، وفصل بين الكلام بذلك، ثم عاد إلى الأول فقال: ما اتقينا. وهذا تأويل يصح معه اللفظ والمعنى لولا أن فيه تعسفاً اضطرنا إليه تصحيح الكلام. انتهى.

وقيل: إنه يخاطب بهذا الشعر النبي ﷺ. والمعنى: لا تؤاخذنا بتقصيرنا في حقك ونصرك. وعلى هذا فقوله: «اللهم» لم يقصد بها الدعاء وإنما افتتح بها الكلام. والمخاطب بقول الشاعر: «لولا أنت» النبي، لكن يعكر عليه بعد ذلك:

فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
فإنه دعاء لله تعالى.

ويحتمل / أن يكون المعنى فاسأل ربك أن ينزل ويثبت والله أعلم. ١/٧١

وقوله: «إذا صيح بنا أتينا» أي إذا صيح بنا للقتال ونحوه من المكاره أتينا ولم نتأخر عنه. وفي رواية أيضاً بالموحدة بدل المثناة، أي أبينا الفرار. وقوله: «وبالصياح عولوا علينا» أي استعانوا بنا واستفزعونا للقتال. قيل: هو من التعويل على الشيء وهو الاعتقاد عليه، وقيل: هو من العويل، وهو الصوت.

وقوله: «من هذا السائق؟ قالوا: عامر، قال: يرحمه الله، قال رجل من القوم وجبت»: أي ثبتت له الشهادة وستقع قريباً، وكان معلوماً عندهم أن من دعا له النبي ﷺ هذا الدعاء في هذا الموطن استشهد، فقالوا: هلا أمتعتنا به؟ أي: وددنا أنك أخرجت الدعاء له بهذا إلى وقت آخر لتمتع بمصاحبته ورؤيته مدة.

[على أبواب خيبر]

وفي البخاري من حديث أنس أنه ﷺ أتى خيبر ليلاً - وكان إذا أتى قوماً بليل لم يقر بهم^(١) حتى يصبح - فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوه قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبي ﷺ: خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين^(٢).

وفي رواية: فرفع يديه وقال الله أكبر خربت خيبر^(٣).

والخميس: الجيش: سمي به لأنه مقسوم بخمسة أقسام: المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب.
ومحمد: خبر مبتدأ، أي هذا محمد.

قال السهيلي: يؤخذ من هذا الحديث التفاؤل، لأنه ﷺ لما رأى آلة الهدم عرف أن مدينتهم ستخرب. انتهى.

ويحتمل - كما قاله في فتح الباري - أن يكون قال: خربت خيبر بطريق الوحي، ويؤيده قوله بعد ذلك: إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين.

وفي رواية: أنه ﷺ صلى الصبح قريباً من خيبر بغلس ثم قال: الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين^(٤)

(١) كذا في ط وفي البخاري، من القرب، وفي باقي النسخ: لم يقر بهم، من الإغارة وفي فتح الباري: للأكثر من الإغارة، ولأبي ذر عن المستملي: لم يقر بهم اهـ.

(٢) رواه البخاري برقم ٤١٩٧ .

(٣) رواية البخاري في كتاب الجهاد.

(٤) رواه البخاري برقم (٤٢٠٠) .

[عقد الرايات]

وقال مغلطاي وغيره: وفرق ﷺ الرايات^(١)، ولم تكن الرايات إلا بخير، وإنما كانت الألوية^(٢)

وقال الدمياطي: وكانت راية النبي ﷺ السوداء من برد لعائشة.

وفي البخاري: وكان علي بن أبي طالب تخلف عن النبي ﷺ وكان رمداً. فلحق فلما بتنا الليلة التي فتحت قال: لأعطين الراية غداً - أو ليأخذن الراية غداً - رجل يحبه الله ورسوله يفتح الله عليه.

فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرىء، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية. فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: انفذ علي رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن تكون لك حمر النعم. الحديث^(٣).

[استشهاد عامر بن الأكوع]

ولما تصاف القوم، كان سيف عامر قصيراً، فتناول ساق يهودي ليضربه فرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركة عامر فمات منه. فلما

(١) فدفع رايته العقاب إلى الحباب بن المنذر، وراية لسعد بن عباد، ولواءه وهو أبيض لعلي.

(٢) في المصباح: لواء الجيش علمه، وهو دون الراية.

(٣) رواه البخاري برقم ٤٢٠٩ و ٤٢١٠.

قفلوا، قال سلمة: قلت يا رسول الله، فذاك أبي وأمي، زعموا أن عامراً حبط عمله، قال النبي ﷺ كذب من قال، وإن له أجرين، وجمع بين إصبعيه، إنه لجاهد مجاهد. رواه البخاري أيضاً^(١).
وعن يزيد بن أبي عبيد قال: رأيت أثر ضربة بساق سلمة، فقلت ما هذه الضربة؟ قال: هذه ضربة أصابتها يوم خيبر...
فأتيت/ النبي ﷺ فنفت فيها ثلاث نفثات فما اشتكيتها حتى الساعة. ٧١/ب
أخرجه البخاري^(٢).

[لا يدخل الجنة إلا مؤمن]

وعنده أيضاً عن أبي هريرة: شهدنا خيبر فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يدعي الإسلام: هذا من أهل النار، فلما حضر القتال قاتل الرجل أشد القتال، حتى كثرت به الجراحة، فكاد بعض الناس يرتاب، فوجد الرجل ألم الجراحة فأهوى بيده إلى كنانته، فاستخرج منها سهماً فنحر نفسه، فاشتد رجال من المسلمين فقالوا: يا رسول الله، صدق الله حديثك، انتحر فلان فقتل نفسه. فقال: قم يا فلان فأذن: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر^(٣).

وفي رواية: فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة - فيما يبدو للناس - وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار - فيما يبدو للناس - وهو من أهل الجنة.
الحديث^(٤).

(١) رواه البخاري برقم ٦١٤٨.

(٢) رواه البخاري برقم: ٤٢٠٦.

(٣) رواه البخاري برقم ٤٢٠٣.

(٤) رواه البخاري برقم ٤٢٠٢.

[فتح خيبر]

وقاتل النبي ﷺ أهل خيبر، وقاتلوه أشد القتال، واستشهد من المسلمين خمسة عشر، وقتل من اليهود ثلاثة وتسعون.

وفتحها الله حصناً حصناً، وهي: النظاة، وحصن الصعب، وحصن ناعم، وحصن قلعة الزبير، والشق، وحصن أبي، وحصن البريء، والقموص والوطيح والسلام، وهو حصن بني أبي الحقيق. وأخذ كنز آل أبي الحقيق الذي كان في مسك^(١) الحمار، وكانوا قد غيبوه في خربة، فدل الله رسوله عليه فاستخرجه.

[هل حمل علي باب خيبر؟]

وقلع علي باب خيبر، ولم يحركه سبعون رجلاً إلا بعد جهد.

وفي رواية ابن إسحاق: سبعة، وأخرجه من طريق البيهقي في الدلائل، ورواه الحاكم، وعنه البيهقي من جهة ليث بن أبي سليم عن أبي جعفر محمد بن علي بن حسين عن جابر: أن علياً حمل الباب يوم خيبر، وأنه جرب بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً. وليث ضعيف.

وفي رواية البيهقي: أن علياً لما انتهى إلى الحصن اجتذب أحد أبوابه فألقاه بالأرض، فاجتمع عليه بعده منا سبعون رجلاً فكان جهدهم أن أعادوا الباب مكانه.

قال شيخنا^(٢): وكلها واهية، ولذا أنكره بعض العلماء. انتهى.

(١) أي: جلد.

(٢) أي السخاوي في كتابه: المقاصد الحسنة.

[صفية.. أم المؤمنين]

وفي البخاري: وتزوج ﷺ بصفية بنت حيي بن أخطب، وكان قد قتل زوجها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وكانت عروساً، فذكر له جمالها، فاصطفاها لنفسه فخرج بها حتى بلغت سد الصهباء حلت له - يعني طهرت من الحيض - فبنى بها ﷺ فصنع حيساً في نطع صغير، ثم قال لأنس: أذن من حولك، فكانت تلك وليمته على صفية. قال: ثم خرجنا إلى المدينة فرأيت النبي ﷺ يحوي لها وراءه بعباءة. ثم يجلس عند بعيه فيضع ركبته وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب^(١).

وفي رواية له: فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين أو ما ملكت يمينه؟ قالوا إن حجبتها فهي إحدى أمهات المؤمنين، وإن لم يحجبها فهي مما ملكت يمينه، فلما ارتحل وطأ لها ومد الحجاب^(٢).

وفي رواية أنه ﷺ قتل المقاتلة وسبى الذرية، وكان في السبي صفية فصارت إلى دحية الكلبي ثم صارت إلى النبي ﷺ فجعل عتقها صداقها^(٣).

وفي رواية: فأعتقها وتزوجها^(٤).

وفي رواية: قال ﷺ لدحية: خذ جارية من السبي غيرها.

وفي رواية لمسلم: أنه ﷺ اشترى صفية منه بسبعة أرؤس.

وإطلاق الشراء على ذلك، على سبيل المجاز، وليس في قوله/

(١) رواه البخاري برقم ٤٢١١.

(٢) رواه البخاري برقم ٤٢١٣.

(٣) رواه البخاري برقم ٤٢٠٠.

(٤) رواه البخاري برقم ٤٢٠١.

١/٧٢ سبعة أرؤس ما ينافي قوله في رواية البخاري: خذ جارية من السبي غيرها، إذ ليس هنا دلالة على نفي الزيادة والله أعلم.

وإنما أخذ ﷺ صفية لأنها بنت ملك من ملوكهم، وليست ممن توهب لدحية لكثرة من كان من الصحابة مثل دحية وفوقه، وقلة من كان في السبي مثل صفية في نفاستها، فلو خصه بها لأمكن تغير خاطر بعضهم، فكان من المصلحة العامة ارتجاعها منه، واختصاصه ﷺ بها، فإن في ذلك رضا الجميع، وليس ذلك من الرجوع في الهبة في شيء. انتهى^(١).

قال مغلطاي وغيره: وكانت صفية قبل رأت أن القمر سقط في حجرها، فتؤول بذلك. قال الحاكم: وكذا جرى لجويرية.

[تحريم لحوم الحمر الأهلية]

وفي هذه الغزوة حرم ﷺ لحوم الحمر الأهلية. كما في البخاري ولفظه: فلما أمسى الناس مساء اليوم الذي فتحت عليهم - يعني خيبر - أوقدوا نيراناً كثيرة، فقال النبي ﷺ: ما هذه النيران، على أي شيء توقدون؟ قالوا: على لحم، قال على أي لحم؟ قالوا: لحم الحمر الإنسية، فقال النبي ﷺ: أهريقوها واكسروها. فقال رجل: يا رسول الله، أو نهريقها ونغسلها، قال: أو ذاك^(٢).

والمشهور في الإنسية: كسر الهمزة، منسوبة إلى الإنس، وهم بنو آدم. وحكي: ضم الهمزة، ضد الوحشية، ويجوز فتحها والنون أيضاً، مصدر أنست به، أنس أنساً وأنسة.

(١) عن فتح الباري ٧/٤٧٠.

(٢) رواه البخاري برقم ٤١٩٦.

وفي رواية: نهى يوم خيبر عن أكل الثوم، وعن لحوم الحمر الأهلية^(١).

وفي رواية: نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية ورخص في الخيل^(٢).

قال ابن أبي أوفى: فتحدثنا أنه إنما نهى عنها لأنها لم تخمس، وقال بعضهم: نهى عنها ألبتة لأنها كانت تأكل العذرة.

قال العلماء: وإنما أمر بإرقتها لأنها نجسة محرمة، وقيل: إنما نهى عنها للحاجة إليها، وقيل: لأخذها قبل القسمة، وهذان التأويلان للقائلين بإباحة لحومها. والصواب ما قدمناه.

وأما قوله ﷺ: «اكسروها» فقال رجل: أو نهريقها ونغسلها قال: أو ذاك.

فهذا محمول على أنه ﷺ اجتهد في ذلك فرأى كسرها ثم تغير اجتهاده، أو أوحى إليه بغسلها.

[بحث في حكم لحوم الخيل]

وأما لحوم الخيل فاختلف العلماء في إباحتها:

فمذهب الشافعي والجمهور من السلف والخلف: أنه مباح لا كراهة فيه، وبه قال عبد الله بن الزبير وأنس بن مالك وأسما بنت أبي بكر. وفي صحيح مسلم عنها قالت: نحرنا فرساً على عهد رسول الله

(١) رواه البخاري برقم ٤٢١٥.

(٢) رواه البخاري برقم ٤٢١٩.

ﷺ فأكلناه ونحن بالمدينة، وفي رواية الدارقطني: فأكلناه نحن وأهل بيت النبي ﷺ.

قال في فتح الباري: ويستفاد من قولها: «ونحن بالمدينة» أن ذلك بعد فرض الجهاد، فيرد على من استند إلى منع أكلها لعله أنها من آلات الجهاد.

وفي قولها: «وأهل بيت النبي ﷺ» الرد على من زعم أنه ليس فيه أن النبي ﷺ اطلع على ذلك، مع أن ذلك لو لم يرد لم يظن بآل أبي بكر أنهم يقدمون على فعل شيء في زمنه ﷺ إلا وعندهم العلم بجوازه لشدة اختلاطهم به ﷺ وعدم مفارقتهم له، هذا مع توفر داعية الصحابة إلى سؤاله عليه السلام عن الأحكام.

ومن ثم كان الراجح أن الصحابي إذا قال: كنا نفعل كذا على عهده ﷺ كان له حكم الرفع، لأن الظاهر اطلاعه ﷺ على ذلك وتقريره، وإذا كان ذلك في مطلق الصحابة فكيف بآل أبي بكر.

وقال الطحاوي: ذهب أبو حنيفة إلى كراهة أكل الخيل، وخالفه ٧٢/ب أصحابه وغيرهما. واحتجوا بالأخبار/ المتواترة في حلها. انتهى.

وقد نقل بعض التابعين: الحل عن الصحابة مطلقاً من غير استثناء أحد، فأخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح - على شرط الشيخين - عن عطاء قال: لم يزل سلفك يأكلونه. قال ابن جريج: قلت له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: نعم.

وأما ما نقل في ذلك عن ابن عباس من كراهتها: فأخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق بسندين ضعيفين.

وقال أبو حنيفة في الجامع الصغير: أكره لحوم الخيل، فحمله أبو

بكر الرازي على التنزيه، وقال: لم يطلق أبو حنيفة فيه التحريم، وليس هو عنده كالحمار الأهلي، وصحح أصحاب المحيط والهداية والذخيرة عنه التحريم، وهو قول أكثرهم.

وقال القرطبي في شرح مسلم: مذهب مالك الكراهة، وقال الفاكهاني: المشهور عند المالكية الكراهة، والصحيح عند المحققين منهم التحريم.

وقال ابن أبي جمرة: الدليل على الجواز مطلقاً واضح، لكن سبب كراهة مالك لأكلها لكونها تستعمل غالباً في الجهاد، فلو انتفت الكراهة لكثرت استعماله، ولو كثرت استعماله لأفضى إلى فوائدها، فيؤول إلى النقص من إرهاب العدو الذي وقع الأمر به في قوله تعالى: ﴿ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾^(١) فعلى هذا فالكراهة لسبب خارج، وليس البحث فيه، فإن الحيوان المتفق على إباحته لو حدث أمر يقتضي أن لو ذبح لأفضى إلى ارتكاب محذور لامتنع، ولا يلزم من ذلك القول بتحريمه. انتهى.

وأما قول بعض المانعين: لو كانت حلالاً لجازت الأضحية بها. فمستقص بحيوان البر، فإنه مأكول ولم تشرع الأضحية به. وأما حديث خالد بن الوليد عند أبي داود والنسائي: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الخيل والبغال والحمير، فضعيف، ولو سلم ثبوته، لا ينهض معارضاً لحديث جابر الدال على الجواز، وقد وافقه حديث أسماء. وقد ضعف حديث خالد بن الوليد أحمد والبخاري والدارقطني والخطابي وابن عبد البر وعبد الحق وآخرون.

(١) سورة الأنفال. الآية ٦٠.

وزعم بعضهم: أن حديث جابر دال على التحريم لقوله «رخص» لأن الرخصة استباحة المحظور مع قيام المانع، فدل على أنه رخص لهم بسبب المخصصة التي أصابتهم بخير، فلا يدل ذلك على الحل المطلق.

وأجيب: بأن أكثر الروايات جاء بلفظ الإذن، كما رواه مسلم، وفي رواية له: أكلنا زمن خيبر الخيل وحمم الوحش، ونهانا النبي ﷺ عن الحمار الأهلي. وعند الدارقطني من حديث ابن عباس: نهانا ﷺ عن الحمر الأهلية وأمر بلحوم الخيل. فدل على أن المراد بقوله: «رخص» أذن. ونوقض أيضاً بالإذن في أكل الخيل، ولو كان رخصة لأجل المخصصة لكانت الحمر الأهلية أولى بذلك لكثرتها وعزة الخيل حينئذ، فدل على أن الإذن في أكل الخيل إنما كان للإباحة العامة لا لخصوص الضرورة.

وقد نقل عن مالك وغيره من القائلين بالتحريم: أنهم احتجوا للمنع بقوله تعالى: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾^(١) وقرروا ذلك بأوجه:

أحدها: أن اللام للتعليل، فدل على أنها لم تخلق لغير ذلك، لأن العلة المنصوصة تفيد الحصر. فإباحة أكلها تقتضي خلاف ظاهر الآية.

ثانيها: عطف البغال والحمير، فدل على اشتراكها معها في حكم التحريم، فيحتاج من أفرد حكم ما عطف عليها إلى دليل.

ثالثها: أن الآية سيقت مساق الامتنان، فلو كان ينتفع بها في

(١) سورة النحل. الآية ٨.

الأكل لكان الامتنان به أعظم، والحكيم لا يمتن بأدنى النعم ويترك أعلاها، ولا سيما وقد وقع الامتنان بالأكل في المذكورات قبلها.

رابعها: لو أبيح أكلها لفاتت المنفعة/ بها فيما وقع به الامتنان ١/٧٣ من الركوب والزينة.

وأجيب: بأن آية النحل مكية اتفاقاً، والإذن في أكل الخيل كان بعد الهجرة من مكة بأكثر من ست سنين، فلو فهم النبي ﷺ من الآية المنع لما أذن في الأكل.

وأيضاً: فآية النحل ليست نصاً في منع الأكل والحديث صريح في جوازه.

وأيضاً: فلو سلمنا أن اللام للتعليل، لم نسلم إفادة الحصر في الركوب والزينة، فإنه ينتفع بالخيال في غيرهما، وفي غير الأكل اتفاقاً، وإنما ذكر الركوب والزينة لكونهما أغلب ما تطلب له الخيل. ونظيره حديث البقرة المذكورة في الصحيحين حين خاطبت راكبها فقالت لم أخلق لهذا وإنما خلقت للحرث^(١)، فإنه مع كونه أصرح في الحصر، ما يقصد به إلا الأغلب، وإلا فهي تؤكل وينتفع بها في أشياء غير الحرث اتفاقاً.

وقال البيضاوي: واستدل بها - أي بآية النحل - على حرمة

(١) جاء في الحديث المتفق عليه من رواية أبي هريرة قال: (قال رسول الله ﷺ: بينما رجل يسوق بقرة له، قد حمل عليها، التفتت إليه البقرة فقالت: إني لم أخلق لهذا، ولكني إنما خلقت للحرث، فقال الناس: سبحان الله تعجباً وفزعاً، أبقرة تكلم؟ فقال رسول الله ﷺ: فيني أو من به وأبو بكر وعمر) واللفظ لمسلم برقم ٢٣٨٨.

لحومها، ولا دليل فيها، إذ لا يلزم من تعليل الفعل بما يقصد منه غالباً أن لا يقصد منه غيره أصلاً. انتهى.

وأيضاً: فلو سلم الاستدلال للزم منع حمل الأثقال على الخيل والبغال والحمير ولا قائل به. وأما عطف البغال والحمير، فدلالة العطف إنما هي دلالة اقتران وهي ضعيفة.

وأما أنها سيقت مساق الامتتان، فالامتتان إنما قصد به غالب ما كان يقع به انتفاعهم بالخيل، فخطبوا بما ألفوا وعرفوا، ولم يكونوا يعرفون أكل الخيل لعزتها في بلادهم، بخلاف الأنعام، فإن أكثر انتفاعهم بها كان لحمل الأثقال والأكل، فاقصر في كل من الصنفين على الامتتان بأغلب ما ينتفع به، فلو لزم من ذلك الحصر في هذا الشق لأضر.

وأما قولهم: لو أبيع أكلها لفاتت المنفعة بها الخ..

فأجيب عنه: بأنه لو لزم من الإذن في أكلها أن تفتى، للزم مثله في البقر وغيرها مما أبيع أكله ووقع الامتتان به. وإنما أطلت في ذلك لأمر اقتضاه، والله أعلم.

وفي هذه الغزوة أيضاً نهى ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن بيع المغانم حتى تقسم، وأن لا توطأ جارية حتى تستبرأ.

[شاة مسمومة]

وفي هذه الغزوة أيضاً سمت النبي ﷺ زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم، كما في البخاري من حديث أبي هريرة ولفظه: (لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ، اجمعوا لي من كان ها هنا من اليهود، فجمعوا له، فقال لهم

رسول الله ﷺ إني سألكم عن شيء، فهل أنتم صادقوني عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: أبونا فلان. فقال رسول الله ﷺ: كذبتم، بل أبوكم فلان، فقالوا: صدقت وبررت، فقال هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبتك عرفت كذبتنا، كما عرفته في أبنينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: من أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسؤوا فيها. والله لا نخلفكم فيها أبداً، ثم قال لهم هل أنتم صادقوني عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم. فقال: هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً؟ فقالوا: نعم، فقال: ما حملكم على ذلك؟ فقالوا: أردنا إن كنت كذاباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك^(١).

وفي حديث جابر عند أبي داود: أن يهودية/ من أهل خيبر ٧٣/ب سمت شاة مصلية ثم أهدتها إلى رسول الله ﷺ، فأخذ رسول الله ﷺ فأكل منها، وأكل رهط من أصحابه معه، فقال رسول الله ﷺ: ارفعوا أيديكم، وأرسل إلى اليهودية فقال: سممت هذه الشاة؟ فقالت: من أخبرك؟ قال: أخبرتني هذه في يدي، للذراع. قالت نعم، قلت: إن كان نبياً فلن يضره، وإن لم يكن نبياً استرحنا منه. فعفا عنها ﷺ ولم يعاقبها، وتوفي أصحابه الذين أكلوا من الشاة، واحتجم رسول الله ﷺ على كاهله من أجل الذي أكل من الشاة^(٢).

وفي رواية غيره: جعلت زينب بنت الحارث امرأة ابن مشكم تسأل أي الشاة أحب إلى محمد فيقولون الذراع فعمدت إلى عنز لها

(١) رواه البخاري برقم ٥٧٧٧ و ٣١٦٩.

(٢) رواه أبو داود برقم ٤٥١٠.

فذبحتها وصلتها، ثم عمدت إلى سم لا يبطيء - يعني لا يلبث أن يقتل من ساعته - وقد شاورت يهود في سموم فاجتمعوا لها على هذا السم بعينه، فسمت الشاة وأكثرت في الذراعين والكتف، فوضعت بين يديه ومن حضر من أصحابه، وفيهم بشر بن البراء، وتناول ﷺ الذراع فانتهس منها، وتناول بشر بن البراء عظماً آخر، فلما ازدرد ﷺ لقمته، ازدرد بشر بن البراء ما في يده وأكل القوم، فقال ﷺ ارفعوا أيديكم، فإن هذه الذراع تخبرني أنها مسمومة. وفيه: أن بشر بن البراء مات، وفيه أنه دفعها ﷺ إلى أولياء بشر بن البراء فقتلوها. رواه الدمياطي.

وقد اختلف هل عاقبها صلى الله عليه وسلم:

فعند البيهقي من حديث أبي هريرة: فأعرض عنها، ومن طريق أبي نضرة عن جابر نحوه قال: فلم يعاقبها. وقال الزهري: أسلمت فتركها.

قال البيهقي: يحتمل أن يكون تركها أولاً ثم لما مات بشر بن البراء من الأكلة قتلها. وبذلك أجاب السهيلي وزاد: أنه تركها لأنه كان لا ينتقم لنفسه، ثم قتلها ببشر قصاصاً.

ويحتمل أن يكون تركها لكونها أسلمت. وإنما أخر قتلها حتى مات بشر، لأن بموته يتحقق وجوب القصاص بشرطه.

وفي مغازي سليمان التيمي: أنها قالت: إن كنت كذاباً أرحمت الناس منك. وقد استبان لي الآن أنك صادق وأنا أشهدك ومن حضر أي على دينك وأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، قال: فانصرف عنها حين أسلمت. وفيه: موافقة الزهري على إسلامها، فالله أعلم.

[وناموا عن صلاة الفجر]

وفي هذه الغزوة أيضاً: نام ﷺ عن صلاة الفجر، لما وكل به بلالاً كما في حديث أبي هريرة عند مسلم (أن رسول الله ﷺ حين قفل من غزوة خيبر، سار ليلته حتى أدركه الكرى عرس^(١))، وقال لبلال: إكلاً لنا الليل^(٢)، فصلى بلال ما قدر له، ونام رسول الله ﷺ وأصحابه فلما قارب^(٣) الفجر استند بلال إلى راحلته مواجه الفجر^(٤)، فغلبت بلالاً عيناه وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، فكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظاً، فقال: أي بلال! فقال بلال: أخذ بنفسي الذي أخذ - بأبي أنت وأمي يا رسول الله - بنفسك. قال: اقتادوا^(٥) فاقتادوا رواحلهم شيئاً، ثم توضأ رسول الله ﷺ وأمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلى بهم الصبح، فلما قضى الصلاة قال: من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها، فإن الله قال: «أقم الصلاة لذكري»^(٦).

[قدوم جعفر]

١/٧٤

وفيها قدم جعفر ومن/ معه من الحبشة.

واختلف في فتح خيبر هل كان عنوة أو صلحاً؟

(١) الكرى: النعاس، والتعريس: نزول المسافرين آخر الليل للنوم والاستراحة.

(٢) إكلاً: أي ارقبه واحفظه.

(٣) الذي في صحيح مسلم: تقارب.

(٤) أي مستقبل الجهة التي يطلع منها.

(٥) أي قودوا رواحلهم.

(٦) رواه مسلم برقم ٦٨٠.

وفي حديث عبد العزيز بن صهيب عن أنس^(١) التصريح بأنه كان عنوة، وبه جزم ابن عبد البر، ورد على من قال فتحت صلحاً. قال: وإنما دخلت الشبهة على من قال فتحت صلحاً بالحصنين اللذين أسلمهما أهلها لتحقن دماؤهما، وهو ضرب من الصلح، لكن لم يقع ذلك إلا بحصار وقتال. انتهى.

[فتح وادي القرى]

ثم فتح وادي القرى، في جمادى الآخرة بعدما أقام أربعاً يحاصرهم، ويقال: أكثر من ذلك.

وأصاب «مدعماً» مولاة سهم فقال ﷺ: إن الشملة التي غلها من خيبر لتشتعل عليه ناراً.

وصالحه أهل تيماء على الجزية، قاله الحافظ مغلطاي.

(١) عند البخاري وأبي داود والنسائي.

[سرايا بعد خيبر]

[سرية عمر]

ثم سرية عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى تربة في شعبان سنة سبع، ومعه ثلاثون رجلاً، فخرج معه دليل من بني هلال، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فأتى الخبر إلى هوازن فهربوا، وجاء عمر بن الخطاب، إلى محالم فلم يلق منهم أحداً، فانصرف راجعاً إلى المدينة.

[سرية أبي بكر]

ثم سرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى بني كلاب [بنجد]^(١) ناحية ضربة، سنة سبع، ويقال إلى فزارة، فسبى منهم جماعة وقتل آخرين.

وفي صحيح مسلم: فزارة، وهو الصواب.

[سرية بشير بن سعد]

ثم سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بفدك^(٢)، في شعبان سنة سبع، ومعه ثلاثون رجلاً، فقتلوا، وقاتل بشير حتى ارتث وضرب كعبه، وقيل قد مات.

(١) في (ش، د).

(٢) أي قريباً منها.

وقدم علبة بن زيد الحارثي بخبرهم على رسول الله ﷺ ثم قدم بعده بشير بن سعد.

[سرية غالب الليثي]

ثم سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى الميعة بناحية نجد من المدينة، على ثمانية برد، في شهر رمضان سنة سبع من الهجرة، في مائتين وثلاثين رجلاً، فهجموا عليهم في وسط محالهم، فقتلوا من أشرف لهم، واستاقوا نعماً وشاء إلى المدينة.

قالوا: وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد نهيك بن مرداس بعد أن قال: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: ألا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب؟ فقال أسامة: لا أقاتل أحداً يشهد أن لا إله إلا الله.

وفي الإكليل: فعل ذلك أسامة في سرية كان هو أميراً عليها سنة ثمان.

وفي البخاري: (عن أبي ظبيان قال: سمعت أسامة بن زيد يقول: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرة، فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناها قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري عنه، وطعنته برمحى حتى قتلتها. فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ قلت: كان متعوذاً. فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.)^(١).

(١) رواه البخاري برقم ٤٢٦٩.

[سرية بشير بن سعد]

ثم سرية بشير بن سعد الأنصاري أيضاً إلى يمن وجبار - بفتح الجيم - وهي أرض لغطفان، ويقال لفزارة وعذرة، في شوال سنة سبع من الهجرة، وبعث معه ثلاثمائة رجل لجمع تجمعوا للإغارة على المدينة، فساروا الليل وكمنوا النهار، فلما بلغهم مسير بشير هربوا.

وأصاب لهم نعمة كثيرة فغنمها، وأسر رجلين وقدم بهما إلى المدينة إلى رسول الله ﷺ فأسلما.

عمرة القضاء.

[سبب التسمية]

ثم عمرة القضية، وتسمى عمرة القضاء، لأنه قاضى فيها قريشاً، لا لأنها قضاء عن العمرة التي صد عنها، لأنها لم تكن فسدت حتى يجب قضاؤها. بل كانت عمرة تامة، ولهذا عدوا عُمر النبي ﷺ أربعاً، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقال آخرون: بل كانت قضاء عن العمرة الأولى. وعدوا عمرة ب/٨ الحديبية في/ العمر لثبوت الأجر فيها، لا لأنها كملت.

وهذا الخلاف مبني على الاختلاف في وجوب القضاء على من اعتمر فصد عن البيت.

فقال الجمهور: يجب عليه الهدى ولا قضاء عليه. وعند أبي حنيفة: عكسه.

وعن أحمد رواية أنه لا يلزمه هدي ولا قضاء. وأخرى: يلزمه القضاء والهدى.

فحجة الجمهور: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾^(١).

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٦.

وحجة أبي حنيفة: أن العمرة تلزم بالشروع، فإذا أحصر جاز له تأخيرها، فإذا زال الحصر أتى بها، ولا يلزم من التحلل بين الإحرامين سقوط القضاء.

وحجة من أوجبها: ما وقع للصحابة، فإنهم نحرروا الهدي حيث صدوا واعتَمروا من قابل وساقوا الهدي.

وحجة من لم يوجبها: أن تحللهم بالحصر لم يتوقف على نحر الهدي، بل أمر من معه هدي أن ينحر، ومن ليس معه هدي أن يخلق^(١).

[قصة العمرة]

قال الحاكم في الإكليل: تواترت الأخبار أنه ﷺ لما هلك ذو القعدة - يعني سنة سبع - أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء لعمرتهم التي صددهم المشركون عنها بالحديبية، وأن لا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف منهم إلا رجال استشهدوا بخير ورجال ماتوا.

وخرج معه ﷺ من المسلمين ألفان، واستخلف على المدينة أبا رهم الغفاري، وساق ﷺ ستين بدنة، وحمل السلاح والبيض والدرع^(٢) والرماح، وقاد مائة فرس، فلما انتهى إلى ذي الحليفة قدم الخيل أمامه، عليها محمد بن مسلمة، وقدم السلاح واستعمل عليه بشير بن سعد.

وأحرم ﷺ ولبي، والمسلمون يلبون معه، ومضى محمد بن مسلمة في الخيل إلى مر الظهران، فوجد بها نفرًا من قريش، فسألوه

(١) عن فتح الباري ٥٠٠/٧ [م].

(٢) في ش: الدروع.

فقال: هذا رسول الله ﷺ يصبح هذا المنزل غداً إن شاء الله تعالى.
فأتوا قريشاً فأخبروهم ففزعوا.

ونزل رسول الله ﷺ بمر الظهران وقدم السلاح إلى بطن يأجج -
كيسمع وينصر ويضرب - موضع بمكة، حيث ينظر إلى أنصاب
الحرم^(١)، وخلف عليه أوس بن خولى الأنصاري في مائتي رجل.

وخرجت قريش من مكة إلى رؤوس الجبال.
وقدم رسول الله ﷺ الهدي أمامه، فحبس^(٢) بذي طوى،
وخرج رسول الله ﷺ على راحلته القصواء، والمسلمون متوشحون
السيوف محذقون برسول الله ﷺ يلبون، فدخل من الثنية التي تطلعه
على الحجون، وابن رواحة أخذ بزمام راحلته.

وفي رواية الترمذي في الشمائل، من حديث أنس أنه ﷺ دخل
مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه وهو يقول:
خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله
فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ تقول شعراً؟
فقال ﷺ: خل عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النبل.

ورواه عبد الرزاق من حديث أنس أيضاً من وجهين بلفظ
خلوا بني الكفار عن سبيله قد أنزل الرحمن في تنزيله
بأن خير القتل في سبيله نحن قتلناكم على تأويله
كما قتلناكم على تنزيله

(١) أي أعلام حدوده .

(٢) أي: ترك.

وأخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل وفيه: /

اليوم نضربكم على تنزيله ضرباً يزيل الهام عن مقلبه
ويذهل الخليل عن خليله يا رب إني مؤمن بقيله

وعن ابن عقبة في المغازي بعد قوله:

قد أنزل الرحمن في تنزيله في صحف تتلى على رسوله
لكنه لم يذكر أنساً، وزاد ابن إسحاق بعد قوله:
يا رب إني مؤمن بقيله إني رأيت الحق في قبوله
وقال ابن هشام: إن قوله:

نحن ضربناكم على تأويله

إلى آخر الشعر من قول عمار بن ياسر قاله يوم صفين^(١).

قالوا: ولم يزل رسول الله ﷺ يلي حتى استلم الركن بمحجنه
مضطرباً بثوبه وطاف على راحلته، والمسلمون يطوفون معه وقد اضطبعوا
بشياهم.

[الرملة في الطواف]

وفي البخاري، عن ابن عباس (. . .) قال المشركون: إنه يقدم
عليكم وفد وهنتهم حمى يثرب. فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط
الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين، ولم يمنعهم^(٢) أن يرملوا الأشواط
كلها إلا الإبقاء عليهم^(٣).

(١) كذا في ش، وهو كذلك في فتح الباري، وهو الأصل المنقول عنه. وفي
بقية النسخ: يوم حنين وهو غلط.

(٢) كذا في النسخ وهو رواية مسلم والذي في البخاري: ولم يمنع أن
يأمرهم . . .

(٣) رواه البخاري برقم ٤٢٥٦ .

وفي رواية: (قال: ارملوا ليرى المشركون قوتكم^(١)) والمشركون من قبل قعيقعان^(٢))

ومعنى قوله: «إلا الإبقاء عليهم» أي لم يمنعه من أمرهم بالرمل في جميع الطوافات إلا الرفق بهم، والإشفاق عليهم.

[السعي والتحلل]

ثم طاف رسول الله ﷺ بين الصفا والمروة على راحلته، فلما كان الطواف السابع عند فراغه - وقد وقف الهدي عند المروة - قال: هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحر.

فنحر عند المروة. وحلق هناك، وكذلك فعل المسلمون.

وأمر رسول الله ﷺ ناساً منهم أن يذهبوا إلى أصحابهم ببطن يأجج، فيقيموا على السلاح، ويأتي الآخرون فيقضوا نسكهم ففعلوا. وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثاً.

وفي البخاري من حديث البراء (.. فلما دخلها - يعني مكة - ومضى الأجل، أتوا علياً فقالوا: قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل)^(٣).

[خروج ابنة حمزة]

(فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادي: يا عم يا عم، فتناولها

(١) كذا في الأصل، وكذلك في البخاري، وفي بقية النسخ: ليرى المشركين قوتهم.

(٢) رواه البخاري برقم ٤٢٥٦.

(٣) رواه البخاري برقم ٤٢٥١.

علي فأخذ بيدها وقال لفاطمة دونك ابنة عمك، فحملتها^(١)، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر، قال علي: أنا أخذتها وهي بنت عمي. وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد ابنة أخي^(٢) ففضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال: الخالة بمنزلة الأم^(٣).

وإنما أقرهم النبي ﷺ على أخذها مع اشتراط المشركين أن لا يخرج بأحد من أهلها أراد الخروج، لأنهم لم يطلبوها.

وقوله: «الخالة بمنزلة الأم» أي في هذا الحكم الخاص، لأنها تقرب منها في الحنو والشفقة والاهتداء إلى ما يصلح الولد. ويؤخذ منه أن الخالة في الحضانة مقدمة على العمة، لأن صفية بنت عبد المطلب كانت موجودة حينئذ، وإذا قدمت على العمة مع كونها أقرب العصابات من النساء، فهي مقدمة على غيرها. ويؤخذ منه تقديم أقارب الأم على أقارب الأب انتهى^(٤).

[ميمونة.. أم المؤمنين]

قال ابن عباس: وتزوج ﷺ ميمونة وهو محرم وبني بها وهو حلال^(٥).

وقد استدرك ذلك على ابن عباس وعد من وهمه، قال سعيد بن

(١) كذا في النسخ وفي البخاري: حملها.

(٢) كان ﷺ أخى بين حمزة وبين زيد حين أخى بين المهاجرين.

(٣) رواه البخاري برقم ٤٢٥١.

(٤) نقلاً عن فتح الباري ٥٠٦/٧.

(٥) رواه البخاري برقم ٤٢٥٨.

المسيب: وهل ابن عباس وإن كانت حالته، ما تزوجها ﷺ إلا بعد ما حل. ذكره البخاري.

و«وهل» بكسر الهاء أي غلط.

وقال يزيد بن الأصم عن ميمونة: تزوجني رسول الله ﷺ ونحن حلالان بسرف. رواه مسلم.

وسياتي في الخصائص من مقصد معجزاته إن شاء الله تعالى: أن له ﷺ النكاح في حال الإحرام على أصح الوجهين عند الشافعية.

[بين العمرة ومؤته]

[سرية ابن أبي العوجاء]

ثم سرية ابن أبي العوجاء السلمي إلى بني سليم، في ذي الحجة سنة سبع، في خمسين رجلاً، فأحرق بهم الكفار من كل ناحية، وقاتل القوم قتالاً شديداً، حتى قتل عامتهم وأصيب ابن أبي العوجاء / جريحاً مع القتلى، ثم تحامل حتى بلغ رسول الله ﷺ في أول صفر سنة ثمان.

ب/٧٥

[سرية غالب الليثي]

ثم سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوح - بالحاء المهملة - بالكديد - بفتح الكاف - قال في القاموس: الكديد بفتح الكاف ماء بين الحرمين شرفها الله تعالى. والبطن الواسع من الأرض الغليظة، كالكمة بالكسر، ويوم الكديد معروف.

في صفر سنة ثمان من مهاجره، فغنم.

[قدوم خالد وصاحبيه]

وفي هذا الشهر قدم خالد بن الوليد وعثمان بن أبي طلحة وعمرو بن العاصي المدينة فأسلموا. وقال ابن أبي خيثمة: كان ذلك سنة خمس، وقال الحاكم: سنة سبع.

[سرية غالب أيضاً]

ثم سرية غالب أيضاً إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك في صفر سنة ثمان، ومعه مائتا رجل، فأغاروا عليهم مع الصبح وقتلوا منهم قتلى وأصابوا نعاماً.

[سرية شجاع بن وهب]

ثم سرية شجاع بن وهب الأسدي إلى بني عامر، بالسبيء؛ ماء من ذات عرق إلى وجرة على ثلاثة مراحل من مكة إلى البصرة، وخمس مراحل من المدينة.

في شهر ربيع الأول سنة ثمان، ومعه أربعة وعشرون رجلاً إلى جمع من هوازن، وأمره أن يغير عليهم فكان يسير الليل ويكمن النهار حتى صبحهم، فأصابوا نعاماً وشاء واستاقوا ذلك حتى قدموا المدينة، وكانت غيبتهم خمس عشرة ليلة، واقتسموا الغنيمة وكانت سهامهم خمسة عشر بعيراً وعدلوا البعير بعشر من الغنم.

[سرية كعب الغفاري]

ثم سرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاق، وراء ذات القرى^(١)، في ربيع الأول سنة ثمان، في خمسة عشر رجلاً، فساروا حتى انتهوا إلى ذات أطلاق، فوجدوا جمعاً كثيراً فقاتلهم الصحابة أشد القتال حتى قتلوا، وأفلت منهم رجل جريح في القتلى. قال مغلطاي: قيل هو الأمير. فلما برد عليه الليل تحامل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فشق ذلك عليه، وهم بالبعث إليهم فبلغه أنهم ساروا إلى موضع آخر فتركهم.

(١) هي وادي القرى.

غزوة مؤتة

[الموقع والتاريخ]

ثم سرية مؤتة - بضم الميم وسكون الواو - بغير همز لأكثر الرواة، وبه جزم المبرد، وجزم ثعلب والجوهري وابن فارس بالهمز، وحكى غيرهم الوجهين.
وهي من عمل البلقاء بالشام، دون دمشق. في جمادى الأولى سنة ثمان.

[سبب الغزوة]

وذلك أن رسول الله ﷺ كان أرسل الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى ملك بصرى، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقتله، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره.

فأمر ﷺ زيد بن حارثة على ثلاثة آلاف وقال: إن قتل فجعفر ابن أبي طالب فإن قتل فعبد الله بن رواحة فإن قتل فليترض المسلمون برجل من بينهم يجعلونه عليهم.

وفي حديث عبد الله بن جعفر عند أحمد والنسائي. بإسناد صحيح: إن قتل زيد فأمركم جعفر. الحديث.

قالوا: وعقد لهم ﷺ لواء أبيض، ودفعه إلى زيد بن حارثة، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك إلى

الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعينا عليهم بالله وقاتلوهم.

[مغادرة المدينة]

وخرج مشيعاً لهم، حتى إذا بلغ ثنية الوداع فوقف وودعهم، فلما ساروا نادى المسلمون: دفع الله عنكم وردكم صالحين غانمين، فقال ابن رواحة:

لكني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا

فلما فصلوا من المدينة سمع العدو بمسيرهم، فجمعوا لهم، وقام شرحبيل بن عمرو فجمع أكثر من مائة ألف، وقدم الطلائع أمامه.

وقد نزل المسلمون معان - بفتح الميم - موضع من أرض الشام، وبلغ الناس كثرة العدو وتجمعهم، وأن هرقل نزل بأرض البلقاء في مائة ألف من المشركين. فأقاموا ليلتين لينظروا في أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فشجعهم عبد الله بن رواحة على المضي، فمضوا إلى مؤتة.

[المعركة]

ووافقهم المشركون فجاء/ منهم ما لا قبل لأحد به من العدد والعدد والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب. 1/76

والتقى المسلمون والمشركون. فقاتل الأمراء يومئذ على أرجلهم، فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل وقاتل المسلمون معه على صفوفهم حتى قتل طعناً بالرماح.

ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب، فنزل عن فرس له شقراء وقاتل حتى قتل، ضربه رجل من الروم فقطعه نصفين، فوجد في أحد

نصفيه بضعة وثمانون جرحاً وفيما أقبل من بدنه اثنتان وسبعون ضربة بسيف وطعنة برمح .

قال في رواية البخاري : ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنة ورمية^(١) .

وفي رواية : أن ابن عمر وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل قال : فعددت به خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء في دبره،^(٢) وذكر ابن إسحاق بإسناد حسن، وهو عند أبي داود من طريقه عن رجل من مرة قال : والله لكأني أنظر إلى جعفر بن أبي طالب، حين اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ثم تقدم فقاتل حتى قتل .

قالوا : ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل . فأخذ اللواء ابن أقرم العجلاني، إلى أن اصطلح الناس على خالد بن الوليد، فأخذ اللواء، وانكشف الناس فكانت الهزيمة فتبعهم المشركون فقتل من قتل من المسلمين .

وقال الحاكم : قاتلهم خالد بن الوليد فقتل منهم مقتلة عظيمة وأصاب غنيمة .

وقال ابن سعد : إنما انهزم بالمسلمين .
وقال ابن إسحاق : انحازت كل طائفة من غير هزيمة .
ورفعت الأرض لرسول الله ﷺ حتى نظر إلى معترك القوم .

(١) رواه البخاري برقم ٤٢٦١ .

(٢) رواه البخاري برقم (٤٢٦٠) .

[ذو الجناحين]

وعن عباد بن عبد الله بن الزبير قال: حدثني أبي الذي أرضعني - وكان أحد بني مرة قال: شهدت مؤتة مع جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فرأيت جعفرأ حين التحم القتال اقتحم عن فرس له شقراء ثم عقرها وقاتل القوم حتى قتل، خرجه البغوي في معجمه .

وقطعت في تلك الوقعة يدها جميعاً ثم قتل، فقال رسول الله ﷺ: إن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء، خرجه أبو عمر .

وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها: لما جاء قتل ابن رواحة وابن حارثة وجعفر بن أبي طالب جلس رسول الله ﷺ يعرف فيه (١) الحزن (٢) .

وأخرج الطبراني بإسناد حسن عن عبد الله بن جعفر قال قال لي رسول الله ﷺ: هنيئاً لك أبوك يطير مع الملائكة في السماء .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: رأيت جعفر بن أبي طالب يطير مع الملائكة، أخرجه الترمذي والحاكم، وفي إسناده ضعف، لكن له شاهد من حديث علي عند ابن سعد .

وعن أبي هريرة أيضاً عن النبي ﷺ قال: مر بي جعفر الليلة في ملأ من الملائكة وهو مخضب الجناحين بالدم، أخرجه الترمذي والحاكم بإسناد على شرط مسلم .

(١) كذا في ش وفي البخاري، وفي النسخ: منه .

(٢) رواه البخاري برقم ٤٢٦٣ .

وأخرج أيضاً هو والطبراني عن ابن عباس مرفوعاً: دخلت
البارحة الجنة فرأيت فيها جعفر بن أبي طالب يطير مع الملائكة.
وفي طريق أخرى عنه: إن جعفرأ يطير مع جبريل وميكائيل له
جناحان، عوضه الله من يديه. وإسناد هذا جيد.
فقد عوضه الله تعالى عن قطع يديه في هذه الواقعة، حيث أخذ
اللواء بيمينه فقطعت ثم أخذه بشماله فقطعت ثم احتضنه فقتل.

[المقصود بالأجنحة]

قال السهيلي: له جناحان، ليسا كما يسبق إلى الوهم كجناحي
الطائر وريشه، لأن الصورة الآدمية أشرف الصور وأكملها، فالمراد
بالجناحين صفة ملكية/ وقوة روحانية أعطيها جعفر. وقد عبر القرآن
عن العضد^(١) بالجناح توسعاً في قوله تعالى: ﴿واضمم يدك إلى
جناحك﴾^(٢). وقال العلماء في أجنحة الملائكة إنها صفات ملكية لا
تفهم إلا بالمعانية، فقد ثبت أن لجبريل ستائة جناح، ولا يعهد للطير
ثلاثة أجنحة فضلاً عن أكثر من ذلك، وإذا لم يثبت خبر في بيان
كيفية فنؤمن بها من غير بحث عن حقيقتها. انتهى.

قال الحافظ ابن حجر: وهذا الذي جزم به في مقام المنع،
والذي حكاه عن العلماء ليس صريحاً في الدلالة لما ادعاه.

ولا مانع من الحمل على الظاهر، إلا من جهة ما ذكره من
المعهود، وهو قياس الغائب على الشاهد وهو ضعيف.

(١) كذا في ش وفي فتح الباري، وفي النسخ: العضو.

(٢) سورة طه. الآية ٢٢.

وكون الصورة البشرية أشرف الصور لا يمنع من حمل الخبر على ظاهره، لأن الصورة باقية. وقد روى البيهقي في الدلائل من مرسل عاصم بن عمر بن قتادة: أن جناحي جعفر من ياقوت. وجاء في جناحي جبريل أنها من لؤلؤ. أخرجه ابن منده في ترجمة ورقة (١).

[وصول خبرهم إلى المدينة]

وذكر موسى بن عقبة في المغازي، أن يعلى بن أمية قدم بخبر أهل مؤتة، فقال له رسول الله ﷺ إن شئت فأخبرني وإن شئت أخبرتك، قال: أخبرني، فأخبره خبرهم فقال: والذي بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفاً لم تذكره.

وعند الطبراني من حديث أبي اليسر الأنصاري: أن أبا عامر الأشعري هو الذي أخبر النبي ﷺ بمصاهم.

[سرايا قبل الفتح]

[سرية ذات السلاسل]

ثم سرية عمرو بن العاصي إلى ذات السلاسل. وسميت بذلك لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا. وقيل لأن بها ماء يقال له السلسل، وراء ذات القرى، من المدينة على عشرة أيام.

وكانت في جمادى الآخرة سنة ثمان، وقيل: كانت سنة سبع، وبه جزم ابن أبي خالد في كتاب صحيح التاريخ. ونقل ابن عساكر الاتفاق على أنها كانت بعد غزوة مؤتة، إلا أن ابن إسحاق قال قبلها.

(١) عن فتح الباري ٥١٥/٧.

وسببها: أنه بلغه ﷺ أن جمعاً من قضاة قذ تجمعو للإغارة، فعقد له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثائة من سراة^(١) المهاجرين والأنصار. ومعهم ثلاثون فرساً.

فسار الليل وكمن النهار، فلما قرب منهم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فبعث رافع بن مكث - بفتح الميم - الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح، وعقد له لواء، وبعث معه مائتين من سراة المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهم، وأمره أن يلحق بعمرو، وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا.

فأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس فقال عمرو: إنما قدمت علي مدداً، وأنا الأمير، فأطاع له بذلك أبو عبيدة، فكان عمرو يصلي بالناس.

وسار حتى وصل إلى العدو: بلي وعذرة، فحمل عليهم المسلمون، فهربوا في البلاد وتفرقوا.

[سرية سيف البحر]

ثم سرية أبي عبيدة بن الجراح. وسأها البخاري: غزوة سيف البحر، وتعرف بسرية الخبط.

وبعث معه ﷺ ثلاثائة، كما في الصحيحين وغيرهما وهو المشهور، لكن في رواية النسائي: وبضع عشرة، فإن صحت هذه الرواية فلعله اقتصر في الرواية المشهورة على الثلاثائة استسهالاً لأمر الكسر، والأخذ بالزيادة مع صحتها واجب.

(١) سراة: جمع سري، وهو النفيس وقيل السخي ذو المروعة.

وكان فيهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه .
يتلقى عيراً لقريش . رواه مسلم ، وعنده أيضاً : إلى أرض
جهينة .

ولا منافاة بينها : فالجهة أرض جهينة ، والقصد تلقي عير قريش
- وهي الإبل المحملة للطعام وغيره .-

لكن في كتب السير : أن البعث إلى حي من جهينة بالقبلية -
بفتح القاف والموحدة - مما يلي ساحل البحر ، وبينها وبين / المدينة خمس
ليال . ١/٧٧

ولعل البعث لمقصدين : رصد عير قريش ، ومحاربة حي من
جهينة .

وقال ابن سعد : وكانت في رجب سنة ثمان .

وفيه نظر : فإن تلقي عير قريش ما يتصور أن يكون في هذه
المدة ، لأنهم حينئذ كانوا في الهدنة ، فالصحيح أن تكون هذه السرية
سنة ست أو قبلها ، قبل هدنة الحديبية .

نعم يحتمل أن يكون تلقيهم العير ليس لمحاربتهم بل لحفظهم
من جهينة ، ولهذا لم يقع في شيء من طرق الخبر أنهم قاتلوا أحداً . بل
فيه أنهم أقاموا نصف شهر أو أكثر في مكان واحد . فالله أعلم . قاله
الحافظ ابن حجر (١) .

لكن قال شيخ الإسلام ابن العراقي في شرح التقريب ، قالوا :
وكانت هذه السرية في شهر رجب سنة ثمان من الهجرة وذلك بعد

(١) فتح الباري ٧٨/٨ .

نكث قریش العهد وقبل الفتح، فإنه كان في رمضان من السنة المذكورة انتهى.

قالوا: وزودهم ﷺ جراباً من التمر، فلما في أكلوا الخبط - وهو بفتح المعجمة والموحدة بعدها مهملة - ورق السلم. وفي رواية أبي الزبير: وكنا نضرب بعصينا الخبط ونبله بالماء فنأكله^(١)، وهذا يدل على أنه كان يابساً، خلافاً لمن زعم أنه كان أخضر رطباً.

وقد كان معهم تمر غير الجراب النبوي، ويدل عليه حديث البخاري - في الجهاد - خرجنا ونحن ثلاثمائة نحمل زادنا على رقابنا فقني زادنا، حتى كان الرجل منا يأكل ثمرة ثمرة^(٢).

وابتاع قيس بن سعد جزوراً ونحرها لهم^(٣).

وأخرج الله لهم من البحر دابة تسمى العنبر فأكلوا منها، وتزودوا ورجعوا ولم يلقوا كيداً.

وفي رواية جابر عند الأئمة الستة: بعثنا رسول الله ﷺ ثلاثمائة راكب، أميرنا أبو عبيدة بن الجراح، فأقمنا على الساحل حتى في زادنا، حتى أكلنا الخبط ثم إن البحر ألقى لنا دابة يقال لها العنبر، فأكلنا منها نصف شهر، حتى صلحت أجسامنا، فأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعها فنصبه ونظر إلى أطول بعير فجاز تحته. الحديث^(٤).

زاد الشيخان في رواية: فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ

(١) رواه مسلم برقم ١٩٣٥ .

(٢) رواه البخاري برقم ٢٩٨٣ .

(٣) رواه البخاري برقم ٤٣٦١ .

(٤) رواه البخاري برقم ٤٣٦١ ومسلم في كتاب الصيد برقم ١٨ .

فذكرنا ذلك له فقال: هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم شيء من لحمه فتطعمونا؟ قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكل^(١).

[سرية أبي قتادة]

ثم سرية أبي قتادة بن ربعي الأنصاري إلى خضرة، وهي أرض محارب بنجد، في شعبان سنة ثمان، وبعث معه خمسة عشر رجلاً إلى غطفان، فقتل من أشرف منهم، وسبى سبياً كثيراً، واستاق النعم، وكانت الإبل مائتي بعير، والغنم ألفي شاة، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة.

ثم سرية أبي قتادة أيضاً إلى بطن إضم - فيما بين ذي خشب وذي المروة - على ثلاثة برد من المدينة، في أول شهر رمضان سنة ثمان.

وذلك أنه ﷺ لما هم أن يغزو أهل مكة، بعث أبا قتادة في ثمانية نفر، سرية إلى بطن إضم، ليظن ظان أنه ﷺ توجه إلى تلك الناحية، ولأن تذهب بذلك الأخبار.

فلقوا عامر بن الأضبط، فسلم عليهم بتحية الإسلام، فقتله محلم بن جثامة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ إلى آخر الآية^(٢) رواه أحمد^(٣)، وهو عند ابن جرير من حديث ابن عمر بنحوه وزاد: فجاء محلم بن جثامة في بردين فجلس بين يدي رسول الله ﷺ ليستغفر له، فقال رسول الله ﷺ: لا غفر الله لك، فقام يتلقى دموعه ببرديه، فما مضت له سابعة حتى مات

(١) عند البخاري برقم ٤٣٦٢ وعند مسلم برقم ١٩٣٥.

(٢) سورة النساء. الآية ٩٤.

(٣) عن عبدالله بن أبي حدرق قال بعثنا ﷺ في نفر من المسلمين فخرجنا. . مر =

ب/٧٧ فلفظته / الأرض . وعند غيره: ثم عادوا به فلفظته الأرض، فلما غلب قومه عمدوا إلى صدين^(١) فسطحوه ثم رضموا عليه الحجارة حتى واروه.

وفي رواية ابن جرير: فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم، ولكن الله يريد أن يعظكم.

ونسب ابن إسحاق هذه السرية لابن أبي حدرد ومعه رجلان إلى الغابة، لما بلغه ﷺ أن رفاعة بن قيس يجمع لحربه، فقتلوا رفاعة وهزموا عسكره، وغنموا غنيمة عظيمة، حكاها مغلطي والله أعلم.

= بنا عامر بن الأضبط على قعود له ومعه متيع . . فسلم علينا بتحية الإسلام فأمسكنا عنه وحمل عليه محلم فقتله لشيء كان بينه وبينه وأخذ بعيره . . الحديث المسند ١١/٦ .

(١) أي جبلين.

[فتح مكة]

ثم فتح مكة زادها الله شرفاً. وهو كما قال في زاد المعاد:

«الفتح الأعظم، الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحرمه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجا».

[سبب الفتح]

خرج له ﷺ بكتائب الإسلام وجنود الرحمن لنقض قريش العهد الذي وقع بالحديبية. فإنه كان قد وقع الشرط: أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فعل، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فعل. فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده.

وكان بين بني بكر وخزاعة حروب وقتلى في الجاهلية، فتشاغلوا عن ذلك لما ظهر الإسلام، فلما كانت الهدنة خرج نوفل بن معاوية الديلي من بني بكر في بني الدليل حتى بيت خزاعة وهم على ماء لهم يقال له الوتير. فأصاب منهم رجلاً يقال له منبه، واستيقظت لهم خزاعة فاقتتلوا إلى أن دخلوا الحرم ولم يتركوا القتال.

وأمدت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل بعضهم معهم ليلاً في خفية.

وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من خزاعة، فقدموا على رسول الله ﷺ يخبرونه بالذي أصابهم ويستنصرونه. فقام وهو يجرد رداءه وهو يقول: لا نصرت إن لم أنصركم بما أنصرت منه نفسي.

وفي المعجم الصغير للطبراني، من حديث ميمونة أنها سمعته ﷺ يقول في متوضئه ليلاً: لبيك لبيك ثلاثاً، نصرت نصرت ثلاثاً، فلما خرج قلت: يا رسول الله سمعتك تقول في متوضئك: لبيك لبيك ثلاثاً، نصرت نصرت ثلاثاً، كأنك تكلم إنساناً، فهل كان معك أحد؟ فقال ﷺ: هذا راجز بني كعب يستصرخني ويزعم أن قريشاً أعانت عليهم بني بكر.

ثم خرج عليه السلام فأمر عائشة أن تجهزه ولا تعلم أحداً. قالت: فدخل عليها أبو بكر فقال: يا بنية، ما هذا الجهاز؟ فقالت: والله ما أدري، فقال: والله ما هذا زمان غزو بني الأصفر، فأين يريد رسول الله ﷺ؟ قالت: والله لا علم لي. قالت فأقمنا ثلاثاً ثم صلى الصبح بالناس فسمعت الراجز ينشده:

يا رب إني ناشد محمداً حلف أبينا وأبيه الأتلادا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وزعموا أن لست تدعو أحداً^(١) فانصر هداك الله نصراً أبدا
وادع عباد الله يأتوا مددا فيهم رسول الله قد تجردا^(٢)

(١) أي لست تدعو أحداً لنصرتنا.

(٢) أي شمر وتهياً لحربهم.

/ إن سيم خسفاً وجهه تربدا

قال في القاموس: وتربد - يعني بالراء - تغير. انتهى. وزاد ابن إسحاق:

هم بيتونا بالوتير هجدا وقتلونا ركعا وسجدا وزعموا أن لست أدعو أحدا وهم أذل وأقل عددا

فقال له رسول الله ﷺ: نصرت يا عمرو بن سالم.

فكان ذلك ما هاج فتح مكة. وقد ذكر البزار من حديث أبي هريرة بعض الآيات المذكورة.

[أبو سفيان في المدينة]

وقدم أبو سفيان بن حرب على رسول الله ﷺ المدينة يسأله أن يجدد العهد ويزيد في المدة. فأبى عليه، فانصرف إلى مكة.

[رسالة حاطب إلى قریش]

فتجهز رسول الله ﷺ من غير إعلام أحد بذلك فكتب حاطب كتاباً وأرسله إلى مكة يخبر بذلك. فأطلع الله نبيه على ذلك.

فقال عليه السلام لعلي بن أبي طالب والزبير والمقداد: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها. قال فانطلقنا. حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا: أخرجني الكتاب، قالت: ما معي كتاب. قلنا لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب. قال: فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ. فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة، يخبرهم

ببعض أمر رسول الله ﷺ. فقال: يا حاطب، ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجل علي، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش - يقول: كنت حليفاً ولم أكن من أنفسها - وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضى بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: أما إنه قد صدقكم. فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: إنه قد شهد بدرأً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرأً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾ إلى قوله: ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾^(١). رواه البخاري^(٢).

قال في فتح الباري: وإنما قال عمر رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق مع تصديق رسول الله ﷺ لحاطب فيما اعتذره به، لما كان عند عمر من القوة في الدين وبغض المنافقين، فظن أن من خالف ما أمر به النبي ﷺ استحق القتل. لكنه لم يجزم بذلك، فلذلك استأذن في قتله. وأطلق عليه منافقاً لكونه أبطن خلاف ما أظهر. وعذر حاطب ما ذكره، فإنه صنع ذلك متأولاً أن لا ضرر فيه. وعند الطبراني من طريق الحارث عن عليّ في هذه القصة فقال: (أليس قد شهد بدرأً، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) فأرشد إلى علة ترك قتله. وعند الطبري أيضاً: عن عروة: فإني غافر لكم. وهذا يدل على أن المراد: بـ «غفرت» أغفر، على طريق التعبير عن الآتي بالواقع مبالغة في تحققه.

(٢) رواه البخاري برقم ٤٢٧٤ و٤٨٩٠.

(١) سورة الممتحنة: الآية ١.

قال: والذي يظهر أن هذا الخطاب خطاب إكرام وتشريف، تضمن أن هؤلاء حصلت لهم حالة غفرت بها ذنوبهم السالفة وتأهلوا أن يغفر لهم ما يستأنف من الذنوب اللاحقة. وقد أظهر الله تعالى صدق رسوله في كل من أخبر عنه بشيء من ذلك، فإنهم لم يزالوا على أعمال أهل الجنة إلى أن فارقوا الدنيا، ولو قدر صدور شيء من أحدهم لبادر إلى التوبة ولازم الطريقة/ المثلى، يعلم ذلك من أحوالهم بالقطع من اطلع على سيرهم. قاله القرطبي^(١).

وذكر بعض أهل المغازي - وهو في تفسير يحيى بن سلام - أن لفظ الكتاب الذي كتبه حاطب: أما بعد: يا معشر قريش، فإن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش عظيم يسير كالسيل، فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له، فانظروا لأنفسكم والسلام. هكذا حكاه السهيلي.

وروى الواقدي بسند له مرسل: أن حاطباً كتب إلى سهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وعكرمة: أن رسول الله ﷺ أذن في الناس بالغزو، ولا أراه يريد غيركم وقد أحببت أن تكون لي عندكم يد. انتهى^(٢).

[مغادرة المدينة]

وبعث رسول الله ﷺ إلى من حوله من العرب فجلبهم: أسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم، فمنهم من وافاه بالمدينة ومنهم من لحقه بالطريق.

(١) فتح الباري ٨/٦٣٤ - ٦٣٥.

(٢) عن فتح الباري ٧/٥٢١.

فكان المسلمون في غزوة الفتح: عشرة آلاف. وفي «الإكليل» و«شرف المصطفى» اثني عشر ألفاً. ويجمع بينهما أن العشرة آلاف خرج بها من نفس المدينة، ثم تلاحق به الألفان.

واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم وقيل أبارهم الغفاري. وخرج ﷺ يوم الأربعاء لعشر ليال خلون من رمضان، بعد العصر، سنة ثمان، قاله الواقدي.

وعند أحمد بإسناد صحيح عن أبي سعيد قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الفتح لليلتين خلتا من شهر رمضان.

فما قاله الواقدي ليس بقوي لمخالفته ما هو أصح منه. وفي تعيين هذا التاريخ أقوال آخر منها عند مسلم: لست عشرة، ولأحمد: ثمان عشرة، وفي أخرى: لثنتي عشرة. والذي في المغازي: لتسع عشرة مضت. وهو محمول على الاختلاف في أول الشهر، وفي أخرى: تسع عشرة أو سبع عشرة على الشك.

ولما بلغ ﷺ الكديد - بفتح الكاف - الماء الذي بين قديد وعسفان أفطر فلم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر. رواه البخاري، وفي أخرى: أفطر وأفطروا، الحديث^(١).

[لقاءات في الطريق]

وكان العباس قد خرج قبل ذلك بأهله وعياله مسلماً مهاجراً، فلقي رسول الله ﷺ بالجحفة، وكان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته،

(١) الرواية الأولى برقم ٤٢٧٥ والثانية برقم ٤٢٧٦.

ورسول الله ﷺ عنه راض.

وكان ممن لقيه في الطريق أبو سفيان بن الحارث، ابن عمه، وأخوه من رضاع حليلة السعدية، ومعه ولده جعفر بن أبي سفيان. وكان أبو سفيان يآلف رسول الله ﷺ، فلما بعث عاداه وهجاء. وكان لقاؤهما له عليه السلام بالأبواء وأسلما قبل دخول مكة.

وقيل: بل لقيه هو وعبد الله بن أبي أمية، ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب بين السقيا والعرج، فأعرض ﷺ عنها لما كان يلقي منها من شدة الأذى والهجو، فقالت له أم سلمة: لا يكن ابن عمك وابن عمك أشقى الناس بك، وقال علي: لأبي سفيان - فيما حكاه أبو عمر^(١) وصاحب ذخائر العقبي^(٢) - : ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه فقل له ما قال أخوة يوسف ليوسف: «تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين» فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً، ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له ﷺ: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين».

ويقال: إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياء منه.

[دخول مكة]

قالوا: ثم سار ﷺ فلما كان بقديد عقد الألوية والرايات ودفعها إلى القبائل.

ثم نزل مر الظهران عشاء، فأمر أصحابه فأوقدوا/ عشرة آلاف

١/٧٩

(١) أي: ابن عبد البر.

(٢) كتاب (ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربى) وهو للمحب الطبري.

نار، ولم يبلغ قريشاً مسيره وهم مغتمون لما يخافون من غزوه إياهم، فبعثوا أبا سفيان بن حرب وقالوا: إن لقيت محمداً فخذلنا منه أماناً، فخرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء حتى أتوا مر الظهران، فلما رأوا العسكر أفرعهم.

وفي البخاري: (فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة، فقال أبو سفيان: ما هذه؟ لكأنها نيران عرفة، فقال له بديل بن ورقاء: نيران بني عمرو، فقال أبو سفيان: عمرو^(١) أقل من ذلك. فرآهم ناس من حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم إلى رسول الله ﷺ، فأسلم أبو سفيان.

فلما سار قال للعباس: احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين، فحبسه العباس، فجعلت القبائل تمر مع النبي ﷺ: تمر^(٢) كتيبة كتيبة على أبي سفيان. فمرت كتيبة فقال: يا عباس من هذه؟ قال: هذه غفار؟ قال: مالي ولغفار؟ ثم مرت جهينة فقال مثل ذلك، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، قال: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عباد مع الراية، فقال سعد بن عباد: يا أبا سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال أبو سفيان: يا عباس، حبذا يوم الذمار^(٣) بالمعجمة المكسورة: الهلاك.

قال الخطابي: تمنى أبو سفيان أن تكون له يد فيحمي قومه ويدفع عنهم. وقيل: هذا يوم الغضب للحريم والأهل والانتصار لهم

(١) كذا في ش وفي البخاري، وفي بقية النسخ: بنو عمرو.

(٢) كذا في البخاري وفي (ب، د) وفي النسخ بدونها.

(٣) رواه البخاري برقم ٤٢٨٠.

لمن قدر عليه، وقيل: هذا يوم يلزمك فيه حفظي وحمايتي من أن ينالني مكروه^(١).

[أخذ الراية من سعد]

وقال ابن إسحاق: زعم بعض أهل العلم أن سعداً قال: اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة، فسمعها رجل من المهاجرين فقال: يا رسول الله، ما آمن أن يكون لسعد في قريش صولة. فقال لعلي: أدركه فخذ الراية منه فكن أنت تدخل بها.

وقد روى الأموي في المغازي: أن أبا سفيان قال للنبي ﷺ لما حاذاه: أمرت بقتل قومك؟ قال: لا، فذكر له ما قال سعد بن عبادة: ثم ناشده الله والرحم، فقال: يا أبا سفيان: اليوم يوم الرحمة، اليوم يعز الله قريشاً، وأرسل إلى سعد فأخذ الراية منه فدفعها إلى ابنه قيس.

وعند ابن عساکر من طريق أبي الزبير عن جابر قال: لما قال سعد بن عبادة ذلك عارضت امرأة من قريش رسول الله ﷺ فقالت: يا نبي الهدى إليك لجا حي قريش ولات حين لجائي حين ضاقت عليهم سعة الأرض وعاداهم إله السماء إن سعداً يريد قاصمة الظهر ربأهل الحجون والبطحاء فلما سمع هذا الشعر دخلته رافة لهم ورحمة. فأمر بالراية فأخذت من سعد ودفعت إلى ابنه قيس.

وعند أبي يعلى من حديث الزبير أن النبي ﷺ دفعها إليه فدخل

(١) فتح الباري ٨/٨ .

مكة بلوآين، وإسناده ضعيف جداً. لكن جزم موسى بن عقبة في المغازي عن الزهري أنه دفعها إلى الزبير بن العوام.

فهذه ثلاثة أقوال فيمن دفعت إليه الراية التي نزعت من سعد.

والذي يظهر في الجمع أن علياً أرسل لينزعها ويدخل بها، ثم خشي تغير خاطر سعد فأمر بدفعها إلى ابنه قيس، ثم إن سعداً خشي أن يقع من ابنه شيء يكرهه النبي ﷺ فسأل النبي ﷺ أن يأخذها منه فحينئذ أخذها الزبير^(١).

[تتمة الحديث عن دخول مكة]

قال في رواية البخاري (..). ثم جاءت كتيبة^(٢) فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وراية النبي ﷺ مع الزبير، فلما مر رسول الله ﷺ ب/٧٩ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عباد؟ قال: ما قال؟ قال: قال كذا وكذا فقال: كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسي فيه الكعبة. قال وأمر رسول الله ﷺ أن تركز رايته بالحجون.

قال وقال عروة أخبرني نافع بن جبير بن مطعم قال: سمعت العباس يقول للزبير بن العوام: يا أبا عبدالله، ها هنا أمرك رسول الله ﷺ أن تركز الراية؟ قال: نعم^(٣).

وأمر رسول الله ﷺ يومئذ خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى

(١) عن فتح الباري ٨/٨ - ٩.

(٢) نص البخاري (ثم جاءت كتيبة - وهي أقل الكتاب - فيهم...).

(٣) قوله (قال: نعم) ليست في البخاري.

مكة من كداء - أي بالفتح والمد - ودخل النبي ﷺ من كدى - أي بالضم والقصر - فقتل من خيل خالد يومئذ رجلا: حبيش بن الأشعر وكرز بن جابر الفهري^(١).

قال الحافظ ابن حجر: وهذا^(٢) مخالف للأحاديث الصحيحة الآتية في البخاري أيضاً أن خالداً دخل من أسفل مكة والنبي ﷺ من أعلاها.

يعني حديث ابن عمر: أنه ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته مردفاً أسامة بن زيد، وحديث عائشة أنه ﷺ دخل عام الفتح من كداء التي بأعلى مكة وغيرها.

[دخول مكة عند ابن عقبة]

قال: وقد ساق ذلك موسى بن عقبة سياقاً واضحاً فقال:

وبعث ﷺ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل من كداء من أعلى مكة، وأمره أن يغرز رايته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه.

وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاة وسليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت.

وبعث سعد بن عباد في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله ﷺ وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم.

واندفع خالد بن الوليد حتى دخل من أسفل مكة، وقد تجمع

(١) رواه البخاري برقم ٤٢٨٠.

(٢) الإشارة إلى مرسل عروة.

بها بنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناف، وناس من هذيل ومن الأحابيش الذين استنصرت بهم قريش، فقاتلوا خالداً فقاتلهم فانهزموا، وقتل من بني بكر نحو من عشرين رجلاً، ومن هذيل ثلاثة أو أربعة، حتى انتهى بهم القتل إلى الحزورة إلى باب المسجد حتى دخلوا الدور، فارتفعت طائفة منهم على الجبال.

وصاح أبو سفيان: من أغلق بابه وكف يده فهو آمن.

قال: ونظر رسول الله ﷺ إلى البارقة فقال: ما هذا^(١)؟ وقد نهيت عن القتال. فقالوا: نظن أن خالداً قوتل وبديء بالقتال فلم يكن له بد من أن يقاتلهم.

قال: وقال رسول الله ﷺ - بعد أن اطمأن - لخالد بن الوليد: لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال؟ فقال هم بدؤونا بالقتال، وقد كفت يدي ما استطعت، قال: قضاء الله خير^(٢).

[رواية ابن إسحاق في دخول مكة]

وعند ابن إسحاق: فلما نزل ﷺ مر الظهران، رقت نفس العباس لأهل مكة، فخرج ليلاً راكباً بغلة النبي ﷺ لكي يجد أحداً فيعلم أهل مكة بمجيء النبي ﷺ ليستأنوه، فسمع صوت أبي سفيان ابن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء، فأردف أبا سفيان خلفه وأتى به إلى النبي ﷺ فأسلم وانصرف الآخران ليعلم أهل مكة.

ويمكن الجمع: بأن الحرس لما أخذوه استنقذه العباس.

(١) كذا في (ب، د) وفي فتح الباري. وفي بقية النسخ: ما هذه.

(٢) عن فتح الباري ١٠/٨ و١١.

وروى أن عمر رضي الله عنه لما رأى أبا سفيان رديف العباس دخل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان، دعني أضرب عنقه، فقال العباس: يا رسول الله، إني قد أجرته. فقال ﷺ: ١/٨٠ إذهب يا عباس به / إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به، فذهب فلما أصبح غدا به على رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لما أغني عني شيئاً. ثم قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه ففي النفس منها شيء.

فقال له العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك. فأسلم وشهد شهادة الحق. فقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، قال: نعم. وأمر ﷺ فنادى مناديه: من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن إلا المستثنين.

[لا أمان لهؤلاء]

وهم كما قال مغلطاي:

عبد الله بن سعد بن أبي سرح. أسلم.

وابن خطل: قتله أبو برزة.

وقينتهاه وهما: فرتنى - بالفاء المفتوحة، والراء الساكنة والتاء المثناة الفوقية والنون - وقرية - بالقاف والراء والموحدة مصغراً - أسلمت إحداهما وقتلت الأخرى. وذكر غير ابن إسحاق أن التي أسلمت فرتنى

وأن قرية قتلت.

وسارة: مولاة لبني المطلب، أسلمت، ويقال كانت مولاة عمرو ابن صيفي بن هشام.

وأرنب - علم امرأة -،^(١).

وقريية: قتلت

وعكرمة بن أبي جهل: أسلم

والحويرث^(٢) بن نقيد: قتله علي

ومقيس بن صبابة - بمهملة وموحدتين الأولى خفيفة - قتله نميلة

الليثي.

وهبار بن الأسود: أسلم، وهو الذي عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت فنخس بها [بغيرها]^(٣) حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها.

وكعب بن زهير: أسلم

وهند بنت عتبة: أسلمت

ووحشي بن حرب: أسلم انتهى.

وابن خطل: بفتح الخاء والطاء المهملة.

وابن نقيد: بضم النون وفتح القاف وسكون المثناة التحتية آخره

دال مهملة مصغراً.

ومقيس: بكسر الميم وسكون القاف وفتح المثناة التحتية آخره

مهملة.

(١) قال في الفتح: مولاة ابن خطل أيضاً، قتلت.

(٢) كذا في (ط، ش) والفتح، وفي (ا، ب، د): الحارث.

(٣) في ط.

وقد جمع الواقدي عن شيوخه أساء من لم يؤمن يوم الفتح وأمر بقتله عشرة أنفس، ستة رجال، وأربع نسوة.

[هل كان الفتح صلحاً أم حرباً؟]

وروى أحمد ومسلم والنسائي عن أبي هريرة قال: لما أقبل رسول الله ﷺ وقد بعث على أحد المجنبتين خالد بن الوليد، وبعث الزبير على الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الحسر - بضم المهملة وتشديد السين المهملة، أي الذين بغير سلاح - فقال لي يا أبا هريرة، اهتف لي بالأنصار، فهتفت بهم فجاؤوا فأطافوا به، فقال لهم: أترون إلى أوياش قريش وأتباعهم، ثم قال بإحدى يديه على الأخرى: احصدوهم حصداً، حتى توافوني بالصفاء. قال أبو هريرة: فانطلقنا، فما نشاء أن نقتل أحداً منهم إلا قتلناه، فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله، أبيع خضراء قريش لا قريش بعد اليوم. فقال ﷺ: من أغلق بابه فهو آمن.

قال في فتح الباري: وقد تمسك بهذه القصة من قال: إن مكة فتحت عنوة، وهو قول الأكثر.

وعن الشافعي، وهو رواية عن أحمد: أنها فتحت صلحاً، لما وقع من هذا التأمين، ولإضافة الدور إلى أهلها، ولأنها لم تقسم، ولأن الغامين لم يملكوا دورها. وإلا لجاز إخراج أهل الدور منها.

وحجة الأولين: ما وقع التصريح به من الأمر بالقتال، ووقوعه من خالد بن الوليد، وبتصريحه ﷺ بأنها أحلت له ساعة من نهار، ونهيه عن التآسي به في ذلك. /

وأجابوا عن ترك القسمة: بأنها لا تستلزم عدم العنوة، فقد

ب/٨

تفتح البلد عنوة ويمن على أهلها، ويترك لهم دورهم.

وأما قول النووي: واحتج الشافعي بالأحاديث المشهورة بأن النبي ﷺ صالحهم بمر الظهران قبل دخول مكة ففيه نظر، لأن الذي أشار إليه، إن كان مراده ما وقع من قوله ﷺ: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن - كما تقدم وكذا من دخل المسجد - كما عند ابن إسحاق - فإن ذلك لا يسمى صلحاً إلا إذا التزم من أشير إليه بذلك الكف عن القتال، والذي ورد في الأحاديث الصحيحة ظاهر في أن قريشاً لم يلتزموا ذلك لأنهم استعدوا للحرب. وإن كان مراده بالصلح وقوع عقده فهذا لم ينقل، ولا أظنه عنى إلا الاحتمال الأول وفيه ما ذكرته. انتهى (١).

[تتمة رواية ابن إسحاق]

ثم دخل رسول الله ﷺ مكة في كتيبته الخضراء، وهو على ناقته القصواء بين أبي بكر وأسيد بن حضير، فرأى أبو سفيان ما لا قبل له به، فقال للعباس: يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك ملكاً عظيماً، فقال العباس: ويحك، إنه ليس بملك ولكنها نبوة، قال: نعم.

وروى أنه ﷺ وضع رأسه تواضعاً لله لما رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن رأسه لتكاد تمس رحله شكراً وخضوعاً لعظمته أن أحل له بلده ولم تحل لأحد قبله ولا لأحد بعده.

[قتل متعلقاً بأستار الكعبة]

وفي البخاري من حديث أنس أن النبي ﷺ دخل مكة يوم

(١) عن فتح الباري ١٢/٨.

الفتح وعلى رأسه المغفر - وهو بكسر الميم وسكون الغين المعجمة وفتح الفاء: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس، وفي المحكم: هو ما يجعل من فضل درع الحديد على الرأس مثل القلنسوة - فلما نزع جاء رجل فقال: ابن خطل متعلق بأستار الكعبة، فقال: اقتله^(١).

وفي حديث سعيد بن يربوع عند الدارقطني والحاكم: أن رسول الله ﷺ قال: أربعة لا أؤمنهم في حل ولا حرم: الحويرث وهلال بن خطل ومقيس بن صبابة وعبد الله بن أبي سرح. قال: فأما هلال بن خطل فقتله الزبير. الحديث.

وفي حديث سعد بن أبي وقاص عند البزار والحاكم والبيهقي في الدلائل نحوه، لكن قال: أربعة نفر وامرأتان وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة فذكره. لكن قال: عبد الله بن خطل بدل هلال، وقال عكرمة بدل الحويرث، ولم يسم المرأتين. وقال: فأما عبد الله بن خطل فأدرك وهو متعلق بأستار الكعبة فاستبق إليه سعيد بن حريث وعمار بن ياسر فسبق سعيد عماراً، وكان أشب الرجلين فقتله. الحديث.

وروى ابن أبي شيبة من طريق أبي عثمان النهدي: أن أبا برزة الأسلمي قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة وإسناده صحيح مع إرساله.

ورواه أحمد من وجه آخر، وهو أصح ما ورد في تعيين قاتله، وبه جزم البلاذري وغيره من أهل الأخبار.

وتحمل بقية الروايات على أنهم ابتدروا قتله فكان المباشر له منهم

(١) رواه البخاري برقم ٤٢٨٦.

أبو برزة، ويحتمل أن يكون غيره شاركة فيه، فقد جزم ابن هشام في السيرة: بأن سعيد بن حريث وأبا برزة الأسلمي اشتراكاً في قتله.

وإنما أمر بقتل ابن خطل، لأنه كان مسلماً فبعثه ﷺ مصداقاً، وبعث معه رجلاً من الأنصار، وكان معه مولى / يخدمه - وكان مسلماً - ١/٨١ ونزل منزلاً فأمر المولى أن يذبح تيساً ويضع له طعاماً ونام، فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً، فعدى عليه فقتله، ثم ارتد مشركاً، وكان له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ.

وأما الجمع بين ما اختلف فيه من اسمه، فإنه كان يسمى عبد العزى، فلما أسلم سمي عبد الله. وأما من قال: هلال، فالتبس عليه بأخ له اسمه هلال.

[نجاة ابن أبي سرح]

وفي رواية أبي داود من حديث مصعب: لما كان يوم الفتح أمن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر فذكرهم ثم قال: وأما ابن أبي سرح فاختبأ عند عثمان بن عفان رضي الله عنه فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، جاء به حتى أوقفه على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله بايع عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً، كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رأني كفت يدي عن بيعته فيقتله؟ فقالوا: يا رسول الله ما ندري ما في نفسك، ألا أومات إلينا؟ فقال: إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين. الحديث^(١).

(١) رواه أبو داود برقم ٢٦٨٣.

[هل يحرم لدخول مكة؟]

قال مالك - كما في رواية البخاري - : ولم يكن رسول الله ﷺ فيما نرى يومئذ محرماً . انتهى .

وقول مالك هذا رواه عبد الرحمن بن مهدي عن مالك جازماً به . أخرجه الدارقطني في الغرائب .

ويشهد له ما رواه مسلم من حديث جابر: دخل ﷺ يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام .

وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن طاوس قال: لم يدخل النبي ﷺ مكة إلا محرماً إلا يوم الفتح .

وقد اختلف العلماء: هل يجب على من دخل مكة الإحرام أم

لا؟

فالمشهور من مذهب الشافعي عدم الوجوب مطلقاً . وفي قول: يجب مطلقاً، وفيمن يتكرر دخوله خلاف مرتب، وهو أولى بعدم الوجوب .

والمشهور عن الأئمة الثلاثة: الوجوب . وفي رواية عن كل منهم: لا يجب، وجزم الحنابلة باستثناء ذوي الحاجات المتكررة، واستثنى الحنفية من كان داخل الميقات والله أعلم .

وقد زعم^(١) الحاكم في الإكليل: أن بين حديث أنس في المغفر

(١) في ط: جزم .

وبين حديث جابر في العمامة السوداء معارضة .

وتعقبوه باحتمال أن يكون أول دخوله كان على رأسه المغفر ثم أزاله ولبس العمامة بعد ذلك، فحكى كل منهما ما رآه .

ويؤيده: أن في حديث عمرو بن حريث أنه خطب الناس وعليه عمامة سوداء . أخرجه مسلم أيضاً . وكانت الخطبة عند باب الكعبة وذلك بعد تمام الدخول . وهذا الجمع للقاضي عياض .

وقال غيره: يجمع بأن العمامة السوداء كانت ملفوفة فوق المغفر، أو كانت تحت المغفر وقاية لرأسه من صدأ الحديد، فأراد أنس بذكر المغفر كونه دخل متأهباً للحرب، وأراد جابر بذكر العمامة كونه دخل غير محرم .

[منزله ﷺ بمكة]

وفي البخاري: عن أسامة بن زيد أنه قال زمن الفتح: يا رسول الله، أين تنزل غداً، قال النبي ﷺ: وهل ترك لنا عقيل من منزل؟ وفي رواية: وهل ترك لنا عقيل من ربيع أو دور؟

وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب، ولم يرث جعفر ولا علي شيئاً لأنها كانا مسلمين، وكان عقيل وطالب كافرين . فكان عمر بن الخطاب يقول: لا يرث الكافر المؤمن ولا المؤمن الكافر .

وفي رواية أخرى له قال ﷺ منزلنا/ إن شاء الله - إذا فتح الله - ٨١/ب الخيف، حيث تقاسموا على الكفر . يعني به المحصب، وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبد المطلب: أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ، كما تقدم .

وفي رواية أخرى له: أنه يوم فتح مكة اغتسل في بيت أم هانئ ثم صلى الضحى ثمان ركعات، قالت: لم أره صلى صلاة أخف منها، غير أنه يتم الركوع والسجود.

[أجرنا من أجرت]

وأجرت أم هانئ حموين لها، فقال النبي ﷺ: قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ، والرجلان: الحارث بن هشام، وزهير بن أمية بن المغيرة، كما قاله ابن هشام، وقد كان أخوها علي بن أبي طالب أراد أن يقتلها فأغلقت عليها باب بيتها وذهبت إلى النبي ﷺ.

[اذهبوا فأنتم الطلقاء]

ولما كان الغد من يوم الفتح قام ﷺ خطيباً في الناس، فحمد الله وأثنى عليه ومجده بما هو أهله ثم قال: أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يجزى لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص فيها لقتال^(١) رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب.

ثم قال: يا معشر قريش ما ترون أي فاعل فيكم؟

قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم.

قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

أي: الذين أطلقوا، فلم يسترقوا ولم يؤسروا. والطلق: الأسير

(١) أي لأجل قتال .

إذا أطلق. والمراد بالساعة التي أحلت له - عليه السلام - ما بين أول
النهار ودخول وقت العصر، كذا قاله في فتح الباري.

[شعر في فتح مكة]

ولقد أجاد العلامة أبو محمد الشقراطي حيث يقول في قصيدته

المشهورة:

ويوم مكة إذ أشرفت في أمم
خوافق ضاق ذرع الخافقين^(١) بها
وجحفل قذف الأرجاء ذي لجب
وأنت صلى عليك الله تقدمهم
ينير فوق أغر الوجه متجب
يسمو أمام جنود الله مرتدياً
خشعت تحت بهاء العز حين سمت
وقد تباشر أملاك السماء بما
والأرض ترجف من زهو ومن فرق
والخيل تختال زهواً في أعتها
لولا الذي خطت الأقلام من قدر
أهل ثهلان بالتهليل من طرب
الملك لله هذا عزم من عقدت
شعبت صدع قريش بعد ما قذفت

تضييق عنها فجاج الوعث والسهل
في قاتم^(٢) من عجاج الخيل والإبل
عرمرم كزهاء الليل^(٣) منسحل
في بهو إشراق نور منك مكتمل
متوج بعزب النصر مقتبل
ثوب الوقار لأمر الله ممتثل
بك المهابة فعل الخاضع الوجمل
ملكته إذ نلت منه غاية الأمل
والجوي زهر إشراقاً من الجدل
والعيس تنثال رهواً في ثنى الجدل
وسابق من قضاء غير ذي حول
وذاب يذبل تهليلاً من الذبل
له النبوة فوق العرش في الأزل
بهم شعوب شعاب السهل والقلل / ٨٢ / ١

(١) في ط: الخائفين .

(٢) في (أ، ب، د) قايم .

(٣) في ش السيل .

قالوا محمد قد زادت كتائبه كالأسد تزار في أنيابها العصل
 فويل مكة من آثار وطأته وويل أم قريش من جوى الهبل
 فجدت عفواً بفضل العفو منك ولم تلمم ولا بأليم اللوم والعدل
 أضربت بالصفح صفحاً عن غوائلهم^(١) طولاً أطال مقيل النوم في المقل
 رحمت واشج أرحام أتيح لها تحت الوشيج نشيج الروع والوجل
 عاذوا بظل كريم العفوذي لطف مبارك الوجه بالتوفيق مشتمل
 أركى الخليقة أخلاقاً وأطهرها وأكرم الناس صفحاً عن ذوي الزلل
 وطفت بالبيت مجوراً وطاف به من كان عنه قبيل الفتح في شغل

[شرح كلمات القصيدة]

والجحفل: الجيش العظيم .
 وقذف الأرجاء: أي متباعدة .
 واللجب: بالجيم المفتوحة: الضجة من كثرة الأصوات .
 والعرمم: الضخم الكثير العدد .
 وقوله: كزهاء الليل: شبهه بالليل في سده الأفق، واسوداده
 بالسلاح .
 والمنسحل: - بالحاء المهملة - الماضي في سيره يتبع بعضه بعضاً .
 وقوله: في بهو إشراق: شبه النور الذي يغشاه - عليه السلام -
 ببهو أحاط به .
 والبهو: البناء العالي كالإيوان ونحوه .

(١) في (ب، ش) طوائهم وهي جمع طائلة أي عداوة ونتائجها الجنايات
 الصادرة منهم .

والمنتجب: المتخير من أصل نجيب، أي كريم.
 والمقتبل: المستقبل الخير.
 وترتجف: تهتز.
 والزهو: الخفة من الطرب، يعني: أن الأرض اهتزت فرحاً بهذا
 الجيش، وفرقاً من صولته، أي كادت تهتز، قال تعالى: ﴿وبلغت
 القلوب الحناجر﴾ أي كادت تبلغ.
 والجدل: جمع جديل، وهو الزمام المضفور.
 وثنى الجدل: ما انثنى على أعناق الإبل، أي انعطف.
 وثهلان: اسم جبل معروف.
 وأهل: رفع صوته.
 ويذبل: اسم جبل أيضاً.
 والذبل: الرماح الذوايل وهي التي لم تقطع من منابتها حتى
 ذبلت أي جفت ويست.
 وتهليلاً: أي صياحاً، جنباً وفزعاً. يعني: لولا ما سبق من
 تقدير الله أن الجبال لا تنطق لرفع ثهلان صوته وهلل الله من الطرب،
 ولذاب يذبل من الجزع والفرق.
 وقوله: شعبت أي جمعت وأصلحت.
 وقذفت بهم: أي فرقت بهم مخافة شعوب.
 وشعوب: اسم للمنية لأنها تفرق الجماعات، من شعبت أي
 فرقت، وهو من الأضداد.
 والشعاب: الطرق في الجبال.
 والسهل: خلاف الجبل.
 والقلل: رؤوس الجبال. يعني أنه ﷺ عفا عنهم بعدما
 تصدعوا، أي تفرقوا وهربوا من خوفه إلى كل سهل وجبل.

وقوله: كالأسد تزار في أنيابها العصل: أي المعوجة. والله أعلم.

[المحيا محياكم]

ولما فتح الله مكة على رسوله ﷺ قال الأنصار فيما بينهم: أترون أن رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟ وكان ﷺ يدعو على الصفا رافعاً يديه، فلما فرغ من دعائه قال: ماذا قلتُم؟ قالوا: لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال ﷺ: معاذ الله، المحيا محياكم والممات مماتكم.

[محاولة قتل]

وهم فضالة بن عمير أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال له رسول الله ﷺ: أفضالة، قال: نعم يا رسول الله، قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك ﷺ ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، وكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلي منه.

[إزالة الأصنام]

وطاف ﷺ يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان. وكان حول البيت ثلاثمائة وستون / صنماً، فكلما مر بصنم أشار إليه بقضيب وهو يقول: جاء الحق وزهق الباطل. إن الباطل كان زهوقاً، فيقع الصنم لوجهه. رواه البيهقي.

وفي رواية أبي نعيم: قد ألزقها الشياطين بالرصاص والنحاس.

وفي تفسير العلامة ابن النقيب^(١) المقدسي: إن الله تعالى لما أعلمه ﷺ بأنه قد أنجز له وعده بالنصر على أعدائه، وفتح مكة وإعلاء كلمة دينه، أمره إذ دخل مكة أن يقول: وقل جاء الحق وزهق الباطل، فصار ﷺ يطعن الأصنام التي حول الكعبة بمحجنة ويقول: جاء الحق وزهق الباطل، فيخر الصنم ساقطاً، مع أنها كانت مثبتة بالحديد والرصاص، وكانت ثلاثمائة وستين صنماً بعدد أيام السنة.

قال: وفي معنى الحق والباطل لعلماء التفسير أقوال:

قال قتادة: جاء القرآن وذهب الشيطان. وقال ابن جريج: جاء الجهاد وذهب الشرك، وقال مقاتل: جاء عبادة الله وذهبت عبادة الشيطان.

وقال ابن عباس: وجد ﷺ يوم الفتح حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً، كانت لقبائل العرب يحجون إليها، ويخرون لها، فشكا البيت إلى الله تعالى فقال: أي رب، حتى متى تعبد هذه الأصنام حولي دونك فأوحى الله تعالى إليه إني سأحدث لك نوبة جديدة، يدفون إليك ديف النصور، ويحنون إليك حنين الطير إلى بيضها، لهم عجيج حولك بالتلبية. قال: ولما نزلت الآية يوم الفتح قال جبريل عليه الصلاة والسلام لرسول الله ﷺ: خذ مخصرتك^(٢) ثم ألقها^(٣)، فجعل يأتي صنماً صنماً ويطعن في عينه أو بطنه بمخصرته ويقول: جاء الحق وزهق الباطل، فينكب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعاً. وبقي

(١) محمد بن سليمان بن حسن البلخي. الإمام المفسر، صنف تفسيراً كبيراً إلى الغاية. وكان عبداً زاهداً مات بالقدس سنة ثمان وتسعين وستمائة.

(٢) المراد المحجن أو القضيبي.

(٣) أي الأصنام.

صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من قوارير صفر. فقال يا علي: ارم به، فحمله عليه السلام حتى صعد ورمى به وكسره^(١). فجعل أهل مكة يتعجبون. انتهى^(٢).

وعن ابن عباس قال: لما قدم ﷺ أبي أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام، يعنى: القداح التي كانوا يستقسمون بها، فقال رسول الله ﷺ: قاتلهم الله، أما والله لقد علموا أنها لم يستقسما بها قط. فدخل البيت وكبر في نواحيه ولم يصل. رواه الترمذي^(٣).

[مفتاح الكعبة]

وعن ابن عمر قال: أقبل رسول الله ﷺ عام الفتح على ناقته القصواء، وهو مردف أسامة حتى أناخ بفناء الكعبة، ثم دعا عثمان بن طلحة فقال: اتني بالمفتاح، فذهب إلى أمه فأبت أن تعطيه فقال: والله لتعطينه، أو ليخرجن هذا السيف من صليبي، فأعطته إياه، فجاء به النبي ﷺ فدفعه إليه، ففتح الباب رواه مسلم.

وروى الفاكهي من طريق ضعيفة، عن ابن عمر أيضا قال: كان بنو أبي طلحة يزعمون أنه لا يستطيع أحد فتح باب الكعبة غيرهم، فأخذ رسول الله ﷺ المفتاح ففتحها بيده.

عثمان المذكور: هو عثمان بن طلحة بن أبي طلحة بن عبد

(١) قال في «أسنى المطالب»: صعود علي على ظهر النبي ﷺ لأجل رمي الأصنام من فوقها خبر لم يثبت. [م].

(٢) أي كلام ابن النقيب.

(٣) هو في البخاري برقم ٤٢٨٨.

العزى، ويقال له: الحجبي، بفتح المهملة والجيم، ويعرفون الآن بالشيبيين، نسبة إلى شيبة بن عثمان بن أبي طلحة وهو ابن عم عثمان، وعثمان هذا لا ولد له وله صحبة ورواية.

واسم أم عثمان: سلافة - بضم السين المهملة والتخفيف والفاء -.

وفي الطبقات لابن سعد: عن عثمان بن طلحة قال: كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الإثنين والخميس. فأقبل النبي ﷺ يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فأغلظت له ونلت / منه، فحلم ١/٨٣ عني ثم قال: يا عثمان، لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت، فقلت لقد هلكت قريش يومئذ وذلت، قال: بل عمرت وعزت يومئذ، ودخل الكعبة، فوقعت كلمته مني موقعا ظننت يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال. فلما كان يوم الفتح قال: يا عثمان ائتني بالمفتاح فأتيته به فأخذه مني، ثم دفعه إلي وقال: خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف. قال: فلما وليت ناداني، فرجعت إليه فقال: ألم يكن الذي قلت لك؟! قال: فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة: لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت. قلت: بلى أشهد أنك رسول الله.

وفي التفسير^(١): أن هذه الآية ﴿إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ نزلت في عثمان بن طلحة الحجبي. أمره ﷺ أن يأتيه بمفتاح الكعبة فأبى عليه، وأغلق باب البيت وصعد إلى السطح وقال: لو

(١) للثعالبي بدون سند.

علمت أنه رسول الله لم أمنعه، فلوى علي يده وأخذ منه المفتاح وفتح الباب، فدخل ﷺ البيت، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له بين السقاية والسدانة، فأنزل الله هذه الآية. وأمر ﷺ علياً أن يرد المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه، ففعل ذلك علي، فقال: أكرهت وآذيت ثم جئت ترفق؟! فقال علي: لقد أنزل الله في شأنك قرآناً، وقرأ عليه الآية. فقال عثمان: أشهد أن محمداً رسول الله. فجاء جبريل عليه السلام فقال: ما دام هذا البيت أو لبنة من لبناته قائمة، فإن المفتاح والسدانة في أولاد عثمان. فكان المفتاح معه، فلما مات دفعه إلى أخيه شيبة، فالمفتاح والسدانة في أولاده^(١)! إلى يوم القيامة^(٢).

قال ابن ظفر في «ينبوع الحياة»: قوله: «لو أعلم أنه رسول الله لم أمنعه» هذا وهم، لأنه كان ممن أسلم. فلو قال هذا كان مرتداً.

وعن الكلبي: لما طلب ﷺ المفتاح من عثمان مديده إليه، فقال العباس: يا رسول الله اجعلها مع السقاية، فقبض عثمان يده بالمفتاح، فقال: هاكه بالأمانة، فأعطاه إياه ونزلت الآية. قال ابن ظفر: وهذا أولى بالقول.

[الصلاة في الكعبة]

وفي رواية لمسلم: دخل ﷺ هو وأسامة بن زيد وبلال وعثمان ابن طلحة الحنظلي فأغلقوا عليهم الباب. قال ابن عمر فلما فتحوا كنت أول من ولج، فلقيت بلالاً فسألته: هل صلى فيه رسول الله

(١) كذا في ش، وفي بقية النسخ: أولادهم.

(٢) هذا الحديث منكر من جهات عديدة.

ﷺ؟ قال: نعم، بين العمودين اليانين، وذهب عني أسأله: كم صلى.

وفي إحدى روايات البخاري: جعل عمودا عن يساره وعمودا عن يمينه، وثلاثة أعمدة وراءه.

وليس بين الروایتين مخالفة، لكن قوله في الرواية الأخرى: وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة مشكل، لأنه يشعر بكون ما عن يمينه أو يساره كان اثنين، ولهذا عقبه البخاري برواية إسماعيل بن أبي أويس التي قال فيها: عمودين عن يمينه.

ويمكن الجمع بين الروایتين بأنه: حيث ثنى أشار إلى ما كان عليه البيت في زمنه ﷺ، وحيث أفرد أشار إلى ما صار إليه بعد ذلك، ويرشد إليه قوله: وكان البيت يومئذ. لأن فيه إشعارا بأنه تغير عن هيئته الأولى.

ويحتمل أن / يقال: لم تكن الأعمدة الثلاثة على سمت واحد، بل ٨٣/ اثنان على سمت والثالث على غير سمتهما، ولفظ «المتقدمين» في إحدى روايات البخاري مشعر به

وفي رواية لمسلم: جعل عمودين عن يساره وعمودا عن يمينه، عكس رواية إسماعيل، وكذلك قال الشافعي، وبشر بن عمر^(١) في إحدى الروایتين عنهما

وقد جمع بعض المتأخرين بين هاتين الروایتين باحتمال تعدد الواقعة، وهو بعيد لاتحاد مخرج الحديث.

(١) كذا في (ط، ش) كما هو في فتح الباري، وفي (أ، ب، د) عمرو.

وجزم البهقي بترجيح رواية إسماعيل، ووافقه عليها ابن القاسم^(١) والقعني^(٢) وأبو مصعب^(٣) ومحمد بن الحسن^(٤) وأبو حذافة^(٥) وكذلك الشافعي وابن مهدي^(٦) في إحدى الروايتين عنهما. انتهى ملخصاً من فتح الباري^(٧).

وقد بين موسى بن عقبة في روايته عن نافع أن بين موقفه ﷺ وبين الجدار الذي استقبله قريباً من ثلاثة أذرع، وجزم برفع هذه الزيادة مالك عن نافع فيما أخرجه الدارقطني في الغرائب. ولفظه: وصلّى وبينه وبين القبلة ثلاثة أذرع.

وفي كتاب مكة للأزرقي، والفاكهي: أن معاوية سأل ابن عمر: أين صلى رسول الله ﷺ، فقال: اجعل بينك وبين الجدار ذراعين أو ثلاثة، فعلى هذا ينبغي لمن أراد الاتباع في ذلك أن يجعل بينه وبين الجدار ثلاثة أذرع، فإنه تقع قدماه في مكان قدميه ﷺ إن كانت ثلاثة

-
- (١) عبد الرحمن بن القاسم، الثقة الفقيه المشهور.
 - (٢) عبد الله بن مسلمة القعني، الثقة العابد كان ابن معين وابن المديني لا يقدمان عليه في الموطأ أحداً مات بمكة سنة إحدى وعشرين ومائتين.
 - (٣) أحمد بن أبي بكر القاسم بن الحارث بن زرارة بن مصعب بن عبد الرحمن ابن عوف. الحافظ الصدوق الفقيه مات سنة اثنتين وأربعين ومائتين.
 - (٤) محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة، كان من بحور العلم مات سنة تسع وثمانين ومائة.
 - (٥) أبو حذافة: أحمد بن إسماعيل السهمي. مات سنة تسع وخمسين ومائتين.
 - (٦) عبد الرحمن بن مهدي بن حبان، الحافظ. مات بالبصرة سنة ثمان وتسعين ومائة.
 - (٧) فتح الباري: ٥٧٩/١.

سواء، أو تقع ركبتاه أو يده أو وجهه إن كان أقل من ثلاثة أذرع والله أعلم.

وفي رواية عن ابن عباس قال: أخبرني أسامة أنه ﷺ لما دخل البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل فيه حتى خرج، فلما خرج ركع في قبل البيت ركعتين وقال: هذه القبلة رواه مسلم.

والجمع بينه وبين حديث ابن عمر، أن أسامة أخبره أن النبي ﷺ صلى في الكعبة كما رواه أحمد والطبراني: بأن أسامة حيث أثبتها اعتمد في ذلك على غيره وحيث نفاها أراد ما في علمه لكونه لم يره حين صلى، ويكون ابن عمر ابتداءً بلالا بالسؤال ثم أراد زيادة الاستثبات في مكان الصلاة، فسأل أسامة أيضاً.

قال النووي: وقد أجمع أهل الحديث على الأخذ برواية بلال لأنه مثبت فمعه زيادة علم، فوجب ترجيحه. قال: وأما نفي أسامة فيشبه أنهم لما دخلوا الكعبة أغلقوا الباب واشتغلوا بالدعاء، فرأى أسامة النبي ﷺ يدعو ثم اشتغل أسامة في ناحية من نواحي البيت والنبي ﷺ في ناحية أخرى، وبلال قريب منه، ثم صلى النبي ﷺ فرآه بلال لقربه منه ولم يره أسامة لبعده واشتغاله [بالدعاء]^(١)، وكانت صلاته - عليه السلام - خفيفة فلم يرها أسامة لإغلاق الباب مع بعده واشتغاله بالدعاء، وجاز له نفيها عملاً بظنه، وأما بلال فتحققها وأخبر بها. انتهى.

وتعقبوه بما يطول ذكره. وأقرب ما قيل في الجمع: أنه ﷺ صلى في الكعبة لما غاب عنه أسامة من الكعبة لأمر ندبه إليه، وهو أن يأتي

(١) في (ش، ب، د) .

بماء يحو به الصور التي كانت في الكعبة، فأثبت الصلاة بلال لرؤيته لها ونفاها أسامة لعدم رؤيته، ويؤيده ما رواه أبو داود الطيالسي عن أسامة بن زيد قال: دخلت على رسول الله ﷺ في الكعبة، ورأى صوراً فدعا بدلو من ماء، فأتيته به فجعل ﷺ يحوها ويقول: قاتل الله قوما يصورون ما لا يخلقون ورجاله ثقات.

وأفاد الأزرقى - في تاريخ مكة - أن خالد بن الوليد كان على باب الكعبة يذب عنه ﷺ الناس.

[مدة إقامته ﷺ بمكة]

1/84 وفي البخاري: / أنه ﷺ أقام خمس عشرة ليلة^(١)، وفي رواية: تسع عشرة^(٢). وفي رواية أبي داود: سبع عشرة. وعند الترمذي: ثمان عشرة. وفي الإكليل: أصحها بضع عشرة يقصر الصلاة^(٣). وقال الفاسي^(٤) في تاريخ مكة^(٥): وكان فتح مكة لعشر ليال بقين من شهر رمضان.

(١) هذا غلط، وإنما وقع هذا في رواية لأبي داود وضعفها النووي.

(٢) رواه البخاري برقم ٤٢٩٨ و٤٢٩٩.

(٣) لعله أراد صدقها من حيث الجمع بين الروايات وإلا فأصحها إسناداً رواية البخاري.

(٤) تقي الدين، محمد بن أحمد بن علي المكي الشريف، القاضي الحافظ، ولد سنة خمس وسبعين وسبعائة، ورحل ودرس وأفتى وصنف. مات سنة ثنتين وثلاثين وثمانمائة.

(٥) المسمى شفاء الغرام.

[سرايا بين الفتح وحنين]

[هدم العزى]

ثم سرية خالد بن الوليد عقب فتح مكة إلى العزى بنخلة، وكانت لقريش وجميع بني كنانة، وكانت أعظم أصنامهم. لخمس ليال بقين من رمضان، سنة ثمان، ومعه ثلاثون فارسا ليهدمها، فلما انتهوا إليها هدمها ثم رجع إلى رسول الله ﷺ بمكة فأخبره. فقال: هل رأيت شيئا؟ قال: لا، قال فإنك لم تهدمها، فارجع إليها فاهدمها، فرجع فجرد سيفه فخرجت إليه امرأة عجوز عريانة سوداء ثائرة الرأس، فجعل السادن يصيح بها، فضربها خالد فجز لها (١) اثنتين، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: نعم، تلك العزى، وقد يثست أن تعبد ببلادكم أبدا.

[هدم سواع]

ثم سرية عمرو بن العاصي إلى سواع صنم هذيل على ثلاثة أميال من مكة. في شهر رمضان سنة ثمان - حين فتح مكة -.

قال عمرو: فانتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريد؟ فقلت: أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك. قلت: لم؟ قال: تمنع، فقلت: ويحك، وهل يسمع أو يبصر؟ قال: فدنوت منه

(١) جزلها: أي قطعها.

فكسرتة ثم قلت للسادن كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله .

[هدم مناة]

ثم سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة، صنم للأوس والخزرج بالمثلل، في شهر رمضان، حين فتح مكة، فخرج في عشرين فارسا حتى انتهى إليها، قال السادن: ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك .

فأقبل سعد يمشي إليها، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء نائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها، فضربها سعد بن زيد فقتلها، وأقبل^(١) إلى الصنم ومعه أصحابه فهدموه وانصرف راجعا إلى النبي ﷺ وكان ذلك لست بقين من رمضان .

[سرية خالد إلى بني جذيمة]

ثم سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، قبيلة من عبد القيس، أسفل مكة على ليلة بناحية يلملم، في شوال سنة ثمان. وهو يوم الغميصاء .

بعثه ﷺ لما رجع من هدم العزى، وهو ﷺ مقيم بمكة، وبعث معه ثلاثمائة وخمسين رجلا، داعيا إلى الإسلام لا مقاتلا، فلما انتهى إليهم قال: ما أنتم قالوا: مسلمين^(٢) قد صلينا وصدقنا بمحمد، وبنينا المساجد في ساحاتنا .

وفي البخاري: لم يحسنوا أن يقولوا ذلك فقالوا صبأنا .

(١) كذا في ش، وفي (أ، ب، د) انفتل، وفي ط انفتل .
(٢) النصب بتقدير جار. أي من قوم مسلمين. كذا الرواية في ابن سعد، وفي الشامي: مسلمون .

فقال لهم: استأسروا فاستأسر القوم، فأمر بعضهم فكتف بعضا، وفرقهم في أصحابه، فلما كان السحر، نادى منادي خالد: من كان معه أسير فليقتله، فقتلت بنو سليم من كان بأيديهم، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أساراهم.

فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: اللهم إني أبرأ إليك من فعل خالد. وبعث عليا فودى قتلاهم.

قال الخطابي: يحتمل أن يكون نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام، لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الأنفة ولم ينقادوا إلى الدين، فقتلهم متأولا، وأنكر ﷺ العجلة وترك الثبت في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم صبأنا.

[غزوة حنين]

ثم غزا ﷺ حنينا - بالتصغير- وهو واد قرب ذي المجاز،
ب/٨٤ / وقيل: ماء بينه وبين مكة ثلاث ليال، قرب الطائف، وتسمى غزوة
هوزان.

[أسبابها ومقدماتها]

وذلك أن النبي ﷺ لما فرغ من فتح مكة وتمهيدها، وأسلم عامة
أهلها مشى أشرف هوزان وثقيف بعضهم إلى بعض، وحشدوا
وقصدوا محاربة المسلمين، وكان رئيسهم مالك بن عوف النصري^(١).

فخرج إليهم رسول الله ﷺ من مكة يوم السبت لست ليال
خلون من شوال، في اثني عشر ألفا من المسلمين. عشرة آلاف من
أهل المدينة وألفان ممن أسلم من أهل مكة. وهم الطلقاء، يعني:
الذين خلى عنهم يوم فتح مكة وأطلقهم فلم يسترقهم، واحدهم طليق
- فعيل بمعنى مفعول - وهو الأسير إذا أطلق سبيله.

واستعمل ﷺ على مكة عتاب بن أسيد.

وخرج معه ﷺ ثمانون من المشركين، منهم صفوان بن أمية،

(١) بالصاد المهملة نسبة إلى جدة الأعلى: نصر، وقد جاء في النسخ بالضاد
المعجمة وهو غلط.

وكان ﷺ استعار منه مائة درع بأداتها^(١)، فوصل إلى حنين ليلة الثلاثاء لعشر ليال خلون من شوال.

فبعث مالك بن عوف ثلاثة نفر يأتونه بخبر أصحاب رسول الله ﷺ، فرجعوا إليه وقد تفرقت أوصالهم من الرعب.

ووجه رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، فدخل عسكرهم، فطاف به وجاء بخبرهم.

وفي حديث سهل بن الحنظلية - عند أبي داود بإسناد حسن - أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ فأطنبوا السير، فجاء رجل فقال: إني انطلقت من بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم، بظعنهم وشائمهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسم النبي ﷺ وقال: تلك غنيمة المسلمين غدا، إن شاء الله تعالى..

وقوله عن بكرة أبيهم: كلمة للعرب، يريدون بها الكثرة وتوفر العدد، وليس هناك بكرة في الحقيقة، وهي التي يستقى عليها الماء، فاستعيرت هنا.

وقوله: بظعنهم: أي نسائهم، واحدها ظعينة، وأصل الظعينة الراحلة التي يرحل ويظعن عليها، أي يسار، وقيل للمرأة ظعينة لأنها تظعن مع زوجها حيثما ظعن، ولأنها تحمل على الراحلة إذا ظعنت. وقيل الظعينة: المرأة في الهودج، ثم قيل للمرأة بلا هودج، وللهودج بلا امرأة ظعينة. انتهى.

[المعركة]

وروى يونس بن بكير، في زيادة المغازي عن الربيع قال: قال

(١) الأنسب قول غيره: بالآتها أي التروس والخذوذ.

رجل يوم حنين لن تغلب اليوم من قلة، فشق ذلك على النبي ﷺ .

ثم ركب ﷺ بغلته البيضاء «دلدل» ولبس درعين والمغفر والبيضة. فاستقبلهم من هوازن ما لم يروا مثله قط من السواد والكثرة، وذلك في غبش الصبح، وخرجت الكتائب من مضيق الوادي، فحملوا حملة واحدة فانكشفت خيل بني سليم مولية وتبعهم أهل مكة والناس.

ولم يثبت معه ﷺ يومئذ إلا العباس بن عبد المطلب، وعلى بن أبي طالب، والفضل بن العباس، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وأبو بكر وعمر وأسامة بن زيد، في أناس من أهل بيته وأصحابه.

قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلته أكفها مخافة أن تصل إلى العدو، لأنه ﷺ كان يتقدم في نحر العدو، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بركابه، وجعل عليه السلام يقول للعباس: ناد يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة - يعني شجرة بيعة الرضوان - التي بايعوه تحتها، أن لا يفروا عنه.

فجعل ينادي تارة / يا أصحاب السمرة، وتارة: يا أصحاب سورة البقرة - وكان العباس رجلا صيتا - فلما سمع المسلمون نداء العباس أقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت على أولادها.

وفي رواية لمسلم: قال العباس: فوالله لكأن عطفتهم - حين سمعوا صوتي - عطفة البقر على أولادها. يقولون: يا لبيك، يا لبيك. فترجعوا إلى رسول الله ﷺ، حتى أن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بغيره على الرجوع انحدر عنه وأرسله، ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ.

فأمرهم ﷺ أن يصدقوا الحملة، فاقتتلوا مع الكفار، فأشرف رسول الله ﷺ فنظر إلى قتالهم فقال: الآن حمي الوطيس، وهو التنور يجذب فيه، يضرب مثلاً لشدة الحرب الذي يشبه حرها حره. وهذه من فصيح الكلام الذي لم يسمع من أحد قبل النبي ﷺ.

وتناول ﷺ حصيات من الأرض ثم قال: شأهت الوجوه - أي قبحت - ورمى بها في وجوه المشركين، فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه من تلك القبضة.

وفي رواية لمسلم: قبضة من تراب الأرض. فيحتمل أنه رمى بذا مرة وبذا مرة أخرى. ويحتمل أن يكون أخذ قبضة واحدة مخلوطة من حصى وتراب.

ولأحمد وأبي داود والدرامي، من حديث أبي عبد الرحمن الفهري في قصة حنين قال: فولى المسلمون مدبرين كما قال الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: أنا عبد الله ورسوله، ثم اقتحم عن فرسه، فأخذ كفا من تراب. قال: فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني أنه ضرب وجوههم وقال: شأهت الوجوه فهزمهم الله. قال يعلى بن عطاء راويه عن أبي همام عن أبي عبد الرحمن الفهري فحدثني أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً وسمعنا صلصلة من السماء كإمرار الحديد على الطست الجديد - بالجيم -

قال في النهاية: وصف الطست وهي مؤنثة بالجديد وهو مذكر، إما لأن تأنيثها غير حقيقي فأوله على الإناء والظرف، أو لأن فعلاً يوصف به المؤنث بلا علامة تأنيث كما يوصف به المذكر، نحو امرأة قتيل. انتهى

ولأحمد والحاكم من حديث ابن مسعود: فحادت به ﷺ بغلته،

فمال السرج فقلت ارتفع رفعك الله، فقال: ناولني كفا من تراب،
فضرب وجوههم وامتألت أعينهم ترابا، وجاء المهاجرون والأنصار
سيوفهم بإيمانهم كأنها الشهب فولى المشركون الأدبار.

وروى أبو جعفر بن جرير بسنده عن عبد الرحمن بن مولى عن
رجل كان في المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول
الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاة، فلما لقيناهم جعلنا نسوقهم
في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله
ﷺ. قال: فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه حسان فقالوا لنا: شأهت
الوجوه ارجعوا. قال: فانزمتنا وركبوا أكتافنا.

وفي سيرة الدمياطي: كان سيما الملائكة يوم حنين عمائم حمراء
أرخواها بين أكتافهم.

وفي حديث جبير بن مطعم: نظرت والناس يقتتلون يوم حنين
إلى مثل البجاد الأسود يهوي من السماء.

والبجاد: بالموحدة والجيم آخره دال مهملة: الكساء، وجمعه:
بجد، أراد الملائكة الذين أيدهم الله بهم، قاله ابن الأثير.

وفي البخاري: عن البراء وسأله رجل من قيس: أفررتم عن
ب/٨٥ رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: / : لكن رسول الله ﷺ لم
يفر، كانت هوازن رماة، وإنما لما حملنا عليهم انكشفوا فأكبينا على
الغنائم^(١) فاستقبلنا بالسهام، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته

(١) كذا في ش وفي البخاري، وفي النسخ: المغانم

البيضاء وإن إبا سفيان بن الحارث آخذ بزمامها، وهو يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب^(١).

[لم ينهزم ﷺ]

وهذا فيه إشارة إلى أن صفة النبوة يستحيل معها الكذب، فكأنه قال: أنا النبي، والنبي لا يكذب، فلست بكاذب فيما أقول حتى انهزم، بل أنا متيقن أن الذي وعدني الله به من النصر حق، فلا يجوز علي الفرار.

وأما ما في مسلم عن سلمة بن الأكوع^(٢) من قوله: «فأرجع منهزما» إلى قوله: «مررت على رسول الله ﷺ منهزما فقال: لقد رأى ابن الأكوع فرعا» فقال العلماء: قوله منهزما حال من ابن الأكوع - لا من رسول الله ﷺ^(٣) - كما صرح أولا بانضمامه، ولم يرد أن النبي ﷺ انهزم، وقد قالت الصحابة كلهم: إنه عليه السلام ما انهزم ولم ينقل أحد قط أنه انهزم في موطن من المواطن. وقد نقلوا إجماع المسلمين على أنه لا يجوز أن يعتقد انهزامه ﷺ، ولا يجوز ذلك عليه، بل كان العباس وأبو سفيان بن الحارث آخذين ببغته يكفانها عن إسراع التقدم إلى العدو.

وقد تقدم في غزوة أحد ما نسب لابن المرابط، من المالكية، مما حكاه القاضي عياض في الشفاء: أن من قال إن النبي ﷺ هزم يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، وأن العلامة البساطي تعقبه بما لفظه:

(١) رواه البخاري برقم ٤٣١٧ و ٤٣١٦ .

(٢) الحديث رقم ١٧٧٧ عند مسلم .

(٣) هذه الجملة في ش .

هذا القائل إن كان يخالف في أصل المسألة يعني: حكم الساب، فله وجه، وإن وافق على أن الساب لا تقبل توبته فمشكل. انتهى.

[البغال لا تركب للقتال عادة]

قال بعضهم: وقد كان ركوبه ﷺ البغلة في هذا المحل الذي هو موضع الحرب والظعن والضرب تحقيقاً لنبوته، لما كان الله تعالى خصه به من مزيد الشجاعة وتمام النبوة، وإلا فالبغال عادة من مراكب الطمأنينة، ولا يصلح لمواطن الحرب في العادة إلا الخيل فينبى ﷺ أن الحرب عنده كالسلم قوة قلب وشجاعة نفس وثقة وتوكلا على الله تعالى، وقد ركبت الملائكة في الحرب معه ﷺ على الخيل لا غير لأنها بصدد ذلك عرفا دون غيرها من المركوبات، ولهذا لا يسهم في الحرب إلا للخيل، والسر في ذلك أنها المخلوقة للكر والفر بخلاف البغال والإبل. انتهى.

[الذين ثبتوا يوم حنين]

وعند ابن أبي شيبة، من مرسل الحكم بن عتيبة: لم يبق معه عليه الصلاة والسلام إلا أربعة نفر، ثلاثة من بني هاشم ورجل من غيرهم: علي والعباس بين يديه، وأبوسفيان بن الحارث أخذ بالعنان، وابن مسعود من الجانب الأيسر^(١)، وليس يقبل نحوه أحد إلا قتل

وفي الترمذي بإسناد حسن من حديث ابن عمر: لقد رأيتنا يوم حنين، وإن الناس لمولون، ومامع رسول الله ﷺ مائة رجل.

وفي شرح مسلم للنووي: أنه ثبت معه ﷺ اثنا عشر رجلا، وكأنه أخذه من قول ابن إسحاق.

(١) لفظ الأيسر في (ش)، وهو في المرسل كما في الفتح وغيره. وفي (د): الآخر

ووقع في شعر العباس بن عبد المطلب أن الذين ثبتوا كانوا
عشرة فقط وذلك لقوله:

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة وقد فر من قد فر عنه فاقشعوا
وعاشرنا لاقى الحمام بنفسه لما مسه في الله لا يتوجع

وقد قال الطبري: الانهزام المنهي عنه هو ما وقع على غير نية
العود، وأما الاستطراد للكثرة فهو كالتحيز إلى فئة. انتهى.

[أنا النبي لا كذب]

وأما قوله ﷺ: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، / ١/٨٦
فقد قال العلماء: إنه ليس بشعر، لأن الشاعر إنما سمي شاعراً
لوجوه، منها: أنه شعر القول وقصده واهتدى إليه، وأتى به كلاماً
موزوناً على طريقة العرب مقفى، فإن خلا من هذه الأوصاف أو
بعضها لم يكن شعراً، ولا يكون قائله شاعراً. والنبي ﷺ لم يقصد
بكلامه ذلك الشعر، ولا أراد، فلا يعد شعراً، وإن كان موزوناً.

وأما قوله ﷺ: أنا ابن عبد المطلب، ولم يقل: ابن عبد الله،
فأجيب: بأن شهرته بجده كانت أكثر من شهرته بأبيه، لأن أباه توفي
في حياة أبيه عبد المطلب قبل مولده ﷺ، وكان عبد المطلب مشهوراً
شهرة ظاهرة شائعة وكان سيد قريش وكان كثير من الناس يدعو النبي
ﷺ ابن عبد المطلب ينسبونه إلى جده لشهرته، ومنه حديث ضمام بن
ثعلبة في قوله: أيكم ابن عبد المطلب. وقيل غير هذا.

[أبو طلحة]

وأمر ﷺ أن يقتل من قدر عليه، وأفضى المسلمون في القتل إلى
الذرية، فنهاهم ﷺ عن ذلك.

وقال: من قتل قتيلًا له عليه بيعة فله سلبه. واستلب أبو طلحة وحده ذلك اليوم عشرين رجلاً.

[من حكمة يوم حنين]

وقال ابن القيم في الهدى النبوي: كان الله تعالى وعد رسوله أنه إذا فتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجا، ودانت له العرب بأسرها، فلما تم له الفتح المبين اقتضت حكمته أن أمسك قلوب هوزان ومن تبعها عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتألبوا لحربه ﷺ، ليظهر أمره تعالى، وتمام إعزازه لرسوله ونصره لدينه، ولتكون غنائمهم شكرانا لأهل الفتح، وليظهر الله تعالى رسوله وعباده، وقهره لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلق المسلمون قبلها مثلها، ولا يقاومهم بعد أحد من العرب، فاقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عددهم وعددهم وقوة شوكتهم، ليظامن رؤوسا رفعت بالفتح ولم تدخل بلده وحرمه كما دخل عليه الصلاة والسلام واضعا رأسه منحنيا على مركوبه تواضعا لربه، وخضوعا لعظمته أن أحل له بلده، ولم يحله لأحد قبله ولا لأحد بعده، وليبين سبحانه لمن قال: لن نغلب اليوم من قلة، أن النصر إنما هو من عنده تعالى، وأنه من ينصره فلا غالب له ومن يأخذ له فلا ناصر له، وأنه سبحانه هو الذي تولى نصر رسوله ودينه، لاكثرتكم التي أعجبتكم، فإنها لم تغن عنكم شيئا فوليتم مدبرين، فلما انكسرت قلوبهم أرسلت خلع الجبر مع بريد: أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها. وقد اقتضت حكمته تعالى: أن خلع النصر وجوائزها إنما تفاض على أهل الانكسار، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض.

قال: وبهاتين الغزوتين - أعنى حنينا وبدرا - قاتلت الملائكة بأنفسها مع المسلمين، ورمى رسول الله ﷺ وجوه المشركين بالحصباء فيهما. [وبهاتين الغزاتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله ﷺ] (١) انتهى.

[نهاية غزوة حنين]

وأمر ﷺ بطلب العدو، فانتهى بعضهم إلى الطائف، وبعضهم نحو نخلة، وقوم منهم إلى أوطاس. واستشهد من المسلمين أربعة: منهم أيمن ابن أم أيمن. وقتل من المشركين أكثر من سبعين قتيلًا.

[سرية أوطاس]

ثم سرية أبي عامر الأشعري، وهو عم أبي موسى الأشعري، وقال ابن إسحاق: ابن عمه والأول أشهر.

بعثه ﷺ حين فرغ من حنين، في طلب الفارين من / ٨٦ / هوازن يوم حنين إلى أوطاس - وهو واد في ديار هوازن - وكان معه سلمة بن الأكوع، فانتهى إليهم، فإذا هم ممتنعون (٢) فقتل منهم أبو عامر تسعة أخوة مبارزة بعد أن يدعو كل واحد منهم إلى الإسلام، ويقول: اللهم اشهد عليه، ثم برز له العاشر فدعاه إلى الإسلام وقال اللهم اشهد عليه، فقال اللهم لا تشهد علي فكف عنه أبو عامر

(١) زيادة في ش وهي تنمة كلام ابن القيم في الهدى النبوي.

(٢) في (ط): ممتنعون، وفي (ش): مجتمعون.

فأفلت. ثم أسلم بعد فحسن إسلامه فكان رسول الله ﷺ إذا رآه قال: هذا شريد أبي عامر.

ورمى أبا عامر ابنا الحارث - العلاء وأوفى - فقتلاه، فخلفه أبو موسى الأشعري فقاتلهم حتى فتح الله عليه.

وكان في السبي الشياء - أخته عليه الصلاة والسلام من الرضاعة -.

وقتل قاتل أبي عامر. فقال ﷺ: اللهم اغفر لأبي عامر واجعله من أعلى أمتي في الجنة (١).

وفي رواية البخاري قال - يعني أبا عامر لأبي موسى الأشعري، لما رمى بالسهم -: يا ابن أخي: أقرىء النبي ﷺ السلام، وقل له: يستغفر لي ثم مات. فرجعت (٢) فدخلت على النبي ﷺ فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر، وقال: قل له: استغفر لي، فدعا بماء فتوضأ، ثم رفع يديه وقال: اللهم اغفر لعبيدك أبي عامر - ورأيت بياض إبطيه - ثم قال: اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير (٣) من خلقك... فقلت: ولي... فقال: اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلا كريما. قال أبو بردة: إحداهما لأبي عامر والأخرى لأبي موسى (٤).

(١) ذكره ابن سعد.

(٢) كذا في (ب، ش) وفي البخاري. وفي النسخ: ورجعت.

(٣) كذا في (ب، ش) وفي البخاري. وفي النسخ: كثيرين.

(٤) رواه البخاري برقم ٤٣٢٣.

[سرية حرق ذي الكفين]

ثم سرية الطفيل بن عمرو الدوسي إلى ذي الكفين، صنم من خشب، كان لعمر بن حممة، في شوال - لما أراد ﷺ السير إلى الطائف - ليهدمه ويوافيه بالطائف.

فخرج سريعا فهدمه وجعل يحش النار في وجهه ويحرقه ويقول:
يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا

إني حشوت^(١) النار في فؤادكا

وانحدر معه من قومه أربعمئة سراعا، فوافوا النبي ﷺ بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام. وعند مغلطي: وقدم معه أربعة مسلمون.

(١) في (ب): حشيت، وفي (ط، د): حششت .

غزوة الطائف

ثم غزوة الطائف، وهي بلد كبير، على ثلاث مراحل أو اثنتين من مكة، من جهة المشرق، كثيرة الأعناب والفواكه. وقيل: إن أصلها أن جبريل - عليه الصلاة والسلام - اقتلع الجنة التي كانت لأصحاب الصريم، فسار بها إلى مكة، فطاف بها حول البيت ثم أنزلها حيث الطائف، فسمي الموضع بها. وكانت أولا بنواحي صنعاء. واسم الأرض: وج، بتشديد الجيم المضمومة.

[المسير إليها]

وسار إليها النبي ﷺ في شوال سنة ثمان، حين خرج من حنين.

وحبس الغنائم بالجعرانة.

وقدم خالد بن الوليد على مقدمته، وكانت ثقيف لما انهزموا من أوطاس دخلوا حصنهم بالطائف، وأغلقوه عليهم بعد أن أدخلوا فيه ما يصلحهم لسنة. وتهيؤوا للقتال.

وسار ﷺ فمر بطريقه بقبر أبي رغال، وهو أبو ثقيف - فيما يقال - فاستخرج منه غصنا من ذهب.

ونزل قريبا من الحصن وعسكر هناك. فرموا المسلمين بالنبل رميا شديدا، كأنه رجل جراد، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة وقتل منهم اثنا عشر رجلا منهم: عبد الله بن أبي أمية. ورمي عبد الله

ابن أبي بكر الصديق يومئذ بجرح فاندمل ثم نقض بعد ذلك فمات منه في خلافة أبيه .

[حصارها]

وارتفع ﷺ إلى موضع مسجد الطائف اليوم، وكان معه من نسائه أم سلمة وزينب، فضرب لهما قبتين، وكان يصلي بين القبتين حصار الطائف كله^(١).

فحاصرهم ثمانية . عشر يوما، ويقال / : خمسة عشر يوما . ١/٨٧
ونصب عليهم المنجنيق وهو أول منجنيق رمي به في الإسلام، وكان قدم به الطفيل الدوسي معه لما رجع من سرية ذي الكفين، فرمتهم ثقيف بالنبل فقتل منهم رجال، فأمر ﷺ بقطع أعنانهم وتحريقها . فقطع المسلمون قطعا ذريعا، ثم سألوه أن يدعها لله وللرحم، فقال ﷺ إني أدعها لله وللرحم .

[عتقاء الله]

ثم نادى مناديه ﷺ : أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر .

قال الدمياطي : فخرج منهم بضعة عشر رجلا فيهم أبو بكر، وعند مغلطاي : ثلاثة وعشرون عبدا .

وفي البخاري عن أبي عثمان النهدي قال : سمعت سعدا وأبا بكره عن النبي ﷺ . . . قال عاصم : لقد شهد عندك رجلان . . . أما أحدهما فأول من رمى بسهم في سبيل الله، وأما الآخر فنزل إلى النبي

(١) أي مدة حصار الطائف .

ﷺ ثالث ثلاثة وعشرين من الطائف الحديث^(١).

وأعتق ﷺ من نزل منهم، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة^(٢).

[الأذان بالرجوع]

ولم يؤذن له ﷺ في فتح الطائف. وأمر عمر بن الخطاب فأذن في الناس بالرحيل، فضج الناس من ذلك، وقالوا: نرحل ولم يفتح علينا الطائف؟ فقال ﷺ: فاغدوا على القتال، فغدوا فأصاب المسلمين جراحات، فقال ﷺ: إنا قافلون إن شاء الله تعالى فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله ﷺ يضحك.

قال النووي: قصد ﷺ الشفقة عليهم والرفق بهم^(٣) بالرحيل عن الطائف لصعوبة أمره، وشدة الكفار الذين [هم]^(٤) فيه، وتقويم بحصنهم، مع أنه ﷺ علم أولا، أو رجا أنه سيفتحة بعد ذلك بلا مشقة. فلما حرص الصحابة على المقام والجهاد أقام، وجد في القتال حتى أصابتهم الجراح رجع إلى ما كان قصده أولا من الرفق بهم ففرحوا بذلك لما رأوا من المشقة الظاهرة، ووافقوا على الرحيل، فضحك ﷺ تعجبا من تغير رأيهم.

(١) هو عند البخاري برقم ٤٣٢٦.

(٢) لما أسلمت ثقيف تكلم أشرفهم في أولئك العبيد أن يردوهم إلى الرق، فقال ﷺ: لا، أولئك عتقاء الله. رواه ابن إسحاق.

(٣) في ش.

(٤) في (ش، ب، د).

[عين أبي سفيان]

وفقت عين أبي سفيان صخر بن حرب يومئذ، فذكر ابن سعد أن النبي ﷺ قال له وهي في يده: أيما أحب إليك عين في الجنة أو أدعوا الله أن يردها عليك قال: بل عين في الجنة ورمى بها.

وشهد اليرموك فقاتل وفقت عينه الأخرى يومئذ. ذكره الحافظ زين الدين العراقي في شرح التقريب.

[دعاء وتوكل]

وقال ﷺ لأصحابه: قولوا: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.

فلما ارتحلوا قال: قولوا: آيئون، تائبون عابدون، لربنا حامدون.

فانظر كيف كان ﷺ إذا خرج للجهاد يعتد لذلك [بجمع] (١) أصحابه (٢) واتخاذ الخيل والسلاح وما يحتاج إليه من آلات الجهاد والسفر، ثم إذا رجع يتعري من ذلك ويرد الأمر كله لمولاه عز وجل لا لغيره بقوله: آيئون تائبون عابدون لربنا حامدون، صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده،

وانظر إلى قوله ﷺ: «وهزم الأحزاب وحده» فنفى ﷺ ما تقدم ذكره، وهذا هو معنى الحقيقة، لأن الإنسان وفعله خلق لربه عز وجل، فهو لله سبحانه وتعالى الذي خلق ودبر، وأعان وأجرى الأمور

(١) في (ب).

(٢) في (أ) الصحابة.

ب/٨٧ على يد من شاء، ومن اختار من خلقه، فكل منه وإليه، ولو شاء أن يبيد أهل الكفر من غير قتال لفعل، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾^(١) فيثبت سبحانه وتعالى الصابرين ويجزل الثواب للشاكرين، قال تعالى: ﴿وَلَنبَلُونَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾^(٢).

فعلى المكلف الامتثال في الحالتين، أي: امتثال تعاطي الأسباب، والرجوع إلى المولى والسكون إليه بساحة كرمه، كما كان ﷺ يأتي الأسباب أولا تأدبا مع الربوبية وتشريعا لأمته، ثم يظهر الله تعالى على يديه ما يشاء من قدرته الغامضة التي ادخرها له عليه الصلاة والسلام.

قال ابن الحاج في المدخل: ولما قيل له: يا رسول الله، ادع على ثقيف. فقال: اللهم اهد ثقيفا واثت بهم.

[توزيع غنائم حنين]

[مقدار الغنائم]

وكان ﷺ قد أمر أن يجمع السبي والغنائم مما أفاء الله على رسوله يوم حنين، فجمع ذلك كله إلى الجعرانة، فكان بها إلى أن انصرف عليه السلام من الطائف.

وكان السبي ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة.

(١) سورة محمد الآية ٤ .

(٢) سورة محمد الآية ٣١ .

[انتظار... قبل التوزيع]

واستأني ﷺ - أي انتظر وتربص - بهوازن أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة. ثم بدأ يقسم الأموال، فقسمها.

وفي البخاري: وطفق ﷺ يعطي رجالا المائة من الإبل. فقال ناس من الأنصار يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم؟!]

قال أنس: فحدث رسول الله ﷺ بمقاتلتهم فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من آدم، ثم قال لهم: أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون بالنبي إلى رحالكم؟! فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، قالوا: يا رسول الله قد رضينا^(١).

وعن جبير بن مطعم قال: بينما أنا مع النبي ﷺ ومعه الناس مقفله^(٢) من حنين، علقت برسول الله ﷺ الأعراب حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه، فوقف ﷺ فقال: أعطوني ردائي، فلو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدونني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً^(٣). ورواه مسلم^(٤).

(١) رواه البخاري برقم ٤٣٣١ و٣١٤٧.

(٢) يعني زمان رجوعه.

(٣) رواه البخاري برقم ٣١٤٨.

(٤) كذا في (أ، ب، ش) وفي (د) بياض بعد قوله ورواه، وفي (ط): رواه ابن جرير في تهذيبه أقول: ولم أجده في مسلم بعد الرجوع إلى الأحاديث التي رواها جبير [المحقق].

[عمرة من الجعرانة]

وذكر محمد بن سعد كاتب الواقدي عن ابن عباس أنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ من الطائف نزل الجعرانة فقسم بها الغنائم ثم اعتمر منها وذلك لليلتين بقيتا من شوال.

قال ابن سيد الناس وهذا ضعيف، والمعروف عند أهل السير أن النبي ﷺ انتهى إلى الجعرانة ليلة الخميس، لخمس ليال خلون من ذي العقدة، فأقام بها ثلاث عشرة ليلة، فلما أراد الانصراف إلى المدينة خرج ليلة الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي العقدة ليلا، فأحرم بعمرة ودخل مكة.

وفي تاريخ الأزرقى أنه ﷺ أحرم من وراء الوادي، حيث الحجارة المنصوبة.

وعند الواقدي: من المسجد الأقصى الذي تحت الوادي بالعدوة القصوى من الجعرانة. وكانت صلواته عليه الصلاة والسلام إذ كان بالجعرانة به.

والجعرانة موضع بينه وبين مكة بريد، كما قاله الفاكهي. وقال الباجي: ثمانية عشر ميلا، وسمي بامرأة تلقب بالجعرانة، كما ذكره السهيلي

[العودة إلى المدينة]

قالوا: وقدم ﷺ المدينة وقد غاب عنها شهرين وستة عشر يوما.

[بين حنين وتبوك]

[بعث قيس إلى صداء]

وبعث ﷺ قيس بن سعد بن عبادة إلى ناحية اليمن في أربعمائة فارس، وأمره أن يقاتل قبيلة صداء، حين مروره عليهم في الطريق.

فقدم زياد بن الحارث الصدائي، فسأل عن ذلك البعث فأخبر، فقال: / يا رسول الله أنا وافدهم، فاردد الجيش، وأنا لك بقومي، فردهم النبي ﷺ من قناة.

وقدم الصدائيون بعد خمسة عشر يوماً فأسلموا. وتأتي قصة وفدهم في الفصل العاشر من المقصد الثاني إن شاء الله تعالى.

[البعث إلى بني تميم]

وبعث عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم بالسقيا - وهي أرض بني تميم - في المحرم سنة تسع في خمسين فارساً من العرب ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري.

فكان يسير الليل ويكمن النهار، فهجم عليهم في صحراء، فدخلوا وسرحوا مواشيهم فلما رأوا الجمع ولّوا، فأخذوا منهم أحد عشر رجلاً، ووجدوا في المحلة إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً.

فقدم منهم عشرة من رؤسائهم، منهم: عطارد والزبرقان،

وقيس بن عاصم، والأقرع بن حابس، فجاؤوا إلى باب النبي ﷺ فنادوا: يا محمد اخرج إلينا، فخرج ﷺ وأقام بلال الصلاة، وتعلقوا برسول الله ﷺ يكلمونه، فوقف معهم ثم مضى فصلى الظهر. ثم جلس في صحن المسجد.

فقدموا عطارد بن حاجب فتكلم وخطب. فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس فأجابهم.

ونزل فيهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات﴾ الآية (١) ورد عليهم ﷺ الأسرى والسبي.

وفي البخاري: عن عبد الله بن الزبير: أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أمر القعقاع بن معبد (٢) بن زرارة، وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي. قال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ (٣) حتى انقضت (٤). أي لا تقدموا القضاء في أمر قبل أن يحكم الله ورسوله فيه.

ولما نزل ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ (٥) أقسم أبو بكر لا يتكلم بين

(١) سورة الحجرات. الآية ٤.

(٢) في (ب، ش) وكذا في البخاري، وفي النسخ: سعيد.

(٣) سورة الحجرات. الآية ١.

(٤) رواه البخاري برقم ٤٣٦٧.

(٥) سورة الحجرات. الآية ٢.

يدي رسول الله إلا كمن يسارر صاحبه، فنزل فيه وفي أمثاله ﴿إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله﴾ الآية (١).

[بعث الوليد إلى بني المصطلق]

ثم بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق من خزاعة يصدقهم (٢)، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية. وكانوا قد أسلموا وبنوا المساجد، فلما سمعوا بدنو الوليد خرج منهم عشرون رجلاً يتلقونه بالجزر والغنم، فرحاً به وتعظيماً لله ولرسوله، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، فرجع من الطريق قبل أن يصلوا إليه، وأخبر النبي ﷺ أنهم لاقوه بالسلاح يحولون بينه وبين الصدقة.

فهمم ﷺ أن يبعث إليهم من يغزوهم. وبلغ ذلك القوم، فقدم عليه الركب الذين لقوا الوليد، فأخبروا النبي ﷺ الخبر على وجهه، فنزلت هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ...﴾ (٣) إلى آخر الآية، فقرأ عليهم ﷺ القرآن. وبعث معهم عباد بن بشر يأخذ صدقات أموالهم ويعلمهم شرائع الإسلام ويقرئهم القرآن.

[سرية ابن عوسجة]

وفي «شرف المصطفى» للنيسابوري، مما ذكره مغلطاي (٤) أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن عوسجة إلى بني عمرو بن حارثة، وقيل حارثة بن عمر - قال: وهو الأصح - في مستهل صفر

(١) سورة الحجرات؛ الآية ٣.

(٢) أي يأخذ الصدقة منهم.

(٣) سورة الحجرات. الآية ٦.

(٤) أصله في مغازي الواقدي بلا إسناد.

يدعوهم إلى الإسلام فأبوا أن يجيبوا واستخفوا بالصحيفة، فدعا عليهم / ﷺ بذهاب العقل، فهم إلى اليوم أهل رعدة وعجلة وكلام مختلط.

[سرية قطبة إلى خثعم]

ثم سرية قطبة بن عامر بن حديدة إلى خثعم، من تربة - بفتح الراء - من أعمال مكة سنة تسع، وبعث معه عشرين رجلاً، وأمره أن يشن الغارة عليهم فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثر الجرحى في الفريقين جميعاً، وقتل قطبة من قتل، وساقوا النعم والشاء والنساء إلى المدينة. وكانت سهامهم أربعة أبعرة، والبعير يعدل بعشرة من الغنم بعد أن أخرج الخمس.

[سرية الضحاك إلى القرطاء]

ثم سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب، في ربيع الأول سنة تسع، إلى القرطاء، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا، فقاتلوهم فهزموهم وغنموهم^(١).

[سرية علقمة إلى الحبشة]

ثم سرية علقمة بن مجزز^(٢) المدلجي إلى طائفة من الحبشة، في ربيع الآخر، وقال الحاكم في صفر سنة تسع. وذكر ابن سعد أن سبب ذلك: أنه بلغه ﷺ أن ناساً من

(١) في ش: فقاتلهم فهزموهم وغنموهم.

(٢) جاء في ط هنا: بضم الميم وحييم مفتوحة ومعجمتين الأولى مكسورة ثقيلة وحكي فتحها والصواب الأول.

الحبشة تراهم أهل جدة، فبعث إليهم علقمة بن مجزز في ثلاثمائة، فانتهى إلى جزيرة في البحر، فلما خاض البحر إليهم هربوا.

فلما رجع، تعجل بعض القوم إلى أهلهم، فأمر عبد الله بن حذافة على من تعجل، وكانت فيه دعاية، فنزلوا ببعض الطريق وأوقدوا نارا يصطلون عليها، فقال عزمت عليكم إلا توابتم في هذه النار، فلما همّ بعضهم بذلك قال: اجلسوا، إنما كنت أمرح.

فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: من أمركم بمعصية فلا تطيعوه. ورواه الحاكم وابن ماجه وصححه ابن خزيمة وابن حبان من حديث أبي سعيد الخدري.

وبوب عليه البخاري فقال: سرية عبد الله بن حذافة السهمي وعلقمة بن مجزز المدلجي، ويقال: إنها سرية الأنصاري. ثم روى حديثا عن علي قال: بعث النبي ﷺ سرية، فاستعمل رجلا من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب فقال: أليس قد أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجعوا خطبا، فجمعوا، فقال: أوقدوا نارا، فأوقدوها، فقال: ادخلوا^(١)، فهموا، وجعل بعضهم يمسك بعضا ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار، فما زالوا حتى خمدت النار، فسكن غضبه، فبلغ النبي ﷺ فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها^(٢).

قال الحافظ أبو الفضل بن حجر: في قوله: «ويقال إنها سرية الأنصاري» إشارة إلى احتمال تعدد القصة، وهو الظاهر لاختلاف

(١) في البخاري: ادخلوها.

(٢) رواه البخاري برقم ٤٣٤٠.

سياقهما واسم أميرهما. ويحتمل الجمع بينهما بضرب من التأويل،
ويبعده وصف عبد الله بن حذافة السهمي القرشي المهاجري بكونه
أنصاريا. ويحتمل أن يكون الحمل على المعنى الأعم، أي أنه نصر
رسول الله ﷺ في الجملة. وإلى التعدد جنح ابن القيم، وأما ابن
الجوزي فقال: قوله «من الأنصار» وهم من بعض الرواة، وإنما هو
سهمي.

قال في فتح الباري: ويؤيده حديث ابن عباس عند أحمد، في
قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر
منكم) نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي، بعثه رسول الله
ﷺ في سرية. انتهى^(١).

وقال النووي: وهذا الذي فعله هذا الأمير، قيل: أراد
امتحانهم، وقيل: كان مازحا، وقيل: إن هذا الرجل عبد الله بن
حذافة السهمي، قال: / وهذا ضعيف: لأنه قال في الرواية التي
بعدها إنه رجل من الأنصار، فدل على أنه غيره. انتهى.

[هدم صنم طيء]

ثم سرية علي بن أبي طالب إلى الفليس - بضم الفاء وسكون
اللام - وهو صنم طيء ليهدمه، في ربيع الآخر سنة تسع، وبعث معه
مائة وخمسين رجلا من الأنصار، على مائة بعير وخمسين فرسا - وعند
ابن سعد: مائتي رجل - فهدمه وغنم سبيا ونعما وشاء.

وكان في السبي سفانة بنت حاتم، أخت عدي بن حاتم،
فأطلقها النبي ﷺ، فكان ذلك سبب إسلام عدي.

(١) فتح الباري ٥٩/٨.

وعند ابن سعد أيضا: أن الذي كان سبها خالد بن الوليد رضي الله عنه.

[سرية عكاشة]

ثم سرية عكاشة بن محصن إلى الجباب - موضع بالحجاز - أرض عذرة وبلي، وقيل أرض فزارة وكلب ولعذرة فيها شركة.

[إسلام كعب بن زهير]

قصة كعب بن زهير مع النبي ﷺ، وكانت فيما بين رجوعه ﷺ من الطائف وغزوة تبوك.

وكان من خبر كعب وأخيه بجير ما ذكره ابن إسحاق وعبد الملك ابن هشام وأبو بكر محمد بن القاسم بن يسار بن الأنباري، دخل حديث بعضهم في حديث بعض:

أن بجيرا قال لكعب: اثبت حتى آتي هذا الرجل - يعني النبي ﷺ - فأسمع كلامه وأعرف ما عنده، فأقام كعب ومضى بجير، فأتى رسول الله ﷺ فسمع كلامه فأمن به..

وذلك أن زهيرا فيما زعموا كان يجالس أهل الكتاب فسمع منهم أنه قد آن مبعثه ﷺ، ورأى زهير في منامه أنه قد مد سبب من السماء، وأنه قد مد يده ليتناوله، ففاته فأوله بالنبي الذي يبعث في آخر الزمان، وأنه لا يدركه، وأخبر بنيه بذلك، وأوصاهم إن أدركوه أن يسلموا.

قال ابن إسحاق: ولما قدم ﷺ من الطائف، كتب بجير بن زهير إلى أخيه كعب: إن رسول الله ﷺ قتل رجلا بمكة ممن كان يهجو، وإن من بقي من شعراء قريش كابن الزبيري وهبيرة بن أبي

وهب قد هربوا في كل وجه، فإن كانت بك في نفسك حاجة فطر
إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا، وإن كنت لم تفعل
فانج إلى نجاتك. وكان كعب قد قال:

ألا بلغا عني بجيرا رسالة فهل لك فيما قلت ويحك هل لك
فبين لنا إن كنت لست بفاعل على أي شيء غير ذلك دلكا
على خلق لم تلف أما ولا أبا عليه ولا تلقى عليه أخالكا
فإن أنت^(١) لم تفعل فلست بأسف ولا قائل إماعثرت لعالكا
سقاك بها المأمون كأساروية فأهلك المأمون منها وعلكا

قال السهيلي: «لعا» كلمة تقال للعائر دعاء له. انتهى.

قال ابن إسحاق: وبعث بها إلى بجير، فلما أتت بجيرا كره أن
يكتبها رسول الله ﷺ فأنشده إياها. فقال ﷺ: سقاك بها المأمون.
صدق وإنه لكذوب، وأنا المأمون.. ولما سمع: على خلق لم تلف أما
ولا أبا عليه، قال: أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه. ثم قال عليه
الصلاة والسلام: من لقي منكم كعب بن زهير فليقتله.. فكتب إليه
أخوه بهذه الأبيات.

من مبلغ كعبا فهل لك في التي تلوم عليها باطلا وهي أحزم
إلى الله لا العزى ولا اللات وحده فتنجو إذا كان النجاء وتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت من الناس إلا طاهر القلب مسلم
فدين زهير وهو لا شيء دينه ودين أبي سلمى علي محرم

ب/٨٩ / فلما بلغ كعبا الكتاب ضاقت به الأرض، وأشفق على

(١) في ش: كنت.

نفسه، وأرجف به من كان في حاضره من عدوه فقال: هو مقتول. فلما لم يجد من شيء بدا، قال قصيدته التي يمدح بها رسول الله ﷺ ويذكر خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه.

ثم خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة، فغدا به إلى رسول الله ﷺ فقال: هذا رسول الله فقم إليه واستأمنه، فقام حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فوضع يده في يده - وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه - فقال: يا رسول الله، إن كعب ابن زهير قد جاء ليستأمنك تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال رسول الله ﷺ: نعم، قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أنه وثب عليه رجل من الأنصار وقال: يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه. فقال ﷺ: دعه عنك فقد جاء تائباً نازعاً. قال: فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار لما صنع صاحبهم، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير. ثم قال قصيدته اللامية التي أولها: بانث سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفسد مكبول ومنها:

أنبئت أن رسول الله أوعدني مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ
إن الرسول لنور يستضاء به
في عصابة من قريش قال قائلهم
يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم
والعفو عند رسول الله مأمول
قرآن ولو^(١) كثرت في الأقاويل
مهند من سيوف الله مسلول
ببطن مكة لما أسلموا زولوا
ضرب إذا عرد السود التنايل^(٢)

(١) في ش: وإن .

(٢) عرد: أي أعرض، السود: جمع أسود، التنايل: القصار .

وفي رواية أبي بكر بن الأنباري أنه لما وصل إلى قوله:
 إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيف الله مسلول
 رمى عليه الصلاة والسلام إليه بردة كانت عليه. وأن معاوية بذل فيها
 عشرة آلاف فقال: ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحدا، فلما مات
 كعب بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفا فأخذها منهم. قال: وهي
 البردة التي عند السلاطين إلى اليوم.

قال ابن إسحاق: قال عاصم بن عمر بن قتادة: فلما قال
 كعب: «إذا عرد السود التنايل» وإنما عنى معشر الأنصار، لما كان
 صاحبهم صنع به، وخص المهاجرين بمدحته غضب عليه الأنصار،
 فقال بعد أن أسلم - يمدح الأنصار - قصيدته التي يقول فيها:

من سره كرم الحياة فلا يزل في مقنب^(١) من صالحى الأنصار
 ورثوا المكارم كابرا عن كابر إن الخيار هم بنو الأخيار
 المكرهين السمهري^(٢) بأدرع كسوالف^(٣) الهندي غير قصار
 والناظرين بأعين محمرة كالجمر غير كليله الأبصار
 والبائعين نفوسهم لنبيهم للموت يوم تعانق وكرار
 قوم إذا خوت^(٤) النجوم فإنهم للطارقين النازلين مقاري /

وقد كان كعب بن زهير من فحول الشعراء، وأبوه وابنه عقبة
 وابن ابنه العوام بن عقبة.

(١) مقنب: جماعة الخيل والفرسان .

(٢) السمهري: القناة الصلبة . أي: ردها عنهم ومنعواها من التأثير فيهم .

(٣) السوالف: السيوف وقد يراد بها الرماح أيضا .

(٤) أي سقطت ولم تمطر في نوثها، أي على زعمهم، وكان ذلك في بدء إسلام
 كعب قبل أن يتفقه في الدين.

غزوة تبوك

[المكان والزمان]

مكان معروف، وهي نصف طريق المدينة إلى دمشق.
وهي غزوة العسرة، وتعرف بالفاضحة لافتضاح المنافقين فيها.
وكانت يوم الخميس في رجب سنة تسع من الهجرة بلا خلاف،
وذكر البخاري لها بعد حجة الوداع لعله خطأ من النساخ.
وكان حرا شديدا، وجدبا كثيرا، فلذلك لم يور عنها كعادته في
سائر الغزوات.

وفي تفسير عبد الرزاق، عن معمر عن ابن عقيل قال: خرجوا
في قلة من الظهر وفي حر شديد، حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون
ما في كرشه من الماء، فكان ذلك عسرة في الماء وفي الظهر وفي النفقة،
فسميت غزوة العسرة.

[أسبابها]

وسببها أنه بلغه ﷺ من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام
إلى المدينة أن الروم تجمعت بالشام مع هرقل. فندب ﷺ الناس إلى
الخروج وأعلمهم بالمكان الذي يريد، ليتأهبوا لذلك.

وروى الطبراني^(١) من حديث عمران بن الحصين قال: كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل: إن هذا الرجل الذي خرج يدعي النبوة هلك، وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم. فبعث رجلا من عظمائهم وجهز معه أربعين ألفا. فبلغ ذلك النبي ﷺ ولم يكن للناس قوة^(٢).

[ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم]

وكان عثمان قد جهز عيرا إلى الشام فقال: يا رسول الله، هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية - يعني من ذهب^(٣) - قال: فسمعته يقول: لا يضر عثمان ما عمل بعدها^(٤).

وروى عن قتادة أنه قال: حمل عثمان في جيش العسرة على ألف بعير وسبعين فرسا.

وعن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان بن عفان بألف دينار في كفه حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره ﷺ، فرأيت رسول الله ﷺ يقلبها في حجره ويقول: ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم. خرجه الترمذي وقال: حسن غريب^(٥).

وعند الفضائلي والملاء^(٦) في سيرته، كما ذكره الطبري في الرياض

(١) بسند ضعيف .

(٢) قدرة على الذهاب لتلك الأرض لفقد الظهر والنفقة لا الضعف .

(٣) في (ط) .

(٤) هذا تنمة حديث عمران . قال الحافظ أخرجه الترمذي والحاكم من حديث عبد الرحمن بن خباب بنحوه .

(٥) ورواه الإمام أحمد والبيهقي أيضا .

(٦) عمر الموصلي، كان يملأ من بئر في جامع الموصل احتسابا، وكان =

الضرة من حديث حذيقة: بعث عثمان - يعني في جيش العسرة - بعشرة آلاف دينار إلى رسول الله ﷺ فصبت بين يديه، فجعل ﷺ يقول بيديه ويقلبها ظهراً لبطن يقول: غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت، وما هو كائن إلى يوم القيامة، ما يبالي ما عمل بعدها. (١)

[المنافقون]

ولما تاهب رسول الله ﷺ للخروج، قال قوم من المنافقين: لا تنفروا في الحر، فنزل قوله تعالى: ﴿وقالوا لا تنفروا في الحر، قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون﴾ (٢).

[البكاؤون]

وأرسل عليه السلام إلى مكة وقبائل العرب يستنفرهم.

وجاء البكاؤون يستحملونه، فقال عليه السلام: لا أجد ما أحملكم عليه. وهم: سالم بن عمير، وعلبة بن زيد، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب المازني، والعرباض بن سارية، وهرم بن عبد الله، وعمرو بن عنمة، وعبد الله بن مغفل، وعبد الله بن عمرو المزي، وعمرو بن الحمام، ومعقل المزي، وحرمي بن مازن، والنعمان وسويد ومعقل وعقيل وسانن وعبد الرحمن وهند بنو مقرن. وهم الذين قال الله فيهم: ﴿تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا ما

= إماما عظيما ناسكاً زاهداً، وكان السلطان نور الدين الشهيد يشهد قوله ويقبل شفاعته. فوهم من ظنه الملائي فزاد ياء. فالملائي لا سيرة له. في ط: الملائي.

(١) وأخرجه ابن عدي أيضاً.

(٢) سورة التوبة. الآية ٨١.

ينفقون ﴿١﴾ قاله مغلطاي .

وفي البخاري، عن أبي موسى قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحملان لهم، فقلت يا نبي الله، إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم، فقال: والله لا أحملكم على شيء، فرجعت حزينا من منع النبي ﷺ، ومن مخافة أن يكون النبي ﷺ / وجد في نفسه علي فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم الذي قال النبي ﷺ. فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالا ينادي: أين عبد الله بن قيس، فأجبتة، فقال: أجب رسول الله ﷺ يدعوك. فلما أتته قال: خذ هاتين القرينتين، وهاتين القرينتين لسته أبعرة ابتاعهم حينئذ من سعد، فانطلق بهن (٢) إلى أصحابك فقل: إن الله، أو إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء فاركبوهم. الحديث (٣).

ب/٩٠

وقام علبة بن زيد، فصلى من الليل وبكى وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها، مال أو جسد أو عرض. ثم أصبح مع الناس. فقال النبي ﷺ: أين المتصدق بهذه الليلة؟ فلم يبق أحد، ثم قال: أين المتصدق بهذه الليلة؟ فلم يبق أحد، ثم قال: أين المتصدق فليقم، فقام إليه فأخبره، فقال ﷺ: أبشر فوالذي نفس محمد بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة. رواه يونس (٤) والبيهقي في

(١) سورة التوبة. الآية ٩٢.

(٢) كذا في (ش) والبخاري. وفي النسخ: بهم.

(٣) رواه البخاري برقم ٤٤١٥.

(٤) في (م) ابن يونس.

الدلائل، كما ذكره السهيلي في الروض له. (١)

[المعذرون]

وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم في التخلف، فأذن لهم، وهم اثنان وثمانون رجلا.

وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر وإظهار علة (٢)، جرأة (٣) على الله ورسوله وهو قوله تعالى: ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ (٤).

[المستخلف على المدينة]

واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة. قال الدمياطي: وهو عندنا أثبت ممن قال استخلف غيره. انتهى.

وقال الحافظ زين الدين العراقي، في ترجمة علي بن أبي طالب من شرح التقريب: لم يتخلف عن المشاهد إلا تبوك، فإن النبي ﷺ خلفه على المدينة، وعلى عياله، وقال له يومئذ: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي. وهو في الصحيحين من حديث سعد ابن أبي وقاص. انتهى (٥). ورجحه ابن عبد البر.

وقيل: استخلف سباع بن عرفطة.

[المخلفون]

وتخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب، منهم؛ كعب

(١) في (ب، ش) يونس كما ذكره السهيلي في الروض والبيهقي في الدلائل له.

(٢) أي: وبغير إظهار علة.

(٣) في (ط، ش): جرأة.

(٤) سورة التوبة، الآية (٩٠).

(٥) رواه البخاري برقم ٤٤١٦، ومسلم في فضائل الصحابة برقم ٣١.

ابن مالك، ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، وفيهم نزل ﴿وعلى
الثلاثة الذين خلفوا﴾ وأبو ذر، وأبو خثيمة، ثم لحقاه بعد ذلك.

ولما رأى ﷺ أبا ذر الغفاري - وكان ﷺ نزل في بعض الطريق -
فقال: يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده^(١). فكان كذلك.

[عدد المسلمين وعددهم]

وأمر ﷺ لكل بطن من الأنصار والقبائل من العرب أن يتخذوا
لواء وراية.

وكان معه ﷺ ثلاثون ألفا. وعند أبي زرعة سبعون ألفا، وفي
رواية عنه أيضا أربعون ألفا. وكانت الخيل عشرة آلاف فرس.

[المرور بالحجر]

ولما مر ﷺ بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - بديار ثمود
قال: لا تشربوا من مائها شيئا، ولا يخرجن أحد منكم إلا ومعه
صاحب له، ففعل الناس، إلا أن رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما
لحاجته وخرج الآخر في طلب بعيه، فأما الذي خرج لحاجته فخنق
على مذهبه^(٢) وأما الذي خرج في طلب بعيه فاحتلمته الريح حتى
طرحته بجبلي طيء. فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: ألم أنحكم؟ ثم
دعا للذي خنق على مذهبه فشفى، وأما الآخر فأهدته طيء لرسول

(١) هذه رواية ابن مسعود عند ابن إسحاق. وفي بعض النسخ يعيش بدل
يبعث وهو تحريف. أقول: في (ط): يمشي وحده ويبعث وحده ويموت
وحده. وفي (ب): يعيش وحده، ويمشي وحده، ويموت وحده.

(٢) أي صرع في الموضع الذي تغوط فيه.

الله ﷺ حين قدم المدينة^(١).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي حميد: انطلقنا حتى قدمنا تبوك، فقال رسول الله ﷺ ستهب عليكم الليلة ريح شديدة، / فلا يقيم ١/٩١ أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عقاله، فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقت به بجبلي طيء^(٢).

وروى الزهري: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر سجد ثوبه على وجهه واستحث راحلته ثم قال: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون، خوفا أن يصيبكم ما أصابهم. رواه الشيخان^(٣).

[فقدان ناقته ﷺ]

ولما كان ﷺ ببعض الطريق ضلت ناقته.. فقال زيد بن اللصيت - وكان منافقا-: أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ: إن رجلا يقول... وذكر مقالته، وإني لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني عليها، وهي في الوادي في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها. فانطلقوا حتى تأتوني بها. فانطلقوا فجاءوا بها. رواه البيهقي وأبو نعيم.

[معجزة تكثير الماء]

وفي مسلم من حديث معاذ بن جبل: أنهم وردوا عين تبوك،

(١) كذا روى ابن إسحاق حديث الرجلين.

(٢) رواه مسلم في كتاب الفضائل رقم ١١. قال الشارح وهو عند البخاري بنحوه.

(٣) هو عند البخاري برقم ٤٤١٩ و٤٤٢٠ وعند مسلم في كتاب الزهد برقم ٣٩

وهي تبض بشيء من ماء، وأنهم غرفوا منها قليلا قليلا حتى اجتمع في شن ثم غسل ﷺ به وجهه ويديه ثم أعاده فيها فجرت بماء كثير، فاستقى الناس. الحديث^(١). ويأتي إن شاء الله في مقصد المعجزات.

[الوصول إلى تبوك]

ولما انتهى ﷺ إلى تبوك أتاه صاحب أيلة فصالحه وأعطاه الجزية. وأتاه أهل جرباء - بالجيم - واذرح - بالذال المعجمة والراء والحاء المهملتين - بلدين بالشام بينهما ثلاثة أميال، فأعطوه الجزية، وكتب لهم ﷺ كتابا.

ووجد هرقل بحمص^(٢)، فأرسل خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك النصراني، وكان ملكا عظيما بدومة الجندل، في إربعمائة وعشرين فارساً في رجب سرية، وقال له عليه الصلاة والسلام: إنك ستجده ليلاً يصيد البقر، فأنتهى إليه خالد، وقد خرج من حصنه في ليلة مقمرة، إلى بقر يطاردها، هو وأخوه حسان، فشدت عليه خيل خالد، فاستأسر أكيدر وقتل أخاه حسانا، وهرب من كان معها فدخل الحصن، ثم أجاز خالد أكيدر من القتل، حتى يأتي به رسول الله ﷺ على أن يفتح له دومة الجندل، ففعل وصالحه على ألفي بغير وثمانمائة فرس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح.

[رسالة إلى هرقل]

وفي هذه الغزوة كتب ﷺ كتابا في تبوك إلى هرقل يدعوه إلى

(٣) هو عند مسلم في كتاب الفضائل رقم (١٠).

(٢) أي وجدته مقبياً بها لم يتحرك، فكان الذي أخبر به ﷺ باطلا.

الإسلام، فقارب الإجابة ولم يجب. رواه ابن حبان في صحيحه من حديث أنس .

وفي مسند أحمد أن هرقل كتب من (١) تبوك إلى النبي ﷺ: أني مسلم فقال النبي ﷺ: كذب هو على نصرانيته (٢).

وفي كتاب الأموال لأبي عبيد، بسند صحيح من مرسل بكر بن عبد الله نحوه ولفظه: فقال: كذب عدو الله ليس بمسلم (٣).

[العودة إلى المدينة]

ثم انصرف ﷺ من تبوك، بعد أن أقام بها بضع عشرة ليلة. وقال الدمياطي - ومن قبله ابن سعد - عشرين ليلة، يصلي ركعتين، ولم يلتق كيدا، وبني في طريقه مساجد.

وأقبل ﷺ حتى نزل بذوي أوان - بفتح الهمزة بلفظ الأوان: الحين - وبينها وبين المدينة ساعة جاءه خبر مسجد الضرار من السماء.

فدعا مالك بن الدخشم ومعن بن عدي العجلاني فقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه. فخرجا فحرقاه وهدماه.

وذلك بعد أن أنزل الله فيه: ﴿والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا﴾ الآية (٤).

(١) قال في هامش (د.) يمكن جعل «إلى» بدلاً من. والأصل إلى تبوك.

(٢) هو من طريق سعيد بن أبي راشد عن التوحي. وهذا الحديث في المسند ٤٤١/٣-٤٤٢، وليس فيه شيء مما ذكر المصنف من إسلام هرقل. ولم

أستطع الوقوف على هذا النص على الرغم من إشارة الفتح إليه

(٣) ما ورد في هذه الفقرة هو في فتح الباري ١/٣٧.

(٤) سورة التوبة. الآية ١٠٧.

قال / الواحدي: قال ابن عباس ومجاهد وقتاده وعمامة أهل التفسير: الذين اتخذوا مسجد الضرار كانوا اثني عشر رجلا، يضارون به مسجد قباء، وذلك أنهم قالوا في طائفة من المنافقين: نبي مسجدنا فنقل فيه فلا نحضر خلف محمد.

قال المفسرون: ولما بنوا ذلك لأغراضهم الفاسدة عند ذهاب رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك، قالوا: يا رسول الله، بنينا مسجدا لذي العلة، والليله المطيرة، ونحن نحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة، فقال عليه الصلاة والسلام: إني على جناح سفر، وإذا قدمنا إن شاء الله تعالى صلينا فيه. فلما قفل من غزوة تبوك سأله إتيان المسجد، فنزلت هذه الآية.

ولما دنا ﷺ من المدينة خرج الناس لتلقيه، وخرج النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا الله داع

وقد وهم بعض الرواة - كما قدمته - وقال: إنما كان هذا عند مقدمه المدينة، وهو وهم ظاهر، لأن ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشام، لا يراها القادم من مكة إلى المدينة، ولا يراها إلا إذا توجه إلى الشام - كما قدمت ذلك -.

وفي البخاري: لما رجع ﷺ من غزوة تبوك فدنا من المدينة، قال: (إن بالمدينة أقواما ما سرتهم مسيرا، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم العذر^(١)) وهذا يؤيد معنى ما ورد: نية المؤمن خير من

(١) رواه البخاري برقم ٤٤٢٣.

عمله^(١)، فإن نية هؤلاء أبلغ^(٢) من أعمالهم، فإنها بلغت بهم مبلغ أولئك العاملين بأبدانهم، وهم على فرشهم في بيوتهم. والمسابقة إلى الله تعالى وإلى الدرجات العلا بالنيات والهمم لا بمجرد الأعمال

ولما أشرف ﷺ على المدينة قال: (هذه طابة وهذا أحد، جبل يحبنا ونحبه)^(٣).

ولما دخل قال العباس يا رسول الله، ائذن لي أمتدحك قال: قل لا يفضض الله فاك، فقال:

من قبلها طببت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد أجم نسراً وأهله الغرق
تنقل من صالب إلى رحم إذا مضى عالم بدا طبق
وردت نار الخليل مكتما في صلبه أنت كيف يحترق
حتى احتوى بيتك المهمين من خندف عليها تحتها النطق
وأنت لما ولدت أشرقت الأر ض وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي الـ نور وسبل الرشاد نخترق^(٤)

[شرح كلمات الأبيات]

وقوله: من قبلها طببت الخ: أي ظلال الجنة، أي إنك^(٥) كنت

(١) رواه البيهقي وغيره عن أنس، وكلها ضعيفة.

(٢) في (ش): خير.

(٣) رواه البخاري برقم ٤٤٢٢.

(٤) فصاحة العباس تأتي هذا، وكأنها مصنوعة، وليس عليها رونق شعره..

(٥) في (ط، ب، د).

طيباً في صلب آدم حيث كان في الجنة.

وقوله: من قبلها: أي قبل نزولك إلى الأرض فكفى عنها ولم يتقدم لها ذكر لبيان المعنى.

وقوله: ثم هبطت البلاد لا بشر، أي لما أهبط الله آدم إلى الدنيا، كنت في صلبه غير بالغ هذه الأشياء.

وقوله: وقد أجم نسراً وأهله الغرق، يريد الصنم الذي كان يعبده قوم نوح وهو المذكور في قوله تعالى ﴿ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾^(١)

وقوله: حتى احتوى بيتك المهمين الخ. النطق: جمع نطاق. وهي أعراض من جبال بعضها فوق بعض أي: / نواح وأوساط منها شبهت بالنطق التي تشد بها أوساط الناس. ضربه مثلاً في ارتفاعه وتوسطه في عشيرته وجعلهم تحته بمنزلة أوساط الجبال، وأراد بيته: شرفه، والمهمين: نعته، أي احتوى شرفه الشاهد على فضلك أعلى مكان من نسب خندف - وهو بكسر الخاء المعجمة والبدال المهمة - انتهى.

[وجاء المتخلفون]

وجاءه ﷺ من كان تخلف عنه، فحلفوا له فعذرهم واستغفر لهم، وأرجأ أمر كعب وصاحبيه حتى نزلت توبتهم في قوله تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم

(١) سورة نوح الآية ٢٣.

الأرض بما رحبت وضاعت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴿١﴾.

والثلاثة هم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرة بن الربيع (٢).

وعند البيهقي في الدلائل، من مرسل سعيد بن المسيب: أن أبا لبابة بن عبد المنذر لما أشار لبني قريظة بيده إلى حلقه: أنه الذبح وأخبر عنه رسول الله ﷺ بذلك فقال له رسول الله ﷺ: أحسبت أن الله قد غفل عن يدك حين تشير إليهم بها إلى حلقك، فلبث حيناً ورسول الله ﷺ عاتب عليه، ثم غزا تبوكاً (٣) فتخلف عنه أبو لبابة فيمن تخلف، فلما قفل رسول الله ﷺ منها جاءه أبو لبابة يسلم عليه فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ففزع أبو لبابة، فارتبط بسارية التوبة سبعا وقال: لا يزال هذا مكاني حتى أفارق الدنيا، أو يتوب الله علي. الحديث.

وعنده أيضاً من حديث ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً﴾ (٤) قال: كانوا عشرة رهط تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، فلما رجع ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد وكان ممر النبي ﷺ إذ رجع في المسجد عليهم، فقال: من هؤلاء؟ قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا

(١) سورة التوبة الآيتان ١١٧ و ١١٨.

(٢) كذا في ط، وفي النسخ ربيعة. قال الشارح: ابن ربيعة، هو رواية مسلم والمشهور: ابن الربيع كما في البخاري.

(٣) بالصرف إلى أرادة الموضع.

(٤) سورة التوبة. الآية ١٠٢.

عنك يا رسول الله، حتى تطلقهم وتعذرهم، فقال: أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو. فأنزل الله تعالى: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ فلما نزلت أرسل إليهم النبي ﷺ فأطلقهم وعذرهم. الحديث.

قالوا: ولما قدم ﷺ من تبوك وجد عويمر العجلاني امرأته حبلى، فلاعن عليه السلام بينهما.

حجة ابي بكر

ثم حجة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالناس، سنة تسع في ذي العقدة، كما ذكره ابن سعد وغيره بسند صحيح عن مجاهد، ووافقه عكرمة بن خالد، فيما أخرجه الحاكم في الإكليل.

وقال قوم في ذي الحجة، وبه قال الداودي والثعلبي والماوردي . ويؤيده أن ابن إسحاق صرح بأن النبي ﷺ أقام بعد ما رجع من تبوك رمضان وشوالاً وذا العقدة ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج، فهو ظاهر في أن بعث أبي بكر كان بعد انسلاخ ذي العقدة، فيكون حجه في ذي الحجة على هذا والله أعلم (١).

وكان مع أبي بكر ثلاثمائة رجل من المدينة، وعشرون بدنة.

وفي البخاري ومسلم، عن أبي هريرة: أن أبا بكر بعثه في الحجة التي أمره رسول الله ﷺ قبل حجه الوداع في رهط يؤذن في الناس يوم النحر: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان (٢).

(١) فتح الباري ٨/٨٢.

(٢) هو عند البخاري برقم ٤٣٦٣ وعند مسلم برقم ١٣٤٧.

ثم أردف النبي ﷺ / بعلي بن أبي طالب، وأمره أن يؤذن ببراءة، فأذن معلنا في أهل منى ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

قال: فنبت أبو بكر إلى الناس في ذلك العام^(١) فلم يحج في العام القابل الذي حج فيه رسول الله ﷺ حجة الوداع مشرك. فأنزل الله في العام الذي نبت فيه أبو بكر إلى المشركين: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ الآية^(٢).

وقد دلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما في الصحيح «المؤمن لا ينجس» وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم، وهذا ضعيف، لأن أعيانهم لو كانت نجسة كالكلب والخنزير لما طهرهم الإسلام، ولاستوى في النهي عن دخول المشركين المسجد الحرام وغيره من المساجد. فالمراد: الأخباث لما فيهم من خبث الظاهر بالكفر وخبث الباطن بالعداوة قاله مقاتل.

وروى النسائي عن جابر أن النبي ﷺ لما رجع من عمرة الجعرانة بعث أبا بكر على الحج، فأقبلنا معه حتى إذا كنا بالعرج ثوب للصبح، فلما استوى للتكبير سمع الرغوة خلف ظهره فوقف عن التكبير فقال: هذه رغوة ناقة رسول الله ﷺ الجدعاء، لقد بدا لرسول الله ﷺ في الحج، فلعله أن يكون رسول الله ﷺ فنصلي معه، فإذا علي عليها، فقال له أبو بكر أمير أم رسول، قال: لا بل رسول،

(١) أي إلى الناس عقودهم.

(٢) سورة التوبة. الآية ٢٨.

أرسلني رسول الله ﷺ براءة أقرؤها على الناس في مواقف الحج، فقدمنا مكة، فلما كان قبل التروية بيوم قام أبو بكر فخطب الناس فحدثهم عن مناسكهم، حتى إذا فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها، ثم خرجنا معه، حتى إذا كان يوم عرفة قام أبو بكر فخطب الناس فعلمهم مناسكهم حتى إذا فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها، ثم كان يوم النحر، فأفضنا فلما رجع أبو بكر خطب الناس فحدثهم عن إفاضتهم وعن نحرهم وعن مناسكهم، فلما فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها. فلما كان يوم النفر الأول قام أبو بكر فخطب الناس، فحدثهم كيف ينفرون، وكيف يرمون يعلمهم مناسكهم، فلما فرغ قام علي فقرأ على الناس براءة حتى ختمها.

وهذا السياق فيه غرابة من جهة أن أمير الحج سنة عمرة الجعرانة إنما هو عتاب بن أسيد، أما أبو بكر رضي الله عنه فأما كان سنة تسع.

واستدل بهذه القصة على أن فرض الحج كان قبل حجة الوداع، والأحاديث في ذلك كثيرة شهيرة.

وذهب جماعة إلى أن حج أبي بكر هذا لم يسقط عنه الفرض بل كان تطوعاً قبل فرض الحج ولا يخفي ضعفه.

[بين حجة الصديق وحجة الوداع]

[هلاك رأس المنافقين]

وفي هذه السنة أيضا مات عبد الله بن أبي بن سلول، ف جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه ليكفن فيه أباه، فأعطاه. ثم سأله أن يصلي عليه، فقام ليصلي عليه، فقام عمر رضي الله عنه فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه، فقال ﷺ: إنما خيرني الله عز وجل قال: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾^(١) وسأزيد على السبعين قال: إنه منافق.

فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾^(٢) رواه الشيخان والنسائي.

[إيلاؤه ﷺ من نسائه]

وفي هذه السنة أيضا آلى رسول الله ﷺ من نسائه شهراً. وجحش شقه - أي خدش - وجلس في مشربة له درجها من جذوع، ١/٩٣ فأتاه / أصحابه يعودونه فصلى بهم جالسا وهم قيام، فلما سلم

(١) سورة التوبة، الآية ٨٠.

(٢) سورة التوبة، الآية ٨٤.

قال: إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا صلى قائماً فصلوا قياماً، وإذا صلى قاعداً فصلوا قعوداً، ولا تركعوا حتى يركع، ولا ترفعوا حتى يرفع.
ونزل لتسع وعشرين فقالوا: يا رسول الله إنك آليت شهراً، فقال: إن الشهر يكون تسعا وعشرين.

[البعث إلى اليمن]

ثم بعث أبا موسى ومعاذاً إلى اليمن قبل حجة الوداع. كل واحد منها على خلاف. قالوا: واليمن مخلافان، ثم قال: يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا^(١). وقال لمعاذ: إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، [فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة]^(٢). فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب. رواه البخاري^(٣).

والمخلاف: - بكسر الميم وسكون المعجمة وآخره فاء - بلغة أهل اليمن الكورة والإقليم والريستاق.

وكانت جهة معاذ العليا إلى صوب عدن، وكان من عمله الجند - بفتح الجيم والنون - وله بها مسجد مشهور. وكانت جهة أبي موسى السفلى.

(١) رواه البخاري برقم ٤٣٤١ .

(٢) هذه الفقرة في (ب.ش) وكذا في البخاري، وقد سقطت من النسخ .

(٣) برقم ٤٣٤٧ .

[بعث خالد إلى نجران]

ثم أرسل خالد بن الوليد قبل حجة الوداع أيضاً، في ربيع الأول سنة عشر - وفي الإكليل: في ربيع الآخر، وقيل: في جمادى الأولى - إلى بني عبد المدان بنجران فأسلموا.

[بعث علي إلى اليمن]

ثم أرسل علي بن أبي طالب إلى اليمن في شهر رمضان، سنة عشر من الهجرة، وعقد له لواء وعممه بيده.

وأخرج أبو داود وأحمد والترمذي من حديث علي قال: بعثني النبي ﷺ إلى اليمن فقلت يا رسول الله. تبعثني إلى قوم أسن مني وأنا حديث السن لا أبصر القضاء. قال: فوضع يده في صدري وقال: اللهم ثبت لسانه واهد قلبه، وقال: يا علي إذا جلس إليك الخصمان، فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر الحديث.

فخرج في ثلاثمائة، ففرق أصحابه فأتوا بنهب وغنائم ونساء وأطفال ونعم وشاء وغير ذلك. ثم لقي جمعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا. ورموا بالنبل، ثم حمل عليهم علي بأصحابه فقتل منهم عشرين رجلاً فتفرقوا وانهمزوا فكف عن طلبهم، ثم دعاهم إلى الإسلام فأسرعوا وأجابوا، وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام [وقالوا نحن على من وراءنا من قومنا، وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله]^(١).

ثم قفل فوافي النبي ﷺ بمكة قد قدمها للحج سنة عشر.

(١) في ش .

[حجة الوداع]

ثم حج ﷺ حجة الوداع، وتسمى حجة الإسلام، وحجة البلاغ، وكره ابن عباس أن يقال: حجة الوداع^(١).

وكان ﷺ قد أقام بالمدينة يضحى كل عام ويغزو المغازي، فلما كان في ذي القعدة سنة عشر من الهجرة أجمع على الخروج إلى الحج [فتجهز وأمر الناس بالجهاز له]^(٢).

قال ابن سعد: ولم يحج غيرها منذ تنبأ إلى أن توفاه الله تعالى.

وفي البخاري عن زيد بن أرقم أن النبي ﷺ غزا تسع عشرة غزوة، وأنه حج بعدما هاجر حجة واحدة لم يحج بعدها، حجة الوداع.

قال: وقال ابن إسحاق: وبمكة أخرى، وقيل: حج حجتين. هذا بعد النبوة وقبلها لا يعلمه إلا الله.

فخرج ﷺ من المدينة يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة، وجزم ابن حزم بأن خروجه كان يوم الخميس. وفيه نظر. لأن أول

(١) لإشعاره بكرامة المودع وأسفه على من ودعه. وذلك لا يليق به ﷺ. ولم يكره ذلك غيره.

(٢) في ش.

ذي الحجة كان يوم الخميس قطعاً، لما ثبت وتواتر وقوفه بعرفة كان يوم الجمعة، فتعين أن أول الشهر كان يوم الخميس، فلا يصح أن يكون خروجه يوم الخميس، بل هو ظاهر الخبر أن يكون يوم الجمعة.

لكن ثبت في الصحيحين عن أنس: صلينا مع رسول الله ﷺ الظهر بالمدينة أربعاء، والعصر بذى الحليفة ركعتين. فدل على أن خروجهم لم يكن يوم الجمعة. ويحمل قول من قال: لخمس بقين، أي إن كان الشهر ثلاثين فاتفق أن جاء تسعا وعشرين فيكون يوم الخميس أول ذي الحجة بعد / مضي أربع ليال لا خمس، وبها تتفق الأخبار.

ب/٩٣

هكذا جمع الحافظ عماد الدين بن كثير بين الروايات، وقوى هذا الجمع بقول جابر: إنه خرج لخمس بقين من ذي القعدة أو أربع.

وصرح الواقدي بأن خروجه ﷺ كان يوم السبت لخمس ليال بقين من ذي القعدة.

وكان خروجه من المدينة بين الظهر والعصر. وكان دخول مكة صباح رابعة، كما ثبت في حديث عائشة وذلك يوم الأحد. وهذا يؤيد أن خروجه من المدينة كان يوم السبت، كما تقدم، فيكون مكثه في الطريق ثمان ليال، وهي المسافة الوسطى.

وخرج معه عليه السلام تسعون ألفاً، ويقال مائة ألف وأربعة عشر ألفاً، ويقال أكثر من ذلك، كما حكاه البيهقي.

ويأتي الكلام على حجة الوداع وما فيها من المباحث في مقصد العبادات إن شاء الله تعالى.

[آخر البعوث النبوية]

ثم سرية أسامة بن زيد بن حارثة إلى أهل أبي (١) بالشرأة ناحية بالبلقاء، وكانت يوم الإثنين لأربع ليال بقين من صفر، سنة إحدى عشرة.

وهي آخر سرية جهزها النبي ﷺ وأول شيء جهزه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، لغزو الروم مكان قتل أبيه زيد.

فلما كان يوم الأربعاء بدى برسول الله ﷺ وجعه، فحمّ وصدع، فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواء بيده، فخرج بلوائه معقوداً فدفعه إلى بريدة الأسلمي، وعسكر بالجرف. فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا انتدب، فيهم أبو بكر وعمر (٢).

فتكلم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين؟ فخرج رسول الله ﷺ وقد عصب رأسه وعليه قطيفة، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، أيها الناس، ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، ولئن طعنتم في إمارتي أسامة فقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وأيم الله إن كان للإمارة لخليقا، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، فاستوصوا به خيرا

(١) أبني: بضم الهمزة وسكون الموحدة وفتح النون فألف مقصورة.

(٢) هذه الجملة ليست في ش.

فإنه من خياركم. ثم نزل عن المنبر فدخل بيته. وذلك يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول سنة إحدى عشرة.

وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله ﷺ، ويخرجون إلى العسكر بالجرف.

فلما كان يوم الأحد اشتد برسول الله ﷺ وجعه، فدخل أسامة من معسكره والنبي ﷺ مغمور، وهو اليوم الذي لدوه^(١) فيه، فطأطأ أسامة فقبله، ورسول الله ﷺ لا يتكلم، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعها على أسامة. قال أسامة: فعرفت أنه يدعولي. ورجع أسامة إلى معسكره.

ثم دخل يوم الإثنين وأصبح ﷺ مفيقاً، فودعه أسامة وخرج إلى المعسكر، فأمر الناس بالرحيل. فبينما هو يريد الركوب إذا رسول أمه أم أيمن قد جاء يقول: إن رسول الله ﷺ يموت. فأقبل هو وعمر وأبو عبيدة. فتوفي ﷺ حين زاغت الشمس. لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول.

واستشكله السهيلي ومن تبعه، وذلك: أنهم اتفقوا على أن ذا الحجة كان أوله يوم الخميس، فمهما فرضت الشهور الثلاثة: توأم أو نواقص، أو بعضها، لم يصح.

قال الحافظ ابن حجر: وهو ظاهر لمن تأمله.

وأجاب البارزي ثم ابن كثير: باحتمال وقوع الأشهر الثلاثة كوامل، وكان أهل مكة والمدينة اختلفوا في رؤية هلال ذي الحجة، فرآه أهل مكة ليلة الخميس، ولم يره أهل المدينة إلا ليلة الجمعة،

(١) قال الحافظ: أي جعلوا في جانب فمه دواء بغير اختياره.

فحصلت الوقفة برؤية أهل مكة، ثم رجعوا إلى المدينة فأرخوا برؤية أهلها. وكان أول ذي الحجة الجمعة وآخره السبت، وأول المحرم الأحد وآخره الإثنين وأول صفر الثلاثاء وآخره الأربعاء، وأول ربيع الأول الخميس، فيكون ثاني عشره الإثنين. /

١/٩٤

قال^(١): وهذا الجواب بعيد، من حيث إنه يلزم منه توالي أربعة أشهر كوامل، وقد جزم سليمان التيمي أحد الثقات: بأن ابتداء مرضه كان يوم السبت الثاني والعشرين من صفر، ومات يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول. فعلى هذا يكون صفر ناقصاً، ولا يمكن أن يكون أول صفر السبت إلا إن كان ذو الحجة والمحرم ناقصين. فيلزم منه نقص ثلاثة أشهر متوالية.

قال: والمعتمد ما قاله أبو مخنف: أنه توفي في ثاني ربيع الأول. وكان سبب غلط غيره أنهم قالوا: مات في ثاني شهر ربيع الأول، فغيرت فصار: ثاني عشر، واستمر الوهم بذلك يتبع بعضهم بعضاً من غير تأمل. انتهى^(٢).

ثم إن وفاته ﷺ يوم الإثنين من ربيع الأول بلا خلاف. بل كاد يكون إجماعاً لكن في حديث ابن مسعود: في حادي عشر رمضان رواه البزار. والمعتمد ما تقدم، والله أعلم. انتهى.

وسياتي إن شاء الله تعالى حديث الوفاة الشريفة في المقصد الأخير. ولما توفي ﷺ دخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة، ودخل بريدة بلواء أسامة معقوداً حتى أتى به باب رسول الله ﷺ

(١) أي ابن حجر.

(٢) إشكال السهيلي ومناقشته وما تبعه. عن فتح الباري ١٢٩/٨ - ١٣٠.

فغززه عند بابه . فلما بويع أبو بكر الصديق رضي الله عنه أمر بريدة أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة ليمضي لوجهه، فمضى به إلى معسكرهم الأول، وخرج أسامة هلال ربيع الآخر سنة إحدى عشرة إلى أهل أبنى، فشن عليهم الغارة، فقتل من أشرف له، وسبى من قدر عليه، وحرق منازلهم ونخلهم، وقتل قاتل أبيه في الغارة، ثم رجع إلى المدينة، ولم يصب أحد من المسلمين.

وخرج أبو بكر في المهاجرين وأهل المدينة يتلقونه سرورا. والله أعلم.

فجميع سراياه وبعوثه نحو ستين ومغازيه نحو سبع وعشرين.

تم بعونه تعالى الجزء الأول من
المواهب اللدنية ويليهِ
الجزء الثاني وأوله
المقصد الثاني

فهرس الجزء الأول من المواهب اللدنية

| | | |
|----|--|---------------|
| ٥ | | مقدمة التحقيق |
| ٤١ | | مقدمة المصنف |

المقصد الأول في أحداث السيرة منذ الولادة إلى الوفاة

| | |
|--|--|
| <p>النسب الشريف</p> <p>٨٥ طهارة النسب من السفاح</p> <p>٨٨ خير القرون وخير البيوت</p> <p>٨٩ وحيد والديه ﷺ</p> <p>٩٠ سلسلة النسب الشريف</p> <p>٩٤ الوقوف بالنسب عند عدنان</p> <p>٩٧ زواج عبد المطلب</p> <p>قصة الفيل</p> <p>٩٩ ملخص القصة</p> <p>١٠٣ دخول أبرهة لهدم الكعبة</p> <p>١٠٤ ذكر الحادثة في القرآن</p> <p>١٠٤ الحادثة من إرهابات النبوة</p> <p>١٠٥ الحجاج وهدم الكعبة</p> | <p>٥٥ توطئة</p> <p>٥٧ سبق نبوته ﷺ</p> <p>٦١ الوصف بالنبوة قبل وجوده.</p> <p>٦٦ أخذ العهد على الأنبياء</p> <p>٦٨ طينته ﷺ</p> <p>٧١ أول المخلوقات</p> <p>٧٥ خلق آدم والسجود له</p> <p>٧٦ خلق حواء</p> <p>٧٧ الأكل من الشجرة</p> <p>٧٨ موعظة</p> <p>٧٨ خطيئة آدم كبيرة أم صغيرة؟</p> <p>٧٩ من حكمة نزول آدم</p> <p>٨١ الجنة التي سكنها آدم</p> <p>٨١ استشفاع آدم به ﷺ</p> <p>٨٣ حبيب الله .</p> |
|--|--|

زمن الولادة ووقتها

- ١٣٩ عام الولادة
١٤٠ شهر الولادة
١٤٠ يوم الولادة
١٤٣ وقت الولادة
١٤٥ ليلة القدر وليلة المولد
١٤٦ مدة الحمل ومكان الولادة
١٤٧ رضاعه عند الولادة
١٤٨ الاحتفال بالمولد

رضاعه ﷺ

- ١٥٠ حديث حليلة
١٥٤ حديث غريب المتن والإسناد
١٥٥ التكلم في المهد
١٥٦ حادثة شق الصدر
١٥٨ الشق وقع أكثر من مرة

خاتم النبوة

- ١٦٠ ما ورد بشأنه
١٦٢ نقد بعض الروايات
١٦٣ شرح معاني الكلمات
١٦٤ الجمع بين الروايات
١٦٦ هل كان عند الولادة؟
١٦٧ علامات نبوة الأنبياء

وفاة أمّنة

قضية نجاة والديه ﷺ

- ١٧١ خبر إيمان والدته

حفر زمزم

- ١٠٦ رؤيا عبد المطلب
١٠٧ سبب قصة الذبيح
١٠٨ الوفاء بالنذر
١١٠ ابن الذبيحين
١١١ الذبيح اسماعيل أم اسحاق؟
١١٣ موعظة في الصبر
١١٤ أبناء عبد المطلب
١١٤ عبدالله ليس أصغر إخوته

زواج عبدالله

- ١١٦ قصة العارضة نفسها
١١٧ زواج عبدالله من أمّنة
١١٧ توطئة للكلام عن الحمل
١١٩ معنى كلمة (طوي)
١٢٠ خفة الحمل وثقله
١٢١ حديث ضعيف في الحمل
١٢٢ مدة الحمل
١٢٢ وفاة عبدالله
١٢٤ أحاديث منكورة في المولد
١٢٦ أحاديث أخرى في المولد
١٣٠ من عجائب ولادته ﷺ

ختانه ﷺ

- ١٣٣ القول بأنه ولد مختونا
١٣٤ القول بغير ذلك
١٣٥ الخلاصة
١٣٦ بحث في فقه الختان

- ٢٠٨ تنمة مراتب الوحي
٢١٠ عدد مرات نزول جبريل
٢١٠ أول أمر الصلاة
٢١٢ فترة الوحي
٢١٣ النبوة والرسالة

أول من آمن

- ٢١٥ إسلام خديجة
٢١٥ إسلام أبي بكر
٢١٦ إسلام علي
٢١٦ أقوال في أول من أسلم
٢١٩ الرعييل الأول

الجهر بالدعوة

- ٢٢٢ تفسير ﴿فاصدع بما تؤمر﴾
٢٢٣ مدة الدعوة سرا
٢٢٣ موقف قريش
٢٢٤ المستهزئون
٢٢٥ ما لقيه ﷺ من الأذى
٢٢٨ الدعاء على رؤوس الكفر
٢٢٨ أحكام فقهية
٢٢٩ اشكال بشأن عمارة
٢٣٠ إسلام حمزة
٢٣٠ مفاوضة
٢٣١ استعانة قريش باليهود
٢٣٢ آية الروح، مكية أم مدنية؟
٢٣٣ الاختلاف في الروح
٢٣٦ الاضطهاد والفتنة

- ١٧٢ خبر إيمان والديه
١٧٢ القول بنجاتها
١٧٤ من أدلة القائلين بنجاتها
١٧٥ مناقشة الأدلة
١٧٥ أدلة القائلين بعدم النجاة
١٧٧ تعقيب الأبي على كلام النووي وفيه بيان أهل الفترة
١٨٢ رأي المصنف في المسألة

حياته ﷺ قبل البعثة

- ١٨٤ كفالة جده ثم عمه
١٨٧ السفر إلى الشام
١٩٠ التجارة بمال خديجة
١٩٠ زواجه من خديجة
١٩٣ بناء الكعبة

مبعث النبي ﷺ

- ١٩٥ ذكر وقت المبعث
١٩٦ حديث بدء الوحي
١٩٨ بيان بعض معاني الحديث
٢٠٠ سلام الشجر والحجر
٢٠٠ رواية أخرى لبدء الوحي
٢٠١ النبوة ليست اكتسابا
٢٠١ رجفة غبطة
٢٠١ أول ما نزل من القرآن
٢٠٣ اختيار غار حراء
٢٠٤ شق الصدر عند بدء الوحي
٢٠٥ مراتب الوحي
٢٠٧ العراقي وابن القيم

ذكر الجن ٢٦٩

دعاء ٢٧١

العودة إلى مكة ٢٧٢

وقت الإسراء

ملخص قصة الإسراء ٢٧٣

وقت الإسراء ٢٧٣

اليوم التالي ليلة الإسراء ٢٧٥

العرض على القبائل

اللقاء الأول مع الأنصار ٢٧٦

بيعة العقبة الأولى ٢٧٨

مصعب في المدينة ٢٨٠

بيعة العقبة الثانية ٢٨١

الهجرة إلى المدينة

الإذن بالهجرة للصحابة ٢٨٤

شورى قریش ٢٨٥

علي في الفراش ٢٨٥

المشركون حول بيته ﷺ ٢٨٦

الحكمة من الهجرة ٢٨٧

تحديد يوم الهجرة ٢٨٨

في بيت أبي بكر ٢٨٩

الراحلة بالثمن ٢٩٠

ذات النطاقين ٢٩٠

وداع مكة ٢٩٠

إلى الغار ٢٩١

عند باب الغار ٢٩٢

عبرة ٢٩٣

أول من أظهر الإسلام ٢٣٧

بلال ٢٣٧

عتقاء أبي بكر ٢٣٨

الهجرة الأولى إلى الحبشة ٢٤٠

إسلام عمر بن الخطاب ٢٤٢

دخول الشعب وخبر الصحيفة ٢٤٧

قصة الغرانيق

ملخص القصة ٢٤٨

معنى الغرانيق ٢٤٩

القائلون ببطلان القصة ٢٤٩

تخريج القصة ٢٥٠

رأي ابن حجر في طرقها ٢٥٤

تأويل القصة ٢٥٦

الهجرة الثانية إلى الحبشة

عدد المهاجرين ٢٥٩

خروج أبي بكر مهاجراً ٢٦٠

نقض الصحيفة ٢٦١

عام الحزن

وفاة أبي طالب ٢٦٢

دعوته إلى الإسلام ٢٦٢

موته كافراً ٢٦٣

وصية أبي طالب لقریش ٢٦٥

وفاة خديجة ٢٦٦

الخروج إلى الطائف

الخروج إليها ٢٦٧

إسلام عداس ٢٦٨

خبر الأذان

- ٣٢٢ الاجتماع للصلاة قبله
٣٢٢ رؤيا عبد الله بن زيد
٣٢٤ حكمة رؤيا الأذان
٣٢٥ إشكال وجواب
٣٢٥ رواية ابن إسحاق
٣٢٦ أحاديث ضعيفة
٣٢٧ هل أذن ﷺ أو اقتدى بغيره؟
٣٣٠ زيادة صلاة الحضر
٣٣٢ ظهور عداوة اليهود والمنافقين

المغازي

- ٣٣٤ الإذن بالقتال
٣٣٥ عدد الغزوات والسرايا
٣٣٥ معنى «سرية»
٣٣٦ سرية حمزة
٣٣٦ اللواء والراية
٣٣٧ سرية عبيدة بن الحارث
٣٣٨ سرية سعد
٣٣٨ أول الغزوات: ودان
٣٣٩ غزوة بواط
٣٣٩ غزوة العشيرة
٣٤٠ غزوة بدر الأولى
٣٤١ سرية عبدالله بن جحش

تحويل القبلة

- ٣٤٣ تحويل القبلة
٣٤٥ مسجد القبلتين
٣٤٥ موقف اليهود والمنافقين
٣٤٦ أجوبة قرآنية

٢٩٥ في الغار

- ٢٩٦ تعليق على موقف أبي بكر
٢٩٧ تكرر نسج العنكبوت في التاريخ
٢٩٨ المكث في الغار
٢٩٩ إلى خيمة أم معبد
٣٠٠ أبو جهل على باب أبي بكر
٣٠١ شرح كلمات حديث أم معبد
٣٠٣ شاة أم معبد
٣٠٤ قصة سراقه
٣٠٥ قصة العبد الراعي
٣٠٥ الوصول إلى قباء
٣٠٦ تاريخ الوصول إلى قباء
٣٠٧ وصول علي إلى قباء
٣٠٧ التاريخ بالهجرة
٣٠٨ الإقامة في قباء
٣٠٨ من قباء إلى المدينة
٣١٠ إنها مأمورة
٣١٠ في منزل أبي أيوب
٣١٢ الفرح بعم المدينة
٣١٢ متى أنشد (طلع البدر...)
٣١٤ فرح الجوارى والغلمان
٣١٤ وباء المدينة
٣١٥ مدة الإقامة في منزل أبي أيوب

بناء المسجد

- ٣١٦ البناء
٣١٧ وصف المسجد
٣١٨ الصفة
٣١٩ المنبر
٣٢٠ المؤاخاة
٣٢٠ البناء بعائشة

٣٤٦ فرض رمضان وزكاة الفطر

غزوة بدر

٣٤٨ فضل غزوة بدر

٣٤٩ معلومات عامة

٣٥٠ سبب الغزوة

٣٥١ الشورى

٣٥٣ على أرض المعركة

٣٥٤ مبارزة قبل المعركة

٣٥٦ استغاثة ودعاء

٣٥٧ أبو بكر والدعاء

٣٥٩ شهود الملائكة غزوة بدر

٣٦١ مشاركة الملائكة في القتال

٣٦٢ قتل الملائكة

٣٦٣ الحكمة في قتال الملائكة

٣٦٣ ولكن الله رمى

٣٦٥ معجزتان

٣٦٦ أمام القلب

٣٦٧ رأي عائشة في سماع أهل القلب

٣٧٠ خبر وقصة

٣٧١ أمر الأسرى

٣٧٣ شهداء المسلمين

٣٧٤ أسرى المشركين وقتلاهم

٣٧٤ إسلام العباس

٣٧٥ بشارة النصر

٣٧٦ في الطريق إلى المدينة

٣٧٦ الحكم الفقهي في الأسرى

٣٧٦ خبر النصر في مكة

بين بدر وأحد

٣٧٨ قتل عصماء بنت مروان

٣٧٨ صلاة عيد الفطر

٣٧٩ غزوة بني سليم

٣٧٩ قتل أبي عفك اليهودي

٣٨٠ غزوة بني قينقاع

- الكفار بعد الهجرة

- أول من نقضت العهد

- سبب الغزوة

- الحصار والإجلاء

- براءة عبادة من حلفهم

٣٨٢ غزوة السويق

٣٨٣ من أحداث السنة الثانية

٣٨٣ زواج علي من فاطمة

٣٨٦ قتل كعب بن الأشرف

٣٨٨ غزوة غطفان

٣٨٩ غزوة بحران

٣٩٠ سرية زيد إلى القردة

غزوة أحد

٣٩١ جبل أحد

٣٩١ تاريخ الغزوة

٣٩١ سببها

٣٩٢ خروج قريش

٣٩٢ رؤيا النبي ﷺ

٣٩٣ الرغبة في الخروج

٣٩٤ عقد الألوية والسير إلى أحد

٣٩٥ وصف المعسكرين

٣٩٦ أبو دجانة

٣٩٧ انتصار المسلمين

٣٩٧ نزول الرماة

٣٩٩ جراح النبي ﷺ

٤٠٢ قتال دون النبي ﷺ

غزوة بني النضير

- ٤٢٨ تاريخ الغزوة
- ٤٢٩ سبب الغزوة
- ٤٣٠ حصار بني النضير
- ٤٣٢ الغنائم

غزوة ذات الرقاع

- ٤٣٣ القول في تاريخها
- ٤٣٥ سبب تسميتها
- ٤٣٦ أحداث الغزوة
- ٤٣٦ (من يمنعك مني؟)
- ٤٣٨ قصة جمل جابر
- ٤٣٩ غزوة بدر الآخرة
- ٤٤٠ غزوة دومة الجندل

غزوة بني المصطلق

- ٤٤١ الموقع والتاريخ
- ٤٤١ سببها وما حدث فيها
- ٤٤٣ نزول آية التيمم
- ٤٤٥ الذي أوفى الله بأذنه

غزوة الخندق

- ٤٤٦ سبب التسمية
- ٤٤٦ تاريخ الغزوة
- ٤٤٧ اليهود يجمعون الأحزاب
- ٤٤٧ عدد كل من الفريقين
- ٤٤٨ حفر الخندق
- ٤٥٠ معجزات

٤٠٣ معجزات

٤٠٤ الصعود إلى الشعب

٤٠٥ بعد المعركة

٤٠٦ نزول ﴿وإن عاقبتكم﴾

٤٠٧ نزول ﴿ولا تحسبن﴾

٤٠٩ عدد الشهداء والقتلى

٤١٠ حضور الملائكة

٤١٠ المنافقون واليهود

٤١٠ تنبيه

٤١١ الحكمة من أحد

بعد أحد

٤١٣ غزوة حراء الأسد

٤١٣ تحريم الخمر

٤١٤ سرية أبي سلمة

٤١٥ سرية عبدالله بن أنيس

يوم الرجيع

٤١٦ التفريق بين الرجيع وبئر معونة

٤١٧ روايات حادثة الرجيع

٤١٩ الكرامة

٤٢٠ تنمة الروايات

٤٢٢ ركعتان قبل القتلى

٤٢٣ تنمة خبر الرجيع

بئر معونة

٤٢٥ الموقع والتاريخ

٤٢٥ تفصيل الواقعة

٤٢٧ حزن النبي ﷺ

- ٤٧٩ سرية زيد إلى وادي القرى
 ٤٨٠ سرية ابن عوف إلى دومة
 ٤٨٠ سرية علي إلى بني سعد
 ٤٨١ سرية زيد إلى أم قرفة
 ٤٨٢ قتل أبي رافع
 ٤٨٤ سرية ابن رواحة إلى ابن رزام
 ٤٨٥ قصة عكل وعرينة
 ٤٨٨ بعث عمرو لقتل أبي سفيان

صلح الحديبية

- ٤٨٩ عدد أصحاب الحديبية
 ٤٩٠ في الطريق إلى مكة
 ٤٩٢ مع بديل بن ورقاء
 ٤٩٣ مع عروة بن مسعود
 ٤٩٦ سهيل وعقد الصلح
 ٤٩٨ أمية الرسول ﷺ
 ٥٠١ الحكمة من الموافقة لسهيل
 ٥٠٢ كتابة الشروط
 ٥٠٢ حكمة الموافقة على الشروط
 ٥٠٣ قصة أبي جندل
 ٥٠٤ من فقه قصة أبي جندل
 ٥٠٥ موقف عمر بن الخطاب
 ٥٠٦ مدة الصلح وشروطه
 ٥٠٧ بيعة الرضوان
 ٥٠٩ التحلل والعودة

من أحداث العام السادس

- ٥١١ تحريم الخمر والمفترات
 ٥١١ تاريخ التحريم
 ٥١٢ حكم المخدرات
 ٥١٥ مضار الحشيش

- ٤٥١ مدة حفر الخندق
 ٤٥٢ وصف المعسكرين
 ٤٥٢ قريظة تنقض العهد
 ٤٥٣ المسلمون بعد غدر قريظة
 ٤٥٥ ليلة الأحزاب
 ٤٥٦ مهمة الزبير ومهمة حذيفة
 ٤٥٦ دعاء
 ٤٥٧ الانشغال عن الصلاة
 ٤٥٩ نهاية الغزوة

غزوة بني قريظة

- ٤٦١ الخروج إلى بني قريظة
 ٤٦٢ الصلاة في بني قريظة
 ٤٦٣ الحصار
 ٤٦٤ أبو لبابة
 ٤٦٦ حكم سعد فيهم
 ٤٦٧ تنفيذ الحكم
 ٤٦٨ موت سعد بن معاذ
 ٤٦٩ (واهتر عرش الرحمن)

فرض الحج

بين قريظة والحديبية

- ٤٧٢ سرية محمد بن مسلمة
 ٤٧٣ غزوة بني لحيان
 ٤٧٤ غزوة الغابة
 ٤٧٦ سرية الغمر
 ٤٧٦ سرية إلى ذي القصة
 ٤٧٧ سرية زيد إلى الجموم
 ٤٧٧ سرية زيد إلى العيص
 ٤٧٨ سرية زيد إلى الطرف
 ٤٧٩ سرية زيد إلى حمسى

غزوة خيبر

٥١٧ مكانها وتاريخها

٥١٨ عدد الصحابة فيها

٥١٨ حذاء في الطريق إليها

٥٢١ على أبواب خيبر

٥٢٢ عقد الرايات

٥٢٢ استشهد عامر بن الأكوع

٥٢٣ لا يدخل الجنة إلا مؤمن

٥٢٤ فتح خيبر

٥٢٤ هل حمل علي باب خيبر؟

٥٢٥ صفية . . أم المؤمنين

٥٢٦ تحريم لحوم الحمير الأهلية

٥٢٧ بحث في حكم لحوم الخيل

٥٣٢ شاة مسمومة

٥٣٥ وناموا عن صلاة الفجر

٥٣٥ قدوم جعفر

٥٣٦ فتح وادي القرى

سرايا بعد خيبر

٥٣٧ سرية عمر

٥٣٧ سرية أبي بكر

٥٣٧ سرية بشير بن سعد

٥٣٨ سرية غالب الليثي

٥٣٩ سرية بشير بن سعد

عمرة القضاء

٥٤٠ سبب التسمية

٥٤١ قصة العمرة

٥٤٣ الرمل في الطواف

٥٤٤ السعي والتحليل

٥٤٤ خروج ابنة حمزة

٥٤٥ ميمونة أم المؤمنين

سرايا بعد العمرة

٥٤٧ سرية ابن أبي العوجاء

٥٤٧ سرية غالب الليثي

٥٤٧ قدوم خالد وصاحبيه مسلمين

٥٤٨ سرية غالب أيضاً

٥٤٨ سرية شجاع بن وهب

٥٤٨ سرية كعب الغفاري

غزوة مؤتة

٥٤٩ الموقع والتاريخ

٥٤٩ سبب الغزوة

٥٥٠ مغادرة المدينة

٥٥٠ المعركة

٥٥٢ ذو الجناحين

٥٥٣ المقصود بالأجنحة

٥٥٤ وصول الخبر إلى المدينة

سرايا قبل الفتح

٥٥٤ سرية ذات السلاسل

٥٥٥ سرية سيف البحر

٥٥٨ سريتا أبي قتادة

فتح مكة

٥٦٠ سبب الفتح

٥٦٢ أبو سفيان في المدينة

- المعركة ٥٩٧
 لم ينهزم ﷺ ٦٠١
 البغال لا تتركب للقتال ٦٠٢
 الذين ثبتوا يوم حنين ٦٠٢
 (أنا النبي لا كذب) ٦٠٣
 أبو طلحة ٦٠٣
 من حكمة يوم حنين ٦٠٤
 نهاية الغزوة ٦٠٥
 سرية أوطاس ٦٠٥
 سرية حرق ذي الكفين ٦٠٧

غزوة الطائف

- المسير إليها ٦٠٨
 حصارها ٦٠٩
 عتقاء الله ٦٠٩
 الأذان بالرجوع ٦١٠
 عين أبي سفيان ٦١١
 دعاء وتوكل ٦١١
 توزيع غنائم حنين ٦١٢
 العودة إلى المدينة ٦١٤

بين حنين وتبوك

- بعث قيس إلى صداء ٦١٥
 البعث إلى بني تميم ٦١٥
 بعث الوليد إلى بني المصطلق ٦١٧
 سرية ابن عوسجة ٦١٧
 سرية قطبة إلى خثعم ٦١٨
 سرية الضحاك إلى القرطاء ٦١٨
 سرية علقمة إلى الحبشة ٦١٨
 هدم صنم طيء ٦٢٠

- رسالة حاطب إلى قريش ٥٦٢
 مغادرة المدينة ٥٦٤
 لقاءات في الطريق ٥٦٥
 دخول مكة ٥٦٦
 أخذ الراية من سعد ٥٦٨
 تنمة دخول مكة ٥٦٩
 دخول مكة عند ابن عقبة ٥٧٠
 رواية ابن اسحاق ٥٧١
 لا أمان لهؤلاء ٥٧٢
 هل كان الفتح صلحا؟ ٥٧٤
 تنمة رواية ابن اسحاق ٥٧٥
 قتل متعلقاً بأستار الكعبة ٥٧٥
 نجاة ابن أبي سرح ٥٧٧
 الإحرام لدخول مكة ٥٧٨
 منزله ﷺ بمكة ٥٧٩
 أجرنا من أجرت ٥٨٠
 فأنتم الطلقاء ٥٨٠
 شعر في فتح مكة ٥٨١
 المحيا محياكم ٥٨٤
 محاولة قتل ٥٨٤
 إزالة الأصنام ٥٨٤
 مفتاح الكعبة ٥٨٦
 الصلاة في الكعبة ٥٨٨
 مدة إقامته ﷺ بمكة ٥٩٢
 سرايا بين الفتح وحنين
 هدم العزى ٥٩٣
 هدم سواع ٥٩٣
 هدم مناة ٥٩٤
 سرية خالد إلى بني جذيمة ٥٩٤
 غزوة حنين
 أسبابها ومقدماتها ٥٩٦

٦٣١ فقدان ناقته ﷺ
٦٣١ معجزة تكثير الماء
٦٣٢ الوصول إلى تبوك
٦٣٢ رسالة إلى هرقل
٦٣٣ العودة إلى المدينة
٦٣٦ وجاء المتخلفون
٦٣٩ حجة أبي بكر

بعد حج أبي بكر

٦٤٢ هلاك رأس المنافقين
٦٤٢ إيلاؤه ﷺ من نسائه
٦٤٣ البعث إلى اليمن
٦٤٤ بعث خالد إلى نجران
٦٤٤ بعث علي إلى اليمن
٦٤٥ حجة الوداع
٦٤٧ آخر البعث النبوية

٦٢١ سرية عكاشة
٦٢١ إسلام كعب بن زهير

غزوة تبوك

٦٢٥ المكان والزمان
٦٢٥ أسبابها
٦٢٦ ماضر عثمان ما عمل بعد اليوم
٦٢٧ المنافقون
٦٢٧ البكاؤون
٦٢٩ المعذرون
٦٢٩ المستخلف على المدينة
٦٢٩ المخلفون
٦٣٠ عدد المسلمين
٦٣٠ المرور بالحجر

كتب للمحقق

في السنّة المطهرة:

- ١ - الجامع بين الصحيحين (٥ مجلدات).
- ٢ - زوائد السنن على الصحيحين (٧ مجلدات).
- ٣ - تحقيق الجمع بين الصحيحين، للموصلي (في مجلدين).
- ٤ - العناية بالأدب المفرد، للإمام البخاري (ترتيبه حسب الموضوعات).
- ٥ - تحقيق مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للقاضي عياض (تحت الطبع).

في السيرة النبوية الشريفة:

- ١ - من معين السيرة.
- ٢ - من معين الشمائل.
- ٣ - من معين الخصائص النبوية.
- ٤ - السيرة النبوية (تربية أمة وبناء دولة).
- ٥ - أضواء على دراسة السيرة.
- ٦ - هكذا فهم السلف.
- ٧ - أهل الصفة (بعيداً عن الوهم والخيال).
- ٨ - الغرائق (قصة دخيلة على السيرة النبوية).
- ٩ - المهذب من الشفا، للقاضي عياض.
- ١٠ - تحقيق المواهب اللدنية، للقسطلاني.

في الأخلاق وتهذيب النفس :

- ١ - مواعظ الصحابة رضي الله عنهم .
- ٢ - تهذيب حلية الأولياء، للأصبهاني (٣ مجلدات).
- ٣ - المهذب من إحياء علوم الدين (مجلدان).
- ٤ - تحقيق رسالة «المعرفة»، للمحاسبي .
- ٥ - سلسلة مواعظ السلف. صدر منها (١٥) عدداً كان أولها مواعظ الإمام الحسن البصري .

موضوعات أخرى :

- ١ - محبة الله ورسوله شرط في الإيمان .
- ٢ - الفرائض فقهاً وحساباً (في جزأين).
- ٣ - الإمام الغزالي (سلسلة أعلام المسلمين).
- ٤ - الفن الإسلامي (التزام وإبداع).
- ٥ - دراسة جمالية إسلامية في ثلاثة أجزاء :
- الظاهرة الجمالية في الإسلام .
- ميادين الجمال .
- التربية الجمالية في الإسلام .
- ٦ - نظرات في هموم المرأة المسلمة .
- ٧ - فصول في إصلاح النفس والمجتمع (للإمام ابن الجوزي).
- ٨ - رضيت بالإسلام ديناً .

مشروع
تقريب تراث الإمام ابن القيم
رحمه الله

صدر منه عن المكتب الإسلامي:

- ١ - تقريب طريق الهجرتين.
- ٢ - الوابل الصيب من الكلم الطيب.
- ٣ - سيرة خير العباد.
- ٤ - البيان في مصادي الشيطان.
- ٥ - القضاء والقدر.
- ٦ - قل انظروا.
- ٧ - فضل العلم والعلماء.
- ٨ - الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.
- ٩ - الهدى النبوي في العبادات.
- ١٠ - الهدى النبوي في الفضائل والآداب.
- ١١ - الروح.

وصدر عن دار القلم بدمشق:

- ١٢ - طب القلوب.
- ١٣ - الجواب الكافي (الداء والدواء).

تحت الطبع:

- ١٤ - إعلام الموقعين عن رب العالمين.
- ١٥ - المهذب من مدارج السالكين.

المواهب اللدنية

بالمِنَحِ الحَمْدِيَّةِ

تَأَلَّفَ
العَلَّامَةُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ القِطَّانِي
(١٨٥١ - ١٩٢٣ هـ)

الجزء الثاني

تَحْقِيقُ
صَالِحِ أَحْمَدِ الشَّاي

المكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية مزيّدة ومنقّحة
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

المكتب الإسلامي

بِيرُوت : ص.ب. : ١١/٣٧٧١ - هاتف: ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)
دَمَشَق : ص.ب. : ١٣٠٧٩ - هاتف: ١١١٦٣٧
عَمَّان : ص.ب. : ١٨٢٠٦٥ - هاتف: ٤٦٥٦٦٠٥

المؤلف: اللّهُنّبة

بالمَنح المَحمَديّة

المؤرّ الثاني





المقصد الثاني

[محتوي المقصد الثاني]

المقصد الثاني :

- في ذكر (١) أسمائه الشريفة المنبئة عن كمال صفاته المنيفة .
- وذكر أولاده الكرام الطاهرين .
- وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين .
- وأعمامه وعماته وإخوته من الرضاة وجداته .
- وخدمه ومواليه وحرسه .
- وكتابه وكتبه إلى أهل الإسلام بالشرائع والأحكام، ومكاتبته إلى الملوك وغيرهم من الأنام .
- ومؤذنيه وخطبائه وحداته وشعرائه .
- وآلات حروبه .
- ودوابه .
- والوافدين إليه صلى الله عليه وسلم .
- وفيه عشرة فصول .

(١) في ط : حكم .

الفصل الأول

في ذكر أسماؤه الشريفة
المنبئة عن كمال صفاته المنيفة

[التعريف بـ«الاسم»]

اعلم أن الأسماء جمع اسم، وهو كلمة وضعتها العرب بإزاء مسمى، متى أطلقت فهم منها ذلك المسمى، فعلى هذا لا بد من مراعاة أربعة أشياء: الاسم والمسمى - بفتح الميم - المسمي - بكسرها - والتسمية.

فالاسم: هو اللفظ الموضوع على الذات لتعريفها أو تخصيصها عن غيرها كلفظ: زيد.

والمسمّى: هو الذات المقصود تمييزها بالاسم، كشخص زيد.

والمسمّي: هو الواضع لذلك اللفظ.

والتسمية: هي اختصاص ذلك اللفظ بتلك الذات.

والوضع: تخصيص لفظ بمعنى إذا أطلق أو أُحِسَّ فهم ذلك

المعنى.

[الاسم والمسمى]

واختلفوا، هل الاسم عين المسمى أو غيره؟ وهي مسألة طويلة تكلم الناس فيها قديماً وحديثاً.

فذهب قوم إلى أن الاسم عين المسمى. واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾^(١) والتسبيح إنما هو للرب جل وعلا، فدل على أن اسمه هو هو.

وأجيب، بأنه أشرب معنى سبح «اذكر» فكأنه قال: اذكر اسم ربك [الأعلى]^(٢)، كقوله تعالى: ﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً﴾^(٣) وقد أشرب معنى اذكر «سبح»، عكس الأول. قال تعالى: ﴿واذكر ربك﴾^(٤) أي سبح ربك. والإشراب جار في لغتهم، يشربون معنى فعل فعلا.

واستشكل على معنى كونه هو المسمى إضافته إليه، فإنه يلزم منه إضافة الشيء إلى نفسه. وأجيب: بأن الاسم هنا بمعنى التسمية، والتسمية غير الاسم، لأن التسمية هي اللفظ بالاسم، والاسم هو اللازم للمسمى فتغيرا.

واحتج من قال بأن الاسم عين المسمى أيضاً بقوله تعالى: ﴿بغلام اسمه يحيى﴾^(٥) ثم قال: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾^(٦)، فنادى الاسم فدل على أنه المسمى.

(١) سورة الأعلى، الآية ١ .

(٢) في (ط، ش).

(٣) سورة الإنسان، الآية ٢٥.

(٤) سورة آل عمران، الآية ٤١.

(٥) سورة مريم، الآية ٧.

(٦) سورة مريم، الآية ١٢ .

وجوابه: أن المعنى: يا أيها الغلام الذي اسمه يحيى، ولو كان الاسم عين المسمى لكان من قال: النار، احترق لسانه، ومن قال: العسل، ذاق حلاوته.

[أسماء وردت بها النصوص]

وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، وقد سمي الله تعالى نبينا ﷺ بأسماء كثيرة في القرآن العظيم وغيره من الكتب السماوية، وعلى السنة أنبيائه عليهم الصلاة والسلام^(١).

ثم إن أشهر أسمائه ﷺ: محمد، وبه سماه جده عبد المطلب وذلك أنه لما قيل له: ما سميت ولدك؟ فقال: محمداً، فقيل له: كيف سميته باسم ليس لأحد من آبائك وقومك؟ فقال: لأنني أرجو أن يحمدني أهل الأرض كلهم. وذلك لرؤيا كان رآها عبد المطلب - كما ذكر حديثها علي القيرواني العابر^(٢) في كتابه «البستان» - قال: كان عبد المطلب قد رأى في المنام كأن سلسلة من فضة قد خرجت من ظهره، لها طرف في السماء، وطرف في الأرض، وطرف في المشرق وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة، على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها. فقصها، فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق وأهل المغرب، ويحمده أهل السماء و[أهل]^(٣) الأرض، فلذلك سماه محمداً، مع ما حدثته به أمه آمنة حين قيل لها: إنك حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وضعتيه فسميه محمداً.

(١) وأكثرها صفات. قال ابن عبد البر: الأسماء والصفات هنا سواء.

(٢) اسم فاعل من عبر الرؤيا مخففاً.

(٣) في ط.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لما ولد النبي ﷺ عق عنه عبد المطلب وسماه محمداً فقليل له: يا أبا الحارث، ما حملك على أن سميته محمداً، ولم تسمه باسم آبائه؟ قال: أردت أن يحمده الله في السماء، ويحمده الناس في الأرض^(١).

وعن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب) رواه الشيخان^(٢).

وقد روي: (على قدمي) بتخفيف الياء وبالإفراد، وبالتشديد على الشنية. قال النووي في شرح مسلم: معنى الروایتين: يحشرون على أثري وزماني ورسالتي.

وفي رواية نافع بن جبير عند البخاري في تاريخه الصغير والأوسط، والحاكم في مستدرکه وصححه^(٣)، وأبي نعیم في الدلائل وابن سعد: أنه دخل على عبد الملك بن مروان، فقال: أتخصي أسماء رسول الله ﷺ التي كان جبير بن مطعم يعدها؟ قال: نعم، هي ستة، فذكر الخمسة التي ذكرها محمد بن جبير، وزاد: الخاتم.

وفي حديث حذيفة (أحمد، ومحمد، والحاشر، والمقفي ونبي الرحمة)^(٤).

(١) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب.

(٢) عند البخاري برقم ٣٥٣٢ و٤٨٩٦ وعند مسلم برقم ٢٣٥٤

(٣) في ط (وصححه أبو نعیم) وهو غلط، فأصل النص في فتح الباري ٥٥٥/٦ كما ذكر في النسخ.

(٤) رواه البخاري في التاريخ والترمذي وابن سعد.

ولفظ رواية أبي نعيم (هي ستة: محمد، وأحمد، وخاتم، وحاشر، وعاقب، وماح، فأما الحاشر، فبعث مع الساعة نذيراً لكم بين يدي عذاب شديد، وأما العاقب: فإنه أعقب الأنبياء^(١)، وأما ماح: فإن الله عز وجل محاً به سيئات من اتبعه).

وذكر بعضهم: أن العدد ليس من قول النبي ﷺ، وإنما ذكره الراوي بالمعنى.

وفيه نظر: لتصريحه في الحديث: (إن لي خمسة أسماء). والذي يظهر أنه أراد إن لي^(٢) خمسة أسماء أختص بها لم يتسم بها أحد قبلي، أو مشهورة في الأمم/ الماضية لا أنه^(٣) أراد الحصر فيها، وبهذا يجب ٩٥/ عن الاستشكال^(٤) الوارد، وهو أن المقرر في علم المعاني أن تقديم الجار والمجرور يفيد الحصر، ولكن ورود الروايات بما هو أكثر يدل على أنه ليس حصراً مطلقاً، فالطريق في ذلك أن يحمل على حصر مقيد كما ذكر والله أعلم.

وروى النقاش^(٥) عنه عليه الصلاة والسلام: لي في القرآن سبعة أسماء: محمد، وأحمد ويس، وطه، والمزمل، والمدثر، وعبدالله.

(١) أي جاء عقبهم فلا نبي بعده.

(٢) (إن لي) سقطت من ط.

(٣) في ط (إلا أنه) وهو خطأ لتناقض الكلام والصواب ما في النسخ وكذلك في فتح الباري ٥٥٦/٦.

(٤) في ط: الإشكال.

(٥) الحافظ أبو بكر محمد بن الحسن البغدادي المقرئ المفسر، أحد الأعلام صاحب التصانيف، وهو متروك في الحديث مع جلالته قال البرقاني: كل حديثه منكر. مات سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة.

[عدد أسمائه ﷺ]

وقد جاءت من ألقابه ﷺ وأسمائه^(١) في القرآن عدة كثيرة، و[قد]^(٢) تعرض جماعة لتعدادها وبلغوا بها عدداً مخصوصاً. فمنهم من بلغ تسعة وتسعين، موافقة لعدد أسماء الله الحسنى الواردة في الحديث. قال القاضي عياض: وقد خصه الله تعالى بأن سماه من أسمائه الحسنى بنحو من ثلاثين اسماً.

وقال ابن دحية في كتابه «المستوفى»^(٣): إذا فحص عن جملتها من الكتب المتقدمة والقرآن والحديث وفي الثلاثمائة، انتهى^(٤).

ورأيت في كتاب «أحكام القرآن» للقاضي أبي بكر بن العربي: قال بعض الصوفية: لله تعالى ألف اسم وللنبي ﷺ ألف اسم، انتهى.

والمراد الأوصاف: فكل الأسماء التي وردت أوصاف مدح، وإذا كان كذلك، فله ﷺ من كل وصف اسم، ثم إن منها ما هو مختص به أو الغالب عليه، ومنها ما هو مشترك، وكل ذلك بين بالمشاهدة لا يخفى، وإذا جعلنا له من كل وصف من أوصافه اسماً بلغت أوصافه ما ذكر، بل أكثر، والذي رأيت في كلام شيخنا^(٥) في «القول البديع»، والقاضي عياض في «الشفاء» وابن العربي في «القبس»^(٦)، والأحكام

(١) لغة في الأسماء، وفي ط: أسمائه.

(٢) في (ب، ط، د).

(٣) اسم كتاب أفردته في الأسماء الشريفة.

(٤) قال في الفتح: وغالبها صفات له صلى الله عليه وسلم.

(٥) الحافظ السخاوي.

(٦) كتاب: القبس على موطأ مالك بن أنس.

له، وابن سيد الناس، وغيرهم، يزيد على الأربعمائة^(١)، وقد سردتها مرتبة على حروف المعجم، وهي:

[الأسماء مرتبة على حروف المعجم]

(أ) الأبر بالله، الأبطحي^(٢)، أتقى الناس، الأجود، أجود الناس، الأحد، الأحسن وأحسن الناس، أحمد، أحميد - بضم أوله وكسر المهملة ثم ياء تحتانية -، الأخذ بالحجرات، آخذ الصدقات، الآخر، الأخشى لله، أذن خير، أرجح الناس عقلاً، أرحم الناس بالعباد، الأزهر: وهو النير المشرق الوجه، أشجع الناس، الأصدق في الله، أطيب الناس ريحاً، الأعز، الأعلى، الأعلم بالله، أكثر الناس تبعاً، الأكرم، أكرم الناس، أكرم ولد آدم، ألمص، إمام الخير، إمام الرسل، إمام المتقين، إمام النبيين، الإمام، الأمر والناهي^(٣)، الأمن، أمنة أصحابه، الأمين، الأمي، أنعم الله، الأول، أول شافع، أول المسلمين، أول المؤمنين، أول من تنشق عنه الأرض.

(١) ورد في هذا الجمع غرائب يعجب الإنسان من إيراد المصنف لها، ولا مجال للتعليق على كل منها، ولذا أكتفى بما أورده الشارح إذ قال: «ونقل الغزالي الاتفاق - وأقره في الفتح - على أنه لا يجوز لنا أن نسميه ﷺ باسم لم يسمه به أبوه ولا سمي به نفسه». انتهى.

قال الشارح: أي لا يجوز أن نخترع له علماً وإن دل على صفة كمال. ولا يرد على الاتفاق وجود الخلاف في أسماؤه تعالى: لأن صفات الكمال كلها ثابتة له عز وجل. والنبي ﷺ إنما يطلق عليه صفات الكمال الثلاثة بالبشر، فلو جوز ما لم يرد به سماع لربما وصف بأوصاف تليق بالله دونه على سبيل الغفلة فيقع الواصف في محذور وهو لا يشعر». [المحقق].

(٢) نسبة إلى أبطح مكة. وهو مسيل واديتها.

(٣) «والناهي» في (أ، ش).

(ب) البر، البارقليط، الباطن، البرهان، بشر، بشرى عيسى،
البشير، البصير، البليغ، بالغ البيان^(١)، البينة.

(ت) التالي، التذكرة، التقي، التنزيل، التهامي.

(ث) ثاني اثنين.

(ج) الجبار، الجدد^(٢)، الجواد، جامع^(٣).

(ح) حاتم، حزب الله، الحاشر، الحافظ، الحاكم بما أراه^(٤) الله،

الحامد، حامل لواء الحمد، الحائد لأمته عن النار، الحبيب،

حبيب الرحمن، حبيب الله، الحجازي، الحجة البالغة، حجة

الله على الخلائق، حرز الأميين، الحرمي، الحريص على

الإيمان، الحسيب، الحفيظ، الحق، الحكيم، الحلیم، حماد^(٥)،

حمطايا أو قال حمياطاً، حمعسق، حفي، الحمد، الحنيف،

الحي^(٦).

(خ) الخبير، خاتم النبيين، خاتم المرسلين، الخاتم، الخازن لمال الله،

الخاشع، الخاضع، الخالص، خطيب الأنبياء، خطيب الأمم، /

خطيب الوافدين على الله، الخليل، خليل الرحمن^(٧)، خليل

الله، الخليفة، خير الأنبياء، خير البرية، خير خلق الله، خير

العالمين طراً، خير الناس، خير هذه الأمة، خيرة الله.

ب/٩٥

(١) في ش البالغ البيان.

(٢) بفتح الجيم وضمها: العظيم القدر.

(٣) في (ب، ش) الجامع.

(٤) في ط: أرادته.

(٥) صيغة مبالغة من الحمد.

(٦) في (أ، ش).

(٧) سقطت من ش.

- (د) دار الحكمة، الداعي إلى الله، دعوة إبراهيم، دعوة النبيين، دليل الخيرات.
- (ذ) الذاكر، الذكر، ذكر الله، ذو الحوض المورود، ذو الخلق العظيم، ذو الصراط المستقيم، ذو القوة، ذو مكانة، ذو عزة، ذو فضل، ذو المعجزات، ذو المقام المحمود، ذو الوسيلة.
- (ر) الراضع، الراضي، الراغب، الرافع، راكب البراق، راكب البعير، راكب الجمل، راكب الناقة، راكب النجيب، الرحمة، رحمة الأمة، رحمة العالمين، رحمة مهداة، الرحيم، الرسول، رسول الراحة، رسول الرحمة، رسول الله، رسول الملاحم، الرشيد، الرفيع الذكر، رافع الرتب، رفيع الدرجات، الرقيب، روح الحق، روح القدس، الرؤوف، ركن المتواضعين.
- (ز) الزاهد، زعيم الأنبياء، الزكي، الزمزمي، زين من وافى القيامة.
- (س) السابق، السابق بالخيرات، سابق العرب، الساجد، سبيل الله، السراج المنير، السراط المستقيم، السعيد، سعد الله، سعد الخلائق، السميع، السلام، السيد، سيد ولد آدم، سيد المرسلين، سيد الناس، سيد الكونين، سيد الثقلين، سيف الله المسلول.
- (ش) الشارع، الشافع، الشاكر، الشاهد، الشكور، الشكار، الشمس، الشهيد.
- (ص) الصابر، الصاحب، صاحب الآيات، صاحب المعجزات، صاحب البراهين، صاحب البيان، صاحب التاج، صاحب الجهاد، صاحب الحجّة، صاحب الحطيم، صاحب الحوض المورود، صاحب الخاتم، صاحب الخير، صاحب الدرجة

العالمة^(١) الرفيعة، صاحب الرداء، صاحب الأزواج الطاهرات،
 صاحب السجود للرب المحمود^(٢)، صاحب السرايا^(٣)،
 صاحب السلطان، صاحب السيف، صاحب الشرع، صاحب
 الشفاعة الكبرى، صاحب العطايا، صاحب العلامات
 الباهرات، صاحب العلو والدرجات، صاحب الفضيلة،
 صاحب الفرَج، صاحب القضيب، صاحب القضيب
 الأصغر^(٤)، صاحب قول لا إله إلا الله، صاحب القدم،
 صاحب الكوثر، صاحب اللواء، صاحب المحشر، صاحب
 المدينة، صاحب المغفر، صاحب المغنم، صاحب المعراج،
 صاحب المظهر المشهود، صاحب المقام المحمود، صاحب المنبر،
 صاحب المثزر، صاحب النعلين، صاحب الهراوة، صاحب
 الوسيلة، الصادع بما أمر، الصادق، الصبور، الصدق، صراط
 الله، صراط الذين أنعمت عليهم، الصراط المستقيم،
 الصفوح، الصفوح عن الزلات، الصفوة، الصفي، الصالح.
 (ض) الضارب بالحسام المثلوم^(٥)، الضحاك، الضحوك.
 (ط) طاب طاب، الطاهر، الطيب، طسم، طس، طه، الطيب.
 (ظ) الظاهر، الظفور، من الظفر وهو الفوز^(٦).
 (ع) العابد، العادل، العظيم، العافي^(٧)، العاقب، العالم، عَلم

(١) في ط العلية.

(٢) في ط المعبود.

(٣) في ط السراي.

(٤) سقطت من ش.

(٥) في ش: المثلوم، وفي ط المتكوم.

(٦) في الأصل زيادة (من الظفر) بعد كلمة الفوز.

(٧) في ط: العاني وهو غلط.

الإيمان، عَلم اليقين، العالم بالحق، العامل، عبدالله، العبد،
العدل، العربي، العروة الوثقى، العزيز، العفو، العطوف،
العليم، العلي، العلامة، عين العز^(١)، عبد الكريم، عبد
الجبار، عبد الحميد، عبد المجيد، عبد الوهاب، عبد القهار،
عبد الرحيم، عبد الخالق، عبد القادر، عبد المهيمن، عبد
القدوس، عبد الغياث، عبد الرزاق، عبد السلام، عبد
المؤمن، عبد الغفار.

(غ) الغالب، الغفور، الغني^(٢)، الغني بالله، الغوث، الغيث،
الغياث.

(ف) الفاتح، الفارقليط - وقيل بالباء، وتقدم -، الفارق، فاروق^(٣)،

الفتاح، الفجر، الفرط، الفصبح، فضل الله، فواتح النور.

(ق) القاسم، القاضي، القانت، قائد الخير، قائد الغر المحجلين،

القائل، القائم، القتال، القتل، قثم، القثوم، قدم صدق،

القرشي، القريب، القمر، القيم: ومعناه: الجامع الكامل،

وصوابه بالمثلثة بدل الياء، القوي.

(ك) كافة الناس، الكفيل، الكامل في جميع أموره، الكريم،

كهيعص.

(ل) اللسان.

(م) الماجد، مادماً، المؤمل، الماحي، المأمون، / المانح، الماء المعين، ١/٩٦

المبارك، المبتهل، المبرأ، المبشر، مبشر اليائسين، المبعوث بالحق،

المبعوث، المبلغ، المبيح، المبين، المتين، المتبتل، المتبسم،

(١) في ط: العزى.

(٢) سقطت من ش.

(٣) في (ش، د) الفاروق.

المتربص، المتضرع، المتقي، التلو عليه، المتهدج، المتوسط،
 المتوكل، المثبت، مجاب، مجيب، المجتبي، المجبر، المحرض،
 المحرم، المحفوظ، المحلل، محمد، المحمود، المخبر، المختر،
 المخصوص بالشرف، المخصوص بالعز، المخصوص بالمجد،
 المخلص، المدثر، المدني، مدينة العلم، المذكر، المذكور،
 المرتضى، المرتل، المرسل، المرتجي، المرحوم، المرتفع الدرجات،
 المرء - وهو الرجل الكامل المروءة -، المزكي، المزل، المسبح،
 المستغفر، المستغني، المستقيم، المسري به، المسعود، المسلم،
 المسلم، المشاور، المشفع، المشفوع، المشفع، المشهود، المشير،
 المصباح، المصارع، المصافح، مصحح الحسنات، المصدوق،
 المصطفى، المصلح، المصلى عليه، المطاع، المطهر، المظهر،
 المطلع، المطيع، المظفر، المعزز، المعصوم، المعقب، المعلم،
 معلم أمته، المعلم، المعلن، المعلى، المفضال، المفضل، المفتاح،
 مفتاح الجنة، المقتصد، المقتفى: يعنى قفا النبيين، المقدس،
 المقربي، المقسط، المقسم، المقصوص عليه، المقفى، وقيل
 بزيادة تاء بعد القاف كما تقدم، مقيل العثرات، مقيم السنة بعد
 الفترة، المكرم، المكتفي، المكين، المكى، الملاحى، ملقى
 القرآن، الممنوح، المنادى، المنتظر، المنجى، المنذر، المنزل
 عليه، المنحمن، المنصف، المنصور، المنيب، المنير، المهاجر،
 المهتدي، المهدي، المهداة، المهيمن، المؤق جوامع الكلم،
 الموحي إليه، الموصل، الموقر، المولى، المؤمن المؤيد، الميسر.

(ن) النابذ، الناجز، الناس لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾^(١)
 المفسر به عليه السلام، الناسخ، الناشر، الناصح، الناصر،

(١) سورة النساء، الآية ٥٤.

الناطق بالحق، الناهي، نبي الأحمر، نبي الأسود، نبي التوبة،
نبي الحرمين، نبي الراحة، نبي الرحمة، النبي الصالح، نبي
الله، نبي المرحة، نبي الملحمة، نبي الملاحم، النبي، النجم،
النجم الثاقب، نجي الله، النذير، النسيب، نصيح، ناصح،
النعمة، نعمة الله، النقيب، النقي، النور، نور الأمم أي
الهادي لها الذي أوصلها نور الله الذي لا يطفأ.

(هـ) الهادي، هدى، هدية الله، الهاشمي^(١).

(و) الوجيه، الواسط، الواسع، الواصل، الواضح، الواعد،
الواعظ، الورع، الوسيلة، الوفي، الوافي، ولي الفضل، الولي.
(ي) اليربي، يس.

[كنيته ﷺ]

وكنيته المشهورة أبو القاسم، كما جاء في عدة أحاديث صحيحة.
ويكنى بأبي إبراهيم، كما جاء في حديث أنس في مجيء جبريل
إليه عليهما الصلاة والسلام، وقوله السلام عليك يا أبا إبراهيم^(٢).
وبأبي الأرامل، فيما ذكره ابن دحية.
وبأبي المؤمنين، فيما ذكره غيره.

[شرح اسمي «محمد» و«أحمد»]

واعلم أنه لا سبيل لنا أن نستوعب شرح جميع هذه الأسماء

(١) في ط: الهاشم.

(٢) رواه البيهقي.

الشريفة، إذ في ذلك تطويل^(١) يفضي بنا إلى العدول عن غرض الاختصار، فلنذكر من ذلك ما يفتح الله تعالى به مما يدل على سواه. وبالله تعالى أستعين^(٢).

فأول ذلك ما له عليه الصلاة والسلام من معنى الحمد الذي هو اسمه المنبئ عن ذاته، الذي سائر أسماء أوصافه راجعة إليه، وهو في المعنى واحد، وله في الاشتقاق صيغتان:

- الاسم المبني صيغته على صيغة «أفعل» المنبئة عن الانتهاء إلى غاية ليس وراءها منتهى، وهو اسمه «أحمد».
- والاسم المبني على صيغة «التفعل» المنبئة عن التضعيف والتكثير إلى عدد لا ينتهي له الإحصاء وهو اسمه «محمد».

قال السهيلي: «محمد» منقول من الصفة، فالمحمد في اللغة هو الذي يحمد حمداً بعد حمد، ولا يكون «مفعل» مثل: مضرب، وممدح، ٩٦/ب إلا لمن تكرر منه الفعل مرة/ بعد أخرى.

وأما «أحمد» وهو اسمه عليه الصلاة والسلام الذي سمي به على لسان عيسى وموسى، فإنه منقول أيضاً من الصفة التي معناها التفضيل، فمعنى «أحمد» أحمد الحامدين لربه، وكذلك هو في المعنى، لأنه يفتح عليه في المقام المحمود بمحمد لم تفتح على أحد قبله، فيحمد ربه بها، ولذلك يعقد له لواء الحمد.

قال: وأما «محمد» فمنقول من صفة أيضاً، وهو في معنى «محمود»، ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار، فالمحمد هو الذي حمد مرة

(١) عبارة ش: لأن في ذلك تطويلاً.

(٢) في ط، والله تعالى أستعين، وفي د: وبالله تعالى التوفيق.

بعد مرة، كما أن المكرّم من أكرم مرة بعد أخرى، وكذلك الممدح ونحو ذلك. فاسم «محمد» مطابق لمعناه، والله سبحانه وتعالى سماه به قبل أن يُسمى به، علّم من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام، إذ كان اسمه صادقاً عليه، فهو ﷺ محمود في الدنيا بما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة، وهو محمود في الآخرة بالشفاعة، فقد تكرر معنى الحمد، كما يقتضيه اللفظ.

ثم إنه لم يكن محمداً حتى كان أحمد، حمد ربه فنبأه وشرفه، فلذلك تقدم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمد، فذكره عيسى فقال (اسمه أحمد)^(١)، وذكره موسى حين قال له ربه: تلك أمة أحمد، فقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد. فأحمد ذكر قبل أن يذكر بمحمد، لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له، فلما وجد وبعث كان محمداً [أيضاً]^(٢) بالفعل. وكذلك في الشفاعة، يحمد ربه بالمحامد التي يفتحها عليه، فيكون أحمد الحامدين لربه، ثم يشفع فيحمد على شفاعته.

فانظر كيف ترتب هذا الاسم قبل الاسم الآخر في الذكر والوجود، وفي الدنيا والآخرة، تلح لك الحكمة الإلهية في تخصيصه بهذين الاسمين. انتهى.

وقال القاضي عياض: كان عليه الصلاة والسلام أحمد قبل أن يكون محمداً، كما وقع في الوجود، لأن تسميته أحمد وقعت في الكتب السالفة، وتسميته محمداً وقعت في القرآن، وذلك أنه حمد ربه قبل أن يحمده الناس. انتهى.

(١) سورة الصف، الآية ٦.

(٢) في ط.

وهذا موافق لما قال السهيلي، وذكره في فتح الباري وأقره عليه، وهو يقتضي سبقية اسمه أحمد، خلافاً لما ادعاه ابن القيم.

وذكر ابن القيم في اسمه «أحمد» أنه قيل فيه إنه بمعنى «مفعول» ويكون التقدير: أحمد الناس، أي أحق الناس وأولاهم أن يحمّد، فيكون محمداً^(١) في المعنى، لكن الفرق بينهما: أن محمداً هو الكثير الخصال التي يحمّد عليها، وأحمد: هو الذي يحمّد أفضل مما يحمّد غيره، فمحمّد في الكثرة والكمية، وأحمد في الصفة والكيفية، فيستحق من الحمد أكثر مما يستحق غيره، أي أفضل حمد حمده البشر، فالاسمان واقعان على المفعول.

قال: وهذا أبلغ في مدحه وأكمل معنى، فلو أريد معنى الفاعل لسمي «الحماد» أي الكثير الحمد، فإنه ﷺ كان أكثر الناس حمداً لربه، فلو كان اسمه أحمد باعتبار حمده لربه لكان الأولى به الحماد، كما سميت بذلك أمته^(٢). وأيضاً فإن هذين الاسمين إنما اشتقا من أخلاقه وخصائله^(٣) المحمودة التي لأجلها استحق أن يسمى محمداً وأحمد^(٤).

وقال القاضي عياض - في باب تشريفه تعالى له عليه الصلاة والسلام بما سباه به من أسائه الحسنی -: أحمد بمعنى أكبر، من حمّد، وأجل: من حمّد.

[خصائص اسم «محمد»]

ثم إن في اسمه «محمد» خصائص:

(١) في ش: كمحمد.

(٢) أي: بالحمادين.

(٣) في ط وخصاله.

(٤) زاد المعاد ١/٩٣.

منها: كونه على أربعة أحرف ليوافق اسم الله تعالى اسم محمد،
فإن عدد الجلالة على أربعة أحرف كمحمد.

ومنها: أنه قيل: إن مما أكرم الله به الأدمي أن كانت صورته
على شكل كتب هذا اللفظ، فالميم الأول رأسه، والحاء جناحاه، والميم
سرته والذال رجلاه. قيل: ولا يدخل النار من يستحق دخولها - أعاذنا
الله منها - إلا ممسوخ الصورة إكراماً لصورة اللفظ.

حكاها ابن مرزوق^(١)، والأول^(٢): ابن العماد في كتاب كشف
الأسرار.

ومنها: أنه تعالى اشتقه^(٣) من اسمه «المحمود» كما قال حسان
ابن ثابت:

أغر عليه للنبوة خاتم من الله من نوريلوح ويشهد
/ وضم الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

وأخرج البخاري في تاريخه الصغير من طريق علي بن زيد قال:
كان أبو طالب يقول:

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

وقد سماه الله تعالى بهذا الاسم قبل الخلق بألفي ألف عام، كما
ورد من حديث أنس بن مالك، من طريق أبي نعيم في مناجاة موسى.

(١) وفيها تكلف شديد لا دليل عليه [المحقق].

(٢) أي كونه على أربعة أحرف.

(٣) في ط: اشتق اسمه.

وروى ابن عساكر عن كعب الأخبار قال: إن الله أنزل على آدم عصياً بعدد الأنبياء والمرسلين. ثم أقبل على ابنه شيث فقال: أي بني، أنت خليفتي من بعدي، فخذها بعمارة التقوى، والعروة الوثقى، وكلما ذكرت الله فاذكر إلى جنبه اسم محمد، فإني رأيت اسمه مكتوباً على ساق العرش، وأنا بين الروح والطين، ثم إني طفت السماوات فلم أر في السماوات موضعاً إلا رأيت اسم محمد مكتوباً عليه، وإن ربي أسكنني الجنة فلم أر في الجنة قصراً ولا غرفة إلا اسم محمد مكتوباً عليه، ولقد رأيت اسم محمد مكتوباً على نحور الحور العين، وعلى ورق قصب آجام الجنة، وعلى ورق شجرة طوبى، وعلى ورق سدرة المنتهى، وعلى أطراف الحجب، وبين أعين الملائكة، فأكثر ذكره فإن الملائكة تذكره في كل ساعاتها.

بدا مجده من قبل نشأة آدم فأسماؤه في العرش من قبل تكتب

وروينا في جزء الحسن بن عرفة^(١) من حديث أبي هريرة عنه رضي الله عنه قال: لما عرج بي إلى السماء ما مررت بسما إلا وجدت - أي علمت - اسمي فيها مكتوباً: محمد رسول الله، وأبو بكر خلفي^(٢).

[أخبار تفتقر إلى الصحة]^(٣)

ووجد على الحجارة القديمة مكتوب: محمد تقي مصلح أمين. ذكره في الشفاء.

(١) الحسن بن عرفة بن يزيد العبدي، أبو علي البغدادي الصدوق، المتوفى سنة سبع وخمسين ومائتين وقد جاوز المائة.

(٢) رواه أبو يعلى والطبراني والبخاري بأسانيد ضعيفة.

(٣) هذه جملة أخبار عجيبة تفتقر إلى الصحة والإثبات، وقد ذكرها المصنف استطراداً، وهي لا تمت إلى موضوع الفصل بصلة تذكر [المحقق].

وعلى الحجر بالخط العبراني: باسمك اللهم، جاء الحق من ربك بلسان عربي مبين، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وكتبه موسى بن عمران. ذكره ابن ظفر في «البشر» عن معمر عن الزهري.

وشوهد - كما ذكره في الشفاء - في بعض بلاد خراسان مولود ولد على أحد جبينيه مكتوب: لا إله إلا الله، وعلى الآخر: محمد رسول الله.

وببلاد الهند ورد أحمر مكتوب عليه بالأبيض: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وذكر العلامة ابن مرزوق عن عبدالله بن صوحان: عصفت بنا ريح، ونحن في لجج بحر الهند، فأرسينا في جزيرة، فرأينا فيها ورداً أحمر زكي الرائحة طيب الشم وفيه مكتوب بالأبيض، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وورداً أبيض مكتوب عليه بالأصفر: براءة من الرحمن الرحيم إلى جنات نعيم، لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وفي تاريخ ابن العديم عن علي بن عبدالله الهاشمي الرقي: أنه وجد ببعض قرى الهند وردة كبيرة طيبة الرائحة سوداء، عليها مكتوب بخط أبيض: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الفاروق. قال فشككت في ذلك وقلت: إنه معمول، فعمدت إلى وردة لم تفتح فكان فيها مثل ذلك، وفي البلد منه شيء كثير وأهل تلك القرية يعبدون الحجارة، لا يعرفون الله تعالى.

وقال عبدالله بن مالك: دخلت بلاد الهند، فسرت إلى مدينة يقال لها: نميلة - أو نميلة - فرأيت شجرة كبيرة تحمل ثمرًا كاللوز، له قشر، فإذا كسرت ثمرته خرج منها ورقة خضراء مطوية مكتوب عليها بالحمرة: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأهل الهند يتبركون بها

ويستسقون بها إذا منعوا الغيث. حكاه القاضي أبو البقاء بن الضياء في منسكه .

ب/٩ وفي كتاب روض الرياحين / لليافعي^(١) عن بعضهم أنه وجد ببلاد الهند شجرة تحمل ثمرأ كاللوز، له قشر إذا كسر خرجت منه ورقة خضراء طرية مكتوب فيها بالحمرة: لا إله إلا الله محمد رسول الله. كتابة جلية وهم يتبركون بها. قال: فحدثت بذلك أبا يعقوب الصبأ فقال: ما أستعظم هذا، كنت صياداً على نهر الأبله فاصطدت سمكة، على جنبها الأيمن: لا إله إلا الله، وعلى جنبها الأيسر: محمد رسول الله، فلما رأيتها قذفتها في الماء احتراماً لها.

وعن بعضهم - مما ذكره ابن مرزوق في شرحه لبردة الأبوصيري - أنه أتى بسمكة فرأى في إحدى شحمتي أذنها لا إله إلا الله، وفي الأخرى: محمد رسول الله.

وعن جماعة: أنهم وجدوا بطيخة صفراء فيها خطوط شتى بالأبيض خلقة، ومن جملة الخطوط كتب بالعربي في أحد جنبها: الله، وفي الآخر: عز أحمد، بخط بين لا يشك فيه عالم بالخط.

وأنه وجد سنة تسع أو قال: سنة سبع - بالموحدة - وثمانمائة حبة عنب مكتوب فيها بخط بارع بلون أسود: محمد.

وفي كتاب «النطق المفهوم» لابن طغريك السيف، عن بعضهم أنه رأى في جزيرة شجرة عظيمة لها ورق كبير طيب الرائحة، مكتوب فيه بالحمرة والبياض في الخضرة كتابة بينة واضحة خلقة ابتدعها الله

(١) الإمام القدوة عبدالله بن أسعد عفيف الدين اليميني ثم المكي، ولد بعدن قبيل السبعائة وبرع بالعلم مات بمكة سنة ثمان وستين وسبعائة.

بقدرته، في الورقة ثلاثة أسطر، الأول: لا إله إلا الله، والثاني: محمد رسول الله، والثالث: إن الدين عند الله الإسلام.

[اسم «محمد» في الجاهلية]

قال ابن قتيبة: ومن أعلام نبوته ﷺ أنه لم يسم قبله أحد باسمه «محمد»، صيانة من الله تعالى لهذا الاسم، كما فعل بيحيى، إذ لم يجعل له من قبل سمياً، وذلك أنه تعالى سماه به في الكتب المتقدمة، وبشر به الأنبياء، فلو جعل اسمه مشتركاً فيه لوقعت الشبهة، إلا أنه لما قرب زمنه وبشر أهل الكتاب بقربه سمي قوم أولادهم بذلك رجاء أن يكون هو هو، والله أعلم حيث يجعل رسالته:

ما كل من زار الحمى سمع النداء من أهله أهلاً بذاك الزائر ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقد عددهم القاضي عياض: ستة، ثم قال: لا سابع لهم.

وذكر أبو عبدالله بن خالويه^(١) في كتاب «ليس»، والسهيلي في «الروض»: أنه لا يعرف في العرب من تسمى محمداً قبل النبي ﷺ إلا ثلاثة.

قال الحافظ بن حجر: وهو حصر مردود، والعجب أن السهيلي متأخر الطبقة عن عياض، ولعله لم يقف على كلامه.

قال: وقد جمعت أسماء من تسمى بذلك في جزء مفرد فبلغوا

(١) أبو عبدالله، الحسين بن أحمد بن خالويه، الإمام المشهور، أحد أفراد الدهر، صاحب التصانيف المتوفى سنة سبعين وثلاثمائة.

نحو العشرين، مع تكرير في بعضهم، ووهم في بعض، فيتلخص منهم خمسة عشر نفساً:

وأشهرهم: محمد بن عدي بن ربيعة بن سواة بن جشم بن سعد بن زيد مناة بن تميم التميمي السعدي.

ومنهم: محمد بن أحيحة - بضم الهمزة وفتح المهملة - ابن الجلاح - بضم الجيم وتخفيف اللام آخره مهملة - الأوسي.

ومحمد بن أسامة بن مالك بن حبيب بن العنبر.

ومحمد بن البراء - وقيل: البر - بن طريف بن عتوارة بن عامر

ابن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة البكري العتواري.

ومحمد بن الحارث بن حديج بن حويص.

ومحمد بن حرماز بن مالك اليعمري.

ومحمد بن همران بن أبي همران، ربيعة بن مالك الجعفي

المعروف بالشويعر.

ومحمد بن خزاعي بن علقمة بن حرابة السلمى، من بني

ذكوان.

ومحمد بن خولى الهمداني.

ومحمد بن سفيان بن مجاشع.

ومحمد بن اليحمد الأزدي.

ومحمد بن يزيد بن عمرو بن ربيعة.

ومحمد بن الأسيدي.

ومحمد الفقيمي.

ولم يدركوا الإسلام إلا الأول ففي سياق خبره ما يشعر بذلك،

وإلا الرابع فهو صحابي جزماً^(١).

(١) محمد بن البراء عده في الإصابة فيمن ذكر غلطاً في الصحابة، قال الشارح =

وفيمن ذكره عياض: محمد بن مسلمة الأنصاري. وليس ذكره بجيد، فإنه ولد بعد النبي ﷺ بأزيد من عشرين سنة، لكنه قد ذكر تلو كلامه المتقدم: محمد بن يحمى - الماضي - فصار من عنده/ ستة لا سابع لهم. انتهى^(١).

[شرح بعض الأسماء]

● وأما اسمه عليه الصلاة والسلام «محمود» فاعلم أن من أسماء الله تعالى الحميد، ومعناه: المحمود، لأنه تعالى حمد نفسه، وحمده عباده، وقد سمي الرسول ﷺ بمحمود، وكذا وقع اسمه في زبور داود.

● وأما «الماحي» ففسر في الحديث بمحو الكفر، ولم يمح الكفر بأحد من الخلق ما محي بالنبي ﷺ، فإنه بعث وأهل الأرض^(٢) كلهم كفار، ما بين عابد أوثان ويهود ونصارى ضالين وصابئة ودهرية لا يعرفون ربا ولا معاداً، وبين عباد الكواكب وعباد النار، وفلاسفة لا يعرفون شرائع الأنبياء ولا يقرون بها، فمحاها برسوله^(٣)، حتى أظهر دينه على كل دين، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار، وسارت دعوته مسير الشمس في الأقطار، ولما كانت البحار هي الماحية للأدران كان اسمه عليه الصلاة والسلام فيها الماحي.

● وأما «الحاشر» ففسر أيضاً في الحديث بأنه الذي يحشر الناس

= تعليقاً على قوله: جزماً، ولم أر هذا في الفتح الذي نقل المصنف عنه.

أقول: انظر فتح الباري ٦/٥٥٥ - ٥٥٨ فيه ما يؤيد قول الشارح [م].

(١) عن فتح الباري ٦/٥٥٦.

(٢) في ش: والأرض.

(٣) في ط: برسول الله.

على قدمه، أي يقدمهم وهم خلفه، وقيل على سابقته، وقيل: قدومه وحوله، أي يجتمعون إليه في القيامة. وقد كان حشره لأهل الكتاب: إخراجهم من حصونهم وبلادهم. من دار هجرته إلى حيث أذاقهم الله من شدة الحشر ما شاء في دار الدنيا إلى ما اتصل لهم بذلك في برزخهم.

وهو أول من تنشق عنه الأرض فيحشر الناس على أثره، وإليه يلجؤون في محشرهم، وقيل: على سببه.

● وأما «العاقب» فهو الذي جاء عقب الأنبياء، فليس بعده نبي، لأن العاقب هو الآخر، أي: عقب الأنبياء، وقيل: وهو اسمه عليه الصلاة والسلام في النار، فإذا جاء - لحزمة شفاعته - خمدت النار وسكنت، كما روي أن قوماً من حملة القرآن يدخلونها فينسيهم الله تعالى ذكر محمد ﷺ حتى يذكرهم جبريل، فيذكرونه فتحمد النار وتنزوي عنهم.

● وأما «المقفي» فكذلك، أي: قفا آثار من سبقه من الرسل، وهي لفظة مشتقة من «القفو» يقال: قفاه يقفوه إذا تأخر عنه، ومنه قافية الرأس، وقافية البيت، فالمقفي: الذي قفا من قبله من الرسل فكان خاتمهم وآخرهم.

● وأما «الأول» فلأنه أول النبيين^(١) خلقاً - كما مر - وكما أنه أول في البدء فهو أول في العود، فهو أول من تنشق عنه الأرض، وأول من يدخل الجنة، وهو أول شافع وأول مشفع، كما كان في أوليات^(٢) البدء

(١) في ش: الأنبياء.

(٢) في ش: أول.

في عالم الذر أول مجيب، إذ هو أول من قال: بلى، إذ أخذ ربه الميثاق على الذرية الآدمية، فأشهدهم على أنفسهم: أأست بربكم. فهو ﷺ الأول في ذلك كله على الإطلاق.

● وأما «الآخر» فلأنه آخر الأنبياء في البعث كما في الحديث^(١).

● وأما «الظاهر» فلأنه ظهر على جميع الظاهرات ظهوره، وظهر على الأديان دينه، فهو الظاهر في وجوه الظهور كلها.

● وأما «الباطن» فهو المطلع على بواطن الأمور بواسطة ما يوحيه الله تعالى إليه.

● وأما «الفتاح الحاتم» ففي حديث الإسراء عن أبي هريرة من طريق الربيع بن أنس قوله تعالى له: (وجعلتك فاتحاً وخاتماً). وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً وفي الإسراء، قوله ﷺ: وجعلني فاتحاً وخاتماً. فهو الذي فتح الله به باب الهدى بعد أن كان مرتجياً، وفتح به أعينا عمياً، وأذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وفتح أمصار الكفر، وفتح به أبواب الجنة، وفتح به طرق العلم النافع والعمل الصالح، والدنيا والآخرة، والقلوب والأسماع والأبصار والإبصار^(٢).

وقد يكون المراد: المبدأ المقدم في الأنبياء، والحاتم لهم، كما قال

(١) الحديث: كنت أول الأنبياء خلقاً وآخرهم بعثاً. أخرجه ابن أبي حاتم.
قال في أسنى المطالب: فيه بقية الوليد مدلس وسعيد بن بشير ضعيف [م].
(٢) في (أ، ب، د) الأمصار، وسقطت من ط، وما أثبتته في ش وهو الأنسب لتكرار الأمصار.

عليه الصلاة والسلام: كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث^(١).

ب/٩٨

● وأما «الرؤوف الرحيم» ففي القرآن ﴿لقد جاءكم / رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾^(٢)، وهو فعول من الرأفة، وهي أرق من الرحمة، قاله أبو عبيدة^(٣)، والرحيم فعيل من الرحمة، وقيل رؤوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين.

● وأما «الحق المبين» فقال تعالى: ﴿حتى جاءهم الحق ورسول مبين﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿قد جاءكم الحق من ربكم﴾^(٦) وقال تعالى: ﴿فقد كذبوا بالحق لما جاءهم﴾^(٧)، قبل [المراد^(٨)]: محمد عليه السلام، وقيل القرآن، ومعناه هنا ضد الباطل، والمتحقق صدقه وأمره، والمبين البين أمره ورسالته، أو المبين عن الله ما بعثه به، كما قال تعالى: ﴿لتبين للناس ما نزل إليهم﴾^(٩).

(١) رواه ابن سعد وغيره، وفيه بقية الوليد مدلس، وسعيد بن بشير ضعيف. كما مر [المحقق].

(٢) سورة التوبة، الآية ١٢٨.

(٣) في (أ، د) أبو عبيد وهو غلط إذ المقصود الإمام اللغوي معمر بن المثنى.

(٤) سورة الزخرف. الآية ٢٩.

(٥) سورة الحجر، الآية ٨١.

(٦) سورة يونس. الآية ١٠٨.

(٧) سورة الأنعام. الآية ٥.

(٨) في ش.

(٩) سورة النحل. الآية ٤٤.

● وأما «المؤمن» فقال تعالى: ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن، قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾^(١) أي يصدق، وقال ﷺ: (أنا أمانة لأصحابي)^(٢) فهذا بمعنى المؤمن.

● وأما «المهيمن» فقال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه﴾^(٣) قال ابن الجوزي - في زاد المسير - إن ابن نجيح روى عن مجاهد (ومهيماً عليه) قال: محمد مؤتمن على القرآن، قال: فعلى قوله في الكلام تقدير محذوف، كأنه قال: وجعلناك يا محمد مهيماً عليه، وسماه العباس بن عبد المطلب في شعره مهيماً في قوله:

حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف علياء تحتها النطق

وروي: ثم اغتدى بيتك المهيمن، قيل أراد: يا أيها المهيمن، قاله القتيبي^(٤) والإمام أبو القاسم القشيري.

● وأما «العزیز» فمعناه: جلالة القدر، أو الذي لا نظير له، أو المعز لغيره، وقد استدل القاضي عياض لهذا الاسم بقوله تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله﴾^(٥) أي فجائز أن يوصف النبي ﷺ بالعزیز والمعز، لحصول العز له^(٦)^(٧). ولقائل أن يقول: هذا اللفظ أيضاً

(١) سورة التوبة. الآية ٦١.

(٢) رواه البيهقي.

(٣) سورة المائدة، الآية ٤٨.

(٤) هو عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري.

(٥) سورة المنافقون، الآية ٨.

(٦) في ش: العز به.

(٧) هذه الجملة من قوله: أي فجائز... سقطت من ط.

للمؤمنين لشمول العطف إياهم، فلا اختصاص للنبي ﷺ، والغرض اختصاصه، قال اليميني^(١): وعجبت من القاضي كيف خفي عليه مثل هذا. ويجاب: باختصاصه عليه الصلاة والسلام برتبة من العزة ليست لغيره والله أعلم.

● وأما «العالم» و«العليم» و«العلم» و«معلم أمته» فقد قال تعالى: ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾^(٢) وقال: ﴿ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾^(٣).

● وأما «الخبير» فمعناه: المطلع على كنه الشيء، العالم بحقيقته، وقيل: المخبر، قال الله تعالى: ﴿الرحمن فاسأل به خبيراً﴾^(٤). قال القاضي بكر^(٥) بن العلاء^(٦) - فيما ذكره في الشفاء -: المأمور بالسؤال غير النبي ﷺ، والمسؤول الخبير هو النبي ﷺ. وقال غيره: بل السائل النبي ﷺ والمسؤول الله عز وجل، فالنبي ﷺ خبير بالوجهين المذكورين، قيل لأنه عليه الصلاة والسلام عالم على غاية من العلم بما أعلمه الله من مكنون علمه، وعظيم معرفته، مخبر لأمته بما أذن له في إعلامهم به. انتهى.

(١) أي محشي الشفاء.

(٢) سورة النساء، الآية ١١٣.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٥١.

(٤) سورة الفرقان، الآية ٥٩.

(٥) في (أ، ط) أبو بكر، والصواب بكر كما ورد في الشفاء وفي شذرات الذهب

لابن العماد الحنبلي [المحقق]

(٦) بكر بن محمد بن العلاء القشيري أبو الفضل، من ولد عمران بن

حصين، أحد كبار الفقهاء المالكية وعلماء الحديث صاحب التصانيف،

مات بمصر سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وقد جاوز الثمانين.

● وأما «العظيم» فقال الله تعالى في شأنه: ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾^(١) ووقع في أول سفر من التوراة عن إسماعيل: وسيلد عظيماً لأمة عظيمة. فهو ﷺ عظيم وعلى خلق عظيم.

● وأما «الشاكر» و«الشكور» فقد وصف ﷺ نفسه بذلك فقال: ﴿أفلا أكون عبداً شكوراً﴾^(٢) أي: أأترك تهجدي فلا أكون عبداً شكوراً؟! والمعنى: أن المغفرة سبب لكون التهجد شكراً، فكيف أتركه؟ وعلى هذا فتكون «الفاء» للسببية. وقال القاضي عياض: شكوراً أي: معترفاً بنعم ربي، عالماً بقدر ذلك، مثنياً عليه، مجهداً نفسي في الزيادة من ذلك، لقوله تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾^(٣).

● وأما «الشكار» فهو أبلغ من شاكر، وفي حديث ابن ماجه أنه ﷺ كان من دعائه: (رب اجعلني لك شكاراً).

● وأما «الكريم» و«الأكرم» و«أكرم ولد آدم» فسماه الله تعالى به في قوله تعالى: ﴿إنه لقول رسول / كريم﴾^(٤) أي محمد ﷺ، وليس ١/٩٩ المراد به جبريل، لأنه تعالى لما قال: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ ذكر بعده أنه ليس بقول شاعر ولا كاهن، والمشركون لم يكونوا يصفوا^(٥) جبريل بذلك، فتعين أن يكون المراد بالرسول الكريم هنا محمداً ﷺ،

(١) سورة القلم، الآية ٤.

(٢) متفق عليه.

(٣) سورة إبراهيم، الآية ٧.

(٤) سورة الحاقة، الآية ٤٠.

(٥) كذا في النسخ بحذف النون للتخفيف، والأولى إثباتها.

كما سيأتي إن شاء الله تعالى بيانه في مقصد آي التنزيل . وقال عليه السلام: (أنا أكرم ولد آدم)^(١).

● وأما «الولي» و«المولى» فقال عليه الصلاة والسلام: (أنا ولي كل مؤمن)^(٢).

● وأما «الأمين» فقد كان عليه الصلاة والسلام يعرف به، وشهر به قبل النبوة وبعدها، وهو أحق العالمين بهذا الاسم، فهو أمين على وحيه ودينه، وهو أمين من في السماء والأرض.

● وأما «الصادق» و«المصدق» فقد ورد في الحديث تسميته بهما^(٣)، ومعناها غير خفي، وكذلك «الأصدق». وروي أنه عليه الصلاة والسلام لما كذبه قومه حزن فقال له جبريل: إنهم يعلمون أنك صادق^(٤).

● وأما «الطيب» و«ماذ ماذ» - بميم ثم ألف ثم ذال معجمة منونة، ثم ميم ثم ألف ثم ذال معجمة - كذا رأيت لبعض العلماء، ونقل العلامة الحجازي^(٥) في حاشيته على الشفاء عن السهيلي: ضم الميم وإشمام الهمزة ضمة بين الواو والألف ممدود، وقال: نقلته عن رجل أسلم من علماء بني إسرائيل، وقال معناه: طيب طيب، ولا

(١) ورد في الصحيح (أنا سيد ولد آدم).

(٢) رواه البخاري.

(٣) قال ابن مسعود: حدثنا رسول الله وهو الصادق المصدق. أخرجه البخاري وغيره.

(٤) قال السيوطي في تحريجه: لم أجده.

(٥) أحمد بن محمد بن علي الحجازي الأنصاري الأديب الشاعر صاحب التصانيف. مات سنة خمس وسبعين وثمانمائة.

ريب أنه ﷺ أطيب الطيين، وحسبك أنه كان يؤخذ من عرقه ليتطيب به، فهو ﷺ طيب الله الذي نفحه^(١) في الوجود، فتعطرت به الكائنات وسمت، واعتدت به القلوب فطابت، وتنسمت به الأرواح فنمت.

● وأما «الطاهر» و«المطهر» و«المقدس» أي المطهر من الذنوب، كما قال تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾^(٢)، أو الذي يُتطهر به من الذنوب، ويتنزه بأتباعه عنها، كما قال الله تعالى: ﴿ويزكيهم﴾^(٣) وقال: ﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور﴾^(٤)، أو يكون مقدساً بمعنى مطهراً من الأخلاق الذميمة والأوصاف الدنية.

● وأما «العفو» و«الصفوح» فمعناها واحد، وقد وصفه الله تعالى بهما في القرآن والتوراة والإنجيل، كما في حديث عبدالله بن عمرو بن العاصي عند البخاري (ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح) وأمره تعالى بالعفو فقال: ﴿خذ العفو﴾^(٥) وقال: ﴿فاعف عنهم واصفح﴾^(٦).

● وأما «العطوف» فهو الشفوق، وسمي به عليه الصلاة والسلام لكثرة شففته على أمته، ورأفته بهم.

(١) نفحه: بالحاء المهملة: نشره.

(٢) سورة الفتح، الآية ٢.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٢٩.

(٤) سورة المائدة، الآية ١٦.

(٥) سورة الأعراف، الآية ١٩٩.

(٦) سورة المائدة، الآية ١٣.

● وأما «النور» فقال تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور﴾^(١) قيل: محمد ﷺ وقيل القرآن، فهو نور الله الذي لا يطفأ.

● وأما «السراج» فسماه الله تعالى به في قوله: ﴿وسراجاً منيراً﴾^(٢) لوضوح أمره، وبيان نبوته، وتنوير قلوب المؤمنين والعارفين بما جاء به، فهو نيرٌ في ذاته منير لغيره، فهو السراج الكامل في الإضاءة، ولم يوصف بالوهاج كالشمس، لأن المنير الذي ينير من غير إحراق بخلاف الوهاج.

● وأما «الهادي» فبمعنى الدلالة والدعاء، قال الله تعالى: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾^(٣) وقال تعالى فيه: ﴿وداعياً إلى الله بإذنه﴾^(٤).

● وأما «البرهان» فقال تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم﴾^(٥) قيل: هو محمد ﷺ، وقيل معجزاته وقيل القرآن.

● وأما «النقيب» فروي أنه ﷺ لما مات نقيب بني النجار أبو أمامة أسعد بن زرارة وجد عليه ﷺ ولم يجعل عليهم نقيباً بعده، وقال: أنا نقيبكم فكانت من مفاخرهم، والنقيب هو شاهد القوم وناظرهم وضمينهم.

● وأما «الجبار» فسمي به في مزامير داود، في قوله في مزمور أربعة وأربعين. تقلد أيها الجبار سيفك، فإن ناموسك وشرائعك

(١) سورة المائدة، الآية ١٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٤٦.

(٣) سورة الشورى، الآية ٥٢.

(٤) سورة الأحزاب، الآية ٤٦.

(٥) سورة النساء الآية ١٧٤.

مقرونة بهيبة يمينك، / لأنه الجبار الذي جبر الخلق بالسيف على الحق، ٩٩/ب
وصرفهم عن الكفر جبراً. قال القاضي عياض: وقد نفى الله تعالى
عنه جبرية التكبر التي لا تليق به فقال: ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾^(١).

[وهذا الاسم من أسمائه تعالى، وحظ العبد منه أن يحصل درجة
الاستتباع بالرفع عن الأتباع، ويجبر الخلق - بهيبته - على الاقتداء به في
سمته وسيرته فيفيد الخلق ولا يستفيد، ولم يحظ بهذا على التحقيق إلا
المصطفى، قال ﷺ (لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي)^(٢) [٣].

• وأما «الشاهد» و«الشهيد» فساه الله بهما في قوله: ﴿إننا
أرسلناك شاهداً﴾^(٤) أي على من بعثت إليهم بتصديقهم وتكذيبهم،
ونجاتهم وضلالهم. وقوله: ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾^(٥) روي
أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالبهم الله بينة
التبليغ - وهو أعلم بهم - إقامة للحجة على المنكرين، فيؤتى بأمة محمد
ﷺ فيشهدون، فتقول الأمم: من أين عرفتهم؟ فيقولون علمنا ذلك
بإخبار الله في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق، فيؤتى بمحمد ﷺ
فيسأل عن حال أمته، فيشهد بعدالتهم، وهذه الشهادة وإن كانت لهم
لكن لما كان الرسول كالرقيب المهيمن على أمته عدى بـ«على» وقدمت

(١) سورة ق، الآية ٤٥.

(٢) جاء في تفسير ابن كثير في الآية ٨١ من آل عمران قال الحافظ أبو يعلى . .

عن جابر قال قال رسول الله ﷺ: (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء . . .

وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني) [المحقق].

(٣) هذه الفقرة في الأصل فقط.

(٤) سورة الأحزاب، الآية ٤٥.

(٥) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

الصلة للدلالة على اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم. قاله البيضاوي.

• وأما «الناشر» فسمي به لأنه نشر الإسلام وأظهر شرائع الأحكام.

• وأما «المزمل» فأصله المتزمل، فأدغمت التاء في الزاي وسمي به، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يفرق من جبريل ويتزمل بالثياب أول ما جاءه، وقيل: أتاه وهو في قطيفة، وقال السدي معناه: يا أيها النائم، قال: وكان متلففاً في ثياب نومه، وعن ابن عباس: يعني المتزمل بالقرآن، وعن عكرمه بالنبوة.

وقيل من الزمل، بمعنى الحمل، ومنه الزاملة، أي: المتحمل بأعباء النبوة، وعلى هذا يكون التزمل مجازاً.

وقال السهيلي: ليس «المزمل» باسم من أسائه يعرف به، وإنما هو مشتق من حالته التي كان التبس بها حالة الخطاب، والعرب إذا قصدت الملائفة بالمخاطب بترك المعاتبة نادوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها، كقول النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه - وقد نام ولصق جنبه بالتراب - قم أبا تراب إشعاراً بأنه ملاطف له، فقله: ﴿يا أيها المزمل﴾ فيه تأنيس وملاطفة.

وأما ما روي عن عائشة أنها قالت: كان متزماً مرطاً طوله أربعة عشر ذراعاً، نصفه علي وأنا نائمة ونصفه عليه، فكذب صراح، لأن نزول يا أيها المزمل بمكة في أول مبعثه، ودخوله بعائشة كان بالمدينة.

• وأما «المدثر» فأصله: المتدثر، فأدغمت التاء في الدال. روي

أنه ﷺ قال: كنت بحراء فنوديت فنظرت عن يميني وشمالى. فلم أر شيئاً، فنظرت فوقي فإذا هو على عرش بين السماء والأرض - يعني الملك الذي ناداه - فرعبت فرجعت إلى خديجة فقلت دثروني دثروني، فنزل جبريل وقال: يا أيها المدثر^(١). وعن عكرمة: يا أيها المدثر بالنبوة وأثقالها قد تدرت هذا الأمر فقم به.

وقيل: ناداه بالمزمل والمدثر في أول أمره، فلما شرع خاطبه الله تعالى بالنبوة والرسالة.

● وأما «طه» فروى النقاش عنه عليه الصلاة والسلام: لي في القرآن سبعة أسماء فذكر منها طه. وقيل: هو اسم الله، وقيل معناه: يا رجل، وقيل: يا إنسان. وقيل: يا طاهر يا هادي يعني النبي ﷺ، وهو مروى عن الواسطي^(٢)، وقيل معناه: يا مطمع الشفاعة للأمة، ويا هادي الخلق إلى الملة، وقيل: الطاء / في الحساب بتسعة والهاء بخمسة وذلك أربعة عشر فكأنه قال: يا بدر، وهذه من محاسن التأويل، لكن المعتمد أنهما من أسماء الحروف.

● وأما «يس» فحكى أبو محمد مكي أنه روى عنه ﷺ أنه قال: لي عند ربي عشرة أسماء ذكر منها «يس». وقد قيل معناه: يا إنسان بلغة طيء، وقيل بالحبشية، وقيل بالسريانية، وأصله كما قاله البيضاوي وابن الخطيب وغيرهما: يا أنيسين: فاقصر على شطره لكثرة النداء به وقيل ياسين. لكن تعقب بأنه لا يعلم أن العرب قالوا في

(١) الحديث في الصحيحين عن جابر.

(٢) أبو بكر، محمد بن موسى الواسطي، الإمام العارف، من كبار أتباع الجنيد، له تكلم في أصول التصوف حسن، توفي بمرور بعد العشرين وثلاثمائة.

تصغيره أنيسين، وأن الذي نقل عنهم في تصغيره أنيسيان، بياء بعدها ألف، وبأن التصغير من التحقير الممتنع في حق النبوة لنصهم على أن التصغير لا يدخل في الأسماء المعظمة شرعاً. ويأتي مزيد بيان لذلك إن شاء الله تعالى في الفصل الرابع من النوع الخامس من أنواع المقصد السادس. وعن ابن الحنفية^(١): معناه يا محمد، وعن أبي العالية: يا رجل، وعن أبي بكر الوراق: يا سيد البشر، وعن جعفر الصادق: يا سيد مخاطبة له عليه الصلاة والسلام، وفيه من تعظيمه على تفسير أنه يا سيد^(٢) ما فيه.

● وأما «الفجر» فقال ابن عطاء^(٣) في قوله تعالى: ﴿والفجر وليال عشر﴾^(٤)، الفجر محمد ﷺ، لأن منه تفجر الإيمان.

وهو تأويل غريب لم ير لغيره، والصواب أنه الفجر المفسر بالصبح في قوله تعالى: ﴿والصبح إذا تنفس﴾^(٥).

● وأما «القوي» فقال الله تعالى: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين﴾^(٦) قيل محمد، وقيل جبريل عليهما الصلاة والسلام، وسيأتي في المقصد السادس ما في ذلك.

(١) محمد بن علي بن أبي طالب، الثقة العالم المدني، المتوفى بعد الثمانين، من رجال الستة، اشتهر بأمه.

(٢) في (أ) سيد بغير ياء النداء.

(٣) أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء، أبو العباس، الزاهد البغدادي، صحب الجنيد، مات سنة تسع وثلاثمائة.

(٤) سورة الفجر، الآية ١ - ٢.

(٥) سورة التكوير، الآية ١٨.

(٦) سورة التكوير، الآية ٢٠.

وأما ما قاله ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾^(١) أقسم بقوة قلب حبيبه محمد ﷺ حيث حمل الخطاب والمشاهدة ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حاله، فلا يخفى ما فيه.

● وأما «النجم» فعن جعفر بن محمد بن الحسين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ﴾^(٢) أنه محمد ﷺ ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إذا نزل من السماء ليلة المعراج. وحكى السلمي في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقِ النَّجْمِ الثَّاقِبِ﴾^(٣) أن النجم هنا أيضاً محمد ﷺ .

والصحيح: أن المراد به النجم على ظاهره، وسمي به عليه السلام لأنه يهتدى به في طرق الهدى كما يهتدى بالنجم.

● وأما «الشمس» فسمي بها ﷺ لكثرة نفعه، وعلو رفعته، وظهور شريعته، وجلالة قدره وعظم منزلته، لأنه لا يحاط بكماله، حتى لا يسع الرائي له أن ينظر إليه ملء عينيه إجلالاً له، كما أن الشمس في الرتبة أرفع من غالب الكواكب لأنها في السماء السادسة، والارتفاع بها أكثر من غيرها، كما لا يخفى، ولا يدركها البصر لكبر جرمها، وأيضاً فلما كان سائر الكواكب تستمد من نورها ناسب تسميته عليه الصلاة والسلام بها، لأن نور الأنبياء مستمد من نوره^(٤).

● وأما «النبي» و«الرسول» فمن خصائصه عليه الصلاة والسلام أنه خاطبه تعالى بهما في القرآن دون سائر أنبيائه.

ثم إن النبوة بالهمز مأخوذة من النبأ، وهو الخبر، وقد لا يهمز

(١) سورة ق، الآية ١.

(٢) سورة النجم، الآية ١.

(٣) سورة الطارق، الآيات ١ - ٣.

(٤) هذه الجملة لم تذكر في ش.

تسهيلاً. أي أن الله أطلعه على غيبه وأعلمه أنه نبيه، فيكون نبياً منبأ، أو يكون مخبراً عما بعثه الله به ومنبأ بما أطلعه الله عليه. وبغير الهمزة يكون مشتقاً من النبوة وهو ما ارتفع من الأرض، أي أن له رتبة شريفة ومكانة عند الله منيفة. قال الشيخ بدر الدين الزركشي في شرح البردة: وكان نافع^(١) يقرأ: النبيء - بالهمز - في جميع القرآن. والاختيار تركه.

ب/١٠٠ نبيء الله - يعني بالهمز - فقال له: لست نبيء الله، ولكني نبي الله / فأنكر الهمز لأنه لم يكن من لغته عليه الصلاة والسلام.

وقال الجوهري^(٢) والصاغانى^(٣): إنما أنكر لأن الأعرابي أراد: يا من خرج من مكة إلى المدينة، يقال: نبات من أرض إلى أرض إذا خرجت منها إلى أخرى.

وتكلم جماعة من القراء في هذا الحديث: وقد رواه الحاكم في المستدرک عن أبي الأسود عن أبي ذر، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وفيما قاله نظر، فإن فيه حسيناً الجعفي، كذا قاله بعضهم^(٤) وليس من شرطهما. ورواه أبو عبيد: حدثنا محمد^(٥) بن

(١) نافع بن عبد الرحمن، القارئ المدني، صدوق ثبت القراءة، توفي سنة تسع وستين ومائة.

(٢) الإمام المشهور أبو نصر إسماعيل بن حماد.

(٣) الحسن بن محمد، العلامة الشهرير، ولد سنة سبع وسبعين وخمسمائة ومات سنة خمسين وستائة.

(٤) تبرأ من هذا القول لأنه ثقة عابد أخرج له الستة كما في التقريب فلا يصح قوله: ليس من شرطهما.

(٥) في ش أبو محمد.

سعد عن حمزة الزيات عن حمران بن أعين أن رجلاً... الحديث^(١)، وهذا منقطع. انتهى.

والرسول: إنسان بعثه الله إلى الخلق بشريعة مجددة يدعو الناس إليها.

[الفرق بين النبي والرسول]

واختلف هل هما بمعنى أو بمعنيين؟

فقال بالأول قوم مستدلين بقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾^(٢) فأثبت لهما معاً الإرسال. وعلى هذا فلا يكون النبي إلا رسولاً، ولا الرسول إلا نبياً.

وقال آخرون بالثاني، وأنها يجتمعان في النبوة التي هي الاطلاع على الغيب والإعلام بخواص النبوة أو الرفعة بمعرفة ذلك وحوز^(٣) درجتها، وافتراقاً في زيادة الإرسال. وحجتهم من الآية نفسها: التفريق بين الاسمين، إذ لو كانا شيئاً واحداً لما حسن تكرارهما في الكلام البليغ، ويكون المعنى: وما أرسلنا من نبي إلى أمة، أو نبي ليس بمرسل إلى أحد.

وذهب آخرون: إلى أن الرسول: من جاء بشرع مبتدأ، ومن لم يأت به نبي غير رسول وإن أمر بالإبلاغ والإنذار.

والصحيح: أن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً،

(١) قال الذهبي: إنه حديث منكر وفي سنده حمران بن أعين وليس بثقة.

(٢) سورة الحج، الآية ٥٢.

(٣) في ط: جواز وهو غلط.

نعم نوزع في هذا بأنه كلام يطلقه من لا تحقيق عنده، فإن جبريل عليه الصلاة والسلام رسول، وغيره من الملائكة المكرمين بالرسالة رسل لا أنبياء. فالانفصال عنه: بأن يقيد الفرق بين الرسول والنبى، بالرسول البشري.

ثم إن النبوة والرسالة ليستا ذاتاً للنبي ﷺ^(١)، ولا وصف ذات^(٢) بل تخصيص الله إياه بذلك خلافاً للكرامية.

وقال القرافي، كما نقله عنه ابن مرزوق: يعتقد كثير أن النبوة مجرد الوحي، وهو باطل، لحصوله لمن ليس بنبي كمریم وليست نبية على الصحيح، مع أنه تعالى يقول^(٣): ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ الآية^(٤) و﴿إن الله يبشرك﴾^(٥). وفي مسلم: بعث الله تعالى ملكاً لرجل على مدرجته وكان خرج في زيارة أخ له في الله تعالى، وقال له: إن الله يعلمك أنه يجبك لحبك لأخيك في الله، وليس بنبوة، لأنها عند المحققين: إجماع الله لبعض بحكم إنساني يختص به كقوله: ﴿اقرأ باسم ربك﴾^(٦) فهذا تكليف يختص به في الوقت، فهذه نبوة لا رسالة، فلما نزل ﴿قم فأنذر﴾^(٧) كانت رسالة لتعلق هذا التكليف بغيره أيضاً، فالنبي كلف بما يخص به، والرسول بذلك، وتبليغ غيره، فالرسول أخص مطلقاً، انتهى.

(١) أي لازماً لماهيته لا ينفك عنه.

(٢) أي وصفاً لازماً للذات لا ينفك عنها.

(٣) في ط: مع قوله تعالى.

(٤) سورة مريم، الآية ١٧.

(٥) آل عمران، الآية ٤٥.

(٦) سورة العلق، الآية ١.

(٧) سورة المدثر، الآية ٢.

وهل نبينا ﷺ رسول الآن؟

قال أبو الحسن الأشعري: هو ﷺ في حكم الرسالة، وحكم الشيء يقوم مقام أصل الشيء، ألا ترى أن العدة تدل على ما كان من أحكام النكاح، ويأتي لذلك مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

[تتمة شرح بعض الأسماء]

● وأما «المذكر» فقال تعالى: ﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾^(١).

● وأما «البشير» و«المبشر» و«الناذير» و«المنذر» فقال تعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾^(٢) أي مبشراً لأهل طاعته بالثواب، وقيل بالمغفرة، ونذيراً لأهل معصيته بالعذاب، وقيل: محذراً من الضلالات.

● وأما «المبلغ» فقال تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾^(٣).

● وأما «الحنيف» فقال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً﴾^(٤) كذا قاله بعضهم^(٥).

● وأما «نبي التوبة» فلأن الأمم رجعت لهدايته عليه السلام بعدما تفرقت بها الطرق/ إلى الصراط المستقيم.

١/١٠١

(١) سورة الغاشية، الآية ٢١.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٤٥.

(٣) سورة المائدة، الآية ٦٧.

(٤) سورة الروم، الآية ٣٠.

(٥) سقطت هذه الجملة من ش.

● وأما «رسول الرحمة» و«نبي الرحمة» و«نبي الرحمة» فقال الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾^(١) وقال تعالى: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾^(٢) فبعثه تعالى رحمة لأمته، ورحمة للعالمين وروى البيهقي مرفوعاً (إنما أنا رحمة مهداة)^(٣)، فرحم الله تعالى به الخلق مؤمنهم وكافرهم، وهذا الاسم من أخص أسمائه.

وقد كان حظ آدم من رحمته سجود الملائكة له تعظيماً له إذ كان في صلبه، ونوح: خروجه من السفينة سالماً، وإبراهيم: كانت النار عليه برداً وسلاماً إذ كان في صلبه، فرحمته عليه الصلاة والسلام في البدء والختام والدوام لما أبقي الله له من دعوة الشفاعة، ولما كانت نبوته رحمة دائمة مكررة مضاعفة اشتق له من الرحمة اسم الرحمة.

● وأما «نبي الملحمة والملاحم» وهي الحروب، فأشارة إلى ما بعث به من القتال والسيف، ولم يجاهد نبي وأمته قط ما جاهد ﷺ وأمته، والملاحم التي وقعت وتقع بين أمته وبين الكفار لم يعهد مثلها قبله، فإن أمته يقاتلون الكفار في الأقطار على تعاقب الأعصار حتى يقاتلون^(٤) الأعور الدجال.

● وأما «صاحب القضيبي» فهو السيف، كما وقع مفسراً به في الإنجيل قال: معه قضيبي من حديد يقاتل به، وأمته كذلك. وقد يحمل على أنه القضيبي المشقوق الذي كان يمسه.

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٧.

(٢) سورة التوبة، الآية ١٢٨.

(٣) قال الحاكم، على شرطها وأقره الذهبي.

(٤) كذا في النسخ، قال الشارح: وفي نسخة بحذف النون. وما وجهه به (حتى يقول الرسول) بالرفع والنصب يأتي هنا.

● وأما «صاحب الهراوة» فهي في اللغة: العصا، وقد كان ﷺ يمسك في يده القضيب كثيراً، وكان يمشي بين يديه بالعصا، وتغرز له في الأرض فيصلي إليها، قال القاضي [عياض] (١): وأراها العصا المذكورة في حديث الحوض: أذود الناس عنه بعصاي لأهل اليمن (٢). أي لأجلهم ليتقدموا، فلما كان ﷺ راعياً للخلق سائناً لجميعهم إلى مواردهم كان صاحب الهراوة يرعى بها أهل الطواغية، وصاحب السيف يقده من لا تزيده الحياة إلا شراً.

● وأما «الضحاك» - بالمعجمة - فهو الذي يسيل دماء العدو في الحروب لشجاعته.

● وأما «صاحب التاج» فالمراد به العمامة، ولم تكن حينئذٍ إلا للعرب، والعمائم تيجانها.

● وأما «صاحب المغفر» فهو - بكسر الميم وسكون الغين المعجمة وفتح الفاء - زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس، كان ﷺ يلبسه في حروبه.

● وأما «قدم صدق» فقال قتادة والحسن وزيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ (٣) هو محمد ﷺ يشفع لهم، وعن أبي سعيد الخدري: هي شفاعة نبيهم محمد ﷺ هو شفيع صدق عند ربهم، وعن سهل بن عبدالله: هي سابقة رحمة أودعها في محمد صلى الله عليه وسلم.

(١) في ط وهامش ب.

(٢) رواه مسلم في الفضائل برقم ٢٣٠١ ونصه (إني لبعقر حوضي أذود الناس لأهل اليمن أضرب بعصاي حتى يرفضّ عليهم) [المحقق].

(٣) سورة يونس، الآية ٢.

● وأما «نعمة الله» فقال سهل في قوله تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾^(١) قال: نعمته بمحمد ﷺ، وقال: ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾^(٢) يعني يعرفون أن محمداً نبي ثم يكذبونه، وهذا مروى عن مجاهد والسدي وقال به الزجاج^(٣).

● وأما «الصراط المستقيم» فقال أبو العالية والحسن البصري في تفسير سورة الفاتحة: هو رسول الله وخيار أهل بيته وأصحابه. حكى الماوردي ذلك في تفسير ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾^(٤) عن عبد الرحمن بن زيد.

● وأما «العروة الوثقى» فحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾^(٥) الآية أنه محمد صلى الله عليه وسلم.

● وأما «ركن المتواضعين» فلأنه عمادهم، وقد ظهر عليه ﷺ ١٠١/ب من التواضع ما لم يظهر على غيره، فكان يرقع/القميص، ويخسف النعل، ويقم البيت^(٦).

ووقع فيما ترجموه من كتاب شعيباء^(٧) مما يدل صريحاً في البشارة

(١) سورة النحل، الآية ١٨.

(٢) سورة النحل، الآية ٨٣.

(٣) أبو إسحاق، إبراهيم بن السري الزجاج، الإمام الشهرير المتوفى سنة إحدى عشرة وثلاثمائة.

(٤) سورة الفاتحة، الآية ٦.

(٥) سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

(٦) أي يكنس البيت ويجمع قمامته.

(٧) في (ش، د) سعياء.

برسول الله ﷺ : ولا يميل إلى الهوى، ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبه الضعيفه^(١)، بل يقوي الصديقين، وهو ركن المتواضعين، وهو نور الله الذي لا يطفأ.

● وأما «قثم» و«قثوم» - بالقاف والمثلثة - ففسره القاضي عياض بالجامع للخير، وقال ابن الجوزي مشتق من القثم، وهو الإعطاء، يقال: قثم له من العطاء، يقثم، إذا أعطاه، وقد كان رسول الله ﷺ أعظم الخلق ندى وأسخاهم يداً.

● وأما «البارقليط» و«الفارقليط» - بالموحدة - وبالفاء بدلها، وفتح الراء والقاف. وبسكون الراء مع فتح القاف. وفتح الراء مع سكون القاف. وبكسر الراء وسكون القاف. غير منصرف للعجمة والعلمية - فوقع في إنجيل يوحنا، ومعناه: روح الحق. وقال ثعلب^(٢): الذي يفرق بين الحق والباطل، وفي نهاية ابن الأثير، في صفته عليه السلام، أن اسمه في الكتب السالفة «فارق ليطا»^(٣) أي يفرق بين الحق والباطل، قال: ومنه الحديث: محمد فرق بين الناس، أي يفرق بين المؤمنين والكافرين بتصديقه وتكذيبه.

● وأما «حمطايا» - فبفتح الحاء المهملة وسكون الميم - قال الهروي: أي حامي الحرم، وقال ابن الأثير في حديث كعب أنه قال في أسماء النبي ﷺ في الكتب السالفة: محمد وأحمد وحميطا - يعني بالحاء المهملة ثم ميم ساكنة فمشناة تحتية فألف فطاء مهملة فألف - قال أبو

(١) في ش جاءت جملة (الذين هم كالقصبه الضعيفه) بعد كلمة (الصديقين).

(٢) أحمد بن يحيى البغدادي، الإمام المشهور.

(٣) كذا في الأصل ليشير إلى الوجهين، وفي (ب، د) فارق ليطا، وفي (ط، ش) بارقليطا.

عمرو: سألت بعض من أسلم من اليهود عنه فقال: معناه يحمي الحرم من الحرام، ويوطئ الحلال.

● وأما «أحيد» - وهو بهمزة مضمومة ثم حاء مهملة مكسورة ثم مثناة تحتية ساكنة ثم دال مهملة. كذا وجدته في بعض نسخ الشفاء المعتمدة. والمشهور ضبطه بفتح الهمزة وسكون الحاء المهملة وبفتح المثناة التحتية، وفي نسخة بفتحها وكسر الحاء وسكون المثناة - فقال النووي في كتابه تهذيب الأسماء واللغات: عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: (اسمي في القرآن محمد، وفي الإنجيل أحمد، وفي التوراة أحيد، وإنما سميت أحيد لأنني أحيد عن أمي نار جهنم)^(١).

● وأما «المنحمن» وهو بضم الميم وسكون النون وفتح الحاء المهملة وكسر الميم وتشديد النون الثانية المفتوحة، مقصور، وضبطه بعضهم بفتح الميمين، فمعناه بالسريانية محمد.

● وأما «المشفح» - وهو بضم الميم وبالشين المعجمة وبالفاء المشددة المفتوحتين ثم حاء مهملة، وروي بالقاف بدل الفاء - ففي كتاب شعيا^(٢) في البشارة به عليه السلام: يفتح العيون العور، والأذان الصم ويحيي القلوب، وما أعطيه لا أعطيه أحداً، مشفح يحمد الله حمداً جديداً، وهو بلغتهم السريانية^(٣) الحمد.

● وأما «مقيم السنة» ففي كتاب الشفاء: قال داود عليه الصلاة والسلام: اللهم ابعث لنا محمداً يقيم السنة بعد الفترة.

(١) أخرجه ابن عدي وابن عساكر.

(٢) في ط: الشفاء، وهو غلط.

(٣) كذا في الأصل، وفي (ب، ط، د)، وهو بلغتهم الحمد، وفي ش: وهو بالسريانية الحمد.

● وأما «المبارك» فمبدأ الكون ونماؤه كائن من بركته المستمدة من بركة الله، ومن كمال بركته نبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام القليل ببركته حتى أشبع الجيش الكثير، وغير ذلك مما لمسه أو باشره، كما سيأتي ذلك إن شاء الله تعالى في مقصد معجزاته.

● وأما «المكين» فهو ﷺ المكين بعلو مكانته عند ربه تعالى، ومن ذلك أن قرن سبحانه ذكره بذكره [واسمه باسمه]^(١) فما أذن / ١/١٠٢ باسم أحد سواه، ولا قرن اسم أحد مع اسمه إلا إياه، فأعلن له في السابقة على ساق العرش^(٢) وأذن به في اللاحقة على منار الإيمان^(٣).

● وأما «الأمي» فهو من أخص أسائه، وقال تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا﴾^(٤)، فهو تعالى يقرئه ما كتبه بيده، وما خطته أقلامه العلمية في ألواح قدسه الأقدسية^(٥)، فيغنيه بذلك عن أن يقرأ ما تكت الخلق.

● وأما «المكي» فقد كان بداية ظهوره عليه الصلاة والسلام في الأرض في مكة، التي هي حرم الله، وهي مدد البركة ومنشأ الهدى، فهو ﷺ مكي الإقامة ومبدأ النبوة، ومكي الإعادة، وكان من آية ذلك توجهه لها حيث ما توجه، فهو ﷺ المكي الذي لم يبرح وجوداً وقصداً، والمرء حيث قصده لا حيث جسمه، حتى كان من شرعه أن يوجه الميت للكعبة، ومن أوماً لشيء فهو لما أوماً إليه، ولذلك صحت الصلاة إيماء.

(١) في ط .

(٢) حيث كتب اسمه على ساق العرش .

(٣) حيث يذكر اسمه في كل أذان .

(٤) سورة الشورى، الآية ٥٢ .

(٥) (الأقدسية) ليست في الأصل .

● وأما «المدني» فلأن المدينة دار هجرته وإقامته لا رحلة له عنها، وخصت تربتها بأن ضمت أعضائه المقدسة.

● وأما «عبد الكريم» فذكر الحسين بن محمد الدامغاني في كتابه «شوق العروس وأنس النفوس» نقلاً عن كعب الأحبار أنه قال: اسم النبي ﷺ عند أهل الجنة عبد الكريم، وعند أهل النار عبد الجبار، وعند أهل العرش عبد الحميد، وعند سائر الملائكة عبد المجيد، وعند الأنبياء عبد الوهاب، وعند الشياطين عبد القهار، وعند الجن عبد الرحيم، وفي الجبال عبد الخالق، وفي البر عبد القادر وفي البحر عبد المهيمن، وعند الحيتان عبد القدوس، وعند الهوام عبد الغياث، وعند الوحوش عبد الرزاق، وعند السباع عبد السلام، وعند البهائم عبد المؤمن، وعند الطيور عبد الغفار، وفي التوراة مود مود، وفي الإنجيل طاب طاب، وفي الصحف عاقب، وفي الزبور فاروق، وعند الله طه ويس، وعند المؤمنين محمد ﷺ، وكنيته أبو القاسم لأنه يقسم الجنة بين أهلها.

● وأما «عبدالله» فسماه الله تعالى به في أشرف مقاماته فقال: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾^(١) وقال: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾^(٢)، وقال: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾^(٣) فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه والتحدي بأن يأتوا بمثله. وقال تعالى: ﴿وأنه لما قام عبدالله يدعو﴾^(٤) فذكره في مقام الدعوة

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣٠.

(٢) سورة الفرقان، الآية ١.

(٣) سورة الكهف، الآية ١.

(٤) سورة الجن، الآية ١٩.

إليه، وقال تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾^(١)، وقال: ﴿فأوحى إلى عبده﴾^(٢)، ولو كان له اسم أشرف منه لسماه به في تلك الحالات العلية.

ولما رفعه الله تعالى إلى حضرته السنية، ورقاه إلى أعلى المعالي العلوية، ألزمه - تشريفاً له - اسم العبودية، وقد كان ﷺ يجلس للأكل جلوس العبد، وكان يتخلى عن وجوه الترفعات كلها في ملبسه ومأكله ومبيته ومسكنه إظهاراً لظاهر العبودية فيما يناله العيان، صدقاً عما في باطنه من تحقق العبودية لربه تحقيقاً لمعنى ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به﴾^(٣).

ولما خير بين أن يكون نبياً ملكاً، أو نبياً عبداً، اختار أن يكون نبياً عبداً، فاختر ما هو الأتم، وكان ﷺ يقول كما في الصحيح: (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى، ولكن قولوا/ عبدالله ورسوله)، فاستثبت^(٤) ما هو ثابت له، وأسلم لله ما هو له لا لسواه، وليس للعبد إلا اسم العبد، ولذا كان «عبدالله» أحب الأسماء إلى الله تعالى.

(١) سورة الإسراء، الآية ١.

(٢) سورة النجم، الآية ١٠.

(٣) سورة الزمر، الآية ٣٣.

(٤) في ش فأنبت.

الفصل الثاني

في ذكر أولاده الكرام
عليه وعليهم الصلاة والسلام

[الأولاد المتفق عليهم]

اعلم أن جملة ما اتفق عليه منهم ستة: القاسم وإبراهيم، وأربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وكلهن أدركن الإسلام وهاجرن معه.

[الخلاف في غيرهم]

واختلف فيما سوى هؤلاء:

فعند ابن إسحاق: الطاهر والطيب أيضاً فتكون على هذا ثمانية، أربعة ذكور وأربع إناث.

وقال الزبير بن بكار^(١): كان له عليه السلام سوى إبراهيم والقاسم عبدالله، مات صغيراً بمكة، ويقال له: الطيب والطاهر، ثلاثة أسماء.

(١) الزبير بن بكار بن عبدالله الأسدي المدني، ثقة حافظ، علامة بالنسب، مات سنة ست وخمسين ومائتين.

وهو قول أكثر أهل النسب، قاله أبو عمر، وقال الدارقطني: هو الأثبت.

وسمي عبدالله بالطيب والظاهر لأنه ولد بعد النبوة. فعلى هذا تكون جملتهم سبعة، ثلاثة ذكور.

وقيل: عبدالله غير الطيب والظاهر، حكاه الدارقطني وغيره. فتكون جملتهم على هذا تسعة، خمسة ذكور.

وقيل: كان له الطيب والمطيب، ولدا في بطن، والظاهر والمطهر، ولدا في بطن، ذكره صاحب الصفوة^(١)، فيكونون على هذا أحد عشر.

وقيل: ولد له ولد قبل المبعث يقال له عبد مناف، فيكونون على هذا اثني عشر، وكلهم سوى هذا ولد في الإسلام بعد المبعث. وقال ابن إسحاق: كلهم غير إبراهيم قبل الإسلام. ومات البنون قبل الإسلام وهم يرتضعون، وقد تقدم من قول غيره أن عبدالله ولد بعد النبوة ولذلك سمي بالطيب والظاهر.

فتحصل من جميع الأقوال ثمانية ذكور: اثنان متفق عليهما: القاسم وإبراهيم، وستة مختلف فيهم: عبد مناف، وعبدالله، والطيب، والمطيب، والظاهر، والمطهر.

والأصح أنهم ثلاثة ذكور والأربع بنات متفق عليهن وكلهم من خديجة بنت خويلد إلا إبراهيم.

(١) هو ابن الجوزي.

[القاسم]

فأما القاسم فهو أول ولد له عليه الصلاة والسلام قبل النبوة، وبه كان يكنى.

وعاش حتى مشى، وقيل عاش سنتين، وقال مجاهد مكث سبع ليال، وخطأه الغلابي^(١) في ذلك وقال: الصواب أنه عاش سبعة عشر شهراً. وقال ابن فارس: بلغ ركوب الدابة ومات قبل المبعث. وفي مستدرك^(٢) الفرياني^(٣) ما يدل على أنه توفي في الإسلام. وهو أول من مات من ولده عليه الصلاة والسلام.

[زينب]

وأما زينب فهي أكبر بناته بلا خلاف إلا ما لا يصح، وإنما الخلاف فيها وفي القاسم أيها ولد أولاً.

وعند ابن إسحاق أنها ولدت في سنة ثلاثين من مولد النبي ﷺ، وأدركت الإسلام، وهاجرت، وماتت سنة ثمان من الهجرة عند زوجها - وابن خالتها - أبي العاص لقيط وقيل مهشم^(٤) بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس.

وكانت هاجرت قبله وتركته على شركه، وردها النبي ﷺ إليه

(١) المفضل بن غسان الغلابي، نسبة إلى جده، شيخ ابن أبي الدنيا.

(٢) في ش: مسند.

(٣) جعفر بن محمد الفرياني، أبو بكر، العلامة الحافظ قاضي الدينور صاحب التصانيف، الثقة المأمون، قال الخطيب: كان من أوعية العلم وأهل المعرفة، ولد سنة سبع ومائتين ومات سنة إحدى وثلاثمائة.

(٤) في ش: مقسم، قال: وفي قول مهشم: وهو قول في اسمه.

بالنكاح الأول بعد سنتين، وقيل بعد ست سنين وقيل قبل^(١) انقضاء العدة، فيما ذكره ابن عقبة. وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ردها له بنكاح جديد سنة سبع.

وولدت له علياً، مات صغيراً وقد ناهز الحلم، وكان رديف النبي ﷺ على ناقته يوم الفتح، وولدت له أيضاً أمامة التي حملها ﷺ في صلاة الصبح على عاتقه، وكان إذا ركع وضعها وإذا رفع رأسه من السجود أعادها^(٢)، وتزوجها علي بن أبي طالب بعد موت فاطمة.

[رقية]

وأما رقية فولدت سنة ثلاث وثلاثين من مولده ﷺ. وذكر الزبير بن بكار وغيره أنها أكبر بناته ﷺ وصححه الجرجاني النسابة. والأصح الذي عليه الأكثرون/ كما تقدم، أن زينب أكبرهن.

/١٠٣

وكانت رقية تحت عتبة بن أبي لهب، وأختها أم كلثوم تحت أخيه عتيبة، فلما نزلت ﴿تبت يدا أبي لهب﴾^(٣) قال لهما أبوهما - أبو لهب - رأسي من رأسكما حرام إن لم تفارقا ابنتي محمد، ففارقاهما ولم يكونا دخلا بهما.

فتزوج عثمان بن عفان رقية بمكة، وهاجر بها الهجرتين إلى أرض الحبشة، وكانت ذات جمال رائع. وذكر الدولابي أن تزويجه بها كان في الجاهلية، وذكر غيره ما يدل على أنه كان بعد إسلامه.

(١) في ش، بعد، وعليه فهو حاصل القولين قبله.

(٢) أخرجه الشيخان.

(٣) سورة المسد، الآية ١.

وتوفيت والنبي ﷺ ببدر. وعن ابن عباس: لما عزي ﷺ برقية
قال: الحمد لله، دفن البنات من المكرمات^(١) أخرجها الدولابي^(٢).

[أم كلثوم]

وأما أم كلثوم فلا يعرف لها اسم، وإنما تعرف بكنيته، وكانت
تحت عتية بن أبي لهب - كما قدمته - ففارقها قبل الدخول.

ويروى أن عتية لما فارق أم كلثوم جاء إلى النبي ﷺ فقال:
كفرت بدينك، وفارقت ابنتك، لا تحبني ولا أحبك. ثم سطا عليه
وشق قميصه وهو خارج نحو الشام تاجراً. فقال ﷺ: أما إني أسأل
الله أن يسلط عليك كلبه، وفي رواية: اللهم سلط عليه كلباً من
كلابك^(٣)، وأبو طالب حاضر فوجم لها وقال: ما كان أغناك عن دعوة
ابن أخي، فخرج في تجر^(٤) من قريش حتى نزلوا مكاناً من الشام يقال
له الزرقاء ليلاً، فأطاف بهم الأسد تلك الليلة فجعل عتية يقول: يا
ويل أمي، هو والله آكلي، كما دعا علي محمد، أقاتلي ابن أبي كبشة
وهو بمكة وأنا بالشام، فعدا عليه الأسد من بين القوم فأخذ برأسه
ففدغه. وفي رواية: فجاء الأسد فجعل يتشمم وجوههم، ثم ثنى ذنبه
فوثب فضربه ضربة واحدة فخدشه، فقال: قتلتني ومات. وفي رواية:

(١) لو صح هذا الحديث فإنه ورد مورد التسلية عن المصيبة وحاشاه أن يقوله
كراهة للبنات كما يظنه الجهلة. كذا قال بعض العلماء.

(٢) رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبخاري وابن عدي والقضاعي كلهم بسند
ضعيف. قال في «اسنى المطالب» حكم ابن الجوزي بوضعه. وقال الدكتور
الصبغ في تحقيق مختصر المقاصد الحسنة: الحديث موضوع [م].

(٣) قال الحاكم: صحيح الإسناد من حديث أبي نوفل.

(٤) من جموع: تاجر.

أن الأسد أقبل يتخطاهم حتى أخذ برأس عتيبة ففدغه، ذكره
الدولابي.

ولما توفيت رقية خطب عثمان ابنة عمر حفصة فرده^(١)، فبلغ
ذلك النبي ﷺ فقال: يا عمر، أدلك على خير لك من عثمان، وأدل
عثمان على خير له منك؟ قال: نعم يا نبي الله، قال: تزوجني ابنتك،
وأزوج عثمان ابنتي، خرجه الحنندي.

وكان تزويج عثمان بأم كلثوم سنة ثلاث من الهجرة. وروي أنه
ﷺ قال له: والذي نفسي بيده لو أن عندي مائة بنت يمتن واحدة بعد
واحدة، زوجتك أخرى [بعد أخرى]^(٢)، هذا جبريل أخبرني أن الله
يأمرني أن أزوجهها. رواه الفضائي.

وماتت أم كلثوم سنة تسع من الهجرة، وصلى عليها ﷺ ونزل
في حفرتها علي والفضل وأسامة ابن زيد. وفي البخاري (جلس ﷺ
على القبر وعيناه تذرغان وقال: هل فيكم أحد لم يقارف الليلة فقال أبو
طلحة: أنا، فقال: انزل قبرها فنزل).

وقد روي نحو ذلك في رقية، وهو وهم، فإنه ﷺ لم يكن حال
دفنها حاضراً، بل كان في غزوة بدر كما قدمته.

وغسلتها أسماء بنت عميس، وصفية بنت عبد المطلب،
وشهدت أم عطية غسلها، وروت قوله ﷺ: اغسلنها ثلاثاً أو خمساً أو
سبعاً، أو أكثر من ذلك إن رأيتم ذلك، بماء وسدر، واجعلن في

(١) هذا معارض لما ورد في الحديث المتفق عليه من أن عمر عرض على عثمان
أن يزوجه حفصة.. وهو عند البخاري برقم ٥١٢٩ و٥١٤٥ [المحقق].

(٢) في (ط، د).

الآخرة كافوراً، فإذا فرغتن فأذني، فلما فرغنا آذناه فألقى إلينا حقوه وقال: أشعرنها إياه، قالت ومشطناها ثلاثة قرون وألقيناها خلفها^(١).

و«الحقو»: الإزار، و«أشعرنها» أي اجعلنه شعارها الذي يلي ١٠٣/ب جسدها، وذلك هو الشعار/ وما فوقه الدثار.

[فاطمة الزهراء]

وأما فاطمة الزهراء البتول فولدت سنة إحدى وأربعين من مولد النبي ﷺ، قاله أبو عمر، وهو مغاير لما رواه ابن إسحاق: أن أولاده ﷺ كلهم ولدوا قبل النبوة إلا إبراهيم، وقال ابن الجوزي: ولدت قبل النبوة بخمس سنين، أيام بناء البيت.

وروي مرفوعاً: إنما سميت فاطمة، لأن الله قد فطمها وذريتها عن النار يوم القيامة، أخرجه الحافظ الدمشقي^(٢). وروى الغساني [والخطيب]^(٣) مرفوعاً: لأن الله فطمها ومحبيها عن النار.

وسميت بتولاً لانقطاعها عن نساء زمانها فضلاً ودينياً وحسباً، وقيل: لانقطاعها عن الدنيا إلى الله، قاله ابن الأثير.

وتزوجت بعلي بن أبي طالب في السنة الثانية، وقيل بعد أحد، وقيل بعد بنائه عليه السلام بعائشة بأربعة أشهر ونصف، وبنى بها بعد تزويجها بسبعة أشهر ونصف، وقيل في صفر في السنة الثانية، وبنى بها في ذي الحجة على رأس اثنين وعشرين شهراً.

(١) متفق عليه.

(٢) هو ابن عساكر.

(٣) في ش، قال الشارح: وقال الخطيب: فيه مجاهيل.

وكان تزويجها بأمر الله ووحيه^(١). وتزوجت ولها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصف^(٢) ولعلي إحدى وعشرون سنة وخمسة أشهر، وقيل غير ذلك. وتقدم مزيد لذلك في المغازي والسير من المقصد الأول.

قال أبو عمر: وفاطمة وأم كلثوم أفضل بنات النبي ﷺ، وكانت فاطمة أحب أهله إليه ﷺ، وكان يقبلها في فيها ويمصها لسانه، وإذا أراد سفرأ يكون آخر عهده بها، وإذا قدم أول ما يدخل عليها.

وقال ﷺ: (فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني) رواه البخاري^(٣). وقال لها: (أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين) رواه مسلم^(٤)، وفي رواية أحمد (أفضل نساء أهل الجنة).

وتوفيت بعده ﷺ بستة أشهر، ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان سنة إحدى عشرة، وهي ابنة تسع وعشرين سنة، قاله المدني. وقيل توفيت بعده بثمانية أشهر وقيل غير ذلك، والأول أصح كذا قالوه فيما رأيت، وهو غير منتظم مع السابق فليتأمل.

وروي أنها قالت لأسماء بنت عميس: إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء أن يطرح على المرأة الثوب فيصفها، فقالت أسماء: يا بنت رسول الله ألا أريك شيئاً رأيت به بأرض الحبشة، فدعت بجرائد رطبة، فحنتها ثم طرحت عليها ثوباً، فقالت فاطمة ما أحسن هذا،

(١) في الحديث (إن الله أمرني أن أزوج فاطمة من علي) رواه الطبراني برجال ثقات.

(٢) هذا بناء على القول بأن ولادتها كانت في السنة الأولى من النبوة.

(٣) رواه البخاري برقم (٣٧٦٧).

(٤) رواه البخاري برقم (٦٢٨٥، ٦٢٨٦) ومسلم (٢٤٥٠).

تعرف به المرأة من الرجل، فإذا أنا مت فاغلسيني أنت وعلي، ولا يدخل علي أحد، الحديث خرجه أبو عمر.

وفي حديث أم رافع سلمى^(١) أنها لما اشتكت اغتسلت ولبست ثياباً جدداً واضطجعت في وسط البيت، ووضعت يدها اليمنى تحت خدها، ثم استقبلت القبلة وقالت: إني مقبوضة الآن فلا يكشفني أحد ولا يغسلني، ثم قبضت مكانها، ودخل علي فأخبر بالذي قالت، فاحتملها فدفنها بغسلها ذلك، ولم يكشفها ولا غسلها أحد. رواه أحمد في المناقب والدولابي وهذا لفظه مختصراً، وهو مصاد لخبر أسماء المتقدم.

قال أبو عمر: فاطمة أول من غطي نعشها من النساء على الصفة المذكورة في خبر أسماء المتقدم، ثم بعدها زينب بنت جحش صنع بها ذلك أيضاً.

وولدت لعلي: حسناً وحسيناً ومحسناً، فمات محسن صغيراً، وأم كلثوم وزينب.

[ذرية فاطمة الزهراء]

ولم يكن لرسول الله ﷺ عقب إلا من ابنته فاطمة رضي الله عنها فانتشر نسله الشريف منها من جهة السبطين الحسن والحسين فقط. ويقال للمنسوب لأولهما: حسني، ولثانيتها: حسيني.

وقد يضم للحسيني من يكون من ذرية إسحاق بن جعفر

(١) في (أ، ب): أم سلمى، وهو غلط فالذي في مسند أحمد وغيره: أم رافع واسمها سلمى وهي مشهورة باسمها وكنيتها.

الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي / بن ١٠٤ /
أبي طالب الإسحاقى، فيقال: الحسينى الاسحاقى .

وإسحاق هذا، هو زوج السيدة نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن
الحسن بن علي، وله منها: القاسم وأم كلثوم ولم يعقبا.

وتزوج عمر بن الخطاب أم كلثوم بنت فاطمة، فولدت له:
زيداً ورقية، ولم يعقبا. ثم تزوجت أم كلثوم بعد موت عمر بعون بن
جعفر، ثم تزوجت بعد وفاته بأخيه محمد بن جعفر ثم مات عنها
فتزوجت بأخيها عبدالله بن جعفر ثم ماتت عنده ولم تلد لواحد من
الثلاثة سوى للثاني ابنة صغيرة فليس لها عقب.

ثم تزوج عبدالله بن جعفر أختها زينب بنت فاطمة، فولدت له
عدة من الأولاد، منهم: علي وأم كلثوم.

وتزوج أم كلثوم - هذه - ابن عمها القاسم بن محمد بن جعفر
ابن أبي طالب فولدت له عدة من الأولاد منهم: فاطمة زوج حمزة بن
عبدالله بن الزبير بن العوام، وله منها عقب.

وبالجملة: فعقب عبدالله بن جعفر انتشر من علي وأخته أم
كلثوم ابني زينب بنت الزهراء. ويقال لكل من ينتسب لهؤلاء
جعفرى، ولا ريب أن لهؤلاء شرفاً.

وأما الجعافرة المنسوبون لعبدالله بن جعفر فلهم أيضاً شرف،
لكنه يتفاوت، فمن كان من ولده من زينب بنت الزهراء فهم أشرف
من غيرهم^(١)، مع كونهم لا يوازون شرف المنسوبين للحسن والحسين
لمزيد شرفهما، وكذا يوصف العباسيون بالشرف لشرف بني هاشم.

(١) في ط وردت هذه الجملة وما بعدها بصيغة الإفراد: فهو أشرف من غيره..

قال الحافظ ابن حجر في الألقاب: وقد لقب به - يعني بالشريف - كل عباسي ببغداد وعلوي بمصر. وفي شيوخ ابن الرفعة شخص يقال له الشريف العباسي.

[عبدالله]

وأما عبدالله ابن النبي ﷺ فقبل مات صغيراً بمكة، فقال العاصي بن وائل: قد انقطع ولده فهو أبتري، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنْ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾^(١).

واختلف: هل ولد قبل النبوة أو بعدها؟ وهل هو الطيب والظاهر؟ والصحيح: أنها لقبان له، كما تقدم.

[إبراهيم]

وأما إبراهيم فمن مارية القبطية، وسيأتي ذكرها في سراريه عليه السلام إن شاء الله تعالى في الفصل التالي لهذا في أمهات المؤمنين.

وولد في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة، وقيل ولد بالعالية، ذكره الزبير بن بكار، وكانت سلمى زوج أبي رافع مولاة رسول الله ﷺ قابلته، فبشر أبو رافع به النبي ﷺ فوهب له عبداً، وعق عنه يوم سابعه بكبشين، وحلق رأسه أبو هند، وسماه النبي ﷺ يومئذ، وتصدق بزنة شعره ورقا على المساكين، ودفنوا شعره في الأرض.

وفي البخاري: من حديث أنس بن مالك، أنه ﷺ قال: ولد لي الليلة غلام سميته باسم أبي إبراهيم، ثم دفعه إلى أم سيف، امرأة

(١) سورة الكوثر، الآية ٣.

قين بالمدينة يقال له أبو سيف، الحديث، وفيه: أنه بقي عندها إلى أن مات، والقين: الحداد.

ويجمع بينهما: بأن التسمية كانت قبل السابع، كما في حديث أنس هذا ثم ظهرت فيه، وأما حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده - عند الترمذي مرفوعاً - أنه أمر بتسمية المولود يوم سابعه، فيحمل على أنها لا تؤخر عن السابع، لا أنها لا تكون إلا فيه، بل هي مشروعة من الولادة إلى السابع.

قال الزبير بن بكار: وتنافست الأنصار فيمن ترضع إبراهيم عليه السلام، فإنهم أحبوا أن يفرغوا مارية له عليه السلام، فأعطاه لأم بردة بنت المنذر بن زيد الأنصاري، زوجة البراء بن أوس، فكانت ترضعه بلبن ابنها في بني مازن بن النجار وترجع به إلى أمه. وأعطى ﷺ / أم بردة قطعة نخل.

ب/١٠٤

وقد تقدم أنه أعطاه أم سيف وبقي عندها إلى أن مات، فيحتمل أن يكون أعطاه أولاً أم بردة ثم أعطاه أم سيف وبقي عندها إلى أن توفي، لكن قد روي أنه توفي عند أم بردة، فيرجع في الترجيح إلى الصحيح^(١).

وعن أنس بن مالك قال: ما رأيت أحداً أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ، كان إبراهيم مسترضعاً في عوالي المدينة فكان ينطلق ونحن معه، فيدخل البيت وكان ظئره قيناً، فيأخذه فيقبله ثم يرجع. الحديث رواه أبو حاتم^(٢).

(١) في (أ، ب) التصحيح.

(٢) وكذا رواه مسلم في صحيحه.

وفي حديث جابر: أخذ ﷺ بيد عبد الرحمن بن عوف، فأتى به النخل فإذا ابنه إبراهيم يجود بنفسه، فأخذه ﷺ فوضعه في حجره ثم ذرفت عيناه، ثم قال: إنا بك يا إبراهيم لمحزونون، تبكي العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب. خرج به هذا السياق أبو عمرو ابن السماك، ومعناه في الصحيح.

وتوفي وله سبعون يوماً - فيما ذكره أبو داود - في ربيع الأول يوم الثلاثاء لعشر خلون منه، وقيل: بلغ ستة عشر شهراً وثمانية أيام، وقيل: سنة وعشرة أشهر وستة أيام.

وحمل على سرير صغير، وصلى عليه النبي ﷺ بالبيعة وقال: ندفنه عند فرطنا عثمان بن مظعون. وروي أن عائشة قالت: دفنه ﷺ ولم يصل عليه^(١)، فيحتمل أن يكون لم يصل عليه بنفسه وأمر أصحابه أن يصلوا عليه، أو لم يصل عليه في جماعة.

وروي أن الذي غسله أبو بردة، وروي الفضل بن العباس، ولعلها اجتمعا عليه.

ونزل قبره الفضل وأسامة، والنبي ﷺ على شفير القبر، ورش قبره وعلم بعلامة. قال الزبير: وهو أول قبر رش.

وانكسفت الشمس يوم موته فقال الناس: إنما كسفت لموت إبراهيم، فقال ﷺ: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد) رواه الشيخان. قيل: الغالب أن الكسوف يكون يوم الثامن والعشرين أو التاسع والعشرين، فكسفت يوم موت إبراهيم في العاشر، فلذلك قالوا: كسفت لموته.

(١) رواه أحمد والبخاري وأبو يعلى.

وقال ﷺ : إن له مرضعاً في الجنة، رواه ابن ماجه (١).

وقد روي من حديث أنس بن مالك أنه قال: لو بقي - يعني إبراهيم بن النبي ﷺ - لكان نبياً، ولكن لم يبق لأن نبيكم آخر الأنبياء. أخرجه أبو عمر.

قال الطبري: وهذا إنما يقوله أنس عن توقيف يخص إبراهيم، وإلا فلا يلزم أن يكون ابن النبي نبياً، بدليل ابن نوح عليه السلام.

وقال النووي في تهذيب الأسماء واللغات: وأما ما روي عن بعض المتقدمين: لو عاش إبراهيم لكان نبياً فباطل وجسارة على الكلام على المغيبات، ومجازفة وهجوم على عظيم. انتهى.

قال شيخنا في كتابه «المقاصد الحسنة»: ونحوه قول ابن عبد البر في تمهيده: لا أدري ما هذا، فقد ولد نوح غير نبي، ولو لم يلد النبي إلا نبياً لكان كل أحد نبياً، لأنهم من ولد نوح. انتهى.

قال الحافظ ابن حجر: ولا يلزم من الحديث المذكور ما ذكره الطبري لما لا يخفى، وكأنه سلف النووي، وقال أيضاً عقب كلام النووي: إنه عجيب مع وروده عن ثلاثة من الصحابة، قال: وكأنه لم يظهر له وجه تأويله، فقال في إنكاره ما قال.

وجوابه: أن القضية الشرطية لا تستلزم الوقوع، ولا يظن بالصحابي الهجوم على مثل هذا بالظن.

قال شيخنا: والطرق الثلاثة:

أحدها: ما أخرجه ابن ماجه وغيره من حديث ابن عباس: لما

(١) هذه الفقرة من حديث ابن ماجه هي عند البخاري برقم ٦١٩٥.

١/١٠٥ الجنة، لو عاش لكان صديقاً نبياً، ولو عاش / لأعتقت أخواله من القبط، وما استرق قبطي». وفي سنده أبو شيبة إبراهيم بن عثمان الواسطي، وهو ضعيف، ومن طريقه أخرجه ابن منده في المعرفة وقال: إنه غريب.

ثانيها: ما رواه إسماعيل^(١) السدي عن أنس قال: كان إبراهيم قد ملأ المهدي، ولو بقي لكان نبياً، الحديث.

ثالثها: ما عند البخاري من طريق محمد بن بشر عن إسماعيل ابن أبي خالد قال: قلت لعبدالله بن أبي أوفى: «رأيت إبراهيم بن النبي ﷺ؟ قال: مات صغيراً، ولو قضى بعد محمد نبي عاش ابنه إبراهيم، ولكن لا نبي بعده»^(٢).

وأخرجه^(٣) أحمد عن وكيع عن إسماعيل سمعت ابن أبي أوفى يقول: لو كان بعد النبي ﷺ نبي ما مات ابنه. انتهى.

(١) في ش، وفي النسخ إبراهيم.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم ٦١٩٤.

(٣) سقطت الواو من قوله «وأخرجه» وهي مذكورة في نسخة الشرح.

الفصل الثالث

في ذكر أزواجه الطاهرات
وسراريه المطهرات

[أمهات المؤمنين]

قال الله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾^(١) أي أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين، سواء من مات عنها أو ماتت عنه وهي تحته. وذلك في تحريم نكاحهن، ووجوب احترامهن، لا في نظر وخلوة.

ولا يقال بناتهن أخوات المؤمنين، ولا آباؤهن وأمهاتهن أجداد وجدات، ولا إخوتهن ولا أخواتهن أحوال وخالات.

قال البغوي^(٢): كن أمهات المؤمنين دون النساء، روي ذلك عن عائشة رضي الله عنها [ولفظها - كما في البيضاوي - : لسنا أمهات

(١) سورة الأحزاب، الآية ٦.

(٢) محمد بن الحسين بن مسعود، الحافظ الفقيه الإمام، صاحب التصانيف، كان من العلماء الربانيين، ذا عبادة ونسك وقناعة باليسير، مات سنة ست عشرة وخمسةائة عن ثمانين سنة.

النساء^(١) وهو جار على الصحيح عند أصحابنا وغيرهم من أهل
الأصول: أن النساء لا يدخلن في خطاب الرجال.

قال: وكان ﷺ أبا للرجال والنساء. ويجوز أن يقال أبو المؤمنين
في الحرمة.

وفضلت زوجاته ﷺ على النساء، وثوابهن وعقابهن مضاعفان،
ولا يحل سؤالهن إلا من وراء حجاب. وأفضلهن خديجة وعائشة رضي
الله عنهما، وفي أفضلهما خلاف يأتي تحقيقه إن شاء الله تعالى قريباً.

[عددهن وترتيبهن]

واختلف في عدة أزواجه ﷺ وترتيبهن، وعدة من مات منهن
قبله، ومن مات عنهن ومن دخل بها ومن لم يدخل بها، ومن خطبها
ولم ينكحها، ومن عرضت نفسها عليه.

والمتفق عليه: أنهن إحدى عشرة امرأة، ست من قریش:

- خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن
مرة بن كعب بن لؤي.
- وعائشة بنت أبي بكر بن أبي قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب
ابن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي.
- وحفصة بنت عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح^(٢)
ابن عبدالله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي.

(١) زيادة في شرح قال الشارح: عن مسروق: أن امرأة قالت لعائشة يا أمه
فقلت: لست لك بأم، إنما أنا أم رجالكم.

(٢) في النسخ: عبد العزى بن عبدالله بن قرط بن رياح بن رزاح، والمثبت
أعلاه هو ما جاء في نسخة الشرح، قال الشارح: يقع في بعض النسخ =

- وأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي .
- وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ابن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي .
- وسودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي .

وأربع عربيات :

- زينب بنت جحش بن رباب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمية .
- وميمونة بنت الحارث الهلالية .
- وزينب بنت خزيمية الهلالية أم المساكين .
- وجويرية بنت الحارث الخزاعية المصطلقية .

وواحدة غير عربية من بني إسرائيل وهي صفية بنت حيي من بني النضير .

ومات عنده ﷺ منهن اثنتان : خديجة وزينب أم المساكين، ومات ﷺ عن تسع، ذكر أسماءهن الحافظ أبو الحسن بن الفضل المقدسي نظماً فقال :

توفي رسول الله عن تسع نسوة إليهن تعزى المكرمات وتنسب
فعائشة ميمونة وصفية وحفصة تتلوهن هند^(١) وزينب

= تأخير رياح عن قرط وهو غلط . فالذي عليه أهل النسب وهو الذي في الفتح وشرح المصنف وغيرهم أن رياحاً والد عبد العزى وأن أباه عبد الله ابن قرط .

(١) هي أم سلمة .

جويرية مع رملة^(١) ثم سودة ثلاث وست ذكرهن مهذب

ب/١ ولا خلاف في أن أول امرأة تزوج بها منهن / خديجة بنت خويلد، وأنه ﷺ لم يتزوج عليها حتى ماتت.

وهذا حين الشروع في ذكرهن على الترتيب:

[خديجة]

فأما أم المؤمنين خديجة - وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم - فكانت تدعى في الجاهلية «الطاهرة»، وكانت تحت أبي هالة النباش بن أبي زرارة^(٢) فولدت له هنداً وهالة وهما ذكران.

ثم تزوجها عتيق بن عائذ^(٣) المخزومي، فولدت له جارية اسمها هند، وبعضهم يقدم عتيقاً على أبي هالة.

ثم تزوجها رسول الله ﷺ، ولها يومئذ من العمر أربعون سنة وبعض أخرى، وكان سنه ﷺ إحدى وعشرين سنة، وقيل خمساً وعشرين، وعليه الأكثر، وقيل ثلاثين.

وكانت عرضت نفسها عليه، فذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه منهم حمزة، حتى دخل على خويلد بن أسد، فخطبها إليه فتزوجها ﷺ وأصدقها عشرين بكرة. وزاد ابن إسحاق من طريق آخر: وحضر أبو طالب ورؤساء مضر: فخطب أبو طالب. وقد قدمت خطبته في

(١) هي أم حبيبة.

(٢) في ش النباش بن زرارة.

(٣) في (ب، ش) عابد.

المقصد الأول عند ذكر تزويجها له ﷺ . وذكر الدولابي وغيره أن النبي ﷺ أصدق خديجة اثنتي عشرة أوقية ذهباً.

وقد كانت خديجة - كما قدمته - أول من آمن من الناس، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة: «أن جبريل قال للنبي ﷺ يا محمد، هذه خديجة قد أتتك بإناء فيه طعام - أو إدام أو شراب - فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب» والقصب: اللؤلؤ المجوف.

قال ابن إسحاق: كان ﷺ لا يسمع شيئاً [يكرهه] (١) من رد عليه وتكذيب له عليه السلام، فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بخديجة إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه، وتصدقته وتهون عليه أمر الناس حتى ماتت.

وعن عبد الرحمن بن زيد قال: قال آدم عليه السلام: إني لسيد البشر يوم القيامة، إلا رجلاً من ذريتي نبياً من الأنبياء، يقال له أحمد، فضل علي باثنتين: زوجته عاوتة فكانت له عوناً، وكانت زوجتي علي عوناً، وأعانه الله على شيطانه فأسلم، وكفر شيطاني. خرجة الدولابي، كما ذكره الطبري (٢).

وخرج الإمام أحمد عن ابن عباس أنه ﷺ قال: أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة ابنة محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون.

قال الشيخ ولي الدين العراقي: خديجة أفضل أمهات المؤمنين على الصحيح المختار، وقيل: عائشة. انتهى.

(١) في ش، وهو عند ابن إسحاق. سيرة ابن هشام ١/٢٤٠.

(٢) قال الشارح: هذا حديث مقطوع لبعضه شواهد.

وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري^(١) في شرح بهجة الحاوي، عند ذكر أزواجه ﷺ : وأفضلهن خديجة وعائشة وفي أفضلهما خلاف، صحح ابن العماد تفضيل خديجة، لما ثبت أنه ﷺ قال لعائشة، حين قالت له: قد رزقك الله خيراً منها فقال: «لا والله ما رزقني الله خيراً منها، آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقني حين كذبنى الناس، وأعطني مالها حين حرمني الناس»^(٢).

وسئل ابن داود^(٣) أيهما أفضل؟ فقال: عائشة أقرأها النبي ﷺ السلام من جبريل، وخديجة أقرأها جبريل من ربه السلام على لسان محمد، فهي أفضل. قيل له: فمن أفضل خديجة أم فاطمة؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة مني» فلا أعدل ببضعة رسول الله ﷺ أحداً.

ويشهد له قوله ﷺ لها: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم.

واحتج من فضل عائشة بما احتجت به من أنها في الآخرة مع النبي ﷺ في الدرجة، وفاطمة مع علي فيها.

وسئل السبكي عن ذلك فقال: الذي نختاره، وندين الله به، ١/١٠٦ أن فاطمة بنت محمد أفضل من أمها خديجة، ثم أمها خديجة، ثم عائشة، ثم استدلل لذلك بما تقدم بعضه.

(١) زكريا بن أحمد الأنصاري، العلامة المحدث الفقيه الصوفي صاحب التصانيف، شهرته تغني عن تعريفه، عمر نحو مائة، توفي سنة نيف وعشرين وتسعمائة.

(٢) قال الشارح رواه الطبراني وأصله في الصحيحين مختصراً، وهو في المسند ١١٨/٦.

(٣) الإمام أبو بكر ابن الإمام المجتهد الحافظ داود بن علي الظاهري.

وأما خبر الطبراني: خير نساء العالمين مريم بنت عمران ثم خديجة بنت خويلد، ثم فاطمة بنت محمد، ثم آسية امرأة فرعون. فأجاب عنه ابن العماد: بأن خديجة إنما فضلت فاطمة باعتبار الأمومة، لا باعتبار السيادة.

واختار السبكي: أن مريم أفضل من خديجة لهذا الخبر، وللاختلاف في نبوتها، انتهى.

وقال أبو أمامة بن النقاش: إن سبق خديجة، وتأثيرها في أول الإسلام وموازرتها ونصرها وقيامها في الدين لله بما لها ونفسها، لم يشركها فيه أحد، لا عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين. وتأثير عائشة في آخر الإسلام، وحمل الدين وتبليغه إلى الأمة وإدراكها من الأحاديث ما لم تشركها فيه خديجة ولا غيرها، مما تميزت به عن غيرها، انتهى.

وماتت خديجة بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين، وقيل بأربع، وقيل بخمس، ودفنت في الحجون، وهي ابنة خمس وستين سنة، ولم يكن يومئذ يصلى على الجنازة، وكانت مدة مقامها مع النبي ﷺ خمساً وعشرين سنة، وقيل أربعاً وعشرين سنة.

[سودة بنت زمعة]

وأما سودة بنت زمعة - وأمها الشموس بنت قيس - فأسلمت قديماً، وكانت تحت ابن عم لها يقال له السكران بن عمرو - أخو سهيل ابن عمرو - أسلم معها قديماً، وهاجرا جميعاً إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، فلما قدما مكة مات زوجها، وقيل إنه مات بالحبشة.

وتزوجها ﷺ بمكة بعد موت خديجة قبل أن يعقد على عائشة،

هذا قول قتادة وأبي عبيدة^(١)، ولم يذكر ابن قتيبة غيره، ويقال تزوجها بعد عائشة. ويجمع بين القولين: بأنه ﷺ عقد على عائشة قبل سودة، ودخل بسودة قبل عائشة، والتزويج يطلق على كل منهما، وإن كان المتبادر إلى الفهم العقد دون الدخول.

ولما كبرت سودة أراد ﷺ طلاقها^(٢)، فسألته أن لا يفعل وجعلت يومها لعائشة فأمسكها.

(١) في ط: عبيد.

(٢) جاء في الصحيحين عن عائشة (أن سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة)، ونص مسلم (لما كبرت جعلت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة) البخاري برقم ٥٢١٢ ومسلم برقم ١٤٦٣ وعند البخاري أيضاً برقم ٢٥٩٣ . . .) . . . تبتغي بذلك رضى رسول الله ﷺ).

قال ابن حجر: وعند أبي داود (. . .) ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت وخافت أن يفارقها رسول الله ﷺ : يا رسول الله يومي لعائشة) فيها وأشباهاها نزلت ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً﴾ النساء ١٢٨، وتابعه ابن سعد. . . ورواه سعيد بن منصور، وعند الترمذي من حديث ابن عباس موصولاً نحوه، وكذا قال عبد الرزاق عن معمر بمعنى ذلك. فتواردت هذه الروايات على أنها خشيت الطلاق فوهبت. (الفتح ٣١٣/٩).

قال الشارح أخرج ابن سعد عن عائشة من طرق في بعضها أنه بعث إليها بطلاقها. . والطريقان مرسلان لكن صحح الدمياطي وتلميذه اليعمري أنه لم يطلقها.

أقول: إن نص الآية الكريمة «خافت» ونصوص أكثر الروايات - كما أشار صاحب الفتح - «خافت» أو «خشيت» وهذا يعني أن الطلاق لم يقع، ولو كان وقع لما كان التعبير بلفظ الخوف: الذي هو توقع حدوث أمر مكروه، فالذي يغلب على الظن أن سودة قدرت الموقف فخافت أن يحدث الطلاق فبادرت قبل ذلك. وأكبر الظن أن الرسول ﷺ ما كان ليفعل ذلك. [المحقق].

وتوفيت بالمدينة في شوال سنة أربع وخمسين. وروى البخاري في تاريخه بإسناد صحيح إلى سعيد بن أبي هلال: أنها ماتت في خلافة عمر، وجزم الذهبي في التاريخ الكبير بأنها ماتت في آخر خلافة عمر، وقال ابن سيد الناس: إنه المشهور.

[عائشة]

وأما أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها - وأمها أم رومان ابنة عامر ابن عويمر بن عبد شمس، من بني مالك بن كنانة - فكانت مسهاة على جبير بن مطعم، فخطبها النبي ﷺ وأصدقها - فيما قاله ابن إسحاق - أربعمائة درهم، وتزوجها بمكة في شوال سنة عشر من النبوة قبل الهجرة بثلاث سنين، ولها ست سنين، وأعرس بالمدينة في شوال سنة اثنتين من الهجرة على رأس ثمانية عشر شهراً، ولها تسع سنين. وقيل بعد سبعة أشهر من مقدمه عليه الصلاة والسلام.

وخرج الشيخان عن عائشة أنها قالت: (تزوجني رسول الله ﷺ وأنا ابنة ست سنين فقدمنا المدينة، فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج، فوعكت فتمزق شعري، فأتتني أمي - أم رومان - وإني لفي أرجوحة مع صواحب لي، فصرخت بي فأتيتهما، ما أدري ما تريد مني، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار، وأنا أنهج، حتى سكن بعض نفسي، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن: على الخير والبركة، فأسلمتني إليهن فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى، فأسلمتني إليه، وأنا يومئذ بنت تسع سنين). /

وأخرجه أبو حاتم بتغيير بعض ألفاظه.

قال أبو عمر: كان نكاحه ﷺ لعائشة في شوال، وابتنى بها في شوال، وكانت تحب أن يدخل النساء من أهلها وأحببتها في شوال على أزواجهن.

وكانت أحب نساء رسول الله ﷺ إليه، وكانت إذا هويت الشيء تابعها عليه، وفقدتها عليه السلام في بعض أسفاره فقال: واعروساه. خرجه أحمد.

وقال لها ﷺ - كما في الصحيحين -: (رأيتك في المنام ثلاث ليال، جاءني بك الملك في سرقة من حرير، فيقول: هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك فأقول: إن يكن من عند الله يمضه) والسَّرَقَةُ: شقة الحرير أو البيضاء^(١).

وفي الترمذي أن جبريل جاءه عليه الصلاة والسلام بصورتها في خرقة حرير خضراء وقال هذه زوجتك في الدنيا والآخرة. وفي رواية عنده: قال جبريل: إن الله قد زوجك بابنة أبي بكر، ومعه صورتها.

وكانت مدة مقامها معه ﷺ تسع سنين، ومات عنها ﷺ ولها ثماني عشرة سنة^(٢) ولم يتزوج بكرًا غيرها، وكانت فقيهة عالمة فصيحة، كثيرة الحديث عن رسول الله ﷺ، عارفة بأيام العرب وأشعارها، روى عنها جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين، وكان ﷺ يقسم لها ليلتين، ليلتها وليلة سودة بنت زمعة، لأنها وهبت ليلتها لما كبرت لها - كما تقدم - ولنسائه ليلة ليلة، وكان يدور على نسائه ويختم بعائشة.

وماتت بالمدينة سنة سبع وخمسين. وقال الواقدي: ليلة الثلاثاء

(١) أي هي شقة الحرير أي كان لونها، أو الحرير الأبيض خاصة. والحديث عند البخاري برقم ١٨٢٠ ومسلم ٢٤٣٨.

(٢) كذا في الشرح وهو الصواب، وفي النسخ: ثمانية عشر سنة.

لسبع عشرة خلت من رمضان سنة ثمان وخمسين، وهي ابنة ست وستين سنة، وأوصت أن تدفن بالبقيع ليلاً، وصلى عليها أبو هريرة، وكان يومئذ خليفة مروان على المدينة في أيام معاوية بن أبي سفيان.

وكانت عائشة تكنى أم عبدالله، يروى أنها أسقطت من النبي ﷺ سقطاً، ولم يثبت والصحيح أنها كانت تكنى بعبدالله بن الزبير، ابن أختها، فإنه عليه الصلاة والسلام تفل في فيه لما ولد، وقال لعائشة: هو عبدالله وأنت أم عبدالله، قالت: فما زلت أكنى بها وما ولدت قط. خرج أبو حاتم.

[حفصة بنت عمر]

وأما أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما - وأمها زينب بنت مظعون - فأسلمت وهاجرت. وكانت قبل رسول الله ﷺ تحت خنيس - بضم المعجمة وفتح النون وبالسین المهملة - ابن حذافة السهمي، هاجرت معه، ومات عنها بعد غزوة بدر.

فلما تأميت ذكرها عمر على أبي بكر وعثمان^(١) فلم يجبه واحد منها إلى زواجها، فخطبها رسول الله ﷺ فأنكحها إياها في سنة ثلاث من الهجرة، وطلقها تطلقاً واحدة، ثم راجعها، نزل عليه الوحي: راجع حفصة فإنها حوامة قوامة وإنها زوجتك في الجنة^(٢).

وروى عنها جماعة من الصحابة والتابعين. وماتت في شعبان سنة خمس وأربعين في خلافة معاوية، وقيل سنة إحدى وأربعين، وهي ابنة ستين سنة، وقيل إنها ماتت في خلافة عثمان.

(١) هذا في الصحيح عند البخاري برقم ٥١٢٩ و٥١٤٥.

(٢) أخرجه ابن سعد والطبراني برجال الصحيح من مرسل قيس بن سعد.

[أم سلمة]

وأما أم المؤمنين أم سلمة هند، وقيل رملة والأول أصح - وأمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة، وليست عاتكة بنت عبد المطلب - فكانت ١/١٠٧ قبل رسول الله ﷺ تحت أبي سلمة/ بن عبد الأسد، وكانت هي وزوجها أول من هاجر إلى أرض الحبشة، فولدت له بها زينب، وولدت له بعد ذلك سلمة وعمر ودرة، وقيل هي أول ظعينة دخلت المدينة مهاجرة، وقيل غيرها، ومات أبو سلمة سنة أربع وقيل سنة ثلاث من الهجرة.

وكانت أم سلمة سمعته ﷺ يقول: (ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول: اللهم آجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها)^(١) قالت: فلما مات أبو سلمة قلت أي المسلمين خير من أبي سلمة، ثم إني قتلها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ فأرسل إلي رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطنني له.

وفي رواية: فخطبها أبو بكر فأبت، وخطبها عمر فأبت، ثم أرسل إليها رسول الله ﷺ فقالت: مرحباً برسول الله، إن في خلا لا ثلاثاً: أنا امرأة شديدة الغيرة، وأنا امرأة مصيبة وأنا امرأة ليس لي ها هنا أحد من أوليائي فيزوجني. فغضب عمر لرسول الله ﷺ أشد مما غضب لنفسه حين رده، فأتاها رسول الله ﷺ فقال: أما ما ذكرت من غيرتك فإني أدعو^(٢) الله أن يذهبها عنك، وأما ما ذكرت من صبيتك فإن الله سيكفيهم، وأما ما ذكرت من أوليائك فليس أحد من أوليائك يكرهني. فقالت لابنها: زوج رسول الله ﷺ فزوجه. قال

(١) رواه أبو داود والنسائي عن أم سلمة.

(٢) في ش: أرجو.

صاحب «السمط الثمين»^(١) رواه بهذا السياق هدبة بن خالد «وصاحب الصفوة» وخرج أحمد والنسائي طرفاً منه، ومعناه في الصحيح .

وفيه دلالة على أن الابن يلي العقد على أمه، وعندنا^(٢) أنه إنما زوجها بالعصوبة لأنه ابن ابن عمها، لأن أبا سلمة عبدالله بن عبد الأسد بن هلال بن عبدالله، وأم سلمة هند بنت سهيل بن المغيرة بن عبدالله، ولم يكن أحد من عصبتها حاضراً غيره .

وكانت أم سلمة من أجل النساء، وتزوجها رسول الله ﷺ في ليال بقين من شوال من السنة التي مات فيها أبو سلمة .

وماتت سنة تسع وخمسين وقيل سنة اثنتين وستين، والأول أصح، ودفنت بالبقيع وصلى عليها أبو هريرة، وقيل سعيد بن زيد، وكان عمرها أربعاً وثمانين سنة .

[أم حبيبة]

وأما أم المؤمنين أم حبيبة، رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب، وقيل اسمها هند، والأول أصح - وأمها صفية بنت أبي العاصي [بن أمية عمه عثمان بن عفان]^(٣) - فكانت تحت عبيدالله بن جحش، وهاجر بها إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، ثم تنصر وارتد عن الإسلام ومات هناك، وثبتت أم حبيبة على الإسلام .

واختلف في وقت نكاح رسول الله ﷺ إياها، وموضع العقد، فقول: إنه عقد عليها بأرض الحبشة سنة ست، فروي أنه ﷺ بعث

(١) هو المحب الطبري .

(٢) أي الشافعية .

(٣) زيادة في ش .

عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ليخطبها عليه، فزوجها إياه، وأصدقها عنه أربعمئة دينار، وبعث بها إليه مع شرحبيل بن حسنة.

وروي أن النجاشي أرسل إليها جاريتة «أبرهة» فقالت: إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ كتب إلي أن أزوجك منه، وأنها أرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاصي فوكلته وأعطت أبرهة سوارين وخواتم من فضة سروراً بما بشرتها به، فلما كان العشي أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن هناك من المسلمين فحضروا، فخطب النجاشي فقال: الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أما بعد: ١٠٧/ب فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ / وقد أصدقته عن أربعمئة دينار ذهباً، ثم سكب الدنانير بين يدي القوم. فتكلم خالد بن سعيد فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. أما بعد: فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسوله ﷺ فيها. ودفعت الدنانير إلى خالد بن سعيد بن العاصي فقبضها، ثم أرادوا أن يقوموا فقال: اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج، فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا. خرج صاحب الصفوة كما قال الطبري. وكان ذلك سنة سبع من الهجرة.

قال أبو عمر: واختلف فيمن زوجها، فروي أنه سعيد بن العاصي، وروي عثمان بن عفان وهي ابنة عمته. وذكر البيهقي أن الذي زوجها خالد بن سعيد بن العاصي وهو ابن ابن عم أبيها، لكن

إن صح التاريخ المذكور فلا يصح أن يكون عثمان هو الذي زوجها، فإنه كان مقدمه من الحبشة قبل وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة.

وكان أبو سفيان أبوها حال نكاحها بمكة مشركاً محارباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد قيل إن عقد النكاح عليها كان بالمدينة بعد رجوعها من أرض الحبشة والمشهور الأول.

وماتت بالمدينة سنة أربع وأربعين وقيل: سنة اثنتين وأربعين.

[زينب بنت جحش]

وأما أم المؤمنين زينب بنت جحش - وأمها أميمة^(١) بنت عبد المطلب بن هاشم - فكان رسول الله ﷺ زوجها من زيد بن حارثة، فمكثت عنده مدة ثم طلقها - كما سيأتي إن شاء الله تعالى في الخصائص - فلما انقضت عدتها منه قال ﷺ لزيد بن حارثة اذهب فاذكرنى لها، قال: فذهبت إليها، فجعلت ظهري إلى الباب فقلت يا زينب بعث رسول الله ﷺ يذكرك، فقالت: ما كنت لأحدث شيئاً حتى أوامر ربي عز وجل، فقامت إلى مسجد لها، فأنزل الله تعالى: ﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها﴾^(٢) فجاء رسول الله فدخل عليها بغير إذن. أخرجه مسلم.

وقال المنافقون: حرم محمد نساء الولد، وقد تزوج امرأة ابنه، فأنزل الله تعالى: ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم﴾ الآية^(٣).

(١) في ط أمية.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٣٧.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٤٠.

وكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكن أبأؤكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات، رواه الترمذي وصححه.
وكان اسمها «برة» فسماها ﷺ زينب.

وعن أنس: لما تزوج ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فإذا هو ﷺ يتهاى للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام وقام من قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا، فانطلقت فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم انطلقوا. فجاء حتى دخل فذهبت لأدخل فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي﴾ الآية^(١).

وكان تزويجها له ﷺ في سنة خمس من الهجرة، وقيل سنة ثلاث. وهي أول من مات من أزواجه بعده. وقالت عائشة في شأنها: ولم تكن امرأة خيراً منها في الدين، وأتقى الله وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تتصدق به وتتقرب به إلى الله. رواه مسلم.

١/١٠٨ وماتت بالمدينة/ سنة عشرين، وقيل سنة إحدى وعشرين، ولها ثلاث وخمسون سنة، وصلى عليها عمر بن الخطاب، وهي أول من جعل على جنازتها نعش^(٢).

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٣.

(٢) بالنسبة للزوجات وإلا فإن فاطمة بنت رسول الله ﷺ هي أول من غطي نعشها.

[زينب أم المساكين]

وأما أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية، وكانت تدعى في الجاهلية أم المساكين لإطعامها إياهم، فكانت تحت عبد الله ابن جحش في قول ابن شهاب، قتل عنها يوم أحد فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ثلاث، ولم تلبث عنده إلا شهرين أو ثلاثة وتوفيت في حياته ﷺ، وقيل مكثت عنده ثمانية أشهر، ذكره الفضائي.

وقيل كانت قبله ﷺ تحت الطفيل بن الحارث، ثم خلف عليها أخوه عبدة بن الحارث وقتل عنها يوم أحد شهيداً، فخلف عليها رسول الله ﷺ، والأول أصح.

وتوفيت في ربيع الآخر سنة أربع ودفنت بالبقيع [على الطريق] (١) قال الطبري: كذا ذكره الفضائي، وإنما يكون هذا على ما حكاه من أنها مكثت عنده عليه السلام ثمانية أشهر، أما على ما حكاه أبو عمر فلا يصح، إذ العقد كان في سنة ثلاث، ومدتها عنده ﷺ شهران أو ثلاثة فلا يصح أن تكون وفاتها في ربيع الآخر، انتهى، فليتأمل.

[ميمونة بنت الحارث]

وأما أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية - وأمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث بن حماطة بن حمير - فتزوجها ﷺ لما كان بمكة معتمراً سنة سبع بعد غزوة خيبر، وكانت أختها أم الفضل لبابة الكبرى تحت العباس بن عبد المطلب، وأختها لأمها أسماء بنت عميس تحت جعفر، وسلمى بنت عميس تحت حمزة، وكانت جعلت أمرها إلى

(١) في ش.

العباس فأنكحها النبي ﷺ وهو محرم، فلما رجع بنى بها بسرف حلالاً، ذكره أبو عمر^(١).

وفي الصحيح من أفراد مسلم، عنها أنه ﷺ تزوجها وهو حلال، زاد البرقاني بعد قوله تزوجها حلالاً : وبنى بها حلالاً وماتت بسرف.

فيحمل قوله: وهو محرم، أي داخل في الحرم، ويكون العقد وقع بعد انقضاء العمرة، ثم خرج بها إلى سرف وابتنى بها فيه، وهو على عشرة أميال من مكة، كذا قاله الطبري. وسيأتي في مقصد المعجزات في ذكر الخصائص مزيد بيان لذلك إن شاء الله تعالى.

وكانت ميمونة قبل عند أبي رهم بن عبد العزى، ويقال: بل عبدالله بن أبي رهم، وقيل: بل عند حويطب بن عبد العزى، وقيل: بل فروة بن عبد العزى.

قال ابن إسحاق: ويقال: إنها وهبت نفسها للنبي ﷺ وذلك أن خطبته ﷺ انتهت إليها وهي على بغيرها فقالت: البعير وما عليه لله ولرسوله. وقيل: الواهبة نفسها غيرها.

وتوفيت ميمونة بسرف في الموضع الذي بنى بها فيه رسول الله ﷺ، وذلك سنة إحدى وخمسين، وقيل ست وخمسين وقيل ثلاث وستين، وصلى عليها ابن عباس ودخل قبرها.

[جويرية بنت الحارث]

وأما أم المؤمنين جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار - بكسر

(١) في ط: عمرو، وهو خطأ. إذ هو ابن عبد البر.

الضاد المعجمة وتخفيف الراء - فكانت تحت مسافح - بالسین المهملة والفاء - ابن صفوان المصطلقي . وكانت قد وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري ، في غزوة المريسيع ، وهي غزوة بني المصطلق^(١) ، في سنة خمس وقيل سنة ست ، فكاتبته على نفسها ، ثم جاءت رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله ، أنا جويرية بنت الحارث وكان من أمري ما لا يخفى عليك ، ووقعت في سهم ثابت بن قيس ابن شماس وإني كاتب نفسي ، فجئت أسألك في كتابتي ، فقال رسول الله ﷺ فهل لك إلى ما هو خير؟ قالت : وما هو يا رسول الله؟ قال : أودى عنك كتابتك وأتزوجك . قالت : قد فعلت . فتسامع الناس أن رسول الله / ﷺ قد تزوج جويرية فأرسلوا ما في أيديهم من السبي ، ١٠٨ فأعتقوهم وقالوا أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قالت عائشة : فما رأينا امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها ، أعتق في سببها مائة أهل بيت من بني المصطلق ، خرجه أبو داود من حديث عائشة .

وقال ابن هشام : ويقال اشتراها ﷺ من ثابت بن قيس وأعتقها وتزوجها وأصدقها أربعمئة درهم .

وعن ابن شهاب : سبى ﷺ جويرية بنت الحارث يوم المريسيع فحجبها وقسم لها ، وكانت ابنة عشرين سنة ، وكان اسمها «برة» فحوله ﷺ وسماها جويرية . وقد تقدم مثل ذلك في زينب بنت جحش .

وتوفيت وعمرها خمس وستون سنة في ربيع الأول سنة خمسين ،
وقيل سنة ست وخمسين .

(١) هذه الجملة والتي قبلها ليستا في ش .

[صفية بنت حيي]

وأما أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب بن سعية - بفتح السين وسكون العين المهملتين وبالياء المثناة التحتية - ابن ثعلبة بن عبيد من بني إسرائيل من سبط هارون بن عمران عليه الصلاة والسلام. وأمها ضرة - بفتح الضاد المعجمة وتشديد الراء - بنت سموءل - بفتح السين المهملة وفتح الميم وسكون الواو وفتح الهمزة وباللام - . فكانت تحت كنانة بن أبي الحقيق - بضم الحاء المهملة وفتح القاف الأولى وسكون المثناة التحتية - فقتل يوم خيبر في المحرم سنة سبع من الهجرة.

قال أنس: لما افتتح ﷺ خيبر وجمع السبي، جاءه دحية فقال يا رسول الله أعطني جارية [من السبي] ^(١)، فقال: اذهب فخذ جارية، فأخذ صفية بنت حيي فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة والنضير، ما تصلح إلا لك، قال: ادعوه بها، فجاء بها، قال: فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: خذ جارية من السبي غيرها، قال: وأعتقها وتزوجها. قال له ثابت: يا أبا حمزة ما أصدقها؟ قال: نفسها، أعتقها وتزوجها. حتى إذا كان الطريق جهزتها له أم سليم فأهدتها له من الليل، فأصبح ﷺ عروساً، فقال: من كان عنده شيء فليجيء به، قال: فسط نطعاً، قال: فجعل الرجل يجيء بالأقط، وجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن، فحاسوا حيساً فكانت وليمة رسول الله ﷺ.

وفي رواية: فقال الناس لا ندري أتزوجها أم اتخذها أم ولد، قالوا: إن حجبها فهي امرأته وإن لم يحجبها فهي أم ولد، فلما أراد أن

(١) في ط.

يركب حجبها.

وفي رواية: فانطلقنا حتى إذا رأينا جدر المدينة ههشنا إليها، فدفعنا مطايانا، ودفع رسول الله ﷺ مطيته، قال: وصفية خلفه قد أردفها، قال: فعثرت مطية رسول الله ﷺ فصرع وصرعت، فليس أحد من الناس ينظر إليه ولا إليها حتى قام رسول الله ﷺ فسترها. قال: فدخلنا المدينة، فخرج^(١) جوارى نسائه يتراءينها ويشمتن بصرعتها. رواه الشيخان وهذا لفظ مسلم^(٢).

وروي عن جابر أنه ﷺ أتى بصفية يوم خيبر، وأنه قتل أباه وأخاها، وأن بلالاً مر بها بين المقتولين، وأنه ﷺ خيرها بين أن يعقتها فترجع إلى من بقي من أهلها، أو تسلم فيتخذها لنفسه، فقالت: أختار الله ورسوله. خرج في الصفوة.

وأخرج تمام^(٣) في فوائده من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال لها: هل لك في؟ قالت: يا رسول الله لقد كنت أتمنى ذلك في الشرك، فكيف إذ أمكنني الله في الإسلام.

وأخرج أبو حاتم من حديث ابن عمر: رأى ﷺ / بعين صفية خضرة فقال: ما هذه الخضرة؟ فقالت: كان رأسي في حجر ابن الحقيق وأنا نائمة، فرأيت قمراً وقع في حجري فأخبرته بذلك فلطمني وقال: تمنين ملك يثرب. وبنى بها ﷺ بالصهباء.

وماتت في رمضان سنة خمسين في زمن معاوية، وقيل غير ذلك.

(١) كذا في ش وفي صحيح مسلم. وفي النسخ: خرجن.

(٢) رقمه عند مسلم ٨٨ من كتاب النكاح.

(٣) الإمام الحافظ محمد بن عبدالله بن جعفر المروزي ثم الدمشقي، الثقة المتوفى سنة ست عشرة وأربعمائة.

فهؤلاء أزواجه اللاتي دخل بهن لا خلاف في ذلك بين أهل السير والعلم بالأثر.

[زوجات لم يدخل بهن]

وقد ذكر أنه ﷺ تزوج نسوة غير من ذكر، وجملتهن اثنتا عشرة امرأة:

• الأولى: الواهبة نفسها له ﷺ، واختلف من هي، فقيل أم شريك القرشية العامرية، واسمها: غزية - بضم الغين المعجمة وفتح الزاي وتشديد المثناة التحتية - بنت جابر بن عوف، من بني عامر بن لؤي. وقيل بنت دودان بن عوف، وطلقها النبي ﷺ واختلف في دخوله بها.

وقيل هي أم شريك غزية الأنصارية من بني النجار، وفي الصفوة: هي أم شريك غزية بنت جابر الدوسية. قال: والأكثر على أنها التي وهبت نفسها له ﷺ فلم يقبلها فلم تتزوج حتى ماتت.

وذكر ابن قتيبة في المعارف عن أبي اليقظان، أن الواهبة نفسها خولة بنت حكيم السلمي، ويجوز أن يكونا وهبتا أنفسهما من غير تضاد.

وقال عروة بن الزبير: كانت خولة بنت حكيم، من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ، فقالت عائشة: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها للرجل، فلما نزلت: ﴿ترجي من تشاء ممنه وتؤوي إليك من تشاء﴾^(١) قالت عائشة: يا رسول الله، ما أرى ربك إلا يسارع لك في هواك. رواه الشيخان.

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥١.

وهذه خولة هي زوجة عثمان بن مظعون، ولعل ذلك وقع منها قبل عثمان.

● الثانية: خولة بنت الهذيل بن هبيرة. تزوجها ﷺ فهلكت قبل أن تصل إليه.

● الثالثة: عمرة بنت يزيد بن الجون - بفتح الجيم - الكلابية، وقيل: عمرة بنت يزيد بن عبيد بن أوس بن كلاب الكلابية. قال أبو عمر: وهذا أصح.

تزوجها ﷺ فتعوذت منه حين أدخلت عليه، فقال لها: لقد عدت بمعاذ، فطلقها وأمر أسامة بن زيد فتمتعها بثلاثة أثواب، قال أبو عمر: هكذا روي عن عائشة.

وقال قتادة: كان ذلك في امرأة من سليم. وقال أبو عبيدة: إنما ذلك لأساء بنت النعمان بن الجون، وهكذا ذكره ابن قتيبة. وسيأتي وقال في عمرة هذه: إن أباهما وصفها للنبي ﷺ ثم قال وأزيدك: أنها لم تمرض قط فقال ﷺ: ما لهذه عند الله من خير فطلقها.

● الرابعة: أساء بنت النعمان بن الجون - بفتح الجيم - ابن الحارث الكندية وهي الجونية. [قال أبو عمر^(١): أجمعوا أن رسول الله ﷺ تزوجها واختلفوا في سبب فراقه لها، فقال قتادة وأبو عبيدة: إنه ﷺ لما دعاها قالت: تعال أنت وأبت أن تحييء، وقال بعضهم: قالت: أعوذ بالله منك، فقال: عدت بمعاذ، ولقد أعاذك الله مني، وقيل: إن نساءه ﷺ علمنها ذلك فإنها كانت أجمل الناس فحفن أن تغلبهن عليه، فقلن لها إنه يجب إذا دنا منك أن تقولي: أعوذ بالله

(١) في ش.

منك، فقال: قد عدت بمعاذ وطلقها، ثم سرحها إلى أهلها وكانت تسمى نفسها الشقية.

وقال الجرجاني: قلن لها: إن أردت أن تحظي عنده فتعوزي بالله منه، فقالت ذلك فولى وجهه عنها. وقيل المتعوزة غيرها، قال أبو عبيدة: ويجوز أن تكونا تعوذتا، وقال آخرون: كان بأسماء وضح فقال لها الحقى بأهلك، وقد قيل في اسمها/ أميمة، وقيل: أمامة. ١٠٩/ب

● الخامسة: مليكة بنت كعب الليثية، قال بعضهم: هي التي استعازت من النبي ﷺ، وقيل دخل بها، وماتت عنده، والأول أصح، ومنهم من ينكر تزويجه بها أصلاً.

● السادسة: فاطمة بنت الضحاك بن سفيان الكلابي، تزوجها بعد وفاة ابنته زينب وخيرها حين نزلت آية التخيير، فاختارت الدنيا ففارقها عليه الصلاة والسلام فكانت بعد ذلك تلتقط البعر وتقول هي الشقية اختارت الدنيا، هكذا رواه ابن إسحاق.

لكن قال أبو عمر: هذا عندنا غير صحيح، لأن ابن شهاب يروى عن عروة عن عائشة، أنه ﷺ حين خير أزواجه بدأ بها فاختارت الله ورسوله، وتابع أزواج النبي ﷺ على ذلك.

وقال قتادة وعكرمة: كان عنده ﷺ عند التخيير تسع نسوة وهن اللاتي توفي عنهن.

وقيل إنه ﷺ تزوجها سنة ثمان، وقيل إن أباهما قال: إنها لم تصدق قط، فقال عليه الصلاة والسلام: لا حاجة لي بها.

● السابعة: عالية بنت ظبيان بن عمرو بن عوف، تزوجها ﷺ

وكانت عنده ما شاء الله، ثم طلقها، وقل من ذكرها، وقال أبو سعد:
طلقها حين أدخلت عليه صلى الله عليه وسلم .

● الثامنة: قتيلة - بضم القاف وفتح المثناة الفوقية وسكون المثناة
التحتية - بنت قيس أخت الأشعث بن قيس الكندي، زوجه إياها
أخوها في سنة عشر، ثم انصرف إلى حضرموت فحملها فقبض ﷺ
سنة إحدى عشرة قبل قدومها عليه، وقيل تزوجها عليه السلام قبل
وفاته بشهرين، وقال قائلون: إن رسول الله ﷺ أوصى بأن تخير، فإن
شاءت ضرب عليها الحجاب، وكانت من أمهات المؤمنين، وإن شاءت
الفراق فلتنكح من شاءت، فاختارت النكاح فتزوجها عكرمة بن أبي
جهل بحضرموت، فبلغ ذلك أبا بكر فقال: هممت أن أحرق عليها
بيتها، فقال له عمر رضي الله عنهما: ما هي من أمهات المؤمنين، ما
دخل بها رسول الله ﷺ ولا ضرب عليها الحجاب.

وقال بعضهم: لم يوص فيها عليه السلام بشيء، ولكنها ارتدت
حين ارتد أخوها. وبذلك احتج عمر على أبي بكر رضي الله عنهما:
أنها ليست من أمهات المؤمنين بارتدادها.

● التاسعة: سنا بنت أسماء بن الصلت السلمية، تزوجها ﷺ
ومات قبل أن يدخل بها، وعند ابن إسحاق: طلقها قبل أن يدخل
بها.

● العاشرة: شرف - بفتح الشين المعجمة وتخفيف الراء
وبالفاء - بنت خليفة الكلبية، أخت دحية بن خليفة الكلبي، تزوجها
رسول الله ﷺ فمات قبل دخوله عليه السلام بها.

● الحادية عشر: ليلي بنت الخطيم - بفتح الخاء المعجمة وكسر

الطاء المهملة - أخت قيس تزوجها ﷺ وكانت غيوراً فاستقالته فأقالها فأكلها الذئب، وقيل هي التي وهبت نفسها له صلى الله عليه وسلم .

● الثانية عشر: امرأة من غفار تزوجها ﷺ فأمرها فنزعت ثيابها فرأى بكشحها بياضاً فقال: ألحقي بأهلك، ولم يأخذ مما آتاها شيئاً، أخرجه أحمد.

فهؤلاء جملة من ذكر من أزواجه ﷺ، وفارقهن في حياته، بعضهن قبل الدخول وبعضهن بعده - كما ذكرناه - فيكون جملة من ١/١١٠ عقد عليهن ثلاثاً وعشرين امرأة دخل ببعضهن / دون بعض. مات منهن عنده بعد الدخول خديجة وزينب بنت خزيمة، ومات منهن قبل الدخول اثنتان: أخت دحية، وبنت الهذيل باتفاق.

واختلف في مليكة وسنا، هل ماتتا أو طلقهما، مع الاتفاق على أنه ﷺ لم يدخل بهما.

وفارق بعد الدخول باتفاق بنت الضحاك، وبنت ظبيان، وقبله باتفاق: عمرة وأسما والغفارية.

واختلف في أم شريك: هل دخل بها؟ مع الاتفاق على الفرقة. والمستقيلة التي جهل حالها، فالفارقات بالاتفاق سبع، واثنان على خلاف. الميتات في حياته باتفاق أربع، ومات ﷺ عن عشر، واحدة لم يدخل بها.

[المخطوبات]

وروي أنه ﷺ خطب عدة نسوة:

● الأولى منهن: امرأة من بني مرة بن عوف بن سعد، خطبها

ﷺ إلى أبيها فقال: إن بها برصاً، وهو كاذب، فرجع فوجد البرص بها، ويقال: إن ابنها شبيب بن البرصاء بن الحارث بن عوف. ذكره ابن قتيبة، كما قاله الطبري، وعند ابن الأثير في جامع الأصول: جمرة بنت الحارث بن عوف خطبها ﷺ فقال أبوها: إن بها سوءاً، ولم يكن بها شيء، فرجع إليها أبوها وقد برصت، قال: وهي أم شبيب بن البرصاء الشاعر.

● الثانية: امرأة قرشية يقال لها سودة، خطبها ﷺ وكانت مصيبة، فقالت: أخاف أن تضغو صبيتي - أي يصيحوا ويبكوا - عند رأسك، فدعا لها وتركها.

● الثالثة: صفية بنت بشامة - بفتح الموحدة وتخفيف الشين المعجمة - كان أصابها في سبي فخيرها بين نفسه الكريمة وبين زوجها، فلخارت زوجها.

● الرابعة: ولم يذكر اسمها، قيل إنه ﷺ خطبها، فقالت: أستأمر أبي، فلقيت أباه فأذن لها، فعادت إلى النبي ﷺ فقال لها: قد التحفنا لحافاً غيرك.

● الخامسة: أم هانئ، فاختة بنت أبي طالب أخت علي، خطبها ﷺ فقالت: إني امرأة مصيبة واعتذرت إليه، فعذرها.

● السادسة: ضباعة - بضم الضاد المعجمة وتخفيف الموحدة وبالعين المهملة - بنت عامر بن قرط - بضم القاف وسكون الراء وبالطاء المهملة - خطبها ﷺ إلى ابنها سلمة بن هشام فقال: حتى أستأمرها، فقيل للنبي ﷺ: إنها قد كبرت، فلما عاد ابنها - وقد أذنت له - سكت عنها ﷺ فلم ينكحها.

• السابعة: أمامة بنت حمزة بن عبد المطلب، عرضت عليه ﷺ فقال: هي ابنة أخي من الرضاعة.

• الثامنة: عزة بنت أبي سفيان، عرضتها أختها أم حبيبة عليه ﷺ فقال: إنها لا تحل لي لمكان أختها أم حبيبة تحت النبي ﷺ.

• وقيل: تزوج ﷺ الجندعية - بضم الجيم وسكون النون وضم الدال وبالعين المهملة - امرأة من جندع، وهي ابنة جندب بن ضمرة، ولم يدخل بها. وأنكره بعض الرواة.

فهؤلاء النساء اللاتي ذكر أنه ﷺ تزوجهن أو خطبهن أو دخل بهن، أو لم يدخل بهن أو عرضن عليه.

[السراري]

وأما سراريه فقليل إنهن أربعة:

• مارية القبطية بنت شمعون - بفتح الشين المعجمة - أهداها له المقوقس القبطي صاحب مصر والاسكندرية، وأهدى معها أختها سيرين - بكسر السين المهملة وسكون المثناة التحتية وكسر الراء ب/١١٠ وبالنون/ آخرها -، وخصياً يقال له: مأبور، وألف مثقال ذهباً وعشرين ثوباً ليناً من قباطي مصر، وبغلة شهباء وهي دلدل، وحماراً أشهب وهو عفير ويقال: يعفور، وعسلاً من عسل بنها، فأعجب النبي ﷺ العسل ودعا في عسل بنها بالبركة. قال ابن الأثير: وبنها - بكسر الباء وسكون النون - قرية من قرى مصر، بارك النبي ﷺ في عسلها، والناس اليوم يفتحون الباء، انتهى.

ووهب ﷺ سيرين لحسان بن ثابت وهي أم عبد الرحمن بن

حسان، ومارية أم إبراهيم بن النبي ﷺ . وماتت مارية في خلافة عمر سنة ست عشرة ودفنت بالبقيع .

● وريحانة بنت شمعون من بني قريظة، وقيل من بني النضير، والأول أظهر، وماتت قبل وفاته ﷺ مرجعه من حجة الوداع سنة عشر، ودفنت بالبقيع، وكان ﷺ وطئها بملك اليمين، وقيل أعتقها وتزوجها ولم يذكر ابن الأثير غيره .

● وأخرى: وهبتها له زينب بنت جحش .

● الرابعة: أصابها في بعض السبي .

الفصل الرابع

في أعمامه وعماته وإخوته من الرضاعة وجداته

[أعمامه عليه السلام]

قال صاحب «ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربى»^(١): كان له
عشرة عشر عمّاً بنو عبد المطلب، أبوه - عبد الله - ثالث عشرهم:
الحارث، وأبو طالب واسمه عبد مناف، والزبير ويكنى أبا الحارث،
وحمة، وأبو لهب واسمه عبد العزى، والغيداق، والمقوم، وضرار،
والعباس، وقثم، وعبد الكعبة، وجحل - بتقديم الجيم، وهو السقاء
الضخم، وقال الدارقطني بتقديم الحاء وهو القيد والخلخال - ويسمى
المغيرة.

وقيل كانوا أحد عشر فأسقط: المقوم، وقال هو عبد الكعبة،
وقيل عشرة، فأسقط الغيداق وجحلاً، وقيل تسعة فأسقط قثم.

[حمزة رضي الله عنه]

فأما حمزة، فأمه هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة،
ويكنى أبا عمارة وأبا يعلى، كنيتان له بابنيه عمارة ويعلى، [وكان يدعى

(١) هو الحافظ المحب الطبري.

أسد الله وأسد رسوله^(١) وفي معجم البغوي أنه ﷺ قال: والذي نفسي بيده إنه لمكتوب عند الله عز وجل في السماء السابعة: حمزة أسد الله وأسد رسوله.

وكان إسلامه في السنة الثانية من المبعث، وقيل في السادسة بعد دخوله ﷺ دار الأرقم، وقيل قبل إسلام عمر بثلاثة أيام.

وشهد بدرًا، وقتل بها عتبة بن ربيعة مبارزة، قاله موسى بن عقبة، وقيل: بل قتل شيبة بن ربيعة مبارزة، قاله ابن إسحاق.

وأول راية عقدها ﷺ لأحد من المسلمين كانت لحمزة، وأول سرية بعثها، وقال ﷺ: خير أعمامي حمزة، رواه الحافظ الدمشقي.

وروى ابن السري مرفوعاً: سيد الشهداء يوم القيامة حمزة بن عبد المطلب^(٢).

وذكر السلفي^(٣) عن بريدة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ﴾^(٤) قال: حمزة بن عبد المطلب، وعن ابن عباس ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾^(٥) قال: حمزة.

واستشهد في وقعة أحد، قتله وحشي. وعن سعيد بن المسيب

(١) في الأصل.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط، والحاكم، والخطيب، والضياء المقدسي، والديلمى.

(٣) أحمد بن محمد الأصبهاني السلفي، الحافظ العلامة، كان أواخر زمانه في الحديث وأعلمهم بقوانين الرواية، حافظاً متقناً ديناً، مات سنة ست وسبعين وخمسة.

(٤) سورة الفجر، الآية ٢٧.

(٥) سورة الأحزاب، الآية ٢٣.

كان يقول: كنت أعجب لقاتل حمزة كيف ينجو، حتى إنه مات غريقاً في الخمر. رواه الدارقطني على شرط الشيخين. وقال ابن هشام: بلغني أن وحشياً لم يزل يحد في الخمر حتى خلع من الديوان^(١)، فكان عمر يقول: لقد علمت أن الله لم يكن ليدع قاتل حمزة.

ولما رأى النبي ﷺ / حمزة قتيلاً بكى، فلما رأى ما مثل به شهق. وعن أبي هريرة: وقف ﷺ على حمزة - وقد قتل ومثل به - فلم ير منظرأً كان أوجع لقلبه منه. رواه أبو عمر، والمخلص^(٢)، وصاحب الصفوة.

وعند ابن هشام أنه ﷺ قال: لن أصاب بمثلك أبداً، ما وقفت موقفاً قط أعيظ لي من هذا.

وعند ابن شاذان من حديث ابن مسعود: ما رأينا رسول الله ﷺ باكياً قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب، وضعه في القبلة ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نشغ من البكاء يقول: يا حمزة يا عم رسول الله وأسد الله وأسد رسوله، يا حمزة يا فاعل الخيرات، يا حمزة يا كاشف الكربات، يا حمزة يا ذاباً عن وجه رسول الله^(٣).

(١) أي ديوان الجند المعدين للقتال مع أن له قوة ومعرفة بالحرب.

(٢) محمد بن عبد الرحمن بن العباس، أبو الطاهر الذهبي البغدادي، الثقة المكثر الصالح.

(٣) جاء في صحيح البخاري قوله ﷺ: (إن الله لا يعذب بدمع العين ولا يحزن القلب ولكن يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم، وإن الميت يعذب ببكاء أهله عليه) رقم الحديث ١٣٠٤.

وفي مسند أحمد في قصة موت سعد بن معاذ قالت عائشة: (فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر من بكاء أبي بكر. . قلت أي أمه: فكيف =

والنشغ: الشهيق حتى يبلغ به الغشي.

وكان ﷺ إذا صلى على جنازة كبر عليها أربعاً، وكبر على حمزة سبعين تكبيرة، رواه البغوي في معجمه^(١).

وقد روى أنس بن مالك أن شهداء أحد لم يغسلوا ودفنوا بدمائهم ولم يصل عليهم. خرجه أحمد وأبو داود^(٢).

فيحمل أمر حمزة على التخصيص، ومن صلى عليه غيره على أنه جرح حال الحرب ولم يميت حتى انقضت الحرب^(٣).

وكان سن حمزة يوم قتل تسعاً وخمسين سنة، ودفن هو وابن أخته عبدالله بن جحش في قبر واحد.

[العباس رضي الله عنه]

وأما العباس وكنيته أبو الفضل، فأمه نثله^(٤)، ويقال نثله بنت جناب بن كلب بن النمر بن قاسط، ويقال: إنها أول عربية كست البيت الحرام الديقاح وأصناف الكسوة، لأن العباس ضل وهو صبي، فنذرت إن وجدته أن تكسو البيت.

وكان العباس جميلاً وسيماً أبيض، له ضفيرتان، معتدلاً، وقيل

= كان رسول الله ﷺ يصنع قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته) المسند ١٤٢/٦.

(١) هذا يعارضه الحديث بعده.

(٢) وهو عند البخاري أيضاً برقم ١٣٤٣ و١٣٤٧.

(٣) يلجأ إلى ذكر التخصيص إذا صح الحديث، وإلا فلا حاجة لذلك.

(٤) في أ نثله بالمثلثة.

كان طوالاً، وولد قبل الفيل بثلاث سنين، وكان أسن من النبي ﷺ بستين أو ثلاث، وكان رئيساً في قريش، وإليه عمارة المسجد الحرام.

وكان مع النبي ﷺ يوم العقبة يعقد له البيعة على الأنصار، وكان عليه السلام يثق به في أمره كله^(١). ولما شدوا وثاقه في أسرى بدر سهر ﷺ تلك الليلة، فقيل: ما يسهرك يا رسول الله؟ قال: لأنين العباس، فقام رجل فأرخى وثاقه، وفعل ذلك بالأسرى كلهم، ذكره أبو عمر، وصاحب الصفوة.

وقيل: كان يكتم إسلامه وخرج مع المشركين يوم بدر فقال ﷺ من لقي العباس فلا يقتله فإنه خرج مستكراً^(٢)، فأسره كعب بن عمرو، ففادى نفسه ورجع إلى مكة.

وقيل: إنه أسلم يوم بدر ثم أقبل إلى المدينة مهاجراً، فاستقبل النبي ﷺ يوم الفتح بالأبواء وكان معه في فتح مكة، وبه ختمت الهجرة. وقال أبو عمر: أسلم قبل فتح خيبر وكان يكتم إسلامه ويسره ما يفتح الله على المسلمين، وأظهر إسلامه يوم فتح مكة، وشهد حينئذ والطائف وتبوك.

ويقال: إن إسلامه كان قبل بدر، وكان يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، وكان المسلمون بمكة يثقون به^(٣)، وكان يحب القدوم على رسول الله ﷺ، فيكتب إليه ﷺ إن مقامك بمكة خير لك. وقال أبو مصعب إسماعيل بن قيس بن سعد بن زيد بن ثابت

(١) هذه الجملة ليست في ش.

(٢) في ش: وخرج مع المشركين مستكراً. باختصار العبارة السابقة.

(٣) كذا في (أ، ب) وفي النسخ: يثقون به من الوقاية، أي كان عوناً للمسلمين المستضعفين.

حدثنا أبو حازم سلمة بن دينار عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال:
استأذن العباس رضي الله عنه النبي ﷺ في الهجرة فكتب إليه/ : يا
عم أقم مكانك الذي أنت فيه، فإن الله عز وجل يختم بك الهجرة كما
ختم بي النبوة. رواه أبو يعلى والهيثم^(١) بن كليب - في مسنديهما^(٢) -
والطبراني في الكبير.

وأبو مصعب متروك، لكن يعتضد بقول عروة بن الزبير: كان
العباس قد أسلم وأقام على سقايته ولم يهاجر، رواه الحاكم في
مستدركه.

وذكر السهمي^(٣) في الفضائل أن أبا رافع لما بشر النبي ﷺ بإسلام
العباس اعتقه.

وكان ﷺ يكرم العباس بعد إسلامه ويعظمه، ووصفه عليه السلام
فقال: أجود الناس كفاً، وأحناء عليهم. رواه الفضائي. وفي معجم
البعثي: العباس عمي وصنو أبي، من آذاه فقد آذاني، وفي الترمذي
نحوه، وقال: حسن صحيح.

وذكر السهمي في الفضائل: أن العباس أتى النبي ﷺ فلما رآه قام
إليه، وقبل ما بين عينيه، ثم أقعده عن يمينه ثم قال: هذا عمي، فمن
شاء فليباه بعمه، فقال العباس: نعم القول يا رسول الله، قال ولم لا أقول
هذا، أنت عمي وصنو أبي وبقية آبائي ووارثي وخير من أخلف من أهلي.
وقال له ﷺ يا عم لا ترم منزلك أنت وبنوك غداً حتى آتيكم فإن لي فيكم
حاجة، فلما أتاهم اشتمل عليهم بملاءة ثم قال: يا رب، هذا عمي وصنو

(١) في ط: الهيتمي.

(٢) ليست في ط.

(٣) حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمي، الإمام الحافظ صنف وجرح وعدل
وصحح وعلل، مات سنة سبع وعشرين وأربعمائة.

أبي وهؤلاء أهل بيتي فاسترهم من النار كستري إياهم بملاءتي هذه قال :
فأمنت أسكفة الباب وحوائط البيت فقالت : آمين آمين آمين . رواه ابن
غيلان ، وأبو القاسم حمزة^(١) ، والسهمي ، ورواه ابن السري وفيه : فما
بقي في البيت مدرة ولا باب إلا أمن . ورواه الترمذي من حديث ابن
عباس بلفظ فألبسنا كساء ثم قال : اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة
وباطنة لا تغادر ذنباً ، اللهم احفظه في ولده . وقال حسن غريب^(٢) .
وعند ابن عبد الباقي^(٣) من حديث أبي هريرة : اللهم اغفر للعباس
ولولد العباس ولن أحبهم .

وفي تاريخ دمشق من حديث ابن عباس عن أبيه أن رسول الله ﷺ
قال له في فتح مكة اللهم انصر العباس وولد العباس قالها ثلاثاً ثم قال : يا
عم أما علمت أن المهدي من ولدك^(٤) .

وروى الحاكم في مستدركه والبعثي في معجمه عن سعيد بن
المسيب أنه قال : العباس حبر هذه الأمة ، ووارث النبي ﷺ وعمه . قال
الذهبي سنده صحيح . قال : ويتكلف لتأويله إن كان قوله خير - بالمعجمة
والتحتية - .

(١) أبو القاسم حمزة ، في الأصل فقط .

(٢) قال النجار في تخريج أحاديث الوفا لابن الجوزي : حديث التأمين رواه
البيهقي وابن ماجه في سننه عن عبدالله بن عثمان الوقاصي ، قال عنه ابن
معين : لا أعرفه ، وقال أبو حاتم يروي أحاديث مشبهة . وأقول : هذا
الحديث وما بعده ، كلها أحاديث ضعيفة أو شديدة الضعف وبعضها
موضوع ، نبه المصنف على بعضها وسكت الشارح عن الجميع [المحقق] .

(٣) محمد بن أحمد بن عبد الباقي الإمام الحافظ العلامة في الأدب المتوفى سنة
تسع وثمانين وأربعمائة .

(٤) قال في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة حديث (المهدي من ولد
العباس عمي) موضوع . [المحقق] .

وفي الأفراد للدارقطني عن جابر الأنصاري رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول من لم يحب العباس بن عبد المطلب وأهل بيته فقد برئ من الله ورسوله، وفي سنده عمر بن راشد الحارثي. وهو ضعيف جداً. لكن يشهد له ما رواه محمد بن حسين الأشناني ثم أبو بكر بن عبد الباقي في أماليه ومن طريقها المنذري من طريق منصور عن مسلم بن صبيح بن الضحى عن مسروق عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ من لم يحب عمي هذا - وأخذ بيد العباس فرفعها - لله عز وجل ولقربته لي فليس بمؤمن.

وللترمذي وقال: حسن، عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب / أن رسول الله ﷺ قال للعباس: والذي نفسي بيده لا يدخل ١١٢ قلب رجل الإيمان ما لم يحبكم الله ورسوله ثم قال: يا أيها الناس من أذى عمي فقد آذاني فإنما عم الرجل صنو أبيه.

وروى البغوي أنه عليه الصلاة والسلام قال له: لك يا عم من الله حتى ترضى.

وروى السهمي في الفضائل أنه عليه السلام قال للعباس: إن الله عز وجل غير معذبك ولا أحد من ولدك.

وفي المعجم الكبير للطبراني عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ اللهم اغفر للعباس، وأبناء العباس وأبناء أبناء العباس. وفي سنده عبد الرحمن بن حاتم المرادي المصري وهو متروك.

وفي تاريخ دمشق - مما هو شديد الوهي - عن أبي هريرة مرفوعاً: اللهم اغفر للعباس ولولد العباس ولمحبي ولد العباس وشيعتهم.

وفي المناقب للإمام أحمد بسند لا بأس به، أن العباس قال: كنت

عند النبي ﷺ ذات ليلة فقال: انظر هل ترى في السماء نجماً، قلت: نعم قال: ما ترى؟ قلت: الثريا، قال: أما إنه يلي هذه الأمة بعددها من صلبك.

وروى السهمي^(١) من حديث ابن عباس أنه ﷺ قال له: ألا أبشرك يا عم، قال: بلى بأبي أنت وأمي فقال عليه السلام: إن من ذريتك الأصفياء ومن عترتك الخلفاء.

ومن حديث أبي هريرة: فيكم النبوة والمملكة.

ومن حديث ابن عباس عن أبيه: هذا عمي أبو الخلفاء أجود قریش كفاً وأجلها وإن من ولده السفاح والمنصور والمهدي.

وذكر ابن حبان والملاء من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: يا أبا بكر هذا العباس قد أقبل وعليه ثياب بيض وسيلبس ولده من بعده السواد.

وعن جابر بن عبد الله سمعت رسول الله ﷺ يقول: ليكونن في ولده - يعني العباس - ملوك، يكونون أمراء أمتي، يعز الله بهم الدين. قال الحافظ أبو الحسن الدارقطني: هذا حديث غريب من حديث عمرو بن دينار عن جابر، خرجه الأصفهاني^(٢).

وتوفي العباس رضي الله عنه في خلافة عثمان رضي الله عنه قبل مقتله بستين بالمدينة، يوم الجمعة لاثنتي عشرة - وقيل لأربع عشرة - خلت من رجب، وقيل من رمضان سنة اثنتين وقيل ثلاث وثلاثين، وهو ابن ثمان وثمانين سنة، وقيل سبع وثمانين سنة، أدرك منها في الإسلام اثنتين

(١) في ط البيهقي.

(٢) انظر التعليق السابق عن هذه الأحاديث ص ١٠٨ ح ٢ [المحقق].

وثلاثين سنة ودفن بالبقيع، ودخل قبره ابنه عبدالله.
وكان (١) عظيماً جليلاً، وكان يسمى ترجمان القرآن، وهو أبو
الخلفاء.

ويروى أن أمه أم الفضل لما وضعته أتت به النبي ﷺ فأذن في أذنه
اليمنى، وأقام في اليسرى، وقال: اذهبي بأبي الخلفاء. رواه ابن حبان
وغيره (٢).

وقد ملأ عقبه الأرض حتى قيل إنهم بلغوا في زمن المأمون ستمائة
ألف. واستبعد والله أعلم.
وكان العباس أصغر أعمامه ﷺ ولم يسلم منهم إلا هو وحمة.
وأسنهم الحارث.

[عماته عليه السلام]

وأما عماته ﷺ بنات عبد المطلب بن هاشم، فجملتهن ست:
عاتكة، وأميمة، والبيضاء وهي أم حكيم، وبرة، وصفية، وأروى،
ولم يسلم منهن إلا صفية أم الزبير بلا خلاف.

واختلف في أروى وعاتكة، فذهب أبو جعفر العقيلي إلى ١١٢/ب
إسلامهما، وعدهما في الصحابة، وذكر الدارقطني: عاتكة في جملة
الإخوة والأخوات، ولم يذكر أروى. وأما ابن إسحاق فذكر أنه لم
يسلم منهن غير صفية.

(١) أي عبدالله بن عباس.

(٢) هذا الحديث موضوع، إذ من المعلوم - كما قال في الإصابة - أن عبدالله ولد
بمكة، وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث، ولم يكن يومئذ أذان ولا
إقامة حيث لم يشرعاً [المحقق].

[صفية]

فأما صفية فأسلمت باتفاق، كما ذكرته، وشهدت الخندق، وقتلت رجلاً من اليهود، وضرب لها ﷺ بسهم، وأمها هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة، شقيقة حمزة والمقوم وحجل، وكانت في الجاهلية تحت الحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس، ثم هلك فخلفه عليها العوام بن خويلد أخو خديجة أم المؤمنين، فولدت له الزبير والسائب وعبد الكعبة، وتوفيت بالمدينة في خلافة عمر رضي الله عنه سنة عشرين، ولها ثلاث وسبعون سنة، ودفنت بالبقيع.

[عاتكة]

وأما عاتكة المختلف في إسلامها فأماها فاطمة بنت عمرو بن عائذ، فتكون شقيقة عبدالله أبي النبي ﷺ وأبي طالب والزبير وعبد الكعبة، وهي صاحبة الرؤيا في قصة بدر^(١).

[أروى]

وأما أروى المختلف أيضاً في إسلامها، فأماها صفية بنت جندب، فهي شقيقة الحارث بن عبد المطلب، وكانت تحت عمير بن وهب بن عبد الدار بن قصي، فولدت له طليباً، ثم خلفه عليها كلدة ابن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي. وأسلم طليب وكان سبياً في إسلام أمه، كما ذكره الواقدي.

(١) وملخصها: أن ركباً مثل علي أبي قبيس وصرخ بالغدر انفروا لمصارعكم ثم أخذ صخرة فأرسلها فهوت وتفتت فما بقي بيت من بيوت مكة إلا دخله قطعة منها. [سيرة ابن هشام ٦٠٧/١] [المحقق].

[أم حكيم]

وأما أم حكيم، البيضاء، فهي شقيقة عبدالله أبي النبي ﷺ .

[برة]

وأما برة فأمها فاطمة أيضاً، وكانت عند أبي رهم بن عبد العزى العامري، ثم خلفه عليها عبد الأسد بن هلال المخزومي، فولدت له أبا سلمة بن عبد الأسد الذي كانت عنده أم سلمة قبل النبي ﷺ .

[أميمة]

وأما أميمة فأمها فاطمة، وكانت تحت جحش بن رثاب، فولدت له عبدالله وعبيدالله وأبا أحمد وزينب وأم حبيبة وحمنة، أولاد جحش ابن رثاب .

[جداته عليه السلام]

وأما جداته عليه الصلاة والسلام من أبيه :

- فأم عبدالله - أبيه - هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم .
- وأم عبد المطلب، سلمى ابنة عمرو من بني النجار، وكانت قبل هاشم تحت أحيحة بن الجلاح فولدت له عمرو بن أحيحة، وهو أخو عبد المطلب لأمه .
- وأم هاشم عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج^(١) بن ذكوان من بني سليم .

(١) في ط فاتح .

- وأم عبد مناف عاتكة بنت فالج^(١) بن [ملك بن]^(٢) ذكوان من بني سليم.
- وأم قصي فاطمة بنت سعد من أزد الشراة.
- وأم كلاب، نعم بنت سرير بن ثعلبة بن مالك بن كنانة.
- وأم مرة وحشية بنت شيبان بن محارب من فهم.
- وأم كعب، سلمى بنت محارب من فهم.
- وأم لؤي، وحشية بنت مدلج بن مرة بن عبد مناف من كنانة.
- وأم غالب، سلمى بنت سعد من هذيل.
- وأم فهر، جندلة بنت الحارث الجرهمي.
- وأم مالك: هند بنت عدوان بن عمرو بن قيس بن غيلان.
- وأم النضر، برة بنت مرة، أخت تميم بن مرة.

ذكره ابن قتيبة في كتاب المعارف كما حكاه الطبري عنه وقال:
 فالجدة الأولى [قرشية]^(٣) مخزومية، والثانية نجارية، والثالثة سليمية^(٤)
 والرابعة سليمية أيضاً، وقيل خزاعية والخامسة أزدية، والسادسة
 كنانية، والسابعة فهمية والثامنة فهمية أيضاً أو فهريّة - والخط في
 الأصل يوهم - والتاسعة كنانية، والعاشر هذلية، والحادية عشر
 جرهمية، والثانية عشر قيسية، والثالثة عشر مرية.

وأما جداته عليه الصلاة والسلام من أمه:

- فأم آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، برة

(١) في ط فاتح.

(٢) في (أ، ب، د).

(٣) زيادة في ش.

(٤) كذا في ش، وفي النسخ: سلمية، وكذا التي بعدها.

بنت عبد العزى [بن عثمان بن عبد الدار]^(١) بن قصي بن كلاب بن مرة، وأم أبيها وهب: عاتكة بنت الأوقص / بن مرة بن هلال بن فالج^(٢) بن ذكوان من بني سليم، ذكره ابن قتيبة.

وقال أبو عمر: ويعرف أبوها بأبي كبشة الذي كان ينسب إليه رسول الله ﷺ فيقال: ابن أبي كبشة، ونسب إليه لأنه كان يعبد «الشعري» ولم يكن أحد من العرب يعبدها غيره، فلما جاءهم ﷺ بخلاف ما كانت عليه العرب قالوا: هذا ابن أبي كبشة، ولم يقصدوا ذمه ﷺ بذلك. وقيل: بل نسب إلى وهب أخي أمه كان يدعى بها، وقيل: كان يدعى بها أبوه من الرضاعة: الحارث بن عبد العزى زوج حليلة فنسب إليه.

● وأم برة هي أم حبيب، قاله ابن قتيبة وقال أبو سعد^(٣): أم سفيان بنت أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة [بن كعب]^(٤).

● وأم أم حبيب هي برة بنت عوف بن عبيد بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب.

● وأم برة بنت عوف، قلابة بنت الحارث بن صعصعة بن عائد بن لحيان بن هذيل.

(١) في ش قال ويقع في بعض النسخ النسبة إلى الجد الأعلى أي عبد العزى بن قصي.

(٢) في ط فاتح.

(٣) في ش: أبو سعيد.

(٤) في (ش، ب).

● وأم قلابة، هند بنت يربوع من ثقيف. قاله ابن قتيبة، وقال ابن سعد: أمها بنت مالك بن عثمان من بني لحيان.

فالجدة الأولى والثانية والثالثة من أمهات أمه ﷺ قرشيات، وأم أبي أمه سلمية والرابعة لحيانية هذلية، والخامسة ثقفية، ففي كل قبيلة من قبائل العرب له ﷺ علقة نسب.

[إخوته من الرضاعة]

وأما إخوته عليه الصلاة والسلام من الرضاعة:

فحمزة وأبو سلمة بن عبد الأسد، أرضعتها معه ﷺ ثوية جارية أبي لهب بلبن ابنها مسروح بن ثوية.

وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أرضعته ورسول الله ﷺ حليلة السعدية، وعبد الله وآسية وجدامة - وتعرف بالشيءاء - الثلاثة أولاد حليلة.

وقد روي^(١) أن خيلاً له ﷺ أغارت على هوازن، فأخذوها في جملة السبي، فقالت: أنا أخت صاحبكم، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالت له: يا محمد، أنا أختك، فرحب بها وبسط لها رداءه وأجلسها عليه ودمعت عيناه، وقال ﷺ: إن أحببت فأقيمي عندي مكرمة محببة، وإن أحببت أن ترجعي إلى قومك وصلتك. قالت: بل أرجع إلى قومي، فأسلمت، وأعطاه رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية ونعماً وشاء. ذكره أبو عمر وابن قتيبة.

وأما أمه من الرضاعة، فحليلة بنت أبي ذؤيب من هوازن،

(١) رواه ابن سعد.

وهي التي أرضعته حتى أكملت رضاعه، وجاءته ﷺ يوم حنين فقام إليها وبسط رداءه لها، فجلست عليه. وكذا ثوية جارية أبي لهب أيضاً، واختلف في إسلامها كما اختلف في إسلام حليلة وزوجها، فالله أعلم.

وكانت ثوية تدخل عليه ﷺ بعد أن تزوج خديجة، فكانت تكرمها. وأعتقها أبو لهب، وكان ﷺ يبعث إليها من المدينة بكسوة وصلة حتى ماتت بعد فتح خيبر. ذكره أبو عمر.

وكانت حاضنته ﷺ أم أيمن، بركة بنت ثعلبة بن حصن بن مالك، غلبت عليها كنيته، وكنيت باسم ابنها أيمن الحبشي، وهي أم أسامة بن زيد، تزوجها زيد بعد عبده، فولدت له أسامة، ويقال: إنها مولاة رسول الله ﷺ. هاجرت الهجرتين إلى أرض الحبشة وإلى المدينة. وكانت لعبدالله بن عبد المطلب، فورثها النبي ﷺ. وقيل كانت لأمه عليه السلام. وكان ﷺ يقول: أم أيمن أُمِّي بعد أُمِّي.

وكانت الشفاء بنت حليلة السعدية تحضنه أيضاً مع أمها حليلة السعدية.

الفصل الخامس

في خدمه وحرسه ومواليه ومن كان على نفقاته / وخاتمه ونعله
وسواكه ومن يأذن عليه ومن كان يضرب الأعناق بين يديه

[خدمه عليه السلام]

أما خدمه:

- فمنهم أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد الأنصاري الخزرجي، يكنى أبا حمزة، خدم النبي ﷺ تسع سنين أو عشر سنين، ودعا له ﷺ فقال: اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة. وقال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ منه. وتوفي سنة ثلاث وتسعين وقيل سنة اثنين وقيل سنة إحدى وتسعين وقد جاوز المائة.
 - ومنهم ربيعة بن كعب الأسلمي، صاحب وضوئه، وتوفي سنة ثلاث وستين.
 - ومنهم: أيمن ابن أم أيمن^(١)، صاحب مطهرته ﷺ، استشهد يوم حنين.
 - ومنهم عبدالله بن مسعود بن غافل - بالمعجمة والفاء - ابن حبيب الهذلي، أحد السابقين الأولين، شهد بدرًا والمشاهد، وكان
- (١) هو أيمن بن عبيد، وهو ابن أم أيمن.

صاحب الوسادة والسواك والنعلين والطهور وكان يلي ذلك من النبي ﷺ ، وكان إذا قام النبي ﷺ ألبسه نعليه ، وإذا جلس جعلهما في ذراعيه حتى يقوم . وتوفي بالمدينة وقيل بالكوفة سنة اثنتين وثلاثين ، وقيل سنة ثلاث .

● ومنهم عقبة بن عامر بن عيس بن عمرو الجهني ، وكان صاحب بغلته يقود به ﷺ في الأسفار ، روينا عنه أنه قال : بينما أقود برسول الله ﷺ في نعب من تلك النقاب إذ قال لي رسول الله ﷺ : اركب يا عقبة ، قال فأجلت رسول الله ﷺ أن أركب مركبه ثم أشفقت أن يكون معصية قال : فركبت هنيهة ثم نزلت ، ثم ركب النبي ﷺ وقدت به ، فقال لي : يا عقبة ألا أعلمك من خير سورتين قرأ بهما الناس فقلت : بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقال : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ الحديث رواه أحمد وأبو داود والنسائي .

ولأحمد : فقال يا عقبة ، ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزيور والقرآن العظيم ، قال : قلت بلى ، قال : فأقرأني ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ .

وكان عقبة عالماً بكتاب الله وبالفرائض فصيحاً شاعراً مفوهاً ، ولي مصر لمعاوية سنة أربع وأربعين ثم صرفه بمسلمة بن مخلد ، وتوفي بها سنة ثمان وخمسين .

● ومنهم أسلع بن شريك صاحب راحلته . وفي الطبراني عن الربيع بن بدر قال : حدثني أبي عن أبيه عن رجل يقال له أسلع قال كنت أخدم النبي ﷺ وأرحل له ، فقال لي ذات يوم : يا أسلع ، قم

فأرحل، فقلت: يا رسول الله أصابتنى جنابة، فسكت رسول الله ﷺ وأتاه جبريل فنزل بآية الصعيد فقال رسول الله ﷺ: قم يا أسلع فتيّم، قال: فقمّت، ثم رحلت له ثم سار حتى مر بماء ثم قال لي يا أسلع: مسّ أو أمسّ هذا جلدك، قال: فأراني التيمم ضربة للوجه وضربة لليدين إلى المرفقين انتهى^(١).

• ومنهم: سعد مولى أبي بكر، وقيل سعيد، ولم يثبت، وروى عنه ابن ماجه.

• ومنهم: أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري، أسلم قديماً، وتوفي بالربذة سنة إحدى وثلاثين، وصلى عليه عبدالله بن مسعود ثم مات بعده في ذلك اليوم، قاله ابن الأثير في «معرفة الصحابة»، وفي التقريب للحافظ ابن حجر سنة اثنتين وثلاثين.

• ومنهم: مهاجر مولى أم سلمة.

• ومنهم: حنين والد عبدالله، مولى عباس^(٢)، كان يخدم النبي ﷺ، ثم وهبه لعمه العباس^(٣).

• ومنهم: نعيم بن ربيعة الأسلمي /

١/١١٤

• ومنهم: أبو الحمراء، مولاة ﷺ وخادمه، واسمه هلال بن

الحارث، أو ابن ظفر، نزل حمص وتوفي بها.

• ومنهم: أبو السمح خادمه ﷺ واسمه إياد.

(١) الأول من رواية هذا الحديث متروك والثاني والثالث مجهولان. وفي الصحيح من حديث عائشة أن سبب نزول الآية إقامته ﷺ على التماس فلادتها التي سقطت في بعض أسفاره.

(٢) في (ب، د) ابن عباس.

(٣) روى البخاري في التاريخ أن حنيناً كان غلاماً للنبي فوهبه لعمه العباس فأعتقه فكان يخدم النبي ﷺ.

ومن النساء:

- بركة أم أيمن الحبشية، وهي والدة أسامة بن زيد ماتت في خلافة عثمان رضي الله عنه.
- وخولة جدة حفص.
- وسلمى أم رافع، زوج أبي رافع.
- وميمونة بنت سعد.
- وأم عياش مولاة رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم.

[مهيات أخرى]

وكان يضرب الأعناق بين يديه: علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، ومحمد بن مسلمة، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، والضحاك بن سفيان.

وكان قيس بن سعد بن عبادة بين يديه ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة.

وكان بلال على نفقاته.

ومعيقب بن أبي فاطمة الدوسي على خاتمه.

وابن مسعود على سواكه ونعله، كما تقدم.

وأبو رافع واسمه أسلم - وقيل غير ذلك - قبطي، كان على ثقله^(١).

وأذن عليه ﷺ في المشربة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه رباح

النوي.

(١) أي متاعه.

[حراسه عليه السلام]

وأما حراسه :

- فمنهم سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس، سيد الأوس، أسلم بين العقبتين على يد مصعب بن عمير، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق، فرمي فيه بسهم فعاش شهراً ثم انتقض جرحه فمات. حرس النبي ﷺ يوم بدر حين نام في العريش.
 - ومنهم: محمد بن مسلمة الأنصاري، حرسه يوم أحد.
 - ومنهم: الزبير بن العوام حرسه يوم الخندق.
 - ومنهم: بلال، المؤذن، أسلم قديماً، وعذب في الله، وسكن الشام أخيراً، ولا عقب له، وتأتي وفاته إن شاء الله تعالى، وكان يحرس النبي ﷺ بوادي القرى.
 - وكان أبو بكر الصديق يوم بدر في العريش شاهراً سيفه على رأسه ﷺ لئلا يصل إليه أحد من المشركين. رواه ابن السمان في الموافقة.
 - ووقف المغيرة بن شعبة على رأسه بالسيف يوم الحديبية.
 - وكان يحرسه ﷺ أيضاً عباد بن بشر.
- فلما نزل ﴿والله يعصمك من الناس﴾^(١) ترك ذلك.

[مواليه عليه السلام]

وأما مواليه ﷺ :

- أسامة وأبوه زيد بن حارثة، حب رسول الله ﷺ، أعتقه وزوجه مولاته أم أيمن واسمها بركة فولدت له أسامة.

(١) سورة المائدة، الآية ٦٧.

وكان زيد قد أسر في الجاهلية، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة، فاستوهبه النبي ﷺ منها، ذكر قصته محمد بن إسحاق في السيرة، وأن أباه وعمه أتيا مكة فوجداه، فطلبوا أن يفدياه، فخيره النبي ﷺ بين أن يدفعه لهما أو يبقى عنده ﷺ، وفي رواية الترمذي قال: يا رسول الله، لا أختار عليك أحداً أبداً.

واستشهد زيد في مؤته، ومات ابنه أسامة بالمدينة أو بوادي القرى سنة أربع وخمسين.

● ومنهم: ثوبان، لازم رسول الله ﷺ ونزل بعده الشام، ومات بحمص سنة أربع وخمسين.

● وأبو كبشة، أوس، ويقال سليم من مولدي مكة وشهد بدرًا.

● وشقران - بضم الشين المعجمة وسكون القاف - واسمه صالح الحبشي، ويقال: فارسي، شهد بدرًا وهو مملوك، ثم عتق، قاله الحافظ ابن حجر وقال: أظنه مات في خلافة عثمان.

● ورباح - وهو بفتح الراء وبالموحدة - الأسود، وكان يأذن عليه أحياناً إذا انفرد، وهو الذي أذن لعمر بن الخطاب في المشربة، كما تقدم.

● ويسار، الراعي، وهو الذي قتله العرنيون.

● وزيد وهو أبو يسار - وليس زيد بن حارثة والد أسامة - ذكره

ابن الأثير.

● ومدعم - بكسر الميم وفتح العين المهملة - عبد أسود، كان لرفاعة بن زيد الضبيبي - بضم الضاد المعجمة وفتح الموحدة الأولى - فأهداه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

● وأبو رافع، واسمه: أسلم القبطي، وكان/ للعباس فوهبه ١١٤

للنبي ﷺ ، فلما بشر النبي ﷺ بإسلام العباس أعتقه، توفي قبل قتل عثمان بيسير.

● ورفاعة بن زيد الجذامي .

● وسفينة، واختلف في اسمه، ف قيل : طهمان، وقيل : كيسان، وقيل : مهران، وقيل غير ذلك، وسماه رسول الله ﷺ سفينة لأنهم كانوا حملوه شيئاً كثيراً في السفر^(١).

● ومأبور القبطي، وهو من جملة من أهداه المقوقس للنبي ﷺ .

● وواقد، أو أبو واقد.

● وأنجشة الحادي، ويأتي ذكره في حداته ﷺ إن شاء الله

تعالى .

● وسلمان الفارسي، أبو عبدالله، ويقال له سلمان الخير، أصله من أصبهان، وقيل من رام هرمز، أول مشاهده الخندق، مات سنة أربع وثلاثين، يقال بلغ ثلاثمائة سنة .

● وشمعون بن زيد، أبو ریحانة . قال الحافظ ابن حجر: حليف الأنصار، ويقال مولى رسول الله ﷺ ، شهد فتح دمشق وقدم مصر، وسكن بيت المقدس .

● وأبو بكر، نبيع بن الحارث بن كلدة، جد القاضي الجليل بكار بن قتيبة الحنفي قاضي مصر المدفون بها .

ومن النساء: أم أيمن الحبشية، وسلمى أم رافع زوج أبي رافع، ومارية وريحانة وقيسر أخت مارية وغير ذلك .

قال ابن الجوزي: مواليه ثلاثة وأربعون، وإماؤه إحدى عشرة .

(١) رواه الإمام أحمد عنه: كنا في سفر، وكان كلما أعمى رجل ألقى علي ثيابه، ترساً أو سيفاً، حتى حملت من ذلك شيئاً كثيراً فقال ﷺ: احمل فإنما أنت سفينة، فلو حملت يومئذٍ وقر بعير أو بعيرين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة أو سبعة ما ثقل علي .

الفصل السادس

في أمرائه ورسله وكتابه وكتبه إلى أهل الإسلام في الشرائع والأحكام، ومكاتباته إلى الملوك وغيرهم من الأنام

[كتابه عليه السلام]

أما كتابه فجمع كثير وجم غفير ذكرهم بعض المحدثين في تأليف له بديع استوعب فيه جملاً من أخبارهم، ونبدأ من سيرهم وآثارهم، وصدر فيه بالخلفاء الأربعة الكرام، خواص حضرته عليه الصلاة والسلام.

● فأولهم في التقديم أبو بكر الصديق، وكان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة، وفي الإسلام عبدالله، وسمي بالصديق لتصديقه النبي ﷺ، وقيل إن الله صدقه، ويلقب عتيقاً لجماله، أو لأنه ليس في نسبه ما يعاب به، وقيل لأنه عتيق من النار.

ولي الخلافة سنتين ونصفاً^(١)، وسنه سن المصطفى ﷺ. وتوفي مسموماً^(٢).

(١) في (ط، ب) سنتين وستة أشهر وأربع ليال.

(٢) روى ابن سعد أن أبا بكر والحارث بن كلدة أكلا خزيرة أهديت لأبي بكر - وكان الحارث طبيباً - فقال ارفع يدك فوالله إن فيها لسم سنة، فلم يزالا =

وأسلم أبوه أبو قحافة يوم الفتح، وتوفي بعد ولده^(١) في خلافة عمر، وأسلمت أمه أم الخير سلمى بنت صخر قديماً في دار الأرقم.

● وعمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى، استخلفه أبو بكر فأقام عشر سنين وستة أشهر وأربع ليال، وقتله أبو لؤلؤة، فيروز غلام المغيرة بن شعبة.

● وعثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً، ثم قتل يوم الدار شهيداً.

وروي عن عائشة، مما ذكره الطبري في فضائله من كتابه «الرياض» إن رسول الله ﷺ لمسند ظهره إلي، وإن جبريل ليوحى إليه القرآن، وإنه ليقول له: اكتب يا عثيم. رواه أحمد.

وروى البيهقي عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا جلس جلس أبو بكر عن يمينه، وعمر عن يساره وعثمان بين يديه، وكان كاتب سر^(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم.

● وعلي بن أبي طالب، وأقام في الخلافة أربع سنين وتسعة أشهر وثمانية أيام، وتوفي شهيداً على يد عبد الرحمن بن ملجم، واختص علي بكتابة الصلح يوم الحديبية.

= عليلين حتى ماتا عند انقضاء السنة في يوم واحد. وفي فتح الباري: سمته يهودية في خزيرة أو غيرها.

(١) هذه الجملة سقطت من الأصل.

(٢) أي الأمور التي يريد إخفاءها عن الناس.

- وطلحة بن عبيدالله [التمي] (١)، أحد العشرة، استشهد يوم الجمل سنة ست وثلاثين وهو ابن ثلاث وستين سنة.
- والزبير بن العوام بن خويلد [الأسدي ابن عمته وحواريه] (٢)، أحد العشرة أيضاً، قتل سنة ست وثلاثين، يوم الجمل، قتله عمرو بن جرموز، بوادي السباع غيلة وهو نائم.
- وسعيد بن العاص، أخو خالد وأبان.
- وسعد بن أبي وقاص.
- وعامر بن فهيرة [مولى أبي بكر رضي الله عنه] (٣).
- وعبدالله بن الأرقم القرشي الزهري، كان يكتب الرسائل عن رسول الله ﷺ إلى الملوك وغيرهم، وكتب بعده لأبي بكر، ثم لعمر من بعده، رضي الله عنهم، واستعمله عمر على بيت المال مدة ولايته ثم عثمان من بعده، إلى أن استعفى عثمان من الولاية وبقي عاطلاً، وكان أمير المؤمنين عمر يقول: ما رأيت أحداً أحشى لله منه، مات في خلافة عثمان.

● وأبي بن كعب - بضم الهمزة وفتح الموحدة - من سُبَّاق الأنصار، كان يكتب الوحي له ﷺ، وهو أحد الستة الذين حفظوا القرآن على عهده ﷺ (٤) وأحد الفقهاء الذين كانوا يفتون على عهده

(١) في (ب، ش، د).

(٢) في (ب، ش، د).

(٣) في (ب، ش، د).

(٤) وبقية الستة من الأنصار: زيد بن ثابت، وأبو زيد، ومعاذ، وأبو الدرداء وسعد بن عباد رواه الطبراني والبيهقي. وأخرج الشيخان عن أنس: جمع القرآن على عهد النبي ﷺ أربعة كلهم من الأنصار: أبي، ومعاذ بن جبل، وأبو زيد، وزيد بن ثابت، قال قتادة قلت لأنس من أبو زيد؟ قال: أحد عمومي.

عليه السلام، توفي بالمدينة سنة تسع عشرة. وقيل سنة عشرين، وقيل غير ذلك، وهو الذي كتب الكتاب إلى ملكي عمان «جيفر» و«عبد» ابني الجلندي، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

١/١٠ • وثابت بن قيس بن شماس /، استشهد باليهامة، وهو الذي كتب كتاب قطن بن حارثة العليمي، كما سيأتي إن شاء الله.
• وحنظلة بن الربيع الأسيدي^(١) الذي غسلته الملائكة حين استشهد^(٢).

• وأبو سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي.

• وابنه معاوية، ولي لعمر الشام، وأقره عثمان. قال ابن إسحاق: وكان أميراً عشرين سنة، وخليفة - أمير المؤمنين - بعد [نزول]^(٣) الحسن بن علي سبط سيد المرسلين عشرين سنة.

وروينا في مسند الإمام أحمد من حديث العرباض قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم علم معاوية الكتاب والحساب، وقه العذاب.

وهو مشهور بكتابة الوحي.

(١) نسبة إلى أسيد، جده الأعلى، وفي ط: الأسيدي، وهو غلط، انظر مسلم الحديث (٢٧٥٠).

(٢) قال الشارح: كذا في النسخ وهو غلط فاضح فإن غسيل الملائكة هو حنظلة ابن أبي عامر، ولعله كان في الأصل غير الذي غسلته الملائكة فسقط لفظ (غير). قال في الإصابة: ويقال له حنظلة الكاتب وهو ابن أخي أكثم بن صيفي.

(٣) في ط.

أسلم يوم فتح مكة ومات في العشر الأخير من رجب سنة تسع وخمسين، وقيل سنة ستين وقد قارب الثمانين. وقال ابن عبد البر عن اثنتين وثمانين سنة والله أعلم.

● وأخوه يزيد بن أبي سفيان بن حرب، أمره عمر على دمشق حتى مات بها سنة تسع عشرة بالطاعون، فوليها بعده أخوه معاوية حتى رقي منها إلى الخلافة، وكان يزيد رضي الله عنه من سروات الصحابة وساداتهم، أسلم يوم الفتح أيضاً وأعطاه رسول الله ﷺ من غنائم حنين مائة بعير وأربعين أوقية وزنها له بلال رضي الله عنه.

● وزيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري النجاري، مشهور بكتب الوحي، مات سنة خمسين أو ثمان وأربعين، وقيل بعد الخمسين. وكان أحد فقهاء الصحابة، وهو أحد من جمع القرآن في خلافة أبي بكر، ونقله إلى المصحف في خلافة عثمان.

● وشرحبيل بن حسنة، وهي أمه، وهو أول كاتب للنبي ﷺ.

● والعلاء بن الحضرمي.

● وخالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي، سيف الله، أسلم بين الحديبية والفتح، مات سنة إحدى أو اثنتين وعشرين.

● وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، فاتح مصر في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، أسلم عام الحديبية وولي إمرة مصر مرتين، وهو الذي فتحها، ومات بها سنة نيف وأربعين وقيل بعد الخمسين.

● والمغيرة بن شعبة الثقفي، أسلم قبل الحديبية، وولي إمرة البصرة ثم الكوفة، مات سنة خمسين على الصحيح.

● وعبدالله بن رواحة الخزرجي الأنصاري أحد السابقين، شهد بدرًا واستشهد بمؤتة.

● ومعيقيب - بقاف وآخره موحدة، مصغر - ابن أبي فاطمة الدوسي، من السابقين الأولين، وشهد المشاهد ومات في خلافة عثمان أو علي.

● [وكتب له خالد بن سعيد بن العاص كتاب ثقيف كما سيأتي إن شاء الله تعالى في الوفود]^(١).

● وحذيفة بن اليمان، من السابقين، صح في مسلم أنه ﷺ أعلمه بما كان وما يكون إلى أن تقوم الساعة، وأبوه صحابي أيضاً استشهد بأحد، ومات حذيفة في أول خلافة علي سنة ست وثلاثين.

● وحويطب بن عبد العزى العامري، أسلم يوم الفتح، عاش مائة وعشرين سنة، ومات سنة أربع وخمسين.

وله كتاب آخر سوى هؤلاء، وذكروا في الكتاب الذي تقدم ذكره.

وكان معاوية وزيد بن ثابت ألزمهم لذلك وأخصهم به، كما قاله الحافظ الشرف الدمياطي وغيره، ونبهت عليه.

قال الحافظ ابن حجر: وقد كتب له قبل زيد بن ثابت، أبي بن كعب، وهو أول من كتب له بالمدينة، وأول من كتب له بمكة من قريش عبدالله بن أبي سرح، ثم ارتد ثم عاد إلى الإسلام يوم الفتح، ومن كتب له في الجملة أكثر من غيره الخلفاء الأربعة وأبان وخالد ابنا سعيد بن العاصي بن أمية.

(١) في الأصل.

[كتبه عليه السلام]

وقد كتب ﷺ إلى أهل الإسلام كتباً في الشرائع والأحكام:

[الكتاب الذي كان عند الصديق]

منها كتابه في الصدقات الذي كان عند أبي بكر، فكتبه أبو بكر لأنس لما وجهه إلى البحرين ولفظه كما في البخاري^(١) وأبي داود والنسائي:

(بسم الله الرحمن الرحيم. هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله ﷺ على المسلمين، والتي أمر الله بها رسوله، فمن سئله من المسلمين على وجهها فليعطها، ومن سئل فوقها فلا يعط:

في أربعة وعشرين من الإبل فما دونها، من الغنم في كل خمس / ١١٥ ب / من الإبل شاة.

فإذا بلغت خمساً وعشرين إلى خمس وثلاثين، ففيها بنت مخاض أنثى، فإن لم تكن ابنة مخاض فابن لبون ذكر. فإذا بلغت ستاً وثلاثين إلى خمس وأربعين، ففيها بنت لبون أنثى.

فإذا بلغت ستاً وأربعين إلى ستين، ففيها حقة طروقة الحمل. فإذا بلغت إحدى وستين إلى خمس وسبعين، ففيها جذعة. فإذا بلغت ستاً وسبعين إلى تسعين، ففيها بنتا لبون.

(١) هو عند البخاري في مواضع عشرة، منها ستة في كتاب الزكاة، ثلاثة أبواب متوالية ثم فصل بباب ثم ثلاثة متوالية، وفي الخمس والشركة واللباس وترك الحيل. وعند أبي داود برقم ١٥٦٧.

فإذا بلغت إحدى وتسعين إلى عشرين ومائة، ففيها حقتان
طروقتا الجمل.

فإذا زادت عن عشرين ومائة، ففي كل أربعين ابنة لبون وفي
كل خمسين حقة.

ومن لم يكن معه إلا أربع من الإبل، فليست فيها صدقة، إلا
أن يشاء ربها، فإذا بلغت خمساً من الإبل ففيها شاة.

ومن بلغت عنده من الإبل صدقة الجذعة، وليست عنده
جذعة، وعنده حقة، فإنها تقبل منه الحقة، ويجعل معها شاتين إن
استيسرتا له، أو عشرين درهماً.

ومن بلغت عنده صدقة الحقة، وليست عنده الحقة، وعنده
الجذعة فإنها تقبل منه الجذعة ويعطيه المصدق عشرين درهماً أو شاتين.

ومن بلغت عنده صدقة الحقة، وليست عنده إلا ابنة لبون، فإنه
تقبل منه بنت لبون، ويعطي شاتين أو عشرين درهماً.

ومن بلغت صدقته بنت لبون، وعنده حقة، فإنه تقبل منه الحقة
ويعطيه المصدق عشرين درهماً أو شاتين.

ومن بلغت عنده صدقة بنت لبون، وليست عنده وعنده بنت
مخاض، فإنها تقبل منه بنت المخاض، ويعطي معها عشرين درهماً أو
شاتين.

ومن بلغت صدقته بنت مخاض، وليست عنده، وعنده بنت
لبون، فإنها تقبل منه بنت لبون، ويعطيه المصدق عشرين درهماً أو
شاتين، فإن لم يكن عنده بنت مخاض على وجهها وعنده ابن لبون فإنه
يقبل منه وليس معه شيء.

وفي صدقة الغنم في سائمتها إذا بلغت أربعين إلى عشرين ومائة
شاةٍ شاةٍ .

فإذا زادت على عشرين ومائة إلى مائتين ففيها شاتان .

فإذا زادت على مائتين إلى ثلاثمائة ففيها ثلاث شياه .

فإذا زادت على ثلاثمائة ففي كل مائة شاةٍ .

فإذا كانت سائمة الرجل ناقصة عن أربعين شاة شاة واحدة،
فليس فيها صدقة إلا أن يشاء ربها .

ولا يجمع بين متفرق، ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة، وما
كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية، ولا يخرج في الصدقة
هرمة ولا ذات عوار ولا تيس إلا أن يشاء المصدق .

وفي الرقة ربع العشر، فإن لم تكن إلا تسعين ومائة فليس فيها
صدقة إلا أن يشاء ربها .

قوله وفي الرقة: الدراهم المضروبة، والهاء فيه عوض من الواو
المحذوفة من الورك. قاله ابن الأثير في الجامع. وقال في فتح الباري:
هي بكسر الراء وتخفيف القاف: الفضة الخالصة سواء كانت مضروبة
أو غير مضروبة .

[الكتاب الذي كان عند عمر]

ومنها كتابه الذي كان عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في
نُصِب الزكاة وغيرها، كما رواه أبو داود والترمذي عن سالم عن
أبيه^(١): كتب ﷺ كتاب الصدقة ولم يخرججه إلى عماله وقرنه بسيفه حتى

(١) في (ب، ش، د) عن أبيه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما .

قبض، فعمل به أبو بكر حتى قبض، ثم عمل به عمر حتى قبض
وكان فيه :

في خمس من الإبل شاة، وفي عشر شاتان وفي خمسة عشر ثلاث
شياه، وفي عشرين أربع شياه، وفي خمس وعشرين بنت مخاض، إلى
خمس وثلاثين، فإن زادت واحدة ففيها ابنة لبون، إلى خمس وأربعين،
فإن زادت واحدة ففيها حقة إلى ستين، فإن زادت واحدة ففيها
جدعة، إلى خمس وسبعين فإن زادت واحدة ففيها ابنتا لبون إلى
تسعين، فإن زادت واحدة ففيها حقتان إلى عشرين ومائة، فإذا كانت
الإبل أكثر من ذلك ففي كل خمسين حقة / وفي كل أربعين ابنة لبون. ١/١١٦

وفي الغنم في كل أربعين شاة شاة إلى عشرين ومائة، فإذا زادت
واحدة فشاتان، إلى المائتين ففيها ثلاث شياه إلى ثلاثمائة، فإن كانت
الغنم أكثر من ذلك ففي كل مائة شاة شاة، ثم ليس فيها شيء حتى
تبلغ المائة.

ولا يفرق بين مجتمع، ولا يجمع بين متفرق مخافة الصدقة، وما
كان من خليطين فإنهما يتراجعان بالسوية، ولا يؤخذ في الصدقة هرمة
ولا ذات عيب.

قال الزهري: وإذا جاء المصدق قسم الشاء أثلاثاً، ثلث خيار،
وثلث أوساط، وثلث شرار، وأخذ من الوسط. رواه أبو داود
والترمذي وقال: حديث حسن، قال: ورواه يونس وغير واحد عن
الزهري عن سالم ولم يرفعه.

قال ابن الأثير في النهاية: والخليط: المخالط، يريد به الشريك
الذي يخلط ماله بمال شريكه، والتراجع بينهما هو أن يكون لأحدهما

مثلاً أربعون بقرة وللآخر ثلاثون بقرة وماهما مختلط، فيأخذ الساعي عن الأربعين مسنة وعن الثلاثين تبيعاً، فيرجع باذل المسنة بثلاثة أسباعها على شريكه، وباذل التبيع بأربعة أسباعه على شريكه، لأن كل واحد من السنين واجب على الشيوع وكأن المال ملك واحد. انتهى.

وقال في فتح الباري: واختلف في المراد بالخليط، فعند أبي حنيفة أنه الشريك، واعترض عليه بأن الشريك لا يعرف عين ماله. وقد قال: إنها يتراجعان بينهما بالسوية، وما يدل على أن الخليط لا يستلزم أن يكون شريكاً قوله تعالى: ﴿وإن كثيراً من الخلطاء﴾ وقد بينه قبل ذلك بقوله: ﴿إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة﴾^(١).

واعتذر بعضهم عن الحنفية: بأنهم لم يبلغهم هذا الحديث، أو رأوا أن الأصل قوله: ليس فيما دون خمس ذود صدقة، وحكم الخليط يغير هذا الأصل، فلم يقولوا به، وقال أبو حنيفة: لا يجب على أحد منهم فيما يملك إلا مثل الذي يجب عليه لو لم يكن خلطة.

وقال سفيان الثوري: لا يجب حتى يتم لهذا أربعون شاة ولهذا أربعون شاة.

وقال الشافعي وأحمد وأصحاب الحديث: إذا بلغت ماشيتها النصاب زكياً، والخلطة عندهم أن يجتمعا في المسرح والمبيت والحوض والفحل، والشركة أخص منها. انتهى.

[كتابه لأهل اليمن]

ومنها كتابه ﷺ إلى أهل اليمن، وهو كتاب جليل، فيه من

(١) سورة ص، الآية ٢٣.

أنواع الفقه في الزكاة والديات والأحكام، وذكر الكبائر والطلاق والعتاق، وأحكام الصلاة في الثوب الواحد والاحتباء فيه، ومس المصحف وغير ذلك. واحتج الفقهاء كلهم بما فيه من مقادير الديات، ورواه النسائي وقال: قد روى هذا الحديث يونس عن الزهري مرسلًا، وأبو حاتم في صحيحه وغيرهما متصلًا عن أبي بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن، وكان في كتابه:

أن من اعتبط مؤمنًا قتلاً عن بينة فإنه قود إلا أن يرضى أولياء المقتول، وفيه: أن الرجل يقتل بالمرأة، وفيه: في النفس الدية مائة من الإبل وعلى أهل الذهب ألف دينار، وفي الأنف إذا أوعب جدعه الدية مائة من الإبل، وفي الأسنان الدية، وفي الشفتين الدية، وفي البيضتين الدية، وفي الذكر الدية، وفي الصلب الدية، وفي العينين الدية، وفي الرجل الواحدة نصف الدية، وفي المأمومة ثلث الدية، وفي الجائفة ثلث الدية، وفي المنقلة^(١) خمس عشرة من الإبل، وفي كل أصبع من أصابع اليد والرجل عشر من الإبل، وفي السن خمس من الإبل. وفي رواية مالك: وفي العين خمسون، وفي اليد خمسون، وفي الرجل خمسون، وفي الموضحة خمس من الإبل.

ومنها كتابه إلى بني زهير^(٢).

وأما مكاتباته عليه الصلاة والسلام إلى الملوك وغيرهم: /

ب/١١٦

(١) هذه أسماء الجروح: فالأمومة هي التي تصل إلى جلدة الدماغ، والجائفة

هي التي تصل إلى باطن الجوف. والمنقلة هي ما توضح العظم وتهشمه [م]

(٢) سقطت هذه الجملة من (ب، ط).

[كتابه إلى هرقل]

فروي أنه ﷺ لما رجع من الحديدية كتب إلى الروم، فقبل له: إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا أن يكون مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة ونقش فيه ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، و«الله» سطر، وختم به الكتاب.

وإنما كانوا لا يقرؤون الكتاب إلا مختوماً خوفاً من كشف أسرارهم، وللإشعار بأن الأحوال المعروضة عليهم ينبغي أن تكون مما لا يطلع عليها غيرهم.

وعن أنس، إن ختم كتاب السلطان والقضاة سنة متبعة، وقال بعضهم: هو سنة لفعله صلى الله عليه وسلم.

فكتب إلى قيصر، المدعو «هرقل» ملك الروم يوم ذاك، ثم قال بعد تمام (١) الكتاب من ينطلق بكتابي هذا إلى هرقل (٢) وله الجنة، فقالوا: وإن لم يصل يا رسول الله؟ قال: وإن لم يصل، فأخذه دحية ابن خليفة الكلبي، وتوجه إلى مكان فيه هرقل. ولفظه:

(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله - وفي رواية البخاري: عبدالله ورسوله (٣) - إلى هرقل عظيم الروم - وفي رواية غير البخاري: إلى قيصر صاحب الروم - (٤): سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسين، ويا أهل الكتاب تعالوا

(١) في (ب، ط) كتابة الكتاب.

(٢) في (ط، د) قيصر.

(٣) ما بين المعترضتين في ش،

(٤) ما بين المعترضتين في ش.

إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) رواه البخاري .

وكان ﷺ أرسل هذا الكتاب مع دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل في آخر سنة ست، بعد أن رجع من الحديبية، كما قاله الواقدي . ووقع في تاريخ خليفة^(١) أن إرساله كان سنة خمس، والأول أثبت، بل هذا غلط لتصريح أبي سفيان: بأن ذلك كان في مدة صلح الحديبية كما في حديث البخاري، في المدة التي كان ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش، يعني مدة صلح الحديبية، وكانت سنة ست اتفاقاً.

ولم يقل ﷺ إلى هرقل ملك الروم، لأنه معزول بحكم الإسلام، ولم يخله من الإكرام لمصلحة التأليف.

وقوله: يؤتك الله أجرك مرتين، أي لكونه مؤمناً بنبيه ثم آمن بمحمد ﷺ .

وقوله: فإن عليك إثم الأريسين: أي فإن عليك مع إثمك إثم الأتباع بسبب أنهم اتبعوك على استمرار الكفر.

وقيل: إنه ﷺ كتب هذه الآية: يعني ﴿يا أهل الكتاب﴾ قبل نزولها، فوافق لفظه لفظها لما نزلت، لأن هذه الآية نزلت في قصة وفد نجران، وكانت قصتهم سنة الوفود سنة تسع، وقصة أبي سفيان هذه كانت قبل ذلك سنة ست. وقيل: نزلت في اليهود، وجوز بعضهم

(١) خليفة بن خياط بن خليفة العصفري البصري الحافظ أحد شيوخ البخاري، قال ابن عدي له حديث وتاريخ حسن وكتاب في طبقات الرواة وهو مستقيم الحديث صدوق متيقظ مات سنة أربعين ومائتين.

نزولها مرتين، وهو بعيد والله أعلم.
ولما قرئ كتاب النبي ﷺ غضب ابن أخي قيصر غضباً شديداً
وقال: أرنى الكتاب، فقال له وما تصنع به؟ فقال: إنه بدأ بنفسه،
وسماك صاحب الروم، فقال له عمه: إنك لضعيف الرأي، أتريد أن
أرمي بكتاب رجل يأتيه الناموس الأكبر، أو كلاماً هذا معناه، أو قال:
أن أرمي بكتاب ولم أعلم ما فيه، لئن كان رسول الله إنه لأحق أن
يبدأ بنفسه، ولقد صدق: أنا صاحب الروم، والله مالكي ومالكة، ثم
أمر بإنزال دحية وإكرامه إلى أن كان من أمره ما ذكره البخاري في
حديثه. انتهى.

[كتابه إلى كسرى]

وكتب ﷺ إلى كسرى أبرويز بن هرمز بن أنوشروان ملك
فارس:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى
عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله.
أدعوك بدعاية الله، فإني رسول الله إلى الناس كلهم، لينذر من كان
حيّاً ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن توليت فعليك إثم
المجوس).

فلما قرئ عليه الكتاب مزقه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال:
مزق ملكه.

وفي البخاري من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث
بكتابه إلى كسرى مع عبدالله بن حذافة السهمي، فأمره أن يدفعه إلى
عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه،

فحسبت أن ابن المسيب قال: فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق.

وقيل: بعثه مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والذي في البخاري هو الصحيح.

وفي كتاب «الأموال» لأبي عبيد من مرسل عمير بن إسحاق قال: كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر، فأما كسرى فلما قرأ الكتاب مزقه، وأما/ قيصر فلما قرأ الكتاب طواه ثم رفعه، فقال رسول الله ﷺ: أما هؤلاء فيمزقون، وأما هؤلاء فسيكون لهم بقية.

وروي أنه لما جاء جواب كسرى قال: مزق ملكه، ولما جاء جواب هرقل قال: ثبت ملكه.

وذكر [شيخ الإسلام أبو الفضل] (١) ابن حجر العسقلاني في فتح الباري. عن سيف الدين قليج المنصوري، أحد أمراء الدولة القلاوونية، أنه قدم على ملك المغرب بهدية من الملك المنصور قلاوون، فأرسله ملك المغرب إلى ملك الفرنج في شفاعته، وأنه قبله وأكرمه، وقال: لأتحفك بتحفة سنوية، فأخرج له صندوقاً مصفحاً بذهب، فأخرج منه مقلمة من ذهب فأخرج منها كتاباً قد زالت أكثر حروفه، وقد ألصقت عليه خرقة حرير، فقال: هذا كتاب نبيكم لجدي قيصر، ما زلنا نتوارثه إلى الآن، وأوصانا آباؤنا عن آبائهم إلى قيصر، إنه ما دام هذا الكتاب عندنا لا يزال الملك فينا، فنحن نحفظه غاية الحفظ، ونعظمه ونكتمه عن النصارى ليدوم الملك فينا. انتهى.

(١) في (ب، ش، د).

[كتابه إلى النجاشي]

وكتب ﷺ إلى النجاشي:

(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، أما بعد: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه من روحه، ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاتة على طاعته، وأن تتبني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله تعالى، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي، وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفرًا ومعه نفر من المسلمين، والسلام على من اتبع الهدى).

وبعث الكتاب مع عمرو بن أمية الضمري، فقال النجاشي له عندما قرأ الكتاب: أشهد بالله أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشارة موسى براكب الحمار، كبشارة عيسى براكب الجمل، وأن العيان ليس بأشقى من الخبر عنه، ولكن أعواني من الحبش قليل، فأنظرنني حتى أكثر الأعوان وألين القلوب.

ثم كتب النجاشي جواب الكتاب إلى النبي ﷺ:

(بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة، سلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركات الله الذي لا إله إلا هو [الذي هداني للإسلام]^(١) أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله، فما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى

(١) في (ب، ش، د).

لا يزيد على ما ذكرت ثفروقاً، إنه كما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصداقاً، وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين. وقد بعثت إليك ابني، وإن شئت أتيتك بنفسي فعلت يا رسول الله، فإني أشهد أن ما تقول حق، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته).

ثم إنه أرسل ابنه في أثر من أرسله من عنده مع جعفر بن أبي طالب عم رسول الله، فلما كانوا في وسط البحر غرقوا^(١)، ووافى جعفر وأصحابه رسول الله ﷺ وكانوا سبعين رجلاً عليهم ثياب الصوف، منهم اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ [من]^(٢) القرآن سورة يس إلى آخرها، فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه الصلاة والسلام، وفيهم أنزل الله: ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا﴾^(٣) إلى آخر الآية، لأنهم كانوا من أصحاب الصوامع. انتهى.

الثفروق: علاقة^(٤) ما بين النواة والقشر^(٥).

وهذا هو أصحابمة الذي هاجر إليه المسلمون في رجب سنة خمس من النبوة، وكتب إليه النبي ﷺ كتاباً يدعو فيه إلى الإسلام مع عمرو ابن أمية الضمري سنة ست من الهجرة، فأمن به وأسلم على يد جعفر ابن أبي طالب، وتوفي في رجب سنة تسع [من الهجرة]^(٦) ونعاه النبي

(١) لعل الغرق كان في عودتهم إلى الحبشة [المحقق].

(٢) في ط. وفي ب سقطت: من القرآن.

(٣) سورة المائدة، الآية ٨٢.

(٤) في ب: غلاقة.

(٥) في ط: والقمح، وفي ش: والقمع، قال الشارح: والقمع من الثمرة.

(٦) في ش.

ﷺ يوم توفي وصلى عليه بالمدينة .
وأما النجاشي الذي ولي بعده، وكتب له النبي ﷺ يدعوه إلى
الإسلام فكان كافراً، لم يعرف إسلامه ولا اسمه . وقد خلط بعضهم
ولم يميز بينهما .

وفي صحيح مسلم عن قتادة: أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى
وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله، وليس
بالنجاشي الذي صلى عليه^(١) .

[كتابه إلى المقوقس]

وكتب ﷺ إلى المقوقس ملك مصر والاسكندرية [واسمه جريج
ابن مينا]^(٢) .

(بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبدالله ورسوله، إلى
المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: / فإني
أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن
توليت فعليك إثم القبط، يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا
وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً
أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

وبعث به مع حاطب بن أبي بلتعة، فتوجه إليه إلى مصر،
فوجده بالاسكندرية، فذهب إليها، فرآه في مجلس مشرف على البحر،
فركب سفينة إليه وحاذى مجلسه وأشار بالكتاب إليه، فلما رآه أمر
بإحضاره بين يديه، فلما جيء به إليه، ووقف بين يديه، ونظر إلى
الكتاب فضه وقرأه، وقال لحاطب: ما منعه إن كان نبياً أن يدعو علي

(١) في (ب، ط، د) اقتصر من الحديث على ذكر النجاشي .

(٢) زيادة في (ش، ب، د) .

فيسلط علي؟ فقال له حاطب: وما منع عيسى أن يدعو علي من خالفه أن يسلط عليه؟ فاستعاد منه الكلام مرتين ثم سكت، فقال له حاطب:

إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر بغيرك بك.

فقال: إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خير منه.

فقال حاطب: ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فُقِّدَ ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ﷺ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعاء أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوماً فهم من أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدرك هذا النبي، ولسنا نهاك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به.

فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آلة النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى وسأنظر.

فأخذ كتاب النبي ﷺ وجعله في حق من عاج ودفعه لجارية له، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية، فكتب إلى النبي ﷺ:

بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد بن عبدالله من المقوقس عظيم القبط، أما بعد: فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو

إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي، وكنت أظن أن يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم، وبكسوة وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام.

ولم يزد على هذا، ولم يسلم.

[كتابه إلى المنذر]

وكتب ﷺ إلى المنذر بن ساوى:

ذكر الواقدي بإسناده عن عكرمة قال: وجدت هذا الكتاب في كتب ابن عباس بعد موته، فنسخته فإذا فيه:

بعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى وكتب إليه كتاباً يدعو فيه إلى الإسلام. فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ: أما بعد، يا رسول الله فإني قد قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي يهود ومجوس، فأحدث إلي في ذلك أمرك.

فكتب إليه رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. أما بعد، فإني أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نغزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية.

[كتابه إلى ملكي عمان]

وكتب ﷺ إلى ملكي عمان^(١)، وبعثه مع عمرو بن العاص: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبدالله / ورسوله إلى جيفر - ١/١١٨ بفتح الجيم وسكون التحتية بعدها فاء^(٢) - وعبد ابني الجلندي: السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقررا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما، وخيلي تحل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما.

وكتب^(٣) أبي بن كعب، وختم الكتاب.

قال عمرو: فخرجت حتى انتهيت إلى عمان، فلما قدمتها عمدت إلى عبد - وكان أحلم الرجلين وأسهلها خلقاً - فقلت إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك. فقال: أخي المقدم علي بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى تقرأ كتابك عليه.

ثم قال: وما تدعو إليه؟

قلت: أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عبد من دونه، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله.

قال: يا عمرو إنك كنت ابن سيد قومك، فكيف صنع أبوك؟ فإن لنا فيه قدوة.

قلت: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ، وودت أنه كان أسلم وصدق به، وقد كنت على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام.

(١) رواه ابن سعد.

(٢) زيادة في الأصل.

(٣) أي الكتاب.

قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريباً، فسألني: أين كان إسلامك؟
قلت: عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم.
قال: فكيف صنع قومه بملكه؟ قلت: أقروه واتبعوه.
قال: والأساقفة والرهبان تبعوه؟ قلت: نعم.
قال: انظر يا عمرو ما تقول، إنه ليس من خصلة في رجل
أفصح له من كذب.

قلت: ما كذبت وما نستحله في ديننا.
ثم قال: فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه.
قلت: يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر
وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا وشرب الخمر
وعن عبادة الحجر والوثن والصليب.
قال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، ولو كان أخي يتابعني
لزكبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به، ولكن أخي أضن بملكه من أن
يدعه ويصير ذنباً.
قلت: إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه فأخذ الصدقة
من غنيهم فردها على فقرائهم.

قال: إن هذا لخلق حسن. وما الصدقة؟
فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات في الأموال، حتى
انتهيت إلى الإبل، فقال: يا عمرو، يؤخذ من سوائم مواشينا التي
ترعى الشجر وترد المياه؟ فقلت: نعم. قال: والله ما أرى قومي في
بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون هذا.

قال: فمكثت ببابه أياماً وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري،
ثم إنه دعاني يوماً فدخلت عليه فأخذ أعوانه بضبعي فقال: دعوه،

فأرسلت، فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعوني لأجلس فنظرت، فقال: تكلم بحاجتك فدفعت إليه الكتاب مختوماً، ففرض ختمه وقرأه حتى انتهى إلى آخره. ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته، إلا أنني رأيت أخاه أرق منه، فقال: ألا تخبرني عن قریش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه إما راغب الدين وإما مقهور بالسيف، قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره وعرفوا بعقولهم مع هدى الله أنهم كانوا في ضلال. فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الحرجة، وإن لم تسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل، فأسلم تسلم، ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال.

قال: دعني يومي هذا وارجع إلي غداً.

ب/١١٨ فرجعت إلى أخيه / فقال: يا عمرو إني لأرجو أن يسلم إن لم يضمن بملكه. حتى إذا كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لي، فانصرفت إلى أخيه، فأخبرته أنني لم أصل إليه، فأوصلني إليه فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما في يدي، وهو لا تبلغ خيله ها هنا، وإن بلغت خيله ألفت قتالاً ليس كقتال من لاقى.

قلت: وأنا خارج غداً، فلما أيقن بمخرجي، خلا به أخوه فأصبح فأرسل إلي فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً، وصدق النبي ﷺ، وخليا بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عوناً على من خالفني.

[كتابه إلى صاحب اليمامة]

وكتب ﷺ إلى صاحب اليمامة هوزة بن علي، وأرسل به سليط ابن عمرو العامري:

(بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هوزة بن علي، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يدك).

فلما قدم عليه سليط بكتاب رسول الله ﷺ مختوماً، أنزله وحباه واقرأ عليه الكتاب، فرد رداً دون رد^(١) وكتب إلى النبي ﷺ : ما أحسن ما تدعو إليه وأجله، والعرب تهاب مكاني فاجعل إلي بعض الأمر أتبعك. وأجاز سليطاً بجائزة وكساه أثواباً من نسج هجر.

فقدم بذلك على النبي ﷺ فأخبره، وقرأ النبي ﷺ كتابه وقال: لو سألتني سيابة^(٢) من الأرض ما فعلت. باد، وباد ما في يديه.

فلما انصرف النبي ﷺ من الفتح جاءه جبريل عليه السلام بأن هوزة مات، فقال ﷺ : «أما إن اليمامة سيظهر بها كذاب يتنبأ، يقتل بعدي» فكان كذلك^(٣).

[كتابه إلى ابن أبي شمر]

وكتب ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، وكان بدمشق، بغوطتها:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى، وأمن بالله وصدق، فإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك). وأرسله مع شجاع بن وهب.

(١) أي رداً فيه لطف دون رد بعنف.

(٢) أي قطعة.

(٣) هذه الفقرة سقطت من ط، من قوله: فلما انصرف.

[كتابه إلى الدارين]

قال صاحب «باعتش النفوس»^(١): روي عن أبي هند الداري قال: قدمنا على رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر: تميم بن أوس الداري، وأخوه نعيم، ويزيد بن قيس، وأبو عبدالله بن عبدالله - وهو صاحب الحديث^(٢) - وأخوه الطيب بن عبدالله فسأه النبي ﷺ عبد الرحمن، وفاكه بن النعمان، فأسلمنا وسألنا رسول الله ﷺ أن يقطعنا أرضاً من أرض الشام، فقال ﷺ: سلوا حيث شئتم. قال أبو هند فنهضنا من عنده ﷺ إلى موضع نتشاور فيه: أين نسأل.

فقال تميم: أرى أن نسأله بيت القدس وكورتها، فقال أبو هند: رأيت ملك العجم اليوم، أليس هو بيت المقدس، قال تميم: نعم، فقال أبو هند: فكذلك يكون فيه ملك العرب، وأخاف أن لا يتم لنا هذا. قال تميم: نسأله بيت جيرون وكورتها، فقال أبو هند: أكبر وأكبر، فقال تميم: فأين ترى أن نسأل؟ قال: أرى أن نسأله القرى التي نصنع فيها حصوناً مع ما فيها من آثار إبراهيم عليه السلام، فقال تميم: أصبت ووفقت.

قال: فنهضنا إلى رسول الله ﷺ فقال: يا تميم أتجرب أن تجربني بما كنتم فيه، أو أخبركم؟ فقال تميم: بل تجربنا يا رسول الله فنزداد إيماناً، فقال عليه السلام: أردت يا تميم أمراً، وأراد أبو هند غيره، ١/١١٩ ونعم الرأي رأي أبي هند، فدعا رسول الله ﷺ / بقطعة من آدم، وكتب لها فيها كتاباً نسخته:

(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب ذكر فيه ما وهب رسول

(١) هو شيخ الإسلام، برهان الدين إبراهيم الفزاري.

(٢) قال الشارح: على فرض صحة نقل المصنف فيكون له كنيتان.

الله ﷺ للداريين إذا أعطاه الله الأرض، وهب لهم بيت عينون وحبرون والمرطوم وبيت إبراهيم ومن فيهم إلى أبد الأبد) شهد عباس ابن عبد المطلب وخزيمة بن قيس، وشرحبيل بن حسنه وكتب.

قال: ثم دخل بالكتاب إلى منزله فعالج في زاوية الرقعة بشيء لا يعرف، وعقد من خارج الرقعة بسير عقدتين، وخرج به إلينا مطوياً وهو يقول: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾^(١) ثم قال: انصرفوا حتى تسمعوا أني قد هاجرت^(٢).

قال أبو هند: فانصرفنا، فلما هاجر ﷺ إلى المدينة قدمنا عليه وسألناه أن يجدد لنا كتاباً آخر، فكتب لنا كتاباً آخر نسخته.

(بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أنطى^(٣) محمد رسول الله لتميم الداري وأصحابه، إني أنطيتكم بيت عينون وحبرون والمرطوم وبيت إبراهيم برمتهم وجميع ما فيهم نطية بت ونفذت وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم أبد الأبد، فمن آذاهم فيه آذاه الله) شهد أبو بكر بن أبي قحافة وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان وكتب،

فلما قبض رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر رضي الله عنه وجند الجنود إلى الشام كتب كتاباً نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم. من أبي بكر الصديق إلى أبي عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإني

(١) سورة آل عمران، الآية ٦٨.

(٢) أي رجعت إلى المدينة، سماه هجرة مجازاً، لأن قدومهم كان عند انصرافه من تبوك.

(٣) أي: أعطى.

أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فامنع من كان يؤمن بالله واليوم الآخر من الفساد في قرى الدارين، وإن كان أهلها قد جلوا عنها وأراد الداريون يزرعونها فليزرعوها [بلا خراج]^(١) وإذا رجع إليها أهلها فهي لهم وأحق بهم والسلام عليك انتهى. نقل من كتاب الأخصا بفضائل المسجد الأقصى.

[كتابه إلى ابن رؤبة]

وكتب ﷺ ليوحنة بن رؤبة صاحب أيلة لما أتاه بتبوك، وصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنة بن رؤبة وأهل أيلة أساقفتهم وسائرهم في البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة النبي ومن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر. هذا كتاب جهيم بن الصلت وشرحيل ابن حسنة بإذن رسول الله ﷺ.

[كتابه لأهل أذرح]

وكتب ﷺ لأهل جربا وأذرح لما أتوه بتبوك أيضاً وأعطوه الجزية:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي رسول الله

(١) في ش.

لأهل أذرح [وجربا] (١) أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد. وإن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان إلى المسلمين، ومن لجأ إليهم من المسلمين من المخافة.

[كتابه لأبي ضميرة]

وعن حسين بن عبدالله بن ضميرة عن أبيه عن جده ضميرة أن رسول الله ﷺ مرَّ بأُم ضميرة وهي تبكي، فقال ما يبكيك؟ أجااعة أنت أم عارية أنت؟ فقالت: يا رسول الله / فرق بيني وبين ابني فقال رسول الله ﷺ: لا يفرق بين الوالدة وولدها، ثم أرسل إلى الذي عنده ضميرة فدعاه فابتاعه منه ببكر قال ابن أبي ذؤيب ثم أقراني كتاباً عنده: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله لأبي ضميرة وأهل بيته، أن رسول الله ﷺ أعتقهم وأنهم أهل بيت من العرب، إن أحبوا أقاموا عند رسول الله ﷺ وإن أحبوا رجعوا إلى قومهم فلا يعرض لهم إلا بحق، ومن لقيهم من المسلمين فليستوص بهم خيراً. وكتب أبي بن كعب.

[كتابه إلى أهل وج]

وكتب ﷺ كتاباً إلى أهل وج، سيأتي في وفد ثقيف في الفصل العاشر من هذا المقصد إن شاء الله تعالى. وكذا كتابه ﷺ إلى مسيلمة الكذاب في وفد بني حنيفة.

[كتابه لأكيدر دومة]

وكتب ﷺ لأكيدر ولأهل دومة الجندل لما صالحه:

(١) في ش.

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر
ولأهل دومة، إن لنا الضاحية من الضحل، والبور والمعامي وأغفال
الأرض، والحلقة والسلاح والحافر والحصن، ولكم الضامنة من
النخل، والمعين من المعمور، لا تعدل سارحتكم^(١)، ولا تعدُّ
فاردتكم^(٢)، ولا يحصر^(٣) عليكم النبات، تقيمون الصلاة لوقتها
وتؤتون الزكاة بحقها، عليكم بذلك حق الله والميثاق، ولكم به
الصدق والوفاء. شهد الله ومن حضر من المسلمين.

والضاحي: البارز الظاهر.

والضحل: الماء القليل.

والبور: الأرض تستخرج^(٤).

والمعامي: أغفال الأرض^(٥).

والحصن: دومة الجندل.

والضامنة: النخل الذي معهم في الحصن.

والمعين: الظاهر من الماء الدائم.

[كتاب في عقد بيع]

وباع ﷺ للعداء عبداً وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما
اشترى العداء بن خالد بن هوذة من محمد رسول الله، اشترى عبداً أو

(١) أي لا تنحى عن الرعي.

(٢) وهي ما لا تجب فيه الصدقة.

(٣) في (ش، ب) لا يحظر، أي لا تمنعون عن الرعي حيث شئتم.

(٤) أي التي يؤخذ خراجها.

(٥) في النص: المعامي وأغفال الأرض، فالعطف تفسيري. لكن في الروض:
المعامي: مجهول الأرض، وأغفال الأرض: ما لا أثر لهم فيه من عمارة أو
نحوها.

أمة - شك الراوي - لا داء ولا غائلة ولا خبثة، بيع المسلم للمسلم .
رواه أبو داود والدارقطني .

والغائلة: الإباق والسرقه والزنا .

الخبثة: قال ابن أبي عروبة: بيع غير أهل المسلمين^(١) .

وكان إسلام العداء بعد فتح خيبر، وهذا يدل على مشروعية
الإشهاد في المعاملات قال الله تعالى: ﴿وأشهدوا إذا تباعتم﴾^(٢)
والأمر هنا ليس للوجوب. فقد باع ﷺ ولم يشهد، واشترى ورهن
درعه عند يهودي ولم يشهد، ولو كان الإشهاد أمراً واجباً لوجب مع
الرهن خوف المنازعة والله أعلم .

[أمرؤه عليه السلام]

وأما أمراؤه عليه الصلاة والسلام:

فمنهم: باذان بن ساسان من ولد بهرام، أمره ﷺ على اليمن،
وهو أول أمير في الإسلام على اليمن، وأول من أسلم من ملوك
العجم .

وأمر ﷺ على صنعاء خالد بن سعيد .

وولى زياد بن لبيد الأنصاري حضرموت .

وولى أبا موسى الأشعري زبيد وعدن .

وولى معاذ بن جبل الجند .

وولى أبا سفيان بن حرب نجران .

وولى ابنه يزيد تيماء .

(١) في (أ، ب): بيع أهل غير المسلمين .

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٨٢ .

وولى عتّاب - بفتح المهملة وتشديد المثناة الفوقية - ابن أسيد -
بفتح الهمزة وكسر السين - مكة، وإقامة الموسم والحج بالمسلمين سنة
ثمان .

وولى علي بن أبي طالب القضاء باليمن .
وولى عمرو بن العاص عمان وأعمالها .

وولى أبا بكر الصديق إقامة الحج سنة تسع، وبعث في أثره
علياً، فقرأ على الناس براءة، فقيل: لأن أولها نزل بعد أن خرج أبو
بكر إلى الحج، وقيل أردفه به عوناً له ومساعداً، ولهذا قال له
الصديق: أمير أو مأمور؟ قال: بل مأمور، وأما الرافضة فقالوا: بل
١/١٢٠ عزله، وهذا لا يبعد من بهتهم / وافترائهم .

وقد ولى ﷺ على الصدقات جماعة كثيرة .

[رسله عليه السلام]

وأما رسله ﷺ ، فقد روي أنه عليه السلام بعث ستة نفر في
يوم واحد، في المحرم سنة سبع . وذكر القاضي عياض في الشفاء مما
عزاه للواقدي: أنه أصبح كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين
بعثه إليهم . انتهى .

وكان أول رسول بعثه ﷺ عمرو بن أمية الضمري، إلى
النجاشي ملك الحبشة، وكتب إليه كتابين يدعو به في أحدهما إلى
الإسلام ويتلو عليه القرآن، فأخذه النجاشي ووضع على عينيه ونزل
عن سريره، فجلس على الأرض ثم أسلم وشهد شهادة الحق وقال:
لو كنت أستطيع أن آتية لأتيته . وفي الكتاب الآخر أن يزوجه أم حبيبة
بنت أبي سفيان، فزوجه إياها كما تقدم في ذكر الأزواج، ودعا بحق

من عاج فجعل فيه كتابي رسول الله ﷺ وقال: لن تزال الحبشة بخير ما كان هذان الكتابان بين أظهرهم، وصلى عليه النبي ﷺ وهو بالحبشة كذا قاله الواقدي وغيره.

وليس كذلك، فإن النجاشي الذي صلى عليه رسول الله ﷺ ليس هو الذي كتب إليه^(١)، كما قدمته^(٢).

وبعث ﷺ دحية بن خليفة الكلبي - وهو أحد الستة - إلى قيصر ملك الروم، واسمه هرقل يدعو إلى الإسلام، فهمم بالإسلام فلم توافقه الروم فخافهم على ملكه فأمسك.

وبعث عبدالله السهمي إلى كسرى وهو الثالث.

وبعث الرابع وهو حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس فأكرمه، وبعث إلى النبي ﷺ بجاريتين وكسوة وبغلة ولم يسلم.

وبعث الخامس وهو شجاع بن وهب الأسدي إلى ملك البلقاء الحارث بن أبي شمر الغساني.

وبعث السادس وهو سليط بن عمرو العامري إلى هودة وإلى ثمامة بن أثال الحنفي فأسلم ثمامة.

وبعث عمرو بن العاص في ذي القعدة سنة ثمان إلى جيفر وعبد ابني الجلندي بعمان فأسلما وصدقا.

(١) هذا وهم، فالذي تقدم أنه كتب إليهما جميعاً: أصحمة الذي صلى عليه، والذي ولي بعده وكان كافراً لم يعرف إسلامه ولا اسمه، وقد روى البيهقي وغيره أنه كتب الى كل منهما، فمن نفى الكتابة عن الأول فقد وهم، والله أعلم.

(٢) هذه الفقرة ليست في ط.

وبعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين قبل منصرفه من الجعرانة - وقيل قبل الفتح - فأسلم وصدق.

وبعث المهاجر بن أبي أمية المخزومي إلى الحارث بن [عبد] (١) كلال الحميري باليمن، فقال سأنظر في أمري.

وبعث أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن عند انصرافه من تبوك سنة عشر في ربيع الأول داعيين إلى الإسلام، فأسلم غالب أهلها من غير قتال. ثم بعث علي بن أبي طالب بعد ذلك إليهم ووفاه بمكة في حجة الوداع.

وبعث جرير بن عبدالله البجلي إلى ذي الكلاع وذي عمرو يدعوهم إلى الإسلام، فأسلما وتوفي ﷺ وجرير عندهم.

وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى مسيلمة الكذاب بكتاب.

وبعث إلى فروة بن عمرو الجذامي - وكان عاملاً لقيصر - يدعوه إلى الإسلام فأسلم، وكتب إلى النبي ﷺ بإسلامه، وبعث إليه بهدية مع مسعود بن سعد، وهي: بغلة شهباء، يقال لها فضة، وفرس يقال له الظرب، وحمار يقال له يعفور، وبعث إليه أثواباً وقباء سندسياً مذهباً، فقبل هديته ووهب لمسعود بن سعد اثني عشر أوقية.

وبعث المصدقين لأخذ الصدقات هلال المحرم سنة تسع:

فبعث عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم.

وبعث بريدة - ويقال كعب بن مالك - إلى أسلم وغفار.

وبعث عباد بن بشر إلى سليم ومزينة.

وبعث / رافع بن مكيث إلى جهينة.

١٢/ب

(١) زيادة في ش.

وبعث عمرو بن العاص إلى فزارة.
وبعث الضحاك بن سفيان إلى بني كلاب.
وبعث بشر بن سفيان الكعبي - ويقال النحام العدوي - إلى بني
كعب.

وبعث عبدالله بن اللثبية إلى ذبيان.
وبعث رجلاً من سعد هذيم إلى قومه.

الفصل السابع

في مؤذنيه وخطبائه وحداته وشعرائه

أما مؤذنوه فأربعة: اثنان بالمدينة:

بلال بن رباح، وأمه حمامة، مولى أبي بكر الصديق، وهو أول من أذن لرسول الله ﷺ، ولم يؤذن بعده لأحد من الخلفاء، إلا أن عمر لما قدم الشام حين فتحها أذن بلال، فتذكر الناس رسول الله ﷺ، قال أسلم - مولى عمر - فلم أر باكياً أكثر من يومئذ، وتوفي بلال سنة سبع عشرة، أو ثمان^(١) عشرة، أو عشرين، بداريا^(٢) بباب كيسان، وله بضع وستون سنة، وقيل دفن بحلب، وقيل بدمشق.

وعمر بن أم مكتوم القرشي الأعمى، وهاجر إلى المدينة قبل النبي ﷺ.

وأذن له عليه السلام بقاء، سعد بن عائد^(٣) أو ابن عبد الرحمن المعروف بسعد القرظ وبالقرظي، مولى عمار، بقي إلى ولاية الحجاج على الحجاز، وذلك سنة أربع وسبعين.

وبمكة أبو محذورة، واسمه أوس الجمحي المكي، أبوه: معير-

(١) بفتح النون وحذف الياء، على قلة.

(٢) قرية قرب دمشق.

(٣) في ط عابد، وفي ب: عائد.

بكسر الميم وسكون المهملة وفتح التحتانية - مات بمكة سنة تسع وخمسين، وقيل تأخر بعد ذلك.

وكان منهم من يرجع الأذان ويثني الإقامة، وبلال لا يرجع ويفرد الإقامة، فأخذ الشافعي بإقامة بلال، وأهل مكة أخذوا بأذان أبي محذورة وإقامة بلال. وأخذ أبو حنيفة وأهل العراق بأذان بلال وإقامة أبي محذورة، وأخذ أحمد وأهل المدينة بأذان بلال وإقامته، وخالفهم مالك في موضعين: إعادة التكبير وثنية لفظ الإقامة.

وأما شعراؤه عليه السلام الذين يذبون عن الإسلام:

فكعب بن مالك.

وعبدالله بن رواحة الخزرجي الأنصاري.

وحسان بن ثابت بن المنذر بن عمرو بن حرام الأنصاري، دعا له عليه السلام فقال: (اللهم أيده بروح القدس) ^(١) فيقال: أعانه جبريل بسبعين بيتاً، وفي الحديث (إن جبريل مع حسان ما نافح عني) ^(٢) وهو بالحاء المهملة أي دافع، والمراد هجاء المشركين ومجاوبتهم على أشعارهم.

وعاش مائة وعشرين سنة، ستين في الجاهلية وستين في الإسلام، وكذا عاش أبوه ثابت، وجده المنذر، وجد أبيه حرام، كل واحد منهم عاش مائة وعشرين سنة، وتوفي حسان سنة أربع وخمسين.

ولما جاءه عليه السلام بنو تميم، وشاعرهم الأقرع بن حابس، فنادوه يا

(١) متفق عليه.

(٢) في مسلم من حديث عائشة قالت: (سمعت النبي عليه السلام يقول لحسان: إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله).

محمد اخرج إلينا نفاخرك ونشاعرك، فإن مدحنا زين وذمنا شين. فلم يزد ﷺ على أن قال: ذاك الله إذا مدح زان وإذا ذم شان، إني لم أبعث بالشعر، ولم أؤمر بالفخر، ولكن هاتوا، فأمر عليه السلام ثابت ابن قيس أن يجيب خطيبهم فخطب فغلبهم. فقام الأقرع بن حابس شاعرهم فقال:

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا إذا خالفونا عند ذكر المكارم
وأنا رؤوس الناس في كل معشر وأن ليس في أرض الحجاز كدارم
فأمر ﷺ حسناً يجيبهم فقام فقال:

١/١٢١ بني دارم لا تفخروا إن فخركم يعود وبالأ عند ذكر المكارم/
هبلتم علينا تفخرون وأنتم لنا خول ما بين قن وخادم
وكان أول من أسلم شاعرهم.

وكان أشد شعرائه ﷺ على الكفار حسان وكعب.

ولما رجع ﷺ من تبوك وفد عليه وفد همدان، وعليهم مقطعات
الحبرات - الخز^(١) - والعمائم العدنية، جعل ملك^(٢) بن النمط^(٣) يرتجز
بين يديه ﷺ .

وكان خطيبه ﷺ ثابت بن قيس بن شماس - بمعجمة وميم
مشددة وآخره مهملة - وهو خزرجي، شهد له النبي ﷺ بالجنة، وكان
خطيبه وخطيب الأنصار، واستشهد يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة.

(١) في الأصل.

(٢) في (ط، ش) مالك.

(٣) كلمة (ابن) في ب وسقطت من النسخ، قال الشارح: الصواب: ابن النمط بن قيس الهمداني الصحابي.

وكان يحدو بين يديه ﷺ في السفر عبدالله بن رواحة، وفي رواية الترمذي في الشائل عن أنس أنه ﷺ دخل مكة في عمرة القضية وابن رواحة يمشي بين يديه ويقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقليله^(١) ويذهل الخليل عن خليله
وقد تقدم مزيد لهذا في عمرة القضية والله أعلم.

وعامر بن الأكوع - بفتح الهمزة وسكون الكاف وفتح الواو وبالعين المهملة - وهو عم سلمة بن الأكوع، استشهد يوم خيبر، ومرت قصته في غزوتها.

وأنجشة، العبد الأسود - وهو بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الجيم وبالشين المعجمة - وكان حسن الحذاء. قال أنس^(٢): كان البراء ابن مالك يحدو بالرجال وأنجشة يحدو بالنساء. وقد كان يحدو وينشد القريض والرجز. فقال له ﷺ - كما في رواية البراء بن مالك -: عبد^(٣) رويدك رفقا بالقوارير. أي النساء.

فشبههن بالقوارير من الزجاج، لأنه يسرع إليها الكسر، فلم يأمن ﷺ أن يصيبهن أو يقع في قلوبهن حداؤه فأمره بالكف عن ذلك. وفي المثل: الغناء رقية الزنا. وقيل أراد أن الإبل إذا سمعت الحذاء أسرع في المشي واشتدت فأزعجت الراكب وأتعبته، فنهاه عن ذلك لأن النساء يضعفن عن شدة الحركة.

(١) أي محل نومه وقت القائلة.

(٢) في الصحيحين.

(٣) (عبد) لم ترد في الأصل، وهو منادى بحذف الأداة.

الفصل الثامن

في الآت حروبه ﷺ

كدروعه وأقواسه ومنطقته وأتراسه

أما أسيافه ﷺ فكان له تسعة أسياف:

- مأثور، وهو أول سيف ملكه ﷺ وهو الذي يقال إنه قدم به إلى المدينة في الهجرة.
- والعَضْب، أرسله إليه سعد بن عبادة حين سار إلى بدر.
- وذو الفقار، لأنه كان في وسطه مثل فقرات الظهر، ويجوز في «فائه» الفتح والكسر، وصار إليه يوم بدر، وكان للعاصي بن منبه، وكان هذا السيف لا يفارقه ﷺ يكون معه في كل حرب يشهدها، وكانت قائمته^(١) وقبيعته^(٢) وحلقته وذؤابته^(٣) وبكراته ونعله^(٤) من فضة.
- والقلعي، بضم القاف وفتح اللام، وهو الذي أصابه من قلع، موضع بالبادية.
- والبتار، أي القاطع.

(١) أي مقبضه.

(٢) أي ما على طرف مقبضه.

(٣) أي علاقته.

(٤) حديدته التي في أسفل غمده.

- والحتف، وهو الموت.
- والمخدم، وهو القاطع.
- والرسوب، أي يمضي في الضريبة^(١) ويغيب فيها، وهو فعول من رسب يرسب إذا ذهب إلى أسفل وإذا ثبت.
- أصابها من الفلاس - بضم الفاء وإسكان اللام - صنم كان لطيء.
- والقضيب.

وأما أذراعه فسبعة:

- ذات الفضول، بالضاد المعجمة، لطولها، أرسل بها إليه سعد ابن عبادة حين سار إلى بدر، وكانت من حديد، وهي التي رهنها عند أبي الشحم اليهودي على شعير، وكان ثلاثين صاعاً، وكان الدين الى سنة.

- وذات الوشاح.
- وذات الحواشي.
- والسعدية، ويقال بالغين المعجمة، وهي درع عكبر القينقاعي، قيل وهي درع داود/ عليه السلام التي لبسها حين قتل جالوت.

- وفضة وكان قد أصابها^(٢) من بني قينقاع.
 - والبتراء، لقصرها.
 - والخرنق، باسم ولد الأرنب.
- وكان عليه ﷺ يوم أحد درعان، ذات الفضول وفضة. وكان عليه ﷺ يوم حنين درعان: ذات الفضول والسعدية.

(١) في ط: الضربة.

(٢) كذا في النسخ والمقصود: السعدية وفضة، وفي ط: أصابها.

وأما أقواسه ﷺ فكانت ستة: الزوراء، وثلاث من سلاح بني قينقاع، قوس تدعى الروحاء، وقوس تدعى الصفراء، وشوحت، والكتوم كسرت يوم أحد فأخذها قتادة، والسداد.

وكانت له جعبة تدعى الكافور، وكانت له منطقة من أديم فيها ثلاث حلق من فضة، والإبريم من فضة، والطرف من فضة.

وأما أتراسه، فكان له ﷺ ترس اسمه: الزلوق، يزلق عنه السلاح، وترس يقال له الفتق، وترس أهدي إليه، فيه صورة تمثال عقاب أو كبش، فوضع يده عليه فأذهب الله ذلك التمثال.

وأما أرماحه ﷺ، فالمثوي: قال ابن الأثير سمي به لأنه يثبت المطعون به، من الثوى وهو الإقامة. انتهى. والمثنى، ورمحان آخران. وكانت له ﷺ حربة كبيرة اسمها البيضاء، وكانت له عليه السلام حربة أخرى صغيرة دون الرمح شبه العكاز، يقال لها العنزة، وكانت تركز أمامه ويصلي إليها.

وكان له ﷺ مغفر من حديد يسمى السبوغ، أو ذا السبوغ، وآخر يسمى الموشح.

تكميل:

وكان له ﷺ فسطاط يسمى الكن.

وكان له محجن قدر ذراع أو أكثر يمشي ويركب به ويعلقه بين يديه على بعيرة.

وكانت له مخرصة^(١) تسمى العرجون، وقضيب من الشوحت^(٢) يسمى الممشوق.

(١) ما يختصره بيده فيمسكه من عصا أو عكازة.

(٢) من شجر الجبال.

وكان له قدح يسمى الريان، وآخر يسمى مغيثاً، وآخر مضرب
بسلسلة من فضة في ثلاث^(١) مواضع، وآخر من عيدان، وآخر من
زجاج.

وتور^(٢) من حجارة يسمى المخضب، وركوة تسمى الصادرة،
ومخضب من نحاس، ومغتسل من صفر، ومدهن وربعة^(٣) اسكندرانية
يجعل فيها المرآة، ومشط^(٤) من عاج - وهو الذبل^(٥) -، والمكحلة
يكتحل منها عند النوم ثلاثاً في كل عين، وكان له في الربعة أيضاً
المقراض والسواك. وهذه الربعة أهداها له المقوقس صاحب
الاسكندرية مع مارية أم إبراهيم عليه السلام.

وكانت له قصعة تسمى الغراء، بأربع حلق، وصاع، ومد.
وقطيفة وسرير قوائمه من ساج، وفراش من آدم حشوه ليف.
وخاتم من حديد، ملوي بفضة، وخاتم فضة، فسه منه، يجعله
في يمينه، وقيل: كان أولاً في يمينه ثم حوله إلى يساره، منقوش عليه:
محمد رسول الله.

وأهدى له النجاشي خفين ساذجين فلبسهما.

وكان له ثلاث جباب يلبسهن في الحرب، جبة سندس أخضر،
وجبة طيالسة. وعمامة يقال لها السحاب، وأخرى سوداء، ورداء،
صلوات الله وسلامه عليه.

(١) كذا في النسخ: والأصح: ثلاثة.

(٢) أي: إناء.

(٣) وهي جلد يجعل فيه العطار الطيب.

(٤) في ش، مشطا.

(٥) قال في المصباح: شيء كالعاج.

الفصل التاسع

في ذكر خيله ﷺ ولقاحه ودوابه

أما خيله ﷺ : فالسكب، يقال: فرس سكب أي: كثير الجري كأنما يصب جريه صباً، وأصله من سكب الماء يسكب، وهو أول فرس ملكه، اشتراه عليه السلام بعشرة أواق، وكان أغر محجلاً^(١)، طلق اليمين^(٢)، كميئاً^(٣)، وقال ابن الأثير: كان أدهم^(٤).

والمرتجز - بضم الميم وسكون الراء وفتح التاء وكسر الجيم بعدها زاي - سمي به لحسن صهيله، مأخوذ من الرجز الذي هو ضرب من الشعر، وكان أبيض، وهو الذي شهد له فيه خزيمة بن ثابت/، فجعل شهادته بشهادة رجلين^(٥).

(١) الأغر: الذي في وجهه بياض، والمحجل: أبيض القوائم وجاوز بياضه الأرساغ.

(٢) أي سمحا.

(٣) ذو لون بين السواد والحمرة، لم يخلص له واحد منها.

(٤) أي أسود.

(٥) أخرج أبو يعلى وغيره: أن النبي ﷺ اشترى فرساً من سواء بن الحارث، فجحده، فشهد له خزيمة، فقال ﷺ ما حملك على الشهادة ولم تكن معه حاضرًا؟ فقال: صدقتك بما جئت به وعلمت أنك لا تقول إلا حقاً. فقال ﷺ؛ من شهد له خزيمة أو شهد عليه فحسبه. ورواه أبو داود والنسائي بدون تسمية البائع.

والظرب - بالطاء المعجمة - واحد الظراب^(١)، سمي به لكبره
وسمنه، وقيل لقوته وصلابة حافره، أهداها له فروة بن عمرو
الجدامي .

واللخيف - بالمهمله - أهداها له ربيعة بن البراء، سمي به
لسمنه وكبره، كأنه يلحف الأرض أي يغطيها بذنبه لطوله، فعيل بمعنى
فاعل، يقال لحفت الرجل باللحاف: طرحته عليه، ويروى بالجيم
وبالحاء المعجمة، رواه البخاري ولم يتحققه^(٢)، والمعروف بالحاء
المهمله، قاله في النهاية .

واللزاز، سمي به لشدة تلززه، أو لاجتماع خلقه . ولزبه الشيء
أي لرق به، كأنه يلتزق بالمطلوب لسرعته، وهذه أهداها له المقوقس .

والورد، قال ابن سعد: أهداها له تميم الداري، فأعطاه عمر،
فحمل عليه في سبيل الله، ثم وجده يباع برخص فقال: لا تشتريه^(٣) .

وسبحة، بالموحدة، من قولهم: فرس سابع إذا كان حسن مد
اليدين في الجري . قال ابن بنين^(٤): هي فرس شقراء اشتراها من
أعرابي من جهينة بعشر من الإبل^(٥) .

(١) الظرب: هو الجبل الصغير.

(٢) أي لم يتحققه هل هو بالحاء أم بالحاء، حيث قال: وقال بعضهم:
اللخيف.

(٣) متفق عليه من حديث عمر.

(٤) في (ش) ابن سيرين.

(٥) هذا القول في (أ، ش)، من قوله: قال ابن.

فهذه سبعة متفق عليها:

وذكر ابن بنين^(١) فيما حكاه الحافظ الدميطي: البحر، في خيله
ﷺ، قال: وكان اشتراه من تجار قدموا من اليمن، فسبق عليه
مرات، فجثا ﷺ على ركبتيه ومسح وجهه وقال: ما أنت إلا بحر،
فسمي بحراً. قال ابن الأثير: وكان كميئاً وكان سرجه دفتان من
ليف.

والسجل، بكسر السين وسكون الجيم، ذكره على بن محمد بن
الحسين^(٢) بن عبدوس الكوفي، ولعله مأخوذ من قولك سجلت الماء
فانسجل، أي صببته فانصب.

وذو اللمة - بكسر اللام وتشديد الميم - ذكره ابن حبيب^(٣).

وذو العقال بضم العين المهملة وتشديد القاف، وحكى بعضهم
تخفيفها.

والسرحان - بكسر المهملة وسكون الراء - ذكره ابن خالويه.

والطرف - بكسر الطاء المهملة وسكون الراء بعدها فاء - ذكره
ابن قتيبة في المعارف، وذكر في رواية أنه الذي اشتراه من الأعرابي
وشهد له به خزيمة بن ثابت.

(١) عبد الغني بن سليمان بن بنين، محدث مشهور مات سنة إحدى وستين
وستائة.

(٢) كذا في النسخ، وفي ش: حنين، ولم يترجم له.

(٣) أبو جعفر، محمد بن حبيب، الأخباري النسابة.

والمرتجل - بكسر الجيم - ذكره ابن خالويه، من قولهم ارتجل
الفرس ارتجلاً، إذا خلط العنق^(١) بشيء من الهملجة^(٢).

والمرواح، - بكسر الميم - من أبنية المبالغة - كالمطعام - مشتق من
الريح، أو من الرواح لتوسعه في الجري، أهداها له قوم من مذبح،
ذكره ابن سعد.

وملاوح، - بضم الميم وكسر الواو - ذكره ابن خالويه.

والمندوب، ذكره بعضهم في خيله ﷺ .

والنجيب، ذكره ابن قتيبة، وأن في رواية: أنه الذي اشتراه من
الأعرابي وشهد له به خزيمة.

واليعبوب واليعسوب ذكرهما قاسم بن ثابت في كتاب الدلائل،
وكان سرجه دفتان من ليف.

وكان له ﷺ من البغال:

دلل: بدالين مهملتين، وكانت شهباء أهداها له المقوقس.

وفضة: أهداها له فروة بن عمرو الجذامي.

وأخرى: أهداها له ابن العلماء، صاحب أيلة. وأخرى من

دومة الجندل، وأخرى من عند النجاشي.

قيل: وأهدى له كسرى بغلة أخرى، وفي ذلك نظر، لأن

كسرى مزق كتابه ﷺ .

وكان له ﷺ من الحمير: عفير، أهداه له المقوقس، ويعفور،

أهداه له فروة بن عمرو، ويقال: هما واحد، وذكر أن سعد بن عبادة

أعطى للنبي ﷺ / حماراً فركبه.

(١) نوع من السير، يباعد بين خطاه ويتوسع في جريه.

(٢) وهي مقاربة الخطا مع الإسراع.

وكان له ﷺ من اللقاح: القصواء وهي التي هاجر عليها،
والعضباء والجدعاء، ولم يكن بها غضب ولا جدع، وإنما سميتا
بذلك، وقيل كان بأذنهما غضب، وقيل: العضباء والجدعاء واحدة،
والعضباء هي التي كانت لا تسبق فجاء أعرابي على قعود له فسبقها
فشق ذلك على المسلمين فقال ﷺ: إن حقاً على الله أن لا يرفع من
الدنيا شيئاً إلا وضعه.

وغنم ﷺ يوم بدر جملاً لأبي جهل في أنفه برة من فضة، فأهداه
يوم الحديبية ليغيظ بذلك المشركين.

وكانت له خمسة وأربعون^(١) لقحة^(٢) أرسل بها إليه سعد بن
عبادة:

منها: (٣) أطلال، وأطراف، وبردة، وبركة، والبغوم، والحناء،
ورمزه^(٤)، والرياء، والسعدية، وسقيا، والسمرء، والشقراء، وعجرة،
والعريس، وغوثة، وقيل: غيثة، وقمر، ومروة، ومهرة، وورشة،
والعسيرة^(٥).

وكانت له مائة شاة، وكانت له ستة أعنز مئاح ترعاهن أم
أيمن.

(١) كذا في النسخ، وينبغي أن يقول: خمس وأربعون.

(٢) قال الشارح: الذي في الهدي: كانت له خمسة وأربعون لقحة مهرة أرسل
بها سعد، أي منها اللقحة المسماة مهرة أرسل بها سعد، فسقط من المصنف
لفظ مهرة فأوهم.

(٣) هذه الفقرة لم تذكر في ط قال الشارح: من قوله «منها» ساقط من بعض
النسخ، ولعله الصواب، فإن كثيراً منها إنما ذكره العراقي اسماً للمنيحة.

(٤) في (ب، ش) زمزم.

(٥) في ش السيرة.

الفصل العاشر

في ذكر من وفد عليه ﷺ
وزاده فضلاً وشرفاً لديه

قال النووي: الوفد: الجماعة المختارة للتقدم في لقاء العظماء، واحدهم: وافد، انتهى.

وقد كان ابتداء الوفد عليه بعد رجوعه ﷺ من الجعرانة في آخر سنة ثمان وما بعدها، وقال ابن إسحاق: بعد غزوة تبوك، وقال ابن هشام: كانت سنة تسع تسمى سنة الوفد.

وقد سرد محمد بن سعد في الطبقات الوفود، وتبعه الدمياطي في السيرة له، وابن سيد الناس، ومغلطاي، والحافظ زين الدين العراقي. ومجموع ما ذكره يزيد على الستين.

[وفد هوازن]

فقدم عليه ﷺ وفد هوازن، كما ذكره البخاري وغيره، وذكر موسى بن عقبة في المغازي: أن رسول الله لما انصرف من الطائف في شوال إلى الجعرانة وفيها السبي - يعني سبي هوازن - قدمت عليه وفود هوازن مسلمين، فيهم تسعة نفر من أشرافهم فأسلموا وبايعوا، ثم كلموه فقالوا: يا رسول الله، إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات

والعمات والخالات، فقال: سأطلب لكم، وقد وقعت المقاسم، فأبي
الأمرين أحب إليكم، السبي أم المال؟ قالوا: يا رسول الله، خيرتنا
بين الحسب والمال، فالحسب أحب إلينا، ولا نتكلم في شاة ولا بعير،
فقال: أما الذي لبني هاشم فهو لكم، وسوف أكلم لكم المسلمين
فكلموهم وأظهروا إسلامكم.

فلما صلى رسول الله ﷺ الهاجرة قاموا، فتكلم خطبائهم فأبلغوا
ورغبوا إلى المسلمين في رد سبيهم، ثم قام رسول الله ﷺ حين فرغ،
فشفع لهم وحض المسلمين عليه، وقال: قد رددت الذي لبني هاشم
عليهم، وفي رواية ابن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن
جده: وأدركه وفد هوازن بالجرعانة، وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول
الله، إنا أهل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك. فامنن
علينا من الله عليك، وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال: يا رسول
الله، إن اللواتي في الحظائر من السبايا خالاتك وعماتك وحواضنك
اللاتي كن يكفلنك، وأنت خير مكفول ثم أنشد:

امنن علينا رسول الله في كرم فإنك المرء نرجوه وندخر
الأبيات المشهورة الآتية إن شاء الله تعالى.

وروينا في المعجم الصغير للطبراني من ثلاثياته، عن زهير-بن
صرد الجشمي يقول: لما أسرنا رسول الله ﷺ يوم حنين - يوم هوازن -
وذهب يفرق السبي والشاء أتيته فأنشأت أقول هذا الشعر: /

امنن علينا رسول الله في كرم فإنك المرء نرجوه وندخر
امنن على بيضة قد عاقها قدر مشنت شملها في دهرها غير
أبقت لنا الدهر هتافاً على حزن على قلوبهم الغماء والغمر
إن لم تداركهم نعماء تنشرها يا أرجح الناس حلماً حين تختبر

امن على نسوة قد كنت ترضعها
 إذ أنت طفل صغير كنت ترضعها
 لا تجعلنا كمن شالت نعمته
 إننا لنشكر للنعماء إذ كفرت
 فألبس العفو من قد كنت ترضعه
 يا خير من مرحت^(٢) كمت^(٣) الجياد به
 إنا نؤمل عفواً منك تلبسه
 فاعفو^(٤) عفا الله عما أنت راهبه^(٥)
 إذ فوك تملؤه من مخضها الدرر^(١)
 وإذ يزينك ما تأتي وما تذر
 واستبق منا فإننا معشر زهر
 وعندنا بعد هذا اليوم مدخر
 من أمهاتك إن العفو مشتهر
 عند الهياج إذا ما استوقد الشر
 هادي البرية إذ تعفو وتنتصر
 يوم القيامة إذ يهدى لك الظفر

قال: فلما سمع النبي ﷺ هذا الشعر قال: ما كان لي ولعبد
 المطلب فهو لكم، وقالت قريش: ما كان لنا فهو لله ولرسوله، وقالت
 الأنصار: ما كان لنا فهو لله ولرسوله.

ومن بين الطبراني وزهير لا يعرف، لكن يقوى حديثه بالمتابعة
 المذكورة، فهو حديث حسن، وقد وهم من زعم أنه منقطع. وقد زاد
 الطبراني على ما أورده ابن إسحاق خمسة أبيات.

وذكر الواقدي: أن وفد هوازن كانوا أربعة وعشرين بيتاً، فيهم
 أبو برقان السعدي، فقال: يا رسول الله، إن هذه لأمهاتك وخالاتك
 وحواضنك ومرضعاتك فامنن علينا من الله عليك، فقال: قد استأنيت
 بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون، وقد قسمت السبي.

(١) مخضها: أي لبنها الخالص، الدرر: كثرة اللبن وسيلانه جمع درة.

(٢) مرحت: أي نشطت ورعت.

(٣) جمع كميته.

(٤) بواو الإشباع.

(٥) أي: خائفة.

[وفد ثقيف]

وقدم عليه ﷺ وفد ثقيف، بعد قدومه ﷺ من تبوك، وكان من أمرهم أنه ﷺ لما انصرف من الطائف قيل له: يا رسول الله ادع على ثقيف، فقال: اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم.

ولما انصرف عنهم، اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يدخل المدينة، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فلما أشرف على عليّة له، وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه، رموه بالنبل من كل وجه، فأصابه سهم فقتله.

ثم أقامت ثقيف بعد قتله أشهراً، ثم ائتمروا بينهم ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، وقد بايعوا وأسلموا، وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ.

فبعثوا عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومعه اثنان من الأحلاف: الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب بن مالك، وشرحبيل بن غيلان، وثلاثة من بني مالك: عثمان بن أبي العاص، وأوس بن عوف، ونمير ابن خرشة، فلما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب لهم قبة في ناحية المسجد، وكان خالد بن سعيد بن العاصي هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى أسلموا واكتبوا كتابهم، وكان خالد هو الذي كتبه، وكان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية - وهي اللات - لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى عليهم ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها.

وكانوا سألوه مع ذلك أن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا

١٢٣/ب أوثانهم / إلا بأيديهم، فقال ﷺ: كسروا أوثانكم بأيديكم^(١) وأما

(١) الذي في سيرة ابن هشام: وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من =

الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه، فلما أسلموا وكتب لهم الكتاب أمر عليهم عثمان بن أبي العاص وكان من أحدثهم سناً، لكنه كان من أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن.

فرجعوا إلى بلادهم ومعهم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم الطاغية، فلما دخل المغيرة عليها علاها يضربها بالمعول، وخرج نساء ثقيف حسراً يبكين عليها، وأخذ المغيرة بعد أن كسرها مالها وحليها.

وكان كتاب رسول الله ﷺ الذي كتب لهم: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المؤمنين: إن عضاه وج وصيده حرام لا يعضد، من وجد يفعل شيئاً من ذلك فإنه يجلد، وتنزع ثيابه، فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ النبي محمداً، وإن هذا أمر النبي محمد رسول الله، وكتب خالد بن سعيد بأمر الرسول محمد بن عبدالله، فلا يتعداه أحد فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله.

«وج»: واد بالطائف.

واختلف فيه: هل هو حرم يحرم صيده وقطع شجره؟ فالجمهور: أنه ليس في البقاع حرم إلا حرم مكة والمدينة. وخالفهم أبو حنيفة في حرم المدينة.

وقال الشافعي - في أحد قوليهِ - وج حرم، يحرم صيده وشجره، واحتج لهذا القول بحديثين: أحدهما: ما تقدم، والثاني: حديث عروة

= الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة.. ٥٤٠/٢ وهو الصواب الذي يؤيده بقية الخبر من أنهم لم يكسروا أصنامهم وإنما كسرها المغيرة. [المحقق].

ابن الزبير عن أبيه أن النبي ﷺ قال: (إن صيد وج وعضاهه حرم محرم لله) رواه الإمام أحمد وأبو داود. لكن في سماع عروة من أبيه نظر، وإن كان قد رآه.

وفي مغازي المعتمر بن سليمان [التيمي] (١) عن عبدالله بن عبد الرحمن الطائفي عن عمه عمرو بن أوس عن عثمان بن أبي العاص، قال: استعملني رسول الله ﷺ وأنا أصغر الستة الذين وفدوا عليه من ثقيف، وذلك أني كنت قرأت سورة البقرة، فقلت: يا رسول الله، إن القرآن يتفلت مني، فوضع يده على صدري وقال: يا شيطان اخرج من صدر عثمان، فما نسيت شيئاً بعده أريد حفظه.

وفي صحيح مسلم، عن عثمان بن أبي العاص، قلت: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي، فقال: (ذلك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثاً) قال: ففعلت فأذهب الله عني.

[وفد بني عامر]

وقدم وفد بني عامر عليه ﷺ، قال ابن إسحاق: لما فرغ ﷺ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، فدخلوا في دين الله أفواجاً، يضربون إليه من كل وجه.

فوفد إليه ﷺ بنو عامر، فيهم عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس وخالد بن جعفر (٢)، وحيان بن أسلم بن مالك (٣)، وكان هذا النفر

(١) في ش.

(٢) كذا في النسخ وهو تصحيف صوابه كما في ابن إسحاق وغيره: وأربد بن قيس بن جزء بن خالد بن جعفر. [سيرة ابن هشام ٥٦٨/٢].

(٣) كذا في النسخ. وفي (د) جبار، والذي عند ابن هشام: جبار بن سلمى بن مالك بن جعفر ٥٦٨/٢ [المحقق].

رؤساء القوم وشياطينهم، فقدم - عدو الله - عامر بن الطفيل على رسول الله ﷺ وهو يريد أن يغدر به، فقال لأربد إذا قدمنا على الرجل فإني شاغل عنك وجهه، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف^(١)، فكلم عامر رسول الله ﷺ وقال: والله لأملأها عليك خيلاً ورجلاً^(٢)، فلما ولى قال ﷺ: اللهم اكفني عامر بن الطفيل.

فلما خرجوا، قال عامر لأربد: ويحك، أينما كنت أمرتك به؟ فقال: والله ما هممت بالذي أمرتني به إلا دخلت بيني وبينه، أفأضربك بالسيف؟

ولما كانوا ببعض الطريق بعث الله تعالى على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقه فقتله الله.

وفي صحيح البخاري: أن عامراً أتى النبي ﷺ فقال: أخيرك بين ثلاث خصال، يكون لك أهل السهل، ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك / من بعدك، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء. ١/١٢٤
فطعن^(٣) في بيت امرأة فقال: أغدة كغدة البكر^(٤) في بيت امرأة من بني فلان. اثتوني بفرسي فركب فمات على ظهر فرسه^(٥).

[وفد عبد القيس]

وقدم وفد عبد القيس عليه، زاده الله فضلاً وشرفاً لديه، وهي

(١) في ش: فإني شاغل عنك وجهه فاعله.

(٢) في ش ورجلاً.

(٣) أي أصابه مرض الطاعون.

(٤) البكر: الفتى من الإبل، والغدة من أمراض الإبل وهو طاعونها.

(٥) لم يتقيد المصنف بألفاظ البخاري. ورقم الحديث في البخاري هو ٤٠٩١

[المحقق].

قبيلة كبيرة يسكنون البحرين ينسبون إلى عبد القيس بن أفصى -
بسكون الفاء بعدها مهملة بوزن أعمى - ابن دُعْمِي - بضم الدال
وسكون العين المهملتين وكسر الميم بعدها تحتانية - .

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس: (قدم وفد عبد القيس
على رسول الله ﷺ فقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة، قال: مرحبا
بالوفد غير خزايا ولا ندامى، فقالوا: يا رسول الله، إن بيننا وبينك
هذا الحي من كفار مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في شهر حرام،
فمرنا بأمر فصل، نأخذ به ونأمر به من وراءنا، وندخل به الجنة.
قال: أمركم بأربع وأنهاكم عن أربع، أمركم بالإيمان بالله وحده،
أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول
الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغنم
الخمس، وأنهاكم عن أربع: عن الدباء والحتمم والنقير والمزفت^(١)،
فاحفظوهن وادعوا إليهن من وراءكم)^(٢) .

قال ابن القيم: ففي هذه القصة أن الإيمان بالله مجموع هذه
الخصال من القول والعمل، كما على ذلك أصحاب رسول الله ﷺ
والتابعون وتابعوهم كلهم، ذكر ذلك الشافعي في المبسوط، وعلى ذلك
ما يقارب مائة دليل من الكتاب والسنة، ولم يعد الحج من هذه
الخصال، وكان قدومهم في سنة تسع، وهذا أحد ما يحتج به على أن
الحج لم يكن فرض بعد، وأنه إنما فرض في العاشرة، ولو كان فرض

(١) الدباء هو القرع، والحتمم: هو الجرار الخضر، والنقير: أصل النخلة تنقر
لتتخذ وعاء، والمزفت: ما طلي بالزفت، وهو من إطلاق المحل وإرادة
الحال، أي ما يتبذ في هذه الأواني.

(٢) رقم الحديث في البخاري ٥٣ .

لعه من الإيمان كما عد الصوم والزكاة. انتهى^(١).
وقد كان لعبد القيس وفدتان:

إحدهما: قبل الفتح، ولهذا قالوا له ﷺ: حال بيننا وبينك كفار مضر، وكان ذلك قديماً، إما سنة خمس أو قبلها، وكانت قريتهم بالبحرين، وكان عدد الوفد الأول ثلاثة عشر رجلاً، وقيل كانوا أربعة عشر راكباً، وفيها سألوه عن الإيمان، وعن الأشربة، وكان فيهم الأشج، وكان كبيرهم، وقال له ﷺ: (إن فيك خصلتين يجبهما الله، الحلم والأناة) رواه مسلم من حديث أبي سعيد.

وأخرج البيهقي: بينما النبي ﷺ يحدث أصحابه قال: سيطلع عليكم من هاهنا ركب هم خير أهل المشرق، فقام عمر نحوهم، فلقي ثلاثة عشر راكباً، فبشرهم بقوله ﷺ ثم مشى معهم حتى أتى النبي ﷺ، فرموا بأنفسهم عن ركائبهم، فأخذوا يده فقبلوها. الحديث وأخرجه البخاري في الأدب المفرد. فيمكن أن يكون أحد المذكورين غير راكب أو مرتدفاً.

وثانيتها: كانت في سنة الوفود وكان عددهم حينئذٍ أربعين رجلاً، كما في حديث أبي خيرة الصباحي^(٢) عند ابن منده.

ويؤيد التعدد: ما أخرجه من وجه آخر أنه ﷺ قال لهم: مالي أرى ألوانكم تغيرت؟ ففيه إشعار بأنه كان رأهم قبل التغير، وفي قولهم: يا رسول الله، دليل على أنهم كانوا حين المقالة مسلمين، وكذا في قولهم كفار مضر، وقولهم: الله ورسوله أعلم.

(١) زاد المعاد ٦٠٧/٣.

(٢) كذا في النسخ وكذلك ضبطه الشارح ونسبه إلى الفتح، ولكني رأيت في الفتح هكذا «أبو حيوة الصناحي» ٨٥/٨ [المحقق].

ويدل على سبقهم إلى الإسلام أيضاً، ما في البخاري: إن أول
جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس
بجواثي من البحرين، وهي قرية لهم، وإنما جمعوا بعد رجوع وفد
إليهم، وقال في فتح / الباري: فدل على أنهم سبقوا جميع القرى إلى
الإسلام. ١٢٤/ب

وما جزم به ابن القيم من أن السبب في كونه لم يذكر الحج في
الحديث، لأنه لم يكن فرض، هو المعتمد. وقدمت الدليل على قدم
إسلامهم، لكن جزمه تبعاً للواقدي بأن قدومهم كان في سنة تسع قبل
فتح مكة ليس بجيد، لأن فرض الحج كان سنة ست على الأصح^(١)،
لكنه اختار - كغيره - أن فرض الحج في السنة العاشرة، حتى لا يرد
على مذهبه أنه على الفور شيء^(٢).

وقد احتج الشافعي لكونه على التراخي بأن فرض الحج كان
بعد الهجرة، وأنه ﷺ كان قادراً على الحج في سنة ثمان، وفي سنة
تسع، ولم يحج إلا في سنة عشر، وسيأتي في حجه ﷺ من مقصد
عباداته مزيد لذلك إن شاء الله تعالى.

فإن قلت كيف قال [ﷺ أمركم بـ] (٣) أربع، والمذكورات
خمسة؟

[قلت] (٤) أجاب القاضي عبد الوهاب (٥) تبعاً لابن بطال: بأن

(١) في ط: الأرجح.

(٢) لفظ شيء سقط من ط.

(٣) في ش.

(٤) في ش.

(٥) كذا في نسخ المصنف، والمذكور في الفتح: القاضي عياض. وهو الصواب.

الفتح ١٣٣/١ [المحقق].

الأربع، ما عدا أداء الخمس، قال: وكأنه أراد إعلامهم بقواعد الإيمان وفروض الأعيان، ثم أعلمهم بما يلزمهم إخراجهم إذا وقع لهم جهاد، لأنهم كانوا بصدد محاربة كفار مضر، ولم يقصد إلى ذكرها بعينها لأنها مسببة عن الجهاد، ولم يكن الجهاد إذ ذاك فرض عين. قال: ولذلك لم يذكر الحج لأنه لم يكن فرض.

وقال غيره: وقوله «وأن تعطوا» معطوف على قوله «بأربع» أي: أمركم بأربع وأن تعطوا، ويدل عليه العدول عن سياق الأربع والإتيان: بأن والفعل، مع توجيه الخطاب إليهم.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: يحتمل أن يقال: إنه ﷺ عد الصلاة والزكاة واحدة لأنها قرينتها في كتاب الله، وتكون الرابعة أداء الخمس، أو أنه لم يعد الخمس لأنه داخل في عموم إيتاء الزكاة، والجامع بينهما: أنه إخراج مال معين.

وقال البيضاوي: الظاهر أن الأمور الخمسة هنا تفسير للإيمان، وهو أحد الأربعة الموعود بذكرها، والثلاثة الأخرى حذفها الراوي اختصاراً أو نسياناً.

وتعقب بأنه وقع في صحيح البخاري أيضاً في رواية: «أمركم بأربع: شهادة أن لا إله إلا الله، وعقد واحدة»^(١) فدل على أن الشهادة إحدى الأربع.

وقال القرطبي: قيل إن أول الأربع المأمور بها: إقام الصلاة، وإنما ذكر الشهادتين تبركاً، وإلى هذا نحا الطيبي، فقال عادة البلغاء أن الكلام إذا كان منصوباً لغرض جعلوا سياقه له، وطرحوا ما

(١) رقمه في صحيح البخاري ٤٣٦٩.

عداء، وهنا لم يكن الغرض في الإيراد ذكر الشهادتين لأن القوم كانوا مؤمنين مقرين بكلمتي الشهادة، ولكن ربما كانوا يظنون الإيمان مقصور عليهما كما كان الأمر في صدر الإسلام. قال: ولهذا لم يعد الشهادتين في الأوامر، انتهى ملخصاً من فتح الباري^(١).

[وفد بني حنيفة]

وقدم عليه ﷺ وفد بني حنيفة، فيهم مسيلمة الكذاب، فكان منزلهم في دار امرأة من الأنصار، من بني النجار، فأتوا بمسيلمة إلى رسول الله ﷺ وهم يسترونه^(٢) بالثياب، ورسول الله ﷺ جالس مع أصحابه، في يده عسيب من سعف النخل، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ - وهم يسترونه بالثياب - كلمه وسأله، فقال له رسول الله ﷺ : لو سألتني هذا العسيب الذي في يدي ما أعطيتك.

وذكر حديثه ابن إسحاق على غير ذلك^(٣) فقال: حدثني شيخ من أهل اليمامة من بني حنيفة: أن وفد بني حنيفة أتوا رسول الله ﷺ وخلفوا مسيلمة في رحاهم، فلما أسلموا ذكروا له مكانه، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد خلفنا صاحباً لنا في رحالنا وركابنا يحفظها لنا، فأمر له رسول الله ﷺ بما أمر به للقوم، وقال لهم: إنه ليس بشركم مكانا، يعني لحفظه ضيعة أصحابه، ثم انصرفوا، فلما قدموا اليمامة ارتد - عدو الله - وتنبأ وقال: إني أشركت في الأمر معه، ثم جعل يسجع السجعات، فيقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن:

(١) فتح الباري ١/١٣٢ - ١٣٤ و ٨/٨٥.

(٢) في (ش، د): يُسْتَر، دون ذكر: وهم.

(٣) قال في فتح الباري ٨/٨٩: هذا الحديث مع شدوده ضعيف السند لانقطاعه.

لقد أنعم الله على الحبلي، أخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشى.

وسجع اللعين على سورة ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ فقال: إنا أعطيناك الجواهر، فصل لربك وهاجر، إن مبغضك رجل فاجر. وفي رواية: إنا أعطيناك الجماهر فخذ لنفسك وبادر، واحذر أن تحرص أو تكاثر، وفي رواية: إنا أعطيناك الكواثر فصل لربك وبادر في الليالي الغوادر.

ولم يعرف المخذول أنه محروم عن المطلوب، وسيأتي في أوائل مقصد معجزاته ﷺ من تسجيع مسيلمة الركيك مزيد لذلك على ما ذكرته هنا إن شاء الله تعالى.

وقيل: إنه أدخل البيضة في القارورة وادعى أنها معجزة له، فافتضح بنحو ما ذكر: أن النوشادر إذا ضرب في خل الخمر ضرباً جيداً، وجعلت فيه بيضة بنت يومها يوماً وليلة فإنها تمتد كالخيط، فتجعل في القارورة ويصب عليها الماء البارد فإنها تجمد.

ولما سمع اللعين أن النبي ﷺ [مسح رأس صبي كان ألم به داء فشفى و]^(١) مج في بئر فكثر ماؤها، وتفل في عين علي - وكان أرمداً - فبرئ. فتفل اللعين في بئر فغار ماؤها، وفي عين بصير فعمي، ومسح بيده ضرع شاة حلوب فارتفع درها. ويبس ضرعها، والله در الشقراطيسي حيث يقول يخاطب النبي ﷺ :

عجزت بالوحي أرباب البلاغة في عصر البيان فضلت أوجه الحيل
سألتهم سورة في مثل حكمتهم فتلهم عنه حين العجز حين تلي

(١) زيادة في ش. وقال: كذا في نسخ، وفي غالبها إسقاطها.

فرام رجس كذوب أن يعارضه بعى غى فلم يحسن ولم يطل
 مئج بركيك الإفك ملتبس ملجلج بزري الزور والخطل
 يمى أول حرف سمع سامعه ويعتره كلال العجز والملل
 كأنه منطوق الورهاء شذبه لبس من الخبل أو مس من الخبل
 أمرت البئر واغورت لمجته فيها وأعمى بصير العين بالنفل
 وأيسب الضرع منه شؤم راحته من بعد إرسال رسل منه منهل

فشبه هذا الكلام الذي عارض به مسيلمة، بكلام امرأة ورهاء، وهي الحمقاء التي تتكلم لحمقها بما لا يفهم، فهي تهذي بكلام مشذب - أي مختلط - لا يقترن بعضه ببعض، ولا يشبه بعضه بعضاً ككلام من به خبل - بسكون الموحدة - أي فساد، أو مس من الخبل - بفتحها - أي جنون.

ثم إن اللعين وضع عن قومه الصلاة، وأحل لهم الخمر والزنا، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ أنه نبي.

وقد كان كتب لرسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد: فإنني قد أشركت معك في الأمر، وإن لني نصف الأمر، ولقريش نصف الأمر^(١).

فقدم على رسول الله ﷺ رسوله بهذا الكتاب، فكتب إليها رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

(١) الذي في سيرة ابن هشام: الأرض، في الجملتين ٦٠٠/٢ وهو الأنسب بدليل كتابه ﷺ [م].

وفي الصحيحين من حديث نافع بن جبير عن ابن عباس قال: قدم مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده اتبعته، وقدمها في بشر كثير من قومه، / فأقبل النبي ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وفي يد النبي ﷺ قطعة جريد، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه، فقال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتها، ولن تعدوا أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت، وهذا ثابت بن قيس يجيبك عني، ثم انصرف^(١).

قال ابن عباس: فسألت عن قول النبي ﷺ: إنك الذي أريت فيه ما رأيت^(٢) فأخبرني أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب فأهمني شأنهما فأوحى الله إلي في المنام أن أنفخهما، فنفختهما فطارا، فأولتهما: كذايين يخرجان من بعدي، فهذان هما: أحدهما العنسي صاحب صنعاء والآخر مسيلمة^(٣).

فإن قلت: كيف يلتئم خير ابن إسحاق مع الحديث الصحيح أن النبي ﷺ اجتمع به وخاطبه، وصرح بحضرة قومه أنه لو سأله القطعة من الجريدة ما أعطاه.

فالجواب: إن المصير إلى ما في الصحيح أولى^(٤).

(١) الحديث في البخاري برقم ٤٣٧٣.

(٢) في ش؛ ما أريت، وهو نص البخاري، وفي ب الذي رأيت فيه ما رأيت.

(٣) رقمه في البخاري ٤٣٧٤ و ٤٣٧٥.

(٤) هذا ما ذهب إليه في فتح الباري حيث قال: وهذا - حديث ابن إسحاق - مع شذوذه ضعيف السند لانقطاعه، وأمر مسيلمة كان عند قومه أكثر من ذلك. فقد كان يقال له رحمان اليمامة لعظم قدره فيهم، وكيف يلتئم هذا الخبر الضعيف مع قوله في الصحيح إن النبي ﷺ اجتمع به وخاطبه؟! فتح الباري ٨/٨٩ [المحقق].

ويحتمل أن يكون مسيلمة قدم مرتين، الأولى كان تابعاً وكان رئيس بني حنيفة غيره، ولهذا أقام في حفظ رحالهم، ومرة متبوعاً، وفيها خاطبه النبي ﷺ .

أو القصة واحدة، وكانت إقامته في رحالهم باختياره أنفة منه واستكباراً أن يحضر مجلس النبي ﷺ ، وعامله ﷺ معاملة الكرم على عادته في الاستتلاف فقال لقومه: إنه ليس بشركم أي مكاناً، لكونه كان يحفظ رحالهم، وأراد استتلافه بالإحسان بالقول والفعل، فلما لم يفد في مسيلمة توجه بنفسه إليه ليقيم عليه الحجة ويعذر إليه بالإنذار. والعلم عند الله تعالى^(١).

[وفد طيء]

وقدم عليه ﷺ وفد طيء، وفيهم زيد الخيل وهو سيدهم، فعرض عليهم الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم. وقال ﷺ: ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيتُه دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل، فإنه لم يبلغ كل ما فيه، ثم سماه زيد الخير.

فخرج راجعاً إلى قومه، فلما انتهى إلى ماء من مياه نجد أصابته الحمى بها فمات.

قال ابن عبد البر: وقيل مات في آخر خلافة عمر،

وله ابنان: مكنف وحريث، أسلما وصحبا رسول الله ﷺ ، وشهدا قتال أهل الردة مع خالد.

(١) عن فتح الباري ٨/٨٩ - ٩٠.

[وفد كنده]

وقدم عليه ﷺ وفد كنده في ثمانين أو ستين راكباً من كنده، فدخلوا عليه مسجده، قد رجّلوا جمهم وتسلحوا، ولبسوا جباب الحبرات مكففة بالحرير، فلما دخلوا قال ﷺ: أولم تسلموا؟ قالوا: بلى، قال: فما هذا الحرير في أعناقكم فشقوه فترعوه وألقوه.

[وفد الأشعريين وأهل اليمن]

وقدم عليه - زاده الله شرفاً لديه - الأشعريون وأهل اليمن.

قيل هو من عطف الخاص على العام، وقال الحافظ أبو الفضل شيخ الإسلام ابن حجر: المراد بهم بعض أهل اليمن، وهم وفد حمير. قال: ووجدت في كتاب الصحابة لابن شاهين من طريق إياس ابن عمرو الحميري: أنه قدم وافداً على رسول الله ﷺ في نفر من حمير فقالوا: أتيناك لنتفقه في الدين الحديث.

والحاصل: أن الترجمة تشتمل على طائفتين، وليس المراد اجتماعهما في الوفادة، فإن قدوم الأشعريين كان مع أبي موسى في سنة سبع عند فتح خيبر، وقدوم حمير كان في سنة تسع، وهي سنة الوفود، ولهذا اجتمعوا مع بني تميم^(١).

وروى يزيد بن هارون عن حميد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوباً. فقدم الأشعريون فجعلوا يرتجزون:

غداً نلقى الأحبه محمداً وحزبه^(٢) / ١/١٢٦

(١) فتح الباري ٩٧/٨.

(٢) رواه أحمد وغيره. ولا يلزم من ذلك تفضيلهم على المخاطبين لأنها مزية.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: جاء أهل اليمن، هم أرق أفئدة وأضعف قلوباً، الإيمان يمان، والحكمة يمانية والسكينة في أهل الغنم، والفخر والخيلاء في الفدادين^(١) أهل الوبر قبل مطلع الشمس. رواه مسلم^(٢).

وفي البخاري: إن نفرأ من بني تميم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقال: أبشروا يا بني تميم، فقالوا: بشرتنا فأعطنا، فتغير وجه رسول الله ﷺ. وجاء نفر من أهل اليمن، فقال: أقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم، قالوا: قد قبلنا، ثم قالوا: يا رسول الله جئنا لتنفقه في الدين ونسألك عن هذا الأمر، فقال: كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء. وكتب في الذكر كل شيء^(٣).

وقوله: وجاء نفر من أهل اليمن، هم الأشعريون قوم أبي

موسى.

[وفد صرد الأزدي]

وقدم عليه ﷺ صرد بن عبدالله الأزدي، فأسلم وحسن إسلامه، في وفد من الأزدي، فأمره ﷺ على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بمن أسلم أهل الشرك من قبائل اليمن.

فخرج صرد يسير بأمر رسول الله ﷺ حتى نزل بجرش^(٤)، وبها قبائل من قبائل العرب، فحاصروهم فيها قريباً من شهر، وامتنعوا فيها، فرجع عنهم قافلاً، حتى إذا كان في جبل لهم ووطنوا أنه إنما ولي

(١) جمع فداد: وهو من يعلو صوته في إبله وخيله. والفديد: الصوت الشديد

(٢) وكذا رواه البخاري بنحوه برقم ٤٣٨٨ وهو عند مسلم برقم ٥٢.

(٣) البخاري برقم ٣١٩١.

(٤) جرش مخلاف من مخاليف اليمن.

عنهم منهزماً خرجوا في طلبه ، حتى إذا أدركوه عطف عليهم فقتلهم قتلاً شديداً .

وكان أهل جرش بعثوا إلى رسول الله ﷺ رجلين منهم ، فبينما هما عنده ﷺ عشية فقال لهما عليه السلام : إن بدن الله لتنحر عند شكر ، أي المكان الذي وقع به قتل قومهم ، قال : فجلس الرجلان إلى أبي بكر وعثمان فقالا لهما إن رسول الله ﷺ ينعي لكما قومكما . فخرجا إلى قومهما فوجداهم قد أصيبوا في اليوم الذي قال فيه رسول الله ﷺ ما قال ، وفي الساعة التي ذكر فيها ما ذكر .

فخرج وفد جرش حتى قدموا عليه ﷺ فأسلموا وحى لهم حى حول قريتهم .

[وفد بني الحارث]

وفد بني الحارث بن كعب . قال ابن إسحاق : بعث ﷺ خالد ابن الوليد في شهر ربيع الآخر ، أو جمادى الأولى سنة عشر إلى بني الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً ، فإن استجابوا فأقبل منهم ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم .

فخرج خالد حتى قدم عليهم ، فبعث الركبان يضربون في كل وجه ، ويدعون إلى الإسلام ، ويقولون : أيها الناس أسلموا تسلموا ، فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه .

فأقام خالد يعلمهم الإسلام وكتب إلى رسول الله ﷺ بذلك . ثم أقبل على رسول الله ﷺ ومعه وفدهم ، منهم : قيس بن الحصين ، ويزيد^(١) بن المحجل ، وشداد بن عبدالله . وقال لهم ﷺ : بم كنتم
(١) في ط : زيد .

تغلبون من قاتلكم؟ قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحداً بظلم، قال: صدقتم.

وأمر عليهم قيس بن الحصين، فرجعوا إلى قومهم في بقية من شوال أو من ذي القعدة، فلم يكتثوا إلا أربعة أشهر حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[وفد همدان]

وقدم عليه ﷺ وفد همدان، فيهم: مالك بن النمط، وضام بن مالك، وعمرو بن مالك، فلقوا رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك، وعليهم مقطعات الحبرات والعائم العدنية، على الرواحل المهرية والأرحبية^(١)، ومالك بن النمط يرتجز بين يديه ﷺ. وذكروا له كلاماً كثيراً حسناً فصيحاً.

فكتب لهم ﷺ كتاباً أقطعهم فيه ما سألوه، وأمر عليهم مالك ابن النمط، واستعمله على من أسلم من قومه، وأمره بقتال ثقيف. ب/١٢٦ وكان لا يخرج/ لهم سرح إلا أغار عليه.

وروى البيهقي بإسناد صحيح عن البراء أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام. قال البراء: فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد، فأقمنا ستة أشهر ندعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوا، ثم إن النبي ﷺ بعث علي بن أبي طالب فأمره أن يقفل خالداً إلا رجلاً ممن كان مع خالد^(٢) أن يعقب مع علي.

(١) المهرية: نسبة إلى مهرة قبيلة من قضاة، والأرحبية: نسبة إلى أرحب بطن من همدان.

(٢) سقط من لفظ البيهقي: أراد.

فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا، فصلى بنا علي، ثم صفنا صفاً واحداً، ثم تقدم بين أيدينا، فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، فأسلمت همدان جميعاً، فكتب علي إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم. فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خر ساجداً ثم رفع رأسه فقال: السلام على همدان، السلام على همدان. وأصل الحديث في صحيح البخاري (١).

وهذا أصح مما تقدم، ولم تكن همدان تقاتل ثقيفاً ولا تغير على سرحهم، فإن همدان باليمن وثقيف بالطائف. قاله ابن القيم في الهدى النبوي (٢).

[وفد مزينة]

روى البيهقي عن النعمان بن مقرن قال: قدمنا على رسول الله ﷺ أربعائة رجل من مزينة، فلما أردنا أن ننصرف قال: يا عمر، زود القوم، قال: ما عندي إلا شيء من تمر ما أظنه يقع من القوم موقعاً. قال: انطلق فزودهم. قال: فانطلق بهم عمر فأدخلهم منزله ثم أصعدهم إلى علي، فلما دخلنا فإذا فيها من التمر مثل الجمل الأورق، فأخذ القوم منه حاجتهم. قال النعمان: وكنت في آخر من خرج، فنظرت: وما أفقد موضع تمرة من مكانها (٣).

[وفد دوس]

وفد دوس: وكان قدومهم عليه ﷺ بخير. قال ابن إسحاق: كان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدث أنه قدم مكة ورسول الله

(١) برقم ٤٣٤٩.

(٢) زاد المعاد ٦٢٣/٣.

(٣) ورواه أحمد أيضاً ٤٤٥/٥

ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قریش، وكان الطفیل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً، فقالوا له: إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين المرء وابنه وبين المرء وأخيه، وبين الرجل وزوجه، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمه ولا تسمع منه.

قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً، ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً، فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله.

قال: فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فقممت قريباً منه، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله: فسمعت كلاماً حسناً، فقلت: واثكل أماء، والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان ما يقول حسناً قبلت، وإن كان قبيحاً تركت.

قال: فمكثت حتى أتى ﷺ إلى بيته، فتبعته حتى إذا دخل بيته فقلت: يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، فوالله ما برحوا يخوفوني أمرك حتى سددت أذني بكرسف أن لا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني، فسمعت قولاً حسناً، فاعرض علي أمرك.

فعرض علي رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا علي القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا رسول الله، إني امرؤ مطاع في قومي وإني راجع إليهم فداعيتهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية.

قال: فخرجت إلى قومي / حتى إذا كنت بثنية تطلعتني على

١/١٢٧

الحاضر، وقع نور بين عيني مثل المصباح، قال قلت: اللهم في غير وجهي، إني أخشى أن يقولوا إنها مثلة وقعت في وجهي لفراق دينهم، قال: فتحول فوقع في رأس سوطي كالفنديل المعلق، وأنا أهبط إليهم من الثنية، حتى جئتهم وأصبحت فيهم، فلما نزلت أتاني أبي - وكان شيخاً كبيراً - فقلت: إليك عني يا أبت، فلست مني ولست منك، قال: ولم يا بني؟ قلت: قد أسلمت وتابعت دين محمد، قال: يا بني فديني دينك، قال فقلت: فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم تعال أعلمك ما علمت، قال فذهب فاغتسل وطهر ثيابه ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم.

ثم أتني صاحبتي فقلت: إليك عني فلست منك ولست مني، قالت: لم؟ قلت: فرق الإسلام بيني وبينك، أسلمت وتابعت محمداً ﷺ، قالت: فديني دينك فأسلمت.

ثم دعوت دوساً إلى الإسلام، فأبطؤوا علي فجئت رسول الله ﷺ فقلت: يا نبي الله إنه قد غلبني على دوس الزنا، فادع الله عليهم، فقال: اللهم اهد دوساً، ثم قال ارجع إلى قومك فادعهم إلى الله وارفق بهم، فرجعت إليهم فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الله، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بخير، فنزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس. ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخير فأسهم لنا مع المسلمين.

وهذا يدل على تقدم إسلامه، وقد جزم ابن أبي حاتم بأنه قدم مع أبي هريرة بخير، وكأنها قدمته الثانية.

[وفد نصارى نجران]

وقدم عليه ﷺ وفد نصارى نجران، فلما دخلوا المسجد النبوي

بعد العصر حانت صلاتهم، فقاموا يصلون فيه، فأراد الناس منعهم فقال ﷺ دعوهم، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم.

وكانوا ستين راكباً، منهم أربعة وعشرون رجلاً من أشرفهم، والأربعة والعشرون منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم؛ العاقب، أمير القوم، وذو رأيهم وصاحب مشورتهم واسمه عبد المسيح. والسيد: صاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم - بتحتانية ساكنة - ويقال شرحبيل. وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل، قد شرف فيهم ودرس كتبهم، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرفوه ومولوه، وكان يعرف أمر النبي ﷺ وشأنه وصفته مما علمه من الكتب المتقدمة. ولكن حمله جهله على الاستمرار في النصرانية، لما يرى من تعظيمه ووجاهته عند أهلها.

فدعاهم النبي ﷺ إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا، فقال: إن أنكرتم ما أقول فهلم أبا هلکم.

وفي البخاري من حديث حذيفة؛ (جاء السيد والعاقب صاحباً نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه - يعني يباهلاه - فقال أحدهما لا تفعل).

وعند أبي نعيم: أن القائل ذلك هو السيد، وعند غيره: بل الذي قال ذلك هو العاقب، لأنه صاحب رأيهم، وفي زيادات يونس ابن بكير في المغازي أن الذي قال ذلك هو شرحبيل.

(فوالله لئن كان نبياً فلاعناه - يعني: باهلناه - لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا - زاد في رواية ابن مسعود: أبداً - ثم قال: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين. فاستشرف لها أصحاب رسول الله

ﷺ فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه الأمة^(١).

ب/١٢٧ وفي رواية يونس بن بكير/: أنه صالحهم على ألفي حلة، ألف في رجب وألف في صفر، ومع كل حلة أوقية، وساق الكتاب الذي بينهم مطولاً.

وذكر ابن سعد: أن السيد والعاقب رجعا بعد ذلك وأسلما.

وفي ذلك مشروعية مباهلة المخالف إذا أصر بعد ظهور الحجة. ووقع ذلك لجماعة من العلماء سلفاً وخلفاً، ومما عرف بالتجربة أن من باهل وكان مبطلاً لا تمضي عليه سنة من يوم المباهلة^(٢).

[قدوم رسول فروة بن عمرو الجذامي]

وقدم عليه ﷺ رسول فروة بن عمرو الجذامي ملك الروم^(٣). وكان منزله معان - بإسلامه، وأهدى له بغلة بيضاء، ولما بلغ الروم ذلك من إسلامه طلبوه حتى أخذوه، فحبسوه ثم صلبوه على ماء بفلسطين، وضربوا عنقه على ذلك الماء^(٤).

[وفد بني سعد بن بكر]

وقدم عليه ﷺ ضمام بن ثعلبة، بعثه بنو سعد بن بكر.

روى البخاري من حديث أنس بن مالك قال: (بينما نحن

(١) رواه البخاري برقم (٤٣٨٠).

(٢) عن فتح الباري ٨/٩٥.

(٣) فيه تجوز، فقد كان عاملاً للروم على من يليه من العرب.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/٥٩٢.

جلوس مع النبي ﷺ في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله، ثم قال: أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال له الرجل: ابن عبد المطلب؟ فقال النبي ﷺ: قد أحببتك.

فقال: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك.

فقال: سل عما بدا لك.

فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آله أرسلك إلى الناس كلهم؟

فقال: اللهم نعم.

فقال: أنشدك بالله، آله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم واللييلة؟

قال: اللهم نعم^(١).

فقال: أنشدك بالله، آله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟
قال: اللهم نعم.

قال: أنشدك بالله، آله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا.

فقال النبي ﷺ: اللهم نعم.

فقال الرجل: آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائي من قومي وأنا ضيام بن ثعلبة، أخو بني سعد بن بكر^(٢).

وزاد ابن إسحاق في مغازيه:

(١) فقرة السؤال عن الصلاة سقطت من النسخ، وهي في (ش) كما هي في البخاري.

(٢) رواه البخاري برقم ٦٣، وهو عند مسلم وغيره أيضاً.

فقال: آله أمرك أن نعبده ولا نشرك به شيئاً وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون؟
فقال ﷺ: اللهم نعم.

قال: وكان ضمام رجلاً جلدأ أشقر ذا غديرتين، ثم أتى بعيره وأطلق عقاله ثم خرج حتى أتى قومه فاجتمعوا إليه، وكان أول ما تكلم به أن قال: بثست اللات والعزى فقالوا: مه يا ضمام اتق البرص والجنون والجذام، قال: ويلكم، إنها لا يضران ولا ينفعان. إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإني قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، فوالله ما أمسى في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً.

قال ابن عباس: فما سمعنا بوفاد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة^(١).

[قدوم طارق بن عبدالله وقومه]

وفد طارق بن عبدالله وقومه. روى البيهقي عن جامع بن شداد قال: حدثني رجل يقال له طارق بن عبدالله قال: إني لقائم بسوق ذي المجاز إذ أقبل رجل وهو يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة يقول: يا أيها الناس إنه كذاب فلا تصدقوه، فقلت من هذا؟ فقالوا: هذا غلام من بني هاشم يزعم أنه رسول الله. قال قلت: من هذا الذي يفعل به هذا؟ قالوا: هذا عمه عبد العزى.

قال: فلما أسلم الناس وهاجروا، خرجنا من الربذة نريد المدينة فمثار من تمرها، فلما دنونا من حيطانها قلنا: لو نزلنا فلبسنا ثياباً غير

(١) سيرة ابن هشام ٥٧٣/٢ - ٥٧٥.

١/١٢٨ هذه، فإذا رجل / في طمرين له فسلم وقال: من أين أقبل القوم؟ قلنا: من الربذة، قال: وأين تريدون؟ قلنا: نريد المدينة، قال: ما حاجتكم فيها؟ قلنا: نمتار من تمرها، قال: ومعنا طعينة لنا، ومعنا جمل أحمر مخطوم، فقال: أتبيعون جملكم هذا؟ قالوا: نعم بكذا وكذا صاعاً من تمر، فأخذ بخطام الجمل فانطلق، فلما تواری عنا بحيطان المدينة ونخلها قلنا: ما صنعنا، والله ما بعنا جملنا ممن نعرف ولا أخذنا له ثمناً. قال: تقول المرأة التي معنا: والله لقد رأيت رجلاً كأن وجهه قطعة القمر ليلة البدر، أنا ضامنة لثمن جملكم. وفي رواية ابن إسحاق قالت الطعينة: فلا تلاوموا، لقد رأيت وجه رجل لا يغدر بكم، ما رأيت شيئاً أشبه بالقمر ليلة البدر من وجهه، إذ أقبل رجل فقال: أنا رسول رسول الله إليكم، هذا تمركم فكلوا واشبعوا واكتالوا واستوفوا، فأكلنا حتى شبعنا، واكتلنا واستوفينا، ثم دخلنا المدينة، فلما دخلنا المسجد إذا هو قائم على المنبر يخطب الناس فأدركنا من خطبته وهو يقول: تصدقوا فإن الصدقة خير لكم، اليد العليا خير من اليد السفلى.

[وفد تجيب]

وقدم عليه ﷺ وفد تجيب، وهم من السكون^(١)، ثلاثة عشر رجلاً، قد ساقوا معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم، فسر عليه السلام بهم وأكرم منزلهم، وأمر بلالاً أن يحسن ضيافتهم، ثم جاؤوا رسول الله ﷺ يودعونه فأمر بلالاً فأجازهم بأرفع مما كان يجيز به الوفود. قال: هل بقي منكم أحد؟ قالو: غلام خلفناه على رحالنا وهو أحدثنا سناً، قال: أرسلوه إلينا، فلما أقبل الغلام على رسول الله

(١) هم: بطن من كندة.

ﷺ فقال: يا رسول الله، إن حاجتي ليست كحاجة أصحابي، وإن كانوا راغبين في الإسلام، والله ما أخرجني من بلادي إلا أن تسأل الله أن يغفر لي ويرحمي وأن يجعل غناي في قلبي، فقال ﷺ: اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه، ثم أمر له بما أمر به لرجل من أصحابه. ثم انطلقوا راجعين إلى أهلهم.

ثم وافوا رسول الله ﷺ بمضى سنة عشر، فقال: ما فعل الغلام؟ قالوا: يا رسول الله ما رأينا مثله قط، ولا حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله، لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها.

[وفد بني سعد هذيم]

قدوم وفد بني سعد هذيم من قضاة:

روى الواقدي عن ابن (١) النعمان عن أبيه (٢) من سعد هذيم قال: قدمت على رسول الله ﷺ وافداً في نفر من قومي، فنزلنا ناحية من المدينة ثم خرجنا نؤم المسجد الحرام، فقمنا ناحية ولم ندخل مع الناس في صلاتهم حتى تلقى رسول الله ﷺ ونبايعة، ثم بايعناه ﷺ على الإسلام ثم انصرفنا إلى رحالنا.

وقد كنا خلفنا أصغرنا، فبعث ﷺ في طلبنا فأتى بنا إليه، فتقدم صاحبنا إليه فبايعه على الإسلام، فقلنا: يا رسول الله، إنه أصغرنا وخادمنا، فقال: أصغر القوم خادمهم، بارك الله عليك، قال: فكان والله خيرنا وأقرأنا بدعاء رسول الله ﷺ، ثم أمره علينا، فكان يؤمنا مرجعنا إلى قومنا، فرزقهم الله الإسلام.

(١) في (أ، ب) أبي.

(٢) قال في النور: ولا أعرفها.

[وفد بني فزارة]

وفد بني فزارة: قال أبو الربيع بن سالم^(١) في كتاب الاكتفاء^(٢):
ولما رجع رسول الله ﷺ من تبوك، قدم عليه وفد بني فزارة، بضعة
عشر رجلاً فيهم خارجة بن حصن، والحر بن قيس، ابن أخي عيينة
ابن حصن، وهو أصغرهم، مقرين بالإسلام، وهم مستنون^(٣)، على
ركاب عجاف، فسألهم ﷺ عن بلادهم فقال أحدهم؛ يا رسول الله،
أسنت بلادنا وهلكت مواشينا، وأجدب جنابنا، وغرث^(٤) / عيالنا،
فادع لنا ربك يغيثنا، واشفع لنا إلى ربك، وليشفع لنا ربك إليك.

ب/١٢٨

فقال ﷺ: سبحان الله!! ويلك، هذا إنما شفعت إلى ربي عز
وجل: فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه؟ لا إله إلا هو العلي العظيم،
وسع كرسيه السماوات والأرض، فهي تنط^(٥) من عظمته وجلاله، كما
ينط الرحل الجديد.

وقال ﷺ: إن الله عز وجل ليضحك من شفقكم^(٦) وقرب
غيائكم.

(١) في ش ابن سليمان، قال: هو محدث الأندلس وبلغها، له عناية تامة في
الحديث وعلومه، له شهرة بالبلاغة والإنشاء وكان شجاعاً يباشر الحروب
بنفسه ولد سنة خمس وستين وخمسمائة واستشهد سنة أربع وثلاثين وستمائة.

(٢) كتاب: الاكتفاء في مغازي رسول الله والخلفاء. أحد تصانيف أبي الربيع.

(٣) أي: مجذبون.

(٤) أي: جاع.

(٥) أي تصوت، والأطيط: صوت الأقتاب.

(٦) وردت بفاءين: وبفاء وقاف، والشفق: أقصى ما وجد من الضيق.

والشفق: الخوف.

فقال الأعرابي: يا رسول الله، ويضحك ربنا عز وجل؟ قال:

نعم.

فقال الأعرابي: لن نعدمك من رب يضحك خيراً.

فضحك ﷺ من قوله وصعد المنبر فرفع يديه حتى رؤي بياض ابطنه، وكان مما حفظ من دعائه: اللهم اسق بلدك الميت، اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مربعاً طبقاً واسعاً عاجلاً غير آجل، نافعاً غير ضار، اللهم سقيا رحمة لا سقيا عذاب ولا هدم ولا غرق ولا محق. اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء، الحديث رواه ابن سعد والبيهقي، ويأتي تمامه إن شاء الله تعالى في الاستسقاء في مقصد عباداته ﷺ.

[وفد بني أسد]

وقدم عليه ﷺ وفد بني أسد، عشرة رهط فيهم وابصة بن معبد، وطلحة بن خويلد، ورسول الله ﷺ جالس مع أصحابه، فقال متكلمهم: يا رسول الله إنا شهدنا أن الله وحده لا شريك له، وأنت عبده ورسوله، وجئناك ولم تبعث إلينا بعثاً.

فأنزل الله تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَل لَّا تَمْنُوا عَلِي إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١).

[وفد بهراء من اليمن]

وقدم عليه ﷺ وفد بهراء من اليمن، وكانوا ثلاثة عشر رجلاً، فلما انتهوا إلى باب المقداد رحب بهم، وقدم لهم جفنة من حيس،

(١) سورة الحجرات، الآية ١٧.

فأكلوا منها حتى نهلوا^(١). وردت القصعة وفيها شيء، فجمع في قصعة صغيرة وأرسل بها إلى رسول الله ﷺ في بيت أم سلمة، فأصاب منها هو ومن معه في البيت حتى نهلوا، ثم أكل منها الضيف ما أقاموا، يرددون ذلك عليهم وما تغيض^(٢)، حتى جعلوا يقولون: يا أبا معبد، إنك لتنهلنا^(٣) من أحب الطعام إلينا، وما كنا نقدر على مثل هذا إلا في الحين، فأخبرهم أبو معبد بخبر رسول الله ﷺ أنه أكل منها وردها، وأن هذه بركة أصابعه ﷺ، فجعل القوم يقولون: نشهد أنه رسول الله، وازدادوا يقيناً، وتعلموا الفرائض، وأقاموا أياماً، ثم ودعوا رسول الله ﷺ فأمر لهم بجوائز وانصرفوا إلى أهلهم.

[وفد عذرة]

وقدم عليه ﷺ وفد عذرة، في صفر سنة تسع، وكانوا اثني عشر رجلاً، منهم جرة بن النعمان، فرحب بهم ﷺ، فأسلموا وبشرهم بفتح الشام وهرب هرقل إلى ممتنع من بلاده، ثم انصرفوا وقد أجزوا.

[وفد بلي]

وقدم عليه ﷺ وفد بلي، فأسلموا، فقال ﷺ: الحمد لله الذي هداكم للإسلام، فكل من مات على غير الإسلام فهو في النار. ثم ودعوا رسول الله ﷺ بعد أن أجازهم.

(١) أصله الشرب الأول أطلق على الأكل مجازاً.

(٢) أي: تنقص.

(٣) أي: لتشبعنا حتى نحتاج إلى النهل، الشرب الأول.

[وفد بني مرة]

وقدم عليه ﷺ وفد بني مرة وكانوا ثلاثة عشر رجلاً، ورئيسهم الحارث بن عوف، فقال لهم ﷺ : كيف البلاد؟ فقالوا: والله إنا لمستتون، فادع الله لنا، فقال عليه السلام: اللهم اسقهم الغيث. ثم أقاموا أياماً ورجعوا بالجائزة فوجدوا بلادهم قد أمطرت في ذلك اليوم الذي دعا لهم فيه رسول الله ﷺ . /

1/129

[وفد خولان]

وقدم عليه - زاده الله شرفاً لديه - وفد خولان، في شعبان سنة عشر، وكانوا عشرة، فقالوا: يا رسول الله، نحن مؤمنون بالله مصدقون برسوله، وقد ضربنا إليك آباط الإبل، وركبنا حزون الأرض وسهولها، والمنة لله ولرسوله علينا، وقدمنا زائرين لك. فقال ﷺ : أما ما ذكرتم من مسيركم إلي فإن لكم بكل خطوة خطاها بعير أحدكم حسنة، وأما قولكم زائرين لك، فإنه من زارني بالمدينة كان في جوارى يوم القيامة.

ثم قال ﷺ : ما فعل صنم خولان الذي كانوا يعبدونه؟ قالوا: بدلنا الله به ما جئت به، إلا أن عجوزاً وشيخاً كبيرين يتمسكان به، وإن قدمنا عليه هدمناه إن شاء الله تعالى.

ثم علمهم ﷺ فرائض الدين، وأمرهم بالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وحسن الجوار، وأن لا يظلموا أحداً، ثم أجازهم ورجعوا إلى قومهم، وهدموا الصنم.

[وفد محارب]

وقدم عليه ﷺ وفد محارب^(١) عام حجة الوداع، وكانوا أغلظ العرب وأفظهم عليه أيام عرضه على القبائل يدعوهم إلى الله، فجاءه ﷺ منهم عشرة فأسلموا، ثم انصرفوا إلى أهلهم.

[وفد صداء]

وقدم عليه ﷺ وفد صداء في سنة ثمان، وذلك أنه لما انصرف من الجعرانة بعث قيس بن سعد بن عبادة في أربعمئة، وأمره أن يطأ ناحية من اليمن فيها صداء، فقدم رجل منهم علم بالبعث على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله اردد الجيش، وأنا لك بقومي، فرد قيساً. ورجع الصدائي إلى قومه فقدم على رسول الله ﷺ خمسة عشر رجلاً منهم، فبايعوه على الإسلام ورجعوا إلى قومهم ففشا فيهم الإسلام، فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة رجل في حجة الوداع. ذكره الواقدي.

وذكر من حديث زياد بن الحارث الصدائي أنه الذي قدم على رسول الله ﷺ فقال له: اردد الجيش، وقال: كان زياد هذا معي ﷺ في بعض أسفاره وأنه ﷺ قال له: يا أخا صداء هل معك ماء؟ قلت: معي شيء في إداوتي، فقال: صبه، فصببته في قعب ثم وضع عليه الصلاة والسلام كفه فيه فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه عيناً تفور.

[وفد غسان]

وقدم عليه ﷺ وفد غسان، في شهر رمضان سنة عشر، وكانوا ثلاثة نفر، فأسلموا وأجازهم ﷺ بجوائز، وانصرفوا راجعين.

(١) محارب بن سعد بن قيس عيلان.

[وفد سلامان]

وقدم عليه ﷺ وفد سلامان في شوال سنة عشر، كما قال الواقدي، وكانوا سبعة نفر، فيهم حبيب بن عمرو، فأسلموا وشكوا إليه جذب بلادهم فدعا لهم ثم ودعوه وأمر لهم بالجوائز، ورجعوا إلى بلادهم فوجدوها قد أمطرت في اليوم الذي دعا لهم فيه رسول الله ﷺ تلك الساعة.

[وفد بني عبس]

وقدم عليه ﷺ وفد بني عبس، فقالوا: يا رسول الله، قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له، ولنا أموال ومواش، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا، فقال ﷺ: اتقوا الله حيث كنتم فلن يلتكم من أعمالكم شيئاً.

[وفد غامد]

وقدم عليه وفد غامد سنة عشر، وكانوا عشرة، فأقروا بالإسلام وكتب لهم كتاباً فيه شرائع الإسلام، وأمر أبي بن كعب فعلمهم قرآناً، وأجازهم ﷺ وانصرفوا.

[وفد الأزدي]

وقدم عليه وفد الأزدي، ذكر أبو نعيم في كتاب معرفة الصحابة، وأبو موسى المديني^(١)، من حديث أحمد بن أبي الخواريزمي^(٢) / قال:

(١) محمد بن أبي بكر الأصفهاني المديني، الحافظ شيخ الإسلام، ولد سنة إحدى وخمسة، سمع الكثير ورحل وعني بالحديث حتى صار أوحده وقتئذ إنساناً وحفظاً مع التواضع. مات سنة إحدى وثمانين وخمسة.

(٢) أحمد بن عبدالله بن ميمون التغلبي يكنى أبا الحسن بن أبي الخواريزمي، ثقة =

سمعت أبا سليمان الداراني^(١) قال: حدثني علقمة بن يزيد بن سويد الأزدي قال: حدثني أبي عن جدي قال:

وفدت سبع سبعة من قومي على رسول الله ﷺ فلما دخلنا عليه وكلمناه أعجبه ما رأى من سمنا فقال: ما أنتم قلنا مؤمنون، فتبسم ﷺ وقال: إن لكل قول حقيقة فما حقيقة قولكم وإيمانكم؟ قلنا: خمس عشرة خصلة، خمس منها أمرتنا رسلك أن نؤمن بها، وخمس أمرتنا أن نعمل بها، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية فنحن عليها إلا أن تكره منها شيئاً، فقال ﷺ: ما الخمس التي أمرتكم بها رسلي؟ قلنا: أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت.

قال: وما الخمس التي أمرتكم أن تعملوا بها؟ قلنا: أمرتنا أن نقول لا إله إلا الله ونقيم الصلاة ونؤتي الزكاة ونصوم رمضان ونحج البيت إن استطعنا إليه سبيلاً. قال: وما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية؟ قلنا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمر القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشهامة بالأعداء.

فقال ﷺ: حكماء علماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، ثم قال: وأنا أزيدكم خمساً فتم لكم عشرون خصلة، إن كنتم كما

= زاهد من العاشرة وهم كبار الآخذين عن تبع الأتباع ممن لم يلق التابعين
كابن حنبل مات سنة ست وأربعين ومائتين.

(١) عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني - نسبة إلى داريا، قرية بدمشق - الإمام الزاهد أخذ الحديث عن جمع منهم سفيان الثوري، وهو ثقة، له حكايات في الزهد. قال النووي: كان من كبار العارفين مات سنة اثنتي عشرة ومائتين.

تقولون، فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غداً زائلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون، وارغبوا فيما عليه تقدمون، وفيه تخلدون، فانصرفوا وقد حفظوا وصيته ﷺ وعملوا بها^(١).

[وفد بني المنتفق]

وقدم عليه وفد بني المنتفق. روى عبدالله، ابن الإمام أحمد، في مسند أبيه عن دهم بن الأسود عن عاصم بن لقيط، أن لقيط بن عامر بن صبرة بن عبدالله بن المنتفق بن عامر بن عقيل بن كعب بن ربعة بن عامر بن صعصعة، أبا رزين العقيلي، المعداد في أهل الطائف، خرج وافداً إلى رسول الله ﷺ ومعه صاحب له يقال له نهيك بن عاصم بن مالك بن المنتفق، فوافيناه ﷺ حين انصرف من صلاة الغداة، فقام في الناس خطيباً فقال: يا أيها الناس، ألا إني قد خبأت لكم صوتي منذ أربعة أيام لتسمعوا اليوم، ألا فهل من امرئ بعثه قومه فقالوا له: اعلم لنا ما يقول رسول الله ﷺ، ألا ثم لعله يلهيه حديث نفسه أو حديث صاحبه، ألا وإني مسؤول هل بلغت، ألا اسمعوا تعيشوا... الحديث. وفيه ذكر البعث والنشور والجنة والنار، وفيه: ثم قلت: يا رسول الله، علامَ أبايعك؟ فبسط ﷺ يده وقال: على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن لا تشرك بالله شيئاً^(٢).

[وفد النخع]

وقدم عليه ﷺ وفد النخع^(٣)، وهم آخر الوفود قدوماً عليه.

(١) قال مخرج أحاديث زاد المعاد: سنده ضعيف [٦٧٣/٣].

(٢) قال مخرج أحاديث زاد المعاد: سنده ضعيف [٦٧٧/٣].

(٣) قبيلة من مذحج.

وكان قدومهم في نصف المحرم سنة إحدى عشرة، في مائتي رجل، فنزلوا دار الأضياف^(١)، ثم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ مقرين بالإسلام، وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل.

فقال رجل منهم، يقال له زرارة بن عمرو، يا رسول الله إني رأيت في سفري هذا عجباً، قال: وما رأيت؟ قال: رأيت أتاناً تركتها كأنها ولدت جدياً أسفع أحوى^(٢)، فقال له رسول الله ﷺ: هل تركت لك مصرة^(٣) على حمل؟ قال: نعم، قال: فإنها قد ولدت غلاماً وهو ابنك، قال يا رسول الله: ما باله أسفع أحوى؟ قال: ادن مني، فدنا منه، قال: هل بك من برص تكتمه؟ قال: والذي بعثك بالحق نبياً ما علم به أحد، ولا اطلع عليه غيرك، قال: / فهو ذلك. ١/١٣٠

قال: يا رسول الله، ورأيت النعمان بن المنذر عليه قرطان مدلجان^(٤) ومسكتان^(٥). قال: ذلك مُلْكُ العرب رجع إلى أحسن زيه وبهجته.

قال: يا رسول الله، ورأيت عجوزاً شمطاء، خرجت من الأرض. قال: تلك بقية الدنيا.

قال: ورأيت ناراً خرجت من الأرض فحالت بيني وبين ابن لي

(١) هي دار رملة بنت الحارث النجارية الصحابية زوجة معاذ بن عفراء.

(٢) الأسفع: أسود مشرب بحمرة، وأحوى: مثله، سواد إلى خضرة، أو حمرة إلى سواد.

(٣) أي امرأة أو أمة حملها محقق.

(٤) كذا في النسخ: والمدلج الذي يسير الليل كله، ولا معنى له هنا، والذي في

الإصابة: دملجان: وهو شيء يشبه السوار.

(٥) سواران من ذهب.

يقال له عمرو، قال رسول الله ﷺ : تلك فتنة تكون في آخر الزمان.
قال: يا رسول الله، وما الفتنة؟ قال: يقتل الناس إمامهم - وخالف
رسول الله ﷺ بين أصابعه - يحسب المسيء فيها أنه محسن، ويكون دم
المؤمن عند المؤمن أحلى من شرب الماء، إن مات ابنك أدركت الفتنة،
وإن مت أدركها ابنك.

قال: يا رسول الله ادع الله أن لا أدركها، فقال رسول الله
ﷺ: اللهم لا يدركها. فمات فبقي ابنه فكان ممن خلع عثمان بن
عفان رضي الله عنه. انتهى ملخصاً من الهدى النبوي^(١)، والله الموفق
وسياتي هذا إن شاء الله تعالى في تعبيره ﷺ الرؤيا من المقصد الثامن.

(١) زاد المعاد ٣/٦٨٦.

المقصد الثالث

[محتوى المقصد الثالث]

- فيما فضله الله تعالى به من كمال خلقتة وجمال صورته .
- وكرمه تعالى به من الأخلاق الزكية وشرفه به من الأوصاف المرضية .
- وما تدعو ضرورة حياته إليه ﷺ .
- وفيه أربعة فصول^(١) .

(١) كذا في النسخ، والواقع أن المصنف لم يذكر سوى ثلاثة فصول. ولعله أراد أربعة أنواع، وعندها يكون الضمير عائداً على الفصل الأخير.

الفصل الأول

في كمال خلقتة وجمال صورته
صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم

اعلم أن من تمام الإيمان به ﷺ الإيمان بأن الله تعالى جعل خلق بدنه الشريف على وجه لم يظهر قبله ولا بعده خلق آدمي مثله، فيكون ما يشاهد من خلق بدنه آيات على ما يتضح لك من عظيم خلق نفسه الكريمة، وما يتضح من عظيم أخلاق نفسه آيات على ما تحقق له من سر قلبه المقدس، والله در الأبوصيري حيث قال:

فهو الذي تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيباً بارئ النسم
منزه عن شريك في محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم

يعني: حقيقة الحسن الكامل كائنة فيه، لأنه الذي تم معناه دون غيره، وهي غير منقسمة بينه وبين غيره، وإلا لما كان حسنه تاماً، لأنه إذا انقسم لم ينله إلا بعضه فلا يكون تاماً.

وفي الأثر: أن خالد بن الوليد خرج في سرية من السرايا، فنزل ببعض الاحياء فقال له سيد ذلك الحي: صف لنا محمداً، فقال: أما

إني أفضل فلا، فقال الرجل: أجل، فقال: الرسول على قدر المرسل، ذكره ابن المنير في أسرار الأسرار^(١).

فمن ذا الذي يصل قدره أن يقدر قدر الرسول، أو يبلغ من الاطلاع على مآثور أحواله المأمول والمسؤول؟!!

وقد حكى القرطبي - في كتاب الصلاة - عن بعضهم أنه قال: لم يظهر لنا تمام حسنه ﷺ، لأنه لو ظهر لنا تمام حسنه لما أطاقت أعيننا رؤيته ﷺ^(٢). ولقد أحسن الأبوصيري أيضاً حيث قال: أعمى الورى فهم معناه فليس يرى للقرب والبعد فيه غير منفحم^(٣) كالشمس تظهر للعينين من بعد صغيرة وتُكِل الطرف من أمم وهذا مثل قوله أيضاً:

إنما مثلوا صفاتك لنا س كما مثل النجوم الماء وأشار بقوله «تظهر» إلى وجه التشبيه بالشمس لا مطلقاً، ولقد بين عيب التشبيه بها على الإطلاق أبو النواس حيث قال:

١٣٠/ب تتيه الشمس والقمر المنير إذا قلنا كأنها الأمير/ لأن الشمس تغرب حين تسي وأن البدر ينقصه المسير وهذه التشبيهات الواردة في حقه ﷺ إنما هي على سبيل التقريب والتمثيل، وإلا فذاته أعلى ومجده أعلى.

(١) اسم الكتاب «المقتفى» وهو كتاب نفيس جعله قسمين: الأول في الإسراء والثاني في السيرة.

(٢) عايش الصحابة رضي الله عنهم الرسول ﷺ وأطاقت أعينهم رؤيته، وإنما كانوا يفضون احتراماً وإجلالاً. [المحقق].

(٣) انفحم: إذا سكت عن الجدال ولم يجب.

[صفة رأسه ﷺ]

فأما رأسه الشريف المقدس فحسبك ما ذكره الترمذي في جامعه بسنده إلى هند بن أبي هالة قال: كان رسول الله ﷺ عظيم الهامة .
وقال نافع بن جبیر: وصف لنا علي رضي الله عنه رسول الله ﷺ فقال: كان عظيم الهامة .

[صفة وجهه ﷺ]

وأما وجهه الشريف فحسبك ما روى الشيخان من حديث البراء قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خلقاً، ليس بالطويل الذاهب، ولا بالقصير البائن .

وعن أبي هريرة: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجري في وجهه . رواه الترمذي والبيهقي وأحمد وابن حبان .

قال الطيبي: شبه جريان الشمس في فلکها بجريان الحسن في وجهه ﷺ ، قال: ويحتمل أن يكون من تناهي التشبيه جعل وجهه مقراً ومكاناً للشمس والله در القائل:

لم لا يضيء بك الوجود وليله فيه صباح من جمالك مسفر
فبشمس حسنك كل يوم مشرق ويبدو وجهك كل ليل مقمر

وفي البخاري: سئل البراء: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ فقال: لا، بل مثل القمر .

وكان السائل أراد مثل السيف في الطول، فرد عليه البراء فقال: بل مثل القمر، أي في التدوير، ويحتمل أن يكون أراد مثل السيف في

اللمعان والصقالة، فقال: بل فوق ذلك، وعدل إلى القمر لجمعه الصفتين من التدوير واللمعان.

وقال الحافظ النسابة أبو الخطاب بن دحية رحمه الله تعالى في كتابه «التنوير في مولد البشير النذير» ﷺ وشرف وعظم وكرم، عند إيراد حديث البراء المذكور ما لفظه: ففي هذا الحديث من العلم أن التشبيه ممن لا يحسنه لا يصلح الإقرار عليه، لأن السائل شبه وجه رسول الله ﷺ بالسيف، ولو شبهه بالشمس لكان أولى، فرد عليه البراء قوله وقال: بل مثل القمر، وأبدع في تشبيهه، لأن القمر يملأ الأرض بنوره، ويؤنس كل من يشاهده، ونوره من غير حر يفزع، ولا كلل ينزع، والناظر إلى القمر متمكن من النظر بخلاف الشمس التي تعشي البصر وتجلب للناظر الضرر. انتهى.

وفي رواية مسلم من حديث جابر بن سمرة، وقال له رجل أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ فقال: لا، بل مثل الشمس والقمر وكان مستديراً.

وإنما قال: مستديراً، للتنبيه على أنه جمع الصفتين، لأن قوله: مثل السيف يحتمل أن يريد به الطول، ويحتمل أن يريد به اللمعان كما تقدمت إليه الإشارة فيما سبق من العبارة، فرده المسؤول رداً بليغاً، ولما جرى التعارف به من أن التشبيه بالشمس إنما يراد به غالباً الإشراق، وبالقمر إنما يراد به الملاحظة دون غيرهما، فقوله وكان مستديراً، أشار به إلى أنه أراد به التشبيه بالصفتين معاً: الحسن والاستدارة.

وقال المحاربي عن أشعث عن أبي^(١) إسحاق عن جابر بن سمرة

(١) في ط ابن. وهو غلط. وأبو إسحاق هو عمرو بن عبدالله الهمداني ثقة روى له الستة.

أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إضحيان^(١) وعليه حلة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو كان^(٢) أحسن في عيني من القمر، وفي رواية: بعد قوله حمراء: فجعلت أمائل بينه وبين القمر.

وروى الترمذي والبيهقي عن علي أنه نعته ﷺ فقال: لم يكن بالمطهم^(٣) ولا بالملكثم، كان في وجهه تدوير. والملكثم: المدور الوجه، أي لم يكن شديد تدوير الوجه بل في وجهه تدوير قليل.

وفي حديث علي عند أبي عبيد في الغرائب^(٤): وكان في وجهه تدوير قليل، قال أبو عبيد في شرحه: يريد أنه ما كان في غاية التدوير، بل كان فيه سهولة وهي أحلى عند العرب.

وفي حديث أبي هريرة عند الذهلي^(٥) في الزهريات^(٦) في صفته ﷺ: كان أسيل الخدين. قال ابن الأثير: الأسالة في الخد: الاستطالة وأن لا يكون مرتفع الوجنة. قال شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر: ولعل هذا هو الحامل لمن سأله أكان وجهه مثل السيف.

وأخرج البخاري عن كعب بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا سرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه. أي الموضع الذي يتبين فيه السرور وهو جبينه.

(١) صفة لليلة، أي مضيئة مغمرة من أولها إلى آخرها لا ظلمة فيها.

(٢) لفظ (كان) زيادة في (أ، ب، د).

(٣) المطهم: الفاحش السمن، أو النحيف الجسم، وهو من الأضداد.

(٤) في ش: الغريب.

(٥) محمد بن يحيى النيسابوري روى عن أحمد وإسحاق، وعنه البخاري

وأصحاب السنن، كان أمير المؤمنين في الحديث وأحد الأئمة العارفين مات

سنة ثمان وخمسين ومائتين.

(٦) كتاب جمع فيه حديث ابن شهاب الزهري.

وقالت عائشة رضي الله عنها: دخل النبي ﷺ يوماً مسروراً تبرق أسارير^(١) وجهه^(٢).

ولذلك قال كعب كأنه قطعة قمر^(٣).

وفي حديث جبير بن مطعم عند الطبراني: التفت إلينا رسول الله ﷺ بوجه مثل شقة القمر، فهذا محمول على صفته عند الالتفات.

وقد أخرج الطبراني حديث كعب بن مالك من طرق في بعضها: كأنه دارة قمر.

ويسأل عن السر في التقييد بالقطعة مع كثرة ما ورد [في كثير]^(٤) من كلام البلغاء من تشبيه الوجه بالقمر/ بغير تقييد. وقد كان كعب ابن مالك قائل هذا من شعراء الصحابة، فلا بد في التقييد بذلك من حكمة. وما قيل في أن ذلك من الاحتراز من السواد الذي في القمر ليس بقوي، لأن المراد بتشبيهه ما في القمر من الضياء والاستنارة وهو في تمامه لا يكون فيها أقل مما في القطعة المجردة، فكأن التشبيه وقع على بعض الوجه فناسب أن يشبه ببعض القمر.

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: كان وجه رسول الله ﷺ كدارة القمر، أخرجه أبو نعيم.

وروى البيهقي عن أبي إسحاق الهمداني عن امرأة من همدان - سهاها - قالت: حججت مع النبي ﷺ مرات^(٥) فرأيتَه على بعير له

(١) أسارير: جمع أسرار جمع: سر، وهي الخطوط التي في الجبهة.

(٢) الحديث عند البخاري برقم ٦٧٧٠.

(٣) إشارة إلى موضع الاستنارة وهو الجبين.

(٤) في (ط، ب، د).

(٥) من المعلوم أنه ﷺ لم يحج إلا حجة الوداع.

يطوف بالكعبة بيده محجن عليه بردان أحمران يكاد يمس شعره منكبه إذا مر بالحجر استلمه بالمحجن ثم يرفعه إلى فمه فيقبله. قال أبو إسحاق: فقلت لها شبيهه قالت: كالقمر ليلة البدر، لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ .

وروى الدارمي والبيهقي وأبو نعيم والطبراني عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: قلت للربيع بنت معوذ صفني لي رسول الله ﷺ ، قالت: لو رأيته لقلت: الشمس طالعة، [وفي لفظ: يا بني لو رأيته رأيت الشمس طالعة] (١).

وروى مسلم عن أبي الطفيل أنه قيل له: صف لنا رسول الله ﷺ فقال: كان أبيض مليح الوجه.

وفما أخرجه الترمذي من حديث هند بن أبي هالة: كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً يتلألاً وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر.

وقالت أم معبد حين وصفته لزوجها: متبلج الوجه، يعني: مشرقه مضيئه، ومنه تبلج الصبح إذا أسفر، وما أحسن قول سيدي علي بن وفا حيث قال:

ألا يا صاحب الوجه المليح سألتك لا تغيب عني فأنت روجي
متى ما غاب شخصك عن عياني رجعت فلا ترى إلا ضريحي
بحقك جد لرقك يا حبيبي وداو لوعة القلب الجريح
ورقاً لمغرم في الحب أمسى وأصبح بالهوى ذنفاً طريح
حب ضاق بالأشواق ذرعاً وآوى منك للكرم الفسيح

وفي النهاية: أنه عليه السلام كان إذا سر فكأن وجهه المرأة،

(١) زيادة في (ط، ب، ش).

وكان الجدر تلاحك وجهه. قال: الملاحكة، شدة الملاءمة، أي يرى شخص الجدر في وجهه صلى الله عليه وسلم.

وفي حديث ابن أبي هالة: يتلألاً وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر.

وذلك: لأن القمر يملأ الأرض بنوره ويؤنس كل من شاهده، وهو يجمع النور من غير أذى، ويتمكن من النظر إليه بخلاف الشمس التي تغشي البصر فتمنع من تمكن الرؤية، والتشبيه بالبدر أبلغ في العرف من التشبيه بالقمر، لأنه وقت كماله، كما قال [الفاروق رضي الله عنه حين رآه أو كلما رآه]^(١):

لو كنت من شيء سوى بشر كنت المنور^(٢) ليلة البدر

وقد صادف هذا التشبيه تحقيقاً، فمن أسماؤه ﷺ: البدر، ولهذا أنشدوا لما قدم المدينة:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
ولقد أحسن من قال:

كالبدر والكاف إن أنصفت زائدة فيه فلا تظنتها كافاً لتشبيهه
وما أحلى قول ابن الحلاوي:

يقولون يحكي البدر في الحسن وجهه وبدر الدجى عن ذلك الحسن ينحط
كما شبهوا غصن النقا بقوامه لقد بالغوا في المدح للغصن واشتطوا

(١) ليست في الأصل، وهذا البيت تمثل به عمر وهو للمسيب بن عبيد بن مالك خال الأعشى.

(٢) أي: القمر.

فقد حصل للبدر والغصن غاية من الفخر بهذا التشبيه، على أن هذه التشبيهات الواردة في صفاته ﷺ إنما هي على عادة الشعراء والعرب، وإلا فلا شيء في هذه [التشبيهات] (١) المحدثات يعادل صفاته الخلقية والخلقية، والله در إمام العارفين سيدي محمد وفا الشاذلي المالكي (٢) حيث قال:

| | |
|----------------------------|------------------------------|
| كم فيه للأرواح راح مسكر | كم فيه للأبصار حسن مدهش |
| بشراً بأسرار الغيوب يبشر / | سبحان من أنشاه من سبحاته |
| هيهات يشبهه الغزال الأهور | قاسوه جهلاً بالغزال تغزلاً |
| وأرى المشبه بالغزالة يكفر | هذا وحقك ما له من مشبه |
| لولا لرب جماله يستغفر | يأتي عظيم الذنب في تشبيهه |
| ويحسنه كل المحاسن تفخر | فخر الملاح بحسنهم وجمالهم |
| وله منار كل وجه نير | فجماله مجلى لكل جميلة |
| ودليله أن المراشف كوثر | جنات عدن في جنى وجناته |
| والغير في حشر الأجانب يحشر | هيهات أهو عن هواه بغيره |
| كتباً تؤول بالهوى وتفسر | كتب الغرام علي في أسفاره |
| فدعيه بالهجر فيه يهجر | فدع الدعي وما ادعاه في الهوى |
| لخطيبه في كل خطب منبر | وعليك بالعلم العليم فإنه |

(١) في ش.

(٢) محمد بن محمد بن محمد الاسكندراني أو المغربي ثم المصري، صاحب الموشحات التوحيدية، ولد بالاسكندرية سنة اثنتين وسبعائة، ومات سنة ستين وسبعائة.

[صفة بصره ﷺ]

وأما بصره الشريف ﷺ فقد وصفه الله في كتابه العزيز بقوله:
﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يرى بالليل في الظلمة كما يرى في النهار في الضوء. رواه البخاري^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يرى في الظلماء كما يرى في الضوء. رواه البيهقي.

وعن أبي هريرة أنه ﷺ قال: هل ترون قبلتي ها هنا، فوالله ما يخفى علي ركوعكم ولا سجودكم، إني لأراكم من وراء ظهري. رواه البخاري ومسلم^(٣).

وعند مسلم من رواية أنس أنه ﷺ قال: أيها الناس، إني أمامكم فلا تسبقوني بالركوع ولا بالسجود، فإني أراكم من أمامي ومن خلفي^(٤).

وعن مجاهد: في قوله تعالى: ﴿الذي يراك حين تقوم وتقلبك في

(١) سورة النجم، الآية ١٧.

(٢) كذا في النسخ. قال الشارح: ولم أجده فيه، وإنما عزاه السيوطي وغيره للبيهقي في الدلائل وقال إنه حسن. قال شارحه: ولعله لاعتضاده وإلا فقد قال السهيلي ليس بقوي وضعفه ابن دحية. أي نقل تضعيفه. فكيف يكون في البخاري.

(٣) رقمه في البخاري ٤١٨، وهو عند مسلم برقم ٤٢٤.

(٤) رقمه عند مسلم ٤٢٦.

الساجدين) (١) قال: كان ﷺ يرى من خلفه من الصفوف، كما يرى من بين يديه، رواه الحميدي في مسنده، وابن المنذر في تفسيره. وهذه الرؤية رؤية إدراك: والرؤية لا تتوقف على وجود آلتها التي هي العين - عند أهل الحق - ولا شعاع ولا مقابلة، وهذا بالنسبة إلى القديم العالی، أما المخلوق فتتوقف صفة الرؤية في حقه على الحاسة والشعاع والمقابلة بالاتفاق، ولهذا كان خرق عادة في حقه ﷺ، وخالق البصر في العين قادر على خلقه في غيرها.

قال الحرالي (٢): وهذه الآية قد جعلها الله تعالى دالة على ما في حقيقة أمره في الاطلاع الباطن لسعة علمه، ومعرفته لما عرف بربه لا بنفسه أطلعه الله على ما بين يديه مما تقدم من أمر الله، وعلى ما وراء الوقت مما تأخر من أمر الله، فلما كان على ذلك من الإحاطة في إدراك مدركات القلوب جعل الله تعالى له ﷺ مثل ذلك في مدركات العيون، فكان يرى المحسوسات من وراء ظهره كما يراها من بين يديه كما قال ﷺ. انتهى (٣).

ومن الغريب ما ذكره الزاهدي بختیار محب بن محمود (٤)، شارح القدوري في رسالته الناصرية أنه ﷺ كان له بين كتفيه عينان كسم الخياط يبصر بهما، ولا تحجبهما الثياب؟؟؟ (٥).

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٩.

(٢) في ط: الغزالي وهو تصحيف. الحرالي: نسبة إلى قبيلة بالبربر، واسمه علي ابن أحمد ابن الحسن، ذو التصانيف المشهورة.

(٣) وحاصل كلام الحرالي: أنه من قبيل الكشف له عن المرئيات، فهو من الخوارق.

(٤) أبو الرجاء الغزيمي يلقب نجم الدين مات سنة ثمان وخمسين وستمائة.

(٥) من الغريب أن يذكر ذلك من عاش في القرن السابع، وهو أمر لم يسمع قبله ولا دليل عليه [المحقق].

وقيل: بل كانت صورهم تنطبع في حائط قلبه كما تنطبع في
١/١٣٢ المرأة أمثلتهم فيها، فيشاهد أفعالهم/، وهذا إن كان نقلاً عن الشارع
عليه السلام بطريق صحيح فمقبول وإلا فليس المقام مقام رأي، على
أن الأعداء في إثبات كونه معجزة حملها على الإدراك من غير آلة والله
أعلم.

وقد ذهب بعضهم إلى أن هذه الرؤية رؤية قلبه الشريف.

وعن بعضهم: المراد بها العلم إما بأن يوحى الله إليه كيفية
فعلهم، وإما بأن يلهم، والصحيح والصواب ما تقدم^(١).

وقد استشكل على قول من يقول: إن المراد بذلك العلم، ما
ذكره ابن الجوزي في بعض كتبه بغير إسناد: أنه عليه السلام قال: إني لا
أعلم ما وراء جداري هذا. فإن صح فالمراد منه نفي العلم بالمغيبات،
فكيف يجتمعان؟

وأجيب: بأن الأحاديث الأولى ظاهرها ينطق باختصاص ذلك
بحالة الصلاة، ويحمل المطلق منها على المقيد. وأما إذا ذهبنا إلى
الإدراك بالبصر - وهو الصواب - فلا إشكال، لأن نفي العلم هنا عن
الغيب وذاك عن مشاهدة.

وفي «المقاصد الحسنة» للحافظ شمس الدين السخاوي حديث:
ما أعلم ما خلف جداري هذا. قال شيخنا - يعني شيخ الإسلام ابن
حجر - : لا أصل له. قلت: ولكنه قال في تلخيص تخريج أحاديث
الرافعي عند قوله في الخصائص: ويرى من وراء ظهره كما يرى من
قدامه. هو^(٢) في الصحيحين وغيرهما من حديث أنس وغيره،

(١) من أن الإدراك من غير آلة.

(٢) أي معناه.

والأحاديث الواردة في ذلك مقيدة بحالة الصلاة وبذلك يجمع بينه وبين قوله: لا أعلم ما وراء جداري هذا. انتهى.

قال شيخنا^(١)، وهذا مشعر بوروده، وعلى تقدير وروده لا تنافي بينهما لعدم تواردهما على محل واحد.

فإن قيل: يشكل على هذا - أيضاً - إخباره ﷺ بكثير من المغيبات التي في زمانه وبعده، ووقعت كما أخبر صلى الله عليه وسلم.

فالجواب: إن نفي العلم في هذا ورد على أصل الوضع، وهو أن علم الغيب مختص بالله تعالى، وما وقع منه على لسان نبيه ﷺ وغيره فمن الله تعالى، إما بوحى أو إلهام، ويدل على ذلك الحديث الذي فيه: أنه لما ضلت ناقته ﷺ تكلم بعض المنافقين وقال: إن محمداً يزعم أنه يخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال ﷺ لما بلغه ذلك: والله إني لا أعلم إلا ما علمني ربي، وقد دلني ربي عليها وهي في موضع كذا وكذا، حبستها شجرة بخطامها فذهبوا فوجدوها كما أخبر صلى الله عليه وسلم^(٢).

فصح أنه لا يعلم ما وراء جداره ولا غيره إلا ما علمه ربه تبارك وتعالى.

وذكر القاضي عياض - في الشفاء - أنه ﷺ كان يرى في الثريا أحد عشر نجماً، وعند السهيلي، اثني عشر.

وفي حديث ابن أبي هالة: وإذا التفت التفت جميعاً خافض

(١) أي السخاوي.

(٢) وقعت هذه الحادثة في غزوة تبوك. كما جاء في سيرة ابن هشام ٥٢٣/٢.

الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء جل نظره الملاحظة.

وهي مفاعلة من اللحظ: وهو النظر بشق العين الذي يلي الصدغ، وأما الذي يلي الأنف فالموق والماق. وقوله: إذا التفت التفت جميعاً أراد أنه لا يسارق النظر، وقيل: لا يلوي عنقه يمنة ولا يسرة إذا نظر إلى الشيء، وإنما يفعل ذلك الطائش الخفيف ولكن كان يقبل جميعاً ويدبر جميعاً. قاله ابن الأثير.

وعن علي قال: كان رسول الله ﷺ عظيم العينين، أهدب الأشفار، مشرب العين بحمرة، رواه البيهقي.

وعن جابر بن سمرة قال: كان رسول الله ﷺ ضليع الفم أشكل العينين منهوس القدمين^(١)، رواه مسلم.

والشكلة: الحمرة تكون في بياض العين وهو محمود محبوب، وأما الشهلة: فإنها حمرة في سوادها. وهذا هو الصواب: لا ما فسره/ بعضهم، بأنه طول شق العين.

وعند الترمذي في حديث عن علي، أنه نعت رسول الله ﷺ فقال: كان في وجهه تدوير أبيض مشرب بحمرة، أدعج العينين، أهدب الأشفار الحديث.

والأدعج: الشديد سواد الحدقة.

والأهدب: الطويل الأشفار: وهي شعر العين.

وعنده - أيضاً - عن علي قال: كان أسود الحدقة أهدب الأشفار.

(١) المنهوس من الرجال قليل اللحم، ومنهوس القدمين: معرقهما.

وعن علي: بعثني النبي ﷺ إلى اليمن [فقلت] (١) لأخطب يوماً على الناس، وحرر من أحبار اليهود واقف بيده سفر (٢) ينظر فيه، فلما رأي قال: صف لي أبا القاسم، فقلت: ليس بالطويل البائن ولا بالقصير. الحديث، وفيه: قال علي: ثم سكت، فقال الخبر وماذا: قلت: هذا ما يحضرنى، قال الخبر: في عينيه حمرة حسن اللحية، ثم قال علي: هذه والله صفته، قال الخبر: فإني أجد هذه الصفة في سفر آبائي، وإني أشهد أنه نبي وأنه رسول الله إلى الناس كافة. الحديث.

[صفة سمعه ﷺ]

وأما سمعه الشريف فحسبك أنه قال ﷺ: (إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أظت (٣) السماء وحق لها أن تئط، ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجد الله تعالى) رواه الترمذي من رواية أبي ذر.

وما رواه أبو نعيم عن حكيم بن حزام، بينما رسول الله ﷺ في أصحابه إذ قال لهم: تسمعون ما أسمع؟ قالوا: ما نسمع من شيء، قال: إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تئط وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم.

[صفة جبينه ﷺ وبعض جسمه]

وأما جبينه الكريم ﷺ فقد كان واضح الجبين، مقرون

(١) زيادة في ط.

(٢) في ط: جفر.

(٣) صاحت وصوتت من ثقل ما عليها. والأطيط: صوت الرجل والإبل من حمل أثقالها.

الحاجيين . بهذا وصفه علي ، كما عند ابن سعد وابن عساكر فقال :
مقرون الحاجيين صلت الجبين . أي : واضحه ، والقرن : اتصال شعر
الحاجيين .

وعند البيهقي عن رجل من الصحابة قال : رأيت رسول الله
ﷺ ، فإذا رجل حسن الجسم عظيم الجبهة رقيق الحاجيين . والله در
القائل :

جبينه مشرق من فوق طرته يتلو الضحى ليله والليل كافره
بالمسك خطت على كافور جبهته من فوق نوناتها سينا ضفائره
مكمل الخلق ما تحصى خصائصه منضر الحسن قد قلت نظائره

وقال ابن أبي هالة : أزج الحواجب - وفسر : بالمقوس الطويل
الوافر الشعر - ثم قال : سوابغ من غير قرن بينهما عرق يدره الغضب ،
أي يمتلئ دماً إذا غضب كما يمتلئ الضرع لبناً إذا در . قاله في النهاية .

وعن مقاتل بن حيان^(١) قال : أوحى الله إلى عيسى عليه الصلاة
والسلام : اسمع وأطع يا ابن الطاهرة البتول ، إني خلقتك من غير
فحل ، فجعلتك آية للعالمين ، فيأي فاعبد ، وعلي فتوكل ، فسر لأهل
سوران أني أنا الله الحي القيوم ، الذي لا أزول ، صدقوا النبي الأمي ،
صاحب الجمل والمدرعة والعمامة والنعلين والهراوة ، الجعد الرأس ،
الصلت الجبين ، المقرون الحاجيين ، الأهدب الأشفار ، الأدعج
العينين ، الأقفى الأنف ، الواضح الخدين ، الكث اللحية ، عرقه في
وجهه كاللؤلؤ ، وريح المسك ينفح منه ، كأن عنقه إبريق فضة .
الحديث .

(١) مقاتل بن حيان النبطي البلخي الخزاز ، صدوق فاضل روى له مسلم
وأصحاب السنن مات قبل الخمسين ومائة .

والأنجل^(١): الواسع شق العينين.
والقرن: بالتحريك: التقاء الحاجبين.

وما وصفه به ابن أبي هالة مخالف لما في حديث مقاتل بن حيان
وما في حديث أم معبد/ فإنها قالت: أزج أقرن، أي مقرون
الحاجبين، قال ابن الأثير: والأول هو الصحيح في صفته، يعني:
سوابغ في غير قرن.

والقنى في الأنف: طوله ورقة أرنبته مع حذب في وسطه.
وقد وصفه عليه السلام غير واحد: بأنه عظيم الهامة، أي الرأس، كذا
في حديث ابن أبي هالة المشهورة. وقال علي بن أبي طالب - في
حديث رواه الترمذي وصححه والبيهقي -: ضخم الرأس. وكذا قال
أنس في رواية البخاري.

وكان عليه السلام أيضاً ضخم الكراديس، وهي رؤوس العظام، كما
وصفه به علي في حديث الترمذي. وقال أيضاً في رواية للترمذي:
جليل المشاش والكتد. وفسر برؤوس العظام كالركبتين والمرفقين
والمنكبين، أي عظيمها.

والكتد - بفتحيتين ويجوز كسر التاء - مجمع الكتفين.

وكان عليه السلام دقيق العينين، أي أعلى الأنف، كما وصفه به علي في
رواية ابن سعد وابن عساكر. وفي رواية أيضاً عن ابن عمر من وصف
علي له أيضاً: ألقى الأنف، وفسر بالسائل المرتفع وسطه، وقال ابن أبي
هالة: ألقى العينين له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشم، والأشم:
الطويل قصبة الأنف.

(١) لم تتقدم هذه الكلمة حتى تحتاج إلى شرح، لكنها سقطت من قلم
المصنف. إذ بعد قوله الأدعج العينين لفظ: الأنجل العينين.

[وصف فمه ﷺ]

وأما فمه الشريف ﷺ ففي مسلم من حديث جابر أنه ﷺ كان ضليع الفم، يعني واسع. وكذا وصفه به ابن أبي هالة، وزاد يفتح الكلام ويختم بأشداقه، يعني لسعة فمه، والعرب تمدح به وتذم بصغر الفم.

وقال شمر^(١): عظيم الأسنان.

وفي حديث عند البزار والبيهقي قال أبو هريرة: كان رسول الله ﷺ أسيل الخدين واسع الفم.

ووصفه ﷺ ابن أبي هالة فقال: أشنب مفلج الأسنان. والشنب: رونق الأسنان وماؤها. وقيل: رقتها وتحديدها. وأفلج الأسنان أي متفرقةا.

وقال علي: مبلج الثنايا^(٢)، بالموحدة، أخرج ابن سعد من حديث أبي هريرة.

وعند ابن عساكر: عن علي: براق الثنايا.

وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ أفلج الثنيتين، إذا تكلم رؤي كالنور يخرج من ثناياه. رواه الترمذي في الشمائل، والدارمي، والطبراني في الأوسط^(٣).

(١) شمر بن عطية الأسدي الكاهلي الكوفي. وقوله: عظيم الأسنان. هو إيضاح لمعنى: ضليع الفم.

(٢) أي مشرقها ومضيئها.

(٣) وفيه عند الجميع عبد العزيز أبو ثابت، وهو ضعيف جداً. كما قاله الحافظ الهيثمي.

وكان ﷺ أحسن عباد الله شفتين وألطفهم ختم فم .

بحر من الشهد في فيه مراشفه يا قوته صدف فيه جواهره
وعن أبي قِرْصافة^(١) قال: بايعنا رسول الله أنا وأمي وخالتي،
فلما رجعنا قالت لي أمي وخالتي: يا بني، ما رأينا مثل هذا الرجل
أحسن وجهاً ولا أنقى ثوباً ولا ألين كلاماً، ورأينا كالنور يخرج من
فيه .

[صفة ريقه ﷺ]

وأما ريقه الشريف، ففي الصحيحين عن سهل بن سعد أن
رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على
يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، فلما أصبح الناس غدواً
على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، قال: أين علي بن أبي
طالب؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: فأرسلوا إليه،
فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه فبرأ^(٢) حتى كأن لم يكن به
وجع . الحديث متفق عليه .

وأتي بدلو من ماء، فشرب من الدلو، ثم صب في البئر، أو
قال: مَج في البئر ففاح منها مثل رائحة المسك . رواه أحمد وابن ماجه
من حديث وائل بن حجر .

ويزق في بئر في دار أنس، فلم يكن بالمدينة بئر أعذب منها،
رواه أبو نعيم .

(١) صحابي مشهور بكنيته .

(٢) بوزن ضرب ويجوز كسر الراء بوزن علم والرواية بالأول: أي: شفي .

وكان ﷺ يوم عاشوراء يدعو برضعائه ورضعاء ابنته فاطمة (١) فيتفل في أفواههم ويقول للأمهات لا ترضعنهم إلى الليل، فكان ريقه يجزئهم. رواه البيهقي.

ودخلت عليه عميرة بنت مسعود هي وأخواتها يبائعنه وهن خمس فوجدنه يأكل قديداً فمضع لهن قديدة فمضعنها كل واحدة منهن قطعة ١٣/ب قطعة فلقين الله وما وجدن لأفواههن/ خلوف، رواه الطبراني.

ومسح ﷺ بيده الشريفة بعد أن نفث فيها من ريقه على ظهر عتبة وبطنه وكان به شرى، فما كان يشم أطيب منه رائحة. رواه الطبراني.

وأعطى الحسن لسانه - وكان قد اشتد ظمؤه - فمصه حتى روي. رواه ابن عساكر. والله در إمام العارفين سيدي محمد وفا الشاذلي حيث يقول:

جنى النحل في فيه وفيه حياتنا ولكنه من لي بلثم لثامه
رحيق الشايا والمثاني تنفست إذا قال في فيح بطيب ختامه

[فصاحته عليه السلام]

وأما فصاحة لسانه، وجوامع كلمه، وبديع بيانه وحكمه، فكان ﷺ أفصح خلق الله، وأعذبهم كلاماً، وأسرعهم أداء، وأحلامهم منطقاً، حتى كان كلامه يأخذ بمجامع القلوب ويسلب الأرواح.

ينظم در الثغر نثر مقوله فيا حسنه في نثره ونظامه
يناجي فينجي من ينجي من الجوى فكل كليم برؤه في كلامه

(١) رضعاؤه: الصبيان الذين ينسبون إليه، ورضعاء فاطمة أولادها.

ففساحة لسانه ﷺ غاية لا يدرك مداها، ومنزلة لا يداني متتهاها، وكيف لا يكون ذلك وقد جعل الله تعالى لسانه سيفاً من سيوفه، يبين عن مراده، ويدعو به إليه عباده، فهو ينطق بحكمه عن أمره، ويبين عن مراده بحقيقة ذكره.

أفصح خلق الله إذا لفظ، وأنصحهم إذا وعظ، لا يقول هجراً، ولا ينطق هذراً، كلامه كله يثمر علماً، ويمثل شرعاً وحكماً، لا يتفوه بشر بكلام أحكم منه في مقالته، ولا أجزل منه في عدوبته.

وخليق بمن عبر عن مراد الله بلسانه، وأقام به الحجة على عباده ببيانه، وبين مواضع فروضه وأوامره ونواهيته، وزواجره ووعدته ووعيده وإرشاده أن يكون أحكم الخلق جناناً وأفصحهم لساناً، وأوضحهم بياناً.

وقد كان ﷺ إذا تكلم تكلم بكلام مفضل مبين، يعده العاد، ليس بهذا^(١) مسرع لا يحفظ، قالت عائشة رضي الله عنها: ما كان ﷺ يسرد سردكم هذا، كان يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه^(٢). وكان يعيد الكلمة ثلاثاً لتفهم عنه^(٣).

وكان يقول: أنا أفصح العرب^(٤)^(٥).

(١) هو السرعة. وفي (ب، ش) بهذر، وفي ط: بهذاء.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

(٣) رواه الترمذي والحاكم. وفي ط: لتحفظ عنه، وفي ش: حتى تعقل عنه.

ثم قال: وفي رواية البخاري: حتى تفهم عنه.

(٤) قال ابن كثير والسيوطي لم نقف على سنده.

(٥) هنا في (أ، ب، ط): وإن أهل الجنة يتكلمون بلغة محمد ﷺ. وهو

حديث عن ابن عباس سيأتي بعد قليل.

وقد قال له عمر بن الخطاب: يا رسول الله، مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟ فقال: كانت لغة إسماعيل قد درست فجاءني بها جبريل فحفظنيها. رواه أبو نعيم^(١).

وروى العسكري في الأمثال من حديث علي بسند ضعيف جداً قال: قدم بنو نهد على النبي ﷺ: الحديث وفيه: ذكر خطبتهم وما أجابهم به النبي ﷺ قال: فقلنا: يا نبي الله، نحن بنو أب واحد، ونشأنا في بلد واحد، وإنك تكلم العرب بلسان ما نفهم أكثره، فقال: إن الله عز وجل أدبني فأحسن أدبي، ونشأت في بني سعد بن بكر.

وعن محمد بن عبد الرحمن الزهري عن أبيه عن جده قال: قال رجل: يا رسول الله، أيدالك الرجل امرأته؟ قال: نعم إذا كان ملفجاً. فقال له أبو بكر: يا رسول الله، ما قال لك، وما قلت له؟ قال: قال: أياطل الرجل أهله؟ قلت له: نعم إذا كان مفلساً. قال أبو بكر: يا رسول الله، لقد طفت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك، قال: أدبني ربي ونشأت في بني سعد، رواه السرقسطي في الدلائل بسند واه. وكذا أخرجه ابن عساكر.

قال في القاموس: ودالكه أي ماطله. انتهى.

وقوله: «ملفجاً» بضم الميم وفتح الفاء، اسم فاعل من «ألفج ١/١٢ الرجل» فهو ملفج، إذا كان فقيراً، وهو غير مقيس. ومثله/ أحصن فهو محصن، وأسهب فهو مسهب، في ألفاظ شذت، والقياس الكسر، قاله ابن مرزوق. لكن قال ابن الأثير: لم يجيء إلا في ثلاثة أحرف، أسهب وأحصن وألفج.

(١) إسناده ضعيف.

وقال غيره: معناه: أيداعب الرجل امرأته، يعني قبل الجماع؟
وسماه مطلاً لكون غرضها الأعظم الجماع. قال: إذا كان عاجزاً،
ليكون ذلك محرماً لشهوته، ولعجزه سمي مفلساً.

وقال ابن الأثير: يماطلها بمهرها إذا كان فقيراً.

وأما ما يروى: أنا أفصح من نطق بالضاد. فقال ابن كثير: لا
أصل له. انتهى لكن معناه صحيح والله أعلم.

[حد الفصاحة]

وقد حدوا الفصاحة: بخلوص الكلمة^(١) من التنافر والغرابة
ومخالفة القياس.

والمراد بالتنافر: تقارب مخارج الحروف كقوله:

غدائره مستشزرات إلى العلا

فإن السين والشين والتاء والزاي كلها متقاربة المخارج.

والغرابة: كون الكلمة لا تدل على المراد من أول وهلة لاحتمال
معنى آخر.

ومخالفة القياس: استعمال الكلمة على غير قياس، كإبقاء وجود
المثلين من كلمة واحدة من غير إدغام. كقوله: الحمد لله العلي
الأجلل.

والفصاحة: يوصف بها الكلام والكلمة والمتكلم.

(١) في ش: الكلام.

والبلاغة: أن يطابق الكلام مقتضى الحال مع فصاحته، الجزالة
خلاف الركافة.

[نماذج من بلاغته وأقواله]

فصاحته ﷺ إلى الحد الخارق للعادة، البالغ نهاية المزية والزيادة
التي تصدع القلوب قبل الأذهان، وتقرع الجوانح قبل الأذان، مما
يروق ويفوق، ويثبت له على سائر البشر الحقوق التي لا تقابل
بالعقوق، فهو صاحب جوامع الكلم وبدائع الحكم، وقوارع الزجر
وقواطع الأمر، والأمثال السائرة، والغرر السائلة، والدرر المنثورة
والدراري المأثورة والقضايا المحكمة، والوصايا المبرمة، والمواعظ التي
هي على القلوب محكمة، والحجج التي هي للد^(١) الخصماء مفحمة
ملجمة.

وقليل هذا الوصف في حقه ﷺ وزاده فضلاً وشرفاً لديه، وقد
روى الحاكم في مستدركه وصححه من حديث ابن عباس: إن أهل
الجنة يتكلمون بلغة محمد ﷺ. وبالجملة فلا يحتاج العلم بفصاحته
إلى شاهد، ولا ينكرها موافق ولا معاند، وقد جمع الناس من كلامه
الفرد الموجز البديع الذي لم يسبق إليه دواوين، وفي كتاب الشفاء
للقاضي عياض من ذلك ما يشفي العليل.

- كقوله ﷺ: المرء مع من أحب^(٢).
- وقوله: أسلم تسلم يؤتك الله أجره مرتين^(٣).

(١) جمع: ألد، مثل أحمر وحمير.

(٢) رواه الشيخان وغيرهما.

(٣) رواه البخاري.

● وقوله: السعيد من وعظ بغيره^(١).

ومما لم يذكره القاضي رحمه الله:

- قوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات) رواه الشيخان وغيرهما.
- وقوله: ليس للعامل من عمله إلا ما نواه.

وتحت هاتين الكلمتين كنوز من العلم لهذا قال الشافعي رحمه الله: حديث الأعمال بالنيات يدخل في نصف العلم، وذلك أن للدين ظاهراً وباطناً، والنية متعلقة بالباطن، والعمل هو الظاهر، وأيضاً: فالنية عبودية القلب، والعمل عبودية الجوارح.

وقال بعض الأئمة^(٢): حديث الأعمال بالنيات ثلث الدين، ووجهه: أن الدين: قول وعمل ونية.

● وقوله: نية المرء خير من عمله. رواه الطبراني. لكن قال بعضهم لا يصح رفعه^(٣) قال: ورواه القضاعي عن إسماعيل بن عبد الرحمن الصفار، أخبرنا علي بن عبد الله الفضل حدثنا محمد بن الحنفية الواسطي، حدثنا محمد بن عبد الله الحلبي، حدثنا يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس: أن رسول الله ﷺ كان يقول: نية المؤمن أبلغ من عمله. قال: وهذا إسناد لا ضوء عليه^(٤)، ويوسف بن عطية متروك الحديث.

ورواه عثمان بن عبد الله الشامي من حديث النواس بن سمعان

-
- (١) رواه الديلمي والعسكري وصححه الحافظ وشيخه العراقي خلافاً لقول ابن الجوزي ورواه مسلم موقوفاً.
 - (٢) كأحمد وابن المديني وأبي داود.
 - (٣) قال الحافظ العراقي: إنه ضعيف.
 - (٤) هذا كناية عن ضعفه.

١٣٤/ب وقال: نية المؤمن خير من عمله، ونية الفاجر/ شر من عمله. وقال ابن عدي: عثمان بن عبد الله الشامي له أحاديث موضوعات، هذا من جملتها، وقال ابن الجوزي: لا يصح رفعه، قال: ومعناه: أن النية سر، والعمل ظاهر، العمل السر أفضل، وهو يقتضي أنه لو نوى أن يذكر الله أو يتفكر، تكون نية الذكر والتفكير خيراً منه، وليس بصحيح.

وقيل: إن النية بمجرد ما خير من العمل بمجرد دون النية، وهذا بعيد، لأن العمل إذا خلا عن النية لم يكن فيه خير أصلاً.

وقيل: إن النية عمل القلب، والفعل عمل الجوارح، وعمل القلب خير من عمل الجوارح، فإن القلب أمير الجوارح، وبينه وبينها علاقة، فإذا تألم تألم القلب، وإذا تألم القلب تألمت فارتعدت الفرائص وتغير اللون، فإنه الملك الراعي والجوارح جيشه ورعيته، وعمل الملك أبلغ من عمل رعيته.

وقيل: لما كانت النية أصل الأعمال كلها وروحها ولبها، والأعمال تابعة لها تصح بصحتها وتفسد بفسادها، وهي التي تقلب العمل الصالح فتجعله فاسداً، وغير الصالح تجعله صالحاً مثاباً عليه، ويثاب عليها أضعاف ما يثاب على العمل، فلذا كانت نية المؤمن خيراً من عمله. وقال أبو بكر بن دريد في مجتبه: المعنى - والله أعلم - أن المؤمن ينوي الأشياء من أبواب البر نحو الصدقة والصوم وغير ذلك فلعله يعجز عن بعض ذلك وهو معقود النية عليه، فنيته خير من عمله.

● وقوله: يا خيل الله اركبي.

رواه أبو الشيخ في الناسخ والمنسوخ عن سعيد بن جبير، والعسكري عن أنس، وابن عائذ في المغازي عن قتادة ولفظه عند ابن

عائذ: قال بعث رسول الله ﷺ يومئذ - يعني يوم الأحزاب - منادياً
ينادي: يا خيل الله اركبي. قال العسكري وابن دريد في مجتباه، وهذا
على المجاز والتوسع، أراد: يا فرسان خيل الله اركبي، فاختصره.
● وقوله: الولد للفراش وللعاهر الحجر.

رواه الشيخان وغيرهما^(١)، والمعنى - والله أعلم - أن حظ العاهر
الحجر ولا شيء له في الولد، وقيل: أراد أن حظه الغلظة والخشونة
من إقامة الحد التي نهايتها رمية بالحجر. وقيل: أراد بالحجر هنا
الكناية عن رجوعه بالخيبة على الولد إذا لم تكن المرأة زوجاً له، والله
أعلم.

● وقوله: كل الصيد في جوف الفرا.

وهو بفتح الفاء، حمار الوحش، رواه الرامهرمزي^(٢) في الأمثال،
وسنده جيد، ولكنه مرسل، ونحوه عند العسكري وقال: جوف أو
جنب.

وهذا خاطب به النبي ﷺ أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب
حين جاءه مسلماً بعد أن كان عدواً له وهجاه كثير الهجاء مقذعاً فيه،
فكانه يقول ﷺ إن الحمار الوحشي من أعظم ما يصاد، وكل صيد
دونه، كما أنك من أعظم أهلي وأمسهم رحماً بي، ومن أكرم من يأتيني
وكل دونك. انتهى.

● وقوله: الحرب خدعة.

(١) وغيرهما: في (أ، ش).

(٢) الحافظ البارع أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الفارسي كان من أئمة هذا
الشأن عاش إلى قريب الستين والثلاثمائة.

رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: سمي النبي ﷺ الحرب خدعة. وليس عند مسلم «سمى»، وقوله: «خدعة» مثلث الخاء، أشهرها: فتح الخاء وإسكان الدال، قال ثعلب وغيره: وهي لغة النبي ﷺ، والثانية، ضم الخاء وإسكان الدال. والثالثة: ضم الخاء وفتح الدال.

وقد قال ذلك ﷺ يوم الأحزاب، لما بعث نعيم بن مسعود وأمره أن يخذل بين قريش وغطفان واليهود، وأشار بذلك إلى أن المماكرة أنفع من المكاثرة.

قال النووي: اتفق العلماء على جواز خداع الكفار في الحرب كيف أمكن إلا أن يكون فيه نقض عهد أو أمان فلا يحل.

● وقوله: إياكم وخضراء الدمن.

رواه الرامهرمزي والعسكري في الأمثال، وابن عدي في الكامل، وأبو بكر بن دريد في المجتبى والقضاعي في مسند الشهاب والدليمي من حديث الواقدي قال: حدثنا محمد بن سعيد بن دينار عن أبي وجزة يزيد بن عبيد عن عطاء بن يزيد الليثي عن أبي سعيد مرفوعاً: قيل يا رسول الله وماذا؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء. قال ابن عدي: تفرد به الواقدي^(١).

ومعناه: أنه كره نكاح الفاسدة، وقال: إن أعراق السوء تنزع أولادها، وتفسير حقيقته: أن الريح تجمع الدمن، وهو البعر، في البقعة من الأرض، ثم يركبه السافي^(٢)، فإذا أصابه المطر أنبت نباتاً

(١) الواقدي: متروك متهم. وقال الدارقطني: لا يصح من وجه.

(٢) التراب الذي تسفيه الريح، قال في القاموس: سفت الريح التراب تسفيهه: ذرته أو حملته فهو ساف وسفي [المحقق].

غضاً ناعماً، يهتز وتحتة الأصل الخبيث، فيكون ظاهره حسناً وباطنه قبيحاً فاسداً. والدمن جمع دمنة وأنشد زفر بن الحارث:

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

ومعنى البيت: أن الرجلين قد يظهران الصلح والمودة، وينطويان على البغض والعداوة، كما ينبت المرعى على الدمن. وهذا أكثرى أو كلي في زماننا، أشار إليه شيخنا.

● وقوله: الأنصار كرشى وعيبي.

رواه البخاري، أي إنهم بطانته وموضع سره، والعيبة كذلك، لأن المجتر يجمع علفه في كرشه، والرجل يضع ثيابه في عيبته. وقيل: هم الذين اعتمد عليهم وأفزع إليهم وأقوى بهم، وقيل أراد بالكرش الجماعة، أي جماعتي وصحابتي، ويقال: عليه/ كرش من الناس أي جماعة، ووقع في رواية الترمذي: ألا إن عيبي التي آوي إليها أهل بيتي وإن كرشى الأنصار.

● وقوله: ولا يجني على المرء إلا يده.

رواه الشيخان، ولأحمد وابن ماجه من حديث عمرو بن الأحوص: لا يجني جان إلا على نفسه. وقد أراد ﷺ بهذا: أنه لا يؤخذ إنسان بجناية غيره، إن قتل أو جرح أو زنى، وإنما يؤخذ بما جنته يده، فيده هي التي أدته إلى ذلك.

● وقوله: ليس الشديد من غلب الناس إنما الشديد من غلب نفسه.

رواه ابن حبان في صحيحه، ورواه الشيخان بلفظ (ليس

الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) يعني أنه إذا ملكها كان قد قهر أقوى أعدائه وشر خصومه. ولذلك قال: أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك^(١). وهذا من باب المجاز، ومن فصيح الكلام، لأنه لما كان الغضبان بحالة شديدة من الغيظ وقد ثارت عليه شدة الغضب فقهرها بحلمه، وصرعها بثباته كان كالصرعة الذي يصرع الرجال ولا يصرعونه.

● وقوله: ليس الخبر كالمعاينة.

رواه أحمد وابن منيع والطبراني والعسكري.

● وقوله: المجالس بالأمانة.

رواه العقيلي في ترجمة حسين بن عبدالله بن ضمرة عن أبيه عن جده عن علي رفعه، وعن جابر بن عتيك: إذا حدث الرجل ثم التفت فهي أمانة، ورواه أبو داود في سننه والترمذي في جامعه وابن أبي الدنيا في الصمت. وغيرهم.

ففي هاتين الكلمتين من الحمل على آداب العشرة وآداب الصحبة وكنم السر، وحفظ الود وحسن العهد، وإصلاح ذات البين والتحذير من النميمة بين الإخوان، الموقعة للشنان ما لا يكاد يخفى على مباني الأذهان.

● وقوله: البلاء موكل بالمنطق.

رواه ابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب المفرد، من رواية إبراهيم عن ابن مسعود، ورواه الديلمي عن أبي الدرداء مرفوعاً: البلاء موكل بالمنطق. وأورده ابن الجوزي في الموضوعات من حديث

(١) ذكره في النهاية بلا إسناد.

أبي الدرداء وابن مسعود. قال شيخنا في المقاصد الحسنة: ولا يحسن مع مجموع ما ذكرناه الحكم عليه بالوضع، ويشهد لمعناه قوله ﷺ للأعرابي الذي دخل عليه يعبده. وقال: لا بأس طهور، فقال الأعرابي: بل هي حمى تفور على شيخ كبير تزيره القبور، فقال ﷺ: فنعم إذاً^(١). وأنشد في معناه:

لا تنطقن بما كرهت فرمبا نطق اللسان بحادث فيكون

● وقوله ﷺ: ترك الشر صدقة.

[رواه بعضهم]^(٢)، ومعنى ذلك أن من ترك الشر وأذى الناس فكأنه تصدق عليهم، وعلم من ذلك أن فضل ترك الشر كفضل الصدقة.

● وقوله: وأي داء أدوأ من البخل.

رواه البخاري^(٣)، والبخل قد جعله ﷺ داء، وليس بداء مؤلم لصاحبه، وإنما شبهه بالداء إذ كان مفسداً للرجل مورثاً له سوء الثناء، كما أن الداء يؤول إلى طول الضنا وشدة العنا، والقصد من هذا النهي عن البخل أعادنا الله منه.

● وقوله: لا ينتطح فيها عنزان^(٤).

أي: لا يجري فيها خلف ولا نزاع.

● وقوله: الحياء خير كله. متفق عليه.

(١) رواه البخاري برقم ٧٤٧٠.

(٢) زيادة في ش وقال: زاده في بعض النسخ ولا كبير فائدة فيه.

(٣) رواه البخاري (٤٣٨٣) وهو من كلام أبي بكر رضي الله عنه وليس من كلامه ﷺ. [المحقق].

(٤) رواه ابن سعد وغيره. وهو في شأن عمير بن عدي حينما قتل عصماء بنت مروان اليهودية.

● وقوله: اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع^(١).

رواه في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة.

● وقوله: سيد القوم خادمهم.

رواه أبو عبد الرحمن السلمي في «آداب الصحبة» له عن عقبه

ابن عامر رفعه، وفي سنده ضعف وانقطاع. ورواه غيره أيضاً.

● وقوله: فضل العلم خير من فضل العبادة. رواه الطبراني

والبزار.

● وقوله: الخيل في نواصيها الخير.

متفق عليه من حديث مالك عن نافع عن ابن عمر رفعه بلفظ:

الخيول في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وفي لفظ لغيرهما: معقود

بنواصيها الخير.

● وقوله: أعجل الأشياء عقوبة البغي.

● وقوله: إن من الشعر لحكماً.

رواه أبو داود من رواية صخر بن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن

جده سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن من البيان لسحراً، وإن من

العلم جهلاً، وإن من الشعر حكماً، فقال صعصعة بن صوحان^(٢):

صدق رسول الله ﷺ. أما قوله: إن من البيان لسحراً: فالرجل يكون

ب/١٣٥ عليه الحق، وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه/

فيذهب بالحق. وأما قوله: إن من العلم جهلاً، فتكلف العالم إلى

علمه ما لم يعلم يجهله^(٣)، وأما قوله: إن من الشعر حكماً، في هذه

(١) جمع بلقع وبلقعة: الأرض القفراء التي لا شيء بها.

(٢) قال صعصعة ذلك عند تحديث بريدة به. وصعصعة تابعي كبير ثقة.

(٣) وأورد ابن الأثير قولاً ثانياً: أن يتعلم ما لا يحتاج إليه كالنجوم.

المواعظ والأمثال التي يتعظ بها الناس. ومفهومه: أن بعض الشعر ليس كذلك. لأن من تبعيضية. وفي البخاري: إن من الشعر حكمة. أي قولاً صادقاً مطابقاً للحق.

قال الطبري: وفي هذا الحديث رد على من كره الشعر مطلقاً، واحتج بقول ابن مسعود: الشعر مزامير الشيطان. وعن أبي أمامة - رفعه - أن إبليس لما أهبط إلى الأرض قال: رب اجعل لي قرآناً، قال: قرآنك الشعر.

ثم أجاب عن ذلك: بأنها أحاديث واهية. وهو كذلك. فحديث أبي أمامة فيه: علي بن زيد الألهاني، وهو ضعيف. وعلى تقدير قوتها فهو محمول على الإفراط فيه والإكثار منه.

ويدل على الجواز أحاديث كثيرة، منها: ما أخرجه البخاري في الأدب المفرد، عن عمرو بن الشريد عن أبيه: استنشدني رسول الله ﷺ من شعر أمية بن أبي الصلت فأنشدته مائة قافية^(١).

● وقوله: الصحة والفراغ نعمتان. رواه البخاري^(٢).

● وقوله: استعينوا على الحاجات بالكتمان فإن كل ذي نعمة

محسود.

رواه الطبراني في معاجمه الثلاثة عن معاذ بن جبل رفعه، وأخرجه الخلعلي عن علي مرفوعاً، استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان لها.

(١) وكذا رواه مسلم في صحيحه.

(٢) الذي في البخاري (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ).

قال في فتح الباري: كذا لسائر الرواة.

● وقوله: المكر والخديعة في النار.

رواه الديلمي عن أبي هريرة، ومعناه: أن ذا المكر والخداع لا يكون تقياً ولا خائفاً لله، لأنه إذا مكر غدر، وإذا غدر خدع، وإذا فعلهما أوبق وهذا لا يكون في تقي، فكل خلة جانبت التقى فهي في النار.

● وقوله: من غشنا فليس منا. رواه مسلم في صحيحه.

● وقوله: المستشار مؤتمن.

رواه أحمد وغيره. ومعناه: أن من أفضى إليك بسره وآمنك على ذات نفسه فقد جعلك بموضع نفسه، فيجب عليك أن لا تشير عليه إلا بما تراه صواباً، فإنه كالأمانة للرجل الذي لا يأمن على إيداع ماله إلا الثقة في نفسه، والسر الذي ربما كان في إذاعته تلف النفس أولى بأن لا يجعل إلا عند الموثوق به.

● وقوله: الندم توبة. رواه الطبراني في الكبير.

● وقوله: الدال على الخير كفاعله.

رواه العسكري وابن جميع، ومن طريقه المنذري عن ابن عباس في حديث مرفوع بلفظ: وكل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة اللهفان. والمعنى: أن من ذلك على الخير وأرشدك إليه فنلت به بإرشاده فكأنه فعل ذلك الخير.

● وقوله: حبك الشيء يعمي ويصم.

رواه أبو داود والعسكري من حديث بقية بن الوليد، عن أبي بكر بن عبدالله بن أبي مريم عن خالد بن محمد الثقفي عن بلال بن أبي الدرداء عن أبيه مرفوعاً، ولم ينفرد به بقية بل توبع عليه. وابن أبي

مريم ضعيف. وقد حكم الصغاني عليه بالوضع. وتعقبه العراقي وقال: إن ابن أبي مريم لم يتهمه أحد بكذب، ويكفيها سكوت أبي داود عليه، فليس بموضوع، بل ولا شديد الضعف، فهو حسن.

قال العسكري: أراد النبي ﷺ أن من الحب ما يعميك عن طريق الرشد، ويصمك عن استماع الحق، وأن الرجل إذا غلب الحب على قلبه ولم يكن له رادع من عقل أو دين أصمه حبه عن العدل وأعماه عن الرشد، ولذا قال بعض الشعراء:

وعين الرضى عن كل عيب كليله ولكن عين السخط تبدي المساويا / ١٣٦

أشار إليه شيخنا في المقاصد الحسنة.

- وقوله ﷺ: العارية مؤداة والمنحة مردودة والدين مقضي والزعيم غارم. رواه الترمذي وأبو داود.
- وقوله: سبقك بها عكاشة. رواه البخاري^(١).
- وقوله: عجب ربك من كذا.

روي في عدة روايات عند البخاري وغيره. ومعناه كما قاله ابن الأثير: عظم ذلك عنده وكبر لديه، أعلم الله أنه إنما يتعجب الأدمي من الشيء إذا عظم موقعه عنده وخفي عليه سببه، فأخبرهم بما يعرفون ليعلموا موقع هذه الأشياء عنده.

وقيل معنى عجب ربك أي رضي وأثاب، فسماه عجباً مجازاً وليس بعجب في الحقيقة. والأول أوجه.

(١) وكذا مسلم كلاهما عن ابن عباس في السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، فقال عكاشة: ادع الله أن يجعلني منهم فقال: أنت منهم فقام آخر.. فذكره.

- وقوله: قتل صبراً. رواه غير واحد.
- وقوله: ليس المسؤول بأعلم من السائل. رواه مسلم وغيره.
- وقوله: ولا ترفع عصاك عن أهلك أبدأ.

رواه أحمد، أي لا تدع تأديبهم وجمعهم على طاعة الله، يقال شق العصا، أي فارق الجماعة، وليس المراد: الضرب بالعصا، ولكنه جعله مثلاً، وقيل: لا تغفل عن أديهم ومنعهم من الفساد، قاله ابن الأثير.

- وقوله: إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم.

رواه البخاري، وذكره ابن دريد وقال: إنه من الكلام الفرد الوجيز الذي لم يسبق ﷺ إلى معناه. أي كل ما أنبت الجدول، وإسناد الإنبات إليه مجاز، والمنبت في الحقيقة هو الله تعالى، وليست «من» للتبعيض، وحبطا: بفتح المهملة والموحدة والطاء المهملة أيضاً، وهو انتفاخ البطن من كثرة الأكل حتى ينتفخ فيموت، ويلم: بضم الياء، أي يقرب من الهلاك. وهو مثل للمنهمك في جمع الدنيا، المانع من إخراجها في وجهها.

- وقوله ﷺ: خير المال عين ساهرة لعين نائمة.

ومعناه: عين ماء تجري ليلاً ونهاراً وصاحبها نائم، فجعل دوام جريانها: سهراً لها.

- وقوله: خير مال المرء مهرة مأمورة أو^(١) سكة مأبورة.

رواه أحمد والطبراني عن سويد بن هبيرة. ومعنى مأمورة: أي

(١) كذا في (د، ش) ومسنده أحمد ٤٦٨/٣، وفي (أ، ط): وسكة.

كثيرة النتائج، وسكة مأبورة: أي طريقة مصطفة من النخل، ومنه قيل للأزقة: سكة، والتأبير: تلقيح النخل. انتهى.

● وقوله ﷺ: من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

● وقوله: زر غباً، تزدد حباً.

رواه البزار، والحارث بن أبي أسامة عن أبي هريرة مرفوعاً، وفي بعض أحاديث الباب، أنه قيل له: يا أبا هريرة أين كنت أمس؟ قال: زرت ناساً من أهلي، فقال: يا أبا هريرة زر غباً تزدد حباً.

● وقوله: إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم. رواه أبو يعلى والبزار من طرق، أحدها حسن بلفظ: إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق.

● وقوله: [الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد، و] (١) الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل. رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبيهقي.

● وقوله: إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى. رواه البزار والحاكم في علومه، والبيهقي في سننه، كلهم من طريق محمد بن سوقة عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعاً.

وهو مما اختلف فيه على ابن سوقة في إرساله ووصله، وفي رفعه ووقفه، ثم في الصحابي، أهو جابر أو عائشة أو عمر. ورجح البخاري في تاريخه من حديث ابن المنكدر الإرسال، ومعناه: أنه بقي في طريقه عاجزاً عن مقصده، ولم يقض وطره، وقد أعطب ظهره.

(١) زيادة في ش.

والوغول: الدخول، فكأنه قال: إن هذا الدين - مع كونه يسيراً سهلاً - شديد^(١)، فبالغوا فيه بالعبادة، لكن اجعلوا تلك المبالغة مع رفق، فإن من بالغ بغير رفق وتكلف من العبادة فوق طاقته يوشك / ب/ أن يمل حتى ينقطع عن الواجبات، فيكون مثله كمثل الذي يعسف الركاب ويحملها على السير على ما لا تطيق رجاء الإسراع، فينقطع ظهره، فلا هو الذي قطع الأرض التي أراد، ولا هو أبقى ظهره سالماً ينتفع به بعد ذلك.

● وقوله ﷺ: من شادَّ هذا الدين غلبه.

رواه العسكري عن بريدة، وللبخاري من حديث معن بن محمد الغفاري عن سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعاً: إن الدين يسر، ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة.

● وقوله: الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

رواه الحاكم عن شداد بن أوس، وقال: صحيح على شرط البخاري، وتعقبه الذهبي بأن فيه ابن أبي مريم وهو واه. وكذا رواه العسكري والقضاعي والترمذي وابن ماجه.

● وقوله: ما حاك في نفسك^(٢) فدعه.

رواه الطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة.

● وقوله ﷺ: تنكح المرأة لجمالها ومالها ودينها وحسبها فعليك بذات الدين تربت يداك. متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(١) في (أ، ط) شديداً، وهو غلط لأنها خبر إن.

(٢) في (ش، ب، د): صدرك.

● وقوله: الشتاء ربيع المؤمن، قصر نهاره فصامه وطال ليله فقامه. رواه البيهقي وأحمد وأبو نعيم مختصراً، والعسكري بتمامه، كلهم من حديث دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد، وله شواهد.

وإنما كان الشتاء ربيع المؤمن لأنه يرتع فيه في بساتين الطاعات، ويسرح في ميادين العبادات، ويتنزه قلبه في رياض الأعمال الميسرة فيه من الطاعات، فإن المؤمن يقدر على صيام نهاره من غير مشقة ولا كلفة ولا يحصل له جوع ولا عطش، فإن نهاره قصير بارد فلا يحصل فيه مشقة الصيام.

● وقوله: القناعة مال لا ينفد وكنز لا يفنى.

رواه الطبراني في الأوسط من حديث المنكدر بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر، والقضاعي بدون: وكنز لا يفنى عن أنس.

وفي القناعة أحاديث كثيرة، ولو لم يكن في القنع^(١) إلا التمتع بالعز لكفى صاحبه، وكان من دعائه ﷺ: اللهم قنعني بما رزقتني. وأنشد بعضهم:

ما ذاق طعم الغنى من لا قنوع له ولن ترى قانعاً ما عاش مفتقراً

● وقوله ﷺ: ما خاب من استخار ولا ندم من استشار، ولا عال من اقتصد. رواه الطبراني في معجمه الأوسط من حديث أنس.

● وقوله ﷺ: الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة، والتودد إلى الناس نصف العقل، وحسن السؤال نصف العلم.

رواه البيهقي في الشعب، والعسكري في الأمثال، وابن السني^(٢)

(١) في ش: القناعة.

(٢) نسبة إلى السنة ضد البدعة. الحافظ أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق =

والديلمي من طريقه والقضاعي كلهم من حديث نافع عن ابن عمر مرفوعاً. وضعفه البيهقي، لكن له شاهد عند العسكري من حديث خلاد بن عيسى عن ثابت عن أنس رفعه: الاقتصاد نصف العيش، وحسن الخلق نصف الدين. وكذا أخرجه الطبراني وابن لال. ومن شواهد أيضاً: ما للعسكري عن أنس رفعه: السؤال نصف العلم، والرفق نصف المعيشة، وما عال امرؤ في اقتصاد. وللديلمي من حديث أبي أمامة رفعه: السؤال نصف العلم والرفق نصف المعيشة.

وفي صحيح ابن حبان من حديث طويل عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال له: يا أبا ذر، لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسب كحسن الخلق. وهذا اللفظ عند البيهقي في الشعب. وله أيضاً وللعسكري عن علي مرفوعاً: التودد نصف الدين، وما عال امرؤ قط على اقتصاد، أي: ما افتقر من أنفق قصداً ولم يجاوزه إلى الإسراف.

● وقوله ﷺ: المؤمن من أمنه الناس. رواه الترمذي.

● وقوله: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما حرم الله. متفق عليه عن ابن عمرو، به مرفوعاً، وعن أبي موسى، ومسلم عن جابر.

● وقوله: قلة العيال أحد اليسارين.

رواه صاحب مسند الفردوس ولفظه: التدبير نصف المعيشة، والتودد نصف العقل / والههم نصف الهرم، وقلة العيال أحد اليسارين. ١/١٣٧

● وقوله ﷺ: أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك.

رواه أبو داود والترمذي من رواية شريك وقيس بن الربيع،

= الدينور. اختصر سنن النسائي الكبرى وسماه المجتبي وله غير ذلك توفي سنة ثلاث وستين وثلاثمائة.

كلاهما عن أبي صالح والحارث من رواية الحسن، كلاهما عن أبي هريرة. وقال الترمذي: حديث حسن غريب، وأخرجه الدارمي في مسنده، والدارقطني والحاكم وقال: إنه صحيح على شرط مسلم، ولكن أعله ابن حزم وكذا ابن القطان والبيهقي. وقال أبو حاتم: إنه منكر، وقال الشافعي: إنه ليس بثابت عند أهله. وقال أحمد: هذا حديث باطل لا أعرفه عن النبي ﷺ من وجه صحيح. قال شيخنا: لكن بانضمامها يقوى الحديث. انتهى.

● وقوله: الرضاع يغير الطباع، رواه أبو الشيخ من حديث ابن عمر^(١).

● وقوله ﷺ: لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له. رواه أحمد وأبو يعلى في مسنديهما، والبيهقي في الشعب عن أنس.

● وقوله: النساء حبائل الشيطان. رواه في مسند الفردوس عن عقبه بن عامر.

● وقوله ﷺ: حسن العهد من الإيمان.

رواه الحاكم في مستدركه (عن عائشة قالت: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي فقال لها: من أنت؟ فقالت: جثامة المزنية قال: أنت حسانة، كيف أنتم، كيف حالكم، كيف كنتم بعدنا؟ قالت: بخير بأبي أنت وأمي، فلما خرجت قلت: يا رسول الله، تقبل على هذه العجوز هذا الاقبال؟ قال: إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان) وقال: إنه صحيح على شرط الشيخين وليس له علة.

● وقوله ﷺ: الخمر جماع الإثم^(٢).

(١) قال في الميزان إنه خبر منكر جداً.

(٢) رواه الديلمي.

● وقوله ﷺ : جمال الرجل فصاحة لسانه .

رواه القضاعي من حديث الأوزاعي والعسكري من حديث المنكدر بن محمد بن المنكدر، كلاهما عن محمد بن المنكدر، عن جابر مرفوعاً .

وأخرجه أيضاً الخطيب وابن طاهر، وفي إسناده أحمد بن عبد الرحمن بن الجارود الرقي والديلمي من حديث جابر رفعه: الجمال صواب المقال، والكمال حسن الفعال بالصدق .

وعند العسكري من حديث العباس: قلت يا نبي الله ما الجمال في الرجل: قال: فصاحة لسانه .

● وقوله ﷺ : منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا .

رواه الطبراني في الكبير والقضاعي عن ابن مسعود، وهو عند البيهقي في المدخل: عن القاسم قال: قال ابن مسعود: منهومان لا يشبعان طالب علم وصاحب^(١) الدنيا. ولا يستويان، أما صاحب الدنيا فيتهدى في الطغيان، وأما صاحب العلم فيزداد من رضى الرحمن. وقال: إنه موقوف منقطع. وكذا رواه البزار والعسكري وغيرهما وبمجموعها يتقوى، وإن كانت مفرداته ضعيفة، والله أعلم .

● وقوله ﷺ : لا فقر أشد من الجهل، ولا مال أكثر من

العقل، ولا وحشة أشد من العجب. رواه ابن ماجه .

● وقوله ﷺ : الذنب لا ينسى، والبر لا يبلى، والديان لا

يموت، فكن كما شئت. رواه في مسند الفردوس عن ابن عمر .

● وقوله ﷺ : ما جمع شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى

علم .

(١) في (ط، ب) وطالب .

رواه العسكري في الأمثال من حديث جعفر بن محمد عن أبيه
عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي مرفوعاً بزيادة: وأفضل الإيمان
التحجب إلى الناس، ثلاث من لم تكن فيه فليس مني ولا من الله،
حلم يرد به جهل الجاهل، وحسن خلق يعيش به في الناس، وورع
يحجزه عن معاصي الله.

وعنده أيضاً من حديث جابر مرفوعاً: ما أوى شيء إلى شيء
أحسن من حلم إلى علم، وصاحب العلم غرثان إلى حلم.
● وقوله ﷺ: التمسوا الرزق في خبايا الأرض.

رواه في جزء بي بي بي^(١) عن ابن أبي شريح / والمراد الزرع، ١٣٧/ب
وأنشدوا:

تبع خبايا الأرض وادع مليكها لعلك يوماً أن تجاب فترزقا
● وقوله ﷺ: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد
نفسك في أهل القبور رواه البيهقي في الشعب والعسكري من حديث
ابن عمر مرفوعاً. وأخرجه البخاري والترمذي وغيرهم.

● وقوله ﷺ: صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة
السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر. أخرجه
الطبراني في الكبير بسند حسن.

● وقول ﷺ: العفو لا يزيد العبد إلا عزاً، والتواضع لا يزيده
إلا رفعة. وما نقص مال من صدقة.

(١) في (د، ب) بيبي، قال الشارح: كذا بخط المصنف مقطع الحروف. وهي
بنت عبد الصمد بن علي بن محمد الهرثمية، وجزؤها من عوالي الأجزاء.

وروى مسلم: ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله .

وروى القضاعي عن أبي سلمة^(١) عن أم سلمة مرفوعاً: ما نقص مال من صدقة ولا عفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله تعالى بها عزاً.

وروى الديلمي من حديث أبي هريرة مرفوعاً: والذي نفس محمد بيده لا ينقص مال من صدقة. رواه الترمذي وقال حسن صحيح .

● وقوله ﷺ : اللهم إني أعوذك من شر سمعي، ومن شر بصري، ومن شر لساني، ومن شر قلبي ومن شر مني. أخرجه أبو داود في جامعه^(٢) والحاكم في مستدركه عن شكل^(٣).

● وقوله ﷺ : اللهم إني أعوذ بك من شر فتنة الغنى. [رواه الترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه]^(٤).

● وقوله ﷺ : إن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك عادل قادر، يحق فيها الحق ويبطل الباطل، فكونوا أبناء الآخرة ولا تكونوا أبناء الدنيا. فإن كل أم يتبعها ولدها^(٥). رواه أبو نعيم في الحلية من حديث شداد.

(١) أبو سلمة عبد الرحمن بن عوف الزهري، ثقة من رجال الجميع مات سنة أربع وتسعين .

(٢) أي: سننه .

(٣) شكل بن حميد العبسي، صحابي نزل الكوفة .

(٤) زيادة في (ش، ب) وقال الشارح: وهو في الصحيحين من جملة حديث طويل .

(٥) هذه الجملة ليست في ش .

● وقوله ﷺ : أخسر الناس صفقة من أذهب آخرته بدنيا غيره .

وعند ابن النجار من حديث عبدالله بن عامر بن ربيعة عن أبيه [وهو مما بيض له الديلمي] (١) : أخسر الناس صفقة رجل أخلق يديه في آماله ولم تساعده الأيام على أمنيته، فخرج من الدنيا بغير زاد وقدم على الله بغير حجة .

● وقوله ﷺ : إن من كنوز البر كتمان المصائب (٢) .

● وقوله ﷺ : اليمين حنث أو ندم .

رواه أبو يعلى وابن ماجه إلا أنه قال : إنما الحلف .

● وقوله ﷺ : لا تظهر الشاة بأخيك فيعاقبه الله ويبتليك .

رواه الترمذي من حديث مكحول عن وائلة، وقال : حسن غريب، وهو عند الطبراني أيضاً، وفي رواية لابن أبي الدنيا : فيرحمه الله، بدل : فيعاقبه الله .

وروى الترمذي مرفوعاً : من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله .

● وقوله ﷺ لأبي هريرة : جف القلم بما أنت لاق .

قال صاحب فتح المنة بشرح الأخبار لمحيي السنة (٣) : هو كناية عن جريان القلم بالمقادير وإمضائها والفراغ منها، فإن الفراغ بعد الشروع يستلزم جفاف القلم عن مداده، فهو من إطلاق اللازم على

(١) زيادة في ش .

(٢) رواه البيهقي وأبو نعيم بسند ضعيف .

(٣) هو الإمام البغوي .

الملزوم، وهذا اللفظ لم يوجد في كلام العرب، بل هو من الألفاظ التي لم يهتد إليها البلغاء، بل اقتضتها الفصاحة النبوية.

● وقوله ﷺ : اليوم الرهان وغداً السباق والغاية الجنة والهالك من دخل النار^(١).

● وقوله ﷺ : من ضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه ضمنت له على الله الجنة.

رواه جماعة، منهم العسكري عن جابر، وفي البخاري والترمذي عن سهل بن سعد بلفظ: من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة. والمراد بما بين لحييه: اللسان وما يأتي به النطق، وما بين رجليه: الفرج، وقال الداودي: المراد بما بين اللحيين: الفم، فيتناول الأقوال والأكل والشرب وسائر ما يأتي بالفم.

وفي لفظ: من توكل لي ما بين فقميه ورجليه أتوكل له بالجنة. والفقم: بالضم والفتح: اللحي.

وفي لفظ آخر: من تكفل لي تكفلت له.

وللدلمي - بسند ضعيف - / عن أنس رفعه: من وقي شر قبقه وذبذبه ولقلقه وجبت له الجنة، ولفظ الإحياء: وقي يعني البطن من القبقة، وهو صوت يسمع في البطن، وكأنها حكاية ذلك الصوت، ويجوز أن يكون كناية عن أكل الحرام وشبهه، والذكر واللسان.

فهذا وأشباهه، مما يعسر استقصاؤه. يدل ذلك على ذلك أنه ﷺ قد رقى من الفصاحة وجوامع الكلم درجة لا يقاس بها غيره، وحاز مرتبة لا يقدر فيها قدره صلى الله عليه وسلم.

(١) رواه الطبراني وغيره عن ابن عباس وفيه: أصرم بن حوشب، منكر الحديث.

[وجه جامع في البلاغة]

ومما عد من وجوه بلاغته: ما ذكر أنه جمع متفرقات الشرائع وقواعد الإسلام في أربعة أحاديث وهي:

حديث (إنما الأعمال بالنية) رواه الشيخان.
وحديث (الحلال بين والحرام بين) رواه مسلم^(١).
وحديث (البينة على المدعي واليمين على من أنكر)^(٢).
وحديث (لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)
رواه الشيخان.

فالحديث الأول: يشتمل على ربع العبادات.
والثاني: على ربع المعاملات
والثالث: على ربع الحكومات وفصل الخصومات.
والرابع: على ربع الآداب والمناصفات ويدخل تحته التحذير من
الجنايات. قاله ابن المنير.

[نماذج من بلاغته بغير لغة قريش]

ومما عد أيضاً من أنواع بلاغته كلامه ﷺ مع كل ذي لغة بليغة بلغته اتساعاً في الفصاحة، واستحداثاً للألفة، فكان ﷺ يخاطب أهل الحضر وبكلام ألين من الدهن وأرق من المزن، ويخاطب أهل البدو بكلام أرسى من الهضب وأرهف من العضب.

(١) وكذا رواه البخاري وغيره.

(٢) رواه عبد الرزاق والبيهقي وابن عساكر والدارقطني عن ابن عمرو بن العاصي بزيادة: إلا في القسامة. قال الحافظ: وهو حديث غريب معلول، وأخرجه الترمذي من حديث ابن عمرو أيضاً بلفظ: البينة على المدعي عليه، وله شاهد عن ابن عباس وابن عمر وغيرهما.

فانظر إلى دعائه لأهل المدينة وقد سألوه ذلك فقال: اللهم بارك لهم في مكياهم وبارك لهم في صاعهم ومدهم، وفي حديث آخر: اللهم بارك لنا في تمرنا وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا. اللهم إني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك إبراهيم لمكة ومثله معه^(١).

ثم انظر دعاءه لبني نهد وقد وفدوا عليه في جملة الوفود، فقام طهفة بن رهم النهدي يشكو الجذب فقال: أتيناك يا رسول الله من غورى تهامة، بأكوار الميس، ترتمي بنا العيس، نستحلب الصبير، ونستحلب الخبير، ونستعضد البرير، ونستخيل الرهام، ونستجبل الجهام، من أرض غائلة النطا، غليظة الوطا، قد نشف المدهن، وبس الجعثن، وسقط الأملوج، ومات العسلوج، وهلك الهدي، ومات الودي، برثنا إليك يا رسول الله من الوثن والعنن وما يحدث الزمن، لنا دعوة السلام وشريعة الإسلام، ما طمى البحر وقام تعار، ولنا نعم همل، أغفال ما تبل ببال، ووقير كثير الرسل، قليل الرسل، أصابتها سنية حمراء مؤزلة، وليس لها علل ولا نهل.

فقال لهم رسول الله ﷺ: اللهم بارك لهم في محصنها ومخضها ومذقتها، وابعث راعيها في الدثر بيانع الثمر، وافجر له الثمد، وبارك له في المال والولد، من أقام الصلاة كان مسلماً، ومن آتى الزكاة كان محسناً، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً، لكم يا بني نهد ودائع الشرك، ووضائع الملك، لا تلطط في الزكاة، ولا تلحد في الحياة، ولا تتناقل عن الصلاة.

ثم كتب معه كتاباً إلى بني نهد: بسم الله الرحمن الرحيم: من

(١) هو عند مسلم بمعناه.

محمد رسول الله إلى بني نهد بن زيد، السلام على من آمن بالله عز وجل ورسوله، لكم يا بني نهد في الوظيفة الفريضة، ولكم الفارض والفريش، وذو العنان الركوب، والفلو الضبيس، لا يمنع سرحكم، لا يعضد طلحكم، ولا يجبس دركم ما لم تضمروا الإماق، وتأكلوا الرباق، من أقر بما في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة، ومن أبي فعليه الربوة^(١).

وتحتاج هذه الألفاظ البالغة أعلى أنواع البلاغة إلى تفسير:

فالميس: شجر صلب تعمل منه أكوار الإبل ورحالها^(٢).

نستحلب - بالحاء المهملة - الصبير: بفتح الصاد المهملة وكسر الموحدة، وهو سحاب أبيض متراكب متكاثف. أي نستدر السحاب.

ونستحلب - بالحاء المعجمة - الخبير: بالحاء المعجمة أيضاً ثم

الموحدة: النبات والعشب، شبه بخبير الإبل وهو وبرها، واستحلابه: احتشاشه بالمخلب/ وهو المنجل، والخبير: يقع على الوبر والزرع والأكار^(٣) قاله ابن الأثير.

ونستعضد البرير: أي نقطعه ونجنيه من شجره للأكل، وهو بموحدة وراءين بينها مثناة تحتية، ثم الأراك إذا اسود وبلغ، وقيل: هو اسم له في كل حال، وكانوا يأكلونه في الجذب.

ونستخيل - بالحاء المعجمة - الرهام: بكسر الراء، وهي الأمطار

(١) روى هذه القصة بطولها ابن الأعرابي في معجمه، وأبو نعيم في الصحابة عن عمران بن حصين، وابن الجوزي في العلل من وجه ضعيف جداً عن علي بن أبي طالب.

(٢) أكوار: جمع كور وهو: الرحل.

(٣) هو الزارع.

الضعيفة، واحدها رهمة، أي نتخيل الماء في السحاب القليل، وقيل:
الرهمة أشد وقعاً من الديمة.

ونستجيل: بالجيم، أي نراه جائلاً تذهب به الريح ها هنا وما
هنا.

والجهام: بالجيم، أي السحاب الذي فرغ ماؤه.

ومن روى نستخيل - بالخاء المعجمة - فهو نستفعل من «خلت،
أخال» إذا ظننت، أراد لا نتخيل في السحاب حالاً إلا المطر وإن كان
جهاماً لشدة حاجتنا إليه، ومن رواه بالخاء المهملة - وهو الأشهر -
أراد: لا ننظر من السحاب في حال إلا إلى جهام من قلة المطر.

وأرض غائلة - بالغيث المعجمة - والنطا - بكسر النون - أي
مهلكة للبعد، يقال: بلد نطي، أي بعيد، ويروى المطي وهو مفعول
منه.

والمدهن: نقرة في الجبل.

والجعثن: بالجيم والمثلثة، أصل النبات، ويقال: أصل الصليان
خاصة وهو نبت معروف.

والعسلوج: بضم العين وبالسین المهملتين، آخره جيم، وهو
الغصن إذا يبس وذهبت طراوته، وقيل: هو القضيب الحديث
الطلوع، يريد أن الأغصان يبست وهلكت من الجذب، وجمعه:
عساليج.

والأملوج: بالضم والجيم، ورق شجر يشبه الطرفاء والسرو،
وقيل: هو ضرب من النبات ورقه كالعيدان، وقيل: هو نوى المقل.
وفي رواية: وسقط الأملوج من البكاراة - بالكسر - جمع البكرة -

بالفتح - يريد أن السمن الذي قد علا بكاراة الإبل بما رعت من هذه الشجرة قد سقط عنها، فسماه باسم المرعى، إذ كان سبباً له.

وهلك الهدى: بفتح الهاء وكسر الدال المهملة والتشديد، كالهدي بالتخفيف، وهو ما يهدى إلى البيت الحرام من النعم لتنحر، فأطلق على جميع الإبل وإن لم تكن هدياً، تسمية للشيء ببعضه، يقال: كم هدي بني فلان؟ أي كم إبلهم.

ومات الودي: بالتشديد، فسيل النخل، يريد هلكت الإبل ويبست النخيل.

وبرئنا إليك من الوثن والعنن: الوثن: الصنم، والعنن، الاعتراض، يقال: عنَّ لي الشيء أي اعترض، كأنه قال: برئنا إليك من الشرك والظلم، وقيل: أراد به الخلاف والباطل.

وماطمى البحر: أي ارتفع بأمواجه.

وتعار: بكسر التاء المثناة الفوقية، يصرف ولا يصرف، اسم

جبل.

ولنا نعم همل: أي مهملة لا رعاء لها، ولا فيها ما يصلحها

ويهديا، فهي كالضالة.

والإبل الأغفال: لا لبن فيها.

وقوله عليه الصلاة والسلام.

في محضها: بالحاء المهملة والضاد المعجمة، أي خالص لبنها.

ومخضها: بالمعجمة، ما مخض من اللبن وأخذ زبده.

ومذقتها: بفتح الميم وسكون المعجمة وبالقاف، أي ممزوج بالماء.

وابعث راعيها في الدثر: بالمهملة المفتوحة ثم المثناة الساكنة ثم

الراء، المال الكثير، وقيل: الخصب والنبات الكثير.

وافجر له الشمد: بفتح المثناة، الماء القليل، أي صيره كثيراً.

وودائع الشرك: قيل المراد بها العهود والمواثيق، يقال: تودع الفريقان، إذا أعطى كل واحد منهم عهده للآخر لا يغزوه، وقيل: ما كانوا استودعوه من أموال الكفار الذين لم يدخلوا في الإسلام، أراد إحلالها لهم لأنها مال كافر قدر عليه من غير عهد ولا شرط.

ووضائع الملك: جمع وضیعة، وهي الوظيفة التي تكون على الملك، وهي ما يلزم الناس في أموالهم من الزكاة والصدقة، أي لكم ١/١٠ الوظائف/ التي تلزم المسلمين لا تتجاوز عنكم ولا تزيد عليكم فيها شيئاً.

ولا تلطط؛ بضم المثناة الفوقية، ثم اللام الساكنة ثم طاءان، الأولى مكسورة والثانية مجزومة على النهي، أي لا تمنعها.

ولا تلحد في الحياة: بضم المثناة الفوقية وإسكان اللام وكسر الحاء المهملة آخره دال مهملة، أي: لا تمل عن الحق ما دمت حياً. قال بعضهم: كذا رواه القتيبي: لا تلطط ولا تلحد على النهي للواحد، ولا وجه له لأنه خطاب للجماعة، ورواه غيره ما لم يكن عهد ولا موعد ولا تتاقل عن الصلاة، ولا تلطط في الزكاة ولا تلحد في الحياة. قال الحافظ أبو السعادات الجزري، وهو الوجه، لأنه خطاب للجماعة واقع على ما قبله.

وقوله: ولا نتاقل عن الصلاة، أي لا نتخلف.

والوظيفة: الحق الواجب.

والفريضة: أي الهرمة المسنة، أي لا تأخذ في الصدقات هذا الصنف كما أنا لا نأخذ خيار المال.

والفارض: - بالفاء والضاد المعجمة - المريضة .
والفريش: بفتح الفاء آخره شين معجمة، وهي من الإبل
كالنفساء من بنات آدم، أي لكم خيار المال وشراره، ولنا وسطه .
وذو العنان: بكسر العين، سير اللجام .
والركوب: بفتح الراء، أي الفرس الذلول .
والضبيس، بفتح المعجمة وكسر الموحدة آخره مهملة، المهر
العسر الصعب .

امتن عليهم بترك الصدقة في الخيل جيدها وردئها .
ولا يمنع - بضم المثناة التحتية وفتح النون -، سرحكم - بفتح
السين المهملة وسكون الراء وبالحاء المهملة - ما سرح من المواشي، أي
لا يدخل عليكم أحد في مراعيكم .
ولا يعضد طلحكم: أي لا يقطع .

ولا يجبس دركم: أي لا تجبس ذوات الدر عن المرعى إلى أن
تجمع الماشية ثم تعد، أو أنا منعناه أن يأخذها لما في ذلك من
الإضرار .

والإماق: بالميم، أي ما لم تضمروا الغيظ، والبكاء، مما يلزمكم
من الصدقة، قاله في القاموس . وقال الزمخشري: المراد إضمار الكفر
والعمل على ترك الاستبصار في دين الله، وفي رواية: الرماق - بالراء
والميم - أي النفاق، يقال: رامقته رماقاً، وهو أن تنظر إليه شزراً نظرة
العداوة، يعني ما لم تضق قلوبكم عن الحق، يقال: عيش رماق، أي
ضيق، وعيش رمق ومرمق: أي يمسك الروح، والرمق: بقية الروح
وآخر النفس .

وتأكلوا الرباق: - بكسر الراء وبالموحدة المخففة - أي إلا أن

تنقضوا العهد، واستعار الأكل لنقض العهد لأن البهيمة إذا أكلت الربق - وهو الحبل تجعل فيه عرى وتشد به - خلصت من الرباط.

والربوة: - بكسر الراء وفتحها وضمها - أي الزيادة. يعني: من تقاعد عن إعطاء الزكاة فعليه الزيادة في الفريضة عقوبة له.

فانظر إلى هذا الدعاء والكتاب الذي انطبق على لغتهم، وجاد وزاد عليها في الجزالة والبداوة. وأين هذا من كتابه ﷺ لأنس في الصدقة، وأين ذلك من كتابه بين قريش والأنصار أنهم أمة واحدة دون الناس من قريش على رباعتهم، يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى، ويفكون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وأن المؤمنين المتقين أيديهم على من بغى عليهم، أو ابتغى دسيعة ظلم، وأن سلم المؤمنين واحد على سواء وعدل بينهم، وأن كل غازية غزت يعقب بعضهم بعضاً، ومن اعتبط مؤمناً قتلاً فهو قود إلا أن يرضى ولي المقتول، ومن ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه، وأولاهم بهذه الصحيفة البر المحسن.

كذا روي مختصراً من حديث ابن شهاب^(١).

وقوله: دسيعة ظلم: أي عزيمة من الظلم.

ورباعتهم: أمرهم القديم الذي كانوا عليه.

ويتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى: أي يكونون على ما كانوا عليه / ب/ من أخذ الديات وإعطائها، وهو تفاعل من العقل، والمعاقل/ الديات، جمع معقلة، يقال: بنو فلان على معاقلهم التي كانوا عليها، أي مراتبهم وحالتهم.

(١) انظر الكتاب بطوله في سيرة ابن هشام ٥٠١/١ [المحقق].

ولا يوتغ: أي لا يهلك.

ويعقب بعضهم بعضاً: أي يكون الغزو بينهم نوباً، فإذا خرجت طائفة ثم عادت لم تكلف أن تعود ثانية حتى يعقبها غيرها.

وأين هذا اللين في القول، وقرب المأخذ في اللفظ على طريق الحاضرة وعرف الجمهور المشهور من كتابه لذي المشعار الهمداني، لما لقيه وفد همدان مقدمه من تبوك، فقال مالك بن نمط: يا رسول الله، نصية من همدان من كل حاضر وباد، أتوك على قلص نواج، متصلة بحبائل الإسلام، لا تأخذهم في الله لومة لائم، من مخلاف خارف ويام لا ينقض عهدهم عن سنة ماحل، ولا سوداء عنقفير، ما قام لعلع، وما جرى العففور بصلع.

فكتب إليهم النبي ﷺ: هذا كتاب من محمد رسول الله لمخلاف خارف وأهل جناب الهضب وحفاف الرمل، مع وافدها ذي المشعار مالك بن نمط ومن أسلم من قومه، على أن لهم فراعها ووهاطها وعزازها، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها، ويرعون عفاها، لنا من دفتهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثلب والنباب والفصيل والفاضض والداجن والكبس الحوري، وعليهم فيها المبالغ والقارح.

وقوله: نصية من كل حاضر وباد، قال ابن الأثير: النصية من ينتصي من القوم أي يختار من نواصيهم، وهم الرؤوس والأشراف، ويقال للأشراف: نواص، كما يقال للأتباع أذئاب.
وأتوك على قلص: بضم القاف واللام، جمع قلوص، وهي الناقة الشابة.

والنواج: السراع.

وقوله: متصلة بحبائل الإسلام أي عهوده وأسبابه.
وخارف: بالخاء المعجمة.

ويام: بالمشناة التحتية: قبيلتان.

ولا ينقض عهدهم عن سنة ماحل: أي لا ينقض [عهدهم]^(١)
بسعي ساع أي بالنميمة والإفساد، كما يقال: لا أفسد ما بيني وبينك
بمذاهب الأشرار وطرقهم في الفساد.

والسنة: الطريقة، والسنن أيضاً.

والعنقفير: بفتح العين المهملة وسكون النون وتقديم القاف،
الداهية. أي لا ينقض عهدهم بسعي الواشي ولا بدهاية تنزل.

وللع: جبل.

وما جرى اليعفور: بفتح التحتية، الخشف^(٢) وولد البقرة
الوحشية، وقيل: هو تيس الظباء، والجمع: اليعافير، والياء: زائدة.
وبصلع: بضم الصاد المهملة وتشديد اللام، الأرض التي لا
نبات فيها.

وقوله عليه الصلاة والسلام:

وأهل الجناح الهضب: بكسر الجيم، اسم موضع.

وحفاف الرمل: أسماء بلادهم.

وفراعها: بكسر الفاء وبراء وعين مهملة، أي ما علا من الجبال

أو الأرض.

ووهاطها: بكسر الواو، وبطاء مهملة، المواضع المطمئنة،

واحدتها وهط، وبه سمي الوهط، وهو مال كان لعمرو بن العاص

بالتائف. وقيل الوهط: قرية بالتائف كان الكرم المذكور بها.

(١) زيادة في ط.

(٢) ولد الظبي.

وعزازها: بفتح العين المهملة ثم زاءين مخففتين، ما صلب من الأرض واشتد وخشن، وإنما يكون في أطرافها.

ويأكلون علافها: بكسر العين المهملة وتخفيف اللام وبالفاء، جمع علف، وهو ما تأكله الماشية.

وعفاها: بفتح وتخفيف الفاء وبالمد، أي المباح.

ومن دفثهم: بكسر الدال المهملة وسكون الفاء وبالهمز. قال في المجمل: نتاج الإبل وألباها والانتفاع بها.

وصرامهم: بكسر الصاد المهملة وتخفيف الراء، أي من نخلهم.

والثلب: بكسر المثناة واللام الساكنة وبياء موحدة، ما هرم من ذكور الإبل وتكسرت أسنانه.

والناب: بالنون والموحدة: الناقة الهرمة التي طال نابها.

والفصيل: بالمهملة الذي انفصل عن أمه.

والفارض: بالفاء/ المسن من الإبل^(١).

والداجن: بالمهملة والجيم، الدابة التي تألف البيوت.

والكبش الحوري: بالحاء المهملة، وواو مفتوحتين فراء مسكورة:

الذي في صوفه حمرة.

والصالح: بالصاد المهملة والغين المعجمة، من صلغت الشاة

ونحوها: إذا تمت أسنانها.

والقارح: بالقاف والراء والحاء المهملة، من الخيل الذي دخل

في السنة الخامسة. انتهى.

(١) من الإبل: ليست في ط.

وهذا من جنس كتابه لقطن بن حارثة العليمي من كلب:

هذا كتاب من محمد لعنات كلب وأحلافها، ومن ظأره الإسلام من غيرهم مع قطن ابن حارثة العليمي، بإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة بحقها في شدة عقدها ووفاء عهدها، بمحضر من شهود المسلمين، وسمى جماعة منهم دحية بن خليفة الكلبي، عليهم من الهمولة الراعية البساط الظئار في كل خمسين ناقة غير ذات عوار، والحمولة المائرة لهم لاغية، وفي الشوي الوري مسنة حامل أو حائل، وفيها سقى الجدول من العين المعين العشر، وفي العشري شطره بقيمة الأمين لا يزداد عليهم وظيفة ولا يفرق. شهد على ذلك الله ورسوله، وكتب ثابت بن قيس بن شماس.

وتفسير غريبه أن قوله:

ومن ظأره الإسلام: بالطاء المعجمة والهمز، آخره هاء أي: عطف عليه وعليهم.

في الهمولة: بفتح الهاء، التي ترعى بأنفسها. ولا تستعمل فعولة بمعنى مفعولة.

والبساط: التي معها أولادها.

والظئار^(١): أن تعطف الناقة على غير ولدها.

والحمولة المائرة لهم لاغية: يعني أن الإبل التي تحمل عليها الميرة - وهي الطعام ونحوه مما يجلب للبيع - لا يؤخذ منها زكاة لأنها عوامل.

(١) في (ط، ب، د): الظأر، قال الشارح: الظئار: اسم جمع ظئر: بمعنى مرضعة.

وفي الشوي: بفتح الشين المعجمة وكسر الواو والياء المشددة:
اسم جمع للشاة.
والوري: السمينة.

ومن هذا النمط كتابه ﷺ لوائل بن حجر- بتقديم الحاء
المضمومة على الجيم الساكنة- إلى الأقيال العباهلة والأرواع المشاييب،
وذكر الفرائض فقال:

في التبعة شاة لا مقورة الألياط ولا ضناك، وأنطوا الثبجة وفي
السيوب الخمس، ومن زنى مم بكر فاصقوه مائة واستوفضوه عاماً،
ومن زنى مم ثيب فضرجوه بالأضاميم، ولا توصيم في الدين، ولا
غمة في فرائض الله، وكل مسكر حرام، ووائل بن حجر يترفل على
الأقيال.

وفسر الأقيال- وهو بالقاف والمثناة التحتية- بالرؤساء الذين دون
الملك.

والعباهلة: بالمهملة المفتوحة والموحدة، الذين أقروا على ملكهم
لا يزالون.

والأوراع: - بفتح الهمزة وسكون الراء آخره عين مهملة- جمع
رائع، وهم ذوو الهيئات الحسان الوجوه.

والمشاييب: - بفتح الميم والشين المعجمة وباءين موحدتين بينهما
مثناة تحتية ساكنة- السادة الرؤوس، الحسان الوجوه.

وفي التبعة: - بكسر المثناة الفوقية وسكون المثناة التحتية وبالعين
المهملة- أربعون من الغنم. وفي القاموس والنهاية: أدنى ما تجب فيه
الصدقة من الحيوان.

ولا مقورة: بضم الميم وفتح القاف وتشديد الواو.

والألياط: - بفتح الهمزة وسكون اللام آخرها طاء مهملة - أي:
لا مسترخية الجلود لكونها هزيلة.
ولا ضناك^(١): - بكسر المعجمة وتخفيف النون - ضدها وهي
المستكثرة اللحم.

وأنطوا: بقطع الهمزة أي أعطوا.
والثبجة: بالثلثة ثم موحدة ثم جيم مفتوحات، وقد تكسر
الموحدة، أي أعطوا الوسط في الصدقة لا من خيار المال ولا من
رذالته.

والسيوب: - بضم المهملة وآخره موحدة - أي: الركاز، قاله
الهروي، وقيل: المال المدفون في الجاهلية أو المعدن.

ومن زنى مم بكر: - بكسر الراء بلا تنوين، لأن أصله من
البكر، لكن أهل اليمن يبدلون لام التعريف ميماً، وهي ساكنة
فأدغمت النون فيها، والمراد بالبكر الجنس، وقال ابن الأثير: أي من
بكر ومن ثيب، فقلبت النون الساكنة ميماً، أما مع بكر فلأن النون إذا
ب/١٤٠ سكنت قبل الباء فإنها تقلب ميماً في النطق، / نحو: عنبر وشنبا، وأما
مع غير الباء فإنها لغة يمانية، كما يبدلون الميم من لام التعريف.
انتهى.

و: فاصقوه: بهمزة وصل وإسكان الصاد المهملة، وفتح القاف
وضم العين المهملة، أي: اضربوه.
واستوفضوه: بهمزة وصل وكسر الفاء وضم الصاد المعجمة،
أي: غربوه وانفوه.

(١) في ش، الأضناك، هنا وفي نص الكتاب.
في القاموس: الضناك: الضيق في كل شيء، فكأن المعنى: لا مسترخية
الجلود ولا ضعيفة.

وفضرجوه: بالضاد المعجمة وتشديد الراء وبالجميم.
وبالأضاميم: بفتح الهمزة والضاد المعجمة، أي: أدموه بالضرب
بجماهير الحجارة.
ولا توصيم: بصاد مهملة مكسورة، أي لا كسل عن إقامة
الحدود.

ولا غمة: بضم المعجمة وتشديد الميم، أي لا تستر ولا تخفى.
ويترفل: بتشديد الفاء المتفوحة: يتسود ويترأس، استعارة من
ترفيل الثوب وهو إسباغه وإسباله.
وقريب من هذا، كتابه لأكيدر وأهل دومة، كما قدمته في
مكاتبته صلى الله عليه وسلم.

وقال ﷺ في حديث عطية السعدي: فإن اليد العليا هي المنطية
والسفلى هي المنطاة. قال: فكلمنا رسول الله ﷺ بلغتنا.

وقد كان هذا من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه أن يكلم
كل ذي لغة بليغة بلغته على اختلاف لغة العرب وتركيب ألفاظها
وأساليب كلمها، وكان أحدهم لا يتجاوز لغته، وإن سمع لغة غيره
فكالعجمية يسمعها العربي، وما ذلك منه ﷺ إلا بقوة إلهية وموهبة
ربانية، لأنه بعث إلى الكافة طراً، وإلى الخليقة سوداً وحرماً، والكلام
باللسان يقع في غاية البيان، ولا يوجد غالباً متكلم بغير لغته إلا
قاصراً في الترجمة نازلاً عن صاحب الأصالة في تلك اللغة، إلا نبينا
وسيدنا محمد ﷺ كما تقدم، فإنه زاده الله تكريماً وشرفاً تكلم في كل
لغة من لغة العرب أفصح وأنصح بلغاتها منها بلغة نفسها، وجدير به
ذلك، فقد أوتي في سائر القوى البشرية المحمودة زيادة ومزية على
الناس، مع اختلاف الأصناف والأجناس ما لا يضبطه قياس ولا
يدخل في تحقيقه إلباس. انتهى.

[صفة صوته ﷺ]

وأما صوته الشريف، فعن أنس قال: ما بعث الله نبياً قط إلا بعثه حسن الوجه حسن الصوت، حتى بعث الله نبيكم ﷺ فبعثه حسن الوجه حسن الصوت، رواه ابن عساکر.

وروي نحوه من حديث علي بن أبي طالب.

وروي أنه كان إذا تكلم رؤي كالنور يخرج من ثناياه.

وقد كان صوته ﷺ يبلغ حيث لا يبلغه صوت غيره. فعن البراء قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في خدورهن. رواه البيهقي.

وقالت عائشة رضي الله عنها جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة على المنبر فقال للناس: اجلسوا، فسمعه عبدالله بن رواحة وهو في بني غنم فجلس في مكانه، رواه أبو نعيم.

وقال عبد الرحمن بن معاذ التيمي^(١): خطبنا رسول الله ﷺ بمبنى، ففتحت أسماعنا - وفي لفظ ففتح الله أسماعنا - حتى إن كنا لنسمع ما يقول ونحن في منازلنا. رواه ابن سعد.

وعن أم هانئ قالت كنا نسمع قراءة النبي ﷺ في جوف الليل عند الكعبة، وأنا على عريشي، رواه ابن ماجه.

[صفة ضحكه ﷺ وبكائه]

وأما ضحكه ﷺ، ففي البخاري عن عائشة: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجعماً قط ضاحكاً حتى أرى لهواته، إنما كان يتبسم، أي:

(١) في (ط، ب، د) التيمي، وهو تصحيف.

ما رأيته مستجمعاً من جهة الضحك بحيث يضحك ضحكاً تاماً مقبلاً
بكليته على الضحك.

واللهوات: بفتح اللام، جمع لهاة، وهي اللحمة التي بأعلى
الحنجرة من أقصى الفم.

وهذا لا ينافيه ما في حديث أبي هريرة في قصة المواقع أهله في
رمضان، / فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه. رواه ١/١٤١
البخاري. وهي بالجيم والذال المعجمة: الأضراس. ولا تكاد تظهر
إلا عند المبالغة في الضحك. لأن عائشة إنما نفت رؤيتها، وأبو هريرة
أخبر بما شاهده، والمثبت مقدم على النافي.

وقد قال أهل اللغة: التبسم: مبادي الضحك، والضحك:
انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور، فإن كان بصوت وكان
بحيث يسمع من بعد فهو القهقهة، وإلا فالضحك، وإن كان بلا
صوت فهو التبسم.

وقال ابن أبي هالة: جل ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب
الغمام، أي يبدي أسنانه ضاحكاً، وحب الغمام: البرد.

وقال الحافظ ابن حجر: والذي يظهر من مجموع الأحاديث: أنه
ﷺ كان في معظم أحواله لا يزيد على التبسم، وربما زاد على ذلك
فضحك. قال: والمكروه إنما هو الإكثار منه والإفراط فيه لأنه يذهب
الوقار.

وقال ابن بطال: والذي ينبغي أن يقتدى به من أفعاله ما واطب
عليه من ذلك.

وقد روى البخاري في الأدب المفرد وابن ماجه عن أبي هريرة رفعه: لا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب.

وقال أبو هريرة: وإذا ضحك ﷺ يتلألاً في الجدر. رواه البزار والبيهقي، أي يضيء في الجدر- بضم الجيم والبدال، جمع جدار وهو الحائط- أي يشرق نوره عليها إشراقاً كإشراق الشمس عليها.

وكان ﷺ إذا كان حديث عهد بجبريل لم يتبسم ضاحكاً حتى يرتفع عنه، بل كان إذا خطب أو ذكر الساعة اشتد غضبه وعلا صوته كأنه منذر جيش، صبحكم ومساكم. رواه مسلم.

وكان بكأوه ﷺ من جنس ضحكه، لم يكن بشهيق ورفع صوت، كما لم يكن ضحكه بقهقهة ولكن تدمع عيناه حتى تهملان، ويسمع لصدره أزيز، يبكي رحمة لميت، وخوفاً على أمته وشفقة، ومن خشية الله، وعند سماع القرآن، وأحياناً في صلاة الليل، قاله في الهدي النبوي.

وقد حفظه الله تعالى من التثاؤب، ففي تاريخ البخاري ومصنف ابن أبي شيبة عن يزيد بن الأصم: ما تئأب النبي قط، لكن في رواية عند ابن أبي شيبة: ما تئأب نبي قط.

[صفة يده ﷺ]

وأما يده الشريفة ﷺ، فقد وصفه غير واحد بأنه كان شثن الكفين كما سيأتي، أي غليظ أصابعهما، وبأنه عبل الذراعين رحب الكفين.

وقد مسح ﷺ خد جابر بن سمرة قال: فوجدت ليده برداً وريحاً كأنما أخرجها من جونة عطار، رواه مسلم.

وفي حديث وائل بن حجر عند الطبراني والبيهقي: لقد كنت أصافح رسول الله ﷺ أو يمس جلدي جلده، فأعرفه بعد في يدي، وإنه لأطيب رائحة من المسك.

وقال يزيد بن الأسود: ناولني رسول الله ﷺ يده فإذا هي أبرد من الثلج وأطيب ريحاً من المسك، رواه البيهقي.

وعن المستورد بن شداد عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ فأخذت بيده فإذا هي ألين من الحرير وأبرد من الثلج. رواه الطبراني.

ودخل ﷺ على سعد بن أبي وقاص بمكة يعوده وقد اشتكى، قال: فوضع يده على جبهي فمسح وجهي وصدري وبطني، فما زلت يخيل إلي أني أجد برد يده على كبدي حتى الساعة^(١).

وفي البخاري من حديث أنس: ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألين من كف رسول الله ﷺ. وهو من باب عطف الخاص على العام، لأن الديباج نوع من الحرير.

قيل: وهذا الوصف في هذا الحديث يخالف ما وقع في حديث ابن أبي هالة عند الترمذي في صفته ﷺ، فإن فيه - كما تقدم - كان شثن الكفين والقدمين، أي غليظهما في خشونة، وهكذا وصفه علي من عدة طرق عند الترمذي والحاكم وغيرهما، وكذا/ وصف عائشة له عند ١٤١/ب ابن أبي خيثمة.

والجمع بينهما: أن المراد اللين في الجلد. والغلظ في العظام، فيجتمع له نعومة البدن وقوته.

وقال ابن بطلال: كانت كفه ﷺ ممتلئة لحماً، غير أنها مع

(١) رواه الإمام أحمد: المسند ١٧١/١ [المحقق].

ضحامتها كانت لينة، كما في حديث أنس، قال: وأما قول الأصمعي: الشثن: غلظ الكف في خشونة، فلم يوافق على تفسيره بالخشونة، والذي فسر به الخليل أولى، قال: وعلى تسليم ما فسر به الأصمعي الشثن: يحتمل أن يكون أنس وصف حالتي كف النبي ﷺ فكان إذا عمل بكفه في الجهاد، أو في مهنة أهله، صار كفه خشناً للعارض المذكور، وإذا ترك ذلك رجع كفه إلى أصل جبلته من النعومة.

وقال القاضي عياض: فسر أبو عبيدة الشثن بالغلظ مع القصر. وتعقب: بأنه ثبت في وصفه ﷺ أنه كان سائل الأطراف. انتهى.

ويؤيد كونها كانت لينة قوله في رواية النعمان: كان سبط الكفين. بتقديم المهملة على الموحدة، فإنه موافق لوصفها باللين.

والتحقيق في الشثن أنه الغلظ من غير قصر ولا خشونة. وقد نقل ابن خالويه: أن الأصمعي لما فسر الشثن بما مضى، قيل له إنه ورد في صفة النبي ﷺ أنه لين الكفين، فألى على نفسه أن لا يفسر شيئاً في الحديث. انتهى.

وفي حديث معاذ عند الطبراني والبخاري: أردفني رسول الله ﷺ خلفه في سفر، فما مسست شيئاً قط ألين من جلده ﷺ.

وأصيب عائذ بن عمرو في وجهه يوم حنين، فسال الدم على وجهه وصدره، فسلت^(١) النبي ﷺ الدم بيده عن وجهه وصدره، ثم دعا له، فكان أثر يده ﷺ إلى منتهى ما مسح من صدره غرة سائلة كغرة الفرس. رواه الحاكم وأبو نعيم وابن عساكر.

وأخرج البخاري في تاريخه والبغوي وابن منده في الصحابة من

(١) أي أزال.

طريق صاعد بن العلاء بن بشر عن أبيه عن جده بشر بن معاوية: أنه قدم مع أبيه معاوية بن ثور على رسول الله ﷺ فمسح رأسه ودعا له بالبركة فكانت في وجهه مسحة النبي ﷺ كالغرة وكان لا يمسح شيئاً إلا برئ^(١).

ومسح ﷺ رأس مدلوك أبي سفيان^(٢) فكان ما مرت يده عليه أسود، وشاب ما سوى ذلك^(٣). رواه البخاري في تاريخه والبيهقي. وكذا وقع له ﷺ في رأس السائب. رواه البغوي والبيهقي وابن منده.

وأخرج البيهقي وصححه، والترمذي وحسنه، عن أبي زيد الأنصاري قال: مسح ﷺ بيده على رأسي ولحيتي ثم قال: اللهم جمه، قال: فبلغ بضعا ومائة سنة وما في لحيته بياض. ولقد كان منبسط الوجه ولم ينقبض وجهه حتى مات.

ومسح ﷺ رأس حنظلة بن حذيم بيده وقال له: بورك فيك، فكان يؤتى بالشاة الوارم ضرعها والبعير والإنسان به الورم، فيتفل في يده ويمسح بصلعته ويقول بسم الله على أثر يد رسول الله ﷺ فيمسحه ثم يمسح موضع الورم فيذهب الورم. رواه أحمد والبخاري في التاريخ وأبو يعلى وغيرهم.

وقد جاء في عدة أحاديث عن جماعة من الصحابة بياض ابطنه.

-
- (١) هو عند البغوي من طريق عمران بن معز قال: وهو مجهول، قال ابن منده: لا نعرفه إلا من هذا الوجه وانتقده في الإصابة بأن له طريقاً أخرى عند أبي نعيم بإسناد مجهول وأخرى عند ابن شاهين بإسناد منقطع.
- (٢) مدلوك الفزاري مولاهم، كنيته أبو سفيان، صحابي نزل الشام.
- (٣) أي شاب سائر شعر رأسه إلا ما مسته يد رسول الله ﷺ.

فعن أنس قال: رأيت رسول الله ﷺ يرفع يديه في الدعاء حتى رأيت بياض إبطيه.

وقال الطبري: ومن خصائصه ﷺ أن الإبط من جميع الناس متغير اللون غيره، أي إلا هو ﷺ، ومثله للقرطبي وزاد: أنه لا شعر عليه، لكن نازع فيه صاحب شرح تقريب/ الأسانيد، وقال: إنه لم يثبت ذلك بوجه من الوجوه، قال: والخصائص لا تثبت بالاحتمال، ولا يلزم من ذكر أنس وغيره بياض إبطيه أن لا يكون له شعر. وقد قال عبدالله بن أقرم الخزاعي - وقد صلى معه ﷺ - كنت أنظر إلى عفرة إبطيه. حسنه الترمذي. والعفرة: بياض ليس بالناصع كما قاله الهروي وغيره، وسيأتي مزيد لذلك في الخصائص إن شاء الله تعالى.

وعن رجل من بني حريش قال: ضمني رسول الله ﷺ فسأل علي من عرق إبطيه مثل ريح المسك. رواه البزار.

ووصفه علي فقال: ذو مسربة، وفسر بخيط من الشعر بين الصدر والسرة.

وقال ابن أبي هالة: دقيق المسربة.

وعند ابن سعد عن علي: طويل المسربة.

وعند البيهقي: له شعرات من لبتة إلى سرتة تجري كالقضيب. ليس على صدره ولا على بطنه غيره.

ووصفت بطنه أم هانئ فقالت: ما رأيت بطن رسول الله ﷺ إلا ذكرت القراطيس المثني بعضها على بعضها. رواه الطيالسي والطبراني.

وقال أبو هريرة: كان ﷺ أبيض كأنما صيغ من فضة، رجل الشعر، مفاض البطن، عظيم مشاش المنكين.

وتقدم أن المشاش: رؤوس العظام كالركبتين، ومفاض: أي واسع البطن، وقيل: مستوي البطن مع الصدر.

وخرج الإمام أحمد عن محرش الكعبي قال: اعتمر النبي ﷺ من الجعرانة ليلاً، فنظرت إلى ظهره كأنه سبيكة فضة.

وكان ﷺ بعيد ما بين المنكبين. رواه البخاري. أي عريض الصدر، ووقع عند ابن سعد من حديث أبي هريرة: رحب الصدر.

[صفة قلبه ﷺ]

وأما قلبه الشريف ﷺ، فاعلم أن القلب مضغة في الفؤاد معلقة بالنياط، فهو أخص من الفؤاد. قاله الواحدي، وسمي به لتقلبه بالخواطر والعزوم، قال الشاعر:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

وقال الزمخشري: مشتق من التقلب الذي هو المصدر لفرط تقلبه، ألا ترى إلى ما روى أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ: ومثل هذا القلب كمثل ريشة ملقاة بفلاة يقلبها الريح بطناً لظهر.

قال: والفرق بينه وبين الفؤاد، أن الفؤاد وسط القلب، سمي به لتفؤده، أي توقده.

وفسر الجوهري القلب بالفؤاد ثم فسر الفؤاد بالقلب.

قال الزركشي: والأحسن قول غيره: الفؤاد غشاء القلب، والقلب حبه وسويداؤه، ويؤيد الفرق قوله ﷺ: ألين قلوباً وأرق أفئدة، وهو أولى من قول بعضهم: إنه كرر لاختلاف اللفظ.

وقال الراغب: يعبر بالقلب عن المعاني التي تختص به كالعلم والشجاعة.

وقيل: حيثما ذكر الله القلبَ إشارة إلى العقل والعلم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾^(١)، وحيثما ذكر الصدر إشارة إلى ذلك وإلى سائر القوى من الشهوة والغضب ونحوهما انتهى.

قال بعض العلماء: وقد خلق الله تعالى الإنسان، وجعل له قلباً يعقل عنه، وهو أصل وجوده، إذا صلح قلبه صلح سائرته، وإذا فسد قلبه فسد سائرته، وجعل سبحانه القلوب محل السر والإخلاص، الذي هو سر الله يودعه قلب من شاء من عباده، فأول قلب أودعه قلب محمد ﷺ لأنه أول خلق وصورته ﷺ آخر صورة ظهرت من صور الأنبياء، فهو أولهم وآخرهم.

وقد جعل سبحانه وتعالى أخلاق القلوب للنفوس أعلاماً على /ب أسرار القلوب، فمن تحقق قلبه بسر الله اتسعت أخلاقه / لجميع خلق الله، ولذلك جعل الله تعالى لمحمد ﷺ جثمانية اختص بها من بين سائر العالمين، فتكون علامات اختصاص جثمانية آيات دالة على أحوال نفسه الشريفة وعظيم خلقه، وتكون علامات عظيم أخلاقه آيات على سر قلبه المقدس. ولما كان قلبه ﷺ أوسع قلب اطلع الله عليه - كما ورد في الخبر - كان هو الأولى أن يكون هو قلب العبد الذي يقول فيه الله تعالى: ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن^(٢).

(١) سورة ق، الآية ٣٧.

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء، قال الحافظ العراقي في تخرجه: لم أر له أصلاً، =

ولما كان كماله قبل الإسراء بمنزلة سائر النبيين كان صدره يضيق، فاتسع قلبه لما انشرح صدره ووضع عنه وزره ورفع له ذكره. وقد صح أن جبريل عليه الصلاة والسلام شقه واستخرج منه علقه فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه فأعاده في مكانه. قال أنس فلقد كنت أرى أثر المخيط في صدره. رواه مسلم.

وإنما خلقت هذه العلقة في ذاته الكريمة ثم استخرجت منه لأنها من جملة الأجزاء الإنسانية، فخلقها تكملة للخلق الإنساني فلا بد منها، ونزعها أمر رباني طراً بعد ذلك، قاله السبكي.

وعند أحمد وصححه الحاكم: ثم استخرجنا قلبي فشقاها فأخرجنا منه علقتين سوداوين فقال أحدهما [لصاحبه] ^(١) ائتني بماء وتلج فغسلا به جوفي ثم قال: ائتني بماء بَرَد ^(٢) فغسلا به قلبي ثم قال: ائتني بالسكينة فذراها في قلبي ثم قال أحدهما لصاحبه حصه فحاصه ^(٣) وختم عليه بخاتم النبوة.

وفي رواية البيهقي أن ملكين جاآني في صورة كركيين معهما تلج وبرد وماء بارد فشرح أحدهما صدري، ومج الآخر بمنقاره فيه.

وقال ابن تيمية: هو المذكور في الإسرائيليات، وليس له إسناد معروف عن النبي ﷺ ومعناه: وسع قلبه الإيمان بي ومحبي ومعرفتي، وإلا فمن قال إن الله يجل في قلوب الناس فهو أكفر من النصارى الذين خصوا ذلك بالمسيح وحده.

- (١) زيادة في ش وهي كذلك في المسند.
- (٢) كذا في النسخ وفي المسند وفي ط: بارد.
- (٣) كذا في ش وفي المسند ١٨٤/٤ ومعنى حصه: أي خطه. وفي النسخ: خطه فخاطه.

وعن أبي هريرة قال: يا رسول الله، ما أول ما ابتدئت به من أمر النبوة. قال: إني لفي صحراء أمشي ابن عشر حجج إذا أنا برجلين فوق رأسي يقول أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأخذاني فألصقاني لحلاوة القفا ثم شقا بطني، وكان أحدهما يختلف بالماء في طست من ذهب والآخر يغسل جوفي، فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فإذا صدري - فيما أرى - مفلوق^(١) لا أجد له وجعاً، ثم قال: اشقق قلبه فشق قلبي، فقال أخرج الغل والحسد منه، فأخرج شبه العلقة فنبذ به ثم قال: أدخل الرأفة والرحمة قلبه، فأدخل شيئاً كههيئة الفضة، ثم أخرج ذروراً^(٢) كان معه فذر عليه، ثم نقر إبهامي، ثم قال: اغد فرجعت بما لم أغد به من رحمتي للصغير ورأفتي على الكبير. رواه عبدالله بن الإمام أحمد في زوائد المسند وأبو نعيم وقال: تفرد به معاذ عن أبيه، وتفرد بذكر السن^(٣).

وعند أبي نعيم في حديث يونس بن مسيرة: فاستخرج حشوة جوفي فغسلها ثم ذر عليه ذروراً ثم قال: قلب وكيع^(٤) يعي ما وقع فيه، عينان تبصران وأذنان تسمعان وأنت محمد رسول الله المقفي الحاشر قلبك سليم ولسانك صادق ونفسك مطمئنة وخلقتك قيم وأنت قسم.

وهذا الشق روي أنه وقع له ﷺ مرات في حال طفولته إرهاصاً. وتقديم المعجزة على زمان البعثة جائز للإرهاص، ومثل هذا

(١) كذا في ط. وفي النسخ: مقلوقاً.

(٢) نوع من الطيب.

(٣) أي قوله: ابن عشر حجج.

(٤) واع أي متين محكم.

في حق الرسول ﷺ كثير. وبه يجاب عن استشكال وقوع ذلك في حال طفوليته لأنه من المعجزات، ولا يجوز أن تتقدم على النبوة، قاله الرازي.

والذي عليه أكثر أهل الأصول: اشتراط اقتران المعجزة بالدعوى كما نهبت عليه في أوائل الكتاب، ويأتي تحقيقه إن شاء الله تعالى في المقصد الرابع.

وهو المراد بقوله: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾^(١) وقد قيل المراد بالشرح في الآية ما يرجع إلى المعرفة والطاعة. ثم ذكروا في ذلك وجوهاً منها أنه لما بعث إلى الأحمر والأسود من جني وإنسي أخرج /
تعالى عن قلبه جميع الهموم، وانفسح صدره حتى اتسع لجميع المهمات، فلا يقلق ولا يضجر بل هو في حالتي البؤس والفرج منشرح الصدر مشتغل بأداء ما كلف.

فإن قلت: لم قال: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ ولم يقل: قلبك.

أجيب: بأن محل الوسوسة الصدر، كما قال تعالى: ﴿يوسوس في صدور الناس﴾^(٢) فإزالة تلك الوسوسة وإبداها بدواعي الخير هي الشرح، لا جرم خص ذلك الشرح بالصدر دون القلب.

وقد قال محمد بن علي الترمذي: القلب محل العقل والمعرفة، وهو الذي يقصد الشيطان، يجيء إلى الصدر الذي هو حصن القلب فإذا دخل مسلكاً أغار فيه وأنزل جنده فيه وبث فيه الهموم والغموم والحرص فيضيق القلب حينئذٍ، ولا يجد للطاعة لذة، ولا للإسلام

(١) سورة الشرح، الآية ١.

(٢) سورة الناس، الآية ٥.

حلاوة، وإذا طرد العدو في الابتداء حصل الأمن وزال الضيق وانشرح الصدر وتيسر له القيام بأداء العبودية.

وها هنا دقيقة:

قال الله تعالى حكاية عن موسى: ﴿رب اشرح لي صدري﴾^(١) وقال لنا محمد ﷺ: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ أعطي بلا سؤال، ثم إنه تعالى نعتة عليه السلام فقال ﴿وسراجاً منيراً﴾ فانظر إلى التفاوت، فإن شرح الصدر هو أن يصير قابلاً للنور، والسراج المنير هو الذي يقتبس منه النور، والفرق واضح.

قال الدقاق: كان موسى عليه السلام مريداً إذ قال: ﴿رب اشرح لي صدري﴾ ونبينا محمد ﷺ مراد إذ قال الله له: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ والله أعلم.

[صفة جماعه ﷺ]

وأما جماعه ﷺ فقد كان يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة، قال الراوي^(٢) قلت لأنس: أو كان يطيقه؟ قال: كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين. رواه البخاري.

وعند الاسماعيلي عن معاذ: قوة أربعين زاد أبو نعيم عن مجاهد: كل رجل من رجال أهل الجنة.

وعن أنس مرفوعاً: يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في الجماع، قلت يا رسول الله، أو يطيق ذلك؟ قال: يعطى قوة مائة.

(١) سورة طه، الآية ٢٥.

(٢) هو قتادة.

قال الترمذي صحيح غريب لا نعرفه عن حديث قتادة إلا من حديث
عمران القطان.

فإذا ضربنا أربعين في مائة بلغت أربعة آلاف، فهذا يندفع ما
استشكل من كونه ﷺ أوتي قوة أربعين فقط وسليمان عليه الصلاة
والسلام قوة مائة رجل أو ألف على ما ورد.

وذكر ابن العربي: أنه كان له ﷺ القوة الظاهرة على الخلق في
الوطاء، وكان له في الأكل القناعة، ليجمع الله له الفضيلتين في الأمور
الاعتيادية^(١) كما جمع له الفضيلتين في الأمور الشرعية^(٢)، حتى يكون
حاله كاملاً في الدارين. انتهى.

وطاف ﷺ على نسائه التسع في ليلة. رواه ابن سعد.

وروي أنه ﷺ قال: أتاني جبريل بقدر فأكلت منها فأعطيت قوة
أربعين رجلاً في الجماع رواه ابن سعد: حدثنا عبدالله بن موسى عن
أسامة بن زيد عن صفوان بن سليم مرسلًا من حديث أبي هريرة:
شكا رسول الله ﷺ إلى جبريل قلة الجماع فتبسم جبريل حتى تلاً
مجلس رسول الله ﷺ من بريق ثنايا جبريل فقال له: أين أنت من
أكل الهريسة فإن فيه قوة أربعين رجلاً.

ومن حديث حذيفة بلفظ أطعمني جبريل الهريسة أشد بها
ظهري وأتقوى بها على الصلاة. رواه الدارقطني.

ومن حديث جابر بن سمرة وابن عباس وغيرهم.

(١) كذا في النسخ، وفي ش: الاعتبارية، قال: أي التي تعتبرها العامة.

(٢) وهما ما شارك أمته فيه، وما خص به من الأحكام.

وكلها [أحاديث] (١) واهية. بل صرح الحافظ ابن ناصر الدين في جزء له سماه رفع الدسيصة بوضع حديث الهريسة بأنه موضوع. وروي أنه ﷺ أعطي قوة بضع وأربعين رجلاً كل [رجل] (٢) من أهل الجنة، رواه الحارث بن أبي أسامة.

وقد حفظه الله من الاحتلام، فعن ابن عباس قال: ما احتلم

ب / ١٤٣ / وبني قط، وإنما الاحتلام من الشيطان، رواه الطبراني.

[صفة قدمه ﷺ]

وأما قدمه الشريف ﷺ فقد وصفه غير واحد بأنه كان شثن القدمين، أي غليظ أصابعها. رواه الترمذي وغيره.

وعن ميمونة بنت كردم قالت: رأيت رسول الله ﷺ فما نسيت طول أصبع قدميه السبابة على سائر أصابعه، رواه أحمد والطبراني.

وعن جابر بن سمرة: كانت خنصر رسول الله ﷺ من رجله متظاهرة (٣)، رواه البيهقي (٤).

وقد اشتهر على الألسنة أن سبابة النبي ﷺ كانت أطول من الوسطى. قال الحافظ ابن حجر: وهو غلط ممن قاله، وإنما ذلك في أصابع رجليه. انتهى.

(١) زيادة في ش.

(٢) زيادة في ط.

(٣) أي زائدة في الطول على الظاهر، ويحتمل في اللفظ ما يليها من الأصابع.

(٤) وفي سنده سلمة بن حفص السعدي، قال ابن حبان كان يضع الحديث،

لا يحل الاحتجاج به ولا الرواية عنه. وحديثه هذا باطل لا أصل له،

ورسول الله ﷺ كان معتدل الخلق.

وقال شيخنا - في المقاصد الحسنة - : وسلف جمهورهم الكمال الدميري^(١). هو خطأ نشأ عن اعتماد رواية مطلقة. وعبارته^(٢): «كذا رواه ابن هارون عن عبدالله بن مقسم عن سارة ابنة مقسم أنها سمعت ميمونة ابنة كرم تخبر أنها رأت أصابع النبي ﷺ كذلك». فضم ما وقع فيها من إطلاق الأصابع إلى كون الوسطى من كل أطول من السبابة، وعين اليد منه ﷺ لذلك بناء على أن القصد ذكر وصف اختص به ﷺ عن غيره.

ولكن الحديث في مسند الإمام أحمد من حديث يزيد بن هارون المذكور مقيد بالرجل، ولفظه - كما قدمته - فما نسيت طول أصبع قدمه السبابة على سائر أصابعه.

وهو عند البيهقي أيضاً في الدلائل من طريق يزيد بن هارون ولفظها: رأيت رسول الله ﷺ بمكة وهو على ناقته وأنا مع أبي، فدنا منه أبي فأخذ بقدمه فأقر له رسول الله ﷺ^(٣) قالت: فما نسيت طول أصبع قدمه السبابة على سائر أصابعه^(٤).

وعن أبي هريرة أنه ﷺ كان إذا وطئ بقدمه وطئ بكلها ليس له أخص. رواه البيهقي.

وعن أبي أمامة الباهلي قال: كان النبي ﷺ لا أخص له يطأ على قدمه كلها. رواه ابن عساكر.

وقال ابن أبي هالة: خصان الأخصين، مسيح القدمين.

(١) أي وسلف جمهور القائلين بطول سبابة يده ﷺ هو الكمال الدميري.

(٢) أي الدميري.

(٣) أي أثبت له قدمه حتى يتمكن من رؤيتها.

(٤) إلى هنا نهاية ما نقله من المقاصد.

وقال ابن الأثير: الأخص من القدم الموضع الذي لا يلصق بالأرض منها عند الوطاء. والخمصان: البالغ منه، أي إن ذلك الموضع من أسفل قدمه شديد التجافي عن الأرض.

وسئل ابن الأعرابي عنه فقال: إذا كان خص الأخص بقدر لا يرتفع جداً، لم يستو أسفل القدم جداً فهو أحسن ما يكون، وإذا استوى أو ارتفع جداً فهو ذم، فيكون بمعنى أن أخصه معتدل الخمص بخلاف الأول.

ووقع في حديث أبي هريرة إذا وطئ بقدمه وطئ بكلها ليس له أخص.

وقوله: مسيح القدمين أي ملساوتان ليتان ليس فيها تكسر ولا شقاق، فإذا أصابها الماء نبا عنها^(١) كما قال ابن أبي هالة: ينبو عنها الماء، وهو معنى حديث أبي هريرة.

وعن عبدالله بن بريدة قال: كان ﷺ أحسن الناس قدماً^(٢). رواه ابن سعد.

[صفة طوله ﷺ]

وأما طوله ﷺ فقال علي: كان ﷺ لا قصير ولا طويل، وهو إلى الطول أقرب. رواه البيهقي. وعنه: كان ﷺ ليس بالذاهب طولاً، وفوق الربعة إذا جامع القوم غمرهم. رواه عبدالله بن الإمام أحمد.

وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ ربعة وهو إلى الطول أقرب رواه البزار.

(١) أي انحدر سريعاً ولا يقف للماستها.

(٢) وهو يؤيد تفسير ابن الأعرابي: الأخص بالمعتدل والله أعلم.

وقوله: ربعة، أي مربوعاً، والتأنيث باعتبار النفس. وقد فسر في الحديث الآتي بأنه ليس بالطويل البائن ولا بالقصير، والمراد بالطويل البائن: المفرط في الطول مع اضطراب القامة.

1/144 وقال ابن أبي هالة: أطول/ من المربع وأقصر من المشذب - وهو بمجمعتين مفتوحتين ثانيهما مشدد، أي البائن الطول في نحافة، وهو مثل قوله في الحديث الآخر لم يكن بالطويل الممغط - وهو بتشديد الميم الثانية - المتناهي الطول. وأمغط النهار إذا امتد، ومغطت الحبل إذا مددته، وأصله منمغط والنون للمطاوعة فقلبت ميماً وأدغمت في الميم، ويقال بالعين المهملة بمعناه.

وعن عائشة قالت: لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، وكان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده، ولم يكن على حال يماشيه أحد من الناس ينسب إلى الطول إلا طاله ﷺ ولربما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما، فإذا فارقاه نسب رسول الله ﷺ إلى الربعة، رواه ابن عساكر والبيهقي.

وزاد ابن سبع في الخصائص: أنه كان إذا جلس يكون كتفه أعلى من جميع الجالسين.

ووصفه ابن أبي هالة بأنه بادن متماسك، أي معتدل الخلق، كأن أعضائه يمسك بعضها بعضاً.

[صفة شعره وأظافره ﷺ]

وأما شعره الشريف ﷺ، فعن قتادة قال: سألت أنساً عن شعر

رسول الله ﷺ فقال: شعر بين شعرين، لا رَجُل ولا سبط ولا جعد قَطَط^(١) كان بين أذنيه وعاتقه.

وفي رواية [للشيخين]^(٢) قال كان رجلاً ليس بالسبط ولا الجعد بين أذنه وعاتقه.

وفي أخرى: إلى أنصاف أذنيه. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

وعن عائشة قالت: كنت أغتسل أنا والنبي ﷺ عن إناء واحد، وكان له شعر فوق الجمة ودون الوفرة. رواه الترمذي وأبو داود.

والوفرة: الشعر الواصل إلى شحمة الأذن.

وقال ابن أبي هالة أيضاً: كان رجل الشعر - وهو بفتح الراء وكسر الجيم، أي يتكسر قليلاً، بخلاف السبط والجعد - إن انفرت عقيقته فرق وإلا فلا، يجاوز شعره شحمة أذنه إذا هو وفرة.

والعقيقة بالقافين، شعر رأسه الشريف، يعني إن انفرت بنفسها فرقها وإلا تركها معقوصة، ويروى: إن انفرت عقيصته - بالصاد المهملة - وهي الشعر المعقوص.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم، وكان يجب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق ﷺ رأسه. رواه الترمذي في الشمائل. وفي صحيح مسلم نحوه.

(١) الجعد من الشعر.

(٢) زياد في ش.

وسدل الشعر إرساله، والمراد هنا إرساله على الجبين واتخاذها كالكُصّة^(١).

وأما الفرق: فهو فرق الشعر بعضه من بعض.

قال العلماء: والفرق سنة، لأنه الذي رجع إليه ﷺ، والصحيح جواز الفرق والسدل، لكن الفرق أفضل.

وعن عائشة: كان له ﷺ شعر فوق الجمة ودون الوفرة. رواه الترمذي.

وفي حديث أنس كان إلى أذنيه، وفي حديث البراء: يضرب منكبيه. وفي حديث أبي رمثة: يبلغ إلى كتفيه أو منكبيه^(٢).

وفي رواية: ما رأيت من ذي لمة أحسن منه^(٣).

والجمة: هي الشعر الذي نزل إلى المنكبين. والوفرة: ما نزل إلى شحمة الأذنين، واللمة: التي لمت بين المنكبين.

قال القاضي عياض: والجمع بين هذه الروايات: أن ما يلي الأذن هو الذي يبلغ شحمة أذنيه، وما خلفه هو الذي يضرب منكبيه. قال: وقيل: بل ذلك لاختلاف الأوقات، فإذا غفل عن تقصيرها بلغت المنكب وإذا قصرها كانت إلى أنصاف الأذنين، فكانت تطول وتقصر بحسب ذلك.

(١) وهي شعر الناصية يقص حول الجبهة، والمراد أنه كان يتركه على حاله يشبه الشعر المقصوص.

(٢) هذه الروايات في الصحيحين.

(٣) رواه الترمذي عن البراء بن عازب.

وعن أم هانئ/ بنت أبي طالب قالت: قدم رسول الله ﷺ علينا مكة قدمة وله أربع غدائر. رواه الترمذي في الشئائل. والغدائر: - بالغين المعجمة والذال المهملة - هي الذوائب، واحدها غديرة.

وفي مسلم عن أنس، كان في لحيته ﷺ شعرات بيض. وفي رواية عنده: لم ير من الشيب إلا قليلاً، وفي أخرى له أيضاً: لو شئت أن أعد شمطات كن في رأسه ولم يخضب. وعنده أيضاً: لم يخضب ﷺ إنما كان البياض في عنقه وفي الصدغين وفي الرأس نبد - بضم النون وفتح الباء الموحدة، وبفتح النون وإسكان الموحدة - أي شعرات متفرقة.

وفي رواية أخرى: ما شأنه الله ببيضاء^(١).

قال الشيخ عبد الجليل في شعب الإيمان، فيما حكاه عنه الفاكهاني: إنما كان كذلك لأن النساء يكرهن الشيب غالباً، ومن كره من النبي ﷺ شيئاً كفر.

وقال في النهاية: قد تكرر في الحديث جعل الشيب هاهنا عيباً وليس بعيب، فإنه قد جاء في الحديث: أنه وقار وأنه نور، والشيب ممدوح، وذلك عجيب منه لا سيما في حق النبي ﷺ.

ويمكن الجمع بينهما: ووجه الجمع أنه ﷺ لما رأى أبا قحافة ورأسه كالثغامة^(٢)، أمرهم بتغييره وكرهه، ولذلك قال: غيروا الشيب، فلما علم أنس ذلك من عاداته قال: ما شأنه الله ببيضاء بناء

(١) في صحيح مسلم.

(٢) الثغامة واحدة الثغام. وهو نبت يكون بالجبال غالباً إذا يبس يشبهه به الشيب.

على هذا القول وحماً له على هذا الرأي . ولم يسمع الحديث الآخر،
ولعل أحدهما ناسخ للآخر انتهى (١).

وفي رواية أبي جحيفة عنده (٢)، رأيت رسول الله ﷺ وهذه منه
بيضاء . ووضع الراوي بعض أصابعه على عنقته .

وفي حديث أنس عند البيهقي : ما شأنه الله بالشيب، ما كان في
رأسه ولحيته إلا سبع عشرة أو ثمان عشرة [يعني] (٣) شعرة بيضاء .

وعن أبي جحيفة كان أبيض قد شمط . رواه البخاري .

وفي الصحيحين : أن ابن عمر رأى النبي ﷺ يصنع بالصفرة .

وعن ابن عمر : إنما كان شبيهه ﷺ نحواً من عشرين شعرة
بيضاء ، رواه الترمذي .

وروى أيضاً (٤) عن ابن عباس قال أبو بكر : يا رسول الله قد
سبت قال : شيبتي هود والواقعة والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا
الشمس كورت .

وفي حديث جابر عنده : لم يكن في رأسه ﷺ شيب إلا شعرات
في مفرق رأسه إذا ادهن واراهن (٥) الدهن .

وفي رواية البيهقي : كان أسود اللحية حسن الشعر .

(١) أي كلام النهاية .

(٢) أي عند مسلم .

(٣) زيادة في ط .

(٤) أي الترمذي . وعند ابن سعد : شيبتي هود وأخواتها وما فعل بالأمم قبلي .

(٥) أي سترهن وغيبهن .

واختلف العلماء: هل خضب ﷺ أم لا؟

قال القاضي عياض: منعه الأكثرون وهو مذهب مالك.

وقال النووي: المختار أنه صبغ في وقت وترك في معظم الأوقات، فأخبر كل بما رأى وهو صادق، قال: وهذا التأويل كالمعتين، فحديث ابن عمر في الصحيحين، ولا يمكن تركه ولا تأويل له^(١). وأما اختلاف الرواية في قدر شيبه فالجمع بينهما أنه رأى شيباً يسيراً، فمن أثبت شيبه أخبر عن ذلك اليسير ومن نفاه أراد. لم يكثر فيه، كما قال في الرواية الأخرى: لم ير الشيب إلا قليلاً، انتهى.

وعن جابر بن سمرة قال: كان ﷺ قد شمط مقدم رأسه ولحيته، وكان إذا ادهن لم يتبين، فإذا شعث رأسه تبين وكان كثير شعر اللحية. رواه مسلم والنسائي.

وعن أنس كان ﷺ يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته. رواه البغوي في شرح السنة.

وقد وصفه ﷺ ابن أبي هالة بأنه كان موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط عاري الشدين مما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعلي الصدر.

وعن أنس قال: رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه وأطاف به أصحابه فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل. رواه مسلم. ١/١٤٥ وسيأتي إن شاء الله تعالى قصة حلق رأسه الشريف في حجة الوداع.

(١) فيه نظر: إذ هو في نفسه محتمل للثياب والشعر، ثم قد ورد ما يعين الأول، وهو ما في سنن أبي داود عن ابن عمر نفسه، كان يصبغ ﷺ بالورس والزعفران حتى عمامته. ولذا رجحه عياض.

ولم يرو أنه ﷺ حلق رأسه الشريف في غير نسك حج أو عمرة
فيما علمته، فتبقيّة الشعر في الرأس سنة ومنكرها مع علمه يجب
تأديبه، ومن لم يستطع التبقيّة فيباح له إزالته.

وقد رأيت بمكة المشرفة في ذي القعدة سنة سبع وتسعين وثمانمائة
شعرة عند الشيخ أبي حامد المرشدي، شاع وذاع أنها من شعره ﷺ،
زرتها صحبة المقام^(١) المقرئ خليل العباسي والى الله إحسانه عليه.

وعن محمد بن سيرين قال: قلت لعبيدة، عندنا من شعر النبي
ﷺ أصبناه من قبل أنس أو من قبل أهل أنس، قال: لأن تكون
عندي شعرة منه أحب إلي من الدنيا وما فيها رواه البخاري.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أنه ﷺ كان يأخذ
من لحيته من عرضها وطولها^(٢). رواه الترمذي وقال: حديث غريب^(٣).

(١) كذا في النسخ. قال في حاشية الشرح: قوله: صحبة المقام هكذا في النسخ
ولعله على حذف مضاف تقديره: صحبة إمام المقام أو نحو ذلك، والمقام
مقام إبراهيم أي الحجر الذي قام عليه لبناء الكعبة، والإمام هناك يقف
خلفه كما هو مشهور، وقوله: المقرئ. هكذا في بعض النسخ وفي بعضها
القرشي وفي بعضها الغرسي - بالغين المعجمة - وفي بعضها القدسي. ولم ينه
على هذا المحل الشارح ولا المحشي والله أعلم بالواقع تأمل اهـ من
هامش المعتمد.

(٢) قال الشارح: بالسوية - كما في الرواية - لتقرب من التدوير من جميع
الجوانب لأن الاعتدال محبوب والطول المفرط قد يشوه الخلق ويطلق السنة
المغتائبين، ففعل ذلك مندوب.. وقال النخعي: عجب لعاقل كيف لا
يأخذ من لحيته فيجعلها بين لحيّتين فإن التوسط في كل شيء حسن.
وقال الطيبي: المنهي عنه قصها كالأعاجم، وقال الحافظ: المنهي عنه
الاستئصال أو ما قاربه بخلاف الأخذ المذكور.

(٣) فيه عمرو بن هارون البلخي قال الذهبي: ضعفه.

وأخرج الترمذي عن ابن عباس وحسنه قال: كان النبي ﷺ يقص شاربه.

وعنده من حديث زيد بن أرقم قال ﷺ من لم يأخذ من شاربه فليس منا.

وفي الصحيحين: خالفوا المشركين وفروا للحى وأحفوا الشوارب^(١).

واختلف في قص الشارب وحلقه أيهما أفضل: ففي الموطأ يؤخذ من الشارب حتى يبدو طرف الشفة، وعن ابن عبد الحكم عن مالك قال: يحفي الشارب ويعفي اللحية، وليس إحفاء الشارب حلقه، وأرى تأديب من حلق شاربه.

وعن أشهب أن حلقه بدعة قال: وأرى أن يوجع ضرباً من فعله.

وقال النووي: المختار أنه يقصه حتى يبدو طرف الشفة ولا يحفه من أصله.

وقال الطحاوي: لم نجد عن الشافعي شيئاً منصوصاً في هذا، وكان المزني والربيع يحفيان شاربهما.

وأما أبو حنيفة وصاحبه فمذهبهم في شعر الرأس والشارب أن الإحفاء أفضل من التقصير.

وأما أحمد، فقال الأثرم رأيته يحفي شاربه شديداً.

وقد اختلفوا في كيفية قص الشارب، هل يقص طرفاه أيضاً، وهما المسميان بالسبالين أم تترك السبالان كما يفعله كثير من الناس؟

(١) قال النووي: بقطع الهمزة ووصلها.

قال الغزالي في الإحياء: لا بأس بترك سباليه وهما طرفا الشارب. فعل ذلك عمر رضي الله عنه وغيره، لأن ذلك لا يستر الفم ولا يبقى فيه غمرة الطعام إذ لا يصل إليه. انتهى.

وروى أبو داود عن جابر قال: كنا نحفي السبال إلا في حج أو عمرة.

وكره بعضهم إبقاءه لما فيه من التشبه بالأعاجم بل بالمجوس وأهل الكتاب، وهذا أولى بالصواب لما رواه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر قال: ذكر لرسول الله ﷺ المجوس فقال: إنهم يوفرون سبالمهم ويحلقون لحاهم فخالفوهم، فكان يجز سباله كما يجز الشاة أو البعير.

وروى أحمد في مسنده في أثناء حديث لأبي أمامة. فقلنا يا رسول الله، فإن أهل الكتاب يقصون عثانينهم ويوفرون سبالمهم فقال: قصوا سبالكم ووفروا عثانينكم وخالفوا أهل الكتاب، والعثانين - بالعين المهملة والثاء المثناة وتكرار النون - جمع عثون وهو اللحية قاله في شرح تقريب الأسانيد.

وأما العانة ففي حديث أنس أن النبي ﷺ كان لا يتنور، وكان إذا كثر شعره حلقة ولكن سنده ضعيف. وروى ابن ماجه والبيهقي، ورجاله ثقات، ولكن أعل بالإرسال. وأنكر الإمام أحمد صحته من حديث أم سلمة أن النبي ﷺ كان إذا طلى بدأ بعانته فطلاها بالنورة وسائر جسده أهله^(١).

وأما الحديث الذي / يروى أن النبي ﷺ دخل حمام الجحفة، ١٤٥/ب

(١) نساؤه. بالرفع فاعل.

فموضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث كما قاله الحافظ ابن كثير، بل ولم تعرف العرب الحمام ببلادهم إلا بعد موته ﷺ .

وأخرج البيهقي من مرسل أبي جعفر الباقر قال: كان رسول الله ﷺ يستحب أن يأخذ من أظفاره وشاربه يوم الجمعة .

وله شاهد موصول من حديث أبي هريرة ولكن سنده ضعيف أخرجه البيهقي أيضاً في الشعب .

وسئل عنه أحمد فقال يسن يوم الجمعة قبل الزوال . وعنه: يوم الخميس، وعنه يتخير .

قال الحافظ أبو الفضل بن حجر: وهذا هو المعتمد، أنه يستحب كيفما احتاج إليه، قال: ولم يثبت في استحباب قص الظفر يوم الخميس حديث، وكذا لم يثبت في كلفيته شيء، ولا في تعيين يوم له عن النبي ﷺ .

وما يعزى من النظم في ذلك لعلي رضي الله عنه ثم لشيخ الإسلام ابن حجر قال شيخنا: إنه باطل .

والمراد: إزالة ما يزيد على ما يلامس رأس الأصبع من الظفر، لأن الوسخ يجتمع فيه فيستقدر، وقد ينتهي إلى حد يمنع من وصول الماء إلى ما يجب غسله في الطهارة . وقد حكى أصحاب الشافعي فيه وجهين: فقطع المتولي بأن الوضوء حينئذ لا يصح، وقطع الغزالي في الإحياء بأنه يعفى عن مثل ذلك .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة: كان النبي ﷺ لا يفارق سواكه ومشطه وكان ينظر في المرآة إذا سرح لحيته .

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ كانت له مكحلة يكتحل منها كل

ليلة ثلاثة في هذه وثلاثة في هذه. رواه ابن ماجه والترمذي وأحمد
ولفظه: كان يكتحل بالإثمد كل ليلة قبل أن ينام، وكان يكتحل في
كل عين ثلاثة أميال.

وروى النسائي والبخاري في تاريخه عن محمد بن علي قال سألت
عائشة: أكان النبي ﷺ يتطيب؟ قالت: نعم، بذكارة الطيب، المسك
والعنبر.

[صفة مشيه ﷺ]

وأما مشيه ﷺ فعن علي قال: كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفأً
تكفياً، كأنما ينحط من صلب، رواه الترمذي وصححه البيهقي.
والتكفؤ: الميل إلى سنن المشي.

وعند البزار من حديث أبي هريرة: إذا وطئ بقدمه وطئ
بكلها.

وعند الترمذي في الشمائل من حديثه: وما رأيت أحداً أسرع في
مشيه من رسول الله ﷺ: كأنما الأرض تطوى له، إنا لنجهد أنفسنا
وهو غير مكثرث.

وعن يزيد بن مرثد قال: كان رسول الله ﷺ إذا مشى أسرع،
حتى يهرول الرجل ورائه فلا يدركه: رواه ابن سعد.

ويروى أنه كان إذا مشى مشى مجتمعاً أي قوى الأعضاء غير
مسترخ في المشي.

وقال علي رضي الله عنه كان ﷺ إذا مشى تقلع^(١).

(١) رواه الترمذي.

وقال ابن أبي هالة: إذا زال زال تقلعاً، يخطو تكفياً، ويمشي هونا، ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صيب، وفي رواية إذا زال زال قلعاً - بالفتح والضم، وبالفتح هو مصدر بمعنى الفاعل أي لا يزول قالعاً لرجله من الأرض، وهو بالضم إما مصدر أو اسم وهو بمعنى الفتح -.

وقال الهروي: قرأت هذا الحرف في كتاب غريب الحديث لابن الأنباري: قلعاً: بفتح القاف وكسر اللام، وكذلك قرأته بخط الأزهري، وهو كما جاء في حديث آخر كأنما ينحط من صيب، والانحدار من الصيب والتقلع من الأرض قريب بعضه من بعض.

أراد: أنه كان يستعمل الثبث ولا يتبين منه في هذه الحال / ١/١٤٦
استعجال ومبادرة شديدة^(١).

وذريع المشية: أي واسع الخطوة قاله ابن الأثير.

وقال ابن القيم: التقلع الارتفاع من الأرض بجملته، كحال المنحط من الصيب، وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء، فكثير من الناس يمشي قطعة واحدة كأنه خشبة محمولة، فهي مدمومة، وإما أن يمشي بانزعاج مشي الجمل الأهوج وهي مشية مدمومة، وهي علامة خفة عقل صاحبها ولا سيما إن أكثر الالتفات حال مشيه يميناً وشمالاً.

وفي بعض المسانيد: أن المشاة شكوا إلى رسول الله ﷺ من المشي في حجة الوداع فقال: استعينوا بالنسلان: وهو العدو الخفيف الذي لا يزعج الماشي.

(١) إلى هنا ينتهي كلام الهروي.

وأما مشيه ﷺ مع أصحابه، فكانوا يمشون بين يديه وهو خلفهم، ويقول: خلوا ظهري للملائكة، وهو معنى قول القائل: وكان يسوق أصحابه ويماشيهم فرادى وجماعة.

ومشى ﷺ في بعض غزواته مرة فجرحت أصبعه وسال منها الدم فقال: هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت. رواه أبو داود.

ولم يكن له ﷺ ظل في شمس ولا قمر. رواه الترمذي الحكيم عن ذكوان. وقال ابن سبع كان ﷺ نوراً، فكان إذا مشى في الشمس أو القمر لا يظهر له ظل. قال غيره: ويشهد له قوله ﷺ في دعائه: واجعلني نوراً.

[صفة لونه ﷺ]

وأما لونه الشريف الأزهر ﷺ فقد وصفه - عليه السلام - جمهور أصحابه بالبياض، منهم: أبو بكر وعمر وعلي وأبو جحيفة وابن عمر وابن عباس وابن أبي هالة والحسن بن علي وأبو الطفيل ومحرش الكعبي وابن مسعود والبراء وأنس في إحدى الروايتين عنه.

فأما أبو جحيفة فقال: كان أبيض. رواه البخاري. وأما أبو الطفيل فقال: كان أبيض مليحاً. رواه الترمذي في الشئائل، وفي رواية مسلم: أبيض مليح الوجه. وفي رواية عنه للطبراني: ما أنسى شدة بياض وجهه مع شدة سواد شعره. وفي شعر أبي طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
وقال علي: أبيض مشرب. والمشرب: هو الذي في بياضه حمرة،

كما في الرواية الأخرى: أبيض مشرب بحمرة، وبهذا فسر قول أنس في صحيح مسلم: أزهر اللون.

وفي النسائي من حديث أبي هريرة: بينا النبي ﷺ جالس بين أصحابه جاء رجل فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقالوا: هذا الأمر المرتفق.

والأمغر: المشرب بحمرة. المرتفق: المتكئ على مرفقه.

وفي البخاري من حديث أنس: ليس بأبيض أمهق.

قال الحافظ ابن حجر: ووقع عند الداودي تبعاً لرواية المروزي: أمهق ليس بأبيض، وفي رواية عند أبي حاتم وغيره أسمر.

واستشكله بعضهم وقال: إن غالب هذه الروايات متدافع، وبعضها ممكن الجمع كالأبيض مع رواية مشرب بالحمرة والأزهر، وبعضها غير ممكن الجمع كالأبيض الشديد الوضع مع الأسمر.

واعترض الداودي رواية أمهق ليس بأبيض. وهي التي وقعت عنده تبعاً لرواية المروزي.

وقال القاضي عياض: إنها وهم، وقال: وكذلك رواية من روى أنه ليس بالأبيض ولا الآدم، ليس بصواب.

قال الحافظ ابن حجر: هذا ليس بجيد لأن المراد أنه ليس بالأبيض الشديد البياض ولا بالآدم الشديد الأدمة، وإنما يخالط بياضه الحمرة، والعرب قد تطلق على كل من كان كذلك أسمر، ولهذا جاء في حديث أنس عند أحمد والبخاري وابن منده بإسناد صحيح أن النبي ﷺ كان أسمر، وأخرجه البيهقي في الدلائل من وجه آخر عن أنس، فذكر الصفة النبوية فقال: كان ﷺ أبيض بياضه إلى السمرة.

ب/١٤٦

وفي حديث ابن عباس في صفته ﷺ : رجل بين رجلين جسمه ولحمه، أحمر إلى البياض، أخرجه أحمد.

وقد تبين من مجموع الروايات: أن المراد بالسمره؛ الحمرة التي تخالط البياض، وأن المراد بالبياض المثبت ما تخالطه الحمرة، والمنفي ما لا تخالطه، وهو الذي تكره العرب لونه وتسميه أمهق، وبهذا تبين أن رواية المروزي أمهق ليس بأبيض مقلوبة، على أنه يمكن توجيهها بأن المراد بالأمهق الأخضر اللون الذي ليس بياضه في الغاية، ولا سمرة ولا حمرة، فقد نقل عن رؤبة: أن المهق خضرة الماء، فهذا التوجيه يتم على تقدير ثبوت الرواية، وقد تقدم في حديث أبي جحيفة إطلاق كونه كان أبيض، وكذا في حديث أبي الطفيل عند مسلم والترمذي.

وفي حديث سراقه عند ابن إسحاق فجعلت أنظر إلى ساقه كأنها جمارة، ولأحمد من حديث محرش الكعبي في عمرة الجعرانة قال: فنظرت إلى ظهره كأنه سبيكة فضة. وعن سعيد بن المسيب أنه سمع أبا هريرة يصفه ﷺ فقال: كان شديد البياض أخرجه يعقوب بن سفيان والبخاري بإسناد قوي. ويجمع بينهما بما تقدم.

وقال البيهقي: يقال: إن المشرب منه بحمرة وإلى السمره منه ما ضحى للشمس والريح أي كالوجه والعنق وأما ما تحت الثياب فهو الأزهر الأبيض انتهى.

وهذا ذكره ابن أبي خيثمة عقب حديث عائشة في صفته ﷺ بأبسط من هذا وزاد: ولونه الذي لا يشك فيه الأبيض الأزهر. انتهى والله أعلم^(١).

(١) الكلام بطوله من حديث البخاري إلى هنا في فتح الباري ٦/٥٦٩ - ٥٧٠.

وقد ضعف بعضهم قول من قال: إنما وصف بالسمرة ما كانت الشمس تصيب منه، بأن أنساً لا يخفى عليه أمره حتى يصفه بغير صفته اللازمة له لقربه منه، ولم يكن ﷺ ملازماً للشمس، نعم لو وصفه بذلك بعض القادمين ممن صادفه في وقت غيرته الشمس لأمكن، فالأولى حمل السمرة في رواية أنس على الحمرة التي تخالط البياض كما قدمناه.

تنبيه: في الشفاء حكاية عن أحمد بن سليمان صاحب سحنون: من قال إن النبي ﷺ أسود يقتل. انتهى.

وهذا يقتضي أن مجرد الكذب عليه في صفة من صفاته كفر يوجب القتل. وليس كذلك، بل لا بد من ضميمة ما يشعر بنقص في ذلك. كما في مسألتنا هذه فإن الأسود لون مفضل.

[طيب ريحه وعرقه ودمه]

وأما طيب ريحه وعرقه وفضلاته، فقد كانت الرائحة الطيبة صفته ﷺ وإن لم يمس طيباً.

وروينا عن أنس قال: ما شممت ريحاً قط ولا مسكاً ولا عنبراً أطيب من ريح رسول الله ﷺ. الحديث رواه الإمام أحمد.

وفي البخاري: ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحة النبي ﷺ.

وفي رواية الترمذي: ولا شممت مسكاً قط ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ.

وقوله: شممت: بكسر الميم الأولى وسكون الثانية.

وعن أم عاصم امرأة عتبة بن فرقد السلمي قالت: كنا عند

عتبة أربع نسوة، فما منا امرأة إلا وهي تجتهد في الطيب لتكون أطيب ریحاً منا، وكان إذا خرج إلى الناس قالوا: ما شممنا ریحاً أطيب من ریح عتبة، فقلت له يوماً: إنا لنجتهد في الطيب، ولأنت أطيب ریحاً منا فمم ذلك؟ فقال: أخذني الشرى على عهد رسول الله ﷺ فأتيته فشكوت ذلك إليه، فأمرني أن أتجرد، فتجردت وقعدت بين يديه، وألقيت ثوبي على فرجي، فنفت في يده ثم مسح ظهري وبطني بيده، فعقب بي هذا الطيب من يومئذٍ. رواه الطبراني في معجمه الصغير.

١/١٤٧

وروى أبو يعلى والطبراني قصة الذي استعان به ﷺ / على تجهيز ابنته، فلم يكن عنده شيء، فاستدعاه بقارورة فسلت له فيها من عرقه، وقال: مرها فلتطيب به، فكانت إذا تطيبت به شم أهل المدينة ذلك الطيب فسموا بيت المطيبين^(١).

وقال جابر بن عبد الله: كان في رسول الله ﷺ خصال: لم يكن في طريق فيتبعه أحد إلا عرف أنه سلكه من طيب عرقه وعرفه، ولم يكن يمر بحجر إلا سجد له. رواه الدارمي والبيهقي وأبو نعيم. والله در القائل:

فلو أن ركباً يمموك لقادهم نسيمك حتى يستدل به الركب

وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا مر في طريق من طرق المدينة وجدوا منه رائحة الطيب وقالوا: مر رسول الله ﷺ من هذا الطريق. رواه أبو يعلى والبخاري بإسناد صحيح. وما أحسن قول القائل:

يروح على غير الطريق التي غدا عليها فلا ينهي علاه نهاته

(١) قال الذهبي: حديث منكر.

تنفسه في الوقت أنفاس عطره فمن طيبه طابت له طرقاته
تروح له الأرواح حيث تنسمت لها سحرأ من حيه نسامته

وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهأ
وأنورهم لونأ، لم يصفه واصف قط إلا شبه وجهه بالقمر ليلة البدر.
وكان عرقه في وجهه مثل اللؤلؤ، أطيب من المسك الإذفر. رواه أبو
نعيم.

وعن أنس قال: دخل علينا رسول الله ﷺ فقال (١) عندنا،
فغرق وجاءت أمي بقارورة فجعلت تسلت العرق فيها، فاستيقظ ﷺ
فقال يا أم سليم ما هذا الذي تصنعين؟ قالت: هذا عرقك نجعله
لطيبنا، وهو أطيب الطيب. رواه مسلم.

وفي رواية له: كان ﷺ يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها
وليست فيه. قال فجاء ذات يوم فنام على فراشها فأتيت فقيل لها هذا
النبي نائم في بيتك على فراشك قال: فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه
على قطعة أديم على الفراش، ففتحت عتيدتها فجعلت تنشف ذلك
العرق فتعصره في قواريرها، ففزع ﷺ فقال: ما تصنعين يا أم سليم
فقالت: يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا، قال: أصبت.

والعتيدة: كالصندوق الصغير الذي تترك فيه المرأة ما يعز عليها
من متاعها.

وأما ما روي أن الورد خلق من عرقه ﷺ أو من عرق البراق
فقال شيخنا في الأحاديث المشتهرة: قال النووي: لا يصح. وقال
شيخ الإسلام ابن حجر: إنه موضوع، وسبقه لذلك ابن عساكر، وهو

(١) أي نام وقت القائلة وهي نصف النهار والغالب فيه الحر.

في مسند الفردوس بلفظ: الورد الأبيض خلق من عرقي ليلة المعراج، والورد الأحمر خلق من عرق جبريل، والورد الأصفر خلق من عرق البراق. رواه من طريق مكّي بن بندار الزنجاني. حدثنا الحسن بن علي بن عبد الواحد القرشي، حدثنا هشام بن عمار عن الزهري عن أنس به مرفوعاً ثم قال: قال أبو مسعود حدث به أبو عبد الله الحاكم عن رجل عن مكّي. ومكّي تفرد به انتهى. ورواه أبو الحسين بن فارس اللغوي في «الريحان والراح» له عن مكّي به. ومكّي ممن اتهمه الدارقطني بالوضع، وله طريق أخرى رواه أبو الفرج النهرواني في الخامس والتسعين من «الجلس الصالح» له من طريق محمد بن عنبسة ابن حماد، حدثنا أبي عن جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار عن أنس رفعه: لما عرج بي إلى السماء بكت الأرض من بعدي فنبت للصف من نباتها، فلما أن رجعت قطر من عرقي على الأرض فنبت / ورد أحمر، ألا من أراد أن يشم رائحتي فليشم الورد الأحمر. ثم قال أبو الفرج: للصف: الكبر، وقال: وما أتى به هذا الخبر فهو اليسير من كثير مما أكرم الله به نبيه ودل على فضله ورفيع منزلته. انتهى^(١) وإنما ذكرته ليعلم^(٢).

وعن جابر بن سمرة أنه ﷺ مسح خده، قال: فوجدت ليده برداً وريحاً كأنما أخرجها من جؤنة عطار^(٣). قال غيره: مسها بطيب أو لم يمسه يصفح المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان ريحها^(٤).

(١) أي كلام السخاوي الذي عناه بقوله: قال شيخنا.

(٢) أنه موضوع فيترك ولا يذكر إلا مع بيان أنه موضوع.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أبو نعيم والبيهقي بإسناد ضعيف عن عائشة.

وجؤنة العطار: بضم الجيم وهمزة بعدها، ويجوز تخفيفها واواً:
سلسلة مستديرة مغطاة أدمأ.

وقد ورد مما عزاه القاضي عياض للأخباريين ومن ألف في
الشئائل الكريمة أنه ﷺ كان إذا أراد أن يتغوط انشقت الأرض
وابتلعت بوله وغائطه وفاحت لذلك رائحة طيبة. قال غيره: ولم يطلع
على ما يخرج منه بشر قط.

وأسند محمد بن سعد كاتب الواقدي - كما هو في بعض نسخ
الشفاء، وقالوا إنه ليس من الرواية ولا من حواشي أصل ابن جبير بل
من حواشي غيره - عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ :
إنك تأتي الخلا فلا نرى منك شيئاً من الأذى فقال يا عائشة أو ما
علمت أن الأرض تبتلع ما يخرج من الأنبياء فلا يرى منه شيء
انتهى^(١).

وفي الشفاء^(٢) لابن سبع عن بعض الصحابة قال: صحبتته ﷺ
في سفر فلما أراد قضاء الحاجة تأملته وقد دخل مكاناً فقضى حاجته،
فدخلت الموضع الذي خرج منه فلم ير له أثر غائط ولا بول، ورأيت
في ذلك الموضع ثلاثة أحجار فأخذتهن فوجدت هن رائحة طيبة
وعطراً.

قلت: وقد سئل الحافظ عبد الغني المقدسي: هل روي أنه ﷺ
كان ما يخرج منه تبتلعه الأرض؟ فقال: قد روي ذلك من وجه
غريب، والظاهر يؤيده، فإنه لم يذكر عن أحد من الصحابة أنه رآه

(١) في سنده محمد بن زاذان المدني، متروك.

(٢) كتاب «شفاء الصدور» لابن سبع.

ولا ذكره، وأما البول فقد شاهده غير واحد. وشربته أم أيمن^(١) والله أعلم انتهى.

لكن قال البيهقي: وأما الحديث الذي أخبرنا به أبو الحسين بن بشر أنبأنا إسماعيل بن محمد الصفار حدثنا زيد بن إسماعيل الصائغ حدثنا حسين بن علوان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ إذا دخل الغائط دخلت في أثره فلا أرى شيئاً إلا أني كنت أشم رائحة الطيب، فذكرت ذلك له فقال: يا عائشة أما علمت أن أجسادنا تنبت على أرواح أهل الجنة وما خرج منها ابتلعتة الأرض.

فهذا من موضوعات الحسين بن علوان، لا ينبغي ذكره [إلا لبيان أنه موضوع]^(٢) ففي الأحاديث الصحيحة المشهورة في معجزاته كفاية عن كذب ابن علوان انتهى.

لكن للحديث طرق غير طريق ابن علوان: فعند الدارقطني في الأفراد: حدثنا محمد بن سليمان الباهلي حدثنا محمد بن حسان الأموي، أنبأنا عبدة بن سليمان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: يا رسول الله، إني أراك تدخل الخلاء ثم يأتي الذي بعدك فلا يرى لما يخرج منك أثراً، فقال يا عائشة أما علمت أن الله أمر الأرض أن تبتلع ما يخرج من الأنبياء، ومحمد بن حسان بغدادي ثقة، وعبدة^(٣) من رجال الصحيح. وله طريق أخرى عند ابن سعد، وأخرى عند الحاكم في مستدرکه.

(١) حدث ذلك خطأ وتأتي قصته قريباً [المحقق].

(٢) زيادة في ش.

(٣) سقطت من ط.

وروي^(١) أنه كان يتبرك ببوله ودمه ﷺ .

فروي ابن حبان في «الضعفاء» عن ابن عباس قال: حجم النبي ﷺ غلام لبعض قريش، فلما فرغ من حجامته أخذ الدم فذهب به من وراء / الحائط، فنظر يميناً وشمالاً فلم ير أحداً، فحسا دمه حتى فرغ ثم أقبل فنظر في وجهه فقال: ويحك ما صنعت بالدم؟ قلت غيبته من وراء الحائط، قال أين غيبته؟ قلت: يا رسول الله نفست على دمك أن أهريقه في الأرض فهو في بطني فقال: اذهب فقد أحرزت نفسك من النار.

وفي سنن سعيد^(٢) بن منصور من طريق عمرو بن السائب أنه بلغه أن مالكاً والد أبي سعيد الخدري لما جرح النبي ﷺ مص جرحه حتى أنقاه ولاح أبيض فقيل: مجه، فقال: لا والله لا أجه أبداً، ثم ازدرده فقال النبي ﷺ: من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا فاستشهد.

وأخرج البزار والطبراني والحاكم والبيهقي وأبو نعيم في الجلية، من حديث عامر بن عبدالله بن الزبير عن أبيه قال: احتجم رسول الله ﷺ فأعطاني الدم فقال: اذهب فغيبه فذهبت فشربته فأتيته ﷺ فقال: ما صنعت؟ قلت: غيبته، قال: لعلك شربته. قلت: شربته، وفي رواية قلت: جعلته في أخفى مكان ظننت أنه خاف عن الناس، قال لعلك شربته؟ قلت: شربته، فقال: ويل لك من الناس وويل للناس منك. وفي رواية فقال رسول الله ﷺ فما حملك على ذلك قال: علمت

(١) أتى بصيغة التمرريض نظراً إلى أن في كل فرد منها مقالاً.

(٢) في ش: أبي سعيد.

أن دمك لا تصيبه نار جهنم فشربته لذلك، فقال: ويل لك من الناس.

وعند الدارقطني من حديث أسماء بنت أبي بكر نحوه، وفيه: ولا تمسك النار، وفي كتاب الجوهر المكنون في ذكر القبائل والبطون: أنه لما شرب - أي عبدالله بن الزبير - دمه تضرع فمه مسكاً، وبقيت رائحته موجودة في فمه إلى أن صلب رضي الله عنه.

وأخرج الحسن بن سفيان في مسنده والحاكم والدارقطني والطبراني وأبو نعيم من حديث أبي مالك النخعي عن الأسود بن قيس عن نبيح عن أم أيمن قالت: قام رسول الله ﷺ من الليل إلى فخارة في جانب البيت فبال فيها، فقممت من الليل وأنا عطشانة فشربت ما فيها وأنا لا أشعر، فلما أصبح النبي ﷺ قال: يا أم أيمن قومي فأهريقي ما في تلك الفخارة، فقلت: قد والله شربت ما فيها قالت: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: أما والله لا يبجعن^(١) بطنك أبداً.

وعن ابن جريج قال: أخبرت أن النبي ﷺ كان يبول في قدح من عيدان ثم يوضع تحت سريره فجاء فإذا القدح ليس فيه شيء فقال لامرأة يقال لها بركة كانت تخدم أم حبيبة جاءت معها من أرض الحبشة أين البول الذي في القدح قالت: شربته قال: صحة يا أم يوسف فما مرضت قط حتى كان مرضها الذي ماتت فيه. ورواه أبو داود عن ابن جريج عن حكيمة عن أمها أميمة بنت رقيقة.

(١) بالباء الموحدة وبالجميم كذا قال السيوطي لكنه لا يناسب قول القاموس: بجعه بالجميم قطعه بالسيف لأن ما هنا من الوجد وصرح المجد بأنه يقال: يوجع ويجمع. أي لا يصيب بطنك وجع.

وصحح ابن دحية أنها قصتان وقعتا لامرأتين وقد وضع ابن بركة أم يوسف غير بركة أم أيمن، وهو الذي ذهب إليه شيخ الإسلام البلقيني .

وفي هذه الأحاديث دلالة على طهارة بوله ودمه ﷺ . قال النووي في شرح المذهب: واستدل من قال بطهارتهما بالحديثين المعروفين: أن أبا طيبة الحجام حجه ﷺ وشرب دمه ولم ينكر عليه، وأن امرأة شربت بوله ﷺ فلم ينكر عليها. وحديث أبي طيبة ضعيف، وحديث شرب البول صحيح رواه الدارقطني وقال: هو حديث حسن صحيح^(١)، وذلك كاف في الاحتجاج لكل الفضلات قياساً، ثم إن القاضي حسيناً قال: الأصح القطع بطهارة الجميع انتهى .

وبهذا قال أبو حنيفة، كما قاله العيني .

وأبو طيبة؛ بفتح الطاء المهملة وسكون الياء المثناة تحت وبالموحدة، نافع الحجام مولى محيصة - بضم الميم وفتح المهملة وتشديد المثناة تحت وكسرها - هو أبو مسعود الأنصاري .

وقال شيخ الإسلام ابن حجر قد تكاثرت الأدلة على طهارة ب/١٤٠ فضلته ﷺ وعدّ الأئمة ذلك / في خصائصه . انتهى .

قال بعضهم: وكان السر في ذلك ما روي من صنيع الملكين حين غسلوا جوفه والله أعلم .

(١) قال الدارقطني في علله: إنه مضطرب جاء عن أبي مالك النخعي وهو ضعيف .

[سيرته ﷺ في قضاء حاجته]

وأما سيرته ﷺ في البراز، ففي حديث عائشة عند أبي عوانة في صحيحه والحاكم: ما بال رسول الله ﷺ قائماً منذ أنزل عليه القرآن.

وفي حديث عبد الرحمن بن حسنة عند النسائي وابن ماجه: أنه ﷺ بال جالساً، فقالوا: انظروا إليه يبول كما تبول المرأة.

وحكى ابن ماجه عن بعض مشايخه أنه قال: كان من شأن العرب البول قائماً، ويؤيده ما في حديث عبد الرحمن هذا. وفيه دلالة على أنه كان يخالفهم في ذلك فيقعد لكونه أستر وأبعد عن مماسة البول.

وقال حذيفة: أتى رسول الله ﷺ سباطة قوم فبال قائماً ثم دعا بماء فجثته بماء فتوضأ. رواه البخاري. وفي رواية غيره: بال قائماً ففجع رجله، أي: فرقهما وباعد ما بينهما.

والسباطة: - بضم المهملة وبعدها موحدة - هي المذبة والكناسة تكون بفناء الدور مرفقا لأهلها، وتكون في الغالب سهلة لا يرتد فيها البول على البائل، وإضافتها إلى القوم إضافة اختصاص لا ملك لأنها لا تخلو عن النجاسة. وبهذا يندفع إيراد من استشكله لكون البول يوهي الجدار فيه إضرار، أو نقول: إنما بال فوق السباطة لا في أصل الجدار، وهو صريح في رواية أبي عوانة في صحيحه. وقيل: يحتمل أن يكون علم إذنه في ذلك بالتصريح أو غيره أو لكونه مما يتسامح الناس به، أو لعلمه بإيثارهم إياه بذلك، أو لكونه يجوز له التصرف في مال أمته دون غيره لأنه أولى بالمؤمنين عن أنفسهم وأموالهم، وهذا

وإن كان صحيح المعنى لكن لم يعهد ذلك من سيرته ومكارم أخلاقه
صلى الله عليه وسلم (١).

قال الحافظ ابن حجر: وأما مخالفته ﷺ لما عرف من عاداته من
الإبعاد عند قضاء الحاجة عن الطرق المسلوكة وعن أعين النظار، فقد
قيل فيه إنه ﷺ كان مشغولاً بمصالح المسلمين، ولعله طال عليه
المجلس حتى احتاج إلى البول فلو أبعده لتضرر، واستدنى حذيفة ليستره
من خلفه عن رؤية من لعله يراه، أو لعله فعله لبيان الجواز. ثم هو
في البول أخف من الغائط لاحتياجه إلى زيادة تكشف، والغرض من
الإبعاد التستر وهو يحصل بإرخاء الذيل والدنو من الساتر.

وروى الطبراني من حديث عصمة بن مالك قال: خرج علينا
رسول الله ﷺ في بعض سكك المدينة فانتهى إلى سباطة قوم فقال: يا
حذيفة استرني فذكر الحديث. وظهر منه الحكمة في إدنائه حذيفة في
تلك الحالة (٢).

وقيل: إنما بال قائماً لأنها [حالة] (٣) يؤمن معها خروج الريح
بصوت، ففعل ذلك لكونه قريباً من الديار، ويؤيده ما رواه عبد
الرزاق عن عمر رضي الله عنه قال: البول قائماً أحسن للدبر.

وقيل السبب في ذلك ما روي عن الشافعي وأحمد: أن العرب
كانت تستشفي لوجع الصلب بذلك فلعله كان به. وروى الحاكم
والبيهقي من حديث أبي هريرة قال: إنما بال ﷺ قائماً لجرح كان
بأبضه.

(١) نقلاً عن فتح الباري ١/٣٢٨.

(٢) عن فتح الباري ١/٣٢٩.

(٣) في (ش، د) وهي كذلك في فتح الباري.

والمأبض: بهمزة ساكنة بعدها موحدة ثم معجمة: باطن الركبة.

فكانه لم يتمكن لأجله من القعود، ولو صح هذا الحديث لكان فيه غنى عن جميع ما تقدم ولكن ضعفه الدارقطني والبيهقي.
والأظهر: أنه فعل ذلك لبيان الجواز، وكان أكثر أحواله البول من قعود^(١).

وقيل إن البول عن قيام منسوخ واستدل عليه بحديث عائشة المتقدم. والصواب: أنه غير منسوخ، والجواب/ عن حديث عائشة أنه ١/١٤٩ مستند إلى علمها فيحمل على ما وقع منه في البيوت، وأما غير البيوت فلم تطلع عليه، وقد حفظه حذيفة، وهو من كبار الصحابة، وهو جائز من غير كراهة إذا أمن الرشاش^(٢).

وكان ﷺ إذا أراد أن يدخل الخلاء قال: اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث. رواه البخاري من حديث أنس.

والخبث: - بضم المعجمة والموحدة - ومراده: ذكران الشياطين وإنائهم.

وقد كان ﷺ يستعيز إظهاراً للعبودية، ويجهر بذلك للتعليم. وهل يختص هذا الذكر بالأبنية المعدة لذلك لكونه حضرة الشياطين، أو يعم؟ الأصح الثاني.

ويقول ذلك قبيل الدخول في الأمكنة، وأما في غيرها فيقول في أول الشروع كتشمير ثيابه مثلاً، وهذا مذهب الجمهور، فلو نسي يستعيز بقلبه لا بلسانه.

(١) عن فتح الباري ١/٣٣٠.

(٢) عن فتح الباري باختصار ١/٣٣٠.

وعن أنس: كان ﷺ إذا أراد الحاجة لم يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض. رواه الترمذي وأبو داود والدارمي.

وعن عائشة قالت: كان ﷺ إذا خرج من الخلاء قال: غفرانك، رواه الترمذي وابن ماجه.

وعن أنس: كان ﷺ إذا خرج من الخلاء قال: الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني. رواه ابن ماجه^(١).

وقال ﷺ: إذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يولها ظهره، شرقوا أو غربوا، رواه البخاري من حديث أبي أيوب الأنصاري.

وهذا في الصحراء، أما في البنيان فلا، لما روي عن ابن عمر: ارتقيت فوق بيت حفصة لبعض حاجتي، فرأيت رسول الله ﷺ يقضي حاجته مستدبر القبلة مستقبل الشام. رواه الشيخان.

وأما حديث جابر: عند أبي داود وابن خزيمة، ولفظه عند أحمد: كان رسول الله ﷺ ينهانا أن نستدبر القبلة أو نستقبلها بفروجنا إذا أهرقنا الماء. قال: ثم رأيت قبل موته بعام مستقبل القبلة. فقال في فتح الباري:

الحق أنه ليس بناسخ لحديث النهي خلافاً لمن زعمه، بل هو محمول على أنه رآه في بناء أو نحوه، لأن ذلك هو المعهود من حاله ﷺ لمبالغته في التستر. ودعوى خصوصية ذلك بالنبي ﷺ لا دليل عليها، إذ الخصائص لا تثبت بالاحتمال.

(١) قوله: رواه ابن ماجه، سقط من ش.

ومذهب الجمهور وهو مذهب مالك والشافعي وإسحاق:
التفريق بين البنيان والصحراء، وهذا أعدل الأقوال لإعماله جميع
الأدلة.

وقال قوم بالتحريم مطلقاً، وهو المشهور عن أبي حنيفة وأحمد،
ورجحهم من المالكية ابن العربي وحثهم: أن النهي مقدم على
الإباحة، ولم يصححوا حديث جابر المتقدم.

وقال قوم بالجواز مطلقاً، وهو قول عائشة وعروة وربيعه،
محتجين بأن الأحاديث تعارضت فلنرجع إلى أصل الإباحة^(١).

وفي البخاري عن أنس كان ﷺ إذا خرج لحاجته أجيء أنا
وغلام، معنا إداوة من ماء، يعني ليستنجي به. وفي رواية مسلم عنه:
فخرج علينا وقد استنجى بالماء.

وعن أبي هريرة قال: اتبعت النبي ﷺ وخرج لحاجته فقال ابغني
أحجاراً أستنفض^(٢) بها ولا تأتني بعظم ولا روث، فأتيته بأحجار
بطرف ثيابي فوضعتها إلى جنبه فلما قضى حاجته أتبعه بهن^(٣).

وعن عبدالله بن مسعود قال: أتى النبي ﷺ الغائط فأمرني أن
آتيه بثلاثة أحجار، فوجدت حجرين والتمست الثالث فلم أجده
فأخذت روثة فأتيته بها، فأخذ الحجرين وألقى الروثة. رواه البخاري.

وفي حديث سلمان/ عند مسلم مرفوعاً: لا يستنج أحدكم بأقل ١٤٩/ب
من ثلاثة أحجار.

(١) عن فتح الباري ١/٢٤٥ - ٢٤٦.

(٢) من النفض، وهو أن يهز الشيء ليطير غباره.

(٣) رواه البخاري.

وقد أخذ الشافعي وأحمد وأصحاب الحديث بهذا، فاشتروا أن لا ينقص عن الثلاثة مع مراعاة الإنقاء إذا لم يحصل بها فتزاد حتى ينقى . ويستحب حينئذ الإيتار، لقوله ﷺ من استجمر فليوتر . وليس بواجب لزيادة في أبي داود حسنة الإسناد، قال: ومن لا، فلا حرج، قال الخطابي: لو كان القصد الإنقاء فقط لخلا اشتراط العدد عن الفائدة، فلما اشترط العدد لفظاً وعلم الإنقاء فيه معنى دل على إيجاب الأمرين. ونظيره: العدة بالأقراء، فإن العدد مشروط ولو تحققت براءة الرحم بقرء واحد. وقال الطحاوي: لو كان العدد مشروطاً لطلب عليه السلام حجراً ثالثاً. وغفل - رحمه الله - عما أخرجه أحمد في مسنده من طريق معمر عن ابن مسعود في هذا الحديث، فإن فيه: فألقى الروثة وقال: إنها ركس، اثنتي بحجر، ورجاله ثقات أثبات. واستدلال الطحاوي فيه نظر، لاحتمال أن يكون اكتفى بطرف أحدهما عن الثالث، لأن المقصود بالثلاثة: أن يمسح بها ثلاث مسحات، وذلك حاصل ولو بواحد. انتهى ملخصاً من فتح الباري^(١).

(١) عن فتح الباري ابتداء من قوله: وفي حديث سلمان ٢٥٧/١ [المحقق].

الفصل الثاني

فيما أكرمه الله تعالى به من الأخلاق الزكية
وشرفه به من الأوصاف المرضية

[الخلق في اللغة]

اعلم أن الأخلاق جمع خلق . بضم الخاء واللام ويجوز إسكانها .
قال الراغب : الخلق - بالفتح وبالضم - في الأصل بمعنى واحد ،
كالشرب والشرب لكن خص الخلق الذي بالفتح بالهيات والصور
المدركة بالبصر ، وخص الخلق الذي بالضم بالقوى والسجايا المدركة
بالبصيرة . انتهى .

[الأخلاق غريزة أم اكتساب]

وقد اختلف : هل حسن الخلق غريزة أو مكتسب؟
وتمسك من قال بأنه غريزة بحديث ابن مسعود : إن الله قسم
بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم . الحديث رواه البخاري^(١) .
وقد قال القرطبي : الخلق جبلة في نوع الإنسان . وهم في ذلك
متفاوتون ، فمن غلب عليه شيء منها كان محموداً وإلا فهو المأمور
(١) في الأدب المفرد وليس في الصحيح كما يوهمه إطلاق المصنف .

بالمجاهدة فيه حتى يصير محموداً، وكذا إن كان ضعيفاً فيرتاض حتى يقوى.

وقد وقع في حديث الأشج أنه ﷺ قال له: إن فيك لخصلتين يجبهما الله: الحلم والأناة، قال: يا رسول الله قديماً كانا أو حديثاً؟ قال: قديماً، قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يجبهما الله. رواه أحمد والنسائي وصححه ابن حبان^(١).

فترديد السؤال وتقريره عليه يشعر بأن في الخلق ما هو جبلي وما هو مكتسب. وقد كان ﷺ يقول: اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي. أخرجه أحمد وصححه ابن حبان، وعند مسلم في حديث دعاء الافتتاح: واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت.

[الخلق العظيم]

ولما اجتمع فيه ﷺ من خصال الكمال ما لا يحيط به حد، ولا يحصره عد، أثنى الله تعالى عليه في كتابه الكريم فقال: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾^(٢)، وكلمة «على» للاستعلاء فدل اللفظ على أنه مستعل على هذه الأخلاق ومستول عليها.

والخلق ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة، وقد وصف الله تعالى نبيه ﷺ بما يرجع إلى قوته العلمية بأنه عظيم فقال تعالى: ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾^(٣) ووصف ما يرجع إلى قوته العملية بأنه عظيم، فقال تعالى:

(١) وكذا رواه مسلم.

(٢) سورة القلم، الآية ٤.

(٣) سورة النساء، الآية ١١٣.

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾. فدل مجموع هاتين الآيتين على أن روحه
فيما بين الأرواح البشرية عظيمة عالية/ الدرجة، كأنها لقوتها وشدة
كها كانت من جنس أرواح الملائكة.

قال الحليمي: وإنما وصف خلقه بالعظم، مع أن الغالب وصف
الخلق بالكرم لأن كرم الخلق يراد به الساحة والدماثة، ولم يكن خلقه
ﷺ مقصوراً على ذلك، بل كان رحيماً بالمؤمنين، رفيقاً بهم، شديداً
على الكفار، غليظاً عليهم، مهيباً في صدور الأعداء، منصوراً بالرعب
منهم على مسيرة شهر، فكان وصف خلقه بالعظيم أولى ليشمل الإنعام
والانتقام.

وقال الجنيد^(١): وإنما كان خلقه ﷺ عظيماً لأنه لم يكن له همة
سوى الله تعالى.

وقيل: لأنه ﷺ عاشر الخلق بخلقه، وباينهم بقلبه.

وقيل: لاجتماع مكارم الأخلاق فيه، قال ﷺ - فيما رواه الطبراني
في الأوسط بسند فيه عمر بن إبراهيم المقدسي وهو ضعيف - عن
جابر: إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال، وفي
رواية مالك في الموطأ بلاغاً: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

فجميع الأخلاق الحميدة كلها كانت فيه ﷺ، فإنه أدب
بالقرآن، كما قالت عائشة رضي الله عنها: (كان خلقه القرآن)^(٢).

(١) أبو القاسم بن محمد النهاوندي الأصل، البغدادي المنشأ. تفقه على أبي ثور
وكان يفتي بحضرته رزق القبول وصواب القول، وكان الناس يحضرون
مجلسه، الكتابة تحضر لألفاظه، والفقهاء لتقريره، والفلاسفة لدقة نظره
والتكلمون لتحقيقه والصوفية لإشاراته. مات ببغداد سنة تسع أو ثمان
وتسعين ومائتين.

(٢) رواه مسلم وغيره.

قال بعض العارفين: وقد علم أن القرآن فيه المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به، أي أقرناه في نصابه، وأقرنا به من خلف حجاب، وتقلدنا سيف الحجّة به ولكن في قرابه.

وما كونه مما تحصل مقلة ولا حده مما تحس الأنامل

وقال صاحب عوارف المعارف^(١): ولا يبعد أن قول عائشة رضي الله عنها: (كان خلقه القرآن) فيه رمز غامض، وإيماء خفي إلى الأخلاق الربانية، فاحتشمت الحضرة الإلهية أن تقول: كان متخلقاً بأخلاق الله تعالى فعبرت عن المعنى بقولها: (كان خلقه القرآن) استحياء من سبحات الجلال وستراً للحال بلطف المقال، وهذا من وقور عقلها وكمال أدبها. انتهى.

فكما أن معاني القرآن لا تتناهى فكذلك أوصافه الجميلة الدالة على خلقه العظيم لا تتناهى إذ في كل حالة من أحواله يتجدد له من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وما يفيضه الله تعالى عليه من معارفه وعلومه ما لا يعلمه إلا الله تعالى. فإذاً التعرض لحصر جزئيات أخلاقه الحميدة تعرض لما ليس من مقدور الإنسان، ولا من إمكانات عاداته.

قال الحرالي - وهو كما في القاموس: بتشديد اللام، نسبة إلى قبيلة بالبربر، واسمه: علي بن أحمد بن الحسين، ذو التصانيف المشهورة -: ولما كان عرفان قلبه ﷺ بربه عز وجل كما قال عليه السلام: بربي عرفت كل شيء، كانت أخلاقه أعظم خلق، فلذلك

(١) هو العلامة السهروردي.

بعثه إلى الناس كلهم، ولم يقصر رسالته على الإنس حتى عمّت الجن، ولم يقصرها على الثقلين حتى عمّت جميع العالمين. فكل من كان الله ربه فمحمد رسوله، وكما أن الربوبية تعم العالمين فالخلق المحمدي يشمل جميع العالمين. انتهى.

وهذا مصير منه إلى أنه ﷺ قد أرسل إلى الملائكة أيضاً، وسيأتي الكلام في ذلك مستوفى إن شاء الله تعالى وهو المستعان.

وقد كان ﷺ مجبولاً على الأخلاق الكريمة في أصل خلقته الزكية النقية، لم يحصل له ذلك بريضة نفس، بل بجود إلهي، ولهذا لم تزل تشرق أنوار المعارف في قلبه حتى وصل إلى الغاية العليا والمقام الأسنى.

[العقل أصل الفضائل]

وأصل هذه الخصال الحميدة، والمواهب المجيدة، كمال العقل، لأن به تقتبس الفضائل وتجتنب الرذائل، فالعقل لسان الروح وترجمان البصيرة، والبصيرة للروح بمثابة القلب، والعقل بمثابة اللسان. قال/ ١٥٠ ب بعضهم؛ لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر.

وأما ما روي: أن الله لما خلق العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أشرف منك، فبك آخذ وبك أعطي. فقال ابن تيمية وتبعه غيره: إنه كذب موضوع باتفاق. انتهى.

وفي زوائد عبد الله بن الإمام أحمد على «الزهد» لأبيه عن علي بن

مسلم عن سيار بن حاتم - وهو ممن ضعفه غير واحد وكان جماعاً للرفائق، وقال القواريري: إنه لم يكن له عقل - قال: حدثنا جعفر بن سليمان الضبعي، حدثنا مالك بن دينار عن الحسن البصري، مرسلًا: لما خلق الله العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: ما خلقت خلقاً أحب إلي منك، بك آخذ وبك أعطي.

وأخرجه داود بن المحبر في كتاب العقل له، وابن المحبر كذاب.

قال الحافظ أبو الفضل بن حجر: والوارد في أول ما خلق الله، حديث أول ما خلق الله القلم، وهو أثبت من حديث العقل.

ولأبي الشيخ عن قرّة بن إياس المزني رفعه: الناس يعملون الخير وإنما يعطون أجورهم على قدر عقولهم.

وقد اختلف في ماهية العقل اختلافاً طويلاً يطول استقصاؤه. وفي القاموس ومن خط مؤلفه نقلت: العقل العلم، أو بصفات الأشياء من حسنها وقبحها وكماها ونقصانها، أو العلم بخير الخيرين وشر الشرين، أو يطلق لأمر لقوة بها يكون التمييز بين القبيح والحسن، ولمعان مجتمعة في الذهن تكون بمقدمات يُستثبت بها الأغراض والمصالح، وهيئة محمودة للإنسان في حركاته وكلماته، والحق أنه روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية، وابتداء وجوده عند اجتنان الولد، ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ. انتهى.

[كمال عقله ﷺ]

وقد كان ﷺ من كمال العقل في الغاية القصوى التي لم يبلغها بشر سواه، ولهذا كانت معارفه عظيمة وخصائصه جسيمة، حارت

العقول في بعض فيض ما أفاضه من غيبه لديه، وكُتت الأفكار في معرفة بعض ما أطلعه الله عليه، وكيف لا يعطى ذلك وقد امتلأ قلبه وباطنه وفاض على جسده المكرم ما وهبه من أسرار إلهيته ومعرفة ربوبيته وتحقق عبوديته.

قال وهب بن منبه: قرأت في أحد وسبعين كتاباً، فوجدت في جميعها أن الله تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل في جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل^(١) بين رمل من جميع رمال الدنيا، وإن محمداً ﷺ أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً. رواه أبو نعيم في الحلية وابن عساكر.

وعن بعضهم مما هو في عوارف المعارف: اللب والعقل مائة جزء، تسعة وتسعون في النبي ﷺ وجزء في سائر المؤمنين، ومن تأمل حسن تديره للعرب الذين هم كالوحش الشارد، والطبع المتنافر والمتباعد، وكيف ساسهم واحتمل جفاههم وصبر على أذاهم إلى أن انقادوا إليه، واجتمعوا عليه، وقاتلوا دونه أهلهم وآباءهم وأبناءهم، واختاروه على أنفسهم، وهجروا في رضاه أوطانهم وأحباءهم، من غير ممارسة سبقت له، ولا مطالعة كتب يتعلم منها سير الماضين، تحقق أنه أعقل العالمين، ولما كان عقله ﷺ أوسع العقول لا جرم اتسعت أخلاق نفسه الكريمة اتساعاً لا يضيق عن شيء.

[الحلم والعفو والصبر]

فمن ذلك: اتساع خلقه العظيم في الحلم والعفو مع القدرة وصبره ﷺ على ما يكره، وحسبك صبره وعفوه عليه السلام عن

(١) في (ط، ب، د): رملة.

١/١٥١ الكافرين به المقاتلين المحاربين له في أشد ما نالوه/ به من الجراح بحيث كسرت رباعيته، وشج وجهه يوم أحد، حتى صار الدم يسيل على وجهه الشريف، حتى شق ذلك على أصحابه شديداً، وقالوا: لو دعوت عليهم، فقال: إني لم أبعث لعاناً، ولكني بعثت داعياً ورحمة، اللهم اغفر لقومي، أو اهد قومي فإنهم لا يعلمون.

قال ابن حبان: أي اغفر لهم ذنبهم في شج وجهي لا أنه أراد الدعاء لهم بالمغفرة مطلقاً، إذ لو كان كذلك لأجيب، ولو أجيب لأسلموا كلهم. كذا قال رحمه الله.

وقد روي عن عمر أنه قال في بعض كلامه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد دعا نوح على قومه فقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين﴾ الآية^(١) ولو دعوت علينا مثلها^(٢) لهلكنا من عند آخرنا، فلقد وطئ ظهرك وأدمي وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيراً فقلت: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون^(٣).

وها هنا دقيقة؛ وهي أنه ﷺ لما شج وجهه عفا وقال: اللهم اهد قومي، وحين شغلوه عن الصلاة يوم الخندق قال: اللهم املاً بطونهم ناراً^(٤) فتحمل الشجة الحاصلة في وجهه جسده الشريف، وما تحمل الشجة الحاصلة في وجه دينه، فإن وجه الدين هو الصلاة، فرجح حق خالقه على حقه.

(١) سورة نوح، الآية ٢٦.

(٢) في ط: مثله.

(٣) مما ساقه في الشفاء. وقال السيوطي: لا نعرف عن عمر في شيء من كتب الحديث.

(٤) لفظ الصحيحين: ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس.

واعلم أن الصبر على الأذى جهاد النفس، وقد جبل الله تعالى النفس على التألم بما يفعل بها، ولهذا شق عليه ﷺ نسبتهم له إلى الجور في القسمة، لكنه عليه السلام حلم على القائل وصبر، لما علم من جزيل ثواب الصابر وأن الله يأجره بغير حساب.

وصبره ﷺ على الأذى إنما هو فيما كان من حق نفسه، وأما إذا كان لله فإنه يمثل فيه أمر الله تعالى من الشدة كما قال له تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم﴾^(١) وقد وقع له ﷺ أنه غضب لأسباب مختلفة مرجعها إلى أن ذلك كان في أمر الله، وأظهر الغضب فيها ليكون أوكد في الزجر. فصبره وعفوه إنما كان فيما يتعلق بنفسه الشريفة ﷺ.

وقد روى الطبراني وابن حبان والحاكم والبيهقي عن زيد بن سعنه - بالمهملة والنون المفتوحين، كما قيده به عبد الغني وذكره الدارقطني: وبالمثناة التحتية، ثبت في الشفاء وصحح عليه مؤلفه بخطه، وهو الذي ذكره ابن إسحاق، وهو كما قاله النووي: أجل أخبار اليهود الذين أسلموا - أنه قال:

لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه محمد حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حليماً. فكنت أتلف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله، فابتعت منه تماًراً إلى أجل فأعطيته الثمن، فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ ثم قلت: ألا تقضيي يا محمد حقي، فوالله إنكم يا بني عبد المطلب مطل، فقال عمر: أي عدو الله، أتقول لرسول الله

(١) سورة التوبة، الآية ٧٣.

ﷺ ما أسمع فوالله لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك،
ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم ثم قال: أنا وهو
كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره
بحسن التباعة، إذهب به يا عمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعاً
مكان ما رعته، ففعل، فقلت يا عمر، كل علامات النبوة قد عرفتها
في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما: يسبق
حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل [عليه] (١) إلا حلماً، فقد
اختبرتهما، فأشهدك أني قد رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد
نبياً.

و عن أبي هريرة قال حدثنا رسول الله ﷺ يوماً ثم قام، فقمنا
ب/١٥١ حين قام فنظرنا إلى أعرابي قد أدركه فجبذه بردائه / فحمر رقبته، وكان
رداء خشناً، فالتفت إليه فقال له الأعرابي: احلني على بعيري هذين،
فإنك لا تحملني من مالك ولا من مال أهلك، فقال له ﷺ: لا،
وأستغفر الله، لا وأستغفر الله، لا وأستغفر الله، لا أحملك حتى تقيدني
من جبذتك التي جبذتني، فكل ذلك يقول له الأعرابي: والله لا
أقيدكها، فذكر الحديث، قال: ثم دعا رجلاً فقال له: احمل له على
بعيره هذين على بعير تمراً وعلى الآخر شعيراً. رواه أبو داود.

ورواه البخاري من حديث أنس بلفظ: كنت أمشي مع النبي
ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذة
شديدة، قال أنس: فنظرت إلى صفحة عاتقه وقد أثرت فيه حاشية
البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي
عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعتاء.

(١) زيادة في ش.

وفي هذا بيان حلمه ﷺ وصبره على الأذى في النفس والمال،
والتجاوز عن جفاء من يريد تألفه على الإسلام.

وعن عائشة لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا يجزي
بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح. رواه الترمذي، أي لم يكن له
الفحش خلقاً ولا مكتسباً.

وروى البخاري من حديث ابن عمر: ولم يكن ﷺ فاحشاً ولا
متفاحشاً، وفي روايته أيضاً من حديث أنس بن مالك: لم يكن النبي
ﷺ سباباً ولا فاحشاً ولا لعاناً.

والفحش: كل ما خرج عن مقداره حتى يستقبح، ويدخل في
القول والفعل والصفة، لكن استعماله في القول أكثر. والمتفحش:
بالتشديد، الذي يتعمد ذلك ويكثر منه ويتكلفه.

وعن عائشة أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ، فلما رآه قال:
بئس أخو العشيرة، أو بئس ابن العشيرة، فلما جلس تطلق النبي ﷺ
في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول
الله، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه
وانبسطت إليه. فقال ﷺ: يا عائشة، متى عهدتيني فاحشاً، إن شر
الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره، رواه
البخاري.

قال ابن بطال: هذا الرجل هو عيينة بن حصن بن حذيفة بن
بدر الفزاري، وكان يقال له الأحمق المطاع. وكذا فسره به القاضي
عياض القرطبي والنووي.

وأخرج عبد الغني من طريق أبي عامر الخزاعي^(١)، عن عائشة قالت: جاء مخزومة بن نوفل يستأذن، فلما سمع النبي ﷺ صوته قال: بئس أخو العشيرة. الحديث.

والمراد بالعشيرة: الجماعة أو القبيلة، وإنما تطلق ﷺ في وجهه تالفاً له ليسلم قومه، لأنه كان رئيسهم.

وقد جمع هذا الحديث كما قال الخطابي علماً وأدباً، وليس قوله ﷺ في أمته بالأمر التي يسمهم بها ويضيفها إليهم من المكروه غيبة، وإنما يكون ذلك من بعضهم في بعض، بل الواجب عليه ﷺ أن يبين ذلك ويفصح به، ويعرف الناس أمرهم فإن ذلك من باب النصيحة والشفقة على الأمة. ولكنه لما جبل عليه من الكرم وأعطيه من حسن الخلق أظهر له البشاشة ولم يجبهه^(٢) بالمكروه، لتقتدي به أمته في اتقاء شر من هذا سبيله وفي مداراته ليسلموا من شره وغائلته.

وقال القرطبي: فيه جواز غيبة المعلن بالفسق أو الفحش ونحو ذلك مع جواز مداراتهم اتقاء شرهم ما لم يؤدي ذلك إلى المداهنة في دين الله.

ثم قال تبعاً للقاضي حسين: والفرق بين المداراة والمداهنة، / أن المداراة بذل الدنيا لصالح الدنيا أو الدين أو هما معاً وهي مباحة وربما استحسنت، والمداهنة بذل الدين لصالح الدنيا، والنبي ﷺ إنما بذل له من دنياه حسن عشرته والرفق في مكالمته، ومع ذلك فلم يمدحه بقول،

(١) قال الشارح: كذا في النسخ وصوابه: الخزاز قال في التقريب: صالح بن رستم المزني مولاهم أبو عامر الخزاز.
(٢) كذا في (ش، ب) وفي النسخ: يجبه.

فلم يناقض قوله فيه فعله، فإن قوله فيه قول حق، وفعله معه حسن عشرة، فيزول مع هذا التقدير^(١) الإشكال والله الحمد.

وقال القاضي عياض: لم يكن عيينة - والله أعلم - حينئذ أسلم، فلم يكن القول فيه غيبة، أو كان أسلم ولم يكن إسلامه ناصحاً، فأراد النبي ﷺ أن يبين ذلك لثلاث يغتر به من لم يعرف باطنه، وقد كانت منه في حياة النبي ﷺ وبعده أمور تدل على ضعف إيمانه، فيكون ما وصفه به ﷺ من علامات النبوة، وأما إلانة القول بعد أن دخل فعلى سبيل الائتلاف. وفي فتح الباري: أن عيينة ارتد في زمن الصديق وحارب ثم رجع وأسلم وحضر بعض الفتوح في عهد عمر. انتهى.

[ما انتقم لنفسه ﷺ]

وما انتقم ﷺ لنفسه. رواه البخاري.

فإن قلت: قد صح أنه ﷺ أمر بقتل عقبة بن أبي معيط وعبدالله بن خطل وغيرهما ممن كان يؤذيه ﷺ وهذا ينافي قوله: وما انتقم لنفسه.

فالجواب: أنهم كانوا مع ذلك ينتهكون حرمة الله.

وقيل: أراد أنه لا ينتقم إذا أؤذي في غير السبب الذي يخرج إلى الكفر، كما عفا عن الأعرابي الذي جفا في رفع صوته عليه، وعن الآخر الذي جبد بردائه حتى أثر في كتفه.

وحمل الداودي عدم الانتقام على ما يختص بالمال، وأما العرض فقد اقتصر ممن نال منه.

(١) في ش: التقرير.

وقد أخرج الحاكم هذا الحديث من طريق معمر عن الزهري مطولاً، وأوله: ما لعن رسول الله ﷺ مسلماً بذكر- أي بصريح اسمه- وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يضرب في سبيل الله، ولا سئل شيئاً قط فمنعه إلا أن يسأل مأثماً، ولا انتقم لنفسه من شيء إلا أن تنتهك حرمة الله فيكون الله ينتقم. الحديث.

[من حلمه ﷺ]

ومما روي من اتساع خلقه وحلمه ﷺ، اتساع خلقه للطائفة المنافقين، الذين كانوا يؤذونه إذا غاب ويتملقون له إذا حضر، وذلك مما تنفر منه النفوس البشرية حتى تؤيدها العناية الربانية.

وكان ﷺ كلما أذن له في التشديد عليهم فتح لهم ﷺ باباً من الرحمة، فكان يستغفر لهم ويدعو لهم، حتى أنزل الله عليه ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾^(١) فقال ﷺ: خيرني ربي فاخترت أن أستغفر لهم، ولما قال تعالى: ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾^(٢) فقال ﷺ: لأزيدن على السبعين.

وأمر ولد الذي تولى كبر النفاق والأذى منهم ببر أبيه^(٣)، ولما مات كفنه في ثوبه خلعه عن بدنه وصلى عليه، هذا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يجذبه بثوبه ويقول: يا رسول الله أتصلى على رأس المنافقين؟ فترثوبه من عمر وقال: إليك عني يا عمر. فخالف مؤمناً

(١) سورة التوبة، الآية (٨٠).

(٢) سورة التوبة، الآية (٨٠).

(٣) كبير المنافقين هو: عبدالله بن أبي بن سلول. وابنه عبدالله بن عبدالله بن أبي.

ولياً في حق منافق عدو، وكل ذلك رحمة منه لأمته، أشار إليه
الحرالي^(١).

وقال النووي: قيل إنما أعطاه قميصه وكفنه فيه تطيباً لقلب
ابنه، فإنه كان صحابياً صالحاً. وقد سأل ذلك فأجابه إليه، وقيل
مكافأة لعبدالله المنافق الميت، لأنه كان ألبس العباس حين أسر يوم
بدر قميصاً.

وفي ذلك كله بيان عظيم مكارم أخلاق النبي ﷺ، فقد علم ما
كان من هذا المنافق من الإيذاء، وقابله بالحسنى فألبسه قميصه/ كفنأ ١٥٢/ب
وصلى عليه واستغفر له، قال الله تعالى: ﴿وإنك لعلی خلق
عظیم﴾^(٢).

ومن ذلك أنه ﷺ لم يؤاخذ لبيد بن الأعصم إذ سحره.

وعفا عن اليهودية التي سمته في الشاة على الصحيح^(٣) من
الرواية. والله تعالى يرحم القائل:

وما الفضل إلا خاتم أنت فسه وعفوك نقش الفص فاختم به عذري

[شفقته ﷺ على المذنبين]

ومن ذلك إشفاقه ﷺ على أهل الكبائر من أمته، وأمره إياهم
بالستر، فقال: من بلي بهذه القاذورات - يعني المحرمات - فليستر^(٤).

(١) في ش: الحراني وقال: بالفتح والتشديد؛ نسبة إلى حران.

(٢) سورة القلم، الآية ٤.

(٣) قاله القاضي عياض: أي في حق نفسه. فلا ينافي أنه قتلها بعد ذلك لما

مات بشر بن البراء قصاباً.

(٤) أخرجه الحاكم والبيهقي.

وأمر أمته أن يستغفروا للمحدود ويترحموا عليه لما حنقوا عليه فسبوه ولعنوه، فقال: قولوا اللهم اغفر له، اللهم ارحمه.

وقال لهم في رجل كان كثيراً ما يؤتى به سكران بعد تحريم الخمر، فلعنوه مرة فقال: لا تلعنوه فإنه يجب الله ورسوله^(١). فأظهر لهم مكتوم قلبه لما رفضوه بظاهر فعله، وإنما ينظر الله إلى القلوب، طهر الله قلوبنا وغفر عظيم ذنوبنا.

ومن ذلك ما رواه الدارقطني من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه كان يصغي إلى الهرة الإناء حتى تشرب ثم يتوضأ بفضلها.

[تواضعه ﷺ وحسن عشرته]

ومن ذلك اتساع خلقه في شريف تواضعه وآدابه وحسن عشرته مع أهله وخدمه وأصحابه.

وقال بعضهم: اعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه، فعند ذلك تذوب النفس، وفي ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب، فتلين وتنطبع للحق والخلق بمحو آثارها وسكون وهجها وغبارها.

وكان الحظ الأوفر من التواضع لنبينا ﷺ في أوطان القرب، وحسبك من تواضعه ﷺ أن خيره ربه تعالى بين أن يكون نبياً ملكاً، أو نبياً عبداً، فاختر أن يكون نبياً عبداً^(٢)، فأعطاه الله تعالى بتواضعه أن جعله أول من تنشق عنه الأرض وأول شافع، وأول مشفع، فلم

(١) رواه البخاري.

(٢) في (أ، ط) فاختر الثاني.

يأكل متكئاً بعد ذلك حتى فارق الدنيا. وقد قال ﷺ : لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدالله، فقولوا: عبدالله ورسوله، رواه الترمذي^(١).

ومن تواضعه ﷺ أنه لا ينهر خادماً، روينا في كتاب الترمذي^(٢) عن أنس قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي أف قط ولا قال لشيء صنعته: لم صنعته؟ ولا لشيء تركته لم تركته؟ وكذلك كان ﷺ مع عبيده وإمائه، ما ضرب منهم أحداً قط، وهذا أمر لا تتسع له الطباع البشرية لولا التأييدات الربانية.

وفي رواية مسلم: ما رأيت أحداً أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقالت عائشة: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله. رواه مسلم.

وسئلت عائشة: كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيته؟ قالت: ألين الناس، بساماً ضحاكاً، لم ير قط ماداً رجله بين أصحابه^(٣).

وعنها: ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ ما دعاه أحد من أصحابه إلا قال لبيك^(٤).

(١) ورواه البخاري من حديث عمر.

(٢) وهو في الصحيحين.

(٣) رواه ابن سعد وغيره.

(٤) قال السيوطي في تخريج أحاديث الشفاء: رواه أبو نعيم في الدلائل.

وعند أحمد وابن سعد وصححه ابن حبان عنها: كان ﷺ يجيئ ثوبه ويخصف نعله، وفي رواية لأحمد: ويرقع دلوه، وعنده أيضاً: يفلي ثوبه، ويحلب شاته ويخدم نفسه.

وهذا يتعين حمله على أوقات فإنه ثبت أنه كان له خدم، فتارة يكون بنفسه وتارة بغيره، وتارة بالمشاركة.

وكان يركب الحمار، ويردف خلفه، وركب يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف رواه الترمذي.

1/153 وعن قيس بن سعد قال: زارنا/ رسول الله ﷺ فلما أراد الانصراف قرب له سعد حماراً وطأ عليه بقטיפه، وركب ﷺ ثم قال سعد: يا قيس، اصحب رسول الله ﷺ، قال قيس: فقال لي رسول الله ﷺ اركب، فأبيت، فقال: إما أن تركب وإما أن تنصرف. وفي رواية أخرى: اركب أمامي فصاحب الدابة أولى بمقدمها، رواه أبو داود وغيره.

وفي البخاري من حديث أنس بن مالك: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من خيبر، وإني لرديف أبي طلحة وهو يسير، وبعض نساء رسول الله ﷺ رديف رسول الله ﷺ، إذ عثرت الناقة، فقلت: المرأة، فقال رسول الله ﷺ إنها أمكم، فشددت الرحل، وركب رسول الله ﷺ، الحديث.

والمرأة: صفية، والرديف والرديف: الراكب خلف الراكب بإذنه.

وقال معاذ بن جبل: بينا أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل. وقد ركب ﷺ على حمار على إكاف عليه قטיפه فذكيه أردف أسامة وراءه.

ولما قدم ﷺ مكة استقبله أغيلمة بني عبد المطلب، فحمل واحداً بين يديه، وآخر خلفه^(١). وقال ابن عباس: أتى رسول الله ﷺ [مكة]^(٢) وقد حمل قثم بين يديه والفضل خلفه، أو قثم خلفه والفضل بين يديه، رواه البخاري.

وذكر المحب الطبري في مختصر السيرة النبوية له، أنه ﷺ ركب حماراً عرياً إلى قباء وأبو هريرة معه، قال: يا أبا هريرة أحملك؟ فقال: ما شئت يا رسول الله، فقال: اركب، فوثب أبو هريرة ليركب فلم يقدر فاستمسك رسول الله ﷺ فوقعا جميعاً. ثم ركب ﷺ ثم قال يا أبا هريرة أحملك؟ فقال: ما شئت يا رسول الله، فقال: اركب، فلم يقدر فتعلق برسول الله ﷺ فوقعا جميعاً، ثم قال: يا أبا هريرة أحملك؟ فقال: لا والذي بعثك بالحق لا رميتك ثالثاً.

وذكر المحب الطبري أيضاً: أنه ﷺ كان في سفر، وأمر أصحابه بإصلاح شاة فقال رجل يا رسول الله علي ذبحها، وقال الآخر: يا رسول الله، علي سلخها، وقال آخر: يا رسول الله، علي طبخها، فقال رسول الله ﷺ: علي جمع الحطب، فقالوا: يا رسول الله نكفيك العمل، فقال: قد علمت أنكم تكفوني ولكني أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه. انتهى.

ولم أر هذا لغير الطبري بعد التتبع^(٣)، نعم رأيت في جزء تمثال النعل الشريف لأبي اليمن بن عساكر بعد أن روى حديث عبدالله بن عامر بن ربيعة عن أبيه قال: كنت مع النبي ﷺ في الطواف فانقطعت

(١) رواه البخاري.

(٢) في ش.

(٣) قد أنكره السخاوي فقال: لا أعرفه.

شسعه فقلت يا رسول الله ناولني أصلحه، فقال هذه أثرة ولا أحب الأثرة.

والأثرة: بفتح الهمزة والثاء، الاسم من أثر يؤثر إذا أعطى، والأثرة: الاستئثار وهو الإنفراد بالشيء. قال وكأنه كره ﷺ أن ينفرد أحد بإصلاح نعله، فيحوز فضيلة الخدم فيكون له بمثابة الخادم ويكون له ﷺ ترفع المخدم على خادمه، كره ذلك ﷺ لتواضعه وعدم ترفعه على من يصحبه.

ويؤيده ما روي أنه ﷺ أراد أن يمتهن نفسه في شيء فقالوا: نحن نكفيك يا رسول الله، / قال: قد علمت أنكم تكفوني ولكني أكره أن أتميز عليكم فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه. انتهى.

ثم رأيت شيخنا في الأحاديث المشتهرة حكى ذلك والله الموفق. وعن أبي قتادة: وفد وفد النجاشي، فقام النبي ﷺ يخدمهم، فقال له أصحابه: نكفيك، قال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وأنا أحب أن أكافئهم، ذكره في الشفاء^(١).

وفي البخاري: عن أنس: كان الرجل يجعل للنبي ﷺ النخلات حتى افتتح قريظة والنضير، وإن أهلي أمروني أن آتي النبي ﷺ فأسأله الذي كانوا أعطوه أو بعضه، وكان ﷺ قد أعطاه أم أيمن، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب في عنقي تقول: كلا والذي لا إله غيره لا نعطيكم وقد أعطانيها - أو كما قال - والنبي ﷺ يقول: لك كذا، وتقول كلا والله، حتى أعطها - حسبت أنه قال - عشرة أمثاله. أو كما قال.

(١) وأخرجه ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل.

وإنما فعلت هذا أم أيمن لأنها ظنت أنها كانت هبه مؤبدة وتمليكاً لأصل الرقبة، وأراد النبي ﷺ استطابة قلبها في استرداد ذلك فلاطفها وما زال يزيدها في العوض حتى رضيت، وكل هذا تبرع منه ﷺ وإكرام لها، لما لها من حق الحضانة والتربية، ولا يخفى ما في هذا من فرط جوده وكثرة حلمه وبره ﷺ.

وجاءته ﷺ امرأة كان في عقلها شيء، فقالت: إن لي إليك حاجة، فقال: اجلسي في أي سكك المدينة شئت أجلس إليك^(١)، وفي رواية مسلم: حتى أفضي حاجتك، فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها.

ولا ريب أن هذا كله من كثرة تواضعه ﷺ.

وقال عبدالله بن أبي الحمساء - بالحاء المهملة المفتوحة والميم الساكنة والسين المهملة وفي آخره همزة ممدودة -: بايعت النبي ﷺ قبل أن يبعث، وبقيت له بقية، فوعده أن آتية بها في مكانه، فنسيت فذكرت بعد ثلاث فإذا هو في مكانه فقال: لقد شققت علي، أنا ها هنا منذ ثلاث أنتظرك. رواه أبو داود.

وقال ابن أبي أوفى: كان عليه السلام لا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة. رواه النسائي. وفي رواية البخاري: إن كانت الأمة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنتلق به حيث شاءت، وفي رواية أحمد: فتنتلق به في حاجتها، وعنده أيضاً: إن كانت الوليدة من ولائد أهل المدينة لتجيء فتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت.

(١) الحديث في الصحيحين.

والمقصود من الأخذ باليد لازمه وهو الانقياد.

وقد اشتمل على أنواع من المبالغة في التواضع، لذكره المرأة دون الرجل، والأمة دون الحرة، وحيث عمم بلفظ الإمام، أي: أي أمة كانت، وبقوله: حيث شئت، أي من الأمكنة، والتعبير باليد إشارة إلى غاية التصرف، حتى لو كانت حاجتها خارج المدينة والتمست منه مساعدتها في تلك الحالة لساعدها على ذلك. وهذا من مزيد تواضعه وبراءته من جميع أنواع الكبر ﷺ .

ودخل الحسن وهو يصلي قد سجد، فركب على ظهره، فأبطأ في سجوده حتى نزل الحسن، فلما فرغ قال له بعض أصحابه: يا رسول الله قد أطلت سجودك. قال: إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله^(١). أي جعلني كالراحلة فركب على ظهري.

وكان ﷺ يعود المرضى، ويشهد الجنائز. أخرجه الترمذي في الشمائل.

وحج ﷺ على رجل رث وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم. فقال: اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة^(٢).

وكان ﷺ إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بأنيتهم فيها/ الماء، فما يؤق بإناء إلا غمس يده فيه، فربما جاؤوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها. رواه مسلم والترمذي.

١/١٥٤

(١) رواه أحمد. المسند ٤٩٤/٣ [المحقق].

(٢) رواه ابن ماجه والترمذي في الشمائل والبيهقي. أقول: قال في فتح الباري: إسناده ضعيف ٣٨١/٣ [المحقق].

[عشرته أهله ﷺ]

وكان ﷺ حسن العشرة مع أزواجه، وكان ﷺ ينام مع أزواجه.

قال النووي: وهو ظاهر فعله الذي واظب عليه مع مواظبته ﷺ على قيام الليل، فنام مع إحداهن، فإذا أراد القيام لوظيفته قام وتركها، فيجمع بين وظيفته وأداء حقها المندوب وعشرتها بالمعروف. وقد علم من هذا أن اجتماع الزوج مع زوجته في فراش واحد أفضل، لا سيما إذا عرف من حالها حرصها على هذا، ولا يلزم من نومه معها الجماع والله أعلم.

وقد كان ﷺ يسرب إلى عائشة بنات الأنصار يلعبن معها. رواه الشيخان.

وإذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمه على موضع فمها وشرب رواه مسلم.

وإذا تعرقت عرقاً - وهو العظم الذي عليه اللحم - أخذه فوضع فمه على موضع فمها. رواه مسلم أيضاً.

وكان يتكىء في حجرها، ويقبلها وهو صائم. رواه الشيخان.

وكان يريها الحبشة وهم يلعبون في المسجد وهي متكئة على منكبه رواه الشيخان. ورواه الترمذي بلفظ: قام ﷺ فإذا حبشة تزفن^(١) والصبيان حولها، فقال: يا عائشة تعالي فانظري، فجئت فوضعت لحيي على منكب رسول الله ﷺ فجعلت أنظر إليها ما بين

(١) أي: ترقص.

طعاماً مثل صافية، أهدت إلى النبي ﷺ إناء من طعام، فما ملكت نفسي أن كسرتة، فقلت يا رسول الله ما كفارته؟ قال: إناء كإناء وطعام كطعام. وعند غيرهم: فأخذت القصة من بين يديه فضربت بها وكسرتها، فقام ﷺ يلتقط اللحم والطعام وهو يقول: غارت أمكم، فلم يثرب عليها.

فوسع خلقه الكريم آثار طفحات آثار غيرتها، ولم يتأثر، وقضى عليها بحكم الله في التقاص. وهكذا كانت أحواله ﷺ مع أزواجه، لا يأخذ عليهن ويعذرهن، وإن أقام عليهن قسطاس/ عدل أقامه غير ١٥٤/ب قلق ولا غضب، بل رؤوف رحيم، حريص عليهن وعلى غيرهن، عزيز عليه ما يعنتهم.

قيل: وفي هذا الحديث إشارة إلى عدم مؤاخذه الغيرى فيما يصدر منها، لأنها في تلك الحالة يكون عقلها محجوباً بشدة الغضب الذي أثارته الغيرة. وقد أخرج أبو يعلى بسند لا بأس به عن عائشة مرفوعاً، إن الغيرى لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه. انتهى.

وعن عائشة رضي الله عنها: أتيت النبي ﷺ بخزيرة طبختها له، وقلت لسودة - والنبي ﷺ بيني وبينها -: كلي، فأبت، فقلت لها؛ كلي، فأبت، فقلت لها: لتأكلين أو لألطخن بها وجهك، فأبت فوضعت يدي في الخزيرة فلطخت بها وجهها فضحك النبي ﷺ فوضع فحذه لها وقال لسودة الطخي وجهها، فلطخت بها وجهي فضحك ﷺ الحديث رواه ابن غيلان من حديث الهاشمي وخرجه الملاء في سيرته.

والخزيرة: لحم يقطع صغاراً ويصب عليه ماء كثير فإذا نضج ذر عليه الدقيق.

وبالجملة؛ فمن تأمل سيرته ﷺ مع أهله وأصحابه وغيرهم من الفقراء والأيتام والأرامل والأضياف والمساكين، علم أنه قد بلغ من رقة القلب ولينه الغاية التي لا مرمى وراءها لمخلوق. وإن كان يشتد في حدود الله وحقوقه ودينه، حتى قطع يد السارق، إلى غير ذلك.

[مباسطه ﷺ أصحابه]

وقد كان ﷺ يبسط أصحابه بما يولج حبه في القلوب، كان له رجل من البادية يسمى زهيراً^(١)، وكان يهادي النبي ﷺ بموجود البادية بما يستطرف منها، وكان ﷺ يهاديه ويكافئه بموجود الحاضرة وبما يستطرف منها، وكان ﷺ يقول: زهير باديتنا، ونحن حاضرتنا، وكان ﷺ يحبه، فمشى ﷺ يوماً إلى السوق فوجده قائماً، فجاء من قبل ظهره وضمه بيده إلى صدره فأحس زهير أنه رسول الله ﷺ، قال: فجعلت أمسح ظهري في صدره رجاء بركته.

وفي رواية الترمذي في الشمائل: فاحتضنه من خلفه ولا يبصره، فقال أرسلني، من هذا؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه، فجعل رسول الله ﷺ يقول: من يشتري العبد، فقال له زهير: يا رسول الله، إذن تجدني كاسداً، فقال ﷺ: أنت عند الله غال، وفي رواية للترمذي أيضاً: لكن عند الله لست بكاسد، أو قال: أنت عند الله غال.

وأخرج أبو يعلى عن زيد بن أسلم أن رجلاً كان يهدي للنبي ﷺ العكة من السمن والعسل، فإذا جاء صاحبه يتقاضاه جاء به إلى

(١) الذي في الشمائل وغيرها: زاهر: وفي الإصابة: زاهر بن حرام الأشجعي.

النبي ﷺ فقال: أعط هذا [حق] (١) متاعه، فما يزيد النبي ﷺ أن يتبسم، ويأمر به فيعطى.

ووقع في حديث محمد بن عمرو بن حزم: وكان لا يدخل إلى المدينة طرفه إلا اشترى منها، ثم جاء فقال: يا رسول الله، هذا أهديته لك، فإذا جاء صاحبه يطلب ثمنه جاء به فقال: أعط هذا الثمن، فيقول: ألم تهده لي فيقول ليس عندي، فيضحك ويأمر لصاحبه بثمنه.

[مزاحه عليه السلام]

وكان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً، كما روى أبو هريرة (٢)، وقد قال له رجل كان فيه بله: يا رسول الله احملني، فبأسطه ﷺ من القول بما عساه أن يكون شفاء لبله بعد ذلك، فقال: أحملك على ابن الناقة. فسبق لخاطره استصغار ما تصدق عليه النبوة فقال: يا رسول الله، ما عسى يغني عني ابن الناقة، فقال له ﷺ: ويحك وهل يلد الجمل إلا الناقة. روى حديثه الترمذي وأبو داود (٣).

وباسط عمته صفية وهي عجوز فقال لها: إن الجنة لا تدخلها عجوز، فلما جزعت قال لها: إنك تعودين/ إلى صورة الشباب في ١/١٥٥ الجنة. وفي رواية الترمذي عن الحسن: أتته ﷺ عجوز فقالت: يا رسول الله، ادع الله لي أن يدخلني الجنة، فقال: يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز، قال: فقلت تبكي فقال: أخبروها أنها لا تدخلها

(١) في ط.

(٢) أخرجه الترمذي وغيره.

(٣) وكذا أحمد والبخاري في الأدب المفرد.

وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: ﴿إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً﴾^(١) وذكره رزين.

وكان ﷺ يمازح أصحابه ويخالطهم ويحدثهم ويؤنسهم. ويأخذ معهم في تدبير أمورهم، ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره، ومع ذلك سره في الملكوت يجول حيث أراد الله به.

والدعابة: - بضم الدال وتخفيف العين المهملتين وبعد الألف موحدة - هي الملاطفة في القول بالمزاح وغيره.

وقد أخرج الترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة؛ قالوا يا رسول الله، إنك تداعبنا، قال: إني لا أقول إلا حقاً.

وما ورد عنه ﷺ في النهي عن المداعبة محمول على الإفراط، لما فيه من الشغل عن ذكر الله والتفكير في مهمات الدين وغير ذلك. والذي يسلم من ذلك هو المباح، فإن صادف مصلحة مثل تطيب نفس المخاطب - كما كان هو فعله ﷺ - فهو مستحب.

وقال أنس: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير، وكان له نغر يلعب به فمات، فدخل علي النبي ﷺ ذات يوم فرآه حزيناً فقال: ما شأنه؟ قالوا: مات نغره، فقال: يا أبا عمير ما فعل النغير، رواه البخاري ومسلم. وفي رواية الترمذي قال أنس: كان رسول الله ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير يا أبا عمير ما فعل النغير.

قال الجوهري: النغير: تصغير نغر، والنغر جمع النغرة وهو طائر صغير كالعصفور، والجمع نغران مثل صرد وصردان.

(١) سورة الواقعة، الآية ٣٥.

وكان قد ألقى عليه مع الدعابة المهابة، ولقد جاء إليه ﷺ رجل فقام بين يديه فأخذه رعدة شديدة ومهابة، فقال له: هون عليك، فإني لست بملك ولا جبار إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد بمكة، فنطق الرجل بحاجته، فقام ﷺ فقال: يا أيها الناس إني أوحى إلي أن تواضعوا، ألا فتواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد، وكونوا عباد الله إخواناً^(١).

فسكن ﷺ روعه شفقة، لأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وسلب عنه وصف الملوكية بقوله: فإني لست بملك، لما يلزمها من الجبروتيه، وقال: إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد، تواضعاً، لأن القديد مفضول، وهو مأكول المتمسكة.

ولما رآته ﷺ قيلة بنت مخزوم في المسجد، وهو قاعد القرفصاء، ارتعدت من الفرق. رواه أبو داود.

وروى مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاصي قال: صحبت رسول الله ﷺ، ما ملأت عيني منه قط حياء منه وتعظيماً له، ولو قيل لي صفه لما قدرت، أو كما قال.

وإذا كان هذا قوله وهو من أجلة الصحابة، ولولا أنه ﷺ كان يباسطهم ويتواضع لهم ويؤنسهم لما قدر أحد منهم أن يقعد معه ولا أن يسمع كلامه عليه الصلاة والسلام لما رزقه الله تعالى من المهابة والجلالة. يبين ذلك ويوضحه ما روي أنه ﷺ كان إذا فرغ من ركوع الفجر حدث عائشة إن كانت مستيقظة، وإلا اضطجع بالأرض ثم

(١) أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث أبي مسعود البدرى، والحاكم أيضاً من حديث جرير.

خرج بعد ذلك إلى الصلاة، وما ذاك إلا أنه ﷺ لو خرج على تلك الحالة التي كان عليها، وما حصل له من القرب والتداني في مناجاته وسامع كلام ربه وغير ذلك من الأحوال التي يكل اللسان عن وصف بعضها، لما استطاع بشر أن يلقاه ولا يباشره، فكان ﷺ يتحدث مع عائشة أو يضطجع بالأرض حتى يحصل التأنيس بجنسهم، وهو ١٥٥/ب التأنيس/ مع عائشة، أو جنس أصل الخلقة التي هي الأرض. ثم يخرج إليهم، وما ذاك إلا رفقاً بهم، وكان بالمؤمنين رحيماً. قاله ابن الحاج في المدخل.

وقد جاء في الحديث أنه لما خير بين أن يكون نبياً ملكاً، أو نبياً عبداً نظر ﷺ إلى جبريل كالمستشير له، فنظر جبريل إلى الأرض يشير إلى التواضع، فاختر ﷺ العبودية، فلما كان تواضعه ﷺ إلى الأرض حيث أشار جبريل أورثه الله تعالى رفعتة إلى السماء، ثم إلى الرفرف الأعلى، إلى حضرة قاب قوسين أو أدنى.

ووقف بين يديه محمود بن الربيع، وهو صغير ابن خمس سنين، فمخ ﷺ في وجهه مجة من ماء من دلو يمازحه بها، فكان في ذلك من البركة أنه لما كبر لم يبق في ذهنه من ذكر رؤية النبي ﷺ إلا تلك المجة، فعد بها من الصحابة وحديثه مذكور في البخاري.

ودخلت عليه ربيته زينب بنت أم سلمة وهو في مغتسله، فنضح الماء في وجهها، فكان في ذلك من البركة في وجهها أنه لم يتغير، فكان ماء الشباب ثابتاً في وجهها ظاهراً في رونقها وهي عجوز كبيرة. وحديثها مذكور في البخاري.

فقد علمت أنه ﷺ كان مع أصحابه وأهله، ومع الغريب والقريب من سعة الصدر ودوام البشر وحسن الخلق والسلام على من لقيه، والوقوف مع من استوقفه والمزح بالحق مع الصغير والكبير أحياناً، وإجابة الداعي ولين الجانب حتى يظن كل واحد من أصحابه أنه أحبهم إليه.

وهذا الميدان لا تجد فيه إلا واجباً أو مستحباً أو مباحاً، فكان يباسط الخلق ويلابسهم ليستضيؤوا بنور هدايته في ظلمات دياجي الجهل، ويقتدوا بهديه ﷺ .

[مجالسه ﷺ مع أصحابه]

وقد كانت مجالسه مع أصحابه رضي الله عنهم عامتها مجالس تذكير بالله، وترغيب وترهيب، إما بتلاوة القرآن، أو بما آتاه الله من الحكمة والموعظة الحسنة، وتعليم ما نفع في الدين، كما أمره الله تعالى أن يذكر ويعظ ويقص، وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يبشره وينذر، فلذلك كانت تلك المجالس توجب لأصحابه رقة القلوب، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، كما ذكره أبو هريرة فيما رواه أحمد والترمذي وابن حبان في صحيحه قال: قلنا يا رسول الله، مالنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا وزهدنا في الدنيا وكنا من أهل الآخرة، فإذا خرجنا من عندك عافسنا أهلنا وشممنا أولادنا وأنكرنا أنفسنا. فقال ﷺ: لو أنكم إذا خرجتم من عندي كنتم على حالكم ذلك لزارتكم الملائكة في بيوتكم. الحديث.

وقوله: عافسنا: - بالعين المهملة بعد الألف فاء فسين مهملة ساكنة - أي: عالجنا أهلنا ولاعبناهم.

[جوانب من تواضعه ﷺ]

ومن تواضعه ﷺ أنه ما عاب ذواقاً قط، ولا عاب طعاماً قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه رواه الشيخان.

وهذا إن كان الطعام مباحاً، أما الحرام فكان يعيبه ويذمه وينهى عنه، وذهب بعضهم إلى أن العيب إن كان من جهة الخلقة كره، وإن كان من جهة الصنعة لم يكره، قال: لأن صنعة الله تعالى لا تعاب، وصنعة آدميين تعاب. قال في فتح الباري: والذي يظهر: التعميم، فإن فيه كسر قلب الصانع.

قال النووي: ومن آداب الطعام المتأكدة: أن لا يعاب، كقوله: مالح، حامض، قليل الملح، غليظ، رقيق، غير ناضج ونحو ذلك.

ومن تواضعه: أن هذه الدنيا شاع سبها في العالمين، فقال ﷺ: لا تسبوا الدنيا، ثم مدحها فقال: نعمت مطية المؤمن، عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر. وقال: لا تسبوا الدهر، رواه البخاري 1/156 من حديث أبي هريرة بلفظ: ولا تقولوا خيبة الدهر، فإن الله هو الدهر. وفي لفظ له: يسب بنو آدم الدهر وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار. وعند مسلم في حديث بلفظ: لا يسب أحدكم الدهر.

ومحصل ما قيل في تأويله، ثلاثة أوجه:

أحدها: أن المراد بقوله: إن الله هو الدهر، أي: المدبر

للأمور.

ثانيها: أنه على حذف مضاف. أي: صاحب الدهر.

ثالثها: التقدير: مقلب الدهر. ولذلك عقبه بقوله في رواية

البخاري: بيدي الليل والنهار.

وقال المحققون: من نسب شيئاً من الأفعال إلى الدهر حقيقة كفر، ومن هذا اللفظ على لسانه غير معتقد لذلك فليس بكافر، لكن يكره ذلك لتشبهه بأهل الكفر في الإطلاق.

وما خير ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه. رواه البخاري.

أي بين أمرين من أمور الدنيا لا إثم فيهما، وأبهم «فاعل» خير ليكون أعم، من قبل الله أو من قبل المخلوقين. وقوله: إلا اختار أيسرها و^(١) قوله: ما لم يكن إثماً: أي ما لم يكن الأسهل مقتضياً للإثم فإنه حينئذ يختار الأشد.

وفي حديث أنس عند الطبراني في الأوسط: إلا اختار أيسرهما ما لم يكن لله فيه سخط. ووقوع التخيير بين ما فيه إثم وما لا إثم فيه من قبل المخلوقين واضح.

ومن تواضعه ﷺ أنه لم يكن له بواب راتب، كما جاء عن أنس أنه قال: مر النبي ﷺ بامرأة وهي تبكي عند قبر، فقال: اتقي الله واصبري، فقالت: إليك عني فإنك خلوت من مصيبي، قال فجاوزها ومضى. فمر بها رجل فقال لها؛ ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قالت: ما عرفته، قال: إنه لرسول الله ﷺ. قال فجاءت إلى بابه فلم تجد عليه بواباً. الحديث رواه البخاري.

لكن في حديث أبي موسى: أنه كان بواباً للنبي ﷺ لما جلس على القف^(٢).

(١) أي مع قوله.

(٢) القف: الدكة يجعل حول البئر. والحديث متفق عليه: وفيه ثم انصرفت =

وجمع بينهما: بأنه ﷺ إذا لم يكن في شغل من أهله ولا انفراد من أمره أنه كان يرفع حجابه بينه وبين الناس ويبرز لطالب الحاجة إليه.

وفي حديث عمر حين استأذن له الأسود في قصة حلفه أن لا يدخل على نسائه شهراً، ففيه: أنه كان في وقت خلوته بنفسه يتخذ بواباً، ولولا ذلك لاستأذن عمر بنفسه ولم يحتج إلى قوله يا رباح استأذن لي. لكن يحتمل أن يكون سبب استئذان عمر أنه خشي أن يكون وجد عليه بسبب ابنته، فأراد أن يختبر ذلك باستئذانه عليه، فلما أذن له اطمأن.

وقد اختلف في مشروعية الحجاب للحاكم.

فقال الشافعي وجماعة: ينبغي للحاكم أن لا يتخذ حاجباً.

وذهب آخرون: إلى جوازه.

وحمل الأول على زمن سكون الناس واجتماعهم على الخير وطواعيتهم للحاكم، وقال آخرون: بل يستحب ذلك حينئذ ليرتب الخصوم ويمنع المستطيل، ويدفع الشرير، والله أعلم.

[حياؤه ﷺ]

وأما ما روي من حياؤه ﷺ، فحسبك ما في البخاري من حديث أبي سعيد: كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها.

= فجلست عند الباب فقلت لأكونن بواب رسول الله ﷺ. زاد في الأدب المفرد: ولم يأمرني.

والعذراء: هي البكر.

والخدر: - بكسر الخاء المعجمة - أي في سترها.

وهو من باب التتميم، لأن العذراء في الخدر^(١) يشتد حياؤها أكثر مما تكون خارجة عنه، لكون الخلوة مظنة/ وقوع الفعل بها. ١٥٦/ب
فالظاهر: أن المراد تقييده [بما]^(٢) إذا دخل عليها في خدرها لا حيث تكون منفردة فيه.

والحياء - بالمد - وهو من الحياة، ومنه: الحيا للمطر، لكن هو مقصور. وعلى حسب حياة القلب تكون فيه قوة خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح، وكلما كان القلب حياً كان الحياء أتم.
وهو في اللغة: تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به، وقد يطلق على مجرد ترك الشيء بسبب. والترك إنما هو من لوازمه.

وفي الشرع: خلق يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق.

وقال ذو النون^(٣): الحياء وجود الهيبة في القلب، مع وحشة ما يسبق منك إلى ربك، والحب ينطق والحياء يسكت، والخوف يقلق.

(١) كذا في (ط، ب) في النسخ الخلوة. والأول أنسب لعود الضمير بالتذكير: منه.

(٢) في ش.

(٣) ثوبان بن إبراهيم أحد المشايخ المذكورين في رسالة القشيري. حدث عن مالك، وعنه الجنيد كان أوحد وقته علماً وأدباً وورعاً مات سنة خمس وأربعين ومائتين.

وقال يحيى بن معاذ^(١): من استحيا من الله مطيعاً استحيا منه وهو مذنب. وهذا الكلام يحتاج إلى شرح ومعناه: أن من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى في حال طاعته فقلبه مطرق بين يديه إطراق مستحي خجل، فإنه إذا وقع منه ذنب استحيا الله من نظره إليه في تلك الحالة لكرامته عليه، فيستحي أن يرى من وليه ما يشينه عنده. وفي الشاهد^(٢) شاهد بذلك، فإن الرجل إذا اطلع على أخص الناس به وأحبهم إليه وأقربهم منه، من صاحب أو ولد أو من يحبه، وهو يخونه، فإنه يلحقه من ذلك الاطلاع عليه حياء عجيب حتى كأنه هو الجاني. وهذا غاية الكرم.

وللحياء أقسام ثمانية يطول استقصاؤها.

منها: حياء الكرم، كحيائه ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب، وطولوا عنده المقام، واستحيا أن يقول لهم انصرفوا.

ومنها: حياء المحب من محبوبه، حتى إنه إذا خطر على قلبه في حال غيبته هاج الحياء من قلبه وأحس به في وجهه، فلا يدري ما سببه.

ومنها: حياء العبودية، وهو حياء يمتزج بين محبة وخوف ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلى وأجل منها، فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة.

ومنها: حياء المرء من نفسه، وهو حياء النفوس الشريفة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقنعها بالدون، فيجد نفسه مستحيياً من نفسه، حتى كأن له نفسين، يستحي بإحدهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون

(١) أحد العلماء المشهورين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مات بنيسابور سنة ثمان وخمسين ومائتين.

(٢) أي المشاهد المرثي.

من الحياء، فإن العبد إذا استحيا من نفسه فهو بأن يستحي من غيره أجدر.

والحياء - كما قال ﷺ - لا يأتي إلا بخير، وهو من الإيمان. كما رواهما البخاري.

قال القاضي عياض وغيره: وإنما جعل الحياء من الإيمان - وإن كان غريزة - لأن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى قصد واكتساب وعلم.

وقال القرطبي: الحياء المكتسب هو الذي جعله الشارع من الإيمان، وهو المكلف به دون الغريزي، غير أن من كان فيه غريزة منه فإنها تعينه على المكتسب، حتى يكاد يكون غريزياً، وكان النبي ﷺ قد جمع له النوعان، فكان في الغريزي أشد حياء من العذراء في خدرها.

وقال القاضي عياض: وروي عنه ﷺ: كان من حيائه لا يثبت بصره في وجه أحد^(١).

[خوفه ﷺ ربه]

وأما خوفه ﷺ ربه جل وعلا، فاعلم أن الخوف والوجل والرهبه ألفاظ متقاربة غير مترادفة.

قال الجنيد: الخوف توقع العقوبة على مجاري الأنفاس.
وقيل الخوف: اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف.
وقيل الخوف: قوة العلم بمجاري الأحكام، وهذا سبب الخوف، لا أنه نفسه.

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

(١) قال السيوطي: هذا الحديث ذكره صاحب الإحياء، ولم يجده العراقي.

والخشية أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله تعالى: قال
الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(١)، فهو خوف مقرون
بمعرفة. وقال ﷺ: أنا أتقاكم لله وأشدكم له خشية، فالخوف حركة
والخشية انجماع وانقباض وسكون، فإن الذي يرى العدو والسيل
ونحوهما له حالتان: إحداهما حركة للهرب منه وهي حالة الخوف،
والثانية سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه وهي الخشية.

وأما الرهبة: فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد
الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه.

وأما الوجل: فرجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه
وعقوبته.

وأما الهيبة: فخوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ما تكون
مع المعرفة والمحبة.

والإجلال: تعظيم مقرون بالحب.

فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبة
للمحبين، والإجلال للمقربين. وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف
والخشية، كما قال ﷺ: (إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية) رواه
البخاري، وقال ﷺ: (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم
كثيراً) رواه البخاري من حديث أبي هريرة، وفيه دلالة على اختصاصه
ﷺ بمعارف بصرية وقلبية. وقد يطلع الله تعالى عليها غيره من
المخلصين من أمته لكن بطريق الإجمال، وأما تفصيلها فاختص بها
ﷺ.

(١) سورة فاطر، الآية ٢٨.

وفي صحيح مسلم من حديث أنس أنه ﷺ قال: والذي نفس محمد بيده، لو رأيتم ما رأيتم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، قالوا: وما رأيتم يا رسول الله قال: رأيتم الجنة والنار.

فقد جمع الله له بين علم اليقين وعين اليقين مع الخشية القلبية، واستحضار العظمة الإلهية على وجه لم يجتمع لغيره، ولذا قال: (إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا) وهو في الصحيح من حديث عائشة^(١).

وكان ﷺ يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء، رواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحه بلفظ: كأزيز الرحا، أي خنين من الخوف - بالخاء المعجمة - وهو صوت البكاء. وقيل: وهو أن يجيش جوفه ويغلي بالبكاء.

[شجاعته ﷺ]

وأما ما روي من شجاعته ﷺ ونجدته وقوته في الله وشدته، فعن أنس: (كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً قد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عري والسيف في عنقه وهو يقول: لن تراعوا)^(٢).

وفي رواية: كان فزع بالمدينة فاستعار النبي ﷺ فرساً من أبي طلحة يقال له المندوب، فركب فلما رجع قال: ما رأينا من شيء، وإن وجدناه لبحراً، أو إنه لبحر. قال وكان فرساً يبطؤ^(٣). رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي.

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) أي لا يسرع في مشيه.

وللبخاري: إن أهل المدينة فزعوا مرة، فركب النبي ﷺ فرساً لأبي طلحة كان يقطف، أو فيه قطاف، فلما رجع قال: وجدنا فرسكم هذا بحراً، فكان بعد لايجاري.

وفي أخرى له: ثم خرج يركض وحده فركب الناس يركضون خلفه فقال: لن تراعوا، إنه لبحر، فما سبق بعد ذلك اليوم.

قوله لن تراعوا: أي روعاً مستقراً، أو روعاً يضر بكم.

وفي هذا الحديث بيان شجاعته ﷺ من شدة عجلته في الخروج إلى العدو قبل الناس كلهم، بحيث كشف الحال ورجع قبل وصول الناس.

وفيه: بيان عظيم بركته ومعجزته في انقلاب الفرس سريعاً بعد ١٥/ب أن كان بطيئاً وهو معنى قوله ﷺ: وجدناه بحراً، أي/واسع الجري. وكان فيه قطاف: يقال: قطف الفرس في مشيه إذا تضايق خطوه وأسرع مشيه.

قال القاضي عياض: وقد كان في أفراسه ﷺ فرس يقال له: مندوب، فلعله صار إليه بعد أبي طلحة. وقال النووي: يحتمل أنهما فرسان اتفقا في الاسم.

وقال ابن عمر: ما رأيت أشجع ولا أنجد من رسول الله صلى الله عليه وسلم (١).

وذكر ابن إسحاق في كتابه وغيره: أنه كان بمكة رجل شديد القوة يحسن الصراع وكان الناس يأتونه من البلاد للمصارعة فيصرعهم.

(١) رواه أحمد والنسائي وغيرهما.

فبينما هو ذات يوم في شعب من شعاب مكة إذ لقيه رسول الله ﷺ فقال له: يا ركانة ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه - أو كما قال له رسول الله ﷺ - فقال له ركانة: يا محمد، هل من شاهد يدل على صدقك؟ قال: أرأيت إن صرعتك أتؤمن بالله ورسوله؟ قال: نعم يا محمد، فقال له: تهباً للمصارعة، قال: تهبأت، فدنا منه رسول الله ﷺ فأخذه ثم صرعه، قال فتعجب ركانة من ذلك، ثم سأله الإقالة والعودة، ففعل به ذلك ثانياً وثالثاً. فوقف ركانة متعجباً وقال: إن شأنك لعجيب. رواه الحاكم في مستدركه عن أبي جعفر محمد بن ركانة المصارع^(١)، ورواه أبو داود والترمذي وكذا البيهقي من رواية سعيد بن جبير.

وقد صارع ﷺ جماعة غير ركانة، منهم أبو الأسود الجمحي، كما قاله السهيلي. ورواه البيهقي، وكان شديداً بلغ من شدته أنه كان يقف على جلد البقرة، ويجاذب أطرافه عشرة لينزعوه من تحت قدميه، فيتفري الجلد ولم يتزحزح عنه، فدعا رسول الله ﷺ إلى المصارعة وقال: إن صرعتني آمنت بك، فصرعه رسول الله ﷺ فلم يؤمن. وفي قصته طول.

وفي البخاري من حديث البراء، وسأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: فأكبنا على المغانم فاستقبلنا بالسهام. ولقد رأيت النبي ﷺ وهو على بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان بن الحارث أخذ بزمامها وهو يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب^(٢).

(١) كذا وقع للمصنف، وصوابه: عن أبي جعفر عن أبيه محمد الخ... .

(٢) رواه البخاري برقم ٢٨٦٤.

وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، لأنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه، وهو مع هذا على بغلة ليست بسرعة الجري، ولا تصلح لكر ولا فر ولا هرب، ومع ذلك يركضها إلى وجوههم، وينوه باسمه ليعرفه من ليس يعرفه صلوات الله وسلامه عليه.

وفي حديث البراء^(١): كنا إذا احمر البأس اتقينا برسول الله ﷺ^(٢). أي جعلناه قدامنا واستقبلنا العدو به، وقمنا خلفه.

[جوده وكرمه ﷺ]

وأما ما ذكر من سخائه وجوده وكرمه، فاعلم أن السخاء صفة غريزية، وفي مقابله الشح، والشح من لوازم صفة النفس، قال الله تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾^(٣) فحكم بالفلاح لمن وقى الشح، وحكم بالفلاح أيضاً لمن أنفق وبذل فقال: ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾^(٤) والفلاح أجمع اسم لسعادة الدارين.

وليس الشح من الآدمي بعجيب، لأنه جبلي فيه، وإنما العجب وجود السخاء في الغريزة.

والسخاء أتم وأكمل من الجود، وفي مقابله البخل. وفي مقابلة ١/١٥٨ السخاء الشح، والجود والبخل يتطرق/ إليهما الاكتساب بطريق

(١) كلمه (البراء) في الأصل وليست في النسخ.

(٢) رواه مسلم.

(٣) سورة الحشر، الآية ٩.

(٤) سورة البقرة، الآيتان ٣ و٥.

العادة، بخلاف الشح والسخاء إذ كان ذلك من ضرورة الغريزة، فكل سخي جواد وليس كل جواد سخيًّا. والجود يتطرق إليه الرياء، ويأتي به الإنسان متطلعاً لغرض من الخلق أو الحق بمقابلة من الثناء أو غير ذلك من الخلق والثواب من الله تعالى، ولا يتطرق الرياء إلى السخاء لأنه ينبع من النفس الزكية المرتفعة عن الأغراض. أشار إليه في عوارف المعارف.

وقد كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس. رواه البخاري ومسلم من حديث أنس.

وأجود: أفعل تفضيل، من الجود وهو إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي، ومعناه: هو أسخي الناس، ولما كانت نفسه أشرف النفوس ومزاجه أعدل الأمزجة لا بد أن يكون فعله أحسن الأفعال، وشكله أملح الأشكال، وخلقه أحسن الأخلاق، فلا شك يكون أجود [الناس]^(١)، وكيف لا وهو مستغن عن الفانيات بالباقيات الصالحات.

واقْتصار أنس على هذه الأوصاف الثلاثة من جوامع الكلم، لأنها أمهات الأخلاق، فإن في كل إنسان ثلاث قوى: إحداها الغضبية، وكهاها الشجاعة، وثانيها، الشهوانية وكهاها الجود، وثالثها العقلية وكهاها النطق بالحكمة.

وفي رواية لمسلم عنه: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً إلا أعطاه، فجاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر.

وعنده أيضاً عن صفوان بن أمية قال: لقد أعطاني رسول الله

(١) زيادة في (ش، ب).

ﷺ ما أعطاني وإنه لمن أبغض الناس إلي، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي.

قال ابن شهاب: أعطاه يوم حنين مائة من الغنم، ثم مائة، ثم مائة.

وفي مغازي الواقدي: إن النبي ﷺ أعطى صفوان يومئذ وادياً مملوءاً إبلًا ونعماً، فقال صفوان: أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبي.

ويرحم الله ابن جابر حيث قال:

هذا الذي لا يتقي فقراً إذا يعطي^(١) ولو كثر الأنام وداموا^(٢) واد من الأنعام أعطى أملاً^(٣) فتحيرت لعطائه الأوهام

وإنما أعطاه ذلك لأنه ﷺ علم أن داءه لا يزول إلا بهذا الدواء وهو الإحسان فعالجه به حتى برئ من داء الكفر وأسلم، وهذا من كمال شفقتة ورحمته ورأفته ﷺ إذ عامله بكمال الإحسان، وأنقذه من حر النيران إلى برد لطف الجنان.

وكان علي إذا وصفه ﷺ قال: كان أجود الناس كفاً، وأصدق الناس لهجة^(٤).

وخرج ابن عدي - بإسناد فيه ضعف - من حديث أنس مرفوعاً: أنا أجود بني آدم.

(١) في ش: أعطى.

(٢) أي: استمروا في الطلب.

(٣) أي: راجياً، أو مؤملاً.

(٤) رواه الترمذي.

فهو ﷺ بلا ريب أجود بني آدم على الإطلاق، كما أنه أفضلهم وأعلمهم وأشجعهم وأكملهم في جميع الأوصاف الحميدة، وكان جوده بجميع أنواع الجود، من بذل العلم والمال، وبذل نفسه لله في إظهار دينه وهداية عباده وإيصال النفع إليهم بكل طريق، من إطعام جائعهم ووعظ جاهلهم، وقضاء حوائجهم، وتحمل أثقالهم، ولقد أحسن ابن جابر حيث قال:

يروى حديث الندى والبشر عن يده ووجهه بين منهل ومنسجم
من وجه أحمد لي بدر ومن يده بحر ومن فمه در لمن نظم
يم نبياً تباري الريح أنمله والمزن من كل هام الودق مرتكم
لو عامت الفلك فيما فاض من يده لم تلق أعظم بحر منه إن نعم / ١٥٨ ب
تحيط كفاه بالبحر المحيط فلذ به ودع كل طامي الموج ملتطم
لو لم تحط كفه بالبحر ما شملت كل الأنام وروت قلب كل ظمي
فسبحان من أطلع أنوار الجمال من أفق جبينه، وأنشأ أمطار
السحاب من غمام يمينه.

روى البخاري من حديث جابر: (ما سئل رسول الله ﷺ عن شيء قط فقال: لا) وكذا عند مسلم، أي ما طلب منه شيء من أمر الدنيا فمنعه.

قال الفرزدق:

ما قال لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم^(١)

لكن قال شيخ مشايخنا الحافظ أبو الفضل ابن حجر: ليس المراد

(١) هذا البيت من قصيدة في مدح زين العابدين علي بن الحسين.

أنه يعطي ما يطلب منه جزماً، بل المراد: أنه لا ينطق بالرد، بل إن كان عنده أعطاه إن كان الإعطاء سائغاً وإلا سكت. قال: وقد ورد بيان ذلك في حديث مرسل لابن الحنفية عند ابن سعد ولفظه: إذا سئل فأراد أن يفعل قال: نعم، وإن لم يرد أن يفعل سكت. وهو قريب من حديث أبي هريرة؛ ما عاب طعاماً قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه.

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام معناه: لم يقل: لا، منعاً للعطاء، ولا يلزم من ذلك أن لا يقوها اعتذاراً كما في قوله تعالى: ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾^(١)، ولا يخفى الفرق بين قوله: لا أجد ما أحملكم وبين لا أحملكم انتهى.

وهو نظير ما في حديث أبي موسى الأشعري: لما سأله الأشعريون الحملان فقال ﷺ: ما عندي ما أحملكم^(٢).

لكن يشكل عليه أنه ﷺ حلف لا يحملهم فقال: والله لا أحملكم^(٣) فيمكن أن يخص من عموم حديث جابر، ما إذا سئل ما ليس عنده والسائل يتحقق أنه ليس عنده ذلك، أو حيث كان المقام لا يقتضي الاقتصار على السكوت من الحالة الواقعة، أو من حال السائل، كأن لم يكن يعرف العادة، فلو اقتصر في جوابه على السكوت مع حاجة السائل لتهادى على السؤال مثلاً، ويكون القسم على ذلك تأكيداً لقطع طمع السائل، والسر في الجمع بين قوله: لا أجد ما أحملكم وقوله: والله لا أحملكم أن الأول لبيان أن الذي سئله لم يكن

(١) سورة التوبة، الآية ٩٢.

(٢) رواه الشيخان.

(٣) رواه الشيخان.

موجوداً عنده، والثاني أنه لا يتكلف الإجابة إلى ما سئل بالقرض مثلاً
أو بالاستيهاب، إذ لا اضطرار حينئذٍ.

وروى الترمذي أنه حمل إليه تسعون ألف درهم فوضعت على
حصير، ثم قام إليها يقسمها، فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

قال^(١): وجاءه رجل، فقال ما عندي شيء ولكن ابتع علي،
فإذا جاءنا شيء قضينا، فقال له عمر: ما كلفك الله ما لا تقدر،
فكره النبي ﷺ، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أنفق ولا
تحف من ذي العرش إقللاً، فتبسم ﷺ وعرف البشر في وجهه.
وقال: بهذا أمرت.

وإنما فعل ذلك للمصلحة الداعية لذلك كالاستئلاف ونحوه.

وذكر ابن فارس في كتابه «في أسماء النبي ﷺ» أنه في يوم حنين
جاءت امرأة فأنشدت شعراً تذكره أيام رضاعته في هوازن فرد عليهم
ما أخذ وأعطاهم عطاء كثيراً حتى قوم ما أعطاهم ذلك اليوم فكان
خمسائة ألف ألف. قال ابن دحية: وهذا نهاية الجود الذي لم يسمع
بمثله في الوجود.

وفي البخاري من حديث أنس: أنه أتى بمال من البحرين فقال:
انثروه - يعني صبوه - في المسجد، وكان أكثر مال أتى به النبي ﷺ،
فخرج إلى المسجد ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه،
فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاءه العباس فقال: أعطني، فإني
فاديت نفسي وفاديت عقيلاً، فقال له خذ، فحثا في ثوبه ثم ذهب
يقله/ فلم يستطع، فقال يا رسول الله، مر بعضهم يرفعه إلي، قال: ١/١٥٩

(١) أي روى الترمذي في الشئائل.

لا، قال: فارفعه أنت علي، قال: لا، فنثر منه ثم ذهب يقله فلم يستطع فقال: يا رسول الله مر بعضهم يرفعه علي، قال: لا، قال: فارفعه أنت قال: لا، ثم نثر منه ثم احتمله فألقاه على كاهله فانطلق، فما زال النبي ﷺ يتبعه بصره حتى خفي علينا عجباً من حرصه، فما قام ﷺ وثم منها درهم.

وفي رواية ابن أبي شيبة من طريق حميد بن هلال مرسلًا: كان مائة ألف، وأنه أرسل به العلاء بن الحضرمي من خراج البحرين، قال: وهو أول مال حمل إليه ﷺ.

وسايره جابر على جمل له، فقال له ﷺ: بعني جملك، فقال: هو لك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، فقال: بل بعنيه، فباعه إياه وأمر بلالاً أن ينقده ثمنه فنقده، ثم قال ﷺ: اذهب بالثمن والجمل بارك الله لك فيهما. مكافأة لقوله: هو لك، فأعطاه الثمن ورد عليه الجمل وزاده الدعاء بالبركة فيهما. وحديثه في البخاري ومسلم وغيرهما.

وقد كان جوده ﷺ كله لله وفي ابتغاء مرضاته، فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو لمحتاج وتارة ينفقه في سبيل الله، وتارة يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلام بإسلامه.

وكان يؤثر على نفسه وأولاده، فيعطي عطاء يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا توقد في بيته نار، وربما ربط الحجر على بطنه الشريفة من الجوع.

وكان ﷺ قد أتاه سبي، فشكت إليه فاطمة ما تلقى من خدمة البيت وطلبت منه خادماً يكفيها مؤنة بيتها، فأمرها أن تستعين

بالتسبيح والتكبير والتحميد، وقال: لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم من الجوع^(١).

وأته امرأة ببرة فقالت: يا رسول الله أكسوك هذه، فأخذها ﷺ محتاجاً إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه فاكسنيها فقال: نعم، فلما قام ﷺ لأمه أصحابه، قالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجاً إليها ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئاً فيمنعه. رواه البخاري من حديث سهل بن سعد.

وفي رواية ابن ماجه والطبراني قال: نعم، فلما دخل طواها وأرسل بها إليه.

وأفاد الطبراني في رواية زمعة بن صالح أنه ﷺ أمر أن يصنع له غيرها فمات قبل أن يفرغ منها.

وفي هذا الحديث من الفوائد: حسن خلقه ﷺ وسعة جوده.

واستنبط منه السادة الصوفية: جواز استدعاء المريد خرقة التصوف من المشايخ تبركاً بهم ولباسهم، كما استدلوا لإلباس الشيخ للمريد بحديث أنه ﷺ ألبس أم خالد خميصة سوداء ذات علم^(٢). [رواه البخاري]^(٣).

(١) رواه أحمد.

(٢) عن أم خالد أتي النبي ﷺ بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة، فقال: من ترون نكسو الخميصة فسكت القوم، قال: اتئوني بأم خالد فأتي بها تحمل فأخذ الخميصة بيده فألبسها.

(٣) زيادة في (ش، ب).

لكن قال شيخنا: ما يذكرونه من أن الحسن البصري لبسها من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال ابن دحية وابن الصلاح: إنه باطل، وقال شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر ليس في شيء من طرقها ما يثبت، ولم يرد في خبر صحيح ولا حسن ولا ضعيف أنه ﷺ ألبس الخرقه على الصورة المتعارفة بين الصوفية لأحد من أصحابه، ولا أمر أحداً من أصحابه بفعلها، وكل ما يروى صريحاً في ذلك فباطل. قال: ثم إن من الكذب المفتري قول من قال: إن علياً ألبس الخرقه الحسن البصري، فإن أئمة الحديث لم يثبتوا للحسن من علي سماعاً فضلاً عن أن يلبسه الخرقه.

وكذا قال الدمياطي والذهبي والعلاء ومغلطاي والعراقي والأبناسي^(١) والحلي / وغيرهم مع^(٢) كون جماعة منهم لبسوها وألبسوها تشبهاً بالقوم، نعم ورد لبسهم لها مع الصحبة له المتصلة إلى كهيل بن زياد^(٣)، وهو صحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه من غير خلف في صحبته له بين أئمة الجرح والتعديل.

وفي بعض الطرق^(٤) اتصالها بأويس القرني، وهو اجتمع بعمر ابن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما. وهذه صحبة لا

-
- (١) نسبة إلى أبناس قرية صغيرة بالوجه البحري من أرض مصر.
وهو العلامة إبراهيم بن موسى بن موسى، الشافعي الورع، الزاهد المحقق ولد سنة خمس وعشرين وسبعمائة وصنف وأخذ عن الأسنوي وغيره وتوفي سنة اثنتين وثمانمائة.
- (٢) في (أ، ط) من.
- (٣) ثقة، رمي بالتشيع، كان شريفاً مطاعاً. قتله الحجاج سنة اثنتين وثمانين.
- (٤) للخرقه.

مطعن فيها، وكثير من السادة يكتفي بمجرد الصحبة كالشاذلية وشيخنا
أبي إسحاق المتبولي.

وكان الشيخ يوسف العجمي يجمع بين تلقين الذكر وأخذ العهد
واللبس وله في ذلك رسالته ریحان القلوب، قرأتها على ولد ولده
العارف المسلك سيدي علي، مع إلباسه لي الخرقه والتلقين والعهد.

وللشيخ قطب الدين القسطلاني «ارتقاء الرتبة في اللباس
والصحبة»^(١) والله يهدينا إلى سواء السبيل^(٢).

(١) اسم كتاب.

(٢) مما لا شك فيه أن قضية لبس الخرقه لا أصل له في الدين، وهو من
البدع التي أحدثت بعده ﷺ، ولم يكن للرسول ﷺ لباس خاص به، بل
كان يلبس ما تيسر له، وكان يلبس ما يلبسه قومه. [المحقق].

الفصل الثالث

فيما تدعو ضرورته اليه ﷺ من
غذائه وملبسه ومنكحه وما يلحق بذلك

وفيه أربعة أنواع:

النوع الأول

في عيشه ﷺ في المأكل والمشرب

[تناول الطعام ضرورة]

اعلم أن تناول الطعام أصل كبير، يحتاج إلى علوم كثيرة، لاشتماله على المصالح الدينية والدنيوية، وتعلق أثره بالقلب والقلب، وبه قوام البدن بإجراء سنة الله تعالى بذلك، والقلب مركب القلب، وبها عمارة الدنيا والآخرة، والقلب بمفرده على طبيعة الحيوان يستعان به على عمارة الدنيا، والروح والقلب على طبيعة الملائكة يستعان بهما على عمارة الآخرة، وباجتماعهما يصلحان لعمارة الدارين.

قال الغزالي: ولا طريق إلى الوصول إلى اللقاء إلا بالعلم والعمل، ولا يمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن، ولا تصفو سلامة

البدن إلا بالأطعمة والأقوات، والتناول منها بقدر الحاجات، على تكرار الأوقات.

فمن هذا الوجه، قال بعض السلف الصالحين: إن الأكل من الدين، وعليه نبه رب العالمين بقوله، وهو أصدق القائلين: ﴿كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾^(١)، فمن تناول الأكل ليستعين به على العلم والعمل، ويقوى به على التقوى فلا ينبغي أن يترك نفسه سدى، يسترسل في الأكل استرسال البهائم في المرعى، وإنما هو ذريعة إلى الدين ووسيلة إليه، ينبغي أن تظهر أنوار الدين عليه، وإنما نور الدين وآدابه وسننه، التي يزم العبد بزمامها، ويلجم المتقي بلجامها، حتى يزن بميزان الشرع، شهوة الطعام^(٢) في إقدامها واحجامها، فيصير بسببها مدفعة للوزر ومجلبة للأجر.

[بدعة الشبع]

واعلم أن الشبع بدعة ظهرت بعد القرن الأول، وقد روى النسائي وابن ماجه وصححه الحاكم من حديث المقدم بن معدي كرب أن رسول الله ﷺ قال: ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب آدمي لقيمات يقمن صلبه، فإن غلبت الآدمي نفسه فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس^(٣).

قال القرطبي في شرح «الأسماء» كما نقله شيخ الإسلام

(١) سورة المؤمنون، الآية ٥١.

(٢) أي: وإنما نور الدين مراعاة شهوة الطعام بتناول الحلال وترك الحرام.

(٣) قال في الفتح إسناده حسن.

والحفاظ^(١) ابن حجر: لو سمع بقراط بهذه القسمة لعجب من هذه الحكمة.

وقال غيره: إنما خص الثلاثة بالذكر لأنها أسباب حياة الحيوان، ولأنه لا يدخل البطن سواها.

وهل المراد بالثلث التساوي على ظاهر الخبر، أو التقسيم على ثلاثة أقسام متقاربة؟ محل احتمال.

وقد صح^(٢)، (المؤمن يأكل في معى واحد - وهي بكسر الميم مقصور: المصارين - والكافر/ يأكل في سبعة أمعاء) وليست حقيقة العدد مرادة، وتخصيص السبعة للمبالغة في التكثير، والمعنى: أن المؤمن من شأنه التقلل من الأكل لاشتغاله بأسباب العبادة ولعلمه بأن مقصود الشرع من الأكل ما سد الجوع، ويعين على العبادة، ولخشيته أيضاً من حساب ما زاد على ذلك، والكافر بخلاف ذلك.

وعند أهل التشريح أن أمعاء الإنسان سبعة؛ المعدة ثم ثلاثة أمعاء بعدها متصلة بها: البواب ثم الصائم ثم الرقيق، والثلاثة رقاق، ثم الأعور والقولون والمستقيم وطره الدبر، وكلها غلاظ، وقد نظمها زين الدين العراقي في قوله:

سبعة أمعاء لكل آدمي معدة بوابها مع صائم
ثم الرقيق أعور قولون مع المستقيم مسلك المطاعم

فيكون المعنى: أن الكافر لكونه يأكل بشره لا يشبعه إلا ملء أمعائه السبعة، والمؤمن يشبعه ملء معى واحد.

ولا يلزم من هذا الحديث اطراده في حق كل مؤمن وكافر، فقد

(١) كذا في النسخ على أنها صفة لشخص واحد. وفي ش: الحافظ.

(٢) في الصحيحين وغيرهما.

يكون في المؤمنين من يأكل كثيراً، إما بحسب العادة أو لعارض يعرض له من مرض باطن أو لغير ذلك. ويكون في الكفار من يأكل قليلاً إما لمراعاة الصحة على رأي الأطباء، وإما للرياضة على رأي الرهبان، وإما لعارض كضعف المعدة.

ومحصل القول إن من شأن المؤمن الحرص على الزهادة والاقتناع بالبلغة، بخلاف الكافر. وقيل: المراد أن المؤمن يسمى الله عند طعامه وشرابه فلا يشركه الشيطان فيكفيه القليل بخلاف الكافر. وقيل: المراد بالمؤمن - في هذا الحديث - التام الإيمان، لأن من حسن إسلامه وكمل إيمانه اشتغل فكره فيما يصير إليه من الموت وما بعده، فيمنعه شدة الخوف وكثرة الفكر والإشفاق على نفسه من استيفاء شهوته كما ورد في حديث لأبي أمامة رفعه: من كثر تفكره قل مطعمه، ومن قل تفكره كثر مطعمه، وقسا قلبه. وقالوا: لا تدخل الحكمة معدة ملئت طعاماً، ومن قل طعامه قل شربه وخف منامه، ومن خف منامه ظهرت بركة عمره، ومن امتلأ بطنه كثر شربه، ومن كثر شربه ثقل نومه، ومن ثقل نومه محقت بركة عمره، فإذا اكتفى بدون الشبع حسن اغتذاء بدنه، وصلح حال نفسه وقلبه، ومن تملأ من الطعام ساء غذاء بدنه وأشرت نفسه وقسا قلبه.

وعن ابن عباس قال عليه السلام: إن أهل الشبع في الدنيا هم أهل الجوع غداً في الآخرة. رواه الطبراني.

وعن سلمان^(١) وأبي جحيفة^(٢) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن أكثر الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً في الآخرة^(٣).

(١) عند ابن ماجه والحاكم بسند لين، كما قال الحافظ.

(٢) عند البزار بسند ضعيف.

(٣) في ط: يوم القيامة.

[قلة الطعام في أبياته ﷺ]

وقالت عائشة؛ لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعاً قط. وإنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشهاه، إن أطعموه أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب.

وقولها: لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعاً قط، محمول على الشبع الذي يثقل المعدة ويثبط صاحبه عن القيام بالعبادة، ويفضي إلى البطر والأشر والنوم والكسل، وقد تنتهي كراهته إلى التحريم بحسب ما يترتب عليه من المفسدة، وليس المراد بالشبع النسبي المعتاد في الجملة، ففي صحيح مسلم: خروجه ﷺ وصاحبيه من الجوع وذهابهم إلى بيت الأنصاري، وذبحه الشاة. وفيه: فلما أن شبعوا ورووا. قال النووي: فيه جواز الشبع، وما جاء في كراهته محمول على المداومة عليه.

وعن أبي هريرة قال: ما شبع آل محمد ﷺ من طعام ثلاثة أيام
١٦٠/ب تباعاً حتى قبض. رواه الشيخان. /

وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة وأهله طاوياً لا يجدون عشاء، وإنما كان خبزهم الشعير^(١). رواه الترمذي وصححه^(٢).

وفي حديث مسعر عند مسلم: ما شبع آل محمد يومين من خبز البر، إلا وأحدهما تمر.

وأخرج ابن سعد من طريق عمران بن زيد المدني: حدثني والدي

(١) في ش: وإنما كان عشاؤهم خبز الشعير.

(٢) وكذا رواه أحمد وابن سعد.

قال: دخلنا على عائشة فقالت: خرج - تعني النبي ﷺ - من الدنيا ولم يملأ بطنه في يوم من طعامين، كان إذا شبع من التمر لم يشبع من الشعير، وإذا شبع من الشعير لم يشبع من التمر.

وليس في هذا ما يدل على ترك الجمع بين لونين، فقد جمع ﷺ القثاء والرطب كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وعن الحسن^(١) قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: والله ما أمسى في آل محمد صاع من طعام، وإنما لتسعة أبيات، والله ما قالها استقلالاً لرزق الله ولكن أراد أن تتأسى به أمته. رواه الدمياطي في السيرة له.

وعن عائشة قالت: كان يعجب نبي الله ﷺ من الدنيا ثلاثة أشياء: الطيب والنساء والطعام، فأصاب اثنتين ولم يصب واحدة، أصاب النساء والطيب، ولم يصب الطعام. ذكره الدمياطي أيضاً^(٢).

وفي الشمائل للترمذي عن النعمان بن بشير: لقد رأيت نبيكم وما يجد من الدقل ما يملأ بطنه^(٣).

وفي رواية مسلم: يظل اليوم يلتوي ما يجد من الدقل^(٤) ما يملأ بطنه.

وقالت عائشة: إن كنا آل محمد نمكث شهراً ما نستوقد بنار، إن هو إلا الماء والتمر^(٥).

(١) هو الحسن البصري.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند عن عائشة وإسناده صحيح إلا أن فيه رجلاً لم يسم.

(٣) «ما يملأ بطنه» سقطت من ط.

(٤) الدقل: رديء التمر ويابسه.

(٥) رواه الترمذي وغيره.

وقال عتبة بن غزوان: لقد رأيتني - وإني لسابع سبعة - مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق السمر^(١) حتى تقرحت أشداقنا^(٢).

وفي البخاري ومسلم: كانت عائشة تقول لعروة: والله يا ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار، قال: قلت يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان، التمر والماء، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح^(٣) فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقيناه.

ولسلم أيضاً: قالت: لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين.

وقال أنس: ما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفاً مرققاً حتى لحق بالله، ولا رأى شاة سميطاً بعينه حتى لحق بالله. رواه البخاري.

والمرقق: الملين المحسن كخبز الحواري وشبهه، والترقيق: التلين، ولم يكن عندهم مناخل، وقد يكون المرقق: الرقيق الموسع، قاله القاضي عياض. وجزم به ابن الأثير فقال: وهو السميد وما يصنع من كعك وغيره، وقال ابن الجوزي: هو الخفيف. كأنه أخذه من الرقاق وهي الخشبة التي يرقق بها.

(١) شجر الطلح وهو نوع من العضاة أو كل شجر عظيم له شوك.

(٢) رواه مسلم برقم ٢٩٦٧ وكذا الترمذي.

(٣) جمع منيحة وهي العطية لفظاً ومعنى، أي: غنم فيها لبن، وقيل لا يقال منيحة إلا للناقة.

والحوارى: - بضم المهملة وتشديد الواو وفتح الراء - الخالص الذي ينخل مرة بعد أخرى.

وقوله: ولا شاة سميطاً: هو الذي أزيل شعره بالماء الساخن وشوي بجلده، وإنما يصنع ذلك في الصغير السن، وهو من فعل المترهين^(١) من وجهين: أحدهما المبادرة إلى ذبح ما لو بقي لآزداد ثمنه، وثانيهما: أن المسلوخ يتتفع بجلده في اللبس وغيره. والسمط يفسده، وقد جرى ابن بطال وابن الأثير على أن المسموط هو المشوي، لكن الثاني ذكر أن أصله نزع صوفه بالماء الحار كما تقدم، قال: وإنما ١/١٦١ يفعل ذلك في الغالب ليشوى.

ولعله يعني: أنه لم ير السميط في مأكوله، وإلا فإن لم يكن معهوداً فلا تمدح.

وعن أبي حازم أنه سأل سهلاً: هل رأيتم في زمان النبي ﷺ النقى^(٢)؟ قال: لا، فقلت: كنتم تنخلون الشعير؟ قال: لا، ولكن كنا ننفخه. رواه البخاري.

وفي رواية له: هل كانت لكم في عهد رسول الله ﷺ مناخل؟ فقال: ما رأى النبي ﷺ منخلاً من حين ابتعثه الله حتى قبضه الله.

قال شيخ الإسلام ابن حجر: أظنه احترز عما قبل البعثة، لكونه ﷺ كان يسافر في تلك المدة إلى الشام تاجراً، وكانت الشام إذ ذاك مع الروم، والخبز النقى عندهم كثير، وكذا المناخل وغيرها من آلات الترفه، ولا ريب أنه رأى ذلك عندهم، وأما بعد البعثة فلم يكن إلا

(١) في (ط، د) المسرفين: وفي ب المترفين.

(٢) النقى: الخبز الحواري، وهو ما نقى دقيقه.

بمكة والطائف والمدينة، ووصل إلى تبوك وهي من أطراف الشام لكن لم يفتحها ولا طالت إقامته بها. انتهى.

وقد تتبعته هل كانت أقراص خبزه صغاراً أم كباراً؟ فلم أجد في ذلك شيئاً بعد التفتيش. نعم روي أمره بتصغيرها في حديث عند الديلمي عن عائشة رفعت بلفظ: صغروا الخبز وأكثروا عدده يبارك لكم فيه، وهو واه، بحيث ذكره ابن الجوزي في الموضوعات وقال: إن المتهم به جابر بن سليم. وروي عن ابن عمر مرفوعاً: البركة في صغر القرص، ونقل عن النسائي أنه كذب. لكن روى البزار بسند ضعيف عن أبي الدرداء مرفوعاً. قوتوا طعامكم يبارك لكم فيه. قال في النهاية: وحكي عن الأوزاعي أنه تصغير الأرغفة، كذا حكى البزار عن إبراهيم بن عبدالله بن الجنيد عن بعض أهل العلم: أنه تصغير الأرغفة. أشار إلى ذلك شيخنا في المقاصد الحسنة. ولعل هذا سند^(١) شيخني وقدوتي وإنسان عين بصيرتي العارف الرباني رهان العارفين أبي إسحاق إبراهيم المتبولي في تصغير أرغفة سباطه كالشيخ أبي العباس أحمد البدوي والسادات أكسير معارف السعادات أولى المواهب العلية والحقائق المحمدية بني الوفاء أعاد الله من بركاتهم وواصل امداداتهم إلينا^(٢).

وعن عائشة قالت: توفي ﷺ وليس عندي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي، فأكلت منه حتى طال علي فكلته ففني. رواه البخاري ومسلم.

(١) أي مستند شيخني ودليله في تصغير أرغفته [م].

(٢) هذه لغة لم يعرفها السلف [م].

ودلالالتها تحالف ما أثبتته الشرع، لأن المدد والبركة تكون من الله سبحانه وتعالى [الناشر].

وعندهما أيضاً قالت: توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير.

وقال ابن عباس: ودرعه مرهونة بعشرين صاعاً من طعام أخذه لأهله. رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالوا: الجوع يا رسول الله، قال وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، فأق رجلأ من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رآته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً. فقال لها ﷺ: أين فلان؟ قالت: ذهب يستعذب لنا الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني. قال: فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا، وأخذ المدينة فقال له رسول الله ﷺ: إياك والحلوب، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال ﷺ لأبي بكر وعمر: والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة. أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم/ هذا ١٦١/ب النعيم. رواه مسلم وغيره.

وهذا السؤال سؤال تشريف وإنعام وتعدد فضل وإكرام.

وعن طلحة بن نافع أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: أخذ رسول الله ﷺ بيدي ذات يوم إلى منزله فأخرج إليه فلق^(١) من خبز، فقال ما من آدم؟ فقالوا: لا، إلا شيء من خل، قال: نعم الأدم

(١) فلق: جمع فلقة: أي قطعة.

الخل^(١). قال جابر: فما زلت أحب الخل منذ سمعتها من نبي الله ﷺ وقال طلحة: فما زلت أحب الخل منذ سمعتها من جابر. رواه مسلم.

[أحاديث وضع الحجر على بطنه ﷺ]

وروي عن ابن بجير قال: أصاب النبي ﷺ جوع يوماً، فعمد إلى حجر فوضعه على بطنه ثم قال: ألا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم. رواه ابن أبي الدنيا^(٢).

وعن أنس عن أبي طلحة قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه عن حجرين، قال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث أبي طلحة لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

ومعنى قوله: ورفعنا عن بطوننا عن حجر. قال: كان أحدهم يشد في بطنه الحجر من الجهد والضعف الذي به من الجوع.

وقصة جابر - يوم الخندق - حين رأى النبي ﷺ يوم الخندق، وقد قام إلى الكدية وبطنه معصوب بحجر. وتقدمت، وما أحسن قول الأبوصيري:

(١) قال ابن القيم: هذا ثناء عليه بحسب الوقت لا لتفضيله على غيره بدليل سببه. فقال ذلك جبراً لقلوبهم وتطييباً لأنفسهم إذ لو حضر نحو لحم أو عسل كان أحق بالمدح.
(٢) ضعفه المنذري.

وشد من سغب أحشائه وطوى تحت الحجارة كشحاً مترف الأدم

والكشح: كما ذكرته في شرح هذه القصيدة، ما بين خاصرته الشريفة وأقصر ضلع من جنبه الشريف.

وإنما فعل هذا ﷺ ليسكن بعض ألم الجوع، وإنما كان هذا الفعل مسكناً لأن كلب الجوع من شدة حرارة المعدة الغريزية، فهي إذا امتلأت من الطعام اشتغلت تلك الحرارة بالطعام، فإذا لم يكن فيها طعام طلبت رطوبات الجسم وجواهره، فيتألم الإنسان بتلك الحرارة فتتعلق بكثير من جواهر البدن، فإذا انضمت على المعدة الأحشاء والجلد خمدت نارها بعض الخمود فقل الألم.

وإنما تأله بالجوع ليحصل به تضعيف الأجر مع حفظ قوته ونضارة جسمه، حتى إن من رآه لا يظن أن به جوعاً، لأن جسمه ﷺ وإنما كان يرى أشد نضارة من أجسام المترفين^(١) بالنعيم في الدنيا. وهذا المعنى هو الذي قصده الناظم بقوله «مترف الأدم» وهو من باب الاحتراس والتكميل، لأنه لما ذكر أنه شد من سغب. خاف أن يتوهم أن جسمه الشريف حينئذٍ يظهر فيه أثر الجوع فاحترس ورفع ذلك الإبهام بقوله: مترف الأدم.

وقد أنكر أبو حاتم بن حبان أحاديث وضع الحجر على بطنه الشريف من الجوع، وقال: إنها باطلة، متمسكاً بحديث الوصال «لست كأحدكم إني أطعم وأسقى» قال وإنما معناه: الحجز، بالزاي وهو طرف الإزار، لأن الله تعالى قد كان يطعم رسول الله ﷺ ويسقيه إذا واصل، فكيف يحتاج إلى شد الحجر على بطنه؟ وما يغني الحجر عن الجوع. انتهى.

(١) في (ب، ط) المترفين.

وقال بعضهم: يجوز أن يكون عصب الحجر لعادة العرب أو أهل المدينة أنهم يفعلون ذلك إذا خلت أجوافهم وغارت بطونهم يشدون عليها حجراً ففعل ﷺ ذلك ليعلم أصحابه أنه ليس عنده ما يستأثر به عليهم.

١/١٦٢ والصواب: صحة الأحاديث، وأنه ﷺ / فعل ذلك اختيار للثواب.

[إشكال وجواب]

وقد استشكل كونه ﷺ وأصحابه كانوا يطوون الأيام جوعاً، مع ما ثبت أنه كان يرفع لأهله قوت سنة، وأنه قسم بين أربعة أنفس من أصحابه ألف بعير مما أفاء الله عليه، وأنه ساق في عمرته مائة بدنة فنحرها وأطعمها المساكين، وأنه أمر لأعرابي بقطع من الغنم، وغير ذلك، مع من كان معه من أصحاب الأموال كأبي بكر وعمر وعثمان وطلحة وغيرهم، مع بذلهم أنفسهم وأمواهم بين يديه. وقد أمر بالصدقة فجاء أبو بكر بجميع ماله، وعمر بنصفه، وحث على تجهيز جيش العسرة فجهزهم عثمان بألف بعير إلى غير ذلك.

وأجاب عنه الطبري^(١) - كما حكاه في فتح الباري - أن ذلك كان منهم في حالة دون حالة لا لعوز وضيق، بل تارة للإيثار وتارة لكرامة الشبع وكثرة الأكل، انتهى.

وتعقب: بأن ما نفاه مطلقاً فيه نظر لما تقدم من الأحاديث. وأخرج ابن حبان في صحيحه عن عائشة: من حدثكم أنا كنا نشبع

(١) في الأصل: الطبراني.

من التمر فقد كذبكم، فلما افتتحت قريظة أصبنا شيئاً من التمر والودك إلى غير ذلك.

قال الحافظ ابن حجر: والحق أن الكثير منهم كانوا في حال ضيق قبل الهجرة، حيث كانوا بمكة ثم لما هاجروا إلى المدينة كان أكثرهم كذلك، فواساهم الأنصار بال منازل والمناجح، فلما فتحت لهم النضير وما بعدها ردوا عليهم منائحهم كما تقدم.

وقد قال ﷺ: لقد أخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من يوم ليلة ما لي ولبلال طعام يأكله أحد إلا شيء يواريه ابط بلال. رواه الترمذي وصححه.

نعم كان ﷺ يختار ذلك مع إمكان حصول التوسع والتبسط في الدنيا له، كما أخرج الترمذي من حديث أبي أمامة، أن رسول الله ﷺ قال: عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا، يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك. وحكمة هذا التفصيل الاستلذاذ بالخطاب، وإلا فالله تعالى عالم بالأشياء جملة وتفصيلاً.

[فقر ملتزم]

وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل علي الصفا، فقال رسول الله ﷺ: يا جبريل والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سفة^(١) من دقيق، ولا كف من سويق، فلم يكن كلامه

(١) أي قبضة.

بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفزعته فقال رسول الله ﷺ: أمر الله القيامة أن تقوم؟ قال: لا، ولكن أمر إسرافيل فنزل إليك حين سمع كلامك، فاتاه إسرافيل فقال: إن الله سمع ما ذكرت فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض، وأمرني أن أعرض عليك أسير معك جبال تهامة زمرداً وياقوتاً وذهباً وفضة [فإن رضيت] (١) فعلت، فإن شئت نبياً ملكاً، وإن شئت نبياً عبداً، فأوماً إليه جبريل أن تواضع فقال: بل نبياً عبداً ثلاثاً، رواه الطبراني بإسناد حسن.

فانظر إلى همته العلية كيف عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فأبأها، ومعلوم أنه لو أخذها لأنفقها في طاعة ربه، فأبى ذلك واختار العبودية المحضة، فيا لها من همة شريفة رفيعة ما أسناها ونفس زكية كريمة ما أبأها. والله در صاحب برده المديح حيث قال:

١٦٢/ب وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيأشمم /
وأكدت زهده فيها ضرورته إن الضرورة لا تعدو على العصم
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

أي كيف تدعو ضرورة سيد المعصومين إلى زخرف الدنيا، وهي وما فيها إنما برزت لأجله، فكيف يضطر إليها. لكن في كلامه شيء، فإنه في مقام المديح فلا يليق منه الوصف بالزهد ولا بالضرورة.

[هل يوصف ﷺ بالفقر؟]

قال الحلبي في شعب الإيمان: من تعظيم النبي ﷺ أن لا يوصف بما هو عند الناس من أوصاف الضعة، فلا يقال كان فقيراً.

(١) زيادة في ش.

وأنكر بعضهم إطلاق الزهد في حقه ﷺ . وقد حكى صاحب «نثر الدر»^(١) عن محمد بن واسع أنه قيل له: فلان زاهد، قال: وما قدر الدنيا حتى يزهد فيها. وقد ذكر القاضي عياض في الشفاء، ونقله عنه^(٢) الشيخ تقي الدين السبكي في كتابه «السيف المسلول» أن فقهاء الأندلس أفتوا بقتل حاتم المتفقه الطليطي وصلبه لاستخفافه بحق النبي ﷺ وتسميته إياه أثناء مناظرته باليتيم، وزعمه أن زهده لم يكن قصداً، ولو قدر على الطيبات لأكلها. انتهى.

وقد ذكر الشيخ بدر الدين الزركشي عن بعض الفقهاء المتأخرين أنه كان يقول: لم يكن النبي ﷺ فقيراً من المال قط، ولا حاله حال فقير، بل كان أغنى الناس بالله، قد كفي أمر دنياه في نفسه وعياله، وكان يقول في قوله ﷺ: «اللهم أحييني مسكيناً»^(٣)، إن المراد به استكانة القلب لا المسكنة التي هي أن لا يجد ما يقع موقِعاً من كفايته. وكان يشدد النكير على من يعتقد خلاف ذلك انتهى.

وأما ما يروى أنه ﷺ قال: الفقر فخري وبه أفتخر. فقال شيخ الإسلام والحفاظ^(٤) ابن حجر: هو باطل موضوع.

[تعدد أنواع الطعام]

واعلم أنه لم يكن من عاداته الكريمة ﷺ حبس نفسه الشريفة على نوع واحد من الأغذية لا يتعداه إلى سواه، فإن ذلك يضر

(١) هو أبو سعيد منصور بن الحسين الأبي.

(٢) في (ط، د) عن. وهو تصحيف لأن السبكي بعد القاضي عياض [م].

(٣) رواه ابن ماجه وغيره.

(٤) وقعت هنا صفة لمفرد. وفي ش: شيخ الإسلام الحافظ.

بالطبيعة جداً، ولو أنه أفضل الأغذية، بل كان ﷺ يأكل مما جرت عادة أهل بلده بأكله من اللحم والفاكهة والخبز والتمر وغيره مما سيأتي، فأكل ﷺ الحلوى والعسل وكان يجبهما، رواه البخاري والترمذي .

والحلوى: بالقصر والمد، كل حلوى، وقال الخطابي: اسم الحلوى لا يقع إلا على ما دخلته الصنعة، وقال ابن سيده: ما عولج من الطعام بحلوى، وقد يطلق على الفاكهة .

قال الخطابي: ولم يكن حبه ﷺ لها على معنى كثرة الشهي لها، وشدة نزاع النفس إليها، وإنما كان ينال منها إذا أحضرت إليه نيلاً صالحاً فيعلم بذلك أنها تعجبه، ووقع في كتاب فقه اللغة للثعالبي: أن حلوى النبي ﷺ التي كان يجبهها هي المجمع - بالميم والجيم، بوزن عظيم - وهو تمر يعجن بلبن، حكاها في فتح الباري .

ولم يصح ورود أنه ﷺ كان يحب السكر ولا أنه تصدق به ولا أنه رآه . لكن أخرج أبو جعفر الطحاوي والبيهقي في سننه من حديث لمائة عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن معاذ بن جبل: أن رسول الله ﷺ حضر ملاك^(١) رجل من الأنصار، فجاءت الجواري معهن الأطباق عليها اللوز والسكر فأمسك القوم أيديهم، فقال ﷺ: ألا تنتهبون؟ قالوا: إنك نهيت عن النهبة^(٢)، قال: أما العرسان فلا، قال: فرأيت النبي ﷺ يجاذبهم ويجاذبونه .

واحتج به الطحاوي على أن النثار غير مكروه، كما ذهب إليه أبو

(١) أي نكاح وتزويج .

(٢) أي أخذ النهبة .

حنيفة، / وقضى به على الأحاديث الصحيحة التي فيها النهي عن ١/١٦٣
النهبة.

لكن قال البيهقي بعد رواية الحديث: وهذا لا يثبت، ثم قال:
وروي من حديث عائشة عنه ﷺ، ولا يثبت في هذا المعنى شيء،
وشنع على الطحاوي القول في ذلك جداً في كتاب المعرفة وقال:
الحديث إنما يروى عن عون بن عمارة وعصمة بن سليمان وكلاهما لا
يحتج به، وشيخهما لمأزة بن المغيرة مجهول، فهاتان علتان كل منهما
منفردة توجب ضعف الحديث فكيف بهما مجتمعتان؟! هذا وخالد بن
معدان منقطع^(١) ولا حجة في منقطع. فهذه علل ثلاث يضعف
الحديث بدونها^(٢). وقد أفرد الكلام على ذلك ابن مفلح اليوسفي والله
أعلم.

[طعام الخبيص]

وعن ليث بن أبي سالم قال: أول من خبص في الإسلام عثمان
ابن عفان، قدمت عليه عير تحمل الدقيق والعسل فخلط بينهما وبعث
به إلى رسول الله ﷺ فأكل فاستطابه. قال الطبري في الرياض: رواه
خيثمة في فضائل عثمان.

وعن عبدالله بن سلام قال: قدمت عير فيها جمل لعثمان بن
عفان عليه دقيق حوارى وسمن وعسل، فأق بها النبي ﷺ فدعا فيها
بالبركة ثم دعا ببرمة فنصبت على النار وجعل فيها من العسل والدقيق
والسمن ثم عصد حتى نضج أو كاد ينضج ثم أنزل فقال ﷺ: كلوا

(١) أي لم يسمع من معاذ.

(٢) أي بأقل منها كواحد، فكيف إذا اجتمعت.

هذا شيء تسميه فارس الخبيص قال الطبري: خرجته تمام في فوائده^(١) والطبراني في معجمه ورجاله ثقات.

وأكل ﷺ لحم الضأن.

وهذه الثلاثة - أعني: الحلوى والعسل واللحم - من أفضل الأغذية وأنفعها للبدن والكبد والأعضاء، ولا ينفر منها إلا من به علة وآفة.

[أكله اللحم ﷺ]

واللحم سيد طعام أهل الجنة، وفي رواية: هو سيد الطعام لأهل الدنيا والآخرة، رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا من حديث أبي الدرداء مرفوعاً. وسنده ضعيف وله شواهد منها:

عن علي رفعه: سيد طعام الدنيا اللحم ثم الأرز، أخرجه أبو نعيم في الطب النبوي^(٢).

وأكل اللحم يزيد سبعين قوة. قاله الزهري. وعن علي: أنه يصفى اللون ويحسن الخلق ومن تركه أربعين ليلة ساء خلقه.

ولأبي الشيخ بن حيان من رواية ابن سمعان قال: سمعت من علمائنا يقولون: كان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ اللحم، وهو يزيد في السمع، وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة، ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل.

(١) في (أ): فوائده.

(٢) أورده ابن الجوزي في الموضوع.

وقال الإمام الشافعي: إن أكله يزيد في العقل.

وكان ﷺ يعجبه الذراع ولذلك سم فيه، وعن أبي رافع أنه أهديت له شاة فجعلها في قدر، فدخل رسول الله ﷺ فقال ما هذا يا أبا رافع؟ فقال: شاة أهديت لنا يا رسول الله فطبختها في القدر. قال: ناولني الذراع يا أبا رافع، فناولته الذراع، ثم قال: ناولني الذراع الآخر، فناولته الذراع الآخر، فقال: ناولني الذراع الآخر. فقال: يا رسول الله، إنما للشاة ذراعان فقال له رسول الله ﷺ: أما إنك لو سكت لناولتني ذراعاً فذراعاً ماسكت، ثم دعا بماء فمضمض فاه وغسل أطراف أصابعه ثم قام فصلى. الحديث رواه أحمد.

ورواه الدارمي والترمذي عن أبي عبيد بلفظ: طبخت له ﷺ

قدراً، وكان/ يعجبه الذراع، فناولته الذراع، ثم قال: ناولني ١٦٣/ب الذراع، فقلت يا رسول الله وكم للشاة من ذراع؟ فقال: والذي نفسي بيده لو سكت لناولتني الذراع ما دعوت.

وقالت عائشة: وكان الذراع أحب إليه، وكان لا يأكل اللحم

إلا غباً، وكان يعجل إليها لأنه أعجل نضجاً، رواه الترمذي^(١).

وكذلك كان يحب لحم الرقبة. فعن ضباعة بنت الزبير أنها

ذبحت في بيتها شاة، فأرسل إليها رسول الله ﷺ أن أطعمينا من

شاتكم، فقالت: ما بقي عندنا إلا الرقبة، وإني لأستحي أن أرسل بها

إلى رسول الله ﷺ. فرجع الرسول فأخبره، فقال: ارجع إليها فقل

لها: أرسلني بها فإنها هاربة الشاة وأقرب الشاة إلى الخير وأبعدها من

الأذى^(٢).

(١) في الجامع والشائل بإسناد فيه مقال.

(٢) رواه الإمام أحمد والنسائي والبيهقي.

ولا ريب أن أخف لحم الشاة لحم الرقبة ولحم الذراع والعضد، وهو أخف على المعدة وأسرع انضماماً، وفي هذا أنه ينبغي مراعاة الأغذية التي تجمع ثلاث خواص: أحدها: كثرة نفعها وتأثيرها في القوى، الثاني: خفتها على المعدة وسرعة انحدارها عنها، الثالث: سرعة هضمها، وهذا أفضل ما يكون من الغذاء.

وقال عليه السلام: أطيب اللحم لحم الظهر، رواه الترمذي^(١).

وأما حديث أنه عليه السلام كان يكره الكليتين لمكانهما من البول، فقال الحافظ العراقي رويناه في جزء من حديث أبي بكر محمد بن عبدالله بن الشخير من حديث ابن عباس بإسناد فيه ضعف. انتهى.

وكان عليه السلام ينتهش^(٢) اللحم، أي يقبض عليه بفمه ويزيله من العظم أو غيره، وينتشله أي يقتلعه من المرق. والنهش بعد الانتشال.

وفي البخاري: أنه عليه السلام احتز من كتف شاة في يده، فدعي إلى الصلاة، فألقاها والسكين التي يحتز بها، ثم قام إلى الصلاة، ولم يتوضأ.

قال ابن بطال: هذا الحديث يرد حديث أبي معشر عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة رفعتة: لا تقطعوا اللحم بالسكين فإنه من صنيع الأعاجم وانهشوا فإنه أهنا وأمرأ. قال أبو داود وهو حديث ليس بالقوي^(٣).

قال الحافظ أبو الفضل العسقلاني رحمه الله، له شاهد من

(١) وكذا رواه الإمام أحمد والنسائي وغيرهما.

(٢) هي بسين مهملة أو معجمة.

(٣) قال البخاري فيه أبو معشر وهو منكر الحديث ومن مناكيره هذا الحديث.

حديث صفوان بن أمية. أخرجه الترمذي بلفظ: انهشوا اللحم نهشاً، فإنه هنا وأمرأ، وقال: لا نعرفه إلا من حديث عبد الكريم انتهى. قال: وعبد الكريم هو أبو أمية بن أبي المخارق، ضعيف، لكن أخرجه ابن أبي عاصم من وجه آخر عن صفوان بن أمية^(١) فهو حسن لكن ليس فيه ما زاده أبو معشر من التصريح بالنهي عن قطع اللحم بالسكين. وأكثر ما في حديث صفوان أن النهش أولى. انتهى.

ويمكن الجمع: بأن النهش مما على العظم الصغير، والاحتراز مما على الكبير.

وأكل ﷺ الشواء، فعن أم سلمة أنها قربت إلى النبي ﷺ جنباً مشوياً فأكل منه ثم قام إلى الصلاة وما توضأ، قال الترمذي حسن صحيح.

وأكل ﷺ القديد^(٢)، كما في حديث في السنن عن رجل^(٣) قال: ذبحت لرسول الله ﷺ شاة ونحن مسافرون. فقال: أصلح لحمها، فلم أزل أطعمه منه إلى المدينة.

وأكل ﷺ من الكبد المشوية.

وأكل لحم الدجاج. رواه الشيخان والترمذي وغيرهم.

وأكل لحم حمار الوحش. رواه الشيخان.

وأكل لحم الجمل سفراً وحضراً.

وأكل لحم الأرنب. رواه الشيخان.

وأكل من داوب البحر. رواه مسلم.

(١) من قوله أخرجه الترمذي سقط من ط.

(٢) القديد: اللحم المملوح المقدد، أي المجفف في الشمس.

(٣) من الصحابة ولا ضير في إبهامه. والحديث في السنن الأربعة.

[أطعمة أخرى]

١/١٦٤

وأكل الثريد - وهو بفتح المثناة - أن يثرد الخبز/ بمرق اللحم، وقد يكون معه اللحم. ومن أمثالهم: الثريد أحد اللحمين. وروى أبو داود من حديث ابن عباس قال: أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ الثريد من الخبز والثريد من الحيس^(١).

وأكله ﷺ بالسمن، وأكل الخبز بالزيت.

وعن حذيفة أن النبي ﷺ قال: إن جبريل أطعمني الهريسة، يشد بها ظهري لقيام الليل، رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن الحجاج اللخمي، وهو الذي وضع هذا الحديث.

وأكل ﷺ الدباء^(٢) وكانت تعجبه، وكان يتبعها من حوالي القصعة، قال أنس فلم أزل أحب الدباء من يومئذ. رواه مسلم. قال النووي: فيه أنه يستحب أن تحب الدباء وكذلك كل شيء كان يحبه ﷺ.

وكذلك أكل ﷺ السلق مطبوخاً بالشعير. قال الترمذي: حديث حسن غريب.

وأقى الحسن بن علي وابن عباس وابن جعفر إلى سلمى^(٣) فقالوا: اصنعي لنا طعاماً مما كان يعجب رسول الله ﷺ ويحسن أكله:

(١) هو عند أبي داود برقم ٣٧٨٣ وقال: وهو ضعيف [م]. والحيس: تمر خلط بأقط وسمن.

(٢) هو ثمر شجر اليقطين.

(٣) هي أم رافع زوج أبي رافع، قابلة فاطمة في ابنها.

فقلت: يا بني لا تشتهي اليوم^(١) فقال: بلى اصنعيه لنا، فقامت فأخذت شيئاً من الشعير فطحته ثم جعلته في قدر وصبت عليه شيئاً من زيت ودقت الفلفل والتوابل فقربته إليهم فقالت: هذا مما كان يعجبه ﷺ ويحسن أكله. رواه الترمذي.

وأكل ﷺ الخزيرة^(٢) - وهي بخاء معجمة مفتوحة ثم زاي مكسورة، وبعد التحتانية الساكنة راء - ما يتخذ من الدقيق على هيئة العصيدة، لكن أرق منها، قاله الطبري. وقال ابن فارس: دقيق يخلط بشحم، وقال القتيبي وتبعه الجوهري: أن يؤخذ اللحم فيقطع صغاراً ويصب عليه ماء كثير فإذا نضج ذر عليه الدقيق، فإن لم يكن فيها لحم فهي عصيدة. وقيل: مرقة تصفى من بلالة النخالة ثم تطبخ، وقيل: الخزيرة بالإعجام من النخالة، والحريرة - يعني بالإهمال - من اللبن.

وقال عتيان: غدا علي رسول الله ﷺ وأبو بكر حين ارتفع النهار، وحبسناه على خزير صنعناه^(٣).

وأكل ﷺ الأقط، قاله ابن عباس [فيما رواه]^(٤) وهو جن اللبن المستخرج زبده، أكلته وهو كثير بمكة والمدينة زادهما الله شرفاً، وهو أشبه شيء بالكشك.

وأكل ﷺ الرطب والتمر والبسر. رواه مسلم والترمذي وغيرهما.

(١) أي زمن اعتبار الناس الأطعمة اللذيذة.

(٢) كما في الصحيح من حديث عتيان بن مالك.

(٣) أخرجه البخاري.

(٤) زيادة في (ط، ب، ش).

قال الشارح كذا في النسخ، بعده بياض، وقد رواه البخاري عن ابن عباس.

وأكل الكبات. رواه مسلم، وهو بفتح الكاف وتخفيف الموحدة وبعد الألف مثلثة، النضيج من تمر الأراك. وقيل ورق الأراك، وتعقبه الاسماعيلي فقال: إنما هو تمر الأراك وهو البربر - بموحدة بوزن الحرير - فإذا اسود فهو الكبات.

وفي النهاية لابن الأثير؛ أنه ﷺ كان يحب الجذب - بالجيم والذال المعجمة المفتوحين - أي الجمار، وهو شحم النخل واحدها جذبة.

وأما الجبن، ففي السنن من حديث ابن عمر قال: أتى النبي ﷺ بجبنة في تبوك فدعا بسكين فسمى وقطع. رواه أبو داود.

[جمع فاكهتين]

وكان ﷺ يراعي صفات الأطعمة وطبائعها واستعمالها على قاعدة الطب، فإذا كان في أحد الطعامين ما يحتاج إلى كسر وتعديل كسره وعدله بضده إن أمكن، كتعديله حرارة الرطب بالطبخ. وهذا أصل كبير في المركبات من الأدوية، وإن لم يجد ذلك تناوله على حاجة وداعية من النفس من غير إسراف.

وروى أبو داود من حديث أبي أسامة عن هشام أنه ﷺ / كان يأكل البطيخ^(١) بالرطب، ويقول يكسر حر هذا ببرد هذا، وبرد هذا بحر هذا.

ورواه يزيد بن رومان عن الزهري عن عروة بتقديم «الطاء» كما

(١) في ط: الطبيخ.

للنوقاتي^(١)، وبتأخيرها كما للنسائي في الوليمة، فكأنه عند هشام باللفظين.

وكذا رواه ابن حبان في صحيحه من حديث محمد بن عبد الرحمن عن الإمام أحمد بن حنبل عن وهب بن جرير بن حازم، حدثنا أبي، سمعت حميداً يحدث عن أنس أن النبي ﷺ كان يأكل البطيخ أو البطيخ بالرطب، وقال عقبه: الشك من أحمد. وتقديم الطاء لغة حكاها صاحب المحكم.

وقد كان محمد بن أسلم^(٢) لا يأكل البطيخ لأنه لم ينقل كيفية أكل رسول الله ﷺ له.

وروى الطبراني في الأوسط من حديث عبدالله بن جعفر قال: رأيت في يمين النبي ﷺ قثاء وفي شماله رطباً وهو يأكل من ذا مرة، ومن ذا مرة، وفي سنده ضعف^(٣).

وأخرج فيه، وفي الطب لأبي نعيم من حديث أنس: كان يأخذ الرطب بيمينه والبطيخ بيساره، فيأكل الرطب بالبطيخ، وكان أحب الفاكهة إليه. وسنده ضعيف أيضاً.

وأخرج النسائي بسند صحيح عن حميد عن أنس: رأيت رسول

(١) الحافظ أبو عمر محمد بن أحمد بن عمر بن سليمان السجزي روى عنه عبد المؤمن بن خلف النسفي وطبقته، وله تصانيف كما في التبصير.

(٢) محمد بن أسلم الطوسي، الزاهد الورع المقتدي بالأثار، وصفه ابن المبارك بأنه ركن من أركان الإسلام، أدرك جماعة من التابعين.

(٣) وفي الصحيحين عن عبدالله بن جعفر: رأيت رسول الله ﷺ يأكل الرطب بالقثاء.

الله ﷺ يجمع بين الرطب والخربز - وهو بكسر الخاء المعجمة وسكون الراء وكسر الموحدة بعدها زاي - نوع من البطيخ الأصفر.

وفي هذا تعقب على من زعم أن المراد بالبطيخ في الحديث الأخضر، واعتلوا بأن الأصفر فيه حرارة كما في الرطب، وقد ورد التعليل بأن أحدهما يطفئ الآخر.

والجواب عن ذلك بأن في الأصفر بالنسبة للرطب برودة، وإن كان فيه لحلاوته طرف حرارة، والله أعلم.

وفي رواية النسائي أيضاً، بسند صحيح عن عائشة أن نبي الله ﷺ أكل البطيخ والرطب جميعاً.

وأخرج ابن ماجه عن عائشة: أرادت أُمي معالجتي للسمنة لتدخلني على رسول الله ﷺ فما استقام لها ذلك حتى أكلت الرطب بالقثاء، فسمنت كأحسن سمنة. ورواه النسائي وقال: بالتمر، . مكان الرطب.

وأما فضائل البطيخ فأحاديثه باطلة، وإن أفردته النوقاتي في جزء كما قال الحفاظ والله أعلم.

[جمع طعامين]

وقد كان ﷺ يأكل التمر بالزبد ويعجبه. فعن عبدالله وعطية ابني بسر، قالا: دخل علينا رسول الله ﷺ فقدمنا له زبداً وتمرأ، وكان يحب الزبد والتمر. رواه أبو داود وابن ماجه.

وسمى النبي ﷺ اللبن والتمر الأطيين. رواه أحمد.

وكان يأكل الخبز مادوماً ما وجد له إداماً، فتارة يأدمه^(١) باللحم ويقول: هو سيد الطعام لأهل الدنيا والآخرة^(٢)، وتارة بالبطيخ^(٣)، وتارة بالتمر، فإنه وضع تمر على كسرة من خبز الشعير، وقال هذه إدام هذه، رواه أبو داود والترمذي بسند حسن من حديث يوسف بن عبدالله بن سلام قال: رأيت النبي ﷺ أخذ... فذكره.

قال ابن القيم: وهذا من تدبير الغذاء، فإن الشعير بارد يابس، والتمر حار رطب - على أصح القولين - فإدام خبز الشعير به من أحسن التدبير.

وتارة بالخل، ويقول: نعم الأدم الخل رواه مسلم، وتقدم.

قال الخطابي والقاضي عياض: معناه مدح الاقتصاد في المأكل، ومنع النفس من ملاذ الأطعمة، تقديره: ائتموا بالخل وما في معناه مما تخف مؤنته ولا يعز وجوده، ولا تنافسوا في الشهوات فإنها مفسدة للدين مسقمة للبدن.

وتعقبه النووي فقال: الذي ينبغي أن يجزم به، أنه مدح للخل نفسه، وأما الاقتصاد في المطعم وترك الشهوات فمعلوم من قواعد آخر. انتهى.

وقال ابن القيم: هذا ثناء عليه / بحسب مقتضى الحال الحاضر، ١/١٦٥ لا تفضيله على غيره كما ظنه بعضهم، قال: وسبب الحديث أنه دخل

(١) في ط يأكله.

(٢) رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا من حديث أبي الدرداء مرفوعاً وسنده ضعيف. وقد ذكر قريباً.

(٣) قال الحافظ العراقي: أكله الخبز بالبطيخ لا أصل له.

على أهله يوماً فقدموا له خبزاً فقال: ما من آدم؟ فقالوا: ما عندنا إلا الخل، فقال: نعم الأدم الخل. والمقصود أن أكل الخبز مع الأدم من أسباب حفظ الصحة بخلاف الاقتصار على أحدهما، وسمى الأدم أدماً لإصلاحه الخبز وجعله ملائماً لحفظ الصحة، وليس في هذا تفضيل له على اللبن واللحم والعسل والمرق، ولو حضر لحم أو لبن لكان أولى بالمدح منه، فقال هذا جبراً وتطييباً لقلب من قدمه له، لا تفضيلاً له على سائر أنواع الأدم.

[أكل الفاكهة]

وكان ﷺ يأكل من فاكهة بلده عند مجيئها، ولا يجتني عنها. وهذا من أكبر أسباب الصحة، فإن الله سبحانه بحكمته جعل في كل بلد من الفاكهة ما ينتفع به أهلها في وقته، فيكون تناوله من أسباب صحتهم وعافيتهم، ويغني عن كثير من الأدوية، وقل من احتذى عن فاكهة بلده خشية السقم إلا وهو من أسقم الناس جسماً وأبعدهم من الصحة والقوة، فمن أكل منها ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي، على الوجه الذي ينبغي كان له دواء نافعاً.

وقد روى ابن عباس قال: رأيت رسول الله ﷺ يأكل العنب خرطاً. رويناه في الغيلانيات. لكن قال أبو جعفر العقيلي - كما حكاه في الهدى -: لا أصل لهذا الحديث.

قال ابن الأثير: يقال خرط العنقود واخرطه إذا وضعه في فيه ثم يأخذ حبه ويخرج عرجونه عارياً منه. قال: وجاء في بعض الروايات خرصاً - بالصاد بدل الطاء -.

[أكل البصل والثوم]

وأما البصل فروى أبو داود في سننه عن عائشة أنها سئلت عن البصل فقالت: إن آخر طعام أكله رسول الله ﷺ فيه بصل^(١).
وثبت عنه في الصحيحين أنه منع آكله من دخول المسجد.
وكان ﷺ يترك الثوم دائماً لأنه يتوقع مجيء الملائكة والوحي كل ساعة.

قال النووي: واختلف أصحابنا في حكم الثوم في حقه ﷺ وكذلك البصل والكراث ونحوها، فقال بعض أصحابنا: هي محرمة عليه، والأصح عندهم أنها مكروهة كراهة تنزيه وليست محرمة لعموم قوله ﷺ: لا، في جواب: أحرام هي؟ ومن قال بالأول يقول: معنى الحديث: ليس بحرام في حقكم. انتهى.

فينبغي لمحبه موافقته ﷺ في ترك الثوم ونحوه، وكراهة ما كان يكرهه ﷺ، فإن من أوصاف المحب الصادق أن يحب ما أحب محبوه ويكره ما يكرهه.

[طريقة الأكل وجلسته]

وكان ﷺ يأكل بأصابعه الثلاث. رواه الترمذي في الشمائل^(٢).
وهذا - كما في الهدي - أنفع ما يكون من الأكلات، فإن الأكل بأصبع أكل المتكبر، ولا يستلذ به الأكل ولا يمر به ولا يشبعه إلا بعد

(١) قال البيهقي: كان مشوياً في قدر أي مطبوخاً.

(٢) وأخرجه أحمد ومسلم وأبو داود.

طول، ولا يفرح آلات الطعام والمعدة بما ينالها في كل أكلة فيأخذها على إغماض كما يأخذ الرجل حقه حبة حبة أو نحو ذلك، فلا يلتذ بأخذه، والأكل بالخمسة والراحة يوجب ازدحام الطعام على الآلة وعلى المعدة، وربما استدتت الآلات فمات، وتغصب الآلات على دفعه، والمعدة على احتماله، ولا يجد له لذة ولا استمراء، فأنفع الأكل أكله ﷺ، وأكل من اقتدى به بالأصابع الثلاثة.

وكان ﷺ يلعق أصابعه إذا فرغ ثلاثاً: رواه الترمذي في الشمائل^(١).

وفي رواية مسلم ويلعق يده قبل أن يمسحها. وفي رواية أنه أمر بلعق الأصابع والصحفة^(٢).

وقد روى الترمذي عن أم عاصم قالت: دخل علينا نبیة/ الخیر، ونحن نأكل في قصعة فحدثنا أن رسول الله ﷺ قال: من أكل في قصعة ثم لحسها استغفرت له القصعة، وكذا أخرجه ابن ماجه وأحمد وابن شاهين والدارمي وغيرهم. وقال الترمذي: إنه حديث غريب. وأورده بعضهم بلفظ: تستغفر الصحفة للاحسها.

وفي حديث جابر مرفوعاً عن أبي الشيخ في الثواب: من أكل ما يسقط من الخوان أو القصعة أمن من الفقر والبرص والجذام وصرف عن ولده الحمق.

وللديلمی من طریق الرشید عن آبائه عن ابن عباس رفعه؛ من أكل ما يسقط من المائدة خرج ولده صباح الوجوه، ونفي عنه الفقر.

(١) وفي رواية: كان يلعق أصابعه الثلاث.

(٢) وهذه الرواية عند مسلم.

وأورده الغزالي في الإحياء بلفظ: عاش في سعة وعوفي في ولده. وكلها مناكير.

لكن في مسلم عن جابر وأنس مرفوعاً: إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها فليمط ما كان بها من أذى ولا يدعها للشيطان، ولا يمسخ يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه لأنه لا يدري في أي طعامه البركة.

وفي حديث كعب بن عجرة عند الطبراني في الأوسط صفة لعق الأصابع، ولفظه: رأيت رسول الله ﷺ يأكل بأصابعه الثلاث، بالإبهام والتي تليها والوسطى، ثم رأيت يلعق أصابعه الثلاث قبل أن يمسخها، الوسطى ثم التي تليها ثم الإبهام.

قال الحافظ زين الدين العراقي في شرح الترمذي: كأن السر فيه أن الوسطى أكثر تلويثاً لأنها أطول فيبقى فيها من الطعام أكثر من غيرها، ولأنها لطولها أول ما ينزل الطعام.

وقد وقع في مرسل ابن شهاب عند سعيد بن منصور أن النبي ﷺ كان إذا أكل أكل بخمس. فيجمع بينه وبين ما تقدم باختلاف الحال.

وقد جاءت علة اللعق مبينة - في بعض الروايات - أنه لا يدري أحدكم في أي طعامه البركة.

وفي الحديث رد على من كره لعق الأصابع استقذاراً ممن ينسب للرياسة والإمرة في الدنيا. نعم، يحصل ذلك لو فعله أثناء الأكل لأنه يعيد أصابعه في الطعام، وعليها أثر ريقه.

قال الخطابي: عاب قوم أفسد عقلهم الترفه لعق الأصابع، وزعموا أنه مستقبح، كأنهم لم يعلموا أن الطعام الذي علق بالأصابع

والصحفة جزء من أجزاء ما أكلوه، وإذا لم يكن سائر أجزائه مستقديراً لم يكن الجزء اليسير منه مستقديراً، وليس في ذلك أكثر من مصه أصابعه بباطن شفتيه، ولا يشك عاقل أن لا بأس بذلك، فقد يتمضمض الإنسان فيدخل أصبعه في فيه فيدلك أسنانه وباطن فمه، ثم لم يقل أحد إن ذلك قذارة وسوء أدب، انتهى.

ولا ريب أن من استقذر ما نسب إلى رسول الله ﷺ سيء الأدب، يخشى عليه أمر عظيم، فنسأل الله بوجاهة وجهه الكريم أن لا يسلك بنا غير حلاوة سبيل سنته وأن يديم لنا محبته.

وقد كان ﷺ لا يأكل متكئاً، لما صح أنه قال: لا آكل متكئاً. رواه البخاري.

وقال: إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد، وأكل كما يأكل العبد^(١).

وروى ابن ماجه والطبراني بإسناد حسن قال: أهديت للنبي ﷺ شاة، فجثا على ركبتيه يأكل فقال له أعرابي: ما هذه الجلسة؟ فقال: إن الله جعلني كريماً ولم يجعلني جباراً عنيداً.

قال ابن بطال: إنما فعل ذلك النبي ﷺ تواضعاً لله، ثم ذكر من طريق أيوب عن الزهري قال: أتى النبي ﷺ ملك لم يأتها قبلها ١/١٦٦ فقال: إن ربك يخيرك بين أن تكون نبياً ملكاً أو نبياً عبداً، فنظر/ إلى جبريل كالمستشير له، فأوماً إليه أن تواضع، فقال: بل عبداً نبياً قال فما أكل متكئاً.

وهذا مرسل أو معضل، وقد وصله النسائي من طريق الزبيدي

(١) رواه أبو داود وابن ماجه.

عن الزهري عن محمد بن عبدالله بن عمرو بن العاصي قال: ما رؤي النبي ﷺ يأكل متكئاً قط.

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال: ما أكل النبي ﷺ متكئاً إلا مرة واحدة.

ويمكن الجمع بأن تلك المرة التي في أثر مجاهد لم يطلع عليها عبدالله ابن عمرو. فقد أخرج ابن شاهين «في ناسخه» من مرسل عطاء بن يسار: أن جبريل رأى النبي ﷺ يأكل متكئاً فنهاه، وروى ابن ماجه أنه ﷺ نهى أن يأكل الرجل وهو منبطح على وجهه.

وقد فسر القاضي عياض في الشفاء الاتكاء بالتمكن للأكل والتقعد للجلوس له كالمتربع وشبهه من تمكن الجلسات التي يعتمد فيها الجالس على ما تحته. قال: والجالس على هذه الهيئة يستدعي الأكل ويستكثر منه. والنبي ﷺ إنما كان جلوسه للأكل جلوس المستوفز مقعياً. قال: وليس معنى الحديث في الاتكاء الميل على شق عند المحققين انتهى.

والإقعاء: أن يلصق أليتيه بالأرض وينصب ساقيه ويتساند إلى ظهره، وهو المنهي عنه في الصلاة.

وتفسير القاضي عياض الاتكاء بما فسره به حكاه في الإكمال^(١) عن الخطابي، وقال: إن الخطابي خالف في هذا التأويل أكثر الناس، وأنهم إنما حملوا الاتكاء على أنه الميل على أحد الجانبين. انتهى.

والذي رأيته يعزى للخطابي: تحسب العامة أن المتكئ هو الأكل

(١) في ط: الأذكار، قال في هامش ب الإكمال هو شرح مسلم للقاضي عياض.

على أحد شقيه وليس كذلك، بل هو المعتمد على الوطاء الذي تحته .
انتهى .

وقد فسر أيضاً بالميل على أحد الشقين، وبه فسر ابن الجوزي .
وقيل هو الاعتماد على الشيء، وقيل: أن يعتمد على يده اليسرى من
الأرض .

وقد أخرج ابن عدي بسند ضعيف: زجر النبي ﷺ أن يعتمد
الرجل على يده اليسرى عند الأكل .

قال الإمام مالك: هو نوع من الاتكاء، قال الحافظ أبو الفضل
العسقلاني: وفي هذا إشارة من مالك إلى كراهة كل ما يعد الأكل فيه
متكئاً، ولا يختص بصفة بعينها .

وحكى ابن الأثير في النهاية أن من فسر الاتكاء بالميل على أحد
الشقين تأوله على مذهب الطب .

وقال ابن القيم: إنه يضر بالآكل، فإنه يمنع مجرى الطعام الطبيعي
عن هيئته ويعوقه عن سرعة نفوذه إلى المعدة ويضغط المعدة فلا يستحکم
فتحها للغذاء .

وأما الاعتماد على الشيء فهو جلوس الجبابة المنافي للعبودية، ولهذا
قال ﷺ: آكل كما يأكل العبد .

وإن كان المراد بالاتكاء الاعتماد على الوسائل والوطاء الذي تحت
الجالس - كما ذكرته عن الخطابي - فيكون المعنى: أني إذا أكلت لم أقعد
متكئاً على الأوطئة والوسائد كفعل الجبابة ومن يريد الإكثار من الطعام،
لكني آكل بلغة من الزاد، فلذلك أقعد مستوفزاً .

وفي حديث أنس أنه ﷺ أكل تمرأ وهو مقع^(١)، [من الجوع]^(٢).
وفي رواية^(٣): وهو محتفز. والمراد الجلوس على وركيه غير متمكن.
واختلف السلف في حكم الأكل متكئاً، فزعم ابن القاص: أن
ذلك من خصائصه ﷺ^(٤).

وتعقبه السهيلي فقال: قد يكره لغيره أيضاً لأنه من فعل المتعظمين،
وأصله مأخوذ من ملوك العجم، قال: فإن كان بالمرء مانع لا يتمكن معه
من الأكل إلا متكئاً لم يكن في ذلك كراهة، ثم ساق عن جماعة من السلف
أنهم أكلوا كذلك، وأشار إلى حمل ذلك عنهم على الضرورة.

قال / في فتح الباري: وفي الحمل نظر، وقد أخرج ابن أبي شيبة /١٦٦/
عن ابن عباس. وخالد بن الوليد ومحمد بن سيرين وعطاء بن يسار
وغيرهم جواز ذلك مطلقاً، وإذا ثبت كونه مكروهاً أو خلاف الأولى،
فالمستحب في صفة الجلوس للأكل أن يكون جاثياً على ركبتيه وظهور
قدميه، أو ينصب الرجل اليمنى ويجلس على اليسرى. انتهى.

وقال ابن القيم: ويذكر عنه ﷺ أنه كان يجلس للأكل متوركاً على
ركبتيه ويضع بطن قدمه اليسرى على ظهر اليمنى تواضعاً لله عز وجل وأدباً
بين يديه. قال: وهذه الهيئة أنفع هيئات الأكل وأفضلها. لأن الأعضاء
كلها تكون على وضعها الطبيعي الذي خلقها الله تعالى عليه. انتهى.

(١) رواه الترمذي.

(٢) زيادة في ش. قال الشارح: فهو لضرورة.

(٣) الرواية لمسلم.

(٤) أي كراهة الاتكاء في الأكل.

وأخرج ابن أبي شيبة من طريق إبراهيم النخعي قال: كانوا يكرهون أن يأكلوا اتكأة^(١) مخافة أن تعظم بطونهم.

[التسمية والحمد]

وكان ﷺ إذا وضع يده في الطعام يسمي الله تعالى^(٢).

وأما قول النووي في آداب الأكل من الأذكار: والأفضل أن يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، فإن قال: بسم الله كفاه وحصلت السنة. فقال في فتح الباري: لم أر لما أدعاه من الأفضلية دليلاً خاصاً.

وكان ﷺ يحمد الله في آخره فيقول: الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مودع ولا مستغنى عنه ربنا. رواه الترمذي^(٣).

وقوله: غير مودع - بفتح الدال الثقيلة - أي غير متروك.

ولا مستغنى: بفتح النون.

و: ربنا: بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هو ربنا، ويجوز النصب على المدح، أو الاختصاص، أو إضمار أعني. وقال ابن الجوزي: بالنصب على النداء مع حذف أداة النداء.

وفي رواية: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين^(٤).

(١) كذا في (أ، ب، د) وفي ط: التكاة، وفي ش: تكأة.

(٢) روى الإمام أحمد: كان ﷺ إذا قرب إليه طعامه قال: بسم الله.

(٣) ورواه البخاري وابن ماجه، وكان على المصنف أن يعزوه للبخاري كما هو مصطلح.

(٤) رواه أحمد والأربعة.

وللنسائي من طريق عبد الرحمن بن جبير المصري أنه حدثه رجل خدم النبي ﷺ ثمان سنين أنه كان يسمع النبي ﷺ إذا قرب إليه طعام يقول: بسم الله، فإذا فرغ قال: اللهم أطعمت وسقيت وأغنيت وأقنيت وهديت وأحييت فلك الحمد على ما أعطيت وسنده صحيح .

[الأكل باليد اليمنى]

وقد كان ﷺ يحب التيامن في شأنه كله^(١)، وقال ﷺ: يا غلام، سم الله وكل بيمينك و[كل]^(٢) مما يليك^(٣).

قال الحافظ زين الدين العراقي في شرح الترمذي: حملة أكثر الشافعية على الندب، وبه جزم الغزالي ثم النووي. لكن نص الشافعي في الرسالة وفي موضع آخر من الأم على الوجوب، كذا ذكر عنه الصيرفي في شرح الرسالة.

ونقل البويطي في مختصره: أن الأكل من رأس الثريد، والتعريس على الطريق، والقران في التمر حرام.

ومثل البيضاوي في منهاجه للندب بقوله ﷺ: كل مما يليك.

وتعقبه الشيخ تاج الدين بن السبكي في شرحه: بأن الشافعي نص في غير هذا الموضع على أن من أكل مما لا يليه عالماً بالنهي كان عاصياً أثماً، قال: وقد جمع والدي نظائر هذه المسألة في كتاب له سماه «كشف اللبس عن المسائل الخمس» ونصر القول بأن الأمر فيها للوجوب.

(١) رواه الأئمة الستة.

(٢) زيادة في ش.

(٣) رواه الأئمة الستة.

قال شيخ الإسلام ابن حجر، بعد أن ذكر ذلك: ويدل على وجوب الأكل باليمين ورود الوعيد في الأكل بالشمال، ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ رأى رجلاً يأكل بشماله فقال: كل بيمينك، فقال: لا أستطيع، قال: لا استطعت، فما رفعها إلى فيه بعد^(١).

فإن قلت: إنه ﷺ كان يتبع الدباء من حوالي القصعة وهو يعارض الأكل مما يلي.

فالجواب: أنه يحمل الجواز على ما إذا علم رضى من يأكل معه، ١/١٦٧ فإذا علم كراهة/ من يأكل معه لذلك لم يأكل إلا مما يليه. قال ابن بطال: وإنما جالت يد رسول الله ﷺ في الطعام، لأنه علم أن أحداً لا يتكره^(٢) ذلك منه ولا يتقدره، بل كانوا يتبركون بريقه وبما مسه بيده، بل كانوا يتبادرون إلى نخامته فيتدلكون بها.

وقال غيره: إنما فعل ذلك لأنه كان يأكل وحده. وهو غير مسلم، لأن أنساً أكل معه ﷺ.

وحديث عكراش عند الترمذي: الذي فيه التفصيل بين ما إذا كان لوناً واحداً فلا يتعدى ما يليه، أو أكثر من لون فيجوز، ضعيف والله أعلم.

[غسل اليدين]

وقرب إليه ﷺ طعام، فقالوا: ألا نأتيك بوضوء؟ قال: إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة. رواه الترمذي.

(١) فتح الباري ٥٢٢/٩.

(٢) في ط: لا يكره، وفي ش: لا يتكر.

وفي رواية له: أنه ﷺ قال: بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده.

فيحمل الوضوء الأول على الشرعي والثاني على اللغوي.
وروى أبو يعلى بإسناد ضعيف من حديث ابن عمر: من أكل من هذه اللحوم شيئاً فليغسل يده من ريح وضره، ولا يؤذي^(١) من حذاه.

[الطعام الحار]

ولم يكن ﷺ يأكل طعاماً حاراً، فروى الطبراني في الصغير والأوسط من حديث بلال بن أبي هريرة عن أبيه أن النبي ﷺ أتى بصحفة تفور، فقال: إن الله لم يطعمنا ناراً، قال: وبلال قليل الرواية عن أبيه. انتهى.

وعند أبي نعيم في الحلية، من حديث أنس مرفوعاً: كان يكره الكي والطعام الحار ويقول: عليكم بالبارد فإنه ذو بركة، ألا وإن الحار لا بركة له. الحديث.

ولأحمد وأبي نعيم من حديث أسماء أنها كانت إذا ثردت غطته بشيء حتى يذهب فوره ثم تقول: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: هو أعظم بركة^(٢).

لكن عند البيهقي - بسند صحيح - عن أبي هريرة قال: أتى

(١) كذا في النسخ. والأصل لغة حذف الياء لوجود لا الناهية والعطف على مجزوم. [م].

(٢) في سننه ابن لهيعة وفيه ضعف. وكذا الأحاديث قبله فيها مقال.

النبي ﷺ بطعام سخن فقال: ما دخل بطني طعام سخن منذ كذا وكذا قبل اليوم.

[صفة قدحه ﷺ]

وكان له ﷺ قدح من خشب مضرب بحديد، قال أنس لقد سقيته ﷺ بهذا القدح الشراب كله: الماء والنيذ والعسل^(١).

وفي البخاري عن سهل بن سعد قال: أقبل النبي ﷺ حتى جلس في سقيفة بني ساعدة هو وأصحابه، ثم قال اسقنا يا سهل، فأخرجت لهم هذا القدح فأسقيتهم فيه، فأخرج لنا سهل ذلك القدح فشربنا منه ثم استوهبه عمر بن عبد العزيز بعد ذلك فوهبه له. الحديث. وكان عمر بن عبد العزيز قد ولي حينئذ إمرة المدينة.

وعند البخاري من حديث عاصم الأحول قال: رأيت قدح النبي ﷺ عند أنس بن مالك، وكان قد انصدع فسلسله بفضة. قال: وهو قدح جيد عريض من نضار، وقال: قال أنس: لقد سقيت رسول الله ﷺ في هذا القدح أكثر من كذا وكذا، قال: وقال ابن سيرين: إنه كان فيه حلقة من حديد فأراد أنس أن يجعل مكانها حلقة من ذهب أو فضة، فقال أبو طلحة: لا تغيرن شيئاً صنعه رسول الله ﷺ وتركه.

وعنده: في فرض الخمس من طريق أبي حمزة السكري عن عاصم قال: رأيت القدح وشربت منه.

(١) رواه مسلم والترمذي، وسقط من قلم المصنف ذكر اللبن بعد العسل.

وأخرجه أبو نعيم من طريق علي بن الحسن بن شقيق عن أبي حمزة، ثم قال: قال علي بن الحسن وأنا رأيت القدح وشربت منه.

وذكر القرطبي في مختصر البخاري أنه رأى في بعض النسخ القديمة من البخاري: قال أبو عبدالله البخاري: - رأيت هذا القدح بالبصرة وشربت فيه، وكان اشترى من ميراث النضر بن أنس بثمانمائة ألف.

ووقع عند أحمد من طريق شريك عن عاصم: رأيت/ عند أنس /١٦٧/ ب
قدح النبي ﷺ فيه ضبة من فضة.

وقوله: من نضار- بضم النون وبالضاد المعجمة - الخالص من العود ومن كل شيء ويقال: أصله من شجر النبع، وقيل: من الأثل ولونه يميل إلى الصفرة.

[لم يأكل ﷺ على خوان]

ولم يأكل ﷺ على خوان ولا أكل خبزاً مرققاً، رواه الترمذي.
والخوان - بكسر المعجمة ويجوز ضمها - المائدة ما لم يكن عليها طعام.

وأما السفرة: فاشتهرت لما يوضع عليه الطعام.

وكان ﷺ ينهى عن النوم على الأكل، ويذكر أنه يقسي القلب، ذكره أبو نعيم، ولذا قال الأطباء - كما في الهدي - من أراد حفظ الصحة فليمش بعد العشاء ولو مائة خطوة ولا ينام عقبه فإنه يضر جداً، والصلاة بعد الأكل تسهل هضمه.

[شربه ﷺ]

وأما شربه ﷺ فقد كان يستعذب له الماء، أي يطلب له الماء الحلو. قالت عائشة: كان يستعذب له الماء من بيوت السقيا. رواه أبو داود. وهي - بضم المهملة وبالقاف - وهي عين بينها وبين المدينة يومان^(١).

قال ابن بطال: واستعذاب الماء لا ينافي الزهد، ولا يدخل في الترفه المذموم، بخلاف تطيب الماء بالمسك ونحوه، فقد كرهه مالك لما فيه من السرف. وأما شرب الماء الحلو وطلبه فمباح قد فعله الصالحون. وليس في شرب الماء المالح فضيلة. وقد كان ﷺ يشرب العسل الممزوج بالماء البارد.

قال ابن القيم: وفي هذا من حفظ الصحة ما لا يهتدي إلى معرفته إلا أفاضل الأطباء، فإن شرب العسل ولعقه على الريق يزيل البلغم ويغسل خمل المعدة، ويجلو لزوجتها ويدفع عنها الفضلات، ويسخنها باعتدال ويفتح سددها، والماء البارد رطب يقمع الحرارة ويحفظ البدن.

وقالت عائشة: كان أحب الشراب إليه ﷺ الحلو البارد. رواه الترمذي.

(١) كذا نقله أبو داود عقب روايته الحديث عن شيخه فيه قتيبة بن سعيد. قال السهوي: وهو صحيح، لكنها ليست المراد هنا. وكأنه لم يطلع على أن بالمدينة بئراً تسمى بذلك. وقال أبو بكر بن موسى: السقيا بئر بالمدينة، أي على بابها، وكان يستسقى لرسول الله ﷺ منها. فالحديث محمول على هذا. ثم لو سلم أن المراد الاستعذاب من العين التي ذكر قتيبة فمحمول على أنه كان يستعذب له منها إذا نزل قريبا في سفر حج أو غيره، أما استعذابه منها إلى المدينة فلا أراه وقع أصلاً. انتهى ملخصاً [المحقق].

ويحتمل أن تريد به الماء الممزوج بالعسل أو الذي نقع فيه التمر والزبيب.

وكان ينبذ له أول الليل ويشربه إذا أصبح يومه ذلك، والليله التي تجيء، والغد إلى العصر، فإن بقي شي سقاه الخادم أو أمر به فصب. رواه مسلم.

وهذا النبيذ: هو ماء يطرح فيه تمر يجليه، وله نفع عظيم في زيادة القوة، ولم يكن يشربه بعد ثلاث خوفاً من تغيره إلى الإسكار. وكان ﷺ يشرب اللبن خالصاً تارة، وتارة مشوباً بالماء البارد، لأن اللبن عند الحلب يكون حاراً، وتلك البلاد في الغالب حارة، فكان يكسر حر اللبن بالماء البارد.

وعن جابر أنه ﷺ دخل على رجل من الأنصار، ومعه صاحب له، فسلم فرد الرجل وهو يحول الماء في حائطه، فقال ﷺ: إن كان عندك ماء بات في شنه وإلا كرعنا، فقال: عندي ماء بات في شن، فانطلق إلى العريش فسكب في قده ثم حلب عليه من [لبن] (١) داخن، فشرب ﷺ الحديث. رواه البخاري.

وكان ﷺ يقول: ليس يجزئ من الطعام والشراب إلا اللبن. قال الترمذي: حديث حسن.

وللترمذي أيضاً: عن ابن عمر مرفوعاً: ثلاثة لا ترد: اللبن والسادة والدهن.

وأنشده بعضهم:

(١) في [أ، ط].

قد كان من سيرة خير الورى صلى عليه الله طول الزمن
أن لا يرد الطيب والمتكا واللحم أيضاً يا أخي واللبن

قال ابن القيم: ولم يكن ﷺ يشرب على طعامه لئلا يفسده،
ولا سيما إن كان الماء (١) حاراً أو بارداً فإنه رديء جداً. انتهى.

وكان ﷺ يشرب قاعداً وكان ذلك عادته. رواه مسلم. / ١/١٦٨

وفي رواية له أيضاً: أنه نهى عن الشرب قائماً. وفي رواية له
أيضاً عن أبي هريرة: لا يشربن أحدكم قائماً، فمن نسي فليستقئ.

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: أتيت النبي ﷺ
بدلو من ماء زمزم فشرب وهو قائم.

وفي حديث علي عند البخاري: أنه (٢) شرب وهو قائم، ثم
قال: إن أناساً يكرهون الشرب قائماً، وإن النبي ﷺ صنع مثل ما
صنعت.

وكل هذه الأحاديث صحيحة ولا إشكال فيها ولا تعارض،
وغلط من زعم أن فيها نسخاً، وكيف يصار إلى النسخ مع إمكان
الجمع بين الأحاديث، والصواب: أن النهي محمول على كراهة
التزيه، وأما شربه ﷺ قائماً فليبان الجواز.

فإن قلت: كيف يكون الشرب قائماً مكروهاً، وقد فعله ﷺ؟

فالجواب: أن فعله ﷺ إذا كان بياناً للجواز لا يكون مكروهاً،

بل البيان واجب عليه ﷺ.

(١) ليست في ش.

(٢) أي علي رضي الله عنه.

وأما قوله ﷺ : فمن نسي فليستقي فمحمول على الاستحباب والندب، فيستحب لمن شرب قائماً أن يتقياً لهذا الحديث الصحيح الصريح سواء كان ناسياً أو لا، قاله النووي.

وقال المالكية: لا بأس بالشرب قائماً، واستدلوا لذلك بحديث جبير بن مطعم قال: رأيت أبا بكر الصديق يشرب قائماً. ويقول مالك إنه بلغه عن عمر بن الخطاب وعثمان وعلي أنهم كانوا يشربون قياماً. وأجابوا عن حديث أبي هريرة «لا يشربن أحدكم قائماً، فمن نسي فليستقي» بأن عبد الحق قال: في إسناده عمر بن حمزة العمري، وهو ضعيف. انتهى.

وقال المازري: قال بعض شيوخنا لعل النهي ينصرف لمن أتى أصحابه بماء فبادر لشربه قائماً قبلهم استبداداً به، وخروجاً عن كون ساقى القوم آخرهم شرباً.

وقال بعض الشيوخ: الأظهر أنه موقوف على أبي هريرة. قال: والأظهر لي أن أحاديث شربه قائماً تدل على الجواز، وأحاديث النهي تحمل^(١) على الاستحباب والحث على ما هو أولى وأكمل، لأن في الشرب قائماً ضرراً ما، فكره من أجله، وفعله هو لأمنه^(٢) منه، قال: وعلى هذا الثاني يحمل قوله: فمن شرب فليستقي، على أن ذلك يحرك خلطاً يكون القيء دواءه، ويؤيده قول النخعي: إنما نهى عن ذلك لداء البطن. انتهى.

وقال ابن القيم: للشرب قائماً آفات عديدة منها: أنه لا يحصل

(١) في ط: تدل.

(٢) في ط: لأمنه. وهو تصحيف.

به الري التام، ولا يستقر في المعدة حتى يقسمه الكبد على الأعضاء وينزل بسرعة إلى المعدة فيخشى منه أن تبرد حرارتها، ويسرع النفوذ إلى أسافل البدن بغير تدريج، وكل هذا يضر بالشارب قائماً، فإذا فعله نادراً لم يضره.

وعند أحمد عن أبي هريرة أنه رأى رجلاً يشرب قائماً، فقال له قته، فقال لم؟ قال: أيسرك أن يشرب معك الهرق قال: لا، قال: قد شرب معك من هو شر منه: الشيطان.

وكان ﷺ يتنفس في الشراب ثلاثاً ويقول: إنه أروى وأمرأ وأبرأ. رواه مسلم.

ومعنى تنفسه: إبانة القدح عن فيه، وتنفسه خارجه، ثم يعود إلى الشرب.

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ كان يشرب في ثلاثة أنفاس: إذا أدنى الإناء إلى فيه سمي الله، فإذا أخره حمد الله، يفعل ذلك ثلاثاً.

وفي هذا الشرب حكم جمّة وفوائد مهمة، نبه ﷺ على مجامعها بقوله: إنه أروى وأمرأ وأبرأ، فأروى: من الري - بكسر الراء من غير همز - أشد رياً وأبلغه وأنفعه. وأبرأ، أفعل من البرء - بالهمز - وهو الشفاء، أي يبرئ من شدة العطش ودائه لتردده على المعدة الملتهبة دفعات، تسكن الدفعة الثانية ما عجزت الأولى عن تسكينه، والثالثة ب/١٦٨ ما عجزت عنه الثانية. وأيضاً: / فإنه أسلم لحرارة المعدة، وأبقى عليها من أن يهجم عليها البارد وهلة واحدة ونهلة واحدة، فإنه أسلم

عاقبة وآمن غائلة من تناول جميع ما يروي دفعة واحدة، فإنه يخاف منه أن يطفئ الحرارة الغريزية لشدة برده وكثرة كميته، أو يضعفها فيؤدي ذلك إلى فساد المعدة والكبد، وإلى أمراض رديئة، خصوصاً في سكان البلاد الحارة، وفي الأزمنة الحارة، فإن الشرب فيها وهلة واحدة مخوف عليهم جداً.

وقوله: أمراً: بالهمز، أفعال من مرؤ الطعام والشراب في بدنه إذا داخله وخالطه بسهولة ولذة ونفع. انتهى.

وقال بعضهم: والمعنى أنه يصير هنيئاً مريئاً. أي: سالماً أو مبرئاً من مرض أو عطش أو أذى. ويؤخذ من ذلك: أنه أقمع للعطش وأقوى على الهضم.

ومن آفات الشرب نهلة واحدة، أنه يخاف منه الشرق، بأن ينسد مجرى الشراب لكثرة الوارد عليه، فإذا تنفس رويداً ثم شرب أمن من ذلك. وقد روى عبدالله بن المبارك والبيهقي وغيرهما عن النبي ﷺ: إذا شرب أحدكم فليمص الماء مصاً، ولا يعب عباً فإنه يورث الكباد.

والكباد: - بضم الكاف وتخفيف الباء - وجع الكبد.

ولا معارضة بين التنفس هنا وبين النهي عن التنفس في الإناء الوارد في الحديث، لأن المنهي عنه التنفس داخل الإناء، فإنه ربما حصل للماء تغير من النفس، إما لكون التنفس كان متغير الفم لمأكول مثلاً، أو لبعده عهده بالسواك والمضمضة، أو لأن النفس يصعد ببخار المعدة، وهاهنا التنفس خارج الإناء فلا تعارض، فلو لم يتنفس جاز الشرب بنفس واحد. وقيل يمنع مطلقاً لأنه شرب الشيطان.

[معاملة الطفيلي]

وكان ﷺ إذا دعي لطعام وتبعه أحد أعلم به رب المنزل، فيقول: إن هذا تبعنا فإن شئت رجع^(١).

[من آداب الولائم]

وكان يكرر على أضيافه ويعرض عليهم الأكل مراراً، وفي حديث أبي هريرة في قصة شرب اللبن، وقوله مراراً: اشرب، فما زال يقول: اشرب حتى قال: والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلماً. رواه البخاري.

وكان ﷺ إذا أكل مع قوم كان آخرهم أكلاً. رواه البيهقي في الشعب عن جعفر بن محمد عن أبيه مرسلًا. وفي حديث ابن عمرو مرفوعاً عند ابن ماجه والبيهقي^(٢): إذا وضعت المائدة فلا يقوم الرجل وإن شبع حتى يفرغ القوم، فإن ذلك ينجل جلسه وعسى أن يكون له في الطعام حاجة.

وكان ﷺ إذا أكل عند قوم لم يخرج حتى يدعو لهم. فدعا في منزل عبدالله بن بسر فقال: اللهم بارك لهم فيما رزقتهم واغفر لهم

(١) جاء في البخاري ومسلم وغيرهما: عن أبي مسعود الأنصاري قال: كان من الأنصار رجل يقال له أبو شعيب وكان له غلام لحام فقال: اجعل لي طعاماً يكفي خمسة فإني أريد أن أدعو رسول الله ﷺ وقد عرفت في وجهه الجوع، فدعا رسول الله ﷺ خامس خمسة فتبعهم رجل فقال النبي ﷺ: إنك دعوتني خامس خمسة وهذا رجل قد تبعنا فإن شئت أذنت له وإن شئت تركته. قال: بل أذنت له.

(٢) ضعفه البيهقي فقال: وأنا أبرأ من عهده.

وارحمهم رواه مسلم، ودعا في منزل سعد فقال: أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة. رواه أبو داود، وسقاه آخر لبناً فقال: اللهم أمتعه بشبابه، فمرت عليه ثمانون سنة لم ير شعرة بيضاء، رواه ابن السني^(١).

(١) سنده ضعيف.

النوع الثاني

في لباسه ﷺ وفراشه

قال البخاري: باب ما كان النبي ﷺ يتجوز من اللباس^(١).
يعني يتوسع فلا يضيق بالاختصار على صنف بعينه، أو لا يضيق بطلب
النفس الغالي، بل يستعمل ما تيسر.

وقال القاضي عياض: كان ﷺ قد اقتصر منه على ما تدعوه
ضرورته إليه، وزهد فيما سواه، فكان يلبس ما وجدته، فيلبس - في
غالب أحواله - الشملة والكساء الخش والأردية والأزر، ويقسم على
من حضره أقبية الدباج المخصوصة بالذهب، ويرفع لمن لم يحضر. إذ
المباهاة في الملابس والتزين بها ليست من خصال الشرف والجلالة،
وهي من سمات النساء، والمحمود منها/ نقاوة الثوب، والتوسط في
جنسه، وكونه لبس مثله، غير مسقط لمروءة جنسه. انتهى.

وقد روى أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر مرفوعاً: أن من
كرامة المؤمن على الله عز وجل نقاء ثوبه ورضاه باليسير.
وله أيضاً من حديث جابر: أن النبي ﷺ رأى رجلاً وسخة ثيابه
فقال: أما وجد هذا شيئاً ينقي به ثيابه؟

[العمامة]

فقد كانت سيرته ﷺ في ملبسه أتم وأنفع للبدن وأخفه عليه،

(١) الباب ٣١ من كتاب اللباس في البخاري [المحقق].

فإنه لم تكن عمامته بالكبيرة التي يؤذي حملها ويضعفه ويجعله عرضة للآفات، كما يشاهد من حال أصحابها، ولا بالصغيرة التي تقصر عن وقاية الرأس من الحر والبرد، بل وسطاً بين ذلك، وكان يدخلها تحت حنكه، فإنها تقي العنق من الحر والبرد، وهو أثبت لها عند ركوب الخيل والإبل، والكر والفر، وكذلك الأردنية والأزر أخف على البدن من غيرها.

وقد أطنب ابن الحاج في المدخل في الاستدلال لاستحباب التحنيك، ثم قال: وإذا كانت العمامة من باب المباح فلا بد فيها من فعل سنن تتعلق بها، من تناولها باليمين والتسمية والذكر الوارد، إن كانت مما لبس جديداً، وامثال السنة في صفة التعميم، من فعل التحنيك والعذبة. وتصغير العمامة يعني سبعة أذرع أو نحوها، يخرجون منها التحنيك والعذبة، فإن زاد في العمامة قليلاً لأجل حر أو برد فيسمح فيه. ثم قال بعد أن ذكر قوله: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾^(١)، فعليك بأن تتسرول قاعداً وتتعلم قائماً. انتهى.

[طول الكم]

ولم يكن ﷺ يطول أكمامه ويوسعها، بل كان كم قميصه إلى الرسغ، وهو منتهى الكف عند المفصل، لا يجاوز اليد فيشق على لابسه ويمنعه سرعة الحركة والبطش، ولا يقصره ﷺ عن هذا فبرز للحر والبرد، وقد روي عن أسماء بنت يزيد قالت: كان كم قميص رسول الله ﷺ إلى الرسغ. رواه الترمذي.

(١) سورة الحشر، الآية ٧

[طول الإزار]

وكان ذيل قميصه وردائه إلى أنصاف الساقين، لم يتجاوز الكعبين، فيؤذي الماشي ويجعله كالمقيد، ولم يقصر عن عضلة ساقيه، فيتأذى بالحر والبرد. أشار إليه في زاد المعاد.

وأخرج الترمذي عن الأشعث بن سليم قال: سمعت عمي تحدث عن عمها قال: بينا أنا أمشي بالمدينة إذا إنسان خلفي يقول: ارفع إزارك فإنه أتقى وأتقى، فإذا هو رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله إنما هي بردة، قال: أما لك في أسوة؟ فنظرت فإذا إزاره إلى نصف ساقيه.

وأخرج الطبراني من طريق عبدالله بن محمد بن عقيل عن ابن عمر قال: رأيت النبي ﷺ أسبلت إزاري، فقال: يا ابن عمر، كل شيء لمس الأرض من الثياب فهو في النار.

وفي البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (ما أسفل من الكعبين من الإزار في النار)^(١).

قال الخطابي: يريد أن الموضع الذي يناله الإزار من أسفل الكعبين في النار، فكفى بالثوب عن بدن لابس، ومعناه: أن الذي دون الكعبين من القدم يعذب بالنار عقوبة. وحاصله أنه من باب تسمية الشيء باسم ما جاوره أو حل فيه، وتكون «من» بيانية^(٢).

وللطبراني من حديث عبدالله بن مغفل، رفعه: (إزرة المؤمن إلى

(١) في البخاري برقم ٥٧٨٧ وفيه: ففي النار.

(٢) عن فتح الباري ٢٥٧/١٠.

أنصاف الساقين وليس عليه حرج فيما بينه وبين الكعبين، وما أسفل من ذلك ففي النار^(١).

والإزرة: - بالكسر - الحالة وهيئة الاثتزار مثل الركبة والجلسة.

واعلم - طهر الله ثوبي وثوبك، ونزه سري وسرك - أن هذا الإطلاق محمول على ما ورد من قيد الخيلاء، فهو الذي ورد فيه الوعيد بالاتفاق^(٢). وقد أخرج أصحاب السنن إلا الترمذي - واستغربه - وابن أبي شيبة من طريق عبد العزيز بن أبي رواد عن سالم ابن عبدالله بن عمر / عن أبيه عن النبي ﷺ أنه قال: الإسبال في ١٦٩/ب الإزار والقميص والعمامة، من جر شيئاً منها خيلاء، الحديث^(٣)، فبين في هذه الرواية أن الحكم ليس خاصاً بالإزار، وإن جاء في أكثر طرق الأحاديث بلفظ الإزار.

قال الطبري: إنما ورد الخير بلفظ الإزار، لأن أكثر الناس في عهده كانوا يلبسون الأزر والأردية، فلما لبس الناس القمص والدراريع^(٤) كان حكمها حكم الإزار في النهي.

قال ابن بطال: هذا قياس صحيح لو لم يأت النص بالثوب فإنه يشمل جميع ذلك، وفي تصوير جر العمامة نظر إلا أن يكون المراد ما جرت به عادة العرب من إرخاء العذبات، فمهما زاد على العادة في ذلك كان من الإسبال... وهل يدخل في الزجر عن جر الثوب

(١) ورواه النسائي من حديث أبي هريرة، وأبو داود وابن ماجه والنسائي عن أبي سعيد.

(٢) عن فتح الباري ٢٥٧/١٠.

(٣) تتمته: لم ينظر الله إليه يوم القيامة.

(٤) جمع دارعة.

تطويل أكمام القميص ونحوه؟ محل نظر. والذي يظهر أن من أطاها حتى خرج عن العادة كما يفعله بعض الحجازيين دخل في ذلك^(١).

[لباس الخيلاء]

قال ابن القيم: وأما هذه الأكمام الواسعة الطوال، التي هي كالأخراج، وعمائم كالأبراج، فلم يلبسها ﷺ هو ولا أحد من أصحابه، وهي مخالفة لستته، وفي جوازها نظر، فإنها من جنس الخيلاء، انتهى.

وقال صاحب «المدخل»^(٢): ولا يخفى على ذي بصيرة أن كم بعض من ينسب إلى العلم اليوم فيه إضاعة المال المنهي عنها، لأنه قد يفضل من ذلك الكم ثوب لغيره. انتهى.

لكن حدث للناس اصطلاح بتطويلها، وصار لكل نوع من الناس شعار يعرفون به، ومهما كان من ذلك على سبيل الخيلاء فلا شك في تحريمه، وما كان على طريق العادة، فلا تحريم فيه ما لم يصل إلى جر الذليل الممنوع منه. ونقل القاضي عياض عن العلماء كراهة كل ما زاد على العادة وعلى المعتاد في اللباس من الطول والسعة.

وفي حديث أبي هريرة عند البخاري مرفوعاً (بينما رجل يمشي تعجبه [نفسه]^(٣) مرجل جمته، إذ خسف الله^(٤) به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة)^(٥).

(١) قول الطبري وما بعده عن فتح الباري ٢٦٢/١٠ [م].

(٢) هو ابن الحاج.

(٣) سقطت من النسخ وهي في البخاري.

(٤) لفظ الجلالة في ش وهو في البخاري أيضاً، وسقط من النسخ.

(٥) هو في البخاري برقم ٥٧٨٩.

وفي الطبراني وأبي داود (إن رجلاً ممن كان قبلكم لبس بردة فتبخر فيها، فنظر الله إليه فمقته، فأمر الأرض فأخذته).

وهذا الوعيد المذكور يتناول الرجال والنساء على هذا الفعل المخصوص، وقد فهمت ذلك أم سلمة رضي الله عنها، فأخرج النسائي والترمذي - وصححه - من طريق أيوب عن نافع عن ابن عمر: فقالت أم سلمة فكيف تصنع النساء بذيولهن فقال: يرخين شبراً فقالت: إذاً تنكشف أقدامهن، قال: فيرخينه ذراعاً لا يزدن عليه.

[الخلاصة في طول الإزار]

وحاصل ما ذكر في ذلك: أن للرجال حالين، حال استحباب: وهو أن يقتصر بالإزار على نصف الساق، وحال جواز: وهو إلى الكعبين، وكذلك للنساء حالان: حال استحباب وهو ما يزيد على ما هو جائز للرجال بقدر الشبر، وحال جواز بقدر ذراع^(١)، وأن الإسبال يكون في الإزار والقميص والعمامة، وأنه لا يجوز إسباله تحت الكعبين إن كان للخيلاء، وإن كان لغيرها فهو مكروه للتنزيه.

قال النووي: وظواهر الأحاديث في تقييدها بالخيلاء يدل على أن التحريم مخصوص بالخيلاء، قال: وهذا نص الشافعي على الفرق كما ذكرنا انتهى.

[التحقيق في طول ثياب النساء]

تنبيه: قال العراقي في شرح الترمذي: الذراع الذي رخص

(١) عن فتح الباري ٢٥٩/١٠ [م].

للنساء فيه، هل ابتداءؤه من الحد الممنوع منه الرجال، وهو من الكعبين، أو من الحد المستحب وهو أنصاف الساقين، أو حده من أول ما يمس الأرض؟

الظاهر أن المراد الثالث: بدليل حديث أم سلمة الذي رواه أبو داود والنسائي - واللفظ له - وابن ماجه، قالت: سئل رسول الله ﷺ كم تجر المرأة من ذيلها؟ قال: شبراً، قالت: إذاً ينكشف عنها، قال: فذراع لا تزيد عليه، فظاهره: أن لها أن تجر على الأرض منه ذراعاً.

قال: والظاهر أن المراد بالذراع ذراع اليد وهو شبران، لما في ١/١٧٠ سنن/ ابن ماجه عن ابن عمر قال: رخص رسول الله ﷺ لأمهات المؤمنين شبراً، ثم استزده فزادهن شبراً، فدل على أن الذراع المأذون فيه شبران، وهو الذراع الذي يقاس به الحصر اليوم. انتهى.

وإنما جاز ذلك للنساء لأجل الستر لأن المرأة كلها عورة إلا ما استثنى.

[لباس الرأس]

وقد كان له ﷺ عمامة تسمى السحاب، ويلبس تحتها القلانس اللاطئة^(١).

والقلانس: جمع قلنسوة - بفتح القاف وسكون النون وضم المهملة وفتح الواو، وقد تبدل ياء تحتية، وقد تبدل ألفاً وتفتح السين،

(١) أي اللاصقة.

يقال: قلنساء، وقد تحذف النون من هذه بعدها هاء تأنيث - غشاء
مبطن يستر به الرأس، قاله الفراء^(١). في شرح «الفصيح»^(٢).

وقال ابن هشام: هي التي يقول لها العامة الشاشية، وفي
«المحكم»^(٣): هي ملابس الرؤوس، معروفة، وقال أبو هلال
العسكري: هي التي تغطي بها العمائم وتستر من الشمس والمطر،
كأنها عنده رأس البرنس. انتهى.

وروى الترمذي عن جابر رضي الله عنه قال: (دخل النبي ﷺ
مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء)، وفي رواية لأنس عند البخاري
(دخل عام الفتح وعلى رأسه المغفر) وهو بكسر الميم وسكون الغين
المعجمة وفتح الفاء، زرد ينسج من الدرود على قدر الرأس.

ويجمع بينهما: بأن العمامة السوداء كانت فوق المغفر.

وجمع بينهما القاضي عياض: بأن أول دخوله كان على رأسه
المغفر، ثم بعد ذلك كان على رأسه العمامة بعد إزالة المغفر، بدليل
قوله في حديث عمرو بن حريث عن أبيه (خطب الناس وعليه عمامة
سوداء) لأن الخطبة إنما كانت عند باب الكعبة بعد تمام فتح مكة. قال
الولي بن العراقي: وهو أولى وأظهر في الجمع من الأول. وقد تقدم
نحو ذلك في غزوة فتح مكة.

(١) الفراء: أبو زكريا، يحيى بن زياد بن عبدالله الأسدي، مولاهم، نزيل
بغداد، النحوي المشهور صدوق في الحديث، وكان ورعاً متديناً، مات
بطريق مكة سنة سبع ومائتين، وله سبع وستون.

(٢) كتاب «الفصيح» لثعلب.

(٣) لابن سيده.

وعن ابن عمر قال: (كان النبي ﷺ إذا اعتم سدل) رواه الترمذي في الشئائل، زاد مسلم (وقد أرخى طرفها بين كتفيه).

وقد روى أبو محمد بن حيان^(١) في كتاب «أخلاق النبي ﷺ» من حديث ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يعتم قال: يدير كور العمامة على رأسه ويغرسها من ورائه ويرخي لها ذؤابة بين كتفيه.

وروى مسلم من حديث عمرو بن حريث قال: (رأيت النبي ﷺ على المنبر وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفها بين كتفيه) وعنده أيضاً عن جابر قال: (دخل مكة وعليه عمامة سوداء) ولم يذكر فيه ذؤابة، فدل على أنه لم يكن يرخيها دائماً بين كتفيه.

لكن قد يقال: إن دخوله مكة كان وعليه أهبة القتال والمغفر على رأسه، فلبس في كل موطن ما يناسبه.

وقال ابن القيم في الهدي النبوي: وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يذكر في سبب الذؤابة شيئاً بديعاً: وهو أن النبي ﷺ إنما اتخذها صبيحة المنام الذي رآه بالمدينة لما رأى رب العزة فقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري، فوضع يده^(٢) بين كتفي فعلمت ما بين السماء والأرض. الحديث وهو في الترمذي، وسئل عنه البخاري فقال: صحيح. قال: فمن تلك الغداة أرخى الذؤابة بين كتفيه. قال^(٣): وهذا من العلم الذي تنكره السنة الجاهل وقلوبهم، قال: ولم أر هذه الفائدة في شأن الذؤابة لغيره. انتهى.

وعبارة غير الهدي: وذكر ابن تيمية أنه ﷺ لما رأى ربه واضعاً

(١) هو الحافظ الملقب بأبي الشيخ.

(٢) في ط: كفه، قال الشارح وفي رواية: كفه.

(٣) أي ابن القيم.

يده بين كتفيه أكرم ذلك الموضع بالعذبة. انتهى لكن قال العراقي بعد أن ذكره: لم نجد لذلك أصلاً. انتهى.

وروى ابن أبي شيبة عن علي قال: عممي رسول الله ﷺ بعمامة سدل طرفها على منكبي وقال: إن الله أمدني يوم / بدر ويوم حنين بملائة معممين هذه العمة وقال: إن العمامة حاجز بين المسلمين وبين المشركين.

قال عبد الحق الإشبيلي^(١): وسنة العمامة - بعد فعلها - أن يرخي طرفها ويتحنك به، فإن كانت بغير طرف ولا تحنيك فذلك يكره عند العلماء، واختلف في وجه الكراهة، فقيل لمخالفة السنة فيها، وقيل: لأنها كذلك عمائم الشياطين.

وجاءت الأحاديث في إرسال طرفها على أنواع: منها ما تقدم أنه أرسل طرفها على منكب علي، ومنها: أن عبد الرحمن بن عوف قال: عممي رسول الله ﷺ فسدها بين يدي ومن خلفي^(٢). ذكره أبو داود^(٣).

وعن ابن عباس أنه رأى النبي ﷺ وعليه عمامة دسما أي سوداء. رواه الترمذي^(٤).

(١) عبد الحق الإشبيلي، العلامة الحافظ الفقيه الأزدي، والاشبيلي نسبة إلى إشبيلية، كان عالماً بالحديث وعلمه عارفاً بالرجال، زاهداً، له تصانيف كثيرة، مات سنة إحدى وثمانين وخمسمائة وله إحدى وسبعون سنة.

(٢) قال العراقي: يحتمل أن المراد أرخى طرفها الواحد من خلفه والآخر من بين يديه.

(٣) سنده ضعيف وفيه راو لم يسم.

(٤) وكذا البخاري مطولاً.

وفي حديث ركائة أنه ﷺ قال: إن فرق ما بيننا وبين المشركين العمائم على القلانس. رواه الترمذي أيضاً^(١).

وعن أبي كبشة الأنماري قال: كانت كمام^(٢) أصحاب النبي ﷺ بطحاً. رواه الترمذي أيضاً. وفي رواية أكمة، وهما جمع كثرة وقلة، الكمة^(٣): القلنوسة، يعني أنها كانت منبطحة غير منتصبة.

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كانت له كمة بيضاء، رواه الدمياطي.

[أحب الثياب إليه ﷺ]

وكان أحب الثياب إليه ﷺ القميص، كما في الشرائع للترمذي، من حديث أم سلمة قالت: (كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص)^(٤).

وعن معاوية بن قرة عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ في رهط من مزينة لنبايعه وإن قميصه لمطلق الأزرار - أو قال: زر قميصه مطلق - قال: فأدخلت يدي في جيب قميصه فمست الخاتم. رواه الترمذي^(٥).

(١) وقال غريب وليس إسناده بالقائم، قال السخاوي: هو واه.

(٢) كمام: جمع كمة: وهي القلنوسة المدورة. القاموس المحيط [م].

(٣) كذا في د وفي النسخ: وهما جمع كثرة وقلة للكمة القلنوسة... وقال الشارح: القلنوسة بالجر بدل.

(٤) وكذا رواه أبو داود في اللباس والنسائي في الزينة.

(٥) ورواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان.

وعن أنس قال: كان قميص رسول الله ﷺ قطناً قصير الطول والكمين، رواه الدمياطي.

وعن أنس بن مالك قال: كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ يلبسه الحبرة. رواه الترمذي^(١).

والحبرة: ضرب من البرود فيه حمرة.

وعن أبي رمثة قال: رأيت رسول الله ﷺ وعليه بردان أخضران رواه الترمذي.

وعن عطاء^(٢) عن أبي يعلى عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالبيت مضطجعاً ببرد أخضر. رواه أبو داود^(٣).

وعن عروة بن المغيرة بن شعبة عن أبيه أن النبي ﷺ لبس جبة رومية ضيقة الكمين. رواه الترمذي^(٤).

وعن أبي ذر: أتيت النبي ﷺ وعليه ثوب أبيض. رواه البخاري^(٥).

وعن عائشة قالت: خرج رسول الله ﷺ ذات غداة وعليه مرط شعر أسود، رواه الترمذي^(٦).

(١) ورواه البخاري ومسلم وأبو داود.

(٢) في أبي داود والترمذي والنسائي لا ذكر لعطاء، وهو عن ابن يعلى عن يعلى، وابن يعلى هو صفوان بن يعلى بن أمية ثقة روى له الستة.

(٣) في ش رواه الترمذي وهو صحيح أيضاً.

(٤) رواه الترمذي مختصراً، وهو في الصحيحين وغيرهما مطولاً.

(٥) وكذا رواه مسلم.

(٦) ورواه مسلم أيضاً.

وعن أنس قال كان رسول الله ﷺ يلبس الصوف، وكان له ﷺ كساء ملبد يلبسه ويقول: (إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد) رواه الشيخان^(١).

[ملابس المتصوفة]

فإن قلت قد علم من هذا، ومن سيرة السلف الصالح، بذادة^(٢) الهيئة وراثثة^(٣) الملابس^(٤)، فما بال الشاذلية من الصوفية يحملون هيأتهم وملابسهم، وطريقهم الاقتداء بالسنة الشريفة والسلف الصالح.

أجاب العارف الرباني على الوفائي^(٥)، أذاقنا الله حلاوة مشربه، ومن خطه الكريم نقلت بما لفظه: ذلك لأنهم نظروا إلى المعاني والحكم. فوجدوا السلف الصالح لما وجدوا أهل الغفلة والشغل لديناهم منهمكين على الزينة الظاهرة، تفاخراً بدنياهم واطمئناناً إليها وإشعاراً بأنهم من أهلها، خالفوهم إظهاراً لحقارة ما حقره الحق مما عظمه الغافلون بالغنى^(٦) عما اطمأن إليه الغافلون، فكأن أطهارهم يومئذ تقول الحمد لله الذي أغنانا به عما أفقر نفسه إليه من همه دنياه. فلما طال الأمد وقست القلوب بنسيان/ ذلك المعنى، واتخذ الغافلون

١/١٧١

(١) قال الشارح: ولم أره فيها ولا في أحدهما بهذا اللفظ في مظانه.

(٢) بذادة الهيئة: أي سوؤها.

(٣) أي عدم حسنها، فهو بمعنى البذادة.

(٤) هذا العلم والاستنتاج من المصنف فيه نظر، إذ ليس هذا سيرة النبي ﷺ، انظر تفصيل ذلك في كتاب «التربية الجمالية في الإسلام» للمحقق [م].

(٥) في ب الوفوي.

(٦) في ط بالفناء

رثاءة الأطمار وبذاذة الهيئة حيلة على [جلب] (١) دنياهم انعكس الأمر (٢)، فصار مخالفة هؤلاء في ذلك لله هو قول السلف وطريقتهم كما تقدم.

قال: وقد أرشد الأستاذ أبو الحسن الشاذلي (٣)، قدس الله سره العزيز، إلى ذلك بقوله لبعض من أنكر عليه جمال هيئته من أصحاب الرثاءة: يا هذا هيئتي هذه تقول: الحمد لله، وهيئتك هذه تقول: أعطوني شيئاً من دنياكم.

والقوم أفعالهم دائرة مع الحكمة الربانية مرادهم مرضاة ربهم. انتهى ما قاله سيدي على وفا.

[بحث في الجمال]

وقد ورد في الحديث الصحيح عنه ﷺ، (إن الله جميل يحب الجمال) (٤) وفي الحديث الآخر (إن الله نظيف يحب النظافة) (٥) وفي السنن عن أبي الأحوص الجشمي عن أبيه قال: رأيت النبي ﷺ وعلي أطمار - وفي رواية النسائي: وعلى ثوب دون - فقال: هل لك من مال؟ قلت: نعم، قال: من أي المال؟ قلت: من كل ما آتى الله من الإبل

(١) في ش.

(٢) من المعلوم أن الإسلام منهج ثابت وليس ردود فعل [م].

(٣) تقي الدين علي بن عبدالله بن عبد الجبار، شيخ الطائفة، قال ابن دقيق العيد: ما رأيت أعرف بالله من الشاذلي. مبدأ ظهوره بشاذلة في الغرب الأقصى. كان العز بن عبد السلام يحضر مجلسه، مات سنة ست وخمسين وستائة متوجهاً إلى مكة...

(٤) أخرجه مسلم والترمذي.

(٥) أخرجه ابن عدي عن ابن عمر مرفوعاً ولكنه ضعيف.

والشاء، قال: فكثيراً^(١) نعمته وكرامته عليك، وفي رواية النسائي قال: فإذا آتاك الله مالاً فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته.

وفي حديث جابر أنه ﷺ رأى رجلاً شعثاً قد تفرق شعره فقال: (ما كان يجد هذا ما يسكن به رأسه، ورأى رجلاً عليه ثياب وسخة فقال: ما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه) رواه أحمد.

وفي السنن: (إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده).

فهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده، فإنه من الجمال الذي يحبه، وذلك من شكره على نعمه، وهو جمال باطن، فيجب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة والجمال الباطن بالشكر عليها، ولأجل محبته تعالى للجمال أنزل على عباده لباساً يجمل ظواهرهم، وتقوى تجمل بواطنهم فقال تعالى: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير﴾^(٢) وقال في أهل الجنة: ﴿ولقاهم نضرة وسرورا، وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً﴾^(٣) فجمل وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالسرور وأبدانهم بالحرير.

وهو سبحانه كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة، يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والهيئة، فيبغض القبيح وأهله ويحب الجمال وأهله. ولكن ضل في هذا الموضوع فريقان:

فريق قالوا: كل ما خلق الله تعالى جميل، فهو يجب كل ما خلقه، ونحن نحب جميع ما خلقه فلا نبغض منه شيئاً، قالوا: ومن

(١) أي أظهر، وفي ب: فلير.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٦.

(٣) سورة الإنسان، الآية ١١.

رأى الكائنات منه رآها كلها جميلة، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾^(١) وهؤلاء قد عدموا الغيرة لله من قلوبهم، والبغض في الله، والمعادة فيه^(٢)، وإنكار المنكر وإقامة الحدود.

والفريق الثاني، قالوا: قد ذم الله جمال الصور، وتمام القامة والخلقة، فقال عن المنافقين: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾^(٣)، وفي صحيح مسلم مرفوعاً (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)، قالوا: وقد حرم الله علينا لباس الحرير والذهب، وآنية الذهب والفضة، وذلك من أعظم جمال الدنيا. وقال تعالى: ﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه﴾^(٤) وفي الحديث (البذاذة من الإيمان)^(٥) وقد ذم الله المسرفين، والسرف كما يكون في الطعام والشراب يكون في اللباس.

وفصل النزاع أن يقال: الجمال في الصورة واللباس والهيئة ثلاثة أنواع: منه ما يحمده، ومنه ما يذمه، ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم. فالمحمود منه، ما كان لله وأعان على طاعة الله، وتنفيذ أوامره، والاستجابة له، كما كان النبي ﷺ يتجمل للوفود، وهو نظير/ لباس ١٧١/ب آلة الحرب للقتال، ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه، فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء كلمة الله ونصر دينه وغيظ عدوه.

(١) سورة السجدة، الآية ٧.

(٢) هذه الجملة سقطت من ش.

(٣) سورة المنافقون، الآية ٤.

(٤) سورة طه، الآية ١٣١.

(٥) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه. قال الشارح: البذاذة من الإيمان، أي من أخلاق أهله إن قصد به تواضعاً وزهداً وكف نفس عن فخر وتكبر، لا إظهار فقر.

والمذموم منه: ما كان للدنيا والرياسة والفخر والخيلاء، وأن يكون هو غاية العبد وأقصى مطلبه، فإن كثيراً من الناس^(١) ليس له همة في سوى ذلك.

وأما ما لا يحمد ولا يذم فهو ما خلا عن هذين القصدين، وتجرد عن الوصفين.

والمقصود من هذا الحديث أن الله تعالى يجب من عبده أن يجمل لسانه بالصدق وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والشعور المكروهة، والختان وتقليم الأظافر وغير ذلك مما وردت به السنة، والله أعلم.

[لبس الأحمر من الثياب]

وعن جابر بن سمرة قال: رأيت النبي ﷺ في ليلة [مقمرة]^(٢) أضحيان^(٣)، فجعلت أنظر إليه ﷺ وإلى القمر، وعليه حلة حمراء، فإذا هو أحسن عندي من القمر. رواه الدارمي والترمذي.

وعن عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال: رأيت النبي ﷺ وعليه حلة حمراء كأنني أنظر إلى بريق ساقيه. قال سفيان^(٤): أراه حبرة.

وعن البراء بن عازب قال: ما رأيت أحداً من الناس أحسن في حلة حمراء من رسول الله ﷺ. رواهما الترمذي.

(١) في (ب، ط): النفوس.

(٢) في (ب، ط)

(٣) أي مقمرة منيرة لا ظلمة فيها ولا غيم من أولها إلى آخرها.

(٤) سفيان هو راوي الحديث عن عون، قيل هو الثوري، وقيل ابن عيينة.

وفي البخاري ومسلم: رأيته في حلة حمراء لم أر شيئاً قط أحسن منه .

وفي رواية لأبي داود^(١) ما رأيت من ذي لمة في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ .

وقوله: من ذي لمة: - بكسر اللام - أي شعر الرأس، دون الجمة، سميت بذلك لأنها ألت بالمنكبين، فإذا زادت فهي الجممة .
وفي النسائي: ما رأيت رجلاً أحسن في حلة حمراء من رسول الله ﷺ .

قال في القاموس: الحلة - بالضم - إزار ورداء، برد أو غيره، ولا تكون حلة إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة .

[حكم لبس الثوب الأحمر]

قال ابن القيم: وغلط من ظن أنها كانت حمراء بحتاً^(٢)، ولا يخالطها غيرها، وإنما الحلة الحمراء بردان يمانيان منسوجان بخطوط حمر مع الأسود، كسائر البرود اليمانية، وهي معروفة بهذا الاسم باعتبار ما فيها من الخطوط، وإلا فالأحمر البحت ينهى عنه أشد النهي، وفي صحيح البخاري: (أنه ﷺ نهى عن المياثر^(٣) الأحمر)^(٤) وفي صحيح

(١) وكذا رواه الترمذي .

(٢) بحتاً، أي خالصة .

(٣) قال في فتح الباري: المياثر: جمع ميثرة، قال أبو عبيد: المياثر الأحمر التي جاء النهي عنها كانت من مراكب العجم من ديباج وحرير، وقال الطبري هي وعاء يوضع على سرج الفرس أو رحل البعير من الأرجوان . ثم ذكر

أقوالاً أخرى ٣٠٧/١٠ [م]

(٤) رقم الحديث في البخاري ٥٨٤٩

مسلم عن ابن عمر قال: (رأى النبي ﷺ علي ثوبين معصفرين فقال: إن هذا لباس الكفار فلا تلبسهما) ومعلوم أن ذلك إنما يصبغ صباغاً أحمر.

قال: وفي جواز لبس الأحمر من الثياب والجوخ وغيرها نظر، وأما كراهته فشديدة، فكيف يظن بالنبي ﷺ أنه لبس الأحمر القاني، كلا لقد أعاده الله منه، وإنما وقعت الشبهة من لفظ الحلة الحمراء والله أعلم. انتهى.

وقال النووي: اختلف العلماء في الثياب المعصفرة، وهي المصبوغة بعصفر فأباحها جميع العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وبه قال الإمام الشافعي وأبو حنيفة ومالك، ولكنه قال: غيرها أفضل منها. وفي رواية عنه أنه أجاز لبسها في البيوت وأفنية الدور وكرهه في المحافل والأسواق وغيرها.

وقال جماعة من العلماء: هو مكروه كراهة تنزيه، وحملوا النهي على هذا، لأنه ثبت أنه ﷺ لبس حلة حمراء. وفي الصحيحين من حديث ابن عمر أنه ﷺ صبغ بالصفرة. وحمل بعضهم النهي على المحرم بالحج أو العمرة.

وقد أتقن البيهقي / المسألة في «معرفة السنن»^(١) فقال: نهى الشافعي الرجل عن المزعفر، وأباح له المعصفر، قال الشافعي: وإنما رخصت في المعصفر لأنني لم أجد أحداً يحكي عنه ﷺ النهي عنه، إلا ما قال علي رضي الله عنه أنه ﷺ نهاني ولا أقول نهاكم. قال البيهقي: وقد جاءت أحاديث تدل على [أن]^(٢) النهي على العموم، ثم ذكر

(١) اسم كتاب.

(٢) في ش.

حديث مسلم (أن هذه من لباس الكفار) وأحاديث غيرها، ثم قال: ولو بلغت هذه الأحاديث الشافعي لقال بها إن شاء الله تعالى، ثم ذكر بإسناده ما صح عن الشافعي أنه قال: إذا صح الحديث بخلاف قولي فاعملوا بالحديث ودعوا قولي. وفي رواية: مذهبي.

قال البيهقي: قال الشافعي: وأنها الرجل الحلال بكل حال أن يتزعر وأمره إذا تزعر أن يغسله، قال البيهقي: فتبع السنة في المزعر فمتابعتها في المعصر أولى به، انتهى.

ورأيت في فتاوى شيخنا العلامة قاسم أحد أئمة الحنفية ومحققها كراهته للتحريم مع صحة الصلاة فيه، واستدل له بما ذكرته، وبما في حديث طاووس عند الحاكم وقال على شرطهما عن ابن عمرو بن العاص قال: دخلت على النبي ﷺ وعلي ثوب معصر، قال: من أين لك هذا؟ قال: صنعته^(١) لي أهلي فقال ﷺ: احرقه^(٢) انتهى.

وعن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يلبس برده الأحمر في العيدين والجمعة، وعن يحيى بن عبد الله بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يصبغ ثيابه بالزعفران قميصه ورداءه وعمامته. رواهما الدمياطي. وهو عند أبي داود بلفظ: يصبغ بالورس والزعفران ثيابه حتى عمامته، وكذا رواه من حديث زيد بن أسلم وأم سلمة وابن عمر، لكن يعارضه ما في الصحيح أنه ﷺ نهى عن التزعر والله أعلم.

(١) في ش صبغته.

(٢) المقصود الزجر.

[صفة إزاره ﷺ]

وأما صفة إزاره ﷺ ، فعن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قال: أخرجت إلينا عائشة كساء وإزاراً غليظاً فقالت: قبض رسول الله ﷺ في هذين، رواه البخاري، وفي رواية^(١): إزاراً غليظاً مما يصنع باليمن، وكساء من هذه التي تدعوها الملبدة، وفي رواية^(٢): كساء ملبداً.

قال ابن الأثير: أي مرقعاً، يقال: لبدت القميص ألبده، ولبدته، ويقال للخرقة التي يرقع بها صدر القميص. اللبدة: وقيل الملبد: الذي ثخن وسطه وشفق حتى صار يشبه اللبد.

وروى مسلم من حديث عائشة قالت: خرج رسول الله ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود.

والمرط: - بكسر الميم وإسكان الراء - كساء من صوف أو خز، يؤتزر به.

والمرحل: بتشديد الحاء المهملة المفتوحة، كمعظم، هو الذي فيه صور الرحال، قال في القاموس في مادة رح ل: وك«معظم»: برد فيه تصاوير رحل، قال: وتفسير الجوهري إياه بإزار خز فيه علم، غير جيد، إنما ذلك تفسير المرجل - بالجيم -، وقال في مادة رح ل - يعني بالجيم -: وبرد مرجل كمعظم، فيه صور الرجال، انتهى.

وقال النووي: والصواب^(٣) الذي رواه الجمهور، وضبطه

(١) موصولة عند مسلم، معلقة عند البخاري.

(٢) للبخاري في كتاب الخمس.

(٣) سقطت من ش.

المتقنون: بالحاء المهملة، أي عليه صور رجال الإبل، ، ولا بأس بهذه الصورة، وإنما يحرم تصوير الحيوان.

وقال الخطابي، المرحل، الذي فيه خطوط والله أعلم.

وعن عروة: أن طول رداء النبي ﷺ أربعة أذرع وعرضه ذراعان وشبر،

وعن عروة أيضاً: أن ثوب رسول الله ﷺ الذي كان يخرج فيه إلى الوفد رداء أخضر في طول أربعة أذرع وعرضه ذراعان وشبر.

وعن معن بن عيسى قال حدثنا محمد بن هلال قال: رأيت على هشام بن عبد الملك / برد النبي ﷺ من حبرة له حاشيتان.

وعن ابن عمر قال: دخلت على رسول الله ﷺ وعليه إزار يتققع^(١).

وعن يزيد بن أبي حبيب أنه ﷺ كان يرخي الإزار بين يديه ويرفعه من ورائه.

وعن ابن عباس قال: رأيت رسول الله ﷺ يأتزر تحت سرتة وتبدو سرتة، ورأيت عمر يأتزر فوق سرتة، رواها كلها الدمياطي.

[لبس الطيلسان]

(فصل) وعن أسماء بنت أبي بكر، أنها أخرجت جبة طيالسة كسروانية، لها لبنة ديباج، وفرجاها مكفوفان بالديباج، وقالت: هذه

(١) أي يصوت عند رد بعضه على بعض لجلده.

جبة رسول الله ﷺ ، كانت عند عائشة ، فلما قبضت قبضتها ، وكان النبي ﷺ يلبسها فنحن نغسلها للمرضى نستشفى بها . رواه مسلم (١) .

وقوله : جبة طيالة : بإضافة جبة إلى طيالة .

وكسروانية : بكسر الكاف وفتحها ، والسين ساكنة والراء مفتوحة ، نسبة إلى كسرى ملك الفرس .

ولبنة : بكسر اللام وإسكان الباء ، رقعة في جيب القميص .

وفيه : جواز لبس ما له فرجان وأنه لا كراهة فيه ، وأن المراد بالنهي عن الحرير المتمحض منه ، أو ما أكثره منه (٢) ، وأنه ليس المراد تحريم كل جزء منه ، بخلاف الخمر والذهب فإنه يحرم كل جزء منهما ، قاله النووي .

(لطيفة) قيل : لما كان رسول الله ﷺ لا يبدو منه إلا طيب ، كان آية ذلك في بدنه الشريف أنه لا يتسخ له ثوب ، فما اتسخ له ثوب قط ، وقال ابن سبع في «الشفاء» والسبتي في «أعذب الموارد وأطيب الموالد» : لم يكن القمل يؤذيه تعظيماً له وتكريماً ﷺ لكن يشكل عليه ما رواه أحمد والترمذي في الشمائل عن عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ يفلي ثوبه ويحلب شاته ، ومن لازم التفلي وجود شيء يؤذي في الجملة ، إما قملاً أو برغوثاً أو نحو ذلك . ويمكن أن يجاب : بأن التفلي لاستقذار وجود ما علق بثوبه الشريف من غيره ، ولو لم يحصل منه أذى في حقه ﷺ ، وهذا فيه بحث ، لأن أذى القمل هو غداؤه من البدن على ما أجرى الله العادة ، وإذا امتنع الغذاء لا

(١) في كتاب اللباس من صحيحه برقم (١٠) .

(٢) هذه الجملة سقطت من ش .

يعيش الحيوان عادة. ونقل الفخر الرازي: أن الذباب لا يقع على ثيابه قط، وأنه لا يمتص دمه البعوض.

وأما الطيلسان^(١) - وهو بفتح اللام، واحدة الطيالة، والهاء في الجمع للعجمة لأنه فارسي معرب، وهو الساج أيضاً، وقال ابن خالويه في شرح «الفصيح» يقال للطيلسان الأخضر: الساج، وفي «المجمل» لابن فارس: الطاق الطيلسان - فقال ابن القيم: لم ينقل عنه ﷺ أنه لبسه، ولا أحد من أصحابه، بل ثبت في صحيح مسلم من حديث النواس بن سمعان عن النبي ﷺ أنه ذكر الدجال فقال: يخرج معه سبعون ألفاً من يهود أصبهان عليهم الطيالة. ورأى أنس جماعة عليهم الطيالة فقال: ما أشبههم بيهود خبير.

قال: ومن هاهنا كرهه جماعة من السلف والخلف، لما روى أبو داود والحاكم في المستدرک أنه قال: (من تشبه بقوم فهو منهم) وفي الترمذي: (ليس منا من تشبه بغيرنا) وأما ما جاء في حديث الهجرة أنه ﷺ جاء إلى أبي بكر رضي الله عنه متقنعاً بالهاجرة، فإنما فعله ﷺ تلك الساعة ليخفي بذلك للحاجة، ولم يكن عادته التتقع. وقد ذكر أنس عنه ﷺ أنه كان يكثر القناع. وهذا إنما كان يفعله للحاجة من الحر ونحوه. قال شيخ الإسلام الولي بن العراقي في شرح تقريب الأسانيد: التتقع معروف وهو تغطية الرأس بطرف العمامة أو برداء/ أو نحو ذلك. انتهى.

وقال ابن الحاج في «المدخل»: وأما قناع الرجل فهو أن يغطي رأسه بردائه ويرد طرفه على أحد كتفيه. انتهى.

(١) قال ابن قرقول: شبه الأردية يوضع على الرأس والكتفين والظهر.

وأما قول ابن القيم: إنه عليه السلام إنما فعل ذلك للحاجة، فيرد عليه حديث سهل بن سعد أنه عليه السلام كان يكثر القناع. رواه البيهقي في الشعب والترمذي^(١)، وللبيهقي في الشعب أيضاً وابن سعد في طبقاته من حديث أنس بلفظ: يكثر التقنع، فهذا وما أشبهه يرد قول ابن القيم: أنه لم ينقل عنه أنه عليه السلام لبسه.

وأما قوله: ولا أحد من أصحابه، فيرده ما أخرجه الحاكم في المستدرک، بسند على شرط الشيخين عن مرة بن كعب قال: سمعت رسول الله عليه السلام يذكر فتنة فقرها، فمر رجل مقنع في ثوب، فقال: هذا يومئذ على الهدى، فقامت فإذا هو عثمان بن عفان رضي الله عنه. وأخرج سعيد بن منصور في سننه عن أبي العلاء قال: رأيت الحسن ابن علي يصلي^(٢) وهو مقنع رأسه، وأخرج ابن سعد عن سليمان بن المغيرة قال: رأيت الحسن يلبس الطيالة، وأخرج عن عمارة بن زاذان قال: رأيت علي الحسن طيلساناً أندقياً^(٣).

وأما ما ذكره ابن القيم من قصة اليهود، فقال الحافظ ابن حجر: إنما يصلح الاستدلال به في الوقت الذي تكون الطيالة من شعارهم، وقد ارتفع ذلك في هذه الأزمنة فصار ذلك داخلاً في عموم المباح، وقد ذكره ابن عبد السلام في أمثلة البدعة المباحة^(٤). وقد يصير من شعار قوم فيكون تركه من الإخلال بالمروءة.

وقيل: إنما أنكر أنس ألوان الطيالة لأنها كانت صفراء. والله أعلم.

(١) إسناده ضعيف، قاله الحافظ العراقي.

(٢) كلمة (يصلي) سقطت من ط.

(٣) نسبة إلى أندق، قرية في سمرقند.

(٤) في ط: في أمثلة المباح.

[الخاتم]

وأما الخاتم ففي الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ اتخذ خاتماً من ورق^(١)، فكان في يده، ثم كان في يد أبي بكر، ثم كان في يد عمر، ثم كان في يد عثمان حتى وقع في بئر أريس.

وفيهما أيضاً عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ لبس خاتم فضة فيه فص حبشي، وكان يجعل فسه مما يلي كفه.

وأخرج أحمد والنسائي والترمذي والبزار في مسنده عن بريدة أن النبي ﷺ رأى في يد رجل خاتماً من حديد، فقال مالي أجد منك ربح الأصنام، ثم قال له: اتخذه من فضة ولا تزد على مثقال.

[حكم لبس الخاتم]

وقد اختلف العلماء في لبسه في الجملة، فأباحه كثير من أهل العلم من غير كراهة، ومنهم من كرهه إذا قصد به الزينة، ومنهم من كرهه إلا لذي سلطان، لحديث أبي داود والنسائي عن أبي ریحانة أن النبي ﷺ نهى عن لبس الخاتم إلا لذي سلطان. ولأنه ﷺ إنما اتخذه لحاجة ختم الكتب التي يبعثها إلى الملوك، كما في حديث أنس أنه ﷺ كتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي فقبل له إنهم لا يقبلون كتاباً إلا بختم فصاغ خاتماً ونقش فيه: محمد رسول الله^(٢)، وإنما لبسه أبو بكر رضي الله عنه لأجل ولايته، فإنه كان يحتاج إليه كما كان ﷺ يحتاج إليه وكذلك عمر وعثمان.

(١) أي فضة.

(٢) متفق عليه.

وحكى ابن عبد البر عن طائفة من العلماء كراهة لبسه مطلقاً، احتجاجاً بحديث أنس أنه ﷺ نبذه ولم يلبسه. وفي الشائل للترمذي عن ابن عمر أنه ﷺ اتخذ خاتماً من فضة فكان يختم به ولا يلبسه. وفي الصحيحين من حديث أنس أنه رأى في يده ﷺ خاتماً من ورق يوماً واحداً، ثم إن الناس اصطنعوا الخواتيم من ورق ولبسوها، فطرح رسول الله ﷺ خاتمه فطرح الناس خواتيمهم.

والصواب: القول الأول، فإن لبس النبي ﷺ الخاتم إنما كان في ١٧٣/ب الأصل لأجل المصلحة لختم الكتب/ التي يرسلها إلى الملوك، ثم استدام لبسه ولبسه أصحابه معه، ولم ينكره عليهم، بل أقرهم عليه، فدل ذلك على الإباحة المجردة.

وأما حديث النهي عن الخاتم إلا لذي سلطان فقال ابن رجب: ذكر بعض أصحابنا أن أحمد ضعفه.

وأما ما جاء في حديث الزهري عن أنس أنه ﷺ لبسه يوماً واحداً ثم ألقاه. فقد أجيب عنه بثلاثة أجوبة:

أحدها: أنه وهم من الزهري، وسهو جرى على لسانه لفظ الورق، وإنما الذي لبسه يوماً واحداً ثم ألقاه كان من ذهب، كما ثبت ذلك من غير وجه في حديث ابن عمر وأنس أيضاً.

الثاني: أن الخاتم الذي رمى به ﷺ لم يكن كله فضة، وإنما كان حديداً عليه فضة، وروى أبو داود عن معقيب الصحابي - وكان على خاتم النبي ﷺ - قال: كان خاتم النبي ﷺ من حديد ملوي عليه فضة. فلعل هذا هو الذي لبسه يوماً واحداً ثم طرحه، ولعله هو الذي كان يختم به ولا يلبسه.

الثالث: إن طرحه إنما كان لثلا يظن أنه سنة مسنونة، فإنهم اتخذوا الخواتيم لما رأوه قد لبسه فتبين بطرحه أنه ليس بمشروع ولا سنة.

[حكم الخواتيم بحسب معدنها]

ثم إن الخاتم قد يكون تارة من ذهب، وتارة من فضة، وتارة يكون من حديد، وتارة من صفر أو رصاص أو نحوها، وتارة من عقيق:

● فأما الذهب ففي الصحيحين عن البراء بن عازب قال: (نهانا رسول الله ﷺ عن خاتم الذهب وآنية الفضة). وفيهما عن أبي هريرة عنه ﷺ: (أنه نهى عن خاتم الذهب)، وفيهما أيضاً عن ابن عمر أنه ﷺ اتخذ خاتماً من ذهب فجعله في يمينه وجعل فمه مما يلي باطن كفه، فاتخذ الناس خواتيم الذهب. قال: فصعد رسول الله ﷺ المنبر فألقاه ونهى عن التختم بالذهب.

وهو مذهب الأئمة الأربعة: مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد وأكثر العلماء.

ورخصت فيه طائفة منهم إسحاق بن راهويه وقال: مات خمسة من أصحابه ﷺ خواتيمهم من ذهب. قال مصعب بن سعد: رأيت على طلحة وسعد وصهيب خواتيم من ذهب. وعن حمزة بن أبي أسيد والزبير بن المنذر بن أبي أسيد أنها نزعا من يد أبي أسيد خاتماً من ذهب حين مات، وكان بدرياً^(١)، رواهما البخاري في تاريخه. وروى

(١) الظاهر أنهم لم يبلغهم النهي أو حملوه على التنزيه.

النسائي عن سعيد بن المسيب قال: قال عثمان لصهيب ما لي أرى عليك خاتم الذهب فقال: قد رآه من هو خير منك فلم يعبه^(١)، قال: من هو؟ قال: رسول الله ﷺ^(٢).

● وأما خاتم الفضة، فأباحه كثير من العلماء، ولبسه ﷺ وجماعة من أصحابه.

قال الرافعي: يجوز للرجل التختم بالفضة، وكذا قال النووي في الروضة وغيرها، وكتب أصحابنا طافحة بجوازه.

وروى أبو داود، وصححه ابن حبان، من حديث بريدة بن الحصيب أن النبي ﷺ قال للابس خاتم الحديد: ما لي أرى عليك حلية أهل النار، فطرحه وقال: يا رسول الله، من أي شيء أتخذه؟ قال: من ورق ولا تتمه مثقالاً.

وأخرجه أيضاً النسائي والترمذي وقال: غريب. وأخرجه أحمد وأبو يعلى في مسنديهما والضياء في المختارة مما ليس في الصحيحين ورجاله رجال الصحيحين إلا عبدالله بن مسلم المعروف بأبي طيبة،

(١) الظاهر أنه رآه قبل النهي أو حمله على التنزيه.

(٢) ذكر المصنف أربعة وذكر الحافظ الخامس فقال: وأغرب ما ورد في ذلك ما جاء عن البراء الذي روى النهي... قال محمد بن مالك: رأيت خاتماً من ذهب على البراء فقال: قسم رسول الله ﷺ قسماً فألبسنيه فقال: البس ما كسأك الله ورسوله. ويجمع بين روايته وفعله: بأنه فهم الخصوصية له من قوله البس ما كسأك الله ورسوله. يؤيد ذلك رواية أحمد؛ كان الناس يقولون للبراء لم تتختم بالذهب وقد نهى عنه رسول الله ﷺ فيذكر لهم هذا الحديث ثم يقول: كيف تأمروني أن أضيع ما قال رسول الله ﷺ: البس ما كسأك الله ورسوله.

وهو محدث مشهور، وتصحيح ابن حبان لحديثه دال على قبوله، فأقل أحواله أن يكون من درجة الحسن.

والأصل في النهي كونه للتحريم، ولأن الأصل في استعمال
الفضة للرجال التحريم / إلا ما رخص فيه، فإذا حد فيه حد وجب
الوقوف عنده، وبقي ما عداه على الأصل. وقد قال ابن الرفعة في
باب ما يكره لبسه من «الكفاية»: وينبغي أن ينقص وزنه عن مثقال.
لأن رسول الله ﷺ رأى رجلاً، وساق الحديث. وقوله ينبغي، يصلح
للموجب وغيره، وحمله عليه أولى، لأنه ساق الحديث مساق الاحتجاج
لهذا الحكم، فلا يصرف النهي عن حقيقته إلا بصارف.

وظاهر صنيع ابن الملقن في شرح منهاج النووي يقتضيه، فإنه
قال في زكاة النقد: فرع في أبي داود وصحيح ابن حبان من حديث
بريدة أنه ﷺ قال لذلك الرجل.. فذكر الحديث فساقه سوق الفروع
التي لا خلاف فيها بين الأصحاب، وظاهر ذلك تحريم المثقال.

وفي «القوت» للأذري: لم يتعرض أصحابنا لمقدار الخاتم
ولعلمهم اكتفوا بالعرف، فما خرج عنه كان إسرافاً كما قالوا في الخلخال
للمرأة ونحوه، والصواب الضبط بما نص عليه في الحديث وليس في
كلامهم ما يخالفه، هذا لفظه. وهو يشير إلى هذا الحديث.

وكذا مشى عليه ابن العماد في التعقيبات وعبارته: وإذا جاز لبس
الخاتم فشرطه أن لا يبلغ به مثقالاً للحديث. انتهى.

لكن قال الحافظ العراقي في شرح الترمذي: إن النهي في قوله:
«ولا تتمه مثقالاً» محمول على التنزيه، فيكره أن يبلغ به وزن مثال.
قال: وفي رواية لأبي داود، في رواية صاحب المعالم: «ولا تتمه مثقالاً»
ولا قيمة مثقال» وليست هذه الزيادة في رواية اللؤلؤي. ومعنى هذه

الزيادة أنه ربما وصل الخاتم بالنفاسة في صنعته إلى أن يكون قيمة مثقال فهو داخل في النهي أيضاً. انتهى.

وقد أفتى العلامة السراج العبادي بأنه يجوز أن يبلغ به مثقالاً وأن ما زاد عليه حرام.

● وأما خاتم الحديد، فأخرج أبو داود في الخاتم من سننه، والبيهقي في شعب الإيمان والأدب وغيرها من تصانيفه من طريقه، والنسائي في الزينة من سننه، وابن حبان في صحيحه: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وعليه خاتم من شبه - وهو بفتح المعجمة والموحدة، وبإسكانها وكسر المعجمة، نوع من النحاس كانت الأصنام تتخذ منه، وسمي بذلك لشبهه بالذهب لوناً - فقال: ما لي أجد منك ربح الأصنام، فطرحة ثم جاء وعليه خاتم من حديد، فقال: ما لي أرى عليك حلية أهل النار فطرحة. وأخرجه الترمذي لكنه قال: من صفر بدل من شبه، وهما بمعنى.

قال النووي في شرح المهذب: قال صاحب الإبانة^(١): يكره الخاتم من حديد أو شبه، وتابعه صاحب البيان فقال: يكره الخاتم من حديد أو نحاس أو رصاص لحديث بريدة.

وقال صاحب التتمة^(٢): لا يكره الخاتم من حديد أو رصاص لحديث الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال للذي خطب الواهبة نفسها: اطلب ولو خاتماً من حديد. قال: ولو كان فيه كراهة لم يأذن فيه.

(١) هو الفوراني.

(٢) هو المتولي.

وفي سنن أبي داود بإسناد جيد عن معيقب الصحابي: كان خاتمه ﷺ من حديد ملوي عليه فضة.

والمختار: أنه لا يكره لهذين الحديثين.

وقال في شرح مسلم في الكلام على حديث المرأة الواهبة نفسها: وفي هذا الحديث جواز اتخاذ خاتم الحديد، وفيه خلاف للسلف حكاه القاضي، ولأصحابنا في كراهته وجهان أصحهما لا يكره لأن الحديث في النهي عنه ضعيف. انتهى.

ولعل تضعيف النووي للحديث إنما هو بالنسبة إلى / مقاومة ١٧٤/ ب حديث سهل بن سعد في الصحيحين وغيرهما^(١) في قصة الواهبة نفسها لا مطلقاً، كيف وله في ذلك شواهد عدة، إن لم ترقه^(٢) إلى درجة الصحة لم تدعه ينزل عن درجة الحسن.

● وأما خاتم العقيق: فعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: تحتموا بالعقيق، واليمين أحق بالزينة. وفي سننه مجهول، وروي بلفظ تحتموا بالعقيق فإنه ينفي الفقر.

وروى يعقوب بن إبراهيم عن عائشة مرفوعاً: تحتموا بالعقيق فإنه مبارك. ويعقوب متروك.

وروى أبو بكر بن شعيب عن فاطمة رضي الله عنها مرفوعاً: من تحتم بالعقيق لم يزل يرى خيراً. وهذا أيضاً لا يثبت.

وكذا ورد فيه أحاديث غير هذه، وكلها كما قال الحافظ ابن

(١) كذا في ش وفي النسخ: وغيره.

(٢) في ش: ترفعه.

رجب لا تثبت، وقال العقيلي: لا يصح في التختم بالعقيق عن النبي ﷺ شيء.

وروى ابن فنجويه في كتاب الخواتيم له بإسناد ضعيف عن علي مرفوعاً: من تختم بالياقوت الأصفر منع الطاعون، وإسناده ضعيف.

[فص الخاتم]

وأما فص خاتمه ﷺ، فروى أنس أن النبي ﷺ اتخذ خاتماً من فضة، فسه منه. أخرجه البخاري وغيره.

وفي صحيح مسلم أن خاتمه ﷺ كان فسه حبشياً.

قال النووي: قال العلماء: يعني حجراً حبشياً، أي فصاً من جزع أو عقيق، فإن معدنها بالحبشة واليمن. انتهى، فإن صح أنهم كانوا يعنون بالحبشي العقيق فيكون له خاتمان: أحدهما فسه عقيق، والآخر فسه فضة، وفي شرح مسلم للنووي حكاية أنه ﷺ كان له في وقت خاتم فسه منه، قال: وفي حديث آخر فسه من عقيق، انتهى. لكن لم يرو عنه ﷺ أنه لبس خاتماً كله عقيقاً.

[نقش الخاتم]

وأما نقش خاتمه ﷺ، ففي صحيح مسلم (عن أنس أن النبي ﷺ صنع خاتماً من ورق نقش فيه: محمد رسول الله. وقال للناس: إني اتخذت خاتماً من فضة ونقشت فيه: محمد رسول الله، فلا ينقش أحد على نقشه).

قال الترمذي: معنى قوله: «لا تنقشوا عليه» نهي أن ينقش أحد على خاتمه: محمد رسول الله.

وفي رواية للنسائي: (اتخذ خاتماً من ورق فصه حبشي، ونقش فيه: محمد رسول الله).

وفي رواية البخاري والترمذي (وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر).

قال في فتح الباري: ظاهره أنه لم يكن فيه زيادة على ذلك، وأنه كان على هذا الترتيب، لكن لم تكن كتابته على الترتيب العادي، فإن ضرورة الاحتياج إلى أن يختم به تقتضي أن تكون الأحرف المنقوشة مقلوبة ليخرج الختم مستوياً، وأما قول بعض الشيوخ أن كتابته كانت من فوق يعني الجلالة أعلى الأسطر الثلاثة، ومحمد أسفلها، فلم أر التصريح بذلك في شيء من الأحاديث، بل رواية الاسماعيلي يخالف ظاهرها ذلك، فإنه قال: محمد سطر، والسطر الثاني رسول، والسطر الثالث: الله^(١).

وعن ابن عمر أنه ﷺ كان يلبس خاتمه في يمينه، فلما قبض صار في يد أبي بكر في يمينه، فلما قبض صار في يد عمر في يمينه، ثم صار في يد عثمان في يمينه، ثم ذهب يوم الدار عليه: «لا إله إلا الله». رواه بركة بن محمد الحلبي، كما حكاه ابن رجب في كتاب الخواتيم، ثم قال: وهي رواية ساقطة جداً، فإن بركة مذكور بالكذب، وفي لفظه ما يدل على بطلانه، وهو قوله: ذهب يوم الدار عليه: لا إله إلا الله، فإنه إنما سقط في بئر أريس قبل يوم الدار، وقد عاش عثمان بعده مدة

(١) فتح الباري ١٠/٣٢٩.

١/١٧٥ واتخذ له خاتماً عوضه، وإنما كان نقشه، محمد رسول الله / لا كلمة الإخلاص. انتهى.

[اتخاذ أكثر من خاتم]

تنبيه: قال شيخ الإسلام الشرف المناوي^(١): وتحصل السنة بلبس الخاتم مطلقاً، ولو مستعاراً أو مستأجرأ، لكن الأوفق للسنة لبسه بالملك، والاستدامة على ذلك، ويجوز تعداد الخواتيم اتخاذاً، وأما الاستعمال فمفهوم كلام الرافعي عدم الجواز، وبه صرح المحب الطبري فقال: المتجه أنه لا يجوز للرجل أن يلبس خاتمين من فضة في يديه أو في إحداهما، لأن استعمال الفضة حرام إلا ما وردت به الرخصة، ولم ترد إلا في خاتم واحد، لكن ذكر الخوارزمي في الكافي أنه يجوز له أن يلبس زوجاً في يد وفرداً^(٢) في الأخرى، فإن لبس في كل واحدة زوجاً فقال الصيدلاني في الفتاوى لا يجوز. وقال الدارمي في الاستذكار يكره للرجل لبس فوق خاتمين، فاقتصره على الكراهة يدل على عدم الحرمة، وإذا تقرر ذلك فالمسألة ذات خلاف، والذي يظهر كلام المحب الطبري، فإن تسامحنا اعتمدنا على ما أفتى به الصيدلاني. انتهى.

[التختم في اليمين واليسار]

ويجوز التختم في اليمين واليسار، واختلف الناس في أفضلهما،

(١) المناوي: شرف الدين يحيى بن محمد المناوي ولد سنة ثمان وتسعين وسبعائة وبرع في الفقه والأصول وسمع الحديث وتصدى للإقراء والإفتاء وله تصانيف، توفي سنة إحدى وسبعين وثمانائة.

(٢) في (ط، ب) فرداً.

ف قيل: اليسار، وهو نص الإمام أحمد، في رواية صالح قال: التختم في اليسار أحب إلي، وهو مذهب الإمام مالك، ويروى أنه كان يلبسه في يساره، وكذلك الإمام الشافعي. وفي صحيح مسلم عن أنس قال: (كان خاتم النبي ﷺ في هذه وأشار إلى الخنصر في يده اليسرى). وفي سنن أبي داود (عن ابن عمر أنه كان ﷺ يتختم في يساره) وروى إسماعيل بن مسلم عن السليطي^(١) قال: أتيت النبي ﷺ في ليلة قمراء، وكأني أنظر إلى عكن بطنه، وكأنها القباطي وإلى وبص خاتمه في يساره. وإسماعيل هذا قال البخاري: تركه ابن المبارك، وربما روى عنه. وقد ذكر بعض الحفاظ - كما أفاده الحفاظ ابن رجب - أن التختم في اليسار مروى عن عامة الصحابة والتابعين.

ورجحت طائفة التختم في اليمين، وهو قول ابن عباس، وعبدالله بن جعفر، وروى حماد بن سلمة قال: رأيت ابن أبي رافع يتختم في يمينه فسألته عن ذلك فقال: رأيت عبدالله بن جعفر يتختم في يمينه، وقال: كان ﷺ يتختم في يمينه، رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والترمذي وقال: قال محمد - يعني البخاري - هذا أصح شيء روي عن النبي ﷺ في هذا الباب.

وفي الشئلل للترمذي عن جابر أنه ﷺ كان يتختم في يمينه. وهذا فيه ضعف، لحال عبدالله بن ميمون.

ويروى من حديث عباد بن صهيب عن جعفر بن محمد عن أبيه

(١) السليطي: نسبة إلى جده الأعلى إذ هو محمد بن أحمد بن محمد... ابن سليط التميمي، كان شيخاً صالحاً، كذا في اللباب، فشرح به الشارح ما هنا، ولا يصح إذ هذا الشيخ لم يرو عنه إسماعيل بن مسلم ولا هو بصحابي، فهو يناقض قوله، قال أتيت النبي... .

عن جابر بن عبدالله قال: قبض رسول الله ﷺ والخاتم في يمينه،
وعباد بن صهيب متروك أيضاً.

وروى البزار في مسنده من حديث عبيد بن القاسم عن هشام
ابن عروة عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ كان يتختم في يمينه، وقبض
والخاتم في يمينه. وعبيد هذا كذاب.

قال الحافظ ابن رجب: وقد جاء التصريح بأن تختمه ﷺ في
يساره كان آخر الأمرين في حديث رواه سليمان بن محمد عن عبدالله
ابن عطاء عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ كان يتختم في يمينه ثم
إنه حوله إلى يساره.

وقال وكيع: التختم في اليمين ليس بسنة.

ونص أحمد: أنه يكره التختم في السبابة والوسطى. وروي عن
علي أنه قال: (نهاني رسول الله ﷺ أن أتختم في هذه أو هذه وأوماً إلى
السبابة والوسطى) (١) والله أعلم.

وفي اللباب: وكان ﷺ يتختم، وربما خرج وفي خاتمه خيط
ب/١٧٥ مربوط يستذكر به الشيء (٢)، ورواه ابن عدي بسند ضعيف/ من
حديث واثلة بلفظ: كان ﷺ إذا أراد حاجة أوثق في خاتمه خيطاً.

وروى أبو يعلى عن ابن عمر أنه ﷺ كان إذا أشفق من الحاجة
أن ينساها ربط في أصبعه خيطاً ليذكرها. وكذا هو في رابع الخلعيات.
لكن فيه سالم بن عبد الأعلى أبو الفيض، رماه ابن حبان بالوضع بل
اتهمه أبو حاتم بهذا الحديث.

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

(٢) رواه الدارقطني وضعفه.

[لبس السراويل]

وأما السراويل فاختلف هل لبسها النبي ﷺ أم لا؟ فجزم بعض العلماء بأنه ﷺ لم يلبسه، ويستأنس له بما جزم به النووي في ترجمة عثمان بن عفان رضي الله عنه من كتاب تهذيب الأسماء واللغات: أنه رضي الله عنه لم يلبس السراويل في جاهلية ولا إسلام إلا يوم قتله. فإنهم كانوا أحرص شيء على اتباعه ﷺ .

لكن قد ورد في حديث عند أبي يعلى الموصلي في مسنده بسند ضعيف جداً عن أبي هريرة قال: دخلت السوق يوماً مع رسول الله ﷺ فجلس إلى البزازين فاشتري سراويل بأربعة دراهم، وكان لأهل السوق وزان يزن فقال له رسول الله ﷺ: اتزن وأرجح، فقال الوزان إن هذه الكلمة ما سمعتها من أحد، فقال أبو هريرة فقلت له: كفى بك من الوهن والجفاء في دينك ألا تعرف نبيك، فطرح الميزان، ووثب إلى يد رسول الله ﷺ يريد أن يقبلها ف جذب يده ﷺ منه وقال: يا هذا إنما تفعل هذا الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنما أنا رجل منكم، فوزن فأرجح وأخذ رسول الله ﷺ السراويل. قال أبو هريرة: فذهبت لأحملة عنه فقال: صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله إلا أن يكون ضعيفاً يعجز عنه فيعيته أخوه المسلم، قال: قلت يا رسول الله، وإنك^(١) لتلبس السراويل؟ قال: أجل، في السفر والحضر، وبالليل والنهار، فإني أمرت بالستر، فلم أجد شيئاً أستر منه .

وكذا أخرجه ابن حبان في الضعفاء عن أبي يعلى، ورواه

(١) في (أ، ش) فإنك.

الطبراني في الأوسط، والدارقطني في الأفراد، والعقيلي في الضعفاء، ومداره على يوسف بن زياد الواسطي^(١).

لكن قد صح شراء النبي ﷺ له^(٢).

وفي الهدى: والظاهر أنه ﷺ إنما اشتراه ليلبسه. وقد روي أنه لبس السراويل، وكانوا يلبسونه في زمانه ويأذنه.

قال أبو عبدالله الحجازي في حاشيته على «الشفاء»: وما قاله في الهدى من أنه ﷺ لبس السراويل، قالوا: سبق قلم والله أعلم.

وقد أورد أبو سعيد النيسابوري ذكر الحديث في تجارته ﷺ من كتابه «شرف المصطفى».

وقد ترجم البخاري في اللباس من صحيحه: باب السراويل، وأورد فيه حديث المحرم لكونه لم يرد فيه شيء على شرطه.

[لبس الخف]

وأما الخف: فروى الترمذي عن بريدة أن النجاشي أهدى للنبي ﷺ خفين أسودين ساذجين^(٣)، فلبسهما ثم توضأ ومسح عليهما.

(١) أي انفرد به، وهو واه، بل ذكره ابن الجوزي في الموضوعات، وقال الحافظ وغيره: ضعيف.

(٢) روى أحمد وأصحاب السنن الأربعة عن سويد بن قيس قال: جلبت أنا ومخرقة العبد بزا من هجر فأتينا مكة، فجاءنا رسول الله ﷺ ونحن بمنى، فتساومنا سراويل فبعناه منه، فوزن ثمنه وقال للوزان: زن وأرجح.

(٣) غير منقوشين، أو لا شعر عليهما، أو على لون واحد، قال الولي العراقي: وهذه اللفظة تستعمل في العرف كذلك ولم أجدها في كتب اللغة بهذا المعنى، ولا رأيت المصنفين في غريب الحديث ذكروها.

وعن المغيرة بن شعبة قال: أهدى دحية للنبي ﷺ خفين فلبسهما. وقال إسرائيل عن جابر عن عامر: وجبة^(١) فلبسهما حتى تحرقا، لا يدري النبي ﷺ أذكيان^(٢) هما أم لا. رواه الطبراني^(٣).

[لبس النعل]

وأما نعله ﷺ، والنعل - كما قال صاحب المحكم - ما وقيت به القدم، ففي البخاري عن قتادة عن أنس (أن نعل النبي ﷺ كان لها قبالات). والقبالات: ثنية القبال، وهو زمام النعل، وهو السير الذي يكون بين الأصبعين.

وعن ابن عباس قال: كان لنعل النبي ﷺ / قبالات مثنى ١/١٧٦ شراكهما^(٤)، رواه الترمذي في الشئائل، وفيها أيضاً عن أبي هريرة قال: كان لنعل رسول الله ﷺ قبالات.

وعن عيسى بن طهمان قال: أخرج إلينا أنس بن مالك نعلين جرداوين لهما قبالات، فحدثني ثابت بعد عن^(٥) أنس: أنها كانتا نعلي النبي ﷺ^(٦).

وعن عبيد بن جريح أنه قال لابن عمر: رأيتك تلبس النعال

(١) معطوفة على خفين، أي أهدى له خفين وجبة.

(٢) في ط: أمذكيان.

(٣) وكذا الترمذي في شئائه وجامعه.

(٤) مثنى: من الثنية وهو من جعل الشيء اثنين، والشراك: أحد سيور النعل.

(٥) (عن) سقطت من ط.

(٦) رواه البخاري والترمذي في الشئائل.

السبتية، قال: إني رأيت رسول الله ﷺ يلبس النعال التي ليس فيها شعر ويتوضأ فيها، فأنا أحب أن ألبسها^(١).

وعن عمرو بن حريث قال: رأيت رسول الله ﷺ يصلي في نعلين مخصوصتين^(٢).

وعن عائشة كان رسول الله ﷺ يحب التيمن ما استطاع في ترجله^(٣) وتنعله وطهوره رواه الترمذي^(٤).

وعن أبي هريرة، قال ﷺ: إذا تنعل أحدكم فليبدأ باليمين، فإذا نزع فليبدأ بالشمال، لتكن اليمين أولهما تنعل وآخرهما تنزع^(٥).

وكان ﷺ ينهاه أن ينتعل الرجل قائماً. رواه أبو داود والترمذي.

وقد ذكر أبو اليمن بن عساكر تمثال نعله الكريمة عليه أفضل الصلاة والسلام في جزء مفرد رويته قراءة وسامعا. وكذا أفرده بالتأليف أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن خلف السلمي المشهور بابن الحاج من أهل المرية بالأندلس وكذا غيرها. ولم أثبتها هنا اتكالا على شهرتها وصعوبة ضبط تسطيرها إلا على حاذق.

ومن بعض ما ذكر من فضلها وجرب من نفعها وبركتها، ما

(١) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) أي مخروزين، والحديث رواه الترمذي وفيه راو مبهم، لكن صح أنه كان يخصف نعله.

(٣) أي تسريح شعره.

(٤) قصر العزو على الترمذي فيه تقصير شديد فقد رواه الشيخان والأربعة والإمام أحمد.

(٥) رواه البخاري وأبو داود والترمذي.

ذكره أبو جعفر أحمد بن عبد المجيد، وكان شيخاً صالحاً^(١) قال:
حدوت هذا المثال لبعض الطلبة فجاءني يوماً فقال لي رأيت البارحة
من بركة هذا النعل عجباً. أصاب زوجي وجع شديد كاد يهلكها
فجعلت النعل على موضع الوجع وقلت: اللهم أرني بركة صاحب
هذا النعل، فشفاه الله للحين.

وقال أبو إسحاق: قال أبو القاسم بن محمد: ومما جرب من
بركته أن من أمسكه عنده متبركاً به كان له أماناً من بغي البغاة وغلبة
العداة وحرزاً من كل شيطان مارد وعين كل حاسد، وإن أمسكته
المرأة الحامل بيمينها وقد اشتد عليها الطلق تيسر أمرها بحول الله
وقوته، والله در أبي اليمن بن عساكر حيث قال:

يا منشداً في رسم ربع خال ومناشداً لدوارس الأطلال
دع ندب آثار وذكور مائر لأحبة بانوا وعصر خال
والثم ثرى الأثر الكريم فحبذا إن فزت منه بلثم ذا التمثال
أثر له بقلوبنا أثر لها شغل الخلي بحب ذات الخال
قبّل لك الإقبال نعلي أخصص حل الهلال بها محل قبال
ألصق بها قلباً يقلبه الهوى وجلاً على الأوصاب والأوجال
صافح بها خدأً وعفروجنة في تربها وجدأً وفرط فعال^(٢)
سَيِّل^(٣) حر جوى ثوى بجوانح في الحب ما جنحت إلى الإبلال
يا شبه نعل المصطفى روجي الفدا لمحكك الأسمى الشريف العال

(١) كذا في ش، وفي النسخ: وربما قال.

(٢) في ش: تغال. أي زيادة تعلق في محبتها.

(٣) في ط سبيل، وفي ش سبيل.

هملت لمراآك العيون وقد نأى
وتذكرت عهد العقيق فتأثرت
وصببت فواصلت الحنين إلى الذي
أذكرتني قَدَمًا لها قَدَمَ العلا
أذكرتني من لم يزل ذكري له
ولها المفآخر والمآثر في الدنيا
لو أن خدي يحتذى نعلًا لها
أو أن أجفاني لوطء نعالها

مرمى^(١) العيان بغير ما إهمال
شوقاً عقيقَ المدمع الهطال/
ما زال بالي منه في بلبال
والجود والمعروف والإفضال
يعتاد في الأبكار والأصال
والدين والأقوال والأفعال
لبلغت من نيل المنى آمال
أرض سمت عزاً بذأ الإذلال

وما أحسن قول أبي الحكم بن المرحل^(٢) في قصيدة ذكرها أبو
إسحاق بن الحاج:

بوصف حببي طرز الشعر ناظمه
رؤوف عطوف أوسع الناس رحمة
له الحسن والإحسان في كل مذهب
به ختم الله النبيين كلهم
أحب رسول الله حباً لو أنه
كان فؤادي كلما مرَّ ذكره
أهيم إذا هبت نواسم أرضه

وننم خد الطرس^(٣) بالنقش راقمه
وجادت عليهم بالنوال غمائه
فآثاره محبوبة ومعالمه
وكل فعال صالح فهو خاتمه
تقاسمه قومي كفتهم قسائمه
من الوُزُق^(٤) خفاق أصيبت قوادمه
ومن لفؤادي أن تهب نواسمه

(١) في ش: مرمى.

(٢) أحد فضلاء المغاربة له نظم حسن. قاله الحافظ في تبصيره.

(٣) الطرس: الصحيفة. والمراد هنا: الورق الأبيض.

(٤) جمع ورقاء: الحمام.

فأنشق مسكاً طيباً فكأنما
وما دعاني والدعاوى كثيرة
مثال لنعلي من أحب هويته
أجر على رأسي ووجهي أديمه
أمثله في رجل أكرم من مشي
أحرك خدي ثم أحسب وقعه
ومن لي بوقع النعل في حر وجنتي
سأجعله فوق الترائب عوذة^(٥)
وأربطة فوق الشؤون^(٧) تميمة
ألا بأبي تمثال نعل محمد
يود هلال الأفق لو أنه هوى
وما ذاك إلا أن حب نبينا
سلام عليه كلما هبت الصبا

نوافجه^(١) جاءت به ولطائمه^(٢)
إلى الشوق أن الشوق مما أكاثمه
فها أنا في يومي وليلي الأاثمه^(٣)
والثمه طوراً وطوراً ألامه
فتبصره عيني وما أنا حاله
على وجنتي خطوا هناك يداومه
لماش علت فوق النجوم براجمه^(٤)
لقلبي لعل القلب يبرد حاجمه^(٦)
لجفني لعل الجفن يرقأ ساجمه^(٨)
لطاب لحاذيه وقدس خادمه^(٩)
يزاحمنا في لثمه ونزاحمه
يقوم بأجسام الخليقة لازمه
وغنت بأغصان الأراك حمائم

-
- (١) جمع نافجة: وعاء المسك.
(٢) في ط: لواطمه. ولطائم جمع لطيمة: وعاء المسك، أو غير تحمله وهو المناسب هنا.
(٣) في (أ، ش) لاثمه، ولثم: قبل.
(٤) البراجم: رؤوس السلاميات من ظهر الكف.
(٥) عوذة: رقية، والترائب: عظام الصدر.
(٦) في (أ، ب) جاجمه، وحاجمه: حرارته الشديدة.
(٧) هي مواصل قبائل الرأس كما في القاموس.
(٨) ساجمه: دمعه السائل.
(٩) أي لقد طاب ذلك التمثال، وحاذيه: صانعه، وقدس: طهر.

ولأبي بكر أحمد بن الإمام أبي محمد عبدالله بن الحسين
القرطبي^(١) رحمه الله :

ونعل خضعنا هيبة لبهائها وإنما نخضع لها أبداً نعلو
فضعها على أعلى المفارق إنها حقيقتها تاج وصورتها نعل
بأخص خير الخلق حازت مزية على التاج حتى باهت الفرق الرجل
طريق الهدى عنها استنارت لمبصر وإن بحار الجود من فيضها حلوا
سلونا ولكن عن سواها وإنما نهم بمغناها الغريب وما نسلوا/
فما شاقنا مذارقنا رسم عزها حميم ولا مال كريم ولا نسل
شفاء لذي سقم رجاء لبائس أمان لذي خوف كذا يحسب الفضل

[فراشه عليه السلام]

وأما فراشه عليه السلام ، فقد كان عليه السلام آخذاً من ذلك بما تدعو ضرورته
إليه ، وترك ما سوى ذلك .

وفي صحيح مسلم قوله عليه السلام : (فراش للرجل وفراش لامرأته
والثالث للضيف ، والرابع للشيطان)

قال العلماء : معناه ما زاد على الحاجة فاتخاذها إنما هو للمباهاة
والاختيال ، والالتهاء بزينة الدنيا ، وما كان بهذه الصفة فهو مذموم ،
وكل مذموم يضاف للشيطان لأنه يرتضيه ويوسوس به ويحسنه ، وقيل :

(١) كان مقرئاً مجوداً ، فقيهاً محدثاً ضابطاً ، نحوياً ماهراً ، أديباً كاتباً ، متين
الدين صادق الورع معرضاً عن الدنيا أقرأ ببلده مالقة القرآن ودروس
الفقه . . توفي بمصر وهو في طريقه إلى الحج سنة ثنتين وخمسين وستمائة
وكان مولده سنة سبع وستمائة .

إنه على ظاهره، وإنه إذا كان لغير حاجة كان للشيطان عليه مبيت ومقيل، وأما تعداد الفراش للزوج والزوجة فلا بأس به لأنه قد يحتاج كل واحد منهما إلى فراش عند المرض ونحوه.

وعن عائشة: (إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه أدماً حشوه الليف) رواه الشيخان.

وروى البيهقي من حديثها، قالت: دخلت علي امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ قطيفة مثنية، فبعثت إلي بفراش حشوه الصوف، فدخل علي رسول الله ﷺ فقال: ما هذا يا عائشة؟ قلت؛ يا رسول الله، فلانة الأنصارية دخلت فرأت فراشك فبعثت إلي بهذا، فقال: رديه يا عائشة فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة.

وعن عبدالله بن مسعود: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه. الحديث رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن صحيح^(١). والطبراني ولفظه: دخلت على النبي ﷺ وهو في غرفة كأنها حمام. وهو نائم على حصير، وقد أثر في جنبه فبكيت، فقال: ما يبكيك يا عبدالله؟ قلت: يا رسول الله كسرى وقيصر يطؤون على الخبز والديباج والحريز، وأنت نائم على هذا الحصير قد أثر بجنبك، فقال: فلا تبك يا عبدالله، فإن لهم الدنيا ولنا الآخرة.

وقوله: كأنها بيت حمام - بتشديد الميم - أي أن فيها من الحر والكرب كما في بيت الحمام.

وعن ابن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: دخلت

(١) ورواه الإمام أحمد.

على رسول الله ﷺ وهو على حصير، قال: فجلست، فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، وإذا إهاب معلق، فابتدرت عيناى، فقال: ما يبكيك يا ابن الخطاب، فقال: يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت نبي الله وصفوته، وهذه خزائنك. قال: يا ابن الخطاب، أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا. رواه ابن ماجه بإسناد صحيح. والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ولفظه:

قال عمر رضي الله عنه: استأذنت على رسول الله ﷺ فدخلت عليه في مشربة^(١)، وإنه لمضطجع على خصفة^(٢) وإن بعضه لعلى التراب، وتحت رأسه وسادة محشوة ليفاً، وإن فوق رأسه لإهاب عطين^(٣)، وفي ناحية المشربة قرظ^(٤)، فسلمت عليه وجلست فقلت: أنت نبي الله وصفوته، وكسرى وقيصر على سرر الذهب وفرش الديباج والحريز، فقال: أولئك عجلت لهم طيباتهم وهي وشيكة الانقطاع وإنا قوم أخرت لنا طيباتنا في آخرتنا^(٥).

(١) غرفة مرتفعة يرقى إليها.

(٢) وعاء من خوص التمر.

(٣) إهاب: بالنصب اسم إن بحذف الألف على لغة ربيعة، وعطين: أي متغيراً منتناً.

(٤) ورق السلم الذي يدبغ به.

(٥) هو بعض حديث المشربة الذي أخرجه الشيخان، فيه بعض المغايرة في الألفاظ، والمعنى واحد.

وعن عائشة، كان لرسول الله ﷺ سرير مُرَّمَل بالبَرْدِي^(١)، عليه كساء أسود، وقد حشوناها/ بالبردي، فدخل أبو بكر وعمر عليه فإذا النبي ﷺ نائم عليه، فلما رأهما استوى جالساً، فنظرا فإذا أثر السرير في جنب رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله ما يؤذيك^(٢) خشونة ما نرى من فراشك وسريرك، وهذا كسرى وقيصر على فرش الحرير والديباج فقال ﷺ: لا تقولوا هذا، فإن فراشي كسرى وقيصر في النار، وإن فراشي وسريري هذا عاقبته إلى الجنة. رواه ابن حبان في صحيحه.

ويروى أنه ﷺ ما عاب مضجعاً قط، إن فرش له اضطجع، وإلا اضطجع على الأرض.

وتغطى ﷺ باللحاف، قال ﷺ: ما أتاني جبريل وأنا في لحاف امرأة منكن غير عائشة^(٣).

(١) نبات يعمل منه الحصر، والمعنى: أن قوائم السرير موصولة مغطاة بما نسج من ذلك النبات ورمال الحصير: ضلوعه المداخلة فيه كالخيوط في الثوب.
(٢) بحذف همزة الاستفهام تخفيفاً، أي: أما يؤذيك؟
(٣) رواه البخاري.

النوع الثالث

في سيرته ﷺ في نكاحه

قد كان ﷺ يأخذ من الجماع بالأكمل، مما تحفظ به الصحة، وتم به اللذة وسرور النفس، وتحصل به مقاصده التي وضع لأجلها.

[مقاصد النكاح]

فإن الجماع في الأصل وضع لثلاثة أشياء، هي مقاصده الأصلية.

أحدها: حفظ النفس ودوام النوع الإنساني إلى أن تتكامل العدة التي قدر الله تعالى بروزها إلى هذا العالم.

الثاني^(١): قضاء الوطر ونيل اللذة والتمتع بالنعمة، وهذه هي الفائدة التي في الجنة، إذ لا تناسل هناك، ولا احتقان يستفرغه الإنزال، وفضلاء الأطباء يرون أن الجماع من أسباب حفظ الصحة. لكن لا ينبغي إخراج المني إلا في طلب النسل، وإخراج ما احتقن منه، فإنه إذا دام احتقانه أحدث أمراضاً رديئة، منها الوسواس والجنون والصرع وغير ذلك، وقد يبرئ استعماله من هذه الأمراض

(١) سقط الثالث من قلم المصنف، قال الشارح: صوابه - كما في زاد المعاد -:
الثاني: إخراج الماء الذي يضر احتباسه واحتقانه بجملته البدن. الثالث:
قضاء الوطر.

كثيراً، فإنه إذا طال احتباسه فسد واستحال إلى كيفية سمية توجب أمراضاً رديئة.

قال محمد بن زكريا^(١): من ترك الجماع مدة طويلة ضعفت قوى أعضائه واستدت^(٢) مجارياً، وتقلص ذكره، وقد رأيت جماعة تركوه لنوع من التقشف فبردت أبدانهم وعسرت حركاتهم ووقعت عليهم كآبة بلا سبب، وقلت شهواتهم وهضمهم. أشار إليه في زاد المعاد.

[من منافعه]

ومن منافعه: غض البصر، وكف النفس، والقدرة على العفة عن الحرام، وتحصيل ذلك للمرأة، فهو ينفع نفسه في دنياه وآخرته، وينفع المرأة، ولم يزل التفاخر بكثرته عادة معروفة، والتماحح به سيرة ماضية، ولذلك كان ﷺ يتعاهده ويقول كما في حديث أنس عند الطبراني في الأوسط، والنسائي في سننه^(٣): حُب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرّة عيني في الصلاة. أي لمناجاته فيها ربه، زاد الإمام أحمد في الزهد: وأصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن^(٤).

فمحبّة النساء والنكاح من كمال الإنسان، هذا خليل الله إبراهيم، إمام الحنفاء، كان عنده سارة أجمل نساء العالمين، أحب

(١) أحد علماء الطب.

(٢) في ش: وانسدت.

(٣) وهو عند أحمد في كتاب الزهد ووهم من عزاه لمسنده.

(٤) كذا نسب ابن القيم هذه الزيادة لكتاب الزهد، وتعبه السيوطي: بأنه مر على الزهد مراراً فلم يجدها فيه.

هاجر وتسرى بها. وذكر سعد بن إبراهيم عن عامر بن سعد عن أبيه^(١) قال: كان الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام يزور هاجر في كل يوم من الشام على البراق شغفاً بها وقلة صبر عنها^(٢). وهذا داود عليه الصلاة والسلام كان عنده تسع وتسعون امرأة فأحب تلك المرأة وتزوج بها فأكمل المائة^(٣) وهذا سليمان ابنه كان يطوف في الليلة على تسعين امرأة.

[حديث «حب إلي من دنياكم»]

تنبه: قد وقع في الإحياء للغزالي، وتفسير آل عمران من ١/١٧٨ الكشاف، وكثير من / كتب الفقهاء: حب إلي من دنياكم ثلاث. وقالوا: إنه عليه الصلاة والسلام قال «ثلاث» ولم يذكر إلا اثنتين: الطيب والنساء. قالوا: ومنه قول الشاعر:

(١) أي سعد بن أبي وقاص.

(٢) هذا موقوف صحابي.

(٣) جاء في تفسير «صفوة التفاسير» للشيخ الصابوني في تفسير سورة ص: نقل بعض المفسرين من القصص الإسرائيلية ما يتنافى مع العقيدة الإسلامية في «عصمة الأنبياء». ومن هذه الأباطيل المدسوسة ما روي من أمر عشق داود عليه السلام لزوجته قائد جيشه حين رآها... فأعجبه وعشقها فدبر مكيدة لزوجها بإرساله إلى المعارك حتى تخلص منه.. ثم تزوجها.. وهذا كله كذب وزور ولذا قال علي رضي الله عنه: «من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلده مائة وستين جلدة» وهو حد الفرية على الأنبياء. انتهى ملخصاً. أقول: والغريب أن الشارح أقر ذلك وقال: إن داود سأل الرجل أن يطلقها فطلقها بطيب خاطر. هـ وهو أمر غير مقبول أيضاً لأنه يتنافى وصفات الأنبياء [المحقق].

إن الأحامرة^(١) الثلاثة أهلكت مالي وكنت بهن قدماً مولعاً
الخمر والماء القراح وأطلي بالزعفران فلا أزال مولعاً
وذكرها ابن فورك في جزء مفرد ووجهها وأطب في ذلك، وهذا
عندهم يسمى «طيا» وهو أن يذكر جمع ثم يؤق ببعضه ويسكت عن
ذكر باقيه لغرض للمتكلم، وأنشد الزمخشري عليه:
كانت حنيفة أثلاثاً فثلثهم من العبيد وثلث من مواليتها
وفائدة الطي عندهم تكثير ذلك الشيء.

لكن قال ابن القيم وغيره: من رواه «حب إلي من دنياكم
ثلاث» فقد وهم، ولم يقل ﷺ: ثلاث، والصلاة ليست من أمور
الدنيا التي تضاف إليها. انتهى، نعم تضاف إليها لكونها ظرفاً لوقوعها
فقط، فهي عبادة محضة.

وقال شيخ الإسلام والحفاظ ابن حجر في تاريخ الكشاف: إن
لفظ «ثلاث» لم تقع في شيء من طرقه، وزيادته مفسدة للمعنى.
وكذا قال شيخ الإسلام الولي ابن العراقي في أماليه، وعبارته:
ليست هذه اللفظة وهي «ثلاث» في شيء من كتب الحديث، وهي
مفسدة للمعنى، فإن الصلاة ليست من أمور الدنيا.
وكذا صرح به الزركشي وغيره، كما حكاها شيخنا في المقاصد
الحسنة وأقره.

(١) جمع أحمر. فالخمر أحمر، ووصف الماء به مجاز إذ لا لون له. والطلاء
بالزعفران ليس من الثلاثة. أقول: وهكذا اكتفى بذكر بعض الثلاثة. [م].

[التأمل في قوله: «حب»]

وقال ابن الحاج في المدخل: انظر إلى حكمة قوله ﷺ «حب» ولم يقل: أحببت، وقال: «من دنياكم» فأضافها إليهم دونه عليه الصلاة والسلام، فدل على أن حبه كان خاصاً بمولاه تعالى، وجعلت قرة عينه في الصلاة، فكان ﷺ بشرياً الظاهر، ملكوتي الباطن. وكان ﷺ لا يأتي إلى شيء من أحوال البشرية إلا تأنيساً لأمته وتشريعاً لها، لا أنه محتاج إلى شيء من ذلك، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك﴾^(١) فقال: «لكم» ولم يقل: إني ملك، فلم ينف الملكية عنه إلا بالنسبة إليهم، أعني في معانيه ﷺ لا في ذاته الكريمة، إذ إنه ﷺ يلحق بشريته ما يلحق البشر، ولهذا قال سيدي أبو الحسن الشاذلي في صفته ﷺ: هو بشر ليس كالأبشار، كما أن الياقوت حجر ليس كالأحجار. وهذا منه - رحمه الله - على سبيل التقريب للفهوم، فدل على أنه ﷺ ملكي الباطن، ومن كان ملكي الباطن ملك نفسه. انتهى.

[حديث مما لا يصح]

وها هنا لطيفة: روى أنه ﷺ لما قال: حبب إلي من دنياكم^(٢) النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة، قال أبو بكر: وأنا يا رسول الله حبب إلي من الدنيا: النظر إلى وجهك، وجمع المال للإنفاق

(١) سورة الأنعام، الآية (٥٠).

(٢) أثبت الشارح هنا كلمة (ثلاث) وكذا في أقوال الصحابة. وقال المصحح وقع فيها اختلاف النسخ.

عليك، والتوسل بقرابتك إليك. وقال عمر: وأنا يا رسول الله حجب إلي من الدنيا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام بأمر الله، وقال عثمان: وأنا يا رسول الله حجب إلي من الدنيا إشباع الجائع وإرواء الظمآن وكسوة العاري، وقال علي بن أبي طالب: وأنا يا رسول الله حجب إلي من الدنيا الصوم في الصيف، وإقراء الضيف والضرب بين يديك بالسيف. قال الطبري: خرج الجندي. كذا قال والعهدة عليه^(١).

[قوته ﷺ في النكاح]

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: فضلت على الناس بأربع بالساحة والشجاعة وكثرة الجماع وشدة البطش. رواه الطبراني^(٢).

وقال أنس: (كان ﷺ يدور على نسائه في الساعة/ الواحدة من ١٧٨/ب الليل، وهن إحدى عشرة، قلت لأنس: أو كان يطيقه؟ قال: كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين) رواه البخاري من طريق قتادة^(٣). قال ابن خزيمة^(٤): تفرد بذلك معاذ بن هشام عن أبيه.

(١) هو مما لا يصح.

(٢) حديث ضعيف. فيه سعيد بن بشير.

(٣) رواه البخاري برقم ٢٦٨.

(٤) ابن خزيمة: محمد ابن إسحاق بن خزيمة، الحافظ الكبير المعروف عند المحدثين بإمام الأئمة، مصنفاته تزيد على مائة وأربعين. مات سنة إحدى عشرة وثلاثمائة عن نحو تسعين سنة.

ورواه سعيد بن أبي عروبة^(١) وغيره عن قتادة فقال: (تسع نسوة)^(٢) انتهى.

وكذا رواه البخاري من طريق سعيد بن أبي عروبة أيضاً بلفظ (وله يومئذ تسع نسوة)^(٣).

وقد جمع بينهما ابن حبان في صحيحه بأن حمل ذلك على حالتين، لكنه وهم في قوله: إن الأولى كانت في أول قدومه المدينة، حيث كان تحته تسع نسوة، والحالة الثانية في آخر الأمر، حيث اجتمع عنده إحدى عشرة امرأة.

وموضع هذا الوهم منه: أنه ﷺ لما قدم المدينة لم يكن تحته سوى سودة ثم دخل على عائشة بالمدينة، ثم تزوج أم سلمة وحفصة وزينب بنت خزيمة في السنة الرابعة، ثم زينب بنت جحش في الخامسة، ثم جويرة في السادسة، ثم صفية وأم حبيبة وميمونة في السابعة، هؤلاء جميع من دخل بهن من الزوجات بعد الهجرة على المشهور... لكن تحمل رواية هشام على أنه ضم مارية وريحانة إليهن وأطلق عليهن لفظ «نسائه» تغليياً^(٤).

فإن قلت: وطء المرأة في يوم الأخرى ممنوع، والقسم وإن لم يكن واجباً عليه ﷺ لكنه التزمه تطيباً لنفوسهن.

أجيب: باحتمال إذن صاحبة اليوم له، أو أنه في يوم لم يثبت فيه

(١) ثقة حافظ له تصانيف، كثير التدليس، مات سنة ست وخمسين ومائة وروى له الستة.

(٢) رواه الإمام أحمد.

(٣) رواه البخاري برقم ٢٨٤.

(٤) عن فتح الباري من قوله «وقد جمع بينهما ابن حبان» ٣٧٨/١ [م].

قسم بعد، كيوم قدومه من سفر، أو اليوم الذي بعد كمال الدورة، لأنه يستأنف القسم فيما بعد، أو أنه من خصائصه ﷺ ، وقد اختص في باب النساء بأشياء، كما سيأتي إن شاء الله تعالى^(١).

وعن طاووس ومجاهد: أعطي ﷺ قوة أربعين رجلاً في الجماع. رواه ابن سعد.

وفي رواية عن مجاهد: قوة بضع وأربعين رجلاً كل رجل من أهل الجنة. رواه الحارث بن أبي أسامة.

وعند أحمد والنسائي، وصححه الحاكم من حديث زيد بن أرقم رفعه: إن الرجل من أهل الجنة ليعطى قوة مائة في الأكل والشرب والجماع والشهوة.

وعن صفوان بن سليم مرفوعاً: أتاني جبريل بقدر، فأكلت منها فأعطيت قوة أربعين رجلاً في الجماع. رواه ابن سعد.

[من حكم تعدد زوجاته ﷺ]

ولما كان ﷺ ممن أقدر على القوة في الجماع وأعطى الكثير منه، أبيع له من عدد الحرائر ما لم يبيع لغيره.

قال ابن عباس: تزجوا فإن أفضل هذه الأمة أكثرها نساء^(٢). يشير إليه ﷺ ، وقيد بهذه الأمة ليخرج مثل سليمان عليه السلام فإنه كان أكثر نساء.

(١) هذه الفقرة في (أ، ش) وردت بعد خبر طاووس.

(٢) رواه البخاري.

ووقع عند الطبراني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: تزوجوا فإن خيرنا أكثرنا نساء، قيل المعنى: خير أمة محمد ﷺ من كان أكثر نساء من غيره ممن يتساوى معه فيما عدا ذلك من الفضائل.

قال الحافظ أبو الفضل العسقلاني: والذي يظهر أن مراد ابن عباس بـ«الخير» النبي ﷺ وبـ«الأمة» أخصاء أصحابه، وكأنه أشار إلى أن ترك التزويج مرجوح، إذ لو كان راجحاً ما أثر النبي ﷺ غيره، وكان - مع كونه أخشى الناس لله وأعلمهم به - يكثر التزويج لمصلحة تبليغ الأحكام التي لا يطلع عليها الرجال، ولإظهار المعجزة البالغة في خرق العادة لكونه كان لا يجد ما يستمتع به من القوت غالباً، وإن وجد فكان يؤثر بأكثره، ويصوم كثيراً ويواصل، ومع ذلك فكان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة، ولا يطاق ذلك إلا مع قوة البدن، وقوة البدن تابعة لما يقوم به من استعمال المقويات من مأكول ومشروب، وهي عنده ﷺ نادرة أو معدومة.

وقال بعض العلماء: لما كان الحر لفضله على العبد يستبيح من النساء أكثر مما يستبيح العبد، وجب أن يكون النبي ﷺ لفضله على جميع الأمة يستبيح من النساء أكثر مما تستبيحه الأمة.

قالوا: ومن فوائد ذلك، زيادة التكليف بهن مع تحمل أعباء الرسالة، فيكون ذلك أعظم لمشاقه وأكثر لأجره، ومنها: أن النكاح في حقه عبادة، ومنها: نقل محاسنه الباطنة، وقد تزوج ﷺ أم حبيبة وكان أبوها في ذلك الوقت عدوه، وصفية وقد قتل أبها وعمها وزوجها، فلو لم يطلعن من باطن أحواله على أنه أكمل خلق الله لكانت الطباع البشرية تقتضي ميلهن إلى آبائهن وقرباتهن، فكان في كثرة النساء عنده بيان لمعجزاته وكماله باطناً، كما عرف الرجال منه الظاهر.

[الحض على الزواج]

وقد رغب ﷺ في النكاح. فروى أبو داود والنسائي من حديث معقل بن يسار مرفوعاً: (تزوجوا الولود الودود فإنني مكاثركم بكم الأمم) وفي ابن ماجه عن أبي هريرة رفعه: (انكحوا فإنني مكاثركم بكم الأمم)

وهو معنى ما اشتهر على الألسنة: تناكحوا تناسلوا فإنني أباهي بكم الأمم^(١)، ولم أقف عليه بهذا اللفظ.

وأرشد ﷺ من لم يستطع الباءة إلى الصوم، لأن كثرتة تقلل مادة النكاح، وتضعف ما يجده المرء من الحرارة القوية التي تبعثه على النكاح، وخص الشباب في قوله: «يا معشر الشباب»^(٢) لأن للشباب من شهوة النكاح ما ليس لغيرهم. وقد ظهر لك أن النكاح أعظم في الأجر والثواب من الصيام، فإنه ﷺ لم يأمر أولاً بالصوم وإنما أمر به عند عدم الطول إلى النكاح، وإذا كان النكاح ينوي به التناسل لتكثير هذه الأمة المحمدية فهو بلا شك أفضل.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لأطأ النساء ومالي إليهن حاجة، رجاء أن يخرج الله من ظهري من يكاثركم به محمد ﷺ الأمم يوم القيامة. ذكره ابن أبي جمرة.

(١) أورده عياض بلفظ: تناكحوا تناسلوا أباهي بكم الأمم يوم القيامة، وقال مخرجه: أخرجه ابن مردويه في تفسيره عن ابن عمر مرفوعاً بسند ضعيف.
(٢) رواه الشيخان وأحمد والأربعة عن ابن مسعود بلفظ: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء).

وانظر كون نبينا ﷺ - بالإجماع - أعبد الناس، مع ما طبعت عليه بشريته من حب الجماع، وكيف لم يخل بعبادته شيئاً، لأنه ﷺ لم يكن يأتيها إلا على مشروعيتها، وهذا هو غاية الكمال في البشرية، لأنه يرجع ما طبع عليه تابعاً لما أمر به.

وقد روي عنه ﷺ أنه قال: لا رهبانية في الإسلام^(١). وهي ترك النساء، ولو كان تركهن أفضل لشرع ذلك في ديننا، إذ هو خير الأديان.

[خصوصية سليمان عليه السلام]

وقد قال سليمان عليه السلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة. رواه البخاري.

وهذا فيه معجزة لسليمان عليه السلام، إذ البشر عاجز عن الطواف على مائة امرأة في ليلة واحدة، فأظهر الله تعالى قدرته بأن أعطى لسليمان عليه السلام القوة على ذلك فكان فيها معجزة وإظهار قدرة وإبداء حكمة، رداً على من ربط الأشياء بالعوائد فيقول: لا يكون كذا إلا من كذا، ولا يتولد كذا إلا من كذا، فألقى الله في صلب سليمان ماء مائة رجل.

وكان له ثلاثمائة زوجة وألف سرية^(٢) وهذا لا يعطي تفضيل لسليمان عليه السلام على نبينا ﷺ، إذ سيدنا محمد لم يعط إلا ماء أربعين رجلاً، ولم يكن له غير عشر نسوة، لأن مرتبة نبينا ﷺ في

(١) روى الإمام أحمد قوله ﷺ لعثمان بن مظعون: (إن الرهبانية لم تكتب علينا) المسند ٢٢٦/٣ [م].

(٢) الله أعلم بصحة هذا؟!.

الأفضلية لا يساويه فيها أحد، وسليمان تمنى أن يكون ملكاً فأعطي ذلك، وأعطي هذه القوة في الجماع لكي يتم له الملك على خرق العادة من كل الجهات ليمتاز بذلك. فكان نساؤه من جنس ملكه الذي لا ينبغي لأحد من بعده كما طلب.

ب/١٧٩ ونبينا محمد ﷺ لما خير بين أن يكون/ نبياً ملكاً أبي ذلك، واختار أن يكون نبياً عبداً، فأعطي من الخصوصية ذلك القدر لكونه ﷺ اختار الفقر والعبودية فأعطي الزائد لخرق العادة في النوع الذي اختار وهو الفقر والعبودية، فكان ﷺ يربط على بطنه الأحجار من شدة الجوع والمجاهدة، وهو على حاله في الجماع لم ينقصه شيئاً، والناس أبداً إذا أخذهم الجوع والمجاهدة لا يستطيعون ذلك، فهو أبلغ في المعجزة، قاله في بهجة النفوس، والله أعلم.

النوع الرابع

في نومه ﷺ

[هيئة نومه ﷺ]

كان ﷺ ينام أول الليل ويستيقظ في أول النصف الثاني، فيقوم فيستاك ويتوضأ، ولم يكن يأخذ من النوم فوق القدر المحتاج، ولا يمنع نفسه من القدر المحتاج إليه منه، وكان ينام على جانبه الأيمن، ذاكراً لله حتى تغلبه عيناه، غير ممتلئ البدن^(١) من الطعام والشراب، لأنه ﷺ كان يحب التيامن في شأنه كله، وليرشد أمته، لأن في الاضطجاع على الشق الأيمن سرّاً، وهو أن القلب معلق في الجانب الأيسر، فإذا نام الرجل على الجانب الأيسر استثقل نوماً، لأنه يكون في دعة واستراحة فيثقل نومه، فإذا نام على الشق الأيمن فإنه يقلق ولا يستغرق في النوم لقلق القلب، وطلبه مستقره وميله إليه.

قالوا: وكثرة النوم على الجانب الأيسر - وإن كان أهناً - مضر بالقلب بسبب ميل الأعضاء إليه، فتنصب المواد فيه.

وأما قول القاضي عياض في الشفاء: وكان نومه على جانبه الأيمن استظهاراً على قلة النوم.. الخ، ففيه شيء، لأنه ﷺ لا ينام قلبه، فسواء كان نومه على الجانب الأيمن أو الأيسر فهذا الحكم ثابت

(١) في ش: البطن.

له، وما علله به إنما يستقيم في حق من ينام قلبه، وحينئذٍ فالأحسن تعليقه بحب التيامن، أو بقصده التعليم، كما مر.

وأردأ النوم، النوم على الظهر، ولا يضر الاستلقاء عليه للراحة من غير نوم، وأردأ منه أن ينام منبطحاً على وجهه، وفي سنن ابن ماجه أنه ﷺ مر برجل في المسجد منبطح على وجهه فضربه برجله وقال: قم، أو اقعد، فإنها نومة جهنمية.

[فراشه ﷺ]

وكان ﷺ ينام على النطع^(١) تارة، وعلى الفراش تارة، وعلى الحصير تارة، وعلى الأرض تارة. وكان فراشه أدماً^(٢) حشوه ليف^(٣). وكان له مسح^(٤) ينام عليه^(٥).

[الدعاء قبل النوم]

وكان ﷺ إذا أخذ مضجعه وضع كفه تحت خده الأيمن وقال: رب قني عذابك يوم تبعث عبادك^(٦). وفي رواية: يوم تجمع عبادك^(٧).

(١) ما اتخذ من الجلد.

(٢) الأدم: الجلد المدبوغ.

(٣) في الصحيحين والترمذي عن عائشة قالت: (إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه أدماً حشوه ليف).

(٤) فراش خش غليظ.

(٥) رواه الترمذي.

(٦) رواه أحمد والترمذي واللفظ له.

(٧) رواها الترمذي.

وقال أبو قتادة: كان ﷺ إذا عرس^(١) بليل اضطجع على شقه الأيمن، وإذا عرس قبيل الصبح نصب ذراعه ووضع رأسه على كفه^(٢).

وقال ابن عباس: كان ﷺ إذا نام نفخ^(٣).

وعن حذيفة كان ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: باسمك اللهم أموت وأحيا^(٤).

وقالت عائشة: كان يجمع كفيه فينثف فيها ويقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾، و ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده. يصنع ذلك ثلاث مرات^(٥).

وقال أنس: كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، وكم ممن لا كافي له ولا مؤوي^(٦). روى ذلك الترمذي^(٧).

[لا ينام قلبه ﷺ]

وكان ﷺ تنام عينه ولا ينام قلبه، رواه البخاري من حديث عائشة، قاله لها عليه الصلاة والسلام لما قالت له: أتنام قبل أن توتر.

(١) أي نزل وهو مسافر للاستراحة.

(٢) رواه أحمد في المسند ٣٠٩/٥ والترمذي.

(٣) رواه الترمذي وفي البخاري (نام ﷺ حتى نفخ).

(٤) رواه أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي.

(٥) رواه الشيخان وغيرهما.

(٦) رواه مسلم وغيره.

(٧) أي الأحاديث السابقة.

وإنما كان / ﷺ لا ينام قلبه لأن القلب إذا قويت فيه الحياة لا ١/١٨٠
ينام إذا نام البدن، وكهال هذه الحالة لنبينا ﷺ، ولمن أحيا الله قلبه
بمحبتة واتباع رسوله من ذلك جزء، بحسب نصيبه منها، فمستيقظ
القلب وغافله، كمستيقظ البدن ونائمه، وإلى هذا الذي ذكرته أشار
صاحب المعارف العلية والحقائق السنية سيدي علي ابن سيدي محمد
وفا:

عيني تنام لكن قلبي والله ما ينام
وكيف ينام عاشق مسبي في الحب مستهام
ناظر إلى وجه الحبيب شاخص على الدوام
أتاه في المعنى مرسوم أن يحى الرسوم
فقال بالحي القيوم يا سعد من يقوم^(١)

وقد جمع العلماء بين هذا الحديث وبين حديث نومه ﷺ في
الوادي عن صلاة الصبح حتى طلعت الشمس وحيت حتى أيقظه عمر
رضي الله عنه بالتكبير^(٢).

فقال النووي: له جوابان، أحدهما: أن القلب إنما يدرك
الحسيات المتعلقة به كالحديث والألم ونحوهما، ولا يدرك ما يتعلق
بالعين لأنها نائمة والقلب يقظان، والثاني: أنه كان له حالان، حال
كان قلبه لا ينام وهو الأغلب، وحال ينام فيه قلبه وهو نادر، فصادف
هذا، أي قصة^(٣) النوم عن الصلاة. قال: والصحيح المعتمد هو
الأول والثاني ضعيف.

(١) من الواضح أن هذا ليس من الشعر الموزون [م].
(٢) أخرجه الشيخان، وهو عند البخاري برقم ٣٤٤.
(٣) كذا في ش وفي فتح الباري، وفي النسخ: قضية.

قال في فتح الباري: وهو كما قال، ولا يقال: القلب - وإن كان لا يدرك ما يتعلق بالعين من رؤية الفجر مثلاً - لكنه يدرك إذا كان يقظاناً مرور الوقت الطويل، فإن من ابتداء طلوع الفجر إلى أن حميت الشمس مدة طويلة، لا تخفى على من لم يكن مستغرقاً، لأننا نقول: يحتمل أن يقال: كان قلبه ﷺ إذ ذاك مستغرقاً بالوحي، ولا يلزم من ذلك وصفه بالنوم، كما كان يستغرق ﷺ حالة إلقاء الوحي في اليقظة، وتكون الحكمة في ذلك بيان التشريع بالفعل، لأنه أوقع في النفس، كما في قصة سهوه في الصلاة، وقريب من هذا جواب ابن المنير: أن القلب يحصل له السهو في اليقظة لمصلحة التشريع، ففي النوم بطريق الأولى، أو على السواء^(١).

وقال ابن العربي في القبس: النبي ﷺ كيفما اختلف حاله من نوم أو يقظة في حق وتحقيق، ومع الملائكة في كل طريق، إن نسي فبآكد من المنسي اشتغل، وإن نام فقبله ونفسه على الله أقبل، ولهذا قالت الصحابة كان ﷺ إذا نام لا نوقظه حتى يستيقظ، لأننا لا ندري ما هو فيه، فنومه عن الصلاة أو نسيانه لشيء منها لم يكن عن آفة، وإنما كان بالتصرف من حالة إلى حالة مثلها لتكون لنا سنة. انتهى.

وقد أجيب عن أصل الإشكال بأجوبة أخرى ضعيفة منها: أن معنى قوله: «لا ينام قلبي» أي لا يخفى عليه حالة انتقاص وضوئه، ومنها: أن معناه، لا يستغرقه النوم حتى يوجد منه الحدث، وهذا قريب من الذي قبله.

قال ابن دقيق العيد، كأن قائل هذا أراد تخصيص يقظة القلب بإدراك حالة الانتقاص، وذلك بعيد، وذلك أن قوله ﷺ: «إن عيني

(١) عن فتح الباري من قوله: فقال النووي ٤٥٠/١ [م].

تنامان ولا ينام قلبي» خرج جواباً عن قول عائشة: أتنام قبل أن توتر؟ وهذا كلام لا تعلق له بانتقاض الطهارة الذي تكلموا فيه. وإنما هو جواب يتعلق بأمر الوتر، فتحمل يقظته على تعلق القلب باليقظة للوتر، وفرق بين من شرع في النوم مطمئن القلب به، وبين من شرع فيه متعلقاً باليقظة.

قال: وعلى هذا فلا تعارض ولا إشكال/ في حديث النوم حتى ١٨٠/ب
طلعت الشمس، لأنه يحتمل أنه اطمأن في نومه لما أوجبه تعب السير^(١) معتمداً على من وكله بكلاءة الفجر، انتهى.

ومحصله تخصيص اليقظة المفهومة من قوله «ولا ينام قلبي» بإدراكه وقت الوتر إدراكاً معنوياً لتعلقه به، وأن نومه في حديث الباب كان نوماً مستغرقاً، ويؤيده قول بلال: أخذ بنفسه الذي أخذ بنفسك، كما في حديث أبي هريرة عند مسلم، ولم ينكر عليه، ومعلوم أن نوم بلال كان مستغرقاً، وقد اعترض عليه: بأن ما قاله يقتضي اعتبار خصوص السبب، وأجاب، بأنه يعتبر إذا قامت عليه قرينة، وأرشد إليها السياق، وهو هنا كذلك.

ومن الأجوبة الضعيفة أيضاً: قول من قال: كان قلبه يقظاناً وعلم بخروج الوقت، لكن ترك إعلامهم بذلك لمصلحة التشريع، والله أعلم انتهى^(٢).

(١) في ط بعد كلمة السير: مجتمعاً. وهي ليست في فتح الباري المنقول عنه.

(٢) عن فتح الباري من قوله: وقد أجيب ١/٤٥٠ - ٤٥١

المقصد الرابع

في

معجزاته الدالة على ثبوت نبوته وصدق رسالته،
وما خص به من خصائص آياته وبدائع كراماته.
وفيه فصلان

الفصل الأول

في معجزاته ﷺ

[تعريف المعجزة وشروطها]

اعلم أيها المحب لهذا النبي الكريم، والرسول العظيم - سلك الله بي وبك مناهج سنته، وأماتنا على محبته، بمنه ورحمته - أن المعجزة هي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي الدال على صدق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وسميت معجزة لعجز البشر عن الإتيان بمثلها، فعلم أن لها شروطاً:

● أحدها: أن تكون خارقة للعادة، كانشقاق القمر، وانفجار الماء من بين الأصابع، وقلب العصا حية، وإخراج ناقة من صخرة، وإعدام جبل.

فخرج غير الخارق للعادة، كطلوع الشمس كل يوم.

● الثاني: أن تكون مقرونة بالتحدي، وهو طلب المعارضة والمقابلة.

قال الجوهري: يقال: تحديت فلاناً، إذا باريته في فعل ونازعته للغلبة.

وفي القاموس: نحوه.

وفي الأساس: حدا، يحدو، وهو حادي الإبل، واحتدى بها حداء إذا غنى، ومن المجاز: تحدى أقرانه إذا باراهم ونازعهم للغلبة. وأصله: الحداء، يتبارى فيه الحاديان ويتعارضان، فيتحدى كل واحد منهما صاحبه، أي يطلب حداءه. كما يقال: توفاه بمعنى استوفاه، وفي بعض الحواشي الموثوق بها، كانوا عند الحدو يقوم حاد عن يمين القطار^(١) وحاد عن يساره، يتحدى كل واحد منهما صاحبه، بمعنى يستحديه، أي يطلب منه حداءه، ثم اتسع فيه حتى استعمل في كل مباراة. انتهى من حاشية الطيبي على الكشاف.

وقال المحققون: التحدي، الدعوى^(٢) للرسالة. انتهى.

● والشرط الثالث من شروط المعجزة: أن لا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدي على وجه المعارضة.

وعبر عنه بعضهم بقوله: دعوى الرسالة مع أمن المعارضة.

وهو أحسن من التعبير: بعدم المعارضة، لأنه لا يلزم من عدم المعارضة امتناعها. والشرط إنما هو عدم إمكانها.

وقد خرج ب قيد «التحدي» الخارق من غير تحد، وهو الكرامة للولي.

وبـ«المقارنة» الخارق المتقدم على التحدي، كإظلال الغمام، وشق الصدر، الواقعين لنبينا ﷺ قبل دعوى الرسالة، وكلام عيسى في المهدي، وما شابه ذلك مما وقع من الخوارق قبل دعوى الرسالة، فإنها

(١) القطار: عدد من الإبل على نسق واحد.

(٢) في ط: الدعوة. وهو تصحيف.

ليست معجزات إنما هي كرامات، ظهورها على الأولياء جائز، والأنبياء قبل نبوتهم لا يقصرون عن درجة الأولياء فيجوز ظهورها عليهم أيضاً، وحينئذ يسمى «إرهاصاً» أي تأسيساً للنبوّة كما صرح به العلامة السيد الجرجاني في شرح المواقف، وغيره، وهو مذهب جمهور أئمة الأصول وغيرهم.

وخرج أيضاً بقيد «المقارنة» المتأخر عن التحدي، بما يخرج ١/١٨١
عن المقارنة العرفية، نحو ما روي بعد وفاته ﷺ من نطق بعض الموق
بالشهادتين وشبهه، مما تواترت به الأخبار.

وخرج أيضاً بـ«أمن المعارضة» السحر المقرون بالتحدي، فإنه
يمكن معارضته بالإتيان بمثله من المرسل إليهم.

واختلف: هل السحر قلب الأعيان وإحالة الطباع أم لا؟

فقال بالأول قائلون، حتى جوزوا للساحر أن يقلب الإنسان
حماراً.

وذهب آخرون: إلى أن أحداً لا يقدر على قلب عين ولا إحالة
طبيعة إلا الله تعالى لأنبيائه، وأن الساحر والصالح لا يقلبان عيناً.
قالوا: ولو جوزنا للساحر ما جاز على النبي فأى فرق عندكم بينهما؟
فإن لجأتكم إلى ما ذكره القاضي أبو بكر الباقلاني من الفرق^(١) بالتحدي
فقط قيل لكم هذا باطل من وجوه:

أحدها: أن اشتراط التحدي قول لا دليل عليه، لا من كتاب
ولا من سنة، ولا من قول صاحب ولا إجماع، وما تعرى من البرهان
فهو باطل.

(١) أي بين النبي وبين الساحر.

الثاني: أن أكثر آياته ﷺ وأعمها وأبلغها كانت بلا تحد، كنطق الحصى، ونبع الماء، ونطق الجذع، وإطعامه المئين من صاع، وتفله في العين، وتكليم الذراع، وشكوى البعير، وكذا سائر معجزاته العظام، ولعله لم يتحد بغير^(١) القرآن، وتمني الموت.

قالوا: فأف لقول لا يبقي من الآيات ما يسمى معجزة إلا هذين الشيئين، ويلقي معجزات كالبحر المتقاذف بالأمواج، ومن قال إن هذه ليست بمعجزات ولا آيات فهو إلى الكفر أقرب منه إلى البدعة.

قالوا: وقد كان ﷺ يقول عند ورود آية من هذه الآيات: ﴿أشهد أني رسول الله﴾^(٢)، كما قال ذلك عند تحققهم مصداق قوله في الإخبار عن الذي أنكى في المشركين قتلاً في المعركة: إنه من أهل النار، فقتل نفسه بمحضر ذلك الذي اتبعه من المسلمين^(٣). قالوا:

والوجه الثالث: وهو الدافع لهذا القول، قوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾^(٥) فسمى الله تلك المعجزات المطلوبات من الأنبياء آيات، ولم يشترط تحدياً من غيره.

(١) في (ب، ط): بسوى.

(٢) هو في البخاري وله شاهد في مسلم.

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة.

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٠٩.

(٥) سورة الإسراء، الآية ٥٩.

فصح أن اشتراط التحدي باطل محض، انتهى ملخصاً من تفسير الشيخ أبي أمامة بن النقاش.

وأجيب: بأنه ليس الشرط الاقتران بالتحدي بمعنى طلب الإتيان بالمثل الذي هو في المعنى الأصلي^(١) للتحدي، بل يكفي للتحدي دعوى الرسالة والله أعلم.

● الرابع من شروط المعجزة: أن تقع على وفق دعوى المتحدي بها، فلو قال مدعي الرسالة: آية نبوتي أن تنطق يدي، أو هذه الدابة، فنطقت يده أو الدابة بكذبه فقالت: كذب وليس هو نبي، فإن الكلام الذي خلقه الله تعالى دال على كذب ذلك المدعي، لأن ما فعله الله تعالى لم يقع على وفق دعواه. كما يروى أن مسيلمة الكذاب - لعنه الله - تفل في بئر ليكثر ماؤها فغارت وذهب ما فيها من الماء.

فمتى اختل شرط من هذه لم تكن معجزة.

ولا يقال: قضية ما قلتم: أن ما توفرت فيه الشروط الأربعة من المعجزات لا يظهر إلا على أيدي الصادقين، وليس كذلك، لأن المسيح الدجال يظهر على يديه من الآيات العظام ما هو مشهور، كما وردت به الأخبار الصحيحة، لأن ما ذكر فيمن يدعي الرسالة وهذا فيمن يدعي الربوبية.

وقد قام الدليل العقلي على أن بعثة بعض الخلق غير مستحيلة، فلم يبعد أن يقيم الله الأدلة على صدق مخلوق أتى عنه بالشرع والملة، ودلت القواطع على كذب المسيح الدجال فيما يدعيه للتغير من/حال ١٨١/ب

(١) في (أ) هو معنى الأصل للتحدي، وفي (ش): الحقيقي.

إلى حال، وغير ذلك من الأوصاف التي تليق بالمحدثات ويتعالى عنها رب البريات ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾^(١).

[معجزة أم آية؟]

فإن قلت أي الاسميين أحق وأولى بما أتت به الأنبياء، هل لفظ «المعجزة» أو لفظ «الآية» أو «الدليل»؟

فالجواب: إن كبار الأئمة يسمون معجزات الأنبياء: دلائل النبوة، وآيات النبوة، ولم يرد أيضاً في القرآن لفظ «المعجزة» بل ولا في السنة أيضاً، وإنما فيها لفظ «الآية» و«البينة» و«البرهان». كما في قصة موسى ﴿فذانك برهانان من ربك﴾^(٢)، في العصا واليد، وفي حق نبينا ﷺ ﴿قد جاءكم برهان من ربكم﴾^(٣).

وأما لفظ الآيات فكثير، بل هو أكثر من أن نسرده هنا، كقوله تعالى: ﴿وإذا جاءتهم آية﴾^(٤) و﴿إن في ذلك لآيات﴾^(٥).

وأما لفظ المعجز إذ أطلق فإنه لا يدل على كون ذلك آية إلا إذا فسر المراد به، وذكرت شرائطه، وقد كان كثير من أهل الكلام لا يسمي معجزاً إلا ما كان للأنبياء فقط، ومن أثبت للأولياء خوارق عادات سماها: كرامات، والسلف كانوا يسمون هذا وهذا معجزاً كالإمام أحمد وغيره، بخلاف ما كان آية وبرهاناً على نبوة النبي فإن

(١) سورة الشورى، الآية ١١.

(٢) سورة القصص، الآية ٣٢.

(٣) سورة النساء، الآية ١٧٤.

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٢٤.

(٥) سورة الرعد، الآية ٣.

هذا يجب اختصاصه به . وقد يسمون الكرامات آيات لكونها تدل على نبوة من اتبعه ذلك الولي، فإن الدليل مستلزم للمدلول، يمتنع ثبوته بدون ثبوت المدلول، فلذلك كان آية وبرهاناً، انتهى .

[دلائل النبوة]

وإذا علمت هذا، فاعلم أن دلائل نبوة نبينا ﷺ كثيرة، والأخبار بظهور معجزاته شهيرة .

فمن دلائل نبوته: ما وجد في التوراة والإنجيل وسائر كتب الله المنزلة من ذكره ونعته، وخروجه بأرض العرب، وما خرج بين يدي أيام مولده ومبعثه من الأمور العجيبة الغريبة القادحة في سلطان الكفر، الموهنة لكلمتهم المؤيدة لشأن العرب المنوهة لذكرهم، كقصة الفيل، وما أحل الله تعالى بأصحابه من العقوبات والنكال، وخمود نار فارس وسقوط شرفات^(١) إيوان كسرى، وغيض ماء بحيرة ساوة، ورؤيا المؤبذان^(٢)، وما سمع من الهواتف الصارخة بنعوته وأوصافه، وانتكاس

(١) في (ب، ط): شرافات .

(٢) اسم لحاكم المجوس: كقاضي القضاة للمسلمين . رأى ليلة مولده ﷺ إبلاً صعباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها . قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة تعليقاً على قول ابن كثير عن حديث الغزاة «من نسبه إلى النبي ﷺ فقد كذب» قال: ومثله . . أن ليلة مولد النبي ﷺ ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة وخدمت نار فارس . . وغاضت بحيرة ساوه . . ورأى المؤبذان رؤيا وفسرها له كاهن العرب سطیح . . فهذا الحديث ليس بصحيح ولا يجوز قوله . . ولا يغرنك ذكر بعض العلماء له في كتب السيرة أو التاريخ . [عن كتاب المصنوع في معرفة الحديث الموضوع للقاري تحقيق أبو غدة ص ١٨] [المحقق].

الأصنام المعبودة وخرورها لوجهها من غير دافع لها من أمكنتها، إلى سائر ما روي وما نقل في الأخبار المشهورة من ظهور العجائب في ولادته وأيام حضائه وبعدها إلى أن بعثه الله نبياً.

ولم يكن له ﷺ ما يستميل به القلوب من مال فيطمع فيه، ولا قوة فيقهر بها الرجال، ولا أعوان على الرأي الذي أظهره، والدين الذي دعا إليه، وكانوا يجتمعون على عبادة الأصنام، وتعظيم الأعلام، مقيمين على عادة الجاهلية في العصبية والحمية، والتعادي والتباغي وسفك الدماء، وشن الغارة ولا تجمعهم ألفة دين، ولا يمنعهم عن سوء أفعالهم نظر في عاقبة، ولا خوف عقوبة ولائمة، فألف ﷺ بين قلوبهم وجمع كلمتهم، حتى اتفقت الآراء وتناصرت القلوب، وترادفت الأيدي، فصاروا إلباً^(١) واحداً في نصرته، وعنقاً^(٢) واحداً إلى طلعتة، وهجروا بلادهم وأوطانهم، وجفوا قومهم وعشائرهم في محبته، وبذلوا مهجهم وأرواحهم في نصرته، ونصبوا وجوههم لوقع السيوف في إعزاز كلمته، بلا دنيا بسطها لهم، ولا أموال أفاضها عليهم، ولا عوض في العاجل أطمعهم في نيله يرجونه^(٣)، أو ملك أو شرف في الدنيا يحوزونه، بل كان من شأنه ﷺ أن يجعل الغني فقيراً^(٤)، والشريف أسوة الوضيع، فهل يلتئم مثل هذه الأمور، أو يتفق مجموعها لأحد هذا سبيله، من قبيل الاختيار العقلي والتدبير الفكري، لا والذي بعثه بالحق، ١/١٨٢ وسخر له / هذه الأمور، ما يرتاب عاقل في شيء من ذلك،

(١) أي جمعا.

(٢) أي جمعا.

(٣) في (أ، ش، د) يحوزونه.

(٤) أي يحملة على صرف أمواله في الجهاد ونحوه من أنواع القرب، كأبي بكر، أو بأن يصيره كالفقير في تهذيب النفس وعدم الفخر.

وإنما هو أمر إلهي، وشيء غالب سهاوي، ناقض للعادات، يعجز عن بلوغه قوى البشر، ولا يقدر عليه إلا من له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

[من الدلائل: أميته ﷺ]

ومن دلائل نبوته ﷺ أنه كان أمياً، لا يخط كتاباً بيده ولا يقرؤه، ولد في قوم أميين، ونشأ بين أظهرهم في بلد ليس بها عالم يعرف أخبار الماضين، ولم يخرج في سفر ضارباً إلى عالم فيعكف عليه، فجاءهم بأخبار التوراة والإنجيل والأمم الماضية، وقد كان ذهبت معالم تلك الكتب، ودرست وحرفت عن مواضعها، ولم يبق من المتمسكين بها وأهل المعرفة بصحيحها وسقيمها إلا القليل، ثم حاج كل فريق من أهل الملل المخالفة له بما لو احتشد له حذاق المتكلمين وجهابذة النقاد المتفنين لم يتهياً لهم^(١) نقض ذلك. وهذا أدلُّ شيء على أنه أمر جاءه من عند الله تعالى.

[من الدلائل: القرآن]

ومن ذلك، القرآن العظيم، فقد تحدى بما فيه من الإعجاز، ودعاهم إلى معارضته والإتيان بسورة من مثله، فنكلوا عنه وعجزوا عن الإتيان بشيء منه.

قال بعض العلماء: إن الذي أورده ﷺ على العرب من الكلام أعجزهم عن الإتيان بمثله أعجب في الآية، وأوضح في الدلالة من

(١) كذا في د، وفي النسخ: له.

إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، لأنه أتى أهل البلاغة وأرباب الفصاحة ورؤساء البيان والمتقدمين في اللسن بكلام مفهوم^(١) المعنى عندهم، فكان عجزهم عنه أعجب من عجز من شاهد المسيح عند إحياء الموتى، لأنهم لم يكونوا يطمعون فيه، ولا إبراء الأكمه والأبرص ولا يتعاطون علمه، وقريش كانت تتعاطى الكلام الفصيح والبلاغة والخطابة، فدل على أن العجز عنه إنما كان ليصير علماً على رسالته، وصحة نبوته، وهذه حجة قاطعة وبرهان واضح.

وقال أبو سليمان الخطابي: وقد كان ﷺ من عقلاء الرجال عند أهل زمانه، بل هو أعقل خلق الله على الإطلاق. وقد قطع القول فيما أخبر به عن ربه تعالى بأنهم لا يأتون بمثل ما تحداهم به فقال: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾^(٢) فلولا علمه بأن ذلك من عند الله علام الغيوب، وأنه لا يقع فيما أخبر عنه خلف، وإلا لم يأذن له عقله أن يقطع القول في شيء، بأنه لا يكون وهو يكون. انتهى.

وهذا أحسن ما يقال في هذا المجال وأبدعه وأكمله وأبينه، فإنه نادى عليهم بالعجز قبل المعارضة، وبالتقصير عن بلوغ الغرض في المناقضة، صارخاً بهم على رؤوس الأشهاد، فلم يستطع أحد منهم الإلمام به مع توفر الدواعي وتظاهر الاجتهاد، فقال - وكان بما ألقى إليهم من الأخبار عليماً خبيراً -: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض

(١) كذا في ش، وفي النسخ: مفهوم.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٤.

ظهيرا^(١) فرضيت همهم السرية^(٢) وأنفسهم الشريفة الآية بسفك
الدماء وهتك الحرم^(٣).

وقد ورد من الأخبار في قراءة النبي ﷺ بعض ما نزل عليه على
المشركين الذين كانوا من أهل الفصاحة والبلاغة، واقرارهم بإعجازه
جمل كثيرة: فمنها ما روي عن محمد بن كعب قال: حدثت أن عتبة
ابن ربيعة قال ذات يوم - وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ
جالس وحده في المسجد - يا معشر قريش، ألا أقوم إلى هذا فأعرض
عليه أموراً لعله يقبل منا بعضها ويكف عنا. قالوا: بلى يا أبا الوليد،
فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فذكر الحديث - فيما قاله عتبة
وفيا عرض عليه من المال وغير ذلك - فلما فرغ قال رسول الله ﷺ :
أفرغت يا أبا الوليد؟ / قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل،
فقال رسول الله ﷺ : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، حم تنزيل من الرحمن
الرحيم﴾^(٤) حتى بلغ: ﴿قرآناً عربياً﴾ فمضى رسول الله ﷺ يقرأها
عليه، فلما سمعها عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره
معتماً عليها يسمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة
فسجد فيها ثم قال: سمعت يا أبا الوليد؟ قال: سمعت [قال]^(٥)،
فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف
بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٨.

(٢) أي الشريفة.

(٣) كذا في ش، وفي النسخ: الحريم. أي فعلوا ذلك عناداً، وعجزاً عن
الإتيان بمثله.

(٤) أول سورة فصلت.

(٥) في ش.

قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: والله إني قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ. قال: فأجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا بشعر ولا كهانة. قرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، حم تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ حتى بلغ ﴿فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾^(١) فأمسكت فمه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب. رواه البيهقي وغيره.

وفي حديث إسلام أبي ذر، ووصف أخاه أنيساً فقال: والله ما سمعت بأشعر من أخي أنيس، وقد ناقض اثني عشر شاعراً في الجاهلية أنا أحدهم، وأنه انطلق وجاء إلى أبي ذر بخبز النبي ﷺ، قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون شاعر، كاهن، ساحر، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت على أقرء^(٢) الشعر فلم يلتئم، ولا يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، وإنه لصادق وإنهم لكاذبون. رواه مسلم والبيهقي.

وعن عكرمة في قصة الوليد بن المغيرة، وكان زعيم قريش في الفصاحة: أنه قال للنبي ﷺ: اقرأ علي، فقرأ عليه: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى﴾^(٣) إلى آخر الآية. قال: أعد، فأعاد ﷺ، فقال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة^(٤) وإن أعلاه

(١) سورة فصلت، الآية ١٣.

(٢) أي أنواعه وأنحاءه.

(٣) سورة النحل، الآية ٩٠.

(٤) أي: حسناً وبهجة.

لمثمر وإن أسفله لمغدق^(١) وما يقول هذا بشر، ثم قال لقومه: والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو ولا يعلى^(٢).

وفي خبره الآخر: حين جمع قريشاً عند حضورهم الموسم وقال: إن وفود العرب تردنا^(٣)، فأجمعوا فيه رأياً، لا يكذب بعضكم بعضاً، فقالوا: نقول هو كاهن، قال: والله ما هو بزمرتته ولا سجعه، قالوا: مجنون. قال: ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا بوسوسته، قالوا: فنقول شاعر، قال: ما هو بشاعر. قد عرفنا الشعر كله. رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه، ما هو بشاعر. قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر، ولا نفثه ولا عقده، قالوا: فما نقول؟ قال: ما أنتم قائلون من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه باطل، رواه ابن إسحاق والبيهقي.

وأخرج أبو نعيم من طريق ابن إسحاق، حدثني إسحاق بن يسار عن رجل من بني سلمة قال: لما أسلم فتيان بني سلمة قال عمرو ابن الجموح لابنه: أخبرني ما سمعت من كلام هذا الرجل، فقرأ عليه ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ إلى قوله ﴿الصراط المستقيم﴾ فقال: ما أحسن هذا وأجمله، أو كل كلامه مثل هذا قال: يا أبت وأحسن من هذا.

وقال بعض العلماء: إن هذا القرآن لو وجد مكتوباً في مصحف

(١) الغدق: هو كثرة الماء، أراد بأسفله ما تضمنه من المعاني.

(٢) رواه البيهقي رسلاً.

(٣) كذا في أ وفي النسخ: ترد.

١/١٨٣ السليمة/ أنه منزل من عند الله، وأن البشر لا قدرة لهم على تأليف مثل ذلك، فكيف إذا جاء على يد أصدق الخلق وأبرهم وأتقاهم وقال: إنه كلام الله، وتحدى الخلق كلهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فكيف يبقى مع هذا شك. انتهى.

[وجوه إعجاز القرآن]

واعلم أن وجوه إعجاز القرآن لا تنحصر، لكن قال بعضهم: قد اختلف العلماء في إعجازه على ستة أوجه:

● أحدها: أن وجه إعجازه^(١) هو الإيجاز والبلاغة، مثل قوله: ﴿ولكم في القصص حياة﴾^(٢) فجمع في كلمتين عدد حروفهما عشرة أحرف معاني كلام كثير.

وحكى أبو عبيد: أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾^(٣) فسجد وقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام. وسمع آخر رجلاً يقرأ: ﴿فلما استياسوا منه خلصوا نجياً﴾^(٤) قال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وحكى الأصمعي: أنه رأى جارية خماسية أو سداسية^(٥) وهي

(١) في (ب، ط): إعجاز القرآن.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٧٩.

(٣) سورة الحجر، الآية ٩٤.

(٤) سورة يوسف، الآية ٨٠.

(٥) أي بلغت خمساً أو ستاً.

تقول: استغفر الله من ذنوبي كلها، فقلت لها: مم تستغفرين ولم يجز عليك قلم؟ فقالت:

استغفر الله لذنبي كله قتلت إنساناً بغير حله مثل غزال ناعم في دله انتصف الليل ولم أصله^(١)

فقلت لها: قاتلك الله ما أفصحك، فقالت: أو تعد هذا فصاحة بعد قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾^(٢) فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخيرين وبشارتين.

وحكي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يوماً نائماً في المسجد، فإذا هو بزجل قائم على رأسه، يتشهد شهادة الحق، فأعلمه أنه من بطارقة الروم، ممن يحسن كلام العرب وغيرها، وأنه سمع رجلاً من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها فإذا قد جمع الله فيها ما أنزل^(٣) على عيسى بن مريم من أحوال الدنيا والآخرة. وهي قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه﴾^(٤) الآية.

وقد رام قوم من أهل الزيغ والإلحاد، أوتوا طرفاً من البلاغة، وحظاً من البيان، أن يضعوا شيئاً يلبسون به، فلما وجدوه مكان النجم من يد المتناول، مالوا إلى السور القصار، كسورة الكوثر والنصر

(١) في ط: أصل له. قال الشارح: إخبار عن ذنب آخر، أي لم أتهد فيه.

(٢) سورة القصص، الآية ٧.

(٣) هذه عبارة الأصل وفي النسخ: قد جمع فيها ما أنزل الله.

(٤) سورة النور، الآية ٥٢.

وأشباههما، لوقوع الشبهة على الجهال فيما قل عدد حروفه، لأن العجز إنما يقع في التأليف والاتصال.

ومن رام ذلك من العرب في التشبث^(١) بالسور القصار، مسيلمة الكذاب فقال: يا ضفدع نقي كم تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الماء تكدرين، ولا الشراب تمنعين. فلما سمع أبو بكر رضي الله عن هذا قال: إنه كلام لم يخرج من إل.

قال ابن الأثير: أي من ربوبية، و«الإل» بالكسر هو الله تعالى. وقيل: الإل الأصل الجيد، أي لم يجيء من الأصل الذي جاء منه القرآن.

ولما سمع مسيلمة الكذاب - لعنه الله - «والنازعات» قال: والزارعات زرعاً والحاصدات حصداً والذرايات قمحاً، والطاحنات طحنناً، والحافرات حفراً، والثارذات ثرداً، واللاقمات لقماً، لقد فضلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر. إلى غير ذلك من الهذيان، مما ذكرت في الوفود من المقصد الثاني بعضه والله أعلم.

وقال آخر: ألم تر كيف فعل ربك بالحلي أخرج من بطنها نسمة تسعى، من بين شراسيف^(٢) وأحشى^(٣).

وقال آخر: الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب وثيل^(٤)، ومشفر طويل، وإن ذلك من خلق ربنا لقليل.

(١) في (ب، د): التشبيه، والتشبث معناه: التعلق.

(٢) جمع شرسوف: غضروف معلق بكل ضلع.

(٣) هذا القول سقط من (ب، د).

(٤) أي طويل يشبه الحبل في امتداده.

ففي هذا الكلام مع قلة حروفه من السخافة ما لا خفاء به على من لا يعلم، فضلاً عما يعلم.

● والثاني: أن إعجازه هو الوصف/ الذي صار به خارجاً عن ١٨٣/ب
جنس كلام العرب من النظم والنثر والخطب والشعر والرجز والسجع، فلا يدخل في شيء منها ولا يختلط بها مع كون ألفاظه وحروفه من جنس كلامهم، ومستعملة في نظمهم ونثرهم، ولذلك تحيرت عقولهم، وتدهت (١) أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في حسن كلامهم (٢)، فلا ريب أنه في فصاحته قد قرع القلوب ببديع نظمه، وفي بلاغته قد أصاب المعاني بصائب سهمه، فإنه حجة الله الواضحة، ومحجته اللائحة، ودليله القاهر، وبرهانه الباهر، ما رام معارضته شقي إلا تهافت تهافت الفراش في الشهاب، وذل ذل النقد (٣) حول الليوث الغضاب.

وقد حكى عن غير واحد ممن عارضه أنه اعترته روعة وهيبة كفته عن ذلك، كما حكى عن يحيى بن حكيم الغزال (٤) - بتخفيف الزاي وقد تشدد - وكان بليغ الأندلس في زمانه أنه قد رام شيئاً من هذا، فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها، وينسج بزعمه على منوالها، فاعترته خشية ورقة، حملته على التوبة والإنابة.

وحكى أيضاً أن ابن المقفع (٥) - وكان أفصح أهل وقته - طلب

(١) أي دهشت وتحيرت.

(٢) في ط: كلامه.

(٣) في ب: الصيد، والنقد: نوع من الغنم قبيح الشكل.

(٤) شاعر أندلسي بديع القول مات سنة خمس وخمسين ومائتين.

(٥) عبدالله بن المقفع فصيح بليغ، من أصل فارسي، ولد سنة ١٠٦ هـ ونشأ =

ذلك ورامه، ونظم كلاماً وجعله مفصلاً، وسماه سوراً، فاجتاز يوماً بصبي يقرأ في مكتب قوله تعالى: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر.﴾^(١) الآية، فرجع ومحي ما عمل وقال: أشهد أن هذا لا يعارض أبداً، وما هو من كلام البشر.

ولله در العارف سيدي محمد وفا حيث قال، يعني النبي ﷺ والقرآن المعظم:

له آية الفرقان في عين جمعه جوامع آيات بها اتضح الرشد
حديث نزيه عن حدوث منزهة قديم صفات الذات ليس له ضد
بلاغ بليغ للبلاغة معجز له معجزات لا يعد لها عد
تحلت بروح الوحي حلة نسجه عقود اعتقاد لا يحل لها عقد
وغاية أرباب البلاغة عجزهم لديه وإن كانوا هم الألسن اللد
فأفاكهم بالإفك أعياه غيه تصدى وللأسماع عن غيه صد
قلى الله أقوالاً يهاجر هجرها هواناً بها الورهاء والبهم البلد^(٢)
تلاها فتلّ الفحش في القبح وجهها وعن ربيها الألباب نزهها الزهد
لقد فرق الفرقان شمل فريقه بجمع رسول الله واستعلن الرشد
أق بالهدى صلى عليه إلهه ولم يله بالأهواء إذ جاءه الجد

● الثالث: أن وجه إعجازه هو أن قارئه لا يمله، وسامعه لا يحجه، بل الإكباب على تلاوته يزيد حلاوة، وترديده يوجب له محبة

= بالبصرة وفيها تلقى العلم والأدب، جمع بين الثقافتين العربية والفارسية، له «الأدب الكبير» و«الأدب الصغير». [المحقق].

(١) سورة هود، الآية ٤٤.

(٢) الورهاء: الحمقاء، والبهم: أولاد الضأن والبقر، البلد: جمع بليد.

وطلاوة، لا يزال غضاً طرياً، وغيره من الكلام ولو بلغ في الحسن والبلاغة ما بلغ ميل مع التردد، ويعادى إذا أعيد، وكتابنا يستلذ به في الخلوات، ويؤنس بتلاوته في الأزمات، وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك، حتى أحدث أصحابها لها لحوناً وطرقاً، يستجلبون بتلك اللحن تنشيطهم على قراءتها، ولهذا وصف ﷺ القرآن بأنه لا يخلق^(١) على كثرة الرد، ولا تنقضي عبره، ولا تفتني عجائبه، هو الفصل ليس بالهزل، لا تشبع منه العلماء، ولا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، هو الذي لم تنته الجن حين سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنوا به^(٢). أشار إليه القاضي عياض^(٣).

● والرابع: أن وجه إعجازه هو ما فيه من الإخبار بما كان، مما

علموه وما لم يعلموه، فإذا سألوا عنه عرفوا صحته وتحققوا صدقه / ١/١٨٤ كالذي حكاه من قصة أهل الكهف وشأن موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام، وحال ذي القرنين، وقصص الأنبياء مع أممها، والقرون الماضية في دهرها.

● والخامس: أن وجه إعجازه هو ما فيه من علم الغيب،

والإخبار بما يكون، فيوجد على صدقه وصحته، مثل قوله تعالى لليهود: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ ثم قال: ﴿ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم﴾^(٤) فما تمناه أحد منهم.

(١) أي لا يبلى.

(٢) الحديث رواه الترمذي، واقتصر المصنف على بعضه وقدم وأخر.

(٣) من قوله: هو أن قارئه..

(٤) سورة البقرة، ٩٤ - ٩٥.

ومثل قوله تعالى لقريش: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾^(١) فقطع بأنهم لا يفعلون فلم يفعلوا.

وتعقب: بأن الغيوب التي اشتمل عليها القرآن وقع بعضها في زمنه ﷺ، كقوله تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾^(٢) وبعضها بعد مدة كقوله تعالى: ﴿ألم غلبت الروم﴾^(٣) فلو كان كما قالوا لنازعوا وقع المتوقع، وبأن الإخبار عن الغيب جاء^(٤) في بعض سور القرآن واكتفى منهم بمعارضة سورة غير معينة، فلو كان كذلك لعارضوه بقدر أقصر سورة لا غيب فيها.

● السادس: أن وجه إعجازه هو كونه جامعاً لعلوم كثيرة، لم تتعاط العرب فيها الكلام، ولا يحيط بها من علماء الأمم واحد منهم، ولا يشتمل عليها كتاب، بين الله فيه خبر الأولين والآخرين وحكم المتخلفين وثواب المطيعين وعقاب العاصين.

فهذه ستة أوجه^(٥)، يصح أن يكون كل واحد منها إعجازاً،

(١) سورة البقرة، الآية ٢٤.

(٢) سورة الفتح، الآية ١.

(٣) سورة الروم، الآية ١.

(٤) في ط: وقع.

(٥) تكلم العلماء في إعجاز القرآن كثيراً، وأفرده المؤلفون بكتب خاصة به، وتحدثوا عن وجوهه، وقد قال في الشفاء بعدما ذكر الموضوع: وإذا عرفت ما ذكر من وجوه إعجاز القرآن عرفت أنه لا يحصى عدد معجزاته بألف ولا ألفين... وما يزال مرور الزمن يظهر من المعجزات لهذا القرآن العظيم ما لم يكن معروفاً في الماضي، ومع تقدم العلم المادي في نهاية القرن الرابع عشر الهجري ظهرت أشياء كثيرة من معجزات القرآن عرفت بالإعجاز العلمي تناولت الإنسان والكون... يضاف إلى ذلك الإعجاز البياني في =

فإذا جمعها القرآن فليس اختصاصاً أحدها بأن يكون معجزاً بأولى من غيره، فيكون الإعجاز بجميعةها. وقد قال تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله﴾^(١) فلم يقدر أحد أن يأتي بمثل [هذا]^(٢) القرآن في زمن رسول الله ﷺ ولا بعده على نظمه وتأليفه وعذوبة منطقته وصحة معانيه، وما فيه من الأمثال والأشياء التي دلت على البعث وآياته، والإنباء بما كان و[بما]^(٣) يكون، وبما فيه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والامتناع من إراقة الدماء، وصللة الأرحام، إلى غير ذلك، فكيف يقدر على ذلك أحد وقد عجزت عنه العرب الفصحاء والخطباء البلغاء، والشعراء الفهماء، من قريش وغيرها، وهو ﷺ في مدة ما عرفوه قبل نبوته وأداء رسالته أربعين سنة لا يحسن نظم كتاب، ولا عقد حساب، ولا يتعلم سحراً، ولا ينشد شعراً، ولا يحفظ خبراً، ولا يروي أثراً، حتى أكرمه الله بالوحي المنزل، والكتاب المفصل، فدعاهم إليه وحاجهم به، قال الله تعالى: ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾^(٤)، وشهد له في كتابه بذلك فقال تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾^(٥).

= صورته الجديدة التي تكلم عنها سيد قطب - رحمه الله - تحت عنوان التصوير

الفني في القرآن [المحقق].

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٨.

(٢) في ط.

(٣) في (ب، ط).

(٤) سورة يونس، الآية ١٦.

(٥) سورة العنكبوت، الآية ٤٨.

[معجزات أخرى]

وأما ما عدا القرآن من معجزاته ﷺ ، كنبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام ببركته، وانشقاق القمر، ونطق الجهاد، فمنه ما وقع التحدي به، ومنه ما وقع دالاً على صدقه من غير سبق تحد، ومجموع ذلك يفيد القطع بأنه ظهر على يده ﷺ من خوارق العادات شيء كثير - كما يقطع بجود حاتم، وشجاعة علي - وإن كانت أفراد ذلك ظنية وردت موارد الأحاد، مع أن كثيراً من المعجزات النبوية قد اشتهر ورواه العدد الكثير، والجمل الغفير، وأفاد الكثير منه القطع عند أهل العلم بالآثار والعناية بالسير والأخبار، وإن لم يصل عند غيرهم إلى هذه المرتبة لعدم عنايتهم بذلك.

فلو ادعى مدع أن غالب هذه الوقائع مفيد للقطع النظري لما كان مستبعداً، وذلك أنه لا مزية أن رواة الأخبار في كل طبقة قد حدثوا بهذه الأخبار في الجملة، ولا يحفظ عن أحد من أصحابه مخالفة ١٨٤/ب الراوي فيما حكاه من ذلك. / ولا الإنكار عليه فيما هنالك، فيكون الساكت منهم كالناطق، لأن مجموعهم محفوظ عن الإغضاء على الباطل، وعلى تقدير أن يوجد من بعضهم إنكار أو طعن على بعض من روى شيئاً من ذلك فإنما هو من جهة توقف في صدق الراوي أو تهمته بكذب، أو توقف في ضبطه أو نسبه إلى سوء الحفظ، أو جواز الغلط، ولا يوجد أحد منهم طعن في المروي، كما وجد منهم في غير هذا الفن^(١) من الأحكام وحروف القرآن^(٢) ونحو ذلك والله أعلم.

(١) أي كالذي وجد منهم من الخلاف في أحكام الفقه نفسها، ولم يكن الخلاف قاصراً على السند ورجاله [م] قال الشارح: كما وقع بين عمر وابن عباس في إنكاره عليه نكاح المتعة.

(٢) في ط: القراءات.

[شمول معجزاته ﷺ وتنوعها]

وأنت إذا تأملت معجزاته وباهر آياته وكراماته ﷺ وجدتها شاملة للعلوي والسفلي، والصامت والناطق، والساكن والمتحرك، والمائع والجامد، والسابق واللاحق، والغائب والحاضر، والباطن والظاهر، والعاجل والأجل، إلى غير ذلك، مما لو عد لطلال، كالرمي بالشهب الثواقب، ومنع الشياطين من استراق السمع في الغياهب^(١)، وتسليم الحجر والشجر عليه، وشهادتها له بالرسالة بين يديه، ومخاطبتها له بالسيادة، وحنين الجذع، ونبع الماء من كفه في الميضأة والتور والمزادة، وانشقاق القمر، ورد العين من العور، ونطق البعير والذئب والجمل، وكالنور المتوارث من آدم إلى جبهة أبيه من الأزل، وما سوى ذلك من المعجزات التي تداولتها الحملة، ونقلتها عن الألسنة الأول النقلة، مما لو أعملنا أنفسنا في حصرها لفني المداد في ذكرها. ولو بالغ الأولون والآخرون في إحصاء مناقبه لعجزوا عن استقصاء ما حباه الكريم به من مواهبه، وكان الملم بساحل بحرها مقصراً عن حصر بعض فخرها، ولقد صح لـ [بعض]^(٢) محبيه أن ينشدوا فيه^(٣):

وعلى تفنن واصفيه لنعته يفنى الزمان وفيه ما لم^(٤) يوصف

وأنه لخليق بمن ينشد^(٥)

(١) جمع غيهب، وهو الظلمة.

(٢) في (أ، ط).

(٣) هو من قول ابن الفارض.

(٤) في ط: مالا.

(٥) هو من قول الخنساء.

فما بلغت كف امرئ متناولاً من المجد إلا والذي نال أطول
ولا بلغ المهدون في القول مدحه ولو حذقوا إلا الذي فيه أفضل

ولله در إمام العارفين سيدي محمد وفا فلقد كفى وشفى بقوله:
ما شئت قل فيه فأنت مصدق فالحب يقضي والمحاسن تشهد
ولقد أبدع الإمام الأديب شرف الدين الأبوصيري حيث قال:

دع ما ادعته النصاري في نبيهم واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف وانسب إلى قدره ما شئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بقم

يعني أن المداح وإن انتهوا إلى أقصى الغايات والنهايات لا
يصلون إلى شأوه، إذ لا حدَّ له، ويحكي أنه رؤي الشيخ عمر بن
الفارض السعدي في النوم فقيل له: لم لا مدحت النبي ﷺ فقال:

أرى كل مدح في النبي مقصراً وإن بالغ المثني عليه وأكثرأ
إذا الله أثنى بالذي هو أهله عليه فما مقدار ما يمدح الورى

قال الشيخ بدر الدين الزركشي: ولهذا لم يتعاط فحول الشعراء
المتقدمين - كأبي تمام والبحري وابن الرومي - مدحه ﷺ، وكان مدحه
عندهم من أصعب ما يحاولونه، فإن المعاني دون مرتبته، والأوصاف
دون وصفه، وكل غلو في حقه تقصير، فيضيق على البليغ بحال
النظم، وعند التحقيق إذا اعتبرت جميع الأمداح التي فيها غلو بالنسبة
إلى من قرضت له وجدتها صادقة في حق النبي ﷺ، حتى كأن
الشعراء على صفاته كانوا يعتمدون وإلى أمداحه كانوا يقصدون، وقد

أشار الأبوصيري بقوله: «دع ما ادعته/ النصارى في نبيهم» إلى ما ١/١٨٥
أطرت النصارى به عيسى ابن مريم من اتخاذها.

قال النيسابوري: إنهم صحفوا في الإنجيل «عيسى نبي وأنا
ولدته» فحرفوا الأول بتقديم الباء الموحدة وخففوا اللام في الثاني،
فلعنة الله على الكافرين^(١).

فإن قلت: هل ادعى أحد في نبينا ﷺ ما ادعى في عيسى؟

أجيب: بأنهم قد كادوا أن يفعلوا نحو ذلك حين قالوا له ﷺ :
أفلا نسجد لك؟ قال: لو كنت أمراً أحد أن يسجد لبشر لأمرت المرأة
أن تسجد لزوجها^(٢). فهاهم عما عساه يبلغ بهم من العبادة.

وقد جاء في صفته في حديث ابن أبي هالة: ولا يقبل الثناء إلا
من مكافئ، أي: مقارب في مدحه غير مفرط فيه. وقال ابن قتيبة
معناه؛ إلا أن يكون ممن له عليه منة، فيكافئه الآخر، وغلظه ابن
الأنباري: بأنه لا ينفك أحد من إنعام رسول الله ﷺ، لأن الله بعثه
رحمة للعالمين، فالثناء عليه فرض عليهم، لا يتم الإسلام إلا به.
قال: وإنما المعنى: لا يقبل الثناء إلا من رجل عرف حقيقة إسلامه.

(١) هذا الكلام يصح لو كان الإنجيل باللغة العربية؟! ومن المعروف أن
الأنجيل الموجودة لا صلة لها بعيسى أصلاً، فليست القضية تحريف بعض
الكلمات.. انظر محاضرات في النصرانية للمرحوم «محمد أبو زهرة»،
[المحقق].

(٢) روى ابن ماجه وابن حبان عن ابن أبي أوفى قال: لما قدم معاذ بن جبل
من الشام سجد للنبي ﷺ فقال: ما هذا قال: يا رسول الله قدمت الشام
فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم فأردت أن أفعل ذلك بك قال: لا
تفعل فإني لو أمرت شيئاً أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد
لزوجها..

[تقسيم المعجزات حسب زمنها]

ثم إن حاصل معجزاته وياهر آياته وكراماته ﷺ كما نبه عليه القطب القسطلاني يرجع إلى ثلاثة أقسام:

ماض: وجد قبل كونه، ففضى بمجده.

ومستقبل: وقع بعد مواراته في لحده.

وكائن معه من حين حملة ووضعه إلى أن نقله الله إلى محل فضله وموطن^(١) جمعه.

فأما القسم الأول الماضي وهو ما كان قبل ظهوره إلى هذا الوجود، فقد ذكرت منه جملة في المقصد الأول، كقصة الفيل وغير ذلك، مما هو تأسيس لنبوته وإرهاص لرسالته، قال الإمام فخر الدين الرازي: ومذهبنا: أنه يجوز تقديم المعجزة تأسيساً وإرهاصاً، قال: ولذلك قالوا: كانت الغمامة تظله، يعني في سفره قبل النبوة، خلافاً للمعتزلة القائلين بأنه لا يجوز أن تكون المعجزة قبل الإرسال. انتهى.

وقد تقدم أول هذا المقصد: أن الذي عليه جمهور أئمة الأصول وغيرهم: أن هذا ونحوه مما هو متقدم على الدعوى لا يسمى معجزة، بل تأسيساً للرسالة وكرامة للرسول ﷺ.

وأما القسم الثاني: وهو ما وقع بعد وفاته ﷺ فكثير جداً، إذ في كل حين يقع لخواص أمته من خوارق العادات بسببه مما يدل على تعظيم قدره الكريم ما لا يحصى كالاستغاثة به وغير ذلك مما يأتي في المقصد الأخير، في أثناء الكلام على زيارة قبره [الشريف]^(٢) المنير.

(٢) في ط.

(١) في ط: موضع.

وأما القسم الثالث: وهو ما كان معه من حين ولادته إلى وفاته، فكالنور الذي خرج معه حتى أضاء له قصور الشام وأسواقها، حتى رويت أعناق الإبل ببصرى، ومسح الطائر على فؤاد أمه حتى لم تجد المأ لولادته، والطواف به في الآفاق، إلى غير ذلك. وكانشفاق القمر عند اقتراحه عليه، وانضمام الشجرتين لما دعاها إليه، وكإطعام الجيش الكثير من النزر^(١) اليسير، في عدة من المواضع واستيلاء الفجائع، وغير ذلك مما أمده الله تعالى به من المعجزات، وأكرمه به من خوارق العادات، تأييداً لإقامة حجته، وتمهيداً لهداية محجته، وتأييداً لسيادته في كل أمة، وتسديداً لمن اذكر بعد أمة، مما تتبعه يخرج عن مقصود الاختصار، إذ هو باب فسيح المجال منبع المنال، لكنني أنبه من ذلك على نبذة يسيرة، وأنوه في أثنائها بجملة خطيرة. فأقول وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

[معجزة انشفاق القمر]

أما معجزة انشفاق القمر، فقد قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾^(٢) / الآية، والمراد وقوع انشقاقه، ويؤيده قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ فإن ذلك ظاهر في أن المراد بقوله: «انشق» وقوع انشقاقه، لأن الكفار لا يقولون ذلك^(٣) يوم القيامة، وإذا تبين أن قولهم إنما هو في

(١) في ط: الزاد.

(٢) سورة القمر، الآية ١.

(٣) أي قولهم: «سحر مستمر».

الدنيا تبين وقوع الانشقاق وأنه المراد بالآية التي زعموا أنها سحر، وسيأتي ذلك صريحاً في حديث ابن مسعود وغيره.

واعلم أن القمر لم ينشق لأحد غير نبينا ﷺ ، وهو من أمهات معجزاته ﷺ . وقد أجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه لأجله ﷺ ، فإن كفار قريش لما كذبوه ولم يصدقوه طلبوا منه آية تدل على صدقه في دعواه، فأعطاه الله هذه الآية العظيمة، التي لا قدرة لبشر على إيجادها، دلالة على صدقه ﷺ في دعواه الوحداية لله تعالى، وأنه منفرد بالربوبية، وأن هذه الآلهة التي يعبدونها باطلة لا تنفع ولا تضر، وأن العبادة إنما تكون لله وحده لا شريك له.

قال الخطابي: انشقاق القمر آية عظيمة، لا يكاد يعدلها شيء من آيات الأنبياء، وذلك أنه ظهر في ملكوت السماوات خارجاً عن جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع، فليس فيما يطمع في الوصول إليه بحيلة، فلذلك صار البرهان به أظهر. انتهى.

وقال ابن عبد البر: قد روى هذا الحديث - يعني حديث انشقاق القمر - جماعة كثيرة من الصحابة، وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين، ثم نقله عنهم الجهم الغفير إلى أن انتهى إلينا. وتأييد بالآية الكريمة. انتهى.

وقال العلامة ابن السبكي في شرحه لمختصر ابن الحاجب، والصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر، منصوص عليه في القرآن، مروى في الصحيحين وغيرهما من طرق من حديث شعبة عن سليمان عن إبراهيم عن أبي معمر عن ابن مسعود، ثم قال: وله طرق آخر شتى، بحيث لا يمتري في تواتره. انتهى.

وقد جاءت أحاديث الانشقاق في روايات صحيحة عن جماعة من الصحابة منهم: أنس، وابن مسعود، وابن عباس، وعلي، وحذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عمر، وغيرهم. فأما أنس وابن عباس فلم يحضرا ذلك، لأنه كان بمكة قبل الهجرة بنحو خمس سنين، وكان ابن عباس إذ ذاك لم يولد، وأما أنس فكان ابن أربع سنين أو خمس بالمدينة، وأما غيرهما فيمكن أن يكون شاهد ذلك.

ففي الصحيحين: من حديث أنس رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر شقتين، حتى رأوا حراء بينهما، وقوله: شقتين - بكسر الشين المعجمة - أي نصفين. ومن حديث ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين، فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه فقال رسول الله ﷺ اشهدوا^(١).

وفي الترمذي من حديث ابن عمر، في قوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ قال: قد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ، انشق فلتقتين: فلقة دون الجبل، وفلقة فوق الجبل، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا.

وعند الإمام أحمد، من حديث جبير بن مطعم قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد، فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس.

وعن عبدالله بن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله

(١) رواه الشيخان. ورقمه عند مسلم ٢٨٠٠.

ﷺ ، فقال كفار قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، قال: فقالوا انظروا ما يأتيكم به السفار، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. قال: فجاء السفار فأخبروهم بذلك، رواه أبو داود الطيالسي.

ورواه البيهقي بلفظ: انشق القمر بمكة فقالوا: سحرهم ابن أبي كبشة، فاسألوا السفار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق/ وإن لم يكونوا رأوا ما رأيتم فهو سحر، فسألوا السفار وقد قدموا من كل وجه فقالوا: رأيناه. ١/١٨٦

وعند أبي نعيم في الدلائل من حديث ضعيف عن ابن عباس قال: اجتمع المشركون الى رسول الله ﷺ منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل والعاصي بن وائل، والأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث ونظراؤهم فقالوا للنبي ﷺ: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، فسأل ربه فانشق.

وعند البخاري مختصراً من حديث ابن عباس بلفظ: إن القمر انشق على عهد رسول الله ﷺ ، وابن عباس وإن كان لم يشاهد القصة كما قدمته، ففي بعض طرقه أنه حمل الحديث عن ابن مسعود.

وعند مسلم من حديث شعبة^(١) عن قتادة بلفظ فأراهم انشقاق القمر مرتين.

(١) في ش، سعيد، قال الشارح: سعيد بن أبي عروبة، وما يوجد في غالب نسخ المصنف «شعبة» مخالف للواقع، والذي في مسلم عن سعيد. أقول: رجعت إلى صحيح مسلم، فلم أجد ما قاله الشارح. والموجود هو ما ذكره المصنف. انظر صحيح مسلم ٢١٥٨/٤ - ٢١٥٩ الأحاديث ٢٨٠٠ - ٢٨٠٣ [المحقق].

وكذا في مصنف عبد الرزاق عن معمر بلفظ مرتين أيضاً.
واتفق الشيخان عليه من رواية شعبة عن قتادة بلفظ: فرقتين،
كما في حديث جبير عند أحمد.

وفي حديث ابن عمر فلتقتين - باللام - كما قدمته .

وفي لفظ من حديث جبير: فانشق باثنتين .

وفي رواية عن ابن عباس عند أبي نعيم في الدلائل: فصار
قمرين .

ووقع في نظم السيرة للحافظ أبي الفضل العراقي: وانشق مرتين
بالإجماع .

قال الحافظ ابن حجر: وأظن قوله: «بالإجماع» يتعلق بـ«انشق»
لا بـ«مرتين»، فإني لا أعلم من جزم من علماء الحديث بتعدد
الانشقاق في زمنه ﷺ .

ولعل قائل «مرتين» أراد: فرقتين . وهذا الذي لا يتجه غيره
جمعا بين الروايات .

وقد وقع في رواية البخاري من حديث ابن مسعود: ونحن
بمضى، وهذا لا يعارض قول أنس: إن ذلك كان بمكة، لأنه لم يصرح
بأنه ﷺ كان ليلتئذ بمكة . فالمراد أن الانشقاق كان وهم بمكة قبل أن
يهاجروا إلى المدينة والله أعلم .

[منكرو معجزة انشقاق القمر]

وقد أنكر هذه المعجزة جماعة من المبتدعة، كجمهور الفلاسفة،

متمسكين بأن الأجرام العلوية لا يتهياً فيها الانخراق والالتئام، وكذا قالوا في فتح أبواب السماء ليلة الإسراء، إلى غير ذلك.

وجواب هؤلاء: إن كانوا كفاراً أن يناظروا أولاً على ثبوت دين الإسلام، فإذا تمت اشتركوا مع غيرهم ممن أنكر ذلك من المسلمين، ومتى سلّم المسلم بعض ذلك دون بعض لزم التناقض. وأيضاً لا سبيل إلى إنكار ما ثبت في القرآن من الانخراق والالتئام في القيامة، وإذا ثبت هذا استلزم الجواز، ووقوعه معجزة للنبي ﷺ .

وقد أجاب القدماء عن ذلك، فقال أبو إسحاق الزجاج في «معاني القرآن»: أنكر بعض المبتدعة الموافقين لمخالفتي الملة انشقاق القمر، ولا إنكار للعقل فيه، لأن القمر مخلوق لله يفعل فيه ما يشاء، كما يكوره يوم القيامة ويفنيه. انتهى.

وأما قول بعض الملاحدة: لو وقع هذا النقل [جاء] (١) متواتراً واشترك أهل الأرض كلهم في معرفته، ولم يختص بها أهل مكة، لأنه أمر صدر عن حس ومشاهدة، فالناس فيه شركاء، والدواعي متوفرة على رواية كل غريب، ونقل ما لم يعهد، ولو كان لذلك أصل لخلد في كتب التسيير والتنجيم، إذ لا يجوز إطباقهم على تركه وإغفاله مع جلالة شأنه ووضوح أمره.

فأجاب عنه الخطابي وغيره: بأن هذه القصة خرجت عن الأمور التي ذكروها، لأنه شيء طلبه خاص من الناس، فوقع ليلاً، لأن القمر لا سلطان له بالنهار، ومن شأن الليل أن يكون الناس فيه نياماً ومستكنين في الأبنية، والبارز منهم في الصحراء إذا كان يقظاناً يحتمل

(١) كلمة (جاء) من فتح الباري ولم ترد في النسخ، ولا يصح المعنى بدونها [م].

ب/١٨٦ أن يتفق أنه كان في ذلك الوقت مشغولاً بما يلهيه من سمر/وغيره .
ومن المستبعد أن يقصدوا إلى مراكز القمر ناظرين إليه ولا يغفلوا عنه ،
فقد يجوز أنه وقع ولم يشعر به أكثر الناس ، وإنما رآه من تصدى لرؤيته
من اقترح وقوعه ، ولعل ذلك إنما كان في قدر اللحظة التي هي مدرك
البصر ، وقد يكون القمر حينئذٍ في بعض المنازل التي تظهر لبعض
الآفاق دون بعض ، كما يكون ظاهراً لقوم غائباً عند قوم ، وكما^(١) يجد
الكسوف أهل بلد دون بلد آخر .

وقد أبدى الخطابي حكمة بالغة في كون المعجزات المحمدية لم
يبلغ شيء منها مبلغ التواتر الذي لا نزاع فيه كالقرآن بما حاصله : إن
معجزة كل نبي كانت إذا وقعت عامة أعقبت هلاك من كذب بها من
قومه ، والنبي ﷺ بعث رحمة للعالمين ، فكانت معجزته التي تحدى بها
عقلية ، فاختص بها القوم الذين بعث منهم ، لما أوتوه من فضل العقول
وزيادة الأفهام ، ولو كان إدراكها عاماً لعوجل من كذب بها كما عوجل
من قبلهم . انتهى .

وكذا أجاب ابن عبد البر بنحوه^(٢) .

[خبر لا أصل له]

تنبيه : ما يذكره بعض القصاص : أن القمر دخل في جيب النبي
ﷺ وخرج من كفه ، فليس له أصل ، كما حكاه الشيخ بدر الدين
الزركشي عن شيخه العماد بن كثير .

(١) في (ب ، ط) : ربما .

(٢) هذا الموضوع (انكار معجزة القمر) بكامله من فتح الباري ١٨٥/٧ مع
تقديم وتأخير [المحقق] .

[رد الشمس : لم يثبت]

وأما رد الشمس له ﷺ ، فروي عن أسماء بنت عميس أن النبي ﷺ كان يوحى إليه ورأسه في حجر علي رضي الله عنه، فلم يصل العصر حتى غربت الشمس، فقال رسول الله ﷺ: أصليت يا علي؟ فقال: لا، فقال رسول الله ﷺ: اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس، قالت أسماء: فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعد ما غربت ووقعت على الجبال والأرض، وذلك في الصهباء^(١) في خير، رواه الطحاوي في مشكل الحديث، كما حكاه القاضي عياض في الشفاء وقال: قال الطحاوي: إن أحمد بن صالح كان يقول: لا ينبغي لمن سبيله العلم التخلف عن حفظ حديث أسماء لأنه من علامات النبوة. انتهى.

قال بعضهم: هذا الحديث ليس بصحيح، وإن أوهم تخريج القاضي عياض له في الشفاء عن الطحاوي من طريقين، فقد ذكره ابن الجوزي في الموضوعات وقال: إنه موضوع بلا شك وفي سنده أحمد بن داود وهو متروك الحديث كذاب، كما قال الدارقطني. وقال ابن حبان: كان يضع الحديث.

قال ابن الجوزي: وقد روى هذا الحديث ابن شاهين فذكره ثم قال: وهذا حديث باطل، قال: ومن تغفل واضعه أنه نظر إلى صورة فضيلة، ولم يلمح^(٢) عدم الفائدة فيها، فإن صلاة العصر بغيوبة الشمس تصير قضاء، ورجوع الشمس لا يعيدها أداء. انتهى.

وقد أفرد ابن تيمية تصنيفاً مفرداً في الرد على الروافض ذكر فيه

(١) الصهباء: اسم موضع على مرحلة من خير.

(٢) في ط: يلح له.

الحديث بطرقه ورجاله وأنه موضوع، والعجب من القاضي مع جلاله قدره وعلو خطره في علوم الحديث كيف سكت عنه موهماً صحته، ناقلاً ثبوته، موثقاً رجاله. انتهى.

وقال شيخنا: قال أحمد: لا أصل له، وتبعه ابن الجوزي فأورده في الموضوعات.

ولكن قد صححه الطحاوي والقاضي عياض، وأخرجه ابن منده وابن شاهين من حديث أسماء بنت عميس، وابن مردويه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. انتهى.

ورواه الطبراني في معجمه الكبير بإسناد حسن كما حكاه شيخ الإسلام ابن العراقي في شرح التقريب عن أسماء بنت عميس ولفظه: أن رسول الله ﷺ صلى الظهر بالصهباء ثم أرسل علياً في حاجة فرجع وقد صلى النبي ﷺ العصر، فوضع ﷺ رأسه في حجر علي ونام، فلم يحركه حتى غابت الشمس، فقال ﷺ اللهم إن عبدك علياً احتبس بنفسه/ على نبيه فرد عليه الشمس، قالت أسماء: فطلعت عليه الشمس ١/١٨٧ حتى وقعت على الجبال وعلى الأرض، وقام علي فتوضأ وصلى العصر ثم غابت وذلك بالصهباء.

وفي لفظ آخر: كان ﷺ إذا نزل عليه الوحي يغشى عليه، فأنزل الله عليه يوماً وهو في حجر علي، فقال له النبي ﷺ: صليت العصر يا علي؟ فقال: لا، يا رسول الله، فدعا الله فرد عليه الشمس حتى صلى العصر، قالت أسماء: فرأيت الشمس طلعت بعد ما غابت حين ردت حتى صلى العصر.

قال: وروى الطبراني أيضاً في معجمه الأوسط بإسناد حسن عن جابر: أن رسول الله ﷺ أمر الشمس فتأخرت ساعة من نهار.

وروى يونس بن بكير في زيادة المغازي [في روايته]^(١) عن ابن إسحاق، مما ذكره القاضي عياض: لما أسري بالنبى ﷺ وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التي في العير، قالوا: متى تجيء؟ قال يوم الأربعاء، فلما كان ذلك اليوم أشرفت قريش ينتظرون، وقد ولى النهار، ولم تجيء، فدعا رسول الله ﷺ فزيد له في النهار ساعة وحسبت عليه الشمس. انتهى.

وهذا يعارضه قوله في الحديث^(٢): لم تحبس الشمس على أحد إلا ليوشع بن نون، يعني حين قاتل الجبارين يوم الجمعة، فلما أدبرت الشمس خاف أن تغيب قبل أن يفرغ منهم ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم، فدعا الله تعالى فرد عليه الشمس حتى فرغ من قتالهم.

قال الحافظ ابن كثير: فيه أن هذا كان من خصائص يوشع، فيدل على ضعف الحديث الذي روينا أن الشمس رجعت حتى صلى علي بن أبي طالب، وقد صححه أحمد بن صالح المصري، ولكنه منكر، ليس في شيء من الصحاح والحسان، وهو مما تتوفر الدواعي على نقله، وتفردت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لا يعرف حالها. انتهى^(٣).

ويحتمل الجمع: بأن المعنى لم تحبس [الشمس]^(٤) على أحد من الأنبياء غيري إلا ليوشع، والله أعلم.

وكذا روى حبس الشمس لنبينا ﷺ أيضاً يوم الخندق، حين

(١) في الأصل.

(٢) أخرجه أحمد برجال الصحيح.

(٣) قول الحافظ ابن كثير لم يرد في (د).

(٤) في ط.

شغل عن صلاة العصر، فيكون حبس الشمس مخصوصاً بنبينا ﷺ وبيوشع، كما ذكره القاضي عياض في الإكمال، وعزاه لمشكل الآثار، ونقله النووي في شرح مسلم في باب حل الغنائم عن عياض، وكذا الحافظ ابن حجر في باب الأذان في تخريج أحاديث الرافعي ومغلطاي في الزهر الباسم، وأقروه.

وتعقب: بأن الثابت في الصحيح وغيره: أنه ﷺ صلى العصر في وقعة الخندق بعد ما غربت الشمس. كما سبق في غزوتها.

وذكر البغوي في تفسيره: أنها حبست لسليمان عليه السلام أيضاً، لقوله: (ردوها علي) (١). ونوزع فيه بعدم ذكر الشمس في الآية، فالمراد: الصافنات الجياد والله أعلم.

قال القاضي عياض: واختلف في حبس الشمس المذكور هنا، فقيل: ردت على أدراجها وقيل: وقفت ولم ترد، وقيل: بطء حركتها. قال: وكل ذلك من معجزات النبوة. انتهى.

وأما ما روي من طاعات الجهادات وتكليمها له بالتسبيح والسلام ونحو ذلك مما وردت به الأخبار، فمنها تسبيح الطعام والحصى في كفه الشريف ﷺ.

[تسبيح الحصى: حديثه ضعيف]

فخرج محمد بن يحيى الذهلي في الزهريات قال: أخبرنا أبو اليمان قال حدثنا شعيب عن الزهري قال: ذكر الوليد بن سويدان رجلاً من بني سليم كبير السن كان ممن أدرك أبا ذر بالربذة: عن أبي

(١) سورة ص، الآية ٣٣.

ذو قال: هجرت يوماً من الأيام، فإذا النبي ﷺ قد خرج من بيته فسألت عنه الخادم فأخبرني أنه بيت عائشة، فأتيته وهو جالس ليس عنده أحد من الناس، وكأني حينئذٍ أرى أنه في وحي، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: ما جاء بك قلت الله ورسوله، فأمرني أن أجلس فجلست إلى جنبه، لا أسأله عن شيء ولا يذكره لي، فمكثت بغير كثير، فجاء أبو بكر/ يمشي مسرعاً فسلم عليه، فرد عليه السلام، ثم قال: ما جاء بك؟ قال: جاء بي الله ورسوله، فأشار بيده أن اجلس، فجلست إلى ربوة مقابل النبي ﷺ، ثم جاء عمر ففعل مثل ذلك، ثم قال له رسول الله ﷺ مثل ذلك، وجلس إلى جنب أبي بكر، ثم جاء عثمان كذلك وجلس إلى جنب عمر، ثم قبض رسول الله ﷺ على حصيات سبع أو تسع أو ما قرب من ذلك، فسبحن في يده، حتى سمع لهن حنين كحنين النحل في كف رسول الله ﷺ، ثم ناولهن أبا بكر، وجاوزني، فسبحن في كف أبي بكر، ثم أخذهن منه فوضعهن في الأرض فخرسن وصرن حصي، ثم ناولهن عمر، فسبحن في كفه، كما سبحن في كف أبي بكر، ثم أخذهن منه فوضعهن في الأرض فخرسن، ثم ناولهن عثمان فسبحن في كفه، كما سبحن في كف أبي بكر وعمر، ثم أخذهن فوضعهن في الأرض فخرسن.

وقال الحافظ ابن حجر: قد اشتهر على الألسنة تسبيح الحصى.

ففي حديث أبي ذر قال: تناول النبي ﷺ سبع حصيات فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنياً، ثم وضعهن في يد أبي بكر فسبحن، ثم وضعهن في يد عمر فسبحن، ثم وضعهن في يد عثمان فسبحن، أخرجه البزار، والطبراني في الأوسط.

وفي رواية الطبراني: فسمع تسبيحهن من في الحلقة، ثم دفعهن إلينا فلم يسبحن مع أحد منا، قال البيهقي في «الدلائل»: كذا رواه

صالح بن أبي الأخضر - ولم يكن بالحافظ - عن الزهري عن سويد بن يزيد السلمي عن أبي ذر.

والمحفوظ ما رواه شعيب عن أبي حمزة عن الزهري قال: ذكر الوليد بن سويد أن رجلاً من بني سليم كان كبير السن، انتهى.

وليس لحديث تسبيح الحصى إلا هذه الطريق الواحدة مع ضعفها، لكنه مشهور عند الناس^(١).

وما أحسن قول سيدي محمد وفا رحمه الله تعالى حيث قال:

لسبحة ذاك الوجه قد سبح الحصا ومن سح سحب الكف قد سبح الرعد
وقال^(٢) الآخر:

يا حبذا لولثمت كفاً قد سبحت وسطها الحصاء

[تسبيح الطعام]

وقد أخرج البخاري من حديث ابن مسعود: كنا نأكل مع النبي ﷺ الطعام، ونحن نسمع تسبيح الطعام^(٣).

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: مرض النبي ﷺ فأتاه جبريل بطبق فيه رمان وعنب فأكل منه النبي ﷺ فسبح. رواه القاضي عياض في «الشفاء» ونقله عنه الحافظ أبو الفضل في فتح الباري^(٤).

(١) عن فتح الباري ٥٩٢/٦ [المحقق].

(٢) في ط: وقوله الآخر.

(٣) هذا لفظ الترمذي ولفظ الحديث عند البخاري «ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل» ورقمه ٣٥٧٩

(٤) ذكره ابن حجر في الفتح دون أي تعليق عليه. قال الشارح: ذكره القاضي =

واعلم أن التسبيح من قبيل الألفاظ الدالة على معنى التنزيه .
واللفظ يوجد حقيقة ممن قام به اللفظ، فيكون في غير من قام به
مجازاً، فالطعام والحصى والشجر ونحو ذلك، كل منها متكلم باعتبار
خلق الكلام فيها حقيقة، وهذا من قبيل خرق العادة .
وفي قوله: «ونحن نسمع تسبيحة» تصريح بكرامة الصحابة لسماع
هذا التسبيح وفهمه وذلك ببركته ﷺ .

[تسليم الحجر]

ومن ذلك تسليم الحجر عليه ﷺ : خرج مسلم من حديث
جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ : (إني لأعرف حجراً بمكة
كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن)
وقد اختلف في هذا الحجر، فقيل: هو الحجر الأسود، وقيل:
حجر غيره بزقاق يعرف به بمكة، والناس يتبركون بلمسه، ويقولون:
إنه هو الذي كان يسلم على النبي ﷺ متى اجتاز به .

وقد ذكر الإمام أبو عبدالله، محمد بن رشيد - بضم الراء - في
١/١٨٨ رحلته مما ذكره في «شفاء الغرام» عن علم الدين / أحمد بن أبي بكر بن
خليل قال: أخبرني عمي سليمان قال: أخبرني محمد بن إسماعيل بن
أبي الصيف قال: أخبرني أبو حفص المياشي قال: أخبرني كل من
لقيته بمكة أن هذا الحجر - يعني المذكور^(١) - هو الذي كلم النبي
صلى الله عليه وسلم .

= بلا إسناد تعليقاً، قال السيوطي: ولم أجده في كتب الحديث. يعني
المشهوره .

(١) في كلام ابن رشيد: أنه الحجر المبني في الجدار المقابل لدار أبي بكر
المشهوره بسوق الليل .

وروى الترمذي والدارمي والحاكم وصححه، عن علي بن أبي طالب قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ بمكة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا حجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله.

وعن عائشة قال: قال رسول الله ﷺ: لما استقبلني جبريل بالرسالة جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله. رواه البزار وأبو نعيم.

وعن جابر بن عبد الله قال: لم يكن النبي ﷺ يمر بحجر ولا شجر إلا سجد له^(١).

ومن ذلك: تأمين أسكفة الباب^(٢) وحوائط البيت على دعائه ﷺ، عن أبي أسيد الساعدي قال قال رسول الله ﷺ للعباس بن عبد المطلب: يا أبا الفضل، لا ترم منزلك أنت وبنوك غداً حتى آتيكم، فإن لي فيكم حاجة. فانتظروه حتى جاء بعد ما أضحى، فدخل عليهم فقال: السلام عليكم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، قال: كيف أصبحتم؟ قالوا: أصبحنا بخير بحمد الله، فقال لهم: تقاربوا، فتقاربوا يزحف بعضهم إلى بعض، حتى إذا أمكنوه اشتمل عليهم بملاءته فقال: يا رب، هذا عمي وصنو أبي، وهؤلاء أهل بيتي فاسترهم من النار كستري إياهم بملاءتي هذه، قال: فأمنت أسكفة الباب وحوائط البيت فقالت: آمين آمين آمين، رواه البيهقي في الدلائل وابن ماجه مختصراً^(٣).

(١) رواه البيهقي في الدلائل عن جابر بلفظه: ومثله لا يقال بالرأي.

(٢) أي عتبة الباب العليا.

(٣) رواه عبد الله بن عثمان الواقسي، قال عنه ابن معين: لا أعرفه، وقال أبو حاتم: يروي أحاديث مشبهة (قاله النجار في تخريج أحاديث الوفا لابن الجوزي) [المحقق].

ومن ذلك كلامه للجبل وكلام الجبل له ﷺ ، عن أنس قال: صعد النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان أحداً، فرجف بهم، فضربه النبي ﷺ برجله وقال: اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان. رواه أحمد والبخاري والترمذي وأبو حاتم.

قال ابن المنير: قيل الحكمة في ذلك أنه لما رجف أراد رسول الله ﷺ أن يبين أن هذه الرجفة ليست من جنس رجفة الجبل بقوم موسى لما حرفوا الكلم، وأن تلك رجفة الغضب، وهذه هزة الطرب، ولهذا نص على مقام النبوة والصدقية والشهادة التي توجب سرور ما اتصلت به لا رجفانه، فأقر الجبل بذلك فاستقر، انتهى.

وأحد: جبل بالمدينة، وهو الذي قال فيه: (أحد جبل يحبنا ونحبه) رواه البخاري ومسلم.

واختلف في المراد بذلك، ف قيل: أراد به أهل المدينة، كما قال تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ أي أهلها، قاله الخطابي، وقال البغوي فيما حكاه الحافظ المنذري: الأولى إجراؤه على ظاهره، ولا ينكر وصف الجمادات بحب الأنبياء والأولياء، وأهل الطاعة، كما حنت الأسطوانة على مفارقتها ﷺ حتى سمع الناس حينها إلى أن سكنها، وكما أخبر أن حجراً كان يسلم عليه قبل الوحي، فلا ينكر أن يكون جبل أحد وجميع أجزاء المدينة تحبه وتحن إلى لقائه حاله مفارقتها إياها. انتهى.

وقال الحافظ المنذري: هذا الذي قاله البغوي جيد.

وعن ثمامة عن عثمان بن عفان أن رسول الله ﷺ كان على ثبير مكة، ومعه أبو بكر وعمر وأنا، فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارتة بالحضيض، فركضه برجله وقال: اسكن ثبير، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان. خرجه النسائي والترمذي والدارقطني.

والحضيض: القرار من الأرض عند منقطع الجبل.

وركضه برجله: أي ضربه بها.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر

وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فتحركت/ الصخرة، فقال ﷺ: ١٨٨/ب
اسكن حراء، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد.

وفي رواية: وسعد بن أبي وقاص، ولم يذكر علياً. خرجهما
مسلم وانفرد بذلك.

وخرجه الترمذي في مناقب عثمان، ولم يذكر «سعداً» وقال:
«اهدأ» مكان «اسكن» وقال: حديث صحيح.

وخرجه الترمذي أيضاً عن سعيد بن زيد وذكر أنه كان عليه
العشرة إلا أبا عبيدة. وقال: اثبت حراء.

وكذا رواه الخليعي عنه بنحوه، ولم يذكر أبا عبيدة بن الجراح.
ورواه أيضاً إسحاق البغدادي فيما رواه الكبار عن الصغار، والآباء عن
الأبناء، والله در القائل:

ومال حراء من تحته فرحاً به لولا مقال «اسكن» تضعض وانقضا

وحراء وثبير: جبلان متقابلان معروفان بمكة.

واختلاف الروايات تحمل على أنها قضايا تكررت. قاله الطبري

وغيره.

لكن صحح الحافظ ابن حجر: أنه «أحد» قال: ولولا اتحاد

المخرج لجوزت تعدد القصة، ثم ظهر لي أن الاختلاف فيه من سعيد،

فإني وجدته في مسند الحارث بن أبي أسامة عن روح بن عبادة فقال

فيه: «أحد» أو «حراء» بالشك. وقد أخرجه أحمد من حديث بريدة بلفظ حراء وإسناده صحيح. وأخرجه أبو يعلى من حديث سهل بن سعد بلفظ «أحد» وإسناده صحيح فقوى احتمال تعدد القصة.

وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة ما يؤيد تعدد القصة، فذكر أنه كان على حراء ومعه المذكورون هنا وزاد معهم غيرهم.

ولما طلبته ﷺ قريش قال له ثبير: اهبط يا رسول الله فإني أخاف أن يقتلوك على ظهري فيعذبنى الله، فقال له حراء: إلي يا رسول الله رواه في «الشفاء» وهو حديث مروى في الهجرة من السيرة^(١).

وحراء مقابل لثبير، والوادي بينهما، وهو على يسار السالك إلى منى، وحراء قبلي ثبير مما يلي شمال الشمس.

وهذه الواقعة غير واقعة ثور في خبر الهجرة. هذا هو الظاهر والله أعلم.

قال السهيلي في حديث الهجرة: وأحسب في الحديث أن ثوراً ناداه أيضاً، لما قال له ثبير: اهبط عني.

[كلام الشجر]

ومن ذلك كلام الشجر له وسلامها عليه وطواعيتها له، وشهادتها له بالرسالة ﷺ.

أخرج البزار وأبو نعيم من حديث عائشة قالت: قال رسول الله

(١) ذكره في الشفاء بلا إسناد بلفظ: وقد روي..

ﷺ : لما أوحى إلي جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله .

وأخرج الإمام أحمد عن أبي سفيان طلحة بن نافع [عن جابر]^(١) قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ ذات يوم وهو جالس حزين، قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، فقال له: مالك؟ فقال له رسول الله ﷺ: فعل بي هؤلاء وفعلوا، فقال له جبريل: أتحب أن أريك آية؟ فقال: نعم، قال: فنظر إلى شجرة من وراء الوادي فقال: ادع تلك الشجرة فدعاها، قال فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع إلى مكانها، فأمرها فرجعت إلى مكانها، فقال رسول الله ﷺ حسبي حسبي، ورواه الدارمي من حديث أنس .

وعن علي قال: كنت مع النبي ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله، رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب .

وخرج الحاكم في مستدركه بإسناد جيد عن ابن عمر قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فأقبل أعرابي، فلما دنا منه قال له رسول الله ﷺ: أين تريد قال: إلى أهلي، قال: هل لك إلى خير، قال: وما هو؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله / وحده لا شريك له، وأن محمداً ﷺ عبده ورسوله، قال: هل لك من شاهد على ما تقول؟ قال رسول الله ﷺ: هذه الشجرة فدعاها رسول الله ﷺ وهي على شاطئ الوادي فأقبلت تحد الأرض خدأً، فقامت بين يديه فاستشهدها ثلاثاً فشهدت، ثم رجعت إلى منبتها، الحديث . ورواه الدارمي أيضاً بنحوه .

(١) في ش .

وقوله: تحذ - بضم الخاء المعجمة وتشديد الدال المهملة - أي تشق الأرض.

وعن بريدة: سأل أعرابي النبي ﷺ آية، فقال له: قل لتلك الشجرة رسول الله يدعوك، قال: فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها، وبين يديها وخلفها، فتقطعت عروقها ثم جاءت تحذ الأرض تجر عروقها مغيرة^(١) حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ فقالت: السلام عليك يا رسول الله، فقال الأعرابي: مرها فلترجع إلى منبتها، فرجعت فدلّت عروقها في ذلك الموضع فاستقرت. فقال الأعرابي: ائذن لي أن أسجد لك، قال: لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. رواه [البخاري] (٢) في الشفاء (٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: بم أعرف أنك رسول الله؟ قال: إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة، أتشهد أي رسول الله؟ [قال: نعم] (٤) فدعاه رسول الله ﷺ فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبي ﷺ، ثم قال: ارجع فعاد، فأسلم الأعرابي، رواه الترمذي وصححه.

وفي حديث يعلى بن مرة الثقفي: ثم سرنا حتى نزلنا منزلاً فنام النبي ﷺ، فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيتها ثم رجعت إلى مكانها، فلما استيقظ رسول الله ﷺ ذكرت له، فقال: هي شجرة

(١) أي مسرعة في مشيها. قال تعالى: ﴿فالمغيرات صباحاً﴾.

(٢) في ب، وفي أ، رواه البخاري، فقط.

(٣) أي رواه البخاري ونقله في الشفاء بلا عزو.

(٤) قال الشارح: سقطت من قلم المصنف أو نساخه. وهي في الرواية.

استأذنت ربها أن تسلم علي فأذن لها. الحديث رواه البغوي في شرح السنة^(١).

وفي حديث جابر بن عبد الله: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيح^(٢)، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فاتبعته بإداوة^(٣) من ماء، فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئاً يستتر به، فإذا شجرتان في شاطئ الوادي فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال: انقادي علي بإذن الله فانقادت معه كالبعير المخشوش^(٤) الذي يصانع قائده، ثم فعل بالأخرى كذلك، حتى إذا كان بالمنصف بينهما قال: التثما علي بإذن الله فالتأمتا. الحديث رواه مسلم.

والمنصف: - بفتح الميم - الموضع الوسط بين الموضعين.

والتلاؤم: الاجتماع.

ولله در الأبوصيري حيث قال:

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة تمشي إليه على ساق بلا قدم
كأنما سطرت سطرأ لما كتبت فروعها من بديع الخط في اللقم^(٥)
فشبه آثار مشي الشجر لما جات إليه ﷺ بكتابة كاتب أوقعها
على نسبة معلومة في أسطر منظومة.

(١) ورواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي.

(٢) أي: واسعاً.

(٣) أي: مطهرة.

(٤) الذي وضع في أنفه خشاش، أي عود من خشب لينقاد بسهولة.

(٥) اللقم - بفتح اللام والقاف، وبضم اللام وفتح القاف - الطريق أو وسطه.

كما في القاموس.

وإذا كانت الأشجار تبادر لامثال أمره ﷺ حتى تحتر ساجدة بين يديه، فنحن أولى بالمبادرة لامثال ما دعا إليه زاده الله شرفاً لديه.

وتأمل قول الأعرابي: «ائذن لي أن أسجد لك» لما رأى من سجود الشجرة، فرأى أنه أحرى بذلك، حتى أعلمه ﷺ أن ذلك لا يكون إلا لله، فحق على كل مؤمن أن يلازم السجود للحق^(١) المعبود، ويقوم على ساق العبودية، وإن لم يكن له قدم كما قامت الشجرة.

[حنين الجذع]

ومن ذلك: حنين الجذع شوقاً إليه ﷺ .

اعلم أن «الحنين» مصدر مضاف إلى الفاعل. والمراد: شوقه وانعطافه إلى النبي ﷺ، والذي في الأحاديث المسوقة هنا أنه صوت، ولعل المراد منه الدلالة على الشوق، أي الصوت الدال/ على شوقه إلى رسول الله ﷺ .

والجذع: واحد جذوع النخل، وهو بالذال المعجمة.

وقد روي حديث حنين الجذع عن جماعة من الصحابة من طرق كثيرة تفيد القطع بوقوع ذلك.

قال العلامة التاج ابن السبكي في شرحه لمختصر ابن الحاجب: والصحيح عندي أن حنين الجذع متواتر:

رواه البخاري عن نافع عن ابن عمر.

ورواه أحمد من رواية أبي جناب عن أبيه عن ابن عمر.

(١) في ش: للرب.

ورواه ابن ماجه وأبو يعلى الموصلي وغيرهما من رواية حماد بن سلمة، عن ثابت عن أنس، وإسناده على شرط مسلم.

ورواه الترمذي وصححه، وأبو يعلى وابن خزيمة والطبراني [والحاكم]^(١) وصححه وقال: على شرط مسلم، يلزمه إخراجهم من رواية إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة عن أنس.

ورواه الطبراني من رواية الحسن عن أنس.

ورواه أحمد^(٢) وابن منيع^(٣) والطبراني وغيرهم، من رواية حماد ابن سلمة عن عمار بن أبي عامر عن ابن عباس.

ورواه أحمد والدارمي وأبو يعلى وابن ماجه وغيرهم من رواية الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه.

ورواه الدارمي من رواية أبي حازم عن سهل بن سعد.

ورواه أبو محمد الجوهري من رواية عبد العزيز أبي رواد^(٤) عن نافع عن تميم الداري.

ثم قال: ولست أدعى أن التواتر حاصل بما عدت من الطريق، بل من طرق أخرى كثيرة يجدها المحدث ضمن المسانيد والأجزاء وغيرها، وإنما ذكرت في المشاهد منها أو في بعضها، ورب متواتر عند قوم غير متواتر عند آخرين. انتهى.

(١) في ش.

(٢) في ش: أحمد بن منيع والطبراني وغيرهما.

(٣) ابن منيع: أبو عبد الرحمن البغوي نزيل بغداد ثقة حافظ مات سنة أربع وأربعين ومائتين.

(٤) في (ط، د) عبد العزيز بن أبي رواد.

وقال الحافظ ابن حجر: في فتح الباري، حنين الجذع وانشقاق القمر نقل كل منهما نقلاً مستفيضاً يفيد القطع عند من يطلع على طرق الحديث دون غيرهم ممن لا ممارسة له في ذلك، والله أعلم، انتهى.

وقال البيهقي: قصة حنين الجذع من الأمور الظاهرة التي حملها الخلف عن السلف، انتهى.

وهذه الآية من أكبر الآيات والمعجزات الدالة على نبوة نبينا ﷺ .

قال الشافعي - فيما نقله ابن أبي حاتم عنه، في مناقبه -: ما أعطى الله نبياً ما أعطى نبينا محمداً ﷺ ، ف قيل له : أعطى عيسى إحياء الموتى ، قال : أعطى محمد حنين الجذع حتى سمع صوته ، فهو أكبر من ذلك .

وقال القاضي عياض: حديث حنين الجذع مشهور منتشر، والخبر به متواتر، أخرجه أهل الصحيح، ورواه من الصحابة بضعة عشر، منهم: أبي بن كعب، وجابر بن عبدالله، وأنس بن مالك، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، وسهل بن سعد، وأبو سعيد الخدري، وبريدة، وأم سلمة، والمطلب بن أبي وداعة، انتهى.

فأما حديث أبي، فرواه الشافعي من حديث الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ يصلي إلى جذع إذ كان المسجد عريشاً، وكان يخطب إلى ذلك الجذع، فقال رجل من أصحابه: هل لك أن نجعل لك منبراً تقوم عليه يوم الجمعة، وتسمع الناس خطبتك؟ قال: نعم، فصنع له ثلاث درجات، هي التي على المنبر، فلما صنع وضعه رسول الله ﷺ موضعه الذي هو فيه، فكان إذا

بدا لرسول الله ﷺ أن يخطب عليه، تجاوز الجذع الذي كان يخطب عليه، خار حتى تصدع وانشق، فنزل رسول الله ﷺ لما سمع صوت الجذع فمسحه بيده ثم رجع إلى المنبر، الحديث.

وأما حديث جابر، فرواه البخاري من طرق، وفي لفظ له: أن رسول الله ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار، أو رجل من الأنصار: ألا نجعل لك منبراً؟ قال: إن شئتم، فجعلوا له منبراً، فلما كان يوم الجمعة رفع^(١) إلى المنبر، فصاحت النخلة فنزل رسول الله ﷺ / وضمها إليه فجعلت تن أنين ١/١٩٠ الصبي الذي يسكن، قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها^(٢).

وفي لفظ: قال جابر بن عبد الله: كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار^(٣) - وهو بكسر العين: النوق الحوامل -

وفي حديث أبي الزبير عن جابر - عند النسائي في الكبرى -: اضطربت تلك السارية كحنين الناقة الخلوج. انتهى.

والخلوج: - بفتح الخاء المعجمة، وضم اللام الخفيفة وآخره جيم - الناقة التي انتزع منها ولدها.

والحنين: صوت المتألم المشتاق عند الفراق.

(١) رفع بالراء وفي رواية بالذال بدلها.

(٢) البخاري: رقم الحديث ٣٥٨٤

(٣) البخاري: رقم الحديث ٣٥٨٥

وإنما يشناق إلى بركة الرسول ويتأسف على مفارقته أعقل العقلاء. والعقل والحنين بهذا الاعتبار يستدعي الحياة، وهذا يدل على أن الله عز وجل خلق فيه الحياة والعقل والشوق ولهذا حنَّ وأنَّ.

فإن قيل: مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري: أن الأصوات لا يستلزم خلقها في المحل خلق الحياة ولا العقل.

أجيب: بأنه كذلك، ونحن لم نجعل الحياة لازمة، إلا أن الشوق إلى الحق شوقاً معنوياً^(١) عقلياً لا طبيعياً بهيمياً. ومذهب الشيخ أبي الحسن أن الذكر المعنوي والكلام النفسي يستلزمان الحياة استلزام العلم لها. وقد بينا أن هذه المعاني وجدت في الجذع، وأطلق الحاضرون حينئذ على صوته أنه حنين، وفهموا أنه شوق إلى الذكر وإلى مقام الحبيب عنده، وقد عامله النبي ﷺ هذه المعاملة، فالترمه كما يلتزم الغائب أهله وأعزته يبرد غليل شوقهم إليه وأسفهم عليه، والله در القائل^(٢):

وحن إليه الجذع شوقاً ورقة ورجع صوتاً كالعشار مرددا
فبادره ضماً فقر لوقته لكل امرئ من دهره ما تعودا
وأما حديث أنس، فرواه أبو يعلى الموصلي بلفظ: إن رسول الله ﷺ كان يوم الجمعة يسند ظهره إلى جذع منصوب في المسجد يخطب الناس، فجاءه رومي فقال: ألا أصنع لك شيئاً تقعد عليه كأنك قائم؟ فصنع له منبراً له درجتان ويقعد على الثالثة، فلما قعد رسول الله ﷺ على المنبر جأر الجذع كجؤر الثور، حتى ارتج المسجد لجؤاره حزناً على

(١) كذا في النسخ، والصواب رفع (شوقاً) قال الشارح: خبر محذوف أولى من تخريجه على نصب أن الجزأين والتقدير: إن يكون شوقاً.

(٢) هو الشاعر: صالح بن الحسين.

رسول الله ﷺ فنزل إليه رسول الله ﷺ عن المنبر فالتزمه وهو يجأر، فلما التزمه سكت. ثم قال رسول الله ﷺ: والذي نفس محمد بيده، لو لم ألتزمه لما زال هكذا حتى تقوم الساعة حزناً على رسول الله ﷺ، فأمر به ﷺ فدفن. ورواه الترمذي وقال: صحيح غريب.

وكذا رواه ابن ماجه والإمام أحمد من طريق الحسن عن أنس ولفظه: كان رسول الله ﷺ إذا خطب يوم الجمعة يسند ظهره إلى خشبة، فلما كثر الناس قال: ابنوا لي منبراً، أراد أن يسمعهم، فبنوا له عتبتين، فتحول من الخشبة إلى المنبر، قال: فأخبر أنس بن مالك أنه سمع الخشبة تحن حنين الواله، قال: فما زالت تحن حتى نزل رسول الله ﷺ عن المنبر فمشى إليها فاحتضنها فسكتت.

ورواه أبو القاسم البغوي وزاد فيه: فكان الحسن إذا حدث بهذا الحديث بكى ثم قال: يا عباد الله الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه لمكانه من الله، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه.

ولله در القائل:

وألقي حتى في الجهادات حبه فكانت لإهداء السلام له تُهدى
وفارق جذعاً كان يخطب عنده فأَنْ أنين^(١) الأم إذ تجد الفقدا
يحن إليه الجذع يا قوم هكذا أما نحن أولى أن نحنَّ له وجدا / ١٩٠ ب
إذا كان جذع لم يطق بعد ساعة فليس وفاء أن نطيق له بعدا
وأما حديث سهل بن سعد، ففي الصحيحين من طرق.

وأما حديث ابن عباس فعند الإمام أحمد بإسناد على شرط مسلم، ورواه ابن ماجه.

(١) في ط: حنين.

وأما حديث ابن عمر، ففي البخاري .

وأما حديث أبي سعيد الخدري، فعند عبد بن حميد .

وأما حديث عائشة، فعند البيهقي وفي آخره: أنه خير الجذع بين الدنيا والآخرة فاختر الآخرة .

وأما حديث بريدة، فعند الدارمي وفيه: أن النبي ﷺ قال: إن شئت أردك إلى الحائط الذي كنت فيه تنبت لك عروقتك ويكمل خلقك، ويجدد لك خوص وثمره، وإن شئت أغرسك في الجنة فتأكل أولياء الله من ثمرك؟ ثم أصغى له النبي ﷺ ليسمع ما يقول، فقال: بل تغرسني في الجنة فأكل مني أولياء الله وأكون في مكان لا أبلى فيه، فسمعه من يليه^(١)، فقال النبي ﷺ: قد فعلت، ثم قال: اختار دار البقاء على دار الفناء .

وأما حديث أم سلمة، فعند أبي نعيم في الدلائل .

والقصة واحدة، وما في ألفاظها مما ظاهره التغاير هو من الرواة . وعند التحقيق ترجع إلى معنى واحد، فلا نطيل بذكر ذلك والله أعلم .

[معجزات كلام الحيوانات^(٢)]

وأما كلام الحيوانات وطاعتها له ﷺ :

- (١) أي الجذع أو النبي . والخصص: ورق النخيل .
- (٢) جاء في كتاب «أسنى المطالب» تأليف العالم درويش الحوت، «مدحه ﷺ بغير ما ورد مثل... أن الغزالة سلمت عليه، وكلمه الجمل والحمار والذئب والضب لا يجوز مطلقاً، لأنه كذب وافتراء عليه ﷺ . نعم مدحه =

فمنها: سجود الجمل وشكواه إليه ﷺ . عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون عليه، وأنه استصعب عليهم فمنعهم ظهره، وأن الأنصار جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نسني عليه، وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره، وقد عطش النخل والزرع، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا، فقاموا فدخل الحائط، والجمل في ناحية فمشى رسول الله ﷺ نحوه، فقالت الأنصار: يا رسول الله، قد صار مثل الكلب الكلب، وإنا نخاف عليك صولته، فقال رسول الله ﷺ: ليس علي منه بأس، فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خر ساجداً بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كان قط، حتى أدخله في العمل، فقال له أصحابه: يا رسول الله، هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك ونحن نعقل فنحن أحق أن نسجد لك، فقال رسول الله ﷺ: لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، لو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها، رواه أحمد والنسائي.

والحائط: هو البستان.

وقوله: نسني عليه: - بالنون والسين المهملة - أي نستقي عليه.

وفي حديث يعلى بن مرة الثقفي: بينا نحن نسير مع النبي ﷺ

= من أعظم القربات وأجلها... ولكن يجب معه تحري الصدق، ومدحه بما صح إذ هو - زاده الله تشریفاً وتكريماً - غني عن المدح بالكذب بما مدحه الله به في كتابه العزيز في المواطن المتعددة... ص ٣٠٧
أقول: ورد في بعضها أحاديث ضعيفة لا يصدق في حقها إطلاق الكذب عليها وإن كان ما ذهب إليه الشيخ الحوت هو المذهب الصحيح إذ ينبغي التمسك بالصحيح [المحقق].

إذ مررنا ببعير يسنى عليه، فلما رآه البعير جرجر، فوضع جرانه، فوقف عليه النبي ﷺ فقال: أين صاحب هذا البعير، فجاءه، فقال: بعينه، فقال: بل نهبه لك يا رسول الله، وإنه لأهل بيت ما لهم معيشة غيره، فقال: أما إذ ذكرت هذا من أمره، فإنه شكا كثرة العمل، وقلة العلف، فأحسنوا إليه، رواه البغوي في شرح السنة.

والجران: بكسر الجيم، قال ابن فارس: مقدم عنق البعير من مذبحة إلى منحره.

وروى الإمام أحمد قصة أخرى نحو ما تقدم من حديث جابر ضعيفة السند، والبيهقي بإسناد جيد.

وكذا روى الطبراني قصة أخرى عن عكرمة عن ابن عباس: لكن بإسناد ضعيف. والإمام أحمد أيضاً من حديث يعلى بن مرة.

وأخرج ابن شاهين في الدلائل عن عبدالله بن جعفر رضي الله عنها قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه فأسر إلي حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس، قال: وكان أحب ما استتر به النبي ﷺ لحاجته هدف أو حائش نخل، فدخل حائط رجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبي ﷺ حنَّ فذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح ذفراه^(١)، وفي رواية فسكن، ثم قال: من رب هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: هذا لي يا رسول الله، فقال: ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدثبه. قال في المصابيح: وهو حديث صحيح، قال: ورواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل عن مهدي بن ميمون.

(١) في ط: ذفريه. قال الشارح: بالألف مقصور.

والحائش: - بالحاء المهملة وبالشين المعجمة ممدوداً - هو جماعة النخل، لا واحد له من لفظه.

وقوله: ذفران: تثنية^(١) ذفرا، بكسر الذال المعجمة مقصور، وهو الموضع الذي يعرف من قفا البعير عند أذنه.

ومنها: سجود الغنم له ﷺ، عن أنس بن مالك قال: دخل رسول الله ﷺ حائطاً للأنصار ومعه أبو بكر وعمر ورجل من الأنصار، وفي الحائط غنم فسجدت له، فقال أبو بكر: يا رسول الله، نحن أحق بالسجود لك من هذه الغنم، فقال رسول الله ﷺ: لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد^(٢). رواه أبو محمد عبدالله بن حامد الفقيه في كتاب دلائل النبوة بإسناد ضعيف. وذكره القاضي عياض في الشفاء^(٣) وذكر أيضاً عن جابر بن عبدالله عن رجل أتى النبي ﷺ وآمن به وهو على بعض حصون خيبر، وكان في غنم يرعاها لهم، فقال: يا رسول الله، كيف لي بالغنم، قال: احصب وجوهها فإن الله سيؤدي عنك أمانتك ويردها إلى أهلها، ففعل فسارت كل شاة حتى دخلت إلى أهلها.

ومنها: قصة كلام الذئب وشهادته له بالرسالة.

اعلم أنه قد جاء حديث قصة كلام الذئب في عدة طرق من حديث أبي هريرة وأنس وابن عمر وأبي سعيد الخدري.

فأما حديث أبي سعيد، فرواه الإمام أحمد بإسناد جيد ولفظه:

(١) في ش: تأنيث ذفر، قال في هامش (ب) ولعلها أصح إذ لو كانت تثنية لقال فيما تقدم: ذفريه.

(٢) في ط: إلا لله.

(٣) بدون عزو.

عدا الذئب على شاة فأخذها، فطلبه الراعي فانزعها منه فألقى الذئب على ذنبه وقال: ألا تتقي الله؟ تنزع مني رزقاً ساقه الله إلي، فقال الراعي: يا عجباً، ذئب مقع على ذنبه يكلمني بكلام الإنس، فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك: محمد بيثرب يخبر الناس بأنباء ما سبق. قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة، فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فأمر رسول الله ﷺ فنودي بالصلاة جامعة، ثم خرج فقال للأعرابي: أخبرهم، فأخبرهم.

وأما حديث ابن عمر فأخرجه أبو سعد الماليني والبيهقي.

وأما حديث أنس فأخرجه أبو نعيم في الدلائل.

وأما حديث أبي هريرة، فرواه سعيد بن منصور في سننه قال: جاء الذئب فألقى بين يدي رسول الله ﷺ وجعل يبصص بذنبه، فقال رسول الله ﷺ: هذا وافد الذئاب جاء يسألكم أن تجعلوا له من أموالكم شيئاً. قالوا: والله لا نفعل، وأخذ رجل من القوم حجراً رماه به، فأدبر الذئب وله عواء، فقال رسول الله ﷺ: الذئب وما الذئب.

وروى الغوي في شرح السنة وأحمد وأبو نعيم بسند صحيح عن أبي هريرة أيضاً قال: جاء ذئب إلى راعي غنم فأخذ منه شاة، فطلبه الراعي حتى انتزعها منه، قال فصعد الذئب على تل فألقى واستنفر وقال: عمدت إلى رزق رزقنيه الله أخذته ثم انتزعتني فقال الرجل: تالله إن رأيت كاليوم ذئب يتكلم، فقال الذئب: أعجب من هذا رجل في النخلات بين الحرتين يخبركم بما مضى وما هو كائن بعدكم، ولا تتبعونه، قال: وكان الرجل يهودياً، فجاء إلى النبي ﷺ فأخبره وأسلم ب/١٩١/ب فصدقه النبي ثم قال ﷺ: / إنها أمارات بين يدي الساعة، قد أوشك

الرجل أن يخرج فلا يرجع حتى يحدّثه نعلاه وسوطه بما أحدث أهله بعده .

واستشفر: - بالسّين والمثناة ثم المثلثة والفاء آخره راء - كاستفعل، أي جعل ذنبه بين رجله كما يفعل الكلب .

قال القاضي عياض: وفي بعض الطرق عن أبي هريرة: فقال الذئب أنت أعجب مني واقفاً على غنمك وتركت نبياً لم يبعث الله قط أعظم منه عنده قدراً، وقد فتحت له أبواب الجنة وأشرف أهلها على أصحابه ينظرون قتالهم وما بينك وبينه إلا هذا الشعب، فتصير من جنود الله . قال الراعي: من لي بغنمي؟ قال الذئب: أنا أرهاها حتى ترجع، فأسلم الرجل إليه غنمه ومضى، وذكر قصته وإسلامه ووجوده النبي ﷺ يقاتل، فقال له النبي ﷺ: عد إلى غنمك تجدها بوفرها، فوجدها كذلك، وذبح للذئب شاة منها .

وقد روى ابن وهب مثل هذا أنه جرى لأبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية مع ذئب وجداه أخذ ظيباً، فدخل الظبي الحرم فانصرف الذئب، فعجبا من ذلك فقال الذئب: أعجب من ذلك محمد بن عبد الله بالمدينة يدعوكم إلى الجنة وتدعونه إلى النار، فقال أبو سفيان: واللوات والعزى، لئن ذكرت هذا بمكة لتركها خلواً - بضم الخاء المعجمة - أي فاسدة متغيرة، بمعنى: يقع الفساد والتغير في أهلها .

ومن ذلك حديث الحمار: أخرج ابن عساكر عن أبي (١) منظور (٢) قال: لما فتح رسول الله ﷺ خير أصاب حماراً أسود، فكلم رسول الله

(١) في ط: ابن .

(٢) قال في الإصابة: غير منسوب جاء ذكره في خبر واه .

ﷺ الحمار، فكلمه الحمار، فقال له رسول الله ﷺ : ما اسمك؟ قال: يزيد بن شهاب، أخرج الله من نسل جدي ستين حماراً كلهم لا يركبه إلا نبي، وقد كنت أتوقعك أن تركبني، لم يبق من نسل جدي غيري ولا من الأنبياء غيرك وقد كنت قبلك لرجل يهودي وكنت أتعرثر به عمداً، وكان يجيع بطني ويضرب ظهري، فقال له النبي ﷺ : فأنت يعفور، فكان رسول الله ﷺ يبعثه إلى باب الرجل فيأتي الباب فيقرعه برأسه فإذا خرج إليه صاحب الدار أوماً إليه أن أجب رسول الله ﷺ، فلما قبض رسول الله ﷺ جاء إلى بئر كانت لأبي الهيثم بن التيهان فتردى فيها جزعاً على رسول الله ﷺ. ورواه أبو نعيم بنحوه من حديث معاذ بن جبل، لكن الحديث مطعون فيه. وذكره ابن الجوزي في الموضوعات^(١).

وفي معجزاته ﷺ ما هو أعظم من كلام الحمار وغيره.

ومن ذلك: من حديث الضب، وهو مشهور على الألسنة، ورواه البيهقي في أحاديث كثيرة، لكنه حديث غريب ضعيف. قال المزي^(٢): لا يصح إسناداً ولا متناً، وذكره القاضي عياض في الشفاء، وقد روي من حديث عمر أن رسول الله ﷺ كان في محفل من أصحابه، إذ جاء أعرابي من بني سليم قد صاد ضباً جعله في كفه ليذهب به إلى رحله فيشويه ويأكله، فلما رأى الجماعة قال من هذا؟

(١) وقال ابن حبان: لا أصل له وليس سنده بشيء. وقال الزرقاني: لا أصل له [٢٩٧/٨].

(٢) الحافظ أبو الحجاج جمال الدين يوسف بن الذكي عبد الرحمن، الحلبي الأصل، الدمشقي المنشأ، ولد سنة أربع وخمسين وستمائة، ونشأ بالمزة - قرية بدمشق - أقبل على الحديث ورحل وسمع الكثير، صنف تهذيب الكمال والأطراف. مات سنة اثنتين وأربعين وسبعائة.

قالوا: نبي الله، فأخرج الضب من كفه وقال: واللوات والعزى لا آمنت بك أو يؤمن هذا الضب. وطرحه بين يدي رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: يا ضب، فأجابه بلسان ميين يسمعه القوم جميعاً: لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة، قال: من تعبد؟ قال: الذي في السماء عرشه وفي الأرض سلطانه وفي البحر سبيله وفي الجنة رحمته وفي النار عقابه، قال: فمن أنا؟ قال: رسول رب العالمين وخاتم النبيين، وقد أفلح من صدقك وقد خاب من كذبك فأسلم الأعرابي. الحديث بطوله/، وهو مطعون فيه وقيل إنه موضوع. لكن معجزاته ١/١٩٢ ﷺ فيها ما هو أبلغ من هذا وليس فيه ما ينكر شرعاً خصوصاً وقد رواه الأئمة فنهايته الضعف لا الوضع، والله أعلم.

ومن ذلك: حديث الغزالة^(١). روى حديثها البيهقي من طرق، وضعفه جماعة من الأئمة، لكن طرقه يقوي بعضها بعضاً.

(١) قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: «قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٤٣٤/٦: «أما تسليم الغزالة فلم نجد له إسناداً لا من وجه قوي ولا من وجه ضعيف» قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص ١٥٦ بعد نقله كلام الحافظ ابن كثير واقاربه له: «ولكن قد ورد الكلام - يعني: ورد تكليم الغزالة لرسول الله ﷺ لا تسليمها - في الجملة في عدة أحاديث يتقوى بعضها ببعض أوردها شيخنا - أي الحافظ ابن حجر - في المجلس الحادي والستين من «تخريج أحاديث المختصر» انتهى كلام السخاوي ويعني بالمختصر «مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه» «قلت: هي أحاديث ضعيفة واهية، لا يصح الاعتماد عليها في إثبات ما هو خرق للعادة وإذا كانت لتعدد طرقها لا يحكم الحديثي عليها بالوضع، فإن إثبات مضمونها لا يقبل ولا يثبت إلا بالحديث الصحيح الرجيح، ولدى النظر في أسانيدنا يتبين أنها لا تخلو من مطاعن شديدة مردية، فلا تغفل، وبالنظر في متونها يتبدى تعارض شديد فيما بينها، وفي الجمع بينها تعسف ظاهر، كما أشار =

وذكره القاضي عياض في الشفاء، ورواه أبو نعيم في الدلائل بإسناد فيه مجاهيل، عن حبيب بن محسن عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: بينما رسول الله ﷺ في صحراء من الأرض، إذا هاتف يهتف: يا رسول الله ثلاث مرات فالتفت فإذا ظبية مشدودة في وثاق، وأعرابي منجدل في شملة نائم في الشمس، فقال: ما حاجتك؟ قالت: صادني هذا الأعرابي، ولي خشفان في ذلك الجبل فأطلقني حتى أذهب فأرضعهما وأرجع، قال: وتفعلين؟ فقالت: عذبي الله عذاب العشار إن لم أعد، فأطلقها فذهبت ورجعت فأوثقها النبي ﷺ فانتبه الأعرابي وقال: يا رسول الله ألك حاجة؟ قال: تطلق هذه الظبية، فأطلقها فخرجت تعدو في الصحراء فرحاً وهي تضرب برجليها الأرض وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

وكذا رواه الطبراني بنحوه، وساق الحافظ المنذري حديثه في الترغيب والترهيب من باب الزكاة. ونقل شيخنا الحافظ أبو الخير السخاوي عن ابن كثير: أنه لا أصل له، وأن من نسبه إلى النبي ﷺ فقد كذب، ثم قال شيخنا: لكن ورد في الجملة في عدة أحاديث يتقوى بعضها ببعض أوردها شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر في المجلس الحادي والستين من تخريج أحاديث المختصر والله أعلم. انتهى.

وفي شرح مختصر ابن الحاجب للعلامة ابن السبكي، وتسبيح الحصى رواه الطبراني وابن أبي عاصم من حديث أبي ذر، وتسليم

= إليه العلامة الزرقاني في شرح المواهب اللدنية ١٥١/٥ عن كتاب «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» للعلامة علي القاري، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ص ٨٠ [المحقق].

الغزاة رواه أبو نعيم الأصبهاني والبيهقي في دلائل النبوة، ونحن نقول فيهما: وإن لم يكونا متواترين فلعلهما استغني عنها بنقل غيرهما، أو لعلهما تواترا إذ ذاك، انتهى.

ومن ذلك، داجن البيوت، وهو ما ألفها من الحيوان، كالطير والشاة وغيرهما، روى قاسم بن ثابت عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عندنا داجن، فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ قر وثبت مكانه، فلم يحمى ولم يذهب، وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب، وذكره القاضي عياض بسنده^(١).

[معجزة نبع الماء]

وأما نبع الماء الطهور من بين أصابعه ﷺ، وهو أشرف المياه، فقال القرطبي: قصة نبع الماء من بين أصابعه قد تكررت منه ﷺ في عدة مواطن في مشاهد عظيمة، ووردت من طرق كثيرة، يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي، ولم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبينا ﷺ، حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه، وقد نقل ابن عبد البر عن المزني^(٢) أنه قال: نبع الماء من بين أصابعه ﷺ أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر حيث ضربه موسى بالعصا فتفجرت منه المياه، لأن خروج الماء من الحجارة معهود بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم. انتهى^(٣).

(١) وأخرجه أحمد والبخاري وغيرهما.

(٢) المزني: اسماعيل بن يحيى بن إسماعيل، الإمام الجليل صاحب التصانيف، الزاهد المتقلل من الدنيا، مجاب الدعوة، توفي سنة أربع وستين ومائتين.

(٣) عن فتح الباري ٥٨٥/٦.

وقد روى حديث نبع الماء جماعة من الصحابة، منهم: أنس وجابر وابن مسعود.

فأما حديث أنس ففي الصحيحين قال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر، والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأتي رسول الله ﷺ بوضوء فوضع يده في ذلك الإناء، فأمر الناس أن يتوضؤوا/ ١٩٢ ب منه، فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم^(١). وفي لفظ البخاري: كانوا ثمانين رجلاً^(٢)، وفي لفظ له: فجعل الماء ينبع من بين أصابعه وأطراف أصابعه حتى توضأ القوم، قال: فقلنا لأنس كم كنتم قال: كنا ثلاثمائة^(٣).

قوله: «حتى توضؤوا من عند آخرهم» قال الكرمانى: حتى للتدرج، ومن للبيان، أي: توضأ الناس حتى توضأ الذين هم عند آخرهم، وهو كناية عن جميعهم، و«عند» بمعنى «في» لأن «عند» وإن كانت للظرفية الخاصة لكن المبالغة تقتضي أن تكون لمطلق الظرفية، فكأنه قال: الذين هم في آخرهم. وقال التيمي: المعنى توضأ القوم حتى وصلت النبوة إلى الآخر، وقال النووي: «من» هنا بمعنى «إلى» وهي لغة، وتعقبه الكرمانى بأنها شاذة، قال: ثم إن «إلى» لا يجوز أن تدخل على «عند» ويلزم عليه وعلى ما قاله التيمي أن لا يدخل إلا خبر، لكن ما قاله الكرمانى من أن «إلى» لا تدخل على عند لا يلزم مثله في «من» إذا وقعت بمعنى «إلى» وعلى توجيه النووي يمكن أن يقال عند زائدة. قاله في فتح الباري^(٤).

(١) رقمه في البخاري ٣٥٧٣.

(٢) رقمه في البخاري ٣٥٧٥.

(٣) رقمه في البخاري ٣٥٧٢.

(٤) فتح الباري ١/٢٧١.

وروى هذا الحديث أيضاً عن أنس، ابن شاهين، ولفظه: قال كنت مع النبي ﷺ في غزوة تبوك، فقال المسلمون: يا رسول الله، عطشت دوابنا وإبلنا، فقال: هل من فضلة ماء فجاء رجل في شن بشيء، فقال: هاتوا صحيفة، فصب الماء ثم وضع راحته في الماء، قال: فرأيتها تخلل عيوناً بين أصابعه، قال: فسقينا إبلنا ودوابنا وتزودنا، فقال: اكتفيتم؟ فقالوا: نعم اكتفينا يا نبي الله، فرفع يده فارتفع الماء.

وأخرج البيهقي عن أنس أيضاً، قال: خرج النبي ﷺ إلى قباء فأتي من بعض بيوتهم بقدح صغير، فأدخل يده فلم يسعه القدح، فأدخل أصابعه الأربعة ولم يستطع أن يدخل إبهامه، ثم قال للقوم: هلموا إلى الشراب، قال أنس: بصر عيني ينبع الماء من بين أصابعه فلم يزل القوم يردون القدح حتى رووا منه جميعاً.

وأما حديث جابر: ففي الصحيحين، قال: عطش الناس يوم الحديبية، وكان رسول الله ﷺ بين يديه ركوة يتوضأ منها، وجهش^(١) الناس نحوه، فقال: ما لكم؟ فقالوا يا رسول الله ما عندنا ماء نتوضأ به ولا نشربه إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، قلت: كم كنتم قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة^(٢).

وقوله: «يفور»، أي يغلي ويظهر متدفقاً.

وفي رواية الوليد بن عباد بن الصامت عنه في حديث مسلم الطويل في ذكر غزوة بواط، قال لي رسول الله ﷺ: يا جابر ناد:

(١) أي: أسرع،

(٢) هو في البخاري برقم ٣٥٧٦.

الوضوء، وذكر الحديث بطوله، وأنه لم يجد إلا قطرة في عزلاء شجب^(١) فأق به النبي ﷺ فغمزه وتكلم بشيء لا أدري ما هو، وقال: ناد بجفنة الركب، فأتيت بها فوضعتها بين يديه، وذكر أن النبي ﷺ بسط يده في الجفنة وفرق أصابعه وصب عليه جابر، فقال: بسم الله، فرأيت الماء يفور من بين أصابعه، ثم فارت الجفنة واستدارت حتى امتلأت وأمر الناس بالاستقاء فاستقوا حتى رووا، فقلت: هل بقي من أحد له حاجة؟ فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي ملاءى.

وروى حديث جابر أيضاً الإمام أحمد في مسنده بلفظ: اشتكى أصحاب رسول الله ﷺ إليه العطش، فدعا بعس^(٢) فصب فيه شيئاً من الماء، فوضع رسول الله ﷺ فيه يده، وقال: استقوا فاستقى الناس، فكنت أرى العيون تنبع من بين أصابعه.

وفي لفظ من حديث له أيضاً/ : فوضع رسول الله ﷺ كفه في الإناء ثم قال: بسم الله، ثم قال: أسبغوا الوضوء، قال جابر: فوالذي ابتلاني ببصري، لقد رأيت العيون، عيون الماء يومئذٍ تخرج من بين أصابعه ﷺ فما رفعها حتى توضؤوا أجمعون.

ورواه أيضاً عنه البيهقي في الدلائل قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصابنا عطش فجهشنا إلى رسول الله ﷺ قال: فوضع يده في تور من ماء بين يديه، قال: فجعل الماء ينبع من بين أصابعه كأنه العيون قال: خذوا بسم الله، فشربنا، فوسعنا وكفانا، ولو كنا مائة ألف لكفانا، قلت لجابر: كم كنتم؟ قال: ألفاً وخمسةائة.

(١) عزلاء: أي قم القربة الأسفل أو مصب الماء من الراوية، والمعنى قم قربة معلقة بعود.

(٢) قده كبير.

وأخرجه ابن شاهين من حديث جابر أيضاً، وقال: أصابنا عطش بالحديبية فجهشنا إلى رسول الله ﷺ، الحديث.

وأخرجه أيضاً - عن جابر - أحمد من طريق نبيح العنزي عنه، وفيه: فجاء رجل بإداوة فيها شيء من ماء ليس في القوم ماء غيره، فصبه رسول الله ﷺ في قدح ثم توضأ فأحسن الوضوء، ثم انصرف وترك القدح، قال: فتزاحم الناس على القدح فقال: على رسلكم، فوضع كفه في القدح ثم قال: أسبغوا الوضوء قال: فلقد رأيت العيون عيون الماء تخرج من بين أصابعه.

وأما حديث ابن مسعود، ففي الصحيح من رواية علقمة: بينما نحن مع رسول الله ﷺ وليس معنا ماء، فقال لنا رسول الله ﷺ: اطلبوا من معه فضل ماء، فأتي بماء فصبه في إناء، ثم وضع كفه فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ.

وظاهر هذا أن الماء ينبع من بين أصابعه بالنسبة إلى رؤية الرائي، وهو في نفس الأمر - للبركة الحاصلة فيه - يفور ويكثر، وكفه ﷺ في الإناء، فيراه الرائي نابعاً من بين أصابعه.

وظاهر كلام القرطبي: أنه ينبع من نفس اللحم الكائن في الأصابع، وبه صرح النووي في شرح مسلم، ويؤيده قول جابر: فرأيت الماء يخرج من بين أصابعه، وفي رواية: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، وهذا هو الصحيح، وكلاهما معجزة له ﷺ.

ولأنما فعل ذلك ولم يخرج من غير ملابسة ماء ولا وضع إناء تادباً مع الله تعالى، إذ هو المنفرد بابتداع المعدومات وإيجادها من غير أصل.

وروى ابن عباس قال: دعا النبي ﷺ بلالاً فطلب الماء، فقال: لا والله ما وجدت الماء، قال: فهل من شن؟ فأتاه بشن فبسط كفه فيه فانبعثت تحت يده عين، فكان ابن مسعود يشرب وغيره يتوضأ، رواه الدارمي وأبو نعيم، وكذا رواه الطبراني وأبو نعيم من حديث أبي ليلى الأنصاري وأبو نعيم من طريق القاسم بن عبدالله بن أبي رافع عن أبيه عن جده.

[معجزة تفجر الماء]

ومن ذلك تفجير الماء ببركته، وانبعائه بمسه ودعوته.

روى مسلم في صحيحه عن معاذ أن رسول الله ﷺ قال لهم: إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي، قال: فجنناها، وقد سبق إليها رجلان، والعين مثل الشراك تبض^(١) بشيء من ماء، فسألها رسول الله ﷺ هل مسستما من مائها شيئاً؟ قالوا: نعم، فسبها^(٢) وقال لهما ما شاء الله أن يقول، ثم غرفوا من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء، ثم غسل ﷺ به وجهه ويديه ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء كثير، فاستقى الناس ثم قال ﷺ: يا معاذ، يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جناناً^(٣). أي بساتين وعمراناً، وهذا أيضاً من معجزاته ﷺ.

(١) تبض: أي تسيل وتقطر، والشراك: هو سير النعل، ومعناه: ماء قليل جداً.

(٢) لمخالفتها الأمر عمداً وكانا من المنافقين.

(٣) رواه مسلم في كتاب الفضائل رقم (١٠).

ورواه القاضي عياض في الشفاء بنحوه من طريق / مالك في ١٩٣/ب
الموطأ، وزاد فقال: قال في حديث ابن إسحاق: فانخرق من الماء
ماله (١) حس كحس الصواعق.

وفي البخاري، في غزوة الحديبية، من حديث المسور بن مخرمة
ومروان بن الحكم: أنهم نزلوا بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء
يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه وشكي إلى رسول
الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه،
فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه (٢).

والثمد: - بالثلثة والتحريك - الماء القليل.

وقوله: «يتبرضه الناس تبرضاً» - بالضاد المعجمة - أي يأخذونه
قليلاً قليلاً، والبرض: الشيء القليل.

وقوله: «فما زال يجيش» - بفتح المثناة التحتية، وبالجميم، آخره
شين - أي: يفور ماؤه ويرتفع.

وفي رواية: أنه ﷺ توضأ فتمضمض [ودعا] (٣) ومج في بئر
الحديبية من فمه، فجاشت بالماء كذلك (٤).

وفي مغازي أبي الأسود عن عروة: أنه توضأ في الدلو،
ومضمض فاه ثم مج فيه، وأمر أن يصب في البئر، ونزع سهماً من
كنانته وألقاه في البئر ودعا الله تعالى، ففارت بالماء حتى جعلوا يغترفون
بأيديهم منها وهم جلوس على شفيتها، فجمع بين الأمرين.

(١) في ش: ماء له.

(٢) رواه البخاري برقم ٢٧٣١.

(٣) في ش.

(٤) هو في البخاري برقم ٤١٥٠ و٤١٥١.

وكذا رواه الواقدي من طريق أوس بن خولى .

وهذه القصة غير القصة السابقة في ذكر نبع الماء من بين أصابعه ﷺ مما رواه البخاري في المغازي من حديث جابر: عطش الناس بالحديبية وبين يدي رسول الله ﷺ ركوة فوضع يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه . الحديث .

فبين القصتين مغايرة، وجمع ابن حبان بينهما: بأن ذلك وقع في وقتين، انتهى .

فحديث جابر في نبع الماء كان حين حضرت صلاة العصر عند إرادة الوضوء، وحديث البراء كان لإرادة ما هو أعم من ذلك . ويحتمل أن يكون الماء لما تفجر من أصابعه ويده في الركوة، وتوضؤوا كلهم وشربوا أمر حينئذٍ بصب الماء الذي بقي في الركوة في البئر فتكاثر الماء فيها . انتهى .

وفي حديث البراء وسلمة بن الأكوع مما رواه البخاري^(١) في قصة الحديبية وهم أربع عشرة مائة، وبثرها لا تروي خمسين شاة، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فقعد رسول الله ﷺ على جباها، قال البراء: وأتى بدلو منها فبصق ودعا، وقال سلمة: فإما دعا وإما بصق فيها، فجاشت فأرووا أنفسهم وركابهم، وقال في رواية البراء: ثم مضمض ودعا ثم صبه فيها ثم قال: دعوها ساعة .

قوله: «على جباها» - بفتح الجيم والموحدة والقصر - ما حول البئر، وبالكسر: ما جمعت فيها من الماء .

(١) عند البخاري من حديث البراء برقم ٤١٥١ . قال الشارح: وأما حديث سلمة فرواه مسلم .

وقوله: «وركا بهم» أي الإبل التي يسار عليها.

وفي الصحيحين عن عمران بن الحصين قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فاشتكى إليه الناس من العطش، فنزل فدعا فلاناً - كان يسميه أبو رجاء ونسبه عوف - ودعا علياً، وقال: اذهبا فابتغيا الماء، فانطلقا فتلقيا امرأة بين مزادتين أو سطیحتين من ماء، فجاء بها إلى النبي ﷺ، فاستنزلواها عن بعيرها، ودعا النبي ﷺ بإناء ففرغ فيه من أفواه المزادتين أو السطیحتين، وأوكأ أفواههما، وأطلق العزالي^(١)، ونودي في الناس: اسقوا واستقوا، فسقى من سقى، واستقى من شاء، وهي قائمة تنظر إلى ما يفعل بمائها، وأيم الله لقد أفلح عنها وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملاءة منها حين ابتداء فيها، فقال النبي ﷺ: اجمعوا لها، فجمعوا لها من بين عجوة ورقيقة وسويقة حتى جمعوا لها طعاماً، فجعلوه في ثوب وحملوها على بعيرها، ووضعوا الثوب بين يديها قال لها: تعلمين ما رزأنا من مائك شيئاً ولكن الله هو الذي سقانا، فأتت أهلها فقالت: العجب، لقيني رجلان فذهبا بي إلى الرجل الذي / يقال له الصابئ ففعل كذا وكذا، فوالله إنه لأسحر ١/١٩٤ الناس كلهم أو إنه لرسول الله حقاً، فقالت لقومها: [ما أرى أن هؤلاء يدعونكم عمداً]^(٢) فهل لكم في الإسلام. الحديث^(٣).

وعن أبي قتادة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: إنكم تسيرون عشيتكم وليتكم وتأتون الماء غداً إن شاء الله، فانطلق الناس لا يلوي

(١) جمع عزلى، وهي مصب الماء من الراوية، ولكل مزادة عزلاوان من أسفلها.

(٢) في (ط، ش) وهي في البخاري.

(٣) رواه البخاري برقم ٣٤٤.

أحد على أحد، فبينما رسول الله ﷺ يسير حتى ابهار الليل - أي ابيض - فقال عن الطريق فوضع رأسه ثم قال احفظوا علينا صلاتنا، فكان أول من استيقظ رسول الله ﷺ والشمس في ظهره، ثم قال: اركبوا، فركبنا فسرنا، حتى إذا ارتفعت الشمس نزل، ثم دعا بميضة كانت معي فيها شيء من ماء، فتوضأ منها وضوءاً، قال: وبقي شيء من ماء، ثم قال: احفظ علينا ميضاتك، فسيكون لها نأ، ثم أذن بلال بالصلاة، فصلى رسول الله ﷺ ركعتين ثم صلى الغداة، وركب وركبنا معه، فانتبهنا إلى الناس حين اشتد النهار وحمي كل شيء، وهم يقولون: يا رسول الله هلكننا وعطشنا، فقال: لا هلك عليكم، ودعا بالميضة فجعل يصب وأبو قتادة يسقيهم فلم يعد أن رأى الناس ماء في الميضة فتكأبوا عليها، فقال رسول الله ﷺ: أحسنوا الملاء^(١) كلكم سيروى، قال: ففعلوا، فجعل رسول الله ﷺ يصب وأسقيهم، حتى ما بقي غيري وغير رسول الله ﷺ، ثم صب فقال لي: اشرب، فقلت: لا أشرب حتى تشرب يا رسول الله، فقال: إن ساقى القوم آخرهم، قال: فشربت وشرب، الحديث رواه مسلم^(٢).

وعن أنس قال: أصاب الناس سنة^(٣) على عهد رسول الله ﷺ، فبينما النبي ﷺ يخطب في يوم الجمعة، قام أعرابي فقال: يا رسول الله، هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا، فرفع يديه وما نرى في السماء قزعة^(٤)، فوالذي نفسي بيده ما وضعهما حتى ثار

(١) الملاء: الخلق والعشرة. كذا في هامش مسلم. وقال الشارح: الملاء، أي لأوانيكم.

(٢) رواه مسلم في كتاب المساجد برقم ٣١١ وقد حذف منه المصنف كثيراً.

(٣) أي شدة وجهه من الجذب.

(٤) قزعة: أي قطعة من سحب متفرق أو رقيقة.

السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته، فمطرنا يوماً ذلك ومن الغد ومن بعد الغد، حتى الجمعة الأخرى، وقام ذلك الأعرابي أو غيره وقال: يا رسول الله، تهدم البناء وغرق المال، فادع الله لنا، فرفع يديه فقال: اللهم حوالينا ولا علينا، فما يشير إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت، وصارت المدينة مثل الجوبة، وسال الوادي قناة شهراً، ولم يجيء أحد من ناحية إلا حدث بالجوذ. وفي رواية قال: اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر، فأقلعت وخرجنا نمشي في الشمس. رواه البخاري ومسلم.

و«الجوبة» - بفتح الجيم والموحدة بينهما واو ساكنة - الحفرة المستديرة الواسعة، وكل منفتق بلا بناء جوبة، أي حتى صار الغيم والسحاب محيطاً بأفاق المدينة.

و«الجوذ»: - بفتح الجيم وإسكان الواو - المطر الواسع الغزير.

وعن عبدالله بن عباس، أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حدثنا عن ساعة العسرة فقال عمر: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الرجل فلا يرجع حتى يظن أن رقبتة ستقطع، حتى إن كان الرجل لينحر بغيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده. فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيراً، فادع الله لنا، قال: أتحبون ذلك؟ قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعها حتى قالت السماء^(١) فانسكبت، فملؤوا ما معهم من آنية، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها تجاوز العسكر، قال الحافظ المنذري:

(١) أي غيمت وظهر فيها سحب، من قولهم: قال كذا، إذا تهيأ له واستعد.

أخرجه البيهقي في الدلائل، وشيخه ابن بشران ثقة، ودعرج ثقة،
ب/١٩٤ وابن خزيمة أحد الأئمة، ويونس احتج به مسلم في صحيحه/ وابن
وهب وعمرو بن الحارث ونافع بن جبير احتج بهم البخاري ومسلم،
وعتبة فيه مقال^(١).

وقد رواه القاضي عياض في الشفاء مختصراً^(٢) وروى ابن
إسحاق في مغازيه نحوه.

وروى صاحب «مصباح الظلام» عن عمرو بن شعيب: أن أبا
طالب قال: كنت مع ابن أخي - يعني النبي ﷺ - بذي المجاز،
فأدركني العطش، فشكوت إليه فقلت: يا ابن أخي عطشت، وما
قلت له ذلك وأنا أرى عنده شيئاً إلا الجزع، فثنى وركه ثم نزل
وقال: يا عم، أعطشت؟ فقلت: نعم، فأهوى بعبقه إلى الأرض فإذا
بالماء، فقال: اشرب يا عم فشربت، وكذا رواه ابن سعد وابن
عساكر.

[معجزات تكثير الطعام]

ومن ذلك: تكثير الطعام القليل ببركته ودعائه ﷺ .

عن جابر، في غزوة الخندق قال: فانكفأت إلى امرأتي، فقلت
هل عندك شيء، فإني رأيت بالنبي ﷺ خمصاً شديداً، فأخرجت جراباً
فيه صاع من شعير، ولنا بهيمة داجن فذبحتها وطحنت الشعير حتى
جعلنا اللحم في البرمة ثم جئت النبي ﷺ فساررته فقلت: يا رسول
الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنت صاعاً من شعير. فتعال أنت ونفر معك.

(١) قال أحمد: ضعيف ليس بالقوي، وفي التقريب: صدوق له أوهام.

(٢) رواه عياض بلا سند.

فصاح النبي ﷺ : يا أهل الخندق، إن جابراً صنع سؤراً، فحي هلا بكم، فقال ﷺ : لا تنزلن برمتكم ولا تحبزن عجينكم حتى أجيء [برجال] (١) فأخرجت له عجينةً فبصق فيه وبارك ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك ثم قال: ادع خابزة فلتخبز معك، واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها، وهم ألف. فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجينا ليخبز كما هو، رواه البخاري ومسلم (٢).

وقوله: «فانكفات» أي: انقلبت.

وقوله: «داجن» يعني سمينة.

وقوله: «فذبحتها» بسكون الحاء، و«طحنت» بسكون التاء، يعني إن الذي ذبح هو جابر، والتي طحنت هي امرأته سهيلة بنت معوذ الأنصارية.

وقوله: «سورا» بضم المهملة وسكون الواو بغير همز. قال ابن الأثير: أي طعاماً يدعو إليه الناس. قال: اللفظة فارسية.

وقوله: «فحي هلا بكم» كلمة استدعاء فيه حث، أي هلموا مسرعين.

وقوله: «واقدحي» أي: اغرفي.

وقوله: «إن برمتنا لتغط» بالغيين المعجمة والطاء المهملة، أي: تغلي ويسمع غطيظها.

(١) في النسخ عدا (ش)، ولفظ «برجال» لم أره عند الشيخين [المحقق].

(٢) هو عند البخاري برقم ٤١٠٢ وعند مسلم في كتاب الأشربة برقم ١٤١.

وعن أنس قال: قال أبو طلحة لأم سليم، لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً، أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء، فقالت: نعم، فأخرجت أقراصاً من شعير، ثم أخرجت خماراً، فلفت الخبز ببعضه ثم دسته تحت يدي ولائتي ببعضه - أي أدارت بعض الخمار على رأسي مرتين كالعمائم - ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ، فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس، فسلمت عليه، فقال لي رسول الله ﷺ: أرسلك أبو طلحة؟ فقلت: نعم، قال: لطعام؟ قلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ لمن معه: قوموا، فانطلق وانطلقت بين أيديهم، حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس، وليس عندنا ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم، فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: هلمي يا أم سليم ما عندك، فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ﷺ ففت، وعصرت أم سليم عكة فأدمته، ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقول، ثم قال: ائذن لعشرة، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: ائذن لعشرة، ثم لعشرة، فأكل القوم كلهم وشبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً. رواه البخاري ومسلم^(١).

١/١٩٥ والمراد بالمسجد - هنا - الموضع الذي / أعده النبي ﷺ للصلاة فيه حين محاصرة الأحزاب للمدينة في غزوة الخندق.

وفي رواية لمسلم: أنه قال: ائذن لعشرة، فدخلوا فقال: كلوا

(١) رواه البخاري برقم ٣٥٧٨ ومسلم في كتاب الأشربة برقم ١٤٢.

وسموا الله، فأكلوا حتى فعل ذلك بثمانين رجلاً، ثم أكل النبي ﷺ وأهل البيت وترك سؤراً^(١). أي بقية وهو بالهمز.

وفي رواية للبخاري: قال: أدخل على عشرة، حتى عد أربعين، ثم أكل النبي ﷺ، فجعلت أنظر هل نقص منها شيء؟^(٢).

وفي رواية يعقوب: أدخل على ثمانية ثمانية، فما زال حتى دخل عليه ثمانون، ثم دعاني ودعا أمي وأبا طلحة فأكلنا حتى شبعنا. انتهى^(٣).

وهذا يدل على تعدد القصة، فإن أكثر الروايات فيها أنه أدخلهم عشرة عشرة سوى هذه، قاله الحافظ ابن حجر، قال: وظاهره أنه ﷺ دخل لمنزل أبي طلحة وحده، وصرح بذلك في رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى ولفظه: فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى الباب قال لهم: اقعدوا ودخل. وفي رواية يعقوب عن أنس: فقال أبو طلحة: يا رسول الله إنما أرسلت أنساً يدعوك وحدك، ولم يكن عندنا ما يشبع من أرى، وفي رواية عمرو بن عبد الله عن أنس: فقال أبو طلحة: إنما هو قرص، فقال: إن الله سيبارك فيه^(٤).

قال العلماء: وإنما أدخلهم عشرة عشرة - والله أعلم - لأنها كانت

(١) عند مسلم في كتاب الأشربة برقم ١٤٣.

(٢) عند البخاري برقم (٥٤٥٠).

(٣) قال الشارح: رواية يعقوب عن أنس عند مسلم، أقول: رواية يعقوب عند مسلم في الأشربة برقم ١٤٣ وليس فيها «ثمانية ثمانية» والذي في فتح الباري: رواية يعقوب عن أنس عند أبي نعيم وأصله عند مسلم. ٥٨٩/٦ [المحقق].

(٤) عن فتح الباري بتقديم وتأخير ٥٩٠/٦.

قصعة واحدة، لا يمكن الجماعة الكثيرة أن يقدرُوا على التناول منها مع قلة الطعام، فجعلهم عشرة عشرة لينالوا من الأكل ولا يزدحموا.

وأما قوله ﷺ: «أرسلك أبو طلحة؟ قلت نعم، قال: لطعام؟ قلت: نعم، فقال لمن معه قوموا»: فظاهره: أن النبي ﷺ فهم أن أبا طلحة استدعاه إلى منزله، فلذلك قال لمن عنده قوموا، وأول الكلام يقتضي أن أم سليم وأبا طلحة أرسلتا الخبز مع أنس؟!!

[فيجمع: بأنهما أرادتا بإرسال الخبز مع أنس]^(١) أن يأخذه النبي ﷺ فيأكله، فلما وصل أنس ورأى كثرة الناس حول النبي ﷺ استحيى، وظهر له أن يدعو النبي ﷺ ليقوم معه وحده إلى المنزل فيحصل مقصودهم من إطعامه.

ويحتمل أن يكون ذلك عن رأي من أرسله، عهد إليه أنه إذا رأى كثرة الناس أن يستدعي النبي ﷺ وحده، خشية أن لا يكفي ذلك النبي ﷺ هو ومن معه، وقد عرفوا إثاره ﷺ، وأنه لا يأكل وحده.

ووقع في رواية يعقوب بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس - عند أبي نعيم وأصله عند مسلم - فقال لي أبو طلحة: يا أنس اذهب فقم قريباً من رسول الله ﷺ، فإذا قام فدعه حتى يتفرق عنه أصحابه، ثم اتبعه حتى إذا قام على عتبة بابه فقل له: إن أبي يدعوك، وفيه: فقال أبو طلحة: يا رسول الله إنما أرسلت أنساً يدعوك وحدك^(٢)، ولم يكن عندنا ما يشبع من أرى، فقال: ادخل فإن الله سيبارك فيما عندك.

(١) سقطت من المخطوطات (أ، ب، د) وهي في فتح الباري - الأصل المنقول عنه - ولا يتم المعنى بدونها.

(٢) نقلاً عن فتح الباري، من قوله: «وأما قوله...» ٥٨٩/٦.

وفي رواية مبارك بن فضالة: فقال هل من سمن؟ فقال أبو طلحة: قد كان في العكة شيء فجاء بها، فجعلها يعصرانها حتى خرج، ثم مسح رسول الله ﷺ القرص فانتفخ، وقال: بسم الله، فلم يزل يصنع ذلك والقرص ينتفخ حتى رأيت القرص في الجفنة يتسع^(١).

وفي رواية النضر بن أنس: فجئت بها ففتح رباطها ثم قال: بسم الله، اللهم أعظم فيها البركة^(٢)، وعرف بهذا المراد بقوله [في رواية الصحيحين]^(٣): «فقال فيها ما شاء الله أن يقول».

وفي رواية أنس عند أحمد: أن أبا طلحة رأى رسول الله ﷺ طاوياً.

وعند أبي يعلى من طريق محمد بن سيرين عن أنس: أن أبا طلحة بلغه أنه ليس عند رسول الله ﷺ طعام فأجر نفسه بصاع من شعير فعمل بقية يومه ذلك ثم جاء به / الحديث^(٤).

ب/١٩٥

وفي رواية عمرو بن عبدالله بن أبي طلحة عند مسلم وأبي يعلى قال: رأى أبو طلحة رسول الله ﷺ مضطجعاً ينقلب ظهره لبطن. وفي رواية يعقوب بن عبدالله بن أبي طلحة عند مسلم أيضاً عن أنس قال: جئت رسول الله ﷺ فوجدته جالساً مع أصحابه يحدثهم وقد

(١) في ط: ينتفخ، وهذه الرواية عند الإمام أحمد.

(٢) رواه الإمام أحمد.

(٣) زيادة في ش.

(٤) قال الشارح: وهو مخالف للروايات السابقة واللاحقة. وهذا يؤيد تعدد الحادثة، وإليه أوماً الحافظ ابن حجر وإن لم يفصح به ا.هـ مختصراً [م].

عصب بطنه بعصابة، فسألت بعض أصحابه فقال من الجوع، فذهبت إلى أبي طلحة فأخبرته، فدخل على أم سليم فقال: هل من شيء؟^(١).

وفي رواية محمد بن كعب عن أنس عند أبي نعيم قال: جاء أبو طلحة إلى أم سليم فقال: أعينك شيء؟^(٢) فإني مررت على النبي ﷺ وهو يقرئ أصحاب الصفة سورة النساء وقد ربط على بطنه حجراً.

وعن أبي هريرة قال: لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقال عمر: يا رسول الله ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة، فقال: نعم، فدعا بنطع فبسط، ثم دعا بفضل أزوادهم فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع شيء يسير، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة ثم قال: خذوا في أوعيتكم، فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملئوه. قال: فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة فقال رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقي الله بهما عبد غير شاك فيحجز عن الجنة. رواه مسلم.

وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ عروساً بزيب، فعمدت أمي أم سليم إلى تمر وسمن وأقط فصنعت حيساً، فجعلته في تور، فقالت: يا أنس اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ فقل: بعثت بهذا إليك أمي، وهي تقرئك السلام، فقال رسول الله ﷺ: ضعه، ثم قال: اذهب فادع لي فلاناً وفلاناً، رجالاً سباهم، وادع لي من لقيت، فدعوت من سمى ومن لقيت، فرجعت فإذا البيت غاص بأهله، قيل لأنس: عدد كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمائة، فرأيت النبي ﷺ وضع يده

(١) الروايتان عند مسلم، كتاب الأشربة رقم ١٤٢.

(٢) سقط هذا القسم من الرواية من (ب، د).

على تلك الحيسة وتكلم بما شاء الله، ثم جعل يدعو عشرة عشرة يأكلون منه، ويقول لهم: اذكروا اسم الله، وليأكل كل رجل مما يليه، قال: فأكلوا حتى شبعوا، فخرجت طائفة [بعد طائفة^(١)] حتى أكلوا كلهم، قال لي: يا أنس ارفع فرفعت، فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت. رواه البخاري ومسلم.

وعن جابر أن أم مالك كانت تهدي للنبي ﷺ في عكة لها سمناً، فيأتيها بنوها فيسألونها الأدم، وليس عندهم شيء، فتعمد إلى الذي كانت تهدي فيه للنبي ﷺ فتجد فيه سمناً، فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرت، فأتت النبي ﷺ فقال: أعصرتيها؟ قالت: نعم، قال: لو تركتها ما زال قائماً. رواه مسلم^(٢).

وعنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ يستطعمه، فأطعمه شطر وسق من شعير، فما زال يأكل منه وامرأته وضيغه حتى كاله، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: لو لم تكله لأكلتم منه ولقام بكم. رواه مسلم أيضاً.

والحكمة في ذهاب بركة السمن حين عصرت العكة، وإعدام [بركة^(٣)] الشعير حين كاله، أن عصرها وكيهه مضاد للتسليم على رزق الله تعالى، ويتضمن التدبير والأخذ بالحوال والقوة، وتكلف الإحاطة بأسرار حكم الله تعالى وفضله، فعوقب فاعله بزواله، قاله النووي.

وعن أبي العلاء سمرة بن جندب قال: كنا مع النبي ﷺ

(١) زيادة في (أ، ط).

(٢) رواه مسلم في كتاب الفضائل برقم ٨.

(٣) في (ب، ط).

١/١٩٦ نداول^(١) من قصعة من غدوة/ حتى الليل، يقوم عشرة ويقعد عشرة، قلنا: فما كانت تمد؟ قال: من أي شيء تعجب، ما كانت تمد إلا من هاهنا، وأشار بيده إلى السماء، رواه الترمذي والدارمي.

وعنه: أتى النبي ﷺ بقصعة فيها لحم، فتعاقبوا من غدوة حتى الليل، يقوم قوم ويقعد آخرون، فقال رجل لسمرة: هل كانت تمد؟ قال: ما كانت تمد إلا من هاهنا، وأشار بيده إلى السماء. رواه الدارمي وابن أبي شيبة والترمذي والبيهقي والحاكم وصححوه، وأبو نعيم.

وفي حديث عبد الرحمن بن أبي بكر: كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة، وذكر الحديث أنه عجن صاع، وصنعت شاة فشوي سواد بطنها، قال: وأيم الله، ما من الثلاثين ومائة إلا وقد حزَّ له حزة من سواد بطنها، ثم جعل منها قصعتين فأكلنا أجمعون وفضل في القصعتين فحملته على البعير. رواه البخاري^(٢).

وعن أبي هريرة قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أدعو أهل الصفة، فتتبعهم حتى جمعتهم، فوضعت بين أيدينا صحيفة فأكلنا ما شئنا وفرغنا، وهي مثلها حين وضعت إلا أن فيها أثر الأصابع. رواه ابن أبي شيبة والطبراني وأبو نعيم.

وعن علي بن أبي طالب: جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وكانوا أربعين، منهم قوم يأكلون الجذعة ويشربون الفرق^(٣)، فصنع

(١) في ب: نتناول.

(٢) ورواه مسلم.

(٣) الجذعة من الضأن ما أتى عليه ثمانية أشهر، والفرق: إناء يسع اثني عشر صاعاً.

لهم مدأ من طعام، فأكلوا حتى شبعوا، وبقي كما هو، ثم دعا بعس^(١) فشربوا حتى رووا، وبقي كأنه لم يشرب منه، رواه في الشفاء^(٢).

[معجزات إبراء ذوي العاهات]

ومن ذلك: إبراء ذوي العاهات، وإحياء الموتى، وكلامهم، وكلام الصبيان وشهادتهم له ﷺ بالنبوة.

روى البيهقي في الدلائل: أنه ﷺ دعا رجلاً إلى الإسلام، فقال: لا أومن بك حتى تحمي لي ابنتي، فقال ﷺ: أرني قبرها، فأراه إياه، فقال ﷺ: يا فلانة، فقالت: لبيك وسعديك. فقال ﷺ: أتحمين أن ترجعي^(٣) إلى الدنيا؟ فقالت: لا والله يا رسول الله، إني وجدت الله خيراً لي من أبوي، ورأيت الآخرة خيراً لي من الدنيا^(٤).

وروى الطبري^(٥) عن عائشة أن النبي ﷺ نزل الحجون كثيراً حزينا، فأقام به ما شاء الله عز وجل ثم رجع مسروراً قال: سألت ربي عز وجل فأحيا لي أُمِّي فأمنت بي ثم ردها.

وكذا روي من حديث عائشة أيضاً إحياء أبويه ﷺ حتى آمنا به، أوردته السهيلي وكذا الخطيب في السابق واللاحق، لكن قال

(١) قلدح من خشب يروى الثلاثة أو الأربعة.

(٢) ذكره في الشفاء بلا إسناد، وقد أخرجه أحمد والبيهقي بسند جيد مطولاً.

(٣) كذا في ش، وفي النسخ: أن ترجعين، وهي لغة كما قال الشارح.

(٤) أورد هذه القصة في «الشفاء» ولم يذكر نخرجه السيوطي من رواه.

(٥) في (ب، ط) الطبراني.

السهيلي: إن في إسناده مجاهيل، وقال ابن كثير: إنه منكر جداً، وتقدم البحث في ذلك في أوائل المقصد الأول.

وعن أنس أن شاباً من الأنصار توفي وله أم عجوز عمياء، فسجيناه وعزيناها، فقالت: مات ابني؟ قلنا: نعم، قالت: اللهم إن كنت تعلم أني هاجرت إليك وإلى نبيك رجاء أن تعينني على كل شدة فلا تحملن علي هذه المصيبة، فما برحنا أن كشف الثوب عن وجهه فطعم وطعمنا. رواه ابن عدي وابن أبي الدنيا والبيهقي وأبو نعيم.

وعن النعمان بن بشير قال: كان زيد بن خارجة من سراوات^(١) الأنصار، فبينما هو يمشي في طريق من طرق المدينة بين الظهر والعصر إذ خرَّ فتوفي، فأعلمت به الأنصار، فأتوه فاحتملوه إلى بيته فسجوه كساء وبردين، وفي البيت نساء من نساء الأنصار يبكين عليه، ورجال من رجالهم، فمكث على حاله حتى إذا كان بين المغرب والعشاء الآخرة سمعوا صوت قائل يقول: أنصتوا أنصتوا، فنظروا فإذا الصوت من تحت الثياب، فحسروا عن وجهه وصدرة، فإذا القائل يقول على لسانه: محمد رسول الله النبي الأمي خاتم النبيين، لا نبي بعده، كان ذلك في الكتاب الأول، ثم قال: صدق صدق، ثم قال: هذا رسول الله، السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. رواه ابن أبي الدنيا في كتاب من عاش بعد الموت.

ب/١٩٦

وعن سعيد بن المسيب أن رجلاً من الأنصار توفي، فلما كفن أتاه القوم يحملونه تكلم فقال: محمد رسول الله، أخرجته أبو بكر بن الضحاك.

وأخرج أبو نعيم: أن جابراً ذبح شاة وطبخها، وثرده في الجفنة،

(١) أي أشرف.

وأتى به رسول الله ﷺ فأكل القوم، وكان ﷺ يقول لهم: كلوا ولا تكسروا عظماً، ثم إنه ﷺ جمع العظام ووضع يده عليها ثم تكلم بكلام فإذا بالشاة قد قامت تنفض أذنيها، كذا رواه والله أعلم؟!

وعن معرض بن معيقب اليباني قال: حججت حجة الوداع، فدخلت داراً بمكة، فرأيت فيها رسول الله ﷺ، ورأيت منه عجباً، جاء رجل من أهل اليمامة بسلام يوم ولد، فقال له رسول الله ﷺ: يا غلام، من أنا؟ قال: أنت رسول الله، قال: صدقت بارك الله فيك، ثم إن الغلام لم يتكلم بعد ذلك حتى شب، فكنا نسميه مبارك اليمامة. رواه البيهقي من حديث معرض^(١) - بالضاد المعجمة - .

وعن فهد بن عطية، أن النبي ﷺ أتى بصبي قد شب لم يتكلم قط فقال له: من أنا؟ قال: أنت رسول الله، رواه البيهقي^(٢) .

وعن ابن عباس قال: إن امرأة جاءت بابن لها إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن ابني به جنون، وإنه ليأخذه عند غدائنا وعشائنا، فمسح رسول الله ﷺ صدره فثع ثعة وخرج من جوفه مثل الجرو الأسود يسعى. رواه الدارمي^(٣) .

وقوله: «ثع» يعني قاء.

وأصيب^(٤) يوم أحد عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على

(١) قال ابن دحية وغيره: إنه موضوع. قال في الإصابة: معرض وشيخه مجهولان.

(٢) رواه البيهقي مرسلًا، قال الشارح: عجب للمصنف يعزوه له ويتبع عياضاً في قوله فهد أو فهد، مع أنه لم يعزه لأحد.

(٣) وكذا أحمد وابن أبي شيبه والبيهقي.

(٤) كذا في ش، وفي النسخ: أصيب.

وجنته، فأتى بها إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي امرأة أحبها أخشى إن رأيتني تقدرني^(١) فأخذها رسول الله ﷺ بيده وردها إلى موضعها وقال: [بسم الله]^(٢) اللهم اكسه جلالاً، فكانت أحسن عينيه وأحدهما نظراً، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى.

وقد وفد على عمر بن عبد العزيز رجل من ذريته فسأله عمر: من أنت؟ فقال:

أبونا الذي سألت على الخد عينه فردت بكف المصطفى أيارد
فعدت كما كانت لأول أمرها فيا حسن ما عين ويا حسن ما خد
فوصله عمر وأحسن جائزته.

قال السهيلي: ورواه محمد بن أبي عثمان [عن عمار بن نصر]^(٣)
عن مالك بن أنس عن محمد بن عبد الله بن أبي صعصعة عن أبيه عن
أبي سعيد عن أخيه قتادة بن النعمان قال: أصيبت عيناي يوم أحد
فسقطنا على وجنتي، فأتيت بهما النبي ﷺ فأعادهما مكانهما وبصق فيهما
فعدتا تبرقان، قال الدارقطني: هذا حديث غريب تفرد به عمار بن
نصر وهو ثقة، ورواه الدارقطني عن إبراهيم الحربي عن عمار بن
نصر.

وأخرج الطبراني وأبو نعيم عن قتادة قال: كنت يوم أحد أتقي
السهم بوجهي دون وجه رسول الله ﷺ، فكان آخرها سهماً ندرت^(٤)

(١) أي تكرهني.

(٢) زيادة في ط.

(٣) في (ط، ش).

(٤) أي سقطت.

منه حدقتي فأخذتها بيدي وسعيت إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآها في كفي دمعت عيناه فقال: اللهم قِ قتادة كما وقى وجه نبيك بوجهه، فاجعلها أحسن عينيه وأحدّهما نظراً.

وفي البخاري في غزوة خيبر أنه ﷺ قال: أين علي بن أبي طالب فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، قال: فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع^(١).

وعند الطبراني من حديث علي قال: فما رمدت ولا صدعت منذ دفع إلي رسول الله ﷺ الراية يوم خيبر.

وفي رواية مسلم من طريق إياس بن سلمة عن أبيه قال: فأرسلني النبي ﷺ إلى علي فجئت به أقوده أرمد، فبصق في عينيه فبرأ.

وعند الحاكم / من حديث علي قال: فوضع ﷺ رأسي في حجره ١/١٩٧ ثم بصق في راحته فذلك بها عيني. وعند الطبراني: فما اشتكيتها حتى الساعة، ودعا لي ﷺ فقال: اللهم أذهب عنه الحر والقر، قال: فما اشتكيتها حتى يومي هذا.

وأصيب سلمة يوم خيبر أيضاً بضربة في ساقه، فنفت فيها ﷺ ثلاث نفثات فما اشتكاها قط. رواه البخاري.

ونفت في عيني فديك وكانتا مبيضتين لا يبصر بهما شيئاً، وكان وقع على بيض حية، فكان يدخل الخيط في الإبرة وإنه لابن ثمانين سنة وإن عينيه لمبيضتان، رواه ابن أبي شيبة والبغوي والبيهقي والطبراني وأبو نعيم.

(١) رواه البخاري برقم (٤٢١٠)

الفصل الثاني

فيما خصه الله تعالى به من المعجزات
وشرفه به على سائر الأنبياء من الكرامات
والآيات البينات

[فضله ﷺ]

اعلم نور الله قلبي وقلبك، وقدس^(١) سري وسرك، أن الله تعالى قد خص نبينا ﷺ بأشياء لم يعطها لنبي قبله، وما خص نبي بشيء إلا وكان لسيدنا محمد ﷺ مثله، فإنه أوتي جوامع الكلم، وكان نبياً وآدم بين الروح والجسد، وغيره من الأنبياء لم يكن نبياً إلا في حال نبوته وزمان رسالته.

ولما أعطي هذه المنزلة علمنا أنه ﷺ الممد لكل إنسان كامل مبعوث^(٢) ويرحم الله الأديب شرف الدين الأبوصيري فلقد أحسن حيث قال:

وكل أي أتى الرسل الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهم
فإنه شمس فضل هم كواكبها يظهرن أنوارها للناس في الظلم

(١) أي طهر.

(٢) الممد: اسم فاعل من أمد، وهذا التعبير فيه إشكال كبير، فالممد هو الله تعالى.

قال العلامة ابن مرزوق: يعني أن كل معجزة أتى بها كل واحد من الرسل فإنما اتصلت بكل واحد منهم من نور محمد ﷺ وما أحسن قوله: «فإنما اتصلت من نوره بهم» فإنه يعطي أن نوره ﷺ لم يزل قائماً به ولم ينقص منه شيء، ولو قال: فإنما هي من نوره لتوهم أنه وزع عليهم وقد لا يبقى له منه شيء. وإنما كانت آيات كل واحد من نوره ﷺ لأنه شمس فضل هم كواكب تلك الشمس يظهرن - أي تلك الكواكب - أنوار تلك الشمس للناس في الظلم. فالكواكب ليست مضيئة بالذات وإنما هي مستمدة من الشمس فهي عند غيبة الشمس تظهر نور الشمس. فكذلك الأنبياء قبل وجوده ﷺ كانوا يظهرون فضله فجميع ما ظهر على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام سواه من الأنوار فإنما هو من نوره الفائض ومدده الواسع من غير أن ينقص منه شيء.

وأول ما ظهر ذلك في آدم عليه السلام، حيث جعله الله خليفة وأمهه بالأسماء كلها من مقام جوامع الكلم التي لمحمد ﷺ فظهر بعلم الأسماء كلها على الملائكة القائلين: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾^(١)، ثم توالى الخلائف في الأرض إلى أن وصل إلى زمان وجود صورة جسم نبينا ﷺ الشريف لإظهار حكم منزلته، فلما برز كان كالشمس اندرج في نوره كل نور، وانطوى تحت منشور آياته كل آية لغيره من الأنبياء، ودخلت الرسائل كلها في صلب نبوته، والنبوات كلها تحت لواء رسالته، فلم يعط أحد منهم كرامة أو فضيلة إلا وقد أعطي ﷺ مثلها.

(١) سورة البقرة، الآية (٣٠).

[مقارنة مع الأنبياء في الفضائل]

● فأدم عليه الصلاة والسلام^(١) أعطي أن الله تعالى خلقه بيده، فأعطي سيدنا محمد ﷺ شرح صدره، وتولى الله تعالى شرح صدره بنفسه، وخلق فيه الإيمان والحكمة، وهو الخلق النبوي، فتولى من آدم الخلق الوجودي ومن سيدنا محمد ﷺ الخلق النبوي، مع أن المقصود - كما مر - من خلق آدم خلق نبينا في صلبه، فسيدنا محمد ﷺ المقصود وآدم الوسيلة، والمقصود سابق على الوسيلة.

وَأما سجود الملائكة لآدم، فقال فخر الدين الرازي / في تفسيره: إن الملائكة أمروا بالسجود لآدم لأجل أن نور محمد ﷺ كان في جبهته^(٢)، والله در القائل:

تجلت جل الله في وجه آدم فصلى له الأملاك حين توسلوا^(٣)

وعن أبي عثمان الواعظ، فيما حكاه الفاكهاني قال: سمعت الإمام سهل بن محمد يقول: هذا التشريف الذي شرف الله تعالى به محمداً ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾^(٤) الآية أتم وأجمع من تشريف آدم عليه السلام بأمر الملائكة له بالسجود، لأنه لا يجوز أن يكون الله مع الملائكة في ذلك التشريف، فتشريف يصدر عنه

(١) قال الشارح: ولما ذكر أن الله جمع له ﷺ خصائص الأنبياء وزاده عليهم، فصل بعض ذلك: وهو - في غالبه - تابع لابن المنير في معراجه.

(٢) هذا القول يحتاج إلى دليل [المحقق].

(٣) في ش: توسل، وفي (ب، د): توصل.

(٤) سورة الأحزاب، الآية ٥٦.

تعالى وعن الملائكة والمؤمنين أبلغ من تشریف تختص به الملائكة،
انتهى .

قال بعضهم: وأما تعليم آدم أسماء كل شيء، فأخرج الديلمي
في مسند الفردوس من حديث أبي رافع قال: قال رسول الله ﷺ:
«مثلت لي أمتي في الماء والطين، وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم
الأسماء كلها». فكما أن آدم علم أسماء العلوم كلها كذلك نبينا ﷺ ،
وزاد عليه - واصل الله صلاته وسلامه عليه - بعلم ذواتها. والله در
الأبوصيري حيث قال:

لك ذات العلوم من عالم الغيب ومنها لأدم الأسماء
ولا ريب أن المسميات أعلى رتبة من الأسماء، لأن الأسماء يؤق
بها لتبين المسميات، فهي المقصودة بالذات، وإليه الإيماء بقوله: «ذات
العلوم»، والأسماء مقصودة لغيرها فهي دونها، ففضل العالم بحسب
فضل معلومه.

● وأما إدريس عليه السلام، فرفعه الله مكاناً علياً، فأعطي
سيدنا محمد ﷺ المعراج، ورفع إلى مكان لم يرفع إليه غيره.

● وأما نوح عليه السلام فنجاه الله تعالى ومن آمن معه من
الغرق ونجاه من الخسف، فأعطي سيدنا محمد ﷺ أنه لم تهلك أمته
بعذاب من السماء. قال الله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت
فيهم﴾ (١).

وأما قول الفخر الرازي في تفسيره: «أكرم الله نوحاً بأن أمسك

(١) سورة الأنفال، الآية ٣٣

سفينة على الماء ، وفعل بمحمد^(١) أعظم منه . روي أنه ﷺ كان على شط ماء وقعد عكرمة بن أبي جهل فقال: إن كنت صادقاً فادع ذلك الحجر الذي في الجانب الآخر فليسبح ولا يغرق، فأشار إليه ﷺ فانقلع الحجر من مكانه وسبح حتى صار بين يدي رسول الله ﷺ وشهد له بالرسالة، فقال له النبي ﷺ: يكفيك هذا؟ فقال: حتى يرجع إلى مكانه». فلم أره لغيره والله أعلم بحاله^(٢).

● وأما إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فكانت عليه نار نمرود برداً وسلاماً، فأعطي سيدنا محمد ﷺ نظير ذلك، إطفاء نار الحرب عنه ﷺ وناهيك بنار حطبها السيوف ووهجها الحتوف وموقدها الحسد ومطلبها الروح والجسد، قال الله تعالى: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله﴾^(٣) فكم أرادوا أن يطفئوا النور بالنار، وأبي الجبار إلا أن يتم نوره وأن يحمد شرورهم ويحمد لمحمد ﷺ سروره وظهوره.

ويذكر أنه ﷺ مر ليلة المعراج على بحر النار الذي دون سماء الدنيا مع سلامته منه، كما روي مما رأيت في بعض الكتب^(٤).

وروى النسائي أن محمد بن حاطب قال: كنت طفلاً فانصب القدر علي واحترق جلدي كله، فحملني أبي إلى رسول الله ﷺ فتفل

(١) في ش: وفضل محمد.

(٢) عكرمة من مسلمة الفتح، وهذا الحديث لا ينطبق على ما عرف من حياة عكرمة وإسلامه، يضاف إلى ذلك أنه قول بلا سند. [المحقق].

(٣) سورة المائدة، الآية ٦٤.

(٤) قال الشارح: الله أعلم بصحته، وأقول ليت المصنف نزه كتابه عن مثل ذلك [المحقق].

ﷺ في جلدي ومسح بيده على المحترق وقال: أذهب الباس رب الناس، فصرت صحيحاً لا بأس بي.

وأما ما أعطيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام من مقام الخلة فقد أعطيه نبينا ﷺ، وزاد بمقام المحبة، وقد روي في حديث الشفاعة أن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام إذا قيل له: اتخذك الله خليلاً فاشفع لنا قال: «إنما كنت خليلاً/ من وراء وراء»^(١) اذهبوا إلى غيري إلى أن تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فيقول: «أنا لها، أنا لها» وهذا يدل على أن نبينا ﷺ كان خليلاً مع رفع الحجاب وكشف الغطاء ولو كان خليلاً من وراء وراء لاعتذر كما اعتذر إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وفيه تنبيه ظاهر على أنه ﷺ فاز برؤية الحق سبحانه وكشف له الغطاء حتى رأى الحق بعيني رأسه، كما سيأتي البحث في ذلك إن شاء الله تعالى في المقصد الخامس.

والمخلص من هذا: أن النبي ﷺ نال درجة الخلة التي اشتهرت لإبراهيم عليه الصلاة والسلام على وجه نطق إبراهيم بأن نصيب سيدنا محمد ﷺ منه الأعلى، بمفهوم قوله عن نفسه: «إنما كنت خليلاً من وراء وراء فلم يشفع، ففيه دليل على أنه إنما يشفع من كان خليلاً لا من وراء وراء بل مع الكشف والعيان وقرب المكانة من حظيرة القدس، لا المكان، وذلك مقام محمد ﷺ بالدليل والبرهان.

وما أعطيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، انفراده في أهل الأرض بعبادة الله تعالى وتوحيده، والانتصاب للأصنام بالكسر والقسر، أعطي سيدنا ﷺ كسرهما بأسرها بمحضر من أولي نصرها

(١) ورد هذا اللفظ عند مسلم، كتاب الإيمان رقم ٣٢٩، وحديث الشفاعة في البخاري برقم (٧٥١٠).

بقضيب ليس مما يكسر إلا بقوة^(١) ربانية ومادة إلهية، اجتزأ فيها بالأنفاس عن الفاس، وما عول على المعول، ولا عرض في القول ولا تمرض من الصول بل قال جهراً بغير سر: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾^(٢).

ومما أعطيه الخليل عليه الصلاة والسلام بناء البيت الحرام، ولا خفاء أن البيت جسد وروحه الحجر الأسود بل هو سويداء القلب، بل جاء «أنه يمين الرب»^(٣) كناية عن استلامه كما تستلم الأيمان عند عقد العهود والأيمان، وقد أعطي سيدنا محمد ﷺ أن قریشاً لما بنت البيت بعد تهدمه ولم يبق إلا وضع الحجر تنافسوا على الفخر الفخم والمجد الضخم، ثم اتفقوا على أن يحكموا أول داخل، فاتفق دخول سيدنا محمد ﷺ فقالوا: هذا الأمين، فحكموه في ذلك فأمر بسط ثوب ووضع الحجر فيه ثم قال: يرفع كل بطن بطرف، فرفعه جميعاً، ثم أخذه سيدنا محمد ﷺ فوضعه في موضعه، فادخر الله تعالى له ذلك المقام ليكون منقبة له على مدى الأيام.

● وأما ما أعطيه موسى عليه الصلاة والسلام من قلب العصا حية غير ناطقة، فأعطي سيدنا محمد ﷺ حين الجذع، وقد مرت قصته.

وحكى الإمام الرازي - في تفسيره - وغيره: أنه لما أراد أبو جهل أن يرميه ﷺ بالحجر رأى على كتفيه ثعبانين فانصرف مرعوباً.

(١) في (ب، ط): بقدره.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٨١.

(٣) روى الديلمي عن أنس مرفوعاً: الحجر يمين الله فمن مسحه فقد بايع الله.

وأما ما أعطيه موسى عليه السلام أيضاً من اليد البيضاء، وكان بياضها يغطي البصر، فأعطي سيدنا محمد ﷺ أنه لم يزل نوراً ينتقل في أصلاب الآباء وبطون الأمهات من لدن آدم إلى أن انتقل إلى عبد الله أبيه. وأعطى ﷺ قتادة بن النعمان وقد صلى معه العشاء في ليلة مظلمة مطيرة عرجونا^(١) وقال: انطلق به فإنه سيضيء لك من بين يديك عشراً، ومن خلفك عشراً، فإذا دخلت بيتك فسترى سواداً فاضربه حتى يخرج فإنه شيطان، فانطلق فأضاء له العرجون حتى دخل بيته ووجد السواد وضربه حتى خرج. رواه أبو نعيم.

وأخرج البيهقي، وصححه الحاكم عن أنس قال: كان عباد بن بشر وأسيد بن حضير عند رسول الله ﷺ في حاجة: حتى ذهب من الليل ساعة، وهي ليلة شديدة الظلمة، ثم خرجا ويبد كل واحد منهما عصا، فأضاءت لهما عصا أحدهما، فمشيا في ضوئها، حتى إذا فترقت بهم الطريق أضاءت للآخر عصاه، فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ هديه، ورواه البخاري بنحوه في الصحيح^(٢).

وأخرج البخاري في تاريخه والبيهقي وأبو نعيم عن حمزة الأسلمي قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر ففترقنا في ليلة ظلماء، فأضاءت أصابعي حتى جمعوا عليها ظهرهم وما هلك منهم^(٣) وإن أصابعي لتنير.

وما / أعطيه موسى عليه السلام أيضاً انفلاق البحر له، أعطي / ١٩٨
 نبينا محمد ﷺ انشقاق القمر - كما مر - فموسى تصرف في عالم الأرض

(١) أصل العذق الذي يعوج وتقطع منه الشرايح.

(٢) رواه البخاري برقم ٤٦٥.

(٣) أي: وما أشرف على الهلاك منهم.

وسيدنا محمد ﷺ تصرف في عالم السماء، والفرق بينها واضح، قاله ابن المنير.

وذكر ابن حبيب أن بين السماء والأرض بحراً يسمى المكفوف، يكون بحر الأرض بالنسبة إليه كالقطرة من البحر المحيط، قال (١): فعلى هذا يكون ذلك البحر انفلق لنبينا ﷺ حتى جاوزه - يعني ليلة الإسراء - وهو أعظم من انفلاق البحر لموسى عليه الصلاة والسلام (٢).

ومما أعطيه موسى عليه السلام إجابة دعائه، أعطي نبينا محمد ﷺ من ذلك ما لا يحصى.

ومما أعطيه موسى عليه السلام تفجير الماء له من الحجاره، أعطي سيدنا محمد ﷺ أن الماء تفجر من بين أصابعه، وهذا أبلغ لأن الحجر من جنس الأرض التي ينبع منها الماء، ولم تجر العادة بنبع الماء من اللحم، ويرحم الله القائل:

وكل معجزة للرسول قد سلفت وافى بأعجب منها عند إظهار
فما العصا حية تسعى بأعجب من شكوى البعير ولا من مشي أشجار
ولا انفجار معين (٣) الماء من حجر أشد من سلسل من كفه جار

ومما أعطيه موسى عليه السلام الكلام، أعطي سيدنا محمد ﷺ

(١) أي ابن المنير.

(٢) هذا البحر - المكفوف - لم يذكره رواة الصحيح لمعجزة المعراج، وذكر ذلك بغير دليل يخالف المنهج العلمي الذي اختطه المنهج الإسلامي. والذي حدا ببعضهم إلى هذا التمثل هو إيجاد معجزة لنبينا محمد ﷺ بإزاء كل معجزة لنبي سابق. وهو منهج خاطئ، فالمعجزات أمر خارق للعادة لا يصح إثباته إلا بالحديث الصحيح. [المحقق].

(٣) في ط: عين.

مثله ليلة الإسراء وزيادة الدنو [والتدلي] (١)، وأيضاً كان مقام المناجاة في حق نبينا ﷺ فوق السهوات العلى وسدرة المنتهى، والمستوى (٢)، وحجب النور (٣) والررفرف (٤)، ومقام المناجاة لموسى عليه السلام طور سيناء.

● وأما ما أعطيه هارون عليه الصلاة والسلام من فصاحة اللسان، فقد كان نبينا ﷺ من الفصاحة والبلاغة بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل. ولقد قال له بعض أصحابه: ما رأينا الذي هو أفصح منك فقال: وما يعني وإنما نزل القرآن بلساني، لسان عربي مبين.

وقد كانت فصاحة هارون غايتها في العبرانية، والعربية أفصح منها. وهل كانت فصاحة هارون معجزة أم لا؟ قال ابن المنير: الظاهر أنها لم تكن معجزة، ولكن فضيلة، ولم يتحد نبى من الأنبياء بالفصاحة إلا نبينا محمد ﷺ، لأن هذه الخصوصية لا تكون لغير الكتاب العزيز، وهل فصاحته ﷺ في جوامع الكلم التي ليست من التلاوة ولكنها معدودة من السنة، هل تحدى بها أم لا؟ فظاهر قوله ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم» أنه من التحدث بنعمة الله عليه وخصائصه، ولا خلاف أنها باعتبار ما اشتملت عليه من الإخبار بالمغيبات ونحوها معجزة.

● وأما ما أعطيه يوسف عليه الصلاة والسلام من شطر الحسن، فأعطي نبينا ﷺ الحسن كله، وستأتي الإشارة إلى ذلك إن شاء الله تعالى في مقصد الإسراء. ومن تأمل ما نقلته في صفته تبين له

(١) في (ب، ش).

(٢) المستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام.

(٣) قال الشارح: بالنسبة للمخلوق.

(٤) أي البساط.

من ذلك التفصيل التفضيل على كل مشهور بالحسن في كل جيل .

وأما ما أعطيه يوسف عليه السلام أيضاً من تعبير الرؤيا، فالذي نقل عنه من ذلك ثلاث منامات، أحدها: حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر، والثاني: منام صاحبي السجن، والثالث: منام الملك، وقد أعطي نبينا ﷺ من ذلك ما لا يدخله الحصر، ومن تصفح الأخبار وتتبع الآثار/ وجد من ذلك العجب العجاب، وستأتي نبذة من ذلك إن شاء الله تعالى .

● وأما ما أعطيه داود عليه الصلاة والسلام من تليين الحديد له، فكان إذا مسح الحديد لان، فأعطي نبينا ﷺ أن العود اليابس اخضر في يده وأورق، ومسح ﷺ شاة أم معبدة الجرباء، فبرثت ودرت .

● وأما ما أعطيه سليمان عليه الصلاة والسلام من كلام الطير وتسخير الشياطين والريح، والملك الذي لم يعطه أحد من بعده، فقد أعطي سيدنا محمد ﷺ مثل ذلك وزيادة .

أما كلام الطير والوحش فنبينا ﷺ كلمه الحجر، وسبح في كفه الحصى، وهو جماد، وكلمه ذراع الشاة المسمومة - كما تقدم في غزوة خيبر-، وكذلك كلمه الظبي وشكا إليه البعير- كما مر- . وروي أن طيراً فجع بولده فجعل يرفرف على رأسه ويكلمه فيقول: أيكم فجع هذا بولده، فقال رجل أنا فقال: اردد ولده. ذكره الرازي ورواه أبو داود بلفظ: كنا مع النبي ﷺ في سفر فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش - أي تدنو- من الأرض، فجاء النبي ﷺ فقال: من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها، الحديث. وقصة كلام الذئب مشهورة^(١).

(١) سبق تخريج ذلك والحديث عنه [المحقق].

وأما الريح التي كانت غدوها شهر ورواحها شهر، تحمله أين أراد من أقطار الأرض، فقد أعطي سيدنا محمد ﷺ البراق الذي هو أسرع من الريح، بل أسرع من البرق الخاطف، فحمله من الفرش إلى العرش في ساعة زمانية، وأقل مسافة ذلك سبعة آلاف سنة، وتلك مسافة السماوات، وأما إلى المستوى وإلى الرفرف فذلك ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وأيضاً: فالريح سخرت لسليمان لتحمله إلى نواحي الأرض، ونبينا ﷺ زويت له الأرض - أي جمعت - حتى رأى مشارقها ومغاربها، وفرق بين من يسعى إلى الأرض، وبين من تسعى له الأرض.

وأما ما أعطيه من تسخير الشياطين فقد روي أن أبا الشياطين إبليس اعترض سيدنا محمد ﷺ وهو في الصلاة، فأمكنه الله منه وربطه بسارية من سواري المسجد^(١). وخير مما أوتيته سليمان من ذلك إيمان الجن بمحمد ﷺ، فسليمان استخدمهم ومحمد استسلمهم.

وأما عد الجن من جنود سليمان في قوله تعالى: ﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن﴾^(٢) فخير منه عد الملائكة، جبريل ومن معه من جملة أجناده ﷺ، باعتبار الجهاد وباعتبار تكثير السواد على طريقة الأجناد.

وأما عد الطير من جملة أجناده، فأعجب منه حمامة الغار

(١) الحديث في هذا المعنى في الصحيحين ولكن لم يصرحاً بذكر إبليس بل الظاهر أن المراد غير إبليس ولفظ البخاري قال ﷺ: (إن عفريتاً من الجن تفلت علي البارحة ليقطع علي صلاتي فأمكنني الله منه، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخي سليمان «رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي») رقم الحديث ٤٦١ وهو عند مسلم في كتاب المساجد برقم ٣٩. [المحقق].

(٢) سورة النمل، الآية ١٧.

وتوكيرها في الساعة الواحدة وحماتها له من عدوه، والغرض من استكثار الجند إنما هو الحماية، وقد حصلت من أعظم شيء بأيسر شيء.

وأما ما أعطيه من الملك، فنبينا ﷺ خير بين أن يكون نبياً ملكاً ونبياً عبداً، فاختار ﷺ أن يكون نبياً عبداً. والله در القائل:

يا خير عبد على كل الملوك ولي

● وأما ما أعطيه عيسى عليه الصلاة والسلام من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، فأعطي سيدنا محمد ﷺ أنه رد العين إلى مكانها بعدما سقطت فعادت أحسن ما كانت، وفي دلائل البيهقي قصة الرجل الذي قال للنبي ﷺ لا أومن بك حتى تحمي لي ابنتي، وفيه أنه ﷺ أتى قبرها فقال: يا فلانة، فقالت: لبيك وسعديك يا رسول الله، الحديث، وقد مر. وروي أن امرأة معاذ بن عفراء - وكانت برصاء - فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ فمسح عليها بعضا فأذهب الله البرص منها، ذكره الرازي، وأيضاً قد سبح الحصى في كفه ﷺ، وسلم عليه الحجر، وحن لفراقه الجذع، وذلك أبلغ من تكليم الموتى لأن هذا من جنس ما لا يتكلم.

ب/١٩٩ وأما ما أعطيه عيسى أيضاً/ من أنه كان يعرف ما تخفيه الناس في بيوتهم، فقد أعطي نبينا ﷺ من ذلك ما لا يحصى، وسيأتي من ذلك إن شاء الله تعالى ما يكفي ويشفي.

وأما ما أعطيه عيسى أيضاً من رفعه إلى السماء، فقد أعطي نبينا ﷺ ذلك ليلة المعراج، وزاد في الترقي لمزيد الدرجات وسماع المناجاة والحظوة في الحضرة المقدسة بالمشاهدات.

[ما خص به ﷺ]

وبالجمله: فقد خص الله تعالى نبينا ﷺ من خصائص التكريم بما لم يعطه أحداً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد روى جابر عنه ﷺ أنه قال: (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحر وأسود، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل حيث كان، ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة) رواه البخاري. وفي رواية: (وبعثت إلى الناس كافة)^(١).

وزاد البخاري في روايته - في الصلاة - عن محمد بن سنان (من الأنبياء)^(٢).

وعند الإمام أحمد: (أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي، ولا أقوله فخراً) وفيه: (وأعطيت الشفاعة فاخترتها لأمتي، فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً). وإسناده كما قال ابن كثير جيد.

وليس المراد حصر خصائصه ﷺ في هذه الخمس المذكورة. فقد روى مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: (فضلت على الأنبياء بست، أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون) فذكر الخمسة المذكورة في حديث جابر إلا الشفاعة، وزاد خصلتين وهما:

(١) هي في البخاري في كتاب الصلاة.

(٢) هي عند قوله: لم يعطهن أحد «من الأنبياء» قبلي.

أعطيت جوامع الكلم وختم بي النبيون، فتحصل منه ومن حديث جابر سبع خصال.

ولمسلم أيضاً من حديث حذيفة: (فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة) وذكر خصلة الأرض كما تقدم، قال: وذكر خصلة أخرى. وهذه الخصلة المهمة قد بينها ابن خزيمة والنسائي، وهي: وأعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش، يشير إلى ما حطه الله تعالى عن أمته من الإصر وتحميل ما لا طاقة لهم به، ورفع الخطأ والنسيان، فصارت الخصال تسعاً.

ولأحمد من حديث علي أعطيت أربعاً لم يعطهن أحد من أنبياء الله تعالى [قبلي]^(١) أعطيت مفاتيح الأرض، وسميت أحمد، وجعلت أمتي خير الأمم، وذكر خصلة التراب، فصارت الخصال اثني عشرة خصلة.

وعند البزار من وجه آخر عن أبي هريرة رفعه: فضلت على الأنبياء، غفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، وجعلت أمتي خير الأمم، وأعطيت الكوثر، وإن صاحبكم لصاحب لواء الحمد يوم القيامة، تحته آدم فمن دونه. وذكر ثنتين مما تقدم.

وله من حديث ابن عباس رفعه: فضلت على الأنبياء بخصلتين: كان شيطاني كافراً فأعاني الله عليه فأسلم. قال: ونسيت الأخرى.

فينتظم بهذا سبع عشرة خصلة، ويمكن أن يوجد أكثر من ذلك لمن أمعن التبع.

(١) في ش.

وقد ذكر أبو سعيد^(١) النيسابوري في كتاب «شرف المصطفى» أن عدد الذي خص به ﷺ ستون خصلة. وطريق الجمع أن يقال: لعله ﷺ اطلع أولاً على بعض ما اختص له، ثم اطلع على الباقي. ومن لا يرى مفهوم العدد حجة يدفع هذا الإشكال من أصله. وقد ذكر بعض العلماء أنه ﷺ أوتي ثلاثة آلاف معجزة وخصيصة.

[الخلاف في فائدة العلم بالخصائص]

وقد اختلف في العلم بخصائصه ﷺ، فقال الصيمري من الشافعية: منع أبو علي بن خيران الكلام فيها، لأنه أمر انقضى فلا معنى للكلام فيه./

١/٢٠٠

وقال إمام الحرمين: قال المحققون ذكر الاختلاف في مسائل الخصائص خبط غير مفيد، فإنه لا يتعلق به حكم ناجز تمس إليه حاجة، وإنما يجري الخلاف فيما لا يوجد بد من إثبات حكم فيه، فإن الأقيسة لا مجال لها، والأحكام الخاصة تتبع فيها النصوص، وما لا نص فيه فالخلاف فيه هجوم على الغيب من غير فائدة.

وقال النووي - في الروضة والتهذيب - بعد نقله هذين الكلامين: وقال سائر الأصحاب لا بأس به، وهو الصحيح، لما فيه من زيادة العلم، فهذا كلام الأصحاب، والصواب الجزم بجواز ذلك، بل استحبابه، ولو قيل وجوبه لم يكن بعيداً، لأنه ربما رأى جاهل بعض الخصائص ثابتاً في الحديث الصحيح فعمل به أخذاً بأصل التأسّي، فوجب بيانها لتعرف، فلا يعمل بها، فأى فائدة أهم من هذه الفائدة، وأما ما يقع في ضمن الخصائص مما لا فائدة فيه اليوم فقليل

(١) في (ب، ط): سعد.

لا تخلو أبواب الفقه عن مثله للتدريب ومعرفة الأدلة، وتحقيق الشيء على ما هو عليه. انتهى كلام النووي.

[مراجع الخصائص]

وقد تتبعت ما شرف الله تعالى به نبينا ﷺ من الخصائص والآيات، وأكرمه به من الفضائل والكرامات من كتب العلماء، كالخصائص لابن سبع، وخصائص الروضة للنووي، ومختصرها للحجازي، وشرح الحاوي لابن الملقن، وشرح البهجة لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، واللفظ المكرم في خصائص النبي ﷺ للشيخ قطب الدين الخيضي، واستفدت منه كثيراً في فصل المعجزات، مع ما رأيته أثناء مطالعتي لفتح الباري، وشرح مسلم للنووي، وشرح تقريب الأسانيد للعراقي وغير ذلك مما يطول ذكره، فتحصل لي من ذلك جملة.

وقد قسمها غير واحد من الأئمة أربعة أقسام.

[القسم الأول: الخصائص من الواجبات]

الأول ما اختص به ﷺ من الواجبات، والحكمة في ذلك زيادة الزلفى والدرجات، فإنه لن يتقرب المتقربون إلى الله تعالى بمثل أداء ما افترض عليهم. قال بعضهم: خص الله تعالى نبيه ﷺ بواجبات عليه لعلمه بأنه أقوم بها منهم، وقيل لي جعل أجره بها أعظم.

● فاختص ﷺ بوجوب الضحى على المذهب، لكن قول عائشة في الصحيح: (ما رأيت رسول الله ﷺ يسبح سبحة الضحى) يدل

على ضعف أنها كانت واجبة عليه . قال الحافظ ابن حجر: ولم يثبت ذلك في خبر صحيح . انتهى . وسيأتي مزيد لذلك إن شاء الله تعالى في ذكر صلاة الضحى في مقصد عباداته ﷺ .

وهل كان الواجب عليه أقل الضحى أو أكثرها، أو أدنى الكمال؟ قال الحجازي: لا نقل فيه، لكن في مسند أحمد: أمرت بركعتي الضحى ولم تؤمروا بهما.

● ومنها الوتر وركعتا الفجر، كما رواه الحاكم في المستدرک وغيره، ولفظ أحمد والطبراني: ثلاث علي فريضة وهن لكم تطوع، الوتر وركعتا الفجر وركعتا الضحى .

قال بعضهم: وقد ثبت أنه ﷺ صلى الوتر على الراحلة . قال: ولو كان واجبا لما جاز فعله على الراحلة .

وتعقب: بأن فعله على الراحلة من الخصائص أيضاً كما سيأتي فيما اختص به ﷺ من المباحات، إن شاء الله تعالى . وأجيب بأنه يحتاج إلى دليل .

وهل كان الواجب عليه أقل الوتر أم أكثره؟ أم أدنى الكمال؟ قال الحجازي: لم أر فيه نقلاً .

● ومنها صلاة الليل، قال تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾^(١) أي فريضة زائدة لك على الصلوات المفروضة، أو فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك، وهذا ما صححه الرافعي ونقله النووي عن الجمهور، ثم قال: وحكى الشيخ أبو حامد أن الشافعي نص على أنه نسخ وجوبه في حقه، كما نسخ في حق غيره .

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٩ .

● ومنها السواك، واستدلوا له بما رواه أبو داود من حديث
٢٠٠/ب عبدالله بن أبي حنظلة بن أبي عامر أن رسول الله ﷺ أمر بالوضوء
عند كل صلاة طاهراً أو غير طاهر، فلما شق عليه ذلك أمر بالسواك
لكل صلاة. وفي إسناده محمد بن إسحاق، وقد رواه بالعنعنة وهو
مدلس.

وحجة من لم يجعله واجباً عليه، ما رواه ابن ماجه في سننه
من حديث أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: ما جاءني جبريل إلا
أوصاني بالسواك حتى خشيت أن يفرض علي وعلى أمتي. وإسناده
ضعيف. وروى أحمد في مسنده من حديث وائلة بن الأسقع قال قال
رسول الله ﷺ: أمرت بالسواك حتى خشيت أن يكتب علي، وإسناده
حسن. والخصائص لا تثبت إلا بدليل صحيح، قاله في شرح تقريب
الأسانيد.

● ومنها الأضحية، قال الله تعالى: ﴿فصل لربك وانحر﴾^(١)،
وروى الدارقطني والحاكم عن ابن عباس أنه ﷺ قال: ثلاث هن علي
فرائض، وهن لكم تطوع: النحر والوتر وركعتا الفجر.

● ومنها المشاورة، قال الله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾^(٢)،
فظاهره الإيجاب، ويقال إنه استحباب، استمالة للقلوب، ومعناه:
استخراج آرائهم، ونقل البيهقي في «معرفة السنن والآثار» عن
النص^(٣): أن المشورة غير واجبة عليه، كما نبه عليه الحجازي وغيره.
واختلف في المعنى الذي لأجله أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالمشاورة

(١) سورة الكوثر، الآية ٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

(٣) أي نص الشافعي.

مع كمال عقله وجزالة رأيه وتتابع الوحي عليه، ووجوب طاعته على أمته.

فقال بعضهم: هو خاص في المعنى، وإن كان عاماً في اللفظ، أي: وشاورهم فيما ليس عندك من الله فيه عهد، يدل عليه قراءة ابن عباس: وشاورهم في بعض الأمر.

وقال الكلبي: يعني ناظرهم في لقاء العدو، ومكائد الحرب عند الغزو.

وقال قتادة ومقاتل: كانت سادات العرب إذا لم تشاور في الأمر شق عليهم، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يشاورهم، فإن ذلك أعطف لهم وأذهب لأضغانهم، وأطيب لنفوسهم.

وقال الحسن: قد علم الله أن ما به إليهم حاجة، ولكنه أراد أن يستن به من بعده.

وحكى القاضي أبو يعلى، في الذي أمر بالمشاورة فيه قولين: أحدهما: في أمر الدنيا خاصة، والثاني: في الدين والدنيا وهو الأصح، قاله المعافى بن زكريا في تفسيره.

والحكمة في المشاورة في الدين التنبيه لهم على علل الأحكام، وطريق الاجتهاد.

وأخرج ابن عدي والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿وشاورهم في الأمر﴾ قال رسول الله ﷺ: أما إن الله ورسوله لغنيان عنها ولكن جعلها الله رحمة لأمتي.

وعند الترمذي الحكيم من حديث عائشة، رفعته: إن الله أمرني بمداواة الناس، كما أمرني بإقامة الفرائض.

● ومنها مصابرة العدو وإن كثر عددهم .

● ومنها تغيير المنكر إذا رآه، لكن قد يقال: كل مكلف تمكن من تغييره يلزمه، فيقال: المراد أنه لا يسقط عنه ﷺ بالخوف بخلاف غيره .

● ومنها قضاء دين من مات مسلماً معسراً، روى مسلم حديث: (أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي وعليه دين فعلي قضاؤه، ومن ترك مالاً فلورثته).

قال النووي: كان هذا القضاء واجباً عليه ﷺ، وقيل: تبرع منه، والخلاف وجهان لأصحابنا وغيرهم، قال: ومعنى الحديث: أنه ﷺ قال: أنا قائم بمصالحكم في حياة أحدكم أو موته، أنا وليه في الحالين، فإن كان عليه دين قضيته من عندي إن لم يخلف وفاء، وإن كان له مال فلورثته، لا آخذ منه شيئاً، وإن خلف عيالاً محتاجين ضائعين فليأتوا إلي فعلي نفقتهم ومؤنتهم، انتهى .

وفي وجوب قضائه على الإمام من مال المصالح وجهان، / لكن قال الإمام: من استدان وبقي معسراً إلى أن مات لم يقض دينه من بيت المال، فإن كان ظلم بالمطل ففيه احتمال، والأولى: لا، والله أعلم .

● ومنها تخير نسائه ﷺ في فراقه، وإمساكهن بعد أن اخترنه في أحد الوجهين، وترك الزوج عليهن والتبدل بهن مكافأة لهن، ثم نسخ ذلك، لتكون المنة له ﷺ عليهن، قال الله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها﴾ (١) الآية .

واختلف في تخييره لهن على قولين، أحدهما: أنه خيرهن بين

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢٨ .

اختيار الدنيا فيفارقهن، واختيار الآخرة فيمسكهن، ولم يخيرهن في الطلاق، وهذا هو قول الحسن وقتادة، والثاني: أنه خيرهن بين الطلاق والمقام معه، وهذا قول عائشة ومجاهد والشعبي ومقاتل. واختلّفوا في السبب الذي لأجله خير ﷺ نساءه على أقوال:

أحدها: أن الله تعالى خيره بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة على الدنيا، فاختار الآخرة وقال: اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرنى في زمرة المساكين^(١)، فلما اختار ذلك أمره الله تعالى بتخيير نساءه ليكن على مثل اختياره. حكاه أبو القاسم النميري.

الثاني: لأنهن تغيرن عليه.

والثالث: لأن أزواجه طالبنه وكان غير مستطيع، فكان أولهن أم سلمة سألته سترًا معلمًا، وسألته ميمونة حلة يمانية، وسألته زينب ثوباً مخططاً وهو البرد البياني، وسألته أم حبيبة ثوباً سحولياً، وسألته كل واحدة شيئاً إلا عائشة. حكاه النقاش.

والرابع: أن أزواجه ﷺ اجتمعن يوماً فقلن: نريد ما نريد النساء من الحلي فأنزل الله تعالى آية التخيير، حكاه النقاش أيضاً. وذلك أنه لما نصر الله تعالى رسوله وفتح عليه قريظة والنضير، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم، فقعدن حوله وقلن يا رسول الله، بنات كسرى وقيصر في الحلي والحلل، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق. وألمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال، وأن يعاملن بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم، فأمره الله أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن لئلا يكون لأحد منهن عليه منة في الصبر على ما اختاره من خشونة العيش.

(١) رواه ابن ماجه وغيره.

فلما اخترته وصبرن معه عوضهن الله على صبرهن بأمرين:
أحدهما، أن جعلهن أمهات المؤمنين تعظيماً لحقهن وتأكيداً لحرمتهن،
وتفضيلهن على سائر النساء بقوله: ﴿لستن كأحد من النساء﴾^(١)،
والثاني: أن حرم الله عليه طلاقهن والاستبدال بهن فقال تعالى: ﴿لا
يجل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج﴾^(٢) الآية، فكان
تحريم طلاقهن مستداماً، وأما تحريم التزوج عليهن ففسخ، قالت
عائشة: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء، يعني اللاتي
حرمن عليه، وقيل: الناسخ لتحريمهن قوله تعالى: ﴿إنا أحللنا لك
أزواجك﴾^(٣) الآية.

وقال النووي في الروضة: لما خيرهن فاخترته كافأهن على حسن
صنيعهن بالجنة فقال: ﴿فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً
عظيماً﴾^(٤). انتهى.

وإنما اختص ﷺ بوجوب التخيير لنسائه بين التسريح والإمساك،
لأن الجمع بين عدد منهن يوغر صدورهن بالغيرة التي هي من أعظم
الآلام، وهو إيذاء يكاد ينفر القلب ويوهن الاعتقاد، وكذا إلزامهن على
الصبر والفقر يؤذيهن، ومهما ألقى زمام الأمر إليهن خرج عن أن يكون
ضرراً، فنزه عن ذلك منصبه العالي. وقيل له: ﴿يا أيها النبي قل
لأزواجك﴾.

● ومنها: إتمام كل تطوع شرع فيه، حكاها في الروضة وأصلها،
قال النووي: وهو ضعيف. وفرعه بعض الأصحاب^(٥): على أنه كان

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٢.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٥٢.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٥٠.

(٤) سورة الأحزاب، الآية ٢٩.

(٥) في الأصل: بعضهم.

يحرم عليه ﷺ إذا لبس لأمته^(١) أن ينزعها حتى يلقي العدو ويقاقل.
ذكره في تهذيب الأسماء واللغات.

● ومنها: أنه كان يلزمه ﷺ أداء فرض الصلاة بلا خلل. قاله

الموردي: قال العراقي في شرح المهذب /: إنه كان معصوماً عن نقص ٢٠١/ب
الفرائض. انتهى، والمراد خلل لا يبطل الصلاة.

● وقال بعضهم: كان يجب عليه ﷺ إذا رأى ما يعجبه أن

يقول: لبيك إن العيش عيش الآخرة، ثم قال: هذه كلمة صدرت
منه ﷺ في أنعم حالة، وهو يوم حجه بعرفة، وفي أشد حالة، وهو
يوم الخندق، انتهى.

● ومنها: أنه ﷺ كان يؤخذ عن الدنيا حالة الوحي، ولا يسقط

عنه الصوم والصلاة وسائر الأحكام، كما ذكره في زوائد الروضة عن
ابن القاص والقفال، وكذا ذكره ابن سبع.

● ومنها: أنه كان ﷺ يغان على قلبه فيستغفر الله سبعين مرة.

ذكره ابن القاص ونقله ابن الملقن في الخصائص، ورواه مسلم وأبو
داود من حديث الأغر المزني بلفظ: (إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر
الله في اليوم مائة مرة) هذا لفظ مسلم، وقال أبو داود «في كل يوم»،
قال الشيخ ولي الدين بن العراقي^(٢): والظاهر أن الجملة الثانية مرتبة
على الأولى، وأن سبب الاستغفار: الغين، ويدل لذلك قوله في رواية
النسائي في عمل اليوم والليلة: إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله
كل يوم مائة مرة، وفي رواية له أيضاً: فاستغفر الله. وألفاظ الحديث
يفسر بعضها بعضاً. ويحتمل من حيث اللفظ أن تكون الجملة الثانية

(١) أي درعه.

(٢) في ش: ولي الدين العراقي.

كلاماً برأسه غير متعلق بما قبله، فيكون ﷺ أخبر بأنه يغان على قلبه، وبأنه يستغفر الله في اليوم مائة مرة، انتهى.

وقال أبو عبيد: أصل الغين في هذا، ما يغشى القلب ويغطيه، وأصله: من غين السماء، وهو إطباق الغيم عليها.

وقال غيره: الغين يغشى القلب ولا يغطيه كل التغطية، كالغيم الرقيق الذي يعرض في الهواء فلا يمنع ضوء الشمس.

قال القاضي عياض - بعد حكايته ذلك -: فيكون المراد بهذا الغين إشارة إلى غفلات قلبه وفترات نفسه وسهوها عن مداومة الذكر ومشاهدة الحق بما كان ﷺ دفع إليه من مقاساة البشر وسياسة الأمة ومعاناة الأهل، ومقاومة الولي والعدو^(١)، ومصالحة النفس، وما كلفه من أعباء أداء الرسالة وحمل الأمانة، وهو في كل هذا في طاعة ربه، وعبادة خالقه، ولكن لما كان ﷺ أرفع الخلق عند الله مكانة وأعلامهم درجة، وأتمهم به معرفة، وكانت حاله عند خلوص قلبه وخلو همته، وتفرد به بربه وإقباله بكلية عليه، ومقامه هنالك أرفع حاله، رأى ﷺ حال فترته عنها، وشغله بسواها غضاً من عليّ حاله، وخفضاً من رفيع مقامه، فاستغفر الله من ذلك، قال: وهذا أولى وجوه الحديث وأشهرها، وإلى معنى ما أشرنا إليه مال كثير من الناس، وحام حوله فقارب ولم يرد، وقد قربنا غامض معناه، وكشفنا للمستفيد حياه، وهو مبني على جواز الفترة والغفلات والسهو في غير طريق البلاغ، انتهى.

وتعقب: بأنه لا ترضى نسبه ﷺ إلى ذلك، لما يلزم عليه من تفضيل الملائكة بعدم الفترة عن التسيب والمشااهدة، ولقوله ﷺ :

(١) أي القيام مع من يواليه بالمناصرة والحفظ، ودفع شر العدو.

«لست أنسى ولكن أنسى لأسن» فهذه ليست فترة وإنما هي لحكمة مقصودة يثبت بها حكم شرعي، فالأولى أن يحمل على ما جعله علة فيه، وهو ما دفع إليه من مقاساة البشر وسياسة الأمة، ومعاناة الأهل، وحمل كل أعباء النبوة وحمل أثقائها. انتهى.

وقيل: الغين شيء يعتري القلب مما يقع من حديث النفس، قال الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر: وهذا أشار إليه الرافعي في أماليه، وقال: إن والده كان يقرره.

وقيل: كانت حالة يطلع فيها على أحوال أمته فيستغفر لهم.

وقيل: هو السكينة التي تغشى قلبه، والاستغفار/ لإظهار ١/٢٠٢ العبودية لله تعالى، والشكر لما أولاه.

وقال شيخ الإسلام ابن العراقي أيضاً: هذه الجملة حالية، أخبر عليه السلام أنه يغان على قلبه مع أن حاله الاستغفار في اليوم مائة مرة، وهي حال مقدرة، لأن الغين ليس موجوداً في حال الاستغفار، بل إذا جاء الاستغفار أذهب ذلك الغين. قال: وعلى تقدير تعلق إحدى الجملتين بالأخرى، وأن الثانية مسببة عن الأولى، فيحتمل أن يكون هذا الغين تغطية للقلب عن أمور الدنيا، وحجاباً بينه وبينها، فيجتمع القلب حينئذٍ على الله تعالى ويتفرغ للاستغفار شكراً وملازمة للعبودية، قال: وهذا معنى ما قاله القاضي عياض، انتهى ومراده قوله في «الشفاء»: وقد يحتمل أن تكون هذه الإغاثة حالة خشية وإعظام تغشى قلبه فيستغفر حينئذٍ شكراً لله تعالى، وملازمة لعبوديته إلى آخر كلامه.

قال الشيخ ابن العراقي: وهو عندي كلام حسن جداً، وتكون الجملة الثانية مسببة عن الأولى، لا بمعنى أنه يسعى بالاستغفار في إزالة الغين، بل بمعنى أن الغين أصل محمود، وهو الذي تسبب عنه

الاستغفار، وترتب عليه، وهذا أنزه الأقوال وأحسنها لأن الغين حينئذٍ وصف محمود وهو الذي نشأ عنه الاستغفار، وعلى الأول يكون «الغين» مما يسعى في إزالته بالاستغفار، وما ترتب الإشكال وجاء السؤال إلا على تفسير الغين بذلك، وأهل اللغة إنما فسروا الغين بالغشاء، فتحمله على غشاء يليق بحاله ﷺ، وهو الغشاء الذي يصرف القلب ويحجبه عن أمور الدنيا، لا سيما وقد رتب على الغشاء أمراً محموداً وهو الاستغفار، فما نشأ هذا الأمر الحسن إلا عن أمر حسن، انتهى.

وذكر الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في كتابه «لطائف المنن» أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي قال: رأيت النبي ﷺ في النوم فسألته عن هذا الحديث «إنه ليغان على قلبي» فقال لي: يا مبارك: ذلك غين الأنوار، لا غين الأغيار.

[القسم الثاني: الخصائص من المحرمات]

القسم الثاني: ما اختص به ﷺ مما حرم عليه:

● فمنها: تحريم الزكاة عليه، وكذا الصدقة على الصحيح المشهور المنصوص، قال ﷺ: (إننا لا نأكل الصدقة) رواه مسلم، ومن قال بإباحتها له يقول: لا يلزم من امتناعه من أكلها تحريمها، فلعله ترك ذلك تنزهاً مع إباحتها له، وهذا خلاف ظاهر الحديث. قال شيخ الإسلام ابن العراقي، في شرح التقريب: وعلى كل حال ففيه أن من خصائصه ﷺ الامتناع من أكل الصدقة إما وجوباً وإما تنزهاً، انتهى.

والحكمة من ذلك: صيانة منصبه الشريف عن أوساخ أموال الناس.

ومنها: تحريم الزكاة على آله ﷺ ، وتحريم كون آله عمالاً على الزكاة في الأصح ، وكذا يحرم صرف النذر والكفارة إليهم ، وأما صدقة التطوع فتحل لهم في الأصح خلافاً للمالكية وهو وجه عندنا .

● ومنها: أنه يحرم عليه ﷺ أكل ما له رائحة كريهة، كثوم وبصل، لتوقع مجيء الملائكة والوحي كل ساعة .

والأكل متكئاً في أحد الوجهين فيهما، والأصح في الروضة كراستها، وتعقب السهيلي الاتكاء فقال: قد يكره لغيره أيضاً لأنه من فعل المتعظمين، وقد تقدم مزيد لذلك .

● ومنها: تحريم الكتابة والشعر، وإنما يتجه القول بتحريمها ممن يقول إنه ﷺ كان يحسنها، والأصح أنه كان لا يحسنها، قال تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾^(١) وقال تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾^(٢)، أي ما هو في طبعه، ولا يحسنه ولا تقتضيه جبلته ولا يصلح له .

وأجيب^(٣): بأن المراد تحريم التوصل إليهما .

وهل عدم الشعر خاص به ﷺ أو بنوع الأنبياء؟ قال بعضهم: هو عام لقوله تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ / لأنه لا ٢٠٢/ب يظهر فيه للخصوص نكته . وتقدم في قصة الحديبية البحث في كونه ﷺ هل كان يحسن الكتابة أم لا .

● ومنها: نزع لأمته إذا لبسها، حتى يقاتل أو يحكم الله بينه وبين

عدوه .

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٨ .

(٢) سورة يس، الآية ٦٩ .

(٣) أي أجيب عن عدما في الخصائص .

● ومنها: المن ليستكثر، ذكره الرافعي، قال الله تعالى: ﴿ولا تمنن تستكثر﴾^(١) أي: لا تعط شيئاً لتعطى أكثر منه، بل أعط لربك، واقصد به وجهه، فأدبه بأشرف الآداب، قاله أكثر المفسرين، وقال الضحاك ومجاهد: هذا كان للنبي ﷺ خاصة، وليس على أحد من أمته، وقال قتادة: لا تعط شيئاً لمجازاة الدنيا، أي أعط لربك، وعن الحسن: لا تمنن على الله بعملك فتستكثره، وقيل: لا تمنن على الناس بالنبوة فتأخذ عليها أجراً وعضواً من الدنيا.

● ومنها: مد العين إلى ما متع به الناس، قال الله تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به﴾ أي استحساناً له وتمنياً أن يكون لك مثله ﴿أزواجاً منهم﴾^(٢) أي أشكالاً وأشباهاً من الكفار، وهي المزوجة بين الأشياء، وهي المشاكلة.

وعن ابن عباس: أصنافاً منهم، فإنه مستحقر بالإضافة إلى ما أوتيته، فإنه كمال مطلوب بالذات مفض إلى دوام اللذات.

● ومنها: خائنة الأعين، وهي الإيماء إلى مباح من قتل أو ضرب على خلاف ما يشعر به الحال، كما قيل له ﷺ في قصة رجل أراد قتله^(٣): هلا أومأت إلينا بقتله، فقال: ما كان ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين^(٤).

ولا يجرم ذلك على غيره إلا في محذور، قاله الرافعي فيما نقله الحجازي في مختصر الروضة.

(١) سورة المدثر، الآية ٦.

(٢) سورة الحجر، الآية ٨٨.

(٣) هو عبدالله بن أبي سرح، وقد أسلم وحسن إسلامه.

(٤) رواه أبو داود والنسائي.

• ومنها: نكاح من لم تهاجر، في أحد الوجهين. قال الله تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾ أي مهورهن، سمي المهر أجراً لأن المهر أجر على البضع^(١) وتقييد الإحلال بإعطائها معجله لا يتوقف الحل عليه، بل لإيثار الأفضل له، كتقييد إحلال المملوكة بكونها مسبية في قوله: ﴿وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك﴾ يعني من نساء بني زهرة ﴿اللاتي هاجرن معك﴾^(٢) أي إلى المدينة، قالوا: والمراد هاجرن كما هاجرت، وإن لم تكن هجرتها في حال هجرته صلى الله عليه وسلم.

وظاهره يدل على أن الهجرة شرط في التحليل، وأن من لم تهاجر من النساء لم يحل له نكاحها. وقالت أم هانئ: خطبني ﷺ فاعتذرت إليه بعذر فعذرتني، ثم أنزل الله تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك﴾ إلى قوله: ﴿اللاتي هاجرن معك﴾ فلم أكن لأحل له، فإني لم أهاجر معه، كنت من الطلقاء^(٣).

وعن بعض المفسرين: أن شرط الهجرة في التحليل منسوخ، ولم يذكر ناسخه.

وعن الماوردي قولان: أحدهما أن الهجرة شرط في إحلال كل النساء له ﷺ من غريبة وقريبة، والثاني: أنها شرط في إحلال بنات

(١) الأجر في اللغة المهر، قال في القاموس: الأجر أجور وآجار، والذكر الحسن والمهر أهـ وهذا الذي ذكره المصنف من أنه أجر على البضع لا يتناسب مع مفهوم قوله تعالى: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾ [المحقق].

(٢) سورة الأحزاب، الآية (٥٠).

(٣) رواه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه، عن ابن عباس.

عمه وبنات عماته المذكورات في الآية وليس شرطاً في إحلال الأجنبيات، وعنه أيضاً: أن المراد بالمهاجرات المسلمات.

● ومنها: تحريم إمساك من كرهته، قاله الحجازي وغيره.

● ومنها: نكاح الكتابية، لأن أزواجه أمهات المؤمنين وزوجات له في الآخرة، ومعه في درجته في الجنة، ولأنه ﷺ أشرف من أن يضع مائه في رحم كافرة، قالوا: ولو نكح كتابية لهديت إلى الإسلام كرامة له.

● ومنها: نكاح الأمة المسلمة، ولو قدر نكاحه أمة كان ولده منها حراً، ولا تلزمه قيمته لتعذر الرق. قاله القاضي حسين، وقال أبو عاصم: تلزم، نقله الحجازي، ولا يشترط في حقه حينئذ خوف العنت ولا فقد الطول.

وأما التسري بالأمة فالأصح الحل، لأنه ﷺ استمتع بأمة ريحانة قبل أن تسلم، وعلى هذا، فهل عليه تخييرها بين أن تسلم فيمسكها أو تقيم على دينها فيفارقتها؟ فيه وجهان: أحدهما: نعم لتكون من زوجاته في الآخرة، والثاني: لا، لأنه لما عرض على ريحانة الإسلام ١/٢٠٣ فأبت لم يزلها عن ملكه وأقام على الاستمتاع، وقد أسلمت بعد.

● ومنها: تحريم الإغارة إذا سمع التكبير، كما ذكره ابن سبع في الخصائص.

[القسم الثالث: الخصائص من المباحات]

القسم الثالث: فيما اختص به ﷺ من المباحات:

● اختص ﷺ بإباحة المكث في المسجد جنباً، قاله صاحب

التلخيص. ومنعه القفال، قال النووي: وما قاله في التلخيص قد يحتاج له بقوله ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري: يا علي لا يحل لأحد أن يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك. قال الترمذي حسن غريب.

وقد يعترض على هذا الحديث بأن عطية ضعيف عند الجمهور.

ويجاب بأن الترمذي حكم بأنه حسن فلعله اعتضد بما اقتضى حسنه، لكن إذا شاركه ﷺ علي في ذلك لم يكن من الخصائص.

وقد غلط إمام الحرمين وغيره صاحب التلخيص في الإباحة.

● واعلم أن معظم المباحات لم يفعلها ﷺ وإن جازت له.

● ومما اختص به أيضاً أنه لا ينتقض وضوؤه بالنوم مضطجعاً،

وفي اللمس وجهان، قال النووي: المذهب الجزم بانتقاضه به.

واستدل القائلون بالأول بنحو حديث عائشة، عند أبي داود، أن

النبي ﷺ كان يقبل بعض أزواجه ثم يصلي ولا يتوضأ. ورواه النسائي

أيضاً، وقال أبو داود: هو مرسل، إبراهيم التيمي لم يسمع من

عائشة، وقال النسائي: ليس في هذا الباب حديث أحسن من هذا

الحديث وإن كان مرسلًا.

● واختص أيضاً بإباحة الصلاة بعد العصر، فقد فاتته ركعتان

بعد الظهر فقضاهما بعد العصر. ثم واظب عليهما^(١)، ذكره

الحجازي^(٢)، ويجوز صلاة الوتر على الراحلة مع وجوبه عليه، كما

ذكره في شرح المهذب وعبارته: كان من خصائصه ﷺ جواز فعل هذا

(١) رواه البخاري عن عائشة.

(٢) أي في جملة الخصائص.

الواجب الخاص به على الراحلة. وبالصلاة على الغائب عند أبي حنيفة ومالك.

● وبالقبلة في الصوم، مع قوة الشهوة، روى البخاري من حديث عائشة قالت: (كان رسول الله ﷺ يقبل بعض نسائه وهو صائم، وكان أملككم لإربه) قال الحافظ ابن حجر: فأشارت بذلك إلى أن الإباحة لمن يكون مالكا لنفسه دون من لا يأمن الوقوع فيها يحرم. قال: وفي رواية حماد - عند النسائي - قال الأسود: قلت لعائشة: أيباشر الصائم؟ قالت: لا، قلت: أليس كان رسول الله ﷺ يباشر وهو صائم؟ قالت: إنه كان أملككم لإربه^(١). قال وظاهر هذا أنها اعتقدت خصوصية النبي ﷺ بذلك. قاله القرطبي، قال: وهو اجتهاد منها. ويدل على أنها لا ترى بتحريمها ولا بكونها من الخصائص: ما رواه مالك في الموطأ أن عائشة بنت طلحة كانت عند عائشة فدخل عليها زوجها وهو عبدالله بن عبد الرحمن بن أبي بكر فقالت له عائشة: ما يمنعك أن تدنو من أهلكت فتلاعبها وتقبلها؟ قال: أقبلها وأنا صائم؟ قالت: نعم.

● واختص أيضاً بإباحة الوصال في الصوم: كما سيأتي، وقال إمام الحرمين، هو قرينة في حقه ﷺ.

● وأن يأخذ الطعام والشراب من مالهما المحتاج إليهما إذا احتاج، ويجب على صاحبهما البذل^(٢). ويفدي بمهجته مهجة رسول

(١) بكسر الهمزة وإسكان الراء، أي عضوه، وبفتح الهمزة والراء، أي أغلبكم لهواه وحاجته.

(٢) هذه قضية مفترضة لم تحدث، ولا دليل على هذا الكلام من كتاب أو سنة، بل هناك دليل على عكس ذلك، فالمعروف من سيرته ﷺ أنه كان يؤثر على =

الله ﷺ . قال الله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾^(١)، ولو قصده ظالم وجب على من حضره أن يبذل نفسه دونه ﷺ، كما وقاه طلحة بنفسه يوم أحد.

• وبإباحة النظر إلى الأجنبية لعصمته، وسيأتي إن شاء الله تعالى في القسم الرابع حكم غيره ﷺ . ويجوز الخلوة بهن. قال في فتح الباري: الذي وضح لنا بالأدلة القوية أن من خصائصه ﷺ جواز الخلوة بالأجنبية/ والنظر إليها، ويدل له قصة أم حرام بنت ملحان في ٢٠٣/ب دخوله ﷺ عليها ونومه عندها وتفليتها رأسه، ولم يكن بينها محرمة ولا زوجية، انتهى.

• ومنها نكاح أكثر من أربع نسوة، وكذلك الأنبياء، وفي الزيادة لنبينا ﷺ على التسع خلاف.

• ويجوز له النكاح بلفظ الهبة من جهة المرأة، قال الله تعالى: ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي﴾^(٢)، وأما من جهته ﷺ فلا بد من لفظ النكاح أو التزويج على الأصح في أصل الروضة، وحكاه الرافعي عن ترجيح الشيخ أبي حامد لظاهر قوله تعالى: ﴿إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك﴾

قال البيضاوي: في قوله تعالى: ﴿وامرأة مؤمنة﴾ الآية، أي

= نفسه. وأما الاستشهاد بالآية ﴿النبي أولى بالمؤمنين..﴾ فهو استشهاد في غير موضعه وبالرجوع إلى تفسير الآية يعلم أنها ليست دليلاً على ما ذهب إليه المصنف. بل إن مكارم الأخلاق التي تعارف عليها الناس تأتي هذا فما لنا بمن جعله الله أسوة للناس؟! [المحقق].

(١) سورة الأحزاب، الآية ٦.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٥٠.

أعلمناك حل امرأة مؤمنة تهب لك نفسها ولا تطلب مهراً إن اتفق [ذلك] (١)، ولذلك نكّرها.

واختلف في ذلك (٢) والقائل به ذكر أنها ميمونة بنت الحارث، وزينب بنت خزيمة الأنصارية، وأم شريك بنت جابر، وخولة بنت حكيم، قال: وقرئ «أن» بالفتح، أي لأن وهبت، أو مدة أن وهبت، كقولك: اجلس ما دام زيد خالساً، قال: وقوله (إن أراد النبي أن يستنكحها) شرط للشرط الأول في استحباب الحل، فإن هبتها نفسها منه لا توجب له إلا بإرادته نكاحها، فإنها جارية مجرى القبول، قال: والعدول عن الخطاب إلى الغيبة بلفظ «النبي» ﷺ مكرراً. ثم الرجوع إليه في قوله: ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ إيدان بأنه مما خص به لشرف نبوته وتقرير لاستحقاقه الكرامة لأجله. انتهى.

وقال المعافى: وفي معنى «خالصة» ثلاثة أقوال: أحدها: أن المرأة إذا وهبت نفسها له يلزمه صداقها دون غيره من المؤمنين. قاله أنس ابن مالك وابن المسيب. والثاني: أن له أن ينكحها بلا ولي ولا شهود دون غيره. قاله قتادة، والثالث: خالصة لك أن تملك عقد نكاحها بلفظ الهبة دون المؤمنين، قال: وهذا قول الشافعي وأحمد، وعن أبي حنيفة ينعقد النكاح بلفظ الهبة لغيره ﷺ أيضاً.

● وكذا يجوز له ﷺ النكاح بلا مهر ابتداء وانتهاء، كما تقدم أن المرأة إذا وهبت نفسها له ﷺ لا يلزمه صداقها. قال النووي: إذا وهبت امرأة نفسها له ﷺ فتزوجها بلا مهر حل له ذلك، ولا يجب

(١) في (ب، ط).

(٢) أي في وجود امرأة عنده ﷺ وهبت نفسها له، وقد نفى ابن عباس ذلك.

عليه بعد ذلك مهرها بالدخول، ولا بغير ذلك، بخلاف غيره فإنه لا يخلو نكاحه من وجوب مهر، إما مسمى وإما مهر المثل والله أعلم.

● وكذا يجوز له النكاح في حال الإحرام، قال النووي في شرح مسلم: قال جماعة من أصحابنا أنه ﷺ كان له أن يتزوج في حال الإحرام، وهو مما خص به دون الأمة، قال: وهذا أصح الوجهين عند أصحابنا. انتهى.

● وكذا يجوز له ﷺ النكاح بغير رضی المرأة، فلو رغب في نكاح امرأة خلية لزمها الإجابة، وحرّم على غيره خطبتها، أو متزوجة وجب على زوجها طلاقها^(١).

قال الغزالي^(٢): ولعل السر فيه من جانب الزوج امتحان إيمانه

(١) هذه أمور لم تحدث، ولا دليل على أن الحكم كذلك لو حدثت، والغريب أن يفكر بعض الفقهاء - رحمهم الله - بهذه الطريقة، بل الغريب أن يتبادر لذهن مسلم أن ذلك يمكن أن يصدر عن النبي ﷺ، فهل يعقل أن يتزوج امرأة بغير رضاها، وهو الذي أمره الله تعالى أن يخير نساءه اللواتي في عصمته حتى يكون لهن كامل الرضى في استمرارهن معه؟! والأدهى من ذلك أن يتبادر تصور بعضهم إلى أنه من خصوصياته إذا رغب في امرأة متزوجة أن على زوجها أن يطلقها له؟؟ وتساءل: ما الفرق إذن بين الطغاة من الظلمة المتسلطين على الناس الذين يفعلون ذلك وبين الخصوصيات النبوية؟؟ إن هذا لو صدر من إنسان عادي من الناس لوصف بأسوأ الصفات، فكيف سمح للبعض تفكيرهم بأن يحدثوا له ﷺ هذه الخصوصية التي هو منها بريء في واقع الحقيقة والحال، كما هو بريء منها في تصور كل مسلم واع ينزه النبي ﷺ عن الصفات الرديئة. وكان يحسن بالمصنف أن ينزه كتابه عن ذكر هذه الأمور التي لا محل نقلها لما فيها من طعن في الصفات التي ينبغي أن تكون لرسول الله تعالى. [المحقق].

(٢) نستغرب أن يكون الإمام الغزالي واحداً ممن أدلى بدلوه في هذه المسألة =

بتكليف النزول عن أهله، فإنه ﷺ قال: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وولده والناس أجمعين)^(١).

ويدل لهذه الخصيصة قصة زينب بنت جحش^(٢)، بنت عمته ﷺ أميمة بنت عبد المطلب، المنصوص عليها بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴿ أَي بِنِعْمَةِ الْإِسْلَامِ وَهِيَ أَجَلُ النِّعَمِ ﴾ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴿ أَي بِالْإِعْتِقَادِ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ لَكَ، وَهُوَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ الْكَلْبِيِّ، وَكَانَ مِنْ سَبِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَمَلَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ الْبَعْثَةِ وَأَعْتَقَهُ وَتَبَنَاهُ وَخَطَبَ لَهُ زَيْنَبُ فَأَبَتْ هِيَ وَأَخُوهَا عَبْدِ اللَّهِ، ثُمَّ رَضِيَ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴿ الْآيَةُ وَكَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ / وَصَدَرَ الْإِسْلَامُ إِذَا تَبَنَى وَلَدَ غَيْرِهِ يَدْعُوهُ النَّاسُ بِهِ وَيَرِثُ مِيرَاثَهُ وَتَحْرَمُ عَلَيْهِ زَوْجَتُهُ، فَنَسَخَ اللَّهُ تَعَالَى التَّبَنِيَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ ﴾ وَبِهَذِهِ الْقِصَّةِ يَثْبُتُ الْحُكْمُ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنْ زَيْدًا سَيُطْلَقُهَا، وَأَنَّهُ ﷺ يَتَزَوَّجُهَا، وَأَلْقَى فِي قَلْبِ زَيْدٍ كِرَاهَتَهَا فَأَرَادَ فِرَاقَهَا فَاتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَفَارِقَ صَاحِبَتِي قَالَ مَالِكٌ؟ أَرَأَيْكَ مِنْهَا شَيْءٌ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا

= المتخيلة، وأن يفهم الحديث من هذه الزاوية، علماً بأن الحديث عام ولا يدخل فيه هذا التصور [المحقق].

(١) الحديث في الصحيحين وغيرهما.

(٢) هذه القصة التي ساقها المصنف لا تدل على هذه الخصيصة ولا تصح شاهداً عليها، ولذا لم يبين وجه الشبه ورحم الله الإمام السبكي حيث قال: «... ولم يكن ﷺ تعجبه امرأة أحد من الناس، وقصة زينب إنما جعلها الله تعالى - كما في سورة الأحزاب - قطعاً لقول الناس: إن زيدا ابن محمد، وإبطالاً للتبني، قال: وبالجملة فهذا الموضع من منكرات كلامهم في الخصائص، وقد بالغوا في هذا الباب في مواضع واقتحموا فيها عظام لقد كانوا في غنية عنها. شرح الزرقاني ٢٣٥/٥» [المحقق].

رأيت منها إلا خيراً، ولكنها تتعظم علي بشرفها وتؤذيني بلسانها، فقال رسول الله ﷺ: ﴿أمسك عليك زوجك واتق الله﴾ أي في أمرها، فلا تطلقها ضرراً وتعللاً ﴿فلما قضى زيد منها وطراً﴾ ولم يبق له فيها حاجة، وطلقها وانقضت عدتها زوجها الله تعالى له، كما قال تعالى: ﴿زوجناكها﴾ والمعنى أنه أمره بتزويجها منه، أو جعلها زوجته بلا واسطة عقد. ويؤيده أنها كانت تقول لسائر نساء رسول الله ﷺ: إن الله تولى نكاحي، وأنتن زوجكن أولياؤكن.

وقيل إن زيداً كان السفير للتزويج^(١)، وفي ذلك لزيد ابتلاء عظيم وشاهد بين على قوة إيمانه.

وقد علل تعالى تزويجه إياها بقوله: ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾ أي في أن يتزوجوا زوجات من كانوا يتبنونه إذا فارقوهن، وأن هؤلاء الزوجات ليست داخلات فيما حرم في قوله: ﴿وحلائل أبنائكم﴾.

وأما قوله: ﴿وتخفي في نفسك﴾ فمعناه: علمك أنه سيطلقها وتزوجها، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر في شيء أباحه له، بأن قال: ﴿أمسك عليك زوجك﴾ مع علمه أنه سيطلق، وهذا مروى عن علي بن الحسين، وعليه أهل التحقيق من المفسرين، كالزهري، وبكر بن العلاء، والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم.

والمراد بقوله: ﴿وتخشى الناس﴾ إنما هو في إرجاف المنافقين في تزويج نساء الأبناء، والنبى ﷺ معصوم في الحركات والسكنات. ولبعض المفسرين هنا كلام لا يليق بمنصب النبوة.

(١) أخرج ذلك أحمد ومسلم والنسائي.

وقيل قوله: ﴿واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ خطاب من الله تعالى، أو من الرسول ﷺ لزيد، فإنه أخفى الميل إليها وأظهر الرغبة عنها لما توهم أن رسول الله ﷺ يريد أن تكون من نسائه.

قال جار الله: وكم من شيء مباح يتحفظ الإنسان منه ويستحي من إطلاع الناس عليه، فطموح قلب الإنسان إلى بعض مشتبهاته من امرأة وغيرها غير موصوف بالقبح في العقل ولا في الشرع، وتناول المباح بالطريق الشرعي ليس بقبيح أيضاً، وهو خطبة زينب ونكاحها من غير استئصال زيد عنها ولا طلب إليه، ولم يكن مستكرهاً عندهم أن ينزل الرجل منهم عن امرأته لصديقه ولا مستهجنأ إذا نزل عنها أن ينكحها آخر، فإن المهاجرين حين دخلوا المدينة واستهم الأنصار بكل شيء، حتى إن الرجل منهم إذا كانت له امرأتان نزل عن إحدهما وأنكحها المهاجري^(١)، فإذا كان الأمر مباحاً من جميع جهاته لم يكن فيه وجه من وجوه القبح. انتهى.

• وكذا يجوز له ﷺ النكاح بلا ولي وبلا شهود. قال النووي: الصحيح المشهور عند أصحابنا صحة نكاحه ﷺ بلا ولي ولا شهود لعدم الحاجة إلى ذلك في حقه عليه السلام، وهذا الخلاف في غير زينب أما زينب فمنصوص عليها والله أعلم.

قال العلماء: وإنما اعتبروا الولي للمحافظة على الكفاءة، وهو ﷺ فوق الأكفاء، وإنما اعتبر الشهود لأمن الجحود، وهو ﷺ لا يجحد ولو

(١) رحم الله الزمخشري فإنه لا حاجة لهذه التبريرات. فإن الرسول ﷺ لم يستنزل زيدا عن امرأته - كما ذكر ذلك - ولا تنازل هو للنبي، وإنما طلق زوجته وهو لا يدري من سيتزوجها، ثم كان أمر الله تعالى للنبي أن يتزوجها إبطالاً لقضية النبي. [المحقق].

جحدت هي لم يرجع إلى قولها، بل قال العراقي / في شرح المهذب، ٢٠٤/،
تكون كافرة بتكذيبه.

وكان له ﷺ تزويج المرأة ممن شاء بغير إذنها وإذن وليها، وله
إجبار الصغيرة من غير بناته، وزوج ابنة حمزة مع وجود عمها العباس،
فيقدم على الأب.

وزوجه الله تعالى بزینب، فدخل عليها بتزويج الله من غير عقد
من نفسه. وعبر في الروضة عن هذا بقوله: وكانت المرأة تحل له
بتحليل الله تعالى.

● وأعتق أمته صفية وجعل عتقها صداقها^(١) وقد اختلف في
معناه، فقيل إنه أعتقها بشرط أن يتزوجها، فوجب له عليها قيمتها
وكانت معلومة، فتزوجها بها، ويؤيده: قوله في رواية عبد العزيز بن
صهيب: سمعت أنساً قال: سبى رسول الله ﷺ صفية فأعتقها
وتزوجها، فقال ثابت لأنس: ما أصدقها، قال: نفسها فأعتقها، هكذا
أخرجه البخاري في المغازي. وفي رواية حماد عن ثابت وعبد العزيز
عن أنس في حديثه قال: وصارت صفية لرسول الله ﷺ ثم تزوجها
وجعل عتقها صداقها. قال عبد العزيز لثابت: يا أبا محمد أنت سألت
أنساً ما أمهرها؟ قال: أمهرها نفسها، فتبسم^(٢). فهو ظاهر جداً في
أن المَجْعول مهرأ هو نفس العتق. والتأويل الأول لا بأس به، فإنه لا
منافاة بينه وبين القواعد حتى لو كانت القيمة مجهولة، فإن في صحة
العقد بالشرط المذكور وجهاً عند الشافعية.

(١) أخرجه البخاري عن أنس.

(٢) أي ثابت.

وقال آخرون: بل جعل نفس العتق المهر، ولكنه من خصائصه، ومن جزم بذلك الماوردي.

وقال آخرون: قوله: «أعتقها وتزوجها» معناه: أعتقها ثم تزوجها، فلما لم يعلم أنه ساق لها صداقاً قال: أصدقها نفسها، أي: لم يصدقها شيئاً فيما أعلم، ولم ينف أصل الصداق، ومن ثم قال أبو الطيب الطبري من الشافعية، وابن المرابط من المالكية ومن تبعهم: أنه قول أنس قاله ظناً من قبل نفسه ولم يرفعه. ويعارضه ما أخرجه الطبراني وأبو الشيخ من حديث صفية نفسها قالت: أعتقني النبي ﷺ وجعل عتقي صداقي. وهذا موافق لحديث أنس، وفيه رد على من قال: إن أنساً قال ذلك بناء على ظنه.

ويحتمل أن يكون أعتقها بشرط أن ينكحها من غير مهر، فلزمها الوفاء بذلك، وهذا خاص بالنبي ﷺ دون غيره.

ويحتمل: أنه أعتقها بغير عوض، وتزوجها بغير مهر في الحال، ولا في المال، قال ابن الصلاح: معناه أن العتق حل محل الصداق وإن لم يكن صداقاً، قال: وهذا كقولهم الجوع زاد من لا زاد له، قال: وهذا الوجه أصح الأوجه وأقربها إلى لفظ الحديث، وتبعه النووي في «الروضة».

ومن جزم بأن ذلك كان من الخصائص يجيبى بن أكثم فيما أخرجه البيهقي قال: وكذا نقله المزني عن الشافعي قال: وموضع الخصوصية، أنه أعتقها مطلقاً وتزوجها بغير مهر ولا شهود، وهذا بخلاف غيره. انتهى.

وقال النووي في شرح مسلم: الصحيح الذي اختاره المحققون،

أنه أعتقها تبرعاً بلا عوض ولا شرط، ثم تزوجها برضاها من غير صداق، والله أعلم. قاله الحافظ ابن حجر.

- واختلف في انحصار طلاقه ﷺ في الثلاث، وعلى الحصر، قيل: تحل له من غير محلل، وقيل: لا تحل له أبداً.
- وكان له نكاح المعتدة في أحد الوجهين، قال النووي: الصواب بامتناع نكاح المعتدة من غيره، والله أعلم.
- وفي وجوب نفقة زوجاته وجهان، قال النووي: الصحيح: الوجوب، انتهى.

ولا يجب عليه القسم فيما قاله طوائف من أهل العلم، وبه جزم الإصطخري من الشافعية، والمشهور عندهم وعند الأكثرين الوجوب. وفي حل الجمع له بين المرأة وخالتها وعمتها وجهان، لا أختها وبناتها وأمها، قالوا: ومرجع غالب هذه الخصائص إلى أن النكاح في حقه كالتسري في حقنا.

- وكان له ﷺ أن يصطفي ما شاء من المغنم قبل القسمة من جارية وغيرها.

- وأبيح له القتال بمكة والقتل بها، وجواز/ دخول مكة بغير ١/٢٠٥ إحرام مطلقاً. ذكره ابن القاص، واستدلوا له بحديث أنس عند الستة: (دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح وعلى رأسه المغفر) وذلك من كونه ﷺ كان مستور الرأس بالمغفر، والمحرم يجب عليه كشف رأسه. ومن تصريح جابر والزهري ومالك بأنه لم يكن محرماً.
- وأبدي ابن دقيق العيد لستر الرأس احتمالاً فقال: يحتمل أن يكون لعذر. انتهى.

وتعقبه الشيخ ولي الدين ابن العراقي فقال: هذا يردده تصريح جابر وغيره: قال: وهذا الاستدلال في غير موضع الخلاف المشهور،

لأنه ﷺ كان خائفاً من القتال متأهباً، ومن كان كذلك فله الدخول عندنا بلا إحرام بلا خلاف عندنا^(١)، ولا عند أحد^(٢) نعلمه.

وقد استشكل النووي في شرح المذهب ذلك، لأن مذهب الشافعي أن مكة فتحت صلحاً خلافاً لأبي حنيفة في قوله: إنها فتحت عنوة، وحينئذٍ فلا خوف.

ثم أجاب عنه: بأنه ﷺ صالح أبا سفيان، وكان لا يأمن غدر أهل مكة، فدخلها صلحاً وهو متأهب للقتال إن غدروا. انتهى.

وقد ذكرت ما في فتح مكة من المباحث في قصة فتحها من المقصد الأول.

ثم إن غيره ﷺ إذا لم يكن خائفاً، فقال أصحابنا: إن لم يكن ممن يتكرر دخوله، ففي وجوب الإحرام عليه قولان: أصحابها عند أكثرهم: أنه لا يجب، وقطع به بعضهم، فإن تكرر دخوله كالحطابين ونحوهم ففيه خلاف مرتب و[هو]^(٣) أولى بعدم الوجوب وهو المذهب.

وقال الحنابلة بوجوب الإحرام إلا على الخائف وأصحاب الحاجات، وأوجه المالكية في المشهور عندهم على غير ذوي الحاجات المتكررة، وأوجه الحنفية مطلقاً إلا من كان داخل الميقات.

وقد تحرر أن المشهور من مذهب الشافعي: عدم الوجوب مطلقاً. ومن مذاهب الأئمة الثلاثة الوجوب إلا فيما استثنى.

(١) أي الشافعية.

(٢) في ط أحد.

(٣) في ش.

• ومن خصائصه ﷺ أنه كان يقضي بعلمه من غير خلاف.

وأن يقضي لنفسه ولولده، وأن يشهد لنفسه ولولده^(١).

ولا تكره له الفتوى والقضاء في حال الغضب، كما ذكره النووي في شرح مسلم، وقد قضى للزبير بشراج الحرة^(٢) بعد أن أغضبه خصم الزبير. لعصمته ﷺ، فلا يقول في الغضب إلا كما يقول في الرضى.

• وكان له أن يدعو لمن شاء بلفظ الصلاة^(٣)، وليس لنا أن نصلي إلا على نبي أو ملك.

• وكان له أن يقتل بعد الأمان^(٤)، وأن يلعن من شاء بغير سبب: واستبعد ذلك^(٥).

• وجعل الله شتمه ولعنه قرينة للمشتوم والملعون لدعائه ﷺ^(٦)

(١) وهذا لم يحدث منه ﷺ [المحقق].

(٢) موضع معروف بالمدينة. والمراد مجاري الماء الذي تسيل منه.

(٣) كما ورد في الصحيحين (.. اللهم صل على آل أبي أوفى).

(٤) قال الشارح: كذا نقله إمام الحرمين والرافعي وغيرهما عن ابن القاص.

وخطؤه فيه..

أقول: كيف يكون هذا؟ والرسول ﷺ لم يقبل - كما سبق - أن تكون له خائنة الأعين، فهل تكون الخيانة بكاملها خصوصية له؟؟ ومرة أخرى كنا نتمنى لو أن المصنف نزه كتابه عن هذه الأقوال الساقطة [المحقق].

(٥) انظر التعليق السابق.

(٦) روى الشيخان قوله ﷺ: (اللهم إني أتخذ عندك عهداً لن تخلفنيه إنما أنا بشر

فأيا مؤمن أذيته أو شتمته أو جلدته أو لعنته فاجعلها صلاة وزكاة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة).

[بذلك] ^(١). قاله ابن القاص، وردوه عليه، حكاه الحجازي في مختصر الروضة عن نقل الرافي.

● وكان يقطع الأراضي قبل فتحها، لأن الله ملكه الأرض كلها. وأفتى الغزالي بكفر من عارض أولاد تميم الداري فيما أقطعهم. وقال: إنه ﷺ كان يقطع أرض الجنة فأرض الدنيا أولى ^(٢).

[القسم الرابع: خصائص الفضائل]

القسم الرابع فيما اختص به ﷺ من الفضائل والكرامات.

[ما يتعلق بخلقه وولادته ﷺ]

● منها: أنه أول النبيين خلقاً، كما تقرر في أول هذا الكتاب، وأنه كان نبياً وآدم بين الروح والجسد، رواه الترمذي من حديث أبي هريرة.

● ومنها: أنه أول من أخذ عليه الميثاق كما مر.

● ومنها: أنه أول من قال: «بلى» يوم «ألست بربكم» رواه أبو سهل القطان في جزء من أماليه ^(٣).

● ومنها: أن آدم وجميع المخلوقات خلقوا لأجله، رواه البيهقي وغيره.

(١) في ش.

(٢) إن كان المقصود أنه ﷺ بشرٌ بعض أصحابه بالجنة فذلك وارد، وإن كان غير ذلك فيحتاج إلى دليل. [المحقق].

(٣) إسناده ضعيف.

● ومنها: أن الله كتب اسمه الشريف على العرش، وعلى كل سماء، وعلى الجنان وما فيها. رواه ابن عساكر عن كعب الأحبار^(١).

● ومنها: أن الله تعالى أخذ الميثاق على النبيين، آدم فمن بعده، أن يؤمنوا/به وينصروه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ ٢٠٥/ب النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه﴾^(٢) قال علي بن أبي طالب: لم يبعث الله نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ﷺ لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ويأخذ العهد بذلك على قومه^(٣).

● ومنها: أنه وقع التبشير به في الكتب السالفة كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

● ومنها: أنه لم يقع في نسبه من لدن آدم سفاح. رواه البيهقي والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل.

● ومنها: أنه نكست الأصنام لمولده رواه الخرائطي - في الهواتف - وغيره.

● ومنها: أنه ولد مختوناً مقطوع السرة، رواه الطبراني، وتقدم ما فيه من البحث في أول الكتاب.

● ومنها: أنه خرج نظيفاً، ما به قدر، رواه ابن سعد.

● ومنها: أنه وقع إلى الأرض ساجداً رافعاً أصبعيه كالمتضرع المبتهل. رواه أبو نعيم من حديث ابن عباس. ورأت أمه عند ولادته

(١) هو من الإسرائيليات، وحكم بعض الحفاظ بوضعه.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٨١.

(٣) رواه ابن جرير في تفسير الآية المذكورة.

نوراً خرج منها أضواء له قصور الشام، وكذلك ترى أمهات الأنبياء. رواه الإمام أحمد، وكان مهده ﷺ يتحرك بتحريك الملائكة، كما ذكره ابن سبع في الخصائص، وكان القمر يحدثه وهو في مهده، ويميل حيث أشار إليه، رواه ابن طغر بك في «النطق المفهوم» وغيره. وتكلم في المهدي، رواه الواقدي وابن سبع، وظلته الغمامة في الحر، رواه أبو نعيم والبيهقي، ومال إليه فيء الشجرة إذا سبق إليه، رواه البيهقي.

● ومنها: شق صدره الشريف. رواه مسلم وغيره.

● وغطه جبريل عند ابتداء الوحي ثلاث غطات. عدّ هذه بعضهم من خصائصه ﷺ كما نقله الحافظ ابن حجر، قال: ولم ينقل عن أحد من الأنبياء أنه جرى له عند ابتداء الوحي.

[ذكره في القرآن عضواً عضواً]

● ومنها: أن الله تعالى ذكره في القرآن عضواً عضواً، فقلبه بقوله: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾^(١) وقوله: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾^(٢)، ولسانه بقوله: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾^(٣)، وقوله: ﴿فإنما يسرناه بلسانك﴾^(٤)، وبصره بقوله: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾^(٥)، ووجهه بقوله: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾^(٦)،

(١) سورة النجم، الآية ١١.

(٢) سورة الشعراء، الآية ١٩٤.

(٣) سورة النجم، الآية ٣.

(٤) سورة مريم، الآية ٩٧.

(٥) سورة النجم، الآية ١٧.

(٦) سورة البقرة، الآية ١٤٤.

ويده وعنقه بقوله: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾^(١)، وظهره
وصدره بقوله: ﴿ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي
أنقض ظهرك﴾^(٢)، واشتق اسمه من اسم الله «المحمود» ويشهد له ما
أخرجه البخاري في تاريخه الصغير من طريق علي بن زيد^(٣) قال: كان
أبو طالب يقول:

وشق له من اسمه ليحمله فذو العرش محمود وهذا محمد
وهو مشهور لحسان بن ثابت.

وسمي أحمد، ولم يسم به أحد قبله. رواه مسلم. ولأحمد من
حديث علي: أعطيت أربعاً لم يعطهن أحد قبلي فذكر منها: وسميت
أحمد.

[خصائص في بعض صفاته]

● ومنها أنه ﷺ كان يبيت جائعاً، ويصبح طاعماً يطعمه ربه
ويسقيه من الجنة، كما سيأتي البحث فيه إن شاء الله تعالى في صيامه
ﷺ من مقصد عباداته.

● وكان يرى من خلفه كما يرى أمامه. رواه مسلم.

ويرى في الليل وفي الظلمة كما يرى بالنهار والضوء. رواه
البيهقي.

(١) سورة الإسراء، الآية ٢٩.

(٢) سورة الشرح الآية ١ - ٣.

(٣) كذا في ش وفي النسخ يزيد، قال الشارح: علي بن زيد بن عبدالله بن
زهير بن عبدالله بن جدعان.

• وكان ريقه يعذب الماء الملح، رواه أبو نعيم. ويجزي الرضيع، رواه البيهقي.

• ومنها: أنه ﷺ كان إذا مشى في الصخر غاصت قدماه فيه، كما هو مشهور قديماً وحديثاً على الألسنة^(١)، ونطق به الشعراء في منظومهم، والبلغاء في مشورهم، مع اعتضاده^(٢) بوجود أثر قدمي الخليل إبراهيم عليه السلام في حجر المقام المنوه به في التنزيل في قوله تعالى: ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ وهو البالغ تعيينه - وأنه أثره - مبلغ التواتر، القائل فيه أبو طالب.

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غيرنا على

وبما في البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً من معجزة تأثير ضرب موسى في الحجر ستاً أو سبعمائة فرّ/ بثوبه لما اغتسل. إذ ما خص نبي بشيء من المعجزات والكرامات إلا ولنبينا ﷺ مثله، كما نصوا عليه^(٣)، مع ما يؤيد ذلك: وهو وجود أثر حافر بغلته الشريفة - على ما قيل - في مسجد بطيبة، حتى عرف المسجد بها، بحيث يقال له

(١) أنكره الحافظ السيوطي وقال: لم أقف له على أصل ولا سند، ولا رأيت من خرج في شيء من كتب الحديث، وكذا أنكره غيره.

(٢) من الواضح أن هذا ليس بعاضد [المحقق].

(٣) ونتساءل فنقول: من الذي نص على ذلك؟! إن الله أعطى لكل نبي من المعجزات ما يتناسب مع عصره وقومه... ليكون له الحجّة عليهم من جنس ما يتقنون.. وليس من الضرورة أن يكون للرسول ﷺ من المعجزات ما يماثل تلك المعجزات السابقة لجميع الأنبياء. إن هذا الافتراض الذي أقامه بعضهم وجعله أصلاً ونصاً هو الذي أدى إلى هذا التكلف، بإيراد ما ليس له أصل، أو التمسك بالضعيف من الأحاديث في مسألة لا ينبغي أن يقبل فيها إلا ما صح من الأحاديث وحسب [المحقق]

مسجد البغلة^(١)، وما ذاك إلا من سره الساري فيها ليكون ذلك أقوى في الآية. وأوضح في الدلالة على إتيائه ﷺ هذه الآية التي أوتيتها الخليل في حجر المقام على وجه أعلى منه.

بل قال الزبير بن بكار فيما نقله المجد الشيرازي في المغانم المطابة بعد ذكره لأثر البغلة ومسجدها: وفي غربي هذا المسجد أثر كأنه أثر مرفق يذكر أنه ﷺ اتكأ عليه ووضع مرفقه عليه، وعلى حجر آخر أثر الأصابع، والناس يتبركون بهما.

وقال السيد نور الدين السمهودي في كتابه «وفاء الوفا» بعد إيراد ذلك: قلت ولم أقف في ذلك على أصل إلا أن ابن النجار قال في المساجد التي أدركها خراباً بالمدينة ما لفظه: ومسجدان قرب البقيع أحدهما يعرف بمسجد الإجابة، والثاني يعرف بمسجد البغلة، فيه إسطوان واحد، وهو خراب، وحوله نشز من الحجارة، فيه أثر يقولون إنه أثر حافر بغلة النبي ﷺ، انتهى.

● وكان إبطه ﷺ لا شعر عليه، قاله القرطبي، وكان أبيض غير متغير اللون، كما ذكره الطبري وعده من الخصائص، وذكره بعض الشافعية، لحديث أنس - المتفق عليه - أنه ﷺ كان يرفع يديه في الاستسقاء حتى يرى بياض إبطيه.

وقال الشيخ جمال الدين الأسنوي^(٢) في «المهمات» إن بياض الإبط كان من خصائصه ﷺ. انتهى.

(١) وهذا - لو ثبت؟! - لا يكون دليلاً، إذ لا يلزم من وجود أثر حافر بغلته أن يكون هناك أثر لأقدامه ﷺ.

(٢) هو شيخ الشافعية، وصاحب التصانيف السائرة، إمام زمانه، توفي سنة سبع وسبعين وسبعمائة.

قال في شرح تقريب الأسانيد: وما ادعاه من كون هذا من الخصائص فيه نظر، إذ لم يثبت ذلك بوجه من الوجوه، بل لم يرد ذلك في شيء من الكتب المعتمدة، الخصائص لا تثبت بالاحتمال، ولا يلزم من ذكر أنس وغيره بياض أبطيه أن لا يكون له شعر، فإن الشعر إذا نتف بقي المكان أبيض، وإن بقي فيه آثار الشعر، ولذلك ورد في حديث عبدالله بن أقرم الخزاعي، أنه صلى مع رسول الله ﷺ فقال: كنت أنظر إلى عفرة إبطيه إذا سجد، خرجته الترمذي، وحسنه، والنسائي وابن ماجه. وقد ذكر الهروي^(١) في «الغريبين»^(٢)، وابن الأثير في «النهاية» أن العفرة بياض ليس بالناصع ولكن كلون عفرة الأرض، وهو وجهها، وهذا يدل على أن آثار الشعر هو الذي جعل المكان أعفر، وإلا فلو كان خالياً من نبات الشعر جملة لم يكن أعفر.

نعم الذي تعتقد فيه ﷺ أنه لم يكن لإبطه رائحة كريهة، بل كان نظيفاً طيب الرائحة، كما ثبت في الصحيح.

- وكان ﷺ يبلغ صوته وسمعه ما لا يبلغه صوت غيره ولا سمعه.
- وكان تنام عينه ولا ينام قلبه. رواه البخاري.
- وما تشاءب قط. رواه ابن أبي شيبه والبخاري في تاريخه من مرسل يزيد بن الأصم قال: ما تشاءب النبي ﷺ. وأخرج الخطابي من طريق مسلمة بن عبد الملك بن مروان قال: ما تشاءب نبي قط، ويؤيد ذلك. أن التثاؤب من الشيطان. رواه البخاري.
- وما احتلم قط، وكذلك الأنبياء. رواه الطبراني. وكان عرقه أطيب من المسك. رواه أبو نعيم وغيره.

(١) أحمد بن محمد، أبو عبيد، المشهور.

(٢) غريب القرآن وغريب الحديث.

● وإذا مشى مع الطويل طاله، رواه البيهقي، ولم يقع له ظل على الأرض، ولا رؤي له ظل في شمس ولا قمر^(١). ويشهد له أنه ﷺ لما سأل الله تعالى أن يجعل في جميع أعضائه وجهاته نوراً، ختم بقوله: واجعلني نوراً.

● وكان ﷺ لا يقع على ثيابه ذباب قط. نقله الفخر الرازي^(٢)، ولا يمتص دمه البعوض، كذا نقله الحجازي وغيره^(٣). وما آذاه القمل، قاله ابن سبع في «الشفاء»^(٤) والسبتي في «أعذب الموارد».

[حراسة السماء عند البعثة]

● ومنها: انقطاع الكهنة عند مبعثه^(٥)، وحراسة السماء من استراق السمع، والرمي بالشهب، قال ابن عباس: كانت الشياطين لا يجربون عن السماوات، وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها، فيلقون على الكهنة، فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سماوات، فلما ولد محمد ﷺ / منعوا من السماوات كلها، فما منهم من أحد يريد ٢٠٦/ب استراق السمع إلا رمي بشهاب، وهو الشعلة من النار، فلا يخطئ أبداً، فمنهم من يقتله، ومنهم من يحرق وجهه، ومنهم من يجبله فيصير غولاً يضل الناس في البراري، وهذا لم يكن ظاهراً قبل مبعث النبي

(١) رواه الحكيم الترمذي مرسلأ؟!

(٢) رواه عن بعضهم. أقول: وهل يثبت هذا والذي قبله بمثل هذه الروايات؟! [المحقق].

(٣) وقد نوزع بعدم ثبوته.

(٤) أي شفاء الصدور في أعلام نبوة الرسول وخصائصه.

(٥) أي أخبار الكهنة، لأن الكهنة لم ينقطعوا.

ﷺ ، ولم يذكره أحد قبل زمانه . وإنما ظهر في بدئ أمره ، وكان ذلك أساساً لنبوته .

وقال معمر قلت للزهري : أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال : نعم . قلت : أفرايت قوله : ﴿وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع﴾^(١) الآية ، قال : غلظت وشدد أمرها حين بعث محمد ﷺ .

وقال ابن قتيبة : إن الرجم كان قبل مبعثه ، ولكن لم يكن في شدة الحراسة إلا بعد مبعثه ، وقيل : إن النجم كان ينقض ويرمي الشياطين ثم يعود إلى مكانه . ذكره البغوي .

[من خصائص الإسراء]

● ومنها أنه أتى بالبراق ليلة الإسراء مسرجاً ملجماً ، قيل كانت الأنبياء إنما تركبه عرباناً .

ومنها أنه أسري به ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعرج به إلى المحل الأعلى ، وأراه من آيات ربه الكبرى ، وحفظه في المعراج حتى ما زاغ البصر وما طغى ، وأحضر الأنبياء له وصلى بهم وبالملائكة إماماً . وأطلععه على الجنة والنار . وعزيت^(٢) هذه للبيهقي .

● ومنها : أنه رأى الله تعالى بعينه ، كما يأتي في مقصد الإسراء إن شاء الله تعالى ، وجمع الله له بين الكلام والرؤية ، وكلمه تعالى في الرفيع الأعلى ، وكلم موسى بالجبل .

● ومنها أن الملائكة تسير معه حيث سار يمشون خلف ظهره ، وقاتلت معه - كما مر - في غزوة بدر وحنين .

(١) سورة الجن ، الآية ٩ .

(٢) أي اطلعاه على الجنة والنار .

[وجوب الصلاة والسلام عليه]

● ومنها: أنه يجب علينا أن نصلي ونسلم عليه، لآية ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾^(١) إلى آخرها، ولم ينقل أن الأمم المتقدمة كان يجب عليهم أن يصلوا على أنبيائهم.

[خصائص تتعلق بالقرآن الكريم]

● ومنها: أنه أوتي الكتاب العزيز، وهو أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمداينة.

● ومنها: حفظ كتابه هذا من التبديل والتحريف، حتى سعى كثير من الملحدة والمعطلة لا سيما القرامطة في تغييره وتبديل محكمه، فما قدروا على إطفاء شيء من نوره، ولا تغيير كلمة من كلمه، ولا تشكيك المسلمين في حرف من حروفه، قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(٢) الآية.

وكتابه يشتمل على ما اشتملت عليه جميع الكتب، جامعاً لأخبار القرون السالفة والأمم البائدة، والشرائع الدائرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب، الذي قطع عمره في تعلم ذلك.

ويسر الله تعالى حفظه لتعلميه، وقربه على متحفظيه^(٣)، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾^(٤)، وسائر الأمم لا يحفظ كتبها

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٦.

(٢) سورة فصلت، الآية ٤٢.

(٣) في ش: متحفيه، قال الشارح أي الذين اتحفوا به أي سورا بحفظه.

(٤) سورة القمر، الآية ١٧.

الواحد منهم، فكيف بالجُم الغفير على مرور السنين عليهم، والقرآن
ميسر حفظه للغلمان في أقرب مدة.

• ومنها: أنه أنزل على سبعة أحرف تسهياً علينا، وتيسيراً
وشرفاً ورحمة وخصوصية لفضلنا.

• ومنها: كونه آية باقية، لا تعدم ما بقيت الدنيا.

• ومنها: أنه تعالى تكفل بحفظه، فقال: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر
وإننا له لحافظون﴾^(١) أي من التحريف والزيادة والنقصان، ونظيره قوله
تعالى في صفة القرآن: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه﴾،
وقوله: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾^(٢).

فإن قلت: هذه الآية تنفي الاختلاف فيه، وحديث «أنزل
القرآن على سبعة أحرف» المروي في البخاري عن عمر، يشته.

فأجاب الجعبري في أول شرحه للشاطبية: بأن المثبت اختلاف
تغاير، والمنفي اختلاف تناقض، فموردهما مختلف. انتهى.

فإن قلت: فلم اشتغلت الصحابة بجمع القرآن في الصحف،
وقد وعد الله تعالى بحفظه، وما حفظه الله تعالى فلا خوف عليه؟

فالجواب: - كما قال الرازي - إن جمعهم للقرآن كان/ من
أسباب حفظ الله تعالى إياه، فإنه تعالى لما أراد حفظه قيضهم لذلك،
قال: وقال أصحابنا: وفي هذه الآية دلالة قوية على أن البسمة آية
من أول كل سورة، لأن الله تعالى قد وعد بحفظ القرآن، والحفظ لا
معنى له إلا أن يبقى مصوناً عن التغيير، وإلا لما كان محفوظاً عن

(١) سورة الحجر، الآية ٩.

(٢) سورة النساء، الآية ٨٢.

الزيادة، ولو جاز أن يظن بالصحابة أنهم زادوا لوجب أيضاً أن يظن بهم النقصان. وذلك يوجب خروج القرآن عن كونه حجة.

واختلف فيه، كيف يحفظ القرآن؟

فقال بعضهم: حفظه بأن يجعله معجزاً مبيناً لكلام البشر، يعجز الخلق عن الزيادة فيه والنقصان منه، لأنهم لو زادوا فيه أو نقصوا منه تغير نظم القرآن، فيظهر لكل العقلاء أن هذا ليس من القرآن.

وقال آخرون: أعجز الخلق عن إبطاله وإفساده، بل^(١) قيص جماعة يحفظونه ويدرسونه فيما بين الخلق إلى آخر بقاء التكليف.

وقال آخرون: المراد بالحفظ هو أن أحداً لو حاول أن يغير بحرف أو نقطة لقال له أهل الدنيا: هذا كذب، حتى إن الشيخ المهيب لو اتفق له تغيير في حرف منه لقال الصبيان كلهم: أخطأت أيها الشيخ وصوابه كذا، ولم يتفق لشيء، من الكتب مثل هذا الكتاب، فإنه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف والتغيير والتحريف، وقد صان الله تعالى هذا الكتاب العزيز عن جميع التحريف، مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده، وقد انقضى الآن ثمانية وتسعون سنة وثمانمائة سنة^(٢)، وهو بحمد الله في زيادة من الحفظ.

• ومنها: أنه ﷺ خص بآية الكرسي، وبالمفصل وبالمثنائي، وبالسبع الطوال، كما في حديث ابن عباس بلفظ: وأعطيت خواتيم

(١) في ش: بأن.

(٢) هذه السنة هي التي صنف فيها المؤلف كتابه هذا.

سورة البقرة من كنوز العرش، وخصصت به دون الأنبياء، وأعطيت
المثاني مكان التوراة، والمئين مكان الإنجيل، الحواميم مكان الزبور،
وفضلت بالمفصل. رواه أبو نعيم في الدلائل.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ
الْعَظِيمَ﴾^(١)، وفي البخاري من حديث أبي هريرة، عنه ﷺ : (أم
القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم) سائره^(٢).

واختلفوا: لم سميت مثاني، فعن الحسن وابن عباس وقتادة لأنها
تثنى في الصلاة، فتقرأ في كل صلاة، وقيل لأنها مقسومة بين الله وبين
العبد نصفين، نصفها ثناء ونصفها دعاء، كما في حديث أبي هريرة عنه
ﷺ : (يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين)^(٣).
وقيل لأنها نزلت مرتين مرة بمكة ومرة بالمدينة. وعن مجاهد: لأن الله
استثنىها وادخرها لهذه الأمة، فما أعطاها غيرهم.

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن السبع المثاني هي
السبع الطوال، أولها سورة البقرة وآخرها سورة الأنفال مع التوبة،
وقال بعضهم: سورة يونس بدل الأنفال: قال ابن عباس: وإنما
سميت السبع الطوال مثاني لأن الفرائض والحدود والأمثال والخبر
والعبر ثنيت فيها.

وقال طاووس: القرآن كله مثاني، قال الله تعالى: ﴿الله نزل

(١) سورة الحجر، الآية ٨٧.

(٢) كذا وقع في النسخ وكلمة (سائره) ليست في البخاري ولا غيره، فسقط من
المصنف لفظ «أي» التفسيرية.

(٣) رواه مالك ومسلم.

أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني^(١)، وسمى القرآن مثاني لأن القصص ثبت فيه والله أعلم.

[أعطي مفاتيح الخزائن]

● ومنها: أنه أعطي مفاتيح الخزائن^(٢). قال بعضهم: وهي خزائن أجناس العالم ليخرج لهم بقدر ما يطلبونه لذواتهم، فكل ما ظهر من رزق العالم فإن الاسم الإلهي لا يعطيه إلا عن محمد ﷺ الذي بيده المفاتيح، كما اختص تعالى بمفاتيح الغيب فلا يعلمها إلا هو، وأعطى هذا السيد الكريم منزلة الاختصاص بإعطائه مفاتيح الخزائن.

[جوامع الكلم]

● ومنها: أنه أوتي جوامع الكلم، فالكلم جمع كلمة، وكلمات الله تعالى لا تنفذ، فالكلمة منه كلمات، ولما علم جوامع الكلم أعطي الإعجاز بالقرآن الذي هو كلام الله تعالى، وهو المترجم عن الله تعالى، . فوق الإعجاز في الترجمة التي هي له، فإن المعاني المجردة عن المواد لا يتصور الإعجاز بها/ وإنما الإعجاز ربط هذه المعاني بصورة ٢٠٧/ب الكلم القائم من نظم الحروف، فهو لسان الحق وسمعه وبصره.

[عموم بعثته ﷺ]

● ومنها: أنه بعث إلى الناس كافة، قال بعضهم: وهو من

(١) سورة الزمر، الآية ٢٣.

(٢) رواه البخاري برقم ١٣٤٤.

الكفت، وهو الضم، قال الله تعالى: ﴿ألم نجعل الأرض كفاتاً﴾^(١) أي تضم الأحياء على ظهرها، والأموات في بطنها، كذلك ضمت شريعته ﷺ لجميع الناس، فلا يسمع به أحد إلا لزمه الإيمان به، ولما سمع الجن القرآن يتلى قالوا: ﴿يا قومنا أجيئوا داعي الله وأمنوا به﴾^(٢) الآية، فضمت شريعته الإنس والجن، وعمت رحمته التي أرسل بها العالم، قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾^(٣)، فمن لم تنله رحمته فما ذلك من جهته، وإنما ذلك من جهة القابل. فهو كالنور الشمسي أفاض شعاعه على الأرض، فمن استر عنه في كُنْ أو ظل جدار فهو الذي لم يقبل انتشار النور عليه، وعدل عنه، فلم يرجع إلى الشمس من ذلك منع. انتهى.

فإن قلت: إن نوحاً كان مبعوثاً إلى أهل الأرض بعد الطوفان، فإنه لم يبق إلا من كان مؤمناً معه، وقد كان مرسلأً إليه، وقد جاء في حديث جابر وغيره (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحر وأسود)^(٤) وفي رواية (إلى الناس كافة)^(٥).

أجاب الحافظ ابن حجر، رحمه الله تعالى: بأن هذا العموم الذي حصل لنوح عليه السلام لم يكن في أصل بعثته، وإنما اتفق بالحادث الذي وقع، وهو انحصار الخلق في الموجودين بعد هلاك سائر الناس. وأما نبينا ﷺ فعموم رسالته من أصل البعثة فثبت اختصاصه بذلك.

(١) سورة المرسلات، الآية ٢٥.

(٢) سورة الأحقاف، الآية ٣١.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه البخاري.

وأما قول أهل الموقف لنوح - كما صح في حديث الشفاعة - : إنه أول رسول إلى أهل الأرض، فليس المراد به عموم بعثته، بل إثبات أولية إرساله، وعلى تقدير أن يكون مراداً فهو مخصوص بتنصيبه سبحانه وتعالى في عدة آيات على أن إرسال نوح كان إلى قومه، ولم يذكر أنه أرسل إلى غيرهم.

واستدل بعضهم لعموم بعثته: بكونه دعا على جميع من في الأرض فأهلكوا بالغرق إلا أهل السفينة، ولو لم يكن مبعوثاً إليهم لما أهلكوا، لقوله تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾^(١)، وقد ثبت أنه أول الرسل.

وأجيب: بجواز أن يكون غيره أرسل إليهم في أثناء مدة نوح، وعلم نوح بأنهم لم يؤمنوا فدعا على من لم يؤمن من قومه وغيرهم.

فأجيب: وهذا جواب حسن، لكن لم ينقل أنه نبي في زمن نوح غيره. ويحتمل أن يكون معنى الخصوصية لنبينا ﷺ في ذلك بقاء شريعته. انتهى^(٢).

وأما قول بعض اليهود: إن نبينا محمداً ﷺ إنما هو مبعوث إلى العرب خاصة، ففاسد. والدليل عليه أنهم - أي اليهود - سلموا أنه رسول صادق إلى العرب، فوجب أن يكون كل ما يقوله حقاً، وقد ثبت بالتواتر أنه يدعي أنه رسول إلى كل الناس، فلو كذبه فيه لزم التناقض، أشار إليه صاحب المعالم^(٣).

(١) سورة الإسراء، الآية ١٥.

(٢) عن فتح الباري ٤٣٦/١ [المحقق].

(٣) أي معالم السنن شرح أبي داود للخطابي.

[النصرة بالرعب]

● ومنها: نصره ﷺ بالرعب مسيرة شهر^(١)، والشهر قدر قطع القمر درجات الفلك المحيط، فهو أسرع قاطع، لعموم رعبه في قلوب أعدائه، فلا يقبل الرعب إلا عدو مقصود ليميز السعيد من الشقي، ومفهوم هذا: أنه لم يوجد لغيره النصر بالرعب في هذه المدة، ولا في أكثر منها، أما ما دونها فلا، لكن لفظ رواية عمرو بن شعيب: (ونصرت على العدو بالرعب ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر) فالظاهر اختصاصه به مطلقاً.

وإنما جعل الغاية شهراً، لأنه لم يكن بين بلده ﷺ وبين أحد من أعدائه أكثر من شهر وهذه الخصوصية حاصلة له على الإطلاق، حتى ولو كان وحده بغير عسكر، وهل هي حاصلة لأمته/ من بعده، فيه احتمال.

١/ ٢٠٨

[إحلال الغنائم]

● ومنها: إحلال الغنائم ولم تحل لأحد قبله^(٢).

وقد كان من تقدم على ضربين، منهم من لم يؤذن له في الجهاد، فلم تكن له مغانم، ومنهم من أذن له فيه، لكن كانوا إذا غنموا شيئاً لم يحل لهم أن يأكلوه، وجاءت نار فأحرقته^(٣).

قال بعضهم: أعطي ﷺ ما يوافق شهوة أمته، لأن النفوس لها التذاذ بها، لكونها حصلت لهم عن غير قهر منهم لتحصيلها وغلبة،

(١) متفق عليه من حديث جابر.

(٢) متفق عليه من حديث جابر.

(٣) إحراق النار للغنائم ورد في حديث أبي هريرة في الصحيحين.

فلا يريدون أن يفوتهم التنعم بها في مقابلة ما قاسوه من الشدة والتعب.

[الأرض مسجد وطهور]

● ومنها: جعل الأرض له ولأمته مسجداً وطهوراً^(١)، والمراد: موضع سجود، أي لا يختص السجود منها بموضع دون غيره، ويمكن أن يكون مجازاً عن المكان المبني للصلاة، وهو من مجاز التشبيه، لأنه لما جازت الصلاة في جميعها كان كالمسجد في ذلك. وقيل المراد: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وجعلت لغيري مسجداً ولم تجعل له طهوراً، لأن عيسى كان يسيح في الأرض، ويصلي حيث أدركته الصلاة، قاله ابن التين ومن قبله الداودي. وقيل: إنما أبيع لهم في موضع يتيقنون طهارته، بخلاف هذه الأمة فأبيع لهم في جميع الأرض، إلا فيما تيقنوا نجاسته.

والأظهر: ما قاله الخطابي، وهو أن من قبله إنما أبيع لهم الصلاة في أماكن مخصوصة كالبيع والصوامع، ويؤيده رواية عمرو بن شعيب بلفظ: «وكان من قبلي إنما كانوا يصلون في كنائسهم». وهذا نص في موضع النزاع فتثبت الخصوصية. ويؤيده ما رواه البزار من حديث ابن عباس، نحو حديث جابر وفيه: ولم يكن من الأنبياء أحد يصلي حتى يبلغ محرابه، قاله في فتح الباري.

[استمرار معجزة القرآن]

● ومنها: أن معجزته ﷺ مستمرة إلى يوم القيامة، ومعجزات سائر الأنبياء انقرضت لوقتها، فلم يبق إلا خبرها.

(١) رواه الشيخان من حديث جابر.

والقرآن العظيم لم تزل حجته قاهرة ومعارضته ممتنعة .

● ومنها أنه أكثر الأنبياء معجزة . قال القاضي عياض : أما كونها كثيرة فهذا القرآن وكله معجز، وأقل ما يقع الإعجاز فيه عند بعض أئمة المحققين بسورة ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ أو آية في قدرها، وذهب بعضهم : إلى أن كل آية منه كيف كانت معجزة، وذهب آخرون إلى أن كل جملة منتظمة منه معجزة، وإن كانت من كلمة أو كلمتين .

قال القاضي : والحق ما ذكرناه أولاً، لقوله تعالى : ﴿فائتوا بسورة من مثله﴾^(١) فهو أقل ما تحداهم به، مع ما ينصر هذا القول من نظر وتحقيق يطول بسطه .

وإذا كان هذا، ففي القرآن من الكلمات نحو سبع وسبعين ألف كلمة ونيف على عدد بعضهم، وعدد كلمات ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ عشر كلمات، فيتجزأ القرآن على نسبة ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ أزيد من سبعة آلاف جزء، فكل واحد منها معجز في نفسه، ثم إعجازه - كما تقدم - بوجهين . طريق بلاغته، وطريق نظمه، فصار في كل جزء من هذا العدد معجزتان فتضاعف العدد من هذا الوجه، ثم فيه وجوه إعجاز أخرى، من الإخبار بعلوم الغيب، فقد يكون في السورة الواحدة من هذه التجزئة الإخبار عن أشياء من الغيب، كل خبر منها بنفسه معجز، فتضاعف العدد كرة أخرى .

ثم وجوه الإعجاز الأخر التي ذكرناها توجب التضعيف، هذا في حق القرآن، فلا يكاد يأخذ العدد معجزاته، ولا يحوي الحصر براهينه، انتهى .

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣ .

[خصوصية انشقاق القمر وغيرها]

● ومن ذلك انشقاق القمر وتسليم الحجر، وحنين الجذع، ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ، ولم يثبت لواحد من الأنبياء مثل ذلك، كما ذكره ابن عبد السلام وغيره، وتقدم ما فيه من المباحث.

[ختم النبوة وتأيد الشريعة]

● ومنها: أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، قال ﷺ: مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه / إلا موضع لبنة من زاوية من ٢٠٨/ب زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين. رواه البخاري^(١) ومسلم.

● ومنها: أن شرعه مؤيد إلى يوم الدين، وناسخ لجميع شرائع النبيين، وأنه أكثر الأنبياء تابعاً كما قال ﷺ: فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة. رواه الشيخان من حديث أبي هريرة.

● ومنها أنه لو أدركه الأنبياء لوجب عليهم اتباعه، كما سيأتي تقريره إن شاء الله تعالى.

[إرساله إلى الجن كالإنس]

● ومنها أنه أرسل إلى الجن اتفاقاً، والدليل على ذلك قبل الإجماع: الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾^(٢)،

(١) رواه البخاري برقم ٣٥٣٤ و٣٥٣٥.

(٢) سورة الفرقان، الآية ١.

وقد أجمع المفسرون على دخول الجن في هذه الآية، وهو مدلول لفظها، فلا يخرج عنه إلا بدليل.

وإن قيل إن الملائكة خارجون من ذلك فلا يضر، لأن العام المخصوص حجة عند جمهور العلماء والأصوليين، ولو بطل الاستدلال بالعمومات المخصوصة لبطل الاستدلال بأكثر الأدلة.

وقال تعالى في الأحقاف: ﴿أجيبوا داعي الله﴾^(١)، فأمر بعضهم بعضاً بإجابته دليل على أنه داع لهم، وهو معنى بعثته إليهم، إلى غير ذلك من الآيات.

وأما السنة، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: (فضلت على الأنبياء بست) فذكر منها (وأرسلت إلى الخلق كافة) فإنه يشمل الإنس والجن، وحمله على الإنس خاصة تخصيص بغير دليل فلا يجوز. والكلام فيه كالكلام في آية الفرقان.

فإن قلت: إن قوله: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾^(٢) ﴿ما أرسلناك إلا كافة للناس﴾^(٣) ظاهر في اختصاص رسالته ﷺ بالإنس، واحتمال غير ذلك عدول عن الظاهر.

فالجواب: إن هذا إنما يتمشى على مذهب الدقاق القائل بأن مفهوم اللقب حجة، و«الناس» من قبيل اللقب، فإن المسألة المترجمة في الأصول «بمفهوم اللقب» لا تختص باللقب بل بالأعلام كلها وأسماء الأجناس كلها كذلك ما لم تكن صفة. و«الناس» اسم جنس غير صفة

(١) سورة الأحقاف، الآية ٣١.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٨.

(٣) سورة سبأ، الآية ٢٨.

فلا مفهوم له . فهذه الآية ليس فيها أصلاً ما يفهم منه أنه ليس رسولاً إلى غيرهم إلا على مذهب الدقاق، بل ولا يتم على مذهبه التمسك بهذا المفهوم أيضاً لأن الدقاق إنما يقول به حيث لم يظهر غرض آخر سواه في تخصيص ذلك الاسم، وحيث ظهر غرض لا يقول بالمفهوم، بل يحمل التخصيص على ذلك الغرض، والغرض في الآية التعميم في جميع الناس، وعدم اختصاص الرسالة ببعضهم، فلا يلزم نفي الرسالة عن غيرهم، لا على مذهب الدقاق ولا على مذهب غيره. وإنما خاطب الناس لأنهم الذين تغلب رؤيتهم والخطاب معهم، فمقصود الآية خطاب الناس، والتعميم فيهم لا النفي عن غيرهم، وهذا إذا قلنا إن لفظ الناس لا يشمل الجن، فإن قلنا إنه يشملهم فواضح .

والخلاف فيه مبني على الخلاف في اشتقاق «الناس»، هل هو من النوس، وهو الحركة، أو من الإنس ضد الوحشة؟ فإذا قلنا بالأول أطلق على الفريقين، ولكن استعماله في الإنس أغلب، فحيث أطلق فالمراد به ولد آدم، وإذا قلنا بالثاني فلا، لأننا لا نبصر الجن ولا نأنس بهم، فدخول الجن في الآية إما ممتنع وإما قليل فلا يحمل عليه، وبهذا يتبين ضعف الاستدلال بها، لكنها لا تدل على خلافه .

وأما قول الضحاك ومن تبعه: أن الرسل إلى الجن منهم، لقوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾^(١) فهو ظاهر الآية، لكن لم يقل الضحاك ولا أحد غيره باستمرار ذلك في هذه الملة. وإنما محل الخلاف في ذلك في الملل المتقدمة خاصة، وأما في هذه الملة فنبينا محمد ﷺ هو المرسل إليهم وإلى غيرهم، ولم ينقل أحد عن الضحاك أن رسل الجن منهم مطلقاً، ولا ينبغي أن ينسب إليه ما

(١) سورة الأنعام، الآية ١٣٠.

يخالف الإجماع، على أن الأكثرين قالوا: لم تكن الرسل إلا من
الإنس، ولم يكن من الجن قط رسول، لكن لما جمعوا مع الجن في
الخطاب صح ذلك. ونظيره: ﴿يخرج منها/ اللؤلؤ والمرجان﴾^(١) وهما
يخرجان من الملح دون العذب، وقيل الرسل من الجن رسل الرسل من
بني آدم إليهم لا رسل الله، لقوله تعالى: ﴿ولوا إلى قومهم
منذرين﴾^(٢)، قاله بعض العلماء.

[هل أرسل ﷺ إلى الملائكة؟]

ومنها أنه أرسل إلى الملائكة في أحد القولين، ورجحه السبكي.
قال تعالى: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين
نذيراً﴾^(٣) ولا نزاع أن المراد بالعبد هاهنا محمد ﷺ، والعالم هو ما
سوى الله تعالى، فيتناول جميع المكلفين من الجن والإنس والملائكة،
ويطل بذلك قول من قال: إنه كان رسولاً إلى البعض دون البعض،
لأن لفظ «العالمين» يتناول جميع المخلوقات، فتدل الآية على أنه رسول
إلى جميع الخلق.

ولو قيل لمدعي «خروج الملائكة من هذا العموم» أقم الدليل
عليه ربما عجز عنه، فإنه يحتمل أن يكون من الملائكة من أنذره ﷺ
إما ليلة الإسراء وإما غيرها. لكن لا يلزم من الإنذار والرسالة إليهم
في شيء خاص أن يكون بالشرعية كلها.

وإذا قلنا إن الملائكة هم مؤمنو الجن السماوية، فإذا ركب هذا

(١) سورة الرحمن، الآية ٢٢.

(٢) سورة الأحقاف، الآية ٢٩.

(٣) سورة الفرقان، الآية ١.

مع القول بعموم الرسالة للجن الذي قام الإجماع عليه، لزم عموم الرسالة لهم، لكن القول بأن الملائكة من الجن قول شاذ.

والجمهور: على أن «العالمين» في آية الفرقان عام مخصوص بالجن والإنس كما فسر بهما حديث «وأرسلت إلى الخلق كافة» المروي في مسلم.

وصرح الحلبي والبيهقي - في الباب الرابع من شعب الإيمان - بأنه ﷺ لم يرسل إلى الملائكة، وفي الباب الخامس عشر بانفكاكهم من شرعه.

وفي تفسير الإمام فخر الدين الرازي، والبرهان النسفي: حكاية الإجماع في تفسير آية الفرقان على أنه لم يكن رسولاً إليهم، كما حكاها العلامة الجلال المحلي^(١) والله أعلم.

وعبارة النسفي: ثم إنهم قالوا هذه الآية تدل على أحكام: أولها: أن قوله: «ليكون للعالمين نذيراً» يتناول جميع المكلفين من الجن والإنس والملائكة. لكننا أجمعنا على أنه ﷺ لم يكن رسولاً إلى الملائكة، بل يكون رسولاً إلى الجن والإنس جميعاً. وهو عبارة الإمام فخر الدين أيضاً^(٢).

وقد تعقب الجلال المحلي العلامة كمال الدين بن أبي شريف فقال: اعلم أن البيهقي نقل ذلك عن الحلبي، فإنه قال: هذا معنى

(١) جلال الدين محمد بن أحمد المحلي ولد بمصر سنة إحدى وتسعين وسبعائة، واشتغل وبرع في الفنون، فقهاً وكلاماً وأصولاً، كان حاد الذكاء، توفي سنة أربع وستين وثمانمائة.

(٢) هذه الجملة الأخيرة سقطت من ش.

كلام الحلبي، وفي قوله هذا إشعار التبري من عهده، وبتقدير أن لا إشعار فيه فلم يصرح بأنه مرضي عنده. وأما الحلبي فإنه وإن كان من أهل السنة فقد وافق المعتزلة في تفضيل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وما نقله عنه موافق لقوله بأفضلية الملائكة، فلعله بناه عليه.

وأما ما ذكره من حكاية الرازي والنسفي الإجماع على أنه ﷺ لم يكن مرسلأ إليهم، فقد وقع في نسخ من تفسير الرازي «لكننا بينا» بدل «أجمعنا»، على أن قوله: «أجمعنا» ليس صريحاً في إجماع الأمة، لأن مثل هذه العبارة تستعمل لإجماع الخصمين المتناظرين، بل لو صرح به لمنع، فقد قال الإمام السبكي في قوله: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ قال المفسرون كلهم في تفسيرها للجن والإنس، وقال بعضهم: وللملائكة، انتهى.

وبالجملة: فالاعتماد على تفسير الرازي والنسفي في حكاية إجماع انفراداً بحكايته أمر لا ينتهض حجة على طريقة علماء النقل، لأن مدارك نقل الإجماع من كلام الأئمة وحفاظ الأمة كابن المنذر وابن عبد البر، ومن فوقهما في الاطلاع كالأئمة أصحاب المذاهب المتبوعة ومن يلحق بهم في سعة دائرة الاطلاع والحفظ والإتقان لها من الشهرة عند علماء النقل ما يغني عن بسط الكلام فيها.

واللائق بهذه المسألة التوقف عن الخوض فيها على وجه يتضمن دعوى القطع في شيء من الجانبين، انتهى.

[رحمة للعالمين]

• ومنها: أنه أرسل رحمة للعالمين، كما قال تعالى: ﴿وما

أرسلناك إلا رحمة للعالمين»^(١) قال السمرقندي: يعني للجن والإنس، وقيل لجميع الخلق، رحمة للمؤمن بالهداية ورحمة للمنافق بالأمان من القتل. وقال ابن عباس: رحمة للبر والفاجر، لأن كل نبي إذا كذب / ٢٠٩ ب/ أهلك الله من كذبه، ومحمد ﷺ أخر من كذبه إلى الموت أو القيامة. وأما من صدقه فله الرحمة في الدنيا والآخرة. فذاته ﷺ - كما روي - رحمة نعم المؤمن والكافر كما قال تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾^(٢) وقال ﷺ: (إنما أنا رحمة مهداة) رواه الدارمي والبيهقي من حديث أبي هريرة، وسيأتي في المقصد السادس مزيد لذلك إن شاء الله تعالى. والله الموفق.

[التكريم بأسلوب الخطاب له]

● ومنها: أن الله تعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم في القرآن، فقال: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا داود، يا زكريا، يا يحيى، يا عيسى، ولم يُخاطَب هو فيه إلا بـ«يا أيها الرسول» «يا أيها النبي» «يا أيها المزمّل» «يا أيها المدثر».

● ومنها أنه حرم على الأمة نداءه باسمه، قال تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾^(٣) أي لا تجعلوا نداءه وتسميته كنداء بعضكم بعضاً باسمه، ورفع الصوت به، والنداء وراء الحجرات، ولكن قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، مع التوقير

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٣٣.

(٣) سورة النور، الآية ٦٣.

والتواضع وخفض الصوت، وقيل: لا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً في جواز الإعراض والمساهلة في الإجابة.

• ومنها: أنه يحرم الجهر له بالقول، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾^(١).

قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ كان أبو بكر لا يكلم النبي ﷺ إلا كأخي السرار^(٢). وروي أنه ﷺ ما كان يسمع كلام عمر حتى يستفهمه مما يخفض صوته^(٣).

وكان ثابت بن قيس في أذنه وقر، وكان جهوريماً، فلما نزلت تخلف عن رسول الله ﷺ، ففقدته ودعاه، فقال: يا رسول الله لقد أنزلت عليك هذه الآية، وإني رجل جهير الصوت فأخاف أن يكون عملي قد حبط، فقال ﷺ لست هناك، إنك تعيش بخير وتموت بخير، وإنك من أهل الجنة^(٤). قال أنس: فكنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة

(١) سورة الحجرات، الآية ٢.

(٢) قال ابن كثير: أخرجه الحافظ البزار عن أبي بكر: لما نزلت... قلت يا رسول الله والله لا أكلمك إلى كأخي السرار، قال: وإن كان ضعيفاً لكن من حديث عبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة بنحو ذلك والله أعلم. (تفسير سورة الحجرات) [المحقق].

(٣) رواه البخاري برقم ٤٨٤٥ [المحقق].

(٤) رواه البخاري برقم ٤٨٤٦ بلفظ قريب [المحقق].

يمشي بين أيدينا، فلما كان يوم اليامة في حرب مسيلمة رأى ثابت من المسلمين بعض الانكشاف وانهمت طائفة منهم، فقاتل حتى قتل^(١).

● ومنها أنه يحرم نداؤه من وراء الحجرات قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾، إذ العقل يقتضي حسن الأدب ومراعاة الحشمة ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم﴾^(٢) أي لكان الصبر خيراً لهم من الاستعجال لما فيه من حفظ الأدب وتعظيم الرسول ﷺ الموجبين للثناء والثواب^(٣).

[حبيب الله]

● ومنها أنه حبيب الله، وجمع له بين المحبة والخلة، وسيأتي تحقيق ذلك وما فيه من المباحث في آخر المقصد السابع، إن شاء الله تعالى.

● ومنها أنه تعالى أقسم على رسالته وبحياته وببلده وعصره، كما سيأتي ذلك في المقصد السادس إن شاء الله تعالى.

● ومنها أنه كلم بجميع أصناف الوحي، كما نقل عن ابن عبد السلام، وسبق تحقيقه في المبعث من المقصد الأول.

[نزول اسرافيل عليه]

● ومنها أن إسرافيل هبط عليه، ولم يهبط على نبي قبله،

(١) قال ابن كثير في تفسير سورة الحجرات. أخرجه الإمام أحمد. [المحقق].

(٢) سورة الحجرات، الآية ٥.

(٣) هذه الفقرة والتي قبلها، من قوله: «ومنها أنه يحرم الجهر له بالقول» لم تردا في (د، ش) في هذا المكان بل ذكرتا قبيل آخر هذا القسم.

أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لقد هبط علي ملك من السماء ما هبط على نبي قبلي، ولا يهبط على أحد بعدي، وهو إسرافيل، فقال: أنا رسول ربك إليك أمرني أن أخبرك إن شئت نبياً عبداً، وإن شئت نبياً ملكاً، فنظرت إلى جبريل فأومأ إلي أن تواضع، فلو أني قلت نبياً ملكاً، لسارت الجبال معي ذهباً.

[سيد ولد آدم]

● ومنها أنه سيد ولد آدم، رواه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة)، وعند الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وببيدي لواء الحمد ولا فخر)^(١).

وإنما قال ذلك إخباراً عما أكرمه الله تعالى به من الفضل والسؤدد، وتحدثاً بنعمة الله عنده، وإعلاماً لأمته ليكون إيمانهم به على ١/٢١٠ حسبه وموجبه، ولهذا أتبعه بقوله: «ولا فخر» أي إن هذه الفضيلة/ التي نلتها كرامة من الله، لم أنلها من قبل نفسي، ولا بلغتها بقوتي، فليس لي أن أفتخر بها.

[مغفرة ذنوبه]

● ومنها أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال الله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾^(٢).

(١) ورواه الإمام أحمد، وابن ماجه.

(٢) سورة الفتح، الآية ٢.

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: من خصائصه ﷺ أنه أخبره الله تعالى بالمغفرة ولم ينقل أنه أخبر أحداً من الأنبياء بمثل ذلك، ويدل له قولهم في الموقف: نفسي نفسي.

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية - يعني آية الفتح - لم يشاركه فيها غيره.

وقد أخرج أبو يعلى والطبراني والبيهقي عن ابن عباس قال: إن الله فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء، قالوا: فما فضله على أهل السماء، قال: إن الله تعالى قال لأهل السماء: ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم﴾^(١) وقال لمحمد ﷺ: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ فقد كتب له براءة، قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: إن الله تعالى قال: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾^(٢) وقال لمحمد: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾^(٣)، فأرسله إلى الإنس والجن.

[خاصية «أنه أكرم الخلق» وغيرها]

● ومنها أنه أكرم الخلق على الله، فهو أفضل من كل المرسلين، وجميع الملائكة المقربين، وسيأتي الجواب عن قوله ﷺ في حديث ابن عباس، عند مسلم: (ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى) ونحو ذلك في المقصد السادس إن شاء الله تعالى.

(١) سورة الأنبياء، الآية ٢٩.

(٢) سورة إبراهيم، الآية ٤.

(٣) سورة سبأ، الآية ٢٨.

● ومنها إسلام قرينه. رواه مسلم من حديث ابن مسعود،
والبزار من حديث ابن عباس.

● ومنها أنه لا يجوز عليه الخطأ، كما ذكره ابن أبي هريرة^(١)
والمواردي: وقال قوم: ولا النسيان، حكاه النووي في شرح مسلم.

● ومنها أن الميت يسأل عنه ﷺ في قبره، فعن عائشة أن رسول
الله ﷺ قال: وأما فتنة القبر فبي يفتنون وعني يسألون، فإذا كان
الرجل أجلس، فيقال له ما هذا الرجل الذي كان فيكم؟ فيقول:
محمد رسول الله. الحديث رواه أحمد والبيهقي^(٢).

[تحريم نكاح أمهات المؤمنين]

● ومنها أنه حرم نكاح أزواجه من بعده، قال الله تعالى:
﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾^(٣) أي هن في الحرمة كالأمهات، حرم نكاحهن
عليهن بعده تكرامة له وخصوصية، ولأنهن أزواج له في الآخرة، وهذا
في غير المخيرات، فمن اختارت منهن الدنيا ففي حلها للأزواج
طريقان: أحدهما طرد الخلاف^(٤)، والثاني: القطع بالحل واختاره
الإمام^(٥) والغزالي.

وأزواجه اللاتي توفي عنهن محرمات على غيره أبداً، وفي جواز
النظر إليهن وجهان: أشهرهما المنع، ويثبت لهن حكم الأمومة في

(١) في (أ) هبيرة.

(٢) وفي معناه عند الشيخين.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٦.

(٤) أي الخلاف الآتي في نهاية هذه الفقرة [المحقق].

(٥) أي إمام الحرمين.

احترامهن وطاعتهن وتحريم نكاحهن، لا في جواز الخلوة بهن والنفقة عليهن والميراث. ولا يتعدى ذلك إلى غيرهن فلا يقال بناتهن أخوات للمؤمنين على الأصح.

وقيل: إنما حرمن لأنه ﷺ حي في قبره، ولذا حكى الماوردي أنه لا يجب عليهن عدة الوفاة.

وفي التي فارقتها في الحياة - كالمستعيذة - والتي رأى بكشحتها بياضاً - أوجه: أحدها، يحرم أيضاً، وهو الذي نص عليه الشافعي وصححه في الروضة، لعموم الآية، وليس المراد بمن بعده بعدية الموت، بل بعدية النكاح.

وقيل: لا.

والثالث: وصححه إمام الحرمين والرافعي في الصغير: تحريم المدخول بها فقط، لما روي أن الأشعث بن قيس نكح المستعيذة في زمن عمر، فهم عمر برجمه^(١) فأخبر أنها لم تكن مدخولاً بها فكف.

وفي أمة فارقتها بعد وطئها أوجه ثالثها: تحرم إن فارقتها بالموت - كهارية - ولا تحرم إن باعها في الحياة . انتهى .

[القسم على الله به]

● ومنها ما عده ابن عبد السلام أنه يجوز أن يقسم على الله به^(٢) وليس ذلك لغيره، قال ابن عبد السلام: وهذا ينبغي أن يكون

(١) في (ب، ط): برجمها.

(٢) مثل الشارح لهذا، بما رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم عن عثمان بن حنيف: أن رجلاً أعمى أتى رسول الله ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني . . . =

٢١٠/ب مقصوراً على النبي ﷺ ، لأنه سيد ولد آدم/ ، وأن لا يقسم على الله غيره من الأنبياء والملائكة والأولياء لأنهم ليسوا في درجته ، وأن يكون هذا مما خص به لعلو درجته ومرتبته ، انتهى .

[هل يحرم رؤية أشخاص أمهات المؤمنين؟]

● ومنها أنه يحرم رؤية أشخاص أزواجه في الأزور، وكذا يحرم كشف وجوههن وأكفهن لشهادة أو غيرها، كما صرح به القاضي عياض، وعبارته: فرض الحجاب مما اختصاص به، فهو فرض عليهن بلا خلاف في الوجه والكفين، فلا يجوز لهن كشف ذلك في شهادة ولا غيرها، ولا إظهار شخصوهن وإن كن مستترات، إلا ما دعت إليه ضرورة من براز، ثم استدل بما في الموطأ، أن حفصة لما توفي عمر رضي الله عنه سترها النساء عن أن يرى شخصها، وأن زينب بنت جحش جعلت لها القبة فوق نعشها لتستر شخصها. انتهى .

قال الحافظ ابن حجر: وليس فيما ذكره دليل على ما ادعاه من فرض ذلك عليهن، فقد كن بعد النبي ﷺ يحججن ويطنفن، وكان الصحابة ومن بعدهم يسمعون منهن الحديث وهن مستترات الأبدان لا الأشخاص. انتهى .

وأما حكم نظر غير أزواجه ﷺ ففي الروضة وأصلها عن الأكثرين: جواز النظر إلى وجه حرة كبيرة أجنبية وكفيها إذا لم يخف فتنة، مع الكراهة، وقوة كلام الشيخين: الرافعي والنووي تقتضي رجحانه، وصوبه في «المهات» لتصريح الرافعي في الشرح بأن

= فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويقول: اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة، اللهم إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي .

الأكثرين عليه، لكن نقل ابن العراقي أن شيخه البلقيني قال: الترجيح بقوة المدرك^(١)، والفتوى على ما في المنهاج، وقد جزم به في «التدريب»، وقوة كلام الشرح الصغير تقتضي رجحانه، وعلله باتفاق المسلمين على منع النساء من الخروج سافرات. ونقلا في «الروضة» و«أصلها» هذا الاتفاق وأقراه.

وعورض: بنقل القاضي عياض عن العلماء مطلقاً: أنه لا يجب على المرأة ستر وجهها في الطريق، وإنما هو سنة، وعلى الرجال غض البصر، وحكاه عنه النووي في شرح مسلم وأقره. قاله الشيخ نجم الدين ابن قاضي عجلون في تصحيح المنهاج والله أعلم.

وكان النكاح في حقه ﷺ عبادة مطلقاً، كما قاله السبكي، وهو في حق غيره ليس بعبادة عندنا، بل من المباحات، والعبادة عارضة له.

[خصائص تتعلق ببناته ﷺ]

● ومنها أن أولاد بناته ينسبون إليه، قال ﷺ في الحسن: [إن ابني هذا سيد] رواه أبو يعلى.

● ومنها أن كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلا سببه ونسبه. قال ﷺ: كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي^(٢). والنسب بالولادة والسبب بالزواج.

قيل: إن أمته ينتفعون بالنسبة إليه يوم القيامة بخلاف أمة غيره.

(١) أي الدليل.

(٢) رواه الحاكم والبيهقي.

• ومنها: أنه لا يتزوج على بناته. فعن المسور بن مخرمة أنه سمع رسول الله ﷺ على المنبر يقول: (إن بني هاشم بن المغيرة استأذنونني في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب، فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم، إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما ابنتي بضعة مني يربيني ما رابها، ويؤذي ما آذاها) أخرجه الشيخان، وصححه الترمذي.

وعنه (أن علي بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل، وعنده فاطمة بنت النبي ﷺ، فلما سمعت بذلك فاطمة أتت النبي ﷺ فقالت: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكح ابنة أبي جهل. قال المسور: فقال النبي ﷺ فسمعتة حين تشهد قال: أما بعد، فإني انكحت أبا العاصي بن الربيع، فحدثني فصدقني، وإن فاطمة بنت محمد بضعة مني، وإنما أكره أن يفتنوها، وإنه والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً. قال: فترك علي الخطبة): أخرجه الشيخان.

واسم بنت أبي جهل هذه: جويرية، أسلمت وبايعت، وتزوجها عتاب بن أسيد، ثم أبان بن سعيد بن العاصي.

قال أبو داود: حرم الله تعالى على علي أن ينكح على فاطمة / في حياتها، بقوله عز وجل: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾^(١).

وذكر الشيخ أبو علي السبخي^(٢) في شرح التلخيص: أنه يحرم الزواج على بنات النبي ﷺ، ويحتمل أن يكون ذلك خاصاً بفاطمة

(١) سورة الحشر، الآية ٧.

(٢) أحد علماء الشافعية.

رضي الله عنها، وقد علل ﷺ بأن ذلك يؤذيه، وإذايته ﷺ حرام بالاتفاق، وفي هذا تحريم أذى من يتأذى النبي ﷺ بتأذيه، لأن إيذاء النبي ﷺ حرام اتفاقاً، قليله وكثيره. وقد جزم ﷺ بأنه يؤذيه ما أذى فاطمة، فكل من وقع منه في حق فاطمة شيء فتأذت به فهو يؤذي النبي ﷺ بشهادة هذا الخبر الصحيح.

وقد استشكل اختصاص فاطمة بذلك، مع أن الغيرة على النبي ﷺ أقرب إلى خشية الافتتان في الدين، ومع ذلك فكان ﷺ يستكثر من الزوجات، وتوجد منهن الغيرة، ومع ذلك ما راعى ﷺ ذلك في حقهن، كما راعاه في حق فاطمة؟

وأجيب: بأن فاطمة كانت إذ ذاك فاقدة من تركز إليه ممن يؤنسها ويزيل وحشتها من أم أو أخت، بخلاف أمهات المؤمنين، فإن كل واحدة منهن كانت ترجع إلى من يحصل لها معه ذلك، وزيادة عليه وهو زوجهن ﷺ لما كان عنده من الملاطفة وتطيب القلوب وجبر الخواطر، بحيث إن كل واحدة منهن ترضى منه لحسن خلقه وجميل خلقه بجميع ما يصدر منه، بحيث لو وجد ما يخشى وجوده من الغيرة لزال عن قرب.

[لا اجتهاد في محراب نبوي]

● ومنها: أنه لا يجتهد في محراب صلى إليه يمناً ولا يسرة، وأفتى شيخ الإسلام أبو زرعة ابن العراقي في شخص امتنع من الصلاة إلى محراب النبي ﷺ وقال: أنا أجتهد وأصلي، بأنه إن فعل ذلك مع الاعتراف بأنه على ما كان في زمن النبي ﷺ فهو ردة، وإن ذكر تأويلاً بأن قال: ليس هو الآن على ما كان عليه في زمنه ﷺ بل غير عما كان

عليه، فهذا سبب اجتهادي، لم يحكم بردته، وإن لم يكن هذا التأويل صحيحاً.

[من رآه في المنام رآه حقاً]

● ومنها أن من رآه في المنام فقد رآه حقاً فإن الشيطان لا يتمثل به.

وفي رواية مسلم (من رآني في المنام فسيراني في اليقظة أو لكأنا رآني في اليقظة، لا يتمثل الشيطان بي)^(١).

قال الحافظ ابن حجر: ووقع عند الإسماعيلي: (فقد رآني في اليقظة) بدل قوله (فسيراني) ومثله عند ابن ماجه وصححه الترمذي من حديث ابن مسعود.

وفي رواية أبي قتادة - عند مسلم أيضاً - (من رآني فقد رأى الحق).

وله أيضاً من حديث جابر (من رآني في المنام فقد رآني، فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتمثل في صورتي) وفي رواية (من رآني في المنام فقد رآني فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتشبه بي).

وفي حديث أبي سعيد عند البخاري (فإن الشيطان لا يتكونني)^(٢) أي لا يتكون كوني، فحذف المضاف ووصل المضاف إليه بالفعل.

(١) رواه مسلم في كتاب الرؤيا رقم الحديث ١١ وكذا الأحاديث الأخرى لمسلم بعد هذا الحديث.

(٢) رواه البخاري برقم ٦٩٩٧.

وفي حديث أبي قتادة عند البخاري (لا يترأى بي)^(١) بالراء،
بوزن يتعاطى، ومعناه: لا يستطيع أن يتمثل بي، يعني أن الله تعالى
وإن أمكنه من التصور في أي صورة أراد فإنه لم يمكنه من التصور في
صورة النبي ﷺ .

وقد ذهب إلى هذا جماعة، فقالوا في الحديث: إن محل ذلك إذا
رآه الرائي على صورته التي كان عليها، ومنهم من ضيق الذرع في
ذلك حتى قال: لا بد أن يراه على صورته التي قبض عليها، حتى
يعتبر عدد الشعرات البيض التي لم تبلغ عشرين شعرة.

وعن حماد بن زيد قال: كان محمد - يعني ابن سيرين - إذا قص
عليه رجل أنه رأى النبي ﷺ قال: صف الذي رأيته، فإن وصف له
صفة لا يعرفها قال: لم تره، وسنده صحيح.

وقد أخرج الحاكم من طريق عاصم بن كليب: حدثني أبي قال:
قلت لابن عباس، رأيت النبي ﷺ / في المنام، قال: صفه لي، قال: ٢١١/ب
فذكرت الحسن بن علي فشبهته به، قال: قد رأيته، وسنده جيد.

لكن يعارضه: ما أخرجه ابن أبي عاصم من وجه آخر عن أبي
هريرة قال قال رسول الله ﷺ: (من رأى في المنام فقد رأى، فإني
أرى في كل صورة) وفي سننه ابن التوأمة وهو ضعيف لاختلاطه، وهو
من رواية من سمع منه بعد الاختلاط.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: رؤيته ﷺ بصفته المعلومة
إدراك على الحقيقة، ورؤيته على غير صفته إدراك للمثال، فإن
الصواب أن الأنبياء لا تغيرهم الأرض، ويكون إدراك الذات الكريمة
حقيقة، وإدراك الصفات إدراك المثال.

(١) رواه البخاري برقم ٦٩٩٥.

قال: وقد شد بعض القدرية فقال: الرؤيا لا حقيقة لها أصلاً.

قال وقوله: «فسيراني» معناه فسيري تفسير ما رأى، لأنه حق وغيب، وأما قوله: «فكأنما رأني» فهو تشبيه ومعناه: أنه لو رأني في اليقظة لطابق ما رآه في المنام، فيكون الأول حقاً وحقيقة، والثاني حقاً وتمثيلاً.

قال: وهذا كله إذا رآه على صورته المعروفة، فإن رآه على خلاف صفة فهي أمثال. فإن رآه مقبلاً عليه مثلاً فهو خير للرائي، وعلى العكس فبالعكس.

وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بقوله «فقد رأني» أو «فقد رأى الحق» أن من رآه على صورته المعروفة في حياته كانت رؤياه حقاً، ومن رآه على غير صورته كانت رؤيا تأويل، انتهى.

وتعقبه النووي فقال: هذا ضعيف، بل الصحيح أنه يراه حقيقة سواء كانت على صفة المعروفة أو غيرها، انتهى.

وتعقبه شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر فقال: لم يظهر لي من كلام القاضي عياض ما ينافي ذلك، بل ظاهر قوله أنه يراه حقيقة في الحالين، لكن في الأولى تكون الرؤيا مما لا يحتاج إلى تعبير، والثانية: مما يحتاج إلى التعبير.

وقال بعضهم؛ معناه، أن من رآه على صورته التي كان عليها^(١). ويلزم من قول من قال: «إنه لا تكون رؤيته إلا على صورته

(١) كذا في جميع النسخ ومنها الشرح، والجملة غامضة. وهي في فتح الباري المنقول عنه: «معناه أن من رآه على صورته التي كان عليها» ٣٨٤/١٢ [المحقق].

المعلومة» أن من رآه على غير صفته أن تكون رؤياه من أضغاث الأحلام. ومن المعلوم أنه يرى في النوم على حالة بخلاف حالته في الدنيا من الأحوال اللائقة به، ولو تمكن الشيطان من التمثيل بشيء مما كان عليه أو ينسب إليه لعارض عموم قوله: (فإن الشيطان لا يتمثل بي). فالأولى أن ننزه رؤياه، وكذا رؤيا شيء منه، أو مما ينسب إليه عن ذلك، فإنه أبلغ في الحرمة، وأليق بالعصمة، كما عصم من الشيطان في يقظته.

فالصحيح في تأويل هذا الحديث: أن مقصوده أن رؤيته في كل حالة ليست باطلة ولا أضغاثاً، بل هي حق في نفسها، ولو رؤي على غير صورته، فتصور تلك الصورة ليس من الشيطان، بل هو من قبل الله، وهذا قول القاضي أبي بكر الطيب وغيره. ويؤيده قوله «فقد رأى الحق» أشار إليه القرطبي.

وقال ابن بطال: قوله: «فسيراني في اليقظة» يريد تصديق تلك الرؤيا في اليقظة وصحتها وخروجها على الحق، وليس المراد أنه يراه في الآخرة، لأنه سيراه يوم القيامة في اليقظة جميع أمته، من رآه في النوم ومن لم يره.

وقال المازري: إن كان المحفوظ «فكأنما رأني في اليقظة» فمعناه ظاهر، وإن كان المحفوظ «فسيراني في اليقظة» احتمال أن يكون أراد أهل عصره ممن لم يهاجر إليه، فإنه إذ رآه في المنام جعل ذلك علامة على أنه يراه بعد ذلك في اليقظة، وأوحى الله بذلك إليه ﷺ.

وقيل معناه: سيرى تأويل تلك الرؤيا في اليقظة وصحتها.

وأجاب القاضي عياض: باحتمال أن تكون رؤياه له في النوم على الصفة التي عرف بها، ووصف عليها، موجبة لتكريمته في الآخرة، وأن

١/٢١٢ يراه رؤية خاصة/ من القرب منه، أو الشفاعة له، بعلو الدرجة ونحو ذلك من الخصوصيات. قال: ولا يبعد أن يعاقب الله بعض المذنبين في القيامة بمنع رؤية نبيه ﷺ مدة.

وحمله ابن أبي جمرة على محمل آخر، فذكر عن ابن عباس أو غيره، أنه رأى النبي ﷺ في النوم، فبقي بعد اليقظة متفكراً في هذا الحديث، فدخل على بعض أمهات المؤمنين - لعلها خالته ميمونة - فأخرجت له المرآة التي كانت للنبي ﷺ فنظر فيها صورة النبي ﷺ ولم ير صورة نفسه.

وقال الغزالي: ليس معنى قوله: «فقد رأني» أنه رأى جسمي وبدني وإنما المراد أنه رأى مثلاً صار ذلك المثال آلة يتأدى بها المعنى الذي في نفسي إليه، وكذلك قوله: «فسيراني في اليقظة» ليس المراد أنه يرى جسمي وبدني. قال: والآلة تارة تكون حقيقية وتارة تكون خيالية، والنفوس غير المثال المتخيل، فما رآه من الشكل ليس هو روح المصطفى ﷺ ولا شخصه بل هو مثال له على التحقيق. قال: ومثل ذلك من يرى الله تعالى في المنام، فإن ذاته تعالى منزهة عن الشكل والصورة، ولكن تنتهي تعريفاته تعالى إلى العبد بواسطة مثال محسوس من نور أو غيره، ويكون ذلك المثال آلة حقاً في كونه واسطة في التعريف، فيقول الرائي: رأيت الله عز وجل في المنام، لا يعني أني رأيت ذات الله تعالى، كما يقول في حق غيره.

وقال الغزالي أيضاً في بعض فتاويه: من رأى الرسول - يعني في المنام - لم ير حقيقة شخصه المودع روضة المدينة، وإنما رأى مثاله لا شخصه، ثم قال: وذلك المثال مثال روحه المقدسة عن الصورة والشكل.

وقال الطيبي: المعنى من رأني في المنام بأي صفة كنت فليبشر وليعلم أنه قد رأني الرؤيا الحق، أي رؤية الحق لا الباطل، وكذا قوله: «فقد رأني» فالشرط والجزاء إذا اتحدا دل على الغاية في الكمال، أي فقد رأني رؤيا ليس بعدها شيء.

والحاصل من الأجوبة:

أنه على التشبيه والتمثيل ويدل عليه قوله «فكأنما رأني في اليقظة».

ثانيها: معناه، سيرى في اليقظة تأويلها بطريق الحقيقة.

ثالثها: أنه خاص بأهل عصره ممن آمن به قبل أن يراه.

رابعها: المراد أنه يراه في المرأة التي كانت له إن أمكنه ذلك، قال شيخ مشايخنا الحافظ ابن حجر: وهذا من أبعد المحامل.

خامسها: أنه يراه يوم القيامة بمزيد خصوصية، لا مطلق من رآه حينئذ ممن لم يره في المنام.

والصواب كما قدمناه في رؤيته ﷺ التعميم، على أي حالة رآه الرائي بشرط أن يكون على صورته الحقيقية في وقت ما، سواء كان في شبابه أو رجوليته أو كهوليته، أو آخر عمره، وقد يكون لما خالف ذلك تعبير يتعلق بالرائي، كما قال بعض علماء التعبير: إن من رآه شيخاً فهو غاية سلم، ومن رآه شاباً فهو غاية حرب.

وقال أبو سعيد^(١) أحمد بن محمد بن نصر: من رأى نبياً على حاله وهيئته فذلك دليل على صلاح الرائي وكمال جاهه وظفره بمن

(١) كذا في النسخ، وفي فتح الباري المنقول عنه: سعد.

عاداه، ومن رآه متغير الحال عابساً مثلاً فذلك دال على سوء حال الرائي .

وقال العارف ابن أبي جمرة: من رآه في صورة حسنة فذاك حسن في دين الرائي، وإن كان في جارحة من جوارحه شين أو نقص فذلك خلل في الرائي من جهة الدين. قال: وهذا هو الحق. وقد جرب ذلك فوجد على هذا الأسلوب، وبه تحصل الفائدة الكبرى في رؤياه حتى يتبين للرائي هل عنده خلل أو لا؟ لأنه ﷺ نوراني مثل المرأة الصقيلة، ما كان في الناظر إليها من حسن أو غيره تصور فيها، وفي ذاتها على أحسن حال لا نقص فيها، كذلك/ يقال في كلامه ﷺ في النوم: أنه يعرض على سنته، فما وافقها فهو حق، وما خالفها فالخلل في سمع الرائي، فرؤيا الذات الكريمة حق، والخلل إنما هو في سمع الرائي له أو بصره، قال: وهذا غير ما سمعته في ذلك، انتهى^(١).

وقال بعضهم: ليست رؤيته ﷺ رؤيا عين، إنما يرى بالبصائر، وذلك لا يستدعي حصر المرئي بل يرى من المشرق إلى المغرب ومن الأرض إلى العرش، كما ترى الصورة في المرأة المحاذية لها، وليست الصورة منتقلة إلى جرم المرأة، وعين الناظر مقابلة جميع الكائنات كالمرأة.

واختلاف رؤيته ﷺ بأن يراه بعضهم شيخاً وآخر شاباً، وآخر ضاحكاً وآخر باكياً، يرجع إلى [حال]^(٢) الرائي، كاختلاف الصورة

(١) كل ما سبق في هذا البحث عن فتح الباري بتقديم وتأخير ٣٨٣/١٢ - ٣٨٩ [المحقق].

(٢) في ط.

الواحدة في مرآتي مختلفة الأشكال والمقادير، ففي الكبيرة يرى وجهه كبيراً، وفي الصغيرة صغيراً، وفي المعوجة معوجاً، وفي الطوية طويلاً، إلى غير ذلك، فالاختلاف راجع إلى اختلاف أشكال المرآتي، لا إلى وجه الرائي.

كذلك الراؤون له ﷺ أحوالهم بالنسبة إليه مختلفة، فمن رآه متبسماً إليه دل على أن الرائي متمسك بستته، والله أعلم.

وقد أجاب الشيخ بدر الدين الزركشي عن سؤال رؤية جماعة له ﷺ في آن واحد من أقطار متباعدة، مع أن رؤيته ﷺ حق: بأنه ﷺ سراج، ونور الشمس في هذا العالم، مثال نوره في العوالم كلها، وكما أن الشمس يراها كل من في المشرق والمغرب في ساعة واحدة وبصفات مختلفة فكذلك النبي ﷺ، والله در القائل:

كالبدر من أي النواحي جئته يهدي إلى عينيك نوراً ثاقباً

[رؤيته ﷺ في اليقظة؟!]

وأما رؤيته ﷺ في اليقظة بعد موته ﷺ فقال شيخنا^(١): لم يصل إلينا ذلك عن أحد من الصحابة، ولا عن من بعدهم.

وقد اشتد حزن فاطمة عليه ﷺ حتى ماتت كمدماً بعده بستة أشهر - على الصحيح - وبيتها مجاور لضريحه الشريف، ولم ينقل عنها رؤيته في المدة التي تأخرت عنه^(٢).

(١) أي السخاوي.

(٢) أحسن المصنف صنفاً حين بدأ هذا البحث بهذه المقدمة، فهو يؤكد أن هذا الأمر لم يحدث في الجيل الأول الذي هو خير القرون، ولم يحدث لابنته ﷺ =

وإنما حكى بعض الصالحين حكايات عن أنفسهم، كما هو في «توثيق عرى الإيمان» للبارزي و«بهجة النفوس» لأبي محمد عبدالله بن جمرة، و«روض الرياحين» للعفيف الياضي، وغيره من تصانيفه، والشيخ صفى الدين بن أبي المنصور في رسالته.

وعبارة ابن أبي جمرة: قد ذكر عن السلف والخلف إلى هلم جراً عن جماعة كانوا يصدقون بهذا الحديث يعني (من رآني في المنام فسيراني في اليقظة) أنهم رأوه ﷺ في النوم فأروه بعد ذلك في اليقظة، وسألوه عن أشياء كانوا منها متشوشين فأخبرهم بتفريجها، ونص لهم على الوجوه التي منها يكون فرجها، فجاء الأمر كذلك بلا زيادة ولا نقص.

ثم قال: والمنكر لهذا لا يخلو إما أن يكون ممن يصدق بكرامات الأولياء، أو لا، فإن كان الثاني فقد سقط البحث معه، فإنه مكذب ما أثبتته السنة بالدلائل الواضحة، وإن كان الأول فهذه منها، لأن الأولياء يكشف لهم بخرق العادة في أشياء في العالمين العلوي والسفلي عديدة مع التصديق بذلك^(١).

وقال الشيخ ابن أبي المنصور في رسالته، ويقال: إن الشيخ أبا

= التي هي أحب الناس إليه والتي هي أكثر الناس شوقاً له، ولذا فهي غير واردة بالنسبة لغيرهم [المحقق].

(١) أورد المصنف بعد قليل ما أورده ابن حجر - رحمه الله - في فتح الباري من الرد على ابن أبي جمرة، وبين فساد هذا الرأي.

أقول: وأما قول ابن أبي جمرة: «إن منكر ذلك يكون مكذباً لما أثبتته السنة بالدلائل الواضحة» فهذا القول غير دقيق، إذ ليس من الضروري لمن آمن بكرامات الأولياء أن يصدق كل ما قيل في هذا الصدد. بل المطلوب الإيمان بوجودها جملة، لا بأنواعها ولا بأفرادها. [المحقق].

العباس القسطلاني دخل مرة على النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : أخذ الله بيدك يا أحمد.

وعن الشيخ أبي السعود قال: كنت أزور شيخنا أبا العباس وغيره من صلحاء مصر فلما انقطعت واشتغلت وفتح علي، لم يكن لي شيخ إلا النبي ﷺ ، وأنه كان يصافحه عقب/ كل صلاة.

1/213

وقال الشيخ أبو العباس الحرار: دخلت على النبي ﷺ مرة فوجدته يكتب مناشير الأولياء بالولاية، قال: وكتب لأخي محمد معهم منشوراً، فقلت يا رسول الله، ما تكتب لي كأخي؟ قال: أتريد أن تكون فمهراً. وهذه لغة أندلسية، تعني طريفاً، وفهم عنه أن له مقاماً غير هذا.

وقال حجة الإسلام الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال»: وهم - يعني أرباب القلوب - في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد. انتهى.

ورأيت في كتاب المنح الإلهية في مناقب السادة الوفاية عن سيدي علي بن سيدي محمد وفا أنه قال في بعض مشاهدته: كنت وأنا ابن خمس سنين أقرأ القرآن على رجل يقال له الشيخ يعقوب، فأتيته يوماً فرأيت إنساناً يقرأ عليه سورة ﴿والضحى﴾ وصحبته رفيق له وهو يلوي شذقيه بالإمالة، ورفيقه يضحك إعجاباً، فرأيت النبي ﷺ يقظة لا مناماً وعليه قميص أبيض قطن، ثم رأيت القميص علي فقال لي: اقرأ فقرأت عليه سورة ﴿والضحى﴾ و﴿ألم نشرح﴾ ثم غاب عني، فلما بلغت إحدى وعشرين أحرمت بصلاة الصبح بالقرافة فرأيت النبي ﷺ قبالة وجهي فعانقني فقال لي: وأما بنعمة ربك فحدث، فأوتيت لسانه من ذلك الوقت. انتهى (1).

(1) هذا الخبر وما قبله ينطبق عليها قول «الأهدل» الذي سيذكره المصنف: =

وأما ما حكاه الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في «لطائف المنن» عن الشيخ أبي العباس المرسى، أنه كان مع الشيخ أبي الحسن الشاذلي بالقيروان في ليلة الجمعة سابع عشري رمضان، فذهب معه إلى الجامع . . الحكاية، إلى أن قال: ورأيت رسول الله ﷺ وهو يقول: يا علي طهر ثيابك من الدنس تحط بمدد الله في كل نفس الخ، فيحتمل أن يكون مناماً.

وكذلك قول الشيخ قطب الدين القسطلاني: كنت أقرأ على أبي عبدالله محمد بن عمر بن يوسف القرطبي بالمدينة النبوية، فجئته يوماً في وقت خلوة، وأنا يومئذ حديث السن فخرج إلي وقال لي: من أدبك بهذا الأدب؟ وعاب علي، قال: فذهبت وأنا منكسر الخاطر، فدخلت المسجد وقعدت عند قبر النبي ﷺ، فبينما أنا جالس على تلك الحال، فإذا بالشيخ قد جاءني وقال: قم، فقد جاء فيك شفيع لا يرد.

ونحوه: ما حكاه السهروردي في «عوارف المعارف» عن الشيخ عبد القادر الكيلاني أنه قال: ما تزوجت حتى قال لي رسول الله ﷺ: تزوج.

وحكي عن السيد نور الدين الإيجي، والد السيد عفيف الدين، أنه في بعض زيارته للنبي ﷺ سمع جواب سلامه من داخل القبر الشريف: عليك السلام يا ولدي.

وقال البدر حسن بن الأهدل في مسألة الرؤية له: إن وقوعها للأولياء قد تواترت بأجناسها الأخبار، وصار العلم بذلك قوياً، انتفى عنه الشك، ومن تواترت عليه أخبارهم لم يبق له شبهة فيه، ولكن

= « . . . وقد يرى مناماً أو في غيبة حس، فيظنه يقظة، وقد يرى خيلاً ونوراً فيظنه الرسول، وقد يلبس عليه الشيطان، فيجب التحرز. » [المحقق].

يقع لهم ذلك في بعض غيبة حسّ وغموض طرف، لورود حالة لا تكاد تضبطها العبارة. ومراتبهم في الرؤية متفاوتة، وكثيراً ما يغلط فيها رواتها، فقل ما تجد رواية متصلة صحيحة عمن يوثق به. وأما من لا يوثق به فقد يكذب، وقد يرى مناماً، أو في غيبة حس، فيظنه يقظة، وقد يرى خيلاً ونوراً فيظنه الرسول، وقد يلبس عليه الشيطان فيجب التحرز في هذا الباب.

وبالجملة:

فالقول برؤيته ﷺ بعد موته بعين الرأس في اليقظة يدرك فساده بأوائل العقول، لاستلزامه خروجه ﷺ من قبره، ومشيه في الأسواق ومخاطبته للناس ومخاطبتهم له، وخلو قبره عن جسده المقدس، فلا يبقى منه فيه/ شيء، وبحيث يزار مجرد القبر، ويسلم على غائب. ٢١٣/ب
أشار إلى ذلك القرطبي في الرد على القائل: بأن الرائي له في المنام راءٍ حقيقة، ثم يراه كذلك في اليقظة.

قال: وهذه جهالات لا يقول بشيء منها من له أدنى مسكة من المعقول، وملتزم شيء من ذلك مختل مخبول.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: وشذ بعض الصالحين فزعم أنها تقع بعيني الرأس حقيقة.

وقال في فتح الباري - بعد أن ذكر كلام ابن أبي جمرة -: وهذا مشكل جداً، ولو حمل على ظاهره لكان هؤلاء صحابة، ولأمكن بقاء الصحبة إلى يوم القيامة^(١).

وللشيخ مسلم شيخ الطائفة المسلمية شعر:

(١) من قوله وبالجملة: منقول عن فتح الباري ١٢/٣٨٤ - ٣٨٥ [المحقق].

فمن يدعي في هذه الدار أنه يرى المصطفى حقاً فقد فاه مشتطاً
ولكن بين النوم واليقظة التي يياشر هذا الأمر مرتبة وسطا
وقد جعل القاضي أبو بكر بن العربي القول بأن الرؤية في المنام
بعيني الرأس غلو وحمافة، ثم حكى ما نسب لبعض المتكلمين، وهو
القول بأنها مدركة بعينين في القلب، وأنه ضرب من المجاز^(١).
انتهى .

فلا يمتنع من الخواص، أرباب القلوب القائمين بالمراقبة والتوجه
على قدم الخوف، بحيث لا يسكنون بشيء مما يقع لهم من الكرامات،
فضلاً عن التحدث بها لغير ضرورة، مع السعي في التخلص من
الكدورات، والإعراض عن الدنيا وأهلها جملة، وكون الواحد منهم
يود أنه يخرج من أهله وماله، وأنه يرى النبي ﷺ، كالشيخ عبد
القادر الكيلاني: أن يتمثل صورته ﷺ في خاطره ويتصور في عالم سره
أنه يكلمه، بشرط استقرار ذلك وعدم اضطرابه، فإن تنزل أو
اضطرب كان لمة من الشيطان، وليس ذلك خادشاً في علو مناصبهم
لعدم عصمة غير الأنبياء .

فقد قال العلامة التاج ابن السبكي في جمع الجوامع - تبعاً
لغيره - : وإن الإلهام ليس بحجة لعدم ثقة من ليس معصوماً بخواطره،
وحينئذٍ فمن قال - ممن حكينا عنه أو غيرهم - بأن المرئي هو المثال، لا
يتمتع حمله على هذا، بل حمل كل من أطلق عليه هو اللائق. وقريب
منه قوله ﷺ : (إني رأيت الجنة والنار) مع مزيد استبعاده هناك أن
يكون المراد بالرؤية رؤية العلم .

(١) أورد المصنف هذا القول وكأنه يقول: إذا قيل ذلك في رؤيا المنام فما بالك
برؤية اليقظة؟!

ويحكى عن الشيخ أبي العباس المرسي أنه قال: لو حجب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما عدت نفسي من المسلمين^(١).

وعلى هذا فيكون معنى «فسيراني في اليقظة» أي يتصور مشاهدتي وتنزل نفسه حاضراً معي بحيث لا يخرج عن آدابه وسنته ﷺ بل يسلك منهاجه ويمشي على شريعته وطريقته. ومنه قوله ﷺ في الإحسان: (أن تعبد الله كأنك تراه) ويحمل العموم في «من رأني» على الموفقين، وإليه يشير قول بعض المعتمدين: أي من رأني رؤية معظم لحرمتي ومشتاق لمشاهدتي وصل إلى رؤية محبوبه وظفر بكل مطلوبه.

وقريب منه قول شارح المصابيح: أو يراه في الدنيا حالة الذوق والانسلاخ عن العوائق الجسمانية، كما نقل ذلك عن بعض الصالحين أنه رآه في حالة الذوق والشوق، وقد قال الأهدل عقب الحكاية عن الشيخ أبي العباس المرسي: وهذا فيه تجوز يقع مثله في كلام الشيوخ، وذلك أن المراد أنه لم يحجب حجاب غفلة ونسيان لدوام المراقبة واستحضارها في الأعمال والأقوال، ولم يرد أنه لم يحجب عن الروح الشخصية طرفة عين، فذلك مستحيل، والله أعلم. انتهى.

[التسمي باسمه ﷺ]

● وما اختص به ﷺ أن التسمي باسمه ميمون ونافع في الدنيا والآخرة.

(١) إن صح الخبر - بغض النظر عن شرحه الذي بعده - أليس فيه من المبالغة ما فيه؟ فإن الصحابة رضي الله عنهم لم يستطيعوا أن يكونوا على حال واحدة، كما ورد ذلك عن حنظلة في صحيح مسلم حيث قال له الرسول ﷺ: (ولكن يا حنظلة ساعة وساعة) كتاب التوبة رقم الحديث ١٢ [م]

روينا عن / أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: يوقف عبدان بين يدي الله تعالى فيؤمر بهما إلى الجنة فيقولان؛ ربنا بما استأهلنا الجنة ولم نعمل عملاً تجازينا به الجنة؟ فيقول الله تعالى: ادخلا الجنة، فإني آليت على نفسي أن لا يدخل النار من اسمه أحمد ولا محمد^(١).

وروى أبو نعيم عن نبيط بن شريط قال قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى: وعزتي وجلالي، لا عذبت أحداً تسمى باسمك في النار. وعن علي بن أبي طالب قال: ما من مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه أحمد أو محمد إلا قدس الله ذلك المنزل كل يوم مرتين، رواه أبو منصور الديلمي.

وليس لأحد أن يتكنى بكنيته «أبي القاسم» سواء كان اسمه محمداً أم لا، ومنهم: من كره الجمع [بين الاسم والكنية]^(٢)، وجوز الأفراد، ويشبه أن يكون هو الأصح.

قال النووي في هذه المسألة مذاهب: الشافعي منع مطلقاً، وجوزه مالك، والثالث: يجوز لمن ليس اسمه محمداً، ومن جوز مطلقاً خص النهي بحياته، وهو الأقرب. انتهى.

(١) جاء في حديث أبي أمامة مرفوعاً (من ولد له مولود فسماه محمداً حباً لي وتبركاً باسمي كان هو ومولوده في الجنة) قال السيوطي: هذا أمثل حديث ورد في هذا الباب واسناده حسن. ونازعه تلميذه الشامي فقال: وليس كذلك، ففي سننه أبو الحسين حامد بن حماد العسكري شيخ ابن بكير فيه، قال في اللسان كالميزان: خبره هذا موضوع.

وحديث أنس أخرجه أبو الطاهر السلفي، وابن بكير في جزئه من طريق حميد الطويل.

(٢) في ش.

[خصائص تتعلق بقراء الحديث]

● ومنها أنه يستحب الغسل لقراءة حديثه والتطيب، ولا ترفع عنده الأصوات، بل تخفض، كما في حياته إذا تكلم، فإن كلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه الشريف، وأن يقرأ على مكان مرتفع.

روينا عن مطرف قال: كان الناس إذا أتوا مالكا - رحمه الله - خرجت إليهم الجارية فتقول: يقول لكم الشيخ: تريدون الحديث أو المسائل، فإن قالوا المسائل خرج إليهم في الوقت، وإن قالوا الحديث، دخل مغتسله فاغتسل وتطيب ولبس ثياباً جديداً وتعمم ولبس ساجه، - والساج: الطيلسان - وتلقى له منصة فيخرج ويجلس عليها، وعليه الخشوع، ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ، ولم يكن يجلس على تلك المنصة إلا إذا حدث.

قال ابن أبي أويس: فقليل له في ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ ولا أحدث به إلا على طهارة متمكناً. ويقال: إنه أخذ ذلك عن سعيد بن المسيب.

وقد كره قتادة ومالك وجماعة التحديث على غير طهارة، حتى كان الأعمش إذا كان على غيرها تيمم.

ولا شك أن حرمة ﷺ وتعظيمه وتوقيره بعد مماته وعند ذكره، وذكر حديثه وسماع اسمه وسيرته كما كان في حياته، والله أعلم.

● ومنها: أنه يكره لقارئ حديثه أن يقوم لأحد، قال ابن الحاج في «المدخل»: لأنه قلة أدب مع النبي ﷺ وقلة احترام وعدم مبالاة أن يقطع حديثه لأجل غيره، فكيف لبدعة، وقد كان السلف لا يقطعون

حديثه ولا يتحركون وإن أصابهم الضر في أبدانهم ويتحملون المشقة التي تنزل بهم إذ ذاك احتراماً لحديث نبيهم ﷺ .

وحسبك ما وقع لمالك - رحمه الله - في لسع العقرب سبع عشرة مرة، وهو لم يتحرك، وتحمله للسعا توقيراً لجناب حديثه ﷺ أن يكون يقرأ وهو يتحرك لضر أصابه، مع أنه معذور فيها وقع، فكيف بالحركة والقيام إذ ذاك لا لضرورة بل للبدعة، لا سيما إذا انضاف إلى ذلك ما لا ينبغي من الكلام المعتاد. انتهى ملخصاً.

● ومنها أن قراء حديثه لا تزال وجوههم نضرة، وأن قراء حديثه اختصوا بالتلقيب بالحفاظ، وأمراء المؤمنين من بين سائر العلماء^(١).

[خصائص تتعلق بصحته ﷺ]

● ومنها أنه تثبت الصحبة لمن اجتمع به ﷺ لحظة، بخلاف التابعي مع الصحابي، فلا تثبت إلا بطول الاجتماع معه على الصحيح ٢١٤ ب/ عند أهل الأصول، والفرق / عظم منصب النبوة ونورها، فبمجرد ما يقع بصره على الأعرابي الجلف ينطق بالحكمة.

● ومنها أن أصحابه كلهم عدول، لظواهر الكتاب والسنة، فلا يبحث عن عدالة أحد منهم، كما يبحث عن سائر الرواة. قال الله تعالى خطاباً للموجودين حينئذٍ: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾^(٢) أي عدولاً، وقال ﷺ: (لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق

(١) وقعت هذه الفقرة في (أ، ط) بعد التي تليها، ولكن مكانها في بقية النسخ أنسب. [المحقق].

(٢) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه^(١)، وقال ﷺ: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)^(٢) في آيات كثيرة وأحاديث تقتضي القول بتعديلهم.

ولذلك: أجمع من يعتد به على ذلك، سواء في التعديل من لابس الفتنة منهم وغيره، لوجوب حسن الظن بهم، حملاً للملابس على الاجتهاد، ونظراً إلى ما تمهد لهم من المآثر، من امثال أوامره ﷺ، وفتحهم الأقاليم، وتبليغهم عنه الكتاب والسنة، وهدايتهم الناس، ومواظبتهم على الصلوات والزكوات وأنواع القربات، مع الشجاعة والبراعة والكرم والأخلاق الحميدة التي لم تكن في أمة من الأمم المتقدمة، ولا تكون لأحد بعدهم مثلهم في ذلك. كل ذلك بحلول نظره ﷺ.

● وأفضلهم عند أهل السنة إجماعاً: أبو بكر ثم عمر، وأما بعدهما: فالجمهور على أنه عثمان ثم علي. وسيأتي مزيد لذلك إن شاء الله تعالى في المقصد السابع.

[وجوب تلبية دعائه ولو في الصلاة]

● ومنها أن المصلي يخاطبه بقوله؛ السلام عليك أيها النبي، ولا يخاطب غيره.

● ومنها أنه كان يجب على من دعاه وهو في الصلاة أن يجيبه، ويشهد له حديث أبي سعيد بن المعلى: كنت أصلي في المسجد، فدعاني

(١) أخرجه الشيخان وأصحاب السنن.

(٢) رواه الشيخان وغيرهما.

رسول الله ﷺ فلم أجبه.. الحديث، وفيه: ألم يقل الله تعالى: ﴿استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾^(١)، فإجابته فرض، يعصي المرء بتركها.

وهل تبطل صلاته أم لا؟ صرح جماعة من أصحابنا الشافعية وغيرهم: أنها لا تبطل، وفيه بحث لاحتمال أن تكون إجابته واجبة مطلقاً، سواء كان المخاطب مصلياً أو غير مصلي. أما كونه يخرج بالإجابة من الصلاة أو لا يخرج فليس في الحديث ما يستلزمه، فيحتمل أن تجب الإجابة ولو خرج المجيب من الصلاة، وإلى ذلك جنح بعض الشافعية، والله أعلم.

[الكذب عليه ليس كالكذب على غيره]

• ومنها: أن الكذب عليه ليس كالكذب على غيره، ومن كذب عليه لم تقبل روايته أبداً وإن تاب، فيما ذكره جماعة من المحدثين.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن رجل عن سعيد بن جبير أن رجلاً كذب على النبي ﷺ، فبعث علياً والزبير وقال: إذهبا فإن أدركتماه فاقتلاه.

ولهذا حكى إمام الحرمين عن أبيه أن من تعمد الكذب على رسول الله ﷺ يكفر.

لكن لم يوافق أحد من الأئمة على ذلك. والحق أنه فاحشة عظيمة وموبقة كبيرة ولكن لا يكفر بها إلا إن استحله. وقال النووي: لم أر له في أصل المسألة دليلاً، ويجوز أن يوجه بأن ذلك جعل تغليظاً

(١) الحديث رواه البخاري. والآية من سورة الأنفال رقمها ٢٤.

وزجراً بليغاً عن الكذب عليه ﷺ لعظم مفسدته فإنه يصير شرعاً مستمراً إلى يوم القيامة بخلاف الكذب على غيره والشهادة، فإن مفسدتها قاصرة ليست عامة.

ثم قال: وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة ضعيف، يخالف للقواعد الشرعية. والمختار القطع بصحة توبته وقبول روايته بعدها إذا صحت توبته بشروطها المعروفة.

قال: فهذا هو الجاري على قواعد الشرع، وقد أجمعوا على صحة رواية من كان كافراً فأسلم، قال: وأجمعوا على قبول شهادته، ولا فرق بين الشهادة والرواية في هذا.

قال شيخنا: ويمكن أن يقال: فيما إذا كان كذبه في وضع حديث وحمل عنه ودون أن الإثم غير منفك عنه بل هو لاحق له أبداً، فإن من سن سنة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، والتوبة/ حينئذٍ متعذرة ظاهراً وإن وجد مجرد اسمها.

١/٢١٥

[العصمة من الذنوب والجنون..]

● ومنها أنه معصوم من الذنوب كبيرها وصغيرها، عمدتها وسهوها وكذلك الأنبياء..

● ومنها أنه لا يجوز عليه الجنون لأنه نقص، ولا الإغماء الطويل الزمن، فيما ذكره الشيخ أبو حامد في تعليقه، وجزم به البلقيني في حواشي الروضة، وكذلك الأنبياء.

ونبه السبكي على أن إغماءهم يخالف إغماء غيرهم، وإنما هو غلبة الأوجاع للحواس الظاهرة دون القلب، لأنه قد ورد أنه إنما تنام

أعينهم دون قلوبهم، فإذا حفظت قلوبهم وعصمت من النوم الذي هو أخف من الإغماء، فمن الإغماء بطريق الأولى.

قال السبكي: ولا يجوز عليهم العمى، لأنه نقص، ولم يعم نبي قط. وأما ما ذكر عن شعيب أنه كان ضريراً فلم يثبت، وأما يعقوب فحصلت له غشاوة وزالت، انتهى.

قال الرازي: في قوله تعالى: ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾^(١) لما قال: ﴿يا أسفى على يوسف﴾ غلبه البكاء، وعند غلبة البكاء يكثر الماء في العين، فتصير العين كأنها ابيضت من بياض ذلك الماء، وقوله: ﴿وابيضت عيناه من الحزن﴾ كأنه من غلبة البكاء، والدليل على صحة هذا القول: أن تأثير الحزن في غلبة البكاء، لا في حصول العمى، فلما حملنا الابيضاض على غلبة البكاء كان هذا التعليل حسناً، ولو حملناه على العمى لم يحسن هذا التعليل، فكان ما ذكرناه أولى.

ثم قال: واختلفوا، فقال بعضهم: إنه كان قد عمي بالكلية، فالله تعالى جعله بصيراً في هذا الوقت، وقال آخرون: بل كان قد ضعف بصره من كثرة البكاء والأحزان بحيث صار يدرك إدراكاً ضعيفاً، فلما ألقوا القميص على وجهه وبشر بحياة يوسف عظم فرحه وانشرح صدره وزالت أحزانه، فعند ذلك قوى بصره وزال النقصان عنه. انتهى.

[حكم من انتقصه أو سبه]

ومنها أن من سبه ﷺ أو انتقصه قتل.

(١) سورة يوسف، الآية ٨٤.

واختلف هل يتحتم قتله في الحال، أو يوقف على استتابته؟ وهل الاستتابة واجبة أم لا؟

فمذهب المالكية: يقتل حداً لاردة: ولا تقبل توبته ولا عذره إن ادعى سهواً أو غلطاً، وعبرة شيخهم العلامة خليل في مختصره: وإن سب نبياً أو ملكاً، وإن عرض أو لعنه، أو عابه أو قذفه، أو استخف بحقه، أو غير صفته، أو ألحق به نقصاً وإن في دينه أو خصلته أو غض من مرتبته أو وفور علمه أو زهده أو أضاف له ما لا يجوز عليه، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم، أو قيل له: بحق رسول الله، فلعن وقال أردت العقرب قتل - ولم يستتب - حداً، إلا أن يسلم الكافر، وإن ظهر أنه لم يرد ذمه لجهل أو سكر أو تهور.

وهذا ذكره القاضي عياض في الشفاء وغيره، واستدلوا له بالكتاب والسنة والإجماع:

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً﴾^(١)، واللعنة من الله هي إبعاد الملعون عن رحمته وإحلاله في وبيل عقوبته، قال القاضي عياض: وإنما يستوجب اللعن من هو كافر، وحكم الكافر القتل.

والأذى: هو الشر الخفيف، فإن زاد كان ضرراً، كذا قاله الخطابي وغيره. وإطلاق الأذى في حقه تعالى إنما هو على سبيل المجاز لتعذر الحقيقة فيه. ويشهد لذلك الحديث الإلهي (يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني)^(٢) وهذا بخلاف جانب الرسول ﷺ.

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٧.

(٢) رواه مسلم في كتاب البر برقم ٥٥.

فالأذي في حقه تعالى وحق رسوله كفر بشهادة هذه الآية، لأن العذاب المهين إنما يكون للكفار، وكذلك العذاب الأليم.

وقال تعالى: ﴿قل أبا لله وآياته ورسوله كتتم تستهزئون، لا تعتذروا قد كفرتم بعد أيمانكم﴾^(١) قال القاضي عياض: قال أهل التفسير: كفرتم بقولكم في رسول الله ﷺ.

٢١٥/ب وأما السنة: / فروى أبو داود والترمذي: أن رسول الله ﷺ قال: (من لنا بابن الأشرف) وفي أخرى (من لكعب بن الأشرف) أي من يتدب لقتله (فقد استعلن بعداوتنا وهجائنا) وفي رواية (فإنه يؤذي الله ورسوله).

قال القاضي عياض: ووجه إليه من قتله غيلة دون دعوة، بخلاف غيره من المشركين، وعلل بأذاه له، فدل على أن قتله إياه لغير الإشراك بل للأذى.

وفي حديث مصعب بن سعد عند أبي داود: لما كان يوم الفتح أمَّن ﷺ الناس، إلا أربعة نفر فذكرهم ثم قال: وأما ابن سرح فاخْتَبَأَ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله بايع عبد الله فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً، كل ذلك وهو يابئ، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه فقال: ما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين كففت يدي عن بيعته فيقتله، فقالوا: ما ندرى يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا؟ قال: إنه لا ينبغي لني أن تكون له خائنة الأعين.

(١) سورة التوبة، الآية ٦٥.

وفيه: أنه أمر بقتل عبدالله بن خطل، لأن ابن خطل كان يقول الشعر يهجو به النبي ﷺ ويأمر جاريتيه أن تغنيا به، وكذلك قتل جاريتيه^(١).

قالوا: فقد ثبت أنه أمر بقتل من آذاه، ومن تنقَّصه، والحق له ﷺ وهو مخير فيه، فاختار القتل لعدم الإطلاع على العفو، وليس لأمته بعده أن يسقطوا حقه ﷺ، فإنه لم يرد عنه الإذن في ذلك.

وأما الإجماع: فقال القاضي عياض: أجمعت الأمة على قتل منتقصه من المسلمين وسابه، فقال ابن المنذر: أجمع عوام أهل العلم على أن من سب النبي ﷺ يقتل، ومن قال ذلك: مالك بن أنس والليث وأحمد وإسحاق، وهو مذهب الشافعي، وقال الخطابي: لا أعلم أحداً من المسلمين اختلف في وجوب قتله إذا كان مسلماً. وقال محمد بن سحنون: أجمع العلماء على أن شاتم النبي ﷺ المنتقص له كافر، والوعيد جار عليه بعذاب الله وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر. انتهى.

ومذهب الشافعية: أن ذلك ردة، تخرج من الإسلام إلى الكفر، فهو مرتد كافر قطعاً لا نزاع في ذلك عند الجمهور من أئمتنا، والمرتد يستتاب، فإن تاب وإلا قتل.

وفي الاستتابة قولان: أصحابها وجوبها، لأنه كان محترماً بالإسلام، وإنما عرضت له شبهة، فينبغي إزالتها، وقيل: تستحب لأنه غير مضمون الدم، فإن قلنا بالأول فتجب في الحال ولم يؤجل كغيره. وفي الصحيح حديث (من بدل دينه فاقتلوه)^(٢) وفي قول: يمهل

(١) قال الشارح، الصواب أن إحداها قتلت: وأسلمت الثانية.

(٢) رواه البخاري عن ابن عباس.

ثلاثة أيام، فإن لم يتب وأصر - رجلاً كان أو امرأة - قتل، وإن أسلم صح إسلامه وترك لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾^(١) الآية .

وعن ابن عباس قال: أيما مسلم سب الله أو سب أحداً من الأنبياء فقد كذب رسول الله ﷺ وهي ردة يستتاب منها، فإن تاب وإلا قتل، وأيما معاهد سب الله أو سب أحداً من أنبيائه فقد نقض العهد فاقتلوه .

وأجيب عما تقدم من أدلة المالكية:

فأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية فليس فيه إلا كفر مؤذيه ﷺ ، وأما كونه يقتل بعد التوبة والإسلام فلا دلالة فيه أصلاً، وأما ابن خطل فإنما قتل ولم يستتب للكفر والزيادة فيه بالأذى مع ما اجتمع فيه من موجبات القتل، ولأنه اتخذ الأذى ديدنا، ١/٢١٦ فلا يقاس عليه/ من فرط منه فرطة - وقلنا بكفره بها - وتاب ورجع إلى الإسلام، فالفرق واضح . وكذلك قتل جاريتيه لأنها جعلتا ذلك ديدنا مع ما قام بهما من صفة الكفر.

وقد روى البزار عن ابن عباس أن عقبة بن أبي معيط نادى: يا معشر قريش مالي أقتل من بينكم صبراً . فقال له النبي ﷺ : بكفرك وافترائك على رسول الله . فذكر له سببين في تحتم قتله، وهذا في غاية الظهور .

وأما قول الخطابي وغيره: «لا أعلم أحداً من المسلمين اختلف في وجوب قتله إذا كان مسلماً» فمحمول على التقييد بعدم التوبة .

وأما سياق القاضي عياض لقصة الرجل الذي كذب على رسول

(١) سورة التوبة، الآية ٥ .

الله ﷺ ، وأنه بعث علياً والزبير ليقتلاه، فليس يفيد غرضاً في هذا المقام، لأن الظاهر أن هذا كذب، فيه إفساد وفتنة بين المؤمنين، لا سيما إن كان كافراً، فيكون من محاربي الله ورسوله، مع السعي في الأرض بالفساد، فيكون متحتم القتل، وإلا فليس مطلق الكذب عليه مما يوجب القتل.

وكذا سياقه حديث ابن عباس: هجت امرأة من خطمة^(١) النبي ﷺ ، فقال: من لي بها، فقال رجل من قومها: أنا يا رسول الله فنهض فقتلها فأخبر النبي ﷺ بذلك فقال: «لا ينتطح فيها عزان» أي لا يجري فيها خلف ولا نزاع، فإن في هذه الحكاية ونظائرها نظراً واضحاً لقيام الكفر بالمحكي عنهم والزيادة منهم، وقد أخبر ﷺ أنه لا عصمة لأحد من الناس بعد دعواهم إلى الإسلام إلا بالإسلام، فكل منهم مهدر الدم إلا من عصم الله منهم بالإسلام. وإنما النافع له في مقام الاستدلال ذكر من طرأ عليه من المسلمين وصمة الارتداد بالسب على القول بكونه ردة، فرجع إلى الإسلام وتاب. هذا هو محل النزاع وموضع الاستدلال لكل من المتنازعين.

وأما ذكر كافر أصلي بلغته دعوة النبي ﷺ وامتنع من إجابته وحاربه بيده ولسانه فلا نزاع في إهدار دمه قطعاً، لا سيما وقد نقل عن هذه المرأة الكافرة أنها كانت تعيب الإسلام، وتؤذي النبي ﷺ وتحرض عليه، فاجتمع فيها موجبات القتل إجماعاً.

فقد تبين مما ساقه القاضي عياض أن أمره ﷺ بقتل سابه إنما نقل عن الكفرة، ولم ينقل أنه ﷺ قتل مسلماً بسبه، وإنما كان ذلك في

(١) هي عصماء بنت مروان اليهودية نسبت إلى بني خطمة لكونها زوج يزيد بن زيد الصحابي الخطمي.

أهل الكفر والعناد، فلو نقل فلا يتعين كونه حداً، لاحتمال أن يكون قتله كفراً، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^(١) فأعلمنا أن ما وراء الشرك في حيز إمكان المغفرة، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾^(٢).

فإن قلت: هذا بالنظر إلى ظلم النفس وحقوق الله تعالى لا بالنظر إلى حقوق العباد، لأن حقوق الله تعالى مبنية على المسامحة، وحقوق العباد مبنية على المشاحة. وهذا في حق النبي ﷺ وليس لنا أن نسقطه لأنه لم يرد إذنه في ذلك بخلافه هو ﷺ فإن له ذلك.

فالجواب: لا بد لنا من نص على ذلك منه ﷺ، كأن يقول مثلاً: من سبني فاقتلوه، ولا تقبلوا له توبة ولا رجوعاً عن سبه، فإن نقل اتباعناه، ثم إنه من جهة النظر ينبغي إلحاق حقوق رسول الله ﷺ بحقوق الله، فكما أن حقوقه تعالى مبناه على المسامحة، كذلك حقوقه ﷺ، فإنه متخلق بأخلاق الله تعالى^(٣).

[وجوب الدفاع عنه]

٢١٦/ب • وما عد من خصائصه / أنه إذا قصده ظالم وجب على من حضره أن يبذل نفسه دونه حكاة النووي في زيادة الروضة عن جماعة من الأصحاب.

(١) سورة النساء، الآية ٤٨.

(٢) سورة الزمر، الآية ٥٣.

(٣) كما أشارت عائشة إلى ذلك بقولها: (كان خلقه القرآن).

[يخص من شاء بما شاء]

● ومن خصائصه ﷺ أنه كان ﷺ يخص من شاء بما شاء من الأحكام.

كجعله شهادة خزيمة^(١) بشهادة رجلين. روى أبو داود عن عمارة ابن خزيمة بن ثابت عن عمه وكان من أصحاب رسول الله ﷺ أن النبي ﷺ ابتاع من أعرابي فرساً، فاستتبعه ليقبضه ثمن الفرس، فأسرع النبي ﷺ المشي، وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي يساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن رسول الله ﷺ قد ابتاعه، حتى زادوا على ثمنه.. الحديث فطفق الأعرابي يقول هلمّ شهيداً يشهد أنني قد بعثك، فمن جاء من المسلمين يقول ويلك، إن النبي ﷺ لم يكن ليقول إلا الحق، حتى جاء خزيمة بن ثابت فاستمع المراجعة فقال: أنا أشهد أنك قد بايعته... الحديث. وفيه، قال: فجعل النبي ﷺ شهادة خزيمة برجلين.

وفي البخاري من حديث زيد بن ثابت قال: فوجدتها مع خزيمة الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادتين.

وعند الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ اشترى من أعرابي فرساً، فجحده الأعرابي، فجاء خزيمة فقال: يا أعرابي أنا أشهد عليك أنك بعته، فقال الأعرابي إذ شهد خزيمة فأعطني الثمن، فقال رسول الله ﷺ يا خزيمة إنا لم نشهدك، كيف تشهد؟ قال: أنا أصدقك على خبر السماء، ألا أصدقك على خبر ذا الأعرابي؟! فجعل رسول الله ﷺ يقول: شهادته

(١) خزيمة بن ثابت الأنصاري، من كبار الصحابة شهد بدرًا وقتل مع علي بصفين سنة سبع وثلاثين.

بشهادة رجلين، فلم يكن في الإسلام من تعدل شهادته شهادة رجلين غير خزيمة.

قال الخطابي: هذا الحديث حملة كثير من الناس على غير محمله، وتذرع به قوم من أهل البدع إلى استحلال الشهادة لمن عرف عندهم بالصدق على كل شيء ادعاه، وإنما وجه الحديث أنه ﷺ حكم على الأعرابي بعلمه، وجرت شهادة خزيمة مجرى التوكيد لقوله، والاستظهار على خصمه، فصار في التقدير بشهادة اثنين في غيرها من القضايا، انتهى.

ومن ذلك ترخيصه في النياحة لأم عطية، روى مسلم عنها «قالت: لما نزلت هذه الآية ﴿يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً... ولا يعصينك في معروف﴾^(١) قالت: كان منه النياحة، فقلت يا رسول الله إلا آل فلان فإنهم كانوا أسعدوني^(٢) في الجاهلية، فلا بد لي من أن أسعدهم، فقال إلا آل فلان». قال النووي: هذا محمول على الترخيص لأم عطية في آل فلان خاصة، وللشارع أن يخص من العموم ما شاء.

ومن ذلك: ترك الإحداد لأسماء بنت عميس، أخرج ابن سعد عن أسماء بنت عميس قالت: لما أصيب جعفر بن أبي طالب، قال لي رسول الله ﷺ: تسلي^(٣) ثلاثاً ثم اصنعي ما شئت.

(١) سورة الممتحنة، الآية ١٢.

(٢) الإسعاد: قيام المرأة مع الأخرى في المناحة تراسلها، أي تساعدها، وهو خاص بهذا المعنى.

(٣) التسلب: امتناع المرأة من الزينة بعد موت زوجها، وفي نسخة: تسلي - فإن صحت - فالمعنى تصبري أي صبري نفسك على الإحداد.

ومن ذلك: الأضحية بالعناق^(١) لأبي بردة بن نيار، رواه الشيخان من حديث البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر فقال: (من صلى صلاتنا ونسك^(٢)) نسكنا فقد أصاب السنة، ومن نسك قبل الصلاة فتلك شاة لحم، فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله، لقد نسكت قبل أن أخرج إلى الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم أكل وشرب فتعجلت وأكلت وأطعمت أهلي وجيراني، فقال رسول الله ﷺ: تلك شاة لحم، قال: فإن عندي عناقاً جذعة هي خير من شاتي لحم فهل تجزي عني؟ قال: نعم ولن تجزي عن أحد بعدك).

«نيار» بكسر النون/ وتخفيف المثناة التحتية وآخره راء. ١/٢١٧

وقوله «تجزي» بفتح أوله غير مهموز، أي تقضي.
و«الجذع» بالجيم والذال المعجمة.

وفي هذا الحديث تخصيص أبي بردة بإجزاء الجذع من المعز في الأضحية.

ولكن وقع في عدة أحاديث التصريح بنظر ذلك لغير أبي بردة، ففي حديث عقبة بن عامر - عند البيهقي -: ولا رخصة فيها لأحد بعدك. قال البيهقي: إن كانت هذه الزيادة محفوظة كان هذا رخصة لعقبة كما رخص لأبي بردة.

قال الحافظ ابن حجر: وفي هذا الجمع نظر، لأن في كل منهما صيغة عموم، فأيهما تقدم على الآخر اقتضى انتفاء الوقوع للثاني، ويحتمل أن تكون خصوصية الأول نسخت بثبوت الخصوصية للثاني، ولا مانع من ذلك، لأنه لم يقع في السياق استمرار المنع لغيره صريحاً.

(١) العناق: الأنتى من ولد المعز قبل استكمالها الحول.

(٢) نسك: أي ضحى، والنسك: العبادة.

وفي كلام بعضهم: أن الذين ثبتت لهم الرخصة أربعة أو خمسة، واستشكل الجمع وليس بمشكل، فإن الأحاديث التي وردت في ذلك ليس فيها التصريح بالنفي إلا في قضية أبي بردة في الصحيح، وفي قصة عقبة بن عامر عند البيهقي، وأما ما عدا ذلك: فأخرج أبو داود وصححه ابن حبان من حديث زيد بن خالد أن النبي ﷺ أعطاه عتوداً^(١) جذعاً، فقال: ضح به، فقلت إنه جذع أفأضحى به؟ قال: ضح به. وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس أنه ﷺ أعطى سعد بن أبي وقاص جذعاً من المعز فأمره أن يضحى به. وأخرجه الحاكم من حديث عائشة، وفي سنده ضعف.

فلا منافاة بين ذلك وحديثي أبي بردة وعقبة، لاحتمال أن يكون ذلك في ابتداء الأمر، ثم تقرر الشرع بأن الجذع من المعز لا يجزي، واختص أبو بردة، وعقبة بالرخصة في ذلك.

وإن تعذر الجمع بين حديث أبي بردة وحديث عقبة، فحديث أبي بردة أصح مخرجاً. وإن كان حديث عقبة عند البيهقي من مخرج الصحيح والله أعلم.

ومن ذلك: انكاح ذلك الرجل بما معه من القرآن، فيما ذكره جماعة، وورد به حديث مرسل أخرجه سعيد بن منصور عن أبي النعمان الأزدي، قال: زوج رسول الله ﷺ امرأة على سورة من القرآن وقال: لا يكون لأحد بعدك مهراً.

[خصائص تتعلق بمرضه وموته وقبره]

• ومنها أنه كان يوعك كما يوعك رجلان لمضاعفة الأجر.

(١) العتود: الجذع من المعز ابن خمسة أشهر.

● ومنها أن جبريل أرسل إليه ثلاثة في مرضه يسأله عن حاله، ذكره البيهقي وغيره.

● ومنها: أنه صلى عليه الناس أفواجاً أفواجاً بغير إمام، وبغير دعاء الجنائز المعروف ذكره البيهقي وابن سعد وغيرهما، وترك بلا دفن ثلاثة أيام كما سيأتي، وفرش له في لحده ﷺ قطيفة، والأمران مكروهان في حقنا، وأظلمت الأرض بعد موته كما سيأتي.

● ومنها: أنه لا يبلى جسده، وكذلك الأنبياء، رواه أبو داود وابن ماجه.

● ومنها: أنه لا يورث، ف قيل لبقائه على ملكه، وقيل لمصيره صدقة، وبه قطع الروياني، ثم حكى وجهين في أنه هل يصير وقفاً على ورثته؟ وأنه إذا صار وقفاً هل هو الواقف؟ وجهان

قال النووي في زيادات الروضة: الصواب الجزم بزوال ملكه، وأن ما تركه صدقة على المسلمين، لا يختص به الورثة. انتهى.

وقال في الشرح الصغير: المشهور أنه صدقة.

وذكر الرافعي في قسم الفياء أن الخمس كان له ﷺ ينفق منه على نفسه ومصالحه، ولم يكن يملكه ولا ينتقل إلى ورثته.

وقال في باب الخصائص: إنه ملكه، ويجمع بينهما: بأن لجهة الإنفاق مادتين: مملوكة وغير مملوكة، والخلاف جار في إحدهما. انتهى والله أعلم /

ب/٢١٧

وعلى هذا، فيباح له أن يوصي بجميع ماله للفقراء، ويمضي ذلك بعد موته بخلاف غيره فإنه لا يمضي مما أوصى به إلا الثلث بعد موته.

وكذلك الأنبياء لا يورثون، لما رواه النسائي من حديث الزبير مرفوعاً (إنا معاشر الأنبياء لا نورث) وعلى هذا فيجاب عن قوله تعالى: ﴿وورث سليمان داود﴾^(١) وقوله: ﴿فهب لي من لدنك ولياً يرثني﴾^(٢) بأن المراد إرث النبوة والعلم.

[حي في قبره]

ومنها: أنه حي في قبره^(٣)، ويصلي فيه بأذان وإقامة وكذلك الأنبياء، ولهذا قيل: لا عدة على أزواجه.

وقد حكى ابن زبالة^(٤)، وابن النجار أن الأذان ترك في أيام الحرة^(٥) ثلاثة أيام وخرج الناس، وسعيد بن المسيب في المسجد، قال سعيد: فاستوحشت فدنوت إلى القبر فلما حضرت الظهر سمعت الأذان في القبر فصليت الظهر، ثم مضى ذلك الأذان والإقامة في القبر لكل صلاة حتى مضت الثلاث ليال، ورجع الناس وعاد المؤذنون فسمعت أذانهم كما سمعت الأذان في قبر النبي ﷺ، انتهى.

(١) سورة النمل، الآية ١٦.

(٢) سورة مريم، الآية ٦.

(٣) جاء في الحديث عند أبي يعلى والبيهقي مرفوعاً (الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون)، وروى أحمد ومسلم والنسائي أنه ﷺ قال: (مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكتيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره).

(٤) محمد بن الحسن بن زبالة المخزومي، كذبوه، ومات قبل المائتين.

(٥) موقعة حصلت بظاهر المدينة بين أهل المدينة وبين عسكر يزيد بن معاوية سنة ثلاث وستين بسبب خلع أهل المدينة يزيد.

وفي البخاري أن هذه الفتنة لم تبق من أصحاب الحديدية أحداً.

وقد ثبت أن الأنبياء يحجون ويلبون .

فإن قلت: كيف يصلون ويحجون ويلبون وهم أموات في الدار الآخرة، وليست دار عمل؟

فالجواب: أنهم كالشهداء، بل أفضل منهم، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، فلا يبعد أن يحجوا ويصلوا، أو نقول: إن البرزخ ينسحب عليه حكم الدنيا في استكثارهم من الأعمال وزيادة الأجور، وأن المنقطع في الآخرة إنما هو التكليف، وقد تحصل الأعمال من غير تكليف على سبيل التلذذ بها، ولهذا ورد أنهم يسبحون ويقرؤون القرآن^(١)، ومن هذا سجود النبي ﷺ وقت الشفاعة.

وقد قال صاحب «التلخيص»^(٢): إن ماله ﷺ بعد موته قائم على نفقته وملكه، وعده من خصائصه.

ونقل إمام الحرمين عنه أن ما خلفه بقي على ما كان في حياته، فكان ينفق منه أبو بكر على أهله وخدمه، وكان يرى أنه باق على ملك النبي ﷺ . فإن الأنبياء أحياء، وهذا يقتضي إثبات الحياة في أحكام الدنيا، وذلك زائد على حياة الشهيد.

والذي صرح به النووي: زوال ملكه ﷺ وأن ما تركه صدقة على جميع المسلمين لا يختص به ورثته.

فإن قلت: القرآن ناطق بموته ﷺ ، قال الله تعالى: ﴿إنك ميت

(١) أي أهل الآخرة في الجنة، كما في مسلم مرفوعاً (إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس).

(٢) أي: ابن القاص.

وإنهم ميتون ﴿١﴾، وقال ﷺ: (إني امرؤ مقبوض)، وقال الصديق: فإن محمداً قد مات، وأجمع المسلمون على إطلاق ذلك.

فأجاب الشيخ تقي الدين السبكي، بأن ذلك الموت غير مستمر، وأنه ﷺ أحيى بعد الموت، ويكون انتقال الملك ونحوه مشروطاً بالموت المستمر، وإلا فالحياة الثانية حياة أخروية، ولا شك أنها أعلى وأكمل من حياة الشهداء، وهي ثابتة للروح بلا إشكال، وقد ثبت أن أجساد الأنبياء لا تبلى، وعود الروح إلى الجسد ثابت في الصحيح لسائر الموق فضلاً عن الشهداء، فضلاً عن الأنبياء، وإنما النظر في استمرارها في البدن، وفي أن البدن يصير حياً كحالته في الدنيا، أو حياً بدونها، وهي حيث شاء الله تعالى، فإن ملازمة الروح للحياة أمر عادي لا عقلي، فهذا مما يجوزه العقل، فإن صح به سمع أتبع، وقد ذكره جماعة من العلماء.

ويشهد له: صلاة موسى في قبره، فإن الصلاة تستدعي جسداً حياً، وكذلك الصفات المذكورة في الأنبياء ليلة الإسراء، كلها صفات الأجسام، ولا يلزم من كونها حياة حقيقة أن تكون الأبدان معها كما كانت في الدنيا من الاحتياج إلى الطعام والشراب وغير ذلك من صفات الأجسام التي نشاهدها بل يكون لها حكم آخر، فليس في ١/٢١٨ العقل / ما يمنع إثبات الحياة الحقيقية لهم.

وأما الإدراكات كالعلم والسمع فلا شك أن ذلك ثابت لهم بل ولسائر الموق، حكاه الشيخ زين الدين المراغي، وقال: إنه مما يعزز وجوده وفي مثله فليتنافس المتنافسون.

(١) سورة الزمر، الآية ٣٠.

[تبليغه سلام أمته]

ومنها: أنه وكل بقبره ملك يبلغه صلاة المصلين عليه. رواه أحمد والنسائي والحاكم وصححه بلفظ «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام» وعند الأصبهاني عن عمارة، «إن لله ملكاً أعطاه الله سمع العباد كلهم، فما من أحد يصلي علي إلا أبلغنيها».

وتعرض أعمال أمته عليه، ويستغفر لهم، روى ابن المبارك عن سعيد بن المسيب «ليس من يوم إلا وتعرض على النبي ﷺ أعمال أمته غدوة وعشيماً فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم».

[المنبر النبوي على الحوض]

ومنها: أن منبره ﷺ على حوضه كما في الحديث^(١) وفي رواية^(٢): «ومنبري على ترعة من ترع الجنة» وأصل الترعة الروضة على المكان المرتفع خاصة، فإذا كان في المطمئن فهي روضة. ولم يختلف أحد من العلماء أنه على ظاهره وأنه حق محسوس موجود، فإن القدرة صالحة لا عجز فيها، وكل ما أخبر به الصادق ﷺ من أمور الغيب فالإيمان به واجب.

[الروضة الشريفة]

ومنها أن ما بين منبره وقبره روضة من رياض الجنة، رواه البخاري بلفظ (ما بين بيتي ومنبري) وهذا يحتمل الحقيقة والمجاز.

(١) أخرجه الشيخان وأحمد والترمذي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :

(ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي).

(٢) عند النسائي.

أما الحقيقة: فإن يكون ما أخبر عنه ﷺ بأنه من الجنة مقتطعاً منها، كما أن الحجر الأسود منها^(١)، وكذلك النيل والفرات من الجنة^(٢)، وكذلك الثمار الهندية من الورق التي هبط بها آدم عليه السلام من الجنة، فاقترضت الحكمة الإلهية أن يكون في هذه الدار من مياه الجنة، ومن ترابها، ومن حجرها، ومن فواكهها، حكمة حكيم جليل.

وأما المجاز: فبأن يكون من إطلاق اسم المسبب على السبب، فإن ملازمة ذلك المكان للصلاة والعبادة سبب في نيل الجنة، قاله ابن أبي جمرة، وهو معنى قول بعضهم: لكون العبادة فيه تؤول إلى دخول العابد روضة الجنة.

وهذا فيه نظر: إذ لا اختصاص لذلك بتلك البقعة على غيرها.

وفي كتاب «بهجة النفوس» لابن أبي جمرة أيضاً حكاية قول: أن تلك البقعة تنقل بعينها فتكون من الجنة، يعني روضة من رياضها. قال: والأظهر الجمع بين الوجهين مما يعني احتمال كونها تنقل إلى الجنة، وكون العمل فيها يوجب لصاحبه روضة في الجنة، ويأتي مزيد لذلك إن شاء الله تعالى في فصل الزيارة من المقصد الأخير إن شاء الله تعالى.

[أول من ينشق عنه القبر]

ومنها: أنه ﷺ أول من ينشق عنه القبر. وفي رواية مسلم (أنا أول من تنشق عنه الأرض)

(١) قال ﷺ: (الحجر الأسود من الجنة) رواه أحمد والنسائي.

(٢) روى مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً (سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة).

وهو أول من يفيق من الصعقة، قال ﷺ: (أنا أول من يرفع رأسه بعد النفخة فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور) رواه البخاري.

والظاهر أنه ﷺ لم يكن عنده علم بذلك حتى أعلمه الله تعالى، فقد أخبر عن نفسه الكريمة أنه ﷺ أول من ينشق عنه القبر.

وهو أول من يجوز^(١) على الصراط، رواه البخاري من حديث أبي هريرة^(٢).

وأنه يحشر في سبعين ألفاً من الملائكة، كما روي عن كعب الأحبار: ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألف ملك يحفون بقبره ﷺ يضربون بأجنحتهم حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط سبعون ألف ملك، حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يوقرونه ﷺ^(٣). الحديث رواه ابن النجار في تاريخ المدينة.

وأنه يحشر راكب البراق، رواه الحافظ السلفي، كما ذكره الطبري.

ويكسى في الموقف أعظم الحلل من الجنة. رواه البيهقي بلفظ: فأكسى حلة من الجنة لا يقوم لها البشر، ورواه كعب بن مالك بلفظ: يحشر الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل، ويكسوني ربي حلة خضراء، رواه البخاري، وهو عند ابن أبي شيبة بلفظ: يحشر الناس على تل، وأمتي على تل، وعند الطبراني أيضاً حديث/ ابن عمر: ٢١٨

(١) كذا في ط وهو كذلك أيضاً في البخاري، وفي النسخ يميز.

(٢) هو عند البخاري برقم ٨٠٦.

(٣) قال الشارح: وهو من الكتب القديمة، أقول: ونحن في غنى عنها. [م].

فيرقى هو- يعني محمداً ﷺ - وأمته على كوم فوق الناس، وأنه يقوم عن يمين العرش، رواه ابن مسعود عنه ﷺ وفيه: لا يقومه غيره، يغبطه فيه الأولون والآخرون.

[خصائص تتعلق بالموقف يوم القيامة]

● ومنها: أنه يعطى المقام المحمود، قال مجاهد: هو جلوسه ﷺ على العرش، وعن عبدالله بن سلام، على الكرسي، ذكرهما البغوي، وسيأتي ما قيل في ذلك في ذكر تفضيله ﷺ بالمقام المحمود إن شاء الله تعالى.

● ومنها أنه يعطى الشفاعة العظمى في فصل القضاء بين أهل الموقف، حين يفزعون إليه بعد الأنبياء، والشفاعة في إدخال قوم الجنة بغير حساب، وفي رفع درجات ناس في الجنة.

كما جوز النووي اختصاص هذه والتي قبلها به. ووردت الأحاديث به في التي قبل، وسيأتي مزيد لذلك إن شاء الله تعالى في المقصد الأخير، والله المعين.

● ومنها: أنه صاحب لواء الحمد، يوم القيامة، آدم فمن دونه تحته. رواه البزار.

وأنه أول من يقرع باب الجنة. روى مسلم من حديث المختار ابن فلفل عن أنس قال: قال ﷺ: (أنا أكثر الناس تبعاً يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة) وعنده أيضاً عن أنس قال ﷺ: (أني باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن، بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك)، ورواه الطبراني بزيادة فيه، قال: فيقوم الخازن فيقول: لا أفتح لأحد قبلك، ولا أقوم لأحد بعدك، وهذه خصوصية أخرى له

ﷺ وهي : أن خازن الجنة لا يقوم لأحد غيره ﷺ ، فقيامه له ﷺ فيه إظهار لمزيتة ومرتبته ، ولا يقوم لأحد بعده ، بل خزنة الجنة يقومون في خدمته وهو كالمملك عليهم ، وقد أقامه الله تعالى في خدمة عبده ورسوله حتى مشى وفتح له الباب .

● ومنها أنه ﷺ أول من يدخل الجنة ، قال ﷺ : (وأنا أول من يمرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعني فقراء المؤمنين ولا فخر) رواه الترمذي .

- ومن خصائصه ﷺ الكوثر ، نهر في الجنة يسيل من حوضه مجراه على الدر والياقوت ، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج .
- ومنها الوسيلة ، وهي أعلى درجة في الجنة .

[خصائص أمة محمد ﷺ]

[الحكم بشريعة الإسلام]

وأما خصائص أمته ﷺ وزادها شرفاً ، فاعلم أنه لما أنشأ الله سبحانه وتعالى العالم على غاية من الإتقان ، وأبرز جسد نبينا ﷺ للعيان ، وظهرت عنايته بأمته الإنسانية ، بحضوره وظهوره فيها ، وإن كان العالم الإنساني والناري^(١) كله أمته ، ولكن هؤلاء خصوص وصف ، فجعلهم خير أمة أخرجت للناس ، وجعلهم ورثة الأنبياء ، وأعطاهم الاجتهاد في نصب الأحكام ، فيحكمون بما أدى إليه اجتهادهم .

(١) أي عالم الجن .

وكل من دخل في زمان هذه الأمة من الأنبياء بعد نبيها، كعيسى عليه السلام، أو قدر دخوله كالخضر، فإنه لا يحكم في العالم إلا بما شرعه محمد ﷺ في هذه الأمة، فإذا نزل سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام فإنما يحكم بشريعة نبينا ﷺ بإلهام أو اطلاع على الروح المحمدي أو بما شاء الله تعالى، فيأخذ عنه ما شرع الله له أن يحكم به في أمته، فلا يحكم في شيء من تحريم وتحليل إلا بما كان يحكم به نبينا ﷺ، ولا يحكم بشريعته التي أنزلت عليه في أوان رسالته ودولته، فهو عليه السلام تابع لنبينا ﷺ. وقد نبه على ذلك الترمذي الحكيم في كتاب ختم الأولياء، وأعرّب عنه صاحب «عنقاء مغرب»^(١)، وكذا ١/٢١٠ الشيخ سعد الدين التفتازاني في شرح عقائد النسفي وصحح/ أنه يصلي بالناس ويؤمهم ويقتدي به المهدي لأنه أفضل منه، فإمامته أولى. انتهى.

فهو عليه الصلاة والسلام وإن كان خليفة في الأمة المحمدية، فهو رسول ونبي كريم على حاله، لا كما يظن بعض الناس أنه يأتي واحداً من هذه الأمة، نعم هو واحد من هذه الأمة لما ذكر من وجوب اتباعه لنبينا ﷺ والحكم بشريعته.

فإن قلت: قد ورد في صحيح مسلم^(٢) قوله ﷺ: (ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية) وأن الصواب في معناه: أنه لا يقبل الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام أو القتل، وهذا خلاف ما هو حكم الشرع اليوم، فإن

(١) «عنقاء مغرب» اسم كتاب ألفه الشيخ محيي الدين بن عربي الطائفي

الأندلسي، مات بدمشق سنة ست وثلاثين وستمائة.

(٢) وكذا رواه البخاري.

الكتابي إذا بذل الجزية وجب قبولها ولم يجوز قتله ولا إكراهه على الإسلام، وإذا كان كذلك، فكيف يكون عيسى عليه السلام حاكماً بشريعة نبينا ﷺ؟

فالجواب: أنه لا خلاف أن عيسى عليه السلام إنما ينزل حاكماً بهذه الشريعة المحمدية ولا ينزل نبياً برسالة مستقلة^(١) وشريعة ناسخة، بل هو حاكم من حكام هذه الأمة.

وأما حكم الجزية وما يتعلق بها فليس حكماً مستمراً إلى يوم القيامة، بل هو مقيد بما قبل نزول عيسى، وقد أخبر نبينا ﷺ بنسخه، وليس عيسى عليه السلام هو الناسخ، بل نبينا ﷺ هو المبين للنسخ، فدل على أن الامتناع في ذلك الوقت من قبول الجزية هو شرع نبينا ﷺ. أشار إليه النووي في شرح مسلم.

فإن قلت: ما المعنى في تغيير حكم الشرع عند نزول عيسى عليه السلام في عدم قبول الجزية؟

فأجاب ابن بطال: بأننا إنما قبلناها نحن لاحتياجنا إلى المال^(٢)، وليس يحتاج عيسى عليه السلام عند خروجه إلى مال، لأنه يفيض في أيامه المال حتى لا يقبله أحد، فلا يقبل إلا القتل أو الإيمان بالله وحده. انتهى.

(١) كذا في ش، وفي النسخ: مستقرة.

(٢) هذا الحصر والتعليل غير صحيح، فأخذ الجزية من أهل الكتاب إنما كان تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ سورة التوبة الآية ٢٩، وليس ذلك مرتباً بحاجة المسلمين، وأنهم في حال عدم احتياجهم لا يأخذونها. [المحقق].

وأجاب الشيخ ولي الدين ابن العراقي : بأن قبول الجزية من اليهود والنصارى لشبهة ما بأيديهم من التوراة والإنجيل . وتعلقهم بزعمهم بشرع قديم ، فإذا نزل عيسى عليه السلام زالت تلك الشبهة بحصول معانيته ، فصاروا كعبدة الأوثان في انقطاع شبهتهم وانكشاف أمرهم ، فعملوا معاملتهم في أنه لا يقبل منهم إلا الإسلام ، والحكم يزول بزوال علته . قال وهذا معنى حسن مناسب لم أر من تعرض له . قال : وهذا أولى مما ذكره ابن بطلال . انتهى .

وكذلك من يقول من العلماء بنبوة الخضر ، وأنه باق إلى اليوم ، فإنه تابع لأحكام هذه الملة . وكذلك إلياس على ما صححه أبو عبدالله القرطبي أنه حي أيضاً .

وليس في الرسل من يتبعه رسول له كتاب إلا نبينا ﷺ ، وكفى بهذا شرفاً لهذه الأمة المحمدية زادها الله شرفاً .

[خير أمة أخرجت للناس]

فالحمد لله الذي خصنا بهذه الرحمة ، وأسبغ علينا هذه النعمة ، ومنّ علينا بما عمنا به من الفضائل الجمّة ، ونوّه بنا في كتابه العزيز بقوله : ﴿كنتم خير أمة﴾^(١) ، فتأمل قوله (كنتم) أي في اللوح المحفوظ ، وقيل : كنتم في علم الله .

فينبغي لمن هو من هذه الأمة المحمدية أن يتخلق بالأخلاق الزكية ، ليثبت له ما لهذه الأمة الشريفة من الأوصاف المرضية ، ويتأهل لما لها من الخيرية .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١١٠ .

قال مجاهد: كنتم خير أمة أخرجت للناس إذا كنتم على الشرائط المذكورة، أي: تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر.

وقيل: إنما صارت أمة محمد ﷺ خير أمة لأن المسلمين منهم أكثر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم أفشى.

وقيل: هذا لأصحاب محمد ﷺ، كما قال ﷺ: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)^(١) وهذا يدل على أن أول هذه الأمة أفضل ممن بعدها. وإلى هذا ذهب معظم العلماء.

[فضيلة الصحابة]

وأن من صحبه ﷺ ورآه ولو مرة من عمره أفضل من كل من يأتي بعده، وأن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل، هذا مذهب الجمهور.

وذهب أبو عمر بن عبد البر: إلى أنه قد يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جملة الصحابة، وأن قوله ﷺ: (خير الناس قرني) ليس على عمومته بدليل ما يجمع القرن من الفاضل والمفضول، وقد جمع قرنه ﷺ جماعة من المنافقين المظهرين للإيمان، وأهل الكبائر الذين أقام عليهم وعلى^(٢) بعضهم الحدود، وقد روى أبو أمامة أنه ﷺ قال: طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى سبع مرات لمن لم يرني وآمن بي^(٣).

(١) رواه الشيخان وغيرهما.

(٢) في ط، أو على.

(٣) أخرجه أحمد والبخاري في التاريخ وابن حبان والحاكم.

وفي مسند أبي داود الطيالسي عن محمد بن أبي حميد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فقال: أتدرون أي الخلق أفضل إيماناً؟ قلنا: الملائكة، قال: وحق لهم، بل غيرهم. قلنا: الأنبياء قال: وحق لهم، بل غيرهم، ثم قال ﷺ أفضل: الخلق إيماناً قوم في أصلاب الرجال يؤمنون بي ولم يروني فهم أفضل الخلق إيماناً.

وروي أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة كتب إلى سالم بن عبدالله أن اكتب إلي بسيرة عمر بن الخطاب لأعمل بها، فكتب إليه سالم: إن عملت بسيرة عمر فأنت أفضل من عمر، لأن زمانك ليس كزمان عمر، ولا رجالك كرجال عمر، قال: وكتب إلى فقهاء زمانه فكلهم كتب بمثل قول سالم.

قال أبو عمر: فهذه الأحاديث تقتضي مع تواتر طرقها وحسنها، التسوية بين أول هذه الأمة وآخرها في فضل العمل، إلا أهل بدر والحديبية. ومن تدبر هذا الباب بان له الصواب، والله يؤتي فضله من يشاء. انتهى.

وإسناد حديث أبي داود الطيالسي عن عمر ضعيف فلا يحتاج به، لكن روى أحمد والدارمي والطبراني عن أبي عبيدة - أي ابن الجراح^(١) -: يا رسول الله، أحد خير منا^(٢)؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك؟ قال: قوم يكونون من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني. وإسناده حسن وصححه الحاكم.

والحق ما عليه الجمهور: أن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل

(١) زيادة في ط.

(٢) بتقدير أداة استفهام، أي: هل أحد.

لمشاهدة رسول الله ﷺ ، والدلائل على أفضلية الصحابة على غيرهم كثيرة متظاهرة لا نطيل بذكرها وسيأتي بقية مباحث ذلك في فضل الصحابة من المقصد السابع إن شاء الله تعالى .

[من فضائل أمته ﷺ]

وقد خص الله تعالى هذه الأمة الشريفة بخصائص لم يؤتها أمة قبلهم ، أبان بها فضلهم ، والأخبار والآثار ناطقة بذلك .

فخرج أبو نعيم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن موسى - عليه السلام - لما نزلت عليه التوراة وقرأها ، فوجد فيها ذكر هذه الأمة ، قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون ، فاجعلها أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها ظاهراً فاجعلها أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة يأكلون الفيء فاجعلها أمتي ، قال تلك أمة أحمد^(١) ، قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة يجعلون الصدقة في بطونهم^(٢) يؤجرون عليها فاجعلها أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة وإن عملها كتبت له عشر حسنات فاجعلها أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه ، وإن عملها كتبت سيئة واحدة فاجعلها أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال : يا رب إني أجد في الألواح أمة يؤتون العلم الأول والعلم

(١) فقرة الفيء هذه لم ترد في (ط ، ب ، د) وجاءت في (ش) بعد التي تليها .

(٢) أي ما يصرفون على أنفسهم وأهاليهم .

الأخر، فيقتلون المسيح الدجال، فاجعلها أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: يا رب فاجعني من أمة أحمد، فأعطي عند ذلك خصلتين، فقال: يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين، قال: قد رضيت يا رب.

وروى ابن طغر بك في «النطق المفهوم» عن ابن عباس رفعه: قال موسى: يا رب، فهل في الأمم أكرم عليك من أمتي، ظلت عليهم الغمام، وأنزلت عليهم المن والسلوى، فقال/ (١): سبحانه وتعالى: يا موسى، أما علمت أن فضل أمة محمد على سائر الأمم كفضلي على جميع خلقي؟ قال: يا رب فأرينهم، قال: لن تراهم، ولكن أسمعك كلامهم، فناداهم الله تعالى، فأجابوا كلهم بصوت واحد: لبيك اللهم لبيك، وهم في أصلاب آبائهم وبطون أمهاتهم فقال سبحانه وتعالى: صلاتي عليكم، ورحمتي سبقت غضبي، وعفوي سبق عذابي، استجيب لكم قبل أن تسألوني، فمن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله غفرت له ذنوبه. قال ﷺ: فأراد الله أن يمن علي بذلك فقال: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ (٢) أي أمتك حتى أسمعنا موسى كلامهم.

ورواه قتادة، وزاد: فقال موسى: يا رب، ما أحسن أصوات أمة محمد ﷺ أسمعني مرة أخرى.

(١) هنا انتهى المجلد الأول من المخطوطة (الأصل) وبه ينتهي الترقيم الجامعي - كما ذكرت في المقدمة - ويبدأ المجلد الثاني ونعتمد فيه ترقيم المخطوطة الذي يبدأ بالورقة رقم ٢١٨ ولذا فسوف يكون الرقمان ٢١٨ و٢١٩ مكررين وأشارت إلى ذلك بالحرف م [المحقق].

(٢) سورة القصص، الآية ٤٦.

وفي الحلية لأبي نعيم، عن أنس قال قال رسول الله ﷺ :
أوحى الله إلى موسى، نبئ بني إسرائيل أنه من لقيني وهو جاحد بأحمد
أدخلته النار. قال: يا رب، ومن أحمد؟ قال: ما خلقت خلقاً أكرم
علي منه، كتبت اسمه مع اسمي في العرش قبل أن أخلق السماوات
والأرض، إن الجنة محرمة على جميع خلقي حتى يدخلها هو وأمه،
قال: ومن أمته؟ قال: الحمادون، يمدون صعوداً وهبوطاً وعلى كل
حال. يشدون أوساطهم^(١) ويظهرون أطرافهم، صائمون بالنهار،
رهبان بالليل، أقبل منهم اليسير، وأدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا
الله، قال: اجعلني نبي تلك الأمة، قال: نبيا منها، قال: اجعلني
من أمة ذلك النبي، قال: استقدمت واستأخر، ولكن سأجمع بينك
وبينه في دار الجلال.

وعن وهب بن منبه قال: أوحى الله إلى شعيا: إني باعث نبياً
أمياً، أفتح به أذاناً صماً، وقلوباً غلقاً، وأعيناً عمياً، مولده بمكة،
ومهاجره طيبة، وملكه بالشام، عبدي المتوكل المصطفى المرفوع الحبيب
المنتخب^(٢) المختار، لا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح
ويغفر، رحيماً بالمؤمنين، يبكي للبهيمة المثقلة، ولليتيم في حجر
الأرملة، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب^(٣) في الأسواق، ولا متزين
بالفحش ولا قوال للخنا، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من
سكينته، ولو يمشي على القصب الرعراع^(٤) لم يسمع من تحت قدميه،

(١) أي بالأزر.

(٢) كذا في ش، وفي النسخ: المتجب: قال الشارح في نسخة المتجب وأظنها
تصحيفاً.

(٣) سخاب وسخاب روايتان وهما لغتان.

(٤) أي الطويل.

أبعثه مبشراً ونذيراً.. إلى أن قال: وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس
 أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، وتوحيداً لي، وإيماناً بي، وإخلاصاً لي،
 وتصديقاً لما جاءت به رسلي، وهم رعاة الشمس والقمر^(١)، طوبى
 لتلك القلوب والوجوه والأرواح التي أخلصت لي، ألهمهم التسبيح
 والتكبير والتحميد والتوحيد، في مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم
 ومتقلبهم ومثواهم، ويصفون في مساجدهم كما تصف الملائكة حول
 عرشي، هم أوليائي وأنصاري، أنتقم بهم من أعدائي عبدة الأوثان،
 يصلون لي قياماً وقيوداً وركعاً وسجوداً، ويخرجون من ديارهم وأموالهم
 ابتغاء مرضاتي ألوفاً، ويقاتلون في سبيلي صفوفاً، أختم بكتابتهم الكتب،
 وبشريعتهم الشرائع، وبدينهم الأديان، فمن أدركهم فلم يؤمن
 بكتابتهم، ويدخل في دينهم وشريعتهم فليس مني، وهو مني بريء،
 وأجعلهم أفضل الأمم، وأجعلهم أمة وسطاً شهداء على الناس، إذا
 غضبوا هللوني، وإذا تنازعوا سبحوني، يظهرن الوجوه والأطراف،
 ويشدون الثياب إلى الأنصاف، ويهللون على التلال والأشرف،
 قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم في صدورهم، رهباناً بالليل ليوثاً بالنهار،
 طوبى لمن كان معهم، وعلى دينهم ومنهجهم وشريعتهم، وذلك فضلي
 أوتيته من أشياء، وأنا ذو الفضل العظيم. رواه أبو نعيم.

وقد ذكر الإمام فخر الدين: أن من كانت معجزاته أظهر يكون

٢/م ب ثواب أمته أقل، قال السبكي: إلا/ هذه الأمة، فإن معجزات نبيها
 أظهر وثوابها أكثر من سائر الأمم.

[خصوصية إحلال الغنائم]

ومن خصائص هذه الأمة إحلال الغنائم، ولم تحل لأمة قبلها،

(١) للعبادة والذكر.

وجعلت لهم الأرض مسجداً ولم تكن الأمم تصلي إلا في البيع والكنائس، وجعل لهم ترابها طهوراً وهو التيمم. وفي رواية أبي أمامة عند البخاري: (وجعلت الأرض كلها لي ولأمتي مسجداً وطهوراً) وفي رواية مسلم من حديث حذيفة: (وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها طهوراً إذا لم نجد الماء)^(١).

[خصائص تتعلق بالصلاة]

● ومن خصائص هذه الأمة الوضوء، فإنه لم يكن إلا للأنبياء دون أممهم، ذكره الحلبي، واستدل بحديث البخاري (إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء) لكن قال في فتح الباري: فيه نظر: لأنه ثبت في البخاري قصة سارة - عليها السلام - مع الملك الذي أعطاها هاجر: أن سارة لما همَّ الملك بالدنو منها قامت تتوضأ وتصلي، وفي قصة جريج الراهب أيضاً: أنه قام فتوضأ وصلّى ثم كلم الغلام. فالظاهر أن الذي اختصت به هذه الأمة هو الغرة والتحجيل، لا أصل الوضوء.

وقد صرح بذلك في رواية لمسلم عن أبي هريرة مرفوعاً، قال: (لكم سيما ليست لأحد غيركم) أي علامة. وغاية التحجيل: استيعاب العضدين والساقين والغرة: غسل مقدمات الرأس وصفحة العنق مع الوجه.

● ومنها مجموع الصلوات الخمس، ولم تجمع لأحد غيرهم، أخرج الطحاوي عن عبيدالله بن محمد بن عائشة قال: إن آدم لما تيب عليه عند الفجر صلى ركعتين فصارت الصبح، وفدى إسحاق عند

(١) رواه مسلم في كتاب المساجد برقم ٤.

الظهر، فصلى أربع ركعات فصارت الظهر، وبعث عزيزاً عند العصر، فقيل له: كم لبثت قال: يوماً، فرأى الشمس فقال: أو بعض يوم فصلى أربع ركعات فصارت العصر، وغفر لداود عند المغرب، فقام يصلي أربع ركعات فجهد فجلس في الثالثة فصارت المغرب ثلاثاً. وأول من صلى العشاء الآخرة نبينا ﷺ .

وأخرج أبو داود في سننه، وابن أبي شيبة في مصنفه والبيهقي في سننه عن معاذ بن جبل قال: أخر رسول الله ﷺ صلاة العتمة ليلة حتى ظن الظان أنه قد صلى ثم خرج فقال: أعتموا بهذه الصلاة فإنكم فضلتم بها على سائر الأمم ولم تصلها أمة قبلكم .

● ومنها الأذان والإقامة .

● ومنها البسمة، قاله بعضهم فيما نقله الشيخ شهاب الدين الحلبي النحوي في تفسيره، قال: ولم ينزلها الله على أحد من الأمم قبلنا إلا على سليمان بن داود، فهي مما اختصت به هذه الأمة . انتهى .

● ومنها التأمين، روى الإمام أحمد من حديث عائشة قالت: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ استأذن رجل من اليهود، فذكر الحديث وفيه: أن النبي ﷺ قال: إنهم لم يحسدونا على شيء كما حسدونا على الجمعة التي هدانا الله لها وصلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام أمين .

قال الحافظ ابن حجر: وهذا الحديث غريب لا أعرفه بهذه الألفاظ إلا من هذا الوجه، لكن لبعضه متابع حسن في التأمين، أخرجه ابن ماجه وصححه ابن خزيمة كلاهما من رواية سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن عائشة عن النبي ﷺ قال: ما حسدتنا اليهود على شيء ما حسدتنا على السلام والتأمين .

● ومنها الاختصاص بالركوع، عن علي رضي الله عنه قال:
أول صلاة ركعنا فيها العصر، فقلت: يا رسول الله، ما هذا؟ قال:
بهذا أمرت. رواه البزار والطبراني في الأوسط.

ووجه الاستدلال منه: أنه ﷺ صلى قبل ذلك الظهر، وصلى
قبل فرض الصلوات الخمس قيام الليل، فكون الصلاة السابقة بلا
ركوع قرينة لخلو صلاة/ الأمم السابقة منه. قاله بعض العلماء.

١/٢١٩م

قال: وذكر جماعة من المفسرين في قوله تعالى: ﴿واركعوا مع
الراكعين﴾^(١) أن مشروعية الركوع في الصلاة خاص بهذه الأمة، وأنه
لا ركوع في صلاة بني إسرائيل، ولذا أمرهم بالركوع مع أمة محمد
صلى الله عليه وسلم.

وهذا يعارضه قوله تعالى: ﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي
واركعي مع الراكعين﴾^(٢) المفسر [بأنها]^(٣) أمرت بالصلاة في الجماعة
بذكر أركانها مبالغة في المحافظة عليها.

قالوا: وقدم السجود قبل الركوع إما لكونه كذلك في شريعتهم،
أو للتنبية على أن «الواو» لا توجب الترتيب.

وقيل: المراد بالقنوت إدامة الطاعة، كقوله: ﴿أمن هو قانت آناء
الليل ساجداً وقائماً﴾^(٤) وبالسجود: الصلاة، لقوله: ﴿وأدبار
السجود﴾^(٥)، وبالركوع: الخضوع والإخبات.

(١) سورة البقرة، الآية ٤٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٤٣.

(٣) زيادة في ب.

(٤) سورة الزمر، الآية ٩.

(٥) سورة ق، الآية ٤٠.

● ومنها الصفوف في الصلاة، كصفوف الملائكة، رواه مسلم من حديث حذيفة.

● ومنها تحية الإسلام لحديث عائشة السابق.

[الجمعة]

● ومنها الجمعة، قال ﷺ : نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً والنصارى بعد غد، رواه البخاري.

● ومنها ساعة الإجابة التي في الجمعة، واختلف في تعيينها على أقوال تزيد على الثلاثين ذكرتها في «لوامع الأنوار في الأدعية والأذكار».

[خصائص تتعلق برمضان]

● ومنها: أنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر الله إليهم، ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبداً، وتزين الجنة فيه، وخلوف أفواه الصائمين أطيب عند الله من ريح المسك، وتستغفر لهم الملائكة في كل يوم وليلة حتى يفطروا، وإذا كان آخر ليلة غفر لهم جميعاً. رواه البيهقي بإسناد لا بأس به بلفظ: أعطيت أمي في شهر رمضان خمساً لم يعطهن نبي قبلي.. الحديث^(١)، «وتستغفر لهم الحيتان حتى يفطروا». رواه البزار. و«تصفد فيه مردة الشياطين» رواه أحمد والبزار.

● ومنها السحور، وتعجيل الفطر، رواه الشيخان. وإباحة

(١) كلمة «الحديث» في الأصل فقط.

الأكل والشرب والجماع ليلاً إلى الفجر، وكان محرماً على من قبلنا بعد النوم، وكذا كان في صدر الإسلام ثم نسخ.

● ومنها: ليلة القدر، كما قاله النووي في شرح المذهب.

وهل صيام رمضان من خصائص هذه الأمة أم لا؟ إن قلنا إن التشبيه الذي دلت عليه كاف «كما» في قوله تعالى: ﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾^(١) على حقيقته فيكون رمضان كتب على من قبلنا. وذكر ابن أبي حاتم عن ابن عمر رفعه: صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم. وفي إسناده مجهول.

وإن قلنا المراد مطلق الصيام دون قدره ووقته فيكون التشبيه واقعاً على مطلق الصوم، وهو قول الجمهور.

[الاسترجاع عند المصيبة]

ومنها أن لهم الاسترجاع عند المصيبة، قال سعيد بن جبیر: لقد أعطيت هذه الأمة عند المصيبة ما لم تعط الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مثله: إنا لله وإنا إليه راجعون. ولو أعطيت الأنبياء لأعطيه يعقوب عليه الصلاة والسلام إذ قال: ﴿يا أسفى على يوسف﴾^(٢).

[خصائص اليسر ورفع الحرج]

● ومنها: أن الله تعالى رفع عنهم الإصر الذي كان على الأمم قبلهم، قال الله تعالى: ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٣.

(٢) سورة يوسف، الآية ٨٤.

عليهم ﴿١﴾ أي: ويخفف عنهم ما كلفوا به من التكاليف الشاقة،
كتعيين القصاص في العمد والخطأ^(٢) وقطع الأعضاء الخاطئة، وقطع
موضع النجاسة^(٣)، وقتل النفس في التوبة^(٤).

وقد كان الرجل من بني إسرائيل يذنب الذنب فيصبح قد كتب
على باب بيته: إن كفارته أن تنزع عينيك فينزعهما.

وأصل / الإصر: الثقل الذي يأصر صاحبه، أي يجسه من الحراك
لثقله.

٢١٩م/ب

• ومنها أن الله تعالى أحل لهم كثيراً مما شدد على من قبلهم،
ولم يجعل عليهم في الدين من حرج، كما قال تعالى: ﴿وما جعل
عليكم في الدين من حرج﴾^(٥) أي ضيق بتكليف ما اشتد القيام به
عليهم، إشارة إلى أنه لا مانع لهم عنه ولا عذر لهم في تركه، يعني من
لم يستطع أن يصلي قائماً فليصل قاعداً، وأباح للصائم الفطر في
السفر، والقصر فيه.

وقيل ذلك بأن جعل لهم من كل ذنب مخرجاً، وفتح لهم باب
التوبة، وشرع لهم الكفارات في حقوقه تعالى، والأروش والديات في
حقوق العباد. قاله البيضاوي.

(١) سورة الأعراف، الآية ١٥٧

(٢) في البخاري (كان في بني إسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدية في نفس أو
جرح)

(٣) في البخاري: (إن بني إسرائيل كان إذا أصاب - أي البول - ثوب أحدهم
قرضه).

(٤) قال تعالى: ﴿فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم﴾ أي ليقتل البرئ منكم
المجرم.

(٥) سورة الحج، الآية ٧٨.

وروي عن ابن عباس أنه قال: الحرج ما كان على بني إسرائيل من الإصر والشدائد، وضعه الله عن هذه الأمة.

وعن كعب، أعطى الله هذه الأمة ثلاثاً لم يعطهن إلا الأنبياء: جعلهم شهداء على الناس، وما جعل عليهم في الدين من حرج، وقال: ادعوني استجب لكم.

● ومنها: أن الله رفع عنهم المؤاخذة بالخطأ والنسيان، وما استكروها عليه، وحديث النفس^(١)، وقد كان بنو إسرائيل إذا نسوا شيئاً مما أمروا به أو أخطؤوا عجلت لهم العقوبة، فحرّم عليهم شيء من مطعم أو مشرب على حسب ذلك الذنب.

وقد قال ﷺ: إن الله وضع عن أمي الخطأ والنسيان وما استكروها عليه، رواه أحمد وابن حبان والحاكم وابن ماجه.

[الإسلام وصف خاص بهم]

ومنها أن الإسلام وصف خاص بهم، لا يشركهم فيه غيرهم إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لقوله تعالى: ﴿هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا﴾^(٢) ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾^(٣) إذ لو لم يكن خاصاً بهم لم يكن في الامتنان عليهم بذلك فائدة.

وقد يجاب: بأن رضى الإسلام ديناً لهم، وتسمية إبراهيم أباهم

(١) رفع عن هذه الأمة ما يقع في نفوسهم من الشك وغيره لقوله ﷺ: (إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به) رواه الشيخان.

(٢) سورة الحج، الآية ٧٨.

(٣) سورة المائدة، الآية ٣.

بذلك، لا ينفي اتصاف غيرهم به. وفائدة ذلك: الإعلام بالإنعام عليهم بما أنعم به على غيرهم من الفضائل.

وقيل: لا يختص بهم، بل يطلق على غيرهم أيضاً، وهو اسم لكل دين حق لغة وشرعاً. كما أجاب به ابن الصلاح لقوله تعالى - حكاية عن وصية يعقوب - ﴿فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾^(١) ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾^(٢) إلى غير ذلك. ولأن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب كثير من العلماء، وليس خاصاً بهذه الأمة، بل يوصف به كل من دخل في شريعة مقراً بالله وبأنبيائه، كما قال الراغب.

[كمال شريعتهم]

ومنها: أن شريعتهم أكمل من جميع شرائع الأمم المتقدمة، وهذا لا يحتاج إلى بيانه لوضوحه. وانظر إلى شريعة موسى عليه السلام، فقد كانت شريعة جلال وقهر، أمروا بقتل نفوسهم، وحرمت عليهم الشحوم وذوات الظفر^(٣) وغيرها من الطيبات، وحرمت عليهم الغنائم، عجل^(٤) لهم من العقوبات ما عجل، وحملوا من الآصار والأغلال ما لم يحمله غيرهم.

وكان موسى عليه السلام من أعظم خلق الله هيبه ووقاراً وأشدهم بأساً وغضباً لله، وبطشاً بأعداء الله، فكان لا يستطيع النظر إليه.

(١) سورة البقرة، الآية ١٣٢. (٢) سورة الذاريات، الآية ٣٦.

(٣) هو ما لم تفرق أصابعه كالإبل والنعام والطيور.

(٤) في ط: عجلت.

وعيسى عليه السلام كان في مظهر الجمال، وكانت شريعته
شريعة فضل وإحسان، وكان لا يقاتل ولا يجارب، وليس في شريعته
قتال ألبتة، والنصارى يحرم عليهم في دينهم القتال، وهم به عصاة،
فإن الإنجيل يأمر فيه: أن من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك
الأيسر، ومن نازعك ثوبك فأعطه رداءك، ومن سخرك ميلاً فامش
معه ميلين، ونحو هذا، وليس في شريعتهم مشقة ولا إصر ولا
أغلال.

وأما النصارى فابتدعوا تلك الرهبانية من قبل أنفسهم ولم تكتب
عليهم.

وأما نبينا ﷺ فكان مظهر الكمال، الجامع لتلك القوة والعدل
والشدة في الله، واللين والرأفة والرحمة فشريعته أكمل الشرائع، وأتمته / ١/٢٢٠
أكمل الأمم، وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات، ولذلك
تأتي شريعته ﷺ بالعدل إيجاباً له وفرضاً، وبالفضل ندباً إليه
واستحباباً، وبالشدة في موضع الشدة، وباللين في موضع اللين، ووضع
السيف موضعه، ووضع الندى موضعه، فيذكر الظلم ويحرمه، والعدل
ويأمر به، والفضل ويندب إليه في بعض آية، كقوله تعالى: ﴿وجزاء
سيئة سيئة مثلها﴾ فهذا عدل ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ فهذا
فضل ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾^(١) فهذا تحريم للظلم.

وقوله: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ فهذا إيجاب
للعدل وتحريم للظلم ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾^(٢) ندب إلى
الفضل.

(١) سورة الشورى، الآية ٤٠.

(٢) سورة النحل، الآية ١٢٦.

وكذلك تحريم ما حرم على هذه الأمة صيانة وحماية، حرم عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع، فتحريمه عليهم رحمة، وعلى من كان قبلهم لم يخل من عقوبة، كما أشرت إليه قريباً.

وهذاهم لما ضلت عنه الأمم قبلهم كيوم الجمعة، كما سأذكره إن شاء الله تعالى في مقصد عباداته ﷺ، وتقدم ما يشهد له.

ووهب لهم من علمه وحلمه، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم، كما كمل لنبيهم من المحاسن ما فرقه في الأنبياء قبله، وكمل في كتابهم من المحاسن ما فرقه في الكتب قبله، وكذلك في شريعته.

فهذه الأمة هم المجتوبون، كما قال إلههم: ﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾^(١) وجعلهم شهداء على الناس، فأقامهم في ذلك مقام الرسل الشاهدين على أمهم، أشار إليه ابن القيم.

[فضيلة اجتماعهم وإجماعهم]

● ومنها: أنهم لا يجتمعون على ضلالة. رواه أحمد في مسنده، والطبراني في الكبير، وابن أبي خيثمة في تاريخه عن أبي بصرة الغفاري مرفوعاً في حديث (سألت ربي أن لا تجتمع أمتي على ضلالة فأعطانيها). ورواه ابن أبي عاصم والطبراني أيضاً من حديث أبي مالك الأشعري رفعه: إن الله أجازكم من ثلاث، وذكر منها (وأن لا تجتمعوا على ضلالة).

(١) سورة الحج، الآية ٧٨.

قال شيخنا: وبالجملة، فهو حديث مشهور المتن، ذو أسانيد كثيرة وله شواهد متعددة في المرفوع وغيره.

● ومنها: أن إجماعهم حجة وأن اختلافهم رحمة، وكان اختلاف من قبلهم عذاباً، روى البيهقي في المدخل في حديث من رواية سليمان ابن أبي كريمة، عن جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: واختلاف أصحابي لكم رحمة.

وجوير: ضعيف جداً، والضحاك عن ابن عباس: منقطع.

وهو كما قال شيخ الإسلام ابن حجر: حديث مشهور على الألسنة، وقد أورده ابن الحاجب في المختصر في مباحث القياس بلفظ: اختلاف أمتي رحمة للناس. قال: وكثر السؤال عنه، وزعم كثير من الأئمة أنه لا أصل له، لكن ذكره الخطابي في غريب الحديث مستطرداً، وقال: اعترض على هذا الحديث رجلان، أحدهما ماجن والآخر ملحد، وهما: إسحاق الموصلي، وعمرو بن بحر الجاحظ وقالوا جميعاً: لو كان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق عذاباً، قال: ثم تشاغل الخطابي برد هذا الكلام، ولم يقع في كلامه نص في عزو الحديث، ولكنه أشعر بأن له أصلاً عنده.

ومن حديث الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد قال: أهل العلم أهل توسعة، وما برح المفتون يختلفون، فيحل هذا ويحرم هذا، فلا يعيب هذا على هذا، أشار إليه شيخنا في المقاصد الحسنة.

[الإصابة بالطاعون شهادة]

ومنها أن الطاعون لهم شهادة ورحمة، وكان على الأمم عذاباً. رواه أحمد والطبراني في الكبير، من حديث أبي عسيب مولى رسول الله

ﷺ . ورجال أحمد ثقات ولفظه: (الطاعون شهادة لأمتي ورحمة لهم ورجز على الكافرين).

[الشهادة بالخير توجب الجنة]

ومنها أنهم إذا شهد اثنان منهم لعبد بخير وجبت له الجنة^(١).
وكان الأمم السالفة / إذا شهد منهم مائة.

[قلة العمل وكثرة الأجر]

ومنها أنهم أقل الأمم عملاً، وأكثرهم أجراً وأقصرهم أعماراً، وأوتوا العلم الأول والآخر، وآخر الأمم فافتضحت الأمم عندهم ولم يفتضحوا.

[خصيصة الإسناد]

ومنها: أنهم أوتوا الإسناد، وهو خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة، وسنة بالغة من السنن المؤكدة.

وقد روينا من طريق أبي العباس الدغولي قال: سمعت محمد بن حاتم بن المظفر يقول: إن الله قد أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها قديمها وحديثها إسناد [موصول]^(٢)، إنما هو صحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، فليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل وبين ما ألحقوه بكتبهم من الأخبار التي اتخذوها عن غير الثقات.

(١) روى أحمد والبخاري والنسائي عن عمر مرفوعاً (أيما مسلم شهد له أربعة أدخله الله الجنة، قيل: وثلاثة؟ قال: وثلاثة، قيل: واثنان؟ قال: واثنان...) والمقصود الثناء عليه بخير.

(٢) في ش.

وهذه الأمة الشريفة - زادها الله شرفاً بنبيها - إنما تنص الحديث عن الثقة المعروف في زمانه بالصدق والأمانة عن مثله حتى تتناهى أخبارهم، ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ، والأضبط فالأضبط، والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقصر مجالسة، ثم يكتبون الحديث من عشرين وجهاً وأكثر، حتى يهذبوه من الغلط والزلل، ويضبطوا حروفه ويعدوه عدداً، فهذا من فضل الله على هذه الأمة، فنستودع الله تعالى شكر هذه النعمة وغيرها من نعمه.

وقال أبو حاتم الرازي^(١): لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله تعالى آدم أمناً يحفظون آثار الرسل إلا في هذه الأمة، انتهى.

● ومنها: أنهم أوتوا الأنساب والإعراب، قال أبو بكر محمد بن أحمد^(٢): بلغني أن الله خص هذه الأمة بثلاثة أشياء لم يعطها من قبلها: الإسناد والأنساب والإعراب، انتهى. وهو مروى عن أبي علي الجياني^(٣) أيضاً.

● ومنها: أنهم أوتوا تصنيف الكتب، ذكره بعضهم. ولا تزال طائفة منهم ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله. رواه

الشيخان.

(١) محمد بن أدريس الرازي. روى عنه أبو داود والنسائي وابن ماجه، قال الخطيب: كان أحد الأئمة الحفاظ الأثبات، وثقه النسائي وغيره. مات بالري سنة خمس وسبعين ومائتين.

(٢) أبو بكر محمد بن أحمد البغدادي، الحافظ الإمام القدوة، كان فاضلاً ورعاً ثقة حسن القراءة للحديث علامة في الأدب، مات سنة تسع وثمانين وأربعمائة.

(٣) الحسين بن محمد الأندلسي الجياني، الإمام الحافظ الثبت، ولد سنة سبع وثلاثين وأربعمائة أخذ عن جهاذة الحفاظ ولم يخرج من الأندلس... له تصانيف... توفي سنة ثمان وتسعين وأربعمائة.

[وجود الأبدال فيهم]

ومنها: أن فيهم أقطاباً وأوتاداً ونجباء وأبدالاً^(١).

عن أنس مرفوعاً: الأبدال أربعون رجلاً وأربعون امرأة، كلما مات رجل أبدل الله رجلاً مكانه، وإذا ماتت امرأة أبدل الله مكانها امرأة^(٢). رواه الخلال^(٣) في «كرامات الأولياء»^(٤).

ورواه الطبراني في الأوسط بلفظ: لن تخلو الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل الرحمن عليه السلام، فيهم يسقون وبهم ينصرون، ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر.

ورواه ابن عدي في كامله بلفظ: البدلاء أربعون، اثنان وعشرون بالشام وثمانية عشر بالعراق، كلما مات منهم أحد أبدل الله مكانه آخر، فإذا جاء الأمر قبضوا كلهم، فعند ذلك تقوم الساعة.

وكذا يروى كما عند أحمد في المسند، والخلال، من حديث عبادة

(١) هذه مصطلحات صوفية نقل بعض ما قاله الشارح في بيانها.

الأقطاب جمع قطب: وهو الخليفة الباطن وسيد أهل زمانه سمي قطباً لجمعه جميع المقامات والأحوال.

والأوتاد: وهم أربعة في كل زمان، وهم العمدة وهم في حكم الجبال في الأرض، ولذا سموا أوتاداً.

والنجباء: سبعون ورتبتهم فوق النقباء ودون الأبدال.

والأبدال: جمع بدل، سموا بذلك لأنه إذا مات واحد أبدل مكانه آخر.

(٢) أورده ابن الجوزي في الموضوعات، ثم سرد أحاديث الأبدال وطعن فيها واحداً واحداً وحكم بوضعها،

(٣) الحسن بن أبي طالب بن محمد بن الحسن الخلال، أبو محمد، الخافظ

البغدادي، ولد سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، قال الخطيب: كان ثقة خرج

المسند على الصحيحين، مات سنة تسع وثلاثين وأربعمائة.

(٤) كتاب ألفه الخلال.

ابن الصامت مرفوعاً. لا يزال في هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن، كلما مات واحد أبدل الله تعالى مكانه رجلاً.

وفي لفظ الطبراني - في الكبير -: بهم تقوم الأرض وبهم يمطرون وبهم ينصرون.

ولأبي نعيم في الحلية، عن ابن عمر رفعه: خيار أمتي في كل قرن خمسمائة، والأبدال أربعون، فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأربعون، كلما مات رجل أبدل الله مكانه آخر، وهم في الأرض كلها.

وفي الحلية أيضاً عن ابن مسعود رفعه: لا يزال أربعون رجلاً من أمتي، قلوبهم على قلب إبراهيم، يدفع الله بهم عن أهل الأرض، يقال لهم الأبدال، إنهم لم يدركوها بصلاة ولا بصوم ولا بصدقة، قال: فيم أدركوها يا رسول الله؟ قال: بالسخاء والنصيحة للمسلمين.

وعن معروف الكرخي^(١): من قال اللهم ارحم أمة محمد في كل يوم كتبه الله من الأبدال. وهو في الحلية بلفظ: من قال في كل يوم عشر مرات اللهم أصلح أمة محمد، اللهم فرج عن أمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد كتب من الأبدال.

وعن غيره قال: من علامة الأبدال أن لا يولد لهم/، ويروى في مرفوع معضل: علامة أبدال أمتي أنهم لا يلعنون شيئاً أبداً.

وقال يزيد بن هارون: الأبدال هم أهل العلم، وقال الإمام أحمد: إن لم يكونوا أصحاب الحديث فمن هم؟

وفي تاريخ بغداد للخطيب، عن الكتاني^(٢) قال: النقباء

(١) نسبة إلى كرخ بغداد، الإمام أستاذ السري السقطي، وكان ابن حنبل وابن معين يختلفان إليه ولم يكن مثلها في علم الظاهر. مات سنة إحدى مائتين.

(٢) الكتاني: عبد العزيز بن أحمد التميمي الدمشقي، محدث دمشق قال الذهبي: =

ثلاثمائة، والنجباء سبعون، والبدلاء أربعون، والأخيار سبعة، والعمد أربعة، والغوث واحد، فمسكن النقباء المغرب، ومسكن النجباء مصر، ومسكن الأبدال الشام، والأخيار سياحون في الأرض، والعمد في زوايا الأرض ومسكن الغوث مكة، فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل فيها النقباء ثم النجباء ثم الأبدال ثم الأخيار ثم العمد، فإن أجيئوا وإلا ابتهل الغوث، فلا يتم مسألته حتى تجاب دعوته، انتهى^(١).

[خصائص تتعلق بالحياة الآخرة]

● ومنها أنهم يدخلون قبورهم بذنوبهم، ويخرجون منها بلا ذنوب، تمحص عنهم باستغفار المؤمنين لهم. رواه الطبراني - في الأوسط - من حديث أنس، ولفظه: قال قال رسول الله ﷺ: أمي أمة مرحومة تدخل قبورها بذنوبها، وتخرج من قبورها لا ذنوب عليها، تمحص عنها باستغفار المؤمنين لها.

● ومنها أنهم اختصوا في الآخرة بأنهم أول من تنشق عنهم الأرض من الأمم. رواه أبو نعيم عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ: وأنا أول من تنشق الأرض عني وعن أمي ولا فخر.

= ويحتمل أن يوصف بالحفظ في زمنه ولو وجد في زماننا لعد في الحفاظ. مات سنة تسع وثمانين وثلاثمائة.

(١) قال السخاوي: خبر الأبدال له طرق عن أنس بألفاظ مختلفة كلها ضعيفة، ثم ساق ما ذكره المصنف ثم قال: وأحسن مما تقدم ما رواه أحمد من حديث شريح قال: ذكر أهل الشام عند علي وهو بالعراق فقالوا: العنهم يا أمير المؤمنين، قال: لا إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: البدلاء يكونون بالشام وهم أربعون رجلاً كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، يستسقى بهم الغيث ويتنصر بهم على الأعداء ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب. رجاله من رواة الصحيح إلا شريحاً، وهو ثقة، انتهى.

● ومنها: أنهم يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار
الوضوء. رواه البخاري.

والغرة: بياض في وجه الفرس. والتحجيل: بياض في قوائمه
وذلك مما يكسبه حسناً وجمالاً.

فشبهه ﷺ النور الذي يكون يوم القيامة في أعضاء الوضوء بالغرة
والتحجيل، ليفهم أن هذا البياض في أعضاء الإنسان مما يزيه لا مما
يشينه، يعني أنهم إذا دعوا على رؤوس الأشهاد نودوا بهذا الوصف، أو
كانوا على هذه الصفة.

● ومنها أنهم يكونون في الموقف على مكان عال. رواه ابن
جرير وابن مردويه من حديث جابر مرفوعاً بلفظ: أنا وأمتي على كوم
مشرفين على الخلائق، ما من الناس أحد إلا ودَّ أنه منا، وما من نبي
كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه بلغ رسالة ربه.

وعند ابن مردويه من حديث كعب قال: أنا وأمتي على تل.

● ومنها: أن سيماهم في وجوههم من أثر السجود. قال تعالى:
﴿سَيَآهَمُ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾^(١). وهل هذه العلامة في
الدنيا أو في الآخرة؟ قولان:

أحدهما: أنها في الدنيا، قال ابن عباس في رواية ابن أبي
طلحة: السميت الحسن. وفي رواية مجاهد: ليست بالتي ترون، هي

= أقول: إذا كان في الأبدال أحاديث ضعيفة، فما بال النقباء والنجباء
والأقطاب والغوث.. ما هي أدلة وجودها.. ثم ما بال هذا التوزيع
الجغرافي الذي ذكره الكتاني؟! إن هذه أمور تصدق إذا وجد النص
الصحيح [المحقق].

(١) سورة الفتح، الآية ٢٩.

سمت الإسلام وسيباه وخشوعه. وقيل: الصفرة في الوجه من أثر السهر^(١)، فتحسبهم مرضى وما هم بمرضى.

والقول الثاني: أنه في الآخرة يعني أن مواضع السجود من وجوههم يكون أشد بياضاً يوم القيامة، يعرفون بتلك العلامة أنهم سجدوا في الدنيا. رواه العوفي عن ابن عباس. وعن شهر بن حوشب^(٢): تكون مواضع السجود من وجوههم كالقمر ليلة البدر، وقال عطاء الخراساني^(٣): دخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس.

● ومنها أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم. رواه أحمد والبخاري^(٤).
● ومنها أن نورهم يسعى بين أيديهم. أخرجه أحمد بإسناد صحيح^(٥).

● ومنها: أن لهم ما سعوا، وما يسعى لهم، وليس لمن قبلهم إلا ما سعى، قاله عكرمة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(٦) ففيها

أجوبة:

- (١) في ش: السجود.
- (٢) تابعي صدوق كثير الإرسال والأوهام مات سنة اثنتي عشرة ومائة، روى له مسلم وأصحاب السنن.
- (٣) عطاء بن أبي مسلم الخراساني، صدوق كثير يرسل ويدلس مات سنة خمس وثلاثين ومائة. روى له النسائي وابن ماجه.
- (٤) في ش: رواه البخاري.
- (٥) عن النبي ﷺ (إني لأعرف أمي يوم القيامة من بين الأمم، أعرفهم يؤتون كتبهم بأيمانهم وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم).
- (٦) سورة النجم، الآية ٣٩.

أحدها: أنها منسوخة^(١)، روي ذلك عن ابن عباس، نسخها قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتَهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾^(٢) / فجعل ٢٢١/ب الولد الطفل في ميزان أبيه، ويشفع الله الآباء في الأبناء، والأبناء في الآباء، بدليل قوله تعالى: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾^(٣).

الثاني: أنها مخصوصة بالكافر، وأما المؤمن فله ما سعى غيره. قال القرطبي: وكثير من الأحاديث يدل على هذا القول، وأن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره. وفي الصحيح عن النبي ﷺ (من مات وعليه صيام صام عنه وليه)^(٤) وقال ﷺ للذي حج عن غيره (حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة)^(٥)، وعن عائشة أنها اعتكفت عن أخيها عبد الرحمن وأعتقت عنه.

وقال سعد للنبي ﷺ: إن أمي توفيت أفأتصدق عنها؟ قال: نعم، قال: فأبي الصدقة أفضل؟ قال: سقي الماء^(٦).

(١) قال ابن القيم في كتاب الروح: ذهبت طائفة إلى أنها منسوخة، وروي عن ابن عباس، وهو ضعيف، ولا يرفع حكم الآية بمجرد قول ابن عباس ولا غيره إنها منسوخة، قال: والجمع بين الآيتين غير متعذر.

(٢) سورة الطور، الآية ٢١، وقد جاءت الآية في جميع النسخ على قراءة أبي عمرو، وهي: ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

(٣) سورة النساء، الآية ١١.

(٤) متفق عليه من حديث عائشة.

(٥) رواه أبو داود وابن ماجه برجال ثقات، عن ابن عباس.

(٦) رواه أحمد، المسند ٧/٦.

قال ابن القيم في كتاب الروح: وأفضل الصدقة ما صادف حاجة من المتصدق عليه، وكان دائماً مستمراً، ومنه قوله: (أفضل الصدقة سقي الماء) =

وفي الموطأ عن عبدالله بن أبي بكر عن عمته أنها حدثته عن جدته: أنها جعلت على نفسها مشياً إلى مسجد قباء فهات ولم تقضه، فأفتى عبدالله بن عباس: أنها تمشى عنها.

ومن المفسرين من قال: إن «الإنسان» في الآية، أبو جهل، ومنهم من قال: عقبة بن أبي معيط، ومنهم من قال: الوليد بن المغيرة، ومنهم من قال: إخبار عن شرع من قبلنا، وقد دل شرعنا أن الإنسان له سعيه، وما سعي له، ومنهم من قال: الإنسان بسعيه في الخير وحسن صحبته وعشرته اكتسب الأصحاب، وأسدى لهم الخير وتودد إليهم فصار ثوابهم له بعد موته من سعيه.

ومنهم من قال «الإنسان» في الآية للحي دون الميت. ومنهم من قال: لم ينف في الآية انتفاع الرجل بسعي غيره له، وإنما نفى ملكه لسعي غيره، وبين الأمرين فرق:

فقال الزمخشري في (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى): فإن قلت: أما صح في الأخبار الصدقة عن الميت والحج عنه؟ قلت: فيه جوابان.

أحدهما: أن سعي غيره لما لم ينفعه إلا مبنياً على سعي نفسه، وهو أن يكون مؤمناً مصداقاً، كان سعي غيره كأنه سعي نفسه لكونه تبعاً له، وقائماً مقامه.

والثاني: أن سعي غيره لا ينفعه إذا عمله لنفسه، ولكن إذا نواه له فهو في حكم الشرع كالنائب عنه، والوكيل القائم مقامه.

= وهذا في موضع يقل فيه الماء، ويكثر العطش، وإلا فسقي الماء على الأنهار والقني لا يكون أفضل من إطعام الطعام عند الحاجة.

والصحيح من الأجوبة: أن قوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ عام مخصوص بما تقدم من الأجوبة.

وقد اختلف العلماء في ثواب القراءة، وهل يصل للميت؟

فذهب الأكثرون إلى المنع، وهو المشهور من مذهب الشافعي ومالك، ونقل عن جماعة من الحنفية.

وقال كثير من الشافعية والحنفية: يصل. وبه قال أحمد بن حنبل - رحمه الله - بعد أن قال: القراءة على القبر بدعة، بل نقل عن الإمام أحمد: يصل إلى الميت كل شيء من صدقة وصلاة وحج واعتكاف وقراءة وذكر وغير ذلك.

وذكر الشيخ شمس الدين القطان العسقلاني: أن وصول ثواب القراءة إلى الميت من قريب أو أجنبي هو الصحيح، كما تنفعه الصدقة والدعاء والاستغفار بالإجماع.

وقد أفتى القاضي حسين: بأن الاستئجار لقراءة القرآن على رأس القبر جائز، كالاستئجار للأذان وتعليم القرآن.

لكن قال الرافعي وتبعه النووي: عود المنفعة إلى المستأجر شرط في الإجارة، فيجب عود المنفعة في هذه الإجارة إلى المستأجر أو لميته، لكن المستأجر لا ينتفع بأن يقرأ الغير له، ومشهور أن الميت لا يلحقه ثواب القراءة المجردة، فالوجه تنزيل الاستئجار على صورة انتفاع الميت بالقراءة. وذكروا له طريقتين:

أحدهما: أن يعقب القراءة بالدعاء للميت، فإن الدعاء يلحقه، والدعاء بعد القراءة أقرب إلى الإجابة وأكثر بركة.

والثاني: ذكر الشيخ عبد الكريم الشالوسي^(١): أنه إن نوى
١/٢٢٢ القارئ/ بقراءته أن يكون ثوابها للميت لم يلحقه، لكن لو قرأ ثم
جعل ما حصل من الأجر له، فهذا دعاء بحصول ذلك الأجر للميت
فينتفع الميت.

قال النووي في زيادات الروضة: ظاهر كلام القاضي حسين
صحة الإجارة مطلقاً وهو المختار، فإن موضع القراءة موضع بركة
وتنزل الرحمة. وهذا مقصود: ينفع الميت.

وقال الرافعي وتبعه النووي في الوصية: الذي يعتاد من قراءة
القرآن على رأس القبر قد ذكرنا في باب الإجارة طريقتين في عودة
فائدتها إلى الميت. وعن القاضي أبي الطيب طريق ثالث: وهو أن الميت
كالحى الحاضر، فترجى له الرحمة ووصول البركة إذا أهدى الثواب له
القارئ.

وقال الشالوسي: إذا نوى بقراءته أن يكون ثوابها للميت لم
يلحقه، إذ جعل ذلك قبل حصوله، وتلاوته عبادة البدن فلا تقع عن
الغير، وإن قرأ ثم جعل ما حصل من الثواب للميت ينفعه، إذ قد
جعل من الأجر لغيره، والميت يؤجر بدعاء الغير.

لكن إطلاق أن الدعاء ينفع الميت، اعترض عليه بعضهم بأنه
موقوف على الإجابة.

ويمكن أن يقال: الدعاء للميت مستجاب - كما أطلقوا - اعتماداً
على سعة فضل الله.

(١) فقيه عصره بآمل، ومدرسه، كان واعظاً زاهداً مات سنة خمس وستين
وأربعمائة.

وقال الرافعي وتبعه النووي: يستوي في الصدقة والدعاء، الوارث والأجنبي. قال الشافعي: وفي وسع الله أن يثيب المتصدق أيضاً.

وقال الأصحاب: يستحب أن ينوي المتصدق الصدقة عن أبويه، فإن الله ينيلهما الثواب ولا ينقص من أجره شيئاً.

وذكر صاحب العدة: أنه لو أنبط عيناً أو حفر بئراً، أو غرس شجراً، أو وقف مصحفاً في حال حياته، أو فعل غيره بعد موته، يلحق الثواب بالميت.

وقال الرافعي والنووي: إن هذه الأمور إذا صدرت عن الحي فهي صدقات جارية يلحقه ثوابها بعد الموت، كما ورد في الخبر، ولا يختص الحكم بوقف المصحف، بل يلحق به كل وقف، وهذا القياس يقتضي جواز التضحية عن الميت، فإنها ضرب من الصدقة، لكن في التهذيب: أنه لا تجوز التضحية عن الغير بغير أمره، وكذا عن الميت إلا أن يكون أوصى به.

وقد روي عن علي أو غيره من الصحابة أنه كان يضحى عن النبي ﷺ بعد موته، وعن أبي محمد بن إسحاق السراج قال: ضحيت عن النبي ﷺ سبعين أضحية.

وأما إهداء القراءة إلى رسول الله ﷺ فلا يعرف فيه خبر ولا أثر، وقد أنكره جماعة منهم الشيخ برهان الدين بن الفركاح لأن الصحابة لم يفعلوه أحد منهم.

وحكى صاحب «الروح»: أن من الفقهاء المتأخرين من استحبه، ومنهم من رآه بدعة، قالوا: والنبي ﷺ غني عن ذلك، فإن

له أجر كل من عمل خيراً من أمته من غير أن ينقص من أجر العامل شيء.

قال الشافعي: ما من خير يعمله أحد من أمة النبي ﷺ إلا والنبي ﷺ أصل فيه.

قال في تحقيق النصرة: فجميع حسنات المسلمين وأعمالهم الصالحة في صحائف نبينا ﷺ زيادة على ما له من الأجر، مع مضاعفة لا يحصرها إلا الله تعالى، لأن كل مهتد وعامل إلى يوم القيامة يحصل له أجر، ويتجدد لشيخه مثل ذلك الأجر ولشيخه مثله، وللشيخ الثالث أربعة، وللرابع ثمانية وهكذا تضعيف كل مرتبة بعدد الأجور الحاصلة بعده إلى النبي ﷺ.

وبهذا يعلم تفضيل السلف على الخلف. فإذا فرضت المراتب عشرة بعد النبي / ﷺ، كان للنبي ﷺ من الأجر ألف وأربعة وعشرون، فإذا اهتدى بالعاشر حادي عشر صار أجر النبي ﷺ ألفين وثمانية وأربعون، وهكذا كلما ازداد واحد يضاعف ما كان قبله أبداً، كما قال بعض المحققين، انتهى. والله در القائل، وهو سيدي محمد وفا:

فلاحسن إلا من محاسن حسنه ولا محسن إلا له حسناته

وبهذا يجاب عن استشكل دعاء القارئ له ﷺ بزيادة التشريف مع العلم بكماله عليه الصلاة والسلام في سائر أنواع الشرف. فكأن الداعي لحظ أن قبول قراءته يتضمن لمعلمه نظير أجره، وهكذا حتى يكون للمعلم الأول - وهو الشارع ﷺ - نظير جميع ذلك.

ومن ذلك ما شرع عند رؤية الكعبة من قولهم: اللهم زد هذا

البيت تشريفاً وتعظيماً، فثمرة الدعاء بذلك عائدة إلى الداعي، لاشتماله على طلب قبول القراءة، وهذا كما قالوا في الصلاة عليه - زاده شرفاً لديه - إن ثمرتها عائدة على المصلي، أشار لنحوه الحافظ ابن حجر.

● ومن خصائص هذه الأمة أنهم يدخلون الجنة قبل سائر الأمم. رواه الطبراني - في الأوسط - من حديث عمر بن الخطاب مرفوعاً: حرمت الجنة على الأنبياء حتى أدخلها، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي.

● ومنها: أنه يدخل منهم الجنة سبعون ألفاً بغير حساب رواه الشيخان، وعند الطبراني والبيهقي في الشعب: إن ربي وعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفاً لا حساب عليهم، وإني سألت ربي المزيد فأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً. وبالجمل: فقد اختصت هذه الأمة بما لم يعطه غيرها من الأمم تكرامة لنبينا ﷺ وزيادة في شرفه، وتفصيل فضلها وخصائصها استدعي سفيراً بل أسفاراً، وذلك فضل الله، يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

تم بعونه تعالى الجزء الثاني
من المواهب اللدنية ويليهِ
الجزء الثالث وأوله
المقصد الخامس

فهرس الجزء الثاني من المواهب اللدنية

المقصد الثاني في ذكر أسماه ﷺ وأولاده وأزواجه وغير ذلك

| | |
|--|--|
| <p>٤٩ تنمة شرح بعض الأسماء</p> <p style="text-align: center;">الفصل الثاني (في ذكر أولاده الكرام)</p> <p>٥٨ الأولاد المتفق عليهم</p> <p>٥٨ الخلاف في غيرهم</p> <p>٦٠ - القاسم</p> <p>٦٠ - زينب</p> <p>٦١ - رقية</p> <p>٦٢ - أم كلثوم</p> <p>٦٤ - فاطمة الزهراء</p> <p>٦٦ - ذرية فاطمة الزهراء</p> <p>٦٨ - عبدالله</p> <p>٦٨ - ابراهيم</p> | <p>٧ ذكر محتوى المقصد الثاني</p> <p style="text-align: center;">الفصل الأول (في ذكر أسائه الشريفة)</p> <p>٩ التعريف بالاسم</p> <p>١٠ الاسم والمسمى</p> <p>١١ أسماء وردت بها النصوص</p> <p>١٤ عدد أسائه ﷺ</p> <p>١٥ الأسماء مرتبة على حروف المعجم</p> <p>٢١ كنيته صلى الله عليه وسلم</p> <p>٢١ شرح اسمي (محمد وأحمد)</p> <p>٢٤ خصائص اسم محمد</p> <p>٢٦ أخبار تفتقر إلى الصحة</p> <p>٢٩ اسم «محمد» في الجاهلية</p> <p>٣١ شرح بعض الأسماء</p> <p>٤٧ الفرق بين «النبي» و«الرسول»</p> |
|--|--|

١١٦ أخوته من الرضاعة

الفصل الخامس

(في خدمه وحرسه ومواليه)

١١٨ خدمه عليه السلام

١٢١ مهمات أخرى

١٢٢ حراسه عليه السلام

١٢٢ مواليه عليه السلام

الفصل السادس

(في أمرائه ورسله وكتابه وكتبه)

١٢٥ كتابه عليه السلام

١٣١ كتبه عليه السلام

١٣١ - كتاب الصديق

١٣٣ - كتاب عمر

١٣٥ - كتاب أهل اليمن

١٣٧ - كتابه إلى هرقل

١٣٩ - كتابه إلى كسرى

١٤١ - كتابه إلى النجاشي

١٤٣ - كتابه إلى المقوقس

١٤٥ - كتابه إلى المنذر

١٤٦ - كتابه إلى ملكي عمان

١٤٨ - كتابه إلى صاحب اليمامة

١٤٩ - كتابه إلى ابن أبي شمر

١٥٠ - كتابه إلى الدارين

١٥٢ - كتابه إلى ابن رؤبة

١٥٢ - كتابه لأهل أذرب

١٥٣ - كتابه لأبي ضميرة

١٥٣ - كتابه إلى أهل وج

الفصل الثالث

(في ذكر أزواجه وسراريه)

٧٣ أمهات المؤمنين

٧٤ عددهن وترتيبهن

٧٦ - خديجة

٧٩ - سودة بنت زمعة

٨١ - عائشة

٨٣ - حفصة بنت عمر

٨٤ - أم سلمة

٨٥ - أم حبيبة

٨٧ - زينب بنت جحش

٨٩ - زينب أم المساكين

٨٩ - ميمونة بنت الحارث

٩٠ - جويرية بنت الحارث

٩٢ - صفية بنت حيي

٩٤ - زوجات لم يدخل بهن

٩٨ المخطوبات

١٠٠ السراري

الفصل الرابع

(في أعمامه وعماته وجداته وأخوته

من الرضاعة)

١٠٢ أعمامه عليه السلام

١٠٢ - حمزة

١٠٥ - العباس

١١١ عماته عليه السلام

١١٢ - صفية، عاتكة، أروى

١١٣ - أم حكيم، برة، أميمة

١١٣ جداته عليه السلام

- ١٥٣ - كتابه لأكيدر دومة
١٥٤ - كتاب في عقد بيع
١٥٥ - أمراؤه عليه السلام
١٥٦ - رسله عليه السلام

الفصل السابع

١٦٠ في مؤذنيه وخطبائه وحداته وشعرائه

الفصل الثامن

١٦٤ في آلات حروبه

الفصل التاسع

١٦٨ في ذكر خيله ودوابه

الفصل العاشر

(في ذكر من وفد عليه ﷺ)

- ١٧٣ تمهيد.
١٧٣ - وفد هوازن
١٧٦ - وفد ثقيف
١٧٨ - وفد بني عامر
١٧٩ - وفد عبد القيس
١٨٤ - وفد بني حنيفة
١٨٨ - وفد طيء
١٨٩ - وفد كندة
١٨٩ - وفد الأشعرين وأهل اليمن
١٩٠ - وفد صرد الأزدي
١٩١ - وفد بني الحارث
١٩٢ - وفد همدان

١٩٣ - وفد مزينة

١٩٣ - وفد دوس

١٩٥ - وفد نصارى نجران

١٩٧ - قدوم رسول فروة الجذامي

١٩٧ - وفد بني سعد بن بكر

١٩٩ - قدوم طارق بن عبدالله وقومه

٢٠٠ - وفد نجيب

٢٠١ - وفد بني سعد هذيم

٢٠٢ - وفد بني فزارة

٢٠٣ - وفد بني أسد، وفد بهراء من اليمن

٢٠٤ - وفد عذرة، وفد بلي

٢٠٥ - وفد بني مرة، وفد حولان

٢٠٦ - وفد محارب، وفد صداء

٢٠٦ - وفد غسان

٢٠٧ - وفد سلامان، وفد بني عبس

٢٠٧ - وفد غامد، وفد الأزدي

٢٠٩ - وفد بني المنتفق، وفد النخع

المقصد الثالث

في كمال خلقته ﷺ وعظيم أخلاقه

٢١٥ محتوى المقصد

الفصل الأول

(في كمال خلقته وجمالها)

- ٢١٩ صفة رأسه ﷺ
٢١٩ صفة وجهه.
٢٢٦ صفة بصره.
٢٣١ صفة سمعه

- ٣٤٠ تواضعه وحسن عشرته
 ٣٤٧ حسن عشرته أهله
 ٣٥٠ مباسطته أصحابه
 ٣٥١ مزاحه عليه السلام
 ٣٥٥ مجالسه مع أصحابه
 ٣٥٦ جوانب من تواضعه
 ٣٥٨ حياؤه عليه السلام
 ٣٦١ خوفه ربه
 ٣٦٣ شجاعته عليه السلام
 ٣٦٦ جوده وكرمه

الفصل الثالث

(في غذائه وملبسه ومنكحه)

النوع الأول: المأكّل والمشرب

- ٣٧٦ تناول الطعام ضرورة
 ٣٧٧ بدعة الشبع
 ٣٨٠ قلة الطعام في آياته ﷺ
 ٣٨٦ أحاديث وضع الحجر على بطنه
 الشريف
 ٣٨٨ إشكال وجواب
 ٣٨٩ فقر ملتزم
 ٣٩١ تعدد أنواع الطعام
 ٣٩٣ طعام الخبيص
 ٣٩٤ أكله اللحم
 ٣٩٨ أطعمة أخرى
 ٤٠٠ جمع فاكهتين
 ٤٠٢ جمع طعامين
 ٤٠٤ أكل الفاكهة
 ٤٠٥ أكل البصل والثوم
 ٤٠٥ طريقة الأكل وجلسته
 ٤١٢ التسمية والحمد

- ٢٣١ صفة جبينه وبعض جسمه
 ٢٣٤ صفة فمه
 ٢٣٥ صفة ريقه
 ٢٣٦ فصاحته عليه السلام
 ٢٣٩ - حد الفصاحة
 ٢٤٠ - نماذج من بلاغته
 ٢٦٣ - وجه جامع في بلاغته
 ٢٦٣ - نماذج بغير لغة قريش
 ٢٧٨ صفة صوته عليه السلام
 ٢٧٨ صفة ضحكه ويكائه
 ٢٨٠ صفة يده
 ٢٨٥ صفة قلبه .
 ٢٩٠ صفة جماعه .
 ٢٩٢ صفة قدمه .
 ٢٩٤ صفة طوله .
 ٢٩٥ صفة شعره وأظافره
 ٣٠٥ صفة مشيه
 ٣٠٧ صفة لونه
 ٣١٠ طيب ريحه وعرقه
 ٣١٩ سيرته في قضاء حاجته

الفصل الثاني

(في عظيم أخلاقه)

- ٣٢٥ الخلق في اللغة
 ٣٢٥ الأخلاق غريزة أم اكتساب؟
 ٣٢٦ الخلق العظيم
 ٣٢٩ العقل أصل الفضائل
 ٣٣٠ كمال عقله عليه السلام
 ٣٣١ الحلم والعفو والصبر
 ٣٣٧ ما انتقم ﷺ لنفسه
 ٣٣٨ من حلمه عليه السلام
 ٣٣٩ شفقتة على المذنبين

- ٤٦٤ لبس الخف
٤٦٥ لبس النعل
٤٧٠ فراشه عليه السلام

النوع الثالث : نكاحه ﷺ

- ٤٧٤ مقاصد النكاح
٤٧٥ من منافع النكاح
٤٧٦ حديث «حبب إلي...»
٤٧٨ تأمل قوله : «حبب»
٤٧٨ حديث مما لا يصح
٤٧٩ قوته ﷺ في النكاح
٤٨١ من حكم تعدد زوجاته ﷺ
٤٨٣ الحض على الزواج
٤٨٤ خصوصية سليمان عليه السلام

النوع الرابع : نومه ﷺ

- ٤٨٦ هيئة نومه عليه السلام
٤٨٧ فراشه عليه السلام
٤٨٧ الدعاء قبل النوم
٤٨٨ لا ينام قلبه عليه السلام

المقصد الرابع

في المعجزات والخصائص

الفصل الاول

(في معجزاته ﷺ)

- ٤٩٥ تعريف المعجزة وشروطها
٥٠٠ معجزة أم آية؟
٥٠١ دلائل النبوة
٥٠٣ من الدلائل : أميته ﷺ

- ٤١٣ الأكل باليد اليمنى
٤١٤ غسل اليدين
٤١٥ الطعام الحار
٤١٦ صفة قدحه ﷺ
٤١٧ لم يأكل على خوان
٤١٨ شربه عليه السلام
٤٢٤ معاملة الطفيلي
٤٢٤ من آداب الولاة

النوع الثاني : اللباس

- ٤٢٦ العمامة
٤٢٧ طول الكم
٤٢٨ طول الإزار
٤٣٠ لباس الخيلاء
٤٣١ الخلاصة في طول الإزار
٤٣١ طول ثياب النساء
٤٣٢ لباس الرأس
٤٣٦ أحب الثياب إليه ﷺ
٤٣٨ ملابس المتصوفة
٤٣٩ بحث في الجمال
٤٤٢ لبس الثوب الأحمر
٤٤٣ حكم لبس الثوب الأحمر
٤٤٦ صفة إزاره عليه السلام
٤٤٧ لبس الطيلسان
٤٥١ الخاتم
٤٥١ - حكم لبس الخاتم
٤٥٣ - الحكم بحسب المعدن
٤٥٨ - فصّ الخاتم
٤٥٨ - نقش الخاتم
٤٦٠ - اتخاذ أكثر من خاتم
٤٦٠ - التختيم في اليمين واليسار
٤٦٣ لبس السراويل

- ٦٠٥ - بحث في شرح (إنه ليغان على قلبي)
٦٠٨ القسم الثاني: خصائص من المحرمات
٦١٢ القسم الثالث: خصائص من المباحات
٦٢٦ القسم الرابع: خصائص الفضائل
٦٢٦ ما يتعلق بخلقه وولادته
٦٢٨ ذكره في القرآن عضواً عضواً.
٦٢٩ خصائص في بعض صفاته
٦٣٣ حراسة السماء عند البعثة
٦٣٤ من خصائص الإسراء
٦٣٥ وجوب الصلاة والسلام عليه
٦٣٥ خصائص تتعلق بالقرآن الكريم
٦٣٩ أعطي مفاتيح الخزائن
٦٣٩ جوامع الكلم
٦٣٩ عموم بعثته ﷺ
٦٤٢ النصرة بالرعب
٦٤٢ إحلال الغنائم
٦٤٣ الأرض مسجد وطهور
٦٤٣ استمرار معجزة القرآن
٦٤٥ انشقاق القمر وغيرها
٦٤٥ ختم النبوة وتأييد الشريعة
٦٤٥ إرساله إلى الجن كالإنس
٦٤٨ هل أرسل إلى الملائكة؟
٦٥٠ رحمة للعالمين
٦٥١ التكريم بأسلوب الخطاب له
٦٥٣ حبيب الله
٦٥٣ نزول إسماعيل عليه
٦٥٤ سيد ولد آدم
٦٥٤ مغفرة ذنوبه
٦٥٥ هو أكرم الخلق
٦٥٦ تحريم نكاح أزواجه
٦٥٧ القسم على الله به
٦٥٨ حكم رؤية أشخاص أزواجه

- ٥٠٣ من الدلائل: القرآن
٥٠٨ وجوه إعجاز القرآن
٥١٦ معجزات أخرى
٥١٧ شمول معجزاته وتنوعها
٥٢٠ تقسيم المعجزات حسب زمنها
٥٢١ انشقاق القمر
٥٢٥ منكر «انشقاق القمر»
٥٢٧ خبر لا أصل له
٥٢٨ «رد الشمس» لم يثبت
٥٣١ ضعف حديث «تسيح الحصى»
٥٣٣ تسيح الطعام
٥٣٤ تسليم الحجر
٥٣٨ كلام الشجر
٥٤٢ حنين الجذع
٥٤٨ معجزات كلام الحيوانات
٥٥٧ معجزة نبع الماء
٥٦٢ معجزة تفجر الماء
٥٦٨ معجزات تكثير الطعام
٥٧٧ ابراء ذوي العاهات

الفصل الثاني

(ما خص به ﷺ)

- ٥٨٢ فضله عليه السلام
٥٨٤ مقارنة مع فضائل الأنبياء
٥٩٥ ما خص به عليه السلام
٥٩٧ فائدة العلم بالخصائص!؟
٥٩٨ مراجع الخصائص

القسم الأول: خصائص من الواجبات

- ٦٠٠ - بحث في المشاورة
٦٠٢ - بحث في تحيير نساءه

خصائص أمته ﷺ

- ٧٠١ الحكم بشريعة الإسلام
- ٧٠٤ خير أمة أخرجت للناس
- ٧٠٥ فضيلة الصحابة
- ٧٠٧ من فضائل أمته
- ٧١٠ إحلل الغنائم
- ٧١١ خصائص تتعلق بالصلاة
- ٧١٤ الجمعة
- ٧١٤ خصائص تتعلق برمضان
- ٧١٥ الاسترجاع عند المصيبة
- ٧١٥ اليسر ورفع الحرج
- ٧١٧ الإسلام وصف خاص بهم
- ٧١٨ كمال شريعتهم
- ٧٢٠ فضيلة اجتماعهم وإجماعهم
- ٧٢١ الإصابة بالطاعون شهادة
- ٧٢٢ الشهادة بالخير توجب الجنة
- ٧٢٢ قلة العمل وكثرة الأجر
- ٧٢٢ خصيصة الإسناد
- ٧٢٤ وجود «الأبدال» فيهم
- ٧٢٧ خصائص تتعلق بالآخرة
- ٧٣١ هل يصل ثواب القراءة إلى الميت.

- ٦٥٩ خصائص تتعلق بيناته
- ٦٦١ لا اجتهاد في محراب نبوي
- ٦٦٢ من رآه في المنام رآه حقا
- ٦٦٩ رؤيته ﷺ في اليقظة!؟
- ٦٧٥ التسمي باسمه ﷺ
- ٦٧٧ خصائص تتعلق بقراءة الحديث
- ٦٧٨ خصائص تتعلق بصحبته ﷺ
- ٦٧٩ تلبية دعائه ولو في الصلاة
- ٦٨٠ حكم الكذب عليه
- ٦٨١ العصمة من الذنوب والجنون
- ٦٨٢ حكم من انتقصه أو سبه
- ٦٨٨ وجوب الدفاع عنه
- ٦٨٩ يخص من شاء بما شاء
- ٦٩٢ خصائص مرضه وموته وقبره
- ٦٩٤ حي في قبره
- ٦٩٧ تبليغه سلام أمته
- ٦٩٧ المنبر النبوي على الحوض
- ٦٩٧ الروضة الشريفة
- ٦٩٨ أول من ينشق عنه القبر
- ٧٠٠ خصائصه في الموقف

المواهب اللدنية

بالمِنَحِ الحَمْدِيَّةِ

تأليف
العلامة أحمد بن محمد القِطَلَانِي
(١٨٥١ - ١٩٢٣ هـ)

الجزء الثالث

تحقيق
صالح أحمد الشاي

المكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب. : ١١/٣٧٧١ - هاتف: ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)

دمشق : ص.ب. : ١٣٠٧٩ - هاتف: ١١١٦٣٧

عمّان : ص.ب. : ١٨٢٠٦٥ - هاتف: ٤٦٥٦٦٠٥

المواهب اللدنية

بالمَنحِ المَحْمَدِيَّةِ

الجزء الثالث



المقصد الخامس
الاسراء والمعراج

المقصد الخامس: في تخصيصه ﷺ بخصائص المعراج والإسراء^(١)، وتعميمه بلطائف التكريم في حضرة التقريب بالكمال والمشاهدة والآيات الكبرى.

[الآية العظيمة]

اعلم - منحني الله وإياك الترقى في معارج السعادات، وأوصلنا به إليه في حظائر الكرامات - أن قصة الإسراء والمعراج من أشهر المعجزات، وأظهر البراهين البيّنات، وأقوى الحجج المحكمات، وأصدق الأنباء، وأعظم الآيات، وأتم الدلالات الدالة على تخصيصه ﷺ بعموم الكرامات.

[تحديد نقاط الاختلاف]

وقد اختلف العلماء في الإسراء.

هل هو إسراء واحد في ليلة واحدة؟ يقظة أو مناماً؟ أو إسراءان كل واحد في ليلة، مرة بروحه وبدنه يقظة، ومرة مناماً، أو يقظة بروحه وجسده؟ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم مناماً من المسجد الأقصى إلى العرش، أو هي أربع إسراءات؟

(١) سبق الحديث عن تحديد وقت الإسراء في الجزء الأول.

[مناقشة الخلاف]

● احتج القائلون بأنه رؤيا منام - مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء وحي - بقوله تعالى: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾^(١)، لأن الرؤيا مصدر الحُلْمِيَّة، وأما البصرية: فالرؤية بالتاء، وقد أنكر ابن مالك والحريري وغيرهما - كما أفاده الشيخ بدر الدين الزركشي - ورود «الرؤيا» للبصرية، ولحنوا المتنبى في قوله:

ورؤياك أحلى في العيون من الغمض

وأجيب: بأنه إنما قال «الرؤيا» لوقوع ذلك في الليل، وسرعة تقضيه كأنه منام، وبأن «الرؤيا» و«الرؤية» واحدة كقربى وقربة، ويشهد له قول ابن عباس في الآية - كما عند البخاري -: هي رؤيا عين أريها ﷺ ليلة أسري به. وزاد سعيد بن منصور عن سفيان في آخر الحديث: وليس رؤيا منام. ولم يصرح في رواية البخاري بالمرثي.

وعند سعيد بن منصور أيضاً من طريق أبي مالك قال: هو ما أري في طريقه إلى بيت المقدس / وهذا مما يستدل به على إطلاق لفظ «الرؤيا» على ما يرى بالعين في اليقظة. وهو يرد على من خطأ المتنبى.

على أنه اختلف المفسرون في هذه الآية،

فقيل: أي الرؤيا التي أريناك ليلة المعراج. قال البيضاوي ففسر الرؤيا بالرؤية.

وقيل: رؤيا عام الحديبية، حين رأى أنه دخل مكة فصدّه المشركون وافتتن بذلك ناس.

(١) سورة الإسراء. الآية ٦٠.

وقيل: رؤيا وقعة بدر. وسأل ابن النقيب شيخه أبا العباس القرطبي^(١) عن الآية فقال: الصحيح أنها رؤية عين يقظة، أراه جبريل مصارع القوم ببدر، فأرى النبي ﷺ الناس مصارعهم التي أراه جبريل، فتسامعت به قريش واستسخروا منه. انتهى.

● واحتج القائلون بأنه رؤيا منام أيضاً بقول عائشة: «ما فقدت جسده الشريف».

وأجيب بأن عائشة لم تحدث به عن مشاهدة، لأنها لم تكن إذ ذاك زوجاً، ولا في سن من يضبط، أو لم تكن ولدت بعد على الخلاف في الإسراء متى كان.

وقال التفتازاني: أي ما فقد جسده عن الروح، بل كان مع روحه، وكان المعراج للجسد والروح جميعاً. انتهى.

● واحتج القائلون بأنه بالجسد يقظة إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح، بقوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾^(٢)، فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء الذي وقع التعجب به بعظيم القدرة، والتمدح بتشريف النبي ﷺ به، وإظهار الكرامة له بالإسراء. قالوا: ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فيكون أبلغ بالمدح.

وأجيب: بأن حكمة التخصيص بالمسجد الأقصى سؤال قريش

(١) أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي. المالكي الفقيه المحدث، نزيل الاسكندرية، ولد سنة ثمان وسبعين وخمسةائة، وصنف المفهم في شرح صحيح مسلم واختصر الصحيحين مات سنة ست وخمسين وستائة.

(٢) سورة الإسراء، الآية ١.

له عنه على سبيل الامتحان عما شاهدوه وعرفوه من صفة بيت المقدس، وقد علموا أنه لم يسافر إليه، فيجيئهم بما عين ويوافق ما يعلمونه، فتقوم الحجة عليهم، وكذلك وقع، ولهذا لم يسألوه عما رأى في السماء، إذ لا عهد لهم بذلك^(١).

وقال النووي في فتاويه: وكان الإسراء به ﷺ مرتين: مرة في المنام، ومرة في اليقظة.

وذكر السهيلي تصحيح هذا المذهب عن شيخه القاضي أبي بكر ابن العربي، وأن مرة النوم توطئة له وتيسير عليه، كما كان بدء نبوته الرؤيا الصادقة ليسهل عليه أمر النبوة، فإنه أمر عظيم تضعف عنه القوى البشرية، وكذلك الإسراء قد سهله الله عليه بالرؤيا، لأن هوله عظيم، فجاء في اليقظة على توطئة وتقدمة، رفقا من الله بعبده وتسهيلاً عليه.

وقد جوز بعض قائلي ذلك أن تكون قصة المنام قبل المبعث، لأجل قول شريك في رواية: «وذلك قبل أن يوحى إليه». واستشهدوا له بقول عائشة رضي الله عنها: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح^(٢) وسيأتي البحث في ذلك إن شاء الله تعالى.

● واحتج القائلون بأنه أربع إسرائيات يقظة بتعدد الروايات في

(١) الذي يبدو لي - والله أعلم - أنهم لم يسألوه عن المعراج لأنه لم يقص عليهم ذلك، وهذا من حكمته ﷺ حيث ذكر لهم ما يمكن إقامة الدليل عليه حساً بوصف المسجد الأقصى [م].

(٢) من قوله «واستشهدوا..» لم يرد في (ش، ب).

الإسراء، واختلاف ما يذكر فيها، فبعضهم يذكر شيئاً لم يذكره الآخر، وبعضهم يسقط شيئاً ذكره الآخر.

وأجيب: بأنه لا يدل على التعدد، لأن بعض الرواة قد يحذف بعض الخبر للعلم به، أو ينساه. وقال الحافظ ابن كثير: من جعل كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة فأثبت إسرائات متعددة فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب، ولم يحصل على مطلب. ولم ينقل ذلك عن أحد من السلف. ولو تعدد هذا التعدد لأخبر ﷺ به أمته، ولنقله الناس على التعدد والتكرار. انتهى.

وقد وقع في رواية عبثر بن القاسم - بموحدة ثم مثلثة بوزن جعفر - في رواية عن حصين بن عبد الرحمن، عند الترمذي والنسائي: لما أسري برسول الله ﷺ جعل يمر بالنبى ومعه الواحد، الحديث. فإن كان ذلك محفوظاً كان فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الإسراء، وأن الذي وقع بالمدينة أيضاً غير الذي وقع بمكة.

قال في فتح الباري: والذي يتحرر في هذه المسألة أن الإسراء الذي وقع بالمدينة ليس فيه ما وقع بمكة، من استفتاح أبواب السماء باباً باباً، ومن التقاء الأنبياء كل واحد في سماء، ولا المراجعة معهم، ولا المراجعة مع موسى فيما يتعلق بفرض الصلاة، ولا في طلب تخفيفها وسائر ما يتعلق بذلك. وإنما تكررت قضايا كثيرة سوى ذلك رآها ﷺ / فمنها بمكة البعض، ومنها بالمدينة بعد الهجرة البعض، ومعظمها ٢٢٣/ب في المنام والله أعلم. انتهى.

وقال بعض العارفين: إن له ﷺ أربعة وثلاثين مرة، الذي

أسرى به منها إسرائ واحد بجسمه، والباقي بروحه رؤيا رآها.
انتهى (١).

[رأي الجمهور]

فالحق: أنه إسرائ واحد، بروحه وجسده يقظة، في القصة
كلها.

وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين،
وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن
ذلك، إذ ليس في العقل ما يحيله.

قال الرازي: قال أهل التحقيق: الذي يدل على أنه تعالى
أسرى بروح محمد ﷺ وجسده من مكة إلى المسجد الأقصى القرآن
والخبر:

أما القرآن فهو قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾.
وتقرير الدليل: أن «العبد» اسم للجسد والروح، فوجب أن يكون
الإسرائ حاصلاً بجميع الجسد والروح، ويدل عليه قوله تعالى:
﴿أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى﴾ (٢) ولا شك أن المراد هنا مجموع
الروح والجسد، وأيضاً: قال سبحانه وتعالى في سورة الجن: ﴿وأنه لما
قام عبد الله يدعوه﴾ (٣)، والمراد: مجموع الروح والجسد وكذا هاهنا،
انتهى.

(١) هذا قول بغير دليل ولذا فلا قيمة له [م].

(٢) سورة العلق. الآية ٩.

(٣) سورة الجن، الآية ١٩.

واحتجوا أيضاً: بظاهر قوله ﷺ : (أسري بي) لأن الأصل في الأفعال أن تحمل على اليقظة حتى يدل دليل على خلافه .
وبأن ذلك لو كان مناماً لما كان فيه فتنة للضعفاء، ولا استبعده الأغبياء .

وبأن الدواب لا تحمل الأرواح وإنما تحمل الأجسام، وقد تواترت الأخبار بأنه أسري به على البراق .

[حكمة كون الإسراء ليلاً]

فإن قلت: ما الحكمة في كونه تعالى جعل الإسراء ليلاً؟
أجيب: بأنه إنما جعله ليلاً تمكيناً للتخصيص بمقام المحبة، لأنه تعالى اتخذ ﷺ حبيباً وخليلاً، والليل أخص زمان للمحبين لجمعها فيه، والخلوة بالحبيب متحققة بالليل^(١) .

قال ابن المنير: ولعل تخصيص الإسراء بالليل ليزداد الذين آمنوا إيماناً بالغيب وليفتتن الذين كفروا زيادة على فتنهم . إذ الليل أخفى حالاً من النهار، قال؛ ولعله لو عرج به نهراً لفات المؤمن فضيلة الإيمان بالغيب، ولم يحصل ما وقع من الفتنة على من شقي وجحد، انتهى^(٢) .

(١) هذا الجواب غير مناسب، كما لا يليق بذاته تعالى، فإنه تعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾ [م] .

(٢) وهذا التعليل غير مقنع، والأولى الاعتراف بقصور العقل عن إدراك هذه الحكمة والوقوف عند التسليم [م] .

وفي ذلك حكمة أخرى على طريقة أهل الإشارات، ذكرها العلامة ابن مرزوق، وهي: أنه قيل لأن الله تعالى لما محا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة انكسر قلب الليل، فجبر بأن أسري فيه بمحمد ﷺ . وقيل: افتخر النهار على الليل بالشمس فقيل له: لا تفتخر، إن كانت شمس الدنيا تشرق فيك فسيخرج شمس الوجود في الليل إلى السماء. وقيل: لأنه ﷺ سراج، والسراج إنما يوقد بالليل، وأنشد:

قلت يا سيدي تؤثر الليد ل على بهجة النهار المنير
قال لا أستطيع تغيير رسمي هكذا الرسم في طلوع البدور
إنما زرت في الظلام لكيما يشرق الليل من أشعة نوري

[ليلة الإسراء وليلة القدر]

/فإن قلت: أيما أفضل، ليلة الإسراء أو ليلة القدر؟

١/٢٢٤

فالجواب: - كما قاله الشيخ أبو أمامة بن النقاش - أن ليلة الإسراء أفضل في حق النبي ﷺ ، وليلة القدر أفضل في حق الأمة، لأنها لهم خير من عمل في ثمانين سنة لمن قبلهم، وأما ليلة الإسراء فلم يأت في أرجحية العمل فيها حديث صحيح ولا ضعيف. ولذلك لم يعينها النبي ﷺ لأصحابه، ولا عينها أحد من الصحابة بإسناد صحيح، ولا صح إلى الآن ولا إلى أن تقوم الساعة فيها شيء، ومن قال فيها شيئاً فإنما قاله من كيسه لمرجح ظهر له استأنس به، ولهذا تصادمت الأقوال فيها وتباينت، ولم يثبت الأمر فيها على شيء، ولو تعلق بها نفع للأمة - ولو بذرة - لبينه لهم نبينهم ﷺ ، انتهى.

[الإسراء خاص به ﷺ]

فإن قلت: هل وقع الإسراء لغيره ﷺ من الأنبياء؟

أجاب العارف عبد العزيز المهدي: بأن مرتبة الإسراء بالجسم إلى تلك الحضرات العلية لم تكن لأحد من الأنبياء، إلا لنبينا ﷺ . انتهى .

[جوانب من تفسير الآية الكريمة]

وإنما قال تعالى: ﴿أسرى بعبده﴾ إشارة إلى أنه تعالى هو المسافر به، ليعلم أن الإسراء من عنده عز وجل هبة إلهية، وعناية ربانية، سبقت له ﷺ مما لم يخطر بصره، ولا اختلج في ضميره.

وأدخل «باء» المصاحبة في قوله تعالى: ﴿بعبده﴾ ليفيد أنه تعالى صحبه في مسراه، صحبة بالألطف والعناية والإسعاف والرعاية، ويشهد له قوله ﷺ: «اللهم أنت الصاحب في السفر».

وتأمل قوله تعالى: ﴿يسيركم في البر والبحر﴾^(١)، وقوله ﴿أسرى بعبده﴾ يلح لك خصوصية مصاحبة الرسول ﷺ للحق دون عموم الخلق^(٢).

وقرن سبحانه وتعالى «التسبيح» بهذا المسرى، لينفي بذلك عن قلب صاحب الوهم ومن يحكم عليه خياله من أهل التشبيه والتجسيم ما يتخيله في حق الحق تعالى من الجهة والحد والمكان، ولذا قال: ﴿لنريه من آياتنا﴾ يعني ما رأى في تلك الليلة من عجائب الآيات،

(١) سورة يونس، الآية ٢٢ .

(٢) لأنه أتى بـ(باء) المصاحبة في (بعبده)، وأتى بـ(في) في العموم، إشارة إلى الفرق بين لطفه بعبده وبين غيره من الخلق .

كأنه تعالى يقول: ما أسريت به إلا لنزيه الآيات، لا «إلي» فإنه لا يحدني مكان، ونسبة الأمكنة إلي نسبة واحدة، فكيف أسري به إلي، وأنا عنده، وأنا معه أينما كان. والله در القائل:

سبحان من أسرى إليه بعبده ليرى الذي أخفاه من آياته
كحضوره في غيبه وكسكره في صحوه والمحو في إثباته^(١)
ويرى الذي عنه تكون سره في صنعه^(٢) إن شاء وهبته
ويريه ما أبدى له من جوده بوجوده والفقده من هيئاته
سبحانه من سيد ومهيمن في ذاته وسماته وصفاته

وأكدته تعالى بقوله: ﴿ليلاً﴾ مع أن الإسرائ لا يكون في اللسان
العربي إلا ليلاً، لا نهاراً، ليرتفع الإشكال حتى لا يتخيل أنه أسرى
بروحه فقط، ويزيل من خاطر من يعتقد أن الإسرائ ربما يكون نهاراً،
فإن القرآن - وإن كان نزل بلغة العرب - فإنه خاطب به الناس
أجمعين، أصحاب اللسان وغيرهم.

وقال البيضاوي تبعاً لصاحب الكشاف: وفائدته الدلالة بتكثيره
على تقليل مدة الإسرائ، ولذلك قرئ «من الليل» أي بعضه: كقوله
تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾^(٣) وتعقبه القطب في حاشيته
على الكشاف كما نبهت عليه في حاشية الشفاء^(٤).

(١) هذه مصطلحات صوفية: فالغيب بإزاء الشهادة، والسكر: غيبة بوارد
قوي، والصحو هو الرجوع إلى الإحساس، والمحو: رفع أوصاف العادة،
والإثبات: إقامة أحكام العادة، مقابل للمحو.

(٢) في ش: منعه.

(٣) سورة الإسرائ، الآية ٧٩.

(٤) ونص هذا التعقب: وفيه نظر: لأن التنكير للتقليل لا يكون إلا فيما يقبل
القلة والكثرة، والليل لا يقبلها.

[مراحل المعراج]

والمعاريج ليلة الإسراء عشرة سبع إلى السماوات، والثامن إلى سدرة المنتهى. والتاسع إلى المستوى الذي سمع فيه صريف الأقدام في تصاريف الأقدار، والعاشر إلى العرش والرُفرف والرؤية وسماع الخطاب بالمكافحة^(١) والكشف الحقيقي.

وقد وقع له ﷺ في سني الهجرة العشرة ما كان فيه مناسبات لطيفة لهذه المعاريج العشرة، ولهذا ختمت سني الهجرة بالوفاة، وهي لقاء الحق/ جل جلاله، والانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، ٢٢٤/ب والعروج بالروح الكريمة إلى المقعد الصدق، وإلى الموعد الحق وإلى الوسيلة، وهي المنزلة الرفيعة. كما ختمت معاريج الإسراء باللقاء والحضور بحظيرة القدس.

[تصانيف في الإسراء]

وقد أفاد الإمام الذهبي أن الحافظ عبد الغني جمع أحاديث الإسراء في جزأين، ولم يتيسر لي الوقوف عليهما بعد الفحص.

وقد صنف الشيخ أبو إسحاق النعماني - رحمه الله - في الإسراء والمعراج كتاباً جامعاً للأطناب بزيادة الرقائق والإشحان بفواضل الحقائق، ولم أقف عليه حالة كتابتي هذا المقصد الشريف.

ويرحم الله تعالى شيخ الإسلام والحفاظ الشهاب ابن حجر العسقلاني، فإنه قد جمع في كتابه «الفتح» كثيراً مما تشتت من طرق

(١) المكاملة بلا واسطة - كما في هامش ب - [م].

حديث الإسراء وغيره من الأحاديث، مع تدقيق مباحث فقهية،
والكشف عن أسرار معاني كلمه وبدائع ألفاظه وحكمه^(١).

وكل من صنف في شيء من المنح النبوية، والمناقب المحمدية لا
يستغني عن استجناء معارف اللطائف من رياض «عياض» والاستشفاء
من أدواء المشكلات بدواء «شفائه» المبرئ لمعضل الأمراض^(٢).

فالله تعالى يفيض عليه وعلى سائر علماء هذه الأمة سجال رحمته
ورضوانه ويسكننا معهم في بحبوحة جناته.

[رواة حديث الإسراء]

وقد وردت أحاديث الإسراء من حديث أنس، وأبي بن كعب،
وجابر بن عبدالله، وبريدة، وسمرة بن جندب، وابن عباس، وابن
عمر، وابن مسعود، وابن عمرو، وحذيفة بن اليمان، وشداد بن
أوس، وصهيب، وعلي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، ومالك بن
صعصعة، وأبي أمامة، وأبي أيوب، وأبي حبة، وأبي ذر، وأبي سعيد
الخدري، وأبي سفيان بن حرب، وأبي هريرة، وعائشة، وأسما بنت
أبي بكر، وأم هانئ، وأم سلمة، وغيرهم [رضي الله تعالى عنهم
أجمعين]^(٣).

(١) جاء ذلك في فتح الباري في الأماكن التالية: ٤٥٨/١ - ٤٦٤، ٣٠٢/٦،

١٩٦/٧ - ٢١٨ ٦٠٦/٨ - ٦١٠، ٤٧٨/١٣ - ٤٨٧ [م].

(٢) أورد القاضي عياض حديث الإسراء في ستة فصول من الباب الثالث من
الشفاء بدءاً من الفصل الثاني [م].

(٣) في ش.

وفي تفسير الحافظ ابن كثير من ذلك ما يكفي ويشفي .

وبالجملة: فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة الملحدون، ﴿يريدون ليطفثوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾^(١).

[رواية الإمام البخاري لحديث الإسراء]

وقد روى البخاري^(٢)، عن قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به .

(بينما أنا نائم في الحطيم - وربما قال: في الحجر - مضطجعاً، إذ أتاني آت فقد - قال: سمعته يقول: فشق - ما بين هذه إلى هذه . قال: فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته . فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً، فغسل قلبي، ثم حشي ثم أعيد .

ثم أتيت بدابة، دون البغل وفوق الحمار أبيض - فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم - يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قال: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح .

(١) سورة الصف، الآية ٨ .

(٢) رقم الحديث في البخاري: ٣٨٨٧ وكذا رواه مسلم والنسائي .

ثم صعد بي حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح فقيل: من هذا؟
قال: جبريل، قيل ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟
قال: نعم، قيل مرحباً به، فنعم المجيء جاء ففتح لنا، فلما خلصت
إذا بيحي وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم
عليهما، فسلمت فردا ثم قالوا: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال:
جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال:
نعم، قيل مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا
يوسف، قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال:
مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء / الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟
قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد أرسل إليه؟
قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا
إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه، فسلمت عليه فرد، ثم قال:
مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح. ١/٢٢٥

ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، قيل: من هذا؟
قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟
قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا
هارون، قال: هذا هارون فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال:
مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، قيل: من هذا؟
قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل وقد أرسل إليه؟
قال: نعم، قال: مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا

موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح، فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكى لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي.

ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه، قال: فسلمت عليه، فرد السلام، فقال: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح.

ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها^(١) مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران: فالنيل والفرات.

ثم رفع إلي البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، فاخترت اللبن، فقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك.

ثم فرضت علي الصلاة، خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى، فقال: بم أمرت؟ قال: فقلت أمرت بخمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشرًا،

(١) النبق هو ثمر السدر.

فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جريت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم. قال: فلما جاوزت ناداني مناد: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي).

[روايات أخرى]

وفي رواية له^(١): (ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدري ثم أطبقه).

وفي رواية شريك^(٢): (فحشا به صدره^(٣) ولغاديدته) وهي بلام مفتوحة وغين معجمة، أي عروق حلقه، وفي النهاية: جمع لغدوده: وهي لحمة مشرفة عند اللهاة.

والشك في قوله: (ربما قال في الحجر) من قتادة، كما بينه أحمد عن عفان، ولفظه: (بيننا أنا في الحطيم، وربما قال قتادة: في الحجر) والمراد بالحطيم هنا: الحجر.

(١) أي للبخاري وهي برقم ٣٤٩، وكذلك عند مسلم.

(٢) عند الشيخين، وهي في البخاري برقم ٧٥١٧.

(٣) في (أ، ط) صدري.

ووقع عند البخاري في أول بدء الخلق^(١) بلفظ (بينما أنا عند البيت) وهو أعم.

وفي رواية الزهري عن أنس عن أبي ذر/ (فرج سقف بيتي وأنا ب/٢٢٥ بمكة)^(٢).

وفي رواية الواقدي بأسانيده: أنه أسري به من شعب أبي طالب.

وفي حديث أم هانئ - عند الطبراني - أنه بات في بيتها، قالت: ففقدته من الليل، فقال: إن جبريل أتاني.

[الجمع بين الروايات]

والجمع بين هذه الأقوال - كما في فتح الباري - أنه بات في بيت أم هانئ، وبيتها عند شعب أبي طالب، ففرج سقف بيته، وأضاف البيت إليه لكونه كان يسكنه، فنزل منه الملك فأخرجه من البيت إلى المسجد، فكان به مضطجعاً وبه أثر النعاس، ثم أخذه الملك فأخرجه من المسجد، فأركبه البراق. قال: وقد وقع في مرسل الحسن عند ابن إسحاق أن جبريل أتاه فأخرجه إلى المسجد فأركبه البراق، وهو يؤيد هذا الجمع^(٣).

[حكمة انفراج سقف البيت]

فإن قيل: لم فرج سقف بيته ﷺ ونزل منه الملك، ولم لم يدخل عليه من الباب، مع قوله تعالى: ﴿وَأَتَتْهُمُ الْبُيُوتُ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾^(٤)؟

(١) برقم ٣٢٠٧.

(٢) عند الشيخين ورقمه في البخاري ٣٤٩.

(٣) فتح الباري ٢٠٤/٧.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٨٩.

أجيب: بأن الحكمة من ذلك أن الملك انصب من السماء انصبابة واحدة، ولم يعرج على شيء سواه، مبالغة في المفاجأة، وتنبههاً له على أن الطلب وقع على غير ميعاد، كرامة له ﷺ .

وهذا بخلاف موسى عليه الصلاة والسلام، فكانت كرامته بالمناجاة عن ميعاد واستعداد بخلاف نبينا ﷺ فإنه حمل عنه ألم الانتظار، كما حمل عنه ألم الاعتذار. ويؤخذ من هذا: أن مقام نبينا ﷺ بالنسبة إلى مقام موسى عليه السلام المقام المراد بالنسبة إلى مقام المرید. ويحتمل أن يكون توطئة وتمهيداً لكونه فرج عن صدره، فأراه الملك بإفراجه عن السقف ثم التأم السقف على الفور كيفية ما يصنع به، وقرب له الأمر في نفسه بالمثال المشاهد في بيته، لطفاً في حقه ﷺ وتثبيتاً لصبره، والله أعلم.

[إيضاح بعض نقاط النص]

- وقوله: (مضطجعاً) زاد في بدء الخلق (بين النائم واليقظان). وهو محمول على ابتداء الحال، ثم لما خرج به إلى باب المسجد فأركبه البراق، استمر في يقظته.
- وأما ما وقع في رواية شريك عنده أيضاً (فلما استيقظت) فإن قلنا بالتعدد فلا إشكال، وإلا حمل على أن المراد استيقظت: أفقت، يعني أنه أفاق مما كان فيه من شغل البال بمشاهدة الملكوت ورجع إلى العالم الدنيوي، فالمراد: الإفاقة البشرية من الغمرة الملكية.
- وقوله: (إذ أتاني آت) هو جبريل عليه السلام، وفي رواية شريك (أنه جاءه ثلاثة نفر، قبل أن يوحى إليه، وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ قال أوسطهم: هو خيرهم، فقال

آخرهم: خذوا خيرهم وكانت تلك الليلة - أي كانت القصة الواقعة تلك الليلة ما ذكر هنا - فلم يرههم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فلم يكلموه حتى احتملوه...).

وقد أنكر الخطابي قوله: (قبل أن يوحى إليه) وكذا القاضي عياض والنووي، وعبارة النووي: وقع في رواية شريك - يعني هذه - أوهام أنكرها العلماء، أحدها قوله: (قبل أن يوحى إليه) وهو غلط فلم يوافق عليه، وأجمع العلماء على أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء، فكيف يكون قبل الوحي. انتهى. فقد صرح هؤلاء بأن شريكاً تفرد بذلك.

لكن قال الحافظ ابن حجر: في دعوى التفرد نظر، فقد وافقه كثير بن خنيس - بالمعجمة ونون مصغراً - عن أنس، كما أخرجه سعيد ابن يحيى بن سعيد الأموي في كتاب المغازي له من طريقه. قال: ولم يقع التعيين بين المجيئين، فيحمل على أن المجيء الثاني كان بعد الوحي، وحينئذ وقع الإسراء والمعراج. وإذا كان بين المجيئين مدة فلا فرق بين أن تكون تلك المدة ليلة واحدة أو ليالي أو عدد سنين. / ١/٢٢٦ وبهذا يرتفع الإشكال من رواية شريك، ويحصل به الوفاق أن الإسراء كان في اليقظة بعد البعثة وقبل الهجرة وسقط تشنيع الخطابي وغيره بأن شريكاً خالف الإجماع في دعواه أن المعراج كان قبل البعثة، وأقوى ما يستدل به على أن المعراج كان بعد البعثة، قوله في هذا الحديث نفسه: أن جبريل قال لبواب السماء إذ قال له: أبعث؟ قال: نعم، فإنه ظاهر في أن المعراج كان بعد البعثة^(١).

(١) عن فتح الباري ١٣/٤٨٠ - ٤٨١.

● ووقع في رواية ميمون بن سياه - عند الطبراني -: فأتاه جبريل وميكائيل، فقالا: أيهم؟ وكانت قريش تنام حول الكعبة، فقال: أمرنا بسيدهم، ثم ذهبنا، ثم جاؤوه وهم ثلاثة. وفي رواية مسلم: سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين، فأتيت فانطلق بي. والمراد بالرجلين: حمزة وجعفر وكان النبي ﷺ نائماً بينهما.

● وقوله: «فقد» بالقاف والبدال المهملة الثقيلة.

«من ثغرة» بضم المثلة وسكون الغين المعجمة، وهو الموضع المنخفض الذي بين الترقوتين.

«إلى شعرته» بكسر الشين المعجمة، أي شعر العانة الشريفة.

وفي رواية مسلم: إلى أسفل بطنه.

وفي رواية البخاري: إلى مرق البطن.

وفي رواية شريك - عنده -: فشق جبريل ما بين نحره إلى لبتة -

بفتح اللام وتشديد الموحدة - وهو موضع القلادة من الصدر.

[شق الصدر قبل الإسراء]

وقد أنكر القاضي عياض في «الشفاء» وقوع شق صدره الشريف ليلة الإسراء، وقال: إنما كان وهو صبي قبل الوحي في بني سعد.

ولا إنكار في ذلك - كما قاله الحافظ أبو الفضل العسقلاني رحمه

الله - فقد تواترت الروايات به، وثبت شق الصدر أيضاً عند البعثة،

كما أخرجه أبو نعيم في الدلائل، ولكل منها حكمة:

فالأول: وقع فيه من الزيادة، كما عند مسلم من حديث أنس:

فأخرج علقه فقال: هذا حظ الشيطان منك. وكان هذا في زمن الطفولية، فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان. ولعل هذا الشق كان سبباً في إسلام قرينه المروي عند البزار من حديث ابن عباس^(١). ويحتمل أن يكون إشارة إلى حظ الشيطان المبين كالعفريت الذي أراد أن يقطع عليه صلاته وأمكته الله منه.

وأما شق الصدر عند المبعث، فلزيادة الكرامة، وليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي على أكمل الأحوال من التطهير.

وأما شقه عند إرادة العروج إلى السماء، فلتهيؤ للترقي إلى الملائ الأعلى، والثبوت في المقام الأسنى، والتقوي لاستجلاء الأسماء الحسنى، ولهذا لما لم يتفق لموسى عليه الصلاة والسلام مثل هذا التهيؤ لم تتفق له الرؤية، وكيف يثبت الرجل لما لا يثبت له الجبل!؟

ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل، لتقع المبالغة في الإسباغ بحصول المرة الثالثة، كما تقرر في شرعه ﷺ.

ثم إن جميع ما ورد من شق الصدر، واستخراج القلب، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة، مما يجب التسليم له دون التعرض لصفه عن حقيقته، لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك.

قال العارف ابن أبي جمرة: فيه دليل على أن قدرة الله عز وجل لا يعجزها ممكن، ولا تتوقف لعدم شيء ولا لوجوده، وليست مربوطة بالعادة إلا حيث شاءته القدرة، لأنه على ما يعهد ويعرف أن البشر مهما شق بطنه كله وانجرح القلب مات ولم يعيش، وهذا النبي ﷺ قد

(١) وهو- كما رفعه ابن عباس-: فضلت على الأنبياء بخصلتين، كان شيطاني كافرأ فأعاني الله عليه فأسلم. قال ونسيت الأخرى.

شق بطنه المكرمة، حتى أخرج القلب فغسل، وقد شق بطنه كذلك أيضاً وهو صغير وشق قلبه وأخرجت منه نزعاً الشيطان. ومعلوم أن القلب مهما وصل له الجرح مات صاحبه، وهذا النبي ﷺ شق بطنه في هاتين المرتين، ولم يتألم بذلك، ولم يميت لما أن أراد/ الله تعالى أن لا يؤثر ما أجرى به العادة، أن يؤثر موت صاحبها، فأبطل تلك العادة. وقد رمي إبراهيم عليه الصلاة والسلام في النار فلم تحرقه، وكانت عليه برداً وسلاماً. انتهى.

[الصبر على شق الصدر]

وقد حصل من شق صدره الكريم إكرامه ﷺ بتحقيق ما أوتي من الصبر، فهو من جنس ما أكرم به إسماعيل الذبيح بتحقيق صبره على مقدمات الذبح شداً وكتفاً وتلاً للجبين، وإهواء بالمدية إلى المنحر فقال: ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾^(١)، ووفى بما وعد الله، فأكرمه الله بالثناء على صبره إلى الأبد.

ولا مرية أن الذي حصل من صبر نبينا ﷺ على شق الصدر أشق وأجل، لأن تلك مقدمات وهذه نتيجة، وتلك معاريض وهذه حقيقة، والمنحر مقتل وما أصابه من إسماعيل إلا صورة القتل لا فعله، وشق صدر نبينا ﷺ واستخراج قلبه ثم شقه ثم كذا ثم كذا مقاتل عديدة وقعت كلها، ولكن انخرقت العادة بقاء الحياة، فهذا الابتلاء أعظم من ابتلاء الذبيح بما ذكر.

فإن قلت: إنما يتحقق الصبر لو كان هناك مشقة، فلعل العادة لما انخرقت في إبقاء الحياة انخرقت في رفع المشاق وحمل الآلام.

(١) سورة الصافات، الآية ١٠٢.

أجيب: بأنه ورد في حديث شق صدره: فأقبل وهو منتقع اللون أو ممتقع اللون، بالميم بدل النون، وهو يدل على أن الصبر على مشقة المعالجة المذكورة محقق.

قال القاضي عياض: وأصل «انتقع» صار كلون النقع، والنقع الغبار، وهو شبيه بلون الأموات، وهذا يدل على غاية المشقة.

وأما قول ابن الجوزي: فشقه وما شق عليه، فيحمل على أنه صبر صبر من لا يشق عليه. انتهى.

وكذلك الابتلاء أيضاً من حيث السن، فإن ذلك وقع لنبينا ﷺ بعيد ما فطم، وأيضاً: فإنه كان منفرداً عن أمه وبتيماً من أبيه، واختطف من بين الأطفال، وفعل به ما فعل من الأفعال تسهيلاً لما يلقاه في المال، وتعظيماً لما يناله على الصبر من الثواب والثناء، ولهذا لما شج وجرح وكسرت رباعيته قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، زاده الله شرفاً.

[الغسل بطست من ذهب]

وقوله: (ثم أتيت بطست من ذهب) إنما أتى بالطست لأنه أشهر آلات الغسل عرفاً.

فإن قلت: إن استعمال الذهب حرام في شرعه ﷺ فكيف استعمل الطست الذهب هنا؟

أجاب العارف ابن أبي جمرة: بأن تحريم الذهب إنما هو لأجل الاستمتاع به في هذه الدار، وأما في الآخرة فهو للمؤمنين خالصاً، لقوله ﷺ: (هو لهم في الدنيا وهو لنا في الآخرة) قال: ثم إن الاستمتاع

بهذا الطست لم يحصل منه ﷺ وإنما كان غيره هو السائق له والمتناول لما كان فيه حتى وضعه في القلب المبارك.

فسوقان الطست المبارك^(١) من هناك، وكونه كان من ذهب دال على ترفيع المقام فانتفى التعارض بدليل ما قرناه. انتهى.

وتعقبه الحافظ ابن حجر: بأنه لا يكفي أن يقال: إن المستعمل له ممن لم يحرم عليه ذلك من الملائكة، لأنه لو كان قد حرم عليه استعماله لنزه أن يستعمله غيره في أمر يتعلق ببدنه المكرم. ويمكن أن يقال: إن تحريم استعماله مخصوص بأحوال الدنيا، وما وقع في تلك الليلة كان الغالب أنه من أحوال الغيب، فيلحق بأحوال الآخرة، أو لعل ذلك قبل أن يحرم استعمال الذهب في هذه الشريعة. ويظهر هاهنا مناسبات: منها أنه من أواني الجنة، ومنها أنه لا تأكله النار ولا التراب، وأنه لا يلحقه الصدأ، ومنها أنه أثقل الجواهر فناسب قلبه ﷺ لأنه من أواني أحوال الجنة، ولا تأكله النار ولا التراب، وإن الله حرم على / الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، ولا يلحقه الصدأ، وأنه أثقل من كل قلب عدل به، وفيه مناسبة أخرى وهي ثقل الوحي فيه. انتهى.

قلت: قوله: «ولعل ذلك قبل أن يحرم استعمال الذهب في هذه الشريعة». قد جزم هو في أول الصلاة من كتابه فتح الباري: بأن تحريم الذهب إنما وقع بالمدينة.

وقال السهيلي وابن دحية: إن نظر إلى لفظ الذهب ناسب من جهة إذهاب الرجس عنه ولكونه عند الذهاب إلى ربه، وإن نظر إلى معناه، فلوضاءته ونقائه وصفائه. انتهى.

(١) كلمة «المبارك» في (أ، ط).

[هل تجسد المعاني؟]

والمراد بقوله: (ملئ حكمة وإيماناً) أن الطست جعل فيها شيء يحصل به كمال الإيمان والحكمة، فسمي حكمة وإيماناً مجازاً.

ويحتمل أن يكون على حقيقته، وتجسد المعاني جائز، كما أن سورة البقرة تجيء يوم القيامة كأنها ظلة، والموت في صورة كبش، وكذلك وزن الأعمال وغير ذلك.

وقال البيضاوي: لعل ذلك من باب التمثيل، إذ تمثيل المعاني قد وقع كثيراً، كما مثلت له ﷺ الجنة والنار في عرض الحائط، وفائدته كشف المعنوي بالمحسوس.

وقال العارف ابن أبي جمرة: فيه دليل على أن الإيمان والحكمة جواهر محسوسات لا معاني، لأنه ﷺ قال عن الطست: إنه أتى به مملوءاً إيماناً وحكمة، ولا يقع الخطاب إلا على ما يفهم ويعرف، والمعاني ليس لها أجسام حتى تملأ، وإنما يمتلئ الإناء بالأجسام والجواهر، وهذا نص من الشارع ﷺ بضد ما ذهب إليه المتكلمون في قولهم: إن الإيمان والحكمة أعراض.

والجمع بين الحديث وما ذهبوا إليه، هو أن حقيقة أعيان المخلوقات التي ليس للحواس فيها إدراك، ولا من النبوة إخبار عن حقيقتها غير محققة، وإنما هي غلبة ظن، لأن للعقل - بالإجماع من أهل العقل المؤيدين بالتوفيق - حداً يقف عنده، ولا يتسلط فيما عدا ذلك، ولا يقدر أن يصل إليه، فهذا وما أشبهه منها، لأنهم تكلموا على ما ظهر لهم من الأعراض الصادرة عن هذه الجواهر التي ذكرها الشارع ﷺ في الحديث، ولم يكن للعقل قدرة أن يصل إلى هذه الحقيقة التي أخبر بها ﷺ. فيكون الجمع بينهما أن يقال: ما قاله

المتكلمون حق لأنه الصادر عن الجواهر وهو الذي يدرك بالعقل.
والحقيقة ما ذكره ﷺ في الحديث.

ولهذا نظائر كثيرة بين المتكلمين وآثار النبوة، ويقع الجمع بينهما على الأسلوب الذي قررناه وما أشبهه. ثم مثل بمجيء الموت في هيئة كبش أملح، ثم بالأذكار والتلاوة، ثم قال: لأن ما ظهر منها هنا معان، وتوجد يوم القيامة جواهر محسوسات لأنها توزن، ولا يوزن في الميزان إلا الجواهر.

قال: وفي ذلك دليل لأهل الصوفية وأصحاب المعاملات^(١) والتحقيق القائلين بأنهم يرون قلوبهم وقلوب إخوانهم، وإيمانهم وإيمان إخوانهم بأعين بصائرهم جواهر محسوسات، فمنهم من يعاين إيمانه مثل المصباح، ومنهم من يعاينه مثل الشمعة، ومنهم من يعاينه مثل المشعل وهو أقواها. ويقولون: بأنه لا يكون المحقق محققاً حتى يعاين قلبه بعين بصيرته، كما يعاين كفه بعين بصره فيعرف الزيادة فيه من النقصان^(٢).

(١) هي عند المتصوفة: أن يتوجه الإنسان إلى نفسه أي إلى باطنها الذي هو الروح والسر واستمداده منها ما يزيل به الحجب عن نفسه فيحصل لها قبول المراد. ومنازل هذه المعاملات عشر: الرعاية والمراقبة والحرمة والإخلاص والتهديب والاستقامة والتوكل والتفويض والثقة والتسليم.

(٢) إن معرفة إيمان الآخرين ومقداره أمر لم يحصل لجليل الصحابة، فكيف يحصل لغيرهم فقد قال ﷺ لأسامة بعد أن قتل ذلك الرجل: هلا شققت عن قلبه؟! وقد خفي حال المنافقين على الصحابة، وإنما عرف ذلك حذيفة بتعريف رسول الله له وبيانهم... أما ما يتعلق بالإنسان نفسه فقد قال تعالى ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ أما على غيره فلا. [المحقق].

[حكمة شق الصدر]

فإن قيل: ما الحكمة في شق صدره الشريف ثم ملئ إيماناً وحكمة، ولم لم يوجد الله تعالى ذلك فيه من غير أن يفعل فيه ما فعل؟
أجاب العارف ابن أبي جمرة: بأنه ﷺ لما أعطي كثرة الإيمان والحكمة وقوي التصديق إذ ذاك، أعطي برؤية شق البطن والقلب عدم الخوف من جميع العادات الجارية بالهلاك، فحصلت له ﷺ قوة الإيمان من ثلاثة أوجه: بقوة التصديق، والمشاهدة، وعدم الخوف من العادات المهلكات فكمل له ﷺ / بذلك ما أريد منه من قوة الإيمان بالله عز وجل، وعدم الخوف مما سواه.

ولأجل ما أعطيه مما أشرنا إليه كان ﷺ في العالمين أشجعهم وأثبتهم وأعلاهم حالاً ومقلاً.

ففي العلوي: كان - كما أخبر ﷺ - أن جبريل لما وصل معه إلى مقامه قال: ها أنت وربك، وهذا مقامي لا أتعداه، فرج فيه - أي في النور - زجة ولم يتوان ولم يلتفت، فكان هناك في الحضرة كما أخبر عنه ربه عز وجل بقوله: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾^(١).

وأما حاله ﷺ في هذا العالم: فكان إذا همي الوطيس في الحرب ركض بغلته في نحر العدو، وهم شاكون في سلاحهم، ويقول: أنا ابن عبد المطلب، أنا النبي لا كذب.

ثم إن العناية بتطهير قلبه المقدس، وإفراغ الإيمان والحكمة، فيه إشارة إلى مذهب أهل السنة في أن محل العقل ونحوه من أسباب

(١) سورة النجم، الآية ١٧.

الإدراكات كالنظر والفكر إنما هو القلب لا الدماغ، خلافاً للمعتزلة والفلاسفة.

وأما الحكمة في غسل قلبه المقدس بماء زمزم، فقيل لأن ماء زمزم يقوي القلب ويسكن الروح. قال الحافظ الزين العراقي: ولذلك غسل به قلبه ﷺ ليلة الإسراء ليقوى على رؤية الملكوت. واستدل شيخ الإسلام البلقيني، بغسل قلبه الشريف به على أنه أفضل من ماء الكوثر، قال: لأنه لم يكن يغسل قلبه المكرم إلا بأفضل المياه، وإليه يومئ قول العارف ابن أبي جمرة في كتابه «بهجة النفوس».

[هل غسل القلب أم الصدر]

وأما قوله ﷺ: (فغسل صدري) فالظاهر أن المراد به القلب، كما في الرواية الأخرى، وقد يحتمل أن تحمل كل رواية على ظاهرها، ويقع الجمع بأن يقال: أخبر ﷺ مرة بغسل صدره الشريف ولم يتعرض لذكر قلبه، وأخبر مرة بغسل قلبه ولم يتعرض لذكر صدره، فيكون الغسل قد حصل فيهما معاً مبالغة في تنظيف المحل المقدس. ولا شك أن المحل الشريف كان طاهراً مطهراً وقابلاً لجميع ما يلقي إليه من الخير، وقد غسل أولاً وهو ﷺ طفل، وأخرجت من قلبه نزغة الشيطان، وإنما كان ذلك إعظاماً وتأهباً لما يلقي هناك، وقد جرت الحكمة بذلك في غير ما موضع مثل الوضوء للصلاة لمن كان متنظفاً، لأن الوضوء في حقه إنما هو إعظام وتأهب للوقوف بين يدي الله تعالى ومناجاته، فلذلك غسل جوفه الشريف هنا، وقد قال تعالى: ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾^(١) فكان الغسل له ﷺ من

(١) سورة الحج، الآية ٣٢.

تعظيم شعائر الله، وإشارة لأمتة بالفعل بتعظيم شعائر الله، كما نص لهم عليه بالقول.

[البراق والمعراج]

وأما قوله: (ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا) وفي رواية عنده^(١) في الصلاة (ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء).

فظاهره: أنه استمر على البراق حتى عرج إلى السماء.

قال العارف ابن أبي جمرة: أفاد ذلك أنهم كانوا يمشون في الهواء، وقد جرت العادة بأن البشر لا يمشي في الهواء، سيما وقد كان راكباً على دابة من ذوات الأربع، لكن لما أن شاءت القدرة ذلك كان فكما بسط الله تعالى لهم الأرض يمشون عليها، كذلك يمشون في الهواء، كل ذلك بيد قدرته، لا ترتبط قدرته تعالى بعبادة جارية. وقد سئل ﷺ حين أخبر عن الأشقياء الذين يمشون على وجوههم يوم القيامة فقال ﷺ: الذي أمشاهم في الدنيا على أقدامهم قادر أن يمشيهم يوم القيامة على وجوههم. انتهى.

وقد استدل بعضهم بهذا الحديث على أن المعراج كان في ليلة غير ليلة الإسراء إلى بيت المقدس، لكون الإسراء إليه لم يذكر هنا.

فأما المعراج ففي غير هذه الرواية من الأخبار أنه لم يكن على البراق، بل رقي في المعراج وهو السلم، كما وقع التصريح به في

(١) عند البخاري.

حديث عند ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ويمكن أن يقال: / ما وقع هنا اختصار من الراوي، والإتيان بـ«ثم» مقتضية للتراخي لا ينافي وقوع الإسراء بين الأمرين المذكورين، وهما: الانطلاق والعروج. وحاصله: أن بعض الرواة ذكر ما لم يذكره الآخر، وثابت البناني قد حفظ الحديث. ففي روايته عند مسلم: أنه أتى بيت المقدس فصلى فيه ثم عرج إلى السماء كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

١/٢٢٨

[حكمة الإسراء به ركباً]

وقد قيل: إن الحكمة في الإسراء به ركباً، مع القدرة على طي الأرض له، الإشارة إلى أن ذلك وقع تأنيساً له بالعادة، في مقام خرق العادة، لأن العادة جرت أن الملك إذا استدعى من يختص به بعث إليه بمركوب سني يحمله عليه في وفادته إليه.

وفي كلام بعض أهل الإشارات: لما كان ﷺ ثمرة شجرة الكون، ودرة صدفه الوجود، وسرّ معنى كلمة «كن» ولم يكن بد من عرض هذه الثمرة بين يدي مثمرها رفعها إلى حضرة قربه، والطواف بها على ندمان حضرته، أرسل إليه أعز خدام الملك عليه، فلما ورد عليه قادماً، وافاه على فراشه نائماً، فقال له قم يا نائم، فقد هيئت لك الغنائم. قال: يا جبريل إلى أين؟ قال: يا محمد ارفع «الآين» من البين، إنما أنا رسول القدم^(١) أرسلت إليك لأكون من جملة الخدم، يا محمد أنت مراد الإرادة، الكل مراد لأجلك، وأنت مراد لأجله، أنت

(١) في ش للقدم. قال الشارح: أي لذي القدم وهو الحق تعالى.

صفوة كأس المحبة، أنت درة هذه الصدفة، أنت شمس المعارف، أنت بدر اللطائف، ما مهدت الدار إلا لأجلك، ما هي ذلك الحمى إلا لوصلك، وما رُوِّق كأس المحبة إلا لشربك. فقال ﷺ: يا جبريل فالكريم يدعوني إليه، فما الذي يفعل بي؟ قال: ليغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: يا جبريل هذا لي، فما لعيالي وأطفالي؟ قال: ولسوف يعطيك ربك فترضى، قال: يا جبريل الآن طاب قلبي ها أنا ذاهب إلى ربي، ثم قال جبريل: يا محمد إنما جيء بي إليك الليلة لأكون خادم دولتك، وحاجب حاشيتك، وحامل غاشيتك، وجيء بالمركوب إليك لإظهار كرامتك، لأن من عادة الملوك إذا استزاروا حبيباً أو استودعوا قريباً وأرادوا ظهور إكرامه واحترامه أرسلوا أخص خدامهم وأعز نوابهم لنقل أقدامهم، فجئناك على رسم عادة الملوك وآداب السلوك، ومن اعتقد أنه وصل إليه بالخطأ فقد وقع بالخطأ، ومن ظن أنه محجوب بالخطأ فقد حرم العطا. انتهى.

[تسمية البراق وشكله وسرعته]

والحكمة في كون البراق دابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، ولم يكن على شكل الفرس، إشارة إلى أن الركوب كان في سلم وأمن لا في حرب وخوف، أو لإظهار المعجزة بوقوع الإسراع الشديد بدابة لا توصف بذلك في العادة. وذكره بقوله: أبيض، باعتبار كونه مركوباً، أو عطفاً على لفظ البراق.

واختلف في تسميته بذلك، فقيل: من البريق، وقال القاضي عياض: لكونه ذا لونين، يقال: شاة بقاء، إذا كان في خلال صوفها الأبيض طاقات سود، وقيل: من البرق، لأنه وصف بسرعة السير، ويحتمل أن لا يكون مشتقاً.

ووصفه بأنه يضع خطوه عند أقصى طرفه - بسكون الراء وبالفاء - أي يضع رجله عند منتهى ما يرى بصره. وقال ابن المنير: يقطع ما انتهى إليه بصره في خطوة واحدة، قال: فعلى هذا يكون قطع من الأرض إلى السماء في خطوة واحدة، لأن بصر الذي في الأرض يقع على السماء، فبلغ أعلى السماوات في سبع خطوات. انتهى.

وفي حديث ابن مسعود عند أبي يعلى والبزار - كما أفاده في الفتح -: إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه وإذا هبط ارتفعت يدها.

وفي رواية لابن سعد عن/الواقدي بأسانيده: له جناحان. قال الحافظ ابن حجر: ولم أرها لغيره.

ب/٢٢٨

وعند الثعلبي - بسند ضعيف - عن ابن عباس، في صفة البراق: له خد كخد الإنسان وعرف كعرف الفرس، وقوائم كالإبل، وأظلاف وذنب كالبقرة، وكان صدره ياقوتة حمراء.

وفي رواية أبي سعد^(١) في «شرف المصطفى» فكان الذي أمسك بركابه جبريل، وبزمم البراق ميكائيل.

وفي رواية معمر عن قتادة عن أنس: أن رسول الله ﷺ أتى بالبراق ليلة أسري به مسرجاً ملجماً، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما حملك على هذا، ما ركبك خلق قط أكرم على الله منه، قال: فرفض عرقاً. أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب وصححه ابن حبان.

(١) كذا في (ط، ش) وفي المخطوطات: ابن سعد، وخطأ الشارح ذلك. قال الشارح: هو عبد الرحمن بن الحسن الأصفهاني الحافظ المشهور الثقة المتوفى سنة سبع وثلاثمائة. وصفه الذهبي في تاريخه بالحافظ.

وذكر ابن إسحاق عن قتادة: أنه لما شمس وضع جبريل - عليه السلام - يده على معرفته وقال: أما تستحي وذكر نحوه، لكنه مرسل لأنه لم يذكر أنساً.

وفي رواية وثيمة^(١) عند ابن إسحاق: نعست حتى لصقت بالأرض فاستويت عليها.

وفي رواية للنسائي وابن مردويه من طريق يزيد بن أبي مالك عن أنس نحوه موصولاً، وزاد: وكانت تسخر للأنبياء قبله، ونحوه من حديث أبي سعيد عند ابن إسحاق.

[هل ركب الأنبياء البراق؟]

وفيه دلالة على أن البراق كان معداً لركوب الأنبياء، خلافاً لمن نفى ذلك، كابن دحية، وأول قول جبريل: «فما ركبك أكرم على الله منه» أي: ما ركبك أحد قط، فكيف يركبك أكرم منه؟ فيكون مثل قول امرئ القيس:

على لاحب لا يهتدى لمناره

فيفهم أن له مناراً لا يهتدى له، وليس المراد: إلا أنه لا منار له البتة فكيف يهتدى به، فتأمله.

وقد جزم السهيلي بأن البراق إنما استصعب عليه لبعده عهد ركوب الأنبياء قبله.

وقال النووي: قال صاحب مختصر العين، وتبعه صاحب

(١) في ط: وعند ابن إسحاق.

التحرير: كان الأنبياء يركبون البراق. قال: وهذا يحتاج إلى نقل صحيح، انتهى وقد تقدم النقل بذلك.

قال في الفتح: ويؤيده ظاهر قوله: (فربطته بالحلقة التي كانت تربط بها الأنبياء) انتهى. فليتأمل فإنه ليس فيه فربطته بالحلقة التي كانت تربطه بها الأنبياء، وإنما قال: تربط بها الأنبياء وسكت عن ذكر المربوط ما هو؟ فيحتمل - كما قال ابن المنير - أن يكون غير البراق، ويحتمل أن يكون ارتباط الأنبياء أنفسهم بتلك الحلقة، أي تمسكهم بها، ويكون من جنس العروة الوثقى، انتهى.

ولكن وقع التصريح بذلك في حديث أبي سعيد عند البيهقي ولفظه: فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربطها فيها. وقد وقع عند ابن إسحاق من رواية وثيمة في ذكر الإسراء: فاستصعب البراق وكانت بعيدة العهد بركوبهم، لم تكن ركبت في الفترة.

وفي مغازي ابن عائد، من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب قال: البراق هي الدابة التي كان يزور إبراهيم عليها إسماعيل. وعلى هذا فلا يكون ركوب البراق من خصائصه ﷺ. نعم قيل: ركوبه مسرجاً ملجماً لم يرد لغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

[تعليل استصعاب البراق]

فإن قلت: ما وجه استصعاب البراق عليه؟

أجيب: بأنه تنبيه على أنه لم يذلل قبل ذلك، إن قلنا إنه لم يركبه أحد قبله، أو لبعد العهد بركوبه إن قلنا إنه ركب قبله.

ويحتمل أن يكون استصعابه تيهاً وزهواً بركوبه ﷺ، وأراد

جبريل «أبمحمد تستصعب» استنطاقه بلسان الحال أنه لم يقصد الصعوبة وإنما تاه زهواً لمكان الرسول ﷺ منه، ولهذا قال: فافرض عرقاً، فكأنه أجاب بلسان الحال متبرئاً من الاستصعاب، وعرق من خجل العتاب، ومثل هذا رجفة الجبل به حتى قال: (اثبت فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان)/ فإنها هزة الطرب لا هزة الغضب. وكذلك ١/٢٢٩ البراق لما قال له جبريل: اسكن فما ركبك أحد أكرم على الله منه استقر وخجل من ظاهر الاستصعاب وتوجه الخطاب فعرق حتى غرق.

[هل ركب جبريل البراق]

ووقع في حديث حذيفة عند الإمام أحمد قال: أتى رسول الله ﷺ بالبراق فلم يزل على ظهره هو وجبريل حتى انتهيا إلى بيت المقدس. وهذا لم يسنده حذيفة عن النبي ﷺ، فيحتمل أنه قاله عن اجتهاد، ويحتمل أن يكون قوله: «هو وجبريل» متعلقاً بمرافقته في السير، لا في الركوب. وقال ابن دحية معناه: وجبريل قائد أو سائق أو دليل، قال: وإنما جزمنا بذلك لأن قصة المعراج كانت كرامة للنبي ﷺ، فلا مدخل لغيره فيها.

وقد تعقب الحافظ ابن حجر التأويل المذكور: بأن في صحيح ابن حبان من حديث ابن مسعود: أن جبريل حمله على البراق رديفاً له، وفي رواية الحارث في مسنده: أتى بالبراق فركبه خلف جبريل فسار بهما. فهذا صريح في ركوبه معه، والله أعلم، انتهى.

[ما رآه ﷺ ليلة الإسراء]

وقد وقع في غير هذه الرواية بيان ما رآه في ليلة الإسراء، فمن ذلك:

ما وقع في حديث شداد بن أوس - عند البزار والطبراني،
وصححه البيهقي في الدلائل - أنه أول ما أسري به مرّاً بأرض ذات
نخل، فقال له جبريل: انزل فصل، فصلى، فقال: صليت بيثرب،
ثم مر بأرض بيضاء فقال: انزل فصل، فصلى، فقال: صليت بمدين،
ثم مر بيت لحم فقال: انزل فصل، فنزل فصلى، فقال: صليت
حيث ولد عيسى.

وفي حديث أنس عند البيهقي في الدلائل: لما جاء جبريل
بالبراق إليه ﷺ فكأنها أصرت أذنيها، فقال لها جبريل: مه يا براق،
فوالله ما ركبك مثله، فسار رسول الله ﷺ فإذا هو بعجوز على جنب
الطريق، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: سر يا محمد، فسار ما شاء
الله أن يسير، فإذا هو بشيخ يدعو متنجياً عن الطريق يقول: هلم يا
محمد، فقال له جبريل: سر، وأنه مرّاً بجماعة فسلموا عليه فقالوا:
السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر،
فقال له جبريل: اردد عليهم السلام، فرد، الحديث. وفي آخره فقال له
جبريل: أما العجوز التي رأيت جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا
ما بقي من عمر تلك العجوز، والذي دعاك إبليس، والعجوز الدنيا،
أما لو أجبتهما لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة، وأما الذين سلموا
عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، قال الحافظ
عماد الدين ابن كثير: في ألفاظه نكارة وغرابة.

وفي حديث: أنه مر بموسى عليه السلام، وهو يصلي في قبره^(١).
قال أنس: ذكر كلمة فقال: أشهد أنك رسول الله. ولا مانع أن
الأنبياء عليهم السلام يصلون في قبورهم لأنهم أحياء عند ربهم

(١) الحديث في مسلم والنسائي.

يرزقون، فهم يتعبدون بما يجدون من دواعي أنفسهم، لا بما يلزمون به، كما يلهم أهل الجنة الذكر. وستأتي الإشارة إليه في حجة الوداع إن شاء الله تعالى.

وفي حديث أبي هريرة عند الطبراني والبخاري: أنه ﷺ مرَّ على قوم يزرعون ويحصدون في كل يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال لجبريل عليه السلام: ما هذا؟ فقال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة إلى سبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه، وهو خير الرازقين، ثم مرَّ على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر، كلما رضخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين تتناقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة، ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع، وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الأنعام، يأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم، فقال: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء / الذين لا يؤدون زكاة ٢٢٩/ب أموالهم، وما ظلمهم الله وما ربك بظلام للعبيد. ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر، ولحم آخر نيء في قدر خبيث، فجعلوا يأكلون النيء الخبيث، ويدعون النضيج، [فقال: ما هؤلاء يا جبريل؟] (١) قال جبريل: هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب، فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتي رجلاً خبيثاً فتبيت عنده حتى تصبح. ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يزيد عليها، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أمتك تكون عليه (٢) أمانات الناس لا يقدر على أدائها، وهو يريد أن يحمل

(١) زيادة في (ط، ش).

(٢) في (ب، ش): عنده.

عليها. ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاهم بمقاريض من حديد، كلما قرضت عادت كما كانت، لا يفر عنهم من ذلك شيء، قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء الفتنة، قال: ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردّها. ثم أتى على واد فوجد فيه ريحاً طيبة باردة، وريح مسك، وسمع صوتاً، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا صوت الجنة، تقول: رب آتني بما وعدتني، فقد كثرت غرفي واستبرقي وحريري وسندي وعبقري ولؤلؤي ومرجاني وفضتي وذهبي، وأكوابي وصحافي وأباريقي، ومراكبي، وعسلي ومائي ولبني وخمري، فائتني بما وعدتني، فقال: لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بي وبرسلي وعمل صالحاً، ولم يشرك بي شيئاً، ولم يتخذ من دوني أنداداً، ومن خشيني فهو آمن، ومن سألني أعطيته، ومن أقرضني أجزيته^(١)، ومن توكل علي كفيته، إنني أنا الله، لا إله إلا أنا، لا أخلف الميعاد، قد أفلح المؤمنون، وتبارك الله أحسن الخالقين، قالت: رضيت، ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً، ووجد ريحاً منتنة فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا صوت جهنم، تقول: رب آتني ما وعدتني، فقد كثرت سلاسل وأغلال وسعيري وحميمي وفساقي وعذايي، وقد بعد قعري واشتد حري، فائتني بما وعدتني، قال: لك كل مشرك ومشركة وكافر وكافرة، وكل جبار عنيد لا يؤمن بيوم الحساب، قالت: رضيت. قال: فسار حتى أتى بيت المقدس^(٢).

(١) في ش: جازيته.

(٢) ورواه أيضاً البيهقي وابن جرير وأبو يعلى.

وفي رواية أبي سعيد^(١) عند البيهقي^(٢): دعاني داع عن يميني: انظرني أسألك، فلم أجبه، ثم دعاني آخر عن يساري كذلك فلم أجبه، وفيه: إذا امرأة حاسرة عن ذراعيها وعليها من كل زينة خلقتها الله تعالى فقالت: يا محمد انظرني أسألك، فلم ألتفت إليها، وفيه أن جبريل قال له: أما الداعي الأول فهو داعي اليهود، ولو أجبته لتهودت أمتك، وأما الثاني فداعي النصارى، ولو أجبته لتنصرت أمتك، وأما المرأة فالدنيا. وفيه: أنه صعد إلى السماء الدنيا ورأى فيها آدم، وأنه رأى أخونة عليها لحم طيب ليس عليها أحد، وأخرى عليها لحم متن عليها ناس يأكلون، قال جبريل: هؤلاء الذين يتركون الحلال ويأكلون الحرام، وفيه: أنه مرَّ بقوم بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خرَّ، وأن جبريل قال له: هم أكلة الريا، وأنه مرَّ بقوم مشافهم كالإبل، يلتقمون جمرًا، فيخرج من أسافلهم، وأن جبريل قال: إن هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، وأنه مرَّ بنساء تعلقن بثديين وأنهن الزواني، وأنه مرَّ بقوم يقطع من جنوبهم اللحم فيطعمون وأنهم الغمازون للمازون^(٣).

[اللقاء بالأنبياء والملائكة]

وفي حديث أبي هريرة - عند البزار والحاكم - أنه ﷺ صلى بيت المقدس مع الملائكة، وأنه أتى هناك بأرواح الأنبياء فأثنوا على الله. وفيه قول إبراهيم: لقد فضلكم محمد.

(١) أبو سعيد الخدري.

(٢) وكذا عند ابن جرير وابن حاتم وابن مردويه.

(٣) الغمازون: المشيرون بأعينهم أو حواجبهم لمعايب الناس، اللمازون: العيايون.

وفي رواية عبد الرحمن بن هشام عن أنس: ثم بعث له آدم
فمن دونه فأمرهم تلك الليلة.

وفي حديث أم هانئ عند أبي يعلى: ونشر لي رهط من الأنبياء،
منهم إبراهيم وموسى وعيسى.

وفي رواية أبي سلمة ثم حانت الصلاة فأمرتهم. أخرجه مسلم.

وفي حديث أبي أمامة/ عند الطبراني في الأوسط: ثم أقيمت
الصلاة فتدافعوا حتى قدموا محمداً ﷺ.

١/٢٣٠

[اختيار الفطرة]

● وفي رواية ثابت البناني عن أنس عند مسلم قال: فربطته،
يعني البراق، بالحلقة - وهي بإسكان اللام على الأشهر - التي تربط به
الأنبياء - بضمير المذكر، إعادة على معنى الحلقة وهو الشيء، والمراد
حلقة باب مسجد بيت المقدس. قاله صاحب التحرير - قال ﷺ: ثم
دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء
من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة^(١).

أي اخترت اللبن الذي عليه بنيت الحلقة، وبه نبت اللحم
ونشز العظم، أو اخترته لأنه الحلال الدائم في دين الإسلام بخلاف
الخمر فحرام فيما يستقر عليه الأمر.

وقال النووي: المراد بالفطرة هنا، الإسلام والاستقامة، قال:
ومعناه - والله أعلم -: اخترت علامة الإسلام والاستقامة، قال:
وجعل اللبن علامة لكونه سهلاً طيباً طاهراً سائغاً للشاربين، سليم

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم ٢٥٩.

العاقبة، أما الخمر فإنها أم الخبائث، وجالبة لأنواع الشر في الحال والمآل، انتهى.

وقال القرطبي: يحتمل أن يكون سبب تسمية اللبن فطرة لكونه أول شيء يدخل جوف المولود، ويشق أمعاه، والسر في ميل النبي ﷺ إليه دون غيره لكونه مألوفاً له أولاً، انتهى.

وإذا كانت الخمر مباحة - لأنها إنما حرمت بالمدينة والإسراء كان بمكة - فما وجه تعيينه ﷺ لأحد المباحين، وما وجه عد ذلك صواباً، وعد الآخر خطأ، وهما سواء في الإباحة؟

فيحتمل أن يكون توقاها تورعاً وتعريضاً بأنها ستحرم، وأنه لما وافق الصواب في علم الله تعالى قال له جبريل: أصبت الفطرة، أو أصبت أصاب الله بك، كما روي. وإذا قلنا: بأنها كانت من خمر الجنة فيكون سبب تجنبها صورتها ومضاهاة الخمر المحرمة، أي في علم الله تعالى، وذلك أبلغ في الورع.

ويستفاد منه: أن من اتخذ من ماء الرمان أو غيره، ولو ماء قراحاً، وضاهى به الخمر في الصورة وهيأه بالهيئة التي يتعاطاها أهل الشهوات من الاجتماعات والآلات فقد أتى منكراً، وإن كان لا يجد عليها. قاله ابن المنير.

وينظر فيما يعمله كثير من فقراء اليمن وغيرهم بمكة المشرفة وجدة وغيرهما من ماء قشر البن ويسمونهم بالقهوة، وهي اسم من أسماء الخمر^(١).

● وفي حديث ابن عباس - عند أحمد -: فلما أتى المسجد

(١) ثبت علمياً أن القهوة ليست خمرًا وليست مسكرًا [م].

الأقصى قام يصلي، فلما انصرف جيء بقدرين في أحدهما لبن، وفي الآخر عسل، فأخذ اللبن.

● وفي رواية البزار: بثلاثة أواني، وأن الثالث كان خمراً، وأن ذلك وقع ببيت المقدس، وأن الأول كان ماء، ولم يذكر العسل.

● وفي حديث شداد بن أوس^(١): فصليت من المسجد حيث شاء الله، وأخذني من العطش أشد ما أخذني، فأتيت بإناءين أحدهما لبن والآخر عسل، ثم هداني الله تعالى فأخذت اللبن. فقال شيخ بين يدي - يعني لجبريل -: أخذ صاحبك الفطرة.

وقد كان إتيانه بالأواني مرتين، مرة عند فراغه من الصلاة، ومرة عند وصوله إلى سدرة المنتهى ورؤية الأنهار الأربعة.

وممن صرح بأنه كان مرتين الحافظ عماد الدين بن كثير^(٢)، وعلى هذا فيكون تكرار جبريل عليه السلام للتصويب حيث اختار اللبن تأكيداً للتحذير مما سواه.

[مناقشة ربط البراق]

وقد أنكر حذيفة^(٣) ربط البراق بالحلقة، فروى أحمد والترمذي من حديث حذيفة قال: يحدثون أنه ربطه، أخاف أن يفر منه، وقد سخره له عالم الغيب والشهادة؟ وكذا أنكر حذيفة أيضاً صلواته ﷺ ببيت المقدس.

(١) عند البزار والطبراني والبيهقي.

(٢) هذا التصريح على طريق الترجي لا الجزم كما يوهمه المصنف. فعبارته: لعله قدم مرتين، أي جمعاً بين الروايات.

(٣) أي: حذيفة بن اليمان.

وتعقبه البيهقي وابن كثير: بأن المثبت مقدم على النافي، يعني من أثبت ربط البراق والصلاة في بيت المقدس معه زيادة علم على من نفى، فهو أولى بالقبول.

ووقع ذلك في رواية يريدة عند البزار: لما/ كان ليلة أسري به، ٢٣٠/ب فأتى جبريل الصخرة التي ببيت المقدس فوضع أصبعه فيها فخرقها، فشد بها البراق، ونحوه للترمذي.

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي: حتى أتيت بيت المقدس، فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء تربطها فيه، فدخلت أنا وجبريل بيت المقدس، فصلى كل واحد منا ركعتين^(١).

[الصلاة بالنبيين]

● وفي رواية ابن مسعود^(٢) نحوه، وزاد: ثم دخلت المسجد فعرفت النبين ما بين قائم وراكع وساجد، ثم أذن مؤذن فأقيمت الصلاة فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمننا، فأخذ بيدي جبريل فقدمني فصليت بهم.

● وفي حديث ابن مسعود أيضاً- عند مسلم -: وحانت الصلاة فأمتهم.

● وفي حديث ابن عباس، عند أحمد: فلما أتى ﷺ الأقصى قام يصلي، فإذا النبيون أجمعون يصلون معه.

(١) وفي بعض أحاديث الفقرة التالية ما يؤكد إثبات الربط أيضاً [م].

(٢) عند الحسن بن عرفة وأبي نعيم.

● وفي حديث أبي سعيد: ثم سار حتى أتى بيت المقدس فنزل، فربط فرسه إلى صخرة، ثم دخل فصلى مع الملائكة، فلما قضيت الصلاة قالوا: يا جبريل من هذا معك؟ قال: هذا محمد رسول الله خاتم النبيين، قالوا: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قالوا: حياه الله من أخ وخليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة. ثم لقوا أرواح الأنبياء فأثنوا على ربه.

فقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: الحمد لله الذي اتخذني خليلاً، وأعطاني ملكاً عظيماً، وجعلني أمة قانتاً يؤتم بي، وأنقذني من النار، وجعلها علي برداً وسلاماً.

ثم إن موسى عليه الصلاة والسلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي كلمني تكليماً، واصطفاني، وأنزل علي التوراة، وجعل هلاك فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي، وجعل من أمتي قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون.

ثم إن داود عليه الصلاة والسلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي جعل لي ملكاً عظيماً، وعلمني الزبور، وألان لي الحديد، وسخر لي الجبال يسبحن معي والطير وآتاني الحكمة وفصل الخطاب.

ثم إن سليمان عليه السلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي سخر لي الرياح، وسخر لي الشياطين، يعملون ما شئت من محاريب وتمائيل، وعلمني منطق الطير وآتاني من كل شيء فضلاً، وسخر لي جنود الشياطين والإنس والجن والطير، وآتاني ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، وجعل لي ملكاً طيباً ليس فيه حساب.

ثم إن عيسى عليه السلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي

جعلني كلمته، وجعلني مثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، وعلمني الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعلني أخلق [أي أسوي]^(١) من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وجعلني أبرئ الأكمه والأبرص، وأحيي الموتى بإذن الله، ورفعني وطهرني وأعاذني وأمي من الشيطان الرجيم. فلم يكن للشيطان علينا سبيل.

قال: وإن محمداً ﷺ أثنى على ربه فقال: كلكم أثنى على ربه وأنا أثنى على ربي: الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليّ الفرقان، فيه تبيان كل شيء، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتي أمة وسطاً، وجعل أمتي هم الأولون وهم الآخرون، وشرح لي صدري، ووضع عني وزري، ورفع لي ذكري، وجعلني قائماً وخاتماً.

فقال إبراهيم: بهذا فضلكم محمد. ثم ذكر أنه عرج به إلى السماء الدنيا، ومن سماء إلى سماء. ذكره القاضي عياض في «الشفاء» مختصراً من حديث أبي هريرة من غير عزو^(٢).

ورواه البيهقي من حديث أبي سعيد الخدري، وهذا لفظه.

• وفي رواية ابن أبي حاتم في تفسيره، عن أنس: فلما بلغ بيت المقدس، فبلغ المكان الذي يقال له: باب محمد، أتى إلى الحجر الذي به، فغمز جبريل بأصبعه فنقبه، ثم ربطها، ثم صعدا^(٣)، فلما استويا

(١) في ط.

(٢) وقد أخرجه أبو يعلى والبخاري وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي كلهم من حديث أبي هريرة.

(٣) أي مرا، قال الشارح: وإلا فلا معنى للصعود هنا، وأكثر النسخ بإسقاطها.

في سرحة^(١) المسجد قال جبريل: يا محمد، هل سألت ربك أن يريك الحور العين؟ قال: نعم، قال: فانطلق إلى أولئك النسوة فسلم عليهن، قال: فسلمت عليهن فرددن علي/ السلام، فقلت لمن أنتن؟ فقلن: خيرات حسان، نساء قوم أبرار، نقوا فلم يدرنوا^(٢)، وأقاموا فلم يظعنوا، وخلدوا فلم يموتوا، قال: ثم انصرفت فلم ألبث إلا يسيراً، حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة، قال فقمننا صفوفاً ننتظر من يؤمننا، فأخذ بيدي جبريل عليه السلام فقدمني فصليت بهم، فلما انصرفت قال لي جبريل: أتدري من صلى خلفك؟ قلت: لا، قال: صلى خلفك كل نبي بعثه الله.

قال القاضي عياض: يحتمل أن يكون ﷺ صلى بالأنبياء جميعاً في بيت المقدس، ثم صعد منهم من ذكر أنه ﷺ رآه في السماوات، ويحتمل أن يكون صلى بهم بعد أن هبط من السماء، فهبطوا أيضاً، والأظهر أن صلاته بهم في بيت المقدس كان قبل العروج. انتهى.

وقال ابن كثير: صلى بهم ببيت المقدس قبل العروج وبعده، فإن في الحديث ما يدل على ذلك، ولا مانع منه، انتهى.

[الكلام على هذه الصلاة]

وقد اختلف في هذه الصلاة، هل هي فرض أو نفل؟ وإذا قلنا إنها فرض، فأى صلاة هي؟

قال بعضهم: الأقرب أنها الصبح، ويحتمل أن تكون العشاء،

(١) أي فناء.

(٢) أي لم يصبهم درن وهو الوسخ.

وإنما يتأتى على قول من قال: إنه صلى بهم قبل عروجه إلى السماء،
وأما على قول من قال: إنه صلى بهم بعد العروج فتكون الصبح.

قال ابن كثير: ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء، والذي
تظاهرت به الروايات أنه بيت المقدس، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه،
لأنه لما مرَّ بهم في منازلهم جعل يسأل جبريل عنهم واحداً واحداً، وهو
يخبره بهم، ثم قال: وهذا هو اللائق، لأنه أولاً كان مطلوباً إلى
الجناب العلوي، ليفرض الله عليه وعلى أمته ما يشاء، ثم لما فرغ مما
أريد به اجتمع هو وإخوانه من النبيين، ثم أظهر شرفه عليهم بتقدمه
في الإمامة.

[صفة المعراج]

وفي رواية ابن إسحاق: أنه ﷺ قال: لما فرغت مما كان في بيت
المقدس، أتى بالمعراج ولم أر قط شيئاً أحسن منه، وهو الذي يمد إليه
الميت عينيه إذا احتضر، فأصعدني صاحبي فيه حتى انتهى إلى باب من
أبواب السماء.

وفي رواية كعب: فوضعت له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب
حتى عرج هو وجبريل.

وفي «شرف المصطفى» أنه أتى بالمعراج من جنة الفردوس، وأنه
منضد عن يمينه ملائكة، وعن يساره ملائكة.

وفي رواية أبي سعيد - عند البيهقي - ثم أتيت بالمعراج الذي
تعرج عليه أرواح بني آدم، فلم ير الخلائق أحسن من المعراج، أما
رأيت الميت حين يشق بصره طامحاً إلى السماء، فإن ذلك عجبه
بالمعراج.

[لم يقل جبريل : أنا]

وقد تقدم في حديث البخاري السابق: فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، قيل من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه قال: نعم.

ولم يقل جبريل عليه السلام: أنا، حيث قيل له: من هذا؟ إنما سمى نفسه فقال: جبريل، لأن لفظ «أنا» فيه إشعار بالعظمة. وفي الكلام السائر: أول من قال «أنا» إبليس، فشقي، وأيضاً فقوله «أنا» مبهمة لافتقار الضمير إلى العود، فهي غير كافية في البيان.

وعلى هذا فينبغي للمستأذن إذا قيل له من أنت؟ أن لا يقول: «أنا»، بل يقول: فلان.

[استبشار أهل السماء]

وفي رواية للبخاري ومسلم: فخرج. وهو بفتح العين بمعنى صعد.

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي: حتى انتهى إلى باب من أبواب السماء يقال له: باب الحفظة، وعليه ملك يقال له إسماعيل تحت يده اثنا عشر ألف ملك.

وفي رواية شريك - عند البخاري أيضاً - ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب باباً من أبوابها، فناداه أهل السماء الدنيا: من هذا؟ قال: جبريل، قالوا: ومن معك قال: محمد. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قالوا: مرحباً وأهلاً، فيستبشر به أهل السماء، لا يعلم

أهل السماء بما يريد الله به في / الأرض حتى يعلمهم، أي على لسان ٢٣١/ب
من شاء كجبريل .

[ذكر الأنهار]

ووقع في هذه الرواية أنه رأى في سماء الدنيا النيل والفرات
عنصرهما .

وظاهره يخالف حديث مالك بن صعصعة فإن فيه بعد ذكر
سدرة المنتهى : فإذا في أصلها أربعة أنهار .

ويجمع بينهما : بأن أصل نبعهما من تحت سدرة المنتهى ومقرهما في
السماء الدنيا، ومنها ينزلان إلى الأرض .

ووقع في هذه الرواية أيضاً : ثم مضى به في سماء الدنيا فإذا هو
بنهر آخر، عليه قصور من لؤلؤ وزبرجد، وأنه الكوثر .

وهو مما استشكل من رواية شريك، فإن الكوثر من الجنة،
والجنة فوق السماء السابعة . ويحتمل أن يكون تقديره : ثم مضى في
السماء الدنيا إلى السابعة فإذا هو بنهر .

[فتح أبواب السماء]

ثم إن في قوله في الحديث «افتح» دلالة على أنه صادف أبواب
السماء مغلقة، والحكمة في ذلك - والله أعلم - التنويه بقدره ﷺ ،
وتحقيق أن السماوات لم تفتح أبوابها إلا من أجله، ولو وجدها مفتوحة
لم يتحرر أنها فتحت لأجله، فلما فتحت له تحقق ﷺ أن المحل
مصون، وأن فتحه له كرامة وتبجيل .

[معنى قوله: «أرسل إليه؟»]

وأما قوله في الحديث: «أرسل إليه؟» وفي رواية «بعث إليه؟» فيحتمل أن يكون استفهام عن الإرسال إليه للعروج إلى السماء، وهو الأظهر لقوله: «إليه» لأن أصل بعثته قد اشتهر في الملكوت الأعلى.

وقيل: سألوه تعجباً من نعمة الله عليه بذلك، واستبشاراً به، وقد علموا أن بشراً لا يترقى هذا الترقى إلا بإذن من الله تعالى، وأن جبريل لا يصعد إلا بمن أرسل إليه.

وقد قيل: إن الله تعالى أراد إطلاع نبيه على أنه معروف عند الملائكة الأعلى، لأنهم قالوا: أبعث إليه؟ أو: أرسل إليه؟ فدل على أنهم كانوا يعرفون أن ذلك سيقع له، وإلا لكانوا يقولون: ومن محمد مثلاً؟ ولذلك أجابوا بقولهم: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، وكلامهم بهذه الصيغة أول دليل على ما ذكرناه من معرفتهم بجلالته وتحقيق رسالته، ولأن هذا أجل ما يكون من حسن الخطاب والترفيح، على المعروف من عادة العرب.

وأما قوله: «من معك؟» فيشعر بأنهم أحسوا به ﷺ، وإلا لكان السؤال بلفظ: أمعك أحد؟ وهذا الإحساس إما بمشاهدة لكون السماء شفافة، وإما بأمر معنوي كزيادة أنوار ونحوها. قاله الحافظ ابن حجر.

ولعله أخذه من كلام العارف ابن أبي جمرة، حيث قال في «بهجته»: الثاني أن يكون سؤالهم له لما رأوا حين رأوا إقباله عليهم من زيادة الأنوار وغيرها من المآثر الحسان زيادة على ما يعهدونه منه. قال: وهذا هو الأظهر، كأنهم قالوا: من الشخص الذي من أجله هذه

الزيادة معك؟ فأخبرهم بما أرادوا وهو تعيين الشخص باسمه حتى عرفوه، انتهى.

وقد قال بعض العلماء: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾^(١) أنه رأى صورة ذاته المباركة في الملكوت فإذا هو عروس المملكة^(٢).

[قولهم: مرحباً به]

وأما قولهم له: «مرحباً به ولنعم المجيء جاء» فيحتمل أن يكونوا قالوه لما عينوه من بركاته ﷺ التي سبقته للسماء مبشرة بقدومه. وفيه تقديم وتأخير، والتقدير: جاء فنعم المجيء مجيئه، وإنما لم يقل الخازن: مرحباً بك، بصيغة الخطاب، بل قال بصيغة الغيبة لأنه حياه قبل أن يفتح الباب، وقبل أن يصدر من النبي ﷺ خطاب، ويحتمل أن يكون حياه بصيغة الغيبة تعظيماً له، لأن «هاء» الغيبة ربما كانت أفخم من كاف الخطاب.

[آدم وأعمال أبنائه]

وأما قوله في الحديث: (فإذا رجل قاعد عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه / وشماله نسمة بنيه. فأهل

١/٢٣٢

(١) سورة النجم، الآية ١٨.

(٢) هذا القول لا يقبل إلا إذا كان هناك ما يؤيده من النصوص، وإلا فهو تفسير بالهوى. [م].

اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى).

فالأسودة: بوزن أزمنة، هي الأشخاص.

والنسم: - بالنون والسين المهملة المفتوحين - جمع نسمة، وهي الروح.

وقد قال القاضي عياض: جاء أن أرواح الكفار في سجين، وأن أرواح المؤمنين منعمة في الجنة، يعني: فكيف تكون مجتمعة في سماء الدنيا؟

وأجاب: بأنه يحتمل أنها تعرض على آدم أوقاتاً، فوافق عرضها مرور النبي ﷺ، ويدل على كونهم في النار إنما هو في أوقات دون أوقات، قوله تعالى: ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً﴾^(٢).

واعترض: بأن أرواح الكفار لا تفتح لها أبواب السماء، كما هو نص القرآن^(٣).

والجواب: ما أبداه هو احتمال أن الجنة كانت في جهة يمين آدم، والنار في جهة شماله: وكان يكشف له عنها، ولا يلزم من رؤية آدم لها - وهو في السماء - أن تفتح لهم أبواب السماء ولا تلجها.

وفي حديث أبي هريرة عند البزار: فإذا عن يمينه باب تخرج منه ريح طيبة، وعن شماله باب تخرج منه ريح خبيثة، إذا نظر عن يمينه

(١) من رواية البخاري في كتاب الصلاة رقم الحديث ٣٤٩.

(٢) سورة غافر، الآية ٤٦.

(٣) في قوله تعالى: ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ سورة الأعراف الآية/٤٠.

استبشر، وإذا نظر عن شماله حزن. وهذا - لو صح - لكان المصير إليه أولى من جميع ما تقدم، ولكن سنده ضعيف. قاله الحافظ ابن حجر.

[الجمع بين الروايات بشأن مكان الأنبياء]

وأما قوله في الحديث: (ثم صعد بي، حتى أتى السماء الثانية، فقبل من هذا؟ قال: جبريل، قيل ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، فقبل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصنا إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت عليهما فردا، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. إلى قوله: ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه، قال: فسلمت عليه فرد السلام وقال مرحباً بالابن الصالح^(١).

فهذه الرواية موافقة لرواية ثابت عن أنس عند مسلم^(٢): أن في السماء الأولى؛ آدم، وفي الثانية يحيى وعيسى، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون وفي السادسة موسى وفي السابعة إبراهيم.

وخالف في ذلك ابن شهاب الزهري في روايته عن أنس عن أبي

(١) من رواية البخاري برقم ٣٨٨٧.

(٢) في صحيح مسلم، كتاب الإيمان رقم الحديث ٢٥٩.

ذر- كما في أول الصلاة من البخاري^(١) أيضاً- أنه لم يثبت كيف منازلهم. وقال فيه: وإبراهيم في السماء السادسة.

وفي رواية شريك^(٢) عن أنس أن إدريس في الثانية وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة وموسى في السابعة، بتفضيل كلام الله^(٣). وسياقه يدل على أنه لم يضبط منازلهم كما صرح به الزهري.

ورواية من ضبط أولى، ولا سيما في اتفاق قتادة وثابت، وقد وافقهما يزيد بن أبي مالك عن أنس، إلا أنه خالف في إدريس وهارون، فقال: هارون في الرابعة، وإدريس في الخامسة.

ووافقهم أبو سعيد إلا أن في روايته: يوسف في الثانية، وعيسى ويحيى في الثالثة.

والمشهور في الروايات: أن الذي في السابعة هو إبراهيم، وأكد ذلك في حديث مالك بن صعصعة: بأنه كان مسنداً ظهره إلى البيت المعمور.

فمع التعدد^(٤): لا إشكال.

ومع الاتحاد فقد جمع: بأن موسى كان حالة الخروج في السادسة وإبراهيم في السابعة على ظاهر حديث مالك بن صعصعة. وعند الهبوط: كان موسى في السابعة، لأنه لم يذكر في القصة أن إبراهيم كلمه في شيء مما يتعلق بما فرض على أمته من الصلاة، كما كلمه

(١) عند البخاري برقم ٣٤٩.

(٢) عند البخاري برقم ٧٥١٧.

(٣) أي بسبب تفضيل موسى بكلام الله تعالى له. [المحقق].

(٤) أي تعدد المعراج.

موسى عليه السلام، والساء السابعة هي أول شيء انتهى إليه حالة / ٢٣٢ ب/ الهبوط، فناسب أن يكون موسى بها، لأنه هو الذي خاطبه في ذلك، كما ثبت في جميع الروايات.

ويحتمل أن يكون لقي موسى في السادسة فأصعد معه إلى السابعة تفضيلاً له على غيره من أجل كلام الله تعالى، وظهرت فائدة ذلك في كلامه مع نبينا فيما يتعلق بأمر أمته في الصلاة. قاله في فتح الباري. وقال: إن النووي أشار إلى شيء من ذلك.

[مكانة موسى عليه السلام]

وفي رواية شريك عن أنس في قصة موسى: (لم أظن أن أحداً يرفع علي).

قال ابن بطال: فهم موسى عليه السلام من اختصاصه بكلام الله تعالى له في الدنيا دون غيره من البشر: لقوله تعالى: ﴿إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾^(١) أن المراد بالناس هنا: البشر كلهم، وأنه استحق بذلك أن لا يرفع عليه أحد، فلما فضل الله تعالى محمداً ﷺ بما أعطاه من المقام المحمود وغيره، ارتفع على موسى وغيره بذلك.

وفي حديث أبي سعيد قال موسى: يزعم بنو إسرائيل أني أكرم على الله، وهذا أكرم على الله مني. زاد الأموي في روايته: ولو كان هذا وحده هان، ولكن معه أمته، وهم أفضل الأمم عند الله.

وفي حديث مالك بن صعصعة: (فلما جاوزته - يعني موسى -

(١) سورة الأعراف، الآية ١٤٤.

بكى ، فنودي : ما يبكيك؟ قال : رب ، هذا غلام بعثته بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخل من أمتي).

ولم يكن بكاء موسى حسداً، معاذ الله، فإن الحسد في ذلك العالم منزوع من آحاد المؤمنين، فكيف بمن اصطفاه الله تعالى، بل كان أسفاً على ما فاته من الأجر الذي يترتب عليه رفع الدرجات له بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم، المستلزمة لتنقيص أجره، لأن لكل نبي مثل أجر كل من اتبعه، ولهذا كان من اتبعه في العدد دون من اتبع نبينا ﷺ، مع طول مدتهم بالنسبة لمدة هذه الأمة.

وقال العارف ابن أبي جمرة: قد جعل الله تعالى في قلوب أنبيائه عليهم الصلاة والسلام الرأفة والرحمة لأمتهم، وركبهم على ذلك، وقد بكى نبينا ﷺ فقيل له: ما يبكيك؟ قال: هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء^(١)، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أخذوا من رحمة الله أوفر نصيب، فكانت الرحمة في قلوبهم لعباد الله أكثر من غيرهم، فلأجل ما كان لموسى عليه السلام من الرحمة واللفظ بكى إذ ذاك رحمة منه لأمته، لأن هذا وقت إفضال وجود وكرم، فرجا لعل أن يكون وقت القبول والإفضال فيرحم الله أمته ببركة هذه الساعة.

فإن قال قائل: كيف يكون هذا، وأمته لا تخلو عن قسمين: قسم مات على الإيمان، وقسم مات على الكفر، فالذي مات على الإيمان لا بد له من دخول الجنة، والذي مات على الكفر لم^(٢) يدخل

(١) رواه الشيخان عن أسامة.

(٢) كذا في النسخ، وفي ش: لا.

الجنة أبداً، فبكاؤه لأجل ما ذكر لا يسوغ، لأن الحكم فيهم قد مرّ ونفذ.

قيل: إن الله تعالى قدر قدره على قسمين، فقدر قدراً وقدر أن
ينفذ على كل الأحوال، وقدر قدراً وقدر أن لا ينفذ، ويكون رفعه
بسبب دعاء أو صدقة أو غير ذلك، فلأجل ما ركب في موسى عليه
السلام من اللطف والرحمة بالأمة طمع لعل أن يكون ما اتفق لأمته
من القدر الذي قدره الله تعالى وقدر ارتفاعه بسبب الدعاء والتضرع
إليه، وهذا وقت يرجى فيه التعطف والإحسان من الله تعالى، لأنه
وقت أسري فيه بالحبيب الكريم، ليخلع عليه خلع القرب والفضل
الجسيم، فطمع الكلیم لعل أن يلحق لأمته من هذا الخير العظيم
نصيياً. وقد قال نبينا ﷺ: إن لله نفحات فتعرضوا لنفحات الله^(١).
وهذه نفحة من النفحات فتعرض لها موسى، فكان أمراً^(٢) قد قدر،
والأسباب لا تؤثر إلا بما سبقت القدرة بأنها فيه/ تؤثر، وما كان قضاء
نافذاً لا تؤثر فيه ولا ترده الأسباب، حتم قد لزم.

١/٢٣٣

وفي بكائه عليه السلام وجه آخر، وهو البشارة لنبينا ﷺ
وإدخال السرور عليه، وذلك قول موسى عليه السلام - الذي هو أكثر
الأنبياء أتباعاً -: إن الذين يدخلون الجنة من أمة محمد ﷺ أكثر مما
يدخلها من أمتي.

(١) جاء في الحديث (اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات رحمة الله فإن
الله نفحات تصيب من يشاء من عباده) أخرجه البيهقي من حديث أنس
وأبي هريرة.

(٢) كذا في (ط، ش) وفي النسخ أمر.

[وصفه ﷺ بـ(الغلام)]

وأما قول موسى عليه السلام: (لأن غلاماً) ولم يقل غير ذلك من الصيغ، فإشارة إلى صغر سنه بالنسبة إليه.

وفي القاموس: الغلام: الطار الشارب، والكهل ضده.

وقال الخطابي: العرب تسمي الرجل المستجمع السن غلاماً، ما دامت فيه بقية من القوة.

قال في فتح الباري: ويظهر لي أن موسى عليه السلام أشار إلى ما أنعم الله به على نبينا من استمرار القوة في الكهولة إلى أن دخل في أول سن الشيخوخة، ولم يدخل على بدنه هرم، ولا اعتراه في قوته نقص، حتى إن الناس في قدومه المدينة لما رأوه مردفاً أبا بكر، أطلقوا عليه اسم الشاب وعلى أبي بكر اسم الشيخ، مع كونه في العمر أسن من أبي بكر والله أعلم. وقد ذكرت ذلك في الهجرة من المقصد الأول.

[جمال يوسف عليه السلام]

وقد وقع في حديث أبي هريرة عند الطبراني في ذكر إبراهيم: فإذا هو برجل أشمط^(١) جالس عند باب الجنة على كرسي.

وفي رواية مسلم من حديث ثابت عن أنس: ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه، وفيه: فإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أعطي شطر الحسن.

(١) أبيض الرأس يخالطه سواده.

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي، وأبي هريرة عند الطبراني:
فإذا أنا برجل أحسن ما خلق الله: قد فضل الناس بالحسن كالقمر
ليلة البدر على سائر الكواكب.

وهذا ظاهره أن يوسف عليه السلام كان أحسن من جميع
الناس، لكن روى الترمذي من حديث أنس: ما بعث الله نبياً إلا
حسن الوجه حسن الصوت، وكان نبيكم أحسنهم وجهاً وأحسنهم
صوتاً. فعلى هذا يحمل حديث المعراج على أن المراد غير النبي ﷺ .
ويؤيده قول من قال: إن المتكلم لا يدخل في عموم خطابه.

وحمل ابن المنير حديث الباب على أن المراد: أن يوسف أعطي
شطر الحسن الذي أوتيته نبينا ﷺ .

[هل كان إدريس جداً له ﷺ ؟]

وأما قوله في الحديث عن إدريس: ثم قال: (مرحباً بالأخ
الصالح والنبي الصالح) فيحمل على أخوة النبوة والإسلام، لأنها تجمع
الوالد والولد، وقال ابن المنير: وفي طريق شاذة: مرحباً بالابن
الصالح، وهذه هي القياس، لأنه جده الأعلى.

وقيل: إن إدريس الذي لقيه ليس هو الجد المشهور، ولكنه
إلياس، فإن كان كذلك ارتفع الإشكال.

[حكمة كون بعض الأنبياء في السماء]

فإن قلت: لم كان هؤلاء الأنبياء عليهم السلام في السماوات دون
غيرهم من الأنبياء؟

وما وجه اختصاص كل واحد منهم بسماء تخصه؟

ولم كان في السماء الثانية بخصوصها اثنان؟

أجيب^(١) عن الاقتصار على هؤلاء دون غيرهم من الأنبياء، بأنهم أمروا بملاقات نبينا ﷺ، فمنهم من أدركه في أول وهلة، ومنهم من تأخر فلحقه، ومنهم من فاته.

وقيل: إشارة إلى ما سيقع له ﷺ مع قومه، من نظير ما وقع لكل منهم:

فأما آدم عليه السلام فوقع التنبيه بما وقع له من الخروج من الجنة إلى الأرض، بما سيقع لنبينا ﷺ من الهجرة إلى المدينة، والجامع بينهما ما حصل لكل منهما من المشقة، وكراهة فراق ما ألفه من الوطن، ثم كان عاقبة كل منهما أن يرجع إلى وطنه الذي خرج منه.

وبعيسى ويحيى - عليهما السلام - على ما وقع له أول الهجرة من عداوة اليهود وتماديهم على البغي عليه، وإرادتهم السوء به. /

ب/٢٣٣

وبيوسف، بما وقع له من إخوته على ما وقع لنبينا ﷺ من قريش، من نصبهم الحرب له، وإرادتهم إهلاكه، وكانت العاقبة له، وقد أشار ﷺ إلى ذلك يوم الفتح بقوله لقريش: أقول لكم كما قال يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء، أي العتقاء.

وبإدريس على رفيع منزلته عند الله تعالى.

وبهارون على أن قومه رجعوا إلى محبته بعد أن آذوه.

(١) يلاحظ في هذه الإجابات أنها غير معقولة، وترك هذه الأمور والتسليم بها أولى طالما أنه لا يوجد نص في ذلك [م].

وموسى على ما وقع له من معالجة قومه، وقد أشار إلى ذلك ﷺ بقوله: لقد أودى موسى بأكثر من هذا فصبر.

وبإبراهيم في استناده إلى البيت المعمور بما ختم له ﷺ في آخر عمره من إقامة مناسك الحج، وتعظيم البيت الحرام.

وأجاب العارف ابن أبي جمرة عن وجه اختصاص كل واحد منهم بساء:

بأن الحكمة في كون آدم في السماء الدنيا لأنه أول الأنبياء، وأول الآباء، وهو الأصل، ولأجل تأنيس النبوة بالأبوة.

وأما عيسى فإنما كان في السماء الثانية لأنه أقرب الأنبياء إلى النبي ﷺ، ولا انمحت شريعة عيسى عليه السلام إلا بشريعة محمد ﷺ، ولأنه ينزل في آخر الزمان لأمة محمد ﷺ على شريعته ويحكم بها، ولهذا قال ﷺ: أنا أولى الناس بعيسى^(١) فكان في الثانية لأجل هذا المعنى.

وإنما كان يحيى عليه السلام معه هناك لأنه ابن خالته، وهما كالشيء الواحد، فلأجل التزام أحدهما بالآخر كانا هناك معاً.

وإنما كان يوسف عليه السلام في السماء الثالثة لأن على حسنه تدخل أمة محمد ﷺ الجنة، فأري له هناك لكي يكون ذلك بشارة له ﷺ فيسر بذلك.

وإنما كان إدريس عليه السلام في السماء الرابعة لأنه هناك توفي ولم تكن له تربة في الأرض على ما ذكر^(٢).

(١) الحديث في الصحيحين وغيرهما.

(٢) هذا مروى عن كعب الأحبار، قال الحافظ: إن هذا من الإسرائيليات، =

وإنما كان هارون عليه السلام في السماء الخامسة لأنه ملازم لموسى عليه السلام، لأجل أنه أخوه وخليفته في قومه، فكان هناك لأجل هذا المعنى. وإنما لم يكن مع موسى في السماء السادسة لأن لموسى منزلة وحرمة وهي كونه كلياً، واختص بأشياء لم تكن لهارون فلأجل هذا المعنى لم يكن معه في السادسة.

وإنما كان موسى عليه السلام في السماء السادسة لأجل ما اختص به من الفضائل، ولأنه الكليم، وهو أكثر الأنبياء أتباعاً بعد نبينا ﷺ .

وإنما كان إبراهيم عليه السلام في السماء السابعة لأنه الخليل والأب الأخير فناسب أن يتجدد للنبي ﷺ بلقياه أنس، لتوجهه بعده إلى عالم آخر، وهو اختراق الحجب، وأيضاً لأنه الخليل، ولا أحد أفضل من الخليل إلا الحبيب، والحبيب هاهو قد علا ذلك المقام فكان الخليل فوق الكل لأجل خلته وفضله، وارتفع الحبيب فوق الكل لأجل ما اختص به بما زاد به عليهم، قال الله تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات﴾^(١) فحصل لهم الكمال والدرجة الرفيعة وهي درجة الرسالة والنبوة، ورفعوا بعضهم فوق بعض بمقتضى الحكمة ترفيهاً للمرفوع دون تنقيص بالمنزول. انتهى فليتأمل.

[كيفية رؤيته ﷺ للأنبياء]

وقد اختلف في رؤية نبينا ﷺ لهؤلاء الأنبياء عليهم السلام،

= والله أعلم بصحته وإن رفع إدريس وهو حي لم يثبت من طريق مرفوعة قوية.

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٣.

فحمله بعضهم على رؤية أرواحهم إلا عيسى، لما ثبت من رفع جسده. وقد قيل في إدريس أيضاً ذلك.

وأما الذين صلوا معه في بيت المقدس، فيحتمل، الأرواح خاصة، ويحتمل: الأجساد بأرواحها.

وقيل: يحتمل أن يكون ﷺ عاين كل واحد منهم في قبره في الأرض على الصورة التي أخبر بها من الموضع الذي ذكر أنه عاينه فيه، فيكون الله عز وجل قد أعطاه من القوة في البصر والبصيرة ما أدرك به ذلك، ويشهد له رؤيته ﷺ الجنة والنار في عرض الحائط/ وهو محتمل ١/٢٣٤ لأن يكون ﷺ رأهما في ذلك الموضع أو مثل له صورتها في عرض الحائط، والقدرة صالحة لكليهما.

وقيل: يحتمل أن يكون الله سبحانه وتعالى لما أراد بإسراء نبينا ﷺ، رفعهم من قبورهم لتلك المواضع إكراماً لنبيه ﷺ وتعظيماً له حتى يحصل له من قبلهم ما أشرنا إليه من الأئس والبشارة، وغير ذلك مما لم نشر إليه ولا نعلمه نحن.

وكل هذه الوجوه محتمل، ولا ترجيح لأحدها على الآخر إذ القدرة صالحة لكل ذلك. انتهى.

[الأنهار المشاهدة ليلة الإسراء]

وأما قوله في الحديث: (ثم رفعت إلى سدره المنتهى، فإذا نبقتها مثل قلال حجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدره المنتهى، وإذا أربعة أنهار، نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: وما هذا يا جبريل: قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران: فالنيل والفرات)

وفي رواية عند البخاري أيضاً: (فإذا في أصلها - أي سدرة المنتهى - أربعة أنهار).

وعند مسلم: (يخرج من أصلها)

وعنده أيضاً من حديث أبي هريرة: (أربعة أنهار من الجنة: النيل والفرات وسيحان وجيحان)

فيحتمل: أن تكون سدرة المنتهى مغروسة في الجنة، والأنهار تخرج من أصلها، فيصح أنها من الجنة.

ووقع في حديث شريك، كما عند البخاري في التوحيد: أنه رأى في السماء الدنيا نهرين يطردان، فقال له جبريل: هما النيل والفرات عنصرهما.

والجمع بينهما: أنه رأى هذين النهرين عند سدرة المنتهى مع نهرى الجنة، ورآهما في السماء الدنيا دون نهرى الجنة، وأراد بـ«العنصر» عنصر انتشارهما بسماء الدنيا، كذا قاله ابن دحية.

ووقع في حديث شريك أيضاً: (ومضى به إلى السماء، وإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك)^(١).

وروى ابن أبي حاتم عن أنس أنه رضي الله عنه بعد أن رأى إبراهيم قال: ثم انطلق بي على ظهر السماء السابعة، حتى انتهى إلى نهر عليه جام الياقوت واللؤلؤ والزبرجد، وعليه طير خضر، أنعم طير رأيت، قال جبريل: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا فيه آنية الذهب

(١) هذه الفقرة من قوله: «ووقع في حديث شريك أيضاً» في الأصل فقط.

والفضة يجري على رضراض من الياقوت والزمرد، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، قال: فأخذت من آنيته فاغترفت من ذلك الماء فشربت، فإذا هو أحلى من العسل وأشد رائحة من المسك.

وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي: فإذا فيها عين تجري يقال لها السلسبيل، فينشق منها نهران: أحدهما الكوثر، والآخر يقال له نهر الرحمة. وسيأتي مزيد لما ذكر هنا من الكوثر في المقصد الأخير إن شاء الله تعالى.

[سدرة المنتهى]

وقد وقع في حديث ثابت عن أنس عند مسلم: (ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا ورقها كأذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت. فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها).

وقد جاء في حديث ابن مسعود عند مسلم أيضاً بيان سبب تسميتها بـ«سدرة المنتهى»، ولفظه: (لما أسري برسول الله ﷺ قال: انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض، فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها).

وهو معنى قول ابن أبي جمرة: لأن إليها تنتهي الأعمال، ومن هناك ينزل الأمر والنهي وتلقى الأحكام، وعندها تقف الحفظة وغيرهم لا يتعدونها، فكانت منتهى، لأن إليها ينتهي ما يصعد من السفلي، وما ينزل من العالم العلوي من أمر العلي.

وقال النووي: لأن علم الملائكة ينتهي إليها. ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله ﷺ.

ب/٢٣٤ ولا يعارض قوله في حديث ابن مسعود هذا، أنها في السادسة، ما دل عليه بقية الأخبار أنه وصل إليها بعد أن/ دخل في السماء السابعة، لأنه يحمل على أن أصلها في السماء السادسة، وأغصانها وفروعها في السابعة، وليس في السادسة منها إلا أصل ساقها، قاله في فتح الباري.

وجاء في حديث أبي ذر عند البخاري في الصلاة: (فغشيها ألوان لا أدري ما هي).

وفي حديث ابن مسعود، المذكور عند مسلم، (قال الله تعالى: إذ يغشى السدرة ما يغشى، قال: فراش من ذهب).

وفي حديث يزيد بن أبي مالك عن أنس (جراد من ذهب).

قال البيضاوي: وذكر الفراش وقع على سبيل التمثيل، لأن من شأن الشجر أن يسقط عليها الجراد وشبهه، وجعلها من الذهب حقيقة، والقدرة صالحة لذلك.

وفي حديث أبي سعيد وابن عباس (فغشيها الملائكة).

وفي حديث علي (وعلى كل ورقة منها ملك).

وفي رواية ثابت عن أنس عند مسلم (فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها).

وفي رواية حميد عن أنس عند ابن مردويه: نحوه لكن قال: تحولت ياقوتاً، ونحو ذلك.

قال ابن دحية: واختيرت السدرة دون غيرها لأن فيها ثلاثة أوصاف: ظل مديد وطعم لذيذ، ورائحة زكية، فكانت بمنزلة الإيمان الذي يجمع القول والعمل والنية، فالظل بمنزلة العمل، والطعم بمنزلة النية، والرائحة بمنزلة القول.

وقال العارف ابن أبي جمرة: وهل الشجرة مغروسة في شيء أم لا؟ يحتمل الوجهين معاً، لأن القدرة صالحة لكليهما. فكما جعل الله في هذه الدار الأرض مقراً للشجر، كذلك يجعل الهواء لتلك مقراً، وكما رجع ﷺ يمشي في الهواء كما كان يمشي في الأرض، ولأن بالقدرة استقرت الأرض مع أنها على الماء، فلا مانع من أن تكون الشجرة في الهواء، ويحتمل أن تكون مغروسة بأرض، وأن تكون من تراب الجنة، والله قادر على ما يشاء.

[كان عرض الأنية مرتين]

وأما قوله ﷺ في الحديث: (ثم أتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال: هي الفطرة التي أتت عليها).

فيدل على أنه عرض عليه الأنية مرتين، مرة ببيت المقدس، ومرة عند وصوله سدرة المنتهى ورؤية الأنهار الأربعة.

وأما الاختلاف في عدد الأنية وما فيها، فيحمل على أن بعض الرواة ذكر ما لم يذكره الآخر، ومجموعها أربعة أوانٍ، فيها أربعة أشياء من الأنهار الأربعة التي رآها تخرج من أصل سدرة المنتهى.

ووقع في حديث أبي هريرة عند الطبري: سدرة المنتهى يخرج

من أصلها أنهار من ماء غير آسن، ومن لبن لم يتغير طعمه، ومن خمر لذة للشاربين، ومن عسل مصفى.

فلعله عرض عليه من كل نهر إناء.

وجاء عن كعب^(١): أن نهر العسل نهر النيل، ونهر اللبن نهر جيحان، ونهر الخمر نهر الفرات، ونهر الماء نهر سيحان.

ولنهر النيل فضائل ولطائف أفردتها بالتأليف غير واحد من الأئمة.

ووقع في بعض الطرق: أنه ﷺ صلى بالأنبياء في السماوات^(٢).

[البيت المعمور]

وأما قوله ﷺ في الحديث: (ثم رفع إلي البيت المعمور) فمعناه أنه أري له، وقد يحتمل أن يكون المراد الرفع^(٣) والرؤية معاً، لأنه قد يكون بينه وبين البيت المعمور عوالم حتى لا يقدر على إدراكه، فرفع إليه وأمد في بصره وبصيرته حتى رآه.

وروى الطبري من حديث ابن أبي عروبة عن قتادة قال: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال: البيت المعمور مسجد في السماء بحذاء الكعبة لو خرَّ لخرَّ عليها، يدخله سبعون ألف ملك كل يوم، إذا خرجوا منه لم يعودوا.

(١) عند البيهقي وغيره.

(٢) قدم المصنف عن ابن كثير ما حاصله أن هذا لم يصح، والذي تظاهرت به الروايات أنه إنما أهمهم في بيت المقدس.

(٣) كذا في (د)، وفي (أ، ش): الرفوع، وفي (ب، ط): المرفوع، قال الشارح: صوابه الرفع.

وفي هذا دليل عظيم على قدرة الله تعالى، وأنه لا يعجزه شيء ممكن، لأن هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم هذا العدد العظيم منذ خلق الله تعالى الخلق إلى الأبد، ثم طائفة هذا اليوم لا ترجع إليه أبداً. ومع أنه قد روي أنه ليس في السماوات ولا في الأرض موضع شبر إلا وملك واضع جبهته/ هناك ساجداً، ثم البحار ما من قطرة ١/٢٣٥ إلا وبها ملك موكل، فإذا كانت السماوات والأرض والبحار هكذا، فهؤلاء الملائكة الذين يدخلون أين يذهبون؟ هذا من عظيم القدرة التي لا يشبهها شيء.

وفي هذا دليل على أن الملائكة أكثر المخلوقات، لأنه إذا كان سبعون ألف ملك كل يوم تصلي في البيت المعمور على ما تقدم، ثم لا يعودون، مع أن الملائكة في السماوات والأرض والبحار^(١).

[أحاديث ضعيفة]

وفي حديث أبي هريرة عند ابن مردويه وابن أبي حاتم: أن في السماء نهراً يقال له: الحيوان، يدخله جبريل كل يوم فينغمس فيه، ثم يخرج فينتفض، فيخرج منه سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطرة ملكاً، فهم الذين يصلون فيه، أي في البيت المعمور، ثم لا يعودون إليه. وإسناده ضعيف^(٢).

وذكر الإمام فخر الدين الرازي عند تفسير قوله تعالى: ﴿ويخلق﴾

(١) حذف جواب الشرط لدلالة السياق عليه، وتقديره: لزم أن تكون الملائكة أكثر من جميع المخلوقات.

(٢) قال الحافظ عبد الغني: منكر لا أصل له، قاله في اللآلي المصنوعة [م].

ما لا تعلمون ﴿١﴾ أنه روى عن عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس أنه قال: إن عن يمين العرش نهراً من نور مثل السماوات السبع والأرضين السبع والبحار السبعة، يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر ويغتسل فيه، فيزداد نوراً إلى نوره وجمالاً إلى جماله، ثم ينتفض فيخلق الله من كل نقطة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك يدخل منهم كل يوم سبعون ألفاً، ثم لا يعودون إليه إلى أن تقوم الساعة.

وقد روي أن ثم ملائكة يسبحون الله تعالى، فيخلق الله بكل تسيحة ملكاً.

هذا ما عدا الملائكة التي للتعبد، وما عدا الملائكة الموكلين بالنبات والأرزاق، والحفظة، والملك الموكل بتصوير ابن آدم، والملائكة الذين ينزلون في السحاب، والملائكة الذين يكتبون الناس يوم الجمعة، وخزنة الجنة، والملائكة الذين يتعاقبون، والذين يؤمنون على قراءة المصلي، والذين يقولون: ربنا ولك الحمد، والذين يدعون لمنتظر الصلاة، والذين يلعنون من هجرت فراش زوجها.

وروي (٢) أن في السماء الدنيا - وهي من ماء ودخان - ملائكة خلقوا من ماء وريح عليهم ملك يقال له الرعد، وهو ملك موكل بالسحاب والمطر، يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت.

(١) سورة النحل، الآية ٨.

(٢) هكذا لم يعزه المصنف وكذا الشارح، وهو حديث موضوع ينسب إلى ابن عباس كذباً. وكنا نتمنى أن المصنف لم يذكره. وقد مضت فقرات منه أشار الشارح إلى وضعها. ومن المعلوم أن هذه القضايا - أي الغيبات - هي قضايا اعتقادية لا يقبل فيها الحديث الضعيف فضلاً عن الموضوع. بل ذهب بعضهم إلى عدم قبول الصحيح إلا إذا كان متواتراً في شأن الاعتقاد. [م].

وأن في الثانية ملائكة على ألوان شتى، رافعين أصواتهم يقولون: سبحان ذي العزة والجبروت، وأن فيها ملكاً نصف جسده من نار ونصف جسده من ثلج، فلا النار تذيب الثلج، ولا الثلج يطفئ النار، وهو يقول: يا من ألف بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين.

وأن في الثالثة - وهي من حديد - ملائكة ذوي أجنحة شتى ووجوه شتى وأصوات شتى، رافعي أصواتهم بالتسبيح يقولون: سبحانك أنت الحي الذي لا يموت، وهم صفوف قيام، كأنهم بنيان مرصوص، لا يعرف أحدهم لون صاحبه من خشية الله.

وأن في السماء الرابعة - وهي من نحاس - ملائكة يضعفون على ملائكة الثالثة، وكذلك كل سماء أكثر عدداً من التي تليها، وأن ملائكة السماء الرابعة قيام وركوع وسجود على ألوان شتى من العبادة، يبعث الله الملك منهم إلى أمر من أموره، فينطلق الملك ثم ينصرف فلا يعرف صاحبه الذي إلى جنبه من شدة العبادة وهم يقولون: سبح قدوس، ربنا الرحمن الذي لا إله إلا هو.

وأن في الخامسة - وهي من فضة - ملائكة يزيدون على ملائكة الأربع سماوات، وهم سجود وركوع لم يرفعوا أبصارهم إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة قالوا: ربنا، لم نعبدك حق عبادتك.

وأن في السماء السادسة - وهي من ذهب - جند الله الأعظم الكروبيون، لا يحصر عددهم إلا الله تعالى، وعليهم ملك له سبعون ألف ملك جنده، وكل ملك منهم جنوده سبعون ألف ملك، وهم الذين يبعثهم الله في أموره إلى أهل الدنيا، رافعو أصواتهم بالتسبيح والتهليل.

وأن في السابعة - وهي ياقوتة حمراء - من الملائكة ما يزيدون على ما تقدم، وعليهم ملك مقدم / على سبعمائة ألف ملك، منهم جنود مثل قطر السماء، وتراب الثرى والرمل والسهل، وعدد الحصى والورق، وعدد كل خلق في السماوات والأرض، ويخلق الله تعالى في كل يوم ما يشاء، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

وأن حملة العرش ثمانية يتجاوبون، لكل ملك منهم وجوه شتى وأعين شتى في جسده، لا يشبه بعضها بعضاً، رافعة أصواتهم بالتهليل، ينظرون إلى العرش لا يفترون، لو أن الملك منهم نشر جناحيه لطبق الدنيا بريشة من جناحه، لا يعلم عددهم إلا الله.

وحملة العرش ثمانية يتجاوبون بصوت حسن رخيم، تقول أربعة منهم: سبحانك اللهم وبحمدك على حلمك بعد علمك، وتقول أربعة: سبحانك اللهم وبحمدك على عفوك بعد قدرتك.

[روايات أخرى عن الملائكة]

وقد روى الطبراني من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: على أي شيء أنت؟ قال على الريح والجنود، قال: وعلى أي شيء ميكائيل؟ قال: على النبات والقطر، قال: وعلى أي شيء ملك الموت؟ قال: على قبض الأرواح، الحديث، وفي إسناد محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وقد ضعف لسوء حفظه ولم يترك.

وروى الترمذي^(١) من حديث أبي سعيد مرفوعاً: وزيراي من أهل السماء: جبريل وميكائيل الحديث.

(١) قال الشارح: بإسناد صحيح والحاكم وصححه.

وروى النقاش أن إسرائيل أول من سجد من الملائكة، وأنه جوزي بولاية اللوح المحفوظ.

وفي كتاب «العظمة» لأبي الشيخ ابن حيان من ذلك العجب العجاب، وعندني منه الجزء الثاني.

[روايات أخرى في الإسراء]

وقد وقعت في غير رواية البخاري هنا زيادات:

فمنها ما وقع في رواية أبي سعيد الخدري عند البيهقي في دلائله: ثم صعدت إلى السماء السابعة فإذا إبراهيم الخليل ساند ظهره إلى البيت المعمور، كأحسن الرجال، ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم علي، وإذا بأمتي شطرين، شطر عليهم ثياب بيض كأنهم القراطيس، وشطر عليهم ثياب رمدة، قال: فدخلت البيت المعمور ودخل معي الذين عليهم الثياب البيض، وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرمدة، فصليت أنا ومن معي في البيت المعمور.

وفي رواية الطبراني: فإذا هو برجل أشمط^(١) جالس على باب الجنة على كرسي، وعنده قوم بيض الوجوه أمثال القراطيس، وقوم في ألوانهم شيء، فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه وخرجوا وقد خلصت ألوانهم وصارت مثل ألوان البيض الوجوه، فقال: من هذا ومن هؤلاء الذين في ألوانهم شيء، وما هذه الأنهار التي دخلوا فيها

(١) أبيض شعر الرأس يخالطه سواده.

وقد صفت ألوانهم؟ قال: هذا أبوك إبراهيم أول من شمط على الأرض، وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم، وأما هؤلاء النفر الذين في ألوانهم شيء فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتابوا فتاب الله عليهم، وأما الأنهار، فأولها رحمة، والثانية نعمة الله، والثالث وسقاها ربهم شراباً طهوراً.

[سماع صريف الأقلام]

وفي رواية البخاري في الصلاة (ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام) الحديث.
والمستوى: المصعد.

وصريف الأقلام: - بفتح الصاد المهملة - تصويتها حالة الكتابة.

والمراد: ما تكتبه الملائكة من أفضية الله تعالى. والقدر المكتوب قديم، وإنما الكتابة حادثة، وظاهر الأخبار أن اللوح المحفوظ فرغ من كتابته، وجف القلم بما فيه قبل خلق السماوات والأرض، وإنما هذه الكتابة في صحف الملائكة كالفروع المنتسخة من الأصل، وفيها الإثبات والمحو على ما ذكر في الآية.

وذكر ابن القيم: أن الأقلام اثنا عشر قلماً، وأنها متفاوتة في الرتب:

فأعلاها وأجلها قدراً، قلم القدر السابق، الذي كتب الله به مقادير الخلائق، كما في سنن أبي داود، عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله تعالى القلم، قال له: اكتب، قال: رب، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء

١/٢٣٦

حتى تقوم الساعة. فهذا أول قلم وأجلها، وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذي أقسم الله به.

والقلم الثاني: قلم الوحي.

والقلم الثالث: قلم التوقيع عن الله ورسوله.

والرابع: قلم طب الأبدان الذي تحفظ به صحتها.

والخامس: قلم التوقيع عن الملوك ونوابهم وبه تساس الممالك.

والسادس: قلم الحساب، وهو الذي تضبط به الأموال، مستخرجها ومصرفها^(١) ومقاديرها، وهو قلم الأرزاق.

والسابع: قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق وتنفذ به القضايا.

والثامن: قلم الشهادة الذي تحفظ به الحقوق.

والتاسع: قلم التعبير، وهو كاتب وحي المنام وتفسيره وتعبيره.

والعاشر: قلم تواريخ العالم ووقائعه.

والحادي عشر: قلم اللغة وتفصيلها.

والثاني عشر: القلم الجامع، وهو قلم الرد على المبطلين، ودفع

شبه المحرفين.

فهذه الأقسام التي بها انتظام مصالح العالم. قال: ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به، وأنه تعالى أقسم به في كتابه. انتهى ملخصاً من كتاب «أقسام القرآن».

(١) في (أ، د): مصروفها.

[وصف الجنة]

وقد وقع في رواية أبي ذر عند مسلم وغيره من الزيادة أيضاً:
(ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا تراها المسك) الحديث.

والجنابذ: - بالجيم ثم النون المفتوحين ثم ألف ثم موحدة ثم ذال معجمة - هي القباب. ويؤيده ما في «التفسير» من البخاري من حديث قتادة عن أنس: (لما عرج به ﷺ قال: أتيت على نهر حافته قباب اللؤلؤ. وأما ما في «كتاب الصلاة» من البخاري (وإذا فيها جنابذ اللؤلؤ) - بالمهملة والموحدة وآخره لام - فقال القاضي عياض وغيره: هو تصحيف.

وفي حديث الإمام أحمد من رواية حذيفة: (فتحت لها أبواب السماء، قال: فرأيت الجنة والنار).

وفي حديث أبي سعيد^(١): أنه عرضت عليه الجنة، وأن رمانها كأنه الدلاء، وإذا طيرها كأنه البخت^(٢)، وأنه عرضت عليه النار، فإذا هي لو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها.

ووقع عند مسلم من طريق همام عن قتادة عن أنس: (بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافته قباب الدر المجوف، وإذا طينه مسك أذفر، فقال جبريل: هذا الكوثر).

وفي رواية أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه: أن إبراهيم عليه السلام قال للنبي ﷺ يا بني، إنك لاق ربك الليلة، وإن أمتك

(١) عند البيهقي وابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) نوع من الإبل.

آخر الأمم وأضعفها، فإن استطعت أن تكون حاجتك في أمتك فافعل^(١).

ووقع في حديث أبي سعيد الخدري، عند البيهقي: ثم صعد بي إلى السماء السابعة، قال: ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا كل ورقة منها تغطي هذه الأمة، وإذا فيها عين تجري يقال لها: السلسيل، فيشق منها نهران، أحدهما الكوثر، والآخر يقال له: الرحمة، فاغتسلت فيه فغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، ثم رفعت إلى الجنة، فاستقبلتني جارية، فقلت: لمن أنت يا جارية؟ قالت: لزيد بن حارثة. وفيه: فإذا رمانها أنه الدلاء عظمًا، ثم عرضت علي النار، فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته، لو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها، ثم أغلقت دوني.

وفي الطبراني من حديث عائشة: لما كان^(٢) ليلة أسري بي إلى السماء، أدخلت الجنة، فوقفت على شجرة من أشجار الجنة لم أر في الجنة أحسن منها، ولا أبيض منها، ولا أطيب منها ثمرة، فتناولت ثمرة من ثمارها فأكلتها فصارت نطفة في صلبي، فلما هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة. وهو حديث ضعيف^(٣). وفيه التصريح بأن الإسراء كان قبل ولادة فاطمة، وهي ولدت قبل النبوة بسبع سنين وشيء، ولا ريب أن الإسراء كان بعد النبوة.

(١) هذا الحديث ساقه الشامي في قصة الإسراء. وفيه أن لقاءه بإبراهيم كان في بيت المقدس لا كما أوهمه المصنف.

(٢) في (ب) كانت، وكان هنا تامة بمعنى حصل.

(٣) بل هو موضوع كما قال الذهبي والحافظ وابن الجوزي.

[حديثان موضوعان؟!]

وذكر أبو الحسن بن غالب، فيما تكلم فيه على أحاديث الحجب السبعين والسبعمئة والسبعين ألف حجاب وعزاها لأبي الربيع بن سبع في شفاء الصدور من حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال بعد أن ذكر مبدءاً حديث الإسرائ، كما ورد في الأمهات:

أتاني جبريل وكان السفير بي إلى ربي، إلى أن انتهى إلى مقام ثم وقف عند ذلك، فقلت: يا جبريل، في مثل هذا المقام يترك الخليل خليله؟ فقال: إن تجاوزته احترقت بالنور، فقال النبي ﷺ: يا جبريل، هل لك من حاجة؟ قال: يا محمد، سل الله أن أبسط جناحي على الصراط لأمتك حتى يجوزوا عليه، قال النبي ﷺ: ثم زج بي في النور زجاً، فخرق بي إلى السبعين ألف حجاب، ليس فيها حجاب يشبه حجاباً، وانقطع عني حس كل إنسي وملك، فلحقني عند ذلك استيحاش، فعند ذلك ناداني مناد بلغة أبي بكر: قف إن ربك يصلي، فبينما أنا أتفكر في ذلك فأقول: هل سبقني أبو بكر؟ فإذا النداء من العلي الأعلى، ادن يا خير البرية، ادن يا أحمد، ادن يا محمد، ليدنو^(١) الحبيب، فأدناي ربي حتى كنت كما قال تعالى: ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى﴾^(٢) قال: وسألني ربي فلم أستطع أن أجيبه، فوضع يده بين كتفي - بلا تكييف ولا تحديد - فوجدت بردها بين ثديي، فأورثني علم الأولين والآخرين، وعلمني علوماً شتى، فعلم أخذ علي كتمانها إذ علم أنه لا يقدر على حمله أحد غيري، وعلم خيرني فيه، وعلمني القرآن فكان جبريل عليه السلام يذكرني به، وعلم أمرني

(١) كذا في النسخ، وفي ش: ليدن، وهو الصواب.

(٢) سورة النجم، الآية ٩.

بتبليغه إلى العام والخاص من أمتي. ولقد عاجلت جبريل عليه السلام في آية نزل بها علي، فعاتبني ربي وأنزل علي ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه وقل رب زدني علماً﴾^(١)، ثم قلت: اللهم إنه لما لحقني استيحاش قبل قدومي عليك سمعت منادياً ينادي بلغة تشبه لغة أبي بكر فقال لي: قف^(٢) إن ربك يصلي، فعجبت من هاتين، هل سبقتي أبو بكر إلى المقام؟ وإن ربي لغني عن أن يصلي، فقال تعالى: أنا الغني عن أن أصلي لأحد، وإنما أقول: سبحاني سبحاني، سبقت رحمتي غضبي، اقرأ يا محمد: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾^(٣) فصلاتي رحمة لك ولأمتك، وأما أمر صاحبك يا محمد، فإن أخاك موسى كان أنسه بالعصا، فلما أردنا كلامه قلنا: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى، قال هي عصاي﴾^(٤)، وشغل بذكر العصا عن عظيم الهيبة. وكذلك أنت يا محمد، لما كان أنسك بصاحبك أبي بكر وأنك خلقت أنت وهو من طينة واحدة، وهو أنيسك في الدنيا والآخرة، خلقنا ملكاً على صورته يناديك بلغته ليزول عنك الاستيحاش، فلا يلحقك من عظيم الهيبة ما يقطعك عن فهم ما يراد منك. ثم قال الله تعالى: وأين حاجة جبريل؟ فقلت: اللهم إنك أعلم، فقال: يا محمد، قد أجبتة فيما سأل، ولكن فيمن أحبك وصحبك^(٥).

(١) سورة طه، الآية ١١٤.

(٢) في ط: قف مكانك.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٤٣.

(٤) سورة طه، الآية ١٨.

(٥) قال في «أسنى المطالب» حديث: قف إن ربك يصلي، باطل. وتبرأ منه

المصنف بعد الرواية الثانية.

وفي رواية: فتقدمت وجبريل على أثري، حتى انتهى بي إلى حجاب فراش الذهب فحرك الحجاب، فقيل من هذا؟ قال: أنا جبريل ومعى محمد ﷺ فقال الملك: الله أكبر، فأخرج يده من تحت الحجاب فاحتملني فوضعني بين يديه في أسرع من طرفة عين، وغلظ الحجاب مسيرة خمسمائة عام، فقال لي: تقدم يا محمد، فمضيت فانطلقت بي الملك في أسرع من طرفة عين إلى حجاب اللؤلؤ، فحرك الحجاب، فقال الملك من وراء الحجاب: من هذا؟ فقال أنا فلان صاحب حجاب الذهب، وهذا محمد ﷺ رسول رب العزة معى، فقال: الله أكبر، فأخرج يده من تحت الحجاب/ فاحتملني حتى وضعني بين يديه، فلم أزل كذلك من حجاب إلى حجاب، حتى جاوزت سبعين حجاباً، غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام، فقال لي: تقدم يا محمد، فمضيت فانطلقت بي الملك، ثم دلي لي رفر فأخضر يغلب ضوءه ضوء الشمس، فالتمع بصري، ووضعت على ذلك الرفرف، ثم احتملت حتى وصلت إلى العرش، فأبصرت أمراً عظيماً لا تناله الألسن، ثم دلي لي قطرة من العرش، فوقعت على لساني، فما ذاق الذائقون شيئاً قط أحلى منها، فأنبأني الله بها نبأ الأولين والآخرين، ونور قلبي، وغشي نور عرشه بصري فلم أر شيئاً فجعلت أرى بقلبي ولا أرى بعيني، ورأيت من خلفي ومن بين كتفي، كما رأيت أمامي، الحديث.

رواه والذي قبله في كتاب «شفاء الصدور» كما ذكره ابن غالب والعهدة عليه في ذلك^(١).

(١) قال الشامي بعد نقل كلام المصنف: وهو كذب بلا شك.

[الحجب ومعناها]

وتكثر الحجب لم يرد في طريق صحيح، ولم يصح في ذلك غير ما في مسلم: (حجابه النور)^(١).

والرُفْرَف: البساط، وقيل إنه في الأصل ما كان من الديباج وغيره رقيقاً حسن الصنعة ثم اتسع فيه.

واعلم أن ما ذكر في هذا المحل الرفيع من الحجب فهو في حق المخلوق، لا في حق الخالق عز وجل، والله سبحانه وتعالى منزّه عما يحجب، إذ الحجب إنما تحيط بمقدر محسوس، فالخلق كلهم محجوبون عنه تعالى بمعاني الأسماء والصفات والأفعال، وسائر المخلوقات من معاني الأنوار والظلمات كل له مقام من الحجب معلوم، وحظ من الإدراك والمعرفة مقسوم، وأقرب الخلق إلى الله تعالى الملائكة الحافون^(٢) والكروبيون، وهم محجوبون بنور المهابة والعظمة والكبرياء والجلال والقدس والقيومية، حجب الذات بالصفات. وهم في الحجب عنه على طبقات مختلفات، كل على مقام معلوم ودرجات.

وبالجملة، فالمخلوقات كلها ما كانت حجاباً^(٣) عن الخالق؟ فقوم حجّبوا برؤية النعم عن المنعم، وبرؤية الأحوال عن المحول، وبرؤية الأسباب عن المسبب، وقوم حجّبوا بالعلم عن المعلم وبالفهم عن المفهم، وبالعقل عن المعقل، وذلك كله من معنى حجاب النعم عن المنعم، والمواهب عن الواهب.

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم ٢٩٣.

(٢) في ط: المحافون. والحافون: أي بالعرش.

(٣) كذا في النسخ وفي (ش): حجاب، فهي خبر «المخلوقات». أي المخلوقات مذ كانت هي حجاب عن الخالق.

وقوم حجبوا بالشهوات المباحة، وقوم بالشهوات المحرمات
والمعاصي والسيئات، وقوم حجبوا بالمال والبنين وزينة الحياة الدنيا.
اللهم لا تحجب قلوبنا عنك في الدنيا ولا أبصارنا عنك في
الآخرة يا كريم.

[تفسير «ثم دنا فتدلى»]

وقد ورد في الصحيح عن أنس قال: (لما عرج بي جبريل إلى
سدرة المنتهى. ودنا الجبار رب العزة جل جلاله فتدلى حتى كان منه
قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده^(١) ما أوحى) الحديث.

وهذا الدنو والتدلي المذكور في هذا الحديث^(٢) وغيره من أحاديث
المعراج غير الدنو والتدلي المذكور في قوله تعالى في سورة النجم: ﴿ثم
دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى﴾^(٣) وإن اتفقا في اللفظ.

فإن الصحيح أن المراد في الآية جبريل، لأنه الموصوف بما ذكر
من أول السورة إلى قوله: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى﴾^(٤)
هكذا فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح.

قالت عائشة رضي الله عنها: سألت رسول الله ﷺ عن هذه

(١) في الأصل: فأوحى إليّ. قال الشارح: ولفظ البخاري: فأوحى الله فيما
أوحى خمسين صلاة.

(٢) رواية شريك عند البخاري رقم ٧٥١٧.

(٣) سورة النجم، الآية ٩.

(٤) سورة النجم الآية ١٤.

الآية فقال: ذاك جبريل لم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين^(١).

ولفظ القرآن لا يدل على غير ذلك من وجوه:

أحدها: أنه قال: ﴿علمه شديد القوى﴾. وهذا جبريل الذي وصفه بالقوة في سورة التكوير.

الثاني: أنه قال: ﴿ذو مرة﴾ أي حسن الخلق وهو الكريم الذي في سورة التكوير.

الثالث: أنه قال: ﴿فاستوى وهو بالأفق الأعلى﴾ وهو ناحية السماء العليا، وهذا استواء جبريل عليه السلام، وأما استواء الرب جل جلاله فعلى عرشه.

الرابع: أنه قال: ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ فهذا دنو جبريل وقد نزل إلى الأرض حيث كان رسول الله ﷺ بها. وأما الدنو والتدلي/ في حديث المعراج فرسول الله ﷺ كان فوق السماوات ٢٣٧/ب فهناك دنى الجبار جل جلاله منه وتدلى.

الخامس: أنه قال: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى﴾ والذي عند سدرة المنتهى قطعاً هو جبريل، وبهذا فسره النبي ﷺ فقال: ذاك جبريل.

السادس: أن نفس الضمير في قوله: ﴿ولقد رآه﴾ وقوله: ﴿دنا فتدلى﴾ وقوله: ﴿فاستوى﴾ وقوله: ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ واحد، فلا يجوز أن يخالف بين المفسرين من غير دليل.

(١) أخرجه مسلم.

السابع: أنه سبحانه وتعالى أخبر أن هذا الذي دنا فتدلى كان بالأفق الأعلى، وهو أفق السماء، بل تحتها فدنا من الأرض فتدلى من رسول الله ﷺ، ودنو الرب تبارك وتدليه - على ما في حديث شريك - كان فوق العرش لا إلى الأرض.

ثم نفى سبحانه وتعالى عن نبيه ﷺ بقوله: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ ما يعرض للرئائي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء من التفاته يميناً وشمالاً، ومجاورة بصره لما بين يديه، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام وفي تلك الحضرة إذ لم يلتفت جانباً ولم يمد بصره إلى غير ما أرى من الآيات، وما هناك من العجائب، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطراقه وإقباله على ما أريه دون التفاته إلى غيره ودون تطلعه إلى ما لم يره مع ما في ذلك من ثبات الجأش وسكون القلب وطمانينته، وهذا غاية الكمال.

وقال في «مدارج السالكين»:

وفي هذه الآية أسرار عجيبة هي من غوامض الآداب اللاتقة بأكمل البشر، صلوات الله وسلامه عليه، تواطأ هناك بصره وبصيرته وتوافقا وتصادقا، فما شاهده بصره فالبصيرة مواطئة له، وما شاهدته بصيرته فهو أيضاً حق مشهود بالبصر، فتواطأ في حقه، أي: ما كذب الفؤاد ما رآه يبصره، ولهذا قرأها هشام وأبو جعفر ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ بتشديد الذال، أي لم يكذب القلب البصر بل صدقه وواطأه بصحة الفؤاد والبصر، وكون المرئي المشاهد بالبصر والبصيرة حقاً. وقرأ الجمهور ﴿ما كذب الفؤاد﴾ بالتخفيف، وهو متعد، و«ما رأى» مفعوله، أي: أي ما كذب قلبه ما رأت عيناه بل واطأه ووافقه.

فلمواطأة قلبه لقلبه، وظاهره لباطنه، وبصره لبصيرته، لم

يكذب الفؤاد البصر، ولم يتجاوز البصر حده، ولم يمل عن المرثي فيزيغ، بل اعتدل البصر على المرثي لم يتجاوزه ولا مال عنه لما اعتدل القلب في الإقبال على الله بكليته والإعراض عما سواه، فإنه أقبل على الله بكليته وأعرض عما سواه بكليته.

وللقلب زيغ وطغيان، كما أن للبصر زيغاً وطغياناً وكلاهما منتفٍ عن قلبه وبصره، فلم يزيغ قلبه التفاتاً عن الله إلى غيره ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه، وهذا غاية الكمال والأدب مع الله تعالى الذي لا يلحقه فيه سواه، فإن عادة النفوس إذا أقيمت في مقام عال رفيع أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه، ألا ترى إلى موسى عليه السلام، لما أقيم مقام التكليم والمناجاة طلبت نفسه الرؤية، ونبينا ﷺ لما أقيم في ذلك المقام وفاه حقه، ولم يتلفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه البتة، ولأجل هذا ما عاقه عائق، ولا وقف به مراد، حتى جاوز السماوات السبع فلم تعقه إرادة منه لشيء، ولم تقف به دون كمال العبودية همة، ولهذا كان مركوبه في مسراه يسبق خطوه الطرف، فيضع قدمه عند منتهى طرفه، مشاكلاً لحال راكمه وبعد شأوه الذي يسبق به العالم أجمع في سيره، فكان قدم البراق لا يتخلف عن موضع نظره، كما كان قدمه ﷺ لا يتخلف عن محل معرفته.

فلم يزل ﷺ في خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مرتبة عبوديته له، حتى خرق/ حجب السماوات، وجاوز السبع الطباق، وجاوز سدرة المنتهى، ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين، فانصبت له هناك أقسام القرب انصباباً، وانقشعت سحائب الحجب ظاهراً وباطناً حجاباً حجاباً، وأقيم مقاماً غبطه فيه الأنبياء والمرسلون.

١/٢٣٨

فإذا كان في المعاد^(١) أقيم مقاماً من القرب تاماً، يغبطه فيه الأولون والآخرون، واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله تعالى، ما زاع البصر وما طغى، فأقامه في هذا العالم على أقوم صراط على الحق والهدى، وأقسم بكلامه القديم على ذلك في الذكر الحكيم فقال: ﴿يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم﴾^(٢) فإذا كان يوم المعاد أقامه على الصراط، فيسأل السلامة لأتباعه وأهل سنته، حتى يجوزوا إلى جنات النعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

ثم إن ما ذكر هنا من القرب والذنو، المراد به تأكيد المحبة والقربة، ورفع المنزلة والرتبة، قال جعفر الصادق: لما قرب الحبيب من الحبيب غاية القرب، نالته غاية الهيبة، فلاطفه الحق تعالى بغاية اللطف، وذلك قوله جل جلاله: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ أي كان ما كان وجرى ما جرى، وقال الحبيب للحبيب ما يقول الحبيب للحبيب: وألطف به الطاف الحبيب بالحبيب، فخفي السر ولم يطلع عليه أحد، ما أوحى إلا الذي أوحى.

[«فأوحى إلى عبده ما أوحى»]

وقال غيره في قوله: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ أبهمه لعظمه، فإن الإبهام قد يقع للتعظيم، فهو مبهم لا يطلع عليه بل يتعبد بالإيمان به.

(١) أي يوم القيامة. وفي الأصل (أ): الميعاد.

(٢) سورة يس، الآيات ١ - ٤.

وقيل: بل هو مفسر بالأخبار الواردة، قال سعيد بن جبير: أوحى الله تعالى إليه ﷺ، ألم أجذك يتيماً فأويتك، ألم أجذك ضالاً فهديتك، ألم أجذك عائلاً فأغنيتك، ﴿ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك﴾^(١).

وقيل: أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك. ذكره الثعلبي والقشيري.

وقيل: أوحى الله إليه: خصصتك بحوض الكوثر، فكل أهل الجنة أضيافك بالماء، وهم الخمر واللبن والعسل. ذكره القشيري.

وذكر أيضاً: أنه أوحى إليه ما أوحى إلى الرسل لقوله تعالى: ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾^(٢).

وقيل: أوحى إليه الصلوات الخمس.

[حديث ضعيف]

وفي رواية أبي سعيد الخدري عند البيهقي: أن الله تعالى قال له صلوات الله وسلامه عليه: سل، فقال: إنك اتخذت إبراهيم خليلاً وأعطيته ملكاً عظيماً، وكلمت موسى تكليماً، وأعطيته داود ملكاً عظيماً، وألنت له الحديد، وسخرت له الجبال، وأعطيته سليمان ملكاً عظيماً، وسخرت له الإنس والجن والشياطين، وسخرت له الرياح، وأعطيته ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنك، وأعدته

(١) سورة الشرح، الآيات ١ - ٤.

(٢) سورة فصلت، الآية ٤٣.

وأمه من الشيطان الرجيم، فلم يكن له عليها سبيل. فقال له ربه تعالى: قد اتخذتك حبيباً، فهو مكتوب في التوراة: حبيب الرحمن، وأرسلتك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وشرحت لك صدرك، ووضعت عنك وزرك، ورفعت لك ذكرك، فلا أذكر إلا ذكرت معي، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس، وجعلت أمتك أمة وسطاً، وجعلت أمتك هم الأولون وهم^(١) الآخرون^(٢)، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم، وجعلتك أول النبيين خلقاً وآخرهم بعثاً وأولهم يقضى له، وأعطيتك سبعاً من المثاني لم أعطاها نبياً قبلك، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرشي لم أعطاها نبياً قبلك، وأعطيتك الكوثر/ وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلام والهجرة والجهاد والصلاة والصدقة وصوم رمضان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلتك فاتحاً وخاتماً. وفي إسناده أبو جعفر الرازي ضعفه بعضهم، وقال أبو زرعة: إنه متهم، وقال ابن كثير: الأظهر أنه سيء الحفظ.

ب/ ٢٣٨

[الوصف بالعبد]

وذكر الفخر الرازي عن والده قال: سمعت أبا القاسم سليمان الأنصاري يقول: لما وصل محمد ﷺ إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في المعارج، أوحى الله تعالى إليه: يا محمد بم شرفك؟ قال: يا رب، بنسبتي إليك بالعبودية. فأنزل الله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ فسماه تعالى بهذا الاسم لتحققه ﷺ بالاسم

(١) ضمير «هم» سقط في (ب، ش).

(٢) في (د): هم الأولين وهم الآخرين.

الأعظم^(١) واتصافه بجميع صفاته، فلا يصلح هذا الاسم بالحقيقة إلا له ﷺ وللأقطاب من بعده بتبعيته لا بالحقيقة، وإن أطلق على غيره مجازاً، ويرحم الله الأديب برهان الدين القيراطي فلقد أجاد حيث قال:

ودعني بالعبد يوماً فقالوا قد دعته بأشرف الأسماء

[كلام إشاري]

ولبعض أهل الإشارات:

كأن الله تعالى قال له: يا محمد، قد أعطيتك نوراً تنظر به جمالي، وسمعاً تسمع به كلامي، يا محمد، إني أعرفك بلسان الحال معنى عروجك إلي، يا محمد، أرسلتك إلى الناس شاهداً ومبشراً ونذيراً، والشاهد مطالب بحقيقة ما يشهد به، فأريك جنتي لتشهد ما أعددت فيها لأولياي، وأريك ناري لتشهد ما أعددت فيها لأعدائي، ثم أشهدك جلالتي، وأكشف لك جمالي لتعلم أي منزله في كمالتي عن الشبيه والنظير، والوزير والمشير، فرآه ﷺ بالنور الذي قواه من غير إدراك ولا إحاطة فرداً صمداً، لا في شيء، ولا من شيء، ولا قائماً بشيء، ولا على شيء، ولا مفتقراً إلى شيء، ليس كمثل شيء، فلما كلمه شفاهاً، وشاهده كفاحاً، فقبل له: يا محمد لا بد لهذه الخلوة من سر لا يذاع ورمز لا يشاع، فأوحى إلى عبده ما أوحى، فكان سرّاً من سر، لم يقف عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وأنشد لسان الحال:

(١) هذا من كلام المتصوفة وفيه إشكال، ولعل المقصود تحققه بمقام العبودية الكامل إذ هو عبدالله.

بين المحبين سر ليس يفشيه قول ولا قلم في الكون يحكيه
 سر يمازجه أنس يقابله نور تحير في بحر من التيه

ولما انتهى إلى العرش تمسك العرش بأذياله، وناداه بلسان حاله: يا محمد، أنت في صفاء وقتك من مقتك أشهدك جمال أحديته، وأطلعك على جلال صمديته، وأنا الظمان إليه اللهفان عليه المتحير فيه لا أدري من أي وجه آتية، جعلني أعظم خلقه، فكنت أعظمهم منه هيبة، وأكثرهم فيه حيرة، وأشدهم منه خوفاً. يا محمد، خلقتني فكنت أرعد لهيبة جلاله، فكتب على قائمتي، لا إله إلا الله فازددت لهيبة اسمه ارتعاداً وارتعاشاً، فكتب محمد رسول الله، فسكن لذلك قلقي، وهدأ روعي، فكان اسمك لقاحاً قلبي، وطمأنينة لسري، فهذه بركة كتابة اسمك علي، فكيف إذا وقع جميل نظرك إلي، يا محمد أنت المرسل رحمة للعالمين، ولا بد لي من نصيب من هذه الرحمة، ونصيبي يا حبيبي أن تشهد لي بالبراءة مما نسبته أهل الزور إلي، وتقولوا أهل الغرور علي، زعموا: أني أسع من لا مثيل له، وأحيط بمن لا كيفية له. يا محمد، من لا حدٌ لذاته، ولا عدٌّ لصفاته كيف يكون مفتقراً إلي؟ أو محمولاً علي؟ إذا كان الرحمن اسمه، والاستواء صفته وصفته متصلة بذاته فكيف يتصل بي أو ينفصل عني؟ يا محمد، وعزته، لست بالقرب منه وصلاً، ولا بالبعيد عنه فصلاً، ولا بالمطيق له حملاً، أوجدني رحمة منه وفضلاً، ولو محقني لكان حقاً منه، وعدلاً، يا محمد، / أنا محمول قدرته، ومعمول حكمته.

1/239

فأجاب لسان حال سيدي، زاده الله فضلاً وشرفاً لديه، ووالى صلاته وسلامه عليه: أيها العرش إليك عني، أنا مشغول عنك، فلا تكدر علي صفوتي، ولا تشوش علي خلوتي، فما أعاره ﷺ منه طرفاً، ولا أقرأه من مسطور ما أوحى إليه حرفاً، ما زاغ البصر وما طغى.

وقد ورد في بعض أخبار الإسراء مما ذكره العلامة ابن مرزوق في شرحه لبردة المديح: أنه ﷺ لما كان من ربه تعالى قاب قوسين قال: اللهم إنك عذبت الأمم بعضهم بالحجارة وبعضهم بالحسف، وبعضهم بالمسخ، فما أنت فاعل بأمتي؟ قال: أنزل عليهم الرحمة وأبدل سيئاتهم حسنات، ومن دعاني منهم لبيته، ومن سألني أعطيته، ومن توكل علي كفيته، وفي الدنيا أستر على العصاة، وفي الآخرة أشفعك فيهم، ولولا أن الحبيب يحب معاتبه حبيبه لما حاسبت أمتك.

ولما أراد ﷺ الانصراف قال: يا رب، لكل قادم من سفره تحفة، فما تحفة أمتي؟ قال الله تعالى: أنا لهم ما عاشوا، وأنا لهم إذا ماتوا، وأنا لهم في القبور، وأنا لهم في النشور.

[رؤيته ﷺ ربه تعالى]

واعلم أنه قد اختلف العلماء قديماً وحديثاً في رؤيته ﷺ لربه ليلة الإسراء.

[رأى أم المؤمنين عائشة]

فروى البخاري من حديث مسروق قال: (قلت لعائشة: يا أمتاه، هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن^(١) فقد كذب: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾^(٢) ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من

(١) كذا في المخطوطات وفي البخاري، وفي ط: حدثك بهن وفي ش: حدث بهن.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٠٣.

وراء حجاب ﴿١﴾ ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾ ﴿٢﴾ ومن حدثك أنه كتم فقد كذب، ثم قرأت ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ ﴿٣﴾ الآية، ولكنه ﴿٤﴾ رأى جبريل في صورته مرتين ﴿٥﴾.

وفي رواية مسلم (من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية).

وقولها: «قف شعري» أي قام من الفزع، لما حصل عندها من هيبة الله، واعتقدته من تنزيهه واستحالة وقوع ذلك.

قال النووي - تبعاً لغيره -: لم تنف عائشة وقوع الرؤية بحديث مرفوع، ولو كان معها لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية، وقد خالفها غيرها من الصحابة، والصحابي إذا قال قولاً وخالفه غيره منهم لم يكن ذلك القول حجة اتفاقاً، انتهى.

قال الحافظ أبو الفضل العسقلاني: جزمه بأن عائشة لم تنف الرؤية بحديث مرفوع، تبع فيه ابن خزيمة، وهو عجيب، فقد ثبت عنها في صحيح مسلم - الذي شرحه الشيخ - فعنده من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق، في الطريق المذكورة، قال مسروق: وكنت متكئاً فجلست، فقلت: ألم يقل الله: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾

(١) سورة الشورى، الآية ٥١.

(٢) سورة لقمان، الآية ٣٤.

(٣) سورة المائدة، الآية ٦٧.

(٤) كذا في النسخ والذي في البخاري: ولكن.

(٥) رواه البخاري برقم ٤٨٥٥.

فقلت: أنا أول هذه الأمة سألت رسول الله ﷺ عن هذا فقلت: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ فقال: لا، إنما رأيت جبريل منهبطاً.

[رأى ابن عباس]

نعم، احتجاج عائشة - رضي الله عنها - بالآية، خالفها فيه ابن عباس. فأخرج الترمذي من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: (رأى محمد ربه، فقلت: أليس يقول الله: (لا تدركه الأبصار) قال: ويحك، ذاك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره، وقد رأى ربه مرتين).

وقال القرطبي: «الأبصار» في الآية جمع محلي بالألف واللام، فيقبل التخصيص، وقد ثبت دليل ذلك سمعاً في قوله تعالى: ﴿كَلَّا / إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾^(١) فيكون المراد: الكفار، بدليل قوله في الآية الأخرى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾^(٢)، وإذا جازت في الآخرة جازت في الدنيا لتساوي الوقتين بالنسبة إلى المرئي، انتهى وهو استدلال جيد.

وقال القاضي عياض: رؤية الله تعالى جائزة عقلاً، وليس في العقل ما يحيلها، والدليل على جوازها: سؤال موسى - عليه السلام - لها، ثم قال: وليس في الشرع دليل قاطع على استحالتها ولا امتناعها، إذ كل موجود فرويته جائزة غير مستحيلة، ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ لاختلاف التأويلات في الآية، انتهى.

(١) سورة المطففين، الآية ١٥.

(٢) سورة القيامة، الآية ٢٣.

وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن إسماعيل بن علية في تأويل هذه الآية قال: هذا في الدنيا.

وقال آخرون: لا تدركه الأبصار، أي جميعها، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الدار الآخرة.

[إثبات الرؤية في الآخرة]

وقال آخرون من المعتزلة، بمقتضى ما فهموا من هذه الآية: أنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة.

فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك، مع ما ارتكبه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ وقوله: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون﴾ قال الإمام الشافعي - رحمه الله -: فدل هذا على أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى .

وأما السنة: فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد، وأبي هريرة، وأنس، وجرير، وصهيب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ : أن المؤمنين يرون الله تبارك وتعالى في الدار الآخرة في العرصات، وفي روضات الجنات، جعلنا الله منهم .

[آراء في «لا تدركه الأبصار»]

وقيل: المنفي في الآية، إدراك العقول: قال الحافظ ابن كثير: وهو غريب جداً، وخلاف ظاهر الآية.

وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك، فإن الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم.

ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي، ما هو؟ فقيل: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو، وإن رآه المؤمنون. كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته، فالعظيم أولى بذلك، وله المثل الأعلى.

وقال آخرون: المراد بالإدراك الإحاطة، قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية: كما لا يلزم من عدم الرؤية عدم العلم. وفي صحيح مسلم (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) ولا يلزم من هذا عدم الثناء فكذلك هذا.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ فقال: لو أن الجن والإنس والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا، صفوا صفوا واحداً ما أحاطوا بالله أبداً. قال ابن كثير: غريب، لا يعرف إلا من هذا الوجه ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة والله أعلم.

ومما نسب لإمام الحرمين في «لمع الأدلة» أنه قال: من أصحابنا من قال: إن الرب تعالى يُرى ولا يُدرك، لأن الإدراك ينبي عن الإحاطة، ودرك الغاية، والرب جل جلاله تقدس عن الغاية والنهاية، ثم قال: فإن عارضوا بقوله تعالى في جواب موسى عليه السلام: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾^(١) وزعموا: أن «لن» تفيد النفي على التأيد، قلنا: هذه الآية أوضح الأدلة على جواز الرؤية، فإنها لو كانت مستحيلة لكان معتقد

(١) سورة الأعراف الآية ١٤٣.

جواز الرؤية ضالاً وكافراً، وكيف يعتقد ما لا يجوز على الله تعالى من اصطفاه لرسالته واختاره لنبوته، وخصه / بكرامته، وشرفه بتكليمه، وجعله أفضل أهل زمانه، وأيده برهانه، وكيف يجوز على الأنبياء الريب في أمر يتعلق بعلم الغيب. فيجب حمل الآية على أن ما اعتقد موسى عليه السلام جوازه جائز، لكن ظن أن ما اعتقد جوازه ناجز، فرجع النفي في الجواب إلى الإنجاز، وما سأل موسى عليه السلام ربه رؤيته في المال، فصرف النفي إليه، والجواب يدل على قضية الخطاب، انتهى.

وقال البيضاوي: في هذه الآية دليل على أن رؤيته تعالى جائزة في الجملة، لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال، وخصوصاً ما يقتضي الجهل بالله تعالى، ولذلك رده بقوله: ﴿لن تراني﴾ دون: لن أرى، انتهى.

ونقل القاضي عياض عن أبي بكر الهذلي، في الآية، أن المراد: ليس لبشر أن يطبق أن ينظر إليّ في الدنيا، وأنه من نظر إليّ مات. قال: وقد رأيت لبعض السلف والمتأخرين ما معناه: أن رؤيته تبارك وتعالى في الدنيا ممتنعة لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم، وكونها متغيرة، غرضاً للآفات والفناء، فلم تكن لهم قوة على الرؤية، فإذا كان في الآخرة وركبوا تركيباً آخر، ورزقوا قوى ثابتة باقية، وأتم أنوار أبصارهم وقلوبهم، قووا بها على الرؤية. قال: وقد رأيت نحو هذا للملك بن أنس - رحمه الله - قال: لم ير في الدنيا لأنه باق، ولا يرى الباقي بالفاني. فإذا كان في الآخرة رزقوا أبصاراً باقية، رؤي الباقي بالباقي، وهذا كلام حسن مليح، وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيث ضعف القوة، فإذا قوى الله تعالى من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم تمتنع في حقه، انتهى.

والاستثناء في قوله: «إلا من حيث ضعف القوة» ينبغي أن يكون منقطعاً، على معنى: لكن من حيث ضعف القوة، وإلا فضعف القوة قصاراه أن يكون مانعاً، أي امتنع من جهة ضعف القوة لا من جهة كونه مستحيلاً، ويدل على هذا قوله: «فإذا قوى الله تعالى من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع في حقه».

وقد وقع في صحيح مسلم ما يؤيد هذه التفرقة في حديث مرفوع فيه (واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا). وأخرجه ابن خزيمة أيضاً من حديث أبي أمامة، ومن حديث عبادة بن الصامت.

[امتناع الرؤية شرعاً]

فإن جازت الرؤية في الدنيا عقلاً فقد امتنعت شرعاً، لكن من أثبتها للنبي ﷺ له أن يقول: إن المتكلم لا يدخل في عموم كلامه. وفي كلام ابن كثير: أن في بعض كتب الله المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى لما سأله الرؤية، يا موسى، إنه لن يراني حي إلا مات.

وقد جزم القشيري - في الرسالة - بأنها لا تجوز في الدنيا على جهة الكرامة، وادعى حصول الإجماع عليه.

وحكى القاضي عياض امتناعها في الدنيا عن جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين.

وقال القشيري أيضاً: سمعت الإمام أبا بكر بن فورك يحكي عن أبي الحسن الأشعري في ذلك قولين في كتاب الرؤية الكبير. انتهى.

[الآراء في رؤيته ﷺ ربه تعالى]

وقد ذهبت عائشة وابن مسعود إلى أنه ﷺ لم ير ربه ليلة الإسراء.

واختلف عن أبي ذر.

وذهب جماعة إلى إثباتها. وحكى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن: أنه حلف أن محمداً رأى ربه. وأخرج ابن خزيمة عن عروة ابن الزبير إثباتها، وبه قال سائر أصحاب ابن عباس. وجزم به كعب الأحمار والزهري، وصاحبه معمر وآخرون وهو قول الأشعري وغالب أتباعه.

ثم اختلفوا: هل رآه بعينه أو بقلبه؟

وجاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة، وأخرى مقيدة، فيجب حمل مطلقها على مقيدها، فمن ذلك، ما أخرجه النسائي بإسناد صحيح، وصححه الحاكم أيضاً من طريق عكرمة عن ابن عباس قال/ أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ.

ب/٢٤٠

ومنها: ما أخرجه مسلم من طريق أبي العالية عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ قال: رآه بفؤاده مرتين.

وله: من طريق عطاء عن ابن عباس قال: رآه بقلبه.

وأصرح من ذلك: ما أخرجه ابن مردويه من طريق عطاء عن ابن عباس قال: لم يره رسول الله ﷺ بعينه وإنما رآه بقلبه.

وعلى هذا فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة، بأن يحمل نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب.

لكن روى الطبراني في الأوسط بإسناد رجاله رجال الصحيح، خلا جهور بن منصور الكوفي، وجهور بن منصور قد ذكره ابن حبان في الثقات، عن ابن عباس أنه كان يقول: إن محمداً ﷺ رأى ربه مرتين، مرة ببصره ومرة بفؤاده.

ثم المراد «برؤية الفؤاد» رؤية القلب، لا مجرد حصول العلم، لأنه ﷺ كان عالماً بالله على الدوام. بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خلقت له في قلبه كما تخلق الرؤية بالعين لغيره، والرؤية لا يشترط لها شيء مخصوص عقلاً، ولو جرت العادة بخلقها في العين.

وروى ابن خزيمة بإسناد قوي عن أنس قال: (رأى محمد ربه) وفي مسلم من حديث أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال: (نور أنى أراه) أي حجاب نور فكيف أراه، ومعناه: أن النور من الرؤية.

وعند أحمد قال: (رأيت نوراً) ومن المستحيل أن تكون ذات الله تعالى نوراً، إذ النور من جملة الأعراض، والله تعالى يتعالى عن ذلك.

وعند ابن خزيمة عنه، قال: (رآه بقلبه ولم يره بعينه). وبهذا يتبين مراده في حديث أبي ذر بذكر النور، أي أن النور حال بينه وبين رؤيته له ببصره.

وجنح ابن خزيمة في كتاب التوحيد إلى ترجيح الإثبات، وأطنب

في الاستدلال بما يطول ذكره، وحمل ما ورد عن ابن عباس على أن الرؤية وقعت مرتين: مرة بقلبه ومرة بعينه.

[رأى في الجمع بين الروايات]

ومما يعزى للأستاذ عبد العزيز المهدي: أنه عليه السلام لما رجع من سفر الإسراء، أخبر العوالم من حيث فلکهم ومراتبهم، وسقى كل واحد من كأسه، وعلى قدر عقله، فخاطب الكفار، وهم آخر العوالم، بما رأى في الطريق، وما كان في المسجد الأقصى على العيان وبما يعرفون، لأنهم في فلک الأجسام، حتى صدقوا بالإسراء، ثم ارتقى حتى حدث عن فلک السماء، وكذلك في كل سماء، وأخبر عما شاهد ورأى في كل فلک وما يليق أن يحدث به - أعنى الصحابة - كلا على قدر مرتبته بلا ضيق ولا مزاحم إلى السماء السابعة، ولما وصل مقام جبريل تحدث عن الأفق المين، وعما فوق إلى الدنو وإلى التدي إلى موضع الإيحاء عند حضرة إسقاط الصور والخلق، فأخبر بذلك أصحابه، فمنهم من قال: رأى جبريل بالأفق المين، وبالأفق الأعلى، وصدق، ومنهم من قال برؤية الفؤاد والبصيرة وصدق، وهي عائشة ومن معها، ومنهم من قال: بعيني رأسه رأى وصدق.

فكل أخبر بما حدثه عليه السلام من مقامه وسقاه من كأسه وما يليق به، فإذا صح هذا المعراج عرفت الأمر^(١)، ومقامات الرؤية والقائلين بذلك وقولهم: الجميع الحق، انتهى.

(١) كذا في ش، وفي النسخ: الإسراء.

[رأى الإمام أحمد]

ومن أثبت الرؤية لنبينا ﷺ الإمام أحمد. فروى الخلال في «كتاب السنة» عن المروزي: قلت لأحمد: إنهم يقولون إن عائشة قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، فبأي معنى يدفع قولها؟ قال: بقول النبي ﷺ: (رأيت ربي) فقول النبي أكبر من قولها.

وقد أنكر صاحب «الهدى» على / من زعم أن أحمد قال: رأى ربه بعيني رأسه. قال: وإنما قال مرة: رأى محمد ربه، وقال مرة: بفؤاده. وحكي عن بعض المتأخرين: رأى بعيني رأسه. وهذا من تصرف الحاكي، فإن نصوصه موجودة انتهى.

[القول بالوقف في المسألة]

وقد رجح القرطبي في «المفهم» قول الوقف في هذه المسألة، وعزاه لجماعة من المحققين، وقواه: بأنه ليس في الباب دليل قاطع، وغاية ما استدل به الطائفتان ظواهر متعارضة، قابلة للتأويل. قال: وليست المسألة من العمليات فيكتفى فيها بالأدلة الظنية، وإنما هي من المعتقدات فلا يكتفى فيها إلا بالدليل القطعي. والله أعلم.

[فرض الصلاة]

[روايات الحديث]

وأما قوله في الحديث: (ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة في كل يوم)

ففي رواية ثابت البناني عن أنس عند مسلم (ففرض الله علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة).

ونحوه في رواية مالك بن صعصعة عند البخاري أيضاً. ويحتمل أن يقال: ذكر الفرض عليه يستلزم الفرض على الأمة، وبالعكس، إلا ما استثنى من خصائصه.

وفي حديث ثابت عن أنس عند مسلم (فنزلت إلى موسى، فقال ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخيرتهم. قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب، خفف عن أمتي، فحط عني خمساً، فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمساً، فقال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى، حتى قال: يا محمد هن خمس صلوات في اليوم والليلة، لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة. ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة. قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقلت: لقد رجعت إلى ربي حتى استحيت منه.

وفي رواية النسائي عن أنس: فقال لي: إني يوم خلقت السماوات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك، وذكر مراجعته مع موسى، وفيه: فإنه فرض على بني إسرائيل صلاتان فما قاموا بهما. وقال في آخره: فخمس بخمسين، فقم بها أنت وأمتك. قال: فعرفت أنها عزمة من الله فرجعت إلى موسى فقال: ارجع، فلم أرجع.

فإن قلت: لم قال موسى عليه السلام لنبينا ﷺ: إن أمتك لا يطيقون ذلك، ولم يقل: أنت وأمتك لا تطيقون ذلك؟

أجيب: بأن العجز مقصور على الأمة لا يتعداهم إلى النبي ﷺ، فهو لما رزقه الله تعالى من الكمال يطيق ذلك وأكثر منه، وكيف لا وقد جعلت قره عينه في الصلاة.

[حكمة الفرض ليلة الإسراء]

قال العارف ابن أبي جمرة: والحكمة في تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء أنه ﷺ لما عرج به ورأى في تلك الليلة تعبد الملائكة، وأن منهم القائم فلا يقعد، والراكع فلا يسجد، والساجد فلا يقعد، فجمع الله تعالى له ولأمته تلك العبادات كلها في ركعة يصلحها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص.

[موسى وفرض الصلاة]

وقد وقع من موسى عليه السلام من العناية بهذه الأمة في أمر الصلاة ما لم يقع لغيره، ووقعت الإشارة لذلك في حديث أبي هريرة عند الطبراني والبخاري، قال ﷺ: كان موسى أشدهم علي حين مرت، وخيرهم لي حين رجعت.

وفي حديث أبي سعيد: فأقبلت راجعاً فمرت بموسى، ونعم صاحب كان لكم، فسألني كم فرض عليك ربك. الحديث.

قال السهيلي: وأما اعتناء موسى عليه السلام بهذه الأمة،

ولالحاحه على نبيها أن يشفع لها ويسأل التخفيف/ عنها، فكقوله - والله ٢٤١/ب

أعلم - حين قضي إليه الأمر بجانب الغربي، ورأى صفات أمة محمد ﷺ في الألواح، وجعل يقول: إني أجد في الألواح أمة صفتهم كذا، اللهم اجعلهم أمتي، فيقال له: تلك أمة أحمد، وهو حديث مشهور وقد تقدم ذكره في خصائص هذه الأمة. قال: فكان إشفاقه عليهم واعتناؤه بأمرهم كما يعتني بالقوم من هو منهم. لقوله: اللهم اجعلني منهم، انتهى.

وقال القرطبي: الحكمة في أمر موسى بمراجعة النبي ﷺ في أمر الصلوات يحتمل أن تكون لكون أمة موسى عليه السلام كلفت من الصلوات ما لم يكلف به غيرها من الأمم قبلها، فثقلت عليهم، فأشفق موسى على أمة محمد ﷺ مثل ذلك، ويشير إليه قوله: إني جربت الناس قبلك. انتهى.

[تعليل «إشاري» لموقف موسى]

ووقع في كلام بعض أهل الإشارات: لما تمكنت نار المحبة من قلب موسى أضاءت له أنوار نور الطور، فأسرع إليها ليقبس فاحتبس، فلما نودي من النادي، اشتاق إلى المنادي، فكان يطوف في بني إسرائيل: من يحملني رسالة إلى ربي، ومراده أن تطول المناجاة مع الحبيب، فلما مر عليه نبينا ﷺ ليلة المعراج، رده في أمر الصلوات ليسعد برؤية حبيب الحبيب.

وقال آخر: لما سأل موسى عليه السلام الرؤية، ولم تحصل له البغية، بقي الشوق يقلقه، والأمل يعلله، فلما تحقق أن سيدنا محمداً الحبيب منح الرؤية، وفتح له باب المزية، أكثر السؤال ليسعد برؤية من قد رأى. كما قيل:

واستنشق الأرواح من نحو أرضكم لعلي أراكم أو أرى من يراكم
وأنشد من لا قيت عنكم عساكم تجودون لي بالعطف منكم عساكم
فأنتم حياتي إن حييت وإن أمت فيا حبذا إن مت عبد هواكم
وقال آخر:

وإنما السر في موسى يردده ليجتلي حسن ليلى حين يشهده
يبدو سناها على وجه الرسول فيا لله در رسول حين أشهده

وقال آخر: لما جلس الحبيب في مقام القرب، دارت عليه
كؤوس الحب، ثم عاد، وهلال ما كذب الفؤاد ما رأى بين عينيه،
وسر^(١) فأوحى إلى عبده ما أوحى ملء قلبه وأذنيه، فلما اجتاز بموسى
عليه السلام، قال لسان حاله [لنبينا ﷺ] ^(٢).

يا وارداً من أهيل الحي يخبرني عن جيرتي شنف الأسماع بالخبر
ناشدتك الله يا راوي حديثهم حدث فقد ناب سمعي اليوم عن بصر

فأجاب لسان حال نبينا ﷺ يقول:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سر أرق من النسيم إذا سرى
وأباح طرفي نظرة أملتها فغدوت معروفاً وكنت منكرا

فكل قوم يلحظون مذهبهم، وقد علم كل أناس مشربهم، والله
بفضله وإحسانه يوالي انسجام سحائب عفوه ورضوانه على العارف
الرباني أبي عبد الرحمن السلمي، فلقد أجاد إذ أفاد بما أفرد من لطائف
المعراج حسبما جمعه من كلام أهل الإشارات، بأقوم منهاج.

(١) في (ط، ش): وبشر.

(٢) في (ط، ش).

[الاستدلال بحديث فرض الصلاة]

وقد استدل العلماء بقوله في الحديث (فهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر فتلك خمسون):

[١] على عدم فرضية ما زاد على الصلوات الخمس، كالوتر.

[٢] وعلى دخول النسخ قبل الفعل.

قال ابن بطال وغيره: ألا ترى أنه عز وجل نسخ الخمسين بالخمس قبل أن تصلى؟ ثم تفضل عليهم بأن أكمل لهم الثواب.

وتعقبه ابن المنير فقال: هذا ذكره طوائف من الأصوليين والشراح وغيرهم، وهو مشكل على من أثبت النسخ قبل الفعل كالشاعرة، أو منعه كالمعتزلة. لكونهم اتفقوا جميعاً على أن النسخ لا يتصور قبل البلاغ. وحديث الإسراء وقع فيه النسخ قبل البلاغ، فهو مشكل عليهم جميعاً. اهـ .

فإن أراد قبل البلاغ لكل أحد فممنوع، وإن أراد قبل البلاغ إلى بعض الأمة فمسلم، لكن قد يقال: ليس هو بالنسبة إليهم نسخاً، لكن هو نسخ بالنسبة إلى النبي ﷺ لأنه كلف بذلك قطعاً، ثم نسخ بعد أن بلغه وقبل أن يفعله، فالمسألة صحيحة التصوير في حقه ﷺ .

[موقف قريش من الإسراء]

ولما رجع ﷺ من سفر الإسراء، مر في طريقه بعير لقريش تحمل طعاماً، فيها جمل يحمل غرارتين: غرارة سواء وغرارة بيضاء، فلما حاذى العير نفرت منه واستدارت وانصرع ذلك البعير^(١).

(١) رواه ابن أبي حاتم عن أنس.

وفي رواية^(١): [مر بعير قد]^(٢) أضلوا بعيراً لهم قد جمعه فلان. قال ﷺ: فسلمت عليهم فقال بعضهم: هذا صوت محمد. ثم أتى مكة قبل الصبح وأخبر قومه بما رأى، وقال لهم: إن من آية ما أقول لكم أني مررت بعيركم في مكان كذا وكذا، وقد أضلوا بعيراً لهم قد جمعه فلان، وأن مسيرهم ينزلون بمكان كذا وكذا، ويأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان، فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حتى إذا كان قريب^(٣) من نصف النهار أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه ﷺ.

وفي رواية [البيهقي]^(٤): سألوه آية، أخبرهم بقدم العير يوم الأربعاء، فلما كان ذلك اليوم لم يقدموا حتى كادت الشمس أن تغرب، فدعا الله تعالى فحبس الشمس حتى قدموا كما وصف^(٥).

وعن عائشة: لما أسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يحدث الناس بذلك، فارتد ناس كانوا آمنوا، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر فقالوا: هل لك إلى صاحبك، يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، قال: وقد قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك لقد صدق، قالوا: تصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس

(١) هي أيضاً لابن أبي حاتم عن أنس. أقول ذكرها ابن كثير عن البيهقي من طريقين وقال البيهقي إسناده صحيح. ووافقه ابن كثير على ذلك بعد أسطر من ذكره ١٤/٣ [م].

(٢) في (ط، ش).

(٣) كذا في النسخ، ولعل «كان» هنا تامة [م].

(٤) في ط.

(٥) وهذا مخالف للرواية قبلها، وهو حديث ضعيف رواه البيهقي في الدلائل، وقد عارض ما هو أصح منه فلا يعتد به. [م].

وجاء قبل أن يصبح؟ فقال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سمي الصديق. رواه الحاكم في المستدرک، وابن إسحاق. وزاد:

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، أحدثت هؤلاء أنك جئت بيت المقدس في هذه الليلة؟ قال: نعم، فقال: يا نبي الله صفه لي فأني قد جئته، قال الحسن: فقال رسول الله ﷺ: فرفع لي المسجد حتى نظرت إليه، فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبي بكر، فيقول أبو بكر: صدقت، أشهد أنك رسول الله، كلما وصف له منه شيئاً.

وقول أبي بكر: صفه لي، لم يكن عن شك، فإنه صدقه من أول وهلة، ولكنه أراد إظهار صدقه لقومه، فإنهم كانوا يثقون بأبي بكر، فإذا طابق خبره ﷺ ما كان يعلم أبو بكر وصدقه كان حجة ظاهرة عليهم.

وفي رواية البخاري (فجلا الله لي بيت المقدس) أي كشف الحجب بيني وبينه حتى رأيته.

وفي رواية مسلم: (فسألوني عن أشياء لم أثبتها، فكربت كرباً شديداً لم أكره مثله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به).

فيحتمل أن يكون حمل إلى أن وضع بحيث يراه، ثم أعيد، ففي حديث ابن عباس عند أحمد والبخاري: فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع عند دار/ عقيل فنعته وأنا أنظر إليه.

وهذا أبلغ في المعجزة، ولا استحالة فيه، فقد أحضر عرش بلقيس في طرفة عين.

وأما ما وقع في حديث أم هانئ عند ابن سعد: فخيّل إلي بيت المقدس، وطفقت أخبرهم عن آياته، فإن ثبت احتمال أن يكون مُثِل قريباً منه، كما قيل في حديث: (أريت الجنة والنار) ويؤول قوله: جيء بالمسجد، أي جيء بمثاله.

وفي حديث أم هانئ المذكور: أنهم قالوا له: كم للمسجد من باب، قال: ولم أكن عددها قال: فجعلت أنظر إليه وأعدّها باباً باباً. وعند أبي يعلى: إن الذي سأله عن صفة بيت المقدس هو المطعم بن عدي، والدجبر بن مطعم.

[حكمة الإسراء]

وأشار ابن أبي جمرة: إلى أن الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس إظهار الحق للمعاند، لأنه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلاً إلى البيان والإيضاح، حيث سألوه عن جزئيات من بيت المقدس كانوا رأوها، وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك، فلما أخبرهم بها حصل التحقيق أنه أسري به إلى بيت المقدس. وإذا صح البعض لزم تصحيح الباقي، فكان ذلك سبباً لقوة إيمان المؤمنين، وزيادة في شقاء من عاند وجحد من الكافرين، والله سبحانه وتعالى أعلم.

المَقْصِدُ السَّادِسُ

فِيمَا وَرَدَ فِي آيِ التَّنْزِيلِ مِنْ تَعْظِيمِ قَدْرِهِ ﷺ وَرَفْعَةِ ذِكْرِهِ،
وَشَهَادَتِهِ تَعَالَى بِصَدْقِ نُبُوتهِ، وَثُبُوتِ بَعْثَتِهِ، وَقِسْمِهِ تَعَالَى عَلَى تَحْقِيقِ
رِسَالَتِهِ، وَعُلُوِّ مَنْصِبِهِ الْجَلِيلِ وَمَكَانَتِهِ، وَوَجُوبِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ،
وَأَخْذِهِ تَعَالَى لَهُ الْمِيثَاقِ عَلَى سَائِرِ النَّبِيِّينَ فَضْلاً وَمَنَةً لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ إِنْ
أَدْرَكَوهُ وَلِيَنْصَرِنَهُ، وَالتَّنْوِيهِ بِهِ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ كَالْتُورَةِ وَالْإِنْجِيلِ
بَأَنَّهُ صَاحِبُ الرِّسَالَةِ وَالتَّبْجِيلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

[تمهيد]

اعلم أطلعني الله وإياك على أسرار التنزيل، ومنحنا بلطفه تبصرة تهدينا إلى سواء السبيل، أنه لا سبيل لنا أن نستوعب الآيات الدالة على ذلك، وما فيها من التصريح والإشارة إلى علو محله الرفيع ومرتبته، ووجوب المبالغة في حفظ الأدب معه، وكذلك الآيات التي فيها ثناؤه تعالى عليه وإظهار عظيم شأنه لديه، وقسمه تعالى بحياته، ونداؤه بـ«الرسول» وبـ«النبي» ولم يناده باسمه بخلاف غيره من الأنبياء، فناداهم بأسمائهم إلى غير ذلك مما يشير إلى أناقة قدره العلي عنده، وأنه لا مجد يساوي مجده. ومن تأمل القرآن العظيم وجدته طافحاً بتعظيم الله تعالى لنبيه ﷺ. ويرحم الله ابن الخطيب الأندلسي حيث قال:

مدحتك آيات الكتاب فما عسى يثني على عليك نظم مديحي
وإذا كتاب الله أثنى مفصلاً كان القصور قصار كل فصيح

وهذا المقصد - أكرمك الله - يشتمل على عشرة أنواع:

النوع الأول

في آيات تتضمن تعظيم قدره ورفعته ذكره
وجليل رتبته وعلو درجته على الأنبياء
وتشريف منزلته

[تفاوت مراتب الرسل]

قال الله تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله﴾^(١).

قال المفسرون: يعني موسى عليه السلام، كلمه بلا واسطة، وليس نصاً في اختصاص موسى عليه السلام بالكلام، فقد ثبت أنه تعالى كلم نبينا ﷺ أيضاً كما مر.

فإن قلت: إذا ثبت أنه ﷺ كلمه ربه وقام به هذا الوصف، فلم لم يشتق له من الكلام اسم الكلیم، كما اشتق لموسى؟

أجيب: بأن اعتبار المعنى قد يكون لتصحيح الاشتقاق كاسم الفاعل فيطرد، بمعنى أن كل من قام به ذلك الوصف يشتق له منه اسم وجوباً، وقد يكون للترجيح فقط، كالكلیم والقارورة^(٢) فلا يطرد،

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٣.

(٢) كذا في جميع النسخ.

وحيثذ فلا يلزم في كل من قام به ذلك الوصف أن يشتق له منه اسم، كما حققه القاضي عضد الدين^(١)، وهذا ملخصه وتحريره، كما قاله المولى سعد الدين التفتازاني. انتهى.

وقوله: (ورفع بعضهم درجات) يعني محمداً ﷺ رفعه الله تعالى من ثلاثة أوجه:

بالذات في المعراج.

١/٢٤٣

وبالسيادة على / جميع البشر.

وبالمعجزات لأنه ﷺ أوتي من المعجزات ما لم يؤته نبي قبله.

قال الزمخشري: وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشبهه، والمتميز الذي لا يلتبس، انتهى.

وقد بينت هذه الآية وكذا قوله تعالى: ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾^(٢) أن مراتب الرسل والأنبياء متفاوتة، خلافاً للمعتزلة القائلين: بأنه لا فضل لبعضهم على بعض، وفي هاتين الآيتين رد عليهم.

وقال قوم: آدم أفضل لحق الأبوة.

وتوقف بعضهم فقال: السكوت أفضل.

والمعتمد الذي عليه جماهير السلف والخلف: أن الرسل أفضل من الأنبياء، وكذلك الرسل بعضهم أفضل من بعض بشهادة هاتين الآيتين وغيرهما.

(١) عبد الرحمن بن أحمد الأبيحي، المحقق، يروى تصانيف البيضاوي.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٥٥.

قال بعض أهل العلم - فيما حكاه القاضي عياض -: والتفضيل المراد لهم هنا في الدنيا، وذلك بثلاثة أحوال: أن تكون آياته ومعجزاته أظهر وأشهر، أو تكون أمته أزكى وأكثر، أو يكون في ذاته أفضل وأظهر، وفضله في ذاته راجع إلى ما خصه الله تعالى به من كرامته واختصاصه: من كلام أو خلة أو ما شاء الله من أطافه وتحف ولايته واختصاصه، انتهى.

[فضيلته ﷺ]

فلا مرية أن آيات نبينا ﷺ ومعجزاته أظهر وأبهر وأكثر وأبقى وأقوى، ومنصبه أعلى ودولته أعظم وأوفر وذاته أفضل وأظهر، وخصوصياته على جميع الأنبياء أشهر من أن تذكر، فدرجته أرفع من درجات جميع المرسلين، وذاته أزكى وأفضل من سائر المخلوقين. وتأمل حديث الشفاعة في المحشر، وانتهائها إليه، وانفراده هناك بالسؤدد، كما قال ﷺ: (أنا سيد ولد آدم، وأول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة) رواه ابن ماجه. وفي حديث أنس عند الترمذي: (أنا أكرم ولد آدم يومئذ على ربي ولا فخر).

لكن هذا لا يدل على كونه أفضل من آدم، بل من أولاده، فالاستدلال بذلك على مطلق أفضليته ﷺ على الأنبياء كلهم ضعيف.

واستدل الشيخ سعد الدين التفتازاني لمطلق أفضليته ﷺ بقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾^(١) قال: لأنه لا شك أن خيرية الأمة بحسب كمالهم في الدين، وذلك تابع لكمال نبهم الذي يتبعونه.

واستدل الفخر الرازي - في المعالم - بأنه تعالى وصف الأنبياء

(١) سورة آل عمران، الآية ١١٠.

بالأوصاف الحميدة، ثم قال لمحمد ﷺ: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾^(١)، فأمره أن يقتدي بأثرهم، فيكون إتيانه به واجباً، وإلا فيكون تاركاً للأمر، وإذا أتى بجميع ما أتوا به من الخصال الحميدة فقد اجتمع فيه ما كان متفرقاً فيهم، فيكون أفضل منهم. وبأن: دعوته ﷺ في التوحيد والعبادة وصلت إلى أكثر بلاد العالم بخلاف سائر الأنبياء، فظهر أن انتفاع أهل الدنيا بدعوته ﷺ أكمل من انتفاع سائر الأمم بدعوة سائر الأنبياء، فوجب أن يكون أفضل من سائر الأنبياء. انتهى.

وقد روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي آدم فمن سواه إلا تحت لوائي)^(٢).

وفي حديث أبي هريرة مرفوعاً - عند البخاري -: (أنا سيد الناس يوم القيامة) وهذا يدل على أنه أفضل من آدم عليه السلام ومن كل أولاده [بل أفضل من الأنبياء، بل أفضل الخلق كلهم]^(٣).

وروى البيهقي في فضائل الصحابة، أنه ظهر علي بن أبي طالب من البعد، فقال ﷺ: هذا سيد العرب / فقالت عائشة: أأنت بسيد العرب؟ فقال: أنا سيد العالمين وهو سيد العرب. وهذا يدل على أنه أفضل الأنبياء، بل أفضل خلق الله كلهم.

وقد رى هذا الحديث - أيضاً - الحاكم في صحيحه عن ابن

(١) سورة الأنعام، الآية ٩٠.

(٢) وكذا رواه أحمد وابن ماجه وصححه الحاكم، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) زيادة في ش.

عباس، لكن بلفظ: أنا سيد ولد آدم، وعلي سيد العرب. وقال: إنه صحيح ولم يخرجاه.

وله شاهد من حديث عروة عن عائشة، وساقه من طريق أحمد ابن عبيد عن ناصح قال حدثنا الحسين عن علوان - وهما ضعيفان - عن هشام بن عروة عن أبيه، [عن عائشة] (١) بلفظ: ادعوا لي سيد العرب، قالت: فقلت يا رسول الله أأنت سيد العرب؟ فقال: وذكره.

وكذا أورده من حديث عمر بن موسى الوجيهي - وهو ضعيف أيضاً - عن أبي الزبير عن جابر مرفوعاً: ادعوا لي سيد العرب فقالت عائشة: أأنت بسيد العرب وذكره.

قال شيخنا: وكلها ضعيفة. بل جنح الذهبي إلى الحكم على ذلك بالوضع. انتهى.

ولم يقل ﷺ: أنا سيد الناس عجباً وافتخاراً على من دونه، حاشاه الله من ذلك، وإنما قاله ﷺ إظهاراً لنعمة الله تعالى عليه، وإعلاماً للأمة بقدر إمامهم ومتبوعهم عند الله تعالى، وعلو منزلته لديه، لتعرف نعمة الله عليه وعليهم. وكذا العبد إذا لاحظ ما هو فيه من فيض المدد، وشهده من عين المنة ومحض الجود، وشهد مع ذلك فقره إلى ربه في كل لحظة، وعدم استغنائه عنه طرفة عين (٢) أنشأ له ذلك في قلبه سحائب السرور، فإذا انبسطت هذه السحائب في سماء قلبه وامتلاً أفقه بها أمطرت عليه وابل الطرب بما هو فيه من لذيذ السرور، فإن لم يصبه وابل فطل، وحينئذ يجري على لسانه الافتخار

(١) في (أ، ش).

(٢) من قوله «ومحض الجود» سقط من الأصل.

من غير عجيب ولا فخر، بل فرح بفضل الله وبرحمته، كما قال تعالى:
﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾^(١) فالافتخار على ظاهره،
والافتقار والإنكسار في باطنه، ولا ينافي أحدهما الآخر، وإلى هذا
المعنى يشير قول العارف الرباني سيد علي الوفائي في قصيدته التي
أولها:

| | |
|-------------------|--------------------|
| من أنت مولاه حاشا | علاه أن يتلاشا |
| والله يا روح قلبي | لامات من بك عاشا |
| قوم لهم أنت ساقٍ | لا يرجعون عطاشا |
| لا قص دهر جناحا | له وفاؤك راشا |
| بك النعيم مقيم | لمن وهبت انتعاشا |
| ومن بحولك يقوى | لن يضعف الدهر جاشا |
| عبد له بك عز | فكيف لا يتحاشا |
| حاشا وفاؤك يرمي | من أنت مولاه حاشا |

[مناقشة القائلين بعدم التفضيل]

فإن قلت: فما الجمع بين هاتين الآيتين، وبين قوله تعالى:
﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل
وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون
من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾^(٢).

(١) سورة يونس، الآية ٥٨.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٣٦.

والحديث الثابت في الصحيحين، عن أبي هريرة قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال اليهودي في قسمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده فلطم اليهودي وقال: أي خبيث، وعلى محمد؟ فجاء اليهودي إلى رسول الله ﷺ واشتكى على المسلم فقال ﷺ: (لا تفضلوني على الأنبياء) وفي رواية (لا تفضلوا بين الأنبياء).

وحديث أبي سعيد الخدري عند البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: (لا تخيروا بين الأنبياء)

وحديث ابن عباس عند البخاري ومسلم مرفوعاً (ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى).

وحديث أبي هريرة عند الشيخين، (من قال: أنا خير من يونس ابن متى فقد كذب).

أجاب العلماء: بأن قوله عز وجل: ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾ يعني: في الإيمان بما أنزل إليهم والتصديق بهم، والإيمان بأنهم رسل الله وأنبيأؤه، والتسوية بينهم في هذا لا تمنع أن يكون بعضهم أفضل من بعض.

وأجابوا/ عن الأحاديث بأجوبة:

١/٢٤٤

فقال بعضهم: أن نعتقد أن الله تعالى فضل بعضهم على بعض في الجملة. ونكف عن الخوض في تفصيل التفضيل بآرائنا، قال ابن طغر بك: فإن أراد هذا القائل أن نكف عن الخوض في تفصيل التفضيل بآرائنا فصحيح، وإن أراد أنا لا نذكر في ذلك ما فهمناه من كتاب الله وروي لنا من حديث رسول الله ﷺ فسقيم.

وقال آخر: نفضل من رفع الله درجته بخصائص الحظوة
والزلفى، ولا نخوض في تفضيل بعضهم على بعض في سياسة
المنذرين والصبر على الدين، والنهضة في أداء الرسالة، والحرص على
هدى الضالّل^(١)، فإن كلا منهم قد بذل في ذلك وسعه الذي لا
يكلفه الله تعالى أكثر منه.

وقال آخر- مما حكاه القاضي عياض-: إن نبيه ﷺ عن
التفضيل كان قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، فنهى عن التفضيل إذ
يحتاج إلى توقيف، وإن من فضل بلا علم فقد كذب.

قال الحافظ عماد الدين بن كثير: وفي هذا نظر. انتهى.

ولعل^(٢) وجه النظر من جهة معرفة المتقدم تاريخاً من ذلك. ثم
رأيت في تاريخ ابن كثير أن وجه النظر- من جهة^(٣)- أن هذا من
رواية أبي سعيد وأبي هريرة، وما هاجر أبو هريرة إلا عام خيبر
متأخراً، فيبعد أنه لم يعلمه بهذا إلا بعد هذا.

وقال آخر: إنما قاله ﷺ عن طريق التواضع ونفي التكبر
والعجب.

قال القاضي عياض: وهذا لا يسلم من الاعتراض.

وقيل: لا يفضل بينهم تفضيلاً يؤدي إلى تنقيص بعضهم أو
الغض منه.

وقيل: منع التفضيل في حق النبوة والرسالة، فإن الأنبياء عليهم

(١) في (د): الضالين.

(٢) في ط: وهل.

(٣) في (أ، ش).

الصلاة والسلام فيها على حد واحد، لا يتفاضل. وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والرتب، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما التفاضل بأمور آخر زائدة عليها، ولذلك منهم رسل وأولو عزم، انتهى، وهذا قريب من القول الثاني.

وقال ابن أبي جمرة في حديث يونس: يريد بذلك نفي التكيف والتحديد على ما قاله ابن خطيب الري، لأنه قد وجدت الفضيلة بينهما في عالم الحس، لأن النبي ﷺ أسري به إلى فوق السبع الطباق، ويونس نزل به إلى قعر البحر، وقد قال ﷺ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة) وقال ﷺ: (آدم ومن دونه تحت لوائي)، وقد اختص ﷺ بالشفاعة الكبرى التي لم تكن لغيره من الأنبياء عليهم السلام. فهذه الفضيلة وجدت بالضرورة، فلم يبق أن يكون قوله ﷺ: (لا تفضلوني على يونس بن متى) إلا بالنسبة إلى القرب من الله سبحانه وتعالى والبعد، فمحمد صلوات الله وسلامه عليه وإن أسري به لفوق السبع الطباق واخترق الحجب، ويونس عليه الصلاة والسلام وإن نزل به لقعر البحر فهما بالنسبة إلى القرب والبعد من الله سبحانه وتعالى على حد واحد. انتهى.

وهو مروى عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس وعزي نحوه لإمام الحرمين.

وقال ابن المنير: إن قلت إن لم يفضل على يونس باعتبار استواء الجهتين بالنسبة إلى وجود الحق تعالى، فقد فضله باعتبار تفاوت الجهتين في تفضيل الحق فإنه تعالى فضل الملائكة الأعلیٰ على الحضيض الأدنى، فكيف لا يفضل عليه الصلاة والسلام على يونس، فإن لم يكن التفضيل بالمكان فهو بالمكانة/ بلا إشكال.

ب/٢٤

ثم قال: قلت لم ينفه عن مطلق التفضيل، وإنما نهى عن تفضيل مقيد بالمكان يفهم منه القرب المكاني فعلى هذا يحمل جمعاً بين القواعد، انتهى.

[هل البشر أفضل أم الملائكة؟]

واختلف هل البشر أفضل من الملائكة؟

فقال جمهور أهل السنة والجماعة: خواص بني آدم، وهم الأنبياء، أفضل من خواص الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وحملة العرش، والمقربون والكروبيون والروحانيون. وخواص الملائكة أفضل من عوام بني آدم. قال التفتازاني: بالإجماع بل بالضرورة. وعوام بني آدم أفضل من عوام الملائكة. فالمسجود له أفضل من الساجد، فإذا ثبت تفضيل الخواص على الخواص ثبت تفضيل العوام على العوام، فعوام الملائكة خدم عمال الخير، والمخدوم له فضل على الخادم، ولأن المؤمنين ركب فيهم الهوى والعقل، مع تسليط الشيطان عليهم بوسوسته، والملائكة ركب فيهم العقل دون الهوى ولا سبيل للشيطان عليهم.

فالإنسان - كما قاله في شرح العقائد - يحصل الفضائل والكمالات العلمية والعملية مع وجود العوائق والموانع من الشهوة والغضب وسنوح الحاجات الضرورية الشاغلة عن اكتساب الكمالات، ولا شك أن العبادة والكمالات مع الشواغل والصوارف أشق وأدخل في الإخلاص فتكون أفضل.

والمراد بعوام بني آدم - هنا - الصلحاء لا الفسقة، كما نبه عليه العلامة كمال الدين بن أبي شريف المقدسي، قال: ونص البيهقي عليه

في الشعب وعبارته: قد تكلم الناس قديماً وحديثاً في الملائكة والبشر، فذهب ذاهبون إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، وأن الأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة. انتهى.

وذهب المعتزلة والفلاسفة وبعض الأشاعرة إلى تفضيل الملائكة. وهو اختيار القاضي أبي بكر الباقلاني، وأبي عبد الله الحلبي، وتمسكوا بوجوه:

الأول: أن الملائكة أرواح مجردة كاملة بالفعل مبرأة عن مبادئ الشرور والآفات كالشهوة والغضب، وعن ظلمات الهيولى والصورة، قوية على الأفعال العجيبة عالمة بالكوائن ماضيها وآتيها من غير غلط. والجواب: أن مبنى ذلك على الأصول الفلسفية دون الأصول الإسلامية.

الثاني: أن الأنبياء مع كونهم أفضل البشر يتعلمون ويستفيدون منهم بدليل قوله تعالى: ﴿علمه شديد القوى﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾^(٢) ولا شك أن المعلم أفضل من المتعلم. والجواب: أن التعليم من الله تعالى والملائكة إنما هم مبلغون.

الثالث: أنه اطرء في الكتاب والسنة تقديم ذكرهم على ذكر الأنبياء، وما ذلك إلا لتقدمهم في الشرف والرتبة.

والجواب: أن ذلك لتقدمهم في الوجود، أو لأن وجودهم أخفى فالإيمان بهم أقوى وبالتقديم أولى.

(١) سورة النجم، الآية ٥.

(٢) سورة الشعراء، الآية ١٩٣.

الرابع: قوله تعالى: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾^(١)، فإن أهل اللسان يفهمون من ذلك أفضلية الملائكة على عيسى، إذ القياس في مثله الترقى من الأدنى إلى الأعلى، يقال: لا يستنكف من هذا الأمر الوزير ولا السلطان، ولا يقال: السلطان ولا الوزير. ثم لا قائل بالفصل بين عيسى عليه السلام وغيره من الأنبياء عليهم السلام.

والجواب: أن النصارى استعظموا المسيح بحيث يترفع أن يكون عبداً من عباد الله، بل ينبغي أن يكون ابناً له، لأنه مجرد لا أب له، وكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، بخلاف سائر العباد من بني آدم، فرد عليهم بأنه لا يستنكف من ذلك المسيح ولا من هو أعلى منه في هذا المعنى وهم الملائكة الذين لا أب لهم ولا أم، ويقدر أن يذنب الله على أفعال أقوى وأعجب من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى يذنب الله تعالى فالترقي والعلو إنما هو في أمر التجرد وإظهار الآثار القوية لا في مطلق الشرف والكمال، فلا دلالة على أفضلية الملائكة، انتهى.

[مراتب الملائكة]

ثم الملائكة بعضهم أفضل من بعض، وأفضلهم الروح الأمين جبريل، المزكى من رب العالمين، المقول فيه من ذي العزة ﴿إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين﴾^(٢) فوصفه بسبع صفات، فهو أفضل الملائكة الثلاثة - الذين هم أفضل الملائكة على الإطلاق - وهم: ميكائيل وإسرافيل وعزرائيل.

(١) سورة النساء، الآية ١٧٢.

(٢) سورة التكويد، الآية ٢٠.

[نبوة آدم عليه السلام]

وكذلك الرسل أفضل من الأنبياء، وكذلك الرسل بعضهم أفضل من بعض، ومحمد ﷺ أفضل الأنبياء والرسل، كما تقدم.
وأول الأنبياء آدم وآخرهم نبينا محمد ﷺ .

فأما نبوة آدم فبالكتاب الدال على أنه قد أمر ونهي، مع القطع بأنه لم يكن في زمنه نبي آخر، فهو بالوحي لا غير، وكذا السنة والإجماع، فإنكار نبوته على ما نقل عن البعض يكون كفراً.

[عدد الأنبياء والرسل]

وقد اختلف في عدد الأنبياء والمرسلين، والمشهور في ذلك ما في حديث أبي ذر عند ابن مردويه في تفسيره، قال: قلت يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً قلت: يا رسول الله، كم الرسل منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير، قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟ قال: آدم، ثم قال: يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم^(١) وشيث ونوح وخنوخ - وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم -، وأربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر، وأول نبي من بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى، وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك.

وقد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم بن حبان في كتابه «الأنواع والتقاسيم» وقد وسمه بالصحيح.

(١) كيف يكون آدم منسوباً إلى السريان وهو أبو البشر؟ [م].

وخالفه ابن الجوزي فذكره في الموضوعات واتهم به إبراهيم بن هشام.

قال الحافظ ابن كثير: ولا شك أنه قد تكلم فيه غير واحد من أئمة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث، فالله أعلم.

وروى أبو يعلى عن أنس مرفوعاً: كان من خلى من إخواني من الأنبياء ثمانية آلاف نبي، ثم كان عيسى بن مريم، ثم كنت أنا والذين نص الله تعالى على أسمائهم في القرآن: آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم، ولوط وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب، وموسى وهارون ويونس، وداود وسليمان وإلياس واليسع، وزكريا ويحيى وعيسى. وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين والله أعلم.

[﴿ورفعنا لك ذكرك﴾]

وقال الله تعالى: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾

روى ابن جرير من حديث أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ قال: أتاني جبريل عليه السلام فقال: إن ربي وربك يقول: أتدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت: الله أعلم قال: إذا ذكرتُ ذكرتُ معي. وذكره الطبراني، وصححه ابن حبان.

وروينا عن الإمام الشافعي قال: أخبرنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح: معناه لا أذكر إلا ذكرت معي، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، قال الإمام الشافعي يعني - والله أعلم - ذكره عند الإيمان بالله، والأذان، قال: ويحتمل ذكره عند تلاوة القرآن وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية انتهى.

وقيل: رفعه بالنبوة. قاله يحيى بن آدم.

وعن ابن عطاء: جعلتك ذكراً من ذكري. فمن ذكرك ذكري،
وعنه أيضاً: جعلت تمام الإيمان بذكري معك.

وعن جعفر بن محمد الصادق: لا يذكرك أحد بالرسالة إلا
ذكرك بالربوبية.

قال البيضاوي: وأي رفعة مثل أن قرن اسمه باسمه في كلمتي
الشهادة، وجعل طاعته طاعته، انتهى، يشير إلى قوله تعالى: ﴿من يطع
الرسول فقد أطاع الله﴾^(١) ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾^(٢) ﴿ومن
يطع الله ورسوله﴾^(٣) ﴿وأطيعوا الله والرسول﴾^(٤).

وقول قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا
متشهد ولا صاحب صلاة إلا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن
محمداً رسول الله، انتهى.

فهو مذكور معه في الشهادة/ والتشهد، ومقرون ذكره بذكره في
القرآن والخطب والأذان، ويؤذن باسمه في موقف القيامة.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة رفعه: لما نزل آدم
عليه السلام بالهند استوحش فنزل جبريل عليه السلام فنادى بالأذان:

ب/٢٤٥

(١) سورة النساء، الآية ٨٠.

(٢) سورة التوبة، الآية ٦٢.

(٣) سورة النساء، الآية ١٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٣٢.

الله أكبر، الله أكبر مرتين، أشهد أن لا إله إلا الله مرتين، أشهد أن محمداً رسول الله مرتين، الحديث^(١).

وكتب اسمه الشريف على العرش وعلى كل سماء، وعلى الجنان وما فيها. رواه ابن عساكر^(٢).

وأخرج البزار عن ابن عمر مرفوعاً: لما عرج بي إلى السماء، ما مررت بسماء إلا وجدت اسمي مكتوباً فيها: محمد رسول الله.

وفي الخلية عن ابن عباس رفعه: ما في الجنة شجرة عليها ورقة إلا مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وأخرج الطبراني من حديث جابر مرفوعاً: كان نقش خاتم سليمان بن داود عليها السلام لا إله إلا الله محمد رسول الله. وعزاه الحافظ ابن رجب في كتاب أحكام الخواتيم لجزء أبي علي الخالدي، وقال: إنه باطل موضوع.

وشق اسمه الكريم من اسمه تعالى، كما قال حسان:

وشق له من اسمه ليحمله فذو العرش محمود وهذا محمد

وسماه من أسمائه الحسنی بنحو سبعين اسماً، كما بينت ذلك في أسمائه صلوات الله وسلامه عليه، وصلى عليه في ملائكته، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٣) فأخبر عباده

(١) ورواه أيضاً الحاكم وابن عساكر.

(٢) عن كعب الأحمبار وهو من الإسرائيليات، وقيل إنه موضوع.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٥٦.

بمنزلة نبيه عنده في الملاء الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، فيجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً.

وكتبه نبياً وآدم بين الروح والجسد، وختم به النبوة والرسالة، وأعلن بذكره الكريم في الأولين والآخرين، ونوه بقدره الرفيع حين أخذ الميثاق على جميع النبيين، وجعل ذكره في فواتح الرسائل وخواتمها، وشرف به المصاقع على المنابر، وزين بذكره أرباب الأقلام والمحابر، ونشر ذكره في الآفاق شرقاً وغرباً، براً وبحراً، حتى في السماوات السبع وعند المستوى وصريف الأقلام، والعرش والكرسي، وسائر الملائكة المقربين من الكروبيين والروحانيين والعلويين والسفليين، وجعله في قلوب المؤمنين بحيث يستطيعون ذكره فترتاح أرواحهم، وربما تميل من طرب سماع اسمه أشباحهم.

وإذا ذكركم أميل كأنني من طيب ذكركم سقيت الراحا

كأنه تعالى يقول: أملأ الوجود كله من أتباعك، كلهم يثنون عليك، ويصلون عليك ويحفظون سنتك، بل ما من فريضة من فرائض الصلاة إلا ومعها سنة، فهم متمسكون في الفريضة بأمرى، وفي السنة بأمرى، وجعلت طاعتي طاعتك، وبيعتي بيعتك، فالقراء يحفظون ألفاظ منشورك، والمفسرون يفسرون معاني فرقانك، والوعاظ يبلغون بليغ وعظك، والملوك والسلاطين يقفون في خدمتك ويسلمون من وراء الباب عليك، ويمسحون وجوههم بتراب روضتك، ويرجون شفاعتك، فشفرك باق إلى أبد الأبد، والحمد لله رب العالمين.

[﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾]

وقال تعالى: ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾^(١).

اعلم أن للمفسرين في (طه) قولين، أحدهما: أنها من حروف التهجي، والثاني أنها كلمة مفيدة.

وعلى الأولى: قيل معناها، يا مطمع الشفاعة للأمة، ويا هادي الخلق إلى الملة، وقيل: «الطاء» في الحساب بتسعة/ والهاء بخمسة، ١/٢٤٦ فالجملة أربعة عشر، ومعناه: يا أيها البدر، وهذه الأقوال لا يجب أن يعتمد عليها إذ هي، كما قاله المحققون، من بدع المفسرين، ومثلها قول الواسطي، فيما حكاه القاضي عياض في «الشفاء»، أراد: يا طاهر يا هادي.

وأما على قول من قال: إنها كلمة مفيدة، ففيه وجهان: أحدهما، أن معناه: يا رجل، وهو مروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة. قال سعيد بن جبير: بلسان النبطية، وقال قتادة: بلسان السريانية، وقال عكرمة: بلسان الحبشية. وقال البيضاوي: إن صح أن معناه: يا رجل فلعل أصله: يا هذا فتصرفوا فيه بالقلب والاختصار، انتهى.

وقال الكلبي: لو قلت في «عك»^(٢) يا رجل، لم يجبك حتى تقول: طه.

(١) سورة طه، الآية ١ - ٢.

(٢) هو عك بن عدنان، أخو معد، وهم باليمن وليس في لغتهم لفظ «رجل» ويقابلها لفظ: طه.

وقال السدي: معنى طه يا فلان.

وقال الزمخشري: لعل «عكاً» تصرفوا في «يا هذا» كأنهم في لغتهم قالبون «الياء» «طاء» فقالوا: في «ياطاء» واختصروا هذا فاقتصروا على «ها»، وأثر الصيغة ظاهر لا يخفى في البيت المستشهد به:

إن السفاهة طه في خلائقكم لا قدس الله أخلاق الملاعين

قال في البحر: وقد كان قدم أن «طه» في لغة «عك» في معنى يا رجل، ثم تخوض وتجراً على «عك» بما لا يقوله نحوي، وهو أنهم قلبوا «الياء» «طاء» وهذا لا يوجد في لسان العرب قلب «الياء» التي للنداء «طاء» وكذلك حذف اسم الإشارة في النداء وإقرار «ها» التي للتنبيه، انتهى.

وقيل: معناه يا إنسان.

وقرئ (طه) بإسكان الهاء، على أنه أمر له ﷺ بأن يطاء الأرض بقدميه.

وقد روي أنه ﷺ كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه، فأمر أن يطاء الأرض بقدميه معاً، وأن الأصل «طاء» فقلبت همزته هاء، كما قالوا «هياك» في: إياك، و«هرقت» في: أرتقت. ويجوز أن يكون الأصل من وطئ على ترك الهمزة، فيكون أصله «طا» يا رجل ثم أثبتت الهاء فيها للوقف. وعلى هذا يحتمل أن يكون أصل «طه»: طاها، والألف مبدلة من الهمزة والهاء كناية عن الأرض. لكن يرد ذلك: كتبها على صورة الحرف.

وأما قوله تعالى: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾، فذكروا في سبب نزولها أقوالاً:

أحدها: أن أبا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدي قالوا لرسول الله ﷺ: إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك، فقال ﷺ: بل بعثت رحمة للعالمين، فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليهم، وتعريفاً له ﷺ بأن دين الإسلام والقرآن هو السلم إلى نيل كل فوز، والسبب في إدراك كل سعادة، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها.

وثانيها: أنه ﷺ صلى بالليل حتى تورمت قدماه، فقال له جبريل: أبق على نفسك، فإن لها عليك حقاً. أي ما أنزلناه عليك لتنتهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة العظيمة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحاء.

وروي أنه كان إذا قام من الليل ربط صدره بجبل حتى لا ينام. وقال بعضهم: كان يسهر طول الليل.

وتعقب: بأنه بعيد، لأنه ﷺ إن فعل شيئاً من ذلك فلا بد أن يكون قد فعله بأمر الله تعالى، وإذا فعله عن أمره فهو من باب السعادة^(١) لا من باب الشقاوة^(٢).

وثالثها: قال بعضهم: يحتمل أن يكون المراد، لا تشق على نفسك وتعذبها بالأسف على كفر هؤلاء، وإنما أنزلنا عليك القرآن لتذكر به من آمن، فمن آمن وأصلح فلنفسه، ومن كفر فلا يحزنك

(١) في ط: الشقاوة.

(٢) سقطت هذه الجملة في ط.

كفره، فما عليك إلا البلاغ، وهذا كقوله: ﴿لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين﴾ ﴿ولا يحزنك كفرهم﴾.

رابعها: أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة، وفي ذلك الوقت كان ﷺ مقهوراً مع أعدائه، فكأنه تعالى قال: لا تظن أنك تبقى على هذه الحالة، بل يعلو أمرك ويظهر/ قدرك، فإننا ما أنزلنا عليك القرآن لتبقى شقيماً، بل تصير معظماً مكرماً، زاده الله تعالى تعظيماً وتكريماً وتشريفاً.

ب/٢٤٦

[﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾]

وقال تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ السورة.

قال الإمام فخر الدين بن الخطيب: في هذه السورة كثير من الفوائد، منها: أنها كالتتمة لما قبلها من السور، وذلك لأن الله تعالى جعل سورة (الضحى) في مدح نبينا ﷺ، وتفصيل أحواله، فذكر في أولها ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته وهي قوله: ﴿ما ودعك ربك وما قلى، وللآخرة خير لك من الأولى، ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ ثم ختمها كذلك بأحوال ثلاثة فيما يتعلق بالدنيا، وهي قوله تعالى: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً﴾ أي عن علم الحكم والأحكام ﴿فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى﴾. ثم ذكر في سورة ﴿ألم نشرح﴾ أنه تعالى شرفه ﷺ بثلاثة أشياء وهي ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ أي: ألم نفسحه حتى وسع^(١) مناجاة الحق ودعوة الخلق، ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ أي عناءك الثقيل ﴿الذي أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك﴾ وهكذا سورة سورة، حتى قال: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ أي أعطيناك

(١) في ط: يسع.

هذه المناقب المتكاثرة التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها. وإذ^(١) أنعمنا عليك بهذه النعم فاشتغل بطاعتنا ولا تبال بقولهم.

ثم إن الاشتغال بالعبادة إما أن يكون بالنفس وهو قوله: ﴿فصل ربك﴾، وإما بالمال وهو قوله: ﴿وانحر﴾

وتأمل قوله: ﴿إنا أعطيناك﴾ كيف ذكر بلفظ الماضي، ولم يقل: سنعطيك، ليدل على أن هذا الإعطاء حصل في الزمان الماضي، قال ﷺ: كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد. ولا شك أن من كان في الزمان الماضي عزيزاً مرعي الجانب أشرف ممن سيصير كذلك، كأنه تعالى يقول: يا محمد قد هيأنا أسباب سعادتك قبل دخولك في هذا الوجود، فكيف أمرك بعد وجودك واشتغالك بعبوديتنا يا أيها العبد الكريم، إنا لم نعطك هذا الفضل العميم لأجل طاعتك، وإنما اخترناك بمجرد فضلنا وإحساسنا من غير موجب.

واختلف المفسرون في تفسير (الكوثر) على وجوه:

منها: أنه نهر في الجنة، وهذا هو المشهور والمستفيض عند السلف والخلف، فروى أنس أن رسول الله ﷺ قال: (بيننا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طينه مسك إذفر) رواه البخاري.

وقيل: الكوثر أولاده، لأن هذه السورة إنما نزلت رداً على من عابه ﷺ بعدم الأولاد، وعلى هذا فالمعنى: أنه يعطيه نسلًا يبقون على

(١) كذا في ش. وفي النسخ: إذا.

عمر الزمان. فانظر كم قتل من أهل البيت، ثم العالم ممتلئ منهم، ولم يتفق ذلك لنبي من الأنبياء غيره.

وقيل: الكوثر الخير الكثير. وقيل: النبوة، وهي الخير الكثير.

وقيل: علماء أمته، وقيل الإسلام، ولا ريب أنها من الخير الكثير، فالعلماء ورثة الأنبياء، كما رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وأما «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» فقال الحافظ ابن حجر، ومن قبله الدميري والزرکشي، أنه لا أصل له. نعم روى أبو نعيم في فضل العالم العفيف بسند ضعيف عن ابن عباس رفعه: أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد.

وقيل: الكوثر كثرة الأتباع والأشياء.

وعن بعضهم: المراد بالكوثر العلم، وحمله عليه أولى لوجوه: أحدها أن العلم هو الخير الكثير، والثاني: إما أن يحمل الكوثر على نعم الآخرة أو على نعم الدنيا، قال: والأول غير جائز لأنه قال: إنا أعطيناك الكوثر، والجنة سيعطيها لا أنه أعطاها، فوجب حمل الكوثر على ما وصل إليه في الدنيا، وأشرف الأمور الواصلة إليه في الدنيا هو العلم والنبوة، فوجب حمل اللفظ على العلم، / والثالث: أنه لما قال ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ قال عقبه: ﴿فصل لربك وانحر﴾ والشيء الذي يتقدم على العبادة هو المعرفة، ولأن «الفاء» في قوله (فصل) للتعقيب، ومعلوم أن الموجب للعبادة ليس إلا العلم.

وقيل الكوثر الخلق الحسن [كما في حديث: ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة. رواه الطبراني^(١). وعن ابن عباس: جميع نعم الله على نبيه ﷺ .

(١) زيادة في ش.

وبالجملة: فليس حمل الآية على بعض هذه النعم أولى من حملها على الباقي، فوجب حملها على الكل، ولذا روي أن سعيد بن جبير لما روى هذا القول عن ابن عباس قال له بعضهم: إن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه.

قال الإمام فخر الدين بن الخطيب: قال بعض العلماء: ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ يقتضي أنه تعالى قد أعطاه ذلك الكوثر فيجب أن يكون الأقرب حمله على ما آتاه الله من النبوة والقرآن والذكر العظيم والنصر على الأعداء. وأما الحوض وسائر ما أعدَّ له من الثواب فهو وإن جاز أن يقال: إنه داخل فيه لأن ما ثبت بحكم وعد الله فهو كالواقع، إلا أن الحقيقة ما قدمناه، لأن ذلك وإن أعدَّ له فلا يصح أن يقال على الحقيقة إنه أعطاه الكوثر في حال نزول هذه السورة بمكة، ويحتمل أن يجاب عنه بأن من أقر لولده الصغير بشيء له، يصح أن يقال: أعطاه ذلك الشيء، مع أن الصبي في ذلك الحال ليس أهلاً للتصرف. انتهى.

وقد روينا في صحيح مسلم من حديث أنس (بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا ما يضحكك أضحكك الله سنك، يا رسول الله؟ قال: نزلت على أنفأ سورة فقراً: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ، فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر﴾. ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي، عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج

العبد منهم فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك^(١).

وهذا تفسير صريح منه ﷺ بأن المراد بالكوثر - هنا - الحوض، فالصير إليه أولى، وهذا هو المشهور كما تقدم.

فسبحان من أعطاه هذه الفضائل العظيمة وشرفه بهذه الخصال العميمة، وحباه بما أفاضه عليه من نعمه الجسيمة.

[تكريمه ﷺ بالخطاب]

وقد جرت عادة الله مع أنبيائه عليهم الصلاة والسلام أن يناديهم بأسمائهم الأعلام نحو: ﴿يا آدم اسكن﴾^(٢) ﴿يا نوح اهبط﴾^(٣) ﴿يا موسى إني أنا الله﴾^(٤) ﴿يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك﴾^(٥)، وأما نبينا محمد ﷺ فناداه بالوصف الشريف من الإنبياء والإرسال فقال: (يا أيها الرسول) (يا أيها النبي). والله در القائل:

فدعا جميع الرسل كلاً باسمه ودعاك وحدك بالرسول وبالنبي

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: ولا يخفى على أحد أن السيد إذا دعا عبده بأفضل ما أوجد لهم من الأوصاف العلية والأخلاق السنية ودعا الآخرين بأسمائهم الأعلام التي لا تشعر بوصف

(١) هو في كتاب الصلاة عند مسلم برقم ٥٣.

(٢) سورة البقرة، الآية ٣٥.

(٣) سورة هود، الآية ٤٨.

(٤) سورة القصص، الآية ٣٠.

(٥) سورة المائدة، الآية ١١٠.

من الأوصاف، ولا بخلق من الأخلاق، أن منزلة من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف أعز عليه وأقرب إليه ممن دعاه باسمه العلم، وهذا معلوم بالعرف: أن من دعي بأفضل أوصافه وأخلاقه كان ذلك مبالغاً في تعظيمه واحترامه. انتهى.

وانظر ما في نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) من ذكر «الرب» تعالى وإضافته إليه ﷺ، وما في ذلك من التنبيه على شرفه واختصاصه بخطابه، وما في ذلك من الإشارة اللطيفة، وهي أن المقبل عليه بالخطاب، له الحظ الأعظم، والقسم الأوفر من الجملة المخبر بها إذ هو في الحقيقة أعظم / خلفائه.

ألا ترى إلى عموم رسالته ودعائه، وجعله أفضل أنبيائه، أم بهم ليلة إسرائه، وجعل آدم فمن دونه يوم القيامة تحت لوائه، فهو المقدم في أرضه وسائه، وفي دار تكليفه وجزائه.

وبالجملة: فقد تضمن الكتاب العزيز من التصريح بجليل رتبته، وتعظيم قدره، وعلو منصبه، ورفع ذكره ما يقضي بأنه استولى على أقصى درجات التكريم، وكفي إخباره تعالى بالعفو عنه وملاطفته قبل ذكر العتاب في قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك، لم أذنت لهم﴾^(٢) وتقديم ذكره على الأنبياء تعظيماً له، مع تأخره عنهم في الزمان في قوله تعالى: ﴿ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم﴾^(٣) وإخباره بتمني أهل النار طاعته في قوله تعالى: ﴿يوم تقلب وجوههم في

(١) سورة البقرة، الآية ٣٠.

(٢) سورة التوبة، الآية ٤٣.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٧.

النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول ﴿١﴾، وهذا بحر لا ينفد
وقطر لا يعد.

(١) سورة الأحزاب، الآية ٦٦.

النوع الثاني

في أخذ الله الميثاق له على النبيين
فضلاً ومنة ليؤمنن به إن أدركوه ولينصرنه

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾
الآية (١).

أخبر تعالى أنه أخذ الميثاق على كل نبي بعثه، من لدن آدم عليه
الصلاة والسلام إلى محمد ﷺ أن يصدق بعضهم بعضاً، قاله الحسن
وطاووس وقاتدة.

وقيل معناه: أنه تعالى أخذ الميثاق من النبيين وأممهم، واستغنى
بذكرهم عن ذكر الأمم.

وعن علي بن أبي طالب وابن عباس: ما بعث الله نبياً من
الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد ﷺ - وهو حي - ليؤمنن به
ولينصرنه. وما قاله قاتدة والحسن وطاووس لا يضاد ما قاله علي وابن
عباس، ولا ينفيه بل يستلزمه ويقتضيه.

(١) سورة آل عمران، الآية ٨١.

وقيل معناه: أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كانوا يأخذون الميثاق من أهمهم بأنه إذا بعث محمد ﷺ أن يؤمنوا به وأن ينصروه، واحتج له بأن الذين أخذ الله الميثاق منهم يجب عليهم الإيمان بمحمد ﷺ عند مبعثه، وكان الأنبياء عند مبعث محمد ﷺ من جملة الأموات، والميت لا يكون مكلفاً، فتعين أن يكون الميثاق مأخوذاً على الأمم. قالوا: ويؤكد هذا، أنه تعالى حكم على الذين أخذ عليهم الميثاق بأنهم لو تولوا لكانوا فاسقين، وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء، وإنما يليق بالأمم.

وأجاب الفخر الرازي^(١): بأن يكون المراد من الآية أن الأنبياء لو كانوا في الحياة لوجب عليهم الإيمان بمحمد ﷺ. ونظيره قوله تعالى ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾^(٢)، وقد علم الله تعالى أنه لا يشرك قط، ولكنه خرج هذا الكلام على سبيل التقدير والفرض، وقال تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾^(٣) وقال في الملائكة: ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم﴾^(٤) مع أنه تعالى أخبر عنهم بأنهم ﴿لا يسبقونه بالقول﴾^(٥) وبأنهم ﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾^(٦)، فكل ذلك خرج على سبيل الفرض والتقدير. وإذا نزلت هذه الآية على أن الله تعالى

(١) في الأصل: وأجيب.

(٢) سورة الزمر، الآية ٦٥.

(٣) سورة الحاقة، الآية ٤٦.

(٤) سورة الأنبياء، الآية ٢٩.

(٥) سورة الأنبياء، الآية ٢٧.

(٦) سورة النحل، الآية ٥٠.

[لما] (١) أوجب على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ لو كانوا في الأحياء، وأنهم لو تركوا ذلك لكانوا في زمرة الفاسقين، فلأن يكون الإيمان بمحمد ﷺ واجباً على أممهم من باب أولى. فكان صرف هذا الميثاق إلى الأنبياء أقوى في تحصيل المقصود.

وقال السبكي في هذه الآية: إنه ﷺ على تقدير مجيئهم في زمانه يكون مرسلأ إليهم. فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق، من زمن آدم إلى يوم القيامة، وتكون الأنبياء وأمهم كلهم من أمته، ويكون قوله ﷺ: (وبعثت إلى الناس كافة) لا يختص به الناس في زمانه إلى / يوم القيامة، بل يتناول من قبلهم أيضاً، وإنما أخذ له المواثيق على الأنبياء ليعلموا أنه المتقدم عليهم، وأنه نبيهم ورسولهم.

وفي أخذ المواثيق - وهي في معنى الاستحلاف، ولذلك دخلت «لام» القسم في (لتؤمنن به ولتنصرنه) - لطيفة: وهي كأنها إيمان البيعة التي تؤخذ للخلفاء، ولعل إيمان الخلفاء أخذت من هنا.

فانظر إلى هذا التعظيم العظيم للنبي ﷺ من ربه تعالى، فإذا عرف هذا فالنبي محمد ﷺ نبي الأنبياء، ولهذا ظهر ذلك في الآخرة جميع الأنبياء تحت لوائه، وفي الدنيا كذلك ليلة الإسراء صلى بهم، ولو اتفق مجيئه في زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وجب عليهم وعلى أممهم اتباعه والإيمان به ونصرته، وبذلك أخذ الله الميثاق عليهم، فنبوته عليهم ورسالته إليهم معنى حاصل لهم في حياتهم، وإنما أمره يتوقف على اجتماعهم معه، فتأخر ذلك الأمر راجع إلى وجودهم لا إلى عدم اتصافهم بما يقتضيه. وفرق بين توقف الفعل على قبول المحل وتوقفه على أهلية الفاعل، فها هنا لا توقف من جهة الفاعل، ولا من ذات النبي ﷺ الشريفة، وإنما هو من جهة وجود العصر المشتمل

(١) في (ط، ب).

عليه، فلو وجد في عصرهم لزمهم اتباعه بلا شك، ولهذا يأتي عيسى عليه السلام في آخر الزمان على شريعته، وهو نبي كريم على حاله، لا كما يظن بعض الناس أنه يأتي واحداً من هذه الأمة، نعم هو واحد من هذه الأمة لما قلنا من اتباعه للنبي ﷺ، وإنما يحكم بشريعة نبينا ﷺ بالقرآن والسنة، وكل ما فيها من أمر ونهي، فهو متعلق به كما يتعلق بسائر الأمة، وهو نبي كريم على حاله لم ينقص منه شيء.

وكذلك لو بعث النبي ﷺ في زمانه أو في زمان موسى وإبراهيم ونوح وآدم كانوا مستمرين على نبوتهم ورسالتهم إلى أمهم، والنبي ﷺ نبي عليهم ورسول إلى جميعهم، فنبوته ورسالته أعم وأشمل وأعظم. وتتفق مع شرائعهم في الأصول، لأنها لا تختلف، وتقدم شريعته ﷺ فيما عساه يقع الاختلاف فيه من الفروع، إما على سبيل التخصيص، وإما على سبيل النسخ، أو: لا نسخ ولا تخصيص بل تكون شريعة النبي ﷺ في تلك الأوقات بالنسبة إلى أولئك الأمم ما جاءت به أنبيائهم، وفي هذا الوقت بالنسبة إلى هذه الأمة الشريفة، والأحكام تختلف باختلاف الأشخاص والأوقات، وبهذا بان لنا معنى حديثين كانا خفيا عنا.

أحدهما: قوله ﷺ: (بعثت إلى الناس كافة)^(١)، كنا نظن أنه من زمانه إلى يوم القيامة، فبان أنه إلى جميع الناس أولهم وآخرهم.

والثاني: قوله ﷺ: (كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد)^(٢)، كنا نظن أنه بالعلم، فبان أنه زائد على ذلك، وإنما يفترق الحال بين ما بعد وجود جسده ﷺ وبلوغه الأربعين، وما قبل ذلك بالنسبة إلى

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أحمد والبخاري في التاريخ وأبو نعيم وغيرهم.

المبعوث إليهم وتأهلهم لسماع كلامه لا بالنسبة إليه ولا إليهم، لو تأهلوا قبل ذلك، وتعليق الأحكام على الشروط قد يكون بحسب المحل القابل، وقد يكون بحسب الفاعل المتصرف فهنا التعليل إنما هو بحسب المحل القابل، وهو المبعوث إليهم وقبولهم سماع الخطاب والجسد الشريف الذي يخاطبهم بلسانه.

وهذا كما يوكل الأب رجلاً في تزويج ابنته إذا وجدت كفاءً، فالتوكيل صحيح وذلك الرجل أهل للوكالة، ووكالته ثابتة، وقد يحصل توقف التصرف على وجود الكفاء، ولا يوجد إلا بعد مدة، وذلك لا يقدر في صحة الوكالة وأهلية الوكيل، انتهى.

النوع الثالث

في وصفه له ﷺ بالشهادة وشهادته له بالرسالة

[﴿وابعث فيهم رسولا منهم﴾]

ب/٢٤٨
قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم وإسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - عند بناء البيت الحرام: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾^(١).

فاستجاب الله دعاءهما، وبعث في أهل مكة رسولا منهم بهذه الصفة من ولد إسماعيل الذي دعا مع أبيه إبراهيم عليهما السلام بهذا الدعاء.

فإن قلت: من أين علم أن الرسول هنا المراد به محمد ﷺ؟

فالجواب من وجوه:

أحدها: إجماع المفسرين وهو حجة.

(١) سورة البقرة الآيات ١٢٧ - ١٢٩.

الثاني: قوله ﷺ: (أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى) (١)
قالوا: وأراد بالدعوة هذه الآية، وبشارة عيسى هي ما ذكر في سورة
الصف من قوله: ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ (٢).

الثالث: إن إبراهيم إنما دعا بهذا الدعاء بمكة لذريته الذين كانوا
بها وبما حولها، ولم يبعث الله تعالى إلى من بمكة إلا محمداً ﷺ. وقد
امتن الله تعالى على المؤمنين ببعث هذا النبي منهم على هذه الصفة
فقال تعالى: ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم
يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ الآية (٣)،
فليس لله منة على المؤمنين أعظم من إرساله محمداً ﷺ يهدي إلى الحق
وإلى طريق مستقيم، وإنما كانت النعمة على هذه الأمة بإرساله أعظم
النعم، لأن النعمة به ﷺ تمت بها مصالح الدنيا والآخرة، وكمل
بسببها دين الله الذي رضيه لعباده.

وقوله: ﴿من أنفسهم﴾ يعني أنه بشر مثلهم، وإنما امتاز عليهم
بالوحي.

وقرئ في الشواذ (من أنفسهم) - بفتح الفاء - يعني من أشرفهم،
لأنه من بني هاشم، وبنو هاشم أفضل قريش، وقريش أفضل
العرب، والعرب أفضل من غيرهم.

ثم قيل: لفظ (المؤمنين) عام، ومعناه خاص في العرب، لأنه
ليس حي من أحياء العرب إلا وقد ولده، وخص المؤمنين بالذكر لأنهم
المتنفعون به أكثر، فالمنة عليهم أعظم.

(١) أخرجه الطيالسي والديلمي وابن عساكر.

(٢) سورة الصف، الآية ٦.

(٣) سورة آل عمران، ١٦٤.

فإن قلت: هل العلم بكونه ﷺ بشراً، ومن العرب، شرط في صحة الإيمان، أو هو من فروض الكفاية.

أجاب الشيخ ولي الدين بن العراقي: بأنه شرط في صحة الإيمان. قال: فلو قال شخص: أو من برسالة محمد ﷺ إلى جميع الخلق، ولكني لا أدري هل هو من البشر أو الملائكة، أو من الجن، أو لا أدري أهو من العرب أو العجم، فلا شك في كفره لتكذيبه للقرآن وجحده ما تلقته قرون الإسلام خلفاً عن سلف، وصار معلوماً بالضرورة عند الخاص والعام، ولا أعلم في ذلك خلافاً. فلو كان غيباً لا يعرف ذلك وجب تعليمه إياه، فإن جحده بعد ذلك حكمنا بكفره. انتهى.

فإن قلت: هل هو ﷺ باق على رسالته إلى الآن؟

أجاب أبو المعين النسفي^(١): بأن الأشعري قال: إنه ﷺ الآن في حكم الرسالة، وحكم الشيء يقوم مقام أصل الشيء، ألا ترى أن العدة تدل على ما كان من أحكام النكاح. انتهى.

وقال غيره: إن النبوة والرسالة باقية بعد موته ﷺ حقيقة، كما يبقى وصف الإيمان بعد موته، لأن المتصف بالنبوة والرسالة، والإيمان هو الروح وهي باقية لا تتغير بموت البدن. انتهى.

(١) ميمون بن محمد بن سعيد النسفي الحنفي صاحب التبصرة في علم الكلام، والتمهيد لقواعد التوحيد وغيرهما، وهو غير صاحب «الكنز» عبدالله بن أحمد، وغير صاحب التفسير، عمر بن محمد وغير صاحب العقائد البرهان محمد بن محمد، وكلهم حنفيون من «نسف» مدينة بما وراء النهر.

وتعقب: بأن الأنبياء أحياء في قبورهم، فوصف النبوة باق للجسد والروح معاً.

وقال القشيري: كلام الله تعالى لمن اصطفاه: أرسلتك أن تبلغ عني، وكلامه تعالى قديم، فهو ﷺ / قبل أن يوجد كان رسولاً. وفي ١/٢٤٩ حال كونه وإلى الأبد رسولاً، لبقاء الكلام وقدمه، واستحالة البطلان على الإرسال الذي هو كلام الله تعالى.

ونقل السبكي في طبقاته، عن ابن فورك أنه قال إنه ﷺ حي في قبره، رسول الله أباد على الحقيقة لا المجاز. انتهى.

[﴿بعث في الأميين رسولاً﴾]

وقال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾^(١).

والمراد بالأميين: العرب، تنبيهاً لهم على قدر هذه النعمة وعظمتها حيث كانوا أميين، لا كتاب لهم، وليس عندهم شيء من آثار النبوة، كما عند أهل الكتاب، فمن الله تعالى عليهم بهذا الرسول وبهذا الكتاب، حتى صاروا أفضل الأمم وأعلمهم، وعرفوا ضلالة من ضل قبلهم من الأمم.

وفي كونه ﷺ منهم فائدتان:

إحداهما: أن هذا الرسول كان أيضاً أمياً كأمية المبعوث إليهم،

(١) سورة الجمعة، الآية ٢.

لم يقرأ كتاباً قط ولم يخطه بيمينه، كما قال تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾^(١)، ولا خرج عن ديار قومه فأقام عند غيرهم حتى تعلم منهم، بل لم يزل أمياً بين أمة أمية لا يكتب ولا يقرأ حتى بلغ الأربعين من عمره، ثم جاء بعد ذلك بهذا الكتاب المبين، وهذه الشريعة الباهرة، وهذا الدين القيم الذي اعترف حذاق أهل الأرض ونظارها أنه لم يقرع العالم ناموس أعظم منه، وفي هذا برهان عظيم على صدقه ﷺ .

الفائدة الثانية: التنبيه على أن المبعوث منهم وهم الأميون، خصوصاً أهل مكة، يعرفون نسبه وشرفه وصدقه وأمانته وعفته، وأنه نشأ بينهم معروفاً بذلك، وأنه لم يكذب قط، فكيف كان يدع الكذب على الناس ثم يفترى الكذب على الله عز وجل؟ هذا هو الباطل. ولذلك سأل هرقل عن هذه الأوصاف واستدل بها على صدقه فيما ادعاه من النبوة والرسالة.

وقد قال الله تعالى خطاباً له: ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾^(٢). ويروى أن رجلاً قال: والله يا محمد ما كذبتنا قط فنتهمك اليوم ولكننا إن نتبعك نتخطف من أرضنا، فنزلت هذه الآية. رواه أبو صالح عن ابن عباس .

وعن مقاتل: كان الحارث بن عامر يكذب النبي ﷺ في العلانية، فإذا خلا مع أهل بيته قال: ما محمد من أهل الكذب.

ويروى أن المشركين كانوا إذا رأوه ﷺ قالوا: إنه لنبي .

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٨ .

(٢) سورة الأنعام، الآية ٣٣ .

وعن علي: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله تعالى الآية.

والمعنى: أنهم ينكرونه مع العلم بصحته. إذ الجحد هو الإنكار مع العلم.

فإن قلت: فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك﴾ (١)؟

أجيب: بأنه على طريق الجحد، وهو يختلف باختلاف أحوالهم في الجهل، فمنهم من وقع منه ذلك لجهله، فحيث علم آمن، ومنهم من علم وأنكر كفرأً وعناداً كأبي جهل. فيكون المراد بقوله فإنهم لا يكذبونك، قوماً مخصوصين منهم لا كلهم، وحينئذٍ فلا تعارض.

وروي أن أبا جهل لقيه فصافحه فقيل له: أتصافحه؟ فقال: والله إني لأعلم أنه نبي، ولكن متى كنا تبعاً لبني عبد مناف؟ فأنزل الله الآية، رواه ابن أبي حاتم.

والقرآن كله مملوء بالآيات الدالة على صدق هذا الرسول الكريم، وتحقيق رسالته، فكيف يليق بكمال الله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره على ذلك ويؤيده، ويعلي كلمته ويرفع شأنه، ويوجب دعوته ويهلك عدوه، ويظهر على يده من الآيات والبراهين والأدلة ما يضعف عن مثله قوى البشر، وهو مع ذلك كاذب عليه، مفترٍ ساعٍ / في الأرض بالفساد؟

ومعلوم أن شهادته سبحانه وتعالى على كل شيء، وقدرته على

(١) سورة الأنعام، الآية ٣٤.

كل شيء، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك كل الإباء، ومن ظن ذلك به وجوزه عليه فهو من أبعد الخلق عن معرفته إن عرف منه بعض صفاته كصفة القدرة وصفة المشيئة^(١).

والقرآن كله مملوء من هذه الطريق، وهذه طريقة الخاصة، بل خاصة الخاصة الذين يستدلون بالله على أفعاله، وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله. وإذا تدبرت القرآن رأيته ينادي على ذلك ويبيده ويعيده لمن له فهم وقلب واع عن الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾^(٢)، أفتراه سبحانه وتعالى يخبر أن كماله وحكمه يأبى أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل، بل لا بد أن يجعله عبرة لعباده، كما جرت بذلك سننه في المتقولين عليه.

وقال تعالى: ﴿أم يقولون افتري على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾^(٣) هاهنا انتهى جواب الشرط. ثم أخبر خبراً جازماً غير معلق أنه يحو الباطل ويحق الحق.

وقال تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾^(٤)، فأخبر أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره، ولا عرفه كما ينبغي ولا عظمه كما يستحق، فكيف من ظن

(١) أي أن جميع الناس يدركون كثيراً من صفاته ويقرون بها، ومن حق من عرف شيئاً منها أن يعترف بما ظهر له من الأدلة باتصافه ﷺ بجميع صفات الكمال اللائقة به.

(٢) سورة الحاقة، رقم الآية ٤٧.

(٣) سورة الشورى، الآية ٢٤.

(٤) سورة الأنعام، الآية ٩١.

أن الله ينصر الكاذب المفتري عليه، ويؤيده ويظهر على يديه الآيات والأدلة؟

وهذا في القرآن كثير يستدل تعالى بكماله المقدس وأوصافه وجلاله على صدق رسوله، وعلى وعده ووعدته، ويدعو عباده إلى ذلك.

وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله: ﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون. قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾^(١)، فأخبر سبحانه أن الكتاب الذي أنزله يكفى من كل آية، ففيه الحجة والدلالة على أنه من الله، وأن الله سبحانه أرسل به رسوله، وفيه بيان ما يوجب لمن اتبعه السعادة، وينجيه من العذاب. ثم قال: ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السماوات والأرض﴾ فإذا كان سبحانه عالماً بجميع الأشياء كانت شهادته أصدق شهادة وأعد لها، فإنها شهادة بعلم تام محيط بالمشهود به، وهو سبحانه وتعالى يذكر علمه عند شهادته وقدرته، وملكه عند مجازاته، وحكمته عند خلقه، وأمره ورحمته عند ذكر إرسال رسله، وحلمه عند ذنوب عباده. فتأمل ورود أسماؤه الحسنی في كتابه، وارتباطها بالخلق والأمر والثواب والعقاب. انتهى.

(١) سورة العنكبوت، الآية ٥١ - ٥٢.

[﴿إنا أرسلناك شاهداً﴾]

وقال تعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾^(١).

أي شاهداً على الوجدانية، وشاهداً في الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والصراط، وشاهداً في الآخرة بأحوال الدنيا، وبالطاعة والمعصية والصلاح والفساد، وشاهداً على الخلق يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾^(٢).

كأنه تعالى يقول: يا أيها المشرف من قبلنا، إنا أرسلناك شاهداً بوحدانيتنا ومشاهدنا كمال فردانيتنا، تبشر عبادنا عنا، وتحذرهم مخالفة أمرنا، وتعلمهم مواضع الخوف منا، وداعياً الخلق إلينا، وسراجاً يستضيئون بك، وشمساً تبسط شعاعك على جميع من صدقك وآمن بك، ولا يصل إلينا إلا من اتبعك وخدمك وقدمك، فبشر بفضلنا وطولنا عليهم / وإحساننا إليهم. ١/٢٥٠

ولما كان الله تعالى قد جعله ﷺ شاهداً على الوجدانية، والشاهد لا يكون مدعياً، فالله تعالى لم يجعل النبي في مسألة الوجدانية مدعياً لها، لأن المدعي من يقول شيئاً على خلاف الظاهر، والوجدانية أظهر من الشمس، والنبي ﷺ كان ادعى النبوة، فجعل الله تعالى نفسه شاهداً له في مجازاة كونه شاهداً له تعالى فقال سبحانه: ﴿والله يعلم﴾^(٣)

(١) سورة الأحزاب، الآية ٤٦.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

(٣) في جميع النسخ، يشهد، ولكنها في المصحف يعلم، ولعله أراد نقل المعنى تفسيراً للآية.

إنك لرسوله ﴿١﴾، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ويقول الذين كفروا لست برسلاً، قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ ﴿٢﴾ فاستشهد على رسالته بشهادة الله له. وكذلك قوله تعالى: ﴿قل أي شيء أكبر شهادة، قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ ﴿٣﴾، وقوله: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً﴾ ﴿٤﴾ وقوله: ﴿والله يعلم إنك لرسوله﴾ ﴿٥﴾ وقوله: ﴿محمد رسول الله﴾ ﴿٦﴾، فهذا كله منه تعالى شهادة لرسوله قد أظهرها وبينها، وبين صحتها غاية البيان بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم بكونه سبحانه شاهداً لرسوله.

[﴿أرسل رسوله بالهدى﴾]

وقال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾ ﴿٧﴾.

فيظهر ظهورين: ظهوراً بالحجة والبيان، وظهوراً بالنصر والغلبة والتأييد حتى يظهر على مخالفه ويكون منصوراً.

(١) سورة المنافقون، الآية ١.

(٢) سورة الرعد، الآية ٤٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٩.

(٤) سورة النساء، الآية ١٦٦.

(٥) سورة المنافقون الآية ١.

(٦) سورة الفتح، الآية ٢٩.

(٧) سورة الفتح، الآية ٢٨.

[شاهد الفطرة]

ومن شهادته تعالى أيضاً ما أودعه في قلوب عباده من التصديق الجازم، واليقين الثابت والطمأنينة بكلامه ووحيه، فإن الله تعالى فطر القلوب على قبول الحق والانقياد له، والطمأنينة والسكون إليه ومحبته، وفطرها على بغض الكذب والباطل والنفور عنه وعدم السكون إليه، ولو بقيت الفطرة على حالها لما آثرت على الحق سواه، ولما سكنت إلا إليه، ولا اطمأنت إلا به، ولا أحببت غيره. ولهذا ندب الحق سبحانه إلى تدبر القرآن، فإن كل من تدبره أوجب له علماً ضرورياً ويقيناً جازماً أنه حق، بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالهَا﴾^(١)، فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرت حقائق القرآن، واستنارت فيها مصابيح الإيمان، وعلمت علماً ضرورياً كسائر الأمور الوجدانية باللذة والألم أنه من عند الله، تكلم به حقاً، وبلغه رسوله جبريل إلى رسوله محمد ﷺ. فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد. انتهى ملخصاً من مدارج السالكين.

[إني رسول الله إليكم]

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾^(٢).

ففي هذه الآية دلالة على أنه ﷺ مبعوث إلى كافة الثقلين.

(١) سورة محمد، الآية ٢٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٨.

وقالت العيسوية من اليهود- وهم أتباع عيسى الأصبهاني-: إن محمداً صادق مبعوث إلى العرب، غير مبعوث إلى بني إسرائيل.

ودليلنا على إبطال قولهم هذه الآية، لأن قوله: ﴿يا أيها الناس﴾ خطاب يتناول كل الناس، ثم قال: ﴿إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ وهذا يقتضي كونه مبعوثاً إلى جميع الناس.

وأيضاً: فلأننا نعلم بالتواتر أنه كان يدعي أنه مبعوث إلى الثقليين. فإما أن تقول: كان رسولاً حقاً، أو ما كان كذلك، فإن كان رسولاً حقاً امتنع الكذب عليه، ووجب الجزم بكونه صادقاً في كل ما يدعيه، فلما ثبت بالتواتر وبظاهر هذه الآية أنه كان يدعي كونه مبعوثاً إلى جميع الثقليين، وجب كونه صادقاً، وذلك يبطل قول من يقول: إنه كان مبعوثاً إلى العرب فقط، لا إلى بني إسرائيل.

وإذا ثبت هذا فنقول: قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ من الناس من يقول إنه عام دخله التخصيص، ومنهم من أنكر ذلك.

أما الأولون فقالوا: دخله التخصيص / من وجهين:

الأول: أنه رسول إلى الناس إذا كانوا من جملة المكلفين، فأما إذا لم يكونوا من جملة المكلفين لم يكن رسولاً إليهم، وذلك لأنه ﷺ قال: «رفع القلم عن ثلاث: عن الصبي حتى يبلغ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق» رواه ابن جرير عن ابن عباس^(١).

والثاني: أنه رسول إلى من وصله خبر وجوده، وخبر معجزاته

(١) في (أ، ط) عن ابن عساکر، ولم يذكر الراوي في (د، ش). قال الشارح رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

وشرائعه، حتى يمكنه عند ذلك متابعتة. أما لو قدرنا حصول قوم في طرف من أطراف الأرض لم يبلغهم خبره وخبر معجزاته وشرائعه حتى لا يمكنهم عند ذلك متابعتة فلا يكونون مكلفين بالإقرار بنبوته. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» رواه مسلم. ومفهومه: أن من لم يسمع به ﷺ ولم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور، على ما تقرر في الأصول أنه لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح. وفي هذا الحديث نسخ الملل كلها برسالة نبينا ﷺ.

[﴿قد جاءكم رسولنا﴾]

وقال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم على فترة من الرسل^(١)، أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير﴾^(٢).

خاطب تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمداً خاتم النبيين الذي لا نبي بعده ولا رسول. بل هو المعقب لجميعهم، ولهذا قال تعالى: ﴿على فترة من الرسل﴾ أي بعد مدة متطاولة، ما بين إرساله وعيسى بن مريم.

وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة كم هي؟ فقال النهدي وقتادة في رواية عنه: ستائة سنة. ورواه البخاري عن سليمان الفارسي. وعن

(١) هذا ما ذكر من الآية في (١، د) وجاء إتمامها في (ب، ش).

(٢) سورة المائدة، الآية ١٩.

قتادة: خمسمائة وستون سنة، وقال الضحاك: أربعمائة وبضع وثلاثون سنة، وعن الشعبي - فيما ذكره ابن عساكر - تسعمائة وثلاث^(١) وثلاثون سنة.

قال الحافظ عماد الدين بن كثير: والمشهور أنها ستمائة سنة، قال: وكانت هي الفترة بين عيسى بن مريم، آخر أنبياء بني إسرائيل، وبين محمد آخر النبيين من بني آدم على الإطلاق، كما في البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي» وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي يقال له: خالد بن سنان، كما حكاه القضاعي^(٢) وغيره.

والمقصود: أن الله بعث محمداً على فترة من الرسل وطموس من السبل وتغير الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم والنفع به أعم.

وفي حديث عند الإمام أحمد مرفوعاً: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من بني إسرائيل»^(٣) وفي لفظ مسلم «من أهل الكتاب»^(٤). فكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم، حتى بعث الله محمداً ﷺ فهدى به الخلائق، وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وتركهم على المحجة البيضاء، والشرعية الغراء، صلوات الله وسلامه عليه.

(١) كذا في ش، وجاء في النسخ «ثلاثة» وهو غلط.

(٢) في ش القاضي، قال: وفي نسخ القضاعي.

(٣) المسند ١٦٢/٤.

(٤) رواه مسلم، كتاب الجنة رقم ٦٣.

[﴿رسول من أنفسكم﴾]

وقال تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾^(١).

أي: عزيز عليه عنتكم، أي إثمكم بالشرك والمعاصي، حريص عليكم أن تهتدوا. قال الحسن: عزيز عليه أن تدخلوا النار، حريص عليكم أن تدخلوا الجنة، ومن حرصه ﷺ علينا أنه لم يخاطبنا بما يريد إبلاغه إلينا، وفهمنا إياه على قدر منزلته، بل على قدر منزلتنا، وإلى هذا أشار صاحب البردة بقوله:

لم يتحننا بما تعى العقول به حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم

أي لم نتحير ولم نشك فيما ألقاه إلينا. وقال: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾^(٢) ولا رحمة مع التكليف بما لا يفهم.

ومن حرصه ﷺ على هدايتنا أنه كان كثيراً ما يضرب المثل بالمحسوس ليحصل / الفهم، وهذه سنة القرآن، ومن تتبع الكتاب والسنة رأى من ذلك العجب العجاب، ولما ساوى الله سبحانه وتعالى بين الناس في حرص رسوله ﷺ على إسلامهم، خص المؤمنين برأفته ورحمته لهم.

وقال تعالى: ﴿من أنفسكم﴾ ولم يقل: من أرواحكم، فقيل

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

يحتمل أن يكون مراده: أنه منا بجسده المنفس^(١)، لا بروحه المقدس، ويرحم الله القائل:

إذا رمت مدح المصطفى شغفاً به تبلى ذهني هيبة لقامه
فأقطع ليلى ساهر الجفن مطرقاً هوى فيه أحلى من لذيذ منامه
إذا قال فيه الله جل جلاله رؤوف رحيم في سياق كلامه
فمن ذا يجاري الوحي والوحي معجز بمختلفيه نثره ونظامه

[توجيه كلام «الشفاء»]

تنبيه: أما قول القاضي عياض بعد ذكره الآية:

«ثم وصفه بعدُ بأوصاف حميدة، وأثنى عليه بمحامد كثيرة، من حرصه على هدايتهم، ورشدهم وإسلامهم، وشدة ما يعتنهم ويضربهم في دنياهم وأخراهم، وعزته عليه...»^(٢).

فهو وإن كان المقصد صحيحاً، ففي ظاهره شيء، لأنه يوهم أن قوله «وشدة ما يعتنهم» معطوف على متعلق المصدر الذي هو «الحرص» فيكون مخفوضاً به.

ومما يقوي هذا التوهم قوة إعطاء الكلام، أن الضمير الأول من قوله «وعزته عليه» عائد على النبي ﷺ، والضمير الثاني عائد على الله عز وجل، فلا تبقى «الشدة» إلا أن تكون معطوفة على متعلق المصدر. ولا يخفى ما في هذا.

(١) قال في هامش ب: أي النفيس، وقال الشارح: أي المكرم.

(٢) جاء هذا النص في الفصل الأول من الباب الأول ٥٣/١ تحقيق قره علي وزملائه.

وقد تأوله بعض العلماء على حذف مضاف أي: وكراهة شدة ما يعنتهم، أو نحو ذلك من المضافات.

والأولى - أو الصواب، إن شاء الله تعالى - أن تكون «الشدة» معطوفة على نفس المصدر الذي هو «الحرص» ويكون قوله «وعزته» معطوفاً على «وشدة» والضمير فيه راجع إلى الموصول وهو «ما» في قوله «ما يعنتهم» والهاء الثانية في «عليه» عائدة على النبي ﷺ . انتهى .

[﴿رحمة للعالمين﴾]

وقال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾^(١).

يجوز أن يكون «رحمة» مفعولاً له، أي لأجل الرحمة، ويجوز أن ينتصب على الحال مبالغة في أن جعله نفس الرحمة، وإما على حذف مضاف أي: ذا رحمة، أو بمعنى: راحم. قاله السمين^(٢).

وقال أبو بكر بن طاهر^(٣) - فيما ذكره القاضي عياض -: زين الله تعالى محمداً ﷺ بزينة الرحمة، فكان كونه رحمة، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق، فمن أصابه شيء من رحمته فهو الناجي في الدارين من كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب، انتهى .

وقال ابن عباس: رحمة للبر والفاجر، لأن كل نبي إذا كذب

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧ .

(٢) الشيخ شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم الحلبي، النحوي نزيل القاهرة مات سنة ست وخمسين وسبعائة، له إعراب القرآن وأيضاً تفسير كبير في عدة أجزاء .

(٣) ابن مفوز بن أحمد المعافري الشاطبي .

أهلك الله من كذبه. ومحمد أخر من كذبه إلى الموت أو إلى القيامة.
وأما من صدقه فله الرحمة في الدنيا والآخرة.

وقال السمرقندي^(١): رحمة للعالمين يعني: الجن والإنس.

وقيل: لجميع الخلق للمؤمن رحمة بالهداية، ورحمة للمنافق
بالأمان من القتل، ورحمة للكافر بتأخير العذاب.

فذاته ﷺ - كما قيل - رحمة تعم المؤمن والكافر، قال الله تعالى:
﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾^(٢)، وقال ﷺ: «إنما أنا رحمة
مهداة» رواه الدارمي والبيهقي في «الشعب» من حديث أبي هريرة^(٣).

وقال بعض العارفين: الأنبياء خلقوا كلهم من الرحمة، ونبينا
ﷺ عين الرحمة، ولقد أحسن القائل:

غنيمة عمر الكون بهجة عيشه سرور حياة الدهر فائدة الدهر
هو النعمة العظمى هو الرحمة التي تجلى بها الرحمن في السر والجهر

فبيانه ﷺ ونصحته رحمة، ودعاؤه واستغفاره رحمة، فرزق ذلك
من قبله، وحرمة من رده. /

فإن قلت: كيف كان رحمة، وقد جاء بالسيف واستباحة
الأموال؟

فالجواب من وجهين:

(١) نصر بن محمد الفقيه الحنفي الإمام المشهور، له تصانيف توفي سنة ثلاث
وسبعين وثلاثمائة.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٣٣.

(٣) ورواه الحاكم وصححه على شرطها، وأقره الذهبي.

أحدهما: أنه إنما جاء بالسيف لمن استكبر وعاند، ولم يتفكر ولم يتدبر، ومن أوصاف الله تعالى: الرحمن الرحيم، ثم هو منتقم من العصاة، وقد قال تعالى: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً﴾^(١) ثم قد يكون سبباً للفساد.

وثانيهما: أن كل نبي من الأنبياء قبل نبينا إذا كذبه قومه أهلك الله المكذبين بالخسف والمسح والغرق، وقد أصر الله تعالى عذاب من كذب نبينا إلى الموت، أو إلى القيامة.

لا يقال: إنه تعالى قال: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿ليعذب الله المنافقين﴾^(٣)، لأننا نقول: تخصيص العام لا يقدح فيه.

وفي «الشفاء» للقاضي عياض: وحكى أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم، كنت أخشى العاقبة فأمنت، لثناء الله تعالى عليّ بقوله عز وجل: ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين﴾^(٤). انتهى^(٥).

وذكره السمرقندي في تفسيره بلفظ^(٦): وذكر أن النبي ﷺ قال لجبريل يقول الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ فهل أصابك

(١) سورة ق، الآية ٩. وقد وردت في المخطوطات و(ط) (وأنزلنا) خطأ.

(٢) سورة التوبة، الآية ١٤.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٧٣ وقد سقط من المخطوطات و(ط) لفظ الجلالة (الله) خطأ.

(٤) سورة التكويد، الآية ٤٠.

(٥) قال السيوطي: ولم أجده مخرجاً في شيء من كتب الحديث.

(٦) انظر التعليق السابق.

من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم، أصابني من هذه الرحمة شيء، كنت أخشى عاقبة الأمر فأمنت بك، لثناء الله تعالى عليّ في قوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾.

وهذا يقتضي أن محمداً ﷺ أفضل من جبريل، وهو الذي عليه الجمهور، خلافاً لمن زعم أن جبريل أفضل واستدل: بأن الله تعالى وصف جبريل بسبعة أوصاف من صفات الكمال في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مَطَّاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾، ووصف محمداً ﷺ بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾.

ولو كان محمد ﷺ مساوياً لجبريل في صفات الفضل أو مقارباً له لكان وصف محمداً بمثل ذلك.

وأجيب بأننا متفقون على أن لمحمد ﷺ فضائل أخرى سوى ما ذكر في هذه الآية، وعدم ذكر الله تعالى لتلك الفضائل هنا لا يدل على عدمها بالإجمال، وإذا ثبت أن لمحمد ﷺ فضائل آخر زائدة فيكون أفضل من جبريل.

وبالجملة: فإفراد أحد الشخصين بالوصف لا يدل البتة على انتفاء تلك الأوصاف عن الثاني، وإذا ثبت بالدليل القرآني أنه ﷺ رحمة للعالمين، والملائكة من جملة العالمين، وجب أن يكون أفضل منهم، والله أعلم.

[﴿وختام النبیین﴾]

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^(١).

(١) سورة الأحزاب، الآية ٤٠.

وهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بطريق الأولى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس، كما قدمنا ذلك في أسماؤه الشريفة من المقصد الثاني.

وبذلك وردت الأحاديث عنه ﷺ :

فروى أحمد من حديث أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال: (مثل) في النبيين كمثل رجل بنى داراً، فأحسنها وأكملها، وترك فيها موضع لبنة فلم يضعها، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه، ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة) ورواه الترمذي عن بندار عن أبي عامر العقدي، وقال: حديث حسن صحيح.

وفي حديث أنس بن مالك مرفوعاً: (إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي) رواه الترمذي وغيره.

وفي حديث جابر مرفوعاً: (مثلي ومثل الأنبياء، كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، وأنا موضع هذه اللبنة، ختم بي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام) رواه أبو داود الطيالسي، وكذا البخاري ومسلم.

وفي حديث أبي سعيد الخدري: (فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة). رواه مسلم.

١/٢٥٢

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم: (وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون).

فمن تشرىف الله تعالى له ﷺ ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له، وقد أخبر الله في كتابه، ورسوله في السنة المتواترة عنه، أنه لا نبي بعده، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل، ولو تحذق وتشعبذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات^(١)، فكلها محال وضلالة عند أولي الأبواب.

ولا يقدر في هذا نزول عيسى بن مريم عليه السلام بعده، لأنه إذا نزل كان على دين نبينا ﷺ ومنهاجه، مع أن المراد: أنه آخر من نبي.

قال أبو حيان: ومن ذهب إلى أن النبوة مكتسبة لا تنقطع، أو إلى أن الولي أفضل من النبي فهو زنديق يجب قتله والله أعلم.

(١) قال في القاموس: النيرنج: أخذ كالسحر وليس به [م].

النوع الرابع

في التنويه به ﷺ في الكتب السالفة
كالتوراة والإنجيل بأنه صاحب الرسالة والتبجيل

قال الله تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾^(١).

وهذا يدل على أنه لو لم يكن مكتوباً لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفريات لليهود والنصارى عن قبول قوله، لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفريات، والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله، وينفر الناس عن قبول مقاله، فلما قال لهم ﷺ هذا دل على أن ذلك النعت كان مذكوراً في التوراة والإنجيل. وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته.

لكن أهل الكتاب كما قال الله تعالى: يكتُمون الحق وهم يعلمون^(٢) و﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾^(٣)، وإلا فهم - قاتلهم

(١) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

(٢) الآية الكريمة ﴿وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ سورة البقرة، الآية ١٤٦.

(٣) سورة المائدة، الآية ١٣.

الله - قد عرفوا محمداً ﷺ كما عرفوا أبناءهم، ووجدوه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، لكنهم حرفوهما وبدلوهما ليطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

فدلائل نبوة نبينا ﷺ في كتابيهما - بعد تحريفهما - طافحة، وأعلام شريعته ورسالته فيها لائحة، وكيف يغني عنهم إنكارهم، وهذا اسم النبي ﷺ بالسريانية «مشفح»^(١)، فمشفح، محمد بغير شك، واعتباره أنهم يقولون: «شفح لاها» إذا أرادوا أن يقولوا: الحمد لله، وإذا كان الحمد، شفحاً، فمشفح: محمد، ولأن الصفات التي أقرروا بها هي وفاق لأحواله وزمانه، ومخرجه ومبعثه وشريعته ﷺ، فليدلونا على من هذه الصفات له، ومن خرجت^(٢) له الأمم من بين يديه، وانقادت له واستجابت لدعوته. ومن صاحب الجمل الذي هلكت بابل وأصنامها به؟

على أنا لو لم نأت بهذه الأنباء والقصص من كتبهم، ألم يك فيما أودع الله عز وجل القرآن دليل على ذلك؟ وفي تركهم جحد ذلك وإنكاره - وهو يقرعهم به - دليل على اعترافهم له؟ فإنه يقول: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل). ويقول حكاية عن المسيح: ﴿إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾^(٣)

(١) كذا في ش بالفاء، وفي (ب، ا): مشفحاً، وفي ط (أمشحقاً) وسقطت منها كلمة بالسريانية.

(٢) في (ب، ط) خرت.

(٣) سورة الصف، الآية ٦.

ويقول: ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتُمون الحق وأنتم تعلمون﴾^(١) ويقول: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾^(٢)، وكانوا يقولون لمخالفهم عند القتال: هذا نبي قد أظل مولده، ويذكرون من صفته ما يجدون في كتابهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به حسداً وخوفاً على الرياسة.

ويحتمل/ أنهم كانوا يظنون أنه من بني إسرائيل، فلما بعثه الله من العرب، من نسل إسماعيل عظم ذلك عليهم، وأظهروا التكذيب، فلعنة الله على الكافرين.

٢٥/ب

وقد كان ﷺ يدعوهم إلى اتباعه وتصديقه، فكيف يجوز أن يحتج بباطل من الحجج، ثم يحيل ذلك على ما عندهم وما في أيديهم، ويقول من علامة نبوتي وصدقي أنكم تجدوني عندكم مكتوباً وهم لا يجدونه كما ذكر؟! أوليس ذلك مما يزيدهم عنه بعداً، وقد كان غنياً أن يدعوهم بما ينفرهم، ويستميلهم بما يوحشهم^(٣). وقد^(٤) أسلم من أسلم من علمائهم كعبدالله بن سلام، وتميم الداري، وكعب، وقد وقفوا منه على مثل هذه الدعاوى.

وقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق محمد بن حمزة ابن عبدالله بن سلام عن جده عبدالله بن سلام: أنه لما سمع بمخرج النبي ﷺ بمكة، خرج فلقية، فقال له النبي ﷺ: أنت ابن سلام عالم أهل يثرب؟ قال: نعم، قال: ناشدتك الله الذي أنزل التوراة على

(١) سورة آل عمران، الآية ٧١.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٤٦.

(٣) في (أ، ط): يوحشهم.

(٤) في المخطوطات: وكم.

موسى، هل تجد صفتي في كتاب الله؟ قال: انسب ربك يا محمد، فارتج النبي ﷺ فقال له جبريل: ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾^(١)، فقال ابن سلام: أشهد أنك رسول الله، وإن الله مظهرك ومظهر دينك على الأديان، وإني لأجد صفتك في كتاب الله: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب^(٢) في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة المعوجة^(٣)، حتى يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً.

وقوله: «ليس بفظ ولا غليظ» موافق لقوله تعالى: ﴿بما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾^(٤) ولا يعارض قوله: ﴿واغلظ عليهم﴾^(٥) لأن النفي محمول على طبعه الكريم الذي جبل عليه، والأمر محمول على المعالجة، أو النفي بالنسبة إلى المؤمنين والأمر بالنسبة إلى الكفار والمنافقين كما هو مصرح به في نفس الآية.

و«قلوباً غلفاً»: أي مغشاة مغطاة، واحدها: أغلف، ومنه غلاف السيف وغيره.

وأخرج البيهقي وأبو نعيم عن أم الدرداء - امرأة أبي الدرداء -

(١) سورة الإخلاص.

(٢) أي لا يرفع صوته، وكذلك سخاب.

(٣) في (ط، ش): العوجاء.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

(٥) سورة التوبة، الآية ٧٣.

قالت: قلت لكعب، كيف تجدون صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: كنا نجده موصوفاً فيها: محمد رسول الله اسمه المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، وأعطي المفاتيح، ليبصر الله به أعيناً عوراً، ويسمع به آذاناً صماً، ويقيم به السنة معوجة، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يعين المظلوم ويمنعه من أن يستضعف.

وفي البخاري: عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ قال: (أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأمين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً)^(١).

وعند ابن إسحاق: ولا صخب في الأسواق، ولا مترين بالفحش، ولا قوال للخنا، أسدده بكل جميل، وأهب له كل خلق كريم، ثم أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة معقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخمالة، / وأسمي به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد

(١) هو في البخاري برقم ٤٨٣٨.

العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين قلوب مختلفة، وأهواء
متشثة، وأمم متفرقة، وأجعل أمتة خير أمة أخرجت للناس.

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: قدم الجارود فأسلم فقال:
والذي بعثك بالحق لقد وجدت وصفك في الإنجيل، ولقد بشر بك
ابن البتول.

وأخرج ابن سعد قال: لما أمر إبراهيم بإخراج هاجر حمل على
البراق، فكان لا يمر بأرض عذبة سهلة إلا قال: انزل هاهنا يا
جبريل، فيقول: لا، حتى أتى مكة فقال جبريل: انزل يا إبراهيم،
قال: حيث لا ضرع ولا زرع؟ قال: نعم، هاهنا يخرج النبي الذي
من ذرية ابنك الذي تتم^(١) به الكلمة العليا.

وفي التوراة - مما اختاروه بعد الحذف والتبديل والتحريف، مما
ذكره ابن ظفر في «البشر» وابن قتيبة في «أعلام النبوة» -: تجلى الله من
سينا، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران.

و«سينا» هو الجبل الذي كلم الله فيه موسى.

و«ساعير» هو الجبل الذي كلم الله فيه عيسى، وظهرت فيه
نبوته.

وجبال «فاران» وهو اسم عبراني - وليست ألفه الأولى همزة - هي
جبال بني هاشم التي كان رسول الله ﷺ يتحنث في أحدها وفيه فاتحة
الوحي، وهو أحد ثلاثة جبال، أحدها: أبو قبيس، والمقابل له
قعيقعان إلى بطن الوادي، والثالث: الشرقي فاران، ومنفتحه الذي

(١) في (ب) تستمر.

يلي قعيقعان إلى بطن الوادي، وهو شعب بني هاشم، وفيه مولده ﷺ على أحد الأقوال.

قال ابن قتيبة: وليس بهذا غموض، لأن تجلي الله من سينا، إنزاله التوراة على موسى عليه السلام بطور سينا، ويجب أن يكون إشرافه من «ساعير» إنزاله على عيسى الإنجيل، وكان المسيح يسكن من ساعير أرض الخليل، بقرية تدعى ناصرة، وباسمها سمي من اتبعه نصارى، فكما وجب أن يكون إشرافه من ساعير إنزاله على المسيح الإنجيل فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران بإنزاله القرآن على محمد ﷺ، وهي جبال مكة، وليس بين المسلمين وأهل الكتاب في ذلك اختلاف في أن فاران هي مكة.

وإن أدعي أنها غير مكة قلنا: أليس في التوراة: إن الله أسكن هاجر واسماعيل فاران؟ وقلنا: دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران، والنبي الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح، أوليس «استعلن» و«علن» بمعنى واحد، وهو ما ظهر وانكشف. فهل تعلمون ديناً ظهر ظهور الإسلام، وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوه.

وفي التوراة أيضاً - مما ذكره ابن ظفر - خطاباً لموسى، والمراد به الذين اختارهم لميقات ربه الذين أخذتهم الرجفة خصوصاً، ثم بني إسرائيل عموماً: والله ربك يقيم نبياً من إخوتك، فاستمع له كالذي سمعت ربك في حوريت يوم الاجتماع حين قلت لا أعود اسمع صوت الله ربي لئلا أموت، فقال الله لي: نعم ما قالوا، وسأقيم لهم نبياً مثلك من إخوتهم، وأجعل كلامي في فمه فيقول لهم كل شيء أمرته به، وأيما رجل لم يطع من تكلم باسمي فإني أنتقم منه.

قال: وفي هذا الكلام أدلة على نبوة محمد ﷺ:

فقوله: «نبياً من إخوتهم»، وموسى وقومه من بني إسحاق، وإخوتهم بنو إسماعيل، ولو كان هذا النبي الموعود به من بني إسحاق لكان من أنفسهم لا من إخوتهم.

وأما قوله: «نبياً مثلك» وقد قال في التوراة: لا يقوم في بني إسرائيل أحد مثل موسى، وفي ترجمة أخرى: مثل موسى لا يقوم في بني إسرائيل أبداً. فذهبت اليهود إلى أن هذا النبي الموعود به هو يوشع بن نون، وذلك باطل، لأن يوشع لم يكن كفوّاً لموسى عليهما السلام، بل كان خادماً له في حياته، ومؤكداً لدعوته بعد وفاته، فتعين أن يكون المراد به محمداً ﷺ فإنه كفوٌّ موسى لأنه مماثله في نصب الدعوة، والتحدي بالمعجزة، وشرع الأحكام، وإجراء النسخ على الشرائع السالفة.

وقوله/ تعالى: «اجعل كلامي في فمه» فإنه واضح في أن المقصود ب/٢٥٣ به محمد ﷺ لأن معناه أوحى إليه بكلامي، فينطق به على نحو ما سمعه، ولا أنزل صحفاً ولا ألواحاً لأنه أُمي، لا يحسن أن يقرأ المكتوب.

وفي الإنجيل - مما ذكره ابن طغر بك في «الدر المنظم» قال يوحنا في إنجيله عن المسيح أنه قال: أنا أطلب من الأب أن يعطيكم «فار قليط» آخر يثبت معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقتلوه.

وهو عند ابن ظفر بلفظ: إن أحببتموني فاحفظوا وصيتي، وأنا أطلب إلى أبي فيعطيكم «فار قليط» آخر يكون معكم الدهر كله.

قال: فهذا صريح بأن الله تعالى سيبعث إليهم من يقوم مقامه،

فينوب عنه في تبليغ رسالة ربه وسياسة خلقه منابه، وتكون شريعته باقية مخلدة أبداً، فهل هذا إلا محمد ﷺ؟ انتهى.

ولم يذكر فصول «الفارقليط» - كما أفاده ابن طغر بك - سوى يوحنا، دون غيره من نقلة الأناجيل.

وقد اختلف النصارى في تفسير «الفارقليط».

ف قيل هو: الحامد، وقيل: المخلص.

فإن وافقناهم على أنه المخلص أفضى بنا الأمر إلى أن المخلص رسول يأتي لخلاص العالم، وذلك من غرضنا، لأن كل نبي مخلص لأمته من الكفر، ويشهد له قول المسيح في الإنجيل: إني قد جئت لخلاص العالم، فإذا ثبت أن المسيح هو الذي وصف نفسه بأنه مخلص العالم، وهو الذي سأل الأب أن يعطيهم «فارقليط» آخر، ففي مقتضى اللفظ ما يدل على أنه قد تقدم فارقليط أول حتى يأتي آخر.

وإن تنزلنا معهم على القول بأنه: الحامد، فأى لفظ أقرب إلى أحمد ومحمد من هذا؟

قال ابن ظفر: وفي الإنجيل - مما ترجموه - ما يدل على أن الفارقليط: الرسول، فإنه قال: إن هذا الكلام الذي تسمعونه ليس هو لي، بل الأب الذي أرسلني بهذا الكلام لكم، وأما «الفارقليط» روح القدس الذي يرسله أبي باسمي، فهو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم كلما قلته لكم.

فهل بعد هذا بيان؟ أليس هذا صريحاً في أن «الفارقليط» رسول يرسله الله، وهو روح القدس، وهو يصدق بالمسيح، ويظهر اسمه أنه رسول حق من الله، وليس بإله، وهو يعلم الخلق كل شيء،

ويذكرهم كل ما قاله المسيح عليه السلام لهم، وكل ما أمرهم به من توحيد الله .

وأما قوله «أبي» فهذه اللفظة مبدلة محرفة، وليست منكراً الاستعمال عند أهل الكتابين، إشارة إلى الرب سبحانه، لأنها عندهم لفظة تعظيم، يخاطب بها المتعلم معلمه الذي يستمد منه العلم. ومن المشهور مخاطبة النصارى عظماء دينهم بالأباء الروحانية، ولم تنزل بنو إسرائيل وبنو عيصو يقولون نحن أبناء الله بسوء فهمهم عن الله تعالى .

وأما قوله «يرسله أبي باسمي» فهو إشارة إلى شهادة المصطفى ﷺ له بالصدق والرسالة، وما تضمنه القرآن من مدحه عما افتري في أمره .

وفي ترجمة أخرى للإنجيل، أنه قال: «الفارقليط» إذا جاء وبخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه، ما يسمع يكلمهم به، ويسوسهم بالحق، ويخبرهم بالحوادث .

وهو عند ابن طغر بك بلفظ: فإذا جاء روح الحق، ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع، ويخبركم بكل ما يأتي، وهو يمجدي لأنه يأخذ مما هو لي ويخبركم .

فقوله «ليس ينطق من عنده» وفي الرواية الأخرى: «ولا يقول من تلقاء نفسه بل يتكلم بكل ما يسمع» أي: من الله الذي أرسله، وهذا كما قال تعالى في حقه ﷺ: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾^(١) .

(١) سورة النجم، الآية ٣ .

وقوله: «وهو يمجدني» فلم يمجده حق تمجيده إلا محمد ﷺ ، لأنه وصفه بأنه رسول الله، ويرأه وبرأ أمه - عليها السلام - مما نسب إليهما، وأمر أمته بذلك .

قال ابن ظفر: فمن ذا الذي وبخ العلماء على كتمان الحق، وتحريف / الكلم عن مواضعه، ويبيع الدين بالثمن البخس، ومن ذا الذي أنذر بالحوادث وأخبر بالغيوب إلا محمد ﷺ ، والله در أبي محمد عبدالله الشقراطي حيث قال في قصيدته المشهورة: ١/٢٥٤

توراة موسى أتت عنه قصدتها إنجيل عيسى بحق غير مفتعل
أخبار أبحار أهل الكتب قد وردت عما رأوا ورووا في الأعصر الأول
ويعجبني قول العارف الرباني^(١) أبي عبدالله بن النعمان .

هذا النبي محمد جاءت به توراة موسى للأنام تبشر
وكذاك إنجيل المسيح موافق ذكراً لأحمد معرب ومذكر
ويرحم الله ابن جابر حيث قال:

لمبعثه في كل جيل علامة على ما جلته الكتب من أمره الجلي
فجاء به إنجيل عيسى بآخر كما قد مضت توراة موسى بأول

وفي الدلائل للبيهقي عن الحاكم - بسند لا بأس به - عن أبي أمامة الباهلي عن هشام بن العاص الأموي قال: بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام، فذكر الحديث، وأنه أرسل إليهم ليلاً، قال: فدخلنا عليه، فدعا بشيء كهيئة الربعة العظيمة مذهبة فيها بيوت صغار عليها أبواب، ففتح واستخرج حريرة

(١) كلمة (الرباني) لم تذكر في (ب، ط).

سوداء، فنشرها فإذا فيها صورة حمراء، فإذا رجل ضخم العينين عظيم الأليتين، لم أر مثل طول عنقه، وإذا له ضفيران أحسن ما خلق الله تعالى، قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا آدم عليه السلام، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء، وإذا فيها صورة بيضاء، فإذا رجل أحمر العينين ضخم الهامة حسن اللحية، فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هذا نوح عليه السلام، قال: ثم فتح باباً آخر وأخرج حريرة فإذا فيها صورة بيضاء، وإذا فيها - والله - رسول الله ﷺ، قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، محمد رسول الله ونبينا، قال: والله إنه لهو، ثم قام قائماً ثم جلس وقال: إنه لهو؟ قلنا: نعم إنه لهو كأنك تنظر إليه، فأمسك ساعة ينظر إليها، ثم قال: أما والله إنه لآخر البيوت، ولكني عجلته لكم لأنظر ما عندكم. الحديث، وفيه ذكر الأنبياء: إبراهيم وموسى وعيسى وسليمان وغيرهم. قال: فقلنا له: من أين لك هذه الصور؟ فقال: إن آدم عليه السلام سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده فأنزل الله عليه صورهم، فكان في خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال.

وفي زبور داود عليه السلام، من مزمور أربعة وأربعين: فاضت النعمة من شفيتك، من أجل هذا باركك الله إلى الأبد، تقلد أيها الجبار بالسيف، فإن شرائعك وستك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مسنونة، وجميع الأمم يخرون تحتك.

فهذا المزمور ينوه بنوة محمد ﷺ، فالنعمة التي فاضت من شفتيه هي القول الذي يقوله، وهو الكتاب الذي أنزل عليه والسنة التي سنها.

وفي قوله: «تقلد سيفك أيها الجبار» دلالة على أنه النبي العربي، إذ ليس يتقلد السيوف أمة من الأمم سوى العرب، فكلهم يتقلدونها على عواتقهم.

وفي قوله «فإن شرائعك وستتك» نص صريح على أنه صاحب شريعة وسنة، وأنها تقوم بسيفه.

و«الجبار» الذي يجبر الخلق بالسيف على الحق ويصرفهم عن الكفر جبراً.

وعن وهب بن منبه قال: قرأت في بعض الكتب القديمة، قال/ الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي، لأنزلنَّ على جبال العرب نوراً يملأ ما بين المشرق والمغرب، ولأخرجن من ولد إسماعيل نبياً أمياً يؤمن به عدد نجوم السماء ونبات الأرض، كلهم يؤمن بي رباً، وبه رسولاً، ويكفرون بملل آبائهم ويفرون منها، قال موسى: سبحانك وتقدست أسماؤك، لقد كرمت هذا النبي الكريم وشرفته، قال الله: يا موسى، إني أنتقم من عدوه في الدنيا والآخرة، وأظهر دعوته على كل دعوة، وأذل من خالف شريعته، بالعدل زينته^(١)، وللقسط^(٢) أخرجته، وعزتي لأستنقذن به أمماً من النار، فتحت الدنيا بإبراهيم وأختمها بمحمد، فمن أدركه ولم يؤمن به ولم يدخل في شريعته فهو من الله بريء. ذكره ابن ظفر وغيره.

(١) في (ب): ربيته وفي (ط): دينته.

(٢) في (ط): وبالقسط.

النوع الخامس

في آيات تتضمن أقسامه تعالى على تحقيق رسالته
وثبوت ما أوحى إليه من آياته
وعلو رتبته الشريفة ومكانته

وهذا النوع - أعزك الله - لخصت أكثره من كتاب أقسام القرآن
للعلامة ابن القيم، مع زيادات من فرائد الفوائد.

فاعلم أنه تعالى أقسم بأمر على أمور، وإنما أقسم بنفسه
الموصوفة بصفاته، وآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وأقسامه ببعض
مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته.

ثم إنه تعالى تارة يذكر جواب القسم وهو الغالب.
وتارة يحذفه.

وتارة يقسم على أن القرآن حق.

وتارة على أن الرسول حق.

وتارة على أن الجزاء والوعد والوعيد حق.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسام لو
تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون، لا يمسه إلا
المطهرون﴾^(١).

(١) سورة الواقعة، الآيات من ٧٥ - ٧٩.

والثاني: كقوله تعالى: ﴿يَس وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١).

والثالث: كقوله: ﴿وَالذَّارِيَاتُ ذُرْوًا﴾^(٢) إلى قوله: ﴿وَإِنِ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾

وهذه الأمور الثلاثة متلازمة، فمتى ثبت أن الرسول حق، ثبت أن القرآن حق، وثبت المعاد، ومتى ثبت أن القرآن حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به، ومتى ثبت أن الوعد والوعيد حق ثبت صدق الرسول الذي جاء به.

وفي هذا النوع خمسة فصول.

(١) سورة يس. الآيات ١ - ٣.

(٢) سورة الذاريات ١٠.

الفصل الاول

في قسمه تعالى على ما خصه به
من الخلق العظيم وحباه من الفضل العميم

قال الله تعالى: ﴿ن والقلم وما يسطرون. ما أنت بنعمة ربك
بمجنون. وإن لك لأجراً غير ممنون. وإنك لعلی خلق عظیم﴾^(١).

﴿ن﴾ من أسماء الحروف كـ ﴿الم﴾ و﴿المص﴾ و﴿ق﴾^(٢).

واختلف فيها، فقيل هي أسماء للقرآن، وقيل: أسماء للسور.

وقيل: أسماء لله، ويدل عليه أن علياً رضي الله عنه كان يقول:

يا ﴿كهيعص﴾^(٣)، يا ﴿حم عسق﴾^(٤) كما قيل، ولعله أراد يا منزلها.

وقيل: إنه سر استأثر الله بعلمه، وقد روي عن الخلفاء الأربعة

وغيرهم من الصحابة ما يقرب منه، ولعلمهم أرادوا أنها أسرار بين الله

ورسوله، لم يقصد بها إفهام غيره، إذ يبعد الخطاب بما لا يفيد.

(١) سورة القلم، الآيات ١ - ٤.

(٢) هي أوائل سور: البقرة، الأعراف، ق.

(٣) أول سورة مريم.

(٤) الآيتان الأولى والثانية من سورة الشورى، وقد وردت في النسخ موصولة

(جمعسق). وقد أخرجه ابن ماجه في تفسيره عن فاطمة بنت علي بن أبي
طالب.

وهل المراد بقوله تعالى هنا: «ن» اسم الحوت، وهل المراد به الجنس أو البهيموت^(١) وهو الذي عليه الأرض؟

وقيل: المراد به الدواة وهو مروى عن ابن عباس، ويكون هذا قسماً بالدواة والقلم، فإن المنفعة بهما بسبب الكتابة عظيمة، فإن التفاهم تارة يحصل بالنطق وتارة بالكتابة.

وقيل: إن «ن» لوح من نور تكتب فيه الملائكة ما يأمرهم به الله. رواه معاوية بن قرة مرفوعاً.

والحق أنه اسم للسورة، وأقسم الله تعالى بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه، وكتب به الوحي، وقيد به الدين، وأثبتت به الشريعة، وحفظت به العلوم، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد، وقام في الناس أبلغ خطيب وأفصحه وأنفعه لهم وأنصحهم، وواعظاً تشفي مواعظه القلوب من السقم، وطيباً يبرئ بإذن باريه من أنواع الألم على تنزيه نبيه ورسوله محمد المحمود في كل أفعاله وأقواله مما غمصته أعداؤه الكفرة به، وتكذيبهم له بقوله/ تعالى: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾.

١/٢٥٥

وكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء قاطبة عن معارضته، وكَلَّتْ عن مماثلته، وعرفَّهم من الحق ما لا تهتدي إليه عقولهم، بحيث أذغنت له عقول العقلاء، وخضعت له ألباب الألباء، وتلاشت في جنب ما جاء به، بحيث لم يسعها إلا التسليم له، والانقياد والإذعان طائفة مختارة، فهو الذي كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي.

(١) في ش: اليهموت. وهذا القول ضرب من الخيال [م].

ثم أخبر تعالى عن كمال حالتي نبيه ﷺ في دنياه وآخرته فقال: ﴿وإنك لك لأجراً غير ممنون﴾ أي: ثواباً غير منقطع، بل هو دائم مستمر، ونكر الأجر للتعظيم، أي أجراً عظيماً لا يدركه الوصف ولا يناله التعبير.

ثم أثنى عليه بما منحه فقال: ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾ وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته، ولقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن»^(١) ومن ثم قال ابن عباس وغيره: أي على دين عظيم، وسمى الدين خلقاً لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة وإرادات زاكية وأعمال ظاهرة وباطنة موافقة للعدل والحكمة والمصلحة، وأقوال مطابقة للحق، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات فتكتسب النفس بها أخلاقاً هي أزكى الأخلاق وأشرفها وأفضلها. وهذه كانت أخلاقه ﷺ المقتبسة من القرآن، فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلاً وتبييناً، وعلومه علوم القرآن، وإراداته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبه لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره، فترجمت أم المؤمنين - لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول، وحسن تعبيرها - عن هذا كله بقولها: «كان خلقه القرآن»، وفهم السائل عنها هذا المعنى فاكتفى به واشتفى.

ولما وصفه تعالى بأنه على خلق عظيم قال: ﴿فستبصر ويبصرون، بأيكم المفتون﴾ أي فسترى يا محمد وسيرى المشركون كيف عاقبة

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

أمرك، فإنك تصير معظماً في القلوب، ويصيرون أذلاء مغلوبين،
وتستولي عليهم بالقتل والنهب^(١).

(١) النهب في اللغة: الغنيمة. والواقع أن الرسول ﷺ في سيرته ضرب المثل
الأعلى في التسامح حين السيطرة على عدوه، وما فتح مكة عن الأذهان
ببعيد [المحقق].

الفصل الثاني

في قسمه تعالى على ما أنعم به عليه
وأظهره من قدره العلي لديه

قال الله تعالى: ﴿والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك
وما قلى﴾ السورة (١).

أقسم تعالى على إنعامه على رسوله ﷺ وإكرامه له وإعطائه ما
يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوته، وعلى
جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد.

وأقسم تعالى بأيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته
ووحدانيته، وحكمته ورحمته، وهما الليل والنهار، وفسر بعضهم - كما
حكاه الإمام فخر الدين - الضحى بوجهه ﷺ والليل بشعره، قال:
ولا استبعاد فيه.

وتأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد
ظلام الليل، للمقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه
عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمداً ربُّه، فأقسم بضوء النهار بعد
ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

(١) سورة الضحى الآيات ١ - ٣.

وأيضاً فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعاشهم لا يتركهم في ظلمة الجهل والغي بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم، فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه.

وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ، والجلالة التي على معانيها.

ونفى سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه، والتوديع: الترك، والقلبي: البغض، أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أبغضك منذ أحبك، وحذف «الكاف» من «قلا» اكتفاء بكاف ودعك، ولأن رؤوس الآيات/ بالياء فأوجب اتفاق الفواصل حذفها. ب/٢٥٥

وهذا يعم كل أحواله، وإن كل حالة يرقيه إليها هي خير له مما قبلها، كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها، ثم وعده بما تقربه عينه وتفرح به نفسه، وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضى. وهذا يعم ما يعطيه من القرآن والهدى والنصر والظفر بأعدائه يوم بدر وفتح مكة، ودخول الناس في الدين أفواجاً، والغلبة على بني قريظة والنضير، وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب، وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن، وقذف في قلوب أعدائه من الرعب، ونشر الدعوة، ورفع ذكره وإعلاء كلمته، وما يعطيه بعد مماته، وما يعطيه في موقف القيامة من الشفاعة والمقام المحمود، وما يعطيه في الجنة من الوسيلة والدرجة الرفيعة والكوثر.

وقال ابن عباس: يعطيه ألف قصر من لؤلؤ أبيض، تراها المسك وفيها ما يليق بها.

وبالجملة: فقد دلت هذه الآية على أنه تعالى يعطيه ﷺ كل ما يرضيه.

وأما ما يعتر به الجهال من أنه لا يرضى وأحد من أمته في النار، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار، فهو من غرور الشيطان لهم ولعبه بهم، فإنه صلوات الله وسلامه عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى، وهو سبحانه يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة، ثم يجد لرسول الله ﷺ حداً يشفع فيهم - كما سيأتي في المقصد الأخير إن شاء الله تعالى - ورسوله ﷺ أعرف به وبحقه من أن يقول: لا أرضى أن تدخل أحداً من أمتي النار أو تدعه فيها، بل ربه تبارك وتعالى يأذن له فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه، ولا يشفع في غير من أذن له ورضيه.

ثم ذكره سبحانه نعمه عليه من إيوائه بعد يتمه، فقال: ﴿ألم يجدك يتيماً فأوى﴾ وذهب بعضهم إلى أن معنى اليتيم من قولهم: درة يتيمة، أي: ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظر فأواك إليه وأغناك بعد الفقر.

ثم أمره سبحانه أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر فنهاه أن يقهر اليتيم، وأن ينهر السائل، وأن يكتم النعمة، بل يحدث بها، فإن من شكر النعمة الحديث بها. وقيل المراد بالنعمة النبوة، والتحدث بها: تبليغها.

الفصل الثالث

في قسمه تعالى على تصديقه ﷺ فيما أتى به
من وحيه وكتابه وتنزيهه عن الهوى في خطابه.

[القسم على تصديقه فيما أوحى إليه]

قال الله تعالى: ﴿والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى﴾^(١).

أقسم تعالى بالنجم على تنزيه رسوله وبراءته مما نسب إليه أعداؤه
من الضلال والغي.

واختلف المفسرون في المراد بالنجم بأقوال معروفة.

منها: «النجم» على ظاهره، وتكون «أل» لتعريف العهد في
قول، ولتعريف الجنس في آخر، وهي النجوم التي يهتدى بها. فقيل:
الثريا إذا سقطت وغابت، وهو مروى عن ابن عباس في رواية علي بن
أبي طلحة^(٢) وعطية. والعرب إذا أطلقت النجم تريد به الثريا. وعن
ابن عباس في رواية عكرمة: النجوم التي ترمى بها الشياطين إذا
سقطت في آثارها عند استراق السمع، وهذا قول الحسن، وعن
السدي الزهري، وعن الحسن أيضاً النجوم إذا سقطت يوم القيامة.

(١) سورة النجم، الآيات ١ - ٣.

(٢) في ط: علي بن طلحة.

وقيل المراد به النبت الذي لا ساق له، و«هوى» أي سقط على الأرض.

وقيل: القرآن، رواه الكلبي عن ابن عباس، لأنه نزل نجوماً على رسول الله ﷺ وهو قول مجاهد/ ومقاتل والضحاك.

وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين: هو محمد ﷺ «إذا هوى» أي نزل من السماء ليلة المعراج.

وأظهر الأقوال - كما قاله ابن القيم - أنها النجوم التي ترمى بها الشياطين، ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله تعالى آية وحفظاً للوحي من استراق الشياطين. على أن ما أتى به رسوله حق وصدق لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه، بل قد حرس بالنجم إذا هوى رصداً بين يدي الوحي، وحرساً له، وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور. وفي المقسم به دليل على المقسم عليه.

وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله: بالنجم إذا هوى، ولا تسمية نزوله هويماً، ولا عهد في القرآن بذلك، فيحمل هذا اللفظ عليه.

وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت.

وليس بالبين أيضاً القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيامة. بل هذا مما يقسم الرب عليه، ويدل عليه آياته، فلا يجعله نفسه دليلاً لعدم ظهوره للمخاطبين ولا سيما منكرو البعث، فإنه سبحانه إنما يستدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه، ثم إن بين المقسم به والمقسم عليه من المناسبة ما لا يخفى.

فإن قلنا إن المراد النجوم التي هي للاهتداء بالمناسبة ظاهرة، وإن قلنا إن المراد الثريا فلأنه أظهر النجوم عند الرائي، لأنه لا يشته به غيره في السماء، بل هو ظاهر لكل أحد، والنبى ﷺ تميز عن الكل بما منح من الآيات البينات، ولأن الثريا إذا ظهرت من المشرق حان إدراك الثمار، وإذا ظهرت من المغرب قرب أواخر الخريف فتقل الأمراض، والنبى ﷺ لما ظهر قل الشرك والأمراض القلبية.

وإن قلنا إن المراد بها القرآن فهو استدلال بمعجزته ﷺ على صدقه وبراءته، وأنه ما ضل ولا غوى، وإن قلنا إن المراد النبات، فالنبات به نبات القوى الجسمانية وصلاتها، والقوى العقلية أولى بالصلاح، وذلك بالرسول وإيضاح السبل.

وتأمل كيف قال تعالى: ﴿ما ضل صاحبكم﴾ ولم يقل: ما ضل محمد، تأكيداً لإقامة الحجة عليهم بأنه صاحبهم، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله، وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي ولا ضلال، ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط، وقد نبه تعالى على هذا المعنى بقوله عز وجل: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم﴾^(١)

ثم نزه نطق رسوله ﷺ أن يصدر عن هوى فقال تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ ولم يقل: وما ينطق بالهوى، لأن نفي نطقه عن الهوى أبلغ، فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به، فيتضمن هو^(٢) الأمرين: نفي الهوى عن مصدر النطق، ونفيه عن النطق نفسه، فنطقه بالحق ومصدره الهدى والرشاد، لا الغي والضلال.

(١) سورة المؤمنون، الآية ٦٩.

(٢) في (ب، د): نفي.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، أي: ما نطقه إلا وحي يوحى، وهذا أحسن من جعل الضمير عائداً إلى القرآن، فإن نطقه بالقرآن والسنة، وإن كليهما وحي، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(١) وهما القرآن والسنة. وذكر الأوزاعي^(٢) عن حسان بن عطية^(٣) قال: كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياها.

ثم أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحي والقرآن بما يعلم أنه مضاد لأوصاف الشيطان معلم الضلال والغواية فقال: ﴿عَلِمَهُ شَدِيدَ الْقُوَى﴾ وهو جبريل، أي قواه العلمية والعملية كلها شديدة، ولا شك أن مدح المعلم مدح للمتعلم. فلو قال: علمه جبريل ولم يصفه لم يحصل للنبي ﷺ به فضيلة ظاهرة. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾^(٤) كما سيأتي البحث فيه إن شاء الله تعالى. / ٢٥٦ ب

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن تصديق فؤاده^(٥) لما رآته عيناه. وأن القلب صدق العين، وليس كمن رأى شيئاً على خلاف ما هو به، فكذب فؤاده بصره، بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد، وعلم أنه

(١) سورة النساء، الآية ١١٣.

(٢) الأوزاعي هو عبد الرحمن بن عمرو، الفقيه الثقة الجليل، المتوفى سنة سبع وخمسين ومائة.

(٣) حسان بن عطية المحاربي، مولاهم الدمشقي ثقة فقيه عابد مات بعد العشرين ومائة.

(٤) سورة التكويد، الآية ٢٠.

(٥) في ط: فؤاد بصره.

كذلك. وفي حديث قصة الإسراء مزيد لما ذكرته هنا، والله الموفق والمعين.

[القسم على صدق الكتاب]

وقال تعالى: ﴿فلا أقسم بالخنس، الجوار الكنس﴾ إلى قوله: ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾^(١).

أي: لا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم.

أو: أقسم، و«لا» مزيدة للتأكيد، وهذا قول أكثر المفسرين بدليل قوله تعالى: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾.

قال الزمخشري: والوجه أن يقال هي للنفي، أي أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظماً له، فكأنه بإدخال حرف النفي يقول: إن إعظامي بإقسامي كلا إعظام، يعني أنه يستأهل فوق ذلك.

أقسم سبحانه وتعالى بالنجوم في أحوالها الثلاثة: في طلوعها وجريانها وغروبها، وبانصرام الليل وإقبال النهار عقيب من غير فصل، فذكر سبحانه وتعالى حالة ضعف هذا وإدباره، وحالة قوة هذا وتنفسه وإقباله، يطرد ظلمة الليل بتنفسه، فكلما تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته أن القرآن قول رسول كريم، وهو هنا جبريل، لأنه ذكر صفته قطعاً بعد ذلك بما يعينه به.

وأما «الرسول الكريم» في «الحاقة» فهو محمد ﷺ. فأضافه إلى الرسول الملكي تارة، وإلى البشري أخرى، وإضافته إليهما إضافة

(١) سورة التكوير، الآية ١٥.

تبليغ، لا إضافة إنشاء من عندهما، ولفظ «الرسول» يدل على ذلك، فإن الرسول هو الذي يبلغ كلام من أرسله، فهذا صريح في أنه كلام من أرسل جبريل ومحمداً ﷺ، فجبريل تلقاه عن الله، ومحمد ﷺ تلقاه عن جبريل.

وقد وصف الله تعالى رسوله الملكي في هذه السورة بأنه كريم يعطي أفضل العطايا، وهي العلم والمعرفة والهداية والبر والإرشاد، وهذا غاية الكرم.

ذو قوة، كما قال في النجم: ﴿علمه شديد القوى﴾ فيمنع بقوته الشياطين أن يدنوا منه وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، وروي أنه رفع قريات قوم لوط الأربع على قوادم جناحه حتى سمع أهل السماء نباح كلابها وأصوات بنيتها^(١).

عند ذي العرش مكين، أي متمكن المنزلة، وهذه العندية عندية الإكرام والتشريف^(٢) والتعظيم.

مطاع ثم، في ملائكة الله المقربين، يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه، أمين على وحي الله ورسالته، فقد عصمه الله من الخيانة والزلل.

فهذه خمس صفات تتضمن تزكية سند القرآن، وأنه سماع محمد ﷺ من جبريل، وسماع جبريل من رب العالمين، فناهيك بهذا السند علواً وجلالة، فقد تولى الله تزكيته بنفسه، ثم نزه رسوله البشري وزكاه مما يقول فيه أعداؤه فقال: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ وهذا أمر

(١) من رواية ابن عساكر.

(٢) في ط: الاشراف والتكريم.

يعلمونه ولا يشكون فيه، وإن قالوا بألسنتهم خلافه فهم يعلمون أنهم كاذبون.

ثم أخبر عن رؤيته ﷺ لجبريل عليه السلام، وهذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج يرى بالعيان ويدرك بالبصر، خلافاً لقوم؛ فحقيقته عندهم أنه خيال موجود في الأذهان لا في العيان، وهذا مما خالفوا فيه جميع الرسل وأتباعهم، وخرجوا به عن جميع الملل، ولهذا كان تقرير رؤية النبي ﷺ لجبريل أهم من تقرير رؤيته لربه تبارك وتعالى، فإن رؤيته ﷺ لجبريل هي أصل الإيمان الذي لا يتم إلا باعتقادها، ومن أنكرها كفر قطعاً، وأما رؤيته لربه تعالى فغايتها أن تكون مسألة نزاع لا يكفر جاحداً بالاتفاق. وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره، فنحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب سبحانه أعظم من رؤية جبريل، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها ألبتة.

١/٢٥٧

ثم نزه تعالى رسوله كليهما صلى الله عليهما وسلم، أحدهما بطريق النطق، والثاني بطريق اللزوم عما يضاد مقصود الرسالة من الكتان الذي هو الضنة والبخل والتبديل والتغيير الذي يوجب التهمة، فقال: ﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ فإن الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين: أدائها من غير كتان وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان.

والقراءتان كالأيتين، تضمنت إحداهما - وهي قراءة الضاد - تنزيهه عن البخل، فإن الضنين: البخيل، يقال: ضننت به أضن، بوزن: بخلت أبخل ومعناه، وقال ابن عباس: ليس ببخيل بما أنزل الله، وقال مجاهد: لا يضمن عليهم بما يعلم.

وأجمع المفسرون على أن الغيب هاهنا: القرآن والوحي .

قال الفراء: يقول الله تعالى: يأتيه غيب من السماء وهو منفوس فيه، فلا يضمن به عليكم .

وهذا معنى حسن جداً، فإن عادة النفوس الشح بالشيء النفيس، ولا سيما عمن لا يعرف قدره، ومع هذا فالرسول ﷺ لا يبخل عليكم بالوحي الذي هو أنفس شيء وأجله .

وقال أبو علي الفارسي: المعنى يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده ويخفيه حتى يأخذ عليه حلواناً .

وأما قراءة من قرأ (بظنين) بالطاء فمعناه: المتهم، يقال: ظننت زيداً بمعنى اتهمته وليس هو من الظن الذي هو الشعور والإدراك، فإن ذلك يتعدى إلى مفعولين، والمعنى: وما هذا الرسول على القرآن بمتهم، بل هو أمين فيه لا يزيد فيه ولا ينقص منه .

وهذا يدل على أن الضمير فيه يرجع إلى محمد ﷺ، لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكي بالأمانة ثم قال: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ ثم قال: وما هو: أي وما صاحبكم بمتهم وبخيل فنفي سبحانه عن رسوله ﷺ ذلك كله، وزكى سند القرآن أعظم تزكية. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

[القسم على أن القرآن وحي]

وقال تعالى: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم﴾ الآية^(١) .

(١) سورة الحاقة، الآية ٣٨ .

أقسم تعالى بالأشياء كلها، ما يبصرون منها وما لا يبصرون، وهذا أعم قسم وقع في القرآن، فإنه يعم العلويات والسفليات، والدنيا والآخرة، وما يرى وما لا يرى ويدخل في ذلك الملائكة كلهم والجن والإنس والعرش والكرسي وكل مخلوق، وذلك من آيات قدرته وربوبيته، ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية ودليل على صدق رسوله ﷺ، وأن ما جاء به هو من عند الله تعالى وهو كلامه تعالى، لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن، وأنه حق ثابت كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق، كما قال تعالى: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾ فكأنه سبحانه وتعالى يقول: إن القرآن حق كما أن ما تشاهدونه من الخلق وما لا تشاهدونه حق موجود، ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره «نفسه» ومبدأ خلقه ونشأته وما يشاهد من أحواله ظاهراً وباطناً، ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب سبحانه وثبوت صفاته وصدق ما أخبر به رسوله ﷺ، ومن لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم يخالط بشاشة الإيمان قلبه.

ثم أقام سبحانه البرهان القاطع على صدق رسوله، وأنه لم يتقول عليه فيما قاله، وأنه لو تقول عليه وافترى لما أقره ولعاجله بالإهلاك، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقر من تقول عليه وافترى عليه، وأضل عباده واستباح دماء من كذبه وحریمهم وأموالهم، فكيف يليق بأحكام الحاكمين وأقدر القادرين أن يقر على ذلك، بل كيف يليق به أن يؤيده وينصره ويعليه ويظهره ويظفره بهم، فيسفك دماءهم ويستبيح أموالهم وأولادهم وبلادهم ونساءهم قائلاً إن الله أمرني/ بذلك، وأباحه لي؟ بل كيف يليق به أن يصدق بأنواع التصديق كلها، فيصدقه بإقراره، وبالآيات المستلزمة لصدقته، ثم

ب/٢٥٧

يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها، فكل آية على انفرادها مصدقة له، ثم يقيم الدلائل القاطعة على أن هذا قوله وكلامه، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله، فمن أعظم المحال وأبطل الباطل، وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين أن يفعل ذلك.

والمراد بالرسول الكريم هنا محمد ﷺ - كما قدمته - لأنه لما قال: إنه لقول رسول كريم ذكر بعده أنه ليس بقول شاعر ولا كاهن، والمشركون ما كانوا يصفون جبريل عليه السلام بالشعر والكهانة.

* * *

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسام لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون﴾^(١).

قيل المراد بـ«الكتاب المكنون» اللوح المحفوظ.

قال ابن القيم: والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة﴾^(٢)، قال مالك: أحسن ما سمعت في هذه أنها مثل الذي في «عيس»، قال: ومن المفسرين من قال: إن المراد أن المصحف لا يمسه إلا طاهر، والأول أرجح لأن الآية سيقت تنزيهاً للقرآن أن تنزل به الشياطين، وأن محله لا تصل إليه، كما قال تعالى: ﴿وما تنزل به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون﴾^(٣) وأيضاً:

(١) سورة الواقعة، الآيات ٧٥ - ٧٧.

(٢) سورة عيس، الآيات ١٣ - ١٦.

(٣) سورة الشعراء، الآية ٢١٠.

فإن قوله: (لا يمسه) بالرفع، فهذا خبر لفظاً ومعنى، ولو كان نهياً لكان مفتوحاً. ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره إلى معنى النهي، والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته، وليس هاهنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي، انتهى ملخصاً.

وهذا الذي قاله ابن القيم قد تمسك به جماعة منهم داود، بأنه يجوز مس المصحف للمحدث.

وقد أجاب ابن الرفعة في «الكفاية» عن أدلتهم المزخرفة فقال ما نصه: القرآن لا يصح مسه، فعلم أن المراد به الكتاب الذي هو أقرب المذكورين، ولا يتوجه النهي إلى اللوح المحفوظ لأنه غير منزل، ومسه غير ممكن، ولا يمكن أن يكون المراد بالمطهرين الملائكة، لأنه قد نفى وأثبت فكأنه قال: يمسه المطهرون ولا يمسه غير المطهرين، والسماء ليس فيها غير مطهر بالإجماع، فعلم أن المراد: المطهرين من الآدميين، ويبين ذلك ما روي أنه ﷺ قال في كتاب عمرو بن حزم المروي في الدارقطني وغيره^(١): «ولا تمس القرآن إلا وأنت على طهر» ثم قال، فإن قيل: قد قال الواحدي أن أكثر أهل التفسير على أن المراد اللوح المحفوظ، وأن المطهرين الملائكة، ثم لو صح ما قلتم لم يكن فيها دليل لأن قوله: (لا يمسه) بضم السين، ليس بنهي عن المراد ولو كان نهياً لكان بفتح السين، فهو إذاً خبر.

قلنا: أما قول «أكثر المفسرين» فهو معارض بقول الباقيين، والمرجع إلى الدليل.

(١) رواه أيضاً أبو داود والنسائي وابن حبان والدارمي.

وأما كون المراد بالآية الخبر، فجوابه: أنا نقول: اللفظ لفظ الخبر ومعناه النهي^(١)، وهو كثير في القرآن، قال الله تعالى: ﴿لَا تَضَارَّ وَالِدَةَ بُولَدَهَا﴾^(٢)، ﴿والمطلقات يتربصن﴾^(٣). انتهى.

وأجاب العلامة البساطي في شرحه لمختصر الشيخ خليل: بأن (يمسه) مجزوم، وضم السين لأجل الضمير، كما صرح به جماعة، وقالوا: إنه مذهب البصريين، ومنهم ابن الحاجب في «شافيته» انتهى.

وقد ذكر هذا العلامة شهاب الدين أحمد بن يوسف بن محمد بن مسعود الحلبي الشافعي، المشهور بـ«السمين»، مع زيادة إيضاح وفوائد فقال في «لا» هذه وجهان، الثاني: أنها ناهية، والفعل بعدها مجزوم، لأنه لو فكَّ عن الإدغام لظهر ذلك فيه كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾^(٤) ولكنه أدغم، ولما أدغم حرك آخره بالضممة لأجل «هاء» ضمير المذكر الغائب، ولم يحفظ سيبويه في نحو هذا إلا الضم. وفي الحديث (إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم)^(٥) وإن كان القياس جواز فتحه تخفيفاً. قال: وبهذا الذي ذكرته يظهر فساد رد من رد بأنه لو كان نهيّاً لكان يقال: (لا يمسه) بالفتح، لأنه خفي / عليه جواز ضم ما قبل الهاء في هذا النحو، لا سيما على رأي سيبويه فإنه لا يجوز غيره.

(١) سقطت من ط كلمة «النهي».

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٢٣.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٢٨.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٧٤.

(٥) أخرجه الشيخان وغيرهما، وفي هذا الحديث أن الصعب الليثي أهدى لرسول الله ﷺ حماراً وحشياً فرده عليه - وهو بالأبواء - فلما رأى ما في وجهه قال: إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم.

الفصل الرابع

في قسمه تعالى على تحقيق رسالته

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يس، والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين﴾ الآية^(١).

اعلم أن كل سورة بدأ الله تعالى فيها بحروف التهجي كان في أوائلها الذكر أو الكتاب أو القرآن إلا «نون».

ثم إن في ذكر هذه الحروف في أوائل السور أموراً تدل على أنها غير خالية عن الحكمة، لكن علم الإنسان لا يصل إليها إلا إن كشف الله له سر ذلك.

واختلف المفسرون في معنى (يس) على أقوال:

أحدها: أنه يا إنسان، بلغة طيء، وهذا قول ابن عباس والحسن وعكرمة والضحاك وسعيد بن جبير، وقيل: بلغة الحبشة، وقيل: بلغة كلب، وحكى الكلبي أنها بالسريانية.

قال الإمام فخر الدين: وتقريره هو أن تصغير إنسان: أنيسين، وكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال (يس)، وعلى هذا فيكون الخطاب مع محمد ﷺ، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إنك لمن المرسلين﴾

(١) سورة يس، الآيات ١ - ٣.

وتعقبه أبو حيان: بأن الذي نقل عن العرب في تصغير إنسان: أنيسيان - بياء بعدها ألف - فدل على أن أصله: إنسيان، لأن التصغير يرد الأشياء إلى أصولها، لا يعلم أنهم قالوا في تصغيره أنيسين، وعلى تقدير أنه يصغر كذلك فلا يجوز ذلك إلا أن يبنى على الضم لأنه منادى مقبل عليه، ومع ذلك فلا يجوز لأنه تحقير، ويمتنع ذلك في حق النبوة. انتهى.

قال السمين: وهذا الاعتراض الأخير صحيح، فقد نصوا على أن التصغير لا يدخل في الأسماء المعظمة شرعاً، ولذلك يحكى أن ابن قتيبة لما قال في «المهيمن» إنه مصغر من «مؤمن» والأصل: مؤتمن، فأبدلت الهمزة هاء، قيل له: هذا يقرب من الكفر، فليتنق الله قائله، انتهى.

وقيل معنى (يس): يا محمد، قاله ابن الحنفية والضحاك.

وقيل: يا رجل، قاله أبو العالية^(١).

وقيل: هو اسم من أسماء القرآن، قاله قتادة.

وعن أبي بكر الوراق: يا سيد البشر.

وعن جعفر الصادق: أنه أراد يا سيد، مخاطبة للنبي ﷺ وفيه من تعظيمه وتمجيده ما لا يخفى.

وعن طلحة عن ابن عباس: أنه قسم أقسم الله تعالى به، وهو من أسماؤه.

وعن كعب: أقسم الله به قبل أن يخلق السماوات والأرض
بألفي عام: يا محمد إنك لمن المرسلين.

(١) في (أ): ابن العالية، وأبو العالية هو رفيع بن مهران التابعي.

ثم قال: ﴿والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين﴾ وهو رد على الكفار حيث قالوا: ﴿لست مرسلًا﴾^(١) فأقسم الله تعالى باسمه وكتابه: إنه لمن المرسلين بوحيه إلى عباده وعلى طريق مستقيم من إيمانه، أي طريق لا اعوجاج فيه ولا عدول عن الحق.

قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له صلى الله عليه وسلم .

(١) سورة الرعد، الآية ٤٣ .

الفصل الخامس

في قسمه تعالى بمدة حياته ﷺ وعصره وبلده

[القسم بحياته ﷺ]

قال الله تعالى: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾^(١).
والعمر والعمر واحد، ولكنه في القسم يفتح لكثرة الاستعمال،
فإذا أقسموا قالوا: لعمرك القسم.

قال النحويون: ارتفع قوله (لعمرك) بالإبتداء، والخبر محذوف،
والمعنى: قسمي، فحذف الخبر لأن في الكلام دليلاً عليه، وباب
القسم يحذف منه الفعل نحو: تالله لأفعلن، والمعنى: أحلف بالله،
فتحذف «أحلف» لعلم المخاطب بأنك حالف.

قال الزجاجي^(٢): من قال: لعمر الله كأنه حلف ببقاء الله،
ومن ثم قال المالكية والحنفية: ينعقد بها اليمين، لأن بقاء الله من
صفات ذاته. وعن مالك: لا يعجبني الحلف بذلك. وقال الإمام

(١) سورة الحجر، الآية ٧٢.

(٢) في ط الزجاج، والزجاجي هو عبد الرحمن بن إسحاق صاحب «الجمل»
و«الأمال» مات بطبرية سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، نسبة إلى شيخه الزجاج
محمد بن إبراهيم.

الشافعي وإسحاق: لا يكون يميناً إلا بالنية، وعن أحمد كالمذهبيين،
والراجح عنه كالشافعي.

واختلف فيمن المخاطب في الآية على قولين:

أحدهما: أن الملائكة قالت للوط عليه السلام - لما وعظ قومه
وقال: (هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين) -: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم
يعمّهون﴾ /، أي يتحiron، فكيف يعقلون قولك، ويلتفتون إلى
نصيحتك؟! ب/٢٥٨

والثاني: أن الخطاب لرسول الله ﷺ، وأنه تعالى أقسم بحياته،
وفي هذا تشرif عظيم ومقام رفيع وجاه عريض.

قال ابن عباس: ما خلق الله، وما ذراً وما برأ نفساً أكرم عليه
من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى:
﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمّهون﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقائك
في الدنيا إنهم لفي سكرتهم يعمّهون. رواه ابن جرير.

ومراده بقوله: «وما سمعت الله»؛ [سمعت كلامه] (١) المتلو في
الكتب المنزلة.

ورواه البغوي في تفسيره بلفظ: وما أقسم الله بحياة أحد إلا
بحياته، وما أقسم بحياة أحد غيره، وذلك يدل على أنه أكرم خلق الله
على الله، وعلى هذا فيكون قسمه تعالى بحياة محمد ﷺ كلاماً معترضاً
في قصة لوط.

(١) في (ط، ش).

قال القرطبي: وإذا أقسم الله تعالى بحياة نبيه فإنما أراد بيان التصريح لنا: أنه يجوز لنا أن نحلف بحياته.

وقد قال الإمام أحمد فيمن أقسم بالنبي ﷺ ينعقد به يمينه وتجب الكفارة بالحنث، واحتج بكونه ﷺ أحد ركني الشهادة.

وقال ابن خويز منداد^(١): واستدل من جوز الحلف به ﷺ بأن أيمان المسلمين جرت من عهده ﷺ أن يحلفوا به ﷺ حتى إن أهل المدينة إلى يومنا هذا إذا خاصم أحدهم صاحبه قال له: احلف لي بحق [ما حواه]^(٢) صاحب هذا القبر، أو بحق ساكن هذا القبر، يعني النبي ﷺ.

[القسم ببلده ﷺ]

وقال الله تعالى: ﴿لا أقسم بهذا البلد، وأنت حل بهذا البلد﴾ الآية^(٣).

أقسم تعالى بالبلد الأمين، وهي مكة أم القرى بلده ﷺ، وقيده بحلولة ﷺ فيه إظهاراً لمزيد فضله، وإشعاراً بأن شرف المكان بشرف أهله. قاله البيضاوي.

ثم أقسم بالوالد وما ولد، وهو فيما قيل: إبراهيم وإسماعيل،

(١) هو أبو بكر، محمد بن أحمد، تفقه على الأبهري، وله كتاب كبير في الخلاف وكتاب في أصول الفقه وكتاب في أحكام القرآن، ولم يكن بالجيد النظر ولا قوي الفقه.

(٢) في النسخ عدا (ش).

(٣) سورة البلد، الآية ١ - ٢.

وما ولد: محمد ﷺ ، وعلى هذا فتضمن السورة القسم به في موضعين، وقيل المراد به آدم وذريته، وهو قول الجمهور من المفسرين.

وإنما أقسم تعالى بهم لأنهم أعجب خلق الله على وجه الأرض لما فيهم من البيان والنظر واستخراج العلوم، وفيهم الأنبياء والدعاة إلى الله تعالى والأنصار لدينه، وكل ما في الأرض من مخلوق خلق لأجلهم، وعلى هذا فقد تضمن القسم أصل المكان وأصل السكان، فمرجع البلاد إلى مكة، ومرجع العباد إلى آدم.

وقوله: (وأنت حل) هو من: الحلول، ضد الظعن، فيتضمن إقسامه تعالى ببلده المشتمل على عبده ورسوله، فهو خير البقاع واشتمل على خير العباد، فقد جعل الله تعالى بيته هدى للناس، ونبيه إماماً وهادياً لهم، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه.

وقيل: المعنى وأنت مستحل قتلك وإخراجك من هذا البلد الأمين الذي يأمن فيه الطير والوحش، وقد استحل فيه قومك حرمتك. وهذا مروى عن شرحبيل بن سعد.

وعن قتادة: (وأنت حل) أي لست بأثم، وحلال لك أن تقتل بمكة من شئت. وذلك أن الله تعالى يفتح عليه مكة وأهلها، وما فتحت على أحد قبله، فأحل ما شاء وحرم ما شاء، فقتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة وغيره، وحرم دار أبي سفيان.

فإن قلت: هذه السورة مكية، ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾ إخبار عن الحال، والواقعة التي ذكرت في آخر مدة هجرته إلى المدينة، فكيف الجمع بين الأمرين؟

أجيب: بأنه قد يكون اللفظ للحال، والمعنى مستقبل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾^(١).

وعلى كل حال فهذا متضمن للقسم بيلد رسول الله ﷺ، ولا يخفى ما فيه من زيادة التعظيم، وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن أقسم بحياتك دون سائر الأنبياء، ولقد بلغ من فضيلتك عنده أن أقسم بتراب قدميك فقال: ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.

[القسم بعصره ﷺ]

1/259 وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خَسْرٍ﴾^(٢).

اختلف في تفسير العصر على أقوال:

ف قيل: هو الدهر، لأنه مشتمل على الأعاجيب، لأنه يحصل فيه السراء والضراء، والصحة والسقم وغير ذلك.

وقيل: ذكر العصر الذي بمضيه ينقضي عمرك، فإذا لم يكن في مقابلته كسب صار ذلك عين الخسران، والله در القائل.

إنما النفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضي نقص من الأجل

وفي تفسير الإمام فخر الدين والبيضاوي وغيرهما: أنه أقسم بزمان الرسول ﷺ. قال الإمام الرازي: واحتجوا له بقوله ﷺ: إنما مثلكم ومثل من كان قبلكم مثل رجل استأجر أجراء، فقال: من

(١) سورة الزمر، الآية ٣٠.

(٢) سورة العصر، الآية ١.

يعمل لي من الفجر إلى الظهر بقيراط، فعملت اليهود، ثم قال من يعمل لي من الظهر إلى العصر بقيراط، فعملت النصارى، ثم قال: من يعمل لي من العصر إلى المغرب بقيراطين فعملتم، فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل أجراً، فقال الله تعالى: وهل نقصت من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيته من أشياء، فكنتم أقل عملاً وأكثر أجراً. رواه البخاري (١).

قالوا: فهذا الحديث دل على أن العصر هو عصره ﷺ الذي هو فيه، فيكون على هذا أقسم تعالى بزمانه في هذه الآية، وبمكانه في قوله: ﴿وَأَنْتَ حَلْ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، وبعمره في قوله: (لعمرك)، فكأنه قال: وعصرك وبلدك وعمرك، وذلك كله كالظرف له، فإذا وجب تعظيم الظرف فكيف حال المظروف، قال: ووجه القسم كأنه تعالى قال: ما أعظم خسرانهم إذا أعرضوا عنك. انتهى.

(١) رواه البخاري من حديث ابن عمر في «الصلاة» و«الإجارة» و«فضل القرآن» وفي «ذكر بني إسرائيل» وفي «التوحيد» بألفاظ متقاربة ليس في محل منها بهذا اللفظ، وإنما هو لفظ مسلم، وأخرجه البخاري بنحوه من حديث أبي موسى لكن ظاهر سياقها أنها قضيتان. وحاول بعضهم الجمع فتعسف كما في الفتح.

النوع السادس

في وصفه تعالى له ﷺ بالنور والسراج المنير

اعلم أن الله تعالى قد وصف رسوله ﷺ بـ«النور» في قوله تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾^(١)، وقيل المراد: القرآن.

ووصفه ﷺ أيضاً بـ«السراج المنير» في قوله تعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾^(٢).

والمراد: كونه هادياً مبيناً كالسراج الذي يري الطريق ويبين الهدى والرشاد، فبيانه أقوى وأتم وأنفع من نور الشمس، وإذا كان كذلك وجب أن تكون نفسه القدسية أعظم في النورانية من الشمس، فكما أن الشمس في عالم الأجسام تفيد النور لغيرها ولا تستفيد من غيرها فكذا نفس النبي ﷺ تفيد الأنوار العقلية لسائر الأنفس البشرية، ولذلك وصف الله الشمس بأنها سراج حيث قال: ﴿وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾^(٣).

(١) سورة المائدة، الآية ١٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٤٦.

(٣) سورة الفرقان، الآية ٦١.

وكما وصف الله رسوله بأنه نور، وصف نفسه المقدسة بذلك فقال: ﴿الله نور السموات والأرض﴾^(١)، فليس فيهما نور إلا الله، ونوره القدسي هو سر الوجود والحياة والجمال والكمال، وهو الذي أشرق على العالم فأشرق على العوالم الروحانية، وهم الملائكة، فصارت سرجاً منيره، يستمد منها من هو دونها بجدود الله تعالى، ثم سرى النور إلى عالم النفوس الإنسانية، ثم طرحته النفوس على صفحات الجسوم، فليس في الوجود إلا نور الله الساري إلى الشيء منه بقدر قبوله ووسع استعداده ورحب تلقيه^(٢).

والنور في الأصل: كيفية يدركها الباصر أولاً، وبواسطتها سائر المبصرات، كالكيفية الفائضة من النيرين - الشمس والقمر - على الأجرام الكثيفة المحاذية لها، وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى إلا بتقدير مضاف، كقولك: زيد كرم، بمعنى: ذو كرم، أو بمعنى منور السماوات والأرض، فإنه تعالى نورهما بالكواكب، وما يفيض عنها من الأنوار، وبالملائكة والأنبياء من قولهم للرئيس الفائق في التدبير: نور القوم، لأنهم يهتدون به في الأمور، ويؤيد هذا القول قراءة علي بن أبي طالب وزيد بن علي وغيرهما (نور) فعلاً ماضياً، و(الأرض) بالنصب.

وقوله: (مثل نوره) أي: مثل هداه سبحانه وتعالى.

وأضاف النور إلى السماوات والأرض، إما دلالة على سعة إشراقه، وفشو إضاءته حتى تضيء له السماوات والأرض، وإما لإرادة أهل السماء والأرض، وأنهم يستضيئون به.

(١) سورة النور، الآية ٣٥.

(٢) أي قوة قبوله لما يلقي إليه.

وعن مقاتل: أي مثل الإيمان في قلب محمد كمشكاة فيها مصباح، فالمشكاة نظير صدر عبدالله، والزجاجة نظير جسد محمد ﷺ، والمصباح نظير الإيمان والنبوة في قلب محمد ﷺ.

وعن غيره: المشكاة نظير إبراهيم، والزجاجة نظير إسماعيل عليهما السلام، والمصباح جسد محمد ﷺ، والشجرة: النبوة والرسالة.

وعن أبي سعيد الخراز^(١): المشكاة: جوف محمد ﷺ، والزجاجة قلبه، والمصباح النور الذي جعله الله في قلب محمد ﷺ.

وعن كعب وابن جبير: النور الثاني هنا محمد ﷺ.

وعن سهل بن عبدالله: مثل نور محمد إذ كان مستودعاً في الأصلاب كمشكاة صفتها كذا وكذا، وأراد بالمصباح قلبه وبالزجاجة صدره، أي كأنه كوكب دري لما فيه من الإيمان والحكمة.

توقد من شجرة مباركة، أي من نور إبراهيم، وضرب المثل بالشجرة المباركة.

وقوله: ﴿يكاد زيتها يضيء﴾ أي تكاد نبوة محمد تبين للناس قبل كلامه، حكى هذا القول الأخير القاضي أبو الفضل اليحسبي والفخر الرازي، لكنه عن كعب الأخبار^(٢).

وعن الضحاك: يكاد محمد يتكلم بالحكمة قبل الوحي. قال عبدالله بن رواحة:

(١) إبراهيم وقيل أحمد بن عيسى البغدادي، كان أحد المشهورين بالورع،

صحب السقطي وذا النون وغيرهما. مات سنة سبع وسبعين ومائتين.

(٢) أي لكن الفخر الرازي حكاها عن كعب الأخبار لا عن سهل بن عبدالله.

لولم تكن فيه آيات مبينة كانت بديته تنبيك بالخبر
لكن التفسير الأول في هذه الآية هو المختار، لأنه تعالى ذكر قبل
هذه الآية ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾^(١) فإذا كان المراد بقوله
(مثل نوره) أي مثل هداه كان ذلك مطابقاً لما قبله.
واختلفوا في هذا التشبيه^(٢).

أو هو مشبه جملة بجملة، لا يقصد فيها إلى تشبيه جزء بجزء،
ومقابلة شيء بشيء، أو مما قصد منه ذلك؟

أي: مثل نور الله، الذي هو هداه وإتقانه صنعة كل مخلوق،
وبراهينه الساطعة، على الجملة كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه
أنتم على هذه الصفة التي هي أبلغ صفات النور الذي بين يدي
الناس، أي: مثل نور الله في الوضوح كهذا الذي هو منتهاكم أيها
البشر.

وقيل: هو من التشبيه المفصل، المقابل جزء بجزء، قد رده على
تلك الأقوال الثلاثة.

أي: مثل نوره في محمد ﷺ، أو في المؤمنين، أو في القرآن
والإيمان كمشكاة، فالمشكاة هو الرسول أو صدره، والمصباح هو النبوة
وما يتصل بها من علمه وهداه، والزجاجة قلبه، والشجرة المباركة

(١) سورة النور، الآية ٣٤

(٢) هذه الفقرة حتى قوله: «النوع السابع» لم ترد إلا في الأصل. ولم تذكرها
النسخ الأخرى.

الوحي، والملائكة رسل الله إليه، وشبه الفضل به بالزيت وهو الحجج والبراهين والآيات التي تضمنها الوحي.

وعلى قول: «المؤمنين»، فالمشكاة صدره، والمصباح الإيمان والعلم، والزجاجة قلبه، والشجرة القرآن، وزيتها هو الحجج والحكمة التي تضمنتها.

وعلى قول: «الإيمان والقرآن»، أي مثل الإيمان والقرآن في صدر المؤمنين وفي قلبه كمشكاة.

وأما الضمير على قول المؤمنين في قراءة أبي المذكورة في بعض التفاسير، ففيه إشكال من حيث الأفراد، وعن أبي: هو عائد على المؤمنين، وفي قراءته: مثل نور المؤمنين، وفي رواية عنه: مثل نور من آمن به.

وعن الحسن: يعود على القرآن والإيمان.

النوع السابع

في آيات تتضمن وجوب طاعته واتباع سنته

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنِ اللَّهُ لَا يَجِبُ الْكَافِرِينَ﴾^(٣).

قال القاضي عياض: فجعل طاعته طاعة رسوله، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب.

وقال تعالى: ﴿مَنْ يَطْعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٤).

يعني: من أطاع الرسول لكونه رسولاً مبلغاً إلى الخلق أحكام الله فهو في الحقيقة / ما أطاع إلا الله، وذلك في الحقيقة لا يكون إلا بتوفيق الله. ﴿وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾^(٥) فإن من أعماه

١/٢

(١) سورة الأنفال، الآية ٢٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٣٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية ٣٢.

(٤) سورة النساء، الآية ٨٠.

(٥) تنمة الآية قبلها.

الله عن الرشد وأضله عن الطريق فإن أحداً من الخلق لا يقدر على إرشاده.

وهذه الآية من أقوى الأدلة على أن الرسول معصوم في جميع الأوامر والنواهي، وفي كل ما يبلغه عن الله، لأنه لو أخطأ في شيء منها لم تكن طاعته طاعة الله تعالى، وأيضاً وجب أن يكون معصوماً في جميع أفعاله^(١)، لأنه تعالى أمر بمتابعته في قوله: ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾^(٢)، والمتابعة عبارة عن الإتيان بمثل فعل الغير، فثبت أن الانقياد له في جميع أقواله وأفعاله إلا ما خصه الدليل طاعة له، وانقياد لحكم الله تعالى.

[و]^(٣) قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ الآية^(٤).

وهذا عام في المطيعين لله من أصحاب الرسول ومن بعدهم، وعام في المعية في هذه الدار، وإن فاتت فيها معية الأبدان.

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية أن ثوبان، مولى رسول الله ﷺ كان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه، وعرف الحزن في وجهه، فسأله رسول الله ﷺ عن حاله فقال: يا رسول الله، ما بي وجع، غير أنني إذا لم أرك

(١) في (ش): أحواله.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٨.

(٣) في (د).

(٤) سورة النساء، الآية ٦٩.

اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة حتى ألقاك، فذكرت الآخرة بحيث لا أراك هناك، لأنني إذا دخلت الجنة فأنت تكون في درجات النبيين، وإن أنا لم أدخل الجنة فحينئذ لا أراك أبداً، فنزلت هذه الآية^(١).

وذكر ابن أبي حاتم عن أبي الضحى عن مسروق، قال أصحاب محمد: يا رسول الله ما ينبغي لنا أن نفارقك، فإنك لو قد مت لرفعت فوقنا ولم نرك، فأنزل الله الآية.

وذكر عن عكرمة مرسلأ، قال: أتى فتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لنا منك نظرة في الدنيا ويوم القيامة لا نراك لأنك في الجنة في الدرجات العلى، فأنزل الله هذه الآية فقال له رسول الله ﷺ: أنت معي في الجنة.

وذكر فيها أيضاً روايات أخر ستأتي إن شاء الله تعالى في مقصد محبته ﷺ.

لكن قال المحققون: لا ننكر صحة هذه الروايات، إلا أن سبب نزول هذه الآية يجب أن يكون شيئاً أعظم من ذلك، وهو الحث على الطاعة والترغيب فيها، فإننا نعلم أن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ، فهذه الآية عامة في حق جميع المكلفين، وهو أن كل من أطاع الله وأطاع الرسول فقد فاز بالدرجات العالية والمراتب الشريفة عنده تعالى.

(١) قال الشيخ ولي الدين: هذا ذكره الثعلبي في تفسيره بلا إسناد ولا راو، وحكاه الواحدي في أسباب النزول عن الكلبي، وروى الطبراني في معجمه الصغير عن عائشة وابن مردويه عن ابن عباس، والبيهقي عن الشعبي وابن جرير عن سعيد بن جبير كل منهم يحكي عن رجل فذكر مثل قصة ثوبان ونزول الآية فيه. انتهى.

ثم إن ظاهر قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول﴾ أنه يكفي الاكتفاء بالطاعة الواحدة، لأن اللفظ الدال على الصفة يكفي في جانب الثبوت حصول ذلك المسمى مرة واحدة، لكن لا بد أن يحمل على غير ظاهره، وأن تحمل الطاعة على فعل جميع الأمور وترك جميع المنهيات، إذ لو حملناه على الطاعة الواحدة لدخل فيه الفساق والكفار، لأنهم قد يأتون بالطاعة الواحدة.

قال الرازي: قد ثبت في أصول الفقه أن الحكم المذكور عقب الصفة مشعر بكون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف، وإذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿من يطع الله﴾ أي في كونه إلهاً، وطاعة الله في كونه إلهاً هي معرفته والإقرار بجلالته وعزته وكبريائه وصمديته، فصارت هذه تنبيهاً على أمرين عظيمين من أحوال المعاد.

فالأول: أن منشأ جميع السعادات يوم القيامة إشراق الروح بأنوار معرفة الله، فكل من كانت هذه الأنوار^(١) في قلبه أكثر، وصفائها أقوى كان إلى السعادة أقرب، وإلى الفوز بالنجاة أوصل.

والثاني: أن الله تعالى ذكر في الآية السابقة وعد أهل الطاعة بالأجر العظيم والثواب الجزيل^(٢)، ثم ذكر في هذه الآية وعدهم بكونهم مع النبيين [والصديقين والشهداء والصالحين]^(٣).

وليس المراد بكون من أطاع الله وأطاع الرسول مع النبيين والصديقين كون الكل في درجة واحدة، لأن هذا يقتضي التسوية في الدرجة بين الفاضل والمفضول، وذلك لا يجوز، فالمراد كونهم في الجنة

(١) في ط: الأمور.

(٢) في (ط، ش): الجسيم.

(٣) زيادة في (ش) وكلمة «والصديقين» في (ط).

بعيثة يتمكّن كل واحد منهم من رؤية الآخر، وإن بعد المكان، لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضاً، وإذا أرادوا الرؤية والتلاقي قدروا على ذلك، فهذا هو المراد من هذه المعية، وقد ثبت وصح عنه ﷺ أنه قال: (المرء مع من أحب)^(١)، وثبت عنه أيضاً أنه قال: (إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم سيراً ولا نزلتم منزلاً إلا وهم معكم حسبهم العذر)^(٢)، فالمعية والصحبة الحقيقية إنما هي بالسر والروح^(٣) لا بمجرد البدن، فهي بالقلب لا بالقلب، ولهذا كان النجاشي معه ﷺ ومن أقرب الناس إليه، وهو بين النصارى بأرض الحبشة، وعبدالله بن أبي من أبعد الخلق عنه، وهو معه في المسجد، وذلك أن العبد إذا أراد بقلبه أمراً من طاعة أو معصية أو شخص من الأشخاص فهو بإرادته ومحبته معه لا يفارقه، فالأرواح تكون مع الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وبينها وبينهم من المسافة الزمانية والمكانية بعد عظيم.

وقال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾^(٤).

وهذه الآية الشريفة تسمى: آية المحبة، قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله فأنزل الله آية المحبة ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني﴾ وقال تعالى: ﴿يحببكم الله﴾ إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها، فدليلها وعلامتها اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم، فما لم تحصل المتابعة فلا محبة لكم حاصلة، ومحبته لكم متتفة،

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) أخرجه البخاري، وكان ذلك حين رجوعه ﷺ من غزوة تبوك.

(٣) في (أ) بالسير والروح، وفي (ط) بالسير بالروح.

(٤) سورة آل عمران: الآية ٣١.

فجعل سبحانه اتباع رسوله ﷺ مشروطاً بمحبتهم لله، وشرطاً لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود تحقق شرطه، فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة، فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل حينئذ ثبوت محبتهم لله وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله ﷺ فدل على أن متابعة الرسول هي حب الله ورسوله وطاعة أمره، ولا يكفي ذلك في العبودية حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فلا يكون شيء أحب إليه من الله ورسوله، ومتى كان شيء عنده أحب إليه منها فهذا هو الشرك الذي لا يغفر لصاحبه ألبتة ولا يهديه الله، قال الله تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾^(١)، فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه، أو معاملة أحد منهم على معاملة الله ورسوله، فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإن قال بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بما ليس هو عليه. انتهى ملخصاً من كتاب «مدارج السالكين»، وسيأتي مزيد لذلك إن شاء الله تعالى في مقصد محبته ﷺ.

وقال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾^(٢).

(١) سورة التوبة، الآية ٢٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٨.

أي إلى الصراط المستقيم، فجعل رجاء الاهتداء أثر الأمرين، الإيمان بالرسول واتباعه، تنبيهاً على أن من صدقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو في الضلالة، فكل ما أتى به الرسول ﷺ يجب علينا اتباعه إلا ما خصه الدليل.

وقال تعالى: ﴿فَأْمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾^(١) يعني القرآن، فالإيمان به ﷺ واجب متعين على كل أحد، لا يتم إيمان إلا به ولا يصح إسلام إلا معه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾^(٢) أي ومن لم يؤمن بالله ورسوله فهو من الكافرين، / وإنا أعتدنا للكافرين سعيراً.

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَبِكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية^(٣).

معناه: فوربك، كقوله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ و«لا» مزيدة للتأكيد لمعنى القسم، كما في ﴿لثلا يعلم﴾، ولا يؤمنون جواب.

أقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول في جميع أموره، ويرضى بجميع ما حكم به، وينقاد له ظاهراً وباطناً، سواء كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفها، كما ورد في الحديث: (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)^(٤)، وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول

(١) سورة التغابن، الآية ٨.

(٢) سورة الفتح، الآية ١٣.

(٣) سورة النساء، الآية ٦٥.

(٤) قال النووي: حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجّة بإسناد صحيح.

الحديث الحادي والأربعين من «الأربعين النووية» [م].

ﷺ لا يكون مؤمناً، وعلى أنه لا بد من حصول الرضى بحكمه في القلب، وذلك بأن يحصل الجزم والتيقن في القلب بأن الذي يحكم به ﷺ هو الحق والصدق، فلا بد من الانقياد باطنياً وظاهراً، وسيأتي مزيد بيان لذلك إن شاء الله تعالى في مقصد محبته ﷺ .

ثم إن ظاهر الآية يدل على أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس، لأنه يدل على أنه يجب متابعة قوله وحكمه، وأنه لا يجوز العدول عنه إلى غيره.

وقوله: ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت﴾ مشعر بذلك، لأنه متى خطر بقلبه قياس يقتضي ضد مدلول النص فهناك يحصل الحرج في النفس، فبين تعالى أنه لا يكمل إيمانه إلا بعد أن لا يلتفت إلى ذلك الحرج ويسلم إلى النص تسليماً كلياً، قاله الإمام فخر الدين.

وجوز غيره تخصيص الكتاب والسنة بالقياس، وبه صرح العلامة التاج بن السبكي في جمع الجوامع.

النوع الثامن

فيما يتضمن الأدب معه ﷺ

[عدم التقدم بين يديه]

قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾^(١).

فمن الأدب أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي، ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو وينهى ويأذن كما أمر الله تعالى بذلك في هذه الآية، وهذا باق إلى يوم القيامة لم ينسخ. فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته، لا فرق بينها عند [كل]^(٢) ذي عقل سليم.

قال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء، حتى يقضيه الله تعالى على لسانه.

وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون رسول الله ﷺ.

وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر، ولا تنهوا حتى ينهى.

وانظر أدب الصديق - رضي الله عنه - معه ﷺ في الصلاة^(٣).

(١) سورة الحجرات، الآية ١.

(٢) زيادة في ط.

(٣) رواه مالك والشيخان.

إذ تقدم بين يديه كيف تأخر وقال: ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ، كيف أورثه مقامه والإمامة بعده، فكان ذلك التأخر إلى خلفه، وقد أوماً إليه أن اثبت مكانك، سعياً إلى قدام بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام تنقطع فيها أعناق المطي.

[عدم رفع الصوت عنده]

ومن الأدب معه ﷺ أن لا ترفع الأصوات فوق صوته، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾^(١).

قال الرازي: أفاد أنه ينبغي أن^(٢) لا يتكلم المؤمن عنده ﷺ كما يتكلم العبد عند سيده، لأن العبد داخل في قوله تعالى: ﴿كجهر بعضكم لبعض﴾ لأنه للعموم، فلا ينبغي أن يجهر المؤمن للنبي ﷺ كما يجهر العبد للسيد، وإلا كان قد جهر له كما يجهر بعضكم لبعض.

قال: ويؤيد ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾^(٣)، والسيد ليس أولى عند عبده من نفسه، حتى لو كانا في مخمصة ووجد العبد ما لو لم يأكله لمات لا يجب عليه بذله لسيده، ويجب البذل للنبي ﷺ، ولو علم العبد أن بموته ينجو/ سيده لا يلزمه أن يلقي نفسه في التهلكة لإنجاء سيده، ويجب لإنجاء النبي ﷺ، فكما أن العضو الرئيس أولى بالرعاية من غيره، لأن عند خلل القلب

(١) سورة الحجرات، الآية ٢.

(٢) «ينبغي أن» سقطت من ط.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٦.

مثلاً لا يبقى لليدين والرجلين استقامة، فلو حفظ الإنسان نفسه وترك النبي ﷺ هلك هو أيضاً بخلاف العبد والسيد، انتهى.

واعلم أن في الرفع والجهر استخفافاً قد يؤدي إلى الكفر المحبط، وذلك إذا انضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة.

وروي أن أبا بكر رضي الله عنه، لما نزلت هذه الآية قال: والله يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار، وأن عمر رضي الله عنه كان إذا حدثه حدثه كأخي السرار ما كان يسمع النبي ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه^(١).

وقد روي أن أبا جعفر أمير المؤمنين ناظر مالكا في مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله عز وجل أدب قوماً فقال: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ ومدح قوماً فقال: ﴿إن الذين يغضون أصواتهم﴾ الآية، وذم قوماً فقال: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾ الآية. وإن حرمة ميتا كحرمة حياً، فاستكان لها أبو جعفر.

وإذا كان رفع الأصوات فوق صوته موجباً لحبوط الأعمال فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به^(٢).

(١) في البخاري (كاد الخيران أن يهلكا، أبو بكر وعمر، رفعاً أصواتها عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم﴾ الآية، قال ابن الزبير فكان عمر لا يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه..)

(٢) هذه الفقرة من قوله: «وإذا كان» وردت هنا في المخطوطات، وجاءت في (ط، ش) قبل ثلاث فقرات أي قبل قوله: «واعلم» ومكانها في المخطوطات أحسن.

[طريقة خاصة في دعائه]

ومن الأدب أن لا يجعل دعاؤه كدعاء بعضنا بعضاً، قال تعالى^(١): ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾^(٢) وفيه قولان للمفسرين.

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه كما يدعو بعضكم بعضاً، بل قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، مع التوفير والتواضع، فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول، أي دعاؤكم الرسول.

والثاني: إن المعنى، لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضاً، إن شاء أجب وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بد من إجابته، ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة، فإن المبادرة إلى إجابته واجبة، والمراجعة بغير إذنه محرمة، فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي دعاءه إياكم، وقد تقدم في الخصائص من المقصد الرابع عن مذهب الشافعي أن الصلاة لا تبطل بإجابته ﷺ .

[استئذانه]

ومن الأدب معه ﷺ أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع من خطبة أو جهاد، أو رباط، لم يذهب أحد مذهباً في حاجة له حتى يستأذنه، كما قال تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنه﴾^(٣). فإذا كان هذا مذهباً مقيداً لحاجة عارضة لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه، فكيف بمذهب مطلق في

(١) هذه الآية لم تذكر في ط.

(٢) سورة النور، الآية ٦٣.

(٣) سورة النور، الآية ٦٢.

تفاصيل الدين، أصوله وفروعه، دقيقه وجليله، هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه؟ ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾^(١).

[عدم استشكال قوله]

ومن الأدب معه ﷺ أنه لا يستشكل قوله، بل تستشكل الآراء بقوله، ولا يعارض نصه بقياس، بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال مخالف، يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول وعن الصواب معزول، ولا يتوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد، فكل هذا من قلة الأدب معه، وهو عين الجراءة عليه.

[التسليم والانقياد له]

ومن^(٢) الأدب معه ﷺ كمال التسليم له والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسميه [صاحبه]^(٣) معقولاً، أو يسميه شبهة، أو شكاً، أو يقدم عليه آراء الرجال وزبالات أذهانهم، فيوحد التحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما وحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل، فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما، توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا يتحاكم إلى غيره، ولا يرضى بحكم غيره، انتهى ملخصاً من «المدارج»^(٤) / والقرآن مملوء بالآيات المرشدة إلى الأدب معه ﷺ فلترجع.

(١) سورة النحل، الآية ٤٣.

(٢) في (أ، ش): ورأس.

(٣) في ش.

(٤) أي كتاب «مدارج السالكين» لابن القيم.

النوع التاسع

في آيات تتضمن رده تعالى بنفسه المقدسة على عدوه ﷺ ترفيحاً لشأنه قال الله تعالى: ﴿ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾^(١) لما قال المشركون: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾^(٢)، أجاب تعالى عنه عدوه بنفسه من غير واسطة، وهكذا سنة الأحباب، فإن الحبيب إذا سمع من يسب حبيبه تولى بنفسه - منتصراً له - جوابه، فهنا تولى الحق سبحانه وتعالى جوابهم بنفسه منتصراً له، لأن نصرته تعالى أتم من نصرته وأرفع لمنزلته، ورده أبلغ من رده وأثبت في ديوان مجده.

فأقسم تعالى بما أقسم به من عظيم آياته على تنزيه رسوله وحبيبه وخليله مما غمصته أعداؤه الكفرة به وتكذيبهم له بقوله: ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون، هو أو هم؟ وقد علموا هم والعقلاء ذلك في الدنيا، ويزداد علمهم به في البرزخ، وينكشف ويظهر كل الظهور في الآخرة بحيث يتساوى الخلق كلهم في العلم به. وقال تعالى: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾^(٣).

ولما رأى العاصي بن وائل السهمي النبي ﷺ يخرج من المسجد

(١) سورة القلم، الآية ١ - ٢.

(٢) سورة الحجر، الآية ٦.

(٣) سورة التكوير، الآية ٢٢.

وهو يدخل فالتقيا عند باب بني سهم وتحادثا، وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد، فلما دخل العاصي قالوا: من ذا الذي كنت تحدث معه، قال: ذلك الأبر، يعني النبي ﷺ، وكان قد توفي ابن لرسول الله ﷺ من خديجة، فرد الله تعالى عليه، وتولى جوابه بقوله: ﴿إن شئتك هو الأبر﴾^(١) أي عدوك ومبغضك هو الذليل الحقير.

ولما قالوا: ﴿أفترى على الله كذباً﴾^(٢) قال الله تعالى: ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد﴾^(٣).

ولما قالوا: ﴿لست مرسلأ﴾^(٤) أجاب الله تعالى عنه فقال: ﴿يس، والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين﴾^(٥).

ولما قالوا: ﴿أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون﴾ رد الله تعالى عليهم فقال: ﴿بل جاء بالحق وصدق المرسلين﴾ فصدقه ثم ذكر وعيد خصمائه فقال: ﴿إنكم لذائقو العذاب الأليم﴾^(٦).

ولما قالوا: ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾^(٧) رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾^(٨).

(١) سورة الكوثر، الآية ٣.

(٢) سورة سبأ، الآية ٨.

(٣) سورة سبأ، الآية ٨.

(٤) سورة الرعد، الآية ٤٣.

(٥) سورة يس، الآيات ١ - ٣.

(٦) سورة الصافات، الآيات ٣٦ - ٣٨.

(٧) سورة الطور، الآية ٣٠.

(٨) سورة يس، الآية ٦٩.

ولما حكى الله عنهم قولهم: ﴿إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون﴾ سهاهم الله تعالى كاذبين بقوله: ﴿فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾^(١). وقال: ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾^(٢).

ولما قالوا: يلقيه إليه شيطان قال الله تعالى: ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾^(٣) الآية.

ولما تلا عليهم نبأ الأولين قال النضر بن الحارث ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾^(٤) قال الله تعالى: تكذيباً لهم ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله﴾^(٥).

ولما قال الوليد بن المغيرة: ﴿إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر﴾^(٦) قال الله تعالى: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾^(٧) تسلياً له عليه الصلاة والسلام.

ولما قالوا: محمد قلاه ربه، رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾^(٨).

(١) سورة الفرقان، الآية ٤.

(٢) سورة الفرقان، الآية ٦.

(٣) سورة الشعراء، الآية ٢١٠.

(٤) سورة الأنفال، الآية ٣١.

(٥) سورة الإسراء، الآية ٨٨.

(٦) سورة المدثر، الآية ٢٤.

(٧) سورة الذاريات، الآية ٥٢.

(٨) سورة الضحى، الآية ٣.

ولما قالوا: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾^(١) قال الله تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾^(٢).

ولما حسدته أعداء الله اليهود على كثرة النكاح والزوجات، وقالوا: ما همته إلا النكاح، رد الله تعالى عليهم عن رسوله وناجح عنه فقال: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾^(٣).

ولما استبعدوا أن يبعث الله رسولاً من البشر بقولهم الذي حكى الله عنهم: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً﴾^(٤) وجهلوا أن / التجانس يورث التأنس، وأن التخالف يورث التباين. قال الله تعالى: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾^(٥) أي لو كانوا ملائكة لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة، لكن لما كان أهل الأرض من البشر وجب أن يكون رسولهم من البشر.

فما أجل هذه الكرامة، وقد كانت الأنبياء إنما يدافعون عن أنفسهم، ويردون على أعدائهم، كقول نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿يا قوم ليس بي ضلالة﴾^(٦)، وقول هود ﴿ليس بي سفاهة﴾^(٧) وأشباه ذلك.

(١) سورة الفرقان، الآية ٧.

(٢) سورة الفرقان، الآية ٢٠.

(٣) سورة النساء، الآية ٥٤.

(٤) سورة الإسراء، الآية ٩٤.

(٥) سورة الإسراء، الآية ٩٥.

(٦) سورة الأعراف، الآية ٦١.

(٧) سورة الأعراف، الآية ٦٧.

النوع العاشر

في إزالة الشبهات عن آيات
وردت في حقه ﷺ [مشكلات] ^(١) متشابهات

[﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾]

قال الله تعالى: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ ^(٢).

اعلم أنه قد اتفق العلماء على أنه ﷺ ما ضل لحظة واحدة قط،
وهل هو جائز عقلاً على الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - قبل
النبوة؟

قالت المعتزلة: هو غير جائز عقلاً لما فيه من التنفير.

وعند أصحابنا: أنه جائز في العقول، ثم يكرم الله من أراد
بالنبوة، إلا أن الدليل السمعي قام على أن هذا الجائز لم يقع لنبي،
قال الله تعالى: ﴿ما ضل صاحبكم وما غوى﴾ ^(٣) قاله الإمام فخر
الدين.

(١) لم ترد في (أ، ش) والأفضل عدمها لأن المشكلات ليست في الآيات وإنما

في فهمنا لها [المحقق].

(٢) سورة الضحى، الآية ٧.

(٣) سورة النجم، الآية ٢.

وقال الإمام أبو الفضل اليحصبى في «الشفاء»: والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته، والتشكك في شيء من ذلك، وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على [أسرار]^(١) إشراق أنوار المعارف، ونفحات ألطاف السعادة، ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نبئ واصطفي ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك، ومستند هذا الباب النقل.

ثم قال: وقد استبان لك بما قررناه ما هو الحق من عصمته ﷺ عن الجهل بالله وصفاته، أو كونه على حالة تنافي العلم بشيء من ذلك كله جملة بعد النبوة عقلاً وإجماعاً، وقبلها سمعاً ونقلًا، ولا بشيء مما قررناه من أمور الشرع وأداه عن ربه من الوحي قطعاً، عقلاً وشرعاً، وعصمته عن الكذب وخلف القول منذ نبأه الله وأرسله، قصداً وغير قصد، واستحالة ذلك عليه شرعاً وإجماعاً، ونظراً وبرهاناً، وتنزيهه عنه قبل النبوة قطعاً، وتنزيهه عن الكبائر إجماعاً، وعن الصغائر تحقيقاً، وعن استدامة السهو والغفلة [والشهوة]^(٢)، واستمرار الغلط والنسيان عليه فيما شرعه للأمة، وعصمته في كل حالاته من رضى وغضب، وجد ومزح، ما يجب لك أن تتلقاه باليمين، وتشد عليه يد الضنين، فإن من يجهل ما يجب للنبي ﷺ، أو يجوز أو يستحيل عليه، ولا يعرف صور أحكامه لا يأمن أن يعتقد في بعضها خلاف ما هو عليه، ولا ينزهه عما لا يجوز أن يضاف إليه، فيهلك من حيث لا يدري،

(١) زيادة في (ب، ط) وهي ليست في الشفاء وهو الأصل المنقول عنه انظر الشفاء ٢٥٧/٢.

(٢) زيادة في (أ، ط).

ويستقط في هوة الدرك الأسفل من النار، إذ ظن الباطل به واعتقاد ما لا يجوز عليه يحل صاحبه دار البوار.

وقد استدل بعض الأئمة على عصمتهم من الصغائر، بالمصير إلى امثال أفعالهم واتباع آثارهم وسيرتهم مطلقاً. وجمهور الفقهاء على ذلك من أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة في غير التزام قرينة بل مطلقاً عند بعضهم، وإن اختلفوا في حكم ذلك، فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم في أفعالهم، إذ ليس كل فعل من أفعاله يتميز مقصده من القربة والإباحة والحظر والمعصية. انتهى.

واختلف في تفسير هذه الآية على وجوه كثيرة:

أحدها: وجدك ضالاً عن معالم النبوة. وهو مروى عن ابن عباس والحسن والضحاك وشهر بن حوشب، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾^(١) أي ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان، قاله السمرقندي، وقال بكر القاضي: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام، فقد كان ﷺ / قبل مؤمناً بتوحيده، ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدرها قبل، فازداد بالتكاليف إيماناً، وسيأتي آخر هذا النوع مزيد لذلك إن شاء الله تعالى.

الثاني: من معنى قوله: (ضالاً) ما روي مرفوعاً مما ذكره الإمام فخر الدين: أنه ﷺ قال: ضللت عن جدي عبد المطلب وأنا صبي حتى كاد الجوع يقتلني فهداني الله.

الثالث: يقال: ضل الماء في اللبن إذا صار مغموراً، فمعنى

(١) سورة الشورى، الآية ٥٢.

الآية: كنت مغموراً بين الكفار بمكة فقواك الله حتى أظهرت دينه.

الرابع: أن العرب تسمى الشجرة الفريدة في الفلاة ضالة، كأنه تعالى يقول: كانت تلك البلاد كالمفازة ليس فيها شجرة تحمل ثمر الإيمان بالله تعالى ومعرفته إلا أنت، فأنت شجرة فريدة في مفازة الحمد.

الخامس: قد يخاطب السيد، والمراد قومه، أي وجد قومك ضالين فهداهم بك وبشرعك.

السادس: أي محباً لمعرفتي، وهو مروى عن ابن عطاء، والضال: المحب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾^(١) أي محبتك القديمة، ولم يريدوا هاهنا: في الدين، إذ لو قالوا ذلك في نبي الله لكفروا.

السابع: أي وجدك ناسياً فذكرك، وذلك ليلة المعراج نسي ما يجب أن يقال بسبب الهيبة، فهداه تعالى إلى كيفية الثناء حتى قال: لا أحصي ثناء عليك.

الثامن: أي وجدك بين أهل ضلال فعصمك من ذلك وهداك للإيمان وإلى إرشادهم.

التاسع: أي وجدك متحيراً في بيان ما أنزل إليك، فهداك لبيانه، كقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(٢) وهذا مروى عن الجنيد.

العاشر: عن علي أنه عليه السلام قال: ما هممت بشيء مما كان أهل

(١) سورة يوسف، الآية ٩٥.

(٢) سورة النحل، الآية ٤٤.

الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد، ثم ما هممت بعدهما بشيء حتى أكرمني الله برسالته. قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى بأعلى مكة: لو حفظت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب، فخرجت حتى أتيت أول دار من دور أهل مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير فجلست أنظر إليهم وضرب الله على أذني فنتمت، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك فضرب الله علي أذني فما أيقظني إلا مسُّ الشمس، ثم ما هممت بعدهما بسوء حتى أكرمني الله برسالته.

[﴿ووضعنا عنك وزرك﴾]

وأما قوله تعالى: ﴿ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك﴾^(١).

فقد احتج بها جماعة من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين المجوزين للصغائر على الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وبظواهر كثيرة من القرآن والحديث، إن التزموا ظواهرها أفضت بهم - كما قال القاضي عياض - إلى تجويز الكبائر، وخرق الإجماع، وما لا يقول به مسلم، فكيف وكلما احتجوا به منها مما اختلف المفسرون في معناه، وتقابلت الاحتمالات في مقتضاه. وجاءت الأقاويل فيها للسلف بخلاف ما التزموه من ذلك. فإذا لم يكن مذهبهم إجماعاً، وكان الخلاف فيما احتجوا به قديماً، وقامت الدلالة على خطأ قولهم، وصحة غيره، وجب تركه والمصير إلى ما صح، انتهى.

(١) سورة الشرح، الآية ٢ - ٣.

وقد اختلف في هذه الآية:

فقال أهل اللغة: الأصل فيه أن الظهر إذا أثقله الحمل سمع له نقيض، أي صوت كصوت المحامل والرحال، وهذا مثل لما كان يثقل على رسول الله ﷺ من أقداره^(١).

وقيل: المراد منه تخفيف أعباء البنية التي يثقل الظهر القيام بأمرها، وحفظ موجباتها^(٢)، والمحافظة على حقوقها، فسهل الله ذلك عليه، وحط عنه ثقلها بأن يسرها عليه حتى تسرت له.

وقيل الوزر: ما كان يكرهه من تغييرهم لسنة الخليل عليه السلام، وكان لا يقدر على منعهم إلى أن قواه الله تعالى وقال له: ﴿اتبع ملة إبراهيم﴾^(٣).

وقيل: معناه عصمناك من الوزر الذي أنقض ظهرك لو كان ذلك الذنب حاصلًا، فسمى الله العصمة «وضعاً»^(٤) مجازاً، ومن ذلك ما في الحديث أنه ﷺ حضر وليمة فيها دف ومزامير قبل البعثة فضرب الله على أذنه فما أيقظه إلا حر الشمس من الغد.

وقيل: ثقل شغل شرك وحيرتك وطلب شريعتك، حتى شرعنا لك ذلك.

وقيل معناه: خففنا عليك ما حملت بحفظنا لما استحفظت وحفظ عليك، ومعنى (أنقض) أي كاد ينقضه. قال القاضي: فيكون المعنى

(١) أي مقادير ما كلفه.

(٢) في ط: حياتها.

(٣) سورة النحل، الآية ١٢٣.

(٤) إشارة إلى قوله تعالى ﴿ووضعنا﴾ [م].

على من جعل ذلك لما قبل النبوة: اهتمام النبي ﷺ بأمر فعلها قبل نبوته وحرمت عليه بعد النبوة فعدّها أوزاراً وثقلت عليه وأشفق منها.

وقيل: إنها ذنوب أمته صارت كالوزر عليه، فأمنه الله تعالى من عذابهم في العاجل بقوله: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾^(١) ووعدّه الشفاعة في الآجل.

[﴿ليغفر لك الله﴾]

وأما قوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾^(٢).

فقال ابن عباس: أي أنك مغفور لك غير مؤاخذ بذنب أن لو كان.

وقال بعضهم: أراد غفران ما وقع وما لم يقع، أي أنك مغفور لك.

وقيل: المراد ما كان عن سهو وغفلة وتأويل، حكاة الطبري واختاره القشيري.

وقيل: ما تقدم لأبيك آدم وما تأخر من ذنوب أمتك، حكاة السمرقندي والسلمي عن ابن عطاء.

وقيل: المراد أمته.

وقيل: المراد بالذنب ترك الأولى، كما قيل: حسنات الأبرار

(١) سورة الأنفال، الآية ٣٣.

(٢) سورة الفتح، الآية ٢.

سيآت المقربين، وترك الأولى ليس بذنب، لأن الأولى وما يقابله
مشتركان في إباحة الفعل.

وقال السبكي: قد تأملتها - يعني الآية - مع ما قبلها وما بعدها
فوجدتها لا تحتمل إلا وجهاً واحداً، وهو تشریف النبي ﷺ من غير أن
يكون هناك ذنب، ولكنه أريد أن يستوعب في الآية جميع أنواع النعم -
من الله على عباده - الأخروية، وجميع النعم الأخروية شيئاً: سلبية
وهي غفران الذنوب، وثبوتية وهي لا تنهاى، أشار إليها بقوله: ﴿ويتم
نعمته عليك﴾^(١)، وجميع النعم الدنيوية شيئاً: دينية وأشار إليها
بقوله ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾^(٢)، ودنيوية وهي قوله: ﴿وينصرك الله
نصراً عزيزاً﴾^(٣)، فانتظم بذلك تعظيم قدر النبي ﷺ بإتمام أنواع نعم
الله تعالى عليه المتفرقة في غيره، ولهذا جعل ذلك غاية للفتح المبين
الذي عظمه وفخمه بإسناده إليه بنون العظمة^(٤)، وجعله خاصاً بالنبي
ﷺ بقوله: (لك)

وقد سبق إلى نحو هذا ابن عطية فقال؛ وإنما المعنى التشریف
بهذا الحكم، ولم تكن ذنوب ألبتة.

ثم قال^(٥): وعلى تقدير الجواز لا شك ولا ارتياب أنه لم يقع منه
ﷺ، وكيف يتخيل خلاف ذلك ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا
وحي يوحى﴾^(٦).

(١) سورة الفتح، الآية ٢.

(٢) سورة الفتح، الآية ٢.

(٣) سورة الفتح، الآية ٣.

(٤) في قوله تعالى ﴿إنا فتحنا﴾.

(٥) أي السبكي.

(٦) سورة النجم، الآية ٤.

وأما الفعل^(١): فإجماع الصحابة على اتباعه والتأسي به في كل ما يفعله من قليل أو كثير، أو صغير أو كبير لم يكن عندهم في ذلك توقف ولا بحث، حتى أعماله في السر والخلوة يحرصون على العلم^(٢) بها وعلى اتباعها، علم بهم أو لم يعلم، ومن تأمل أحوال الصحابة معه ﷺ استحى من الله أن يخطر بباله خلاف ذلك، انتهى.

[يا أيها النبي اتق الله] ❖

وأما قوله تعالى: ❖ يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ❖^(٣).

فلا مرية أنه ﷺ أتقى الخلق، والأمر بالشيء لا يكون إلا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به، إذ لا يصلح أن يقال للجالس اجلس، ولا للساكت اسكت، ولا يجوز عليه أن لا يبلغ، ولا أن يخالف أمر ربه، ولا أن يشرك، ولا أن يطيع الكافرين والمنافقين، حاشاه الله من ذلك، وإنما أمره الله تعالى بتقوى توجب استدامة الحضور.

وأجاب بعضهم عن هذا أيضاً بأنه ﷺ كان يزداد علمه [بالله تعالى]^(٤)، ومرتبته، حتى كان حاله ﷺ فيما مضى بالنسبة إلى ما هو فيه ترك/ للأفضل، فكان له في كل ساعة تقوى تتجدد.

(١) أسقط المصنف من كلام السبكي قوله: وأحواله ﷺ منقسمة إلى قول

وفعل: أما القول فقال تعالى: ❖ وما ينطق عن الهوى ❖ وأما الفعل...

(٢) في ط: العمل.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ١.

(٤) زيادة في ش.

وقيل: المراد دم على التقوى. فإنه يصح أن يقال للجالس: اجلس هاهنا إلى أن آتيك، وللساكت: قد أصبت فاسكت تسلم، أي دم على ما أنت عليه.

وقيل: الخطاب مع النبي ﷺ والمراد أمته، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(١)، ولم يقل بما تعمل.

[﴿فلا تطع المكذبين﴾]

وأما قوله تعالى: ﴿فلا تطع المكذبين﴾^(٢).

فاعلم أنه تعالى لما ذكر ما عليه الكفار في أمره ﷺ، ونسبته إلى ما نسبوه إليه، مع ما أنعم الله به عليه من الكمال في أمر الدين والخلق العظيم، أتبعه بما يقوي قلبه ويدعوه إلى التشديد مع قومه، وقوى^(٣) قلبه بذلك مع قلة العدد وكثرة الكفار، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل فقال: ﴿فلا تطع المكذبين﴾ والمراد رؤساء الكفار من أهل مكة، وذلك أنهم دعوه إلى دينهم، فناه الله أن يطيعهم، وهذا من الله تهييج للتشديد في مخالفتهم.

[﴿فإن كنت في شك﴾]

وأما قوله تعالى: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك﴾^(٤)، الآية.

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢.

(٢) سورة القلم، الآية ٨.

(٣) في ط: وتقوى.

(٤) سورة يونس، الآية ٩٤.

فاعلم أن المفسرين اختلفوا فيمن المخاطب بهذا: فقال قوم
المخاطب به النبي ﷺ ، وقال آخرون: المخاطب به غيره .

فأما من قال بالأول فاختلفوا على وجوه:

الأول: أن الخطاب مع النبي ﷺ في الظاهر والمراد غيره، كقوله
تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾^(١) وكقوله: ﴿لئن أشركت
ليحبطن عملك﴾^(٢)، وكقوله لعيسى ابن مريم - عليها السلام -:
﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾^(٣) ومثل هذا
معتاد، فإن السلطان إذا كان له أمير، وكان تحت راية ذلك الأمير
جمع، فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص فإنه لا يوجه خطابه
إليهم، بل يوجهه إلى ذلك الأمير ليكون ذلك أقوى تأثيراً في قلوبهم .

الثاني: قال الفراء: علم الله تعالى أن رسوله ﷺ غير شك،
ولكن هذا كما يقول الرجل لولده: إن كنت ابني فبرني، ولعبده: إن
كنت عبدي فأطعني .

الثالث: أن يقال لضيق الصدر شك، يقول: إن ضقت ذرعاً
بما تعاني من تعنتهم وأذاهم فاصبر واسأل الذين يقرؤون الكتاب من
قبلك كيف صبر الأنبياء على أذى قومهم، وكيف كان عاقبة أمرهم من
النصر، فالمراد تحقيق ذلك والاستشهاد^(٤) بما في الكتب المتقدمة، وأن
القرآن مصدق لما فيها^(٥)، أو تهيج الرسول ﷺ وزيادة تثبته، أو

(١) سورة الطلاق، الآية ١ .

(٢) سورة الزمر، الآية ٦٥ .

(٣) سورة المائدة، الآية ١١٦ .

(٤) في (ب): الاستمسك .

(٥) كذا في (د) وفي النسخ فيه . قال الشارح: راجع لـ«ما» وصح ذلك رعاية
للفظ «ما» وإن كان مدلولها متعدداً .

يكون على سبيل الفرض والتقدير، لا إمكان وقوع الشك له، ولذلك قال ﷺ لما نزلت هذه الآية: والله لا أشك ولا أسأل^(١).

وأما الوجه الثاني - وهو أن المخاطب غيره ﷺ - فتقريره: أن الناس كانوا في زمانه ﷺ فرقاً ثلاثة: المصدقون به، والمكذبون له، والمتوقفون في أمره الشاكون فيه فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب فقال: فإن كنت في شك أيها الإنسان مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان نبينا ﷺ فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾^(٢) و﴿يا أيها الإنسان إنك كادح﴾^(٣) و﴿إذا مس الإنسان ضر﴾^(٤) فإن المراد «بالإنسان» هنا الجنس، لا إنسان بعينه، فكذا هنا، ولما ذكر الله تعالى لهم ما يزيل ذلك الشك حذرهم من أن يلحقوا بالقسم الثاني وهم المكذبون فقال: ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكونن من الخاسرين﴾^(٥).

[﴿فلا تكونن من الممترين﴾]

وأما قوله تعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين﴾^(٦).

أي في أنهم لا يعلمون ذلك، أو يكون المراد: قل لمن امترى يا

(١) رواه ابن جرير عن قتادة مرسلأً، لكن بدون قسم.

(٢) سورة الانفطار، الآية ٦.

(٣) سورة الانشقاق، الآية ٦.

(٤) سورة الزمر، الآية ٨.

(٥) سورة يونس، الآية ٩٥.

(٦) سورة الأنعام، الآية ١١٤.

محمد، لا تكونن من الممترين [فليس الخطاب له] (١) وأنه ﷺ يخاطب به غيره. وقيل غير ذلك.

[﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾]

وأما قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ (٢).

فقال القاضي عياض: لا يلتفت إلى قول من قال: لا تكونن ممن يجهل أن الله تعالى لو شاء لجمعهم على الهدى، إذ فيه إثبات الجهل بصفة من صفاته تعالى، وذلك لا يجوز على الأنبياء، والمقصود وعظهم أن لا يتشبهوا في أمورهم بسماة الجاهلين، وليس في الآية دليل على كونه على تلك الصفة التي نهى الله عن الكون عليها، فأمره [الله تعالى] (٣) بالتزام الصبر على إعراض قومه، ولا يجرح عند ذلك فيقارب حال الجاهل بشدة التحسر. حكاه أبو بكر بن فورك.

وقيل: معنى الخطاب لأمته ﷺ، أي فلا تكونوا من الجاهلين. حكاه أبو محمد مكي، قال: ومثله في القرآن كثير، وكذلك قوله تعالى: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض﴾ (٤) فالمراد غيره، كما قال تعالى: ﴿إن تطيعوا الذين كفروا﴾ (٥)، وقوله تعالى: ﴿فإن يشأ الله يختم على

(١) زيادة في ش.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٣٥.

(٣) زيادة في ش.

(٤) سورة الأنعام، الآية ١١٦.

(٥) سورة آل عمران، الآية ١٤٩.

قلبك ﴿١﴾ و﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ ﴿٢﴾ وما أشبه ذلك فالمراد غيره، وأن هذه حال من أشرك، والنبي ﷺ لا يجوز عليه هذا، والله تعالى ينهاه عما يشاء ويأمره بما يشاء ﴿٣﴾، كما قال تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ ﴿٤﴾ الآية، وما طردهم ﷺ وما كان من الظالمين.

[﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾]

وأما قوله تعالى: ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ ﴿٥﴾.

فليس بمعنى قوله ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ ﴿٦﴾، وإنما المعنى: لمن الغافلين عن قصة يوسف، إذ لم تخطر ببالك، ولم تفرح سمعك قط، فلم تعلمها إلا بوحينا.

[﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ...﴾]

وأما قوله تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله﴾ ﴿٧﴾ الآية.

فمعناه: يستخفك غضب ﴿٨﴾ يملك على ترك الإعراض عنهم.

(١) سورة الشورى، الآية ٢٤.

(٢) سورة الزمر، الآية ٦٥.

(٣) في ط: يريد.

(٤) سورة الأنعام، الآية ٥٢.

(٥) سورة يوسف، الآية ٣.

(٦) سورة يونس، الآية ٧.

(٧) سورة الأعراف، الآية ٢٠٠.

(٨) في ش: بغضب.

والنزغ: أدنى حركة تكون، كما قاله الزجاج.

فأمره الله تعالى أنه متى تحرك عليه غضب على عدوه، أو رام الشيطان من إغرائه به وخواطر أدنى وساوسه ما لم يجعل له سبيل إليه أن يستعيد به تعالى منه، فيكفي أمره، ويكون سبب تمام عصمته، إذ لم يسلط عليه بأكثر من التعرض له، ولم يجعل له قدرة عليه. وكذلك لا يصح أن يتصور له الشيطان في صورة الملك ويلبس عليه، لا في أول الرسالة ولا بعدها بل لا يشك النبي أن ما يأتيه من الله هو الملك ورسوله حقيقة إما بعلم ضروري يخلقه الله له أو ببرهان يظهر لديه كما قدمته في المقصد الأول عند البعثة، لتتم كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته.

[﴿إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾]

وأما قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾^(١) الآية.

فأحسن ما قيل فيها ما عليه جمهور المفسرين^(٢): أن التمني المراد به هنا: التلاوة، وإلقاء الشيطان فيها إشغاله بخواطر وأذكار من أمور الدنيا للتالي حتى يدخل الوهم عليه والنسيان فيما تلاه، أو يدخل غير ذلك على أفهام السامعين من التحريف وسوء التأويل ما يزيله الله وينسخه ويكشف لبهه ويحكم آياته. قاله القاضي عياض، وقد تقدم في المقصد الأول مزيد لذلك.

(١) سورة الحج الآية ٥٢.

(٢) بل ما قاله سيد قطب - رحمه الله - في الظلال أحسن منه [م].

قال في الشفاء: وأما قوله ﷺ حين نام عن الصلاة يوم الوادي: (إن هذا وادٍ به شيطان)^(١) فليس فيه ذكر تسلطه عليه ولا وسوسته له، بل إن كان بمقتضى ظاهره فقد بين أمر ذلك الشيطان بقوله: إن الشيطان أتى بلالاً، فلم يزل يهديه كما يهدى^(٢) الصبي حتى نام، فاعلم أن تسلط الشيطان في ذلك الوادي إنما كان على بلال الموكل بكلاءة الفجر، هذا إن جعلنا قوله «إن هذا وادٍ به شيطان» تنبيهاً على سبب النوم عن الصلاة، وأما إن جعلناه تنبيهاً على سبب الرحيل عن الوادي وعله لترك الصلاة به، وهو دليل مساق حديث زيد بن أسلم فلا اعتراض به في هذا الباب، لبيانه وارتفاع إشكاله.

[عَبَسَ وَتَوَلَّى]

قال [عياض]^(٣): وأما قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾^(٤) الآيات، فليس فيها إثبات ذنب له ﷺ . بل إعلام الله له أن ذلك المتصدى له ممن لا يتزكى، وأن الصواب والأولى كان لو كشف له حال الرجلين لاختار الاقبال على الأعمى وفعل / النبي ﷺ لما فعل وتصديه لذلك الكافر كان طاعة لله، وتبليغاً عنه، واستثلاًفاً له، كما شرعه الله، لا معصية ولا مخالفة له، وما قصه الله عليه من ذلك إعلام بحال الرجلين، وتوهين^(٥) أمر الكافر عنده، والإشارة إلى الإعراض عنه بقوله: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكِي﴾^(٦) أي ليس عليك بأس

١/٢٦٥

(١) رواه مالك ومسلم بلفظ (إن هذا منزل حضرنا فيه شيطان).

(٢) يهديه: يسكنه وينومه من هدت الصبي إذا وضعت عليه يدك لينام.

(٣) زيادة في ش، وفي ط: أي القاضي.

(٤) سورة عبس، الآية ١ - ٢.

(٥) في ط: توهيم.

(٦) سورة عبس، الآية ٧.

في أن لا يتزكى بالإسلام، أي لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم أن تعرض عن أسلم بالاشتغال بدعوتهم، إن عليك إلا البلاغ.

وقد كان ابن أم مكتوم يستحق التأديب والزجر، لأنه - وإن فقد بصره - كان يسمع مخاطبة الرسول ﷺ لأولئك الكفار، وكان يعرف بواسطة استماع تلك الكلمات شدة اهتمامه ﷺ بشأنهم، فكان إقدامه على قطع كلامه ﷺ إيذاء له ﷺ وذلك معصية عظيمة. فثبت أن فعل ابن أم مكتوم كان ذنباً ومعصية^(١)، وأن الذي فعله الرسول ﷺ كان هو الواجب المتعين. وقد كان ﷺ مأذوناً له في تأديب أصحابه، ولكن ابن أم مكتوم بسبب عماء استحق مزيد الرفق به.

[﴿عفا الله عنك﴾]

وأما قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾^(٢) الآية.

فروى ابن أبي حاتم عن مسعر عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبه أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبه، وكذا قال مورك العجلي^(٣) وغيره.

وقال قتادة: عاتبه الله كما تسمعون ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال: ﴿فإذا استأذنونك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم﴾^(٤) ففوض الأمر إلى رأيه ﷺ.

(١) هذا الكلام فيه نظر، إذ الآيات لم تشر إلى هذا، بل كان ﷺ إذا دخل عليه ابن أم مكتوم بعدها ييسط له رداءه ويقول: مرحبا بمن عاتبني فيه ربي [المحقق].

(٢) سورة التوبة، الآية ٤٣.

(٣) تابعي ثقة عابد مات سنة اثنتين ومائة.

(٤) سورة النور، الآية ٦٢.

وقال عمرو بن ميمون^(١): اثنتان فعلهما الرسول ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من الأسرى، فعاتبه الله كما تسمعون. وأما قول بعضهم إن هذه الآية تدل على أنه وقع من الرسول ذنب لأنه تعالى قال: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ والعفو يستدعي سالفه ذنب، وقول الآخر^(٢): ﴿لم أذنت لهم﴾ استفهام بمعنى الإنكار، فاعلم: أنا لا نسلم أن قوله تعالى: ﴿عفا الله عنك﴾ يوجب ذنباً، ولم لا يقال إن ذلك يدل على مبالغة الله تعالى في توقيره وتعظيمه، كما يقول الرجل لغيره إذا كان عظيماً عنده: عفا الله عنك، ما صنعت في أمري ورضي الله عنك ما جوابك عن كلامي، وعافاك الله ألا عرفت حقي، فلا يكون غرضه من هذا الكلام إلا زيادة التبجيل والتعظيم، وليس (عفا) هنا بمعنى: غفر، بل كما قال ﷺ: (عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق)^(٣) ولم تجب عليهم قط، أي لم يلزمكم ذلك.

ونحوه للقشيري قال: وإنما يقول العفو لا يكون إلا عن ذنب من لا يعرف كلام العرب، قال: ومعنى عفا الله عنك أي لم يلزمك ذنباً.

وأما الجواب عن الثاني^(٤) فيقال: إما أن يكون صدر من الرسول ﷺ ذنب أم لا؟ فإن قلنا: لا، امتنع على هذا التقدير أن يكون قوله: ﴿لم أذنت لهم﴾ إنكاراً عليه، وإن قلنا إنه قد صدر عنه

(١) ثقة فاضل من رواة الجماعة مات سنة سبع وأربعين ومائة.

(٢) أي وقول الآخر في قوله تعالى.

(٣) رواه أبو داود والترمذي والنسائي عن علي مرفوعاً.

(٤) أي الجواب على من قال إن (لم أذنت لهم) استفهام بمعنى الإنكار [م].

ذنب - وحاشاه الله من ذلك - فقوله: ﴿عفا الله عنك﴾ يدل على حصول العفو، وبعد العفو يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه، فثبت أنه على جميع التقادير يمتنع أن يقال: إن قوله: ﴿لم أذنت لهم﴾ يدل على كون الرسول مذنباً، وهذا جواب كاف شاف قاطع، وعند هذا يحمل قوله لم أذنت لهم على ترك الأولى والأكمل. بل لم يعد هذا أهل العلم معاتبه، وغلطوا من ذهب إلى ذلك. قال نبطويه^(١): ذهب ناس إلى أن النبي ﷺ معاتب بهذه الآية، وحاشاه الله من ذلك، بل كان مخيراً، فلما أذن لهم أعلمه الله أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا لنفاقهم، وأنه لا حرج عليه في الإذن.

[﴿تريدون عرض الدنيا﴾]

وأما قوله تعالى في أسارى بدر: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾ إلى قوله: ﴿عظيم﴾^(٢).

فروى مسلم من أفراد من حديث عمر بن الخطاب قال: لما هزم الله المشركين يوم بدر، وقتل منهم سبعون وأسر/ سبعون، استشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً، فقال أبو بكر: يا نبي الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال: قلت والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنني من فلان قريب

(١) هو لقب لإبراهيم بن محمد الأزدي النحوي مات سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة.

(٢) سورة الأنفال، الآيتان ٦٧ - ٦٨.

لعمر فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هودة للمشركين، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، فأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما يبكيان فقلت يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تبكيت، فقال النبي ﷺ: أبكي للذي عرض علي أصحابك من الفداء، لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة، لشجرة قريبة فأنزل الله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾ إلى قوله ﴿عظيم﴾ (١).

وقوله: ﴿حتى يثخن في الأرض﴾: أي يكثر القتل ويبالغ فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه، ويعز الإسلام ويستولي أهله.

وليس في هذا إلزام ذنب للنبي ﷺ، بل فيه بيان ما خص به وفضل من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فكأنه قال: ما كان هذا لنبي غيرك. قال ﷺ: (أحلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي)

وأما قوله: ﴿تريدون عرض الدنيا﴾ فقول المراد بالخطاب من أراد ذلك منهم وتجرد غرضه لعرض الدنيا وحده، والاستكثار منها، وليس المراد بهذا النبي ﷺ ولا عليه أصحابه.

بل قد روي عن الضحاك أنها نزلت حين انهزم المشركون يوم بدر واشتغل الناس بالسلب وجمع الغنائم عن القتال حتى خشي عمر أن يعطف عليهم العدو.

(١) رواه مسلم، كتاب الجهاد رقم الحديث ٥٨.

ثم قال تعالى: ﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ فاختلف المفسرون في معنى هذه الآية:

ف قيل معناها: لولا أنه سبق مني أن لا أعذب أحداً إلا بعد النهي لعذبتكم، فهذا ينفي أن يكون أمر الأسرى معصية.

وقيل: لولا إيمانكم بالقرآن، وهو الكتاب السابق، فاستوجبتم به الصفح لعوقبتكم على الغنائم.

وقيل: لولا أنه سبق في اللوح المحفوظ أنها حلال لكم لعوقبتكم.

وهذا كله ينفي الذنب والمعصية، لأن من فعل ما أحل له لم يعص، قال الله تعالى: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾.

وقيل: بل كان ﷺ قد خير في ذلك، وقد روي عن علي قال: جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ يوم بدر فقال: خير أصحابك في الأسارى إن شأؤوا القتل وإن شأؤوا الفداء على أن يقتل منهم في العام المقبل مثلهم فقالوا الفداء ويقتل منا^(١)، وهذا دليل على أنهم لم يفعلوا إلا ما أذن لهم فيه. لكن بعضهم مال إلى أضعف الوجهين مما كان الأصح غيره من الإثخان والقتل فعوتبوا على ذلك وبين لهم ضعف اختيارهم وتصويب اختيار غيرهم، وكلهم غير عصاة ولا مذنبين.

قال القاضي بكر بن العلاء: أخبر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية أن تأويله وافق ما كتب له من إحلال الغنائم والفداء، وقد كان قبل هذا فادى في سرية عبدالله بن جحش التي قتل فيها ابن الحضرمي بالحكم بن كيسان وصاحبه، فما عتب الله ذلك عليهم،

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح.

وذلك قبل بدر بأزيد من عام، فهذا كله يدل على أن فعل النبي ﷺ في شأن الأسارى كان على تأويل وبصيرة على ما تقدم قبل ذلك مثله فلم ينكره الله عليه. لكن الله تعالى أراد لعظم أمر بدر وكثرة أسرارها - والله تعالى أعلم - إظهار نعمته وتأكيد منته بتعريفهم ما كتبه في اللوح المحفوظ من حل ذلك لا على وجه عتاب أو إنكار أو تذنيب/ قاله القاضي عياض^(١).

١/٢٦٦

[﴿لقد كدت تركز إليهم﴾]

وأما قوله تعالى: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً، إذأ لأذقناك ضعف الحياة وضعف المات﴾^(٢) الآية.

فالمعنى: لولا أن ثبتناك لقاربت أن تميل إلى اتباع مرادهم، لكن أدركتك عصمتنا فمنعت أن تقرب فضلاً عن أن تركز إليهم. وهو صريح في أنه ﷺ ما همَّ بإجابتهم مع قوة الدواعي إليها، فالعصمة بتوفيق الله وحفظه، ولو قاربت لأذقناك ضعف الحياة وضعف المات، أي ضعف ما يعذب به في الدارين بمثل هذا الفعل غيرك، لأن خطأ الخطير أخطر، وقد أعاده الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه. وما يعزى للحريري مما يؤيد ذلك قوله:

أنحوي هذا العصر ما هي لفظة جرت في لساني جرهم وثمود
إذا استعملت في صورة الجحد أثبتت وإن اثبتت قامت مقام جحود

وفسر الأول وهو النفي المثبت بنحو ﴿ذبحوها وما كادوا

(١) من قوله: «وليس في هذا إلزام...».

(٢) سورة الإسراء، الآية ٧٤.

يفعلون ﴿١﴾ والثاني وهو الثبوت المنفي بنحو قوله تعالى ﴿لقد كدت
تركن ﴿ قالوا: وهو ﷺ ثبت قلبه ولم يركن .

[﴿ولو تقول علينا .﴾]

وأما قوله تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه
باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾ (٢) .

فالمعنى: لو افترى علينا بشيء من عند نفسه لأخذنا منه باليمين
وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه، وقد أعاده الله من التقول عليه .

فإن قلت: لا مرية أنه يعفى للمحب ولصاحب المحاسن
والإحسان العظيم ما لا يعفى لغيره، ويسامح بما لا يسامح به غيره،
كما قال الشاعر:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

ولا شك أن نبينا ﷺ هو الحبيب الأعظم ذو المحاسن والإحسان
الأكبر، فما هذه العقوبة المضاعفة والتهديد الشديد الوارد إن وقع منه
ما يكره، وكم من راكن إلى أعدائه ومتقول عليه من قبل نفسه لم يعبأ
به كأرباب البدع ونحوهم؟

فالجواب: أنه لا تنافي بين الأمرين، فإن من كملت عليه نعمة
الله، واختصه منها بما لم يختص به غيره، وأعطاه منها ما لم يعط غيره،
فجابه بالإنعام وخصه بمزيد القرب والإكرام اقتضت حالته من حفظ
مرتبة القرب والولاية والاختصاص أن تراعى مرتبته عن أدنى مشوش

(١) سورة البقرة، الآية ٧١ .

(٢) سورة الحاقة، الآية ٤٦ .

وقاطع، فلشدة الاعتناء به ومزيد تقريبه واتخاذ نفسه واصطفائه على غيره تكون حقوق وليه وسيده عليه أتم ونعمه عليه أكمل، فالمطلوب منه فوق المطلوب من غيره، فهو إذا غفل أو أخل بمقتضى مرتبته به بما لم ينه عليه البعيد، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك البعيد أيضاً، فيجتمع في حقه الأمران. وإذا أردت معرفة اجتماعها وعدم تناقضهما فالواقع شاهد بذلك، فإن الملك يسامح خاصته وأولياءه بما لا يسامح به من ليس في منزلتهم، ويؤاخذهم بما لا يؤاخذ به غيرهم. وأنت إذا كان لك عبدان أو ولدان أحدهما أحب إليك من الآخر وأقرب إلى قلبك وأعز عليك عاملته بهذين الأمرين، واجتمع في حقه المعاملتان بحسب قربه منك، وحبك له وعزته، فإذا نظرت إلى إكمال إحسانك إليه وإتمام نعمك عليه اقتضت معاملته بما لم تعامل به من هو دونه من التنبيه وعدم الإهمال. وإذا نظرت إلى محبته لك وطاعته وخدمته وكمال عبوديته ونصحته، وهبت له وساحته وعفوت عنه بما لا تفعله مع غيره. فالمعاملتان بحسب ما بينك وبينه.

وقد ظهر اعتبار هذا المعنى في الشرع، حيث جعل حد من أنعم عليه بالتزويج إذا تعداه إلى الزنا الرجم، وحد من لم يعطه هذه النعمة الجلد، وكذلك ضاعف الحد على الحر الذي قد ملكه نفسه وأتم عليه نعمته ولم يجعله مملوكاً لغيره، وجعل حد العبد المنقوص بالرق - الذي لم يجعل له هذه النعمة - نصف ذلك. فسبحان من بهرت حكمته في خلقه.

فلله سر تحت كل لطيفة فأخو البصائر غائص يتعقل
/ انتهى ملخصاً.

ب/ ٢٦٦

[﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾]

وأما قوله تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾^(١).

ف قيل: معناه ما كنت تدري الإيمان على التفصيل الذي شرع لك في القرآن.

وقال أبو العالية: هو بمعنى الدعوة إلى الإيمان، لأنه كان قبل الوحي لا يقدر أن يدعو إلى الإيمان بالله تعالى.

وقيل: معناه أنه ما كان يعرف الإيمان حين كان في المهد وقبل البلوغ. حكاه الماوردي والواحدي والقشيري.

وقيل: إنه من باب حذف المضاف، أي ما كنت تدري أهل الإيمان، أي من الذي يؤمن، أبو طالب، أو العباس، أو غيرهما.

وقيل: المراد به شرائع الإيمان ومعالمه وهي كلها إيمان، وقد سمي الله الصلاة إيماناً بقوله: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾^(٢) أي: صلاتكم إلى بيت المقدس، فيكون اللفظ عاماً والمراد الخصوص. قاله ابن قتيبة وابن خزيمة.

وقد اشتهر في الحديث أنه ﷺ كان يوحد الله ويبغض الأوثان ويحج ويعتمر.

وروى أبو نعيم وابن عساكر عن علي قال: قيل للنبي ﷺ هل عبدت وثناً قط؟ قال لا، قيل: فهل شربت خمرأ قط؟ قال: لا، وما

(١) سورة الشورى، الآية ٥٢.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر. وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان.

وعن عائشة: كانت قريش ومن دان دينها، وهم الحمس، يقفون بمزدلفة ويقولون: نحن أهل الحرم. رواه الشيخان.

وكان رسول الله ﷺ في الجاهلية يقف بعرفات دونهم توفيقاً من الله تعالى. رواه البيهقي وأبو نعيم من حديث جبير بن مطعم^(١).

وقد ورد أن العرب لم يزلوا على بقايا من دين إسماعيل، كحج البيت والختان والغسل من الجنابة، وكان ﷺ لا يقرب الأوثان ويعيها، ولا يعرف شرائع الله التي شرعها لعباده على لسانه، فذلك قوله تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ ولم يرد الإيمان الذي هو الإقرار بالله، لأن آباءه الذين ماتوا على الشرك كانوا يؤمنون بالله ويحجون مع شركهم، والله أعلم.

(١) من قوله «وعن عائشة» لم تذكر في (ش).

المقصد السابع

في وجوب محبته واتباع سنته والاهتداء بهديه وطريقته وفرض
محبة آله وأصحابه وقرابته وعترته، وحكم الصلاة والتسليم عليه زاده
الله فضلاً وشرفاً لديه . وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول

في وجوب محبته واتباع سنته
والاقتداء بهديه وسيرته ﷺ

[التعريف بالمحبة]

اعلم أن المحبة - كما قال صاحب «المدارج» - هي المنزلة التي يتنافس فيها المتنافسون، وإليها يشخص العاملون، وإلى علمها شمر السابقون، وعليها تفانى المحبون، وبروح نسيمها تروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح وقرّة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام. واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام، وهي روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال التي متى خلت^(١) منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه، تحمل أثقال السائرين إلى بلد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيه، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا أبداً بدونها واصليها، وتبوئهم من مقاعد الصدق إلى مقامات لم يكونوا لولا هي داخلها، وهي مطايا القوم التي سراهم في ظهورها دائماً إلى الحبيب، وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب، تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب، وقد قدر الله

(١) في ط: خلصت.

يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب،
فيا لها من نعمة على المحبين سابغة، لقد سبق القوم السعاة وهم على
ظهور الفرش نائمون، ولقد تقدموا الركب بمراحل وهم في سيرهم
واقفون.

من لي بمثل سيرك المذل تمشى رويداً وتجي في الأول
أجابوا مؤذن الشوق إذ نادى بهم حي على الفلاح، وبذلوا
أنفسهم في طلب الوصول إلى محبوبهم، وكان/ بذلهم بالرضي
والسماح، وواصلوا إليه المسير بالإدلاج والغدو والرواح، ولقد حمدوا
عند وصولهم مسراهم، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح^(١).

١/٢٦

[تعريف المحبة]

وقد اختلفوا في تعريف المحبة، وعباراتهم وإن كثرت فليست في
الحقيقة ترجع إلى اختلاف مقال، وإنما هي اختلاف أحوال، وأكثرها
يرجع إلى ثمرتها دون حقيقتها.

وقد قال بعض المحققين: حقيقة المحبة عند أهل المعرفة، من
المعلومات التي لا تحد، وإنما يعرفها من قامت به وجداناً لا يمكن
التعبير عنه.

وهكذا كقول صاحب مدارج السالكين - تبعاً لغيره -: والمحبة لا
تحد بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء فحدها
وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة.

(١) عن مدارج السالكين، تحقيق محمد حامد الفقي، ط ٢ ٦/٣ - ٧.

وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدنا
وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة،
وتنوعت بهم العبارات، وكثرت الإشارات بحسب الإدراك والمقام
والحال.

وقد وضعوا لمعناها حرفين مناسيين للمسمى غاية المناسبة:
«الحاء» التي هي من أقصى الحلق، و«الباء» الشفهية التي هي نهايته،
فلحاء الابتداء، وللباء الانتهاء، وهذا شأن المحبة وتعلقها بالمحجوب،
فإن ابتداءها منه وانتهاءها إليه.

وقد أعطوا «الحب» حركة الضم التي هي أشد الحركات وأقواها
مطابقة لشدة حركة مسماها وقوتها، وأعطوا «الحب» وهو المحجوب حركة
الكسر لحفتها من الضمة، وخفة المحجوب وذكره على قلوبهم
وألستهم.

فتأمل هذا اللطف والمناسبة العجيبة بين الألفاظ والمعاني،
تطلعك على قدر هذه اللغة، وأن لها شأناً ليس لسائر اللغات.

[بعض الحدود والتعاريف]

وهذه بعض رسوم وحدود قيلت في المحبة بحسب آثارها
وشواهدنا، والكلام على ما يحتاج إلى الكلام عليه منها.

فمنها: موافقة الحبيب في المشهد والمغيب. وهذا موجبها
ومقتضاها.

ومنها: محو المحب لصفاته وإثبات المحب^(١) لذاته، وهذا من

(١) كذا في النسخ، وفي المدارج: المحجوب، وهي في (د): المحب.

أحكام الفناء في المحبة، وهي أن تمحى صفات المحب وتغنى في صفات محبوبه وذاته، وهذا يستدعي بياناً أتم من هذا لا يدركه إلا من أفناه وارد المحبة عنه وأخذه منه.

ومنها: استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيك^(١)، وهو لأبي يزيد، وهو أيضاً من أحكامها وموجباتها وشواهداها. والمحب الصادق لو بذل لمحبوبه جميع ما يقدر عليه لاستقله واستحيا منه^(٢)، ولو ناله من محبوبه أيسر شيء لاستكثره واستعظمه.

ومنها: استكثار القليل من جنائتك، واستقلال الكثير من طاعتك. وهو قريب من الأول لكنه مخصوص بما من المحب.

ومنها: معانقة الطاعة ومباينة المخالفة، وهو لسهل بن عبدالله، وهو أيضاً حكم المحبة وموجبها.

ومنها أن تهب كلك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء. وهو لسيدنا أبي عبدالله القرشي^(٣)، وهو أيضاً من موجبات المحبة وأحكامها. والمراد أن تهب إرادتك وعزوماتك وأفعالك ونفسك ومالك ووقتك لمن تحبه، وتجعلها حبساً في مرضاته ومحابه، ولا تأخذ منها لنفسك إلا ما أعطاكه، فتأخذه منه له.

ومنها: أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب، وكمال المحبة

(١) في ط: حبك، وفي ش: محبوبك.

(٢) واستحيا منه: سقطت من ش.

(٣) محمد بن أحمد بن إبراهيم القرشي، من أعيان مشايخ المغرب ومصر، لقي كثيراً من المشايخ وأخذ عنه كثيرون وله كرامات مات ببيت المقدس سنة تسع وتسعين وخمسمائة.

يقتضى ذلك، فإنه ما دامت في القلب بقية لغيره ومسكن لغيره فالمحبة مدخولة.

ومنها: أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك. وهو للشبلي^(١)، ومراده: احتقارك لنفسك واستصغارها أن يكون مثلك [ممن]^(٢) يحبه.

ومنها: غض طرف المحب عما سوى المحبوب غيرة، وعن المحبوب هيبة، وهذا يحتاج إلى إيضاح، أما الأول فظاهر، وأما الثاني: فإن غض طرف القلب عن المحبوب مع كمال محبته كالمستحيل، ولكن عند استيلاء سلطان المحبة يقع مثل هذا، وذلك من علامات المحبة المقارنة للهيبة والتعظيم.

ومنها: ميلك إلى الشيء بكليتك ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سرّاً وجهرّاً ثم علمك بتقصيرك في حبه. / قال الجنيد: سمعت الحارث المحاسبي^(٣) يقول ذلك.

ومنها: سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوه، ثم السكر الذي يحصل عند المشاهدة لا يوصف، وأنشد بعضهم:

فأسكر القوم دور الكأس بينهم لكن سكري نشا من رؤية الساقبي

ومنها: سفر القلب في طلب المحبوب، ولهج اللسان بذكره على

(١) دلف بن جحدر، وقيل جعفر بن يونس صحب الجنيد، وصار أوحده وقته علماً وحالاً، تفقه على مذهب مالك، وكتب حديثاً كثيراً ثم شغلته العبادة مات ببغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، عن سبع وثمانين سنة.

(٢) في (ب، د، ط).

(٣) الحارث بن أسد المحاسبي، قيل له ذلك لكثرة محاسبه لنفسه. كان عابداً زاهداً راسخاً في الأصول والفقه والحديث والتصوف. صحب الشافعي، صنف نحو مائتي مؤلف. مات ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومائتين.

الدوام، أما سفر القلب في طلبه فهو الشوق إلى لقائه، وأما لهج اللسان بذكره فلا ريب أن من أحب شيئاً أكثر من ذكره.

ومنها: الميل إلى ما يوافق الإنسان، كحب الصور الجميلة والأصوات الحسنة وغير ذلك من الملاذ التي لا يخلو كل طبع سليم عن الميل إليها لموافقتها له، أو لاستلذاذه بإدراكه بحاسته، أو يكون حبه لذلك لموافقتة له من جهة إحسانه إليه وإنعامه عليه، فقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، كما رواه أبو نعيم في الحلية وأبو الشيخ وغيرهما^(١)، فإذا كان الإنسان يحب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفاً فانياً منقطعاً، أو استنقذه من هلكة أو مضرة لا تدوم، فما بالك بمن منحه منحاً لا تبيد ولا تزول ووقاه من العذاب الأليم ما لا يفنى ولا يحول.

[حب الرسول ﷺ]

وإذا كان المرء يحب غيره على ما فيه من صور جميلة وسيرة حميدة، فكيف بهذا النبي الكريم والرسول العظيم الجامع لمحاسن الأخلاق والتكريم، المانح لنا جوامع المكارم والفضل العميم، فقد أخرجنا الله به من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وخلصنا به من نار الجهل إلى جنات المعارف والإيقان، فهو السبب لبقاء مهجنا البقاء الأبدي في النعيم سرمدي، فأى إحسان أجل قدراً وأعظم خطراً من إحسانه إلينا، فلا منة - وحياته^(٢) - لأحد بعد الله كما له علينا، ولا فضل لبشر كفضله لدينا.

(١) قال السخاوي هو باطل موقوفاً ومرفوعاً، وفي تذكرة ابن عبد الهادي: قال منها سألت أحمد ويحيى عن هذا الحديث فقالا: ليس له أصل وهو موضوع.

(٢) هذا قسم ويعود الضمير إلى الله تعالى إذ لا يجوز القسم بغيره تعالى [م].

فكيف نهض ببعض شكره، أو نقوم من واجب حقه بمعشار عشره، فقد منحنا الله به منح الدنيا والآخرة، وأسبغ علينا نعمه^(١) باطنة وظاهرة، فاستحق أن يكون حظه من محبتنا له أوفى وأزكى من محبتنا لأنفسنا وأولادنا وأهلينا وأموالنا والناس أجمعين، بل لو كان في منبت كل شعرة منا محبة تامة له صلوات الله وسلامه عليه لكان ذلك بعض ما يستحقه علينا.

وقد روى أبو هريرة أنه رضي الله عنه قال: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده) رواه البخاري.

وقدم الوالد للأكثرية، لأن كل أحد له والد، من غير عكس، وفي رواية النسائي تقديم الولد على الوالد وذلك لمزيد الشفقة، وزاد في رواية عبد العزيز بن صهيب عن أنس (والناس أجمعين)^(٢)، وفي صحيح ابن خزيمة: (من أهله وماله) بدل (من والده وولده) وذكر الوالد والولد أدخل في المعنى لأنها أعز على العاقل من الأهل والمال، بل ربما يكونان أعز من نفسه. ولذا لم يذكر «النفس» في حديث أبي هريرة، وذكر الناس بعد الوالد والولد من عطف العام على الخاص.

[معنى محبته رضي الله عنه]

قال الخطابي: والمراد بالمحبة هنا، حب الاختيار لا حب الطبع. وقال النووي: فيه تلميح إلى قضية النفس الأمانة والمطمئنة، فإن من رجع جانب المطمئنة كان حبه للنبي رضي الله عنه راجحاً، ومن رجع جانب الأمانة كان حكمه بالعكس.

(١) أي الله تعالى.

(٢) هي في البخاري ومسلم.

وفي كلام القاضي عياض: أن ذلك شرط في صحة الإيمان، لأنه حمل المحبة على معنى التعظيم والإجلال. وتعقبه صاحب المفهم: بأن ذلك ليس مراداً، لأن اعتقاد الأعظمية ليس مستلزماً للمحبة، إذ قد يجد الإنسان إعظام شيء مع خلوه من محبته. قال: فعلى هذا من لم يجد من نفسه ذلك الميل لم يكمل إيمانه، وإلى هذا يومئ قول عمر في الحديث الذي رواه البخاري في «الإيمان والندور» من حديث عبد الله ابن هشام أن عمر بن الخطاب قال للنبي ﷺ: لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبي، فقال النبي ﷺ: / (لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه) فقال عمر: والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي، فقال له النبي ﷺ (الآن يا عمر)^(١). فهذه المحبة ليست باعتقاد الأعظمية فقط. فإنها كانت حاصلة لعمر قبل ذلك قطعاً.

١/٢٦٨

وفي رواية فقال ﷺ: (لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك) قال بعض الزهاد: تقدير الكلام، لا تصدق في حبي حتى تؤثر رضاي على هواك وإن كان فيه الهلاك.

وأما وقوف عمر في أول أمره، واستثناؤه نفسه، فلأن حب الإنسان نفسه طبع، وحب غيره اختيار بتوسط الأسباب، وإنما أراد ﷺ منه حب الاختيار، إذ لا سبيل إلى قلب الطباع وتغييرها عما جبلت عليه. وعلى هذا فجواب عمر أولاً كان بحسب الطبع، ثم تأمل فعرف بالاستدلال أن النبي ﷺ أحب إليه من نفسه لكونه السبب في نجاتها من الهلكات في الدنيا والآخرة، فأخبره بما اقتضاه الاختيار، فلذلك حصل الجواب بقوله (الآن يا عمر) أي الآن عرفت فنطقت بما يجب.

(١) رواه البخاري برقم ٦٦٣٢.

[حب الله تعالى]

وإذا كان هذا شأن نبينا محمد ﷺ عبد الله ورسوله في محبتنا له ووجوب تقديمها على محبة أنفسنا وأولادنا ووالدينا والناس أجمعين، فما الظن بمحبة الله تعالى ووجوب تقديمها على محبة ما سواه، ومحبة الله تعالى تختص عن محبة غيره في قدرها وصفتها، وإفراده سبحانه وتعالى بها، فإن الواجب له من ذلك أن يكون أحب إلى العبد من ولده ووالده، بل من سمعه وبصره ونفسه التي بين جنبيه، فيكون إلهه الحق، ومعبوده أحب إليه من ذلك كله. والشيء قد يجب من وجه دون وجه، وقد يجب لغيره وليس شيء يجب لذاته من كل وجه إلا الله وحده، ولا تصلح الألوهية^(١) إلا له تعالى. والتأله هو المحبة والطاعة والخضوع.

[اختبار الحب له ﷺ]

ومن علامات الحب المذكور لرسول الله ﷺ أن يعرض الإنسان على نفسه أنه لو خير بين فقد غرض من أغراضه وفقد رؤية النبي ﷺ أن لو كانت ممكنة، فإن كان فقدتها أشد عليه من فقد شيء من أغراضه فقد اتصف بالأحبية المذكورة لرسول الله ﷺ، ومن لا فلا.

قال القرطبي: كل من آمن بالنبي ﷺ إيماناً صحيحاً لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة، غير أنهم متفاوتون، فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحظ الأوفى، ومنهم من يأخذ بالحظ الأدنى، كمن كان مستغرقاً في الشهوات محجوباً في الغفلات في أكثر الأوقات،

(١) أي العبادة.

لكن الكثير منهم إذا ذكر النبي ﷺ اشتاق إلى رؤيته بحيث يؤثرها على أهله وماله وولده ويبذل نفسه في الأمور الخطيرة ويمجد رجحان ذلك من نفسه وجداناً لا تردد فيه . وقد شوهد من هذا الجنس من يؤثر زيارة قبره ورؤية مواضع آثاره على جميع ما ذكر، لما وقر في قلوبهم من محبته، غير أن ذلك سريع الزوال لتوالي الغفلات، انتهى .

فكل مسلم في قلبه محبة الله ورسوله، لا يدخل في الإسلام إلا بها، والناس متفاوتون في محبته ﷺ بحسب استحضار ما وصل إليهم من جهته عليه الصلاة والسلام من النفع الشامل لخير الدارين والغفلة عن ذلك . ولا شك أن حظ الصحابة رضي الله عنهم في هذا المعنى أتم، لأن هذا ثمرة المعرفة وهم بها أعلم .

[نماذج من حب الصحابة له ﷺ]

وقد روى ابن إسحاق - كما حكاه في الشفاء - أن امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ﷺ فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً، هو بحمد الله كما تحيين، / فقالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جليل، تعني: صغيرة.

ب/٢٦٨

ورواه البيهقي في الدلائل^(١)، وذكره صاحب اللباب^(٢) بلفظ: لما قيل يوم أحد قتل محمد ﷺ وكثرت الصوارخ بالمدينة، خرجت امرأة من الأنصار، فاستقبلت بأخيها وابنها وزوجها وأبيها قتلى، لا تدري

(١) عبارة (أ): وروى البيهقي في دلائله .

(٢) في (ش): البيان .

بأيهم استقبلت، فكلما مرت بواحد منهم صريعاً قالت: من هذا؟ قالوا: أخوك وأبوك وزوجك وابنك قالت: فما فعل النبي ﷺ؟ فيقولون: أمامك، حتى ذهبت إلى رسول الله ﷺ فأخذت بناحية ثوبه ثم جعلت تقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا أبالي إذا سلمت من عطب. وكذا رواه ابن أبي الدنيا بنحوه مختصراً^(١).

وقال عمرو بن العاص: ما كان أحد أحب إلي من رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢).

وقال علي بن أبي طالب: كان رسول الله ﷺ أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ.

ولما أخرج أهل مكة زيد بن الدثنة^(٣) - بفتح الدال المهملة وكسر المثناة وتشديد النون - من الحرم ليقتلوه قال له أبو سفيان بن حرب: أنشدك بالله يا زيد أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة وأني جالس في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً^(٤).

وروي - مما ذكره القاضي عياض - أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله لأنت أحب إلي من أهلي ومالي، وإني لأذكرك فما أصبر

(١) في (ب، ط): في جزء.

(٢) أخرجه مسلم في حديث طويل.

(٣) في (ب): ابن أبي الدثنة.

(٤) رواه البيهقي عن عروة.

حتى أجيء فأنظر إليك، وإني ذكرت موتي وموتك فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وأني إن دخلتها لا أراك، فأنزل الله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾^(١) فدعا به فقرأها عليه^(٢).

قال^(٣): وفي حديث آخر: كان رجل عند النبي ﷺ ينظر إليه لا يطرف، فقال: ما بالك؟ فقال: بأبي أنت وأمي، أتمتع بالنظر إليك، فإذا كان يوم القيامة رفعك الله بتفضيله، فأنزل الله الآية.

وذكره البغوي في تفسيره^(٤) بلفظ: نزلت - أي الآية - في ثوبان مولى رسول الله ﷺ، وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه يعرف الحزن في وجهه، فقال له رسول الله ﷺ: ما غير لونك؟ فقال: يا رسول الله، ما بي من مرض ولا وجع غير أنني إذا لم أراك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة، فأخاف أن لا أراك، لأنك ترفع مع النبيين، وأني إن دخلت الجنة في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبداً، فنزلت هذه الآية، وكذا ذكره الواحدي في «أسباب النزول»، وعزاه للكليبي^(٥) عن ثوبان.

(١) سورة النساء، الآية ٦٩.

(٢) رواه الطبراني في الصغير عن عائشة، وابن مردويه عن ابن عباس.

(٣) أي عياض.

(٤) بلا عزو.

(٥) في (ش، د)، وعزاه الكليبي.

وقال قتادة^(١): قال بعض أصحاب النبي ﷺ: كيف يكون الحال في الجنة وأنت في الدرجات العلى ونحن أسفل منك فكيف نراك؟ فأنزل الله الآية.

وذكره ابن ظفر في «ينبوع الحياة»^(٢) بلفظ: إن عامر الشعبي^(٣) قال: إن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ فقال: والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من نفسي ومالي وولدي وأهلي، ولولا أن آتيتك فأراك لرأيت أن أموت أو قال أن سوف أموت، وبكى الأنصاري، فقال له رسول الله ﷺ: ما أبكاك؟ قال: بكيت أن ذكرت أنك ستموت وتموت، / فترفع مع النبيين، ونكون نحن إن دخلنا الجنة دونك، فلم يجر النبي ﷺ إليه، بمعنى أي: لم يرجع إليه بقول، فأنزل الله الآية.

قال^(٤): وذكر مقاتل بن سليمان مثل هذا، وقال: هو عبدالله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري الذي رأى الأذان. وذكر أيضاً: أن عبدالله ابن زيد هذا كان يعمل في جنة له فأتاه ابنه فأخبره أن النبي ﷺ قد توفي فقال اللهم أذهب بصري حتى لا أدري بعد حبيبي محمد أحداً، فكف بصره.

[حب الله ورسوله]

واعلم أنه لا يمكن أن يجتمع في القلب حبان، فإن المحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب، فليختر المرء لنفسه إحدى المحبتين

(١) كما أسنده ابن جرير.

(٢) اسم تفسيره، وقد أسنده البيهقي أيضاً.

(٣) عامر بالنصب بدون ألف على لغة ربيعة، وقد أثبت الألف في ط.

(٤) أي ابن ظفر.

فإنهما لا يجتمعان في القلب، والإنسان عند محبوه كائناً ما كان كما قيل (١):

أنت القليل بأي من أحببته فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي
ولبعض الحكماء: كما أن الغمد لا يتسع لعضبين (٢) فكذلك
القلب لا يتسع لحبين (٣)، ولذلك لازم إقبالك على من تهواه إعراضك
عن كل شيء سواه، فمن داهن في المحبة أو داجي (٤)، فقد عرض
لمدى (٥) الغيرة أوداجاً (٦)، فمحنة الرسول ﷺ - بل تقديمه في الحب
على الأنفس والآباء والأبناء - لا يتم الإيمان إلا بها، إذ محبته من محبة
الله.

وقد حكى عن أبي سعيد الخراز - مما ذكره القشيري في رسالته -
أنه قال: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله اعذرني فإن
محبة الله شغلتني عن محبتك، فقال لي: يا مبارك من أحب الله فقد
أحبني.

وقيل إن ذلك وقع لامرأة من الأنصار معه ﷺ يقظة، ولا بن أبي
المجد (٧):

-
- (١) هو من قول ابن الفارض.
 - (٢) العضب: هو السيف القاطع.
 - (٣) في ش: لمحبتين، وفي ط: لحبيين وسقطت منها كلمة: لا يتسع.
 - (٤) المراد: التوصل إلى الشيء بحيلة.
 - (٥) جمع مدية وهي السكين.
 - (٦) جمع ودج، وهي العروق المكتنفة ثغرة النحر.
 - (٧) إبراهيم الدسوقي يرجع نسبه إلى علي بن أبي طالب. تفقه على مذهب =

ألا يا محب المصطفى زد صباية وضمخ^(١) لسان الذكر منك بطييه
ولا تعبان بالمبطلين فإنما علامة حب الله حب حبيبه

وكذلك كل حب في الله والله، كما في الصحيحين، عن أنس أن
رسول الله ﷺ قال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون
الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله وأن
يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)، فعلق ذوق
الإيمان بالرضى بالله رباً^(٢)، وعلق وجدان حلاوته بما هو موقوف عليه
ولا يتم إلا به، وهو كونه سبحانه أحب الأشياء إلى العبد هو ورسوله،
فمن رضي الله رباً رضي الله له عبداً.

ومعنى حلاوة الإيمان: استلذاذ الطاعات وتحمل المشقات في
الدين، ويؤثر ذلك على أغراض الدنيا، ومحبة العبد لله تعالى تحصل
بفعل طاعته وترك مخالفته، وكذلك الرسول، قاله النووي.

وقال غيره: معناه أن من استكمل الإيمان علم أن حق الله
ورسوله أكد عليه من حق والده وولده وجميع الناس، لأن الهدى من
الضلال، والخلاص من النار، إنما كان على لسان رسوله.

وفي قوله ﷺ: (حلاوة الإيمان) استعارة تخييلية، فإنه شبه رغبة
المؤمن في الإيمان بشيء حلوا، وأثبت له لازم ذلك الشيء وأضافه إليه،
وفيه تلميح إلى قصة المريض والصحيح، لأن المريض الصفراوي يجد

= الشافعي، ثم اقتفى آثار الصوفية، وعاش ثلاثاً وأربعين سنة ومات سنة
ست وسبعين وستمائة.

(١) أي لطمخ.

(٢) جاء في الحديث (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله . . .)

طعم العسل مرأً، والصحيح يذوق حلاوته على ما هي، وكلما نقصت القوة شيئاً ما، نقص ذوقه بقدر ذلك.

[معنى حلاوة الإيمان]

وقال العارف ابن أبي جمرة: واختلف في الحلاوة المذكورة هل هي محسوسة أو معنوية، فحملها قوم على المعنى وهم الفقهاء، وحملها قوم على المحسوس وأبقوا اللفظ على ظاهره من غير أن يتأولوه وهم أهل الصفة، أو قال الصوفة^(١). قال: والصواب معهم في ذلك والله أعلم، لأن ما ذهبوا إليه أبقوا به / لفظ الحديث على ظاهره من غير تأويل.

ب/٢٦٩

قال: ويشهد إلى ما ذهبوا إليه أحوال الصحابة والسلف الصالح وأهل المعاملات، فإنه حكى عنهم أنهم وجدوا الحلاوة محسوسة.

فمن ذلك: حديث بلال حين صنع به ما صنع في الرمضاء إكراهاً على الكفر، وهو يقول أحد أحد، فمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان. وكذلك أيضاً عند موته، أهله يقولون: واكرباه^(٢)، وهو يقول: واطرباه، غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه، فمزج مرارة الموت بحلاوة اللقاء وهي حلاوة الإيمان.

ومنها حديث الصحابي الذي سُرِق فرسه بليل وهو في الصلاة، فرأى السارق حين أخذه فلم يقطع لذلك صلاته، فقبل له في ذلك فقال: ما كنت فيه ألد من ذلك، ولا ذاك إلا لحلاوة الإيمان التي وجدها محسوسة في وقته ذلك.

(١) في الأصل: الصوفية.

(٢) في (ط، ش): واكرباه.

ومنها حديث الصحابين اللذين جعلهما ﷺ في بعض مغازيه من قبل العدو، وقد أقبل فرأهما، فكبل الجاسوس القوس ورمى الصحابي فأصابه، فبقي على صلاته ولم يقطعها، ثم رماه ثانية فأصابه فلم يقطع لذلك صلاته، ثم رماه الثالثة فأصابه، فعند ذلك أيقظ صاحبه وقال: لولا أني خفت على المسلمين ما قطعت صلاتي. ولا ذاك إلا لشدة ما وجد فيها من الحلاوة التي أذهبت عنه ما يجد من ألم السلاح^(١).

قال: ومثل هذا حكي عن كثير من أهل المعاملات. انتهى.

وحديث هذين الصحابين ذكره البخاري في صحيحه في باب «من لم ير الوضوء إلا من المخرجين» بلفظ: ويذكر عن جابر أن النبي ﷺ كان في غزوة «ذات الرقاع» فرمي رجل بسهم فنزفه الدم فركع وسجد ومضى في صلاته. وقد وصله ابن إسحاق في المغازي فقال: حدثني صدقة بن يسار عن عقيل عن جابر عن أبيه مطولاً، وأخرجه أحمد وأبو داود والدارقطني وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم، كلهم من طريق ابن إسحاق. قال في فتح الباري، وشيخه «صدقة» ثقة، وعقيل - بفتح العين - لا أعرف راوياً عنه غير صدقة، ولهذا لم يجزم به البخاري، أو لكونه اختصره، أو للخلاف في ابن إسحاق. وأخرجه البيهقي في الدلائل من وجه آخر، وسمى أحدهما: عباد بن بشر الأنصاري، وعمار بن ياسر من المهاجرين، والسورة الكهف.

[شرح قوله: «مما سواهما»]

وإنما قال: (مما سواهما) ولم يقل «عن» ليعم من يعقل ومن لا

يعقل:

(١) خرج المصنف هذا الحديث في الفقرة التالية.

وفي قوله: (وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) دليل على أنه لا بأس بهذه التثنية، وأما قوله للذي خطب فقال: «ومن يعصهما» بش الخطيب أنت^(١) فليس من هذا، لأن المراد في الخطب الإيضاح، وأما هاهنا فالمراد الإيجاز في اللفظ ليحفظ، ويدل عليه أن النبي ﷺ قال في موضع آخر: (ومن يعصهما فلا يضر إلا نفسه)^(٢)

وقيل: إنه من الخصائص، فيمتنع من غير النبي ﷺ ولا يمتنع منه، لأن غيره إذا جمع أوهم إطلاق التسوية بخلافه هو، فإن منصبه لا يتطرق إليه إيهام ذلك، وإلى هذا مال ابن عبد السلام.

ومن محاسن الأجوبة في الجمع بين هذا الحديث وقصة الخطيب، أن تثنية الضمير هنا للإيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين، لا كل واحدة منهما، فإنها وحدها لاغية إذا لم ترتبط بالأخرى، فمن يدعي حب الله مثلاً ولا يحب رسوله لا ينفعه ذلك، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾^(٣) فأوقع متابعتة مكتتفة بين قطري محبة العباد لله، ومحبة الله للعباد. وأما أمر الخطيب بالإفراد فلأن كل واحد من العصيانين مستقل باستلزام الغواية، إذ العطف في تقدير التكرير، والأصل استقلال كل واحد من المعطوفين في الحكم، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا

-
- (١) روى مسلم وأبو داود وعن عدي بن حاتم أن خطيباً خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى. فقال ﷺ (بش الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله فقد غوى).
- (٢) رواه أبو داود عن ابن مسعود أن النبي ﷺ خطب فقال في خطبته: (من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فلا يضر إلا نفسه).
- (٣) سورة آل عمران: الآية ٣١.

الرسول وأولي الأمر منكم ﴿١﴾ فأعاد (أطيعوا) في الرسول/، ولم يعده /٢٧٠ في أولي الأمر، لأنهم لا استقلال لهم في الطاعة كاستقلال الرسول. انتهى ملخصاً من كلام البيضاوي والطبيبي، كما في فتح الباري.

[ذوق طعم الإيمان]

وفي الصحيح: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً) (٢).

قال في المدارج: فأخبر أن للإيمان طعماً، وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب. وقد عبر النبي ﷺ عن إدراك حقيقة الإيمان والإحسان وحصوله للقلب ومباشرته له بالذوق تارة وبالطعام والشراب أخرى، وبوجدان الحلاوة تارة، كما قال «ذاق». وقال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان)، ولما نهاهم عن الوصال قالوا: إنك تواصل فقال: (إني لست كهيئتكم، إني أطعم وأسقي) (٣)، وقد غلظ حجاب من ظن أن هذا طعام وشراب حسي للفم، وسيأتي تحقيق الكلام إن شاء الله تعالى في الصوم، في مقصد عباداته عليه الصلاة والسلام.

والمقصود أن ذوق حلاوة الإيمان أمر يجده القلب تكون نسبته إليه كذوق حلاوة الطعام إلى الفم، وذوق حلاوة الجماع إلى اللذة، كما قال ﷺ: (حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك) (٤).

(١) سورة النساء، الآية ٥٩.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان برقم ٥٦، وهو كذلك في النسخ وفي مسلم، وفي (أ): نبياً ورسولاً، وفي (ش) رسولاً ونبياً.

(٣) متفق عليه. [م].

(٤) رواه البخاري [م].

ولالإيمان طعم وحلاوة يتعلق بهما ذوق ووجد، ولا تزول الشبه والشكوك إلا إذا وصل العبد إلى هذه الحالة، فيباشر الإيمان قلبه حقيقة المباشرة، فيذوق طعمه ويجد حلاوته.

وقال العارف الكبير تاج الدين بن عطاء الله: يعني في هذا الحديث إشارة إلى أن القلوب السليمة من أمراض الغفلة والهوى تتنعم بملذوذات المعاني كما تتنعم النفوس بملذوذات الأطعمة، وإنما ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً لأنه لما رضي بالله رباً استسلم له وانقاد لحكمه، وألقى قياده إليه، فوجد لذادة العيش وراحة التفويض، ولما رضي الله رباً كان له الرضى من الله، وإذا كان له الرضى من الله أوجد له الله حلاوة ذلك ليعلم ما من به عليه، وليعرف إحسانه عليه، ولما سبقت لهذا العبد العناية خرجت له العطايا من خزائن المنز، فلما واصلته أمداد الله وأنواره عوفي قلبه من الأمراض والأسقام، فكان سليم الإدراك، فأدرك لذادة الإيمان وحلاوته لصحة إدراكه وسلامة ذوقه. وقوله ﷺ: (وبالإسلام ديناً) لأنه إذا رضي بالإسلام ديناً فقد رضي به المولى، ولازم من رضي بمحمد نبياً أن يكون له ولياً، وأن يتأدب بأدابه ويتخلق بأخلاقه زهداً في الدنيا وخروجاً عنها، وصفحاً عن الجناة وعضواً عن أساء إليه، إلى غير ذلك من تحقيق المتابعة قولاً وفعلاً، وأخذاً وتركاً، وحباً وبغضاً، فمن رضي بالله استسلم له، ومن رضي بالإسلام عمل له، ومن رضي بمحمد ﷺ تابعه، ولا يكون واحد منها إلا بكلها، إذ محال أن يرضى بالله رباً ولا يرضى بالإسلام ديناً، أو يرضى بالإسلام ديناً ولا يرضى بمحمد نبياً، وتلازم ذلك بين لا خفاء فيه. انتهى ملخصاً.

[حكم محبة الله تعالى]

واعلم أن محبة الله على قسمين: فرض وندب.

فالفرض: المحبة التي تبعث على امتثال الأوامر والانتهاز عن المعاصي، والرضى بما يقدره، فمن وقع في معصية من فعل محرم أو ترك واجب فلتقصيره في محبة الله، حيث قدم هوى نفسه، والتقصير يكون مع الاسترسال في المباحات والاستكثار منها، فيورث الغفلة المقتضية للتوسع في الرجاء فيقدم على المعصية، أو تستمر الغفلة فيقع، وهذا الثاني يسرع إلى الإقلاع مع الندم.

والندب: أن يواظب على النوافل ويجتنب الوقوع في الشبهات، والمتصف بذلك في عموم الأوقات والأحوال نادر.

وفي البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى أنه قال: (ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه - وفي رواية: بشيء أحب إلي من أداء ما افترضته عليه - ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبني يسمع، وبني يبصر، وبني يبطش، وبني يمشي، ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته)^(١).

ويستفاد من قوله: (وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي ..) أن أداء الفرائض أحب الأعمال إلى الله تعالى.

(١) رواه البخاري في كتاب الرقائق برقم ٦٥٠٢.

وعلى هذا فقد استشكل كون النوافل تنتج المحبة ولا تنتجها
الفرائض؟

وأجيب: بأن المراد من النوافل إذا كانت مع الفرائض، مشتملة
عليها ومكملة لها، ويؤيده: أن في رواية أبي أمامة «ابن آدم، إنك لا
تدرك ما عندي إلا بأداء ما افترضته عليك»^(١)، أو يجاب: بأن الإتيان
بالنوافل لمحض المحبة لا لخوف العقاب على الترك، بخلاف
الفرائض.

وقال الفاكهاني: معنى الحديث أنه إذا أدى الفرائض، وداوم على
إتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرها أفضى ذلك إلى محبة الله تعالى.
وقد استشكل أيضاً: كيف يكون الباري جل وعلا «سمع العبد
وبصره» إلخ.

وأجيب بأجوبة:

منها: أنه ورد على سبيل التمثيل، والمعنى: كنت كسمعه وبصره
في إثاره أمري، فهو يجب طاعتي ويؤثر خدمتي كما يجب هذه
الجوارح.

ومنها: أن المعنى أن كليته مشغولة بي، فلا يصغي بسمعه إلا
إلى ما يرضيني، ولا يرى ببصره إلا ما أمرته به.

ومنها: أن المعنى، كنت له في النصره كسمعه وبصره ويده
ورجله في المعاونة على عدوه.

ومنها: أنه على حذف مضاف، أي: كنت حافظ سمعه الذي

(١) رواه الطبراني والبيهقي مرفوعاً.

يسمع به، فلا يسمع إلا ما يحل سماعه، وحافظ بصره كذلك الخ .
قاله الفاكهاني .

قال^(١): ويحتمل معنى آخر أدق من الذي قبله: وهو: أن يكون بمعنى مسموعه، لأن المصدر قد جاء بمعنى المفعول، مثل: فلان أملي، بمعنى: مأمولي، والمعنى: أنه لا يسمع إلا ذكري ولا يلتذ إلا بتلاوة كتابي ولا يأنس إلا بمناجاتي، ولا ينظر إلا في عجائب ملكوتي، ولا يمد يده إلا فيما فيه رضاي، ورجله كذلك .

وقال غيره: اتفق العلماء - ممن يعتد بقولهم - على أن هذا مجاز وكناية عن نصره العبد وتأييده وإعانتة، حتى كأنه سبحانه تنزل عنده منزلة الآلات التي يستعين بها، ولهذا وقع في رواية: «فبي يسمع وببي يبصر وببي يبطلش وببي يمشي». قال: والاتحادية زعموا أنه على حقيقته، وأن الحق عين العبد، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً

وقال الخطابي: عبر بذلك عن سرعة إجابة الدعاء، والنجح في الطلب، وذلك أن مساعي الإنسان كلها إنما تكون بهذه الجوارح المذكورة .

وعن أبي عثمان الخيري^(٢) - أحد أئمة الطريق - قال: معناه كنت

(١) أي الفاكهاني .

(٢) كذا في جميع النسخ وضبطه الشارح، وفي فتح الباري المنقول عنه:
الجزيري .

صحب يحيى بن معاذ . قال الخطيب: كان مجاب الدعوة . مات بنيسابور
سنة ثمان وتسعين ومائتين .

أسرع إلى قضاء حوائجه من سمعه في الإسماع وعينه في النظر، ويده في اللمس ورجله في المشي. كذا أسنده عنه البيهقي في «الزهد».

وحمله بعض أهل الزيغ على ما يدعونه، من أن العبد إذا لازم العبادة الظاهرة والباطنة حتى تصفى^(١) من الكدورات، أنه يصير في معنى الحق، تعالى الله عن ذلك، وأنه يفنى عن نفسه جملة، حتى يشهد أن الله هو الذاكر لنفسه، والموحد لنفسه، والمحِبُّ لنفسه، وأن هذه الأسباب والرسوم تصير عدماً صرفاً.

وعلى هذه الأوجه كلها فلا متمسك فيه للاتحادية ولا القائلين بالوحدة المطلقة، لقوله في بقية الحديث (ولئن سألتني)، زاد في رواية عبد الواحد (عبدي). انتهى ملخصاً^(٢).

قال العلامة ابن القيم:

تضمن هذا الحديث الشريف الإلهي - الذي حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه والمراد به - حصر أسباب محبته في أمرين، أداء فرائضه، والتقرب إليه / بالنوافل، وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوباً لله، فإذا صار محبوباً لله أوجبت محبة الله له محبة أخرى منه لله فوق المحبة الأولى، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه، وملك عليه روحه، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه ألبتة، فصار ذكر محبوبه وحبه ومثله الأعلى مالكاً لزام قلبه، مستولياً على روحه استيلاء المحبوب على محبه الصادق في محبته التي قد اجتمعت قوى محبه كلها له، ولا ريب أن هذا المحب إن

١/٢٧١

(١) كذا في النسخ كلها، وفي فتح الباري المنقول عنه: يصفى.

(٢) عن فتح الباري ١١/٣٤٤.

سمع سمع بمحبوبه وإن أبصر أبصر به، وإن نظر نظر به، وإن مشى مشى به، فهو في قلبه ونفسه، وأنيسه وصاحبه.

والباء - هنا - باء المصاحبة، وهي مصاحبة لا نظير لها، ولا تدرك بمجرد الإخبار عنها والعلم بها، فالمسألة حالية^(١) لا علمية محضة.

قال: ولما حصلت الموافقة من لعبد لربه في محابه، حصلت موافقة الرب لعبده في حوائجه ومطالبه فقال: «ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» أي كما وافقني في مرادي بامثال أوامري، والتقرب إلي بمحابي، فأنا أوافق في رغبته ورهبته فيما يسألني أن أفعله به، وفيما يستعيز بي أن يناله. وقوي أمر هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى تردد الرب سبحانه في إماتة عبده لأنه يكره الموت، والرب تعالى يكره ما يكره عبده، ويكره مساءته فمن هذه الجهة يقتضي أن لا يميتة ولكن مصلحته في إماتته، فإنه ما أماته إلا ليحييه، ولا أمرضه إلا ليصحه، ولا أفقره إلا ليغنيه، ولا منعه إلا ليعطيه، ولم يخرج من الجنة في صلب أبيه آدم إلا ليعاد إليها على أحسن أحواله، فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواه، انتهى.

وقال الخطابي: التردد في حق الله غير جائز، والبداء عليه في الأمور غير سائغ، ولكن له تأويلان.

أحدهما: أن العبد قد يشرف على الهلاك في أيام عمره من داء يصيبه، أو فاقة تنزل به، فيدعو الله فيشفيه منها، ويدفع عنه مكروهها، فيكون ذلك من فعله كتردد من يريد أمراً ثم يبدو له فيه

(١) أي، حال من أحوال النفس يدركها من قامت به.

فتركه ويعرض عنه، ولا بد له من لقائه إذا بلغ الكتاب أجله، لأن الله تعالى قد كتب الفناء على خلقه، واستأثر بالبقاء لنفسه.

والثاني: أن يكون معناه: ما رددت رسلي في شيء أنا فاعله كترديدي إياهم في قبض نفس عبدي المؤمن، كما روي في قصة موسى عليه الصلاة والسلام، وما كان من لطمه عين ملك الموت، وتردده إليه مرة بعد أخرى^(١).

قال: وحقيقة المعنى - على الوجهين - عطف الله على العبد، ولطفه به، وشفقته عليه.

وقال الكلاباذي ما حاصله: إنه عبر عن صفة الفعل بصفة الذات، يعني باعتبار متعلقها، أي عن التردد بالتردد، وجعل متعلق التردد اختلاف أحوال العبد من ضعف ونصب إلى أن تنتقل محبته في الحياة إلى محبته للموت، فيقبض على ذلك.

قال: وقد يحدث الله تعالى في قلب عبده من الرغبة فيما عنده والشوق إليه والمحبة للقاءه ما يشواق معه إلى الموت، فضلاً عن إزالة الكراهة عنه، انتهى^(٢).

وبالجملة: فلا حياة للقلب إلا بمحبة الله ومحبة رسوله، ولا عيش إلا عيش المحبين الذين قرت أعينهم بحبيبتهم وسكنت نفوسهم إليه واطمأنت قلوبهم به، واستأنسوا بقربه وتنعموا بمحبته، ففي القلب طاقة لا يسدها إلا محبة الله ورسوله ومن لم يظفر بذلك فحياته كلها هموم وغموم وآلام وحسرات.

(١) قصة موسى متفق عليها من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) من قوله «وقال الخطابي» عن فتح الباري ١١/٣٤٥ - ٣٤٦ [م].

قال صاحب المدارج: ولن يصل العبد إلى هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية حتى يعرف الله ويهتدي إليه بطرق توصله إليه، ويحرق ظلمات الطبع بأشعة البصيرة، فيقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة، فينجذب إليها بكليته، ويزهد في التعلقات الفانية، ويدأب في تصحيح التوبة، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات الظاهرة والباطنة، ثم يقوم حارساً على قلبه فلا يسامحه بخطرته/ يكرهها الله تعالى، ولا بخطرته فضول لا تنفعه، فيصفو لذلك قلبه بذكر ربه ومحبه والإجابة إليه، ويخرج من بين بيوت طبعه ونفسه، إلى فضاء الخلوة بربه وذكره، كما قال.

وأخرج من بين البيوت لعلي أحدث عنك النفس في السر خالياً

فحينئذ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه على إرادة ربه وطلبه والشوق إليه، فإذا صدق في ذلك رزق محبة الرسول، واستولت روحانيته على قلبه، فجعله إمامه وأستاذه ومعلمه وشيخه وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهاديه، فيطالع سيرته ومبادي أموره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه وآدابه وحركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، إلى غير ذلك مما منحه الله تعالى، مما ذكرت بعضه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه^(١)، فإذا رسخ في قلبه ذلك فتح عليه من ربه بحيث إذا قرأ السورة شاهد قلبه ماذا أنزلت فيه، وماذا أريد بها، وحظه المختص به منها، من الصفات والأخلاق والأفعال المذمومة، فيجتهد في التخلص منها، كما يجتهد في تحصيل الشفاء من المرض المخوف.

(١) مدارج السالكين ٣/ ٢٦٧ - ٢٦٨.

[علامات محبة الرسول ﷺ]

ولمحة الرسول ﷺ علامات:

[١ - الاقتداء به ﷺ]

أعظمها الاقتداء به، واستعمال سنته، وسلوك طريقته، والاهتداء بهديه وسيرته، والوقوف مع ما حدّ لنا من شريعته.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (١) فجعل تعالى متابعة الرسول ﷺ آية محبة العبد ربه، وجعل جزاء العبد على حسن (٢) متابعة الرسول محبة الله تعالى إياه، وقد قال الحكيم - وهو محمود الوراق - كما أفاده المحاسبي في كتابه «القصود والرجوع»:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرى في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وهذه المحبة تنشأ من مطالعة منة الله عليه من نعمه الظاهرة والباطنة، فبقدر مطالعة ذلك تكون قوة المحبة. ومن أعظم مطالعة منة الله على عبده منة تؤهله لمحبه ومعرفته ومتابعة حبيبه ﷺ، وأصل هذا نور يقذفه الله تعالى في قلب ذلك العبد، فإذا دار ذلك النور أشرقت له ذاته، فرأى في نفسه وما أهلت له من الكمالات والمحسن، فعلت به همته، وقويت عزيمته، وانقشعت عنه ظلمات نفسه وطبعه،

(١) سورة آل عمران، الآية ٣١.

(٢) في ط: حسب.

لأن النور والظلمة لا يجتمعان إلا وي طرح أحدهما الآخر، فوقعت الروح حينئذ بين الهية والأنس إلى الحبيب الأول.

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألوه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

وبحسب هذا الاتباع توجب المحبة والمحبوية معاً، ولا يتم الأمر إلا بهما، فليس الشأن أن تحب الله، بل الشأن أن يحبك الله، ولا يحبك إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهراً وباطناً، وصدفته خيراً، وأطعته أمراً، وأجبتة دعوة، وأثرته طوعاً، وفنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبة غيره من الخلق وعن طاعة غيره بطاعته، وإن لم تكن كذلك فلا تتعن^(١)، فلست على شيء.

وتأمل قوله تعالى: ﴿فاتبعوني يحببكم الله﴾ أي الشأن في أن الله تعالى يحبكم، لا في أنكم تحبونه، وهذا لا ينالونه^(٢) إلا باتباع الحبيب.

وقال المحاسبي في كتاب «القصص والرجوع»: وعلامة محبة العبد لله عز وجل اتباع مرضاة الله، والتمسك بسنن رسوله ﷺ، فإذا ذاق العبد حلاوة الإيمان، ووجد طعمه، ظهرت ثمرة ذلك على جوارحه ولسانه، فاستحلى اللسان ذكر الله تعالى وما والاه، وأسرعت الجوارح إلى طاعة الله، فحينئذ/ يدخل حب الإيمان في القلب كما يدخل حب الماء البارد الشديد برده في اليوم الشديد الحر للظمان الشديد عطشه، فيرتفع عنه تعب الطاعة لاستلذاذه بها، بل تبقى الطاعات غذاء لقلبه

(١) في ط: تتعبن، ومعنى فلا تتعن: فلا تتعب.

(٢) في (أ، ط) لا ينالوه.

وسروراً له، وقرّة عين في حقه ونعيماً لروحه، يلتذ بها أعظم من اللذات الجسمانية، فلا يجد في أورااد العبادة كلفة.

وفي الترمذي عن أنس مرفوعاً: (ومن أحيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة).

وعن ابن عطاء: من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب في أوامره ونواهيه، وأفعاله وأخلاقه.

وقال أبو إسحاق الرقي^(١) - من أقران الجنيد -: علامة محبة الله إيثار طاعته ومتابعة نبيه ﷺ .

وعن غيره: ولا يظهر على أحد شيء من نور الإيمان إلا باتباع السنة ومجانبة البدعة.

فأما من أعرض عن الكتاب والسنة، ولم يتلق العلم من مشكاة الرسول ﷺ بدعواه علماً لدنيا أوتيّه فهو من لدن النفس والشيطان، وإنما يعرف كون العلم لدنيا روحانياً بموافقته لما جاء به الرسول عن ربه تعالى، فالعلم اللدني نوعان: لدني رحمانى ولدني شيطاني، والمحك هو الوحي، ولا وحي بعد الرسول ﷺ .

وأما قصة موسى مع الخضر فالتعلق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد وكفر، يخرج عن الإسلام، موجب لإراقة الدم، والفرق: أن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولم يكن الخضر مأموراً بمتابعته، ولو كان مأموراً بها لوجب عليه أن يهاجر

(١) إبراهيم بن داود القصار، من كبار مشايخ الشام، مات سنة ست وعشرين وثلاثمائة.

إلى موسى ويكون معه. ولهذا قال له: أنت موسى نبي بني إسرائيل؟ قال: نعم، ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين، فرسالته عامة للجن والإنس في كل زمان، ولو كان موسى وعيسى حين لكانا من أتباعه.

فمن ادعى أنه مع محمد كالحضر مع موسى، أو جوز ذلك لأحد من الأمة، فليجدد إسلامه، وليشهد بشهادة الحق، فإنه مفارق لدين الإسلام بالكلية، فضلاً عن أن يكون من خاصة أولياء الله تعالى. وإنما هو من أولياء الشيطان وحلفائه ونوابه.

والعلم اللدني الرحمني هو ثمرة العبودية والمتابعة لهذا النبي الكريم. عليه أركى الصلاة وأتم التسليم، وبه يحصل الفهم في الكتاب والسنة بأمر يختص به صاحبه كما قال علي بن أبي طالب، وقد سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا، إلا فهما يؤتيه الله عبداً في كتابه. فهذا هو العلم اللدني الحقيقي.

فاتباع هذا النبي الكريم حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض النفوس، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتحيرين.

[٢ - الرضى بما شرعه]

ومن علامة محبته: أن يرضى مدعيها بما شرعه^(١)، حتى لا يجد في نفسه حرجاً مما قضى. قال الله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت

(١) في ط: شرعه الله، وهو غير موافق للكلام الآتي بعده.

ويسلموا تسليماً^(١)، فسلب اسم الإيمان عن من وجد في صدره حرجاً من قضائه ولم يسلم له.

قال شيخ المحققين وإمام العارفين، تاج الدين بن عطاء الله الشاذلي - أذاقنا الله حلاوة مشربه -: في هذه الآية دلالة على أن الإيمان الحقيقي لا يحصل إلا لمن حكم الله ورسوله ﷺ على نفسه قولاً وفعلاً، وأخذاً وتركاً، وحباً وبغضاً، ويشتمل ذلك على حكم التكليف وحكم التعريف، والتسليم والانقياد [واجب]^(٢) على كل مؤمن في كليهما.

فأحكام التكليف، الأوامر والنواهي المتعلقة باكتساب العباد.

وأحكام التعريف، هو ما أورده عليك^(٣) من فهم المراد.

فتبين من هذا: أنه لا يحصل لك حقيقة الإيمان / إلا بأمرين: الامتثال لأمره، والاستسلام لقهره.

ب/٢٧٢

ثم إنه سبحانه لم يكتف بنفي الإيمان عن من لم يحكم، أو حكم ووجد الحرج في نفسه، حتى أقسم على ذلك بالربوبية الخاصة برسوله ﷺ رافة وعناية وتخصيصاً ورعاية، لأنه لم يقل: فلا والرب، وإنما قال: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) ففي ذلك تأكيد بالقسم، وتأكيد في القسم، علماً منه سبحانه بما النفوس منطوية عليه من حب الغلبة ووجود النصره سواء كان الحق عليها أو لها، وفي ذلك إظهار لعنايته برسوله ﷺ، إذ جعل حكمه حكمه، وقضائه قضاءه،

(١) سورة النساء، الآية ٦٥.

(٢) زيادة في ط.

(٣) في ش: عليه.

فأوجب على العباد الاستسلام لحكمه، والانقياد لأمره، ولم يقبل منهم الإيمان بإلهيته حتى يدعنوا لأحكام رسوله ﷺ، لأنه كما وصفه به ربه ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾^(١)، فحكمه حكم الله، وقضاؤه قضاء الله، كما قال: ﴿إن الذين يبائعونك إنما يبائعون الله﴾^(٢) وأكد ذلك بقوله: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾.

وفي الآية إشارة أخرى إلى تعظيم قدره، وتفضيم أمره ﷺ وهي قوله تعالى: ﴿وربك﴾ فأضاف نفسه إليه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿كهيعص، ذكر رحمة ربك عبده زكريا﴾^(٣) فأضاف الحق سبحانه نفسه إلى محمد، وأضاف زكريا إليه ليعلم العباد فرق ما بين المنزلتين وتفاوت ما بين الرتبتين.

ثم إنه تعالى لم يكتف بالتحكيم الظاهر فيكونوا به مؤمنين، بل اشترط فقدان الحرج - وهو الضيق - من نفوسهم في أحكامه ﷺ، سواء كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفها، وإنما تضيق النفوس لفقدان الأنوار، ووجود الأغيار، فعنه يكون الحرج وهو الضيق، والمؤمنون ليسوا كذلك، إذ نور الإيمان ملأ قلوبهم فاتسعت وانشاحت، فكانت واسعة بنور الواسع العليم، ممدودة بوجود فضله العظيم، مهياة لواردات أحكامه مفوضة له في نقضه وإبرامه. انتهى^(٤).

وقال سهل بن عبدالله: من لم ير ولاية الرسول عليه في جميع

(١) سورة النجم، الآية ٣.

(٢) سورة الفتح، الآية ١٠.

(٣) سورة مريم، الآية ١ - ٢.

(٤) أي كلام ابن عطاء الله من كتابه «التنوير في إسقاط التدبير».

الأحوال، ويرى نفسه في ملكه لم يذق حلاوة سنته، لأنه ﷺ قال: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه)

وروينا عن سيدنا العارف الكبير أبي عبدالله القرشي أنه قال: حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت، ولا يبقى لك منك شيء. انتهى.

فمن أثر هذا النبي الكريم على نفسه، كشف الله له عن حضرة قدسه، ومن كان معه بلا اختيار ظهرت له خفايا حقائق أسرار أنسه.

[٣ - نصر دينه ﷺ]

ومن علامات محبته ﷺ نصر دينه بالقول والفعل، والذب عن شريعته، والتخلق بأخلاقه في الجود والإيثار، والحلم والصبر والتواضع وغيرها، مما ذكرته في أخلاقه العظيمة، وتقدم في كلام العارف ابن عطاء الله مزيد لذلك قريباً. فمن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان، ومن وجدها استلذ بالطاعات، وتحمل المشاق في الدين، وأثر ذلك على أغراض الدنيا.

[٤ - التسلي عن المصائب]

ومن علامات محبته ﷺ التسلي عن المصائب، فإن المحب يجد في هذه المحبة ما ينسيه المصائب، ولا يجد في مسها ما يجد غيره، حتى كأنه قد اكتسى طبيعة ثانية ليست طبيعة الخلق، بل يقوى سلطان المحبة حتى يلتذ بكثير من المصائب أعظم من التذاذ الخلي بحظوظه وشهواته، والذوق والوجود شاهد بذلك. فكرب المحبة موجود ممزوج بالحلاوة فإن فقد تلك الحلاوة اشتاق إلى ذلك الكرب كما قيل:

تشكى المحبون الصباية ليتني نُحلت بما يلقون من بينهم وحدي
فكانت لقلبي لذة الحب كلها فلم يلحقها قبلي حب ولا بعدي

[٥ - كثرة ذكره ﷺ]

ومن علامات محبته ﷺ كثرة ذكره، فمن أحب شيئاً أكثر من
ذكره.

١/٢٧٣

ولبعضهم: المحبة دوام الذكر/ للمحجوب، ولآخر: ذكر
المحجوب على عدد الأنفاس.

ولغيره: للمحب ثلاث علامات: أن يكون كلامه ذكر
المحجوب، وصمته فكراً فيه، وعمله طاعة له.

وقال المحاسبي: علامة المحيين كثرة الذكر للمحجوب على طريق
الدوام، لا ينقطعون ولا يملون ولا يفترون، وقد أجمع الحكماء على أن
من أحب شيئاً أكثر من ذكره^(١)، فذكر المحجوب هو الغالب على قلوب
المحيين لا يريدون به بدلاً ولا يبغون عنه حولاً، ولو قطعوا عن ذكر
محبوبهم لفسد عيشتهم، وما تلذذ المتلذذون بشيء ألد من ذكر
المحجوب. انتهى.

فالمحبون قد اشتغلت قلوبهم بلزوم ذكر المحجوب عن اللذات،
وانقطت أوهامهم عن عارض دواعي الشهوات، ورقت إلى معادن
الذخائر وبغية الطلبات، وربما تزايد وجد المحب، وهاج الحنين وباح

(١) هو حديث مرفوع رواه أبو نعيم والديلمي عن عائشة.

الأنين، وتحركت المواجيد، وتغير اللون، واستبسلت^(١) الجوارح، وفتر
البدن واقشعر الجلد، وربما صاح، وربما بكى، وربما شهق وربما وّله^(٢)
وربما سقط، ولسيدي محمد وفا:

إذا أباح دم المهجور هاجره إذا أباح دم المهجور هاجره
أيكتم الحب صب باح مدمعه أيكتم الحب صب باح مدمعه
كأنما قلبه أجفان مقلته كأنما قلبه أجفان مقلته
يا جيرة الجزع هل من جيرة لفتى يا جيرة الجزع هل من جيرة لفتى
آه وكم لي على خطب الهوى خطب آه وكم لي على خطب الهوى خطب
مهفهف أبلج بدر على غصن مهفهف أبلج بدر على غصن
مطرز الخد بالريحان في ضرج مطرز الخد بالريحان في ضرج
مكمل الخلق ما تحصى خصائصه مكمل الخلق ما تحصى خصائصه

وربما زاد الوجد على المحب فقتله.

أول نقد أثمان المحبة بذل الروح، فما للمفلس الجبان وسؤمها؟!
بدم المحب يباع وصلهم، تالله ما هزلت فيستامها المفلسون، ولا
كسدت فينفقها بالنسيئة المعسرون، لقد أسيمت^(٤) للعرض في سوق
من يزيد، فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطالون^(٥)،

(١) في (ش): واسترسلت.

(٢) أي ذهب عقله.

(٣) في (ط، ش): زواهره.

(٤) في (أ): اتسمت.

(٥) في (ط) المبتلون.

وقام المحبون ينظرون أيهم يصلح أن يكون ثمناً فدارت السلعة بينهم ووقعت في يد ﴿أدلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾^(١).

[لما كثر المدعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى، فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرقه الشجي، فتنوع المدعون في الشهود، فقليل لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾^(٢)، فتأخر أكثرهم وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه، فطولبوا بعدالة البينة، بتزكية ﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾^(٣)، فتأخر أكثر المحبين وقام المجاهدون، فقليل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم، فهلموا إلى بيعة ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾^(٤)، فلما عرفوا عظمة ذلك المشتري وفضل الثمن وجلالة من أجري على يده عقد التبايع، عرفوا قدر السلعة، وأن لها شأنًا عظيمًا، فأوأ من أعظم الغبن أن يبيعوها بثمن بخس، ففقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي، من غير ثبوت خيار، وقالوا: والله لا نقتلك ولا نستقتلك، فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم؛ قد صارت نفوسكم وأموالكم لنا، رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعافها معها ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾^(٥) [٦].

(١) سورة المائدة، الآية ٥٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٣١.

(٣) سورة المائدة، الآية ٥٤.

(٤) سورة التوبة، الآية ١١١.

(٥) سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

(٦) هذه الفقرة ليست في الأصل، وقد وردت في النسخ الأخرى، ولكنها =

فذكره ﷺ جلاء قلوبنا، وشفاء صدورنا، وحلاوة ألسنتنا في جميع الحالات، على اختلاف الأوقات والساعات، يتشرف بذكره في جميع العبادات، وفي الجمع والجماعات، والخطب والصلوات، وسائر التقلبات والتصرفات، حتى في المعاطاة والمبايعات، وعقود المصالحات، واستفتاح المعاهدات والمعاهدات، وخصوصاً عند الأذكار والدعوات، فإن بها وُلوجها في أبواب الإجابات^(١).

[٦ - تعظيمه عند ذكره ﷺ]

ومن علامات محبته ﷺ تعظيمه عند ذكره، وإظهار الخشوع والخضوع والانكسار^(٢) مع سماع اسمه، فكل من أحب شيئاً خضع له، كما كان كثير من الصحابة بعده إذا ذكروه خشعوا واقشعرت جلودهم وبكوا، وكذلك كان كثير من التابعين فمن بعدهم يفعلون ذلك محبة وشوقاً وتهيباً وتوقيراً.

قال أبو إبراهيم التجيبي^(٣): واجب على كل مؤمن متى ذكره، أو ذكر عنده، أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته، ويأخذ في هيئته وإجلاله، بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه، ويتأدب بما أدبنا الله به.

= وردت في (د) وكذلك وردت هي والفقرة التي قبلها في (ش) قبل ذلك عقب فقرة «نصر دينه».

(١) هذه الفقرة وردت في الأصل فقط ولم ترد في بقية النسخ.

(٢) كلمة «الانكسار» سقطت من ط.

(٣) إسحاق بن إبراهيم التجيبي نسبة إلى تجيب قبيلة من كنده، الإمام في الحديث.

وكان أيوب السخيتاني^(١) إذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى نرحمه .

وكان جعفر بن محمد^(٢) كثير الدعاية والتبسم، فإذا ذكر النبي ﷺ اصفر لونه .

وكان عبد الرحمن / بن القاسم^(٣) إذا ذكر النبي ﷺ ينظر إلى لونه كأنه قد نزف منه الدم، وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان عبدالله بن الزبير إذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع .

وكان الزهري من أهنأ الناس وأقربهم^(٤)، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنك ما عرفته ولا عرفك .

وكان صفوان بن سليم^(٥) من المتعبدين المجتهدين^(٦)، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه .

(١) أبو بكر البصري ثقة ثبت عن كبار الفقهاء العباد، مات سنة إحدى وثلاثين ومائة .

(٢) جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٣) عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

(٤) أي أقربهم إلى الناس بالتودد .

(٥) صفوان بن سليم، ثقة عابد من رجال الجميع مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

(٦) في ط: المتجهدين .

وكان قتادة^(١) إذا سمع الحديث، أخذه البكاء والعيويل والزويل^(٢).

أشار إلى ذلك القاضي عياض^(٣).

[٧ - الشوق إلى لقائه ﷺ]

ومن علامات محبته ﷺ كثرة الشوق إلى لقائه، إذ كل حبيب يحب لقاء حبيبه. ول بعضهم: المحبة الشوق إلى المحبوب، وعن معروف الكرخي^(٤): المحبة ارتياح الذات لمشاهدة الصفات، أو مشاهدة أسرار الصفات، فيرى بلوغ السؤل ولو بمشاهدة الرسول. ولهذا كانت الصحابة رضي الله عنهم إذا اشتد بهم الشوق وأزعجتهم لواعج المحبة قصدوا رسول الله ﷺ واشتفوا بمشاهدته، وتلذذوا بالجلوس معه والنظر إليه والتبرك به ﷺ.

وعن عبدة بنت خالد بن معدان^(٥): ما كان خالد يأوي إلى فراش إلا وهو يذكر من شوقه إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه من

(١) قتادة بن دعامة التابعي المفسر المشهور.

(٢) الزويل: القلق والانزعاج.

(٣) في الشفاء، في الفصل الثالث (حرمته وتوقيره ﷺ) من الباب الثالث من القسم الثاني. ٩١/٢. والذي في الشفاء عن عامر بن عبدالله بن الزبير وليس عن عبدالله كما ذكر المصنف هنا [المحقق].

(٤) من المشايخ الكبار، شيخ السلسلة، أستاذ السري السقطي، وكان أحمد بن حنبل وابن معين يختلفان إليه ويسألانه ولم يكن في علم الظاهر مثلها، مات سنة مائتين.

(٥) خالد بن معدان عابد ثقة روى له الستة، مات سنة ثلاث ومائة.

المهاجرين والأنصار يسميهم ويقول: هم أصلي وفصلي، وإليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم، فعجل رب قبضي إليك حتى يغلبه النوم. ولما احتضر بلال نادى امرأته، واحرّباه^(١)، فقال: واطرباه، غداً ألقى الأحبة، محمداً وصحبه.

إذا ذاق المحب طعم المحبة اشتاق وتأججت نيران الحب والطلب في قلبه، ويجد الصبر عن محبوبه من أعظم كبائره كما قيل: والصبر يحمد في المواطن كلها إلا عليك فإنه لا يحمد^(٢)

وعن زيد بن أسلم^(٣): خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة يحرس فراى مصباحاً في بيت فإذا عجوز تنفث صوفاً وتقول:

على محمد صلاة الأبرار صلي عليه الطيبون الأخيار
قد كنت قواماً بكاء بالأسحار ياليت شعري والمنايا أطوار
هل تجمعني وحببي الدار

تعني النبي ﷺ، فجلس عمر يبكي، ثم قام إلى باب خيمتها فقال: السلام عليكم، ثلاث مرات فقال لها: أعيدي علي قولك، فأعادته بصوت حزين، فبكى وقال لها: وعمر لا تنسينه يرحمك الله، فقالت: وعمر فاغفر له يا غفار.

ويحكى أنه رؤيت امرأة مسرفة على نفسها، بعد موتها، فقيل

(١) في (ب، د) واحزنه، وحرّباه: من الحرب: النهب فكأنها لتفجعها نهبت وسلبت.

(٢) في (ش): فإنه مذموم.

(٣) ثقة عالم، من رجال الجميع مات سنة ست وثلاثين ومائة.

لها: ما فعل الله بك؟ قالت: غفر لي، قيل: بماذا؟ قالت بمحبتني للنبي ﷺ وشهوتي النظر إليه، فنوديت: من انتهى النظر إلى حبينا فنستحي أن نذله بعتابنا، بل نجمع بينه وبين من يحبه.

[٨ - حب القرآن]

ومن علامات محبته ﷺ حب القرآن الذي أتى به، واهتدى به وتخلق به، وإذا أردت أن تعرف ما عندك وعند غيرك من محبة الله ورسوله فانظر محبة القرآن من قلبك، والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإنه من المعلوم أن من أحب محبوباً كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه، كما قيل:

إن كنت تزعم حبي فلم هجرت كتابي
أما تأملت ما في ه من لذيذ خطابي

ويروى أن عثمان بن عفان قال: لو طهرت قلوبنا لما شبعنا من كلام الله، وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه وهو غاية مطلوبه. ١/٢٧٤

قال النبي ﷺ لعبدالله بن مسعود: اقرأ علي، قال: اقرأ عليك، وعليك أنزل؟ فقال: إني أحب أن أسمع من غيري. فاستفتح وقرأ سورة النساء حتى بلغ ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾^(١) قال: حسبك، فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله ﷺ تذرفان من البكاء. رواه البخاري.

وهذا يجده من سمع الكتاب العزيز بأذن قلبه، قال الله تعالى:

(١) سورة النساء، الآية ٤١.

﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾^(١).

قال صاحب «عوارف المعارف» - أذاقنا الله حلاوة مشربه -: هذا السماع هو السماع الحق، الذي لا يختلف فيه اثنان من أهل الإيمان، محكوم لصاحبه بالهداية، وهذا سماع ترد حرارته على برد اليقين، فتفيض العين بالدمع، لأنه تارة يثير حزناً، والحزن حار، وتارة يثير شوقاً، والشوق حار، وتارة يورث^(٢) ندماً، والندم حار، فإذا أثار السماع هذه الصفات، من صاحب قلب مملوء بهرد اليقين بكى وأبكى، لأن الحرارة والبرودة إذا اضطربتا عصرتا ماء، فإذا ألمَّ السماع بالقلب تارة يخف إمامه فيظهر أثره في الجسد ويقشعر منه الجلد، قال الله تعالى: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾^(٣)، وتارة يعظم وقعه ويتصوب أثره - أي يقصد^(٤) - نحو الدماغ فتندفق منه العين بالدمع، وتارة يتصوب أثره إلى الروح، فتموج منه الروح موجاً، ويكاد يضيق عنه نطاق القلب، فيكون^(٥) من ذلك الصياح والاضطراب، وهذه كلها أحوال يجدها أربابها من أصحاب الأحوال.

وقد كان ابن عمر، رضي الله عنهما، ربما مر بآية في ورده فتحنقه العبرة ويسقط ويلزم البيت اليوم واليومين حتى يعاد ويحسب مريضاً.

(١) سورة المائدة، الآية ٨٣.

(٢) في (ط): يثير.

(٣) سورة الزمر، الآية ٢٣.

(٤) في (ط): يصعد.

(٥) أي يوجد.

وقد كان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى الأشعري يقولون: يا أبا موسى ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يسمعون.

فلمحبي السماع القرآني من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور أضعاف ما لمحبي السماع الشيطاني، فإذا رأيت الرجل ذوقه ووجدته وطربه ونشأته^(١) في سماع الأبيات دون سماع الآيات، وفي سماع الألحان دون سماع القرآن كما قيل: نقرأ عليك الختمة وأنت جامد كالحجر، وبيت من الشعر ينشد تميل كالنشواني، فاعلم أن هذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله ورسوله، أدام الله لنا حلاوة محبته، ولا سلك بنا في غير سبيل سنته، بجمه ورحمته.

[٩ - حب السنة]

ومن علامات محبته ﷺ محبة سنته، وقراءة حديثه، فإن من دخلت حلاوة الإيمان في قلبه إذا سمع كلمة من كلام الله تعالى، أو من حديث رسوله ﷺ تشربتها روحه وقلبه ونفسه، ويقول:

أشم منك نسيماً لست أعرفه أظن لمياء جرت فيك أرداناً^(٢)

فتعمه تلك الكلمة وتشمله، فتصير كل شعرة منه سمعاً، وكل ذرة منه بصراً، فيسمع الكل بالكل ويبصر الكل بالكل ويقول:

لي حبيب خياله نصب عيني سره في ضائري مدفون^(٣)
إن تذكرته فكلي قلوب أو تأملته فكلي عيون

(١) أي زيادته في الطرب.

(٢) لمياء: صفة لأنثى قامت بشفتها اللمي، وهي سمرة تستحسن، والأردان:

جمع ردن: ثوب خز وغزل.

(٣) في (ش): مكنون.

فحينئذ يستنير قلبه، ويشرق سره، وتتلاطم عليه أمواج التحقيق عند ظهور البراهين، ويرتوي بري عطف محبوبه، الذي لا شيء أروى لقلبه من عطفه عليه، ولا شيء أشد للهيبة وحريقه من إعراضه عنه، ولهذا كان عذاب أهل النار باحتجاب ربهم عنهم أشد عليهم من العذاب الجسماني، كما/ أن نعيم أهل الجنة برؤيته تعالى وسماع خطابه ورضاه وإقباله أعظم من النعيم الجسماني، لا حرماننا الله ذوق حلاوة هذا المشرب.

[١٠ - محبة ذكره ﷺ]

ومن علامات محبته ﷺ أن يلتذ محبه بذكره الشريف ويضطرب عند سماع اسمه المنيف، وقد يوجب له ذلك سكرًا^(١) يستغرق قلبه وروحه وسمعه.

وسبب هذا السكر اللذة القاهرة للعقل، وسبب اللذة إدراك المحبوب ﷺ، فإذا كانت المحبة قوية وإدراك هذا المحبوب قوياً كانت اللذة بإدراكه تابعة لقوة هذين الأمرين. فإن كان العقل قوياً مستحكماً لم يتغير لذلك^(٢)، وإن كان ضعيفاً حدث السكر المخرج له عن حكمه^(٣).

وقد حدوا السكر بأنه: سقوط التمالك في الطرب، كأنه يبقى في السكران بقية يلتذ بها ويضطرب، فلا يتمالك صاحبها، ولا يقدر أن يفنى معها.

(١) حالة تشبه حالة السكران.

(٢) هذا هو المسلك الصحيح الذي كان عليه جيل الصحابة فلم يذكر عن واحد منهم أنه خرج إلى ذلك الحد الذي يسمونه السكر. [م].

(٣) أي المخرج للعقل عما يليق به.

وقد يكون سبب السكر قوة الفرح بإدراك المحبوب، بحيث يختلط كلامه وتتغير أفعاله، بحيث يزول عقله ويعربد أعظم من عربدة شارب الخمر.

وربما قتله سكر هذا الفرح بسبب طبيعي، وهو انبساط دم القلب وهلة واحدة انبساطاً غير معتاد، والدم هو حائل الحار الغريزي، فيبرد القلب بسبب انبساط الدم عنه فيحدث الموت.

ومن هذا قول سكران الفرح - بوجود راحلته في المفازة بعد أن استشعر الموت - : اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة فرحه، وسكرة الفرح فوق سكرة الشراب، فصور في نفسك حال فقير معدم، عاشق للدنيا أشد العشق، ظفر بكنز عظيم، فاستولى عليه آمناً مطمئناً، كيف تكون سكرته؟ أو من غاب عنه غلامه بمال عظيم مدة سنين، حتى أضرَّ به العدم، فقدم عليه من غير انتظار له بماله كله، وقد كسب أضعافه، كيف تكون سكرته؟

ومن أقوى أسباب ما نحن فيه سماع الأصوات المطربة بالإنشادات بالصفات النبوية المغربية المعربة^(١) إذا صادفت محلاً قابلاً فلا تسأل عن سكرة السامع، وهذا السكر يحدث عندها من جهتين: إحداهما أنها في نفسها توجب لذة قوية ينغمر منها العقل، الثانية: أنها تحرك النفس إلى نحو محبوبها وجهته، فتحصل بتلك الحركة والشوق والطلب مع التخيل للمحبوب واحضاره في النفس، وإدناء صورته إلى القلب واستيلائها على الفكرة لذة عظيمة تغمر القلب، فتجتمع لذة الألحان ولذة الأشجان، فتسكر الروح سكرًا عجيباً أطيب وألذ من سكر الشراب، وتحصل له به نشأة ألد من نشأة الشراب.

(١) المغربية: من أعرب إذا أتى بشيء غريب، والمعربة: من أعرب، أي المبينة.

وقد ذكر الإمام أحمد وغيره: أن الله تعالى يقول لداود: مجدني بذلك الصوت الذي كنت تمجدي به في الدنيا، فيقول: كيف وقد أذهبتَه فيقول: أنا أردت عليك، فيقوم عند ساق العرش ويمجده، فإذا سمع أهل الجنة صوته استفرغ نعيم أهل الجنة^(١).

وأعظم من ذلك: إذا سمعوا كلام الرب جل جلاله وخطابه لهم، فإذا انضاف إلى ذلك رؤية وجهه الكريم الذي يغنيهم لذة رؤيته عن رؤية الجنة ونعيمها، فأمر لا تدركه العبارة ولا تحيط به الإشارة، وهذه صفة لا تلج كل أذن، وصيب لا تحيا به كل أرض، وعين لا يشرب منها كل وارد، وسماع لا يطرب عليه كل سامع، ومائدة لا يجلس عليها كل طفيلي، أشار إليه في المدارج.

[اجتماع الحب والمعصية]؟

فمن اتصف بهذه العلامات التي ذكرتها فهو كامل المحبة لله ورسوله، ومن خالف بعضها فهو ناقص المحبة، ولا يخرج عن اسمها بدليل قوله ﷺ للذي حده في الخمر - لما لعنه بعضهم وقال: ما أكثر ما يؤق به - فقال ﷺ: لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله^(٢)، فأخبر أنه يجب الله ورسوله مع وجود ما صدر عنه.

وفيه الرد على من زعم أن مرتكب الكبيرة كافر، لثبوت النهي عن لعنه، وثبوت الأمر بالدعاء له.

وفيه أنه لا تنافي بين ارتكاب النهي / وثبوت محبة الله ورسوله في ١/٢٧٥

(١) أي شغلهم صوته عما هم فيه من النعيم.

(٢) رواه البخاري.

قلب المرتكب، وأن من تكررت منه المعصية لا تنزع منه محبة الله ورسوله^(١). ويحتمل أن يكون استمرار ثبوت محبة الله ورسوله في قلب العاصي مقيداً بما إذا ندم على وقوع المعصية، أو إذا أقيم عليه الحد، فكفر عن ذنبه المذكور، بخلاف من لم يقع منه ذلك فإنه يخشى بتكرار الذنب أن ينطبع على قلبه حتى يسلب منه ذلك الحب، نسأل الله العفو والثبات على محبته وسلوك سنته برحمته ومنه.

[درجة المحبة ودرجة الخلة]

تنبيه: قد اختلف العلماء، أيما أرفع درجة المحبة أو درجة الخلة؟

فحكى القاضي عياض: أن بعضهم جعلها سواء، فلا يكون الحبيب إلا خليلاً، ولا الخليل إلا حبيباً، لكنه خص إبراهيم بالخلة ومحمداً ﷺ بالمحبة، وقال بعضهم: درجة الخلة أرفع واحتج بقوله ﷺ: (لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر)^(٢) فلم يتخذه وقد أطلق المحبة لفاطمة وابنيها وأسامة. انتهى.

وهذا هو الظاهر من المعنى الأخص، لأن المحبة مأخوذة من معنى الخلة، لكن يرد ما روي في قصة الإسراء في مناجاته ﷺ لربه تعالى حيث قال له تعالى: يا محمد سل، فقال: يا رب إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليماً، فقال له تعالى: ألم أعطك خيراً من هذا.. إلى قوله: واتخذتك حبيباً، أو ما في معناه، رواه البيهقي. بنحوه، وهذا يعطي^(٣) أن درجة المحبة أرفع.

(١) هذه الجملة سقطت من ش.

(٢) متفق عليه.

(٣) في ش: يقتضي.

وقد احتج من قال بتفضيل مقام المحبة على الخلة بفروق كثيرة، ذكر القاضي عياض في الشفاء منها نقلاً عن الإمام أبي بكر بن فورك عن بعض المتكلمين نبذة:

منها: أن الخليل يصل بالواسطة، من قوله تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾^(١)، والحيب يصل إليه به، من قوله تعالى: ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾^(٢).

ومنها: أن الخليل قال: ﴿ولا تخزني﴾^(٣)، والحيب قيل له: ﴿يوم لا يخزي الله النبي﴾^(٤).

ومنها: أن الخليل قال في المحنة: ﴿حسبي الله﴾، والحيب قيل له: ﴿يا أيها النبي حسبك الله﴾^(٥).

ومنها: أن الخليل هو الذي تكون مغفرته في حد الطمع، من قوله: ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾^(٦)، والحيب الذي مغفرته في حد اليقين، من قوله: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾^(٧).

وفي كتابي «تحفة السامع والقاري بختم حجج البخاري» وجوه آخر غير ما حكاه القاضي عياض.

(١) سورة الأنعام، الآية ٧٥.

(٢) سورة النجم، الآية ٩.

(٣) سورة الشعراء، الآية ٨٧.

(٤) سورة التحريم، الآية ٨.

(٥) سورة الأنفال، الآية ٦٤.

(٦) سورة الشعراء، الآية ٨٢.

(٧) سورة الفتح، الآية ٢.

وفي كلها نظر واضح كما بيته في حاشية الشفاء، وذلك أن مقتضى الفرق بين الشئيين أن يكون في حد ذاتيهما، يعني باعتبار مدلولي «خليل» و«حبيب» وما حكاه القاضي عياض، وذكرته في التحفة، يقتضي تفضيل ذات محمد ﷺ على ذات إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. لا يقال باعتبار ثبوت وصف الخلة له فيلزم ذلك. لأننا نقول: كل منهما ثابت له وصف الخلة والمحبة. إذ لا يسلب عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وصف المحبة لا سيما والخلة أخص من المحبة، ولا يسلب عن نبينا ﷺ وصف الخلة لا سيما وقد ثبت في حديث أبي هريرة قول الله تعالى له: (إني اتخذتك خليلاً)^(١).

وقد قام الإجماع على فضل نبينا ﷺ على جميع الأنبياء، بل هو أفضل خلق الله تعالى مطلقاً^(٢).

ب/٢٧٥ /وأما قوله: إن الخليل يصل بالواسطة فلا يفيد غرضاً في هذا المقام الذي هو بصدده، وليس المراد به قطعاً إلا الوصول إلى المعرفة، إذ الوصول الحسي يمتنع على الله تعالى.

وأما قوله: والحبيب يصل إليه به، فالوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا به حبيباً كان أو خليلاً.

وأما قوله: الخليل هو الذي تكون مغفرته في حد الطمع الخ.. فإنه لا يصح أن يكون على جهة التفسير للخليل، ولا تعلق له بمعناه.

وقصارى ما ذكره: أنه يعطي تفضيل نبينا ﷺ على إبراهيم عليه

(١) عن أبي هريرة في المعراج، أقول: وفي الترمذي (إن صاحبكم خليل الرحمن) [م].

(٢) في (ب): على الإطلاق.

الصلاة والسلام في حد ذاته من غير نظر إلى ما جعله علة معنوية في ذلك من وصف المحبة والخلة. والحق: أن الخلة أعلى وأكمل وأفضل من المحبة.

قال ابن القيم: وأما ما يظنه بعض الغالطين أن المحبة أكمل من الخلة، وأن إبراهيم خليل الله ومحمداً حبيب الله فمن جهله. فإن المحبة عامة والخلة خاصة والخلة نهاية المحبة.

قال: وقد أخبر النبي ﷺ أن الله اتخذته خليلاً، ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب وغيرهم. وأيضاً فإنه تعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب المتقين ويحب المقسطين، وخلته خاصة بالخليلين. قال: وإنما هذا من قلة العلم والفهم عن الله ورسوله. انتهى.

وقال الشيخ بدر الدين الزركشي في شرحه لبردة الأبوصيري: وزعم بعضهم أن المحبة أفضل من الخلة وقال: محمد حبيب الله وإبراهيم خليل الله. وضعف: بأن الخلة خاصة، وهو توحيد المحبة^(١)، والمحبة عامة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾^(٢) قال: وقد صح أن الله اتخذ نبينا خليلاً فقال: إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً^(٣). انتهى.

تنبيه^(٤): والخليل مشتق من الخلة - بالفتح - وهي الحاجة، أو

(١) في (ب، د) وهو توحيد المحب، وفي (ط، ش): وهي توجد المحبة.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٢٢.

(٣) رواه ابن ماجه.

(٤) هذا التنبيه لم يرد إلا في مخطوطة الأصل، وقد ذكر قبل التنبيه الذي سبقه =

من الخلة - بالضم - وهي المودة الحاصلة، أو من الخلل، قال ثعلب:
سمي خليلاً لأن مودته تتخلل القلب، وأنشد:

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلاً

وقال الراغب: الخلة - بالفتح -: الاختلال العارض للنفس، إما لشهرتها بشيء أو لحاجتها إليه، ولهذا فسّر الخلة بالحاجة، والخلة - بالضم - إما لأنها تتخلل النفس أو تتوسطها، وإما لأنها تخل النفس فتؤثر فيها تأثير السهم في الرمية، وإما لفرط الحاجة إليها.

= هنا. وإنما أخرته لانفراد نسخة الأصل به ولارتباط معناه بالتنبيه الآخر
فناسب أن يذكر بعده [المحقق].

الفصل الثاني

في حكم الصلاة عليه والتسليم
فريضة وسنة^(١) وفضيلة وصفة ومحلا

[معنى الصلاة]

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٢).

قال أبو العالية: معنى صلاة الله على نبيه ثناؤه عليه عند الملائكة، ومعنى صلاة الملائكة عليه الدعاء.

قال في فتح الباري: وهذا أولى الأقوال، فيكون معنى صلاة الله تعالى عليه ثناؤه عليه وتعظيمه، وصلاة الملائكة وغيرهم طلب ذلك له من الله تعالى، والمراد طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة.

وعن ابن عباس: أن معنى صلاة الملائكة الدعاء بالبركة. وروى ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان^(٣) قال: صلاة الله مغفرته وصلاة الملائكة الاستغفار.

(١) كلمة (وسنة) في (ط، ش).

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٥٦.

(٣) مقاتل بن حيان البلخي: صدوق فاضل روى له مسلم وأصحاب السنن، والذي كذبه وكيع هو مقاتل بن سليمان. مات قبيل الخمسين ومائة بأرض الهند. قاله الحافظ.

وقال الضحاك بن مزاحم: صلاة الله رحمته، وفي رواية عنه: مغفرته، وصلاة الملائكة الدعاء. أخرجها إسماعيل القاضي عنه، وكأنه يريد الدعاء بالمغفرة ونحوها.

وقال المبرد: الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة رقة تبعث على استدعاء الرحمة.

وتعقب: بأن الله غاير بين الصلاة والرحمة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾^(١)، ولذلك فهم الصحابة المغايرة من قوله تعالى: ﴿صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ حتى سألوه عن كيفية الصلاة مع تقدم ذكر «الرحمة» في تعليم السلام، حيث جاء بلفظ: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، وأقرهم النبي ﷺ، فلو كانت الصلاة بمعنى الرحمة لقال لهم، قد علمتم ذلك في السلام.

وجوز الحليني أن تكون الصلاة بمعنى السلام عليه، وفيه نظر.

وقيل: صلاة الله على خلقه تكون خاصة وتكون عامة، فصلاته على أنبيائه هي ما تقدم من الثناء والتعظيم، وصلاته على غيرهم الرحمة، فهي التي وسعت كل شيء.

/ وحكى القاضي عياض، عن بكر القشيري أنه قال: الصلاة على النبي ﷺ من الله تشریف وزيادة تكربة، وعلى من دون النبي رحمة. وبهذا يظهر الفرق بين النبي ﷺ وبين سائر المؤمنين حيث قال الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾، وقال قبل ذلك في السورة المذكورة: ﴿هو الذي يصلي عليكم

١/٢٧٦

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٧.

وملائكته^(١)، ومن المعلوم أن القدر الذي يليق بالنبى ﷺ من ذلك أرفع مما يليق بغيره. والإجماع منعقد على أن في هذه الآية من تعظيم النبى ﷺ والتنويه به ما ليس في غيرها.

وقال الحلبي في «الشعب»، معنى الصلاة على النبى ﷺ تعظيمه، فمعنى قولنا: اللهم صل على محمد، عظم محمداً، والمراد تعظيمه في الدنيا بإعلاء ذكره وإظهار دينه وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بإجزال مثوبته، وتشفيعه في أمته، وإبداء فضيلته بالمقام المحمود، وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى: ﴿صلوا عليه﴾ ادعوا ربكم بالصلاة عليه. انتهى.

ولا يعكر عليه عطف آله وأزواجه وذريته عليه، فإنه لا يمتنع أن يدعى لهم بالتعظيم إذ تعظيم كل أحد بحسب ما يليق به.

وما تقدم عن أبي العالية أظهر، فإنه يحصل به استعمال لفظ الصلاة بالنسبة إلى الله تعالى، وإلى ملائكته وإلى المؤمنين المأمورين بذلك بمعنى واحد، ويؤيده أنه لا خلاف في جواز الترحم على غير الأنبياء، واختلف في جواز الصلاة على غير الأنبياء، ولو كان معنى قولنا: اللهم صل على محمد: ارحم محمداً، أو ترحم على محمد، جاز لغير الأنبياء، وكذا لو كان بمعنى البركة، وكذلك الرحمة، لسقط الوجوب في التشهد عند من يوجهه بقول المصلي في التشهد: السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته.

ويمكن الانفصال عنه بأن ذلك وقع بطريق التعبد فلا بد من الاتيان به، ولو سبق الاتيان بما يدل عليه.

(١) سورة الأحزاب، الآية ٤٣.

فإن قلت: في أي وقت وقع الأمر بالصلاة عليه ﷺ؟

فالجواب - كما قال أبو ذر الهروي -: أنه وقع في السنة الثانية من الهجرة، وقيل ليلة الإسراء، وقيل: إن شهر شعبان شهر الصلاة على رسول الله ﷺ، لأن آية الصلاة - يعني ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ نزلت فيه. والله أعلم.

[فائدة الصلاة عليه ﷺ]

قال الحلبي: والمقصود بالصلاة عليه ﷺ التقرب إلى الله تعالى بامتثال أمره تعالى، وقضاء حق النبي ﷺ علينا.

وتبعه ابن عبد السلام، فقال في الباب الثامن من كتابه المسمى «بشجرة المعارف»: ليست صلاتنا على النبي ﷺ شفاعة له، فإن مثلنا لا يشفع لمثله، ولكن الله أمرنا بمكافأة من أحسن إلينا، فإن عجزنا عنها كافأناه بالدعاء، فأرشدنا الله - لما علم عجزنا عن مكافأة نبينا - إلى الصلاة عليه.

وذكر نحوه عن الشيخ أبي محمد المرجاني.

وقال ابن العربي: فائدة الصلاة عليه ترجع إلى الذي يصلي عليه، لدلالة ذلك على نصوص العقيدة وخلوص النية، وإظهار المحبة، والمداومة على الطاعة والاحترام للواسطة الكريمة ﷺ.

[حكم الصلاة عليه ﷺ]

واختلف في حكم الصلاة عليه - صلوات الله وسلامه عليه - على أقوال

أحدها: أنها تجب في الجملة بغير حصر، لكن أقل ما يحصل به
الإجزاء مرة.

الثاني: يجب الإكثار منها، من غير تقييد بعدد، قاله القاضي أبو
بكر بن بكير من المالكية^(١)، وعبارته - كما قاله القاضي عياض -:
افترض الله تعالى على خلقه أن يصلوا على نبيه ﷺ ويسلموا تسليماً،
ولم يجعل ذلك لوقت معلوم، فالواجب أن يكثر المرء منها ولا يغفل
عنها.

الثالث: تجب كل ما ذكر، قاله الطحاوي وجماعة من الحنفية،
والحليمي، وجماعة من الشافعية، وقال ابن العربي: إنه الأحوط، وكذا
قاله الزمخشري. واستدلوا لذلك بحديث: (من ذكرت عنده فلم يصل
علي/ فمات فدخل النار فأبعده الله) أخرجه ابن حبان من حديث أبي
هريرة. وحديث: (رغم أنف من ذكرت عنده فلم يصل علي) رواه
الترمذي من حديث أبي هريرة، وصححه الحاكم. وحديث (شقي عبد
ذكرت عنده فلم يصل علي) أخرجه الطبراني من حديث جابر. لأن
الدعاء بـ«الرغم والإبعاد والشقاء» يقتضى الوعيد، والوعيد على الترك
من علامات الوجوب. ومن حيث المعنى: إن فائدة الأمر بالصلاة عليه
مكافأته على إحسانه، وإحسانه مستمر، فتأكد إذا ذكر.

واستدلوا أيضاً: بقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ
كَدَعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾^(٢) فلو كان إذا ذكر لا يصل عليه كان كآحاد
الناس.

(١) محمد بن أحمد. هو من كبار أصحاب القاضي إسماعيل، ومن الفقهاء
الثقات، له كتاب أحكام القرآن وغيره، ولي القضاء وتوفي سنة خمسين
وثلاثمائة.

(٢) سورة النور، الآية ٦٣.

وأجاب من لم يوجب ذلك بأجوبة، منها:
أنه قول لا يعرف عن أحد من الصحابة ولا التابعين، فهو
مخترع.

ولو كان ذلك على عمومته للزم المؤذن إذا أذن أن يصلي عليه،
وكذا سامعه، وللزم القارئ إذا مر بآية فيها ذكره ﷺ في القرآن،
وللزم الداخل في الإسلام إذا تلفظ بالشهادتين وكان في ذلك من
المشقة والخرج ما جاءت الشريعة السمحة المطهرة بخلافه، وكان
الثناء على الله تعالى كلما ذكر أحق بالوجوب، ولم يقولوا به.

وقد أطلق القدوري وغيره من الحنفية: أن القول بوجوب
الصلاة كلما ذكر مخالف للإجماع المنعقد قبل قائله، لأنه لا يحفظ عن
أحد من الصحابة أنه خاطب النبي ﷺ فقال: يا رسول الله صلى الله
عليك، ولأنه لو كان كذلك لما تفرغ لعبادة أخرى.

وأجابوا عن الأحاديث: بأنها خرجت مخرج المبالغة في تأكيد
ذلك وطلبه، وفي حق من اعتاد ترك الصلاة عليه ديدنا. وبالجملة:
فلا دلالة على تكرر وجوب ذلك بتكرر ذكره ﷺ في المجلس الواحد،
انتهى ملخصاً، والله أعلم.

الرابع: في كل مجلس مرة ولو تكرر ذكره مراراً. حكاه
الزنجشري.

الخامس: في كل دعاء، حكاه أيضاً.

السادس: أنها من المستحبات، وهو قول ابن جرير الطبري،
وادعى الإجماع على ذلك، واحتج على ذلك مع ورود صيغة الأمر
بذلك، بالاتفاق من جميع المتقدمين والمتأخرين من علماء الأمة، أن

ذلك غير مستلزم فرضيتها حتى يكون تارك ذلك عاصياً، فدل على أن الأمر فيه للندب، ويحصل الامتثال لمن قاله ولو كان خارج الصلاة.

قال في فتح الباري: وما ادعاه من الإجماع معارض بدعوى غيره الإجماع على مشروعية ذلك في الصلاة، إما بطريق الوجوب، وإما بطريق الندب، ولا يعرف عن السلف لذلك مخالف، إلا ما أخرجه ابن أبي شيبة والطبراني عن إبراهيم النخعي أنه كان يرى أن قول المصلي في التشهد: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته مجزئ عن الصلاة، ومع ذلك: إنما ادعى أجزاء السلام عن الصلاة.

السابع: تجب في العمر مرة في الصلاة أو غيرها، ككلمة التوحيد، قاله أبو بكر الرازي من الحنفية.

الثامن: تجب في الصلاة من غير تعيين المحل، ونقل ذلك عن أبي جعفر الباقر.

التاسع: تجب في التشهد، وهو قول الشعبي وإسحاق بن راهويه.

العاشر: تجب في القعود آخر الصلاة، بين قول التشهد وسلام التحلل، قاله الشافعي ومن تبعه.

واستدل لذلك بما رواه أصحاب السنن، وصححه الترمذي وابن خزيمة والحاكم عن أبي مسعود البدرى: (أنهم قالوا يا رسول الله: أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف/ نصلي عليك إذا نحن صلينا عليك في صلاتنا فقال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد.. الحديث. ومعنى قولهم: أما السلام عليك فقد عرفناه، هو الذي في التشهد، الذي كان قد علمهم إياه كما يعلمهم السورة من القرآن.

وفيه: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، ورواه الشافعي في مسنده عن أبي هريرة بمثله.

وقد احتج بهذه الزيادة^(١) جماعة من الشافعية، منهم ابن خزيمة، والبيهقي، لإيجاب الصلاة عليه ﷺ [في التشهد]^(٢) بعد التشهد وقبل السلام.

وقال الشافعي في الأم: فرض الله الصلاة على رسول الله ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ولم يكن فرض الصلاة عليه في موضع أولى منه في الصلاة، ووجدنا الدلالة عن النبي ﷺ بذلك: أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثنا صفوان بن سليم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة أنه قال: يا رسول الله، كيف نصلي عليك - يعني في الصلاة - قال: تقولون اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم الحديث. أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثني سعيد بن إسحاق ابن كعب بن عجرة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ أنه كان يقول في الصلاة: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم الحديث.

قال الشافعي: فلما روي أن النبي ﷺ كان يعلمهم التشهد في الصلاة، وروي أنه علمهم كيف يصلون عليه في الصلاة، لم يجز أن نقول: التشهد في الصلاة واجب والصلاة فيه غير واجبة.

(١) يعني قوله «في صلاتنا».

(٢) في (ب، د، ط).

[مناقشة رأي الإمام الشافعي]

وقد تعقب بعض المخالفين هذا الاستدلال من أوجه:

أحدها: ضعف إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى، والكلام فيه مشهور^(١).

الثاني: على تقدير صحته فقوله في الأول: يعني في الصلاة، لم يصرح بالقائل «يعني»^(٢).

الثالث: قوله في الثاني^(٣): «أنه كان يقول في الصلاة» وإن كان ظاهره أن المراد الصلاة المكتوبة، لكنه يحتمل أن يكون المراد بقوله في الصلاة، أي في صفة الصلاة عليه، وهو احتمال قوي، لأن أكثر الطرق عن كعب بن عجرة يدل على أن السؤال وقع عن صفة الصلاة لا عن محلها.

الرابع: ليس في الحديث ما يدل على تعيين ذلك في التشهد، خصوصاً بينه وبين السلام.

وقد أطنب قوم من متأخري المالكية وغيرهم في التشنيع على الشافعي في اشتراطه ذلك في الصلاة وزعم أنه تفرد بذلك.

(١) جاء في الأصل هنا: «إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى الأسلمي أبو إسحاق المدني، متروك من السابعة مات سنة أربع وثمان [كذا في الأصل] وقيل إحدى وتسعين». واعتقد أن هذه الترجمة كانت حاشية بين الأسطر على الأصل المنقول منه فأدخلها الناسخ في الأصل ظناً منه أنها استدراك، ولذا وضعتها في الحاشية. [م].

(٢) حتى يعلم هل هو ممن يقبل تفسيره أم لا.

(٣) أي الحديث الثاني.

وحكى الإجماع على خلافه جماعة، منهم أبو جعفر الطبري والطحاوي وابن المنذر والخطابي^(١).

وحكى القاضي عياض في الشفاء مقالاتهم. وقد عاب عليه غير واحد، وقالوا: كان ينبغي سكوته عنها، لأن مبنى تأليفه «الشفاء» على كمال المبالغة في تعظيمه ﷺ، وأداء حقوقه، والقول بوجوب الصلاة عليه في الصلاة من غرض المبالغة في تعظيمه، وقد استحسّن هو القول بطهارة فضلاته، مع أن الأكثر على خلافه، لكنه استجاده لما فيه من الزيادة في تعظيمه، وكيف ينكر القول بوجوب الصلاة عليه وهو من جنس الصلاة ومقتضياتها، وإذا شرع السلام فيها على نفس المصلي وعلى عباد الله الصالحين، فكيف لا تجب الصلاة على سيد المرسلين؟

وقد انتصر جماعة كثيرة من العلماء الأعلام للشافعي، كالحافظ عماد الدين بن كثير، والعلامة ابن القيم، وشيخ الإسلام والحافظ أبي الفضل بن حجر، وتلميذه شيخنا الحافظ^(٢) والعلامة أبي أمامة بن النقاش^(٣) وغيرهم ممن يطول عددهم.

واستدلوا لذلك بأدلة نقلية ونظرية، ودفعوا دعوى الشذوذ، فنقلوا القول بالوجوب عن جماعة من الصحابة، منهم ابن مسعود، وأبو مسعود البدري وجابر بن عبد الله، / ونقله أصحاب الشافعي عن عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، ومن التابعين: الشعبي، فيما رواه البيهقي كما سيأتي، وأبو جعفر الباقر، ومقاتل.

ب/ ٢٧٧

(١) «الخطابي» سقط من ط.

(٢) أي السخاوي.

(٣) لم يرد ذكر النقاش في (١، ش).

وأخرج الحاكم - بسند قوي - عن ابن مسعود قال: يتشهد الرجل ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يدعو لنفسه. قال الحافظ ابن حجر: وهذا أقوى شيء يحتج به للشافعي، فإن ابن مسعود ذكر أن النبي ﷺ علمهم التشهد في الصلاة، وأنه قال: ثم ليتخير من الدعاء ما شاء، فلما ثبت عن ابن مسعود الأمر بالصلاة عليه قبل الدعاء، دل على أنه اطلع على زيادة ذلك بين التشهد والدعاء، واندفعت حجة من تمسك بحديث ابن مسعود في دفع ما ذهب إليه الشافعي [وادعى] (١) مثل ما ذكره القاضي عياض قال، وهذا تشهد ابن مسعود الذي علمه له النبي ﷺ ليس فيه ذكر الصلاة عليه.

وفي جزء الحسن بن عرفة، وأخرج (٢) المعمرى (٣) في عمل اليوم والليلة (٤) عن ابن عمر - بسند جيد - قال: لا تكون صلاة إلا بقراءة وتشهد وصلاة عليّ.

وأخرج البيهقي في الخلافيات - بسند قوي - عن الشعبي، وهو من كبار التابعين، قال: كنا نعلم التشهد، فإذا قال: وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، يحمد ربه ويثني عليه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل حاجته.

وفي حديث أبي جعفر، عن ابن مسعود، مرفوعاً: من صلى

(١) في (ط، ش).

(٢) في ش: وأخرجه.

(٣) الحافظ العلامة الحسن بن علي بن شبيب البغدادي. قال الخطيب كان من أوعية العلم يذكر بالفهم ويوصف بالحفظ، وفي حديثه غرائب ينفرد بها، صدوق، مات سنة خمس وتسعين ومائتين.

(٤) كذا في الأصل: وفي النسخ: عمل يوم وليلة.

صلاة لم يصل فيها علي وعلى أهل بيتي لم تقبل منه . قال الدارقطني :
والصواب أنه من قول أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين : لو صليت
صلاة لم أصل فيها على النبي ﷺ وعلى أهل بيته لرأيت أنها لا تتم ،
لكن راويه عن أبي جعفر جابر الجعفي وهو ضعيف . كذا في الشفاء .
وقد وافق الشافعي من فقهاء الأمصار أحمد في إحدى الروايتين
عنه ، وعمل به أخيراً ، كما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقي^(١) ، فيما ذكره
الحافظ ابن كثير ، وأوجب إسحاق بن راهويه الإعادة مع تعمد تركها
دون النسيان ، والمشهور عن أحمد أنها تبطل بتركها عمداً أو سهواً ،
وعليه أكثر أصحابه ، حتى إن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال في
الصلاة عليه : صلى الله عليه وسلم ، كما علمهم أن يقولوا لما سألوه ،
كما ذكره ابن كثير ، ووافق الخرقى^(٢) إسحاق في التقييد بالعمد دون
السهو .

والخلاف أيضاً عند المالكية كما ذكره ابن الحاجب في سنن
الصلاة ، ثم قال : على الصحيح ، فقال شارحه ابن عبد السلام : يريد
أن في وجوبها قولين ، وهو ظاهر كلام الإمام ابن المواز^(٣) وبه صرح
عنه ابن القصار^(٤) ، وعبد الوهاب^(٥) ، كما في الشفاء بلفظ : إنه يراها

(١) الحافظ ، شيخ الشام ، قال أبو حاتم صدوق . مات سنة إحدى وثمانين
ومائتين ، وله تصانيف .

(٢) أبو القاسم عمر بن الحسين البغدادي ، شيخ الحنابلة ، الفقيه صاحب
المختصر ، وكان له تصانيف كثيرة أودعها ببغداد وسافر فاحترقت .

(٣) محمد بن إبراهيم الاسكندراني ، كان راسخاً في الفقه والفتيا ، مجتهداً في
المذهب ، انتهت إليه رئاسة المالكية بمصر . مات سنة تسع وستين ومائتين .

(٤) علي بن أحمد البغدادي ، قاضيهما الفقيه الأصولي ، له تصانيف ، مات سنة
ثمان وتسعين ثلاثمائة .

(٥) عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي ، أحد الأعلام وأئمة المالكية =

فريضة في الصلاة كقول الشافعي، قال: وحكى أبو يعلى العبدى^(١) عن المذهب فيها ثلاثة أقوال في الصلاة: الوجوب، والسنة، والندب. ورأيت مما يعزى للقاضي أبي بكر بن العربي في «سراج المريدين»: قال ابن المواز والشافعي: الصلاة على النبي ﷺ من فرائض الصلاة وهو الصحيح. انتهى.

وقد يلزم القائل من الحنفية بوجوب الصلاة عليه كلما ذكر كالطحاوي، ونقله السروجي في شرح الهداية عن أصحاب المحيط والعقد والتحفة من كتبهم أن يقولوا بوجوبها في التشهد لتقدم ذكره ﷺ في آخر التشهد في قوله: وأشهد أن محمداً رسول الله، لكن لهم أن يلتزموا ذلك ولا يجعلونه شرطاً في صحة الصلاة.

ولم يخالف الشافعي أحد من أصحابه في ذلك. بل قال بعض أصحابنا بوجوب الصلاة على الآل، كما حكاه البندنجي والدارمي، ونقله إمام الحرمين والغزالي قولاً عن الشافعي، قال الحافظ ابن كثير: والصحيح أنه وجه، على أن الجمهور على خلافه، والقول بوجوبه ظهور للحديث.

١/٢٧٨ وأما مخالفة الخطابي من أصحاب الشافعي / فلا يعتد به لمقتضى الأمر المحمول على الوجوب إجماعاً، وأولى أحواله الصلاة ولا مانع من احتمال كونه مراداً. وأما قوله: ولا أعلم له فيها قدوة، فيقال عليه: لا

= المجتهدين في المذهب، تحول إلى مصر لضيق حاله. مات سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة.

(١) أبو يعلى أحمد بن محمد العبدى إمام المالكية بالبصرة، له تصانيف، وكان مشهوراً بإمامة وتقديم صلاح.

ريب أن الشافعي قدوة يقتدى به، والمقام مقام اجتهاد، فلا افتقار له فيه إلى غيره.

وأما قوله في «الشفاء»: والدليل على أنها ليست من فروض الصلاة عمل السلف الصالح قبل الشافعي وإجماعهم عليه. ففيه نظر، لأنه إن أراد بالعمل الاعتقاد فيحتاج إلى نقل صريح عنهم بأن ذلك ليس بواجب، وأنى يوجد ذلك؟

وأما قوله: وقد شنع الناس عليه - يعني الشافعي - في هذه المسألة جداً، فلا معنى له، وأي شناعة في ذلك؟ ولم يخالف فيه نصاً ولا إجماعاً ولا قياساً ولا مصلحة راجحة. بل القول بذلك من محاسن مذهبه، ولا ريب أن القائل بجواز ترك الصلاة على أفضل خلق الله في الصلاة التي هي رأس العبادة المطلوب فيها الخضوع واستحضار شارعها والثناء عليه أولى بالتشنيع.

وأما نقله الإجماع فقد تقدم ما فيه.

وأما قوله: إن الشافعي اختار تشهد ابن مسعود، فلم يقل به أحد، والشافعي إنما اختار تشهد ابن عباس كما سيأتي إن شاء الله تعالى في مقصد عباداته.

وقد استدلل للوجوب بما أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وصححه، وكذا ابن خزيمة وابن حبان والحاكم من حديث فضالة بن عبيد قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يدعو في صلاته، لم يحمد الله ولم يصل على النبي ﷺ فقال: عجل هذا، ثم دعاه إليه فقال: إذا صلى أحدكم فليبدأ بالحمد لله والثناء عليه، ثم ليصل على النبي ﷺ ثم ليدع بما شاء.

قلت: وما يعد من كرامات إمامنا الشافعي وسره الساري، أن القاضي عياضاً ساق هذا الحديث بسنده من طريق الترمذي من غير أن يطعن في سنده بعد قوله: «فصل في المواطن التي تستحب فيها الصلاة على النبي ﷺ ويرغب» من ذلك: في تشهد الصلاة، وذلك بعد التشهد وقبل الدعاء.

وهذا الحديث - كما ترى - من أعظم الأدلة لنا.

فإن قال قائل: ليس لكم فيه دلالة لأنه قال: سمع فيه رجلاً يدعو في صلاته، ولم يقل في تشهده.

فيجاب: بأنه يلزم على هذا أن القاضي عياضاً ساقه في غير محله، لأنه عقد الفصل - كما قدمته - لبيان مواطن استحباب الصلاة. ثم قال: ومن ذلك في تشهد الصلاة.

وفي «مصابيح» البغوي، من حديث فضالة بن عبيد هذا ما يدل على أنه كان في التشهد، ولفظه: قال دخل رجل فقال اللهم اغفر لي وارحمني، فقال رسول الله ﷺ: عجلت أيها المصلي، إذا صليت فقعدت فاحمد الله بما هو أهله، ثم صل عليّ، ثم ادعه.

وفي قوله: «عجلت» استلواح فوات الكمال عن الحقيقة المجزئة، إذ لو كانت مجزئة لما حسن اللوم والتعليم بصيغة الأمر، فإن قيل إنه في مقام تعليم المستحبات إذ لو كان في الواجبات لأمره بالإعادة، كما أمر المسيء صلاته، فيجاب: بأن في قوله هذا غنية عن الأمر بالإعادة، لأنه حيث علمه ما هو الواجب علم قطعاً أنه لم يأت به أولاً فلم يكن آتياً به فوجبت إعادته، وهم أهل الفهم والعرفان.

فإن قال: إن قوله «فقعدت» يحتمل أن يكون عطفاً على مقدر، تقديره: إذا صليت وفرغت فقعدت للدعاء فاحمد الله.

فيجاب: بأن الأصل عدمه، وإنما هو عطف على المذكور، أي: إذا كنت في الصلاة فقعدت للتشهد فاحمد الله، أي أثن عليه بقولك، التحيات لله الخ والله أعلم.

وقال الجرجاني من الحنفية وغيره: لو كانت فرضاً للزم تأخير البيان عن وقت الحاجة، لأنه ﷺ علمهم التشهد وقال: فليتخير من الدعاء ما شاء، ولم يذكر الصلاة عليه.

وأجيب: باحتمال أن لا تكون فرضت حينئذ.

وقال الحافظ زين الدين العراقي في شرح الترمذي: قد ورد هذا الصحيح بلفظ: ثم ليتخير/، و«ثم» للتراخي، فدل على أنه كان هناك شيء بين التشهد والدعاء، انتهى.

ب/ ٢٧٨

وقد أطنب الشيخ أبو أمامة بن النقاش في تفسيره في الانتصار للشافعي في هذه المسألة، مما يطول ذكره، فالله يشبهه على قصده الجميل.

[صفة الصلاة عليه ﷺ]

وأما صفة الصلاة عليه ﷺ، (فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية؟ إن النبي ﷺ خرج علينا، فقلنا يا رسول الله، قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي.

فإن قلت: كيف يطابق قوله: (اللهم صل على محمد) قوله: (كما صليت على آل إبراهيم)؟

أجاب القاضي عياض: بأن «آل» مقحم، كما في قوله ﷺ في أبي موسى: (إنه أعطي زمماراً من مزامير آل داود)، ولم يكن له آل مشهور بحسن الصوت.

وقد روى هذا الحديث ابن أبي حاتم بلفظ: لما نزلت ﴿إِن اللّٰهُ وَمَلَائِكَتُهُ يَصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١) قال: قلنا يا رسول الله، فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى يقول^(٢): وعلينا معهم.

وعن أبي حميد الساعدي: (أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وعلى) [إبراهيم وعلى]^(٣) آل إبراهيم إنك حميد مجيد^(٤) رواه الإمام أحمد^(٥)

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٦.

(٢) أي يزيد المصلي «وعلينا معهم» رجاء بركة اللحاق بهم.

(٣) في (ط، ب، د).

(٤) نص الحديث عند أحمد (اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد) المسند ٤٢٤/٥.

(٥) قال الشارح، وكذا رواه البخاري ومسلم كلاهما من طريق مالك، وهو في الموطأ، فقصر المصنف في العزو.

وعن أبي مسعود الأنصاري قال: (أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة فقال له بشر بن سعد أمرنا الله أن نصلي عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم، رواه مالك ومسلم وغيرهما.

[وجه التشبيه بالصلاة على إبراهيم]

فإن قلت: ما موقع التشبيه في قوله: (كما صليت على إبراهيم)، مع أن المقرر أن المشبه دون المشبه به؟ والواقع هنا عكسه، لأن محمداً ﷺ وحده أفضل من إبراهيم ومن آل إبراهيم، ولا سيما وقد أضيف إليه آل محمد، وقضية كونه أفضل أن تكون الصلاة المطلوبة له أفضل من كل صلاة حصلت أو تحصل لغيره.

فقد أجاب العلماء عنه بأجوبة كثيرة:

منها: أنه ﷺ قال ذلك قبل أن يعلم أنه أفضل من إبراهيم. وقد أخرج مسلم حديث أنس: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا خير البرية، قال: ذاك إبراهيم.

وتعقب: بأنه لو كان كذلك لغير صيغة الصلاة عليه بعد أن علم أنه أفضل.

ومنها: أنه قال ذلك تواضعاً، وشرع ذلك لأمته ليكتسبوا بذلك الفضيلة.

ومنها: أن التشبيه إنما هو لأصل الصلاة بأصل الصلاة، لا

للقدر بالقدر، فهو كقوله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح﴾^(١)، وهو كقول القائل: أحسن إلى ولدك كما أحسنت إلى فلان، ويريد بذلك أصل الإحسان لا قدره، ومنه قوله تعالى: ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾^(٢)، ورجح هذا القول القرطبي في «المفهم».

1/279 /ومنها: أن قوله: (اللهم صل على محمد) مقطوع عن التشبيه، فيكون التشبيه^(٣) متعلقاً بقوله: (وعلى آل محمد)

وتعقب: بأن غير الأنبياء لا يمكن أن يساوا الأنبياء، فكيف يطلب لهم صلاة مثل الصلاة التي وقعت لإبراهيم والأنبياء من آله. ويمكن الجواب عنه: بأن المطلوب الثواب الحاصل لهم، لا جميع الصفات التي كانت سبباً للثواب.

وقد نقل العمراني^(٤) في «البيان»^(٥) عن الشيخ أبي حامد أنه نقل هذا الجواب عن نص الشافعي. واستبعد ابن القيم صحة ذلك عن الشافعي، لأنه مع فصاحته ومعرفته بلسان العرب لا يقول هذا الكلام المستلزم هذا التركيب الركيك البعيد من كلام العرب، كذا قال. وتعقبه الحافظ ابن حجر^(٦) فقال: ليس التركيب المذكور ركيكاً،

(١) سورة النساء، الآية ١٩٣.

(٢) سورة القصص، الآية ٧٧.

(٣) قوله «فيكون التشبيه» سقط من (أ).

(٤) الإمام يحيى بن سالم من بني عمران من اليمن، نشر العلم ببلاده، توفي سنة ثمان وخمسين وخمسةائة.

(٥) اسم شرح العمراني على المهذب.

(٦) في (ش): ابن كثير.

بل التقدير: اللهم صل على محمد وصل على آل محمد كما صليت
الخ، فلا يمتنع الشبيه بالجملة الثانية.

ومنها: رفع المقدمة المذكورة أولاً، وهي أن المشبه به يكون أرفع
من المشبه، وأن ذلك ليس مطرداً، بل قد يكون التشبيه بالمثل، بل
بالدون، كما في قوله تعالى: ﴿مثل نوره كمشكاة﴾^(١)، وأين يقع نور
المشكاة من نوره تعالى؟ ولكن لما كان المراد من المشبه به أن يكون شيئاً
ظاهراً واضحاً للسامع حسن تشبيه النور بالمشكاة، وكذا هنا: لما كان
تعظيم إبراهيم وآل إبراهيم بالصلاة عليهم مشهوراً واضحاً عند جميع
الطوائف حسن أن يطلب لمحمد وآل محمد بالصلاة عليهم مثل ما
حصل لإبراهيم وآل إبراهيم، ويؤيد ذلك ختم الطلب المذكور بقوله
(في العالمين) أي كما أظهرت الصلاة على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في
العالمين، ولهذا لم يقع (في العالمين) إلا في ذكر إبراهيم دون ذكر آل
محمد على ما وقع في الحديث الذي وردت فيه، وهو حديث أبي
مسعود الأنصاري الذي ذكرته.

وهذا معنى قول الطيبي: وليس التشبيه المذكور من باب إلحاق
الناقص بالكامل، لكن من باب إلحاق ما لم يشتهر بما اشتهر.

وقال النووي: أحسن الأجوبة ما نسب إلى الشافعي: أن
التشبيه لأصل الصلاة أو للمجموع بالمجموع.

وقال ابن القيم - بعد أن زيف أكثر الأجوبة إلا تشبيه المجموع
بالمجموع -: وأحسن منه أن يقال: هو ﷺ من آل إبراهيم، وقد ثبت
ذلك عن ابن عباس في تفسير قوله: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل

(١) سورة النور، الآية ٣٥.

إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴿١﴾ قال: محمد من آل إبراهيم، فكأنه أمرنا أن نصلي على محمد وعلى آل محمد خصوصاً بقدر ما صلينا عليه مع إبراهيم وآل إبراهيم عموماً، فيحصل لآله ما يليق بهم، ويبقى الباقي كله له، وذلك القدر أزيد مما لغيره من آل إبراهيم. وتظهر حينئذ فائدة التشبيه، وأن المطلوب له بهذا اللفظ أفضل من المطلوب بغيره من الألفاظ.

وقال الحلبي: سبب هذا التشبيه أن الملائكة قالت في بيت إبراهيم: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ ﴿٢﴾ وقد علم أن محمداً وآل محمد من أهل بيت إبراهيم، فكأنه قال: قولوا اللهم أجب دعاء الملائكة الذين قالوا ذلك في محمد وآل محمد كما أجبتهما عندما قالوها في آل إبراهيم الموجودين حينئذ، ولذلك ختم بما ختم به الآية وهو قوله إنك حميد مجيد.

ومما يعزى للعارف الرباني أبي محمد المرجاني أنه قال: وسر قوله ﷺ: (كما صليت على إبراهيم، وكما باركت على إبراهيم) ولم يقل: كما صليت على موسى، لأن موسى عليه الصلاة والسلام كان التجلي له بالجلال، فخر موسى صعقاً، والخليل إبراهيم كان التجلي له بالجمال، لأن المحبة والخلقة من آثار التجلي بالجمال، / فلهذا أمرهم صلوات الله وسلامه عليه أن يصلوا عليه كما صلى على إبراهيم، فيسألوا له التجلي بالجمال، وهذا لا يقتضي التسوية فيما بينه وبين الخليل صلوات الله وسلامه عليهما، لأنه إنما أمرهم أن يسألوا له التجلي بالوصف الذي تجلى به للخليل عليه الصلاة والسلام، فالذي يقتضيه الحديث المشاركة

(١) سورة آل عمران، الآية ٣٣.

(٢) سورة هود، الآية ٧٣.

في الوصف الذي هو التجلي بالجمال، ولا يقتضي التسوية في المقامين ولا الرتبتين، فإن الحق سبحانه يتجلى بالجمال لشخصين بحسب مقاميهما، وإن اشتركا في وصف التجلي بالجمال، فيتجلى لكل واحد منهما بحسب مقامه عنده، ورتبته منه ومكانته، فيتجلى للخليل عليه الصلاة والسلام بالجمال بحسب مقامه، ويتجلى لسيدنا محمد ﷺ بالجمال بحسب مقامه، فعلى هذا يفهم الحديث. انتهى.

[المقصود بـ«آل محمد»]

فإن قلت: ما المراد بآل محمد في هذا الحديث؟

فالجواب: إن الراجح أنهم من حرمت عليهم الصدقة، كما نص عليه الشافعي، واختاره الجمهور، ويؤيده قوله ﷺ للحسن بن علي: (إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة)^(١)

وقيل: المراد بآل محمد أزواجه وذريته.

وقيل: المراد بهم جميع الأمة أمة الإجابة. حكاه أبو الطيب الطبري عن بعض الشافعية، ورجحه النووي في شرح مسلم، وقيده القاضي حسين بالانقياد منهم، وعليه يحمل كلام من أطلق، ويؤيده ما رواه تمام في فوائده، والديلمي عن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ: من آل محمد؟ فقال: كل تقي من أمة محمد، زاد الديلمي: ثم قرأ: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمَتَّقُونَ﴾^(٢)، وإسنادهما ضعيف، لكن ورد ما يشهد لذلك في الصحيحين كحديث (إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين). انتهى ملخصاً.

(١) رواه أحمد والطبراني بإسناد قوي.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٣٤.

[أفضل صيغ الصلاة]

وقد استدل العلماء بتعليمه ﷺ لأصحابه هذه الكيفية بعد سؤالهم عنها، بأنها أفضل كفيات الصلاة عليه، لأنه لا يختار لنفسه إلا الأشرف الأفضل.

ويترتب على ذلك: أنه لو حلف أن يصلي على النبي ﷺ أفضل الصلاة، فطريق البر أن يأتي بذلك، هكذا صوبه النووي في «الروضة»، بعد ذكر حكاية الرافعي عن إبراهيم المروزي أنه قال: يبر إذا قال: كلما ذكره الذاكرون، وكلما سها عن ذكره الغافلون. قال النووي: وكأنه أخذ ذلك من كون الشافعي ذكر هذه الكيفية - يعني في خطبة «الرسالة» له - ولكن بلفظ «غفل» بدل «سها».

وقال الأذري: «إبراهيم» المذكور كثير النقل من تعليقه القاضي حسين، ومع ذلك فالقاضي قال في طريق البر؛ أن يقول: اللهم صل على محمد كما هو أهله ويستحقه، وكذا نقله البغوي في تعليقه.

ولو جمع بينها فقال ما في الحديث، وأضاف إليه أثر الشافعي، وما قاله القاضي لكان أشمل. ولو قيل: إنه يعمد إلى جميع ما اشتملت عليه الروايات الثابتة فيستعمل منها ذكراً يحصل به البر لكان حسناً.

[الترحم عليه ﷺ]

وعن ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: إذا تشهد أحدكم في الصلاة فليقل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمداً وآل

محمد، كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، رواه الحاكم (١).

وقد يستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي ﷺ، كما هو قول الجمهور، ويعضده حديث الأعرابي الذي قال: اللهم ارحمني وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحداً، فقال له رسول الله ﷺ: (لقد تحجرت) (٢) واسعاً (٣).

وحكى القاضي عياض عن جمهور المالكية منعه (٤) قال: وأجازه أبو محمد بن أبي زيد. انتهى.

وسياتي ما في ذلك من البحث إن شاء الله تعالى في المقصد التاسع عند الكلام على التشهد.

[صيغة صلاة علي رضي الله عنه]

وعن سلامة الكندي أن علياً كان يعلم الناس الدعاء - وفي لفظ: يعلم الناس الصلاة على رسول الله ﷺ - فيقول: اللهم داخي المدحوات، وبارئ المسموكات، اجعل شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك، ورأفة تحننك، على محمد عبدك ورسولك، الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، والمعلن الحق بالحق، والدامغ لجيшат الأباطيل، كما

(١) اغترق قوم بتصحيحه فوهموا، لأنه من رواية يحيى بن السباق وهو مجهول عن رجل مبهم. قاله المصنف في المقصد التاسع.

(٢) أي ضيقت، فهو من الحجر بمعنى: المنع.

(٣) رواه الترمذي وغيره.

(٤) جاء في (ط) هنا: إلا أنه ضعيف عندهم.

حَمَل فاضطلع بأمرك بطاعتك، مستوفزاً في مرضاتك، واعياً لوحيك، حافظاً لعهدك، ماضياً على نفاذ أمرك، حتى أورى قبساً لقابس آلاء الله، تصل بأهله أسبابه، به هديت القلوب، بعد خوضات الفتن والإثم، وأبهج موضحات الأعلام، ونائرات الأحكام، ومنيرات الإسلام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبعيئك نعمة ورسولك بالحق رحمة، اللهم افسح له في عدتك، واجزه مضاعفات الخير من فضلك، مهنئات له غير مكدرات، من فوز ثوابك المحلول، وجزيل عطائك المعلول، اللهم أعل على بناء الناس بناءه، وأكرم مثواه لديك ونزله، وأتم له نوره، واجزه من ابتعائك له مقبول الشهادة، ومرضي المقالة، ذا منطق عدل، وخطة فصل، وبرهان عظيم. حديث موقوف، رواه الطبراني لكن قال الحافظ ابن كثير: في سنده نظر، قال: وقال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي: سلامة الكندي هذا ليس بمعروف، ولم يدرك علياً، كذا قال.

وقوله: «داحي المدحوات»: أي باسط الأرضين، وكل شيء بسطته ووسعته فقد دحوته.

«وبارئ المسموكات»: أي خالق السماوات، وكل شيء رفعته وأعليته فقد سمكته.

«والدافع لجيشت الأباطيل»: أي المهلك لما نجم وارتفع منها وفار. وأصل «الدمغ» من الدماغ، دمغه: أصاب دماغه، و«جيشات» من جاش إذا ارتفع.

«واضطلع»: افتعل من الضلاعة، وهي القوة.

«وأورى قبساً لقابس»: أي أظهر نوراً من الحق لطالبه.

«وآلاء الله»: نعم الله .

«تصل بأهله»: أي أهل ذلك القبس وهو الإسلام والحق أسبابه،
وأهله المؤمنون .

«وبه هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم»: أي هديت
بعد الكفر والفتن لموضحات الأعلام .

«ونائثرات» و«المنيرات»: الواضحات، يقال: نار الشيء، وأنار
إذا وضح .

«وشهيدك يوم الدين»: يريد الشاهد على أمته يوم القيامة .

«وبعيتك نعمة»: أي مبعوثك، فعيل بمعنى مفعول .

«وافسح له»: أي وسع له .

«وفي عدنك»: أي في جنة عدن .

«والمعلول»: من العلل وهو الشرب بعد الشرب، يريد أن
إعطائه مضاعف، كأنه يعمل به عباده، أي: يعطيهم عطاء بعد عطاء .

«وأعل على بناء الناس» وفي رواية: البانين، أي ارفع فوق
أعمال العاملين عمله .

«وأكرم مثواه»: أي منزله .

«ونزله»: رزقه .

«والخطة»: بضم الخاء المعجمة، الأمر والقصة .

«والفصل»: القطع .

[صيغة صلاة ابن مسعود]

وعن عبدالله بن مسعود قال: إذا صليت على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه، فقالوا له علمنا، قال: قولوا اللهم اجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك، إمام الخير، ورسول الرحمة، اللهم ابعثه مقاماً محموداً، يغبطه فيه الأولون والآخرون، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. حديث موقوف، رواه ابن ماجه.

[صيغ أخرى]

وعن رويغ بن ثابت الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: من صلى على محمد، وقال: اللهم أنزله المقعد [الصدق] (١) المقرب / عندك يوم القيامة، وجبت له شفاعتي. رواه الطبراني. قال ابن كثير: وإسناده حسن ولم يخرجوه.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل: اللهم صل على محمد النبي الأمي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد، رواه أبو داود.

وعن طاووس: سمعت ابن عباس يقول: اللهم تقبل شفاعتي محمد الكبرى، وارفع درجته العليا، وأعطه سؤله في الآخرة والأولى،

(١) في (ط، ش).

كما آتيت إبراهيم وموسى . رواه إسماعيل القاضي . قال ابن كثير :
وإسناده جيد قوي صحيح .

[مواطن الصلاة عليه ﷺ]

وأما المواطن التي تشرع فيها الصلاة عليه ﷺ :

فمنها: التشهد الأخير، وهي واجبة فيه، كما قدمنا، وفي وجوبها في التشهد الأول قولان، أظهرهما المنع، لبنائه على التخفيف، بل [هي] ^(١) سنة، وفي استحباب الصلاة على الآل في التشهد الأول القولان، وفي وجوبها في الأخير رأيان ^(٢): أصحهما المنع، بل هي سنة تابعة، وأقلها اللهم صل على محمد، وكذا: صلى الله على محمد، وأقلها على الآل: وآله . وقال في «الكفاية» بإعادة «على» ^(٣).

ومنها: خطبة الجمعة، وكذا غيرها من الخطب، فلا تصح خطبتا ^(٤) الجمعة إلا بها، لأنها عبادة، وذكر الله فيها شرط، فوجب ذكر الرسول فيها كالأذان والصلاة، وهذا مذهب الشافعي وأحمد .

ومنها: عقب إجابة المؤذن، لما رواه الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو بن العاصي، أن رسول الله ﷺ قال: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا

(١) في (ط، ش).

(٢) في الأصل: بابان .

(٣) أي يقول: وعلى آله .

(٤) في ط: خطبة .

تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة). وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث كعب بن علقمة، وذكره بلفظ «الرجاء» وإن كان متحقق الوقوع أدباً وإرشاداً منه وتذكيراً بالخوف، وتفويضاً إلى الله بحسب مشيئته، وليكون الطالب للشيء بين الرجاء والخوف.

وقوله: «حلت عليه الشفاعة» أي وجبت، وقيل غشيته ونزلت

به.

تنبيه: قال شيخنا في «المقاصد الحسنة»: حديث «الدرجة الرفيعة» المدرج فيما يقال بعد الأذان، لم أره في شيء من الروايات، وأصل الحديث عند أحمد والبخاري والأربعة عن جابر مرفوعاً: (من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة: قال وكأن من زادها اغتر بما وقع في بعض نسخ «الشفاء» من حديث جابر المشار إليه، لكن مع زيادتها في هذه النسخة المعتمدة علم عليها كاتبها بما يشير إلى الشك فيها، ولم أرها في سائر نسخ الشفاء، بل في الشفاء عقد لها فصلاً في مكان آخر ولم يذكر فيه حديثاً صريحاً، وهو دليل لغلطها. انتهى والله أعلم.

ومنها: أول الدعاء وأوسطه وآخره، لما روى أحمد من حديث جابر: أن رسول الله ﷺ قال: (لا تجعلوني كقدح الراكب، فإن الراكب يملأ قدحه ثم يضعه ويرفع متاعه فإذا احتاج إلى شراب شرب، أو الوضوء توضأ، وإلا أهرقه، ولكن اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره)

ومنها: وهو من أكدها، عقب دعاء القنوت، لما رواه أحمد وأهل السنن، وابن جرير وابن حبان والحاكم، من حديث أبي الجوزاء، عن الحسن بن علي قال: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر: (اللهم اهديني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، [ولا يعز من عاديت])^(١) تباركت/ ربنا وتعاليت) وزاد النسائي في سننه: وصلى الله على النبي^(٢)، وسيأتي في المقصد التاسع البحث في ذلك إن شاء الله تعالى.

١/٢٨١

ومنها: أثناء تكبيرات العيدين، لما روى إسماعيل القاضي أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة، خرج عليهم الوليد بن عقبة فقال: إن هذا العيد قد دنا، فكيف التكبير فيه؟ فقال عبدالله: تبتدئ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة، وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ، ثم تدعو^(٣) وتكبر، وتفعل مثل ذلك، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك، ثم تدعو وتكبر وتفعل مثل ذلك، ثم ترقع. فقال حذيفة وأبو موسى صدق أبو عبد الرحمن. قال ابن كثير: إسناده صحيح^(٤).

ومنها: عند دخول المسجد والخروج منه، لما رواه أحمد عن

(١) زيادة في (ب، ط) قال الشارح: زاد الطبراني في الكبير (ولا يعز من عاديت).

(٢) هذه الزيادة غريبة غير ثابتة، أي ضعيفة.

(٣) في (أ): تدعوه.

(٤) هو موقوف وليس له حكم الرفع.

فاطمة^(١) قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد ثم قال: اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج صلى على محمد ثم قال: اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك^(٢).

ومنها: في صلاة الجنائز، فإن السنة أن يقرأ الفاتحة بعد إحدى التكبيرات، وبعد الأولى أولى، وأن يصلي على النبي ﷺ بعد الثانية، ويدعو للميت بعد الثالثة، وبعد الرابعة يقول: اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده. وفي ذلك حديث رواه الشافعي والنسائي^(٣).

ومنها: عند التلبية، لما رواه الشافعي والدارقطني عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال: كان يؤمر الرجل إذا فرغ من تليته أن يصلي على النبي ﷺ على كل حال.

ومنها: عند الصفا والمروة، لما روى إسماعيل القاضي عن عمر ابن الخطاب أنه قال: إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعا، وصلوا عند المقام ركعتين، ثم اتوا الصفا فقوموا عليه من حيث ترون البيت فكبروا سبع تكبيرات، تكبيراً بعد حمد الله وثناء عليه، وصلاة على النبي ﷺ ومسألة لنفسك، وعلى المروة مثل ذلك. قال ابن كثير: إسناده حسن جيد قوي.

ومنها: عند الاجتماع والتفرق، لما روى الترمذي^(٤) عن أبي

(١) فاطمة الزهراء بنت النبي ﷺ.

(٢) وكذا رواه أبو داود والنسائي.

(٣) لكن في إسناده ضعف كما قال الخيضي.

(٤) فيه صالح بن التوأمة ضعيف عن أبي هريرة.

هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيه إلا كان عليه ترة^(١)، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم.

وروى إسماعيل القاضي عن أبي سعيد قال: ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبي ﷺ إلا كان عليهم حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب^(٢).

ومنها: عند الصباح والمساء، لما روى الطبراني من حديث أبي الدرداء مرفوعاً. من صلى علي حين يصبح عشراً، وحين يمسي عشراً، أدركته شفاعتي يوم القيامة^(٣).

ومنها: عند الوضوء، لحديث ابن ماجه عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: لا وضوء لمن لم يصل على النبي ﷺ^(٤).

ومنها: عند طنين الأذن، لحديث أبي رافع عند ابن السني مرفوعاً: إذا طنت أذن أحدكم فليذكرني، وليصل علي وليقل ذكر الله من ذكرني بخير^(٥).

ومنها: عند نسيان الشيء، لحديث أبي موسى المديني، بسند فيه

(١) هي النقص أو التبعة أو الحسرة.

(٢) أبعد المصنف النجعة في العزو، فقد روى النسائي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ (لا يجلس قوم مجلساً ثم لا يصلون فيه على رسول الله إلا كان عليهم حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب).

(٣) رواه بإسنادين الجيد منها فيه انقطاع.

(٤) الحديث ضعيف كما في الفتح.

(٥) قال السخاوي: سنده ضعيف، وقال العقيلي لا أصل له، وقال ابن الجوزي: موضوع. قال الحافظ الهيثمي: إسناد الطبراني في الكبير حسن.

ضعف، عن أنس يرفعه: إذا نسيتم شيئاً فصلوا علي تذكروه إن شاء الله تعالى.

ومنها: بعد العطاس، كما ذهب إليه أبو موسى المدني وجماعة، ونازعهم في ذلك آخرون، وقالوا: هذا موطن يفرد فيه ذكر الله تعالى، كالأكل والشرب والوقاع ونحو ذلك.

ومنها: عند زيارة قبره الشريف، لحديث أبي داود عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام.

ب/٢٨١

وروى/ ابن عساكر: من صلى علي عند قبري سمعته.

وورد الأمر بالإكثار منها يوم الجمعة وليلتها، فعن أوس بن أوس الثقفي قال: قال رسول الله ﷺ: من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق الله آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فاكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي، قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت - يعني: وقد بليت - قال: إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، رواه أحمد وأبو داود والنسائي. وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني.

قال الحافظ ابن كثير: وقد روى البيهقي من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ الأمر بالإكثار من الصلاة عليه ليلة الجمعة ويوم الجمعة، ولكن في إسناده ضعف.

فإن قلت: ما الحكمة في خصوصية الإكثار من الصلاة عليه ﷺ يوم الجمعة وليلتها؟

أجاب ابن القيم بأن رسول الله ﷺ سيد الأنام، ويوم الجمعة سيد الأيام، فللصلاة عليه فيه مزية ليست لغيره، مع حكمة أخرى، وهي أن كل خير نالته أمته في الدنيا والآخرة فإنما نالته على يده ﷺ، فجمع الله لأمته بين خيرَي الدنيا والآخرة، وأعظم كرامة تحصل لهم فإنها تحصل لهم يوم الجمعة، فإن فيه بعثهم إلى منازلهم وقصورهم في الجنة، وهو يوم المزيد لهم إذا دخلوا الجنة، وهو يوم عيدهم في الدنيا، ويوم فيه يسعفهم الله تعالى بطلباتهم وحوادثهم، ولا يرد سائلهم، وهذا كله إنما عرفوه وحصل لهم بسببه وعلى يده، فمن شكره وحمده وأداء القليل من حقه ﷺ أن يكثر من الصلاة عليه في هذا اليوم وليلته.

[فضيلة الصلاة عليه ﷺ]

وأما فضيلة الصلاة عليه ﷺ فقد ورد التصريح بها في أحاديث قوية، لم يخرج البخاري منها شيئاً، أمثلها ما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ (من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشراً).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ لحاجة، فلم يجد أحداً يتبعه، فأتاه عمر بمطهرة من خلفه، فوجد النبي ﷺ ساجداً، فتنحى عنه حتى رفع النبي ﷺ رأسه، فقال: أحسنت يا عمر حين وجدتنني ساجداً فتنحيت عني، إن جبريل أتاني فقال: من صلى عليك من أمتك واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، ورفعه عشر درجات. رواه الطبراني [وقال الترمذي: هذا حديث حسن

صحيح] (١) قال ابن كثير: وقد اختار هذا الحديث الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المستخرج على الصحيحين».

وعن أبي طلحة أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى في وجهه، فقالوا: يا رسول الله إنا لنرى السرور في وجهك، فقال: إنه أتاني الملك فقال: يا محمد، أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول: إنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً، قال: بلى، رواه الدارمي وأحمد وابن حبان والحاكم والنسائي، واللفظ له.

وعن عامر بن ربيعة، أن رسول الله ﷺ قال: من صلى على صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلى علي، فليقلَّ عبد من ذلك أو ليكثر. رواه أحمد وابن ماجه من حديث شعبة.

وعن عبدالله بن عمرو بن العاصي: من صلى على رسول الله ﷺ صلاة صلى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاة، فليقلَّ عبد من ذلك أو ليكثر، رواه أحمد.

والتخير بعد الإعلام بما فيه الخيرة في المخير فيه على جهة التحذير من التفريط في تحصيله، وهو قريب من معنى التهديد.

وروى الترمذي، أن أبي ابن كعب قال: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك (٢) فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: ما شئت، قلت: الربع؟ قال: ما شئت وإن زدت فهو خير لك، قلت: فالنصف؟ قال: ما شئت وإن زدت / فهو خير لك، قلت: فالثلثين؟ قال: ما

(١) زيادة في (ط، ب، د).

(٢) لفظ «عليك» ليس في (ط، ش).

شئت وإن زدت فهو خير لك، قلت: أجعل لك صلاتي كلها، قال: إذن تكفى همك، ويغفر ذنبك. ثم قال: هذا حديث حسن.

[السلام عليه ﷺ]

فهذا ما يتعلق بالصلاة، وأما السلام فقال النووي: يكره إفراد الصلاة عن السلام، واستدل بورود الأمر بهما معاً في الآية، يعني قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١).

وتعقبوه: بأن النبي ﷺ علم أصحابه التسليم قبل تعليمهم الصلاة، كما هو مصرح به في قولهم: يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك، وقوله ﷺ بعد أن علمهم الصلاة والسلام: كما قد علمتم، فأفرد التسليم مدة قبل الصلاة عليه.

لكن قال في فتح الباري: إنه يكره أن يفرد الصلاة ولا يسلم أصلاً، أما لو صلى في وقت، وسلم في وقت آخر فإنه يكون ممثلاً.

[السلام على غير النبي ﷺ]

وقال أبو محمد الجويني من أصحابنا: السلام بمعنى الصلاة، فلا يستعمل في الغائب ولا يفرد به غير الأنبياء، فلا يقال: علي عليه السلام، سواء في هذا الأحياء والأموات، وأما الحاضر فيخاطب به فيقال: سلام عليك، أو عليكم، أو السلام عليك أو عليكم، وهذا مجمع عليه انتهى.

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٦.

وقد جرت عادة بعض النساخ أن يفردوا علياً وفاطمة رضي الله
عنها بالسلام، فيقولوا: عليه أو عليها السلام من دون سائر الصحابة
في ذلك، وهذا وإن كان معناه صحيحاً لكن ينبغي أن يساوي بين
الصحابة رضي الله عنهم في ذلك، فإن هذا من باب التعظيم
والتكريم، والشيخان وعثمان أولى بذلك منها، أشار إليه ابن كثير.

[الصلاة على غير النبي ﷺ]

وأما الصلاة على غير النبي ﷺ فاختلف فيها.

وأخرج البيهقي بسند واه من حديث بريدة رفعه: لا تترك في
التشهد الصلاة على وعلى أنبياء الله.

وأخرج إسماعيل القاضي بسند ضعيف من حديث أبي هريرة
صلوا على أنبياء الله

وأخرج الطبراني من حديث ابن عباس رفعه: إذا صليت على
فصلوا على أنبياء الله، فإن الله بعثهم كما بعثني^(١).

وثبت عن ابن عباس اختصاص ذلك بالنبي ﷺ. أخرجه ابن
أبي شيبة من طريق عثمان عن عكرمة عنه قال: ما أعلم الصلاة تنبغي
على أحد من أحد إلا على النبي ﷺ. وسنده صحيح.

وحكي القول به عن مالك، وجاء نحوه عن عمر بن عبد
العزير.

وقال سفيان: يكره أن يصلي إلا على نبي.

(١) إسناده ضعيف، كما قال الحافظ.

وعن بعض شيوخ مذهب مالك: لا يجوز أن يصلي إلا على محمد.

قالوا^(١): وهذا غير معروف عن مالك، وإنما قال: أكره الصلاة على غير الأنبياء وما ينبغي لنا أن نتعدى ما أمرنا به.

وخالفه يحيى بن يحيى^(٢) فقال: لا بأس به، واحتج بأن الصلاة دعاء بالرحمة، فلا تمنع إلا بنص أو إجماع.

[الصلاة على غير الأنبياء]

وأما الصلاة على غير الأنبياء، فإن كان على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث: اللهم صل على محمد وآل محمد ونحوه، فهو جائز بالإجماع. وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم.

فقال قائلون بجواز ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾^(٣) ويقوله: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾^(٤)، ويقوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم﴾^(٥)، وبحديث عبدالله بن أبي أوفى قال: كان رسول

(١) أي عياض وغيره.

(٢) يحيى بن يحيى بن كثير الليثي القرطبي، فقيه مجاب الدعوة، قليل الحديث، له أوهام، روى موطأ مالك توفي سنة أربع وثلاثين ومائتين على الصحيح.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٤٣.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٥٧.

(٥) سورة التوبة، الآية ١٠٣.

الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: اللهم صل عليهم، فأتاه أبي بصدقته فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى. أخرجه الشيخان.

وقال الجمهور من العلماء: لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة، لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا، فلا يلحق بهم غيرهم، فلا يقال أبو بكر صلى الله عليه وسلم. أو: قال علي صلى الله عليه وسلم، وإن كان المعنى صحيحاً، كما لا يقال: [قال] (١) محمد عز وجل، وإن كان عزيزاً جليلاً، لأن هذا من شعار ذكر الله عز وجل.

وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم، ولهذا لم يثبت شعاراً لآل أبي أوفى. وهذا مسلك حسن.

وقال آخرون (٢): لا يجوز ذلك، لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء، يصلون على من يعتقدون فيهم، فلا يقتدى بهم في ذلك.

ثم اختلف المانعون من ذلك: هل هو من باب التحريم، أو كراهة التنزيه، أو خلاف الأولى؟ على ثلاثة أقوال، حكاه النووي في كتاب «الأذكار»، ثم قال: والصحيح الذي عليه الأكثرون، أنه مكروه كراهة تنزيه، لأنه شعار أهل البدع، وقد نهينا عن شعارهم.

(١) في (أ، ب، د).

(٢) هو تأييد لقول الجمهور.

الفصل الثالث

في ذكر محبة أصحابه ﷺ وآله وقرابته وأهل بيته وذريته
[حب آل البيت والقرابة]

قال الطبري: اعلم أن الله تعالى لما اصطفى نبيه ﷺ على جميع من سواه، وخصه بما عمه به من فضله الباهر وحباه، أعلى ببركته من انتمى إليه نسباً أو نسبة، ورفع من انطوى عليه نصرة وصحبة، وألزم مودة قرباه كافة بريته، وفرض محبة جملة أهل بيته المعظم وذريته، فقال تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾^(١).

ويروى أنها لما نزلت قالوا: يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء؟ قال: علي وفاطمة وابناهما^(٢). وقال تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾^(٣).

[المراد بآل البيت]

وقد اختلف في المراد بأهل البيت في هذه الآية:

فروى ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس قال: نزلت في نساء النبي ﷺ.

(١) سورة الشورى، الآية ٢٣.

(٢) قال الولي العراقي، في إسناده حسين الأشقر شيعي مختلف فيه.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٣٣.

وروى ابن جرير عن عكرمة، أنه كان ينادي في السوق ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ قال: نزلت في نساء النبي ﷺ .

قال الحافظ ابن كثير: وهذا يعني: ما في الآية نص في دخول أزواجه ﷺ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً، إما وحده على قول، أو مع غيره على الصحيح .
وقيل: المراد النبي ﷺ .

قال عكرمة: من شاء باهلته^(١) أنها نزلت في نساء النبي ﷺ . فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن ففي هذا نظر^(٢)، فإنه قد ورد في ذلك أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك . فروى الإمام أحمد عن وائلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ جاء ومعه علي وحسن وحسين أخذ كل واحد منهما بيده، حتى دخل فأدنى علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه، وأجلس حسناً وحسيناً كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهم ثوبه - أو قال: كساءه - ثم تلا هذه الآية ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، وأهل بيتي أحق . زاد في رواية ابن جرير، فقلت: وأنا يا رسول الله من أهلك، قال: وأنت من أهلي . قال وائلة: وإنما أرجى ما أرتجي .

وعن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان في بيتها، إذ جاءت

(١) أي لاعتته، بأن يجعل اللعنة على الكاذب .

(٢) هذا قول ابن كثير .

فاطمة ببرمة فيها خزيرة^(١)، فدخلت عليه بها، فقال: ادعي زوجك وابنيك، قالت: فجاء علي وحسن وحسين فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة، وتحتة كساء، قالت: وأنا في الحجرة أصلي، فينزل الله عز وجل هذه الآية ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ قالت: فأخذ فضل الكساء فغشاهم به ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وحامتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، قالت: فأدخلت رأسي من البيت فقلت وأنا معكم يا رسول الله فقال: إنك إلى خير، إنك إلى خير. رواه أحمد وفي إسناده من لم يسم وبقيّة إسناده ثقات.

وقوله: «حامتي» بالتشديد، أي خاصتي.

وعن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ: نزلت هذه الآية في خمسة: فيّ وفي علي وحسن وحسين وفاطمة ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ رواه ابن جرير، ورواه أحمد في المناقب، والطبراني.

وعن زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله ﷺ / خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس، إنما أنا بشر مثلكم، يوشك أن يأتيني رسول ربي عز وجل فأجيبه، وإني تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله عز وجل، فيه الهدى والنور، فتمسكوا بكتاب الله عز وجل، وخذوا به، وحث فيه وورغب فيه ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله عز وجل في أهل بيتي، ثلاث مرات. فقيل لزيد: من أهل بيته؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: بلى، إن نساءه من أهل بيتي.

١/٢٨٣

(١) في (أ، ش): خزيمة. قال الشارح: بخاء معجمة ثم راء فتحية فراء، ما يتخذ من الدقيق على هيئة العصيدة.

بيته، ولكن أهل بيته من حُرِّم الصدقة بعده، قال (١): ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس. قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم، خرجه مسلم.

و«الثقل» محرّكة كما في القاموس، كل شيء نفيس مصون، قال: ومنه حديث (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي)، وهي بكسر المهملة وسكون المثناة الفوقية.

والأخذ بهذا الحديث أخرى، وليس المراد بالأهل الأزواج فقط، بل هن مع أهله، ولا يشك من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في الآية الكريمة، فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال بعد هذا كله ﴿واذكرون ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ (٢).

وهذا اختيار ابن عطية (٣) بعد أن نقل أن الجمهور على أنهم: علي وفاطمة والحسن والحسين. قال: وحجة الجمهور قوله تعالى: ﴿عنكم، ويظهركم﴾ بـ«الميم» ولو كان للنساء خاصة لقال: عنكن.

وأجيب بأن الخطاب بلفظ التذكير وقع على سبيل التغليب، فيكون المراد به كالمراد بـ«الآل» في حديث كيفية الصلاة عليه السابق ذكره، على قول من فسره به، كما قدمته مع غيره قريباً في الفصل السابق، والله أعلم. والله در القائل (٤):

(١) في (ش): قيل.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٣٤.

(٣) عبد الحق بن غالب بن عطية، كان فقيهاً عالماً بالتفسير والأحكام والحديث، كان غاية في الذكاء ألف الوجيز في التفسير فأبدع فيه، مات سنة ست وأربعين وخمسمائة.

(٤) ينسب للشافعي رحمه الله.

يا آل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم الفضل أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له

[حب آل البيت]

وأخرج أحمد عن أبي سعيد معنى حديث زيد بن أرقم السابق
مرفوعاً بلفظ: (إني أوشك أن أدعى فأجيب، وإني تارك فيكم
الثقلين: كتاب الله وعترتي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى
الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا
حتى يردا على الحوض، فانظروا بماذا تحلفوني فيها)

وعتره الرجل - كما قاله الجوهري -: أهله ونسله، ورهطه
الأذنون، أي الأقارب.

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: (يا أيها الناس
ارقبوا محمداً في أهل بيته) رواه البخاري.

والمراقبة للشيء: المحافظة عليه، يقول: احفظوهم فلا تؤذوهم.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه - كما في البخاري أيضاً -
(لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي) وهذا قاله على
سبيل الاعتذار لفاطمة من منعه إياها ما طلبته منه من تركة النبي
ﷺ، وقد جرى منه على موجب الإيمان، لأنه ﷺ شرط الأحيية فيه
على النفس والمال والولد، كما ذكرته في الفصل الأول من هذا المقصد.

ثم إنه ﷺ أثبت لأقاربه ما أثبت لنفسه من ذلك فقال: (من
أحبهم فبحبي أحبهم) وحثنا على ذلك شفقة منه علينا صلوات الله
وسلامه عليه وعليهم، ولقد أحسن القائل:

رأيت ولائي آل طه فريضة على رغم أهل البعد يورثني القرب
فما طلب المبعوث أجراً على الهدى بتبليغه إلا المودة في القرب

وفي الترمذي - وقال: حديث حسن غريب - : أحبوا الله لما
يغذوكم به، وأحبوني بحب الله، وأحبوا أهل بيتي / بحبي .

ب/٢٨٣

وفي المناقب لأحمد: من أبغض أهل البيت فهو منافق .

وروى ابن سعد: من صنع إلى أحد من أهل بيتي معروفاً،
فعجز عن مكافأته في الدنيا، فأنا المكافئ له في [يوم] (١) القيامة .

[المراد بالقرابة]

والمراد بالقرابة من ينتسب إلى جده الأقرب، وهو عبد المطلب،
من صحب النبي ﷺ ، أو رآه من ذكر وأنتى، وهم:

● علي وأولاده: الحسن والحسين ومحسن وأم كلثوم من فاطمة
رضي الله عنها .

● وجعفر بن أبي طالب وأولاده: عبدالله، وعون، ومحمد،
ويقال إنه كان لجعفر بن أبي طالب ابن اسمه أحمد .

● وعقيل بن أبي طالب، وولده مسلم بن عقيل .

● وحمزة بن عبد المطلب، وأولاده: يعلى، وعمارة، وأمامة .

● والعباس بن عبد المطلب، وأولاده الذكور العشرة، وهم:

(١) في (ط، ش).

الفضل، وعبدالله، وقثم، وعبيدالله، والحارث، ومعبد، وعبد الرحمن، وكثير، وعون، وتمام، وفيه يقول العباس رضي الله عنه:

تموا بتمام فصاروا عشرة يارب فاجعلهم كراماً برة
ويقال: إن لكل منهم رؤية، وكان له من الإناث: أم حبيبة،
وآمنة، وصفية، وأكثرهم من لبابة أم الفضل.

● ومعتب بن أبي لهب، والعباس ابن أبي لهب^(١)، وكان زوج
آمنة بنت العباس.

● وعبدالله بن الزبير بن عبد المطلب، وأخته ضباعة، وكانت
زوج المقداد بن الأسود.

● وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وابنه جعفر.

● ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وابناه: المغيرة والحارث،
ولعبدالله بن الحارث هذا رؤية. وكان يلقب «ببة» بموحدتين، الثانية
ثقيلة.

● وأميمة وأروى وعاتكة وصفية بنات عبد المطلب، أسلمت
صفية وصحبت، وفي الباقيات خلافاً، والله أعلم.

[مكانة علي رضي الله عنه]

وفي البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال
لعلي: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي). وفي

(١) صوابه: العباس بن عتبة بن أبي لهب، كما في الإصابة وغيرها.

لفظ آخر (أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى) (١) أي نازلاً مني منزلة هارون من موسى. والباء زائدة.

وقال الطيبي: معنى الحديث: أنت متصل بي نازل مني منزلة هارون من موسى. وفيه تشبيه مبهم بينه بقوله: (إلا أنه لا نبي بعدي) فعرف أن الاتصال بينهما ليس من جهة النبوة، بل من جهة ما دونها وهو الخلافة، ولما كان هارون المشبه به، إنما كان خليفة في حياة موسى، دل ذلك على تخصيص خلافة علي للنبي ﷺ بحياته والله أعلم.

وأما ما استدل به من هذا الحديث على استحقاق علي للخلافة دون غيره من الصحابة، فإن هارون كان خليفة موسى، فأجيب: بأن هارون لم يكن خليفة موسى إلا في حياته لا بعد موته، لأنه مات قبل موسى باتفاق. أشار إلى ذلك الخطابي.

وأما حديث الترمذي والنسائي (من كنت مولاه فعلي مولاه) فقال الشافعي: يعني بذلك ولاء الإسلام، كقوله تعالى: ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ (٢) وقول عمر (٣): أصبحت مولى كل مؤمن، أي: ولي كل مؤمن. وطرق هذا الحديث كثيرة جداً، استوعبها ابن عقدة (٤) في كتاب مفرد، وكثير من أسانيدنا صحاح وحسان.

(١) كلا الحديثين رواهما الشيخان.

(٢) سورة محمد، الآية ١١.

(٣) مخاطباً لعلي رضي الله عنهما.

(٤) ابن عقدة: أحمد بن محمد الكوفي مولى بني هاشم، كان إليه المنتهى في الحفظ وكثرة الحديث، ألف وجمع، ولد سنة تسع وأربعين ومائتين.

وروي أنه ﷺ قال: (من آذى علياً فقد آذاني) خرجه أحمد.

وأخرج المخلص الذهبي: من أحب علياً فقد أحبني.

وقد ذكر النقاش: أن قوله تعالى: ﴿إِن الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِدًّا﴾^(١) نزلت في علي.

وقال محمد بن الحنفية: لا تجد مؤمناً إلا وهو يحب علياً وأهل

بيته.

وقال أبو حيان في «البحر»: ومن الغريب ما أنشدنا الإمام اللغوي رضي الدين أبو عبدالله بن يوسف الأنصاري الشاطبي لزينا ابن إسحاق النصراني الرسعني:

عدي وتيم لا أحاول ذكرهم بسوء ولكني محب لهاشم
وما يعتريني في علي ورهطه إذا ذكروا في الله لومة لائم
يقولون ما بال نصارى تحبهم وأهل النهي من أعرب وأعاجم
/ فقلت لهم إني لأحسب حبهم سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

١/٢٨٤

[مكانة فاطمة رضي الله عنها]

وقالت عائشة رضي الله عنها: كانت فاطمة أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وزوجها أحب الرجال إليه. رواه الترمذي.

وفي البخاري: (إن فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني)

و«البضعة» بفتح الباء الموحدة، وحكي ضمها وكسرها أيضاً، وبسكون المعجمة، أي قطعة لحم.

(١) سورة مريم، الآية ٩٦.

واستدل به السهيلي على أن من سبها فإنه يكفر.

[مكانة الحسن والحسين]

وفي الترمذي من حديث أسامة بن زيد - وقال حسن غريب - إنه ﷺ قال في حسن وحسين: اللهم إني أحبهما فأحبهما، وأحب من يحبهما.

وخرجه مسلم من حديث أبي هريرة في الحسن خاصة، زاد أبو حاتم فما كان أحد أحب إلي من الحسن بعد ما قال ﷺ ما قال.

وفي حديث أبي هريرة أيضاً عند الحافظ السلفي قال: ما رأيت الحسن بن علي قط إلا فاضت عيناى دموعاً، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج يوماً وأنا في المسجد فأخذ بيدي واتكأ علي حتى جئنا سوق قينقاع، فنظر فيه ثم رجع حتى جلس في المسجد ثم قال: ادع ابني، قال: فأتى الحسن بن علي يشتد حتى وقع في حجره، فجعل رسول الله ﷺ يفتح فمه، ثم يدخل فمه في فمه ويقول: اللهم إني أحبه فأحبه وأحب من يحبه، ثلاث مرات.

وفي الترمذي من حديث أنس، أنه ﷺ كان يشمهما ويضمهما إليه، وقال: من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة، رواه أحمد، وقال الترمذي؛ كان معي في الجنة، وقال: حديث غريب. وليس المراد بالمعية هنا المعية من حيث المقام، بل من حيث رفع الحجاب، وتقدم نحوه في قوله تعالى: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾^(١) في المقصد السادس.

(١) سورة النساء، الآية ٦٩.

وفي حديث أبي زهير بن الأرقم عن رجل من الأزد أنه عليه السلام قال
في الحسن: من أحبني فليحبه، فليبلغ الشاهد الغائب.

وفي البخاري: (هما ريحانتي من الدنيا).

وكان عليه السلام يمص لسان الحسن أو شفته، رواه أحمد.

وعن عقبة بن الحارث قال: رأيت أبا بكر، وحمل الحسن وهو
يقول: بأبي شبيه بالنبى، ليس شبيهاً^(١) بعلي. وعلي يضحك.

وعن محمد بن سيرين عن أنس: كان - يعني الحسين - أشبههم
برسول الله عليه السلام. رواهما البخاري.

وعنده من رواية الزهري عن أنس (لم يكن أحد أشبه بالنبى
عليه السلام من الحسن بن علي) وهذا قد يعارضه قول علي في صفة النبى
عليه السلام: (لم أر قبله ولا بعده مثله)، أخرجه الترمذي في الشرائع كما
تقدم في المقصد الثالث، وأجيب: بأن يحمل النفي على عموم الشبه،
والإثبات على معظمه.

وقول أنس: (لم يكن أحد أشبه بالنبى عليه السلام من الحسن بن علي)
قد يعارض رواية ابن سيرين عنه السابقة (كان الحسين - يعني بالياء -
أشبههم بالنبى عليه السلام) ويمكن الجمع بأن يكون أنس قال ما وقع في رواية
الزهري في حياة الحسن، لأنه كان يومئذ أشد شبيهاً بالنبى عليه السلام من
أخيه الحسين. وأما ما وقع في رواية ابن سيرين فكان بعد ذلك، أو
المراد بمن فضل عليه الحسين في الشبه، كان من عدا الحسن، ويحتمل

(١) كذا في جميع النسخ، والذي في البخاري «ليس شبيه بعلي»، قال في فتح
الباري: قال ابن مالك: كذا وقع برفع «شبيه» على أن «ليس» حرف
عطف وهو مذهب كوفي. ٩٦/٧ [م].

أن يكون كل منهما كان أشد شبهاً به في بعض أعضائه، فقد روى الترمذي وابن حبان من طريق هانئ بن هانئ عن علي قال: الحسن أشبه رسول الله ﷺ ما بين الرأس إلى الصدر، والحسين أشبه النبي ﷺ ما كان أسفل من ذلك.

[ذكر من كان له شبه بالنبي ﷺ]

وقد عدوا من كان له شبه بالنبي ﷺ سوى الحسن والحسين، جعفر بن أبي طالب، وقد قال ﷺ لجعفر: (أشبهت خلقي وخلقي) قال الترمذي: حسن صحيح.
وابنه عبدالله بن جعفر.

وقثم بن العباس بن عبد المطلب.

وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

ب/٢٨٤

ومسلم بن عقيل / بن أبي طالب.

ومن غير بني هاشم:

السائب بن يزيد المطلبى، الجد الأعلى للإمام الشافعي.

وعبدالله بن عامر بن كريز - بضم الكاف وفتح الراء -

وكابس بن ربيعة رجل من أهل البصرة، وجه إليه معاوية،

وقبله بين عينيه وأقطعه قطيعة، وكان أنس إذا رآه بكى.

فهؤلاء عشرة، ونظمهم شيخ الإسلام الحافظ أبو الفضل بن

حجر فقال:

شبه النبي لعشر سائب وأبي سفيان والحسين الطاهرين هما
وجعفر وابنه ثم ابن عامرهم ومسلم كابس يتلوه مع قثما

وعدهم بعضهم: سبعة وعشرين.

ومن كان يشبهه أيضاً:

فاطمة ابنته، وإبراهيم ولده.

وولدا جعفر، عبدالله - السابق ذكره - وأخوه عون.

وكان يشبهه أيضاً من أهل البيت غير هؤلاء:

إبراهيم بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

ويحيى بن القاسم بن محمد بن جعفر بن علي بن الحسين بن
علي، وكان يقال له: الشبيه. قال الشريف محمد بن أسعد النسابة في
الزورة الأنيسة لمشهد السيدة نفيسة أنه كان ليحيى هذا موضع خاتم
النبوة شامة قدر بيضة الحمامة، تشبه خاتم النبوة، وكان إذا دخل
الحمام ورآه الناس صلوا على النبي ﷺ وازدحموا عليه يقبلون ظهره
تبركاً، ولذا وصف بالشبيه.

والقاسم بن عبدالله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب.

وعلي بن علي بن نجاد بن رفاعة الرفاعي، شيخ بصري من
أتباع التابعين.

والمراد بالشبه هنا، الشبه في البعض، وإلا فتنام حسنه ﷺ منزه
عن الشريك، كما قال الأبوصيري - رحمه الله - وأجاد:

منزه عن شريك في محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم

كما أشرت إليه في أول المقصد الثالث.

[اعتذار المصنف عن الإطالة]

وقد أطلت المقال، وإنما جرتني إلى ذلك ذكر حمل الصديق للحسن على عاتقه، المشعر بالإكرام من أفضل البشر بعد النبيين، لأهل البيت المحمدي، وحلهم على الأعناق، ولا سيما مع قوله - رضي الله عنه - لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلى أن أصل من قرابتي، فلما تضمن هذا الحديث ذلك الشبه الكريم جرتني الكلام إليه، وهذا وقع لي كثير في هذا المجموع [بل في غالبه] (١) لكنه لا يخلو عن فرائد (٢) الفوائد.

[منزلة العباس]

وقد روي أنه ﷺ قال: العباس بن عبد المطلب مني وأنا منه، لا تؤذوا العباس فتؤذوني، من سب العباس فقد سبني. أخرجه البغوي (٣) في معجمه.

وقال ﷺ للعباس أيضاً: والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله، ثم قال: أيها الناس، من آذى عمي فقد آذاني، وإنما عم الرجل صنو أبيه. رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

(١) زيادة في (ب، د، ط).

(٢) جمع فريدة: درة ثمينة تحفظ في ظرف على حدة لنفاستها.

(٣) أبو القاسم عبدالله محمد بن عبد العزيز البغوي الكبير ثم البغدادي أحد الحفاظ، متقدم على محي السنة البغوي بزمان.

وفي قوله: «لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم» الإشارة إلى الإيمان الحقيقي المنجي، وهو التصديق القلبي، وبين المحبة والإيمان ارتباط من جهة أن المحبة ميل القلب إلى المحبوب، والإيمان التصديق القلبي، فيجتمعان في القلب، وجعلها متلازمين، فيلزم من نفي أحدهما نفي الآخر، ثم علل هذه المحبة بكونها لله ولرسوله، فلا عبرة بمحبة تكون لغير ذلك، ثم جعل أذاه كأذى نفسه، لأنه عضوه وعصبه، ثم عظم مقامه بتنزيله منزلة الأب، فكما أنه يجب على الولد تعظيم والده والقيام بحقوقه فكذلك عمه، فقال: «وإنما عم الرجل صنو أبيه» وهو بكسر الصاد المهملة وسكون النون، أي: مثل أبيه، قال ابن الأثير: وأصله أن تطلع نخلتان من عرق واحد، يريد أن أصل العباس وأصل أبي واحد، انتهى.

وجلله ﷺ وبنيه بكساء ثم قال: اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنباً، اللهم احفظه في ولده. رواه الترمذي وقال: حسن غريب. وبين ابن السري / في روايته: أن بنيه الذين جللوا بالكساء كانوا ستة: الفضل وعبدالله وعبيدالله وقثم ومعبد وعبد الرحمن. قال: وغطاهم بشملة له سوداء مخططة بحمرة وقال: اللهم إن هؤلاء أهل بيتي وعترتي فاسترهم من النار كسترهم بهذه الشملة، قال: فلم يبق في البيت مدرة ولا باب إلا أمن^(١).

١/٢٨٥

[منزلة عقيل وأبي سفيان]

وروى أنه ﷺ قال لعقيل بن أبي طالب: إني أحبك حين، حباً

(١) حديث التأمين رواه البيهقي وابن ماجه في سننه عن عبدالله بن عثمان الواقصي قال عنه ابن معين: لا أعرفه وقال أبو حاتم: يروى أحاديث مشبهة (قاله النجار في تخريج أحاديث الوفا لابن الجوزي). [م].

لقربابتك مني، وحباً لما كنت أعلم من حب عمي لك، قال الطبري:
أخرجه أبو عمر، والبغوي.

وروى الدارقطني أنه ﷺ قال يوم حنين: أبو سفيان بن الحارث
خير أهلي، أو من خير أهلي.

[مصطلحات أطلقت على آل البيت]

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ
قال: لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار.

اعلم أنه قد اشتهر استعمال أربعة ألفاظ يوصفون بها:
الأولى: آله عليه الصلاة والسلام.

والثانية: أهل بيته.

والثالثة: ذوو^(١) القربى.

والرابعة: عترته.

فأما الأولى: فذهب قوم إلى أنهم هم أهل بيته، وقال آخرون:
هم الذين حرمت عليهم الصدقة وعوضوا عنها خمس الخمس، وقال
قوم: من دان بدينه وتبعه فيه.

وأما اللفظة الثانية، وهي أهل بيته، فقيل من ناسبه إلى جده
الأدنى، وقيل من اجتمع معه في رحم، وقيل من اتصل به بنسب أو
سبب.

(١) في (ط، ش): ذو القربى، وفي (ب) ذوي القربى.

وأما اللفظة الثالثة: وهي ذوو القربي، فروى الواحدي في تفسيره بسنده عن ابن عباس قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(١) قالوا: يا رسول الله، من هؤلاء الذين أمرنا الله تعالى بمودتهم؟ قال: علي وفاطمة وابناهما^(٢).

وأما اللفظة الرابعة: وهي عترته، فقيل العشيرة، وقيل الذرية. فأما العشيرة فهي الأهل الأولون، وأما الذرية: فنسل الرجل، وأولاد بنت الرجل ذريته، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ ذَرِيَّتَهُ دَاوُدُ﴾ إلى قوله: ﴿وَعِيسَى﴾^(٣)، ولم يتصل عيسى بإبراهيم إلا من جهة أمه مريم.

[ذرية فاطمة واللباس الأخضر]

فهذه الذرية الطاهرة، قد خصوا بمزايا التشريف، وعموا بواسطة السيدة فاطمة بفضل منيف، وألبسوا رداء الشرف، ومنحوا بمزيد الإكرام والتحف.

وقد وقع الاصطلاح على اختصاصهم من بين ذوي الشرف كالعباسيين والجعافرة بالشطفة^(٤) الخضراء، لمزيد شرفهم.

والسبب في ذلك - كما قيل - أن المأمون أراد أن يجعل الخلافة في بني فاطمة فاتخذ لهم شعاراً وألبسهم ثياباً خضراً - لكون السواد شعار العباسيين، والبياض شعار سائر المسلمين في جمعهم ونحوها، والأحمر

(١) سورة الشورى، الآية ٢٣.

(٢) في إسناده مقال.

(٣) سورة الأنعام، الآية ٨٤ - ٨٥.

(٤) الشطفة هي القطعة الخضراء التي توضع على العمامة (من الشرح) ولم يذكرها في القاموس.

مختلف في كراهته، والأصفر شعار اليهود بآخرة. ثم اثني عزمه عن ذلك، ورد الخلافة لبني العباس، فبقي ذلك شعار الأشراف العلويين من الزهراء، لكنهم اختصروا الثياب إلى قطعة من ثوب أخضر توضع على عمائمهم شعاراً لهم ثم انقطع ذلك إلى أواخر القرن الثامن.

قال في حوادث سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة من «أبناء الغمر بأبناء العمر»^(١): وفيها أمر السلطان الأشرف أن يمتازوا عن الناس بعصائب خضر على العمائم، ففعل ذلك بمصر والشام وغيرهما، وفي ذلك يقول الأديب أبو عبدالله بن جابر الأندلسي.

جعلوا لأبناء الرسول علامة إن العلامة شأن من لم يشهر
نور النبوة في كريم وجوههم يغني الشريف عن الطراز الأخضر
وللأديب شمس الدين الدمشقي رحمه الله:

أطراف تيجان أتت من سندس خضر باعلام على الأشراف
والأشرف السلطان خصهم بها شرفاً ليفرقهم من الأطراف
والأشرف السلطان هو شعبان بن حسن بن الناصر محمد بن
قلاوون.

[حب الصحابة]

[ثناء الله تعالى عليهم]

وأما الصحابة رضوان الله عليهم، فقال الله سبحانه وتعالى:

(١) اسم كتاب للحافظ ابن حجر.

﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾^(١) إلى آخر السورة.

ب/٢٨٥

لما أخبر سبحانه وتعالى / أن سيدنا محمداً ﷺ رسوله حقاً من غير شك ولا ريب، قال: محمد رسول الله، وهذا مبتدأ وخبر. وقال البيضاوي وغيره: جملة مبينة للمشهود به، يعني قوله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ إلى قوله: ﴿وكفى بالله شهيداً﴾^(٢)، قال: ويجوز أن يكون «رسول الله» صفة، و«محمد» خبر مبتدأ محذوف انتهى.

وهذه الآية مشتملة على كل وصف جميل.

ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال: ﴿والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾، كما قال تعالى: ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾^(٣) فوصفهم بالشدة والغلظة على الكفار، والرحمة والبر بالأخيار.

ثم أثنى عليهم بكثرة الأعمال مع الإخلاص التام^(٤)، فمن نظر إليهم أعجبه سمتهم وهديمهم، لخلوص نياتهم، وحسن أعمالهم.

قال مالك: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا»، وصدقوا، فإن هذه الأمة المحمدية، خصوصاً الصحابة، لم يزل ذكركم

(١) سورة الفتح، الآية ٢٩.

(٢) سورة الفتح، الآية ٢٨.

(٣) سورة المائدة، الآية ٥٤.

(٤) أي بقوله تعالى في سورة الفتح، الآية ٢٩ ﴿تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾.

معظماً في الكتب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه﴾ أي أفراخه ﴿فأزره﴾ أي شده وقواه ﴿فاستغلظ﴾ شب فطال ﴿فاستوى على سوقه يعجب الزراع﴾ قوته وغلظه وحسن منظره. فكذلك أصحاب محمد ﷺ آزره وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطأ مع الزرع ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾^(١).

ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله - في رواية عنه - تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيظونهم، ومن غاظه الصحابة فهو كافر، وقد وافقه على ذلك جماعة من العلماء.

والأحاديث في فضائل الصحابة كثيرة، ويكفي ثناء الله عليهم ورضاه عنهم، وقد وعدهم الله مغفرة وأجرًا عظيمًا، ووعد الله حق وصدق لا يخلف، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم.

«ومن» في قوله «منهم» لبيان الجنس^(٢).

[تعريف الصحابي]

واختلف في تعريف الصحابي:

فقيل: من صحب النبي ﷺ أو رآه من المسلمين. وإليه ذهب البخاري، وسبقه إليه شيخه ابن المديني^(٣)، وعبارته - كما قال

(١) سورة الفتح، الآية ٢٩.

(٢) أي في قوله تعالى آخر سورة الفتح ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا﴾ [م].

(٣) علي بن عبد البر بن جعفر المديني البصري، ثقة ثبت إمام، أعلم أهل البصرة بالحديث وعلله حتى قال البخاري ما استصغرت نفسي إلا عند علي ابن المديني، مات سنة أربع وثلاثين ومائتين.

شيخنا- (١): من صحب النبي ﷺ أو رآه ولو ساعة من نهار فهو من أصحابه. انتهى. وهذا هو الراجح.

والتقييد بـ«الإسلام» يخرج من صحبه أو رآه من الكفار، ولو اتفق إسلامه بعد موته.

لكن يرد على التعريف: من صحبه أو رآه مؤمناً به ثم ارتد بعد ذلك، ولم يعد إلى الإسلام، كعبيدالله بن جحش (٢)، فإنه ليس بصحابي اتفاقاً، وكذلك ابن خطل (٣)، وربيعة بن أمية بن خلف الجمحي، وهو ممن أسلم في الفتح وشهد حجة الوداع وحدث عن النبي ﷺ بعد موته، ثم لحقه الخذلان - والعياذ بالله - في خلافة عمر فلحق بالروم وتنصر بسبب شيء أغضبه (٤). وقد أخرج له الإمام أحمد في مسنده (٥)، وإخراجه له مشكل ولعله لم يقف على قصة ارتداده، فينبغي أن يزداد في التعريف: ومات على ذلك.

(١) أي السخاوي.

(٢) كان أسلم وهاجر إلى الحبشة، ولكنه تنصر فيها ومات على نصرانيته.

(٣) أسلم وتسمى عبدالله وكان اسمه عبد العزى بن خطل، وبعثه النبي ﷺ على الصدقة فقتل مولى كان معه يخدمه وارتد واتخذ قيتين تغنيان بهجاء النبي ﷺ، فقتل متعلقاً بأستار الكعبة يوم الفتح [م].

(٤) قال في الإصابة: شرب ربيعة الخمر في زمن عمر فهرب منه إلى الشام ثم هرب إلى قيصر فتنصر ومات عنده، ولعبد الرزاق والنسائي: أن عمر غرب ربيعة بن أمية في الخمر إلى خيبر فلحق بهرقل فتنصر، فقال عمر: لا أغرب بعده أحداً أبداً.

(٥) وهو قوله: أمرني رسول الله ﷺ أن أقف تحت صدر راحلته، وهو واقف بالموقف بعرفة، وكان رجلاً صيباً، فقال: يا ربيعة قل يا أيها الناس إن رسول الله يقول لكم: تدررون أي بلد هذا؟ الحديث، رواه ابن إسحاق وأحمد وغيرهما.

فلو ارتد ثم عاد إلى الإسلام، لكنه لم ير النبي ﷺ ثانياً بعد عودته، فالصحيح أنه معدود في الصحابة، لإطباق المحدثين على عد الأشعث بن قيس ونحوه ممن وقع له ذلك، وإخراجهم أحاديثهم في المسانيد.

لكن قال الحافظ زين الدين العراقي: إن في ذلك نظراً كبيراً، فإن الردة محبطة للعمل عند أبي حنيفة، ونص عليه الشافعي في الأم، وإن كان الرافعي قد حكى عنه أنها إنما تحبط بشرط اتصالها بالموت، وحينئذ فالظاهر أنها محبطة للصحبة المتقدمة، أما من رجع إلى الإسلام في حياته ﷺ كعبدالله بن أبي سرح فلا مانع من دخوله في الصحبة بدخوله الثاني في الإسلام.

وهل يشترط في الرائي أن يكون بحيث يميز ما رآه، أو يكتفي بمجرد حصول الرؤية؟ قال الحافظ ابن حجر: محل نظر، وعمل من صنف في الصحابة يدل على الثاني، فإنهم ذكروا مثل محمد بن أبي بكر الصديق، وإنما ولد قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثة أشهر وأيام، كما ثبت أن أمه أسماء بنت عميس ولدت في حجة الوداع قبل أن/ تدخل مكة، وذلك في أواخر ذي القعدة سنة عشر من الهجرة.

ومنهم من بالغ، فكان لا يعد في الصحابة إلا من صحب الصحبة العرفية. وروي عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يعد في الصحابة إلا من أقام مع النبي ﷺ سنة فصاعداً، أو غزا معه غزوة فصاعداً. والعمل على خلاف هذا القول.

ومنهم من اشترط في ذلك أن يكون حين اجتماعه به بالغاً، وهو مردود أيضاً، لأنه يخرج مثل الحسن بن علي ونحوه من أحداث الصحابة.

وأما التقييد بالرؤية فالمراد به عند عدم المانع منها، فإن كان كابن أم مكتوم الأعمى فهو صحابي جزماً، فالأحسن أن يعبر بـ«اللقاء» بدل الرؤية ليدخل فيه ابن أم مكتوم ونحوه.

قال الحافظ زين الدين العراقي: قولهم «من رأى النبي ﷺ» هل المراد رآه في حال نبوته، أو أعم من ذلك، حتى يدخل من رآه قبل النبوة ومات قبل النبوة على دين الحنيفية كزيد بن عمرو بن نفيل، فقد قال النبي ﷺ أنه يبعث أمة وحده^(١)، وقد ذكره في الصحابة أبو عبدالله بن منده، وكذلك لو رآه قبل النبوة ثم غاب عنه وعاش إلى بعد زمن البعثة، وأسلم ثم مات ولم يره، ولم أر من تعرض لذلك، ويدل على أن المراد: رآه بعد نبوته، أنهم ترجموا في الصحابة لمن ولد للنبي ﷺ كابراهيم وعبدالله، ولم يترجموا لمن ولد قبل النبوة ومات قبلها كالقاسم، انتهى.

وهل يختص جميع ذلك ببني آدم، أم يعم غيرهم من العقلاء؟ محل نظر. أما الجن، فالراجع دخولهم لأن النبي ﷺ بعث إليهم قطعاً، وهم مكلفون، فيهم العصاة والطائعون، فمن عرف اسمه منهم لا ينبغي التردد في ذكره في الصحابة، وإن كان ابن الأثير عاب على أبي موسى فلم يستند في ذلك إلى حجة^(٢)، وأما الملائكة فيتوقف عددهم في ذلك على ثبوت البعثة إليهم، فإن فيه خلافاً بين الأصوليين، حتى نقل بعضهم الإجماع على ثبوته، وعكس بعضهم.

(١) أخرجه الطيالسي، والبخاري بلفظ قريب.

(٢) عاب الحافظ ابن الأثير في أسد الغابة على أبي موسى المدني ذلك، وليس بمعيب، قال ابن حزم: قد علمنا الله أن نفرأ من الجن آمنوا وسمعوا القرآن منه ﷺ فهم صحابة فضلاء.

وهذا كله فيمن رآه في قيد الحياة الدنيوية، أما من رآه بعد موته وقبل دفنه^(١) فالراجح أنه ليس صحابياً، وإلا لعد من اتفق أنه رأى جسده المكرم وهو في قبره المعظم، ولو في هذه الأعصار، وكذلك من كشف له من الأولياء عنه ﷺ فرآه كذلك على طريق الكرامة كما قدمت مباحثه في خصوصياته ﷺ من المقصد الرابع، إذ حجة من أثبت الصحبة لمن رآه قبل دفنه أنه مستمر الحياة، وهذه الحياة ليست دنيوية، وإنما هي أخروية لا تتعلق بها أحكام الدنيا، وأما من رآه في المنام، وإن كان قد رآه حقاً فذلك فيما يرجع إلى الأمور المعنوية، لا الأحكام الدنيوية، فلذلك لا يعد صحابياً، ولا يجب عليه أن يعمل بما أمره به في تلك الحالة^(٢).

[الصحابة خير الخلق]

وقد أجمع جمهور العلماء من السلف والخلف على أنهم خير خلق الله، وأفضلهم بعد النبيين وخواص الملائكة المقربين، لما روى البخاري من حديث عبدالله أن النبي ﷺ قال: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) وله من حديث عمران بن حصين (خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً.

قال في فتح الباري: والقرن أهل زمان واحد متقارب، اشتركا

(١) كما وقع ذلك لأبي ذؤيب الهذلي الشاعر - إن صح - كما قال في الإصابة.
(٢) لأن النائم لا يضبط ما يقال له، فلو رآه يقظة وأمره بشيء وجب عليه العمل به لنفسه، ولا يعد صحابياً، وينبغي أن يجب على من صدقه العمل به، قاله شيخنا.

في أمر من الأمور المقصودة، ويطلق على مدة من الزمان، واختلفوا في تحديدها، من عشرة أعوام إلى مائة وعشرين، لكن لم أر من صرح بالتسعين ولا بمائة وعشرة، وما عدا ذلك فقد قال به قائل، وقال صاحب المحكم: هو القدر المتوسط من أعمار أهل كل زمن، وهذا أعدل الأقوال.

والمراد بقرن النبي ﷺ في هذا الحديث الصحابة، وتقدم في أول المقصد الأول حديث (بعثت من خير قرون بني آدم) (١) وفي رواية بريدة عند أحمد/ (خير هذه الأمة القرن الذي بعثت فيهم)

ب/٢٨٦

[آخر من مات من الصحابة]

وقد ضبط الأئمة من الحفاظ آخر من مات من الصحابة على الإطلاق بلا خلاف أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي، كما جزم به مسلم، وكان موته سنة مائة على الصحيح، وقيل سنة سبع ومائة، وقيل سنة عشر ومائة، وهو الذي صححه الذهبي، وهو مطابق لقوله ﷺ - قبل وفاته بشهر-: (على رأس مائة سنة لا يبقى على وجه الأرض ممن هو عليها اليوم أحد) (٢)، وفي رواية مسلم (أرأيتم ليلتكم هذه، فإنه ليس من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة).

وأما ما ذكر أن عكراش بن ذؤيب عاش بعد يوم الجمل مائة سنة فذلك غير صحيح، وإن صح فمعناه أنه استكمل المائة بعد الجمل، لا أنه بقي بعدها مائة سنة، كما نص عليه الأئمة، وأما ما

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

ذكر أيضاً من أمر «بابارتن»^(١) ونحوه فإن ذلك لا يروج على من له أدنى مسكة من العقل، كما قاله الأئمة.

وأما آخر الصحابة موتاً بالإضافة إلى النواحي فقد أفردهم ابن منده.

[فضيلتهم فضيلة مجموع أم أفراد؟]

وأما قوله: (ثم الذين يلونهم) فهم أهل القرن الذين بعدهم، وهم التابعون، ثم الذين يلونهم وهم أتباع التابعين. واقتضى هذا الحديث أن تكون الصحابة أفضل من التابعين، والتابعون أفضل من أتباع التابعين. لكن هل هذه الفضيلة بالنسبة إلى المجموع أو الأفراد؟ والذي ذهب إليه ابن عبد البر هو الأول، كما قدمت ذلك في خصائص هذه الأمة من المقصد الرابع، واحتج لذلك - سوى ما تقدم - بحديث (مثل أمي مثل المطر، لا يدري آخره خير أم أوله) قال الحافظ ابن حجر: وهو حديث حسن، له طرق^(٢) وقد يرتقي بها إلى درجة الصحة.

وقد روى ابن أبي شيبة من حديث عبد الرحمن بن جبير بن

(١) قال الذهبي في تجريده: رتن الهندي، شيخ ظهر بعد الستمائة بالمشرق وادعى الصحة، فسمع منه الجهال، أو لا وجود له، بل اختلق اسمه بعض الكذابين، وإنما ذكرته تعجباً، وقال في الميزان: رتن وما أدراك ما رتن شيخ دجال بلا ريب ظهر بعد الستمائة.

(٢) فأخرجه أحمد من حديث عمار، وصححه ابن حبان، وأحمد والترمذي عن أنس، وأبو يعلى عن علي، والطبراني عن ابن عمر.

نفير - أحد التابعين - بإسناد حسن قال: قال رسول الله ﷺ: ليدركن المسيح أقواماً إنهم لمثلكم أو خير، ثلاثاً، ولن يخزي الله أمة أنا أولها والمسيح آخرها.

وروى أبو داود والترمذي من حديث أبي ثعلبة - رفعه -: (تأتي أيام للعامل فيها أجر خمسين، قيل: منهم أو منا يا رسول الله؟ قال: بل منكم) وهو شاهد لحديث (مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره) لكن حديث (للعامل منهم أجر خمسين منكم) لا يدل على أفضلية غير الصحابة، لأن مجرد زيادة الأجر لا يستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة، وأيضاً: الأجر إنما يقع تفاضله بالنسبة إلى ما يماثله في ذلك العمل.

[فضيلة مشاهدته ﷺ]

فأما ما فاز به من شاهد النبي ﷺ من فضيلة المشاهدة، فلا يعدله فيها أحد، ولا ريب أن من قاتل معه أو في زمانه بأمره، أو أنفق شيئاً من ماله بسببه، لا يعدله أحد في الفضل بعده كائناً من كان، قال الله تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾^(١)، وكذلك من ضبط الشرع المتلقى عنه وبلغه لمن بعده.

فمحصل النزاع يتمحض فيمن لم يحصل له إلا مجرد المشاهدة، وقد ظهر أنه فاز بما لم يفز به من لم يحصل له ذلك. وبهذا يمكن تأويل الأحاديث المتقدمة.

(١) سورة الحديد، الآية ١٠.

[طبقات الصحابة]

ثم إن الصحابة على ثلاثة أصناف: الأول: المهاجرون، الثاني: الأنصار وهم الأوس والخزرج وحلفاؤهم ومواليهم، الثالث: من أسلم يوم الفتح.

قال ابن الأثير في «الجامع»: والمهاجرون أفضل من الأنصار، وهذا على سبيل الإجمال، وأما على سبيل التفصيل، فإن جماعة من سباق الأنصار أفضل من جماعة من متأخري المهاجرين، وإنما سباق المهاجرين أفضل من سباق الأنصار، ثم هم بعد ذلك متفاوتون، فرب متأخر في الإسلام أفضل من متقدم عليه، مثل عمر بن الخطاب وبلال ابن رباح.

وقد ذكر العلماء للصحابة ترتيباً على طبقات، ومن قسمهم كذلك الحاكم في «علوم الحديث»:

الطبقة الأولى: قوم أسلموا بمكة أول البعث، وهم سباق المسلمين، مثل: خديجة بنت خويلد، وعلي بن أبي طالب، وأبي بكر الصديق، وزيد بن حارثة، وبقية العشرة، وقد تقدم الخلاف في أول من أسلم في المقصد الأول.

الطبقة الثانية: أصحاب دار الندوة، بعد إسلام عمر بن الخطاب حمل النبي ﷺ ومن معه من المسلمين إلى دار/ الندوة، فأسلم لذلك جماعة من أهل مكة.

الطبقة الثالثة: الذين هاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم من أذى المشركين أهل مكة، منهم: جعفر بن أبي طالب، وأبو سلمة بن عبد الأسد.

الطبقة الرابعة: أصحاب العقبة الأولى، وهم سباق الأنصار إلى الإسلام، وكانوا ستة، وأصحاب العقبة الثانية من العام المقبل، وكانوا اثني عشر، وقد قدمت أسماء أهل العقبتين في المقصد الأول.

الطبقة الخامسة: أصحاب العقبة الثالثة، وكانوا سبعين من الأنصار، منهم: البراء بن معرور، وعبدالله بن عمرو بن حرام، وسعد بن عباد، وسعد بن الربيع، وعبدالله بن رواحة.

الطبقة السادسة: المهاجرون الذين وصلوا إلى النبي ﷺ بعد هجرته وهو بقاء قبل أن يبني المسجد وينتقل إلى المدينة.

الطبقة السابعة: أهل بدر الكبرى. قال ﷺ لعمر في قصة حاطب بن أبي بلتعة: (وما يدريك، لعل الله اطلع على هذه العصابة من أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) رواه مسلم.

الطبقة الثامنة: الذين هاجروا بين بدر والحديبية.

الطبقة التاسعة: أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا بالحديبية تحت الشجرة، قال ﷺ: (لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحد) رواه مسلم.

الطبقة العاشرة: الذين هاجروا بعد الحديبية وقبل الفتح، كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، ومثل بعضهم بأبي هريرة لكن قال الحافظ العراقي، لا يصح التمثيل به، فإنه هاجر قبل الحديبية، عقيب خيبر بل في أواخرها [زمن النبي ﷺ] (١).

الطبقة الحادية عشر: الذين أسلموا يوم الفتح، وهم خلق

(١) زيادة في (ط، ب)، ولا معنى لها.

كثير، فمنهم من أسلم طائعاً، ومنهم من أسلم كارهاً ثم حسن إسلام بعضهم، والله أعلم بهم.

الطبقة الثانية عشر: صبيان أدركوا النبي ﷺ ورأوه عام الفتح وبعده في حجة الوداع وغيرهما، كالسائب بن يزيد. ثم انقطعت الهجرة بعد الفتح على الصحيح من الأقوال.

[عدد الصحابة]

وأما عدة أصحابه ﷺ، فمن رام حصر ذلك رام أمراً بعيداً، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الله تعالى، لكثرة من أسلم من أول البعثة إلى أن مات النبي ﷺ، وتفرقهم في البلدان والبوادي. وقد روى البخاري أن كعب بن مالك قال في قصة تخلفه عن غزوة تبوك: وأصحاب رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ، يعني الديوان، لكن قد جاء ضبطهم في بعض مشاهده كتبوك.

وقد روي أنه سار عام الفتح في عشرة آلاف من المقاتلة، وإلى حين في اثني عشر ألفاً، وإلى حجة الوداع في تسعين ألفاً، وإلى تبوك في سبعين ألفاً، وقد روي أنه قبض عن مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً، والله أعلم بحقيقة ذلك.

[أفضل الصحابة]

ثم إن أفضلهم على الإطلاق عند أهل السنة إجماعاً أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما. عن ابن عمر قال: كنا نخير بين الناس في زمان

رسول الله ﷺ فنخير أبا بكر ثم عمر ثم عثمان بن عفان. رواه البخاري (١).

وفي رواية عبيدالله بن عمر عن نافع: كنا في زمان النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحداً ثم عمر ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ فلا نفاضل بينهم. رواه البخاري أيضاً.

وقوله: «لا نعدل بأبي بكر أحداً» أي لا نجعل له مثيلاً.

ولأي داود من طريق سالم عن ابن عمر: كنا نقول - ورسول الله ﷺ حي -: أفضل أمة النبي ﷺ بعده أبو بكر ثم عمر ثم عثمان. زاد الطبراني في رواية: فيسمع رسول الله ﷺ ذلك فلا ينكره.

وروى خيثمة بن سليمان في «فضائل الصحابة» من طريق سهيل ابن أبي صالح عن أبيه عن ابن عمر: كنا نقول: إذا ذهب أبو بكر وعمر وعثمان استوى الناس، فيسمع النبي ﷺ ذلك فلا ينكره. وفي ذلك تقديم عثمان بعد أبي بكر وعمر.

[عثمان وعلي]

وأهل السنة على أن علياً بعد عثمان.

وذهب بعض السلف إلى تقديم علي على عثمان. ومن قال به سفيان الثوري.

(١) وفي صحيح البخاري عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر. قلت: ثم من؟ قال: عمر، وخشيت أن يقول عثمان فقلت ثم أنت، قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين.

وقيل: لا يفضل أحدهما على الآخر، ونقل ذلك عن مالك في المدونة، وتبعه جماعة منهم يحيى بن القطان.

ب/٢٨٧ /وقال ابن معين: من قال أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وعرف
لعلي سابقته وفضله فهو صاحب سنة، ولا شك أن من اقتصر على
عثمان ولم يعرف لعلي فضله فهو مذموم.

وقد ادعى ابن عبد البر أن حديث الاختصار على الثلاثة: أبي
بكر وعمر وعثمان خلاف قول أهل السنة أن علياً أفضل الناس بعد
الثلاثة.

وتعقب: بأنه لا يلزم من سكوتهم إذ ذاك عن تفضيله عدم
تفضيله، فالمقطوع به عند أهل السنة: القول بأفضلية أبي بكر ثم عمر
ثم اختلفوا فيمن بعدهما، فالجمهور على تقديم عثمان، وعن مالك
الوقف، والمسألة اجتهادية، ومستندها أن هؤلاء الأربعة اختارهم الله
لخلافة نبيه، وإقامة دينه، فمزلتهم عنده بحسب ترتيبهم في الخلافة.

[فضيلة تمة العشرة]

وقال الإمام أبو منصور البغدادي: أصحابنا مجمعون على أن
أفضلهم الخلفاء الأربعة، ثم الستة تمام العشرة، يعني: طلحة والزبير
وسعداً وسعيداً وعبد الرحمن بن عوف وأبا عبيدة عامر بن الجراح.

وقد روى الترمذي عن سعيد بن زيد أنه قال: قال رسول الله
ﷺ: (عشرة في الجنة، أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في
الجنة، وعلي والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن
الجراح وسعد بن أبي وقاص) فعد هؤلاء التسعة وسكت عن العاشر،

فقال له القوم نشدك الله، من العاشر؟ فقال: نشدتموني بالله، سعيد ابن زيد في الجنة، يعني نفسه^(١).

[حديث بئر أريس]

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أنه خرج إلى المسجد، فسأل عن النبي ﷺ فقالوا: وجه هاهنا، فخرجت في أثره حتى دخل بئر أريس^(٢)، فجلست عند الباب، وبابها من جريد، حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته، فتوضأ فقامت إليه، فإذا هو جالس على بئر أريس وتوسط قفها^(٣)، فجلست عند الباب فقلت: لأكونن بواباً للنبي ﷺ اليوم، فجاء أبو بكر، فدفع الباب فقلت من هذا؟ فقال: أبو بكر، فقلت على رسلك ثم ذهبت إلى رسول الله ﷺ فقلت: هذا أبو بكر يستأذن، فقال: ائذن له وبشره بالجنة، فأقبلت حتى قلت لأبي بكر: ادخل، ورسول الله ﷺ يبشرك بالجنة، فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه في القف ودلى رجله في البئر كما صنع رسول الله ﷺ وكشف عن ساقه، ثم رجعت فجلست، وقد تركت أخي يتوضأ ويلحقني^(٤)، فقلت: إن يرد الله بفلان خيراً - يريد أخاه - يأت به، فإذا بإنسان يحرك الباب، فقلت: من هذا؟ قال: عمر بن الخطاب، فقلت على رسلك، ثم جئت إلى النبي ﷺ فقلت: هذا عمر بن الخطاب يستأذن، فقال: ائذن له وبشره بالجنة، فقلت: ادخل وبشرك رسول الله ﷺ بالجنة، فجلس مع رسول الله ﷺ في

(١) قال الشارح: هذا الحديث صحيح له طرق كثيرة.

(٢) بستان بالمدينة معروف بالقرب من قباء.

(٣) الدكة التي تجعل حول البئر/ أو حافة البئر.

(٤) قال الحافظ: كان له أخوان، أبو رهم وأبو بردة.

القف عن يساره ودلى رجله في البئر، فرجعت وقلت: إن يرد الله بفلان خيراً يأت به، فجاء إنسان فحرك الباب، فقلت من هذا؟ فقال: عثمان بن عفان، فقلت على رسلك، وجئت إلى النبي ﷺ فأخبرته فقال: ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه، فجئت فقلت: ادخل ورسول الله ﷺ يبشرك بالجنة على بلوى تصيبك، فدخل فوجد القف قد ملئ، فجلس وجاهه من الصف الآخر.

قال شريك: قال سعيد بن المسيب: فأولتها قبورهم.

رواه أحمد ومسلم وأبو حاتم وأخرجه البخاري (١).

وأخرج أبو داود نحوه عن أبي سلمة عن نافع بن عبد الحارث الخزاعي قال: دخل رسول الله ﷺ حائطاً من حوائط المدينة، فقال لبلال: أمسك علي الباب، فجاء أبو بكر فاستأذن.. فذكر نحوه. قال الطبراني: وفي حديث أن نافع بن الحارث هو الذي كان يستأذن.

وهذا يدل على تكرار القصة، لكن صوب الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر عدم التعدد، وأنها عن أبي موسى، ووهم / القول بغيره (٢).
وأشدد لنفسه:

لقد بشر الهادي من الصحب زمرة
بجنات عدن كلهم فضله اشتهر
سعيد زبير سعد طلحة عامر
أبو بكر عثمان بن عوف علي عمر
ولأبي الوليد بن الشحة:

(١) رواه البخاري برقم ٣٦٧٤.

(٢) فتح الباري ٣٧/٧.

أسماء عشر رسول الله بشرهم بجنة الخلد عمن زانها وعمر
سعد سعيد علي عثمان طلحة بو بكر ابن عوف ابن جراح الزبير عمر

[الأفضلية والمحبة]

فإن قلت: من اعتقد في الخلفاء الأربعة الأفضلية على الترتيب
المعلوم، ولكن محبته لبعضهم تكون أكثر، هل يكون أثماً به أم لا؟
فأجاب شيخ الإسلام الولي بن العراقي: أن المحبة قد تكون
لأمر ديني، وقد تكون لأمر دنيوي، فالمحبة الدينية لازمة للأفضلية،
فمن كان أفضل كانت محبتنا الدينية له أكثر، فمتى اعتقدنا في واحد
منهم أنه أفضل ثم أحببنا غيره من جهة الدين أكثر كان تناقضاً، نعم
إن أحببنا غير الأفضل أكثر من محبة الأفضل لأمر دنيوي كقرابة
وإحسان فلا تناقض في ذلك ولا امتناع، فمن اعترف بأن أفضل الأمة
بعد نبيها ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، لكنه أحب علياً أكثر
من أبي بكر مثلاً، فإن كانت المحبة المذكورة محبة دينية فلا معنى لذلك،
إذ المحبة الدينية لازمة للأفضلية كما قررناه، وهذا لم يعترف بأفضلية
أبي بكر إلا بلسانه، وأما بقلبه فهو مفضل لعلي لكونه أحبه محبة دينية
زائدة على محبة أبي بكر، وهذا لا يجوز، وإن كانت المحبة المذكورة
محبة دنيوية لكونه من ذرية علي أو لغير ذلك من المعاني فلا امتناع والله
أعلم. انتهى.

[حب الصحابة وعلاماته]

وقد روى الطبري في «الرياض» وعزاه للملاء في «سيرته» عن
أنس مرفوعاً، إن الله افترض عليكم حب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي

كما افترض الصلاة والزكاة والصوم والحج، فمن أنكر فضلهم فلا تقبل منه الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج.

وأخرج الحافظ السلفي في «مشيخته» من حديث أنس مرفوعاً:
حب أبي بكر واجب على أمتي.

وأخرج الأنصاري عنه أن رسول الله ﷺ قال: يا أبا بكر، ليت أني لقيت إخواني فقال أبو بكر: يا رسول الله، نحن إخوانك، قال: لا، أنتم أصحابي، إخواني الذين لم يروني، وصدقوا بي وأحبوني^(١)، حتى إنني لأحب إلى أحدهم من ولده ووالده، قالوا: يا رسول الله، أما نحن إخوانك؟ قال: لا، بل أنتم أصحابي، ألا تحب يا أبا بكر قوماً أحبوك بحبي إياك؟ قال: فأحبهم ما أحبوك بحبي إياك.

فمحبة من أحبه الرسول ﷺ كآل بيته وأصحابه رضي الله عنهم علامة على محبة رسول الله ﷺ، كما أن محبته ﷺ علامة على محبة الله تعالى. وكذلك عداوة من عاداهم وبغض من أبغضهم وسبهم. فمن أحب شيئاً أحب من يحب، وأبغض من يبغض، قال الله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(٢) فحب آل بيته ﷺ وأصحابه وأولاده وأزواجه من الواجبات المتعينات، وبغضهم من الموبقات المهلكات.

ومن محبتهم وجوب توقيرهم، وبرهم والقيام بحقوقهم، والاعتداء بهم بأن يمشي على سنتهم وآدابهم وأخلاقهم، والعمل بأقوالهم مما ليس للعقل فيه مجال، وحسن الثناء عليهم بأن يذكروا

(١) في ط: وأجلوني.

(٢) سورة المجادلة، الآية ٢٢

بأوصافهم الجميلة على قصد التعظيم . فقد أثنى الله تعالى عليهم في كتابه المجيد، ومن أثنى الله عليه فهو واجب الثناء، والاستغفار لهم، قالت عائشة: (أمرُوا أن يستغفروا لأصحاب رسول الله ﷺ فسبوهم) رواه مسلم . وفائدة المستغفر لهم عائدة عليه .

قال سهل بن عبدالله التستري: لم يؤمن بالرسول ﷺ من لم يوقر أصحابه ولم يعزَّ أوامره .

ومما يجب أيضاً: الإمساك عما شجر بينهم، أي وقع بينهم من الاختلاف، / والإضراب عن أخبار المؤرخين وجهلة الرواة، وضلال الشيعة والمبتدعين، القادحة في أحد منهم، قال ﷺ إذا ذكر أصحابي فأمسكوا^(١)، وأن يلتمس لهم مما نقل من ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن التأويلات، ويخرج لهم أصوب المخارج، إذ هم أهل ذلك كما هو في مناقبهم، ومعدود من مآثرهم، مما يطول إيراد بعضه .

ب/٢٨

وما وقع بينهم من المنازعات والمحاربات فله محامل وتأويلات، فسبهم والطعن فيهم إذا كان مما يخالف الأدلة القطعية كفر، كقذف عائشة رضي الله عنها، وإلا فبدعة وفسق . قال ﷺ: أيها الناس احفظوني في أختاني وأصهارني وأصحابي، لا يطالبنكم الله بمظلمة أحد منهم، فإنها ليست مما يوهب^(٢) . رواه الخُلعي^(٣) .

(١) رواه الطبراني، وسنده ضعيف كما قال العراقي، وقال ابن رجب: روي من وجوه في أسانيدنا كلها مقال .

(٢) هذا بعض ما أخرجه الطبراني وابن منده وأورده في الشفاء عن خالد بن سعيد بن العاصي .

(٣) الخُلعي: أبو الحسن علي بن الحسن . كان فقيهاً شافعيّاً صالحاً، له تصانيف . مات بمصر في ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة .

وقال ﷺ : الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً من بعدي، من أحبهم فقد أحبني، ومن أبغضهم فقد أبغضني، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه الله^(١). رواه المخلص الذهبي^(٢).

وهذا الحديث - كما قال بعضهم - خرج مخرج الوصية بأصحابه على طريق التأكيد والترغيب في حبهم، والترهيب عن بغضهم. وفيه إشارة إلى أن حبهم من الإيمان، وبغضهم كفر، لأنه إذا كان بغضهم بغضاً له كان كفراً بلا نزاع، للحديث السابق (لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه).

وهذا يدل على كمال قربهم منه بتنزيلهم منزلة نفسه، حتى كأن آذاهم واقع عليه وواصل إليه ﷺ .

و«الغرض»: الهدف الذي يرمى فيه.

فهو نهي عن رميهم مؤكداً ذلك بتحذيرهم الله منه، وما ذاك إلا لشدة الحرمة.

وروي مرفوعاً: من سب أحداً من أصحابي فاجلدوه. خرجه تمام في فوائده^(٣).

(١) رواه الترمذي من حديث عبدالله بن مغفل وفيه عبد الرحمن بن زياد ضعيف في الحفظ وفي الميزان: في الحديث اضطراب.

(٢) أبو طاهر محمد بن عبد الرحمن الذهبي.

(٣) وأخرجه الطبراني في الثلاثة عن علي مرفوعاً: من سب الأنبياء قتل، ومن سب أصحابي جلد. قال في اللسان: رواه كلهم ثقات إلا عبيدالله بن محمد العمري شيخ الطبراني فله مناكير، منها هذا الحديث.

وقال مالك بن أنس وغيره - فيما ذكره القاضي عياض - : من أبغض الصحابة فليس له في فيء المسلمين حق . قال^(١) : ونزع^(٢) بآية الحشر ﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ الآية^(٣) . [وقال : من غاظه أصحاب محمد فهو كافر، قال الله تعالى : ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾^(٤) والله أعلم]^(٥) .

-
- (١) أي عياض .
(٢) أي استدل مالك .
(٣) سورة الحشر، الآية ١٠ .
(٤) سورة الفتح، الآية ٢٩ .
(٥) زيادة في النسخ لم ترد في الأصل، وقد جاءت الإشارة إليها في حاشية الشرح أيضاً .

المقصد الثامن

في طبه ﷺ لذوي الأمراض والعايات
وتعبيره الرؤيا وإنبائه بالأنباء المغيبات

[تمهيد]

اعلم أنه لا سبيل لأحد إلى الإحاطة بنقطة من بحار معارفه، أو قطرة مما أفاضه الله تعالى عليه من سحائب عوارفه، وأنت إذا تأملت ما منحه الله تعالى به من جوامع الكلم، وخصه^(١) به من بدائع الحكم، وحسن سيره، وحكم حديثه، وإنبائه بأنباء القرون السالفة والأمم البائدة، والشرائع الدائرة، كقصص الأنبياء مع قومهم، وخبر موسى مع الخضر، ويوسف مع إخوته، وأصحاب الكهف، وذو القرنين، وأشباه ذلك، وبدء الخلق، وأخبار الدار الآخرة، وما في التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى، وإظهار أحوال الأنبياء وأممهم، وأسرار علومهم ومستودعات سيرهم، وإعلامهم بمكتوم شرائعهم، ومضمنات كتبهم وغير ذلك مما صدقه فيه العلماء بها، ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها، بل أذعنوا لذلك فضلاً عما أفاضه من العلم ومحاسن الآداب والشيم، والمواعظ والحكم، والتنبيه على طرق الحجج العقلية، والرد على فرق الأمم ببراهين الأدلة الواضحات، [والإشارة]^(٢) إلى فنون العلوم التي اتخذ أهلها كلامه فيها قدوة، وإشاراته حجة، كاللغة والمعاني والبيان والعربية، وقوانين الأحكام الشرعية، والسياسات العقلية، ومعارف عوارف الحقائق القلبية، إلى غير ذلك من ضروب العلوم، وفنون المعارف الشاملة

(١) في الأصل: وخصّ.

(٢) زيادة في ط.

لمصالح أمته، كالطب والعبارة^(١) والحساب وغير ذلك مما لا يعد ولا يحد. . . قضيت^(٢) بأن مجال هذا الباب في حقه ﷺ ممتد، تنقطع دون نفاذه الأدلاء،^(٣) وأن بحر علمه ومعارفه زاخر لا تكدره الدلاء.
وهذا المقصد - أعزك الله - يشتمل على ثلاثة فصول:

(١) مصدر عبر الرؤيا.

(٢) جواب قوله أولاً: وأنت إذا تأملت. . .

(٣) جمع دليل.

الفصل الأول

في طبه ﷺ لذوي الأمراض والعاهات

[عيادة المريض]

اعلم أنه قد ثبت أنه ﷺ كان يعود من مرض من أصحابه، حتى لقد عاد غلاماً كان يخدمه من أهل الكتاب، وعاد عمه وهو مشرك، وعرض عليهما الإسلام، فأسلم الأول وكان يهودياً، كما روى البخاري وأبو داود من حديث أنس: أن غلاماً من اليهود كان يخدم النبي ﷺ / فمرض فعاده ﷺ فقعده عند رأسه، فقال: أسلم، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال: أطع أبا القاسم فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه من النار.

وكان ﷺ يدنو من المريض، ويجلس عند رأسه، ويسأل عن حاله ويقول: كيف تجدك؟

وفي حديث جابر عند البخاري ومسلم والترمذي وأبي داود، قال: مرضت فأتاني رسول الله ﷺ يعودني وأبو بكر، وهما ماشيان، فوجداني أغمي علي، فتوضأ النبي ﷺ ثم صب وضوءه علي فأفقت، فإذا النبي ﷺ، وعند أبي داود: فنضح في وجهي فأفقت. وفيه: أنه ﷺ قال: يا جابر لا أراك ميتاً من وجعك هذا.

وفي حديث أبي موسى عند البخاري مرفوعاً: (أطعموا الجائع، وعودوا المريض^(١)، وفكوا العاني)^(٢).

وعنده من رواية البراء: أمرنا ﷺ بسبع، وذكر منها عيادة المريض.

وعند مسلم: خمس تجب للمسلم على المسلم، فذكرها منها.

[حكم عيادة المريض]

قال ابن بطال: يحتمل أن يكون الأمر على الوجوب، يعني الكفاية، كإطعام الجائع وفك الأسير، ويحتمل أن يكون للندب على التواصل والألفة.

وعند الطبري: يتأكد في حق من ترجى بركته، ويسن فيمن يراعى حاله^(٣)، ويباح فيما عدا ذلك.

وهو فرض كفاية عند أبي حنيفة^(٤)، كما قاله أبو الليث^(٥) [السمرقندي]^(٦) في «مقدمته».

(١) كذا في الأصل، وكذلك في البخاري (٣٠٤٦، ٥٦٤٩) وفي النسخ: المرضى.

(٢) العاني: الأسير.

(٣) أي يتعهد المريض فيما يحتاج إليه ك شراء دواء..

(٤) في (أ، ش): عند الحنفية.

(٥) أبو الليث: أحمد بن عمر بن محمد النسفي الفقيه الواعظ، مات سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة.

(٦) زيادة في (ط، ب، د).

واستدل بعموم قوله: «عودوا المريض» على مشروعية العيادة في كل مرض، واستثنى بعضهم: الأرمد، وردّ: بأنه قد جاء في عيادة الأرمد بخصوصها حديث زيد بن الأرقم، قال: عادني رسول الله ﷺ من وجع كان بعيني، رواه أبو داود وصححه الحاكم.

وأما ما أخرجه البيهقي والطبراني مرفوعاً: ثلاثة ليس لهم عيادة، الرمد والدمل والضرس، فصحح البيهقي أنه موقوف على يحيى بن أبي كثير.

ويؤخذ من إطلاقه عدم التقييد بزمان يمضي من ابتداء مرضه. وهو قول الجمهور، وجزم الغزالي في «الإحياء»: بأنه لا يعاد إلا بعد ليال ثلاث، واستند إلى حديث أخرجه ابن ماجه عن أنس: كان ﷺ لا يعود مريضاً إلا بعد ثلاثة. وهذا حديث ضعيف تفرد به مسلمة بن علي، وهو متروك، وقال أبو حاتم هو حديث باطل.

[فضل عيادة المريض]

ولا نطيل بإيراد ما ورد في فضل العيادة، ويكفي حديث أبي هريرة، مما حسنه الترمذي مرفوعاً: من عاد مريضاً ناداه مناد من السماء: طبت وطاب ممشاك، وتبوات من الجنة منزلاً، وهذا لفظ ابن ماجه.

وفي سنن أبي داود عن أنس مرفوعاً: من توضأ فأحسن الوضوء، وعاد أخاه المسلم محتسباً، بُوعِدَ من جهنم مسيرة سبعين خريفاً.

وفي حديث أبي سعيد عند ابن حبان في صحيحه مرفوعاً: خمس

من عملهن في يوم كتبه الله من أهل الجنة: من عاد مريضاً، وشهد جنازة وصام يوماً، وراح إلى الجمعة وأعتق رقبة.

وعند أحمد، عن كعب مرفوعاً: من عاد مريضاً، خاض في الرحمة، فإذا جلس عنده استنقع فيها. زاد الطبراني: وإذا قام من عنده فلا يزال يخوض فيها حتى يرجع من حيث خرج.

[العيادة في كل وقت]

ولم يكن ﷺ يخص يوماً من الأيام بعيادة المريض، ولا وقتاً من الأوقات، فترك العيادة يوم السبت مخالف للسنة، ابتدعه يهودي طبيب لملك قد مرض وألزمه بملازمته، فأراد يوم الجمعة أن يمضي لسبته فمنعه، فخاف على استحلال سبته، ومن سفك دمه، فقال: إن المريض لا يدخل عليه يوم السبت، فتركه الملك، ثم أشيع ذلك، وصار كثير من الناس يعتمده.

ومن الغريب ما نقله ابن الصلاح عن الفراوي: أن العيادة تستحب في الشتاء ليلاً، وفي الصيف نهاراً، ولعل الحكمة في ذلك أن المريض يتضرر بطول الليل / في الشتاء، وبطول النهار في الصيف، فتحصل له بالعيادة استراحة.

ب/٢٨

[التطبيب عند أهل الذمة]

وينبغي اجتناب التطبيب بأعداء الدين، من يهودي أو نحوه، فإنه مقطوع بغشه سيما إن كان المريض كبيراً في دينه أو علمه، خصوصاً إن كان هذا العدو يهودياً، لأن قاعدة دينهم: أن من نصح منهم مسلماً فقد خرج عن دينه، وأن من استحل السبت فهو مهدر

الدم عندهم، حلال لهم سفك دمه، ولا ريب أن من خاطر بنفسه يخشى عليه أن يدخل في عموم النهي فيمن قتل نفسه بشيء.

وقد كثر الضرر في هذا الزمن بأهل الذمة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله تعالى يرحم القائل:

لعن النصارى واليهود فإنهم بلغوا بمكرهم بنا الآمالا
خرجوا أطباء وحساباً لكي يتقسموا الأرواح والأموالا

[الطب النفسي]

ومما كان يفعله ﷺ ويأمر به تطيب نفوس المرضى وتقوية قلوبهم، ففي حديث أبي سعيد الخدري، قال ﷺ: (إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في أجله^(١)، فإن ذلك يطيب نفسه)^(٢)، مثل أن يقول له: لا بأس عليك، طهور إن شاء الله، ووجهك الآن أحسن، وما أشبه ذلك.

وقد يكون من هذا أن يذكر له الأجور الداخلة عليه في مرضه، وأن المرض كفارة، فربما أصلح ذلك قلبه، وأمن من خوف ذلك^(٣) ونحوه.

وقال بعضهم^(٤): في هذا الحديث نوع شريف جداً من أنواع

(١) أي وسعوا له وأطمعوه في طول الحياة.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه بإسناد ضعيف بلفظ: فإن ذلك لا يرد شيئاً وهو يطيب نفس المريض.

(٣) في (ط، ش): زلل.

(٤) هو ابن القيم.

العلاج، وهو الإرشاد إلى ما يطيب نفس العليل من الكلام الذي تقوى به الطبيعة، وتنتعش به القوة، وينبعث به الحار الغريزي، ويساعد على دفع العلة أو تخفيفها الذي هو غاية تأثير الطبيب. وفي تفريج نفس المريض، وتطيب قلبه، وإدخال السرور عليه تأثير عجيب في شفاء علته وخفتها، فإن الأرواح والقوى تقوى بذلك، فتساعد الطبيعة على دفع المؤذي. وقد شاهد الناس كثيراً من المرضى تنتعش قواهم بعبادة من يحبونه ويعظمونه، ورؤيتهم له، ولطفهم بهم، ومكالمتهم إياهم.

[كيفية عبادة المريض]

قال في الهدى: وكان ﷺ يسأل المريض عن شكواه، وكيف يجد، وعمما يشتهي، فإن اشتهى شيئاً وعلم أنه لا يضره أمر له به، ويضع يده على جبهته، وربما وضعها بين ثديه، ويدعو له، ويصف له ما ينفعه في علته، وربما توضأ وصب على المريض من وضوئه، كما في حديث جابر المتقدم، وربما كان يقول للمريض: لا بأس عليك، طهور إن شاء الله، وربما كان يقول: كفارة وطهور.

وقالت عائشة: كان ﷺ إذا عاد مريضاً يضع يده على المكان الذي يألم ثم يقول: بسم الله. رواه أبو يعلى بسند حسن^(١).

وأخرج الترمذي من حديث أبي أمامة - بسند لين - رفعه: تمام عبادة المريض أن يضع أحدكم يده على جبهته فيسأله كيف هو، وعند ابن السني بلفظ: كيف أصبحت أو كيف أمسيت؟

(١) في ش: صحيح.

[طب القلوب وطب الأجساد]

وإذا علمت هذا، فاعلم أن المرض نوعان: مرض القلوب
ومرض الأبدان.

فأما طب القلوب ومعالجتها فخاص بما جاء به الرسول الكريم
ﷺ عن ربه تعالى، لا سبيل إلى حصوله إلا من جهته، فإن صلاح
القلوب أن تكون عارفة بربها وفاطرها وبأسمائه وصفاته وأفعاله
وأحكامه، وأن تكون مؤثرة لرضاه ومحابه، متجنبه لمناهيه ومساخطه،
ولا صحة لها ولا حياة ألبتة إلا بذلك، ولا سبيل إلى تلقي ذلك إلا
من جهة سيدنا محمد ﷺ .

وأما طب الأجساد، فمنه ما جاء في المنقول عنه ﷺ ، ومنه ما
جاء عن غيره، لأنه ﷺ إنما بعث هادياً وداعياً إلى الله وإلى جنته،
ومعرفاً بالله، ومبيناً للأمة مواقع رضاه وأمراً لهم بها، ومواقع سخطه
وناهياً لهم عنها، ومخبرهم أخبار الأنبياء والرسل وأحوالهم مع أممهم،
وأخبار تخليق العالم، وأمر المبدأ والمعاد، وكيفية شقاوة النفوس
وسعادتها وأسباب ذلك.

1/290
وأما طب/ الأجساد فجاء من تكميل شريعته، ومقصوداً لغيره،
بحيث إنما يستعمل للحاجة إليه، فإذا قدر الاستغناء عنه كان صرف
الهمم إلى علاج القلوب وحفظ صحتها، ودفع أسقامها وحميتها مما
يفسدها هو المقصود بإصلاح الجسد، وإصلاح الجسد بدون إصلاح
القلب لا ينفع، وفساد البدن مع إصلاح القلب مضرته يسيرة جداً،
وهي مضرة زائلة، تعقبها المنفعة الدائمة التامة.

[ضرر الذنوب وآثارها]

وإذا علمت هذا، فاعلم أن ضرر الذنوب في القلوب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر. وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصي، فللمعاصي من الآثار القبيحة المدمومة والمضرة بالقلب والبدن والدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله.

فمنها: حرمان العلم، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور، وللإمام الشافعي رضي الله عنه:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي وقال اعلم بأن العلم نور ونور الله لا يؤتاه عاصي

ومنها: حرمان الرزق، ففي المسند^(١): وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه.

ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه، بينه وبين الله، لا يوازيا ولا يقاربا لذة.

ومنها: تعسير أموره عليه، فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقاً دونه، أو متعسراً عليه.

ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها، كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادهم، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في

(١) الظاهر أن المراد بالحديث المسند: أي: المرفوع، لقول مغلطاي: إذا كان الحديث في أحد الستة لا يجوز لحديثي نقله عن غيره. انتهى، وهذا الحديث أخرجه النسائي وابن ماجه وأحمد. . مرفوعاً (إن الدعاء يرد القضاء وإن البر يزيد في العمر. . .

البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر، ثم تقوى هذه الظلمة حتى تغلو الوجه وتصير سواداً فيه، يراها كل أحد.

ومنها: أنها توهن القلب والبدن.

ومنها: حرمان الطاعة، وتقصير العمر، ومحق البركة، ولا يتمتع زيادة العمر بأسباب، كما ينقص بأسباب^(١)، وقيل: تأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة هي حياة القلب، فليس عمر المرء إلا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره، فالبر والتقوى والطاعات تزيد في هذه الأوقات التي هي حقيقة عمره، ولا عمر له سواها. وبالجملة: فالعبد إذا أعرض عن الله، واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية.

ومنها: أن المعصية تورث الذل.

ومنها: أنها تفسد العقل، فإن للعقل نوراً، والمعصية تطفى نور العقل.

ومنها: أنها تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حلت به نعمة إلا بذنب ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾^(٢) وقد أحسن القائل:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن الذنوب تزيل النعم
وحطها بطاعة رب العباد فرب العباد سريع النقم

(١) باعتبار ما في صحف الملائكة، أما باعتبار علم الله فلا يزيد ولا ينقص.

(٢) سورة الشورى، الآية ٣٠.

ومن عقوباتها أنها تستجلب مواد^(١) هلاك العبد في دنياه
وآخرته، فإن الذنوب هي أمراض متى استحكمت قتلت ولا بد، وكما
أن البدن لا يكون صحيحاً إلا بغذاء يحفظ قوته، واستفراغ يستفرغ
المواد الفاسدة والأخلاق الرديئة التي متى غلبت عليه أفسدته، وحمية
يمنتع بها من تناول ما يؤذي ويحشى ضرره فكذلك القلب، لا تتم
حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة يحفظ قوته، واستفراغ
بالتوبة النصوح يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاق الرديئة [التي متى
غلبت عليه أفسدته]^(٢)، وحمية توجب له حفظ الصحة، وتجنب ما
يضادها، وهي عبارة عن ترك استعمال ما يضر الصحة، والتقوى اسم
متناول لهذه الأمور الثلاثة، فما فات منها فات من التقوى بقدره.

وإذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الأمور الثلاثة، فإنها
تستجلب المواد المؤذية، وتوجب التخليط المضاد للحمية، وتمنع
الاستفراغ بالتوبة النصوح. فانظر إلى بدن عليل قد تراكت عليه
الأخلاق ومواد المرض، وهو لا يستفرغها ولا يحتمي لها، كيف تكون
صحته وبقاؤه، وقد أحسن / القائل:

ب/ ٢٩٠

جسمك بالحمية حصنته مخافة من ألم طاري
وكان أولى بك أن تحتمي من المعاصي خشية النار
فمن حفظ القوة بامثال الأوامر، واستعمل الحمية باجتنا
النواهي، واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح، لم يدع للخير مطلباً، ولا

(١) في (أ): مراد، قال الشارح: أي أسباب هلاكه، ومادة الشيء ما يكون
الشيء حاصلًا معه بالقوة، فيتسبب حصوله منها.
(٢) زيادة في ط.

للشر مهرباً، وفي حديث أنس: ألا أدلكم على دوائكم ودوائكم، ألا إن داءكم الذنوب، ودواءكم الاستغفار^(١).

فقد ظهر لك أن طب القلوب ومعالجتها لا سبيل إلى معرفته إلا من جهة الرسول ﷺ بواسطة الوحي.

[طب الأجساد]

وأما طب الأجساد فغالبه يرجع إلى التجربة. ثم هو نوعان: نوع لا يحتاج إلى فكر ونظر، بل فطر الله على معرفته الحيوانات، مثل ما يدفع الجوع والعطش والبرد والتعب، وهذا لا يحتاج فيه إلى معالجة طبيب.

ونوع يحتاج إلى الفكر والنظر، كدفع ما يحدث في البدن مما يخرج عن الاعتدال، وهو إما حرارة أو برودة، وكل منهما: إما إلى رطوبة أو يبوسة، أو إلى ما يتركب منهما، وغالب ما يقاوم الواحد منها بضده، والدفع قد يقع من خارج البدن، وقد يقع من داخله وهو أعسرهما، والطريق إلى معرفته بتحقيق السبب والعلامة.

فالتبيب الحاذق هو الذي يسعى في تفريق ما يضر بالبدن جمعه، أو عكسه، وفي تنقيص ما يضر بالبدن زيادته أو عكسه، ومدار ذلك على ثلاثة أشياء:

حفظ الصحة.

والاحتماء عن المؤذي

واستفراغ المادة الفاسدة.

(١) رواه البيهقي.

وقد أشير إلى الثلاثة في القرآن:

فالأول: في قوله تعالى: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾^(١) وذلك أن السفر مظنة النصب، وهو من مغيرات الصحة، فإذا وقع فيه الصيام ازداد فأبيح الفطر، وكذلك القول في المرض.

والثاني: وهو الحمية، من قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾^(٢) فإنه استنبط منه جواز التيمم عند خوف استعمال الماء البارد، وقال تعالى في آية الوضوء ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾^(٣) فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب حمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه، وهو تنبيه على الحمية عن كل مؤذٍ له من داخل أو خارج.

والثالث: من قوله تعالى: ﴿أو به أذى من رأسه ففدية﴾^(٤) فإنه أشير بذلك إلى جواز حلق الرأس الذي منع منه المحرم، لاستفراغ الأذى الحاصل من البخار المحتقن في الرأس تحت الشعر، لأنه إذا حلق رأسه تفتحت المسام فخرجت تلك الأبخرة منها. فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذي انحباسه.

فقد أرشد تعالى عباده إلى أصول الطب الثلاثة ومجامع قواعده.

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٤.

(٢) سورة النساء، الآية ٢٩.

(٣) سورة النساء، الآية ٤٣.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٩٦.

[الحث على التداوي]

وفي الصحيحين من حديث عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء).

وأخرجه النسائي وصححه ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود بلفظ: (إن الله لم ينزل داء إلا وأنزل له شفاء^(١) فتداووا).

وعند أحمد من حديث أنس: (إن الله حيث خلق الداء خلق الدواء فتداووا).

وعند البخاري في «الأدب المفرد»، وأحمد وأصحاب السنن، وصححه الترمذي وابن خزيمة والحاكم عن أسامة بن شريك، رفعه: (تداووا يا عباد الله، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء إلا داء واحداً وهو الهرم) وفي لفظ (إلا السام) - وهو بمهملة مخففة - الموت، يعني إلا داء الموت، أي المرض الذي قدر على صاحبه الموت فيه. واستثنى الهرم في الرواية الأولى إما لأنه جعله شبيهاً بالموت، والجامع بينهما نقص الصحة، أو لقربه من الموت وإفضائه إليه، ويحتمل أن يكون استثناء منقطعاً، والتقدير: لكن الهرم لا دواء له.

ولأبي داود، عن أبي الدرداء، رفعه: إن الله جعل لكل داء / ٢٩١
دواء، فتداووا، ولا تداووا بحرام.

وفي البخاري^(٢): إن الله تعالى لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم، فلا يجوز التداوي بالحرام.

(١) من قوله «وأخرجه» سقط من ش.

(٢) هو في البخاري عن ابن مسعود تعليقاً، وبين الحافظ أنه جاء من طرق صحيحة إليه.

وروى مسلم عن جابر، مرفوعاً: لكل داء دواء، فإذا أصيب
دواء الداء برئ بإذن الله تعالى.

فالشفاء متوقف على إصابة الدواء الداء بإذن الله تعالى. وذلك
أن الدواء قد يحصل معه مجاوزة الحد في الكيفية أو الكمية فلا ينجح،
بل ربما أحدث داء آخر.

وفي رواية علي عند الحميدي في كتابه المسمى بطب أهل البيت:
ما من داء إلا وله دواء، فإذا كان كذلك بعث الله عز وجل ملكاً ومعه
ستر فجعله بين الداء والدواء، فكلما شرب المريض من الدواء لم يقع
على الداء، فإذا أراد الله براءة أمر الملك فرفع الستر، ثم يشرب
المريض الدواء فينفعه الله تعالى به.

وفي حديث ابن مسعود رفعه: إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له
شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله، رواه أبو نعيم وغيره^(١).

وفيه إشارة إلى أن بعض الأدوية لا يعلمها كل أحد.

وأما قوله «لكل داء دواء» فيجوز أن يكون على عمومته حتى
يتناول الأدوية القاتلة، والأدواء التي لا يمكن طبيب معرفتها، ويكون
الله قد جعل لها أدوية تبرئها، ولكن طوى علمها عن البشر، ولم يجعل
لهم إليها سبيلاً، لأنه لا علم للخلق إلا ما علمهم الله. ولهذا علق
ﷺ الشفاء على مصادفة الدواء للداء، وقد يقع لبعض المرضى أنه
يتداوى من دائه بدواء فيبرأ، ثم يعتره بعد ذلك الداء، والدواء^(٢)
بعينه فلا ينجح، والسبب في ذلك الجهل بصفة من صفات الدواء،

(١) وكذا رواه النسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحاحه.

(٢) في الأصل: ثم يعتره بعد ذلك الداء بعينه.

فرب مرضين تشابها، ويكون أحدهما مركباً، لا ينجح فيه ما ينجح في الذي ليس مركباً، فيقع الخطأ من هناك، وقد يكون متحداً لكن يريد الله أن لا ينجح، وهنا تخضع رقاب الأطباء.

[التداوي لا ينافي التوكل]

وفي مجموع ما ذكرناه من الأحاديث الإشارة إلى إثبات الأسباب، وأن ذلك لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع الجوع والعطش بالأكل والشرب، وكذلك تجنب المهلكات، والدعاء بطلب الشفاء ودفع المضار وغير ذلك.

وقد سئل الحارث المحاسبي في كتاب «القصدي» من تأليفه: هل يتداوى المتوكل؟ قال: نعم، قيل له من أين ذلك؟ قال: من وجود ذلك عن سيد المتوكلين، الذي لم يلحقه لاحق، ولا يسبقه في التوكل سابق، محمد خير البرية ﷺ. قيل له: ما تقول في خبر النبي ﷺ: (من استرقى واكتوى برئ من التوكل)^(١)؟ قال: برئ من توكل المتوكلين الذين ذكرهم في حديث آخر فقال: (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب)^(٢)، وأما سواهم من المتوكلين فمباح لهم الدواء والاسترقاء.

فجعل المحاسبي التوكل بعضه أفضل من بعض.

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح، وصححه ابن حبان

والحاكم عن المغيرة بن شعبة مرفوعاً.

(٢) أخرجه الشيخان وغيرهما.

وقال في «التمهيد»^(١): إنما أراد بقوله: «بريء من التوكل» إذا استرقى الرقى المكروهة في الشريعة، أو اكتوى وهو يعلق رغبته في الشفاء بوجود الكي، وكذلك قوله «لا يسترقون» الرقى المخالفة للشريعة، و«لا يكتون» وقلوبهم معلقة بنفع الكي ومعرضة عن فعل الله تعالى وأن الشفاء من عنده. وأما إذا فعل ذلك على ما جاء في الشريعة، وكان ناظراً إلى رب الدواء، وتوقع الشفاء من الله تعالى، وقصد بذلك استعمال بدنه إذا صحح الله تعالى، وإتعب نفسه وكدها في خدمة ربه، فتوكله باق على حاله لا ينقص منه الدواء شيئاً، استدلالاً بفعل سيد المتوكلين إذ^(٢) عمل بذلك في نفسه وفي غيره، انتهى.

فقد تبين أن التداوي لا ينافي التوكل، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله تعالى مقتضيات لمسيباتها قدراً وشرعاً، وأن تعطيلها يقدر في نفس التوكل، كما يقدر في الأمر والحكمة. وحكى ابن القيم: أنه ورد في خبر إسرائيلي، أن الخليل عليه الصلاة والسلام قال: يا رب ممن الداء؟ قال: مني، قال: فمن الداء؟ قال: مني / قال: فما بال الطبيب؟ قال: رجل أرسل الدواء على يديه.

ب/٢٩

[«لكل داء دواء» أمل للمريض وللطبيب]

قال^(٣): وفي قوله ﷺ «لكل داء دواء» تقوية لنفس المريض والطبيب، وحث على طلب ذلك الدواء، والتفتيش عليه، فإن المريض إذا استشعرت نفسه أن لدائه دواء يزيله تعلق قلبه بروح الرجاء، وبرد

(١) «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» كتاب لابن عبد البر

(٢) في (أ، ط): إذا.

(٣) أي ابن القيم في كتابه زاد المعاد.

من حرارة اليأس، وانفتح له باب الرجاء، وقويت نفسه وانبعثت حرارته الغريزية، وكان ذلك سبباً لقوة الأرواح الحيوانية والنفسانية والطبيعية، ومتى قويت هذه الأرواح قويت القوى التي هي حاملة لها، فقهرت المرض ودفعته. انتهى^(١).

فإن قلت: ما المراد بالإنزال في قوله في الأحاديث السابقة «إلا أنزل له دواء» وفي الرواية الأخرى «شفاء» فالجواب: أنه يحتمل أن يكون عبر بالإنزال عن التقدير، ويحتمل أن يكون المراد إنزال علم ذلك على لسان الملك للنبي ﷺ.

[الطب النبوي]

وأين يقع طب حذاق الأطباء، الذي غايته أن يكون مأخوذاً من قياس أو مقدمات^(٢) وحنس وتجربة، من الوحي الذي يوحيه الله تعالى إلى رسوله ﷺ بما ينفعه ويضره، فنسبة ما عند حذاق الأطباء من الطب إلى هذا الوحي كنسبة ما عندهم من العلوم إلى ما جاء به ﷺ. بل ها هنا من الأدوية التي تشفي من الأمراض ما لم تهتد إليها عقول أكابر الأطباء، ولم تصل إليها علومهم وتجربتهم وأقيستهم من الأدوية القلبية والروحانية، وقوة القلب، واعتماده على الله تعالى والتوكل عليه والانكسار بين يديه، والصدقة والصلاة والدعاء والتوبة والاستغفار، والإحسان إلى الخلق والتفريج عن المكروب.

فإن هذه الأدوية قد تجربتها الأمم على اختلاف أديانها ومللها،

(١) قال بعد ذلك: وكذلك الطبيب إذا علم أن لهذا الداء دواء أمكنه طلبه والتفتيش عليه. [م].

(٢) في (د): منامات، وفي (أ، ب، ش): مقامات.

فوجدوا لها من التأثير في الشفاء ما لم يصل إليه علم أعلم الأطباء، وقد جربت ذلك - والله - مرات، فوجدته يفعل ما لا تفعله الأدوية الحسية.

ولا ريب أن طب النبي ﷺ متيقن البرء، لصدوره عن الوحي ومشكاة النبوة، وطب غيره أكثره حدس وتجربة، وقد يتخلف الشفاء عن بعض من يستعمل طب النبوة، وذلك لما منع قام بالمستعمل، من ضعف اعتقاد الشفاء به وتلقيه بالقبول. وأظهر الأمثلة في ذلك القرآن، الذي هو شفاء لما في الصدور، ومع ذلك فقد لا يحصل لبعض الناس شفاء صدره به لقصوره في الاعتقاد والتلقي بالقبول، بل لا يزيد المنافق إلا رجساً إلى رجسه، ومرضاً إلى مرضه، فطب النبوة لا يناسب إلا الأبدان الطيبة، والقلوب الحية. فإعراض الناس عن طب النبوة لإعراضهم عن الاستشفاء بالقرآن الكريم الذي هو الشفاء النافع.

[أنواع طبه ﷺ]

- وكان علاجه ﷺ للمريض على ثلاثة أنواع:
- أحدها: بالأدوية الإلهية الروحانية.
- والثاني: بالأدوية الطبيعية.
- والثالث: بالمركب من الأمرين.

النوع الأول

في طبه ﷺ بالأدوية الإلهية

[الاستشفاء بالقرآن]

اعلم أن الله تعالى لم ينزل من السماء شفاء قط أعم - ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء - من القرآن، فهو للداء شفاء، ولصدأ القلوب جلاء، كما قال تعالى: ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾^(١).

ولفظه «من» - كما قال الإمام فخر الدين - ليست للتبويض بل للجنس، والمعنى: ونزل من هذا الجنس الذي هو القرآن شفاء من الأمراض الروحانية وشفاء أيضاً من الأمراض الجسدية.

أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر، وذلك لأن المرض الروحاني نوعان: الاعتقادات الباطلة، وأشدّها فساداً الاعتقادات الفاسدة في الإلهية والنبوات والمعاد والقضاء والقدر، والقرآن مشتمل على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب، وإبطال المذاهب الباطلة. ولما كان أقوى الأمراض الروحانية هو الخطأ في هذه المطالب، والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة في هذه المذاهب الباطلة من العيوب، لا جرم كان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض الروحاني. وأما

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٢.

الأخلاق المذمومة^(١) فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريفها وما فيها من المفاصد، والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة والأعمال المحمودة، فكان القرآن شفاء من هذا النوع من المرض. فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية.

وأما كونه شفاء من الأمراض الجسدية، فلأن التبرك بقراءته ينفع كثيراً من الأمراض. وإذا اعتبر الجمهور من الفلاسفة وأصحاب الطلسمات بأن لقراءة الرقى المجهولة والعزائم التي لا يفهم منها شيء آثاراً عظيمة في تحصيل المنافع ودفع المفاصد، أفلا تكون قراءة القرآن العظيم المشتمل على ذكر جلال الله تعالى وكبريائه، وتعظيم الملائكة المقربين، وتحقير المردة والشياطين سبباً لحصول النفع في الدين والدنيا.

ويتأيد ما ذكرناه بما روي أن النبي ﷺ قال: من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله^(٢).

ونقل عن الشيخ أبي القاسم القشيري - رحمه الله - أن ولده مرض مرضاً شديداً حتى أشرف على الموت، فاشتد عليه الأمر، قال: فرأيت النبي ﷺ في المنام فشكوت إليه ما بولدي فقال: أين أنت من آيات الشفاء؟ فانتبعت فأفكرت فيها فإذا هي في ستة مواضع من كتاب الله، وهي قوله تعالى:

﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾^(٣).

(١) هذا هو النوع الثاني من المرض الروحاني، وكان الأول: الاعتقادات الباطلة. [م].

(٢) إن صح الحديث فيكون المعنى: من لم يعتقد كونه شافياً، كما أشار إليه الشارح.

(٣) سورة التوبة، الآية ١٤.

﴿وشفاء لما في الصدور﴾^(١).

﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾^(٢).

﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾^(٣).

﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾^(٤).

﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾^(٥).

قال: فكتبتها ثم حللتها بالماء وسقيته إياها فكأنما نشط من عقال، أو كما قال.

وانظر رقية اللديغ بـ «الفاحة» وما فيها من السر البديع والبرهان الرفيع. وتأمل قوله ﷺ في بعض أدعيته: «وأن تجعل القرآن ربيع قلبي وجلاء حزني، وشفاء صدري»^(٦) فيكون له بمنزلة الدواء الذي يستأصل الداء، ويعيد البدن إلى صحته واعتداله.

وفي حديث عند ابن ماجه مرفوعاً: خير الدواء القرآن.

وها هنا أمر ينبغي أن يتفطن له، نبه عليه ابن القيم: وهو أن الآيات والأذكار والأدعية التي يستشفى بها، ويرقى بها، هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قبول المحل، وقوة همة الفاعل وتأثيره، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل^(٧)، أو لعدم قبول المحل

(١) سورة يونس، الآية ٧٧.

(٢) سورة النحل، الآية ٦٠.

(٣) سورة الإسراء، الآية ٨٢.

(٤) سورة الشعراء، الآية ٨٠.

(٥) سورة فصلت، الآية ٤٤.

(٦) رواه الإمام أحمد.

(٧) فيكون كسيف قاطع في يد ضعيف أو جبان.

المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية، فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون لمانع قوي يمنع من اقتضائه أثره، فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول، وكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام، وكان الدواء في نفس فعالة، وهمة مؤثرة أثر في إزالة الداء.

[الاستشفاء بالدعاء]

وكذلك الدعاء، فإنه من أقوى الأسباب في رفع المكروه، وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف أثره عنه، إما لضعفه في نفسه بأن يكون دعاء لا يجيبه الله لما فيه من العدوان، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء، وإما لحصول المانع من الإجابة: من أكل الحرام والظلم، ورين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو واللهو، وقد روى الحاكم حديث: واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه^(١).

ومن أنفع الأدوية الدعاء، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله ويرفعه أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن،

وإذا جمع مع الدعاء حضور القلب، والجمعية بالكلية على المطلوب، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة، كثلت الليل الأخير، مع الخضوع والانكسار، والذل والتضرع، واستقبال القبلة، والطهارة ورفع اليدين، والبداءة بالحمد والثناء على الله تعالى، والصلاة/

(١) وكذا رواه الترمذي وقال: غريب، وضعفه النووي والعراقي والحافظ.

والتسليم على سيدنا محمد، بعد التوبة والاستغفار والصدقة، وألح في ٢٩٢/ب المسألة، وأكثر التملق والدعاء، والتوسل إليه بأسمائه وصفاته، والتوجه إليه بنبيه ﷺ فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبداً، لا سيما إن دعاه بالأدعية التي أخبر ﷺ أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم.

ولا خلاف في مشروعية الفرع إلى الله تعالى والالتجاء إليه في كل ما ينوب الإنسان.

[الاستشفاء بالرقى]

وأما الرقى^(١)، فاعلم أن الرقى بالمعوذات من أسماء الله تعالى، هو الطب الروحاني، وإذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله تعالى، لكن لما عزَّ هذا النوع^(٢)، فزع الناس إلى الطب الجسماني.

وفي البخاري، من حديث عائشة، (أنه ﷺ كان ينفث^(٣) على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات وهي الفلق والناس والإخلاص) فيكون من باب التغليب^(٤)، أو المراد الفلق والناس^(٥).

(١) الرقى: جمع رقية، اسم للمرة من التعويد.

(٢) أي قل لقله أهله.

(٣) أي ينفخ نفخاً لطيفاً أقل من التفل.

(٤) أي أطلق على سورة الإخلاص اسم التعويد، وهو الذي اعتمده الحافظ

ابن حجر.

(٥) ويكون ذلك مجازاً، من باب تسمية الجزء باسم الكل، أو بناء على أن أقل

الجمع اثنان.

وكذلك^(١) كل ما ورد في التعويذ في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾^(٢).

وأما ما أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي من حديث ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ كان يكره عشر خصال، فذكر منها الرقى إلا بالمعوذات، ففي سننه عبد الرحمن بن حرملة، قال البخاري: لا يصح حديثه. وعلى تقدير صحته فهو منسوخ بالإذن في الرقية بالفاتحة.

وأما حديث أبي سعيد عند النسائي: كان ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فأخذ بهما وترك ما سواهما، وحسنه الترمذي، فلا يدل على المنع من التعوذ بغير هاتين السورتين، بل على الأولوية، ولا سيما مع ثبوت التعوذ بغيرهما. وإنما اجتزأ بهما لما اشتملتا عليه من جوامع الاستعاذة من كل مكروه جملة وتفصيلاً.

وقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط:

- أن تكون بكلام الله تعالى، أو بأسمائه وصفاته.
- وباللسان العربي، أو بما يعرف معناه من غيره.
- وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بتقدير الله تعالى.

واختلفوا في كونها^(٣) شرطاً، والراجح أنه لا بد من اعتبارها.

وفي صحيح مسلم من حديث عوف بن مالك: (كنا نرقى في

(١) أي من الطب الروحاني.

(٢) سورة المؤمنون، الآية ٩٧.

(٣) أي اجتماع الثلاثة.

الجاهلية، فقلنا يا رسول الله، كيف ترى في ذلك؟ فقال: اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقى إذا لم يكن فيه شرك).

وله من حديث جابر: (نهى رسول الله ﷺ عن الرقى، فجاء آل عمرو بن حزم، فقالوا: يا رسول الله، إنها كانت عندنا رقية نرقى بها من العقرب، قال: فاعرضوها علي، قال: فعرضوا عليه، قال: ما أرى بأساً، من استطاع أن ينفع أخاه فلينفعه)

وقد تمسك قوم بهذا العموم، فأجازوا كل رقية جربت منفعتها، ولو لم يعقل معناها، لكن دل حديث عوف أنه مهما كان من الرقى يؤدي إلى الشرك فإنه يمتنع، وما لا يعقل معناه لا يؤمن أن يؤدي إلى الشرك فيمنع احتياطاً. والشرط الأخير لا بد منه.

وقال قوم: لا تجوز الرقية إلا من العين واللدغة، لحديث عمران ابن حصين: (لا رقية إلا من عين أو حمة^(١))^(٢).

وأجيب: بأن معنى الحصر فيه أنها أصل كل ما يحتاج إلى الرقية، فيلحق بالعين جواز رقية من به خبل أو مسّ ونحو ذلك، لاشتراكهما في كونها ينشآن عن أحوال شيطانية من إنس أو جن، ويلحق بالسم كل ما عرض للبدن من قرح ونحوه من المواد السمية. وقد وقع عند أبي داود من حديث أنس مثل حديث عمران وزاد: (أو دم)، وفي مسلم من حديث أنس أيضاً (رخص رسول الله ﷺ في الرقى من العين والحمة والنملة) وفي حديث آخر (والأذن)، ولأبي

(١) الحمة: هي السم وتطلق على إبرة العقرب للمجاورة، وقد تسمى إبرة الزنبور حمة.

(٢) رواه البخاري موقوفاً على عمران، وكذا رواه مسلم عن بريدة بن الحصيب موقوفاً عليه، لكن رواه أبو داود وصححه الحاكم من حديث أنس عن النبي ﷺ.

داود من حديث الشفاء بنت عبد الله أن النبي ﷺ قال: (ألا تعلمين هذه - يعني حفصة - رقية النملة؟).

والنملة: قروح تخرج في الجنب وغيره من الجسد.

وقيل: المراد بالحصير يعني الأفضل، أي لا رقية أنفع، كما قيل: لا سيف إلا ذو الفقار^(١).

/ وقال قوم: المنهي عنه من الرقى ما يكون قبل وقوع البلاء، والمأذون فيه ما كان بعد وقوعه، ذكره ابن عبد البر والبيهقي وغيرهما.

وروى أبو داود وابن ماجه، وصححه الحاكم عن ابن معسود، رفعه (إن الرقى والتائم والتولة شرك).

والتائم: جمع تيمة وهي خرزة أو قلادة تعلق في الرأس، كانوا في الجاهلية يعتقدون أن ذلك يدفع الآفات.

والتولة: بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففاً - شيء كانت المرأة تستجلب به محبة زوجها، وهو ضرب من السحر.

وإنما كان ذلك من الشرك لأنهم أرادوا دفع المضار وجلب المنافع من عند غير الله، ولا يدخل في ذلك ما كان بأسماء الله وكلامه. فقد ثبت في الأحاديث استعمال ذلك قبل وقوعه، كما سيأتي إن شاء الله تعالى. ولا خلاف في مشروعية الفزع إلى الله سبحانه وتعالى، والالتجاء إليه سبحانه في كل ما يقع وكل ما يتوقع.

وقال بعضهم: المنهي عنه من الرقى هو الذي يستعمله المعزم

(١) الذي في (ط، ش): لا سيف أقطع إلا ذو الفقار.

وغيره ممن يدعي تسخير الجن له، فيأتي بأمور مشتبهة مركبة من حق وباطل، يجمع إلى ذكر الله تعالى وأسمائه ما يشوبه من ذكر الشياطين والاستعانة بهم، والتعوذ من مردتهم، ويقال إن الحية لعداوتها للإنسان بالطبع تصادق الشياطين لكونهم أعداء بني آدم، فإذا عزم على الحية بأسماء الشياطين أجابت وخرجت من مكانها، وكذلك اللديغ إذا رقي بتلك الأسماء سالت سمومها من بدن الإنسان، فلذلك كره من الرقي ما لم يكن بذكر الله وأسمائه خاصة، وباللسان العربي الذي يعرف معناه ليكون بريئاً من الشرك.

وعلى كراهة الرقي بغير كتاب الله علماء الأمة.
وقال القرطبي: الرقي ثلاثة أقسام:

أحدها: ما كان يرقى به في الجاهلية، مما لا يعقل معناه، فيجب اجتنابه لئلا يكون فيه شرك أو يؤدي إلى الشرك.

الثاني: ما كان بكلام الله أو بأسمائه فيجوز، فإن كان مأثوراً فيستحب.

الثالث: ما كان بأسماء غير الله من ملك أو صالح أو معظم من المخلوقات كالعرش قال: فهذا ليس من الواجب اجتنابه، ولا من المشروع الذي يتضمن الالتجاء إلى الله تعالى به والتبرك بأسمائه، فيكون تركه أولى، إلا أن يتضمن تعظيم المرقى به فينبغي أن يجتنب كالحلف بغير الله تعالى.

وقال الربيع: سألت الشافعي عن الرقية فقال: لا بأس أن يرقى بكتاب الله تعالى، وبما يعرف من ذكر الله تعالى. فقلت: أيرقي أهل الكتاب المسلمين؟ قال: نعم إذا رقوا بما يعرف من كتاب الله وبذكر الله. انتهى.

وفي الموطأ: أن أبا بكر قال لليهودية التي كانت ترقى عائشة: ارقئها بكتاب الله. قال النووي وقال القاضي عياض: واختلف قول مالك في رقية اليهودي والنصراني المسلم، وبالجواز قال الشافعي والله أعلم.

وروى ابن وهب عن مالك كراهية الرقية بالحديدة والملح وعقد الخيط، والذي يكتب خاتم سليمان، وقال: لم يكن ذلك من أمر الناس القديم.

رقية الذي يصاب بالعين

روى مسلم عن ابن عباس قال: (قال رسول الله ﷺ: العين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين)^(١).

أي الإصابة بالعين شيء ثابت موجود، وهي من جملة ما تحقق كونه^(٢).

قال المازري: أخذ الجمهور بظاهر الحديث، وأنكره طوائف من المبتدعة لغير معنى، لأن كل شيء ليس محالاً في نفسه، ولا يؤدي إلى قلب حقيقة، ولا إلى فساد دليل، فهو من مجوزات العقول. فإذا أخبر الشارع بوقوعه لم يكن لإنكاره معنى. وهل من فرق بين إنكارهم هذا وإنكارهم ما يخبر به من أمور الآخرة.

وقد استشكل بعض الناس هذه الإصابة فقال: كيف تعمل العين من بعد حتى يحصل الضرر للمعيون؟

وأجيب: بأن طبائع الناس تختلف، فقد يكون ذلك من سم يصل

(١) أخرجه مسلم برقم ٢١٨٨.

(٢) أي وجوده بالفعل.

من عين العائن في الهواء إلى بدن المعيون. وقد نقل عن بعض من كان معياناً أنه قال: / إذا رأيت شيئاً يعجبني وجدت حرارة تخرج من ٢٩٣/ب عيني. ويقرب ذلك بالمرأة الحائض تضع يدها في إناء اللبن فيفسد، ولو وضعتها بعد طهرها لم يفسد. ومن ذلك أن الصحيح قد ينظر إلى العين الرمداء فيرمد.

وقال المازري: زعم بعض الطبائعين أن العائن تنبعث من عينيه قوة سمية تتصل بالمعين فيهلك أو يفسد. وهو كإصابة السم من نظر الأفعى، وأشار إلى منع الحصر في ذلك مع تجويزه. وإن الذي يتمشى على طريقة أهل السنة أن العين إنما تضر عند نظر العائن بعادة أجزاها الله تعالى أن يحدث الضرر عند مقابلة شخص آخر، وهل ثم جواهر حقيقة أو لا؟ هو أمر محتمل لا يقطع بإثباته ولا نفيه. ومن قال ممن ينتمي إلى الإسلام من أصحاب الطبائع بالقطع بأن ثم جواهر لطيفة غير مرئية تنبعث من العائن فتتصل بالمعيون، وتتخلل مسام جسمه، فيخلق الباري الهلاك عندها كما يخلق الهلاك عند شرب السم فقد أخطأ بدعوى القطع، ولكنه جائز أن تكون عادة ليست ضرورية ولا طبيعية، انتهى.

وهو كلام شديد. وليس المراد بالتأثير المعنى الذي تذهب إليه الفلاسفة، بل ما أجرى الله به العادة من حصول الضرر للمعيون. وقد أخرج البزار بسنده عن جابر رفعه: أكثر من يموت بعد قضاء الله وقدره بالنفس^(١). قال الراوي: يعني العين.

وقد أجرى الله تعالى العادة بوجود كثير من القوى والخواص في

(١) وكذا أخرجه البخاري في التاريخ والطبائسي والحكيم الترمذي، قال الحافظ: بسند جيد.

الأجسام والأرواح، كما يحدث لمن ينظر إليه من يحتشمه من الخجل فيرى في وجهه حمرة شديدة لم تكن قبل ذلك، وكذا الاصفرار عند رؤية من يخافه. وكثير من الناس يسقم بمجرد النظر إليه وتضعف قواه. وكل ذلك بواسطة ما خلق الله تعالى في الأرواح من التأثيرات لشدة ارتباطها بالعين، وليست هي المؤثرة، وإنما التأثير للروح، والأرواح مختلفة في طبائعها وكيفياتها وخواصها، فمنها ما يؤثر في البدن بمجرد الرؤية من غير اتصال به لشدة خبث تلك الروح وكيفيتها الخبيثة.

والحاصل: أن التأثير بإرادة الله تعالى وخلقه ليس مقصوراً على الاتصال الجسماني، بل يكون تارة به، وتارة بالمقابلة، وأخرى بمجرد الرؤية، وأخرى بتوجه الروح، كالذي يحدث من الأدعية والرقى والالتجاء إلى الله تعالى، وتارة يقع ذلك بالتوهم والتخيل، فالذي يخرج من عين العائن سهم معنوي، إن صادف البدن - لا وقاية له^(١) - أثر فيه، وإلا لم ينفذ السهم بل ربما عاد على صاحبه كالسهم الحسي. انتهى ملخصاً من فتح الباري وغيره.

قال ابن القيم: والغرض العلاج النبوي لهذه العلة، فمن التعوذات والرقى: الإكثار من قراءة المعوذتين والفاطحة وآية الكرسي، ومنها التعوذات النبوية نحو: أعوذ بكلمات الله التامة من شر كل شيطان وهامة^(٢)، ومن كل عين لامة^(٣).

ونحو: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر،

(١) جملة حالية من البدن.

(٢) بشد الميم: ما له سم يقتل كالحية، وجمعها: هوام.

(٣) أي مصيبة بسوء.

من شر ما خلق وذراً وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذراً في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمان^(١).

وإذا كان يخشى ضرر عينه وإصابتها للمعين فليدفع شرها بقوله: اللهم بارك عليه. كما قال ﷺ لعامر بن ربيعة لما عاين سهل بن حنيف: ألا برّكت^(٢) عليه^(٣).

ومما يدفع به إصابة العين: قول ما شاء الله لا قوة إلا بالله^(٤).

ومنها رقية جبريل للنبي ﷺ كما رواه مسلم: (بسم الله أرقيك من شر كل شيء يؤذيك، من شر كل ذي نفس أو عين حاسد. الله يشفيك، بسم الله أرقيك).

وعنده أيضاً من حديث عائشة: كان جبريل يرقى النبي ﷺ إذا اشتكى: بسم الله يبريك، ومن كل داء يشفيك، ومن شر كل حاسد إذا حسد، ومن شر كل ذي عين.

وأخرج مسلم من حديث ابن عباس رفعه: (العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم^(٥) فاغسلوا).

(١) زاد المعاد ٤/١٦٨.

(٢) في (ط، ب): باركت.

(٣) سيأتي بعد قليل أنه من رواية أحمد والنسائي.

(٤) كما قال تعالى: ﴿ولولا إذا دخلت جنتك قلت ما شاء الله...﴾ والحديث عند

البيزار وابن السني عن أنس.

(٥) طلب منكم غسل الأعضاء أيها المتهمون كما سيأتي شرحه ورقمه عند مسلم

. ٢١٨٨

/ وظاهر الأمر الوجوب، وحكى فيه المازري خلافاً وصحح الوجوب، وقال: متى خشي الهلاك وكان اغتسال العائن مما جرت العادة بالشفاء به فإنه يتعين، وقد تقرر أنه يجب بذل الطعام للمضطر، وهذا أولى.

ولم يبين في حديث ابن عباس صفة الاغتسال. قال الحافظ ابن حجر: وقد وقعت في حديث سهل بن حنيف عند أحمد والنسائي^(١): أن أباه^(٢) حدثه أن النبي ﷺ خرج وساروا معه نحو ماء، حتى إذا كانوا بشعب الحرار^(٣) من الجحفة، اغتسل سهل بن حنيف وكان أبيض حسن الجسم والجلد، فنظر إليه عامر بن ربيعة فقال: ما رأيت كالיום ولا جلد مخبأة^(٤)، فلبط سهل - أي صرع - وسقط إلى الأرض. فأتى رسول الله ﷺ فقال: هل تتهمون من أحد؟ قالوا: عامر بن ربيعة، فدعا عامراً، فتغيظ عليه، فقال: علام يقتل أحدكم أخاه؟ هلا إذا رأيت ما يعجبك برّكت. ثم قال: اغتسل له، فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قدح، ثم صب ذلك الماء عليه رجل من خلفه على رأسه وظهره، ثم كفاً القدح ففعل ذلك، فراح سهل مع الناس ليس به بأس.

قال المازري: المراد بـ «داخلة إزاره» الطرف المتدلي الذي يلي حقوه

(١) سقط من قلم المصنف قول الحافظ: وصححه ابن حبان من طريق الزهري عن أبي أمامة بن سهل.

(٢) الضمير يعود على أبي أمامة - الذي سقط ذكره من قلم المصنف - ، وأبوه هو سهل بن حنيف.

(٣) في ط: الحرار.

(٤) يعني أن جلد سهل كجلد المخبأة المكنونة التي لا تراها العيون ولا تبرز للشمس فتغيرها.

الأيمن، قال: وظن بعضهم أنه كناية عن الفرج. انتهى .
وزاد القاضي عياض: أن المراد ما يلي جسده من الإزار. وقيل:
أراد موضع الإزار من الجسد، وقيل أراد وركه لأنه معقد الإزار.
رأيت مما عزي لخط شيخنا الحافظ أبي الخير السخاوي: قال ابن
بكير عن مالك: أنه كناية عن الثوب الذي يلي الجسد.

وقال ابن الأثير في النهاية: كان من عاداتهم أن الإنسان إذا
أصابته عين من أحد جاء للعائن بقدرح فيه ماء فيدخل كفه فيه
فيتمضمض ثم يمجه في القدرح ثم يغسل وجهه فيه، ثم يدخل يده
اليسرى فيصب على يده اليمنى، ثم يدخل يده اليمنى فيصب على يده
اليسرى، ثم يدخل يده اليسرى فيصب على مرفقه الأيمن، ثم يدخل
يده اليمنى فيصب على مرفقه الأيسر، ثم يدخل يده اليسرى فيصب
على قدمه الأيمن، ثم يدخل يده اليمنى فيصب على قدمه الأيسر، ثم
يدخل يده اليسرى فيصب على ركبته اليمنى ثم يدخل يده اليمنى
فيصب على ركبته اليسرى، ثم يغسل داخله إزاره ولا يوضع القدرح
بالأرض، ثم يصب ذلك الماء المستعمل على رأس المصاب بالعين من
خلفه صبة واحدة فيبرأ بإذن الله تعالى، انتهى
قال المازري: وهذا المعنى مما لا يمكن تعليقه ومعرفة وجهه من
جهة العقل، فلا يرد لكونه لا يعقل معناه.

وقال ابن العربي: إن توقف فيه متشرع قلنا له: قل الله ورسوله
أعلم، وقد عضدته التجربة وصدقته المعاينة، أو متفلسف؛ فالرد عليه
أظهر، لأن عنده أن الأدوية تفعل بقواها، وقد تفعل بمعنى لا يدرك،
ويسمون ما هذا سبيله: الخواص.

قال ابن القيم: ومن علاج ذلك والاحتراز منه، ستر محاسن من

يخاف عليه العين، بما يردّها عنه، كما ذكره البغوي في كتاب شرح السنة: أن عثمان بن عفان رأى صبيّاً مليحاً، فقال: دسموا نونته لثلاث تصبيه العين، ثم قال في تفسيره، ومعنى دسموا نونته: أي سودوا نونته، والنونة: النقرة التي تكون في ذقن الصغير.

وذكر عن أبي عبدالله^(١) الساجي^(٢) أنه كان في بعض أسفاره للحج أو الغزو على ناقّة فارهة، فكان في الرقة رجل عائن قل ما نظر إلى شيء إلا أتلفه، فقبل لأبي عبدالله: احفظ ناقتك من العائن، فقال ليس له إلى ناقتي سبيل، فأخبر العائن بقوله، فتحين غيبة أبي عبدالله، فجاء إلى رحله/ فنظر إلى الناقة فاضطربت وسقطت، فجاء أبو عبدالله فأخبر أن العائن قد عانها وهي كما ترى. فقال: دلوني عليه، فوقف عليه فقال: بسم الله حبس حابس، وحجر يابس، وشهاب قابس، رددت عين العائن عليه، وعلى أحب الناس إليه، فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير. فخرجت حدقتا العائن وقامت الناقة لا بأس بها. انتهى.

وفي حديث هذا الباب من الفوائد: أن العائن إذا عرف يقضى عليه بالاغتسال، وأن الاغتسال من النشرة النافعة، وأن العين تكون مع الإعجاب ولو بغير حسد، ولو من الرجل المحب، ومن الرجل الصالح، وأن الذي يعجبه الشيء يبادر إلى الدعاء للذي يعجبه بالبركة، ويكون ذلك رقية منه، وأن الإصابة بالعين قد تقتل.

[عقوبة العائن]

وقد اختلف في جريان القصاص بذلك:

(١) في (أ) سقطت كلمة: أبي.

(٢) أبو عبدالله سعيد بن يزيد الساجي - بسين مهملة وجيم - نسبة إلى الساج

الخشب.

فقال القرطبي: لو أتلف العائن شيئاً ضمنه، ولو قتل فعليه القصاص أو الدية إذا تكرر ذلك منه بحيث يصير عادة، وهو في ذلك كالساحر عند من لا يقتله كفراً. انتهى.

ولم تتعرض الشافعية للقصاص في ذلك، بل منعه وقالوا: إنه لا يقتل غالباً ولا يعد مهلكاً. وقال النووي في «الروضة»: ولا دية فيه ولا كفارة، لأن الحكم إنما يترتب على منضبط عام، دون ما يختص ببعض الناس وبعض الأحوال مما لا انضباط لها، كيف ولم يقع منه فعل أصلاً، وإنما غايته حسد وتمن لزوال النعمة، وأيضاً: فالذي ينشأ عن الإصابة بالعين حصول مكروه لذلك الشخص، ولا يتعين ذلك المكروه في زوال الحياة، فقد يحصل له مكروه بغير ذلك من أثر العين، انتهى.

قال الحافظ ابن حجر: ولا يعكر عليه إلا الحكم بقتل الساحر، فإنه في معناه، والفرق بينهما عسر.

ونقل ابن بطال عن بعض أهل العلم: أنه ينبغي للإمام منع العائن إذا عرف بذلك من مداخلة الناس، وأن يلزم بيته، فإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به، فإن ضرره أشد من ضرر المجذوم الذي منعه عمر من مخالطة الناس، وأشد من ضرر الثوم الذي منع الشارع أكله من حضور الجماعة. قال النووي: وهذا القول صحيح متعين لا يعرف من غيره تصريح بخلافه.

ذكر رقية النبي ﷺ التي كان يرقى بها

عن عبد العزيز قال: دخلت أنا وثابت على أنس بن مالك، فقال ثابت: يا أبا حمزة اشتكيت، فقال أنس: ألا أريك برقية رسول

الله ﷺ؟ قال: بلى، قال: قل اللهم رب الناس، مذهب الباس، اشف أنت الشافي لا شافي إلا أنت، شفاء لا يغادر سقماً. رواه البخاري.

وقوله: «مذهب^(١) الباس»: بغير همزة للمواخاة، أصله الهمز. وفي قوله «لا شافي إلا أنت» إشارة إلى أن كل ما يقع من الدواء والتداوي إن لم يصادف تقدير الله وإلا فلا ينجع. وقوله «لا يغادر» - بالغين المعجمة - أي لا يترك.

وفي البخاري أيضاً عن مسروق عن عائشة: أن النبي ﷺ كان يعوذ بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول: (اللهم رب الناس أذهب الباس، واشفه وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً).

وقوله «يمسح بيده» أي على الوجع.

وقوله «إلا شفاؤك» بالرفع بدل من موضع: لا شفاء.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يرقى ويقول: امسح الباس رب الناس، بيدك الشفاء، لا كاشف له إلا أنت. رواه البخاري أيضاً.

وفي صحيح مسلم، عن عثمان بن أبي العاص، أنه شكاً إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال النبي ﷺ: ضع يدك على الذي تألم من جسدي وقل: بسم الله، ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر.

(١) كذا في ط، وهو موافق لما قدمه من نص الحديث، وفي النسخ: أذهب، قال الشارح، قاله تبعاً للفتح. أي لفتح الباري [م].

وإنما كرره ليكون أنجع وأبلغ، كتكرار الدواء لإخراج المادة.

١/٢٩٥

ذكر طبه ﷺ من الفزع والأرق/ المانع من النوم.

عن بريدة قال: شكَا خالد^(١) إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما أنام الليل من الأرق، فقال ﷺ: إذا أويت إلى فراشك فقل: اللهم رب السماوات السبع وما أظلت، ورب الأرضين السبع وما أقلت ورب الشياطين وما أضلت، كن لي جاراً من شر خلقك كلهم جميعاً أن يفرط^(٢) علي أحد منهم أو يبغني علي، عزّ جارك، وجل ثناؤك ولا إله غيرك. رواه الترمذي^(٣).

ذكر طبه ﷺ من حر المصيبة ببرد الرجوع إلى الله تعالى

في المسند مرفوعاً: ما من أحد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها، إلا أجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها^(٤).

قال في الهدي النبوي: وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب وأنفعه له في عاجلته وآجلته، فإنها تتضمن أصلين عظيمين، إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن المصيبة.

(١) أي: ابن الوليد.

(٢) أي: يعتدي.

(٣) قال مخرج أحاديث زاد المعاد: في سننه الحكم بن ظهير وهو متروك. وقال الترمذي: هذا حديث ليس إسناده بالقوي ٢١١/٤.

(٤) رواه أحمد ومسلم ومالك وأصحاب السنن، وقول المصنف في المسند: أي المتصل.

أحدهما: أن العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل حقيقة، وقد جعله الله عند العبد عارية، فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير.

الثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله، ولا بد أن يخلف الدنيا وراء ظهره، ويجيء ربه فرداً كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن^(١) بالحسنات والسيئات، فإذا كانت هذه بداية العبد ونهايته فكيف يفرح بوجود، أو يأسى على مفقود، ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء.

قال: ومن علاجه أن يطفىء نار مصيبته ببرد التأسى بأهل المصائب، وأنه لو فنش العالم لم ير فيه إلا مبتلى إما بفوات محبوب أو حصول مكروه، وإن سرور الدنيا أحلام نوم، أو ظل زائل، وإن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً، وإن سرت يوماً أساءت دهرًا، وإن متعت قليلاً منعت طويلاً، وما ملأت داراً حبرة^(٢) إلا ملأتها عبرة، ولا سرته بيوم سرور، إلا خبأت له يوم شرور. قال ابن مسعود: لكل فرحة ترحه^(٣)، وما ملئ بيت فرحاً إلا ملئ ترحاً^(٤).

ذكر طبه ﷺ من داء الهم والكرب بدواء التوجه إلى الرب.

عن ابن عباس (أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: لا

(١) أي ولكن يجيء بالحسنات..

(٢) أي نعمة وسعة. وهي في زاد المعاد: خيرة.

(٣) الترح: الهم.

(٤) زاد المعاد ١٨٩/٤.

إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات^(١) ورب العرش الكريم).

وقوله «عند الكرب» أي عند حلول الكرب.
وعند مسلم: كان يدعو بهن ويقولهن عند الكرب.
وعنده أيضاً: (كان إذا حزبه أمر) - وهي بفتح المهملة والزاي وبالموحدة - أي هجم عليه أو غلبه.

قال الطبري: معنى قول ابن عباس «يدعو»، وإنما هو تهليل وتعظم، يحتمل أمرين: أحدهما، أن المراد تقديم ذلك قبل الدعاء، كما عند عبد بن حميد «كان إذا حزبه أمر قال..» فذكر الذكر المأثور، وزاد: ثم دعا. قال الطبري: ويؤيد هذا ما روى الأعمش عن إبراهيم قال: كان يقال إذا بدأ الرجل بالثناء قبل الدعاء استجيب له، وإذا بدأ بالدعاء قبل الثناء كان على الرجاء. ثانيهما: ما أجاب به ابن عيينة وقد سئل عن الحديث الذي فيه «أكثر ما كان يدعو به النبي ﷺ بعرفة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له» الحديث^(٢). فقال سفيان: هو ذكر وليس فيه دعاء، ولكن قال النبي ﷺ عن ربه عز وجل: من شغله ذكرني عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين. وقال أمية ابن أبي الصلت في مدح عبدالله بن جدعان:

أذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضك الثناء

(١) في (ط، ش): السماوات السبع. ولفظ السبع لا وجود له في الصحيحين.
والحديث عند البخاري برقم ٦٣٤٥ و٦٣٤٦ وعند مسلم برقم ٢٧٣٠ [م].

(٢) رواه ابن أبي شيبة عن علي مرفوعاً.

فهذا مخلوق حين نسبه إلى الكرم اكتفى بالثناء عن السؤال، فكيف بالخالق (١).

ثم إن حديث ابن عباس هذا - كما قاله ابن القيم - قد اشتمل على توحيد الإلهية والربوبية / ووصف الرب سبحانه بالعظمة والحلم، وهاتان الصفتان مستلزمتان لكمال القدرة والرحمة والإحسان والتجاوز، ووصفه بكمال ربوبيته الشاملة للعالم العلوي والسفلي والعرش الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها، والربوبية التامة تستلزم توحيده، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والحب والخوف والرجاء والإجلال والطاعة إلا له، وعظمته المطلقة تستلزم إثبات كل كمال له، وسلب كل نقص وتمثيل عنه، وحلمه يستلزم كمال رحمته وإحسانه إلى خلقه. فعلم القلب ومعرفته بذلك توجب محبته وإجلاله وتوحيده، فيحصل له من الابتهاج واللذة والسرور ما يدفع عنه ألم الكرب والهم والغم، وأنت تجد المريض إذا ورد عليه ما يسره ويفرحه ويقوي نفسه، كيف (٢) تقوى الطبيعة على دفع المرض الحسي، فحصول هذا الشفاء للقلب أولى وأحرى. ثم إذا قابلت بين ضيق الكرب وسعة هذه الأوصاف التي تضمنها هذا الحديث وجدته في غاية المناسبة لتفريج هذا الضيق، وخرج القلب منه إلى سعة البهجة والسرور. وإنما يصدق هذه الأمور من أشرقت فيه أنوارها وباشر قلبه حقائقها.

قال ابن بطلال حدثني أبو بكر الرازي قال: كنت بأصبهان عند أبي نعيم فقال له شيخ: إن أبا بكر بن علي قد سعي به إلى السلطان فسجن، فرأيت النبي ﷺ في المنام وجبريل عن يمينه يحرك شفتيه

(١) عن فتح الباري ١١/١٤٧.

(٢) المعنى: أنت تجد المريض كيف تقوى طبيعته على دفع المرض إذا ورد عليه ما يسره.

بالتسبيح لا يفتر، فقال لي النبي ﷺ قل لأبي بكر بن علي يدعو بدعاء الكرب الذي في صحيح البخاري حتى يفرج الله عنه، قال: فأصبحت فأخبرته فدعا به، فلم يمكث إلا قليلاً حتى أخرج. (١)

وفي حديث علي عند النسائي وصححه الحاكم: لقنني رسول الله ﷺ هذه الكلمات وأمرني إن نزل بي كرب أو شدة أن أقولها: لا إله إلا الله الكريم العظيم، سبحان الله تبارك الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين. وفي لفظ: «الحليم الكريم» في الأولى، وفي لفظ: لا إله إلا الله وحده لا شريك له العليم العلي العظيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحليم الكريم، وفي لفظ لا إله إلا الله الحليم الكريم سبحانه، تبارك وتعالى رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين. أخرجها كلها النسائي.

وروى الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان إذا أهمله أمر رفع طرفه إلى السماء فقال: سبحان الله العظيم، وإذا اجتهد في الدعاء قال: يا حي يا قيوم.

وعنده أيضاً من حديث أنس: أنه ﷺ كان إذا حزبه أمر قال: يا حي يا قيوم، بك أستغيث.

قال العلامة ابن القيم: وفي تأثير قوله «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث» في دفع هذا الداء مناسبة بديعة، فإن صفة «الحياة» متضمنة لجميع صفات الكمال مستلزمة لها، وصفة «القيومية» متضمنة لجميع صفات الأفعال^(٢). ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى هو اسم الحي القيوم، والحياة التامة تضاد

(١) عن فتح الباري ١١/١٤٧.

(٢) في ط: الأقوال.

جميع الآلام والأسقام، ولهذا لما كملت حياة أهل الجنة لم يلحقهم هم ولا غم ولا حزن ولا شيء من الآفات. فالتوسل بصفة «الحياة والقيومية» له تأثير في إزالة ما يضاد الحياة ويضر بالأفعال. فلهذا الاسم «الحي القيوم» تأثير عظيم خاص في إجابة الدعوات وكشف الكربات. ولهذا كان ﷺ إذا اجتهد في الدعاء قال: يا حي يا قيوم^(١).

وروى أبو داود عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت.

وفي هذا الدعاء - كما قاله في زاد المعاد - من تحقيق الرجاء لمن الخير كله بيده، والاعتماد عليه وحده، وتفويض الأمر إليه، والتضرع إليه أن يتولى إصلاح/ شأنه ولا يكله إلى نفسه، والتوسل إليه بتوحيده، مما له تأثير في دفع هذا الداء.

١/٢٩٦

وكذا قوله في حديث أسماء بنت عميس عند أبي داود أيضاً مرفوعاً: كلمات الكرب: الله ربي لا أشرك به شيئاً.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: ما أصاب عبداً هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو أعلمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً. وإنما كان هذا الدعاء بهذه المنزلة لاشتماله على الاعتراف بعبودية

(١) زاد المعاد ٤/٢٠٤-٢٠٦.

الداعي وعبودية آبائه وأمّهاته، وأن ناصيته بيده، يصرفها كيف يشاء، وإثبات القدر، وأن أحكام الرب نافذة في عبده، ماضية فيه، لا انفكاك له عنها، ولا حيلة له في دفعها، وأنه سبحانه وتعالى عدل في هذه الأحكام غير ظالم لعبده، ثم توسله بأسماء الرب تعالى التي سمي بها نفسه، ما علم العباد منها، وما لم يعلموا، ومنها ما استأثر به في علم الغيب عنده، فلم يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلأً، وهذه الوسيلة أعظم الوسائل وأحبها إلى الله، وأقربها تحصيلاً للمطلوب، ثم سؤاله أن يجعل القرآن لقلبه ربيعاً، أي كالربيع الذي يرتع فيه الحيوان، وأن يجعله لصدره كالنور الذي هو مادة الحياة، وبه يتم معاش العباد، وأن يجعله شفاء همهم وغمهم فيكون بمنزلة الدواء الذي يستأصل الداء، ويعيد البدن إلى صحته واعتداله، وأن يجعله لحزنه كالجلاء الذي يجلو الطبوع^(١) والأصدية، فإذا صدق العليل في استعمال هذا الدواء أعقبه شفاء تاماً.

وفي سنن أبي داود، عن أبي سعيد الخدري قال: دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة، فقال: يا أبا أمامة ما لي أراك في المسجد في غير وقت الصلاة، فقال: هموم لزممتني وديون يا رسول الله، فقال: ألا أعلمك كلاماً إذا أنت قلته أذهب الله عز وجل همك، وقضى دينك، قال: قلت بلى يا رسول الله، قال: قل إذا أصبحت وإذا أمسيت، اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن^(٢)، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من

(١) الطبوع: جمع طبع وهو الصدأ أو الدنس كما في القاموس.

(٢) مصدر حزن، كتعب، والاسم الحزن، بضم فسكون. وليس العطف على الهم لاختلاف اللفظين مع اتحاد المعنى، بل الهم في أمر يتوقع، والحزن فيما وقع قبل.

الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال. قال: ففعلت ذلك فأذهب الله همي، وقضى ديني.

وقد تضمن هذا الحديث الاستعاذة من ثمانية أشياء، كل اثنين منها قرينان مزدوجان: فالهم والحزن أخوان، والعجز والكسل أخوان، والجبن والبخل أخوان، وضلع الدين^(١) وغلبة الرجال أخوان، فحصلت الاستعاذة من كل شر.

وفي سنن أبي داود^(٢) - أيضاً - عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب.

وإنما كان الاستغفار له تأثير في دفع الهم والضيق لأنه قد انفق أهل الملل وعقلاء كل ملة على أن المعاصي والفساد يوجبان الهم والغم والحزن وضيق الصدر وأمراض القلب، وإذا كان هذا تأثير الذنوب والآثام في القلوب فلا دواء لها إلا التوبة والاستغفار.

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ: من كثرت همومه فليكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله. وثبت في الصحيحين أنها كنز من كنوز الجنة، وفي الترمذي: أنها باب من أبواب الجنة، وفي بعض الآثار: أنه ما ينزل ملك من السماء ولا يصعد إلا بلا حول ولا قوة إلا بالله.

وروى الطبراني من حديث أبي هريرة: / أن رسول الله ﷺ قال: ما كربني أمر إلا تمثل لي جبريل فقال لي: يا محمد قل توكلت على الحي الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له

(١) أي ثقله.

(٢) وكذا رواه النسائي وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً.
وفي كتاب ابن السني من حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ: من
قرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة عند الكرب أغاثه الله عز وجل.

وعنده - أيضاً - من حديث سعد بن أبي وقاص، قال: قال
ﷺ: إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج الله عنه، كلمة أخي
يونس: فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من
الظالمين.

وعند الترمذي: لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب
له.

وروى الديلمي في مسند الفردوس، عن جعفر بن محمد - يعني
الصادق - قال: حدثني أبي عن جدي أنه ﷺ كان إذا حزبه أمر دعا
بهذا الدعاء: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بكنفك
الذي لا يرام، وارحمني بقدرتك علي فلا أهلك وأنت رجائي، فكم
من نعمة أنعمت بها علي قلّ لك بها شكري، وكم من بلية ابتليتني
بها قلّ لك بها صبري، فيا من قلّ عند نعمته شكري فلم يجرمني، ويا
من قلّ عند بليته صبري فلم يخذلني، ويا من رأني على الخطايا فلم
يفضحني، يا ذا المعروف الذي لا ينقضي أبداً، ويا ذا النعمة التي لا
تحصى عدداً، أسألك أن تصلي علي محمد وعلي آل محمد وبك أدرأ في
نحور الأعداء والجبارين، اللهم أعني على ديني بالدنيا، وعلى آخرتي
بالتقوى واحفظني فيما غبت عنه، ولا تكلني إلى نفسي فيما حظرته
علي، يا من لا تضره الذنوب، ولا ينقصه العفو، هب لي ما لا
ينقصك، واغفر لي ما لا يضرك، إنك أنت الوهاب، أسألك فرجاً
قريباً وصبراً جميلاً، ورزقاً واسعاً، والعافية من البلياء، وشكر العافية -

وفي رواية: وأسألك الشكر على العافية - وأسألك الغنى عن الناس، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ذكر طبه ﷺ من داء الفقر

عن ابن عمر: أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن الدنيا أدبرت عني وتولت، قال له: فأين أنت من صلاة الملائكة وتسييح الخلائق وبه يرزقون، قل عند طلوع الفجر: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، استغفر الله مائة مرة تأتيك^(١) الدنيا صاغرة، فولى الرجل فمكث ثم عاد فقال: يا رسول الله لقد أقبلت على الدنيا فما أدري أين أضعها. رواه الخطيب في رواة مالك^(٢).

ذكر طبه ﷺ من داء الحريق

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: إذا رأيتم الحريق فكبروا فإن التكبير يطفئه^(٣).

فإن قلت ما وجه الحكمة في إطفاء الحريق بالتكبير، أجب صاحب زاد المعاد: بأنه لما كان الحريق سببه النار، وهي مادة الشيطان التي خلق منها، وكان فيه من الفساد العام ما يناسب الشيطان بمادته وفعله، وكان للشيطان إعانة عليه وتنفيذ له، وكانت النار تطلب

(١) كذا في جميع النسخ، والواجب حذف الياء لأنها في جواب الأمر. ويمكن أن يكون جواب «إذا» مقدره وهي غير جازمة، أي: فإنك إذا فعلت ذلك تأتيك.

(٢) «رواة مالك» كتاب ألفه الخطيب جمع فيه من روى عن مالك.

(٣) رواه ابن السني وابن عدي وابن عساكر من طريق ابن لهيعة. ورواية عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده مختلف فيها وعند ابن حبان هي منقطعة، وابن لهيعة ضعيف اهـ. مختصراً من الشرح [م].

بطبعها العلو والفساد، وهما هدي الشيطان، وإليهما يدعو، وبهما يهلك بني آدم، فالنار والشيطان كل منهما يريد العلو في الأرض والفساد، وكبرياء الله تعالى تقمع الشيطان وفعله، فلهذا كان تكبير الله له أثر في إطفاء الحريق، فإن كبرياء الله تعالى لا يقوم لها شيء، فإذا كبر المسلم ربه أثر تكبره في خمود النار التي هي مادة الشيطان. وقد جربنا نحن وغيرنا هذا فوجدناه كذلك. انتهى.

وقد جربت ذلك بطيبة في سنة خمس وتسعين وثمانمائة فوجدت له أثراً عظيماً لم أجده لغيره.

ولقد شاع وذاع رؤية طيور بحريق طيبة الواقع في ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وثمانمائة معلنة بالتكبير. [وفيه يقول/ قاضي القضاة شمس الدين السخاوي:

فظن كلُّ بأن النار تحرقه فما ترى من جواها غير منهزم
فجاءت الطير روتها بأجنحة عن البيوت رأها غير متهم
وقال أيضاً في قصيدة أخرى:

فكل شخص تولى خائفاً حذراً فجاءت الطير للنيران تطردها
عن البيوت ولا يخفى لمن بصرا^(١).

ذكر ما كان ﷺ يطب به من داء الصرع

في الصحيحين أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي، فقال: إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله لك أن يعافيك. فقالت: أصبر، قالت: فإني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها^(٢).

(١) ما بين القوسين في الأصل فقط.

(٢) رواه البخاري برقم ٢٢٤٢ ومسلم برقم ٢٥٧٦.

قال ابن القيم: الصرع صرعان، صرع من الأرواح الخبيثة الأرضية، وصرع من الأخلاط الرديئة، والثاني هو الذي يتكلم فيه الأطباء.

فأما علاج صرع الأرواح فيكون بأمرين: أمر من جهة المصروع وأمر من جهة المعالج، فالذي من جهة المصروع يكون بقوة نفسه وصدق توجهه إلى فاطر هذه الأرواح وبارئها والتعوذ الصحيح الذي قد تواطأ عليه القلب واللسان، فإن هذا نوع محاربة، والمحارب لا يتم له الانتصاف من عدوه بالسلاح إلا بأمرين: أن يكون السلاح صحيحاً في نفسه جيداً، وأن يكون الساعد قوياً. والثاني: من جهة المعالج بأن يكون فيه هذان الأمران أيضاً، حتى إن من المعالجين من يكتفي بقوله: اخرج منه، أو يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، أو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال: وقد كان النبي ﷺ يقول: اخرج عدو الله أنا رسول الله. وكان بعضهم يعالج ذلك بآية الكرسي ويأمر بكثرة قراءتها للمصروع ومن يعالجه بها وبقراءة المعوذتين.

قال: ومن حدث له الصرع وله خمسة وعشرون سنة وخصوصاً بسبب دماغي أيس من برئه، وكذلك إذا استمر به إلى هذه السن. قال: فهذه المرأة التي جاء الحديث أنها تصرع وتتكشف يجوز أن يكون صرعها من هذا النوع فوعدها النبي ﷺ بصبرها على هذا المرض بالجنة^(١).

ولقد جربت الإقسام بالنبي ﷺ [على الله تعالى]^(٢) مع قوله

(١) زاد المعاد ٤/٦٦ - ٧١

(٢) زيادة في ش. ومن المعروف فقهاً أن القسم لا يكون إلا بالله تعالى أو صفة من صفاته [م].

تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار) إلى آخر سورة
الفتح في ابنتين صغيرتين صرعتا فشفيتا.

ومن الغريب قصة غزالة الحبشية خادمتنا لما صرعت بدرب
الحجاز الشريف واستغثت به ﷺ في ذلك^(١)، فجيء إلي بصارعها في
المنام بأمره ﷺ فوبخته وأقسم أن لا يعود إليها، فاستيقظت وما بها
قلبة^(٢) ومن ثم لم يعد إليها فله الحمد.

ذكر دوائه ﷺ من داء السحر

[حكم السحر]

قال النووي: السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع، وقد
يكون كفراً، وقد لا يكون كفراً بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو
فعل يقتضي الكفر كفر، وإلا فلا، وأما تعليمه وتعلمه فحرام، وإذا لم
يكن فيه ما يقتضي الكفر عزر فاعله واستتيب منه، ولا يقتل عندنا،
وإن تاب قبلت توبته. وقال مالك: الساحر كافر يقتل بالسحر ولا
يستتاب ولا تقبل توبته بل يتحتم قتله.

والمسألة مبنية على الخلاف في قبول توبة الزنديق، لأن الساحر
عنده كافر، كما ذكرناه، وعندنا: ليس بكافر، وعندنا تقبل توبة المنافق
والزنديق.

(١) الاستغاثة إنما تكون بالله تعالى [م].

(٢) أي: وجع.

قال القاضي عياض: ويقول مالك قال أحمد بن حنبل وهو مروى عن جماعة من الصحابة والتابعين.

قال أصحابنا: فإذا قتل الساحر بسحره إنساناً واعترف أنه مات بسحره وأنه يقتل غالباً/ لزمه القصاص. فإن قال مات به ولكنه قد يقتل وقد لا يقتل فلا قصاص وتجب الدية والكفارة، وتكون الدية في ماله لا على عاقلته، لأن العاقلة لا تحمل ما ثبت باعتراف الجاني.

ب/٢٩٧

قال أصحابنا: ولا يتصور ثبوت القتل بالسحر بالبينه، وإنما يتصور باعتراف الساحر. انتهى.

[حقيقة السحر]

واختلف في السحر:

فقيل: هو تخييل فقط، ولا حقيقة له، وهو اختيار أبي جعفر الاستراباذي من الشافعية، وأبي بكر الرازي من الحنفية وطائفة.

قال النووي، والصحيح أن له حقيقة، وبه قطع الجمهور، وعليه عامة العلماء، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة.

قال شيخ الإسلام أبو الفضل العسقلاني: لكن محل النزاع هل يقع بالسحر انقلاب عين أو لا؟ فمن قال إنه تخييل فقط منع ذلك، والقائلون بأن له حقيقة اختلفوا: هل له تأثير فقط بحيث يغير المزاج فيكون نوعاً من الأمراض، أو ينتهي إلى الإحالة بحيث يصير الجهاد حيواناً مثلاً وعكسه، فالذي عليه الجمهور هو الأول.

وقال المازري: جمهور العلماء على إثبات السحر، لأن العقل لا ينكر أن الله قد يحرق العادة عند نطق الساحر بكلام ملفق، أو تركيب

أجسام، أو مزج قوى على ترتيب مخصوص. ونظير ذلك ما وقع من حذاق الأطباء من مزج بعض العقاقير ببعض حتى ينقلب الضار منها بمفرده فيصير بالتركيب نافعاً.

وقيل: لا يزيد تأثير السحر على ما ذكر الله في قوله: ﴿يُفْرَقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾^(١)، لكون المقام مقام تهويل. فلو جاز أن يقع به أكثر من ذلك لذكره الله تعالى.

قال المازري: والصحيح من جهة العقل أن يقع به أكثر من ذلك، قال: والآية ليست نصاً في منع الزيادة، ولو قلنا إنها ظاهرة في ذلك.

[الفرق بين السحر والمعجزة]

ثم قال^(٢): والفرق بين السحر والمعجزة والكرامة، أن السحر يكون بمعاناة أقوال وأفعال حتى يتم للساحر ما يريد، والكرامة لا تحتاج إلى ذلك، إنما تقع غالباً اتفاقاً، وأما المعجزة فتمتاز عن الكرامة بالتحدي.

ونقل إمام الحرمين: الإجماع على أن السحر لا يقع إلا من فاسق، وأن الكرامة لا تظهر على يد فاسق. ونقل نحوه النووي في «زيادة الروضة» عن المتولي.

وينبغي أن يعتبر حال من يقع منه الخارق، فإن كان متمسكاً

(١) سورة البقرة، الآية ١٠٢.

(٢) أي المازري.

بالشريعة متجنباً للموبقات، فإن الذي يظهر على يديه من الخوارق كرامة وإلا فهو سحر.

وقال القرطبي: السحر حيل صناعية يتوصل إليها بالاكتساب، غير أنها لدقتها لا يتوصل إليها إلا آحاد الناس، ومادته الوقوف على خواص الأشياء والعلم بوجود تركيبها وأوقاتها، وأكثرها تخيلات بغير حقيقة وإيهامات بغير ثبوت، فيعظم عند من لا يعرف ذلك، كما قال تعالى عن سحرة فرعون ﴿وجاؤوا بسحر عظيم﴾^(١) مع أن جباهم وعصيتهم لم يخرجوها عن كونها حبالاً وعصياً.

وقال أبو بكر الرازي في «الأحكام»: (أخبر الله تعالى أن الذي ظنه موسى أنها تسعى لم يكن سعيًا، وإنما كان تخيلاً، وذلك أن عصيتهم كانت مجوفة وقد ملئت زئبقاً، وكذلك الحبال كانت من آدم محشوة زئبقاً، وقد حفروا قبل ذلك أسراباً^(٢) وجعلوا لها آزاجاً^(٣) وملئوها ناراً، فلما طرحت على ذلك الموضع وحى الزئبق حركها، لأن من شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير، فلما أثقلته كثافة الحبال والعصي صارت تتحرك بحركته، فظن من رآها أنها تسعى، ولم تكن تسعى حقيقة، انتهى.

[قصة ما سحر به ﷺ]

قال القرطبي: والحق أن لبعض أصناف السحر تأثيراً في القلوب

(١) سورة الأعراف، الآية ١١٦.

(٢) أسراباً: جمع سَرَب، بيت في الأرض لا منفذ له.

(٣) آزاجا: جمع أزج - بوزن سبب - بيت يبني طولاً.

كالحب والبغض وإلقاء الخير والشر، وفي الأبدان بالألم والسقم، وإنما المنكر أن ينقلب الجماد حيواناً، أو عكسه، بسحر الساحر.

وقد ثبت في البخاري من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ سُحِرَ، حتى إن كان ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات ليلة عند عائشة/ دعا ودعا ثم قال: يا عائشة، أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته؟ أتاني رجلان، فقعدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال أحدهما: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب^(١)، قال من طبه قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة^(٢) وجف^(٣) طلع نخلة ذكر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان^(٤)، فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه، فجاء فقال: يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء، وكان رؤوس نخلها رؤوس الشياطين، فقلت يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: قد عافاني الله، فكرهت أن أثور على الناس فيه شراً^(٥)، فأمر بها^(٦) فدفنت^(٧).

وفي رواية للبخاري أيضاً: فأق البثر حتى استخرجه^(٨) فقال:

(١) أي مسحور.

(٢) ما يخرج من الشعر عند التسريح.

(٣) الغشاء الذي يكون على الطلع.

(٤) هي بئر كانت معروفة بالمدينة في بستان بني زريق.

(٥) أي من تذكير المنافقين السحر وتعلمه ونحو ذلك فيؤذي المسلمين.

(٦) أي بالبثر.

(٧) رواه البخاري برقم ٣٢٦٨ ومسلم برقم ٢١٨٩.

(٨) المنفي في الرواية الأولى غير المثبت في الثانية، فالمثبت استخراج الجف والمنفي استخراج ما حواه. والسر في ذلك حتى لا يراه الناس فيتعلموا السحر، ولا تعارض بين الروایتين.

هذه البثر التي رأيتها، قالت عائشة: أفلا تنشرت (١)؟ قال: أما الله شفاني، وأكره أن أثير على الناس شراً.

وفي حديث ابن عباس عند البيهقي - بسند ضعيف - في آخر قصة السحر الذي سحر به النبي ﷺ أنهم وجدوا وترأ فيه إحدى عشرة عقدة، وأنزلت سورة الفلق والناس، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة.

وأخرجه ابن سعد بسند آخر منقطع عن ابن عباس أن علياً وعماراً لما بعثهما النبي ﷺ لاستخراج السحر وجدا طلعة (٢) فيها إحدى عشرة عقدة فذكر نحوه.

وفي رواية ذكرها في فتح الباري: فنزل رجل فاستخرجه وأنه وجد في الطلعة تمثالاً من شمع تمثل رسول الله ﷺ وإذا فيه أبر مغروزة، وإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة، فنزل جبريل بالمعوذتين، فكلما قرأ آية انحلت عقدة، وكلما نزع إبرة وجد لها ألماً، ثم يجد بعدها راحة.

وقد بين الواقدي السنة التي وقع فيها السحر، كما أخرجه عنه ابن سعد بسند له إلى عمر بن عبد الحكم مرسلأ قال: لما رجع ﷺ من الحديبية في ذي الحجة ودخل المحرم سنة سبع جاءت رؤوس اليهود إلى لبيد بين الأعصم، وكان حليفاً إلى بني زريق، وكان ساحراً، فقالوا: أنت أسحرنا، وقد سحرنا [محمدأ] (٣) فلم نصنع شيئاً،

(١) فعلت النشرة: وهي الرقية.

(٢) أي طلعة النخلة.

(٣) في ش.

ونحن نجعل لك جعلاً على أن تسحره لنا سحراً ينكؤه، فجعلوا له ثلاثة دنانير.

ووقع في رواية أبي ضمرة عند الإسماعيلي: فأقام أربعين ليلة، وفي رواية وهيب عن هشام عند أحمد: ستة أشهر.

ويمكن الجمع بأن تكون الستة أشهر من ابتداء تغير مزاجه، والأربعين يوماً من استحكامه.

وقال السهيلي: لم أقف في شيء من الأحاديث المشهورة على قدر المدة التي مكث ﷺ فيها في السحر، حتى ظفرت به في جامع معمر عن الزهري: أنه لبث سنة.

قال الحافظ ابن حجر: وقد وجدناه موصولاً^(١) بالإسناد الصحيح، فهو المعتمد.

وقال المازري: أنكر بعض المتدعة هذا الحديث، وزعموا أنه يحط منصب النبوة، ويشكك فيها، قالوا: وكل ما أدى إلى ذلك فهو باطل. وزعموا: أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعوه من الشرائع، إذ يحمل على هذا أنه يخيل إليه أنه يرى جبريل وليس هو ثم، وأنه يوحى إليه بشيء ولم يوح إليه بشيء.

قال المازري: وهذا كله مردود، لأن الدليل قد قام على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن الله تعالى، وعلى عصمته في التبليغ، والمعجزات شاهدات بتصديقه، فتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل. وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث لأجلها، ولا

(١) أي عند الإسماعيلي وأحمد في الروایتين السابقتين.

كانت الرسالة من أجلها، فهو في ذلك عرضة لما يعرض لبشر
كالأمراض، فغير بعيد أن يخيل إليه في أمر من أمور الدنيا ما لا حقيقة
له، مع عصمته عن مثل ذلك/ في أمور الدين، انتهى.

ب/٢٩٨

وقال غيره: لا يلزم من أنه كان يظن أنه فعل الشيء ولم يكن
فعله أن يحزم بفعله ذلك، وإنما يكون ذلك من جنس الخاطر يخطر ولا
يثبت، فلا يبقى على هذا للملحد حجة.

وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بالتخيل المذكور،
أنه يظهر له من نشاطه ومن سابق عاداته من الاقتدار على الوطاء، فإذا
دنا من المرأة فتر عن ذلك، كما هو شأن المعقور، ويكون قوله في
الرواية الأخرى «حتى كاد ينكر بصره» أي كالذي ينكر بصره بحيث
إنه إذا رأى الشيء يخيل إليه أنه على غير صفتة، فإذا تأمله عرف
حقيقته. ويؤيد جميع ما تقدم: أنه لم ينقل عنه في خبر من الأخبار أنه
قال قولاً فكان بخلاف ما أخبر به.

قال بعضهم: وقد سلك النبي ﷺ في هذه القصة مسلكي
التفويض وتعاطي الأسباب، ففي أول الأمر فوض وسلم لأمر ربه،
واحتسب الأجر في صبره على بلائه، ثم لما تمادى ذلك وخشي من
تماديه أن يضعفه عن فنون عبادته جنح إلى التداوي. فقد أخرج أبو
عبيد من مرسل عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: احتجم النبي ﷺ على
رأسه، يعني حين طب، ثم جنح إلى الدعاء، وكل من المقامين غاية
في الكمال.

[علاج السحر]

وقال ابن القيم: من أنفع الأدوية وأقوى ما يؤخذ من النشرة

مقاومة السحر الذي هو من تأثير الأرواح الخبيثة بالأدوية الإلهية من الذكر والدعاء والقراءة، فالقلب إذا كان ممتلئاً من الله مغموراً بذكره، وله ورد من الذكر والدعاء والتوجه لا يخل به، كان ذلك من أعظم الأسباب المانعة من إصابة السحر له، قال: وسلطان تأثير السحر هو في القلوب الضعيفة، ولهذا كان غالب ما يؤثر في النساء والصبيان والجهال، لأن الأرواح الخبيثة إنما تتسلط على أرواح تلقاها مستعدة لما يناسبها، انتهى ملخصاً.

ويعكر عليه حديث الباب، وجواز السحر على النبي ﷺ مع عظم مقامه، وصدق توجهه وملازمة ورده، ولكن يمكن الانفصال عن ذلك بأن الذي ذكره محمول على الغالب، وإنما وقع به ﷺ لبيان تجويز ذلك عليه.

وأما ما يعالج به من النشرة المقاومة للسحر، فذكر ابن بطال: أن في كتب وهب بن منبه: أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر، فتدق بين حجرين ثم يضرب ذلك بالماء، ويقرأ فيه آية الكرسي والقلاقل^(١)، ثم يحسو منه ثلاث حسيات^(٢) ثم يغتسل به، فإنه يذهب عنه ما كان به، وهو جيد للرجل إذا احتبس عن أهله.

وممن صرح بجواز النشرة، المزي عن الشافعي، وأبو جعفر الطبري وغيرهما. انتهى.

وقال ابن الحاج في «المدخل»: كان الشيخ أبو محمد المرجاني أكثر تداويه بالنشرة يعملها لنفسه ولأولاده ولأصحابه فيجدون على ذلك

(١) أي (قل هو الله أحد) والمعوذتان.

(٢) أي يملاً فمه ثلاث مرات وابتلعها.

الشفاء، وأخبر رحمه الله أن النبي ﷺ أعطاهما له في المنام، وقال: إنه مرة رأى النبي ﷺ وقال له: ما تعلم ما عمل معك ومع أصحابك في هذه النشرة^(١)، نقله عنه خادمه، وهي هذه: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه﴾^(٢) إلى آخر السورة، ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾^(٣) ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً﴾^(٤) إلى آخر السورة، وسورة الإخلاص والمعوذتين، ثم يكتب: اللهم أنت المحيي وأنت المميت، وأنت الخالق الباري وأنت المبلي، وأنت المعافي، وأنت الشافي، خلقتنا من ماء مهين، وجعلتنا في قرار مكين إلى قدر معلوم، اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا، يا من بيده الابتلاء والمعافاة، والشفاء والدواء، أسألك بمعجزات نبيك محمد ﷺ حبيبك، وبركات خليلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وحرمة كليتك موسى عليه الصلاة والسلام، اللهم اشفه .

ذكر رقية تنفع لكل شكوى

عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من اشتكى منكم شيئاً فليقل: ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض واغفر لنا حوبنا^(٥) وخطايانا، أنت رب الطيبين أنزل رحمة من عندك، وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرأ بإذن الله. رواه أبو داود في سننه .

(١) استفهام تقريرى لتنبهه على عظم فائدتها.

(٢) سورة التوبة. الآية ١٢٨.

(٣) سورة الإسراء. الآية ٨٢.

(٤) سورة الحشر. الآية ٢١.

(٥) حُوبنا - بالضم -: ذنبنا.

رقيته ﷺ من الصداع

روى الحميدي في «الطب» عن يونس بن يعقوب عن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الصداع، بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله الكبير وأعوذ بالله العظيم من كل عرق نعار^(١) ومن شر حر النار. ورواه ابن السني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وأصاب أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ورم في رأسها، فوضع رسول الله ﷺ يده على ذلك من فوق الثياب فقال: بسم الله أذهب عنها سوءه وفحشه بدعوة نبيك الطيب المبارك المكين عندك، بسم الله. صنع ذلك ثلاث مرات، وأمرها أن تقول ذلك، فقالت ثلاثة أيام. فذهب الورم. رواه الشيخ ابن النعمان بسنده والبيهقي.

رقيته ﷺ من وجع الضرس

روى البيهقي أن عبد الله بن رواحة شكى إلى النبي ﷺ وجع ضرسه، فوضع ﷺ يده على خده الذي فيه وقال: اللهم أذهب عنه سوء ما يجد وفحشه، بدعوة نبيك المكين المبارك عندك، سبع مرات، فشفاه الله قبل أن يبرح.

وروى الحميدي أن فاطمة رضي الله عنها أتت رسول الله ﷺ تشكو ما تلقى من ضربان الضرس، فأدخل سبابته اليمنى فوضعها على السن الذي تألم، فقال: بسم الله وبالله، أسألك بعزتك وجلالك

(١) نعار - بفتح النون والعين المهملة - : فار منه الدم، أو صوت خروج الدم، كما في القاموس.

وقدرتك على كل شيء، فإن مريم لم تلد غير عيسى من روحك
وكلمتك^(١)، أن تكشف ما تلقى فاطمة بنت خديجة من الضر كله،
فسكن ما بها.

ومن الغريب: ما شاع وذاع عن شيخنا المحب الطبري إمام
مقام الخليل بمكة، ورأيته يفعله غير مرة، وضع يده على رأس المذموم
ضرسه، ويسأل عن اسمه واسم أمه وعن المدة التي يريد المألوم أن لا
يألمه^(٢) فيها، فيقول: سبع سنين أو تسع سنين مثلاً بالوتر، قالوا: فما
يرفع يده إلا وقد سكن ألمه، ويمكث المدة المذكورة لا يألمه، كما أشيع
ذلك واشتهر.

ومما جرب أن يكتب على الخد الذي يلي الوجع: بسم الله
الرحمن الرحيم. ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار
والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾^(٣)، وإن شاء كتب ﴿وله ما سكن في
الليل والنهار وهو السميع العليم﴾^(٤).

رقية لعسر البول

روى النسائي عن أبي الدرداء أنه أتاه رجل يذكر أن أخاه
احتبس بوله، فأصابه حصة البول، فعلمه رقية سمعها من رسول الله
ﷺ: ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك، أمرك في السماء

(١) هذا تعليل لمقدر، أي إنك قادر على كل شيء ومن ذلك وجود عيسى من
غير أب، وكلمتك: أي قولك «كن».

(٢) قال في القاموس: ألم كفرح [م].

(٣) سورة الملك، الآية ٢٣.

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٣.

والأرض، كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض، واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، أنت رب المتطيبين فأنزل شفاء من شفائك، ورحمة من رحمتك على هذا الوجع فيبرأ. وأمره أن يرقيه بها، فرقاه بها فبرىء. وقد تقدم هذا في رقية الشكوى العامة من حديث أبي الدرداء.

رقية الحمى

عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ على عائشة وهي موعوكة، وهي تسب الحمى، فقال: لا تسبها فإنها مأمورة ولكن إن شئت علمتك كلمات إذا قلتهم أذهبها الله عنك، قالت: علمني، قال: قولي اللهم ارحم جلدي الرقيق وعظمي الدقيق من شدة الحريق، يا أم مِلدم^(١)، إن كنت آمنت بالله العظيم فلا تصدعي الرأس، ولا تنتني الفم، ولا تأكلي اللحم، ولا تشربي الدم، وتحولي عني إلى من اتخذ مع الله إلهاً آخر. فقالتها فذهبت عنها، رواه البيهقي.

وقد جرب ذلك - كما رأيت به بخط شيخنا - ولفظه: اللهم ارحم عظمي الدقيق وجلدي الرقيق، وأعوذ/ بك من فورة الحريق، يا أم مِلدم، إن كنت آمنت بالله واليوم الآخر، فلا تأكلي اللحم، ولا تشربي الدم، ولا تفوري على الفم، وانتقلي إلى من يزعم أن مع الله إلهاً آخر^(٢)، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

ويكتب للحمى المثلثة^(٣) - مما ذكره صاحب الهدى - على ثلاث

(١) كنية الحمى.

(٢) من قوله «فقالها» في آخر الفقرة السابقة، سقط من د.

(٣) التي تلازم ثلاثة أيام، ثم تقلع، ثم تأتي كذلك ثلاثاً.

ورقات لطاف: بسم الله فرّت، بسم الله مرّت. بسم الله قلّت،
ويأخذ كل يوم ورقة ويجعلها في فمه ويلعها بماء.

وقد رخص جماعة من السلف في كتابة بعض القرآن وشربه،
وجعل ذلك من الشفاء الذي جعله الله فيه.

قال ابن الحاج في «المدخل»: وقد كان الشيخ أبو محمد المرجاني
لا تزال الأوراق للحمى وغيرها على باب الزاوية، فمن كان به ألم
أخذ ورقة منها فاستعملها فيبرأ بإذن الله تعالى، وكان المكتوب فيها:
أزلي لم يزل، ولا يزال، يزيل الزوال^(١)، وهو لا يزال، ولا حول ولا
قوة إلا بالله العلي العظيم ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة
للمؤمنين﴾^(٢).

وقال المروزي^(٣): بلغ أبا عبد الله^(٤) أني حممت فكتب لي من
الحمى رقعة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله وبالله ومحمد
رسول الله، يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، وأرادوا به كيداً
فجعلناهم الأخسرين، اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل اشف
صاحب هذا الكتاب بحولك وقوتك وجبروتك، إله الحق آمين.

[كتابات لآلام أخرى]

● وما جرب للخراج^(٥)، ونقله صاحب زاد المعاد، أن يكتب

(١) أي الأعراض.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٨٢.

(٣) أبو بكر أحمد بن علي بن سعيد، ثقة حافظ، معاصر للإمام أحمد.

(٤) أي الإمام أحمد بن حنبل.

(٥) الخراج - بضم الخاء وخفة الراء - بئر، الواحدة خراجة.

عليه ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرهما قاعاً
صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾^(١).

● وما يكتب لعسر الولادة ما روى الخلال عن عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل قال: رأيت أبي يكتب للمرأة إذا عسر عليها ولادتها في جام أبيض^(٢)، أو شيء نظيف، حديث ابن عباس^(٣): لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها.

قال الخلال: أخبرنا أبو بكر المروزي أن أبا عبدالله جاءه رجل فقال: يا أبا عبدالله اكتب لامرأة قد عسر عليها الولادة منذ يومين فقال: قل له يجيء بجام واسع وزعفران. قال المروزي: ورأيتَه يكتب لغير واحد.

وفي «المدخل»^(٤): يكتب في آنية جديدة: اخرج أيها الولد من بطن ضيق إلى سعة هذه الدنيا، اخرج بقدرة الذي جعلك في قرار مكين إلى قدر معلوم، لو أنزلنا هذا القرآن على جبل، إلى آخر السورة، وتنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين. وتشربها النفساء، ويرش منها على وجهها. قال الشيخ المرجاني: أخذته عن بعض السادة، فما كتبه لأحد إلا نجح في وقته. انتهى.

(١) سورة طه، الآية ١٠٥.

(٢) إناء معروف مستدير لا قعر له غالباً.

(٣) المعروف بكلمات الفرج.

(٤) لابن الحاج.

وروى عن عكرمة عن ابن عباس قال: مر عيسى عليه السلام على امرأة وقد اعترض ولدها في بطنها فقالت: يا كلمة الله ادع الله لي أن يخلصني مما أنا فيه فقال: يا خالق النفس من النفس، ويا مخلص النفس من النفس، ويا مخرج النفس من النفس خلصها، قال: فرمت بولدها وإذا هي قائمة. قال: فإذا عسر على المرأة ولدها فاكتبه لها.

ومما يكتب أيضاً لذلك، ويكون في إناء نظيف: ﴿إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت، وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت﴾^(١) وتشرّب الحامل منه وترش على بطنها.

● ومما يكتب للرعاف على جبهة المرعوف ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي، وغيض الماء وقضي الأمر﴾^(٢)، ولا يجوز كتابتها بدم الرعاف كما يفعله بعض الجهال، فإن الدم نجس فلا يجوز أن يكتب به كلام الله.

● ومما يكتب لعرق النسا: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم رب كل شيء، ومليك كل شيء، وخالق كل شيء، أنت خلقتني وخلقت عرق النسا فيّ فلا تسلطه عليّ بأذى، ولا تسلطني عليه بقطع، واشفني شفاء لا يغادر سقماً، لا شافي إلا أنت.

[بدعة منكرة]

/ وأما حفيظة رمضان: لا آلاء إلا آلاؤك يا الله، إنك سميع

١/٣٠٠

(١) سورة الإنشاق ١ - ٤.

(٢) سورة هود، الآية ٤٤.

عليم محيط به علمك كعسلهون، وبالحق أنزلناه وبالحق نزل إلى آخرها..

فقال شيخنا: اشتهرت ببلاد اليمن ومكة ومصر والمغرب وجملة بلدان أنها حفيظة رمضان، تحفظ من الغرق والسرق والحرق وسائر الآفات، وتكتب في آخر جمعة منه، وجمهورهم يكتبها والخطيب يخطب على المنبر، وبعضهم بعد صلاة العصر.

وهذه بدعة لا أصل لها، وإن وقعت في كلام غير واحد من الأكابر، بل أشعر كلام بعضهم إلى ورودها في حديث ضعيف، وكان الحافظ ابن حجر ينكرها جداً، حتى وهو قائم على المنبر في أثناء خطبته حين يرى من يكتبها.

ذكر ما بقي من كل بلاء

عن أبان بن عثمان عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من قال بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثلاث مرات حين يمسي لم تصبه فجأة بلاء حتى يصبح، ومن قالها حين يصبح لم تصبه فجأة بلاء حتى يمسي. قال: فأصاب أبان بن عثمان الفالج، فجعل الذي سمع منه الحديث ينظر إليه، فقال مالك تنظر فوالله ما كذبت على عثمان ولا كذب عثمان على رسول الله ﷺ، ولكن اليوم الذي أصابني فيه ما أصابني غضبت فنسيت أن أقولها. رواه أبو داود، ورواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وعنده: فكان أبان أصابه طرف فالج فجعل الرجل ينظر إليه فقال له أبان: مالك تنظر إلي، أما إن الحديث كما حدثك ولكن لم أقله يومئذ ليمضي الله أمراً قدره.

ذكر ما يستجلب به المعافاة من سبعين بلاء

وذكر أبو محمد عبدالله بن محمد المالكي الإفريقي، في كتابه «أخبار أفريقية» عن أنس بن مالك مرفوعاً: من قال بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم عشر مرات برىء من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وعوفي من سبعين بلاء من بلايا الدنيا، منها الجنون والجذام والبرص والريح.

ويشهد له ما رواه الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ أكثروا من ذكر «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» فإنها من كثر الجنة.

قال مكحول^(١): من قال لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولا ملجأ من الله إلا إليه، كشف الله عنه سبعين باباً من الضر أدناها الفقر.

وروى الطبراني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من قال لا حول ولا قوة إلا بالله كان دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها الهم^(٢).

ومن ذلك في الأمان من الفقر:

عن أبي موسى قال قال رسول الله ﷺ: من قال لا حول ولا قوة إلا بالله مائة مرة في كل يوم لم يصبه فقر أبداً. رواه ابن أبي الدنيا.

(١) مكحول الشامي، ثقة فقيه، كثير الإرسال، مات سنة بضع عشرة ومائة.

(٢) في سننه بشر بن رافع، وهو ضعيف.

وروى الطبراني عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من أبطأ عليه رزقه فليكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب يرفعه: من قال كل يوم وليلة: لا إله إلا الله الملك الحق المبين، مائة مرة كان له أماناً من الفقر، وأنساً من وحشة القبر، واستفتح به باب الغنى، واستقرع به باب الجنة. قال بعض رواته: لو رحلتم في هذا الحديث إلى الصين ما كان كثيراً. ذكره عبد الحق^(١) في كتاب الطب النبوي.

ذكر دواء داء الطعام

روى البخاري في تاريخه عن عبدالله بن مسعود: من قال حين يوضع الطعام: بسم الله خير الأسماء في الأرض وفي السماء، لا يضر مع اسمه داء، اجعل فيه رحمة وشفاء. لم يضره ما كان.

ذكر دواء أم الصبيان

عن علي قال قال رسول الله ﷺ من ولد له مولود فأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى لم تضره أم/ الصبيان. رواه ابن السني، ٣٠٠/ب وذكره عبد الحق في «الطب النبوي»^(٢).

(١) هو عبد الحق الأشبيلي وقد سبقت ترجمته.

(٢) إسناده ضعيف.

وأم الصبيان: هي الريح التي تعرض لهم، فربما يخشى عليهم
منها^(١).

وسر التأذين - كما قاله صاحب تحفة الودود بأحكام المولود - أن
يكون أول ما يقرع سمع المولود كلماته المتضمنة لكبرياء الرب
وعظمته، والشهادة التي أول ما يدخل بها في الإسلام، فكان ذلك
كالتلقين له شعار الإسلام عند دخوله في الدنيا، كما يلقن كلمة
التوحيد عند خروجه منها مع ما في ذلك من فائدة أخرى، وهي
هروب الشيطان من كلمات الأذان، وهو كان يرصده حتى يولد فيقارنه
للمحنة التي قدرها الله وشاءها، فيسمع الشيطان ما يضعفه ويغيظه
أول أوقات تعلقه به.

(١) قال الحافظ ابن حجر: هي التابعة من الجن.

النوع الثاني

طبه ﷺ بالأدوية الطبيعية

ذكر ما كان ﷺ يعالج به الصداع والشقيقة

اعلم أن الصداع ألم في بعض أجزاء الرأس أو كله، فما كان منه في أحد جانبي الرأس لازماً سمي شقيقة - بوزن عظيمة - وسببه أبخرة مرتفعة، أو أخلاط حارة أبو باردة ترتفع إلى الدماغ، فإن لم تجد منفذاً أحدث الصداع، فإن مال إلى أحد شقي الرأس أحدث الشقيقة، وإن ملك كل الرأس أحدث داء البيضة تشبيهاً بيضة السلاح تشتمل على الرأس كله.

وأسباب الصداع كثيرة: منها ما تقدم، ومنها ما يكون عن ورم في المعدة أو في عروقها، أو ريح غليظة فيها، أو لامتلائها، ومنها ما يكون من الحركة العنيفة كالجماع والقيء والاستفراغ والسهر وكثرة الكلام، ومنها ما يحدث من الأعراض النفسانية كالهلم والحزن والجوع والحمى، ومنها ما يحدث عن حادث في الرأس كضربة تصيبه أو ورم في صفاق الدماغ، أو حمل شيء ثقيل يضغط الرأس، أو تسخينه بشيء خارج عن الاعتدال، أو بتبريده بملاقاة الهواء أو الماء في البرد.

وأما الشقيقة: فهي في شرايين الرأس وحدها، أو تختص بالموضع الأضعف من الرأس. وعلاجها بشد العصابة.

وقد أخرج الإمام أحمد من حديث بريدة أنه ﷺ كان ربما أخذته الشقيقة فيمكث اليوم واليومين لا يخرج.

وفي الصحيح أنه ﷺ قال في مرض موته: (وارأساه) وأنه خطب وقد عصب رأسه. فعصب الرأس ينفع في الشقيقة وغيرها من أوجاع الرأس.

وفي البخاري من حديث ابن عباس: احتجم ﷺ وهو محرم في رأسه من شقيقة كانت به. وقد جاءت مقيدة في بعض طرق ابن عباس نفسه، فعند أبي داود الطيالسي في مسنده من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ احتجم في وسط رأسه. وقد قال الأطباء إنها نافعة جداً.

وورد أنه ﷺ احتجم أيضاً في الأخدعين^(١) والكاهل^(٢). أخرجه الترمذي وحسنه، وأبو داود وابن ماجه وصححه الحاكم.

وقد قال الأطباء: الحجامة على الأخدعين تنفع من أمراض الرأس والوجه والأذنين والعينين والأسنان والأنف.

وقد ورد في حديث ضعيف جداً، أخرجه ابن عدي من طريق عمر بن رباح عن عبدالله بن طاووس عن أبيه عن ابن عباس رفعه: الحجامة في الرأس تنفع في سبع، من الجنون والجذام والبرص والنعاس والصداع ووجع الضرس والعين. وعمر متروك، رماه الفلاس وغيره بالكذب.

(١) قال أهل اللغة: عرقان في سالفة العنق - كما في الترغيب -، وفي المصباح:

هما عرقان في موضع الحجامة.

(٢) ما بين الكتفين.

وروى ابن ماجه في سننه أن النبي ﷺ كان إذا صدع غلف رأسه بالحناء، ويقول: إنه نافع بإذن الله من الصداع. وفي صحته نظر.

وهو علاج خاص بما إذا كان الصداع من حرارة ملتهبة، ولم يكن من مادة يجب استفراغها، وإذا كان كذلك نفع فيه الحناء نفعاً ظاهراً. قالوا: وإذا دق وضمدت به الجبهة مع الخل سكن الصداع، وهذا لا يختص بوجع الرأس بل يعم جميع الأعضاء.

وفي تاريخ البخاري وسنن أبي داود: أن رسول الله ﷺ ما شكا إليه أحد وجعاً في رأسه إلا قال/ له احتجم، ولا شكا وجعاً في رجله إلا قال له اختضب بالحناء^(١).

وفي الترمذي عن علي بن عبدالله عن جدته - وكانت تخدم النبي ﷺ - قالت: ما كان يكون برسول الله ﷺ قرحة ولا نكتة^(٢) إلا أمرني أن أضع عليها الحناء.

ذكر طبه ﷺ للرمد

وهو ورم حار يعرض في الطبقة الملتحمة من العين، وهو بياضها، وسببه: انصباب أحد الأخلاط أو أبخرة تصعد من المعدة إلى الدماغ، فإن اندفع إلى الخياشيم أحدث الزكام، أو إلى العين أحدث الرمد، أو إلى اللهاة^(٣) والمنخرين أحدث الخنان - بالحناء المعجمة

(١) قال الترمذي: حديث غريب.

(٢) أثر يسير.

(٣) اللحمية المشرفة على الحلق من أقصى الفم.

والنون - ، أو إلى الصدر أحدث النزلة، أو إلى القلب أحدث الشوصة^(١)، وإن لم ينحدر وطلب نفاذاً فلم يجد أحدث الصداغ، كما تقدم.

وروي أنه ﷺ كان يعالج الرمذ بالسكون والذعة وترك الحركة.

وفي سنن ابن ماجه عن صهيب قال: قدمت على النبي ﷺ وبين يديه خبز وتمر فقال: ادن وكل، فأخذت تمرأ فأكلت، فقال: تأكل تمرأ وبك رمذ؟ فقلت: يا رسول الله، أمضغ من الناحية الأخرى، فتبسم رسول الله ﷺ.

وقد روي أنه حمى علياً من الرطب لما أصابه الرمذ.

وفي البخاري من حديث سعيد بن زيد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين)^(٢).

والكمأة: نبات لا ورق لها ولا ساق، يوجد في الأرض من غير أن يزرع.

وروي الطبري من طريق المنكدر عن جابر قال: كثرت الكمأة على عهد رسول الله ﷺ، فامتنع قوم من أكلها وقالوا: هو جدري الأرض، فبلغه ذلك فقال: إن الكمأة ليست جدري الأرض، ألا أن الكمأة من المن.

واختلف في قوله: «من المن»، فقيل: من المن الذي أنزل الله على بني إسرائيل، وهو الطل الذي يسقط على الشجر فيجمع ويؤكل

(١) وجع في البطن.

(٢) ورواه أيضاً مسلم والترمذي. وهو عند البخاري برقم ١٩٦٣ وعند مسلم

برقم ٢٠٤٩.

حلوأً، ومنه الترنجيبيل^(١) فكأنه يشبه الكمأة بجامع ما بينهما من وجود كل منها عفواً بغير علاج.

وقال الخطابي: ليس المراد أنها نوع من المن الذي أنزل الله على بني إسرائيل، فإن الذي أنزل على بني إسرائيل كان كالترنجيبيل الذي يسقط على الشجر، وإنما المعنى أن الكمأة شيء ينبت من غير تكلف ببذر ولا سقي، وإنما اختصت الكمأة بهذه الفضيلة لأنها من الحلال المحض، الذي ليس في اكتسابه شبهة، ويستنبط منه أن استعمال الحلال المحض يجلو البصر.

وقال ابن الجوزي: في المراد بكونها شفاء للعين قولان^(٢): أحدهما: أنه ماؤها حقيقة إلا أن أصحاب هذا القول اتفقوا على أنها لا تستعمل صرفاً في العين، لكن اختلفوا كيف يصنع بها على رأيين: أحدهما أن يختلط في الأدوية التي يكتحل بها، حكاه أبو عبيد، ثانيهما: أن تشق وتوضع على الجمر حتى يغلي ماؤها ثم يؤخذ الميل فيجعل في ذلك الشق وهو فاتر، فيكتحل بمائها، لأن النار تطفه وتذهب فضلاته الرديئة ويبقى النافع منه، ولا يجعل الميل في مائها وهي باردة يابسة فلا ينجع.

وقال آخر: تجعل الكمأة في قدر جديدة ويصب عليها الماء، ولا يطرح فيها ملح، ثم يؤخذ غطاء جديد نقي فيجعل على القدر، فما جرى على الغطاء من بخار الكمأة فذلك الماء الذي يكتحل به.

(١) المن كل ظل ينزل من السماء على شجر أو حجر وينعقد عسلاً ويجف جفاف الصمغ. والمعروف بالمن ما وقع على شجر البلوط.

(٢) لم يذكر المصنف القول الثاني: وهو أن المراد ماؤها الذي تنبت فيه فإنه أول مطر يقع في الأرض. قال ابن القيم: وهو أضعف الوجوه. [فتح الباري

١٠/١٦٥] [م].

وقال ابن واقد: إن ماء الكمأة إذا عصر وربى به الإثم كان ذلك من أصلح الأشياء للعين إذا اكتحل به يقوي أجفانها، ويزيد الروح الباصرة قوة وحدة، ويدفع عنها نزول النوازل. وقال أيضاً: إذا اكتحل بماء الكمأة وحده بميل من ذهب تبين للفاعل لذلك قوة عجيبة وحدة في البصر كثيرة.

وقال ابن القيم: اعترف فضلاء الأطباء أن ماء الكمأة يجلو العين، منهم المسيحي وابن سينا وغيرهما، قال: والذي يزيل الإشكالات عن هذا الاختلاف أن الكمأة وغيرها خلقت في الأصل سليمة من المضار، ثم عرضت لها الآفات بأمور أخرى، من مجاورة أو امتزاج أو غير ذلك من الأسباب التي / أرادها الله تعالى، فالكمأة في الأصل نافعة لما اختصت به من وصفها بأنها من الله، وإنما عرضت لها المضار بالمجاورة، واستعمال كل ما وردت به السنة بصدق ينتفع به من يستعمله، ويدفع الله عنه الضر لنيته والعكس بالعكس والله أعلم.

ب/٣٠١

ذكر طبه ﷺ من العذرة

وهي - بضم المهملة وسكون الذال المعجمة - وجع في الحلق يعترى الصبيان غالباً، وقيل: هي قرحة تخرج بين الأذن والحلق، أو في الخرم الذي بين الأنف والحلق، وهو الذي يسمى سقوط اللهاة، وقيل هو اسم اللهاة والمراد وجعها سمي باسمها، وقيل: هو موضع قريب من اللهاة، واللهاة - بفتح اللام - اللحمية التي في أقصى الحلق. وفي البخاري^(١)، من حديث أم قيس بنت محصن الأسدية -

(١) وكذا رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه.

أسد خزيمية - وهي أخت عكاشة، أنها أتت رسول الله ﷺ بابن لها قد علقت عليه من العذرة^(١)، فقال النبي ﷺ: (علام تدغرن أولادكن بهذا العلاق؟ عليكم بهذا العود الهندي فإن فيه سبعة أشفية منها ذات الجنب) يريد الكست وهو العود الهندي.

قوله: «تدغرن» خطاب للنسوة، وهو بالغين المعجمة والبدال المهملة، والدغرن: غمز الحلق.

وعن جابر بن عبدالله قال: دخل رسول الله ﷺ على عائشة وعندها صبي يسيل منخراه دماً، فقال: ما هذا؟ فقالوا: به العذرة، أو وجع في رأسه، فقال: ويلكن لا تقتلن أولادكن، أيما امرأة أصاب ولدها عذرة أو وجع فلتأخذ قسطاً^(٢) هندياً فلتحلّه بماء ثم تسعته^(٣) إياه. فأمرت عائشة فصنع ذلك للصبي فبرئ. الحديث^(٤).

وفي القسط تجفيف يشد اللهاة ويرفعها إلى مكانها، وكانوا يعالجون أولادهم بغمز اللهاة، وبالعلق: وهو شيء يعلقونه على الصبيان، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك وأرشدهم إلى ما هو أنفع للأطفال وأسهل عليهم.

والسعوط: ما يصب في الأنف.

وقد استشكل معالجتها - أي العذرة - بالقسط الهندي مع كونه حاراً، والعذرة إنما تعرض في زمن الحر بالصبيان، وأمزجتهم حارة، لا سيما وقطر الحجاز حاراً؟

(١) أي عاجلت رفع لهاته بأصبعها.

(٢) هو مثل الكافور.

(٣) أي يصبه في أنفه.

(٤) أخرجه أحمد وأصحاب السنن.

وأجيب: بأن مادة العذرة دم يغلب عليه البلغم، وفي القسط
تجفيف للرطوبة وقد يكون نفعه في هذا الداء بالخاصية، وأيضاً
فالأدوية الحارة قد تنفع في الأمراض الحارة بالعرض كثيراً، بل
وبالذات أيضاً، وقد ذكر ابن سينا في معالجة سقوط اللهاة بالقسط مع
الشب اليماني، على أنا لو لم نجد شيئاً من التوجيهات لكان المعجز
خارجاً من القواعد الطبية.

ذكر طبه ﷺ لداء استطلاق البطن

في الصحيحين من حديث أبي المتوكل عن أبي سعيد الخدري:
أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن أخي يشكي بطنه - وفي رواية:
استطلق بطنه - فقال: اسقه عسلاً، فسقاه فقال: إني سقيته فلم يزد
إلا استطلاقاً، فقال: صدق الله وكذب بطن أخيك.

وفي رواية مسلم فقال له ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة فقال:
اسقه عسلاً، فقال: سقيته فلم يزد إلا استطلاقاً، فقال: صدق الله.
وفي رواية أحمد عن يزيد بن هارون فقال في الرابعة: اسقه
عسلاً، قال فأظنه فسقاه فبرأ^(١)، فقال ﷺ: صدق الله وكذب بطن
أخيك.

قال الخطابي وغيره: أهل الحجاز يطلقون الكذب في موضع
الخطأ، يقال: كذب سمعك، أي زل فلم يدرك حقيقة ما قيل له،
فمعنى: كذب بطن أخيك، أي لم يصلح لقبول الشفاء بل زل عنه.
وقال الإمام فخر الدين الرازي: لعله ﷺ علم بنور الوحي أن

(١) بوزن قرأ لغة أهل الحجاز، وغيرهم يقولها بوزن علم.

ذلك العسل سيظهر نفعه بعد ذلك، فلما لم يظهر نفعه في الحال مع كونه ﷺ كان عالماً بأنه سيظهر نفعه بعد ذلك كان جارياً مجرى الكذب، فلهذا أطلق عليه هذا اللفظ.

وقد اعترض بعض الملاحدة فقال: العسل مسهل، فكيف يوصف لمن / وقع به الإسهال؟

١/٣٠٢

وأجيب: بأن ذلك جهل من قائله، بل هو كقوله تعالى: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾^(١) فقد اتفق الأطباء على أن المرض الواحد يختلف علاجه باختلاف السن والعادة والزمان والغذاء المألوف، والتدبير وقوة الطبيعة، وعلى أن الإسهال يحدث من أنواع: منها الهيمضة التي تنشأ عن تخمة، واتفقوا على أن علاجها بترك الطبيعة وفعالها، فإن احتاجت إلى مسهل أعين ما دام بالعليل قوة، فكأن هذا الرجل كان استطلاق بطنه من تخمة أصابته فوصف له ﷺ العسل لدفع الفضول المجتمع في نواحي المعدة من أخلاط لزجة تمنع من استقرار الغذاء فيها، وللمعدة حمل كخمل المنشفة، فإذا علق بها الأخلاط اللزجة أفسدتها وأفسدت الغذاء الواصل إليها، فكان دواؤها باستعمال ما يجلو تلك الأخلاط، ولا شيء في ذلك مثل العسل، لا سيما إن مزج بالماء الحار، وإنما لم يفده أول مرة لأن الدواء يجب أن يكون له مقدار وكمية بحسب الداء، إن قصر عنه لم يدفعه بالكلية، وإن جاوزه أوهى القوة وأحدث ضرراً آخر، فكأنه شرب منه أولاً مقداراً لا يفي بمقاومة الداء، فأمره بمعاودة سقيه، فلما تكررت الشرابات بحسب مادة الداء برأ^(٢) بإذن الله تعالى.

(١) سورة يونس، الآية ٣٩.

(٢) بوزن قرأ لغة أهل الحجاز، كما سبقت الإشارة إليه.

وفي قوله ﷺ: «وكذب بطن أخيك» إشارة إلى أن هذا الدواء نافع، وأن بقاء الداء ليس لقصور الدواء في الشفاء، ولكن لكثرة المادة الفاسدة، فمن ثم أمره بمعاودة شرب العسل لاستفراغها.

وقال بعضهم: إن العسل تارة يجري سريعاً إلى العروق وينفذ معه جل الغذاء ويدر البول فيكون قابضاً، وتارة يبقى في المعدة فيهيجه بلذعة لها حتى تدفع ويسهل البطن فيكون مسهلاً، فإنكار وصفه بالمسهل مطلقاً قصور من المنكر.

وقال ابن الجوزي: في وصفه ﷺ العسل لهذا المسهل أربعة أقوال:

أحدها: أن حمل الآية على عمومها في الشفاء أولى، وإلى ذلك أشار بقوله: صدق الله، أي في قوله: ﴿فيه شفاء للناس﴾ فلما نبه على هذه الحكمة تلقاها بالقبول فشفي بإذن الله تعالى.

الثاني: أن الوصف المذكور على المؤلف من عاداتهم من التداوي بالعسل من الأمراض كلها.

الثالث: أن الموصوف له ذلك كانت به هيضة، كما تقدم تقريره.

الرابع: يحتمل أن يكون أمره بطبخ العسل قبل شربه، فإنه يعقد البلغم، فلعله شربه أو لا بغير طبخ، انتهى.

والثاني والرابع ضعيفان.

ويؤيد الأول حديث ابن مسعود: (عليكم بالشفاءين العسل والقرآن) أخرجه ابن ماجه والحاكم مرفوعاً، وأخرجه ابن أبي شيبة والحاكم موقوفاً، ورجاله رجال الصحيح. وأثر علي: إذا اشتكى

أحدكم فليستوهب من امرأته شيئاً من صداقها فليشتر به عسلاً، ثم يأخذ ماء السماء، فيجمع هنيئاً مريئاً مباركاً، أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير بسند حسن.

وروينا عنه رضي الله عنه أنه قال: إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله في صحيفة وليغسلها بماء السماء وليأخذ من امرأته درهماً عن طيب نفس منها، فليشتر به عسلاً فليشربه فإنه شفاء.

قال الحافظ ابن كثير، بعد أن ذكره، أي من وجوه: قال الله تعالى ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء﴾^(١) وقال: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً﴾^(٢) وقال: ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾^(٣) وقال في العسل ﴿فيه شفاء للناس﴾^(٤).

ذكر طبه ﷺ في يبس الطبيعة بما يمشيه ويلينه

روى الترمذي وابن ماجه في سننه من حديث أسماء بنت عميس/ قالت: قال رسول الله ﷺ بماذا كنت تستمشين^(٥)؟ قالت: بالشبرم، قال: حار حار [ضار ضار]^(٦) ثم قالت: استمشيت بالسنا، فقال النبي ﷺ: لو أن شيئاً كان فيه شفاء من الموت لكان في السنا. قال أبو عيسى^(٧) هذا حديث غريب^(٨)، وقد ذكر البخاري في تاريخه

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٢.

(٢) سورة ق، الآية ٩، وقد وردت في النسخ (وأنزلنا..) وهو خطأ.

(٣) سورة النساء، الآية ٤.

(٤) سورة النحل، الآية ٦٩.

(٥) أي تطلين مشي بطنك، أي إخراج ما فيه.

(٦) في (ط، ب، د).

(٧) أي الترمذي.

(٨) قال مخرج أحاديث زاد المعاد: في سننه جهالة ٧٤/٤.

الكبير من حديث أسماء بنت عميس مثل ما ذكره الترمذي .
وذكر أبو محمد الحميدي في كتاب «الطب» له أنه ﷺ قال:
إياكم والشبرم فإنه حار حار، ضار ضار^(١)، وعليكم بالسنا فتداووا
به، فلو دفع الموتَ شيء لدفعه السنا.

وحكى عبد الحق الإشبيلي في كتاب «الطب النبوي» له أن
المحاسبي ذكر في كتابه المسمى بـ «القصدي إلى الله» أن النبي ﷺ شرب
السنا بالتمر.

وفي سنن ابن ماجه، من حديث إبراهيم بن أبي عبلة قال:
سمعت عبدالله بن حرام^(٢)، وكان ممن صلى مع رسول الله ﷺ إلى
القبلتين، يقول: عليكم بالسنا والسنتون فإن فيهما شفاء من كل داء
إلا السام، قيل: يا رسول الله وما السام؟ قال: الموت^(٣).

قالوا: والشبرم: قشر عرق شجرة، وهو حار يابس في الدرجة
الرابعة، وهو من الأدوية التي منع الأطباء من استعمالها لخطورها وفرط
إسهالها.

وأما السنا: فهو نبت حجازي، وأفضله المكّي، وهو دواء
شريف مأمون الغائلة، قريب من الاعتدال، حار يابس في الدرجة
الأولى، يسهل الصفراء أو السوداء، ويقوي جرم القلب، وهذه فضيلة
شريفة، ومن خاصيته النفع في الوسواس السوداوي.

(١) كذا في (ط د) وفي (أ. ش) ذكر «ضار» مرة فقط، وفي (ب) قدم كلمتي
ضار على كلمتي حار.

(٢) كذا في جميع النسخ، قال الشارح وصوابه: عبدالله بن أم حرام، كما في
الإصابة والتقريب.

(٣) فيه عمرو بن بكير، اتهمه ابن حبان، وقال ابن عدي له مناكير.

قال الرازي: السنا والشاهترج يسهلان الأخلاط المحترقة وينفعان في الجرب والحكة، قال والشربة من كل واحد منهما من أربعة دراهم إلى سبعة دراهم.

وأما السنوت، فقليل هو العسل، وقيل: رب عكة السمن يخرج خطوطاً سوداً على السمن، وقيل: حب يشبه الكمون وليس به، وقيل: هو الكمون الكرمانى، وقيل: إنه الرازيانج، وقيل إنه الشبث، وقيل إنه العسل الذي يكون في زقاق السمن.

قال بعض الأطباء: وهذا أجدر بالمعنى وأقرب إلى الصواب، أي: يخلط السنا مدقوقاً بالعسل المخالط للسمن، ثم يلحق فيكون أصح من استعماله مفرداً، لما في العسل والسمن من إصلاح السنا وإعانتته على الإسهال.

ذكر طبه ﷺ للمفؤود

وهو الذي أصيب فؤاده، فهو يشتكيه كالمبطون.

روى أبو داود عن سعد قال: مرضت مرضاً، فأتاني رسول الله ﷺ يعودني، فوضع يده بين ثديي حتى وجدت بردها على فؤادي، وقال لي: إنك رجل مفؤود، فأتت الحارث بن كلدة^(١) من ثقيف فإنه رجل متطبب، فليأخذ سبع تمرات من عجوة المدينة فليجأهن^(٢) بنواهن ثم ليلد بهن الفؤاد^(٣).

(١) قال ابن أبي حاتم: لا يصح إسلامه.

(٢) يدقهن.

(٣) الحاصل: أنه ﷺ وصف الدواء، وكانت مهمة الحارث صنعه.

وهذا الحديث من الخطاب العام الذي أريد به الخاص، كأهل المدينة ومن جاورهم. والتمر لأهل المدينة كالخنطة لغيرهم.

و«اللدود»: ما يسقاه الإنسان من أحد جانبي الفم.

وفي التمر خاصية عجيبة لهذا الداء، سيما أهل المدينة، ولا سيما العجوة، وفي كونها سبعاً خاصية أخرى تدرك بالوحي.

وفي الصحيحين (من تصبح بسبع تمرات عجوة من تمر العالية لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر).

ذكر طبه ﷺ لذات الجنب

في البخاري مرفوعاً (عليكم بهذا العود الهندي، فإن فيه سبعة أشفية، منها ذات الجنب)^(١).

وفي الترمذي من حديث زيد بن أرقم قال: قال ﷺ: تداووا من ذات الجنب بالقسط البحري والزيت.

واعلم أن ذات الجنب هو ورم حار يعرض في الغشاء المستبطن للأعضاء، وقد يطلق على ما يعرض في نواحي الجنب من رياح غليظة تحتقن بين الصفاقات/ والعضل الذي في الصدر والأضلاع، فيحدث وجعاً.

فالأول هو ذات الجنب الحقيقي، الذي تكلم عليه الأطباء، قالوا: ويحدث بسببه خمسة أمراض: الحمى والسعال والنخس وضيق النفس والنبض المنشاري^(٢).

(١) وكذا رواه مسلم.

(٢) أي تتحرك العروق حركة شديدة لأعلى وأسفل حركة تشبه حركة المنشار.

ويقال لذات الجنب أيضاً: وجع الخاصرة، وهو من الأمراض المخوفة، لأنها تحدث بين القلب والكبد، وهو من سيء الأسقام. والمراد بذات الجنب هنا الثاني، لأن القسط وهو العود الهندي هو الذي يداوي به الريح الغليظة.

وقد حكى الإمام ابن القيم عن المسيحي أنه قال: العود حار يابس قايض، محبس للبطن، ويقوي الأعضاء الباطنة، ويطرد الريح ويفتح السدد، ويذهب فضل الرطوبة، نافع من ذات الجنب، جيد للدماغ. قال: ويجوز أن ينفع من ذات الجنب الحقيقية أيضاً إذا كانت ناشئة عن مادة بلغمية، ولا سيما في وقت انحطاط العلة.

ذكر طبه ﷺ لداء الاستسقاء

عن أنس قال: قدم رهط من عرينة وعكل على النبي ﷺ، فاجتوا^(١) المدينة فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: لو خرجتم إلى إبل الصدقة فشربتم من ألبانها وأبوالها، فلما صحوا عمدوا إلى الرعاة فقتلوهم واستاقوا الإبل، وحاربوا الله ورسوله، فبعث رسول الله ﷺ في آثارهم، فأخذوا فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وألقاهم في الشمس حتى ماتوا. رواه الشيخان.

واعلم أن الاستسقاء مرض مادي، سببه مادة غريبة باردة تتخلل الأعضاء فتربو بها، إما الأعضاء الظاهرة كلها، وإما المواضع الخالية من النواحي التي فيها تدبير الغذاء والأحلاط.

وأقسامه ثلاثة: لحمي، وهو أصعبها، وهو الذي يربو معه لحم

(١) أي أصابهم الجوى، وهو داء الجوف إذا تطاول، أو كرهوا الإقامة بها لما فيها من الوباء، أو لم يوافقهم طعامها.

جميع البدن بمادة بلغمية تفسو مع الدم في الأعضاء. وزقي: وهو الذي يجتمع منه في البطن الأسفل مادة مائية رديئة يسمع لها عند الحركة خضخضة كالماء في الزق، وهو أردأ أنواعه عند أكثر الأطباء، وطبلي: وهو الذي يتنفخ معه البطن بمادة ريحية، إذا ضربت عليه سمعت له صوتاً كصوت الطبل.

وإنما أمرهم ﷺ بشرب ذلك، لأن في لبن اللقاح جلاء وتليناً وإدراراً وتلطيفاً وتفتيحاً للسدد، إذ كان أكثر رعيها الشيخ والقيصوم والبابونج والأقحوان والإذخر وغير ذلك من الأدوية النافعة للاستسقاء خصوصاً إذا استعمل بحرارته التي يخرج بها من الضرع، مع بول الفصيل، وهو حار كما يخرج من الحيوان، فإن ذلك مما يزيد في ملوحة اللبن وتقطيعه الفضول وإطلاقه البطن.

[علاج لضعف المعدة وغيره]

وأما ضعف المعدة فذكر ابن الحاج في المدخل: أن بعض الناس مرض بمعدته، فرأى الشيخ الجليل أبو محمد المرجاني النبي ﷺ وهو يشير بهذا الدواء، وهو أن يأخذ كل يوم على الريق وزن درهم من الورد المر، ويكون ملتوتاً بالمصطكى بعد دقها ويجعل فيها سبع حبات من الشونيز، يفعل ذلك سبعة أيام ففعله فبرىء.

ومرض بعض الناس ببرد المعدة فرأى الشيخ المرجاني أيضاً النبي ﷺ وهو يشير بهذا الدواء: أوقية ونصف أوقية عسل نحل، ودرهمين شونيز، ومثلها أنيسون^(١)، ونصف أوقية من النعنع الأخضر، ومن القرنفل نصف درهم، ومن القرفة نصف درهم، وشيء من قشر

(١) في ط: أنسرنا.

الليمون، مع قليل من الخل، ويعقد ذلك على النار، فاستعمله
فبرىء.

ومرض آخر بسلس الريح، فرأى الشيخ المرجاني النبي ﷺ وهو
يشير بهذا الدواء: شونيز ثلاثة دراهم، ومن خزامى درهمين ونصف،
ومن الكمون الأبيض ثلاثة دراهم، ومثله من السعتر الشامي ومثله من
الغليا، ووزن درهم من البلوط وهو ثمرة الفؤاد، وأوقية من الزيت
المرقى تجعل فيه من عسل النحل ما يعقد به وهو ربع رطل، ويؤخذ
منه غدوة النهار وزن درهمين على الريق، وعند النوم وزن درهم
ونصف، فاستعمله فبرىء. ثم إنه / ﷺ بعد ذلك قال في النوم لذلك
الشخص الذي أخبره بهذا الدواء إنه ينفع لأدواء هي: الريح، وسلس
الريح، والمعدة وبرودتها، ووجع الفؤاد وألم الحيض، وألم النفاس،
وتعقد الرياح.

والزيت المرقى: صفته أن تأخذ شيئاً من الزيت الطيب، وتجعله
في إناء نظيف وتحركه بعود، وتقرأ عليه سورة الإخلاص والمعوذتين،
﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ إلى آخر السورة ﴿ونزل من
القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على
جبل﴾ إلى آخر السورة.

وحصل لآخر قولنج، فرأى الشيخ المرجاني النبي ﷺ فأشار بهذا
الدواء: وهو أن يأخذ ثلاثة دراهم من عسل النحل، ووزن درهم
ونصف من الزيت المرقى، وإحدى وعشرين حبة من الشونيز ويخلط
الجميع ثم يفطر عليه، ويفعل مثله عند النوم، يفعل ذلك حتى يبرأ،
وتعمل له التلبينة ويستعملها بعد إن يفطر على ذلك، والتلبينة حساء
يعمل من دقيق أو نخالة، وربما عمل فيها عسل، ويكون غذاؤه
مصلوقة الدجاج أو لحم الضأن، ففعله فبرىء بعد أن أعى الأطباء.

ومرض آخر بوجع الظهر، فشكا ذلك للشيخ فرأى النبي ﷺ وهو يشير بهذا الدواء، وهو عسل نحل وشونيز ودهن الألية والزيت المرقي، ورقيق البيضة، ويخلط ذلك كله، ويمده على الموضع ويدر عليه دقيق العدس بقشرة مع الحرمل بعدما يدق دقاً ناعماً حتى يعود مثل الدقيق. ففعله فبرىء.

وشكا بعض الناس الدوخة في رأسه فرأى الشيخ النبي ﷺ في النوم فأشار إلى هذا الدواء: قرنفل وزنجبيل وقرفة وجوزة طيب وسنبل، من كل واحد درهم ونصف، وشونيز درهمين، يدق الجميع ثم يطبخ ويعقد بعسل النحل، فإذا قرب استواؤه عصر عليه قليل ليمون، فيكون عسل النحل غالباً عليه، ففعله فبرأ، انتهى.

وهذا وإن كان مناماً فقد عضدته التجربة مع إرشاد الشيخ المرجاني لذلك^(١).

ذكر طبه ﷺ من داء عرق النسا

وهو بفتح النون والمهملة، المرض الحال بالعرق، والإضافة فيه من باب إضافة الشيء إلى محله. قيل: وسمي بذلك لأن ألمه ينسى ما سواه. وهذا العرق ممتد من مفصل الورك وينتهي إلى آخر القدم وراء الكعب.

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: دواء عرق النسا ألية شاة أعرابية تذاب ثم تجزأ ثلاثة أجزاء، ثم يشرب على الريق في كل يوم جزءاً. رواه ابن ماجه.

وهذا الدواء خاص بالعرب وأهل الحجاز ومن جاورهم، وهو

(١) أقول: عجيب أمر هذه المنامات للشيخ المرجاني؟! [م].

أنفعه لهم، لأن هذا المرض يحدث عن يبس، وقد يحدث من مادة غليظة لزجة، فعلاجها بالإسهال. والألية فيها الخاصيتان: الإنضاج والتلين. وهذا المرض يحتاج علاجه إلى هذين الأمرين. وفي تعيين الشاة الأعرابية، قلة فضولها وصغر مقدارها ولطف جوهرها، وخاصة مرعاها، لأنها ترعى أعشاب البر الحارة، كالشيخ والقيصوم ونحوهما، وهذه إذا تغذى بها الحيوان صار في لحمه من طبعها، بعد أن يلففه تغذية، ويكسبها مزاجاً أطف منها ولا سيما الألية.

ذكر طبه ﷺ من الأورام والخراجات

بالبط واليزل، يذكر عن علي رضي الله عنه قال: دخلت مع رسول الله ﷺ على رجل يعود، بظهره ورم، فقالوا: يا رسول الله، هو بهذه مدة، فقال: بطوا عنه، قال علي: فما برحت حتى بطت، والنبي ﷺ شاهد^(١).

ذكر طبه ﷺ بقطع العروق والكي

روى البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله، أن النبي ﷺ بعث إلى أبي بن كعب طبيباً، فقطع له عرقاً وكواه عليه. وأخرج مسلم عن جابر: لما رمى سعد بن معاذ في أكحله، حسمه^(٢) النبي ﷺ.

وروى الطحاوي، وصححه الحاكم عن أنس قال: /: كواني أبو طلحة في زمن النبي ﷺ.

(١) في سنده أبو الربيع السمان وهو ضعيف. وأخرجه أبو يعلى [قاله مخرج أحاديث زاد المعاد ٤/١١٤].
(٢) أي قطع دمه بالكي.

وعند الترمذي: أنه ﷺ كوى أسعد بن زرارة من الشوكة^(١).

وروى مسلم عن عمران بن حصين قال: كان يُسَلَّم علي حتى اكتويت فتركت، ثم تركت فعاد. وفي رواية^(٢): إن الذي كان انقطع عني رجع إلي، يعني تسليم الملائكة.

وروى أحمد وأبو داود والترمذي عن عمران: نهى رسول الله ﷺ عن الكي، فاكثونا فما أفلحنا ولا أنجحنا، الحديث^(٣).

وإنما يستعمل الكي في الخلط الباغي^(٤) الذي لا تحسم مادته إلا به، ولهذا وصفه ﷺ ثم نهى^(٥) عنه، وإنما كرهه لما فيه من الألم الشديد والخطر العظيم، ولهذا كانت العرب تقول في أمثلتها: آخر الدواء الكي.

والنهي فيه محمول على الكراهة أو على خلاف الأولى، لما يقتضيه مجموع الأحاديث، وقيل: إنه خاص بعمران لأنه كان به الباسور، وكان موضعه خطراً فنهاء عن كيه، فلما اشتد عليه كواه فلم ينجح.

وقال ابن قتيبة: الكي نوعان: كي الصحيح لئلا يعتل، فهذا الذي قيل فيه: لم يتوكل من اكتوى. لأنه يريد أن يدفع القدر، والقدر لا يدافع، والثاني: كي الجرح إذا فسد، والعضو إذا قطع، فهو الذي شرع التداوي له، فإن كان الكي لأمر محتمل فهو خلاف

(١) هي حمرة تعلق الوجه.

(٢) لمسلم أيضاً.

(٣) كذا في النسخ، وهذا يعني أن له بقية، قال الشارح: وليس له بقية.

(٤) المتجاوز في خروج الدم.

(٥) روى البخاري مرفوعاً برقم (٥٦٨٠) (الشفاء في ثلاثة: شربة عسل،

وشرطة محجم، وكية نار، وأنهى أمتي عن الكي).

الأولى لما فيه من تعجيل التعذيب بالنار لأمر غير محقق.

وحاصل الجمع: (١) أن الفعل يدل على الجواز، وعدم الفعل لا يدل على المنع بل يدل على أن تركه أرجح من فعله، ولذا وقع الثناء على تاركة، وأما النهي عنه فإما على سبيل الاختيار والتنزيه، وإما عما لا يتعين طريقاً إلى الشفاء.

وقال بعضهم: إنما نهى عنه مع إثباته الشفاء فيه إما لكونهم كانوا يرون أنه يحسم الداء بطبعه فكرهه لذلك، ولذلك كانوا يبادرون إليه قبل حصول الداء لظنهم أنه يحسم الداء، فيتعجل الذي يكتوي التعذيب بالنار لأمر مظنون.

قال في فتح الباري: ولم أر في أثر صحيح أن النبي ﷺ اكتوى، إلا أن القرطبي نسب إلى كتاب آداب النفوس للطبري أن النبي ﷺ اكتوى، وذكره الحلبي بلفظ: وروي أنه اكوى للجرح الذي أصابه بأحد. قال الحافظ ابن حجر: والثابت في الصحيح في غزوة أحد أن فاطمة أحرقت حصيراً فحشت به جرحه، وليس هذا الكي المعهود.

ذكر طبه ﷺ من الطاعون

قال الخليل: الطاعون الوباء، وقال ابن الأثير: الطاعون المرض العام والوباء الذي يفسد له الهواء فتفسد به الأمزجة والأبدان، وقال القاضي أبو بكر بن العربي: الطاعون، الوجع الغالب الذي يطفىء الروح، سمي بذلك لعدم مصابه وسرعة قتله، وقال أبو الوليد الباجي: وهو مرض يعم الكثير من الناس في جهة من الجهات، بخلاف المعتاد من أمراض الناس. وقال القاضي عياض: أصل

(١) أي بين الأحاديث.

الطاعون القروح الخارجة في الجسد، والوباء عموم الأمراض فسميت طاعوناً تشبيهاً بها في الهلاك. وقال النووي في تهذيبه: هو بثر وورم مؤلم جداً ويخرج مع لهب، ويسود ما حوله أو يخضر أو يحمر حمرة شديدة بنفسجية كدرة، ويحصل معه خفقان وقيء، ويخرج غالباً في المراق^(١) والأباط، وقد يخرج في الأيدي والأصابع وسائر البدن.

وقال ابن سينا: الطاعون مادة سمية تحدث وربما قتالاً يحدث في المواضع الرخوة والمغابن من البدن، وأغلب ما يكون تحت الإبط، أو خلف الأذن، أو عند الأربية^(٢)، وسببه ورم رديء يستحيل إلى جوهر سمي يفسد العضو، ويغير ما يليه، ويؤدي إلى القلب كيفية رديئة تحدث القيء والغثيان والغشي والخفقان، وهو لرداءته لا يقبل من الأعضاء إلا ما كان أضعف بالطبع، وأردؤه ما يقع في الأعضاء الرئيسة، والأسود منه قلٌّ من يسلم منه، وأسلمه الأحمر ثم الأصفر، والطواعين تكثر عن الوباء في البلاد الوبيئة، ومن ثم أطلق على الطاعون وباء وبالعكس، وأما الوباء: فهو فساد جواهر الهواء الذي هو مادة الروح/ ومدده.

ب/٣٠٤

والحاصل: أن حقيقته ورم ينشأ عن هيجان الدم وانصباب الدم إلى عضو فيفسده، وأن غير ذلك من الأمراض العامة الناشئة عن فساد الهواء، يسمى طاعوناً بطريق المجاز، لاشتراكهما في عموم المرض أو كثرة الموت.

والدليل على أن الطاعون يغير الوباء، أن الطاعون لم يدخل

(١) أي ما لان من البدن.

(٢) أي أصل الفخذ.

المدينة النبوية، وقد قالت عائشة: دخلنا المدينة وهي أوبأ أرض الله، وقال بلال: أخرجونا إلى أرض الوباء.

والطاعون: من طعن الجن، وإنما لم يتعرض له الأطباء لكونه من طعن الجن، لأنه أمر لا يدرك بالعقل، وإنما عرف من الشارع، فتكلموا في ذلك على ما اقتضته قواعدهم، وإنما يؤيد أن الطاعون إنما يكون من طعن الجن وقوعه غالباً في أعدل الفصول، وفي أصح البلاد هواء، وأطيبها ماء، ولأنه لو كان بسبب فساد الهواء لدام في الأرض لأن الهواء يفسد تارة ويصح أخرى، والطاعون يذهب أحياناً ويحيى أحياناً على غير قياس ولا تجربة، فربما جاء سنة على سنة، وربما أبطأ سنين، وبأنه لو كان كذلك لعم الناس والحيوان، والموجود بالمشاهدة أنه يصيب الكثير، ولا يصيب من هم بجانبهم ممن هو في مثل مزاجهم، ولو كان كذلك لعم جميع البدن، وهذا يختص بموضع دون موضع من الجسد لا يجاوزه، ولأن فساد الهواء يقتضي تغير الأخلاط وكثرة الأسقام، وهذا في الغالب يقتل غالباً بلا مرض، فدل على أنه من طعن الجن. كما ثبت في الأحاديث الواردة في ذلك.

منها حديث أحمد والطبراني عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري عن أبيه قال: سألت عنه رسول الله ﷺ فقال هو وخز أعدائكم من الجن وهو لكم شهادة.

وقال شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر: يقع^(١) في الألسنة، وهو في النهاية تبعاً لغريبي الهروي^(٢) بلفظ «وخز إخوانكم» ولم أره بلفظ

(١) أي هذا الحديث.

(٢) أي كتابه المؤلف في غريبي القرآن والحديث.

«إخوانكم» بعد التبع الطويل البالغ في شيء من طرق الحديث المسندة، لا في الكتب المشهورة ولا في الأجزاء المثورة، وقد عزاه بعضهم لمسند أحمد والطبراني أو كتاب الطواعين لابن أبي الدنيا، ولا وجود لذلك في واحد منها والله أعلم. انتهى.

وفي الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل، وعلى من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فراراً منه.

وقد ذكر العلماء في النهي عن الخروج حكماً. منها: أن الطاعون في الغالب يكون عاماً في البلد الذي يقع به، فإذا وقع فالظاهر مداخلة سببه لمن هو بها، فلا يفيد الفرار، لأن المفسدة إذا تعينت حتى لا يقع الانفكاك عنها كان الفرار عبثاً فلا يليق بالعاقل.

ومنها: أن الناس لو تواردوا على الخروج لصار من عجز عنه بالمرض المذكور أو بغيره ضائع المصلحة، لفقد من يتعهده حياً وميتاً.

وأيضاً: لو شرع الخروج. فخرج الأقوياء لكان في ذلك كسر قلوب الضعفاء، وقد قالوا: إن حكمة الوعيد في الفرار من الزحف لما فيه من كسر قلب من لم يفر، وإدخال الرعب عليه بخلافه.

وقد جمع الغزالي بين الأمرين فقال: الهواء لا يضر من حيث ملاقاته ظاهر البدن، بل من حيث دوام الاستنشاق، فيصل إلى القلب والرئة فيؤثر في الباطن ولا يظهر على الظاهر إلا بعد التأثير في الباطن، فالخارج من البلد الذي يقع فيه لا يخلص غالباً مما استحکم به،

وينضاف إلى ذلك أنه لو رخص للأصحاء في الخروج لبقى المرضى لا يجدون من يتعاهدهم فتضيع مصالحهم.

ومنها: ما ذكره بعض الأطباء: أن المكان الذي يقع به الوباء تنكيف أمزجة أهله بهواء تلك البقعة فتألفها وتصير لهم كالأهوية الصحيحة لغيرهم فلو انتقلوا إلى الأماكن الصحيحة لم توافقهم، بل ربما إذا استنشقوا هواءها استصحب معه إلى القلب من الأبخرة الرديئة التي حصل تكيف بدنها بها فأفسدته فمنع من الخروج لهذه النكته.

ومنها: أن الخارج يقول: لو أقمت/ لأصبت، والمقيم يقول: لو ١/٣٠٥ خرجت لسلمت، فيقع اللوم المنهي عنه^(١).

وقال العارف ابن أبي جمرة: البلاء إنما يقصد به أهل البقعة، لا البقعة نفسها، فمن أراد الله تعالى إنزال البلاء به فهو واقع به لا محالة، فأينما توجه يدرکه، فأرشدنا الشارع إلى عدم النصب.

وقال ابن القيم^(٢): جمع ﷺ للأمة في نهيهِ عن الدخول إلى الأرض التي هو بها، ونهيهِ عن الخروج منها بعد وقوعه، كمال التحرز منه، فإن في الدخول في الأرض التي هو فيها تعرضاً للبلاء وموافاة له في محل سلطانه، وإعانة الإنسان على نفسه، وهذا مخالف للشرع والعقل، بل تجنب الدخول إلى أرضه من باب الحمية التي أرشد الله تعالى إليها، وهي حمية من الأمكنة والأهوية المؤذية، وأما نهيهِ عن الخروج من بلده ففيه معنيان.

أحدهما: حمل النفوس على الثقة بالله تعالى والتوكل عليه، والصبر على أفضيته والرضى.

(١) جاء في الحديث (إياك و«لو» فإن «لو» من الشيطان) رواه مسلم.

(٢) في زاد المعاد ٤٢/٤.

والثاني: ما قاله أئمة الطب أنه يجب على من كان يحترز من الوباء أن يخرج عن بدنه الرطوبات الفضلية، ويقلل الغذاء، ويميل إلى التدبير المجفف من كل وجه، والخروج من أرض الوباء والسفر منها لا يكون إلا بحركة شديدة، وهي مضرة جداً. هذا كلام أفضل المتأخرين من الأطباء، فظهر المعنى الطبي من الحديث النبوي، وما فيه من علاج القلب والبدن وصلاحهما، انتهى.

ذكر طبه ﷺ من السلعة

أخرج البخاري في تاريخه، والطبراني والبيهقي عن شرحبيل الجعفي قال: أتيت النبي ﷺ وبكفي سلعة^(١)، فقلت يا رسول الله قد آذنتي، تحول بيني وبين قائم السيف أن أقبض عليه وعنان الدابة، فنفت في كفي، ووضع كفه على السلعة فما زال يطحنها^(٢) بكفه حتى رفعها عنها وما أرى أثرها.

ومسح ﷺ وجه أبيض بن جمال وكان به القوباء^(٣) فلم يمس من ذلك اليوم ومنها أثر، رواه البيهقي وغيره.

ذكر طبه ﷺ من الحمى

روى البخاري^(٤) من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (الحمى من فيح جهنم فأطفئوها بالماء البارد).

- (١) شيء كالغدة في كفه يتحرك بالتحريك، غير ملتصق باللحم ولها غلاف ويقبل الزيادة.
- (٢) أي يدلکها.
- (٣) قال الشارح: داء معروف.
- (٤) ورواه مسلم.

واختلف في نسبتها إلى جهنم، فقليل: حقيقة، واللهب الحاصل في جسم المحموم قطعة من جهنم، وقدر الله ظهورها بأسباب تقتضيها ليعتبر العباد بذلك، كما أن أنواع الفرح واللذة من نعيم الجنة، أظهرها في هذه الدار عبرة ودلالة.

وقيل: الخبر ورد مورد التشبيه، والمعنى: أن حر الحمى شبيه بحر جهنم، تنبيهاً للنفوس على شدة حر النار، وأن هذه الحرارة الشديدة شبيهة بفيحها، وهو ما يصيب من قرب منها من حرها.

قوله «فأطفئوها» بهمزة قطع، أمر من: أطفأ.
وروى الطبراني (الحمى حظ المؤمن من النار).

وفي رواية نافع عن ابن عمر، عند الشيخين: قال رسول الله ﷺ (إن الحمى أو شدة الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء) بهمزة وصل والراء مضمومة على المشهور وحكي كسر الراء. وفي رواية ابن ماجه^(١) (بالماء البارد).

وفي رواية أبي جمرة - بالجيم - عند البخاري، قال: كنت أجالس ابن عباس بمكة، فأخذتني الحمى، فاحتبست أياماً، فقال: ما حبسك؟ فقلت: الحمى، قال: أبردتها بماء زمزم، فإن رسول الله ﷺ قال: الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء، أو بماء زمزم، شك^(٢).

قال ابن القيم: قوله «بالماء» فيه قولان: أحدهما: أنه كل ماء، وهو الصحيح. والثاني: أنه ماء زمزم. ثم قال بعد أن روى حديث أبي جمرة هذا، وراوي هذا قد شك فيه، ولو جزم به لكان أمراً لأهل

(١) هو من حديث أبي هريرة لا من حديث ابن عمر كما يوهمه المصنف.

(٢) شك همام راوي الحديث عن أبي جمرة [م].

مكة بماء زمزم، إذ هو متيسر عندهم، وأخبرهم بما عندهم من الماء^(١)، انتهى.

وتعقب: بأنه وقع في رواية أحمد عن عفان بن همام: (فابردوها بماء زمزم) ولم يشك، وكذا أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم.

قال ابن القيم: واختلف من قال إنه على عمومه: هل المراد به الصدقة بالماء أو استعماله على قولين، والصحيح أنه استعماله، وأظن أن الذي حمل من قال إن المراد به الصدقة به أنه أشكل عليه استعمال الماء البارد في الحمى/. ولم يفهم وجهه، مع أن لقوله وجهاً حسناً وهو أن الجزء من جنس العمل، فكما أخذ لهيب العطش عن الظمان بالماء البارد أخذ الله لهيب الحمى عنه جزاء وفاقاً، انتهى.

ب/٣٠٥

وقال الخطابي وغيره: اعترض بعض سخفاء الأطباء على هذا الحديث، بأن اغتسال المحموم بالماء خطر يقربه من الهلاك، لأنه يجمع المسام، ويحقن البخار ويعكس الحرارة التي في داخل الجسم، فيكون ذلك سبباً للتلف. وقد غلط بعض من ينسب إلى العمل^(٢)، فانغمس في الماء لما أصابته الحمى، فاحتقنت الحرارة في باطن بدنه، فأصابته علة صعبة كادت تهلكه، فلما خرج من علته قال قولاً سيئاً لا يحسن ذكره، وإنما أوقعه في ذلك جهله بمعنى الحديث.

والجواب: أن هذا الإشكال^(٣) صدر عن صدر مرتاب في صدق

(١) هذه الجملة هكذا في المخطوطات، وفي (ط، ش): وأمر غيرهم بما عندهم من الماء، وفي الأصل - زاد المعاد - : ولغيرهم بما عندهم من الماء.

(٢) كذا في جميع النسخ، والذي في فتح الباري: إلى العلم، والمقصود: العلم بالأحاديث.

(٣) في (أ، د، ط): استشكال.

الخبر، فيقال له أولاً: من أين حملت الأمر على الاغتسال، وليس في الحديث الصحيح بيان الكيفية فضلاً عن اختصاصها بال غسل، وإنما في الحديث الإرشاد إلى تبريد الحمى بالماء، فإن أظهر الوجود أو اقتضت صناعة الطب أن انغماس كل محموم في الماء أو صبه إياه على جميع بدنه يضره فليس هو المراد، وإنما قصده ﷺ استعمال الماء على وجه ينفع فليبحث عن ذلك الوجه ليحصل الانتفاع به، وهذا كما وقع في أمره العائن بالاغتسال وأطلق، وقد ظهر من الحديث الآخر أنه لم يرد مطلق الاغتسال، وإنما أراد الاغتسال على كيفية مخصوصة، وأولى ما يحمل عليه كيفية تبريد الحمى بالماء ما صنغته أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما: فإنها كانت ترش على بدن المحموم شيئاً من الماء بين ثديه وثوبه، فيكون ذلك من باب النشرة المأذون فيها، والصحابي ولا سيما مثل أسماء بنت أبي بكر التي هي كانت تلازم بيت النبي ﷺ أعلم بالمراد من غيرها.

وقد ذكر أبو نعيم وغيره، من حديث أنس يرفعه: إذا حم أحدكم فليرش عليه الماء البارد ثلاث ليال من السحر.

وقال المازري: لا شك أن علم الطب من أكثر العلوم احتياجاً إلى التفصيل حتى إن المريض يكون الشيء دواءه في ساعة فيكون داءه في الساعة التي تليها لعارض يعرض له من غضب يحمي مزاجه مثلاً فيتغير علاجه، ومثل ذلك كثير. فإذا فرض وجود الشفاء لشخص بشيء في حالة ما لم يلزم منه وجود الشفاء به له أو لغيره في سائر الأحوال. والأطباء مجمعون على أن المرض الواحد يختلف علاجه باختلاف السن والزمان والعادة والغذاء المتقدم والتأثير المألوف، وقوة الطباع. ويحتمل أن يكون هذا في وقت مخصوص فيكون من الخواص

التي اطلع عليها النبي ﷺ بالوحي، ويضمحل عند ذلك جميع كلام أهل الطب.

وجعل ابن القيم خطابه ﷺ في هذا الحديث خاصاً لأهل الحجاز وما والاها، إذ كان أكثر الحميات التي تعرض لهم من نوع الحمى اليومية العرضية، الحادثة من شدة حرارة الشمس. قال: هذه ينفعها الماء البارد شرباً واغتسالاً، لأن الحمى حارة غريبة تشتعل في القلب، وتنتشر منه بتوسط الروح والدم في العروق إلى جميع البدن وهي قسمان: عرضية وهي الحادثة عن ورم أو حركة أو إصابة حرارة الشمس، أو القيظ الشديد ونحو ذلك، ومرضية وهي ثلاثة أنواع، وتكون عن مادة، ثم منها ما يسخن جميع البدن، فإن كان مبدأ تعلقها بالروح فهي حمى يوم، لا تقلع غالباً في يوم ونهايتها إلى ثلاث^(١)، وإن كان تعلقها بالأعضاء الأصلية فهي حمى دق، وهي أخطرها، وإن كان تعلقها بالأخلاق سميت عفينية، وهي بعدد الأخلاق الأربعة: أعني صفراوية، سوداوية، بلغمية، دموية^(٢)، وتحت هذه الأنواع المذكورة أصناف كثيرة بسبب الأفراد والتركيب. انتهى.

وإذا تقرر هذا فيجوز أن يكون المراد النوع الأول. / فإنها تسكن بالانغماس في الماء البارد، وشرب الماء المبرد بالثلج وبغيره، ولا يحتاج إلى علاج آخر.

وقد قال جالينوس: لو أن شاباً خشن اللحم خصب البدن ليس

(١) كذا في جميع النسخ، وعبارة زاد المعاد: حمى يوم، لأنها في الغالب تزول في

يوم ونهايتها إلى ثلاثة أيام [م].

(٢) هي في زاد المعاد بوجود «واو» العطف بينها. [زاد المعاد ٢٦/٤].

في أحشائه ورم استحم بماء بارد و سبح فيه في وقت القيظ عند منتهى الحمى لانتفع بذلك.

وقد تكرر في الحديث استعماله ﷺ الماء البارد في علته، كما في الحديث: (صبوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن)^(١). وفي المسند وغيره من حديث الحسن عن سمرة يرفعه (الحمى قطعة من النار فأبردوها عنكم بالماء البارد). وكان ﷺ إذا حم دعا بقربة من ماء فأفرغها على رأسه فاغتسل، وصححه الحاكم، ولكن قال^(٢): في إسناده راو ضعيف.

وعن أنس رفعه: إذا حم أحدكم فليشن عليه من الماء البارد من السحر ثلاث ليال. أخرجه الطحاوي وأبو نعيم في الطب.

وأخرج الطبراني من حديث عبد الرحمن بن المرقع، رفعه: الحمى رائد الموت، وهي سجن الله في الأرض، فبردوا لها الماء في الشنان^(٣) وصبوه عليكم فيما بين الأذنين المغرب والعشاء. قال ففعلوا فذهب عنهم.

وقد أخرج الترمذي من حديث ثوبان مرفوعاً: إذا أصاب أحدكم الحمى وهي قطعة من النار فليطفئها عنه بالماء، يستنقع في نهر جار، ويستقبل جريته، وليقل: بسم الله، اللهم اشف عبدك، وصدق رسولك، بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس، ولينغمس فيه ثلاث

(١) أوكيتهن: جمع وكاء وهو الخيط الذي يربط به. والحديث في الصحيح بلفظ: هريقوا...

(٢) سقط من قلم المصنف هنا كلمة (غيره) فليس من المعقول أن يصححه ويقول عنه ضعيف.

(٣) جمع شن: وهو القربة البالية.

غمسات، ثلاثة أيام، فإن لم يبرأ فخمس، وإلا فسبع، وإلا فتسع، فإنها لا تكاد تجاوز تسعاً بإذن الله. قال الترمذي: غريب، وفي سنده سعيد بن زرعة مختلف فيه.

ذكر طبه ﷺ من حكة الجسد وما يولد القمل

لما كانت الحكة لا تكون إلا عن حرارة ويبس وخشونة رخص ﷺ للزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف في لبس الحرير لحكة كانت بهما، كما في البخاري عن قتادة أن أنساً حدثهم أن النبي ﷺ رخص لعبد الرحمن بن عوف والزبير في قميص من حرير من حكة كانت بهما.

وفي رواية^(١) أن عبد الرحمن والزبير شكيا إلى النبي ﷺ - يعني القمل - فأرخص لهما في الحرير، فرأيته عليهما في غزاة.

وفي رواية^(٢) رخص النبي ﷺ لعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام في الحرير.

وفي رواية^(٣) رخص النبي ﷺ، أو رخص لحكة كانت بهما.

ويحتمل أن تكون إحدى العلتين بأحد الرجلين، أو أن الحكة حصلت من القمل فنسبت العلة تارة إلى السبب وتارة إلى المسبب.

قال النووي: هذا الحديث صريح في الدلالة لمذهب الشافعي وموافقه: أنه يجوز لبس الحرير للرجل إذا كانت به حكة لما فيه من

(١) للبخاري.

(٢) للبخاري.

(٣) للبخاري.

البرودة، وكذا للقمل وما في معنى ذلك. وقال مالك: لا يجوز، وهذا الحديث حجة عليه، انتهى.

وتعقب قوله: «لما فيه من البرودة» بأن الحرير حار.

والصواب: أن الحكمة فيه إنما هي لخاصية فيه تدفع الحكمة والقمل.

وقال ابن القيم: وإذا اتخذ منه ملبوس كان معتدل الحرارة في مزاجه، مسخناً للبدن، وربما برد البدن بتسمينه إياه.

وقال الرازي: الأبريسم أسخن من الكتان وأبرد من القطن، يربي اللحم، وكل لباس خشن فإنه يهزل ويصلب البشرة، فملابس الأوبار والأصواف تسخن وتدفع وملابس الكتان والحرير والقطن تدفع ولا تسخن، فثياب الكتان باردة يابسة، وثياب الصوف حارة يابسة، وثياب القطن معتدلة الحرارة، وثياب الحرير ألين من ثياب القطن وأقل حرارة منه، ولما كانت ثياب الحرير ليس فيها من اليبس والخشونة كغيرها صارت نافعة من الحكمة، لأن الحكمة - كما قدمته - لا تكون إلا عن حرارة ويبس وخشونة، فلذلك رخص ﷺ لهما في الحرير لمداواة الحكمة.

ذكر طبه ﷺ من السم الذي أصابه بخير

تقدم في غزوتها قصة اليهودية التي أهدت إليه الشاة المسمومة، وقد روى عبد الرزاق عن معمر/ عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أن امرأة يهودية أهدت للنبي ﷺ شاة مصلية بخير، فقال: ما هذه؟ قالت: هدية، وحذرت أن تقول صدقة فلا يأكل. فأكل النبي ﷺ وأكل أصحابه، ثم قال: أمسكوا، ثم قال للمرأة:

هل سميت هذه الشاة؟ قالت من أخبرك؟ قال: هذا العظم، لساقها، وهو في يده، قالت: نعم، قال: لم؟ قالت: أردت إن كنت كاذباً أن يستريح منك الناس، وإن كنت نبياً لم يضرك. قال: فاحتجم النبي ﷺ ثلاثاً على كاهله.

وقد ذكروا في علاج السم أنه يكون بالاستفراغات وبالأدوية التي تعارض فعل السم وتبطله، إما بكيفياتها وإما بخواصها، فمن عدم الدواء فليبادر إلى الدواء الكلي، وأنفعه الحجامه، ولا سيما إذا كان البلد حاراً، فإن القوة السمية تسري في الدم، فتبعثه في العروق والمجاري، حتى تصل إلى القلب والأعضاء، فإذا بادر المسموم وأخرج الدم خرجت معه تلك الكيفية السمية التي خالطته، فإن كان استفراغاً تاماً لم يضره السم، بل إما أن يذهب، وإما أن يضعف فتقوى عليه الطبيعة فتبطل فعله، أو تضعفه.

ولما احتجم ﷺ احتجم على الكاهل، لأنه أقرب إلى القلب، فخرجت المادة السمية مع الدم، لا خروجاً كلياً بل بقي أثرها مع ضعفه لما يريد الله تعالى من تكميل مراتب الفضل كلها له بالشهادة زاده الله فضلاً وشرفاً.

النوع الثالث

في طبه ﷺ بالأدوية المركبة من
الإلهية والطبيعية

ذكر طبه ﷺ من القرحة والجرح وكل شكوى

عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول للمريض: بسم الله
تربة أرضنا، وريقة بعضنا، يشفى سقيمنا^(١).

وفي رواية: كان يقول في الرقية [بسم الله]^(٢) تربة أرضنا،
وريقة^(٣) بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا. رواه البخاري.

وفي رواية لمسلم: كان إذا اشتكى الإنسان، أو كانت به قرحة
أو جرح قال بإصبعه هكذا ووضع سفيان سبابته بالأرض،
الحديث^(٤).

وقوله: «تربة أرضنا» خبر مبتدأ محذوف، أي هذه تربة أرضنا.

وقوله: «يشفى سقيمنا»: ضبط بوجهين، بضم أوله على البناء

(١) رواه البخاري. وهذه الرواية لم ترد في ط.

(٢) في ش.

(٣) الريق: الرضاب وماء الفم.

(٤) تتمته: ثم رفعها وقال: بسم الله.. فذكره.

للمجهول، وسقيماً بالرفع، وبفتح أوله على أن الفاعل مقدر،
وسقيماً بالنصب على المفعولية.

قال النووي: معنى الحديث: أنه أخذ من ريق نفسه، على
أصبغه السبابة، ثم وضعها على التراب فعلق بها شيء منه، ثم مسح
به على الموضع العليل أو الجرح قائلاً الكلام المذكور في حالة المسح.

وقال القرطبي: زعم بعض الناس أن السرفيه أن تراب الأرض
لبرودته وييسه يبرىء الموضع الذي به الألم، ويمنع انصباب المواد إليه
لييسه، مع منفعته في تخفيف الجراح واندمالها. وقال في الريق: إنه
يختص بالتحليل والإنضاج وإبراء الجرح والورم، ولا سيما من الصائم
والجائع.

وتعقبه القرطبي: بأن ذلك إنما يتم إذا وقعت المعالجة على
قوانينها من مراعاة مقدار التراب والريق، وملازمة ذلك في أوقاته، وإلا
فالفنث ووضع السبابة على الأرض إنما يعلق بها ما ليس له بال ولا
أثر، وإنما هذا من باب التبرك بأسماء الله تعالى وآثار رسوله ﷺ. وأما
وضع الأصبع بالأرض فلعله لخاصية في ذلك، أو لحكمة إخفاء آثار
القدرة بمباشرة الأسباب المعتادة.

وقال البيضاوي: قد شهدت المباحث الطبية على أن للريق
مدخلاً في النضج وتعديل المزاج، وتراب الوطن له تأثير في حفظ
المزاج ودفع الضرر، فقد ذكروا أنه ينبغي للمسافر أن يستصحب
تراب/ أرضه إن عجز عن استصحاب مائها، حتى إذا ورد المياه
المختلفة جعل شيئاً منه في سقائه ليأمن مضرة ذلك، ثم إن الرقي
والعزائم لها آثار عجيبة تتقاعد العقول عن الوصول إلى كنهها.

وقال التوربشتي: كأن المراد بالتربة الإشارة إلى النطفة، كأنه

١/٣٠٧

تضرع بلسان الحال: إنك اخترعت الأصل الأول من التراب ثم أبدعته من ماء مهين، فهين عليك أن تشفي من كانت هذه نشأته.

وقال النووي: وقيل المراد «بأرضنا» أرض المدينة لبركتها، و«بعضنا» رسول الله ﷺ لشرف ريقه، فيكون ذلك مخصوصاً. وفيه نظر^(١).

وفي حديث عائشة عند أبي داود والنسائي: أن النبي ﷺ دخل على ثابت بن قيس بن شماس وهو مريض، فقال: اكشف الباس رب الناس، ثم أخذ تراباً من بطحان فجعله في قدح ثم نفث عليه، ثم صبه عليه. قال الحافظ ابن حجر: هذا الحديث تفرد به الشخص المرقى.

ذكر طبه ﷺ من لدغة العقرب:

عن عبدالله بن مسعود قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي إذ سجد فلدغته عقرب في إصبه، فانصرف رسول الله ﷺ وقال: لعن الله العقرب، ما تدع نبياً ولا غيره، ثم دعا بإناء فيه ماء وملح فجعل يضع موضع اللدغة في الماء والملح، ويقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ والمعوذتين حتى سكنت، رواه ابن أبي شيبة في مسنده.

وقال ابن عبد البر: رقى رسول الله ﷺ من العقرب بالمعوذتين، وكان يمسح الموضع بماء فيه ملح.

وهذا طب مركب من الطبيعي والإلهي، فإن سورة الإخلاص قد جمعت الأصول الثلاثة، التي هي مجامع التوحيد، وفي المعوذتين

(١) إذ لا دليل على التخصيص.

استعاذة من كل مكروه جملة وتفصيلاً. ولهذا أوصى ﷺ عقبة بن عامر أن يقرأهما عقب كل صلاة. رواه الترمذي.

وفي هذا سر عظيم في استدفاع الشرور من الصلاة إلى الصلاة. وقال: ما تعوذ المتعوذون بمثلها^(١).

وأما الماء والملح فهو الطب الطبيعي، فإن في الملح نفعاً لكثير من السموم ولا سيما لدغة العقرب، وفيه من القوة الجاذبة ما يجذب السموم ويحللها، ولما كان في لسعها قوة نارية تحتاج إلى تبريد وجذب استعمل ﷺ الماء والملح لذلك.

ذكر الطب من النملة

وهي بفتح النون وإسكان الميم، قروح تخرج في الجنب، وسمي نملة لأن صاحبه يحس في مكانه كأن نملة تدب عليه وتعضه.

وفي حديث مسلم عن أنس أنه ﷺ رخص في الرقية من الحمة والعين والنملة.

وروى الخلال أن الشفاء بنت عبدالله كانت ترقى في الجاهلية من النملة، فلما هاجرت إلى النبي ﷺ وكانت بايعته بمكة قالت: يا رسول الله إني كنت أرقى في الجاهلية من النملة، وأريد أن أعرضها عليك، فعرضتها فقالت: بسم الله ضلت حتى تعود من أفواهاها ولا تضر أحداً، اللهم اكشف الباس رب الناس. قال: ترقى بها على عود

(١) رواه أبو داود بلفظ (يا عقبة تعوذ بها فما تعوذ متعوذ بمثلها) برقم ١٤٦٣

سبع مرات، وتقصده به مكاناً نظيفاً وتدلّكه على حجر بخل خمر حاذق وتطليه على النملة^(١).

ذكر طبه ﷺ من البثرة

روى النسائي عن بعض أزواج النبي ﷺ قال: عندك ذريرة^(٢)؟ قلت: نعم، فدعا بها فوضعها على بثرة بين أصبعين من أصابع رجله، ثم قال: اللهم مطفىء الكبير، ومكبر الصغير، أطفئها عني، فطفئت.

ذكر طبه ﷺ من حرق النار

روى النسائي عن محمد بن حاطب قال: تناولت قدرًا، فأصاب كفي من مائها، فاحترق ظهر كفي، فانطلقت بي أمي إلى النبي ﷺ، فقال: أذهب الباس رب الناس، قال: وأحسبه قال: واشف أنت الشافي وتفل.

ذكر طبه ﷺ بالحمية

وهي قسمان: حمية عما يجلب المرض، وحمية عما يزيده فيقف على حاله.

فالأولى: حمية الأصحاء.

والثانية: حمية المرضى، فإن المريض إذا احتمى / وقف مرضه ٣٠٧/ب
عن التزايد، وأخذت القوى في دفعه.

(١) أخرجه أبو نعيم.

(٢) المخاطب عائشة، كما في التقريب. والذريرة: نوع من الطيب.

والأصل في الحمية قوله تعالى: ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر﴾ إلى قوله: ﴿فتيمموا صعيداً طيباً﴾^(١) فحمى المريض من استعمال الماء لأنه يضره، كما وقعت الإشارة لذلك في أوائل هذا المقصد.

وقد قال بعض أفاضل الأطباء: رأس الطب الحمية.

والحمية للصحيح عندهم في المضرة بمنزلة التخليط للمريض والناقة^(٢)، وأنفع ما تكون الحمية للناقه من المرض، لأن التخليط يوجب الانتكاس، والانتكاس أصعب من ابتداء المرض.

والفاكهة تضر الناقه من المرض، لسرعة استحالتها وضعف الطبيعة عن دفعها لعدم القوة، وفي سنن ابن ماجه عن صهيب قال: قدمت على النبي ﷺ وبين يديه خبز وتمر، فقال: ادن وكل، فأخذت تمراً فأكلت، فقال أأأكل تمراً وبك رمد؟ فقلت يا رسول الله أمضغ من الناحية الأخرى، فتبسم رسول الله ﷺ.

ففيه الإشارة إلى الحمية وعدم التخليط، وأن الرمد يضر به التمر.

وعن أم المنذر بنت قيس الأنصارية قالت: دخل علي رسول الله ﷺ ومعه علي، وهو ناقه من مرض، ولنا دوال^(٣) معلقة، فقام رسول الله ﷺ يأكل منها، وقام علي يأكل منها، فطفق النبي ﷺ يقول لعلي: إنك ناقه، حتى كف. قالت: وصنعت شعيراً وسلقاً فجئت به فقال ﷺ لعلي: من هذا أصب فإنه أنفع لك، رواه ابن ماجه.

(١) سورة النساء، الآية ٤٣.

(٢) أي الذي برىء من المرض لكنه في عقبه.

(٣) أشجار عنب.

وإنما منعه ﷺ من أكله من الدوالي لأن في الفاكهة نوع ثقل على المعدة، ولم يمنعه من السلق والشعير لأنه من أنفع الأغذية للناقه، ففي ماء الشعير التغذية والتلطيف والتلين وتقوية الطبيعة.

فالحمية من أكبر الأدوية للناقه قبل زوال الداء، لكي يمتنع تزايد وانتشاره.

قال ابن القيم: وما ينبغي أن يعلم أن كثيراً مما يحمى عنه العليل والناقه والصحيح إذا اشتدت الشهوة إليه، ومالت إليه الطبيعة، فتناول منه الشيء اليسير الذي لا تعجز الطبيعة عن هضمه لم يضره تناوله، بل ربما انتفع به، فإن الطبيعة والمعدة يتلقيانه بالقبول والمحبة، فيصلحان ما يخشى من ضرره، وقد يكون أنفع من تناوله ما تكرهه الطبيعة وتدفعه من الدواء. ولهذا أقر النبي ﷺ صهيياً وهو أرمد على تناول التمرات اليسيرة وعلم أنها لا تضره. ففي هذا الحديث - يعني حديث صهيب - سر طبي لطيف، فإن المريض إذا تناول ما يشتهيه عن جوع صادق وكان فيه ضرر ما، كان أنفع وأقل ضرراً مما لا يشتهيه عن جوع صادق وإن كان نافعاً في نفسه. فإن صدق شهوته ومحبة الطبيعة له تدفع ضرره، وكذلك بالعكس.

ذكر حمية المريض من الماء

عن قتادة بن النعمان أن رسول الله ﷺ قال: إذا أحب الله العبد حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيم الماء. قال الترمذي حديث حسن غريب.

وروى الحميدي مرفوعاً: لو أن الناس أقلوا من شرب الماء لاستقامت أبدانهم.

وللطبراني في الأوسط عن أبي سعيد مرفوعاً: من شرب الماء على الريق انتقصت قوته. وفيه محمد بن مخلد الرعيني، وهو ضعيف.

ذكر أمره ﷺ بالحماية من الماء المشمس خوف البرص

روى الدارقطني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لا تغتسلوا بالماء المشمس فإنه يورث البرص^(١).

وروى الدارقطني هذا المعنى مرفوعاً من حديث عامر عن النبي ﷺ، وهو ضعيف.

وكذا خرج العقيلي نحوه عن أنس بن مالك، ورواه الشافعي عن عمر.

فعلى هذا يكره استعمال الماء المشمس شرعاً خوف البرص، لكنهم اشترطوا شروطاً: أن يكون في البلاد الحارة، والأوقات الحارة دون الباردة، وفي الأواني المنطبعة^(٢) على الأصح دون الحجر/ والخشب ونحوهما. واستثنى النقدان لصفائهما. وقال الجويني بالتسوية، حكاة ابن الصلاح. ولا يكره المشمس في الحياض والبرك قطعاً، وأن يكون الاستعمال في البدن لا في الثوب، وأن يكون مستعملاً حال حرارته، فلو برد زالت الكراهة في الأصح، في الروضة وصحح في الشرح الصغير عدم الزوال. واشترط صاحب التهذيب - كما قاله الجيلي - أن يكون رأس الإناء منسداً لتنجس الحرارة، وفي شرح المهذب أنها^(٣)

١/٣٠٨

(١) إسناده صحيح.

(٢) التي تتأثر وتمتد تحت المطرقة كحديد ونحاس.

(٣) أي كراهة المشمس.

شرعية يثاب تاركها وقال في شرح التنبيه: إن اعتبرنا القصد فشرعية وإلا فإرشادية، وإذا قلنا بالكراهة فكراهة تنزيه لا تمنع صحة الطهارة. وقال الطبري: إن خاف الأذى حرم، وقال ابن عبد السلام: لو لم يجد غيره وجب استعماله، واختار النووي في الروضة عدم الكراهة مطلقاً، وحكاه الروياني في البحر عن النص^(١).

ذكر الحمية من طعام البخلاء

عن عبدالله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: طعام البخيل داء وطعام الأسخياء شفاء. رواه التنيسي عن مالك في غير الموطأ، كما ذكره عبد الحق في الأحكام.

ذكر الحمية من داء الكسل

روى أبو داود في المراسيل عن يونس عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن: أنه رآه مضطجعاً في الشمس، قال يونس فنهاني وقال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: إنها تورث الكسل وتثير الداء الدفين.

ذكر الحمية من داء البواسير

عن الحسن قال قال رسول الله ﷺ لا يجامعن أحدكم وبه حقن^(٢) خلاء، فإنه يكون منه البواسير، رواه أبو أحمد والحاكم.

(١) أي نص الإمام الشافعي.

(٢) أي احتباس بول زائد محوج إلى الخروج إلى الخلاء.

ذكر حماية الشراب من سم أحد جناحي الذباب بانغماس الثاني

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فإن في أحد جناحيه شفاء وفي الآخر داء^(١).

وفي رواية أبي داود (فإنه يتقي بجناحه الذي فيه الداء، فليغمسه كله).

وفي رواية الطحاوي: فإنه يقدم السم ويؤخر الشفاء.
وفي قوله «كله» دفع توهم المجاز في الاكتفاء ببعض.

قال شيخ شيوخنا^(٢): لم يقع لي في شيء من الطرق تعيين الجناح الذي فيه الشفاء من غيره. لكن ذكر بعض العلماء أنه تأمله فوجده يتقي بجناحه الأيسر، فعرف أن الأيمن هو الذي فيه الشفاء.

وأخرج أبو يعلى عن ابن عمر مرفوعاً: عمر الذباب أربعون ليلة. والذباب كله في النار إلا النحل. وسنده لا بأس به.

قال الجاحظ: كونه في النار ليس تعذيباً له بل ليعذب أهل النار به، ويتولد من العفونة. ومن عجيب أمره أن رجيعه يقع على الثوب الأسود أبيض وبالعكس، وأكثر ما يظهر في أماكن العفونة، ومبدأ خلقه منها ثم من التوالد، وهو أكثر الطيور سفاداً، وربما بقي عامة اليوم على الأنثى. ويحكى أن بعض الخلفاء سأل الشافعي: لأي علة خلق الذباب؟ فقال: مذلة للملوك، وكان ألحت عليه ذبابة. وقال

(١) رواه البخاري.

(٢) الحافظ ابن حجر في فتح الباري.

الشافعي: سألني ولم يكن عندي جواب فاستنبطت ذلك من الهيئة الحاصلة، فرحمة الله عليه ورضوانه.

ذكر أمره ﷺ بالحماية من الوباء النازل في الإناء بالليل بتغطيته

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ غطوا الإناء وأوكوا السقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلا ينزل فيه من ذلك الوباء. رواه مسلم في صحيحه.

قيل: وذلك في آخر شهور السنة الرومية.

ذكر حمية الوليد من إرضاع الحمقى

روى أبو داود في المراسيل بإسناد صحيح عن زياد السهمي (١) قال: نهى رسول الله ﷺ أن نسترضع الحمقاء، فإن اللبن يشبه (٢). وعند ابن حبيب: يعدي، وعند القضاعي بسند حسن من حديث ابن عباس مرفوعاً: الرضاع يغير الطباع (٣).

وعند ابن حبيب أيضاً مرفوعاً: أنه نهى عن استرضاع / ٣٠٨ ب الفاجرة.

وعن عمر بن الخطاب: أن اللبن ينزع لمن تسترضع.

(١) مجهول ويقال هو مولى عمرو بن العاص.

(٢) أي يورث شبهاً بين الرضيع والرضعة.

(٣) فيه صالح بن عبد الجبار. قال في الميزان: أتى بخبر منكر جداً وساق هذا الحديث. وفيه عبد الملك بن مسلمة ضعيف.

[الحمية من البرد]

وأما الحمية من البرد فاشتهر على الألسنة: اتقوا البرد فإنه قتل
أبا الدرداء. لكن قال شيخ الحفاظ ابن حجر: لا أعرفه. فإن كان
وارداً فيحتاج إلى تأويل، فإن أبا الدرداء عاش بعد النبي دهرًا.
انتهى.

وأما ما اشتهر أيضاً: أصل كل داء البردة، فقال شيخنا^(١):
رواه أبو نعيم والمستغفري معاً في الطب النبوي والدارقطني في العلل،
كلهم من طريق تمام بن نجيح عن الحسن البصري عن أنس رفعه.
وتمام: ضعفه الدارقطني وغيره، ووثقه ابن معين.

ولأبي نعيم أيضاً من حديث ابن المبارك عن السائب بن عبد الله
ابن علي بن زحر عن ابن عباس مرفوعاً مثله.

ومن حديث عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي
سعيد رفعه: أصل كل داء من البردة.

وقد قال الدارقطني عقب حديث أنس من عله: ^(٢) عباد بن
منصور عن الحسن من قوله ^(٣)، وهو أشبه بالصواب.
وجعله الزنجشيري في «الفائق» من كلام ابن مسعود.

قال الدارقطني في كتاب التصحيف: قال أهل اللغة «البردة»
يعني بإسكان الراء، والصواب «البردة» يعني بالفتح، وهي التخمّة،

(١) السخاوي في المقاصد.

(٢) سقط من قلم المصنف هنا (وقد رواه) وهو ثابت عند شيخه.

(٣) أي من قول الحسن أي ليس مرفوعاً [م].

لأنها تبرد حرارة الشهوة، أو لأنها ثقيلة على المعدة بطيئة الذهاب. من «برد» إذا ثبت وسكن.

وقد أورد أبو نعيم مضموماً لهذه الأحاديث، حديث الحارث بن فضيل عن زياد بن ميناء عن أبي هريرة رفعه: استدفثوا من الحر والبرد. وكذا أورد المستغفري مع ما عنده منها حديث اسحاق بن نجيح عن أبان عن أنس رفعه: إن الملائكة لتفرح بفراغ البرد عن أمتي، أصل كل داء البرد. وهما ضعيفان وذلك شاهد لما حكى عن اللغويين في كون المحدثين روه بالسكون. انتهى.

الفصل الثاني

في تعبيره ﷺ الرؤيا

[حقيقة الرؤيا]

يقال: عبرت الرؤيا بالتخفيف: إذا فسرتها، وعبرتها بالتشديد للمبالغة في ذلك.

وأما «الرؤيا» بوزن فعلى - وقد تسهل الهمزة - فهي ما يراه الشخص في منامه.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: الرؤيا إدراكات يخلقها الله تعالى في قلب العبد على بد ملك أو شيطان، إما بأسائها، أي حقيقتها، وإما بكناها أي بعبارتها، وإما تخلیطاً.

وذهب أبو بكر بن الطيب^(١): إلى أنها اعتقادات، واحتج بأن الرائي قد يرى نفسه بهيمة أو طائراً مثلاً، وليس هذا إدراكاً، فوجب أن يكون اعتقاداً، لأن الاعتقاد قد يكون على خلاف المعتقد.

قال ابن العربي: والأول أولى، والذي ذكره ابن الطيب من قبيل المثل^(٢) فالإدراك يتعلق به لا بأصل الذات.

(١) هو الباقلاني.

(٢) في ش: التمثيل.

وقال المازري: كثر كلام الناس في حقيقة الرؤيا، وقال فيها غير الإسلاميين أقاويل كثيرة منكورة، لأنهم حاولوا الوقوف على حقائق لا تدرك بالعقل، ولا يقوم عليها برهان، وهم لا يصدقون بالسمع، فاضطربت أقاويلهم، فمن ينتمي إلى الطب ينسب جميع الرؤيا^(١) إلى الأخلاط، فيقول: من غلب عليه البلغم رأى أنه يسبح في الماء ونحو ذلك لمناسبة الماء طبيعة البلغم، ومن غلبت عليه الصفراء رأى النيران والصعود في الجو وهكذا إلى آخره. وهذا وإن جوزته العقل، وجاز أن يجري الله العادة به لكنه لم يقم عليه دليل، ولا اطردت به عادة، والقطع في موضع التجويز غلط.

ومن ينتمي إلى الفلسفة يقول: إن صور ما يجري في الأرض هي في العالم العلوي كالنقوش، فما حاذى بعض النفوس منها انتقش فيها. قال: وهذا أشد فساداً من الأول، لكونه تحكماً لا برهان عليه. والانتقاش من صفات الأجسام، وأكثر ما يجري في العالم العلوي الأعراض، والأعراض لا ينتقش^(٢) فيها.

قال^(٣): والصحيح ما عليه أهل السنة، أن الله تعالى يخلق في النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان، فإذا خلقها جعلها علماً على أمور أخرى خلقها أو يخلقها في ثاني الحال، ومهما وقع منها على خلاف المعتقد فهو كما يقع لليقظان، ونظيره أن الله تعالى خلق الغيم علامة على المطر، وقد يتخلف. وتلك الاعتقادات تقع تارة بحضرة

(١) كذا في النسخ بالإفراد، وفي ش: الروايا. قال في القاموس: جمعها رؤى [م].

(٢) في ش: لا انتقاش.

(٣) أي المازري، فما زال الكلام نقلاً عنه.

الملك فيقع بعدها ما يسره، وتارة بحضرة الشيطان فيقع بعدها ما يضره، والعلم عند الله .

[حديثان ضعيفان]

وأخرج الحاكم والعقيلي من رواية محمد بن عجلان عن سالم بن عبدالله بن عمر، عن أبيه قال: لقي عمر علياً فقال: يا أبا الحسن، الرجل يرى الرؤيا، فمنها ما يصدق ومنها ما يكذب، قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من عبد ولا أمة ينام فيمتلىء نوماً إلا تخرج روحه إلى العرش، فالذي لا يستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي صدق، والذي يستيقظ دون العرش فتلك الرؤيا التي تكذب. قال الذهبي في تلخيصه: هذا حديث منكر، ولم يصححه المؤلف^(١).

وذكر ابن القيم حديثاً مرفوعاً غير معزو: أن رؤيا المؤمن كلام يكلمه ربه به في المنام. ووجد الحديث للترمذي في «نوادر الأصول» من حديث عبادة بن الصامت، أخرجه في الأصل الثامن والسبعين^(٢)، وهو من روايته عن شيخه عمر بن أبي عمر، وهو واه، وفي سنده جند ابن ميمون عن حمزة بن الزبير عن عبادة.

[قول الحكيم الترمذي]

قال الحكيم: قال بعض أهل التفسير في قوله تعالى ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب﴾^(٣) أي في المنام.

(١) أي لم يصرح الحاكم بأنه صحيح .

(٢) في ش: والتسعين .

(٣) سورة الشورى، الآية ٥١ .

ورؤيا الأنبياء وحي بخلاف غيرهم، فالوحي لا يدخله خلل لأنه محروس، بخلاف رؤيا غير الأنبياء فإنه قد يحضرها الشيطان.

وقال الحكيم أيضاً: وكل الله بالرؤيا ملكاً اطلع على أحوال بني آدم من اللوح المحفوظ فينسخ منها، ويضرب لكل على قصته مثلاً، فإذا نام مثلت له تلك الأشياء على طريق الحكمة الإلهية لتكون له بشرى أو نذارة أو معاتبه، والآدمي قد يسلط عليه الشيطان لشدة العداوة بينهما، فهو يكيده بكل وجه، ويريد إفساد أموره بكل طريق، فيلبس عليه رؤياه إما بتغليظه فيها أو بغفلته عنها.

الرؤيا الصالحة جزء من النبوة

وفي البخاري من حديث أنس: أن رسول الله ﷺ قال: (الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة).

والمراد غالب رؤيا الصالحين، وإلا فالصالح قد يرى الأضغاث، ولكنه نادر لقلّة تمكن الشيطان منهم، بخلاف عكسهم، فإن الصدق فيها نادر لغلبة تسلطه عليهم.

وقد استشكل كون الرؤيا جزءاً من النبوة، مع أن النبوة انقطعت بموته ﷺ.

وأجيب: بأن الرؤيا إن وقعت منه ﷺ فهي جزء من أجزاء النبوة حقيقة، وإن وقعت من غير النبي فهي جزء من أجزاء النبوة على سبيل المجاز.

وقيل: المعنى أنها جزء من علم النبوة، لأن النبوة وإن انقطعت فعلمها باق.

وتعقب بقول مالك - كما حكاه ابن عبد البر - أنه سئل: أيعبر
الرؤيا كل أحد؟ فقال: أبالنبوة يلعب. ثم قال: الرؤيا جزء من
النبوة.

وأجيب: بأنه لم يرد أنها نبوة باقية، وإنما أراد أنها أشبهت النبوة
من جهة الاطلاع على بعض الغيب لا ينبغي أن يتكلم فيها بغير
علم، فليس المراد أن الرؤيا الصالحة نبوة، لأن المراد تشبيه الرؤيا
بالنبوة، وجزء الشيء لا يستلزم ثبوت وصفه، كمن قال: أشهد أن لا
إله إلا الله رافعاً صوته لا يسمى مؤذناً، وفي حديث أم كرز الكعبية
عند أحمد وصححه ابن خزيمة وابن حبان: (ذهبت النبوة وبقيت
المبشرات). وعند أحمد من حديث عائشة مرفوعاً: (لم يبق بعدي من
المبشرات إلا الرؤيا)، وفي حديث/ ابن عباس عند مسلم وأبي داود:
(أنه ﷺ كشف الستارة ورأسه معصوب في مرضه الذي مات فيه،
والناس صفوف خلف أبي بكر فقال: يا أيها الناس إنه لم يبق من
مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو ترى له)، والتعبير
بالمبشرات خرج مخرج الغالب، فإن من الرؤيا ما تكون منذرة وهي
صادقة يريها الله للمؤمن رفقا به ليستعد لما يقع قبل وقوعه.

وقوله: «من الرجل الصالح» لا مفهوم له، فإن المرأة الصالحة
كذلك، وحكى ابن بطال الاتفاق عليه.

وقوله: «جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» كذا في أكثر
الأحاديث. وروى مسلم من حديث أبي هريرة (جزء من خمسة
وأربعين جزءاً من النبوة)، وعنده أيضاً من حديث ابن عمر (جزء من
سبعين جزءاً)، وعند الطبراني: جزء من ستة وسبعين، وسنده
ضعيف، وعنه عن عبد البر من طريق عبد العزيز بن المختار عن ثابت

عن أنس مرفوعاً: جزء من ستة وعشرين جزءاً. ووقع في شرح مسلم للنووي وفي رواية عبادة: أربعة وعشرين.

والذي يتحصل من الروايات عشرة، أقلها ما عند النووي، وأكثرها: من ستة وسبعين، وأضربنا عن باقيها خوف الإطالة.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: أجزاء النبوة لا يعلم حقيقتها إلا ملك أو نبي، وإنما القدر الذي أراده النبي ﷺ أن الرؤيا جزء من أجزاء النبوة في الجملة، لأن فيها اطلاعاً على الغيب من وجه ما، وأما تفصيل النسبة فيختص بمعرفته درجة النبوة.

وقال المازري: لا يلزم العالم أن يعرف كل شيء جملة وتفصيلاً، فقد جعل الله للعالم حداً يقف عنده، فمنه ما يعلم به المراد جملة وتفصيلاً، ومنه ما يعلمه جملة لا تفصيلاً، وهذا من هذا القبيل.

وقد تكلم بعضهم على الرواية المشهورة وأبدى لها مناسبة، فنقل ابن بطال عن أبي سعيد السفاقي أن بعض أهل العلم ذكر أن الله تعالى أوحى إلى نبيه في المنام ستة أشهر، ثم أوحى إليه بعد ذلك في اليقظة بقية مدة حياته، ونسبتها إلى الوحي في المنام جزء من ستة وأربعين جزءاً، لأنه عاش بعد النبوة ثلاثاً وعشرين سنة على الصحيح.

قال ابن بطال: هذا التأويل بعيد من وجهين:
أحدهما: أنه قد اختلف في قدر المدة التي بعد بعثته ﷺ.
والثاني: أنه يبقى حديث السبعين جزءاً بغير معنى.

وهذا الذي قاله من الإنكار في هذه المسألة سبقه إليه الخطابي فقال: كان بعض أهل العلم يقولون في تأويل هذا العدد قولاً لا يكاد

يتحقق، وذلك أنه ﷺ أقام بعد الوحي ثلاثاً وعشرين سنة، وكان يوحى إليه في منامه ستة أشهر، وهي نصف سنة، فهي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة. قال الخطابي: وهذا وإن كان وجهاً تحتمله قسمة الحساب والعدد، فأول ما يجب على من قاله أن يثبت ما ادعاه خبراً، ولم نسمع فيه أثراً ولا ذكر مدعيه في ذلك خبراً، فكأنه قاله على سبيل الظن، والظن لا يغني عن الحق شيئاً. وليس كل ما خفي علينا علمه يلزمنا حجته، كأعداد الركعات وأيام الصيام، ورمي الجمرات، فإننا لا نصل من علمها إلى أمر يوجب حصرها تحت أعدادها، ولم يقدح ذلك في موجب اعتقادنا للزومها. وقد ذكروا في المناسبات غير ذلك مما يطول ذكره.

[أصدق الرؤيا]

وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: أصدق الرؤيا بالأسحار. رواه الترمذي والدارمي.

وروى مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (إذا اقترب الزمان لم تكذ رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً).

قال الخطابي في «المعالم» في قوله: «إذا اقترب الزمان» قولان:

أحدهما: أن يكون / معناه تقارب زمان الليل وزمان النهار، وهو وقت استهوائهما، أيام الربيع، وذلك وقت اعتدال الطبائع الأربع غالباً، قال: والمعبرون يقولون: أصدق الرؤيا ما كان عند اعتدال الليل والنهار وإدراك الشار.

١/٣١٠

والثاني: أن اقتراب الزمان انتهاء مدته، إذا دنا قيام الساعة.
وتعقب الأول: بأنه يبعدة التقييد بالمؤمن، فإن الوقت الذي
تعتدل فيه الطبائع لا يختص به.

وجزم ابن بطل بأن الثاني هو الصواب، واستند إلى ما أخرجه
الترمذي من طريق معمر عن أيوب في هذا الحديث بلفظ: في آخر
الزمان لا تكذب رؤيا المؤمن.

وقيل: المراد بالزمان المذكور زمان المهدي عند بسط العدل وكثرة
الأمْن وبسط الخير والرزق، فإن ذلك الزمان يستقصر لاستلذاذه
فتتقارب أطرافه.

وقال القرطبي في «المفهم»: المراد - والله أعلم - بآخر الزمان
المذكور في الحديث، زمان الطائفة الباقية مع عيسى بن مريم - عليهما
السلام - بعد قتله الدجال، فأهل هذا الزمان أحسن هذه الأمة حالاً
بعد الصدر الأول، وأصدقهم أقوالاً، فكانت رؤياهم لا تكذب، ومن
ثم قال عقب هذا: وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، وإنما كانت
كذلك لأن من كثر صدقه تنور قلبه وقوي إدراكه، وانتقشت فيه
المعاني على وجه الصحة، وكذلك من كان غالب أحواله الصدق في
يقظته فإنه يستصحب ذلك في نومه فلا يرى إلا صدقاً، وهذا بخلاف
الكاذب والمخلط، فإنه يفسد قلبه ويظلم، فلا يرى إلا تخليطاً
وأضغاثاً، وقد يندر المنام أحياناً، فيرى الصادق ما لا يصح، ويرى
الكاذب ما يصح، ولكن الأغلب الأكثر ما تقدم. انتهى ملخصاً.

[آداب الرؤيا]

وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: (إذا رأى

أحدكم رؤيا يجبرها فإنما هي من الله، فليحمد الله عليها وليتحدث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره، فإنما هي من الشيطان فليستعد بالله من شرها ولا يذكرها، فإنها لا تضره) رواه البخاري.

وفي رواية لمسلم: (ورؤيا السوء من الشيطان، فمن رأى رؤيا وكره منها شيئاً فلينفث عن يساره وليتعوذ بالله من الشيطان، ولا يخبر بها أحداً، فإن رأى رؤيا حسنة فليبشر ولا يخبر بها إلا من يحب).
وقوله: «فليبشر» بفتح التحتانية وسكون الموحدة وضم المعجمة، من البشري.

وفي حديث أبي رزين عند الترمذي: ولا يقصها إلا على واد. -
بتشديد الدال، اسم فاعل من الود - أو ذي رأي. وفي أخرى^(١): ولا يحدث بها إلا لبيباً أو حبيباً. وفي أخرى: لا تقص رؤياك إلا على عالم أو ناصح.

وفي حديث أبي سعيد عند مسلم: فليحمد الله عليها وليحدث بها.
وحاصل ما ذكر من آداب الرؤيا الصالحة ثلاثة أشياء: أن يحمد الله عليها، وأن يبشر بها، وأن يتحدث بها لكن لمن يحب دون من يكره.

وحاصل ما ذكر من آداب الرؤيا المكروهة أربعة أشياء: أن يتعوذ بالله من شرها، ومن شر الشيطان، ويتفل حين يهب من نومه، ولا يذكرها لأحد أصلاً. في البخاري من حديث أبي هريرة خامسة: وهي الصلاة، ولفظه: (فمن رأى شيئاً يكرهه فلا يقصه على أحد

(١) للترمذي أيضاً.

وليقيم فليصل. لكن لم يصرح البخاري بوصله، وصرح به مسلم، وزاد مسلم سادسة: وهي التحول من جنبه الذي كان عليه فقال: عن جابر رفعه: إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليصق عن يساره ثلاثاً، وليستعد بالله من الشيطان ثلاثاً، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه.

قال النووي: وينبغي أن تجمع هذه الروايات/ كلها، ويعمل ٣١٠/ب بجميع ما تضمنته، فإن اقتصر على بعضها أجزاء في رفع ضررها كما صرحت به الأحاديث.

وتعقبه الحافظ ابن حجر: بأنه لم ير في شيء من الأحاديث الاقتصار على واحد، ثم قال: لكن أشار المهلب إلى أن الاستعاذة كافية في دفع شرها. انتهى.

ولا ريب أن الصلاة تجمع ذلك كله كما قاله القرطبي، لأنه إذا قام يصلي تحول عن جنبه، وبصق ونفث عند المضمضة في الوضوء، واستعاذ قبل القراءة، ثم دعا الله في أقرب الأحوال إليه، فيكفيه الله شرها.

وذكر بعضهم سابعة: وهي قراءة آية الكرسي، ولم يذكر لذلك مستنداً، فإن أخذه من عموم قوله في حديث أبي هريرة^(١): (ولا يقربك شيطان) فيتجه، قال: وينبغي أن يقرأها في صلاته المذكورة.

[حكمة ما ورد بشأن الرؤيا]

وحكمة التفل - كما قال القاضي عياض - أمر به طرداً للشيطان

(١) عند البخاري: (إذا أويت إلى فراشك فاقراً آية الكرسي من أولها حتى تختتم الآية.. ولن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح).

الذي حضر الرؤيا المكروهة، تحقيراً له واستقذاراً، وخصت به اليسار لأنها محل الأقدار ونحوها، والتثليث للتأكيد.

وقد ورد التفل والنفث والبصق، قال النووي في الكلام على النفث على الرقية - تبعاً للقاضي عياض - : اختلف في التفل والنفث، فقيل: هما بمعنى واحد ولا يكونان إلا بريق. وقال أبو عبيد: يشترط في التفل ريق يسير، ولا يكون في النفث، وقيل عكسه. وسئلت عائشة عن النفث في الرقية فقالت: كما ينفث آكل الزبيب، لا ريق معه. قال: ولا اعتبار بما يخرج معه من بلة بغير قصد. قال: وقد جاء في حديث أبي سعيد في الرقية بفاتحة الكتاب: فجعل يجمع بزاقه.

قال القاضي: وفائدة التفل التبرك بتلك الرطوبة والهواء والنفس المباشر للرقية المقارن للذكر الحسن، كما يتبرك بغسالة ما يكتب من الذكر والأسماء.

وقال النووي أيضاً: وأكثر الروايات في الرؤيا «فلينفث» وهو النفخ اللطيف بلا ريق، فيكون التفل والبصق محمولين عليه مجازاً.

وتعقبه الحافظ ابن حجر: بأن المطلوب في الموضوعين مختلف، لأن المطلوب في الرقية التبرك برطوبة الذكر كما تقدم، والمطلوب هنا طرد الشيطان، وإظهار احتقاره واستقذاره كما نقله هو عن عياض كما تقدم.

فالذي يجمع الثلاثة، الحمل على التفل، فإنه نفخ معه ريق لطيف، فبالنظر إلى النفخ قيل له نفث، وبالنظر إلى الريق قيل له بصق.

وأما قوله: «فإنها لا تضره» فمعناه - كما قاله النووي - : أن الله

تعالى جعل ما ذكر سبباً للسلامة من المكروه المرتب على الرؤيا، كما جعل الصدقة وقاية للمال.

وأما التحول، فللتفاؤل بتحول تلك الحال التي كان عليها.

والحكمة في قوله في الرؤيا الحسنة: «ولا يخبر بها إلا من يحب» لأنه إذا حدث بها من لا يحب قد يفسرها له بما لا يجب، إما بغضاً وإما حسداً، فقد تقع على تلك الصفة، أو يتعجل لنفسه من ذلك حزناً ونكداً، فأمر بترك تحديث من لا يجب بسبب ذلك.

[الرؤيا والعاير الأول]

وقد روي من حديث أنس مرفوعاً: الرؤيا لأول عابر. وهو حديث ضعيف، فيه يزيد الرقاشي، ولكن له شاهد أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه، بسند حسن، وصححه الحاكم عن أبي رزين العقيلي رفعه: الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت.

وعند الدارمي^(١) بسند حسن عن سليمان بن يسار عن عائشة قالت: كانت امرأة من أهل المدينة لها زوج تاجر يختلف في التجارة، فأنت رسول الله ﷺ فقالت: إن زوجي غائب، وتركني حاملاً، فرأيت في منامي أن سارية بيتي انكسرت وأني ولدت غلاماً أعور، فقال: خير يرجع زوجك إن شاء الله تعالى صالحاً، وتلدين غلاماً برّاً، فذكرت

(١) عبدالله بن عبد الرحمن السمرقندي، الحافظ، صاحب المسند، شيخ مسلم وأبي داود والترمذي وغيرهم، ثقة متقن فاضل، مات سنة خمس وخمسين ومائتين.

ذلك ثلاثاً^(١)، فجاءت ورسول الله ﷺ غائب، فسألتها^(٢) فأخبرتني بالمنام، فقلت لها: لئن صدقت رؤياك ليموتن زوجك، وتلدن / غلاماً فاجراً، فقعدت تبكي، فجاء رسول الله ﷺ فقال: مه يا عائشة، إذا عبرتم للمسلم الرؤيا فاعبروها على خير، فإن الرؤيا تكون على ما يعبرها صاحبها^(٣).

١/٣١١

وعند سعيد بن منصور بن مرسل عطاء بن أبي رباح: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إني رأيت كأن جائزة بيتي^(٤) انكسرت، وكان زوجها غائباً، فقال: رد الله عليك زوجك، فرجع سالماً، الحديث.

قال أبو عبيد وغيره: معنى قوله: «الرؤيا لأول عابر» إذا كان العابر الأول عالماً، فعبر وأصاب وجه التعبير، وإلا فهي لمن أصاب بعده، إذ ليس المدار إلا على إصابة الصواب في تعبير المنام ليتوصل بذلك إلى مراد الله تعالى فيما ضربه من المثل، فإن أصاب فلا ينبغي أن يسأل غيره، وإن لم يصب فليسأل الثاني، وعليه أن يخبر بما عنده ويبين ما جهل الأول. هكذا قال، وفيه بحث يطول ذكره.

[من آداب المعبر]

ومن آداب المعبر، ما أخرجه عبد الرزاق عن معمر أنه كتب إلى

(١) لتتأكد وتطمئن.

(٢) أي سألتها عائشة عن سبب تعدد مجيئها.

(٣) أي العابر الذي تقص عليه.

(٤) أي ساريتها.

أبي موسى: فإذا رأى أحدكم رؤيا فقصها على أخيه فليقل: خير لنا وشر لأعدائنا. ورجاله ثقات، ولكن سنده منقطع.

وفي حديث ابن زمل عند الطبراني والبيهقي في الدلائل: لما قص على النبي ﷺ رؤياه، فقال ﷺ: خير تتلقاه وشر تتوقاه، وخير لنا وشر على أعدائنا والحمد لله رب العالمين اقصص علي رؤياك. الحديث، وسنده ضعيف جداً، ويأتي إن شاء الله تعالى.

ومن آداب المعبر أن لا يعبرها عند طلوع الشمس ولا عند غروبها، ولا عند الزوال، ولا في الليل، وأن لا يقصها على امرأة، لكن ثبت أنه ﷺ كان إذا صلى الغداة يقول: هل رأى أحد الليلة رؤيا، فيقص عليه ما شاء الله أن يقص، ويعبر لهم ما يقصون، وبوب عليه البخاري: باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح.

قالوا: وفيه إشارة إلى ضعف ما أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن سعيد بن عبد الرحمن عن بعض علمائهم قال: لا تقص رؤياك على امرأة، ولا تخبر بها حتى تطلع الشمس، وفيه إشارة إلى الرد على من قال من أهل التعبير: إن المستحب أن يكون التعبير من بعد طلوع الشمس إلى الرابعة، ومن العصر إلى قبل الغروب، فإن الحديث دل على استحباب تعبيرها قبل طلوع الشمس، فلا يخالف قولهم بكراهة تعبيرها في أوقات كراهة الصلاة.

قال المهلب^(١): تعبير الرؤيا عند صلاة الصبح أولى من غيره من

(١) المهلب: أبو القاسم بن أحمد بن أسيد بن أبي صفرة التميمي الأندلسي، من العلماء الراسخين في الفقه والحديث والعبادة، أحيا صحيح البخاري بالأندلس وشرحه، مات سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة.

الأوقات، لحفظ صاحبها لها لقرب عهده بها، وقبل ما يعرض له نسيانها، ولحضور ذهن العابر وقلة شغله بالفكرة فيما يتعلق بمعاشه، وليعرف الرائي ما يعرض له بسبب رؤياه، فيستبشر بالخير ويحذر من الشر، ويتأهب لذلك، فربما كان في الرؤيا تحذير من معصية فكيف عنها، وربما كانت إنذاراً لأمر فيكون له مترقباً. قال: فهذه عدة فوائد لتعبير الرؤيا أول النهار. قاله في فتح الباري.

[آداب الرائي]

وذكر أئمة التعبير أن من آداب الرائي أن يكون صادق اللهجة، وأن ينام على وضوء، على جنبه الأيمن، وأن يقرأ عند نومه والشمس، والليل، والتين، وسورة الإخلاص والمعوذتين وأن يقول: اللهم إني أعوذ بك من سيء الأحلام، وأستجير بك من تلاعب الشيطان في اليقظة والنام، اللهم إني أسألك رؤيا صالحة صادقة نافعة حافظة غير منسية، اللهم أرني في منامي ما أحب. وأن لا يقصها على عدو ولا جاهل.

[أنواع المرائي]

إذا علمت هذا، فاعلم أن جميع المرائي تنحصر في قسمين:

- أضغاث أحلام وهي لا تنذر بشيء وهي أنواع:

الأول: تلاعب الشيطان ليحزن الرائي، كأن يرى أنه قطع رأسه وهو يتبعه، أو رأى أنه واقع في هول ولا يجد من ينجده ونحو ذلك. وروى مسلم عن جابر: جاء أعرابي فقال: يا رسول الله، إني

حلمت أن رأسي / قطع وأنا أتبعه، فزجره ﷺ وقال: لا تخبر بتلعب ٣١١/ب
الشیطان بك في المنام.

الثاني: أن يرى أن بعض الملائكة يأمره أن يفعل المحرمات
ونحوه من المحال عقلاً.

الثالث: ما يحدث به نفسه في اليقظة أو يتمناه، فيراه كما هو في
المنام، وكذا رؤية ما جرت به عادته في اليقظة، أو ما يغلب على
مزاجه ويقع على المستقبل غالباً، وعن الحال كثيراً، وعن الماضي
قليلاً.

● القسم الثاني: الرؤيا الصادقة، وهي رؤيا الأنبياء، ومن
تبعهم من الصالحين، وقد تقع لغيرهم بندور، وهي التي تقع في
اليقظة على وفق ما وقعت في النوم، وقد وقع لنبينا ﷺ من الرؤيا
الصادقة التي كفلت الصبح ما لا يعد ولا يحد.

قالت عائشة: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا
الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.
الحديث رواه البخاري.

وفي رواية^(١): الرؤيا الصالحة.

وهما بمعنى واحد بالنسبة إلى أمور الآخرة في حق الأنبياء، وأما
بالنسبة إلى أمور الدنيا، فالصالحة في الأصل أخص. فرؤيا النبي ﷺ
كلها صادقة، وقد تكون صالحة وهو الأكثر، وغير صالحة بالنسبة إلى
الدنيا، كما وقع في الرؤيا يوم أحد، فإنه ﷺ رأى بقرأ تذبح، ورأى

(١) هي للشيخين كالتالي قبلها.

في سيفه ثلماً، فأول البقر ما أصاب أصحابه يوم أحد، والثلثم الذي في سيفه برجل من أهل بيته يقتل، ثم كانت العاقبة للمتقين، وكان بعد ذلك النصر والفتح على الخلق أجمعين.

وأما رؤيا غير الأنبياء، فبينها عموم وخصوص إن فسرنا الصادقة بأنها التي لا تحتاج إلى تفسير، وأما إن فسرناها بأنها غير الأضغاث فالصالحة أخص مطلقاً.

وقال الإمام نصر بن يعقوب الدينوري في «التعبير القادري»: الرؤيا الصالحة ما يقع بعينه، أو ما يعبر في المنام، أو يخبر به من لا يكذب، والصالحة ما فسر.

[درجات الناس في الرؤيا]

وأعلم أن الناس في الرؤيا على ثلاث درجات:

الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - ورؤياهم كلها صدق، وقد يقع فيها ما يحتاج إلى تعبير.

والصالحون: والأغلب على رؤياهم الصدق، وقد يقع فيها ما يحتاج إلى تعبير.

ومن عداهم، يقع في رؤياهم الصدق والأضغاث، وهم على ثلاثة أقسام: مستورون، فالغالب استواء الحال في حقهم، وفسقة فالغالب على رؤياهم الأضغاث ويقل فيها الصدق، وكفار: ويندر في رؤياهم الصدق جداً، ويشير إلى ذلك قوله ﷺ: وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً، أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

وقد وقعت الصادقة من بعض الكفار كما في رؤيا صاحبي
السجن مع يوسف عليه السلام، ورؤيا ملكهما وغير ذلك.

وقد روى الإمام أحمد مرفوعاً، وصححه ابن حبان من حديث
أبي سعيد: أصدق الرؤيا بالأسحار. وذكر الإمام نصر بن يعقوب
الدينوري أن الرؤيا أول الليل يبطنها، ومن النصف الثاني
يسرع بتفاوت أجزاء الليل، وإن أسرعها تأويلاً رؤيا السحر، ولا سيما
عند طلوع الفجر، وعن جعفر الصادق أسرعها تأويلاً رؤيا القيلولة،
وعن محمد بن سيرين: رؤيا النهار مثل رؤيا الليل، والنساء مثل
الرجال، وعن القيرواني: أن المرأة إذا رأت ما ليست له أهلاً فهو
لزوجها، وكذا حكم العبد لسيده، كما أن رؤيا الطفل لأبويه.

[من مرائيه ﷺ]

[شرب اللبن]

ومن مرائيه الكريمة ﷺ: شربه اللبن وتعبه بالعلم، كما في
حديث ابن عمر عند البخاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:
بينما أنا نائم أتيت بقدر لبن فشربت منه، حتى إنني لأرى الري يخرج
من أظفاري، ثم أعطيت فضلي، يعني عمر، قالوا: فما أولته يا رسول
الله؟ قال: العلم.

وفي/ رواية الكشميهني: من أظفيري، وفي رواية صالح بن
كيسان: من أطرافي.

وهذه الرؤية يحتمل أن تكون بصرية، وهو الظاهر، ويحتمل أن

تكون علمية، ويؤيد الأول: ما أخرجه الحاكم والطبراني من طريق أبي بكر بن عبدالله بن عمر عن أبيه عن جده في هذا الحديث: فشربت حتى رأيتَه يجري في عروقي بين الجلد واللحم، على أنه محتمل أيضاً^(١).

قال بعض العارفين^(٢): الذي خلص اللبن من بين فرث ودم قادر على أن يخلق المعرفة من بين شك وجهل، وهو كما قال، لكن اطردت العادة بأن العلم بالتعلم والذي ذكره قد يكون خارقاً للعادة فيكون من باب الكرامة.

وقال العارف ابن أبي جهرة: تأول النبي ﷺ اللبن بالعلم اعتباراً بما بين له أول الأمر حين أتى بقدر خمر وقدر لبن، فأخذ اللبن فقال له جبريل: أخذت الفطرة، انتهى.

وقد جاء في بعض الأحاديث المرفوعة تأويله بالفطرة، كما أخرجه البزار من حديث أبي هريرة رفعه: اللبن في المنام فطرة.

وذكر الدينوري: أن اللبن المذكور في هذا يختص بلبن الإبل، وأنه لشاربه مال حلال وعلم، قال: ولبن البقر خصب السنة ومال حلال وفطرة أيضاً، ولبن الشاة مال وسرور وصحة جسم، وألبان الوحش شك في الدين، وألبان السباع غير محمودة، إلا أن لبن اللبوة مال مع عداوة لذي أمر.

وفي الحديث: أن علم النبي ﷺ بالله لا يبلغ أحد درجته فيه، لأنه شرب حتى رأى الري يخرج من أطرافه.

(١) أي محتمل لأن تكون رؤيا علمية.

(٢) هو القاضي أبو بكر بن العربي.

وأما إعطاؤه فضله لعمر، ففيه إشارة إلى ما حصل لعمر من العلم بالله بحيث كان لا تأخذه في الله لومة لائم، ووجه التعبير في الحديث بذلك من جهة اشتراك اللبنة والعلم في كثرة النفع، وكونها سبباً للصالح، فاللبنة للغذاء البدني، والعلم للغذاء المعنوي.

[تعبير القميص بالدين]

ومن ذلك رؤيته ﷺ القميص وتعبيره بالدين.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: بينما أنا نائم رأيت الناس يعرضون علي وعليهم قمص منها ما يبلغ الثدي، ومنها ما يبلغ دون ذلك، ومرّ عليّ عمر وعليه قميص يجره. قالوا: ما أولته يا رسول الله؟ قال: الدين، رواه البخاري.

وفي رواية الترمذي الحكيم من طريق أخرى في هذا الحديث، فقال أبو بكر: علام تؤول^(١) هذا يا رسول الله.

و«الثدي» بضم المثناة وكسر الدال وتشديد الياء، جمع ثدي، بفتح ثم سكون، والمعنى: أن القميص قصير جداً بحيث لا يستر من الخلق إلى نحو السرة بل فوقها.

وقوله: «ومنها ما يبلغ دون ذلك» يحتمل أن يريد به من جهة السفلى، وهو الظاهر فيكون أطول، ويحتمل أن يكون دونه من جهة العلو فيكون أقصر، ويؤيد الأول ما في رواية الترمذي الحكيم المذكورة: فمنهم من كان قميصه إلى سرتة، ومنهم من كان قميصه إلى ركبته، ومنهم من كان قميصه إلى أنصاف ساقيه.

(١) في (ش، د): تأولت.

ويجوز النصب في قوله «الدين» والتقدير: أولته الدين، ويجوز الرفع.

وفي رواية الحكيم المذكورة: على الإيمان.

وقد قيل في وجه تعبير القميص بالدين أن القميص يستر العورة في الدنيا، والدين يسترها في الآخرة ويجبها عن كل مكروه، والأصل فيه قوله تعالى: ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾^(١).

واتفق أهل التعبير على أن القميص يعبر بالدين، وأن طوله يدل على بقاء آثار صاحبه من بعده. وقال ابن العربي: إنما أول ﷺ القميص بالدين، لأن الدين يستر عورة الجهل، كما يستر القميص عورة البدن. قال: وأما غير عمر فالذي كان يبلغ الثدي هو الذي يستر قلبه عن الكفر ولو كان يتعاطى المعاصي، والذي كان يبلغ أسفل من ذلك وفرجه بادٍ هو الذي لم يستر رجله عن المشي إلى المعصية، والذي يستر رجله هو الذي احتجب بالتقوى من جميع الوجوه، والذي يجز قميصه زاد على ذلك بالعمل الصالح الخالص.

ب/٣١

وأشار العارف ابن أبي جمرة: إلى أن المراد بالناس في الحديث: المؤمنون، لتأويله القميص بالدين، قال: والذي يظهر أن المراد خصوص هذه الأمة المحمدية، بل بعضها، والمراد بالدين العمل بمقتضاه، كالحرص على امتثال الأوامر واجتناب المناهي، وكان لعمر في ذلك المقام العالي.

قال: ويؤخذ من هذا الحديث، أن كل ما يرى في القميص من حسن أو غيره فإنه يعبر بدين لابس، قال: والنكته في القميص أن

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٦.

لابسه إذا اختار نزعه، وإذا اختار أبقاه، فلما ألبس الله المؤمنين لباس الإيمان واتصفوا به كان الكامل في ذلك سابغ الأثواب، ومن لا فلا، وقد يكون نقص الثوب بسبب نقص الإيمان، وقد يكون بسبب نقص العمل.

وفي الحديث: أن أهل الدين يتفاضلون في الدين بالقلة والكثرة، وبالقوة والضعف، وهذا من أمثلة ما يحمد في المنام ويذم في اليقظة شرعاً، أعني جر القميص، لما روي من الوعيد في تطويله.

[سواران من ذهب]

ومن ذلك رؤيته ﷺ السوارين الذهب في يده الشريفة وتعبيرهما بالكذابين.

روى البخاري عن عبيد الله بن عبد الله قال: سألت عبد الله بن عباس عن رؤيا النبي ﷺ التي ذكر فقال ابن عباس ذكر لي أن رسول الله ﷺ قال: بينا أنا نائم إذ رأيت أنه وضع في يديّ سواران من ذهب ففقطعتها وكرهتها، فأذِنَ لي فنفختها فطارا، فأولتها كذابين يخرجان. فقال عبيد الله: أحدهما العنسي الذي قتله فيروز باليمن، والآخر مسيلمة.

وفي رواية أبي هريرة عند الشيخين: بينا أنا نائم إذ أوتيت خزائن الأرض فوضع في يديّ سواران من ذهب، فكبرا عليّ وأهمني، فأوحى إليّ أن أنفخهما، فأولتها الكذابين أنا بينهما، صاحب صنعاء وصاحب اليمامة.

قال المهلب: هذه الرؤيا ليست على وجهها، وإنما هي ضرب من المثل، وإنما أول النبي ﷺ السوارين بالكذابين لأن الكذب وضع

الشيء في غير موضعه، فلما رأى في يديه سوارين من ذهب وليس من لبسه، لأنها من حلية النساء، عرف أنه سيظهر من يدعي ما ليس له. وأيضاً: ففي كونها من ذهب، والذهب منهي عن لبسه، دليل على الكذب، وأيضاً: فالذهب مشتق من الذهاب، فعلم أنه شيء يذهب عنه، وتأكد ذلك بالإذن له في نفخهما فطارا، فعرف أنه لا ينسب إليهما أمر، وأن كلامه بالوحي الذي جاء به يزيلهما من موضعهما.

وقال ابن العربي: كان النبي ﷺ يتوقع بطلان أمر مسيلمة والعنسي، فأول الرؤيا عليهما ليكونا ذلك، إخراجاً للمنام عليهما، فإن الرؤيا إذا عبرت خرجت. ويحتمل أن يكون بوحي.

والمراد بـ«خزائن الأرض» التي ذكر، ما فتح على أمته من الغنائم، ومن ذخائر كسرى وقيصر وغيرهما، ويحتمل معادن الأرض التي فيها الذهب والفضة.

وقال القرطبي: إنما كبر عليه السواران لكون الذهب من حلية النساء، ومما حرم على الرجال، وفي طيرانها إشارة إلى اضمحلال أمرهما، ومناسبة هذا التأويل لهذه الرؤيا، أن أهل صنعاء وأهل اليمامة كانوا أسلموا، فكانوا كالساعدين للإسلام، فلما ظهر الكذبان، وبهرجا على أهلها بزخرف أقوالها ودعاويها الباطلة انخدع أكثرهم بذلك، فكان اليدين بمنزلة البلدين، والسوارين بمنزلة الكذابين، وكونها من ذهب إشارة إلى ما زخرفا، والزخرف من أسماء الذهب.

وقال أهل التعبير: من رأى أنه يطير/، فإن كان إلى جهة السماء تعريجاً ناله ضرر، فإن غاب في السماء ولم يرجع مات، وإن رجع أفاق من مرضه، وإن كان يطير عرضاً سافر ونال رفعة بقدر طيرانه.

١/٣١٣

[المرأة السوداء الثائرة الرأس]

ومن ذلك: رؤيته ﷺ المرأة السوداء الثائرة الرأس، وتعبيرها بنقل وباء المدينة إلى الجحفة.

روى البخاري من حديث عبدالله بن عمر، أن النبي ﷺ قال: رأيت امرأة سوداء ثائرة الرأس، خرجت من المدينة حتى قامت بمهيعة - وهي الجحفة - فأولت أن وباء المدينة نقل إليها.

وهذا من قسم الرؤيا المعبرة، وهي مما ضرب به المثل، ووجه التمثيل أنه شق من اسم السوداء: السوء والداء، فتأول خروجها بما جمع اسمها، وتأول من ثوران شعرها أن الذي يسوء ويثير الشر يخرج من المدينة.

وقال القيرواني من أهل التعبير: كل شيء غلبت عليه السوداء في أكثر وجوها فهو مكروه، وقال غيره: ثوران الرأس يؤول بالحمى لأنها تثير البدن بالاقشعرار وبارتفاع الرأس، لا سيما من السوداء فإنها أكثر استيحاشاً.

[درع حصينة وبقر تنحر]

ومن ذلك: رؤيته ﷺ أنه في درع حصينة وبقرأ تنحر وتعبير ذلك.

عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهي^(١) إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا

(١) أي وهمي واعتقادي. وهي في (١): ذهني.

هي المدينة يثرب، ورأيت فيها بقرأً، والله خير، فإذا هم النفر من المؤمنين يوم أحد، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير بعد، وثواب الصدق الذي أتانا^(١) بعد يوم بدر. رواه البخاري ومسلم.

وروى الإمام أحمد وغيره عن جابر: أن النبي ﷺ قال: رأيت كأني في درع حصينة، ورأيت بقرأً تنحر، فأولت الدرع الحصينة بالمدينة، والبقر بقرأً.

وهذه اللفظة الأخيرة وهي «بقر» بفتح الموحدة، وسكون القاف، مصدر بقره يبقره بقرأً.

ولهذا الحديث سبب جاء بيانه في حديث ابن عباس عند أحمد أيضاً والنسائي والطبراني، وصححه الحاكم من طريق أبي الزناد عن عبيد الله بن عبد الله^(٢) بن عتبة عن ابن عباس في قصة أحد، وإشارة النبي ﷺ عليهم أن لا يبرحوا من المدينة، وإيثارهم الخروج لطلب الشهادة، ولبسه الأمانة^(٣) وندامتهم على ذلك، وقوله ﷺ: لا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل، وفيه: إني رأيت أني في درع حصينة الحديث، بنحو حديث جابر، وأتم منه، وقد تقدمت الإشارة إليه في غزوة أحد من المقصد الأول.

والمراد بقوله: «وإذا الخير ما جاء الله به من الخير وثواب الصدق الذي أتانا الله بعد يوم بدر» فتح خير ثم مكة، أي ما جاء الله به بعد بدر الثانية من تثبيت قلوب المؤمنين.

(١) سقط من قلم المصنف لفظ الجلالة هنا (الله) وهو ثابت في الصحيحين.

(٢) ابن عبد الله، سقطت من (١).

(٣) الدرع.

قال في فتح الباري: وفي هذا السياق إشعار بأن قوله في الخبر «والله خير» من جملة الرؤيا. قال: والذي يظهر لي أن لفظة «والله خير» لم يتحرر إيراده^(١)، وأن رواية ابن إسحاق هي المحررة، وأنه رأى بقرأ ورأى خيراً، فأول البقر على من قتل من الصحابة يوم أحد، وأول الخير على ما حصل لهم من ثواب الصدق في القتال والصبر على الجهاد يوم بدر وبعده إلى فتح مكة، والمراد بالبعدية على هذا لا يختص بما بين بدر وأحد نبه عليه ابن بطال.

[رؤيته ﷺ الرطب]

ومن ذلك رؤيته ﷺ أنه أتى برطب. روى مسلم عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: رأيت الليلة فيما يرى النائم، كأني في دار عقبة بن رافع^(٢)، وأتيت برطب من رطب ابن طاب^(٣)، فأولته بأن الرفعة لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب.

[رؤيته ﷺ سيفاً يهزه]

ومن ذلك: رؤيته ﷺ سيفاً يهزه، وتعبيره/ [ما روي]^(٤) في حديث أبي موسى المتقدم أنه قال: ورأيت في رؤيائي هذه أني هزرت سيفاً فانقطع صدره فإذا هو ما أصيب به المؤمنون يوم أحد، ثم هزرته أخرى فعاد أحسن ما كان. فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين. رواه الشيخان.

(١) أي من راويه.

(٢) صحابي أنصاري.

(٣) نوع من أنواع تمر المدينة منسوب إلى ابن طاب، رجل من أهلها.

(٤) في (د، ط، ش).

وهذه أيضاً من ضرب المثل، ولما كان ﷺ يصول بالصحابة عبر عن السيف بهم، وبهزه عن أمره لهم بالحرب، وعن القطع فيه بالقتل فيهم، وفي الهزة الأخرى لما عاد إلى حالته من الاستواء عبر به عن اجتماعهم والفتح عليهم.

وقال أهل التعبير: السيف يصرف على أوجه؛ منها أن من نال سيفاً فإنه ينال سلطاناً، وإما ولاية وإما وديعة، وإما زوجة وإما ولدأ، فإن سله من غمده فانتلم سلمت زوجته وأصيب ولده، فإن انكسر الغمد وسلم السيف فبالعكس، فإن سلما أو عطبا فكذلك. وقائم السيف يتعلق بالأب والعصابات، ونعله بالأُم وذوي الرحم، وإن جرد السيف وأراد قتل شخص فهو لسانه يجرده في خصومة. وربما عبر السيف بسلطان جائر.

وقال بعض أهل التعبير أيضاً: من رأى أنه أغمد سيفاً فإنه يتزوج، أو ضرب شخصاً بسيف فإنه يبسط لسانه فيه، ومن رأى أنه يقاتل آخر وسيفه أطول من سيفه فإنه يغلبه، ومن رأى سيفاً عظيماً فهو فتنة، ومن قلد سيفاً قلد أمراً، فإن كان قصيراً لم يدم أمره.

[رؤيته ﷺ أنه على قلب]

ومن ذلك: رؤيته ﷺ أنه على قلب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: بينا أنا نائم، رأيتني على قلب^(١)، وعليها دلو، فنزعت منها ما شاء الله، ثم

(١) بئر لم يطو.

أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوباً أو ذنوبين^(١)، وفي نزعه ضعف،
والله يغفر له، ثم استحالت غرباً^(٢) فأخذها عمر بن الخطاب، فلم أر
عبقرياً من الناس ينزع نزع ابن الخطاب حتى ضرب الناس بعطن^(٣).

وعبقرى القوم: سيدهم وكبيرهم وقويمهم.

وفي رواية: فلم يزل ينزع حتى تولى الناس والحوض يتفجر.

وفي رواية: فأتاني أبو بكر فأخذ الدلو من يدي ليريحني.

وفي رواية موسى عن سالم عن أبيه: رأيت الناس اجتمعوا فقام
أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له، ثم قام
عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً، فما رأيت من الناس يفري فريه
حتى ضرب الناس بعطن. رواه البخاري.

قال النووي: قالوا هذا المنام مثال لما جرى للخليفين، من
ظهور آثارهما الصالحة، وانتفاع الناس بهما، وكل ذلك مأخوذ من
النبي ﷺ، لأنه صاحب الأمر، فقام به أكمل مقام، وقرر به قواعد
الدين، ثم خلفه أبو بكر فقاتل أهل الردة وقطع دابرهم، ثم خلفه
عمر فاتسع الإسلام في زمنه. فشبه أمر المسلمين بقلب فيه الماء الذي
فيه حياتهم وصلاتهم، وأميرهم المستقي لهم منها، وفي قوله: «فأخذ
الدلو من يدي ليريحني» إشارة إلى خلافة أبي بكر بعد موته ﷺ، لأن
الموت راحة من كد الدنيا وتعبها، فقام أبو بكر بتدبير أمر الأمة ومعاناة
أحوالهم. وأما قوله: «وفي نزعه ضعف» فهو إخبار عن حاله في قصر
مدة ولايته، وأما ولاية عمر فإنها لما طالت كثر انتفاع الناس بها

(١) الذنوب: الدلو الممتلئ.

(٢) أي دلواً عظيماً.

(٣) أي رويت إبلهم.

واتسعت دائرة الإسلام بكثرة الفتوح وتمصير الأمصار وتدوين
الدواوين، وليس في قوله ﷺ: «والله يغفر له» نقص، ولا إشارة إلى أنه
وقع منه ذنب، وإنما هي كلمة كانوا يقولونها. وقوله: «فاستحالت في
يده غرباً» أي تحولت الدلو غرباً - بفتح المعجمة وسكون الراء بعدها
موحدة - أي: دلواً عظيماً.

وأخرج أحمد وأبو داود عن سمرة بن جندب أن رجلاً قال: يا
رسول الله، رأيت كأن دلواً عظيماً دلي من السماء فجاء أبو بكر فأخذ
بعراقيها فشرب شرباً ضعيفاً، / ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى
تضلع، ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع، ثم جاء علي
فانتشطت^(١) وانتضح^(٢) عليه منها شيء.

١/٣١٤

والعراقي: جمع عرقوة الدلو، وهي الخشبة المعروضة على فم
الدلو، وهما عرقوتان كالصليب، وقد يقال: عرقت الدلو إذا ركبت
العرقوة فيها.

وانتشطت: أي جذبت ورفعت.
فهذه نبذة من مرائيه الكريمة ﷺ مع تعبيرها.

[تعبيره ﷺ ما رآه الصحابة]

وأما ما رآه غيره فعبر ﷺ له بما يخص ويعم من أمور الدنيا
والآخرة.

(١) أي نزعته منه فاضطرب وسقط بعض ما فيها.

(٢) رش.

[سؤاله ﷺ الصحابة عن رؤياهم]

فقد كان ﷺ إذا انفتل من صلاة الصبح أقبل على الصحابة فيقول: من رأى منكم الليلة رؤيا فليقصها علي أعبرها له، فيقص الناس عليه مرأئهم.

وروى البخاري والترمذي عن سمرة بن جندب قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول لأصحابه: هل رأى أحد منكم رؤيا؟ فيقص عليه من شاء الله أن يقص، وأنه قال ذات غداة: هل رأى أحد منكم رؤيا، وقالوا: ما منا أحد رأى شيئا، قال: لكني أتاني الليلة آتيان، وإنما ابتعثاني فقالا لي: انطلق، فانطلقت فأتيت على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه فتلغ (١) رأسه، الحديث (٢).

[تركه ﷺ سؤال الصحابة عن مرأئهم]

وأقام ﷺ يسأل أصحابه: هل رأى منكم الليلة أحد رؤيا، ما شاء الله، ثم ترك السؤال، فكان يعبر لمن قص متبرعا. واختلف النقلة في سبب تركه السؤال:

فقيل: سبب ذلك حديث أبي بكرة - عند الترمذي وأبي داود - أنه ﷺ قال ذات يوم: من رأى منكم رؤيا؟ فقال رجل: أنا يا رسول الله، رأيت كأن ميزانا نزل من السماء، فوزنت أنت وأبو بكر فرجحت أنت بأبي بكر، ووزن أبو بكر وعمر فرجح أبو بكر، ووزن عمر

(١) أي تشدخ.

(٢) رواه البخاري بطوله برقم ٧٠٤٧.

وعثمان فرجح عمر، ثم رفع الميزان. فرأينا الكراهة في وجه رسول الله ﷺ. انتهى. قالوا: فمن حينئذ لم يسأل رسول الله ﷺ أحداً عن رؤيا.

قال بعضهم: وسبب كراهته ﷺ إيثاره لستر العواقب وإخفاء المراتب، فلما كانت هذه الرؤيا كاشفة لمنازلهم مبينة لفضل بعضهم على بعض في التعيين خشي أن يتواتر ويتوالى ما هو أبلغ في الكشف من ذلك، والله في ستر خلقه حكمة بالغة ومشيتة نافذة.

[حديث ضعيف جداً]

وقال ابن قتيبة - فيما ذكره ابن المنير - : سبب تركه السؤال في حديث ابن زمل: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح قال ﷺ وهو ثاب رجليه: سبحان الله وبحمده واستغفر الله، إن الله كان تواباً، سبعين مرة، ثم يقول: سبعون بسبعائة، لا خير فيمن كانت ذنوبه في يوم أكثر من سبعائة، ثم يستقبل الناس بوجهه فيقول: هل رأى أحد منكم شيئاً؟ قال ابن زمل: فقلت ذات يوم أنا يا رسول الله، قال: خير تتلقاه وشر تتوقاه، وخير لنا وشر لأعدائنا، والحمد لله رب العالمين اقصص رؤياك.

قال: رأيت جميع الناس على طريق رحب لاحب سهل^(١)، والناس على الجادة منطلقون، فبينما هم كذلك أشفى^(٢) ذلك الطريق بهم على مرج لم ترعيني مثله، يرف رفيفاً^(٣)، يقطر نداء، فيه من أنواع

(١) الرحب: الواسع، واللاحب: الواضح، والسهل: الذي لا صعوبة فيه.

(٢) أي أشرف.

(٣) أي يكثر ماؤه.

الكلاء، فكأني بالرعدة^(١) الأولى حين أشرفوا على المرج كبروا ثم أكبوا رواحلهم^(٢) في الطريق فلم يضلوه يميناً وشمالاً، ثم جاءت الرعدة الثانية من بعدهم، وهم أكثر منهم أضعافاً، فلما أشفوا على المرج كبروا، ثم أكبوا رواحلهم في الطريق، فمنهم المرتع^(٣)، ومنهم الآخذ الضغث^(٤)، ومضوا على ذلك. قال: ثم قدم عظم الناس، فلما أشفوا على المرج كبروا وقالوا: هذا خير المنزل، فمالوا في المرج يميناً وشمالاً، فلما رأيت ذلك لزمت الطريق حتى أتيت أقصى المرج، فإذا أنا بك يا رسول الله على منبر فيه سبع درجات، وأنت في أعلاها درجة، وإذا عن يمينك رجل أفنى آدم^(٥)، إذا هو/ تكلم يسمو^(٦)، يكاد يفرع الرجال طولاً، وإذا عن يسارك رجل ربعة تار^(٧) أحمر، كثير خيلان^(٨) الوجه، إذا هو تكلم أصغيتم إليه إكراماً له، وإذا أمام ذلك شيخ كأنكم تقتدون به، وإذا أمام ذلك ناقة عجفاء شارف^(٩)، وإذا أنت كأنك تبعثها يا رسول الله.

قال: فانتقع^(١٠) لون رسول الله ﷺ ساعة، ثم سري عنه^(١١)،

(١) القطعة من الفرسان.

(٢) أي أرسلوها.

(٣) الذي يخلي ركابه ترتع تسعى وترعى كيف شاءت.

(٤) قبضة من حشيش مختلط.

(٥) الأفتى: المرتفع وسط الأنف، والآدم: الأسمر.

(٦) في ط: يسمع.

(٧) أي: مسترخ من جوع أو غيره.

(٨) جمع خال: أي شامات.

(٩) عجفاء: مهزولة، شارف: مسنة.

(١٠) تغير.

(١١) كشف عنه.

فقال: أما ما رأيت من الطريق الرحب اللاحب السهل، فذلك ما حملتكم عليه من الهدى، فأنتم عليه، وأما المرج الذي رأيت فالدنيا وغضارة^(١) عيشها، لم نتعلق بها ولم تردنا ولم نردها، وأما الرعلة الثانية والثالثة - وقص كلامه - فإننا لله وإنا إليه راجون، وأما أنت فعلى طريقة صالحة، فلن تزال عليها حتى تلقاني، وأما المنبر فالدنيا سبعة آلاف سنة، أنا في آخرها ألفاً، وأما الرجل الطويل الآدم فذلك موسى، نكرمه بفضل الله إياه، وأما الرجل الربعة التار الأحمر، فذلك عيسى عليه السلام نكرمه بفضل منزلته من الله، وأما الشيخ الذي رأيت كأننا نقتدي به فذلك إبراهيم عليه السلام، وأما الناقة العجفاء الشارف التي رأيتني أبعثها فهي الساعة عليها، أي على الأمة تقوم، لأنه لا نبي بعدي ولا أمة بعد أمي.

قال الراوي: فما سأل رسول الله ﷺ بعد هذا أحداً عن رؤيا، إلا أن يجيء الرجل متبرعاً فيحدثه بها. رواه ابن قتيبة والطبراني والبيهقي في الدلائل، وسنده ضعيف جداً.

[رؤيا زرارة النخعي]

ومن غريب ما نقل عنه ﷺ من التعبير، أن زرارة بن عمرو النخعي قدم على رسول الله ﷺ في وفد النخع، فقال: يا رسول الله، إني رأيت في طريقي هذا رؤيا، رأيت أتانا تركتها في الحمي ولدت جدياً أسفع أحوى، فقال له رسول الله ﷺ: هل لك من أمة تركتها مصرّة حملاً؟ قال: نعم، تركت أمة أظنها قد حملت، قال: فقد ولدت غلاماً

(١) أي طيب.

وهو ابنك، قال: فما باله أسفع أحوى؟ قال: ادن مني، فدنا منه، قال: هل بك برص تكتمه؟ قال: نعم والذي بعثك بالحق ما رآه مخلوق ولا علم به أحد، قال فهو ذاك.

قال: ورأيت النعمان بن المنذر عليه قرطان ودملجان^(١) ومسكتان، قال: ذلك مُلك العرب عاد إلى أفضل زيه وبهجته.

قال: ورأيت عجوزاً شمطاء تخرج من الأرض، قال: تلك بقية الدنيا.

قال: ورأيت ناراً خرجت من الأرض فحالت بيني وبين ابن لي يقال له عمرو، ورأيته تقول: لظى لظى، بصير وأعمى، آكلكم وأهلكم ومالكم فقال النبي ﷺ: تلك فتنة تكون في آخر الزمان، قال: وما الفتنة يا رسول الله؟ قال: يفتك الناس بإمامهم ثم يشتجرون اشتجار أطباق الرأس، وخالف ﷺ بين أصابعه، يحسب المسيء أنه محسن، ودم المؤمن عند المؤمن أحلى من شرب الماء البارد^(٢).

فانظر إلى هذا التعبير البارز من مشكاة النبوة، محشواً حلاوة الحق، مكسواً طلاوة الصدق مجلواً بأنوار الوحي.

والأسفع: الذي أصاب جسده لون آخر.

والأحوى: الأسود الذي ليس بالشديد.

والمسكتان: السواران من ذهب.

وأطباق الرأس: عظامه.

والاشتجار: الاختلاف والاشتباك.

(١) دملجان: شيء يشبه السوار.

(٢) سبق ذكر هذه الرؤيا بتمامها في ج ٢ ص ٢١٠.

فإن قلت: تعبيره ﷺ السوارين هنا يرجع إلى بشرى، وعبرهما بالكذابين فيما مر.

أجيب: بأن النعمان بن المنذر كان ملك العرب، وكان مملكاً من جهة الأكاسرة، وكانوا يسورون الملوك ويحلونهم، وكان السواران من زي النعمان ليسا بمنكرين في حقه، ولا موضوعين في غير موضعهما عرفاً، وأما النبي فنهى عن لباس الذهب لأحاديثه فجدير أن يهمله ذلك لأنه ليس من زيه، فاستدل به على أمر يوضع في غير موضعه، ولكن حمدت العاقبة بذهابهما، والله الحمد.

[رؤيا ابن سلام]

ومن ذلك: ما روي عن قيس بن عباد - بضم العين وتخفيف الموحدة - قال: كنت في حلقة فيها سعد بن مالك^(١) وابن عمر، فمر عبدالله بن سلام/ فقالوا: هذا رجل من أهل الجنة، فقلت له: إنهم قالوا كذا وكذا، قال: سبحان الله، ما كان ينبغي لهم أن يقولوا ما ليس لهم به علم، إنما رأيت كأنما عمود وضع في روضة خضراء، فنصب فيها، وفي رأسها عروة، وفي أسفلها منصف - والمنصف الوصيف^(٢) - فقال: ارقه، فرقيته حتى أخذت بالعروة، فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال: يموت عبدالله وهو آخذ بالعروة الوثقى. رواه البخاري^(٣).

(١) هو ابن أبي وقاص.

(٢) المنصف: الخادم.

(٣) وكذا رواه مسلم، وروى الشيخان من حديث سعد بن أبي وقاص: ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبدالله بن سلام.

وفي رواية خرشة: بيننا^(١) أنا نائم أتاني رجل فقال لي قم، فأخذ بيدي فانطلقت معه، فإذا أنا بجواد - بجيم ودال مشددة، جمع جادة وهي الطريق المسلوك - عن شمالي، قال: فأخذت لآخذ فيها - أي أسير - فقال: لا تأخذ فيها فإنها طريق أهل الشمال.

وفي رواية النسائي من طريقه: فبينما أنا أمشي إذ عرض لي طريق عن شمالي، فأردت أن أسلكها، فقال: إنك لست من أهلها. وفي رواية مسلم: فإذا منهج عن يميني، فقال لي خذها هنا، فأق بي جبلاً فقال لي: اصعد، قال فجعلت إذا أردت أن أصعد خرت، حتى فعلت ذلك مراراً.

وفي رواية ابن عون: فقال تلك الروضة روضة الإسلام، وذلك العمود عمود الإسلام، وتلك العروة، العروة الوثقى، لا تزال متمسكاً بالإسلام حتى تموت.

وفي رواية خرشة عند النسائي وابن ماجه قال: رأيت خيراً، أما المنهج فالمحشر وأما الجبل فهو منزل الشهداء، زاد مسلم: ولن تناله. وهذا علم من أعلام نبوة نبينا ﷺ فإن عبد الله بن سلام لم يميت شهيداً، وإنما مات على فراشه في أول خلافة معاوية بالمدينة.

وقولهم إنه من أهل الجنة، أخذوه من قوله لما ذكر طريق الشمال: إنك لست من أهلها.

وإنما قال: «ما كان ينبغي لهم أن يقولوا ما ليس لهم به علم» على سبيل التواضع وكراهية أن يشار إليه بالأصابع، خشية أن يدخله العجب، عافانا الله من سائر المكاره.

(١) في (ش، د) بينا.

وقال القيرواني: الروضة التي لا يعرف نبتها تعبر بالإسلام
لنضارتها وحسن بهجتها، وتعبر أيضاً بكل مكان فاضل، وقد تعبر
بالمصحف وكتب العلم والعالم ونحو ذلك انتهى .

وقال غيره من المعبرين: الحلقة والعروة المجهولة، تدل لمن
تمسك بها على قوته في دينه، وإخلاصه فيه .

[رؤيا أم العلاء الأنصارية]

ومن ذلك، ما رواه البخاري عن أم العلاء، وهي امرأة من
نسائهم، بايعت رسول الله: وأريت لعثمان بن مظعون بعد موته في
النوم عينا تجري، فجئت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: ذاك
عمله يجري له .

وقد قيل: يحتمل أنه كان لعثمان شيء من عمله بقي له ثوابه
جارياً كالصدقة،

وأنكره مغلطاي وقال: لم يكن له شيء من الأمور الثلاثة التي
ذكرها مسلم في حديث أبي هريرة رفعه: إذا مات ابن آدم انقطع
عمله إلا من ثلاث .

وتعقبه شيخ الحفاظ ابن حجر: بأنه كان له ولد صالح شهد
بدرأ وما بعدها، وهو السائب، مات في خلافة أبي بكر، فهو أحد
الثلاث . قال: وقد كان عثمان من الأغنياء، فلا يبعد أن يكون له
صدقة استمرت بعد موته .

وقال المهلب: العين الجارية تحتمل وجوهاً، فإن كان ماؤها
صافياً عبرت بالعمل الصالح، وإلا فلا .

وقال غيره: العين الجارية عمل جار من صدقة أو معروف لحي أو ميت.

وقال آخر: عين الماء نعمة وبركة وخير، وبلوغ أمنية إن كان صاحبها مستوراً، فإن كان غير عفيف أصابته مصيبة يبكي لها أهل داره، والله أعلم.

فهذا طرف من تعبيره ﷺ، يهدي إلى غيره مما يشبهه، وإلا فالذي نقل عنه ﷺ من غرائب التأويل، ولطائف التعبير - كما قاله ابن المنير - لا تحصره المجلدات.

وأنت إذا تأملت أن كل كرامة أوتيها واحد من هذه الأمة في علم أو عمل، هي من آثار معجزة نبيه ﷺ، وسر تصديقه، وبركات طريقه، وثمرات الاهتداء بهديه وتوفيقه، واستحضرت ما أوتيته الإمام محمد/ بن سيرين من لطائف التعبير، مما شاع وذاع، وامتألت به ٣١٥/ب الأسماع، طبق الأرض صدقاً وصواباً، وعجباً عجاباً، بل بحرّاً عباباً، قضيت بأن ما منحه ﷺ من العلوم والمعارف، لا تحيط به العبارات، ولا تدرك حقيقة كنهه الإشارات، وإذا كان هذا ابن سيرين واحد من أمته ﷺ نقل عنه في فن التعبير ما لا يعد لكثرتة، فكيف به ﷺ وزاده فضلاً وشرفاً لديه، وأفاض علينا من سحائب علومه ومعارفه، وتعطف علينا بعواطفه.

الفصل الثالث

في إنبائه ﷺ بالأنباء المغيبات

اعلم أن الغيب يختص به تعالى، وما وقع منه على لسان رسوله ﷺ وغيره فمن الله تعالى، إما بوحى أو إلهام، والشاهد لهذا قوله تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾ (١) ليكون معجزة له. واستدل به على إبطال الكرامات.

وأجيب: بتخصيص الرسول بالملك، والإظهار بما يكون بغير توسطه، وكرامات الأولياء على المغيبات إنما تكون برؤيا الملائكة، كاطلاعنا على أحوال الآخرة بتوسط الأنبياء، وفي حديث مر: أنه ﷺ قال: «والله إني لا أعلم إلا ما علمني ربي» فكل ما ورد عنه ﷺ من الأنباء المنبئة عن الغيوب ليس هو إلا من إعلام الله له به، إعلاماً على ثبوت نبوته، ودلائل على صدق رسالته، وقد اشتهر وانتشر أمره ﷺ بين أصحابه بالاطلاع على الغيوب، حتى إن كان بعضهم ليقول لصاحبه: اسكت فوالله لو لم يكن عندنا من يخبره لأخبرته حجارة البطحاء، ويشهد له قول ابن رواحة:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

(١) سورة الجن، الآية ٢٧.

وقول حسان بن ثابت:

نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله في كل مشهد
فإن قال في يوم مقالة غائب فتصديقها في ضحوة اليوم أو غد
وهذا الفصل ينقسم قسمين:

[ما أخبر به ﷺ مما نطق به القرآن]

الأول: فيما أخبر به ﷺ مما نطق به القرآن.

من ذلك: في قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا
فائتوا بسورة من مثله﴾ إلى قوله: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾^(١) فقوله
﴿ولن تفعلوا﴾ إخبار عن غيب تقضي العادة بخلافه.

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها
لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾ الآية^(٢)، فإنه قد كان
لقريش قافلتان: إحداهما ذات غنيمة دون الأخرى، فأخبر الله تعالى
عما في ضمائرهم، وأنجز ما وعد، ولا شك أن الوعد كان قبل اللقاء،
لأن الوعد بالشيء بعد وقوعه غير جائز.

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾^(٣)،
وهذا إخبار عن المستقبل، لأن «السين» بمعنى الاستقبال، يعني كفار
قريش يوم بدر، وقد كان عددهم ما بين التسعمائة إلى الألف، وكانوا
مستعدين بالمال والسلاح، وكان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر
رجلاً، وليس معهم إلا فرسان، إحداهما للزبير بن العوام، والأخرى

(١) سورة البقرة، الآية ٢٤.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٧.

(٣) سورة القمر، الآية ٤٥.

للمقداد، فهزم الله المشركين ومكن المسلمين من قتل أبطالهم واغتنام أموالهم.

ومن ذلك: قوله تعالى في كفار قريش ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾^(١)، يريد ما قذف الله في قلوبهم من الخوف يوم أحد حتى تركوا القتال ورجعوا من غير سبب، ونادى أبو سفيان: يا محمد موعدنا موسم بدر القابل / إن شئت، فقال ﷺ: إن شاء الله، وقيل: لما رجعوا وكانوا ببعض الطريق ندموا، وعزموا أن يعودوا عليهم ليستأصلوهم، فألقى الله في قلوبهم الرعب.

١/٣١٦

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ألم، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾ إلى قوله: ﴿لا يخلف الله وعده﴾^(٢)، سبب نزول هذه الآية أن كسرى وقصر تقاتلا فغلب كسرى قيصر، فساء المسلمين ذلك، لأن الروم أهل كتاب، ولتعظيم قيصر كتاب النبي ﷺ^(٣)، وتمزيق كسرى كتابه، وفرح المشركون به، فأخبر الله تعالى بأن الروم بعد أن غلبوا سيغلبون في بضع سنين، والبضع ما بين الثلاثة إلى العشر، فغلبت الروم أهل فارس يوم الحديبية^(٤)، وأخرجوهم من بلادهم، وذلك بعد سبع سنين.

(١) سورة آل عمران، الآية ١٥١.

(٢) سورة الروم. الآيات ١ - ٦.

(٣) كانت الكتابة إلى الملوك في العام السابع من الهجرة وما بعده، وآية الروم مكية، ولذا فموقف كسرى وقيصر من الكتابين ليس علة في الموضوع. [م]

(٤) للمفسرين قولان في وقت غلبة الروم على أهل فارس. يوم الحديبية ويوم بدر، وينقل عن ابن عباس قوله: كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان وعبدة النيران، وهو الأقرب إلى الصواب [م].

ومن ذلك، قوله تعالى: ﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنونه أبداً﴾^(١) فأخبر أنهم لا يتمنون الموت بالقلب ولا بالنطق باللسان مع قدرتهم عليه أبداً، فأخبر فوجد مخبره كما أخبر، فلو لم يعلموا ما يلحقهم من الموت لسارعوا إلى تكذيبه بالتمني، ولو لم يعلم ذلك لخشي أن يجيبوا إليه فيقضى عليه بالكذب، قال البيضاوي: وهذه الجملة إخبار بالغيب وكان كما أخبر، لأنهم لو تمنوا الموت لنقل واشتهر، فإن التمني ليس من عمل القلب فيخفى. وروي مرفوعاً: لو تمنوا الموت لغص كل إنسان منهم بريقه فمات وما بقي يهودي على وجه الأرض^(٢).

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾^(٣) الآية.

هذا وعد من الله لرسوله بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، وأئمة الناس والولاية عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم، وقد فعل تعالى ذلك والله الحمد والمنة، فإنه لم يميت ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكاملها، وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم،

(١) سورة الجمعة، الآية ٧.

(٢) أخرج البخاري والترمذي عن ابن عباس عن النبي ﷺ: لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه.

(٣) سورة النور، الآية ٥٥.

وصاحب مصر والإسكندرية وهو المقوقس، وملوك عمان، والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحمة رحمه الله.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فلم شعث ما وهى عند موته ﷺ ووطد جزيرة العرب ومهداها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد ففتحوا طرفاً منها، وجيشاً آخر صحبة أبي عبيدة إلى أرض الشام، وجيشاً ثالثاً صحبة عمرو بن العاص إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليقها من بلاد حوران وما والاها. وتوفاه الله تعالى واختار له ما عنده. ومن على الإسلام وأهله بأن أهدم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق.

فقام في الأمر بعده قياماً تاماً، لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيره وكمال عدله، وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكماها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى وأهانته غاية الهوان وتقهر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر وانتزع يده من بلاد الشام، فانحاز إلى قسطنطينية، وأنفق أموالها في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله ﷺ.

ثم لما كانت الدولة العثمانية^(١) امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغارها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى، وباد ملكه بالكلية، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً،

(١) نسبة إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وجيء بالخراج من المشارق والمغرب إلى حضرة أمير المؤمنين/ عثمان بن عفان، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه للأمة على حفظ القرآن،
فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله.

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ﴾^(١)،
فاليهود أذل الكفار في كل مكان وزمان كما أخبر.

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(٢)، وهذا ظاهر في العباد بأن دين الإسلام كما أخبر عال على سائر الأديان.

ومن ذلك، قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^(٣) إلى آخرها، فكان كما أخبر، دخل الناس في الإسلام أفواجا، فما مات ﷺ وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام. إلى غير ذلك مما يطول استقصاؤه.

[ما أخبر به ﷺ من الغيوب]

القسم الثاني: فيما أخبر به ﷺ من الغيوب سوى ما في القرآن العزيز فكان كما أخبر به في حياته وبعد مماته.

أخرج الطبراني عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: إن الله قد رفع لي الدنيا، فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة، كأنما أنظر إلى كفي هذه.

(١) سورة البقرة، الآية ٦١، وقد وردت في جميع النسخ بإسقاط الواو من أولها وهو غلط.

(٢) سورة التوبة، الآية ٣٣.

(٣) سورة النصر.

وعن حذيفة قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً، فما ترك شيئاً في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأعرفه فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه، ثم قال حذيفة: ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوه، والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً إلا وقد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته. رواه أبو داود^(١).

وروى مسلم من حديث ابن مسعود في الدجال: فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال رسول الله ﷺ: إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم، وهم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ.

فوضح من هذا الخبر وغيره مما يأتي من الأخبار، وسنح من خواطر الأبرار الأخيار أنه ﷺ عرفهم بما يقع في حياته وبعد موته، وما قد انحتم وقوعه فلا سبيل إلى فوته.

وقال أبو ذر: لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحه في السماء إلا ذكرنا منه علماً^(٢).

ولا شك أن الله تعالى قد أطلعه على أزيد من ذلك، وألقى عليه علم الأولين والآخرين. وأما علم عوارف المعارف الإلهية فتلك لا يتناهى عددها، وإليه ﷺ ينتهي مددها.

ومن ذلك: ما رواه الشيخان عن أبي هريرة (أن النبي ﷺ نعى

(١) روى الشيخان صدر هذا الحديث حتى قوله (عرفه..).

(٢) رواه أحمد والطبراني.

النجاشي للناس في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى وصف بهم وصلى عليه وكبر أربع تكبيرات).

وفي حديث أنس عند أحمد والبخاري: (أن رسول الله ﷺ صعد أحداً، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فضربه برجله وقال له: أثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان) فكان كما أخبر ﷺ.

ومن ذلك: ما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: (إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله)، قال النووي قال الشافعي وسائر العلماء: معناه لا يكون كسرى بالعراق ولا قيصر بالشام، كما كان في زمنه ﷺ، فأعلمنا ﷺ بانقطاع ملكهما من هذين الإقليمين، وكان كما قال، فأما كسرى فانقطع ملكه وزال بالكلية من جميع الأرض، وتمزق ملكه كل ممزق، واضحمل بدعوة النبي ﷺ، وأما قيصر فانهزم من الشام ودخل أقصى بلاده، فافتتح المسلمون ١/٣١٧ بلاده واستقرت للمسلمين والله الحمد، انتهى.

وقد وقع ذلك في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب كما قدمته، وقال ﷺ لسراقة: كيف بك إذا لبست سوارى كسرى؟ فلما أتى بها عمر ألبسها إياه وقال: الحمد لله الذي سلبها كسرى وألبسها سراقة.

ومن ذلك: إخباره ﷺ بالمال الذي تركه عمه العباس عند أم الفضل، بعد أن كتبه، فقال: ما علمه غيري وغيرها وأسلم كما تقدم ذلك في غزوة بدر من المقصد الأول.

وإخباره بشأن كتاب حاطب إلى أهل مكة.

وبموضع ناقته حين ضلت وكيف تعلقت بخطامها في الشجرة.

ولما رجع المشركون يوم الأحزاب، قال النبي ﷺ: الآن نغزوهم ولا يغزونا، فلم يُغزَ ﷺ بعدها.

وبعث ﷺ جيشاً إلى مؤتة، وأمر عليهم زيد بن حارثة ثم قال: فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبداً بن رواحة، فلما التقى المسلمون بمؤتة جلس النبي ﷺ على المنبر، فكشف له حتى نظر إلى معركتهم فقال: أخذ الراية زيد بن حارثة حتى استشهد، فصلى عليه ثم قال: استغفروا له، ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب حتى استشهد، فصلى عليه ثم قال: استغفروا لأخيكم جعفر، ثم أخذ الراية عبدالله بن رواحة فاستشهد فصلى عليه، ثم قال: استغفروا لأخيكم. فأخبر أصحابه بقتلهم في الساعة التي قتلوا فيها، ومؤتة دون دمشق بأرض البلقاء.

وعن أسماء بنت عميس قالت: دخل رسول الله ﷺ صبيحة اليوم الذي قتل فيه جعفر وأصحابه فقال: يا أسماء، أين بنو جعفر فجئت بهم، فضمهم وشمهم ثم ذرفت عيناه بالدموع فبكى، فقلت: يا رسول الله، أبلغك عن جعفر شيء؟ قال: نعم قتل اليوم، رواه يعقوب الاسفرايني في كتاب دلائل الإعجاز، وخرجه ابن إسحاق والبغوي.

ومن ذلك، قوله ﷺ: زويت لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمي ما زوي لي منها، فكان كذلك امتدت في المشارق والمغرب ما بين أقصى الهند إلى أقصى المشرق إلى بحر طنجة حيث لا عمارة وراءه، وذلك ما لم تملكه أية أمة من الأمم.

ومن ذلك: إعلامه قريشاً بأكل الأرضة ما في صحيفتهم التي

تظاهروا بها على بني هاشم، وقطعوا بها رحمهم، وأنها أبتت فيها كل اسم لله، فوجدوها كما قال ﷺ.

ومن ذلك: ما رواه الطبراني في الكبير، والبزار من حديث ابن عمر قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ في مسجد منى، فأق رجل من الأنصار ورجل من ثقيف فسلما ثم قالوا: يا رسول الله، جئنا نسألك فقال: إن شئتما أن أخبركما بما جئتما تسألاني عنه فعلت، وإن شئتما أن أمسك وتسألاني فعلت، فقالا: أخبرنا يا رسول الله، فقال الثقيفي للأنصاري: سل، فقال: أخبرني يا رسول الله، قال: جئتي تسألني عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام، ومالك فيه، وعن ركعتيك بعد الطواف ومالك فيهما، وعن سعيك بين الصفا والمروة ومالك فيه، وعن وقوفك عشية عرفة ومالك فيه، وعن رميك الجمار ومالك فيه، وعن نحرك ومالك فيه، وعن حلاقك رأسك ومالك فيه مع الإفاضة. فقال: والذي بعثك بالحق لعن هذا جئت أسألك.

ومن ذلك: ما روي عن وائلة بن الأسقع قال: أتيت رسول الله ﷺ، وهو في نفر من أصحابه يحدثهم، فجلست وسط الحلقة، فقال بعضهم: يا وائلة قم عن هذا المجلس، فقد نهينا عنه، فقال رسول الله ﷺ: دعوني وإياه/ فإني أعلم بالذي أخرجه من منزله، قلت: يا رسول الله ما الذي أخرجني؟ قال: أخرجك من منزلك لتسأل عن البر وعن الشك، قال: قلت والذي بعثك بالحق ما أخرجني غيره، فقال ﷺ: البر ما استقر في الصدر، واطمأن إليه القلب، والشك ما لم يستقر في الصدر، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك وإن أفتاك المفتون^(١).

(١) وأخرج أحمد والدارمي أن وابصة جاء حتى جلس إلى النبي ﷺ فقال يا =

ومن ذلك: قوله لفاطمة رضي الله عنها في مرضه: إنك أول أهلي لحوقاً بي^(١)، فعاشت بعده ثمانية أشهر، وقيل ستة أشهر^(٢).

وقوله ﷺ لنسائه: أسرعكن بي لحوقاً، أطولكن يداً، فكانت زينب بنت جحش لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق^(٣).

ومن ذلك، قوله ﷺ لعلي: أتدري من أشقى الآخرين؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: قاتلك. أخرجه أحمد في المناقب. وعند ابن أبي حاتم: الذي يضربك على هذا، وأشار إلى يافوخه، وعند المحاملي: قال علي: عهد إلي رسول الله ﷺ، لتخضبن هذه من هذه، وأشار إلى لحيته ورأسه، وعند الضحكاك: الذي يضربك على هذه^(٤) فتبتل منها هذه وأخذ بلحيته. فضربه عبد الرحمن بن ملجم. وعند الطبراني وأبي نعيم، من حديث جابر مرفوعاً: إنك مؤمر مستخلف، وإنك مقتول، وإن هذه مخضوبة من هذه.

وقال ﷺ لمعاوية: أما إنك ستلي أمر أمي من بعدي، فإذا كان ذلك فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم. قال معاوية: فما زلت أرجوها حتى قمت مقامي هذا. رواه ابن عساكر^(٥).

= وابصة تحدثني بما جئت له أو أحدثك قال: بل أنت يا رسول الله قال جئت تسأل عن البر والإثم. . . وأخرج مسلم عن النواس سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس.

(١) رواه الشيخان.

(٢) هو القول الصحيح المشهور الذي في البخاري.

(٣) رواه مسلم والنسائي.

(٤) أي هامته.

(٥) سنده ضعيف.

وأخرج ابن عساكر أيضاً من حديث عروة بن رويم مرفوعاً: لن يغلب معاوية أبداً، وإن علياً قال يوم صفين: لو ذكرت هذا الحديث ما قاتلت معاوية^(١).

ومن ذلك قوله ﷺ: يقتل هذا مظلوماً وأشار إلى عثمان رضي الله عنه. أخرجه البغوي في المصابيح من الحسان^(٢) والترمذي وقال حسن غريب، وأخرجه أحمد، فكان كما قال ﷺ، فاستشهد في الدار وبين يديه المصحف، فضح الدم على هذه الآية ﴿فسيكفيهم الله وهو السميع العليم﴾^(٣).

وفي الشفاء أنه ﷺ قال: يقتل عثمان وهو يقرأ في المصحف، وإن الله عسى أن يلبسه قميصاً، وإنهم يريدون خلعه وإنه سيقطر دمه على قوله: ﴿فسيكفيهم الله وهو السميع العليم﴾. وقد أخرجه الحاكم عن ابن عباس بلفظ: إن رسول الله ﷺ قال: يا عثمان تقتل وأنت تقرأ سورة البقرة فتقع قطرة من دمك على قوله: ﴿فسيكفيهم الله وهو السميع العليم﴾، لكن قال الذهبي: إنه حديث موضوع.

وقد روى مسلم عن أسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ أشرف على أطم من أطام المدينة ثم قال: (هل ترون ما أرى، إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر). فوعدت فتنة قتلة عثمان وتتابعت الفتن إلى فتنة الحرة وكانت لثلاث بقين من ذي الحجة سنة

(١) هو معضل بل قيل إنه موضوع وعلائم الوضع ظاهرة فإن علياً ما رجع عن رأيه. وكان عازماً على قتاله ولكن شغله عنه قتال الخوارج.

(٢) من الأحاديث الحسان، فإنه قسم الكتاب إلى صحاح وهو ما أخرجه الشيخان. وحسان ما كان في السنن.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٣٧.

ثلاث وستين من الهجرة، وجرت فيها مواقع كثيرة موجودة في كتب التواريخ.

وأخرج البيهقي عن الحسن^(١) قال: لما كان يوم الحرة قتل أهلي، حتى لا يكاد ينفلت منهم أحد. وأخرج أيضاً عن أنس بن مالك قال: قتل يوم الحرة سبعمائة رجل من حملة القرآن، منهم ثلاثمائة من الصحابة^(٢)، وذلك في خلافة يزيد. وأخرج أيضاً عن مغيرة قال: انتهب أبو مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام وافترض فيها ألف عذراء.

وقال عليه السلام لأبي موسى وهو قاعد على قف بئر أريس، لما طرق عثمان الباب: ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه إشارة إلى ما تقدم من استشهاده يوم الدار، بل أصرح من ذلك كله ما رواه أحمد عن ابن عمر قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة، فمر رجل فقال: يقتل فيها هذا يومئذ/ ظلماً، قال: فنظرت فإذا هو عثمان. وإسناده صحيح.

١/٣١٨

وأخبر صلى الله عليه وسلم بوقعة الجمل وصفين وقتال عائشة والزبير علياً، كما أخرجه الحاكم وصححه البيهقي عن أم سلمة قالت: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم خروج بعض أمهات المؤمنين، فضحكت عائشة فقال: انظري يا حمراء أن لا تكوني أنت، ثم التفت إلى علي فقال له: إن وليت من أمرها شيئاً فافرق بها.

وعن ابن عباس مرفوعاً: أيتكن صاحبة الجمل الأدب^(٣)،

(١) الحسن البصري.

(٢) وفي البخاري عن سعيد بن المسيب أن هذه الوقعة لم تبق من أصحاب الحديبية أحداً.

(٣) أي: كثير الشعر.

تخرج حتى تنبجها كلاب الحوآب^(١)، ويقتل حولها قتلى كثيرة، تنجو بعدما كادت. رواه البزار وأبو نعيم.

وأخرج الحاكم وصححه البيهقي عن أبي الأسود قال: شهدت الزبير خرج يريد علياً فقال علي: أنشدك الله، هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقاتله وأنت له ظالم، فمضى الزبير منصرفاً. وفي رواية أبي يعلى والبيهقي قال الزبير: بلى ولكن نسيت.

ومن ذلك قوله ﷺ في الحسن بن علي: إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين. رواه البخاري، فكان كما قال ﷺ، لأنه لما قتل علي بن أبي طالب بايع الحسن أكثر من أربعين ألفاً، فبقي سبعة أشهر خليفة بالعراق وما وراء النهر من خراسان، ثم سار إلى معاوية وسار معاوية إليه، فلما تراء الجمعان بموضع يقال له بستكين بناحية الأنبار من أرض السواد، فعلم أن لن تغلب إحدى الفئتين حتى يذهب أكثر الأخرى، فكتب إلى معاوية يخبره أنه يصير الأمر إليه دون غيره على أن يشترط عليه أن لا يطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشيء مما كان في أيام أبيه، فأجابه معاوية إلا عشرة، فلم يزل يراجع حتى بعث إليه برق أبيض وقال: اكتب فيه ما شئت فأنا ألتزمه، واصطلحا على ذلك، فكان الأمر كما قال النبي ﷺ: إن الله سيصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين.

وأخرج الدولابي أن الحسن قال: كانت جماجم العرب بيدي يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت، فتركها ابتغاء وجه الله تعالى وحقن دماء المسلمين.

(١) اسم ماء أو قرية فيها ماء بطريق البصرة.

ومن ذلك: إعلامه ﷺ بقتل الحسين بالطف، وأخرج بيده تربة وقال: فيها مضجعه، رواه البغوي في معجمه من حديث أنس بن مالك بلفظ: استأذن ملك القطر ربه أن يزور النبي ﷺ فأذن له وكان في يوم أم سلمة، فقال النبي ﷺ: يا أم سلمة احفظي علينا الباب لا يدخل علينا أحد، فبينما هي على الباب إذ دخل الحسين فاقتحم فوثب على رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يلثمه ويقبله، فقال له الملك: أتجبه؟ قال: نعم، قال: إن أمتك ستقتله، وإن شئت أريتك المكان الذي يقتل به، فأراه فجاء بسهولة أو تراب أحمر، فأخذته أم سلمة فجعلته في ثوبها. قال: ثابت: كنا نقول: إنها كربلاء. وخرجه أبو حاتم في صحيحه ورواه أحمد بنحوه.

والسهلة - بالكسر - : رمل خشن ليس بالدقاق الناعم.

وفي رواية الملاء، قالت: ثم ناولني كفاً من تراب أحمر، وقال: إن هذا من تربة الأرض التي يقتل بها فمتى صار دماً فاعلمي أنه قد قتل. قالت أم سلمة: فوضعت في قارورة عندي وكنت أقول: إن يوماً يتحول فيه دماً ليوم عظيم. الحديث» (١).

فاستشهد الحسين كما قال ﷺ بكربلاء من أرض العراق، بناحية الكوفة، ويعرف الموضع بالطف، وقتله سنان بن أنس النخعي وقيل غيره، ولما قتلوه بعثوا برأسه إلى يزيد، فنزلوا أول مرحلة فجعلوا يشربون بالرأس، فبينما هم كذلك إذ خرجت عليهم من الحائط يد معها قلم من حديد فكتبت سطرأ بدم:

(١) هذا الخبر أورده اليعقوبي المؤرخ الشيعي في تاريخه ٢/٢٤٦ [عن منهج كتابة التاريخ الإسلامي لمحمد السلمي ص ٥١٦].

أترجو أمة قتلت حسيناً شفاعته جده يوم الحساب
فهربوا وتركوا الرأس. خرجه منصور بن عمار [!؟]

وذكر أبو نعيم الحافظ في كتاب دلائل النبوة عن نضرة الأزديّة
أنها قالت: لما قتل الحسين بن علي أمطرت السماء دماً فأصبحنا وجبابنا
وجرارنا مملوءة دماً. وكذا روي في أحاديث غير هذا [!؟]

وقال ﷺ لعمار: تقتلك الفئة الباغية. رواه البخاري فكان كما قال
صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك: ما رواه أبو عمر بن عبد البر أن عبد الله بن عمر
رأى رجلاً مع النبي ﷺ فلم يعرفه، فقال النبي ﷺ أرأيتك؟ قال:
نعم، قال: ذاك جبريل، أما إنك ستفقد بصرك، فعمي في آخر
عمره.

ومن ذلك: قوله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس: تعيش حميداً
وتقتل شهيداً. رواه الحاكم وصححه، والبيهقي وأبو نعيم، فقتل يوم
مسيلمة الكذاب باليامة.

ومن ذلك: قوله لعبد الله بن الزبير: ويل لك من الناس، وويل
للناس منك. فكان من أمره مع الحجاج ما كان.

ومن ذلك: حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: إن هذا الدين بدأ
نبوة ورحمة ثم يكون خلاقه ورحمة، ثم يكون ملكاً عضوضاً، ثم يكون
سلطاناً وجبرية. (١)

وقوله: ملكاً عضوضاً أي يصيب الرعية فيه عسف وظلم،
كأنهم يعضون فيه عضاً.

(١) رواه البزار والبيهقي، كما ذكره محقق الشفاء [م].

وفي حديث سفينة عند أبي داود والترمذي قال قال رسول الله ﷺ: الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك. قال سعيد بن جهمان^(١): أمسك^(٢) خلافة أبي بكر وخلافة عمر وخلافة عثمان وخلافة علي فوجدناها ثلاثين سنة، فقيل له: إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم فقال: كذب بنو الزرقاء، بل هم ملوك من شر الملوك.

وأخرج أبو نعيم عن ابن عباس أن أم الفضل مرت به ﷺ فقال: إنك حامل بسلام فإذا ولدته فائتني به، قالت: فلما ولدته أتته به فأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى وألبأه^(٣) من ريقه وسماه عبدالله وقال: اذهبي بأبي الخلفاء فأخبرت العباس فأتاه فذكر له ذلك فقال: هو ما أخبرتك، هذا أبو الخلفاء حتى يكون منهم السفاح، حتى يكون منهم المهدي، حتى يكون منهم من يصلي بعيسى بن مريم.

وأخرج أبو يعلى عن معاوية سمعت رسول الله ﷺ يقول: لتظهرن الترك على العرب حتى تلحقها بمنابت الشيح والقيصوم.

ومن ذلك: إخباره ﷺ بعالم المدينة، أخرج الحاكم^(٤) وصححه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: يوشك الناس أن يضربوا أكباد الإبل فلم يجدوا عالماً أعلم من عالم المدينة. قال سفيان بن عيينة: نرى هذا العالم مالك بن أنس، وقال عبد الرزاق: ولم يعرف بهذا الاسم غيره ولا ضربت أكباد الإبل إلى أحد مثل ما ضربت إليه، وقال أبو مصعب: كان الناس يزدهمون على باب مالك ويقتتلون عليه

(١) تابعي صغير صدوق. روى له أصحاب السنن مات سنة ست وثلاثين ومائة.

(٢) أي أمسك عليك، أي احبس نفسك عن عد خلافتهم فقد حسبناها.

(٣) أي صب في فيه.

(٤) وكذا رواه الترمذي وحسنه والنسائي.

من الزحام، يعني لطلب العلم. ومن روى عنه من الأئمة المشهورين: محمد بن شهاب الزهري، والسفيانان والشافعي والأوزاعي إمام أهل الشام، والليث بن سعد إمام أهل مصر، وأبو حنيفة النعمان بن ثابت الإمام، وصاحبه: أبو يوسف ومحمد بن الحسن، وعبد الرحمن بن مهدي شيخ الإمام أحمد، ويحيى بن يحيى شيخ البخاري، وأبو رجاء قتيبة بن سعيد شيخ البخاري، وذو النون المصري، والفضيل بن عياض، وعبدالله بن المبارك، وإبراهيم بن أدهم. كما نقله العلامة عيسى بن مسعود الزواوي في كتابه «المنهج السالم إلى معرفة قدر الإمام مالك».

١/٣١٩

وإخباره بعالم قریش؛ عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: لا تسبوا قریشاً فإن عالمها يملأ طباق الأرض علماً. رواه أبو داود الطيالسي في مسنده، وفيه الجارود مجهول، لكن له شواهد عن أبي هريرة في تاريخ بغداد للخطيب/ وعن علي وابن عباس في المدخل للبيهقي. قال الإمام أحمد وغيره: هذا العالم هو الشافعي، لأنه لم ينتشر في طباق الأرض من علم عالم قریش من الصحابة وغيرهم ما انتشر من علم الشافعي، وما كان الإمام أحمد ليذكر حديثاً موضوعاً محتج أو يستأنس به في أمر شيخه الشافعي. وأما قوله: «وروي عن النبي ﷺ أنه قال عالم قریش» الخ، بصيغة التمریض احتياطاً للشك في ضعفه، فإن إسناده لا يخلو من ضعف. قاله العراقي رداً على الصغاني في زعمه أنه موضوع، وقد جمع الحافظ ابن حجر طرقة في كتابه سماه: لذة العیش في طرق حديث الأئمة من قریش، كما أفاده شيخنا.

وأخبر ﷺ بأن طائفة من أمته لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله. رواه الشيخان من حديث المغيرة بن شعبة وبأن الله تعالى

يبعث إلى هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها. رواه الحاكم من حديث أبي هريرة. وبذهاب الأمثل فالأمثل رواه الحاكم وصححه بلفظ: تذهبون الخير فالخير.

وبالخوارج؛ رواه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً إذ أتاه ذو الخويصرة، فقال: يا رسول الله، اعدل، فقال: ويلك، ومن يعدل إن لم أعدل، خبت وخسرت إن لم أعدل، فقال: عمر يا رسول الله دعني أضرب عنقه، فقال ﷺ: دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر^(١)، يخرجون على حين فرقة من الناس. قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، وأمر بذلك الرجل فالتمس فوجد فأتي به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعتته.

وأخبر ﷺ أيضاً بالرافضة، أخرجها البيهقي عن علي قال قال رسول الله ﷺ: يكون في أمتي قوم يسمون الرافضة، يرفضون الإسلام.

وأخبر أيضاً بالقدرية والمرجئة وقال: هم مجوس هذه الأمة، رواه الطبراني في الأوسط عن أنس.

وقد أخبر ﷺ أصحابه بأشياء بين موته وبين الساعة، وحذر من

(١) مثل قطعة اللحم، تتحرك وتذهب وتجيء.

مفاجأتها، كما يحذر من حاد عن الطاعة، وأن الساعة لا تقوم حتى تظهر جملة الأمارات في العالم، فإذا جاءت الطامة الكبرى، يطيش منها الجاهل والعالم. كما روي من رفع الأمانة والقرآن، واشتهار الخيانة وحسد الأقران وقلة الرجال، وكثرة النسوان، إلى غير ذلك مما شهدت بصحته الأخبار، وقضى بحقيقة وقوعه الاعتبار. وقد تعين أن نلّم بذكر طرف من الآثار الصحاح والحسان:

فروى البخاري من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة، دعواهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج - وهو القتل - وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم الرجل من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي فيه، وحتى يتناول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، / ٣١٩ ب/ ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبها فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته ولا يطعمه، ولتقوم الساعة وهو يليب^(١) حوضه فلا يسقى فيه، ولتقوم الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها.

فهذه ثلاث عشرة علامة جمعها أبو هريرة في حديث واحد، ولم يبق بعد هذا ما ينظر من صحيح العلامات والأشراط. وقد ظهر أكثر هذه العلامات:

(١) أي يصلحه بالطين.

فأما قوله: «حتى تقتتل فئتان عظيمتان دعواهما واحدة» يريد فتنة معاوية وعلي بصفين. قال القاضي أبو بكر بن العربي: وهذا أول خطب طرق الإسلام.

وتعقبه القرطبي بأن أول أمر دهم الإسلام موت النبي ﷺ، ثم بعد موته موت عمر، لأن بموته ﷺ انقطع الوحي وكان أول ظهور الشر ارتداد العرب وغير ذلك، ويموت عمر سل سيف الفتنة بقتل عثمان. وكان من قضاء الله وقدره ما كان وما يكون.

وأما قوله: «دجالون كذابون قريب من ثلاثين» فقد جاء عددهم معيناً من حديث حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: يكون في أمتي دجالون كذابون سبعة وعشرون، منهم أربع نسوة. وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي. أخرجه الحافظ أبو نعيم وقال: هذا حديث غريب. قال القاضي عياض: هذا الحديث قد ظهر، فلو عدّ من تنبأ من زمن النبي ﷺ إلى الآن ممن اشتهر بذلك لوجد هذا العدد، ومن طالع كتب التاريخ عرف صحة هذا.

وقوله: «حتى يقبض العلم» فقد قبض ولم يبق إلا رسمه. وأما: «الزلازل» فوقع منها شيء كثير، وقد شاهدنا بعضها.

وأما قوله: «حتى يكثر فيكم المال فيفيض وحتى يهّم رب المال»^(١) من يقبل صدقته» فهذا مما لم يقع.

وقوله: «حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه» لما يرى من عظيم البلاء ورياسة الجهلاء وخمول العلماء وغير ذلك، مما ظهر كثير منه.

(١) قوله: «رب المال» موافق لنص البخاري ولكنه مغاير لما قدم في الحديث من قوله: «يهّم الرجل».

وفي حديث أبي هريرة عند الشيخين أن رسول الله ﷺ قال: لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى. وقد خرجت نار عظيمة على قرب مرحلة من المدينة، وكان بدؤها زلزلة عظيمة في ليلة الأربعاء بعد العشاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستائة، وفي يوم الثلاثاء اشتدت حركتها، وعظمت رجفتها، وتتابعت حطمتها، وارتجت الأرض بمن عليها، وعجت الأصوات لباريها، ودامت الحركة إثر الحركة، حتى أيقن أهل المدينة بوقوع الهلكة، وزلزلوا زلزالاً شديداً، من جملة ثمانية عشر حركة في يوم واحد دون ليلته.

قال القرطبي: وكان يأتي المدينة ببركته ﷺ نسيم بارد. وشوهد من هذه النار غليان كغليان البحر، وانتهت إلى قرية من قرى اليمن فأحرقتها. قال: وقال لي بعض أصحابنا: ولقد رأيتها صاعدة في الهواء من مسيرة خمسة أيام. قال: وسمعت أنها رؤيت من مكة ومن جبال بصرى.

وقال الشيخ قطب الدين القسطلاني: أقامت اثنين وخمسين يوماً، وكان انطفأؤها في السابع والعشرين من رجب ليلة الإسراء والمعراج به صلى الله عليه وسلم.

وبالجملة فاستيفاء الكلام على هذه النار يخرج عن المقصود، وقد نبه عليه القرطبي في التذكرة، وأفردها بالتأليف قطب الدين القسطلاني في كتاب سماه «جمل الإيجاز في الإعجاز بنار الحجاز» فأق في من دقائق الحقائق بالعجب العجاب، والله الموفق للصواب.

تم بعونه تعالى الجزء الثالث
من المواهب اللدنية ويليه
الجزء الرابع وأوله
المقصد التاسع

فهرس الجزء الثالث من المواهب اللدنية

المقصد الخامس : الاسراء والمعراج

| | |
|---|--|
| <p>٣٤ - هل غسل القلب أم الصدر</p> <p>٣٥ البراق والمعراج</p> <p>٣٦ - حكمة الإسراء به ركباً</p> <p>٣٧ - تسمية البراق وشكله وسرعته</p> <p>٣٩ - هل ركب الأنبياء البراق؟</p> <p>٤٠ - تعليل استصعاب البراق</p> <p>٤١ - هل ركب جبريل البراق</p> <p>٤١ ما رآه ﷺ ليلة الإسراء</p> <p>٤٥ اللقاء بالأنبياء والملائكة</p> <p>٤٦ اختيار الفطرة</p> <p>٤٨ مناقشة ربط البراق</p> <p>٤٩ الصلاة بالنبيين</p> <p>٥٢ الكلام على هذه الصلاة</p> <p>٥٣ صفة المعراج</p> <p>٥٤ لم يقل جبريل : أنا</p> <p>٥٤ استبشار أهل السماء</p> <p>٥٥ ذكر الأنهار</p> <p>٥٥ فتح أبواب السماء</p> <p>٥٦ معنى قوله : «أرسل إليه؟» .</p> <p>٥٧ قولهم : مرحباً به .</p> <p>٥٧ آدم وأعمال أبنائه</p> | <p>٧ الآية العظمى</p> <p>٧ تحديد نقاط الاختلاف</p> <p>٨ مناقشة الخلاف</p> <p>١٢ رأي الجمهور</p> <p>١٣ حكمة كون الإسراء ليلاً</p> <p>١٤ ليلة الإسراء وليلة القدر</p> <p>١٥ الإسراء خاص به ﷺ</p> <p>١٥ جوانب من تفسير الآية الكريمة</p> <p>١٧ مراحل المعراج</p> <p>١٧ تصانيف في الإسراء</p> <p>١٨ رواية حديث الإسراء</p> <p>١٩ رواية الإمام البخاري</p> <p>٢٢ روايات أخرى</p> <p>٢٣ الجمع بين الروايات</p> <p>٢٣ حكمة انفراج سقف البيت</p> <p>٢٤ إيضاح بعض نقاط النص</p> <p>٢٦ شق الصدر قبل الإسراء</p> <p>٢٨ - الصبر على شق الصدر</p> <p>٢٩ - الغسل بطست من ذهب</p> <p>٣٠ - هل تجسد المعاني؟</p> <p>٣ - حكمة شق الصدر</p> |
|---|--|

| |
|----------------------------------|
| ١٠٧ - القول بالوقف في المسألة |
| ١٠٧ فرض الصلاة |
| ١٠٧ - روايات الحديث |
| ١٠٩ - حكمة الفرض ليلة الإسراء |
| ١٠٩ - موسى وفرض الصلاة |
| ١١٠ - تعليل إشاري لموقف موسى |
| ١١٢ - الاستدلال بحديث فرض الصلاة |
| ١١٢ موقف قريش من الإسراء |
| ١١٥ حكمة الإسراء |

المقصد السادس

آيات من التنزيل في تعظيم قدره صلى الله عليه وسلم

| |
|---|
| ١١٩ تمهيد |
| ١٢٠ النوع الأول: تعظيم قدره ﷺ |
| ١٢٠ تفاوت مراتب الرسل |
| ١٢٢ فضيلته ﷺ |
| ١٢٥ مناقشة القائلين بعدم التفضيل |
| ١٢٩ البشر أفضل أم الملائكة |
| ١٣١ مراتب الملائكة |
| ١٣٢ نبوة آدم عليه السلام |
| ١٣٢ عدد الأنبياء والرسل |
| ١٣٣ ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ |
| ١٣٧ ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ |
| ١٤٠ ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ |
| ١٤٤ تكريمه ﷺ بالخطاب |
| ١٤٧ النوع الثاني: أخذ الميثاق له ﷺ |
| ١٥٢ النوع الثالث: شهادته تعالى له بالرسالة |
| ١٥٢ ﴿وابعث فيهم رسولا منهم﴾ |
| ١٥٥ ﴿بعث في الأميين رسولا﴾ |

| |
|--|
| ٥٩ الجمع بين الروايات بشأن مكان الأنبياء |
| ٦١ مكانة موسى عليه السلام |
| ٦٤ وصفه ﷺ بـ (الغلام) |
| ٦٤ جمال يوسف عليه السلام |
| ٦٥ هل كان إدريس جداً له ﷺ |
| ٦٥ حكمة كون بعض الأنبياء في السماء |
| ٦٨ كيفية رؤيته ﷺ للأنبياء |
| ٦٩ الأنهار المشاهدة ليلة الإسراء |
| ٧١ سدرة المنتهى |
| ٧٣ كان عرض الآنية مرتين |
| ٧٤ البيت المعمور |
| ٧٥ أحاديث ضعيفة |
| ٧٨ روايات أخرى عن الملائكة |
| ٧٩ روايات أخرى في الإسراء |
| ٨٠ سماع صريف الأقلام |
| ٨٢ وصف الجنة |
| ٨٤ حديثان موضوعان |
| ٨٧ معنى «الحجب» |
| ٨٨ تفسير «ثم دنا فتدلى» |
| ٩٢ «فأوحى إلى عبده ما أوحى» |
| ٩٣ حديث ضعيف |
| ٩٤ الوصف بالعبد |
| ٩٥ كلام إشاري |
| ٩٧ رؤيته ﷺ ربه تعالى |
| ٩٧ - رأي أم المؤمنين عائشة |
| ٩٩ - رأي ابن عباس |
| ١٠٠ - إثبات الرؤية في الآخرة |
| ١٠٠ - آراء في «لا تدركه الأبصار» |
| ١٠٣ - امتناع الرؤية شرعاً |
| ١٠٤ - الآراء في رؤيته ﷺ ربه تعالى |
| ١٠٦ - رأي في الجمع بين الروايات |
| ١٠٧ - رأي الإمام أحمد |

٢٣٠ النوع الثامن: آيات تتضمن الأدب معه ﷺ

٢٣٠ عدم التقدم بين يديه

٢٣١ عدم رفع الصوت عنده

٢٣٣ طريقة خاصة في دعائه

٢٣٣ استئذانه

٢٣٤ عدم استشكال قوله

٢٣٤ التسليم والانقياد له

٢٣٥ النوع التاسع: رده تعالى على عدوه ﷺ

٢٣٩ النوع العاشر: إزالة الشبهات عن

آيات وردت في حقه ﷺ

٢٣٩ ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾

٢٤٣ ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾

٢٤٥ ﴿ليغفرلك الله﴾

٢٤٧ ﴿يا أيها النبي اتق الله﴾

٢٤٨ ﴿فلا تطع المكذبين﴾

٢٤٨ ﴿فإن كنت في شك﴾

٢٥٠ ﴿فلا تكونن من الممترين﴾

٢٥١ ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾

٢٥٢ ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾

٢٥٢ ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾

٢٥٣ ﴿إذا تمنى ألقي الشيطان في أمنيه﴾

٢٥٤ ﴿عبس وتولى﴾

٢٥٥ ﴿عفا الله عنك﴾

٢٥٧ ﴿تريدون عرض الدنيا﴾

٢٦٠ ﴿لقد كدت تركن إليهم﴾

٢٦١ ﴿ولو تقول علينا . .﴾

٢٦٣ ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا

الإيمان﴾

١٦٠ ﴿إنا أرسلناك شاهداً﴾

١٦١ ﴿أرسل رسوله بالهدى﴾

١٦٢ شاهد الفطرة

١٦٢ ﴿إني رسول الله إليكم﴾

١٦٤ ﴿قد جاءكم رسولنا﴾

١٦٦ ﴿رسول من أنفسكم﴾

١٦٧ توجيه كلام «الشفاء»

١٦٨ ﴿رحمة للعالمين﴾

١٧١ ﴿وخاتم النبيين﴾

١٧٤ النوع الرابع: ذكره ﷺ في الكتب

السابقة

١٨٧ النوع الخامس: أقسامه تعالى بشأنه ﷺ

١٨٩ الفصل الأول: القسم على خلقه

العظيم

١٩٣ الفصل الثاني: القسم على ما أنعم به

عليه

١٩٦ الفصل الثالث: القسم على تصديقه

١٩٦ - القسم على تصديقه فيما أوحى إليه

٢٠٠ - القسم على صدق الكتاب

٢٠٣ - القسم على أن القرآن وحي

٢٠٨ الفصل الرابع: القسم على تحقيق

رسالته

٢١١ الفصل الخامس: القسم بحياته

وعصره

٢١١ - القسم بحياته ﷺ

٢١٣ - القسم ببلده ﷺ

٢١٥ - القسم بعصره ﷺ

٢١٧ النوع السادس: وصفه ﷺ بالنور

والسراج

٢٢٢ النوع السابع: آيات تتضمن وجوب

طاعته ﷺ

المقصد السابع

في وجوب محبته ﷺ واتباع سنته

| | | | |
|-----|---------------------------------|-----|---------------------------------|
| ٣٢٢ | فائدة الصلاة عليه | ٢٦٧ | الفصل الأول: وجوب محبته ﷺ |
| ٣٢٢ | حكم الصلاة عليه | ٢٦٧ | التعريف بالمحبة |
| ٣٢٧ | مناقشة رأي الإمام الشافعي | ٢٦٨ | تعريف المحبة |
| ٣٣٤ | صفة الصلاة عليه | ٢٦٩ | بعض الحدود والتعاريف |
| ٣٣٦ | وجه التشبيه بالصلاة على إبراهيم | ٢٧٢ | حب الرسول ﷺ |
| ٣٤٠ | المقصود بـ (آل محمد) | ٢٧٣ | بيان معنى محبته ﷺ |
| ٣٤١ | أفضل صيغ الصلاة | ٢٧٥ | حب الله تعالى |
| ٣٤١ | الترحم عليه ﷺ | ٢٧٥ | اختيار الحب لله تعالى |
| ٣٤٢ | صيغة صلاة علي رضي الله عنه | ٢٧٦ | نماذج من حب الصحابة له ﷺ |
| ٣٤٥ | صيغة صلاة ابن مسعود | ٢٧٩ | حب الله ورسوله |
| ٣٤٥ | صيغ أخرى | ٢٨٢ | معنى حلاوة الإيمان |
| ٣٤٦ | مواطن الصلاة عليه | ٢٨٣ | شرح معنى «مما سواهما» |
| ٣٥٢ | فضيلة الصلاة عليه | ٢٨٥ | ذوق طعم الإيمان |
| ٣٥٤ | السلام عليه ﷺ | ٢٨٧ | حكم محبة الله تعالى |
| ٣٥٤ | السلام على غير النبي ﷺ | ٢٩٤ | علامات محبة الرسول ﷺ |
| ٣٥٥ | الصلاة على غير النبي ﷺ | ٢٩٤ | ١ - الاقتداء به |
| ٣٥٦ | الصلاة على غير الأنبياء | ٢٩٧ | ٢ - الرضى بما شرعه |
| ٣٥٨ | الفصل الثالث: محبة آل وصحبه ﷺ | ٣٠٠ | ٣ - نصر دينه |
| ٣٥٨ | حب آل البيت | ٣٠٠ | ٤ - التسلي عن المصائب |
| ٣٥٨ | - المراد بآل البيت | ٣٠١ | ٥ - كثرة ذكره |
| ٣٦٢ | - حب آل البيت | ٣٠٤ | ٦ - تعظيمه عند ذكره |
| ٣٦٣ | - المراد بالقرابة | ٣٠٦ | ٧ - الشوق إلى لقائه |
| ٣٦٤ | - مكانة علي رضي الله عنه | ٣٠٨ | ٨ - حب القرآن |
| ٣٦٦ | - مكانة فاطمة رضي الله عنها | ٣١٠ | ٩ - حب السنة |
| ٣٦٧ | - مكانة الحسن والحسين | ٣١١ | ١٠ - محبة ذكره |
| ٣٦٩ | - ذكر من كان له شبه بالنبي ﷺ | ٣١٣ | اجتماع الحب والمعصية |
| ٣٧١ | - اعتذار المصنف عن الإطالة | ٣١٤ | درجة المحبة ودرجة الخلة |
| ٣٧١ | - منزلة العباس | ٣١٩ | الفصل الثاني: حكم الصلاة عليه ﷺ |
| ٣٧٢ | - منزلة عقيل وأبي سفيان | ٣١٩ | معنى الصلاة |
| ٣٧٣ | - مصطلحات أطلقت على آل البيت | | |
| ٣٧٤ | - ذرية فاطمة واللباس الأخضر | | |
| ٣٧٥ | حب الصحابة | | |

| | |
|-----|------------------------------------|
| ٤١٥ | التداوي لا يتنافى التوكل |
| ٤١٦ | (لكل داء دواء) أمل للمريض وللطبيب |
| ٤١٧ | الطب النبوي |
| ٤١٨ | أنواع طبه ﷺ |
| ٤١٩ | النوع الأول: الطب بالأدوية الإلهية |
| ٤١٩ | الاستشفاء بالقرآن |
| ٤٢٢ | الاستشفاء بالدعاء |
| ٤٢٣ | الاستشفاء بالرقى |
| ٤٢٨ | رقية المصاب بالعين |
| ٤٣٤ | عقوبة العائن |
| ٤٣٥ | رقية النبي ﷺ |
| ٤٣٧ | طبه ﷺ من الفرع والأرق |
| ٤٣٧ | طبه ﷺ من حر المصيبة |
| ٤٣٨ | طبه ﷺ من داء الهم |
| ٤٤٦ | طبه ﷺ من داء الفقر - من الحريق |
| ٤٤٧ | طبه ﷺ من داء الصرع |
| ٤٤٩ | ذكر دوائه ﷺ من داء السحر |
| ٤٤٩ | - حكم السحر |
| ٤٥٠ | - حقيقة السحر |
| ٤٥١ | - الفرق بين السحر والمعجزة |
| ٤٥٢ | - قصة ما سُجِر به ﷺ |
| ٤٥٦ | - علاج السحر |
| ٤٥٨ | رقية تنفع لكل شكوى |
| ٤٥٩ | الرقية من الصداع |
| ٤٥٩ | الرقية من وجع الضرس |
| ٤٦٠ | رقية لعسر البول |
| ٤٦١ | رقية الحمى |
| ٤٦٢ | كتابات لألام أخرى |
| ٤٦٤ | بدعة منكرة |
| ٤٦٥ | ذكر ما بقي من كل بلاء |
| ٤٦٦ | المعافاة من سبعين بلاء |
| ٤٦٧ | دواء داء الطعام |

| | |
|-----|--------------------------------|
| ٣٧٥ | - ثناء الله تعالى عليهم |
| ٣٧٧ | - تعريف الصحابي |
| ٣٨١ | - الصحابة خير الخلق |
| ٣٨٢ | - آخر من مات من الصحابة |
| ٣٨٣ | - فضيلتهم فضيلة مجموع أم أفراد |
| ٣٨٤ | - فضيلة مشاهدته ﷺ |
| ٣٨٥ | - طبقات الصحابة |
| ٣٨٧ | - عدد الصحابة |
| ٣٨٧ | - أفضل الصحابة |
| ٣٨٨ | - عثمان وعلي |
| ٣٨٩ | - فضيلة تنمة العشرة |
| ٣٩٠ | - حديث بئر أريس |
| ٣٩٢ | - الأفضلية والمحبة |
| ٣٩٢ | - حب الصحابة وعلاماته |

المقصد الثامن

في طبه ﷺ وتعبيره الرؤيا وإنبائه بالمغيبات

| | |
|-----|--------------------------|
| ٣٩٩ | تمهيد |
| ٤٠١ | الفصل الأول: الطب النبوي |
| ٤٠١ | عيادة المريض |
| ٤٠٢ | حكم عيادة المريض |
| ٤٠٣ | فضل عيادة المريض |
| ٤٠٤ | العيادة في كل وقت |
| ٤٠٤ | التطبيب عند أهل الذمة |
| ٤٠٥ | الطب النفسي |
| ٤٠٦ | كيفية عيادة المريض |
| ٤٠٧ | طب القلوب وطب الأجساد |
| ٤٠٨ | ضرر الذنوب وآثارها |
| ٤١١ | طب الأجساد |
| ٤١٣ | الحث على التداوي |

٥١٣ - حمية الولد من رضاع الحمقى
 ٥١٤ - الحمية من البرد
 ٥١٦ الفصل الثاني: في تعبيره ﷺ الرؤيا
 ٥١٦ حقيقة الرؤيا
 ٥١٨ حديثان ضعيفان - قول الحكيم الترمذي
 ٥١٩ الرؤيا الصالحة جزء من النبوة
 ٥٢٢ أصدق الرؤيا
 ٥٢٣ آداب الرؤيا
 ٥٢٥ حكمة ما ورد بشأن الرؤيا
 ٥٢٧ الرؤيا والعابر الأول
 ٥٢٨ من آداب المعبر
 ٥٣٠ آداب الرائي - أنواع المرئي
 ٥٣٢ درجات الناس في الرؤيا
 ٥٣٣ من مرائيه ﷺ
 ٥٣٣ - شرب اللبن
 ٥٣٥ - تعبير القميص بالدين
 ٥٣٧ - سواران من ذهب
 ٥٣٩ - المرأة السوداء ناثرة الرأس
 ٥٣٩ - درع حصينة وبقر تنحر
 ٥٤١ - الرطب - رؤيته ﷺ سيفاً يهزه
 ٥٤٢ - رؤيته ﷺ أنه على قلب
 ٥٤٤ تعبيره ﷺ ما رآه الصحابة
 ٥٤٥ - سؤاله الصحابة عن رؤياهم
 ٥٤٥ - تركه السؤال بعد ذلك
 ٥٤٦ - حديث ضعيف جداً
 ٥٤٨ - رؤيا زرارة النخعي
 ٥٥٠ - رؤيا عبد الله بن سلام
 ٥٥٢ - رؤيا أم العلاء الأنصارية
 ٥٥٤ الفصل الثالث: إنبأه ﷺ بالمغيبات
 ٥٥٥ ما أخبر به ﷺ مما نطق به القرآن
 ٥٥٩ ما أخبر به ﷺ من الغيوب

٤٦٧ دواء أم الصبيان
 ٤٦٩ النوع الثاني: الطب بالأدوية الطبيعية
 ٤٦٩ علاج الصداع والشقيقة
 ٤٧١ علاج الرمذ
 ٤٧٤ علاج العذرة
 ٤٧٦ علاج استطلاق البطن
 ٤٧٩ علاج يبس الطبيعة
 ٤٨١ علاج المقوود
 ٤٨٢ علاج ذات الجنب
 ٤٨٣ علاج داء الاستسقاء
 ٤٨٤ علاج لضعف المعدة وغيره
 ٤٨٦ علاج داء عرق النسا
 ٤٨٧ علاج الأورام والخراجات
 ٤٨٧ العلاج بقطع العروق والكلي
 ٤٨٩ علاج داء الطاعون
 ٤٩٤ علاج السلعة - علاج الحمى
 ٥٠٠ علاج الحكمة وما يولد القمل
 ٥٠١ علاج السم
 ٥٠٣ النوع الثالث: طبه ﷺ بالأدوية المركبة
 من الإلهية والطبيعية
 ٥٠٣ طبه ﷺ من القرحة
 ٥٠٥ طبه ﷺ من لدغة العقرب
 ٥٠٦ طبه ﷺ من النملة
 ٥٠٧ طبه ﷺ من البثرة - حرق النار
 ٥٠٧ طبه ﷺ بالحمية
 ٥٠٩ - الحمية من الماء
 ٥١٠ - الحمية من الماء المشمس
 ٥١١ - الحمية من طعام البخلاء
 ٥١١ - الحمية من داء الكسل
 ٥١١ - الحمية من داء البواسير
 ٥١٢ - الحمية من سم الذباب
 ٥١٣ - الحمية بتغطية الإناء ليلاً

المواهب اللدنية

بالمِنَحِ الحَمْدِيَّةِ

تَأَلَّفَ

العَلَّامَةُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقِطْلَانِيُّ

(١٨٥١ - ١٩٢٣ هـ)

الجزء الرابع

تَحْقِيقُ

صَالِحُ أَحْمَدُ الشَّامِيُّ

الكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب. : ١١/٣٧٧١ - هاتف: ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)
دمشق : ص.ب. : ١٣٠٧٩ - هاتف: ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب. : ١٨٢٠٦٥ - هاتف: ٤٦٥٦٦٠٥

المواهب اللدنية

بالمَنحِ المَحْمَدِيَّةِ

الجزء الرابع



المقصد التاسع

في

لطيفة من عباداته

(صلى الله عليه وسلم)

[تمهيد عام]

[العبادة مدى الحياة]

قال الله تعالى مخاطباً له ﷺ: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون. فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين. واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾^(١).

فأمره تعالى بعبادته حتى يأتيه الموت، وهو المراد بـ«اليقين»، وإنما سمي الموت باليقين لأنه أمر متيقن.

فإن قلت: ما الفائدة في قوله: ﴿حتى يأتيك اليقين﴾ وكان قوله: ﴿واعبد ربك﴾ كافياً في الأمر بالعبادة؟

أجاب القرطبي تبعاً لغيره: بأنه لو قال: ﴿واعبد ربك﴾ مطلقاً ثم عبده مرة واحدة كان مطيعاً، ولما قال: ﴿حتى يأتيك اليقين﴾ أي اعبد ربك في جميع زمان حياتك ولا تمل ولا تحل لحظة من لحظات الحياة من هذه العبادة. كما قال العبد الصالح: ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾^(٢).

وهذا مصير منه إلى أن الأمر المطلق لا يفيد التكرار، وهي مسألة معروفة في الأصول اختلف فيها.

(١) سورة الحجر، الآيات ٩٧ - ٩٩.

(٢) سورة مريم، الآية ٣١.

[مسألة أصولية: حكم المطلق]

وهي: هل الأمر المطلق يفيد التكرار، أو المرة الواحدة، أو لا يفيد شيئاً منها؟ على مذاهب:

الأول: أنه لا يفيد التكرار ولا ينافيه، بل إنما يفيد طلب فعل المأمور به من غير إشعار بالمرة أو المرات، لكن المرة ضرورية لأجل تحقيق الامتثال، إذ لا توجد الماهية بأقل منها، وهذا مختار الإمام^(١) مع نقله له على الأقلين، ورجحه الآمدي وابن الحاجب وغيرهما.

الثاني: أنه يفيد التكرار مطلقاً، كما ذهب إليه الاستاذ أبو إسحاق الإسفرايني وأبو حاتم القزويني، فإن عيناً للتكرار أمدأ استعوبه، وإلا استوعب زمان العمر، لكن بحسب الإمكان، فلا يستوعب زمن قضاء الحاجة والنوم وغيرهما من الضروريات.

الثالث: أنه يدل على المرة، حكاه الشيخ أبو إسحاق في شرح «اللمع» عن أكثر أصحابنا وأبي حنيفة وغيرهم. وإن علق بشرط أو صفة اقتضى التكرار بحسب تكرار المعلق به، نحو ﴿وإن كنتم جنباً فاطهروا﴾^(٢) و﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾^(٣)، انتهى ملخصاً من شرح العلامة أبي الحسن الأشموني لنظمه جمع الجوامع للعلامة ابن السبكي.

[معنى الآية]

وقد روي جبير بن نفير^(٤) مرسلأ أن النبي ﷺ قال: ما أوحى

(١) أي إمام الحرمين.

(٢) سورة المائدة، الآية ٦.

(٣) سورة النور، الآية ٢.

(٤) تابعي ثقة جليل ولأبيه صحبة مات سنة ثمانين.

إلى أن أجمع المال وأكون من التاجرین، ولكن أوحى إلى أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين وابد ربك حتى يأتيك اليقين. رواه البغوي في شرح السنة وأبو نعیم في الحلية عن أبي مسلم الخولاني^(١). وقد أمر الله نبيه ﷺ في هذه الآية بأربعة أشياء: التسبيح والتحميد والسجود والعبادة.

واختلف العلماء في أنه كيف صار الإقبال على مثل هذه الطاعات سبباً لزوال ضيق القلب والحزن.

فحكى الإمام فخر الدين الرازي عن بعض المحققين أنه قال: إذا اشتغل الإنسان بمثل هذه الأنواع من العبادات انكشفت له أضواء عالم الربوبية، ومتى حصل ذلك الانكشاف صارت الدنيا بالكلية حقيرة، وإذا صارت حقيرة خف على القلب فقدانها ووجدانها، فلا يستوحش من فقدانها ولا يستريح بوجدانها، وعند ذلك يزول الحزن والغم. وقال أهل السنة: إذا نزل بالعبد بعض المكروه فزع إلى الطاعات، كأنه يقول: تجب علي عبادتك سواء أعطيتني الخيرات أو ألقيتني في المكروهات.

[الصبر على العبادة]

وقال تعالى: ﴿فاعبده واصطبر لعبادته﴾^(٢).

فأمره تعالى ﷺ بالعبادة والمصابرة على مشاق التكليف في الإنذار والإبلاغ.

(١) الزاهد العابد الشامي، تابعي كبير ثقة، رحل إلى النبي ﷺ فلم يدركه وعاش إلى زمن يزيد بن معاوية.

(٢) سورة مريم، الآية ٦٥.

فإن قلت: لم لم يقل: واصبر على عبادته، بل قال: ﴿واصطر
لعبادته﴾؟

فالجواب: لأن العبادة جعلت بمنزلة القِرْن^(١) في قولك
للمحارب: اصطر لقرنك أي: اثبت له فيما يورده عليك من مشاقه.
والمعنى: أن العبادة تورده عليك شدائد ومشاق فاثبت لها / قاله الفخر
الرازي وكذا البيضاوي.

[تصحیح فهم صوفي خاطیء]

وقال تعالى: ﴿ولله غيب السماوات والأرض وإليه يُرْجَع الأمر
كله فاعبده وتوكل عليه﴾^(٢).

فأول درجات السير إلى الله عبودية الله تعالى، وآخرها التوكل
عليه، وإذا كان العبد لا يزال مسافراً إلى ربه لا ينقطع سيره إليه ما
دام في قيد الحياة، فهو محتاج إلى زاد العبادة لا يستغني عنه ألبتة، ولو
أتى بأعمال الثقلين جميعاً، وكلما كان العبد إلى ربه أقرب كان جهاده
إلى الله أعظم، قال تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾^(٣) ولهذا
كان النبي ﷺ أعظم الخلق اجتهاداً وقياماً بوظائف العبادة، ومحافظته
عليها إلى أن توفاه الله تعالى. وتأمل أصحابه رضي الله عنهم فإنهم
كانوا كلما ترقوا من القرب مقاماً عظم جهادهم واجتهادهم.

ولا يلتفت إلى ما يظنه بعض المنتسبين إلى التصوف حيث قال:
«القرب الحقيقي ينقل العبد من الأعمال الظاهرة إلى الأعمال الباطنة

(١) في ط: القرآن، وهو تصحيف.

(٢) سورة هود، الآية ١٢٣.

(٣) سورة الحج، الآية ٧٨.

ويريح الجسد والجوارح من كد العمل». زاعماً بذلك سقوط التكليف عنه. وهؤلاء أعظم كفراً وإحاداً، حيث عطلوا العبودية وظنوا أنهم استغنوا عنها بما حصل لهم من الخيالات الباطلة، التي هي أمانى النفس وخدع الشيطان. فلو وصل العبد من القرب إلى أعلى مقام يناله العبد لما سقط عنه من التكليف مثقال ذرة ما دام قادراً عليه.

[هل تعبد ﷺ بشرع من قبله؟]

وقد اختلف العلماء: هل كان ﷺ قبل بعثته متعبداً بشرع من قبله أم لا؟

فقال جماعة: لم يكن متعبداً بشيء، وهو قول الجمهور، واحتجوا بأنه لو كان كذلك لنقل، ولما أمكن كتبه وستره في العادة، إذ كان من مهم أمره، وأولى^(١) ما اهتُبِل^(٢) به من سيرته، ولفخر به أهل تلك الشريعة، واحتجوا به عليه، ولم يؤثر شيء من ذلك.

وذهبت طائفة إلى امتناع ذلك عقلاً، قالوا: لأنه يبعد أن يكون متبوعاً من عرف تابعاً. والتعليل الأول المستند إلى النقل أولى.

وذهب آخرون إلى الوقف في أمره ﷺ وترك قطع الحكم عليه بشيء من ذلك، إذ لم يحل الوجهين منها العقل، وهذا مذهب الإمام أبي المعالي إمام الحرمين وكذا الغزالي والآمدني.

وقال آخرون: كان عاملاً بشرع من قبله. ثم اختلفوا: هل يتعين ذلك الشرع أم لا؟ فوقف بعضهم عن التعيين وأحجم، وجسر بعضهم على التعيين وصمم، ثم اختلفت هذه المعينة فيمن كان يتبع

(١) كذا في ش، وفي النسخ: فأولى، وسقطت الكلمة من ب.

(٢) أي اعنتي واهتم به.

فقيل نوح، وقيل إبراهيم، وقيل موسى، وقيل عيسى.

فهذه جملة المذاهب في هذه المسألة. والأظهر فيها ما ذهب إليه القاضي أبو بكر^(١)، وأبعدها مذاهب التعيين، إذ لو كان شيء من ذلك لنقل - كما قدمناه - ولم يخف جملة، ولا حجة لهم في أن عيسى عليه السلام آخر الأنبياء فلزمت شريعته من جاء بعده، إذ لم يثبت عموم دعوة عيسى، بل الصحيح أنه لم يكن لنبي دعوة عامة إلا لنبينا ﷺ. انتهى ملخصاً من كلام القاضي عياض، وهو كلام حسن بديع، لكن قوله: فهذه جملة المذاهب، فيه نظر، لأنه بقي منها شيء، فقد قيل شريعة آدم أيضاً، وهو محكي عن ابن برهان، وقيل جميع الشرائع. حكاه صاحب «المحصول» من المالكية.

وأما [قول]^(٢) من قال: إنه ﷺ كان على شريعة إبراهيم، وليس له شرع منفرد به، وأن المقصود من بعثته ﷺ إحياء شرع إبراهيم، وعول في إثبات مذهبه على قوله تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾^(٣) فهذا قول ساقط مردود، لا يصدر مثله إلا عن سخييف العقل كثيف الطبع.

وإنما المراد بهذه الآية الاتباع في التوحيد، لأنه لما وصف إبراهيم عليه السلام في هذه الآية بأنه ما كان من المشركين، فلما قال: ﴿أن اتبع﴾ كان المراد منه ذلك. ومثله قوله تعالى: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾^(٤) وقد سمي الله تعالى فيهم من لم يبعث ولم يكن له

(١) أي الباقلاني، وهو قول الجمهور.

(٢) في ط، ش.

(٣) سورة النحل، الآية ١٢٣.

(٤) سورة الانعام، الآية ٩٠.

أ/٣٢١ شريعة تخصه كيوسف بن يعقوب. على قول من يقول / إنه ليس برسول. وقد سمي الله تعالى جماعة منهم في هذه الآية وشرائعهم مختلفة لا يمكن الجمع بينها، فدل على أن المراد ما اجتمعوا عليه من التوحيد وعبادة الله تعالى.

فإن قيل: النبي ﷺ إنما نفى الشرك وثبت التوحيد بناء على الدلائل القطعية، وإذا كان كذلك لم يكن متابعاً لأحد، فيمتنع حمل قوله: ﴿أَنْ اتَّبِعْ﴾ على هذا المعنى، فوجب حمله على الشرائع التي يصح حصول المتابعة فيها.

أجاب الفخر الرازي: بأنه يحتمل أن يكون المراد الأمر بمتابعته في كيفية الدعوة^(١) إلى التوحيد، وهو أن يدعو إليه بطريق الرفق والسهولة وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى بأنواع كثيرة، على ما هو الطريقة المألوفة في القرآن.

وقد قال صاحب الكشاف: لفظه «ثم» في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ تدل على تعظيم منزلة رسول الله ﷺ واجلال محله، فإن أشرف ما أوتي خليل الله من الكرامة وأجل ما أوتي من النعمة اتباع رسول الله ﷺ ملته، من قبل أن هذه اللفظة دلت على تباعد النعت في المرتبة على سائر المدائح التي مدحه الله بها، انتهى.

ومراده بالمدائح: المذكورة في قوله: ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢).

(١) كذا في ش، وهو الصواب، وفي النسخ: الدعوى.

(٢) سورة النحل، الآية ١٢٠.

وقال ابن العراقي في شرح تقريب الأسانيد: وليت شعري كيف تلك العبادة؟ وأي أنواعها هي؟ وعلى أي وجه فعلها؟ يحتاج ذلك لنقل. ولا استحضره الآن. انتهى.

وقال شيخ الإسلام البلقيني في شرح البخاري: لم تجيء في الأحاديث التي وقفنا عليها كيفية تعبه ﷺ، لكن روى ابن إسحاق وغيره أنه ﷺ كان يخرج إلى حراء في كل عام شهراً من السنة يتنسك فيه، وكان من تنسك قريش في الجاهلية أن يطعم الرجل من جاءه من المساكين، حتى إذا انصرف من مجاورته لم يدخل بيته حتى يطوف بالكعبة، وحمل بعضهم التعبد على التفكير.

قال^(١): وعندي أن هذا التعبد يشتمل على أنواع: وهي الانعزال عن الناس، كما صنع إبراهيم عليه السلام باعتزاله قومه والانقطاع إلى الله تعالى، فإن «انتظار الفرج عبادة»، كما رواه علي بن أبي طالب مرفوعاً^(٢)، وينضم إلى ذلك الأفكار، وعن بعضهم: كانت عبادته ﷺ في حراء التفكير. انتهى.

وقد آن أن أشرع فيما قصدته على النحو الذي أردته. وقد اقتصرنا من عباداته على سبعة أنواع:

(١) أي البلقيني.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي والديلمي.

النَّوعُ الأوَّل

في الطهارة
وفيه فصول:

الفصل الأول

في ذكر وضوئه ﷺ وسواكه
ومقدار ما كان يتوضأ به

أعلم أن الوضوء، بالضم: الفعل، وبالفتح: الماء الذي يتوضأ به، على المشهور فيهما، وهو مشتق من الوضاءة، وسمي به لأن المصلي يتنظف به فيصير وضياً.

[النية في الوضوء]

وقد استنبط بعض العلماء - كما حكاه في فتح الباري - إيجاب النية في الوضوء من قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾ (١) لأن التقدير: إذا أردتم القيام إلى الصلاة فتوضؤوا لأجلها. ومثله قوله: إذا رأيت الأمير فقم، أي، لأجله.

وقال ابن القيم: لم يرو أنه ﷺ كان يقول في أول وضوئه نويت رفع الحدث ولا غيرها، لا هو ولا أصحابه ألبتة، ولم يرو عنه لا بسند صحيح ولا ضعيف. انتهى

قالت: أما التلطف بالنية فلا نعلم أنه روي عنه ﷺ، وأما كونه أتى بها فقد قال الإمام فخر الدين الرازي في «المعالم»: اعلم أنا إذا

(١) سورة المائدة، الآية ٦.

أردنا أن نقول في أمر من الأمور: هل فعله الرسول ﷺ؟ قلنا في إثباته طرق:

الأول: أنا إذا أردنا أن نقول إنه ﷺ توضعاً مع النية والترتيب، قلنا: لا شك أن / الوضوء مع النية والترتيب أفضل، والعلم ب/٣٢١ الضروري حاصل بأن أفضل الخلق لم يواظب على ترك الأفضل طول عمره، فثبت أنه أتى بالوضوء المرتب المنوي، ولم يثبت عندنا أنه أتى بالوضوء العاري عن النية والترتيب، والشك لا يعارض اليقين، فثبت أنه أتى بالوضوء المرتب المنوي، فوجب أن يجب علينا مثله.

والطريق الثاني: أن نقول: لو أنه ﷺ ترك النية والترتيب وجب علينا تركه للدلائل الدالة على وجوب الاقتداء به، ولما لم يجب علينا تركه ثبت أنه ما تركه، بل فعله.

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث عمر مرفوعاً (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى).

قال البخاري: «فدخل فيه الإيمان والوضوء والصلاة والزكاة والحج والصوم والأحكام».

وأشار بذكر^(١) الوضوء إلى خلاف من لم يشترط فيه النية، كما نقل عن الأوزاعي وأبي حنيفة وغيرهما. وحجتهم: أنه ليس عبادة مستقلة، بل وسيلة إلى عبادة كالصلاة.

ونوقضوا بالتيمم، فإنه وسيلة، وقد اشترط الحنفية فيه النية. واستدل الجمهور على اشتراط النية في الوضوء بالأدلة الصحيحة

(١) في ط: بذلك.

المصرحة بوعده الثواب عليه، فلا بد من قصد يميزه ليحصل الثواب الموعود به.

[حكم النية في الأعمال]

وقوله: (إنما الأعمال بالنيات). ليس المراد منه نفي ذات العمل لأنه قد يوجد بغير نية، بل المراد نفي أحكامها كالصحة والكمال. ولكن الحمل على نفي الصحة أولى لأنه أشبه بنفي الشيء نفسه، ولأن اللفظ دل على نفي الذات بالصریح وعلى نفي الصفات بالتبع، فلما منع الدليل نفي الذات بقيت دلالاته على نفي الصفات مستمرة.

قال ابن دقيق العيد: الذين اشترطوا النية، قدروا: صحة الأعمال، والذين لم يشترطوها قدروا: كمال الأعمال. ورجح الأول لأن الصحة أكثر لزوماً للحقيقة من الكمال، فالحمل عليها أولى.

وفي هذا الكلام إيهام أن بعض العلماء لا يرى اشتراط النية، وليس الخلاف بينهم في ذلك إلا في الوسائل، وأما المقاصد فلا اختلاف بينهم في اشتراط النية لها. ومن ثم خالف الحنفية في اشتراطها للوضوء كما تقدم، وخالف الأوزاعي في اشتراطها في التيمم أيضاً. نعم بين العلماء اختلاف في اقتران النية بأول العمل كما هو معروف في مبسوطات الفقه.

وأما قوله - أي البخاري - «فدخل فيه الإيمان»، فتوجيه دخول النية في الإيمان على طريقة البخاري: أن الإيمان عمل، وأما الإيمان بمعنى التصديق فلا يحتاج إلى نية كسائر أعمال القلوب، من خشية الله وتعظيمه ومحبته والتقرب إليه، لأنها متميزة لله فلا تحتاج إلى نية تميزها، لأن النية إنما تميز العمل لله عن العمل لغيره رياء، وتميز مراتب الأعمال كالفرض عن الندب، وتميز العبادة عن العادة كالصوم عن الحمية.

وقوله أيضاً: «والأحكام» أي المعاملات التي يدخل فيها الاحتياج إلى المحاكمات فتشمل البيوع والأنكحة والأقارير وغيرها، وكل صورة لم تشترط فيها النية فذلك للدليل خاص^(١).

[قاعدة في اشتراط النية]

وقد ذكر ابن المنير ضابطاً - لما تشترط فيه النية مما لا تشترط فيه - فقال: كل عمل لا تظهر له فائدة عاجلة بل المقصود به طلب الثواب فالنية مشترطة فيه، وكل عمل ظهرت فائدته ناجزة، وتقاضته الطبيعة قبل الشريعة للملاءمة بينهما فلا تشترط النية فيه إلا لمن قصد بفعله معنى آخر يترتب عليه الثواب.

قال: وإنما اختلف العلماء في بعض الصور من جهة تحقيق مناط التفرقة.

قال: وأما ما كان من المعاني المحضة كالخوف والرجاء فهذا لا يقال باشتراط النية فيه لأنه لا يمكن أن يقع إلا منوياً، ومتى فرضت النية مفقودة فيه استحالت حقيقته، فالنية فيه شرط عقلي.

وأما الأقوال، فتحتاج إلى النية في ثلاثة مواطن: أحدها، التقرب إلى الله تعالى فراراً من الرياء، والثاني: التمييز عن الألفاظ المحتملة لغير / المقصود. والثالث: قصد الإنشاء ليخرج سبق اللسان. انتهى، ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري^(٢).

[متى فرض الوضوء؟]

وقد اختلف العلماء في الوقت الذي وجب فيه الوضوء:

(١) عن فتح الباري ١/١٣٥ - ١٣٦.

(٢) فتح الباري ١/١٣٦.

فقال بعضهم: أول ما فرض بالمدينة، وتمسك بقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ (١) الآية.

ونقل ابن عبد البر اتفاق أهل السير على أن غسل الجنابة فرض عليه ﷺ وهو بمكة، كما افترضت الصلاة، وأنه لم يصل قط إلا بوضوء، وقال: وهذا مما لا يجمله عالم.

وقال الحاكم في المستدرک: أهل السنة بهم حاجة إلى دليل الرد على من زعم أن الوضوء لم يكن قبل نزول آية المائدة، ثم ساق حديث ابن عباس: دخلت فاطمة رضي الله عنها على النبي ﷺ وهي تبكي فقالت: هؤلاء الملاء من قریش قد تعاهدوا ليقتلوك، فقال: اثنوني بوضوء فتوضأ.

قال الحافظ ابن حجر: وذا يصلح أن يكون رداً على من أنكر وجود الوضوء قبل الهجرة، لا على من أنكر وجوبه حينئذ.

وقد حزم ابن الجهم المالكي بأنه كان قبل الهجرة مندوباً، وحزم ابن حزم بأنه لم يشرع إلا بالمدينة.

ورد عليه (٢) بما أخرجه ابن لهيعة في المغازي التي يرويها عن أبي الأسود عن عروة أن جبريل عليه السلام علم النبي ﷺ الوضوء عند نزوله عليه بالوحي.

وهو مرسل، ووصله أحمد من طريق ابن لهيعة أيضاً، لكن قال: عن الزهري عن عروة، عن أسامة بن زيد عن أبيه، وأخرجه ابن ماجه من رواية رشدين بن سعد عن عقيل عن الزهري نحوه،

(١) سورة المائدة، الآية ٦.

(٢) الذي في فتح الباري: عليهما.

لكن لم يذكر زيد بن حارثة في السند، وأخرجه الطبراني في الأوسط من طريق الليث عن عقيل موصولاً. ولو ثبت لكان على شرط الصحيح، لكن المعروف رواية ابن لهيعة^(١).

[هل الوضوء لكل صلاة؟]

وعن أنس قال: كان رسول ﷺ يتوضأ لكل صلاة. قيل له: كيف كنتم تصنعون؟ قال: يجزي أحدنا الوضوء ما لم يحدث. رواه البخاري وأبو داود والترمذي.

وعن عثمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يتوضأ لكل صلاة. رواه الدارمي.

وروى مسلم عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ يتوضأ لكل صلاة، فلما كان يوم الفتح صلى صلوات بوضوء واحد. فقال له عمر: فعلت شيئاً لم تكن تفعله، فقال: عمداً فعلته يا عمر. يعني لبيان الجواز

وفي رواية أحمد وأبي داود، من حديث عبد الله بن أبي عامر الغسيل، أنه ﷺ أمر بالوضوء، لكل صلاة طاهراً أو غير طاهر، فلما شق ذلك عليه أمر بالسواك عند كل صلاة ووضع عنه الوضوء إلا من حدث.

[موجب الوضوء]

واختلف العلماء في موجب الوضوء:

فقيل: يجب بالحدث وجوباً موسعاً

(١) عن فتح الباري ١/٢٣٣.

وقيل: به وبالقيام إلى الصلاة معاً، ورجحه جماعة من الشافعية
وقيل: بالقيام إلى الصلاة حسب، ويدل له ما رواه أصحاب
السنن عن ابن عباس مرفوعاً: إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى
الصلاة^(١).

[حكم السواك]

وقد تمسك بحديث عبد الله بن أبي عامر هذا من قال بوجوب
السواك عليه ﷺ، لكن في إسناده محمد بن إسحاق، وقد رواه
بالعنعنة وهو مدلس، والخصائص لا تثبت إلا بدليل صحيح.

وأخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في السنن عن عائشة
مرفوعاً: ثلاث هن عليّ فرائض وهن لكم سنة: الوتر والسواك وقيام
الليل.

وقد روى أحمد في مسنده بإسناده حسن من حديث واثلة بن
الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: أمرت بالسواك حتى خشيت أن يكتب
علي.

وقد حكى بعضهم الإجماع على أنه ليس بواجب علينا. لكن
حكى عن بعض الشافعية أنه أوجبه للصلاة ونوزع فيه.

واتفقوا على أنه مستحب مطلقاً، ويتأكد بأحوال:

منها: عند الوضوء وإرادة الصلاة.

ومنها: عند القيام من النوم، لما ثبت في الصحيحين من حديث

(١) هذه الفقرة والتي قبلها عن فتح الباري ١/٢٣٢.

ب/٣٢٢ حذيفة أنه ﷺ / (كان إذا قام من الليل يشوص^(١) فاه بالسواك)، لكن قد يقال: المراد، قام من الليل للصلاة، فيكون المراد السواك للصلاة وعند الوضوء.

ومنها: قراءة القرآن، كما جزم به الرافي. ومنها: تغير الفم، سواء فيه تغير الرائحة أو تغير اللون، كصفرة الأسنان، كما ذكره الرافي.

ومنها: دخول المنزل، جزم به النووي في زيادة الروضة، لما روى مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه، من حديث عائشة، أنه ﷺ (كان إذا دخل بيته يبدأ بالسواك).

ومنها: إرادة النوم، كما ذكره الشيخ أبو حامد^(٢) في «الروتنق»، وروى فيه ما رواه ابن عدي في الكامل من حديث جابر: أن رسول الله ﷺ كان يستاك إذا أخذ مضجعه. وفيه: حرام بن عثمان، متروك.

ومنها: الانصراف من صلاة الليل، لما روى ابن ماجه من حديث ابن عباس بإسناد صحيح قال: كان رسول الله ﷺ يصلي بالليل ركعتين ركعتين، ثم ينصرف فيستاك.

[أداة التسوك]

ويجزىء بكل خشن، ولو بأصبع غيره الخشنة^(٣)، وقد جزم

(١) أي يدلك.

(٢) الإسفرايني.

(٣) هذا اجتهاد غريب - أن يستاك بأصبع غيره - ويتنافى مع الذوق العام الذي يريه الإسلام من خلال منهجه، والتسوك هنا عملية عبادية تقتصر على ما وردت به السنة ولا مجال للاجتهاد. انظر كتاب التربية الجمالية في الإسلام للمحقق [م].

النووي في شرح المهذب ودقائق المنهاج أنه يجزىء بها قطعاً. قال في شرح تقريب الأسانيد: وما أدري ما وجه التفرقة بين أصبعه وأصبع غيره وكونه جزءاً منه لا يظهر منه ما يقتضي منعه، بل كونها أصبعه أبلغ في الإزالة، لأنه يتمكن بها أكثر من تمكن غيره أن يسوكه بأصبعه لا جرم^(١). قال النووي في شرح المهذب: المختار إجزاؤه مطلقاً. قال: وبه قطع القاضي حسين والمحامي في اللباب والبغوي واختاره في البحر. انتهى.

ولقد أطبق أصحاب الشافعي على استحباب «الأراك». فروى الطبراني من حديث أبي خيرة الصنابحي - وله صحبة - حديثاً قال فيه: ثم أمر لنا رسول الله ﷺ بأراك فقال: استاكوا بهذا.

وفي مستدرك الحاكم من حديث عائشة في دخول أخيها عبد الرحمن بن أبي بكر في مرضه ﷺ ومعه سواك من أراك، فأخذته عائشة فطيبته ثم أعطته رسول الله ﷺ فاستاك به. والحديث في الصحيح وليس فيه ذكر الأراك^(٢). وفي بعض طرقه عند البخاري: ومعه سواك من جريد النخل.

[كيفية التسوك]

وقد روى أبو نعيم في كتاب السواك، من حديث عائشة قالت: كان النبي ﷺ يستاك عرضاً، وروى البيهقي أيضاً من حديث ربيعة ابن أكثم قال: كان رسول الله ﷺ يستاك عرضاً الحديث.

(١) أي حقا.

(٢) فذكره في رواية الحاكم وهم أو شذوذ لاسيما وقد عارض رواية البخاري الثانية.

قال أصحابنا: والمراد بقوله «عرضاً»: عرض الأسنان في طول الفم.

وهل الأولى أن يباشر المستاك بيمينه أو شماله؟ قال بعضهم بيمينه، لحديث: كان يعجبه التيمن في ترجله^(١) وتنعله وطهره وسواكه.

وبناه بعضهم على أنه هل هو من باب التطهير والتطيب، أو من باب إزالة القاذورات. فإن قلنا بالأول استحب أن يكون باليمنى، وإن قلنا بالثاني فبشماله لحديث عائشة: كانت يد رسول الله ﷺ اليمين لظهوره وطعامه، واليسرى لخلائه وما كان من أذى. رواه أبو داود بإسناد صحيح.

قال في شرح تقريب الأسانيد: وما استدل به على أنه يستحب باليمين ليس فيه دلالة، فإن المراد منه بالشق الأيمن في الترجل، والبداءة بلبس النعل، والبداءة بالأعضاء اليمنى في التطهير، والبداءة بالجانب الأيمن في الاستياك، وأما كونه يفعل ذلك بيمينه فيحتاج إلى نقل، والظاهر أنه من باب إزالة الأذى كالامتخاط ونحوه فيكون باليسرى. وقد صرح بذلك أبو العباس أحمد القرطبي فقال في «المفهم» حكاية عن مالك: أنه لا يتسوك في المساجد لأنه من باب إزالة القذر والله أعلم.

[الاقتصاد بماء الوضوء]

وأما مقدار ما كان ﷺ يتوضأ أو يغتسل به من الماء:

فعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يغتسل بالصاع إلى خمسة

(١) أي تسريح شعره.

أمداد، ويتوضأ بالمد، وفي رواية: كان يغتسل بخمسة مكاكيك ويتوضأ بمكوك^(١). رواه البخاري ومسلم وأبو داود وعنده:

يتوضأ بإناء يسع رطلين ويغتسل بالصاع. ورواه الترمذي وعنده:

١/٣٢٣

أنه ﷺ / قال: يجزىء في الوضوء رطلان من الماء. وعن عائشة قالت: كان ﷺ يغتسل بالصاع ويتوضأ بالمد. رواه أبو داود.

وعن ابن عباس، أن النبي ﷺ وميمونة كانا يغتسلان من إناء واحد.

والصاع: خمسة أرطال وثلث، برطل بغداد، وهو على ما قاله النووي مائة وثمانية وعشرون درهماً وأربعة أسباع درهم.

وحذر ﷺ أمته من الإسراف فيه.

ومر بسعد وهو يتوضأ، فقال: ما هذا السرف يا سعد؟ قال: أفي الوضوء سرف؟ قال: نعم، وإن كنت على نهر جار. رواه أحمد بإسناد لين، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصي.

وقال ﷺ: إن للوضوء شيطاناً يقال له الوهان، فاتقوا وسواس الماء. رواه الترمذي من حديث أبي بن كعب^(٢)

(١) أي: مد.

(٢) وقال الترمذي: غريب ليس إسناده بالقوي لا نعلم أحداً أسنده غير خارجه ابن مصعب انتهى. وخارجه ضعيف جداً كما قال الحافظ وغيره. وأخرجه ابن خزيمة والحاكم في صحيحيهما من طريق خارجه. وتعجب من ذلك ابن سيد الناس فقال: لا أدري كيف دخل هذا في الصحيح. والله أعلم. كذا في الشرح. ومن المعلوم أن الوضوء عبادة فكيف يكون لها شيطان؟ [م].

الفصل الثاني

في وضوئه ﷺ مرة مرة
ومرتين مرتين وثلاثا ثلاثا

عن ابن عباس قال: توضأ رسول الله ﷺ مرة مرة. رواه البخاري وأبو داود وغيرهما. وهو بيان لمجمل قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾^(١) الآية إذ الأمر يفيد طلب إيجاد الحقيقة ولا يتعين بعدد، فين الشارع أن المرة الواحدة، للإيجاب، وما زاد عليها للاستحباب.

وأما حديث أبي بن كعب أنه ﷺ دعا بماء فتوضأ مرة مرة وقال: هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به، ففيه بيان القول والفعل معاً، لكنه حديث ضعيف أخرجه ابن ماجه، وله طرق أخرى كلها ضعيفة، كما قال في فتح الباري.

وعن عبد الله بن زيد أن رسول الله ﷺ توضأ مرتين مرتين وقال: نور على نور، ذكره رزين^(٢).

وعن عثمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ توضأ ثلاثاً ثلاثاً. رواه أحمد ومسلم.

(١) سورة المائدة، الآية ٦.

(٢) أصل الحديث في البخاري. لكن هنا فيه زيادة «نور على نور» وهي ضعيفة.

وعنه أن رسول الله ﷺ توضأ ثلاثاً وقال: هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي ووضوء إبراهيم. ذكره رزين، وضعفه النووي في شرح مسلم كما حكاه في مشكاة المصابيح.

ولم يأت في شيء من الأحاديث المرفوعة في صفة وضوئه ﷺ أنه زاد على ثلاث، بل روي عنه أنه نهى عن الزيادة على الثلاث.

فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ توضأ ثلاثاً ثلاثاً، ثم قال: من زاد على هذا أو نقص فقد أساء وظلم، رواه أبو داود بإسناد جيد، لكن عده مسلم في جملة ما أنكروه على عمرو ابن شعيب، لأن ظاهره ذم النقص عن الثلاثة.

وأجيب: بأنه أمر نسبي، والإساءة تتعلق بالنقص والظلم بالزيادة، وقيل: فيه حذف تقديره: من نقص من واحدة، ويؤيده ما رواه أبو نعيم بن حماد من طريق المطلب بن حنطب مرفوعاً: الوضوء مرة ومرتين وثلاثاً، فإن نقص من واحدة أو زاد على الثلاث فقد أخطأ، وهو مرسل رجاله ثقات.

وأجيب عن الحديث أيضاً: بأن الرواة لم يتفقوا على ذكر النقص فيه، بل أكثرهم يقتصر على قوله: فمن زاد فقط، كذا رواه ابن خزيمة في صحيحه.

قال الشافعي: لا أحب أن يزيد المتوضىء على ثلاث، فإن زاد أكرهه، أي لم أحرمه، لأن قوله: لا أحب، يقتضي الكراهة وهذا هو الأصح عند الشافعية أنه يكره كراهة تنزيه.

وحكى الدارمي من الشافعية عن قوم أن الزيادة على الثلاث تبطل الوضوء، كالزيادة في الصلاة، وهو قياس فاسد.

وقال أحمد وإسحاق وغيرهما: لا تجوز الزيادة على الثلاث.

وقال ابن المبارك: لا آمن أن يَأثم.

ويلزم من القول بتحريم الزيادة على الثلاث أو كراهتها أنه لا يندب تجديد الوضوء على الإطلاق^(١).

(١) من أين جاء هذا اللزوم، فتجديد الوضوء هو إنشاء وضوء كامل، ولا يقاس على زيادة العدد [م].

الفصل الثالث

في صفة وضوئه ﷺ

[صفة وضوئه ﷺ]

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه دعا بإناء فأفرغ على يديه ثلاث مرات فغسلهما، ثم أدخل يمينه في الإناء فمضمض / واستنشق ٣٢٣/ب ثم غسل وجهه ثلاثاً ويديه ثلاثاً إلى المرفقين، ثم مسح برأسه، ثم غسل رجليه ثلاث مرات إلى الكعبين، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه. رواه البخاري.

وقد استدل بعضهم بقوله: «ثم أدخل يمينه» على عدم اشتراط نية الاغتراف. ولا دلالة فيه نفيًا ولا إثباتًا، وأما اشتراط نية الاغتراف فليس في هذا الحديث ما يثبتها ولا ما ينفيها. قال الغزالي: مجرد الاغتراف لا يصير الماء مستعملًا، لأن الاستعمال إنما يقع في المغترف منه. وبهذا قطع البغوي.

وقد ذكروا في حكمة تأخير غسل الوجه، أنه لا اعتبار أوصاف الماء، لأن اللون يدرك بالبصر، والطعم يدرك بالشم، والريح بالأنف. فقدمت المضمضة والاستنشاق قبل الوجه، وهو مفروض احتياطاً للعبادة.

وقال النووي في قوله: «نحو وضوئي»، إنما لم يقل ﷺ: مثل،

لأن حقيقة مماثلته لا يقدر عليها غيره.

لكن تعقبه في «فتح الباري» بأنه ثبت التعبير بها في رواية البخاري في الرقاق من طريق معاذ بن عبد الرحمن عن حمران بن عثمان ولفظه: «من توضأ مثل وضوئي هذا». وفي الصيام من رواية معمر: «من توضأ وضوئي هذا»، قال: وعلى هذا فالتعبير بنحو من تصرف الرواة، لأنها تطلق على المثلية مجازاً، ولأن «مثل» وإن كانت تقتضي المساواة ظاهراً، لكنها تطلق على الغالب، فهذا تلتئم الروايتان، ويكون المتروك بحيث لا يخل بالمقصود، انتهى.

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم الأنصاري، أنه قيل له: توضأ لنا وضوء رسول الله ﷺ، فدعا بإناء، فأكفأ منه على يديه فغسلها ثلاثاً، [ثم أدخل يده فاستخرجها فتمضمض واستنشق من كف واحد ففعل ذلك ثلاثاً] (١). ثم أدخل يده فاستخرجها فغسل وجهه ثلاثاً، ثم أدخل يده فاستخرجها فغسل يديه إلى المرفقين مرتين مرتين، ثم أدخل يده فاستخرجها فمسح برأسه فأقبل بيديه وأدبر، ثم غسل رجليه إلى الكعبيين، ثم قال: هكذا كان وضوء رسول الله ﷺ.

وفي رواية: فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه. رواه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود والترمذي والنسائي.

وفي رواية لأبي داود: ثم مسح برأسه وأذنيه ظاهرهما وباطنهما، وأدخل أصابعه في صماخي أذنيه.

(١) هذه الجملة ليست في المخطوطات. وقد وردت في روايات الحديث. انظر صحيح مسلم الحديث ٢٣٥.

وفي رواية أبي داود والترمذي والنسائي عن عبد خير، أبي عمارة ابن زيد بن حَوْلي - بفتح الخاء المعجمة وسكون الواو وتشديد الياء - الهمداني، من كبار أصحاب علي بن أبي طالب، قال: أتانا علي وقد صلى، فدعا بطهور، فقلنا ما يصنع بالطهور وقد صلى، ما يريد إلا ليعلمنا، فأتي بإناء فيه ماء وطست، فأفرغ من الإناء على يمينه فغسل يديه ثلاثاً، ثم تَمَضَض واستنثر ثلاثاً، فمَضَض ونثر من الكف الذي يأخذ فيه، ثم غسل وجهه ثلاثاً، وغسل يده اليمنى ثلاثاً، وغسل يده اليسرى ثلاثاً، ثم جعل يده اليمنى في الإناء فمسح برأسه مرة واحدة، ثم غسل رجله اليمنى ثلاثاً ورجله اليسرى ثلاثاً، وقال: من سره أن يعلم وضوء رسول الله ﷺ فهو هذا.

[هل يتكرر مسح الرأس؟]

قال ابن القيم: والصحيح أنه ﷺ لم يكرر مسح رأسه، انتهى وقال النووي: والأحاديث الصحيحة فيها المسح مرة واحدة، وفي بعضها الاقتصار على قوله: مسح.

واحتج الشافعي^(١) بحديث عثمان رضي الله عنه في صحيح مسلم أنه ﷺ توضأ ثلاثاً ثلاثاً، وبالقياس على باقي الأعضاء، انتهى وأجيب: بأنه مجمل مبين في الروايات الصحيحة أن المسح لم يتكرر، فيحمل على الغالب ويخص بالمغسول، وبأن المسح مبني على التخفيف فلا يقاس على الغهمل الذي المراد منه المبالغة / في الإسباغ، ١/٣٢٤ وبأن العدد لو اعتبر في المسح لصار في صورة الغسل، إذ حقيقة الغسل جريان الماء.

(١) في ش: للشافعي.

واحتج الشافعية أيضاً بما رواه أبو داود في سننه من حديث عثمان من وجهين، صحح أحدهما ابن خزيمة: أنه ﷺ مسح رأسه ثلاثاً. وفي رواية أبي داود والترمذي من حديث الربيع بنت معوذ: فغسل كفيه ثلاثاً، ووضأ وجهه ثلاثاً، وتمضمض واستنشق مرة، ووضأ يديه ثلاثاً، ومسح رأسه مرتين بدأ بمؤخر رأسه ثم بمقدمه وبأذنيه كليهما ظهورهما وبطونهما، ووضأ رجله ثلاثاً ثلاثاً.

وقد أجاب العلماء عن أحاديث المسح مرة واحدة بأن ذلك لبيان الجواز، ويؤيده رواية مرتين هذه.

وقال ابن السمعاني - كما حكاه في فتح الباري -: اختلاف الرواية يحمل على التعدد، فيكون مسح تارة مرة، وتارة ثلاثاً، فليس في رواية مسح مرة حجة على منع التعدد، ويحتج للتعدد بالقياس على المغسول، لأن الوضوء طهارة حكمية، ولا فرق في الطهارة الحكمية بين الغسل والمسح.

قال^(١): ومن أقوى الأدلة على عدم التعدد، الحديث المشهور الذي صححه ابن خزيمة وغيره من طريق عبد الله بن عمرو بن العاصي في صفة الوضوء بعد أن فرغ: «من زاد على هذا فقد أساء وظلم» فإن في رواية سعيد بن منصور التصريح بأنه مسح رأسه مرة واحدة، فدل على أن الزيادة في مسح الرأس على المرة غير مستحبة، ويحمل ما ورد من الأحاديث في تثليث المسح - إن صححت - على إرادة الاستيعاب بالمسح، لا أنها مسحات مستقلة لجميع الرأس، جمعاً بين الأدلة. انتهى.

[كيفية مسح الرأس]

وفي حديث عبد الله بن زيد - عند البخاري - الذي ذكرته قبل:

(١) أي صاحب فتح الباري.

ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر.

وفي رواية: بدأ بمقدم رأسه حتى ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما في المكان الذي بدأ منه.

وزاد ابن الطباع^(١) بعد قوله: «ثم مسح رأسه» كله، كما هو في رواية ابن خزيمة.

[معنى «الباء» في «برؤوسكم»]

وفي رواية غيره - كما قدمته -: «برأسه»، بزيادة الباء، موافقة لقوله تعالى: ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾^(٢).

قال البيضاوي: «الباء» أي في الآية مزيدة، وقيل: للتبعيض، فإنه الفارق بين قولك، مسحت المنديل، وبالمنديل، ووجه أن يقال: إنها تدل على تضمين الفعل معنى الإلصاق، فلأنه قيل: وألصقوا المسح برؤوسكم، وذلك لا يقتضي الاستيعاب، بخلاف ما لو قيل: وامسحوا رؤوسكم فإنه كقوله: واغسلوا وجوهكم، انتهى.

وقال الشافعي: احتمال قوله تعالى: ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾ جميع الرأس أو بعضه، فدلّت السنة على أن بعضه يجزىء، والفرق بينه وبين قوله تعالى: ﴿فامسحوا بوجوهكم﴾ في التيمم، أن المسح فيه بدل عن الغسل، ومسح الرأس أصل فافترقا. ولا يرد كون مسح الخف بدلاً عن غسل الرجل، لأن الرخصة فيه ثبتت بالإجماع.

وقد روى من حديث عطاء أنه ﷺ توضأ، فحسر العمامة عن

(١) اسحاق بن عيسى بن الطباع، أبو يعقوب، ثقة من رواة الموطأ. روى له مسلم وأصحاب السنن، مات سنة أربع عشرة ومائتين.

(٢) سورة المائدة، الآية ٦.

رأسه ومسح مقدم رأسه، وهو مرسل، لكنه اعتضد بمجيئه من وجه آخر موصولاً أخرجه أبو داود من حديث أنس، وفي إسناده أبو معقل، لا يعرف حاله، لكن اعتضد كل من المرسل والموصول بالآخر وحصلت القوة من الصورة المجموعة وهذا مثال لما ذكره الشافعي من أن المرسل يعضد بمرسل آخر أو مسند.

وفي الباب أيضاً عن عثمان في صفة الوضوء قال: ومسح مقدم رأسه، أخرجه سعيد بن منصور، وفيه خالد بن يزيد بن أبي مالك مختلف فيه.

وصح عن ابن عمر الاكتفاء بمسح بعض الرأس، قاله ابن المنذر وغيره، ولم يصح عن أحد من الصحابة إنكار ذلك. قاله ابن حزم.

قال الحافظ ابن حجر: وهذا كله مما يقوى به المرسل المتقدم ذكره. انتهى

[الواجب مسحه من الرأس]

واختلف في القدر الواجب في مسح الرأس، فذهب الشافعي وجماعة إلى أن الواجب ما ينطلق عليه الاسم ولو شعرة واحدة أخذاً باليقين،

وذهب مالك وأحمد وجماعة إلى وجوب استيعابه / أخذاً بالاحتياط.

ب/٣٢٤

وقال أبو حنيفة في رواية: الواجب ربه، لأنه ﷺ مسح على ناصيته وهو قريب من الربع. والله أعلم.

[المضمضة والاستنشاق]

وعن طلحة بن مصرف عن أبيه عن جده قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يتوضأ والماء يسيل من جوهه ولحيته على صدره، فرأيته يفصل بين المضمضة والاستنشاق. رواه أبو داود.

وعنه أيضاً قال: إن رسول الله ﷺ توضأ، فمضمض ثلاثاً واستنشق ثلاثاً من كف واحد. رواه ابن ماجه.

وفي حديث مسلم أن عثمان دعا بإناء فأفرغ على كفيه ثلاث مرات فغسلها، ثم أدخل يمينه في الإناء فمضمض واستنثر ثم غسل وجهه ثلاث مرات.

وفي حديث عبد الله بن زيد عند البخاري: ثم غسل ومضمض واستنشق من كف واحد ثم قال: هكذا وضوء رسول الله ﷺ.

قال النووي: فيه أن السنة في المضمضة والاستنشاق، أن يأخذ الماء لهما بيمينه، قال: وفي الأفضل في كيفية المضمضة والاستنشاق خمسة أوجه:

الأصح: يتمضمض ويستنشق بثلاث غرفات، يتمضمض من كل واحدة ثم يستنشق.

والثاني: يجمع بينهما بغرفة واحدة، يتمضمض منها ثلاثاً ثم يستنشق منها ثلاثاً.

والثالث: يجمع أيضاً بغرفة، ولكن يتمضمض منها ثم يستنشق، ثم يتمضمض منها ثم يستنشق، ثم يتمضمض منها ثم يستنشق.

والرابع: يفصل بينهما بغرفتين، فيتمضمض من إحداهما ثلاثاً، ثم يستنشق من الأخرى ثلاثاً.

والخامس: يفصل بست غرفات، يتمضمض بثلاث غرفات، ثم يستنشق بثلاث غرفات، .

قال: والصحيح الأول، وبه جاءت الأحاديث الصحيحة .

وقد ذهب الإمام أحمد وأبو ثور إلى وجوب الاستنشاق، وهو أن يبلغ الماء إلى خياشيمه، مستدلين بقوله ﷺ في حديث أبي هريرة: إذا توضأ أحدكم فليجعل في أنفه ماء ثم ليستنثر، لظاهر الأمر .

وحمله الجمهور ومالك والشافعي وأهل الكوفة على الندب، لقوله ﷺ للأعرابي: توضأ كما أمر الله، وليس في الآية ذكر الاستنشاق، والله أعلم .

[بعض سنن الوضوء]

وعند أبي داود: كان (١) ﷺ يمسح الماقين (٢) .

وعن عثمان أنه ﷺ كان يخلل لحيته، رواه الترمذي وابن ماجه .

وعنده (٣) من حديث ابن عمر: كان ﷺ إذا توضأ عرك عارضيه (٤) بعض العرك ثم شبك لحيته بأصابعه من تحتها .

وعن أنس كان رسول الله ﷺ إذا توضأ أخذ كفاً من ماء

(١) كذا في المخطوطات، وفي (ط ش): وكان .

(٢) الماقين: مثني ماق، ومؤق، وهو ما يلي الصدغ .

(٣) أي عند ابن ماجه، وإسناده ضعيف .

(٤) العارض: ما نبت على عرض اللحي فوق الذقن .

فيدخله تحت حنكه ويخلل به لحيته ويقول: بهذا أمرني ربي عز وجل .
رواه أبو داود^(١) .

وعن أبي رافع: كان ﷺ إذا توضأ حرك خاتمه . رواه ابن ماجه والدارقطني وضعفه .

وعن المستورد بن شداد: كان ﷺ إذا توضأ يدلك أصابع رجله بخنصره ، رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه .

وعن عائشة: كانت يد رسول الله ﷺ اليمنى لظهوره وطعامه .
وكانت اليسرى لخلائه وما كان من أذى .

[الاستعانة بشأن الوضوء]

وعن المغيرة بن شعبة أنه كان مع رسول الله ﷺ في سفر، وأنه ذهب لحاجة له وأن المغيرة جعل يصب الماء عليه وهو يتوضأ . رواه البخاري ومسلم .

وعن صفوان ابن عسال: صببت على النبي ﷺ الماء في السفر والحضر في الوضوء . رواه ابن ماجه .

وفي ذلك جواز استعانة الرجل بغيره في صب الماء في الوضوء من غير كراهة، وكذا إحضار الماء من باب أولى، ولا دليل في هذين الحديثين لجواز الإعانة المباشرة^(٢) .

وقد روى الحاكم في المستدرک، من حديث الربيع بنت معوذ أنها قالت: أتيت النبي ﷺ بوضوء فقال: أمسكي، فمسكت عليه .

(١) في إسناده مقال .

(٢) أي أن يقوم المعين بمباشرة غسل أعضاء المتوضئ [م] .

وهذا أصرح في عدم الكراهة من الحديثين المذكورين لكونه في
الحضر، ولكونه بصيغة الطلب، والله أعلم.

[التشيف بعد الوضوء]

وفي الترمذي، من حديث معاذ بن جبل: كان ﷺ إذا توضأ
مسح وجهه بطرف ثوبه^(١).

وعن عائشة: كانت له خرقة ينشف بها بعد الوضوء. قال
الترمذي: هذا الحديث ليس بالقائم، وأبو معاذ الراوي ضعيف عند
أهل الحديث.

[لا حاجة للوضوء]

وقد احتجم / ﷺ ولم يتوضأ، ولم يزد على غسل محامه، رواه
الدارقطني

١/٣٢٥

وأكل كتف شاة ثم صلى ولم يتوضأ. رواه البخاري ومسلم.

وللنسائي^(٢): قال كان آخر الأمرين من رسول الله ﷺ ترك
الوضوء مما غيرت النار.

وشرب ﷺ لبناً ولم يتمضمض ولم يتوضأ وصلى. رواه أبو
داود^(٣).

(١) قال الترمذي: غريب وإسناده ضعيف، وبه جزم الحافظان العراقي
والعسقلاني.

(٢) وكذا لأبي داود، وصححه ابن خزيمة.

(٣) وإسناده حسن.

وأتي بالسويق فأمر به فثري^(١) فأكل منه، ثم قام إلى المغرب
فتمضمض. رواه البخاري ومالك والنسائي.

[من خصائصه ﷺ]

وكان ﷺ إذا قام من النوم ربما توضأ، وربما لم يتوضأ، لأن عينه
تنام ولا ينام قلبه كما في البخاري وغيره.

وفيه دليل على أن النوم ليس حدثاً بل مظنة الحدث، فلو
أحدث لعلم بذلك فتكون الخصوصية شعوره بالوقوع بخلاف غيره.
قال الخطابي: وإنما منع قلبه النوم ليعي الوحي الذي يأتيه في منامه.

(١) أي بلّ بالماء ليبسه.

الفصل الرابع

في مسحه ﷺ على الخفين

[مشروعية المسح]

أعلم أنه قد صرح جمع من الحفاظ بأن المسح على الخفين متواتر، وجمع بعضهم رواته فجاوزوا الثمانين، منهم العشرة، وقال ابن عبد البر: لا أعلم أنه قد روي عن أحد من فقهاء السلف إنكاره إلا عن مالك، مع أن الروايات الصحيحة عنه مصرحة بإثباته، وقد أشار الشافعي في الأم إلى إنكار ذلك على المالكية، والمعروف المستقر عندهم الآن قولان: الجواز مطلقاً، وثانيهما: للمسافر دون المقيم، وهذا الثاني مقتضى ما في «المدونة»، وبه جزم ابن الحاجب.

[الغسل أفضل أم المسح؟]

وقال ابن المنذر: اختلف العلماء أيهما أفضل، المسح على الخفين أو نزعهما وغسل الرجلين؟ والذي أختاره: أن المسح أفضل لأجل من طعن فيه من أهل البدع من الخوارج والروافض.

وقال النووي: مذهب أصحابنا أن الغسل أفضل لكونه الأصل، لكن بشرط أن لا يترك المسح.

[رأي المسح على الرجلين]

وقد تمسك من اكتفى بالمسح^(١) بقوله تعالى: ﴿وَأَرْجِلِكُمْ﴾ عطفاً على ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾^(٢). فذهب إلى ظاهرها جماعة من الصحابة والتابعين، وحكي عن ابن عباس في رواية ضعيفة، والثابت عنه خلافه.

وعن عكرمة والشعبي وقتادة: الواجب الغسل أو المسح.

وعن بعض أهل الظاهر: يجب الجمع بينهما.

وحجة الجمهور: الأحاديث الصحيحة من فعله ﷺ كما سيأتي إن شاء الله تعالى، فإنه بيان للمراد، وأجابوا عن الآية بأجوبة: منها: أنه قرئ (وأرجلكم) بالنصب عطفاً على أيديكم.

وقيل: إنه معطوف على محل (برؤوسكم)، كقوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعِيَ وَالطَّيْرُ﴾^(٣) بالنصب.

وقيل: المسح في الآية محمول على مشروعية المسح على الخفين، فحملوا قراءة «الجر» على مسح الخفين، وقراءة «النصب» على غسل الرجلين.

(١) أي بالمسح على الرجلين دون غسلهما، وهي قضية مرتبطة ببحث الوضوء، وذكرها المصنف هنا استطراداً [م].

(٢) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ سورة المائدة، الآية ٦ ومقصود المصنف أن (أرجلكم) بالجر عطفاً على (برؤوسكم) لا عطفاً على (وجوهكم)، وهي قراءة [م].

(٣) سورة سبأ، الآية ١٠.

وجعل البيضاوي «الجر» على الجوار، قال: ونظيره في القرآن كقوله تعالى: ﴿عذاب يوم أليم﴾^(١) ﴿وحور عين﴾^(٢) بالجر في قراءة حمزة والكسائي. وقولهم «جحر ضب خرب» وللنحاة باب في ذلك.

وفائدته: التنبيه على أنه ينبغي أن يقتصد في صب الماء عليها ويغسلا غسلاً يقرب من المسح. انتهى

[أدلة المسح على الخفين]

وعن المغيرة بن شعبة أنه غزا مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك، فبرز رسول الله قبل الغائط^(٣) فحملت^(٤) معه إداوة - قبل الفجر - فلما رجع أخذت أهريق على يديه من الإداوة، فغسل يديه ووجهه، وعليه جبة من صوف، ذهب يحسر عن ذراعيه فضاك كم الجبة، فأخرج يده من تحت الجبة، وألقى الجبة على منكبيه وغسل ذراعيه، ثم مسح بناصيته وعلى العمامة، ثم أهويت لأنزع خفيه فقال: دعهما فيني أدخلتهما طاهرتين، فمسح عليهما، ثم ركب وركبت. الحديث رواه مسلم.

وعند الترمذي من حديث المغيرة أيضاً أنه ﷺ مسح على الخفين على ظاهرهما.

(١) أي مؤلم، ف «أليم» في الحقيقة صفة لعذاب لا ليوم فجرٍ للمجاورة.
(٢) سورة الواقعة، الآية ٢٢، قال تعالى: ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون، بأكواب وأباريق وكأس من معين، لا يصدعون عنها ولا ينزفون، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحورٌ عين.﴾ فمحل الشاهد في قراءة حمزة أنه قرأها بالجر للمجاورة لأكواب وأباريق، وإن كانت معطوفة على ولدان [م].

(٣) أي المنخفض من الأرض.

(٤) في ط: فجعلت.

وعند أبي داود من حديثه أيضاً: ومسح عليه الصلاة والسلام على الجوربين والنعلين.

وعنه قال: مسح رسول الله ﷺ على الخفين، فقلت يا رسول الله: نسيت، فقال: بل أنت نسيت، بهذا أمرني ربي عز وجل. رواه أبو داود وأحمد.

وعن عمرو بن أمية الضمري قال: رأيت ﷺ يمسح على عمامته وخفيه. رواه البخاري وأحمد.

[مدة المسح]

وقال علي بن أبي طالب: جعل ﷺ / المسح على الخفين ثلاثة ٣٢٥/ب أيام ولياليهن للمسافر، ويوماً وليلة للمقيم. رواه مسلم.

الفصل الخامس

في تيممه ﷺ

اعلم أن التيمم ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، وهو من خصائص هذه الأمة.

وأجمعوا على أن التيمم لا يكون إلا في الوجه واليدين، سواء كان عن حدث أكبر، أو عن حدث أصغر، وسواء تيمم عن الأعضاء كلها أو بعضها.

واختلفوا في كفيته: فمذهبنا ومذهب الأكثرين، أنه لا بد من ضربتين: ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين.

وعن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: (فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء) رواه مسلم.

وفي رواية أبي أمامة عند البخاري: (جعلت الأرض كلها لي ولأمتي مسجداً وطهوراً).

وهذا عام، وحديث حذيفة خاص، فينبغي أن يحمل العام عليه، فتختص الطهورية بالتراب.

ومنع بعضهم الاستدلال بلفظ «التربة» على خصوصية التيمم بالتراب، بأن قال: تربة كل مكان ما فيه من تراب أو غيره.

وأجيب: بأنه ورد في الحديث بلفظ التراب، أخرجه ابن خزيمة وغيره. وفي حديث علي (وجعل لي التراب طهوراً) أخرجه أحمد والبيهقي بإسناد حسن.

وعن عمار: قال رجل لعمر بن الخطاب: إني أجنب فلم أصب الماء، فقال عمار لعمر: أما تذكر أنا كنا في سفر، أنا وأنت، فأما أنت فلم تصل، وأما أنا فتمعكت فصليت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: إنما كان يكفيك هكذا، وضرب النبي ﷺ بكفيه الأرض ونفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وكفيه. رواه البخاري ومسلم.

واستدل بالنفخ على استحباب تخفيف التراب، وسقوط استحباب التكرار في التيمم لأن التكرار يستلزم عدم التخفيف.

وعن أبي الجهم^(١) بن الحارث بن الصمة قال: مررت على النبي ﷺ وهو يبول، فسلمت عليه فلم يرد علي، حتى قام إلى جدار فحته بعصا كانت معه، ثم وضع يديه على الجدار فمسح وجهه وذراعيه، ثم رد علي، رواه البغوي في شرح السنة وقال: حديث حسن.

وهذا محمول^(٢) على أن الجدار كان مباحاً، أو مملوكاً لإنسان كان يعرف رضاه.

(١) كذا في (ش ط) مصغراً كما قال الشارح، وفي (ب د): الجهم، وفي (ا): الهجيم.

(٢) أي حث الجدار.

الفصل السادس

في غسله ﷺ

[الغسل في اللغة والحقيقة]

والغُسْل - بضم الغين - اسم للاغتسال

وقيل: إذا أريد به الماء فهو مضموم، وأما المصدر فيجوز فيه الضم والفتح، حكاه ابن سيده وغيره.

وقيل: المصدر بالفتح، والاعتسال بالضم^(١).

وقيل: الغُسْل - بالفتح -: فعل المغتسل، وبالضم: الماء الذي يغتسل به، وبالكسر: ما يجعل مع الماء كالإشنان.

وحقيقة الغسل: جريان الماء على الأعضاء

وحقيقة الاعتسال: غسل جميع الأعضاء مع تمييز ما للعبادة عما للعادة بالنية.

[دليل وجوب الغسل]

«ووجوب الغسل على الجنب مستفاد من قوله تعالى: ﴿وإن كنتم

(١) صب الماء على البدن: غَسَلَ، بالفتح، والأثر الحاصل منه للبدن غُسْل - بالضم -، ويقال فيه: اغتسال.

جنباً فاطهروا ﴿١﴾ وقوله تعالى: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾ ﴿٢﴾.

ففي الآية الأولى إجمال، وهو قوله تعالى: ﴿فاطهروا﴾ بينه قوله في الآية الثانية ﴿حتى تغتسلوا﴾. ويؤيده قوله تعالى في الحائض: ﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن﴾ ﴿٣﴾ المفسر بـ «اغتسلن» اتفاقاً.

وقد كان رسول الله ﷺ يطوف على نسائه بغسل واحد. رواه مسلم من حديث أنس.

وعن أبي رافع: طاف ﷺ ذات يوم على نسائه يغتسل عند هذه، وعند هذه، قال: قلت له يا رسول الله، ألا تجعله غسلًا واحداً آخراً، قال: هذا أزكى وأطيب وأطهر. رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

وقد أجمع العلماء على أنه لا يجب الغسل بين الجماعين / وأما الوضوء فاستحبه الجمهور، وقال أبو يوسف إنه لا يستحب، وأوجه ابن حبيب من المالكية، وأهل الظاهر، لحديث (إذا أتى أحدكم أهله ثم أراد أن يعود فليتوضأ بينهما وضوءاً) رواه مسلم. وحمله بعضهم على الوضوء اللغوي، فقال: المراد به غسل الفرج، انتهى

[كيفية الغسل]

وقالت عائشة: كان ﷺ إذا اغتسل من الجنابة بدأ فغسل يديه، ثم يتوضأ كما يتوضأ للصلاة، ثم يدخل أصابعه في الماء فيخلل بها

(١) سورة المائدة، الآية ٦.

(٢) سورة النساء، الآية ٤٣.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٢٢.

أصول الشعر، ثم يصب على رأسه ثلاث غرفات بيديه، ثم يفيض الماء على جسده كله. رواه البخاري.

ويحتمل أن يكون غسلها للتنظيف مما بهما، ويحتمل أن يكون هو الغسل المشروع عند القيام من النوم. ويدل عليه زيادة ابن عيينه في هذا الحديث عن هشام «قبل أن يدخلها في الإناء» رواه الشافعي والترمذي وزاد أيضاً: «ثم يغسل فرجه» وكذا لمسلم وأبي داود.

وهي زيادة جليلة، لأن تقديم غسله يحصل به الأمن من مسه في أثناء الغسل.

ويحتمل أن يكون الابتداء بالوضوء قبل الغسل سنة مستقلة، بحيث يجب غسل أعضاء الوضوء مع بقية الجسد، ويحتمل أن يكفي بغسلها^(١) في الوضوء عن إعادته، وعلى هذا فيحتاج إلى نية غسل الجنابة في أول عضو.

وإنما قدم أعضاء الوضوء تشريفاً لها، ولتحصل له صورة الطهارتين الصغرى والكبرى.

ونقل ابن بطال: الإجماع على أن الوضوء لا يجب مع الغسل.

وهو مردود، فقد ذهب جماعة منهم أبو ثور وداود وغيرهما إلى أن الغسل لا ينوب عن الوضوء للمحدث^(٢).

وقوله: «فيخلل بها أصول الشعر» أي شعر رأسه، ويدل عليه رواية حماد بن سلمة عن هشام - عند البيهقي -: يخلل بها شق رأسه

(١) في (ط، ب، د): غسلها.

(٢) في ط للمحدث.

الأيمن فيتبع بها أصول الشعر، ثم يفعل بشق رأسه الأيسر كذلك.
وقال القاضي عياض: احتج به بعضهم على تخليل شعر اللحية
في الغسل. إما لعموم قوله: «أصول الشعر» وإما بالقياس على شعر
الرأس.

وفائدة التخليل، إيصال الماء إلى الشعر والبشرة، ومباشرة الشعر
باليد ليحصل تعميمه بالماء، وهذا التخليل غير واجب اتفاقاً، إلا إن
كان الشعر متلبداً بشيء يحول بين الماء وبين الوصول إلى أصوله.

[حكم ذلك الأعضاء]

واختلف في وجوب ذلك، فلم يوجبه الأكثر.
ونقل عن مالك والمزني: وجوبه، واحتج له ابن بطال بالإجماع
على وجوب إمرار اليد على أعضاء الوضوء عند غسلها، فيجب ذلك
في الغسل قياساً لعدم الفرق بينهما.
وتعقب: بأن جميع من لم يوجب ذلك أجازوا غمس اليد في
الماء للمتوضئ من غير إمرار، فبطل الإجماع وانتفت الملازمة.

[تثليث الغسل]

وفي قوله في هذا الحديث: «ثلاث غرفات» استحباب التثليث في
الغسل.

قال النووي: ولا نعلم فيه خلافاً إلا ما انفرد به الماوردي، فإنه
قال: لا يستحب التكرار في الغسل.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري - ومنه لخصت ما

ذكرته^(١) - قلت: وكذا قال الشيخ أبو علي السنجي^(٢) وكذا قال القرطبي.

وقالت ميمونة: وضعت له ﷺ ماء للغسل، فغسل يديه مرتين أو ثلاثاً، ثم أفرغ على شماله فغسل مذاكيره، ثم مسح يده بالأرض، ثم مضمض واستنشق وغسل وجهه ويديه، ثم أفاض على جسده، ثم تحول عن مكانه فغسل قدميه. رواه البخاري.

ولم يقيد في هذه الرواية بعدد، فيحمل على أقل مسمى الغسل، وهو مرة واحدة، لأن الأصل عدم الزيادة عليها.

وفيه مشروعية المضمضة والاستنشاق في غسل الجنابة، لقوله: «ثم مضمض واستنشق» وتمسك به الحنفية للقول بوجوبها.

وتعقب: بأن الفعل المجرد لا يدل على الوجوب، إلا إذا كان بياناً لمجمل تعلق به الوجوب، وليس الأمر هنا كذلك.

[تأخير غسل الرجلين]

وعنها (توضاً ﷺ وضوءه للصلاة غير رجله، وغسل فرجه وما ب/٣٢٦ أصابه من الأذى، ثم أفاض / عليه الماء، ثم نحى رجله فغسلها. رواه البخاري.

وفيه التصريح بتأخير الرجلين في وضوء الغسل إلى آخره، وهو مخالف لظاهر رواية عائشة.

ويمكن الجمع بينهما، إما بحمل رواية عائشة على المجاز، وإما

(١) فتح الباري ١/٣٦٠.

(٢) كذا في النسخ وفي الفتح، وفي ط: السبخي.

بحمله على حالة أخرى. وبحسب اختلاف هاتين الحالتين اختلف نظر العلماء. فذهب الجمهور إلى استحباب تأخير غسل الرجلين. وعن مالك: إن كان المكان غير نظيف فالمستحب تأخيرهما، وإلا فالتقديم، وعند الشافعية: في الأفضل قولان، قال النووي: أصحابهما وإشهرهما ومختارهما أنه يكمل وضوءه.

[لا يمسح الرأس في وضوء الغسل]

قال: ولم يقع في شيء من طرق هذا الحديث التنصيص على مسح الرأس في هذا الوضوء، وتمسك به المالكية لقولهم: إن الوضوء للغسل لا يمسح فيه الرأس، بل يكتفي عنه بغسلها^(١).

وعن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: (أما أنا فأفيض على رأسي ثلاثاً، وأشار بيديه كليهما) رواه البخاري.

وفيه^(٢) عن أبي هريرة قال: أقيمت الصلاة، وعدلت الصفوف قياماً، فخرج إلينا رسول الله ﷺ، فلما قام في مصلاه ذكر أنه جنب، فقال لنا: مكانكم، ثم رجع فاغتسل ثم خرج إلينا ورأسه يقطر، فكبر فصلينا معه.

وقوله: «ذكر» أي تذكر، لا أنه قال ذلك لفظاً، وعلم الراوي ذلك من قرائن، أو بإعلامه له بعد ذلك.

وظاهر قوله: «فكبر» الاكتفاء بالإقامة السابقة، فيؤخذ منه جواز التخلل الكثير بين الإقامة والدخول في الصلاة.

(١) أي الرأس. أنه وهو مذكر باعتبار أنه قطعة من البدن.

(٢) أي في البخاري، وكذا مسلم وأبو داود والنسائي.

[حكم التنشيف]

وعنده أيضاً^(١) من حديث ميمونة: وضعت للنبي ﷺ غسلًا وسترته بثوب، وصب على يديه فغسلها، ثم صب بيمينه على شماله فغسل فرجه، فضرب بيده الأرض فمسحها، ثم غسلها، فتمضمض واستنشق، وغسل وجهه وذراعيه، ثم صب على رأسه، وأفاض على جسده، ثم تنحى فغسل قدميه، فناولته ثوباً فلم يأخذه، فانطلق وهو ينفض يديه.

وقد استدل بعضهم بقولها: «فناولته ثوباً فلم يأخذه» على كراهة التنشيف بعد الغسل.

ولا حجة فيه، لأنها واقعة حال يتطرق إليها الاحتمال، فيجوز أن يكون عدم الأخذ لأمر آخر لا يتعلق بكراهة التنشيف، بل لأمر يتعلق بالخرقة أو غير ذلك. قال المهلب^(٢): «يحتمل تركه الثوب لإبقاء بركة بلل الماء^(٣)، وللتواضع، أو لشيء رآه في الثوب من حرير أو وسخ».

وقد وقع عند أحمد في هذا الحديث عن الأعمش قال: فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي فقال: لا بأس بالمنديل، وإنما رده مخافة أن يصير عادة.

وقال التيمي في شرحه: في هذا الحديث دليل على أنه كان

(١) أي عند البخاري.

(٢) المهلب بن أحمد بن أبي صفرة التيمي الأندلسي ولي قضاء مالقة وأحيا صحيح البخاري بالأندلس وشرحه، مات سنة ثلاث وثلاثين وأربعمئة. وليس هو المهلب بن أبي صفرة التابعي.

(٣) في (ط، ش): بركة الماء.

ينشف، ولولا ذلك لم تأت به بالمدليل.

وقال ابن دقيق العيد: نفضه الماء بيده يدل على أن لا كراهة في التنشيف لأن كلاً منها إزالة.

وقال النووي: اختلف أصحابنا فيه على خمسة أوجه، أشهرها: أن المستحب تركه، وقيل مكروه، وقيل مباح، وقيل مستحب، وقيل مكروه في الصيف مباح في الشتاء.

وفي هذا الحديث جواز نفض اليدين من ماء الغسل، وكذا ماء الوضوء، ولكن فيه حديث ضعيف أورده الرافعي وغيره، ولفظه: لا تنفضوا أيديكم في الوضوء فإنها مراوح الشيطان، قال ابن الصلاح: لم أجده، وتبعه النووي.

[الوضوء من الجنابة قبل النوم]

وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن ينام وهو جنب غسل فرجه وتوضأ للصلاة. رواه البخاري.

وفيه رد على من حمل الوضوء هنا على التنظيف.

وقوله: «وتوضأ للصلاة» أي وضوءاً كما للصلاة، أي وضوءاً شرعياً لا لغوياً، وليس المراد أنه توضأ لأداء الصلاة.

والحكمة فيه أنه يخفف الحدث، ولا سيما على القول بجواز تفريق الغسل، فينويه فيرتفع الحدث عن تلك الأعضاء المخصوصة على الصحيح، ويؤيده ما رواه ابن أبي شيبه بسند رجاله ثقات عن شداد بن أوس الصحابي قال: إذا أجنب أحدكم من الليل ثم أراد أن ينام فليتوضأ، فإنه نصف غسل الجنابة.

وقيل : الحكمة فيه أنه أحد الطهارتين، فعلى هذا يقوم التيمم مقامه، وقد روى / البيهقي بإسناد حسن عن عائشة أنه ﷺ كان إذا أجنب وأراد أن ينام توضأ أو تيمم.

ويحتمل أن يكون التيمم هنا عند عسر وجود الماء، وقيل غير ذلك. انتى ملخصاً من فتح الباري.

النَّوعُ الثَّانِي

في ذكر صلّاته صلى الله عليه وسلم

[تمهيد عام]

اعلم أن بالصلاة يحصل تحقيق العبودية، وأداء حق الربوبية، وسائر العبادات وسائل إلى تحقيق سر الصلاة.

وقد جمع الله تعالى للمصلين في كل ركعة ما فرق على أهل السموات، فله ملائكة في الركوع منذ خلقهم الله تعالى لا يرفعون من الركوع إلى يوم القيامة، وهكذا السجود والقيام والقعود.

واجتمع فيها أيضاً من العبوديات^(١) ما لم يجتمع في غيرها، منها: الطهارة والصمت واستقبال القبلة، والاستفتاح بالتكبير، والقراءة والقيام والركوع والسجود، والتسبيح في الركوع، والدعاء في السجود، إلى غير ذلك.

فهي مجموع عبادات عديدة، لأن الذكر بمجرد عبادة، والقراءة بمجرد عبادة، وكذا كل فرد فرد:

وقد أمر الله تعالى نبيه بالصلاة في قوله سبحانه: ﴿اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾^(٣).

(١) في (ط، ش) العبادات.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤٥.

(٣) سورة طه، الآية ١٣٢.

وفي ذلك - كما نبه عليه صاحب كتاب التنوير^(١): أمدنا الله بمدده - إشارة إلى أن في الصلاة تكليفاً للنفوس شاقاً عليها، لأنها تأتي في أوقات ملاذِّ العباد وأشغالهم، فيطالبون بالخروج عن ذلك كله إلى القيام بين يديه، والفراغ مما سوى الله تعالى، فلذلك قال تعالى: ﴿واصبر عليها﴾.

قال: وما يدل على أن في القيام بالصلاة تكاليف العبودية وأن القيام بها على خلاف ما تقتضيه البشرية، قوله تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾^(٢). فجعل الصبر والصلاة مقترنين إشارة إلى أنه يحتاج في الصلاة إلى الصبر، صبر على ملازمة أوقاتها، وصبر على القيام بمسئولاتها وواجباتها، وصبر يمنع القلوب فيها عن غفلاتها، ولذلك قال تعالى بعد ذلك: ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ فأفرد الصلاة بالذكر ولم يفرد الصبر، إذ لو كان كذلك لقال: وإنه لكبير، فذلك يدل على ما قلنا، أو لأن الصبر والصلاة مقترنان متلازمان، فكان أحدهما هو عين الآخر، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾^(٣). انتهى ملخصاً.

ثم أن الكلام فيها ينقسم إلى خمسة أقسام:

(١) كتاب «التنوير في إسقاط التدبير» لابن عطاء الله.

(٢) سورة البقرة، الآية ٤٥.

(٣) سورة التوبة، الآية ٦٢.

القِسْمُ الأوَّل

في الفرائض وما يتعلق بها
وفيه أبواب:

الباب الأول

في الصلوات الخمس

وفيه فصول:

[الفصل الأول]

في فرضها

عن أنس قال: فرضت على النبي ﷺ ليلة أسري به خمسون صلاة، ثم نقصت حتى جعلت خمساً، ثم نادى: يا محمد إنه لا يبدل القول لدي، وإن لك بهذه الخمس خمسين. رواه الترمذي هكذا مختصراً، ورواه البخاري ومسلم من حديث طويل تقدم في مقصد الإسراء مع ما فيه من المباحث.

وعن ابن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة. رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

وقوله: «في الخوف ركعة» محمول على أن المراد ركعة مع الإمام وينفرد بالأخرى.

وعن عائشة: فرض الله الصلاة - حين فرضها - ركعتين ركعتين، ثم أتمها في الحضر، وأقرت صلاة السفر على الفريضة الأولى. رواه البخاري.

وعنده - في كتاب الهجرة - من طريق معمر عن الزهري، عن عروة عن عائشة قالت: فرضت الصلاة ركعتين، ثم هاجر ﷺ ففرضت أربعاً.

فعين في هذه الرواية أن الزيادة في قوله في الحديث الذي قبله «وزيد في صلاة الحضر» وقعت بالمدينة.

وقد أخذ بظاهر هذا الحديث الحنفية، وبنوا عليه: أن القصر في السفر عزيمة لا رخصة.

واحتج مخالفوهم بقوله تعالى: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾^(١)، لأن نفي الجناح لا يدل على العزيمة، والقصر إنما يكون من شيء أطول منه، ويدل على أنه رخصة أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام: (صدقة تصدق / الله بها عليكم فاقبلوا صدقته) ٣٢٧/ب رواه مسلم. وأما خبر: فرضت الصلاة ركعتين، أي في السفر، فمعناه: لمن أراد الاقتصار عليهما، جمعاً بين الأخبار. قاله في المجموع.

(١) سورة النساء، الآية ١٠١.

الفصل الثاني

في ذكر تعيين الأوقات التي صلى فيها ﷺ الصلوات الخمس

[بيان أوقات الصلوات]

عن جابر: أن جبريل عليه الصلاة والسلام أتى النبي ﷺ يعلمه مواقيت الصلاة، فتقدم جبريل، ورسول الله ﷺ خلفه، والناس خلف رسول الله ﷺ، فصلى الظهر حين زالت^(١) الشمس، وأتاه حين كان الظل مثل ظل شخصه، فصنع كما صنع، فتقدم جبريل ورسول الله ﷺ خلفه، والناس خلف رسول الله ﷺ، فصلى العصر، ثم أتاه جبريل حين وجبت^(٢) الشمس، فتقدم جبريل، ورسول الله ﷺ خلفه، والناس خلف رسول الله ﷺ، فصلى المغرب، ثم أتاه [جبريل]^(٣) حين غاب الشفق، فتقدم جبريل ورسول الله ﷺ خلفه، والناس خلف رسول الله ﷺ، فصلى العشاء. ثم أتاه حين انشق الفجر، فتقدم جبريل ورسول الله ﷺ خلفه، والناس خلف رسول الله ﷺ، فصلى الغداة^(٤).

(١) أي مالت.

(٢) أي غابت، وأصل الوجوب السقوط. والمراد سقوط قرص الشمس.

(٣) في أ.

(٤) في ش: الصبح، والغداة تطلق على الفجر وتطلق على الظهر كما في الحديث التالي.

ثم أتاه في اليوم الثاني حين كان ظل الرجل مثل شخصه، فصنع كما صنع بالأمس، فصلى الظهر، ثم أتاه حين كان ظل الرجل مثلي شخصه فصنع كما صنع بالأمس فصلى العصر، ثم أتاه حين وجبت الشمس فصنع كما صنع بالأمس فصلى المغرب، ثم أتاه حين غاب الشفق فصنع كما صنع بالأمس فصلى العشاء، ثم أتاه حين امتد الفجر وأصبح والنجوم بادية مشتبكة وصنع كما صنع بالأمس فصلى الغداة. ثم قال: ما بين هاتين الصلاتين وقت. رواه النسائي^(١).

وفي رواية^(٢) قال: خرج رسول الله ﷺ فصلى الظهر حين زالت الشمس، وكان الفيء قدر الشراك^(٣)، ثم صلى العصر حين كان الفيء قدر الشراك، وظل الرجل مثله، ثم صلى المغرب حين غابت الشمس، ثم صلى العشاء حين غاب الشفق، ثم صلى الفجر حين الفجر، ثم صلى الغداة - أي الظهر - حين كان الظل طول الرجل، ثم صلى العصر حين كان ظل الرجل مثليه، ثم صلى المغرب حين غابت الشمس، ثم صلى العشاء إلى ثلث الليل أو نصف الليل - شك أحد رواته - ثم صلى الفجر فأسفر.

وعن ابن عباس: قال ﷺ: أمّني جبريل عند البيت مرتين، فصلى بي الظهر في الأولى حين كان الفيء مثل الشراك، ثم صلى العصر حين كان ظل كل شيء مثله، ثم صلى المغرب حين وجبت الشمس وأفطر الصائم، ثم صلى العشاء حين غاب الشفق، ثم صلى الفجر حين برق الفجر وحرّم الطعام على الصائم.

(١) وكذا الترمذي وغيرهما.

(٢) للنسائي عن جابر أيضاً.

(٣) الشراك: أحد سيور النعل التي على وجهها.

وصلى المرة الثانية الظهر حين كان ظل كل شيء مثله كوقت العصر بالأمس، ثم صلى العصر حين كان ظل كل شيء مثليه، ثم صلى المغرب كوقت الأولى، ثم صلى العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل، ثم صلى الصبح حين أسفر، ثم التفت إلي جبريل فقال: يا محمد، هذا وقت الأنبياء من قبلك، والوقت فيما بين هذين الوقتين، رواه الترمذي وغيره.

وقوله «صلى بي الظهر حين كان ظل كل شيء مثله» أي فرغ منها حينئذ، كما شرع في العصر في اليوم الأول، وحينئذ فلا اشتراك بينهما في وقت، ويدل له حديث مسلم «وقت الظهر إذا زالت الشمس ما لم تحضر العصر».

وقوله في حديث جابر «فصلى الظهر حين زالت الشمس» يقتضي جواز فعل الظهر إذا زالت الشمس، ولا ينتظر بها وجوباً ولا ندباً مصير الفيء، مثل الشرك، كما اتفقت عليه أئمتنا ودلت عليه الأخبار الصحيحة، وأما حديث ابن عباس فالمراد به أنه حين زالت الشمس كان الفيء حينئذ مثل الشرك، لا أنه أخر إلى أن صار مثل الشرك. ذكره في المجموع.

[بيان الأوقات كان صبيحة الإسراء]

وقد بين ابن إسحاق في المغازي أن صلاة جبريل به ﷺ كانت صبيحة الليلة التي فرضت الصلاة فيها، وهي ليلة الإسراء. ولفظه:

قال نافع بن جبير وغيره: لما أصبح ﷺ من الليلة التي أسري به لم يره إلا جبريل نزل حين زاغت الشمس، ولذلك سميت «الأولى» - أي صلاة الظهر - فأمر فصيح بأصحابه: «الصلاة جامعة»، فاجتمعوا

أ/٣٢٨ فصلي به جبريل وصلى النبي ﷺ / بأصحابه. فذكر الحديث

وفيه رد على من زعم أن بيان الأوقات إنما وقع بعد الهجرة، والحق أن ذلك وقع قبلها ببيان جبريل، وبعدها ببيان النبي صلى على وسلم.

وإنما دعاهم بقوله: «الصلاة جامعة» لأن الأذان لم يكن شرع حينئذ.

واستدل بهذا الحديث على جواز الإتيان بمن يأتى بغيره.

ويجاب عنه بما يجاب عن قصة أبي بكر في صلاته خلف النبي ﷺ وصلاة الناس خلفه، فإنه محمول على أنه كان مبلغاً فقط، كما سيأتي تقريره إن شاء الله تعالى.

[تعجيل العصر والمغرب]

وقد صلى ﷺ العصر والشمس في حجرة عائشة لم يظهر الفياء من حجرتها. رواه البخاري ومسلم.

وقال أنس: كان رسول الله ﷺ يصلي العصر والشمس مرتفعة حية، فيذهب الذاهب إلى العوالي فيأتيهم والشمس مرتفعة، وبعض العوالي من المدينة على أربعة أميال. رواه البخاري.

وفي ذلك دليل على تعجيله ﷺ بصلاة العصر، لوصف الشمس بالارتفاع بعد أن تمضي مسافة أربعة أميال، والمراد بالشمس ضوءها.

وعن سلمة بن الأكوع أنه ﷺ كان يصلي المغرب إذا غربت الشمس وتوارت بالحجاب. رواه البخاري ومسلم والترمذي.

وعن رافع بن خديج: كنا نصلي المغرب معه ﷺ فينصرف أحدنا، وإنه ليرى مواقع نبله. رواه البخاري ومسلم.

والنبل - بفتح النون -: السهام العربية .

أي يبصر مواقع سهامه إذا رمى بها، ومقتضاه المبادرة بالمغرب في أول وقتها، بحيث إن الفراغ منها يقع والضوء باق .

[مراعاة الأحوال]

وكان ﷺ إذا كان الحر أبرد بالصلاة، وإذا كان البرد عجل، رواه النسائي من حديث أنس .

ويؤخر العصر ما دامت الشمس بيضاء نقية . رواه أبو داود من رواية علي بن شيبان .

وقال عليه الصلاة والسلام: إذا قَدَّم العشاء فابدؤوا به قبل صلاة المغرب ولا تعجلوا عن عشاءكم . رواه البخاري ومسلم .
وعند أبي داود: ولا تؤخروا الصلاة لطعام ولا غيره^(١) .

[تأخير صلاة العشاء]

وأعتم ﷺ بالعشاء ليلة، حتى ناداه^(٢) عمر: الصلاة، نام النساء والصبيان، فخرج رسول الله ﷺ فقال: ما ينتظرها من أهل الأرض أحد غيركم، قال^(٣): ولا تصلى يومئذ إلا بالمدينة، وكانوا يصلون فيما بين أن يغيب الشفق إلى ثلث الليل الأول .
زاد في رواية: وذلك قبل أن يفشو الإسلام .

(١) قال الشارح ولا تعارض بين هذا الحديث والذي سبقه، إذ هو محمول على من لم يشغل قلبه بالطعام .
(٢) في (ط، ب): نادى .
(٣) أي الراوي، وهو عائشة .

وفي رواية^(١): فخرج ورأسه تقطر ماء يقول: لولا أن أشق على أمتي، أو على الناس، لأمرتهم بالصلاة هذه الساعة. رواه البخاري ومسلم.

وفي رواية أبي داود من حديث أبي سعيد: فلم يخرج حتى مضى نحو من شطر الليل، فقال: خذوا مقاعدكم، فأخذنا مقاعدنا، فقال: إن الناس قد صلوا وأخذوا مضاجعهم، وإنكم لن تزالوا في صلاة ما انتظرت الصلاة، ولولا ضعف الضعيف، وسقم السقيم لأخرت هذه الصلاة إلى شطر الليل.

وفي حديث أبي هريرة: لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم أن يؤخروا العشاء إلى ثلث الليل أو نصفه، صححه الترمذي.

فعلى هذا: من وجد به قوة على تأخيرها ولم يغلبه النوم، ولم يشق على أحد من المأمورين فالتأخير في حقه أفضل.

وقد قرر النووي ذلك في شرح مسلم، وهو اختيار كثير من أهل الحديث من الشافعية وغيرهم.

وقال الطحاوي: يستحب إلى الثلث، وبه قال مالك وأحمد وأكثر الصحابة والتابعين، وهو قول الشافعي في الجديد.

وقال في القديم: التعجيل أفضل. وكذا قال في «الإملاء» وصححه النووي في جماعة، وقالوا: إنه مما يفتى به على القديم.

وتعقب: بأنه ذكره في «الإملاء» وهو من كتبه الجديدة.

والمختار من حيث الدليل أفضلية التأخير، قاله في فتح الباري.

(١) عن ابن عباس.

الفصل الثالث

في ذكر كيفية صلاته ﷺ

ب/٣٢٨ وفيه / فروع:

[الفرع الأول]

في صفة افتتاحه ﷺ

[عند سماع الإقامة]

روى أبو داود أنه عليه الصلاة والسلام سمع بلالاً يقيم الصلاة، فلما قال: قد قامت الصلاة، قال: أقامها الله وأدامها.

[افتتاح الصلاة بالتكبير]

وكان ﷺ يفتح الصلاة بالتكبير. رواه عبد الرزاق من حديث عائشة.

وروى البخاري عن ابن عمر قال: رأيت النبي ﷺ افتتح التكبير في الصلاة.

واستدل بهما على تعيين لفظ «التكبير» دون غيره من ألفاظ التعظيم، وهو قول الجمهور، ووافقهم أبو يوسف.
وعن الحنفية: تنعقد بكل لفظ يقصد به التعظيم.

وقد روى البزار بإسناد صحيح، على شرط مسلم، عن علي أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال: الله أكبر.

ولأحمد والنسائي من طريق واسع بن حبان^(١) أنه سأل ابن عمر عن صلاة رسول الله ﷺ فقال: الله أكبر كلما وضع ورفع.

وليعلم أن تكبيرة الإحرام ركن عند الجمهور، وقيل شرط، وهو مذهب الحنفية، ووجه عند الشافعية، وقيل سنة، قال ابن المنذر: ولم يقل به أحد غير الزهري.

[النية في الصلاة وبدعة التلفظ بها]

ولم يختلف أحد في إيجاب النية في الصلاة. قال البخاري - في أواخر الإيمان -: باب ما جاء في قوله ﷺ الأعمال بالنية، فدخل فيه الإيمان والوضوء والصلاة والزكاة.

وقال ابن القيم في الهدى النبوي: كان ﷺ إذا قام إلى الصلاة قال: الله أكبر، ولم يقل شيئاً قبلها، ولا تلفظ بالنية، ولا قال: أصلي صلاة كذا مستقبل القبلة أربع ركعات إماماً أو مأموماً، ولا أداء ولا قضاء، ولا فرض الوقت. قال: وهذه عشر بدع لم ينقل عنه أحد قط بإسناد صحيح ولا ضعيف ولا مسند ولا مرسل لفظة واحدة البتة، بل ولا عن أحد من الصحابة، ولا استحبه أحد من التابعين، ولا الأئمة الأربعة. وقال الشافعي: «إنها ليست كالصيام فلا يدخل أحد فيها إلا بذكر» أي تكبيرة الإحرام ليس إلا، وكيف يستحب الشافعي أمراً لم يفعله ﷺ في صلاة واحدة، ولا أحد من أصحابه. انتهى.

(١) في ط واسع عن ابن حبان.

وعبارة الشافعي في كتاب المناسك: «ولو نوى الإحرام بقلبه، ولم يلب أجزاءه، وليس كالصلاة، لأن في أولها نطقاً واجباً»، هذا نصه.

وقد قال الشيخ أبو علي السنجي في شرح التلخيص، وابن الرفعة في المطلب، والزرکشي في الديباج وغيرهم: إنما أراد الشافعي بذلك تكبيرة الإحرام فقط، انتهى.

وبالجملة: فلم ينقل أحد أنه ﷺ تلفظ بالنية، ولا علم أحدًا من أصحابه التلفظ بها، ولا أقره على ذلك. بل المنقول عنه في السنن أنه قال: مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم^(١).

وفي الصحيحين أنه ﷺ لما علم الميء صلواته قال له: (إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن) فلم يأمره بالتلفظ بشيء قبل التكبير.

[مناقشة القائلين بالتلفظ بالنية]

نعم اختلف العلماء في التلفظ بها:

فقال قائلون: هو بدعة، لأنه لم ينقل فعله.

وقال آخرون: هو مستحب، لأنه عون على استحضار النية القلبية، وعبادة للسان^(٢)، كما أنه عبودية للقلب، والأفعال المنوية عبودية الجوارح. وبنحو ذلك أجاب الشيخ تقي الدين السبكي والحافظ عماد الدين بن كثير.

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه بإسناد حسن عن علي.

(٢) كذا في (١) وفي النسخ: اللسان، ومثلها كلمة «القلب» بعدها.

وأطنب ابن القيم - في غير الهدي - في رد الاستحباب، وأكثر في الاستدلال بما في ذكره طول يخرجنا عن المقصود، لاسيما والذي استقر عليه أصحابنا استحباب النطق بها.

وقاسه بعضهم على ما في الصحيحين، من حديث أنس: أنه سمع النبي ﷺ يلبي بالحج والعمرة جميعاً، يقول: لبيك عمرة وحجاً. وفي البخاري من حديث عمر: (سمعت رسول الله ﷺ يقول - وهو بوادي العقيق -: أتاني الليلة آت من ربي فقال: صل في هذا الوادي المبارك وقل: عمرة في حجة). وهذا تصريح باللفظ، والحكم كما يثبت بالنص يثبت بالقياس.

أ/٣٢٩ ولكن تعقب هذا بأنه / ﷺ قال ذلك في ابتداء إحرامه تعليماً للصحابة ما يهلون به ويقصدونه من النسك، وامثالاً للأمر الذي جاءه من ربه تعالى في ذلك الوادي، ولقد صلى ﷺ أكثر من ثلاثين ألف صلاة فلم ينقل عنه أنه قال: نويت أصلي صلاة كذا وكذا، وتركه سنة^(١)، كما أن فعله سنة، فليس لنا أن نسوي بين ما فعله وتركه، فنأتي من القول في الموضع الذي تركه بنظير ما أتى به في الموضع الذي فعله، والفرق بين الحج والصلاة أظهر من أن يقاس أحدهما على الآخر. انتهى ما قاله هذا المتعقب فليتأمل.

[أماكن رفع اليدين]

وكان ﷺ إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى يكونا حذو مكنتيه، ثم يكبر، فإذا أراد أن يركع فعل مثل ذلك، فإذا رفع رأسه من الركوع فعل مثل ذلك.

(١) الضمير يعود إليه ﷺ، أي ما تركه يسن تركه وما فعله يسن فعله [م].

وفي رواية: وإذا رفع رأسه من الركوع رفعها كذلك أيضاً،
وقال: سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد.

وفي أخرى: نحوه وقال: ولا يفعل ذلك حين يسجد ولا حين
يرفع من السجود. رواه البخاري ومسلم.

وعند أبي داود من حديث عقلمة: كان ﷺ إذا قام من
سجدين^(١) كبر ورفع يديه حتى يجاذي بهما منكبيه، كما صنع حين
افتتح. وهو قطعة من حديث رواه أيضاً الترمذي.
وكان يكبر في كل خفض ورفع. رواه مالك.

وقال النووي: أجمعت الأمة على استحباب رفع اليدين عند
تكبيرة الإحرام، واختلفوا فيما سواها:

فقال الشافعي وأحمد وجمهور العلماء من الصحابة: يستحب
أيضاً رفعها عند الركوع، وعند الرفع منه. وهو رواية عن مالك.

وللشافعي قول: أنه يستحب رفعها في موضع رابع وهو: إذا
قام من التشهد الأول. وهذا القول هو الصواب، فقد صح فيه
حديث ابن عمر عنه ﷺ أنه كان يفعله. رواه البخاري.

[وضع اليدين أثناء القيام]

وكان ﷺ يضع يده اليمنى على اليسرى، رواه أبو داود.
ومذهب الشافعي والأكثرين: أن المصلي إذا وضع يديه حطهما
تحت صدره فوق سرته.

(١) أي إذا قام من السجدين في الركعة الثانية عند القيام من التشهد الأول،
فيوافق حديث ابن عمر الآتي، ولا يخالف ظاهره ما قبله.

وقال أبو حنيفة وبعض الشافعية: تحت سرتة.

[دعاء الافتتاح]

وكان ﷺ يسكت بين التكبير والقراءة إسكاته، فقال له أبو هريرة: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إسكاتك بين التكبير وبين القراءة ما تقول؟ قال: أقول اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد. رواه البخاري ومسلم.

وعن علي: كان ﷺ إذا قام إلى الصلاة - وفي رواية: إذا افتتح الصلاة - كبر، ثم قال: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً، لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، استغفرك وأتوب إليك، الحديث رواه مسلم^(١).

وعن عائشة: كان ﷺ إذا افتتح الصلاة قال: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك. رواه الترمذي وأبو داود.

وعن جبير بن مطعم أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي صلاة قال:

(١) هو عند مسلم برقم ٧٧١.

الله أكبر كبيراً، [الله أكبر كبيراً] (١) والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، أعوذ بالله من الشيطان، من نفخه ونفثه وهمزه. قال ابن عمر (٢): نفخه الكبر، ونفثه الشعر، / وهمزه الموتة (٣). رواه أبو داود (٤).

وعن محمد بن مسلمة قال: إن رسول الله ﷺ كان إذا قام يصلي تطوعاً قال: الله أكبر، وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين. وذكر الحديث مثل حديث جابر (٥) إلا أنه قال: وأنا من المسلمين، ثم قال: اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، ثم يقرأ. رواه النسائي.

الفرع الثاني

في ذكر قراءته ﷺ البسملة في أول الفاتحة

[روايات في ذكر قراءة البسملة]

روي عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يفتح الصلاة بـ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾. رواه أبو داود. وقال الترمذي: ليس إسناده بذلك.

ورواه الحاكم عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يجهر

(١) في (١، د) وهي في نص أبي داود مكررة ثلاث مرات.

(٢) صوابه: «عمرو» كما في أبي داود.

(٣) ضرب من الجنون.

(٤) رواه أبو داود برقم ٧٦٤.

(٥) عند النسائي والدارقطني، بنحو حديث علي المتقدم لفظه، فأحال عليه وإن لم يتقدم نقله عن جابر.

بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. ثم قال: صحيح^(١).

وفي صحيح ابن خزيمة عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قرأ
البسملة أول الفاتحة في الصلاة، وعدّها آية، لكنه من رواية عمر بن
هارون البلخي، وفيه ضعف عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عنها.

وروى الحافظ أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه في تفسيره عن
أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: الحمد لله رب العالمين سبع
آيات، بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن، وهي السبع المثاني والقرآن
العظيم، وهي أم الكتاب.

ورواه الدارقطني عن أبي هريرة مرفوعاً بنحوه أو مثله وقال:
رواته كلهم ثقة.

وروى البيهقي عن علي وابن عباس وأبي هريرة أنهم فسروا قوله
﴿سبعاً من المثاني﴾^(٢) بالفاتحة، وأن البسملة هي الآية السابعة منها.

[روايات حديث أنس]

وعن شعبة عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر
كانوا يفتتحون القراءة بـ ﴿الحمد لله رب العالمين﴾. رواه البخاري، أي
كانوا يفتتحون بالفاتحة.

وفي رواية مسلم: فلم أسمع أحداً منهم قرأ بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ﴾. كذا أخرجه مسلم وغيره. لكنه معلول أعله الحافظ، كما هو
في كتب علوم الحديث.

وفي شرح ألفية العراقي لشيخنا الحافظ أبي الخير السخاوي

(١) ضعفه أبو داود والترمذي.

(٢) سورة الحجر، الآية ٨٧.

- أمتع الله بوجوده - في باب العلل ما نصه: وعلة المتن القادحة فيه كحديث نفي قراءة البسملة في الصلاة المروي عن أنس، إذ ظن راو من رواته حين سمع قول أنس: صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين، نفي البسملة، فنقله مصرحاً بما ظنه وقال: لا يذكر بسم الله الرحمن الرحيم في أول القراءة ولا في آخرها. وفي لفظ: فلم يكونوا يفتتحون القراءة بـ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وصار بمقتضى ذلك حديثاً مرفوعاً. والراوي لذلك مخطيء في ظنه.

ولذا قال الشافعي - رحمه الله - في الأم، ونقله عنه الترمذي في جامعه: المعنى أنهم يبدؤون بقراءة أم القرآن قبل ما يقرأ بعدها، لا أنهم يتركون البسملة أصلاً.

ويتأيد بثبوت تسمية أم القرآن بجملة ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ في صحيح البخاري، وكذا بحديث قتادة قال: سئل أنس: كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ؟ قال: كانت مداً، ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، بمد «بسم الله» ومد «الرحمن» ومد «الرحيم». كذا أخرجه البخاري في صحيحه، وكذا صححه الدارقطني والحازمي (١) وقال: إنه لا علة له، لأن الظاهر - كما أشار إليه أبو شامة - أن قتادة لما سأل أنساً عن الاستفتاح في الصلاة بأي سورة وأجابه بـ «الحمد لله»، سأله عن كيفية قراءته فيها، وكأنه لم ير إبهام السائل مانعاً من تعيينه بقتادة خصوصاً وهو السائل أولاً.

وقد أخرج ابن خزيمة في صحيحه، وصححه الدارقطني أن أبا

(١) في (ش): الدارقطني. والدارمي.

مسلمة سعيد بن يزيد^(١) سأل أنساً: أكان رسول الله ﷺ يستفتح بـ (الحمد لله) أو بـ (بسم الله)؟ فقال: لا أحفظ فيه شيئاً. قال وهذا مما يتأيد به خطأ النافي.

ولكن قد روى هذا الحديث عن أنس جماعة منهم حميد وقتادة، والتحقيق أن المعلل رواية حميد خاصة، إذ رفعها وهم من الوليد بن مسلم عن مالك عنه، بل ومن بعضه أصحاب / حميد عنه، فإنها في سائر الموطآت عن مالك: صليت وراء أبي بكر وعمر وعثمان فكلهم كان لا يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، لا ذكر للنبي ﷺ فيه، وكذا الذي عند سائر حفاظ أصحاب حميد عنه، إنما هو في الوقف خاصة. وبه صرح ابن معين عن ابن أبي عدي حيث قال: إن حميداً كان إذا رواه عن أنس لم يرفعه، وإذا قال فيه: عن قتادة عن أنس رفعه.

وأما رواية قتادة، وهي من رواية الوليد بن مسلم وغيره عن الأوزاعي: أن قتادة كتب إليه ليخبره أن أنساً حدثه قال: صليت.. فذكره بلفظ: لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم لا في أول قراءة ولا في آخرها، فلم يتفق أصحابه عنه على هذا اللفظ، بل أكثرهم لا ذكر عندهم للنفي فيه، وجماعة منهم بلفظ: فلم يكونوا يجهرون بـ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾.

ومن اختلف عليه فيه من أصحابه شعبة، فجماعة منهم «غندر» لا ذكر عندهم فيه للنفي، وأبو داود الطيالسي فقط حسبما وقع من طريق غير واحد عنه بلفظ: فلم يكونوا يفتتحون القراءة بـ «بسم الله» وهي موافقة للأوزاعي.

(١) في المخطوطات زيد. وقد ضبطه الشارح بـ (يزيد). وقال: الأزدي البصري، ثقة من رجال الجميع.

وأبو عمر^(١) الدوري وكذا الطيالسي وغندر أيضاً بلفظ: فلم أسمع أحداً منهم يقرأ بـ «بسم الله».

بل كذا اختلف غير قتادة من أصحاب أنس، فإسحاق بن أبي طلحة وثابت البناني باختلاف عليهما، ومالك بن دينار ثلاثتهم عن أنس بدون نفي، وإسحاق وثابت أيضاً ومنصور بن زاذان وأبو قلابة وأبو نعامه كلهم عنه باللفظ النافي للجهر خاصة. ولفظ إسحاق منهم: يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين فيما يجهر فيه.

[الجمع بين روايات حديث أنس]

وحيث أن فطريق الجمع بين هذه الروايات - كما قال شيخنا، يعني شيخ الإسلام ابن حجر رحمه الله - ممكن بحمل نفي القراءة على نفي السماع، ونفي السماع على نفي الجهر. ويؤيده: أن لفظ رواية منصور ابن زاذان: فلم يسمعنا قراءة بسم الله. وأصرح منها رواية الحسن عن أنس - كما عند ابن خزيمة -: كانوا يسرون بيسم الله.

وبهذا الجمع زالت دعوى الاضطراب.

كما أنه ظهر أن الأوزاعي - الذي رواه عن قتادة مكاتبته مع أن قتادة ولد أكمه، وكاتبه مجهول لعدم تسميته - لم ينفرد به، وحيث أن فيجواب عن قول أنس: «لا أحفظه» بأن المثبت مقدم على النافي، خصوصاً وقد تضمن النفي عدم استحضار أنس رضي الله عنه لأهم شيء يستحضره. وبإمكان نسيانه حين سؤال أبي مسلمة له وتذكره له بعد، فإنه ثبت أن قتادة أيضاً سأله: أيقراً الرجل في الصلاة بسم الله؟

(١) في ط: عمرو، والتقدير هنا: وروى أبو عمر.

فقال: صليت وراء رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر فلم أسمع أحداً منهم يقرأ بism الله.

ويحتاج إذا استقر محصل حديث أنس على نفي الجهر إلى دليل له، وإن لم يكن من مباحثنا.

[من أدلة القائلين بالجهر بها]

وقد ذكر له الشارح^(١) دليلاً، وأرشد شيخنا - يعني الحافظ ابن حجر - لما يؤخذ منه ذلك.

بل قال: إن قول نعيم المجرم «صليت وراء أبي هريرة فقرأ بism الله الرحمن الرحيم، ثم قرأ بأمر القرآن حتى بلغ ولا الضالين، وقال الناس: آمين، وكان كلما سجد وإذا قام من الجلوس في الاثنتين يقول الله أكبر، ويقول إذا سلم: والذي نفسي بيده إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ» أصح حديث ورد فيه، ولا علة له.

ومن صححه ابن خزيمة وابن حبان، ورواه النسائي والحاكم، وقد بوب عليه النسائي: الجهر بism الله الرحمن الرحيم.

ولكن تعقب الاستدلال به، لاحتمال أن يكون أبو هريرة أراد بقوله «أشبهكم» في معظم الصلاة لا في جميع أجزائها، لا سيما وقد رواه عنه جماعة غير نعيم بدون ذكر البسملة.

وأجيب: بأن نعيماً ثقة، فزيادته مقبولة، والخبر ظاهر في جميع الأجزاء فيحمل على عمومته حتى يثبت دليل يخصه. ومع ذلك فيطرقة أن يكون سماع نعيم لها من أبي هريرة حال مخافتته لقربه منه^(٢).

(١) أي لألفية العراقي.

(٢) أي ومع ذلك فلا يخالف رواية الجماعة عنه بدون البسملة.

وقد قال الإمام فخر الدين الرازي في تصنيف له في الفاتحة: /
 روى الشافعي بإسناده [وكذا رواه الحاكم في مستدركه] (١) أن معاوية
 قدم المدينة فصلى بهم ولم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، ولم يكبر عند
 الخفض إلى الركوع والسجود، فلما سلم ناداه المهاجرون والأنصار: يا
 معاوية سرقت الصلاة، أين بسم الله الرحمن الرحيم، أين التكبير عند
 الركوع والسجود، فأعاد الصلاة مع التسمية والتكبير. ثم قال
 الشافعي: وكان معاوية سلطاناً عظيم القوة شديد الشوكة، فلولا أن
 الجهر بالتسمية والتكبير كان كالأمر المقرر عن كل الصحابة من
 المهاجرين والأنصار لما قدروا على إظهار الإنكار عليه بسبب تركه.
 انتهى

وهو حديث حسن أخرجه الحاكم في صحيحه والدارقطني وقال:
 إن رجاله ثقة.

ثم قال الإمام بعد: وقد بينا أن هذا - يعني الإنكار المتقدم -
 يدل على أن الجهر بهذه الكلمة كالأمر المتواتر فيما بينهم.

وكذا قال الترمذي عقب إيراده، بعد أن ترجم بالجهر بالبسملة
 حديث معتمر بن سليمان عن اسماعيل بن حماد بن أبي سليمان عن أبي
 خالد الوالبي الكوفي عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يفتح
 الصلاة بيسم الله الرحمن الرحيم.

ووافقه على تخريجه الدارقطني، وأبو داود وضعفه. بل وقال
 الترمذي: ليس إسناده بذلك. والبيهقي في المعرفة، واستشهد له
 بحديث سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان

(١) زيادة في (ط، د).

رسول الله ﷺ يجهر بيسم الله الرحمن الرحيم بمد بها صوته الحديث، وهو عند الحاكم في مستدرکه أيضاً، ما نصه^(١):

وقد قال بهذا عدة من أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ منهم: أبو هريرة، وابن عمر، وابن الزبير، ومن بعدهم من التابعين روى الجهر بيسم الله الرحمن الرحيم، وبه يقول الشافعي. انتهى^(٢).

[تحقيق المسألة]

وقال الشيخ أبو أمامة بن النقاش: والذي يروم تحقيق هذه المسألة ينبغي أن يعرف أن هذه المسألة بعلم القراءات أمس، وذلك أن من القراء الذين صحت قراءتهم وتواترت عن النبي ﷺ من كان يقرأ بها آية من الفاتحة وهم: حمزة وعاصم والكسائي وابن كثير وغيرهم من الصحابة والتابعين، ومنهم من لا يعدها آية من الفاتحة كابن عامر، وأبي عمرو، ونافع في رواية عنه.

وحكم قراءتها في الصلاة حكم قراءتها خارجها، فمن قرأ على قراءة من جعلها من أم القرآن لزمه فرضاً أن يقرأ بها. ومن قرأ على قراءة من لم يرها من أم القرآن فهو مخير بين القراءة والترك.

فحينئذ الخلاف فيها كالخلاف في حرف من حروف القرآن، وكلا القولين صحيح ثابت لا مطعن على مثبتته ولا على منفيه.

ولا ريب أن النبي ﷺ تارة قرأ بها، وتارة لم يقرأ بها، هذا هو الإنصاف.

(١) كلمة «ما نصه» هي مقول قوله: «وكذا قال الترمذي» الذي ورد في مطلع الفقرة التي قبل هذه. وما بينها اعتراض.

(٢) أي كلام شارح الألفية.

ثم قال: والمستيقن الذي يجب المصير إليه، أن كلا من العاملين ثابت، لأنه لا يختلف اثنان من أهل الإسلام أن هذه القراءات السبع كلها حق مقطوع بها من عند الله، وليست هذه أول كلمة ولا أول حرف اختلف في إثباته وحذفه، وقلَّ سورة من القرآن ليس فيها ذلك، كلفظ «هو» في سورة الحديد ﴿هو الغني الحميد﴾^(١)، ولفظ «من» في سورة التوبة، في قوله تعالى: ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾^(٢)، وألفات عديدة، وواوات، وهاءات كذلك، وكل هذا من نتيجة كون القرآن أنزل على سبعة أحرف، وهذا هو الذي يدل على بطلان قول من لم يجعلها من الفاتحة لموضع اختلاف الناس فيها، وقوله: إن الاختلاف لا يثبت معه قرآن^(٣)، فما أدري ما هذا الظن.

وهذا الذي ذكرناه هو الذي يريحك من تلك التقريرات من الجانبين.

ثم قال: ولا ريب أن الواقع من النبي ﷺ كلا الأمرين، من الجهر والإسرار، فجهر وأسر، غير أن إسراره كان أكثر من جهره، وقد صح في الجهر أحاديث، لا مطعن فيها لمنصف نحو ثلاثة أحاديث^(٤)، كما أنه قد صح في الإسرار بها أحاديث لا مطعن فيها لعارٍ^(٥) من العصبية، ولا يلتفت لمن يقول: إن الواقع من النبي ﷺ

(١) قرأ بعضهم ﴿ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد﴾ وقرأ بعضهم ﴿فإن الله الغني الحميد﴾.

(٢) هذه قراءة ابن كثير، وقراءة غيره بدون «من».

(٣) هذا إشارة إلى قول أبي بكر بن العربي: يكفيك أنها ليست من الفاتحة اختلاف الناس فيها، والقرآن لا يختلف فيه.

(٤) هذه الجملة سقطت من ط.

(٥) عارٍ: أي خالٍ.

كان الجهر فقط، انتهى.

٤/٣٣١

وقيل لبعض العارفين: بماذا ترى ظهر اسم الإمام / الشافعي
وغلب ذكره؟ فقال: أرى ذلك بإظهار اسم الله في البسمة لكل
صلاة^(١). انتهى

الفرع الثالث

في ذكر قراءته ﷺ الفاتحة وقوله آمين بعدها

كان النبي ﷺ إذا قرأ ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ قال:
آمين، ومد بها صوته، وفي رواية: وخفض بها صوته، رواه
الترمذي^(٢).

وفي رواية أبي داود: ورفع بها صوته، وفي رواية له: جهر
بآمين.

وقال ابن شهاب: وكان ﷺ إذا قال: ﴿ولا الضالين﴾ جهر بآمين،
أخرجه السراج.

ولابن حبان من رواية الزبيدي عن ابن شهاب: كان إذا فرغ
من قراءة أم القرآن، رفع صوته وقال: آمين.

وللحميدي من طريق سعيد المقبري عن أبي هريرة بنحوه بلفظ:
إذا قال: ﴿ولا الضالين﴾.

(١) علوم الشافعي وورعه وتقواه أجل من أن يقصر سبب ظهوره على إظهار
مسألة مختلف فيها قديماً وحديثاً، بل قصره عليها كالتنقيص له والله أعلم.
(٢) خطأ البخاري رواية: خفض بها صوته.

ولأبي داود، وصححه ابن حبان من حديث وائل بن حجر نحو رواية الزبيدي.

وفيه رد على من أوماً إلى النسخ فقال: إنما كان ﷺ يجهر بآمين في ابتداء الإسلام ليعلمهم، فإن وائل بن حجر إنما أسلم في أواخر الأمر.

الفرع الرابع

في ذكر قراءته ﷺ بعد الفاتحة في صلاة الغداة

[أحاديث في الموضوع]

عن أبي برزة: كان ﷺ يقرأ في صلاة الغداة ما بين الستين إلى المائة. رواه النسائي^(١).

وعن عمرو بن حريث: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ في الفجر ﴿والليل إذا عسعس﴾ رواه مسلم.

وفي رواية النسائي: أنه ﷺ قرأ في الفجر ﴿إذا الشمس كورت﴾.

وعن جابر بن سمرة كان ﷺ يقرأ في الفجر بـ ﴿ق والقرآن المجيد﴾ ونحوها، وكانت قراءته بعد تخفيفاً. رواه مسلم.

[القراءة ببعض السورة]

وعن عبد الله بن السائب قال: صلى ﷺ الصبح بمكة، فاستفتح

(١) ورواه الشيخان معاً أيضاً.

سورة المؤمنين، حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون، أو ذكر عيسى - شك الراوي، أو اختلف عليه - أخذت النبي ﷺ سعة فرقع. الحديث رواه مسلم.

قال النووي: فيه جواز قطع القراءة، وجواز القراءة ببعض السورة. وكرهه مالك. انتهى

وتعقب: بأن الذي كرهه مالك أن يقتصر على بعض السورة مختاراً، والمستدل به ظاهر في أنه كان للضرورة فلا يرد عليه. وكذا يرد على من استدل به على أنه لا يكره قراءة بعض الآية أخذاً من قوله: حتى جاء ذكر موسى وهارون أو ذكر عيسى، لأن كلاً من الموضعين يقع في وسط آية، نعم الكراهة لا تثبت إلا بدليل.

وأدلة الجواز كثيرة: وفي حديث زيد بن ثابت أنه ﷺ قرأ الأعراف في الركعتين^(١)، وأمّ أبو بكر بالصحابة في صلاة الصبح بسورة البقرة قرأها في الركعتين^(٢). وهذا إجماع منهم. وقرأ^(٣) في الصبح ﴿إذا زلزلت﴾ في الركعتين كليهما، قال الراوي: فلا أدري أنسي أم قرأ ذلك عمداً. رواه أبو داود.

[القراءة في صبح الجمعة]

وكان ﷺ يقرأ في صبح الجمعة ﴿ألم تنزل﴾ السجدة، و﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر﴾ رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث أبي هريرة.

(١) رواه ابن خزيمة وأصله في الصحيح.

(٢) أخرجه عبد الرزاق بإسناد صحيح عن أبي بكر.

(٣) أي النبي ﷺ.

وإنما كان يقرؤها كاملتين، وقراءة بعضها خلاف السنة.

وإنما كان يقرأ بهما لما اشتملتا عليه من ذكر المبدأ والمعاد، وخلق آدم، ودخول الجنة والنار، وأحوال يوم القيامة، لأن ذلك يقع يوم الجمعة. ذكره ابن دحية في «العلم المشهور» وقرره تقريراً حسناً، كما أفاده ابن حجر.

قال: وقد ورد في حديث ابن مسعود التصريح بمداومته ﷺ على قراءتهما في صبح الجمعة. أخرجه الطبراني، ولفظه «يديم ذلك» وأصله في ابن ماجه لكن بدون هذه الزيادة، ورجاله ثقة، لكن صوب أبو حاتم إرساله.

قال: وكأن ابن دقيق العيد لم يقف عليه فقال في الكلام على حديث الباب: «ليس في الحديث ما يقتضي فعل ذلك دائماً اقتضاء قوياً»، وهو كما قال بالنسبة لحديث الباب، فإن الصيغة ليست نصاً في المداومة، لكن الزيادة المذكورة نص في ذلك، ولهذه الزيادة شاهد من حديث ابن عباس / بلفظ: «كل جمعة» أخرجه الطبراني في الكبير. ٣٣١/ب

وأما تعيين السورة للركعة فورد من حديث علي - عند الطبراني - بلفظ: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الركعة الأولى من صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿ألم تنزل﴾، وفي الركعة الثانية ﴿هل أتى على الإنسان﴾^(١).

[قراءة السجدة في الصلاة]

وقد اختلف تعليل المالكية لكرهية قراءة السجدة في الصلاة^(٢):

- (١) على المؤلف مؤاخذه. فالتعيين وارد في حديث أبي هريرة عند مسلم من طريق إبراهيم بن سعد عن أبيه عن الأعرج عن أبي هريرة.
- (٢) قال باستحباب السجدة يوم الجمعة أكثر العلماء، من الصحابة والتابعين والشافعي وأحمد، وكره مالك في «المدونة» أن يقرأ بسورة فيها سجدة.

فقيل: لكونها تشتمل على زيادة سجود في الفرض. قال القرطبي: وهو تعليل فاسد، بشهادة هذا الحديث.

وقيل لخشية التخليط على المصلين، ومن ثم فرق بعضهم بين الجهرية والسرية، لأن الجهرية يؤمن معها التخليط. لكن صح من حديث ابن عمر^(١) أنه ﷺ قرأ سورة فيها سجدة في صلاة الظهر فسجد بهم فيها. رواه أبو داود والحاكم، فبطلت التفرقة.

ومنهم من علل الكراهة بخشية اعتقاد العوام أنها فرض. قال ابن دقيق العيد: أما القول بالكراهية مطلقاً فيأباه الحديث، لكن إذا انتهى الحال إلى وقوع هذه المفسدة فينبغي أن تترك أحياناً لتندفع، فإن المستحب قد يترك لدفع المفسدة المتوقعة، وهو يحصل بالترك في بعض الأوقات. انتهى

وقال صاحب «المحيط» من الحنفية: يستحب قراءتها في صبح يوم الجمعة بشرط أن يقرأ غير ذلك أحياناً نثلاً يظن الجاهل أنه لا يجزىء غيره.

قال الحافظ ابن حجر: ولم أر في شيء من الطرق التصريح بأنه ﷺ سجد لما قرأ سورة ﴿الم تنزيل﴾ في هذا المحل، إلا في كتاب «الشرعية» لابن أبي داود^(٢) من طريق أخرى عن سعيد بن جبير عن

(١) قال الشيخ عبد العزيز بن باز في تعليقه على فتح الباري: في تصحيحه نظر والصواب أنه ضعيف، لأن في إسناده عند أبي داود رجلاً مجهولاً يدعى أمية، كما نص على ذلك أبو داود في رواية الرملي عنه ونبه عليه الشوكاني في نيل الأوطار [فتح الباري ٣٧٨/٢] [م].

(٢) كذا في ش وفي فتح الباري ٣٧٩/٢، وفي بقية النسخ: لأبي داود. وأما ابن أبي داود فهو عبدالله ابن الحافظ الكبير سليمان بن الأشعث السجستاني.

ابن عباس قال: غدوت على النبي ﷺ يوم الجمعة في صلاة الفجر، فقرأ سورة فيها سجدة فسجد، الحديث، وفي اسناده من ينظر في حاله. انتهى

وعن علي عند الطبراني في الأوسط: أن رسول الله ﷺ سجد في الصباح يوم الجمعة في ﴿الم تنزيل﴾، وهذه الزيادة حسنة^(١) تدفع احتمال أن يكون قرأ السورة ولم يسجد.

الفرع الخامس

في ذكر قراءته ﷺ في صلاتي الظهر والعصر

عن أبي قتادة قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الظهر في الأولين بأَم الكتاب وسورتين، وفي الركعتين الأخيرين بأَم الكتاب، ويسمعنا الآية أحياناً، ويطول في الركعة الأولى ما لا يطول في الركعة الثانية، وهكذا في العصر، وهكذا في الصباح. رواه البخاري ومسلم.

قال الشيخ تقي الدين السبكي: كأن السبب في تطويله الأولى على الثانية أن النشاط في الأولى يكون أكثر، فناسب التخفيف في الثانية حذراً من الملل. انتهى

وروى عبد الرزاق عن معمر عن يحيى في آخر هذا الحديث: فظننا أنه يريد بذلك أن يدرك الناس الركعة الأولى.

وعن أبي سعيد الخدري قال: كنا نحزر أي نقدر - قيام رسول الله ﷺ في الظهر والعصر، فحزرنا قيامه في الركعتين الأوليين من

(١) في قوله: «حسنة» نظر فإن الحافظ قال: في إسناده ضعف وتبعه المصنف في شرح البخاري.

الظهر قدر ﴿الم تنزيل﴾ السجدة، وفي رواية: في كل ركعة قدر ثلاثين آية، وحزرننا قيامه في الآخرين قدر النصف من ذلك، وحزرنانا في الركعتين الأوليين من العصر على قدر قيامه في الآخرين من الظهر، وفي الآخرين من العصر على النصف من ذلك. رواه مسلم.

وعن جابر بن سمرة: كان ﷺ يقرأ في الظهر بالليل إذا يغشى، وفي رواية بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ وفي العصر نحو ذلك. الحديث رواه مسلم.

وعنه: كان ﷺ يقرأ في الظهر والعصر بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق، رواه أبو داود والترمذي.

وعن البراء: كنا نصلي خلفه ﷺ الظهر فنسمع منه الآية بعد الآيات من لقمان والذاريات. رواه النسائي.

قال ابن دقيق العيد: فيه جواز الاكتفاء بظاهر الحال في الأخبار دون التوقف على اليقين، لأن الطريق إلى العلم بقراءة السورة في السرية لا يكون إلا بسمع كلها، وإنما يفيد يقين ذلك لو كان في الجهرية. وكأنه مأخوذ من سماع بعضها مع قيام القرينة على باقيها. ويحتمل أن يكون الرسول ﷺ كان يخبرهم عقب الصلاة دائماً أو غالباً بقراءة السورتين، وهو بعيد جداً. انتهى

وعن أنس: قرأ ﷺ في الظهر بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ و﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ رواه النسائي.

/ وعن أبي سعيد: كانت صلاة الظهر تقام، فيذهب الذهاب إلى البقيع فيقضي حاجته، ثم يأتي أهله فيتوضأ ويدرك النبي ﷺ في الركعة الأولى. رواه مسلم.

الفرع السادس في ذكر قراءته ﷺ في صلاة المغرب

عن أم الفضل بنت الحارث قالت: سمعته ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفاً. رواه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود والترمذي والنسائي، وفي رواية: إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ.

وصرح عقيل في روايته عن ابن شهاب: أنها آخر صلواته ﷺ ولفظه: ثم ما صلى لنا بعدها حتى قبضه الله تعالى. أورده البخاري في باب الوفاة.

وعنده في باب «إنما جعل الإمام ليؤتم به» من حديث عائشة: أن الصلاة التي صلاها النبي ﷺ بأصحابه في مرض موته كانت الظهر.

وجمع بينهما: بأن الصلاة التي حكتها عائشة كانت في المسجد، والتي حكتها أم الفضل كانت في بيته، كما رواه النسائي.

لكن يعكر عليه رواية ابن إسحاق عن ابن شهاب في هذا الحديث بلفظ: خرج إلينا رسول الله ﷺ وهو عاصب رأسه في مرضه فصلى المغرب. الحديث رواه الترمذي.

ويمكن حمل قوله: «خرج إلينا» أي من مكانه الذي هو راقد فيه إلى من في البيت فصلى بهم فتلتئم الروايات^(١).

(١) أقول: هذا الجمع غير واضح، ولا تعارض بين الحديثين، فأم الفضل تتحدث عن صلاة جهرية سمعت فيها القراءة بالمرسلات، وعائشة تتحدث بشكل عام، والذي يغلب على الظن أنه ﷺ صلى المغرب في يوم من أيام مرضه ثم لم يستطع صلاة العشاء والفجر مع الجماعة ثم صلى الظهر في =

وعن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور. رواه البخاري ومسلم. زاد مسلم في «الجهاد»: وكان جبير بن مطعم جاء في أسارى بدر. وزاد الاسماعيلي: وهو يومئذ مشرك. وللبخاري في «الغازي»: وذلك أول ما قر الإيمان في قلبي. وللطبراني: وأخذني من قراءته الكرب، ولسعيد بن منصور: فكأنما صدع قلبي.

وفي قوله: «سمعته ﷺ» دليل على الجهر بها، والله أعلم.

وعن مروان بن الحكم قال: قال لي زيد بن ثابت: مالك تقرأ في المغرب بقصار المفصل؟ وقد سمعتُ النبي ﷺ يقرأ بطولي الطولين^(١). رواه البخاري.

زاد أبو داود: قلت وما طولي الطولين؟ قال: الأعراف.

وفي رواية النسائي من حديث عائشة أنه ﷺ صلى المغرب بسورة الأعراف فرقها في ركعتين.

وعن عبد الله بن عتبة: قرأ ﷺ في صلاة المغرب بـ«حم» الدخان. رواه النسائي.

وهذه الأحاديث في القراءة مختلفة المقادير، لأن «الأعراف» من السبع الطوال، و«الطور» من طوال المفصل، و«المرسلات» من أوساطه. قال الحافظ ابن حجر: ولم أر حديثاً مرفوعاً فيه التنصيص على القراءة فيها بشيء من قصار المفصل، إلا حديثاً في ابن ماجه عن

= اليوم الثاني معهم فكانت صلاة المغرب آخر صلاة جهرية، وكانت صلاة الظهر آخر صلاة بشكل عام [المحقق].
(١) تشية طولي، تأنيث أطول.

ابن عمر نص فيه على الكافرون والإخلاص. ومثله لابن حبان عن جابر بن سمرة. فأما حديث ابن عمر فظاهر إسناده الصحة إلا أنه معلول، قال الدارقطني: أخطأ بعض رواته فيه، وأما حديث جابر بن سمرة ففيه سعد بن السماك وهو متروك، والمحفوظ أنه قرأ بهما في الركعتين بعد المغرب.

واعتمد بعض أصحابنا وغيرهم حديث سليمان بن يسار عن أبي هريرة قال: ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من فلان، قال سليمان: فكان يقرأ في الصبح بطوال المفصل، وفي المغرب بقصار المفصل. رواه النسائي، وصححه ابن خزيمة وغيره.

وهذا يشعر بالمواظبة على ذلك، لكن في الاستدلال به نظر، نعم حديث رافع أنهم كانوا يتنفلون^(١) بعد صلاة المغرب يدل على تخفيف القراءة فيها.

وطريق الجمع بين هذه الأحاديث: أنه ﷺ كان أحياناً يطيل القراءة في المغرب، إما لبيان الجواز، وإما لعلمه بعدم المشقة على المأمومين، وليس في حديث جبير دليل على أن ذلك تكرر منه، وأما حديث زيد بن ثابت ففيه إشعار بذلك / لكونه أنكر على مروان المواظبة على القراءة بقصار المفصل، ولو كان مروان يعلم أن النبي ﷺ واظب على ذلك لاحتج به على زيد، لكن لم يرد زيد منه - فيما يظهر - المواظبة على القراءة بالطوال، وإنما أراد منه أن يتعاهد ذلك كما رآه من النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي حديث أم الفضل إشعار بأنه ﷺ كان يقرأ في الصحة

(١) أي يلعبون بالنضال، أي السهام.
وجاء في (ط ب) يتنفلون، وهو تحريف كما قال الشارح.

بأطول من المرسلات، لكونه كان في حال شدة مرضه، وهو مظنة التخفيف.

وهو يرد على أبي داود ادعاء نسخ التطويل في المغرب، لأنه روى عقب حديث زيد بن ثابت من طريق عروة أنه كان يقرأ في المغرب بالقصار قال: وهذا يدل على نسخ حديث زيد ولم يبين وجه الدلالة.

وكيف تصح دعوى النسخ وأم الفضل تقول: إن آخر صلاة صلاها بهم قرأ بالمرسلات.

قال ابن خزيمة في صحيحه: هذا من الاختلاف المباح، فجائز للمصلي أن يقرأ في المغرب وفي الصلوات كلها بما أحب، إلا أنه إذا كان إماماً استحب له أن يخفف القراءة. انتهى.

والراجع عند النووي: أن المفصل من الحجرات إلى آخر القرآن، والله أعلم.

الفرع السابع

في ذكر ما كان ﷺ يقرأ في صلاة العشاء

عن البراء: كان ﷺ يقرأ في العشاء ﴿والتين والزيتون﴾ فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه ﷺ. رواه البخاري ومسلم.

[الدعاء بعد بعض الآيات]

وكان ﷺ إذا أتى على آية عذاب وقف وتعوذ، رواه الترمذي من حديث حذيفة^(١).

(١) وهو في مسلم والسنن الأربع ومسنده أحمد.

وكان إذا قرأ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ قال: سبحان ربي الأعلى، رواه أحمد وأبو داود من رواية ابن عباس.

وقال ﷺ: (من قرأ منكم ﴿والتين والزيتون﴾ فانتهى إلى ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ فانتهى إلى قوله: ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ فليقل: بلى، ومن قرأ ﴿ والمرسلات عرفاً﴾ فبلغ ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ فليقل: آمنا بالله) رواه أبو داود، والترمذي إلى قوله «وأنا على ذلك من الشاهدين».

[السكتات في الصلاة]

وكان ﷺ يسكت بين التكبير والقراءة إسكاته وعنها سأله أبو هريرة^(١)، ويسكت بعد الفاتحة، ويسكت ثلاثة بعد قراءة السورة، وهي سكتة لطيفة جداً حتى يترادّ إليه النفس، ولم يكن يصل القراءة بالركوع.

وأما السكتة الأولى، فإنه كان يجعلها بقدر الاستفتاح، وأما الثانية فلأجل قراءة المأموم الفاتحة، فينبغي تطويلها بقدرها. ذكره في زاد المعاد.

وعن سمرة بن جندب: سكتتان حفظتهما من رسول الله ﷺ: إذا دخل في صلاته، وإذا فرغ من القراءة، ثم قال بعد ذلك: وإذا قرأ ﴿ولا الضالين﴾ قال: وكان يعجبه إذا فرغ من القراءة أن يسكت حتى يترادّ^(٢) إليه نفسه. رواه الترمذي.

(١) مر ذكر ذلك في الفرع الأول.

(٢) أي يتراجع.

الفرع الثامن في ذكر صفة ركوعه ﷺ

عن أبي حميد الساعدي: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى يجاذي بهما منكبيه، فذكر الحديث، إلى أن قال: ثم يكبر ويرفع يديه حتى يجاذي بهما منكبيه، ثم يركع ويضع راحتيه على ركبتيه، ثم يعتدل فلا يصوب^(١) رأسه ولا يقنع^(٢). رواه أبو داود والدارمي^(٣).

الفرع التاسع في مقدار ركوعه ﷺ

عن ابن جبير قال سمعت أنس بن مالك يقول: ما صليت وراء أحد بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتي - يعني عمر بن عبد العزيز - قال: فخرنا ركوعه عشر تسبيحات، وسجوده عشر تسبيحات. رواه أبو داود.

وعن البراء: كان ركوع النبي ﷺ وسجوده، وبين السجدين، وإذا رفع من الركوع، ما خلا القيام والقعود، قريباً من السواء. رواه البخاري ومسلم.

قال النووي: هذا الحديث محمول على بعض الأحوال، وإلا

(١) أي يخفض.

(٢) أي لا يرفع رأسه حتى يكون أعلى من ظهره.

(٣) جاء في حديث عائشة المتفق عليه (وكان إذا ركع لم يشخص رأسه ولم يصوبه ولكن بين ذلك) [م].

فقد ثبت في الحديث تطويل القيام، فإنه كان يقرأ في الصبح بالستين آية إلى المائة، وفي الظهر بـ (الم) السجدة، وأنه كانت تقام الصلاة فيذهب الذهاب / إلى البقيع فيقضي حاجته ثم يرجع إلى أهله فيتوضأ ثم يأتي المسجد فيدرك الركعة الأولى، وأنه قرأ سورة المؤمنين حتى بلغ ذكر موسى وهارون، وأنه قرأ في المغرب بالطور والمرسلات. وفي البخاري: بالأعراف، فكل هذا يدل أنه كانت في إطالة القيام أحوال بحسب الأوقات. انتهى^(١).

وقال ابن القيم: مراد البراء أن صلاته ﷺ كانت معتدلة، فكان إذا أطال القراءة أطال القيام والركوع والسجود، وإذا خفف خفف الركوع والسجود، وتارة يجعل الركوع والسجود بقدر القيام، وهدية ﷺ الغالب تعديل الصلاة وتناسبها. انتهى.

الفرع العاشر

في ذكر ما كان ﷺ يقول في الركوع والرفع منه

[ما يقول في الركوع]

عن عائشة: كان ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن. رواه البخاري ومسلم.

ومعنى «يتأول القرآن»: يعمل بما أمر به في قوله تعالى: ﴿فسبح

(١) حديث البراء واضح، ولكن فهم بعضهم من قوله «ما خلا القيام والقعود» أن المقصود بالقيام الاعتدال، وبالقعود: الجلوس بين السجدين، فكان قول النووي إيضاحاً لذلك [المحقق]

بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴿﴾ فكان ﷺ يقول هذا الكلام البديع في الجزالة المستوفي ما أمر به في الآية .

وعنها: كان ﷺ يقول في ركوعه: سبح قدوس رب الملائكة والروح. رواه البخاري .

وعن حذيفة أنه ﷺ كان يقول في ركوعه: سبحان ربي العظيم، وفي سجوده سبحان ربي الأعلى، وكان ﷺ إذا رفع ظهره من الركوع قال: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد. رواه مسلم .

[ما يقول في الاعتدال]

قال النووي: يبدأ - يعني المصلي - بقوله: «سمع الله لمن حمده» حين الشروع في الرفع من الركوع، ويمده حتى ينتصب قائماً، ثم يشرع في ذكر الاعتدال وهو: ربنا ولك الحمد الخ .

قال: وفي هذا الحديث دلالة للشافعي وطائفة: أنه يستحب لكل مصل من إمام ومأموم ومنفرد أن يجمع بين «سمع الله لمن حمده» و«ربنا ولك الحمد» في حال انتصابه في الاعتدال. لأنه ثبت أنه ﷺ فعلهما جميعاً. وقد قال ﷺ: صلوا كما رأيتموني أصلي. رواه البخاري. انتهى .

وقال ابن القيم: كان ﷺ إذا استوى قائماً قال: ربنا ولك الحمد، وربما قال: وربنا لك الحمد، وربما قال: اللهم ربنا لك الحمد. صح عنه ذلك كله، وأما الجمع بين «اللهم» و«الواو» فلم يصح. انتهى .

قلت: وقع في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة - في رواية

الأصيلي - مرفوعاً: إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهم ربنا ولك الحمد. فجمع بين «اللهم» و«الواو» وهو يرد على ابن القيم كما ترى.

وقال الشيخ تقي الدين في شرح العمدة: كأن إثبات «الواو» دال على معنى زائد، لأنه يكون التقدير: ربنا استجب، أو ما قارب ذلك، ولك الحمد، فيكون الكلام مشتملاً على معنى الدعاء، ومعنى الخبر، وإذا قيل بإسقاط «الواو» دل على أحد هذين. انتهى.

وقال ابن العراقي: إسقاط «الواو» حكاة عن الشافعي ابن قدامة وقال: لأن «الواو» للعطف، وليس هنا شيء يعطف عليه. وعن مالك وأحمد في ذلك خلاف.

وقال النووي: كلاهما جاءت به روايات كثيرة، والمختار أنه على وجه الجواز وأن الأمرين جائزان، ولا ترجيح لأحدهما على الآخر. انتهى

وعن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد - وكلنا لك عبد - اللهم^(١) لا مانع لما أعطيت / ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد. رواه مسلم.

قوله: «ملء السموات وملء الأرض»: أي حمداً لو كان أجساماً لملأ السموات والأرض.

(١) كذا في المخطوطات بذكر «اللهم» وفي (ط ش) بدونها. قال الشارح: هما روايتان في مسلم.

ومعنى «سمع الله لمن حمده»: أي أجاب، يعني: أن من حمد الله تعالى متعرضاً لثوابه استجاب الله له، فأعطاه ما تعرض له، فأنا أقول ربنا لك الحمد ليحصل ذلك.

وقوله: «أهل»: منصوب على النداء.

وقوله: «وكلنا لك عبد» بالواو، يعني: أحق قول العبد: لا مانع لما أعطيت الخ. واعترض بينهما قوله: «وكلنا لك عبد»، ومثل هذا الاعتراض قوله تعالى: ﴿قالت رب إني وضعتها أنثى - والله أعلم بما وضعت - وليس الذكر كالأنثى﴾^(١) على قراءة من قرأ «وضعت» بفتح العين وإسكان التاء.

و«الجد» بفتح الجيم، الغنى أي: لا ينفع ذا الغنى منك غناه، وإنما ينفعه الإيمان والطاعة، وقيل غير ذلك والله أعلم.

وفي رواية ابن أبي أوفى - عند مسلم -: كان ﷺ يقول بعد قوله «من شيء»: اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد.

الفرع الحادي عشر

في ذكر صفة سجوده ﷺ وما يقول فيه

كان ﷺ إذا انتهى من ذكر قيامه عن الركوع يكبر، ويخرّ ساجداً، ولا يرفع يديه^(٢).

وقد روي أنه ﷺ كان يرفع يديه أيضاً، وصححه بعض الحفاظ كابن حزم، والذي غره أن الراوي غلط من قوله: «كان يكبر في كل

(١) سورة آل عمران، الآية ٣٦.

(٢) دل على ذلك حديث ابن عمر في الصحيحين وغيرهما.

خفض ورفع» إلى قوله: «كان يرفع يديه في كل خفض ورفع» وهو ثقة، ولم يفتن لسبب غلطه، ووهم فصحه. نبه عليه في زاد المعاد. وكان ﷺ يضع يديه قبل ركبته^(١). رواه أبو داود، ثم جبهته وأنفه^(٢).

وقال: أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: الجبهة واليدين والركبتين وأطراف القدمين. رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس.

قال النووي: فينبغي للساجد أن يسجد على هذه الأعضاء كلها، وأن يسجد على الجبهة والأنف جميعاً، فأما الجبهة فيجب وضعها مكشوفة على الأرض، ويكفي بعضها، والأنف مستحب، فلو تركه جاز، ولو اقتصر عليه وترك الجبهة لم يجز، هذا مذهب الشافعي ومالك والأكثرين، وقال أبو حنيفة عليهما معاً لظاهر الحديث، وقال الأكثرون: بل ظاهر الحديث أنها في حكم عضو واحد، لأنه قال فيه «سبعة» فلو جعلوا عضوين لصارت ثمانية.

وكان ﷺ إذا سجد فرج بين يديه، حتى يبدو بياض إبطيه. رواه الشيخان.

وقالت ميمونة: جافى بين يديه، حتى لو شاءت بهيمة أن تمر بين يديه لمرت. رواه مسلم.

(١) جاء في السنن عن وائل بن حجر قال (رأيت النبي ﷺ إذا سجد وضع ركبته قبل يديه) ولذا قال النووي: لا يظهر ترجيح أحد المذهبين على الآخر من حيث السنة. لكن قال ابن حجر في بلوغ المرام حديث أبي هريرة أقوى من حديث وائل لأن له شاهداً من حديث ابن عمر.
(٢) هذه الجملة ليست في ش.

ولم يذكر عنه ﷺ أنه سجد على كور عمامته، ولم يثبت عنه ذلك في حديث صحيح ولا حسن، ولكن روى عبد الرزاق في المصنف عن أبي هريرة: كان ﷺ يسجد على كور عمامته، وهو من رواية عبد الله ابن محرز، وهو متروك. وذكر أبو داود في المراسيل أنه ﷺ رأى رجلاً يصلي فسجد بجبينه وقد اعتم فحسر ﷺ عن جبهته.

وكان ﷺ يقول في سجوده: (اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، أوله وآخره، علانيته وسره) رواه مسلم من حديث أبي هريرة. وقوله: «دقه وجله» بكسر أولهما، أي قليله وكثيره.

وعن عائشة قالت: (فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في السجود، وهما منصوبتان، وهو يقول: اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) رواه مسلم.

قال الخطابي: في هذا الحديث معنى لطيف، وذلك أنه ﷺ استعاذ بالله وسأله أن يجيره برضاه من سخطه، وبمعافاته من عقوبته، والرضى / والسخط ضدان متقابلان، وكذلك المعافاة والمعاقبة، فلما صار إلى ذكر ما لا ضد له وهو الله تعالى استعاذ به منه، ومعناه: الاستغفار من التقصير في بلوغ الواجب من حق عبادته والثناء عليه.

وقوله: «لا أحصي ثناء عليك» أي لا أطيعه ولا آتي عليه، وقيل: لا أحيط به، وقال مالك: لا أحصي نعمتك وإحسانك والثناء بهما عليك وإن اجتهدت في الثناء عليك.

وقوله: «أنت كما أثنيت على نفسك»: اعتراف بالعجز عن

تفصيل الثناء، فإنه لا يقدر على بلوغ حقيقته، ورد الثناء إلى الجملة دون التفصيل والإحصاء والتعيين، فوكل ذلك كله لله تعالى المحيط بكل شيء جملة وتفصيلاً، وكما أنه لا نهاية لصفاته لا نهاية للثناء عليه، لأن الثناء تابع للمثنى عليه، فكل شيء أثني به عليه - وإن كثرت وطال وبولغ فيه - فقدر الله أعظم وسلطانه أعز، وصفاته أكثر وأكبر، وفضله وإحسانه أوسع وأسبغ. انتهى.

وها هنا فائدة لطيفة ذكرها بعض المحققين، في نهيه ﷺ عن قراءة القرآن في الركوع والسجود^(١)، وهي أن القرآن أشرف الكلام، وحالتا الركوع والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد، فمن الأدب مع كلام الله تعالى أن لا يقرأ في هاتين الحالتين، وتكون حالة القيام والانتصاب أولى به والله أعلم.

وروى أبو داود: أنه ﷺ سجد على الماء والطين^(٢).

وكان ﷺ يرفع رأسه من السجود مكبراً غير رافع يديه، ثم يجلس على رجله اليسرى وينصب اليمنى.

وكان ﷺ يجلس للاستراحة جلسة لطيفة، بحيث تسكن جوارحه سكوناً بيناً، ثم يقوم إلى الركعة الثانية، كما في صحيح البخاري وغيره^(٣).

قال النووي: ومذهبنا استحبابها عقب السجدة الثانية من كل ركعة

(١) هو في الموطأ ومسلم من حديث علي.

(٢) كان ذلك صبح ليلة القدر، والحديث في الصحيحين والنسائي وابن ماجه..

(٣) نص الحديث (عن مالك بن الحويرث أنه رأى النبي ﷺ يصلي فإذا كان في وتر من صلاته لم ينهض حتى يستوى قاعداً) فليس ما ذكر المصنف لفظ الحديث لا في البخاري ولا في غيره.

يقوم عنها، ولا تستحب في سجود التلاوة في الصلاة.
وكان ﷺ يقول بين السجدين: اللهم اغفر لي وارحمني واهدني
وعافني وارزقني. رواه أبو داود والدارمي من حديث ابن عباس.

الفرع الثاني عشر في ذكر جلوسه ﷺ للتشهد

كان ﷺ إذا جلس للتشهد يفرش رجله اليسرى وينصب
اليمنى. رواه مسلم.

قال النووي: معناه يجلس مفترشاً، وفيه حجة لأبي حنيفة ومن
وافقه: أن الجلوس في الصلاة يكون مفترشاً سواء فيه جميع الجلسات.
وعند مالك: يسن متوركاً بأن يخرج رجله اليسرى من تحته
ويفضي بوركه إلى الأرض.

وقال الشافعي رحمه الله: السنة أن يجلس كل الجلسات مفترشاً
إلا الجلسة التي يعقبها السلام. والجلسات عند الشافعي أربع:
الجلوس بين السجدين، وجلسة الاستراحة في كل ركعة يعقبها قيام،
والجلسة للتشهد الأولى، والجلسة للتشهد الأخير، والجميع يسن
مفترشاً إلا الأخيرة، ولو كان على المصلي سجود سهو فالأصح أن
يجلس مفترشاً في تشهده فإذا سجد سجدي السهو تورك ثم سلم. هذا
تفصيل مذهب الشافعي.

واحتج أبو حنيفة: بإطلاق حديث عائشة هذا.

واحتج الشافعي: بحديث أبي حميد الساعدي في صحيح

البخاري، وفيه التصريح بالافتراش في الجلوس الأول والتورك في آخر الصلاة، وحمل حديث عائشة هذا على الجلوس في غير التشهد الأخير ليجمع بين هذه الأحاديث. انتهى.

فليتأمل مع قول ابن القيم في الهدي: إنه لم ينقل أحد عنه عليه السلام أن هذا^(١) كان صفة جلوسه في التشهد الأول، ولا أعلم أحداً قال به. انتهى^(٢)

وقال أبو حميد الساعدي في عشرة من أصحابه عليه السلام: أنا أعلمكم بصلاة رسول الله عليه السلام، قالوا: فاعرض.. / فذكر الحديث إلى أن قال: حتى إذا كانت السجدة التي فيها التسليم أخرج رجله اليسرى وقعد متوركاً على شقه الأيسر ثم سلم، قالوا: صدقت هكذا كان يصلي، رواه أبو داود والدارمي.

ب/٣٣٤

وفي رواية لأبي داود: فإذا قعد في الركعتين قعد على بطن قدمه اليسرى، ونصب اليمنى، وإذا كان في الرابعة أفضى بوركه إلى الأرض وأخرج قدميه من ناحية واحدة. الحديث.

وكان عليه السلام إذا قعد في التشهد وضع يده اليسرى على ركبته اليسرى، ووضع يده اليمنى على ركبته اليمنى وعقد ثلاثاً وخمسين^(٣) وأشار بالسبابة^(٤).

(١) أي الافتراش.

(٢) وجه التأمل أن أبا حميد صرح بأنه رأى النبي عليه السلام يفعل ذلك في صحيح البخاري.

(٣) أي قبض الوسطى والبنصر والخنصر على وسط الكف مع وضع الإبهام على أنملة الوسطى.

(٤) رواه مسلم من حديث ابن عمر.

وفي رواية مسلم: وضع يديه على ركبتيه، ورفع أصبعه اليمنى التي تلي الإبهام ويدعو بها، ويده اليسرى على ركبته باسطها عليها.
وفي حديث ابن الزبير عنده أيضاً: كان يشير بها ولا يحركها.
الحديث (١).

وعند أبي داود من حديث وائل بن حجر: مد مرفقه اليمنى على فخذ اليمنى وقبض ثنتين وحلق حلقة ثم رفع أصبعه فرأيته يحركها ويدعو.

وكان ﷺ يستقبل بأصابعه القبلة في رفع يديه وركوعه وفي سجوده وفي التشهد، ويستقبل بأصابع رجله القبلة في سجوده.

الفرع الثالث عشر في ذكر تشهده ﷺ

[نص التشهد]

كان ﷺ يتشهد دائماً في هذه الجلسة [الأخيرة] (٢)، ويعلم أصحابه أن يقولوا: (التحيات المباركات، الصلوات الطيبات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) رواه مسلم من رواية ابن عباس.

(١) جاء هذا الحديث في ش في هذا المكان، وفي النسخ بعد حديث أبي داود الذي يليه وقد بين الشارح أن الحديث في مسلم ولذا كان وضعه هنا هو الواجب لقوله: «عنده أيضاً».

(٢) في (ط، ش).

وهو الذي اختاره الشافعي لزيادة «المباركات» لا تشهد ابن مسعود، وإن قاله القاضي عياض رحمه الله تعالى^(١). وعبارة الشافعي فيما أخرجه البيهقي بسنده إلى الربيع بن سليمان أخبرنا الشافعي جواباً لمن سأله بعد ذكر حديث ابن عباس: «فإننا نرى الرواية اختلفت فيه عن النبي ﷺ، فروى ابن مسعود خلاف هذا، فساق الكلام إلى أن قال: فلما رأيتَه واسعاً وسمعتَه - يعني حديث ابن عباس - صحيحاً، ورأيتَه أكثر لفظاً من غيره - يعني من المرفوعات - أخذت به غير معنف لمن أخذ بغيره» هذا آخر كلامه، وليس فيه تصريح بالأفضلية، والعلم عند الله.

وقال أبو حنيفة وأحمد وجمهور الفقهاء وأهل الحديث: تشهد ابن مسعود^(٢) أفضل لأنه عند المحدثين أشد صحة.

وقال مالك - رحمه الله -: تشهد عمر بن الخطاب^(٣) الموقوف عليه أفضل، لأنه علمه للناس على المنبر ولم ينازعه أحد فدل على تفضيله.

[حكم قراءة التشهد]

ومذهب الشافعي أن التشهد الأول سنة والثاني واجب.

(١) نقل القاضي عياض تشهد ابن مسعود على أنه هو الذي اختاره الشافعي، وهو سبق قلم منه.

(٢) ونصه «التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».

(٣) ونص تشهد عمر: التحيات لله الزاكيات لله، الطيبات والصلوات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبداً لله ورسوله.

وجمهور المحدثين: أنها واجبان.

وقال أحمد: الأول واجب يجبر تركه بالسجود، والثاني ركن تبطل الصلاة بتركه.

وقال أبو حنيفة ومالك وجمهور الفقهاء: هما سنتان.

وعن مالك رواية بوجوب الأخير.

وقد كان ﷺ يأتي بالتشهدين.

[من معاني التشهد]

وفي الغيلانيات عن القاسم بن محمد قال: علمتني عائشة قالت: هذا تشهد رسول الله ﷺ: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي رحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وهو مثل حديث ابن مسعود سواء. رواه البيهقي بإسناد جيد.

قال النووي: في هذا الحديث فائدة حسنة وهي أن تشهده ﷺ بلفظ تشهدنا^(١). انتهى.

قال الحافظ ابن حجر: وكأنه^(٢) يشير إلى رد ما وقع في

الرافعي: أنه ﷺ كان يقول في التشهد: وأشهد أني رسول الله، / ٣٣٥ أ /
وتعقبوه بأنه لم يرو^(٣) كذلك صريحاً.

نعم وقع في البخاري من حديث سلمة بن الأكوع قال: خفت

(١) أي فكان يقول: وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

(٢) أي النووي.

(٣) في (ط، د): يرد.

أزواد القوم فذكر الحديث وفيه: فقال ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله^(١).

ومن لطائف التشهد ما قاله البيضاوي: علمهم أن يفردوه ﷺ بالذكر لشرفه ومزيد حقه عليهم، فإن قيل: كيف يشرع هذا اللفظ، وهو خطاب لبشر مع كونه منياً عنه في الصلاة؟ فالجواب: أن ذلك من خصائصه صلى الله عليه وسلم.

فإن قلت: ما الحكمة في العدول عن الغيبة إلى الخطاب في قوله: «السلام عليك أيها النبي» مع أن لفظ الغيبة هو الذي يقتضيه السياق، كأن يقول: السلام على النبي، فينتقل من تحية الله إلى تحية النبي، ثم إلى تحية النفس، ثم إلى تحية الصالحين؟

أجاب الطيبي بما محصله: نحن نتبع لفظ الرسول بعينه الذي علمه للصحابة. ويحتمل أن يقال على طريق أهل المعرفة بالله: إن المصلين لما استفتحوا باب الملكوت بالتحيات، أذن لهم في الدخول في حريم الحي الذي لا يموت، فقرت أعينهم بالمناجاة، فنبهوا على أن ذلك بواسطة نبي الرحمة وبركة متابعتة، فالتفتوا فإذا الحبيب في حرم الحبيب حاضر، فأقبلوا عليه قائلين: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. انتهى

وقال الترمذي الحكيم: في قوله: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»: من أراد أن يحظى بهذا السلام الذي يسلمه الخلق في صلاتهم فليكن عبداً صالحاً، وإلا حرم هذا الفضل العظيم.

وقال القفال في فتاويه: وترك الصلاة يضر جميع المسلمين، لأن

(١) الخلاصة أنها قيلت في مواطن ليس التشهد منها.

المصلي يقول: اللهم اغفر لي وللمؤمنين والمؤمنات، ولا بد أن يقول في التشهد: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فيكون التارك للصلاة مقصراً في خدمة الله وفي حق رسوله، وفي حق نفسه، وفي حق كافة المسلمين. ولذلك عظمت المعصية^(١) بتركها.

واستنبط منه السبكي: أن في الصلاة حقاً للعباد مع حق الله تعالى، وأن من تركها أدخل بجميع حق المؤمنين، من مضى ومن يجيء إلى يوم القيامة، لوجوب قوله فيها: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين». انتهى.

[حكم الصلاة عليه ﷺ بعد التشهد]

وتقدم الكلام على وجوب الصلاة عليه ﷺ بعد التشهد الأخير، وما في ذلك من المباحث في فضل الصلاة عليه ﷺ^(٢)

وعن الطبراني مرفوعاً، عن سهل بن سعد: لا صلاة لمن لم يصل على نبيه، وكذا عند ابن ماجه والدارقطني.

وعن ابن مسعود الأنصاري - عند الدارقطني -: من صلى صلاة لم يصل فيها علي وعلى أهل بيتي لم تقبل منه.

[هل يترحم عليه ﷺ؟]

وعن أبي مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: إذا تشهد أحدكم في الصلاة فليقل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمداً

(١) في ط: المصيبة.

(٢) في المقصد السابع.

وآل محمد، كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم
إنك حميد مجيد. رواه الحاكم.

واغتر قوم بتصحيحه فوهموا، فإنه من رواية يحيى بن السباق^(١)،
وهو مجهول عن رجل مبهم، وبالغ ابن العربي في إنكار ذلك فقال:
حذار مما ذكره ابن أبي زيد من زيادة^(٢) وترحم، فإنه قريب من
البدعة، لأنه ﷺ علمهم كيفية الصلاة بالوحي، ففي الزيادة على ذلك
استدراك عليه. انتهى.

قال الحافظ ابن حجر: وابن أبي زيد ذكر ذلك في الرسالة في
صفة التشهد، لما ذكر ما يستحب في التشهد، ومنه: اللهم صل على
محمد وآل محمد، فزاد: وترحم على محمد وآل محمد، وبارك على محمد
وآل محمد الخ.

فإن كان إنكاره ذلك لكونه لم يصح فمسلم، وإلا فدعوى من
ادعى أنه لا يقال: وارحم محمداً، مردودة لثبوت ذلك في عدة
أحاديث أصحابها في التشهد: «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله
وبركاته».

قال: ثم وجدت لابن أبي زيد مستنداً، فأخرج الطبري^(٣) في
تهذيبه^(٤)، من طريق حنظلة بن علي عن أبي هريرة رفعه: «من قال
اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل
إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى
آل إبراهيم، وترحم على محمد وعلى آل محمد كما ترحمت على إبراهيم

(١) في (ط، د) ابن أبي السباق.

(٢) كذا في ط، وفي النسخ: زيادته.

(٣) في (أ، ب) الطبراني. وهو تصحيف.

(٤) هو كتاب «تهذيب الآثار» لمحمد بن جرير الطبري.

وعلى آل إبراهيم، شهدت له / يوم القيامة وشفعت له» ورجال سنده ٣٣٥/ب رجال الصحيح، إلا سعيد بن سليمان مولى سعيد بن العاصي، الراوي له عن حنظلة بن علي فإنه مجهول، وهذا كله فيما يقال مضموماً إلى السلام أو الصلاة.

وقد وافق ابن العربي الصيدلاني من الشافعية على المنع. ونقل القاضي عياض عن الجمهور الجواز مطلقاً، وقال القرطبي في «المفهم»: إنه الصحيح لورود الأحاديث به، وخالفه غيره.

ففي «الذخيرة» من كتب الحنفية عن محمد: يكره ذلك لإيhamه النقص، لأن الرحمة غالباً إنما تكون لفعل ما يلام عليه.

وجزم ابن عبد البر بمنعه، فقال: لا يجوز لأحد إذا ذكر النبي ﷺ أن يقول: رحمه الله، لأنه ﷺ قال: «من صلى علي» ولم يقل: من ترحم علي، ولا من دعا لي، وإن كان معنى الصلاة الرحمة، ولكنه خص بهذا اللفظ تعظيماً له. فلا يعدل عنه إلى غيره. انتهى.

[الصلاة عليه ﷺ بعد التشهد]

وأخرج أبو العباس السراج عن أبي هريرة: أنهم قالوا يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما صليت وباركت على إبراهيم، وآل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وفي حديث بريدة رفعه: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد، كما جعلتها على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.

ووقع في حديث ابن مسعود عند أبي داود والنسائي: على محمد النبي الأمي.

وفي حديث أبي سعيد: على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم. ولم يذكر آل محمد ولا آل إبراهيم.

وعند أبي داود من حديث أبي هريرة: اللهم صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته وأهل بيته.

ووقع في آخر حديث ابن مسعود: في العالمين إنك حميد مجيد.

قال النووي في شرح المذهب: ينبغي أن يجمع ما في الأحاديث الصحيحة، فيقول: اللهم صل على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك... مثله، ويزيد في آخره: في العالمين.

وقال في «الأذكار» مثله، وزاد: عبدك ورسولك بعد قوله: محمد في «صل» ولم يزد لها في «بارك».

وقال في «التحقيق والفتاوى»: مثله، إلا أنه أسقط النبي الأمي.

وقد تعقبه الأسنوي فقال: لم يستوعب ما ثبت في الأحاديث مع اختلاف كلامه.

وقال الأذرعى: لم يُسَبَق إلى ما قاله، والأظهر أن الأفضل لمن تشهد أن يأتي بأكمل الروايات، ويقول - كما ثبت - هذا مرة وهذا مرة، وأما التلفيق فإنه يستلزم إحداث صفة في التشهد لم ترد مجموعة، وسبقه إلى معنى ذلك ابن القيم.

[الدعاء في الصلاة]

وقد كان ﷺ يدعو في الصلاة: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب

القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات، اللهم وأعوذ بك من المأثم والمغرم». فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيد من المغرم، فقال: إن الرجل إذا غرم حدث فكذب ووعد فأخلف. رواه البخاري ومسلم من رواية عائشة.

قال ابن دقيق العيد: «فتنة المحيا»: ما يعرض للإنسان مدة حياته من الافتتان بالدنيا والشهوات والجهالات وأعظمها - والعياذ بالله تعالى - أمر الخاتمة عند الموت، و«فتنة الممات»: يجوز أن يراد بها الفتنة عند الموت، أضيفت إليه لقربها منه، ويجوز أن يكون المراد بها: فتنة القبر، ولا يكون مع هذا الوجه متكرراً مع قوله: «عذاب القبر»، لأن العذاب مرتب على الفتنة، والسبب غير المسبب.

وروى الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» عن سفيان الثوري: أن الميت إذا سئل من ربك تراءى له الشيطان فيشير إلى نفسه، إني أنا ربك، فلهذا ورد سؤال التثبيت له حين يسأل.

وقد استشكل دعاؤه ﷺ بما ذكر مع أنه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وأجيب بأجوبة، منها أنه قصد التعليم لأمته، ومنها: أن المراد السؤال منه لأمته، فيكون المعنى هنا: أعوذ / بالله لأمتي، ومنها: سلوك طريق التواضع وإظهار العبودية والتزام خوف الله، وإعظامه والافتقار إليه، وامتنال أمره في الرغبة إليه، ولا يمتنع تكرير الطلب مع تحقيق الإجابة، لأن في ذلك تحصيل الحسنات، ورفع الدرجات، وفيه تحريص لأمته على ملازمة ذلك، لأنه إذا كان مع تحقق المغفرة لا يترك التضرع، فمن لم يتحقق ذلك أحرى بالملازمة.

وأما الاستعاذة من فتنة الدجال، مع تحققه أنه لا يدركه فلا

إشكال فيه على الوجهين الأولين، وقيل على الثالث: يحتمل أن يكون ذلك قبل أن يتحقق عدم إدراكه، ويدل عليه قوله في الحديث الآخر عند مسلم: إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه، الحديث، والله أعلم.

وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يقول بعد التشهد: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة الدجال الأعور، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات. رواه أبو داود.

وعن علي بن أبي طالب: أن النبي ﷺ كان يقول ما بين التشهد والتسليم: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت. رواه مسلم وغيره.

وفي رواية له: وإذا سلم قال: اللهم اغفر لي ما قدمت...

الخ

ويجمع بينهما: بحمل الرواية الثانية على إرادة السلام، لأن مخرج الطريقتين واحد.

وأورده ابن حبان بلفظ: كان إذا فرغ من الصلاة وسلم، وهذا ظاهر في أنه بعد السلام، ويحتمل أنه كان يقول ذلك قبل السلام وبعده، وسيأتي الجواب عما استشكل في دعائه ﷺ بهذا الدعاء في أدعيته ﷺ إن شاء الله تعالى.

[مواضع الدعاء في الصلاة]

وحاصل ما ثبت عنه ﷺ من المواضع التي كان يدعو بها في داخل صلاته ستة مواطن:

الأول - عقب تكبيرة الإحرام، كما في حديث أبي هريرة في الصحيحين: اللهم باعد بيني وبين خطاياي. الحديث ونحوه.

الثاني - في الركوع، كما في حديث عائشة عند الشيخين: كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي.

الثالث - في الاعتدال من الركوع، كما في حديث ابن أبي أوفى عند مسلم: أنه كان يقول بعد قوله: «من شيء بعد» اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد.

الرابع - في سجوده، وهو أكثر ما كان يدعو فيه، وأمر به،

الخامس - بين السجدين: اللهم اغفر لي... الخ

السادس - في التشهد.

وكان أيضاً يدعو في القنوت، وفي حال القراءة إذا مر بآية رحمة سأل، وإذا مر بآية عذاب استعاذ، وتقدم كل ذلك، والله أعلم.

الفرع الرابع عشر

في ذكر تسليمه ﷺ من الصلاة

[هدية ﷺ في التسليم]

كان ﷺ يسلم عن يمينه وعن شماله حتى يرى بياض خده. رواه مسلم والنسائي من حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه.

وفي حديث ابن مسعود: كان ﷺ يسلم عن يمينه وعن يساره، السلام عليكم ورحمة الله. رواه الترمذي، وزاد أبو داود: حتى يرى

بياض خده، وفي رواية النسائي: حتى يرى بياض خده من ها هنا،
وبياض خده من ها هنا. الحديث.

وهذا كان فعله الراتب. رواه عنه خمسة عشر صحابياً، وهم:
عبد الله بن مسعود، وسعد بن أبي وقاص، وسهل بن سعد، ووائل
ابن حجر، وأبو موسى الأشعري، وحذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر،
وعبد الله بن عمر، وجابر بن سمرة، والبراء بن عازب، وأبو مالك
الأشعري، وطلق بن علي، وأوس بن أوس، وأبو ثور، وعدي بن
عمرو^(١).

هذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد والجمهور.

[مذهب مالك في التسليم]

ومذهب مالك في طائفة: المشروع تسليمه.

ودليل مذهبنا ما تقدم. وأما ما روي أنه ﷺ كان يسلم تسليمه
واحدة تلقاء وجهه، فلم يثبت من وجه صحيح، وأجود ما في ذلك
حديث عائشة أنه ﷺ كان يسلم تسليمه واحدة، السلام عليكم،
يرفع بها صوته حتى يوقظنا، وهو حديث معلول، وهو في السنن، لكنه
في قيام الليل، / والذين رووا عنه التسليمتين رووا ما شاهدوا في
الفرض والنفل، وحديث عائشة ليس هو صريحاً في الاقتصار على
تسليمه واحدة، بل أخبرت أنه كان يسلم تسليمه واحدة يوقظهم بها،
ولم تنف الأخرى بل سكنت عنها، وليس سكوتها عنها مقدماً على رواية
من حفظها وضبطها، وهم أكثر عدداً وأحاديثهم أصح، والله أعلم.

ب/٣٣٦

(١) صوابه: ابن عميرة، كما في الإصابة وغيرها.

[حكم التسليم]

واختلف في التسليم:

فقال مالك والشافعي وأحمد، وجمهور العلماء: إنه فرض لا تصح الصلاة إلا به.

وقال أبو حنيفة والثوري والأوزاعي: سنة، لو ترك صحت صلاته. وقال أبو حنيفة: لو فعل منافياً للصلاة من حدث أو غيره في آخرها صحت صلاته، واحتج بأنه ﷺ لم يعلمه الأعرابي حين علمه واجبات الصلاة.

واحتج الجمهور بحديث أبي داود (مفتاح الصلاة الطهور وتحليلها التسليم)^(١).

[من هديه ﷺ في الصلاة]

وكان ﷺ إذا قام في الصلاة طأطأ رأسه. رواه أحمد.

وكان لا يجاوز بصره إشارته^(٢)، وكان قد جعل الله قرعة عينه في الصلاة كما قال: وجعلت قرعة عيني في الصلاة رواه النسائي.

ولم يكن يشغله ﷺ ما هو فيه عن مراعاة أحوال المأمومين، مع كمال إقباله وقربه من ربه وحضور قلبه بين يديه.

وكان يدخل في الصلاة فيريد إطالتها فيسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته مخافة أن يشق على أمه. رواه البخاري وأبو داود والنسائي.

(١) وكذا رواه الترمذي وابن ماجه بإسناد حسن عن علي رضي الله عنه.

(٢) أي أصبعه السبابة التي يشير بها.

[حمل الطفل أثناء الصلاة]

وكان يؤم الناس وهو حامل أمامة بنت أبي العاص بن الربيع^(١) على عاتقه. رواه مسلم وغيره.

قال النووي: وهذا يدل لمذهب الشافعي - رحمه الله - ومن وافقه أنه يجوز حمل الصبي والصبية وغيرهما من الحيوان في صلاة الفرض والنفل للإمام والمأموم والمنفرد.

وحمله أصحاب مالك - رحمه الله - على النافلة، ومنعوا جواز ذلك في الفريضة.

وهذا التأويل فاسد، لأن قوله: «يؤم الناس» صريح أو كالصريح في أنه كان في الفرض. وادعى بعض المالكية أنه منسوخ، وبعضهم أنه خاص به ﷺ، وبعضهم أنه كان لضرورة، وكلها مردودة ولا دليل عليها ولا ضرورة إليها^(٢)، بل الحديث صحيح صريح في جواز ذلك، وليس فيه ما يخالف الشرع، لأن الأدمي طاهر، وما في جوفه من النجاسة معفو عنها لكونه في معدته، وثياب الأطفال وأجسادهم محمولة على الطهارة، ودلائل الشرع متظاهرة على هذا، والأفعال في الصلاة لا تبطلها إذا قلت أو تفرقت، وفعله ﷺ للجواز، وتنبهاً على هذه القواعد التي ذكرتها.

وهذا يرد ما ادعاه أبو سليمان الخطابي: أن هذا الفعل يشبه أن يكون بغير تعمد لحملها في الصلاة، لكنها كانت تتعلق به ﷺ فلم يدفعها، فإذا قام بقيت معه، قال: ولا يتوهم أنه حملها ووضعها مرة

(١) هي بنت زينب بنت النبي ﷺ.

(٢) نفي الضرورة لا دليل عليه، وبيان الجواز لا يمنع أنه كان لضرورة [م].

بعد أخرى، لأنه عمل كثير، ويشغل القلب، وإذا كان علم الخميصة شغله فكيف لا يشغله هذا؟

هذا كلام الخطابي، وهو باطل، ودعوى مجردة، ومما يردده قوله في صحيح مسلم: «فإذا قام حملها، وإذا رفع من السجود أعادها» وقوله في رواية غير مسلم: «خرج حاملاً أمامة وصلى» وذكر الحديث. وأما قصة الخميصة فإنها تشغل القلب بلا فائدة، وحمل أمامة لا نسلم أنه يشغل القلب، وإن شغله فيترتب عليه فوائد، وبيان قواعد مما ذكرناه وغيره، فاحتمل ذلك الشغل لهذه الفوائد بخلاف الخميصة.

والصواب الذي لا يعدل عنه أن الحديث كان للبيان والتنبيه على هذه القواعد، فهو جائز لنا وشرع مستمر إلى يوم القيامة، والله أعلم، انتهى^(١).

وكان ﷺ يصلي فيجيء الحسن أو الحسين فيركب على ظهره، فيطيل السجدة كراهية أن يلقيه عن ظهره.

[الحركة في الصلاة]

وكان يرد السلام بالإشارة على من يسلم عليه وهو في الصلاة.

قال جابر: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة، فأدرسته وهو يصلي فسلمت عليه، فأشار إلي، رواه مسلم.

وقال عبد الله بن مسعود: لما قدمت من الحبشة أتيت النبي ﷺ / وهو يصلي، فسلمت عليه، فأوماً برأسه، رواه البيهقي.

وكان يصلي وعائشة معترضة بينه وبين القبلة، فإذا سجد غمزها

(١) انتهى كلام النووي، وانظر فتح الباري ١/٥٩٠ و ١٠/٤٢٩ [م].

بيده فقبضت رجلها، وإذا قام بسطتها. رواه البخاري .

وكان ﷺ لا يلتفت في صلاته . وفي البخاري عن عائشة قالت : سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال : هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد .

وروى أبو داود من حديث سهل بن الحنظلية : أنه ﷺ قال يوم حنين : من يحرسنا الليلة؟ قال أنس بن أبي مرثد الغنوي : أنا يا رسول الله ، قال : اركب ، فركب فرساً له ، فقال : استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه ، فلما أصبحنا نُؤَبُّ (١) بالصلاة ، فجعل ﷺ يصلي وهو يلتفت إلى الشعب ، حتى إذا قضى الصلاة قال : أبشروا قد جاء فارسكم .

فهذا الالتفات من الاشتغال بالجهاد في الصلاة ، وهو يدخل في مداخل العبادات ، كصلاة الخوف ، وقريب منه قول عمر - رضي الله عنه - إني لأجهز الجيش وأنا في الصلاة ، فهذا جمع بين الصلاة والجهاد ، ونظيره التفكير في معاني القرآن واستخراج كنوز العلم منه .

وكان ﷺ يصلي فعرض له الشيطان ليقطع عليه صلاته ، فأخذه وخنقه حتى سال لعابه على يديه (٢) .

وروى مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال : أتيت النبي ﷺ وهو يصلي ، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل ، يعني يبكي ، وفي رواية : ولصدره أزيز كأزيز الرحي من البكاء . رواه أحمد .

ولم يكن ﷺ يغمض عينيه في صلاته .

(١) أي نودي .

(٢) الحديث في الصحيحين والنسائي .

وعن أنس قال: كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها، فقال
ﷺ: أميطي عنا قرامك هذا فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في
صلاتي. رواه البخاري.

ولو كان يغمض عينيه لما عرضت له في صلاته، وقد اختلف
الفقهاء في كراهيته، والحق أن يقال: إن كان تفتيح العين لا يخل
بالخشوع فهو أفضل، وإن كان يحول بينه وبين الخشوع كأن يكون في
قلبه زخرفة أو غيرها مما يشغل قلبه فلا يكره التغميض قطعاً بل ينبغي
أن يكون مستحباً في هذه الحالة.

[الوسوسة في الصلاة]

وقد كانت صلاته ﷺ متوسطة، عارية عن الغلو كالوسوسة في
عقد النية، ورفع الصوت بها، والجهر بالأذكار والدعوات التي شرعت
سراً، وتطويل ما السنة تخفيفه، كالشهاد الأول، إلى غير ذلك مما
يفعله كثير ممن ابتلي بداء الوسوسة، عافانا الله منها.

وهي نوع من الجنون، وصاحبها بلا ريب مبتدع مستنبط في
أفعاله وأقواله شيئاً لم يفعله النبي ﷺ، ولا أحد من أصحابه. وقد
قال ﷺ: إن خير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها^(١)،
وعنه: إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة
ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ومما نسب لإمام الحرمين: الوسوسة نقص في العقل، أو جهل
بأحكام الشرع.

ومن غرائب ما يقع لهؤلاء الموسوسين، أن بعضهم يشتغل

(١) رواه مسلم وغيره.

بتكرير الطهارة حتى تفوته الجماعة، وربما فاته الوقت، ومنهم من يشتغل بالنية حتى تفوته التكبيرة الأولى، وربما تفوته ركعة أو أكثر، ومنهم من يحلف أن لا يزيد على هذه التكبيرة ثم يكذب.

ثم من العجب أن بعضهم يتوسوس في حال قيامه حتى يركع الإمام، فإذا خشي فوات الركوع كبر سريعاً وأدركه، فمن لم يحصل له النية في القيام الطويل حال فراغ باله، فكيف حصلت له في الوقت الضيق مع شغل باله بفوات الركعة.

ومنهم من يكثر التلفظ بالتكبير، حتى يشوش على غيره من المأمومين، ولا ريب أن ذلك مكروه، ومنهم من يزعج أعضاءه، ويحني جبهته، ويقوم عروق عينيه، ويصرخ بالتكبير كأنه يكبر على العدو، ومنهم من يغسل عضوه غسلًا يشاهده ويبصره، ويكبر ويقرأ بلسانه، ويسمع بأذنه، ويعلمه بقلبه، ومع ذلك يصدق الشيطان في إنكاره / ب/٣٣٧ يقين نفسه وجحده لما رآه يبصره، وسمعه بأذنه.

وقد سأل رجل أبا الوفاء بن عقيل فقال: إني أكبر وأقول ما كبرت، وأغسل العضو في الوضوء وأقول ما غسلته، فقال ابن عقيل: دع الصلاة فإنها لا تجب عليك، فقال له: كيف ذلك؟ فقال لأن النبي ﷺ قال: رفع القلم عن المجنون حتى يفيق، ومن يكبر ثم يقول ما كبرت فليس بعاقل، والمجنون لا تجب عليه الصلاة.

فمن أراد التخلص من هذه البلية فليتبع سنة نبيه ﷺ السنية، ويقتدي بملته الحنيفية، فإن غلبه الأمر وضاعت عليه المسالك فليتضرع إلى الله ويبتهل إليه في كشف ذلك.

الفرع الخامس عشر في ذكر قنوته ﷺ

[معاني «القنوت»]

ليعلم أن القنوت يطلق على القيام، والسكوت، ودوام العبادة،
والدعاء والتسبيح، والخضوع.

كما قال تعالى: ﴿وله من في السماوات والأرض كل له قانتون﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً﴾ الآية^(٢).

وقال تعالى: ﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾^(٣).

والمراد به هنا: الدعاء في محل مخصوص من القيام.

[نصوص في مشروعية القنوت]

وعن أنس قال: بعث النبي ﷺ سبعين رجلاً يقال لهم القراء،
فعرض لهم حيان من سليم، رعل وذكوان، عند بئر يقال لها بئر
معوثة، فقتلوهم، فدعا عليهم النبي ﷺ شهراً في صلاة الغداة،
وذلك بدء القنوت، وما كنا نقنت، قال عبد العزيز بن صهيب: فسأل
رجل أنساً عن القنوت أبعث الركوع أو عند فراغ القراءة؟ قال: بل
عند فراغ القراءة.

(١) سورة الروم، الآية ٢٦.

(٢) سورة الزمر، الآية ٩.

(٣) سورة التحريم، الآية ١٢.

وفي أخرى: قنت شهراً بعد الركوع يدعو على أحياء من العرب
وفي أخرى، قنت شهراً بعد الركوع في صلاة الصبح يدعو على
رعل وذكوان، ويقول: عصية عصت الله ورسوله.

وفي أخرى: بعث رسول الله ﷺ سرية يقال لهم: «القراء»
فأصيبوا، فما رأيت رسول الله ﷺ وجد^(١) على شيء ما وجد عليهم،
فقنت شهراً في صلاة الفجر. هذه روايات^(٢) البخاري ومسلم.

وللبخاري: كان القنوت في المغرب والفجر.

وفي رواية أبي داود والنسائي: قنت في صلاة الصبح بعد
الركوع، وفي أخرى: قنت شهراً ثم تركه.

وفي أخرى للنسائي: قنت شهراً يلعن رعلاً وذكوان ولحيان.

وعن ابن عباس: قنت ﷺ شهراً متتابعاً، في الظهر والعصر
والمغرب والعشاء وصلاة الصبح، في دبر كل صلاة، إذا قال: «سمع
الله لمن حمده» من الركعة الأخيرة، يدعو على أحياء من سليم، على
رعل وذكوان وعصية، ويؤمن من خلفه. رواه أبو داود.

وعن ابن عمر: أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من
الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول: اللهم العن فلاناً وفلاناً
وفلاناً، بعد ما يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد»، فأنزل
الله عليه ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾، إلى قوله: ﴿فإنهم ظالمون﴾^(٣).
رواه البخاري.

(١) أي حزن.

(٢) كذا في المخطوطات، وفي (ط، ش): رواية.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٢٨.

وعن أبي هريرة: لما رفع ﷺ رأسه من الركعة الثانية، قال: اللهم أنجح الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين بمكة، اللهم اشد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف.

وفي رواية: في صلاة الفجر. وفي رواية: ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ رواه البخاري ومسلم. وعن البراء: كان ﷺ يقنت في الصبح والمغرب. رواه مسلم والترمذي

ولأبي داود: في صلاة الصبح ولم يذكر المغرب.

وعن أبي مالك الأشجعي قال: قلت لأبي: يا أبت، قد صليت خلف رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب - ها هنا بالكوفة خمس سنين - أكانوا يقنتون؟ قال: أي بني، محدث^(١). رواه الترمذي

وعن سعيد بن جبير قال: أشهد أني سمعت ابن عباس يقول: إن القنوت في صلاة الفجر بدعة. رواه الدارقطني.

[آراء العلماء في القنوت]

قال بعض العلماء: والصواب أنه ﷺ قنت وترك، وكان / تركه للقنوت أكثر من فعله، فإنه إنما قنت عند النوازل للدعاء لقوم، والدعاء على آخرين، ثم تركه لما قدم من دعا لهم وخلصوا من الأسر

(١) يحتمل أن يكون مراده أنه لم يكن من أول فرض الصلاة وإنما حدث بعد الهجرة.

وأسلم من دعا عليهم فجاءوا تائبين، وكان قنوته لعارض. فلما زال العارض ترك القنوت.

ولم يكن مختصاً بالفجر، بل كان يقنت في صلاة الفجر والمغرب، ذكره البخاري في صحيحه عن أنس، وذكره مسلم عن البراء، وصح عن أبي هريرة أنه قال: والله لأنا أقربكم صلاة من صلاة رسول الله ﷺ إنه كان يقنت في الركعة الأخيرة من الصبح بعدما يقول: «سمع الله لمن حمده»، وقال: ابن أبي فديك: ولا ريب أن رسول الله ﷺ فعل ذلك ثم تركه. فهذا رد على القائل بكراهة القنوت في الفجر مطلقاً عند النوازل وغيرها ويقولون هو منسوخ وفعله بدعة.

وأهل الحديث متوسطون بين هؤلاء وبين من استحبه، ويقولون فعله سنة، وتركه سنة، ولا ينكرون على من داوم عليه، ولا يكرهون فعله، ولا يرونه بدعة، ولا فاعله مخالفاً للسنة، من قنت فقد أحسن ومن ترك فقد أحسن. انتهى.

[مذهب الشافعي في القنوت]

ومذهب الشافعي - رحمه الله تعالى - أن القنوت مشروع في صلاة الصبح دائماً، في الاعتدال من ثانية صلاة الصبح، لما رواه أنس: ما زال رسول الله ﷺ يقنت في الفجر حتى فارق الدنيا. رواه أحمد وغيره.

قال ابن الصلاح: قد حكم بصحته غير واحد من الحفاظ، منهم الحاكم والبيهقي، وأبو عبد الله محمد بن علي البلخي، وفي البيهقي العمل بمقتضاه عن الخلفاء الأربعة.

وقال بعضهم: أجمعوا على أنه ﷺ قنت في الصبح، ثم اختلفوا: هل تركه؟ فيتمسك^(١) بما أجمعوا عليه حتى يثبت ما اختلفوا فيه. انتهى.

وأما حديث ابن أبي فديك عن عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من صلاة الصبح يرفع يديه ويدعو بهذا الدعاء: اللهم اهديني فيمن هديت الخ... فقال ابن القيم - في زاد المعاد -: ما أبين الاحتجاج به لو كان صحيحاً أو حسناً، ولكن لا يحتاج بعبد الله هذا، وإن كان الحاكم صحح حديثه في القنوت، انتهى. وهذا الحديث رواه الحاكم وصححه، ورُدد عليه، كما قاله ابن القيم، وقد اتفقوا على ضعف عبد الله بن سعيد.

[نص دعاء القنوت]

وعن ابن عباس: كان ﷺ يقنت في صلاة الصبح وفي وتر الليل بهؤلاء الكلمات: «اللهم اهديني فيمن هديت»، أخرجه محمد بن نصر في كتاب قيام الليل.

والصحيح: أنه لا يتعين فيه دعاء مخصوص، بل يحصل بكل دعاء.

وفيه وجه أنه لا يحصل إلا بالدعاء المشهور وهو: «اللهم اهديني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، وإنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت» رواه أبو داود والترمذي

(١) كذا في المخطوطات، وفي (ط، ش) فتمسك.

والنسائي من حديث الحسن بن علي قال: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في الوتر فذكره. وإسنادهم صحيح، قال البيهقي: قد صح أن تعليم هذا الدعاء وقع لقنوت صلاة الصبح وقنوت الوتر، انتهى. وقوله: «فإنك تقضي» بالفاء.

وبالواو في قوله: «وإنه لا يذل» «وربنا» قبل «وتعاليت» إلا أن الفاء لم تقع في رواية أبي داود. وزاد البيهقي بعد قوله: «إنه لا يذل من واليت» ولا يعز من عاديت.

وزاد ابن أبي عاصم في كتاب التوبة: نستغفرك اللهم ونتوب إليك.

[الصلاة على النبي ﷺ بعده]

وتسن الصلاة على رسول الله ﷺ في آخره، لأن النسائي قد رواه من حديث الحسن بسند صحيح أو حسن، كما قاله في شرح «المهذب» ولفظه - أي النسائي - : وصلى الله على النبي. وجزم في «الأذكار» باستحباب الصلاة على الآل والسلام. وخالفه صاحب «الإقليد»^(١) فقال: أما ما وقع في كتب أصحابنا من زيادة «وسلم» وما يعتاده الأئمة الآن من ذكر الآل والأزواج/ والأصحاب فكل ذلك لا أصل له.

قلت: وعبارة النووي في «الأذكار»: يستحب أن يقول عقب هذا الدعاء: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم. فقد جاء في حديث النسائي بإسناد حسن، وصلى الله على النبي. انتهى.

(١) هو التاج بن الفركاح، وكان معاصراً للنووي.

وتعقب: بأن لفظ الدعوى خلاف الدليل، ويزيد عليه ذكر الآل والتسليم.

نعم وقعت الزيادة عند «الرافعي» و«الرويانى» معزوة لحديث الحسن بن علي، عند النسائي^(١) لكنها ليست عنده في رواية أحد من الرواة عنه، على أن لفظ «وصلى الله على النبي» زائد على رواية الترمذي، وهي زيادة غريبة غير ثابتة لأجل عبد الله بن علي، أحد رواته، لأنه غير معروف، وعلى تقدير أن يكون هو عبد الله بن علي ابن الحسن بن علي، فهو منقطع، لأنه لم يسمع من جده الحسن بن علي، فقد تبين أنه ليس من شرط «الحسن» لانتقاعه أو لجهالة راويه، ولم تجبر الزيادة بمجيئها من وجه آخر، وحيث قد تبين شذوذها على ما لا يخفى. نعم: أصل الحديث إلى آخر «وتعاليت» حسن لاعتضاده برواية الترمذي وغيره، بخلاف الزيادة، إذ لم تجيء في غيره، وحيث سننا الصلاة على الآل على ما جزم به النووي فينبغي عدّها في القنوت بعضاً^(٢).

[من أحكام القنوت]

قال في «المجموع» عن البغوي: ويكره إطالة القنوت كالشهد الأول، وهو ظاهر على ما صححه فيه، وفي تحقيقه في باب «سجود السهو» من أن الاعتدال ركن طويل، أما على ما صححه فيهما في «صلاة الجماعة» من أنه قصير، وهو ما في «المنهاج» و«الروضة» فقد يقال القياس البطلان، لأن تطويل الركن القصير عمداً مبطل.

ويجاب: يحمل ذلك على غير محل القنوت، إذ البغوي نفسه

(١) قوله «عند النسائي» ليس في آ.

(٢) «بعضاً» لم ترد في آ. ومعناها: بعضاً من أبعاض القنوت.

القائل بكراهة الإطالة قائل بأن تطويل الركن القصير مبطل عمده.

ويسن للمنفرد والإمام برضى المحصورين، الجمع في قنوت الوتر بين القنوت السابق وبين قنوت عمر، وهو: «اللهم إنا نستعينك» الخ، والأولى تأخيره عن القنوت السابق.

ويسن رفع يديه، رواه البيهقي بإسناد جيد.

قال في «المجموع»: وفي سن مسح وجهه بهما وجهان: أشهرهما: نعم، وأصحهما: لا، قال البيهقي: ولا أحفظ في مسحه هنا عن أحد من السلف شيئاً. وإن روي عن بعضهم في الدعاء خارج الصلاة.

ومسح غير الصدر كالصدر مكروه.

وقال النووي في «الأذكار»: اختلف أصحابنا في رفع اليدين في القنوت، ومسح الوجه بهما على ثلاثة أوجه: أصحها: يستحب رفعهما ولا يمسح الوجه، والثاني: يرفع ويمسح، والثالث: لا يمسح ولا يرفع، واتفقوا على أنه لا يمسح غير الوجه من الصدر ونحوه، بل قالوا ذلك مكروه. انتهى.

ويجهر الإمام دون المنفرد بالقنوت وإن كانت الصلاة سرية للاتباع. رواه البخاري.

قال الماوردي: وليكن جهره به دون جهره بالقراءة، فإن سمعه المأموم أمن كما كانت الصحابة يؤمنون خلف رسول الله ﷺ في ذلك. رواه أبو داود بإسناد حسن. ويوافقه في الثناء سرّاً أو يسكت، لأنه ثناء أو ذكر لا يليق به التأمين، والدعاء يشمل الصلاة على النبي ﷺ فيؤمن فيها: صرح به الطبري.

وإن لم يسمع المأموم قنوت الإمام قنت معه سراً كبقية الأذكار والدعوات، ولا قنوت لغير وتر وصبح، إلا لنازلة من خوف أو قحط أو وباء أو جراد أو نحوها، فيستحب أن يقنت في مكتوبة غير الصبح، لا مندورة، وصلاة جنازة ونافلة. وفي البخاري من حديث أبي هريرة أنه رضي الله عنه جهر بالقنوت في النازلة. انتهى ملخصاً من شرح البهجة لشيخ الإسلام أبي يحيى زكريا الأنصاري، مع زيادة من غيره، والله أعلم.

الفصل الرابع

في سجوده ﷺ للسهو في الصلاة

[التعريف بالسهو]

أ/٣٣٩

/ اعلم أن السهو هو الغفلة عن الشيء، وذهاب القلب إلى غيره، قاله الأزهرى .

وفرق بعضهم - فيما حكاه القاضي عياض - بين السهو والنسيان من حيث المعنى، وزعم أن السهو جائز في الصلاة على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، بخلاف النسيان، قال: لأن النسيان غفلة وآفة، والسهو إنما هو شغل، فكان النبي ﷺ يسهو في الصلاة ولا يغفل عنها، وكان يشغله عن حركات الصلاة ما هو في الصلاة شغلاً بها لا غفلة عنها، انتهى .

قال ابن كيكلدى: وهو ضعيف من جهة الحديث ومن جهة اللغة، أما من جهة الحديث فلما ثبت في الصحيحين من قوله ﷺ: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون»، وأما من جهة اللغة فقول الأزهرى الماضى، ونحوه قول الجوهري وغيره .

وقال في النهاية: السهو في الشيء: تركه من غير علم، والسهو عنه: تركه مع العلم، وهو فرق حسن دقيق، وبه يظهر الفرق بين السهو الذي وقع من النبي ﷺ غير مرة، والسهو عن الصلاة الذي ذم الله فاعله .

وقد كان سهوه ﷺ من إتمام نعم الله تعالى على أمته، وإكمال دينهم

ليقتدوا به فيما يشرعه لهم عند السهو، وهذا معنى الحديث المنقطع الذي في الموطأ - الآتي التنبيه عليه إن شاء الله تعالى -: إنما أنسى أو أنسى لأسن، فكان ﷺ ينسى فيترتب على سهوه أحكام شرعية تجري على سهو أمته إلى يوم القيامة .

[حكم سجود السهو]

واختلف في حكمه :

فقال الشافعية والمالكية: مسنون كله، وعن المالكية قول آخر: السجود للنقص واجب دون الزيادة .

وعن الحنابلة التفصيل بين الواجبات، فيجب لتركها سهواً، وبين السنن القولية فلا يجب، وكذا يجب إذا سها بزيادة فعل أو قول يبطل عمده .

وعن الحنفية: واجب كله، وحجتهم قوله ﷺ في حديث ابن مسمود عند البخاري «ليسجد سجديتين» والأمر للوجوب، وقد ثبت من فعله ﷺ، وأفعاله في الصلاة محمولة على البيان، وبيان الواجب واجب، ولا سيما مع قوله ﷺ صلوا كما رأيتموني أصلي . انتهى

[السجود قبل التسليم]

وقد ورد عنه ﷺ السجود على قسمين: الأول: السجود قبل التسليم:

فعن الأعرج عن عبد الله بن مالك بن بحينة أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ركعتين من بعض الصلوات، ثم قام فلم يجلس، فقام الناس، فلما قضى صلاته ونظرنا تسليمه كبر قبل التسليم فسجد

سجدتين وهو جالس ثم سلم . رواه البخاري .

وفي رواية له عن يحيى بن سعيد عن عبد الله بن بحينة أيضاً أنه قال: إن رسول الله ﷺ قام من اثنتين من الظهر، لم يجلس بينهما، فلما قضى صلاته سجد سجدتين ثم سلم بعد ذلك .

وفي روايته أيضاً عن الأعرج عنه، أن رسول الله ﷺ قام في صلاة الظهر وعليه جلوس، فلما أتم صلاته سجد سجدتين يكبر في كل سجدة وهو جالس قبل أن يسلم، وسجدهما الناس معه مكان ما نسي من الجلوس . ورواه مسلم أيضاً .

وزاد الضحاك عن الأعرج - عند ابن خزيمة - بعد قوله: «ثم قام فلم يجلس» فسبحوا به، فمضى حتى فرغ من صلاته .

وفي رواية الترمذي: قام في الظهر وعليه جلوس، فلما أتم صلاته سجد سجدتين، يكبر في كل سجدة وهو جالس قبل أن يسلم .

وفي هذا: مشروعية سجود السهو، وأنه سجدتان . فلو اقتصر على سجدة واحدة ساهياً لم يلزمه شيء، أو عامداً بطلت صلاته لأنه تعمد الاتيان بسجدة زائدة ليست مشروعة . وأنه يكبر لهما كما يكبر في غيرهما من السجود .

واستدل به على أن سجود السهو قبل السلام، ولا حجة فيه، في كون جميعه كذلك، نعم يرد على من / زعم أن جميعه بعد السلام كالحنفية .

واستدل به أيضاً على أن المأموم يسجد مع الإمام إذا سها الإمام، وإن لم يسه المأموم .

وأن سجود السهو لا تشهد بعده، وأن محله آخر الصلاة، فلو سجد للسهو قبل أن يتشهد ساهياً أعاد عند من يوجب التشهد الأخير وهم الجمهور.

وفيه أن من سها عن التشهد الأول حتى قام إلى الركعة، ثم ذكر لا يرجع، فقد سبحوا به ﷺ - كما في رواية ابن خزيمة - فلم يرجع، فلو تعمد المصلي الرجوع بعد تلبسه بالركن بطلت صلاته عند الشافعي.

[السجود بعد السلام]

عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر أو العصر، فسلم من ركعتين، فقال له ذو اليمين: الصلاة يا رسول الله أنقصت؟ فقال النبي ﷺ لأصحابه أحق ما يقول هذا؟ قالوا نعم. فصلى ركعتين أخراوين ثم سجد سجديتين. قال سعد: ورأيت عروة بن الزبير صلى من المغرب ركعتين فسلم وتكلم ثم صلى ما بقي منها، وسجد سجديتين وقال: هكذا فعل النبي ﷺ. رواه البخاري.

وقوله: «صلى بنا رسول الله ﷺ» ظاهر في أن أبا هريرة حضر القصة.

وحمله الطحاوي على المجاز، فقال المراد به: صلى بالمسلمين. وسبب ذلك قول الزهري: إن صاحب القصة استشهد ببدر، فإن مقتضاه أن تكون القصة وقعت قبل بدر وقبل إسلام أبي هريرة بأكثر من خمس سنين.

لكن اتفق أئمة الحديث - كما نقله ابن عبد البر وغيره - على أن

الزهري وهم في ذلك، وسببه أنه جعل القصة لذي الشمالين، وذو الشمالين هو الذي قتل بيدر، وهو خزاعي، واسمه عمير، وأما ذو اليمين فتأخر بعد النبي ﷺ بمدة لأنه حدث بهذا الحديث بعد النبي ﷺ كما أخرجه الطبراني وغيره، وهو سلمى، واسمه الخرباق، كما سيأتي، فلما وقع عند الزهري بلفظ «فقام ذو الشمالين» وهو يعرف أنه قتل بيدر، قال لأجل ذلك: إن القصة وقعت قبل بدر.

وقد جوز بعض الأئمة أن تكون القصة وقعت لكل من ذي الشمالين وذو اليمين، وأن أبا هريرة روى الحديثين فأرسل أحدهما، وهو قصة ذي الشمالين، وشاهد الأخرى وهي قصة ذي اليمين، وهذا محتمل في طريق الجمع.

وروى البخاري أيضاً عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال: صلى رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشي - قال محمد بن سيرين: وأكثر ظني العصر - ركعتين ثم سلم، ثم قام إلى خشبة في مقدم المسجد فوضع يده عليها، وفيهم أبو بكر وعمر، فهابا أن يكلماه، وخرج سرعاناً^(١) الناس، فقالوا قصرت الصلاة، ورجل يدعو النبي ﷺ ذا اليمين، فقال: أنسيت أم قصرت الصلاة؟ فقال: لم أنس، ولم تقصر، فقال: بلى قد نسيت، فصلى ركعتين ثم سلم فكبر فسجد مثل سجوده أو أطول ثم رفع رأسه وكبر، ثم وضع رأسه فكبر وسجد، فسجد مثل سجوده أو أطول ثم رفع رأسه وكبر.

وعن ابن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ صلى العصر فسلم من ثلاث ركعات ثم دخل منزله فقام إليه رجل يقال له الخرباق، وكان في يديه طول، فقال: يا رسول الله، فذكر صنيعه

(١) هم أوائل الناس خروجاً، وهم أصحاب الحاجات غالباً.

وخرج غضبان يجرد رداءه حتى انتهى إلى الناس، فقال: أصدق هذا؟ قالوا: نعم، فصلى ركعة ثم سلم ثم سجد سجدة ثم سلم. رواه مسلم وهو من أفراد لم يروه البخاري. ورواه أحمد وأبو داود.

و«الخرباق» بكسر الخاء المعجمة، وسكون الراء، بعدها موحدة، وآخره قاف، هو اسم ذي اليدين، كما ذهب إليه الأكثر، وطول يديه يمكن أن يحمل على الحقيقة، أو كناية عن طولهما بالعمل أو البذل.

قال الحافظ ابن حجر: الظاهر في نظري توحد حديث أبي هريرة، وإن كان قد جنح ابن خزيمة ومن تبعه / إلى تعدد هذه القصة، والحامل لهم على ذلك الخلاف الواقع في السياقين، ففي حديث أبي هريرة أن السلام وقع من اثنتين، وأنه ﷺ قام إلى خشبة في المسجد، وفي حديث عمران هذا: أنه سلم من ثلاث، وأنه دخل منزله لما فرغ من الصلاة. فأما الأول فقد حكى كيكلي العلاءي أن بعض شيوخه حمله على المراد به أنه سلم في ابتداء الركعة الثالثة، واستبعده، ولكن طريق الجمع يكتفي فيها بأدنى مناسبة، وليس بأبعد من دعوى تعدد القصة، فإنه يلزم منه كون ذي اليدين في كل مرة استفهم النبي ﷺ عن ذلك، واستفهم النبي ﷺ الصحابة عن صحة قوله. وأما الثاني: فلعل الراوي لما رآه تقدم من مكانه إلى جهة الخشبة ظن أنه دخل منزله، لكون الخشبة كانت في جهة منزله، فإن كان كذلك وإلا فرواية أبي هريرة أرجح لموافقة ابن عمر له على سياقه، كما أخرجه الشافعي وأبو داود وابن ماجه وابن خزيمة. انتهى.

وعن معاوية بن حُديج - بضم الحاء المهملة آخره جيم - أن رسول الله ﷺ صلى يوماً فانصرف وقد بقي من الصلاة ركعة، فأدركه رجل فقال: نسيت من الصلاة ركعة؟ فرجع فدخل المسجد، فأمر

بلاياً فأقام الصلاة فصلى بالناس ركعة، فأخبرت بذلك الناس، فقالوا: أو تعرف الرجل؟ قلت: لا، إلا أن أراه، فمر بي فقلت: هو هذا، فقالوا: هذا طلحة بن عبيد الله. رواه أبو داود والبيهقي في سننهما، وابن خزيمة في صحيحه، وعين الصلاة المغرب.

وقال ابن خزيمة: وهذه القصة غير قصة ذي اليمين، لأن المعلم للنبي ﷺ في هذه القصة طلحة بن عبيد الله، ومخبره في تلك القصة ذو اليمين، والسهو منه ﷺ في قصة ذي اليمين إنما كان في الظهر أو العصر، وفي هذه القصة إنما كان السهو في المغرب لا في الظهر ولا في العصر.

وعن محمد بن سيرين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من اثنتين، فقال له ذو اليمين: أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟ فقال رسول ﷺ: أصدق ذو اليمين؟ فقال الناس: نعم، فقام ﷺ فصلى اثنتين أخريين ثم سلم، ثم كبر فسجد مثل سجوده أو أطول، ثم رفع ثم كبر فسجد مثل سجوده للصلاة أو أطول، ثم رفع.

وفي رواية سلمة بن علقمة، قلت لمحمد - يعني ابن سيرين - في سجدتي السهو تشهد؟ فقال: ليس في حديث أبي هريرة. رواه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود والترمذي والنسائي.

قال الحافظ ابن حجر: لم يقع في غير هذه الرواية لفظ «القيام» وقد استشكل بأنه ﷺ كان قائماً.

وأجيب: بأن المراد بقوله: «فقام» أي اعتدل، لأنه كان مستنداً إلى الخشبة كما مر.

وقد يفهم من قول محمد بن سيرين عن التشهد: «ليس في حديث أبي هريرة» أنه ورد في حديث غيره. وهو كذلك: فقد رواه أبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم من طريق أشعث بن عبد الملك عن محمد بن سيرين عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن أبي المهلب عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ صلى بهم، فسها فسجد سجديتين ثم تشهد ثم سلم. قال الترمذي: حسن غريب، وقال الحاكم صحيح على شرطهما. وقال ابن حبان: ما روى ابن سيرين عن خالد غير هذا الحديث، وضعفه البيهقي وابن عبد البر وغيرهما. ووهما رواية أشعث لمخالفته غيره من الحفاظ عن ابن سيرين، فرواية أشعث شاذة.

لكن قد ورد في التشهد في سجود السهو عن ابن مسعود عند أبي داود والنسائي، وعن المغيرة عند البيهقي، وفي إسنادهما ضعف.

فقد يقال إن الأحاديث الثلاثة في التشهد باجتماعها ترتقي إلى درجة الحسن، قال العلائي: وليس ذلك بعيد، وقد صح ذلك عن ابن مسعود من قوله. أخرجه ابن / أبي شيبة. انتهى ملخصاً من فتح ٣٤٠/ب الباري.

وفي رواية أبي سفيان عن أبي هريرة عند مسلم: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة العصر، فسلم في ركعتين^(١)، فقام ذو اليمين فقال: أقصرت الصلاة يا رسول الله أم نسيت، فقال رسول الله ﷺ: كل ذلك لم يكن، فقال: قد كان بعض ذلك يا رسول الله.

وفي رواية أبي داود من طريق حماد بن زيد عن هشام بن حسان

(١) كذا نص مسلم رقم الحديث ٩٩ من كتاب المساجد. وفي المخطوطات: سقط ذكر صلاة العصر، وفي ط: فسلم من ركعتين صلاة العصر، وفي ش فسلم من ركعتين.

عن ابن سيرين عن أبي هريرة في هذا الحديث قال: فكبر ثم كبر
وسجد للسهو.

وهذا يؤيد من قال لا بد من تكبيرة الإحرام في سجود السهو
بعد السلام، والجمهور على الاكتفاء بتكبيرة السجود، وهو ظاهر غالب
الأحاديث.

وقال أبو داود: لم يقل أحد: «كبر ثم كبر» إلا حماد بن زيد،
فأشار إلى شذوذ هذه الزيادة. ويحتمل أن تكون الخشبة المذكورة في
هذا الحديث الجذع الذي كان ﷺ يستند إليه قبل اتخاذ المنبر.

وإنما وقع الاستفهام «هل قصرت الصلاة؟» لأن الزمان كان
زمان النسخ.

وقوله: «فقال: لم أنس ولم تقصر» صريح في نفي النسيان ونفي
القصر. وفيه تفسير للمراد بقوله في رواية أبي سفيان المتقدمة «كل ذلك
لم يكن»، وتأييد لما قاله أصحاب المعاني بأن لفظة «كل» إذا تقدمت
وعقبها النفي كان نفياً لكل فرد لا للمجموع، بخلاف ما إذا
تأخرت، كأن يقول: لم يكن كل ذلك، ولهذا أجاب ذو اليمين في
رواية أبي سفيان بقوله: قد كان بعض ذلك، وأجابه في هذه الرواية
بقوله: «بلى قد نسيت» لأنه لما نفي الأمرين وكان مقرراً عند الصحابة
أن السهو غير جائز عليه في الأمور البلاغية جزم بوقوع النسيان لا
القصر.

وهو حجة لمن قال إن السهو جائز على الأنبياء عليهم الصلاة
والسلام فيما طريقه التشريع. قال ابن دقيق العيد: وهو قول عامة
العلماء والنظار، وشذت طائفة فقالوا: لا يجوز على النبي السهو، وهذا
الحديث يرد عليهم - يعني حديث ابن مسعود - فإن فيه «إنما أنا بشر

مثلكم أنسى كما تنسون»^(١). وإن كان القاضي عياض نقل الإجماع على عدم جواز دخول السهو في الأقوال التبليغية، وخص الخلاف بالأفعال. لكنهم تعقبوه.

نعم اتفق من جوز ذلك على أنه لا يقر عليه، بل يقع له بيان ذلك، إما متصلاً بالفعل أو بعده، كما وقع في هذا الحديث من قوله: «لم أنس ولم تقصر» ثم تبين أنه نسي.

ومعنى قوله: «لم أنس» أي في اعتقادي، لا في نفس الأمر، ويستفاد منه: أن الاعتقاد عند فقد اليقين يقوم مقام اليقين، وفائدة السهو في مثل ذلك بيان الحكم الشرعي إذا وقع مثله لغيره.

وأما من منع السهو مطلقاً، فأجابوا عن هذا الحديث بأجوبة:

ف قيل: قوله «لم أنس» نفي للنسيان، ولا يلزم منه نفي السهو، وهذا قول من فرق بينهما، وقد تقدم تضعيفه، ويكفي فيه قوله في هذه الرواية: «بلى قد نسيت» وأقره على ذلك.

وقيل: قوله: «لم أنس» على ظاهره وحقيقته، وكان يتعمد ما يقع منه من ذلك ليقع التشريع منه بالفعل، لكونه أبلغ من القول.

وتعقب: بحديث ابن مسعود عند البخاري ومسلم بلفظ «صلى رسول الله ﷺ فزاد أو نقص، شك بعض الرواة، والصحيح أنه زاد، فلما سلم قيل له: يا رسول الله أحدث في الصلاة شيء؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: صليت كذا وكذا، قالوا فثنى رجله واستقبل القبلة وسجد سجدتين ثم سلم، فلما أقبل علينا بوجهه قال: إنه لو حدث

(١) من قوله: قال ابن دقيق العيد.. إلى هنا سقط من الأصل.

في الصلاة شيء لبأتكم به، ولكن إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون. فإذا نسيت فذكروني، وإذا شك أحدكم في صلاته فليتحجر الصواب، فليتم عليه ثم يسلم، ثم يسجد سجدتين.

ففيه: إثبات العلة قبل الحكم، بقوله: «إنما أنا بشر مثلكم» ولم يكتف بإثبات وصف النسيان له، حتى دفع قول من عساه يقول: ليس نسيانه كنسياننا فقال: «كما تنسون».

وبهذا الحديث أيضاً يرد قول من قال «معنى قوله لم أنس» إنكار اللفظ الذي نفاه عن نفسه حيث قال: «لا أنسى ولكن أنسى لأسن» وإنكار للفظ الذي أنكره على غيره حيث قال: بثسما لأحدكما أن يقول نسيت آية كذا وكذا^(١).

وقد تعقبوا هذا أيضاً بأن حديث «لا أنسى» لا أصل له، فإنه من بلاغات مالك التي لم توجد موصولة بعد البحث / الشديد، وهي أربعة، قاله ابن عبد البر. وأما الآخر فلا يلزم من ذم إضافة نسيان الآية ذم إضافة نسيان كل شيء، فإن الفرق بينهما واضح جداً.

وقيل: إن قوله «لم أنس» راجع إلى السلام، أي سلمت قصداً بانياً على اعتقادي أي صليت أربعاً، وهذا جيد، وكأن ذا اليمين فهم العموم فقال: «بلى قد نسيت»، وكأن هذا القول أوقع شكاً احتاج معه إلى استثبات الحاضرين.

وبهذا التقرير يندفع إيراد من استشكل كون ذي اليمين عدلاً ولم يقبل خبره بمفرده، فسبب التوقف فيه كونه أخبر عن أمر يتعلق بفعل

(١) هو في الصحيحين بلفظ قريب. رقمه في البخاري ٥٠٣٢ و ٥٠٣٩ وعند مسلم برقم ٢٣٠ من كتاب صلاة المسافرين.

المسؤول مغيراً^(١) لما في اعتقاده.

وبهذا يجاب من قال: إن من أخبر بأمر حسي بحضرة جمع لا يخفى عليهم ولا يجوز عليهم التواطؤ، ولا حامل لهم على السكوت، ثم لم يكذبوه أنه لا يقطع بصدقه، فإن سبب عدم القطع كون خبره معارضاً باعتقاد المسؤول خلاف ما أخبر به.

وفيه: أن الثقة إذا انفرد بزيادة خبر وكان المجلس متحداً، وامتنع في العادة غفلتهم عن ذلك أنه لا يقبل خبره.

وفيه: جواز البناء على الصلاة لمن أتى بالمنافي سهواً. وقال سحنون: إنما يبني من سلم من ركعتين كما في قصة ذي اليمين، لأن ذلك وقع على غير القياس، فيقتصر فيه على مورد النص. وألزم بقصر ذلك على إحدى صلاتي العشي، فيمنعه مثلاً في الصبح، والذين قالوا بجواز البناء مطلقاً قيدوه بما إذا لم يطل الفصل.

وفيه: أن الكلام سهواً لا يقطع الصلاة، خلافاً للحنفية، واستدل به على أن تعمد الكلام لمصلحة الصلاة لا يبطلها.

وتعقب: بأنه ﷺ لم يتكلم إلا ناسياً، وأما قول ذي اليمين له: «بلى قد نسيت» وقول الصحابة له: «صدق ذو اليمين» فإنهم تكلموا معتقدين للنسخ في وقت يمكن وقوعه، فتكلموا ظناً أنهم ليسوا في صلاة.

كذا قيل، وهو فاسد، لأنهم تكلموا بعد قوله ﷺ: لم تقصر. وأجيب: بأنهم لم ينطقوا، وإنما أومؤوا، كما عند أبي داود في

(١) كذا في النسخ حيث نصبها على الحال. وفي ش «مغاير» وصفا لأمر. [م].

رواية ساق مسلم إسنادها، وهذا اعتمده الخطابي، وقال: حمل القول على الإشارة مجاز سائغ، بخلاف عكسه، فينبغي رد الروايات التي فيها التصريح بالقول إلى هذه الرواية، وهو قوي، أقوى من قول غيره: يحمل على أن بعضهم قال بالنطق وبعضهم قال بالإشارة. لكن يبقى قول ذي اليمين: «بلى قد نسيت».

ويجاب عنه وعن البقية على تقدير ترجيح أنهم نطقوا: بأن كلامهم كان جواباً للنبي ﷺ، وجوابه لا يقطع الصلاة.

وتعقب: بأنه لا يلزم من وجوب الإجابة عدم قطع الصلاة.

وأجيب: بأنه ثبتت مخاطبته في التشهد، وهو حي، بقولهم: السلام عليك أيها النبي، ولم تفسد الصلاة، والظاهر: أن ذلك من خصائصه.

وعن عبد الله أن رسول الله ﷺ صلى الظهر خمساً، فقيل له: أزيد في الصلاة؟ فقال: وما ذاك؟ قالوا: صليت خمساً، فسجد سجدتين بعدما سلم. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي بهذا اللفظ، إلا أن مسلماً لم يقل فيه: «بعدهما سلم» وعبد الله هذا هو ابن مسعود.

[آراء المذاهب في السجود بعد التسليم]

ففي هذه الأحاديث السجود بعد السلام. وقد اختلف في ذلك:

فقال مالك والمزني، وأبو ثور - من الشافعية - بالترفة إذا كان السهو بالنقصان أو بالزيادة، في الأول يسجد قبل السلام، وفي الزيادة يسجد بعده. وزعم ابن عبد البر أنه أولى من قول غيره، للجمع بين

الخبرين، قال: وهو موافق للنظر، لأنه في النقص جبر، فينبغي أن يكون من أصل الصلاة، وفي الزيادة ترغيم للشيطان، فيكون خارجها.

وقال ابن دقيق العيد: لا شك أن الجمع أولى من الترجيح وادعاء النسخ، ويترجح الجمع المذكور بالمناسبة المذكورة، وإذا كانت المناسبة ظاهرة وكان الحكم على وفقها فيعم الحكم جميع محالها فلا يتخصص إلا بنص.

ب/٣٤١ / وتعقب بأن كون السجود في الزيادة ترغيباً للشيطان فقط ممنوع، بل هو جبر أيضاً لما وقع من الخلل، فإنه وإن كان زيادة فهو نقص في المعنى.

وقال الخطابي: لم يرجع من فرق بين الزيادة والنقصان إلى فرق صحيح. وأيضاً فقصه ذي اليمين وقع فيها السجود بعد السلام وهي عن نقصان.

وأما قول النووي: أقوى المذاهب قول مالك ثم أحمد، فقد قال غيره: بل طريق أحمد أقوى، لأنه قال: يستعمل كل حديث فيما يرد فيه، وما لم يرد فيه شيء يسجد قبل السلام، قال: ولولا ما روي عن النبي ﷺ في ذلك لرأيت كله قبل السلام، لأنه من شأن الصلاة فيفعل قبل التسليم.

وعند إمامنا الشافعي: سجود السهو كله قبل السلام.

وعند الحنفية: كله بعد السلام، واعتمد الحنفية على حديث ابن مسعود هذا.

وتعقب: بأنه لم يعلم بزيادة الركعة إلا بعد السلام حين سأله:

هل زيد في الصلاة، وقد اتفق العلماء في هذه الصورة على أن سجود السهو بعد السلام لتعذره قبله، لعدم علمه بالسهو، وإنما تابعه الصحابة لتجويزهم الزيادة في الصلاة، لأنه كان زمان توقع النسخ.

وأجاب بعضهم: بما وقع في حديث ابن مسعود من الزيادة. وهي: «إذا شك أحدكم في صلاته فليتحرك الصواب، فليتم عليه ثم يسلم، ثم يسجد سجدتين».

وأجيب: بأنه معارض بحديث أبي سعيد عند مسلم، ولفظه: «إذا شك أحدكم في صلاته فلم يدر كم صلى، فليطرح الشك وليبن على ما استيقن، ثم يسجد سجدتين قبل أن يسلم». وبه تمسك الشافعية.

وجمع بعضهم بينهما بحمل الصورتين على حالتين، ورجح البيهقي طريقة التخيير في سجود السهو قبل السلام أو بعده. ونقل الماوردي الإجماع على الجواز، وإنما الخلاف في الأفضل، وكذا أطلق النووي.

وتعقب: بأن إمام الحرمين نقل في «النهاية» الخلاف في الإجزاء عن المذهب: واستبعد القول بالجواز.

ويمكن أن يقال: الإجماع الذي نقله الماوردي والنووي قبل هذه الآراء في المذاهب المذكورة والله أعلم. قاله الحافظ ابن حجر رحمه الله.

ولو سها سهوين فأكثر، كفاه عند الشافعي ومالك وأبي حنيفة وأحمد سجدتان للجميع. والجمهور: أنه يسجد للسهو في التطوع كالفرض.

الفصل الخامس

فيما كان ﷺ يقول بعد انصرافه من الصلاة
وجلوسه بعدها وسرعة انفتاله بعدها

[ما يسن عقب الصلاة]

عن ثوبان: كان النبي ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً
وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال
والإكرام. رواه مسلم.

ولم يمكث مستقبل القبلة إلا مقدار ما يقول ذلك.

وقد ثبت أنه ﷺ كان إذا صلى أقبل على أصحابه^(١).

فيحمل ما ورد من الدعاء بعد الصلاة على أنه كان يقول بعد
أن يقبل على أصحابه بوجهه الشريف، فقد كان ﷺ يسرع الانفتال
إلى المأمومين، وكان يفتل عن يمينه وعن شماله.

وقال ابن مسعود: رأيت ﷺ كثيراً ينصرف عن يساره، رواه
الشيخان.

وقال أنس: أكثر ما رأيت ﷺ ينصرف عن يمينه. رواه مسلم.

وقالت أم سلمة: كان إذا سلم مكث في مكانه يسيراً، قالت: ففري
-والله أعلم- لكي ينصرف النساء قبل أن يدركهن الرجال. رواه البخاري.

(١) روى البخاري وغيره عن سمرة: كان ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه.

[الدعاء بعد الصلاة]

وقالت عائشة: كان لم يقعد إلا بمقدار ما يقول: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام. رواه مسلم.
وهذا الحديث يتمسك به من قال إن الدعاء بعد الصلاة لا يشرع.

والجواب: إن المراد بالنفي المذكور نفي استمراره ﷺ جالساً على هيئته قبل السلام إلا بمقدار أن يقول ما ذكر.

وكان يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد. رواه / الشيخان من حديث المغيرة بن شعبة. ١/٣٤٢

وكان يقول بأعلى صوته: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن الجميل، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، رواه مسلم من حديث عبد الله بن الزبير.

وعن سعد أنه كان يعلم بنيه هؤلاء الكلمات ويقول: إن رسول الله ﷺ كان يتعوذ بهن دبر الصلوات (اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من البخل، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر) رواه البخاري.

وعن زيد بن أرقم: كان ﷺ يقول دبر كل صلاة: اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أنك الرب وحدك لا شريك لك، اللهم

ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك، اللهم ربنا ورب كل شيء، أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة، اللهم ربنا ورب كل شيء، اجعلني مخلصاً لك وأهلي في كل ساعة من الدنيا والآخرة، يا ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب، الله أكبر الله أكبر، الله نور السماوات والأرض، الله أكبر حسبي الله ونعم الوكيل، الله أكبر الله أكبر. رواه أبو داود وأحمد.

[رأي ابن القيم في الدعاء بعد الصلاة]

ورأيت في كتاب «الهدى» لابن القيم: وأما الدعاء بعد السلام من الصلاة مستقبل القبلة، سواء للمنفرد والإمام والمأموم، فلم يكن ذلك من هدي النبي ﷺ أصلاً، ولا روي عنه بإسناد صحيح، ولا حسن، وخصص بعضهم بصلاتي الفجر والعصر، ولم يفعله النبي ﷺ ولا الخلفاء بعده، ولا أرشد إليه أمته، وإنما هو استحسان رآه من رآه عوضاً عن السنة بعدهما.

قال: وغاية الأدعية المتعلقة بالصلاة إنما فعلها فيها، وأمر بها فيها، قال: وهذا هو الأليق بحال المصلي، فإنه مقبل على ربه مناجيه، فإذا سلم منها انقطعت المناجاة وانتهى موقفه وقربه، فكيف يترك سؤاله في حال مناجاته والقرب منه وهو مقبل عليه، ثم يسأل إذا انصرف عنه.

ثم قال: لكن الأذكار الواردة بعد المكتوبة يستحب لمن أتى بها أن يصلي على النبي ﷺ بعد أن يفرغ منها، ويدعو بما شاء ويكون دعاؤه عقب هذه العبادة الثانية، وهي الذكر الوارد بعد المكتوبة، لا لكونه دبر المكتوبة، انتهى.

[مناقشة ابن القيم]

وقد كان في خاطري من دعواه «النفى مطلقاً» شيء لما سيأتي، ثم رأيت شيخ مشايخنا إمام الحفاظ أبا الفضل ابن حجر تعقبه فقال: وما ادعاه من النفى مطلقاً مردود، فقد ثبت عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال له: يا معاذ والله إني لأحبك، فلا تدع دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك. أخرجه أبو داود والنسائي.

وحدِيث زيد بن أرقم: سمعته ﷺ يدعو في دبر الصلاة: اللهم ربنا ورب كل شيء.. أخرجه أبو داود والنسائي.

وحدِيث صهيب رفعه: كان يقول إذا انصرف من الصلاة: اللهم أصلح لي ديني.. أخرجه النسائي وصححه ابن حبان. وغير ذلك.

ثم قال: فإن قيل: المراد بدبر الصلاة قرب آخرها وهو التشهد، قلنا: قد ورد الأمر بالذكر بدبر الصلاة، والمراد به السلام إجماعاً، فكذا هذا حتى يثبت ما يخالفه، وقد أخرج الترمذي من حدِيث أمامة: قيل يا رسول الله أي الدعاء أسمع؟ قال: جوف الليل الأخير ودبر الصلوات المكتوبات، وقال: حسن، وأخرج الطبراني من رواية جعفر بن محمد الصادق قال: الدعاء بعد المكتوبة أفضل من الدعاء بعد النافلة، كفضل المكتوبة على النافلة.

قال: وفهم كثير من الحنابلة أن مراد ابن القيم نفى الدعاء بعد الصلاة مطلقاً، وليس كذلك، فإن حاصل كلامه أنه نفاه بقاء بقيد استمرار استقبال / المصلي القبلة، وإيراده عقب السلام، وأما إذا

ب/٣٤٢

انفتل بوجهه أو قدم الأذكار المشروعة فلا يمتنع عنده الإتيان بالدعاء حينئذ . انتهى .

[من أحكام الإمامة]

وكان ﷺ حين تقام الصلاة في المسجد إذا رآهم قليلاً جلس، وإذا رآهم جماعة صلى . رواه أبو داود .

وقال أبو مسعود البدرى : كان ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول : استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، ليلني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم . رواه مسلم .

وقال ابن عباس : قام رسول الله ﷺ يصلي فقامت عن يساره ، فأخذ بيدي من وراء ظهره فعدلني^(١) كذلك من وراء ظهره إلى الشق الأيمن . رواه البخاري ومسلم .

[الاعتداء بالإمام الجالس]

قال أنس : سقط ﷺ عن فرس ، فَجَحَشَ^(٢) شقه الأيمن ، فدخلنا عليه نعوده ، فحضرت الصلاة فصلى بنا قاعداً ، فصلينا وراءه قعوداً ، فلما قضى الصلاة قال : إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا ركع فاركعوا ، حتى قال : وإذا صلى قاعداً فصلوا قعوداً أجمعون^(٣) . زاد بعض الرواة : وإذا صلى قائماً فصلوا قياماً . رواه البخاري ومسلم .

قال الحميدي : ومعاني سائر الروايات متقاربة وزاد البخاري^(٤) :

-
- (١) كذا في المخطوطات . وفي (ط ، ش) : يعدلني .
 - (٢) أي : خدش ، وقيل هو فوق الخدش .
 - (٣) كذا في (ط ، ش) قال الشارح : بالواو في جميع طرق حديث أنس . وفي المخطوطات : أجمعين .
 - (٤) أي نقلاً عن شيخه الحميدي المذكور .

قوله: «وإذا صلى جالساً فصلوا جلوساً» هو في مرضه القديم. وقد صلى في مرضه الذي مات فيه جالساً والناس خلفه قياماً^(١) لم يأمرهم بالقعود، وإنما يؤخذ بالآخر فالآخر من أمره ﷺ انتهى.

وقال الشافعي وأبو حنيفة وجمهور السلف: لا يجوز للقادر على القيام أن يصلي خلف القاعد إلا قائماً، واحتجوا بأنه ﷺ صلى في مرض موته بعد هذا قاعداً، وأبو بكر والناس خلفه قياماً. وإن كان بعض العلماء زعم أن أبا بكر رضي الله عنه كان هو الإمام، والنبي ﷺ مقتد به، لكن الصواب أن النبي ﷺ كان هو الإمام.

(١) بالنصب على الحال.

الباب الثاني

في ذكر صلاته ﷺ الجمعة

[فضل يوم الجمعة]

عن أنس بن مالك قال: أتى جبريل النبي ﷺ بمراة بيضاء فيها نكتة^(١) سوداء، فقال النبي ﷺ ما هذا؟ فقال: هذه الجمعة فضلت بها أنت وأمتك، الناس لكم فيها تبع - اليهود والنصارى - ولكم فيها خير، ولكم فيها ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجيب^(٢) له، وهو عندنا يوم المزيدي، فقال النبي ﷺ يا جبريل: وما يوم المزيدي؟ فقال: إن ربك اتخذ في الفردوس وادياً أفيح^(٣) فيه كثيب من مسك، فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله ما شاء من ملائكته، وحوله^(٤) منابر من نور عليها مقاعد النبيين، وحفت تلك المنابر بمنابر من ذهب مكللة بالياقوت والزمرد عليها الشهداء والصديقون، فجلسوا من ورائهم على تلك الكثب^(٥)، فيقول الله تعالى: أنا ربكم، قد صدقتكم وعدي، فسلوني أعطكم، فيقولون: ربنا نسألك رضوانك، فيقول: قد رضيت عنكم، ولكم ما تمنيتم ولدي مزيدي، فهم يحبون

(١) كذا في النسخ والذي في مسند الشافعي: وكته، وهي النقطة في الشيء. كما قال الشارح.

(٢) في (ط، د): استجاب.

(٣) أي واسعاً.

(٤) الضمير يعود إلى الكثيب.

(٥) قال الشارح: كذا في النسخ، والذي في المسند: على ذلك الكثيب.

يوم الجمعة لما يعطيهم ربهم فيه من الخير، وفيه استوى ربك على العرش. رواه الشافعي في مسنده.

وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة.

وروى البيهقي في الدعوات من حديث أنس: كان ﷺ إذا دخل رجب قال: اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان، وكان يقول ليلة الجمعة: ليل أغر ويوم الجمعة يوم أزهراً^(١).

وليوم الجمعة من الخواص ما يبلغ العشرين، ذكرها ابن القيم في «الهدى النبوي» لا أطيل بذكرها سيما وليس من غرضي.

وهو أفضل أيام الأسبوع، كما أن يوم عرفة أفضل أيام العام، وكذلك ليلة القدر وليلة الجمعة، ولهذا كان لوقفه الجمعة يوم عرفة / مزية على سائر الأيام.

وقال أبو أمامة بن النقاش: يوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع، ويوم النحر أفضل أيام العام، قال: وغير هذا لا يسلم قائله من اعتراض يعجز عن دفعه. انتهى.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا تبع: اليهود غداً، والنصارى بعد غد، رواه البخاري.

(١) ضعفه البيهقي ثم النووي وغيرهما. فمن قال: لم يصح في فضل رجب غيره لم يصب.

وفي رواية ابن عيينة عن أبي الزناد عند مسلم: نحن الآخرون
ونحن السابقون. أي الآخرون زماناً، والأولون منزلة.

والمراد باليوم: يوم الجمعة.

وقوله: «بيد» - بفتح الباء الموحدة، وأسكان المثناة من تحت وفتح
الذال المهملة - أي: غير.

وإذا عرف هذا، فقولته تعالى: ﴿إِنَّمَا جَعَلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ
اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾^(١) أي على نبيهم موسى حيث أمرهم بالجمعة فاخترتوا
السبت، فاختلفهم في السبت كان اختلافاً على نبيهم في ذلك اليوم
لأجله.

فإن قيل: هل في العقل وجه يدل على أن يوم الجمعة أفضل
من يوم السبت والأحد، وذلك لأن أهل الملل اتفقوا على أنه تعالى
خلق العالم في ستة أيام، وبدأ الخلق والتكوين في يوم الأحد، وتم يوم
الجمعة، فكان الفراغ يوم السبت، فقالت اليهود: نحن نوافق ربنا في
ترك الأعمال، فعينوا السبت لهذا المعنى، وقالت النصارى: مبدأ الخلق
والتكوين يوم الأحد، فنجعل هذا عيداً لنا، فهذان اليومان معقولان،
فما الوجه في جعل يوم الجمعة عيداً؟

فالجواب: إن يوم الجمعة هو يوم الكمال والتمام، وحصول
الكمال والتمام يوجب الفرح الكامل والسرور العظيم، فجعل يوم
الجمعة يوم العيد أولى من هذا الوجه والله أعلم^(٢).

(١) سورة النحل، الآية ١٢٤.

(٢) قال البيضاوي: لأن الله تعالى خلق الإنسان للعبادة، وكان خلقه يوم
الجمعة، فالعبادة فيه أولى، ولأنه تعالى خلق في سائر الأيام ما ينتفع به
الإنسان وفي يوم الجمعة أوجد الإنسان نفسه، والشكر على نعمة الوجود أهم.

قال ابن بطال: وليس المراد في الحديث أنه فرض عليهم يوم الجمعة بعينه فتركوه، لأنه لا يجوز لأحد أن يترك ما فرض الله تعالى عليه وهو مؤمن، وإنما يدل - والله أعلم - أنه فرض عليهم يوم الجمعة، ووكّل إلى اختيارهم ليقوموا فيه بشريعتهم فاختلفوا فيه ولم يهتدوا ليوم الجمعة.

كذا قال، لكن قد روى ابن أبي حاتم عن السدي التصريح بأنه فرض عليهم يوم الجمعة بعينه، فأبوا، ولفظه: «إن الله تعالى فرض على اليهود الجمعة فأبوا، وقالوا: يا موسى اجعل لنا يوم السبت فجعل عليهم». وليس ذلك بعجيب من مخالفتهم، كما وقع لهم في قوله تعالى: ﴿ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة﴾^(١) وهم القائلون ﴿سمعنا وعصينا﴾^(٢).

ويحتمل قوله «فهدانا الله له» بأن نص لنا عليه، وأن يراد الهداية إليه بالاجتهاد، ويشهد للثاني ما رواه عبد الرزاق بإسناد صحيح عن محمد بن سيرين قال: جمع أهل المدينة قبل أن يقدمها رسول الله ﷺ وقبل أن تنزل الجمعة، فقالت الأنصار: إن لليهود يوماً يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك، فهلم فلنجعل لنا يوماً نجتمع فيه نذكر الله تعالى ونصلي ونشكره، فجعلوه يوم العروبة. واجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ، وأنزل الله تعالى بعد ذلك ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة﴾^(٣). وهذا وإن كان مرسلًا فله شاهد بإسناد حسن أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه وصححه ابن خزيمة من حديث كعب بن مالك قال: كان أول من صلى بنا الجمعة قبل مقدم

(١) سورة البقرة، الآية ٥٨.

(٢) سورة البقرة، الآية ٩٣.

(٣) سورة الجمعة، الآية ٩.

رسول الله ﷺ المدينة أسعد بن زرارة.

فمرسل ابن سيرين يدل على أن أولئك الصحابة اختاروا يوم الجمعة بالاجتهاد، ولا يمنع ذلك أن النبي ﷺ علمه بالوحي وهو بمكة، فلم يتمكن من إقامتها ثم، ولذلك جمع بهم أول ما قدم / ٣٤٣ ب / المدينة. انتهى .

[وقت صلاة الجمعة]

وقال ابن إسحاق: لما قدم ﷺ المدينة أقام بقاء، في بني عمرو ابن عوف، يوم الإثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس، وأسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة، فأدركته الجمعة في بني سالم، فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة وذلك قبل تأسيس مسجده^(١).

وكان ﷺ يصلي الجمعة حين تميل الشمس. رواه البخاري من حديث أنس، وفي رواية: إذا اشتد البرد بكر بالصلاة، وإذا اشتد الحر أبرد بالصلاة - يعني الجمعة - وفي رواية سهل بن سعد عند البخاري ومسلم: كنا نصلي معه ﷺ الجمعة ونقبل بعد الجمعة.

[حكم خطبة الجمعة]

ثم اعلم أن الخطبة شرط في انعقاد الجمعة، لا تصح إلا بها، وقال سعيد بن جبير: هي بمنزلة الركعتين من صلاة الظهر، فإذا تركها وصلى الجمعة فقد ترك ركعتين من صلاة الظهر.

(١) لم أفرد لهذه الفقرة عنواناً خاصاً لأنها ستكرر بعد قليل. [م].

[الأذان لصلاة الجمعة]

ولم يكن يؤذن في زمانه ﷺ على المنار^(١)، وبين يديه^(٢)، وإنما كان بلال يؤذن وحده بين يديه ﷺ إذا جلس على المنبر، كما صرح به أئمة الحنفية والمالكية والشافعية وغيرهم.

وعبارة البرهان المرغيناني من الحنفية في هدايته: وإذا صعد الإمام المنبر جلس، وأذن المؤذن بين يدي المنبر، بذلك جرى التوارث، ولم يكن على عهد رسول الله ﷺ إلا هذا الأذان.

وعبارة ابن الحاجب من المالكية: ويحرم السعي عند آذان جلوس الخطبة، وهو المعهود، فلما كان عثمان وكثروا أمر بأذان قبله على الزوراء، ثم نقله هشام إلى المسجد، وجعل الآخر بين يديه. انتهى. ونحوه قال ابن عبد الحق في «تهذيب الطالب».

وأما قول ابن أبي زيد في رسالته: وهذا الأذان الثاني أحدثه بنو أمية. فقال شارحوه - الفاكهاني وغيره -: يعني الأذان الثاني في الإحداث وهو الأول في الفعل، قال: وكان بعض شيوخنا يقول: الأول هو الثاني، والثاني هو الأول ومنشؤه ما تقدم. انتهى.

وعبارة الزركشي - كغيره من الشافعية -: ويجلس الإمام على المستراح يستريح من تعب الصعود، ثم يؤذن المؤذن بعد جلوسه، فإن التأذين كان حين يجلس رسول الله ﷺ، ولم يكن قبله أذان، فلما كان زمن عثمان وكثر الناس، أمرهم بالتأذين ثانياً، ثم يديم الجلوس إلى فراغ المؤذن، انتهى.

(١) أي المئذنة.

(٢) المقصود من العبارة نفي الجمع بين الأمرين، وإلا فالأمر الثاني كان يفعل

[المحقق].

وعن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان وكثر الناس، زاد النداء الثالث^(١) على الزوراء، رواه البخاري وقال: الزوراء موضع بالسوق بالمدينة.

وفي رواية له أيضاً: أن التأذين الثاني يوم الجمعة أمر به عثمان حين كثر أهل المسجد، وهو يفسر بما فسر به قول ابن أبي زيد السابق^(٢).

وعند ابن خزيمة: كان الأذان على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر أذنين يوم الجمعة. قال ابن خزيمة: قوله «أذنين» يريد: الأذان والإقامة تغليباً أو لاشتراكهما في الإعلام.

وللنسائي: كان بلال يؤذن إذا جلس النبي ﷺ على المنبر، فإذا نزل أقام.

وفي رواية وكيع عن ابن أبي ذئب^(٣): فأمر عثمان بالأذان الأول، ونحوه للإمام الشافعي من هذا الوجه.

قال في فتح الباري: ولا منافاة بينهما، لأنه باعتبار كونه مزيداً يسمى ثالثاً، وباعتبار كونه مقدماً على الأذان والإقامة يسمى أولاً. وأما قوله في رواية البخاري: «إن التأذين الثاني»، فمتوجه بالنظر إلى الأذان الحقيقي لا الإقامة.

وقال الشيخ خليل في «التوضيح»: واختلف النقل: هل كان

(١) هذا على اعتبار «الإقامة» أذانا. [م].

(٢) أي أن الثاني في الإحداث هو الأول بالفعل.

(٣) عند ابن خزيمة.

يؤذن بين يديه ﷺ، أو على المنار؟

الذي نقله أصحابنا أنه كان على المنار، نقله ابن القاسم عن مالك في «المجموعة».

ونقل ابن عبد البر في «كافيه» عن مالك أن الأذان بين يدي الإمام ليس من الأمر القديم.

وقال غيره: هو أصل الأذان في الجمعة، وكذلك نقل صاحب «تهذيب الطالب» والمازري.

وفي «الاستذكار»: إن هذا اشتبه على بعض أصحابنا، فأنكر أن يكون الأذان يوم الجمعة بين يدي / الإمام كان في زمنه ﷺ وأبي بكر وعمر، وأن ذلك حدث في زمن هشام.

قال: وهذا قول من قل علمه، ثم استشهد بحديث السائب بن يزيد المروي في البخاري السابق، ثم قال: وقد رفع الإشكال فيه ابن إسحاق عن الزهري عن السائب بن يزيد قال: كان يؤذن بين يدي النبي ﷺ إذا جلس على المنبر يوم الجمعة وأبي بكر وعمر. انتهى.

والحكمة في جعل الأذان في هذا المحل ليعرف الناس بجلوس الإمام على المنبر فينصتون له إذا خطب. قاله المهلب.

قال في فتح الباري: وفيه نظر، فإن في سياق محمد بن إسحاق عند الطبراني وغيره في هذا الحديث: أن بلائاً كان يؤذن على باب المسجد، فالظاهر أنه كان لمطلق الإعلام لا لخصوص الإنصات.

والذي يظهر أن الناس أخذوا بفعل عثمان في جميع البلاد إذ ذاك، لكونه كان حينئذ خليفة مطاع الأمر، لكن ذكر الفاكهاني أن أول من أحدث الأذان الأول بمكة الحجاج وبالبصرة زياد.

وفي تفسير جوير عن الضحاك عن معاذ: أن عمر أمر مؤذنين أن يؤذنا للناس الجمعة خارج المسجد حتى يسمع الناس، وأمر أن يؤذن بين يديه كما كان في عهد النبي ﷺ وأبي بكر، ثم قال عمر: نحن ابتدعناه لكثرة المسلمين.

وهذا منقطع بين مكحول ومعاذ، ولا يثبت، وقد تواردت الأخبار أن عثمان هو الذي زاده فهو المعتمد.

وقد روى عبد الرزاق ما يقوي هذا الأثر عن ابن جريج قال: قال سليمان بن موسى: أول من زاد الأذان بالمدينة عثمان، فقال عطاء: كلا، إنما كان يدعو الناس ولا يؤذن غير أذان واحد. انتهى.

لكن عطاء لم يدرك عثمان بن عفان، فرواية من أثبت ذلك عنه مقدمة على إنكاره. ويمكن الجمع: بأن الذي كان في زمن عمر بن الخطاب استمر على عهد عثمان، ثم رأى أن يجعله أذاناً وأن يكون على مكان عال، ففعل ذلك، فنسب إليه لكونه بألفاظ الأذان، وترك ما كان يفعله عمر لكونه مجرد إعلام.

وروى ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال: الأذان الأول يوم الجمعة بدعة.

فيحتمل أن يكون قال ذلك على سبيل الإنكار، وأن يكون أراد به: لم يكن في زمنه ﷺ، لأن كل ما لم يكن في زمنه ﷺ يسمى بدعة، لكن منها ما يكون حسناً، ومنها ما يكون غير ذلك. ثم إن فعل عثمان رضي الله عنه كان إجماعاً سكوتياً لأنهم لم ينكروه عليه. انتهى^(١).

(١) عن فتح الباري بتقديم وتأخير ٢/٣٩٣ - ٣٩٥.

[أول جمعة وأول خطبة]

وأول جمعة جمعها النبي ﷺ بأصحابه - كما قدمناه في حديث الهجرة - في بني سالم بن عوف، في بطن وادٍ لهم، فخطبهم وهي أول خطبة خطبها بالمدينة وقال فيها:

الحمد لله أحمده، وأستعينه وأستغفره، وأستهديه وأومن به ولا أكفره، وأعادي من يكفر به، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة والحكمة، على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، وذنوب من الساعة، وقرب من الأجل.

من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً، أوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، واحذروا ما حذرکم الله من نفسه، فإن تقوى الله لمن عمل بها على وجل ومخافة من ربه عون وصدق على ما يبتغون من الآخرة، ومن يصل الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوي به إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره، وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان مما سوف ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدأ بعيداً، ويحذرکم الله نفسه والله رؤوف بالعباد، هو الذي صدق قوله وأنجز وعده لا خلف له / فإنه يقول: ﴿ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد﴾.

ب/٣٤٤

فاتقوا الله في عاجل أمرکم وآجله، في السر والعلانية، فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً

عظيماً، وإن تقوى الله تقوى الله تقوى مقته وتوقي عقوبته وسخطه، وإن تقوى الله تبيض الوجه وترضي الرب، وترفع الدرجة، فخذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله، فقد علمكم كتابه ونهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين.

فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسامكم المسلمين، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيى عن بينة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فأكثرُوا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس، ولا يملكون منه، الله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ذكر هذه الخطبة القرطبي في تفسيره، وغيره.

[من أحكام الخطبة]

وقد كان ﷺ يخطب متوكئاً على قوس أو عصا. وفي سنن ابن ماجه: أنه ﷺ كان إذا خطب في الحرب خطب على قوس، وإذا خطب في الجمعة خطب على عصا، وعند أبي داود بإسناد حسن: أنه ﷺ قام متوكئاً على قوس أو عصا.

قالوا: والحكمة في التوكؤ على نحو السيف، الإشارة إلى أن هذا الدين قام بالسلاح، ولهذا قبضه باليسرى كعادة مريد الجهاد.

ونازع فيه العلامة ابن القيم في «الهدى النبوي» وقال: إن الدين لم يقم إلا بالقرآن والوحي. كذا قاله، والله أعلم^(١).

(١) وقال ابن القيم: لم يحفظ أنه ﷺ توكأ على سيف. وكثير من الجهلة يظن =

وكان ﷺ إذا صعد المنبر سلم. رواه ابن ماجه (١).

وكان ﷺ يخطب قائماً ثم يجلس، ثم يقوم فيخطب قائماً، رواه مسلم من رواية جابر بن سمرة.

وفي رواية له: كانت له ﷺ خطبتان يجلس بينهما، يقرأ القرآن ويذكر الناس.

وفي حديث ابن عمر عند أبي داود: كان ﷺ يخطب خطبتين، كان يجلس إذا صعد المنبر حتى يفرغ المؤذن، ثم يقوم فيخطب، ثم يجلس فلا يتكلم، ثم يقوم فيخطب.

قال ابن المنذر: الذي عليه أهل العلم من علماء الأمصار: الخطبة قائماً.

ونقل غيره عن أبي حنيفة: أن القيام في الخطبة سنة وليس بواجب.

وعن مالك رواية أنه واجب، فإن تركه أساء وصحت الخطبة.

وعن الباقيين: أن القيام شرط، يشترط للقادر كالصلاة، واستدلوا بحديث جابر بن سمرة، وبمواظبته ﷺ على القيام، وبمشروعية الجلوس بين الخطبتين، فلو كان القعود مشروعاً في الخطبتين ما احتيج إلى الفصل بالجلوس. ولأن الذي نقل عنه الجلوس، وهو معاوية، كان معذوراً، فعند ابن أبي شيبة من طريق الشعبي: أن

= أنه كان يمسك السيف على المنبر إشارة إلى قيام الدين به. وهو جهل قبيح..

(١) قال الحافظ: سنده ضعيف جداً، وقال الزيلعي: واه، وقال ابن أبي حاتم: موضوع.

معاوية إنما خطب قاعداً لما كثر شحم بطنه .

واستدل الشافعي لوجوب الجلوس بين الخطبتين بما تقدم، وبمواظبة النبي ﷺ على ذلك، [مع قوله: صلوا كما رأيتموني أصلي]^(١).

وكان ﷺ يقول بعد الثناء: «أما بعد» كما قاله البخاري .

وكان ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: صباحكم ومساكم . ويقول بعثت وأنا والساعة كهاتين، ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة. ثم يقول أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالاً لأهله، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ. رواه مسلم^(٢) والنسائي من حديث جابر.

[من أقواله ﷺ في خطبه]

وفي رواية^(٣): كانت خطبته ﷺ يوم الجمعة: يحمد الله ويثني عليه، ثم يقول على أثر ذلك، وقد علا صوته، وذكر نحوه .

وفي أخرى^(٤): كان يخطب الناس يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول: من يهد^(٥) الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي

(١) في (ط، ش) وليست في المخطوطات .

(٢) رواه مسلم في كتاب الجمعة برقم ٤٣ .

(٣) في مسلم .

(٤) عند مسلم أيضاً .

(٥) الذي في مسلم (يهد) الحديث رقم ٤٥ من كتاب الجمعة .

له، وخير الحديث كتاب الله. ثم ذكر نحو ما تقدم.

أ/٣٤٥ وعن / أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت: ما أخذت ﴿ق والقرآن المجيد﴾ إلا عن رسول الله ﷺ يقرأها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس. رواه مسلم.

وعن الحكم بن حزن الكلفي قال: قدمت إلى النبي ﷺ سابع سبعة، أو تاسع تسعة، فلبثنا عنده أياماً، شهدنا فيها الجمعة، فقام رسول الله ﷺ متوكئاً على قوس، أو قال: عصا، فحمد الله وأثنى عليه، كلمات خفيفات طيبات مباركات، ثم قال: يا أيها الناس، إنكم لن تفعلوا أو لن تطيقوا كل ما أمرتكم به، ولكن سدّدوا وأبشروا. رواه أحمد ومسلم.

وعن يعلى بن أمية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك﴾^(١). رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي الدرداء قال: خطبنا رسول الله ﷺ يوم الجمعة فقال: توبوا إلى الله قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشتغلوا، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم تسعدوا، وأكثروا الصدقة ترزقوا، وأمروا بالمعروف تخلصوا، وانها عن المنكر تنصروا، يا أيها الناس إن أكيسكم أكثركم ذكراً للموت، وأكرمكم أحسنكم استعداداً له، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لسكن القبور، والتأهب ليوم النشور، رواه^(٢). ورواه ابن ماجه من حديث جابر بن عبد الله مختصراً بنحوه.

(١) سورة الزخرف، الآية ٧٧.

(٢) كذا في الأصل بياض بعد رواه الأولى. قال الشارح: ورواه البيهقي.

وفي مراسيل أبي داود عن الزهري قال: كان صدر خطبة النبي ﷺ: الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصها^(١) فقد غوى. نسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ويتبع رضوانه ويجتنب سخطه^(٢).

وعنده أيضاً عنه قال: بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول إذا خطب: كل ما هو آت قريب، لا بعد لما هو آت، يريد الله أمراً، ويريد الناس أمراً، ما شاء الله كان ولو كره الناس، ولا مبعد لما قرب الله، ولا مقرب لما بعد الله، لا يكون شيء إلا بإذن الله عز وجل.

وقال جابر: كان ﷺ إذا خطب يوم الجمعة يقول بعد أن يحمد الله ويصلي على أنبيائه: أيها الناس، إن لكم معالم فانتهاوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم. إن العبد المؤمن بين مخافتين، أجل قد مضى لا يدري ما الله قاض فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله صانع فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات، والذي نفسي بيده، ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

وعن عمرو أن النبي ﷺ خطب يوماً فقال: ألا إن الدنيا عرض

(١) هذا التعبير من خصائصه ﷺ. لأنه ورد في حديث مسلم قوله ﷺ: «بئس الخطيب أنت» لمن قال ذلك.

(٢) من قوله: «نسأل الله...» الظاهر أنه من كلام الزهري.

حاضر، يأكل منها البر والفاجر، ألا وإن الآخرة أجل صادق يقضي فيها ملك قادر، ألا وإن الخير كله بحذايره في الجنة، ألا وإن الشر كله بحذايره في النار، ألا فاعلموا وأنتم من الله على حذر، واعلموا أنكم معروضون^(١) على أعمالكم، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره. رواه الشافعي، وعند أبي نعيم في الحلية نحوه.

[الإنصات للخطبة]

واختلف: هل يجب الإنصات، ويمنع من جميع أنواع الكلام حال الخطبة، أم لا؟^(٢).

وعن الشافعي في المسألة قولان مشهوران، وبناهما بعض الأصحاب على الخلاف في أن الخطبتين بدل عن الركعتين أم لا؟ فعلى الأول يحرم، لا على الثاني، والثاني هو الأرجح عندهم، فمن ثم أطلق من أطلق منهم إباحة الكلام، حتى شنع من شنع عليهم من المخالفين.

وعن أحمد / أيضاً روايتان.

ب/٣٤٥

وعنها أيضاً: التفرقة بين من يسمع الخطبة وبين من لا يسمعها.

وأغرب ابن عبد البر فنقل الإجماع على وجوب الإنصات على من سمعها إلا عن قليل من التابعين.

(١) كذا في (ش، د) وفي بقية النسخ: معروضون.

(٢) ذهب الجمهور إلى منع جميع أنواع الكلام حال الخطبة، ولو لم يسمعها، للحديث المتفق عليه: إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت.

[تحية المسجد وصلاة الجمعة]

ودخل سليك^(١) الغطفاني، وهو رضي الله عنه يخطب، فقال له رضي الله عنه:
صليت؟ قال: لا، قال: قم فاركع ركعتين. رواه البخاري ومسلم
وأبو داود.

واستدل به على أن الخطبة لا تمنع الداخل من صلاة تحية
المسجد.

وتعقب: بأنها واقعة عين^(٢) لا عموم لها، فيحتمل اختصاصها
بسليك، ويدل عليه قوله في حديث أبي سعيد - عند أهل السنن -:
جاء رجل - والنبي رضي الله عنه يخطب - في هيئة بذة، فقال له: أصليت؟
قال: لا، قال: صل ركعتين، وحض الناس على الصدقة
الحديث... فأمره بأن يصلي ركعتين ليراه بعض الناس وهو قائم
فيتصدق عليه، وورد أيضاً ما يؤيد الخصوصية، وهو ما أخرجه ابن
حبان وهو قوله رضي الله عنه لسليك في آخر الحديث: لا تعودن لمثلها، ومما
يضعف الاستدلال به على جواز التحية في تلك الحالة أنهم أطلقوا أن
التحية تفوت بالجلوس.

فهذا ما اعتل به من طعن في الاستدلال بهذه القصة على جواز
التحية، وكله مردود، لأن الأصل عدم الخصوصية، والتعليل بكونه
رضي الله عنه قصد التصدق عليه لا يمنع القول بجواز التحية، فإن المانعين منها
لا يجيزون التطوع لعله التصدق. قال ابن المنير: لو ساغ ذلك لساغ
مثله في التطوع عند طلوع الشمس وسائر الأوقات المكروهة، ولا قائل
به.

(١) في (أ، ب): أبو سليك. قال الشارح: والصواب حذف «أبو».

(٢) أي قضية معينة.

ومما يدل على أن أمره بالصلاة لم ينحصر في قصد التصدق، معاودته ﷺ بأمره بالصلاة في الجمعة الثانية بعد أن حصل له في الجمعة الأولى ثوبان تصدق بهما عليه، فدخل بهما في الثانية فتصدق بأحدهما فنهاه ﷺ عن ذلك. أخرجه النسائي وابن خزيمة من حديث أبي سعيد أيضاً. ولأحمد وابن حبان: أنه كرر أمره بالصلاة ثلاث مرات في ثلاث جمع، فدل على أن قصد التصدق عليه جزء علة، لا علة كاملة.

وأما إطلاق من أطلق أن التحية تفوت بالجلوس، فقد حكى النووي في شرح مسلم عن المحققين: أن ذلك في حق العامد العالم، أما الجاهل والناسي فلا، وحال هذا الداخل محمولة في المرة الأولى على أحدهما، وفي المرتين الأخيرتين على النسيان.

والحامل للمانعين^(١) على التأويل المذكور أنهم زعموا أن ظاهره معارض للأمر بالإنصات والاستماع للخطبة.

وقد أجاب الحافظ ابن حجر عن ذلك وغيره من أدلة المانعين بما يطول ذكره، ثم قال: وهذه الأجوبة التي قدمناها تندفع من أصلها بعموم قوله ﷺ في حديث أبي قتادة: «إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين» متفق عليه. قال: وورد أخص منه في حال الخطبة، ففي رواية شعبة عن عمرو بن دينار قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: قال رسول الله ﷺ وهو يخطب: «إذا جاء أحدكم والإمام يخطب، أو قد خرج فليصل ركعتين» متفق عليه.

ولمسلم من طريق أبي سفيان عن جابر أنه قال ذلك في قصة

(١) أي المانعين من أداء تحية المسجد أنهم وجدوا حديث سليك معارض بالأمر بالإنصات والاستماع للخطبة [م].

سليك ولفظه بعد قوله: «فاركعها وتجوّز» ثم قال: «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوّز فيهما». قال النووي: هذا نص لا يتطرق إليه التأويل، ولا أظن عالماً يبلغه هذا اللفظ ويعتقده صحيحاً فيخالفه.

وقال العارف أبو محمد بن أبي حمزة: هذا الذي أخرجه مسلم نص في الباب لا يحتمل التأويل. انتهى

وقد قال قوم: إنما أمره ﷺ بسنة الجمعة التي قبلها ومستندهم قوله / ﷺ في قصة سليك - عند ابن ماجه - «أصليت ركعتين قبل أن تحيي؟» لأن ظاهره: قبل أن تحيي من البيت، ولهذا قال الأوزاعي: إن كان صلى في البيت قبل أن يحيي فلا يصلي إذا دخل المسجد.

وتعقب: بأن المانع من صلاة التحية لا يجيز التنفل حال الخطبة مطلقاً، ويحتمل أن يكون معنى قوله: «قبل أن تحيي» أي إلى الموضع الذي أنت فيه الآن، وفائدة الاستفهام، احتمال أن يكون صلاهما في مؤخر المسجد ثم تقدم ليقرب من سماع الخطبة، ويؤيده: أن في رواية مسلم «أصليت الركعتين؟» بالألف واللام، وهي للعهد، ولا عهد هناك أقرب من تحية المسجد، وأما سنة الجمعة التي قبلها فيأتي الكلام فيها إن شاء الله تعالى.

[مقدار الخطبة والصلاة والقراءة]

وكانت صلاته ﷺ الجمعة قصداً، وخطبته قصداً. رواه مسلم والترمذي من رواية جابر بن سمرة. زاد في رواية أبي داود: يقرأ بآيات من القرآن ويذكر الناس. وله في أخرى: كان لا يطيل الموعظة يوم الجمعة، إنما هي كلمات يسيرات.

وعن عمرو بن حريث أنه ﷺ خطب وعليه عمامة سوداء قد

أرخی طرفها بين كتفيه. رواه مسلم.

قال ابن القيم في الهدى: وكان ﷺ إذا اجتمع الناس خرج إليهم وحده من غير شايش يصيح بين يديه، ولا لبس طيلسان ولا طرحة ولا سواد، فإذا دخل المسجد سلم عليهم، فإذا صعد المنبر استقبل الناس بوجهه وسلم عليهم ثم يجلس، ويأخذ بلال في الأذان، فإذا فرغ منه قام ﷺ فخطب من غير فصل بين الأذان والخطبة، لا بإيراد خبر ولا غيره، ولم يكن يأخذ بيده سيفاً ولا غيره، وإنما كان يعتمد على قوس أو عصا قبل أن يتخذ المنبر، وكان يأمر الناس بالدنو منه، ويأمرهم بالإنصات. انتهى.

وينظر في قوله: «ولم يكن يأخذ بيده سيفاً ولا غيره، وإنما كان يعتمد على قوس أو عصا قبل أن يتخذ المنبر»^(١).

وكان ﷺ يقرأ بسورة الجمعة في الركعة الأولى، و﴿إذا جاءك المنافقون﴾ في الثانية. رواه مسلم والترمذي وأبو داود.

والحكمة في قراءته ﷺ بسورة الجمعة، اشتغالها على وجوب الجمعة وغير ذلك، مما فيه من القواعد، والحث على التوكل والذكر وغير ذلك. وقراءة سورة المنافقين لتوبيخ حاضريها منهم وتنبههم على التوبة وغير ذلك مما فيه من القواعد، لأنهم ما كانوا يجتمعون في مجلس أكثر من اجتماعهم فيها.

وفي حديث النعمان بن بشير عند مسلم: وكان يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ و﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾.

(١) فإنه مخالف لما مر أنه كان يخطب متوكئاً على قوس أو عصا، كيف وفي أبي داود: كان إذا قام يخطب أخذ عصاه فتوكأ عليها وهو على المنبر. هذا قول الشارح. أقول: هذا النظر في غير مكانه فإن ابن القيم لم ينف القوس والعصا وإنما نفى السيف [المحقق].

[العدد الذي تنعقد به الجمعة]

وقد اختلف في العدد الذي تنعقد بهم الجمعة، وللعلماء فيه خمسة عشر قولاً:

- أحدها - تصح من الواحد، نقله ابن حزم^(١)
- الثاني - اثنان كالجماعة، وهو قول النخعي وأهل الظاهر.
- الثالث اثنان مع الإمام، عند أبي يوسف ومحمد والليث.
- الرابع - ثلاثة معه، عند أبي حنيفة وسفيان الثوري.
- الخامس - سبعة، عند عكرمة.
- السادس - تسعة، عند ربيعة.
- السابع - اثنا عشر، عند ربيعة أيضاً في رواية.
- الثامن - مثله غير الإمام، عند إسحاق.
- التاسع - عشرون في رواية ابن حبيب عن مالك.
- العاشر - ثلاثون، كذلك،

الحادي عشر - أربعون بالإمام عند إمامنا الشافعي، واشترط كونهم أحراراً، بالغين عقلاء، مقيمين لا يظعنون صيفاً ولا شتاءً إلا لحاجة، وأن يكونوا حاضرين من أول الخطبة إلى أن تقام الجمعة.

وحجة الشافعي: ما رواه الدارقطني وابن ماجه والبيهقي في الدلائل عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: كنت قائداً أبي^(٢) حين ذهب بصره، فإذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان صلى على أبي أمامة واستغفر له، قال فمكث كذلك / حيناً لا يسمع الأذان في

ب/٣٤٦

(١) هذه الجملة سقطت من ط .

(٢) كذا في (ب، ش) وكذلك في الدارقطني، وفي النسخ: قائداً أبي.

الجمعة إلا فعل ذلك، فقلت له: يا أبت، استغفارك لأبي أمامة كلما سمعت أذان الجمعة ما هو؟ قال: يا بني، هو أول من جُمع بالمدينة، قال: قلت له: كم كنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلاً.

وقال جابر بن عبد الله: مضت السنة أن في كل ثلاثة إماماً، وفي كل أربعين فما فوق ذلك جمعة. خرجه الدارقطني.

وروى البيهقي عن ابن مسعود: أنه ﷺ جُمع بالمدينة وكانوا أربعين رجلاً.

قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري - نفع الله بوجوده - قال في «المجموع»: قال أصحابنا: وجه الدلالة أن الأمة أجمعوا على اشتراط العدد، والأصل الظهر، فلا تصح الجمعة إلا بعدد ثبت فيه توقيف، وقد ثبت جوازها بأربعين، وثبت (صلوا كما رأيتوني أصلي)، ولم يثبت صلاته لها بأقل من ذلك، فلا يجوز بأقل منه.

قال: وأما خبر انفضاضهم فلم يبق إلا اثنا عشر، فليس فيه أن ابتداءها كان باثني عشر، بل يحتمل عودهم، أو عود غيرهم مع سماعهم أركان الخطبة. وفي مسلم: «انفضوا في الخطبة» وفي رواية البخاري «انفضوا في الصلاة» وهي محمولة على الخطبة جمعاً بين الأخبار. انتهى

الثاني عشر - أربعون غير الإمام عند الشافعي أيضاً، وبه قال عمر بن عبد العزيز وطائفة.

الثالث عشر - خمسون، عند أحمد في رواية، وحكى عن عمر ابن عبد العزيز وطائفة.

الرابع عشر - ثمانون، حكاة الرازي .
الخامس عشر - جمع كثر بغير حصر .
ولعل هذا الأخير أرجحها من حيث الدليل . قاله في فتح
الباري .

الباب الثالث

في ذكر تهجده صلوات الله وسلامه عليه

[تفسير الآية الكريمة]

قال الله تعالى له ﷺ: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾^(١) أي بالقرآن، والمراد منه الصلاة المشتملة على القرآن.

والهجوم في اللغة: النوم، وعن أبي عبيدة: الهاجد: النائم، والهاجد: المصلي بالليل، وعن الأزهري: الهاجد: النائم، وقال المازري: التهجد: الصلاة بعد الرقاد، ثم صلاة أخرى بعد رقدة، ثم صلاة أخرى بعد رقدة، قال: وهكذا كانت صلاة رسول الله ﷺ.

وقوله: (نافلة لك) أي عبادة زائدة في فرائضك، ويمكن نصرته هذا القول بأن قوله: (فتهجد) أمر، وصيغة الأمر للوجوب، فوجب كون هذا التهجد واجباً، وروى الطبري عن ابن عباس أن النافلة للنبي ﷺ خاصة، لأنه أمر بقيام الليل، وكتب عليه دون أمته، وإسناده ضعيف.

وقيل معناه: زيادة لك خاصة، لأن تطوع غيره يكفر ما على صاحبه من ذنب، وتطوعه هو ﷺ يقع خالصاً له لكونه لا ذنب عليه، فكل طاعة يأتي بها ﷺ سوى المكتوبة إنما تكون لزيادة الدرجات، وكثرة الحسنات، ولهذا سمي نافلة بخلاف الأمة، فإن لهم ذنباً

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٩.

محتاجة إلى الكفارات، فهذه الطاعات يحتاجون إليها لتكفير الذنوب والسيئات.

وروى مسلم من طريق سعد بن هشام عن عائشة قالت: إن الله افترض قيام الليل في هذه السورة، تعني ﴿يا أيها المزمّل﴾ فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولاً، حتى أنزل في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة^(١).

وروى محمد بن نصر في قيام الليل من طريق سماك عن ابن عباس شاهداً لحديث عائشة في أن بين الإيجاب والنسخ سنة.

وحكى الشافعي عن بعض أهل العلم أن آخر السورة نسخ افتراض قيام الليل إلا ما تيسر منه، ثم نسخ فرض ذلك بالصلوات الخمس.

أ/٣٤٧ / وروى محمد بن نصر من حديث جابر أن نسخ قيام الليل / وقع لما توجهوا مع أبي عبيدة في جيش الخبط، وكان ذلك بعد الهجرة، لكن في إسناده علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف.

فوجب قيام الليل قد نسخ في حقنا. وهل نسخ في حقه ﷺ؟ أكثر الأصحاب: لا، والصحيح: نعم، ونقله الشيخ أبو حامد عن النص^(٢).

[استمراره ﷺ في تهجده]

وقالت عائشة: قام ﷺ حتى تورمت قدماه، وفي رواية: حتى تفترت قدماه، فقلت: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك

(١) رواه مسلم برقم ٧٤٦.

(٢) للإمام الشافعي.

ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً، قالت: فلما بدن وكثر شحمه ﷺ صلى جالساً، فإذا أراد أن يركع قام فقراً ثم ركع. رواه البخاري ومسلم.

والفاء في قوله: «أفلا أكون» للسببية، وهي عن محذوف تقديره: أترك تهجدي؟ فلا^(١) أكون عبداً شكوراً، والمعنى: إن المغفرة سبب لكون التهجد شكراً، فكيف أتركه؟

قال ابن بطال: في هذا الحديث أخذ الأنسان على نفسه بالشدة في العبادة، وإن أضر ذلك ببدنه، لأنه^(٢) إذا فعل ذلك مع علمه بما سبق له، فكيف بمن لا يعلم، فضلاً عما لم يأمن أنه استحق النار. انتهى.

ومحل ذلك - كما قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري - ما لم يفيض ذلك إلى الملل، لأن حال النبي ﷺ كانت أكمل الأحوال، فكان لا يمل من عبادة ربه، وإن أضر ذلك ببدنه، بل صح أنه ﷺ قال: (وجعلت قرة عيني في الصلاة) كما أخرجه النسائي من حديث أنس، فأما غيره ﷺ فإذا خشي الملل ينبغي له أن لا يكد نفسه، وعليه يحمل قوله ﷺ: (خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا). انتهى.

لكن ربما دست النفس أو الشيطان على المجتهد في العبادة بمثل ما ذكر، خصوصاً إذا كبر، فيقول: قد ضعفت وكبرت فأبق على نفسك لئلا ينقطع عملك بالكلية، وهذا وإن كان ظاهره جميلاً لكن فيه دسائس، فإنه إن أطاعه فقد يكون استدراجاً يؤول به إلى ترك

(١) في (ط، ب): أفلا.

(٢) «لأنه» سقطت من (ط، آ).

العمل شيئاً فشيئاً، إلى أن ينقطع بالكلية، وما ترك سيد المرسلين، المغفور له، شيئاً من عمله بعد كبره.

نعم كان يصلي بعض ورده جالساً بعد أن كان يقوم حتى تفترت قدماه، فكيف بمن أثقلت ظهره الذنوب والأوزار، ولا يأمن عذاب النار، أن يغفل حال شببته، ويتوانى عند ظهور شببه، فينبغي للإنسان أن يستعد قبل حلول مشببه. «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك» فإن من شاب فقد لاح صبح سواد ليل شعره، وقد قال تعالى منذراً لمن يدخل في الصباح: ﴿إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾^(١) فكيف بقرب من دخل في الصباح، وظهر كوكب نهاره في أفق رأسه ولاح؟!

قال القرطبي: ظن من سأله ﷺ عن سبب تحمله المشقة في العبادة أنه إنما يعبد الله خوفاً من الذنوب، وطلباً للمغفرة والرحمة، فمن تحقق أنه غفر له لا يحتاج إلى ذلك، فأفادهم أن هناك طريقاً آخر للعبادة، وهو الشكر على المغفرة، وإيصال النعمة لمن لا يستحق عليه فيها شيئاً، فيتعين كثرة الشكر على ذلك، والشكر: الاعتراف بالنعمة والقيام بالخدمة، فمن كثر ذلك منه سمي شكوراً، ومن ثم قال الله تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾^(٢).

وفيه: ما كان النبي ﷺ عليه من الاجتهاد في العبادة والخشية من ربه عز وجل، قال العلماء: إنما ألزم الأنبياء أنفسهم بشدة الخوف لعلمهم بعظيم نعمة الله عليهم، وأنه ابتدأهم بها قبل استحقاقها، فبدلوا مجهودهم في عبادته ليؤدوا بعض شكره، مع أن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد، والله أعلم، انتهى.

(١) سورة هود، الآية ٨١.

(٢) سورة سبأ، الآية ١٣.

ذكر سياق صلاته ﷺ بالليل

عن شريح بن هانئ قالت عائشة رضي الله عنها / : ما صلى رسول الله ﷺ العشاء قط فدخل بيتي إلا صلى أربع ركعات أو ست ركعات. رواه أبو داود.

ب/٣٤٧

وكان يقوم إذا سمع الصارخ^(١) رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة. وهو يصرخ في النصف الثاني.

وقالت: كان ﷺ ينام أول الليل ويقوم آخره، فيصلي ثم يرجع إلى فراشه فإذا أذن المؤذن وثب، فإن كانت به حاجة اغتسل، وإلا توضأ وخرج. رواه الشيخان^(٢).

وقالت أيضاً: كان ﷺ ربما اغتسل في أول الليل، وربما اغتسل في آخره، وربما أوتر في أول الليل، وربما أوتر في آخره، وربما جهر بالقراءة، وربما خفت.

وقالت أم سلمة كان يصلي بنا ثم ينام قدر ما صلى، ثم يصلي قدر ما نام، ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح. رواه أبو داود والترمذي والنسائي.

وفي رواية للنسائي: كان يصلي العتمة، ثم يسبح ثم يصلي بعدها ما شاء من الليل ثم ينصرف فيرقد مثل ما صلى ثم يستيقظ من نومه فيصلي مثل ما نام، وصلاته تلك الآخرة تكون إلى الصبح.

وعن أنس قال: ما كنا نشاء أن نرى رسول الله ﷺ من الليل

(١) الصارخ: الديك، كما جاء في هذا الحديث في مسند الطيالسي.

(٢) في ط: البخاري، وفي النسخ: الشيخان، قال الشارح: واللفظ للبخاري.

مصلياً إلا رأيناه، ولا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه. رواه النسائي.

وكان إذا استيقظ من الليل قال: لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك، استغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علماً ولا تزغ قلبي إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب. رواه أبو داود من حديث عائشة.

وعنها: كان ﷺ إذا هب من الليل كبر [الله] (١) عشرأً، وحمد الله عشرأً، وقال سبحان الله وبحمده عشرأً، وقال سبحان الملك القدوس عشرأً، واستغفر الله عشرأً، وهلل عشرأً، ثم قال: اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة عشرأً، ثم يفتح الصلاة. رواه أبو داود.

وقد روى حديث قيامه بالليل ووتره عائشة وابن عباس.

قال ابن القيم: وإذا اختلف ابن عباس وعائشة في شيء من أمر قيامه ﷺ بالليل، فالقول قول عائشة، لكونها أعلم الخلق بقيامه بالليل. انتهى.

[حديث ابن عباس]

فأما حديث ابن عباس، فرواه البخاري ومسلم بلفظ: بت عند خالتي ميمونة ليلة والنبي ﷺ عندها، فتحدث النبي ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر أو نصفه (٢) قعد ينظر إلى السماء، فقرأ ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾ (٣) حتى

(١) في (ش، ط).

(٢) في المخطوطات: أو بعضه.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٩٠.

ختم السورة، ثم قام إلى القربة فأطلق شئها، ثم صب في الجفنة، ثم توضأ وضوءاً حسناً بين الوضوئين لم يكثر وقد أبلغ، فقام فصلی، فقامت وتوضأت فقامت عن يساره، فأخذ بأذني فأدارني عن يمينه، فتتامت صلاته ثلاث عشرة ركعة، ثم اضطجع فنام حتى نفخ، وكان إذا نام نفخ، فأذنه بلال الصلاة فصلی ولم يتوضأ. وكان يقول في دعائه: اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، وفوقي نوراً وتحتي نوراً، وأمامي نوراً وخلفي نوراً، واجعل لي نوراً، وزاد بعضهم: وفي لساني نوراً، وذكر: عصبي ولحمي ودمي وشعري وبشري.

وفي رواية: فصلی ركعتين خفيفتين، قلت^(٢) قرأ فيها بأمر الكتاب في كل ركعة، ثم سلم، ثم صلى إحدى عشرة ركعة بالوتر ثم نام، فأتاه بلال فقال: الصلاة يا رسول الله، فقام فركع ركعتين ثم صلى للناس^(٣).

وفي رواية: فقام فصلی ثلاث عشرة ركعة، منها ركعتا الفجر، حضرت قيامه في كل ركعة بقدر ﴿يا أيها المزمّل﴾.

وفي رواية: فصلی ركعتين ركعتين حتى صلى ثماني ركعات، ثم أوتر بخمس لم يجلس فيهن.

وفي رواية النسائي: أنه صلى إحدى عشرة ركعة بالوتر^(٤)، ثم نام حتى استثقل فرأيته ينفخ / فأتاه بلال، الحديث.

أ/٣٤٨

(١) خيط يربط به فمها.

(٢) كذا في المخطوطات، وفي (ط، ش): ثم.

(٣) كذا في المخطوطات، وفي (ط، ش): بالناس.

(٤) «بالوتر» سقطت من ط.

وفي أخرى له: فتوضأ واستاك، وهو يقرأ هذه الآية حتى فرغ منها ﴿إن في خلق السماوات والأرض﴾ ثم صلى ركعتين. ثم عاد فنام حتى سمعت نفخه، ثم قام فتوضأ واستاك ثم صلى ركعتين، [ثم نام ثم قام فتوضأ واستاك وصلى ركعتين]^(١) وأوتر [بثلاث]^(٢).

ولسلم: فاستيقظ فتسوك وتوضأ وهو يقول: ﴿إن في خلق السماوات والأرض﴾ حتى ختم السورة، ثم قام فصلى ركعتين أطال فيهما القيام والركوع والسجود، ثم انصرف فنام حتى نفخ، ثم فعل ذلك ثلاث مرات بست ركعات، كل ذلك يستاك ويتوضأ وهو يقرأ هذه الآيات، ثم أوتر بثلاث.

[حديث عائشة]

وأما حديث عائشة، فعن سعد بن هشام قال: انطلقت إلى عائشة فقلت: يا أم المؤمنين، أنبئني عن خلق رسول الله ﷺ، قالت: أليست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: كان خلقه القرآن، قلت: يا أم المؤمنين، أنبئني عن وتر رسول الله ﷺ، فقالت: كنا نعد له ﷺ سواكه وطهوره، فيبعثه الله متى شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوك ويتوضأ، ويصلي تسع ركعات ولا يجلس فيها إلا في الثامنة، فيذكر الله ويحمده ويدعوه، ثم ينهض ولا يسلم فيصلى التاسعة، ثم يقعد فيذكر الله ويحمده ويدعو، ثم يسلم تسليماً يسمعوننا، ثم يصلى ركعتين بعدما يسلم وهو قاعد، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني، فلما أسن وأخذ اللحم أوتر بسبع، وصنع في الركعتين مثل صنيعه في الأول، فتلك تسع يا بني. رواه مسلم.

(١) ليست في (ط، د).

(٢) في المخطوطات.

وللنسائي: كنا نعد له سواكه وطهوره، فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل، فيستاك ويتوضأ ويصلي تسع ركعات، ولا يجلس فيهن إلا عند الثامنة، ويحمد الله تعالى ويصلي على نبيه ويدعو بينهن ولا يسلم، ثم يصلي ويقعد ويحمد الله تعالى ويصلي على نبيه، ثم يسلم تسليماً يسمعنا، ثم يصلي ركعتين وهو قاعد - زاد في أخرى: فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني - فلما أسن ﷺ وأخذ اللحم أوتر بسبع، ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما سلم، فتلك تسع، أي بني.

وفي رواية له: فصلى ست ركعات يخيل إلى أنه سوى بينهن في القراءة والركوع والسجود، ثم يوتر بركعة، ثم يصلي ركعتين وهو جالس ثم يضع جنبه.

وعن عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل أفتح صلاته بركعتين خفيفتين. رواه مسلم وأحمد.

وعنها: كان ﷺ يصلي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشرة ركعة، ويسلم من كل ركعتين، ويوتر بواحدة، فيسجد السجدة من ذلك قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه، فإذا سكت المؤذن من صلاة الفجر وتبين لنا الفجر قام فركع ركعتين خفيفتين ثم اضطجع على شقه الأيمن، حتى يأتيه المؤذن للإقامة، رواه أبو داود.

وعنها قالت: كان يصلي ثلاث عشر ركعة، يوتر من ذلك بخمس ولا يجلس في شيء إلا في آخرها. رواه البخاري ومسلم.

وفي البخاري عن مسروق: سألت عائشة عن صلاة رسول الله ﷺ فقالت: سبعاً وتسعاً وإحدى عشرة، سوى ركعتي الفجر.

صلى ركعتين وهما دون اللتين قبلهما، ثم أوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة. رواه مسلم.

وقوله: «ثم صلى ركعتين وهما دون اللتين قبلهما» أربع مرات، هكذا في صحيح مسلم وموطأ مالك وسنن أبي داود وجامع الأصول لابن الأثير.

فقد كان قيامه ﷺ بالليل أنواعاً:

أحدها - ست ركعات، يسلم من كل ركعتين ثم يوتر بثلاث، كما في حديث ابن عباس، عند مسلم.

ثانيها - أنه كان يفتح صلاته بركعتين خفيفتين، ثم يتم ورده إحدى عشرة ركعة يسلم من كل ركعتين، ويوتر بركعة. رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة.

ثالثها - ثلاث عشرة، كذلك رواه مسلم من حديث زيد بن خالد الجهني.

رابعها - ثماني ركعات، يسلم من كل ركعتين، ثم يوتر بخمس سرداً متوالية، لا يجلس إلا في آخرهن. رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس.

خامسها - تسع ركعات، لا يجلس فيها إلا في الثامنة، فيذكر الله ويحمده ويدعو، ثم ينهض ولا يسلم فيصلي التاسعة، ثم يقعد فيحمده ويدعوه ثم يسلم، ثم يصلي ركعتين بعدما يسلم قاعداً. رواه مسلم من حديث عائشة.

سادسها - يصلي سبعاً كالتسع، ثم يصلي بعدها ركعتين جالساً. رواه مسلم أيضاً من حديثها.

سابعها - كان يصلي مثنى مثنى، ثم يوتر بثلاث لا يفصل بينهن .
رواه أحمد عنها .

ثامنها - ما رواه النسائي عن حذيفة أنه صلى مع رسول الله ﷺ في رمضان، فركع فقال في ركوعه: سبحان ربي العظيم مثل ما كان قائماً، ثم جلس يقول: رب اغفر لي، رب اغفر لي، فما صلى إلا أربع ركعات حتى جاء بلال يدعو إلى الغداة .

ورواه أبو داود، ولفظه: أنه رأى النبي ﷺ يصلي من الليل فكان يقول: الله أكبر، ثلاثاً، ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة، ثم استفتح فقرأ البقرة، ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه، وكان يقول في ركوعه: سبحان ربي العظيم، ثم رفع رأسه من الركوع فكان قيامه نحواً من ركوعه، يقول: لربي الحمد، ثم سجد فكان سجوده نحواً من قيامه، فكان يقول في سجوده: سبحان ربي الأعلى، ثم رفع رأسه من السجود، وكان يقعد فيما بين السجدين نحواً من سجوده، وكان يقول: رب اغفر لي، فصلى أربع ركعات، فقرأ فيهم البقرة وآل عمران والنساء والمائدة أو الأنعام، شك شعبة .

ورواه البخاري ومسلم بلفظ: صليت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت يركع عند المائة، ثم مضى فقلت يصلي بها في ركعة، فمضى فقلت يركع بها ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحو قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده - زاد في رواية: ربنا لك الحمد - / ثم قام قياماً طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريباً من قيامه .

وزاد النسائي: لا يمر بآية تخويف أو تعظيم لله عز وجل إلا ذكره.

[هيئة صلاته ﷺ]

وقد كانت هيئة صلاته ﷺ ثلاثة:

أحدها - أنه كان أكثر صلاته قائماً: فعن حفصة قالت: ما رأيته ﷺ صلى في سبحته^(١) قاعداً، حتى كان قبل وفاته بعام فكان يصلي في سبحته قاعداً، الحديث رواه أحمد ومسلم والنسائي وصححه الترمذي.

الثاني - كان يصلي قاعداً ويركع قاعداً. رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عائشة بلفظ: وإذا قرأ وهو قاعد ركع وسجد وهو قاعد.

الثالث - كان يقرأ قاعداً، فإذا بقي يسير من قراءته قام فركع قائماً. رواه مسلم من حديث عائشة ولفظه: إن رسول الله ﷺ كان يصلي جالساً، ويقرأ وهو جالس فإذا بقي من قراءته قدر ما يكون ثلاثين آية أو أربعين آية قام وقرأ وهو قائم، ثم ركع ثم سجد، ثم يفعل في الركعة الثانية مثل ذلك.

وعن عائشة: كان ﷺ يصلي متربعاً. رواه الدارقطني.

وكان ﷺ يصلي ركعتين بعد الوتر جالساً تارة^(٢)، وتارة يقرأ فيهما وهو جالس فإذا أراد أن يركع قام فركع. قالت عائشة: كان يوتر بواحدة، ثم يركع ركعتين يقرأ فيهما وهو جالس، فإذا أراد أن يركع قام فركع. رواه ابن ماجه.

(١) أي نافلته، سميت بذلك لاشتغالها على التسبيح.

(٢) كما في مسلم.

وعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ كان يصلي ركعتين بعد الوتر وهو جالس، يقرأ فيهما ﴿إذا زلزلت﴾ و﴿الكافرون﴾. رواه أحمد.

واختلف في هاتين الركعتين فأنكرهما مالك وكذا النووي في المجموع. وقال أحمد: لا أفعله ولا أمنعه. انتهى.

والصواب: أنه إنما فعلهما بياناً لجواز الصلاة بعد الوتر، وجواز الصلاة جالساً. ولفظة «كان» لا تفيد دواماً ولا أكثرية هنا. وغلط من ظنها سنة راتبة، فإنه ﷺ ما داومهما، ولا تشبه السنة بالفرض حتى يكون للوتر صلاة بعده.

[قيام ليلة نصف شعبان]

وأما قيامه ﷺ ليلة النصف من شعبان، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قام رسول الله ﷺ من الليل فصلى فأطال السجود حتى ظننت أنه قد قبض، فلما رأيت ذلك قمت حتى حركت إبهامه فتحرك فرجعت، فلما رفع رأسه من السجود وفرغ من صلاته، قال: يا عائشة، أو يا حميراء، أظننت أن النبي ﷺ قد خاس بك، قلت: لا والله يا رسول الله، ولكني ظننت أنك قد قبضت لطول سجودك، فقال: أتدرين أي ليلة هذه؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: هذه ليلة النصف من شعبان، إن الله عز وجل يطلع على عباده ليلة النصف من شعبان فيغفر للمستغفرين، ويرحم المسترحمين، ويؤخر أهل الحقد كما هم، رواه البيهقي من طريق العلاء بن الحارث عنها، وقال: هذا مرسل جيد، يعني أن العلاء لم يسمع من عائشة.

وقد ورد في فضل ليلة النصف من شعبان أحاديث كثيرة، لكن

ضعفها الأكثرون، وصحح ابن حبان بعضها وخرجه في صحيحه^(١)، ومن أمثلها - كما نبه عليه الحافظ ابن رجب - حديث عائشة قالت: فقدت النبي ﷺ فخرجت فإذا هو بالبقيع، رافع رأسه إلى السماء، فقال: أكنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله، فقلت: يا رسول الله قد ظننت أنك أتيت بعض نساءك، فقال: إن الله تعالى ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب. رواه أحمد، وقال الترمذي: إن البخاري ضعفه.

وفي سنن ابن ماجه، بإسناد ضعيف، عن علي مرفوعاً: إذا كان ليلة النصف من شعبان^(٢) / فقوموا ليلها وصوموا نهارها، فإن الله تعالى تنزل فيها لغروب الشمس إلى سماء الدنيا، فيقول: ألا مستغفر فأغفر له، ألا مسترزق فأرزقه، ألا مبتلى فأعافيه، ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر.

وقد كان التابعون من أهل الشام، كخالد بن معدان، ومكحول يجتهدون ليلة النصف من شعبان في العبادة، وعنهم أخذ الناس تعظيمها، ويقال: إنه بلغهم في ذلك آثار إسرائيلية، فلما اشتهر ذلك عنهم اختلف الناس، فمنهم من قبله منهم، وقد أنكر ذلك أكثر العلماء من أهل الحجاز، منهم عطاء، وابن أبي مليكة، ونقله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن فقهاء أهل المدينة، وهو قول أصحاب مالك وغيرهم، وقالوا: ذلك كله بدعة.

واختلف علماء أهل الشام في صفة إحيائها على قولين: أحدهما: إنه يستحب إحيائها جماعة في المساجد، وكان خالد بن

(١) تساهلاً في بعضها، وإطلاقاً لاسم الصحيح على الحسن في بعضها.

(٢) في (١، ب): ليلة نصف شعبان.

معدان، ولقمان بن عامر يلبسون فيها أحسن ثيابهم ويتبخرون ويكتحلون ويقومون في المسجد ليلتهم تلك، ووافقهم إسحاق بن راهويه على ذلك، وقال في قيامها في المساجد جماعة ليس ذلك ببدعة، نقله عنه حرب الكرمانى في مسائله.

الثانى: أنه يكره الاجتماع لها في المساجد للصلاة والقصاص والدعاء، ولا يكره أن يصلى الرجل فيها خاصة نفسه، وهذا قول الأوزاعي إمام أهل الشام وفقههم وعالمهم.

ولا يعرف للإمام أحمد كلام في ليلة النصف من شعبان، ويتخرج في استحباب قيامها عنه روايتان من الروايتين عنه في قيام ليلتي العيد، فإنه في رواية لم يستحب قيامها جماعة، لأنه لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه فعلها، واستحبها في رواية لفعل عبد الرحمن بن زيد بن الأسود لذلك، وهو من التابعين. وكذلك قيام ليلة النصف من شعبان لم يثبت فيها شيء عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه، إنما ثبت عن جماعة من التابعين من أعيان فقهاء أهل الشام. انتهى ملخصاً من اللطائف.

وأما قوله تعالى في سورة الدخان: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾^(١) فالمراد بها إنزاله تعالى القرآن في ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾^(٢) وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾^(٣).

قال الحافظ ابن كثير: ومن قال إنها ليلة النصف من شعبان،

(١) سورة الدخان، الآية ٣.

(٢) سورة القدر، الآية ١.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

كما روي عن عكرمة، فقد أبعد النجعة، فإن نص القرآن أنها في رمضان. وأما الحديث الذي رواه عبد الله بن صالح عن الليث عن عقيل عن الزهري، أخبرني عثمان بن محمد بن المغيرة: أن الأحنس قال: قال رسول الله ﷺ: تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح ويولد وقد أخرج اسمه في الموق. فهو حديث مرسل، ومثله لا تعارض به النصوص. انتهى.

[صلاة التراويح]

[الأحاديث الواردة بذلك]

وأما قيامه ﷺ في شهر رمضان، وهو الذي يسمى بالتراويح: جمع روحية، وهي المرة الواحدة من الراحة، وسميت بذلك لأنهم أول ما اجتمعوا عليها كانوا يستريحون بين كل تسليمتين.

فعن عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل وأيقظ أهله، وجد وشد المنزر. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

ولمسلم: قالت: كان ﷺ يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره، وفي العشر الأخير منه ما لا يجتهد في غيره.

وفي رواية الترمذي: كان يجتهد في العشر الأواخر منه ما لا يجتهد في غيره.

وعنها: أن رسول الله ﷺ صلى في المسجد، فصلى بصلاته ناس، ثم صلى من القابلة فكثرت الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة فلم يخرج إليهم / رسول الله ﷺ، فلما أصبح قال: قد رأيت الذي

٤/٣٥٠

صنعتهم، ولم يعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفرض عليكم، وذلك في رمضان. رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

وفي رواية للبخاري ومسلم، أنه ﷺ خرج من جوف الليل فصلى في المسجد، فصلى رجال بصلاته، فأصبح الناس يتحدثون بذلك، فاجتمع أكثر منهم فخرج ﷺ في الليلة الثانية فصلوا بصلاته، فأصبح الناس يذكرون ذلك، فكثرت أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج فصلوا بصلاته، فلما كان في الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله، فلم يخرج إليه ﷺ، فطفق رجال منهم يقولون: الصلاة^(١) فلا يخرج إليهم، حتى خرج لصلاة الفجر، فلما قضى الفجر أقبل على الناس، ثم تشهد فقال: أما بعد؛ إنه لم يخف علي شأنكم الليلة، ولكني خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها^(٢).

وفي رواية بنحوه ومعناه مختصراً: قال: وذلك في رمضان.

[شرح «خشيت أن تفرض عليكم»]

قال في فتح الباري: ظاهر الحديث أنه ﷺ توقع ترتب افتراض الصلاة بالليل جماعة على وجود المواظبة عليها، وفي ذلك إشكال بناه بعض المالكية على قاعدتهم: في أن الشروع ملزم، وفيه نظر.

وأجاب المحب الطبري: أنه يحتمل أن يكون الله عز وجل أوحى إليه: إنك إن واطبت على هذه الصلاة معهم افترضتها عليهم، فأحب التخفيف عنهم.

(١) سقطت كلمة (الصلاة) من جميع النسخ إلا الأصل، وهي في مسلم، وعبارة النسخ: يقولون أفلا يخرج إليهم.

(٢) رواه البخاري ١١٢٩ و ٢٠١٢ ومسلم في كتاب صلاة المسافرين برقم

وقيل: خشي أن يظن أحد من الأمة من مداومته عليها الوجوب، قال القرطبي: أي يظنوه فرضاً، فيجب على من ظن ذلك، كما إذا ظن المجتهد حل شيء أو تحريمه فإنه يجب عليه العمل به.

وقد استشكل الخطابي أصل هذه الخشية، مع ما ثبت في حديث الإسراء، من أن الله تعالى قال: (هن خمس وهن خمسون لا يبدل القول لدي) فإذا أمن التبديل كيف يقع الخوف من الزيادة، وهذا يدفع في صدور الأجوبة المتقدمة.

وقد أجاب عنه الخطابي: بأن صلاة الليل كانت واجبة عليه ﷺ، وأفعاله الشرعية يجب على الأمة الاقتداء به فيها - يعني عند المواظبة - فترك الخروج إليهم لثلا يدخل ذلك في الواجب من طريق الأمر بالاقتداء به، لا من طريق إنشاء فرض جديد زائد على الخمس، وهذا كما يوجب المرء على نفسه صلاة نذر، فتجب عليه ولا يلزم من ذلك زيادة فرض في أصل الشرع.

قال: وفيه احتمال آخر، وهو أن الله تعالى فرض الصلاة خمسين، ثم حط معظمها بشفاعة نبيه ﷺ، فإذا عادت الأمة فيما استوهب لها والتزمت ما استعفى لهم نبيهم ﷺ منه، لم يستنكر أن يثبت ذلك فرضاً عليهم.

قال الحافظ ابن حجر: وقد تلقى هذين الجوابين عن الخطابي جماعة كابن الجوزي، وهو مبني على أن قيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ، وعلى وجوب الاقتداء بأفعاله، وفي كل من الأمرين نزاع.

ثم أجاب عنه بثلاثة أجوبة:

أحدها: أنه يحتمل أن يكون المخوف افتراض قيام الليل بمعنى

جعل التهجد في المسجد جماعة شرطاً في صحة التنفل بالليل، قال: ويومئذ إليه قوله في حديث زيد بن ثابت: «حتى خشيت أن يكتب عليكم، ولو كتب عليكم ما قمتم به، فصلوا أيها الناس في بيوتكم» فمنعهم من التجمع في المسجد إشفافاً عليهم من اشتراطه، وأمن مع إذنه في المواظبة على ذلك في بيوتهم من افتراضه عليهم.

وثانيها: أن يكون المخوف افتراض قيام الليل على الكفاية لا على الأعيان، فلا يكون ذلك زائداً على الخمس، بل هو نظير ما ذهب إليه قوم في العيد ونحوها.

/ وثالثها: يحتمل أن يكون المخوف افتراض قيام رمضان ٣٥٠/ب خاصة، فقد وقع في حديث الباب أن ذلك كان في رمضان، وفي حديث سفیان بن حسين «خشيت أن يفرض عليكم قيام هذا الشهر»، قال: فعلى هذا يرتفع الإشكال لأن قيام رمضان لا يتكرر كل يوم في السنة، فلا يكون ذلك قدراً زائداً على الخمس. وأقوى هذه الأجوبة الثلاثة في نظري الأول^(١).

[تصلي جماعة أم فرادى؟]

وعن النعمان بن بشير قال: قمنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان ليلة ثلاث وعشرين إلى ثلث الليل الأول، ثم قمنا معه ليلة خمس وعشرين إلى نصف الليل، ثم قمنا معه ليلة سبع وعشرين حتى ظننا أن لا ندرك الفلاح، وكانوا يسمونه السحور. رواه النسائي.

واختلف العلماء: هل الأفضل في صلاة التراويح أن تصلي جماعة في المسجد، أو في البيوت فرادى؟

(١) فتح الباري ٣/١٣ - ١٤.

فقال الشافعي وجمهور أصحابه وأبو حنيفة وبعض المالكية وغيرهم: الأفضل صلاتها جماعة، كما فعله عمر بن الخطاب والصحابة، واستمر عمل المسلمين عليه، لأنه من الشعائر الظاهرة، فأشبه صلاة العيد.

فإن قلت: قد ذكرت أن الحافظ ابن حجر حمل قوله ﷺ: «إني خشيت أن تفرض عليكم» على التجميع في المسجد، وقال: إنه أقوى الأوجه. فالجواب: أنه ﷺ لما مات حصل الأمن من ذلك، ورجح عمر التجميع لما في الاختلاف من افتراق الكلمة، ولأن الاجتماع على واحدة أنشط لكثير من المصلين.

وقال مالك وأبو يوسف وبعض الشافعية وغيرهم: الأفضل صلاتها فرادى في البيوت، لقوله ﷺ: «أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة»، قالوا: وإنما فعلها ﷺ في المسجد لبيان الجواز، أو لأنه كان معتكفاً.

[عدد ركعاتها]

وأما عدد الركعات التي كان ﷺ يصليها في رمضان، فعن أبي سلمة أنه سأل عائشة: كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان؟ قالت: ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً، قالت عائشة: فقلت يا رسول الله، أتنام قبل أن توتر؟ قال: يا عائشة، إن عيني تنام ولا ينام قلبي. رواه البخاري ومسلم.

وأما ما رواه ابن أبي شيبة من حديث ابن عباس: كان ﷺ يصلي في رمضان عشرين ركعة والوتر. فإسناده ضعيف. وقد عارضه

حديث عائشة هذا، وهي أعلم بحال النبي ﷺ ليلاً من غيرها.

[عمر يجمع الناس على التراويح]

وقد كان الأمر في زمنه ﷺ استمر على أن كل واحد يقوم في رمضان في بيته منفرداً، حتى انقضى صدر من خلافة عمر.

وفي البخاري: أن عمر خرج ليلة في رمضان إلى المسجد، فإذا الناس أوزاع متفرقون، يصلي الرجل لنفسه، ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط، فقال عمر: إني لو جمعت هؤلاء على قارىء واحد لكان أجمع، ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب، ثم خرج ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم، قال عمر: نعمت البدعة هذه، والتي تنامون عنها أفضل من التي تقومون، يريد آخر الليل، وكان الناس يقومون أوله.

وإنما اختار أياً لأنه كان أقرأهم، كما قال عمر.

وروى سعيد بن منصور من طريق عروة: أن عمر جمع الناس على أبي بن كعب، فكان يصلي بالرجال، وكان تميم الداري يصلي بالنساء.

وفي الموطأ: أمر عمر أبي بن كعب وتميماً الداري أن يقوموا للناس في رمضان.

وروى البيهقي بإسناد صحيح أن الناس كانوا يقومون على عهد عمر بن الخطاب في شهر رمضان بعشرين ركعة.

قال الحلبي: والسر في كونها عشرين ركعة أن الرواتب في غير رمضان عشر ركعات، فضوعفت لأنه وقت جد وتشمير.

وفي الموطأ: بثلاث وعشرين. وجمع البيهقي بينها بأنهم كانوا يوترون بثلاث.

وفي الموطأ: عن محمد بن يوسف عن السائب بن يزيد أنها إحدى عشرة، وعند عبد العزيز: إحدى وعشرين.

والجمع بين / هذه الروايات ممكن باختلاف الأحوال، ويحتمل أن ذلك الاختلاف بحسب تطويل القراءة وتخفيفها، فحيث يطيل القراءة يقلل الركعات وبالعكس.

أ/٣٥١

وقد روى محمد بن نصر من طريق داود بن قيس، قال: أدركت الناس في إمارة أبان بن عثمان وعمر بن عبد العزيز - يعني بالمدينة - يقومون بست وثلاثين ركعة ويوترون بثلاث. وقال مالك: هو الأمر القديم عندنا.

وعن الزعفراني عن الشافعي: رأيت الناس يقومون بالمدينة بتسع وثلاثين وبمكة بثلاث وعشرين، وليس في شيء من ذلك ضيق.

وعنه قال: إن أطالوا القيام وأقلوا السجود فحسن، وإن أكثروا السجود وأخفوا القراءة فحسن، والأول أحب إلي. انتهى.

وهل يجوز لغير أهل المدينة صلاتها ستاً وثلاثين، قال النووي قال الشافعي: لا يجوز ذلك لغيرهم، لأن لأهلها شرفاً بهجرته ﷺ ومدفنه، ويخالفه قول الحلبي: ومن اقتدى بأهل المدينة فقام بست وثلاثين فحسن أيضاً.

وينبغي أن يسلم من كل ركعتين، فلو صلى أربعاً بتسليمة واحدة لم يصح وفاقاً للقاضي حسين في فتاويه، ولو صلى سنة الظهر أو العصر أربعاً بتسليمة واحدة جاز، والفرق: أن التراويح بمشروعية

الجماعة أشبهت الفرائض، قاله النووي في فتاويه، وصرح به في «الروضة».

وقد كان ﷺ يطيل القراءة في رمضان بالليل أكثر من غيره. وقد صلى معه حذيفة ليلة في رمضان، قال: فقرأ بالبقرة ثم بالنساء ثم آل عمران، لا يمر بآية تخويف إلا وقف وسأل، قال: فما صلى الركعتين حتى جاءه بلال فأذنه بالصلاة. أخرجه أحمد وأخرجه النسائي.

وعنده أيضاً: أنه ما صلى إلا أربع ركعات.

وكان للشافعي في رمضان ستون ختمة يقرؤها في غير الصلاة.

الباب الرابع

في صلاته ﷺ الوتر

[كيفية صلاة الوتر]

قد صح عنه ﷺ أنه أوتر بخمس لم يجلس في آخرها. لكن أحاديث الفصل أثبت وأكثر طرقاً.

واحتج الحنفية لما ذهبوا إليه - من تعيين الوصل، والاقتصار على ثلاث - بأن الصحابة أجمعوا على أن الوتر بثلاث موصولة حسن جائز، واختلفوا فيما زاد أو نقص، قال: فأخذنا بما أجمعوا عليه وتركنا ما اختلفوا فيه.

وتعقبه محمد بن منصور المروزي، بما رواه من طريق عراك بن مالك عن أبي هريرة مرفوعاً وموقوفاً «لا توتروا بثلاث تشبهوا بصلاة المغرب» وقد صححه الحاكم، وعن سليمان بن يسار أنه كره الثلاث في الوتر وقال: لا يشبه التطوع بالفرض. انتهى.

لكن قد روى الحاكم من حديث عائشة أنه كان ﷺ يوتر بثلاث لا يقعد إلا في آخرهن، وروى النسائي من حديث أبي بن كعب نحوه، ولفظه: (يوتر بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ و ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل هو الله أحد﴾ ولا يسلم إلا في آخرهن) وبين في عدة طرق أن السور الثلاث بثلاث ركعات.

والجمع بين هذا وبين ما تقدم من النهي عن التشبيه بصلاة

المغرب، أن يحمل النهي على صلاة الثلاث بتشهدين، وقد فعله السلف أيضاً.

وروى محمد بن نصر من طريق الحسن أن عمر كان ينهض إلى الثالثة من الوتر بالتكبير^(١)، ومن طريق المسور بن مخرمة: أن عمر أوتر بثلاث لم يسلم إلا في آخرهن، ومن طريق ابن طاووس عن أبيه أنه كان يوتر بثلاث لا يقعد بينهن.

وكان ابن عمر يسلم من الركعة والركعتين في الوتر. حتى يأمر ببعض حاجته، وهذا ظاهره أنه كان يصلي الوتر موصولاً، فإن عرضت له حاجة فصل ثم بنى على ما مضى. وفي هذا رد على من قال: لا يصح الوتر إلا موصولاً.

وأصرح من ذلك ما روى الطحاوي من طريق سالم بن عبد الله ابن عمر عن أبيه، أنه كان يفصل بين شفعه ووتره بتسليمة، وأخبر أن النبي ﷺ كان يفعله، وإسناده قوي^(٢).

وقد استدل بعضهم على فضل الفصل بأنه ﷺ / أمر به وفعله، ٣٥١/ب
وأما الوصل فورد من فعله فقط.

وقد حمل المخالف من الحنفية كل ما ورد من الثلاث على الوصل، مع أن كثيراً من الأحاديث ظاهر في الفصل، كحديث عائشة «يسلم من كل ركعتين» فإنه يدخل فيه الركعتان اللتان قبل الأخيرة، فهو كالنص في موضع النزاع.

وقد حمل الطحاوي هذا ومثله على أن الركعة مضمومة إلى

(١) يعني إذا قام من سجود الركعة الثانية مكبراً من غير جلوس للتشهد.

(٢) لا صراحة في هذا على الوصل، فضلاً عن كونه أصرح من سابقه.

الركعتين قبلها، ولم يتمسك في دعوى ذلك إلا بالنهي عن البتراء^(١)، مع احتمال أن يكون المراد بالبتراء أن يوتر بواحدة فردة ليس قبلها شيء، وهو أعم من أن يكون مع الوصل والفصل.

[الصلاة بعد الوتر]

وقد اختلف السلف في أمرين:

أحدهما: في مشروعية ركعتين بعد الوتر عن جلوس.

والثاني: فيمن أوتر ثم أراد أن يتنفل في الليل، هل يكفي بوتره الأول ويتنفل ما شاء، أو يشفع وتره بركعة ثم يتنفل؟ ثم إذا فعل هل يحتاج إلى وتر آخر أم لا؟

أما الأول: فوقع عند مسلم من طريق أبي سلمة عن عائشة أنه ﷺ كان يصلي ركعتين بعد الوتر وهو جالس. وقد ذهب إليه بعض أهل العلم، وجعلوا الأمر في قوله: «اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وتراً» مختصاً بمن أوتر آخر الليل.

وأجاب من لم يقل بذلك بأن بالركعتين المذكورتين هما ركعتا الفجر. وحمله النووي على أنه ﷺ فعله لبيان جواز التنفل بعد الوتر، وجواز التنفل جالساً.

وأما الثاني: فذهب الأكثر إلى أنه يصلي شفعاً ما أراد ولا ينقض وتره، عملاً بقوله ﷺ: «لا وتران في ليلة» وهو حديث حسن أخرجه النسائي وابن خزيمة من حديث طلق بن علي، وإنما يصح نقض الوتر عند من يقول بمشروعية التنفل بركعة واحدة غير الوتر.

(١) أخرج ابن عبد البر عن أبي سعيد أن النبي ﷺ نهى عن البتراء، أن يصلي الرجل واحدة يوتر بها. وهو حديث ضعيف.

[وقت الوتر، وقضاؤه؟]

واختلف السلف أيضاً في مشروعية قضاء الوتر، فنفاه الأكثر، وفي مسلم عن عائشة أنه ﷺ كان إذا نام من الليل من وجع أو غيره فلم يقم من الليل صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة.

وقال محمد بن نصر: لم نجد عن النبي ﷺ في شيء من الأخبار أنه قضى الوتر، ولا أمر بقضائه.

وعن عطاء والأوزاعي: يقضي ولو طلعت الشمس إلى الغروب، وهو وجه عند الشافعي حكاه النووي في شرح مسلم، وعن سعيد بن جبير: يقضي من القابلة، وعن الشافعية: يقضى مطلقاً.

وقالت عائشة: أوتر ﷺ من كل الليل، من أوله وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

والمراد بأوله: بعد صلاة العشاء.

ويحتمل أن يكون اختلاف وقت الوتر باختلاف الأحوال، فحيث أوتر أوله لعله كان وجعاً، وحيث أوتر في وسطه لعله كان مسافراً، وأما وتره في آخره فكان غالب أحواله لما عرف من مواظبته على الصلاة آخر الليل والسحر قبيل الصبح. وحكى الماوردي أنه السدس الأخير، وقيل أوله الفجر الأول^(١).

وفي رواية طلحة بن نافع عن ابن عباس، عند ابن خزيمة: فلما انفجر الفجر قام ﷺ فأوتر بركعة. قال ابن خزيمة والمراد به: الفجر الأول.

(١) أي السحر.

[حكم الوتر]

وروى أحمد من حديث معاذ مرفوعاً: زادني ربي صلاة وهي الوتر، وقتها من العشاء إلى طلوع الفجر. وفي إسناده ضعف، وكذا في حديث خارجة بن حذافة في السنن، وهو الذي احتج به من قال بوجوب الوتر، وليس صريحاً في الوجوب.

وأما حديث بريدة رفعه: الوتر حق فمن لم يوتر فليس منا وأعاد ذلك ثلاثاً. ففي سننه أبو المنيب، وفيه ضعف، وعلى تقدير قبوله فيحتاج من احتج به إلى أن يثبت أن لفظة «حق» بمعنى واجب في عرف الشارع، وأن لفظة «واجب» بمعنى ما ثبت من طريق الأحاد، والله أعلم.

وقد كان ﷺ يصلي وعائشة راقدة معترضة على فراشه، فإذا أراد أن يوتر أيقظها فتوتر، كما في البخاري.

وهذا يدل على استحباب الوتر في آخر الليل، سواء المتهجد وغيره، ومحلّه إذا وثق أن يستيقظ بنفسه أو بإيقاظ غيره.

واستدل به على وجوب / الوتر، لكونه ﷺ سلك به مسلك الواجب، حيث لم يدعها نائمة للوتر، وأبقاها للتهجد.

أ/٣٥٢

وتعقب: بأنه لا يلزم من ذلك الوجوب، نعم يدل على تأكيد أمره بالوتر، وأنه فوق غيره من النوافل الليلية.

وفيه: استحباب ايقاظ النائم لإدراك الصلاة، ولا يختص ذلك بالمفروضة ولا بخشية خروج الوقت، بل يشرع ذلك لإدراك الجماعة، وإدراك أول الوقت وغير ذلك من المندوبات. قال القرطبي: ولا يبعد أن يقال: إنه واجب في الواجب، مندوب في المندوب، لأن النائم وإن

لم يكن مكلفاً لكن مانعه سريع الزوال، فهو كالغافل، وتنبه الغافل واجب والله أعلم.

[القراءة في الوتر]

وعن علي: كان رسول الله ﷺ يوتر بثلاث يقرأ فيهن بتسع سور من المفصل، يقرأ في كل ركعة بثلاث سور آخرهن ﴿قل هو الله أحد﴾. رواه الترمذي.

وعن ابن عباس: كان يقرأ في الوتر بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ و﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و﴿قل هو الله أحد﴾ في كل ركعة^(١).

وعن عائشة: كان يقرأ في الأولى بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ وفي الثانية بـ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ وفي الثالثة بـ ﴿قل هو الله أحد﴾ و«المعوذتين». رواه أبو داود والترمذي.

ولأبي داود: وكان إذا سلم قال: سبحان الملك القدوس. وعند النسائي: ثلاثاً^(٢) يطيل في آخرهن^(٣)، وفي رواية: ويرفع صوته بالثالثة.

وعن علي: كان ﷺ يقول في آخر وتره: اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

(١) في المخطوطات: في ركعة ركعة.

(٢) أي يقولها ثلاث مرات.

(٣) أي يمد صوته.

[بين سنة الفجر والوتر]

قال ابن تيمية: سنة الفجر تجرى مجرى بداية العمل، والوتر خاتمته، وقد كان ﷺ يقرأ في سنة الفجر وفي الوتر بسورتي الإخلاص^(١)، وهما الجامعتان لتوحيد العلم والعمل، وتوحيد المعرفة والإرادة، وتوحيد الاعتقاد، فسورة ﴿قل هو الله أحد﴾ متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذي لا يلحقه نقص، ونفي الولد والوالد والكفر، المتضمن لنفي الشبيه والمثيل والنظير، فتضمنت إثبات كل كمال ونفي كل نقص عنه، ونفي كل شبيه، وهذه هي مجامع التوحيد العملي والاعتقادي، فلذلك كانت تعدل ثلث القرآن، فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء، والإنشاء ثلاثة: أمر ونهي وإباحة، والخبر نوعان: خبر عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه، وخبر عن خلقه، فأخلصت سورة الإخلاص للخبر عنه وعن أسمائه وصفاته، فعدلت ثلث القرآن، وخلصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي، كما خلصته سورة ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ من الشرك العملي. قاله ابن القيم^(٢).

[قنوت الوتر في رمضان]

وأما القنوت في الركعة الأخيرة من الوتر، في النصف الأخير من شهر رمضان، فقال النووي في «الأذكار» باستحبابه، ولم يذكر لذلك دليلاً. وقد أخرج أبو داود بإسنادين رجالهما ثقات، لكن أحدهما منقطع، وفي الآخر راو لم يسم: أن عمر لما جمع الناس على أبي بن

(١) هما ﴿قل هو الله أحد﴾ و﴿قل يا أيها الكافرون﴾.

(٢) قاله ابن القيم في الهدي النبوي.

كعب كان لا يقنت إلا في النصف الأخير من رمضان .

وعن الحسن بن علي قال : علمني جدي كلمات أقولهن في الوتر :
«اللهم اهديني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولني فيمن
توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شر ما قضيت ، إنك تقضي ولا
يقضى عليك ، وإنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تباركت
ربنا وتعاليت» . وهذا لفظ رواية شريك رواه الطبراني وغيره .

الباب الخامس

في ذكر صلاته ﷺ الضحى

[الاختلاف في إثباتها]

وهي معدودة^(١) من خصائصه^(٢).

اختلف الرواة، هل صلاها النبي ﷺ أم لا؟ فمنهم المثبت ومنهم النافي.

/ فمن العلماء من رجح رواية المثبت على النافي، جرياً على القاعدة المعروفة، لأنها تتضمن زيادة علم خفيت على النافي، قالوا: وقد يجوز أن يذهب علم مثل هذا.

[النصوص المثبتة لصلاة الضحى]

قال الحاكم: وفي الباب عن أبي سعيد، وأبي ذر الغفاري، وزيد ابن أرقم، وأبي هريرة، وبريدة الأسلمي، وأبي الدرداء، وعبد الله بن أبي أوفى، وعثمان بن مالك، وعتبة بن عبد السلمي، ونعيم بن همار^(٣) الغطفاني، وأبي أمامة الباهلي، وعائشة بنت أبي بكر، وأم

(١) كذا في: أ، ب، ط.

(٢) كذا في آ.

(٣) في المخطوطات: همام، قال الشارح: بتشديد الميم آخره راء، أو هبار أو خار..

هانئ، وأم سلمة. كلهم شهدوا أن النبي ﷺ كان يصلي الضحى. انتهى

فأما حديث أبي سعيد فأخرجه الحاكم والترمذي عن عطية العوفي عنه قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى حتى نقول لا يدعها، ويدعها حتى نقول لا يصلها. وقال الترمذي: حسن غريب، لكن قال النووي: عطية ضعيف، فلعله اعتضد.

وأما حديث أبي ذر الغفاري، فرواه البزار في مسنده. وأما حديث زيد بن أرقم، فرواه مسلم بلفظ «إن رسول الله ﷺ كان يصلي من الضحى» الحديث.

وأما حديث أبي هريرة فرواه البزار في مسنده بلفظ: «إن رسول الله ﷺ كان لا يترك الضحى في سفر ولا في غيره. وإسناده ضعيف، فيه يوسف بن خالد السمي ضعيف جداً. وأما حديث بريدة الأسلمي فرواه...»^(١)

وأما حديث أبي الدرداء فرواه الطبراني^(٢). وأما حديث ابن أبي أوفى، فرواه ابن عدي والحاكم بلفظ: قال رأيت رسول الله ﷺ صلى الضحى ركعتين يوم بشر برأس أبي جهل. قال بعض العلماء النافين لرواية المثبتين: هذا الحديث إن كان صحيحاً فهو صلاة شكر وقعت وقت الضحى، كشكره يوم فتح مكة.

وأما حديث عتبان بن مالك، فرواه أحمد من رواية محمود بن الربيع عنه، أن النبي ﷺ صلى في بيته سبحة الضحى.

(١) هكذا. قال الشارح: بيض له المصنف.

(٢) كذا في (ط، ش) وفي المخطوطات: فرواه.

وأما حديث عتبة بن عبد فرواه... (١)،

وأما حديث نعيم بن همار (٢) فرواه... (٣)،

وأما حديث أبي أمامة فرواه... (٤)،

وأما حديث عائشة فرواه مسلم وأحمد وابن ماجه، قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى أربعاً، ويزيد ما شاء الله.

وعن عبد الله بن شقيق قال: سألت عائشة، هل كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى قالت: لا إلا أن يجيء من مغيبه (٥).

وأما حديث أم هانئ، فرواه البخاري ومسلم، قالت: إن النبي ﷺ دخل بيتها يوم فتح مكة فاغتسل وصلى ثماني ركعات، فلم أر صلاة قط أخف منها، غير أنه يتم الركوع والسجود. قالت في رواية أخرى (٦): وذلك ضحى. ولمسلم: أن رسول الله ﷺ صلى في بيتها عام الفتح ثماني ركعات في ثوب واحد، وقد خالف بين طرفيه. وللنسائي: أنها ذهبت إلى النبي ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة تستره بثوب. فسلمت فقال: من هذه؟ قلت: أنا (٧) أم هانئ، فلما

(١) كذا في النسخ، قال الشارح: بيض له المصنف. وفي ط لم يذكر الحديث.

(٢) في المخطوطات: همام.

(٣) كذا في النسخ؛ ولم يذكره في ط، قال الشارح؛ بيض له المصنف، وقد رواه النسائي.

(٤) كذا في النسخ، ولم يذكره في ط، قال الشارح بيض له المصنف، ورواه ابن جرير الطبري.

(٥) رواه مسلم وغيره.

(٦) عند الشيخين.

(٧) «أنا» ليست في الأصل وهي في بقية النسخ.

فرغ من غسله قام فصلى ثماني ركعات ملتحفاً في ثوب واحد. ولأبي داود: أن رسول الله ﷺ يوم الفتح صلى سبحة الضحى ثماني ركعات يسلم من كل ركعتين.

وقد استدل بحديث البخاري ومسلم على استحباب تخفيف صلاة الضحى، وفيه نظر، لاحتمال أن يكون السبب فيه التفرغ لمهمات الفتح لكثرة شغله به، وقد ثبت من فعله ﷺ أنه صلى الضحى فطول فيها، أخرجه ابن أبي شيبة من حديث حذيفة.

وأما حديث أم سلمة فرواه الحاكم من طريق إسحاق بن بشر المحاربي، قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي صلاة الضحى ثنتي عشرة ركعة.

قلت: وروي عن ابن / جبير بن مطعم عن أبيه: أنه رأى أ/٣٥٣ النبي ﷺ يصلي الضحى ست ركعات. رواه الحاكم أيضاً.

وعن أنس بن مالك قال: رأيت رسول الله ﷺ صلى في السفر سبحة الضحى ثماني ركعات. رواه أحمد، وصححه ابن خزيمة والحاكم.

وعن علي: أن رسول الله ﷺ كان يصلي من الضحى، رواه النسائي في سننه الكبرى وأحمد وأبو يعلى، وإسناده جيد.

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان لا يصلي من الضحى إلا يومين، يوم يقدم مكة ويوم يقدم المدينة^(١).

وعن أبي بكرة عند ابن عدي في الكامل من رواية عمرو بن

(١) سقطت هذه الجملة من (أ، د).

عبيد عن الحسن عن أبي بكرة قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الضحى، فجاء الحسن وهو غلام فلما سجد ركب ظهره. الحديث، وعمرو بن عبيد متروك.

وعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ صلى الضحى ست ركعات رواه الحاكم.

قال الشيخ ولي الدي العراقي: وقد ورد فيها أحاديث كثيرة صحيحة مشهورة، حتى قال محمد بن جرير الطبري: إنها بلغت حد التواتر. وقال ابن العربي: وهي كانت صلاة الأنبياء قبل محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم، قال الله تعالى مخبراً عن داود: ﴿إنا سخرننا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق﴾^(١) فأبقى الله تعالى من ذلك في دين محمد «العصر» ونسخ صلاة الإشراق^(٢).

[حجج القائلين بالنفي]

واحتج القائلون بالنفي بحديث عائشة: إن كان رسول الله ﷺ ليدع العمل وهو يجب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم - وما سبح رسول الله ﷺ سبحانه الضحى قط، وإني لأسبحها، رواه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود.

وبحديث مورق العجلي قال: قلت لابن عمر، أتصلي الضحى؟ قال: لا، قلت: فعمرك؟ قال: لا، قلت: فأبو بكر؟ قال: لا، قلت: فالنبي ﷺ؟ قال: لا إخاله. رواه البخاري.

وقوله: «لا إخاله» أي لا أظنه، وهو بكسر الهمزة وتفتح أيضاً، والخاء معجمة.

(١) سورة ص. الآية ١٨.

(٢) هذه الفقرة من قوله «وعن جابر» سقطت من الأصل.

وقول الشعبي: سمعت ابن عمر يقول: ما ابتدع المسلمون أفضل من صلاة الضحى.

وروى عن مجاهد قال: دخلت أنا وعروة بن الزبير المسجد، فإذا ابن عمر جالس عند حجرة عائشة، فإذا الناس في المسجد يصلون صلاة الضحى، فسألناه عن صلاتهم فقال بدعة.

وروى ابن أبي شيبه بإسناد صحيح عن الحكم بن الأعرج قال: سألت ابن عمر عن صلاة الضحى فقال بدعة ونعمت البدعة.

وروى عبد الرزاق بإسناد صحيح عن سالم عن أبيه قال: لقد قتل عثمان وما أحد يسبحها، وما أحدث الناس شيئاً أحب إلي منها.

[الجمع بين النصوص]

وقد جمع العلماء بين هذه الأحاديث، بأنه ﷺ كان لا يداوم على صلاة الضحى مخافة أن تفرض على أمته فيعجزوا عنها، وكان يفعلها كما صرحت به عائشة كما تقدم، وكما ذكرته أم هانئ وغيرها.

وقول عائشة: «ما رأيته صلاحاً» لا يخالف قولها: «كان يصلّيها» لأنه ﷺ كان لا يكون عندها في وقت الضحى إلا في النادر من الأوقات، لأنه قد يكون مسافراً، وقد يكون حاضراً، وفي الحضر قد يكون في المسجد، وقد يكون في بيت من بيوت زوجاته، أو غيره، وما رأيته صلاحاً في تلك الأوقات النادرة، فقالت: ما رأيته، وعلمت بغير رؤية أنه كان يصلّيها بإخباره ﷺ أو بإخبار غيره، فروت ذلك.

وقول ابن عمر: «لا إخاله» فتوقف، وكأن سبب توقفه أنه بلغه عن غيره أنه صلاحاً ولم يثق بذلك عن ذكره.

وأما قوله: «إنها بدعة» فمؤولة على أنه لم تبلغه الأحاديث

المذكورة، أو أراد أنه ﷺ لم يداوم عليها، أو أن إظهارها في المساجد ونحوها بدعة، وإنما هي سنة نافلة في البيوت والله أعلم.

وبالجملة: فليس في أحاديث ابن عمر هذه ما يدفع مشروعية صلاة الضحى، لأن نفيه محمول على عدم رؤيته، لا على عدم الوقوع في نفس الأمر، أو الذي نفاه صفة مخصوصة كما قدمناه. وقد روى ابن أبي شيبه عن ابن مسعود أنه رأى قوماً يصلونها فأنكر عليهم وقال: إن كان ولا بد ففي بيوتكم.

وذهب آخرون إلى استحباب فعلها غباً، فتصلى في بعض الأيام دون بعض، وكان ابن عباس يصلها يوماً ويدعها عشرة أيام.

[القول في ركعاتها وأن فعلها لسبب]

وذهب آخرون: إلى أنها تفعل لسبب من الأسباب، وأنه ﷺ إنما صلاها يوم الفتح من أجل الفتح، وكان الأمراء يسمونها / صلاة الفتح. متمسكين بما قاله القاضي عياض وغيره: أن حديث أم هانئ ليس بظاهر في أنه ﷺ قصد سنة الضحى، وإنما فيه أنها أخبرت عن وقت صلاته فقط، قال: وقد قيل إنها كانت قضاء عما شغل عنه تلك الليلة من حزه فيها.

وتعقبه النووي: بأن الصواب صحة الاستدلال به، لما رواه أبو داود من طريق كريب عن أم هانئ أنه ﷺ صلى سبحة الضحى. ولمسلم: في كتاب الطهارة من طريق أبي مرة عن أم هانئ في قصة اغتساله ﷺ يوم الفتح، ثم صلى ثماني ركعات سبحة الضحى. وروى ابن عبد البر في «التمهيد» من طريق عكرمة بن خالد عن أم هانئ قالت: قدم رسول الله ﷺ مكة فصلى ثماني ركعات، فقلت: ما هذه الصلاة؟ قال: هذه صلاة الضحى.

واستدل به على أن أكثر الضحى ثمان ركعات .

واستبعده السبكي . ووجهه بأن الأصل في العبادة التوقف، وهذا أكثر ما ورد من فعله ﷺ . وقد ورد من فعله دون ذلك كحديث ابن أبي أوفى: أنه ﷺ صلى الضحى ركعتين، أخرجه ابن عدي .

وأما ما ورد من قوله ﷺ مما فيه زيادة على ذلك كحديث أنس مرفوعاً: من صلى الضحى ثنتي عشرة ركعة بنى الله له قصرًا في الجنة أخرجه الترمذي واستغربه وليس في إسناده من أطلق عليه الضعف . ومن ثم قال الروياني: أكثرها ثنتا عشرة ركعة .

وقال النووي في شرح المذهب: فيه حديث ضعيف، كأنه يشير إلى حديث أنس، لكن إذا ضم إليه حديث أبي الدرداء رفعه، وفيه «ومن صلى ثنتي عشرة ركعة بنى الله له بيتاً في الجنة» رواه الطبراني . وحديث أبي ذر عند البزار، وفي إسناده ضعف أيضاً، قوي وصلح للاحتجاج به .

ونقل الترمذي عن أحمد: أن أصح شيء ورد في الباب حديث أم هانئ، وهو كما قال، ولهذا قال النووي في الروضة: أفضلها ثمان، وأكثرها ثنتا عشرة، ففرق بين الأكثر والأفضل .

وأجاب القائلون بأنها لا تفعل إلا لسبب عن قول أبي هريرة المروي في البخاري (أوصاني خليلي ﷺ بثلاث، لا أدعهن حتى أموت، صوم ثلاثة أيام من كل شهر وصلاة الضحى) الحديث، بأنه قد روي أن أبا هريرة كان يختار درس الحديث بالليل على الصلاة، فأمره بالضحى بدلاً عن قيام الليل، ولهذا أمره أن لا ينام إلا على وتر، ولم يأمر بذلك أبا بكر ولا عمر ولا سائر الصحابة . انتهى .

قال الحافظ ابن حجر: وهذه الوصية لأبي هريرة قد ورد مثلها لأبي الدرداء فيما رواه مسلم، ولأبي ذر فيما رواه النسائي، قال: والحكمة في الوصية على المحافظة على ذلك تمرين النفس على جنس الصلاة والصيام ليدخل في الواجب منها بانسراح، ولينجبر ما لعله يقع من نقص.

[فوائد صلاة الضحى]

ومن فوائد صلاة الضحى أنها تجزئ الصدقة التي تصبح على مفصل الإنسان الثلاثمائة وستون مفصلاً، كما أخرج مسلم من حديث أبي ذر، قال فيه: ويجزي من ذلك ركعتا الضحى.

وقد ذكر أصحابنا الشافعية أنها أفضل التطوع بعد الرواتب، لكن النووي في شرح المهذب قدم عليها صلاة التراويح فجعلها في الفضل بين الرواتب والضحى.

وحكى الحافظ أبو الفضل العراقي في شرح الترمذي: أنه اشتهر بين العوام أن من صلى الضحى ثم قطعها يعمى، فصار كثير من الناس يتركها أصلاً لذلك، وليس لما قالوه أصل، بل الظاهر أنه مما ألقاه الشيطان على السنة العوام ليحرمهم الخير الكثير، لاسيما ما وقع في حديث أبي ذر واقتصر في الوصية للثلاثة المذكورين على الثلاثة المذكورة في الحديث، لأن الصلاة والصيام أشرف العبادات البدنية، ولم يكن المذكورون من أصحاب الأموال فكان يجزيهم / من الصدقة على السلامى، كما في الحديث والله أعلم.

ب/٣٥

وروى الحاكم من طريق أبي الخير عن عقبة بن عامر قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلي الضحى بسور منها: ﴿والشمس وضحاها﴾ ﴿والضحى والليل﴾ ومناسبة ذلك ظاهرة جداً والله أعلم.

[الضحى ليست من خصائصه ﷺ]

تنبيه: قال شيخ الإسلام والحفاظ أبو الفضل ابن حجر: قول عائشة في الصحيح «ما رأيت رسول الله ﷺ يسبح سبحة الضحى» يدل على ضعف ما روي عنه ﷺ أن صلاة الضحى كانت واجبة عليه. وقد عدها جماعة من العلماء من خصائصه ﷺ. ولم يثبت ذلك في خبر صحيح.

وقول الماوردي في «الحاوي» إنه ﷺ واظب عليها بعد يوم الفتح إلى أن مات. يعكر عليه ما رواه مسلم من حديث أم هانئ: «أنه لم يصلها قبل ولا بعد» ولا يقال إن نفي أم هانئ لذلك يلزم منه العدم، لأننا نقول: يحتاج من أثبته إلى دليل، ولو وجد لم يكن حجة، لأن عائشة ذكرت أنه كان إذا عمل عملاً أثبته، فلا تستلزم المواظبة على هذا الوجوب عليه، انتهى.

وقال ابن العربي في «عارضه الأحوزي»: أخبرنا أبو الحسن الأزدي أخبرنا طاهر، أخبرنا علي، أخبرنا أبو العباس عبد الله بن عبد الرحمن العسكري، حدثنا الحسين الختني، حدثنا أبو غسان حدثنا قيس عن جابر عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: كتب علي النحر ولم يكتب عليكم وأمرت بصلاة الضحى ولم تؤمروا بها. رواه الدارقطني^(١).

(١) وكذا رواه أحمد والحديث ضعيف من جميع طرقه.

القِسْمُ الثَّانِي

في صلاته ﷺ النوافل وأحكامها
وفيه بابان:

الباب الأول

في النوافل المقرونة بالأوقات

وفيه فصلان:

الفصل الأول

في رواتب الصلوات الخمس والجمعة

وفيه فروع:

[الفرع الأول]

في أحاديث جامعة لرواتب مشتركة

عن نافع عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ كان يصلي قبل الظهر، ركعتين، وبعدها ركعتين، وبعد المغرب ركعتين في بيته، وبعد صلاة العشاء ركعتين، وكان لا يصلي بعد الجمعة حتى ينصرف فيصلي في بيته ركعتين. قال: وأخبرتني حفصة أن رسول الله ﷺ كان إذا سكت المؤذن من الأذان لصلاة الصبح، وبدا له الصبح صلى ركعتين خفيفتين قبل أن تقام الصلاة. رواه البخاري (١).

فهذه عشر ركعات، لأن الركعتين بعد الجمعة لا يجتمعان مع الركعتين بعد الظهر، إلا لعارض، بأن يصلي الجمعة وسنتها التي

(١) القسم الأول من الحديث رواه البخاري في «الجمعة» وروى القسم الثاني في «أبواب التطوع» وكلام المصنف يوهم أن البخاري ساقه في مكان واحد.

بعدها، ثم يتبين له فسادها فيصلي الظهر ويصلي بعدها سنتها كما نبه عليه الشيخ ولي الدين العراقي .

واختلف في دلالة «كان» على التكرار، وصحح ابن الحاجب أنها تقتضيه، قال: وهذا استفدناه من قولهم: كان حاتم يقري الضيف، وصحح الإمام فخر الدين في «المحصول» أنها لا تقتضيه، لا لغة ولا عرفاً، وقال النووي في شرح مسلم، إنه المختار الذي عليه الأكثرون والمحققون من الأصوليين. وذكر ابن دقيق العيد أنها تقتضيه عرفاً.

فعلى هذا: ففي الحديث دلالة على تكرار هذه النوافل من النبي ﷺ وأنه كان دأبه وعادته.

وعن عائشة: كان ﷺ يصلي في بيته قبل الظهر أربعاً ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيصلي ركعتين، وكان يصلي بالناس المغرب ثم يدخل فيصلي ركعتين، ثم يصلي بالناس العشاء ويدخل بيته فيصلي ركعتين، الحديث، وفي آخره: وكان إذا طلع الفجر صلى ركعتين. رواه مسلم. فهذه ثنتا عشرة ركعة.

وعنها: كان ﷺ لا يدع أربعاً قبل الظهر، وركعتين قبل الغداة. وفي رواية: / لم يكن يتركها سراً وعلانية، في سفر ولا حضر ركعتان ٣٥٤/ب قبل الصبح وركعتان بعد العصر. رواه البخاري ومسلم.

[الفرع] الثاني

في ركعتي الفجر

[التأكيد عليهما، وتخفيفهما]

قالت عائشة: لم يكن ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي.

ولمسلم: لهما أحب إلي من الدنيا جميعاً.

وكان يصلّيها إذا سكت المؤذن بعد أن يستنير الفجر ويخففها.
رواه الشيخان وهذا لفظ النسائي.

واختلف في حكمة تخفيفها فقليل: لبيادر إلى صلاة الصبح في أول الوقت، وبه جزم القرطبي، وقيل: ليستفتح صلاة النهار بركعتين خفيفتين، كما كان يصنع في صلاة الليل كما تقدم، ليدخل في الفرض أو ما شابهه في الفضل بنشاط واستعداد تام.

وقد ذهب بعضهم إلى إطالة القراءة فيهما، وهو قول أكثر الحنفية، ونقل عن الشعبي، وأورد البيهقي فيه حديثاً مرفوعاً من مرسل سعيد بن جبير، وفي سننه راو لم يسم، وخص بعضهم ذلك بمن فاتته شيء من قراءته في صلاة الليل، فيستدركها في ركعتي الفجر، وأخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح عن الحسن البصري.

[القراءة فيهما]

وكان كثيراً ما يقرأ في الأولى منها ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾^(١) الآية التي في البقرة، وفي الآخرة ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ إلى قوله: ﴿اشهدوا بأننا مسلمون﴾^(٢).
رواه مسلم وأبو داود والنسائي من رواية ابن عباس.

وفي رواية أبي داود، من حديث أبي هريرة ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ في الركعة الأولى، وبهذه الآية ﴿ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا

(١) سورة البقرة، الآية ١٣٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٦٤.

الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴿١﴾ أو ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً
ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ ﴿٢﴾ قال أبو داود: شك
الراوي .

وقال أبو هريرة: قرأ في ركعتي الفجر ﴿قل يا أيها الكافرون﴾
و﴿قل هو الله أحد﴾ رواه مسلم وأبو داود والترمذي .

وقد روى ابن ماجه بإسناد قوي، عن عبد الله بن شقيق عن
عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي ركعتين قبل الفجر، وكان
يقول: نعم السورتان يقرأ بهما في ركعتي الفجر ﴿قل يا أيها
الكافرون﴾ و﴿قل هو الله أحد﴾ .

ولابن أبي شيبة من طريق ابن سيرين عن عائشة: كان يقرأ
فيهما بهما .

وللترمذي والنسائي من حديث ابن عمر: رمقت النبي ﷺ
شهرًا فكان يقرأ بهما .

وقد استدل بعضهم بهذا على الجهر بالقراءة في ركعتي الفجر،
ولا حجة فيه، لاحتمال أن يكون ذلك عرف بقراءته بعض السورة،
ويدل على ذلك أن في رواية ابن سيرين المذكورة: «يسر فيهما القراءة»
وصححه ابن عبد البر .

واستدل بعضهم أيضاً بهذه الأحاديث المذكورة، على أنه لا
تتعين الفاتحة، لأنه لم يذكرها مع سورتي الإخلاص . وأجيب: بأنه
ترك ذكر الفاتحة لوضوح الأمر فيها . انتهى .

(١) سورة آل عمران، الآية ٥٣ .

(٢) سورة البقرة، الآية ١١٩ .

[الضجعة بعد ركعتي الفجر]

وكان ﷺ إذا صلى ركعتي الفجر اضطجع على شقه الأيمن. رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة.

لأنه ﷺ كان يحب التيمن، وقد قيل: الحكمة فيه أن القلب من جهة اليسار فلو اضطجع عليه لاستغرق نوماً، لكونه أبلغ في الراحة، بخلاف اليمين فيكون القلب معلقاً فلا يستغرق، وهذا إنما يصح بالنسبة إلى غيره ﷺ كما لا يخفي.

وأما ما روي أن ابن عمر رأى رجلاً يصلي ركعتي الفجر ثم اضطجع فقال: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: أردت أن أفصل بين صلاتي فقال له: وأي فصل أفضل من السلام، قال: فإنها سنة، قال: بل بدعة. رواه ابن الأثير في جامعه عن رزين. وكذا ما روي من إنكار ابن مسعود، ومن قول إبراهيم النخعي: إنها ضجعة الشيطان، كما أخرجها ابن أبي شيبه، فهو محمول على أنه لم يبلغهم الأمر بفعله.

وأرجح الأقوال مشروعيته للفصل، لكن لم يداوم ﷺ عليه، ولذا / احتج الأئمة على عدم الوجوب، وحملوا الأمر الوارد بذلك عند أبي داود وغيره على الاستحباب.

وفائدة ذلك: الراحة والنشاط لصلاة الصبح، وعلى هذا فلا يستحب ذلك إلا للمجتهد. وبه جزم ابن العربي. ويشهد لهذا ما رواه عبد الرزاق أن عائشة كانت تقول: إن النبي ﷺ لم يضطجع لسنة، ولكنه كان يدأب ليلته فيستريح. وفيه راو لم يسم.

وقيل: فائدتها الفصل بين ركعتي الفجر وصلاة الصبح، وعلى

هذا فلا اختصاص. ومن ثم قال الشافعي: إن السنة تتأدى بكل ما يحصل به الفصل من مشي وكلام وغيره، حكاه البيهقي.

وقال النووي: المختار أنها سنة لظاهر حديث أبي هريرة، وقد قال أبو هريرة راوي الحديث: إن الفصل بالمشي إلى المسجد يكفي.

وأفراط ابن حزم فقال: يجب على كل أحد، وجعله شرطاً لصحة صلاة الصبح، فرد عليه العلماء بعده، حتى طعن ابن تيمية في صحة الحديث لتفرد عبد الواحد بن زياد به، وفي حفظه مقال، والحق: أنه تقوم به الحجة.

وذهب بعض السلف إلى استحبابها في البيت دون المسجد، وهو محكي عن ابن عمر. وقواه بعض شيوخنا^(١)، بأنه لم ينقل عن النبي ﷺ أنه فعله في المسجد، وضح عن ابن عمر أنه كان يحصب من يفعله في المسجد، أخرج ابن أبي شيبة.

وقال ﷺ: من لم يصل ركعتي الفجر، فليصلها بعدما تطلع الشمس. رواه الترمذي من رواية أبي هريرة.

[الفرع] الثالث

في راتبة الظهر

عن ابن عمر: صليت مع رسول الله ﷺ ركعتين قبل الظهر وركعتين بعدها. رواه البخاري ومسلم والترمذي.

وعن عائشة: كان ﷺ لا يدع أربعاً قبل الظهر، وركعتين قبل صلاة الغداة. رواه البخاري أيضاً.

(١) أي شيوخ ابن حجر لأن هذا الكلام منقول عنه. أنظر فتح الباري

فإما أن يقال: إنه ﷺ كان إذا صلى في بيته صلى أربعاً، وإذا صلى في المسجد صلى ركعتين، وهذا أظهر. وإما أن يقال: كان يفعل هذا وهذا، فحكي كل من عائشة وابن عمر ما شاهده، والحديثان صحيحان لا مطعن في واحد منهما.

وقال أبو جعفر الطبري: الأربع كانت في كثير من أحواله، والركعتان في قليلها. انتهى.

وقد يقال: إن الأربع التي قبل الظهر لم تكن سنة الظهر، بل هي صلاة مستقلة، كان يصليها بعد الزوال. وروى البزار من حديث ثوبان: إنه ﷺ كان يستحب أن يصلي بعد نصف النهار، فقالت عائشة: يا رسول الله، أراك تستحب الصلاة هذه الساعة، قال: تفتح فيها أبواب السماء، وينظر الله تعالى إلى خلقه بالرحمة، وهي صلاة كان يحافظ عليها آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى.

وعن عبد الله بن السائب: كان ﷺ يصلي أربعاً بعد أن تزول الشمس قبل الظهر، وقال: إنها ساعة تفتح لها أبواب السماء، وأحب أن يصعد لي فيها عمل صالح. رواه الترمذي.

وروى الترمذي أيضاً حديث «أربع قبل الظهر وبعد الزوال تحسب بمثلهن في السحر وما من شيء إلا وهو يسبح الله تعالى تلك الساعة» ثم قرأ ﴿يتفياً ظلالة عن اليمين والشمال سجداً لله وهم داخرون﴾^(١).

فهذه - والله أعلم - هي الأربع التي أرادت عائشة أنه كان لا يدعهن. وأما سنة الظهر فالركعتان التي قال ابن عمر. ويوضح هذا

(١) سورة النحل، الآية ٤٨.

أن سائر الصلوات سنتها ركعتان، وعلى هذا فتكون هذه الأربع وردا مستقلاً، سببه انتصاف النهار وزوال الشمس.

وسر هذا - والله أعلم - أن انتصاف النهار مقابل لانصاف الليل، وأبواب السماء تفتح بعد زوال الشمس، ويحصل النزول الإلهي بعد انتصاف الليل، فهما وقت قرب رحمة، هذا فيه تفتح أبواب السماء، وهذا ينزل فيه الرب تبارك وتعالى عن حركة الأجسام.

[الفرع] الرابع

في سنة العصر

عن علي: كان ﷺ يصلي قبل العصر ركعتين. رواه أبو داود^(١).

وعن علي أيضاً: كان ﷺ يصلي قبل العصر أربع ركعات يفصل بينهن بالتسليم على الملائكة المقربين ومن / تبعهم من المسلمين ٣٥٥/ب والمؤمنين. رواه الترمذي^(٢).

وروى مرفوعاً أيضاً حديث «رحم الله امرأً صلى قبل العصر أربعاً»^(٣).

وقالت عائشة: ما كان ﷺ يأتيني في يومي بعد العصر إلا صلى ركعتين، وفي رواية: ما ترك ركعتين بعد العصر عندي قط. رواه البخاري ومسلم.

ومسلم: أن أبا سلمة سأها عن السجديتين اللتين كان يصليهما

(١) بإسناد صحيح.

(٢) وكذا النسائي.

(٣) حسنه الترمذي، ورواه أيضاً: أحمد وأبو داود وصححه ابن حبان. من حديث ابن عمر.

بعد العصر فقالت: كان يصليهما قبل العصر، ثم إنه شغل عنهما ونسيهما فصلاهما بعد العصر، ثم أثبتهما، وكان إذا صلى صلاة أثبتتها، تعني داوم عليها.

ولأبي داود، قالت: كان يصلي بعد العصر ركعتين وينهي عنهما، ويواصل وينهي على الوصال^(١).

وقال ابن عباس: إنما صلى ﷺ ركعتين بعد العصر، لأنه اشتغل بقسمة مال أتاه عن الركعتين اللتين بعد الظهر فقضاهما بعد العصر، ثم لم يعد لهما. رواه الترمذي.

وقالت أم سلمة: سمعته ﷺ ينهي عنهما، ثم رأيت يصليهما حين صلى العصر، ثم سألته عنهما فقال: إنه أتاني أناس من عبد القيس بالإسلام فشغلوني عن الركعتين بعد الظهر، فهما هاتان، الحديث^(٢). وفيه: أن ابن عباس قال: كنت أضرب مع عمر بن الخطاب الناس عنهما.

قال ابن القيم: قضاء السنن الرواتب في أوقات النهي عام له ولأمته، وأما المداومة على تلك الركعتين في وقت النهي فخاص به، قال: وقد عد هذا من خصائصه. انتهى.

والدليل عليه رواية عائشة: كان يصلي ركعتين بعد العصر وينهي عنهما ويواصل وينهي عن الوصال. لكن قال البيهقي: الذي اختص به ﷺ المداومة على ذلك، لا أصل القضاء.

وأما رواية ابن عباس عند الترمذي: أنه إنما صلاهما بعد العصر

(١) أي في الصيام.

(٢) متفق عليه.

لأنه اشتغل بقسمة مال أتاها. فهو من رواية جرير عن عطاء، وقد سمع منه بعد اختلاطه، وإن صح فهو شاهد لحديث أم سلمة، لكن ظاهر قوله: «ثم لم يعد» معارض لحديث عائشة المذكور في الباب، فيحمل النفي على نفي علم الراوي، فإنه لم يطلع على ذلك، والمثبت مقدم على النافي.

وكذا ما رواه النسائي من طريق أبي سلمة، عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ صلى في بيتها بعد العصر ركعتين مرة واحدة، الحديث، وفي رواية له عنها: لم أراه يصليهما قبل ولا بعد. فيجمع بين الحديثين بأنه ﷺ لم يكن يصليهما إلا في بيته، فلذلك لم يره ابن عباس ولا أم سلمة. ويشير إلى ذلك قول عائشة في رواية: «وكان لا يصليهما في المسجد مخافة أن يثقل على أمته».

ومراد عائشة بقولها: «ما كان في يومي بعد العصر إلا صلى ركعتين» من الوقت الذي شغل عن الركعتين بعد الظهر فصلاهما. ولم ترد أنه كان يصلي بعد العصر من أول ما فرضت الصلوات مثلاً إلى آخر عمره، والله أعلم.

[الفرع] الخامس

في راتبة المغرب

عن ابن مسعود قال: ما أحصي ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في الركعتين بعد المغرب، وفي الركعتين قبل صلاة الفجر بـ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و﴿قل هو الله أحد﴾ رواه الترمذي.

وعن ابن عباس: كان ﷺ يطيل القراءة في الركعتين بعد المغرب حتى يتفرق أهل المسجد، رواه أبو داود.

وكان أصحابه عليه السلام يصلون ركعتين قبل المغرب قبل أن يخرج إليهم ﷺ. رواه البخاري ومسلم وأبو داود من حديث أنس. وفي رواية أبي داود، قال أنس: رأنا ﷺ فلم يأمرنا ولم ينهنا. وقال عقبه: كنا نفعله على عهد، ﷺ. رواه البخاري ومسلم.

وظاهره: أن الركعتين بعد الغروب وقبل صلاة المغرب كان أمراً قرر أصحابه عليه، وعملوا به^(١)، وهذا يدل على الاستحباب، وأما كونه ﷺ لم يصلها فلا ينفي الاستحباب، بل يدل على أنها ليسا من الرواتب، وإلى استحبابها ذهب أحمد / وإسحاق وأصحاب الحديث. أ/٣٥٦

وعن ابن عمر: ما رأيت أحداً يصلها على عهد ﷺ^(٢).

وعن الخلفاء الأربعة وجماعة من الصحابة أنهم كانوا لا يصلونها^(٣).

فادعى بعض المالكية نسخها، وتعقب: بأن دعوى النسخ لا دليل عليها، ورواية المثبت - وهو أنس - تقدم على رواية النافي - وهو ابن عمر -.

وعن سعيد بن المسيب أنه كان يقول: حق على كل مؤمن إذا أذن المؤذن أن يركع ركعتين. وعن مالك قول آخر باستحبابها، وهو عند الشافعية وجه رجحه النووي ومن تبعه، وقال في شرح مسلم: قول من قال: «إن فعلها يؤدي إلى تأخير المغرب عن أول وقتها» خيال فاسد منابذ لللسنة، ومع ذلك فزمنها يسير، لا تتأخر به الصلاة عن أول وقتها. ومجموع الأدلة يرشد إلى استحباب تحفيفها.

(١) هذه الجملة ليست في ش .

(٢) رواه أبو داود بإسناد حسن.

(٣) رواه عنهم محمد بن نصر وغيره، وهو منقطع.

وقال ﷺ: «صلوا قبل المغرب ركعتين لمن شاء» خشية أن يتخذها الناس سنة. رواه أبو داود^(١).

قال المحب الطبري: لم يرد نفي استحبابها، لأنه لا يمكن أن يأمر بما لا يستحب، بل هذا الحديث من أدل^(٢) الأدلة على استحبابها.

ومعنى قوله: «سنة» أي شريعة وطريقة لازمة.

وكأن المراد انحطاط مرتبتها عن رواتب الفرائض، ولهذا لم يعدها أكثر الشافعية في الرواتب، واستدركها بعضهم. وتعقب: بأنه لم يثبت أنه ﷺ واظب عليهما.

وقال ﷺ في الصلاة بعد المغرب: هذه صلاة البيوت، رواه أبو داود والنسائي من حديث كعب بن عجرة.

وعنه ﷺ: من صلى بعد المغرب ركعتين قبل أن يتكلم رفعت صلاته في عليين. رواه رزين^(٣).

[الفرع] السادس

في راتبة العشاء

قالت عائشة: ما صلى رسول الله ﷺ العشاء قط فدخل بيتي إلا صلى أربع ركعات، أو ست ركعات. رواه أبو داود.

وفي مسلم قالت عائشة: ثم يصلي بالناس العشاء فيدخل بيتي

(١) وفي البخاري، «صلوا قبل المغرب» قال في الثالثة «لمن شاء».

(٢) في ش: أقوى.

(٣) قال الحافظ العراقي: سنده ضعيف.

فيصلي ركعتين. وكذا في حديث ابن عمر عند الشيخين. وتقدما أول هذا القسم، والله أعلم.

[الفرع] السابع

في راتبة الجمعة

عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ كان يصلي قبل الظهر ركعتين، وبعدها ركعتين، وبعد المغرب ركعتين في بيته، وبعد العشاء ركعتين، وكان لا يصلي بعد الجمعة حتى ينصرف فيصلي ركعتين. رواه البخاري ولم يذكر شيئاً في الصلاة قبل صلاة الجمعة.

قال ابن المنير - كما حكاه في فتح الباري -: كأنه يقول الأصل استواء الظهر والجمعة حتى يدل دليل على خلافه، لأن الجمعة بدل الظهر.

وقال ابن بطال: إنما أعاد ابن عمر ذكر الجمعة بعد ذكر الظهر من أجل أنه كان ﷺ يصلي سنة الجمعة في بيته بخلاف الظهر، قال: والحكمة فيه أن الجمعة لما كانت بدل الظهر واقتصر فيها على ركعتين ترك التنفل بعدها في المسجد خشية أن يظن أنها التي حذفت. انتهى. وعلى هذا فينبغي أن لا يتنفل قبلها ركعتين متصلتين بها في المسجد لهذا المعنى.

وقد روى أبو داود وابن حبان من طريق أيوب عن نافع قال: كان ابن عمر يطيل الصلاة قبل الجمعة ويصلي بعدها ركعتين في بيته، ويحدث أن النبي ﷺ كان يفعل ذلك، وقد احتج به النووي في «الخلاصة» على إثبات سنة الجمعة التي قبلها.

وتعقب: بأن قوله: «كان يفعل ذلك» عائد على قوله: «ويصلي»

بعد الجمعة ركعتين في بيته»، ويدل عليه رواية الليث عن نافع عن عبد الله: أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فسجد سجدتين في بيته ثم قال: كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك. رواه مسلم.

وأما قوله: «كان يطيل الصلاة قبل الجمعة» فإن كان المراد بعد دخول الوقت فلا يصح أن يكون مرفوعاً، لأنه ﷺ كان يخرج إذا زالت الشمس / فيشتغل بالخطبة ثم بصلاة الجمعة، وإن كان المراد قبل دخول الوقت فذلك مطلق نافلة لا صلاة راتبة، فلا حجة فيه لسنة الجمعة التي قبلها، بل هو تنفل مطلق.

وقد أنكر جماعة كون الجمعة لها سنة قبلها، وبالغوا في الإنكار منهم: الإمام شهاب الدين أبو شامة، لأنه لم يكن يؤذن للجمعة إلا بين يديه ﷺ وهو على المنبر، فلم يكن يصلها، وكذلك الصحابة لأنه إذا خرج الإمام انقطعت الصلاة. قال ابن العراقي: ولم أر في كلام الفقهاء من الحنفية والمالكية استحباب سنة الجمعة التي قبلها. انتهى.

وقد ورد في سنة الجمعة التي قبلها أحاديث أخرى ضعيفة، منها عن أبي هريرة، رواه البزار، ولفظه: كان يصلي قبل الجمعة أربعاً وبعدها أربعاً.

وأقوى ما يتمسك به في مشروعية الركعتين قبل الجمعة عموم ما صححه ابن حبان من حديث عبد الله بن الزبير مرفوعاً: «ما من صلاة مفروضة إلا وبين يديها ركعتان». قاله في فتح الباري.

وعن عطاء قال: كان ابن عمر إذا صلى الجمعة بمكة تقدم فصلي ركعتين ثم يتقدم فيصلي أربعاً، وإذا كان بالمدينة صلى الجمعة ثم رجع إلى بيته فيصلي ركعتين ولم يصل في المسجد، فقيل له: فقال: كان رسول الله ﷺ يفعله. رواه أبو داود.

وفي رواية الترمذي: قال: رأيت ابن عمر صلى بعد الجمعة ركعتين ثم صلى بعد ذلك أربعاً.

وعن ابن عمر أيضاً قال: كان رسول الله ﷺ يصلي بعد الجمعة ركعتين. رواه النسائي، وفي رواية أنه كان يصلي بعد الجمعة ركعتين في بيته. وفي أخرى: أن ابن عمر كان يصلي بعد الجمعة ركعتين يطيل فيهما ويقول: كان رسول الله ﷺ يفعله.

وتقدم حديث دخول سليك الغطفاني يوم الجمعة، وهو ﷺ يخطب، وقوله ﷺ له: صليت؟ قال: لا، قال: قم فاركع ركعتين. مع ما فيه من المباحث في صلاة الجمعة.

الفصل الثاني

في صلاته ﷺ العيدين

وفيه فروع:

[الفرع] الأول

في عدد الركعات

عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ خرج يوم عيد فصلى ركعتين لم يصل قبلهما ولا بعدهما، ثم أتى النساء وبلال معه، فأمرهن بالصدقة، فجعلت المرأة تتصدق بخرصها وسخابها^(١). وفي رواية: خرج يوم أضحى أو فطر، وفي أخرى: أن النبي ﷺ صلى يوم الفطر ركعتين. الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

[الفرع] الثاني

في عدد التكبير

عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يكبر في الفطر والأضحى، في الأولى سبع تكبيرات، وفي الثانية: خمس تكبيرات. زاد في رواية: سوى تكبير الإحرام والركوع.

(١) الخرص: حلقة صغيرة من ذهب، وقيل هو القرط. والسخاب: قلادة من عنبر أو قرنفل أو غيره، وقيل: هو خيط فيه خرز.

وعن كثير بن عبدالله عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ كبر في العيدين، في الأولى سبعاً قبل القراءة، وفي الأخرى خمساً قبل القراءة. رواه الترمذي وابن ماجه والدارمي.

[الفرع] الثالث

في الوقت والمكان

عن أبي سعيد الخدري قال: كان النبي ﷺ يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلى، فأول شيء يبدأ به الصلاة. الحديث رواه البخاري ومسلم.

وفي هذا دليل لمن قال باستحباب الخروج لصلاة العيد إلى المصلى، وأنه أفضل من صلاتها في المسجد، لمواظبته ﷺ على ذلك، مع فضل مسجده، وعلى هذا عمل الناس في الأمصار. وأما أهل مكة فلا يصلونها إلا في المسجد من الزمن الأول. ولأصحابنا الشافعية وجهان: أحدهما، الصحراء أفضل لهذا الحديث، والثاني: وهو الأصح عند أكثرهم، المسجد أفضل إلا أن يضيق، قالوا: وإنما صلى أهل مكة في المسجد لسعته، وإنما خرج النبي ﷺ لضيق المسجد، فدل على / أن المسجد أفضل إذا اتسع. ١/٣٥٧

والمراد بالمصلى المذكور، الذي على باب المدينة الشرقي.

قال ابن القيم: ولم يصل العيد بمسجده إلا مرة واحدة، أصابهم مطر فصلى بهم العيد في المسجد، إن ثبت الحديث، وهو في سنن أبي داود وابن ماجه. انتهى.

ولفظ أبي داود: عن أبي هريرة قال: أصابنا مطر في يوم فطر فصلى بنا رسول الله ﷺ في المسجد. زاد رزين: ولم يخرج بنا إلى المصلى.

[الفرع] الرابع

في الأذان والإقامة

عن جابر بن سمرة قال: صليت مع رسول الله ﷺ العيدين غير مرة ولا مرتين بغير أذان ولا إقامة. رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ صلى العيد بلا أذان ولا إقامة. رواه أبو داود.

[الفرع] الخامس

في قراءته ﷺ في صلاة العيدين

عن أبي واقد الليثي قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الأضحى والفطر بـ ﴿ق والقرآن المجيد﴾ و﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾. رواه مسلم ومالك وأبو داود والترمذي.

وعن النعمان بن بشير قال: كان النبي ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ و﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأ بهما. رواه مسلم ومالك وأبو داود والترمذي والنسائي.

[الفرع] السادس

في خطبته ﷺ وتقديمه صلاة العيدين عليها

عن ابن عمر: كان رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر يصلون العيدين قبل الخطبة. رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

وعن جابر: أنه ﷺ خرج يوم الفطر، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة.

وفي رواية: قام فبدأ بالصلاة ثم خطب الناس فلما فرغ نزل فأق النساء فذكرهن، وهو يتوكأ على يد بلال، وبلال باسط ثوبه تلقي فيه النساء الصدقة.

وفي أخرى، قال: شهدت مع رسول الله ﷺ العيد، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة، بلا أذان ولا إقامة، ثم قام متوكأ على بلال، فأمر بتقوى الله، وحث على طاعته، ووعظ الناس وذكرهم، ثم مضى حتى أتى النساء فوعظهن وذكرهن فقال: تصدقن، فإن أكثرن حطب جهنم، فقامت امرأة من وسط النساء سفعاء الخدين^(١) فقالت: لم يا رسول الله؟ قال: لأنكن تكثرن الشكاة وتكفرن العشير. قال: فجعلن يتصدقن من حليهن ويلقن في ثوب بلال من أقراطهن وخواتيمهن^(٢). رواه البخاري ومسلم.

وفي رواية أبي سعيد الخدري عند البخاري: فأول شيء يبدأ به الصلاة، ثم ينصرف فيقوم مقابل الناس، والناس على صفوفهم، فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم، فإن كان يريد أن يقطع بعثاً قطعه، أو يأمر بشيء أمر به، ثم ينصرف. قال أبو سعيد: فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجت مع مروان، وهو أمير المدينة في أضحى أو فطر، فلما أتينا المصلى إذا منبر بناه كثير بن الصلت، فإذا مروان يريد أن يرتقيه، فقلت له: غيرتم والله. الحديث^(٣).

ولابن خزيمة: خطب ﷺ يوم عيد على رجله.

وهذا يشعر بأنه لم يكن في المصلى في زمانه ﷺ منبر، ويدل على

(١) أي في خديها سواد.

(٢) كذا في المخطوطات وفي البخاري الحديث ٩٧٩، وفي (ط، ش) خواتمهن

(٣) الحديث في البخاري برقم ٩٥٦.

ذلك قول أبي سعيد: «فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجت مع مروان» ومقتضاه أو أول من اتخذه مروان.

ووقع في المدونة للإمام مالك: أن أول من خطب الناس في المصلى على منبر عثمان بن عفان، كلمهم على منبر / من طين بناه كثير ابن الصلت، لكنه معضل، وما في الصحيحين أصح، فقد رواه مسلم من طريق داود بن قيس نحو رواية البخاري. ويحتمل أن يكون عثمان فعل ذلك مرة ثم تركه حتى أعاده مروان ولم يطلع على ذلك أبو سعيد. قاله شيخ الإسلام ابن حجر رحمه الله تعالى.

[الفرع السابع]

في أكله ﷺ يوم الفطر قبل خروجه إلى الصلاة

عن أنس: كان رسول الله ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات. رواه البخاري وقال: مرجأ بن رجاء حدثني عبيد الله حدثني أنس عن النبي ﷺ: ويأكلهن وترأ.

ورواه الحاكم من رواية عتبة بن حميد عنه بلفظ: ما خرج يوم فطر حتى يأكل تمرات، ثلاثاً أو خمساً أو سبعمائة أو أقل من ذلك أو أكثر وترأ.

[الحكمة من الأكل]

قال المهلب: الحكمة في الأكل قبل الصلاة، أن لا يظن ظان لزوم الصوم حتى يصلي العيد، فكأنه أراد سد هذه الذريعة.

وقال غيره: لما وقع وجوب الفطر عقب وجوب الصوم استحباب تعجيل الفطر مبادرة إلى امتثال أمر الله تعالى، ويشعر بذلك اقتصاره

على القليل من ذلك، ولو كان لغير الامتثال لأكل قدر الشبع، أشار إلى ذلك ابن أبي جمرة.

وقيل: لأن الشيطان الذي يجبس في رمضان لا يطلق إلا بعد صلاة العيد فاستحب تعجيل الفطر بداراً إلى السلامة من وسوسته.

والحكمة في استحباب التمر لما في الحلو من تقوية البصر الذي يضعفه الصوم، ولأن الحلو مما يوافق الإيمان ويعبر به في المنام^(١)، ويرق القلب، ومن ثم استحب بعض التابعين أن يفطر على الحلو مطلقاً كالعسل. رواه ابن أبي شيبة عن معاوية بن قره وابن سيرين وغيرهما.

وفي الترمذي والحاكم من حديث بريدة قال: كان رسول الله ﷺ لا يخرج يوم الفطر حتى يطعم ولا يطعم يوم الأضحى حتى يصل، ونحوه عند البزار عن جابر بن سمرة. وروى الطبراني والدارقطني من حديث ابن عباس قال: من السنة أن لا يخرج يوم الفطر حتى يخرج الصدقة ويطعم شيئاً قبل أن يخرج. وفي كل من الأسانيد الثلاثة مقال.

وقد أخذ أكثر الفقهاء بما دلت عليه. قال ابن المنير: وقع أكله ﷺ في كل من العيدين في الوقت المشروع لإخراج صدقتها الخاصة بهما، فأخرج صدقة الفطر قبل الغدو إلى المصلى، وإخراج صدقة الأضحى بعد ذبحها، فاجتمعا من جهة، وافترقا من أخرى.

[المشي إلى صلاة العيد]

وقال الشافعي في الأم: بلغنا عن الزهري قال: ما ركب رسول

(١) أي فمن رأى في منامه أنه يأكل الحلوى، عبرت بقوة إيمانه.

الله ﷺ في عيد ولا جنازة قط. وفي الترمذي عن علي قال: من السنة أن يخرج إلى العيد ماشياً، وفي ابن ماجه عن سعد القرظي (١) أنه ﷺ كان يخرج إلى العيد ماشياً، وفيه عن أبي رافع نحوه، وأسانيد الثلاثة ضعاف.

وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج يوم العيد في طريق رجع في غيره. رواه الترمذي.

وقد اختلف في معنى ذلك على أقوال كثيرة، قال الحافظ ابن حجر: اجتمع لي منها أكثر من عشرين، وقد لخصتها وبينت الواهي منها.

فمن ذلك: أنه فعل ذلك ليشهد له الطريقان، وقيل: سكانها من الجن والإنس، وقيل: ليسوي بينهما في مزية الفضل بمروره وفي التبرك، أو ليشم رائحة المسك من الطريق التي يمر بها لأنه كان معروفاً بذلك. وقيل: لأن طريقه إلى المصلى كانت على اليمين، فلو رجع منها لرجع على جهة الشمال فرجع من غيرها. وهذا يحتاج إلى دليل.

وقيل؛ لإظهار شعائر الإسلام فيهما، وقيل: لإظهار ذكر الله، وقيل: ليغيب المنافقين أو اليهود، وقيل / حذراً من كيد الطائفتين أو ٣٥٨/أ احداهما، وقيل ليعمهم بالسرور به أو التبرك بمروره والانتفاع به في قضاء حوائجهم في الاستفتاء أو التعليم والاقْتداء، والاسترشاد والسلام عليهم أو غير ذلك، وقيل ليزور أقاربه الأحياء والأموات، وقيل: ليصل رحمه، وقيل ليتفاءل بتغيير الحال إلى المغفرة والرضا، وقيل: كان يتصدق في ذهابه فإذا رجع لم يبق معه شيء فيرجع في

(١) في (١، ش): القرظ.

طريق آخر لثلا يرد من يسأله. وهذا ضعيف جداً مع احتياجه إلى دليل.

وقيل فعل ذلك لتخفيف الزحام، وهذا رجحه الشيخ أبو حامد، وقيل كان طريقه التي يتوجه منها أبعد من التي يرجع فيها، فأراد تكثير الأجر بتكثير الخطأ في الذهاب، وأما في الرجوع فيسرع إلى منزله، وهذا اختيار الرافعي. وتعقب بأنه يحتاج إلى دليل وبأن أجر الخطأ في الرجوع أيضاً، كما ثبت في حديث أبي بن كعب عند الترمذي وغيره، وقيل: لأن الملائكة تقف في الطرقات فأراد أن يشهد له فريقان منهم.

وقال ابن أبي جرة: هو في معنى قول يعقوب لبينه: لا تدخلوا من باب واحد، فيُشار إلى أنه فعل حذر إصابة العين. انتهى

[خروج النساء إلى صلاة العيد]

وكان ﷺ يخرج الأبيكار والعواتق وذوات الخدور والحيض في العيدين، فأما الحيض فيعتزلن المصلى ويشهدن دعوة المسلمين. قالت إحداهن: يا رسول الله إحدانا لم يكن لها جلباب، قال: فلتعرها أختها من جلابيبها. رواه البخاري ومسلم والترمذي واللفظ له.

ولا دلالة فيه على وجوب صلاة العيد، لأن من جملة من أمر بذلك من ليس بمكلف، فظهر أن القصد منه إظهار شعائر الإسلام بالمبالغة في الاجتماع، ولتعم الجميع البركة.

وفيه: استحباب خروج النساء إلى شهود العيد، سواء كن شواب أم لا، أو ذوات هيئات أم لا، لكن نص الشافعي في الأم

يقتضي استثناء ذوات الهيئات . قال : وأحب شهود العجائز غير ذوات الهيئات الصلاة . وأما شهودهن الأعياد فأشد استحباباً .

وادعى بعضهم النسخ فيه ، وقال الطحاوي : وأمره ﷺ بخروج الحيض وذوات الخدور إلى العيد يحتمل أن يكون في أول الإسلام ، والمسلمون قليل ، فأريد التكثير بحضورهن إرهاباً للعدو . وأما اليوم فلا يحتاج إلى ذلك .

وتعقب : بأن النسخ لا يثبت بالاحتمال ، وقد صرح في حديث أم عطية بعلّة الحكم ، وهي شهودهن الخير ودعوة المسلمين ، ورجاء بركة ذلك اليوم وطهرته ، وقد أفتت به أم عطية بعد النبي ﷺ بمدة ، ولم يثبت عن أحد من الصحابة مخالفتها في ذلك .

وأما قول عائشة : «لو رأى النبي ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المساجد»^(١) فلا يعارض ذلك لندوره ، إن سلمنا أن فيه دلالة على أنها أفتت بخلافه ، مع أن الدلالة منه بأن عائشة أفتت بالمنع ليست صريحة .

وفي قول الطحاوي : «إرهاباً للعدو» نظر ، لأن الاستنصار بالنساء والتكثير بهن في الحرب دال على الضعف .

والأولى : أن يخص ذلك بمن يؤمن عليها وبها الفتنة ، فلا يترتب على حضورها محذور ، ولا تترحم الرجال في الطرق ولا في المجمع . قاله في فتح الباري .

وكان ﷺ يخرج العنزة^(٢) يوم الفطر والأضحى يكرزها فيصلي إليها . رواه النسائي وغيره .

(١) متفق عليه .

(٢) هي الحربة القصيرة .

[أعياد المسلمين]

وإذا علمت هذا فاعلم أن للمؤمنين في هذه الدار ثلاثة أعياد، عيد يتكرر كل أسبوع، وعيدان يأتيان في كل عام مرة من غير تكرار في السنة.

فأما العيد المتكرر فهو يوم الجمعة، وهو عيد الأسبوع، وهو مرتب على إكمال الصلوات المكتوبات [من الله تعالى] (١) فشرع لهم فيه عيداً.

وأما العيدان اللذان لا يتكرران في كل عام، وإنما يأتي كل واحد / منهما في العام مرة واحدة:

فأحدهما: عيد الفطر من صوم رمضان، وهو مرتب على إكمال صيام رمضان، وهو الركن الثالث من أركان الإسلام ومبانيه، فإذا أكمل المسلمون صيام شهر رمضان المفروض عليهم استوجبوا من الله المغفرة والعتق من النار، فإن صيامه يوجب مغفرة ما تقدم من الذنب، وآخره عتق من النار يعتق الله فيه من النار من استحقها بذنوبه، فشرع الله تعالى لهم عقب صيامهم عيداً يجتمعون فيه على شكر الله تعالى وذكره وتكبيره على ما هداهم له، وشرع لهم في ذلك العيد الصلاة والصدقة، وهو يوم الجوائز يستوفي فيه الصائمون أجر صيامهم ويرجعون بالمغفرة.

والعيد الثاني عيد النحر: وهو أكبر العيدين وأفضلهما، وهو مرتب على إكمال الحج وهو الركن الرابع من أركان الإسلام ومبانيه، فإذا أكمل المسلمون حجهم غفر لهم، وإنما يكمل الحج بيوم عرفة،

(١) كذا في النسخ وليست في الأصل.

فإن الوقوف بعرفة ركن الحج الأعظم، ويوم عرفة هو يوم العتق من النار، فيعتق الله فيه من النار من وقف بعرفة ومن لم يقف بها من أهل الأمصار من المسلمين، فلذلك صار اليوم الذي يليه عيداً لجميع المسلمين في جميع أمصارهم، من شهد الموسم منهم ومن لم يشهد، لاشتراكهم في العتق والمغفرة يوم عرفة، وشرع للجميع التقرب إليه تعالى بالنسك بإراقة دماء ضحاياهم، فيكون ذلك اليوم شكراً منهم لهذه النعمة، والصلاة والنحر الذي يجتمع في عيد النحر أفضل من الصلاة والصدقة في عيد الفطر، ولهذا أمر رسول الله ﷺ أن يجعل شكره لربه على إعطائه الكوثر أن يصلي لربه وينحر.

وقد ضحى ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمى وكبر. رواه البخاري من حديث أنس، قال: ورأيتُه واضعاً قدميه على صفاحهما، يقول: بسم الله والله أكبر.

وعن عائشة: أنه ﷺ أمر بكبش يطأ في سواد، ويرك في سواد^(١)، فأتي به ليضحى به، قال: يا عائشة، هلمي المدية، ثم قال: اشحذها بحجر ففعلت، ثم أخذها وأخذ الكبش فأضجعه ثم ذبحه، قال: بسم الله اللهم تقبل عن محمد وآل محمد ومن أمة محمد، ثم ضحى به. رواه مسلم.

وعن جابر: ذبح النبي ﷺ يوم النحر كبشين أقرنين أملحين موجوعين^(٢)، فلما وجههما قال: إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض، على ملة إبراهيم حنيفاً، وما أنا من المشركين، إن

(١) يطأ في سواد: أي قوائمه سود، ويرك في سواد: أي أن ملاقى محل بروكه على الأرض من بدنه أسود.

(٢) أي مخصيين. ووجأ بمعنى قطع.

صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك عن محمد وأمته، بسم الله والله أكبر، ثم ذبح. رواه البخاري وأبو داود وابن ماجه والدارمي.

وفي رواية لأحمد والترمذي: ذبح بيده وقال: بسم الله والله أكبر، اللهم إن هذا عني وعمن لم يضح من أمتي.

فهذه أعياد المسلمين في الدنيا، وكلها عند إكمال طاعات مولاهم الملك الوهاب، وحيازتهم لما وعدهم من جزيل الأجر والثواب، فليس العيد لمن لبس الجديد، وإنما العيد لمن طاعته تزيد، وليس العيد لمن تجمل باللباس والمركوب، وإنما العيد لمن غفرت له الذنوب، في ليلة العيد تفرق خلع العتق والمغفرة على العبيد، فمن ناله منها شيء فهو له عيد، وإلا فهو مطرود بعيد.

وأما أعياد المؤمنين في الجنة، فهي أيام زيارتهم ربهم عز وجل، فيزورونه ويكرمهم غاية الإكرام، ويتجلى لهم فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً هو أحب إليهم من ذلك وهو الزيارة، فليس للمحب عيد سوى قرب محبوبه.

إن يوماً جامعاً شملي بهم ذاك عيدي ليس لي عيد سواء

الباب الثاني

في النوافل المقرونة بالأسباب

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول

في صلاته ﷺ الكسوف

الكسوف لغة: التغير إلى السواد، يقال: كسفت الشمس: إذا اسودت وذهب شعاعها.

[الكسوف وعلم الفلك]

أ/٣٥٩ عن قبيصة بن المخارق قال: كسفت / الشمس على عهد رسول الله ﷺ فخرج فزعاً يجر ثوبه وأنا معه يومئذ بالمدينة، فصلى ركعتين فأطال فيهما القيام، ثم انصرف وانجلت، ثم قال: إنما هذه الآية يخوف الله بها عباده، فإذا رأيتموها فصلوا. رواه أبو داود والنسائي.

وفي قوله: ﷺ «يخوف الله بها عباده» رد على من يزعم من أهل الهيئة أن الكسوف أمر عادي لا يتأخر ولا يتقدم، إذ لو كان كما يقولون لم يكن في ذلك تخويف.

وقد رد عليهم ابن العربي وغيره، بما في حديث أبي موسى عند البخاري، حيث قال فيه: «فقام فزعاً يخشى أن تكون الساعة» قالوا:

فلو كان الكسوف بالحساب لم يقع الفزع، ولو كان بالحساب لم يكن للأمر بالعتق والصدقة والصلاة معنى، يعني كما في حديث أسماء عند البخاري «لقد أمر النبي ﷺ بالعتاقة في كسوف الشمس» وكما عنده أيضاً من حديث عائشة مرفوعاً «إذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا» فإن ظاهر الأحاديث أن ذلك يفيد التخويف، وأن كلما ذكر من أنواع الطاعات يرجى أن يندفع به ما يخشى من أثر ذلك الكسوف.

ومما نقض به ابن العربي وغيره أنهم يزعمون: أن الشمس لا تنكسف على الحقيقة وإنما يحول القمر بينها وبين أهل الأرض عند اجتماعهما في العقدتين. فقال: «هم يزعمون أن الشمس أضعاف القمر في الجرم فكيف يحجب الصغير الكبير إذا قابله؟ أم كيف يظلم الكثير بالقليل لا سيما وهو من جنسه؟ وكيف تحجب الأرض نور الشمس.

وقد وقع في حديث النعمان بن بشير وغيره للكسوف سبب آخر غير ما يزعم أهل الهيئة، وهو ما أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه، وصححه ابن خزيمة والحاكم، بلفظ: إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنها آيتان من آيات الله، وإن الله إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له.

وقد استشكل الغزالي هذه الزيادة، وقال: أنها لم تثبت، فيجب تكذيب ناقلها، قال: ولو صحت لكان تأويلها أهون من مكابرة أمور قطعية لا تصادم أصلاً من أصول الشريعة.

وقال ابن بزبزة: وهذا عجب منه، كيف يسلم دعوى الفلاسفة

ويزعم أنها لا تصادم الشريعة، مع أنها مبنية على أن العالم كروي^(١) الشكل، وظاهر الشرع يعطي خلاف ذلك والثابت من قواعد الشرع أن الكسوف أثر الإرادة القديمة وفعل الفاعل المختار، فيخلق في هذين الجرمين النور متى شاء والظلمة متى شاء من غير توقيف على سبب أو ربط باقتران، والحديث الذي رده الغزالي قد أثبتته غير واحد من أهل العلم، وهو ثابت من حيث المعنى أيضاً، لأن النورية والإضاءة من عالم الجمال الحسي، فإذا تجلت صفة الجلال انطمست الأنوار لهيئته، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً﴾^(٢)، انتهى.

ويؤيد هذا الحديث ما روينه عن طاوس أنه نظر إلى الشمس وقد انكسفت فبكى حتى كاد أن يموت، وقال: هي أخوف لله منا.

وقال ابن دقيق العيد: ربما يعتقد بعضهم أن الذي يذكره أهل الحساب ينافي قوله: «يخوف الله بهما عباده»، وليس بشيء، لأن الله تعالى أفعالاً على حسب العادة، وأفعالاً خارجة عن ذلك، وقدرته حاکمة على كل سبب، يقتطع ما يشاء من الأسباب والمسببات بعضها عن بعض، وإذا ثبت ذلك فالعلماء بالله لقوة اعتقادهم في عموم قدرته على خرق العادة وأنه يفعل ما يشاء إذا وقع شيء غريب، حدث عندهم الخوف لقوة الاعتقاد، وذلك لا يمنع أن يكون هناك أسباب تجري عليها العادة إلى أن يشاء الله خرقها.

وحاصله: أن الذي يذكره أهل الحساب إن كان حقاً في نفس الأمر لا ينافي كون ذلك مخوفاً لعباد الله تعالى. قاله في فتح الباري.

(١) يقال كروي وكروي نسبة إلى الكرة [م].

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

[من النصوص الواردة في الموضوع]

ب/٣٥٩

وعن ابن عباس / قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فقام قياماً طويلاً، نحواً من قراءة سورة البقرة، ثم ركع ركوعاً طويلاً، ثم رفع فقام قياماً طويلاً، وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعاً طويلاً وهو دون الركوع الأول، ثم رفع، ثم سجد، ثم قام قياماً طويلاً وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعاً طويلاً وهو دون الركوع الأول، ثم سجد ثم انصرف وقد انجلت الشمس، فقال: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله، فقالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكت؟ قال: إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أر منظراً كالיום قط أظفع، ورأيت أكثر أهلها النساء، قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بكفرهن، قيل: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط. رواه البخاري ومسلم.

وقوله: «ورأيت الجنة والنار» قال القاضي عياض: يحتمل أنه رآهما رؤية عين، كشف الله له عنهما، وأزال الحجاب بينه وبينهما، كما فرج له عن المسجد الأقصى حين وصفه، ويكون قوله ﷺ: «في عرض هذا الخائط» - كما في رواية - في جهته وناحيته، ويحتمل أن تكون رؤية علم وعرض وحي بإطلاعه وتعريفه من أمورهما مفصلاً ما لم يعرفه قبل ذلك اليوم. قال القاضي؛ والأول أولى وأشبه باللفاظ الحديث، لما فيه من الأمور الدالة على رؤية العين، كتناوله العنقود، وتأخره مخافة أن يصيبه لفتح النار. انتهى.

واستشكل قوله: «ولو أصبته» مع قوله: «تناولت».

وأجيب: بحمل «التناول» على تكلف الأخذ، لا حقيقة الأخذ، وقيل: المراد تناولته لنفسه ولو أخذته لكم، حكاة الكرمانى، قال الحافظ ابن حجر: وليس بجيد، وقيل: المراد بقوله تناولت: وضعت يدي عليه، بحيث كنت قادراً على تحويله، لكن لم يقدر لي قطفه، ولو أصبته، أي لو تمكنت من قطفه، ويدل عليه من قوله في حديث عقبه ابن عامر عند ابن خزيمة «أهوى بيده ليتناول شيئاً» وفي حديث أسماء عند البخاري «حتى لو اجترأت عليه» وكأنه لم يؤذن له في ذلك فلم يجترء عليه. قال ابن بطال: لم يأخذ العنقود لأنه من طعام الجنة، وهو لا يفنى والدنيا فانية لا يجوز أن يؤكل فيها ما لا يفنى. انتهى.

وفي حديث أسماء بنت أبي بكر، عند البخاري ومسلم ومالك والنسائي قال: ما من شيء كنت لم أره إلا رأيت في مقامي هذا حتى الجنة والنار، ولقد أوحى إلي أنكم تفتنون في قبوركم، مثل أو قريباً - لا أدري أي ذلك قالت أسماء - من فتنة المسيح الدجال. يؤتى أحدكم في قبره فيقال: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن أو الموقن - لا أدري أي ذلك قالت أسماء - فيقول: هو محمد رسول الله جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا واتبعنا، هو محمد ثلاثاً، فيقال: نم صالحاً، قد علمنا إن كنت لموقناً، وأما المنافق أو المرتاب - لا أدري أي ذلك قالت أسماء - فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته.

وفي رواية: فرأى امرأة تخدشها هرة، ربطتها حتى ماتت جوعاً وعطشاً.

وفي رواية: فرأى عمرو بن مالك يجر قصبه في النار، وكان أول من غير دين إبراهيم، ورأى فيها سارق الحاج يعذب.

قوله: «قصبه» بضم القاف وسكون الصاد، أي أمعاه.

وفي رواية عائشة: ثم قال: يا أمة محمد، والله ما من أحد أغير
أ/٣٦٠ من الله أن يزني عبده أو تزني / أمته، والله لو تعلمون ما أعلم
لضحكتكم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ألا هل بلغت.

أي لو تعلمون من عظم انتقام الله من أهل الجرائم وشدة عقابه
وأهوال القيامة ما أعلم، وما بعدها. كما علمت وترون النار كما رأيت
في مقامي هذا وفي غيره لبكيتم كثيراً، ولقلل ضحككم لتفكركم فيما
علمتوه.

وفي حديث عائشة عند البخاري: فخرج إلى المسجد، فصف
الناس وراءه، فكبرنا فاقترأ رسول الله ﷺ قراءة طويلة، ثم كبر فركع
ركوعاً طويلاً، ثم قال: سمع الله لمن حمده، فقام ولم يسجد، وقرأ
قراءة طويلة، وهي أدنى من القراءة الأولى، وزاد في رواية: ربنا ولك
الحمد.

واستدل به على استحباب الذكر المشروع في الاعتدال في أول
القيام الثاني من الركعة الأولى.

واستشكله بعض متأخري الشافعية من جهة كونه قيام قراءة لا
قيام اعتدال، بدليل اتفاق العلماء ممن قال بزيادة الركوع في كل ركعة
على قراءة الفاتحة فيه، وإن كان محمد بن مسلمة المالكي خالف فيه.

والجواب: إن صلاة الكسوف جاءت على صفة مخصوصة، فلا
مدخل للقياس فيها، بل كل ما ثبت أنه ﷺ فعله فيها كان مشروعاً،
لأنها أصل برأسها. وبهذا المعنى رد الجمهور على من قاسها على صلاة
النافلة، حتى منع من زيادة الركوع فيها، فصلاة الكسوف أشبه شيء

بصلاة العيد ونحوها، مما يجمع فيه من مطلق النوافل، فامتازت صلاة الجنازة بترك الركوع والسجود، وصلاة العيد بزيادة التكبيرات، وصلاة الخوف بزيادة الأفعال الكثيرة واستدبار القبلة، فكذاك اختصت صلاة الكسوف بزيادة الركوع، فالأخذ به جامع بين العمليين بالنص والقياس، بخلاف من لم يعمل به.

وقد تبين أن لصلاة الكسوف هيئة تخصها من التطويل الزائد على العادة في القيام وغيره، ومن زيادة ركوع في كل ركعة، وقد وردت زيادة في ذلك من طرق أخرى، فعند مسلم من وجه آخر عن عائشة، وآخر عن جابر أن في كل ركعة ثلاث ركوعات، وعنده من وجه آخر عن ابن عباس: أن في كل ركعة أربع ركوعات، ولأبي داود من حديث أبي بن كعب، والبزار من حديث علي: أن في كل ركعة خمس ركوعات ولا يخلو إسناد منها من علة.

ونقل ابن القيم في «الهدى» عن الشافعي وأحمد والبخاري: أنهم كانوا يعدون الزيادة على الركوعين في كل ركعة غلطاً من بعض الرواة، فإن أكثر طرق الحديث يمكن رد بعضها إلى بعض، ويجمعها أن ذلك كان يوم مات إبراهيم عليه السلام، وإذا اتحدت القصة تعين الأخذ بالراجح.

وجمع بعضهم بين هذه الأحاديث بتعدد الواقعة، فإن الكسوف وقع مراراً، فيكون كل من هذه الأوجه جائزاً.

وقال ابن خزيمة وابن المنذر والخطابي وغيرهم من الشافعية: يجوز العمل بجميع ما ثبت من ذلك. وهو من الاختلاف المباح، وقواه النووي في شرح مسلم.

وأبدى بعضهم أن حكمة الزيادة في الركوع والنقص كان بحسب سرعة الانجلاء وبطئه، فحين وقع الانجلاء في أول ركوع

اقتصر على مثل النافلة، وحين أبطأ زاد ركوعاً، وحين زاد في الإبطاء زاد ثالثاً، وهكذا إلى غاية ما ورد في ذلك.

وتعقبه النووي وغيره: بأن إبطاء الانجلاء وعدمه لا يعلم في أول الحال، ولا في الركعة الأولى، وقد اتفقت الروايات على أن عدد الركوع في الركعتين سواء، وهذا يدل على أنه مقصود في نفسه، منوي من أول الحال. انتهى ملخصاً من فتح الباري.

[خطبة الكسوف]

وعند الإمام أحمد: أنه لما سلم حمد الله وأثنى عليه، وشهد أن لا إله إلا الله، وشهد أنه عبد الله ورسوله، ثم قال: يا أيها الناس، أنشدكم بالله إن كنتم تعلمون أي قصرت عن شيء من تبليغ رسالات ربي لما أخبرتموني ذلك / فقام رجل فقال: نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك ونصحت لأمتك وقضيت الذي عليك، ثم قال: وأيم الله لقد رأيت منذ قمت أصلي ما أنتم لاقون من أمر دنياكم وآخرتكم، وإنه والله لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذاباً، آخرهم الأعرور الدجال، من تبعه لم ينفعه صالح من عمله.

وفي البخاري: وقالت عائشة وأسماء: خطب النبي ﷺ.

وقد اختلف في الخطبة فيه، فاستحبها الشافعي وإسحاق وأكثر أهل الحديث.

وقال ابن قدامة لم يبلغنا عن أحمد ذلك.
وقال صاحب الهداية من الحنفية ليس في الكسوف خطبة لأنه لم ينقل.

وتعقب بأن الأحاديث ثبتت فيه، وهي ذات كثرة.

والمشهور عند المالكية أنه لا خطبة لها، مع أن مالكا روى الحديث وفيه ذكر الخطبة، وأجاب بعضهم: بأنه ﷺ لم يقصد بها الخطبة بخصوصها، وإنما أراد أن يبين لهم الرد على من يعتقد أن الكسوف لموت بعض الناس.

وتعقب: بما في الأحاديث الصحيحة من التصريح بالخطبة، وحكاية شرائطها من الحمد والثناء والموعظة وغير ذلك مما تضمنته الأحاديث، فلم يقتصر على الإعلام بسبب الكسوف، والأصل مشروعية الاتباع، والخصائص لا تثبت إلا بدليل، انتهى.

[إبطال اعتقاد جاهلي]

وعن المغيرة بن شعبة عند البخاري: كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموهما فصلوا وادعوا الله.

وإبراهيم هو ابن النبي ﷺ، وقد ذكر جمهور أهل السير أنه مات في السنة العاشرة من الهجرة، فقيل في ربيع الأول، وقيل في رمضان، وقيل في ذي الحجة، والأكثر على أنها وقعت في عاشر الشهر، وقيل في رابعه وقيل في رابع عشره، ولا يصح شيء منها على قول ذي الحجة، لأن النبي ﷺ كان إذ ذاك بمكة في الحج، وقد ثبت أنه شهد وفاته، وكانت بالمدينة بلا خلاف.

نعم قيل إنه مات سنة تسع، فإن ثبت فيصح، وجزم النووي بأنها كانت سنة الحديبية فلعل ذلك كان في آخر ذي القعدة حين رجع منها.

وفي هذا الحديث إبطال ما كان أهل الجاهلية يعتقدونه من تأثير الكواكب في الأرض. قال الخطابي: كانوا في الجاهلية يعتقدون أن الكسوف يوجب حدوث تغير في الأرض، من موت أو ضرر، فأعلم النبي ﷺ أنه اعتقاد باطل، وأن الشمس والقمر خلقان مسخران لله، ليس لهما سلطان في غيرهما، ولا قدرة للدفع عن أنفسهما.

[من أحكام صلاة الكسوف]

وعن عبد الله بن عمرو قال: لما كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ نودي: أن الصلاة جامعة. رواه البخاري.

وقوله: «أن» بفتح الهمزة وتخفيف النون، وهي المفسرة.

وفي رواية له ولمسلم، من حديث عائشة: بعث النبي ﷺ منادياً فنادى: الصلاة جامعة.

قال ابن دقيق العيد: هذا الحديث حجة لمن استحب ذلك.

وقد أجمعوا على أنه لا يؤذن له ولا يقام.

وروى ابن حبان أنه ﷺ صلى في كسوف الشمس والقمر ركعتين مثل صلاتكم، وأخرجه الدارقطني أيضاً.

وفيه: رد على من أطلق - كابن رشيد - أنه ﷺ لم يصل في كسوف القمر، ومنهم من أول قوله: «صلى» أي أمر بالصلاة، جمعاً بين الروایتين.

وقال ابن القيم في «الهدى»: لم ينقل أنه ﷺ صلى في كسوف القمر في جماعة، لكن حكى ابن حبان في السيرة له: أن القمر خسف في السنة الخامسة، فصلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الكسوف، فكانت

أول صلاة كسوف في الإسلام، وهذا إن ثبت انتفى التأويل المذكور.
وقد جزم به مغلطاي في سيرته المختصرة، وتبعه الحافظ زين الدين / ٣٦١ / أ
العراقي في نظمها.

وفي البخاري من حديث عائشة: جهر النبي ﷺ في صلاة
الكسوف بقراءته. فإذا فرغ من قراءته كبر فركع، فإذا فرغ من الركعة
قال: سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد، ثم يعاود القراءة في صلاة
الكسوف، أربع ركعات وأربع سجادات.

واستدل به على الجهر فيها بالنهار، وحمله جماعة ممن لم ير ذلك
على كسوف القمر. قال الحافظ ابن حجر: وليس بجيد، لأن
الاسماعيلي روى هذا الحديث من وجه آخر عن الوليد بلفظ كسفت
الشمس في عهد رسول الله ﷺ، وفي مسند أبي داود الطيالسي أنه ﷺ
جهر بالقراءة في صلاة الكسوف. وقد ورد فيها عن علي مرفوعاً
وموقوفاً. أخرجه ابن خزيمة وغيره.

وقال به صاحباً أبي حنيفة وأحمد وإسحاق وابن خزيمة وابن المنذر
وغيرهما من محدثي الشافعية وابن العربي من المالكية.
وقال الطبري: يخير بين الجهر والإسرار.

وقال الأئمة الثلاثة: يسر في الشمس ويجهر في القمر.

واحتج الشافعي بقول ابن عباس: «قرأ نحواً من سورة البقرة»
لأنه لو جهر لم يحتج إلى التقدير. وقد روى الشافعي تعليقاً عن ابن
عباس أنه صلى بجانب النبي ﷺ في الكسوف فلم يسمع منه حرفاً،
ووصله البيهقي من ثلاثة طرق أسانيداً واهية. وعلى تقدير صحتها
فمثبت الجهر معه قدر زائد فالأخذ به أولى.

قال ابن العربي: الجهر عندي أولى، لأنها صلاة جماعة ينادي لها
ويخطب فأشبهت العيد والاستسقاء. انتهى ملخصاً^(١) والله أعلم.

(١) أي من فتح الباري.

الفصل الثاني

في صلاته ﷺ صلاة الاستسقاء

اعلم أن الاستسقاء طلب السقيا من الله تعالى عند الحاجة إليها، كما تقول: استعطي: أي طلب العطاء.

[صلاة الاستسقاء سنة]

ولم يخالف أحد من العلماء في سنية الصلاة في الاستسقاء إلا أبو حنيفة محتجاً بأحاديث الاستسقاء التي ليس فيها صلاة.

واحتج الجمهور بالأحاديث الثابتة في الصحيحين وغيرهما: أنه صلى ﷺ صلاة الاستسقاء ركعتين. وأما الأحاديث التي ليس فيها الصلاة، فبعضها محمول على نسيان الراوي، وبعضها كان في الخطبة للجمعة، وتعبه صلاة الجمعة فاكتفي بها، ولو لم تصل أصلاً كان بياناً لجواز الاستسقاء بالدعاء بلا صلاة، ولا خلاف في جوازه، وتكون الأحاديث المثبتة للصلاة مقدمة لأن فيها زيادة علم، ولا معارضة بينهما.

والاستسقاء أنواع:

[الاستسقاء بالصلاة والخطبة]

الأول: الاستسقاء بصلاة ركعتين وخطبتين، ويتأهب قبله

بصدقة وصيام وتوبة، وإقبال على الخير ومجانبة الشر ونحو ذلك من طاعة الله تعالى.

قال ابن عباس: خرج رسول الله ﷺ متبذلاً^(١) متواضعاً متخشعاً متضرعاً حتى أتى المصلى، فرقى المنبر، فلم يخطب خطبتكم هذه ولكن لم يزل في الدعاء والتضرع والتكبير، ثم صلى ركعتين كما يصلي في العيد. رواه الترمذي وغيره.

وفي حديث عبد الله بن زيد المازني، قال: خرج رسول الله ﷺ إلى هذا المصلى ليستسقي، ثم استقبل القبلة وقلب رداءه، ثم صلى. رواه البخاري ومسلم

وفي رواية: خرج بالناس إلى المصلى ليستسقي فصلى بهم ركعتين جهر فيهما بالقراءة واستقبل يدعو، ورفع يديه وحول رداءه حين استقبل القبلة.

وفي رواية؛ قال: وحول رداءه وجعل عطافه^(٢) الأيسر على عاتقه الأيمن ثم دعا الله.

قال الحافظ ابن حجر: ولم أقف في شيء من طرق حديث عبد الله بن زيد على سبب ذلك ولا على صفته ﷺ حال الذهاب إلى المصلى، ولا على وقت ذهابه، وقد وقع ذلك في حديث عائشة عند أبي داود وابن حبان قالت: شكا الناس إلى رسول الله ﷺ قحط المطر، فأمر بمنبر فوضع له في المصلى، ووعد الناس يوماً يخرجون فيه، فخرج حين بدا حاجب / الشمس، فقع على المنبر فكبر وحمد الله، ثم قال:

ب/٣٦١

(١) أي لابساً ثوب البذلة، وهو الثوب الخلق.

(٢) أي جانبه، والعطف الرداء سمي بذلك لوقوعه على عطفي الرجل وهما ناحيتا عنقه.

إنكم شكوتم جذب دياركم، واستئخار المطر عن إبان زمانه عنكم، وقد أمركم الله أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم، ثم قال: ﴿الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين﴾، الذي لا إله إلا هو، يفعل ما يريد، اللهم أنت الله الذي لا إله إلا أنت الغني ونحن الفقراء، اللهم أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغاً إلى حين، ثم رفع يديه حتى بدا بياض إبطيه، ثم حول إلى الناس ظهره، وقلب - أو حول - رداءه وهو رافع يديه، ثم أقبل على الناس، ونزل فصلي ركعتين، فأنشأ الله سبحانه، فرعدت وبرقت، ثم أمطرت بإذن الله، فلم يأت مسجده حتى سألت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى الكن^(١) ضحك حتى بدت نواجذه، فقال: أشهد أن الله على كل شيء قدير، وأني عبد الله ورسوله.

وقد حكى ابن المنذر الاختلاف في وقتها، والراجح أنه لا وقت لها معين، وإن كان أكثر أحكامها كالعيد، لكنها تخالفه بأنها لا تختص بيوم معين، وهل تصنع بالليل؟ استنبط بعضهم من كونه ﷺ جهر بالقراءة فيها بالنهار، أنها نهارية كالعيد، وإلا فلو كانت تصلى بالليل لأسر فيها بالنهار وجهر بالليل كمطلق النوافل.

ونقل ابن قدامة الإجماع على أنها لا تصلى في وقت الكراهة.

وأفاد ابن حبان أن خروجه ﷺ إلى المصلى للاستسقاء كان في شهر رمضان سنة ست من الهجرة.

وذكر الواقدي: أن طول رداءه ﷺ كان ستة أذرع في ثلاثة أذرع، وطول إزاره أربعة أذرع وشبرين في ذراعين وشبر، كان يلبسهما في الجمعة والعيدين.

(١) كل ما وقى الحر والبرد من المساكن.

وقد روى أبو داود عن عباد: استسقى رسول الله ﷺ وعليه خيصة سوداء فأراد أن يأخذ بأسفلها فيجعله أعلاها، فلما ثقلت عليه قلبها على عاتقه.

وقد استحب الشافعي في الجديد فعل ما همَّ به ﷺ من تنكيس الرداء مع التحويل الموصوف. وزعم القرطبي تبعاً لغيره أن الشافعي اختار في الجديد تنكيس الرداء لا تحويله، والذي في الأم ما ذكرته. والجمهور على استحباب التحويل فقط. ولا ريب أن الذي استحبه الشافعي أحوط. وعن أبي حنيفة وبعض المالكية: لا يستحب شيء من ذلك.

واستحب الجمهور أن يحول الناس بتحويل الإمام، ويشهد له ما رواه أحمد من طريق أخرى عن عباد في هذا الحديث بلفظ: «وحول الناس معه».

وقال الليث وأبو يوسف: يحول الإمام وحده. واستثنى ابن الماجشون النساء فقال: لا يستحب في حقهن.

واختلف في حكمة هذا التحويل فجزم المهلب بأنه للتفاوت بتحويل الحال عما هي عليه. وتعقبه ابن العربي بأن من شرط الفأل أن لا يقصد إليه، قال: وإنما التحويل أمانة بينه وبين ربه، قيل له حول رداءك ليتحول حالك. وتعقب بأن الذي جزم به يحتاج إلى نقل، والذي رده ورد فيه حديث رجاله ثقات، أخرجه الدارقطني والحاكم من طريق جعفر بن محمد بن علي عن أبيه عن جابر. ورجح الدارقطني إرساله. وعلى كل حال فهو أولى من القول بالظن.

واستدل بقوله في حديث عائشة: «ثم صلى ركعتين» بعد قوله:

«فقد على المنبر» على أن الخطبة في الاستسقاء قبل الصلاة، وهي مقتضى حديث ابن عباس، لكن وقع عند أحمد في حديث عبد الله بن زيد التصريح بأنه بدأ بالصلاة قبل الخطبة، وكذا في حديث أبي هريرة عند ابن ماجه، حيث قال: فصلى بنا ركعتين بغير أذان ولا إقامة، والمرجح عند الشافعية والمالكية الثاني.

ولم يقع في شيء من طرق حديث عبد الله بن زيد صفة الصلاة المذكورة ولا ما يقرأ فيها، وقد أخرج الدارقطني من حديث ابن عباس أنه يكبر فيها سبعاً وخمساً كالعيد، وأنه يقرأ فيها بـ «سبح» و«هل أتاك». وفي إسناده مقال. لكن أصله في السنن بلفظ: ثم صلى ركعتين كما يصلي في العيدين. فأخذ بظاهره الشافعي فقال يكبر فيها.

[الاستسقاء في خطبة الجمعة]

/ الثاني: استسقاؤه ﷺ في خطبة الجمعة.

عن أنس: أن رجلاً دخل المسجد يوم الجمعة من باب كان نحو دار القضاء^(١) ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبل رسول الله ﷺ قائماً، ثم قال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغشنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، قال أنس: ولا والله ما نرى في السماء من سحب ولا قزعة، وما بيننا وبين «سبع» من بيت ولا دار، قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت. قال: فلا والله ما رأينا الشمس سبتاً، قال: ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول الله ﷺ قائم يخطب،

(١) هي دار عمر بن الخطاب، سميت بذلك لأنها بيعت في قضاء دينه.

فاستقبله قائماً، فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها عنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر، قال: فانقطعت وخرجنا نمشي في الشمس. قال شريك: فسألت أنس بن مالك: أهو الرجل الأول؟ قال: لا أدري. رواه مسلم.

وفي رواية قال: فما يشير بيده إلى ناحية إلا تفرجت، حتى رأيت المدينة مثل الجوبة، وسال وادي قناة شهراً. ولم يجيء أحد من ناحية إلا أخبر بجود.

وقوله: «يغيثنا» بفتح أوله، يقال: غاث الله البلاد يغيثها، إذا أرسل عليها المطر.

وقوله: «من باب كان نحو دار القضاء» هي دار عمر بن الخطاب وسميت بذلك لأنها بيعت في قضاء دينه.

وقوله: «هلكت الأموال»، وفي رواية كريمة وأبي ذر عند الكشميهني: هلكت المواشي، وهي المراد بالأموال هنا. وفي رواية البخاري: هلك الكراع - بضم الكاف - وهو يطلق على الخيل وغيرها، وفي البخاري أيضاً: هلكت الماشية، هلك العيال، هلك الناس، وهو من ذكر العام بعد الخاص. والمراد بهلاكهم: عدم وجود ما يعيشون به من الأقوات المفقودة بحبس المطر. وانقطعت السبل: لأن الإبل ضعفت لقلة القوت عن السفر، أو لكونها لا تجد في طريقها من الكلاً ما يقيم أودها.

و«الآكام» بكسر الهمزة، وقد تفتح وتمد: جمع «أكمة»

- بفتحات - : التراب المجتمع ، وقيل : الجبل الصغير، وقيل ؛ ما ارتفع من الأرض .

و«الظراب» بكسر المعجمة ، جمع «ظرب» - بكسر الراء - : الجبل المنبسط العالي .

وقوله : «مثل الجوبة» بفتح الجيم ، وسكون الواو ، وفتح الموحدة ، هي الحفرة المستديرة الواسعة ، والمراد بها هنا : الفرجة في السحاب .

و«الجود» : المطر الغزير .

وقوله : «قناة شهراً» : أي جرى فيه المطر من الماء شهراً .

وفي هذا دليل على عظم معجزته ﷺ ، وهو أن سخرت السحاب له كلما أشار إليها امتثلت أمره بالإشارة دون كلام ، لأن كلامه ﷺ مناجاة للحق تعالى ، وأما السحاب فبالإشارة ، فلولا الأمر لها بالطاعة له ﷺ لما كان ذلك ، لأنها أيضاً - كما جاء - مأمورة حيث تسير ، وقدر ما تقيم ، وأين تقيم . ورحم الله الشقراطيسي فلقد أحسن حيث قال :

دعوت للخلق عام المحل مبتهلاً
صعدت كفيك إذ كف الغمام فما
أراق بالأرض ثجا صوب ريقه
زهر من النور حلت روض أرضهم
من كل غصن نضير مورق خضر

أفديك بالخلق من داع ومبتهل
صوبت إلا بصوب الواكف^(١) الهطل
فحل بالروض نسجاً رائق الحلل
زهراً من النور صافي النبت مكتمل
وكل نور نضيد مونق^(٢) خضل^(٣)

(١) أي القاطر .

(٢) أي معجب .

(٣) أي مبتل .

تحية أحييت الأحياء من مضر بعد المضرة تروي السبل بالسبل
دامت على الأرض سبعاً غير مقلعة لولا دعاؤك بالإقلاع لم تنزل
وقوله في الحديث «سبتاً»: أي من السبت إلى السبت.

وقوله: «ثم دخل رجل» الظاهر أنه غير الأول، لأن النكرة / إذا
تكررت دلت على التعدد، وفي رواية ابن إسحاق: فقام الرجل أو
غيره، وفي رواية لمسلم: فتقشعت عن المدينة فجعلت تمطر حواليتها وما
تمطر بالمدينة قطرة، فنظرت إلى المدينة وإنما لفي مثل الاكليل - وهو
بكسر الهمزة وسكون الكاف: كل شيء دار من جوانبه، واشتهر لما
يوضع على الرأس فيحيط به، وهو من ملابس الملوك كالتاج -.

وفي رواية له أيضاً: فألف الله بين السحاب ومكثت حتى رأيت
الرجل الشديد تهمة نفسه أن يأتي أهله، وفي رواية له أيضاً: فرأيت
السحاب يتمزق كأنه الملاء حين تطوى.

والملاء: بضم الميم والقصر وقد تمد، جمع ملاءة وهي ثوب
معروف.

واستدل بهذا الحديث على جواز الاستسقاء بغير صلاة
مخصوصة، وعلى أن الاستسقاء ليس فيه صلاة. فأما الأول فقال به
الشافعي، وأما الثاني فقال به أبو حنيفة، وتعقب: بأن الذي وقع في
هذه القصة مجرد دعاء، لا ينافي مشروعية الصلاة لها، وقد ثبت في
واقعة أخرى كما تقدم، والله أعلم.

[الاستسقاء بالدعاء على المنبر]

الثالث: استسقاؤه ﷺ على منبر المدينة.

روى البيهقي في الدلائل من طريق يزيد بن عبيد السلمى قال: لما قفل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أتاه وفد من بني فزارة، بضعة عشر رجلاً، وفيهم خارجة بن حصن، والحرب بن قيس، وهو أصغرهم، فنزلوا في دار رملة بنت الحارث من الأنصار، وقدموا على إبل عجاف مستنون، فأتوا مقرين بالإسلام، فسألهم رسول الله ﷺ عن بلادهم فقالوا: يا رسول الله أسنت بلادنا، وأجذب جنابنا، وغرث عيالنا وهلكت مواشينا، فادع ربك أن يغثنا، وتشفع لنا إلى ربك، ويشفع ربك إليك، فقال ﷺ: سبحان الله!! ويلك، أنا شفعت إلى ربي، فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه، لا إله إلا هو العلي العظيم، وسع كرسيه السموات والأرض، وهو يئط^(١) من عظمته وجلاله كما يئط الرحل الجديد. فقال النبي ﷺ: إن الله ليضحك من شفقتكم^(٢) وقرب غياثكم، فقال أعرابي: أويضحك ربنا يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال الأعرابي: لن نعدم يا رسول الله من رب يضحك خيراً. فضحك ﷺ من قوله، فقام ﷺ فصعد المنبر وتكلم بكلمات ورفع يديه، وكان رسول الله ﷺ لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا في الاستسقاء، فرفع يديه حتى رؤى بياض ابطنه، وكان مما حفظ من دعائه:

اللهم اسق بلدك وبهيمتك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت، اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً مربعاً طبعاً واسعاً، عاجلاً غير آجل نافعاً غير ضار، اللهم سقيا رحمة لا سقيا عذاب ولا هدم ولا غرق ولا محق، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء.

(١) أي الكرسي.

(٢) أي خوفكم.

فقام أبو لبابة بن عبد المنذر فقال: يا رسول الله إن التمر في المربد، فقال ﷺ: اللهم اسقنا، فقال أبو لبابة: إن التمر في المرابد، ثلاث مرات، فقال ﷺ: اللهم اسقنا حتى يقوم أبو لبابة عرياناً يسد ثعلب مربده بإزاره.

قال: فلا والله ما في السماء من قزعة ولا سحاب، وما بين المسجد وسلع من بناء ولا دار، فطلعت من وراء سلع سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت، وهم ينظرون، ثم أمطرت، فوالله ما رأوا الشمس سبتا، وقام أبو لبابة عرياناً يسد ثعلب مربده بإزاره لثلا يخرج التمر منه.

فقال الرجل: يا رسول الله - يعني الذي سأله أن يستسقي له -: هلكت الأموال، وانقطعت السبل. فصعد ﷺ المنبر فدعا ورفع يديه مدأً، حتى روي بياض ابطنه ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الأكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر. فانجابت السحابة عن المدينة كانجياب الثوب.

و«الأطيط» صوت الأقتاب /، يعني: أن الكرسي ليعجز عن حمله وعظمته، إذ كان معلوماً أن أطيط الرجل بالراكب إنما يكون لقوة ما فوقه، وعجزه عن احتماله، وهذا مثل لعظمته تعالى وجلاله، ولم يكن أطيط وإنما هو كلام تقريب، أريد به تقرير عظمة الله تعالى.

وقوله: «طبقاً» بفتح الطاء والموحدة، أي مالئاً للأرض مغطياً لها، يقال: غيث طبق أي عام واسع.

و«المربد»: موضع يجفف فيه التمر.

و«ثعلبه» ثقبه الذي يسيل منه ماء المطر.

وعن أنس بن مالك قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال:
يا رسول الله أتيناك وما لنا صبي يغط، ولا بعير يئط - أي مالنا بعير
أصلاً لأن البعير لا بد أن يئط - وأنشد:

أتيناك والعدراء يدمى لبانها وقد شغلت أم الصبي عن الطفل
وألقى بكفيه الفتى لاستكانة من الجوع ضعفاً ما يمر ولا يجلي
ولا شيء مما يأكل الناس عندنا سوى الحنظل العامي والعلهز الغسل
وليس لنا إلا إليك فرارنا وأين فرار الناس إلا إلى الرسل

فقام ﷺ يجر رداءه، حتى صعد المنبر، ورفع يديه إلى السماء ثم
قال: اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مربعاً غدقاً طبقاً نافعاً غير ضار، عاجلاً
غير راث (١)، تملأ به الضرع وتنبث به الزرع، وتحبي به الأرض بعد
موتها. قال؛ فما رد ﷺ يديه إلى نحره حتى ألقته (٢) السماء بأبراقها،
وجاء أهل البطانة (٣) يضحجون: الغرق الغرق، فقال ﷺ: حوالينا ولا
علينا، فانجاب السحاب عن المدينة حتى أحدق بها كالأكليل.
وضحك ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: لله در أبي طالب، لو كان
حياً لقرت عيناه. من ينشدنا قوله؟ فقال علي: يا رسول الله كأنك
تريد قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
تطيف به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل
كذبتهم وبيت الله نبزي محمداً ولما نطاعن حوله ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله

(١) أي بطيء.

(٢) كذا في ب، وفي (أ، د): التفت، وفي ش: التقت وفي ط: التفتت.

(٣) الساكنون خارج المدينة.

فقال: أجل، رواه البيهقي^(١).

وقوله: «يدمي لبانها»^(٢) أي يدمى صدرها لامتهانها نفسها في الخدمة حيث لا تجد ما تعطيه من يخدمها من الجذب وشدة الزمان، وأصل اللبان من الفرس موضع اللب ثم استعير للناس.

وقوله: «ما يمر وما يحلي» أي ما ينطق بخير ولا بشر من الجوع والضعف.

وقوله: «سوى الحنظل العامي» نسبة إلى العام، لأنه يتخذ في عام الجذب، كما قالوا للجذب: السنة.

«والعلهز» بالكسر، طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في سني المجاعة. قاله الجوهرى.

و«الغسل» الرذل،

قال السهيلي: فإن قلت: كيف قال أبو طالب «وأبيض يستسقى الغمام بوجهه» ولم يره قط يستسقى، وإنما كان ذلك منه بعد الهجرة؟ وأجاب بما حاصله: أن أبا طالب أشار إلى ما وقع في زمن عبد المطلب، حيث استسقى لقريش والنبي ﷺ معه وهو غلام. انتهى.

وقال الحافظ ابن حجر: ويحتمل أن يكون أبو طالب مدحه بذلك لما رأى من مخايل ذلك فيه، وإن لم يشاهد ذلك فيه. انتهى.

قلت: وقد أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال:

(١) إسناده ضعيف.

(٢) كذا في المخطوطات وفي (ط، ش) لبانها. وهما بمعنى واحد، قال في القاموس المحيط: اللب: المنحر وموضع القلادة من الصدر. واللبان جمع لبانة وبالفتح. الصدر أو وسطه أو ما بين الثديين أو صدر ذي الحافر [م].

قدمت مكة، وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب، أقحط الوادي وأجذب العيال وأنت فيهم أما تستسقي؟ فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجن تجلت عنه سحابة قماء، وحوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب فالصق ظهره بالكعبة، ولاذ / الغلام بأصبغه وما في ٣٦٣/ب السماء قزعة، فأقبل السحاب من ها هنا وها هنا، وأغدق واغدودق وانفجر له الوادي وأخصب النادي والبادي، وفي ذلك يقول أبو طالب «وأبيض يستسقي الغمام بوجهه» انتهى.

[الاستسقاء بالدعاء]

الرابع: استسقاؤه ﷺ بالدعاء من غير صلاة.
عن ابن مسعود أن قريشاً أبطؤوا عن الإسلام، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها وأكلوا الميتة والعظام، فجاءه أبو سفيان فقال: يا محمد، جئت تأمر بصلة الرحم، وإن قومك هلكوا، فادع الله، فقرأ ﴿فارتقب يوم يأتي السماء بدخان مبين﴾^(١)، ثم عادوا إلى كفرهم، فذلك قوله تعالى: ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى﴾^(٢)، يوم بدر. زاد أسباط عن منصور: فدعا رسول الله ﷺ فسقوا الغيث، فأطبقت عليهم سبعاً، وشكا الناس كثرة المطر فقال: اللهم حوالينا ولا علينا، فأنحدرت السحابة عن رأسه، فسقوا الناس حولهم. رواه البخاري^(٣).

وأفاد الدمياطي أن ابتداء الدعاء على قريش كان عقب طرحهم على ظهره سلا الجزور، وكان ذلك بمكة قبل الهجرة، وقد دعا النبي

(١) سورة الدخان، الآية ١٠.

(٢) سورة الدخان، الآية ١٦.

(٣) زواه البخاري برقم (١٠٢٠).

بذلك بالمدينة في القنوت كما في حديث أبي هريرة عند البخاري، ولا يلزم من ذلك اتحاد هذه القصص، إذ لا مانع أن يدعو عليهم مراراً. والظاهر أن مجيء أبي سفيان كان قبل الهجرة لقول ابن مسعود: «ثم عادوا، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ يوم بدر» ولم ينقل أن أبا سفيان قدم المدينة قبل بدر. وعلى هذا فيحتمل أن يكون أبو طالب كان حاضراً ذلك، فلذلك قال: «وأبيض يستسقي الغمام بوجهه» لكن ورد ما يدل على أن القصة وقعت بالمدينة، فإن لم يحمل على التعدد وإلا فهو مشكل.

وفي الدلائل للبيهقي عن كعب بن مرة أو مرة بن كعب قال: دعا رسول الله ﷺ على مضر، فأتاه أبو سفيان فقال: ادع الله لقومك قد هلكوا. وقد رواه أحمد وابن ماجه عن كعب بن مرة، ولم يشك، وأبهم أبو سفيان فقال: جاءه رجل فقال: استسق الله لمضر^(١)، قال: يا رسول الله استنصرت الله فنصرك ودعوت الله فأجابك، فرفع يديه فقال: اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً. الحديث فظهر أن هذا الرجل المبهم المقول له: «إنك لجرىء» هو أبو سفيان.

لكن يظهر أن فاعل «قال يا رسول الله استنصرت الله الخ» هو كعب بن مرة راوي هذا الحديث، فما أخرجه أحمد والحاكم عن كعب ابن مرة المذكور قال: «دعا رسول الله على مضر، فأتيته فقلت يا رسول الله إن الله قد نصرك وأعطاك واستجاب لك، وإن قومك قد هلكوا». وعلى هذا: فكأن أبا سفيان وكعباً حضرا جميعاً، فكلمه أبو سفيان بشيء، فدل ذلك على اتحاد قصتهما، وقد ثبت في هذه ما ثبت في تلك من قوله «إنك لجرىء» ومن قوله: «اللهم حوالينا ولا علينا». وسياق

(١) سقط هنا من قلم المصنف «فقال: إنك لجرىء، المضر؟» وهو موجود في الأصل الذي هو فتح الباري ٥١٢/٢.

كعب بن مرة يشعر بأن ذلك وقع بالمدينة لقوله «استنصرت الله فنصرك».

ولا يلزم من هذا اتحاد هذه القصة مع قصة أنس السابقة، فهي واقعة أخرى، لأن في رواية أنس «فلم ينزل عن المنبر حتى مطروا» وفي هذه «فما كان إلا جمعة أو نحوها حتى مطروا»، والسائل في هذه القصة غير السائل في تلك، فهما قصتان، وقع في كل منهما طلب الدعاء بالاستسقاء، ثم طلب الدعاء بالاستصحاء. وإن ثبت أن كعب بن مرة أسلم قبل الهجرة حمل قوله: «استنصرت الله فنصرك» على النصر بإجابة دعائه عليهم، وزال الإشكال المتقدم والله أعلم. انتهى ملخصاً من فتح القاري^(١).

[استسقاؤه ﷺ في بعض الأمكنة]

الخامس: استسقاؤه ﷺ عند أحجار الزيت، قريباً من الزوراء، وهي خارج باب المسجد الذي يدعى باب السلام نحو قذفة بحجر، ينعطف على يمين الخارج من المسجد.

عن عمير، مولى أبي اللحم، أنه رأى النبي ﷺ يستسقي رافعاً يديه قبل وجهه، لا يجاوزهما رأسه، رواه أبو داود والترمذي.

السادس: استسقاؤه ﷺ في بعض غزواته، لما سبقه المشركون إلى الماء، فأصاب المسلمين العطش، فشكوا إلى رسول الله ﷺ، وقال بعض المنافقين: / لو كان نبياً لاستسقى لقومه كما استسقى موسى /^{أ/٣٦٤} لقومه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: أو قد قالوها، عسى ربكم أن يسقيكم، ثم بسط يديه ودعا، فما رد يديه من دعائه حتى أظلم

(١) فتح الباري ٢/٥١٠ - ٥١٢.

السحاب وأمطروا إلى أن سال الوادي، فشرب الناس وارتووا.

[من أدعية الاستسقاء]

فصل (١): عن سالم عن عبد الله عن أبيه مرفوعاً: أنه كان إذا استسقى قال: اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، اللهم إن بالعباد والبلاد والبهائم والخلق من اللأواء والجهد والضنك ما لا نشكوه إلا إليك، اللهم أنبت لنا الزرع، وأدر لنا الضرع، واسقنا من بركات السماء، وأنبت لنا من بركات الأرض، اللهم ارفع عنا الجهد والجوع والعري، واكشف عنا من البلاء ما لا يكشفه غيرك، اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفاراً، فأرسل السماء علينا مدراراً. رواه الشافعي.

[الاستسقاء بالعباس]

فصل (٢): روى أبو الجوزاء قال: قحط أهل المدينة قحطاً شديداً، فشكوا إلى عائشة فقالت: انظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف، ففعلوا فمطروا حتى نبت العشب، وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمي عام الفتق.

وروى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان، عن مالك الدار (٣) قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر بن الخطاب، فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، استسقى لأمتك فإنهم قد هلكوا، فأتى الرجل في المنام فقيل له: أثت عمر.

(١) هو الفصل الثالث في هذا الباب.

(٢) هذا هو الفصل الرابع.

(٣) في (ط د ب) الداري.

وفي رواية عبد الرزاق: أن عمراً استسقى بالمصلى، فقال للعباس: قم فاستسق.

وذكر الزبير بن بكار أن عمر بن الخطاب استسقى بالعباس عام الرمادة - بفتح الراء وتخفيف الميم - وسمي به لما حصل من شدة الجذب، فأغربت الأرض جداً لعدم المطر.

وذكر ابن عساكر في كتاب الاستسقاء أن العباس لما استسقى ذلك اليوم قال: اللهم إن عندك سحاباً وعندك ماء، فأنشر السحاب ثم أنزل منه الماء ثم أنزله علينا، واشدد به الأصل وأطل به الفرع وأدرّ به الضرع. اللهم تشفعنا إليك بمن لا منطلق له من بهائمنا وأنعامنا، اللهم اسقنا سقياً وادعة بالغة طبقاً، اللهم لا نرغب إلا إليك وحدك، لا شريك لك، اللهم نشكو إليك سغب كل ساغب، وعدم كل عادم، وجوع كل جائع، وعري كل عارٍ، وخوف كل خائف.

وفي رواية الزبير بن بكار: أن العباس لما استسقى به عمر قال: اللهم أنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك. وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث. فأرخت السماء مثل الحبال، حتى أخصبت الأرض وعاش الناس. وعنده أيضاً: قحط الناس فقال عمر إن رسول الله ﷺ كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد فاقتدوا يا أيها الناس برسول الله ﷺ في عمه العباس، فاتخذوا وسيلة إلى الله. وفيه فما برحوا حتى سقوا، وفي ذلك يقول العباس بن عتبة بن أبي لهب: بعمي سقى الله الحجاز وأهله
توجه بالعباس في الجذب راغباً
ومنا رسول الله ﷺ فينا تراثه
عشية يستسقى بشيئته عمر
إليه فما إن رام حتى أتى المطر
فهل فوق هذا للمفاخر مفتخر

القِسْمُ الثَّالِثُ

في ذكر صلاته ﷺ في السفر

وفيه فصول:

الفصل الأول

في قصره ﷺ الصلاة فيه وأحكامه

وفيه فرعان:

[الفرع الأول]

في كم كان ﷺ يقصر الصلاة

تقدم هل القصر رخصة أو عزيمة، وما استدل به لكل من القولين، في أوائل هذا المقصد.

وعن أنس بن مالك قال: صليت الظهر مع رسول الله ﷺ بالمدينة أربعاً، وخرج يريد مكة فصلى بذي الحليفة العصر ركعتين. رواه البخاري ومسلم.

ب/٣٦٤ وهذا الحديث مما احتج به أهل الظاهر / في جواز القصر في طويل السفر وقصره، فإن بين المدينة وذو الحليفة ستة أميال، ويقال سبعة.

وقال الجمهور: لا يجوز القصر إلا في سفر يبلغ مرحلتين، وقال أبو حنيفة وطائفة شرطه ثلاث مراحل، واعتمدوا في ذلك آثاراً عن الصحابة.

وأما هذا الحديث فلا دلالة فيه لأهل الظاهر، لأن المراد أنه ﷺ

حين سافر إلى مكة في حجة الوداع صلى الظهر بالمدينة أربعاً ثم سافر، فأدركته العصر وهو مسافر بذى الحليفة، فصلّاها ركعتين. وليس المراد أن ذا الحليفة غاية سفره، فلا دلالة فيه قطعاً. والأحاديث المطلقة مع ظاهر القرآن متعاضدان على جواز القصر من حين يخرج من البلد، فإنه حينئذ يسمى مسافراً.

وطويل السفر ثمانية وأربعون ميلاً هاشمية، وهي ستة عشر فرسخاً، وهي أربعة برد. والميل من الأرض منتهى مد البصر، لأن البصر يميل عنه على وجه الأرض حتى يفنى إدراكه. وبذلك جزم ابن الجوزي. وقيل: حده أن تنظر إلى الشخص في أرض مصطحبة^(١) فلا تدري أهو رجل أو امرأة. أو هو ذاهب أو آت؟

قال النووي: الميل ستة آلاف ذراع، والذراع أربعة وعشرون أصبغاً معترضة، وقد حرره غيره بذراع الحديد المستعمل الآن بمصر والحجاز في هذه الأعصار فوجده ينقص عن ذراع الحديد بقدر الثمن. فعلى هذا فالميل بذراع الحديد خمسة آلاف ذراع ومائتان وخمسون ذراعاً، وهذه فائدة جليلة قل من تنبه لها.

روى البيهقي عن عطاء أن ابن عمر وابن عباس كانا يصليان ركعتين، أي يقصران في أربعة برد فما فوقها. وذكره البخاري في صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم. ورواه بعضهم عن صحيح ابن خزيمة مرفوعاً من رواية ابن عباس.

وقد كان فرض الصلاة ركعتين، فلما هاجر ﷺ فرضت أربعاً. رواه البخاري من حديث عائشة، لكن يعارضه حديث ابن عباس:

(١) أي مستوية. قال مصحح الشرح: هكذا في النسخ ولعل صوابه مسطحة.

فرضت الصلاة في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين. رواه مسلم. وجمع بينهما بما يطول ذكره.

ثم بعد أن استقر فرض الرباعية خفف منها في السفر عند نزول قوله تعالى: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾^(١)، ويؤيده ما ذكره ابن الأثير في شرح المسند أن قصر الصلاة كان في السنة الرابعة من الهجرة، وقيل كان قصر الصلاة في ربيع الآخر من السنة الثانية. ذكره الدولابي، وقيل بعد الهجرة بأربعين يوماً.

الفرع الثاني

في القصر مع الإقامة

عن أنس قال: خرجنا مع النبي ﷺ من المدينة إلى مكة، فكان يصلي ركعتين ركعتين، حتى رجعنا إلى المدينة. قيل له: أقمتم بمكة شيئاً؟ قال: أقمنا بها عشرًا. رواه البخاري، ومسلم مختصراً قال: أقمنا مع النبي ﷺ عشرة يقصر الصلاة.

وعن ابن عباس: أقام النبي ﷺ تسع عشرة يقصر الصلاة. فنحن إذا سافرنا تسعة عشر قصرنا، وإن زدنا أقمنا. رواه البخاري.

وفي رواية أبي داود: أنه ﷺ أقام سبعة عشر بمكة يقصر الصلاة. قال ابن عباس: فلو أقام أكثر أتم. والرواية الأولى بتقديم التاء على السين، والثانية بتقديم السين على الموحدة.

ولأبي داود، من حديث عمران بن حصين: غزوت مع رسول ﷺ الفتح، فأقام بمكة ثماني عشرة ليلة لا يصلي إلا ركعتين. وله من

(١) سورة النساء، الآية ١٠١.

طريق ابن إسحاق عن الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس: أقام ﷺ بمكة عام الفتح خمسة عشر يوماً يقصر الصلاة.

وجمع البيهقي بين هذا الاختلاف: بأن من قال: «تسعة عشر» عد يومي الدخول والخروج، ومن قال: «سبعة عشر» حذفها، وأما رواية «خمس عشرة» فضعفها النووي في «الخلاصة» وليس بجيد، لأن رواياتها ثقات، ولم ينفرد بها ابن إسحاق، فقد أخرجها النسائي من رواية عراك بن مالك عن عبيد الله كذلك، فإذا ثبت أنها صحيحة فلتحمل على أن الراوي ظن أن رواية الأصل سبع عشرة، فحذف منها يومي الدخول والخروج، فذكر أنها خمس عشرة، واقتضى ذلك أن رواية «تسع عشرة» أرجح الروايات.

وأخذ الشافعي بحديث عمران بن حصين، لكن / محله عنده فيمن لم يجمع الإقامة، فإنه إذا مضت عليه المدة المذكورة وجب الإتمام، فإن أزمع الإقامة في أول الحال على أربعة أيام أتم، على خلاف بين أصحابه في دخول يومي الدخول والخروج فيها، أو: لا (١).

ولا معارضة بين حديث ابن عباس وحديث أنس، لأن حديث ابن عباس كان في فتح مكة، وحديث أنس كان في حجة الوداع. وفي حديث ابن عباس: قدم ﷺ وأصحابه - يعني مكة - لصبح رابعة، ولا شك أنه خرج من مكة صبح الرابع عشر فتكون مدة الإقامة بمكة ونواحيها عشرة أيام بلياليها، كما قال أنس، وتكون مدة إقامته بمكة أربعة أيام سواء، لأنه قدم في اليوم الرابع وخرج منها في اليوم الثامن، فصلى الظهر في منى، ومن ثم قال الشافعي: إن المسافر إذا أقام ببلدة

(١) «أو: لا» ليست في المخطوطات، والمعنى: أو عدم دخولها.

قصر أربعة أيام، فالمدة التي في حديث ابن عباس يسوغ الاستدلال بها على من لم ينو الإقامة بل كان متردداً، متى تهيأ له فراغ حاجته يرحل. والمدة التي في حديث أنس يستدل بها على من نوى الإقامة، لأنه ﷺ في أيام الحج كان جازماً بالإقامة تلك المدة، ووجه الدلالة من حديث ابن عباس: لما كان الأصل^(١) في المقيم الإتمام فلما لم يجيء عنه ﷺ أنه أقام في حال السفر أكثر من تلك المدة جعلها غاية للقصر. والله أعلم.

(١) في ١: الأفضل.

الفصل الثاني

في الجمع^(١)

وفيه فرعان أيضاً:

الفرع الأول: في جمعه ﷺ

عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس آخر الظهر إلى وقت العصر، ثم نزل فجمع بينهما، فإذا زاغت الشمس قبل أن يرتحل صلى الظهر ثم ركب.

وفي رواية: أنه كان إذا أراد أن يجمع بين صلاتين في السفر آخر الظهر حتى يدخل أول وقت العصر.

وفي أخرى: كان إذا عجل عليه السير يؤخر الظهر إلى أول وقت العصر فيجمع بينهما، ويؤخر المغرب حتى يجمع بينها وبين العشاء، رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

وفي رواية البخاري: كان يجمع بين هاتين الصلاتين في السفر، يعني: المغرب والعشاء.

وفي حديث ابن عباس: كان ﷺ يجمع بين صلاتي الظهر

(١) ليست في المخطوطات.

والعصر إذا كان على ظهر سير، ويجمع بين المغرب والعشاء، رواه البخاري .

ومسلم: جمع بين الصلاة في سفرة سافرهما في غزوة تبوك، فجمع بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء.

وله وللمالك وأبي داود والنسائي: أنهم خرجوا معه ﷺ في غزوة تبوك، فكان ﷺ يجمع بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، فأخروا الظهر يوماً، ثم خرج فصلى الظهر والعصر جميعاً، ودخل ثم خرج فصلى المغرب والعشاء جميعاً.

وفي رواية أبي داود والترمذي من حديث معاذ بن جبل: كان في غزوة تبوك إذا زاغت الشمس قبل أن يرتحل جمع بين الظهر والعصر، فإن رحل قبل أن تزيف الشمس أخر الظهر حتى ينزل للعصر، وفي المغرب مثل ذلك: إن غابت الشمس قبل أن يرتحل جمع بين المغرب والعشاء، وإن ارتحل قبل أن تغيب الشمس أخر المغرب حتى ينزل للعشاء، ثم يجمع بينهما.

الفرع الثاني: في جمعه ﷺ بجمع ومزدلفة

عن ابن عمر: أنه ﷺ صلى المغرب والعشاء بالمزدلفة جمعاً. رواه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود. وزاد البخاري: كل واحدة منها بإقامة ولم يسبح بينهما.

ومسلم: جمع بين المغرب والعشاء بجمع، وصلى المغرب ثلاث ركعات، وصلى العشاء ركعتين.

وفي حديث أبي أيوب الأنصاري، عند البخاري ومسلم: جمع في حجة الوداع بين المغرب والعشاء في المزدلفة.

وفي رواية ابن عباس، عند النسائي: صلى المغرب والعشاء بإقامة واحدة.

وفي رواية جعفر بن محمد عن أبيه عند أبي داود: صلى الظهر والعصر بأذان واحد بعرفة، ولم يسبح بينهما وإقامتين، وصلى المغرب والعشاء بجمع بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح / بينهما.

ب/٣٦٥

الفصل الثالث

في ذكر صلاته ﷺ النوافل في السفر

عن ابن عمر قال: سافرت مع النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يصلون الظهر والعصر ركعتين ركعتين، ولا يصلى قبلها ولا بعدها^(١)، وقال ابن عمر: لو كنت مصلياً قبلها أو بعدها لأتمتها^(٢). رواه الترمذي^(٣).

وفي رواية: صحبت النبي ﷺ فلم أره يسبح في السفر، أي يتنفل للرواتب التي قبل الفرائض وبعدها. وهو مستفاد من قوله في الرواية الأخرى، فكان لا يزيد في السفر على ركعتين.

قال ابن دقيق العيد: وهذا اللفظ يحتمل أن يريد: لا يزيد على عدد ركعات الفرض، فيكون كناية عن نفي الاتمام، والمراد به الإخبار عن المداومة على القصر، ويحتمل أن يريد: لا يزيد نفلًا، ويمكن أن يريد ما هو أعم من ذلك.

وفي رواية مسلم: صحبت ابن عمر في طريق مكة، فصلى لنا الظهر ركعتين، ثم أقبل وأقبلنا معه، حتى جاء رجل فجلس وجلسنا

(١) في (أ، ب): قبلها أو بعدها.

(٢) في (أ، ب، ش): قبلها أو بعدها لأتمتها.

(٣) وهو في الصحيحين بمعناه، ورقمه في البخاري ١١٠٢.

معها، فحانت منه التفاتة فرأى ناساً قياماً، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ قلت: يسبحون، قال: لو كنت مسبحاً لأتممت.

قال النووي: أجابوا عن قول ابن عمر هذا بأن الفريضة محتمة^(١)، فلو شرعت تامة لتحتم إتمامها، وأما النافلة فهي إلى خيرة المصلي، فطريق الرفق به أن تكون مشروعة، ويخير فيها. انتهى

وتعقب: بأن مراد ابن عمر بقوله: «لو كنت مسبحاً لأتممت» يعني أنه لو كان مخيراً بين الإتمام وصلاة الراتبة لكان الإتمام أحب إليه، لكنه فهم من القصر التخفيف، فلذلك كان لا يصلي الراتبة ولا يتم.

وفي البخاري، من حديث ابن عمر: كان ﷺ يوتر على راحتله، وبوب عليه «باب الوتر في السفر»، وأشار به إلى الرد على من قال: «لا يسن الوتر في السفر»، وهو منقول عن الضحاك، وأما قول ابن عمر: «لو كنت مسبحاً في السفر لأتممت» كما أخرجه مسلم، فإنما أراد به راتبة المكتوبة، لا النافلة المقصودة كالوتر، وذلك بين من سياق الحديث المذكور عند الترمذي من وجه آخر بلفظ «لو كنت مصلياً قبلها أو بعدها لأتممت» وأما حديث عائشة عند البخاري: أنه ﷺ كان لا يدع أربعاً قبل الظهر وركعتين بعدها فليس بصريح في فعله ذلك في السفر، ولعلها أخبرت عن أكثر أحواله وهو الإقامة، والرجال أعلم بسفره من النساء.

وأجاب النووي - تبعاً لغيره - بما لفظه: لعل النبي ﷺ كان

(١) كذا في (د) وفي فتح الباري وهو الأصل المنقول عنه، وفي النسخ: محتمة.

يصلي الرواتب في رحله فلا يراه ابن عمر، أو لعله تركها في بعض الأوقات لبيان الجواز. انتهى

وفي رواية الترمذي من حديث ابن عمر قال: صليت مع رسول الله ﷺ الظهر في السفر ركعتين، وبعدها ركعتين.

وفي رواية: صليت معه في الحضر والسفر، فصليت معه في الحضر الظهر أربعاً وبعدها ركعتين. وصليت معه في السفر الظهر ركعتين وبعدها ركعتين، والعصر ركعتين ولم يصل بعدها شيئاً، والمغرب في الحضر والسفر سواء ثلاث ركعات لا تنقص في حضر ولا سفر، وهي وتر النهار وبعدها ركعتين.

وفي حديث أبي قتادة عند مسلم في قصة النوم عن صلاة الصبح: أنه ﷺ صلى ركعتين قبل الصبح، ثم صلى الصبح كما كان يصلي.

وقول صاحب «الهدى» إنه لم يحفظ عنه ﷺ أنه صلى سنة صلاة قبلها ولا بعدها في السفر إلا ما كان من سنة الفجر. يرد على إطلاقه ما قدمناه في رواية الترمذي من حديث ابن عمر. وما رواه أبو داود والترمذي من حديث البراء بن عازب قال: سافرت مع النبي ﷺ ثمانية عشر سفراً فلم أره ترك ركعتين إذا زاغت الشمس قبل الظهر، وكأنه لم يثبت عنده ذلك، لكن الترمذي استغربه، ونقل عن البخاري أنه رآه حسناً، وقد / حمله بعض العلماء على سنة الزوال لا على الراتبة قبل الظهر.

الفصل الرابع

في صلاته ﷺ التطوع في السفر على الدابة

عن ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يصلي سبحة حيثما توجهت به ناقته .

وفي رواية: يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة حيث كان وجهه وفيه نزلت: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾^(١).

وفي رواية: رأيت ﷺ يصلي على حمار وهو متوجه إلى خير.

وفي رواية: كان يوتر على البعير، رواه مسلم.

وقد أخذ بهذه الأحاديث فقهاء الأمصار، في جواز التنفل على الراحلة في السفر حيث توجهت، إلا أن أحمد وأبا ثور كانا يستحبان أن يستقبلا القبلة بالتكبير حال ابتداء الصلاة. والحجة لذلك ما في حديث أنس عند أبي داود أنه ﷺ كان إذا أراد أن يتطوع في السفر استقبل بناقته القبلة ثم صلى حيث توجهت ركابه.

وذهب الجمهور إلى جواز التنفل على الدابة سواء كان السفر طويلاً أو قصيراً، إلا مالكاً فخصه بالسفر الطويل، وحجته أن هذه

(١) سورة البقرة، الآية ١١٥.

الأحاديث إنما وردت في أسفاره عليه السلام، ولم ينقل عنه عليه السلام أنه سافر سافراً
قصيراً فصنع ذلك. وحجة الجمهور مطلق الأخبار في ذلك.

وقوله: «يصلي على حمار»، قال النووي: قال الدارقطني وغيره:
هذا غلط من عمرو بن يحيى المازني، وإنما المعروف في صلاته عليه السلام على
راحلة أو بعير. والصواب أن الصلاة على الحمار من فعل أنس كما
ذكره مسلم. ثم قال: وفي تغليط راويه نظر لأنه ثقة نقل شيئاً محتملاً،
فلعله كان الحمار مرة والبعير مرة أو مرات، لكن قد يقال إنه شاذ
مخالف لرواية الجمهور، والشاذ مردود. انتهى

وعن يعلى بن مرة عن أبيه عن جده^(١)، أنهم كانوا مع النبي
عليه السلام في مسيرة فانتهاوا إلى مضيق فحضرت الصلاة فمطروا، السماء من
فوقهم والبله من أسفل منهم، فأذن رسول الله عليه السلام وهو على راحلته،
فصلى بهم يومئذ إيماء، فجعل السجود أخفض من الركوع. رواه
الترمذي.

(١) شهد يعلى الحديبية وما بعدها، وأبوه يقال له صحبة. فالصواب حذف
قوله: «عن أبيه عن جده» إذ لا صحبة لجده قطعاً، والحديث إنما هو ليعلى
نفسه.

القِسْمُ الرَّابِعُ

في ذكر صلاته ﷺ صلاة الخوف

عن جابر قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ، فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ معلق بالشجرة، فاخترطه فقال: تخافني؟ فقال: لا، فقال: من يمنعك مني؟ قال: الله، فتهده^(١) أصحاب النبي ﷺ، فغمد السيف وعلقه، فأقيمت الصلاة، فصلى بطائفة ركعتين، ثم تأخروا، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، فكان للنبي ﷺ أربع ركعات، وللقوم ركعتان. رواه البخاري ومسلم.

ولمسلم: فصففنا صفين خلف رسول الله ﷺ، والعدو بيننا وبين القبلة فكبر النبي ﷺ وكبرنا جميعاً، ثم ركع وركعنا جميعاً، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه، وقام الصف المؤخر في نحر العدو، فلما قضى النبي ﷺ السجود وقام الصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا، ثم تقدم الصف المؤخر وتأخر الصف المقدم، ثم ركع النبي ﷺ وركعنا جميعاً، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه - الذي كان متأخراً في الركعة الأولى - فقام الصف المؤخر في نحر العدو، فلما قضى النبي ﷺ السجود والصف الذي يليه، انحدر الصف المؤخر بالسجود، فسجدوا ثم سلم النبي ﷺ وسلمنا جميعاً.

ولمسلم والبخاري أيضاً من / حديث يزيد بن رومان عن صالح ٣٦٦/ب

(١) في (ب، ط، ش) فهده.

ابن خوات عمن صلى معه ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف: أن طائفة صفت معه، وطائفة وجاه العدو، فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً، وأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم، ثم سلم بهم.

قال مالك: وذلك أحسن ما سمعت في صلاة الخوف.

وما ذهب إليه مالك من ترجيح هذه الكيفية وافقه الشافعي وأحمد على ترجيحها لسلامتها من كثرة المخالفة، ولكونها أحوط لأمر الحرب.

وعن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه، قال: غزوت مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فوازينا العدو، فصافقنا لهم، فقام رسول الله ﷺ يصلي بنا، فقامت طائفة معه، وأقبلت طائفة على العدو، وركع رسول الله ﷺ ومن معه، وسجد سجديتين، ثم انصرفوا مكان الطائفة التي لم تصل، فجاؤوا فركع رسول الله ﷺ بهم ركعة وسجد سجديتين ثم سلم، فقام كل واحد منهم يركع لنفسه ركعة ويسجد سجديتين^(١).

وفي حديث جابر: أنه ﷺ كان يصلي بالناس صلاة الظهر في الخوف ببطن نخل^(٢)، فصلى بطائفة ركعتين ثم سلم ثم جاءت طائفة أخرى فصلى بهم ركعتين ثم سلم، رواه البغوي في شرح السنة^(٣).

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري.

(٢) مكان بين مكة والمدينة.

(٣) وكذا رواه البيهقي في «المعرفة» بسند فيه ضعف وانقطاع. ورواه الدارقطني بنحوه بسند فيه ضعف.

وعنه: أنه ﷺ نزل بين ضجنان وعسفان، فقال المشركون: لهؤلاء صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم وأمهاتهم، وهي العصر، فأجمعوا أمرهم فتميلوا عليهم ميلة واحدة، وإن جبريل أتى النبي ﷺ فأمره أن يقسم أصحابه شطرين، فيصلي بهم، وتقوم طائفة أخرى وراءهم وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم، فتكون لهم ركعة ورسول الله ﷺ ركعتان. رواه الترمذي والنسائي^(١).

قال ابن حزم: وقد صح فيها - يعني صلاة الخوف - أربعة عشر وجهاً. وبينها في جزء مفرد.

وقال ابن العربي في «القبس»: جاء فيها روايات كثيرة، أصحها ست عشرة رواية مختلفة، ولم يبينها. وقال النووي نحوه في شرح مسلم ولم يبينها أيضاً.

وقد بينها الحافظ زين الدين العراقي في شرح الترمذي وزاد وجهاً آخر، فصارت سبعة عشر وجهاً، لكن يمكن أن تتداخل.

وقال صاحب «الهدى»: أصولها ست صفات، وبلغها بعضهم أكثر، وهؤلاء كلهم رأوا اختلاف الرواة في قصة جعلوا ذلك وجهاً من فعله ﷺ، وإنما هو من اختلاف الرواة. انتهى.

وهذا هو المعتمد، وإليه أشار إليه الحافظ العراقي بقوله: يمكن تداخلها.

وقد حكى ابن القصار المالكي: أن النبي ﷺ صلاها عشر مرات، وقال ابن العربي: أربعاً وعشرين، وقال الخطابي: صلاها ﷺ

(١) وأصله في مسلم.

في أيام مختلفة بأشكال متباينة، يتحرى فيها ما هو الأحوط للصلاة،
والأبلغ للحراسة، فهي على اختلاف صورها متفقة المعنى. انتهى
وفي كتب الفقه تفاصيل لها كثرة، وفروع يطول ذكرها. حكاها
في فتح الباري.

القِسْمُ الخَامِسُ

في ذكر صلّاته ﷺ على الجنّاة

وفيه فروع أربعة:

[الفرع الأول]

في عدد التكبيرات

عن أبي هريرة أنه رضي الله عنه نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه. وخرج بهم إلى المصلى فصف بهم وكبر عليه أربع تكبيرات. رواه البخاري ومسلم.

وعند الترمذي من حديث أبي هريرة أنه رضي الله عنه كبر على جنازة فرفع يديه مع أول تكبيرة، ووضع اليمنى على اليسرى.

الفرع الثاني

في القراءة والدعاء

نقل ابن المنذر عن ابن مسعود، والحسن بن علي، وابن الزبير، والمسور بن مخرمة، مشروعية قراءة الفاتحة في صلاة الجنازة. وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق.

ونقل عن أبي أبي هريرة وابن عمر: ليس فيها قراءة، وهو قول ابن مالك والكوفيين.

وروى عبد الرزاق والنسائي بإسناد صحيح عن أبي / أمامة بن سهل بن حنيف قال: السنة في الصلاة على الجنازة أن يكبر ثم يقرأ

أ/٣٦٧

بأم القرآن، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يخلص الدعاء للميت ولا يقرأ إلا في الأولى.

وفي البخاري عن سعد عن طلحة قال: صليت خلف ابن عباس على جنازة فقرأ فاتحة الكتاب وقال: لتعلموا أنها سنة، وليس فيه بيان محل قراءة الفاتحة، وقد وقع التصريح بذلك في حديث جابر عند الشافعي بلفظ: وقرأ بأم الكتاب بعد التكبيرة الأولى، كما ذكره الحافظ زين الدين العراقي في شرح الترمذي.

وعن ابن عباس قال: صلى رسول الله ﷺ على جنازة فقرأ بفاتحة الكتاب. رواه الترمذي وقال: لا يصح هذا. والصحيح عن ابن عباس قوله: «من السنة» وهذا مصير منه إلى الفرق بين الصيغتين. ولعله أراد الفرق بالنسبة إلى الصراحة والاحتمال.

وعن عوف بن مالك: صلى رسول الله ﷺ على جنازة فحفظنا من دعائه: اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله، وزوجاً خيراً من زوجته، وأدخله الجنة وأعدّه من عذاب القبر ومن عذاب النار. قال عوف: حتى تمنيت أن أكون ذلك الميت لدعاء رسول الله ﷺ. رواه مسلم.

وعن واثلة بن الأسقع قال: صلى بنا رسول الله ﷺ على رجل من المسلمين فسمعتة يقول: اللهم إن فلان بن فلان في ذمتك، وحل جوارك، فقه من فتنة القبر وعذاب النار، وأنت أهل الوفاء والحق، اللهم اغفر له وارحمه، إنك أنت الغفور الرحيم. رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى على الجنازة

قال: اللهم اغفر لحينا وميتنا وشاهدنا وغائبنا وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا. اللهم من أحبيته منا فأحبه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان. اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده. رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

وعنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اللهم أنت ربها وأنت خالقها، هديتها إلى الإسلام، قبضت روحها وأنت أعلم بسرها وعلايتها، جثثك شفعاء فاغفر لها. رواه أبو داود.

الفرع الثالث

في صلاته ﷺ على القبر

عن أبي هريرة أن امرأة سوداء كانت تقم^(١) المسجد، ففقدتها رسول الله ﷺ، فسأل عنها فقالوا: ماتت، قال: أفلا آذنتموني؟ قال: فكأنهم صغروا أمرها، فقال: دلوني على قبرها، فدلوه فصلى عليها. رواه البخاري ومسلم.

زاد ابن حبان فقال في رواية حماد بن سلمة عن ثابت: «إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله ينورها بصلاتي عليهم». وإشار إلى أن بعض المخالفين احتج بهذه الزيادة، على أن ذلك من خصائصه ﷺ. ثم ساق من طريق خارجة بن زيد بن ثابت عن عمه يزيد بن ثابت نحو هذه القصة، وفيها: ثم أتى القبر فصفقنا خلفه وكبر عليه أربعاً. قال ابن حبان: في ترك إنكاره ﷺ على من صلى معه على القبر بيان جواز ذلك لغيره، وأنه ليس من خصائصه، وتعقب بأن الذي يقع بالتبعية لا ينهض دليلاً للأصالة.

(١) أي تكنسه وتجمع القمامة.

وعن عقبة بن عامر: أنه ﷺ خرج يوماً فصلى على أهل أحد
صلاته على الميت، ثم انصرف، وفي رواية: صلى على قتلى أحد بعد
ثمان سنين كالمودع للأحياء والأموات. رواه أبو داود والنسائي.

ورواه الشيخان أيضاً بلفظ: خرج يوماً فصلى على أهل أحد
كصلاته على الميت ثم انصرف إلى المنبر فقال فرط لكم. الحديث.

وفيه: الصلاة على الشهداء في حرب الكفار. وقد اختلف
العلماء في هذه المسألة: فذهب مالك والشافعي / وأحمد وإسحاق ب/٣٦٧
والجمهور: إلى أن لا يصلي عليهم.

وذهب أبو حنيفة إلى الصلاة عليهم كغيرهم، وبه قال المزني،
وهي رواية عن أحمد اختارها الخلال.

وحجة الجمهور: أنه ﷺ لم يصل على قتلى أحد - كما رواه
البخاري في صحيحه عن جابر - وأما هذه الصلاة فالمراد بها الدعاء،
وليس المراد بها صلاة الجنازة المعهودة.

قال النووي: أي دعا لهم بدعاء صلاة الميت، وأن هذه الصلاة
مخصوصة بشهداء أحد، فإنه لم يصل عليهم قبل دفنهم كما هو المعهود
من صلاة الجنازة، وإنما صلى عليهم في القبور بعد ثمان سنين،
والحنفية يمنعون الصلاة على القبر مطلقاً، ولو كانت الصلاة عليهم
واجبة لما تركها في الأول.

ثم إن الشافعية اختلفوا في معنى قولهم: لا يصلى على الشهيد،
فقال أكثرهم: معناه: تحريم الصلاة عليه، وهو الصحيح عندهم.
وقال آخرون: معناه: لا تجب الصلاة عليه، لكن تجوز.

وذكر ابن قدامة: أن كلام أحمد في الرواية التي قال فيها يصلى
عليهم: يشير إلى أنها مستحبة غير واجبة.

[قال ابن القاسم صاحب مالك: إنه لا يصلى على الشهيد فيما إذا كان المسلمون هم الذين غزوا الكفار، فإن كان الكفار هم الذين غزوا المسلمين فيصلى عليهم]^(١).

الفرع الرابع

في صلاته ﷺ على الغائب

عن جابر أنه ﷺ قال: قد توفي اليوم رجل صالح من الحبش، فهلهم فصلوا عليه، قال: فصفنا فصلى النبي ﷺ ونحن وراءه. رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة أنه ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى فصف بهم وكبر أربع تكبيرات. رواه الشيخان أيضاً.

وعند البخاري من طريق ابن عيينة عن ابن جريج: فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة.

وبهذا الحديث استدل من منع الصلاة على الميت في المسجد، وهو قول الحنفية والمالكية، لكن قال أبو يوسف: إن أعد مسجد للصلاة على الموق لم يكن في الصلاة فيه عليهم بأس.

قال النووي: ولا حجة فيه، لأن الممتنع عند الحنفية إدخال الميت المسجد، لا مجرد الصلاة عليه، حتى لو كان الميت خارج المسجد جازت الصلاة عليه لمن داخله.

وقال ابن بزبة وغيره: استدل به بعض المالكية، وهو باطل،

(١) في (ب، ط) وفي هامش (د) وأشار مصحح شرح الزرقاني إلى وجودها في بعض النسخ.

لأنه ليس فيه صيغة نهى، ولاحتمال أن يكون خرج بهم إلى المصلى لأمر غير المعنى المذكور، وقد ثبت^(١) أنه ﷺ صلى على سهيل بن بيضاء في المسجد، فيكف يترك هذا التصريح لأمر محتمل، بل الظاهر أنه إنما خرج بالمسلمين إلى المصلى لقصد تكثير الجمع الذين يصلون عليه، ولإشاعة كونه مات على الإسلام، فقد كان بعض الناس لم يدّر كونه^(٢) أسلم، فقد روى ابن أبي حاتم في التفسير، والدارقطني في الأفراد، والبخاري، والبزار، كلاهما^(٣) عن أنس أن النبي ﷺ لما صلى على النجاشي قال بعض أصحابه^(٤): «صلى على عالج من الحبشة؟ فنزلت ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم﴾^(٥)، الآية، وله شاهد من حديث أبي سعيد عند الطبراني في معجمه الكبير، وزاد فيه: إن الذي طعن بذلك كان منافقاً.

وقد قال البخاري: «باب الصلاة على الجنائز بالمصلى والمسجد» وروى حديثاً عن ابن عمر أن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة زنيا فأمر بهما فرجما قريباً من موضع الجنائز عند المسجد.

وحكى ابن بطال عن ابن حبيب أن مصلى الجنائز بالمدينة كان لاصقاً بالمسجد النبوي من ناحية المشرق، انتهى فإن ثبت ما قال وإلا فيحتمل أن يكون المراد بالمسجد هنا المصلى المتخذ للعيدين والاستسقاء، لأنه لم يكن عند المسجد النبوي مكان مهياً للرجم.

ودل حديث ابن عمر المذكور على أنه كان للجنائز مكان معد

(١) في صحيح مسلم وغيره.

(٢) في (ش) يدركوه، وفي (ب) يذكر أنه.

(٣) أي ثابت وحيد. راويا الحديث عن أنس.

(٤) ستوضح الرواية الآتية أنه كان من المنافقين.

(٥) سورة آل عمران، الآية ١٩٩.

للصلاة عليها، فقد يستفاد منه أن ما وقع من الصلاة على بعض الجنائز في المسجد كان لأمر عارض، أو لبيان الجواز، واستدل به على مشروعية الصلاة على الجنائز في المسجد، ويقويه حديث عائشة «ما صلى ﷺ على سهيل بن بيضاء إلا في المسجد» / أخرجه مسلم، وبه قال الجمهور.

وحمل المانعون الصلاة على سهيل: بأنه كان خارج المسجد، والمصلون داخله، وذلك جائز اتفاقاً.

وفيه نظر: لأن عائشة استدلت بذلك لما أنكروا عليها أمرها بالمرور بجنزة سعد على حجرتها لتصلي عليه. وقد سلم لها الصحابة ذلك، فيدل على أنها حفظت ما نسوه.

وقد روى ابن أبي شيبة وغيره أن عمر صلى على أبي بكر في المسجد، وأن سهيلاً صلى على عمر في المسجد، زاد في رواية: ووضعت الجنزة في المسجد تجاه المنبر، وهذا يقتضي الإجماع على جواز ذلك.

وقد استدل أيضاً بحديث قصة النجاشي على مشروعية الصلاة على الميت الغائب عن البلد، وبذلك قال الشافعي وأحمد وجمهور السلف، حتى قال ابن حزم: لم يأت عن أحد من الصحابة منعه.

وعن الحنفية والمالكية لا يشرع ذلك.

وعن بعض أهل العلم: إنما يجوز ذلك في اليوم الذي يموت فيه الميت أو ما قرب، لا ما إذا ما طالت المدة، حكاه ابن عبد البر.

وقال ابن حبان: إنما يجوز ذلك لمن في جهة القبلة، فلو كان بلد الميت مستدبر القبلة مثلاً لم يجوز. قال المحب الطبري: لم أر ذلك لغيره.

وقد اعتذر من لم يقل بالصلاة على الغائب عن قصة النجاشي
بأمور:

منها: أنه كان بأرض لم يصل عليه بها أحد، فتعينت الصلاة
عليه لذلك، ومن ثم قال الخطابي: لا يصلى على الغائب إلا إذا وقع
موته بأرض ليس بها من يصلي عليه، واستحسنه الروياني من
الشافعية.

ومنها: قول بعضهم: إنه كشف له ﷺ عنه حتى رآه، وعبر
عنه القاضي عياض في «الشفاء» بقوله: ورفع له النجاشي حتى صلى
عليه، فتكون صلاته كصلاة الإمام على ميت رآه ولم يره المأمومون،
ولا خلاف في جوازها.

قال ابن دقيق العيد: وهذا يحتاج إلى نقل ولا يثبت بالاحتمال.

وتعقبه بعض الحنفية: بأن الاحتمال كاف في مثل هذا، وكأن
مستند هذا القائل ما ذكره الواحدي في أسباب النزول بغير إسناد عن
ابن عباس: كشف للنبي ﷺ عن سرير النجاشي حتى رآه وصلى
عليه. ولا بن حبان من حديث عمران بن حصين: فقام وصفوا خلفه
وهم لا يظنون إلا أن الجنازة بين يديه.

ومن الاعتذارات أيضاً: أن ذلك خاص بالنجاشي، لأنه لم يثبت
أنه ﷺ صلى على ميت غائب غيره. قاله المهلب، وكأنه لم يثبت عنده
قصة معاوية بن معاوية الليثي.

واستند من قال بتخصيص النجاشي بذلك إلى ما تقدم من
إشاعة أنه مات مسلماً أو استئلاف قلوب الملوك الذين أسلموا في
حياته.

قال النووي: لو فتح هذا الباب^(١) لا نسد كثير من ظواهر الشرع، مع أنه لو كان شيء مما ذكره لتوفرت الدواعي على نقله.

وقال ابن العربي: قال المالكية: ليس ذلك إلا لمحمد ﷺ، قلنا: وما عمل به محمد ﷺ تعمل به أمته، يعني لأن الأصل عدم الخصوصية، قالوا طويت له الأرض، وأحضرت الجنازة بين يديه، قلنا: إن ربنا لقادر، وإن نبينا لأهل لذلك، ولكن لا تقولوا إلا ما روئتم ولا تخرعوا حديثاً من عند أنفسكم، ولا تحدثوا إلا بالثابتات ودعوا الضعاف فإنها سبيل إلى إتلاف ما ليس له تلاف.

وقال الكرمانى: قولهم «رفع الحجاب عنه» ممنوع، ولئن سلمنا فكان غائباً عن الصحابة الذين صلوا مع النبي ﷺ، انتهى ملخصاً من فتح الباري.

(١) أي باب القول بالخصوص.

النَّوعُ الثَّالِثُ

في ذكر سيرته ﷺ في الزكاة

[معنى الزكاة]

وهي في اللغة: النماء والتطهير.

والمال ينمى بها من حيث لا يرى، وهي مطهرة لمؤديها من الذنوب، وقيل: ينمى أجرها عند الله تعالى. وسميت في الشرع زكاة لوجود المعنى اللغوي فيها. وقيل: لأنها تزكي صاحبها وتشهد بصحة إيمانه، وهي قيد النعمة^(١)، وسميت الصدقة صدقة لأنها دليل لتصديق صاحبها وصحة إيمانه بظاهره وباطنه.

[أصناف الأموال الواجب فيها الزكاة]

وقد فهم من شرعه ﷺ أن الزكاة / وجبت للمواساة، وأن ٣٦٨/ب
المواساة لا تكون إلا في مال له بال، وهو النصاب.

ثم جعلها ﷺ في الأموال النامية، وهي أربعة أصناف:

الذهب والفضة اللذان بهما قوام العالم.

والثاني: الزروع^(٢) والثمار.

والثالث: بهيمة الأنعام: الإبل والبقر والغنم.

والرابع: أموال التجارة على اختلاف أنواعها.

(١) أي مقيدة لها ومانعة من زوالها.

(٢) في (ط، ش): الزرع.

[مقدار النصاب]

وحدد ﷺ نصاب كل صنف بما يحتمل المواساة:

فنصاب الفضة خمس أواق، وهي مائتا درهم بنص الحديث والإجماع، وأما الذهب فعشرون مثقالاً، وأما الزروع^(١) والثمار فخمسة أوسق، وأما الغنم فأربعون شاة، والبقر ثلاثون بقرة، والإبل خمس.

ورتب ﷺ مقدار الواجب بحسب المؤنة والتعب في المال:

فأعلاها وأقلها تعباً الركاز، وفيه الخمس لعدم التعب فيه، ولم يعتبر له حولاً بل أوجب فيه الخمس متى ظفر به.

ويليه الزروع والثمار، فإن سقي بماء السماء ونحوه ففيه العشر، وإلا فنصفه.

ويليه الذهب والفضة والتجارة، وفيها ربع العشر، لأنه يحتاج إلى العمل فيه جميع السنة.

ويليه الماشية، فإنه يدخلها الأوقاص^(٢) بخلاف الأنواع السابقة.

ولما كان نصاب الإبل لا يحتمل المواساة من جنسه أوجب فيها شاة، فإذا صارت الخمس خمساً وعشرين احتمل نصابها واحداً، فكان هو الواجب. ثم إنه قدر سنَّ هذا الواجب في الزيادة والنقصان بحسب كثرة الإبل وقلتها.

وفي كتابه ﷺ الذي كتبه في الصدقة ولم يخرجه إلى عماله حتى قبض: في خمس من الإبل شاة، وفي عشر شاتان، وفي خمسة عشر

(١) في (ط، ش): الزرع.

(٢) جمع وقص: ما بين الفريضتين من نصب الزكاة مما لا شيء فيه.

ثلاث شياه، وفي عشرين أربع شياه، وفي خمس وعشرين بنت مخاض إلى خمس وثلاثين، فإذا زادت واحدة ففيها أبنة لبون إلى خمس وأربعين، فإذا زادت واحدة ففيها حقة إلى ستين، فإن زادت واحدة ففيها جذعة إلى خمس وسبعين، فإذا زادت واحدة ففيها ابنتا لبون إلى تسعين فإذا زادت واحدة ففيها حقتان إلى عشرين ومائة، فإذا كانت الأبل أكثر من ذلك ففي كل خمسين حقة، وفي كل أربعين ابنة لبون، وفي الغنم في كل أربعين شاة شاة، إلى عشرين ومائة، فإذا زادت واحدة فشاتان إلى المائتين، فإن زادت على المائتين ففيها ثلاث شياه، إلى ثلاثمائة، فإن كانت الغنم أكثر من ذلك ففي كل مائة شاة شاة، ثم ليس فيها شيء حتى تبلغ المائة. رواه أبو داود والترمذي من حديث سالم بن عبد الله بن عمر.

[زكاة الفطر]

وفرض ﷺ زكاة الفطر صاعاً من تمر، أو صاعاً من شعير على العبد والحر، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين، وأمر بها أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة، رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر.

وفي رواية أبي داود من حديث ابن عباس، فرض ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين.

[مستحقو الزكاة]

وقال ﷺ: إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها، فجزأها ثمانية أجزاء. رواه أبو داود من حديث زياد ابن الحارث الصدائي.

وهذه الثمانية الأجزاء يجمعها صنفان من الناس:

أحدهما: من يأخذ لحاجته، فيأخذ بحسب شدة الحاجة وضعفها، وكثرتها وقتتها، وهم الفقراء والمساكين وفي الرقاب وابن السبيل.

والثاني: من يأخذ لمنفعته، وهم العاملون عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمون لإصلاح ذات البين، والغزاة في سبيل الله، فإن لم يكن الآخذ محتاجاً، ولا فيه منفعة للمسلمين فلا سهم له في الزكاة.

[الأنبياء لا زكاة عليهم]

واعلم أن الأنبياء لا تجب عليهم الزكاة، لأنهم لا ملك لهم مع الله حتى تجب عليهم الزكاة فيه، وإنما تجب عليك زكاة ما أنت له مالك، إنما كانوا يشهدون / ما في أيديهم من ودائع الله لهم يذلولونه في أوان بذله، ويمنعونه في غير محله، ولأن الزكاة إنما هي طهرة لما عساه أن يكون ممن وجبت عليه لقوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾^(١)، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام مبرؤون من الدنس، لوجوب العصمة لهم، ولهذا لم يوجب أبو حنيفة على الصبيان زكاة لعدم دنس المخالفة، والمخالفة لا تكون إلا بعد جريان التكليف، وذلك بعد البلوغ. وإذا كان أهل المعرفة بالله المشاهدون لأحدثته لا يشهدون لهم مع الله ملكاً كما هو مشهور من حكاياتهم، فما ظنك بالأنبياء والرسول، وأهل التوحيد والمعرفة إنما عرفوا من بحارهم واقتبسوا من أنوارهم. انتهى ملخصاً من كتاب «التنوير» للعارف الكبير أبي الفضل بن عطاء الله الشاذلي، أذاقنا الله حلاوة مشربه.

(١) سورة التوبة، الآية ١٠٣.

[قصة باطلة]

تنبه: ما حكى أن الإمام الشافعي وأحمد بن حنبل كانا جالسين، إذ أقبل شيبان الراعي، فقال أحمد بن حنبل للشافعي: أريد أن أسأل هذا المشار إليه في هذا الزمن، فقال الشافعي: لا تفعل، فقال: لا بد من ذلك، فقال: يا شيبان ما تقول فيمن نسي أربع سجعات من أربع ركعات؟ فقال: يا أحمد، هذا قلب غافل عن الله، يجب أن يؤدب حتى لا يعود إلى مثل ذلك. قال: فخر أحمد مغشياً عليه، ثم أفاق فقال: ما تقول فيمن له أربعون شاة، ما زكاتها؟ فقال: على مذهبنا أو على مذهبكم؟ فقال: أوهما^(١) مذهبنا؟ فقال: نعم، أما على مذهبكم ففي الأربعين شاة شاة، وأما على مذهبنا فالعبد لا يملك مع سيده شيئاً.

فقد نقل شيخنا في «المقاصد» عن ابن تيمية أن ذلك باطل باتفاق أهل المعرفة، لأن الشافعي وأحمد لم يدركا شيبان الراعي والله أعلم. انتهى

[الدعاء للمزكي]

وقد كان ﷺ إذا أتاه قوم بصدقة قال: اللهم صل على آل فلان، فأتاه أبو أوفى بصدقة فقال: اللهم صل على آل أبي أوفى. رواه البخاري ومسلم.

[تاريخ فرض الزكاة]

واختلف في أول وقت فرض الزكاة. فذهب الأكثرون إلى أنه

(١) في المخطوطات: وهما.

وقع بعد الهجرة، فقيل: كان في السنة الثانية قبل فرض رمضان، أشار إليه النووي في باب السير من الروضة.

وجزم ابن الأثير في التاريخ بأن ذلك كان في التاسعة، وفيه نظر: لما في حديث ضمام بن ثعلبة، وحديث وفد عبد القيس، ومخاطبة أبي سفيان مع هرقل وكان في أول السابعة، وقال فيها: يأمرنا بالزكاة.

وقوى بعضهم ما ذهب إليه ابن الأثير بما وقع في قصة ثعلبة بن حاطب المطولة ففيها: لما أنزلت آية الصدقة بعث النبي ﷺ عاملاً: فقال: ما هذه إلا الجزية أو أخت الجزية، والجزية إنما وجبت في التاسعة، فتكون الزكاة في التاسعة. لكنه حديث ضعيف لا يحتاج بمثله.

وادعى ابن خزيمة في صحيحه أن فرضها كان قبل الهجرة، واحتج بما أخرجه من حديث أم سلمة في قصة هجرتهم إلى الحبشة، وفيها: أن جعفر بن أبي طالب قال للنجاشي في جملة ما أخبره به عن الرجل: الذي يأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، انتهى.

وفي الاستدلال بذلك نظر، لأن الصلوات الخمس لم تكن فرضت بعد، ولا صيام رمضان، فيحتمل أن تكون مراجعة جعفر لم تكن في أول ما قدم على النجاشي، وإنما أخبره بذلك بعد مدة قد وقع فيها ما ذكر من فريضة الصلاة والصيام، وبلغ ذلك جعفرًا فقال: يأمرنا، يعني أمته، وهو بعيد جداً. وأولى ما حمل عليه حديث أم سلمة هذا - إن سلم من قدح في إسناده - أن المراد بقول جعفر «يأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام» أي في الجملة، ولا يلزم من ذلك أن يكون المراد بالصلاة الصلوات الخمس ولا بالصيام صيام شهر رمضان، ولا بالزكاة هذه الزكاة المخصوصة / ذات النصاب والحول.

ب/٣٦٩

ومما يدل على أن فرض الزكاة كان قبل التاسعة حديث أنس في قصة ضمام بن ثعلبه وقوله: «أنشدك الله، الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟» وكان قدوم ضمام سنة خمس، وإنما الذي وقع في التاسعة بعث العمال لأخذ الصدقات، وذلك يستدعي تقدم فريضة الزكاة قبل ذلك.

ومما يدل على أن فرض الزكاة وقع بعد الهجرة اتفاقهم على أن صيام رمضان إنما فرض بعد الهجرة، لأن الآية الدالة على فرضيته مدنية بلا خلاف. وثبت عند أحمد وابن خزيمة والنسائي وابن ماجه والحاكم من حديث قيس بن سعد بن عبادة قال: أمرنا رسول الله ﷺ بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة، ثم نزلت فريضة الزكاة، فلم يأمرنا ولم ينهنا ونحن نفعله. إسناده صحيح، ورجاله رجال الصحيح، إلا أبا عمار، الراوي عن قيس بن سعد، وقد وثقه أحمد وابن معين. وهو دال على أن فرض صدقة الفطر كان قبل فرض الزكاة، فيقتضي وقوعها بعد فرض رمضان. قاله الحافظ أبو الفضل بن حجر رحمه الله.

[قبوله ﷺ الهدية دون الصدقة]

وكان ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها. رواه البخاري من حديث عائشة.

وإذا أتى بطعام سأل عنه أهديه أم صدقة، فإن قيل صدقة قال لأصحابه: كلوا ولم يأكل، وإن قيل هدية ضرب بيده فأكل معهم. رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة.

وقال ﷺ لعائشة: هل عندكم شيء فقالت: لا، إلا شيء بعثت

به إلينا نسيبة من الشاة التي بعثت بها إليها من الصدقة، قال: إنها بلغت محلها. رواه البخاري ومسلم.

وقوله: «محلها» بكسر الحاء، أي زال عنها حكم الصدقة وصارت حلاً لنا.

وأتى بلحم قد تصدق به على بريرة فقال: هو عليها صدقة، ولنا هدية، رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

وفي حديث عائشة عند البخاري ومسلم: دخل ﷺ وعلى النار برمة^(١) تفور، فدعا بالغداء، فأتي بخبز وأدم من أدم البيت، فقال: ألم أر برمة على النار تفور؟ قالوا: بلى يا رسول الله، لكنه لحم تصدق به على بريرة، وأهدت إلينا منه، وأنت لا تأكل الصدقة، فقال: هو صدقة عليها، وهدية لنا.

(١) هي القدر.

النَّوع الرَّابِع

في ذكر صيامه ﷺ

[حكمة الصوم وفضيلته]

اعلم أن المقصود من الصيام إمساك النفس عن خسيس عاداتها، وحبسها عن شهواتها، وطماعها^(١) عن مألوفاتها، فهو لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر أعمال العاملين، كما قال الله تعالى في الحديث الإلهي الذي رواه مسلم: ^(٢) (كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام فهو^(٣) لي وأنا أجزي به). فأضافه تعالى إليه أضافة تشريف وتكريم، كما قال تعالى: ﴿ناقة الله﴾^(٤) مع أن العالم كله له سبحانه.

وقيل^(٥): لأنه لم يعبد غيره به، فلم يعظم الكفار في عصر من الأعصار معبوداً لهم بالصيام، وإن كانوا يعظمونه بصورة الصلاة والسجود وغيرها.

قال في شرح تقريب الأسانيد: واعترض بما يقع من عباد النجوم وأصحاب الهياكل والاستخدامات فإنهم يتعبدون لها بالصيام.

وأجيب: بأنهم لا يعتقدون أنها فعالة بأنفسها.

(١) في ط: وطمعها.

(٢) ورواه البخاري أيضاً.

(٣) في (أ، ب): هو.

(٤) سورة الشمس، الآية ١٣.

(٥) أي: وقيل في وجه ذلك.

وقيل: لأن الصوم بعيد عن الرياء لخبائثه، بخلاف الصلاة والحج والغزو، وغير ذلك من العبادات الظاهرات، قال في فتح الباري: معنى النفي في قولهم «لا رياء في الصوم» أنه لا يدخله الرياء بفعله، وإن كان قد يدخله الرياء بالقول، كمن يصوم ثم يخبر بأنه صائم، فقد يدخله الرياء من هذه الخبيثة، فدخل الرياء في الصوم إنما يقع من جهة الإخبار، بخلاف بقية الأعمال، فإن الرياء يدخلها بمجرد فعلها. انتهى.

وعن شداد بن أوس مرفوعاً: من صام يرائي فقد أشرك. رواه البيهقي.

وقيل: لأنه ليس للصائم ونفسه فيه حظ.

وقيل: لأن الاستغناء عن الطعام وغيره من الشهوات من صفات الرب تعالى، فلما تقرب الصائم إليه بما يوافق صفاته أضافه إليه، قال القرطبي معناه: أن أعمال العباد مناسبة لأحوالهم، إلا الصيام فإنه مناسب لصفة من صفات الحق، كأنه تعالى يقول: إن الصائم يتقرب إلي بأمر هو متعلق بصفة من صفاتي. أو لكون ذلك من صفات الملائكة، أو لأنه تعالى هو المنفرد بعلم مقدار ثوابه وتضعيف حسناته، بخلاف غيره من العبادات، فقد أظهر سبحانه بعض مخلوقاته على مقدار ثوابها، ولذا قال في بقية الحديث: (وأنا أجزي / به) وقد علم بأن الكريم إذا أخبر بأنه يتولى بنفسه الجزاء اقتضى ذلك سعة العطاء، وإنما جوزي الصائم هذا الجزاء لأنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده.

والمراد بالشهوة في الحديث شهوة الجماع لعطفها على الطعام الشراب، ويحتمل أن يكون من العام بعد الخاص، لكن وقع في

رواية عند ابن خزيمة «يدع لذته من أجلي، ويدع زوجته من أجلي»، وأصرح منه ما روي «من الطعام والشراب والجماع من أجلي».

وللصيام تأثير عجيب في حفظ الأعضاء الظاهرة، وقوى الجوارح الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب للمواد الفاسدة، واستفراغ المواد الرديئة المانعة له من صحتها، فهو من أكبر العون على التقوى، كما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾^(١) وقال ﷺ - كما في البخاري^(٢): - (الصوم جنة) هي بضم الجيم، الوقاية والستر، أي: ستر من النار. وبه جزم ابن عبد البر، وفي النهاية: أي يقي صاحبه مما يؤذيه من الشهوات، وقال القاضي عياض: من الآثام. وقد اتفقوا على أن المراد بالصيام هنا صيام من سلم صيامه من المعاصي قولاً وفعلاً.

وقد اختلف: هل الصوم أفضل أم الصلاة؟ فقول الصوم أفضل الأعمال البدنية، لحديث النسائي عن أبي أمامة قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، مرني بأمر آخذه عنك قال: (عليك بالصوم فإنه لا عدل له)، والمشهور تفضيل الصلاة، وهو مذهب الشافعي وغيره، لقوله ﷺ: (واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة) رواه أبو داود وغيره.

ثم إن الكلام في صيامه ﷺ على قسمين:

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٣.

(٢) وكذا رواه مسلم.

القِسْمُ الأوَّل

في صيامه ﷺ شهر رمضان
وفيه فصول:

الفصل الأول

فيما كان يخص به رمضان من العبادات
وتضاعف جوده ﷺ فيه

[تسمية رمضان وفرضية صيامه]

اعلم أن «رمضان» مشتق من المرض، وهو شدة الحر، لأن العرب لما أرادوا أن يضعوا أسماء الشهور وافق أن الشهر المذكور شديد الحر فسموه بذلك، كما سمي الربيعان^(١) لموافقتها زمن الربيع. أو لأنه يرمض الذنوب أي يحرقها، وهو ضعيف لأن التسمية به ثابتة قبل الشرع.

ورمضان أفضل الشهور، كما حكاه الأسنوي عن قواعد الشيخ عز الدين بن عبد السلام.

قال النووي: وقولهم إنه من أسماء الله تعالى ليس بصحيح، وإن كان قد جاء فيه أثر ضعيف، وأسماء الله تعالى توقيفية لا تثبت إلا بدليل صحيح. انتهى.

وقد اختلف السلف: هل فرض صيام قبل صيام رمضان أم لا؟ فالجمهور - وهو المشهور عند الشافعية - أنه لم يجب قط صوم قبل
(١) في المخطوطات: الربيعين، وهو صحيح على اعتباره المفعول الثاني لـ «سمى».

صوم رمضان، وفي وجهه - وهو قول الحنفية - أول ما فرض [يوم] (١) عاشوراء، فلما نزل رمضان نسخ. وسيأتي أدلة الفريقين في الكلام على صوم عاشوراء أن شاء الله تعالى.

وقد كان فرض رمضان في السنة الثانية من الهجرة - كما تقدم - فتوفي سيدنا رسول الله ﷺ وقد صام تسع رمضانات.

[رمضان وأعمال الخير]

ولما كان شهر رمضان موسم الخيرات ومنبع الجود والبركات لأن نعم الله فيه تزيد على غيره من الشهور، وكان سيدنا رسول الله ﷺ يكثر فيه من العبادات وأنواع القربات الجامعة لوجوه السعادات، من الصدقة والإحسان والصلاة والذكر والاعتكاف ويخص به من العبادات ما لا يخص به غيره من الشهور، وكان جوده ﷺ يتضاعف في شهر رمضان على غيره من الشهور، كما أن جود ربه تعالى يتضاعف فيه أيضاً، فإن الله تعالى جبله على ما يحبه من الأخلاق الكريمة /

وفي حديث ابن عباس عند الشيخين، قال: (كان النبي ﷺ أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة).

فبمجموع ما ذكر في هذا الحديث من الوقت وهو شهر رمضان، والمنزل وهو القرآن، والنازل به وهو جبريل، والمذاكرة وهي مداورة القرآن، حصل له ﷺ المزيد في الجود.

والمرسلة: المطلقة، يعني أنه في الإسراع بالجود أسرع من (١) في ط .

الريح ، وعبر بالمرسلة إشارة إلى دوام هبوبها بالرحمة، إلى عموم النفع بجوده ﷺ، كما تعم الريح المرسلة جميع ما تهب عليه.

ووقع عند الإمام أحمد في آخر هذا الحديث (لا يسأل شيئاً إلا أعطاه). وتقدم في ذكر سخائه ﷺ مزيد لذلك.

[القرآن في رمضان]

وقد كان ابتداء نزول القرآن في شهر رمضان، وكذا نزوله إلى سماء الدنيا جملة واحدة، فكان جبريل عليه الصلاة والسلام يتعاهده ﷺ في كل سنة، فيعارضه بما نزل عليه من رمضان إلى رمضان، فلما كان العام الذي توفي فيه ﷺ عارضه به مرتين، كما ثبت في الصحيح عن فاطمة رضي الله عنها.

قال في فتح الباري: وفي معارضة جبريل النبي ﷺ بالقرآن في شهر رمضان حكمتان، إحداهما: تعاهده، والأخرى: تبقية ما لم ينسخ منه ورفع ما نسخ، فكان رمضان ظرفاً لإنزاله جملة وتفصيلاً وعرضاً وإحكاماً.

وفي المسند، عن وائلة بن الأسقع، عن النبي ﷺ أنه قال: أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين^(١) من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الفرقان لأربع وعشرين خلت من رمضان^(٢).

وقد دل الحديث على استحباب مدراسة القرآن في رمضان، والاجتماع عليه، وعرض القرآن على من هو أحفظ منه.

(١) كذا في ش والمسند، وفي المخطوطات: لست من، وفي ط: لست بقين.

(٢) المسند ١٠٧/٤.

وفي حديث ابن عباس أن المدارس بينه ﷺ وبين جبريل كانت ليلاً، وهو يدل على استحباب الإكثار من تلاوة القرآن في رمضان ليلاً، لأن الليل تنقطع فيه الشواغل وتجتمع فيه الهمم، ويتواطأ فيه القلب واللسان على التدبر.

[استقبال رمضان]

وقد كان ﷺ يبشر أصحابه بقدوم رمضان، كما أخرجه الإمام أحمد والنسائي عن أبي هريرة ولفظه قال: كان^(١) النبي ﷺ يبشر أصحابه بقدوم رمضان يقول: قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، كتب عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب السماء، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم [الخير الكثير]^(٢).

قال بعض العلماء: هذا الحديث أصل في تهنئة الناس بعضهم بعضاً بشهر رمضان.

وروي أنه ﷺ كان يدعو ببلوغ رمضان، فكان إذا دخل شهر رجب وشعبان قال: اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان. رواه الطبراني^(٣) وغيره من حديث أنس^(٤).

وكان ﷺ إذا رأى هلال رمضان قال: هلال رشد وخير، هلال رشد وخير^(٥)، آمنت بالذي خلقك، رواه النسائي من حديث أنس.

(١) في ط: كنا مع النبي.

(٢) في (ط، ش).

(٣) في ط: الطبري.

(٤) ضعفه البيهقي وغيره.

(٥) في (أ، د) كرر هذه الجملة مرة ثالثة.

وروي أنه ﷺ كان يقول إذا دخل شهر رمضان: اللهم سلمني من رمضان، وسلم رمضان لي، وسلمه مني. أي: سلمني منه حتى لا يصيبني فيه ما يحول بيني وبين صومه من مرض أو غيره. وسلمه لي: حتى لا يغم هلاله علي في أوله وآخره، فيلتبس علي الصوم والفطر، وسلمه مني: أن تعصمني من المعاصي فيه. وهذا منه ﷺ تشريع لأمته (١).

(١) كلمة «لأمته» سقطت في ط .

الفصل الثاني

في صيامه ﷺ برؤية الهلال

عن عائشة (كان ﷺ / يتحفظ من شعبان ما لا يتحفظ من ١/٣٧١
غيره^(١)، ثم يصوم لرؤية رمضان، فإن غم عليه عد ثلاثين يوماً ثم
صام). رواه أبو داود.

وقال ﷺ: (إذا رأيتموه فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن
غمَّ عليكم فاقدروا له) رواه مسلم.

قوله: «فإن غم عليكم» أي: حال بينكم وبينه غيم.

«فاقدروا له» من التقدير، أي: قدروا له تمام العدد ثلاثين
يوماً، ويؤيده قوله في الرواية السابقة: «فإن غم عليه ﷺ عد
ثلاثين» وهو مفسر لـ «اقدروا له» ولهذا لم يجتمعا في رواية.
ويؤكداه رواية: «فاقدروا له ثلاثين»^(٢).

قال المازري: حمل جمهور الفقهاء قوله ﷺ: «اقدروا»
على أن المراد إكمال العدة ثلاثين كما فسره في حديث آخر،
قالوا: ولا يجوز أن يكون المراد حساب المنجمين، لأن الناس
لو كلفوا به لضاق عليهم، لأنه لا يعرفه إلا الأفراد، والشرع إنما
يعرف الناس بما يعرفه جماهيرهم. انتهى.

(١) أي يجتهد في الوصول إلى العلم بهلاله.

(٢) رواية لمسلم عن ابن عمر.

وهذا مذهبننا ومذهب مالك وأبي حنيفة، وجههور السلف
والخلف. وفيه دليل: أنه لا يجوز صوم يوم الشك، ولا يوم الثلاثين
من شعبان عن رمضان إذا كانت ليلة الثلاثين ليلة غيم.

وقال الإمام أحمد بن حنبل في طائفة: أي اقدروا له تحت
السحاب، فيجوزون صوم ليلة الغيم عن رمضان، بل قال أحمد
بوجوبه.

وقال ابن سريج^(١) وجماعة منهم مطرف بن عبد الله وابن قنينة
وآخرون معناه: قدروا بحساب المنازل.

(١) في (أ، ب): شريح.

الفصل الثالث

في صومه ﷺ بشهادة العدل الواحد

عن ابن عمر قال: تراءى الناس الهلال، فأخبرت رسول الله ﷺ أني رأيته، فصام وأمر الناس بصيامه. رواه أبو داود وصححه ابن حبان.

وعن ابن عباس قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: إني رأيت هلال رمضان، فقال: أتشهد أن لا إله إلا الله، قال: نعم، قال: أتشهد أن محمداً رسول الله، قال: نعم، قال: يا بلال، أذن في الناس فليصوموا، رواه أبو داود والترمذي والنسائي.

والمراد في قوله ﷺ في الحديث السابق: «إذا رأيتموه» رؤية بعض المسلمين، ولا يشترط رؤية كل إنسان، بل يكفي جميع الناس رؤية عدل على الأصح في مذهبنا. وهذا في الصوم، وأما في الفطر فلا يجوز بشهادة عدل واحد على هلال شوال عند جميع العلماء، إلا أبا ثور فجوزه بعدل.

قال الأسنوي: إذا قلنا بالعدل الواحد في الصوم فلا خلاف أنه لا يتعدى إلى غيره، فلا يقع به الطلاق والعتق المعلقين بدخول رمضان، ولا يحل به الدين المؤجل، ولا يتم به حول الزكاة، كذا أطلقه الرافعي هنا نقلاً عن البغوي، وأقره وتبعه عليه في الروضة،

وصورته: فيما إذا سبق التعليق على الشهادة، فإن وقعت الشهادة أولاً، وحكم الحاكم بدخول رمضان ثم جرى التعليق فإن الطلاق والعتق يقعان. كذا نقله القاضي حسين في تعليقه عن ابن سريج^(١) وقال الرافعي: في الباب الثاني من كتاب الشهادات: إنه القياس، انتهى.

(١) في المخطوطات: شريح.

الفصل الرابع

فيما كان يفعله ﷺ وهو صائم

[الحجامة]

عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ احتجم وهو صائم. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي.

واعلم أن الجمهور على عدم الفطر بالحجامة مطلقاً.

وعن علي وعطاء والأوزاعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور: يفطر الحاجم والمحجوم، وأوجبوا عليهما القضاء.

وشذ عطاء فأوجب الكفارة أيضاً.

وقال بقول أحمد، من الشافعية: ابن خزيمة وابن المنذر وابن

حيان.

ونقل الترمذي عن الزعفراني^(١): أن الشافعي علق القول به / ٣٧١ ب/ على صحة الحديث. قال الترمذي: كان الشافعي يقول ذلك ببغداد، وأما بمصر فمال إلى الرخصة. انتهى.

(١) الحسين بن علي بن يزيد البغدادي، الفقيه الإمام في اللغة، قال في التقريب، صدوق فاضل. مات سنة ثمان وأربعين ومائتين.

وقال الشافعي في «اختلاف الحديث»^(١) بعد أن أخرج حديث شداد «كنا مع رسول الله ﷺ في زمان الفتح، فرأى رجلاً محتجماً لثمان عشرة خلت من رمضان. فقال - وهو آخذ بيدي - : أفطر الحاجم والمحجوم» ثم ساق حديث ابن عباس «أنه ﷺ احتجماً وهو صائم» قال: وحديث ابن عباس أمثلها إسناداً^(٢)، فإن توقي أحد الحجامة كان أحب إلى احتياطاً، والقياس مع حديث ابن عباس. والذي أحفظ عن الصحابة والتابعين وعامة أهل العلم أنه لا يفطر أحد بالحجامة، انتهى.

وأول بعضهم حديث «أفطر الحاجم والمحجوم» أن المراد به أنها سيفطران، كقوله تعالى: ﴿إني أراي أعصر خمراً﴾^(٣)، أي ما يؤول إليه. ولا يخفى بعد هذا التأويل. وقال البغوي في «شرح السنة» معناه: أي تعرضاً للإفطار، أما الحاجم فإنه لا يأمن من وصول شيء من الدم إلى جوفه عند مصه، وأما المحجوم فإنه لا يأمن من ضعف قوته بخروج الدم، فيؤول أمره إلى أن يفطر. وقيل: معنى أفطرا: فعلاً مكروهاً وهو الحجامة، فصارا كأنهما غير متلبسين بالعبادة.

وقال ابن حزم: صح حديث «أفطر الحاجم والمحجوم» بلا ريب، لكن وجدنا من حديث أبي سعيد «أرخص النبي ﷺ في الحجامة للصائم» وإسناده صحيح، فوجب الأخذ به، لأن الرخصة إنما تكون بعد العزيمة، فدل على نسخ الفطر بالحجامة، سواء كان حاجماً أو محجوماً. انتهى.

(١) اسم كتاب.

(٢) حديث ابن عباس متفق عليه، وحديث شداد فيه كلام.

(٣) سورة يوسف، الآية ٣٦.

والحديث المذكور^(١) أخرجه النسائي وابن خزيمة والدارقطني، ورجاله ثقات، ولكن اختلف في رفعه ووقفه، وله شاهد من حديث أنس عند الدارقطني ولفظه «أول ما كرهت الحجامة للصائم أن جعفر ابن أبي طالب احتجم وهو صائم، فمر به رسول الله ﷺ فقال: أفطر هذان، ثم أرخص رسول الله ﷺ بعد في الحجامة للصائم، وكان أنس يحتجم وهو صائم». ورواته كلهم من رجال البخاري إلا أن في المتن ما ينكر، لأن فيه أن ذلك كان في الفتح، وجعفر كان قتل قبل ذلك.

ومن أحسن ما ورد في ذلك، ما رواه عبد الرزاق وأبو داود عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: نهى النبي ﷺ عن الحجامة للصائم، وعن المواصلة، ولم يحرمها إبقاء على أصحابه. وإسناده صحيح، والجهالة بالصحابي لا تضر، ورواه ابن أبي شيبه عن وكيع عن الثوري بلفظ «عن أصحاب محمد ﷺ قالوا: إنما نهى النبي ﷺ عن الحجامة للصائم وكرهها للضعف» أي لثلا يضعف. انتهى ملخصاً من فتح الباري والله أعلم.

[التقبيل والاحتحال والسواك]

وقالت عائشة: (كان ﷺ يقبل بعض أزواجه وهو صائم، ثم ضحكت). رواه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود. قالت: (وكان أملككم لإربه)^(٢) أي لحاجته، تعني أنه كان غالباً لهواه.

قال ابن الأثير: أكثر المحدثين يروونه بفتح الهمزة والراء، يعنون به الحاجة، وبعضهم يرويه بكسر الهمزة وسكون الراء، وله تأويلان:

(١) أي حديث أبي سعيد «أرخص...».

(٢) متفق عليه.

أحدهما أنه الحاجة يقال فيها؛ الأَرَب، والإرْب، والإربة والمأربة، والثاني: أرادت به العضو، وعتت به من الأعضاء الذكر خاصة، انتهى.

فمذهب الشافعي والأصحاب: أن القبلة ليست محرمة على من لم تحرك شهوته، لكن الأولى تركها، وأما من حركت شهوته فهي حرام في حقه على الأصح عند أصحابنا.

وقوله: «فضحكت»^(١) قيل: يحتمل ضحكها التعجب ممن خالف هذا، وقيل: تعجبت من نفسها، إذ حدثت بمثل هذا مما يستحي من ذكر النساء مثله للرجال، ولكنها ألبأتها الضرورة في تبليغ العلم إلى ذكر ذلك، وقد يكون خجلاً لإخبارها عن نفسها بذلك، أو تنبيهاً على أنها صاحبة القصة ليكون ذلك أبلغ في الثقة بها، أو سروراً بمكانتها من النبي ﷺ ومحبه لها.

وقد / روى ابن أبي شيبة عن شريك عن هشام في هذا الحديث: فضحكت فظننا أنها هي.

أ/٣٧٢

وروى النسائي عنها قالت: أهوى إليّ النبي ﷺ ليقبلني فقلت: إني صائمة، فقال: وأنا صائم فقبلني.

وقد روى أبو داود عن عائشة أن النبي ﷺ كان يقبلها ويمص لسانها، يعني وهو صائم. وإسناده ضعيف، ولو صح فهو محمول على أنه لم يتلع ريقه الذي خالط ريقها.

وكان ﷺ يكتحل بالإثم وهو صائم^(٢). رواه البيهقي من رواية

(١) الرواية، ثم ضحكت.

(٢) قال أبو حاتم: حديث منكر.

محمد بن عبد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جده . ثم قال : إن محمداً هذا ليس بالقوي ، وثقه الحاكم وأخرج له في مستدركه .

وقالت أم سلمة : كان ﷺ يصبح جنباً من جماع لا حلم ، ثم لا يفطر ولا يقضي . رواه البخاري ومسلم .

قال القرطبي : في هذا الحديث فائدتان ، إحداهما : أنه كان يجامع في رمضان ويؤخر الغسل إلى بعد طلوع الفجر بياناً للجواز ، الثانية : أن ذلك كان من جماع لا من احتلام ، لأنه كان لا يحتلم ، إذ الاحتلام من الشيطان ، وهو معصوم منه ، وقال غيره في قولها : «من غير الاحتلام» إشارة إلى جواز الاحتلام عليه ، وإلا لما كان لاستثنائه معنى .

وردّ : بأن الاحتلام من الشيطان ، وهو معصوم منه . وأجيب : بأن الاحتلام يطلق على الإنزال ، وقد يقع الإنزال بغير رؤية شيء في المنام . وأرادت بالتقييد بالجماع المبالغة في الرد على من زعم أن فاعل ذلك عمداً يفطر . انتهى .

وقال عامر بن ربيعة : رأيت ﷺ يستاك وهو صائم مالا أعد ولا أحصي . رواه أبو داود والترمذي .

الفصل الخامس

في وقت إفطاره ﷺ

عن عبد الله بن أبي أوفى قال: (كنا مع رسول الله ﷺ في سفر في شهر رمضان، فلما غابت الشمس قال: يا بلال انزل فاجدح لنا، قال: يا رسول الله، إن عليك نهراً، قال: انزل فاجدح لنا، قال فنزل فجدح فأق به فشرب النبي ﷺ ثم قال بيده: إذا غابت الشمس من ها هنا، وجاء الليل من ها هنا فقد أفطر الصائم) رواه البخاري ومسلم.

والجدح - بجيم ثم حاء مهملة - خلط الشيء بغيره. والمراد: خلط السويق بالماء وتحريكه حتى يستوى.

ومعنى الحديث: أنه ﷺ وأصحابه كانوا صياماً، فلما غربت الشمس أمره ﷺ بالجدح ليفطروا، فرأى المخاطب آثار الضياء والحمرة التي تبقى معه بعد غروب الشمس، فظن أن الفطر لا يحصل إلا بعد [ذهاب] (١) ذلك،، واحتمل عنده أنه ﷺ لم يرها (٢)، فأراد تذكيره وإعلامه بذلك، ويؤيد هذا قوله: إن عليك نهراً، لتوهمه أن ذلك الضوء من النهار الذي يجب صومه، وهو معنى قوله في الرواية

(١) ليست في الأصل وهي في النسخ.

(٢) في (ط، ش): يرها، أي الضياء والحمرة.

الأخرى: «لو أمسيت» وتكريره المراجعة لغلبة اعتقاده على أن ذلك
نهار يحرم الأكل فيه، مع تجويزه أنه ﷺ لم ينظر إلى ذلك الضوء نظراً
تاماً، فقصد زيادة الإعلام ببقاء الضوء والله أعلم. قاله النووي.

الفصل السادس

فيما كان ﷺ يفطر عليه

عن أنس: كان ﷺ يفطر قبل أن يصلي على رطبات، فإن لم يجد رطبات فتمرات، فإن لم يجد تمرات حسا حسوات من ماء. رواه أبو داود^(١).

وإنما خص ﷺ الفطر بما ذكر لأن إعطاء الطبيعة الشيء الحلو مع خلو المعدة أدعى إلى قبوله وانتفاع القوى به، لا سيما قوة البصر. وأما الماء فإن الكبد يحصل لها بالصوم نوع ييسر، فإذا رطبت بالماء كمل انتفاعها بالغذاء بعده، ولهذا كان الأولى بالظمان الجائع أن يبدأ بشرب قليل من الماء ثم يأكل بعده. قاله ابن القيم.

(١) وكذا رواه النسائي والترمذي وحسنه.

الفصل السابع

فيما كان يقوله ﷺ عند الإفطار

عن معاذ بن زهرة: بلغه (١) أن رسول الله / ﷺ كان إذا أفطر ٣٧٢/ب
قال: اللهم لك صمت، وعلى رزقك أفطرت. وهو حديث مرسل،
ومعاذ هذا ذكره البخاري في التابعين لكن قال: معاذ أبو زهرة (٢)
- وتبعه ابن أبي حاتم وابن حبان (٣) - في الثقات. وذكره يحيى بن
يونس الشيرازي في الصحابة، وغلطه جعفر المستغفري.

قال الحافظ ابن حجر: ويحتمل أن يكون الحديث موصولاً، ولو
كان معاذ تابعياً، لاحتمال أن يكون الذي بلغه له صحابياً. قال:
وبهذا الاعتبار أورده أبو داود في السنن، وبالإعتبار الآخر أورده في
المراسيل.

وخرج ابن السني والطبراني في المعجم الكبير، بسند واه جداً،
عن ابن عباس: كان ﷺ إذا أفطر قال: اللهم لك صمت وعلى
رزقك أفطرت، فتقبل مني إنك أنت السميع العليم.

وعن ابن عمر: كان ﷺ إذا أفطر قال: ذهب الظمأ وابتلت

(١) كذا في المخطوطات، وفي ط: أنه بلغه، وفي ش: بلغني.

(٢) هو معاذ بن زهرة نفسه.

(٣) أي تبع البخاري في ذكره في التابعين.

العروق، وثبت الأجر إن شاء الله. رواه أبو داود. وزاد رزين:
«الحمد لله» في أول الحديث.

وفي كتاب ابن السني، عن معاذ بن زهرة قال: كان رسول الله
ﷺ إذا أفطر قال: الحمد لله الذي أعانني فصمت ورزقني فأفطرت.

الفصل الثامن

في وصاله ﷺ

[النهي عن الوصال]

عن ابن عمر: أن النبي ﷺ نهى عن الوصال، قالوا: إنك تواصل، قال: إني لست كهيتتكم، إني أطعم وأسقي. رواه البخاري ومسلم.

وللبخاري: أنه ﷺ واصل، فواصل الناس فشق عليهم، فنهاهم رسول الله ﷺ أن يواصلوا، قالوا: إنك تواصل، قال: لست كهيتتكم، إني أظل أطعم وأسقي.

وفي رواية أنس: واصل ﷺ في آخر شهر رمضان، فواصل ناس من المسلمين فبلغه ذلك فقال: لو مدد لنا الشهر لواصلنا وصلاً يدع المتعمقون تعمقهم، إنكم لستم مثلي - أو قال: لست مثلكم^(١) - إني أظل يطعمني ربي ويسقيني.

وفي رواية: لا تواصلوا، قالوا: إنك تواصل، قال: لست كأحد منكم، إني أطعم وأسقي. رواه البخاري ومسلم^(٢).

(١) هذه الجملة سقطت في ط .

(٢) أي كلا الروايتين.

والمتمعقون: هم المتشددون في الأمر، المجاوزون الحدود في قول أو فعل.

وفي رواية سعيد بن منصور وابن أبي شيبة من مرسل الحسن: إني أبيت يطعمين ربي ويسقيني.

وعن عائشة قالت: نهاهم رسول الله ﷺ عن الوصال، رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل. فقال: إني لست كهيئتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني. رواه البخاري ومسلم إلا أن البخاري قال «نهى» ولم يقل: نهاهم.

وعن أبي هريرة قال: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال في الصوم، فأبوا فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يوماً ثم يوماً ثم رأوا الهلال فقال: لو تأخر لزدتكم. كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا، رواه البخاري.

[معنى «يطعمني ربي ويسقيني»]

والوصال: هو عبارة عن صوم يومين فصاعداً من غير أكل وشرب بينها.

قال شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر: وقد اختلف في معنى قوله «يطعمني ربي ويسقيني».

ف قيل: هو على حقيقته، وأنه ﷺ كان يؤتى بطعام وشراب من عند الله كرامة له في ليالي صيامه.

وتعقب: بأنه لو كان كذلك لم يكن مواصلاً، وبأن قوله: «أظل» يدل على وقوع ذلك بالنهار، فلو كان الأكل والشرب حقيقة لم يكن صائماً.

وأجيب: بأن الراجح من الروايات لفظ «أبيت» دون «أظل» وعلى تقدير ثبوتها فهي محمولة على مطلق الكون لا على حقيقة اللفظ، لأن المتحدث^(١) عنه هو الإمساك ليلاً لا نهاراً، وأكثر الروايات إنما هو «أبيت» فكان بعض الرواة عبر عنها بـ «أظل» نظراً إلى اشتراكها في مطلق الكون. يقولون كثيراً: أضحى فلان كذا، ولا يريدون تخصيص ذلك بوقت الضحى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَشَّرْ أَحَدَهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوِداً﴾^(٢) فإن المراد به مطلق الوقت، ولا اختصاص لذلك بنهار دون ليل، وليس حمل الطعام / والشراب على المجاز بأولى من حمل لفظ «أظل» على المجاز وعلى التنزل فلا يضر شيء من ذلك، لأن ما يؤق به الرسول على سبيل الكرامة من طعام الجنة وشرابها لا تجري عليه أحكام المكلفين فيه، كما غسل صدره الشريف في طست الذهب، مع أن استعمال أواني الذهب الدنيوية محرمة.

وقال ابن المنير: الذي يفطر شرعاً إنما هو الطعام المعتاد، وأما الخارق للعادة كالمحضر من الجنة فعلى غير هذا المعنى، وليس تعاطيه من جنس الأعمال، وإنما هو من جنس الثواب كأكل أهل الجنة في الجنة، والكرامة لا تبطل العادة^(٣).

وقال غيره: لا مانع من حمل الطعام والشراب على حقيقتها، وأكمله وشربه في الليل لا يقطع وصاله خصوصية له بذلك، فكأنه لما قيل له: إنك تواصل، قال: إني لست في ذلك كهيتكم، أي على صفتكم في أن من أكل منكم أو شرب انقطع وصاله، بل إنما يطعمني

(١) في (ط، ش) المحدث.

(٢) سورة النحل، الآية ٥٨.

(٣) إذ لو أبطلتها لم تكن كرامة، فلا يبطل بذلك صومه ولا ينقطع وصاله.

ربي ويسقيني ولا ينقطع بذلك مواصلي، طعامي وشرابي على غير طعامكم وشرابكم صورة ومعنى.

وقال الجمهور: هو مجاز عن لازم الطعام والشراب وهو القوة، فكأنه قال: يعطيني قوة الأكل والشارب، ويفيض علي ما يسد مسد الطعام والشراب، ويقوي على أنواع الطاعة من غير ضعف في القوة.

أو المعنى: أن الله يخلق فيه من الشبع والري ما يغنيه عن الطعام والشراب، ولا يحس بجوع ولا عطش.

والفرق بينه وبين الأول: أنه على الأول يعطي القوة من غير شبع ولا ري، بل مع الجوع والظما، وعلى الثاني: يعطي القوة مع الشبع والري. ورجح الأول بأن الثاني ينافي حال الصائم ويفوت المقصود من الصوم والوصال، لأن الجوع هو روح هذه العبادة بخصوصها. قال القرطبي: ويبعده النظر إلى حاله ﷺ فإنه كان يجوع أكثر مما يشبع ويربط على بطنه الحجر. انتهى.

ويحتمل - كما قاله ابن القيم في «الهدى» وابن رجب في اللطائف - أن يكون المراد به ما يغذيه الله به من معارفه، وما يفيض على قلبه من لذة مناجاته وقرّة عينه بقربه، ونعيمه بحبه والشوق إليه، وتوابع ذلك من الأحوال التي هي غذاء القلوب ونعيم الأرواح وقرّة العين، وبهجة النفوس، فللروح والقلب بها أعظم غذاء وأجله وأنفعه، وقد يغني هذا الغذاء عن غذاء الأجسام مدة من الزمان كما قيل:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد
إذا اشتكت من كلال السير أو عدها روح القدوم فتحيا عند ميعاد

ومن له أدنى تجربة وشوق يعلم استغناء الجسم بغذاء القلب والروح عن كثير من الغذاء الحيواني، ولا سيما الفرحان الظافر بمطلوبه الذي قد قرت عينه بمحبوبه، وتنعم بقربه والرضا عنه، وألطف محبوبه... (١) مكرم له غاية الإكرام مع الحب التام، أفليس هذا من أعظم غذاء لهذا المحب، فكيف بالحبيب الذي لا شيء أعظم منه ولا أجل ولا أجمل ولا أكمل ولا أعظم إحساناً، أفليس هذا المحب عند حبيبه يطعمه ويسقيه ليلاً ونهاراً، ولهذا قال: إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني. انتهى

وحكى النووي في شرح المذهب، كما قاله في شرح تقريب الأسانيد: أن معناه أن محبة الله تشغلي عن الطعام والشراب. قال: والحب البالغ يشغل عنها. انتهى.

فإن قلت: لم أثر اسم الرب دون اسم الذات المقدسة في قوله: «يطعمني ربي» دون أن يقول: يطعمني الله؟

أجيب: بأن التجلي باسم الربوبية أقرب إلى العباد من الإلهية، لأنه تجلي عظمة لا طاقة للبشر بها، وتجلي الربوبية تجلي رحمة وشفقة.

[حكم الوصال]

وقد اختلف الناس في الوصال لنا، هل هو / جائز أو محرم أو ٣٧٣/ب مكروه؟

فقال طائفة: إنه جائز إن قدر عليه، وهذا يروى عن عبد الله ابن الزبير وغيره من السلف، وكان ابن الزبير يواصل الأيام، وروى (١) اختصر المصنف كلام ابن القيم هنا، وقبله: ومحبوبه حفي به، معتن بأمره... [م].

ابن أبي شيبة بإسناد صحيح أنه كان يواصل خمسة عشر يوماً، وذكر معه من الصحابة أيضاً أخت أبي سعيد، ومن التابعين عبد الرحمن بن أبي معمر، وعامر بن عبد الله بن الزبير، وإبراهيم بن يزيد التيمي، وأبا(١) الجوزاء، كما نقله أبو نعيم في الحلية.

ومن حجتهم أنه ﷺ واصل بأصحابه بعد النهي، فلو كان النهي للتحريم لما أقرهم على فعله، فعلم أنه أراد بالنهي الرحمة لهم والتخفيف عنهم، كما صرحت به عائشة في حديثها، فمن لم يشق عليه ولم يقصد موافقته أهل الكتاب [في تأخيرهم الفطر] (٢). ولا رغب عن السنة في تعجيل الفطر لم يمنع من الوصال.

ومن أدلة الجواز أيضاً: إقدام الصحابة عليه بعد النهي، فدل على أنهم فهموا أن النهي للتنزيه لا للتحريم، وإلا لما قدموا عليه.

وقال الأكثرون: لا يجوز الوصال، وبه قال مالك وأبو حنيفة، ونص الشافعي وأصحابه على كراهته، ولهم في هذه الكراهة وجهان أصحهما أنها كراهة تحريم، والثاني: أنها [كراهة] (٣) تنزيه.

واختار ابن وهب وأحمد بن حنبل وإسحاق جواز الوصال إلى السحر، لحديث أبي سعيد عند البخاري: «عنه ﷺ: لا تواصلوا، فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر»، وهذا الوصال لا يترتب عليه شيء مما يترتب على غيره، لأنه في الحقيقة بمنزلة عشائه، إلا أنه يؤخره، لأن الصائم له في اليوم والليلة أكلة، فإذا أكلها في السحر

(١) في المخطوطات: أبو. أقول: هذا على اعتبار فعل «ذكر» مبني للمجهول [م].

(٢) في (ط، ش).

(٣) في ش.

كان قد نقلها من أول الليل إلى آخره، وكان أخف لجسده في قيام الليل، ولا يخفى أن محل ذلك ما لم يشق على الصائم، وإلا فلا يكون قربة.

وقد صرح في الحديث بأن الوصال من خصائصه ﷺ فقال: إني لست كهيتكم. وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب قال: قال ﷺ: إذا أقبل الليل من ها هنا [وأدبر النهار من ها هنا] (١) وغربت الشمس فقد أفطر الصائم. قالوا: فجعله مفطراً حكماً بدخول وقت الفطر وإن لم يفطر، وذلك يحيل الوصال شرعاً.

واحتج الجمهور للتحريم: بعموم النهي في قوله ﷺ «لا تواصلوا»، وأجابوا عن قوله «رحمة» بأنه لا يمنع ذلك كونه منهيّاً عنه للتحريم، وسبب تحريمه الشفقة عليهم لثلا يتكلفوا ما يشق عليهم، وأما الوصال بهم يوماً ثم يوماً، فاحتمل للمصلحة في تأكيد زجرهم وبيان الحكمة في نهيمهم والمفسدة المترتبة على الوصال، وهي الملل من العبادة، والتعرض للتقصير في بعض وظائف الدين، من إتمام الصلاة بخشوعها وأذكارها، وسائر الوظائف المشروعة في نهاره وليله.

وأجابوا أيضاً بقوله ﷺ: «إذا أقبل الليل من ها هنا وأدبر النهار من ها هنا فقد أفطر الصائم». إذ لم يجعل الليل محلاً لسوى الفطر، فالصوم فيه مخالف لوضعه.

وروى الطبراني في الأوسط من حديث أبي ذر أن جبريل قال للنبي ﷺ: إن الله قد قبل وصالك، ولا يحل لأحد بعدك. ولكن إسناده ليس بصحيح ولا حجة فيه.

(١) في (ط، ش).

الفصل التاسع

في سحوره ﷺ

عن أبي هريرة عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يتسحر فقال: إنها بركة أعطاكم الله إياها فلا تدعوه. رواه النسائي.

وعن العرباض بن سارية قال: دعاني رسول الله ﷺ إلى السحور في رمضان قال: هلم إلى الغداء المبارك. رواه أبو داود والنسائي.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ - وذلك عند السحور -: يا أنس إني أريد الصيام فأطعمني شيئاً، فأتيته بتمر وإناء فيه ماء، وذلك بعد ما أذن بلال، قال: يا أنس انظر رجلاً يأكل معي، فدعوت زيد ابن ثابت فجاء فقال: إني أريد شربة سويق وأنا أريد الصيام، فقال رسول الله ﷺ: وأنا أريد الصيام، فتسحر معه، ثم قام فصلى ركعتين ثم خرج إلى الصلاة. رواه النسائي.

وعن زر بن حبیش: قلنا لحذيفة: أي ساعة تسحرت مع رسول الله ﷺ؟ قال: هو النهار إلا أن الشمس لم تطلع. رواه النسائي أيضاً.

وعن زيد بن ثابت قال تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى

الصلاة، قال أنس بن مالك: قلت: كم كان قدر ما بينهما؟ قال: قدر خمسين آية. رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

والمراد^(١) آية متوسطة، لا طويلة ولا قصيرة [لا سريعة]^(٢) ولا بطيئة.

قال ابن أبي جمة: كان ﷺ ينظر ما هو الأرقق بأتمته فيفعله، لأنه لو لم يتسحر لاتبعوه فشق على بعضهم، ولو تسحر في جوف الليل لشق أيضاً على بعضهم ممن يغلب عليه النوم، فقد يفضي إلى ترك الصبح، أو يحتاج إلى المجاهدة بالسهر.

وقال القرطبي: فيه دلالة على أن الفراغ من السحور كان قبل طلوع الفجر، فهو معارض لقول حذيفة «هو النهار إلا أن الشمس لم تطلع». انتهى.

وأجاب / في فتح الباري: بأن لا معارضة، بل يحمل على ٣٧٤/أ اختلاف الحال، فليس في رواية واحد منها ما يشعر بالمواظبة.

(١) هذه الفقرة حتى نهاية الفصل جاءت في الأصل بعد رواية العرباض بن سارية.

(٢) في (ط، ش).

الفصل العاشر

في إفتاره ﷺ في رمضان في السفر وصومه

عن جابر أن رسول الله ﷺ خرج عام الفتح إلى مكة في رمضان، فصام حتى بلغ كراع الغميم، وصام الناس، ثم دعا بقدر من ماء فرفعه حتى نظر الناس ثم شرب، فقيل له بعد ذلك: إن بعض الناس قد صام، فقال: أولئك العصاة، أولئك العصاة. زاد في رواية: فقيل له: إن الناس قد شق عليهم الصيام، وإنما ينتظرون فيما فعلت، فدعا بقدر من ماء بعد العصر. رواه مسلم.

وعن ابن عباس قال: سافر^(١) رسول الله ﷺ في رمضان، فصام حتى بلغ عسفان، ثم دعا بإناء من ماء فشرّب نهاراً ليراه الناس، وأفطر حتى قدم مكة. وكان ابن عباس يقول صام رسول الله ﷺ في السفر وأفطر، فمن شاء صام ومن شاء أفطر، رواه البخاري ومسلم.

ومسلم: أن ابن عباس كان لا يعيب على من صام ولا على من أفطر، قد صام رسول الله ﷺ في السفر وأفطر^(٢).

(١) في النسخ: سافرنا مع، قال الشارح: هذا من مرسلات الصحابة، لأن ابن عباس لم يكن معه في الفتح. فيما في بعض نسخ المواهب «سافرنا مع رسول الله ﷺ خطأ صراح مخالف لما في الصحيحين.

(٢) لفظ مسلم: لا تعب على من صام ولا على من أفطر فقد صام رسول الله ﷺ في السفر وأفطر.

قال النووي رحمه الله: اختلف العلماء في صوم رمضان في السفر:

فقال بعض أهل الظاهر: لا يصح صوم رمضان في السفر، فإن صامه لم ينعقد، ويجب قضاؤه، لظاهر الآية^(١) ولحديث «ليس من البر الصيام في السفر»^(٢)، وفي الحديث الآخر «أولئك العصاة».

وقال جماهير العلماء وجميع أهل الفتوى: يجوز صومه في السفر، وينعقد ويجزيه، واختلفوا في أن الصوم أفضل أم الفطر أم هما سواء؟ فقال مالك وأبو حنيفة والشافعي والأكثر: الصوم أفضل لمن أطاقه بلا مشقة ظاهرة ولا ضرر، فإن تضرر به فالفطر أفضل، واحتجوا بصومه ﷺ، ولأنه يحصل به براءة الذمة في الحال.

وقال سعيد بن المسيب والأوزاعي وأحمد وإسحاق وغيرهم: الفطر أفضل مطلقاً، وحكاه بعض أصحابنا قولاً للشافعي، وهو غريب، واحتجوا بما سبق لأهل الظاهر، ويقولون ﷺ: «هي رخصة من الله فمن أخذ بها فحسن ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه»^(٣) وظاهره ترجيح الفطر.

وأجاب الأكثر: بأن هذا كله فيمن يخاف ضرراً، أو يجد مشقة، كما هو صريح في الأحاديث، واعتمدوا حديث أبي سعيد الخدري قال: «كنا نغزوا مع رسول الله ﷺ في رمضان، فمننا الصائم ومننا المفطر، ولا يجد الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم يرون

(١) وهي «فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر» سورة البقرة، الآية ١٨٤.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

أن من وجد قوة فصام فإن ذلك حسن، ويرون أن من وجد ضعفاً
فأفطر فإن ذلك حسن»^(١)، وهذا صريح في ترجيح مذهب الأكثرين،
وهو تفضيل الصوم لمن أطاقه بلا ضرر ولا مشقة ظاهرة.

وقال بعض العلماء: الفطر والصوم سواء لتعادل الأحاديث.

والصحيح: قول الأكثرين، والله أعلم.

(١) رواه مسلم.

القِسْمُ الثَّانِي

في صومه ﷺ غير شهر رمضان
وفيه فصول:

الفصل الأول

في سرده ﷺ صوم أيام من الشهر
وفطره أياماً

ب/٣٧٤ عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ كان يسرد الصوم / فيقال: لا يفطر، ويفطر فيقال: لا يصوم. رواه النسائي.

وعن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر حتى نظن أن لا يصوم منه، ثم يصوم حتى نظن أن لا يفطر منه شيئاً، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيت، ولا نائماً إلا رأيت. وفي رواية: ما كنت أحب أن أراه من الشهر صائماً إلا رأيت ولا مفطراً إلا رأيت، ولا من الليل قائماً إلا رأيت ولا نائماً إلا رأيت، رواه البخاري.

ولسلم: كان يصوم حتى يقال: قد صام صام، ويفطر حتى يقال: أظفر أظفر.

وعن ابن عباس: ما صام رسول الله ﷺ شهراً كاملاً غير رمضان، وكان يصوم حتى يقول القائل: لا والله ما^(١) يفطر، ويفطر حتى يقول القائل: لا والله لا يصوم. رواه البخاري ومسلم والنسائي وزاد: ما صام شهراً متتابعاً غير رمضان منذ قدم المدينة.

(١) في (ط، ش): لا .

ففي هذا: أنه ﷺ لم يصم الدهر [كله] (١)، ولا قام الليل كله، وكأنه ترك ذلك لئلا يقتدى به فيشق على الأمة، وإن كان قد أعطي من القوة ما لو التزم ذلك لاقتدر عليه، لكنه سلك من العبادة الطريقة الوسطى، فصام وأفطر، وقام ونام.

(١) في (ط، ش).

الفصل الثاني

في صومه ﷺ عاشوراء

[تعيين يوم عاشوراء]

وهو بالمد على المشهور. واختلف في تعيينه: فعن الحكم بن الأعرج قال: انتهيت إلى ابن عباس - وهو متوسد رداءه في زمزم - فقلت له: أخبرني عن صوم عاشوراء، فقال: إذا رأيت هلال المحرم فاعدد وأصبح يوم التاسع صائماً، قلت: هكذا كان محمد ﷺ يصومه؟ قال: نعم. رواه مسلم.

قال النووي: هذا تصريح من ابن عباس بأن مذهبه بأن عاشوراء هو اليوم التاسع من المحرم، ويتأوله على أنه مأخوذ من أظماً الإبل، فإن العرب تسمي اليوم الخامس^(١) من أيام الورد ربعاً^(٢)، وكذا باقي الأيام على هذه النسبة، فيكون التاسع عاشراً^(٣). انتهى.

لكن قال ابن المنير: قوله: «إذا أصبحت من تاسعة فأصبح صائماً»^(٤) يشعر بأنه أراد العاشر، لأنه لا يصبح صائماً بعد أن أصبح

(١) في ش: الثالث.

(٢) لكونه صبيحة الليلة الرابعة.

(٣) كذا في ش، وفي النسخ: عشرا.

(٤) لم يتقدم هذا اللفظ، وليس هو في مسلم.

صائماً تاسعاً إلا إذا نوى الصوم من الليلة المقبلة، وهي الليلة العاشرة. انتهى.

وذهب جماهير العلماء من السلف والخلف إلى أن عاشوراء هو اليوم العاشر من المحرم، وعن قال ذلك: سعيد بن المسيب، والحسن البصري، ومالك وأحمد وإسحاق، وخلاتق. وهذا ظاهر الأحاديث، ومقتضى اللفظ، وأما تقدير أخذه من الإظماء فبيعد، ثم إن حديث ابن عباس يرد عليه معنى قوله: إن النبي ﷺ صام يوم عاشوراء فقالوا له يا رسول الله، يوم تعظمه اليهود والنصارى، فقال ﷺ: فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع، قال: فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ^(١). وهذا تصريح بأن الذي كان يصومه ليس هو التاسع، فتعين كونه العاشر. قاله النووي.

وقال القرطبي: عاشوراء معدول عن عاشر للمبالغة والتعظيم، وهو في الأصل صفة الليلة العاشرة، لأنه مأخوذ من العَشر الذي هو اسم للعقد، واليوم يضاف إليها، فإذا قيل يوم عاشوراء فكأنه قيل يوم الليلة العاشرة، إلا أنهم لما عدلوا به عن الصفة غلبت عليه الأسمية فاستغنوا عن الموصوف فحذفوا الليلة. وعلى هذا فيوم عاشوراء هو العاشر، وهذا قول الخليل وغيره.

وقال ابن المنير: الأكثر على أن عاشوراء هو اليوم العاشر من شهر الله المحرم، وهو مقتضى الاشتقاق والتسمية.

وقال ابن القيم: من تأمل مجموع روايات ابن عباس تبين له زوال الإشكال وسعة علم ابن عباس، فإنه لم يجعل يوم عاشوراء اليوم التاسع بل قال للسائل صم اليوم التاسع، واكتفى بمعرفة السائل أن

(١) رواه مسلم.

يوم عاشوراء هو اليوم العاشر الذي يعده الناس يوم عاشوراء، فأرشد السائل إلى صوم التاسع معه، وأخبر أن / رسول الله ﷺ كان يصومه كذلك، فيما أن يكون فعلٌ ذلك وهو الأولى، وأما أن يكون حَمْلُ فعله على الأمر به وعزمه عليه في المستقبل، وهو الذي روى «أمرنا رسول الله ﷺ بصيام يوم عاشوراء يوم العاشر» وكل هذه الآثار يصدق بعضها بعضاً. انتهى فليتأمل.

[صوم عاشوراء في الجاهلية]

وعن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه في الجاهلية، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان ترك عاشوراء، فمن شاء صامه ومن شاء تركه. رواه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود والترمذي.

واستفيد من هذه الرواية تعيين الوقت الذي وقع الأمر فيه بصيام عاشوراء، وهو أول قدومه المدينة، ولا شك أن قدومه ﷺ كان في ربيع الأول، فحينئذ كان الأمر بذلك في أول السنة الثانية، وفي السنة الثانية فرض شهر رمضان، فعلى هذا لم يقع الأمر بصوم يوم عاشوراء إلا في سنة واحدة، ثم فوض الأمر في صومه إلى رأي المتطوع، فعلى تقدير صحة قول من يدعي أنه كان قد فرض فقد نسخ فرضه بهذه الأحاديث الصحيحة.

وأما صيام قريش لعاشوراء فلعلهم تلقوه من الشرع السالف، ولذا كانوا يعظمونه بكسوة الكعبة، وقد روي عن عكرمة أنه سئل عن ذلك فقال: أذنبت قريش ذنباً في الجاهلية، فعظم في صدورهم، فقبل لهم صوموا عاشوراء يكفر ذلك. قاله في فتح الباري.

[حكم صوم عاشوراء قبل فرض رمضان]

وعن ابن عمر: أن أهل الجاهلية كانوا يصومون يوم عاشوراء، وأن رسول الله ﷺ قال: إن عاشوراء يوم من أيام الله فمن شاء صامه. رواه البخاري ومسلم وأبو داود، وفي رواية: وكان عبد الله لا يصومه إلا أن يوافق صومه.

وعن سلمة بن الأكوع: بعث رسول ﷺ رجلاً من أسلم يوم عاشوراء، فأمره أن يؤذن في الناس: من كان لم يصم فليصم، ومن كان أكل فليتم صيامه إلى الليل رواه مسلم^(١).

قال النووي: اختلفوا في حكم صوم عاشوراء في أول الإسلام حين شرع صومه قبل صوم رمضان:
فقال أبو حنيفة: كان واجباً.

واختلف أصحاب الشافعي فيه على وجهين: أشهرهما عندهم أنه لم يزل سنة من حين شرع، ولم يكن واجباً قط في هذه الأمة، ولكنه كان متأكداً الاستحباب، فلما نزل صوم رمضان صار مستحباً دون ذلك الاستحباب، والثاني: كان واجباً كقول أبي حنيفة.

وتظهر فائدة الخلاف في اشتراط نية الصوم الواجب من الليل، فأبو حنيفة لا يشترطها، ويقول: كان الناس مفطرين أول يوم عاشوراء ثم أمروا بصيامه بنية من النهار، ولم يؤمروا بقضائه بعد صومه. وأصحاب الشافعي يقولون: كان مستحباً فصح بنية من النهار، ويتمسك أبو حنيفة بقوله: «أمر بصيامه» والأمر للوجوب، ويقوله: «فلما فرض شهر رمضان قال: من شاء صامه ومن شاء تركه». ويحتج

(١) رواية البخاري: من أكل فليتم بقية يومه، ومن لم يكن أكل فليصم.

الشافعية بقوله: «هذا يوم عاشوراء ولم يكتب الله عليكم صيامه»، والشافعية يقولون أيضاً: معنى قوله في حديث سلمة^(١): «فأمره أن يؤذن في الناس من كان لم يصم فليصم الخ». أن من كان نوى الصوم فليتم صومه، ومن كان لم ينو الصوم ولم يأكل أو أكل فليمسك بقية يومه لحرمة اليوم. واحتج أبو حنيفة بهذا الحديث لمذهبه: أن صوم الفرض يجب بنية في النهار ولا يشترط تبييتها، قال: لأنهم نوا في النهار وأجزأهم. وأجاب الجمهور عن هذا الحديث: بأن المراد إمساك بقية النهار لا حقيقة الصوم، والدليل على هذا: أنهم أكلوا ثم أمروا بالإتمام، وقد وافق أبو حنيفة وغيره على أن شرط إجزاء النية في النهار في الفرض والنفل أن لا يتقدمها مفسد للصوم من أكل وغيره، انتهى.

ب/٣٧٥ / وقال الحافظ شيخ الإسلام أبو الفضل بن حجر: يؤخذ من مجموع الأحاديث أنه كان واجباً لثبوت الأمر بصومه، ثم تأكيد الأمر بذلك، ثم زيادة التأكيد بالنداء العام، ثم زيادته بأمر من أكل بالإمساك، ثم زيادته بأمر الأمهات أن لا يرضعن فيه الأطفال، ويقول ابن مسعود الثابت في مسلم: «لما فرض رمضان ترك عاشوراء» مع العلم بأنه ما ترك استحبابه، بل هو باق، فدل على أن المتروك وجوبه، وأما قول بعضهم: «المتروك تأكد استحبابه، والباقي مطلق استحبابه» فلا يخفى ضعفه، بل تأكد استحبابه باق ولا سيما مع استمرار الاهتمام به حتى في عام وفاته ﷺ حيث قال: «لئن عشت لأصومن التاسع والعاشر» وترغيبه في صومه وأنه يكفر السنة، فأبي تأكيد أبلغ من هذا. انتهى.

(١) في المخطوطات: أم سلمة. وهو خطأ، فالحديث المشار إليه من رواية سلمة ابن الأكوع وقد مر قريباً [م].

[اليهود وصوم عاشوراء]

وعن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم عاشوراء فقال: ما هذا؟ قالوا: يوم صالح نجى الله فيه موسى وبني إسرائيل من عدوهم، فصامه فقال: أنا أحق بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه. وفي رواية: فقال لهم: ما هذا اليوم الذين تصومونه؟ قالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى [وقومه]^(١) وأغرق فيه فرعون وقومه فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه، فقال رسول الله ﷺ: فنحن أحق وأولى بموسى منكم، فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه، وفي أخرى: فنحن نصومه تعظيماً له، رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

وقد أجاب صاحب «زاد المعاد» وغيره عما استشكله بعضهم في هذا الحديث - وقال: إن رسول الله إنما قدم المدينة في شهر ربيع الأول فكيف يقول ابن عباس إنه قدم المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء؟ - بأنه ليس في الحديث أن يوم قدومه وجدهم يصومونه، فإنه إنما قدم يوم الإثنين في ربيع الأول، ثاني عشره، ولكن أول علمه بذلك ووقوع القصة في اليوم الذي كان بعد قدومه المدينة لم يكن وهو بمكة^(٢).

وقال في الفتح: غايته أن في الكلام حذفاً تقديره: قدم ﷺ المدينة فأقام إلى يوم عاشوراء، فوجد اليهود فيه صياماً. ويحتمل أن يكون أولئك اليهود كانوا يحسبون يوم عاشوراء بحساب السنين

(١) في (ط، ش).

(٢) كذا في النسخ كلها، والذي في زاد المعاد «.. ولكن أول علمه بذلك بوقوع القصة في العام الثاني الذي كان بعد قدومه المدينة، ولم يكن وهو بمكة [زاد المعاد ٦٩/٢].

الشمسية، فصادف يوم عاشوراء بحسابهم اليوم الذي قدم فيه ﷺ المدينة. وهذا التأويل مما يترجح به أولوية المسلمين وأحقيتهم بموسى، لإضلالهم اليوم المذكور وهداية المسلمين له، ولكن سياق الأحاديث^(١) يدفع هذا التأويل، والاعتماد على التأويل الأول. انتهى

وقد أستشكل أيضاً رجوعه ﷺ إلى خبر اليهود، وهو غير مقبول.

وأجاب المازري: بأنه يحتمل أنه ﷺ أوحى إليه بصدقهم فيما قالوه، أو تواتر عنده النقل بذلك حتى حصل له العلم بذلك.

قال القاضي عياض رداً على المازري: قد روى مسلم أن قريشاً كانت تصومه، فلما قدم المدينة صامه، فلم يحدث له بقول اليهود حكم يحتاج إلى الكلام عليه، وإنما هي صفة حال، وجواب سؤال، فقلوه: «صامه» ليس فيه [أن]^(٢) ابتداء صومه حيثئذ، ولو كان هذا لحملناه على أنه أخبره به من أسلم من علمائهم كابن سلام وغيره. قال: وقد قال بعضهم يحتمل أنه ﷺ كان يصومه بمكة ثم ترك صيامه حتى علم ما عند أهل الكتاب منه فصامه، قال: وما ذكرناه أولى بلفظ الحديث.

قال النووي: المختار قول المازري، ومختصر ذلك أنه ﷺ كان يصومه كما تصومه قريش في مكة، ثم قدم المدينة فوجد اليهود يصومونه فصامه أيضاً بوحى أو تواتر أو اجتهاد، لا بمجرد إخبار آحادهم. انتهى.

وقال القرطبي: لعل قريشاً كانوا يستندون في صومه / إلى

أ/٣٧٦

(١) في (ط، ش): الحديث.

(٢) في (ط، ش).

شرع من مضي كإبراهيم، وصوم رسول الله ﷺ يحتمل أن يكون بحكم الموافقة لهم، كما في الحج، وأذن الله له في صيامه على أنه فعل خير، فلما هاجر ووجد اليهود يصومونه وسألهم وصامه وأمر بصيامه احتمل أن يكون استتلاً لليهود كما استألفهم باستقبال قبلتهم، ويحتمل غير ذلك. وعلى كل حال فلم يصمه اقتداء بهم، فإنه كان يصومه قبل ذلك، وكان ذلك في الوقت الذي يجب فيه موافقة أهل الكتاب فيما لم ينه عنه، ولا سيما إذا كان فيه ما يخالف أهل الأوثان، فلما فتحت مكة واشتهر أمر الإسلام أحب مخالفة أهل الكتاب أيضاً كما في حديث ابن عباس «إن رسول الله ﷺ حين صام يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا: يا رسول الله، إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى، فقال ﷺ: فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع، فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ».

[صوم التاسع]

وفي رواية: لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع. رواه مسلم. وهذا دليل الشافعي وأصحابه وأحمد وإسحاق القائلين باستحباب صوم التاسع والعاشر جميعاً، لأنه ﷺ صام العاشر ونوى صوم التاسع.

قال النووي: قال بعض العلماء: ولعل السبب في صوم التاسع مع العاشر أن لا يتشبه باليهود في أفراد العاشر، وفي الحديث إشارة إلى هذا، وقيل للاحتياط في تحصيل^(١) عاشوراء، والأول أولى. انتهى. وفي رواية البزار من حديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال

(١) في ط: صوم.

- يوم عاشوراء -: صوموه وخالفوا فيه اليهود، وصوموا قبله يوماً وبعده يوماً. ولأحمد نحوه.

فمراتب صومه ثلاثة: أداها أن يصام وحده، وأكملها أن يصام يوماً^(١) قبله ويوماً بعده، ويلى ذلك أن يصام التاسع والعاشر، وعليه أكثر الأحاديث.

وقال بعضهم: قد ظهر أن القصد مخالفة أهل الكتاب في هذه العبادة، وذلك يحصل بأحد أمرين، إما بنقل العاشر إلى التاسع، وإما بصيامها معاً، والله أعلم.

وفي البخاري^(٢) من حديث أبي موسى قال: كان يوم عاشوراء تعده اليهود عيداً قال النبي ﷺ: فصوموه أنتم.

وهذا ظاهره أن الباعث على الأمر بصومه محبة مخالفة اليهود، حتى يصام ما يفطرون فيه، لأن يوم العيد لا يصام، وحديث ابن عباس يدل على أن الباعث على صيامه موافقتهم على السبب وهو شكر الله تعالى على نجاة موسى. لكن لا يلزم من تعظيمهم له واعتقادهم بأنه عيد أنهم كانوا لا يصومونه^(٣)، فلعله كان من جملة تعظيمهم في شرعهم^(٤) أن يصوموه، وقد ورد ذلك صريحاً في مسلم «كان أهل خيبر يصومون يوم عاشوراء يتخذونه عيداً ويلبسون نساءهم فيه حليهم وشارتهم» وهو بالشين المعجمة أي هيئتهم الحسنة.

(١) كذا في جميع النسخ بنصب «يوماً» قال الشارح: ويوجه بأن نائب فاعل «يصام» ضمير يعود إلى عاشوراء، ونصب «يوماً» على الحال بتقدير ضاماً إليه يوماً.

(٢) وكذا رواه مسلم.

(٣) سقطت «لا» في ط.

(٤) «في شرعهم» ليست في ط.

[صيامه ﷺ عاشوراء]

ومحصل ما ورد في صيامه ﷺ عاشوراء أربعة أحوال:

أولها^(١): أنه كان يصومه بمكة، ولا يأمر الناس بصيامه كما تقدم في حديث عائشة عند الشيخين وغيرهما: «كان عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية وكان ﷺ يصومه، فلما قدم المدينة صامه..» الحديث.

الثانية: أنه ﷺ لما قدم المدينة، ورأى صيام أهل الكتاب له، وتعظيمهم له، وكان يجب موافقتهم فيما لم يؤمر به، صامه وأمر الناس بصيامه، وأكد الأمر بصيامه والحث عليه، حتى كانوا يصومونه أطفالهم، كما تقدم في حديث ابن عباس عند الشيخين وغيرهما.

الثالثة: أنه لما فرض صوم شهر رمضان ترك ﷺ صيامه وقال: «إن عاشوراء يوم من أيام الله، فمن شاء صامه ومن شاء تركه» ويشهد له حديث عائشة السابق.

الحالة الرابعة: أنه ﷺ عزم في آخر عمره أن لا يصومه / ٣٧٦/ب مفرداً، بل يضم إليه يوماً آخر، مخالفة لأهل الكتاب في صيامه، كما قدمناه.

[فضل عاشوراء]

وقد روى مسلم من حديث أبي قتادة مرفوعاً: أن صوم عاشوراء يكفر سنة وأن صيام يوم عرفة يكفر سنتين. وظاهره أن صيام يوم عرفة أفضل من صيام يوم عاشوراء. وقد قيل: الحكمة في ذلك أن

(١) في (ط، ش): إحداها.

يوم عاشوراء منسوب إلى موسى ويوم عرفة منسوب إلى النبي ﷺ،
فلذلك كان أفضل. والله أعلم.

[التوسعة يوم عاشوراء]

وأما ما روي: من وسع على عياله في يوم عاشوراء وسع الله
عليه السنة كلها، فرواه الطبراني والبيهقي في «الشعب» وفي «فضائل
الأوقات»، وأبو الشيخ عن ابن مسعود، والأولان فقط عن أبي سعيد،
والثاني فقط في الشعب عن جابر وأبي هريرة، وقال^(١): إن أسانيد
كلها ضعيفة، ولكن إذا ضم بعضها إلى بعض أفاد قوة، بل قال
العراقي في أماليه: لحديث أبي هريرة طرق صحح بعضها ابن ناصر
الحافظ.

وأورده ابن الجوزي في الموضوعات من طريق سليمان بن أبي
عبد الله، وقال: سليمان مجهول. وسليمان ذكره ابن حبان في الثقات،
فالحديث حسن على رأيه.

قال^(٢): وله طرق عن جابر على شرط مسلم أخرجها ابن عبد
البر في «الاستذكار» من رواية أبي الزبير عنه، وهي أصح طرقه^(٣).

ورواه هو^(٤) والدارقطني في «الأفراد» بسند جيد عن عمر موقوفاً
عليه، والبيهقي في «الشعب» من جهة محمد بن المنتشر، قال: كان
يقال.. وذكره.

(١) أي البيهقي.

(٢) أي العراقي.

(٣) هذه الجملة ليست في ط.

(٤) أي ابن عبد البر.

الفصل الثالث

في صيامه ﷺ شعبان

[أحاديث في صيام شعبان]

عن عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر قط إلا شهر رمضان، وما رأيته في شهر أكثر منه صياماً في شعبان. رواه البخاري ومسلم، وفي أخرى لهما: لم يكن يصوم شهراً أكثر من شعبان فإنه كان يصومه كله.

وفي رواية الترمذي: كان يصومه إلا قليلاً، بل كان يصومه كله.

وفي رواية أبي داود: كان أحب الشهور إلى رسول الله ﷺ أن يصومه شعبان، ثم يصله برمضان.

وللنسائي: كان يصوم شعبان، أو عامة شعبان. وفي أخرى له: كان يصوم شعبان إلا قليلاً. وفي أخرى له أيضاً: كان يصوم شعبان كله.

[الجمع بين الأحاديث]

قال الحافظ ابن حجر: أي يصوم معظمه.

ونقل الترمذي عن ابن المبارك أنه قال: جاز في كلام العرب إذا صام أكثر الشهر أن يقول: صام الشهر كله. ويقال: قام فلان ليلته أجمع، ولعله قد تعشى واشتغل ببعض أمره. قال الترمذي: كأن ابن المبارك جمع بين الحديثين بذلك، وحاصله: أن الرواية الأولى مفسرة للثانية ومخصصة لها، وأن المراد بـ«الكل» الأكثر، وهو مجاز قليل الاستعمال.

واستبعده الطيبي وقال: يحمل على أنه كان يصوم شعبان كله تارة ويصوم معظمه أخرى، لثلا يتوهم أنه واجب كله كرمضان.

وقال ابن المنير: إما أن يحمل قول عائشة على المبالغة، والمراد الأكثر، وإما أن يجمع بأن قولها الثاني متأخر عن قولها الأول، فأخبرت عن أول أمره أنه كان يصوم أكثر شعبان، وأخبرت ثانياً عن آخر أمره أنه كان يصومه كله. انتهى .

ولا يخفى تكلفه، والأول^(١) هو الصواب.

[حكمة إكثار الصيام في شعبان]

واختلف في الحكمة في إكثاره ﷺ من صوم شعبان، فقيل: كان يشتغل عن صيام الثلاثة أيام من كل شهر لسفر أو غيره، فتجتمع فيقضيتها في شعبان. أشار إلى ذلك ابن بطال، وفيه حديث أخرجه الطبراني في الأوسط من طريق أبي ليلى عن أخيه عيسى عن أبيه عن عائشة: كان رسول الله ﷺ يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، وربما أخر ذلك حتى يجتمع عليه صوم السنة فيصوم شعبان. وابن أبي ليل ضعيف، وقيل كان يضع الحديث.

(١) أي حمله على المبالغة.

وقيل: كان يصنع ذلك لتعظيم رمضان، وورد فيه حديث أخرجه الترمذي / من طريق صدقة بن موسى عن ثابت عن أنس ^{أ/٣٧٧} قال: سئل النبي ﷺ: أي الصوم أفضل بعد رمضان قال: شعبان لتعظيم رمضان. قال الترمذي: حديث غريب، وصدقة عندهم ليس [بذلك] ^(١) القوي.

لكن يعارضه ما رواه ^(٢) مسلم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أفضل الصيام بعد رمضان صوم المحرم». والأولى في ذلك ما جاء في حديث أصح مما مضى، أخرجه النسائي وأبو داود، وصححه ^(٣) ابن خزيمة عن أسامة بن زيد قال: قلت يا رسول الله، لم أرك تصوم من شهر ^(٤) من الشهور ما تصوم من شعبان؟ قال: «ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر ترتفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم». فبين ﷺ وجه صيامه لشعبان دون غيره من الشهور بقوله: «إنه شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان» يشير إلى أنه لما اكتنفه شهران عظيمان: الشهر الحرام وشهر الصيام، اشتغل الناس بهما، فصار مغفولاً عنه، وكثير من الناس يظن أن صيام رجب أفضل من صيامه لأنه شهر حرام وليس كذلك.

وفي إحياء الوقت المغفول عنه بالطاعة فوائد، منها أن يكون أخفى، وإخفاء النوافل وإسرارها أفضل، ولا سيما الصيام فإنه سر بين العبد وربّه، ومنها: أنه أشق على النفوس، لأن النفوس تتأسى بما

(١) في الأصل: ذاك، وسقطت من ش.

(٢) في (ط، ش): روى.

(٣) في ط: وأخرجه.

(٤) في (أ، د): تصوم شهراً.

تشاهد من أحوال بني الجنس، فإذا كثرت يقظة الناس وطاعتهم سهلت الطاعات، وإذا كثرت الغفلات وأهلها تأسى بهم عموم الناس، فيشق على نفوس المستيقظين طاعتهم لقلّة من يقتدي بهم.

وقد روي في صيامه ﷺ شعبان معنى آخر، وهو أنه تنسخ فيه الأجال، فروي - بإسناد فيه ضعف - عن عائشة قالت: كان أكثر صيام النبي ﷺ في شعبان فقلت: يا رسول الله، أرى أكثر صيامك في شعبان؟ قال: إن هذا الشهر يُكتب فيه للملك الموت [أسماء] (١) من يقبض، فأنا أحب أن لا ينسخ اسمي إلا وأنا صائم. وقد روي مرسلًا، وقيل إنه أصح.

وقد قيل في صوم شعبان معنى آخر: وهو أن صيامه كالتمرين على صيام رمضان، فلا يدخل في صيامه على مشقة وكلفة، بل يكون قد تمرن على الصيام واعتاده، ووجد بصيام شعبان قبل رمضان حلاوة الصوم ولذته، فيدخل في صيام رمضان بقوة ونشاط.

واعلم أنه لا تعارض بين هذا وبين النهي عن تقدم رمضان بصوم يوم أو يومين، وكذا ما جاء في النهي عن صوم نصف شعبان الثاني، فإن الجمع بينهما ظاهر، بأن يحمل النهي على من لم يدخل تلك الأيام في صيام اعتاده.

[الصوم من محرم ورجب]

وأجاب النووي عن كونه ﷺ لم يكثر الصوم في المحرم، مع قوله: «إن أفضل الصيام ما يقع فيه»، بأنه يحتمل أن يكون ما علم

(١) في (ط، ش).

ذلك إلا في آخر عمره، فلم يتمكن من كثرة الصوم في المحرم، أو اتفق له فيه من الأعدار كالسفر ما منعه من كثرة الصوم فيه^(١).

وأما شهر رجب بخصوصه - وقد قال بعض الشافعية: إنه أفضل من سائر الشهور، وضعفه النووي وغيره - فلم يعلم أنه صح أنه ﷺ صامه، بل روي عنه من حديث ابن عباس، مما صح وقفه، أنه نهى عن صيامه. ذكره ابن ماجه^(٢) لكن في سنن أبي داود: أن رسول الله ﷺ نذب إلى الصوم من الأشهر الحرم، ورجب أحدها. وفي حديث مجيبة^(٣) الباهلية عن أبيها أو عمها أنه ﷺ قال له^(٤): صم من الحرم واترك، قالها ثلاثاً^(٥). وفي رواية مسلم عن عثمان بن حكيم الأنصاري قال: سألت سعيد بن جبير عن صوم رجب - ونحن يومئذ في رجب - فقال: سمعت ابن عباس يقول: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم. والظاهر: أن مراد سعيد بهذا الاستدلال على أنه لا نهى عنه ولا نذب فيه بعينه، بل له حكم باقي الشهور.

وفي «اللطائف»: روى عن الكتاني أخبرنا تمام الرازي حدثنا القاضي يوسف حدثنا محمد بن إسحاق السراج حدثنا يوسف بن

(١) في (ط، ش): في الحرم.

(٢) وهو «أنه ﷺ نهى عن صيام رجب كله» قال الذهبي وغيره: حديث لا يصح.

(٣) في (أ، د): جحيفة. قال الشارح: في نسخة من المتن جحيفة وهو من تصحيف الكتاب.

(٤) أي لأبيها أو عمها.

(٥) رواه أبو داود.

ب/٣٧٧ /المعلم عن عطاء أن عروة قال لعبد الله بن عمر / : هل كان رسول الله ﷺ يصوم في رجب؟ قال : نعم ويشرفه^(٢) ، قالها ثلاثاً ، أخرجه أبو داود وغيره .

وعن أبي قلابة قال : إن في الجنة قصرأً لصوام رجب . قال البيهقي : أبو قلابة من كبار التابعين لا يقوله إلا عن بلاغ والله أعلم .

(١) كذا في ط والذي في النسخ : أنا ، ثنا في رواية هذا الحديث وهما اختصار :

أخبرنا وحدثنا .

(٢) أي يذكر أن فيه فضلاً .

الفصل الرابع

في صومه ﷺ عشر ذي الحجة

والمراد بها الأيام التسعة من أول ذي الحجة.

عن هنيذة بن خالد عن امرأته عن بعض أزواج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم تسع ذي الحجة. رواه أبو داود^(١).

وعن عائشة قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ صائماً في العشر قط. رواه مسلم والترمذي.

وهذا يومهم كراهة صوم العشر، وليس فيها كراهة، بل هي مستحبة استحباباً شديداً لا سيما يوم التاسع منها وهو يوم عرفة، وقد ثبت في صحيح البخاري أنه ﷺ قال: «ما من أيام العمل فيها أفضل منه في هذه»^(٢) يعني العشر الأول من ذي الحجة، واستدل به على فضل صيام عشر ذي الحجة لاندراج الصوم في العمل.

واستشكل بتحريم الصوم يوم العيد؟ وأجيب: بأنه محمول على الغالب، والله أعلم.

ويتأول قولها - يعني عائشة - : «لم يصم العشر» أنه لم يصمه

(١) حسنه بعض الحفاظ وقال الزيلعي: حديث ضعيف.

(٢) الذي في البخاري «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه».

لعارض من مرض أو سفر أو غيرهما، أو أنها لم تره صائماً فيه، ولا يلزم من ذلك عدم صيامه في نفس الأمر، ويدل عليه حديث هنيذة ابن خالد الذي ذكرته.

قال الحافظ ابن حجر: وقد وقع في رواية القاسم بن أبي أيوب: «ما من عمل أزكى عند الله ولا أعظم أجراً من خير يعمله في عشر الأضحى»^(١). وفي حديث جابر في صحيح أبي عوانة وابن حبان «ما من أيام أفضل عند الله من أيام عشر ذي الحجة». فقد ثبتت الفضيلة لأيام عشر ذي الحجة على غيرها من أيام السنة، وتظهر فائدة ذلك: فيمن نذر الصيام أو علق عملاً من الأعمال بأفضل الأيام، فلو أفرد يوماً منها تعين يوم عرفة لأنه على الصحيح أفضل أيام العشر المذكور، فإن أراد أفضل أيام الأسبوع تعين يوم الجمعة، جمعاً بين الحديث السابق وبين حديث أبي هريرة مرفوعاً: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة» رواه مسلم. أشار إلى ذلك النووي في شرحه، وقال الداودي: لم يرد ﷺ أن هذه الأيام خير من يوم الجمعة لأنه قد يكون فيها يوم الجمعة، يعني: فيلزم تفضيل الشيء على نفسه، وتعقب: بأن المراد: كل يوم من أيام العشر أفضل من غيره من أيام السنة، سواء كان يوم الجمعة أم لا، ويوم الجمعة فيه أفضل من يوم الجمعة في غيره لاجتماع الفضيلتين فيه. والذي يظهر أن السبب في امتياز عشر ذي الحجة إمكان اجتماع أمهات العبادات فيه وهي الصلاة والصيام والصدقة والحج، ولا يتأتى ذلك في غيرها. وعلى هذا: هل يخص الفضل بالحاج أو يعم المقيم؟ فيه احتمال. انتهى.

وقال أبو أمامة ابن النقاش: فإن قلت أيما أفضل، عشر ذي

(١) أخرجه الدارمي .

الحجة أو العشر الأواخر من رمضان؟ فالجواب: أن أيام عشر ذي الحجة أفضل لاشتغالها على اليوم الذي ما رؤي الشيطان في يوم غير يوم بدر أدر ولا أغيط ولا أحقر منه فيه وهو يوم عرفة^(١)، ولكون صيامه يكفر سنتين^(٢)، ولاشتغالها على أعظم الأيام عند الله حرمة وهو يوم النحر الذي سماه الله تعالى يوم الحج الأكبر، وليالي عشر رمضان الأخير أفضل لاشتغالها على ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. ومن تأمل هذا الجواب وجدده كافياً شافياً، أشار إليه الفاضل المفضل في قوله: «ما من أيام العمل فيهن أحب إلى الله من عشر ذي الحجة» الحديث، فتأمل قوله «ما من أيام» دون أن يقول: ما من عشر ونحوه. ومن أجاب بغير هذا التفضيل لم يدل بحجة صحيحة صريحة قط.

(١) من حديث أخرجه مالك.

(٢) رواه مسلم برقم ١١٦٢ [م].

الفصل الخامس

في صومه ﷺ أيام الأسبوع

أ/٣٧٨ عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يتحرى / صيام يوم الإثنين والخميس . رواه الترمذي والنسائي .

وعن أبي قتادة قال : سئل رسول الله ﷺ عن صوم الإثنين فقال : فيه ولدت وفيه أنزل علي . رواه مسلم .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : تعرض الأعمال على الله تعالى يوم الإثنين والخميس فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم . رواه الترمذي .

وعن أسامة بن زيد : قلت يا رسول الله ، إنك تصوم حتى لا تكاد تفطر ، وتفطر حتى لا تكاد تصوم ، إلا يومين إن دخلا في صيامك وإلا صمتهما ، قال : أي يومين ؟ قلت : يوم الإثنين والخميس ، قال : ذاك يومان تعرض فيهما الأعمال على رب العالمين ، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم . رواه النسائي .

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾^(١) قال : يكتب كل ما يتكلم به

(١) سورة ق ، الآية ١٨ .

من خير وشر، حتى إنه ليكتب قوله: أكلت وشربت وذهبت وجئت ورأيت، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقر ما كان فيه من خير أو شر، وألقي سائره، وهذا عرض خاص في هذين اليومين غير العرض العام كل يوم فإن ذلك عرض خاص دائم بكرة وعشياً. ويدل على ذلك ما في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه^(١)، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل الحديث.

وعن أم سلمة كان ﷺ يصوم من كل شهر ثلاثة أيام: الإثنين والخميس من هذه الجمعة، والإثنين من المقبلة، وفي [رواية]^(٢) أول إثنين من الشهر، ثم الخميس ثم الخميس الذي يليه. رواه النسائي.

وعن عائشة: كان يصوم من شهر: السبت والأحد [والإثنين]^(٣)، ومن الشهر الآخر: الثلاثاء والأربعاء والخميس. رواه الترمذي.

وعن كريب، مولى ابن عباس، قال: أرسلني ابن عباس وناس من أصحاب النبي ﷺ إلى أم سلمة أسألها: أي الأيام كان النبي ﷺ أكثرها صياماً؟ قالت: السبت والأحد، ويقول: إنها عيد المشركين، وأنا أحب أن أخالفهما. رواه أحمد والنسائي، وفيه محمد بن عمر، ولا يعرف حاله، ويرويه عنه ابنه عبد الله بن محمد بن عمر ولا يعرف حاله أيضاً.

(١) قيل هو الميزان، لحديث أبي هريرة عند الشيخين: وبسده الميزان يخفض ويرفع.

(٢) في المخطوطات.

(٣) في (ط، ش).

وعن عبد الله بن بسر عن أخته الصماء أن رسول الله ﷺ قال:
لا تصوموا يوم السبت إلا فيما افترض عليكم، فإن لم يجد أحدكم إلا
الحاء^(١) عنبه أو عود شجرة فليمضغه. رواه أحمد وأبو داود والترمذي
وابن ماجه والدارمي^(٢).

قال بعضهم: لا تعارض بينه وبين حديث أم سلمة، فإن النهي
عن صومه إنما هو عن إفراده، وعلى ذلك ترجم أبو داود فقال: باب
النهي أن يخص يوم السبت بالصوم وحديث صيامه إنما هو مع يوم
الأحد. قالوا: ونظير هذا أنه نهى عن إفراد يوم الجمعة بالصوم إلا أن
يصوم يوماً قبله أو يوماً بعده.

قال النووي: وأما قول مالك في الموطأ «لم أسمع أحداً من أهل
العلم والفقهاء ومن يقتدى به ينهى عن صيام يوم الجمعة وصيامه
حسن، فقد رأيت بعض أهل العلم يصومه، وأراه كان يتحراه» فهذا
الذي قاله هو الذي رآه، وقد رأى غيره خلاف ما رأى هو، والسنة
مقدمة على ما رآه هو وغيره، وقد ثبت النهي عن صوم يوم الجمعة
فتعين القول به، ومالك معذور فإنه لم يبلغه. قال الداودي من
أصحاب مالك: لم يبلغ مالكاً هذا الحديث ولو بلغه لم يخالفه.

قالوا: واستحباب الفطر يوم الجمعة ليكون أعون له على وظائف
العبادات المشروعة في الجمعة، وأدائها بنشاط وانسراح لها، والتذاذ بها
من غير ملل ولا سامة كالحاج بعرفة.

(١) اللحاء: القشر.

(٢) قال مالك: هذا الخبر كذب، وقال النسائي: مضطرب، وقال أبو داود:
منسوخ، وقال أحمد: هذا الحديث على ما فيه يعارضه حديث أم سلمة.
يعني الذي قبله.

فإن قلت: لو كان كذلك لم يزل النهي والكراهة بصوم يوم قبله
أو بعده لبقاء المعنى، فالجواب: أنه يحصل له بفضيلة الصوم / الذي
قبله أو بعده ما يجبره ما قد يحصل من فتور أو تقصير في وظائف يوم
الجمعة بسبب صومه، والله أعلم.

الفصل السادس

في صومه ﷺ الأيام البيض

وهي التي يكون فيها القمر من أول الليل إلى آخره، وهي ثلاث عشرة، وأربع عشرة وخمس عشرة، وليس في الشهر يوم أبيض كله إلا هذه الأيام، لأن ليلها أبيض ونهارها أبيض فصح قول من قال: الأيام البيض، على الوصف، واليوم الكامل هو النهار بليته. وفيه رد لقول الجواليقي: «من قال الأيام البيض فجعل البيض صفة الأيام فقد أخطأ» والله أعلم.

عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ لا يفطر أيام البيض في حضر ولا سفر. رواه النسائي.

وعن حفصة: أربع لم يكن النبي ﷺ يدعهن: صيام عاشوراء، والعشر، وأيام البيض من كل شهر، وركعتا الفجر، رواه أحمد.

وعن معاذة العدوية: أنها سألت عائشة: أكان رسول الله ﷺ يصوم من كل شهر ثلاثة أيام؟ قالت: نعم، فقلت لها: من أي أيام الشهر كان يصوم؟ قالت: ما كان يبالي من أي أيام الشهر يصوم. رواه مسلم.

قال بعضهم: لعله ﷺ لم يواظب على ثلاثة معينة لثلا يظن تعينها.

قال: وقد جعل الله تعالى صيام هذه الثلاثة أيام من الشهر بمنزلة صيام الدهر، لأن الحسنة بعشر أمثالها.

وقد روى أصحاب السنن وصححه ابن خزيمة من حديث ابن مسعود قال: كان النبي ﷺ يصوم ثلاثة أيام من غرة كل شهر. وقد تحصل أن صيامه ﷺ في الشهر على أوجه:

الأول: أنه كان يصوم أول اثنين من الشهر، ثم الخميس ثم الخميس الذي يليه، رواه النسائي.

الثاني: كان يصوم من الشهر السبت والأحد والإثنين، ومن الشهر الآخر: الثلاثاء والأربعاء والخيس. رواه الترمذي.

الثالث: أيام البيض، ثالث عشر، ورابع عشر، وخامس عشر الرابع: أنه كان يصوم ثلاثة غير معينة كما روته معاذة عن عائشة عند مسلم.

الخامس: أنه كان يصوم ثلاثة من أول الشهر، واختار جماعة منهم: الحسن وهو ما رواه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود. قال القاضي عياض: واختار النخعي صوم ثلاثة أيام من آخر الشهر لتكون كفارة لما مضى، واختار آخرون: أول يوم من الشهر والعاشر والعشرين، وقيل إنه صيام مالك بن أنس. وقال ابن شعبان من المالكية: أول يوم من الشهر والحادي عشر، والحادي والعشرون، ونقل ذلك عن أبي الدرداء، وهو موافق لما رواه النسائي من حديث عبد الله بن عمر «وصم من كل عشرة أيام يوماً» وحكى الأسنوى عن الماوردي أنه يستحب أيضاً صوم الأيام السود وهي السابع والعشرون واليومان بعده.

وتترجح البيض بكونها وسط الشهر، ووسط الشيء أعدله، ولأن الكسوف غالباً يقع فيها وقد ورد الأمر بمزيد العبادة إذا وقع، فإذا اتفق الكسوف صادف الذي يعتاد صيام البيض صائماً، فيتهيأ له أن يجمع بين أنواع العبادات من الصيام والصلاة والصدقة، بخلاف من لم يصمها فإنه لا يتهيأ له استدراك صيامها.

ورجح بعضهم صيام الثلاثة في أول الشهر، لأن المرء لا يدري ما يعرض له من الموانع، والله أعلم.

النَّوعُ الْخَامِسُ

في ذكر اعتكافه ﷺ واجتهاده في العشر
الأخير من رمضان وتحريمه ليلة القدر

[التعريف والحكمة والحكم]

اعلم أن الاعتكاف في اللغة: الحبس والمكث واللزوم.

وفي الشرع: المكث في المسجد من شخص مخصوص / بصفة أ/٣٧٩
مخصوصة.

ومقصوده وروحه عكوف القلب على الله، وجمعيته عليه، والفكر في تحصيل مراضيه وما يقرب منه، فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق، ليكون ذلك أنسه يوم الوحشة في القبر حين لا أنيس له.

وليس بواجب إجماعاً، إلا على من نذره، وكذا من شرع فيه فقطعه عامداً عند قوم.

[هل يشترط له الصوم؟]

واختلف في اشتراط الصوم له:

ومذهب الشافعي: أنه ليس بشرط لصحة الاعتكاف، بل يصح اعتكاف المفطر.

وقال مالك وأبو حنيفة والأكثر: يشترط الصوم، فلا يصح اعتكاف المفطر.

واحتج الشافعي باعتكافه ﷺ في العشر الأول من شوال. رواه البخاري ومسلم، وبحديث عمر: أنه قال: يا رسول الله، إني نذرت

أن أعتكف ليلة في الجاهلية، فقال: أوف بنذرك. رواه البخاري
ومسلم، والليل ليس محلاً للصوم، فدل على أنه ليس بشرط لصحة
الاعتكاف.

[المسجد هو مكان الاعتكاف]

واتفق العلماء على مشروطة المسجد للاعتكاف، إلا محمد بن
عمر بن لبابة المالكي فأجازه في كل مكان. وأجاز الحنفية للمرأة أن
تعتكف في مسجد بيتها وهو المكان المعد للصلاة فيه. وفيه قول قديم
للشافعي.

وذهب أبو حنيفة وأحمد إلى اختصاصه بالمساجد التي تقام فيها
الصلوات.

وخصه أبو يوسف بالواجب منه، وأما النفل ففي كل مسجد.
وقال الجمهور: بعمومه في كل مسجد إلا لمن تلزمه الجمعة،
فاستحبه له الشافعي في الجامع. وشرطه مالك، لأن الاعتكاف عنده
ينقطع بالجمعة، ويجب بالشروع عند مالك.
وخصه طائفة من السلف، كالزهري بالجامع مطلقاً، وأوماً إليه
الشافعي في القديم.

وخصه حذيفة بن اليمان بالمساجد الثلاثة، وعطاء بمسجدي مكة
والمدينة، وابن المسيب بمسجد المدينة.

[أقل الاعتكاف وأكثره]

واتفقوا على أنه لا حد لأكثره، واختلفوا في أقله، فمن شرط فيه

الصيام قال: أقله يوم، ومنهم من قال: يصح مع شرط الصيام في دون اليوم. حكاه ابن قدامة. وعن مالك: يشترط عشرة أيام، وعنه: يوم أو يومان.

ومن لم يشترط الصوم قالوا: أقله ما ينطلق عليه اسم لبث، ولا يشترط القعود.

واتفقوا على فسادہ بالجماع.

[اعتكافه ﷺ وتحريه ليلة القدر]

وقد كان سيدنا رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان. رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يعتكف كل عام عشراً، فاعتكف عشرين في العام الذي قبض فيه. رواه البخاري.

وعن أبي سعيد الخدري أنه ﷺ اعتكف العشر الأول من رمضان، ثم اعتكف العشر الأوسط في قبة تركية، ثم أطلع رأسه فقال: إني اعتكفت العشر الأول ألتمس هذه الليلة - يعني ليلة القدر - ثم اعتكفت العشر الأوسط، ثم أتيت فقيل لي إنها في العشر الأواخر فقد رأيت هذه الليلة ثم أنسيتها، وقد رأيتني أسجد في ماء وطين من صبيحتها فالتمسوها في العشر الأواخر والتمسوها في كل وتر [منه] (١)، قال: فمطرت السماء تلك الليلة وكان المسجد على عريش فوكف المسجد، فبصرت عينا رسول الله ﷺ وعلى جبهته أثر الماء والطين من صبحية إحدى وعشرين. رواه الشيخان.

(١) في (ط، ش).

وفي حديث عبادة بن الصامت: أنه ﷺ خرج يخبر بليلة القدر فتلاحي فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة، رواه البخاري.

ولسلم من حديث عبد الله بن أنيس: أنه ﷺ قال: أريت ليلة القدر ثم أنسيتها، وأراني في صبيحتها أسجد في ماء وطين، قال: فمطرت ليلة ثلاث وعشرين، فصلى بنا وأثر الماء والطين في جبهته وأنفه.

وفي سنن أبي داود عن ابن مسعود مرفوعاً: اطلبوها ليلة سبع عشرة.

وأخرج الطبراني مرفوعاً من حديث أبي هريرة: التمسوا ليلة ٣٧٩/ب القدر / في ليلة سبع عشرة، أو تسع عشرة، أو إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، أو سبع وعشرين، أو تسع وعشرين.

[تحديد ليلة القدر]

وقد اختلف العلماء في ليلة القدر اختلافاً كثيراً، وأفردها بعضهم بالتأليف، وقد جمع الحافظ أبو الفضل بن حجر من كلام العلماء في ذلك أكثر من أربعين قولاً، كساعة الجمعة.

ومذهب الشافعي: انحصارها في العشر الأخير، كما نص عليه الشافعي، فيما حكاه عنه الأسنوي.

وعن المحاملي [في «التجريد»] ^(١): إنها تلتمس في جميع الشهر،

(١) في (د، ب، ط) قال الشارح: قال شيخنا: لا يعرف له كتاب يسمى التجريد ولا ذكره الأسنوي في الطبقات.

وتبعه عليه الشيخ أبو اسحاق في «التنبيه» فقال: وتطلب ليلة القدر في جميع شهر رمضان. ثم الغزالي في كتبه.

وتردد صاحب «التقريب» في جواز كونها في النصف الأخير، كذا نقله عنه الإمام وضعفه. وحكاها ابن الملقن في شرح العمدة.

وفي المفهم للقرطبي حكاية قول إنها ليلة النصف من شعبان.

ودليل الأول^(١): حديث أبي سعيد الذي قدمناه، قال النووي: وميل الشافعي إلى أنها ليلة الحادي والعشرين أو الثالث والعشرين، أما الحادي والعشرون فلقوله ﷺ في حديث أبي سعيد: «فقد أريت هذه الليلة، وقد رأيتني أسجد في ماء وطين من صبيحتها، فبصرت عيناى رسول الله ﷺ وعلى جبهته أثر الماء والطين من صبيحة إحدى وعشرين، وأما الثالث والعشرون فلحديث عبد الله بن أنيس المتقدم أيضاً. وجزم جماعة من الشافعية: بأنها ليلة الحادي والعشرين، ولكن قال السبكي: إنه ليس مجزوماً به عندهم لاتفاقهم على عدم حث من علق يوم العشرين عتق عبده بليلة القدر أنه لا يعتق تلك الليلة، بل بانقضاء الشهر على الصحيح بناء على أنها في العشر الأخير. وعن ابن خزيمة - من أصحابنا - أنها تنتقل في كل سنة إلى ليلة من ليالي العشر [الأخير]^(٢).

وحاصله: قولان، ووجه^(٣)، واختار النووي في الفتاوى وشرح المهذب رأي ابن خزيمة.

(١) أي انحصارها في العشر الأخير.

(٢) في (ط، د).

(٣) أي قولان للشافعي، ووجه لابن خزيمة.

[هل ليلة القدر خاصة بهذه الأمة]

وجزم ابن حبيب من المالكية، ونقله الجمهور، وحكاه صاحب «العدة» من الشافعية ورجحه: أن ليلة القدر خاصة بهذه الأمة، ولم تكن في الأمم قبلهم.

وهو معترض: بحديث أبي ذر عند النسائي، حيث قال فيه: قلت يا رسول الله أتكون مع الأنبياء فإذا ماتوا رفعت؟ قال: بل هي باقية.

وعمدتهم قول مالك في «الموطأ» بلغني أن رسول الله ﷺ تقاصر أعمار أمته عن أعمار الأمم الماضية فأعطاه الله تعالى ليلة القدر. وهذا محتمل للتأويل، فلا يدفع الصريح من حديث أبي ذر كما قاله الحافظان ابن كثير في تفسيره وابن حجر في فتح الباري.

[علامات ليلة القدر]

قال: وقد ظهر لليلة القدر علامات؛ منها: ما في صحيح مسلم عن أبي بن كعب أن الشمس تطلع في صبيحتها لا شعاع لها، ولا بن خزيمة من حديث ابن عباس مرفوعاً: ليلة القدر لا حارة ولا باردة، تصبح الشمس يومها حمراء ضعيفة، ولأحمد من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً أنها صافية، كأن فيها قمراً ساطعاً، ساكنة صاحية، لا حر فيها ولا برد ولا يحل^(١) لكوكب يرمى به فيها، وإن من أماراتها أن الشمس في صبيحتها تخرج مستوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر، لا يحل للشيطان أن يخرج معها حينئذ.

(١) أي: لا يتفق.

وروى البيهقي في «فضائل الأوقات» أن المياه المألحة تعذب في تلك الليلة.

[اجتهاده ﷺ في العشر الأخير]

وقد كان ﷺ يجتهد في العشر الأخير من رمضان ما لا يجتهد في غيره. رواه مسلم من حديث عائشة.

وفي البخاري عنها: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله.

٣٨٠/أ وجزم عبد الرزاق بأن «شد مئزره» هو اعتزاله / النساء، وحكاه عن الثوري. وقال الخطابي: يحتمل أن يراد به الجد في العبادة، كما يقال: شددت لهذا الأمر مئزري، أي: تشمرت له، ويحتمل أن يراد به التشمير والاعتزال معاً، ويحتمل أن يراد به الحقيقة والمجاز، فيكون المراد: شد مئزره حقيقة فلم يحله واعتزل النساء وتشمر للعبادة.

وقوله: «وأحيا ليله» أي: سهره فأحياه بالطاعة، وأحيا نفسه بسهره فيه، لأن النوم أخو الموت، وأضافه إلى الليل اتساعاً، لأن النائم إذا حيا باليقظة حيا ليله بحياته، وهو نحو قوله: لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، أي: لا تناموا فتكونوا كالأموات فتكون بيوتكم كالقبور.

فقد كان ﷺ يخص العشر الأخير بأعمال لا يعملها في بقية الشهر:

فمنها: إحياء الليل، فيحتمل أن المراد إحياء الليل كله، ويشهد له حديث عائشة من وجه ضعيف «وأحيا الليل كله» وفي المسند عنها أيضاً، قالت: كان ﷺ يخلط العشرين بصلاة ونوم، فإذا كان العشر

شمر وشد المتزر، وفي حديث ضعيف عن أنس عند أبي نعيم: كان ﷺ إذا دخل شهر رمضان قام ونام فإذا كان أربعاً وعشرين لم يذق غمضاً. ويحتمل أن تريد بإحياء الليل غالبه، وقد قال الشافعي في القديم: من شهد العشاء والصبح في جماعة ليلة القدر فقد أخذ بحظه منها. وروي في حديث مرفوع عن أبي هريرة: من صلى العشاء الآخرة في جماعة في رمضان فقد أدرك ليلة القدر. رواه أبو الشيخ.

ومنها: أنه كان يوقظ أهله للصلاة في ليالي العشر دون غيره من الليالي.

ومنها: تأخير الفطور إلى السحور، ففي حديث أنس وعائشة أنه ﷺ كان في ليالي العشر يجعل عشاءه سحوراً، ولفظ حديث عائشة: كان ﷺ إذا كان رمضان قام ونام فإذا دخل العشر شد المتزر واجتنب النساء، واغتسل بين الأذنين، وجعل العشاء سحوراً، أخرجه ابن أبي عاصم. ولفظ حديث أنس: كان إذا دخل العشر الأخير من رمضان طوى فراشه واعتزل النساء وجعل عشاءه سحوراً. وإسناد الأول مقارب، والثاني فيه حفص بن غياث، وقال فيه ابن عدي: إنه من أنكر ما لقيت له. لكن يشهد له حديث الوصال المخرج في الصحيح كما قدمته.

ومنها: اغتساله ﷺ بين العشاءين: المغرب والعشاء، روي من حديث علي، وفي إسناده ضعف.

النَّوعُ السَّادِسُ

في ذكر حجه وعمره ﷺ

[المبادرة إلى الحج]

اعلم أن الحج حلول بحضرة المعبود، ووقوف بساحة الجود، ومشاهدة لذلك المشهد العلي الرحماني، والمأم بمعهد العهد الرباني، ولا يخفى أن نفس الكون^(١) بتلك الأماكن شرف وعلو، وأن التردد في تلك المواطن فخار وسمو، فإن المحالَّ المحترمة لم تنزل تفرغ^(٢) على الحال فيها من سجال^(٣) وصفحها بفيض غامر، وحسبك في هذا ما يحكى في أبيات عن مجنون بني عامر:

رأى المجنون في البيداء كلباً فجر عليه للإحسان ذيلاً
فلاموه على ما كان منه وقالوا لم منحت الكلب نيلاً
فقال دعوا الملام فإن عيني رأته مرة في حي ليلاً

فينبغي للعبد أن يهتم بأمر الحج ويبادر إليه، وينهض فاطر عزمه إنهاضاً يحثه عليه، ولا يتوانى في غسل أدران سيئات العمر بصابون المغفرة، ولا يتكاسل عن البدار، فيعرضه للفتوات بركوب عمياء المخاطرة.

(١) أي الوجود.

(٢) أي: تصب.

(٣) السجل: الدلو المملوء.

[وجوب الحج]

وروى ابن عباس أنه ﷺ قال: من أراد الحج فليتعجل. رواه أبو داود.

وفي حديث علي بن أبي طالب، عنه ﷺ: من ملك راحلة وزاداً ب/٣٨٠ إلى بيت الله الحرام، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً. الحديث رواه الترمذي.

وخطب ﷺ فقال: أيها الناس: قد فرض الله عليكم الحج فحجوا. رواه مسلم والنسائي من حديث أبي هريرة.

وفي رواية النسائي، من حديث ابن عباس مرفوعاً: إن الله كتب عليكم الحج، فقال الأقرع بن حابس التميمي: كل عام يا رسول الله؟ فقال: لو قلت نعم لوجبت الحديث.

فوجوب الحج معلوم من الدين بالضرورة، وقد أجمعوا على أنه لا يتكرر إلا لعارض كالنذر.

واختلفوا: هل هو على الفور، أو على التراخي؟ فقال الشافعي وأبو يوسف وطائفة: هو على التراخي، إلى أن ينتهي إلى حال يظن فواته لو أخره عنها. وقال مالك وأبو حنيفة وآخرون: هو على الفور.

[ابتداء فرض الحج]

واختلفوا أيضاً في وقت ابتداء فرضه، فقيل: قبل الهجرة، وهو شاذ، وقيل: بعدها، ثم اختلف في سنته.

فالجمهور على أنه سنة ست، لأنه نزل فيها قوله تعالى: ﴿وَأْتَمُوا

الحج والعمرة لله ﴿١﴾، وهذا يبني على أن المراد بالإتمام ابتداء الفرض. ويؤيده قراءة علقمة ومسروق وإبراهيم النخعي بلفظ «وأقيموا» رواه الطبري بأسانيد صحيحة عنهم.

وقيل: المراد بالإتمام الإكمال بعد الشروع، وهذا يقتضي تقدم فرضه قبل ذلك. وقد وقع في قصة ضمام ذكر الأمر بالحج وكان قدومه على ما ذكر الواقدي سنة خمس، وهذا يدل - إن ثبت - على تقدمه على سنة خمس، أو وقوعه فيها.

وقالت طائفة: إنه تأخر نزول فرضه إلى التاسعة والعاشر^(٢). واحتجوا: بأن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود، وفيه قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ وصالحهم على أداء الجزية، والجزية نزلت عام تبوك سنة تسع وفيها نزل صدر سورة آل عمران، وناظر أهل الكتاب ودعاهم إلى التوحيد. ويدل عليه أن أهل مكة وجدوا في أنفسهم بما فاتهم من التجارة مع المشركين لما أنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس﴾ الآية^(٣) فأعاضهم الله من ذلك بالجزية، ونزول هذه الآيات^(٤) والمنادات بها إنما كان سنة تسع، وبعث الصديق يؤذن بذلك في مكة في موسم الحج، وأردفه بعلي.

[عدد حججه ﷺ وعمره]

وفي الترمذي من حديث جابر، أن النبي ﷺ حج ثلاث حجج، حجتين قبل أن يهاجر وحجة بعدما هاجر معها عمرة، فساق

(١) سورة البقرة، الآية ١٦٩.

(٢) قالت طائفة: التاسعة، وقالت أخرى: العاشرة.

(٣) سورة التوبة، الآية ٢٨.

(٤) في (ط، ش): الآية.

ثلاثاً وستين بدنة، ثم جاء علي من اليمن ببقيتها، فيها جمل في أنفه برة من فضة ففحرها، الحديث.

وعن ابن عباس: حج ﷺ قبل أن يهاجر ثلاث حجج. أخرجه الحاكم وابن ماجه^(١). وهو مبني على عدد وفود الأنصار إلى العقبة بمبي بعد الحج، وهذا لا يقتضي نفي الحج قبل ذلك.

وقد أخرج الحاكم بسند صحيح إلى الثوري، أن النبي ﷺ حج قبل أن يهاجر حججاً.

وقال ابن الجوزي: حج حججاً لا يعلم عددها، وقال ابن الأثير: كان ﷺ يحج كل سنة قبل أن يهاجر.

[خروجه ﷺ لحجة الوداع]

وقال جابر في حديثه الطويل - كما في رواية مسلم -: مكث ﷺ تسع سنين لم يحج ثم أذن^(٢) في العاشرة؛ أن رسول الله ﷺ حاج. فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتيهم برسول الله ﷺ، ويعمل مثل عمله، فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة، فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ: كيف أصنع؟ قال: «اغتسلي واستثفري^(٣) بثوب وأحرمي»، فصلى رسول الله ﷺ في المسجد، ثم ركب القصواء حتى إذا استوت به ناقته على البيداء، نظرت مدَّ بصري بين يديه من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك،

(١) في ط: وابن حبان بدل ابن ماجه.

(٢) في (ط، ش): ثم أذن في الناس، و«في الناس» ليست في مسلم الذي رواه برقم ١٢١٨.

(٣) الاستفثار: أي تشد في وسطها شيئاً.

وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل من شيء عملنا به.

وفي رواية عند النسائي: قال جابر: خرج رسول الله ﷺ لخمس بقين من ذي القعدة وخرجنا معه، حتى إذا أتى ذا الحليفة الحديث.

أ/٣٨١ وكان خروجه / ﷺ من المدينة بين الظهر والعصر، فنزل بذي الحليفة، فصلى بها العصر ركعتين، ثم بات بها، وصلى بها المغرب والعشاء والصبح والظهر، وكان نساؤه كلهن معه، فطاف عليهن تلك الليلة ثم اغتسل غسلًا ثانيًا لإحرامه، غير غسل الجماع الأول.

[إحرامه ﷺ ومكان إهلاله]

وفي الترمذي، عن خارجة بن زيد عن أبيه: تجرد رسول الله ﷺ لإهلاله واغتسل.

وفي الصحيحين: أن عائشة طيبته بذريرة، وفي رواية قالت: كأني أنظر إلى ويبص الطيب في مفارقه ﷺ وهو محرم، وفي رواية قالت: طيبته عند إحرامه، ثم طاف في نسائه، ثم أصبح محرماً، زاد في رواية: ينضح طيباً. وفي رواية^(١): طيبته طيباً لا يشبه طيبكم، تعني ليس له بقاء.

وهذا يدل على استحباب الطيب عند إرادة الإحرام، وأنه لا بأس باستدامته بعد الإحرام، ولا يضر بقاء لونه ورائحته، وإنما يحرم

(١) هذه الرواية للنسائي، وما سبقها من الروايات متفق عليها.

في الإحرام ابتداءه، وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأبي يوسف وأحمد بن حنبل، وحكاه الخطابي عن أكثر الصحابة، وحكاه النووي عن جمهور العلماء من السلف والخلف.

وذهب مالك: إلى منع التطيب قبل الإحرام بما تبقى رائحته بعده، لكنه قال: إن فعل فقد أساء ولا فدية عليه.

وعن عائشة قالت: كان ﷺ إذا أراد أن يحرم غسل رأسه بخطمي وأشنان، رواه الدارقطني.

وفي حديث أنس عند أبي داود والترمذي: أنه ﷺ صلى الظهر ثم ركب راحلته، فلما علا على جبل البيداء أهل.

وفي رواية ابن عمر، عند البخاري ومسلم وغيرهما: ما أهل إلا من عند المسجد، يعني مسجد ذي الحليفة.

وفي رواية^(١): ما أهل إلا من عند الشجرة حين قام به بعيره. وفي رواية: حين وضع رجله في الغرز، واستوت به راحلته قائماً، أهل من عند مسجد ذي الحليفة.

وفي رواية جابر - عند أبي داود والترمذي - أنه ﷺ لما أراد الحج أذن في الناس فاجتمعوا له، فلما أتى البيداء أحرم.

وفي حديث ابن جبير - عند أبي داود - قال: قلت لابن عباس: عجت باختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في إهلال رسول الله ﷺ حين أوجب^(٢)؟! فقال: إني لأعلم الناس بذلك، إنها إنما كانت من

(١) عند مسلم وكذا التي بعدها.

(٢) أي ألزم نفسه ما أحرم به.

رسول الله ﷺ حجة واحدة، فمن هناك اختلفوا. خرج ﷺ حاجاً فلما صلى في مسجده بذى الحليفة ركعتيه أوجبه في مجلسه فأهل بالحج حين فرغ من ركعتيه، فسمع ذلك منه أقوام فحفظته عنه، ثم ركب فلما استقلت به ناقته أهل، وأدرك ذلك منه أقوام، وذلك أن الناس إنما كانوا يأتون إليه أرسالاً، فسمعوه حين استقلت به ناقته يهل فقالوا إنما أهل رسول الله ﷺ حين استقلت به ناقته، ثم مضى رسول الله ﷺ، فلما علا على شرف البيداء أهل، وأدرك ذلك منه أقوام فقالوا إنما أهل حين علا على شرف البيداء، وأيم الله لقد أوجب في مصلاه، وأهل حين استقلت به ناقته، وأهل حين علا على شرف البيداء.

قال سعيد بن جبير: فمن أخذ بقول عبد الله بن عباس أهل في مصلاه إذا فرغ من ركعتيه، وهو مذهب أبي حنيفة، والصحيح من مذهب الشافعي أن الأفضل أن يحرم إذا انبعثت به راحلته.

قال ابن القيم: ولم ينقل عنه ﷺ أنه صلى للإحرام ركعتين غير فرض الظهر، انتهى.

قلت: ثبت في الصحيحين عن ابن عمر أنه ﷺ كان يركع بذى الحليفة ركعتين، ثم إذا استوت به الناقة قائمة عند مسجد ذى الحليفة أهل.

قال النووي: فيه استحباب صلاة ركعتين عند إرادة الإحرام، ويصليهما قبل الإحرام، ويكونان نافلة، هذا مذهبنا ومذهب العلماء / ٣٨١ ب / كافة، إلا ما حكاه القاضي وغيره عن الحسن البصري أنه يستحب كونها بعد صلاة فرض، قال: لأنه روي أن هاتين الركعتين كانتا صلاة الصبح، والصواب ما قاله الجمهور وهو ظاهر الحديث.

[أقوال في حجه ﷺ وإحرامه]

وقد اختلفت روايات الصحابة في حجه ﷺ حجة الوداع، هل كان مفرداً أو قارناً أو متمتعاً؟ وروي كل منها في البخاري ومسلم وغيرهما. واختلف الناس في ذلك على ستة أقوال:

أحدها: أنه حج مفرداً لم يعتمر معه.
الثاني: حج متمتعاً تمتعاً حل منه ثم أحرم بعده بالحج، كما قاله القاضي أبو يعلى وغيره.
الثالث: أنه حج متمتعاً تمتعاً لم يحل فيه لأجل سوق الهدي ولم يكن قارناً.

الرابع: أنه حج قارناً قراناً طاف له طوافين وسعى له سعيين.
الخامس: أنه حج مفرداً، اعتمر بعده من التنعيم.
السادس: أنه ﷺ حج قارناً بالحج والعمرة ولم يحل حتى حل منها جميعاً، وطاف لهما طوافاً واحداً وسعياً واحداً وساق الهدي.
واختلفوا أيضاً في إحرامه على ستة أقوال:

أحدها: أنه لبي بالعمرة وحدها، واستمر عليها.
الثاني: أنه لبي بالحج وحده واستمر عليه.
الثالث: أنه لبي بالحج مفرداً ثم أدخل عليه العمرة.
الرابع: أنه لبي بالعمرة وحدها ثم أدخل عليها الحج.
الخامس: أنه أحرم إحراماً مطلقاً لم يعين فيه نسكاً، ثم عينه بعد إحرامه.

السادس: لبي بالحج والعمرة معاً.
وقد أطنب أبو جعفر الطحاوي الحنفي في الكلام على ذلك، فإنه تكلم عليه في زيادة على ألف ورقة كما ذكره عنه جماعة من

العلماء، وبينه ابن حزم في حجة الوداع بيانات شافياً، ومهده المحب الطبري تمهيداً بالغاً، وأشار إليه القاضي عياض والنووي في شرحيهما لمسلم، ونقحه الحافظ ابن حجر مستوفياً لكثير من مباحثه استيفاءً كافياً.

[أدلة القائلين بالإفراد]

والذي ذهب إليه الشافعي في جماعة: أنه ﷺ حج حجاً مفرداً لم يعتمر معه، واحتج بما في الصحيحين أن عائشة قالت: «خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حجة الوداع، فمنا من أهل بعمره، ومنا من أهل بجم وعمره، ومنا من أهل بالحج وحده، وأهل رسول الله ﷺ بالحج». فهذا التقسيم والتنوع صريح في إهلاله بالحج وحده.

ولمسلم عنها: أنه ﷺ أهل بالحج وحده.
ولمسلم أيضاً عن ابن عباس: أهل رسول الله ﷺ بالحج.
ولابن ماجه عن جابر: أن رسول الله ﷺ أفرد الحج.
وعن ابن عمر: أنه ﷺ أفرد الحج. رواه البخاري.

قالوا: وهؤلاء لهم قرب في حجة الوداع على غيرهم: فأما جابر، فهو أحسن الصحابة سياقاً لرواية حديث حجة الوداع، فإنه ذكرها من حين خروجه ﷺ من المدينة إلى آخرها، فهو أضبط لها من غيره. وأما ابن عمر، فصح عنه أنه كان آخذاً بخطام ناقته ﷺ في حجة الوداع، وأنكر على من رجح قول أنس على قوله وقال: كان أنس يدخل على النساء وهن مكشفات الرؤوس وإني كنت تحت ناقته ﷺ يمسنى لعابها، أسمعها يلبي بالحج، وأما عائشة فقربها من رسول الله ﷺ معروف، وكذا اطلاعها على باطن أمره وظاهره، وفعله في

خلواته وعلانيته، مع كثرة فهمها وعظم فطنتها. وأما ابن عباس فمحلّه من العلم والفقّه في الدين والفهم الثاقب معروف، مع كثرة بحثه وتحفظه أحوال رسول الله ﷺ التي لم يحفظها غيره^(١) وأخذها إياها من كبار الصحابة.

وأحتجوا أيضاً: بأن الخلفاء الراشدين واطبوا على «الإفراد» مع أنهم الأئمة الأعلام، وقادة الإسلام، والمقتدى بهم، فكيف يظن بهم المواظبة على ترك الأفضل. وبأنه لم ينقل عن أحد^(٢) منهم / كراهة الإفراد، وقد نقل عنهم كراهة التمتع والجمع بينهما، حتى فعله علي رضي الله عنه لبيان الجواز. وبأن الإفراد لا يجب فيه دم بالإجماع بخلاف التمتع والقران.

[أدلة القائلين بالقران]

وذهب النووي إلى أن الصواب أنه ﷺ كان قارناً، ويؤيده أنه ﷺ لم يعتمر في تلك السنة بعد الحج، قال: ولا شك أن القران أفضل من الإفراد الذي لا يعتمر في سنته عندنا، ولم يقل أحد إن الحج وحده أفضل من القران. انتهى.

وقد صرح القاضي حسين والمتولي بترجيح الإفراد ولو لم يعتمر في تلك السنة.

قال الحافظ أبو الفضل بن حجر: وترجح رواية من روى القران بأمر.

(١) هذه مبالغة لا حاجة إليها، فكثير من الصحابة لهم مثل هذه العناية والحفظ. [م].

(٢) في (ط، ش): واحد.

منها: أن معه زيادة علم على من روى الأفراد والتمتع.

وبأن من روى الأفراد والتمتع اختلف عليه في ذلك، وأشهر من روي عنه الأفراد عائشة، وقد ثبت عنها أنه اعتمر مع حجته. وابن عمر، وقد ثبت عنه أنه ﷺ بدأ بالعمرة ثم أهل بالحج. وجابر، وقد روى عنه أنه اعتمر مع حجته أيضاً.

وبأن القرآن رواه عنه ﷺ جماعة من الصحابة لم يختلف عليهم فيه.

وبأنه لم يقع في شيء من الروايات النقل عنه من لفظه أنه قال: أفردت، ولا تمتعت، بل صح عنه أنه قال: «لولا أن معي الهدي لأحللت».

وأيضاً: فإن من روى القرآن لا يحتمل حديثه التأويل إلا بتعسف، بخلاف من روى الأفراد فإنه محمول على أول الحال وينتهي التعارض، ويؤيده: أن من جاء عنه الأفراد جاء عنه صورة القرآن، ومن روى عنه التمتع فإنه محمول على سفر واحد للنسكين، ويؤيده: أن من جاء عنه التمتع لما وصفه، وصفه بصورة القرآن، لأنهم اتفقوا على أنه لم يحل من عمرته حتى أتم عمل جميع الحج، وهذه إحدى صور القرآن.

وأيضاً: فإن رواية القرآن جاءت عن بضعة عشر صحابياً. انتهى.

وعدهم ابن القيم سبعة عشر: عائشة أم المؤمنين، وعبد الله بن عباس، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان بإقراره لعلي، وعمران بن الحصين، والبراء بن عازب، وحفصة أم

المؤمنين، وأبو قتادة، وابن أبي أوفى، وأبو طلحة، والهرماس بن زياد، وأم سلمة، وأنس بن مالك، وسعد بن أبي وقاص، وجابر، وابن عمر، قال: فهؤلاء سبعة عشر صحابياً، منهم من روى فعله، ومنهم من روى لفظ إحرامه، ومنهم من روى خبره عن نفسه، ومنهم من روى أمره به.

فإن قيل: كيف تجعلون منهم ابن عمر وجابراً، وعائشة، وابن عباس؟ وعائشة تقول: أهل رسول الله ﷺ بالحج، وفي لفظ: أفرد الحج، والأول في الصحيحين، والثاني في مسلم. وهذا ابن عمر يقول: لبي بالحج وحده، ذكره البخاري، وهذا ابن عباس يقول: أهل بالحج، رواه مسلم. وهذا جابر يقول: أفرد الحج، رواه ابن ماجه.

قيل^(١): إن كانت الأحاديث عن هؤلاء تعارضت وتساقطت، فإن أحاديث الباقيين لم تتعارض، فهب أن أحاديث من ذكرتم لا حجة فيها على القرآن ولا على الأفراد، فما الموجب للعدول عن أحاديث الباقيين مع صراحتها وصحتها، فكيف وأحاديثهم يصدق بعضها بعضاً، ولا تعارض بينها. انتهى^(٢).

وهذا^(٣) يقتضي رفع الشك عنها والمصير إلى أنه ﷺ كما قارناً، ومقتضى ذلك أن يكون القرآن أفضل من الأفراد والتمتع، وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين، وبه قال أبو حنيفة وإسحاق بن راهوية واختاره من الشافعية المزني وابن المنذر، وأبو إسحاق المروزي، ومن

(١) هذا جواب قوله في أول الفقرة السابقة: فإن قيل. [م].

(٢) زاد المعاد ١١٧/٢.

(٣) هذا تنمة كلام ابن حجر الذي سبق قبل قليل.

المؤخرين الشيخ تقي الدين السبكي، وبحث مع النووي في اختياره أنه ﷺ كان قارناً، وأن الأفراد مع ذلك أفضل، مستنداً إلى أنه ﷺ اختار / الأفراد أولاً ثم أدخل عليه العمرة لبيان جواز الاعتمار في أشهر الحج لكونهم كانوا يعتقدونه من أفجر الفجور، وتعقب: بأن البيان قد سبق منه ﷺ في عمره الثلاث، فإنه أحرم بكل منها في ذي القعدة، وهي عمرة الحديبية التي صد عن البيت فيها، وعمرة القضية، وعمرة الجعرانة، ولو كان أراد باعتباره مع حجته بيان الجواز فقط - مع أن الأفضل خلافه - لاكتفي في ذلك بأمره أصحابه أن يفسخوا حجهم إلى العمرة، انتهى^(١).

[أفضل النسك]

ومذهب الشافعي ومالك وكثيرين أن أفضلها: الأفراد، ثم التمتع، ثم القران.

فإن قلت: إذا كان الراجح أنه ﷺ كان قارناً، فلم رجح الشافعية والمالكية الأفراد على القران؟ فقد أجاب عن ذلك النووي في شرح المذهب: بأن ترجيح الأفراد لأنه ﷺ اختاره أولاً، فأهلاً بالحج وحده، وإنما أدخل عليه العمرة لمصلحة بيان جواز الاعتمار في أشهر الحج، وكانت العرب تعتقده من أفجر الفجور كما ذكرته.

وقد ذهب جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم: إلى أن التمتع أفضل، وهو مذهب أحمد، لكونه ﷺ تمناه، فقال: «لولا أني سقت الهدى لأحللت» ولا يتمنى إلا الأفضل.

وأجيب: بأنه إنما تمناه تطيباً لقلوب أصحابه لحزنهم على فوات موافقته، وإلا فالأفضل ما اختاره الله تعالى له، واستمر عليه ﷺ.

(١) عن فتح الباري في شرح الحديث رقم ١٥٦١ وما بعده.

[مناقشة القائلين بالتمتع وغيره]

وأما القائلون إنه ﷺ لبي بالعمرة واستمر عليها، فحجتهم حديث ابن شهاب عن سالم عن ابن عمر قال: تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج^(١).

وقال ابن شهاب عن عروة: إن عائشة أخبرته عن النبي ﷺ في تمتعه بالعمرة إلى الحج، فتمتع الناس معه بمثل الذي أخبرني سالم عن ابن عمر.

وقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: هذه عمرة استمتعنا بها^(٢).

وقال سعد بن أبي وقاص في المتعة: صنعها رسول الله ﷺ وصنعناها معه^(٣).

وأجيب: بأن التمتع عندهم يتناول القران، ويدل له ما في الصحيحين عن سعيد بن مسيب: اجتمع علي وعثمان بعسفان، فكان عثمان ينهى عن المتعة، فقال علي: ما تريد إلى أمر فعله رسول الله ﷺ تنهى عنه؟ فقال عثمان: دعنا منك، فقال: إني لا أستطيع أن أدعك، فلما رأى علي ذلك أهل بها جميعاً.

فهذا يبين أن من جمع بينهما كانت متمتعاً عندهم، وأن هذا هو الذي فعله رسول الله ﷺ. ووافقه عثمان على أنه ﷺ فعله، لكن النزاع بينهما: هل ذلك الأفضل في حقنا أم لا؟

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ، والترمذي وصححه، والنسائي.

فقد اتفق علي وعثمان على أنه ﷺ تمتع وأن المراد بالتمتع عندهم
القران .

وأيضاً: فإنه ﷺ قد تمتع تمتع قران باعتبار ترفهه بترك أحد
السفرين . انتهى .

وفي فتح الباري عن أحمد: أن من ساق الهدي فالقران له
أفضل ليوافق فعل النبي ﷺ، ومن لم يسق الهدي فالتمتع له أفضل
ليوافق ما تمناه وأمر به أصحابه . انتهى .

وأما من قال: إنه ﷺ حج مفرداً ثم اعتمر عقبه من التنعيم أو
غيره فهو غلط، لم يقله أحد من الصحابة ولا التابعين، ولا الأئمة
الأربعة، ولا أحد من أهل الحديث . قاله ابن تيمية .

وأما من قال: إنه حج متمتعاً، حل فيه من إحرامه، ثم أحرم
يوم التروية بالحج مع سوق الهدي فحجته حديث معاوية أنه قصر عن
رأس [رسول الله ﷺ] (١) بمشقص على المروة، وحديثه في الصحيحين،
ولا يمكن أن يكون هذا في غير حجة الوداع، لأن معاوية أسلم بعد
الفتح، والنبي ﷺ لم يكن زمن الفتح محرماً، ولا يمكن أن يكون في
عمرة الجعرانة لوجهين: أحدهما، أنه في بعض ألفاظ [الحديث] (٢)
الصحيح «وذلك في حجته»، الثاني: أن في رواية النسائي بإسناد
صحيح: «وذلك في أيام العشر» وهذا إنما كان في حجته، وهذا مما
أنكره الناس على معاوية وغلطوه فيه، وأصابه فيه ما أصاب ابن عمر
في قوله: إنه اعتمر في رجب كما سيأتي . وسائر الأحاديث الصحيحة
كلها تدل على أنه ﷺ لم يحل من إحرامه إلى يوم النحر، وبذلك أخبر

(١) في المخطوطات: عن رأسه .

(٢) في (ب، ط) .

أ/٣٨٣ عن نفسه بقوله: «لولا أن معي الهدى لأحلت» / وقوله: «إني سقت الهدى وقرنت فلا أحل عنه حتى أنحر»^(١)، وهذا خبر عن نفسه لا يدخله الوهم ولا الغلاط، بخلاف خبر غيره عنه. قاله في زاد المعاد.

[سبب اختلاف الروايات]

وأما اختلاف الروايات عنه ﷺ في إهلاله، هل هو بالحج أو بالعمرة أو القران، والجمع بينها، فكل تأول بما يناسب مذهبه الذي قدمته.

قال البغوي: والذي ذكره الشافعي في كتاب «اختلاف الأحاديث» كلاماً موجزه: «أن أصحاب رسول الله ﷺ كان منهم المفرد والقارن والمتمتع، فكل كان يأخذ عنه أمر نسكه، ويصدر عن تعليمه، فأضيف الكل إليه على معنى أنه أمر بها وأذن فيها، ويجوز في لغة الغرب إضافة الفعل إلى الأمر به، كما يجوز إضافته إلى الفاعل له، كما يقال: بنى فلان داراً، ويريد أنه أمر ببنائها، وكما روي أنه ﷺ رجم ما عزا، وإنما أمر برجمه، ثم احتج بأنه ﷺ كان أفرد الحج. انتهى، وقال الخطابي نحوه.

وقال النووي: كان ﷺ أولاً مفرداً، ثم أحرم بالعمرة بعد ذلك، وأدخلها على الحج فصار قارناً، فمن روى الأفراد فهو الأصل، يعني حملة على ما أهل به في أول الحال، ومن روى القران أراد ما استقر عليه أمره، ومن روى المتمتع أراد به المتمتع اللغوي والارتفاق، فقد ارتفق بالقران كارتفاق المتمتع وزيادة، وهو الاقتصار على فعل واحد.

(١) رواه أبو داود والنسائي. وأعله البيهقي بأنه مروى في البخاري ومسلم وليس فيها لفظ (وقرنت).

وقال غيره: أراد بالتمتع ما أمر به غيره.

قالوا: وبهذا الجمع تنتظم الأحاديث كلها ويزول عنها الاضطراب والتناقض.

وقالت طائفة: إنما أحرم ﷺ قارناً [ابتداء] (١) [- يعني بالحج والعمرة معاً] (٢) واحتجوا بأحاديث صحيحة تزيد على العشرين، منها حديث أنس في صحيح مسلم «سمعت رسول الله ﷺ أهل بهما: لبيك عمرة وحجاً» ورواه عن أنس ستة عشر نفساً من الثقات، كلهم متفقون عن أنس أن لفظ النبي ﷺ كان إهلالاً بحج وعمرة معاً (٣).

وأما من قال: إنه ﷺ أهل بالعمرة وأدخل عليها الحج، فحجته ما في البخاري من حديث ابن عمر قال: تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج، وأهدى فساق معه الهدى من ذي الحليفة، وبدأ ﷺ فأهل بالعمرة، ثم أهل بالحج.

وقد تقدم في الأحاديث الكثيرة الصريحة أنه ﷺ بدأ بالإهلال بالحج ثم أدخل عليه العمرة، وهذا عكسه.

والمشكل في هذا الحديث قوله: «بدأ فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج».

وأجيب عنه: بأن المراد به صورة الإهلال، أي لما أدخل العمرة

(١) في ش.

(٢) في الأصل.

(٣) لكن في الصحيحين أن ابن عمر أنكروا ذلك على أنس.

على الحج لبي بها فقال: لبيك بعمرة وحج^(١) معاً [ولبعضهم: بدأ رسول الله ﷺ فأهل بالعمرة، أي أمرهم بها أولاً، أي بتقديمها على الحج]^(٢).

ومذهب الشافعي: أنه لو أدخل الحج على العمرة قبل الطواف صح، وصار قارناً، فلو أحرم بالحج ثم أدخل عليه العمرة ففيه قولان للشافعي، أصحهما لا يصح إحرامه بالعمرة، لأن الحج أقوى منها لاختصاصه بالوقوف والرمي. والضعيف لا يدخل على القوي. انتهى.

[تقليد الهدي]

وعن ابن عباس قال: صلى ﷺ الظهر بذى الحليفة، ثم دعا بناقته فأشعرها في صفحة سنامها الأيمن وسلت الدم عنها وقلدها نعلين. رواه مسلم وأبو داود.

وفي رواية الترمذي: قلد نعلين، وأشعر الهدي في الشق الأيمن، بذى الحليفة، وأماط عنه الدم.

وفي رواية لأبي داود بمعناه، وقال: ثم سلت الدم بيده، وفي أخرى بأصبعه.

ب/ ٣٨٣ / وعند النسائي: أشعر بدنه من الجانب الأيمن وسلت الدم عنها وقلدها [نعلين]^(٣).

وفي أخرى: أمر ببدنه فأشعر في سنامها من الشق الأيمن ثم سلت عنها الدم وقلدها نعلين^(٤).

(١) في (أ، د) حجة.

(٢) في الأصل فقط.

(٣) في (ط، ش).

(٤) هذه الرواية سقطت من ط.

وكان حجه ﷺ على رجل رث يساوي أربعة دراهم^(١). رواه الترمذي في الشمائل وابن ماجه من حديث أنس^(٢)، والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس^(٣).

[تأديب وتوجيه]

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حجاجاً حتى إذا كنا بالعرج نزل رسول الله ﷺ ونزلنا، فجلست عائشة إلى جنب رسول الله ﷺ، وجلست إلى جنب أبي بكر، وكانت زمالة رسول الله ﷺ وزمالة^(٤) أبي بكر واحدة، مع غلام لأبي بكر، فجلس أبو بكر ينتظر أن يطلع عليه، فطلع عليه وليس معه بعيره، فقال له أبو بكر: أين بعيرك؟ فقال: أضلته البارحة. قال أبو بكر: بعير واحد تضره؟ وطفق يضربه ورسول الله ﷺ يبتسم ويقول: انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع، وما يزيد على ذلك ويبتسم. رواه أبو داود.

وخرج معه ﷺ أصحابه لا يعرفون إلا الحج - كما قالت عائشة - فبين لهم ﷺ وجوه الإحرام وجوز لهم الاعتمار في أشهر الحج فقال: من أحب أن يهل بعمرة فليهل، ومن أحب أن يهل بحج فليهل. رواه البخاري.

ولأحمد: من شاء فليهل بعمرة.

(١) الحديث (حج ﷺ على رجل رث وقطيفة كنا نرى ثمنها أربعة دراهم) وفي رواية (لا تساوي أربعة دراهم) فأسقط المصنف كلمة (القطيفة) وهو اختصار مخل.

(٢) إسناده ضعيف.

(٣) إسناده ضعيف.

(٤) أي مركوبها وأداتها وما كان معها في السفر.

[حكم إهداء الصيد للمحرم]

ولما بلغ ﷺ الأبواء أو ودان، أهدى له الصعب بن جثامة حماراً وحشياً فرده عليه، فلما رأى ما في وجهه قال: إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم. رواه البخاري ومسلم. وله في رواية: حمار وحش، وفي أخرى: من لحم حمار وحش، وفي رواية: عجز حمار وحش يقطر دماً، وفي رواية: شق حمار وحش، وفي رواية: عضو^(١) من لحم صيد.

ورواه أبو داود وابن حبان من طريق عطاء عن ابن عباس أنه قال: يا زيد بن أرقم، هل علمت أن رسول الله ﷺ.. فذكره.

واتفقت الروايات كلها على أنه رده عليه، إلا ما رواه ابن وهب والبيهقي من طريقه بإسناد حسن من طريق عمرو بن أمية: أن الصعب أهدى للنبي ﷺ عجز حمار وحش، وهو بالجحفة، فأكل منه وأكل القوم، قال البيهقي: إن كان هذا محفوظاً فلعله رد الحي وقبل اللحم.

قال في فتح الباري: وفي هذا الجمع نظر، فإن كانت الطرق محفوظة فلعله رد حياً لكونه صيد لأجله، ورد اللحم تارة لذلك، وقبله تارة أخرى حيث علم أنه لم يصد له لأجله. وقد قال الشافعي في «الأم»: إن كان الصعب أهدى حماراً حياً فليس للمحرم أن يذبح حمار وحش حي، وإن كان أهدى له لحماً فقد يحتمل أن يكون علم أنه صيد له فرده عليه. ونقل الترمذي عن الشافعي: أنه رده لظنه أنه صيد من أجله فتركه على وجه التنزه، ويحتمل أن يحمل القبول المذكور في حديث عمرو بن أمية على وقت آخر، وهو حال رجوعه ﷺ من

(١) في (أ، د) عضواً، ورواية الحديث تقول: «أهدى له عضو من لحم صيد».

مكة، ويؤيده: أنه جازم فيه بوقوع ذلك في الجحفة، وفي غيرها من الروايات: بالأبواء أو بودان. وقال القرطبي: يحتمل أن يكون الصعب أحضر الحمار مذبوحاً ثم قطع منه عضواً بحضرة ﷺ فقدمه له، فمن قال: أهدى حماراً أراد بتمامه مذبوحاً لا حياً، ومن قال: لحم حمار أراد ما قدمه للنبي ﷺ، قال: ويحتمل أن يكون من [قال] (١) حماراً، أطلق وأراد بعضه مجازاً، قال: ويحتمل أنه أهده له حياً، فلما رده عليه ذكاه وأتاه بعضو منه ظاناً أنه إنما رده عليه لمعنى يختص بجملته، فأعلمه بامتناعه أن حكم الجزء حكم الكل. قال: والجمع مهما أمكن أولى من توهم بعض الرواة (٢).

قال النووي: قال الشافعي وآخرون: ويجرم تملك الصيد بالبيع والهبة ونحوها، وفي ملكه بالإرث خلاف، وأما لحم الصيد فإن صاده أو صيد له فهو حرام، سواء صيد له بإذنه أو بغير إذنه، وإن صاده /
 ٣٨٤/أ حلال لنفسه ولم يقصد المحرم، ثم أهدى من لحمه للمحرم أو باعه لم يجرم عليه، هذا مذهبننا، وبه قال مالك وأحمد وداود، وقال أبو حنيفة: لا يجرم عليه ما صيد له بغير إعانة منه، وقالت طائفة: لا يحل له لحم الصيد أصلاً، سواء صاده، أو صاده غيره له، قصده أو لم يقصده، فيحرم مطلقاً. حكاه القاضي عياض عن علي وابن عمر وابن عباس لقوله تعالى: ﴿وحرّم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً﴾ (٣)، قالوا: والمراد بالصيد المصيد، ولظاهر حديث الصعب بن جثامة، فإنه ﷺ رد وعلل رده بأنه محرم، ولم يقل: بأنك صدته لنا.

واحتج الشافعي وموافقه: بحديث أبي قتادة المذكور في صحيح

(١) في فتح الباري، وفي النسخ: من حمار.

(٢) عن فتح الباري في شرح الحديث رقم ١٨٢٥.

(٣) سورة المائدة، الآية ٩٦.

مسلم، فإنه ﷺ قال في الصيد الذي صاده أبو قتادة وهو حلال، قال للمحرمين: هو حلال فكلوه. وفي الرواية الأخرى قال: فهل معكم منه شيء؟ قالوا: معنا رجله، فأخذها رسول الله ﷺ فأكلها.

[ذكر حج الأنبياء]

ولما مرَّ ﷺ بوادي عسفان قال: يا أبا بكر، أي واد هذا؟ قال وادي عسفان قال: لقد مرَّ به هود وصالح على بكرين أحمرين خطامهما الليف، وأزرهما العباء وأرديتهما النمار^(١) يلبون [بالحج]^(٢) يحجون البيت العتيق. رواه أحمد.

وفي رواية مسلم من حديث ابن عباس، لما مر بوادي الأزرق قال: «كأنني أنظر إلى موسى هابطاً من الثنية واضعاً أصبعيه في أذنيه ماراً بهذا الوادي، وله جؤار^(٣) إلى الله بالتلبية.

ووادي الأزرق خلف أمج - بفتح الهمزة والميم والجيم - قرية ذات مزارع، بينه^(٤) وبين مكة ميل واحد.

ولم يعين في رواية البخاري الوادي، ولفظه: أما موسى كأنني أنظر إليه إذ انحدر من الوادي يلبي.

قال المهلب: هذا وهم من بعض رواته، لأنه لم يأت في أثر ولا خبر أن موسى حي، وأنه سيحج، وإنما أتى ذلك عن عيسى فاشتبه على الرواي، ويدل عليه قوله في الحديث الآخر: ليهلن ابن مريم بفسج الروحاء. انتهى.

(١) جمع نمرة: بردة من صوف.

(٢) في (ط، د).

(٣) أي صوت مرتفع قال تعالى (ثم إليه تجارون).

(٤) أي بين أمج وبين مكة

وهو تغليط للثقات بمجرد التوهم، وقد ذكر البخاري الحديث في اللباس من صحيحه بزيادة ذكر إبراهيم فيه أفيقال: إن الراوي الآخر قد غلط فزاده؟ وفي رواية مسلم المتقدمة ذكر يونس، أفيقال: إن الراوي الآخر قد غلط فزاد يونس؟

وتعقب أيضاً: بأن توهيم المهلب للراوي وهم منه، وإلا فأى فرق بين موسى وعيسى؟ لأنه لم يثبت أن عيسى منذ رفع نزل إلى الأرض، وإنما ثبت أنه سينزل.

وأجيب: بأن المهلب أراد أن عيسى لما ثبت أنه سينزل كان كالمحقق، فقال: «كأني أنظر إليه» ولهذا استدل المهلب بحديث أبي هريرة الذي فيه «ليهلن ابن مريم بالحج».

وقد اختلف في معنى قوله: «كأني أنظر إليه».

ف قيل: إن ذلك رؤيا منام تقدمت له فأخبر عنها لما حج عندما تذكر ذلك، ورؤيا الأنبياء وحي.

وقيل: هو على الحقيقة، لأن الأنبياء أحياء عند ربهم يرزقون، فلا مانع أن يحجوا في هذه الحالة، كما في صحيح مسلم عن أنس: أنه رأى موسى عليه السلام قائماً في قبره يصلي.

قال القرطبي: حبت إليهم العبادة، فهم يتعبدون بما يجدونه من دواعي أنفسهم لا [بما]^(١) يلزمون به، كما يلهم أهل الجنة الذكر. ويؤيده أن عمل الآخرة ذكر ودعاء لقوله تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾^(٢) الآية.

لكن تمام هذا التوجيه أن يقال: المنظور إليه هي أرواحهم، فلعلها

(١) ليست في الأصل.

(٢) سورة يونس، الآية ١٠.

مثلت له ﷺ في الدنيا كما مثلت له ليلة الإسراء، وأما أجسادهم فهي في القبور.

قال ابن المنير وغيره: يجعل الله لروحه مثلاً، ويرى في اليقظة كما يرى في النوم.

وقيل: كأنه مثلت أحوالهم التي كانت في الحياة الدنيا، كيف تعبدوا، وكيف حجوا، وكيف لبوا، ولهذا قال: كأني..

وقيل: كأنه أخبر بالوحي عن ذلك، فلشدة قطعه به قال: كأني أنظر إليه. انتهى.

وقد ذكرت في مقصد الإسراء من ذلك ما يكفي والله الموفق.

[حيض عائشة]

ب/٣٨٤ / ولما نزل ﷺ بسرف خرج إلى أصحابه فقال من لم يكن معه هدي فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل، ومن كان معه الهدى فلا.

وحاضت عائشة فدخل عليها ﷺ وهي تبكي، فقال: ما يبكيك يا هنتاه، قالت: سمعت قولك لأصحابك فمنعت العمرة، قال: وما شأنك؟ قالت: لا أصلي، قال: فلا يضرك، إنما أنت امرأة من بنات آدم، كتب الله عليك ما كتب عليهن، فكوني في حجك^(١)، فعسى الله أن يرزقكها. رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

وفي رواية^(٢) قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ لا نذكر إلا الحج، حتى جئنا سرف، فطمثت، فدخل علي رسول الله ﷺ وأنا

(١) في (ط، ش) حجتك.

(٢) رواها البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

أبكي، فقال: ما يبكيك؟ فقلت: والله لوددت أني لم أكن خرجت العام، فقال: ما لك، لعلك نفست؟ قلت: نعم، قال: هذا شيء كتبه الله على بنات آدم، افعلي ما يفعل الحاج، غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تطهري. الحديث.

وقد اختلف فيما أحرمت به عائشة، كما اختلف: هل كانت متمتعة أم مفردة؟ وإذا كانت متمتعة فقبل إنها كانت أولاً أحرمت بالحج وهو ظاهر هذا الحديث.

وفي حجة الوداع من المغازي عند البخاري، من طريق هشام ابن عروة عن أبيه قالت: وكنت فيمن أهل بعمره. وزاد أحمد من وجه آخر عن الزهري: ولم أسق هدياً، وفي رواية الأسود عنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ نلبي لا نذكر حجاً ولا عمرة.

ويحتمل في الجمع أن يقال: أهلت عائشة بالحج مفردة، كما صنع غيرها من الصحابة، ثم أمر النبي ﷺ أن يفسخوا الحج إلى العمرة، ففعلت عائشة ما صنعوا، فصارت متمتعة، ثم لما دخلت مكة وهي حائض ولم تقدر على الطواف لأجل الحيض أمرها أن تحرم بالحج.

وقال القاضي عياض: واختلف في الكلام على حديث عائشة، فقال: مالك ليس العمل على حديث عروة عن عائشة عندنا قديماً ولا حديثاً.

قال ابن عبد البر: يريد ليس العمل عليه في رفض العمرة وجعلها حجاً، بخلاف جعل الحج عمرة، فإنه وقع للصحابة. واختلف في جوازه من بعدهم، لكن أجاب جماعة من العلماء عن ذلك باحتمال أن يكون معنى قوله: «ارفضي عمرتك» أي اتركي

التحلل منها وأدخلي عليها الحج، فتصير قارئة، ويؤيده قوله في رواية لمسلم «وأمسكي عن العمرة» أي عن أعمالها.

وإنما قالت عائشة: «وأرجع بحج» لاعتقادها أن أفراد العمرة بالعمل أفضل، كما وقع لغيرها من أمهات المؤمنين.

واستبعد هذا التأويل لقولها في رواية عطاء عنها «وأرجع أنا بحجة ليس معها عمرة» أخرجه أحمد.

وهذا يقوي قول الكوفيين: إن عائشة تركت العمرة وحجت مفردة، وتمسكوا في ذلك بقوله لها «دعي عمرتك»، وفي رواية «اقضي^(١) عمرتك» ونحو ذلك.

واستدلوا به على أن للمرأة إذا أهلت بالعمرة متمتعة فحاضت قبل أن تطوف أن تترك العمرة وتهل بالحج مفرداً كما صنعت عائشة.

لكن في رواية عطاء عنها ضعف، والرافع للإشكال في ذلك: ما رواه مسلم من حديث جابر أن عائشة أهلت بعمرة، حتى إذا كان بسرف حاضت فقال لها النبي ﷺ: أهلي بالحج حتى إذا طهرت طافت بالكعبة وسعت، فقال: قد حللت من حجتك وعمرتك، قالت: يا رسول الله إني أجد نفسي أني لم أطف بالبيت حين حججت، قال: فأعمرها من التنعيم.

ولمسلم من طريق طاوس عنها: فقال لها النبي ﷺ: «طوافك يسعك لحجك وعمرتك» فهذا صريح في أنها كانت قارئة، لقوله: «قد حللت من حجك وعمرتك، وإنما أعمرها من التنعيم تطيباً لقلبها لكونها لم تطف بالبيت لما دخلت معتمرة، وقد وقع في رواية مسلم:

أ/٣٨٥ وكان ﷺ رجلاً سهلاً إذا هويت الشيء / تابعها عليه.

(١) في (ط، ش): ارفض.

[ادخال الحج على العمرة]

ثم قال ﷺ لأصحابه: «من كان معه هدي فليهلل بالحج مع العمرة، ثم لا يحل حتى يحل منها جميعاً»^(١).

وإنما قال لهم هذا القول بعد إحرامهم بالحج، وفي منتهى سفرهم ودنواهم من مكة بسرف، كما جاء في رواية عائشة، أو بعد طوافه بالبيت كما جاء في رواية جابر، ويحتمل تكرار الأمر بذلك في الموضوعين. وأن العزيمة كانت آخرأ حين أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة.

وفي رواية قالت عائشة: فمنا من أهل بعمرة، ومنا من أهل بحج، حتى قدمنا مكة فقال ﷺ: «من أحرم بعمرة ولم يهد فليحلل، ومن أحرم بعمرة وأهدى فلا يحل حتى ينحر هديه، ومن أهل بحج فليتم حجه»^(٢).

وهذا الحديث ظاهر في الدلالة لأبي حنيفة وأحمد وموافقيهما، في أن المعتمر المتمتع إذا كان معه الهدى لا يتحلل من عمرته حتى ينحر هديه يوم النحر.

ومذهب مالك والشافعي وموافقيهما أنه إذا طاف وسعى وحلق حل من عمرته وحل له كل شيء في الحال، سواء أكان ساق هدياً أم لا. واحتجوا بالقياس على من لم يسق الهدى، وبأنه تحلل من نسكه فوجب أن يحل له كل شيء، كما لو تحلل المحرم بالحج.

وأجابوا عن هذه الرواية بأنها مختصرة من الرواية التي ذكرها مسلم عن عائشة قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام حجة الوداع،

(١) رواه الشيخان وغيرهما.

(٢) رواه مسلم في كتاب الحج برقم ١١٢.

فأهللنا بعمره، ثم قال رسول الله ﷺ: «من كان معه هدي فليهلل بالحج مع العمرة، ثم لا يحل حتى يحل منهما جميعاً»^(١) فهذه الرواية مفسرة للمحذوف من الرواية التي احتج بها أبو حنيفة وتقديرها: ومن أحرم بعمره فليهلل^(٢) بالحج ولا يحل حتى ينحر هديه، ولا بد من هذا التأويل، لأن القصة واحدة، والراوي واحد، فتعين الجمع بين الروایتين على ما ذكر والله أعلم.

[المبيت بذى طوى ودخول مكة]

ولما بلغ سيدنا رسول الله ﷺ ذى طوى - بضم الطاء ويفتحها، وقيدها الأصيلي بالكسر - عند آبار الزاهر، بات بها بين الثنيتين، فلما أصبح صلى الغداة ثم اغتسل. رواه البخاري.

وللنسائي: كان ﷺ ينزل بذى طوى، يبيت به حتى يصلي صلاة الصبح حين يقدم إلى مكة.

ومصلى^(٣) رسول الله ﷺ ذلك، على أكمة خشنة غليظة، ليس في المسجد الذي بنى ثم، ولكن من أسفل ذلك على أكمة خشنة غليظة.

وفي الصحيحين: أنه ﷺ دخلها من أعلاها. وفي حديث ابن عمر في الصحيح: كان ﷺ يدخل من الثنية العليا، يعني أعلى مكة من كداء - بفتح الكاف والمد، قال أبو عبيد: لا يصرف - وهذه

(١) رواه مسلم في كتاب الحج برقم ١١١.

(٢) في المخطوطات: فليحلل، وهو تصحيف.

(٣) في المخطوطات: فصل. قال الشارح: بالميم أي مكان الصلاة كما في مسلم والنسائي.

الثنية هي التي ينزل منها إلى المعلاة - مقبرة مكة - وهي التي يقال لها:
الحجون - بفتح الحاء المهملة وضم الجيم -.

ولم يقع أنه ﷺ دخل مكة ليلاً إلا في عمرة الجعرانة، فإنه ﷺ
أحرم من الجعرانة، ودخل مكة ليلاً، ففضى أمر العمرة ثم رجع ليلاً
فأصبح بالجعرانة [كبائت] (١) كما رواه أصحاب السنن الثلاثة، من
حديث محرش الكعبي.

وعن عطاء قال: إن شئتم فادخلوا ليلاً، إنكم لستم كرسول
الله ﷺ، إنه كان إماماً، فأحب أن يدخلها نهاراً ليراه الناس. رواه
النسائي.

ثم دخل ﷺ مكة لأربع خلون من ذي الحجة.

[دخول المسجد الحرام]

ودخل المسجد الحرام ضحى من باب بني عبد مناف، وهو باب
بني شيبه، والمعنى فيه أن باب الكعبة في جهة ذلك الباب، والبيوت
تؤق من أبوابها، وأيضاً: فلأن جهة باب الكعبة أشرف الجهات
الأربع، كما قال ابن عبد السلام في «القواعد».

وكان ﷺ إذا رأى البيت قال: اللهم زد هذا البيت تشريفاً
وتعظيماً ومهابة وبراً. رواه الثوري عن أبي سعيد الشامي (٢) عن
مكحول.

/ وروى الطبراني عن حذيفة بن أسيد (٣): كان ﷺ إذا نظر إلى

(١) في (ط، ش) والمعنى: كأنه بات بها.

(٢) مجهول.

(٣) صحابي من أصحاب الشجرة.

البيت قال: اللهم زد بيتك هذا تشريفاً وتعظيماً وتكريماً وبراً ومهابة، وزد من شرفه وعظمه ممن حجه واعتمره تعظيماً وتشريفاً وبراً ومهابة^(١).

ولم يركع ﷺ تحية المسجد، إنما بدأ بالطواف لأنه تحية البيت كما صرح به كثير من أصحابنا، وليس بتحية المسجد.

ثم استلم الحجر الأسود، وفي رواية جابر عند البخاري: «استلم الركن»، والاستلام افتعال من السلام، أي التحية، قاله الأزهري، وقيل من السلام - بالكسر - أي الحجارة، والمعنى: أنه يومئذ بعصاه إلى الركن حتى تصيبه، وكانت محنية الرأس، وهي المراد بقوله في الحديث بـ «المحجن».

واعلم أن للبيت أربعة أركان: الأول له فضيلتان: كون الحجر الأسود فيه، وكونه على قواعد إبراهيم، وللثاني: الثانية فقط، وليس للآخرين شيء منها، فلذلك يقبل الأول، ويستلم الثاني فقط، ولا يقبل الآخران ولا يستلمان.

وروى الشافعي عن ابن عمر قال: استقبل رسول الله ﷺ الحجر، فاستلمه ثم وضع شفثيه عليه طويلاً. وكان إذا استلم الركن قال: بسم الله والله أكبر، وكلما أتى الحجر قال: الله أكبر، رواه الطبراني.

[الطواف بالبيت]

وهل كان ﷺ طائفاً على بعيره أم على قدميه؟

(١) في سنده من اتهم بالكذب ومن نسب للوضع.

ففي مسلم عن عائشة: طاف ﷺ في حجة الوداع على بعيره.

وفيه عن أبي الطفيل: رأيتُه ﷺ يطوف بالبيت على بعيره.

وقد اختلف في علة ذلك: فروى أبو داود من حديث ابن عباس: أنه ﷺ قدم مكة وهو يشتكي، فطاف على راحلته، وفي حديث جابر عند مسلم: أنه ﷺ طاف ركباً ليراه الناس ويسألوه. فيحتمل أنه فعل ذلك للأمرين.

قال ابن بطال: فيه جواز دخول الدواب التي يؤكل لحمها المسجد إذا احتيج إلى ذلك، لأن بولها لا ينجسه بخلاف غيرها من الدواب.

وتعقب: بأنه ليس في الحديث دلالة على عدم الجواز مع الحاجة، بل ذلك دأب مع التلوين وعدمه، فحيث يخشى التلوين يمتنع الدخول، وقد قيل: إن ناقته ﷺ كانت منوقة، أي مدربة معلمة، فيأمن معها ما يحذر من التلوين.

قال بعضهم: وهذا كان - والله أعلم - في طواف الإفاضة، لا في طواف القدوم، فإن جابراً حكى عنه الرمل في الثلاثة الأول، وذلك لا يكون إلا مع المشي، ولم يقل أحد رملت به راحلته، وإنما قالوا: رمل، أي بنفسه. وقال الشافعي: أما سعيه الذي طاف لمقدمه فعلى قدميه. انتهى

ولما استلم ﷺ الحجر مضى على يمينه^(١)، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً.

(١) أي فيكون البيت على يساره.

وكان ابتداء الرمل في عمرة القضية، لما قدم ﷺ وأصحابه مكة، وقد وهنتهم حمى يثرب، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم غداً قوم قد وهنتهم الحمى، ولقوا منها شدة، فجلسوا مما يلي الحجر، وأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا ثلاثة أشواط، ويمشوا بين الركنين ليري المشركين جلداهم، فقال المشركون: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا. رواه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عباس.

ولما كان في حجة الوداع رمل ﷺ وأصحابه، فكان سنة مستقلة.

قال الطبري: قد ثبت أنه ﷺ رمل ولا مشرك يومئذ بمكة، يعني في حجة الوداع، فعلم أنه من مناسك الحج، إلا أن تاركه ليس تاركاً لعمل، بل لهيئة مخصوصة، فكان كرفع الصوت بالتلبية، فمن لبي أ/٣٨٦ خافضاً صوته لم يكن تاركاً / للتلبية بل لصفتها، فلا شيء عليه. انتهى

فلو ترك الرمل في الثلاث لم يقضه في الأربع، لأن هيئتها السكينة فلا تغير، والله أعلم.

ولما فرغ ﷺ من طوافه أتى المقام، فقرأ ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾^(١) فصلى ركعتين والمقام بينه وبين البيت، قرأ فيهما بـ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و﴿قل هو الله أحد﴾ ثم رجع إلى الركن [الذي فيه الحجر]^(٢) فاستلمه.

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٥.

(٢) في (ط، ش).

[السعي بين الصفا والمروة]

ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ ﴿إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله﴾^(١)، أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت واستقبل القبلة، فوحد الله وكبره، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم دعا بين ذلك قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي رمل، حتى إذا صعدتا مشى حتى أتى المروة.

وفي حديث أبي الطفيل عند مسلم وأبي داود، قال: قلت لابن عباس، أخبرني عن الطواف بين الصفا والمروة راكباً، أسنة هو؟ فإن قومك يزعمون أنه سنة، قال: صدقوا وكذبوا، قلت: وما قولك صدقوا وكذبوا؟ قال: إن رسول الله ﷺ كثر عليه الناس، يقولون: هذا محمد، هذا محمد، حتى خرج العواتق من البيوت. قال: وكان رسول الله ﷺ لا يضرب الناس بين يديه، فلما كثر عليه ركب، والمشى والسعي أفضل. هذا لفظ رواية مسلم. وفي أوله ذكر الرمل في طواف البيت.

وعند أبي داود أن قريشاً قالت زمن الحديبية: دعوا محمداً وأصحابه حتى يموتوا موت النعف^(٢)، فلما صالحوه على أن يجيئوا العام المقبل، فيقيموا ثلاثة أيام، فقدم ﷺ فقال لأصحابه: ارملوا بالبيت، وفيه: طاف ﷺ بين الصفا والمروة على بعير، لأن الناس كانوا لا يدفعون ولا يصرفون عنه، فطاف على بعير ليسمعوا كلامه، وليروا مكانه، ولا تناله أيديهم.

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٨.

(٢) دود يكون في أنوف الإبل والغنم.

وكان ﷺ إذا وصل إلى المروة رقى عليها، واستقبل البيت وكبر الله وحده، وفعل كما فعل على الصفا، حتى إذا كان آخر طوافه على المروة قال: لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدى وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل وليجعلها عمرة، فقام سراقه بن جعشم فقال: يا رسول الله، ألعامنا هذا، أم لأبد؟ فشبك ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى وقال: دخلت العمرة في الحج هكذا - مرتين -، لا بل لأبد أبداً.

وهذا معنى فسخ الحج إلى العمرة.

[هل يفسخ الحج إلى عمرة؟]

قال النووي: وقد اختلف في هذا الفسخ، هل هو خاص للصحابة تلك السنة خاصة، أم باق لهم ولغيرهم إلى يوم القيامة؟

فقال أحمد وطائفة من أهل الظاهر: ليس خاصاً، بل هو باق إلى يوم القيامة فيجوز لكل من أحرم بالحج وليس معه هدي أن يقلب إحرامه ويتحلل بأعمالها.

وقال مالك والشافعي وأبو حنيفة وجماهير العلماء من السلف والخلف: هو مختص بهم في تلك السنة، لا يجوز بعدها، وإنما أمروا به تلك السنة ليخالفوا ما كانت عليه الجاهلية من تحريم العمرة في أشهر الحج.

ومما يستدل به للجماهير، حديث أبي ذر في مسلم: كانت المتعة في الحج لأصحاب محمد ﷺ خاصة. يعني فسخ الحج إلى العمرة. وفي النسائي عن الحارث بن بلال عن أبيه قال: قلت يا رسول الله،

أرأيت فسخ الحج إلى العمرة لنا خاصة، أم للناس عامة؟ فقال رسول الله ﷺ: بل لنا خاصة^(١).

قال: وأما الذي في حديث سراقه: «ألعمنا هذا أم لأبد؟» فقال: لا، بل لأبد أبداً» فمعناه: جواز الاعتسار في أشهر الحج، والقران / كما سبق تفسيره.

فالحاصل من مجموع طرق الأحاديث: أن العمرة في أشهر الحج جائزة إلى يوم القيامة، وكذلك القران، وأن فسخ الحج إلى العمرة مختص بتلك السنة، والله أعلم، انتهى

وفي رواية للنسائي^(٢) أيضاً: لا تصلح المتعتان إلا لنا خاصة، يعني متعة النساء ومتعة الحج، يعني فسخ الحج إلى العمرة، ومتعة النساء: هي نكاح المرأة إلى أجل، كان ذلك مباحاً، ثم نسخ يوم خيبر، ثم أبيح يوم فتح مكة ثم نسخ في أيام الفتح، واستمر تحريمه إلى يوم القيامة. وقد كان فيه خلاف في العصر الأول، ثم ارتفع وأجمعوا على تحريمه.

[مكان نزوله ﷺ بمكة]

وكان ﷺ مدة مقامه بمنزله الذي نزل فيه بالمسلمين بظاهر مكة، يقصر الصلاة فيه، وكانت مدة إقامته بمكة قبل الخروج إلى منى أربعة أيام ملفقة، لأنه قدم في الرابع، وخرج في الثامن، فصلى بها إحدى وعشرين صلاة، من أول ظهر الرابع إلى آخر ظهر الثامن، ومن يوم

(١) قال أحمد: حديث لا يثبت.

(٢) وكذا رواه مسلم.

دخوله ﷺ مكة وخروجه يوم النفر الثاني من منى إلى الأبطح عشرة أيام سواء.

[قدوم علي من اليمن]

وقدم علي من اليمن على رسول الله ﷺ فقال له: بما أهلت؟ فقال: بما أهل به رسول الله ﷺ، فقال: لولا أن معي الهدي لأحللت. رواه الشيخان من حديث أنس.

وفي حديث البراء عند الترمذي والنسائي: دخل علي على فاطمة رضي الله عنهما فوجدها قد نضحت البيت بنضوح^(١) فغضب. فقالت: مالك؟ فإن رسول الله ﷺ قد أمر أصحابه فأحلوا، قال: قلت لها إني أهلت بإهلال رسول الله ﷺ قال: فأتيته فقال لي رسول الله ﷺ: كيف صنعت؟ قال: وقال لي: انحر من البُذْن سبعا وستين، أو ستاً وستين، وأمسك لنفسك ثلاثاً وثلاثين أو أربعاً وثلاثين، وأمسك من كل بدنة منها قطعة.

وفي رواية جابر عند مسلم: فوجد فاطمة ممن حل، ولبست ثوباً صبيغاً واكتحلت، فانكر ذلك عليها، فقالت: أبي أمرني بهذا، فقال: صدقت صدقت، ما قلت حين فرضت الحج؟ قال: قلت اللهم إني أهل بما أهل به رسولك، قال: فإن معي الهدي فلا تحل. قال: فكان جماعة^(٢) الهدي الذي قدم به علي من اليمن والذي أتى به النبي ﷺ مائة. قال: فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي.

(١) نوع من الطيب.

(٢) أي جملة الهدي.

[يوم التروية]

فلما كان يوم التروية، وكان يوم الخميس ضحى، ركب ﷺ وتوجه بالمسلمين إلى منى، وقد أحرم بالحج من كان أحل منهم، وصلى ﷺ بمنى: الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة من شعر فضربت له بنمرة، فسار على طريق ضب، ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، وكانت «الحمس» وهم قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ويقولون نحن قطين الله، أي جيران بيته فلا نخرج من حرمة، وكان الناس كلهم يبلغون عرفات، وذلك قوله تعالى: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾^(١).

وعن جبير بن مطعم قال: أضللت حمراً لي في الجاهلية، فوجدته بعرفة، فرأيت رسول الله ﷺ واقفاً بعرفات مع الناس، فلما أسلمت عرفت أن الله وفقه لذلك^(٢).

وفي رواية^(٣): كان رسول الله ﷺ في الجاهلية يقف مع الناس بعرفة على جمل له، ثم يصبح مع قومه بالمزدلفة فيقف معهم ويدفع إذا دفعوا، الحديث.

[الوقوف بعرفة]

ولما بلغ ﷺ عرفة وجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بـ «القصواء»^(٤) فرحلت له، فركب فأق بطن

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٩.

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده.

(٣) من رواية لجبير عند ابن راهويه وابن خزيمة.

(٤) ناقته صلى الله عليه وسلم.

الوادي فخطب الناس وقال: (إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت / قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع وأول رباً أضع ربانا، ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما إن لا تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت.

فقال بأصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس ويقول: اللهم اشهد، ثلاث مرات^(١).

ثم أذن بلال، ثم أقام^(٢) فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئاً.

وهذا الجمع مختص بالمسافرين عند الجمهور، وعن مالك والأوزاعي، وهو وجه للشافعية: أن الجمع بعرفة وجمع^(٣) للنسك، فيجوز لكل أحد. قال الأسنوي: فلا يجوز إلا للمسافر بلا خلاف^(٤).

(١) رواه مسلم.

(٢) في المخطوطات: قام.

(٣) أي مزدلفة.

(٤) أي أما للنسك ففيه خلاف.

قال الشافعي والأصحاب: إذا خرج الحاج يوم التروية، ونووا الذهاب، إلى أوطانهم عند فراغ مناسكهم كان لهم القصر من حين خروجهم.

ولما فرع ﷺ من صلاته ركب حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حبل^(١) المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، وكان أكثر دعائه ﷺ يوم عرفة في الموقف: «اللهم لك الحمد كالذي نقول وخيراً مما نقول، اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي، وإليك مآبي، ولك رب تراثي، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ووسوسة الصدر، وشتات الأمر، [اللهم إني أسألك من خير ما تجيء به الرياح]^(٢) وأعوذ بك من شر ما تجيء به الريح» رواه الترمذي^(٣) من حديث علي.

وفي رواية ذكرها رزين: كان أكثر دعائه ﷺ يوم عرفة بعد قوله؛ لا إله إلا الله وحده لا شريك له: اللهم لك الحمد كالذي نقول: اللهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي، وإليك مآبي، وعليك يا رب ثوابي، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن وسوسة الصدر، ومن شتات الأمر، ومن شر كل ذي شر.

وفي الترمذي: أفضل الدعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

وكان من دعائه في عرفة أيضاً - كما في الطبراني الصغير - من

(١) ما طال من الرمل، وقيل أراد طريقهم الذي يسلكونه في الرمل.

(٢) في (ط، ش).

(٣) قال الترمذي: ليس إسناده بقوي.

حديث ابن عباس^(١): اللهم إنك^(٢) تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، لا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق المقر المعترف بذنوبه، أسألك مسألة المسكين، وابتهل إليك ابتهاج المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبتك، وفاضت لك عبرته^(٣) وذل جسده، ورغم أنفه لك، اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقياً، وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين ويا خير المعطين.

وأناه ﷺ ناس من أهل نجد - وهو بعرفة - فسألوه كيف الحج؟ فأمر منادياً ينادي: الحج عرفة، من جاء ليلة جمع قبل طلوع الفجر فقد أدرك الحج، أيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه، رواه الترمذي.

وفي رواية جابر عند أبي داود^(٤) قال ﷺ بعرفة: وقفت ها هنا وعرفة كلها موقف.

وهناك أنزلت عليه^(٥) ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ الآية^(٦) كما في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وهناك سقط رجل من المسلمين عن راحلته - وهو محرم - فمات، فأمر رسول الله ﷺ أن يكفن في ثوبيه ولا يمس بطيب، وأن يغسل بماء

(١) قال الحافظ العراقي وغيره: إسناده ضعيف.

(٢) في المخطوطات: أنت.

(٣) في (أ، ب): عيناه.

(٤) رواه مسلم أيضاً.

(٥) في ش: وها هنا أنزل علي، وفي ط: وهناك أنزلت علي.

(٦) سورة المائدة، الآية ٣.

وسدر، ولا يغطي رأسه ولا وجهه، وأخبر أن الله يبعثه يوم القيامة يليه. رواه البخاري ومسلم. أي يبعث على هيئته التي مات عليها.

واستدل بذلك على بقاء إحرامه، خلافاً للمالكية والحنفية، قال النووي: يتأول هذا الحديث على أن النهي / عن تغطية وجهه ليس لكون المحرم لا يجوز له تغطية وجهه، بل هو صيانة للرأس، فإنهم لو غطوا وجهه لم يؤمن أن يغطوا رأسه. انتهى.

قال الحافظ ابن حجر: وكان وقوع المحرم المذكور عند الصخرات من عرفة، والله أعلم.

[الإفاضة من عرفات]

ولما غربت الشمس بحيث ذهبت الصفرة قليلاً، حين غاب القرص، أفاض ﷺ من عرفة وأردف أسامة خلفه، وقد شقق للقصواء الزمام، حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ويقول بيده: أيها الناس السكينة السكينة، وكلما أتى جبلاً من الجبال^(١) أرخى لها قليلاً حتى تصعد^(٢). وأفاض من طريق المأزمين.

وفي رواية ابن عباس^(٣) أنه ﷺ سمع وراءه زجراً شديداً، وضرباً للإبل [وراءه]^(٤) فأشار بسوطه وقال: أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالإيضاع، يعني بالإسراع.

وفي رواية أبي داود: أفاض من عرفة، وعليه السكينة، ورديفه

(١) جمع جبل: التل اللطيف من الرمل.

(٢) رواه مسلم من حديث جابر برقم ١٢١٨.

(٣) عند البخاري.

(٤) في المخطوطات.

أسامة، فقال: أيها الناس، عليكم بالسكينة فإن البر ليس بإيجاف الخيل والإبل، فما رأيها رافعة يديها عادية حتى أتى جمعاً.

وفي رواية أسامة بن زيد عند الشيخين: كان يسير العنق^(١)، فإذا وجد فجوة نص. قال هشام: والنص فوق العنق.

وأخرج الطبراني في المعجم عن سالم بن عبد الله عن أبيه: أن رسول الله ﷺ أفاض من عرفات وهو يقول:

إليك تعدو قلياً وحنينها مخالف دين النصرارى دينها

قال في النهاية: والحديث مشهور بابن عمر من قوله.

والقلق: الانزعاج.

والوضين: بالضاد المعجمة، حزام الرجل

ولما كان ﷺ في أثناء الطريق نزل فبال وتوضاً وضوءاً خفيفاً،

فقال له أسامة: الصلاة يا رسول الله؟ قال: الصلاة أمامك.

[المبيت بمزدلفة]

فركب حتى أتى مزدلفة، وهي المسماة بـ«جمع» بفتح الجيم وسكون الميم، وسميت [جمعاً]^(٢) لأن آدم اجتمع فيها مع حواء فازدلف إليها، أي دنى منها، وعن قتادة: إنما سميت جمعاً لأنه يجمع فيها بين صلاتين، وقيل: لأن الناس يجتمعون فيها ويزدلفون إلى الله تعالى، أي يتقربون إليه بالوقوف فيها. انتهى.

(١) سير بين الإسراع والإبطاء.

(٢) في (ط، ش).

فصلى رسول الله ﷺ بها المغرب والعشاء، كل واحدة منهما بإقامة، ولا صلى إثر كل واحدة منهما.

وفي رواية^(١): فأقام المغرب، ثم أناخ الناس في منازلهم ولم يجلوا حتى أقام العشاء الآخرة فصلى ثم حلوا^(٢).

وترك ﷺ قيام الليل تلك الليلة، ونام حتى أصبح، لما تقدم له من الأعمال بعرفة من الوقوف من الزوال إلى بعد الغروب، واجتهاده ﷺ في الدعاء، وسيره بعد الغروب إلى المزدلفة، واقتصر فيها على صلاة المغرب والعشاء قصراً، ورقد بقية ليلته مع كونه ﷺ كان يقوم الليل حتى تورمت قدماه، ولكنه أراح نفسه الشريفة لما تقدم في عرفة، ولما هو بصدده يوم النحر من كونه ينحر بيده المباركة ثلاثاً وستين بدنة، وذهب إلى مكة لطواف الإفاضة، ورجع إلى منى. كما نبه عليه في شرح تقريب الأسانيد.

[دعاء]

وعن عباس بن مرداس أن رسول الله ﷺ دعا لأُمَّته عشية عرفة بالمغفرة، فأجيب: إني قد غفرت لهم ما خلا الظالم، فإني آخذ للمظلوم منه، قال: أي رب إن شئت أعطيت المظلوم من الجنة وغفرت للظالم، فلم يجب عشيته، فلما أصبح بالمزدلفة أعاد الدعاء فأجيب إلى ما سأل، قال: فضحك ﷺ، أو قال: تبسم، فقال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما: بأبي أنت وأمي، إن هذه لساعة ما كنت تضحك فيها، فما الذي أضحكك، أضحك الله سنك، قال: إن عدو

(١) لمسلم.

(٢) أي حلوا رحالهم عن رواحلهم.

أ/٣٨٨
الله إبليس لما علم أن الله قد استجاب دعائي وغفر لأمتي أخذ التراب
فجعل يمشو على رأسه ويدعو بالويل والثبور فأضحكني ما رأيت / من
جزعه. رواه ابن ماجه. ورواه أبو داود من الوجه الذي رواه ابن
ماجه ولم يضعفه^(١).

وقد جاء في بعض الروايات عن غير العباس ما يبين أن المراد
من « الأمة » من وقف بعرفة.

وقال القرطبي: إنه محمول بالنسبة إلى المظالم على من تاب وعجز
عن وفائها.

وقد رواه البيهقي بنحو رواية ابن ماجه ثم قال: وله شواهد
كثيرة، فإن صح بشواهد فيه الحجة، وإن لم يصح فقد قال الله
تعالى: ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾^(٢) وظلم بعضهم بعضاً دون
الشرك. انتهى

[رجع كيوم ولدته أمه]

وقال الترمذي في الحديث الصحيح: (من حج فلم يرفث ولم
يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)^(٣).

وهو مخصوص بالمعاصي المتعلقة بحقوق الله تعالى خاصة دون

(١) خلاصة رأي ابن حجر في هذا الحديث أنه ضعيف ويعتضد بكثرة طرقه.
وهو مخرج في مسند أحمد، وأخرج أبو داود طرفاً منه وسكت عليه. انظر
الشرح ١٨٦/٨.

(٢) سورة النساء. الآية ٤٨.

(٣) وهو في البخاري ومسلم بلفظ (من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق
رجع كما ولدته أمه).

العباد، ولا تسقط الحقوق أنفسها، فمن كان عليه صلاة أو كفارة ونحوها من حقوق الله تعالى لا تسقط عنه، لأنها حقوق لا ذنوب، وإنما الذنب تأخيرها، فنفس التأخير يسقط بالحج لا هي نفسها، فلو أخرها بعده تجدد إثم آخر، فالحج المبرور يسقط إثم المخالفة لا الحقوق.

وقال ابن تيمية: من اعتقد أن الحج يسقط ما وجب عليه من الحقوق كالصلاة يستتاب وإلا قتل، ولا يسقط حق الأدمي بالحج إجماعاً. انتهى والله أعلم.

[تقديم الضعفة]

واستأذنت سودة رسول الله ﷺ ليلة جمع، وكانت ثقيلة [ثبطة] (١) فأذن لها، فقالت عائشة: فليتني كنت استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنته سودة.

وفي رواية: فاستأذنته أن تدفع قبل حطمة الناس (٢)، وكانت امرأة بطيئة، فأذن لها أن تدفع قبل حطمة الناس، قالت عائشة: فلأن أكون استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنت سودة أحب إليّ من مفروح به (٣). رواه البخاري (٤).

وفي رواية أبي داود والنسائي: أرسل ﷺ بأم سلمة ليلة النحر فرمت الجمرة قبل الفجر، ثم مضت فأفاضت. فكان ذلك اليوم اليوم الذي يكون رسول الله ﷺ، تعني عندها.

(١) في (ط، ش). ومعناها: بطيئة الحركة.

(٢) أي زحمتهم.

(٣) أي ما يفرح به من كل شيء.

(٤) وكذا رواه مسلم وغيره.

وعند مسلم: بعث أم حبيبة من جمع بليل.

وفي رواية البخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس قال: أرسلني ﷺ مع ضعفة أهله فصلينا الصبح بمى ورمينا الجمرة. وفي الموطأ والصحيحين والنسائي عن أسماء أنها نزلت ليلة جمع عند المزدلفة، فقامت تصلي ساعة ثم قالت: يا بني هل غاب القمر؟ قلت: لا، ثم صلت ساعة ثم قالت: هل غاب القمر؟ فقلت: نعم، قالت: فارتحلوا، إن رسول الله ﷺ قد أذن للظعن - بالضم -: النساء في الهودج.

[حكم المبيت بالمزدلفة]

وقد اختلف السلف في ترك المبيت بالمزدلفة؛ فقال علقمة والنخعي والشعبي: من تركه فاته الحج، وقال عطاء والزهري وقتادة والشافعي والكوفيون وإسحاق: عليه دم، ومن بات بها لم يجز له الدفع قبل النصف.

وقال مالك: إن مر بها فلم ينزل فعليه دم، وإن نزل فلا دم عليه متى دفع. انتهى.

[التقاط الجمرات]

ولما طلع الفجر صلى النبي ﷺ الفجر حين تبين الصبح بأذان وإقامة.

وفي سنن البيهقي والنسائي بإسناد صحيح على شرط مسلم أنه ﷺ قال للفضل بن العباس غداة يوم النحر: التقط لي حصي، فالتقط

له حصيات مثل حصى الخذف^(١). - وهو بالمعجمتين - ولم يكسرهما^(٢) كما يفعل من لا علم عنده.

وفي رواية للنسائي قال ﷺ لابن عباس، غداة النحر، وهو ﷺ على راحلته: هات القط لي، فلقط حصيات مثل حصى الخذف، فلما وضعهن في يده قال: بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من [كان]^(٣) قبلكم بالغلو في الدين.

قال العلماء: في هذا الحديث دليل على استحباب أخذ الحصيات بالنهار، وهو رأي البغوي؛ قال: ويكون ذلك بعد صلاة الصبح، نص عليه الشافعي في «الأم» و«الإملاء» لكن الجمهور كما قال الرافعي: على استحباب الأخذ بالليل لفراغهم فيه، وهل يستحب / ٣٨٨ ب أن يلتقط جميع ما يرمى به في الحج، وبه جزم في «التنبيه» وأقره عليه النووي في تصحيحه. لكن الأكثرون كما قال الرافعي، على استحباب الأخذ ليوم النحر خاصة، ونص عليه الشافعي أيضاً في شرح «المهذب». والاحتياط أن يزيد فرجاً سقط منها شيء. انتهى.

[سؤال في النيابة في الحج]

ثم ركب النبي ﷺ القصواء، حتى أتى المشعر الحرام، فرقى عليه فاستقبل القبلة، فحمد الله وكبره وهله ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس.

وفي رواية غير جابر: وكان المشركون لا ينفرون حتى تطلع الشمس، وإن رسول الله ﷺ كره ذلك، فنفر قبل طلوع الشمس.

(١) وهي بالخاء المعجمة، وروي بحاء مهملة.

(٢) أي يكسرهما من الجبل.

(٣) في (ط، ش).

وفي حديث علي عند الطبري^(١): لما أصبح ﷺ بالمزدلفة غدا فوقف على قزح^(٢) وأردف الفضل ثم قال: هذا الموقف وكل المزدلفة موقف، حتى إذا أسفر دفع.

وفي رواية جابر: وأردف ﷺ الفضل بن العباس، قال: وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً، فلما دفع ﷺ مرت ظعن يجريين، فطفق الفضل ينظر إليهن، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر، فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل، فصرف^(٣) وجهه من الشق الآخر ينظر^(٤).

وفي رواية: كان الفضل رديف رسول الله ﷺ فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر، قالت: يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً، لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: نعم. وذلك في حجة الوداع، رواه الشيخان وغيرهما.

وقد روي أيضاً^(٥) من حديث عبد الله بن عباس، لكن رجح البخاري رواية الفضل لأنه كان رديف النبي ﷺ حينئذ، وكان عبد الله بن عباس تقدم إلى منى مع الضعفة، فكان الفضل حدث أخاه بما

(١) في ب: الطبراني.

(٢) جبل صغير بالمزدلفة.

(٣) في مسلم: يصرف.

(٤) رواه مسلم برقم ١٢١٨.

(٥) في الصحيحين.

شاهد في تلك الحالة، ويحتمل أن يكون سؤال الخثعمية وقع بعد رمي جرة العقبة، فحضره عبد الله بن عباس، فنقله تارة عن أخيه لكونه صاحب القصة، وتارة عما شاهده، ويؤيده ما في الترمذي: أن السؤال المذكور وقع عند المنحر، بعد الفراغ من الرمي، وأن العباس كان شاهداً.

وفيه: أنه ﷺ لوى عنق الفضل، فقال العباس: يا رسول الله، لويت عنق ابن عمك، قال: رأيت شاباً وشابة فلم آمن عليهما من الشيطان.

وظاهر هذا أن العباس كان حاضراً لذلك، فلا مانع أن يكون ابنه عبد الله أيضاً كان معه.

وفي هذا الحديث دلالة على جواز النيابة في الحج عن من لا يستطيع من الأحياء، خلافاً لما لك في ذلك، ولمن قال: لا يحج عن أحد مطلقاً كابن عمر، ونقل ابن المنذر وغيره الإجماع على أنه لا يجوز أن يستنيب من يقدر على الحج بنفسه في الحج الواجب، وأما النفل فيجوز عند أبي حنيفة خلافاً للشافعي. وعن أحمد روايتان. انتهى

[رمي الجمار]

وفي رواية ابن عباس: أن أسامة قال: كنت ردف النبي ﷺ من عرفة إلى المزدلفة، ثم أردف الفضل من المزدلفة إلى منى، فكلاهما قال: لم يزل النبي ﷺ يلبي حتى رمى جرة العقبة. رواه الشيخان وغيرهما.

وفي رواية جابر^(١): فلما أتى ﷺ بطن محسر حرك ناقته وأسرع السير قليلاً.

(١) عند مسلم.

قال الأسنوي: سببه أن النصارى كانت تقف فيه، كما قاله الرافعي، أو العرب، كما قاله في الوسيط، فأمر بمخالفتهم. قال: وظهر لي فيه معنى آخر، وهو أنه مكان نزل فيه العذاب على أصحاب الفيل القاصدين هدم البيت، فاستحب فيه الإسراع لما / ثبت في الصحيح: أمره المار على ديار ثمود ونحوهم بذلك. وقال غيره: وهذه كانت عادته ﷺ في المواضع التي نزل فيها بأس الله بأعدائه، وسمي وادي محسر لأن الفيل حسر فيه، أي أعى وانقطع عن الذهاب. انتهى

ثم سلك ﷺ الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة. رمى من بطن الوادي، وجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه، واستقبل الجمرة، وكان رميه ﷺ يوم النحر ضحى، كما قاله جابر في رواية مسلم والترمذي وأبي داود والنسائي.

وفي رواية أم الحصين، عند أبي داود: رأيت أسامة وبلاًلاً أحدهما أخذ بخطام ناقة رسول الله ﷺ والآخر رافع ثوبه يستره من الحر حتى رمى جمرة العقبة.

وفي رواية النسائي: ثم خطب فحمد الله وأثنى عليه، وذكر قولاً كثيراً.

وعن أم جندب^(١): رأيت ﷺ يرمي الجمرة من بطن الوادي، وهو راكب، يكبر مع كل حصاة، ورجل من خلفه يستره، فسألت عن الرجل فقالوا: الفضل بن العباس. وازدحم الناس فقال النبي ﷺ يا

(١) رواه أحمد وأبو داود وغيرهم.

أيها الناس، لا يقتل بعضكم بعضاً، وإذا رميتم الجمرة فارموا بمثل
حصي الخذف.

وفي هذا دليل على جواز استغلال المحرم بالمحمل ونحوه، وقد
مر أنه ﷺ ضربت له قبة من شعر بنمرة.

وفي رواية جابر عند مسلم وأبي داود قال: رأيتُه ﷺ يرمي على
راحلته يوم النحر، وهو يقول: (خذوا عني مناسككم لا أدري لعلي لا
أحج بعد حجتي هذه).

وفي رواية قدامة عند الترمذي رأيتُه يرمي الجمار على ناقة له
صهباء، ليس ضرب ولا طرد ولا إليك إليك^(١). انتهى.

[النحر والحلق]

ثم انصرف ﷺ إلى المنحر، فنحر ثلاثاً وستين بدنة، ثم أعطى
علياً فنحر ما غَبَرَ^(٢)، وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة
فجعلت في قدر فطبخت، فأكلا من لحمها، وشربا من مرقها^(٣).

وفي رواية جابر عند مسلم: نحر ﷺ عن نسائه بقرة.

وقالت عائشة: نحر ﷺ عن آل محمد في حجة الوداع بقرة
واحدة. رواه أبو داود.

ثم أتى رسول الله ﷺ منزله بمنى، ثم قال للحلاق: خذ، وأشار
بيده إلى جانبه الأيمن ثم الأيسر، ثم جعل يعطيه الناس. وفي رواية:

(١) أي: ما كان الناس يضربون أو يطردون ولا يقال لهم إليك إليك.

(٢) أي ما بقي.

(٣) من حديث جابر عند مسلم برقم ١٢١٨.

أنه قال للحلاق: ها، وأشار بيده إلى الجانب الأيمن، فقسم شعره بين من يليه، ثم أشار إلى الحلاق إلى الجانب الأيسر فحلقه وأعطاه أم سليم. وفي أخرى: فبدأ بالشق الأيمن فوزعه الشعرة والشعرتين بين الناس، ثم قال بالأيسر، فصنع مثل ذلك، ثم قال: ها هنا أبو طلحة؟ فدفعه إليه. وفي أخرى: رمى جمرة العقبة ثم انصرف إلى البدن فنحرها والحجام جالس، وقال بيده على رأسه، فحلق الشق الأيمن فقسمه بين من يليه، ثم قال: احلق الشق الآخر، فقال: أين أبو طلحة؟ فأعطاه إياه. رواه الشيخان^(١).

وعند الإمام أحمد: أنه استدعى الحلاق فقال له وهو قائم على رأسه بالموسى، ونظر في وجهه، وقال: يا معمر، أمكنك رسول الله ﷺ من شحمة أذنه وفي يدك الموسى، قال: فقلت له: أما والله يا رسول الله، إن ذلك لمن نعم الله عليّ ومثّه، قال: أجل^(٢).

وقال البخاري: وزعموا أن الذي حلق للنبي ﷺ معمر بن عبد الله بن نضلة بن عوف. انتهى. وهو عند ابن خزيمة في صحيحه.

وعند الإمام أحمد: وقلم ﷺ أظفاره وقسمها بين الناس.

وعنده أيضاً: من حديث محمد بن زياد، أن أباه حدثه، أنه ب/٣٨٩ شهد النبي ﷺ عند المنحر / ورجل من قريش وهو يقسم أصحابي، فلم يصبه شيء ولا صاحبه، فحلق رسول الله ﷺ رأسه في ثوبه فأعطاه شعره، فقسم منه على رجال وقلم أظفاره فأعطاه صاحبه، وكانت يخضب بالحناء والكتم^(٣).

(١) أي جميع الروايات السابقة.

(٢) المسند ٤٠٠/٦.

(٣) المسند ٤٢/٤ والجملة الأخيرة ليست من الحديث، وجاء مكانها في المسند:

قال فإنه لعندنا مخضوب بالحناء والكتم. يعني شعره. [م].

[«اللهم اغفر للمحلقين»]

وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: اللهم اغفر للمحلقين، قالوا: يا رسول الله، وللمقصرين، قال: اللهم اغفر للمحلقين، قالوا: يا رسول الله، وللمقصرين، قال: اللهم اغفر للمحلقين، قالوا: يا رسول الله، وللمقصرين، قال: وللمقصرين. رواه الشيخان.

وليس فيه تعيين: هل قاله ﷺ في الحديدية أو في حجة الوداع؟

قالوا: ولم يقع في شيء من طرقه التصريح بسماعه لذلك من النبي ﷺ، ولو وقع لقطعنا بأنه كان في حجة الوداع لأنه شهدها ولم يشهد الحديدية.

وقد وقع تعيين الحديدية من حديث جابر عند أبي قرّة في «السنن» ومن طريقه^(١) الطبراني في الأوسط، ومن حديث المسور بن مخرمة عند ابن إسحاق في المغازي.

وورد تعيين حجة الوداع من حديث أبي مريم السلولي عند أحمد وابن أبي شيبة، ومن حديث أم الحصين عند مسلم، ومن حديث قارب بن الأسود الثقفي عند أحمد وابن أبي شيبة، ومن حديث أم عمارة عند الحارث.

والأحاديث التي فيها تعيين حجة الوداع أكثر عدداً، وأصح إسناداً، ولهذا قال النووي عقب أحاديث ابن عمر وأبي هريرة وأم الحصين: هذه أحاديث تدل على أن هذه الواقعة كانت في حجة الوداع. قال: وهو الصحيح المشهور، وقيل: كانت في الحديدية،

(١) في ط: طريق.

وجزم إمام الحرمين في النهاية أن ذلك كان في الحديبية، ثم قال النووي: ولا يبعد أن يكون وقع ذلك في الموضعين. انتهى.
وكذا قال ابن دقيق العيد: إنه الأقرب.

قال في فتح الباري: بل هو المتعين لتظاهر^(١) الروايات بذلك في الموضعين، إلا أن السبب في الموضعين مختلف، فالذي في الحديبية كان بسبب توقف من توقف من الصحابة عن الإحلال، لما دخل عليهم من الحزن، لكونهم منعوا من الوصول إلى البيت مع اقتدارهم في أنفسهم على ذلك، فخالفهم النبي ﷺ وصالح قريشاً على أن يرجع من العام المقبل، فلما أمرهم بالإحلال توقفوا، فأشارت أم سلمة أن يحل هو ﷺ قبلهم ففعل، فتبعوه فحلق بعضهم وقصر بعضهم، فكان من بادر إلى الحلق أسرع إلى امثال الأمر، ممن اقتصر على التقصير، وقد وقع التصريح بهذا السبب في حديث ابن عباس، فإن في آخره عند ابن ماجه وغيره أنهم قالوا: يا رسول الله، ما بال المحلقين ظهرت لهم بالترحم؟ قال: لأنهم لم يشكوا.

وأما السبب في تكرير الدعاء للمحلقين في حجة الوداع، فقال ابن الأثير في «النهاية»: كان أكثر من حج معه ﷺ لم يسق الهدي، فلما أمرهم أن يفسخوا الحج إلى العمرة ثم يتحللوا منها، ويحلقوا رؤوسهم، شق عليهم، ثم لما لم يكن لهم بد من الطاعة كان التقصير في أنفسهم أخف من الحلق، ففعله أكثرهم، فرجع ﷺ فعل من حلق لكونه أبين في امثال الأمر. انتهى.

قال الحافظ ابن حجر: وفيما قاله نظر، وإن تابعه عليه غير واحد، لأن المتمتع يستحب في حقه أن يقصر في العمرة ويحلق في

(١) كذا في فتح الباري، وفي النسخ: لتظافر.

الحج إذا كان ما بين النسكين متقارباً، وقد كان ذلك في حقهم كذلك، والأولى ما قاله الخطابي وغيره: إن عادة العرب أنها كانت تحب توفير الشعور والتزين بها، وكان الحلق فيهم قليلاً، وربما كانوا يرونه من الشهرة ومن فعل الأعاجم، فلذلك كرهوا الحلق واقتصروا على التقصير. انتهى^(١).

[اسئلة]

١/٣٩٠ وفي رواية عبد الله بن عمرو / بن العاصي: وقف رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه، فجاء رجل فقال: يا رسول الله، لم أشعر فحلقت قبل أن أنحر؟ فقال: اذبح ولا حرج، ثم جاء رجل آخر فقال: يا رسول الله لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي؟ فقال: ارم ولا حرج. قال: فما سئل عن شيء قدم أو أخر إلا قال: افعل ولا حرج. رواه مسلم^(٢).

وفي رواية: حلقت قبل أن أرمي، وفي رواية^(٣): وقف ﷺ على راحلته فطفق الناس يسألونه، فيقول القائل منهم: يا رسول الله إني لم أكن أشعر أن الرمي قبل النحر، فنحرت قبل أن أرمي، فقال ﷺ: فارم ولا حرج، قال: فما سمعته يسأل يومئذ عن أمر مما ينسى المرء أو يجهل من تقديم بعض الأمور قبل بعض وأشباهها إلا قال ﷺ: افعلوا ذلك ولا حرج.

وفي رواية^(٤): أنه ﷺ بينا هو قائم يخطب يوم النحر، فقام إليه

(١) هذا الموضوع بكامله من فتح الباري في شرح الحديث رقم ١٧٢٧.

(٢) وكذا رواه البخاري في كتابي العلم والحج.

(٣) الروايتان في مسلم.

(٤) من رواية الشيخين.

رجل فقال: ما كنت أحسب أن كذا وكذا، قبل كذا وكذا، وفي رواية: حلقت قبل أن أنحر، نحرت قبل أن أرمي وأشباه ذلك.

وفي رواية^(١): حلقت قبل أن أذبح، ذبحت قبل أن أرمي.

[ترتيب الأعمال يوم النحر]

ومن المعروف أن الترتيب أولى، وذلك أن وظائف يوم النحر بالاتفاق أربعة أشياء: رمي جمرة العقبة، ثم نحر الهدي أو ذبحه، ثم الحلق أو التقصير، ثم طواف الإفاضة مع السعي بعده.

وقد تقدم أنه ﷺ رمى جمرة العقبة ثم نحر ثم حلق.

وقد أجمع العلماء على مطلوية هذا الترتيب، وأجمعوا أيضاً على جواز تقديم بعضها على بعض، إلا أنهم اختلفوا في وجوب الدم في بعض المواضع.

ومذهب الشافعي وجمهور السلف والعلماء وفقهاء الحديث: الجواز وعدم وجوب الدم لقوله ﷺ للسائل: «لا حرج»، وهو ظاهر في رفع الإثم والفدية معاً، لأن اسم الضيق يشملهما.

وقال الطحاوي: ظاهر الحديث يدل على التوسعة في تقديم بعض هذه الأشياء على بعض، إلا أنه يحتمل أن يكون قوله «لا حرج» أي لا إثم في ذلك الفعل، وهو كذلك لمن كان ناسياً أو جاهلاً، وأما من تعمد المخالفة فتجب عليه الفدية.

وتعقب: بأن وجوب الفدية يحتاج إلى دليل، ولو كان واجباً لبينه ﷺ حينئذ لأنه وقت الحاجة فلا يجوز تأخيره عنه.

(١) من رواية مسلم.

وتمسك الإمام أحمد بقوله في الحديث «لم أشعر» وبما في رواية يونس عند مسلم، وصالح عند أحمد «فما سمعته يومئذ يسأل عن أمر مما ينسى المرء أو يجهل من تقديم بعض الأمور قبل بعضها إلا قال: افعل ولا حرج» بأنه إن كان ناسياً أو جاهلاً فلا شيء عليه وإن كان عالماً فلا.

قال ابن دقيق العيد: ما قاله أحمد قوي من جهة أن الدليل دل على وجوب اتباع الرسول في الحج لقوله «خذوا عني مناسككم» وهذه الأحاديث المرخصة في تقديم ما وقع عنه تأخيره قد قرنت بقول السائل «لم أشعر» فيختص الحكم بهذه الحالة، وتبقى حالة العمد على أصل وجوب الاتباع في الحج. انتهى

[خطبة يوم النحر]

وعن أبي بكره قال: خطبنا رسول الله ﷺ يوم النحر قال:

«إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». وقال «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله الله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى، قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس البلد الحرام؟» قلنا: بلى، قال: «فأي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم / النحر؟» قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا

ترجعن بعدي كفاراً ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع». رواه الشيخان^(١).

وفي رواية للبخاري: «فودع الناس».

ووقع في طريق ضعيفة عند البيهقي من حديث ابن عمر سبب ذلك، ولفظه: أنزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرَ اللَّهِ وَالْفَتْحَ﴾ على رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق^(٢)، وعرف أنه الوداع، فأمر بإحلاله القصواء فرحلت له فركب ووقف بالعقبة واجتمع إليه الناس فقال: يا أيها الناس فذكر الحديث.

وفيه دلالة على مشروعية الخطبة يوم النحر بمضى، وبه أخذ الشافعي ومن تبعه.

وخالف في ذلك المالكية والحنفية، فقالوا: خطب الحج ثلاثة: سابع ذي الحجة، ويوم عرفة، وثاني يوم النحر بمضى.

ووافقهم الشافعي إلا أنه قال: بدل ثاني النحر ثالثه، لأنه أول النفر، وزاد خطبة رابعة وهي يوم النحر، قال: وبالناس حاجة إليها ليعلموا أعمال ذلك اليوم من الرمي والذبح والحلق والطواف.

وتعقبه الطحاوي: بأن الخطبة المذكورة ليست من متعلقات الحج، لأنه لم يذكر فيها شيئاً من أمور الحج، وإنما ذكر فيها وصايا عامة، ولم ينقل أحد أنه علمهم فيها شيئاً من الذي يتعلق بيوم النحر، فعلمنا أنها لم تقصد لأجل الحج.

(١) هو عند مسلم برقم ١٦٧٩ وعند البخاري في مواضع.
(٢) وهذا مما يؤكد ضعف الحديث فالخطبة يوم النحر، فكيف يكون السبب حدث بعدها في أوسط أيام التشريق؟

وقال ابن بطال: إنما فعل ذلك من أجل تبليغ ما ذكره لكثرة الجمع الذي اجتمع من أقاصي الدنيا، فظن الذي رآه أنه خطب. قال: وأما ما ذكره الشافعي: أن بالناس حاجة إلى تعليمهم أسباب التحلل المذكورة فليس بمتعين، لأن الإمام يمكنه أن يعلمهم إياها يوم عرفه: انتهى.

وأجيب: بأنه ﷺ به في الخطبة المذكورة على تعظيم يوم النحر، وعلى تعظيم ذي الحجة، وعلى تعظيم البلد الحرام، وقد جزم الصحابة المذكورون بتسميتها خطبة، فلا يلتفت لتأويل غيرهم، وما ذكره من إمكان تعليم ما ذكر يوم عرفة، يعكس عليه في كونه يرى مشروعية الخطبة ثاني يوم النحر، وكان يمكن أن يعلموا ذلك يوم عرفة، بل يمكن أن يعلموا يوم التروية جميع ما يؤتى به من أعمال الحج، لكن لما كان في كل يوم أعمال ليست في غيره شرع تجديد التعليم بحسب تجديد الأسباب. وأما قول الطحاوي: «إنه لم ينقل أنه علمهم شيئاً من أسباب التحلل» فلا ينفي وقوع ذلك أو شيء منه في نفس الأمر، بل قد ثبت من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصي أنه شهد النبي ﷺ يخطب يوم النحر، وذكر فيه السؤال عن تقدم بعض المناسك على بعض، فكيف ساغ للطحاوي هذا النفي المطلق. انتهى.

وقد روى أبو داود والنسائي عن عبد الرحمن بن معاذ التيمي قال: خطبنا رسول الله ﷺ ونحن بمبني، ففتحت أسماعنا حتى كنا نسمع ما يقول ونحن في منازلنا، فطفق يعلمهم مناسكهم حتى بلغ الجمار، فوضع أصبعيه السبابتين^(١) ثم قال: بحصى الخذف^(٢)، ثم أمر المهاجرين فنزلوا في مقدم المسجد وأمر الأنصار أن ينزلوا من وراء المسجد، قال: ثم نزل الناس بعد ذلك.

(١) أي أن تؤخذ الحصى بين الإبهام والسبابة [م].

(٢) أي: أمرهم أن يرموا بالحصى الصغار.

وفي رواية عن عبد الرحمن بن معاذ عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال: خطب النبي ﷺ الناس بمبى ونزلهم منازلهم فقال: لينزل المهاجرون هاهنا، وأشار إلى ميمنة القبلة، والأنصار هاهنا، وأشار إلى مسرة القبلة، ثم قال: لينزل الناس حولهم^(١).

وعن ابن أبي نجيح عن أبيه عن رجلين من بني بكر قالوا: رأينا رسول الله ﷺ يخطب بين^(٢) أوسط أيام التشريق، ونحن عند راحلته، وهي خطبة رسول الله ﷺ التي خطب بمبى. رواه أبو داود.

وعن رافع بن عمرو المزني قال: رأيت رسول الله ﷺ يخطب الناس بمبى، حين ارتفع الضحاء/ على بغلة شهباء، وعلي يعبر^(٣) عنه، والناس بين قائم وقاعد. رواه أبو داود أيضاً.

وعن ربيعة بن عبد الرحمن بن حصن قال: حدثني جدي سراء بنت نبهان، وكانت ربة بيت في الجاهلية^(٤)، قالت خطبنا النبي ﷺ يوم الرؤوس^(٥) فقال: أي يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: أليس أوسط أيام التشريق؟ وفي رواية: أنه خطب أوسط أيام التشريق. رواه أبو داود أيضاً.

[طواف الإفاضة]

ثم ركب ﷺ قبل الظهر فأفاض إلى البيت فطاف طواف

(١) رواه أبو داود.

(٢) لم يتفق على معنى (بين) هنا، وأقرب الأقوال أنها بمعنى: وسط. أي وسط أوسط أيام التشريق [م].

(٣) يبلغ.

(٤) أي أدركت الجاهلية كبيرة السن.

(٥) حادي عشر ذي الحجة، لأنهم يذبحون يوم النحر، ثم يطبخون الرؤوس تلك الليلة فيكفرون على أكلها.

الإفاضة، وهو طواف الزيارة والركن والصدر.

وفي البخاري: ويُذكَر عن أبي حسان عن ابن عباس، أن النبي ﷺ كان يزور البيت أيام منى.

[وقد وصله الطبراني من طريق قتادة عنه. وقال ابن المديني في «العلل»: روى قتادة حديثاً غريباً لا نحفظه عن أحد من أصحاب قتادة إلا من حديث هشام. فنسخته من كتاب ابنه معاذ بن هشام، ولم أسمع منه، عن أبيه عن قتادة [حدثني جدي] (١) حدثني أبو حسان عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يزور البيت كل ليلة ما أقام بمنى الحديث] (٢).

وأقى ﷺ زمزم، وبنو عبد المطلب يسقون عليها، فقال: انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقائتكم لنزعت معكم، فنأولوه دلوأ فشرب منه.

وفي رواية ابن عباس (٣): فشرب وهو قائم، وفي رواية: (٤) فحلف عكرمة: ما كان يومئذٍ إلا على بعير، لكن لم يعين فيها حجة الوداع ولا غيرها، إنما التعيين في رواية جابر عند مسلم.

[مكان صلاة الظهر يوم النحر]

واختلف أين صلى ﷺ الظهر يومئذٍ، ففي رواية جابر عند مسلم: أنه صلى بمكة، وكذلك قالت عائشة.

(١) في هامش الأصل.

(٢) هذه الفقرة في (ط، د) وجاءت على هامش الأصل وضمن شرح الزرقاني.

ولم ترد في ب.

(٣) عند البخاري.

(٤) هي التي قبلها وهي عند البخاري.

وفي حديث ابن عمر - في الصحيحين - أنه ﷺ أفاض يوم النحر ثم رجع فصلى الظهر بمنى .

فرجع ابن حزم في كتاب حجة الوداع له قول عائشة وجابر، وتبعه على ذلك جماعة، لأنها اثنان، وهما أولى من الواحد، ولأن عائشة أخص الناس به، ولها من القرب والاختصاص ما ليس لغيرها، ولأن سياق جابر لحجته ﷺ من أولها إلى آخرها أتم سياق، وأحفظ للقصة وضبطها، حتى ضبط جزئياتها، حتى أقرَّ منها ما لا يتعلق بالمناسك، وهو نزوله ﷺ في الطريق فبال عند الشعب وتوضأ وضوءاً خفيفاً، فمن ضبط هذا القدر فهو لضبط مكان صلاته الظهر يوم النحر أولى، وأيضاً: فإن حجة الوداع كانت في «آذار» وهو تساوي الليل والنهار، وقد دفع من مزدلفة قبل طلوع الشمس إلى منى، وخطب بها الناس، ونحر بدنه وقسمها، وطبخ له من لحمها وأكل منه، ورمى الجمرة، وحلق رأسه وتطيب ثم أفاض، وطاف وشرب من ماء زمزم، ووقف عليهم وهم يسقون، وهذه أعمال يظهر منها أنها لا تنقضي في مقدار يمكن معه الرجوع إلى منى بحيث يدرك الظهر في فصل آذار.

ورجحت طائفة أخرى قول ابن عمر: بأنه لا يحفظ عنه في حجته ﷺ أنه صلى الفرض بجوف مكة، بل إنما كان يصلي بمنزله بالمسلمين مدة مقامه، وبأن حديث ابن عمر متفق عليه، وحديث جابر من أفراد مسلم، فحديث ابن عمر أصح منه، فإن رواه أحفظ وأشهر، وبأن حديث عائشة قد اضطرب في وقت طوافه، فروي عنها أنه طاف نهاراً، وفي رواية عنها: أن أحر الطواف إلى الليل، وفي رواية عنها: أنه أفاض من آخر يومه، فلم تضبط فيه وقت الإفاضة، ولا مكان الصلاة. وأيضاً: فإن حديث ابن عمر أصح منه بلا نزاع،

لأن حديث عائشة من رواية محمد بن إسحاق، عن عبد الرحمن بن القاسم، وابن إسحاق مختلف في الاحتجاج به، ولم يصرح بالسماع، بل عنعنه، فلا يقدم على حديث عبدالله بن عمر، انتهى.

[رمي الجمرات]

ثم رجع ﷺ إلى منى، فمكث بها ليالي أيام التشريق، يرمي الجمرة إذا زالت الشمس، كل جمرة بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة، ويقف عند الأولى والثانية، فيطيل القيام ويتضرع، ويرمي الثالثة فلا يقف عندها. رواه أبو داود من حديث عائشة.

وعن ابن عمر - عند الترمذي -: كان ﷺ إذا رمى الجمار مشى إليها ذاهباً وراجعاً.

وفي رواية أبي داود: وكان يستقبل القبلة في الجمرتين الدنيا والوسطى، ويرمي جمرة العقبة من بطن الوادي / الحديث^(١).

ب/٣٩١

[المبيت بمنى والنفرة منها]

واستأذنه ﷺ العباس بن عبد المطلب أن يبيت بمكة ليالي منى، من أجل السقاية فأذن له، رواه البخاري ومسلم من رواية ابن عمر، وفي رواية الإسماعيلي: رخص للعباس أن يبيت بمكة ليالي منى من أجل سقايته.

وفيه دليل على وجوب المبيت بمنى، وأنه من مناسك الحج، لأن

(١) وهو في الصحيحين من حديث ابن مسعود

التعبير بـ«الرخصة» يقتضي أن يقابلها: العزيمة، وأن الإذن وقع للعلة المذكورة، وإذا لم توجد أو ما في معناها لم يحصل الإذن.

وبالوجوب قال الجمهور.

وفي قول للشافعي، وهو رواية عن أحمد، وهو مذهب الحنفية: أنه سنة.

ووجوب الدم بتركه مبني على هذا الخلاف.

ولا يحصل المبيت إلا بمعظم الليل، وهل يختص الإذن بالسقاية، وبالعباس؟ الصحيح العموم، والعلة في ذلك إعداد الماء للشاربين.

وجزم الشافعي، بإلحاق من له مال يخاف ضياعه، أو أمر يخاف فوته، أو مريض يتعهده، بأهل السقاية، كما جزم الجمهور: بإلحاق الرعاء خاصة، وهو قول أحمد.

قالوا^(١): ومن ترك المبيت لغير عذر وجب عليه دم عن كل ليلة.

ثم أفاض ﷺ بعد الظهر يوم الثلاثاء - بعد أن أكمل رمي أيام التشريق، ولم يتعجل في يومين - إلى المحصب، وهو الأبطح، وحده: ما بين الجبلين إلى المقبرة، وهو خيف بني كنانة، فوجد أبا رافع قد ضرب قبته هناك، وكان على ثقله^(٢)، قال أبو رافع: لم يأمرني ﷺ أن أنزل الأبطح حين خرج من منى، ولكني جئت فضربت فيه قبته فجاء فنزل: رواه مسلم^(٣).

(١) الضمير يعود على المالكية، كما هو أصل العبارة في فتح الباري.

(٢) أي: متاعه.

(٣) رواه مسلم برقم ١٣١٣.

وفيه وفي البخاري، عن أنس أنه ﷺ صلى الظهر والعصر يوم
النفر بالأبطح.

وفيهما من حديث أبي هريرة: أنه ﷺ قال - من الغد يوم النحر،
وهو بمنى -: نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على
الكفر، يعني بذلك المحصب. وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بني
هاشم وبني المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم
النبي ﷺ.

وعن ابن عباس، ليس التحصيب بشيء، إنما هو منزل نزله
رسول الله ﷺ، أي: ليس التحصيب من أمر المناسك الذي يلزم
فعله، لكن لما نزل به ﷺ كان النزول به مستحجاً اتباعاً له، لتقريره
على ذلك. وقد فعله الخلفاء بعده، كما في مسلم.

[طواف الوداع]

وعن أنس أن النبي ﷺ صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء،
ثم رقد رقدة بالمحصب، ثم ركب إلى البيت فطاف به، رواه
البخاري.

وهذا هو طواف الوداع، ومذهب الشافعي أنه واجب يلزم بتركه
دم على الصحيح: وهو قول أكثر العلماء.

وقال مالك وداود: هو سنة لا شيء بتركه.

واختلف في المرأة إذا حاضت بعدما طافت طواف الإفاضة، هل
عليها طواف الوداع أم لا؟ وكان ابن عباس يرخص لها أن تنفر إذا

أفاضت^(١) وكان ابن عمر يقول في أول أمره: إنها لا تنفر، ثم قال في آخر أمره: إن رسول الله ﷺ رخص لهن. رواه الشيخان.

وعن عائشة: أن صفية بنت حيي حاضت، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: أحابستنا هي؟ قالوا: إنها قد أفاضت، قال: فلا إذن.

ومعنى أحابستنا هي؟ أي أمانعتنا من التوجه من مكة في الوقت الذي أردنا التوجه فيه؟ ظناً منه ﷺ أنها ما طافت طواف الإفاضة، وإنما قال ذلك لأنه كان لا يتركها ويتوجه^(٢) ولا يأمرها بالتوجه معه وهي باقية على إحرامها، فيحتاج إلى أن يقيم حتى تطهر وتطوف وتحل الحل الثاني.

وفي رواية: فحاضت صفية، فأراد النبي ﷺ منها ما يريد الرجل من أهله، فقلت يا رسول الله إنها حائض. قال: أحابستنا هي؟ الحديث^(٣).

وهذا مشكل، لأنه ﷺ إن كان علم أنها طافت طواف الإفاضة فكيف يقول: أحابستنا هي؟ وإن كان ما علم، فكيف يريد وقاعها قبل التحلل الثاني؟

ويجاب/ عنه: بأنه ﷺ ما أراد ذلك منها إلا بعد أن استأذنه نساؤه في طواف الإفاضة فأذن لهن، فكان بانياً على أنها قد حلت، فلما قيل له إنها حائض جوز أن يكون وقع لها قبل ذلك حتى منعها من طواف الإفاضة، فاستفهم عن ذلك، فأعلمته عائشة أنها طافت معهن فزال عنه ما خشيه من ذلك. انتهى.

(١) كذا في (ط، ش) وفي البخاري برقم ١٧٦٠. وفي المخطوطات: حاضت.

(٢) أي إلى المدينة.

(٣) رواه البخاري.

[عمرة عائشة]

وقالت عائشة: يا رسول الله، ينطلقون بحج وعمرة وأنطلق بحج؟ فأمر عبد الرحمن بن أبي بكر أن يخرج معها إلى التنعيم، فاعتمرت بعد الحج. رواه الشيخان.

وفي رواية لمسلم أنها وقفت المواقف كلها، حتى إذا طهرت طافت بالكعبة والصفاء والمروة، ثم قال لها - يعني رسول الله ﷺ -: قد حللت من حجك وعمرتك جميعاً، فقالت: يا رسول الله، إني أجد في نفسي أني لم أطف بالبيت حين حججت، قال: فاذهب بها يا عبد الرحمن فأعمرها من التنعيم، وذلك ليلة الحصة^(١).

زاد في رواية^(٢): وكان ﷺ رجلاً سهلاً، إذا هويت شيئاً تابعها عليه.

وقد كانت عائشة قارئة، لأنها كانت قد أهلت بالعمرة، فحاضت فأمرها فأدخلت عليها الحج، وصارت قارئة، وأخبرها أن طوافها بالبيت وبين الصفا والمروة قد وقع عن حجها وعمرتها، فوجدت في نفسها أن يرجع صواحباتها بحج وعمرة مستقلتين، فإنهن كن متمتعات ولم يحضن ولم يَقْرَنَّ، وترجع هي بعمرة في ضمن حجتها، فأمر أخاها أن يعمرها من التنعيم تطيباً لقلبها.

[العودة إلى المدينة]

ثم ارتحل ﷺ راجعاً إلى المدينة، فخرج من كدى - بضم الكاف

(١) أي ليلة المبيت بالمحصب.

(٢) عند مسلم أيضاً.

مقصوراً - وهي عند باب شببكة، بقرب شعب الشاميين من ناحية قعيقعان.

واختلف في المعنى الذي لأجله خالف ﷺ بين طريقه، فقيل: ليتبرك به كل من في طريقه، وقيل: الحكمة في ذلك المناسبة لجهة العلو عند الدخول لما فيه من تعظيم المكان، وعكسه الإشارة إلى فراقه، وقيل: لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما دخل مكة دخل منها. وقيل غير ذلك.

وفي صحيح مسلم وغيره، من حديث ابن عباس: أنه ﷺ لقي ركباً بالروحاء، فقال: من القوم؟ فقالوا: المسلمون يا رسول الله، فرفعت امرأة صبيها لها في محفة فقالت: يا رسول الله، أهدا حج؟ قال: نعم ولك أجر.

ولما وصل ﷺ لذي الحليفة بات بها. قال بعضهم: إن نزوله لم يكن قصداً، وإنما كان اتفاقاً، حكاه القاضي إسماعيل في أحكامه عن محمد بن الحسن وتعقبه. والصحيح أنه كان قصداً لثلاثي المدينة ليلاً.

فلما رأى المدينة كبر ثلاثاً وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيئون تائبون عابدون ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ثم دخل المدينة نهراً من طريق المعرس - بفتح الراء المشددة وبالمهملتين - وهو مكان معروف، فكل من المعرس والشجرة التي بات بها ﷺ في ذهابه إلى مكة على ستة أميال من المدينة. انتهى ملخصاً من فتح الباري وغيره، والله أعلم.

[عُمْرُهُ ﷺ]

وأما عمره ﷺ ، فالعمرة في اللغة: الزيارة.

ومذهب الشافعي وأحمد وغيرهما: أنها واجبة كالحج، والمشهور عن المالكية أنها تطوع وهو قول الحنفية.

وقد اعتمر ﷺ أربع عمر، ففي الصحيحين وسنن الترمذي وأبي داود عن قتادة قال: سألت أنساً: كم حج رسول الله ﷺ قال: حج حجة واحدة، واعتمر أربع عمر، عمرة في ذي القعدة، وعمرة الحديبية، وعمرة مع حجته، وعمرة الجعرانة إذ قسم/ غنيمة حنين، هذا لفظ رواية الترمذي وقال: حسن صحيح.

وفي رواية الصحيحين: اعتمر أربع عمر، كلهن في ذي القعدة إلا التي مع حجته: عمرة الحديبية - أو زمن الحديبية - في ذي القعدة، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة، وعمرة من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين في ذي القعدة، وعمرة في حجته.

وعن محرش الكعبي: أنه ﷺ خرج من الجعرانة ليلاً معتمراً، فدخل مكة ليلاً، ففضى عمرته ثم خرج من ليلته فأصبح بالجعرانة كبائت، فلما زالت الشمس من الغد^(١)، خرج من بطن سرف، حتى جاء مع الطريق، طريق جمع بطن سرف، فمن أجل ذلك خفيت عمرته على الناس. رواه الترمذي وقال: حديث^(٢) غريب.

وعن ابن عمر قال: اعتمر النبي ﷺ قبل أن يحج، رواه أبو

داود.

(١) في الأصل: الغداة

(٢) في ط: حسن، قال الشارح: في الإصابة قال الترمذي: حسن غريب

وعن عروة بن الزبير قال: كنت أنا وابن عمر مستندين إلى حجرة عائشة، وأنا لنسمع صوتها بالسواك تستن، قال: فقلت يا أبا عبد الرحمن، اعتمر النبي ﷺ في رجب؟ قال: نعم، فقلت لعائشة: أي أمته، ألا تسمعين ما يقول أبو عبد الرحمن؟ قالت: وما يقول؟ قلت: يقول اعتمر النبي ﷺ في رجب، فقالت: يغفر الله لأبي عبد الرحمن، لعمرى ما اعتمر في رجب، وما اعتمر من عمرة إلا وأنا معه. قال عروة: وابن عمر يسمع، فما قال: لا ولا نعم، سكت^(١).

وفي رواية أبي داود عن عروة عن عائشة قالت: إن رسول الله ﷺ اعتمر عمرتين في ذي القعدة، وعمرة في شوال.

وفي رواية له عن مجاهد قال: سئل ابن عمر: كم اعتمر النبي ﷺ قال: عمرتين، فبلغ عائشة فقالت: لقد علم أن رسول الله ﷺ اعتمر ثلاثاً سوى التي قرنها بحجة الوداع.

وقد ذكرت الاختلاف فيما كان ﷺ محرماً به في حجة الوداع. والجمع بين ما اختلف فيه من ذلك.

والمشهور عن عائشة أنه ﷺ كان مفرداً، وحديثها هذا يشعر بأنه كان قارناً، وكذا ابن عمر قد أنكر على أنس لكونه قال «إنه ﷺ كان قارناً» مع أن حديثه هذا المتقدم يدل على أنه كان قارناً، لأنه لم ينقل أنه ﷺ اعتمر مع^(٢) حجته، ولم يكن متمتعاً لأنه ﷺ اعتذر عن ذلك بكونه ساق الهدى.

واحتاج بعضهم إلى تأويل ما وقع عن عائشة وابن عمر هنا

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم.

(٢) في ط، ش: بعد.

فقال: إنما يجوز نسبة العمرة الرابعة إليه ﷺ باعتبار أنه أمر الناس بها وعملت بحضرته، لا أنه ﷺ اعتمرها بنفسه.

وأنت إذا تأملت ما تقدم من أقوال الأئمة في حجته ﷺ من الجمع استغنيت عن هذا التأويل المتعسف.

قال بعض العلماء المحققين: وفي عدهم عمرة الحديبية التي صُدَّ عنها ﷺ ما يدل على أنها عمرة تامة. وفيه إشارة إلى حجة قول الجمهور: أنه لا يجب القضاء على من صُدَّ عن البيت خلافاً للحنفية، ولو كانت عمرة القضية بدلاً عن عمرة الحديبية لكانتا واحدة، وإنما سميت عمرة القضية والقضاء لأن النبي ﷺ قاضى قريشاً فيها، لا أنها وقعت قضاء عن العمرة التي صُدَّ عنها، إذ لو كان كذلك لكانت عمرة واحدة.

وأما حديث أبي داود عن عائشة: أنه اعتمر في شوال، فإن كان محفوظاً فلعله يريد عمرة الجعرانة حين خرج في شوال، ولكن إنما أحرم في ذي القعدة.

وأنكر ابن القيم أن يكون ﷺ اعتمر في رمضان، نعم قد أخرج الدارقطني من طريق العلاء بن زهير عن عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد عن أبيه عن عائشة قالت: خرجت مع رسول الله ﷺ في عمرة رمضان/ فأفطر وصمت وقصر وأتممت، وقال: إن إسناده حسن. ١/٣٩٣
لكن يمكن حمله على أن قولها: «في رمضان» متعلق بقولها: خرجت، ويكون المراد سفر فتح مكة، فإنه كان في رمضان، واعتمر ﷺ في تلك السنة من الجعرانة، لكن في ذي القعدة كما تقدم.

وأما قول ابن القيم - في الهدى أيضاً -: ولم يكن في عمره ﷺ عمرة واحدة خارجاً من مكة كما يفعله كثير من الناس اليوم، وإنما

كانت عمره كلها داخلاً إلى مكة. وقد أقام بمكة بعد الوحي ثلاث عشرة سنة لم ينقل عنه أحد أنه اعتمر خارجاً من مكة في تلك المدة أصلاً، فالعمرة التي فعلها وشرعها هي عمرة الداخل إلى مكة لا عمرة من كان بها، فيخرج إلى الحل ليعتمر. ولم يفعل هذا على عهده أحد قط إلا عائشة وحدها. انتهى.

فيقال عليه^(١): بعد أن فعلته عائشة بأمره، فدل على مشروعيته.

وروى الفاكهي وغيره من طريق محمد بن سيرين قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ وقت لأهل مكة التنعيم.

ومن طريق عطاء قال: من أراد العمرة ممن هو من أهل مكة أو غيرها فليخرج إلى التنعيم أو إلى الجعرانة فليحرم منها. فثبت بذلك أن ميقات العمرة الحل وأن التنعيم وغيره في ذلك سواء والله أعلم.

(١) هذا جواب قوله في أول الفقرة السابقة: «وأما قول ابن القيم». [م].

النَّوع السَّابِعُ

من عبادته ﷺ في ذكر نبذة من أدعيته
وأذكاره وقراءته

[فضيلة الدعاء]

اختلف هل الدعاء أفضل أم تركه والاستسلام للقضاء

[أفضل] (١)؟

فقال الجمهور: الدعاء أفضل، وهو من أعظم العبادات، ويؤيده ما أخرجه الترمذي من حديث أنس رفعه: «الدعاء مخ العبادة» (٢). وقد تواترت الأخبار عنه ﷺ بالترغيب في الدعاء والحث عليه. وأخرج الترمذي وصححه ابن حبان والحاكم عنه ﷺ «من لم يسأل الله يغضب عليه» (٣). وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لا أحمل همَّ الإجابة ولكن هم الدعاء، فإذا أتممت الدعاء علمت أن الإجابة معه. وفي هذا يقول القائل:

لو لم ترد نيل ما أرجو وآمله من جود كفك ما عودتني الطلبا

فإنه سبحانه وتعالى يحب تذلل عبيده بين يديه، وسؤالهم إياه، وطلبهم حوائجهم منه، وشكواهم منه إليه، وعبادتهم به منه، وفرارهم منه إليه. كما قيل:

قالوا أتشكو إليه ما ليس يخفى عليه
فقلت ربي يرضى ذل العبيد لديه

(١) ليست في الأصل.

(٢) قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

(٣) فيه صالح الخوزي، مختلف في ضعفه.

وقالت طائفة: الأفضل ترك الدعاء، والاستسلام للقضاء، وأجابوا عن قوله تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾^(١) بأن آخرها دل على أن المراد بالدعاء هو العبادة^(٢).

قال الشيخ تقي الدين السبكي: الأولى حمل الدعاء في الآية على ظاهره.

وأما قوله تعالى بعد ذلك ﴿عن عبادتي﴾ فوجه الربط أن الدعاء أخص من العبادة، فمن استكبر عن العبادة استكبر عن الدعاء، وعلى هذا: فالوعيد إنما هو في حق ترك الدعاء استكباراً، ومن فعل ذلك كفر، وأما تركه لمقصد من المقاصد فلا يتوجه إليه الوعيد المذكور، وإن كنا نرى أن ملازمة الدعاء والاستكثار منه أرجح من الترك لكثرة الأدلة الواردة فيه.

وقال القشيري في «الرسالة»: اختلف أي الأمرين أولى، الدعاء أو السكوت والرضاء؟ فقل الدعاء، وهو الذي ينبغي ترجيحه لكثرة الأدلة، ولما فيه من إظهار الخضوع والافتقار، وقيل: السكوت والرضى أولى لما في التسليم من الفضل. انتهى.

وشبهتهم: أن الداعي لا يعرف ما قدر له، فدعاؤه إن كان على وفق القدرة فهو تحصيل الحاصل، وإن كان على خلافه فهو معاند.

وأجيب: بأنه إذا اعتقد أنه لا يقع إلا ما قدر الله تعالى كان إذعاناً لا معاندة/ وفائدة الدعاء تحصيل الثواب بامتنال الأمر،

ب/٣٩٢

(١) سورة غافر، الآية ٦٠

(٢) في قوله تعالى ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾

ولاحتمال أن يكون المدعو به موقوفاً على الدعاء، لأن الله تعالى خلق الأسباب ومسبباتها. انتهى^(١).

[كيفية الدعاء]

وقد أرشد ﷺ أمته لكيفية الدعاء فقال: إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه، وليصل على النبي ﷺ، ثم ليدع بما شاء، رواه الترمذي من حديث فضالة بن عبيد.

وقال ﷺ في رجل يدعو: أوجب إن ختم بآمين. رواه أبو داود.

وقال: لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ولكن ليعزم [على]^(٢) المسألة فإن الله لا مكره له، رواه البخاري وغيره.

ومعنى الأمر بالعزم الجد فيه، وأن يجزم بوقوع مطلوبه، ولا يعلق ذلك بمشيئة الله تعالى، وإن كان مأموراً في جميع ما يريد فعله أن يعلقه بمشيئة الله تعالى، وقيل معنى العزم أن يحسن الظن بالله في الإجابة، فإنه يدعو كريماً، وقد قال ابن عيينة: لا يمنع أحداً الدعاء ما يعلم من نفسه، يعني التقصير، فإن الله تعالى قد استجاب دعاء شر خلقه وهو إبليس حين قال: ﴿أنظرنى إلى يوم يبعثون﴾^(٣).

وقال ﷺ: (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي) رواه الشيخان وغيرهما.

(١) هذه الفقرة بكاملها من مقدمة كتاب الدعوات في فتح الباري [م].

(٢) في المخطوطات.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٤

وكان ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء، ويدعُ ما سوى ذلك،
رواه أبو داود من حديث عائشة.

والجوامع: التي تجمع الأغراض الصالحة والمقاصد الصحيحة،
أو تجمع الثناء على الله تعالى وآداب المسألة.

[نماذج من دعائه ﷺ]

وكان ﷺ يقول في دعائه: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو
عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي
التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت
راحة لي من كل شر». رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

وكان يقول: اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني،
وزدني علماً، الحمد لله على كل حال، وأعوذ بالله من حال أهل النار.
رواه الترمذي من حديث أبي هريرة^(١).

وكان يقول: اللهم متعني وبصري. واجعلهما الوارث
مني، وانصرني على من ظلمني، وخذ منه بثأري. رواه الترمذي من
حديث أبي هريرة أيضاً.

وكان أكثر دعائه: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة
وقنا عذاب النار». رواه الشيخان من حديث أنس.

وكان يقول: ربِّ أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي،
وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني وانصرني على من بغى علي، رب

(١) فيه راو مجهول.

اجعلني لك شاكراً، لك ذاكراً، لك راهباً، مطواعاً لك، مخبئاً إليك،
أواهاً منيباً، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت
حجتي، وسدد لساني، واهد قلبي، واسلل سخيمة^(١) صدري. رواه
الترمذي.

وكان يقول: «اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك
توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم [إني]^(٢) أعوذ بعزتك،
لا إله إلا أنت، أن تضلني، أنت الحي الذي لا تموت، والجن
والإنس يموتون»، رواه الشيخان عن ابن عباس.

وكان يقول: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف
والغنى». رواه مسلم والترمذي من حديث ابن مسعود.

وكان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في
أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطيئي
وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما
أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر
وأنت على كل شيء قدير». رواه الشيخان/ من حديث أبي موسى. ٣٩٤/أ

وكان أكثر دعائه: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك. رواه
الترمذي من حديث أم سلمة.

وكان يقول: اللهم عافني في جسدي، وعافني في سمعي
وبصري، واجعلهما الوارث مني، لا إله إلا الله الحليم الكريم،

(١) أي: حقد.

(٢) في (ط، ش).

سبحان الله رب العرش العظيم^(١)، والحمد لله رب العالمين. رواه الترمذي.

وكان يقول: اللهم اغسل خطاياي بماء الثلج والبرد، ونق قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس رواه النسائي.

وكان يقول: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون. رواه في الموطأ.

وكان يدعو: اللهم فالق الإصباح، وجاعل الليل سكناً، والشمس والقمر حسباناً، اقض عني الدين وأغنني من الفقر، وأمتعني بسمعي وبصري وقوتي، وتوفني في سبيلك. رواه في الموطأ.

وكان ﷺ يتعوذ فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم والبخل، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات». رواه الشيخان من حديث أنس. وفي رواية أبي داود: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وضلع الدين وغلبة الرجال.

وكان يقول: اللهم إني أعوذ بك من الجذام والبرص والجنون، ومن سيء الأسقام. رواه أبو داود والنسائي، من حديث أنس.

وكان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من شر ما علمت، ومن شر ما لم أعلم». رواه مسلم من حديث عائشة.

وكان يقول: اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن دعاء

(١) في (أ، ب): الكريم.

لا يسمع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع، أعوذ بك من هذه الأربع. رواه الترمذي والنسائي من حديث ابن عمرو بن العاص.

وكان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجأة نقمتك، وجميع سخطك». رواه مسلم وأبو داود من حديث ابن عمرو بن العاص أيضاً.

وكان يقول: اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة، وأعوذ بك من أن أظلم أو أظلم، رواه أبو داود من حديث أبي هريرة.

وكان يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق. رواه أبو داود من حديث أبي هريرة أيضاً.

وكان يقول: اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة. رواه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة أيضاً.

وكان يقول: اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو، وشهامة الأعداء. رواه النسائي.

وكان يقول: اللهم إني أعوذ بك من الهدم، وأعوذ بك من التردي ومن الغرق والحرق والهزم، وأعوذ بك [من] (١) أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً، وأعوذ بك أن أموت لديغاً، رواه أبو داود والنسائي من حديث أبي اليسر.

وكان يتعوذ من عين الجن والإنس، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سوى ذلك. رواه النسائي.

(١) في (ط، ش، د)

[أدعية لمناسبات خاصة]

وكان إذا خاف قوماً قال: اللهم [إننا] (١) نجعلك في نحورهم،
ونعوذ بك من شرورهم. رواه أبو داود.

وكان يعوذ الحسن والحسين ويقول - إن أباكما كان يعوذ بهما
إسماعيل وإسحاق - أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة،
ومن كل عين لامة. رواه البخاري والترمذي.

وقد استشكل صدور هذه الأدعية ونحوها منه ﷺ مع قوله
تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ (٢) ووجوب
عصمته.

وأجيب: بأنه امثل ما أمره الله به من تسيحه وسؤاله المغفرة في
قوله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ (٣).

ويحتمل أن يكون قاله على سبيل التواضع والاستكانة والخضوع
والشكر لربه تعالى، لما علم أنه قد غفر له، ويحتمل أن يكون سؤاله
ذلك لأتمته وللتشريع، والله أعلم.

وكان ﷺ / عند الكرب - وهو ما يهجم على الإنسان مما يأخذ
بنفسه ويحزنه ويغمه - يدعو: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا
الله رب السماوات والأرضين رب العرش العظيم» رواه البخاري. وفي
رواية (٤): «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش

ب/٣٩٤

(١) في (ط، ش).

(٢) سورة الفتح، الآية ٢.

(٣) سورة النصر، الآية ١.

(٤) متفق عليها، وكذا التي قبلها فقد رواها مسلم أيضاً.

العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات والأرضين ورب العرش الكريم».

قال الطيبي: صدر هذا الثناء بذكر الرب ليناسب كشف الكرب لأنه مقتضى التربية، ومنه التهليل المشتمل على التوحيد، وهو أصل التنزيهات الجلالية، والعظمة التي تدل على تمام القدرة والحلم الذي يدل على العلم. إذ الجاهل لا يتصور منه حلم ولا كرم، وهما أصل الأوصاف الإكرامية. انتهى.

وكان ﷺ إذا همه أمر رفع رأسه إلى السماء وقال: سبحان الله العظيم. رواه الترمذي من حديث أبي هريرة.
[فإن قلت: هذا ذكر ليس فيه دعاء.

فالجواب: إن التعرض للطلب تارة يكون بذكر أوصاف العبد من فقره وحاجته، وتارة بذكر أوصاف السيد من وحدانيته والثناء عليه. وقد قال أمية بن أبي الصلت في مدح عبدالله بن جدعان:

أذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضك الثناء

قال سفيان الثوري: فهذا مخلوق حين نسب إلى الكرم اكتفى بالثناء، فكيف بالخالق^(١).

وكان ﷺ إذا كربه أمر قال: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، رواه أبو داود من حديث أنس.

وقال ﷺ: ما كربني أمر إلا تمثل لي جبريل فقال: يا محمد

(١) هذه الفقرة ليست في الأصل وهي في بقية النسخ.

قل: توكلت على الحي الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً. رواه الطبراني عن أبي هريرة. وتقدم في المقصد الثامن مزيد لذلك.

وكان ﷺ يقول في الضالة: اللهم رادَّ الضالة وهادي الضالة أنت تهدي من الضلالة، اردد علي ضالتي بعزتك وسلطانك، فإنها من عطائك وفضلك. رواه الطبراني في الصغير من حديث ابن عمر.

[رفع اليدين ومسح الوجه]

وكان ﷺ يدعو هكذا بباطن كفيه وظاهرهما^(١). رواه أبو داود عن أنس.

وقال أبو موسى الأشعري - كما عند البخاري - دعا النبي ﷺ ثم رفع يديه حتى رأيت بياض ابطيه.

وعنده أيضاً من حديث ابن عمر: رفع ﷺ يديه فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد.

لكن في حديث أنس «لم يكن النبي ﷺ يرفع يديه في شيء من دعائه إلا في الاستسقاء» وهو حديث صحيح^(٢). ويجمع بينه وبين ما تقدم: بأن الرفع في الاستسقاء يخالف غيره إما بالمبالغة إلى أن تصير اليدين في حذو الوجه مثلاً، وفي الدعاء إلى حذو المنكبين، ولا يعكز على ذلك أنه ثبت في كل منهما «حتى يرى بياض إبطيه» بل يجمع: بأن

(١) بباطن كفيه إن دعا بنحو تحصيل شيء، وبظاهرهما إلى السماء إن دعا بدفع بلاء.

(٢) متفق عليه.

تكون رؤية البياض في الاستسقاء أبلغ منها في غيره، وإما أن الكفين في الاستسقاء يليان الأرض وفي الدعاء يليان السماء.

قال الحافظ عبد العظيم المنذري: وبتقدير [تعذر]^(١) الجمع فجانب الإثبات أرجح. انتهى.

وروى الإمام أحمد والحاكم وأبو داود أنه ﷺ كان يرفع يديه إذا دعا حذو منكبيه. وفي رواية ابن ماجه: وبسطهما.

وهذا يقتضي أن تكونا متفرقتين مبسوطتين، لا كهيئة الاغتراف.

قال الحافظ ابن حجر: غالب الأحاديث التي وردت في رفع اليدين في الدعاء إنما المراد بها مد اليدين وبسطهما عند الدعاء.

وروى ابن عباس: كان ﷺ إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونها مما يلي وجهه. رواه الطبراني في الكبير بسند ضعيف.

وهل يمسح بهما وجهه؟ أما في القنوت في الصلاة فالأصح، لا، لعدم وروده فيه، قال البيهقي: لا أحفظ فيه عن أحد من السلف شيئاً، وإن روي عن بعضهم في الدعاء خارج الصلاة، وقد روي فيه عن النبي ﷺ خبر ضعيف مستعمل عند بعضهم في الدعاء خارجها، فأما فيها فعمل لم يثبت فيه خبر ولا أثر ولا قياس، والأولى أن لا يفعله.

[دعاؤه ﷺ لأنس]

وقد دعا ﷺ لأنس فقال: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته» رواه البخاري.

(١) كذا في فتح الباري عند شرح الحديث ٦٣٤١ وفي ط: عدم، وفي ش: بتعذير الجمع.

وفي «الأدب المفرد» له، عن أنس قال: قالت أم سليم - وهي أم أنس -: خويدمك ألا تدعو له؟ فقال: اللهم أكثر ماله وولده، وأطل حياته، واغفر له.

أ/٣٩٥

وفي الصحيح: إن أنساً كان/ في الهجرة ابن تسع سنين، وكانت وفاته سنة إحدى وتسعين فيما قيل - وقيل: سنة ثلاث - (١) وله مائة وثلاث سنين. قاله خليفة وهو المعتمد.

وأكثر ما قيل في سنه: أنه بلغ مائة سنة وسبع سنين، وأقل ما قيل فيه بلغ تسعاً وتسعين سنة.

وأما كثرة ولده، فروى مسلم قال أنس: «فوالله إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليعادون على نحو المائة اليوم». وورد في حديث رواه الشيخان «أن أنساً قال: أخبرني ابنتي أمينة - بضم الهمزة وفتح الميم، وسكون المثناة التحتية، بعدها نون - أنه دفن من صليبي إلى مقدم الحجاج البصرة مائة وعشرون.

وقال ابن قتيبة في «المعارف»: كان بالبصرة ثلاث ما ماتوا حتى رأى كل واحد منهم من ولده مائة ذكر لصلبه: أبو بكر، وخليفة [بن] (٢) بدر، وأنس، وزاد غيره رابعاً: وهو المهلب ابن أبي صفرة.

وأخرج ابن سعد عن أنس قال: دعا لي النبي ﷺ: اللهم أكثر ماله وولده، وأطل عمره، واغفر له، فقد دفنت من صليبي مائة واثنتين، وإن ثمرتي لتحمل في السنة مرتين، ولقد بقيت حتى سئمت الحياة، وأرجو الرابعة.

(١) هذه الجملة ليست في الأصل.

(٢) في (ط، ش).

وأخرج الترمذي عن أبي العالية في ذكر أنس: وكان له بستان
يؤتي في كل سنة الفاكهة مرتين، وكان فيه ريحان تفوح منه رائحة
المسك. ورجاله ثقات.

[دعاؤه ﷺ لبعض الصحابة ولغيرهم]

ودعا ﷺ لمالك بن ربيعة السلولي أن يبارك له في ولده، فولد له
ثمانون ذكراً، رواه ابن عساكر.

وأرسل ﷺ إلى علي يوم خيبر، وكان أرمداً، فتنفل في عينيه
وقال: اللهم أذهب عنه الحر والبرد، قال: فما وجدت حراً ولا برداً
منذ ذلك اليوم، ولا رمدت عيني^(١).

وبعث ﷺ علياً إلى اليمن قاضياً فقال: يا رسول الله، لا علم
لي بالقضاء، فقال: ادن مني، فدنا منه، فضرب يده على صدره
وقال: اللهم اهد قلبه وثبت لسانه، قال علي: فوالله ما شككت في
قضاء بين اثنين، رواه أبو داود وغيره.

وعاد ﷺ علياً من مرض فقال: اللهم اشفه اللهم عافه، ثم
قال: قم، قال علي: فما عاد لي ذلك الوجع بعد. رواه الحاكم
وصححه البيهقي وأبو نعيم.

ومرض أبو طالب، فعاده النبي ﷺ، فقال: يا ابن أخي ادع
ربك الذي تعبد أن يعافيني، فقال: اللهم اشف عمي، فقام أبو
طالب كأنما نشط من عقال، فقال: يا ابن أخي، إن ربك الذي تعبد
ليطيعك، فقال: وأنت يا عمه لئن أطعت الله ليطيعنك. رواه ابن

(١) رواه الطبراني. وقد مر هذا الحديث في غزوة خيبر.

عدي والبيهقي وأبو نعيم من حديث أنس. وتفرد به الهيثمي، وهو ضعيف.

ودعا ﷺ لابن عباس: اللهم فقهه في الدين، اللهم أعط ابن عباس الحكمة وعلمه التأويل. رواه البغوي وابن سعد.

وفي البخاري: «اللهم علمه الكتاب» فكان عالماً بالكتاب، حبر الأمة، بحر العلم، رئيس المفسرين، ترجمان القرآن، وكونه في الدرجة العليا والمحل الأقصى لا يخفى.

وقال للنابغة الجعدي لما قال:

ولا خير في حلم^(١) إذا لم يكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدر
ولا خير في علم^(٢) إذا لم يكن له حكيم^(٣) إذا ما أورد الأمر أصدرا

لا يفضض الله فاك. أي لا يسقط الله أسنانك، وتقديره: لا يسقط الله أسنان فيك، فحذف المضاف: قال: فأتى عليه أكثر من مائة سنة وكان من أحسن الناس ثغراً. رواه البيهقي. وقال فيه: فلقد رأيته ولقد أتى عليه نيف ومائة سنة وما ذهب له سن، وفي رواية ابن أبي أسامة: وكان من أحسن الناس ثغراً وإذا سقطت له سن، نبتت له أخرى، وعند ابن السكن: فرأيت أسنان النابغة أبيض من البرد لدعوته ﷺ.

وسقاه ﷺ عمرو بن أحطب ماء في قدح قوارير، فرأى فيه

(١) في ب: علم.

(٢) كذا في ش، وفي ط: حكم، وفي الأصل: أمر، وفي (ب، د): حلم.

(٣) في (د، ب): حليم.

شعرة [بيضاء] (١) فأخذها، فقال: اللهم جملة، فبلغ ثلاثاً وتسعين سنة وما في لحيته ورأسه شعرة بيضاء، رواه [الإمام أحمد من طريق أبي نهيك]. قال أبو نهيك: فرأيت ابن أربع وتسعين سنة وليس في لحيته شعرة بيضاء. وصححه ابن حبان والحاكم (٢).

وأخرج البيهقي عن أنس أن يهودياً أخذ من لحية النبي ﷺ / ٣٩٥ ب
فقال: اللهم جملة. فاسودت لحيته بعد أن كانت بيضاء. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة قال: حلب يهودي للنبي ﷺ ناقة، فقال: اللهم جملة، فاسود شعره، حتى صار أشد سواداً من كذا وكذا. قال معمر: وسمعت غير قتادة يذكر أنه عاش تسعين سنة فلم يشب. أخرجه ابن أبي شيبة وأبو داود في المراسيل والبيهقي وقال: مرسل شاهد لما قبله.

وقال ﷺ لابن الحمق الخزاعي، وقد سقاه ﷺ: اللهم متعه بشبابه، فمرت عليه ثمانون سنة ولم ير شعرة بيضاء، رواه أبو نعيم وغيره.

وجاءته فاطمة وقد علاها الصفرة من الجوع، فنظر إليها ﷺ ووضع يده على صدرها ثم قال: اللهم مشبع الجاعة لا تجع فاطمة بنت محمد. قال عمران بن حصين: فنظرت إليها وقد علاها الدم على الصفرة في وجهها، ولقيتها بعد فقالت: ما جعت يا عمران، ذكره يعقوب بن سليمان الأسفرائيني في دلائل الإعجاز.

ودعا ﷺ لعروة بن الجعد البارقي فقال: اللهم بارك في صفقة يمينه، قال فما اشترت شيئاً قط إلا وربحت فيه (٣).

(١) في (ط، ش، د).

(٢) ليست في الأصل.

(٣) رواه البخاري وغيره.

وقال لجريير وكان لا يثبت على الخيل، وضرب في صدره: اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً. قال: فما وقعت عن فرسي بعد^(١).

وقال لسعد بن أبي وقاص: اللهم أجب دعوته. فكان مجاب الدعوة. رواه البيهقي والطبراني في الأوسط.

ودعا لعبد الرحمن بن عوف بالبركة. رواه الشيخان عن أنس، زاد البيهقي من وجه آخر، قال عبد الرحمن: فلو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحته ذهباً أو فضة. الحديث.

قال القاضي عياض: وقد فتح الله عليه ومات فحفر الذهب في تركته بالفؤوس حتى مجلت فيه الأيدي، وأخذت كل زوجة ثمانين ألفاً، وكن أربعاً، وقيل: مائة ألف، وقيل: بل صولحت إحداهن لأنه طلقها في مرض موته على ثمانين ألفاً. وأوصى بخمسين ألفاً بعد صدقاته الفاشية في حياته، وعوارفه^(٢) العظيمة، أعتق يوماً ثلاثين عبداً، وتصدق مرة بعير فيها سبعمائة بعير، وردت عليه تحمل من كل شيء فتصدق بها وبما عليها وبأقتابها وأحلاسها.

وذكر المحب الطبري، مما عزاه للصفوة عن الزهري: أنه تصدق بشطر ماله: أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، ثم حمل على ألف وخمسمائة راحلة في سبيل الله، وكان عامة ماله من التجارة.

ودعا على مضر فأقحطوا حتى أكلوا العلهز - وهو الدم بالوبر - حتى استعطفته قريش.

(١) الحديث في الصحيح.

(٢) أي أفعاله المعروفة.

ولما تلى ﷺ ﴿والنجم إذا هوى﴾ قال عتبية بن أبي لهب: كفرت برب النجم، فقال اللهم سلط عليه كلباً من كلابك. فخرج عتبية مع أصحابه في غير إلى الشام حتى إذا كانوا بالشام زار أسد، فجعلت فرائضه ترعد، فقيل له: من أي شيء ترتعد؟ فوالله ما نحن وأنت في هذا إلا سواء، فقال: إن محمداً دعا علي، ولا والله ما أظلت هذه السماء من ذي لهجة أصدق من محمد. ثم وضعوا العشاء فلم يدخل يده فيه حتى جاء النوم، فأحاطوا به وأحاطوا أنفسهم بمتاعهم، ووسطوه بينهم وناموا، فجاء الأسد يستنشق رؤوسهم رجلاً رجلاً حتى انتهى إليه فمضغه مضغة، وهو يقول: ألم أقل لكم إن محمداً أصدق الناس، ومات. ذكره يعقوب الأسفراييني. وتقدم في ذكر أولاده ﷺ قصة بنحو هذه.

وعن مازن الطائي، وكان بأرض عمان، قلت: يا رسول الله، إني امرؤ مولع بالطرب وشرب الخمر والنساء، وألحت علينا السنون، فأذهب الأموال وأهزلن الذراري والرجال، وليس لي ولد، فادع الله أن يذهب عني ما أجد ويأتيني بالحياء ويهب لي ولداً، فقال ﷺ: اللهم أبدله/ بالطرب قراءة القرآن وبالحرمان الحلال وائته بالحياء، وهب له ولداً، قال مازن: فأذهب الله عني كلما كنت أجد، وأخصبت عمان وتزوجت أربع حرائر، ووهب الله لي حيان بن مازن. رواه البيهقي.

ولما نزل ﷺ بتبوك صلى إلى نخلة فمر رجل بينه وبينها فقال ﷺ: قطع صلاتنا قطع الله أثره فأقعد فلم يقم. رواه أبو داود والبيهقي، لكن سنده ضعيف.

وأكل رجل عنده بشماله فقال: كل بيمينك، قال: لا أستطيع،

قال: لا استطعت، فما رفعها إلى فيه بعد^(١). والرجل هو بسر - بضم
الموحدة وسكون المهملة - ابن راعي العير، بفتح المهملة وسكون المثناة
التحتية.

وطلب ﷺ معاوية، فقيل له إنه يأكل، فقال في الثانية: لا
أشبع الله بطنه، فما شبع بطنه أبداً، رواه البيهقي من حديث ابن
عباس، وكان معاوية رديفه يوماً فقال: يا معاوية، ما يليني منك؟
قال: بطني؟ قال: اللهم املأه علماً وحلماً. رواه البخاري في تاريخه.

وقال لابن^(٢) ثروان: اللهم أطل شقاءه وبقائه فأدرك شيخاً
كبيراً شقيماً يتمنى الموت^(٣).

وكم له ﷺ من دعوات مستجابات، وقد أفرد القاضي عياض
باباً في الشفاء ذكر فيه طرفاً منها، وكذا الإمام يوسف بن يعقوب
الاسفرايني في كتابه «دلائل الإعجاز» فكم أجابه الله تعالى إلى
مسؤوله، وأجناه من شجرة دعائه ثمرة سؤله.

[لكل نبي دعوة مستجابة]

وأما حديث أبي هريرة عند البخاري^(٤) (أن رسول الله ﷺ
قال: لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وأريد أن أختبئ دعوتي
شفاعةً لأمتي في الآخرة) فقد استشكل ظاهره بما ذكرته، وبما وقع لدينا

(١) رواه مسلم. وزاد في رواية له: لم يمنعه إلا الكبر.

(٢) في (ط، ش): لأبي.

(٣) في سنده من هو متروك.

(٤) رواه البخاري برقم ٦٣٠٤ وهو عند مسلم أيضاً وغيره.

ولكثير من الأنبياء صلى الله عليهم وسلم من الدعوات المجابة، فإن
ظاهره أن لكل نبي دعوة مجابة فقط.

وأجيب: بأن المراد بالإجابة في الدعوة المذكورة القطع بها،
وما عدا ذلك من دعواتهم فهم على رجاء الإجابة. وقيل: معنى قوله
«لكل نبي دعوة» أي أفضل دعواته، ولهم دعوات أخرى، وقيل: لكل
منهم دعوة عامة مستجابة في أمته، إما بإهلاكهم، وإما بنجاتهم، وأما
الدعوات الخاصة: فمنها ما يستجاب ومنها ما لا يستجاب. وقيل:
لكل نبي منهم دعوة تخصه لدنياه أو لنفسه، كقول نوح: ﴿رب لا تذر
على الأرض من الكافرين دياراً﴾^(١) وقول زكريا: ﴿ههب لي من لدنك
ولياً يرثني﴾^(٢)، وقول سليمان: رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من
بعدي^(٣).

وأما قول الكرمانى في شرحه على البخارى: فإن قلت: هل جاز
أن لا يستجاب دعاء النبي ﷺ؟ قلت: لكل نبي دعوة مستجابة،
وإجابة الباقي في مشيئة الله تعالى، فقال العيني: هذا السؤال لا
يعجبني، فإن فيه بشاعة، وأنا لا أشك أن جميع دعوات النبي ﷺ
مستجابة. وقوله: «لكل نبي دعوة مستجابة» لا ينفي ذلك، لأنه ليس
بمحصور. انتهى. ولم ينقل أنه ﷺ دعا بشيء فلم يستجب^(٤).

(١) سورة نوح، الآية ٢٦.

(٢) سورة مريم، الآية ٦.

(٣) نص الآية الكريمة ﴿قال رب اغفر لي وهب لي..﴾ سورة ص، الآية

٣٥.

(٤) جاء في الحديث الصحيح (سألت الله ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني

واحدة..).

وفي هذا الحديث بيان فضيلة نبينا ﷺ على سائر الأنبياء، حيث أثر أمته على نفسه وأهل بيته بدعوته المجابة، ولم يجعلها دعاء عليهم بالهلاك كما وقع لغيره، صلوات الله وسلامه عليهم.

وظاهر الحديث يقتضي أنه ﷺ أحر الدعاء والشفاعة ليوم القيامة، فذلك اليوم يدعو ويشفع، ويحتمل أن يكون المؤخر ليوم القيامة ثمرة تلك الدعوة ومنفعتها، وأما طلبها فحصل من النبي ﷺ في الدنيا [حكاه صاحب مزيد الفتح] (١)

[أذكاره ﷺ]

وقد أمر الله النبي ﷺ بالترقي في مراتب التوحيد بقوله: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ (٢) فإنه ليس أمراً بتحصيل ذلك العلم، لأنه عالم بذلك، ولا بالثبات، لأنه معصوم، فتعين أن يكون للترقي في مراتبه ومقاماته، إشارة إلى أن العلم به تعالى والسير إليه / لا نهاية له أبداً، فجميع العلوم الحقيقية والمعارف اليقينية في العالم منتظم في سلك تحقيقها، وستثمر من أفنان طواياها، ولذا اكتفى بعلمها له ﷺ في الآية فالشأن كله في تصحيح التوحيد وتجريده وتكميله، وقد قال تعالى له ﷺ: ﴿واذكر اسم ربك﴾ (٣) وقال: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة﴾ (٤)، لأنه لا بد في أول السلوك من الذكر باللسان مدة، ثم يزول الاسم ويبقى المسمى، فالدرجة الأولى هي المرادة بقوله:

ب/٣٩٦

(١) في (د، ط).

(٢) سورة محمد، الآية ١٩.

(٣) سورة الزمل، الآية ٨.

(٤) سورة الأعراف، الآية ٢٠٥.

﴿واذكر اسم ربك﴾، والمرتبة الثانية هي المرادة بقوله: ﴿واذكر ربك﴾، وفي استيفاء مباحث ذلك طول، يخرج عن الغرض، وقد تقدم جملة من أذكاره ﷺ مفرقة في الوضوء والصلاة والحج وغير ذلك.

[استغفاره ﷺ]

وقد كان ﷺ يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم واللييلة أكثر من سبعين مرة. كما رواه عنه أبو هريرة عند البخاري.

وظاهره أنه يطلب المغفرة، ويعزم على التوبة، ويحتمل أن يكون المراد: أنه ﷺ يقول هذا اللفظ بعينه، ويرجح الثاني ما أخرجه النسائي بسند جيد من طريق مجاهد عن ابن عمر: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه» في المجلس قبل أن يقوم مائة مرة. وله: من رواية محمد بن سوقة عن نافع عن ابن عمر بلفظ: «إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس: رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور، مائة مرة.

ويحتمل أن يريد بقوله في حديث أبي هريرة «أكثر من سبعين مرة» المبالغة.

ويحتمل أن يريد العدد بعينه، ولفظ «أكثر» مبهم، فيمكن أن يفسر بحديث ابن عمر المذكور، وأنه يبلغ المائة. وقد وقع في طريق أخرى عن أبي هريرة، من رواية معمر عن الزهري بلفظ «إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة» لكن خالف [معمر]^(١) أصحاب الزهري في ذلك.

(١) في (ط، ش).

[نعم] (١) أخرج النسائي أيضاً من رواية محمد بن عمرو عن أبي سلمة بلفظ: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم مائة مرة».

وأخرج النسائي أيضاً من طريق عطاء، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ جمع الناس فقال: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة».

واستغفاره ﷺ تشريع لأمته، أو من ذنوبهم، وقيل غير ذلك، وتقدم ما ينتظم في سلك ذلك.

فإن قلت: ما كيفية استغفاره ﷺ؟

فالجواب: أنه ورد في حديث شداد بن أوس، عند البخاري: رفعه (سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. قال: من قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل موقناً بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة) (٢) فتعين أن هذه الكيفية هي الأفضل، وهو ﷺ لا يترك الأفضل.

[قراءته ﷺ القرآن]

وأما قراءته ﷺ وصفتها، فكانت مداً، يمد بيسم الله، ويمد بالرحمن، ويمد بالرحيم. رواه البخاري عن أنس (٣).

(١) في (ط، د): و.

(٢) رواه البخاري برقم ٦٣٠٦.

(٣) رواه البخاري برقم ٥٠٤٦.

ونعتتها أم سلمة: قراءة مفسرة حرفاً حرفاً. رواه أبو داود والنسائي والترمذي.

وقالت أيضاً: كان ﷺ يقطع قراءته، يقول: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ ثم يقف، ثم يقول: ﴿الرحمن الرحيم﴾ ثم يقف. رواه الترمذي.

وقالت حفصة: كان يرتل السورة حتى تكون أطول من أطول منها. رواه مسلم.

وقال البراء: كان يقرأ في العشاء ﴿والتين والزيتون﴾ فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه ﷺ. رواه الشيخان.

أ/٣٩٧ فقد كانت قراءته ﷺ ترتيلاً / لا هَذَا^(١) ولا عجلة، بل قراءة مفسرة حرفاً حرفاً، وكان يقطع قراءته آية آية، وكان يمد عند حروف المد، وكان يتغنى بقراءته، ويرجع صوته بها أحياناً، كما رجع يوم الفتح في قراءة ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾. وحكى عبدالله بن مغفل ترجيعه: أأثلاث مرات، ذكره البخاري.

وإذا جمعت هذا الحديث إلى قوله: (زينوا القرآن بأصواتكم)^(٢) وقوله: (ليس منا من لم يتغن بالقرآن)^(٣)، وقوله: (ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي حسن الصوت يتغن بالقرآن)^(٤) أي ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبي يتغن بالقرآن يتلوه يجهر به، يقال منه: أذن يأذن أذنًا

(١) أي سرعة.

(٢) رواه البخاري وأحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم.

(٣) رواه البخاري وأحمد وأبو داود وغيرهم.

(٤) الحديث في الصحيحين والسنن.

بالتحريك. علمت^(١) أن هذا الترجيع منه ﷺ كان اختياراً، لا اضطراراً لهز الناقة له^(٢)، فإن هذا لو كان لأجل هز الناقة لما كان داخلياً تحت الاختيار، فلم يكن عبدالله بن مغفل يحكيه ويفعله اختياراً ليتأسى به وهو يرى هذا من هز الراحلة له حتى ينقطع صوته، ثم يقول: «كان يرجع في قراءته» فنسب الترجيع إلى فعله، ولو كان من هز الراحلة لم يكن منه فعل يسمى ترجيعاً.

وقد استمع ﷺ ليلة لقراءة أبي موسى الأشعري، فلما أخبره بذلك قال: لو كنت أعلم أنك تسمعه لحبرته لك تحبيراً^(٣). أي حسنته وزينته بصوتي تزييناً.

وهذا الحديث يرد على من قال: إن قوله: (زينوا القرآن بأصواتكم) من باب القلب^(٤)، أي: زينوا أصواتكم بالقرآن، فإن القلب لا وجه له. قال ابن الأثير: ويؤيد ذلك تأييداً لا شبهة فيه حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: لكل شيء حلية، وحلية القرآن حسن الصوت^(٥). والله أعلم.

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة اختلافاً كثيراً يطول ذكره، وفصل النزاع في ذلك أن يقال: إن التطريب والتغني على وجهين:

أحدهما: ما اقتضته الطبيعة وسمحت به من غير تكلف ولا تمرين وتعليم، بل إذا خلا في ذلك وطبعه، واسترسلت طبيعته،

(١) هذا جواب «إذا» في أول الفقرة.

(٢) أي كما ادعاه بعضهم.

(٣) رواه مسلم. ومعنى خبرته: حسنته.

(٤) في المخطوطات: المقلوب.

(٥) ضعفه ابن حبان والذهبي.

جاءت بذلك التطريب والتلحين، فهذا جائز وإن أعانته طبيعته على فضل تزيين وتحسين، كما قال أبو موسى للنبي ﷺ: لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً. والخزین ومن هاجه الطرب والحب والشوق لا يملك من نفسه دفع التخزين والتطريب في القراءة. ولكن النفوس تستجلبه وتستملحه لموافقة الطبع وعدم التكلف والتصنع، فهو مطبوع لا متطبع، وكلف لا متكلف، فهذا هو الذي كان السلف يفعلونه ويسمعونه، وهو التغني المحمود، وهو الذي يتأثر به التالي والسامع.

والوجه الثاني: ما كان من ذلك صناعة من الصنائع، ليس في الطبائع السباحة به، بل لا يحصل إلا بتكلف وتضنع وتمرن، كما يتعلم أصوات الغناء بأنواع الألحان البسيطة والمركبة على إيقاعات مخصوصة وأوزان مخترعة لا تحصل إلا بالتعليم والتكلف، فهذه هي التي كرهها السلف وعابوها وأنكروا القراءة بها.

وبهذا التفصيل يزول الاشتباه، ويتبين الصواب من غيره، وكل من له علم بأحوال السلف يعلم قطعاً أنهم برآء من القراءة بألحان الموسيقى المتكلفة التي هي على إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة، وأنهم اتقى الله من أن يقرؤوا بها ويسوغوها^(١)، ويعلم قطعاً أنهم كانوا يقرؤون بالتخزين والتطريب، ويحسنون أصواتهم بالقراءة، ويقرؤونه بسجايهم تارة، وتطريباً أخرى، وهذا أمر في الطباع، ولم ينه عنه الشارع مع شدة تقاضي الطباع له، بل أرشد إليه وندب إليه ﷺ، وأخبر عن استماع الله لمن قرأ به، وقال: (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) وليس المراد الاستغناء به عن غيره كما ظنه بعضهم، ولو كان كذلك لم يكن/ لذكر حسن الصوت والجهر به معنى. والمعروف في ٣٩٧/ب

(١) في ط: ويسمعوها.

كلام العرب أن التغني إنما هو الغناء الذي هو حسن الصوت بالترجيع، كما قال الشاعر:

تغن بالشعر إذا ما كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار

وروى ابن أبي شيبة عن عقبة بن عامر مرفوعاً: تعلموا القرآن وتغنوا به واكتبوه الحديث^(١). والله أعلم.

وقد صح أنه ﷺ سمع أبا موسى الأشعري يقرأ فقال: لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود^(٢). يعني من مزامير داود نفسه، كما ذكره أهل المعاني. وفي طريق آخر - كما تقدم - أن أبا موسى قال: يا رسول الله، لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً.

قال ابن المنير: فهذا يدل على أنه كان يستطيع أن يتلو أشجى من المزامير عند المبالغة في التحبير، لأنه قد تلا مثلها وما بلغ الحد، فكيف لو بلغ حد استطاعته.

[خبر عن داود عليه السلام]

وقد كان داود عليه السلام إذا أراد أن يتكلم على بني إسرائيل يجوع سبعة أيام لا يأكل ولا يشرب ولا يأتي النساء، ثم يأمر سليمان فينادي في الضواحي والنواحي والآكام والأودية والجبال: إن داود يجلس يوم كذا، ثم يخرج له منبراً إلى الصحراء، فيجلس عليه، وسليمان قائم على رأسه، فتأتي الإنس والجن والطيور والوحش والهوام والعداري والمخدرات يسمعون الذكر، فيأخذ في الثناء على الله بما هو

(١) ورواه أحمد برجال الصحيح.

(٢) الحديث في الصحيحين وغيرهما.

أهله، فتموت طائفة من المستمعين، ثم يأخذ في النياحة على المذنبين فتموت طائفة، فإذا استجر^(١) الموت بالخلق قال له سليمان: يا نبي الله، قد استجر الموت بالناس، وقد مزقت المستمعين كل ممزق، فيخر داود مغشياً عليه، فيحمل على سريره إلى بيته، وينادي منادي سليمان: أيها الناس، من كان له مع داود قريب أو حميم فليخرج لافتقاده، فكانت المرأة تأتي فتقف على زوجها أو ابنها أو أخيها، فتدخل به المدينة، فإذا أفاق داود في اليوم الثاني قال: يا سليمان، ما فعل عباد بني إسرائيل؟ فيقول له سليمان: قد مات فلان وفلان وهلم جراً. فيضع داود يده على رأسه وينوح ويقول: يا ربّ داود، أغضبان أنت على داود حتى إنه لم يميت فيمن مات خوفاً منك أو شوقاً إليك؟ فلا يزال ذلك دأبه إلى المجلس الآخر، وأقام داود عليه السلام على ذلك ما شاء الله تعالى.

[أثر سماع المواعظ]

ولا تظن بما ذكرته من حال بني إسرائيل أنهم في ذلك أعلى من هذه الأمة، فأما المزامير فحسبك ما ذكر من حال أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وأما الموت من الموعظة شوقاً أو خوفاً فلنا فيه طريقان:

أحدهما: أن نقول إن القوة التي أوتيتها هذه الأمة تقاوم الأحوال الواردة عليها فتتأسك الحياة، فلا تفتنى القوة الجسمانية بل القوة الروحانية، والتأييدات الإلهية^(٢). فلفرط قوة هذه الأمة - إن شاء الله

(١) أي: انتشر فيهم وكثر.

(٢) أي باقية.

تعالى - تقارب عند سلفها الصالح ما بين حال سماع الموعظة وحال عدم سماعها، لتوالي أحوال الذكر وأطوار اليقين. وقد قال بعضهم: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً. فتماسك قوة السلف عند واردات الأحوال هو الذي فرق بينهم وبين من قبلهم. ألا ترى أن داود وسليمان عليهما السلام - وهما أصحاب المزامير - لم يتفق لهما الموت كما اتفق لمن مات، وما ذلك من تقصيرهما في الخوف والشوق، ولكن من القوة الربانية التي أمدهما بها. ولا خلاف بأن داود عليه السلام وإن لم يمت من الذكر أفضل ممن مات من أمته، وأما نوحه على كونه لم يمت فذلك من التواضع الذي يزيد شرفاً، لا من التقصير/ عن آحاد أمته، بل لارتفاعه عنهم درجات وزلفى، وإلى هذه القوة الإلهية أشار أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقد رأى إنساناً يبكي من الموعظة فقال: هكذا كنا حتى قست القلوب. عبر عن القوة بالقسوة تواضعاً، ومرتبته بحمد الله محفوظة ومنزله مرفوعة.

أ/٣٩٨

والطريق الثاني: أن نقول: قد روي ما لا يحصى كثرة عن هذه الأمة مثل ما اتفق في مجلس داود عليه السلام من موت المستمعين للذكر في مجلس السماع قديماً وحديثاً، ولأبي إسحاق الثعلبي جزء في قتلى القرآن روينا، وعندني من ذلك جملة أرجو تدوينها، بل قد روي عن كثير من المريدين أنهم ماتوا بمجرد النظر إلى المشايخ، كما حكى أن مريداً لأبي تراب النخشي كان يتجلى له الحق تعالى في كل يوم مرات، فقال له أبو تراب: لو رأيت أبا يزيد لرأيت أمراً عظيماً، فلما ارتحل المريد مع شيخه أبي تراب النخشي لأبي يزيد ووقع بصر المريد عليه وقع ميتاً، فقال له أبو تراب يا أبا يزيد نظرة منك قتلته، وقد كان يدعي رؤية الحق فقال له أبو يزيد قد كان صاحبك صادقاً، وكان

الحق يتجلى له على قدر مقامه، فلما رآني تجلى له على قدر ما رأى^(١)، فلم يطق فهمات^(٢).

واصطلاح أهل الطريق في التجلي معروف، وحاصله: رتبة من المعرفة جليلة عليه ولم يكونوا يعنون بالتجلي رؤية البصر التي قيل فيها لموسى عليه السلام - على خصوصيته - (لن تراني) والتي قيل فيها على العموم (لا تدركه الأبصار). وإذا فهمت أن مرادهم الذي أثبتوه غير المعنى الذي حصل منه الناس على اليأس في الدنيا، وواعد الخواص به في الأخرى، فلا ضير بعد ذلك عليك. ولا طريق لسوء الظن بالقوم إليك، والله متولي السرائر. انتهى ملخصاً.

[حكم السماع]

وإذا علمت هذا فاعلم أن السماع في طريق القوم معروف، وفي الجواذب إلى المحبة معدود وموصوف، وقد نقل إباحته أبو طالب في «القوت» عن جماعة من الصحابة كعبدالله بن جعفر، وابن الزبير، والمغيرة بن شعبة ومعاوية، وكذا الجنيد، والسري وذي النون، واحتج له الغزالي في «الإحياء» بما يطول ذكره، خصوصاً في أوقات السرور المباحة، تأكيداً له وتهيباً، كعرس وقدم غائب، ووليمة وعقيقة وحفظ قرآن، وختم درس أو كتاب أو تأليف.

وفي الصحيحين من حديث عائشة: أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدفقان وتضربان، ورسول الله ﷺ متعش

(١) في المخطوطات: على قدرتي.

(٢) حادثة فيها غرابة كان المصنف في غنى عن ذكرها وليس هناك دليل عليها

بشوبه، فانتهرهما أبو بكر، فكشف ﷺ عن وجهه وقال: دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد. وفي رواية: دخل علي رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء [يوم] ^(١) بعث - بضم الموحدة والعين المهملة آخره مثلثة - اسم حصن للأوس، وبالمعجمة تصحيف، أي تنشدان الأشعار التي قيلت يوم بعث، وهو حرب كان بين الأنصار، فاضطجع على الفراش وحول وجهه، فدخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزماره الشيطان عند رسول الله ﷺ فأقبل عليه ﷺ وقال: دعهما.

[واستدل جماعة من الصوفية بهذا الحديث على إباحة الغناء وسماعه بآلة وبغير آلة] ^(٢).

وتعقب: بأن في الحديث الآخر عند البخاري عن عائشة: «وليستا بمغنيتين» فنفت عنهما من طريق المعنى ما أثبتته لهما باللفظ، لأن الغناء يطلق على رفع الصوت وعلى الترنم وعلى الحداء، ولا يسمى فاعله مغنياً، وإنما يسمى بذلك من ينشد بتمطيط وتكسير وتهييج وتشويق لما فيه من تعريض بالفواحش أو تصريح.

قال القرطبي: قولها - يعني عائشة - : «ليستا بمغنيتين» أي ليستا ممن يعرف الغناء كما تعرفه المغنيات المعروفات بذلك. قال: وهذا منها تحرز عن الغناء المعتاد عند المشتهرين، وهو الذي يحرك الساكن، ويبعث الكامن، وهذا/ إذا كان في شعر فيه وصف محاسن النساء أو الخمر أو غيرها من الأمور المحرمة لا يختلف في تحريمه. قال: وأما ما ابتدئته الصوفية في ذلك فمن قبيل ما لا يختلف في تحريمه، لكن النفوس الشهوانية غلبت على كثير ممن ينسب إلى الخير، حتى لقد

ب/٣٩١

(١) في (ط، ش).

(٢) في: ط، ش.

ظهرت في كثير منهم فعلات المجانين والصبيان، حتى رقصوا بحركات متطابقة، وتقطيعات متلاحقة، وانتهى التوافق بقوم منهم إلى أن جعلوها من باب القرب وصالح الأعمال، وأن ذلك يثمر سنيّ الأحوال، وهذا على التحقيق من آثار الزندقة. انتهى.

والحق: أن السماع إذا وقع بصوت حسن، بشعر متضمن للصفات العلية، أو النعوت النبوية المحمدية، عربياً عن الآلات المحرمة، والحظوظ الخسيسة الغبية، والشبه الدنية، وأثار كامن المحبة الشريفة العلية، وضبط السامع نفسه ما أمكنه، بحيث لا يرفع صوته بالبكاء، ولا يظهر التواجد وهو يقدر على ضبط نفسه ما أمكنه مع العلم بما يجب لله ورسوله ويستحيل، لئلا ينزل ما يسمعه على ما لا يليق، كان من الحسن في غاية، ولتمام تزكية النفس نهاية. نعم تركه والاشتغال بما هو أعلى أسلم لخوف الشبهة، وللخروج من الخلاف، إلا نادراً.

وقد نقل عن الإمام الشافعي ومالك وأبي حنيفة وجماعة من العلماء ألفاظ تدل على التحريم، ولعل مرادهم ما كان فيه تهيج شيطاني، وإذا كان النظر في السماع باعتبار تأثيره في القلوب، لم يجز أن يحكم فيه مطلقاً بإباحة ولا تحريم، بل يختلف ذلك بالأشخاص، واختلاف طرق النغمات، فحكمه حكم ما في القلب، وهو لمن يرتقي لربه ترقية مثير للكامن في النفوس من الأزل، حين خاطبنا الحق تعالى بقوله: ﴿ألست بربكم﴾ فما كان في القلب من رقة ووجد وحقيقة فهو من حلاوة ذلك الخطاب، والأعضاء كلها ناطقة بذكره، مستطية لاسمه، فالسماع من أكبر مصايد النفوس، وإذا اقترن بألحانه المناسبة، وكان الشعر متضمناً لذكر المحبوب الحق، برز الكامن وذاعت الأسرار سيما في أرباب البدايات.

وقد شوهد تأثير السماع حتى في الحيوانات الغير الناطقة^(١) من الطيور والبهائم، فقد شوهد تدلي الطيور من الأغصان على أولى النغمات الفائقة، والألحان الرائقة، وهذا الجمل مع بلادة طبعه يتأثر بالحداء تأثيراً يستخف معه الأحمال الثقيلة، ويستقصر لقوة نشاطه في سماعه المسافة الطويلة، وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولهه، فتراه إذا طالت عليه البوادي، وأعياء الإعياء تحت الحمل إذا سمع منادي الحداء يمد عنقه ويصغي إلى الحادي، ويسرع في سيره، وربما أتلف نفسه في شدة السير وثقل الحمل، وهو لا يشعر بذلك لنشاطه.

وقد حكى مما ذكره في «الإحياء» عن أبي بكر الدينوري: أن عبداً أسود قتل جمالاً كثيرة بطيب نغمته إذ حداها، وكانت محملة أحمالاً ثقيلة، فقطعت مسيرة ثلاثة أيام في ليلة واحدة، وأنه حدا على جمل غيرها بحضرته، فهام الجمل وقطع حباله وحصل له ما غيبه عن حسه، حتى خر لوجهه.

فتأثير السماع محسوس، ومن لم يحركه فهو فاسد المزاج، بعيد العلاج، زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجمال. وإذا كانت هذه البهائم تتأثر بالنغمات، فتأثير النفوس الإنسانية أولى. وقد قال:

نعم لولاك ما ذكر العقيق ولا جابت له الفلوات نوق
نعم أسعى إليك على جفوني تدان الحي أو بعد الطريق
إذا كانت تحن لك المطايا فماذا يفعل الصب المشوق

فزبدة السماع تلطيف السر، ومن ثم وضع العارف الكبير سيدي على الوفوي^(٢) حزه المشهور/ على الألحان والأوزان اللطيفة، تنشيطاً

(١) الأصح أن يقول: غير الناطقة.

(٢) في الأصل: الوفاي.

لقلوب المريدين وترويحاً لأسرار السالكين، فإن النفوس - كما قدمناه - لها حظ من الألحان، فإذا قيلت هذه الواردات السنوية الفائضة من الموارد النبوية المحمدية بهذه النغمات الفائقة والأوزان الرائقة، تشربتها العروق، وأخذ كل عضو نصيبه من ذلك المدد الوفوي المحمدي، فأثمرت شجرة خطاب الأزل بما سقيته من موارد هذه اللطائف عوارف المعارف.

تنبيه: زعم بعضهم أن السماع أدعى للوجد من التلاوة وأظهر تأثيراً.

والحجة عن ذلك^(١): أن جلال القرآن لا تحتمله القوى البشرية المحدثة، ولا تحتمله صفاتها المخلوقة، ولو كشف للقلوب ذرة من معناه لدهشت وتصدعت وتحيرت، والألحان مناسبة للطباع بنسبة الحظوظ لا نسبة الحقوق، والشعر نسبته بنسبة الحظوظ، فإذا علقت الأشجان والأصوات بما في الأبيات من الإشارات واللطائف، شاكل بعضها بعضاً فكان أقرب إلى الحظوظ وأخف على القلوب بمشاكله المخلوق. قاله أبو نصر السراج.

(١) الغريب أنه يأتي بزعم باطل ثم يقيم الحجة له بعد ذلك [م].

المقصد العاشر

[محتوى المقصد العاشر]

- في إتمامه تعالى نعمته عليه بوفاته، ونقلته إلى حظيرة قدسه لديه.
- وزيارة قبره الشريف، ومسجده المنيف.
- وتفضيله في الآخرة بفضائل الأوليات الجامعة لمزايا التكريم وعليّ الدرجات.
- وتشريفه بخصائص الزلفى في مشهد مشاهد الأنبياء والمرسلين.
- وتحميده بالشفاعة والمقام المحمود، وانفراده بالسؤدد في مجمع مجامع الأولين والآخرين.
- وترقيه في جنات عدن أرقى مدارج السعادة، وتعالیه في يوم المزيد أعلى معالي الحسنی وزيادة.

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول

في إتمامه تعالى نعمته عليه بوفائه
ونقلته إلى حظيرة قدسه لديه ﷺ

اعلم - وصلني الله وإياك بحبل تأييده، وأوصلنا بلطفه إلى مقام توفيقه وتسديده - أن هذا الفصل مضمونه يسكب المدامع من الأجفان، ويغلب الفجائع لإثارة الأحزان، ويلهب نيران الموجدة على أكباد ذوي الإيمان.

[نزول سورة النصر]

[واعلم أنه^(١)] لما كان الموت مكروهاً بالطبع، لما فيه من الشدة والمشقة العظيمة، لم يميت نبي من الأنبياء حتى يخير.

وأول ما أعلم النبي ﷺ من انقضاء عمره باقتراب أجله بنزول سورة ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾^(٢)، فإن المراد من هذه السورة: إنك يا محمد إذا فتح الله عليك البلاد، ودخل الناس في دينك الذي دعوتهم إليه أفواجاً، فقد اقترب أجلك، فتهيأ للقائنا بالتحميد والاستغفار، فإنه قد حصل منك مقصود ما أمرت به، من أداء الرسالة والتبليغ، وما عندنا خير لك من الدنيا، فاستعد للنقلة إلينا.

(١) في د.

(٢) سورة النصر، الآية ١.

وقد قيل إن هذه السورة آخر سورة، نزلت يوم النحر، وهو ﷺ بمبني في حجة الوداع، وقيل: عاش بعدها إحدى وثمانين يوماً. وعند ابن أبي حاتم من حديث ابن عباس: عاش بعدها تسع ليال. وعن مقاتل: سبعاً، وعن بعضهم: ثلاثاً.

ولأبي يعلى^(١) من حديث ابن عمر: نزلت هذه السورة في أوسط أيام التشريق في حجة الوداع، فعرف رسول الله ﷺ أنه الوداع. وفي حديث ابن عباس، عند الدارمي: لما نزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرَ اللَّهِ وَالْفَتْحَ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة، وقال: نعتت إلي نفسي فبكت، قال: لا تبكي^(٢)، فإنك أول أهلي لحوقاً بي، فضحكت. الحديث.

وروى الطبراني من طريق عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرَ اللَّهِ وَالْفَتْحَ﴾ نعتت إلى رسول الله ﷺ نفسه، فأخذ بأشد ما كان قط اجتهاداً في أمر الآخرة.

وللطبراني أيضاً، من حديث جابر: لما نزلت هذه السورة قال النبي ﷺ / لجبريل: نعتت إلي نفسي. فقال له جبريل: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾^(٣).

ب/٣٩٩

وروي في حديث ذكره ابن رجب في «اللطائف»: أنه تعبد حتى صار كالشن البالي^(٤).

(١) بإسناد ضعيف.

(٢) في ش: لا تبك. قال مصحح شرح الزرقاني: سبق قلم لأن فعل المؤنثة المخاطبة يجزم بحذف النون، لا بحذف حرف العلة.

(٣) سورة الضحى، الآية ٤.

(٤) قال الشارح: الله أعلم بحال هذا الحديث، ففي الأحاديث الصحيحة أنه لم يصل إلى هذه الحالة وإن زاد في العبادة إلى الغاية.

وكان ﷺ يعرض القرآن كل عام على جبريل مرة، فعرضه ذلك العام مرتين، وكان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان كل عام فاعتكف في ذلك العام عشرين، وأكثر من الذكر والاستغفار.

وقالت أم سلمة: كان ﷺ في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، فقلت له: إنك تدعو بدعاء لم تكن تدعوه قبل اليوم، فقال: إن ربي أخبرني أنني سأرى علماً^(١) في أمتي، وأني إذا رأيته أن أسبح بحمده وأستغفره، ثم تلا هذه السورة. رواه ابن جرير وابن خزيمة. وأخرج ابن مردويه من طريق مسروق عن عائشة نحوه.

[وداع الأحياء والأموات]

وروى الشيخان من حديث عقبة بن عامر قال: صلى رسول الله ﷺ على قتلى أحد بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء وللأموات، ثم طلع المنبر فقال: إني بين أيديكم فرط^(٢)، وأنا عليكم شهيد. وإن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه وأنا في مقامي هذا، وإني قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها.

وزاد بعضهم: فتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم.

وعن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: إن عبداً خيره الله بين أن يؤتاه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما

(١) أي دليلاً.

(٢) هو المتقدم على الواردين ليصلح لهم الحياض والدلاء ونحوها، أي: أنا سابقكم إلى الحوض.

عنده، فاختر ما عنده، فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال: يا رسول الله، فدينك بآبائنا وأمهاتنا، قال: فعجبنا [له] (١)، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتیه زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عند الله، وهو يقول: فدينك بآبائنا وأمهاتنا. قال: فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا به، فقال النبي ﷺ: إن أمنَّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام، لا يبقى في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر رضي الله عنه. رواه البخاري ومسلم.

ومسلم من حديث جندب: سمعت النبي ﷺ يقول قبل أن يموت بخمس ليال (٢).

وكان أبا بكر رضي الله عنه فهم الرمز الذي أشار به النبي ﷺ من قرينة ذكره ذلك في مرض موته، فاستشعر منه أنه أراد نفسه، فلذلك بكى.

وما زال ﷺ يعرض باقتراب أجله في آخر عمره، فإنه لما خطب في حجة الوداع قال للناس: «خذوا عني مناسككم، فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا» وطفق يودع الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع.

فلما رجع ﷺ من حجة الوداع إلى المدينة جمع الناس بماء يدعى «خما» (٣) في طريقه بين مكة والمدينة، فخطبهم وقال: أيها الناس، إنما

(١) في (ط، ش).

(٢) تنمة الحديث: إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل. رقمه عند مسلم ٥٣٢ [م].

(٣) أي غدیر خم.

أنا بشر مثلكم، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، ثم حض على التمسك بكتاب الله ووصى بأهل بيته.

[فضل أبي بكر]

قال الحافظ ابن رجب: وكان ابتداء مرضه ﷺ في أواخر شهر صفر، وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يوماً في المشهور.

وكانت خطبته التي خطب بها المذكورة في حديث أبي سعيد الذي قدمته في ابتداء مرضه الذي مات فيه، فإنه خرج - كما رواه الدارمي - وهو معصوب الرأس بخرقه، حتى أهوى إلى المنبر فاستوى عليه فقال: والذي نفسي بيده، إني لأنظر إلى الحوض من مقامي هذا، ثم قال: إن عبداً/ عرضت عليه الدنيا. الخ، ثم هبط عنه ٤٠٠/أ فما روي عليه حتى الساعة.

فلما عرض ﷺ على المنبر باختياره اللقاء على البقاء، ولم يصرح، خفي المعنى على كثير ممن سمع، ولم يفهم المقصود غير صاحبه الخصاص به، ثاني اثنين إذ هما في الغار، وكان أعلم الأمة بمقاصد الرسول ﷺ، فلما فهم المقصود من هذه الإشارة بكى وقال: بل نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا، فسكن الرسول ﷺ جزعه، وأخذ في مدحه والثناء عليه على المنبر، ليعلم الناس كلهم فضله، فلا يقع عليه اختلاف في خلافته فقال: إن أمنَّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر - رضي الله عنه - ثم قال ﷺ: لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام، لما كان ﷺ لا يصلح له أن يخال مخلوقاً، فإن الخليل من جرت صحبة خليله منه مجرى الروح ولا يصلح هذا لبشر، كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلاً
 أثبت له أخوة الإسلام، ثم قال ﷺ: لا يبقى في المسجد
 خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر، إشارة إلى أن أبا بكر هو الإمام
 بعده، فإن الإمام يحتاج إلى سكن المسجد والاستطراق فيه بخلاف
 غيره، وذلك من مصالح المسلمين المصلين، ثم أكد هذا المعنى بأمره
 صريحاً أن يصلي بالناس أبو بكر رضي الله عنه، فروجع في ذلك وهو
 يقول: مروا أبا بكر أن يصلي بالناس، فولاه إمامة الصلاة، ولذا قال
 الصحابة عند بيعة أبي بكر رضي الله عنه: رضيه رسول الله ﷺ لدينا
 أفلا نرضاه لدينا.

[ابتداء مرضه ﷺ]

وكان ابتداء مرض رسول الله ﷺ في بيت ميمونة، كما ثبت في
 رواية معمر عن الزهري^(١)، وفي سيرة أبي معشر: كان في بيت زينب
 بنت جحش، وفي سيرة سليمان التيمي كان في بيت ریحانة، والأول هو
 المعتمد.

وذكر الخطابي، أنه ابتدأ به يوم الإثنين، وقيل يوم السبت،
 وقال الحاكم أبو أحمد: يوم الأربعاء، واختلف في مدة مرضه، فالأكثر
 أنها ثلاثة عشر يوماً، وقيل: أربعة عشر، وقيل: اثنا عشر، وذكرهما
 في الروضة، وصدر بالثاني، وقيل عشرة أيام، وبه جزم سليمان التيمي
 في مغازيه، وأخرجه البيهقي بإسناد صحيح.

(١) في الصحيحين.

[في بيت عائشة]

وفي البخاري: قالت عائشة: لما ثقل رسول الله ﷺ واشتد وجعه استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي فأذنَّ له، فخرج وهو بين رجلين^(١) تخط رجلاه في الأرض بين عباس بن عبد المطلب وبين رجل آخر. قال عبيدالله فأخبرت عبدالله بالذي قالت عائشة فقال لي عبدالله ابن عباس: هل تدري من الرجل الآخر الذي لم تسم عائشة؟ قال: قلت لا، قال ابن عباس: هو علي بن أبي طالب. الحديث.

وفي رواية مسلم عن عائشة: فخرج بين الفضل بن العباس ورجل آخر.

وفي أخرى^(٢): رجلين أحدهما أسامة. وعند الدارقطني: أسامة والفضل، وعند ابن حبان في أخرى: بريرة ونوبة - بضم النون وسكون الواو ثم موحدة - قيل وهو اسم أمة، وقيل: عبد. وعند ابن سعد من وجه آخر: بين الفضل وثوبان. وجمعوا بين هذه الروايات على تقدير ثبوتها بأن خروجه تعدد، فتعدد من اتكأ عليه.

وعن عائشة رضي الله عنها، أنه ﷺ قال لنسائه: إني لا أستطيع أن أدور في بيوتكن، فإن شئتن أذنتن لي. رواه أحمد.

وفي رواية هشام بن عروة عن أبيه^(٣) عن عائشة: أنه ﷺ كان يقول: أين أنا غداً، أين أنا غداً؟ يريد يوم عائشة.

وذكر ابن سعد بإسناد صحيح عن الزهري: أن فاطمة هي التي

(١) في (أ، ب) الرجلين.

(٢) لغير مسلم.

(٣) «عن أبيه» ليست في (أ، د).

ب/٤٠٠ خاطبت أمهات المؤمنين بذلك فقالت/ لهن: إنه يشق عليه الاختلاف^(١).

وفي رواية ابن أبي مليكة عن عائشة أن دخوله ﷺ بيتها كان يوم الإثنين، وموته يوم الإثنين الذي يليه.

وفي مرسل أبي جعفر عند ابن أبي شيبة: أنه ﷺ قال: أين أكون أنا غدأ، كررها [مرتين]^(٢)، فعرف^(٣) أزواجه أنه إنما يريد عائشة، فقلن: يا رسول الله، قد وهبنا أيامنا لأختنا عائشة.

وفي رواية هشام بن عروة عن أبيه - عند الإسماعيلي - كان يقول: أين أنا [غدأ]^(٤) حرصاً على بيت عائشة، فلما كان يومي أذن له نساؤه أن يمرض في بيتي.

وعن عائشة: أتى رسول الله ﷺ ذات يوم من جنازة بالبقيع، وأنا أجد صداعاً في رأسي، وأنا أقول: وارأساه، فقال: بل أنا وارأساه، ثم قال: ما ضرك لو مت قبلي فغسلتك وكففتك وصليت عليك ودفنتك، فقالت: لكأني بك والله لو فعلت ذلك، لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نساءك، فتبسم ﷺ، ثم بدأ في وجعه الذي مات فيه. رواه أحمد والنسائي.

وفي البخاري، قالت عائشة: وارأساه فقال ﷺ ذاك لو كان وأنا حي فأستغفر لك وأدعو لك، فقالت عائشة: واثكليه، والله إني

(١) أي المجيء والرواح من حجرة إلى أخرى.

(٢) في (ط، ش).

(٣) كذا في ش، وفي النسخ: فعرفن.

(٤) في (ط، ش).

لأظنك تحب موتي، فلو كان ذلك لظللت آخر يومك معرساً ببعض أزواجك، فقال ﷺ: بل أنا وأرأساه، لقد هممت أو أردت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهد أن يقول القائلون أو يتمنى المؤمنون، ثم قلت: يأبى الله ويدفع المؤمنون، أو يدفع الله ويأبى المؤمنون^(١).

وقوله: «بل أنا ورأساه» إضراب، يعني: دعى ذكر ما تجدينه من وجع رأسك واشتغلي بي.

فإن قلت: قد اتفقوا على كراهة شكوى العبد كربه^(٢)، وروى أحمد في الزهد عن طاووس أنه قال: أنين المريض شكوى، وجزم أبو الطيب وابن الصباغ وجماعة من الشافعية أن تأوه المريض مكروه.

قلت: تعقبه النووي فقال: هذا ضعيف أو باطل، فإن المكروه ما ثبت فيه نهي مخصوص، وهو لم يثبت فيه ذلك، ثم احتج بحديث عائشة هذا، ثم قال: فلعلهم أرادوا بالكراهة خلاف الأولى، فإنه لا شك أن اشتغاله بالذكر أولى. انتهى.

قال في فتح الباري: ولعلهم أخذوه بالمعنى من كون كثرة الشكوى تدل على ضعف اليقين وتشعر بالتسخط للقضاء، وتورث شماتة الأعداء، وأما إخبار المريض صديقه أو طبيبه عن حاله فلا بأس به اتفاقاً، فليس ذكر الوجع شكاية. فكم من ساكت وهو ساخط، وكم من شاك وهو راض، فالمعول في ذلك على عمل القلب [اتفاقاً]^(٣) لا على نطق اللسان.

(١) رقمه في البخاري ٧٢١٧.

(٢) في (أ، ش) ربه.

(٣) في (ب، ط).

وقد تبين - كما نبه عليه في «اللطائف» - أن أول مرضه ﷺ كان صداع الرأس، والظاهر أنه كان مع حمى، فإن الحمى اشتدت به في مرضه، فكان يجلس في مَحْضَب^(١) ويصب عليه الماء من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن^(٢)، يتبرد بذلك.

وفي البخاري قالت عائشة: لما دخل بيتي واشتد وجعه قال: أهريقوا عليّ من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن، لعلي أعهد إلى الناس، فأجلسناه في مخضب لحفصة - زوج النبي ﷺ - ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب، حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن. الحديث.

وقد قيل في الحكمة في هذا العدد: أن له خاصية في دفع ضرر السم والسحر، وسيأتي إن شاء الله تعالى أنه ﷺ قال: «هذا أوان انقطاع أهري»، أي من ذلك السم. وتمسك بعض من أنكر نجاسة سؤر الكلب به، وزعم أن الأمر بالغسل منه سبعاً إنما هو لدفع السمية التي في ريقه.

وكانت ﷺ عليه قطيفة، فكانت الحمى تصيب من يضع يده عليه من فوقها^(٣) فقيل له في ذلك فقال: إنا كذلك يشدد علينا البلاء ويضاعف لنا الأجر، رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، كلهم من رواية أبي سعيد الخدري.

وقالت عائشة: ما رأيت أحداً كان أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ^(٤).

(١) إناء يغتسل فيه.

(٢) الوكاء: رباط القربة وغيرها، كما في القاموس [م].

(٣) أي إن حرارة جسمه ﷺ كانت تصل إلى يده لشدتها [م].

(٤) رواه الشيخان.

وعن عبدالله / قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك، فقلت: ٤٠١/أ
يا رسول الله، إنك توعك وبعكاً شديداً، قال: أجل، إني أوعك كما
يوعك رجلان منكم، قلت: ذلك أن لك أجرين، قال: أجل، ذلك
كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله به
سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها. رواه البخاري.

والوَعَكُ - بفتح الواو وسكون العين المهملة، وقد تفتح -:
الحمى، وقيل: ألم الحمى، وقيل: إرعاها الموعك وتحريكها إياه.
وعن الأصمعي: الوعك: الحر، فإن كان محفوظاً فلعل الحمى سميت
وعكاً لحرارتها.

قال أبو هريرة: ما من وجع يصيبني أحب إليّ من الحمى، إنها
تدخل في كل مفصل من ابن آدم، وإن الله يعطي كل مفصل قسطاً
من الأجر.

وأخرج النسائي، وصححه الحاكم، من حديث فاطمة بنت
اليمان - أخت حذيفة - قالت: أتيت النبي ﷺ في نساء نعوده: فإذا
سقاء يقطر عليه من شدة الحمى، فقال: إن من أشد الناس بلاء
الأنبياء ثم الذين يلونهم.

وفي حديث عائشة: أنه ﷺ كان بين يديه علبه أو ركوة فيها
ماء، فجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه ويقول: (لا إله
إلا الله إن للموت سكرات) الحديث رواه الشيخان.

وروى أيضاً^(١) عن عروة أنه ﷺ قال: ما أزال أجد ألم الطعام
الذي أكلت بخير، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم.

(١) أي البخاري تعليقا.

وفي رواية^(١): ما زالت أكلة خيبر تُعَادني^(٢).

والأكلة: بالضم، اللقمة التي أكل من الشاة. وبعض الرواة يفتح الألف، وهو خطأ لأنه ﷺ لم يأكل منها إلا لقمة واحدة، قاله ابن الأثير.

ومعنى الحديث: أنه نقض عليه سم الشاة التي أهدتها له اليهودية، فكان ذلك يثور عليه أحياناً.

والأبهر: عرق مستبطن بالصلب يتصل بالقلب، إذا انقطع مات صاحبه.

وقد كان ابن مسعود وغيره يرون أنه ﷺ مات شهيداً من السم.

وعند البخاري أيضاً قالت: إن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح بيده، فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه، طفقت أنفث عليه بالمعوذات التي كان ينثف وأمسح بيد النبي ﷺ عنه.

وفي رواية مالك^(٣): وأمسح بيده رجاء بركتها.

ولمسلم، فلما مرض مرضه الذي مات فيه جعلت أنفث عليه وأمسح بيد نفسه لأنها كانت أعظم بركة من يدي.

وأطلقت على السور الثلاث: المعوذات، تغليياً.

(١) لابن سعد بأسانيد متعددة.

(٢) أي تراجعني ويعاودني ألم سمها.

(٣) عند البخاري.

وفي البخاري عن عائشة: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر على النبي ﷺ وأنا مسنده إلى صدري، ومع عبد الرحمن سواك رطب يستن به، فأبده رسول الله ﷺ بصره، فأخذت السواك فقضمته ونفضته وطيبته، ثم دفعته إلى النبي ﷺ فاستن به، فما رأته استن استناناً قط أحسن منه. الحديث.

قولها^(١): «فأبده» بتشديد الدال المهملة أي: مد نظره إليه.

وقولها: «فقضمته» - بكسر الضاد المعجمة - أي: لطوله ولإزالة المكان الذي تسوك به عبد الرحمن. «ثم طيبته»: أي لينته بالماء.

وفي رواية له^(٢) أيضاً: قالت: إن من نعم الله تعالى عليّ أن جمع الله بين ريقِي وريقه عند موته، دخل عليّ عبد الرحمن وبيده سواك، وأنا مسنده رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليّ، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت آخذه لك؟ فأشار برأسه: أن نعم.

وفي رواية^(٣): مر عبد الرحمن وفي يده جريدة رطبة، فنظر إليه ﷺ فظننت أن له بها حاجة، فأخذتها فمضغت رأسها ونفضتها ودفعتها إليه فاستن بها كأحسن ما كان مستناً، ثم ناولنيها فسقطت يده أو سقطت من يده، فجمع الله بين ريقِي وريقه في آخر يوم/ من ٤٠١/ب الدنيا، وأول يوم من الآخرة.

وفي حديث خرجه العقيلي، أنه ﷺ قال لها في مرضه: اثتيني

(١) كذا في ب. وفي النسخ: قوله.

(٢) أي البخاري.

(٣) رواه البخاري.

بسواك رطب فامضغيه ثم اثتيني به أمضغه لكي يختلط ريقى بريقك لكي يهون علي عند الموت^(١).

قال الحسن: لما كرهت الأنبياء الموت هون الله عليهم ذلك بقاء الله، وبكلما أحبوا من تحفة أو كرامة، حتى إن نفس أحدهم لتتزع من بين جنبيه وهو محب لذلك، لما قد مثل له.

وفي المسند عن عائشة أيضاً: أن النبي ﷺ قال: إنه ليهون علي الموت لأني رأيت بياض كف عائشة في الجنة. وخرجه ابن سعد وغيره مرسلًا: أنه ﷺ قال: لقد رأيتها في الجنة، حتى ليهون عليّ بذلك موتي، كأني أرى كفيها، يعني عائشة.

فقد كان ﷺ يحب عائشة حباً شديداً، حتى لا يكاد يصبر عنها، فمثلت له بين يديه في الجنة ليهون عليه موته، فإن العيش إنما يطيب باجتماع الأحبة، وقد سأله ﷺ رجل فقال: أي الناس أحب إليك؟ فقال: «عائشة» فقال: من الرجال: قال: «أبوها»^(٢)، ولهذا قال لها في ابتداء مرضه لما قالت: وارأساه: وددت أن ذلك كان وأنا حي فأصلي عليك وأدفنك، فعظم ذلك عليها، وظنت أنه يجب فراقها، وإنما ﷺ يريد تعجيلها بين يديه ليقرب اجتماعها.

ويروى أنه كان عنده ﷺ في مرضه سبعة دنانير، فكان يأمرهم بالصدقة بها ثم يغمى عليه، فيشتغلون بوجعه، فدعا بها فوضعها في كفه فقال: ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه؟ ثم تصدق بها كلها، رواه البيهقي.

(١) هذا يعارض ما ورد في الأحاديث السابقة الصحيحة التي تؤكد أنه ﷺ لم

يتكلم، وإنما فهمت عائشة رغبته من نظرتة. مما يدل على ضعفه [م].

(٢) متفق عليه.

انظر إذا كان هذا سيد المرسلين، وحبیب رب العالمین المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف حال من لقي الله وعنده دماء المسلمين وأموالهم المحرمة، وما ظنه بربه تعالى.

[مساررته ﷺ لفاطمة]

وفي البخاري^(١) من طريق عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: دعا النبي ﷺ فاطمة في شكواه الذي قبض فيه، فسارها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارها فضحكت، فسألناها عن ذلك فقالت: سارني النبي ﷺ أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه فبكت، ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه فضحكت.

وفي رواية مسروق عن عائشة^(٢): أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشية النبي ﷺ، فقال: مرحباً يا بنتي، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم سارها.

ولأبي داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم من طريق عائشة بنت طلحة عن عائشة قالت: ما رأيت أحداً أشبه سمياً وهدياً ودلاً^(٣) برسول الله ﷺ في قيامها وقعودها من فاطمة. وكانت إذا دخلت على النبي ﷺ قام إليها وقبلها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها فعلت ذلك، فلما مرض دخلت عليه فأكبت عليه فقبلته.

(١) وكذا رواه مسلم والنسائي.

(٢) في الصحيحين وغيرهما.

(٣) هذه الصفات: عبارة عن الحالة التي يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار وحسن السيرة..

وانفقت الروايتان^(١): على أن الذي سارّها به أولاً فبكت، هو إعلامه إياها أنه ميت في مرضه ذلك، واختلفتا فيما سارّها به فضحكت، ففي رواية عروة أنه: إخباره إياها بأنها أول أهله لحوقاً به، وفي رواية مسروق أنه: إخباره إياها أنها سيدة نساء أهل الجنة. وجعل كونها أول أهله لحوقاً به مضموماً إلى الأول، وهو الراجح، فإن حديث مسروق يشتمل على زيادات ليست في حديث عروة، وهو من الثقات الضابطين.

فما زاده مسروق: قول عائشة فقلت: ما رأيت كالיום فرحاً أقرب من حزن، فسألته عن ذلك فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ، حتى توفي النبي ﷺ فسألته فقالت: أسر إليّ أن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وأنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وأنت أول أهل بيتي لحاقاً بي.

وفي رواية عائشة بنت طلحة من الزيادة: أن عائشة لما رأَت بكأها وضحكها قالت: إن كنت لأظن أن هذه المرأة من أعقل النساء، فإذا هي من النساء. ويحتمل تعدد القصة.

وفي رواية عروة الجزم أنه ميت من وجعه ذلك / بخلاف رواية مسروق ففيها أنه ظن ذلك بطريق الاستنباط مما ذكره من معارضة القرآن.

وقد يقال: لا منافاة بين الخبرين إلا بالزيادة، ولا يمتنع أن

٤٠٢/أ

(١) أي روايتا الصحيحين من طريق عروة، ومن طريق مسروق، المار ذكرهما أول هذه الفقرة [م].

يكون إخباره بكونها أول أهله لحوقاً به سبباً لبكائها ولضحكها باعتبارين، فذكر كل من الراويين ما لم يذكره الآخر.

وقد روى النسائي من طريق أبي سلمة عن عائشة في سبب البكاء أنه ميت، وفي سبب الضحك الأمرين الآخرين.

ولابن سعد من رواية أبي سلمة عنها: أن سبب البكاء موته، وسبب الضحك لحاقها به.

وعند الطبراني - من وجه آخر - عن عائشة أنه قال لفاطمة: إن جبريل أخبرني أنه ليس امرأة من نساء المؤمنين أعظم رزية منك، فلا تكوني أدنى امرأة منهن صبراً.

وفي الحديث: إخباره ﷺ بما سيقع، فوقع كما قال ﷺ، فإنهم اتفقوا على أن فاطمة رضي الله عنها كانت أول من مات من أهل بيت النبي ﷺ بعده، حتى من أزواجه عليه الصلاة والسلام. (١)

[فيه ﷺ عن إعطائه الدواء]

وقد كان ﷺ من شدة وجعه يغمى عليه في مرضه ثم يفيق، وأغمي عليه مرة فظنوا أن وجعه ذات الجنب فلدوه، فجعل يشير إليهم أن لا يلدوه، فقالوا: كراهية للدواء، فلما أفاق قال: ألم أنحكم أن تلدوني؟ فقالوا: كراهية المريض للدواء، فقال: لا يبقى أحد في البيت إلا لدد وأنا أنظر، إلا العباس فإنه لم يشهدكم. رواه البخاري.

(١) ما ورد في هذه الفقرة منقول عن فتح الباري في شرح الحديث رقم ٤٤٣٣

واللدود، هو ما يجعل في جانب الفم من الدواء، فأما ما يصب في الحلق فيقال له: الوجور.

وفي الطبراني من حديث العباس: أنهم أذابوا قسطاً بزيت ولدوه به.

وفي قوله «لا يبقى أحد في البيت إلا لُدَّ، الخ» مشروعية القصاص فيما يصاب به الإنسان، وفيه نظر: لأن الجميع لم يتعاطوا ذلك، وإنما فعل بهم ذلك عقوبة لهم لتركهم امتثال نهيهِ عما نهاهم عنه. قال ابن العربي: أراد أن لا يأتوا يوم القيامة وعليهم حقه فيقعوا في خطيئة عظيمة. وتعقب: بأنه كان يمكن أن يقع العفو، ولأنه كان لا ينتقم لنفسه، والذي يظهر أنه أراد بذلك تأديبهم لئلا يعودوا، فكان ذلك تأديباً لا اقتصاصاً ولا انتقاماً.

قيل: وإنما كره اللدود مع أنه كان يتداوى، لأنه تحقق أنه يموت في مرضه، ومن تحقق ذلك كره له التداوي.

قال الحافظ ابن حجر: وفيه نظر، والذي يظهر أن ذلك كان قبل التخيير والتحقيق، وإنما أنكر التداوي لأنه كان غير ملائم لدائه، لأنهم ظنوا أن به ذات الجنب فداووه بما يلائمها، ولم يكن فيه ذلك، كما هو ظاهر في سياق الخبر.

وعند ابن سعد قال: كانت تأخذ رسول الله ﷺ الحاصرة، فاشتدت فأغمي عليه، فلدوه، فلما أفاق قال: كتمت ترون أن الله يسلم عليّ ذات الجنب، ما كان الله ليجعل لها علي سلطاناً، والله لا يبقى أحد في البيت إلا لُدَّ، فما بقي أحد في البيت إلا لُدَّ، ولدنا ميمونة وهي صائمة.

وروى أبو يعلى - بسند ضعيف فيه ابن لهيعة - من وجه آخر عن عائشة: أنه ﷺ مات من ذات الجنب.

وجمع بينهما: بأن ذات الجنب تطلق بإزاء مرضين: أحدهما ورم حار يعرض في الغشاء المستبطن، والآخر ريح محتقن بين الأضلاع، فالأول هو المنفي هنا. وقد وقع في رواية الحاكم في المستدرک: ذات الجنب من الشيطان، والثاني هو الذي أثبت هنا وليس فيه محذور كالأول.

[كتاب لم يكتب]

وفي حديث ابن عباس عند البخاري^(١): لما حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ: هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك، فلما أكثروا اللغو والاختلاف، قال رسول الله ﷺ قوموا. قال عبيدالله: فكان/ ابن عباس يقول: الرزية كل الرزية ما ٤٠٢/ب
حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغظهم.

قال المازري: إنما جاز للصحابة الاختلاف في هذا الكتاب: مع صريح أمره لهم بذلك. لأن الأوامر قد يقارنها ما ينقلها من الوجوب، فكانه ظهرت منه قرينة دلت على أن الأمر ليس على التحتم، بل على

(١) رواه البخاري برقم ٤٤٣٢.

الاختيار، فاختلف اجتهادهم، وصمم عمر على الامتناع لما قام عنده من القرائن بأنه ﷺ قال ذلك عن غير قصد جازم.

وقال النووي: اتفق العلماء على أن قول عمر: «حسبنا كتاب الله» من قوة فقهه ودقيق نظره، لأنه خشي أن يكتب أموراً ربما عجزوا عنها فيستحقوا العقوبة لكونها منصوصة، وأراد أن لا يسد باب الاجتهاد على العلماء، وفي تركه ﷺ الانكار على عمر إشارة إلى تصويبه، وأشار بقوله: «حسبنا كتاب الله» إلى قوله تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾^(١)، ولا يعارض ذلك قول ابن عباس: «إن الرزية الخ» لأن عمر كان أفته منه قطعاً، ولا يقال إن ابن عباس لم يكتف بالقرآن مع أنه حبر القرآن، وأعلم الناس بتفسيره وتأويله، ولكنه أسفاً على ما فاته من البيان بالتنصيص عليه، لكونه أولى من الاستنباط، والله أعلم.

[صلاة أبي بكر بالناس]

ولما اشتد به ﷺ وجعه قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، فقالت له عائشة: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق، إذا قام مقامك لا يسمع الناس من البكاء، قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس فعاودته بمثل مقالتها، فقال: إنكن صواحبات يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس. رواه الشيخان وأبو حاتم واللفظ له.

وفي رواية^(٢): إن أبا بكر رجل أسيف^(٣).

(١) سورة الأنعام، الآية ٣٨.

(٢) للشيخين.

(٣) أي حزين.

وفي حديث عروة عن عائشة عند البخاري^(١): فمر عمر فليصل بالناس، قالت: قلت لحفصة قولي له إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل بالناس، ففعلت حفصة، فقال رسول الله ﷺ: مه، إنكن لأنتن صواحب يوسف. مروا أبا بكر فليصل بالناس، فقالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيراً.

والأسيف: بوزن فعيل، وهو بمعنى فاعل، من الأسف وهو شدة الحزن، والمراد به هنا، رقيق القلب.

ولابن حبان من رواية عاصم عن شقيق عن مسروق عن عائشة في هذا الحديث: قال عاصم: والأسيف الرقيق الرحيم، وصواحب: جمع صاحبة، والمراد: أنهن مثل صواحب يوسف في إظهار ما في الباطن.

ثم إن هذا الخطاب، وإن كان بلفظ الجمع، فالمراد به واحدة وهي عائشة رضي الله عنها. ووجه المشابهة بينها في ذلك أن زليخا استدعت النسوة وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة، ومرادها الزيادة على ذلك وهو أن ينظرن إلى حسن يوسف ويعذرنها في محبته، وأن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن أبيها لكونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك، وهو أن لا يتشاءم الناس به. وقد صرحت هي بذلك، كما عند البخاري في باب وفاته ﷺ فقالت: لقد راجعته وما حملني على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلاً قام مقامه أبداً. وأن لا كنت أرى أنه لن يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس به.

(١) رواه البخاري برقم ٦٧٩.

وقد نقل الدمياطي: أن الصديق صلى بالناس سبع عشرة صلاة.

[حديث ضعيف]

وقد ذكر الفاكهي في «الفجر المنير» مما عزاه لسيف [الدين] (١) ابن عمر (٢) في كتاب «الفتوح» أن الأنصار لما رأوا رسول الله ﷺ يزداد وجعاً، أطافوا بالمسجد، فدخل العباس فأعلمه ﷺ بمكانهم وإشفاقهم، ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك، ثم دخل عليه علي بن أبي طالب كذلك. فخرج ﷺ متوكئاً على علي والفضل والعباس أمامه، والنبي ﷺ معصوب الرأس يخط برجليه، حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر وثار الناس إليه، فحمد الله / وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس، بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم، هل خلد نبي قبلي فيمن بعث إليه فأخلد فيكم؟ ألا إني لاحق بربي، وإنكم لاحقون به، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصي المهاجرين فيما بينهم، فإن الله تعالى يقول: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾ إلى آخرها، وإن الأمور تجري بإذن الله تعالى، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد، ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه، ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ (٣)، وأوصيكم بالأنصار خيراً، فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم، ألم

(١) في (ب، ط).

(٢) ضعيف الحديث، أفحش ابن حبان القول فيه.

(٣) سورة محمد، الآية ٢٢.

يشاطروكم في الثمار؟ ألم يوسعوا لكم في الديار؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة؟ ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئتهم، ألا ولا تستأثروا عليهم، ألا وإني فرط لكم، وأنتم لاحقون بي، ألا وإن موعدكم الحوض، ألا فمن أحب أن يردّه عليّ غدأً فليكف يده ولسانه، إلا فيما ينبغي، يا أيها الناس، إن الذنوب تغير النعم، وتبدل القسَم، فإذا برّ الناس، برّهم أئمتهم، وإذا فجر الناس عقوهم.

[الوصية بالأنصار]

وفي حديث أنس عند البخاري: قال: مرّ أبو بكر والعباس بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال: ما يبكيكم؟ فقالوا: ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا، فدخل أحدهما على النبي ﷺ فأخبره بذلك، فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية برد، فصعد المنبر - ولم يصعده بعد ذلك اليوم - فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعييتي، وقد قضاوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئتهم.

وقوله «كرشي وعييتي» أي [موضع سري] (١) أراد أنهم بطانته وموضع أمانته، والذين يعتمد عليهم في أموره. واستعار الكرش والعيبة لذلك. لأن المجتر يجمع علفه في كرشه، والرجل يجمع ثيابه في عييته، وقيل: أراد بالكرش الجماعة، أي جماعتي وصحابتي. يقال: عليه كرش من الناس، أي جماعة، قاله في النهاية.

(١) ليست في الأصل.

[حديث واهٍ جداً]

وذكر الواحدي بسند وصله بعبدالله بن مسعود قال: نعى لنا رسول الله ﷺ نفسه قبل موته بشهر، فلما دنا الفراق جمعنا في بيت عائشة فقال: حياكم الله بالسلام، رحمكم الله، جبركم الله، رزقكم الله، نصركم الله، رفعكم الله، آواكم الله، أوصيكم بتقوى الله، وأستخلفه عليكم، وأحذركم الله، إني لكم منه نذير مبين، أن لا تعلقوا على الله في بلاده وعباده، فإنه قال لي ولكم: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾^(١) وقال: ﴿أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾^(٢)، قلنا يا رسول الله، متى أجلك؟ قال: دنا الفراق، والمنقلب إلى الله وإلى جنة المأوى، قلنا: يا رسول الله، من يغسلك؟ قال: رجال من أهل بيتي الأدنى فالأدنى، قلنا يا رسول الله، فيم نكفئك؟ قال: في ثيابي هذه وإن شئتم في [بياض]^(٣) ثياب مصر، أو حلة يمنية، قلنا: يا رسول الله، من يصلي عليك؟ قال: إذا أنتم غسلتموني وكفتموني فضعوني على سريري هذا على شفير قبري، ثم اخرجوا عني ساعة، فإن أول من يصلي علي جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت ومعه جنود من الملائكة، ثم ادخلوا علي فوجاً [فوجاً]^(٤)، فصلوا عليّ وسلموا تسليماً، وليبدأ بالصلاة عليّ رجال أهل بيتي، ثم نساؤهم، ثم أنتم، واقروا والسلام على من غاب من أصحابي ومن تبعني على ديني،

(١) سورة القصص، الآية ٨٣.

(٢) سورة الزمر، الآية ٦٠.

(٣) ليست في الأصل.

(٤) في (ط، ش، د).

من يومي هذا إلى يوم القيامة، قلنا: يا رسول الله، من يدخلك قبرك؟ قال: أهلي مع ملائكة ربي. وكذا رواه الطبراني في «الدعاء» وهو واه جداً.

[«اللهم الرفيق الأعلى»]

وقالت عائشة: كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يُحْيَا^(١) أو يُخْرِج. فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذي غشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال: اللهم [في]^(٢) الرفيق / ٤٠٣/ب الأعلى، فقلت: إذأ لا يختارنا، فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا وهو صحيح^(٣).

وفي رواية: أنها أصغت إليه قبل أن يموت، وهو مُسْتَد إلى ظهره يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني وألحمني بالرفيق الأعلى». رواه البخاري من طريق الزهري عن عروة.

وما فهمته عائشة من قوله ﷺ: «اللهم [في]^(٤) الرفيق الأعلى» أنه خير، نظير فهم أبيه رضي الله عنه من قوله ﷺ: «إن عبداً خيره الله ما بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده» أن العبد المراد هو النبي ﷺ حتى بكى كما قدمته. ذكره الحافظ ابن حجر.

(١) قال الشارح: أي يسلم إليه الأمر أو يملك في أمره، أو يسلم عليه تسليم الوداع. والشك من الراوي.

(٢) في (ط، ش، د).

(٣) هو عند البخاري برقم ٤٤٣٧.

(٤) في (ط، ش، د).

وعند أحمد من طريق المطلب [بن عبد المطلب] (١) بن عبد الله عن عائشة: أن النبي ﷺ كان يقول: ما من نبي يقبض إلا يرى الثواب ثم يخير.

ولأحمد أيضاً، من حديث [أبي] (٢) مويهبة قال: قال لي رسول الله ﷺ: أوتيت مفاتيح خزائن الأرض والخلد ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي فاخترت لقاء ربي والجنة.

وعند عبد الرزاق من مرسل طاووس، رفعه: خيرت بين أن أبقى حتى أرى ما يفتح على أمتي، وبين التعجيل فاخترت التعجيل. وفي رواية أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه عند النسائي، وصححه ابن حبان: فقال أسأل الله الرفيق الأعلى الأسعد مع جبريل وميكائيل وإسرافيل.

وظاهره: أن الرفيق [الأعلى] (٣)، المكان الذي تحصل المرافقة فيه مع المذكورين، وقال ابن الأثير في «النهاية» الرفيق: جماعة الأنبياء الذين يسكنون أعلى عليين، وقيل: المراد به الله تعالى، يقال: الله رفيق بعباده من الرفق والرأفة، انتهى، وقيل: المراد حظيرة القدس.

[وفي كتاب «روضة التعريف بالحلب الشريف»: لما تجلى له الحق ضعفت العلائق بينه وبين المحسوسات والحظوظ الضرورية من أواني معاني الترقيات البشرية، فكانت أحواله في زيادة الترقى، ولذلك روي أنه ﷺ قال: كل يوم لا أزداد فيه قرباً من الله فلا بورك لي في طلوع

(١) في المخطوطات.

(٢) في (ط، ش). وأبو مويهبة هو مولى للرسول ﷺ.

(٣) في (ب، ط).

شمسه. وكلما فارق مقاماً واتصل بما هو أعلى منه لمح الأول بعين النقص، وسار على ظهر المحبة، ونعمت المطية لقطع هذه المراحل والمقامات والأحوال، والسفر إلى حضرة ذي الجلال، والاتصال بالمحبوب الذي كل شيء هالك إلا وجهه^(١).

وقال السهيلي: الحكمة في اختتام كلامه ﷺ بهذه الكلمة، كونها تتضمن التوحيد والذكر بالقلب، حتى يستفاد منها الرخصة لغيره أنه لا يشترط أن يكون الذكر باللسان، لأن بعض الناس قد يمنعه من النطق مانع، فلا يضره إذا كان قلبه عامراً بالذكر. انتهى ملخصاً.

قال الحافظ ابن رجب: وقد روي ما يدل على أنه قبض ثم رأى مقعده من الجنة ثم ردت إليه نفسه ثم خير. ففي المسند قالت - يعني عائشة - كان النبي ﷺ يقول: ما من نبي إلا تقبض نفسه ثم يرى الثواب ثم ترد إليه فيخير بين أن ترد إليه إلى أن يلحق، فكنت قد حفظت ذلك عنه، فإني لمسندته إلى صدري، فنظرت إليه حتى مالت عنقه، فقلت: قضى، قالت: فعرفت الذي قال، فنظرت إليه حين ارتفع ونظر، فقلت: إذاً والله لا يختارنا، فقال: مع الرفيق الأعلى في الجنة، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وفي البخاري من حديث عروة عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ - وهو صحيح - يقول: إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يُجَيِّأ أو يُخَيَّر، فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على

(١) هذه الفقرة ليست في الأصل، وقد أشار الشارح إلى أنها سقطت من غالب النسخ.

فخذ عائشة غشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال: اللهم في الرفيق الأعلى.

ونبه السهيلي على أنه النكتة في الإتيان بهذه الكلمة بالإفراد، الإشارة إلى أن أهل الجنة يدخلونها على قلب رجل واحد.

وفي صحيح ابن حبان عنها قالت: أغمي على رسول الله ﷺ ورأسه في حجري. فجعلت أمسحه وأدعو له بالشفاء، فلما أفاق قال: أسأل الله الرفيق الأعلى مع جبريل وميكائيل وإسرافيل.

[إن للموت لسكرات]

ولما احتضر ﷺ، اشتد به الأمر، قالت عائشة: ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على النبي ﷺ، قالت: وكان عنده قدح من ماء، فيدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ويقول: اللهم أعني على سكرات الموت.

وفي رواية: (١) فجعل يقول: لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات.

قال بعض العلماء: فيه أن ذلك من شدة الآلام والأوجاع لرفعة منزلته.

وقال الشيخ / أبو محمد المرجاني: تلك السكرات سكرات الطرب، ألا ترى إلى قول بلال حين قال له أهله وهو في السياق (٢):

(١) رواه البخاري برقم ٦٥١٠.

(٢) السياق: النزاع.

واكرباه^(١)، ففتح عينيه وقال: واظرباه، غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه، فإذا كان هذا طربه وهو في هذا الحال بلقاء محبوبه وهو النبي ﷺ وحزبه، فما بالك بلقاء النبي ﷺ لربه تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ وهذا موضع تقصر العبارة عن وصف بعضه.

وفي حديث مرسل ذكره الحافظ ابن رجب: أنه ﷺ قال: اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل، فأعني عليه وهونه علي.

وعند الإمام أحمد والترمذي من طريق القاسم عنها قالت: ورأيتُه وعنده قدح فيه ماء وهو يموت، فيدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول: اللهم أعني على سكرات الموت.

ولما تغشاه الكرب، قالت فاطمة رضي الله عنها: واكرب أبتاه، فقال لها: لا كرب على أبيك بعد اليوم، رواه البخاري.

قال الخطابي: زعم من لا يعد من أهل العلم: أن المراد بقوله ﷺ: «لا كرب على أبيك بعد اليوم» أن كربه كان شفقة على أمته، لما علم من وقوع الاختلاف والفتن بعده، وهذا ليس بشيء، لأنه كان يلزم أن تنقطع شفقتُه على أمته بموته، والواقع أنها باقية إلى يوم القيامة، لأنه مبعوث إلى من جاء بعده، وأعمالهم تعرض عليه، وإنما الكلام على ظاهره، وإن المراد بالكرب ما كان يجده ﷺ من شدة الموت، وكان ﷺ فيما يصيب جسده من الآلام كالبشر ليتضاعف له الأجر، انتهى.

(١) في (ط، ش): واكرباه.

وروى ابن ماجه^(١): أنه ﷺ قال لفاطمة: إنه حضر من أبيك ما الله تعالى بتارك منه أحداً لموافاة يوم القيامة.

[نظرة وداع أثناء صلاتهم]

وفي البخاري من حديث أنس بن مالك: أن المسلمين بينما هم في صلاة الفجر من يوم الإثنين، وأبو بكر يصلي لهم لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبه ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، قال أنس: وهم المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده ﷺ أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخصي الستر.

وفي رواية أبي اليمان عن شعيب، عند البخاري، في «الصلاة»: فتوفي من يومه. وفي رواية معمر عنده أيضاً. و[كلها من]^(٢) حديث أنس: لم يخرج إلينا ﷺ ثلاثاً، فأقيمت الصلاة، فذهب أبو بكر يتقدم، فقال نبي الله ﷺ بالحجاب فرفعه، فلما وضع لنا وجه رسول الله ﷺ ما نظرنا منظراً كان أعجب إلينا من وجه رسول الله ﷺ حين وضع لنا، قال: فأوماً رسول الله ﷺ إلى أبي بكر أن يتقدم وأرخصي الحجاب. الحديث رواه الشيخان.

وعنه أن أبا بكر كان يصلي بهم في وجع النبي ﷺ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الإثنين، وهم صفوف في الصلاة، كشف

(١) ورواه البخاري والترمذي.

(٢) في (أ، ب).

رسول الله ﷺ ستر الحجرة، فنظرنا إليه وهو قائم، كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم رسول الله ﷺ ضاحكاً. الحديث رواه مسلم.

وقد جزم موسى بن عقبة عن ابن شهاب، أنه ﷺ مات حين زاغت الشمس، وكذا لأبي الأسود عن عروة.

[أحاديث ضعيفة]

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: لما بقي من أجل رسول الله ﷺ ثلاث، نزل عليه جبريل، فقال: يا محمد إن الله قد أرسلني إليك إكراماً لك، وتفضيلاً لك، وخاصة لك، يسألك عما هو أعلم به منك يقول: كيف تجدك؟ فقال: أجدي يا جبريل مغموماً، وأجدي يا جبريل مكروباً، ثم أتاه في اليوم الثاني فقال له مثل ذلك، ثم جاءه في اليوم الثالث فقال له مثل ذلك، ثم استأذن فيه ملك الموت فقال / ٤٠٤ ب
جبريل: يا محمد، هذا ملك الموت يستأذن عليك، ولم يأذن على نبي قبلك، ولا يستأذن على آدمي بعدك، قال: ائذن له، فدخل ملك الموت فوقف بين يديه فقال: يا رسول الله، إن الله عز وجل أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك في كل ما تأمر، إن أمرتني أن أقبض روحك قبضتها، وإن أمرتني أن أتركها تركتها، فقال جبريل: يا محمد، إن الله قد اشتاق إلى لقائك، فقال ﷺ: فامض يا ملك الموت لما أمرت به، فقال جبريل: يا رسول الله، هذا آخر موطني من الأرض، إنما كنت حاجتي من الدنيا. فقبض روحه، فلما توفي ﷺ، وجاءت التعزية سمعوا صوتاً من ناحية البيت: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودرکاً من كل فائت، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإنما المصاب من حرم الثواب

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فقال علي: أتدرون من هذا؟ هو الخضر عليه السلام. رواه البيهقي في دلائل النبوة.

وفي تخريج أحاديث الإحياء للحافظ العراقي: وذكر التعزية المذكورة عن ابن عمر، مما ذكره في الإحياء وأن النووي أنكروا وجود الحديث المذكور في كتب الحديث، وقال: إنما ذكره الأصحاب ثم قال العراقي: قد رواه الحاكم في المستدرک من حديث أنس ولم يصححه، ولا يصح.

ورواه ابن أبي الدنيا عن أنس أيضاً قال: لما قبض رسول الله ﷺ اجتمع أصحابه حوله يبكون، فدخل عليهم رجل طويل شعر المنكبين في إزار ورداء، يتخطى أصحاب رسول الله ﷺ حتى أخذ بعصاتي باب البيت فبكى على رسول الله ﷺ، ثم أقبل على أصحابه فقال: إن في الله عزاء من كل مصيبة، وعوضاً من كل فان. الحديث. وفيه: ثم ذهب الرجل، فقال أبو بكر: عليّ بالرجل، فنظروا يميناً وشمالاً فلم يروا أحداً، فقال أبو بكر لعلي: هذا الخضر، جاء يعزينا. ورواه ابن أبي الدنيا أيضاً من حديث علي بن أبي طالب، وفيه محمد بن جعفر الصادق، تكلم فيه، وفيه انقطاع بين علي بن الحسين وبين جده علي، والمعروف عن علي بن الحسين مرسلًا من غير ذكر علي، كما رواه الشافعي في الأم وليس فيه ذكر للخضر عليه السلام.

قال البيهقي: قوله: «إن الله اشتاق إلى لقاءك» معناه: قد أراد لقاءك بأن يردك من دنياك إلى معادك زيادة في قربك وكرامتك.

وأخرج الطبراني من حديث ابن عباس قال: جاء ملك الموت إلى النبي ﷺ في مرضه ورأسه في حجر علي، فاستأذن فقال: السلام

عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال له علي؛ ارجع فإننا مشاغيل عنك، فقال ﷺ: هذا ملك الموت، ادخل راشداً، فلما دخل قال: إن ربك يقرئك السلام. فبلغني أن ملك الموت لم يسلم على أهل بيت قبله ولا يسلم بعده.

[وفاته ﷺ]

وقالت عائشة: توفي رسول الله ﷺ في بيتي، في يومي، وبين سحري ونحري، وفي رواية: بين حاقتي وذاقتي. رواه البخاري.

والحاقنة: بالمهملة والقاف والنون، أسفل من الذقن.

والذاقنة: طرف الحلقوم.

والسُحر: بفتح السين وسكون الحاء المهملتين، هو الصدر.

والنُحر: بفتح النون وسكون الحاء المهملة.

والمراد: أنه ﷺ توفي ورأسه بين عنقها^(١) وصدرها.

وهذا لا يعارضه ما أخرجه الحاكم وابن سعد من طرق: أنه ﷺ مات ورأسه في حجر علي، لأن كل طريق منها - كما قاله الحافظ ابن حجر - لا تخلو من شيء^(٢)، فلا يلتفت لذلك والله أعلم.

قال السهيلي: وجدت في بعض كتب الواقدي: أن أول كلمة تكلم بها النبي ﷺ وهو مسترضع عند حليلة: الله أكبر، وآخر كلمة تكلم بها: الرفيق الأعلى.

(١) في المخطوطات: حنكها.

(٢) أي من مقال في إسناده، ولذلك فهي لا تقف في معارضة الصحيح.

وروى الحاكم من حديث أنس: أن آخر ما تكلم به ﷺ :
جلال ربي الرفيع.

ولما توفي ﷺ كان أبو بكر غائباً بالسنع - يعني العالية، عند زوجته بنت خارجة - وكان ﷺ قد أذن له في الذهاب إليها، فسئل عمر بن الخطاب سيفه/ وتوعد من يقول: مات رسول الله ﷺ، وكان يقول: إنما أرسل إليه كما أرسل إلى موسى عليه السلام، فلبث عن قومه أربعين ليلة، والله إني لأرجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم. فأقبل أبو بكر من السنع حين بلغه الخبر إلى بيت عائشة فدخل، فكشف عن وجه رسول الله ﷺ فجثا يقبله ويبكي ويقول: توفي والذي نفسي بيده، صلوات الله عليك يا رسول الله، ما أطيبك حياً وميتاً، ذكره الطبري في «الرياض».

أ/ ٤٠٥

وقالت عائشة: أقبل أبو بكر على فرس من مسكنه بالسنع، حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة، فبصر برسول الله ﷺ وهو مسجى ببرد حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبله ثم بكى وقال: بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها. رواه البخاري.

واختلف في قول أبي بكر رضي الله عنه: «لا يجمع الله عليك موتتين».

فقيل هو على حقيقته، وأشار بذلك إلى الرد على من زعم أنه سيحيا فيقطع أيدي رجال، لأنه لو صح ذلك للزم أن يموت موتة أخرى، فأخبر أنه أكرم على الله من أن يجمع عليه موتتين كما جمعها على غيره، كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف، وكالذي مر على قرية، وهذا أوضح الأجوبة وأسلمها.

وقيل: أراد أنه لا يموت مودة أخرى في القبر كغيره، إذ يجيا
ليستل ثم يموت، وهذا جواب الداودي.

وقيل: لا يجمع الله موت نفسك وموت شريعتك. وقيل: كنى
بالموت الثاني عن الكرب، أي لا يلقى بعد كرب الموت كرباً آخر.
قاله في فتح الباري.

وعنها: أن عمر قام يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، فجاء
أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبله وقال: بأبي أنت وأمي،
طبت حياً وميتاً، والذي نفسي بيده، لا يذيقك الله الموتين أبداً، ثم
خرج فقال: أيها الخالف، على رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس
عمر، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبد محمداً
فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقال:
﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾^(١) وقال: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت
من قبله الرسل﴾ الآية^(٢)، قال: فنشج الناس بيبكون، رواه
البخاري.

يقال: نشج الباكي، إذا غص بالبكاء في حلقه من غير
انتحاب.

وعن سالم بن عبيد الأشجعي قال: لما مات رسول الله ﷺ كان
أجزع الناس كلهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخذ بقائم سيفه
وقال: لا أسمع أحداً يقول: مات رسول الله ﷺ إلا ضربته بسيفي
هذا، قال: فقال الناس يا سالم، أطلب صاحب رسول الله ﷺ،

(١) سورة الزمر، الآية ٣٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

قال: فخرجت إلى المسجد، فإذا بأبي بكر، فلما رأيته أجهشت بالبكاء، فقال: يا سالم أمت رسول الله ﷺ؟ فقلت: إن هذا عمر بن الخطاب يقول: لا أسمع أحداً يقول مات رسول الله ﷺ إلا ضربته بسيفي هذا، قال: فأقبل أبو بكر حتى دخل على النبي ﷺ وهو مسجى، فرفع البرد عن وجهه، ووضع فاه على فيه واستنشى^(١) الريح، ثم سجاه والتفت إلينا فقال: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ الآية، وقال: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ يا أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال عمر: فوالله لكأني لم أتل هذه الآيات قط، خرجه الحافظ أبو أحمد حمزة بن الحارث، كما ذكره الطبري في «الرياض» له، وقال: خرج الترمذي معناه بتمامه.

واستنشى الريح: شمها، أي شم ريح الموت.

وعند أحمد: عن عائشة قالت: سجيت النبي ﷺ ثوباً، فجاء عمر والمغيرة بن شعبة فاستأذنا، فأذنت لهما وجذبت الحجاب، فنظر عمر إليه فقال: واغشياه، ثم قاما، فقال المغيرة: يا عمر، مات، قال: كذبت، إن رسول الله ﷺ لا يموت حتى يفنى الله المنافقين. ثم جاء/ أبو بكر، فرفعت الحجاب فنظر إليه فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، مات رسول الله ﷺ.

ب/٤٠٥

وفي حديث ابن عباس عند البخاري: إن أبا بكر خرج وعمر ابن الخطاب يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا

(١) في ط، استنشق.

يموت، قال الله عز وجل: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ قال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها الناس منه كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها.

وفي حديث ابن عمر عند ابن أبي شيبه أن أبا بكر مر بعمر وهو يقول: ما مات رسول الله ﷺ ولا يموت حتى يقتل الله المنافقين. قال: وكانوا أظهروا الاستبشار ورفعوا رؤوسهم، فقال: أيها الرجل، إن رسول الله ﷺ قد مات: ألم تسمع الله تعالى يقول: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ وقال: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ ثم أتى المنبر. الحديث.

قال القرطبي أبو عبدالله المفسر: وفي هذا أدل دليل على شجاعة الصديق، فإن الشجاعة حدها: ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ. فظهر عنده شجاعته وعلمه. قال الناس: لم يموت رسول الله ﷺ، واضطرب الأمر فكشفه الصديق بهذه الآية، فرجع عمر عن مقالته التي قالها.

كما ذكر الواثلي أبو نصر عبدالله في كتاب «الإنباء»^(١) عن أنس ابن مالك أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مسجد رسول الله ﷺ واستوى على منبره ﷺ، تشهد ثم قال: أما بعد، فإني قلت لكم أمس مقالة وإنما لم تكن كما قلت، وإني والله ما وجدت المقالة التي قلت لكم في كتاب الله، ولا في عهد عهده رسول الله ﷺ، ولكني كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدبرنا - أي يكون

(١) وأخرجه ابن اسحاق في السيرة بنحوه.

آخرنا موتاً، أو كما قال - فاختار الله عز وجل لرسوله الذي عنده على الذي عندكم، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسوله فخذوا به تهتدوا لما هدى له رسوله ﷺ .

قال أبو نصر: المقالة التي قالها ثم رجع عنها: هي أن النبي ﷺ لم يميت ولن يموت حتى يقطع أيدي وأرجل، وكان ذلك لعظيم ما ورد عليه وخشي الفتنة وظهور المنافقين، فلما شاهد قوة يقين الصديق الأكبر وتفوهه بقول الله عز وجل: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ وقوله: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ وخرج الناس يتلونها في سكك المدينة كأنها لم تنزل قط إلا ذلك اليوم انتهى .

وقال ابن المنير: لما مات ﷺ طاشت العقول، فمنهم من خبل، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام، ومنهم من أخرس فلم يطق الكلام، ومنهم من أضني^(١)، وكان عمر ممن خبل، وكان عثمان ممن أخرس، يذهب به ويحاء ولا يستطيع كلاماً، وكان علي ممن أقعد فلم يستطع حراكاً، وأضني عبدالله بن أنيس فمات كمدماً. وكان أثبتهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، جاء وعيناه تهملان وزفراته تتردد وغصصه تتصاعد وترفع، فدخل على النبي ﷺ فأكب عليه وكشف الثوب عن وجهه وقال: طبت حياً وميتاً، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء، فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء، ولو أن موتك كان اختياراً لجدنا لموتك بالنفوس. اذكرنا يا محمد عند ربك، ولنكن من بالك .

ووقع في حديث ابن عباس وعائشة عند البخاري: أن أبا بكر قبل النبي ﷺ بعد ما مات، كما قدمنا. وكذا وقع في رواية غيره .

(١) أي مرض .

وفي رواية يزيد بن بابنوس عنها، عند أحمد، أنه أتاه من قبل رأسه، فحدر فاه وقبل جبهته ثم قال، / وانبياه، ثم رفع رأسه فحدر فاه وقبل جبهته ثم قال: واصفياه، ثم رفع رأسه فحدر فاه وقبل جبهته وقال: واخليلاه.

وعند ابن أبي شيبة عن ابن عمر: فوضع فاه على جبين رسول الله ﷺ فجعل يقبله ويبكي ويقول: بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميتاً.

وعن عائشة: أن أبا بكر دخل على النبي ﷺ بعد وفاته، فوضع فاه بين عينيه، ووضع يديه على صدغيه وقال: وانبياه واخليلاه واصفياه. أخرجه ابن عرفة العبدي كما ذكره الطبري. قال: ولا تضاد بين هذا على تقدير صحته وبين ما تقدم مما تضمن ثباته، بأن يكون قد قال ذلك من غير انزعاج ولا قلق خافتاً به صوته، ثم التفت إليهم وقال لهم ما قال.

وأخرج البيهقي وأبو نعيم من طريق الواقدي عن شيوخه: أنهم شكوا في موته ﷺ، قال بعضهم: قد مات^(١)، وقال بعضهم: لم يميت، فوضعت أسماء بنت عميس يدها بين كتفيه ﷺ فقالت: قد توفي، قد رفع الخاتم من بين كتفيه، فكان هذا الذي قد عرف به موته. وأخرجه ابن سعد عن الواقدي أيضاً.

[رثاء]

ولما توفي ﷺ قالت فاطمة: يا أبتاه، أجب رباً دعاه، يا أبتاه، من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه. رواه البخاري^(٢).

(١) سقطت هذه الجملة في (١).

(٢) رواه البخاري برقم ٤٤٦٢.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : وقد قيل الصواب : إلیّ جبريل نعاہ . جزم بذلك سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان . قال : والأول متوجه فلا معنى لتغليط الرواة بالظن .

وزاد الطبراني : يا أبتاه ، من ربه ما أدناه .

وقد عاشت فاطمة رضي الله عنها بعده ﷺ ستة أشهر فما ضحكت تلك المدة ، وحق لها ذلك .

على مثل ليلى يقتل المرء نفسه وإن كان من ليلى على الهجر طاويا

وأخرج أبو نعيم عن علي قال : لما قبض ﷺ صعد ملك الموت باكياً إلى السماء ، والذي بعثه بالحق [نبياً] ^(١) لقد سمعت صوتاً من السماء ينادي : واحمداه . الحديث .

كل المصائب تهون عند هذه المصيبة .

وفي سنن ابن ماجه : أنه ﷺ قال في مرضه : أيها الناس ، إن أحد من الناس ، أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعز بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري ، فإن أحداً من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتني .

وقال أبو الجوزاء : كان الرجل من أهل المدينة إذا أصابته مصيبة جاء أخوه فصافحه ويقول : يا عبدالله ، اتق الله ، فإن في رسول الله أسوة حسنة . ويعجبني قول القائل :

اصبر لكل مصيبة وتجلد واعلم بأن المرء غير مخلد

(١) في (ط ، ش ، د) .

واصبر كما صبر الكرام فإنها نوب تنوب اليوم تكشف في غد
وإذا أتتك مصيبة تشجى بها فاذكر مصابك بالنبى محمد

ويرحم الله القائل:

تذكرت لما فرق الدهر بيننا فعزيت نفسي بالنبى محمد
وقلت لها إن المنايا سبيلنا فمن لم يميت في يومه مات في غد

كادت الجهادات تتصدع من ألم فراقه ﷺ ، فكيف بقلوب
المؤمنين؟ لما فقدته الجذع الذي كان يخطب إليه قبل اتخاذ المنبر حنَّ إليه
وصاح. كان الحسن^(١) إذا حدث بهذا الحديث بكى وقال: هذه خشبة
تحن إلى رسول الله ﷺ ، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه .

وروي أن بلالاً لما كان يؤذن بعد وفاته ﷺ وقبل دفنه، فإذا
قال: أشهد أن محمداً رسول الله، ارتج المسجد بالبكاء والنحيب. فلما
دفن ترك بلال الأذان .

ما أمر عيش من فارق الأحباب خصوصاً من كانت رؤيته حياة
الألباب .

لو ذاق طعم الفراق رضوى لكان من وجده يمد
/قد حملوني عذاب شوق يعجز عن حمله الحديد ٤٠٦/ب

وقد كانت وفاته ﷺ يوم الإثنين بلا خلاف، وقت دخول المدينة
في هجرته حين اشتد الضحاء، ودفن يوم الثلاثاء، وقيل ليلة
الأربعاء .

(١) أي الحسن البصري .

فعند ابن سعد في الطبقات، عن علي: توفي رسول الله ﷺ يوم الإثنين، ودفن يوم الثلاثاء. وعنده أيضاً عن عكرمة، توفي يوم الإثنين، فحسب بقية يومه وليلته، ومن الغد حتى دفن من الليل، وعنده أيضاً: عن عثمان بن محمد الأحنس: توفي يوم الإثنين حين زاغت الشمس ودفن يوم الأربعاء. وروى أيضاً عن أبي بن عباس بن سهل عن أبيه عن جده: توفي يوم الإثنين، فمكث بقية يوم الإثنين والثلاثاء حتى دفن يوم الأربعاء. وعنده أيضاً: عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب: توفي يوم الإثنين حين زاغت الشمس.

ورثته عمته صفية بمراثي كثيرة منها قولها:

| | |
|-----------------------------|--|
| ألا يا رسول الله كنت رجاءنا | وكنت بنا برأ ولم تك جافيا |
| وكنت رحيماً هادياً ومعلماً | ليك عليك اليوم من كان باكيا |
| لعمرك ما أبكي النبي لفقده | ولكن لما أخشى ^(١) من الهجر آتيا |
| كأن على قلبي لذكر محمد | وما خفت من بعد النبي المكاويا ^(٢) |
| أفاطم صلى الله رب محمد | على جدث أمسى ييثر ثاويا |
| فدى لرسول الله أمي وخالتي | وعمي وخالي ثم نفسي وماليا |
| فلو أن رب الناس أبقى نبينا | سعدنا ولكن أمره كان ماضيا |
| عليك من الله السلام تحية | وأدخلت جنات من العدن راضيا |
| أرى حسناً أتمته وتركته | يئكي ويدعو جده اليوم نائيا |

ورثاه أبو سفيان بن الحارث^(٣) فقال:

(١) في (ط، ش): ولكنني أخشى.

(٢) في (ط، د): المقاليا. والمكاوي جمع مكواة وهي الحديدية التي يكوى بها.

(٣) هذه القصيدة في الأصل قبل رثاء صفية رضي الله عنها.

أرقت فبت ليلى لا يزول وأسعدني البكاء وذاك فيما
لقد عظمت مصيبتنا وجلت وأضححت أرضنا مما عراها
فقدنا الوحي والتنزيل فينا وذاك أحق ما سألت عليه
نبي كان يجلو الشك عنا ويهدينا فلا نخشى ضلالاً
أفاطم إن جزعت فذاك عذر فقبر أبيك سيد كل قبر
وليل أخي المصيبة فيه طول وأصيب المسلمون به قليل
عشية قيل قد قبض الرسول تكاد بنا جوانبها تميل
يروح به ويغدو جبرئيل نفوس الناس أو كادت تسيل
بما يوحى إليه وما يقول علينا والرسول لنا دليل
وإن لم تجزعي ذاك السبيل وفيه سيد الناس الرسول

ورثاه الصديق بقوله :

لما رأيت نبينا متجندياً فارتاع قلبي عند ذاك لهلكه
أعتيق ويحك إن حبك قد ثوى ياليتني من قبل مهلك صاحبي
فلتحدثن بدائع من بعده ضاقت علي بعرضهن الدور
والعظم مني ما حيتت كسير فالصبر عنك لما لقيت يسير
غيبت في جدث علي صخور يعى بهن جوارح وصدور

/ورثاه الصديق أيضاً بقوله :

ودعنا الوحي إذ وليت عنا سوى ما قد تركت لنا رهيناً
فودعنا من الله الكلام تضمنه القراطيس الكرام

ولقد أحسن حسان بقوله يرثيه عليه السلام :

كنت السواد لناظري فعمي عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

ورثاه حسان بقوله أيضاً: (١)

بطيبة رسم للرسول ومعهده مبين وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولا تمنحي الآيات من دار حرمه بها منبر الهادي الذي كان يصعد
وأوضح آيات وبقاقي معالم وربيع له فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها من الله نور يستضاء ويوقد
معارف لم تطمس على العهد آيها أتاهما البلى فالآي منها تجدد
عرفت بها رسم الرسول وعهده وقبراً بها واره في الترب ملحد
أطالت وقوفاً تذرف العين دمعها على طلل القبر الذي فيه أحمد
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وبورك لحد منك ضمن طيبا عليه بناء من صفيح منضد
تهيل عليه الترب أيد وأعين تباكت وقد غارت بذلك أسعد
لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمة عشية عالوه الثرى لا يوسد
وراحوا بحزن ليس فيهم نبههم وقد وهنت منهم ظهور وأعضد
يكون من تبكى السموات موته ومن قد بكته الأرض والناس أكمد
وهل عدلت يوماً رزية هالك رزية يوم مات فيه محمد

ولما تحقق عمر بن الخطاب رضي الله عنه موته ﷺ بقول أبي بكر، ورجع إلى قوله، قال وهو يبكي: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد كان لك جذع تخطب الناس عليه، فلما كثروا اتخذت منبراً

(١) هذه القصيدة لم تذكر في نسخة الأصل وهي مذكورة في بقية النسخ.

لتسمعهم، فحن الجذع لفراقك، حتى جعلت يدك عليه فسكن، فأمتك أولى بالحنين عليك حين فارقتهم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته، فقال: من يطع الرسول فقد أطاع الله، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوْحٍ﴾ الآية، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده، أن أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم في أطباقها يعذبون، يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول. الخبر ذكره أبو العباس القصار في شرحه لبردة الأبوصيري، ونقله عنه الرشاطي في كتابه «اقتباس الأنوار والتماس الأزهار» وذكره ابن الحاج في المدخل وساقه بتمامه، والقاضي عياض في «الشفاء» لكنه ذكر بعضه، ويقع في كثير من نسخ الشفاء: روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في كلام بكى به النبي ﷺ، بتشديد الكاف من بكى، والصواب فيها التخفيف، لأن هذا الكلام إنما سمع من عمر رضي الله عنه بعد موته ﷺ كما تقدم، ونبهت عليه في حاشية الشفاء والله أعلم. ويؤيد هذا قوله في الخبر نفسه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد اتبعك في قصر عمرك ما لم يتبع نوحاً في كثرة سنه وطول عمره، فلقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل^(١).

وأخرج ابن عساكر عن أبي ذؤيب الهذلي قال: بلغنا أن النبي ﷺ عليل، فأوجس الحي خيفه، وبت بليلة طويلة حتى إذا كان السحر نمت فهتف بي هاتف وهو يقول:

(١) من المستبعد أن يكون هذا من قول عمر، فما كان الصحابة يصنعون الكلام، بل كان كلامهم على البديهة كما رأينا من قول أبي بكر في هذا المقام [المحقق].

خطب أجل أناخ بالإسلام بين النخيل ومقعد الأطم
قبض النبي محمد فعيوننا تبدي الدموع عليه بالتسجام
فوثبت من نومي فزعا، فنظرت إلى السماء فلم أر إلا سعد
الذابح فعلمت أن النبي ﷺ قبض!! أو هو ميت، فقدمت المدينة
ولأهلها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج إذا أهلوا بالإحرام، فقلت:
مه؟ فقيل: قبض رسول الله ﷺ .

[تغسيه ﷺ]

ومن عجيب ما اتفق ما روي عن عائشة^(١): أنهم لما أرادوا
غسل النبي ﷺ قالوا: لا ندري، انجرد النبي ﷺ من ثيابه كما نجرد
موتانا أم نغسله وعليه ثيابه، فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم حتى
ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت،
لا يدرون من هو، اغسلوا رسول الله ﷺ وعليه ثيابه، فقاموا وغسلوه
وعليه قميصه، يصبون^(٢) الماء فوق القميص ويدلكونه بالقميص.
رواه البيهقي في دلائل النبوة.

وروى ابن ماجه بسند جيد^(٣) عن علي يرفعه: إذا/ أنا مت
فاغسلوني بسبع قرب من بئري بئر غرس. قال في النهاية: بفتح الغين
المعجمة وسكون الراء والسين المهملتين.

وقد روى ابن النجار: أنه ﷺ قال: رأيت الليلة أني

(١) لم يرد ذكر عائشة في ش.

(٢) في (ط، ش) يضعون.

(٣) أي مقبول.

[أصبحت] (١) على بئر من الجنة، فأصبح على بئر غرس فتوضأ منها ويزق فيها.

وغسل ﷺ ثلاث غسلات، الأولى بالماء القراح، والثانية بالماء والسدر، والثالثة بالماء والكافور، وغسله علي، والعباس وابنه الفضل يعينانه، وقثم وأسامة وشقران مولاه ﷺ يصبون الماء وأعينهم معصوبة من وراء الستر. لحديث علي: لا يغسلني إلا أنت فإنه لا يرى أحد عورتي إلا طمست عيناه. رواه البزار والبيهقي.

وأخرج البيهقي عن الشعبي قال: غسل علي النبي ﷺ فكان يقول وهو يغسله ﷺ: بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً.

أخرج أبو داود، وصححه الحاكم عن علي قال: غسلته ﷺ فذهبت أنظر ما يكون من الميت، فلم أر شيئاً، وكان طيباً حياً وميتاً.

وفي رواية ابن سعد: وسطعت ريح طيبة لم يجدوا مثلها قط. قيل: وجعل علي على يده خرقة وأدخلها تحت القميص ثم اعتصروا قميصه، وحنطوا مساجده (٢) ومفاصله، ووضؤوا منه ذراعيه ووجهه وكفيه وقدميه وجمروه عوداً ونداً.

وذكر ابن الجوزي أنه روي عن جعفر بن محمد قال: كان الماء يستنقع في جفون النبي ﷺ فكان علي يحسوه (٣). وأما ما روي أن علياً لما غسله ﷺ امتص (٤) ماء محاجر عينيه فشربه، وأنه قد ورث بذلك علم الأولين والآخرين، فقال النووي: ليس بصحيح.

(١) في المخطوطات.

(٢) أي أماكن السجود من جسمه ﷺ.

(٣) أي يشربه.

(٤) كذا في (ش، ب) وفي بقية النسخ: اقتلص.

[أكفانه ﷺ]

وفي حديث عروة عن عائشة قالت: كفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب سحولية بيض، أخرجه النسائي من رواية عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة. واتفق عليه الأئمة الستة من طريق هشام عن عروة عن أبيه عن عائشة بزيادة: من كرسف ليس فيها قميص ولا عمامة. وليس قوله «من كرسف» عند الترمذي ولا ابن ماجة.

زاد مسلم: أما الحلة فإنما شُبَّه على الناس فيها أنها اشترت له ليكفن فيها، فتركت الحلة وكفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية، فأخذها عبدالله بن أبي بكر فقال: لأحسنها حتى أكفن فيها نفسي، ثم قال: لو رضىها الله عز وجل لنبيه لكفنه فيها فباعها وتصدق بثمنها.

وفي رواية له: أدرج رسول الله ﷺ في حلة يمانية كانت لعبدالله ابن أبي بكر ثم نزعت عنه، وذكر الحديث [بطوله] ^(١).

وفي رواية أصحاب السنن الأربعة: فذكر لعائشة قولهم [كفن] ^(٢) في ثوبين وبرد حبرة، فقالت: قد أتى بالبرد ولكنهم ردوه ولم يكفونه فيه. قال الترمذي: حسن صحيح.

وفي رواية البيهقي: في ثلاثة أثواب [بيض] ^(٣) سحولية [جدد] ^(٤).

-
- (١) في (ط، د).
 - (٢) في (ط، ش).
 - (٣) في (ط، ش).
 - (٤) ليست في الأصل.

والسحولية: بفتح السين وضمها، قال النووي: والفتح أشهر، وهو رواية الأكثرين، وفي النهاية تبعاً للهروي، فالفتح منسوب إلى السحول وهو القصار، لأنه يسحلها، أي يغسلها، أو إلى سحول وهي قرية باليمن، وأما الضم فهو جمع سحل وهو الثوب الأبيض النقي، ولا يكون إلا من قطن، وفيه شذوذ لأنه نسب إلى الجمع، وقيل: إن اسم القرية بالضم أيضاً.

والكرسف: بضم الكاف وإسكان الراء، وضم السين المهملتين والفاء: القطن.

وقال الترمذي: روي في كفن النبي ﷺ روايات مختلفة، وحديث عائشة أصح الأحاديث في ذلك، والعمل عليه عند أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم.

وقال البيهقي في «الخلافيات»: قال أبو عبدالله - يعني الحاكم -: تواترت الأخبار عن علي بن أبي طالب وابن عباس وعائشة وابن عمر، وجابر وعبدالله / بن مغفل، في تكفين النبي ﷺ في ثلاثة أثواب ليس فيها قميص ولا عمامة.

وعن عبدالله بن محمد بن عقيل، عن ابن الحنفية عن علي: أن رسول الله ﷺ كفن في سبعة أثواب، وقد روى هذا الحديث أحمد في مسنده، وذكر ابن حزم: أن الوهم فيه من ابن عقيل أو ممن بعده.

وقد اختلف في معنى قوله: «ليس فيها قميص ولا عمامة».

فالصحيح أن معناه: أنه ليس في الكفن قميص ولا عمامة أصلاً.

والثاني: أن معناه أنه كفن في ثلاثة أثواب خارج عن القميص والعمامة.

قال الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد: والأول أظهر في المراد، وذكر النووي في شرح مسلم أن الأول تفسير الشافعي وجمهور العلماء، قال: وهو الصواب الذي يقتضيه ظاهر الحديث، وقال: إن الثاني ضعيف، فلم يثبت أنه ﷺ كفن في قميص وعمامة، انتهى.

وترتب على هذا اختلافهم: في أنه هل يستحب أن يكون في الكفن قميص وعمامة أم لا؟

فقال مالك والشافعي وأحمد: يستحب أن تكون الثلاثة لفائف، ليس فيها قميص ولا عمامة، واختلفوا في زيادة القميص والعمامة أو غيرها على اللفائف الثلاثة لتصير خمسة، فذكر الحنابلة أنه مكروه، وقال الشافعية: إنه جائز غير مستحب، وقال المالكية: إنه يستحب للرجال والنساء، وهو في حق النساء أكد. قال: والزيادة إلى السبعة غير مكروهة، وما زاد عليها سرف، وقال الحنفية: الأثواب الثلاثة، إزار وقميص ولفافة.

وقد أجمع المسلمون على وجوبه، وهو فرض كفاية فيجب في ماله، فإن لم يكن له مال فعلى من تلزمه نفقته.

واختلف أصحابنا في المتزوجة إذا كان لها مال، هل يجب تكفيئها من مالها، أو هو على زوجها، فذهب إلى الأول الرافعي في «الشرح الصغير» و«المحرر» والنووي في «المنهاج». وذهب إلى الثاني: الرافعي في «الشرح الكبير» والنووي في «الروضة» و«شرح المذهب» وقال فيه: قيد الغزالي وجوب التكفيين على الزوج بشرط إعسار المرأة، وأنكروه عليه، انتهى.

ومتى كانت معسرة فتكفيئها على زوجها قطعاً، ثم إن الواجب

ثوب واحد، وهو حق الله تعالى، لا تنفذ وصية الميت بإسقاطه، بخلاف الثاني والثالث فإنه حق للميت، تنفذ وصيته بإسقاطهما.

وفي هذا الحديث أيضاً دلالة على أن القميص الذي غسل فيه النبي ﷺ نزع عنه عند تكفينه. قال النووي في شرح مسلم: وهذا هو الصواب الذي لا يتجه غيره، لأنه لو بقي مع رطوبته لأفسد الأكفان. قال: وأما الحديث الذي في سنن أبي داود عن ابن عباس أن النبي ﷺ كفن في ثلاثة أثواب: الحلة ثوبان وقميصه الذي توفي فيه، فحديث ضعيف، لا يصح الاحتجاج به، لأن يزيد بن زياد، أحد رواته مجمع على ضعفه، لا سيما وقد خالف بروايته الثقات.

[الصلاة عليه ﷺ ودفنه]

وفي حديث ابن عباس عند ابن ماجه: لما فرغوا من جهازه ﷺ يوم الثلاثاء، وضع على سريريه في بيته ثم دخل الناس عليه ﷺ أرسلوا يصلون عليه، حتى إذا فرغوا دخل النساء، حتى إذا فرغن دخل الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد.

وفي رواية^(١): إن أول من صلى عليه ﷺ الملائكة أفواجاً، ثم أهل بيته، ثم الناس فوجاً فوجاً، ثم نساؤه آخرأً.

وروي^(٢) أنه لما صلى أهل بيته لم يدر الناس ما يقولون فسألوا ابن مسعود، فأمرهم أن يسألوا علياً فقال لهم: قولوا: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ الآية، لبيك اللهم ربنا وسعديك،

(١) رواه الطبراني وغيره بسند واه.

(٢) من المعلوم أن «روي» صيغة تضعيف.

صلوات الله البر الرحيم، والملائكة المقربين، والنبين والصديقين والشهداء والصالحين، وما سبح لك من شيء يا رب العالمين، على محمد بن عبدالله خاتم النبين، وسيد المرسلين، وإمام المتقين ورسول رب العالمين، الشاهد البشير الداعي إليك بإذنك السراج المنير، وعليه السلام، ذكره الشيخ زين الدين بن الحسين المراغي في كتابه تحقيق النصرة.

ثم قالوا: أين تدفونونه؟/ فقال أبو بكر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما هلك نبي قط إلا يدفن حيث تقبض روحه، وقال علي: وأنا أيضاً سمعته^(١).

ب/٤٠٨

وحفر أبو طلحة لحد رسول الله ﷺ في موضع فراشه حيث قبض.

وقد اختلف فيمن أدخله قبره، وأصح ما روي: أنه نزل في قبره عمه العباس وعلي وقثم بن العباس والفضل بن العباس، وكان آخر الناس عهداً برسول الله ﷺ قثم بن العباس.

وروي أنه بني في قبره تسع لبنات، وفرش تحته قطيفة نجرانية كان يتغطى بها، فرشها شقران في القبر، وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك.

قال النووي: وقد نص الشافعي وجميع أصحابه وغيرهم من العلماء على كراهة وضع قطيفة أو مضربة أو مخدة ونحو ذلك تحت الميت في القبر. وشذ البغوي من أصحابنا فقال في كتابه «التهذيب»: لا بأس بذلك لهذا الحديث، والصواب كراهية ذلك كما قاله الجمهور،

(١) أخرجه ابن ماجه.

وأجابوا عن هذا الحديث: بأن شقران انفرد بفعل ذلك، ولم يوافقه أحد من الصحابة، ولا علموا بذلك، وإنما فعله شقران لما ذكرناه عنه من كراهيته أن يلبسها أحد بعد النبي ﷺ. انتهى.

وفي كتاب «تحقيق النصرة»: قال ابن عبد البر: ثم أخرجت، يعني القطيفة من القبر لما فرغوا من وضع اللبنة التسع. حكاه ابن زبالة.

ولما دفن ﷺ جاءت فاطمة رضي الله عنها فقالت: كيف طابت نفوسكم أن تمثوا على رسول الله ﷺ التراب؟^(١) وأخذت من تراب القبر الشريف ووضعت على عينيها وأنشأت تقول:

ماذا على من شم تربه أحمد أن لا يشم مدى الزمان غواليا
صبت عليّ مصائب لو أنها صبت على الأيام عدن لياليا

قال رزين: ورش قبره ﷺ، رشه بلال بن رباح بقربة، بدأ من قبل رأسه. حكاه ابن عساكر. وجعل عليه من حصباء العرصة حمراء وبيضاء. ورفع قبره من الأرض قدر شبر.

[صفة قبره ﷺ]

وفي حديث عائشة عند البخاري قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: (لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) لولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خشي أو خشي أن يتخذ مسجداً.

(١) هذا القسم في البخاري أما بقيته فليست فيه.

كذا في رواية أبي عوانة عن هلال «خشي أو خُشي» على الشك .
فرواية «الضم» مبهمة يمكن أن تفسر بأنها هي التي منعت من إبرازه ،
والهاء^(١) ضمير الشأن ، وكأنها أرادت نفسها ومن وافقها على ذلك .
وهذا يقتضي أنهم فعلوه باجتهد ، بخلاف رواية الفتح^(٢) فإنها تقتضي
أن النبي ﷺ هو الذي أمرهم بذلك .

وقوله : «لأبرز قبره» أي : لكشف قبره ﷺ ولم يتخذ عليه حائل .
والمراد : الدفن خارج بيته^(٣) ، وهذا قالت عائشة رضي الله عنها قبل أن
يوسع المسجد ، ولهذا لما وسع المسجد جعلت حجرتها مثلثة الشكل
محددة ، حتى لا يتأتى لأحد أن يصلي إلى جهة القبر الكريم مع استقبال
القبلة .

وفي البخاري أيضاً من حديث أبي بكر بن عياش عن سفيان
الثمار : أنه حدثه أنه رأى قبر النبي ﷺ مسنماً أي مرتفعاً . زاد أبو نعيم
في «المستخرج» : وقبر أبي بكر وعمر كذلك .

واستدل به على أن المستحب تسنيم القبور ، وهو قول أبي حنيفة
ومالك وأحمد والمزني وكثير من الشافعية ، وادعى القاضي حسين اتفاق
الأصحاب عليه . وتعقب : بأن جماعة من قدماء الشافعية استحَبوا
التسطيح كما نص عليه الشافعي . وبه جزم الماوردي وآخرون .

وقول سفيان الثمار لا حجة فيه ، كما قال البيهقي لاحتمال أن
قبره ﷺ في الأول لم يكن مسنماً . فقد روى أبو داود والحاكم من طريق
القاسم بن محمد بن أبي بكر قال : دخلت على عائشة فقلت : يا أمه ،

(١) في قولها «غير أنه» .

(٢) أي فتح الخاء في «خشي» .

(٣) في (ط ، ش) : أو المراد لدفن . .

أ/٤٠٩ / فكشفت لي عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا لا طئة، مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء. زاد الحاكم: فرأيت رسول الله ﷺ مقدماً وأبو بكر رأسه بين كتفي النبي ﷺ، وعمر رأسه عند رجلي النبي ﷺ. وهذا كان في خلافة معاوية. فكأنها كانت في الأول مسطحة، ثم لما بني جدار القبور في إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك صيروها مرتفعة.

وقد روى أبو بكر الأجري في كتاب «صفة قبر النبي ﷺ» من طريق إسحاق بن عيسى بن بنت داود بن أبي هند، عن عثيم بن نسطاس^(١) المدني قال: رأيت قبر النبي ﷺ في إمارة عمر بن عبد العزيز: رأيت مرتفعاً نحواً من أربع أصابع، ورأيت قبر أبي بكر وراء قبره، ورأيت قبر عمر وراء قبر أبي بكر أسفل منه.

ثم الاختلاف في ذلك في أنها أفضل، لا في أصل الجواز، ورجح المزني التسليم من حيث المعنى، بأن المسطح يشبه ما يصنع للجلوس، بخلاف المسنم.

ويرجح التسطیح ما رواه مسلم من حديث فضالة بن عبيد أنه أمر بقبر فسوي ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها.

وعن هشام بن عروة عن أبيه: لما سقط عليهم الحائط، يعني حائط حجرة النبي ﷺ في زمان الوليد بن عبد الملك، أخذوا في بنائه، فبدت لهم قدم ففزعوا وظنوا أنها قدم النبي ﷺ، فما وجدوا أحداً يعلم ذلك حتى قال لهم عروة: والله ما هي قدم النبي ﷺ، والله ما هي إلا قدم عمر، رواه البخاري أيضاً.

(١) كذا في ش، وفي ط: فسطاس، وفي المخطوطات: بسطام.

والسبب في ذلك ما رواه الأجري من طريق شعيب بن إسحاق عن هشام بن عروة قال: أخبرني أبي قال: كان الناس يصلون إلى القبر الشريف، فأمر عمر بن عبد العزيز فرفع حتى لا يصلي إليه أحد، فلما هدم بدت قدم بساق وركبة، ففزع عمر بن عبد العزيز فأتاه عروة فقال: هذا ساق عمر وركبته فسري عن عمر بن عبد العزيز.

وروى الأجري قال رجاء بن حيوة: قبر أبي بكر عند وسط النبي ﷺ، وعمر خلف أبي بكر، رأسه عند وسطه، وهذا ظاهره يخالف حديث القاسم، فإن أمكن الجمع، وإلا فحديث القاسم أصح.

وأما ما أخرجه أبو يعلى من وجه آخر عن عائشة: أبو بكر عن يمينه وعمر عن يساره فسنده ضعيف. انتهى ملخصاً من فتح الباري.

وقد اختلف أهل السير وغيرهم في صفة القبور المقدسة على سبع روايات، أوردها ابن عساكر في «تحفة الزائر» ونقل أهل السير عن سعيد بن المسيب قال: بقي في البيت موضع قبر في السهوة الشرقية يدفن فيه عيسى بن مريم عليهما السلام، ويكون قبره الرابع.

وفي «المنتظم» لابن الجوزي: عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: ينزل عيسى ابن مريم في الأرض، فيتزوج ويولد له ويمكث خمساً وأربعين سنة ثم يموت فيدفن معي في قبري، فأقوم أنا وعيسى ابن مريم من قبر واحد بين أبي بكر وعمر. كذا ذكره في «تحقيق النصرة» والله أعلم^(١).

(١) قال الشارح: الله أعلم بصحته، أقول: وكذا الذي قبله [م].

[تأخير دفنه ﷺ]

فإن قلت: تقدم أنه ﷺ توفي يوم الإثنين، ودفن يوم الأربعاء، فلم أحرر دفنه ﷺ؟ وقد قال ﷺ لأهل بيت أخرجوا دفن ميتهم: عجلوا دفن ميتكم ولا تؤخروه.

فالجواب: لما ذكر من عدم اتفاقهم على موته، أو لأنهم كانوا لا يعلمون حيث يدفن، قال قوم في البقيع وقال آخرون: في المسجد، وقال قوم: يحمل إلى أبيه إبراهيم حتى يدفن عنده، حتى قال العالم الأكبر صديق الأمة: سمعته يقول: ما دفن نبي إلا حيث يموت. ذكره ابن ماجه والموطأ كما تقدم. وفي رواية الترمذي: ما قبض الله نبياً إلا في الموضع الذي يجب أن يدفن فيه، ادفنوه في موضع فراشه.

ولأنهم اشتغلوا في الخلاف الذي وقع بين المهاجرين والأنصار في البيعة، فنظروا فيها حتى استقر الأمر في الخلافة ونظامها، فبايعوا/ أبا بكر، ثم بايعوه بالغد بيعة أخرى على ملأ منهم^(١)، وكشف الله به الكربة من أهل الردة، ثم رجعوا بعد ذلك إلى النبي ﷺ، فنظروا في دفنه فغسلوه وكفنوه [ودفنوه]^(٢).

[المدينة بين يومين]

ولما قبض ﷺ تزينت الجنان ليوم قدوم روحه الكريمة، لا كزينة المدينة يوم قدوم الملك.

(١) في (ط، ش): ملئهم.

(٢) في (ط، ش، د).

إذا كان عرش الرحمن قد اهتز لموت بعض أتباعه^(١) فرحاً واستبشاراً لقدم روحه، فكيف بقدوم روح الأرواح.

ولما قدم ﷺ المدينة لعبت الحبشة بحرابهم فرحاً بقدومه. كما رواه أبو داود من حديث أنس، وفي رواية الدارمي قال أنس: ما رأيت يوماً كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ المدينة، وما رأيت يوماً كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ.

وفي رواية الترمذي: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا أيدينا من التراب، وإنما لفي دفنه، حتى أنكرنا قلوبنا.

ومن آياته ﷺ ما ذكر من بعد موته، من حزن حمارة عليه حتى تردى في بئر^(٢) وكذا ناقته فإنها لم تأكل ولم تشرب حتى ماتت.

ومن ذلك: ظهور ما أخبر أنه كائن بعد موته، مما لا نهاية له ولا عد يحصيه، مما ذكرت بعضه في المقصد الثامن.

وفي حديث أبي موسى عند مسلم: أنه ﷺ قال: إن الله إذا أراد بأمة خيراً قبض نبيها قبلها، فجعله فرطاً وسلفاً بين يديها، وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيها حي، فأهلكها وهو ينظر، فأقر عينيه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره.

(١) هو سعد بن معاذ رضي الله عنه.

(٢) ذكره ابن حبان في الضعفاء وقال: لا أصل له. وقد ساقه المصنف في المعجزات.

وإنما كان قبض النبي ﷺ قبل أمته خيراً، لأنهم إذا قبضوا قبله
انقطعت أعمالهم، وإذا أراد الله بهم خيراً جعل خيرهم مستمراً ببقائهم
محافظين على ما أمروا به من العبادات وحسن المعاملات نسلًا وعقباً
بعد عقب.

الفصل الثاني

في زيارة قبره الشريف ومسجده المنيف

[الترغيب في زيارته ﷺ]

اعلم أن زيارة قبره الشريف من أعظم القربات^(١)، وأرجى الطاعات، والسبيل إلى أعلى الدرجات، ومن اعتقد غير هذا فقد انخلع من ربة الإسلام، وخالف الله ورسوله وجماعة العلماء الأعلام. وقد أطلق بعض المالكية، وهو أبو عمران الفاسي، كما ذكره في المدخل عن تهذيب الطالب لعبد الحق، أنها واجبة، قال: ولعله أراد وجوب السنن المؤكدة.

وقال القاضي عياض: إنها سنة من سنن المسلمين مجمع عليها، وفضيلة مرغب فيها.

وروى الدارقطني من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: من زار قبري وجبت له شفاعتي، ورواه عبد الحق في أحكامه الوسطى، وفي الصغرى وسكت عنه وسكوته عن الحديث فيهما دليل على صحته^(٢).

(١) في ط: الآيات. والزيارة سنة، وأما قوله: (انخلع من ربة الإسلام) فهو إفراط وغلو وتكفير غريب. [المحقق]

(٢) ضعفه البيهقي، وقال الذهبي: طرده كلها لينة.

وفي المعجم الكبير للطبراني: أن النبي ﷺ قال: من جاءني زائراً لا تعمله حاجة^(١) إلا زيارتي، كان حقاً عليّ أن أكون شفيعاً له يوم القيامة. وصححه ابن السكن.

وروي عنه ﷺ: من وجد سعة ولم يقد إليّ فقد جفاني. ذكره ابن فرحون في مناسكه، والغزالي في الإحياء، ولم يخرج العراقي، بل أشار إلى ما أخرجه ابن النجار في تاريخ المدينة مما هو في معناه عن أنس بلفظ: ما من أحد من أمتي له سعة ثم لم يزرنني إلا وليس له عذر. ولابن عدي في «الكامل» وابن حبان في «الضعفاء»، والدارقطني في «العلل» و«غرائب مالك» وآخرين كلهم عن ابن عمر مرفوعاً، من حج ولم يزرنني فقد جفاني. ولا يصح.

وعلى تقدير ثبوته^(٢)، فليتأمل قوله «فقد جفاني» فإنه ظاهر

في حرمة ترك الزيارة لأن الجفاء أذى، والأذى حرام بالإجماع/ ٤١٠/ أ
فتجب الزيارة، إذ إزالة الجفاء واجبة، [وهي بالزيارة، فالزيارة واجبة] حينئذ، [وبالجملة]^(٣) فمن تمكن من زيارته ولم يزره فقد جفاه، وليس من حقه علينا ذلك.

وعن حاطب أن رسول الله ﷺ قال: من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي، ومن مات بأحد الحرمين بعث من الأمنين. رواه البيهقي عن رجل من آل حاطب لم يسمه عن حاطب^(٤).

وعن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(١) أي لا تحمله على العمل حاجة.

(٢) كلام لا معنى له بعد قوله: ولا يصح.

(٣) ما بين الأقواس ليس في الأصل.

(٤) في سنده مجهول ولا يصح.

من زار قبري، أو قال: من زارني كنت له شفيحاً وشهيدياً، رواه البيهقي وغيره عن رجل من آل عمر لم يسمه عن عمر^(١).

وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: من زارني محتسباً إلى المدينة كان في جواربي يوم القيامة. رواه البيهقي أيضاً.

قال العلامة زين الدين بن الحسين المراغي: وينبغي لكل مسلم اعتقاد كون زيارته ﷺ قربة، للأحاديث الواردة في ذلك^(٢) ولقوله تعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول﴾^(٣) الآية، لأن تعظيمه ﷺ لا ينقطع بموته، ولا يقال إن استغفار الرسول لهم إنما هو في حال حياته وليست الزيارة كذلك، لما أجاب به بعض أئمة المحققين: أن الآية دلت على تعليق وجدان الله تواباً رحيماً بثلاثة أمور: المجيء، واستغفارهم، واستغفار الرسول لهم، وقد حصل استغفار الرسول لجميع المؤمنين [والمؤمنات]^(٤) لأنه ﷺ قد استغفر للجميع، قال الله تعالى: ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾^(٥) فإذا وجد مجيئهم واستغفارهم تكملت الأمور الثلاثة الموجبة لتوبة الله ورحمته.

وقد أجمع المسلمون على استحباب زيارة القبور، كما حكاها النووي، وأوجبها الظاهرية، فزيارته ﷺ مطلوبة بالعموم والخصوص

(١) هذا الحديث والذي قبله في رواتهما من لم يسم، فلا يعول عليهما [م].

(٢) قال الشارح: مجموع الأحاديث لا تقصر عن الحسن، وإن كان في أفرادها مقال.

(٣) سورة النساء، الآية ٦٤. ذهب المفسرون إلى أن ذلك في حياته ﷺ لقوله

تعالى: ﴿واستغفر لهم الرسول﴾. [المحقق]

(٤) في (ط، ش). (٥) سورة محمد، الآية ١٩.

لما سبق، ولأن زيارة القبور تعظيم^(١)، وتعظيمه ﷺ واجب. ولهذا قال بعض العلماء: لا فرق في زيارته ﷺ بين الرجال والنساء، وإن كان محل الإجماع على استحباب زيارة القبور للرجال، وفي النساء خلاف، والأشهر في مذهب الشافعي الكراهة.

قال ابن حبيب من المالكية: ولا تدع زيارة قبره ﷺ والصلاة في مسجده، فإن فيه من الرغبة ما لا غنى بك ولا بأحد عنه.

[زيارة المساجد الثلاثة]

وينبغي لمن نوى الزيارة، أن ينوي مع ذلك زيارة مسجده الشريف، والصلاة فيه، لأنه أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها، وهو أفضلها عند مالك، وليس لشد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة فضل، لأن الشرع لم يجيء به، وهذا الأمر لا يدخله قياس، لأن شرف البقعة إنما يعرف بالنص الصريح عليه، وقد ورد النص في هذه دون غيرها.

[حكم نذر الزيارة]

وقد صح^(٢) أن عمر بن عبد العزيز كان يبرد البريد للسلام على النبي ﷺ.

فالسفر إليه قرينة لعموم الأدلة. ومن نذر الزيارة وجبت عليه،

(١) زيارة القبور ليست تعظيماً لها وإنما هي للعبارة وتذكر اليوم الآخر، وأما تعظيم النبي ﷺ فلا شك بأنه واجب. [المحقق].

(٢) عند البيهقي في الشعب.

كما جزم به ابن كجج من أصحابنا، وعبارته: إذا نذر زيارة قبر النبي ﷺ لزمه الوفاء، وجهاً واحداً، انتهى: ولو نذر إتيان المسجد الأقصى للصلاة لزمه ذلك على الأصح عندنا، وبه قال المالكية والحنابلة، لكنه يخرج عنه بالصلاة في المسجد الحرام. وصحح النووي أيضاً أنه يخرج عنه بالصلاة في مسجد المدينة. قال: ونص عليه الشافعي في البويطي. وبه قال الحنفية والحنابلة.

وللشيخ تقي الدين بن تيمية هنا كلام شنيع عجيب، يتضمن منع شد الرحال للزيارة النبوية المحمدية، وأنه ليس من القرب، بل بضد ذلك^(١).

ورد عليه الشيخ تقي الدين السبكي في «شفاء السقام» فشفى صدور المؤمنين.

وحكى الشيخ ولي الدين العراقي، أن والده كان معادلاً للشيخ زين الدين عبد الرحمن بن رجب الدمشقي في التوجه إلى بلد/ الخليل ٤١٠/ب

(١) قال الشارح: قال ابن عبد الهادي: إن ابن تيمية لم يحرم زيارة القبور على الوجه المشروع في شيء من كتبه، ولم يكرها بل استحباها وحض عليها، ومصنفاته ومناسكه طافحة بذكر استحباب زيارة قبره ﷺ وسائر القبور. وإنما تكلم على شد الرحال إلى مجرد زيارة القبور فذكر قولين للعلماء المتقدمين والمتأخرين: أحدهما، إباحة ذلك كما يقوله بعض أصحاب الشافعي وأحمد، والثاني: أنه ينهى عنه، كما نص عليه مالك. ولم ينقل عن أحد من الثلاثة خلافه، وإليه ذهب جماعة من أصحاب الشافعي وأحمد، واحتج ابن تيمية للثاني بحديث الصحيحين (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد..). فأى عتب على من حكى الخلاف في مسألة بين العلماء واحتج لأحد القولين بحديث صحيح؟! ولكن نعوذ بالله من الحسد والبغي واتباع الهوى.

عليه السلام، فلما دنا من البلد قال: نويت الصلاة في مسجد الخليل، ليحترز عن شد الرحال لزيارته على طريقة شيخ الحنابلة ابن تيمية، فقلت: نويت زيارة قبر الخليل عليه السلام. ثم قلت: أما أنت فقد خالفت النبي ﷺ، لأنه قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» وقد شددت الرحل إلى مسجد رابع، وأما أنا فاتبعت النبي ﷺ لأنه قال: «زوروا القبور» أفعال: إلا قبور الأنبياء؟! قال: فهت.

[أشواق]

وينبغي لمن أراد الزيارة أن يكثر من الصلاة والتسليم عليه في طريقه، فإذا وقع بصره على معالم المدينة الشريفة وما تعرف به، فليردد الصلاة والتسليم، وليسأل الله أن ينفعه بزيارته ويسعده بها في الدارين.

وليغتسل ويلبس النظيف من ثيابه، وليترجل ماشياً باكياً.

ولما رأى وفد عبد القيس رسول الله ﷺ ألقوا أنفسهم عن رواحلهم ولم ينيخوها وسارعوا إليه، فلم ينكر ذلك عليهم صلوات الله وسلامه عليه.

وروينا مما ذكره القاضي عياض في «الشفاء» أن أبا الفضل الجوهري لما ورد إلى المدينة زائراً، وقرب من بيوتها ترجل ومشى باكياً منشداً:

ولما رأينا رسم من لم يدع لنا فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لبا
نزلنا عن الأكوار^(١) نمشي كرامة لمن بان عنه أن نلم به ركبا

(١) الأكوار: جمع كور: هو الرحل للإبل، بمنزلة السرج للفرس.

وأُنبتت بأن العلامة أبا عبدالله بن رشيد قال: لما قدمنا المدينة سنة أربع وثمانين وستمائة، كان معي رفيقي الوزير أبو عبدالله بن أبي القاسم بن الحكيم، وكان أرمداً، فلما دخلنا ذا الحليفة أو نحوها نزلنا عن الأكوار، وقوي الشوق لقرب المزار، فنزل وبادر إلى المشي على قدميه احتساباً لتلك الآثار، وإعظماً لمن حل تلك الديار، فأحس بالشفاء، فأنشد لنفسه في وصف الحال [لمن حل في تلك الديار] (١):

ولما رأينا من ربوع حبيبتنا ييثر أعلاماً أثرن لنا الحبا
وبالترب منها إذ كحلنا جفوننا شفيناً فلا بأساً نخاف ولا كربا
وحيث تبدى للعيون جمالها ومن بعدها عنا أذيلت (٢) لنا قربا
نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة لمن حل فيها أن نلم به ركبا
نسح سجال الدمع في عرصاته ونلثم من حب لواطئه التربا
وإن بقائي (٣) دونه لخسارة ولو أن كفي تملك (٤) الشرق والغربا
فيا عجباً ممن يجب بزعمه يقيم مع الدعوى ويستعمل الكذبا (٥)
وزلات مثلي لا تعدد كثرة وبُعدي عن المختار أعظمها ذنبا

ولما كنت سائراً لقصد الزيارة في ربيع الآخر سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة، ولاح لنا عند الصباح جبل مفرح الأرواح المبشر بقرب المزار (٦) من أشرف الديار، تسابق الزوار إليه، وتعالوا بالصعود عليه

(١) في ط.

(٢) أي سهلت. وهي في (أ، ط): أزيلت.

(٣) في ش: تفادي.

(٤) في الأصل: تملأ.

(٥) في المخطوطات: الكتبا.

(٦) هو جبل أحد.

استعجالاً لمشاهدة تلك الآثار [واقتباساً لمشاهدة تلك الأنوار] (١) فبرقت
لوامع الأنوار النبوية، وهبت عَرَفَ نسَمات المعارف المحمدية، فطبنا
وغبنا إذ شهدنا أعلام ديار أشرف البرية [فأنشدت] (٢):

ألا مع برق يغتدي ويروح
وريح الصبا هبت بطيب عرفهم
إذا ريح ذاك الحي هبت فإنها
ترفق بنا يا حادي العيس والتفت
/فما هذه إلا ديار محمد
وإلا فما للركب هاج (٣) اشتياقهم
وأنت مطايا الركب حتى كأنها
وقد مدت الأعناق شوقاً وطرفها
رأت دار من تهوى فزاد اشتياقها
إذا العيس باحت بالغرام ولم تطق
أم النور من أرض الحجاز يلوح
أم الروض في وجه الصباح يفوح
حياة لمن يغدو لها ويروح
فللنور بين الوادين وضوح
وذاك سناها يغتدي ويروح
فكل من الشوق الشديد يصيح
حمام على قضب الأراك تنوح
إلى النور من تلك الديار لموح
ومدمعها في الوجنتين سفوح
خفاء فما للصب ليس يبوح

أ/٤١١

ولما قربنا من ديار المدينة وأعلامها، وتدانينا من معاينة رباها
الكريمة وآكامها، وانتشقنا عرف لطائف أزهارها، وبدت لنواظرنا
بوارق أنوارها، وترادفت واردات المنح والعطايا، ونزل القوم عن
المطايا، فأنشدت متمثلاً:

أتيتك زائراً وودت أني
ومالي لا أسير على المآقي (٤)
جعلت سواد عيني أمتطيه
إلى قبر رسول الله فيه

(١) في (ط، د).

(٢) في (د) وفي (ط)، وقلت.

(٣) في ط: زاد.

(٤) كذا في ش وفي النسخ: الأماقي.

ولما وقع بصري على القبر الشريف والمسجد المنيف فاضت من
الفرح سوابق العبرات حتى أصابت بعض الثرى والجدرات^(١) وقلت:

أيها المغرم المشوق هنيئاً ما أنا لوك من لذيذ التلاق
قل لعينيك تهملان سرورا طالما أسعداك^(٢) يوم الفراق
واجمع الوجد والسرور ابتهاجاً وجميع الأشجان والأشواق
ومر العين أن تفيض انهمالاً وتوالي بدمعها المهراق
هذه دارهم وأنت محب ما بقاء الدموع في الآماق
وقلت:

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

[من آداب الزيارة]

ويستحب صلاة ركعتين [تحية المسجد]^(٣) قبل الزيارة، وهذا إذا
لم يكن مروره من جهة وجهه الشريف ﷺ . فإن كان استحبت الزيارة
قبل التحية^(٤) . قال في «تحقيق النصر» : وهو استدراك حسن . قاله
بعض شيوخنا .

وفي منسك ابن فرحون : فإن قلت : المسجد إنما تشرف بإضافته
إليه ﷺ فينبغي البداءة بالوقوف عنده ﷺ . قلت : قال ابن حبيب في
أول كتاب الصلاة : حدثني مطرف عن مالك عن يحيى بن سعيد عن
جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قدمت من سفر، فجئت رسول

(١) جمع جدار .

(٢) في (ط، ش).

(٣) هذا مخالف لما كان عليه السلف . [المحقق]

الله ﷺ أسلم عليه وهو بفناء المسجد، فقال: أدخلت المسجد فصليت فيه؟ قلت: لا، قال: فاذهب فادخل المسجد وصل فيه، ثم ائت فسلم عليّ.

قال: ورخص بعضهم في تقديم الزيارة على الصلاة. قال ابن الحاج: وكل ذلك واسع ولعل هذا الحديث لم يبلغهم، والله أعلم. انتهى.

وينبغي للزائر أن يستحضر الخشوع ما أمكنه، وليكن مقتصدًا في سلامه بين الجهر والإسرار. وفي البخاري: أن عمر رضي الله عنه قال لرجلين من أهل الطائف: لو كتبتا من أهل البلد لأوجعتكما ضرباً، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ؟

وقد روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: لا ينبغي رفع الصوت على نبي حياً ولا ميتاً. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تسمع صوت الوتد يوتد والمسمار يضرب في بعض الدور المطيفة بمسجد النبي ﷺ فترسل إليهم: لا تؤذوا رسول الله ﷺ.

قالوا: وما عمل علي بن أبي طالب رضي الله عنه مصراعي داره إلا بالمصانع^(١) توقياً لذلك. نقله ابن زبالة. فيجب الأدب معه كما في حياته.

وينبغي للزائر أن يتقدم إلى القبر الشريف من جهة القبلة، وإن جاء من جهة رجلي الصاحبين فهو أبلغ في الأدب من الإتيان من جهة رأسه المكرم. ويستدبر القبلة ويقف قبالة وجهه ﷺ بأن يقابل المسمار

(١) اسم مكان بالمدينة.

الفضة المضروب في الرخام الذي في الجدار، ولا عبرة بالقنديل الكبير اليوم، لأن هناك عدة قناديل.

وقد روي أن مالكا لما سأله أبو جعفر المنصور العباسي: يا أبا عبدالله أستقبل رسول الله ﷺ وأدعو، أم أستقبل القبلة وأدعو؟ فقال له مالك: ولم تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله عز وجل يوم القيامة.

لكن رأيت منسوباً للشيخ تقي الدين بن تيمية في منسكه: أن هذه الحكاية كذب على مالك^(١). وأن الوقوف عند القبر بدعة، قال: ولم يكن أحد من الصحابة يقف عنده ويدعو لنفسه، ولكن كانوا يستقبلون القبلة ويدعون في مسجده ﷺ. قال: ومالك من أعظم الأئمة كراهية لذلك^(٢).

وينبغي أن يقف عند محاذاة أربعة أذرع ويلتزم الأدب والخشوع والتواضع، غاض البصر في مقام الهيبة، كما كان يفعل بين يديه في حياته، ويستحضر علمه بوقوفه بين يديه وسماعه لسلامه، كما هو الحال في حال حياته، إذ لا فرق بين موته وحياته في مشاهدته لأتمته ومعرفته بأحوالهم وعزائمهم وخواطرهم، وذلك عنده جلي لا خفاء به^(٣).

(١) قال الشارح: هذا تهور عجيب، فإن الحكاية رواها أبو الحسن علي بن فهر في كتابه فضائل مالك بإسناد لا بأس به وأخرجها القاضي عياض عن شيوخ عدة من ثقات مشايخه، فمن أين أنها كذب. وليس في إسناده وضاع ولا كذاب!

(٢) كتب المالكية طافحة باستحباب الدعاء عند القبر مستقبلاً له مستدبراً القبلة. وإلى هذا ذهب الشافعي والجمهور.

(٣) قال الشارح: بإطلاع الله تعالى له على ذلك.

فإن قلت: هذه الصفات مختصة بالله تعالى.

فالجواب: إن من انتقل إلى عالم البرزخ من المؤمنين يعلم أحوال الأحياء غالباً، وقد وقع كثير من ذلك كما هو مسطور في مظنة ذلك من الكتب^(١).

وقد روى ابن المبارك عن سعيد بن المسيب: ليس من يوم إلا ويعرض على النبي ﷺ أعمال أمته غدوة وعشية، فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم، فلذلك يشهد عليهم.

ويمثل الزائر وجهه الكريم ﷺ في ذهنه، ويحضر قلبه جلال رتبته، وعلو منزلته، وعظيم حرمة، وإن أكابر الصحابة ما كانوا يخاطبونه إلا كأخي السرار، تعظيماً لما عظم الله من شأنه.

وقد روى ابن النجار أن امرأة سألت عائشة رضي الله عنها: أن اكشفي لي عن قبر رسول الله ﷺ فكشفته فبكت حتى ماتت.

وحكي عن أبي الفضائل الحموي، أحد خدام الحجرة المقدسة، أنه شاهد شخصاً من الزوار الشيوخ، أتى باب مقصورة الحجرة الشريفة، فطأ رأسه نحو العتبة، فحركه فإذا هو ميت، وكان ممن شهد جنازته.

[صيغة السلام عليه ﷺ]

ثم يقول الزائر بحضور قلب، وغض بصر وصوت، وسكون جوارح وإطراق: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا نبي

(١) هذا ليس جواباً للإشكال، وعالم البرزخ من المغيبات، ولا مجال فيه لغير النصوص [م].

الله، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا خيرة الله^(١)،
السلام عليك يا صفوة الله، السلام عليك يا سيد المرسلين، وخاتم
النبيين، السلام عليك يا قائد الغر المحجلين، السلام عليك وعلى
أهل بيتك الطيبين الطاهرين، السلام عليك وعلى أزواجك الطاهرات
أمهات المؤمنين، السلام عليك وعلى أصحابك أجمعين، السلام عليك
وعلى سائر الأنبياء وسائر عباد الله الصالحين، جزاك الله [عنا]^(٢) يا
رسول الله أفضل ما جازى نبياً ورسولاً عن أمته، وصلى الله عليك
كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكرك الغافلون، أشهد أن لا إله إلا
الله وأشهد أنك عبده ورسوله وأمينه، وخيرته من خلقه، وأشهد أنك
قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت في الله حق
جهاده.

ومن ضاق وقته عن ذلك، أو عن حفظه فليقل ما تيسر منه، أو
مما يحصل به الغرض.

وفي «التحفة»^(٣): أن ابن عمر وغيره من السلف كانوا
يقتصرون ويوجزون في هذا جداً. فعن مالك بن أنس، إمام دار
الهدية، وناهيك به خبرة بهذا الشأن من رواية ابن وهب عنه، يقول:
السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

وعن نافع عن ابن عمر، أنه كان إذا قدم من سفر دخل
المسجد، ثم أتى القبر المقدس فقال: السلام عليك يا رسول الله،
السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه.

(١) في ط: يا خيرة خلق الله.

(٢) في الأصل.

(٣) كتاب «تحفة الزائر» لابن عساكر.

وينبغي أن يدعو، ولا يتكلف السجع فإنه قد يؤدي إلى الإخلال بالحشوع.

وقد حكى جماعة منهم الإمام أبو نصر بن الصباغ^(١) في «الشامل» الحكاية المشهورة/ عن العتبي، واسمه: محمد بن عبيدالله ابن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب، وتوفي في سنة ثمان وعشرين ومائتين، وذكرها ابن النجار وابن عساكر وابن الجوزي في مثير الغرام الساكن^(٢) عن محمد بن حرب الهلالي قال: أتيت قبر النبي ﷺ فزرتة وجلست بحداثته، فجاء أعرابي فزاره ثم قال: يا خير الرسل، إن الله أنزل عليك كتاباً صادقاً، قال فيه: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي وأنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع^(٣) أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ووقف أعرابي على قبره الشريف وقال: اللهم إنك أمرت بعق العبيد، وهذا حبيبك وأنا عبدك، فأعتقني من النار على قبر حبيبك، فهتف به هاتف: يا هذا تسأل العتق لك وحدك، هلا سألت لجميع الخلق. اذهب فقد أعتقناك من النار.

إن الملوك إذا شابت عبيدهم في رقهم أعتقوهم عتق أبرار^(٤)

(١) في ط: أبو منصور الصباغ.

(٢) في ش: منبر الغرام الساكن، في الأصل: مثير العزم الساكن.

(٣) في الأصل: بالترب.

(٤) في (ط، ش): أحرار.

وأنت يا سيدي أولى بهذا كرمًا قد شبت في الرق فاعتقني من النار
وعن الحسن البصري قال: وقف حاتم الأصم على قبر النبي
ﷺ فقال: يا رب، إنا زرنا قبر نبيك فلا تردنا خائبين، فنودي: يا
هذا ما أذننا لك في زيارة قبر حبيبنا إلا وقد قبلناك فارجع أنت ومن
معك من الزوار مغفوراً لكم.

وقال ابن أبي فديك: سمعت بعض من أدركت يقول: بلغنا أنه
من وقف عند قبر النبي ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ
يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾^(١) وقال: صلى الله عليك يا محمد، حتى يقوها
سبعين مرة ناداه ملك: صلى الله عليك يا فلان، ولم تسقط له
حاجة^(٢).

قال الشيخ زين الدين المراغي وغيره: الأولى أن ينادي يا رسول
الله وإن كانت الرواية يا محمد، انتهى.

وقد نبهت على ذلك مع مزيد بيان في كتاب «لوامع الأنوار في
الأدعية والأذكار».

فإن أوصاه أحد بإبلاغ السلام إلى النبي ﷺ فليقل: السلام
عليك يا رسول الله من فلان.

ثم ينتقل عن يمينه قدر ذراع، فيسلم على أبي بكر رضي الله
عنه، لأن رأسه بحذاء منكب رسول الله ﷺ، على ما جزم به رزين
وغيره، وعليه الأكثر، فيقول: السلام عليك يا خليفة سيد المرسلين،

(١) سورة الأحزاب، الآية ٥٦.

(٢) الخبر من رواية البيهقي.

السلام عليك يا من أيد الله به - يوم الردة - الدين، جزاك الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، اللهم ارض عنه، وارض عنا به.

ثم ينتقل عن يمينه قدر ذراع، فيسلم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيقول: السلام عليك يا أمير المؤمنين، السلام عليك يا من أيد الله به الدين، جزاك الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، اللهم ارض عنه، وارض عنا به.

ثم يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه سيدنا رسول الله ﷺ بعد السلام على سيدنا أبي بكر وعمر، فيحمد الله تعالى ويمجده، ويصلي على النبي ﷺ، ويكثر من الدعاء والتضرع، ويجدد التوبة في حضرته الكريمة، ويسأل الله بجاهه أن يجعلها توبة نصوحاً، ويكثر من الصلاة والسلام على النبي ﷺ بحضرته الشريفة حيث يسمعه ويرد عليه.

[رده ﷺ السلام]

وقد روى أبو داود من حديث أبي هريرة: أنه ﷺ قال: ما من مسلم يسلم عليّ إلا رد الله عليّ روحه حتى أرد عليه السلام^(١).

وعند ابن أبي شيبة من حديث أبي هريرة مرفوعاً: من صلى علي عند قبري سمعته، ومن صلى علي نائياً بلغته.

/وعن سليمان بن سحيم، مما ذكره القاضي عياض في «الشفاء» ٤١٢/ب قال: رأيت النبي ﷺ في النوم، فقلت: يا رسول الله، هؤلاء الذين يأتونك فيسلمون عليك أتفقه سلامهم؟ قال: نعم وأرد عليهم.

ولا شك أن حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ثابتة معلومة

(١) إسناده صحيح.

مستمرة، ونبينا ﷺ أفضلهم، وإذا كان كذلك فينبغي أن تكون حياته
ﷺ أكمل وأتم من حياة سائرهم.

فإن قال سقيم الطبع رديء الفهم، لو كانت حياته ﷺ مستمرة
ثابتة لما كان لرد روحه معنى كما قال: «إلا رد الله علي روعي».

يجاب على ذلك من وجوه:

أحدها: أن هذا إعلام بثبوت وصف الحياة دائماً لثبوت رد
السلام دائماً، فوصف الحياة لازم لرد السلام اللازم، واللازم يجب
وجوده عند ملزومه أو ملزوم ملزومه، فوصف الحياة ثابت دائماً لأن
ملزوم ملزومه ثابت دائماً، وهذا من نفاثات سحر البيان في إثبات
المقصود بأكمل أنواع البلاغة، وأجل فنون البراعة التي هي قطرة من
بحار بلاغته العظمى.

ومنها: أن ذلك عبارة عن إقبال خاص، والتفات روحاني يحصل
من الحضرة النبوية إلى عالم الدنيا، وقوالب الأجساد الترابية، وتنزل
إلى دائرة البشرية، حتى يحصل عند ذلك رد السلام، وهذا الإقبال
يكون عاماً شاملاً، حتى لو كان المسلمون في كل لمحة أكثر من ألف
ألف لو سعههم ذلك الإقبال النبوي والالتفات الروحاني، ولقد
رأيت من ذلك ما لا أستطيع أن أعبر عنه، ولقد أحسن من سئل:
كيف يرد النبي ﷺ على من يسلم عليه من مشارق الأرض ومغاربها في
آن واحد فأنشد قول أبي الطيب:

كالشمس في وسط السماء ونورها يغشى البلاد مشارقاً ومغارباً

ولا ريب أن حاله ﷺ في البرزخ أفضل وأكمل من حال
الملائكة، هذا سيدنا عزرائيل عليه السلام يقبض مائة ألف روح في

وقت واحد ولا يشغله قبض عن قبض، وهو مع ذلك مشغول بعبادة الله تعالى، مقبل على التسبيح والتقديس، فنينا ﷺ حي يصلي ويعبد ربه ويشاهده، لا يزال في حضرة اقترابه، متلذذاً بسماع خطابه، وقد تقدم الجواب عن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ في أواخر الخصائص من المقصد الرابع.

وقد روى الدارمي عن سعيد بن عبد العزيز قال: لما كان أيام الحرة، لم يؤذن في مسجد النبي ﷺ، ولم يبرح سعيد بن المسيب من المسجد، وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهممة يسمعا من قبر النبي ﷺ، وذكر ابن النجار وابن زبالة بلفظ قال سعيد - يعني ابن المسيب -: فلما حضرت الظهر سمعت الأذان في القبر، فصلت ركعتين، ثم سمعت الإقامة فصلت الظهر، ثم مضى ذلك الأذان والإقامة في القبر المقدس لكل صلاة حتى مضت الثلاث ليال، يعني ليالي أيام الحرة.

وقد روى البيهقي وغيره: من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون. وفي رواية: أن الأنبياء لا يتركون في قبورهم بعد أربعين ليلة، ولكنهم يصلون بين يدي الله حتى ينفخ في الصور.

وله شواهد في صحيح مسلم منها: قوله ﷺ: مررت بموسى وهو قائم يصلي في قبره. وفي حديث أبي ذر^(١) في قصة المعراج: أنه لقي الأنبياء في السماوات، وكلموه وكلمهم. وقد ذكرت مزيد بيان لذلك في حجة الوداع من مقصد عباداته، وفي ذكر الخصائص الكريمة في مقصد معجزاته، وفي مقصد الإسراء والمعراج.

(١) في الصحيحين.

وهذه الصلوات والحج الصادر من الأنبياء ليس على سبيل التكليف، إنما هو على سبيل التلذذ، ويحتمل/ أن يكونوا في البرزخ ينسحب عليهم حكم الدنيا في استكثارهم من الأعمال وزيادة الأجور من غير خطاب بتكليف، وبالله التوفيق.

وإذا ثبت بشهادة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحياءٌ عند ربهم يرزقون﴾^(١) حياة الشهيد، ثبت للنبي ﷺ بطريق الأولى، والذي عليه جمهور العلماء: أن الشهداء أحياء حقيقة، وهل ذلك للروح فقط أو للجسد معها؟ بمعنى عدم البلى، قولان.

وقد صح عن جابر^(٢): أن أباه وعمرو بن الجموح وكانا ممن استشهد بأحد ودفنا في قبر واحد، حتى حفر السيل قبرهما، فوجدا لم يتغيرا، وكان أحدهما قد جرح، فوضع يده على جرحه، فدفن وهو كذلك، فأميطت يده عن جرحه ثم أرسلت فرجعت كما كانت. وكان بين ذلك وبين أحد ست وأربعون سنة.

وروي عنه ﷺ أنه قال في شهداء أحد: والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه. رواه البيهقي عن أبي هريرة.

وقد قال ابن شهاب: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: أكثروا من الصلاة عليّ في الليلة الزهراء^(٣) واليوم الأزهر^(٤)، فإنهما يؤديان عنكم، وإن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء رواه أبو داود وابن ماجه.

(١) سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

(٢) عند ابن سعد، وهو في الموطأ من وجه آخر.

(٣) في (ط، د): الغراء.

(٤) يعني ليلة الجمعة ويومها.

ونقل ابن زبالة عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال: من كلمه روح القدس لم يؤذن للأرض أن تأكل من لحمه.

وقد ثبت أن نبينا ﷺ مات شهيداً لأكله يوم خيبر من شاة مسمومة سماً قاتلاً من ساعته حتى مات منه بشر بن البراء، وصار بقاؤه ﷺ معجزة، فكان ألم السم يتعاهده إلى أن مات به، ولذا قال في مرض موته - كما مر-: ما زالت أكلة خيبر تعادني حتى كان الآن قطعت أبهري.

والأبهران: عرقان يخرجان من القلب تتشعب منهما الشرايين، كما ذكره في الصحاح.

قال العلماء: فجمع الله له بذلك بين النبوة والشهادة. انتهى.

[مكان الوقوف للدعاء بعد الزيارة]

وقد اختلف في محل الوقوف للدعاء. فعند الشافعية أنه قبالة وجهه كما ذكرته، وقال ابن فرحون من المالكية: اختلف أصحابنا في محل الوقوف للدعاء، ففي الشفاء قال مالك - في رواية ابن وهب -: إذا سلم على النبي ﷺ يقف للدعاء ووجهه إلى القبر الشريف لا إلى القبلة، وقد سأل الخليفة المنصور مالكا فقال: يا أبا عبد الله، أستقبل القبلة وأدعو، أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال مالك: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة. وقال مالك في «المبسوط»^(١)، لا أرى أن يقف عند القبر يدعو، ولكن يسلم ويمضي. قال ابن فرحون: ولعل ذلك [ليس]^(٢)

(١) اسم كتاب لإسماعيل القاضي.

(٢) في (ط، ش). قال الشارح: هكذا في النسخ الصحيحة.

اختلاف قول، وإنما أمر المنصور بذلك لأنه يعلم ما يدعو، ويعلم آداب الدعاء بين يديه ﷺ، فأمن عليه من سوء الأدب فأفتاه بذلك، وأفنى العامة أن يسلموا وينصرفوا، لئلا يدعوا تلقاء وجهه الكريم ويتوسلوا به في حضرته إلى الله العظيم فيما لا ينبغي الدعاء به، أو فيما يكره أو يحرم، فمقاصد الناس وسرائرهم مختلفة، وأكثرهم لا يقوم بأداب الدعاء ولا يعرفها، فلذلك أمرهم مالك بالسلام والانصراف. انتهى.

ورأيت مما نسب للشيخ تقي الدين بن تيمية في منسكه: ولا يدعو هناك مستقبل الحجر، ولا يصلي إليها ولا يقبلها، فإن هذا كله منهي عنه باتفاق الأئمة، ومالك من أعظم الأئمة كراهية لذلك، والحكاية المروية عنه أنه أمر المنصور أن يستقبل القبر وقت الدعاء، كذب على مالك، وكذا قال^(١)، والله أعلم، انتهى.

[طيب تربة المدينة]

وأما قول الأبوصيري في بردة المديح:

٤١٣ ب / لا طيب يعدل ترباً ضم أعظمه طوبى لمن تشق منه وملتشم

فقال شارحها العلامة ابن مرزوق وغيره: كأنه إشارة إلى النوعين المستعملين في الطيب، لأنه إما أن يستعمل بالشم، وإليه أشار بقوله «لمنتشق» وإما بالتضمخ وإليها أشار بـ«ملتشم»، قال: وأقل ذلك بتعفير جبهته وأنفه بتريته حال السجود في مسجده ﷺ، فليس المراد به تقبيل القبر الشريف فإنه مكروه.

(١) سبق التعليق على ذلك.

ونقل الزركشي عن السيرافي: أن «طوبى» الطيب، قال ابن مرزوق: طوبى فعلى من أنواع الطيب.

وهذا مبني على أن المراد أن تربته أفضل أنواع الطيب باعتبار الحقيقة الحسية، وذلك إما لأنه كذلك في نفس الأمر، أدركه من أدركه أم لا، وإما باعتبار اعتقاد المؤمن في ذلك فإن المؤمن لا يعدل بشم رائحة تربته ﷺ شيئاً من الطيب.

فإن قلت: لو كان المراد الحقيقة الحسية لأدرك ذلك كل أحد.

فالجواب: لا يلزم من قيام المعنى بمحل إدراكه لكل أحد، بل حتى توجد الشرائط^(١) وتتفي الموانع، وعدم الإدراك لا يدل على عدم المدرك، وانتفاء الدليل لا يدل على انتفاء المدلول، فالمركوم لا يدرك رائحة المسك، مع أن الرائحة قائمة بالمسك لم تنتف [عنه]^(٢).

ولما كانت أحوال القبر من الأمور الأخروية، لا جرم لا يدركها من الأحياء إلا من كشف له الغطاء من الأولياء المقربين، لأن متاع الآخرة باق، ومن في الدنيا فان، والفاني لا يتمتع بالباقي للتضاد، ولا ريب عند من له أدنى تعلق بشريعة الإسلام أن قبره ﷺ روضة من رياض الجنة، بل أفضلها، وإذا كان القبر كما ذكرناه وقد حوى جسمه الشريف عليه الصلاة والسلام الذي هو أطيب الطيب، فلا مرية أنه لا طيب يعدل تراب قبره المقدس. ويرحم الله أحمد بن محمد العريف حيث يقول في قصيدته التي أولها:

(١) في (ط، ش): شروط.

(٢) في (ط، ش).

إذا ما حدا الحادي بأحمال يثرب فليت المطايا فوق خدي تُعَبِّقُ (١)
ثم قال بعد أبيات:

فما عبق الريحان إلا وترها أجل من الريحان طيباً وأعبق
وله أيضاً:

راحت ركائبهم تبدي روائحها طيباً فيا طيب ذاك الوفد أشباحا
نسيم قبر النبي المصطفى لهم روض إذا نشروا من ذكره فاحا
ولله در القائل:

فاح الصعيد بجسمه فكأنه روض ينمُّ بعرفه المتأرج (٢)
ما جسمه مما يغيره الثرى والروح منه كالصباح الأبلج

وقال ابن بطال في قوله ﷺ: «المدينة ينصع طيبها» (٣) هو مثل
ضربه للمؤمن المخلص الساكن فيها، الصابر على لأوائها مع فراق
الأهل والتزام المخافة من العدو، فلما باع نفسه والتزم هذا الأمر بان
صدقه ونصع إيمانه وقوي لاغتباطه بسكن المدينة ولقربه من رسوله،
كما ينصع ربح الطيب فيها ويزيد عبقاً على سائر البلاد، خصوصية
خص الله بها بلدة رسوله ﷺ الذي اختار تربتها المباشرة جسده الطيب
المطهر، وقد جاء في الحديث «أن المؤمن يقبر في التربة التي خلق منها»
فكانت بهذا تربة المدينة أفضل الترب، كما أنه هو ﷺ أفضل البشر،

(١) أي تظهر الإبل رائحة التراب المتعلق بخفافها بأن تمشي على خدي فيصل
التراب إليهما.

(٢) المتوهج ربحه.

(٣) الحديث «المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها». والنصوع هو الخلوص
الظاهر البين.

فلهذا والله أعلم يتضاعف ريح الطيب فيها على سائر البلدان . انتهى .

[بحث في التوسل]

وينبغي للزائر أن يكثر من الدعاء والتضرع والاستغاثة والتشفع والتوسل به ﷺ، فجدير بمن استشفع به أن يشفعه الله تعالى فيه .

واعلم أن الاستغاثة هي طلب الغوث، فالمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث منه، فلا فرق بين أن يعبر بلفظ: الاستغاثة أو التوسل أو التشفع أو التجوّه أو التوجه، لأنهما من الجاه والوجهة/ ومعناه: علو القدر والمنزلة .

وقد يتوسل بصاحب الجاه إلى من هو أعلى منه، ثم إن كلاً من الاستغاثة والتوسل والتشفع والتوجه بالنبي ﷺ - كما ذكره في «تحقيق النصر» و«مصباح الظلام» - واقع في كل حال، قبل خلقه وبعد خلقه، في مدة حياته في الدنيا وبعد موته في مدة البرزخ، وبعد البعث في عرصات القيامة .

فأما الحالة الأولى فحسبك ما قدمته في المقصد الأول من استشفاع آدم عليه السلام به لما أخرج من الجنة، وقول الله تعالى له: يا آدم لو تشفعت إلينا بمحمد في أهل السماوات والأرض لشفعناك^(١) . وفي حديث عمر بن الخطاب عند الحاكم والبيهقي وغيرهما: وإن سألتني بحقه فقد غفرت لك^(٢) . ويرحم الله ابن جابر حيث قال:

(١) رواه ابن عساكر عن كعب الأحبار، قاله الشارح ٦٢/١ .

(٢) قال البيهقي: غريب مع ضعف راويه . قاله الشارح ٦٣/١ .

به قد أجاب الله آدم إذ دعا ونُجِّي في بطن السفينة نوح وما ضرت النار الخليل لنوره ومن أجله نال الفداء ذبيح

[وصح^(١) أن رسول الله ﷺ قال لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب، أسألك بحق محمد لما غفرت لي، قال الله تعالى: يا آدم، وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه، قال: يا رب، إنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك، رفعت رأسي فرأيت قوائم العرش مكتوباً عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله فعرفت أنك لا تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. فقال الله تعالى: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إلي، وإذا سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك. ذكره الطبري^(٢)، وزاد فيه: وهو آخر الأنبياء من ذريتك]^(٣).

وأما التوسل بعد خلقه في مدة حياته، فمن ذلك الاستغاثة به ﷺ عند القحط وعدم الأمطار، وكذلك الاستغاثة به من الجوع ونحو ذلك مما ذكرته في مقصد المعجزات ومقصد العبادات في الاستسقاء، ومن ذلك استغاثة ذوي العاهات به، وحسبك ما رواه النسائي والترمذي عن عثمان بن حنيف، أن رجلاً ضرير أتاه ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوؤه ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك في حاجتي لتقضي، اللهم شفعه في، وصححه البيهقي، وزاد: فقام وقد أبصر.

وأما التوسل به ﷺ بعد موته في البرزخ فهو أكثر من أن يحصى

(١) تساهل المصنف في استعمال كلمة «صح» [م].

(٢) الذي في المقصد الأول: ذكره الطبراني. انظر الشرح ٦٣/١.

(٣) هذه الفقرة ذكرت في ط، د، وعلى هامش ب.

أو يدرك باستقصاء وفي كتاب «مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام» للشيخ أبي عبد الله بن النعمان طرف من ذلك .

ولقد كان حصل لي داء أعيا دواؤه الأطباء، وأقمت به سنين، فاستغثت به (١) ليلة الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة بمكة زادها الله شرفاً، ومنَّ عليَّ بالعود في عافية بلا محنة، فبينما أنا نائم إذ جاء رجل معه قرطاس يكتب فيه: هذا دواء لداء أحمد بن القسطلاني من الحضرة الشريفة بعد الإذن الشريف النبوي، ثم استيقظت فلم أجد بي - والله - شيئاً مما كنت أجد، وحصل الشفاء ببركة النبي ﷺ .

ووقع لي أيضاً في سنة خمس وثمانين وثمانمائة في طريق مكة، بعد رجوعي من الزيارة الشريفة لقصد مصر، أن صرعت خادمتنا غزال الحبشية، واستمر بها أياماً، فاستشفعت به ﷺ في ذلك، فأتاني آت في منامي، ومعه الجني الصارع لها فقال: لقد أرسله لك النبي ﷺ، فعاتبته وحلفته أن لا يعود إليها، ثم استيقظت وليس بها قلبة (٢) كأنما نشطت من عقال، ولا زالت في عافية من ذلك حتى فارقتها بمكة سنة أربع وتسعين وثمانمائة، والحمد لله رب العالمين .

وأما التوسل به ﷺ في عرصات القيامة، فمما قام عليه الإجماع وتواترت به الأخبار في حديث الشفاعة .

فعليك أيها الطالب إدراك السعادة الموصل لحسن الحال في حضرة الغيب والشهادة، بالتعلق بأذيال عطفه وكرمه، والتطفل على

(١) لا يستغاث إلا بالله سبحانه وتعالى ومثل هذا القول وأمثاله، مردود على

قائله - الناشر -

(٢) أي: داء وتعب.

موائد نعمه، والتوسل بجاهه الشريف والتشفع بقدره المنيف، فهو الوسيلة إلى نيل المعالي واقتناص المرام، والمفزع يوم الجزع والهلع لكافة الرسل الكرام، واجعله أمامك فيما نزل بك من النوازل، وإمامك فيما تحاول من القرب والمنازل، فإنك تظفر من المراد بأقصاه، وتدرك رضى من أحاط بكل شيء علماً/ وأحصاه، واجتهد ما دمت بطيبة الطيبة حسب طاقتك في تحصيل أنواع القربات، ولازم قرع أبواب السعادات بأظافير الطلبات، وارق في مدارج العبادات، ولج^(١) في سرادق المرادات.

تمتع إن ظفرت بنيل قرب وحصل ما استطعت من ادخار
فها أنا قد أبحث لكم عطائي وها قد صرت عندي في جوارى
فخذ ما شئت من كرم وجود ونل ما شئت من نعم غزار
فقد وسعت أبواب التداني وقد قربت للزوار داري
فمتع ناظريك فها جمالي تجلى للقلوب بلا استتار

[بحث في الروضة الشريفة]

ولازم الصلوات مكتوبة ونافلة في مسجده المكرم، خصوصاً بالروضة التي ثبت أنها روضة من رياض الجنة. كما رواه البخاري^(٢).

قال ابن أبي جمرة معناه: تنقل تلك البقعة بعينها في الجنة، فتكون روضة من رياض الجنة، ويحتمل أن يكون المراد: العمل فيها يوجب لصاحبه روضة في الجنة، قال: والأظهر الجمع بين الوجهين

(١) فعل أمر من ولج بمعنى دخل.

(٢) الحديث رواه الشيخان وغيرهما، قال ﷺ: (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي).

معاً، يعني احتمال كونها تنقل إلى الجنة، وكون العمل فيها يوجب لصاحبه روضة في الجنة، قال: ولكل وجه منها دليل يعضده ويقويه من جهة النظر والقياس.

أما الدليل على أن العمل فيها يوجب روضة في الجنة، فلأنه إذا كانت الصلاة في مسجده ﷺ بألف فيما سواه من المساجد، فلهذه البقعة زيادة على باقي البقع كما كان للمسجد زيادة على غيره.

وأما الدليل على كونها بعينها في الجنة، وكون المنبر أيضاً على الحوض، كما أخبر ﷺ وأن الجذع في الجنة، والجذع في البقعة نفسها، فالعلة^(١) التي أوجبت للجذع الجنة هي^(٢) في البقعة سواء، على ما أذكره بعد إن شاء الله تعالى.

والذي أخبر بهذا أخبر بهذا، فينبغي الحمل على أكمل الوجوه، وهو الجمع بينهما، لأنه قد تقرر من قواعد الشرع أن البقعة المباركة، ما فائدة بركتها لنا، والإخبار بها لنا إلا لتعميرها بالطاعات، فإن الثواب فيها أكثر، وكذلك الأيام المباركة أيضاً، فعلى هذا يكون الموضع روضة من رياض الجنة الآن، ويعود روضة كما كان في موضعه، ويكون للعامل فيه روضة في الجنة، وهو الأظهر لوجهين: أحدهما: لعلو منزلته ﷺ، ولما خص الخليل عليه السلام بالحجر من الجنة، خص الحبيب ﷺ بالروضة من الجنة^(٣).

وها هنا بحث: لم جعلت هذه البقعة من بين سائر البقع روضة

(١) جواب: وأما، وفي المخطوطات: فبالعلة.

(٢) أي موجودة.

(٣) وهذا هو الوجه الثاني.

من رياض الجنة؟ فإن قلنا: تعبد، فلا بحث، وإن قلنا: لحكمة
فحينئذ يحتاج إلى البحث.

والأظهر أنه لحكمة، وهي أنه قد سبق في العلم الرباني بما ظهر
أن الله عز وجل فضله على جميع خلقه، وأن كل ما كان منه بنسبة ما
من جميع المخلوقات يكون له تفضيل على جنسه كما استقرئ في كل
أموره، من بدء ظهوره ﷺ إلى حين وفاته، في الجاهلية والإسلام.
فمنها ما كان في شأن أمه^(١)، وما نالها من بركته مع الجاهلية الجهلاء،
حسب ما هو مذكور معلوم. ومثل ذلك حليلة السعدية. وحتى
الأتان، وحتى البقعة التي تجعل الأتان يدها عليها تخضر من حينها،
وما هو من ذلك كله معلوم.

وكان مشيه ﷺ حيث ما مشى ظهرت البركات مع ذلك كله،
وحيث وضع ﷺ يده المباركة ظهر في ذلك كله من الخيرات والبركات
حسباً ومعنى، كما هو منقول معروف.

ولما شاءت القدرة^(٢) أنه ﷺ لا بد له من بيت، ولا بد له من
منبر، وأنه بالضرورة يكثر ترده ﷺ بين المنبر والبيت، فالحرمة التي
أعطي [غيرهما]^(٣) إذا كان [من مسة]^(٤) واحدة بمباشرته أو بواسطة
حيوان أو غيره تظهر البركة والخير، فكيف مع كثرة ترده ﷺ في البقعة
الواحدة مراراً في اليوم الواحد طول عمره، من وقت هجرته إلى حين
وفاته. / فلم يبق من الترفيع بالنسبة إلى عالمها أعلى مما وصفناه، وهو

أ/٤١٥

(١) في ط: آمنة.

(٢) أي صاحب القدرة.

(٣) في (ش، ط).

(٤) كذا في (أ، ب) وفي الباقي: بمشية.

أنها كانت من الجنة، وتعود إليها، وهي الآن منها، وللعامل فيها مثلها، فلو كانت مرتبة يمكن أن تكون أرفع من هذه في هذه الدار، لكان لهذه أعلى مرتبة مما ذكرنا في جنسها.

فإن احتج محتج لا فهم له بأن يقول: ينبغي أن يكون ذلك للمدينة بأكملها، لأنه ﷺ كان يطؤها بقدمه مراراً.

فالجواب: أنه قد حصل للمدينة تفضيل لم يحصل لغيرها، من ذلك أن ترابها شفاء كما أخبر ﷺ، مع ما شاركت فيه البقعة المكرمة من منعها من الدجال وتلك الفتن العظام. وأنه ﷺ أول ما يشفع لأهلها يوم القيامة، وأن ما كان لها من الوباء والحمى رفع عنها، وأنه بورك في طعامها وشرابها وأشياء كثيرة، فكان التفضيل لها بنسبة ما أشرنا إليه أولاً، بأن تردده ﷺ في المسجد نفسه أكثر مما في المدينة نفسها، وتردده ﷺ فيما بين المنبر والبيت أكثر مما سواه من سائر المسجد، فالبحث تأكد بالاعتراض، لأنه جاءت البركة متناسبة لتكرار تلك الخطوات المباركة، والقرب من تلك النسمة المرتفعة لا خفاء فيه إلا على ملحد^(١) أعمى البصيرة، فالمدينة أرفع المدن، والمسجد أرفع المساجد، والبقعة أرفع البقع، قضية معلومة، وحجة ظاهرة موجودة. انتهى^(٢).

وقال الخطابي: المراد من هذا الحديث الترغيب في سكنى المدينة، وأن من لازم ذكر الله في مسجدها آل به إلى روضة [من رياض]^(٣)

(١) مائل عن الصواب.

(٢) أي كلام ابن أبي جمرة.

(٣) في ط.

الجنة، وسقي يوم القيامة من الحوض انتهى . وتقدم في الخصائص من مقصد المعجزات مزيد لذلك .

[أيها أفضل مكة أم المدينة؟]

وعند مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام^(١).

وقد اختلف العلماء في المراد بهذا الاستثناء على حسب اختلافهم في مكة والمدينة أيها أفضل؟

ومذهب سفيان بن عيينة والشافعي وأحمد - في أصح الروايتين عنه - وابن وهب ومطرف وابن حبيب - الثلاثة من المالكية - وحكاه الساجي عن عطاء بن أبي رباح، والمكيني والكوفيين . وحكاه ابن عبد البر عن عمر وعلي وابن مسعود وأبي الدرداء وجابر وابن الزبير وقتادة، وجماهير العلماء، أن مكة أفضل من المدينة، وأن مسجد مكة أفضل من مسجد المدينة، لأن الأمانة تشرف بفضل العبادة فيها على غيرها مما تكون العبادة فيها مرجوحة .

وقد حكى ابن عبد البر أنه روي عن مالك ما يدل على أن مكة أفضل الأرض كلها، قال: ولكن المشهور عن أصحابه في مذهبه تفضيل المدينة . انتهى .

وقال مالك^(٢): المدينة ومسجدها أفضل .

(١) وهو عند الشيخين من حديث أبي هريرة .

(٢) وكذا أكثر أهل المدينة وعمر بن الخطاب وجماعة .

ومما احتج به أصحابنا لتفضيل مكة: حديث عبد الله بن الحمراء^(١) أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف على راحلته يقول: والله إنك لخير أرض الله وأحبها إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت. قال الترمذي: حسن صحيح. وقال ابن عبد البر: هذا أصح الآثار عنه ﷺ. قال: وهذا قاطع في محل الخلاف. انتهى.

ف عند الشافعي والجمهور معناه - أي الحديث -: إلا المسجد الحرام فإن الصلاة فيه أفضل من الصلاة في مسجدي.

وعند مالك وموافقيه: إلا المسجد الحرام فإن الصلاة في مسجدي تفضله بدون الألف.

وعن عبد الله بن الزبير قال رسول الله ﷺ: صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في هذا رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان في صحيحه. وزاد: يعني في مسجد المدينة، والبزار ولفظه: صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام فإنه يزيد عليه مائة. قال المنذري: وإسناده صحيح أيضاً.

ومما يستدل به المالكية، ما ذكره ابن حبيب في «الواضحة» أنه قال: صلاة في مسجدي كألف صلاة/ فيما سواه. وجمعة في ٤١٥/ب مسجدي كألف جمعة فيما سواه، ورمضان في مسجدي كألف رمضان فيما سواه^(٢).

(١) قرشي زهري أسلم في الفتح.

(٢) أخرجه البيهقي.

ومذهب عمر بن الخطاب وبعض الصحابة وأكثر المدنيين - كما قاله القاضي عياض - أن المدينة أفضل، وهو أحد الروايتين عن أحمد.

وأجمعوا على أن الموضع الذي ضم أعضاء الشريفة ﷺ أفضل بقاع الأرض، حتى موضع الكعبة، كما قاله ابن عساكر والباقي والقاضي عياض، بل نقل التاج السبكي كما ذكره السيد السمهودي في «فضائل المدينة» عن ابن عقيل الحنبلي أنها أفضل من العرش، وصرح الفاكهاني بتفضيلها على السماوات ولفظه: وأقول أنا وأفضل من بقاع السماوات أيضاً. ولم أر من تعرض لذلك، والذي أعتقده لو أن ذلك عرض على علماء الأمة لم يختلفوا فيه، وقد جاء أن السماوات شرفت بمواطئ قدميه، بل لو قال قائل: إن جميع بقاع الأرض أفضل من جميع بقاع السماء لشرفها لكونه ﷺ حالاً فيها لم يبعد، بل هو عندي الظاهر المتعين. انتهى.

وحكاه بعضهم^(١) عن الأكثرين لخلق الأنبياء منها ودفنهم فيها، لكن قال النووي: إن الجمهور على تفضيل السماء على الأرض، أي ما عدا ما ضم الأعضاء الشريفة.

وقد استشكل ما ذكر من الإجماع على أفضلية ما ضم أعضاء الشريفة على جميع بقاع الأرض، ويؤيده^(٢) ما قاله الشيخ عز الدين ابن عبد السلام في تفضيل بعض الأماكن على بعض، من أن الأماكن والأزمان كلها متساوية، ويفضلان بما يقع فيهما لا بصفات قائمة بهما. قال: ويرجع تفضيلهما إلى ما ينيل الله العباد فيهما من فضله وكرمه،

(١) أي تفضيل الأرض على السماء.

(٢) يؤيد الإشكال.

والتفضيل الذي فيها أن الله تعالى يجود على عباده بتفضيل أجر العاملين فيها. انتهى. ملخصاً.

لكن تعقبه الشيخ تقي الدين السبكي بما حاصله: إن الذي قاله لا ينفي أن يكون التفضيل لأمر آخر فيها وإن لم يكن عمل، لأن قبر رسول الله ﷺ ينزل عليه من الرحمة والرضوان والملائكة، وله عند الله من المحبة ولساكنه ما تقصر العقول عن إدراكه، وليس ذلك لمكان غيره، فكيف لا يكون أفضل؟ وليس محل عمل لنا لأنه ليس مسجداً، ولا له حكم المسجد، بل هو مستحق للنبي ﷺ.

وأيضاً فقد تكون الأعمال مضاعفة فيه باعتبار أن النبي ﷺ حي كما تقرر، وأن أعماله مضاعفة فيه أكثر من كل أحد، فلا يختص التضعيف بأعمالنا نحن.

قال: ومن فهم هذا انشرح صدره لما قاله القاضي عياض من تفضيل ما ضم أعضاء الشريفة ﷺ باعتبارين: أحدهما، ما قيل إن كل أحد يدفن في الموضع الذي خلق منه، والثاني: تنزل الملائكة والبركات عليه، وإقبال الله تعالى. ولا نسلم أن الفضل للمكان لذاته ولكن لأجل من حلّ فيه ﷺ. انتهى.

وقد روى أبو يعلى عن أبي بكر أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يقبض النبي إلا في أحب الأماكن إليه». ولا شك أن أحبها إليها أحبها إلى ربه تعالى، لأن حبه تابع لحب ربه جل وعلا، وما كان أحب إلى الله ورسوله كيف لا يكون أفضل؟ وقد قال ﷺ: «اللهم إن إبراهيم دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك إبراهيم لمكة ومثله معه»^(١). ولا ريب أن دعاء النبي ﷺ أفضل من دعاء إبراهيم،

(١) أخرجه مسلم والموطأ وغيرهما.

لأن فضل الدعاء على قدر فضل الداعي . وقد صح أنه ﷺ قال: «اللهم حبب إلينا المدينة، كحبنا مكة أو أشد»^(١). وفي رواية «بل أشد» وقد أجيب دعوته، حتى كان يحرك دابته إذا رآها من حبتها. وروى الحاكم أنه ﷺ قال: «اللهم إنك أخرجتني من أحب البقاع»^(٢) إلي فأسكني في أحب البقاع إليك» أي في موضع تصيره كذلك، فيجتمع فيه الحبان. قيل ضعفه ابن عبد البر^(٣)، ولو سلمت/ صحته فالمراد: أحب إليك بعد مكة لحديث «إن مكة خير بلاد الله»، وفي رواية «أحب أرض الله إلى الله»، ولزيادة التضعيف^(٤) بمسجد مكة.

أ/٤١٦

وتعقبه العلامة السيد السمهودي: بأن ما ذكر لا يقتضي صرفه عن ظاهره، إذ القصد به الدعاء لدار هجرته بأن يصيرها الله كذلك. وحديث: «إن مكة خير بلاد الله» محمول على بدء الأمر قبل ثبوت الفضل للمدينة، وإظهار الدين، وافتتاح البلاد منها حتى مكة، فقد أنالها وأنال بها ما لم يكن لغيرها من البلاد، فظهر إجابة دعوته، وصيرورتها أحب مطلقاً بعد، ولهذا افترض الله تعالى على نبيه ﷺ الإقامة بها، وحث هو ﷺ على الاقتداء به في سكنائها والموت بها، فكيف لا تكون أفضل.

قال: وأما مزيد المضاعفة، فأسباب التفضيل لا تنحصر في ذلك، فالصلوات الخمس بمبنى للمتوجه لعرفة أفضل منها بمسجد مكة، وإن انتفت عنها المضاعفة، إذ في الاتباع ما يربو عليها، ومذهبنا: شمول المضاعفة للنفل مع تفضيله بالمنزل، ولهذا قال عمر رضي الله

(١) رواه الشيخان وغيرهما.

(٢) في ط: البلاد.

(٣) فقال: لا يختلف أهل العلم في نكارتة وضعفه.

(٤) أي تضعيف أجر الأعمال. [م].

عنه بمزيد المضاعفة لمسجد مكة، مع قوله بتفضيل المدينة، ولم يصب من أخذ من قوله بمزيد المضاعفة: تفضيل مكة. إذ غايته أن للمفضلون مزية ليست للفاضل، مع أن دعاءه ﷺ بمزيد تضعيف البركة بالمدينة على مكة شامل للأمر الدينية أيضاً. وقد يبارك في العدد القليل. فيربو نفعه على الكثير، ولهذا استدل به على تفضيل المدينة.

وإن أريد من حديث المضاعفة الكعبة فقط، فالجواب: إن الكلام فيما عداها، فلا يرد شيء مما جاء في فضلها، ولا ما بمكة من مواضع النسك لتعلقه بها، ولذا قال عمر لعبد الله [بن عياش] (١) المخزومي: أنت القائل: لمكة خير من المدينة؟ فقال عبد الله: هي حرم الله وأمنه وفيها بيته، فقال عمر: لا أقول في حرم الله وبيته شيئاً، ثم كرر عمر قوله الأول، فأعاد [عبد الله] (٢) جوابه، فأعاد له: لا أقول في حرم الله وبيته شيئاً، فأشير على عبد الله فانصرف.

وقد عوضت المدينة عن العمرة، ما صح في إتيان مسجد قباء، وعن الحج ما جاء في فضل الزيارة [النبوية] (٣) والمسجد، والإقامة بعد النبوة بالمدينة وإن كانت أقل من مكة على القول به، فقد كانت سبباً لإعزاز الدين وإظهاره، ونزول أكثر الفرائض وإكمال الدين، حتى كثرت جبريل عليه السلام بها، ثم استقر بها ﷺ إلى قيام الساعة. ولهذا قيل للملك: أيما أحب إليك المقام هنا - يعني المدينة - أو مكة؟ فقال: هنا، وكيف لا أختار المدينة وما بها طريق إلا سلك عليها رسول الله ﷺ، وجبريل ينزل عليه من عند رب العالمين في أقل من ساعة؟!!

(١) في (ط، ش).

(٢) في (ط، ش).

(٣) في (ط، ش).

وروى الطبراني حديث «المدينة خير من مكة» وفي رواية للجندي «أفضل من مكة» وفيه: محمد بن عبد الرحمن الرداد، ذكره ابن حبان في الثقات وقال: كان يخطئ، وقال أبو زرعة: لين، وقال: ابن عدي، روايته ليست محفوظة، وقال أبو حاتم: ليس بقوي.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: (أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون يثرب وهي المدينة، تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد)

أي أمرني الله بالهجرة إليها، إن كان قاله ﷺ بمكة، أو: بسكناها، إن كان قاله بالمدينة^(١).

وقال القاضي عبد الوهاب: لا معنى لقوله: «تأكل القرى» إلا رجوح فضلها عليها، أي على القرى وزيادتها على غيرها.

وقال ابن المنير: يحتمل أن يكون المراد بذلك: غلبة فضلها على فضل غيرها، أي أن الفضائل تضحل في جنب عظيم فضلها حتى تكون عدماً، وهذا أبلغ من تسمية مكة «أم القرى» لأن الأمومة لا ينمحي معها ما هي له أم، لكن يكون لها حق الأمومة، انتهى.

ويحتمل أن يكون المراد غلبة أهلها على القرى، والأقرب: حمله عليها، إذ هو أبلغ في الغرض المسوق له. انتهى ما قاله السيد السمهودي.

ب/٤١٦

[رأي المصنف]

وقد أطلت في الاحتجاج لتفضيل المدينة على مكة، وإن كان

(١) أي: إذا كان هذا الحديث مما قاله ﷺ بمكة فتفسيره: أمرني الله بالهجرة إليها، وإن كان قاله بالمدينة فالمعنى: أمرني بسكناها. [المحقق].

مذهب إمامنا الشافعي - رحمه الله - تفضيل مكة، لأن هوى كل نفس أين حل حبيبها.

عليّ لربع^(١) العامرية وقفة ليملي علي الشوق والدمع كاتب ومن مذهبي حب الديار لأهلها وللناس فيما يعشقون مذاهب على أن للقلم في أرجاء تفضيل المدينة مجالاً واسعاً ومقالاً جامعاً، لكن الرغبة في الاختصار تطوي أطراف بساطه، والرغبة من الإكثار تصرف عن تطويله وإفراطه.

وقد استنبط العارف ابن أبي جمرة من قوله ﷺ المروي في البخاري (ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة) التساوي بين فضل مكة والمدينة. قال: وظاهر هذا الحديث يعطي التسوية بينهما في الفضل، لأن جميع الأرض يطؤها الدجال إلا هذين البلدين، فدل على تسويتها في الفضل، قال: ويؤيد ذلك أيضاً من وجوه النظر: لأنه إن كانت خصت المدينة بمدفنه ﷺ وإقامته بها ومسجده، فقد خصت مكة بمسقطه ﷺ بها ومبعثه منها، وهي قبلته، فمطلع شمس ذاته [الكرمية]^(٢) المباركة مكة، ومغربها المدينة، وإقامته بعد النبوة على المشهور من الأقاويل بمكة مثل إقامته ﷺ بالمدينة، عشر سنين في كل واحدة منها^(٣). كذا قاله.

[الترغيب في سكنى المدينة]

وأنت إذا تأملت قوله ﷺ فيما رواه مسلم من حديث سعد^(٤)

(١) في (ط، ب، د): بربع .

(٢) في (ط، ب).

(٣) من المعلوم أن إقامته ﷺ بمكة بعد النبوة كانت ثلاث عشرة سنة.

(٤) قال الشارح: كذا في النسخ والذي في مسلم إنما هو عن أبي هريرة.

(يأتي على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه : هلم إلى الرخاء،
والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، والذي نفسي بيده لا يخرج أحد
رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه) ظهر لك أن فيه إشعاراً بدم
الخروج من المدينة. بل نقل الشيخ محب الطبري عن قوم أنه عام أبداً
مطلقاً، وقال: إنه ظاهر اللفظ.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ
قال: (لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتي إلا كنت له
شفيعاً يوم القيامة أو شهيداً).

وفيه (١) عن سعيد (٢) - مولى المهري - أنه جاء إلى أبي سعيد
الخدري ليالي الحرة، فاستشاره في الجلاء من المدينة، وشكا إليه
أسعارها وكثرة عياله، وأخبره أنه لا صبر له على جهد المدينة ولأوائها،
فقال: ويحك. لا أمرك بذلك، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا
يصبر أحد على لأوائها إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة.

«الأواء»: بالمد، الشدة والجوع.

«أو» في قوله: (إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً) الأظهر أنها
ليست للشك، لأن هذا الحديث رواه جابر بن عبد الله، وسعد بن أبي
وقاص، وابن عمر، وأبو سعيد، وأبو هريرة، وأسما بنت عميس،
وصفية بنت أبي عبيد، عنه ﷺ بهذا اللفظ، ويبعد اتفاق جميعهم أو
رواتهم على الشك وتطابقهم فيه على صيغة واحدة، بل الأظهر أنه
قاله صلى الله عليه وسلم .

(١) أي في مسلم.

(٢) صوابه كما في مسلم: عن أبي سعيد.

وتكون «أو» للتقسيم، ويكون شهيداً لبعض أهل المدينة وشفيعاً لباقيهم، إما شفيعاً للعاصين وشهيداً للمطيعين، وإما شهيداً لمن مات في حياته، وشفيعاً لمن مات بعده، أو غير ذلك.

وهذه خصوصية زائدة على الشفاعة للمذنبين أو للعالمين في القيامة، وعلى شهادته على جميع الأمم، فيكون لتخصيصهم بهذا كله علو مرتبه وزيادة منزلة وحظوة.

وإذا قلنا «أو» للشك، فإن كانت اللفظة الصحيحة «شهيراً» اندفع الاعتراض لأنها زائدة على الشفاعة المدخرة لغيرهم، وإن كانت اللفظة الصحيحة «شفيعاً» فاختصاص أهل المدينة بهذا مع ما جاء من عمومها وادخارها لجميع الأمة/ أن هذه شفاعة أخرى غير العامة، وتكون هذه الشفاعة لأهل المدينة بزيادة الدرجات، أو تخفيف الحساب، وأو بما شاء الله من ذلك، أو بإكرامهم يوم القيامة بأنواع الكرامات لكونهم على منابر، أو في ظل العرش، أو الإسراع بهم إلى الجنة أو غير ذلك من خصوص الكرامات.

كيف لا يتحمل المشقات من يجب أن يتمتع بسيد أهل الأرض والسموات، وينال ما وعده به من جزيل الثوبات وجسيم الهبات، وإنجاز وعده لشفاعته وشهادته وبلوغ قصده في المحيا والممات، وكم عسى تكون شدة المدينة ولأوائها، وإلى متى تستمر مشقتها وبلواها، لو تأملت يا هذا، لوجدت في البلاد ما هو في الشدة وشظف العيش مثلها أو أشق منها، وأهلها مقيمون فيها، وربما يوجد فيهم من هو قادر على الانتقال فلا ينتقل، وقوي على الرحلة فلا يرتحل، ويؤثر وطنه مع إمكان الارتحال والقدرة على الانتقال.

على أن المدينة مع شظف العيش بها في غالب الأحيان، قد

وسع الله فيها على بعض السكان، حتى من أصحابنا من غير أهلها ممن استوطنها وحسن فيها حاله، وتنعم بها باله دون سائر البلدان، فإن من الله على المرء بمثل ذلك هنالك، وإلا فالصبر للمؤمن أولى، فمن وفقه الله تعالى صبره في إقامته بها ولو على أحر من الجمر، فيتجرع مرارة غصتها ليجتلي عروس منصتها، ويلقى نزرأ من لأوائها ليوقى بذلك من مصائب الدنيا وبلائها.

وقد روى البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها) أي ينقبض وينضم ويلتجئ، مع أنها أصل في انتشاره، فكل مؤمن له من نفسه سائق إليها في جميع الأزمان، لحبه في ساكنها ﷺ، فأكرم بسكانها ولو قيل في بعضهم ما قيل، فقد حظوا بشرف المجاورة بهذا الحبيب الجليل. فقد ثبت لهم حق الجوار وإن عظمت إساءتهم، فلا يسلب عنهم اسم الجار، وقد عمم ﷺ في قوله: (ما زال جبريل يوصيني بالجار) ولم يخص جاراً دون جار، وكل ما احتج به محتج من رمي بعض عوامهم السنة بالابتداع وترك الاتباع، فإنه إذا ثبت ذلك في شخص منهم فلا يترك إكرامه، ولا ينقص احترامه فإنه لا يخرج عن حكم الجار ولو جار، ولا يزول عنه شرف مساكنته في الدار كيفما دار، بل يرجى أن يختم له بالحسنى ويمنح بهذا القرب الصوري قرب المعنى.

فيا ساكني أكناف طيبة كلكم إلى القلب من أجل الحبيب حبيب

ولله در ابن جابر حيث قال:

هناؤكم يا أهل طيبة قد حقاً فبالقرب من خير الورى حزتم السبقا

فلا يتحرك ساكن منكم إلى
فكم ملك رام الوصول لمثل ما
فبشراكم نلتم عناية ربكم
ترون رسول الله في كل ساعة
متى جئتم لا يغلق الباب دونكم
فيسمع شكواكم ويكشف ضرركم
بطيبة مشواكم وأكرم مرسل
وكم من نعمة الله فيها عليكم
/أمنتم من الدجال فيها فحولها
كذاك من الطاعون أنتم بمأمن
فلا تنظروا إلا لوجه حبيبيكم
حياة وموتاً تحت رحماه أنتم
فيا راحلا عنها لندنيا تريدها
أخرج عن حوز النبي وحرزه
لئن سرت تبغي من كريم إعانة
هو الرزق مقسوم فليس بزائد
فكم قاعد قد وسع الله رزقه
فعش في حمى خير الأنام ومتم به
إذا قمت فيما بين قبر ومنبر
لقد أسعد الرحمن جار محمد

سواها وإن^(١) جار الزمان وإن^(٢) شقا
وصلتم فلم يقدر ولو ملك الخلقا
فها أنتم في بحر نعمته غرقى
ومن يره فهو السعيد به حقا
وياب ذوي الإحسان لا يقبل الغلقا
ولا يمنع الإحسان حرراً ولا رقاً
يلاحظكم فالدهر يجري لكم وفقاً
فشكراً ونعم الله بالشكر تستبقى
ملائكة يحمون من دونها الطريقاً
فوجه الليالي لا يزال لكم طلقاً
وإن جاءت الدنيا ومرت فلا فرقا
وحشراً فستر الجاه فوقكم ملقى
أطلب ما يفنى وتترك ما يبقى
إلى غيره تسفيهه مثلك قد حقا
فأكرم من خير البرية ما تلقى
ولو سرت حتى كدت تحرق الأفقا
ومرتحل قد ضاق بين الورى رزقا
إذا كنت في الدارين تطلب أن ترقا
بطيبة فاعرف أن منزلك الأرقى
ومن جار في ترحاله فهو الأشقى

(١) في ط: ولو.

(٢) كذا في ش وفي النسخ: ولو.

وقد روى الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: (من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت بها، فإني أشفع لمن يموت بها) ورواه الطبراني في الكبير من حديث سبيعة الأسلمية.

وفي البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا يدخل المدينة الدجال ولا الطاعون).

وفيه: عن أبي بكر^(١) رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان).

قال في فتح الباري: وقد استشكل عدم دخول الطاعون المدينة مع كونه شهادة، وكيف قرن بالدجال، ومدحت المدينة بعدم دخولها. وأجيب: بأن كون الطاعون شهادة ليس المراد بوصفه بذلك ذاته، وإنما المراد أن ذلك يترتب عليه، وينشأ عنه لكونه سببه، فإذا استحضر ما تقدم في المقصد الثامن من أنه طعن الجن حَسُنَ مدح المدينة بعدم دخوله إياها، فإن فيه إشارة إلى أن كفار الجن وشياطينهم ممنوعون من دخول المدينة، ومن اتفق دخوله فيها لا يتمكن من طعن أحد منهم.

وقد أجاب القرطبي في المفهم عن ذلك فقال: المعنى لا يدخلها من الطاعون مثل الذي وقع في غيرها، كطاعون عمواس والجارف^(٢).

(١) في المخطوطات: بكر، وهو غلط من النسخ ورقم الحديث في البخاري ١٨٧٩.

(٢) عمواس قرية بين الرملة وبيت المقدس، نسب إليها لكونه بدأ فيها، وكان سنة ثمان عشرة زمن عمر، والجارف وقع سنة تسع وستين وسمي بذلك لكثرة من مات فيه.

وهذا الذي قاله يقتضي أنه دخلها في الجملة، وليس كذلك، فقد جزم ابن قتيبة في «المعارف» وتبعه جمع منهم الشيخ محي الدين النووي في «الأذكار»: بأن الطاعون لم يدخل المدينة أصلاً، ولا مكة أيضاً، لكن نقل جماعة أنه دخل مكة الطاعون في العام الذي كان في سنة تسع وأربعين وسبعمائة، بخلاف المدينة فلم يذكر أحد أنه وقع الطاعون بها أصلاً.

وأجاب بعضهم بأنه ﷺ عوضهم عن الطاعون بالحمى، لأن الطاعون يأتي مرة بعد مرة، والحمى تتكرر في كل حين فيتعادلان في الأجر، ويتم المراد من عدم دخول الطاعون [المدينة]^(١).

قال الحافظ ابن حجر: ويظهر لي جواب آخر، بعد استحضار الذي أخرجه أحمد من رواية أبي عسيب - بمهملتين آخره موحدة، بوزن عظيم - رفعه: أتاني جبريل بالحمى والطاعون فأمسكت الحمى بالمدينة وأرسلت الطاعون إلى الشام، وهو أن الحكمة في ذلك: أنه ﷺ لما دخل المدينة كان في قلة من أصحابه عدداً ومدداً، وكانت المدينة وبيئة، كما في حديث عائشة، ثم خير ﷺ في أمرين يحصل بكل منهما الأجر / الجزيل، فاختار الحمى حينئذٍ لقلّة الموت بها غالباً ^{أ/٤١٨} بخلاف الطاعون، ثم لما احتاج إلى جهاد الكفار، وأذن له في القتال كانت قضية استمرار الحمى بالمدينة تضعف أجساد الذين يحتاجون إلى التقوية لأجل الجهاد، فدعا بنقل الحمى من المدينة إلى الجحفة، فعادت المدينة أصح بلاد الله بعد أن كانت بخلاف ذلك، ثم كانوا من حينئذٍ من فاتته الشهادة بالطاعون ربما حصلت له بالقتل في سبيل الله، ومن فاته ذلك حصلت له الحمى التي هي حظ المؤمن من النار،

(١) في (ش، ط).

ثم استمر ذلك بالمدينة تمييزاً لها عن غيرها لتحقق إجابة دعوته وظهور هذه المعجزة العظيمة بتصديق خبره في هذه المدة المتطاولة، فكان منع دخول الطاعون من خصائصها ولوازم دعائه ﷺ لها بالصحة. وقال بعضهم: هذا من المعجزات المحمدية، لأن الأطباء من أولهم إلى آخرهم عجزوا أن يدفعوا الطاعون عن بلد، بل عن قرية، وقد امتنع الطاعون عن المدينة هذه الدهور الطويلة، انتهى ملخصاً والله أعلم.

ومن خصائص المدينة أن غبارها شفاء من الجذام والبرص بل من كل داء، كما رواه رزين العبدري في جامعه من حديث سعد، زاد في حديث ابن عمر: وعجوتها شفاء من السم، ونقل البغوي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لنبؤثهم في الدنيا حسنة﴾ أنها المدينة.

وذكر ابن النجار تعليقاً عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كل البلاد افتتحت بالسيف وافتتحت المدينة بالقرآن.

وروى الطبراني في الأوسط بإسناد لا بأس به عن أبي هريرة يرفعه: المدينة قبة الإسلام ودار الإيمان، وأرض الهجرة، ومشوى الحلال والحرام.

وبالجملة، فكل المدينة وتراها وطرقها وفجاجها ودورها وما حولها قد شملته بركته ﷺ، فإنهم كانوا يتبركون بدخوله منازلهم، ويدعونه إليها وإلى الصلاة في بيوتهم، ولذلك امتنع مالك من ركوب دابة في المدينة وقال: لا أطأ بحافر دابة في عراض^(١) كان ﷺ يمشي فيها بقدميه صلى الله عليه وسلم.

(١) جمع عرصة: أرض لا بناء فيها، والمراد هنا مطلق الأرض.

[زيارة مسجد قباء وبقية المزارات]

وينبغي أن يأتي قباء للصلاة فيه والزيارة، فقد كان ﷺ يزوره ركباً وماشياً، رواه مسلم وفي رواية له : «يأتي» بدل «يزور» فيصلي فيه ركعتين.

وعنده أيضاً: إن ابن عمر كان يأتيه كل سبت ويقول: رأيت النبي ﷺ يأتيه كل سبت.

وعند الترمذي وابن ماجه والبيهقي من حديث أسيد بن ظهير الأنصاري، يرفعه: صلاة في مسجد قباء كعمرة، قال الترمذي حسن غريب^(١). وقال المنذري: لا نعرف لأسيد حديثاً صحيحاً غير هذا.

ورواه أحمد وابن ماجه من حديث سهل بن حنيف بلفظ: من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة، وصححه الحاكم.

وينبغي أيضاً بعد زيارته ﷺ أن يقصد المزارات التي بالمدينة الشريفة، والآثار المباركة، والمساجد التي صلى فيها ﷺ التماساً لبركته، ويخرج إلى البقيع لزيارة من فيه، فإن أكثر الصحابة ممن توفي في المدينة في حياته ﷺ وبعد وفاته مدفون في البقيع، وكذلك سادات أهل البيت والتابعين.

وروي عن مالك أنه قال: من مات بالمدينة من الصحابة عشرة آلاف، وكذلك أمهات المؤمنين سوى خديجة فإنها بمكة، وميمونة فإنها

(١) قال الحافظ العراقي: رواه كلهم ثقات. وقول ابن العربي إنه ضعيف غير جيد.

بسرف. وقد كان ﷺ يخرج آخر الليل إلى البقيع فيقول السلام عليكم دار قوم مؤمنين. رواه مسلم.

قال ابن الحاج في «المدخل» وقد فرق علماءنا بين الأفريقي (١) والمقيم في التنفل بالطواف والصلاة، فقالوا: الطواف في حق الأفريقي أفضل له، والتنفل في حق المقيم أفضل، قال: وما نحن بسبيله من باب أولى، فمن كان مقيماً خرج إلى زيارة أهل البقيع ومن كان مسافراً فليغتنم مشاهدته ﷺ.

وحكي عن العارف ابن أبي جمرة، أنه لما دخل المسجد النبوي لم يجلس إلا الجلوس في الصلاة، وأنه لم يزل واقفاً بين يديه صلوات الله وسلامه عليه، وكان قد خطر له أن يذهب إلى البقيع فقال: إلى أين / أذهب، هذا باب الله المفتوح للسائلين والطالبين والمنكسرين. انتهى.

٤١٨ ب/

وروى ابن النجار مرفوعاً: مقبرتان مضيئتان لأهل السماء كما تضيء الشمس والقمر لأهل الدنيا: بقيع الغرقد ومقبرة بعسقلان (٢)، وعن كعب الأحبار قال: نجدها في التوراة - يعني مقبرة المدينة - كقبة محفوفة بالنخيل موكل بها ملائكة كلما امتلأت أخذوها فكفؤوها في الجنة.

وأخرج أبو حاتم من حديث ابن عمر (٣): أن رسول الله ﷺ قال: أنا أول من تنشق عنه الأرض، ثم أبو بكر ثم عمر، ثم آتي البقيع فيحشرون معي، ثم انتظر أهل مكة حتى يحشروا بين الحرمين.

(١) هو الذي جاء من الأفاق. أي من لم يكن من أهل مكة [م].

(٢) مدينة في فلسطين.

(٣) ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

الفصل الثالث

[في أمور الآخرة]

في تفضيله ﷺ في الآخرة بفضائل الأوليات الجامعة لمزايا التكريم وعلى الدرجات العاليات وتحميده بالشفاعة والمقام المحمود، المغبوط عليه من الأولين والآخرين، وانفراده بالسؤدد في مجمع جامع الأنبياء والمرسلين، وترقيه في جنات عدن أرقى مدارج السعادة، وتعالیه يوم المزيد في أعلى معالي الحسنی وزيادة.

[إجمال لما ورد في هذا الفصل]

اعلم أن الله تعالى كما فضل نبينا ﷺ في البدء بأن جعله أول الأنبياء في الخلق، وأولهم في الإجابة في عالم الذر، يوم ألت بربكم، فض له ختم كمال الفضائل في العود، فجعله أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع وأول مشفع، وأول من يؤذن له بالسجود، وأول من ينظر إلى رب العالمين، والخلق محجوبون عن رؤيته إذ ذاك، وأول الأنبياء يقضى بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته، وأول داخل الجنة، وأمته أول الأمم دخولاً إليها.

وزاده من لطائف التحف ونفائس الطرف ما لا يجد ولا يعد:

فمن ذلك أنه يبعث ركباً، وتخصيصه بالمقام المحمود، ولواء الحمد تحته آدم فمن دونه من الأنبياء، واختصاصه أيضاً بالسجود لله تعالى أمام العرش، وما يفتحه الله عليه في سجوده من التحميد والثناء

عليه ما لم يفتحه على أحد قبله ولا يفتحه على أحد بعده زيادة في كرامته وقربه، وكلام الله له: يا محمد، ارفع رأسك، وقل تسمع، وسل تعط، واشفع تشفع، ولا كرامة فوق هذا إلا النظر إليه تعالى.

ومن ذلك: تكراره في الشفاعة، وسجوده ثانية وثالثة، وتجديد الثناء عليه [والتحميد]^(١) بما يفتح الله عليه.

ومن ذلك: كلام الله تعالى له في كل سجدة: يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع، فعل المدل على ربه الكريم عليه الرفيع عنده، المحب ذلك منه تشريفاً له وتكريماً وتبجيلاً وتعظيماً.

ومن ذلك: قيامه عن يمين العرش، ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيره، يغطه فيه الأولون والآخرون، وشهادته بين الأنبياء وأممهم، وإتيانهم إليه يسألونه الشفاعة ليرحمهم من غمهم وعرقهم وطول وقوفهم، وشفاعته في أقوام قد أمر بهم إلى النار.

ومنها: الحوض، الذي ليس في الموقف أكثر أو ان^(٢) منه، وأن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته.

ومنها: أنه يشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم.

وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة، إلى غير ذلك مما يزيدة تعالى به جلاله وتعظيماً وتبجيلاً وتكريماً على رؤوس الأشهاد من الأولين والآخريين والملائكة أجمعين. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١) في المخطوطات.

(٢) في (أ، ب): وارداً.

[أول من تنشق الأرض عنه ﷺ]

فأما تفضيله ﷺ بأولية انشقاق القبر المقدس عنه، فروى مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأنا أول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع)

وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي - آدم فمن سواه - إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر. .) رواه الترمذي^(١).

وعن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم أبو بكر ثم عمر، ثم آتي/ أهل البقيع فيحشرون معي، ثم أنتظر أهل مكة حتى أحشر بين الحرمين. قال الترمذي حسن صحيح. ورواه أبو حاتم وقال: حتى نحشر. وتقدم.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يصعق الناس حين يصعقون، فأكون أول من قام، فإذا موسى أخذ بالعرش: فما أدري أكان فيمن صعق^(٢). وفي رواية فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان من استثنى الله^(٣). رواه البخاري.

والمراد بالصعق: غشي يلحق من سمع صوتاً أو رأى شيئاً ففزع

منه.

(١) وهو عند أحمد وابن ماجه.

(٢) رواه البخاري برقم ٦٥١٨.

(٣) رواه البخاري برقم ٦٥١٧.

ولم يبين في هذه الرواية - من الطريقتين - محل الإفاقة، من أي الصعقتين. ووقع في رواية الشعبي عن أبي هريرة في تفسير سورة الزمر^(١) (إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الأخيرة).

والمراد بقوله: «من استثنى الله» قوله تعالى: ﴿ففرع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾^(٢).

وقد استشكل كون جميع الخلق يصعقون، مع أن الموتى لا إحساس لهم؟

فقليل المراد: الذين يصعقون هم الأحياء، وأما الموتى فهم في الاستثناء في قوله: ﴿إلا من شاء الله﴾ أي إلا من سبق له الموت قبل ذلك فإنه لا يصعق، وإلى هذا جنح القرطبي. ولا يعارضه ما ورد في الحديث: إن موسى من استثنى الله، لأن الأنبياء أحياء عند الله.

وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد صعقة فزع بعد البعث حين تنشق السماء والأرض.

وتعقبه القرطبي: بأنه صرح ﷺ بأنه يخرج من قبره فيلقى موسى وهو متعلق بالعرش وهذا إنما هو عند نفخة البعث. انتهى.

ووقع في رواية أبي سلمة عند ابن مردويه: أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة [فأقوم]^(٣) فأنفض التراب عن رأسي، فأتي قائمة العرش فأجد موسى قائماً عندها، فلا أدري أنفض التراب عن رأسه قبلي، أو كان ممن استثنى الله.

(١) عند البخاري.

(٢) سورة النمل، الآية ٨٧.

(٣) في (ط، ش).

واختلف في المستثنى من هو على عشرة أقوال: ف قيل الملائكة، وقيل الأنبياء، وبه قال البيهقي في تأويل الحديث في تجويزه: أن يكون موسى ممن استثنى الله، قال: ووجهه عندي أنهم أحياء كالشهداء، فإذا نفخ في الصور [النفخة]^(١) الأولى صعقوا، ثم لا يكون ذلك موتاً في جميع معانيه إلا في ذهاب الاستشعار.

وقيل الشهداء: واختاره الحلبي قال: وهو مروى عن ابن عباس، فإن الله تعالى يقول: ﴿أحياء عند ربهم يرزقون﴾^(٢)، وضعف غيره من الأقوال.

وقال أبو العباس القرطبي صاحب «المفهم»: الصحيح أنه لم يأت في تعيينهم خبر صحيح، والكل محتمل.

وتعقبه تلميذه في «التذكرة» فقال: قد ورد في حديث أبي هريرة بأنهم الشهداء وهو صحيح. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سأل جبريل عن هذه الآية: من الذين لم يشأ الله أن يصعقوا؟ قال: هم شهداء الله. وصححه الحاكم.

وقيل: هم حملة العرش وجبريل وميكائيل وملك الموت، ثم يموتون، وآخرهم [موتاً]^(٣) ملك الموت، وقيل هم الحور العين والولدان في الجنة.

وتعقب: بأن حملة العرش ليسوا من سكان السماوات والأرض، لأن العرش فوق السماوات كلها، وبأن جبريل وميكائيل وملك الموت

(١) في (ط، ش).

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

(٣) في ط.

من الصافين المسبحين، ولأن الحور العين والولدان في الجنة، وهي فوق السماوات ودون العرش، وهي بانفرادها عالم مخلوق للبقاء فلا شك أنها بمعزل عما خلقه الله للفناء. ثم إنه وردت الأخبار بأن الله تعالى يميت حملة العرش وملك الموت وميكائيل ثم يحييهم. وأما أهل الجنة فلم يأت عنهم خبر، والأظهر أنها دار خلود، فالذي يدخلها لا يموت فيها أبداً، مع كونه قابلاً للموت، فالذي خلق فيها أولى أن لا يموت فيها أبداً.

فإن قلت: قوله: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾^(١) يدل على أن الجنة نفسها تفتنى ثم تعاد ليوم الجزاء، ويموت الحور العين ثم يحيون.

أجيب: بأنه يحتمل أن يكون معنى قوله: ﴿كل شيء هالك﴾ أي أنه قابل / للهلاك، فيهلك إن أراد الله به ذلك، إلا هو سبحانه فإنه قديم، والقديم لا يمكن أن يفنى، انتهى ملخصاً من تذكرة القرطبي.

ب/٤١٩

ويؤيد القول بعدم موت الحور قوهن: نحن الخالدات فلا نموت، كما في الحديث.

ولا يقال: المراد من قوهن الخلود الكائن بعد القيامة، لأنه لا خصوصية فيه، والأوصاف المشتركة لا يتباهى بها، والله أعلم.

وفي كتاب العظمة لأبي الشيخ بن حبان من طريق وهب بن منبه من قوله^(٢): قال: خلق الله الصور من لؤلؤة بيضاء في صفاء الزجاج، ثم قال للعرش: خذ الصور فتعلق به، ثم قال: كن فكان إسرافيل، فأمره أن يأخذ الصور وبه ثقب بعدد كل روح مخلوقة ونفس

(١) سورة القصص، الآية ٨٨.

(٢) أي من كلامه الذي لم يروه عن غيره، وكأنه من الإسرائيليات.

منفوسة، فذكر الحديث وفيه: ثم تجتمع الأرواح كلها في الصور، ثم يأمر الله إسرافيل فينفخ فيه فتدخل كل روح في جسدها. فعلى هذا فالنفخ يقع في الصور أولاً ليصل النفخ بالروح إلى الصّور وهي الأجساد، فإضافة النفخ إلى الصور الذي هو القرن حقيقة، وإلى الصور التي هي الأجساد مجاز.

وفي صحيح مسلم من حديث عبدالله بن عمر، رفعه: ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها ورفع ليتها، ثم يرسل الله مطراً كأنه الطل فينبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون.

و«الليت» بكسر اللام وبالمثناة التحتية ثم الفوقية: صفحة العنق، وهما ليتان.

و أصغى : أمال.

وأخرج البيهقي بسند قوي، عن ابن مسعود موقوفاً^(١): ثم يقوم ملك الصور بين السماء والأرض فينفخ فيه - والصور قرن - فلا يبقى لله خلق في السماوات والأرض إلا مات، إلا من شاء ربك، ثم يكون بين النفختين ما شاء الله أن يكون.

وأخرج ابن المبارك في الرقاق من مرسل الحسن: بين النفختين أربعون سنة، الأولى يميت الله بها كل حي، والأخرى يحيي الله بها كل ميت، ونحوه عند ابن مردويه من حديث ابن عباس، وهو ضعيف. وعن أنس^(٢) قال: قال رسول الله ﷺ: أنا أول الناس خروجاً

(١) في ط: مرفوعاً. قال الشارح: في نسخ مرفوعاً وهو خطأ فقد صرح في مجمع الزوائد بأنه موقوف.

(٢) في ط: ابن عباس.

إذا بعثوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا مستشفعهم^(١) إذا حبسوا، وأنا مبشرهم إذا أسوا، الكرامة والمفاتيح يومئذ بيدي، ولواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي، يطوف علي ألف خادم كأنهم بيض مكنون أو لؤلؤ مشور، رواه الدارمي، وقال الترمذي: حديث غريب^(٢).

ولم يقل: وأنا إمامهم، لأن دار الآخرة ليست دار تكليف.

وفي حديث رواه صاحب كتاب «حادي الأرواح»^(٣): أن رسول الله ﷺ يبعث يوم القيامة وبلال بين يديه ينادي بالأذان.

وفي كتاب «ذخائر العقبى» للطبري، مما عناه لتخريج الحافظ السلفي من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: تبعث الأنبياء على الدواب، ويحشر صالح على ناقته، ويحشر ابنا فاطمة على ناقتي العضباء والقصواء، وأحشر أنا على البراق، خطوها عند أقصى طرفها، ويحشر بلال على ناقة من نوق الجنة.

وأخرجه الطبراني والحاكم بلفظ: يحشر الأنبياء على الدواب، وأبعث على البراق، ويبعث بلال على ناقة من نوق الجنة فينادي بالأذان محضاً وبالشهادة حقاً، حتى إذا قال أشهد أن محمداً رسول الله، شهد له المؤمنون من الأولين والآخرين.

وعند ابن زنجويه في «فضائل الأعمال» عن كثير بن مرة الحضرمي، قال قال رسول الله ﷺ: تبعث ناقة ثمود لصالح فيركبها

(١) في (ط، ش): شفيعهم.

(٢) فيه الحسين بن يزيد الكوفي. قال أبو حاتم: لين.

(٣) هو الإمام ابن القيم.

٤٢٠/أ من عند قبره حتى / توفي به المحشر، وأنا على البراق اختصت به من دون الأنبياء يومئذ، ويبعث بلال على ناقة من نوق الجنة ينادي على ظهرها بالأذان حقاً، فإذا سمعت الأنبياء وأممها: أشهد أن محمداً رسول الله قالوا: ونحن نشهد على ذلك.

وذكر الشيخ زين الدين المراغي، مما عزاه لابن النجار في تاريخ المدينة عن كعب الأحبار، والقرطبي في «التذكرة» وابن أبي الدنيا عن كعب: أنه دخل على عائشة رضي الله عنها، فذكروا رسول الله ﷺ فقال كعب: ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفون بالقبر، ويضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط سبعون ألف ملك يحفون بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ، سبعون ألفاً بالليل وسبعون ألفاً بالنهار، حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يوقرونه صلى الله عليه وسلم (١).

وفي «نوادير الأصول» للحكيم الترمذي من حديث ابن عمر قال: خرج رسول الله ﷺ ويمينه على أبي بكر وشماله على عمر، فقال: هكذا نبعث يوم القيامة.

[أول من يكسى يوم القيامة]

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: فأكسى حلة من حلل الجنة، ثم أقوم عن يمين العرش، ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري. رواه الترمذي.

(١) لم ينقل عن غير كعب الأحبار اهـ. وتساءل من أين له هذا؟ [م].

وفي رواية جامع الأصول عنه^(١): أنا أول من تنشق عنه الأرض فأكسى، وفي رواية كعب: حلة خضراء.

وفي البخاري، من حديث ابن عباس، عنه عليه السلام: تحشرون حفاة عراة غرلاً^(٢)، (كما بدأنا أول خلق نعيده) وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم.

وأخرجه البيهقي، وزاد: وأول من يكسى من الجنة إبراهيم، يكسى حلة من الجنة ويؤتى بكرسي فيطرح عن يمين العرش، ثم يؤتى بي فأكسى حلة من الجنة لا يقوم لها البشر. وفيه: أنه يجلس على الكرسي عن يمين العرش.

ولا يلزم من تخصيص إبراهيم عليه السلام بأنه أول من يكسى أن يكون أفضل من نبينا عليه السلام، على أنه يحتمل أن يكون نبينا عليه السلام خرج من قبره في ثيابه التي مات فيها، والحلة التي يكساها يومئذ حلة الكرامة، بقرينة إجلاسه عند ساق العرش، فتكون أولية إبراهيم في الكسوة بالنسبة لبقية الخلق.

وأجاب الحلبي: بأنه يكسى إبراهيم أولاً، ثم يكسى نبينا، عليهما الصلاة والسلام، على ظاهر الخبر، لكن حلة نبينا أعلى وأكمل^(٣)، فتجبر بنفاستها ما فات من الأولية.

وفي حديث أبي سعيد عند أبي داود وصححه ابن حبان، أنه لما حضره الموت دعا بثياب جدد فلبسها وقال: سمعت رسول الله عليه السلام

(١) أي الترمذي.

(٢) غير مختونين.

(٣) في ط: أكبر.

يقول: إن الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها.

وعند الحارث بن أبي أسامة وأحمد بن منيع: فإنهم يبعثون في أكفانهم ويتزاورون في أكفانهم^(١).

ويجمع بينه وبين ما في البخاري^(٢) بأن بعضهم يحشر عارياً وبعضهم كاسياً، أو يحشرون كلهم عراة ثم يكسى الأنبياء، وأول من يكسى إبراهيم عليه السلام، أو يخرجون من القبور بالثياب التي ماتوا فيها ثم تتناثر عنهم عند ابتداء الحشر، فيحشرون عراة ثم يكون أول من يكسى إبراهيم.

وحمل بعضهم حديث أبي سعيد على الشهداء، فيكون أبو سعيد سمعه في الشهداء فحملة على العموم.

[حديث موضوع]

وأما ما رواه الطبري في «الرياض النضرة» وعزاه للإمام أحمد في المناقب عن محدوج بن زيد الهذلي أن النبي ﷺ قال لعلي: أما علمت يا علي أنه أول من يدعى به يوم القيامة بي، فأقوم عن يمين العرش في ظله، فأكسى حلة خضراء من حلل الجنة، ثم يدعى بالنبين بعضهم على أثر بعض، فيقومون سباطين عن يمين العرش ويكسون حلاً/ ٤٢٠ ب خضراً من حلل الجنة، ألا وإن أمتي أول الأمم يحاسبون يوم القيامة، ثم أبشر، فأول من يدعى بك، فيدفع لك لوائه وهو لواء الحمد، فتسير به بين السباطين، آدم وجميع خلق الله تعالى يستظلون بظل

(١) الحديث عن جابر رفعه: إذا ولي أحدكم أخاه فليحسن كفته فإنهم... قال الحافظ إسناده صالح.

(٢) (إنكم تحشرون حفاة عراة).

لوائى يوم القيامة، وطوله مسيرة ألف سنة وستائة سنة، وسانه ياقوته حمراء، قبضته فضة بيضاء، زجه درة خضراء، له ثلاث ذوائب من نور، ذؤابة في المشرق، وذؤابة في المغرب، والثالثة في وسط الدنيا، مكتوب عليه ثلاثة أسطر، الأول: بسم الله الرحمن الرحيم، الثاني: الحمد لله رب العالمين، الثالث: لا إله إلا الله محمد رسول الله، طول كل سطر ألف سنة، وعرضه مسيرة ألف سنة، فتسير باللواء والحسن عن يمينك، والحسين عن يسارك، حتى تقف بيني وبين إبراهيم عليه السلام في ظل العرش، ثم تكسى حلة من الجنة. والسماطان من الناس والنخل: الجانبان.

ورواه ابن سبع في الخصائص بلفظ: قال سأل عبدالله بن سلام رسول الله ﷺ عن لواء الحمد ما صفته؟ قال: طوله مسيرة... الحديث.

فقال^(١) الحافظ قطب الدين الحلبي: كما نقله عنه المحب بن الهمام: إنه موضوع بين الوضع. قال: والله أعلم بحقيقة لواء الحمد.

[لواء الحمد]

وفي حديث أبي سعيد - عند الترمذي بسند حسن - قال: قال رسول الله ﷺ: أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي آدم فمن سواه إلا تحت لوائي. الحديث.

واللواء: الراية، وفي عرفهم لا يمسكها إلا صاحب الجيش ورئيسه، ويحتمل أن تكون بيد غيره بإذنه وتكون تابعة له ومتحركة (١) هذا جواب قوله «وأما» في أول الفقرة [م].

بحركته، تميل معه حيث مال، لا أنه يمسكها بيده، إذ هذه الحالة أشرف.

وفي استعمال العرب عند الحروب، وإنما يمسكها صاحبها، ولا يمنع ذلك من القتال بها، بل يقاتل بها ممسكاً لها أشد القتال، ولذا لا يليق بإمساكها كل أحد، بل مثل علي رضي الله عنه، [كما قال] (١) «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله».

وإنما أضاف «اللواء» إلى «الحمد» الذي هو الثناء على الله بما هو أهله، لأن ذلك هو منصبه في ذلك الموقف دون غيره من الأنبياء.

[صفة الحشر]

وقد اختلف في هيئة حشر الناس.

ففي البخاري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (يحشر الناس على ثلاث^(٢) طرائق: راغبين وراهيين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، ويحشر بقيتهم النار، تقيّل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا) رواه الشيخان^(٣).

وقد مال الحلبي إلى أن هذا الحشر يكون عند الخروج من القبور، وجزم به الغزالي، وقيل: إنهم يخرجون من القبور بالوصف المذكور في حديث ابن عباس عند الشيخين: أن رسول الله ﷺ قال:

(١) في ش.

(٢) كذا في البخاري والنسخ، وفي (ط، ب): ثلاثة، وهو لفظ مسلم.

(٣) قدم في بدء الحديث أنه من رواية البخاري، وقال هنا: رواه الشيخان،

والمقصود أن اللفظ للبخاري، وقد رواه برقم ٦٥٢٢ [م].

(إنكم محشورون حفاة عراة غرلا، ثم قرأ «كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين») ثم يفترق حالهم من ثم إلى الموقف، كما في حديث أبي هريرة: (ويحشر الكافر على وجهه، قال رجل: يا رسول الله، كيف يحشر على وجهه؟ قال: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة) أخرجه الشيخان.

وفي حديث أبي ذر عند النسائي مرفوعاً: إن الناس يحشرون [على] (١) ثلاثة أفواج. فوجاً (٢) راكبين طاعمين كاسين، وفوجاً تسحبهم الملائكة على وجوههم، وفوجاً يمشون ويسعون (٣).

وفي حديث سهل بن سعد مرفوعاً: (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي (٤) ليس فيها علم لأحد) رواه الشيخان

وفي حديث عقبة بن عامر - عند الحاكم - رفعه: تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس، فمنهم من يبلغ نصف ساقه، ومنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من يبلغ فخذه، ومنهم / من يبلغ خاصرته، ومنهم من يبلغ منكبيه، ومنهم من يبلغ فاه وأشار بيده أجمها فاه، ومنهم من يغطيه عرقه، وضرب بيده على رأسه.

وله شاهد عند مسلم، من حديث المقداد بن الأسود، وليس

(١) في (ط، ش).

(٢) كذا في النسخ بالصب بتقدير: أعني، وفي شرحه للبخاري بالخفض بدل من ثلاثة المجرورة بـ (على) وهي ثابتة في الحديث وفي أصل نسخ المواهب.

(٣) ورواه أحمد والحاكم والبيهقي.

(٤) أي كخبز الدقيق النقي.

بتمامه، وفيه: تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق.

وهذا ظاهر في أنهم يستوون في وصول العرق إليهم ويتفاوتون في حصوله فيهم.

فإن قلت: الشمس محلها السماء، وقد قال الله تعالى: ﴿يوم نظوي السماء كطي السجل للكتب﴾^(١) والألف واللام في «السماء» للجنس، بدليل ﴿والسماوات مطويات بيمينه﴾^(٢) فما طريق الجمع؟

فالجواب: يجوز أن تقام بنفسها دانية من الناس^(٣) في المحشر ليقوى هوله وكربه، عافانا الله من كل مكروه.

وقال ابن أبي جمرة: ظاهر الحديث يقتضي تعميم الناس بذلك، ولكن دلت الأحاديث الأخرى على أنه مخصوص بالبعض وهم الأكثر، ويستثنى الأنبياء والشهداء ومن شاء الله، فأشدهم الكفار، ثم أصحاب الكبائر، ثم من بعدهم.

وأخرج أبو يعلى، وصححه ابن حبان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾^(٤) قال: مقداره نصف يوم من خمسين ألف سنة، فيهون على المؤمنين كتدلي الشمس إلى أن تغرب. وأخرج أحمد وابن حبان نحوه من حديث أبي سعيد.

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٤.

(٢) سورة الزمر، الآية ٦٧.

(٣) في ط: الرؤوس.

(٤) سورة المطففين، الآية ٦.

وللبيهقي (١) في البعث عن أبي هريرة: يحشر الناس قياماً أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء، فيلجمهم العرق من شدة الكرب. وفي البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عنه عليه السلام (يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويلجمهم العرق حتى يبلغ آذانهم).

وعند البيهقي من حديث ابن مسعود، إذا حشر الناس قاموا أربعين عاماً شاخصة أبصارهم إلى السماء، لا يكلمهم (٢)، والشمس على رؤوسهم حتى يلجم العرق كل بر منهم وفاجر.

وفي حديث أبي سعيد، عند أحمد، أنه يخفف الوقوف عن المؤمن حتى يكون كصلاة [فريضة] (٣) مكتوبة، وسنده حسن.

وللطبراني من حديث ابن عمر: ويكون ذلك اليوم أقصر على المؤمن من ساعة من نهار.

وجاء عن عبدالله بن عمرو بن العاصي: أن الذي يلجمه العرق الكافر، أخرجه البيهقي في البعث بسند حسن عنه قال (٤): يشتد كرب الناس ذلك اليوم حتى يلجم الكافر العرق، قيل له: فأين المؤمنون؟ قال: على كراسي من ذهب ويظلل عليهم الغمام.

(١) كذا في ش، وفي النسخ: والبيهقي.

(٢) قال الشارح: بمعنى لا يتركون الشخص هذه المدة، وفي هامش د: لا يكلمهم ربهم.

(٣) في (ب، ط).

(٤) ذكر اللفظ بعد أن ساق المعنى.

وبسند قوي^(١) عن أبي موسى قال: الشمس فوق رؤوس الناس يوم القيامة، وأعمالهم تظلمهم.

وأخرج ابن المبارك في «الزهد» وابن أبي شيبة في «المصنف» واللفظ له، بسند جيد عن سلمان قال: تعطى الشمس يوم القيامة حر عشر سنين، ثم تدنو من جماجم الرأس حتى تكون قاب قوسين، فيعرقون حتى يرشح العرق في الأرض قامة، ثم يرتفع حتى يغرغر الرجل. زاد ابن المبارك في روايته: ولا يضر حرها يومئذ مؤمناً ولا مؤمنة.

قال القرطبي: المراد من يكون كامل الإيمان لما^(٢) يدل عليه حديث المقداد وغيره: أنهم يتفاوتون في ذلك بحسب أعمالهم.

وفي رواية عند أبي يعلى، وصححها ابن حبان: إن الرجل ليلجمه العرق يوم القيامة حتى يقول: يا رب، أرحني ولو إلى النار. وهو كالصريح في أن ذلك كله في الموقف.

[وصف شدة الموقف]

ومن تأمل الحالة المذكورة، عرف عظيم الهول فيها، وذلك أن النار تحف بأرض الموقف، وتدنو^(٣) الشمس من الرؤوس قدر ميل، فكيف تكون حرارة تلك الأرض، وماذا يروونه من العرق مع أن كل

(١) عند البيهقي.

(٢) كذا في (أ، ب) وفي الباقي: كما.

(٣) في (أ، ب): تدنو.

أحد لا يجد إلا قدر موضع قدميه^(١)، فكيف يكون حال هؤلاء في عرقهم مع تنوعهم^(٢) فيه.

إن هذا لما يبهر العقول، ويدل على عظيم القدرة، ويقتضي الإيمان/ بأمور الآخرة، وأن ليس للعقل فيه مجال، ولا يُعترض على ذلك بعقل ولا قياس ولا عادة، وإنما يؤخذ بالقبول.

فتأمل - رحمك الله - شدة هذا الازدحام والانضمام والاتساق والالتصاق، واجتماع الإنس والجان، ومن يجمع معهم من سائر أصناف الحيوان، وانضغاطهم وتدافعهم واختلاطهم، وقرب الشمس منهم، وما يزداد في حرها، ويضعف في وهجها، ولا ظل إلا ظل عرش ربك بما قدمته، مع ما انضاف إلى ذلك من حر البأس، لتزاحم الناس واحتراق القلوب، لما غشيها من الكرب.

[الحوض الشريف]

ولا ريب أن هذا موجب لحصول العطش في ذلك اليوم، وكثرة الالتهاب، والماء ثم أعز موجود، وأعظم مفقود، فلا منهل مورود إلا حوض صاحب المقام المحمود ﷺ وزاده فضلاً وشرفاً لديه، ولا مشرب لأتمته سواه، ولا تبرد أكبادهم إلا به، فالشربة منه كما ورد تروي الظمأ، وتشفي من الصدى، وتذهب بكل داء فلا يظماً شاربها ولا يسقم بعدها أبداً.

وفي حديث أنس عند البزار: من شرب منه - أي من الحوض -

(١) من قوله قبل سطر «فكيف...» سقط من ب.

(٢) في (أ): تبوعهم.

شربة لم يظماً أبداً، ومن لم يشرب منه لم يرو أبداً، وزاد في حديث أبي
أمامة عند أحمد وابن حبان: ولم يسود وجهه أبداً.

وفي حديث ثوبان عند الترمذي وصححه الحاكم: أكثر الناس
عليه وروداً فقراء المهاجرين.

وفي حديث عبدالله بن عمرو بن العاصي، عند الشيخين
(حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، ورائحته أطيب من
المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه شربة لا يظماً أبداً).

قال القرطبي في «التذكرة»: ذهب صاحب «القوت» وغيره إلى
أن الحوض يكون بعد الصراط، وذهب آخرون إلى العكس،
والصحيح أن للنبي ﷺ حوضين، أحدهما في الموقف قبل الصراط،
والآخر داخل الجنة، وكل منهما يسمى كوثرًا.

وتعقبه شيخ الحفاظ ابن حجر: بأن الكوثر نهر داخل الجنة،
وماؤه يصب في الحوض، ويطلق على الحوض كوثر لكونه يمد منه.
فغاية ما يؤخذ من كلام القرطبي أن الحوض يكون قبل الصراط لأن
الناس يردون الموقف عطاشاً، فيرد المؤمنون الحوض، وتتساقط الكفار
في النار بعد أن يقولوا ربنا عطشنا، فترفع لهم جهنم كأنها سراب
فيقال ألا تردون، فيظنونها ماء فيتساقطون فيها.

وفي حديث أبي ذر مما رواه مسلم: (أن الحوض يشخب فيه
ميزابان من الجنة) وهو حجة على القرطبي لا له، لأن الصراط جسر
جهنم، وهو بين الموقف والجنة، والمؤمنون يمرون عليه لدخول الجنة،
فلو كان الحوض دونه لحالت النار بينه وبين الماء الذي يصب من
الكوثر في الحوض، وظاهر الحديث أن الحوض بجانب الجنة ليصب
فيه الماء من النهر الذي داخلها.

وقال القاضي عياض: ظاهر قوله ﷺ: «من شرب منه لم يظماً بعدها أبداً» يدل على أن الشرب منه يقع بعد الحساب والنجاة من النار، لأن ظاهر حال من لا يظماً أن لا يعذب بالنار، ولكن يحتمل أن من قدر عليه التعذيب منهم أن لا يعذب فيها بالظماً بل بغيره.

وعن أنس قال: سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: أنا فاعل إن شاء الله، قلت: فأين أطلبك؟ قال: أول ما تطلبني على الصراط، قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: فاطلبي عند الميزان، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: فاطلبي عند الحوض، فإني لا أخطئ هذه الثلاثة مواطن. رواه الترمذي وقال: حسن غريب.

وفي حديث ابن مسعود عند أحمد: ثم أوتى بكسوتي فألبسها فأقوم عن يمين العرش مقاماً لا يقومه أحد، فيغبطني به الأولون والآخرون. قال: ويفتح لهم من الكوثر إلى الحوض. الحديث.

وقد بين في حديث ابن عمرو بن العاصي، عند البخاري، أن الحوض مسيرة شهر، وزاد في رواية مسلم من هذا الوجه: وزواياه سواء [طوله كعرضه]^(١). وهذه الزيادة - كما قاله / في فتح الباري - تدفع تأويل من جمع بين مختلف الأحاديث في تقدير مسافة الحوض على اختلاف العرض والطول.

وفي حديث أبي سعيد عند ابن ماجه رفعه: إن لي حوضاً ما بين الكعبة وبيت المقدس.

(١) في ط،

وفي حديث أبي برزة عند الطبراني وابن حبان في صحيحه: ما بين ناحيتي حوضي كما بين أيلة وصنعاء، مسيرة شهر عرضه كطوله.

وفي حديث أنس - عند الشيخين - كما بين صنعاء والمدينة.

وفي حديث عتبة بن عبد السلمي عند ابن حبان في صحيحه كما بين صنعاء إلى بصرى.

وفي حديث أبي أمامة عند الطبراني: ما بين عدن وعمّان - بضم المهملة وتخفيف الميم - وقال ابن الأثير في النهاية في حديث الحوض: عرضه من مقامي إلى عمّان - هي بفتح العين وتشديد الميم - مدينة قديمة بالشام من أرض البلقاء، فأما بالضم والتخفيف فهو صقع عند البحرين. انتهى.

وهذه المسافات كلها متقاربة، وظن بعضهم أنه وقع اضطراب في ذلك، وليس كذلك.

وأجاب النووي عن ذلك: بأنه ليس في ذكر المسافة القليلة ما يدفع المسافة الكثيرة، فالأكثر ثابت بالحديث الصحيح فلا معارضة.

وحاصله يشير إلى أنه أخبر أولاً بالمسافة اليسيرة ثم أعلم بالمسافة الطويلة فأخبر بما كان الله تفضل عليه باتساعه شيئاً بعد شيء، فيكون الاعتماد على أطولها مسافة.

فإن قلت: هل لكل نبي من الأنبياء غير نبينا ﷺ حوض هناك يقوم عليه كنبينا؟

فالجواب: أنه اشتهر اختصاص نبينا ﷺ بالحوض. قال القرطبي في «المفهم» مما يجب على كل مكلف أن يعلمه ويصدق به، أنه تعالى

قد خص نبيه محمداً ﷺ بالحوض المصرح باسمه وصفته وشرابه في الأحاديث الصحيحة الشهيرة التي يحصل مجموعها العلم القطعي، إذ روى ذلك عنه ﷺ من الصحابة نيف على الثلاثين، منهم في الصحيحين ما نيف على العشرين، وفي غيرهما بقية ذلك، كما صح نقله واشتهرت رواته، ثم رواه عن الصحابة المذكورين من التابعين أمثالهم، ومن بعدهم أضعاف أضعافهم وهلم جرأً، واجتمع على إثباته السلف وأهل السنة من الخلف. انتهى.

لكن أخرج الترمذي من حديث سمرة رفعه: «إن لكل نبي حوضاً» وأشار إلى أنه اختلف في وصله وإرساله، وأن المرسل أصح، والمرسل أخرجه ابن أبي الدنيا بسند صحيح عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي حوضاً، وهو قائم على حوضه بيده عصا يدعو من عرف من أمته، ألا وإنهم يتباهون أيهم أكثر تبعاً، وإنني لأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً».

وأخرجه الطبراني من وجه آخر عن سمرة موصولاً مرفوعاً مثله، وفي سنده لين.

وأخرج ابن أبي الدنيا أيضاً من حديث أبي سعيد رفعه: وكل نبي يدعو أمته، ولكل نبي حوض، فمنهم من يأتيه الفئام، ومنهم من يأتيه العصابة، ومنهم من يأتيه الواحد، ومنهم من يأتيه الاثنان، ومنهم من لا يأتيه أحد، وإنني لأكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة، وفي إسناده لين.

فإن ثبت، فالمختص بنبينا ﷺ الكوثر الذي يصب من مائه في حوضه، فإنه لم ينقل نظيره لغيره، ووقع الامتان عليه به في سورة ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ انتهى ملخصاً من فتح الباري^(١).

(١) في شرح الحديث ٦٥٧٥ وما بعده.

«الفثام» كما في الصحاح، الجماعة من الناس، لا واحد له من لفظه، والعامّة تقول «فيام» بلا همز.

وفي رواية مسلم من حديث أبي هريرة رفعه، قال: (ترد عليّ أمّتي الحوض، وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل عن إبله، قالوا: يا رسول الله، تعرفنا؟ قال: نعم، لكم سيما ليست لأحد غيركم، تردون عليّ غرا محجلين من آثار الوضوء).

قالوا: والحكمة في الذود المذكور، أنه ﷺ يريد أن يرشد كل أحد إلى حوض نبيه، كما تقدم «إن/ لكل نبي حوضاً»، فيكون هذا من جملة ٤٢٢/ب إنصافه ﷺ ورعاية إخوانه من النبيين، لا أنه يطردهم بخلاً عليهم بالماء، ويحتمل أن يكون بطرد من لا يستحق الشرب من الحوض. والله أعلم.

وفي حديث أنس أنه ﷺ قال: لحوضي أربعة أركان، الأول بيد أبي بكر الصديق، والثاني بيد عمر الفاروق، والثالث بيد عثمان ذي النورين، والرابع بيد علي بن أبي طالب. فمن كان محباً لأبي بكر مبغضاً لعمر لا يسقيه أبو بكر، ومن كان محباً لعلي مبغضاً لعثمان لا يسقيه علي^(١). رواه أبو سعد في «شرف النبوة» والغيلاني والله أعلم.

[الشفاعة والمقام المحمود]

وأما تفضيله ﷺ بالشفاعة والمقام المحمود، فقد قال تعالى: (١) هذا الحديث يعارض ما ورد في البخاري من أن الورود على النبي ﷺ. ففي الحديث رقم ٦٥٩٣ (إني على الحوض حتى أنظر من يرد عليّ منكم وسيؤخذ ناس دوني فأقول: يارب مني ومن أمّتي فيقال: هل شعرت ما عملوا بعدك؟..). وإذا كان كذلك فهل الورود على أصحابه المذكورين قبل أم بعد؟، ثم إذا كان ﷺ لا يدري ما حدث بعده فكيف يعرف الصحابة قضية الحب والكره من الناس؟ هذا وقد سكت الشارح عنه [المحقق].

﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾^(١). اتفق المفسرون على أن كلمة «عسى» من الله واجب، قال أهل المعاني: لأن لفظة «عسى» تفيد الإطماع، ومن أطمع إنساناً في شيء ثم أحرمه كان عاراً، والله تعالى أكرم من أن يطمع أحداً في شيء ثم لا يعطيه ذلك.

وقد اختلف في تفسير المقام المحمود على أقوال:

أحدها: أنه الشفاعة. قال الواحدي: أجمع المفسرون على أنه مقام الشفاعة كما قال ﷺ في هذه الآية: هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي.

وقال الإمام ابن الخطيب: اللفظ مشعر بذلك، لأن الإنسان إنما يصير محموداً إذا حمده حامد، والحمد إنما يكون على الإنعام، فهذا المقام المحمود يجب أن يكون مقاماً أنعم فيه رسول الله ﷺ على قوم فحمدوه على ذلك الإنعام، وذلك الإنعام لا يجوز أن يكون هو تبليغ الدين وتعليمهم الشرع لأن ذلك كان حاصلًا في الحال. وقوله: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ يدل على أنه يحصل للنبي ﷺ في ذلك المقام حمد بالغ عظيم كامل، ومن المعلوم أن حمد الإنسان على سعيه في التخلص عن العقاب أعظم من سعيه في زيادة من الثواب لا حاجة به إليها، لأن احتياج الإنسان في دفع الآلام العظيمة عن النفس فوق احتياجه إلى تحصيل المنافع الزائدة التي لا حاجة إلى تحصيلها.

وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من قوله: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ هو الشفاعة في إسقاط العقاب^(٢) على ما هو مذهب أهل السنة.

(١) سورة الإسراء، الآية ٧٩.

(٢) في (ط، ش): العذاب.

ولما ثبت أن لفظ الآية مشعر بهذا المعنى إشعاراً قوياً، ثم وردت الأخبار الصحيحة في تقرير هذا المعنى كما في البخاري من حديث ابن عمر قال: سئل رسول الله ﷺ عن المقام المحمود فقال: هو الشفاعة. وفيه أيضاً عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثَيٍّ^(١)) كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع لنا، حتى تنتهي الشفاعة إلي فذلك المقام المحمود).

فإذا ثبت هذا، فيجب حمل اللفظ عليه قال: ومما يؤكد هذا، الدعاء المشهور: وابعثه مقاماً محموداً يغبطه فيه الأولون والآخرون.

ونصب قوله «مقاماً» على الظرفية، أي وابعثه يوم القيامة فأقمه مقاماً محموداً، أو على أنه مفعول به، وضمن معنى «ابعثه» معنى «أقمه»، ويجوز أن يكون حالاً بعد حال، أي: ابعثه ذا مقام. قال الطيبي: وإنما نكره لأنه أفخم وأجزل، أي مقاماً محموداً بكل لسان. وقول النووي: «إن الرواية ثبتت بالتنكير، وأنه كان حكاية للفظ القرآن» متعقب بأنه جاء في هذه الرواية بعينها بالتعريف عند النسائي. قال ابن الجوزي: الأكثر على أن المراد بالمقام المحمود الشفاعة، وادعى الإمام فخر الدين الاتفاق عليه.

القول الثاني: قال حذيفة: يجمع الله الناس في صعيد واحد، فلا تكلم نفس، فأول مدعو محمد ﷺ فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، والشر ليس/ إليك، والمهتدي من هديت، وعبدك بين يديك، وبك وإليك، ولا ملجأ منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت، قال: فهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿عسى أن

(١) في ط: جثيا، وجثي: جمع جاث.

يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴿١﴾ رواه الطبراني^(١) وقال ابن منده: حديث مجمع على صحة إسناده وثقة رجاله.

قال الرازي: والقول الأول أولى، لأن سعيه في الشفاعة يفيد إقدام الناس على حمده فيصير محموداً، وأما ما ذكر من الدعاء فلا يفيد إلا الثواب، أما الحمد فلا.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: إنه تعالى يحمده على هذا القول؟ فالجواب: لأن الحمد في اللغة مختص بالثناء المذكور في مقابلة الإنعام فقط، فإن ورد لفظ «الحمد» في غير هذا المعنى فعلى سبيل المجاز.

القول الثالث: مقام محمد عاقبته، قال الإمام فخر الدين: وهذا أيضاً ضعيف للوجه الذي ذكرنا.

القول الرابع: قيل هو إجلاسه ﷺ على العرش وقيل على الكرسي، روي عن ابن مسعود أنه قال: يقعد الله تعالى محمداً ﷺ على العرش^(٢)، وعن مجاهد أنه قال: يجلسه معه على العرش.

قال الواحدي: وهذا قول رذل موحش فظيع، ونص الكتاب ينادي بفساد هذا التفسير، ويدل عليه وجوه:

الأول: أن البعث ضد الإجلال، يقال: بعثت البارك والقاعد فانبعث، ويقال بعث الله الميت أي أقامه من قبره، فتنسب البعث بالإجلال تفسير الضد بالضد وهو فاسد.

والثاني: يوجب أنه تعالى لو كان جالساً على العرش بحيث

(١) ورواه النسائي بإسناد صحيح وصححه الحاكم.

(٢) في ط: الكرسي.

يجلس عنده محمد ﷺ لكان محدوداً متناهيأ، ومن كان كذلك فهو محدث تعالى الله علواً كبيراً.

والثالث: أنه تعالى قال: ﴿مقاماً محموداً﴾ ولم يقل مقعداً، والمقام موضع القيام، لا موضع القعود.

الرابع: وإذا قيل: السلطان بعث فلاناً، فهم منه أنه أرسله إلى قوم لإصلاح مهماتهم، ولا يفهم منه أنه أجلسه مع نفسه، فثبت أن هذا القول ساقط، لا يميل إليه إلا قليل العقل عديم الدين، انتهى.

وتعقب القول الثاني: بأنه تعالى يجلس على العرش كما أخبر جل وعلا عن نفسه المقدسة بلا كيف، وليس إقعاد محمد ﷺ على العرش موجباً له صفة الربوبية، أو مخرجاً له عن صفة العبودية، بل هو رفع لمحلته وتشريف له على خلقه، وأما قوله «معه» فهو بمنزلة قوله تعالى: ﴿إن الذين عند ربك﴾ وقوله: ﴿رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾ فكل هذا ونحوه عائد على الرتبة والمنزلة والحظوة والدرجة الرفيعة، لا إلى المكان.

وقال شيخ الإسلام أبو الفضل العسقلاني: قول مجاهد «يجلسه معه على العرش» ليس بمدفوع^(١) لا من جهة النقل ولا من جهة النظر. وقال ابن عطية: هو كذلك إذا حمل على ما يليق به قال: وبالغ الواحد في رد هذا القول. ونقل النقاش عن أبي داود صاحب السنن أنه قال: من أنكر هذا فهو متهم. وقد جاء عن ابن مسعود عند الثعلبي، وعن ابن عباس عند أبي الشيخ قال: إن محمداً يوم

(١) في ط هنا: «لا من جهة العقل»، وقد حذفها لأنها تكرار لقوله: ولا من جهة النظر الواردة في النسخ.

القيامة يجلس على كرسي الرب بين يدي الرب، فيحتمل أن تكون الإضافة إضافة تشريف، وعلى ذلك يحمل ما جاء عن مجاهد وغيره، ويحتمل أن يكون المراد بالمقام المحمود الشفاعة كما هو المشهور، وأن يكون الإجلال هي المنزلة المعبر عنها بالوسيلة. كذا قاله بعضهم، ويحتمل أن يكون الإجلال علامة الإذن في الشفاعة^(١).

واختلف في «فاعل» الحمد من قوله تعالى: ﴿محموداً﴾ فالأكثر على أن المراد به أهل الموقف، وقيل النبي ﷺ، أي أنه يحمد عاقبة ذلك المقام بتهجده في الليل، والأول أرجح لما ثبت من حديث ابن عمر بلفظ: «مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم» ويجوز أن يحمل على أعم من ذلك، أي: مقاماً يحمده القائم فيه وكل من عرفه، / وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات، واستحسن هذا أبو حيان، وأيده بأنه نكرة تدل على أنه ليس المراد مقاماً مخصوصاً. انتهى.

ب/٤٢٣

فإن قلت: إذا قلنا بالمشهور، أن المراد بالمقام المحمود الشفاعة، فأبي شفاعة هي؟

فالجواب: إن الشفاعة التي وردت في الأحاديث، في المقام المحمود نوعان: النوع الأول: العامة في فصل القضاء، والثاني: في الشفاعة في إخراج المذنبين من النار، لكن الذي يتجه: رد هذه الأقوال كلها إلى الشفاعة العظمى العامة، فإن إعطائه لواء الحمد،

(١) لا يقف هذا التعقيب في وجه ما قاله الواحدي، ذلك أن القولين المذكورين ليسا من المرفوع وليسا مما ورد في الصحاح أو السنن، وهما يقران أمراً يتعلق بالعقيدة، وأمور العقيدة لا تقرر إلا بالصحيح الثابت الذي لا خلاف فيه [المحقق].

وثناؤه على ربه وكلامه بين يديه، وجلوسه على كرسیه^(١) [!؟] كل ذلك صفات للمقام المحمود الذي يشفع فيه ليقضى بين الخلق.

وأما شفاعته في إخراج المذنبين من النار فمن توابع ذلك، وقد أنكر بعض المعتزلة والخوارج الشفاعة في إخراج من أدخل النار من المذنبين وتمسكوا بقوله تعالى: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾^(٣).

وأجاب أهل السنة بأن هذه الآيات في الكفار. قال القاضي عياض: مذهب أهل السنة جواز الشفاعة عقلاً، ووجوبها^(٤) سمعاً، لصريح قوله تعالى: ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾^(٥) وقوله: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾^(٦) ولقوله: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ المفسر بها عند الأكثرين، كما قدمنا.

وقد جاءت الآثار^(٧) التي بلغ مجموعها التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة للمذنبين المؤمنين، وعن أم حبيبة قالت: قال رسول الله ﷺ: أريت ما تلقى أمي من بعدي، وسفك بعضهم دماء بعض، وسبق

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) سورة المدثر، الآية ٤٨.

(٣) سورة غافر، الآية ١٨.

(٤) أي ثبوتها ووجوب القول بها.

(٥) سورة طه، الآية ١٠٩.

(٦) سورة الأنبياء، الآية ٢٨.

(٧) في (ط، ش): الأحاديث.

لهم من الله ما سبق للأمم قبلهم فسألت الله أن يؤتيني^(١) [فيهم]^(٢) شفاعة يوم القيامة ففعل^(٣) .

وفي حديث أبي هريرة لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة. وفي رواية أنس: فجعلت دعوتي شفاعة لأمتي^(٤) . وهذا من مزيد شفقتة علينا، وحسن تصرفه حيث جعل دعوته المجابة في أهم أوقات حاجتنا، فجزاه الله عنا أفضل الجزاء.

وعن أبي هريرة؛ قلت: يا رسول الله ماذا ورد عليك في الشفاعة؟ فقال: شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً يصدق لسانه قلبه.

وعن أبي زرعة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : (أنا سيد الناس يوم القيامة، هل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيبصرهم الناظر، ويسمعهم الداعي، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس ألا ترون إلى ما أنتم فيه، إلى ما بلغتكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فقال: إن ربي

(١) في ش: يوليني.

(٢) في (ش، ط).

(٣) أخرجه الحاكم والبيهقي وصحاه.

(٤) رواه مسلم.

غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً عليه السلام فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما بلغنا، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة، دعوت بها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم عليه السلام فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني كنت كذبت ثلاث كذبات، فذكرها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا/ إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى عليه السلام، فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، فضلك برسالته وبكلامه على الناس، ألا ترى إلى ما نحن فيه، اشفع لنا إلى ربك، فيقول: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله: ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفساً لم أوامر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى عليه السلام فيقولون: يا عيسى: أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد، ألا ترى إلى ما نحن فيه، اشفع لنا إلى ربك، فيقول عيسى عليه السلام: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد، فيأتون محمداً ﷺ فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ألا ترى إلى ما نحن فيه، اشفع لنا

أ/٤٢٤

إلى ربك، فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمّتي يا رب، أمّتي يا رب، فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. الحديث رواه البخاري ومسلم^(١).

قال في فتح الباري: وقد استشكل قولهم لنوح: «أنت أول الرسل من أهل الأرض»، فإن آدم نبي مرسل، وكذا شيت وإدريس، وهم قبل نوح.

ومحصل الأجوبة عن ذلك: أن الأوليّة مقيدة بقوله «أهل الأرض» لأن آدم ومن ذكر معه لم يرسلوا إلى أهل الأرض، أو أن الثلاثة كانوا أنبياء ولم يكونوا رسلاً، وإلى هذا جنح ابن بطال في حق آدم. وتعقبه القاضي عياض بما صححه ابن حبان من حديث أبي ذر، فإنه كالصريح في أنه كان مرسلًا، وفيه التصريح بإنزال الصحف على شيت وهو من علامات الإرسال. [وأما إدريس فذهبت طائفة إلى أنه كان من بني إسرائيل]^(٢).

ومن الأجوبة: أن رسالة آدم كانت إلى بنيه، وهم موحدون، ليعلمهم شريعته، ونوح رسالته كانت إلى قوم كفار يدعوهم إلى التوحيد

وذكر الغزالي في كتاب «كشف علوم الآخرة» أن بين إتيان أهل

(١) رواه مسلم برقم ٣٢٧ من كتاب الإيمان، ورواه البخاري في مواضع.

(٢) في (ط، ش).

الموقف آدم وإتيانهم نوحاً ألف سنة، وكذا بين كل نبي ونبي، إلى نبينا صلى الله عليه وسلم.

قال الحافظ ابن حجر: ولم أقف لذلك على أصل، قال: ولقد أكثر في هذا الكتاب من إيراد أحاديث لا أصول لها، فلا يغتر بشيء منها.

ووقع في رواية حذيفة: أن الخليل عليه السلام قال: «لست بصاحب ذاك، إنما كنت خليلاً من وراء وراء». بفتح الهمزة [فيهما]^(١) بلا تنوين، ويجوز البناء فيها على الضم للقطع عن الإضافة نحو «من قبل ومن بعد» واختاره أبو البقاء. قال الأخفش: يقال لقيته من وراء بالضم، وقال:

إذا أنا لم أومن عليك ولم يكن لقاءك إلا من وراء وراء
ويجوز فيهما النصب والتنوين جوازاً جيداً، قاله أبو عبدالله الأبي.

ومعناه: لم أكن في التقريب والإدلال بمنزلة الحبيب، وقيل: مراده: إن الفضل الذي أعطيته كان بسفارة جبريل، ولكن اتوا موسى الذي كلمه الله بلا واسطة، وكرر «وراء» إشارة إلى نبينا ﷺ لأنه حصلت له الرؤية والسمع بلا واسطة، فكأنه قال: أنا من وراء موسى، الذي هو من وراء محمد، وسبق مزيد لذلك في الخصائص.

وأما ما ذكره من الكذبات الثلاث، فقال البيضاوي: الحق أنها إنما كانت من معارضض الكلام، لكن لما كانت صورتها صورة الكذب

(١) في (ط، ش).

أشفق منها استقصاراً لنفسه عن الشفاعة، لأن من كان أعرف بالله وأقرب إليه منزلة، كان أعظم خوفاً

وأما قوله عن / عيسى: «إنه لم يذكر ذنباً» فوقع في حديث ابن عباس عند أحمد والنسائي: إني اتُّخِذْتُ إلهاً من دون الله.

ب/٤٢٤

وفي حديث النضر بن أنس عن أبيه، حدثني نبي الله ﷺ قال: إني لقائم انتظر أمتي عند الصراط، إذ جاء عيسى فقال: يا محمد، هذه الأنبياء قد جاءتك يسألونك لتدعو الله أن يفرق جمع الأمم إلى حيث شاء، لعظم ما هم فيه.

فأفادت هذه الرواية تعيين موقف النبي ﷺ حينئذ، وأن هذا الذي وصف من كلام أهل الموقف كله يقع عند نصب الصراط بعد تساقط الكفار في النار، وأن عيسى هو الذي يخاطب نبينا ﷺ، وأن جميع الأنبياء يسألونه في ذلك.

وفي حديث سلمان عند ابن أبي شيبة: يأتون محمداً فيقولون: يا نبي الله، أنت فتح الله بك وختم بك، وغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وجئت في هذا اليوم، وترى ما نحن فيه فقم فاشفع لنا إلى ربنا، فيقول: أنا صاحبكم، فيجوس الناس^(١) حتى ينتهي إلى باب الجنة.

فإن قلت: ما الحكمة في انتقاله ﷺ من مكانه إلى الجنة؟

أجيب: بأن أرض الموقف لما كانت مقام عرض وحساب كانت مقام مخافة وإشفاق، ومقام الشافع يناسب أن يكون في مكان إكرام.

(١) أي يتخلل الناس.

وفي حديث أبي بن كعب عند أبي يعلى رفعه: فأسجد له سجدة
يرضى بها عني، ثم أمتدحه بمدحة يرضى بها عني.

وفي حديث أبي بكر الصديق^(١)، فينطلق إليه جبريل، فيخر
ساجداً قدر جمعة، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك.

وفي رواية النضر بن أنس: فأوحى الله إلى جبريل أن اذهب إلى
محمد فقل له: ارفع رأسك.

وعلى هذا، فالمعنى يقول لي على لسان جبريل، والظاهر أنه ﷺ
يلهم التحميد قبل سجوده وبعده وفيه، ويكون في كل مكان ما يليق
به، فإنه ورد في رواية^(٢): فأقوم بين يديه فيلهمني بمحامد لا أقدر
عليها، ثم أخرج ساجداً. وفي رواية البخاري: فأرفع رأسي فأحمد ربي
بتحميد يعلمني.

وفي رواية أبي هريرة، عند الشيخين: فآتي تحت العرش فأقع
ساجداً لربي: ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم
يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك. الحديث
وفي رواية البخاري من حديث قتادة عن أنس: ثم أشفع،
فيحد لي حداً، ثم أخرجهم من النار وأدخلهم الجنة.

قال الطيبي: أي يبين لي كل طور من أطوار الشفاعة حداً أقف
عنده فلا أتعداه، مثل أن يقول شفعتك فيمن أخل بالجماعة، ثم فيمن
أخل بالصلاة، ثم فيمن شرب الخمر، ثم فيمن زنا، وهكذا على هذا

(١) عند أبي عوانة.

(٢) للشيخين.

الأسلوب، والذي يدل عليه سياق الأخبار أن المراد به تفصيل مراتب المخرجين في الأعمال الصالحة، كما وقع عند أحمد عن يحيى القطان عن سعيد بن أبي عروبة.

وفي رواية ثابت عند أحمد فأقول: أي رب، أمتي أمتي، فيقول: أخرج من كان في قلبه مثقال [شعيرة، وفي حديث سلمان: فيشفع في كل من كان في قلبه مثقال]^(١) حبة من حنطة، ثم شعيرة، ثم حبة خردل، فذلك المقام المحمود.

وفي رواية أبي سعيد عند مسلم: «ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير». قال القاضي عياض: قيل معنى الخير: اليقين [بالإيمان]^(٢). وأما قوله في رواية أنس عند البخاري: «فأخرجهم من النار» فقال الداودي: كأن راوي هذا الحديث ركب شيئاً على غير أصله، وذلك أن في أول الحديث ذكر الشفاعة في الإراحة من كرب الموقف، وفي آخره ذكر الشفاعة في الإخراج من النار، يعني: وذلك إنما يكون بعد التحول من الموقف والمرور على الصراط وسقوط من يسقط في تلك الحالة في النار. ثم تقع بعد ذلك الشفاعة في الإخراج. وهو إشكال قوي.

وقد أجاب عنه النووي، ومن قبله القاضي عياض: بأنه قد وقع في حديث حذيفة وأبي هريرة: فيأتون محمداً فيقوم ويؤذن له في الشفاعة، وترسل معه الأمانة والرحم فيقومان/ جنبتي الصراط، يميناً وشمالاً، أي يقفان في ناحيتي الصراط. قال القاضي عياض: فهذا

ب/ ٤٢٠

(١) ما بين القوسين سقط في ط.

(٢) في ط.

ينفصل الكلام، لأن الشفاعة التي لجأ الناس إليه فيها هي لإراحة الناس من كرب الموقف، ثم تحيء الشفاعة في الإخراج. انتهى.

والمعنى في قيام الأمانة والرحم، أنها لعظم شأنها، وفخامة^(١) ما يلزم العباد من رعاية حقها، يوقفان للأمين والخائن، وللواصل والقاطع، فتحاجان عن المحق، ويشهدان على المبطل.

[ذكر ترتيب ما يحدث في الموقف]

وقد وقع في حديث أبي هريرة^(٢) بعد ذكر الجمع في الموقف: الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد، ثم تمييز المنافقين من المؤمنين، ثم حلول الشفاعة بعد وضع الصراط والمرور عليه، فكأن الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد هو أول فصل القضاء، والإراحة من كرب الموقف، وبهذا تجتمع متون الأحاديث وتترتب معانيها. انتهى.

فظهر أنه ﷺ أول ما يشفع ليقضى بين الخلق، وأن الشفاعة فيمن يخرج من النار ممن سقط تقع بعد ذلك، وأن العرض والميزان وتطاير الصحف تقع في هذا الوطن، ثم ينادى لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيسقط الكفار في النار، ثم يميز بين المؤمنين والمنافقين بالامتحان بالسجود عند كشف الساق، ثم يؤذن في نصب الصراط والمرور عليه، فيطفأ نور المنافقين، فيسقطون في النار أيضاً، ويمر المؤمنون عليه إلى الجنة، فمن العصاة من يسقط، ويوقف من نجا عند القنطرة للمقاصصة بينهم، ثم يدخلون الجنة.

(١) كذا في (أ، ب) وفي النسخ الأخرى: مخافة.

(٢) الذي في الصحيحين مطولاً.

[أنواع شفاعته ﷺ]

وقد قال النووي ومن قبله القاضي عياض: الشفاعات خمس:

الأولى: في الإراحة من هول الموقف.

الثانية: في إدخال قوم الجنة بغير حساب.

الثالثة: في إدخال قوم حوسبوا واستحقوا العذاب أن لا يعذبوا.

الرابعة: في إخراج من أدخل النار من العصاة.

الخامسة: في رفع الدرجات. انتهى.

فأما الأولى، وهي لإراحة الناس من هول الموقف، فيدل عليها حديث أبي هريرة وغيره المتقدم، وحديث أنس عند البخاري، ولفظه: (يجمع الله الناس يوم القيامة فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا، فيأتون آدم فيقولون: أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا عند ربك، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته، اتتوا نوحاً، وذكر إتيانهم الأنبياء واحداً واحداً، إلى أن قال: فيأتوني، فأستأذن على ربي، فإذا رأيته وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله ثم يقال لي: ارفع رأسك، سل تعطه، وقل يسمع، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمني) الحديث.

وأما الثانية: وهي إدخال قوم الجنة بغير حساب، فيدل عليها ما في آخر حديث أبي هريرة عند البخاري ومسلم الذي قدمته (فأرفع رأسي فأقول: يا رب أمّتي، يا رب أمّتي، فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة) قال أبو حامد: والسبعون ألفاً الذين يدخلون الجنة بلا حساب، لا يرفع لهم ميزان ولا يأخذون صحفاً، وإنما هي براءة مكتوبة: لا إله إلا الله

محمد رسول الله، هذه براءة فلان ابن فلان، قد غفر له وسعد سعادة لا شقاء بعدها أبداً، فما مر عليه شيء أسر من ذلك المقام.

وأما الثالثة: وهي إدخال قوم حوسبوا أن لا يعذبوا، فيدل على ذلك قوله في حديث حذيفة عند مسلم: (ونبيكم على الصراط يقول: رب سلم سلم).

وأما الرابعة: وهي في آخراج من أدخل النار من العصاة، فدلائلها كثيرة، وقد روى البخاري عن عمران بن حصين مرفوعاً: يخرج قوم من النار بشفاعته محمد ﷺ فيدخلون الجنة ويسمون الجهنميين.

وأما الخامسة: وهي في رفع الدرجات، فقال النووي «في الروضة»: إنها من خصائصه ﷺ ولم يذكر لذلك مستنداً فالله أعلم.

وقد ذكر القاضي عياض شفاعة سادسة، وهي شفاعته ﷺ لعمه أبي طالب في تخفيف العذاب / لما ثبت في الصحيح أن العباس قال لرسول الله ﷺ: إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك، فهل نفعه ذلك؟ قال: نعم، وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح. وفي الصحيح أيضاً من طريق أبي سعيد أنه ﷺ قال: لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبه يغلى منه دماغه^(١).

وزاد بعضهم سابعة: وهي الشفاعة لأهل المدينة، لحديث سعد، رفعه: لا يثبت أحد على لأوائها إلا كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة.

(١) الحديثان متفق عليهما.

وتعقبه الحافظ ابن حجر: بأن متعلقها لا يخرج عن واحد من الخمس الأول، وبأنه لو عدَّ مثل ذلك لعدَّ حديث عبد الملك بن عباد: سمعت النبي ﷺ يقول: أول من أشفع له أهل المدينة ثم أهل مكة. ثم أهل الطائف. رواه البزار، وأخرى لمن زار قبره الشريف، وأخرى لمن أجاب المؤذن ثم صلى عليه ﷺ، وأخرى في التجاوز عن تقصير الصلحاء. لكن قال الحافظ ابن حجر إنها مندرجة في الخامسة.

وزاد القرطبي: أنه أول شافع في دخول أمته الجنة قبل الناس، [ويدل له ما رواه... (١)] (٢).

وزاد في فتح الباري أخرى، فيمن استوت حسناته وسيئاته أن يدخل الجنة، لما أخرجه الطبراني عن ابن عباس (٣) قال: السابق بالخيرات [٤] يدخل الجنة بغير حساب والمقتصد برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون بشفاعته ﷺ.

وأرجح الأقوال في أصحاب الأعراف أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم.

وشفاعة أخرى وهي شفاعته فيمن قال: «لا إله إلا الله» ولم يعمل خيراً قط، لرواية الحسن عن أنس: فأقول يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، قال: ليس ذلك لك، ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي لأخرجن من النار من قال: لا إله إلا الله (٥).

(١) بياض في (ب، ش).

(٢) في (١، ب، ش).

(٣) موقوف عليه.

(٤) في (ط، ش).

(٥) متفق عليه وهو عند مسلم برقم ٣٢٦ من كتاب الإيمان.

فالوارد على الخمسة أربعة، وما عداها لا يرد، كما لا ترد الشفاعة في التحنيط عن صاحبي القبرين وغير ذلك لكونه من جملة أحوال الدنيا. انتهى.

فإن قلت: فأى شفاعة ادخرها ﷺ لأمته؟ أما الأولى فلا تختص بهم بل هي لإراحة الجمع كلهم، وهي المقام المحمود كما تقدم، وكذلك باقي الشفاعات الظاهر أنه يشاركهم فيها بقية الأمم.

فالجواب: أنه يحتمل أن المراد الشفاعة العظمى التي للإراحة من هول الموقف وهي وإن كانت غير مختصة بهذه الأمة لكن هم الأصل فيها، وغيرهم تبع لهم، ولهذا كان اللفظ المنقول عنه ﷺ فيها أنه قال: «يا رب أمتي أمتي» فدعا لهم فأجيب، وكان غيرهم تبعاً لهم في ذلك، ويحتمل أن تكون الشفاعة الثانية، وهي التي في إدخال قوم الجنة بغير حساب هي المختصة بهذه الأمة، فإن الحديث الوارد فيها: يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، الحديث^(١). ولم ينقل ذلك في بقية الأمم، ويحتمل أن يكون المراد مطلق الشفاعة المشتركة بين الشفاعات الخمس. وكون غير هذه الأمة يشاركونهم فيها أو في بعضها لا ينافي أن يكون ﷺ آخر دعوته شفاعة لأمته، فلعله لا يشفع لغيرهم من الأمم بل يشفع لهم أنبياءهم، ويحتمل أن تكون الشفاعة لغيرهم تبعاً كما تقدم مثله في الشفاعة العظمى، والله أعلم.

وعن بريدة أن رسول الله ﷺ قال: إني لأرجو أن أشفع يوم القيامة عدد ما في الأرض من شجرة ومدرة، رواه أحمد.

(١) الحديث في الصحيحين عن ابن عباس.

[الحساب والجزاء]

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: نحن آخر الأمم وأول من يحاسب، يقال: أين الأمة الأمية ونبيها، فنحن الآخرون الأولون، رواه ابن ماجه.

وفي حديث ابن عباس عند أبي داود الطيالسي مرفوعاً: فإذا أراد الله أن يقضي بين خلقه نادى مناد: أين محمد وأمه فأقوم وتتبعني أمتي غرا محجلين من أثر الطهور. قال رسول الله ﷺ: / فنحن الآخرون الأولون وأول من يحاسب، وتفرج لنا الأمم عن طريقنا وتقول الأمم: كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها.

أ/٤٢٦

وقد صح أن أول ما يقضى بين الناس في الدماء. رواه البخاري.

وللنسائي مرفوعاً: أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء.

وفي البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: أنا أول من يجثو يوم القيامة بين يدي الرحمن للخصومة، يريد قصته في مبارزته هو وصاحبه الثلاثة^(١) من كفار قريش. قال أبو ذر: وفيهم نزلت ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾^(٢) الآية.

وعن أبي هريرة: قال قال رسول الله ﷺ: لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما

(١) بالنصب مفعول مبارزة.

(٢) سورة الحج، الآية ١٩.

عمل فيه^(١)، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه. رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وفي البخاري من حديث عائشة، أن النبي ﷺ قال: (من نوقش الحساب عذب).

وروى البزار عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه، فيقول لأصغر نعمة - أحسبه قال من ديوان النعم -: خذي ثمنك^(٢) من عمله الصالح، فتستوعب عمله الصالح وتقول: وعزتك ما استوفيت، وتبقى الذنوب والنعم، وقد ذهب العمل الصالح، فأراد الله أن يرحم عبداً، قال: يا عبدي، قد ضاعفت لك حسناتك، وتجاوزت عن سيئاتك - أحسبه قال: ووهبت لك نعمي -.

وروى الإمام أحمد بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ليختصمن كل شيء يوم القيامة، حتى الشاتان فيما انتطحتا.

وعن أنس: بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه، فقال له عمر: ما أضحكك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، قال: رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة، فقال أحدهما: يا رب خذ لي مظلمتي من أخي، فقال الله: كيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء؟ قال: يا رب فليتحمل من أوزاري،

(١) في ط: وعن عمله...، قال الشارح: الذي في الترمذي: وعن علمه ما عمل فيه.

(٢) في (ط، ش) بثمانك.

وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال: إن ذلك ليوم عظيم، يحتاج الناس أن يحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله للطالب: ارفع بصرك فانظر، فقال: يا رب أرى مدائن من ذهب وفضة مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هذا، أو لأي صديق هذا، أو لأي شهيد هذا؟ قال: لمن يعطي الثمن، فقال: يا رب، ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه، قال: بماذا؟ قال: بعفوك عن أخيك، قال: يا رب فإني قد عفوت عنه، قال الله تعالى: فخذ بيد أخيك وأدخله الجنة، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله يصلح بين المسلمين [يوم القيامة] (١) رواه الحاكم والبيهقي في البعث، كلاهما عن عباد بن أبي شيبه الحبطي، عن سعيد بن أنس عنه، وقال الحاكم: صحيح الإسناد (٢). كذا قال.

وقد نقل: لو أن رجلاً له ثواب سبعين نبياً، وله خصم بنصف دانق لم يدخل الجنة حتى يرضي خصمه. وقيل: يؤخذ بدانق سبعمائة صلاة مقبولة فتعطى للخصم. ذكره القشيري في التحبير.

ثم بعد انقضاء الحساب يكون وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقدير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها.

وقد ذكر الله تعالى الميزان في كتابه بلفظ الجمع، وجاءت السنة بلفظ الأفراد والجمع، فقيل: إن صورة الأفراد محمولة على أن المراد الجنس، جمعاً بين الكلامين، وقال بعضهم: يحتمل أن يكون تعددها بتعدد الأعمال، فيكون هناك موازين للعامل الواحد، يوزن بكل ميزان

(١) في (ط، ش).

(٢) قال الذهبي: عباد ضعفوه وشيخه سعيد لا يعرف فإني له الصحة!؟

منها صنف من أعماله، وذهبت طائفة إلى أنها ميزان واحد يوزن بها للجميع، وإنما ورد في الآية بصيغة الجمع للتفخيم، وليس المراد حقيقة العدد، وهو نظير قوله: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾^(١)، والمراد/ رسول واحد، وهذا هو المعتمد، وعليه الأكثرون.

واختلف في كيفية وضع الميزان، والذي جاء في أكثر الأخبار، أن الجنة توضع عن يمين العرش، والنار عن يسار العرش، ثم يؤتى بالميزان، فينصب بين يدي الله تعالى، فتوضع كفة الحسنات مقابل الجنة، وكفة السيئات مقابل النار. ذكره الترمذي الحكيم في «نوادير الأصول».

واختلف أيضاً في الموزون نفسه. فقال بعضهم: توزن الأعمال نفسها. وهي وإن كانت أعراضاً إلا أنها تجسم يوم القيام فتوزن، وقال بعضهم: الموزون صحائف الأعمال، ويدل له حديث البطاقة المشهور، وقد رواه الترمذي^(٢)، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاصي، يرفعه بلفظ: إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل منها مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتني الحافظون؟ فيقول: لا، يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا، يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع

(١) سورة الشعراء، الآية ١٠٥.

(٢) وقال: حسن غريب، ورواه ابن ماجه وابن حبان، والحاكم وصححه البيهقي.

هذه السجلات؟ فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء.

فإن قلت: إن من شأن الميزان أن يوضع في الكفة شيء وفي الأخرى ضده، فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة، والذي يقابل شهادة التوحيد الكفر، ويستحيل أن يأتي عبد واحد بالكفر والإيمان معاً حتى يوضع الإيمان في كفة والكفر في أخرى؟

أجاب الترمذي الحكيم: بأنه ليس المراد وضع شهادة التوحيد في كفة الميزان، وإنما المراد وضع الحسنة المترتبة على النطق بهذه الكلمة مع سائر الحسنات. ويدل لما قاله قوله: «بلى إن لك عندنا حسنة» ولم يقل لك عندنا إيماناً. وقد سئل ﷺ عن لا إله إلا الله، أمن الحسنات هي؟ فقال من أعظم الحسنات. أخرجه البيهقي وغيره. ويجوز - كما قاله القرطبي في التذكرة - أن تكون هذه الكلمة هي آخر كلامه في الدنيا، كما في حديث معاذ: قال رسول الله ﷺ من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة^(١).

وفي «التحبير» للقشيري: قيل لبعضهم في المنام: ما فعل الله بك؟ قال: وزنت حسناتي فرجحت السيئات على الحسنات، فسقطت صرة في كفة الحسنات فرجحت، فحلت الصرة فإذا فيها، كف تراب ألقيته في قبر مسلم.

وفي الخبر^(٢): إذا خفت حسنات المؤمن أخرج رسول الله ﷺ

(١) رواه أحمد وأبو داود والحاكم وصححه.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا.

بطاقة كالأتملة فيلقبها في كفة الميزان التي فيها الحسنات فترجح الحسنات، فيقول ذلك العبد المؤمن للنبي ﷺ: بأبي أنت وأمي ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك، فمن أنت؟ فيقول أنا نبيك محمد، وهذه صلاتك عليّ وقد وفيتك إياها أحوج ما تكون إليها. ذكره القشيري في تفسيره.

وذكر الغزالي أنه يؤتى برجل يوم القيامة، فما يجد حسنة يرجح بها ميزانه، وقد اعتدلت بالسوية، فيقول الله له -رحمة منه-: إذهب في الناس فالتمس من يعطيك حسنة أدخلك بها الجنة، فما يجد أحداً يكلمه في ذلك الأمر إلا قال له: أنا أحوج لذلك منك فيأس، فيقول له رجل: لقد لقيت الله فما في صحيفتي إلا حسنة واحدة، وما أظنها تغني عني شيئاً، خذها هبة، فينطلق بها فرحاً مسروراً، فيقول الله له ما بالك؟ - وهو أعلم - فيقول: يا رب اتفق لي من أمري كيت وكيت، قال: فينادي الله تعالى بصاحبه الذي وهب له الحسنة فيقول له تعالى: كرمي أوسع من كرمك، خذ بيد أخيك وانطلقا إلى الجنة.

وكذا تستوي كفتا الميزان لرجل، فيقول الله تعالى له: لست من أهل الجنة ولا من أهل النار، فيأتي الملك بصحيفة فيضعها/ في كفة الميزان فيها مكتوب «أف» فترجح على الحسنات لأنها كلمة عقوق، فيؤمر به إلى النار، قال: فيطلب أن يرد إلى الله تعالى، فيقول الله تعالى: ردوه، فيقول له: أيها العبد العاق لأي شيء تطلب الرد؟ فيقول: إلهي، إني سائر إلى النار وكنت عاقاً لأبي وهو سائر إلى النار مثلي، فضعف عليّ عذابه وأنقذه منها، قال: فيضحك الله تعالى ويقول: عقفته في الدنيا وبررته في الآخرة، خذ بيد أهلك فانطلقا إلى الجنة^(١).

(١) الله أعلم بصحة هذه الأخبار [م].

وقد روى حذيفة أن صاحب الميزان يوم القيامة جبريل عليه السلام، وهو الذي يزن الأعمال يوم القيامة^(١).

واختلف أيضاً في كيفية الرجحان والنقص فقال بعضهم: الراجح أن الموزون في الآخرة يصعد، عكس ما في الدنيا، واستشهد في ذلك بقوله تعالى: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾^(٢) الآية. قال الزركشي: وهو غريب مصادم لقوله تعالى: ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية﴾^(٣).

وهل توزن الأعمال كلها أو خواتيمها؟ حكى عن وهب بن منه أنه قال: يوزن من الأعمال خواتيمها، واستدل بقوله ﷺ: إنما الأعمال بخواتيمها^(٤).

وذكر الحافظ أبو نعيم عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: من قضى لأخيه المؤمن حاجة كنت واقفاً عند ميزانه، فإن رجح وإلا شفعت له.

[الجواز على الصراط]

وقال بعض أهل العلم، فيما حكاه القرطبي في «التذكرة»: ولن يجوز أحد الصراط حتى يسأل على^(٥) سبع قناطر، فأما القنطرة الأولى:

(١) رواه ابن جرير في تفسيره، وهو موقوف.

(٢) سورة فاطر، الآية ١٠.

(٣) سورة القارعة، الآية ٧.

(٤) من قوله «واستدل..» ليس في ب: وحديث (إنما الأعمال بالخواتيم) رواه

البخاري برقم ٦٦٠٧ [م].

(٥) في المخطوطات: في.

فيسأل عن الإيمان بالله، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، فإن جاء بها مخلصاً جاز، ثم يسأل في القنطرة الثانية عن الصلاة، فإن جاء بها تامة جاز، ثم يسأل في القنطرة الثالثة عن صوم شهر رمضان، فإن جاء به تاماً جاز، ثم يسأل في القنطرة الرابعة عن الزكاة، فإن جاء بها تامة جاز، ثم يسأل في القنطرة الخامسة عن الحج والعمرة، فإن جاء بهما تامتين جاز، ثم يسأل في السادسة عن الغسل والوضوء، فإن جاء بهما تامين جاز، ثم يسأل في السابعة، وليس في القناطر أصعب منها، فيسأل عن ظلمات الناس^(١).

وفي حديث أبي هريرة عنه رضي الله عنه : ويضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجوز عليه، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم، وفي جهنم كالليب مثل شوك السعدان^(٢) غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى، فتخطف الناس بأعمالهم، فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يجردل^(٣) ثم ينجو، الحديث رواه البخاري^(٤).

وفي حديث حذيفة وأبي هريرة عند مسلم: ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلم سلم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يأتي الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً، قال: وفي حافتي الصراط كالليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به: فمخدوش ناج ومكردس في النار.

(١) هذا القول لبعض أهل العلم ما لم يكن له دليل فلا اعتبار له، لأن أحوال الآخرة غيبات مرجعها إلى النصوص [المحقق].

(٢) نبات له شوك.

(٣) من الخردل أي جعلت أعضاؤه كالخردل.

(٤) رواه البخاري في مواطن منها رقم ٦٥٧٣، وكذا رواه مسلم.

وهذه الكلاليب هي الشهوات المشار إليها في الحديث «حفت النار بالشهوات» فالشهوات موضوعة على جوانبها، فمن اقتحم الشهوة سقط في النار. قاله ابن العربي.

ويؤخذ من قوله: «فمخدوش الخ» أن المارين على الصراط ثلاثة أصناف: ناج بلا خدش، وهالك من أول وهلة، ومتوسط بينهما مصاب ثم ينجو.

وفي حديث المغيرة عند الترمذي: شعار المؤمنين على الصراط: رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ. ولا يلزم من كون هذا الكلام شعار المؤمنين أن ينطقوا به، بل ينطق به الرسل، يدعون للمؤمنين بالسلامة، فيسمى ذلك شعاراً لهم.

وفي حديث ابن مسعود: فيعطيه نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم، يسعى بين أيديهم، الحديث؛ وفيه: فيمرون على قدر نورهم، منهم من يمر كطرفه العين، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالسحاب، ومنهم من يمر كإنقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشدة الفرس، ومنهم من يمر كشدة الرجل، حتى يمر الذي يعطى نوره على ظهر قدميه، يجبو على وجهه ويديه ورجليه، تُجْر يد وتعلق يد، وتجر رجل / وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار، فلا يزال كذلك حتى يخلص، فإذا خلس وقف عليها وقال: الحمد لله الذي أعطاني ما لم يعط أحداً إذ نجاني منها بعد أن رأيتها. الحديث. رواه ابن أبي الدنيا والطبراني^(١).

ب/٤٢٧

(١) موقوف على ابن مسعود.

وروى مسلم: قال أبو سعيد، بلغني أن الصراط أحد من
السيف وأرق من الشعرة. وفي رواية ابن منده من هذا الوجه: قال
سعيد بن [أبي]^(١) هلال. ووصله البيهقي عن أنس عن النبي ﷺ مجزوماً
به، وفي سننه لين.

ولابن المبارك من مرسل عبيد بن عمير: أن الصراط مثل
السيف وبجنتيه كلاليب، [والذي نفسي بيده]^(٢) إنه ليؤخذ بالكلوب
الواحد أكثر من ربيعة ومضر. وأخرجه ابن أبي الدنيا من هذا الوجه
وفيه: والملائكة على جنبيه يقولون: رب سلم سلم.

وعن الفضيل بن عياض: بلغنا أن الصراط مسيرة خمس عشرة
ألف سنة، خمسة آلاف صعود، وخمسة آلاف هبوط، وخمسة آلاف
مستوي، أدق من الشعرة وأحد من السيف على متن جهنم، لا يجوز
عليه إلا ضامر مهزول من خشية الله. ذكره ابن عساكر في ترجمته،
قال في فتح الباري: وهذا معضل لا يثبت.

قال: وعن سعيد بن أبي هلال: بلغنا أن الصراط أدق من
الشعرة على بعض الناس، ولبعض الناس مثل الوادي الواسع،
أخرجه ابن المبارك، وهو مرسل أو معضل.

وقد ذهب بعضهم إلى أن المراد من قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا
واردها﴾^(٣) الجواز على الصراط لأنه ممدود على النار.

وروى [ابن عساكر]^(٤) عن ابن عباس وابن مسعود وكعب
الأحبار أنهم قالوا: الورود المرور على الصراط.

(١) في (ط، ش).

(٢) في (ط، ش).

(٣) سورة مريم، الآية ٧١.

(٤) في (ط، ش).

وقيل الورورد: الدخول.

وعن أبي سمية قال: اختلفنا في الورود، فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا: يدخلونها جميعاً، ثم ينجي الله الذين اتقوا، فلقيت جابر بن عبدالله، فقلت له: اختلفنا في الورود فقال: يردونها جميعاً، فقلت له: إنا اختلفنا في ذلك، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا: يدخلونها جميعاً، فأهوى بأصبعيه إلى أذنيه وقال: صمنا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: الورود الدخول، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار- أو قال: لجهنم- ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين [فيها جثياً]^(١). رواه أحمد والبيهقي بإسناد حسن.

وأخرج ابن الجوزي- كما ذكره القرطبي في التذكرة- رفعه: الزالون عن الصراط كثير، وأكثر من يزل عنه النساء، قال: وإذا صار الناس على طرفي الصراط نادى ملك من تحت العرش: يا فطرة الملك الجبار جوزوا على الصراط وليقف كل عاص منكم وظالم. فيا لها من ساعة ما أعظم خوفها، وأشد حرها، يتقدم فيها من كان في الدنيا ضعيفاً مهيناً، ويتأخر عنها من كان فيها عظيماً مكيناً، ثم يؤذن لجميعهم بعد ذلك في الجواز على الصراط على قدر أعمالهم، فإذا عصف^(٢) الصراط بأمة محمد ﷺ نادوا: واحمداه واحمداه، فبادر ﷺ من شدة إشفاقه عليهم، وجبريل أخذ بحجزته، فينادي ﷺ رافعاً صوته: رب أمي أمي، لا أسألك اليوم نفسي ولا فاطمة ابنتي،

(١) في (ب، ش).

(٢) اشتد وصعب أمره.

والملائكة قيام عن يمين الصراط ويساره ينادون رب سلم. وقد عظمت الأهوال واشتدت الأوجال، والعصاة يتساقطون عن اليمين والشمال، والزبانية يتلقونهم بالسلاسل والأغلال. وينادونهم: أما نهيتم عن كسب الأوزار، أما أنذرتكم كل الإنذار، أما جاءكم النبي المختار. ذكره ابن الجوزي في كتابه «روضة المشتاق»^(١).

وقد جاء في حديث أبي هريرة عنه ﷺ قال: من أحسن الصدقة في الدنيا مر على الصراط^(٢). رواه أبو نعيم.

وفي الحديث: من يكن المسجد بيته ضمن الله له بالروح والرحمة الجواز على الصراط إلى الجنة^(٣).

وروى القرطبي عن ابن المبارك عن عبدالله بن سلام: إذا كان يوم القيامة/ جمع الله الأنبياء نبياً نبياً، وأمة أمة، ويضرب الجسر على جهنم وينادي أين أحمد وأمته، فيقوم رسول الله ﷺ وتتبعه أمته، برها وفاجرها، حتى إذا كان على الصراط طمس الله أبصار أعدائه فيتهافتون في النار يميناً وشمالاً، ويمضي النبي ﷺ والصالحون معه، فتلقاهم الملائكة فيدلونهم على الطريق، على يمينك، على شمالك، حتى ينتهي إلى ربه، فيوضع له كرسي عن يمين العرش، ثم يتبعه عيسى عليه السلام على مثل سبيله، وتتبعه أمته برها وفاجرها، فإذا كانوا على الصراط طمس الله أبصار أعدائهم فيتهافتون في النار يميناً وشمالاً. الحديث^(٤).

(١) قضايا الآخرة غيبات لا تؤخذ إلا من النصوص الصحيحة [م].

(٢) قال الشارح: سقط من المصنف «مدلاً» في آخره، ومعناها: آمناً.

(٣) رواه البزار وحسنه.

(٤) قال الذهبي: غريب موقوف.

واعلم أن في الآخرة صراطين: أحدهما مجاز لأهل المحشر كلهم إلا من دخل الجنة بغير حساب، أو يلتقطه عنق من النار، فإذا خلص من خلص من الصراط الأكبر حبسوا على صراط آخر لهم، ولا يرجع إلى النار أحد من هؤلاء إن شاء الله لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم. وقد روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، والذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى في الجنة بمنزله منه بمنزله كان في الدنيا).

[النبي ﷺ أول من يدخل الجنة]

وأما تفضيله ﷺ بأنه أول من يقرع باب الجنة وأول من يدخلها، ففي صحيح مسلم من حديث المختار بن فلفل عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا أكثر الناس تبعاً يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة).

وفيه أيضاً من حديث أنس قال ﷺ: (آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت، لا أفتح لأحد قبلك). ورواه الطبراني وزاد فيه: قال فيقوم الخازن ويقول: لا أفتح لأحد قبلك، ولا أقوم لأحد بعدك.

فقيامه له ﷺ خاصة، فيه إظهار لمزيته ومرتبته، وأنه لا يقوم في خدمة أحد بعده، بل خزنة الجنة يقومون في خدمته وهو كالمملك عليهم، وقد أقامه تعالى في خدمة عبده ورسوله محمد ﷺ.

وروى سهيل بن أبي صالح عن زياد المهري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: أنا أول من يأخذ بحلقة الجنة ولا فخر. وهو في مسند الفردوس لكن من حديث ابن عباس.

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وما من نبي آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، قال: فيفزع الناس ثلاث فزعات، فيأتون آدم، فذكر الحديث إلى أن قال: فيأتوني فأنطلق معهم، قال ابن جدعان قال أنس: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ، قال فأخذ بحلقة باب الجنة فاقعقعا، فيقال: من هذا؟ فيقال: محمد، فيفتحون لي ويرحبون بي فيقولون: مرحباً، فأخر ساجداً، فيلهمني الله من الثناء والحمد، فيقال: ارفع رأسك. الحديث. رواه الترمذي وقال: حسن.

وفي حديث سلمان: يأخذ بحلقة الباب وهي من ذهب، فيقرع الباب فيقال: من هذا؟ فيقول: محمد، فيفتح.

وفي حديث الصور^(١): إن المؤمنين إذا انتهوا إلى باب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم في الدخول، فيقصدون آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمداً ﷺ، كما فعلوا عند العرصات عند استشفاعهم إلى الله عز وجل في فصل القضاء ليظهر شرف نبينا محمد ﷺ على سائر البشر كلهم في المواطن كلها.

وروى أبو هريرة مرفوعاً: أنا أول من يفتح له باب الجنة، إلا أن امرأة تبادرني فأقول لها مالك؟ وما أنت؟ فتقول: أنا امرأة قعدت

(١) وهو حديث طويل ضعفه البيهقي وعبد الحق وصوب تضعيفه ابن حجر.

على يتامى . رواه أبو يعلى ، ورواته لا بأس بهم . قال المنذري : إسناده حسن إن شاء الله .

وقوله : «تبادرنى» أي لتدخل / معي ، أو تدخل في أثري ، ويشهد له حديث (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا ، وقال بأصبعيه السبابة والوسطى) رواه البخاري من حديث سهل بن سعد . قال ابن بطال : حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة ، ولا منزلة في الجنة أفضل من ذلك ، انتهى ، ويحتمل أن يكون المراد قرب المنزلة حال دخول الجنة كما في الحديث قبله .

ووجه التشبيه : أن النبي ﷺ من شأنه أن يبعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم فيكون كافلاً لهم ومرشداً ، وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل أمر دينه ، بل ولا دنياه ويعلمه ويحسن أدبه .

وعن ابن عباس قال : جلس ناس من أصحاب النبي ﷺ ينتظرونه ، قال : فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم وهم يتذاكرون ، فسمع حديثهم ، فقال بعضهم : عجباً إن الله اتخذ من خلقه خليلاً ، اتخذ إبراهيم خليلاً ، وقال آخر : ماذا بأعجب من كلام موسى ، كلمه تكليماً ، وقال آخر : فعيسى روح الله ، وقال آخر : وآدم اصطفاه الله ، فخرج عليهم فسلم وقال : قد سمعت كلامكم وعجبكم ، إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً وهو كذلك ، وموسى كلمه الله^(١) وهو كذلك ، وعيسى روح الله وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك . ألا وأنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول

(١) كذا في (ب ، د) وفي (١) : نجي الله ، وفي (ش) : كلم الله ، وفي ط : كلياً .

شافع وأول مشفع ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعني فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين [والآخرين]^(١) ولا فخر. رواه الترمذي.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وقائدهم إذا وفدوا، وشافعهم إذا حبسوا، وأنا مبشرهم إذا يسوا، لواء الحمد بيدي، ومفاتيح الجنة يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر، ويطوف علي ألف خادم كأنهم اللؤلؤ المكنون، رواه الترمذي والبيهقي واللفظ له^(٢).

[أمته ﷺ أول من يدخل الجنة]

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة) رواه مسلم.

وعنه أيضاً، عن النبي ﷺ قال: (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة).

فهذه الأمة أسبق الأمم خروجاً من الأرض وأسبقهم إلى أعلى مكان في الموقف، وأسبقهم إلى ظل العرش، وأسبقهم إلى فصل القضاء، وأسبقهم إلى الجواز على الصراط، وأسبقهم إلى دخول الجنة، وهي أكثر أهل الجنة.

وروى عبدالله ابن الإمام أحمد من حديث أبي هريرة: لما نزلت

(١) في ط.

(٢) قال الترمذي: حديث غريب.

هذه الآية ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾^(١) قال ﷺ : أنتم ثلاث أهل الجنة، أنتم نصف أهل الجنة، أنتم ثلاثا أهل الجنة، قال الطبراني: تفرد برفعه ابن المبارك عن الثوري.

وفي حديث بهز بن حكيم، رفعه: أهل الجنة عشرون ومائة صف، أنتم منها ثمانون^(٢).

وعن عمر بن الخطاب، أن رسول الله ﷺ قال: إن الجنة حُرِّمَتْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ حَتَّى أَدْخَلَهَا، وَحُرِّمَتْ عَلَى الْأُمَّمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمَّتِي. قال الدارقطني: غريب عن الزهري.

فإن قلت: فما تقول في الحديث الذي صححه الترمذي من حديث بريدة بن الحصيب قال: أصبح رسول الله ﷺ، فدعا بلالاً فقال: يا بلال، بم سبقتني إلى الجنة، فما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي. الحديث.

أجاب عنه ابن القيم: بأن تقدم بلال بين يديه ﷺ إنما هو لأنه كان يدعو إلى الله أولاً بالأذان، ويتقدم أذانه بين يدي النبي ﷺ، فيتقدم دخوله بين يديه كالحاجب والخادم. قال: وقد روي في حديث أن النبي ﷺ يبعث يوم القيامة وبلال بين يديه [ينادي]^(٣) بالأذان، فتقدمه بين يديه كرامة له ﷺ، وإظهاراً لشرفه / وفضيلته لا سبقاً من بلال له.

وروى ابن أبي شيبة من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله

(١) سورة الواقعة، الآية ٣٩ - ٤٠.

(٢) رواه أحمد والترمذي وحسنه.

(٣) في (ط، ب).

ﷺ : أتاني جبريل فأخذ بيدي، فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي، فقال أبو بكر: يا رسول الله وددت أني كنت معك حتى أنظر إليه، فقال ﷺ : أما إنك يا أبا بكر أول من يدخل [الجنة] (١) من أمتي (٢).

وقد دل هذا الحديث على أن لهذه الأمة باباً مختصاً يدخلون منه الجنة دون سائر الأمم.

فإن قلت: من أي أبواب الجنة يدخل النبي ﷺ ؟

فالجواب: إنه قد ذكر الترمذي الحكيم أبواب الجنة، كما نقله عنه القرطبي في التذكرة، فذكر باب محمد ﷺ قال: وهو باب الرحمة، وهو باب التوبة.

[أسماء الجنة وأبوابها]

فإن قلت: كم عدة أبواب الجنة؟

فاعلم أن في حديث أبي هريرة عند الشيخين مرفوعاً: من أنفق زوجين (٣) في سبيل الله دعي من أبواب الجنة: يا عبدالله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان.

وروى الترمذي من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه

(١) في (ط، ش، ب).

(٢) رواه أحمد وصححه الحاكم.

(٣) أي شيئين من نوع واحد.

مرفوعاً: ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء، ثم قال^(١): أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له من أبواب الجنة الثمانية. بزيادة «من».

قال القرطبي وهو يدل على أن أبواب الجنة أكثر من ثمانية، قال: وانتهى عددها إلى ثلاثة عشر باباً، كذا قال^(٢)!؟

فإن قلت: أي الجنان يسكنها النبي ﷺ؟

فاعلم - منحي الله وإياك التمتع بذاته القدسية في الحضرة الفردوسية - أن الله تعالى قد اتخذ من الجنان داراً اصطفاها لنفسه، وخصها بالقرب من عرشه، وغرسها بيده، فهي سيدة الجنان، والله يختار من كل نوع أعلاه وأفضله، كما اختار من الملائكة جبريل ومن البشر محمداً ﷺ، وربك يخلق ما يشاء ويختار.

وفي الطبراني من حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: ينزل الله تعالى في آخر ثلاث ساعات بقين من الليل، فينظر في الساعة الأولى منهن في الكتاب الذي لا ينظر فيه غيره، فيمحو الله ما يشاء ويثبت [ما يشاء]^(٣)، ثم ينظر في الساعة الثانية في جنة عدن، وهي مسكنه^(٤) الذي يسكن لا يكون معه فيها أحد إلا الأنبياء والشهداء والصالحون والصديقون، وفيها ما لم يره أحد، ولا خطر على قلب بشر، ثم يهبط آخر ساعة من الليل فيقول: ألا مستغفر يستغفرني

(١) في رواية مسلم: يقول.

(٢) ولا دليل عليه [م].

(٣) في (ط، ش).

(٤) هي إضافة تشريف وتخصيص، كقولنا: الكعبة بيت الله، لا أنه يسكنها.

فأغفر له، ألا سائل يسألني فأعطيه، ألا داع يدعوني فأستجيب له، حتى يطلع الفجر.

وروى أبو الشيخ عن شمر بن عطيّة قال: خلق الله جنة الفردوس بيده، فهو يفتحها كل يوم خمس مرات فيقول: ازدادي طيباً لأوليائي، ازدادي حسناً لأوليائي^(١).

فتأمل هذه العناية، كيف جعل الجنة التي غرسها بيده لمن خلقه بيده، ولأفضل بريته اعتناء وتشريفاً، وإظهاراً لفضل ما خلقه بيده وشرفه، وتمييزه بذلك عن غيره.

وروى الدارمي عن عبدالله بن الحارث قال: قال رسول الله ﷺ: خلق الله ثلاثة أشياء بيده، خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده وغرس الفردوس بيده، ثم قال: وعزتي وجلالي لا يدخلها مدمن خمر ولا الديوث. وفيه أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن تكلم فيه.

وروى الدارمي أيضاً، عن عبدالله بن عمر: خلق الله أربعة أشياء بيده، العرش والقلم وعدناً وآدم عليه السلام، ثم قال لسائر الخلق كن فكان^(٢).

وعنده أيضاً عن مسرة قال: إن الله لم يمس شيئاً من خلقه غير ثلاث: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده.

فجنة عدن أعلى الجنان وسيدتها، وهي قصبة الجنة/، وفيها ٤٢٩/ب الكتيب الذي تقع فيه الرؤية، وعليها تدور ثمانية أسوار بين كل سورين جنة، فالتي تلي جنة عدن من الجنان جنة الفردوس، وأصله

(١) هذه الجملة ليست في ط.

(٢) حديث موقوف على عبدالله.

البستان، وهي أوسط الجنان التي دون جنة عدن وأفضلها ثم جنة الخلد، ثم جنة النعيم، ثم جنة المأوى، وهي التي يأوي إليها جبريل والملائكة. وعن مقاتل: تأوي إليها أرواح الشهداء، ثم دار السلام، لأنها دار السلامة من كل مكروه، ثم دار المقامة.

واعلم أن للجنة أسماء عديدة باعتبار صفاتها، ومساها واحد باعتبار ذاتها، فهي مترادفة من هذا الوجه، ومختلفة باعتبار صفاتها، فاسم الجنة هو الاسم العام المتناول لتلك الذوات وما اشتملت عليه من أنواع النعيم والسرور وقررة العين، وهذه اللفظة مشتقة من الستر، ومنه سمي البستان جنة لأنه يستر داخله بالأشجار، والجنان كثيرة جداً، كما قال ﷺ لأم حارثة لما قتل بدير، وقد قالت: يا رسول الله ألا تحدثني عن حارثة، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت في البكاء عليه، فقال: يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة، وإن ابنك قد أصاب الفردوس الأعلى^(١). وقال تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾^(٢) فذكرهما ثم قال: ﴿ومن دونهما جنتان﴾^(٣) أي فهذه أربع، وقال ﷺ: من فضة آنيتهما وما فيها^(٤) وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيها. رواه الشيخان من حديث أبي موسى الأشعري.

[بحث في أثر العمل في دخول الجنة]

وقد قسم بعضهم الجنان بالنسبة إلى الداخلين فيها ثلاثة:

-
- (١) رواه البخاري.
 - (٢) سورة الرحمن، الآية ٤٦.
 - (٣) سورة الرحمن، الآية ٦٢.
 - (٤) كذا في (ش) بتقديم ذكر الفضة كما عند الشيخين، وفي النسخ بتقديم الذهب.

اختصاص إلهي وهي التي يدخلها الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، ومن أهلها أهل الفترات، ومن لم تصل إليه دعوة رسول.

والجنة الثانية: جنة ميراث، ينالها كل من دخل الجنة من المؤمنين، وهي الأماكن التي كانت معينة لأهل النار لو دخلوها.

والجنة الثالثة: جنة الأعمال، وهي التي ينزل الناس فيها بأعمالهم، فمن كان أفضل من غيره في وجوه التفاضل كان له من الجنة أكثر. وسواء كان الفاضل دون المفضول أو لم يكن، غير أن فضله في هذا المقام لهذه الحالة، فما من عمل من الأعمال إلا وله جنة، ويقع التفاضل فيها بين أصحابها بحسب ما تقتضي أحوالهم. قال ﷺ: يا بلال، بم سبقتني إلى الجنة الحديث، فعلم أنها كانت جنة مخصوصة، فما من فريضة ولا نافلة ولا فعل خير ولا ترك محرم إلا وله جنة مخصوصة ونعيم خاص، يناله من دخلها، وقد يجمع الواحد من الناس في الزمان الواحد أعمالا من العبادات فيؤجر في الزمان الواحد من وجوه كثيرة، فيفضل غيره ممن ليس له ذلك.

فقد تبين أن نيل المنازل والدرجات في الجنات بالأعمال، وأما الدخول فلا يكون إلا برحمة الله تعالى، كما في البخاري ومسلم من حديث عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: (لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته) أي يلبسنيها ويسترني بها، مأخوذ من غمد السيف وهو غلافه.

وعند الإمام أحمد، بإسناد حسن، من حديث أبي سعيد الخدري: لن يدخل الجنة أحد إلا برحمة الله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته، وقال بيده فوق رأسه. يعني أن الجنة إنما تدخل برحمة الله، وليس عمل العبد

[سبباً] (١) مستقلاً بدخولها وإن كان سبباً (٢)، ولهذا أثبت الله دخولها بالأعمال في قوله تعالى: ﴿وتلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ (٣)، ونفى ﷺ دخولها بالأعمال في قوله «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله» ولا تنافي بين الأمرين، لما ذكره سفيان وغيره، قال: كانوا يقولون: النجاة من النار بعفو الله، ودخول الجنة برحمة الله، واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال، ويدل له حديث أبي هريرة: إن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل / أعمالهم: رواه الترمذي.

أ/ ٤٣٠

قال ابن بطال: محمل الآية على أن الجنة تنال المنازل فيها بالأعمال، فإن درجات الجنة متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال، ومحمل الحديث على دخول الجنة والخلود فيها. ثم أورد على هذا الجواب قوله تعالى: ﴿سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ (٤) فصرح بأن دخول الجنة أيضاً بالأعمال. وأجاب: بأنه لفظ مجمل بينه الحديث، والتقدير: ادخلوا منازل الجنة وقصورها بما كنتم تعملون، وليس المراد بذلك أصل الدخول.

ثم قال: ويجوز أن يكون الحديث مفسراً للآية والتقدير: ادخلوها بما كنتم تعملون مع رحمة الله لكم وتفضله عليكم، لأن اقتسام منازل الجنة برحمة الله، وكذا أصل دخول الجنة برحمته، حيث ألهم العاملين ما نالوا به ذلك، ولا يخلو شيء من مجازاته لعباده من رحمته وتفضله، وقد تفضل الله عليهم ابتداءً بإيجادهم، ثم برزقهم، ثم بتعليمهم.

(١) في (ط، ش).

(٢) أي في الجملة.

(٣) سورة الزخرف، الآية ٧٢.

(٤) سورة النحل، الآية ٣٢.

وأشار إلى نحوه القاضي عياض فقال: وإن من رحمة الله توفيقه للعمل، وهدايته للطاعة، وكل ذلك لم يستحقه العامل بعمله، وإنما هو بفضل الله ورحمته.

وقال غيره: لا تنافي بين ما في الآية والحديث، لأن «الباء» التي أثبتت الدخول هي باء السبب التي تقتضي سببية ما دخلت عليه لغيره، وإن لم يكن مستقلاً بحصوله، و«الباء» التي نفت الدخول هي باء المعاوضة التي يكون فيها أحد العوضين مقابلاً للآخر، نحو: اشتريت منه بكذا، فأخبر أن دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد، وأنه لولا رحمة الله لعبده لما أدخله الجنة، لأن العمل بمجرد - ولو تنهى - لا يوجب بمجرد دخول الجنة، ولا يكون عوضاً لها، لأنه لو وقع على الوجه الذي يحبه الله، لا يقاوم نعمة الله، بل جميع العمل لا يوازي نعمة واحدة. فلو طالبه بحقه لبقيت عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بها، فلذلك لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً من أعمالهم، كما في حديث أبي بن كعب عند أبي داود وابن ماجه^(١).

وهذا فصل الخطاب مع الجبرية النفاة للحكمة والتعليل القائلين بأن القيام للعبادة ليس إلا لمجرد الأمر، من غير أن يكون سبباً للسعادة في معاش ولا معاد، ولا لنجاة المعتقدين أن النار ليست سبباً للإحراق، وأن الماء ليس سبباً للإرواء والتبريد.

والقدرية الذين ينفون نوعاً من الحكمة والتعليل، القائلين بأن

(١) الحديث (قال ﷺ: لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم..). ورواه أحمد أيضاً.

العبادات شرعت أثماناً لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وإنما هي بمنزلة استيفاء الأجير أجرته، محتجين بأن الله تعالى يجعلها عوضاً عن العمل، كما في قوله تعالى: ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ ويقوله ﷺ حاكياً عن ربه تعالى: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها».

وهؤلاء الطائفتان متقابلتان أشد التقابل، وبينهما أعظم التباين، فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطاً بالجزاء ألبتة، والقدرية جعلت ذلك بمحض الأعمال وثنماً لها. والطائفتان جائرتان منحرفتان عن الصراط المستقيم الذي فطر الله عليه عباده، وجاءت به رسله، ونزلت به كتبه، وهو: أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب، مقتضيات لها كاقضاء سائر الأسباب لمسيباتها، وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله تعالى ومنته وصدقته على عبده أن أعانه عليها ووفقه لها، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها، وحببها إليه وزينها في قلبه، وكره إليه أضدادها، ومع هذا فليست ثمناً لجزائه وثوابه، بل غايتها أن تكون شكراً له تعالى أن قبلها سبحانه، ولهذا نفى ﷺ دخول الجنة بالعمل رداً على القدرية القائلين بأن الجزاء بمحض الأعمال وثنماً لها، وأثبت سبحانه وتعالى دخول الجنة بالعمل رداً على الجبرية الذين لم يجعلوا للأعمال ارتباطاً بالجزاء. فتبين أنه لا تنافي بينهما، إذ توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد، فالنفي استحقاها بمجرد الأعمال، وكون/ الأعمال ثمناً وعوضاً لها رداً على القدرية، والمثبت الدخول ب/٤٣٠ بسبب العمل رداً على الجبرية، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وقال الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر: يحمل الحديث على أن العمل من حيث هو، عمل لا يستفيد به العامل دخول الجنة ما لم

يكن مقبولاً. وإذا كان كذلك فأمر القبول إلى الله تعالى، وإنما يحصل برحمة الله لمن يقبل منه، وعلى هذا: فمعنى قوله ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ أي تعملونه من العمل المقبول، ولا يضر مع هذا أن تكون «الباء» للمصاحبة أو للإصاق أو للمقابلة، ولا يلزم من ذلك أن تكون سببية.

قال: ثم رأيت النووي جزم بأن ظاهر الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال، والجمع بينها وبين الحديث: أن التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها. وقبولها إنما هو برحمة الله وفضله، فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل، وهو مراد الحديث، ويصح أنه دخل بسبب العمل، وهو من رحمة الله تعالى. انتهى.

وروى الدارقطني عن أبي أمامة، أن رسول الله ﷺ قال: نعم الرجل أنا لشرار أمتي، فقالوا: فكيف؟ أنت لخيارها، فقال: أما خيارها فيدخلون الجنة بأعمالهم وأما شرار أمتي فيدخلون الجنة بشفاعتي، ذكره عبد الحق في العاقبة.

[تفضيله ﷺ بالكوثر]

وأما تفضيله ﷺ في الجنة بالكوثر - وهو على وزن فوعل من الكثرة - سمي به هذا النهر العظيم لكثرة مائه وآيته وعظم قدره وخيره.

فقد نقل المفسرون في تفسير «الكوثر» أقوالاً تزيد على العشرة، ذكرت كثيراً منها في المقصد السادس من هذا الكتاب، وأولها قول ابن عباس: إنه الخير الكثير لعمومه، لكن ثبت تخصيصه بالنهر من لفظ النبي ﷺ فلا معدل عنه.

فقد روى مسلم وأبو داود والنسائي من طريق محمد بن فضيل وعلي بن مسهر، كلاهما عن المختار بن فلفل عن أنس - واللفظ لمسلم - قال: (بيننا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسماً، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أنزلت علي أنفاً سورة، فقرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، إنا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر، إن شانتك هو الأبر﴾ ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: إنه نهر وعدنيه ربي عز وجل. الحديث.

لكن فيه إطلاق الكوثر على الحوض، وقد جاء صريحاً في حديث عند البخاري أن الكوثر هو النهر الذي يصب في الحوض. وعند أحمد: «ويفتح نهر الكوثر إلى الحوض»، وعند مسلم «يغت فيه - يعني الحوض - ميزابان يمدانه من الجنة، أحدهما من ذهب والآخر من ورق».

وقوله: «يغت» بالغيث المعجمة، أي: يصب.

وفي البخاري من حديث قتادة عن أنس قال: (لما عرج بالنبى ﷺ إلى السماء قال: أتيت على نهر حافظه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر).

ورواه ابن جرير عن شريك بن أبي نمر قال: سمعت أنس بن مالك يحدثنا قال: لما أسري بالنبى ﷺ مضى به جبريل، فإذا هو بنهر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فذهب يشم ترابه فإذا هو مسك، قال: يا جبريل، ما هذا النهر؟ قال: الكوثر الذي خبا لك ربك.

وروى أحمد عن أنس: أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما الكوثر؟

قال: نهر في الجنة أعطانيه ربي، هو أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل.

وعن أبي عبيدة عن عائشة قال: سألتها عن قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ قالت: نهر أعطيه نبيكم شاطئه عليه در مجوف، أنيته كعدد النجوم. رواه البخاري.

وقوله: «شاطئه» أي: حافته.

وقوله: «در مجوف» أي: القباب التي على جوانبه.

ورواه النسائي بلفظ قالت: نهر في بطنان الجنة، قلت: وما

بطنان الجنة؟ قالت: وسطها، / حافته قصور اللؤلؤ والياقوت، ترابه ٤٣١/أ المسك وحصباؤه اللؤلؤ والياقوت.

و«بطنان»: بضم الموحدة وسكون المهملة بعدها نون.

و«وسط» بفتح المهملة، المراد به أعلاها، أرفعها قدرأ، والمراد

به: أعدها.

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: الكوثر نهر في الجنة حافته من الذهب والماء يجري على اللؤلؤ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، رواه أحمد وابن ماجه، وقال الترمذي، حسن صحيح.

وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ قال: هو نهر في الجنة، عمقه سبعون ألف فرسخ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، شاطئه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت، خص الله به نبيه قبل الأنبياء، رواه ابن أبي الدنيا موقوفاً.

وعن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ: ما الكوثر؟ قال: نهر أعطانيه الله - يعني في الجنة - أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق البخت، أو أعناق الجزر، قال عمر: إنها لناعمة، قال رسول الله ﷺ: أكلتها أنعم منها. رواه الترمذي وقال: حسن.

و«الجزر» بضم الجيم والزاي، جمع جزور وهو البعير.

قال الحافظ ابن كثير: قد تواترت - يعني أحاديث الكوثر - من طرق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث، وكذلك أحاديث الحوض، قال: وهكذا روي عن أنس وأبي العالية ومجاهد وغير واحد من السلف: أن الكوثر نهر في الجنة.

[تفضيله ﷺ بالوسيلة]

وأما تفضيله ﷺ في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة والفضيلة، فروى مسلم من حديث عبدالله بن عمرو بن العاصي، أن رسول الله ﷺ قال: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة).

قال الحافظ عماد الدين بن كثير: الوسيلة علم على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش.

وقال غيره: الوسيلة «فعيلة» من وسل إليه إذا تقرب، يقال: توسلت أي تقربت، وتطلق على المنزلة العلية، كما قال في هذا

الحديث، فإنها منزلة في الجنة، على أنه يمكن ردها إلى الأول، فإن
الواصل إلى تلك المنزلة قريب من الله، فيكون كالتقربة التي يتوسل
بها، ولما كان رسول الله ﷺ أعظم الخلق عبودية لربه، وأعلمهم به،
وأشدهم له خشية وأعظمهم له محبة، كانت منزلته أقرب المنازل إلى
الله تعالى، وهي أعلى درجة في الجنة، وأمر أمته أن يسألوها له لينالوا
بهذا الدعاء الزلفى وزيادة الإيمان، وأيضاً: فإن الله تعالى قدرها له
بأسباب منها دعاء أمته له، بما نالوه على يده من الهدى والإيمان.

وأما الفضيلة، فهي المرتبة الزائدة على سائر الخلق، ويحتمل أن
تكون منزلة أخرى، أو تفسيراً للوسيلة.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: الوسيلة
درجة عند الله عز وجل ليس فوقها درجة، فسلوا الله لي الوسيلة.
رواه أحمد في المسند، وذكره ابن أبي الدنيا وقال: الوسيلة درجة ليس
في الجنة أعلى منها، فسلوا الله أن يؤتيتها على رؤوس الخلائق.

وروى ابن مردويه عن علي عن النبي ﷺ قال: إذا سألتم الله
فسلوا لي الوسيلة، قالوا: يا رسول الله، من يسكن معك؟ قال: علي
وفاطمة والحسن والحسين. لكن قال الحافظ عماد الدين بن كثير: إنه
حديث غريب منكر من هذا الوجه.

وعند ابن أبي حاتم من حديث علي أيضاً: أنه قال على منبر
الكوفة: أيها الناس إن في الجنة لؤلؤتين إحداهما بيضاء والأخرى
صفراء، فأما البيضاء فإنها إلى بطنان العرش. والمقام المحمود من
اللؤلؤة البيضاء سبعون ألف غرفة، كل بيت منها ثلاثة أميال، وغرفها
وأبوابها وأسرتها وسكانها من عرق واحد، واسمها الوسيلة، هي لمحمد

ب/٤٣١ وأهل بيته، والصفراء فيها مثل ذلك، هي لإبراهيم عليه السلام وأهل بيته. / وهذا أثر غريب كما نبه عليه الحافظ ابن كثير أيضاً.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾^(١) قال: أعطاه الله في الجنة ألف قصر في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من طريقه، ومثل هذا لا يقال إلا عن توقيف، فهو في حكم المرفوع^(٢).

(١) سورة الضحى، الآية ٥.

(٢) هذا إن صح السند [م].

خاتمة

عن عائشة قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من أهلي، وإنك لأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك. وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وأني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك. فلم يردّ عليه النبي ﷺ شيئاً، حتى نزل عليه جبريل عليه السلام بهذه الآية ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾^(١) رواه أبو نعيم، وقال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: لا أعلم بإسناد هذا الحديث بأساً. كذا نقله في «حادي الأرواح».

وذكره البغوي في «معالم التنزيل» بلفظ: نزلت - يعني الآية - في ثوبان مولى رسول الله ﷺ، وكان شديد الحب لرسول الله ﷺ، قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم، وقد تغير لونه، يعرف الحزن في وجهه، فقال له رسول الله ﷺ: ما غير لونك؟ فقال: يا رسول الله، ما بي وجع ولا مرض، غير أنني إذا لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة فأخاف أن لا أراك، لأنك ترفع مع النبيين،

(١) سورة النساء، الآية ٦٩.

وإني إن دخلت الجنة في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل لا أراك أبداً، فنزلت هذه الآية.

وكذا ذكره ابن ظفر في «ينبوع الحياة» لكن قال: إن الرجل هو عبدالله بن زيد الأنصاري الذي رأى الأذان.

وليس المراد أن يكون من أطاع الله وأطاع الرسول مع النبيين والصدّيقين كون الكل في درجة واحدة، لأن هذا يقتضي التسوية في الدرجة بين الفاضل والمفضول، وذلك لا يجوز، فالمراد كونهم في الجنة بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر وإن بعد المكان، لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضاً، فإذا أرادوا الرؤية والتلاقي قدروا على ذلك، فهذا هو المراد من هذه المعية.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس، أن رجلاً قال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: وما أعددت لها؟ قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله، قال: أنت مع من أحببت، قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: أنت مع من أحببت، قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم.

وفي الحديث الإلهي الذي رواه حذيفة - كما عند الطبراني بسند غريب - أنه تعالى قال: ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. الحديث. وفيه من الزيادة على حديث البخاري: ويكون من أوليائي وأصفيائي، ويكون جاري مع النبيين والصدّيقين والشهداء في الجنة.

فله درها من كرامة بالغة، ونعمة على المحبين سابغة، فالمحب يرقى في درجات الجنات على أهل المقامات، بحيث ينظر إليه كما ينظر إلى الكوكب الغابر في أفق السماوات لعلو درجته وقرب منزلته من

حبيبته، ومعيته معه، فإن المرء مع من أحب، ولكل عمل جزاء،
وجزاء المحبة المحبة^(١) والوصول والقرب من المحبوب.

رؤيت امرأة مسرفة على نفسها بعد موتها فقيل لها: ما فعل الله
بك؟ قالت: غفر لي، فقيل لها: بماذا؟ قالت: بحبتي لرسول الله ﷺ
وشهوتي النظر إليه، نوديت: من اشتهى النظر إلى حبيبنا نستحي أن
نذله بعتابنا، بل نجمع بينه وبين من يحبه.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿طوبى لهم وحسن مآب﴾^(٢) وإن طوبى
اسم شجرة غرسها الله بيده، وتنتب الحلي والحلل، وإن أغصانها
لترمى من وراء سور الجنة، وإن أصلها في دار النبي ﷺ، وفي دار
كل مؤمن منها غصن، فما من جنة من الجنات^(٣) إلا وفيها/ من شجرة
طوبى، ليكون سر كل نعيم، ونصيب كل ولي من سره ﷺ، وأنه ﷺ
ملا الجنة، فلا ولي يتنعم في جنته إلا والرسول متنعم بنعمته، لأن
الولي ما وصل إلى ما وصل إليه من النعيم إلا باتباعه لنبيه ﷺ،
فلهذا كان سر النبوة قائماً به في تنعمه. وكذلك إبليس ملا النار، فلا
عذاب لأحد من أهلها إلا وإبليس - لعنه الله - سر تعذيبه ومشارك له
فيه.

وفي «البحر» لأبي حيان عند تفسير قوله تعالى: ﴿عينا يشرب بها
عباد الله يفجرونها تفجيراً﴾^(٤) قيل: هي عين في دار رسول الله ﷺ
تفجر إلى دور الأنبياء والمؤمنين.

(١) في ط: الجنة.

(٢) سورة الرعد، الآية ٢٩.

(٣) في (ط، ش): الجنان.

(٤) سورة الإنسان، الآية ٦.

وإذا علمت هذا، فاعلم أن أعظم نعيم الجنة وأكملة التمتع بالنظر إلى وجه الرب تبارك وتعالى، ورسوله ﷺ، وقرّة العين بالقرب من الله ورسوله مع الفوز بكرامة الرضوان التي هي أكبر من الجنان وما فيها، كما قال الله تعالى: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾^(١).

ولا ريب أن الأمر أجل مما يخطر ببال أو يدور في خيال، ولا سيما عند فوز المحبين في روضة الأنس وحظيرة القدس، بمعية محبوبهم الذي هو غاية مطلوبهم، فأى نعيم وأي لذة وأي قرّة عين وأي فوز يداني تلك المعية ولذتها، وقرّة العين بها، وهل فوق نعيم قرّة العين بمعية الله ورسوله نعيم، فلا شيء - والله - أجل ولا أكمل ولا أجمل ولا أجلى ولا أحلى ولا أعلى ولا أغلى من حضرة يجتمع فيها المحب بأحابيه في مشهد مشاهد الإكرام حيث ينجلي لهم حبيبهم ومعبودهم الإله الحق جل جلاله خلف حجاب واحد في اسمه الجميل اللطيف، فينفهق^(٢) عليهم نور يسري في ذواتهم فيبهتون من جمال الله، وتشرق ذواتهم بنور ذلك الجمال الأقدس، بحضرة الرسول الأراس، ويقول لهم الحق جل جلاله: سلام عليكم عبادي، ومرحباً بكم أهل ودادي، أنتم المؤمنون الآمنون، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، أنتم أوليائي وجيراني وأحبابي، إني أنا الله الجواد الغني، وهذه داري قد أسكتكموها، وجنتي قد أبحثكموها، وهذه يدي مبسوطة ممتدة عليكم، وأنا ربكم أنظر إليكم، لا أصرف نظري عنكم، أنا لكم جليس وأنيس، فارفعوا إلي حوائجكم، فيقولون ربنا حاجتنا إليك النظر إلى وجهك الكريم والرضى عنا، فيقول لهم جل جلاله:

(١) سورة التوبة، الآية ٧٢.

(٢) أي: يفيض.

هذا وجهي فانظروا إليه وأبشروا، فإني عنكم راض، ثم يرفع الحجاب ويتجلى لهم فيخرون سجداً فيقول لهم: ارفعوا رؤوسكم، فليس هذا موضع سجود يا عبادي، ما دعوتكم إلا لتتمتعوا بمشاهدتي، يا عبادي قد رضيت عنكم فلا أسخط عليكم أبداً.

فما أحلاها من كلمة، وما ألذها من بشرى، فعندها يقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، وأحلنا دار المقامة من فضله لا يمسننا فيها نصب ولا يمسننا فيها لغوب، إن ربنا لغفور شكور.

وهذا يدل على أن جميع العبادات تزول في الجنة إلا عبادة الشكر والحمد والتسبيح والتهليل. والذي يدل عليه الحديث الصحيح، أنهم يلهمون ذلك كإلهام النفس، كما في مسلم من حديث جابر: أن رسول الله ﷺ قال: يأكل أهل الجنة فيها ويشربون، ولا يمتخطون ولا يبولون، ويكون طعامهم ذلك جشاء ورشحاً كرشح المسك، يلهمون التسبيح والحمد، كما يلهمون النفس، يعني أن تسبيحهم وتحميدهم يجري مع الأنفاس، فليس عن تكليف وإلزام، وإنما هو عن تيسير وإلهام، ووجه التشبيه أن تنفس الإنسان لا بد له منه ولا كلفة ولا مشقة في فعله، وكذلك يكون ذكر الله تعالى على ألسنة أهل الجنة. وسر ذلك أن قلوبهم قد تنورت بمعرفته، وأبصارهم قد تمتعت برؤيته، وقد غمرتهم سوابغ نعمته، وامتلأت أفئدتهم بمحبته ومخاللته، فألستهم ملازمة لذكره، وقد أخبر تعالى عن شأنهم في ذلك بقوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده، وأورثنا الأرض ننبأ من / الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم

(١) سورة الزمر، الآية ٧٤.

أن الحمد لله رب العالمين ﴿١﴾، [وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً] ﴿٢﴾.

* * *

قال مؤلفه وجامعه أحمد بن الخطيب القسطلاني - عامله الله بما يليق بكرمه -: فهذا آخر ما جرى به قلم المدد، من هذه المواهب اللدنية، وسطرته يد الفيض من المنح المحمدية، وذلك وإن كثر لقليل في جنب شرفه الشامخ، ويسير مما أكرمه الله به من فضله الراسخ، ولو تتبعنا ما منحه الله به من مواهبه، وشرفه به من مناقبه، لما وسعت بعض بعضه الدفاتر، وكُلَّتْ دون مرماه الأقلام وجفت المحابر، وضافت عن جمعه الكتب، وعجزت عن حمله النجب.

وعلى تفنن واصفيه لحسنه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف ﴿٣﴾

وإلى الله أضرع أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، مخلصاً من شوائب الرياء، ودواعي التعظيم، وأن ينفعني به والمسلمين والمسلمات في المحيا وبعد الممات، سائلاً من وقف عليه من فاضل أنار الله بصيرته، وجبل على الإنصاف سريرته، أن يصلح بحلمه عثاري وزللي، ويسد بسداد فضله خطئي وخللي، فالكريم يقبل العثار، ويقبل الاعتذار، خصوصاً عذر مثلي، مع قصر باعه في هذه الصناعة، وكساد سوقه بما لديه من مزجاة البضاعة، وما ابتلي به من شواغل الدنيا الدنية، والعوارض البدنية، وتحمله من الأثقال التي لو حملها

(١) سورة يونس، الآية ١٠.

(٢) في الأصل فقط.

(٣) هذا البيت لابن الفارض.

رضوى لتضعضع، أو أنزلت على ثبير لخشع وتصدع، لكنني أخذت
غفلة الظلام الغاسق، والليل الواسق، فسرقته من أيدي العوائق،
والليل يعين السارق، واستفتحت مغاليق المعاني بمفاتيح فتح الباري،
واستخرجت من مطالب كنوز العلوم نفائس الدراري، حامد الله تعالى
على ما أنعم وأهم وعلم ما لم أكن أعلم. مصلياً مسلماً على رسوله
محمد أشرف أنبيائه، وأفضل مبلغ لأنبيائه، وعلى آله وأصحابه وخلفائه
صلاة لا ينقطع مددها، ولا يفنى أمدها^(١).

والله أسأل أن ينفع به جيلاً بعد جيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل
[وأستودع الله نفسي وديني وخواتيم عملي، وما أنعم به علي ربي،
وهذا الكتاب، وأن ينفعني به والمسلمين، وأن يردني وأحبابي إلى
الحرمين الشريفين على أحسن وجه وأتمه، وأن يرزقني الإقامة بهما في
عافية بلا محنة، وأن يطيل عمري في طاعته، ويلبسنني أثواب عافيته،
ويجمع لي وللمسلمين بين خيري الدنيا والآخرة، ويصرف عني
سوءهما، ويجعل وفاتي ببلد رسوله، ويمنحنا من المدد المحمدي بما منح
به عباده الصالحين مع رضوانه، ويمتتنا بلذة النظر إلى وجهه الكريم
من غير عذاب يسبق، فإنه سبحانه إذا استودع شيئاً حفظه، والحمد
لله وحده]^(٢) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قال مؤلفه رحمه الله: وقد انتهت كتابة النسخة المنقول منها
النسخة المباركة النافعة إن شاء الله تعالى في خامس عشر شعبان المكرم
سنة تسع وتسعين وثمانمائة، وكان الابتداء في المسودة المذكورة ثاني يوم
قدومي من مكة المشرفة، صحبة الحاج في شهر محرم سنة ثمان وتسعين

(١) هنا انتهت نسخة الأصل. وكذا نسخة د.

(٢) في (ط، ش).

وثمائمائة، والحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى
آله وصحبه وسلم. آمين^(١).

(بعونه تعالى تم الكتاب)

(١) هذه الفقرة في ط.

فهرس الأعلام المترجم لها في الكتاب كله

| الصفحة | الترجمة | الصفحة | الترجمة |
|--------|------------------|--------|---------------------|
| ٧٦/١ | ابن الجوزي | | أ |
| ١٤٨/١ | ابن الحاج | | |
| ١٢٩/١ | ابن حبان | ٣٢٧/٣ | |
| ١٧٠/٢ | ابن حبيب | ٦٨/١ | |
| ٨٨/١ | ابن حجر | ٢٥٠/١ | |
| ١٤١/١ | ابن حزم | ٢٠٧/٢ | |
| ٤٤/٢ | ابن الحنفية | ١٢٣/١ | |
| ٢٩/٢ | ابن خالويه | ٢٠٥/١ | |
| ٤٧٩/٢ | ابن خزيمة | ١٤٤/١ | |
| ٣٧٨/٣ | ابن خطل | ٤٨٠/٢ | |
| ٢١٣/٣ | ابن خويز منداد | ٢٨٠/٣ | |
| ٧٨/٢ | ابن داود الظاهري | ٩٧/١ | |
| ٩٤/١ | ابن دحية | ٣٣٩/١ | |
| ١٣٤/١ | ابن دريد | ٩٠/١ | |
| ١٥٠/١ | ابن راهويه | ٣١٨/١ | |
| ٥٩/١ | ابن رجب | ٩٣/١ | |
| ٦٥/١ | ابن سعد | ٢٥١/١ | |
| ٢٥٥/٢ | ابن السني | ٢٣٥/١ | |
| ١٣١/١ | ابن سيد الناس | ١٧٠/٢ | |
| ١٧١/١ | ابن شاهين | ٣٦٩/١ | |
| ٤٩٩/١ | ابن شبة | ١٧٥/١ | |
| ٢١٧/١ | ابن الصلاح | ١٤٧/١ | |
| | | | إبراهيم بن أبي يحيى |
| | | | ابن أبي حمزة |
| | | | ابن أبي حاتم |
| | | | ابن أبي الحواري |
| | | | ابن أبي خيثمة |
| | | | ابن أبي الدنيا |
| | | | ابن أبي شيبة |
| | | | ابن أبي عروبة |
| | | | ابن أبي المجد |
| | | | ابن أبي مريم |
| | | | ابن الاثير |
| | | | ابن إسحاق |
| | | | ابن الأعرابي |
| | | | ابن الأنباري |
| | | | ابن بشر |
| | | | ابن بطال |
| | | | ابن بنين |
| | | | ابن جابر |
| | | | ابن جرير الطبري |
| | | | ابن الجزري |

| الصفحة | الترجمة | الصفحة | الترجمة |
|--------|------------------------|--------|-----------------------|
| ٣٢٩/١ | ابن الملتن | ٣٥/٤ | ابن الطبايع |
| ١٨٩/١ | ابن منده | ٦٩/١ | ابن طغربك |
| ٢٥٠/١ | ابن المنذر | ١٣١/١ | ابن ظفر |
| ٢١٦/١ | ابن المنكدر | ٤٠١/١ | ابن عائذ |
| ٢١٠/١ | ابن المنير | ١٠٨/٢ | ابن عبد الباقي |
| ٥٩٠/١ | ابن مهدي | ١٣٥/١ | ابن عبد البر |
| ٣٣٠/٣ | ابن المواز | ٣٣٧/١ | ابن عدي |
| ١٨٢/١ | ابن ناصر الدين الدمشقي | ١٣٤/١ | ابن العديم |
| ٣٢٩/١ | ابن ناصر السلامي | ٢٥٥/١ | ابن العربي |
| ٣١٩/١ | ابن النجار | ٢٦/٢ | ابن عرفه |
| ٦٠/١ | ابن نجيد | ٨٣/١ | ابن عساكر الدمشقي |
| ٢٩٤/١ | ابن النقيب (الشاعر) | ٤٤/٢ | ابن عطاء البغدادي |
| ٥٨٥/١ | ابن النقيب (المفسر) | ٣٦١/٣ | ابن عطيه |
| ٣٩٦/١ | ابن هشام | ٣٦٥/٣ | ابن عقدة |
| ٣٦٥/١ | ابن وهب | ٢٧٤/١ | ابن فارس |
| ٣٧٤/٢ | الأبناسي | ٣٩٠/١ | ابن الفرات |
| /٣ | ابو اسحاق الرقي | ٥٩٠/١ | ابن القاسم عبد الرحمن |
| ٣٢٣/٣ | أبو بكر بن بكر | ٩٣/١ | ابن القاسم محمد |
| ١٦٨/٣ | أبو بكر بن طاهر | ٩٠/١ | ابن قتيبة |
| ٤٧٠/٢ | أبو بكر القرطبي | ٣٣٠/٣ | ابن القصار |
| ٧٢٣/٢ | أبو بكر محمد بن أحمد | ٧٤/١ | ابن القطان |
| ٢٥٣/١ | أبو بكر الهذلي | ٦٦/١ | ابن كثير |
| ٥٠٠/١ | أبو جعفر السمتاني | ٢٩٧/١ | ابن اللبان |
| ٧٢٣/٢ | أبو حاتم الرازي | ٢٤٥/١ | ابن ماجه |
| ٥٩٠/١ | أبو حذافة السهمي | ٣٧٧/٣ | ابن المديني |
| ١٢٤/١ | أبو حيان | ٤١١/١ | ابن المرباط الافريقي |
| ١٢٩/١ | أبو داود | ٤٦٨/٢ | ابن المرحل |
| ١٦٦/١ | أبو ذر الغفاري | ٨٧/١ | ابن مردويه |
| ٤٩٩/١ | أبو ذر الهروي | ٧٤/١ | ابن مرزوق |
| ٢٠٢/٢ | أبو الربيع بن سالم | ٩٥/١ | ابن مسعود |
| ٣٣٠/٣ | أبو زرعة الدمشقي | ٣١٢/١ | ابن المقرئ |
| ٣٨/٣ | أبو سعد الأصفهاني | ٥١١/٢ | ابن المقفع |

| الصفحة | الترجمة | الصفحة | الترجمة |
|--------|----------------------|--------|--------------------------------|
| ٢٢٠/١ | الأرقم | ٢٠٨/٢ | أبو سليمان الداراني |
| ٢٤٢/١ | أسامة بن زيد بن أسلم | ١٩٩/١ | أبو شامة |
| ١٣٧/١ | أسامة بن عمير | ٢٥٢/١ | أبو صالح |
| ٢٤٣/١ | أسلم | ٢٥٥/١ | أبو العالیه |
| ١٩٨/١ | الاسماعيلي | ٩/٣ | أبو العباس القرطبي |
| ٤٣٥/٢ | الإشبيلي | ٣١٩/١ | أبو عبد الرحمن السلمي |
| ١٦٨/١ | أم أيمن | ٢٧٠/٣ | أبو عبد الله القرشي |
| ٢٨٨/١ | الأموي | ٢٢٢/١ | أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود |
| ٨٧/١ | أنس بن مالك | ٣٩٦/١ | أبو عبيدة معمر |
| ٤٠١/١ | الأوزاعي | ٢٨٩/٣ | أبو عثمان الحيري |
| ٢٥٣/١ | أيوب السختياني | ٤٥٠/١ | أبو عثمان النهدي |
| | | ٧٢٣/٢ | أبو علي الجبائي |
| | | ١٤٣/١ | أبو قتادة الانصاري |
| | | ٤٠٢/٣ | أبو الليث السمركندي |
| | | ٩/٤ | أبو مسلم الخولاني |
| ٤٨٩/١ | الباجي | ٥٩٠/١ | أبو مصعب |
| ٦١/١ | الباقر | ٢٥١/١ | أبو معشر |
| ٢٥٧/١ | الباقلاني | ١٥٤/٣ | أبو المعين النسفي |
| ٥٩/١ | البخاري | ١٣٧/١ | أبو المليلح |
| ٢٢٧/٢ | بختيار | ٢٠٧/٢ | أبو موسى المديني |
| ١٢٨/١ | بريدة بن الحصيب | ٥٩/١ | أبو نعيم الأصفهاني |
| ٨٧/١ | البزار | ٦٠/١ | أبو هريرة |
| ٤١١/١ | البساطي | ٣٧١/١ | أبو اليسر |
| ٧٣/٢ | البيغوي | ١٥١/١ | أبو يعلى |
| ١١٥/١ | البكائي | ٣٣١/٣ | أبو يعلى العبدي |
| ٣٦/٢ | بكر بن محمد القشيري | ٧٢/١ | أبو يعلى الهمداني |
| ٩٧/١ | بكير بن أبي مريم | ٣١١/١ | أبو يوسف |
| ٢١٧/١ | البلقيني | ٢٩١/١ | الأبوصيري |
| ٥٨/١ | البيهقي | ١٧٧/١ | الأبي |
| | | ٥٧/١ | أحمد بن حنبل |
| | | ٢٠٧/١ | أحمد بن عبد الرحيم العراقي |
| ٣٠٤/٣ | التجيبى | ٢١٦/١ | الأخنس بن شريق |

ب

ت

| الصفحة | الترجمة | الصفحة | الترجمة |
|--------|-------------------------|--------|------------------------|
| ٢٦/٢ | الحسن بن عرفة | ٦١/١ | الترمذي |
| ٧٤/١ | الحسين بن علي | ٩٣/٢ | تمام المروزي |
| ١٦١/١ | الحكيم الترمذي | | |
| ١٥٠/١ | حليمة السعدية | | |
| ٢٠٩/١ | الحليمي | ٥٣/٢ | ثعلب |
| ٢٥٥/١ | حماد بن سلمة | ٢١٧/١ | الثعلبي |
| ٤٠١/١ | حميد الطويل | ١٤٧/١ | ثوية |
| ١٤١/١ | الحميدي | | |
| | خ | | |
| | | ٦٥/١ | جابر الجعفي |
| ٣٠٦/٣ | خالد بن معدان | ٧١/١ | جابر بن عبد الله |
| ٢١٩/٣ | الخراز | ١٤١/١ | جبير بن مطعم |
| ٣٣٠/٣ | الخزقي | ٨/٤ | جبير بن نفيير |
| ٦٨٩/٢ | خزيمة بن ثابت الأنصاري | ٣٠٦/١ | جرير بن حازم |
| ١١٨/١ | الخطيب البغدادي | ٧٥/١ | جعفر الصادق |
| ٣٩٤/٣ | الخلعي | ٦٤٩/٢ | جلال الدين المحلي |
| ١٣٨/٢ | خليفة بن خياط | ٢٤٤/١ | جميل بن معمر |
| ٢١٩/١ | خيثمة بن سليمان | ٣٢٧/٢ | الجنيد |
| | | ٤٦/٢ | الجوهري |
| | | ٧٢٣/٢ | الجنياني |
| | د | | |
| | | | |
| ٥٢٧/٣ | الدارمي | | |
| ٢٥٥/١ | داود بن أبي هند القشيري | ٢٠٤/١ | الحارث التميمي |
| ٣٢٥/١ | الداودي | ٢٧١/٣ | الحارث المحاسبي |
| ١٣٥/١ | الدمياطي | ٥٨/١ | الحاكم أبو عبد الله |
| ١٢٢/١ | الدولابي | ٩١/١ | الحاكم الكبير أبو أحمد |
| | | ١٠٥/١ | الحجاج بن يوسف الثقفي |
| | | ٣٨/٢ | الحجازي |
| | | ٢٢٧/٢ | الحرالي |
| ١٣٣/١ | الذهبي | ٢٧٤/١ | الحرابي |
| ٢٢١/٢ | الذهلي | ١٩٩/٣ | حسان بن عطية |
| ٣٥٩/٢ | ذو النون المصري | | |
| | ذ | | |

| الصفحة | الترجمة | الصفحة | الترجمة |
|--------|------------------------------------|--------|--------------------------------|
| ٢٧٥/١ | عبد الغني المقدسي | ٤٦/٢ | الصاغانى |
| ٨٩/١ | عبدالله بن عمر | ٢٨٩/١ | صرمة |
| ٥٧/١ | عبد الله بن عمرو بن العاصي | ٣٠٥/٣ | صفوان بن سليم |
| ٩٥/١ | عبد الله بن مسعود | | |
| ٣٣٠/٣ | عبد الوهاب بن نصر | | |
| ٢٠٢/١ | عبيد بن عمير | | |
| ٣٧٨/٣ | عبيد الله بن جحش | ١١٩/١ | الضحاك بن مزاحم |
| ١٦٥/١ | عتبة بن عبد السلمى | ١٣٣/١ | الضياء المقدسي |
| ١٢٧/١ | عثمان بن أبي العاص | | |
| ٢١٩/١ | عثمان بن عفان | | |
| ٢٢٠/١ | عثمان بن مظعون | | |
| ٢٥٥/٣ | العجلي | ٤٤٩/١ | طاووس |
| ١٢٠/١ | العراقي (الحافظ) عبد الرحيم الأثري | ٨٢/١ | الطبراني |
| ٥٧/١ | العرباض بن سارية | ١٧١/١ | الطبري (أبو العباس) |
| ٩٦/١ | عروة بن الزبير | ٣٨٣/١ | الطبري أحمد بن عبد الله |
| ١١٦/١ | عطاء بن رباح | ١٧٥/١ | الطبري (محمد بن جرير) |
| ٢٩٧/١ | عطاء بن مسيرة | ١٧٣/١ | الطحاوي |
| ١٢٨/١ | عطاء بن يسار | ٢٢٠/١ | طلحة بن عبيد الله |
| ١١٩/١ | عكرمة بن عبد الله البربري | ٢٠٤/١ | الطيالسي |
| ٦٦/١ | علي بن أبي طالب | | |
| ٨٣/١ | علي وفا | | |
| ٣٣٧/٣ | العمراني | | |
| ٤٩٩/١ | عمر بن شبة | ١٦٨/١ | عاصم بن عمرو |
| ١١٢/١ | عمر بن عبد العزيز | ٣٥١/١ | العاصي بن هشام |
| ٢٥٦/٣ | عمرو بن ميمون | ٢٥٣/١ | عباد بن صهيب |
| ٢٥٤/١ | العوفي | ٧٣/١ | عبادة بن الصامت |
| ١٦٤/١ | عياض | ٢٥٤/١ | عبد الرحمن بن الحارث |
| ٢٠٦/١ | العيني | ٩٧/١ | عبد الرحمن بن الحسن النيسابوري |
| | | ٨٢/١ | عبد الرحمن بن زيد بن أسلم |
| | | ١٢٩/١ | عبد الرحمن بن عوف |
| ٦٢/١ | الغزالي | ٧١/١ | عبد الرزاق بن همام |
| ٦٠/٢ | الغلابي | ١١٠/١ | عبد الغني بن سعيد الأزدي |

ض

ط

ع

غ

| الصفحة | الترجمة | الصفحة | الترجمة |
|--------|-------------------------|--------|-----------------------|
| ٩٦/١ | مالك بن أنس | | ف |
| ١٣٨/١ | «المانوية» | | |
| ٤٩٩/١ | مجالد الهمداني | ٥٩٢/١ | الفاسي |
| ٧٨/١ | مجاهد بن جبير | ٤٣٣/٢ | الفراء |
| ٩٠/١ | مجد الدين الشيرازي | ٦٠/٢ | القراني |
| ٤٠١/٢ | محمد بن أسلم الطوسي | | |
| ١٤١/١ | محمد بن جبير بن مطعم | | ق |
| ٥٩٠/١ | محمد بن الحسن الشيباني | | |
| ٢٩٤/١ | محمد بن حسن الكتاني | ٩٣/١ | قاسم بن ثابت |
| ٢٥٢/١ | محمد بن السائب الكلبي | ٢٢٠/١ | قدامة بن مظعون |
| ٤٦٦/١ | محمد بن صالح المدني | ٢٦٤/١ | القرافي |
| ٩٣/١ | محمد بن القاسم الأنباري | ١٦٤/١ | القرطبي (أبو العباس) |
| ٢٥٣/١ | محمد بن كعب القرظي | ١٧٣/١ | القرطبي (المفسر) |
| ٢٢٥/٢ | محمد وفا | ١٨٠/١ | قس بن ساعدة |
| ٤٦٧/١ | محمية بن جزء الزبيدي | ١٤٠/١ | القسطلاني (قطب الدين) |
| ١٠٤/٢ | المخلص | ٤١٩/١ | القشيري |
| ٣٥٢/١ | المدائني | ١٤١/١ | القضاعي |
| ٢٠٣/١ | المرجاني | ٥٩٠/١ | القنعيني |
| ٤٦٢/٣ | المروزي | | |
| ٥٥٤/٢ | الزري | | ك |
| ٧٧/١ | المسعودي | | |
| ٥٧/١ | مسلم بن الحجاج | ٦٨/١ | كعب الأحبار |
| ١١٢/١ | المعافي بن زكريا | ٢٥٢/١ | الكلبي |
| ١١٠/١ | معاوية بن أبي سفيان | ٣٧٤/٢ | كهيل بن زياد |
| ٢٥٤/١ | المعتمر بن سليمان | | |
| ٣٠٦/٣ | معروف الكرخي | | ل |
| ٤٠٢/١ | معمر بن راشد | | |
| ٣٩٦/١ | معمر بن المثنى | ٧٣/١ | لقيط بن عامر العقيلي |
| ٣٢٩/٣ | المعمري | | |
| ١٣٦/١ | مغلطاي | | |
| ٣١٩/٣ | مقاتل بن حيان | | م |
| ٢١١/١ | مقاتل بن سليمان | ٥١٩/١ | المازري |

| الصفحة | الترجمة | الصفحة | الترجمة |
|--------|---|--------|------------------------|
| ٤٩٩/١ | الهروي | ٤٦٦/٣ | مكحول |
| ٨٦/١ | هشام بن محمد بن السائب الكلبي | ٥٠٧/١ | مكي بن أبي طالب |
| ١٢٨/١ | همام بن يحيى | ٦٢٦/١ | الملاء |
| ١٩١/١ | هند بن أبي هالة | ٤٢٥/١ | المنذرين عمرو المخزومي |
| ١٦٢/١ | الهيتمي | ٥٢٩/٣ | المهلب بن أبي صفرة |
| | و | ٢٥٥/٣ | مورق العجلي |
| | | ٢٥١/١ | موسى بن عقبة |
| ٨٨/١ | وائلة بن الاسقع | ٥٨/١ | ميسرة الضبي |
| ٤٣/٢ | الواسطي | ٢١٩/١ | ميمون بن مهران |
| ١٥٥/١ | الواقدي | | ن |
| ١٥١/١ | والده <small>عليه السلام</small> من الرضاعة | | نافع (المقرئ) |
| ٢٠٧/١ | الولي بن العراقي | ٤٦/٢ | النحاس |
| ١٣٥/١ | الوليد بن مسلم | ٢٥٢/١ | النخعي |
| ٧٧/١ | وهب بن منبه | ٢١٦/١ | النسائي |
| | ي | ٢٠٥/١ | نفظويه |
| | | ٢٥٧/٣ | النقاش |
| ٢٨/٢ | اليافعي | ١٣/٢ | النوقاني |
| ٥١١/٢ | يحيى بن حكيم الغزال | ٤٠١/٢ | النوي |
| ٢٨٨/١ | يحيى بن سعيد بن أبان | ٢١١/١ | النيسابوري |
| ١٢٢/١ | يحيى بن عائذ | ٩٧/١ | |
| ٣٦٠/٢ | يحيى بن معاذ | | هـ |
| ٣٥٦/٣ | يحيى بن يحيى بن كثير | | هالة بن أبي هالة |
| ١٣١/١ | يعقوب بن سفيان | | |
| ٢٥٤/١ | يونس بن يزيد الأيلي | ١٩١/١ | |

فهرس الجزء الرابع من المواهب اللدنية

| الموضوع | الصفحة | الموضوع | الصفحة |
|-----------------------------|--------|--------------------------------|--------|
| الفصل الثاني | | المقصد التاسع: | |
| في الوضوء مرة مرة ومرتين .. | ٢٨ | في عباداته ﷺ | |
| الفصل الثالث | | تمهيد عام: | ٧ |
| صفة الوضوء | | العبادة دائمة مدى الحياة | ٧ |
| صفة وضوئه ﷺ | ٣١ | مسألة أصولية في حكم المطلق | ٨ |
| هل يتكرر مسح الرأس؟ | ٣٣ | معنى قوله تعالى (وأعبد ربك ..) | ٨ |
| كيفية مسح الرأس | ٣٤ | الصبر على العبادة | ٩ |
| معنى «الباء» في «برؤوسكم» | ٣٥ | تصحیح فهم صوفي خاطئ | ١٠ |
| الواجب مسحه من الرأس | ٣٦ | هل تعبّد ﷺ بشرع من قبله؟ | ١١ |
| المضمضة والاستنشاق | ٣٧ | النوع الأول: في الطهارة | |
| بعض سنن الوضوء | ٣٨ | الفصل الأول | |
| الاستعانة بشأن الوضوء | ٣٩ | في الوضوء والسواك | |
| التشيف بعد الوضوء | ٤٠ | النية في الوضوء | ١٧ |
| حيث لا حاجة للوضوء | ٤٠ | حكم النية في الأعمال | ١٩ |
| من خصائصه ﷺ | ٤١ | قاعدة في اشتراط النية | ٢٠ |
| الفصل الرابع | | متى فرض الوضوء؟ | ٢٠ |
| المسح على الخفين | | هل الوضوء لكل صلاة؟ | ٢٢ |
| مشروعية المسح | ٤٢ | موجب الوضوء | ٢٢ |
| الغسل أفضل أم المسح؟ | ٤٢ | حكم السواك | ٢٣ |
| رأي المسح على الرجلين | ٤٣ | أداة التسوك | ٢٤ |
| أدلة المسح على الخفين | ٤٤ | كيفية التسوك | ٢٥ |
| | | الاقتصاد بماء الوضوء | ٢٦ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|--------|
| تعجيل العصر والمغرب | ٦٧ |
| مراعاة الأحوال | ٦٨ |
| تأخير صلاة العشاء | ٦٨ |
| الفصل الثالث | |
| كيفية الصلاة | |
| الفرع الأول: صفة افتتاح الصلاة | |
| عند سماع الإقامة | ٧٠ |
| افتتاح الصلاة بالتكبير | ٧٠ |
| النية وبدعة التلفظ بها | ٧١ |
| مناقشة القائلين بالتلفظ بها | ٧٢ |
| أماكن رفع اليدين | ٧٣ |
| وضع اليدين أثناء القيام | ٧٤ |
| دعاء الافتتاح | ٧٥ |
| الفرع الثاني: قراءة البسملة | |
| روايات في قراءة البسملة | ٧٦ |
| روايات حديث أنس | ٧٧ |
| الجمع بين الروايات | ٨٠ |
| أدلة القائلين بالجهر بها | ٨١ |
| تحقيق المسألة | ٨٣ |
| الفرع الثالث: قراءة الفاتحة | ٨٥ |
| الفرع الرابع: القراءة بعد الفاتحة في الغداة | |
| أحاديث في الموضوع | ٨٦ |
| القراءة ببعض السورة | ٨٦ |
| القراءة في صبح الجمعة | ٨٧ |
| قراءة السجدة في الصلاة | ٨٨ |

| الموضوع | الصفحة |
|-----------------------------------|--------|
| مدة المسح | ٤٥ |
| الفصل الخامس | |
| التيمم | |
| الفصل السادس | |
| الغسل | |
| الغسل في اللغة والحقيقة | ٤٨ |
| دليل وجوب الغسل | ٤٨ |
| كيفية الغسل | ٤٩ |
| حكم ذلك الأعضاء | ٥١ |
| تثليث الغسل | ٥١ |
| تأخير غسل الرجلين | ٥٢ |
| لا يمسح الرأس في وضوء الغسل | ٥٣ |
| حكم التنشيف | ٥٤ |
| الوضوء من الجنابة قبل النوم | ٥٥ |
| النوع الثاني: في الصلاة | |
| تمهيد عام | ٥٩ |
| القسم الأول | |
| في الفرائض | ٦١ |
| الباب الأول: الصلوات الخمس | |
| الفصل الأول | |
| متى فرضت الصلاة؟ | ٦٢ |
| الفصل الثاني | |
| في تعيين الأوقات | |
| بيان أوقات الصلاة | ٦٤ |
| بيانها كان صبيحة الإسراء | ٦٦ |

| الموضوع | الصفحة | الموضوع | الصفحة |
|---|--------|---------------------------------------|--------|
| الفرع الرابع عشر: التسليم من الصلاة | | الفرع الخامس: القراءة في الظهر والعصر | ٩٠ |
| هدية ﷺ في التسليم | ١١٧ | الفرع السادس: القراءة في المغرب | ٩٢ |
| مذهب مالك في التسليم | ١١٨ | الفرع السابع: القراءة في العشاء | ٩٥ |
| حكم التسليم | ١١٩ | الدعاء بعد بعض الآيات | ٩٥ |
| من هديه ﷺ في الصلاة | ١١٩ | السكرات في الصلاة | ٩٦ |
| حمل الطفل أثناء الصلاة | ١٢٠ | الفرع الثامن: صفة الركوع | ٩٧ |
| الحركة في الصلاة | ١٢١ | الفرع التاسع: مقدار الركوع والرفع منه | ٩٧ |
| الوسوسة في الصلاة | ١٢٣ | الفرع العاشر: دعاء الركوع والرفع منه | ٩٨ |
| الفرع الخامس عشر: القنوت | | ما يقول في الركوع | ٩٩ |
| معاني القنوت | ١٢٥ | ما يقول في الاعتدال | ٩٩ |
| نصوص مشروعية القنوت | ١٢٥ | الفرع الحادي عشر: صفة السجود | ١٠١ |
| أراء العلماء في القنوت | ١٢٧ | الفرع الثاني عشر: الجلوس للشهادة | ١٠٥ |
| مذهب الشافعي في القنوت | ١٢٨ | الفرع الثالث عشر: التشهد | |
| نص دعاء القنوت | ١٢٩ | نص التشهد | ١٠٧ |
| الصلاة على النبي ﷺ بعده | ١٣٠ | حكم قراءة التشهد | ١٠٨ |
| من أحكام القنوت | ١٣١ | من معاني التشهد | ١٠٩ |
| الفصل الرابع | | حكم الصلاة عليه ﷺ بعد التشهد | ١١١ |
| سجود السهو | | هل يترحم عليه ﷺ | ١١١ |
| التعريف بالسهو | ١٣٤ | الصلاة عليه ﷺ بعد التشهد | ١١٣ |
| حكم سجود السهو | ١٣٥ | الدعاء في الصلاة | ١١٤ |
| السجود قبل السلام | ١٣٥ | مواضع الدعاء في الصلاة | ١١٦ |
| السجود بعد السلام (وفيه بحث عن نسيان الأنبياء وسهوهم) | ١٣٧ | | |
| أراء المذاهب في السجود بعد التسليم | ١٤٦ | | |
| الفصل الخامس | | | |
| فيما بعد الصلاة | | | |
| ما يسن عقب الصلاة | ١٤٩ | | |

الموضوع الصفحة

- شرح «خشيت أن تفرض عليكم» ١٩٥
 هل تصلى جماعة أم فرادى ١٩٧
 عدد ركعاتها ١٩٨
 عمر يجمع الناس عليها ١٩٩

الباب الرابع: صلاة الوتر

- كيفية صلاة الوتر ٢٠٢
 الصلاة بعد الوتر ٢٠٤
 وقت الوتر وقضاؤه ٢٠٥
 حكم الوتر ٢٠٦
 القراءة في الوتر ٢٠٧
 بين سنة الفجر والوتر ٢٠٨
 قنوت الوتر في رمضان ٢٠٨

الباب الخامس: صلاة الضحى

- الاختلاف في إثباتها ٢١٠
 النصوص المثبتة لصلاة الضحى ٢١٠
 حجج القائلين بالنفي ٢١٤
 الجمع بين النصوص ٢١٥
 القول في ركعاتها وإن فعلها لسبب ٢١٦

- فوائد صلاة الضحى ٢١٨
 الضحى ليست من خصائصه ﷺ ٢١٩

القسم الثاني: صلاة النوافل

الباب الأول: النوافل المقرونة

بالأوقات

الفصل الأول

- رواتب الصلوات الخمس والجمعة ٢٢٢

الموضوع الصفحة

- الدعاء بعد الصلاة ١٥٠
 رأي ابن القيم في الدعاء بعد الصلاة ١٥١
 مناقشة ابن القيم من أحكام الإمامة ١٥٢
 الاقتداء بالإمام الجالس ١٥٣

الباب الثاني: صلاة الجمعة

- فضل يوم الجمعة ١٥٥
 وقت صلاة الجمعة ١٥٩
 حكم خطبة الجمعة ١٥٩
 الأذان لصلاة الجمعة ١٦٠
 أول جمعة وأول خطبة ١٦٤
 من أحكام الخطبة ١٦٥
 من أقواله ﷺ في خطبه ١٦٧
 الإنصات للخطبة ١٧٠
 تحية المسجد وصلاة الجمعة ١٧١
 مقدار الخطبة والصلاة والقراءة ١٧٣
 العدد الذي تتعقد به الجمعة ١٧٥

الباب الثالث: تهجده ﷺ

- تفسير الآية الكريمة ١٧٨
 استمراره ﷺ في تهجده ١٧٩
 صلاته ﷺ بالليل ١٨٢
 حديث ابن عباس ١٨٣
 حديث عائشة ١٨٥
 أنواع قيامه ﷺ بالليل ١٨٧
 هيئة صلاته ﷺ ١٩٠
 قيام ليلة نصف شعبان ١٩١
 صلاة التراويح ١٩٤
 الأحاديث الواردة بذلك ١٩٤

الموضوع الصفحة

الباب الثاني: النوافل المقرونة

بالأسباب

الفصل الأول

صلاة الكسوف

| | |
|---------------------------|-----|
| الكسوف وعلم الفلك | ٢٤٩ |
| النصوص الواردة في الموضوع | ٢٥٢ |
| خطبة الكسوف | ٢٥٦ |
| إبطال اعتقاد جاهلي | ٢٥٧ |
| من أحكام صلاة الكسوف | ٢٥٨ |

الفصل الثاني

صلاة الاستسقاء

| | |
|------------------------------|-----|
| صلاة الاستسقاء سنة | ٢٦١ |
| الاستسقاء بالصلاة والخطبة | ٢٦١ |
| الاستسقاء في خطبة الجمعة | ٢٦٥ |
| الاستسقاء بالدعاء على المنبر | ٢٦٨ |
| الاستسقاء بالدعاء | ٢٧٣ |
| استسقاؤه ﷺ في بعض الأمكنة | ٢٧٥ |
| من أدعية الاستسقاء | ٢٧٦ |
| الاستسقاء بالعباس | ٢٧٦ |

القسم الثالث: الصلاة في السفر

الفصل الأول

في قصر الصلاة

| | |
|-----------------------------------|-----|
| الفرع الأول: في كم كان ﷺ | ٢٨٠ |
| يقصر الصلاة | |
| الفرع الثاني: في القصر مع الإقامة | ٢٨٢ |

الموضوع الصفحة

| | |
|-------------------------------|-----|
| الفرع الأول: أحاديث جامعة | ٢٢٢ |
| الفرع الثاني في ركعتي الفجر: | ٢٢٣ |
| التأكيد عليهما وتخفيفهما | |
| القراءة فيهما | ٢٢٤ |
| الضجعة بعدهما؟ | ٢٢٦ |
| الفرع الثالث: في راتبة الظهر | ٢٢٧ |
| الفرع الرابع: في سنة العصر | ٢٢٩ |
| الفرع الخامس: في راتبة المغرب | ٢٣١ |
| الفرع السادس: في راتبة العشاء | ٢٣٣ |
| الفرع السابع: في راتبة الجمعة | ٢٣٤ |

الفصل الثاني

| | |
|---|-----|
| صلاة العيدين | ٢٣٧ |
| الفرع الأول: عدد ركعاتها | ٢٣٧ |
| الفرع الثاني: في عدد التكبير | ٢٣٧ |
| الفرع الثالث: في الوقت والمكان | ٢٣٨ |
| الفرع الرابع: في الأذان والإقامة | ٢٣٩ |
| الفرع الخامس: القراءة في صلاة العيدين | ٢٣٩ |
| الفرع السادس: الخطبة فيهما | ٢٣٩ |
| الفرع السابع: الأكل في الفطر قبل الصلاة | ٢٤١ |
| الحكمة من الأكل | ٢٤١ |
| المشي إلى صلاة العيد | ٢٤٢ |
| خروج النساء إلى صلاة العيد | ٢٤٤ |
| أعياد المسلمين | ٢٤٦ |

| <u>الموضوع</u> | <u>الصفحة</u> | <u>الموضوع</u> | <u>الصفحة</u> |
|------------------------------------|---------------|--|---------------|
| الأنبياء لا زكاة عليهم | ٣١٤ | الفصل الثاني | |
| قصة باطلة | ٣١٥ | في الجمع | ٢٨٥ |
| الدعاء للمزكي | ٣١٥ | الفرع الأول: في جمعه ﷺ | ٢٨٥ |
| تاريخ فرض الزكاة | ٣١٥ | الفرع الثاني: في جمعه ﷺ | ٢٨٦ |
| قبوله ﷺ الهدية دون الصدقة | ٣١٧ | بجمع ومزدلفة | |
| النوع الرابع: ذكر صيامه ﷺ | | الفصل الثالث | |
| تمهيد حكمة الصوم وفضيلته | ٣٢١ | النوافل في السفر | ٢٨٨ |
| القسم الأول: صيام شهر رمضان | | الفصل الرابع | |
| الفصل الأول | | التطوع في السفر على الدابة | ٢٩١ |
| العبادات في شهر رمضان | | القسم الرابع | |
| تسمية رمضان وفرضية صيامه | ٣٢٦ | صلاة الخوف | ٢٩٣ |
| رمضان وأعمال الخير | ٣٢٧ | القسم الخامس | |
| القرآن في رمضان | ٣٢٨ | صلاة الجنائز | ٢٩٩ |
| استقبال رمضان | ٣٢٩ | الفرع الأول: في عدد التكبيرات | ٣٠٠ |
| الفصل الثاني | | الفرع الثاني: في القراءة | ٣٠٠ |
| الصيام برؤية الهلال | ٣٣١ | والدعاء | |
| الفصل الثالث | | الفرع الثالث: الصلاة على القبر | ٣٠٢ |
| الصيام بشهادة العدل | ٣٣٣ | الفرع الرابع: الصلاة على الغائب | ٣٠٤ |
| الفصل الرابع | | النوع الثالث: سيرته ﷺ في الزكاة | |
| ما يفعله الصائم | | معنى الزكاة | ٣١١ |
| الحجامة | ٣٣٥ | أصناف الأموال الواجب فيها | ٣١١ |
| التقبيل والاكتمال والسواك | ٣٣٧ | الزكاة | |
| الفصل الخامس | | مقدار النصاب | ٣١٢ |
| وقت الإفطار | ٣٤٠ | زكاة الفطر | ٣١٣ |
| الفصل السادس | | مستحقو الزكاة | ٣١٣ |
| ما يفطر عليه | ٣٤٢ | | |

الموضوع الصفحة

التوسعة يوم عاشوراء ٣٧٠

الفصل الثالث

صيامه ﷺ في شعبان

أحاديث في صيام شعبان ٣٧١

الجمع بين الأحاديث ٣٧١

حكمة إكثار الصيام في شعبان ٣٧٢

الصوم في محرم ورجب ٣٧٤

الفصل الرابع

صوم عشر ذي الحجة ٣٧٧

الفصل الخامس

صوم أيام من الأسبوع ٣٨٠

الفصل السادس

صوم الأيام البيض ٣٨٤

النوع الخامس: الاعتكاف وليلة القدر

التعريف والحكمة والحكم ٣٨٩

هل يشترط الصوم للاعتكاف ٣٨٩

المسجد هو مكان الاعتكاف ٣٩٠

أقل الاعتكاف وأكثره ٣٩٠

اعتكافه ﷺ وتحريه ليلة القدر ٣٩١

تحديد ليلة القدر ٣٩٢

هل ليلة القدر خاصة بهذه الأمة؟ ٣٩٤

علامات ليلة القدر ٣٩٤

اجتهاده ﷺ في العشر الأخير ٣٩٥

النوع السادس: حجه ﷺ وعمره

المبادرة إلى الحج ٣٩٩

الموضوع

الصفحة

الفصل السابع

الدعاء عند الإفطار ٣٤٣

الفصل الثامن

في وصاله ﷺ

النهي عن الوصال ٣٤٥

معنى «يطعمني ربي ويسقيني» ٣٤٦

حكم الوصال ٣٤٩

الفصل التاسع

في سحوره ﷺ ٣٥٢

الفصل العاشر

إفطار رمضان في السفر وصومه ٣٥٤

القسم الثاني: صومه ﷺ غير

رمضان

الفصل الأول

سرد الصوم ٣٥٨

الفصل الثاني

صوم عاشوراء

تعيين يوم عاشوراء ٣٦٠

صوم عاشوراء في الجاهلية ٣٦٢

حكم صوم عاشوراء قبل فرض ٣٦٣

رمضان

اليهود وصوم عاشوراء ٣٦٥

صوم التاسع ٣٦٧

صيامه ﷺ عاشوراء ٣٦٩

فضل عاشوراء ٣٦٩

| الموضوع | الصفحة | الموضوع | الصفحة |
|---------------------------------------|--------|-------------------------------|--------|
| تقديم الضعفة | ٤٤٣ | وجوب الحج | ٤٠٠ |
| حكم المبيت بمزدلفة | ٤٤٤ | ابتداء فرض الحج | ٤٠٠ |
| التقاط الجمرات | ٤٤٤ | عدد حججه ﷺ وعمره | ٤٠١ |
| سؤال في النيابة عن الحج | ٤٤٥ | خروجه ﷺ إلى حجة الوداع | ٤٠٢ |
| رمي الجمار | ٤٤٧ | إحرامه ﷺ ومكان إهلاله | ٤٠٣ |
| النحر والحلق | ٤٤٩ | أقوال في حجة النبي ﷺ وإحرامه | ٤٠٦ |
| «اللهم اغفر للمحلقين» | ٤٥١ | أدلة القائلين بالإفراد | ٤٠٧ |
| أسئلة | ٤٥٣ | أدلة القائلين بالقران | ٤٠٨ |
| ترتيب الأعمال يوم النحر | ٤٥٤ | أفضل النسك | ٤١١ |
| خطبة يوم النحر | ٤٤٥ | مناقشة القائلين بالتمتع وغيره | ٤١٢ |
| طواف الإفاضة | ٤٥٨ | سبب اختلاف الروايات | ٤١٤ |
| مكان صلاة الظهر يوم النحر | ٤٥٩ | تقليد الهدي | ٤١٦ |
| رمي الجمرات | ٤٦١ | تأديب وتوجيه | ٤١٧ |
| المبيت بمنى والنفرة منها | ٤٦١ | حكم إهداء الصيد للمحرم | ٤١٨ |
| طواف الوداع | ٤٦٣ | ذكر حج الأنبياء | ٤٢٠ |
| عمرة عائشة | ٤٦٥ | حيض عائشة رضي الله عنها | ٤٢٢ |
| العودة إلى المدينة | ٤٦٥ | إدخال الحج على العمرة | ٤٢٥ |
| عمره ﷺ | ٤٦٧ | المبيت بذى طوى ودخول مكة | ٤٢٦ |
| النوع السابع: أذكاره ﷺ وأدعيته | | دخول المسجد الحرام | ٤٢٧ |
| فضيلة الدعاء | ٤٧٣ | الطواف بالبيت | ٤٢٨ |
| كيفية الدعاء | ٤٧٥ | السعي بين الصفا والمروة | ٤٣١ |
| نماذج من دعائه ﷺ | ٤٧٦ | هل يفسخ الحج إلى العمرة | ٤٣٢ |
| أدعية لمناسبات خاصة | ٤٨٠ | مكان نزوله ﷺ بمكة | ٤٣٣ |
| رفع اليدين ومسح الوجه | ٤٨٢ | قدوم علي من اليمن | ٤٣٤ |
| دعاؤه ﷺ لأنس | ٤٨٣ | يوم التروية | ٤٣٥ |
| دعاؤه ﷺ لبعض الصحابة | ٤٨٥ | الوقوف بعرفة | ٤٣٥ |
| ولغيرهم | | الإفاضة من عرفات | ٤٣٩ |
| لكل نبي دعوة مستجابة | ٤٩٠ | المبيت بمزدلفة | ٤٤٠ |
| أذكاره ﷺ | ٤٨٢ | دعاء | ٤٤١ |
| استغفاره ﷺ | ٤٩٣ | رجع كيوم ولدته أمه | ٤٤٢ |

| | |
|--------------------------------|-----|
| المدينة بين يومين | ٥٦٧ |
| الفصل الثاني | |
| زيارة قبره ﷺ ومسجده | |
| الترغيب في زيارته ﷺ | ٥٧٠ |
| زيارة المساجد الثلاثة | ٥٧٣ |
| حكم نذر الزيارة | ٥٧٣ |
| أشواق | ٥٧٥ |
| من آداب الزيارة | ٥٧٨ |
| صيغة السلام عليه ﷺ | ٥٨١ |
| رده ﷺ السلام | ٥٨٥ |
| مكان الوقوف للدعاء بعد الزيارة | ٥٨٩ |
| طيب تربة المدينة | ٥٩٠ |
| بحث في التوسل | ٥٩٣ |
| بحث في الروضة الشريفة | ٥٩٦ |
| أيهما أفضل مكة أم المدينة؟ | ٦٠٠ |
| رأي المصنف | ٦٠٦ |
| الترغيب في سكنى المدينة | ٦٠٧ |
| زيارة مسجد قباء وبقية المزارات | ٦١٥ |
| الفصل الثالث | |
| تفضيله ﷺ في الآخرة | |
| إجمال لما ورد في هذا الفصل | ٦١٧ |
| أول من تنشق الأرض عنه ﷺ | ٦١٩ |
| أول من يكسى يوم القيامة | ٦٢٥ |
| حديث موضوع | ٦٢٧ |
| لواء الحمد | ٦٢٨ |
| صفة الحشر | ٦٢٩ |
| وصف شدة الموقف | ٦٣٣ |
| الحوض الشريف | ٦٣٤ |
| الشفاعة والمقام المحمود | ٦٣٩ |

| | |
|-------------------------------|-----|
| قراءته القرآن ﷺ | ٤٩٤ |
| خبر عن داود عليه السلام | ٤٩٨ |
| أثر سماع المواعظ | ٤٩٩ |
| حكم السماع | ٥٠١ |
| المقصد العاشر: وفاته ﷺ | |
| الفصل الأول | |
| وفاته ﷺ | |
| نزول سورة النصر | ٥١١ |
| وداع الأحياء والأموات | ٥١٣ |
| فضل أبي بكر | ٥١٥ |
| ابتداء مرضه ﷺ | ٥١٦ |
| في بيت عائشة | ٥١٧ |
| مسارته ﷺ لفاطمة | ٥٢٥ |
| نهيهِ ﷺ عن إعطائه الدواء | ٥٢٧ |
| كتاب لم يكتب | ٥٢٩ |
| صلاة أبي بكر بالناس | ٥٣٠ |
| حديث ضعيف | ٥٣٢ |
| الوصية بالأنصار | ٥٣٣ |
| حديث واه جداً | ٥٣٤ |
| «اللهم الرفيق الأعلى» | ٥٣٥ |
| إن للموت لسكرات | ٥٣٨ |
| نظرة وداع أثناء صلاتهم | ٥٤٠ |
| أحاديث ضعيفة | ٥٤١ |
| وفاته ﷺ | ٥٤٣ |
| رثاء | ٥٤٩ |
| تغسيه ﷺ | ٥٥٦ |
| أكفانه ﷺ | ٥٥٨ |
| الصلاة عليه ﷺ ودفنه | ٥٦١ |
| صفة قبره ﷺ | ٥٦٣ |
| تأخير دفنه ﷺ | ٥٦٧ |

| <u>الموضوع</u> | <u>الصفحة</u> | <u>الموضوع</u> | <u>الصفحة</u> |
|-----------------------------|---------------|--------------------------|---------------|
| تفضيله ﷺ بالكوثر | ٦٨٣ | ذكر ترتيب ما يحدث في | ٦٥٣ |
| تفضيله ﷺ بالوسيلة | ٦٨٦ | الموقف | |
| خاتمة وفيها بحث عن حبه ﷺ، | ٦٨٩ | أنواع الشفاعة | ٦٥٤ |
| ورؤيته سبحانه وتعالى في | | الحساب والجزاء | ٦٥٨ |
| الآخرة | | الجواز على الصراط | ٦٦٤ |
| فهرس الأعلام المترجم لها في | ٦٩٧ | هو ﷺ أول من يدخل الجنة | ٦٧٠ |
| الكتاب | | أتمه ﷺ أول من يدخل الجنة | ٦٧٣ |
| فهرس الموضوعات | ٧٠٥ | أسماء الجنة وأبوابها | ٦٧٥ |
| | | بحث في أثر العمل في دخول | ٦٧٨ |